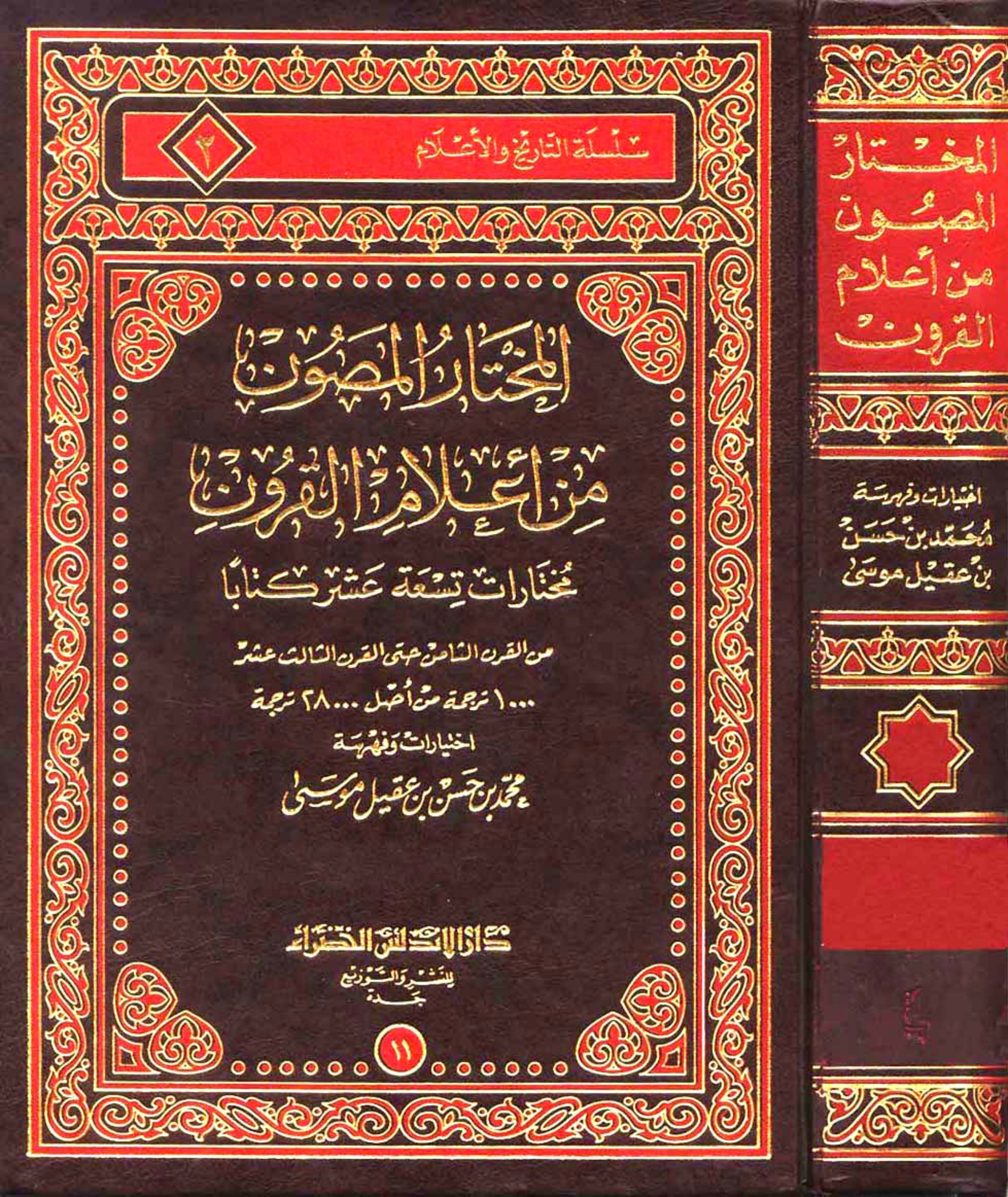

سلسلة التاريخ والأعلام
٢
المختار المصون
من أعلام القرون
مختارات تسعة عشر كتابا
من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر
١٠٠٠ ترجمة من أصل ٣٨٠٠٠ ترجمة
اختيارات وفهرسة
محمد بن حسن بن عقيل موسى
دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة
١١
المختار المصون من أعلام القرون
اختيارات وفهرسة
محمد بن حسن بن عقيل موسى



الإهداء

إلى روح أبي عبد الحميد، أهدي ثواب كتابي هذا.

إلى أمي وأبي اللّذين أرجو رضاءهما.

إلى زوجي الغالية التي ضحّت وتضحي كثيراً.

إلى أبنائي وبناتي عسى أن يقتدوا بأعلام أمَّة الإسلام.



شكر وتقدير

قال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

وعملاً بهذا الحديث أقدم الشكر الجزيل لسعادة الأستاذ السيّد المِفضال أحمد عمر بافقيه على ما أمدّني به من كتب ومخطوطات وعلى رأسها المخطوطة القيّمة: «تاريخ الإسلام في بنتن»، فجزاه الله خيراً.

* وأقدم ـ كذلك ـ الشكر الجزيل لسعادة الأستاذ الشيخ عبد الحميد داغستاني على ما أمدّني به من مخطوطة: «نزهة الأذهان في تراجم علماء داغستان» فجزاه الله خيراً.

* وأقدم ـ كذلك ـ الشكر الجزيل لسعادة الأستاذ الدكتور علي الندوي الذي تجشّم مشاق إحضار كتاب «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» من لكنو، عسى أن يجعله الله في ميزان حسناته.

* وأقدم ـ كذلك ـ الشكر الجزيل لسعادة الأستاذ الدكتور شيخي الشيخ محمد ولد سيدي ولد حبيب الذي أمدني بكتاب «الوسيط في أدباء شنقيط» فجزاه الله خيراً.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل في كل عصر رجالاً يذودون عن هذا الدين، وينشرون تعاليمه، تارة برفق ولين وتارة بسلاح مكين، جعلهم الله في الظلمات مناراً، وفي الخطوب الحالكات شموساً وأقماراً، قمع بهم رؤوس الضلال، وشهر بهم أهل البدع والانحلال. وأشهد ألاّ إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إنّه من المعلوم لدى الكافّة أن كتب التاريخ هي تراث الأمم، وخلاصة تجاربها، وعنوان عظمتها، وعلامة عزتها، ومن أهم كتب التاريخ الكتبُ التي تتحدّث عن حياة عظماء الأمّة وأبطالها، وأدبائها وعلمائها ـ وتعرف هذه الكتب بـ «التراجم» أو «السِّير» ـ لأنّ ناشئة الأمّة لا بد لهم من مُثُل عليا في مختلف مناحي الحياة وهذا ما توفره لهم كتب التراجم والسِّيَر، ومما تفعله هذه الكتب في الناشئة ـ أيضاً ـ أنها تُعجم عودهم وتكسو أفكارهم وتجاربهم الغضّة رداءً من الحكمة والتروِّي والهمّة، كأنها تقفز بهم سنوات الشباب لتوصلهم إلى حكمة الشيوخ.

هذا وقد كنت وضعت كتاباً في تراجم الأعلام منتخباً من «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ وسميته: «نزهة الفضلاء في سير أعلام النبلاء»، وقد تكفّل ذلك الكتاب بإبراز كثير من أعلام هذه الأمة من القرن الأول إلى القرن السابع ـ عدا سيِّد البشر ﷺ وخلفائه الأربع ـ وتقريب

ذكرهم للناشئة، ثمّ إني نظرت في كتب التاريخ والتراجم من القرن الثامن إلى الثالث عشر فلم أجد كتاباً جامعاً للأعلام مثل كتاب الحافظ الذهبيّ أو قريباً منه، فصحّ العزم ـ بتوفيق الله تعالى ـ على ٱختيار عدد من الكتب ومن ثَمّ الانتخاب من تلك الكتب المختارة كلّ ما فيه فائدة لطلّاب العلم وللعامّة من قصة فيها عبرة، أو معارك إسلامية عزيزة، أو أخبار الزهّاد والنسّاك والعُبّاد، أو أخبار الملوك والسلاطين، أو بعض الطُّرَف والنوادر أو غير ذلك ممّا فيه فائدة لعموم القرّاء.

وقد جعلت هذا الكتاب كالذيل لكتاب «نزهة الفضلاء» بحيث يكون المطلع على الكتابين قد اطّلع على غالب سِيَر الأعلام من القرن الأول إلى أول القرن الرابع عشر، ولا أزعم أني قد استوعبت ذكر أخبار تلك القرون ولكني قد قرّبت ـ بفضل الله تعالى ـ كثيراً من تلك الأخبار لمن لم يطلع على تلك الكتب وليس لديه وقت للنظر فيها فضلاً عن قراءتها.

ولم أتطرق لذكر أهل القرن الرابع عشر لأسباب كثيرة من أهمها:

أولاً: كثير من الفضلاء الذين عاشوا معظم ذلك القرن لا زالوا أحياء وهم أحقّ مني بذكر وتسجيل ما رأوه وعاصروه، وليس الخبر كالعَيان.

ثانياً: قد حدث في ذلك القرن أحداث جسام، وعُدِّل كثير من الرجال وجرح آخرون بدون وجه حقّ، وبرزت منظمات وجماعات وأحزاب كثيرة لم تُوفّ حقّها من التجريح أو التعديل ولا زالت آثار هذا الذي ذكرته كلّه ممتدة إلى هذا القرن ـ القرن الخامس عشر ـ فالكلام على القرن الرابع عشر قبل تحرير وتوجيه ما حدث فيه وقبل إبراز رجاله ووضعهم في مكانهم الصحيح يعدّ من الاستعجال والتخرّص، والله أعلم.

ثالثاً: كثير ممن عاش في ذلك القرن وأثر في أحداثه لم تنشر مذكراتهم بعد، أو أن من عاصرهم لم يكتب ما يعرفه عنهم وذلك لموانع

كثيرة، فلعلّ هذه الموانع تزول قريباً ـ إن شاء الله ـ ويُنشر ما يعين على معرفة حوادث ذلك القرن على الوجه الصحيح.

الكتب المختارة

والكتب التي اختيرت قد رُوعي فيها ترتيب القرون وغزارة المادّة المفيدة المشوقة، وتلك الكتب هي:

أولاً: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» للإمام الحافظ ابن حجر العسقلانيّ.

ثانياً: «طبقات الشافعية الكبرىٰ» للإمام تاج الدين السبكيّ، فيما يخص المائة الثامنة.

وهذان الكتابان يُبرزان أهل القرن الثامن، وقد جعلت كتاب شيخ الإسلام ابن حجر أصلاً، وأتيت بمختارات طبقات الشافعية في الحاشية مكملة لما لعله قد ينقص من تراجم ابن حجر.

ثالثاً: «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للحافظ السخاويّ.

رابعاً: «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة» للشيخ نجم الدين الغزيّ.

خامساً: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للشيخ فضل الله المحبي.

سادساً: «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للشيخ محمد خليل المراديّ.

سابعاً: «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» للشيخ عبد الرزّاق البيطار.

ثم إني قد اخترت عدداً من الكتب تكون مكملة لما لعله يكون نقصاً في الكتب المذكورة آنفاً، وهذه الكتب هي:

أولاً: «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للقاضي الشوكاني.

ثانياً: «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للسيد عبد الحي الندويّ.

ثالثاً: «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني» للشيخ محمد بن الطيب القادري.

رابعاً: «عنوان المجد في تاريخ نجد» للشيخ عثمان بن بشر النجديّ.

خامساً: «المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر» للشيخ محمود شكري الآلوسيّ.

سادساً: «تاريخ الإسلام في بنتن» للسيد أحمد السقّاف.

سابعاً: «التعليقات على شمس الظهيرة» للسيد ضياء الدين شهاب.

ثامناً: «تاريخ الدولة العلية العثمانيّة» للسيد محمد فريد بك المحامي.

تاسعاً: «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» للسيد الطالب محمد البَرتَلي.

عاشراً: «الوسيط في أدباء شنقيط» للسيد أحمد الشنقيطي.

حادي عشر: «نزهة الأذهان في تراجم علماء داغستان» للسيد نذير الدركليّ.

ثاني عشر: «أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع» للسيد خليل مردم بك.

فهذه تسعة عشر كتاباً سميت مختاراتها بـ: «**المختار المصون من أعلام القرون**»، وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الاختيارات ويجعل هٰذا العمل في موازين حسناتي يوم ألقاه.

نبذة عن الكتب المختارة

أثناء قراءتي لتلك الكتب ظهر لي بعض المزايا والسلبيات مما يحسن بالقارىء أن يطّلع عليها، وأيضاً يحسن أن أتكلم عن مناهج تلك الكتب على وجه الإجمال، ولمّا رأيت أن الأمر يطول قسمت الكلام على تلك الكتب إلى قسمين؛ قسم عام شامل يتناول تلك الكتب جميعاً بما تشترك فيه من المنهج، وقسم أذكر فيه تلك الكتب واحداً واحداً بما انفردت فيه من جوانب تستحق الذكر، فأمّا القسم الأول ـ وهو ما اشتركت فيه تلك الكتب فهو:

أولاً: شمول بعضها للعالم الإسلاميّ جميعه وذلك في «الدرر الكامنة» و «الضوء اللامع»، و «الكواكب السائرة» و «خلاصة الأثر» و «حلية البشر» و «البدر الطالع» و «أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع»، وأعظمها في ذلك كتاب «الضوء اللامع» للسخاوي، ثمّ «البدر الطالع» للقاضي الشوكاني.

وأما الباقي من الكتب التسعة عشر فالأخبار الواردة فيها خاصة بقطر أو أكثر وتفتقر إلى الشمول، كما سأذكر بعدُ إن شاء الله تعالىٰ.

ثانياً: تمتاز بعض الكتب بالتزام المنهج العلمي في إيراد الأحداث؛ وذلك في البعد عن العاطفة والميل الشخصي، وتحري الإنصاف، والبعد عن المهاترات والمبالغات، والسرد الموثّق للأحداث، والنقد لما يستحق النقد منها وأعظمها في ذلك: «البدر الطالع» للشوكاني، و «الدرر الكامنة» لابن حجر، و «تاريخ الإسلام في بنتن» للسقّاف.

وباقي الكتب تتفاوت في ما ذكر تفاوتاً عظيماً.

ثالثاً: تمتاز بعض الكتب بذكر أعلام النساء وإبراز أخبارهن بصورة لافتة للنظر، ومن أهم تلك الكتب: «الضوء اللامع» للسخاوي فقد أفرد مجلداً كاملاً لأخبار فضليات النسوة، ثمّ كتاب «نشر المثاني» للقادريّ، وأما باقي الكتب فأخبار النساء فيها نزرٌ قليل في بعضها وأكثرها لم يرد لهن فيها أيّ ترجمة منفصلة.

رابعاً: بعض الكتب سُطِّرت أخباره بلغة راقية جزلة رصينة نحو: «الضوء اللامع» للسخاويّ، و «طبقات الشافعيّة» للسبكيّ، ثمّ يأتي بعدهما: «البدر الطالع» للشوكانيّ و «الدرر الكامنة» لابن حجر، وبعض الكتب تقترب لغتها من العامية المحضة وهي: «عنوان المجد في تاريخ نجد» لعثمان بن بشر، و «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك المحامي.

خامساً: يغلب على بعض الكتب أخبار الأدباء والشعراء حتى تحسبها ـ وأنت تطالعها ـ كتب أدب محض، وهذه الكتب هي: «خلاصة الأثر» للمحبي، و «سلك الدرر» للمرادي، و «الوسيط في أدباء شنقيط» لأحمد الشنقيطيّ.

سادساً: بعض الكتب غلب عليها التصوّف وأخبار رجاله غلبةً يظنّ معها قارىء الكتاب أنه أمام طبقات الصوفية وأخبار رجالهم فحسب، وهذه الكتب هي: «الكواكب السائرة» للغزيّ، و «خلاصة الأثر» للمحبي، و «نشر المثاني» للقادريّ ثم يأتي بعدها «سلك الدرر» للمرادي، ثمّ «الإعلام» للندويّ، وباقي الكتب تتفاوت في ذكر أخبار الصوفيّة والتصوّف.

سابعاً: بعض الكتب تتوسع في ذكر الأخبار السياسيّة وأخبار الملوك والسلاطين والخلفاء، وكتب أخرىٰ لم يرد فيها مثل هذه الأخبار إلاّ قليلاً والكتب المقِلّة في ذكر النواحي السياسيّة هي: «الوسيط» للشنقيطي، و «فتح الشكور» للبَرْتَليّ، و «طبقات الشافعيّة» للسبكيّ، وأما كتابا «تاريخ الدولة

العلية العثمانية» و «تاريخ الإسلام في بنتن» فيكادان يكونان كتابي سياسة بالمصطلح الحديث، وباقي الكتب تتفاوت في هذا الأمر.

ثامناً: بعض الكتب تتوسع بذكر مسائل شرعية ومناظرات فقهية وعقديّة، ومباحث لغوية، وفي مقدمة هذه الكتب: «طبقات الشافعية الكبرى»، و «نشر المثاني»، و «المسك الأذفر»، و «الوسيط في أدباء شنقيط.

وإليك أخي القارىء بعض الجوانب المتعلقة بكل كتاب على حِدَة:

أولاً: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» للحافظ ابن حجر العسقلاني. طبع هذا الكتاب ثلاث مرات، والموجود في الأسواق هو الطبعة المصرية والطبعة الهندية وهي طبعة قديمة فيها أخطاء وسقط، وهي غير محققة، أما الطبعة المصرية فقد حُققت من قبل السيد محمد سيد جاد الحقّ ولكن ذلك التحقيق كان ضعيفاً لم يستكمل أدنى شروط التحقيق العلمي، والطبعة المصرية ـ على ما فيها ـ أفضل حالاً من الهنديّة وذلك لحسن توزيع المادة العلمية في الصفحة ووضوح كلماتها. والطبعة المصرية تقع في خمسة مجلدات تحوي ٥٢٠٤ ترجمة، وقد اخترت منها ٢٣٠ ترجمة.

وقد اختصر ابن حجر الكلام على التراجم التي أوردها اختصاراً كبيراً فجاءت تراجمه في سطور قليلة، وقد تطول بعض تراجمه طولاً نسبيّاً مثل ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فهي من أطول التراجم الواردة في الكتاب.

ثانياً: «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للحافظ السخاويّ. طبع هذا الكتاب قديماً في مصر بدون تحقيق ثم نشر في بيروت مصوراً عن الطبعة المصرية، وكتاب السخاويّ هذا ضخم كبير وعدد مجلداته ستّ، وهو أكبر حجماً من «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي، ويحوي ١١٧٣٠ ترجمة اخترت لك منها أخي القارىء ٢١٢ ترجمة.

والسخاوي في كتابه هذا أكثر من الجرح لأسباب واهية، وممّن نال القسط الوافر من سهامه: السيوطي، والبقاعيّ، والمقريزيّ وغيرهم كثير، وستجد ـ أخي القارىء ـ نماذج من نقد الشوكاني له في ثنايا الكتاب[1].

ولكن هذا لا يقدح في القيمة العلمية للكتاب فهو أفضل الكتب المختارة من حيث الغزارة في المادة التاريخية وحسن العرض لها.

وإليك كلامَ الشوكانيّ مادحاً كتاب السخاويّ ومقارناً بينه وبين كتاب ابن حجر رحمه الله تعالى:

«ولو لم يكن لصاحب الترجمة من التصانيف إلّا «الضوء اللامع» لكان أعظم دليل على إمامته؛ فإنه ترجم فيه أهل الديار الإسلامية، وسرد في ترجمة كل أحد[2] محفوظاته ومقروآته وشيوخه ومصنفاته وأحواله ومولده ووفاته على نمط حسن وأسلوب لطيف ينبهر له من لديه معرفة بهذا الشأن ويتعجب من إحاطته بذلك وسعة دائرته في الاطلاع على أحوال الناس، فإنه قد لا يعرف الرجلُ ـ لا سيما في ديارنا اليمنية ـ جميع مسموعات ابنه أو أبيه أو أخيه فضلاً عن غير ذلك.

ومن قرن هذا الكتاب الذي جعله صاحب الترجمة [السخاوي] لأهل القرن التاسع بالدرر الكامنة لشيخه ابن حجر في أهل المائة الثامنة عرف فضل مصنف صاحب الترجمة على مصنف شيخه بل وجد بينهما من التفاوت ما بين الثرى والثريّا، ولعلّ العذر لابن حجر في تقصيره عن تلميذه في هذا أنه لم يعش في المائة الثامنة إلّا سبعاً وعشرين سنة بخلاف صاحب الترجمة

---

(١) قال الشوكاني معتذراً عنه «ليت إن صاحب الترجمة صان ذلك الكتاب الفائق عن الوقيعة في أكابر العلماء من أقرانه ولكن ربما كان له مقصد صالح» البدر الطالع: ٢/ ١٨٧:

(٢) قول الشوكاني: «كل أحد» جارٍ على الغالب.

فإنه عاش في المائة التاسعة تسعاً وستين سنة فهو مشاهد لغالب أهله وابن حجر لم يشاهد غالب أهل القرن الثامن»[1].

وقال الشوكاني ـ أيضاً ـ موضحاً بعض ما يعتبره نقصاً في الكتابين:

«وقد أهمل الحافظ ابن حجر ذكر ملوك الروم[2] في «الدرر الكامنة في أهل المائة الثامنة» فلم يذكر من كان فيها منهم وكذلك السخاويّ أهمل بعضاً ممن كان منهم في المائة التاسعة وذكر بعضاً وهذا عجيب؛ فإنهما يترجمان لجماعة من أهل سائر الديار هم معدودون من أحقر مماليك سلاطين الروم، مع أنهما يترجمان لكثير من صغار الملوك والأمراء الكائنين بالأندلس واليمن والهند وسائر الديار، وهكذا أهملا غالب علماء الروم ولم يذكرا إلاّ شيئاً يسيراً منهم مع أنهم يُترجمان لمن هو أبعد منهم داراً وأحقر قدراً فالله أعلم بالسبب المقتضي لذلك[3]، وقد ذكرنا في هذا الكتاب كثيراً ممن أهملاه»[4].

ثالثاً: «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة» للشيخ نجم الدين الغزيّ. طبع هذا الكتاب في لبنان في ثلاثة مجلدات بتحقيق الدكتور جبرائيل جبور، والتحقيق متوسط المستوى، ويحوي هذا الكتاب ١٦٤٥ ترجمة اختير منها ١١٥ ترجمة.

رابعاً: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» لفضل الله المحبي. طبع في مصر طبعة حجرية قديمة، وأعيد نشره في بيروت مصوّراً

---

(١) «البدر الطالع»: ٢/١٨٦ ـ ١٨٧.
(٢) أي الدولة العثمانية. وهذا ليس بصحيح؛ فقد ترجم ابن حجر لعدد قليل منهم.
(٣) لعلّ واحداً من الأسباب أن العلاقة كانت متوترة بين سلاطين المماليك وسلاطين الدولة العثمانية، والله أعلم.
(٤) «البدر الطالع»: ٢/٣٠٢.

عن هذه الطبعة في أربعة مجلدات بخط دقيق يصعب قراءته، ويحوي الكتاب ١٣١١ ترجمة اختير منها ١١٣ ترجمة.

والكتاب مليء بتفاصيل من الأخبار مهمة قد لا توجد في كتاب آخر.

وقد أورد في الكتاب أشعاراً كثيرة إلّا أن كثيراً منها في شأن الخمر والمردان الحسان والغزليات إلخ... وبعض تلك الأشعار يفحش ذكرها جداً.

وقد أفردت الدكتورة ليلى الصباغ هذا الكتاب بدراسة تستحق أن يُرجع إليها، وهي بعنوان: «من أعلام الفكر العربيّ في العصر العثمانيّ الأول».

خامساً: «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» لمحمد خليل المراديّ. طبع هذا الكتاب طبعة حجرية قديمة في مصر وقد نشر في بيروت مصوراً في مجلدين بخط دقيق يصعب قراءته، ويحوي ٧٥٠ ترجمة اختير منها ١٧ ترجمة.

والكتاب مليء بالأشعار، وليس فيه كثير من الأخبار المهمة لهذا عضَّدته بعدّة كتب تجبر نقص مادته، ولعلّ عدد التراجم المختارة توضح ما أقصده.

سادساً: «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» لعبد الرزّاق البيطار. طبع هذا الكتاب المجمع العلمي العربيّ بدمشق في أجزاء ثلاثة بتحقيق جيد للشيخ محمد بهجة البيطار حفيد المصنف.

والكتاب يحوي ٧٧٦ ترجمة اختير منها ٤٠ ترجمة.

سابعاً: «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للسيد عبد الحيّ الندوي. طبع هذا الكتاب طبعتين؛ طبعة هنديّة غير معتنىً بها وأخرى هندية أيضاً بمشاركة دار شاميّة باعتناء الأستاذ أبي الحسن الندويّ، وطبع في ثمانية مجلدات بخط واضح.

والكتاب ـ كما هو ظاهر من العنوان ـ خاص بأخبار الهند، والمقصود الهند الكبرىٰ التي هي اليوم الهند وباكستان وبنجلاديش وكشمير وأفغانستان والتبت وسريلانكا.

والكتاب ثروة علميّة في بابه؛ لأن الكتب التاريخية قلّما تذكر أخبار الهند فضلاً أن تتوسّع فيها إلى هذا الحدّ.

ويحوي الكتاب ٣٦٩٩ ترجمة اختير منها ١٣٣ ترجمة.

ثامناً: «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني» للشيخ محمد بن الطيب القادريّ. طبع هذا الكتاب في المغرب في أربعة أجزاء بتحقيق لا بأس به، والكتاب يكاد يقتصر على أخبار المغرب العربي الكبير، ويذكر شذراتٍ من أعلام مصر وتركيا والحجاز، ولكنه توسّع في ذكر المغاربة وبعض أهل إفريقية السوداء.

ويحوي هذا الكتاب ٤٧٣ ترجمة اختير منها ٣٣ ترجمة.

تاسعاً: «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للقاضي الشوكاني. طبع الكتاب قديماً في مصر، ونشر في بيروت بدون تحقيق في مجلّدين متوسطي الحجم، وقد اخترت لك ٤٧ ترجمة من أصل ١٣٩١ ترجمة.

والكتاب متوسع في أخبار اليمن وأهله لا سيما الملحق المطبوع في آخر الجزء الثاني وهو للشيخ محمد زبارة، وهذا أمر مهم إذ قد ندرت أخبار القطر اليماني في كتب التراجم، وإن وردت فبٱختصار شديد. والكتاب مليء بالمباحث المهمة والتعليقات القوية لما يرد فيه من أخبار، وهو حريٌّ بأن يُحقق.

عاشراً: «المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر» للشيخ محمود شكري الآلوسي.

طبع هذا الكتاب في الرياض، دار العلوم بتحقيق الدكتور عبدالله الجبوريّ، وهو تحقيق جيد في مجلد واحد متوسط الحجم، وفي الكتاب ١٠٠ ترجمة اختير منها ٤ تراجم.

والكتاب يكاد يكون خاصاً بأخبار العراقيين؛ وقد وردت فيه أخبار لا تجدها في سواه.

حادي عشر: «أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع» لخليل مردم بك. طبع هذا الكتاب في بيروت، مؤسسة الرسالة بتحقيق عدنان مردم بك، وهو تحقيق لا بأس به.

وقد أورد المؤلف فيه تراجم نادرة من شتّى بقاعَ العالم الإسلاميّ.

وعدد تراجم الكتاب ١٧٧ ترجمة، اخترت منها ١١ ترجمة. والكتاب مطبوع في مجلد واحد متوسط الحجم.

ثاني عشر: «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» الطالب محمد البَرْتَلي. وهو كتاب مطبوع في مجلد واحد صغير الحجم بتحقيق الأستاذ محمد الكتّاني والأستاذ محمد حجي وفيه ٢١٥ ترجمة اختير منها ٨ تراجم.

والكتاب يعتني بأخبار أعلام القطر الموريتانيّ والسنغاليّ وما جاورهما، مثل مالي وغيرها.

ثالث عشر: «الوسيط في أدباء شنقيط» للأستاذ أحمد الشنقيطيّ. طبع هذا الكتاب بمصر قديماً، وعليه تعليقات نافعة، وهو مجلد واحد متوسط الحجم، وهو ـ كما هو ظاهر من عنوانه ـ يختص بأخبار القطر الموريتانيّ.

وقصة تأليف هذا الكتاب عجيبة إذ أن المؤلف سئل في مصر عن أدباء شنقيط فأملى هذا الكتاب في أخبارهم من حفظه وفي الكتاب مئات القصائد وكثير من الأخبار، فسبحان الله يهب من شاء ما شاء.

وفي الكتاب ٨٣ ترجمة اخترت منها ٣ تراجم.

رابع عشر: «نزهة الأذهان في تراجم علماء داغستان» لنذير الدركليّ هذا الكتاب ما زال مخطوطاً، وهو متوسط الحجم، فيه أخبار نادرة عن علماء داغستان وأبطالهم وكفاحهم ضد قياصرة الروس، ويحوي الكتاب ٢٢٣ ترجمة اخترت لك منها ١١ ترجمة.

والكتاب يجري تحقيقه من قِبل الشيخ عبد الحميد داغستاني ويطبع قريباً إن شاء الله.

خامس عشر: «تاريخ الإسلام في بنتن» للأستاذ أحمد السقّاف. هذا الكتاب ما زال مخطوطاً، وهو صغير الحجم لكن الأخبار التي يحويها في غاية النفاسة لأنه يذكر بداية دخول الإسلام في أندونيسيا عامة ومقاطعة بنتن خاصة، ويذكر ألاعيب المستعمرين الهولنديين وحيلهم في أخذ البلاد واستعمارها، ويذكر فيه المصنف بطولات قادة مسلمين من آل البيت النبوي الكريم وغيرهم وهو جدير بأن يحقق.

سادس عشر: «التعليقات على شمس الظهيرة» للسيد ضياء الدين شهاب. وهذا الكتاب حاشية على كتاب شمس الظهيرة للشيخ عبد الرحمن المشهور ذكر فيه أنساب آل البيت النبويّ الذين عاشوا في حضرموت وتفرقوا في بلاد كثيرة.

والكتاب مهم لأن السيد ضياء الدين شهاب يذكر فيه هجرات آل البيت إلى جنوب شرق آسيا وخاصة أندونيسيا وماليزيا وسنغافورة ويذكر الولايات التي أسسوها والتجارات التي أنشأوها، ويذكر أيضاً عقبهم وذريتهم الذين يعيشون في تلك البلاد الآن.

والكتب مطبوع في مجلدين كبيرين في جدة، مكتبة عالم المعرفة.

سابع عشر: «تاريخ الدولة العليّة العثمانية» لمحمد فريد بك المحامي.

الكتاب مطبوع في مجلد واحد كبير الحجم بتحقيق د. إحسان حقي، وهو تحقيق جيد حلّ كثيراً من مبهمات الكتاب، وقد طبع في بيروت، دار النفائس.

والكتاب مخصص لذكر خلفاء بني عثمان وأحوالهم في الحرب والسلم، إلاّ أن الكاتب غير دقيق، ولغة الكتاب لغة ركيكة.

ثامن عشر: «طبقات الشافعية الكبرىٰ» للإمام تاج الدين السبكيّ. قد طبع هذا الكتاب في مصر محققاً تحقيقاً ممتازاً من قبل الدكتور محمود الطناحي والدكتور عبد الفتّاح الحلو في ١٠ مجلدات ضخمة، والكتاب مليء بالفوائد والتحقيقات إلاّ أن السبكيّ رحمه الله بخس بعض التراجم حقّها وخاصة ترجمة الذهبيّ رحمهما الله تعالى، وقد عاب ذلك العمل كثيرٌ من العلماء منهم الحافظ السخاويّ في «الإعلان بالتوبيخ» والشوكاني في «البدر الطالع» وغيرهما.

وقد اخترت من الكتاب ما هو خاص بالقرن الثامن فقط؛ وهو المجلدان الأخيران: التاسع والعاشر.

تاسع عشر: «عنوان المجد في تاريخ نجد» لعثمان بن بشر النجديّ. طبع هذا الكتاب في مكتبة الرياض الحديثة، في مجلد واحد متوسط الحجم بدون تحقيق، ولغة الكتاب عامية ركيكة. وقد أورد في الكتاب أخبار الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأولاده وأحفاده، وأخبار الأمير محمد بن سعود وأولاده وأحفاده مؤسسي الدولة السعودية الأولى.

وفي الكتاب تفصيل لأخبار نجد وأحوال الحجاز ممّا يخدم غرض هذا الكتاب المنتخَب في شموليته للعالم الإسلاميّ.

هذه ـ أخي القارىء ـ نُبذٌ قصيرة عن الكتب المختارة.

وممّا ذكرت آنفاً يتضح لك صعوبة هذا الكتاب المنتخَب، ووجه الصعوبة أنه:

١ ـ كثير من الكتب غير محقق وبه سقط وكلمات صعبة ومفردات أعجمية من عصر المماليك والعثمانيين مما اضطرني للرجوع إلى عدد من المراجع والقواميس لمعرفة المراد.

٢ ـ ضخامة الأسفار واختلاف أساليب مصنفيها يجعل اختيار التراجم متناسقة مضمومة في كتاب واحد أمراً بالغ الصعوبة، فقد بلغ عدد التراجم المنتخبة ألف ترجمة من أصل ٢٨٠٠٠ ترجمة تقريباً.

٣ ـ الصعوبة في الحصول على بعض الكتب مثل مخطوط «تاريخ الإسلام في بنتن»، وبعض الكتب المطبوعة.

٤ ـ في بعض الكتب المختارة كثير من الغثاء وفيها فوائد، واستخلاص هذه الفوائد من ذلك الغثاء تطلب وقتاً وجهداً أسأل الله أن يثيبني عليه ويجعله خالصاً لوجهه.

تنبيهان:

١ ـ ما ورد في الهامش فهو من كلامي إلا ما صدرته بـ: قال المحقق أو قال المعلّق أو ما شابه ذلك من ألفاظ.

٢ ـ كثير من الأعلام خاصة في كتب القرن العاشر وما بعده نحوا منحىٰ التصوف، بل كان ـ في كثير من البقاع ـ أتباع طريقة من الطرق شرط للوصول إلى الكمال في ظن الكثير، فإيرادي لمثل هذه التراجم لا يعني موافقتي لكل ما جاء فيها ضرورةً ولكن أورد ما أعتقد أنه حقٌّ لا يخالف الكتاب والسنّة وأردّ ما عدا ذلك ولا أُثبته، والله أعلم.



مختارات الدرر الكامنة
في
أعيان المئة الثامنة

للإمام
ابن حجر العسقلاني



برهان الدين الزرعيّ

إبراهيم بن أحمد بن هلال القاضي برهان الدين الزرعي الحنبلي.

ولد سنة ٦٨٨.

حدّث وتفقه وبرع، واشتغل على ابن تيمية وابن الزملكاني والقزويني ومهر وتقدم في الفتيا.

(١) ودرس بأماكن منها المدرسة الحنبلية عوضاً عن ابن تيمية حين سجن فمقته الحنابلة لذلك، وكان أيضاً أشعريّ المعتقد في الغالب من أحواله.

وكتب الخط الحسن الفائق. قال ابن رافع: كان من أذكياء الناس ذا إنصاف في البحث، دخل مصر وعظم بها.

قال الصفديّ: كان وافر العقل حسن الشكل عالي الهمّة.

(٢) قلت: كان له ميل إلى التسري بالجواري الأتراك فيتعلم منهنّ اللسان فيحدث به جيداً.

مات سنة ٧٤١[١].

برهان الدين الآمديّ

إبراهيم بن داود بن عبد الله الآمديّ ثم الدمشقيّ برهان الدين، نزيل القاهرة. مات أبوه وهو صغير على دين النصرانية فحمله وصيّه الشيخ عبدالله

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/ ١٦.

الدمشقي وأحضره مجلس تقي الدين بن تيمية فأسلم على يده وصحبه ثم صحب أصحابه وأخذ عنهم، وتفقه على مذهب الشافعي، وسمع الحديث الكثير وطلب بنفسه وكتب ودار على الشيوخ.

(١) وكان ديناً خيراً فاضلاً قرأت عليه عدة أجزاء قلت له مرة[١]: أخبركم رضي الله عنكم وعن والديكم فنظر إليّ منكراً وقال: ما كانا على الإسلام.

وكان ممتحناً بحب ابن تيمية ونسخ غالب تصانيفه بخطه.

وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر برياضة وتؤدة ويناظر في مسائل ابن تيمية من غير مماراة.

وكان حسن الوجه منور الشيبة لطيف المحاضرة. مات سنة ٧٩٧[٢].

كاتب أرلان

إبراهيم بن عبد الله القبطي الوزير المعروف بكاتب أرلان.

أسلم قديماً وخدم الأمراء فاشتهر بالكتابة والضبط إلى أن اتصل ببرقوق في إمرتـه فخدم في ديوانه فلما تسلطن قلده الوزارة فباشرها بكفاية تامة حتى إنه لما وزر لم يجد في الحاصل درهماً ولا قدحاً من الغلال، ولما مات وجد من النقد في الحواصل ألف ألف درهم، وثلاثمائة ألف أردب، وستة وثلاثين ألف رأس من الغنم إلى غير ذلك. وقيل: إن جملة ما تركه حاصلاً ما قيمته خمس مائة ألف دينار فكتب بها أوراقاً في مرضه فأرسل بها إلى السلطان ويقال إنه ناولها للسلطان سراً لما عاده في مرضه.

---

(١) أي ابن حجر.

(٢) «الدرر الكامنة: ١/ ٢٧.

وكان لا يمكن أحداًمن الركوب معه ولا يركب إلا بغلامه فقط.

مات سنة ٧٨٩.

وكان في مدة وزارته لم يغير زيه ولا مركوبه ولم يكن عنده في بيته غير جوار قلائل فإذا ركب أغلق بابه وحمل المفتاح معه[١].

ابن الفركاح

إبرهيم بن عبد الرحمٰن بن إبراهيم الْفَزَاريّ الصعيدي الأصل ثم الدمشقيّ برهان الدين ابن الفركاح.

ولد سنة ستين وقرأ العربية على عمه والفقه على أبيه.

(١) وكان مع مخالفته الشيخ تقي الدين ابن تيميّة لا يهجره، ولما مات شيع جنازته وقعد لعزائه.

وشرح التنبيه وعلق على المنهاج وكان مشكور الدروس إلا أنه لا يعجبه من يشكك عليه.

ونشأ في تصون وخير وانكباب على العلم وتخرج به الفضلاء، وانتهت إليه رياسة المذهب.

وكان عذب العبارة صادق اللهجة طلق اللسان طويل النفَس في الدروس يوردها كأنه يقرأ الفاتحة.

وكان له حظ من صلاة وصيام وذكر ولطف وتواضع ولزوم الخير والكف

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/ ٣٤

عن الغيبة وأذية الغير مع الفتوة والبذل والإحسان إلى الناس بالعيادة وشهود الجنائز.

(١) والتودد إلى الطلبة في تفهيمهم وطول روحه عليهم وكان يسعى لهم وكان يثني على فاضلهم.

وكان نحيفاً أبيض حلو الصورة رقيق البشرة معتدل القامة.

(٢) قال الذهبيّ: وكان ربما انزعج من المناظرة، وله مسائل ينفرد بها مغمورة في بحر علمه كنظرائه.

وكانت له جلالة ووقع في النفوس مع رحمة ورفق وكراهة للفتن والشرور.

قال الكمال جعفر لم يزل مشتغلاً بما يعنيه زاهداً في المناصب إلى أن مضى على وجه جميل.

مات سنة ٧٢٩ وله سبعون سنة غير أشهر ودفن عند والده وتأسف الخلق عليه[١].

رَضِيّ الدين الطبريّ

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الطّبريّ الأصل المكيّ رَضِيّ الدين الإمام الشافعي. ولد سنة ٧٣٦.

كان منفرداً في الدين والتأله والعبادة قل أن ترى العيون مثله مع التواضع والوقار والخير.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/ ٣٥ ـ ٣٦.

(١) لم يخرج من الحجاز فكان يقول: ما رأيت في عمري يهودياً ولا نصرانياً.

مات سنة ٧٢٦ عن ٨٦ سنة[١].

الواثق العباسيّ

إبراهيم بن محمد بن أحمد العباسيّ، أمير المؤمنين الواثق بن المستمسك بن الحاكم، وَلِيَ الخلافة بعد موت عمه المستكفي بمبايعة الناصر له سنة ٧٤٠ وقرر له ما كان مقرراً للمستكفي بعد أن كان الناس راجعوه في أمره ووسموه بسوء السيرة فأظهر التوبة فلم يزل الناصر بالناس حتى بايعوه. وقَدِم أحمد ابن المستكفي ومعه محضر ـ في شهادة أربعين عدلاً على أبيه أنه فوّض له ولاية العهد ـ مثبوت على قاضي قوص فلم يعبأ به الناصر، وقرره في ذي الحجة فأقام باسم الخلافة بقية دولة الناصر سنة واحدة ثم بعده.

(٢) وكان الناس يهزءون بإبراهيم ويلقبونه المستعطي بالله[٢].

إبراهيم بن القيم

إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزيّة. ولد سنة ستة عشر، واشتهر وتقدم وأفتى ودرس. ذكره الذهبيّ في المعجم المختص فقال: تفقه بأبيه وشارك في العربية وسمع وقرأ واشتغل بالعلم.

(٣) ومن نوادره أنه وقع بينه وبين عماد الدين ابن كثير منازعة في تدريس فقال له ابن كثير: أنت تكرهني لأنني أشعريّ. فقال له: لو كان من رأسك إلى قدمك شعر ما صدقك الناس في قولك إنك أشعريّ وشيخك ابن تيمية.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٥٦.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٥٧ ـ ٥٨.

قال ابن كثير: كان فاضلاً في النحو والفقه على طريقة أبيه، ودرس بأماكن.

كانت وفاته سنة ٧٦٧[١].

ابن العديم

إبراهيم بن محمد بن عمر العقيليّ الحلبيّ جمال الدين ابن العديم، من بيت كبير مشهور بحلب. ولد سنة ٧١١ تقريباً، وَلِيَ قضاء حلب بعد أبيه في سنة ٧٥٢.

قال علاءالدين في تاريخه: كان عادلاً عاقلاً في الحكم خبيراً بالأحكام، عفيفاً كثير الوقار والسكون، إلا أنه لم يكن ناقداً في الفقه ولا في غيره من العلوم.

(١) وقرأت بخط البرهان المحدث أن ابن العديم هذا ادّعى عنده مدع على آخر بمبلغ فأنكر فأخرج المدعي وثيقة فيها أقرّ فلان، وأنكر المدعى عليه أن الاسم المذكور في الوثيقة اسم أبيه، فقال له: فما اسمك أنت؟ قال: فلان، واسم أبيك؟ قال: فلان، فسكت عنه القاضي وتشاغل بالحديث مع من كان عنده حتى طال ذلك وكان القارىء يقرأ عليه في صحيح البخاريّ فلما فرغ المجلس صاح القاضي: يا بن فلان فأجابه المدعى عليه مبادراً. فقال له: ادفع لغريمك حقه، فاستحسن من حضره هذه الحيلة التي استغفل المدعى عليه حتى التجأ إلى الاعتراف.

كانت وفاته سنة ٧٨٧[٢].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٦٠.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٦٦ - ٦٧.

ابن جروان

إبراهيم بن ناصر بن جروان المالكيّ من بني مالك بطن من قريش صاحب القطيف، انتزع جده جروان الملك من سعيد بن مغامس بن سليمان بن رُمَيْثَة القرمطيّ في سنة ٧٠٥، وحكم في بلاد البحرين كلها، ثم لما مات قام ولده ناصر مقامه ثم قام إبراهيم مقام أبيه.

وكان موجوداً في العشرين وثماني مائة، وهم من كبار الروافض[١].

علم الدين ابن الرشيد

إبراهيم بن أبي الوحش بن أبي حليقة علم الدين ابن الرشيد رئيس الأطباء بمصر والشام. كان نصرانياً فبلغ في دينه أن عُيِّن للبطريركية فلم يوافق ودخل في الإسلام واستقر رئيس الأطباء. عالج الظاهر بيبرس فعوفي فوهب له الأمراء شيئاً خارج الحد فاستكثره السلطان فأعطاه جزءاً منه. ويقال إن تركته بلغت ثلثمائة ألف دينار. مات سنة ٧٠٨[٢].

اتفاق المغنية

اتفاق المولدة. نشأت عند ضامنة المغاني ببلبيس[٣]، ثم انتقلت لضامنة المغاني بمصر فعلمتها عند عليّ العجميّ ضرب العود ففاقت فيه وبلغت الغاية فقدمتها الضامنة لبيت الناصر فحظيت عند الصالح إسماعيل ابن الناصر وولع بها فأكثر لها من الإنعام حتى اختصها بنفيس الجواهر وولدت منه، ثم شغف بها بعده أخوه الكامل وولدت منه أيضاً، ولم تكن جميلة، وإنما تقدمت بالغناء.

(١) وأحيط بها في ولاية المظفر حاجي فوجد لها أربعون بذلة مكللة

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٧٥/١.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٧٧/١.

(٣) بلدة بمصر.

بالجواهر واللآلي وثمانون مِقْنَعَة[1] أقلها بمائتي دينار وأكثرها بألف ثمّ أُخرجت من القلعة، ثم استعادها المظفر وتزوجها وأعطاها أضعاف ما كان يعطيها أخواه وهام بها فأفرط، ويقال إن عَصَبَتها[2] بلغت قيمتها ألف دينار مصرية لاشتمالها على الجواهر النفيسة التي حصّلتها من ثلاثة سلاطين، ثم أخرجت في أيام الناصر حسن وقطعت رواتبها وتزوجها الوزير موفق الدين هبة الله بن السعيد إبراهيم ورتب لها في السنة سبعمائة ألف درهم إلى أن مات عنها، وتنقلت بها الأحوال إلى أن ماتت[3].

ابن الزبير الأندلسيّ

أحمد بن إبراهيم بن الزبير، العلامة أبو جعفر الأندلسيّ الحافظ النحويّ. ولُد سنة ٦٢٧ وتلا بالسبع، وجمع وصنّف، وحدث بالكثير وبه تخرج العلامة أبو حيّان، وصار علامة عصره في الحديث والقراءة. له ذيل على تاريخ ابن بشكوال، وجمع كتاباً في فن من فنون التفسير[4] سماه «ملاك التأويل» نحى فيه طريق الحصكفيّ الخطيب في ذلك فلخص كتابه وزاد عليه شيئاً بنفسه.

قال أبو حيان: كان محرر اللغة، وكان أفصح عالم رأيته، وتفقه عليه خلق، وقال ابن عبدالملك في «التكملة»: تصدر لإقراء كتاب الله تعالى وإسماع الحديث وتعليم العربية وتدريس الفقه عاكفاً على ذلك عامة نهاره، مثابراً على إفادة العلم ونشره انفرد بذلك وصارت الرحلة إليه، وهو من أهل التجويد والإتقان عارف بالقراءات، حافظ للحديث مميز لصحيحه من سقيمه ذاكر لرجاله وتواريخهم متسع الرواية عنى بها كثيراً، حصلت له محنة وتحول بسببها عن وطنه ثم أعقبه الله الحسنى.

---

(١) هو ما تغطي به المرأة رأسها.

(٢) هو ما تضعه المرأة على رأسها محيطاً به.

(٣) «الدرر الكامنة»: ١/٨٣ - ٨٤.

(٤) هو في توجيه الآيات المتشابهة في القرآن، وهو مطبوع متداول.

توفى عام ٧٠٨، وصُلِّيَ عليه بغرناطة.

(١) ومن مناقبه أن الفازاريّ الساحر لما ادعى النبوة قام عليه أبو جعفر بمالقة[١] فاستظهر عليه بتقربه إلى أميرها بالسحر وأوذي أبو جعفر فتحول إلى غرناطة، فاتفق قدوم الفازاريّ رسولاً من أمير مالقة فاجتمع أبو جعفر بصاحب غرناطة ووصف له حال الفازاريّ فأذن له إذا انصرف بجواب رسالته أن يخرج إليه بعض أهل البلد ويطالبه من باب الشرع ففعل فثبت عليه الحد وحكم بقتله فضرب بالسيف فلم يَجُلْ فيه، فقال أبو جعفر: جردوه فوجدوا جسده مكتوباً فغسل ثم وجد تحت لسانه حجراً لطيفاً فنزعه فجال فيه السيف حينئذ.

وقال الكمال جعفر: كان ثقة قائماً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قامعاً لأهل البدع، وله مع ملوك عصره وقائع، وكان معظماً عند الخاصة والعامة حسن التعلم ناصحاً، له عدة تصانيف[٢].

الإسكندريّ

أحمد بن أبي بكر بن منصور الإسكندريّ شمس الدين قاضي طرابلس، كان فاضلاً في أنواع من العلوم، وكان شجاعاً وعنده عُددٌ لقتال الفرنج وكان قد أثرى وكثر ماله وبنى بطرابلس مدرسة للشافعية. وكان كل من ورد عليه يكرمه، والكلمة مجتمعةٌ في الثناء عليه. قال الذهبيّ: فاضل متفنن عارف بالمذهب يتعانى التجارة مع رأي جيد وحزم. وكان مولده سنة ٦٣٤ ومات سنة ٧٠٧.

(٢) وقال الذهبي: كتب إليّ شهاب الدين ابن مري أن شمس الدين المذكور لما احتضر اجتمعنا حوله فأظهر فرحاً واستبشاراً وكرر كلمتي

---

(١) مدينة في الأندلس.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٨٩ - ٩١.

الشهادة وقال: ساعدوني وآنسوني فإن للنفس انزعاجاً عند الفراق، وإذا رأيتموني مت مسلماً فاشكروا ربكم على الهداية لهذا الدين العظيم، ثم كرر الشهادة نحو ثلاثين مرة ومات[1].

شهاب الدين الأذرعيّ

أحمد بن حمدان بن عبدالواحد الشيخ شهاب الدين الأذرعيّ، أبو العباس. ولد بأذرعات الشام في وسط سنة ثمان وسبعمائة، ودخل القاهرة ثم ألزم بالتوجه إلى حلب وناب عن قاضيها نجم الدين بن الصائغ، فلما مات ترك ذلك وأقبل على الإشغال والاشتغال واشتهرت فتاويه في البلاد الحلبية. وكان سريع الكتابة منطرح النفس كثير الجود صادق اللهجة شديد الخوف من الله.

(١) وذُكر لي أنه كان يكتب في الليل على شمعتين أو أكثر، وذكر لي بعض مشايخنا أنه كان يكتب في الليل كراساً تصنيفاً وفي النهار كراساً تصنيفاً لا يقطع ذلك، ولكن لو كان ذلك مع المواظبة لكانت تصانيفه كثيرة جداً لكن لعله ترك ذلك مسودات فضاعت من بعده.

(٢) ومن نظمه:

يا موجدي من العدم أَقِلْ فقد زل القدَم
واغفر ذنوباً قد مضى وقوعها من القِدم
لا عذر في اكتسابها إلا الخضوع والندم
إن الجواد شأنه غفران زلات الخدم

وكان فقيه النفس لطيف الذوق كثير الإنشاد للشعر، وله نظم قليل. وكان يقول الحق وينكر المنكر ويخاطب نواب حلب بالغلظة. وكان محباً للغرباء محسناً إليهم معتقداً لأهل الخير كثير الملازمة لبيته لا يخرج إلا إلى ضرورة، وكان كثير التحري في أموره، وكان لا يأذن لأحد في الإفتاء إلا

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/١٢١ ـ ١٢٢.

نـادراً وكان البـارينيّ مع جـلالـة قـدره إذا اجتمعت عنـده الفتـاوي التي يستشكلها يحضرها ويجتمع به ويسأله عنها فيجيبه فيعتمد على جوابه. وقد ذكرت عنه كرامات ومكاشفات.

(١) وقـرأت بخط الشيخ بـرهان الـدين المحدث بحلب وأجـازنيه: أنشدنا الإمام شيخ الشافعية شهاب الدين الأذرعيّ لنفسه:

كـم ذا بـرأيـك تـسـتـبـد ... مـا هـكـذا الـرأي الأسـد
أأمـنـت جـبـار الـسـمـا ... ء ومـن لـه الـبـطش الأشـد
فـاعـلم يـقـيـنـاً أنـه ... مـا مـن مقـام الـعـرض بـد
عـرض بـه يـقـوى الـضـعـ ... ـيف ويضعف الـخصـم الألـد
ولـذلـك الـعـرض اتّـقـى ... أهـل التـقـى ولـه استـعـد[1]

مات سنة ٧٨٣[2].

أحمد بن زيد

أحمد بن زيد اليمنيّ الفقيـه كان من رؤسـاء أهل صعـدة فبلغ عنه الإمام صلاح الدين بن علي أمرٌ فأمر بقتله، فحمل المصحف وصار إليـه مستجيراً به فلم يغن عنه ذلك وقتل، فأصيب الإمام بعد موته بيسير فعد ذلك من كراماته، وكان ذلك في سنة ٧٩٣[3].

---

(١) حاشية بخط السخاوي: قال العلامة ابن خطيب الناصرية في تاريخه: ومن شعره أيضاً ما حكي عنه أنه قال: رأيت في المنام رجلاً وقف أمامي وهو ينشد:

كـيف نـرجـو إجـابـة لـدعـاء ... قـد سـددنـا طـريقـه بـالـذنـوب

قال فأنشدته:

كيف لا يـستجيب ربي دعـائي ... وهـو سبحـانـه ذهـابي إلـيـه
مـع رجـائي لـفـضـله وابـتـهـالـي ... واتكـالي في كـل خـطب عليـه

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/١٣٥ ـ ١٣٧.
(٣) «الدرر الكامنة»: ١/١٤٣.

ابو العبّاس الحجّار

أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم الصالحيّ الحجار، أبو العباس. ولد سنة ٦٢٤ تقريباً بل قبل ذلك وأول ما ظهر للمحدثين سنة ٧٠٦ فحدّث بالصحيح أكثر من سبعين مرة بدمشق والصالحية وبالقاهرة ومصر وحماة وبعلبك وحمص وكفربطنا وغيرها، ورأى من العز والإكرام ما لا مزيد عليه ورُحل إليه من البلاد وتزاحموا عليه من سنة ٧١٧ إلى أن مات، ولما مات نزل الناس بموته درجة. قال الذهبي: كان دمويّ اللون أشقر طويلاً أبطأ عنه الشيب، وكانت له همة وفيه عقل وفهم يصغي جيداً وما رأيته نعس فيما أعلم، وثقل سمعه قليلاً في الآخر، وكان خياطاً، وكان فيه دين وملازمة للصلاة ويصوم تطوعاً.

(١) وقد صام وهو ابن مائة سنة رمضان وأتبعه بست من شوال، وكان حينئذ يغتسل بالماء البارد ولا يترك غشيان الزوجة.

(٢) وله بوادر[١] منها أنه سئل عن عاق والديه فقال: يقتل، وسئل عن صوم ست من شوال فقال: «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر». مات سنة ٧٣٠[٢].

شيخ الإسلام ابن تيمية

أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم ابن تيمية الحرّانيّ ثم الدمشقيّ الحنبليّ تقيّ الدين أبو العباس. ولد سنة ٦٦١ وتحول به أبوه من حران سنة ٦٦٧. حصّل الأجزاء ونظر في الرجال والعلل، وتفقه وتمهر وتميز وتقدم وصنف ودرس وأفتى وفاق الأقران وصار عجباً في سرعة الاستحضار وقوة الجَنان والتوسع في المنقول والمعقول والإطالة على مذاهب السلف والخلف.

---

(١) أي أقوال تعجّل فيها.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/١٥٢ ـ ١٥٣.

(١) وأول ما أنكروا عليه من مقالاته في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ قام عليه جماعة من الفقهاء بسبب الفتوى الحموية وبحثوا معه ومُنِع من الكلام، ثم حضر مع القاضي إمام الدين القزوينيّ فانتصر له وقال هو وأخوه جلال الدين من قال عن الشيخ تقي الدين شيئاً عزّرناه. ثم طلب ثاني مرة في سنة ٧٠٥ إلى مصر فشغب عليه بيبرس الجاشنكير وانتصر له سَلار[1] ثم آل أمره أن حبس في خزانة البنود مدة ثم نقل في صفر سنة ٧٠٩ إلى الإسكندرية. ثم أفرج عنه وأعيد إلى القاهرة ثم أعيد إلى الإسكندرية ثم حضر الناصر من الكرك فأطلقه ووصل إلى دمشق في آخر سنة ٧١٢، وكان السبب في هذه المحنة أن مرسوم السلطان ورد على النائب بامتحانه في معتقده لما وقع إليه من أمور تنكر في ذلك فعُقد له مجلس في سابع رجب وسئل عن عقيدته فأملى منها شيئاً ثم أحضروا العقيدة التي تعرف بالواسطية فقرىء منها وبحثوا في مواضعَ ثم اجتمعوا في ثاني عشرة وقرروا الصفي الهنديّ يبحث معه ثم أخروه وقدموا الكمال الزملكانيّ ثم انفصل الأمر على أنه أشهد على نفسه أنه شافعيّ المعتقد فأشاع أتباعه أنه انتصر فغضب خصومه ورفعوا واحداً من أتباع ابن تيمية إلى الجلال القزوينيّ نائب الحكم بالعادلية فعزره وكذا فعل الحنفي باثنين منهم.

(٢) ثم في ثاني عشر رجب قرأ المِزِّيّ فصلاً من كتاب «أفعال العباد» للبخاريّ في الجامع فسمعه بعض الشافعية فغضب وقالوا: نحن المقصودون بهذا ورفعوه إلى القاضي الشافعيّ فأمر بحبسه فبلغ ابن تيمية فتوجه إلى الحبس فأخرجه بيده فبلغ القاضي فطلع إلى القلعة فوافاه ابن تيمية فتشاجرا بحضرة النائب واشتط ابن تيمية على القاضي لكون نائبه جلال الدين آذى أصحابه في غيبة النائب فأمر النائب من ينادي أن من تكلم في العقائد فُعل كذا به وقصد بذلك تسكين الفتنة.

ثمّ وصل مملوك النائب وأخبر أن الجاشنكير والقاضي المالكيّ قد

(١) بيبرس وسلار من أمراء المماليك.

قاما في الإنكار على الشيخ وأن الأمر اشتد بمصر على الحنابلة حتى صُفع بعضهم ثم توجه القاضي والشيخ إلى القاهرة ومعهما جماعة فوصلا في العشر الأخير من رمضان وعقد مجلس في ثالث عشر منه بعد صلاة الجمعة فادعي على ابن تيمية عند المالكي فقال: هذا عدوي ولم يجب عن الدعوى فكرر عليه فأصر فحكم المالكي بحبسه فأقيم من المجلس وحُبس في برج.

(١) ثم بلغ المالكيَّ أن الناس يترددون إليه فقال: يجب التضييق عليه إن لم يقتل وإلا فقد ثبت كفره[1] فنقلوه ليلة عيد الفطر إلى الجُبّ، ونُودي بدمشق: من اعتقد عقيدة ابن تيمية حلّ دمه وماله خصوصاً الحنابلة فنودي بذلك وقرىء المرسوم وقرأها ابن الشهاب محمود في الجامع، ثم جمعوا الحنابلة من الصالحية وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الإمام الشافعي. وذكر ولد الشيخ جمال الدين ابن الظاهري في كتاب كتبه لبعض معارفه بدمشق أن جميع من بمصر من القضاة والشيوخ والفقراء والعلماء والعوام يحطون على ابن تيمية إلا الحنفي فإنه يتعصب له وإلا الشافعيّ فإنه ساكت عنه.

(٢) وكان أعظم القائمين عليه الشيخ نصر المنبجيّ لأنه كان بلغ ابن تيمية أنه يتعصب لابن العربيّ فكتب إليه كتاباً يعاتبه على ذلك فما أعجبه

---

(١) قال «الشوكاني» في «البدر الطالع»: ٦٧/١: «ولقد أحسن رحمه الله بالتصميم على عدم الإجابة عند ذلك القاضي الجريء الجاهل الغبي، ولو وقعت منه الإجابة لم يبعد الحكم بإراقة دم هذا الإمام الذي سمح الزمان به وهو بمثله بخيل، ولا سيّما هذا القاضي من المالكية الذي يُقال له ابن مخلوف، فإنه من شياطينهم المتجرئين على سفك دماء المسلمين بمجرد أكاذيب وكلمات ليس المراد بها ما يحملونه عليه، وناهيك بقوله: إن هذا الإمام قد استحق القتل وثبت لديه كفره، ولا يساوي شعرة من شعراته بل لا يصلح أن يكون شسعاً لنعله [هذه مبالغة من الشوكانيّ ما كان له أن يقولها] وما زال هذا القاضي الشيطان يتطلب الفرص التي يتوصل بها إلى إراقة دم هذا الإمام فحجبه الله عنه وحال بينه وبينه، فالحمد لله رب العالمين».

لكونه بالغ في الحطِّ على ابن العربيّ وتكفيره فصـار هو يحط على ابن تيميـة ويغري بـه بيبرس الجـاشنكير وكـان بيبرس يفـرط في محبة نصـر ويعظمه. وقام القاضي زين الدين بن مخلوف قاضي المـالكية مـع الشيخ نصر وبالغ في أذية الحنابلة.

واتفق أن قاضي الحنابلة شرف الدين الحرّاني كان قليل البضاعة في العلم فبادر إلى إجابتهم في المعتقـد واستكتبوه خـطه بذلـك، واتفق أن قاضي الحنفية بدمشق وهو شمس الدين ابن الحريـريّ انتصر لابن تيميـة وكتب في حقه محضراً بالثناء عليه بالعلم والفهم وكتب فيه بخطه ثلاثة عشر سطراً من جملتها أنه منذ ثلاثمائة سنة ما رأى الناس مثله فبلغ ذلك ابن مخلوف فسعى في عـزل ابن الحريـري فعُزل وقـرر عوضـه شمس الدين الأذرعيّ ثم لم يلبث أن عزل في السنة المقبلة. وتعصب سلار لابن تيمية وأحضر القضاة الثلاثة الشافعيّ والمالكيّ والحنفيّ وتكلم معهم في إخراجه فاتفقوا على أنهم يشترطون فيه شروطاً وأن يرجع عن العقيدة فأرسلوا إليه مرات فامتنع من الحضور إليهم واستمر، ولم يزل ابن تيمية في الجب إلى أن شفع فيه مُهنا أمير آل فضل، فأخرج في ربيع الأول في الثـالث منه وأحضر إلى القلعة ووقع البحث مع بعض الفقهاء فكتب عليه محضر بأنه قال: أنا أشعريّ، ثم وجد خطه بما نصه: الذي أعتقد أن القرآن معنى قائم بذات الله وهو صفة من صفات ذاته القديمة وهو غير مخلوق وليس بحرف ولا صوت وأن قوله: ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ ليس على ظاهره ولا أعلم كنه المراد به بل لا يعلمه إلا الله والقول في النزول كالقول في الاستواء وكتبه أحمد بن تيمية ثم أشهدوا عليه أنه تاب مما ينافي ذلك مختاراً وذلك في خامس عشرين ربيع الأول سنة ٧٠٧ وشهد عليه بذلك جمع جمٌّ من العلماء وغيرهم وسكن الحال وأفرج عنه وسكن القاهرة.

ثمّ اجتمع جمع من الصوفية عند تاج الدين بن عطاء فطلعوا في العشر الأوسط من شوال إلى القلعة وشكوا من ابن تيمية أنه يتكلم في حق مشايخ

الطريق وأنه قال لا يُستغاث بالنبيِّ ﷺ [1] فاقتضى الحال أن أُمر بتسييره إلى الشام فتوجه على خيل البريد وكل ذلك والقاضي زين الدين بن مخلوف مشتغل بنفسه بالمرض وقد أشرف على الموت وبلغه سفرُ ابن تيمية فراسل النائب فرده من بِلبيس وادعى عليه عند ابن جماعة وشهد عليه شرف الدين بن الصابونيّ وقيل إن علاءالدين القونوي أيضاً شهد عليه فاعتقل وسجن بحارة الديلم في ثامن عشر إلى سلخ صفر سنة ٧٠٩ فنقل عنه أن جماعة يترددون إليه وأنه يتكلم عليهم في نحو ما تقدم فأمر بنقله إلى الإسكندرية فنقل إليها في سلخ صفر وكان سفره صحبة أمير مقدم ولم يُمكِّن أحداً من جهته من السفر معه وحبس ببرج، ثم توجه إليه بعض أصحابه فلم يمنعوا منه فتوجهت طائفة منهم بعد طائفة وكان موضعه فسيحاً فصار الناس يدخلون إليه ويقرءون عليه ويبحثون معه، فلم يزل إلى أن عاد الناصر إلى السلطنة فشُفِع فيه عنده فأمر بإحضاره فاجتمع به في ثامن عشر شوال سنة ٩ فأكرمه وجمع القضاة وأصلح بينه وبين القاضي المالكيّ أن لا يعود فقال له السلطان: قد تاب، وسكن بالقاهرة وتردد الناس إليه إلى أن توجه صحبة الناصر إلى الشام بنية الغزاة في سنة ٧١٢ وذلك في شوال فوصل دمشق في مستهل ذي القعدة فكانت مدة غيبته عنها أكثر من سبع سنين وتلقاه جمع عظيم فرحاً بمقدمه، وكانت والدته إذ ذاك على قيد الحياة.

ثم قاموا عليه في شهر رمضان سنة ٧١٩ بسبب مسألة الطلاق[2] وأكد عليه المنع من الفتيا، ثم عقد له مجلس آخر في رجب سنة عشرين ثم حبس بالقلعة ثم أخرج في عاشوراء سنة ٧٢١.

---

(١) هذا هو الحقّ؛ إذ لا يستغاث إلا بالله، وإنما اختلف العلماء في جواز التوسّل ولم يختلفوا في منع الاستغاثة بالمخلوق.

(٢) وهو ما كان يفتي به من أن الطلاق بالثلاث في لفظ واحد لا ينعقد إلا طلقة واحدة.

ثم قاموا عليه مرة أخرى في شعبان سنة ٧٢٦ بسبب مسألة الزيارة[١] واعتقل بالقلعة فلم يزل بها إلى أن مات في ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨.

(١) قال الصلاح الصفديّ: كان كثيراً ما ينشد:

تموت النفوس بأوصابها ولم تدر عوادها ما بها
وما أنصفت مهجة تشتكي أذاها إلى غير أحبابها

وكان ينشد كثيراً.

(٢) وأنشد له على لسان الفقراء[٢]:

والله ما فقرنا باختيار وإنما فقرنا اضطرار
جماعة كلنا كسالى وأكلنا ماله عيار
يسمع منا إذا اجتمعنا حقيقة كلها فشار

قال الذهبيّ ما ملخصه: كان يقضى منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدل ورجح، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه. وما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه ـ كأن السنة نصب عينيه وعلى طرف لسانه ـ بعبارة رشيقة وعين مفتوحة، وكان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه وأما أصول الديانة ومعرفة أقوال المخالفين فكان لا يشق غباره فيه. هذا مع ما كان عليه من الكرم والشجاعة والفراغ من ملاذ النفس ولعل فتاويه في الفنون تبلغ ثلثمائة مجلد بل أكثر، وكان قوالاً بالحق لا يأخذه في الله لومة لائم، قال: ومن خالطه وعرفه فقد ينسبني إلى التقصير، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه، وقد أوذيت من الفريقين من أصحابه وأضداده. وكان أبيضَ، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، وكأن عينيه لسانان ناطقان، ربعةً من الرجال، بعيد ما بين

(١) أي شد الرحال لزيارة قبر النبيّ ﷺ، وكان شيخ الإسلام يفتي بعدم جواز ذلك.
(٢) أي الصوفية.

المنكبين، جَهْوَرِيَّ الصوت فصيحاً، سريع القراءة، تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم.

(١) قال: ولم أر مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه وأنا لا أعتقد فيه عصمة بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية فإنه كان مع سعة علمه وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدين بشراً من البشر تعتريه حدة في البحث وغضب وشَظَف للخصم[1] تزرع له عداوة في النفوس وإلا لو لاطف خصومه لكان كلمة إجماع؛ فإن كبارهم خاضعون لعلومه معترفون مقرون بندور خطئه وأنه بحر لا ساحل له وكنز لا نظير له ولكن ينقمون عليه أخلاقاً وأفعالاً وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك.

قال: وكان محافظاً على الصلاة والصوم، معظماً للشرائع ظاهراً وباطناً، لا يؤتى من سوء فهم فإن له الذكاء المفرط ولا من قلة علم فإنه بحر زخار، ولا كان متلاعباً بالدين ولا ينفرد بمسائله بالتشهي ولا يطلق لسانه بما اتفق بل يحتج بالقرآن والحديث والقياس ويبرهن ويناظر أسوة بمن تقدمه من الأئمة فله أجر على أخطائه وأجران على إصابته إلى أن قال: تمرض أياماً بالقلعة إلى أن مات ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة وصلى عليه بجامع دمشق وصار يضرب بكثرة من حضر جنازته المثل وأقل ما قيل في عددهم أنهم خمسون ألف.

قال الشهاب بن فضل الله: لما قدم ابن تيمية على البريد إلى القاهرة في سنة سبع مائة نزل عند عمي شرف الدين وحض أهل المملكة على الجهاد فأغلظ القول للسلطان والأمراء ورتبوا له في مقر إقامته في كل يوم ديناراً وطعاماً، فلم يقبل شيئاً من ذلك وأرسل له السلطان بقجة قماش فردها.

(٢) قال: ثم حضر عنده شيخنا أبو حيّان فقال: ما رأت عيناي مثل

---

(١) أي فيه شدة ويُبس على الخصم.

هذا الرجل ثم مدحه بأبيات ذكر أنه نظمها بديهاً وأنشده إياها:

لما أتانا تقيُّ الدين لاح لنا	داع إلى الله فرد ماله وزر
على محياه من سيما الأولىٰ صحبوا	خير البرية بدرٌ دونه القمر
حبر تسربل منه دهره حِبَراً[1]	بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا	مقام سيد تيم إذ عصت مضر
وأظهر الحقَّ إذ آثاره اندرست	وأخمد الشر إذ صارت له شرر
كنا نحدث عن حبر يجيء بها	أنت الإمام الذي قد كان ينتظر

قال: ثم دار بينهما كلام فجرى ذكر سيبويه فأغلظ ابن تيمية القول في سيبويه فنافره أبو حيان وقطعه بسببه ثم عاد ذاماً له وصير ذلك ذنباً لا يغفر، قال: وحج ابن المحب سنة ٣٤ فسمع من أبي حيان أناشيد فقرأ عليه هذه الأبيات فقال: قد كشطتها من ديواني ولا أذكره بخير فسأله عن السبب في ذلك فقال ناظرته في شيء من العربية فذكرت له كلام سيبويه فقال: يفشر سيبويه، قال أبو حيان: وهذا لا يستحق الخطاب، ويقال إن ابن تيمية قال له: ما كان سيبويه نبيّ النحو ولا كان معصوماً بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعاً ما تفهمها أنت، فكان ذلك سبب مقاطعته إياه، وذكره في تفسيره «البحر» بكل سوء وكذلك في مختصره «النهر».

(١) وقال جمال الدين السرمري في أماليه: ومن عجائب ما وقع في الحفظ من أهل زماننا أن ابن تيمية كان يمر بالكتاب مطالعة مرة فينتقش في ذهنه وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه.

قال الطوفيّ: وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث فيورد في ساعة من الكتاب والسنة واللغة والنظر ما لا يقدر أحد على أن يورده في عدة مجالس كأن هذه العلوم بين عينيه فيأخذ منها ما

---

(١) الملابس المخططة.

يشاء ويذر ومن ثم نُسِب أصحابه إلى الغلو فيه واقتضى له ذلك العُجْب بنفسه حتى زهى على أبناء جنسه واستشعر أنه مجتهد فصار يرد على صغير العلماء وكبيرهم قديمهم وحديثهم حتى انتهى إلى عمر فخطأه في شيء فبلغ الشيخ إبراهيم الرقي فأنكر عليه فذهب إليه واعتذر واستغفر، وقال في حق عليّ: أخطأ في سبعة عشر شيئاً ثم خالف فيها نص الكتاب منها اعتداد المتوفى عنها زوجها أطول الأجلين. وكان لتعصبه لمذهب الحنابلة يقع في الأشاعرة حتى أنه سب الغزاليّ فقام عليه قوم كادوا يقتلونه، ولما قدم غازان بجيوش التتر إلى الشام خرج إليه وكلمه بكلام قوي فهمّ بقتله ثم نجا واشتهر أمره من يومئذ. واتفق أنّ الشيخ نصر المنبجي كان قد تقدم في الدولة لاعتقاد بيبرس الجاشنكير فيه فبلغه أن ابن تيمية يقع في ابن العربي لأنه كان يعتقد أنه مستقيم وأن الذي ينسب إليه من الاتحاد أو الإلحاد من قصور فهم لا ينكر عليه فأرسل ينكر عليه وكتب إليه كتاباً طويلاً ونسبه وأصحابه إلى الاتحاد الذي هو حقيقة الإلحاد فعظم ذلك عليهم وأعانه عليه قوم آخرون ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة وقعت منه في مواعيده وفتاويه فذكروا أنه ذكر حديث النزول فنزل عن المنبر درجتين فقال: كنزولي هذا فنُسب إلى التجسيم[١]، وردّه على من توسل بالنبيّ ﷺ أو استغاث[٢] فأشخص من دمشق في رمضان سنة خمس وسبعمائة فجرى عليه ما جرى وحُبس مراراً فأقام على ذلك نحو أربع سنين أو أكثر وهو مع ذلك يشغل ويفتي[٣].

وافترق الناس شيعاً فمنهم من نسبه إلى التجسيم لما ذكر في العقيدة الحموية والواسطية وغيرهما، ومنهم من نسبه إلى الزندقة لقوله إن النبي ﷺ

---

(١) هذه الحادثة منسوبة لابن تيمية وليست له بل لعالم آخر، كما بيّن ذلك بعض العلماء.

(٢) انظر هامش (١) ص ٤٢.

(٣) يجب التثبت من كثير ممّا ذكره الطُّوفيّ فإني لم أره لغيره، والله أعلم.

لا يستغاث به[1] وأن في ذلك تنقيصاً ومنعاً من تعظيم النبيّ ﷺ وكان أشدّ الناس عليه في ذلك النور البكريّ فإنه لما عقد له المجلس بسبب ذلك قال لبعض الحاضرين: يُعذر، فقال البكريّ: لا معنى لهذا القول فإنه إن كان تنقيصاً يقتل وإن لم يكن تنقيصاً لا يعذر، ومنهم من ينسبه إلى النفاق لقوله في عليّ ما تقدم ولقوله إنه كان مخذولاً حيث ما توجه وأنه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها وإنما قاتل للرياسة لا للديانة، ولقوله: إنه كان يحب الرياسة، وأن عثمان كان يحب المال، ولقوله: أبو بكر أسلم شيخاً يدري ما يقول وعليّ أسلم صبياً والصبي لا يصح إسلامه على قول[2] فألزموه النفاق لقوله ﷺ: «ولا يبغضك إلا منافق» ونسبه قومه إلى أنه يسعى في الإمامة الكبرى فإنه كان يلهج بذكر ابن تومرت[3] ويطريه فكان ذلك مؤكداً لطول سجنه وله وقائع شهيرة وكان إذا حوقق وألزم يقول لم أر هذا وإنما أردت كذا فيذكر احتمالاً بعيداً.

(١) قال: وكان من أذكياء العالم وله في ذلك أمور عظيمة منها أن محمد بن أبي بكر السكاكينيّ عمل أبياتاً على لسان ذميّ في إنكار القدر وأولها:

أيا علماء الدين ذِمّيُّ دينكم تحيَّر دُلُّوهُ بأعظم حجة
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

فوقف عليها ابن تيمية فثنى إحدى رجليه على الأخرى وأجاب في مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتاً أولها:

سؤالك يا هذا سؤال معاند يخاصم رب العرش باري البرية[4]

---

(١) انظر هامش (١) ص ٤٢.
(٢) يجب التأكد من صحة ما أورده الطوفيّ هنا، والله أعلم.
(٣) هو زعيم الموحدين في المغرب.
(٤) أورد منها السبكيّ في «طبقات الشافعية الكبرى»: ١٠/٣٥٤ أربعاً وأربعين بيتاً.

قال الذهبيّ: له باع طويل في معرفة أقوال السلف وقَلَّ أن تذكر مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأئمة وقد خالف الأئمة الأربعة في عدة مسائل صنف فيها واحتج لها بالكتاب والسنة وأقام عدة سنين لا يفتي بمذهب معين.

وقال في موضع آخر: بصيراً بطريقة السلف واحتج له بأدلة وأمور لم يسبق إليها وأطلق عبارات أحجم عنها غيره حتى قام عليه خلق من العلماء المصريين فبدعوه وناظروه وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي بل يقول الحق إذا أدَّاه إليه إجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته فجرى بينهم حملات حربية ووقائع شآمية ومصرية ورموه عن قوس واحدة ثم نجاه الله تعالى.

وكان دائم الابتهال كثير الاستغاثة قوي التوكل رابط الجأش له أوراد وأذكار يدمنها.

وقرأت بخط الحافظ صلاح الدين العلائي في ثبت شيخ شيوخنا الحافظ بهاء الدين عبدالله بن محمد بن خليل ما نصه: وسمع بهاء الدين المذكور على شيخنا وسيدنا وإمامنا فيما بيننا وبين الله تعالى شيخ التحقيق السالك بمن اتبعه أحسن طريق ذي الفضائل المتكاثرة والحجج القاهرة التي أقرت الأمم كافة أن هممها عن حصرها قاصرة ومتعنا الله بعلومه الفاخرة ونفعنا به في الدنيا والآخرة وهو الشيخ الإمام العالم الربانيّ والحبر البحر القطب النورانيّ إمام الأئمة بركة الأمّة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين، شيخ الإسلام، حجة الأعلام، قدوة الأنام، برهان المتعلمين، قامع المبتدعين، سيف المناظرين، بحر العلوم كنز المستفيدين، ترجمان القرآن، أعجوبة الزمان، فريد العصر والأوان، تقيّ الدين إمام المسلمين حجة الله على العالمين اللاحق بالصالحين والمشبه بالماضين مفتي الفرق ناصر الحق علاّمة

الهدى، عمدة الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، ركن الشريعة، ذو الفنون البديعة، أبو العباس ابن تيمية(١).

الملثَّم

أحمد بن عبدالله بن هاشم، أبو العباس المعروف بالملثّم. كان يذكر أن اسم أبيه أزدمر وأنه نشأ ببلاد الترك وقدم القاهرة فولد له الملثم في رمضان سنة ٦٥٨ واشتغل في الفقه على مذهب الشافعيّ وحفظ التنبيه(٢)، وذكر أنه لازم الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد في الفقه وسماع الحديث عشرين سنة، وسمع عدة من الكتب الكبار على ابن دقيق العيد ثم سلك طريق العبادة فحصل له انحراف مزاج فادعى في سنة ٦٨٩ دعاوي عريضة من رؤية الله تعالى في المنام مراراً وأنه أسري به إلى السموات السبع ثم إلى سدرة المنتهى ثم إلى العرش ومعه جبريل وجمع من الملائكة وأنّ الله كلمه وأخبره بأنه المهديّ وأن البشائر تواردت عليه من الملائكة، وأنه رأى النبي ﷺ فأعلمه بأنه من ولده وأنّه المهديّ وأمره أن ينذر الناس ويدعوهم إلى الله فاشتهر أمره فأخذ وحبس، وكان الشيخ نصر المنبجيّ يحط عليه فذكر عن نفسه أن نصراً أشار عليهم بقتله فطلع إلى القلعة وصرح بأنه المهديّ فأخذ وأرادوا قتله ثم حبسوه، ودخل عليه رجل أراد خنقه فذكر عن نفسه أن الرجل جفت يدُه(٣) ثم قيل للسلطان فأفرج عنه، ثم ثار في سنة ٦٩٩ فأمسكوه وحبسوه واتفقوا على شنقه فأرسل إليه القاضي تقي الدين بن دقيق العيد أن يظهر التجانن فكسر الكوز الذي عنده فيه الماء وكسر الزبدية التي فيها الطعام وشطح في الناس فأثبت القاضي أنه مجنون وحكم بذلك وأطلق، فبلغ ذلك الشيخ نصر المنبجيّ فغضب وأشار على بيبرس وكان يعتقده وعلى سَلار أن يسقوه السم فذكر أنه سقى مراراً فلم ينجع فيه.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/١٥٤ ـ ١٧٠.
(٢) كتاب في الفقه الشافعيّ.
(٣) أي شُلَّت.

وجمع هذا الرجل كتاباً كبيراً بث فيه الأحوال التي اتفقت له وفيه دعاوى عريضة غالبها منامات ويحلف على كل منها، وذكر أنه جلس في حانوت الشهود فرأى جبريل في المنام فقال له: المال الذي يتحصل مع الشهود حرام فترك ذلك، وذكر أنه رأى النبي ﷺ في المنام في السنة التي دخل فيها غازان الشام فقال له: أخبر أهل الدولة أن العدو قد أُذِن له في دخول الشام وأنه راسلهم بذلك فكذبه الشيخ نصرالدين والشيخ فخرالدين الأفقاصي وجلال الدين القلانسيّ وعزالدين البهنسي وآخرون وحلفوا له أنه ما يدخل الشام أحد من التتر في هذه السنة فكان ما كان.

وذكر في بعض كلامه أن المهديّ يخرج في سنة ٧٣٤ أو في سنة ٧٤٤ وذكر عدة منامات أنّه هو المهديّ ثم ذكر في مواضعَ أن المعنيّ بكونه المهديَّ أنه يهدي الناس إلى الحق وليس هو المهدي الموعود به في آخر الزمان.

وذكر أنهم حبسوه عند المجانين ثم أرسلوا إليه السم فوضع في شراب وسقوه فما أثر فيه وأنهم سقوا نصرانياً من الأسرى فمات من ساعته وأنه أطلق وأظهر التوبة من دعواه أنه المهديّ، وكان مما شهد عليه أنه زعم أنه رسول الله فتنصل من ذلك وقال: إنما قلت: إني رسول أرسلني رسول الله إليكم لأنذركم. ومات هذا الرجل في سنة ٧٤٠ وقد جاوز الثمانين، والله أعلم بحاله(١).

أبو جعفر المالقيّ

أحمد بن عبدالنور بن أحمد أبو جعفر المالقي. ولد سنة ٦٣٠ . أخذ القراءات عن الحجاج بن أبي ريحانة، وتقدم في العربية والعروض وله شعر وسط.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/١٩٧ ـ ٢٠٠.

(١) وكان شديد البله والتغفيل وهو صاحب القصة التي ذكر أنه طبخ قدراً فوجدها تعوز الملح فوضع في القدر ملحاً غير مطحون ثم ذاقها قبل أن ينحل الملح فوجدها تعوز فزادها إلى أن صارت القدر زعافاً، وقد كنت رأيت نحوها مسطوراً قديماً ولكن في تلك القصة القديمة أن صاحبها صار يذوق من المغرفة ما وضعه فيها أوّلاً.

وكانت وفاة ابن عبدالنور بالمَرِيّة [١] سنة ٧٠٢ [٢].

بهاء الدين السبكيّ

أحمد بن عليّ بن عبد الكافي السبكي أبو حامد بهاء الدين، مولده سنة ٧٢٩. قال الذهبيّ في «المعجم المختص»: الإمام العلّامة المدرس، له فضائل وعلم جيد وفيه أدب وتقوى، وساد وهو ابن عشرين سنة. وكان كثير الحج والمجاورة والأوراد والمروءة، خبيراً بأمر دنياه وآخرته، ونال من الجاه ما لم ينله غيره.

(٢) وقرأت بخط أبيه قال: قال ابني أبو حامد ـ في درس أخيه الحسين بالشامية ـ عندما جرى كلام في قوله: ﴿**الذين ءامنوا ولم يلبسهم إيمانهم بظلم**﴾ إن في الآية إشارة إلى أن المراد بالظلم الشرك لأنه الذي يلتبس بالإيمان، قال: وهي فائدة عظيمة فرحت بها أشد من فرحي بالدرس.

وكان غالب المصريين يخدمونه لكثرة عطائه. ولا يحاول أمراً إلا ويصل إليه.

قال الزبيريّ: وكان الشيخ بهاء الدين قد عمل على أولاد الجزري خطيب الجامع الطولوني فأخذ منهم الخطابة بعد أن كان تاج الدين المناويّ

---

(١) مدينة بالأندلس.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٢٠٧.

قررهم فيها فتولاها بهاء الدين بالجاه والسعي وحرموا منها، وكان لا يتهنأ بالخطابة لأن يَلْبُغا[1] ما كان يصلي إلا في الجامع الطولوني فلا تعجبه خطبته فكان يأمره أن يستنيب غيره في الخطابة فكان لا يخطب فيه إلا إن كان يَلْبُغا غائباً.

مات بهاء الدين مجاوراً بمكة سنة ٧٧٣ وله أربع وخمسون سنة وبضع أشهر[2].

بدرالدين ابن الصاحب

أحمد بن محمد بن أحمد الشيخ بدر الدين ابن الصاحب شرف الدين الفقيه الشافعي، نظم القصائد النبوية وكان حاد النادرة سريع البادرة يُهاب جانبه ويرعاه عدوه وصاحبه، قدرت وفاته سنة ٧٨٨، وكان كثير الحج والمجاورة وله مقاطع كثيرة في ذلك.

وأفرد جزءاً سماه مقطعات النيل فيه أشياء لطيفة، منها لما هجم النيل على غفلة:

قد قلت لما أن تزايد نيلنا وأن كاد ينزل ذروة المقياس
يا نيل يا ملك المياه بأسرها ما في وقوفك ساعة من باس

وله عكس ذلك:

تقاصر النيل عنا تقاصراً متتابع
حتى قنعنا اضطراراً منه بمص الأصابع

وله لما أفرط في الزيادة:

طغى النيل عن حد عاداته وعلمنا الجهل في العالمين
فصرنا نكشف عوراتنا وكنا نخوض مع الخائضين[3]

---

(١) من أمراء المماليك.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٢٢٤ - ٢٢٩.

(٣) «الدرر الكامنة»: ١/٢٦٣ - ٢٦٥.

احمد القيسي

أحمد بن محمد بن بكر القيسي أبو جعفر المديني كان عدلاً عاقداً لشروط شاعراً فحلاً يستعمل اللغة والغريب.

(١) فمنه:

ليس حلم الضعيف حلم ولكن — حلم من لو يشاء صال اقتدارا
من تغاضى عن السفيه بحلم — أصبح الناس دونه نصارا
من يزوج كريمة الهمة العليا — علواً فقد أجاد الخيارا
ستريه لدى الولاد بنيها العـ — لم والحلم والأناة كباراً[١]

ابو المواهب ابن صصرى

أحمد بن محمد بن سالم بن أبي المواهب الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن الحسن الربعي بن صصرى نجم الدين الدمشقيّ. ولد سنة ٦٥٥. كتب في ديوان الإنشاء، وكان خطه فائقاً ونظمه ونثره رائقاً.

(٢) وكان سريع الكتابة جداً حتى قيل إنه كتب خمس كراريس في يوم.

وكان فصيح العبارة طويل الدروس ينطوي على دين وتعبد ومكارم. وولي قضاء دمشق سنة ٧٢٠ بعد ابن جماعة ودام فيه إلى أن مات سنة ٧٢٣.

قال ابن الزملكانيّ: كان طلق العبارة لا يكاد يتكلم في نوع إلا ويمعن من غير وقفة ويذكر دروساً طويلة مشروحة فلم يزل في نمو وارتفاع إلى أن مات. وكان قوي الحافظة وكانت وفاته فجاءة. وله نظم حسن. وكان يتفضل على كل من قدم من أمير وكبير وعالم وهداياه لا تنقطع لأهل الشام ولا لأهل مصر مع التودد والتواضع الزائد والحلم والصبر على الأذى.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(١) هجاه ابن المرحل ببليقة[١] فتحيل حتى وصلت إليه بخط الناظم فاتفق أنه دخل عليه فغمز مملوكه فوضعها أمامه مفتوحة فلما جلس ابن المرحل لمحها فعرفها فلما لحظ القاضي أنه عرفها أشار برفعها ثم أحضر له بقجة قماش وصرة فضة وقال له هذه جائزة البليقة فأخذها ومدحه. ودخل عليه شاعر ومعه قصيدتان فيه هجو ومدح وأضمر أنه يعطيه المدح فإن أرضاه وإلا أعطاه الهجو فغلط فأعطاه الهجو فقرأها وأعطاه الجائزة وأوهم من حضر أنها المدح فلما خرج الشاعر وجد قصيدة المدح فعاد بها إليه وأظهر الاعتذار فما واخذه[٢].

ابن عطاء الله السَّكَندريّ

أحمد بن محمد بن عبدالكريم بن عطاء الله تاج الدين أبو الفضل الإسكندرانيّ الشاذليّ. صحب الصوفية في زمانه، وهو ممن قام على الشيخ تقي الدين بن تيمية فبالغ في ذلك، ومات سنة ٧٠٩ بالمدرسة المنصورية كهلاً وكانت جنازته حافلة رحمه الله تعالى.

قال الذهبيّ: كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل، ورأيت الشيخ تاج الدين الفارقي لما رجع من مصر معظماً لوعظه وإشارته، وكان يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروح النفوس، ومزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم فكثر أتباعه، وكانت عليه سيما الخير.

(٢) ويُقال إن ثلاثة قصدوا مجلسه فقال أحدهم: لو سلمت من العائلة لتجردت، وقال الآخر: أنا أصلي وأصوم ولا أجد من الصّلاح ذرة، فقال الثالث: إن صلاتي ما ترضيني فكيف ترضي ربي فلما حضروا مجلسه، قال في أثناء كلامه. ومن الناس من يقول، فأعاد كلامهم بعينه.

---

(١) هكذا، ولا أعرف معناها؛ والظاهر أنها ورقة أو نحوها.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٢٨٠ - ٢٨٢.

(١) قال الكمال بن المكين: حكى لي المراكشي، قال: كنت أصحب فقيراً[١] فحضر إليه ابن الخليلي الوزير يزوره فقال له: جاءني ابن عطاء الله فقال لي: الليلة ترى النبي ﷺ في المنام واجعل بشارتي أن توليني الخطابة بالإسكندرية فمضت الليلة وما رأيت شيئاً وقد عزمت على ضربه فلم يزل الفقير يتلطف به حتى عفا عنه[٢].

ابن الحريريّ

أحمد بن محمد بن عثمان صفيّ الدين بن القاضي شمس الدين بن الحريريّ. كان شكلاً ضخماً مفرطاً في السمن له نوادر مضحكة من نمط ما يحكى عن جحا. وكان السلطان أنعم عليه بتدريس الصالحية بباب البريد بدمشق إكراماً لوالده وأحضره إلى القاهرة ليخلع عليه، فطلع والده وقال للسلطان: ولدي هذا لا يصلح للتدريس، فقال السلطان: لهذا أنا أوليه.

(٢) ومن نوادره أنه قال لغلامه يوماً وقد عثرت به بغلة لا تعلق عليها ثلاثة أيام عقوبة لها، فجاء إليه في آخر النهار، فقال: إذا لم نعلق عليها تُحَمِّر[٣] فقال: علق عليها ولا تقل لها أني أذنت.

(٣) ومنها أن أباه أحضر له حاسباً يعلمه فقال: واحد في واحد واحد. فقال هو: لا نسلم بل اثنين فقال له المعلم: يا سيدي المراد واحد إذا عد مرة واحدة فهو واحد. فقال: صدقت، ظهر. فقال له: اثنان في واحد اثنان. فقال: لا نسلم، بل ثلاثة، فبين له كما بين في الأول. فقال:

---

(١) أي صوفياً.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٢٩١ - ٢٩٣، وزاد «الشوكاني» في «البدر الطالع»: ١/١٠٨: «وإذا صح هذا فهو محتال وليس من الرجال، وهو صاحب الحكم المشهورة الآن بحكم ابن عطاء الله التي يلهج كثير من متصوفة زماننا بحفظ كلمات منها».

(٣) لعل معناها: تُعاند.

صدقت، ظهر، ثم قال: واحد في ثلاثة ثلاثة فقال: لا نسلم، بل أربعة، فأعاد عليه فطال ذلك على المعلم فتركه.

(١) ومنها أنه دخل إلى المدرسة فرأى الشيخ نجم الدين القحفازي خارجاً من الطهارة فقال: يا مولانا آنستم محلكم، فقال له الشيخ نجم الدين: قبحك الله.

قال عماد الدين بن كثير: كان عبل البدن[1] جداً بسذاجة وتغفل ببلادة ويسند إليه أشياء ومع ذلك فكان فيه دين وتحري فيما يباشره ورياسة، ولم يزل تدريس الصادرية بيده إلى أن مات سنة ٧٥٧[2].

ابن العلاء الجزريّ

أحمد بن محمد بن علي العمري الجزري المعروف بابن العلاء شهاب الدين بن معين الدين. كان خيراً صالحاً كثير المجاورة بمكة.

(٢) حكى عن أبيه أنه دخل مطهرة المدرسة النورية بدمشق، ومعه كيس أطلس أحمر بشرابه حرير أخضر فيه ألف دينار، فوضعه في طاقة فهجم عليه عجميّ فأخذ الكيس قال: فتبعته وتعلقت به حتى صرنا في وسط المدرسة، وإذا الشيخ جمال الدين الحصيريّ يدرس، فأمر بإحضارنا إليه، وسألنا عن القصة فأخبرته أنا بقصتي. فقال العجمي: وأنا دخلت قبله فنسيت كيساً لي صفته كذا ثم تفكرت فدخلت وأخذته، فقال: أنفض حجرك فنفضه فوقع منه كيسان أحمران أطلس شرابة كل منهما حرير، فنظر الشيخ فوجد على أحدهما اسمي فدفعه إليّ ودفع الآخر إليه، وكان هذا من عجيب الاتفاق، مات سنة ٧٠٥[3].

---

(١) أي ضخم البدن.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) «الدرر الكامنة»: ١/٣٠١.

السعيدي

أحمد بن محمد بن قُرصَةَ الأنصاري السعيديّ. كان شاعراً بليغاً مقتدراً على النظم طاف البلاد ومدح الأعيان وأكثر الهجاء إلى أن كان ذلك سبب ذهاب روحه؛ رحل مرة من مصر إلى دمشق فنزل في بيت منها فأصبح مذبوحاً لم يُدْرَ من ذبحه وطاح دمه هدراً وذلك سنة ٧٥٢، وفي ذلك يقول حسن الزغاريّ:

مات ابن قُرْصَةَ بعد طول تعرض ... للموت ميتة شر كلب نابح

ما زال يشحذ مدية الهجو الذي ... طلعت عليه طلوع سعد الذابح

حتى فرى ودجيه عبدٌ صالح ... عقر النطيحة عقر ناقة صالح[1]

الملك النّاصر

أحمد بن محمد قلاون الملك الناصر بن الناصر بن المنصور. ولد سنة ١٦[2] وبعثه أبوه إلى الكرك لما ترعرع صحبة بهادر البدري نائب الكرك فأقام بها يربيه ويعلمه الفروسية ثم استدعاه سنة ٣١ فاجتمع به وأعجبه شكله وأعاده إلى الكرك.

(١) ثم بلغه أنه يعاشر من لا يصلح من أهل الكرك فاستدعاه سنة ٣٨ فزوجه بنت تمربغا فبلغه أنه تولع بشاب يقال له الشهيب كان جميل الصورة وهام به غراماً وتهتك فيه وأسرف في الإنعام عليه بالأموال، فتغير عليه[3] وأمسك الشاب فسلمه لأقبغا عبدالواحد ليخلص منه ما وصل إليه من المال فشق على أحمد بن الناصر ورمى بنفسه على قوصون وبشتاك[4] وهما يومئذ المشار إليهما في الدولة فقال لهما: إن أصيب هذا الشاب بعقوبة قتلت نفسي، وامتنع من الأكل والشرب حزناً حتى تغير بدنه ونحل

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣١٣/١.

(٢) أي سنة ٧١٦.

(٣) أي أبوه الناصر.

(٤) من أمراء المماليك.

ولزم الفراش فتلطفا بإبلاغ الناصر خبره فأمر بالإفراج عن الشهيب فلما بلغ ذلك أحمد سر وأرسل إليه فلما حضر عنده لم يتمالك نفسه أن قام إليه وقربه فبلغ ذلك الناصر فشق عليه فأرسل يعنفه ويهدده وتلطف به أن يهبه مائة مملوك من مماليكه فلم يزده ذلك في الشهيب إلا رغبة، واتفق أن بعض الخدام أساء إلى الشهيب فبلغ أحمد فضربه ضرباً مؤلماً كاد يموت منه فبلغ السلطان ذلك فأنكره، فأرسل إليه: إن لم تخرج هذا الصبي وإلا أخرجك من مملكته، فلم يزده بذلك إلا رغبة فيه وقال له بشتاك وقوصون وكانا الرسول إليه من الناصر: لا تغضب أباك، فقال لهما: لكل منكما مائة مليح ومليحة وأنتم مماليكه فأنا ولده وقد قنعت من الدنيا بهذا الصبيّ لكونه تغرب معي وترك أهله فكيف أطرده وإن رسم السلطان بطَرده فيطردني معه فرجعا وتلطفا بالناصر فلم ينجع فيه وأمر بنفيه إلى قلعة صرخد، ثم شفع فيه نساء الناصر وحرمه حتى أعاده إلى الكرك، فتفرس فيه أبوه أنّه لا يصلح للملك، فعهد بالملك عند موته للمنصور أبي بكر فتعصب له طشتمر[1] إلى أن وَلِي السلطان، وكان السبب في ذلك أن قوصون لما خلع المنصور أبي بكر وقرر أخاه الأشرف كجك ونفى إخوته إلى قوص أراد أن يضم إليهم أخاهم أحمد، فكتب إليه أن يحضر فامتنع وتعصب له أهل الكرك وكتب أحمد إلى نائب الشام الطنبغا المارداني يلوم قوصون فلم يجبه فبعث إلى نائب حلب طشتمر فقبل كتابه وتعصب معه، وفي غضون ذلك قتل مماليك أحمد الشهيب المقدم ذكره، وادعوا أنه كاتب قوصون فكاد أحمد يجن حزناً عليه، واستمال طشتمر قطلوبغا الفخريّ وما زال ببقية الأمراء حتى استمالوهم وسلطنوه وقدموا به إلى القاهرة واجتمع أهل الحل والعقد واتفق حضور نواب البلاد وقضاة الشام ومصر وسلطنه الخليفة بحضرتهم، وحلفوا لهم أجمعون وذلك في رمضان سنة ٤٢ وولي طشتمر نيابة مصر والفخري نيابة دمشق وإيدغمش نيابة حلب.

---

(١) من أمراء المماليك.

ثم بعد أربعين يوماً توجه إلى الكرك وصحبته طشتمر فقبض عليه. ثم أرسل إلى إيدغمش يوماً فأمسك الفخري واستصحب معه جميع الذخائر حتى الخيول والأنعام.

(١) وأقام بالكرك مستغرقاً في اللهو واللعب محجوباً عن الناس.

(٢) ثم إنه أحضر طشتمر والفخري فضرب أعناقهما صبراً وسبى حريمهما ومكن منهن نصارى الكرك ففعلوا بهن كل قبيح فاشمأزت منه النفوس إلى أن اجتمعوا على خلعه وسلطنوا أخاه الصالح إسماعيل فخلع الناصر أحمد في المحرم سنة ٤٣، ثم جهزت إليه العساكر فحوصر بالكرك إلى أن أمسك في صفر سنة ٤٥ فذبح وأحضر منجك رأسه إلى القاهرة.

(٣) وكان سيء التدبير جداً كثير اللهو والانهماك في الشرب وكانت فتنته قد طالت بالكرك وجردت إليه عدة عساكر؛ عسكرٍ بعد عسكر إلى أن أمسك وقتل على يده خلق كثير جداً وفسدت أموال لا تحصى[1].

البعليّ الحنبليّ

أحمد بن محمد بن مري البعلي الحنبلي، كان منحرفاً عن ابن تيمية ثم اجتمع به فأحبه وتلمذ له وكتب مصنفاته وبالغ في التعصب له، وكان قدم القاهرة فتكلم على الناس بجامع أمير حسين بن جندر، وبجامع عمرو بن العاص وسلك طريق ابن تيمية في الحط على الصوفية، ثم إنه تكلم في مسألة التوسل بالنبيّ ﷺ، وفي مسألة الزيارة وغيرهما على طريق ابن تيمية فوثب به جماعة من العامّة ومن يتعصب للصوفية وأرادوا قتله فهرب فرفعوا أمره إلى القاضي المالكي تقي الدين الأخنائي فطلبه وتغيب عنه فأرسل إليه وأحضره وسجنه ومنعه من الجلوس، وذلك بعد أن عُقد له مجلس بين يدي السلطان، وذلك في ربيع الآخر سنة ٧٢٥ فأثنى عليه بدرالدين بن جنكلي وبدرالدين بن جماعة وغيرهما من الأمراء، وعارضهم

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٣١٤ - ٣١٦.

الأمير ايدمر الخطيري فحط عليه وعلى شيخه وتفاوض هو وجنكلي حتى كادت تكون فتنة ففوض السلطان الأمر لأرغون النائب فآل الأمر إلى تمكين المالكي منه فضربه بحضرته ضرباً مبرحاً حتى أدماه ثم شهره على حمار أركبه مقلوباً، ثم نودي عليه: هذا جزاء من يتكلم في حق رسول الله ﷺ فكادت العامة تقتله ثم أعيد إلى السجن ثم شُفِع فيه فآل أمره إلى أن سُفِّر من القاهرة إلى الخليل فرحل بأهله، وأقام به وتردد إلى دمشق.

ومن الاتفاقات أن شخصاً يُقال له ابن شاس حضر درساً فانجر البحث إلى أن صوب ما نقل عن ابن مري في مسألة التوسل فوثب به جماعة وحملوه إلى القاضي فجهدوا به أن يفعل معه ما فعل بابن مري أو بعضه فلم يفعل فنسب إلى التعنت في ذلك، حتى قال فيه البرهان الرشيديّ:

يا حاكماً شيد أحكامه	على تقى الله وأقوى أساس
مقالة في ابن مري لفقت	تجاوزت في الحد حد القياس
ففي ابن شاس قطُّ ما أثرت	فهل أباح الشرع كفر ابن شاس[1]

فتح الدين البققيّ

أحمد بن محمد البققي المصري فتح الدين ولد سنة ستين تقريباً وتفقه كثيراً واشتغل وتأدب وناظر حتى مهر في كل فن، وقطع الخصوم من المتناظرين وفاق الأقران في المحاضرة وبدت منه أمور فادُّعِيَ عليه عند القاضي المالكيّ زين الدين بن مخلوف بما يقتضي الانحلال، واستحلال المحرمات، والاستهزاء بالدين، وأخرج محضر كُتِب عليه في سنة ٦٨٦ وقامت عليه البينة بذلك فحبس، فكتب ورقة من الحبس إلى ابن دقيق العيد

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٣٢٣ - ٣٢٤.

صفة فتيا فكتب عليها: «إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف» فأرسلها إلى المالكيّ فقال: هذه في الكفار إذا أسلموا ورجعوا، ثم أحضر من السجن قدام شباك الصالحية فأعيدت عليه الدعوى فاعترف وصار يتلفظ الشهادتين ويصيح بابن دقيق العيد ويقول: يا مسلمين أنا كنت كافراً وأسلمت، فلم يقبل منه المالكي وحكم بقتله فضربت رقبته بين القصرين وذلك سنة ٧٠١ ويقال إن الشيخ المعروف بالمحندار سمع كلامه فقال له: كأني بك وقد ضربت عنقك بين القصرين وبقي رأسك معلقاً بجلدة، فكان كذلك، قال الذهبيّ: كان عالماً مفنناً مناظراً من قرية بقة من حماة وقيل من الحجاز، وكان من الأذكياء، ممن لم ينفعه علمه كان يشطح ويتفوه بعظائم، ويتجهرم بتحليل المحرمات، وقال أبو الفتح اليعمريّ: كان يتطبب ولا يدري ويتأدب ولا يعلم ويدعي العقل ولا عقل له بل كان بَرِيّاً من كل خير.

وفيه يقول ابن دانيال:

يظـــن فتـــى البققـــي أنـــه ... سيخلـص مـن قبضـة المـالكـي
نعـم سـوف يسلمـه المـالكـي ... قـريبـاً ولكـن إلـى مـالـك[1]

ولما سمع ابن البققيّ قول الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد:

أهل المراتب في الدنيا ورفعتها ... أهل الفضائل مرذولون بينهم
فما لهم في توقي ضرنا نظر ... ولا لهم في ترقي قدرنا همم
قد أنزلونا لأنا غير جنسهم ... منازل الوحش في الإهمال عندهم
فليتنا لو قدرنا أن نُعَرّفهم ... مقدارهم عندنا أو لو دروه هم
لهم مريحان من جهل وفضل غنى ... وعندنا المتعبان العلم والعدم

فقال ابن البققيّ مناقضاً له:

---

(١) يعني مالكاً خازن النار، أعاذنا الله منها.

أهل المراتب في الدنيا ورفعتها من الذي حاز علماً ليس عندهم
لا شك أن لهم قدراً رأوه وما لمثلهم عندنا قدر ولا همم
هم الوحوش ونحن الإنس حكمتنا تقودهم نحيث ما شئنا وهم نعم
وليس شيء سوى الإهمال يقطعنا عنهم لأنهم وجدانهم عدم
لنا المريحان من علم ومن عدم وفيهم المتعبان الجهل والحشم

ومن جملة ما شُهد به على البققيّ أنه قال: لو كان لصاحب المقامات حظ لكانت مقاماته تتلى في المحاريب، وأنه كان يفطر في نهار رمضان بغير عذر، وأنه كان يضع الربعة[1] تحت رجليه ويصعد ليتناول حاجة له من الرف ويقال إنه لما ضربت عنقه لم يمض السيف فيها فحزت ورفعت رأسه على قناة ونوديَ عليها.

ويُقال إنه كان يستخف بالقاضي المالكي ويسبه ويطعن فيه فكان ذاك يبلغه ولا يهيجه إلى أن ظفر بالمحضر المكتتب عليه قبل ذلك بما تقدم ذكره وطلبه طلباً عنيفاً وادُّعِيَ عليه عنده فأنكر فقامت البينة فأمر به فسجن ليبدى الدافع في الشهود[2] وحكم المالكيّ بزندقته وإراقة دمه ونقل المحضر إلى ابن دقيق العيد فقال: لا أنفذ قتل من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وألقى المحضر من يده فبلغ ذلك والي القاهرة ناصر الدين بن الشجي وكان يميل إلى ابن البققيّ فانتصر له وسعى في نقله من المالكيّ إلى الشافعي فأشير عليه بأن يكتب محضراً بأنه مجنون فكتب فيه جماعة وأحضره لابن دقيق العيد فلما نظر فيه قال: معاذ الله ما أعرفه إلا عاقلاً فدس من يبغض البققيّ إلى الشهاب الفزاريّ أن ينظم فيه شيئاً فنظم وكتب بها إلى المالكيّ:

---

(١) من القرآن.
(٢) أي ليبدو للقاضي سبب شهادة الشهود والدافع لهم على الشهادة.

قل للإمام المالكيّ المرتضى ... وكاشف المشكل والمبهم
لا تهمل الكافر واعمل بما ... قد جاء في الكافر في مسلم

فلما وقف عليهما قال: شاعر ومكاشف، قد عزمت على ذلك. وكتب ابن البققي إلى المالكيّ من السجن:

يا من يخادعني بأسهم مَكْرِهِ ... بسلاسل نعمت كلمس الأرقم
أعددت لي زرداً تضايق نسجها ... وعليّ قلب عيونها بالأسهم

يعني أسهم الدعاء، فقال في جوابه: أرجو أن الله لا يمهلني حتى يفعل ثم نهض من وقته إلى السلطان فاستأذنه في قتله فأشار بأن يتمسك في أمر[1]. فقال المالكيّ: قد ثبت عندي كفره وزندقته فحكمت بإراقة دمه ووجب عليّ ذلك، فلما رأى السلطان انزعاجه قال: إن كان ولا بد فليكن بمحضر الحكام وأرسل إلى الوالي والحاجب وحضر القضاة الأربعة فتكلم المالكيّ بما حكم به فوافقه السروجي الحنفيّ وقال: اقتلوه ودمه في عنقي فقتل والله أعلم بحاله. ويقال إن ابن دقيق العيد وافق الجماعة فقال ابن البققي: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، فقال: «الآن وقد عصيت قبلُ»، ولقد جرى في أمره نحو ما جرى في زماننا للشيخ الميمونيّ مع القاضي الحنفيّ زين الدين التفهني لكن جبن الحنفيّ عن قتله بعد أن تمكن من ذلك فآل الأمر إلى أن خلص من القتل وأعيد إلى السجن إلى أن حكم الحنبليّ بعد ذلك بإطلاقه[2].

أحمد الحلبيّ

أحمد بن محمود بن إسماعيل الحلبيّ الأديب. اشتغل كثيراً ومهر في الأدب والتصوف فضبطت عليه ألفاظ موبقة فرفع أمره إلى الحكام فحكم القاضي المالكيّ صدر الدين الدّميري بسفك دمه فقتل، وهو القائل:

---

(١) هكذا، ولعلها: أمره.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٣٢٩ - ٣٣٣.

إذا نلت المنى بصديق صِدق فكان وفاقه وفق المراد
فحاذر أن تعامله بقرض فإن القرض مقراض الوداد

أنشدهما له ابن حبيب، وفيه قال الشاعر:

مضى مستبيحَ الزنا والربا إلى خازن المهلك الحالك
وفاز الدميري بتدميره فمن مالكيٍّ إلى مالك[1]

وكان أقبل على اللهو والفسوق ولبس زي الأجناد وقرض الأعراض ووقع في كلمات، إلى أن آل أمره إلى القتل فقتل.

قال ابن حبيب: كان ذكياً كثير المحفوظ لكنه حفظت عنه مقالات ردية وزندقة راوندية فأقيمت عليه البينة بذلك عند الصدر الدميريّ أحمد بن عبدالقاهر قاضي المالكيّة فحكم بقتله بمشهد من الناس تحت قلعة حلب سنة ٧٦٧ وقد جاوز الخمسين[2].

أحمد الزرعيّ

أحمد بن موسى الزرعيّ الشيخ الصالح، كان من كبار أصحاب ابن تيمية، انقطع بزرع مدة ثم طار صيته، وقصد للتبرك حتى صار نواب الشام فمن دونهم يترددون إليه ولم يتفق أنه قبل من أحد شيئاً وكان ينسج العبي من الصوف، ويتقوت من ذلك، وإذا زاده أحد في القيمة لم يقبل، وكان له إقدام على ملوك الترك[3]، وتردد إلى القاهرة مراراً أولها في سنة ١٢ وكان لا يعود إلا وقد أجيب إلى كل ما أراد فأبطل أشياء من المظالم وانتفع الناس به كثيراً، وكان الكثير من أهل الدولة يكرهونه ولا يتهيأ لهم رده فيما يطلب، وكانت وفاته سنة ٧٦١ وقد جاوز الستين[4].

---

(١) يعني مالكاً خازن النار، أعاذنا الله منها.
(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٣٣٥ - ٣٣٦.
(٣) أي المماليك.
(٤) «الدرر الكامنة»: ١/٣٤٤ - ٣٤٥.

شمس الدين الطيبيّ

أحمد بن يوسف بن يعقوب الطيبيّ شمس الدين كاتب الإنشاء بطرابلس. ولد سنة ٦٤٩ وتعانى الآداب ففاق في النظم والنثر، وكتب بخطه من كتب الأدب أشياء نفيسة أتقنها ضبطاً.

(١) قال الصفديّ: ذكر لي الشهاب بن فضل الله عن جمال الدين بن رزق الله أنهم كانوا مع الطيبيّ هذا وجماعة في نزهة فتذاكروا وقعة شقحب[(١)] فقالوا له: لو نظمت في نصر المسلمين شيئاً فتناول الدواة وكتب قصيدة نحو تسعين بيتاً. أولها:

برق الصوارم للأبصار يختطف

ثم قاموا إلى النوم فلما استيقظوا ذكروها له فأنكرها يحلف أنه لا يستحضر أنه نظم شيئاً فأروه إياها فتعجب. قال: فوقف عليها والدي محي الدين بن فضل الله فأراها لأخيه شهاب الدين فكان ذلك سبباً لولايته توقيع طرابلس.

(٢) ومن شعره القصيدة الطنانة التي اقتبس فيها أكثر سورة مريم أولها:

لست أنسى الأحباب ما دمت حياً ... إذ نَوَوا للنوى مكاناً قصياً
وتلوا آية الدموع فخرُّوا ... خيفة البين[(٢)] سجداً وبكياً
وأناجي الإله من فرط حزني ... كمناجاة عبده زكريا
واختفى نورهم فناديت ربي ... في ظلام الدجى نداء خفيا
وهن العظم بالبعاد فهب لي ... رب بالقرب من لدنك وليا
واستجب في الهوى دعائي فإني ... لم أكن بالدعاء منك شقيا
قد فرى قلبي الفراقُ وحقاً ... كان يوم الفراق شيئاً فريا

---

(١) هي معركة بين أهل الشام والتتار سنة ٧٠٢ هـ انتصر فيها المسلمون.
(٢) أي الفراق.

ليتني مت قبل هذا وإني   كنت نسياً يوم النوى منسياً

وهي طويلة نحو من ثلاثين بيتاً على هذا المهيع[1]. مات بطرابلس سنة ٧١٧[2].

أدى الحسينيّ

أدى - ويقال بالواو بدل الهمزة - ابن هبة الله بن جماز الحسينيّ الهاشمي من آل بيت أمراء المدينة، كان خارجاً عنها فأنف من طول الغُربة فجمع قوماً وهجم المدينة في ربيع الأول سنة ٢٧ بعد أن حاصرها أسبوعاً وأحرق الباب، ففر طفيل أميرها. وصادر الناس حتى اشتد الغلاء بالمدينة، وافتقر جماعة من المياسير، فأخذ طفيل عسكراً من مصر وقدم ففر أدى، ثم حضر إلى القاهرة وترافع هو وطفيل إلى الناصر، ثم سجن أدى وأعيد الطفيل إلى المدينة ومعه بعض الأمراء، ثم أفرج عنه في رمضان سنة ٣١ ورتب له راتب، ثم أضيف إلى طفيل في إمرة المدينة ثم أفرد بها سنة ٣٦، ثم عزل بسعد بن ثابت في سنة ٥٠ فجمع جموعاً وهجم المدينة وأخذ أموال الخدام ونهبوا المدينة حتى لم يبق بها أحد إلا اجتاحه، وخرج هارباً ثم قبض عليه وسجن سنة ٧٥٢ فمات بالسجن[3].

أُرخان

أُرخان بن عثمان حق التركماني. كان قد تغلب على طرف من بلاد الروم فوقعت بينهم وقائع كثيرة وانتصر هو وعظم قدره وكثرت فتوحاته في بلاد الكفر وذلك من جهة البر الشرقيّ من البحر وكان انتصاره في سنة ٧٦٦، وهو أول من اشتهر من بني عثمان ملوك الروم الآن[4].

---

(١) أي الطريقة، وقد أوردها كلها الصفديّ في «الوافي بالوفيات»: ٨/٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٣٦٣ - ٣٦٥.

(٣) «الدرر الكامنة»: ١/٣٦٨ - ٣٦٩.

(٤) «الدرر الكامنة»: ١/٣٦٩ - ٣٧٠، وجاء في «تاريخ الدولة العلية» ١٢٢ - ١٢٤ ما يلي: «وضع نظاماً للجيوش... وجعلها دائمية إذ كانت قبل ذلك لا تجمع إلا =

أرغون

أرغون الدوادار. اشتراه المنصور فرباه مع ولده الناصر محمد ولم يزل معه في خدمته حتى توجه إلى الكرك وهو معه يلازمه إلى أن ولاه نيابة السلطنة بالديار المصرية سنة ٧١٢ فسار سيرة حسنة إلى الغاية وكان يخلص الناس من شدائد يريد الناصر أن ينزلها بهم، وحج سنة ٧١٥ وخَلَف السلطان لما حج سنة ٧١٩، ثم حج هو سنة ٧٢٠ ومشى من مكة إلى عرفة بمسكنة في هيئة الفقراء وتوجه مرة إلى منية ابن خصيب فخرّب خمس كنائس للنصارى ومنع أن يستخدم في ديوانه نصراني، ثم في سنة ٧٢٦ بلغ الناصرَ أن مهنا[١] تجهز للحج فأَسَرَّ إلى أرغون أن يحج ويقبض على مهنا فبلغ مهنا فتأخر عن الحج فاتهم الناصر أرغون بذلك فلما عاد قبض عليه واعتقله، ثم أخرجه لنيابة حلب وكان قد اشتغل في مذهب الحنفية ومهر فيه إلى أن صار يعد في أهل الإفتاء وكانت له عناية عظيمة بالكتب جمع منها جمعاً ما جمعه أحد من أبناء جنسه، وكان الناس قد علموا رغبته في الكتب فهرعوا إليه بها. وكان خيراً ساكناً قليل الغضب حتى يقال إنه لم يسمع منه أحد في طول نيابته بمصر وحلب كلمة سوء، وكان للملك به جمال وأوصل بهمته نهر الساجور إلى البلد. قال الذهبي كان تركياً فصيحاً مليح الشكل شديد الحرص، وكانت وفاته بحلب سنة ٧٣١ [٢].

= وقت الحرب وتصرف بعده، ثم خشي من تحزب كل فريق من الجند إلى القبيلة التابع إليها وانفصام عرى الوحدة العثمانية. . فأشار خير الدين باشا بأخذ الشباب من أسرى الحرب وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم، وتربيتهم تربية إسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون أباً إلا السلطان ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي لا يُخشى من تحزبهم معهم. . واسمهم «يني تشارى» أي الجيش الجديد، ثم حرف في العربية فصار «انكشاريّ». . . واستمرت هذه الفئة عوناً للدولة حتى تغيرت أحوالها وازداد طغيانها. . . فأبطلها السلطان محمود سنة ١٢٤١ هـ».

(١) أمير الأعراب.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٣٧٤.

إسماعيل الكرديّ

إسماعيل بن سعيد الكرديّ المقرىء المصريّ. تفقه وتمهر في القراءات والفقه والعربية، وكان طلق العبارة سريع الجواب حسن التلاوة ويحفظ الكثير من التوراة والإنجيل. رمي بالزندقة بسبب أنه كان كثير الهزل فحفظت منه كلمات قبيحة حتى صار يقال له إسماعيل الكافر وإسماعيل الزنديق وطُلِب إلى تقي الدين الأخنائي وادُّعِيَ عليه فخلط في كلامه فسجن فجاءه شخص من الصالحين فأخبره أنه رأى النبي ﷺ في منامه فقال له: قل للأخنائيّ يضرب رقبة إسماعيل فإنه سب أخي لوطاً فاستدعي به وعقد له مجلساً وأقيمت عليه البينة بأمور معضلة فأمر به فقتل بحكم المالكي بين القصرين في سنة ٧٢٠. وقرأت في تاريخ موسى بن محمد اليوسفي أنه كان مشهوراً بالعلم بين الفقهاء وله فضيلة مشهورة في الأدب، وكان كثير ما يتماجن ويمزح ويجترىء على الألفاظ الموبقة حتّى اشتهر بإسماعيل الكافر ومنهم من يقول إسماعيل الزنديق فاتفق أنه وقع في حق لوط عليه السلام فرفع إلى القاضي تقي الدين الأخنائي فعقد له مجلس فتكلم بكلام مختلط ثم ثبت عليه ما ادُّعِيَ به عليه، وغير ذلك من الأمور[1].

ابن كثير

إسماعيل بن عمر بن كثير القيسيّ البصرويّ الشيخ عماد الدين، ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير ونشأ بدمشق، واشتغل بالحديث مطالعة في متنه ورجاله فجمع التفسير وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل، وجمع التاريخ الذي سماه «البداية والنهاية»، وعمل طبقات الشافعية، وشرع في شرح البخاري[2]، ولازم المزي وقرأ عليه تهذيب الكمال وصاهره على

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٣٩١ - ٣٩٢.

(٢) قال الشوكانيّ في «البدر الطالع»: ١/١٥٣: «وله تصانيف مفيدة منها التفسير المشهور وهو في مجلدات وقد جمع فيه فأوعى ونقل المذاهب والأخبار والآثار، وتكلم بأحسن كلام وأنفسه، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها.. وله التاريخ المشهود، وقد انتفع الناس بمصنفاته لا سيما التفسير».

ابنته، وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه وامتحن بسببه، وكان كثير الاس تحضار حسن المفاكهة سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته، ولم يكن على طريق المحدثين في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل، ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثي الفقهاء، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح وله فيه فوائد. قال الذهبي في «المعجم المختص»: الإمام المفتي المحدث البارع فقيه متفنن، محدث متقن مفسر نقال، وله تصانيف مفيدة. مات سنة ٧٧٤، وكان قد أضر في أواخر عمره[١].

الغالب ابن الأحمر

إسماعيل بن الفرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر بن الأحمر. ولد سنة ٦٨٠ وأبوه حينئذٍ والي مالقة ونشأ شهماً شجاعاً فثار على خاله أبي الجيوش فقهره وخلعه من السلطة وأبعده إلى وادي آش، فأمّره عليها فرضى أبو الجيوش بذلك، وأقام بها عشر سنين، وكان ذلك سنة ١٣ واستولى الغالب على الأندلس ثلاث عشرة سنة، وكان أبوه أبو سعيد الفرج حيا لما تغلب على خاله فأنكر عليه فقبض على أبيه، وصيره في مكانٍ مكرماً عزيزاً إلى أن مات سنة عشرين.

(١) وكان الغالب سلطاناً مهيباً، شجاعاً حازماً ناهضاً بأعباء الملك عديم النظير عديم السطوة وهو الذي كانت الوقعة العظمى مع الفرنج على يده في سنة ١٩، وذلك أن الفِرَنج حشدوا ونفروا وتجمعوا فقلق المسلمون واستنجدوا بالمريني[٢] فأنفذوا إليه[٣] فلم يُنجد فلجئوا إلى الله، وأقبل ابن يحيى ومن تابعه في عدد لا يحصى فيهم خمسة وعشرون ملكاً فكانت

---

(١) الدرر الكامنة» ١/٣٩٩ - ٤٠٠.

(٢) سلطان المغرب.

(٣) أي: فأرسلوا إليه، وهذا يناقض ما في «الدرر الكامنة» نفسها ص ٧٤ من المجلد الأوّل في ترجمة المُرَينيّ فإن ابن حجر ذكر أن السلطان المُرَينيّ أنجد المسلمين، فانظره.

الوقعة بين المسلمين والفِرَنج، والفِرنج فيما يقال: خمسون ألفاً، وقيل ثمانون ألفاً، والمسلمون ألف وخمسمائة فارس وأربعة آلاف راجل، أو أقل فهزم الله الفِرَنج بقوة منه وقتلت ملوكهم وأخذ كبيرهم ابن سنحة فسلخ وحشي جلده قطناً، ثم صلب وكانت الغنيمة فوق الوصف ولجأ الفِرَنج إلى طلب الهدنة فعقدت ويقال: إنه لم يقتل من المسلمين في تلك الواقعة إلا ثلاثة عشر فارساً ولم يزل الغالب في سلطته إلى أن وثب عليه ابن عمه فقتله سنة ٧٢٠ ثم قتل قاتله وأعوانه في حينه وتسلطن ولده محمد بن إسماعيل[(١)].

أسندمر

أسندمر نائب طرابلس، وَلِيها في أيام الأفرم سنة ٧٠١، فمهدها. وكان جباراً سفاكاً للدماء شجاعاً حسن الشكل مديد القامة.

(١) وكانت له سمعة ببلاد العدو وسطوة في النصيرية من الزنادقة، وبلغت عدة مماليكه خمسمائة.

(٢) وكان أكولاً بحيث كان يعمل له عشاؤه خروف مطجن فيستوفيه أكلاً، ثم يعمل لنفسه صحن حلواء يأكله وحده.

وكان يحب الفضلاء ويسأل عن غوامض؛ وهو الذي سأل أيما أفضل الولي أو الشهيد أو الملك أو النبي فصنف في ذلك ابن تيمية وابن الزملكاني وابن الوكيل وابن الفركاح، وكان قبل نيابة طرابلس قد تأمر بدمشق، ثم قبض عليه كُتْبغا وسجنه في المحرم سنة ٦٩٦ ثم وَلِيَ نيابة طرابلس سنة ٧٠١.

وهو الذي هزم عساكر التتار وهم أربعة آلاف وهو في ألف وخمسمائة واستنقذ منهم نحو ألف أسير وهم من التركمان، وذلك عند قدوم غازان الشام قبل وقعة شقحب.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٤٠١ - ٤٠٢.

ثمّ ولي نيابة حماة لما خرج الناصر من الكرك، ثم انتزعها الناصر وأعطاها للمؤيد إسماعيل على كره من أسندمر، وغضب عليه السلطان لكونه خالف أمره ولم يسلم للمؤيد حماة في أول الأمر، ثم ولاه إمرة حلب، ثم أمسك بعد قليل وسجن وقتل سنة ٧٢١، وهو الذي يقال له: أسندمر كرجي[١].

آقش الأشرفي

آقش الأشرفي جمال الدين البرناق المعروف بنائب الكرك. كان من مماليك المنصور ووَلِيَ عن الأشرف نيابة الكرك نحو العشرين سنة ثم ولي نيابة دمشق في سنة ٧١١، ثم عزل واعتقل بمصر، ثم أفرج عنه سنة ٧١٥. وعمر جامعاً بالحسينية، وكان متقشفاً ويتوجه إلى الحمّام وحده واتخذ له معبداً بالجبل فكان يتخلى فيه وربما رجع منه إلى القاهرة ماشياً وولاه السلطان نظر المرستان[٢] بعد كريم الدين الكبير فباشره بمهابة عظيمة وعمره، ثم ولاه نيابة طرابلس على كره منه.

(١) وقاتل الفرنج وغلب على مركبين لهم فأسر من فيهما، وكان فيها رجل شهدوا عليه بأنه حرامي وأنه يقطع الطريق على مراكب المسلمين فتوصل الفِرَنجيّ إلى أن أعلم السلطان بأنه تاجر وأن آقش طمع في ماله فظن السلطان صدقه فأنكر على آقش وألزمه بإعادة المركب للفِرَنجي وجميع ما فيه فشق عليه ذلك، ثم لم يجد بداً ففعل، ثم طلب الإعفاء فنقل إلى دمشق، ثم اعتقل بدمشق، ثم بصفد، ثم بالإسكندرية.

(٢) وكان كثير الفضيلة فيما يكتبه على القصص[٣]؛ كتب مرة على قصة أمرد طلب إقطاعاً: من كان يومه بخمسين وليلته بمائة أيشٍ يعمل

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٤١٤ - ٤١٥.

(٢) مستشفى الأمراض العقلية.

(٣) أي ما يسمى بالعرائض.

بالجندية. وكتب على قصة من طلب الاجتماع به: الاجتماع مقدر. وعلى قصة من جرت له في الليل كائنة: أحصناك فإن عدت أخصيناك.

ومات بالإسكندرية سنة بضع وثلاثين، وكان جواداً لا يشتري أحد من أجناده زاداً ولا علفاً، وإذا مات لأحدهم فرس أعطاه ستمائة ولو كان ثمن الفرس مائتين أو أقل أو أكثر، وكان مع هذه المحاسن قاسي القلب يعاقب على الذنب الصغير العقاب الكبير حتى أنه مات تحت الضرب جماعة. وكان جواداً لم يضبط عنه أنه باع غَلّةً بل يفرق الجميع على كثرة ما كان يحصل له من إقطاعاته[1].

آقش الأفرم

آقش الأفرم الجركسيّ، كان من مماليك المنصور في بداية أمره، يحب الفروسية والتمس من أستاذه أن يسيره إلى الشام فقال له: ما هو في أيامي يعني نيابة الشام، وكأنه تفرس فيه ذلك أو كوشف به أو فطن من التنجيم.

وكان قد نقل قبل النيابة إلى الشام وأُمِّر بها مدة، ثم طلبه المنصور لاجين وولاه الحجوبيّة، ثمّ لما عاد الناصر إلى السلطنة بعثه إلى دمشق في جمادى الأولى سنة ٩٨ فحكم فيها، فلمّا انتصر المسلمون بشقحب كتب إلى نواب طرابلس وصفد وغيرهما فجمعوا العساكر وأحاطوا بالجبل من كل ناحية إلى أن كسرهم ومدحه الشعراء بسبب ذلك فأكثروا، وزاد تمكن الأفرم بدمشق حتى كان يكتب التواقيع بالوظائف ويرسلها لمصر فيعلم السلطان عليها ولا يُرَد منها شيء، فلما كانت قصة الناصر بالكرك وعاد إلى السلطنة واستصحبه إلى مصر، ثم ولاه صرخد ثم طرابلس، ثم عمل الناصر على إمساكه ففر إلى ابن عيسى، ثم إلى خَرْبَنْدا ملك التتار فأنعم عليه بإمرة هَمَذان، فأقام بها إلى أن مات وقد أصابه الفالج بعد سنة ٧٢٠،

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٤٢٣ - ٤٢٤.

وكان فارساً بطلاً عاقلاً جواداً يحب الصيد، وكان خليقاً للملك لما فيه من المهابة والحماية. وكان خيراً عديم الشر والأذى يكره الظلم ولم يحفظ أنه سفك دم أحد ولا بوجه شرعيّ، وكان يعاشر أهل العلم كابن الوكيل، وكان لأهل دمشق فيه محبة مفرطة ومدحه جماعة من الشعراء[1].

أبو حنيفة الإتقانيّ

أمير كاتب بن أمير عمر بن العميد أمير غازي أبو حنيفة الإتقاني الحنفي، ولد بإتقان سنة ٦٨٥ واشتغل ببلاده ومهر وتقدم، وقدم دمشق في سنة ٧٢٠ ودرس وناظر وظهرت فضائله، قاله ابن كثير. ودخل مصر، ثم رجع فدخل بغداد ووَلِيَ قضاءها، ثم قدم دمشق ثانياً سنة ٧٤٧ وولي بها تدريس دار الحديث الظاهرية بعد وفاة الذهبي وتدريس الكنجية، ثم نزل عنهما. وفارق دمشق ودخل الديار المصرية سنة ٧٥١ فأقبل عليه صَرْغَتْمُشْ[2] وعظّمه وجعله شيخ المدرسة التي بناها.

(١) وكان لما قدم دمشق صلى مع النائب وهو يَلْبُغا فرأى إمامه يرفع يديه عند الركوع والرفع منه فأعلم يَلْبُغا أن صلاته باطلة على مذهب أبي حنيفة فبلغ ذلك القاضي تقيَّ الدين السبكيّ فصنف رسالة في الرد عليه فوقف عليها فجمع جزءاً في تبيين ما قال وأسند ذلك عن مكحول النسفيّ أنه حكاه عن أبي حنيفة وبالغ في ذلك إلى أن أصغى إليه النائب فلم يزل السبكيّ إلى أن بيّن بطلان كلامه ووهّاه فرجع عنه.

(٢) ثم دخل القاهرة فاستمر في معاداة الشافعية واختص بصَرْغَتْمُشْ حتى شرط في مدرسته قَصْرَها على الحنفية دون غيرهم.

(٣) وكان كثير البأو[3] شديد التعاظم متعصباً لنفسه جداً، قال في

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٤٢٤ ـ ٤٢٦.
(٢) وزير من وزراء المماليك.
(٣) الكِبر والفخر.

شـرحه لـلأخسيكتيّ[1]: لو كـان الأسلاف في الحيـاة لقال أبـو حنيفـة: اجتهدتَ ولقال أبو يوسف: نارَ البيان أوقـدتَ، ولقال محمـد: أحسنتَ، ولقال زُفَر: أتقنتَ، ولقال الحسن: أمعنتَ، واستمر هكذا حتى ذكر غالب أعيان الحنفية.

(١) وقال الصفدي في ترجمته: كان متعصباً على الشافعية متظاهراً بالغض منهم يتمنى تلافهم واجتهد في ذلك بالشام فما أفاد ودخل مِصْر وهو مُصِرٌّ على العناد وكان شديد الإعجاب[2] انتهى.

وقال الحسيني: كان أحدَ الدهاة.

(٢) وقال ابن حبيب: كان رأساً في مذهب أبي حنيفة بارعاً في اللغة العربية كثير الإعجاب بنفسه شديد التعصب على من خالفـه، مات سنـة ٧٥٨[3].

آنوك

آنوك بن محمد بن قلاون سيف الدين بن النـاصر بن المنصـور. ولد سنة ٢٣، ونشأ جميلاً إلى الغاية فأمّره أبوه مائة[4] وقدمه على إخوته وهم أسن منه مثل أبي بكر وإبراهيم وأحمد.

(٣) وزوجه ببنت بَكْتَمُر [5] وكان عرسه معظماً جداً، وكان الجهاز على ثمانمائة جمل وست وثلاثين قطاراً من البغال، وذكر المهذب كاتب بَكْتَمُر أن الذهب الذي وُجِد في الزركش والمصاغ ثمانون قنطاراً بالمصري ومع ذلك فلما نصب رآه السلطان فلم يعجبه، فقال: رأيت شوار بنت سَلار أحسن من هذا وأكثر ومثل هذا ما يقابل به آنوك، والتفت إلى طقزدتمر

(١) أحد كتب الأحناف.
(٢) أي: شديد الإعجاب بنفسه.
(٣) «الدرر الكامنة»: ١/٤٤٢ - ٤٤٥.
(٤) رتبة حربية في عهد المماليك يكون صاحبها أمير مائة من الفوارس.
(٥) أحد الأمراء في دولة المماليك.

وآقبغا[1] فقال لهما: جهزا ابنتيكما ولا تتباخلا كما صنع بَكْتَمُر.

(١) واتفق أن آنوك أحب مغنية يقال لها زهرة فبلغ السلطانَ فأمر بمنعها منه فمرض وكاد يتلف إلى أن أغضى عنه أبوه وساءه ما صنع وخرج عليه ليضربه فحمته أمه منه فحصل له من ذلك رجفة فكانت سبب ضعفه إلى أن مات، وكان كثير الحركة وتجدر قبل موته بقليل، ومات سنة ٧٤٠ ووجد عليه أبوه وجداً عظيما.

(٢) ووجد له تحت يد خازنداره ست مائة ألف دينار سوى أصناف المتاجر والغلال. وكان يحب اقتناء البقر والأوز والبط[2].

أيبك الأشقريّ

أيبك الأشقري عزالدين شاد الدواوين. كان من مماليك الشجاعيّ وترقى بعده، وكان مهاباً شديد الصولة.

(٣) ومات هو وابنه وامرأته وتمام عشرة أنفس غيره في يوم واحد في المحرم سنة ٧٠٧؛ ويقال إن ذلك بسبب دعوة وذلك أنه أرسل إلى الصعيد لتجهيز المراكب لغزو اليمن فأمر بقطع جميزة لبعض الفقراء فسأله أن يتركها فامتنع فقال: اللهم اقطع شجرته كما قطع شجرتنا فأصبح هو وجميع أهله مرضى فعاد إلى مصر فنزل في داره وهو مريض فأصبح وجميع من عنده موتى[3].

أيْتَمُش

أَيْتَمُشْ ويُقال أوتامش الأشرفيّ المغليّ أحد مماليك الأشرف خليل ثم كان في خدمة العادل كَتْبُغَا ثمّ الناصر محمد لما خرج إلى الكرك في سنة ٧٠٨ إلى أن تحرك في عوده إلى المملكة فأرسله إلى أمراء البلاد فلم يزل

---

(١) من الأمراء في دولة المماليك.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١/٤٤٦ - ٤٤٧.

(٣) «الدرر الكامنة»: ١/٤٥٠.

يتلطف بهم واحداً بعد واحد إلى أن أخذ العهد عليهم بالطاعة للناصر ورجع إلى الناصر بكتبهم فتحرك واستنابه بالكرك وتوجه إلى دمشق، ثم نقله إلى مصر سنة ٧١١ وصار من أكابر الأمراء واستخلفه بقلعة الجبل سنة ٧١٢ لما حج فضبط البلد وقمع المفسدين بمهابة وصرامة، ثم أخرجه إلى الحجاز في عسكر سنة ٧١٨، ثم أخرجه إلى بَرْقة في آخر سنة ٧١٩ إلى العرب فواقعوه سبع وقعات فهزمهم وحمى حريمهم في النهب وبعث بالبشارة إلى السلطان، ثم جهزه رسولاً إلى بوسعيد ملك التتار سنة ٧٢٢ فراج عليه جدا وحصل له منه جملة واستدعى من الناصر أن لا يراسله أحد غيره وكان يعرف بلسان المغل ويكتب بكتاباتهم حتى كان عندهم بمنزلة النحويّ من العامة. قال الصفديّ: كان يعرف بيوت المغل وسيرهم ووقائعهم وأحكامهم. وكان على ذهنه رُقىً تنفع من وجع الضرس والعين ولسع العقرب، ثم أرسله النّاصر في الرسالة إليهم في سنة ٧٢٦، ثم جهزه في عسكر إلى مكة سنة ٧٣١، ثم استنابه بصفد سنة ٧٣٦ فأحسن السيرة فيهم وأصابه الفالج فمات في تلك السنة وكان الناصر معجباً به وكان إذا تذاكروا سيرة الترك يقول لهم: اذكروا أَيْتَمُشْ فإنه ميمون العشرة ما أرسلته في أمر إلا قضاه ولا وقف في عسكر إلا وانتصر[1].

أيمن

(١) أيمن أبو البركات بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد أربعة عشر آباء في نسق لم يوجد نظير ذلك، إن كان ثابتاً، كان تونسياً قدم القاهرة، وكان كثير الهجاء والوقيعة، ثم قدم المدينة النبوية فجاور بها وتاب والتزم أن يمدح النبي ﷺ خاصة إلى أن يموت فوفى بذلك.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٤٥٢ - ٤٥٣.

(١) وأراد الرحلة عن المدينة فذكر أنه رأى النبي ﷺ في النوم فقال: يا أبا البركات كيف ترضى بفراقنا؟! فترك الرحيل وأقام بالمدينة إلى أن مات وسمى نفسه: عاشق النبي ﷺ.

(٢) وقرأت في «ذهبية القصر» لابن فضل الله قال: صاحبنا بهاء الدين بن إمام المشهد ذكر لي أنّ صاحب تونس بعث يطلب منه العود إلى بلده ويرغّبه فيه، فأجاب: إني لو أعطيت ملك المغرب والمشرق لم أرغب عن جوار رسول الله ﷺ فذكر أنه رأى النبي ﷺ تلك الليلة فأطعمه ثلاث لقم من دشيشة الشعير، قال: وقال لي كلاماً لا أقوله لأحد غير أنّ في آخره: واعلم أني عنك راض.

(٣) وأُنشد له:

لقد صدق الباقر المرتضى	سليل الإمام عليه السلام
بما قال في بعض ألفاظه	سلاح اللئام قبيح الكلام

(٤) وقوله في المقص:

نحن محبان ما رأينا	في الحب أشفى من العناق
فمن يحل بيننا نبادر	بقطعه خشية الفراق

مات سنة ٧٣٤[1].

زكي الدين الخَرُّوبيّ

أبو بكر بن علي بن محمد التاجر الكارمي زكي الدين الخروبي رئيس التجار بالديار المصرية، كان أصلهم من رحبة الخروب بمصر ونشأ هذا فقيراً لأن أباه كان يتعانى الزهد والخير وبنى له زاوية بالجيزة بشاطىء النيل، وكان يقيم بها ويجتمع عنده الفقراء.

وكان أخوه بدرالدين الخروبي واسع المال جداً فمات ولم يخلف إلا

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٤٦٠ - ٤٦٢.

ولداً صغيراً فاتفق أنه مات عن قرب، وانتقل الإرث لزكي الدين هذا، وكان قد دخل إلى البلاد اليمنية عن طريق عيذاب بمتجر بخس فرجع فوجد ابن عمه قد مات، فورث مالاً عظيماً وتلقى ذلك بنفس أبية وكرم مفرط فداخل الدولة وتعانى الرياسة إلى أن فاق الأقران وخضع له أكابر التجار وصار عينَ أعيانهم، وقد حج غير مرة وجاور، وكنت رفيقه في المجاورة وأنا صغير لأن أبي كان أوصاه عليّ فرجعت معه في أول سنة ٧٨٦ وأقام على رياسته، ومات في أوائل المحرم سنة ٧٨٧، وكان واسع العطاء للفقهاء والشعراء كبير الحشمة والعصبية والمروءة رحمه الله تعالى[١].

باشقرد

باشقرد ناصر الدين الناصريّ كان أصله من مماليك الناصر بن العزيز، ثم تنقل في الخِدَم وتأمر، وكان من أكابر الفضلاء والأمراء كثير العقل والفضل، وله نظم ونثر.

(١) ذكر عنه أنه قال: بقيت عشرين سنة لا أتكلم بالتركيّ حرصاً على إتقان اللسان العربيّ.

وكان قد سجن عَقِب كسرة حمص، فلما أفرج عنه أُعطي إقطاعاته في طرابلس فتوجه إليها، فلما وصل إلى دمشق مرض يوم دخوله، فأقام عشرة أيام، ومات بدمشق سنة ٧٠٢. وقد أثنى عليه البرزالي والذهبي وذكراه في معجميهما وكان ينظم الشعر فيقع له منه ما يستحسن، وقال ابن الزملكانيّ: كان ينظم بالطبع لا يتعاطى قواعد الشعر، وكان جم المحاسن معمور الوقت بالفكر في علم أو عبادة أو نظر، وله إلمام بطريق أولي المعارف، وعنده عنهم فوائد حسنة ولطائف مع صدق اللهجة والكرم والعفة والسكون ومحبة المذاكرة[٢].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١/٤٨١ - ٤٨٢.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/٣.

براق القرميّ

بُرَاقْ القَرْمِي، كان أبوه صاحب إمرة وعمه كاتباً معروفاً، وتجرد هو وصحب الفقراء[1]، وتلمذ له جماعة فدخل بهم الروم، ثم قدم دمشق سنة ٧٠٦ محلوق الذقن، وشواربه وافرة، وهيئته منكرة، ومعه جمع من أتباعه على هيئته. وكان الشيخ بُراق يلازم العبادة، ومعه محتسب يؤدب أصحابه، وإذا ترك أحد منهم صلاة واحدة عاقبه أربعين سوطاً، ورتب له ذكراً بين العشائين. وكان لا يدخر شيئاً، ومعه طبلخاناة تضرب، وعوتب الشيخ براق على هذه الهيئة المنكرة فقال: أردت أن أكون مسخرة الفقراء.

(١) وكان أول ظهوره في بلاد التتار فبلغ خبره غازان فأحضره وسلط عليه سبعاً ضارياً فوثب الشيخ براق، وركب على ظهره فعظم ذلك على غازان، ونثر عليه عشرة آلاف فلم يتعرض لها، وقيل: بل سلط عليه نمراً فصاح عليه فانهزم النمر فصارت له عند غازان مكانة، وأعطاه مرة ثلاثين ألفاً ففرقها في يوم واحد.

(٢) ولما دخل دمشق كان في اصطبل الأفرم نعامة فسلطوها عليه فوثب عليها ركبها فطارت به في الميدان تقدير خمسين ذراعاً إلى أن قرب من الأفرم وقال: أطير بها إلى فوق شيئاً آخر؟ قال: لا. وأحسن الأفرم تلقيه وأكرم نزله فاستأذن له في التوجه إلى القدس فرتب له رواتب في الطرقات، وأراد الدخول إلى مصر فلا تمكن من ذلك، ثم رجع إلى بلاده.

(٣) وأرسله غازان صحبة قطليجا إلى جبال كيلان ليحاربهم فأسروا الشيخ، وقالوا له: أنت شيخ الفقراء[2]؟ كيف تجيء صحبة أعداء الدين لقتال المسلمين؟ وسلقوه، وذلك في سنة ٧٠٧[3].

---

(١)، (٢) أي الصوفية.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/٥ ـ ٦.

بُرُلْغِيّ

بُرُلْغِي التتريّ الأشرفيّ. أسره مهنا أمير العرب في بعض غازاته على التتار، وبعث به إلى المنصور فأعطاه لولده الأشرف خليل فترقى في الخِدَم إلى أن غلب بيبرس وسلار[1] على الأمر فزاحمهما بُرُلْغِي في الأمر والنهي وقويت شوكته بكثرة أتباعه من المماليك واستقر في وظيفة بيبرس بعد سلطنته، ثم تزوج بنت بيبرس فتضاعفت حرمته، ولما كانت وقعة شقحب انهزم هزيمة قبيحة فغضب منه السلطان ثم عفا عنه بشفاعة الأمراء.

(١) أمّره على الحج سنة ٧٠٢ فأبطل الأذان بحي على خير العمل وجمع الزيدية ومنعهم من الإمامة بالمسجد الحرام.

وكان دخوله على بنت بيبرس بعد تسلطن بيبرس في أول سنة ٧٠٩.

قبض عليه الناصر بعد أن تمكن، وذلك في ذي الحجة وحبسه وأجرى عليه راتباً وشفع فيه مهنا لما قدم فامتنع وألح عليه فوعدوه فلم يزل في محبسه حتى مات في شهر رجب سنة ٧١١ ودفن بزاوية الجعبريّ وكان موصوفاً بالكرم وعظم الحرمة[2].

بَغْداد

بَغْداد بنت النوين جوبان زوج بوسعيد. كانت أولاً زوج الشيخ حسن وكان بوسعيد يعشقها، فلما هرب جوبان وقتل أخوها وهرب الآخر إلى مصر اغتصبها بوسعيد من زوجها وصارت عنده في أعلى مكانة ويقال إنه لم تكن في تلك البلاد أحسن منها وصار لها في جميع المماليك الكلمة النافذة.

وكانت تركب في مركب حفل وتشد في وسطها السيف فلم تزل على منزلتها إلى أن مات بوسعيد فقتلت بعده وذلك في سنة ٧٣٦[3].

---

(١) من أمراء المماليك.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/٩ - ١٠.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/١٣.

بَكْتَمُر

بَكْتَمُرْ الساقي، كان من مماليك المظفر بيبرس فلما استقر الناصر في السلطنة بعد الكرك دخل في مماليكه وتنقل إلى أن صار خصيصاً بالنّاصر، وعظم قدر بَكْتَمُر جداً، وكان الناصر لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً إما أن يكون في بيت بَكْتَمُـر أو بَكْتَمُر عنـده، وكان جميـع رؤساء المماليك يهـادونه ويبالغون في التقرب لخاطره بكل ممكن، وكان ظريف الشكل حلو الكلام أشقر أسود اللحية لطيفاً رقيقاً وتمكن إلى أن صار هو العبارة عن الدولة، وعمر له الناصر الإصطبل على بركة الفيل في مدة عشرة أشهر فيُقال إن أجر العمال بها بلغ تسعمائة ألف، وكان في اصطبله مائة سائس وكان للمُلْك به جمال، وكان قصره بسرياقوس قبالة قصر الناصر بحيث إنهما كانا يتحادثان من داخل، ولم تكن له مع هذه العظمة حماية للبلاد ولا لغلمانـه ذِكْر، ويغلق باب اصطبله من المغرب، وكان يتلطف بالناس ويقضي حوائجهم، وكان يحجز في كثير من المظالم وبلغ من منزلته أن الناصر كان إذا أعطى أحداً وظيفة وغيرها وباس[1] الأرض يقول له: رح إلى الأمير وبُسْ يده. وكان جيد الطباع حسن الأخلاق لين الجانب كبير الأموال جداً، وحج مع السلطان في تجمل هائل وكان ثقله قريباً من ثقل السلطان، وتنكر له الناصر في الطريق ومرض ابنه أحمد في العودة ثم مرض أبوه بعده فلما مات أحمد عمل له الناصر تابوتاً وغشاه بجلد جمل وحمله معه ثم مات بَكْتَمُرْ بعـد ثلاثة أيام فدفنهما ثم نقلا إلى القرافة، وكان الناصر قبل موته لا ينام إلا في بـرج خشب وقوصـون على الباب والأمـراء المشايـخ كلهم حـول البـرج بسيوفهم فلما مات بَكْتَمُرْ ترك الناصر ذلك ففهموا أنه كان يحذر منه، ويقال إنه عاده وهو ضعيف فقال له: بيني وبينك الله[2].

ولما مات أحمد صرخت أمه وهجمت على الناصر فقالت: أنت تقتل

---

(١) أي قبّل، وهذا كان تقليداً سائغاً عندهم.

(٢) أي كأنه اتهمه بأنه سَمَّه.

مملوكك فابني أيشٍ عمل، ثم لما مات أحيط على موجوده حتى بيع له من الخيل بعدما نهبه الخاصكية وأخذ بثمن بخس بمبلغ ألف ألف ومائتي ألف وأعطى الناصر الزردخاناة والسلاح خاناة[1] التي له لقوصون وقيمة ذلك ستمائة ألف دينار.

وبيع له من الكتب والمصاحف ونسخ البخاري والنفائس ما لا يدخل تحت الحصر ودام البيع في ذلك مدة شهور ويقال كان يباع ما يساوي مائة درهم بدرهم ونحو ذلك.

قال الذهبي: كان يرجع إلى دين وسؤدد وخبرة بالأمور وترك من الأموال ما لا يعبر عنه، ويقال: كان في داره مائة خادم. مات في أوائل سنة ٧٣٦[2].

بهادُر

بَهَادُر الصقريّ. كان من مماليك آلمؤيد داود بن المظفر يوسف بن المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن، وكان قد عُرض على المنصور بيبرس فلم يعجبه فاشتراه قاصد صاحب اليمن، ولما مات المؤيد وتسلطن ابنه المجاهد وهو صغير كثر الفساد في البلاد والفتن وثار على المجاهد جماعة فاجتمع المماليك على بَهادُر هذا وقدموه عليهم واستولى على زبيد وتسمى بالسلطنة وتلقب الكامل وخُطِب باسمه وضربت السكة[3] وأكثر مصادرات الناس فبلغ ذلك الناصر فندب عسكراً إلى اليمن وذلك في سنة ٧٢٥ فلما قرب العسكر ثار الناس على بَهادُر وقتلوا مماليكه فنجا وحده على فرس ونهبت خزائنه وراسلوا المجاهد فحضر من تعز، ثم إنّ بيبرس مقدم العساكر المصرية استحضر بهادر المذكور وأمنه، فغدر وأراد الفتك

---

(١) مكان صنع السلاح وتجديده وإصلاحه.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/١٩ - ٢١.

(٣) أي النقود.

ببيبرس ومن معه فبلغهم ذلك فهجم عليه، وقبض عليه وأوقع الحوطة على أتباعه، ووسطه بالسيف نصفين، ففرح أهل اليمن بمهلكه، وضربوا الطبول أياماً[١].

بو سعيد

بوسعيد بن خربندا بن أرغون بن أبغا بن هلاوو[٢] المُغْلي ملك التتار صاحب العراق والجزيرة وخراسان والروم، قال الصفديّ: الناس يقولون أبو سعيد بلفظ الكنية لكن الذي ظهر لي أنه عَلَمٌ ليس في أوله ألف فإني رأيته كذلك في المكاتبات التي كانت ترد منه إلى الناصر هكذا بوسعيد[٣]. وكان بوسعيد مسلماً، حسن الإسلام، جيد الخط، جواداً عارفاً بالموسيقا مبغضاً في الخمر، أراق منها خزانة كبيرة، وكان يُرَغِّبُ في الدخول في الإسلام، وهو آخر بيت هلاوو انقضوا بهلاكه، وأقام في الملك عشرين سنة وكان قبل موته بسنة قد أرسل الركب العراقي إلى مكة فسلم الركب، فلما كان في السنة المقبلة جهزهم أيضاً فنهبهم العرب فسأل عن السبب في ذلك فقيل له: إن هؤلاء أقوام يقيمون في البراري ليس لهم رزق إلّا ما يتخطفونه فقال: نحن نجعل لهم من بيت المال مقداراً يكفيهم ويكفون عن الحاج ورتب ذلك وأمر به، فمات في تلك السنة وكانت وفاته سنة ٧٣٧، وتأسف الناصر عليه لما بلغه موته[٤].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٣٢ - ٣٣.

(٢) في هامش المطبوعة: هُلاكو هذه الكتابة المشهورة فأما هلاوو بواوين فضبط يوافق كتابة اسمه في التواريخ الصينية والمغلية.

(٣) هكذا بو سعيد، وفي هامش المطبوعة: كان هذا من عادة أهل فارس إلى عهدنا هذا أن يقولوا بو عِوَض أبو في الكنى كما لا يخفى.

(٤) «الدرر الكامنة»: ٢/٣٤ - ٣٥، وانظر قصته مع بغداد بنت النوين جوبان، وقد تقدمت قريباً في ترجمة بغداد.

بيبرس

بيبرس البرجي العثماني الجاشنكير الملك المظفّر. كان من مماليك المنصور قلاوون، وترقى إلى أن قرره جاشنكير[1]. وكان أشقر اللون مستدير اللحية موصوفاً بالعقل التام والعفة. واستمر في حاله إلى أن مات الأشرف فقام فيمن قام في طلب ثأره، وقتلوا بيدرا وغيره من قتلته، وأقاموا الناصر في السلطنة، فصار بيبرس من أكابر الأمراء، وولي الاستادارية[2] للناصر حينئذٍ ثم قبض عليه الشجاعي، وسجنه بالإسكندرية إلى أن تسلطن لاجين فأمّره، ثم لما عاد الناصر كان ممن قام بتدبير المملكة والتفت عليه البرجية والتفت الصالحية[3] على سلار واستقر بيبرس استدارا وسلار نائب السلطنة، وعظم قدره.

وحج بالناس سنة ٧٠١ فصنع من المعروف ما ضاهى به رفيقه سلار الآتي ذكر ترجمته فإنه حج في السنة التي قبلها.

(١) ولما حج بيبرس قلع المسمار الذي في وسط الكعبة، وكان العوام يسمونه سرة الدنيا وينبطح الواحد منهم على وجهه، ويضع سرته مكشوفة عليه ويعتقد أن من فعل ذلك عُتق من النار. وكانت بدعة شنيعة فأزالها الله على يد بيبرس هذا في هذا العام. وكذلك الحلقة التي يسمونها العروة الوثقى.

(٢) وهو الذي كان السبب في القيام على النصارى واليهود حتى منعوا من ركوب الخيل والملابس الفاخرة فجمع العلماء والقضاة، واستقر

---

(١) لفظ جاشنكير مأخوذ من اللغة الفارسية، وهو مركب من جاشني كير بالجيم والكاف، وهذه الوظيفة عند سلاطين مصر هي وظيفة الأمين على تذوق الأطعمة والمشروبات قبل تقديمها إلى السلطان للتحقق من سلامتها.

(٢) الاستادار هو مشرف على الشؤون الخاصة للملك.

(٣) في هامش المطبوعة: البرجية والصالحية فرقتان من مماليك مصر وكانت بينهما عصبية شديدة حتى كانت سبب الفتن خصوصاً بعد موت الناصر.

الحال على أن النصراني يلبس العمامة الزرقاء واليهودي يلبس العمامة الصفراء، ولا يركب أحد منهم فرساً. ولا يتظاهر بملبوس فاخر، ولا يضاهي المسلمين في شيء من ذلك وكُتب بذلك التزام من الريش[1] له على اليهود والبترك على النصارى وصمم بيبرس في ذلك بعد أن بذلوا أموالاً كثيرة فامتنع ومنعهم من المباشرة وضاق بهم الأمر جداً حتى أسلم منهم عدد كثير وهدمت في هذه الكائنة عدة كنائس.

وكانت لبيبرس في واقعة شقحب اليد البيضاء، وباشر القتال بنفسه فأبلى بلاءً عظيماً عرف به.

(١) وهو الذي أبطل عيد الشهيد، وكان ثَمّ من مِواسم النصارى يخرجون إلى ناحية شبرا في ثامن بشنس فيلقون في النيل تابوتاً فيه إصبع لبعض من سلف منهم يزعمون أن النيل لا يزيد إلا إن وضع الإصبع فيه فكان يحصل في ذلك العيد من الفجور، والفسق، والمجاهرة بالمعاصي أمر عظيم، فتجرد له بيبرس حتى أبطلوه، وتخيلوا عليه وخيلوه في توقف النيل وقالوا هذا أمر مجرب من قديم الزمان فصمم على مخالفتهم وأبطله فبطل من حينئذٍ.

وكان بيبرس يبالغ في التأدب مع سلار، ويركب في موكبه، ووقع بينهما مرة بسبب التاج بن سعيد الدولة فإنه كان صديقاً لسلار، وكانت أمور بيبرس منوطة به فأمسكه وصادره فعز على سلار وشفع فيه عند بيبرس فما قبل فكادت تقع فتنة، ثم اصطلحا.

ومما فعله بيبرس مَنْعُهُ الركوب في الخليج للنزهة بل لمن تكون له حاجة.

فلما خرج الناصر إلى الحج وعدل من الطريق إلى الكرك وراسل

---

(١) في هامش المطبوعة: الريش هاهنا بمعنى الرئيس من اليهود، وكذلك البترك هو البطريق أي رئيس النصارى.

الأمراء بمصر بأنه قد ترك الملك اضطرب الأمراء وكـان السبب في حنق الناصر استبداد بيبرس وسلار بالمملكة بحيث لم يبق للناصر سوى الاسم فتشاوروا فيمن يستقر في السلطنة فحسن سلار وهو نائب السلطنة لبيبرس أن يتسلطن فأجابه إلى ذلك بعد تمنع كبير وأفتاه جماعة من العلماء بجواز ذلك منهم ابن الوكيل وابن عدلان حتّى قيل في ذلك:

ومن يكـون ابن عـدلان مـدبـره   وابن المرحل قـل لي كيف ينتصر

فتسلطن وتلقب بالمظفـر وكتب عهده عن الخليفـة وركب بالخلعـة السوداء والعمامة المدورة والتقليد على رأس الوزيـر ضياء الـدين النشائي وناب عنه سلار على عادته وأطاعه أهل الشام وذلك كله في شـوال سنة ٧٠٨.

(١) قـال البرزاليّ: وفي جمـادى الأولى أبطل ضمـان الخمـر من طرابلس وكذلـك الزواني وخـربت بيوتهم وكسـرت آلتهم وكان ذلـك من حسنات بيبرس.

فلما كان في وسط سنة ٧٠٩ خامر عليه طغاى وجماعة من الأمراء وتوجهوا إلى الناصر وأخذوه من الكرك فتوجهوا معه إلى دمشق وساروا في عسكر كبير فلما تحقق بحركة الناصر جرد إليه عسكراً كبيراً فخامر بعضهم على بعض وانهزم أتباع بيبرس ثم لم يرسل أحداً إلا خامر عليه حتى صهره زوج ابنته وفي غضون ذلك زين لبيبرس بعض الفقهاء أن يجدد له الخليفة عهداً بالسلطنة ففعل وقرىء فأرسل نسخته إلى الأمراء المجردين وكان في أوله: «إنه من سليمان[1] وإنه بسم الله الرحمٰن الرحيم» فلما قرىء على كبيرهم قال: «ولسليمان الريح[2]»، وحصل عليهم الفشل وكان أمر الخطباء أن يقرءوا العهد يوم الجمعة على المنابر ففعلوا فلما سمعه العـامة يقـرأ

---

(١) لأن الخليفة كان اسمه سليمان، وستأتي ترجمته.
(٢) أي أنه لا طاعة له عليهم.

صاحوا من كل جانب لما جرى ذكر الناصر: نصره الله، وبعضهم صار يقول يا ناصر يا منصور فاتفق أنه في شهر رمضان أمّر سبعة وعشرين أميراً وخلع عليهم فجازوا من وسط القاهرة على الناس فكان العامة يقولون لا فرحة تمت وكذا كان ثم أشار عليه جماعة ممن تأخر معه أن يشهد عليه بالنزول عن السلطنة ويتوجه إلى أطفيح ويكاتبه ويستعطفه وينتظر جوابه ففعل وخرج عليه العوام فسبوه وشتموه ورجموه بالحجارة ففرق فيهم دراهم فلم يرجعوا فسل مماليكه عليهم السيوف فرجعوا عنه فأقام بأطفيح يومين ثم رحل طالباً للصعيد فوصل إلى أخميم فقدم عليه الأمان من الناصر وأنه أقطعه صهيون فقبل ذلك ورجع متوجهاً إلى غزة فلما وصل غزة وجد هناك نائب الشام وغيره فقبضوا عليه وسيروه إلى مصر فلما كان بالخطارة تلقاهم قاصد الناصر فقيده وأركبه بغلاً حتى قدم به إلى القلعة في ثالث عشر ذي القعدة فوصل به قراسنقر إلى الخطارة وسلمه لأسندمر فرده الناصر مِن ثَمّ وجهز يقول له: توجه إلى صهيون فهي لك فتوجه في البريد وكان قد كتب إلى الناصر: إنني رجعت إليك طوعاً لأقلدك بغيك فإن حبستني كانت خلوة وإن نفيتني كانت سياحة وإن قتلتني كانت شهادة، فلم يُفِد ذلك وأمر برده فلمّا حضر بين يديه وعدد عليه ذنوباً فيقال إنه خنق بحضرته بوتر حتى مات وقيل سقاه سما.

وكان موصوفاً بالخير والديانة والتعفف، وهو الذي جدد الجامع الحاكمي بعد الزلزلة ووقف له وقفاً وعمر له خزانة كتب فيها أشياء نفيسة من جملتها المصحف الذي كتبه ابن الوحيد بماء الذهب في سبعة أجزاء.

وكانت وفاته سنة ٧٠٩، وكان الناصر لما تحرك من الكرك ودخل الشام وقع على بيبرس الخذلان فصار كل ما يدبره يخرج منعكساً ولم يزل على ذلك حتى خذل[١].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٣٦ - ٤٠.

تِرْمَشِين

تِرْمَشينْ بن دُوَا المُغليّ صاحب سمرقند وبلخ وما والاهما. كان حسن الإسلام، ملازماً للصلوات، محباً في الخير وأهله، وأمر بإظهار أحكام الشريعة وأبطل المكوس[١] وأقاد من أخيه لكونه قتل رجلاً ظلماً بعد أن عرض على أهله الدية فأصروا على الامتناع، ثم كره المملكة وأعرض عنها، وخرج سائحاً فاعترضه بعض من كان يحقد عليه من الظلمة، فأسره وأوصله إلى الذي قام بالمملكة بعده فقتله، وذلك في سنة ٧٣٥، وكانت دولته ست سنين وعاش أربعين سنة أو نحوها، ولم تطل مدة القائم بعده[٢].

تِمِرْتاش

تِمِرْتَاشْ بن النوين جوبان، كان شجاعاً فاتكاً إلا أنه خف عقله فزعم أنه المهدي الذي يخرج في آخر الزمان فبلغ ذلك أباه فركب إليه ورده عن هذا المعتقد، ثم ولاه بوسعيد الحكم في بلاد الروم، وكان جواداً مفرطاً ثم وقع له بعد قتل أخيه دمشق خجا خوفٌ من بوسعيد، ففر إلى الناصر محمد فتلقاه بالإكرام، وصيره أميراً، وكان مفرط الكرم وكانت المهادنة بين الناصر وبوسعيد، فكتب بوسعيد يطلب منه إرسال تِمِرْتاش فامتنع من إرساله ثم أمر بقتله وإرسال رأسه وتأسف الناس عليه وأرسل الناصر يقول: قد أرسلت لك رأس غريمك فأرسل إليّ رأس غريمي يعني قراسنقر فلم يصل الكتاب إلا بعد موت قراسنقر فكتب بوسعيد إلى الناصر: إنه مات حتف أنفه ولو كنت أنا قتلته لأرسلت لك رأسه. وكان قتل تِمِرْتاش في شهر رمضان سنة ٧٢٨[٣].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٣٦ ـ ٤٠.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/٥١.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/٥٣.

تِنْكِزْ

تِنْكِز نائب الشام يكنى أبا سعيد. جُلب إلى مصر وهو صغير فاشتراه الأشرف وأخذه لاجين ثم صار إلى الناصر فأمّره عشرة[1] قبل الكرك ثم كان في صحبته بالكرك يترسل بينه وبين الأفرم فاتهمه الأفرم مرة أن معه كتباً إلى أمراء الشام ففتشه وعرض عليه العقوبة فرجع إلى الناصر وشكا إليه ما لاقاه من الإهانة فقال له: إن عدتُ إلى الملك فأنت نائب الشام عوضه فلما عاد إلى المملكة قال لتنكز ولسودي: لازما أرغون النائب[2] وتعلما أحكامه فلازماه ثم جهز سودي لنيابة حلب وتِنْكِز لنيابة الشام على البريد وكانت ولايته دمشق سنة ٧١٢ وأرسل معه الحاج أرقطاي والحسام طرنطاي وأمره أن لا يقطع أمراً دونهما فباشرها وتمكن منها واستمر يجلس وإلى جانبه أرقطاي فتقرأ القصص[3] عليهما وسلك تنكز سبيل الحرمة والناموس البالغ.

(١) وفتح الله على يديه مَلَطْية[4] في سنة ٧١٥ وذلك إنه استأذن السلطان في ذلك فأذن له فأظهر أنه يريد التوجه إلى سيس فخرجت العساكر من جميع البلاد معه وخرج هو ومعه القضاة فلما وصل إلى حماة تلقاه المؤيد فلم يحفل به ولم يأكل طعامه لكونه لم يتلقاه من بُعْد فلما وصل إلى حلب جرد عسكراً إلى مَلَطْيَة ثم توجه إثره فنازلها إلى أن فتحها ورحل بأسرى وغنائم ومال كثير فعظم شأنه وهابه الأمراء والنواب.

(٢) قال الصفديّ: سار السيرة الحسنة العادلة بحيث لم تكن له همة في مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا منكح إلا في الفكرة في تأمين الرعايا

---

(١) أي أمّره على عشرة من الفرسان.

(٢) أي نائب السلطان في القاهرة.

(٣) أي: العرائض التي يرفعها الناس إليه.

(٤) بلدة من بلاد الروم على حدود بلاد الإسلام، انظر «معجم البلدان»: ١٩٢/٥ - ١٩٣ وهي اليوم في تركيا.

فأمنت السبل في أيامه ورخصت الأسعار ولم يكن أحد في ولايته يتمكن من ظلم أحد ولو كان كافراً.

وبعد سنة من ولايته زاد الناصر في إقطاع نيابة الشام ثم تقدم مرة إلى جميع النواب بالبلاد الشامية أن يكاتبوا تِنْكِز بجميع ما كانوا يكاتبون به السلطان وهو يكاتب عنهم ولم يزل في علو وارتفاع حتى كان الناصر لا يفعل شيئاً إلا بعد مشاورته، ولم يكتب هو إلى السلطان في شيء فيرده فيه إلا نادراً، ولم يتفق في طول ولايته أنه ولّى أميراً ولا نائباً ولا قاضياً ولا حاجباً ولا وزيراً ولا كاتباً إلى غير ذلك من جليل الوظائف وحقيرها برشوة ولا طلب مكافأة بل ربما كان يُدفع إليه المال الجزيل لأجل ذلك فيرده ويمقت صاحبه، وكان يتردد إلى القاهرة بإذن السلطان فيبالغ في إكرامه واحترامه.

وكان قد سمع الحديث من عيسى المعلم وأبي بكر بن أحمد بن عبدالدايم وابن الشحنة وغيرهم ولما حج قرأ عليه بعض المحدثين في المدينة الشريفة ثلاثيات البخاري. وعمر بدمشق جامعاً في غاية الحسن وتربة وداراً وحماماً ومسجداً ومكتبة أيتام بجوار امرأته وبيمارستان[1] بصفد ورباطاً وحماميْنِ بالقدس وساق الماء إلى المسجد، وجدد القنوات بدمشق وجدد عامة الزوايا والمدارس والرُّبُط، ووسع الطرق وأصلح الرصيف وهدم أماكن كثيرة كانت استجدت في أسواق دمشق فضاقت بها الطرق فانتفع الناس بذلك وعدم لأصحابها شيء كثير فلم يتجاسر أحد أن ينكر عليه.

وحج في سنة ٧٢١ ويقال إنه قدم القاهرة بعد حجه فأمر السلطان الأمراء أن يهادوه فكانت جملة ما قدم له ثمانين ألف دينار. وكان يدور بنفسه بالليل مختفياً ويشير بما يراه فما يصبح ذلك المكان إلا والصناع تعمل فيه، وله بالديار المصرية دار مليحة وحمام مشهور بالكافوري، قال:

---

(١) أي مستشفى.

وكان الناس في ولايته آمنين على أنفسهم وحريمهم وأولادهم وأموالاهم ووظائفهم. وكان يتوجه في كل سنة إلى الصيد وربما عدى الفرات وتصيد في ذلك البر أياماً، وكان مثابراً على عمل الحق ونصر الشرع إلا إنه كان كثير التخيل شديد الحدة سريع الغضب ولا يقدر أحد أن يراجعه من مهابته، ولم يحفظ عنه أنّه غضب على أحد فرضي عنه بعد ذلك سريعاً وإذا بَطش بَطش بَطْش الجبارين، وكان إذا غضب على أحد لا يزال ذلك المغضوب عليه في انعكاس وخمول إلى أن يموت غالباً وكان يقول: أي لذة للحاكم إذا كانت رعاياه يدعون عليه، وما كان يخلو ليلة من قيام لصلاة ودعاء وما صلى غالباً إلا بوضوء جديد، وكان يعظم أهل العلم وإذا كان عنده منهم أحد لم يسند ظهره بل ويقبل بوجهه إليه ويؤنسه بالقول والفعل. كان سليم الباطن ليس عنده دهاء ولا مكر ولا يصبر على الأذى ولا يداري أحداً من الأمراء وكان الناصر أرسل إليه يقول له: إنني أريد أن أجهز بنتين لي لتتزوجا بابْني الأمير تِنْكِز صحبة عشرين من الأمراء وكانت تلك السنة مُمْحِلة[1] فخشي تِنْكِزْ على الرعايا من الغلاء فكتب يسأل أن يؤذن له في الحضور إلى القاهرة بولديه ويكون الدخول هناك فجهز إليه طاجار يقول له إنه ما بقي يطلبك إلى مصر ولا يجهز إليك أميراً كبيراً حتى لا تتوهم، فقال: أنا أتوجه معك بأولادي فقال: لو وصلت إلى بِلبيس ردك وأنا أكفيك هذا المهم وأكون عندك بعد ثمانية أيام فثبطه بكلامه ويقال لو عصاه وسار إلى السلطان عذره ولم يلق إلا خيراً، ومن أعظم ما وقع له مع السلطان من الإكرام أنه قدم سنة ٧٣٨ فخرج السلطان لملاقاته بسرياقوس وأرسل له قوصون بالإقامة ثم بعث له أولاده لما قرب ثم ركب فلما رآه ترجل فترجل كل من معه من الأمراء وألقى تِنْكِز نفسه عن الفرس إلى الأرض وأسرع وهو يقبل الأرض وقد ذهب حتى انكب على قدمي السلطان فقبلهما فأمسك رأسه بيديه وأمره بالركوب. وقدم في سنة ٧٣٩ فكانت قيمة تقادمه[2]

(١) أي مجدبة.

(٢) أي: هداياه.

للسلطان والأمراء مائتي ألف دينار وبالغ السلطان في إكرامه حتى أخرج بناته فقبلن يده[1] ثم عين منهن ثنتين لولدي تِنْكِز وكُتِب له تفويض في جميع مملكة الشام وأن النواب بأسرها تكاتبه بما يكاتبه به السلطان.

ومن أعماله الجيدة أنه نظر في أوقاف المدارس والجوامع والمساجد والخوانق والزوايا والربط فمنع أن يصرف لأحد جامكية[2] حتى يرم شعثها فعمرت كلها في زمانه أحسن عمارة، وأمر بكسح الأوساخ التي في مقاسم المياه التي تخلل الدور وفتح منافذها وكانت انسدت فكان الوباء يحصل بدمشق كثيراً بسبب العفونات فلما صنع ذلك زال ما كان يعتادهم في كل سنة من كثرة الأمراض فكثر الدعاء له، وأجرى العين إلى بيت المقدس بعد أن كان الماء بها قليلاً وأقاموا في عملها سنة، وأكثر من فكاك الأسرى وأعظم ربح التجار الذين يجلبونهم، وجمع الكلاب فألقاها في الخندق واستراح الناس من أذاهم.

وكان شاع في تلك الأيام أن تِنْكِز عزم على التوجه إلى بلاد التتار فطرقت سمع طاجار فبلغها السلطان مع ما ضم إليها بسبب ما عامله به تِنْكِز من الازدراء فتغير الناصر وجهز العساكر بإمساكه فوصل طشتمر إلى المزة وغيره من الأمراء، وليس عند تِنْكِز خبر فتوجه إليه قرمشي إلى القصر الذي بناه بالقطائع فعرفه بوصول طشتمر فبهت لذلك، وقال: ما العمل؟ قال: تدخل دار السعادة ولم يزل به حتى سار معه فاستسلم وقُيِّد وجهز سيفه إلى السلطان وذلك في ثالث عشري ذي الحجة سنة ٧٤٠ وتأسف أهل دمشق عليه والعجب أنه قبل ذلك في سنة ٧٣٩ كان دخل مصر فتلقاه بأولاده وأمرائه فلمّا قاربه ترجل له وعانقه وقبل رأسه وبالغ في إكرامه ثم بعد

---

(١) هذا أمر لا يجوز شرعاً.

(٢) راتب شهري يعطى من غلّة الوقف.

القبض عليه أحيط بموجوده، ثم وصل بشتاك وطاجار وأرقطاي للحوطة[1]، وشرعوا في عرض حواصله ووجدوا له ما يجاوز الوصف، من الذهب العين ثلاثمائة وثلاثون ألف دينار ومن الدراهم ألف ألف درهم، وأما الجواهر والأقمشة، والخيول ونحو ذلك فشيء كثير جداً، ولما دخل القاهرة أمر السلطان جميع الأمراء والمماليك أن يقعدوا له بالطرقات من حذاء باب القلعة، وأن لا يقوم له أحد ولم يجتمع به بل كان قوصون يتردد إليه في الرسلية حتى قال له: أبصر من يكون وصيك، فقال له: خِدمتك ونصيحتك لم تترك لي صديقاً فأمر بتجهيزه إلى الإسكندرية، فلم يدم في الاعتقال إلا دون الشهر ومات في أوائل سنة ٧٤١، ويقال إن ابن صابر المقدم هو الذي قتله وأرسل الناصر في كتابه إلى دمشق يقول إن تِنْكِز كنا سألناه عن حواصله فلم يقر بشيء منها، فلما بلغه أنا استأصلناه احتدّ من ذلك وحُم حمى مطبقة فمات منها[2].

ثابت الطرابلسيّ

ثابت بن محمد بن ثابت الطرابلسي أمير طرابلس الغرب. وَلِي الإمرة بعد أبيه وكان شاباً غَزَّاءً فاحتال عليه الفِرَنج بأن قدم منهم طائفة في عدة مراكب في صورة التجار، وهم مقاتلة، وأرسلوا من عندهم ترجماناً شيخاً مجرباً فرأى في البلد غلاء لقلة الحَبِّ عندهم إذ ذاك فتمت له الحيلة وأشار على ثابت أن يجمع الأسلحة التي مع جند البلد ويجعلها عنده في القلعة ليطمئن إليه تجار الفِرَنج وينزلوا من مراكبهم ويبيعوا ما معهم من البضائع وذكر له أن الخمس الذي يخصه من البضائع يجتمع منه مال كثير وينتفع الناس مما معهم من مأكولات ففعل فلما تحقق الفِرَنج أنزلوا من مراكبهم بعض البضائع التي معهم ففرح أهل البلد بها وتسارعوا إلى شرائها منهم فلما اطمأنوا إليهم تسور الفِرَنج السور ليلاً وهجموا على البلد دفعة واحدة

---

(١) أي: الحوطة على ما عنده من الأموال، وهذه من أسماء أمراء المماليك.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/٥٥ - ٦٢.

سحراً وأهلها غافلون فقتلوا منهم كيف شاؤوا وحاصروا القلعة فهرب ثابت تدلى بعمامته من القصر ففطن به بعض العرب ممن يعاديه فقتله واستولى الفِرَنج على البلد، وكان ذلك في سنة ٥٦ أو ٥٧ فلم تزل حتى اشتراها منهم صاحب جِربة[1].

ثقبة الحسنيّ

ثقبة بن رميثة بن أبي نُمَيْ محمد بن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة الحسنيّ الشريف أمير مكة أخو عجلان. تأمّرا جميعاً بعد موت والدهما مدة ثم اختلفا واستقل عجلان، واستمر الأخوان مختلفين وتأذى الحجاج بسببهما ثم جُهِّز عسكرٌ فقبض على ثقبة في موسم سنة ٥٤ فسجن بمصر ثم أطلق في سنة ٥٦ بشفاعة فياض بن مهنا.

(١) وكان ثقبة ينصر مذهب الزيدية ولا يكف عبيده عن ظلم الناس، وأقام له خطيباً زيديًّا يخطب يوم العيد وكان يأمر عبيده إذا مر ذكر الشيخين برجم الخطيب السني.

ثم هرب ثُقبة من مصر وتبعه العسكر فلم يدركوه واستمر خارج مكة إلى موسم سنة ٦١ فهجم مكة بعد توجه الحاج وفعل بها أفعالاً قبيحة ونهب خيول الأمراء الذين من جهة المصريين واستولى على ما في بيوتهم ووقع بين الطائفتين مقتلة عظيمة في الحرم حتى انكسر الأتراك فقتل أكثرهم وباعوا من أسر منهم بأبخس ثمن وأسر أمير الترك فندش فأجارته امرأة ثقبة من القتل فعُذب بأنواع العذاب ثم أطلقه ثقبة بشفاعة القاضي تقي الدين الحرازي على شريطة أن يخرج من مكة فخرج إلى الينبع فلحقوا الركب المصري فسافروا معهم واستقل ثُقبة بمكة فأدركه الموت في سنة ٧٦٢[2].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٦٤ - ٦٥ وفي الهامش: كانت هذه الوقعة سنة ٧٥٥ على الأصح ثمّ اشتراها أبو العبّاس أحمد بن مكيّ صاحب قابس وجِربة منهم بخمسين ألف مثقال من الذهب.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/٦٦ - ٦٧.

أبو الفضل الأُدْفُوِيّ

جعفر بن ثعلب بن جعفر كمال الدين أبو الفضل الأُدْفُوِيّ، الأديب الفقيه الشافعي.

ولد بعد سنة ٦٨٠، قال الصفدي: اشتغل في بلاده ومهر في الفنون، ولازم ابن دقيق العيد وغيره، وتأدب بجماعة منهم أبو حيان، وحمل عنه كثيراً وكان يقيم في بستان له ببلده، وصنف «الإمتاع في أحكام السماع»، و«الطالع السعيد في تاريخ الصعيد»، و«البدر السافر في تحفة المسافر»، وكل مجاميعه جيدة، وكانت له خبرة بالموسيقى، وله النظم والنثر الحسن أنشدنا أبو الخير بن أبي سعيد كتابةً أنشدنا الفاضل كمال الدين الأُدْفوي لنفسه:

إن الدروس بمصرنا في عصرنا	طبعت على لغط وفرط عِياط[1]
ومباحث لا تنتهي لنهاية	جدلاً ونقلٍ ظاهر الأغلاط
ومدرس يبدي مباحث كلها	نشأت عن التخطيط والأخلاط
ومحدث قد صار غاية علمه	أجزاء يرويها عن الدمياطي
وفلانة تروي حديثاً عالياً	وفلان يروي ذاك عن أسباط
والفرق بين غريرهم وغزيرهم	وأفصح عن الخياط والحناط
والفاضل النحرير فيهم دأبه	قول أرسطاطاليس أو بقراط
وعلوم دين الله نادت جهرة	هذا زمان فيه طيُّ بساط
ولّى زماني وانقضت أوقاته	وذهابه من جملة الأشراط[2]

ومن خط البدر النابلسي: كان عالماً فاضلاً متقللاً من الدنيا مع ذلك فكان لا يخلو من المآكل الطيبة، مات في أوائل سنة ٧٤٨ عن نيف وستين سنة بعد رجوعه من الحج[3].

---

(١) صياح.
(٢) أي: أشراط الساعة.
(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/٧٢ - ٧٣.

جماز الحسينيّ

جماز بن شيحة بن هاشم الحسيني عزالدين أبو سند أمير المدينة الشريفة. وَلِيَها قديماً بعد قتل أبيه وقدم مصر سنة ٩٢، فأكرمه الأشرف خليل وعظمه، وتوسط في أمر أمير الينبع حتى أفرج عنه وتوسط أيضاً في أمر أبي نُمَيْ صاحب مكة حتى رضي عنه السلطان، وكان قد غاب عن ملاقاة الركب المصري فأرسل السلطان يتهدده بتجهيز العساكر، فلما رضي عنه بوساطة جمّاز كتب إليه بالرِّضى فأذعن وخطب للسلطان بمكة، وضرب الدنانير والدراهم باسمه، وكتب لذلك محاضر وجهزها صحبة شرف الدين بن القسطلاني، فرضى السلطان بذلك، ورد عليه إقطاعاته، وشكر جمازاً على ما كان منه.

واستمر جماز في إمرة المدينة حتى سنة ٧٠٢، وطعن في السن إلى أن صار كالشّن[1] وأضر، فقام بالأمر في حياته ولده أبو غانم منصور ومات جماز في سنة ٧٠٤ بعد أن أضر وكان ربما شاركه في الإمرة أحياناً غيره.

(١) قال الذهبي: وكان فيه تشيع ظاهر.

وكان قتل والده شيحة سنة ٦٤٦، وكان جده قاسم أمير المدينة في دولة صلاح الدين بن أيوب، وكانت مدة ولاية جماز مع ما تخللها بضعاً وخمسين سنة[2].

جَنْكِليّ

جَنْكَليّ بن محمد بن البابا العجلي بدرالدين، كان مقامه بالقرب من آمد تحت حكم المُغْلِيّ[3]، وبيده رأس عين[4] من قِبَل غازان[5] إلى أن

---

(١) القِرْبة البالية.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٧٥/٢.

(٣) أي: أمير المغول.

(٤) مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة، بين حران ونصيبين. انظر «معجم البلدان»: ١٣/٣ - ١٤.

(٥) حاكم المغول.

طلب إلى الديار المصرية، وكان وجيهاً جواداً ذكياً يحب العلماء ويطارحهم، ولم يكن له ميل إلى المُرد ولا إلى السراري بل مقتصر على أم أولاده التي حضرت معه من البلاد. يخرج لصلاة الصبح فلا يدخل إلى العشاء، وكان يحفظ ربع العبادات، ويميل إلى ابن تيمية ويتعصب له ويرد على من يرد عليه، وكان آخر زمانه كبير الدولة، وكان ينسب إلى إبراهيم بن أدهم، وأول من طلبه من البلاد وحسن له المجيء إلى القاهرة الأشرف خليل وكتب له منشوراً بإقطاع جيد، وجهزه إليه فلم يتفق حضوره إلا في أيام الناصر بعد موت غازان، فإنه أرسل يستأذن في المجيء فأجيب، وكتب إلى نواب الشام بتلقيه وتعظيمه، فتوجه ومعه أهله وأقاربه وألزامه وأموال فتلقاه نواب بهنسا وكختا، وقاموا بخدمته إلى أن تلقاه نائب حلب وجهزه إلى دمشق فتلقاه نائبها وجهزه إلى مصر فتلقاه بيبرس والأمراء، وطلع إلى القلعة فأكرم وأُعطيَ إقطاعاً جيداً وكذلك جماعة من ألزامه، وكان وصوله إلى دمشق في ذي القعدة سنة ٧٠٣ ووصل القاهرة في ذي الحجة، وكان طلوعه القلعة في أول سنة ٧٠٤ فأكرم وبجل، وزوج الناصر ابنه إبراهيم بابنة بدرالدين هذا ولم يزل بعد الناصر معظماً في جميع الدول وكان يقال له يوم الموكب:

يا أتابك[1] سبحان من أتى بك

وكان ينفع العلماء والصلحاء والفقراء حتى كان مبلغ صدقته بعد إخراج زكاة ماله في السنة ثمانية آلاف أردب قمح وأربعة آلاف درهم فضة.

رأيت بخط تقي الدين السبكي بعد أن أرخه: وكان قد جمع العقل والدين والدنيا والرتبة العلية ليس في الأمراء أكبر منه ولا أنفذ كلمة. وامتنع من الحكم بعد أن عرضت عليه النيابة مرات، وكان لا يدخل إلا في خير،

---

(١) الأتابك هو الأمير، أو مدبر المملكة.

وكان يحبنا ونحبه. ومولده سنة ٦٧٥، وكانت وفاته سنة ٧٤٦[1].

جوبان

جوبان النوين الكبير نائب المملكة القانية[2]. تمكن من المملكة وأباد عدداً كبيراً من المُغل، وكان ابنه دمشق خجا قائد عشرة آلاف فلما تنكر له بوسعيد[3] قتل ابنه دمشق وهرب ابنه تِمِرْتاش إلى القاهرة، وسار جوبان إلى هراة فأطلعه واليها إلى القلعة، ثم غدر به وقتله. وكان صحيح الإسلام كثير النصح للمسلمين، أجرى الماء إلى مكة حتى لم يكن الماء يباع بها وأنشأ مدرسة بالمدينة مجاورة للحرم الشريف، وكان أعظم الأسباب في تقرير الصلح بين بوسعيد والناصر.

ولما نزل خربندا[4] على الرحبة[5] ونصب المجانيق رمى قراسنقر حجرا يضيع القلعة، فأحضر جوبان المنجنيق وهدده وقال له بعد أن سبه: لئن عدت سمّرتك على سهم المنجنيق وكان ينزع النصل من النشاب ويكتب عليه: إياكم أن ترعبوا فهؤلاء ما عندهم ما يأكلونه، واجتمع الوزير وقال له: ماذا يقول الناس إذا غلب خربندا على الرحبة وسفك دم أهلها وهدمها في هذا الشهر العظيم، وكان شهرَ رمضان، أما كان عنده نائب مسلم ولا وزير مسلم فدخلا إلى خربندا وحسنا له الرحيل عنها وأن يطلب أكابرها ويخلع عليهم ويعطيهم الأمان ففعل، فكان حقن دماء المسلمين على يدي الجوبان، وكانت ابنة جوبان زوج بوسعيد فنقلت والدها لما قتل إلى المدينة الشريفة ليدفن في تربته التي بناها بمدرسته فوصلوا به لكن لم يمكنوا من الدفن بمنع السلطنة فدفنوه بالبقيع، وكان قتله في سنة ٧٢٨ وهو

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٧٦ - ٧٧.

(٢) أي مملكة المغول.

(٣) ملك التتار، وقد سبقت ترجمته.

(٤) هو والد بوسعيد، وهو ملك من ملوك التتار أيضاً.

(٥) بلدة من بلدان الشام، انظر «معجم البلدان»: ٣/٣٣.

ابن ستين سنة. قال الذهبي: كان بطلاً شجاعاً مهيباً شديد الوطأة كبير الشأن كثير الأموال عالي الهمة صحيح الإسلام ذا حظ من صلاة وبر، وتزوج بوسعيد بابنته، وكان ولده تِمِرْتاش متولي ممالك الروم، وابنه دمشق قائد عشرة آلاف[1].

عزالدين الإِرِبْلِيّ

حسن بن أحمد بن زفر الإِرْبِليّ الحكيم عزالدين، قال الذهبي: سمع معنا الكثير، وكان صادقاً في نقله وألف كتباً وتاريخاً وسيرة نبوية، ولكن كان مظلماً في دينه ونحلته متفلسفاً، وغالب تاريخه تراجم شعراء ومعها تراجم غريبة تدل على فضله.

(١) قال الذهبي: سمعته يقول: خلف لي أبي مالاً فأنفقته في الشهوات حتى أتلفته ففتشت ورقة فوجدت وثيقة على فلاح بغرارة شعير فأخذت له هدية بشيء يسير وتوجهت فأعطيتها لامرأته فقالت لي هو في الحرث فتمشيت إليه فكلمته وإذا في رأس السكة في المحراث شيء مدور وقع فأخذته فأجدها برنية[2] صغيرة ثقيلة ملفوفة فقلت له: أنا أسبقك إلى البيت ثم أبعدت ففتحتها فإذا فيها سبعون ديناراً، فبت عنده وحاللته وسرت إلى المدينة، ومشى الحال بعد ذلك بذلك الذهب. مات سنة ٧٢٦.[3].

النشاويّ

الحسن بن علي بن سرور الشيخ بدرالدين أبو محمد النشاوي بن خطيب الحديثه. ولد سنة ٧٣٦ واشتغل في صباه وحصّل وتميز، ثم ترك وأقبل على العبادة، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم الليل دائماً ويتحرى وسطه، ويكثر التلاوة والذكر. وكان حسن الشكل نيِّر الوجه يبسط من

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٧٨ - ٧٩.

(٢) إناء من خزف.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/٩٢.

يحادثه فإذا خلا وحده فما هو إلا الذكر والصلاة والتلاوة ومطالعة كتب الفقراء[1] والزهد. وكان قوي الفهم جيد البحث حسن المسائلة والأجوبة، قال الشيخ شهاب الدين بن حجي: لم يكن في الفقهاء أعبد منه، مات في سنة ثماني مائة[2].

السكاكينيّ

حسن بن محمد بن أبي بكر السكاكيني كان أبوه فاضلاً في عدة علوم متشيعاً من غير سب ولا غلو فنشأ ولده هذا غالياً في الرفض فثبت عليه ذلك عند القاضي شرف الدين المالكيّ بدمشق، وثبت عليه أنه أكفر الشيخين وقذف ابنتهما ونسب جبريل إلى الغلط في الرسالة إلى غير ذلك فحكم بزندقته وبضرب عنقه فضربت بسوق الخيل سنة ٧٤٤[3].

حسام الدين البغداديّ

حسن بن محمد بن محمد حسام الدين البغدادي الحنفيّ. ولد ببغداد وتولى الحسبة بها ثم القضاء. قدم صحبة وزير بغداد نجم الدين محمود بن علي بن سروين في صفر سنة ٣٨ لما وقعت الفتنة ببغداد فاستقر في قضاء الحنفية عوضاً عن برهان الدين إبراهيم بن علي بن عبدالحق في ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة فسار سيرة غير مرضية واشتهر بالبذاءة بلسانه، ثم في ولاية الناصر أحمد في سنة ٤٢ حضر إليه وهو مع رفقته بالجامع جماعة من زفورية المطبخ فأقاموه من بينهم ومزقوا ثيابه، وخرقوا عمامته وتناولوه بنعالهم يضربونه حتى أدركه بعض الأمراء وهو يستغيث، فقُبِض على بعض العامة وحُمِل إلى بيته بالصالحية، فاقتحم عليه العوام منزله، فنهبوا كل شيء فيه، وكان يوماً شنيعاً، وشرعوا في كتابة محضر بما كان يعتمده ليثبتوا

---

(١) أي: الصوفية.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/١٠٧ - ١٠٨.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/١١٩.

فيها فسقه. وكان يجترىء على رفقته ويستطيل بكلامه مع السلطان بالتركيّ ويبالغ في الغض من رفقته.

(١) وكان إذا تحاكم إليه رجل وامرأته نصر المرأة وتكلم بما لا يليق حتى قال لامرأة: اكشفي عن وجهك فكشفت وجهها فقال لأبيها: مثل هذه تزوجها بهذا المهر، والله إن مبيتها ليلة يساوي أكثر من ذلك.

وكان يكثر من السخف، وكان قليل المعرفة كثير الجرأة، يعاقب بالضرب الشديد ويبالغ في ذلك، فلما تكاملت المحاضر أرادوا قتله، فتعصب له طشتمر إلى أن أخرج من الديار المصرية ولما خرج من مصر سكن دمشق مدة ثم توجه إلى بغداد وولي تدريس مشهد أبي حنيفة[1].

قُطُنْبَة

حسن بن محمد بن هبة الله الأصفوني شرف الدين المعروف بقُطُنْبة، كان شاعراً ماجناً كثير الهجاء ظريف الحكايات.

(٢) ومن نوادره أنه صلى العيد الأكبر فذكر الخطيب قصة الذبيح فاشتد بكاء شخص بجانب قُطُنْبَة وعلا نحيبه فقال له: إلى متى تبكي؟ أما سمعته في العام الماضي يقول إنه سَلِم[2].

المصري

حسن بن مسلم المسلمي المصري. كان رجلاً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده، يسافر إلى بلاد المغرب فيجاهد الفِرَنج.

(٣) وكانت له كرامات منها أنه ربى أسداً إلى أن تأنس بالناس كان يكون بين الفقراء بغير سلسلة ولا يؤذي أحداً من الناس، وأقام الشيخ حسن بجامع الفيلة بالرصد مدة بعد أن كان مهجوراً لا يأمن أحد على نفسه من

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/١٢٧ - ١٢٩.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/١٢٩.

الإقامة فيه فلما أقام فيه الشيخ حسن عُمَّر، ولم يزل الشيخ به إلى أن مات سنة ٧٦٤[١].

الحسين الطِّيبي

الحسين بن محمد بن عبدالله الطيبي الإمام المشهور. قرأت بخط بعض الفضلاء: كان ذا ثروة من الإرث والتجارة فلم يزل ينفق ذلك في وجوه الخيرات إلى أن كان في آخر عمره فقيراً، قال: وكان كريماً متواضعاً حسن المعتقد شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة مظهراً فضائحهم مع استيلائهم في بلاد المسلمين حينئذٍ، شديد الحب لله ورسوله، كثير الحياء، ملازماً للجماعة ليلاً ونهاراً شتاء وصيفاً مع ضعف بصره بآخره، ملازماً لإشغال الطلبة في العلوم الإسلامية بغير طمع بل يعينهم، ويعير الكتب النفيسة لأهل بلده وغيرهم من أهل البلدان من يعرف ومن لا يعرف، محباً لمن عرف منه تعظيم الشريعة، مقبلاً على نشر العلم، آية في استخراج الدقائق من القرآن والسنن.

(١) شرح الكشاف شرحاً كبيراً وأجاب عما خالف مذهب السنة أحسن جواب يعرف فضله من طالعه.

(٢) ثمّ شرع في جمع كتاب في التفسير وعقد مجلساً عظيماً لقراءة كتاب البخاريّ إلى أن كان يوم مات فإنه فرغ من وظيفة التفسير وتوجه إلى مجلس الحديث فدخل مسجداً عند بيته فصلى النافلة قاعداً وجلس ينتظر الإقامة للفريضة فقضى نحبه متوجهاً إلى القبلة، وذلك سنة ٧٤٣[٢].

ابن المطهر الشيعيّ

الحسين بن يوسف بن المطهر الحلي المعتزلي جمال الدين الشيعي.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١٣٢/٢.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١٥٦/٢ - ١٥٧.

ولد في سنة بضع وأربعين وستمائة ولازم النصير الطوسيّ مدة، واشتغل في العلوم العقلية فمهر فيها، وصنف في الأصول والحكمة، وكان صاحب أموال وغلمان وحفدة، وكان رأس الشيعة بالحلة.

(١) واشتهرت تصانيفه وتخرج به جماعة وصنف في فقه الإمامية وكان قيّماً بذلك داعية إليه، وله كتاب في الإمامة رد عليه فيه ابن تيمية بالكتاب المسمى بالرد على الرافضيّ وقد أطنب فيه وأسهب وأجاد في الرد إلا أنه تحامل في مواضع عديدة ورد أحاديث موجودة وإن كانت ضعيفة بأنها مختلقة، وإياه عنى الشيخ تقي الدين السبكي بقوله:

وابن المطهر لم تطهر خلائقه   داع إلى الرفض غالٍ في تعصبه
ولابن تيمية رد عليه له   وأجاد في الردّ واستيفاء أضربه

وله كتاب الأسرار الخفية في العلوم العقلية وغير ذلك، وبلغت تصانيفه مائة وعشرين مجلدة فيما يقال، ويقال إنه تقدم في دولة خَرْبَنْدا[١]، وكثرت أمواله، وكان مع ذلك في غاية الشح. وحج في أواخر عمره، وتخرج به جماعة في عدة فنون، وكانت وفاته في المحرم سنة ٧٢٦، أو في آخر سنة ٧٢٥، وقيل اسمه الحسن[٢].

الحسين التركمانيّ

الحسين الموله التركمانيّ. كان يحلق ذقنه ويمشي حافياً ويكثر الحلف بالله، وينطق أحياناً بالمغيبات فيقع كما قال فارتبط عليه الناس وأكثرهم يعتقد صلاحه ومنهم من لا يلتفت إلى ذلك ويعدها أحوالاً شيطانية لِما يرى منه من دناسة الثياب وملابسة النجاسات، وكان يحدث نفسه ويحرك رأسه. مات بدمشق سنة ٧٢٤[٣].

---

(١) ملك من ملوك التتار.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/١٥٨ ـ ١٥٩.
(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/١٦٠ ـ ١٦١.

حمزة التركماني

حمزة التركمانيّ اتصل بتِنْكِز وتقرب من قلبه إلى أن كان هو السفير بينه وبين الناصر، وكان ظالماً غاشماً تمكن فخرب بيوتاً كثيرة وأبعد جماعة من خواص تِنْكِز، ثم كثرت فيه الشكاوى فتغير عليه وأمسكه في سنة ٣٥ وسجنه وعذبه، ثم أفرج عنه فبلغه عنه كلام سوء فأمر بقتله فقتل في تلك السنة وهو دون الستين. قال الذهبيّ: كان تقربه من تِنْكِز بأسمار يوردها، وكان حسن الشكل خبيراً بالأمور جسوراً فعظم وعقر الدويدار وحاجب العرب وكاتب السر ابن الشهاب محمود وابن جملة وغيرهم وعتى وتمرد وفعل كل قبيح، وله حكايات في الظلم، فلما غضب عليه النائب رُمي بالبندق[1] حتى تورم جسده وما رقَّ له أحد ثمّ لما بلغه عنه الكلام السيء بعث به إلى البقاع فقطع لسانه من أصله فهلك[2].

حُميضة الحسنيّ

حُمَيْضَة بن أبو نُمَيْ محمد بن حسن الحسني الشريف عزالدين أمير مكة. كان هو وأخوه رُمَيْثَة وَلِيا إمرة مكة في حياة أبيهما سنة ٧٠١ ثم استقلا بالإمرة واستمرا إلى الموسم فحج بيبرس تلك السنة، فلما كان في طواف الوداع كلمه أبو الغيث وعطيفة في أمر أخويهما حميضة ورميثة وأنهما منعاهما ميراثهما وسجناهما حتى فرا منهما فأنكر عليهما بيبرس، فقال له حُمَيْضة: يا أمير نحن نتصرف في إخوتنا وأنتم قد قضيتم حجكم فلا تدخلوا بيننا فغضب بيبرس وقبض على حُمَيْضَة ورُمَيْثَة وحملهما إلى القاهرة وأقام أبا الغيث وعطيفة عِوضهما وسجنا بالقلعة ثم أفرج عنهما في أوائل سنة ثلاث وخلع عليهما وأُكْرما وتوجها إلى مكة ففر أبو الغيث، ثم وقع بينهما فذبح أبو الغيث بابن حميضة في ذي الحجة سنة ٧١٤، ثم قدم

---

(١) حبٌّ مستدير يرمى به.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/١٦٦.

المعسكر مع رُميثة ففر حُمَيْضة متخفياً في زي امرأة ولحق بخربندا بالعراق فتلقاه وأكرمه وبالغ في الإحسان إليه وندب معه أربعة آلاف فارس وراسل أخاه رُمَيْثَة أن يأذن له أن يدخل مكة ويشاركه في الإمرة كعادته فامتنع وكاتب الناصر فأجابه بأن لا يفعل إلا إن دخل حُمَيْضَة إلى مصر فجمع حميضة عسكراً ونازل رُمَيْثة فانهزم منه ودخل حميضة مكة عنوة، وقطع خطبة الناصر، وخطب لأبي سعيد بن خربندا، وأخذ أموال التجار والمياسير فجرد له الناصر عسكراً فانهزم منهم من غير قتال، ثم عاد بعد ذهاب الحج فأرسل رميثة يطلب أخذ الأمان فأذن له، وكان حميضة قد لحق ببوسعيد[1] ثم اصطلح حميضة ورميثة فبلغ الناصر فغضب وقرر عطيفة في إمرة مكة، فخرج حميضة عن مكة، فلما حج الناصر سنة ٧١٩ وعاد جرد الناصر له عسكراً فنزح قبل وصولهم وأخذ أموال الناس من النقد والبَزِّ وهو مائة حمل وأحرق الباقي، وتحصن بحصنه الذي بالحديدة، وقطع ألفي نخلة والتجأ إلى صاحب الحليف وهو حصن بينه وبين مكة ستة أيام فدخل العسكر في ذي القعدة سنة ٧١٥، ثم تبعوه إلى مكانه فأحرقوا الحصن وأخذوا ما مع حميضة من الأموال، وأخذوا ابن حميضة أسيراً وسلموه لعمه رميثة، واستقر رميثة أميراً بمكة ولحق حميضة بالعراق، ثم اتصل بخربندا وأقام ببلاده حتى جهز له خربندا جيشاً يغزو به مكة، وأطمعه في أن يخطب له بها فما تم ذلك حتى مات خربندا فانفل جمعهم، وظفر بهم محمد ابن عيسى أخو مهنا ومن معه من العرب وهو في تلك البلاد يومئذٍ فأخذوا ما معه من الأموال، وتسحّب حميضة حتى عاد إلى مكة.

(١) واتفق أن هرب من مماليك الناصر ثلاثة أنفس ليلحقوا ببلاد الططر فمروا بحميضة فأضافهم، فرأى فيهم شاباً جميلاً فمال إليه، وكان معروفاً بذلك، فأوسع له في المواعيد إلى أن أطاعه واستمر في خدمته، فلما رأى ذلك رفيقاه أقاما في خدمة حميضة فوعدهم أنه يسيرهم إلى ابن

---

(١) أحد ملوك التتار، وهو ابن خربندا.

خربندا واختص بذلك الشاب فصار لا يكاد يصبر عنه ساعة وتمادى حالهم عند حميضة فخشوا منه أن يتقرب بهم إلى الناصر فقتلوه في وادي بني شعبة فظفر بهم عطيفة أخوه فقيد الذي تولى قتله وجهزه إلى الناصر قتله به، وذلك سنة ٧٢٠.

وكان شجاعاً فاتكاً كريماً وافر الحرمة اتفق أن شخصاً مد يده لأخذ شيء من حمل وجده مطروحاً بالبرية فقطع يده فصارت الأموال توجد بالبرية لا يتعرض لها أحد من مهابته[١].

خُوبي

خُوبي العوادة. كانت مغنية فائقة في ضرب العود فاشتراها بَكْتَمُرْ الساقي بعشرة آلاف دينار مصرية ويُقال إنه لم يدخل مصر لها نظير، ولما مات بَكْتَمُر في طريق الحجاز فبلغها كسرت عودها ثم باعها الناصر لبشتاك بستة آلاف فدخلت عليه ومعها من الأمتعة أضعاف ذلك فلم تحظ عنده ويقال إنه زوجها لبعض مماليكه، وماتت بعد الأربعين وسبعمائة[٢].

الملك المؤيّد

داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول الملك المؤيد عزيز الدين بن المظفر التركماني الأصل صاحب اليمن، كان محباً في العلوم مفنناً فيها. بحث التنبيه وحفظ مقدمة ابن بابشاذ في النحو وكفاية المتحفظ في اللغة وسمع من المحب الطبري وغيره، وكان أبوه قد آثر أخاه الأشرف بالسلطنة، فتأثر المؤيد وسافر إلى جهة البحر، فلما مات أبوه سنة ٦٩٤ وتسلطن الأشرف أقبل المؤيد فغلب على عدن فجهز الأشرف ولده

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/١٦٧ - ١٦٩.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/١٨٤.

فالتقوا فهزمهم المؤيد، ثم سار طائعاً إلى أخيه، فتلقاه وأمّره فلما مات في أول سنة ٦٩٦ تسلطن المؤيد وبايعه الناصر ولد أخيه الأشرف، وخرج عليه أخوه المسعود، فلم تقم له قائمة ودخل في طاعة المؤيد، ثم فجع المؤيد في ولديه الطاهر والمظفر وهما شابان، ثم مات أخوه الواثق إبراهيم، وكان يحبه ويقدمه فحزن عليه. فلما عرف الناس محبته في الفضائل قصدوه من الآفاق بكل تحفة وملحة، وكان يبالغ في إنصافهم حتى أنه أهديت له نسخة من الأغاني بخط ياقوت فبذل فيها مائتي دينار مصرية. ولشعراء عصره فيه جل المدائح، واشتملت خزانة كتبه على مائة ألف مجلد، وأنشأ بتعز القصور العظيمة البديعة، وكان استقراره في المملكة كما تقدم في سنة ٦٩٦ ودام في المملكة خمساً وعشرين سنة، ومات سنة ٧٢١[1].

رزق الله

رزق الله بن فضل الله مجد الدين بن التاج أخو النشو. كان نصرانياً ينوب عن أخيه إذا غاب وكان فيه ميل إلى المسلمين. وكان يجهز إلى الحرمين في كل سنة ستين قميصاً. وكان يحرض أتباعه على الإسلام خفية ويعتذر سراً عن الإسلام بمراعاة أمه ثم استسلمه السلطان في سنة ٧٣٦ بعد أن لكمه وعرض عليه السيف فأسلم وقال له: لا تكن إلا شافعياً مثلي. وكان كثير البذل والبذخ وكان يعتمد تفصيل قماشه بزيادة عن طوله ويأمر الخياط أن يكف الزائد إلى داخل ويعتذر بأن يهبه لمن يكون أطول منه وكان كذلك، وقَلّ ما كان يغسل له قماش، وعمر له داراً مليحة على الخليج الناصري ولما أمسك أخوه أمسك معه فأصبح مذبوحاً ذبح نفسه بيده لأن قوصون تسلمه فأنزل عنده في القلعة ووكل به فاستغنم غفلة من الموكل به وأخذ سكيناً فنحر بها نفسه فمات. وكان كثير ما يقول لأخيه إن جرى علينا نائبة لا يرحمنا أحد لمبالغتنا في نصح الملك ويشمت بنا الناس

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/١٩٠ ـ ١٩١.

وأنا ـ واللهِ إن وقع ذلك ـ لا أمكن أحداً من عقوبتي فكان كذلك. وكان ذلك في سنة ٧٤٠[١].

اللحيانيّ الحفصيّ صاحب المغرب

زكريا بن أحمد بن محمد الهِنْتاني الحفصيّ اللحيانيّ القائم بأمر الله أبو يحيى صاحب المغرب. ولد سنة نيف وأربعين وستمائة وتفقه وأتقن النحو واستوزره ابن عمه المستنصر مدة، ثم ملك سنة ٦٨٠، ثم خُلع فتوجه إلى الحج سنة ٧٠٩ ثم رجع إلى القاهرة أول سنة ٧١٠ فجهز معه الناصر عسكراً فملك طرابلس وخطب للناصر بها ثم صبحوا تونس في ثامن جمادى الأولى سنة ٧١١ فنازلها وصاحبها أبو البقاء مريض فدخل زكريا البلد. وأشهد أبو البقاء على نفسه بالخلع وذلك في رجب فلما استوثق له الأمر قطع ذكر المهدي[٢] من الخطبة وراسل ابن عمه أبي بكر صاحب بجاية فهادنه، ثم سار أبو بكر إلى إفريقية جوّالاً في بلاد هوارة فخشى منه اللحيانيّ فجمع ما قدر عليه من المال وخرج من تونس أول سنة ٧١٧ قاصداً فاس فأقام بها، ثم توجه من فاس إلى طرابلس، ثم حمل أهله وأمواله في البحر وتوجه إلى الإسكندرية، ثم استأذن الناصر ودخل القاهرة سنة ٧٢١ وأراد الحج فمرض فأقام بها ورفض المُلْكَ إلى أن مات سنة ٧٢٧ في المحرم. وكان فاضلاً نبيهاً متقناً للعربية حسن النظم كثير الفضل وكان يعاب بالشح وأنكر عليه أهل بيته إسقاط ذكر المهدي من الخطبة وكان جده أبو حفص من كبار أصحاب ابن تومرت. وولي السلطنة بعده أبو ضربة.

وكان اللحياني محباً للحديث والآثار[٣].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢) هو محمد بن تومرت.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/٢٠٦ ـ ٢٠٧.

بنت الكمال المقدسيّة

زينب بنت أحمد بن عبدالرحيم المقدسية المعروفة ببنت الكمال. ولدت سنة ٦٤٦. قال الذهبي: تفردت بقدر وقر بعير من الأجزاء بالإجازة، وكانت دينة خيرة روت الكثير وتزاحم عليها الطلبة وقرأوا عليها الكتب الكبار. وكانت لطيفة الأخلاق طويلة الروح ربما سمعوا عليها أكثر النهار، قال: وكانت قانعة متعففة كريمة النفس طيبة الخلق وأصيبت عينها برمد في صغرها، ولم تتزوج قط وماتت سنة ٧٤٠، وقد جاوزت التسعين ونزل الناس بموتها درجة في شيء من الحديث حمل بعير[١].

المستكفي بالله

سليمان بن أحمد بن أحمد بن أبي علي الحسن العباسيّ أبو الربيع المستكفي بالله. ولد سنة ٦٨٣ واشتغل قليلا وولي الخلافة عقب والده سنة ٧٠١ وكانوا يسكنون بالكبش فنقلهم السلطان إلى القلعة وأفرد لهم داراً. وأول ما استقر المستكفي توجه مع الناصر إلى غزو التتار وشهد معه وقعة شقحب في رمضان سنة ٧٠٢ وهو مع السلطان راكب وجميع الأمراء مشاة ولما توجه الناصر إلى الكرك وقام الجاشنكير[٢] بأمر الملك قلده المستكفي السلطنة وكتب تقليده القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر وأوله: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمٰن الرحيم) هذا عهد لا عهد لمليك بمثله، فلما عاد الناصر إلى المملكة اعتقله ببرج القلعة ثم أفرج عنه بعد خمسة أشهر وأنزله إلى داره، ثم جهزه وأولاده إلى قوص موكلاً بهم في شهور سنة ٧٣٨، وكان السبب في ذلك أن الناصر أحضرت إليه قصة[٣] عليها خط الخليفة بأن يحضر السلطان لمجلس الشرع الشريف فغضب من ذلك وأمر بإحضاره إلى القلعة حين يحضر القضاة فأشار القاضي جلال الدين القزويني

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) يعني بيبرس.

(٣) أي عريضة.

بترك ذلك خشية أن يبدو منه كلام لا يمكن رده عليه فاستصوب السلطان رأيه.

(١) واقتضى الحال أن أمر بأن يخرج إلى قوص ورسم له بصرف راتبه كما كان في القاهرة وأزيد من ذلك فكان مرتبه خمسة آلاف فلم يصل إليه منها إلا ثلاثة آلاف، ثم تناقص إلى ألف بحيث احتاج عياله إلى بيع ثيابهم. واستمر المستكفي بقوص إلى أن مات في سنة ٧٤٠، فكانت مدة خلافته تسعاً وثلاثين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً وعهد بالخلافة لولده أحمد فلم يمضه الناصر وبايع لابن أخيه إبراهيم، ثم مات الناصر فأعيد أحمد، وعوقب الناصر في أولاده بعد موته بيسير فأُخرجوا موكلاً بهم إلى قوص في صفر سنة ٧٤٢[١].

نجم الدين الطُّوفيّ

سليمان بن عبدالقوي بن عبدالكريم المعروف بابن عباس الحنبلي نجم الدين. ولد سنة ٦٥٧، وهو الطُّوفيّ، أصله من طوف قرية ببغداد، ثم قدم الشام فسكنها مدة، ثم أقام بمصر مدة واشتغل في الفنون، وتعانى التصانيف في الفنون، وكان قوي الحافظة شديد الذكاء.

وقرأت بخط القطب الحلبيّ: كان فاضلاً له معرفة وكان مقتصداً في لباسه وأحواله، متقللاً من الدنيا، وكان يتهم بالرفض، وله قصيدة يغض فيها من بعض الصحابة. قال الصفدي: كان وقع له بمصر واقعة مع سعد الدين الحارثي وذلك أنه كان يحضر دروسه فيكرمه فيبجله، وقرره في أكثر مدارس الحنابلة، فتبسط عليه إلى أن كلمه في الدرس بكلام غليظ، فقام عليه ولده شمس الدين عبدالرحمٰن وفوض أمره لبدرالدين بن الحبال فشهدوا عليه بالرفض، وأخرجوا بخطه هجوا في الشيخين، فعزر وضرب

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٢٣٦ - ٢٣٨.

فتوجه إلى قوص[1] فنزل عند بعض النصارى وصنف تصنيفاً أنكروا عليه منه ألفاظاً، ثم استقام أمره وأقبل على قراءة الحديث والتصنيف وشرح الأربعين للنووي، وكان في الشعر الذي نسبوه إليه مما يصرح بالرفض قوله:

كم بين من شُكَّ في خلافته ... وبين من قيل إنه الله

وكان موته ببلد الخليل سنة ٧١٦. وقال الكمال جعفر: كان كثير المطالعة، أظنه طالع أكثر كتب خزائن قوص قال: وكانت قوته في الحفظ أكثر منها في الفهم، وقال الذهبي: كان ديناً ساكناً قانعاً ويقال: إنه تاب عن الرفض ونسب إليه أنه قال عن نفسه:

حنبلي رافضي ظاهري ... أشعري إنها إحدى الكبر

ويقال: إنّ بقوص خزانة كتب من تصانيفه.

(١) وقال ابن رجب في طبقات الحنابلة: لم يكن له يد في الحديث، وفي كلامه فيه تخبيط كثير، وكان شيعياً منحرفاً عن السنة، وصنف كتاباً سماه «العذاب الواصب على أرواح النواصب»، قال: ومن دسائسه الخفية أنه قال في شرح الأربعين[2]: إن أسباب الخلاف الواقع بين العلماء تعارض الروايات والنصوص وبعض الناس يزعم أن السبب في ذلك عمر بن الخطاب، لأن الصحابة استأذنوه في تدوين السنة فمنعهم مع علمه بقول النبي ﷺ: «اكتبوا لأبي شاه» وقوله: «قيدوا العلم بالكتاب»، فلو ترك الصحابة يدون كل واحد منهم ما سمع عن النبي ﷺ، لانضبطت السنة فلم يبق بين آخر الأمة وبين النبي ﷺ إلا الصحابي الذي دونت روايته، لأن تلك الدواوين كانت تتواتر عنهم كما تواتر البخاري ومسلم، قال ابن رجب: ولقد كذب هذا الرجل وفجر، وأكثر ما كان يفيد تدوين السنة

---

(١) مدينة كبيرة بصعيد مصر، انظر «معجم البلدان»: ٤/٤١٣.
(٢) أي النوويّة.

صحتها وتواترها، وقد صحت، وتواتر الكثير منها عند من له معرفة بالحديث وطرقه دون من أعمى الله بصيرته، مشتغلاً فيها بشبه أهل البدع، ثم إن الاختلاف لم يقع لعدم التواتر، بل لتفاوت الفهوم في معانيها وهذا موجود سواء تواترت ودونت أم لا، وفي كلامه رمز إلى أن حقها اختلط بباطلها وهو جهل مفرط، وقال ابن رجب: وذكر بعض شيوخنا عمن حدثه أنه كان يظهر التوبة ويتبرأ من الرفض وهو محبوس؛ قال ابن رجب: وهذا من نفاقه فإنه لما جاور في آخر عمره بالمدينة صحب السكاكينيّ شيخ الرافضة ونظم ما يتضمن السب لأبي بكر، ذكر ذلك عنه المطريّ حافظ المدينة ومؤرخها وكان صحب الطوفي بالمدينة، وكان الطوفي بعد سجنه قد نُفي إلى الشام، فلم يدخلها لكونه هجا أهلها فعرّج إلى دمياط فأقام بها مدة ثم توجه إلى الصعيد[1].

صدرالدين الشافعيّ

سليمان بن يوسف بن مفلح بن أبي الوفاء الياسوفيّ صدرالدين الشافعيّ. ولد سنة ٧٣٩ تقريباً.

(١) نقله أبوه إلى مدرسة أبي عمر بالصالحية فقرأ بها القرآن وحفظ التنبيه ومختصر ابن الحاجب وأقبل على التفقه، وكان يحفظ من مختصر ابن الحاجب في كل يوم مائتي سطر إلى أن ختمه.

وكان ذكياً فقيه النفس كثير المروءة محبوباً للناس معيناً للطلبة خصوصاً أهل الحديث على مقاصدهم بجاهه وكتبه وماله، وقد سمع بمصر والقاهرة وحلب، وقرأ وخرج وشارك في فنون الحديث وخرج تخاريج مفيدة وكان سهل العاريّة للكتب كثير الإطعام للناس، وكان بعد أن نزل في المدارس قد ترك ذلك هو وبدرالدين بن خطيب الحديثة وتزهدا وتركا الرياسة لكن صدرالدين صار يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٢٤٩ - ٢٥٢.

وأوذي مراراً فلم يرجع ثم حبب إليه الحديث فأقبل عليه بكليته ورحل إلى مصر وحلب. قال الشهاب ابن حجي: كان جيد الفهم مشهوراً بالذكاء قال: وكان في أواخر أمره قد أحب مذهب الظاهر وسلك طريق الاجتهاد وصار يصرح بتخطئة جماعة من أكابر الفقهاء على طريقة ابن تيمية، ولما دخل شهاب الدين برهان الشام بعد حبس الملك الظاهر الخليفة المتوكل داعياً إلى القيام على السلطان التف عليه ونوه به وصار يتعصب له ويعينه فأُخِذ فيمن أخذ فمات في سجن القلعة مبطوناً شهيداً في شعبان سنة ٧٨٩، واستراح من المحنة التي أصابت أصحابه.

قلت: وذكر لي ابن البرهان أن الشيخ صدرالدين لما قبض عليه حصل له فزع شديد أورثه الإسهال فاستمر به إلى أن مات بالقلعة مظلوماً مبطوناً شهيداً(١).

سَلاّر

سَلاّر التتريّ المنصوريّ. كان من مماليك الصالح علي بن قلاوون فلما مات صار من خواص أبيه ثم خواص الأشرف، وناب في الملك عن الناصر واستمر في ذلك فوق العشر سنين ولما ولي لاجين أكرمه واحترمه وكان صديقاً، فلما قتل ندبوه إلى إحضار الناصر من الكرك فركن إليه وسار معه واستنابه وقدمه على الكل، وسار في جمادى الآخرة سنة ٧٠١ إلى الصعيد فوطّأه وأمسك من العرب المفسدين جماعة وأوقع بهم وعاد في شعبان منها ويقال إن جملة ما أحضره من الخيول خمسة آلاف ومن الجمال عشرين ألفاً خارجاً عن الغنم والبقر وغير ذلك.

(١) ولما ملك المظفر بيبرس استمر به في النيابة فلما عاد الناصر من الكرك ولاه الشَّوْبَك(٢) فتوجه إليها ثم خشى على نفسه ففر في البرية ثم

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٢٦١ - ٢٦٤.

(٢) قال ياقوت: «قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة (العقبة) والقُلزم (البحر الأحمر)» انظر «معجم البلدان»: ٣/٣٧٠.

ندم وطلب الأمان وحضر إلى القاهرة فاعتقل ومنع عنه الغذاء فيقال أكل جيفة ومات جوعاً وقيل بل دخلوا عليه فقالوا له: قد عفا عنك السلطان فقام يمشي من الفرح خطوات وخر ميتاً.

(١) واشتهر بين العوام أن دخله في كل يوم مائة ألف درهم، ويقال إنه وجد له ثلاث مائة ألف ألف دينار حكاه الجزريّ، وقال الذهبي: هو كالمستحيل ثم برهن على بطلانه بأن ذلك يكون حمل خمسة آلاف بغل قال وما سمعنا عن أحد من كبار السلاطين أنه ملك هذا القدر لاسيما وهو خارج عن الجواهر والحليّي والخيل والسلاح والغلال ومن عجب الدهر أنه دخل إلى شونته في سنة موته ستمائة ألف أردب ومات مع ذلك جوعاً، وكان موته سنة ٧١٠ وهو في حدود الخمسين بل لم يبلغها.

ولم يكن للناصر كلام أيام سلار وبيبرس غير الاسم، وشهد وقعة شقحب مع الناصر وأبلى فيها بلاء عظيماً وقام لما وقعت الزلزلة سنة ٧٠٢ فحمل في البحر عشرة آلاف أردب ففرق غالبها في سنة وأوفى ديون غالب من بمكة حتى قيل إنه كتب أسماء جميع من بمكة ساكناً فأعطى كل منهم قوت سنة وكذا فعل بالمدينة النبوية، وكان أصحاب بيبرس ربّما أغروه بسلار فلا يتغير عليه حتى هم سلار مرة أن يجمع ويدخل اليمن ويتملكها ففطن له بيبرس فما زال حتى رجعه عن ذلك، فلما سار الناصر إلى الكرك مغاضباً لهما اتفقوا على سلطنة سلار فامتنع وأصر فاستقر بيبرس فلما زالت أيام بيبرس وكانت حاشيته ألحت عليه في القبض على سلار فهم بذلك ففهم سلار ذلك فتمارض واتفق انحلال أمر بيبرس وفر فأرسل سلار مملوكه أسلم بالنجاة إلى الناصر وجلس في دار النيابة وطلب من الناصر نيابة الشَّوْبَك لما حضر وجلس على كرسي الملك فأنعم عليه بها وسافر وترك ولده ناصراً مقيماً بالقاهرة ثم قبض الناصر على إخوة سلار ثم أرسل بطلبه فأشاروا عليه بالفرار إلى الحجاز أو إلى برقة أو إلى التتار فامتنع وقدم إلى الناصر فقبض عليه. وكان أعجوبة في البخل والكرم فإنه أعطى أميراً واحداً

كان إقطاعه قد انكسر ألف دينار وأربعة آلاف أردب وأعطى آخر أربعة آلاف أردب وألف رأس غنم، وكان مشهوراً بالشجاعة والفروسية حتى كان لا يتحرك على ظهر فرسه إذا ركبه[1].

طُغاي

طُغاي أم آنوك زوج الناصر. اشتراها تِنْكز بتسعين ألف درهم قيمتها يومئذٍ نحو خمسة آلاف دينار لأن سيدها كان مشغوفاً بها، وبلغ خبرها الناصر فأرسل إلى تِنْكِز يطلبها فبذل جهده إلى أن اشتراها وجهزها إلى الناصر فحظيت عنده، ويقال إن سيدها ندم على بيعها وتوجه إلى مصر ووقف للسلطان وتوصل إلى أن شكا إليه حاله فأعطاه ألف دينار وكتب له بألفي دينار أخرى وولدت للناصر في سنة ٧٢١ ولده آنوك فسر به واستأذنته في الحج ففعل، وجهزها تجهيزاً اشتهر وبسببها أبطل الناصر عن مكة المَكْس[2] الذي كان يؤخذ على القمح حتى يقال إنه لم يُسمع بامرأة سلطان حجت مثل حجتها ولا أنفقت على حجتها مثل نفقتها، وكانت عفيفة كريمة، وكانت معظمة في أيامه وبعده إلى أن ماتت في سنة ٧٤٩. وبلغت عدة معتقاتها من الجواري ألف نسمة ومن الخدم ثمانين طواشياً. ولم يستمر الناصر على محبة غيرها من النساء مثلها ولم تُنْكب قَطُّ إلى أن ماتت[3].

طُقاي

طُقاي بن منكوتمر بن ساين خان بن جنكيز خان المُغلي صاحب القبجاق. كانت مملكته واسعة جداً وعساكره تفوت الرمل عدّاً حتى يقال إنه جهز جيشاً فأخرج من كل عشرة واحداً فبلغوا مائتي ألف وملك مدّة ثلاث

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٢٧٦ - ٢٧٨.

(٢) الضريبة.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/٣٢٢.

وعشرين سنة، وكانت وفاته في سنة ٧١٢، ولم يُسلم بل كان يحب المسلمين وخصوصاً الفضلاء منهم ومن كل الملل، ويميل إلى الأطباء والسحرة، وأسلم ولده، ويقال إن طول مملكته ثمانية أشهر وعرضها ستة، وكان له ولد حسن الشكل فأسلم وأحب القرآن وسماعه فمات قبل أبيه[1].

عائشة

عائشة بنت إبراهيم بن صديق زوج الحافظ المزيّ. ولدت سنة ٦١ وسمعت من أبي الفضل بن عساكر وغيره وحدثت، وكانت تحفظ القرآن وتلقنه النساء. قال ابن كثير، وكان زوج ابنتها: كانت عديمة النظير لكثرة عبادتها وحسن تأديتها للقرآن تفضل في ذلك على كثير من الرجال، واقرأت عدة من النساء وختمن عليها وانتفعن بها، وكانت زاهدة في الدنيا متقللة منها ماتت سنة ٧٤١[2].

شرف الدين ابن القيّم

عبدالله بن محمد بن أبي بكر الحنبليّ الدمشقيّ شرف الدين بن الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، ولد سنة ٢٣ وصلى بالقرآن سنة ٣١ واشتغل على أبيه وغيره.

(١) وكان مفرط الذكاء: حفظ سورة الأعراف في يومين.

ثم درس المحرر في الفقه، والمحرر في الحديث، والكافية الشافية، وسمع الكثير ومهر في العلم، وأفتى، ودرس، وحج مراراً، وصفه العماد ابن كثير بالذهن الحاذق، وقال ابن رجب: كان أعجوبة زمانه، مات سنة ٧٥٦[3].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٣٢٧.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/٣٣٩.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/٣٩٦.

ابن الخوّام

عبدالله بن محمد بن عبدالرزاق الحَربِوِي عمادالدين بن الخَوّام العراقي الحيسوب الطبيب. ولد سنة ٤٣ وتمهر في المعقولات والحساب والطب ولازم النصير الطوسي، وصنف في الطب والحساب، وقرأ عليه جماعة في فنون من الجد والهزل، وصنف تصانيف وله إنشاء وبلاغة، ودرس في مذهب الشافعيّ بدار الذهب وولي رياسة الطب ومشيخة الرباط ببغداد وأدب هارون بن الوزير وأولاد عمه علاءالدين صاحب الديوان وكثرت أمواله.

(١) وحُكِي عنه أنه قال: لما طلبني علاءالدين لتعليم أولاده الحساب قال لي: كم أربعة في أربعة؟ فقلت: متى أجبته بالعادة لم يقع الموقع، فقلت: نصف اثنين وثلاثين وثلث ثمانية وأربعين وخُمس ثمانين واستمريت في ذلك، فقال: حسبك بان فضلك. وكان يصلح مزاجه بالمفرحات والمعاجين وفي أيام الورد يملأ بيته منه يعلقه في قصب السقوف والحيطان.

(٢) وكانوا قد شهدوا عليه بالكفر بسبب أنه قرّظ الوزير رشيد الدولة فقال في تقريظه: فهو إنسان ربانيّ بل رب إنساني، تكاد تخال عبادته بعدالله، فثاروا عليه بعد قتل رشيد الدولة فبادر هو إلى الحَكَم فأعطاه ذهباً فعقد له مجلساً واستسلمه وحكم بحقن دمه، فقال محمد العلوي في ذلك:

أيا حزب إبليس ألا أبشروا ... بأن فتى الخوّام قد أسلما
وكان فيما قال في كفره ... بأن رشيدالدين رب السما
وقال لي شيخ خبير به ... ما أسلم الشيخ بل استسلما[1]

زين الدين الفارقيّ

عبدالله بن مروان بن عبدالله بن فيروز الفارقي أبو محمد زين الدين، ولد في سنة ٣٣، وتفقه، وكان ذا مهابة وفصاحة، حسن الخط، كثير

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٤٠٠ ـ ٤٠١.

التسرع في الإفتاء، وحصل له بسبب ذلك أمور مشكلة، وولي دار الحديث الأشرفية بعد النوويّ، ودرس بالشامية والناصرية وباشر الخطابة في جمادي الأولى سنة ٧٠٢، قال الذهبيّ: كان فصيحاً متقناً متحرياً، لديه فضيلة جيدة مع دين وصيانة وقوة في الحق وله هيئة وزعارة، قال: ولم يكن بالماهر في الخطابة لأنه دخل فيها وقد شاخ.

(١) وقرأت بخط العثمانيّ قاضي صفد أنه حضر دار العدل فرأى على الأفرم[١] قباء[٢] حرير وخاتم فضة ودواة مذهبة، فقال: إذا سألني الله عن هذا ما حجتي إذا قال لي: لِم لم تقل له إن هذا حرام بالإجماع؟ وبكى فأبكى الحاضرين والأفرم، وبادر إلى نزع القباء والخاتم، واستبدل بهما وبالدواة، قال: فكان آمراً بالمعروف قائماً بالحقوق، كثير الإيثار، عظيم التواضع، رحمه الله. مات سنة ٧٠٣.

المنوفيّ

عبدالله المغربيّ الأصل ثم المصريّ المشهور بالمنوفيّ.

انقطع بالمدرسة الصالحية فكان لا يخرج إلّا إلى صلاة الجماعة أو الجمعة، وتقلل من متاع الدنيا وامتنع من الاجتماع بالسلطان، وعين لكثير من المناصب فلم يُجب، واشتهر بالديانة والصلاح والعبادة والزهادة، وحكيت عنه الكرامات الكثيرة.

قال الشيخ خليل في ترجمته: كان يتكلم في المعارف كلام من هو قطب رحاها وشمس ضحاها، وكان يشغل في العربية والأصول ولكن في الفقه أكثر، وقد شهد له معاصروه بأنه كان أحسن الناس إلقاء للتفسير.

---

(١) أمير دمشق.
(٢) نوع من الملابس.

(١) وكان يصوم الدهر لكنه يفطر إذا دعي إلى وليمة، ويتعبد ويشغل عامة نهاره وأكثر ليله.

(٢) وكان في غاية التواضع والزهد والورع، وكان لا يكتسي إلا من غزل أخته لعلمه بحالها ويتبلغ من زرعه.

(٣) وكان كثير الاحتمال ولا سيما من جفاء الطلبة من المغاربة وأهل الريف.

مات في الطاعون العام في رمضان سنة ٧٤٩.

وكان فقيهاً مالكياً، ذاكر للمسائل مقبلاً على إشغال الطلبة ينقضي وقته في ذلك مع وفائه بالأوراد التي وظفها على نفسه من صيام وقيام وتلاوة وذكر.

(٤) قال الجائي الدوادار: وقع في نفسي إشكال فقصدت بعض العلماء بالصالحية لأسأله عنه فلم أجده فوجدت الشيخ عبدالله المنوفيّ فسلمت عليه فقال لي: لعلك تشتغل بشيء من العلم؟ فقلت: نعم، فذكر لي المسألة بعينها والإشكال بعينه فقلت له: منكم يستفاد، قال: فأجابني جواباً شافياً وأزال الإشكال فسألته أنا عن مسألة أخرى فقال لي: قم فقد حصل المقصود[1].

الأَرْمنتي

عبدالباري بن الحسين بن عبدالرحمٰن الأَرْمَنْتِي كمال الدين البكريّ. تفقه لمالك، ثم الشافعيّ وفاق في المذهبين. حفظ مختصر ابن الحاجب ثم التعجيز لابن يونس وقال له ابن دقيق العيد: اكتب على باب بلدك أنه ما خرج منه أفقه منك.

(٥) وكان شديد الورع؛ كان عنده قمح قد انتقاه وغسله بالماء فكان

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٤١٩ - ٤٢١.

يزرعه في أرض يختارها ثم يطحنه ويخبزه بنفسه، وكان عنده طين طاهر يعمل منه لأكله وشربه ولم يزل يبالغ في ذلك إلى أن خرج به إلى حد الوسواس، ثم أفرط حتى غلبت عليه السوداء وفساد التخيل فطلع يوماً المنبر بقوص بعد الجمعة وادّعى أنه الخليفة، ثم صلح حاله ومات بقوص سنة ٧٠٦[1].

زين الدين ابن رجب

عبدالرحمٰن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي الحنبلي الشيخ المحدث الحافظ زين الدين. ولد ببغداد سنة ٧٠٦ وقدم دمشق مع والده وأكثر الاشتغال حتى مهر وصنف شرح الترمذي وقطعةً من البخاري، وذيل الطبقات للحنابلة، واللطائف في وظائف الأيام بطريق الوعظ وفيه فوائد، والقواعد الفقهية[2] أجاد فيه، وقرأ القرآن بالروايات وأكثر عن الشيوخ وخرج لنفسه مشيخة مفيدة، ومات سنة ٧٩٥.

(١) ويقال إنه جاء إلى شخص حفار فقال له: احفر لي هنا لحداً وأشار إلى بقعة قال الحفار: فحفرت له فنزل فيه فأعجبه واضطجع وقال: هذا جيد فمات بعد أيام فدفن فيه.

ابن الحفيد المالكيّ

عبدالرحمٰن بن محمد بن عبدالرحمٰن السجلماسي المعروف بابن الحفيد أبو القاسم المالكيّ. ولد سنة بضع عشرة، وقدم من بلاده إلى الحج فدخل القاهرة، ثم دخل حلب تاجراً، ثم رحل إلى بغداد في التجارة ثم حج ودخل القاهرة وعاد إلى حلب قاضياً للمالكية، فباشر إلى أن عزل

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤٢٢/٢.
(٢) ذيل الطبقات واللطائف والقواعد الفقهية مطبوعة متداولة، وانظر «الدرر الكامنة»: ٤٢٨/٢ - ٤٢٩.

في سنة ٨٧ بالقاضي جمال الدين النحريري، وكان فاضلاً كثير الاستحضار للعربية واللغة والأصول.

(١) قال القاضي علاءالدين في تاريخه: كان كلامه أكثر من علمه، عفيفاً في القضاء، وكان يزعم أن ابن الحاجب لا يعرف مذهب مالك ولا يرفع لأحد من المتأخرين قدراً، وكانت عنده حدة خلق في البحث وصياح وجرت بينه وبين القاضي شهاب الدين بن أبي الرضى مباحث أدت إلى منافرة شديدة، وكان أكثر الفضلاء من أهل حلب معه على ابن أبي الرضى لِما كانوا ينقمونه من ابن أبي الرضى من الازدراء ثم لما انفصل الحفيد من القضاء سكن في غزة مدة، وفي القدس مدة إلى أن مات في سنة ٧٨٩[١].

ابو تاشفين

عبدالرحمٰن بن موسى بن عثمان الزناتيّ البربري أبو تاشفين بن أبي حمو المغربي صاحب تلمسان. حاصره أبو الحسن المرينيّ صاحب تونس مدة فبرز أبو تاشفين في شهر رمضان لمكيدة كان دبرها فانعكس عليه فقتل على ظهر جواده في شهر رمضان سنة ٧٣٧ وكانت دولته نيفا وعشرين سنة. وكان أبو تاشفين قد نظر في العلم وتفقه على ابن الإمام.

(٢) وقد قتل أباه، ويذكر عنه سوء سيرة وقبائح مع حزم وشجاعة وحروب[٢].

جمال الدين الإسنويّ

عبدالرحيم بن الحسن بن علي الأموي الإسنوي نزيل القاهرة الشيخ جمال الدين أبو محمد. ولد سنة ٧٠٤ بإسنا من صعيد مصر، وقدم القاهرة سنة ٢١، وقد حفظ التنبيه، ويقال إنه حفظ التنبيه في ستة أشهر، ولازم

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤٥١/٢ ـ ٤٥٢.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٤٥٧/٢ ـ ٤٥٨.

الاشتغال، ثم الإشغال والتصنيف، فكانت أوقاته محفوظة مستوعبة لذلك، وولي وكالة بيت المال والحسبة، ودرّس بالملكية والأقبغاوية والفاضلية[1]، ودرّس التفسير بالجامع الطولوني، وصنف التصانيف المفيدة.

(١) وكان فقيهاً ماهراً ومعلماً ناصحاً ومفيداً صالحاً مع البِرِّ والدين والتودد والتواضع، وكان يقرب الضعيف المستهان ويحرص على إيصال الفائدة للبليد.

وكان ربما ذكر عند المبتدىء الفائدة المطروقة فيصغى إليه كأنه لم يسمعها جبراً لخاطره.

وكان مثابراً على إيصال البر والخير لكل محتاج، هذا مع فصاحة العبارة وحلاوة المحاضرة والمروءة البالغة. وقد أفرد له شيخنا العراقي ترجمة ذكر فيها كثيراً من فضائله ومناقبه ومن نظمه أيضاً وبالغ في الثناء عليه وكان هو يحب شيخنا ويعظمه وذكره في طبقات الشافعية في أثناء ترجمة ابن سيد الناس ووصفه بأنه حافظ عصره، وقال شيخنا العراقي: اشتغل في العلوم حتى صار أوحد أهل زمانه وشيخ الشافعية في أوانه وصنف التصانيف النافعة السائرة وتخرج به طلبة الديار المصرية وكان حسن الشكل والتصنيف لين الجانب كثير الإحسان. وكانت وفاة الشيخ جمال الدين سنة ٧٧٢ وله سبع وستون سنة ونصف سنة رحمه الله تعالى. رأيت بخط الشيخ بدرالدين الزركشي كانت جنازته مشهودة تنطق له بالولاية[2].

بهاءالدين الإسرائيليّ

عبدالسيد بن إسحاق بن يحيى الإسرائيلي الحكيم الفاضل بهاءالدين.بن المهذب. كان ديان اليهود وكان يحب المسلمين ويحضر

(١) أسماء مدارس.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/٤٦٣ - ٤٦٥.

مجالس الحديث ثم هداه الله تعالى وأسلم وتعلم القرآن وجالس العلماء. وكان ماهراً في صناعة الطب والكحل، قال ابن كثير: كان إسلامه يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة سنة ٧٠١ وحضر هو وأولاده إلى دار العدل فأسلموا جميعاً فأكرموا إكراماً زائداً، لأنهم أسلموا طائعين على بصيرة، وعمل في تلك الليلة في داره ختمة ووليمة عظيمة حضرها القضاة والعلماء، وأسلم على يده جماعة من اليهود من أقاربه وخرجوا يوم عيد الأضحى يكبرون مع المسلمين وفرح الناس بهم فرحاً زائداً وأكرموهم إكراماً عظيماً، مات سنة ٧١٥[1].

صفيّ الدين الحِلِّيّ

عبدالعزيز بن سرايا بن علي الطائي الحِلِّيّ صفي الدين. ولد سنة ٦٧٧ وتعانى الأدب فمهر في فنون الشعر كلها، وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها، وتعانى التجارة، فكان يرحل إلى الشام ومصر، وماردين وغيرها في التجارة، ثم يرجع إلى بلاده، وفي غضون ذلك يمدح الملوك والأعيان، وانقطع مدة إلى ملوك ماردين، وله في مدائحهم الغرر وامتدح الناصر محمد بن قلاون والمؤيد إسماعيل بحماة.

وكان يُتهم بالرفض، وفي شعره ما يشعر به، وكان مع ذلك يتنصل بلسان قاله وهو في أشعاره موجود وإن كان فيها ما يناقض ذلك، وكان الصدر شمس الدين عبداللطيف يعتقد أنه ما نظم الشعرَ أحد مثله مطلقاً. وديوان شعره مشهور يشتمل على فنون كثيرة وبديعيته مشهورة، وكذا شرحها، وذكر فيه أنه استمد من مائة وأربعين كتاباً[2].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٤٧٦.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٢/٤٧٩.

عزالدين ابن جماعة

عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ابن صخر الكنانيّ الشافعيّ عزالدين قاضي المسلمين. ولد سنة ٦٩٤، وحدث وصنف وكان كثير الحج والمجاورة.

قال الذهبيّ في «المعجم المختص»: قدم علينا بولده سنة ٢٥ فقرأ الكثير وسمع وكتب الطباق وعنى بهذا الشأن وكان حسن الأخلاق كثير الفضائل وأثنى عليه في معجمه بالتصون والديانة، ووَلِيَ قضاء الديار المصرية سنة ٣٨. وقال الإسنوي في «الطبقات»[1]: نشأ في العلم ومحبة أهل الخير ودرس وأفتى وصنف تصانيف حسان وسار سيرة حسنة في القضاء، وكان حسن المحاضرة سريع الخط سليم الصدر محباً لأهل الخير شديد التصميم في الأمور التي تصل إليه. قال: وكانت فيه عجلة في الجواب قد تؤدي إلى الضرر ولم يكن فيه حذق وغالب أموره بحسب من يتوسط بخير أو شر، عزل نفسه في سنة ٥٤ واستأذن في الحج فأذن له، ولم يزل به أمراء الدولة إلى أن قبل التولية ثم ألقى الله في نفسه كراهة المنصب فاستعفى في سنة ٦٦ وحج من سنته وجاور وزار في أثناء سنة ٧٦٧، ورجع إلى مكة فمرض بها ومات ودفن بالحجون.

(١) قرأت بخط القاضي تقي الدين الزبيري: في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٦ توجه إلى الأمير يَلْبُغا مدبر المملكة وهو في الصيد في بعض بلاد الجيزة فسلم عليه فسأله عن سبب حضوره فأخرج إليه مصحفاً كان معه، وسأله به وأقسم أن يعفيه من القضاء فامتنع فألح عليه إلى أن قال: عزلت نفسي، وذكر ما يقتضي ترقيق قلبه عليه وقبول عذره، وتوجه من عنده وهو منبسط ويقول لمن يلقاه: أعفيت من القضاء وعزلت نفسي وكل من يسمع ذلك يتألم، فلما رجع يَلْبُغَا إلى القاهرة أرسل له

---

(١) أي طبقات الشافعية.

خواصه شيئاً بعد شيء يسألونه ويضرعون إليه وهو مصمم على الامتناع إلى أن ركب يَلْبُغَا إليه فدخل عليه وهو في جامع الأزهر وصحبته قاضي الحنفية جمال الدين بن التركماني، وقاضي الحنابلة موفق الدين الحنبلي، واستعان بهما عليه فامتنع فألحوا عليه فصمم وحلف بأيمان مغلظة أنه لا يعود، ثم اتفق الرأي على تولية أبي البقاء (السبكي) ويقال إن ذلك كان بمشورة القاضي عزالدين، فلما ولي أبو البقاء حضر إليه وسلم عليه وأحسن إلى من هو من جهته، وحج القاضي عزالدين من سنته وجاور إلى أن مات في السنة المقبلة، وكان يقول: أتمنى أن أموت في أحد الحرمين معزولاً عن القضاء، فنال أمنيته في الأمرين ودفن بالقرب من الفضيل بن عياض بباب المعلاة[١].

عز الدين الكارميّ

عبدالعزيز بن منصور الكريمي عز الدين التاجر الكارمي أحد المشهورين بكثرة الأموال. كان أبوه من يهود حلب فأسلم في آخر الدولة الظاهرية[٢] وتعلم هو الخياطة يكتسب بها فلازم بعض التجار بسبب ذلك فرأى منه نهضة فصرفه في حوائجه فسافر معه إلى بلاد الخطا فغاب مدة وعاد إلى حلب ومعه شيء كثير من الحرير، ثم كثر ماله إلى أن كان له ستة خدام بيد كل واحد منهم مائتا ألف دينار للتجارة، ثم ازداد وصار يضرب به المثل في كثرة المال وعجز عن حصر ماله بحيث إنه بلغ مَكْس[٣] ما أحضره إلى مصر في سنة واحدة أربعين ألف دينار. وكان متسعاً في نفقاته على خلاف طرائق التجارة، وكان يكثر البر والمعروف ويخرج زكاة ماله فيُقصد من الآفاق فيعطي.

مات بالاسكندرية سنة ٧١٣[٤].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٤٨٩ - ٤٩١.

(٢) دولة من دول المماليك كان سلطانها يلقب بالظاهر.

(٣) أي: ضريبة.

(٤) «الدرر الكامنة»: ٢/٤٩٣ - ٤٩٤.

عبدالغفّار القوصيّ

عبدالغفار بن أحمد بن عبدالمجيد القوصيّ أصله من الأقصر. سمع الحديث من الدمياطي والمحب الطبري ولازم عبدالعزيز المنوفي وأبا العباس الملثم وغيرهما من أجل الطريق[1] وصنف كتاباً في ذلك ضاهى به رسالة القشيري في سرد من اجتمع به منهم وسماه «الوحيد في سلوك أهل التوحيد» وهو في مجلدين. وبنى بظاهر قوص رباطاً حسناً ووقع له أمر يتعلق بالنصارى بقوص وكنائسهم في سنة ٧٠٠ فحمل إلى القاهرة وأقام بها إلى أن مات سنة ٧٠٨. كتب عنه أبو حيان والقطب الحلبي وعلاء الدين القونوي وآخرون.

(١) واتفقت له كائنة مع النصارى؛ قام بعد صلاة الجمعة وصاح: يا فقراء[2] اخرجوا إلى هدم الكنائس فُهدم في الحال ست كنائس، وذكر ابن الدمامينيّ التاجر أنه اجتمع به متعجباً من ذلك الفعل مع أنه كان منقطعاً عن الناس مشهوراً بالخير والصلاح فأجابه بأنهم زادوا في الطغيان والفساد ففعل بهم ذلك. وكوتب الناصر في ذلك فأمر بإحضاره إلى القاهرة[3].

ابن القلا

عبدالغني بن الحسين بن يحيى الجزري المعروف بابن القلا، صدر الدين بن رشيد الدين التاجر الأديب. تنقل في البلاد للتجارة ودخل الهند وغيرها ثم دخل دمشق سنة ٨١ واستوطنها إلى أن مات، قال الجزريّ في تاريخه: كان أديباً فاضلاً حسن النظم ولم يكن له اشتغال في العَروض والعربية، وكان حسن الخط كتب لنفسه ولغيره بغير أجرة شيئاً كثيراً.

(٢) قال ابن الجزري في تاريخه: وأخبرني أنه خرج إلى بانياس

---

(١) أي طريق التصوف.
(٢) أي يا صوفيّة.
(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/٤٩٥ ـ ٤٩٦.

ليشتري حريراً فأدركه المساء ومعه رفقة عند قرية منها فبات في مسجد خارج القرية فجاءهم إمام المسجد ليصلي العشاء فصلى بهم وحذرهم من الأسد وقال لو علمت بكم منعتكم أن تبيتوا هنا فإنه في كل ليلة يأوي هنا. قال: فأخذنا حطباً نتدفأ به وصرنا نوقده وكان معنا حمار فربطناه في حلقة باب المسجد من خارج فجاء الأسد يهدر فخاف الحمار منه فدفع الباب برأسه فانفتح فدخل الأسد المسجد فدخل خلفه فخرج الحمار فأغلق الباب لخروجه وصار الأسد معنا لا يهجم علينا بسبب النار إلى أن أصبح الصباح فجاء الإمام فدفع الباب فوثب عليه الأسد فأخذه وانصرف وهو يصيح فكان ذلك آخر العهد به وخرجنا سالمين.

مات سنة ٧٠٢[١].

عبدالقادر الأُدْفُوِيّ

عبدالقادر بن مهذب بن جعفر الأدفُوِي، ذكره في الطالع السعيد فقال: كان ذكياً جواداً متواضعاً دخل إلى قوص، وكان مقبلاً على كتاب «الدعائم» لابن النعمان شيخ الإسماعيلية، وكان يقرىء الفلسفة ويعتقد نبوة محمد ﷺ ينزله غايته من التعظيم، إلا أنه كان يرى سقوط الأركان الإسلامية عمن حصلت له المعرفة بربه بالأدلة التي يعتقدها، وكان هو على ذلك مواظباً على الصلاة والصيام يعتقد أن القيام بالتكاليف الشرعية يقتضي الزيادة في الخير ولو حصلت المعرفة، وكان يفكر طويلاً، ويقوم يرقص ويقول:

يا قطوع من أفنى عمره في المحلول ... فاتو العاجْل والآجل ذا البهلول

قال: ومرض فلم أصِل إليه، ومات فلم أصلِّ عليه، وكانت وفاته في سنة ٧٢٥[٢].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢/٤٩٧ - ٤٩٨.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٦ - ٧.

جمال الدين التبريزيّ

عبدالقاهر بن محمد عبدالواحد التبريزيّ، ثم الحرانيّ نزيل دمشق، جمال الدين أبو بكر الخطيب قاضي صفد، ولد بحران سنة ٤٨، واشتغل ونشأ بدمشق، ثم وَلِيَ في الآخر قضاء دمياط.

(١) حكى الذهبي عنه قال: قدم بي أبي دمشق وأنا ابن ست فمات فكفلني عمي عبد الخالق، وكان أبي خلف مالاً فخلا بي عمي وخنقني حتى غشي عليّ فرماني في حفرة وطم عليّ التراب فمر بعد ذلك شخص جلس يبول فرأى المدر[1] يتحرك بتحرّك رجلي فاستخرجني، فقمت أعدو إلى الماء فشربت من شدة العطش، قال: وتوجهت إلى بعض أقاربنا من النساء، فأقمت عندها مختفياً حتى بلغت وحفظت القرآن، فمررت يوماً فإذا بعمي، فقال: هاه جمال الدين امش بنا، قال: فما كلمته، ثم رأيته مرة أخرى بالجامع فغيبت منه، وتوجه هو إلى اليمن، فأقام بها.

وتفقهت على الشيخ تاج الدين الفزاريّ، والنجم الموغانيّ، وقرأت القرآن على الزواويّ، ونُبت في القضاء من جهة ابن الصائغ وغيره، واستنابني ابن جماعة في الخطابة فقيل له: إن دام هذا راحت منك الخطابة؛ لأنه كان مليح الصورة أبيض مستدير اللحية، فصيح العبارة، فاخر البزة، عارفاً باللغة خبيراً بالأحكام قوي المشاركة، وله نظم رائق ومحاسن كثيرة. انتهى.

وأنشأ خطباً سماها تحفة الألباء، وهي على حروف المعجم في مجلد، ونظم في وقعة التتار بشقحب قصيدة أولها:

الله أكبر جاء النصر والظفر

قرأت بخط البدر النابلسيّ: كان عالماً فاضلاً على معتقد السلف حسن الشكل. مات سنة ٧٤٠ بدمياط وله ٩٢ سنة[2].

---

(١) قطع الطين اليابس.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٧ - ٩.

كريم الدين الكبير

عبدالكريم بن هبة الله بن السديد المصري القاضي كريم الدين الكبير أبو الفضائل وكيل السلطان ومدبر الدولة الناصرية، أسلم كهلاً أيام بيبرس الجاشنكير وكان كاتبه، فلما هرب بيبرس، ودخل الناصر القاهرة تطلبه إلى أن ظفر به، وصادره على مائة ألف دينار، فالتزم بها ولم يزل طغاي وفخر الدين ناظر الجيش يتلطفان أمره عنده إلى أن سامحه بجملة بقيت منها، وقرره في نظر الخاص، فهو أول من باشرها، وتقدم بعد ذلك عند الناصر، وأحبه حتى صارت الخزائن كلها في تسليمه، وإذا طلب السلطان شيئاً نزل إليه قاصد من عنده يستدعي منه ما يريد فيجهزه إليه من بيته.

(١) وعظم جداً حتى إن فخر الدين[١] كان في مبدأ الأمر إذا ركب وحده ينتظره فيركب في خدمة فخر الدين، فصار فخر الدين يبكر إلى بابه فينتظره حتى يركب في خدمته إلى القلعة، وكان هو في كل يوم ثلاثاء، يجيء إلى دار فخر الدين، فيتغدى عنده، وصار يركب في عدة مماليك نحو السبعين، والأمراء تركب في خدمته، وبلغ من عظم قدره أنه مرض مرة فلما عُوفِيَ دخل مصر إلى دار العقد، فزينت له البلد، وكان عدد الشمع ألفاً وستمائة شمعة، وركب حراقة[٢] فلاقاه التجار الكارمية، ونثروا عليه الذهب والفضة، وعمر بالزربية جامعاً، وفي طرق الرمل عدة آبار، وأصلح الطرقات، ولما دخل دمشق سنة ١٨ عمر جامع القبيبات، وجامع القابون، وبلغ من ارتفاع المنزلة أنه باشر الخلع على الأمراء الكبار بأمر السلطان، والسلطان داخل الخيمة، وكان الناصر إذا أراد أن يحدث شراً على أحد فحضر كريم الدين تركه وقال: هذا ما تركنا نعمل ما نريد.

(٢) ومن مكارمه ما استفاض أن امرأة رفعت إليه قصة تطلب منه إزاراً، فوقع لها بصرف ثماني مائة فاستكثر الصيرفيّ ذلك فراجعه، فقال:

---

(١) ناظر الجيش كما ذُكر آنفاً.

(٢) أي: قارباً.

أردت أن أكتب لها ثمانين ولكن هذا من عند الله، وزادها ثمانين، وبلغه أن علاء الدين بن عبدالظاهر قال: هذه المكارم ما يفعلها كريم الدين إلا لمن يخافه، ثم أرسل أحضر إليه أنواعاً من المآكل والملابس، ودفع إليه كيساً فيه خمسة آلاف درهم، وتوقيعاً بزيادة في رواتبه من الدراهم والغلة والملبوس وغير ذلك، وخرج من عنده، فلما خرج علاء الدين يودعه قال له: يا مولانا والله لا أفعل هذا تكلفا وأنا والله لا أرجوك ولا أخافك.

وكان قد وَلِيَ نظر المرستان[1] فكثرت أوقافه، وكان كل ما دخل إليه تصدق بعشرة آلاف، حتى مات من الزحمة على تلك الصدقة ثلاثة أنفس، ومن رياسته أنه كان إذا قال: نعم، استمرت، وإذا قال: لا، استمرت، وكان يوفي ديون من في الحبوس من أول شهر رجب ويطلق من فيها دائماً، وكان مع جوده عاقلاً وقوراً جزل الرأي بعيد الغور يحب العلماء والفضلاء ويحسن إليهم كثيراً، وهو الذي استحضر ست الوزراء والحجار إلى القاهرة فسمع عليهما صحيح البخاري ووصلهما بجملة من المال، قال الذهبيّ: كان لا يتكلف في ملبس ولا زيّ، وكان عاقلاً وقوراً جزل الرأي داهية بعيد الغور وكان نظيرَ رشيد الدولة ببلاد الشرق، ولما انحرف عنه السلطان أمر أرغون النائب بإمساكه وأوقع عليه الحوطة على دوره وموجوده، وذلك سنة ٢٣، ثم أمر بلزوم تربته بالقرافة ثم نقل إلى الشَّوْبَك[2]، ثم نُقل إلى القدس في شوال، ثم أعيد إلى القاهرة في ربيع الأول سنة ٢٤، ثم سافر إلى أسوان فأصبح مشنوقاً ويقال إنه لما أريد قتله توضأ وصلى ركعتين وقال: هاتوا عشنا سعداء ومتنا شهداء، وكان العوام يقولون: ما أحسن أحد لأحد مثل ما أحسن الناصر لكريم الدين، أسعده في الدنيا والآخرة.

قال اليوسفيّ في تاريخه: ولما أحيط به وأمر السلطان بنقل موجوده إلى القلعة على بغال فكان أولها بباب بيته وآخرها بباب القلعة، وحمل

---

(١) مستشفى الأمراض العقلية.

(٢) سبق بيان أنه حصن قريب من العقبة التي على البحر الأحمر.

على الأقفاص مائة وثمانين قفصاً ثلاثة أيام في كل يوم ثلاث دفعات أو مرتين سوى ما كان ينقل مع الخدام من الأشياء الفاخرة التي لا يؤمن عليها مع غيرهم، ووجد له من النقد خاصة نحو من ثمانين ألف قنطار، ومن العسل ثلاثة وخمسين ألف مطر[1]، وكان عدد الصناديق التي فيها أصناف العطر من اللبان والعود والعنبر والمسك أحداً وأربعين صندوقاً[2].

العِبريّ الهاشميّ

عبدالله بن محمد الهاشمي الحسيني الفَرْغَاني الشريف المعروف بالعِبْريّ. كان عارفاً بالأصلين وشرح مصنفات القاضي ناصر الدين البيضاويّ: المنهاج والمطالع والغاية في الفقه والمصباح، وسكن سلطانية ثم تبريز ووَلِيَ قضاءها. مات سنة ٧٤٣. كان مطاعاً عند السلاطين مشهوراً في الآفاق مشاراً إليه في جميع الفنون ملاذاً للضعفاء كثير التواضع والإنصاف ومال في أواخر عمره إلى الاشتغال في العلوم الدينية وشرح الكتاب المصابيح في المسجد الجامع بحضرة الخاص والعام بعبارات عذبة فصيحة قريبة من الإفهام وكانت وفاته بتبريز.

(١) وفيها[3] كان الغلاء المفرط بخراسان والعراق وفارس وأذربيجان وديار بكر حتى جاوز الوصف وأكل الرجلَ أبوه والابن أباه وبيعت لحوم الآدميين في الأسواق جهراً ودام ستة أشهر وكان أخف البلاد في ذلك أهل تبريز[4].

عثمان المُرَينيّ

عثمان بن إدريس بن عبدالله المُرَيْنِيّ أبو سعيد ابن أبي العلاء. ولد بعد سنة خمسين وفاق في الفروسية، وكانت له في الواقعة العظمى الكائنة

---

(١) جمع مَطَرة وهي القِربة.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/١٥ - ١٨.

(٣) أي: في سنة ٧٤٣ وهي سنة وفاته كما تقدم.

(٤) «الدرر الكامنة»: ٣/٤٧ - ٤٨.

في سنة ٧١٩ اليد البيضاء فإنه نزل في ذلك اليوم إلى الأرض فسجد وتضرع، ثم ركب وقال لجيشه: احملوا وكانوا دون الألفين فحملوا وقصدوا البيت وفيه ملوك الفِرَنج فقتلوهم ولم يفلت منهم واحد، ووقع في الفِرَنج القتل بعد الهزيمة إلى أن يقال إن عدة من قتل منهم في تلك المعركة ستون ألفاً وجميع من قتل من المسلمين ثلاثة عشر فارساً، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة. ويقال إن عثمان هذا شهد مائتي غزوة وأربعا وثلاثين غزوة. مات في آخر سنة ٧٣٠ أو أول سنة ٧٣١[1].

نور الدين ابن الثقة

عطاء الله بن علي بن جعفر الحِمْيَرِي الإسناني نور الدين ابن الثقة، ذكره الكمال جعفر الأدفوي، وقال: أخذ عن الشيخ بهاء الدين القفطيّ وغيره، وكان عالماً فاضلاً متقدماً في عدة فنون، لما قدم نجم الدين بن مكي إلى إسنا اجتمع به وتكلم معه في الفرائض والحساب فقال: ما ظننت أن أحداً في كتاب الصعيد بهذه المثابة.

قال: وكان سليم الصدر زاهداً عابداً أقام بالمدرسة الأفرمية[2] بإسنا ستين سنة لا يخرج إلا للصلاة في مسجد له أو لضرورة.

(١) قال الكمال: جمع دراهم ليحج فسرقت فأراد الوالي أن يمسك إنساناً بسببه فامتنع.

(٢) وحكى عنه أنه كان يقول: الجن بالليل يمسكون إصبعي ويقولون: هذا إصبع عطاء الله.

(٣) ووقع يوم موته مطر عظيم، فقال: أنا أموت في هذا اليوم فإن والدتي أخبرتني أنني ولدت يوم مطر عظيم[3]. ومات في سنة ٧١٨[4].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٥٠ ـ ٥١.

(٢) نسبة إلى الأفرم نائب الشام.

(٣) لا تظهر علاقة بين موته وما ذكره، والله أعلم.

(٤) «الدرر الكامنة»: ٣/٦٩ ـ ٧٠.

زين الدين الآمديّ

علي بن أحمد بن يوسف بن الخِضْر الآمِدِي الحَنْبَلي زين الدين العابر، أخذ عن عبدالصمد بن أبي الجيش المقري ببغداد وغيره، وصنف التبصير في التعبير وتعاليق في الفقه، وتعانى تعبير المنامات وكان هو يرى المنامات الصائبة.

(١) وكان يتجر في الكتب وأُضرَّ[١] فلم يكن يخفى عليه منها شيء بل كان إذا طلب منه المجلد الأول مثلاً من الكتاب الفلاني قام وأخرجه، وكان يمس الكتاب فيقول: هذا يشتمل على كذا وكذا فلا يخطىء، فإن كان الكتاب مثلاً بخطين قال: هو بخطين، أو بقلم أخف من الآخر، قال كذلك فلا يخطىء قط.

(٢) وأهدى إليه بعض أصحابه نصفية[٢] فسرقت، فرأى في منامه الشيخ مجد الدين عبدالصمد فدله على الذي أخذها والذي أودعت عنده فتوجَّه إلى الرجل فقال له: اعطني النصفية التي أودعها عندك فلان، فأخرجها له فأخذها وراح فجاء السارق فقال له: الشيخ فلان جاء وطلبها على لسانك وأخذها، فبهت السارق.

(٣) وقال أيضاً: رأيت شخصاً أطعمني دجاجة فأكلت منها، فانتبهت وفي يدي منها.

(٤) ولما دخل غازان بغداد قبل السبع مائة سمع به فحضر المستنصرية، واجتمع الناس لتلقيه، وحضر الشيخ زين الدين فأمر غازان من معه أن يدخلوا المدرسة واحداً واحداً كل منهم يوهم الشيخ زين الدين أنه غازان امتحاناً له، فجعل الناس كلما وصل أمير يزهزهون له ويعظمونه ويأتون به إلى زين الدين ليسلم عليه، فيرد السلام عليه ولا يتحرك، حتى

(١) أي صار ضريراً.
(٢) لم أقف لها على معنى.

جاء غازان فلما سلم عليه وصافحه نهض له قائماً وقبل يده وأعظم متلقاه وبالغ في الدعاء له بالمغليّ ثمّ بالتركيّ ثم بالفارسيّ ثم بالروميّ ثم بالعربيّ ورفع صوته فأعجب غازان به وخلع عليه في الحال وأمر له بمال ورتب له في كل شهر ثلثمائة، وحظي عنده وعند من يليه.

ولم يزل على حاله حتى مات ببغداد سنة بضع عشرة وسبعمائة[1].

علاء الدين القونويّ

علي بن إسماعيل بن يوسف القونويّ علاء الدين الفقيه الشافعيّ، ولد سنة ٦٨ بقونية من بلاد الروم وقدم دمشق سنة ٩٣ ثمّ قدم القاهرة وتقدم في معرفة التفسير والفقه والأصول والتصوّف.

(١) أقام على قدم واحد ثلاثين سنة يصلي الصبح جماعة، ثم ينتصب للإشغال[2] إلى الظهر ثم يصليها ويأكل في بيته شيئاً ثم يتوجه إلى زيارة صاحب أو عيادة مريض أو شفاعة أو سلام على غائب أو تهنئة أو تعزية ثم يرجع ويشتغل بالذكر إلى آخر النهار، ووَلِيَ تدريس الشريفية وسكن بها دهراً طويلاً يشغل[3] بعد صلاة الصبح إلى أذان الظهر فتخرج به جمع كثير في أنواع من العلوم.

وكان الناصر يعظمه ويثنى عليه وكذا أرغون النائب حتى كان يقول: ما ملأ عيني غيره. ولما طُلب ابن الزملكاني لتولي القضاء بدمشق فمات ببلبيس وَلِيَ الناصر علاء الدين المذكور قضاء دمشق فتوجه إليها في سنة ٧٢٧ في شوال فباشرها أحسن مباشرة وتصلب زائد وعفة ولم يكن له في الحكم نهمة بل هو على عادته من الإقبال على الإشغال. وكان كثير الفنون منصفاً في المباحث كثير الرياضة، معظماً للسنن، ولم يغير عمامته الصوفية وأحضر صحبته من الكتب ما حمل على نحو العشرين فرسا.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٩٠ - ٩١.

(٢) أي التدريس.

(٣) أي يدرس.

(١) ولما استقر في القضاء بدمشق أخرج من وسطه كيساً فيه ألف دينار بحضرة الفخر المصري وابن جملة وقال: هذه حضرت معي من القاهرة[١].

وكان محكماً للعربية، قويّ الكتابة، له يد طولى في الأدب وله شرح للحاوي، ومختصر المنهاج للحليمي، و«التصرف في شرح التعرف» في التصوف. وكان يترسَّل جيداً من غير سجع ويستشهد بالآيات والأبيات والأحاديث اللائقة بذلك وكان علاء الدين يقول: أخملني السلطان بتوليتي قضاء دمشق، ثم طلب الإقالة من قضاء دمشق فلم يجبه السلطان لذلك.

(٢) وكان الشيخ علاء الدين يميل إلى محي الدين بن العربي مع تصنيفه في الرد على أهل الاتحاد.

وكان يقرر حديث أبي هريرة: «من عادى لي ولياً» تقريراً حسنا ويبين المراد بقوله: «كنت سمعه الذي يسمع به» بياناً شافياً.

(٣) وكان يكتب بخطه على ما يقتنيه من الكتب التي تخالف السنة ما نصه:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

وكان يعظِّم الشيخ تقي الدين بن تيمية ويذب عنه مع مخالفته له في أشياء وتخطئته له، ويقال إن الناصر قال له: إذا وصلت إلى دمشق قل للنائب يفرج عن ابن تيمية فقال: يا خوند[٢] لأيِّ معنى سجن؟ قال: لأجل الفتاوى، قال: فإن كان رجع عنها أفرجنا عنه فيقال كان هذا الجواب سبباً في استمرار الشيخ ابن تيمية في السجن إلى أن مات لأنه كان لا يُتصور رجوعه.

---

(١) وهذا من احتياطه رحمه الله حتى لا يتهم بجمع المال من القضاء.
(٢) أي يا رئيس.

(١) قال الذهبي: حدثني ابن كثير أنه حضر مع المزيّ عند القونويّ فجرى ذكر الفصوص فقال القونويّ: لا ريب أنّ الكلام الذي فيه كفر وضلال، فقال له بعض أصحابه: أفلا يتأوله مولانا، فقال: لا، إنما يتأوّل كلام المعصوم.

قال: وحدثني أمين الدين الواني أنه قال له: أنا أحب أهل العلم وأحب من بينهم أهل الحديث أكثر.

ولما خرج ابن قَيِّم الجوزية من القلعة أتاه فبش به وأكرمه ووصله وكان يثني على بحوثه.

وحضر عنده ابن جملة فحط على ابن تيمية فقال القونويّ بالتركيّ: هذا ما يفهم كلام الشيخ تقيّ الدين.

وقال الإسنويّ في «الطبقات»: ملأ بالرياسة والسيادة أرجاء شامه ومصره، وارتفعت منزلته فما داناه أحد من أهل عصره، وكان صالحاً ضابطاً متثبتاً كثير الإنصاف، مثابراً على تحصيل الفائدة، طاهر اللسان مهيباً وقوراً إلى أن قال: وكان أجمع من رأيناه للعلوم مع الاتساع فيها خصوصاً العقلية واللغوية لا يشار فيها إلا إليه وكان قليل المِثْل من عقلاء الرجال. وكان قدومه للقاهرة سنة ٧٠٠ وبه تخرج أكثر علماء المصريين، قال: وتحيل عليه جماعة من الكبار في أن يبعد عن الديار المصرية لأغراض فحسنوا للسلطان توليته الشام ففعل عند انتقال القاضي جلال الدين القزوينيّ منها إلى قضاء الديار المصرية، فسأله السلطان في ذلك وتلطف به فاعتذر فذكر لي أنه قال له: لي أطفال يتأذون بالحركة، فقال له السلطان وبسط يديه: أنا أحملهم على كفوفي إلى الشام فقَبِلَ إذاً حياءً فقدرت وفاته بالشام فقدمها في سنة ٧٢٧ فباشرها سنتين.

مات سنة ٧٢٩ بعد أن مرض أحد عشر يوماً بورم الدماغ وتأسف الناس عليه رحمه الله وإيانا[١].

عُليّان

علي بن أيوب بن منصور المَقْدِسي علاء الدين أبو الحسن، الملقب عُليّان بالتصغير، ولد سنة ٦٦٦ تقريباً وعُني بالحديث، وطلب بنفسه، واشتغل بالفقه على مذهب الشافعيّ وبرع في الفقه والعربية، وُلِّيَ تدريس الصلاحية بالقدس فأقام بها مدة.

وكان يحب كلام ابن تيمية، ونسخ منه الكثير، وله أشعار على طريقته في الاعتقاد، وامتحن وأوذي بسبب ذلك، وكان يكتب خطاً صحيحاً في غاية الضبط.

(١) وحصل له في أواخر عمره مبادىء اختلاط فكان يلهج بذكر الجن، وأنهم وعدوه أن يجروا له نهراً من النيل إلى منزله بالقدس، ونهراً من الزيت من نابلس إلى منزله أيضاً، وشرع في إعداد أماكن لذلك فأخذوا على يده وباعوا كتبه في حياته، وتغالى الناس في أثمانها رغبة في صحتها، وانتزعت عنه المدرسة الصلاحية، فنزعها صلاح الدين العلائي.

عالج من الفقر شدة شديدة، ومات فقيراً مدقعاً سنة ٧٤٨[٢].

الحلبيّ

علي بن الحسن بن أبي الفضل الحلبيّ الرافضيّ. قدم دمشق وأقام بها سنوات فاتفق أنه شق الصفوف والناس في صلاة جنازة بالجامع الأموي وهو يلعن ويسب من ظلم آل محمد فانتهره عماد الدين ابن كثير وأغرى به العامة وقال: إنّ هذا يسب الصحابة فحملوه إلى القاضي تقيّ الدين السبكيّ

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٩٣/٣ - ٩٧.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٩٩/٣.

فاعترف بسب أبي بكر وعمر فعقدوا له مجلساً فحكم نائب المالكيّ بضرب عنقه بعد أن كررت عليه التوبة ثلاثة أيام فأصر فضربت عنقه بسوق الخيل وحرق العوام جسده، وذلك سنة ٧٥٥[1].

الملك المجاهد

علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول الملك المجاهد ابن المؤيد بن المظفر بن المنصور أبو الحسن صاحب اليمن، وَلِيَ السلطنة بعد أبيه سنة ٧٢١. وثار عليه ابن عمه الظاهر بن المنصور واستولى أبوه المنصور وقبض على المجاهد، ثم مات فقام الظاهر وجرت بينه وبين المجاهد حروب ثم استقر الظاهر بالبلاد واستقر تعز بيد المجاهد فحوصر فخربت من الحصار، ثم كاتب المجاهد الناصر صاحب مصر فأرسل له عسكراً فجرت لهم قصص طويلة إلى أن آل الأمر إلى المجاهد واستولى على البلاد كلها، وحج سنة ٧٤٢ وأحضر كسوة الكعبة وبابا على أن يركبه ويكسو الكعبة وفرَّق على المكيين مالاً كثيراً فلم يمكنوه من ذلك، فلما رجع وجد ولده غلب على المملكة وملك ولقب المؤيد فحاربه إلى أن قبض عليه فقتله. ثم حج في سنة ٧٥١ فقدم محمله على محمل المصريين فاختلفوا ووقع بينهم الحرب وساعد أهل مكة المجاهد ثم استحر القتل في أهل اليمن فانهزموا وأسر المجاهد وأمسك وحمل إلى القاهرة بعد أن وقع بينه وبين الأمراء الذين حجوا مهاداة ومصاحبة فأكرمه السلطان الناصر وحل قيده وقدر مالاً يحمله وخلع عليه وجهزه إلى بلاده وأرسل معه قشتمر المنصوريّ فلما وصل إلى ينبع فر منه فأمسكه وأعيد إلى مصر فجهز إلى الكرك فحبس بها إلى أن خلع الناصر حسن فأفرج عنه في شعبان سنة ٥٢ وأعيد إلى بلاده ومملكته فسار من طريق عيذاب، وكان ذلك بشفاعة بيبغاروس لأنه كان سجن بالكرك أيضاً فتخلص فشفع فيه وأقام في مملكته إلى أن مات، وكانت والدته لما حج قد دبرت أمور المملكة ولما بلغها أسر

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/١٠٩ ـ ١١٠.

ولدها أقامت ولده الصالح وكتبت إلى التجار بالقاهرة أن يقرضوا ولدها ما احتاج إليه فأقرضوه نحو مائة ألف دينار.

(١) وذكر بعض التجار أنه رآه بعد أن أُطلق راكباً حصاناً وهو على شاطىء النيل فعطش الحصان ونازعه إلى شرب الماء فسقاه، ثم شرع يبكي أحر بكاء، وأنه سأله عن ذلك فقال له: إن بعض المنجمين ذكر أنه يملك الديار المصرية ويسقي فرسه من النيل فكان يظن وقوع ذلك فلما رأى فرسه يشرب من ماء النيل عرف أن ذلك القدر هو الذي أشير إليه وأنه يسقيه من ماء النيل ولا يلزم من ذلك أن يملك الديار المصرية.

مات المجاهد سنة ٧٦٤[١].

علاء الدين العثمانيّ

علي بن عبدالرحمن بن الحسين العثمانيّ علاء الدين الصَّفَدِيّ. اشتغل وتمهر ودرس وأفتى وخطب، وقام بأمر الفتوى بعد موت ابن الرسام، وناب في الحكم كل ذلك بصفد، وصنف مختصراً في الفقه، سماه النافع، مات بعد رجوعه من الحج سنة ٧٤٩.

(٢) ذكره أخوه قاضي صفد، وقال: إنه رآه في المنام فسأله عن حاله فقال: دخلت الجنة، فقلت: بالتقوى؟ قال: بل بفضل الله. قلت: فما كان من أمر الفقه؟ قال: ما نفعني إلا القرآن[٢].

عليّ السبكيّ

علي بن عبدالكافي بن علي السُّبكِي تقي الدين أبو الحسن الشافعي، ولد بسبك العبيد سنة ٦٨٣، وتفقه على والده، ودخل القاهرة، واشتغل على ابن الرفعة، وأخذ الأصلين[٣] عن الباجي، والخلاف عن السيف

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/١١٨ ـ ١٢٠.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/١٢٩.

(٣) أي أصول الفقه وأصول الدين.

البغداديّ، والنحو عن أبي حيان، والتفسير عن العلم العراقي، والقراءات عن التقي الصائغ، والحديث عن الدمياطيّ، والتصوف عن ابن عطاء الله، والفرائض عن الشيخ عبدالله الغماريّ، وطلب الحديث بنفسه ورحل فيه إلى الشام والإسكندرية والحجاز. ولما توفي القاضي جلال الدين القزوينيّ بدمشق طلبه الناصر في جماعة ليختار منهم من يقرره مكانه فوقع الاختيار على الشيخ تقي الدين فوليها وتوجه إليها مع نائبها تِنْكِز فباشر القضاء بهمة وصرامة وعفة وديانة، وأضيفت إليه الخطابة بالجامع الأموي، فباشرها مدة في سنة ٧٤٢ ثم أعيدت لابن الجلال القزوينيّ، ووَلِيَ التدريس بدار الحديث الأشرفية بعد وفاة المزِّيّ، وتدريس الشامية البرانية بعد موت ابن النقيب في أوائل سنة ٤٦، وكان طُلب في جمادى الأولى إلى القاهرة بالبريد ليقرر في قضائها إليها، وأقام قليلاً ولم يتم الأمر، وأعيد على وظائفه بدمشق، ووقع الطاعون العام في سنة ٧٤٩ فما حفظ عنه في التركات ولا في الوظائف ما يعاب عليه، وكان متقشفاً في أموره متقللاً في الملابس حتى كانت ثيابه في غير الموكب تُقَوّم بدون الثلاثين درهماً، وكان لا يستكثر على أحد شيئاً حتى أنه لما مات وجدوا عليه اثنين وثلاثين ألف درهم ديناً فالتزم ولداه تاج الدين وبهاء الدين بوفائها، وكان لا يقع له مسألة مستغربة أو مشكلة إلا ويعمل فيها تصنيفاً يجمع فيه شتاتها طال أو قصر وذلك يبين في تصانيفه، وقد جمع ولده فتاويه ورتبها في أربع مجلدات.

(١) قال الصفديّ: لم نر أحداً من نواب الشام ولا من غيرهم تعرض له فأفلح بل يقع له إما عزل وإما موت جربنا هذا وشاع وذاع حتى قلت له يوماً في قضية: يا سيدي دع أمر هذه القرية فإنك قد أتلفت فيها عدداً، وملك الأمراء وغيره في ناحية وأنت وحدك في ناحية، وأخشى أن يترتب على ذلك شر كثير فما كان جوابه إلا أنشد قوله:

وليت الذين بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

قلت: رأيت بخطه عدة مقاطيع بنظمها في ذلك كأنه يتوسل بها

إلى الله فإذا انقضت حاجته طمس اسم الذي كان دعا عليه فمما رأيت من ذلك وقرأته من تحت الطمس قوله:

رب اكفني قراجا وأوله اعوجاجا
ضيق عليه سبلاً ورجه ارتجاجاً

وكتب أنه نظمها في ربيع الآخر سنة ٧٠٥، وقراجا كان دويدار[1] بعض نواب الشام إذ ذاك.

(٢) قرأت بخط الشيخ تقي الدين السبكيّ: كتب إليّ الفتح - يعني قرابته - ورقة بسبب شخص أن اكتب إلى شخص في حاجة له، وذلك قبل ولاية الشام بسنة فأجبته: وقفت على ما أشرت إليه والذي تقوله صحيح، وهو الذي يتعين على العاقل ولكني ما أجد طباعي تنقاد إلى هذا بل تأبى منه أشد الإباء، واللّهُ خلق الخلق على طبائع مختلفة وتكلف ما ليس في الطبع صعب، إلى أن قال وأنا من عمري كله لم أجد ما يخرجني عن هذه الطريقة فإني نشأت غير مكلف بشيء من جهة والدي، وكنت في الريف قريباً من عشرين سنة وكان الوالد يتكلف لي ولا أتكلف له، ولا أعرف من الناس فيه غير الاشتغال ثم ولى والدي نيابة الحكم بغير سؤال فصرت أتكلم الكلام بسببه، وأما في حق نفسي فلا أكاد أقدم على سؤال أحد إلا نادراً بطريق التعريض اللطيف، فإن حصل المقصود وإلا رجعت على الفور وفي نفسي مالا يعلمه إلا الله، وأما في حق غيري من الأجانب فكانوا يلحون إلي فأتكلف فأقضي من حوائجهم ما يقدره الله، ولم أزل يكن معي عشرة أوراق أو أكثر ولا أتحدث فيها مع المطلوبة منه إلا مُعَرِّفاً، وشغلت بذلك عن مصلحتي ومصلحة أولادي لأن اجتماعي بهم كان قليلاً يروح في حوائج الناس ولا ينقضي بها حاجة حتى يزيد نفور نفسي عن الحديث فيها، وكان آخر ذلك أن طلبت حاجة تقي الدين الأقفهسي فأجابني

(١) وظيفة اختصاصها حمل دواة السلطان أو الأمير وتولي أمرها مع ما ينضم لذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور.

المطلوب منه بجواب لا أرضاه فحلفت لا أسأله حاجة بعدها فمات بعد نحو نصف سنة وحصلت لي الراحة بترك السؤال، وأنا الآن ابن اثنتين وخمسين سنة وقد تعبت نفسي في حوائج الناس مدة فأريد أن أريح نفسي فيما بقى وأيضاً فلي نحو عشر سنين لا أتحرك تحركة في الدنيا فأحمدها فأخاف إذا تحدثت لغيري أن لا ينجح فأندم ويتعب قلبي فالعزلة أصلح.

وكان ينظم كثيراً وشعره وسط فمنه ما وصى به ولده محمداً، قال:

ابني لا تهمل نصيحتي التي ... أوصيك واسمع من مقالي ترشد
احفظ كتاب الله والسنن التي ... صحت وفقه الشافعي محمد
وتعلم النحو الذي يدني الفتى ... من كل فهم في القرآن مسدد
واعلم أصول الفقه علماً محكماً ... يهديك للبحث الصحيح الأيِّدِ
واسلك سبيل الشافعي ومالك ... وأبي حنيفة في العلوم وأحمد

ومنها قوله أيضاً:

واقطع عن الأسباب قلبك واصطبر ... واشكر لمن أولاك خيراً واحمد

ومنها قوله أيضاً:

وخذ العلوم بهمة وتيقظ ... وقريحة سمحاء ذات توقد

ومنها قوله أيضاً:

فاقف الكتاب ولا تمل عنه وقف ... متأدباً مع كل حبر أوحد

ومنها قوله أيضاً:

وطريقة الشيخ الجنيد وصحبه ... والسالكين سبيلهم بهم اقتد
واقصد بعلمك وجه ربك خالصاً ... تظفر سبيل الصالحين وتهتد

ويقول في آخرها:

هذه وصيتي التي أوصيكها ... أكرم بها من والد متودد

وله أيضاً:

إن الولاية ليس فيها راحة ... إلا ثلاث يبتغيها العاقل

حكـــم بحـــق أو إزالـــة بـــاطـــل   أو نفـــع محتـــاج ســـواهـــا بـــاطـــل

وقد كان نزل عن منصب القضاء لولده تاج الدين بعد أن مرض فلما استقر تاج الدين وباشر توجه الشيخ تقيّ الدين إلى القاهرة، وأقام بها قليلاً في دار على شط النيل وهو موعوك إلى أن مات سنة ٧٥٦ فكانت إقامته بالقاهرة نحو العشرين يوماً. قال الإسنويّ في الطبقات: كان أنظر من رأيناه من أهل العلم ومن أجمعهم للعلوم وأحسنهم كلاماً في الأشياء الدقيقة وأجلهم على ذلك، وكان في غاية الإنصاف والرجوع إلى الحق في المباحث ولو على لسان آحاد الطلبة، مواظباً على وظائف العبادات مراعياً لأرباب الفنون محافظاً على ترتيب الأيتام في وظائف آبائهم، وقال شيخنا العراقيّ: طلب الحديث في سنة ٧٠٣ ثم انتصب للإقراء وتفقه به جماعة من الأئمة وانتشر صيته وتواليفه ولم يخلف بعده مثله.

(١) ومن ماجرياته[1] أنه بحث مع ابن الكناني فنقل عن الشيخ أبي إسحاق شيئاً في الأصول فلما رجع بعث إليه قاصداً يقول له: المسألة التي ذكرها ما هي في اللمع فكتب إليه:

سمعـــت بـــإنكـــار مـــا قلتـــه   عـــن الشيـــخ إذ لـــم يكـــن فـــي اللمـــع

ونقلـــي لـــذلـــك مـــن شـــرحـــه   وخيـــر خصـــال الفقيـــه الـــورع

لو وقفت على شرح اللمع ما أنكرت النقل فانظر فيه فإنه كتاب مفيد فلما وقف ابن الكنانيّ على الجواب تألم تألماً كثيراً وكان أسنَّ من السبكيّ بكثير، لكن تقدم السبكي واشتهر واستمر هو على حالة واحدة ولذا كان ابن عدلان وابن الأنصاري يمتعضان من السبكي لكونهما أسن منه وتقدم عليهما[2].

---

(١) أي: ومما جرى له.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/١٣٤ - ١٤٢، وزاد ابنه السبكيّ في الطبقات (١٠/١٣٩ - ٣٣٨) ما يلي:

أ ــ «وكان الله تعالى قد أقام والده ووالدته للقيام بأمره فلا يدري شيئاً من حال =

علاء الدين

علي بن عبدالواحد بن محمد الرئيس علاء الدين رئيس الأطباء بالديار المصرية. انتهت إليه معرفة العلاج ومهر فيه بحيث كان يصف للفقراء الدواء بفلس ويصف ذلك الدواء بعينه للغنيّ بمائة. وكان حسن الصورة بَهِيَّ الشيبة تام القامة. كان شيخنا عز الدين بن جماعة يثني على معارفه وكان قد أفرد طائفة من ماله للقرض بغير زيادة.

(١) ومما حكاه لنا التقيّ القزوينيّ عنه أن بعضهم شكا له أنه حدث بابنه رعاف وزاد حتى انحلت قوة الصغير فقال له: إذهب فشَرِّط أذنيه فتوقف ثمَّ أقدم ففعل فبرأ الصبي، وأن شخصاً شكا إليه السعال فقال: لعلك تنام بغير سراويل؟ فقال: نعم، قال: فلا تفعل، قال: ثم لقيته فسألته، فقال: واظبت النوم بالسراويل فبرئت.

توجه القاضي علاء الدين بحلب صحبة الملك الظاهر فمات في ذي

= نفسه. ثمّ زوجه والده بابنة عمه، وعمره خمس عشرة سنة، وألزمها ألاّ تحدثه في شيء من أمر نفسها، وكذلك ألزمها والدها، وهو عمه الشيخ صدر الدين، فاستمرت معه ووالده ووالدها يقومان بأمرها وهو لا يراها إلاّ وقت النوم، وصحبته مدّة، ثم إن والدها بلغه أنها طالبته بشيء من أمر الدنيا فطلبه وحلف عليه بالطلاق ليطلقها فطلقها. فانظر إلى اعتناء والده وعمه بأمره وكان ذلك خوفاً منهما أن يشتغل باله بشيء غير العلم».

ب ــ «وتفقه في صغره على والده، وكان من الاشتغال على جانب عظيم بحيث يستغرق غالب ليله وجميع نهاره... كان يخرج من البيت صلاة الصبح فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قريب الظهر فيجد أهل البيت قد عملوا له فرّوجاً فيأكله ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب فيأكل شيئاً حلواً لطيفاً، ثم يشتغل بالليل، وهكذا لا يعرف غير ذلك، حتى ذكر لي أن والده قال لأمه: هذا الشاب ما يطلب قط درهماً ولا شيئاً فلعله يرى شيئاً يريد أن يأكله فضعي في منديله درهماً أو درهمين فوضعت نصف درهم. قالت الجدة: فاستمر نحو جمعتين وهو يعود والمنديل معه والنصف فيه إلى أن رمى به إليّ وقال: أيش أعمل بهذا؟ خذوه عني».

ج ــ «وكان ينهانا عن نوم النصف الثاني من الليل ويقول لي: يا بنيّ، تعوّد السهر ولو أنك تلعب والويل كل الويل لمن يراه نائماً وقد انتصف الليل».

الحجة سنة ٧٩٦، ثم أرسلت ابنته فحوّلته إلى القاهرة فدفنته بتربتهم[1].

أبو الحسن المُرَيْنيّ

عثمان بن يعقوب المُرَيْني أبو الحسن صاحب مراكش وفاس تسلطن بعد أبيه أبي سعيد عثمان في سنة ٧٣١. كان فقيهاً عادلاً عالماً شجاعاً وأمه نوبية، وكان كامل السؤدد شديد المهابة، كهلاً شديد الأدمة، كثير الجيوش ذا همة عالية في الجهاد، ونشر العدل أبطل مكوساً، وخموراً، ويقال إن عسكره أزيد من مائة ألف، وافتتح تلمسان سنة ٣٧ حاصرها فبرز صاحبها ليكبسه فقتل على جواده، وذلك في شهـر رمضان، وكـانت وفاتـه بحبال المصامدة في سنة ٧٥٢، وصادق الملك الناصر وهاداه[2].

ابن المَحْلُوبة

علي بن عمر بن محمد الإسكندراني المعروف بابن المَحْلُوبَة، قال بدر النابلسيّ في مشيخته: كان عالماً مفرطاً منقطعاً منحرف المزاج حتى إنه ردم بابه بالحجارة من داخل وكان له جار يقوم له بما يرتفق به ويلي أمره ويدلي له ما يحتاج إليه من سطحه فتشفعنا بجاره حتى أدخلَنا إليه[3].

علاء الدين الباجي

علي بن محمد بن خطّاب البَاجِي علاء الدين الشافعيّ. ولد سنة ٣١ ودخل الشام ومهر في الفنون وفاق في الأصول وأفتى ودرس، وحضر درس ابن دقيق العيد فعظمه جداً فإنه مر في الدرس شيء من كلام الغزالي في «الوسيط» فقال الباجيّ: يرد على هذه العبارة خمسة عشر سؤالاً ثم سردها فقال له المدرس: كم سنك؟ قال كذا، قال: وهذا العلم كله حصل لك في هذا السن. وقال الشيخ نجم الدين الأصفوني: كنا عند ابن دقيق العيد

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/١٥٧ ـ ١٥٨.
(٣) «الدرر الكامنة»: ٣/١٦٣.

فقال: يا فقهاء حضر شخص يهوديّ يطلب المناظرة، قال:. فسكتنا فبادر الباجي فقال: أحضروه فنحن بحمد الله نـدفع الشبهـة، وكان يحكي عن نفسه أن ابن تيمية لما دخل القاهرة حضرتُ في المجلس الذي عقدوه له فلما رآني قال: هذا شيخ البلاد، فقلت: لا تطريني ما ها هنا إلا الحق وحاققته على أربعة عشر موضعاً فغيّر ما كان كتب به خطه، وكان الباجي قد وَلِيَ وكالة بيت المال بالكرك ودرس بالسيفية بالقاهرة وأعاد بالمنصورية، وكان السبكيّ يطريه ويعظمه وقد وقعت له كائنة ونسب إليه مقالة واختفى بسببها مدة، وله اختصار المحرر في الفقه، وكشف الحقائق في المنطق، والرد على اليهود، وصنف في الفرائض والحساب، وكان ابن دقيق العيد يقول: علاء الدين الباجي يُطلق عليه عالم. مات الباجي سنة ٧١٤[(١)].

زين الدين السلاميّ

علي بن مـــرزوق بن أبي الحسن الـــرَّبعيّ زين الـــدين. أصله مـن الموصل. ولد سنة ٦٥٠، وتعانى التجارة.

(١) ذكر عن جمال الدين إبراهيم بن محمد الطيبيّ أن بعض أمراء المغل تنصّر فحضر عنده جماعة من كبار النصارى والمغل، فجعل واحد منهم ينتقص النبيّ ﷺ وهناك كلب صيد مربوط فلما أكثر من ذلـك وثب عليه الكلب فخمشه فخلصوه منه، وقال بعض من حضر: هذا بكلامك في محمد ﷺ فقال: كلا بل هذا الكلب عزيز النفس رآني أشير بيدي فظن أني أريد أضربه ثم عاد إلى ما كان فيه فأطال فوثب الكلب مرة أخرى فقبض على زرديته فقلعها فمات من حينه فأسلم بسبب ذلك نحو أربعين ألفاً من المُغل.

مات علاء الدين هذا في سنة ٧٢٠[(٢)].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/١٧٦ ـ ١٧٧.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٢٠٢ ـ ٢٠٣.

نور الدين البكريّ

عليّ بن يعقوب بن جبريل البَكْرِيّ نور الدين، أبو الحسن المصريّ الشافعيّ الفقيه. ولد سنة ٦٧٣، واشتغل بالفقه والأصول.

(١) جرت له محنة بسبب القبط فتعصبوا عليه وأغروا بـه السلطان وكان هو قد بسط لسانه في الإنكار، فأمر بقطع لسانه فبلغ ذلك الشيـخ صدر الدين بن الوكيل وكان بالقاهرة، فـطلع إلى القلعة وشفـع فيه فقبـل السلطان شفاعته بعد جهد وشرط أن يخرج من مصر فخرج إلى دَهْروط؛ وكان سبب ذلك أنّه لما كان في النصف من المحرم سنة ٧١٤ بلغه أنّ النصارى قد استعاروا من قناديل جامع عمرو ابن العاص بمصر شيئاً وعلقوه في مجمع كان بالكنيسة المغلقة فأخذ معه طائفة كبيرة من الناس وهجم على الكنيسة والنصارى في المجتمع ونكل بهم فبلغ منهم مبلغـاً عظيمـاً وعاد إلى الجامع وأكثر من الـوقيعة في خـطيبه، فبلغ ذلـك الفخر نـاظر الجيش، فـاتفق دخـول البكـريّ إلى أرغـون النـائب فشنـع القـول على كريم الدين الصغير ناظر النظار وعلى كريم الدين ناظر الخاص وأن ذلك جرى بأمره فبلغ السلطانَ فأمر بإحضار القضاة وفيهم ابن الوكيل وأحضـر البكريّ فتكلم ووعظ وذكر آيات من القرآن وأحاديث واتفق أنه أغلظ في عبارته وواجه السلطان بقوله: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر. فقال له السلطان وقد اشتد غضبـه: أنا جـائر؟ قـال: نعم، أنت سلطت الأقباط على المسلمين وقويت دينهم، فلم يتمالك السلطان نفسه أن أخذ السيف وهم بالقيام ليضربه فبادره أمير طغاي وأمسكه بيده فالتفت إلى ابن مخلوف وقال: يا قاضي: يتجرأ عليّ هذا ما الذي يجب عليه؟ قال: لم يقل شيئاً يوجب عقوبة فصاح السلطان بالبكريّ: اخرج عني فقام وخرج.

(٢) فقال ابن الوكيل: ما كان ينبغي أن يغلظ ويتكلم برفق، فأعجب السلطان، فقال ابن جماعة: قد تجـرأ وما بقي إلا أن يـزاحم السلطان، فانزعج أيضاً وقال: اقطعوا لسانـه فبادر طغـاي الدويـدار ليفعل، فحضـر

البكريّ وارتعد وصاح واستغاث بالأمراء فرقوا له وألحوا على السلطان في السؤال في أمره حتى رق وأمر بنفيه، ودخل ابن الوكيل وهو يبكي وينتحب، فظن السلطان أنه أصابه شيء فقال له: خير خير، قال: البكريّ عالم صالح لكنه ناشف الدماغ، قال: صدقت، وسكن غضبه وأمر بإخراجه.

وكان نور الدين المذكور جواداً مقلّاً فقيهاً فاضلًا مناظراً وهو ممن كان يشدد على ابن تيمية لما امتحن بالقاهرة، قال الذهبيّ: كان ديناً متعففاً مُطَّرِحاً للتجمل نهّاءً عن المنكر، وكان وثب مرة على ابن تيمية ونال منه، وأكثر القلاقل، مات سنة ٧٢٤[١].

سراج الدين الأنصاريّ

علي بن أحمد بن الخضر الأنصاريّ المصريّ الخطيب سراج الدين القاضي المدنيّ.

ولد سنة خمس أو ست أو ٦٣٧ بصندفا، وبرع في الفقه والأصول.

(١) ولاه المنصور قلاون الخطابة بالمدينة الشريفة نحو أربعين عاماً فقدمها سنة ٦٨٢ فانتزعها من أيدي الرافضة مع آل سنان بن عبدالوهاب بن نميلة الحسينيّ فلما استقر في الخطابة استمروا في الحكم وكان السبب في ولايته أن الرافضة كانوا يؤذون أهل السنة كثيراً لغلبة الرافضة على أمراء البلد وإقامتهم الحكام من قِبَلِهم، فكان السلطان يرسل مع الموسم إماماً يؤم الناس إلى رجب ثم يرسل مع الرجبية غيره إلى الموسم ولا يمكن أحداً أن يقيم أكثر من ذلك لكثرة الأذية فلما استقر السراج رسخت قدمه وصبر على الأذى وصودر مرة فانتزع السلطان بمصر عوض ما صودر به من إقطاع أهل المدينة فكفوا عنه، وكان إذا خطب اصطف الخدام قدامه صفا يحمونه من الرجم، ثم صاهر السِّراجُ بعضَ الإمامية فخف عنه الأذى، ثم جاء

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٢١٤ - ٢١٥.

تقليده من الناصر بولاية القضاء فأخذ الخلعة وتوجه بها إلى الأمير منصور بن جماز، وقال له: جاءني مرسوم السلطان بكذا وأنا لا أقبل حتى تأذن، فقال: رضيت وآذن بشرط أن لا تتعرض لحكامنا ولا لأحكامنا فاستمر على ذلك وبقي آل سنان على حالهم وغالب الأمور الأحكامية مناطة بهم حتى الحبس والأعوان، وكان السراج يداريهم ويواسي الضعفاء ويتفقد الأرامل والأيتام، وكان بآخرة قد تنكرت أخلاقه ثم مرض فتوجه إلى القاهرة ليتداوى فأدركه الموت بالسويس سنة ٧٢٦، ودفن هناك[١].

زين الدين الكتانيّ

عمر بن أبي الحرم بن عبدالرحمن بن يونس الدِّمشْقِيّ ثم المصري زين الدين الكتانيّ الشافعيّ. ولد سنة ٦٥٣، ولم يحدث إلا باليسير، ولم يكثر وتفقه على البرهان محمود بن عبدالله المراغي وأخذ عنه التحصيل بعد أن حفظه، وتاج الدين الفزاري وغيرهما، واستنابه ابن بنت الأعزّ وابن دقيق العيد، وولي الشرقية ودمياط ثم الغربية ثم وقعت له في ولاية ابن جماعة قضية فعزل نفسه وانقطع عن ابن جماعة وصار يتكلم فيه ثم شرع في الكلام في غيره وبالغ في ذلك وتعدى إلى الأموات وتصدر بالجامع الحاكمي، وولى تدريس المنكوتمرية، وأعاد بالقراسنقرية، وذلك في شهر رجب سنة ٢٥ فتكلم الناس في ذلك، وصار صغار الطلبة ينقلون إلى ابن سيد الناس وقائعه ويقولون: صَحّف في كذا وكذا، ووَهِم في كذا حتى قال الكمال جعفر:

بالجاه تبلغ ما تريد فإن ترد ... رتب المعالي فليكن لك جاه
أو ما ترى الزين الدمشقيّ قد وَلِي ... درس الحديث وليس يدري ما هو

وكان هو يعرف هذا فيقول: وَلَوْنا ما يضحك فيه الصبيان منا يعني درس الحديث، ومنعونا ما نضحك فيه على الأشياخ يعني درس الفقه لأنه كان فيه ماهراً.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٢٢٤ - ٢٢٥.

(١) قال الكمال جعفر: كان يؤذي من يبحث معه ويحرص على تخطئته قلتُ مرة: نقل الرافعيّ أن الأكثر على جواز النظر إلى الأجنبية لوجهها وكفيها إذا أمن من الفتنة فأنكر ذلك، ثم اجتمعنا فقال: النقل كما قلت، لكن من أين للرافعيّ ذلك؟ وقيل له إنّ النوويّ صحح العفو عن دم البراغيث فأنكره فأحضروا له المنهاج فشرع يؤول كلامه، وله من ذلك شيء كثير، وكان مع ذلك محققاً مدققاً كثير النقل مستحضراً للنظائر والأشباه، ولم يكن أحد في عصره يشاركه في الفقه. ولكن لم يصنف شيئاً ولا انتفع به أحد من الطلبة ولا تصدى للفتيا، وكان يقول لمن أحضر إليه فتيا: رُحْ بها إلى القضاة الذين لهم من المعاليم في كل شهر كذا. وكان ابن سيد الناس إذا ذكروا عنده وسوسته يقول هذا تصنع منه، ويستدل على ذلك بأنه لما وَلِيَ خطابة الجامع الصالح ترك الوسوسة، وكان في أيام ولايته القضاء محمود السيرة ظاهر العفة كثير الاشتغال دائم المطالعة. وكتب على الروضة حواشي غالبها تعنت.

(٢) وكان يحب النظر إلى الصور الحسان فكان من أراد أن يقضي له حاجة من الفتوى أو غيرها يتوجه إليه ومعه شاب حسن الصورة فيسارع إلى قضاء حاجته، قال الصفديّ: توجهت إليه بصحبة الأمير بدر الدين بن جَنْكْلِي بن البابا فصعدنا في سلم وطرقنا الباب فقال: من؟ قال: محمد بن جَنْكْلِي، قال: ومليحك معك؟ قال: نعم، قال: ادخل، وكان في صحبته مملوك جميل الصورة فبادر وفتح الباب وبشّ بنا وأحضر لنا شراب ليمون وحماض بقلب فستق وبندق ثم أحضر طعاماً طيباً وانبسط معنا كثيراً.

(٣) ومن أخباره أن آقش نائب الكرك أشار على السلطان أن يوليه قضاء الشام فاستدعاه ولاطفه فأبى فقال له: وما تكره من ولاية قضاء الشام؟ قال: ما يوافق أخلاقي لأنه يحتاج إلى مداراة وملاطفة ومتى فعلت ذلك خالفت أمر الله فطال بينهما الجدال في ذلك إلى أن قال له السلطان: هذا أمر لا بد منه فقال: استخير الله، قال: فاستخِرِ الله هنا، فقام وصلى ركعتين

لـلاستخارة ثم رجـع فقال: استخـرت الله أنني ماأَلِي وقـام فأعـرض عنه السلطان.

وكان سمح النفس لا يكاد يحضر عنده أحد إلا أتاه بمأكول وكان كثير الأكل جميل المحاضرة حسن المفاكهة.

(١) ويقال: إن طالباً بحث معه فطلب منه النقل فأخذ نعله وكشف رأس الطالب وصار يضربه ويقول: هذا النقل الذي طلبت.

وكان إذا خطب فوصل إلى الدعاء للسلطان قال: اللهم أصلح فساد سلطاننا وخذ الظلمة أخذ عزيز مقتدر، يعرض بالنشو[١].

(٢) قال الذهبيّ: كان تام الشكل حسن الهيئة، جيد الذهن، كثير العلم عارفاً بالمذهب مائلاً إلى الحُجَّة، خطب ودرس واشتهر اسمه وذكر للقضاء لكن كان في خلقه زعارة، وعنده قوة نفس وقلة إنصاف وما علمته تأهّل، وكان يوهِّي بعض المسائل لضعف دليلها ويلقي دروساً مفيـدة ويزبـر من يعارضه. وكان متصوناً متديناً مليح البزة لا يخضع لقاض ولا لأمير، وله أخبار في نفوره وزعارته وقَلّ من تفقه به. قرأت بخط البدر النابلسيّ: كنت أعطيت منه حظاً فكان الناس يتحامون سؤاله وكنت أسأله فيجيبني ويضحك معي. مات سنة ٧٣٨ رحمه الله وسامحه[٢].

جمال الدين الحنبليّ

عمر بن عبدالمحسن بن إدريس جمال الدين الحنبليّ محتسب بغداد وقاضي الحنابلة بها. كان من قضاة العدل كثير الأمر بالمعروف، تعصب عليه الروافض ونسبوه إلى ما لا يصح عنه، فضرب بين يدي الوزير ضرباً مبرحاً، فمات في شهره وذلك في صفر سنة ٧٦٦[٣].

---

(١) وزير من وزراء السلطان.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٢٣٧ ـ ٢٤٠.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٣/٢٤٩.

السلطان عمر المُرَينيّ

عمر بن عثمان بن عبدالحق المُريني أبو عليّ بن السلطان أبي سعيد. كان أحبَّ أولاد أبيه إليه ورشحه للملك بعده وهو شاب وصَرَّفه في الأمور، ثم بعثه في سنة ٧١٤ إلى فاس فخلع أباه ودعا لنفسه وجمع عسكراً فالتقى به أبوه فانهزم الأب وجرح، ثم تراجع له العسكر وأعانه ولده أبو الحسن عليّ على أخيه فحاصرهما أبو عليّ بتازي[١] إلى أن وقع الصلح على أن ينزل عثمان عن الأمر لولده أبي عليّ ويقتصر على تازي فملك عمر فاس فاتفق أنه مرض فتسلل الناس إلى أبيه فعسكر وحاصره ولده فوقع الصلح على خروج أبي عليّ إلى سجلماسة ويسلم أبوه المملكة فاستقر أبو عليّ بسجلماسة ورتب لها مملكة واستخدم جنداً وافتتح حصوناً، وخالف على أبيه سنة ٧٢٠، وملك مراكش سنة ٧٢٢ وكانت بينه وبين أبيه وقعات. فلما مات أبوه واستقر أخوه ترك سجلماسة فخرج عليه فسار أبو الحسن عليه في سنة ٧٣٢ وحاربه سنة إلى أن ظفر به في سنة ٧٣٣ وقتله بعد أشهر. وترك من الأولاد عبدالحكيم وعلياً وعبدالمؤمن وناصراً ومنصوراً وأبا زيان فأخرجهم أبو عنان بن أبي الحسن إلى الأندلس فنزلوا بجوار ابن الأحمر ثم ملك عبدالحكيم سجلماسة في سنة ٧٦٣ ثم نازعه عبدالمؤمن ففر عبدالحكيم إلى بلاد التكرور فقدم مع الركب إلى مصر فأكرمه يَلْبُغا وأنزله وأعانه على الحج فلما رجع وأراد بلاده مات بتروجة سنة ٧٦٧[٢].

زين الدين البلاليّ

عمر بن عمران بن صدقة البِلاليّ، نسبه إلى بلال بن الوليد بن هشام بن عبدالملك بن مروان الأمويّ، زين الدين البدويّ. ولد سنة ٦٨٥.

(١) سمع منه شهاب الدين بن رجب وذكره في معجمه، وقال: رأيته

---

(١) مدينة بالمغرب الأقصى.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٢٥١ - ٢٥٢.

ببغداد بالمستنصرية وجرت له قصة مع ملك التتار، وذلك أنه اتهمه بمكاتبة المصريين بأخبارهم فألقاه إلى الكلاب ومعه آخر، فأكلت الكلاب رفيقه ولم تؤذه، وكان في تلك الحالة ملازماً للذكر فعظم في أعينهم، وأكرموه وأقام معهم مدة يجاهد الرافضة والمبتدعة.

ثم قدم دمشق واتفقت له كائنة، فسجن بقلعة دمشق حين كان الشيخ ابن تيمية بها، وأقام بعده مسجوناً خمس سنين ثم أطلق، وذكر أن ابن تيمية أنشده وهما في الاعتقال:

لا تفكرن وثق بالله إن له ... ألطاف دقت عن الأذهان والفِطَن
يأتيك من لطفه ما ليس تعرفه ... حتى تظن الذي قد كان لم يكن

مات سنة ٧٥٧[١].

زين الدين ابن الورديّ

عمر بن مظفر بن عمر المَعَرِّيّ زين الدين ابن الورديّ الفقيه الشافعيّ الشاعر المشهور. نشأ بحلب وتفقه بها ففاق الأقران. نظم البهجة الوردية في خمسة آلاف بيت وثلاث وستين بيتاً أتى على الحاوي الصغير بغالب ألفاظه وأقسم بالله لم ينظم أحد بعده الفقه إلا وقصر دونه. وله ضوء الدرة على ألفية ابن معطي[٢]، وشرح الألفية لابن مالك، واختصر ألفية ابن مالك في مائة وخمسين بيتاً وشرحها وغير ذلك.

وكان ينوب في الحكم في كثير من معاملات حلب ووَلِيَ قضاء مَنْبج[٣] فتسخطها وعاتب ابن الزملكانيّ بقصيدة مشهورة على ذلك، ورام العود إلى نيابة الحكم بحلب فتعذر ثم أعرض عن ذلك.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٢٥٧ ـ ٢٥٨.
(٢) في النحو.
(٣) من أعمال حلب.

مات في الطاعون العام آخر سنة ٧٤٩ بعد أن عمل مقامة سماها (النبا في الوبا).

(١) ذكر الصفديّ في أعيان العصر أنه اختلس معاني شعره وأنشد في ذلك شيئاً كثيراً، ولم يأت بدليل على أن ابن الورديّ هو المختلس بل المتبادر إلى الذهن عكس ذلك، نعم استشهد الصفدي على صحة دعواه بقول ابن الورديّ:

وأسرق ما أردت من المعاني ... فإن فقت القديم حمدت سيري
وإن ساويته نظماً فحسبي ... مساواة القديم وذا لخيري
وإن كان القديم أتَمَّ معنى ... فهذا مبلغي ومطار طيري
وإنّ الدرهم المضروب باسمي ... أحب إليَّ من دينار غيري

فمما أورده الصفديّ:

قوله:

سل الله ربك من فضله ... إذا عرضت حاجة مقلقة
ولا تقصد الترك في حاجة ... فأعينهم أعين ضيقة[1]

فزعم أنها من قول الصفدي:

اترك هوى الأتراك إن شئت أن ... لا تبتلى فيهم بهم وضير
ولا ترج الجود من وصلهم ... ما ضاقت الأعين منهم لخير

(٢) وهو القائل:

قيل لي تبذل الذهب ... بتولي قضاء حلب
قلت هم يحرقونني ... وأنا أشتري الحطب

أنشدني أبو اليسر بن الصائغ بدمشق، قال: أنشدنا الشيخ زين الدين بن الورديّ لنفسه:

---

(١) يعرِّض بأنهم بخلاء.

إني تــركت عقــودهم وقــروضهم وفســوخهـم والحـكم بـن اثنـين
ولــزمت بيتي قــانعــاً ومــطالعــاً كتب العلوم وذاك زيـن الـزين[1]

شرف الدين بن شيركوه

عـوض بن نصـر بن عبــدالـرحمن بن شيــركـوه المصــري الحنفي شرف الدين أبو خلف عنى بالحديث وحفظ كتاباً في الفقه على مذهب أبي حنيفة واعتنى بالقراءات وسمع الكثير.

(١) وكان جميل الوجه حسن الصحبة إلا أنه حصلت منه يوماً غفلة فقال لبعض الطلبة: لأيّ معنى قال الزمخشري في أول المفصـل: (اللّهَ أحمدُ) وما قال إبراهيم أو موسى فضبطوها عليه.

(٢) وعمد بعضهم إلى أسئلة من المفصل فوضعها عليه مثل قوله: لم قال باب الموصول ولم يقل باب الشبابة[2]؟ ولم قال باب الترخيم[3] ولم يقل باب التبليط؟ ولم قال باب العَلم ولم يقل باب السنجق[4]؟ ثم شرع في تعليل ذلك.

(٣) وقال له بعض الطلبة: أنت فيك عيب لأنه ما في القرآن شيء على وزن اسمك ولا تسمى به أحد من أهل العلم فشرع يتتبع الأجـزاء والمعاجم والمشيخات والتواريخ إلى أن جمع جزءاً سماه «شفاء المرض فيمن تسمى بعوض» وذكر في الخطبة: في القرآن على وزن اسمه (عنب).

رحل إلى دمشق فأحسن إليه السبكي ورجع. مات في أواخر سنـة ٧٣٧[5].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٢٧٢ ـ ٢٧٤.
(٢) الموصول والشبابة من الموسيقى، والموصول المقصود من النحو.
(٣) الترخيم حذف الحرف الأخير من الاسم مثل: عائش أي عائشة.
(٤) السنجق هو الراية.
(٥) «الدرر الكامنة»: ٣/٢٧٧ ـ ٢٧٨.

غازان

غازان محمود بن أرْغُون بن أبغا بن هلاكو بن تولى بن جنكزخان السلطان معز الدين واسمه محمود ويقوله العامة قازان بالقاف عوض الغين المعجمة. كان جلوسه على تخت الملك سنة ٦٩٣ وحسن له نائبه نوروز الإسلام فأسلم في سنة ٩٤. ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس وفشا بذلك الإسلام في التتار، وكان في مملكته خراسان بأسرها والعراقان وفارس والروم وآذربيجان والجزيرة، وكان إسلامه على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم بن سعد الله بن حمويه الجويني وعمره يومئذ بضع وعشرون سنة، وكان يوم إسلامه يوماً عظيماً، دخل الحمام فاغتسل وجمع مجلساً وشهد شهادة الحق في الملأ العام فكان لمن حضر ضجة عظيمة، وذلك في شعبان سنة ٩٤ ولقنه نوروز شيئاً من القرآن وعلمه الصلاة وصام رمضان. وكان غازان يتكلم بالفارسية مع خواصه ويفهم أكثر ما يقال له باللسان العربيّ، ولما ملك أخذ نفسه بطريق جده الأعلى جنكزخان وصرف همته إلى إقامة العساكر وسد الثغور وعمارة البلاد والكف عن سفك الدماء.

(١) ولما أسلم قيل له إن دين الإسلام يحرم نكاح نساء الآباء، وكان قد استضاف نساء أبيه إلى نسائه، وكان أحبهن إليه بلغان خاتون وهي أكبر نساء أبيه فهم أن يرتد عن الإسلام فقال له بعض خواصه: إن أباك كان كافراً ولم تكن بلغان معه في عقد نكاح صحيح إنما كان مسافحاً بها، فاعقد أنت عليها تحل لك ففعل، ولولا ذلك لارتد عن الإسلام واستُحسن ذلك من الذي أفتاه به لهذه المصلحة[1]. وكان هلاكو ومن بعده يعدون أنفسهم نواباً لملك السراي فلما استقرت قدم غازان تسمى بالقان وقطع ما

---

(١) قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «البدر الطالع»: ٣/٢: «بل هو حسن ولو كان تحته ألف امرأة على سفاح فإن مثل هذا السلطان المتولي على أكثر بلاد الإسلام في إسلامه من المصلحة ما يسوغ ما هو أكبر من ذلك حيث يؤدي التحريج عليه والمشي معه على أمر الحق إلى ردته، فرحم الله ذلك المفتي».

كان يحمل إليهم وأفرد نفسه بالذكر والخطبة وضرب السكة باسمه وطرد نائبهم من بلاد الروم، وقال: أنا أخذت البلاد بسيفي لا بغيري.

(١) وكان غازان إذا غضب خرج إلى الفضاء، وقال: الغضب إذا خزنته زاد، فإن كان جائعاً أكل أو بعيد العهد بالجماع جامع، ويقول: آفة العقل الغضب ولا يصلح للملك أن يتعاطى ما يضر عقله.

وأول ما وقع له القتال مع نوروز بن أرغون الذي كان حسن له الإسلام فإن نوروز خرج عليه فحاربه ثم لجأ نوروز فأوقع بهم فقُتِل في المعركة خمسون ألف نفس وبيعت البقرة السمينة في هذه الوقعة بخمسة دراهم والرأس من الغنم بدرهم، والصبيّ الحسن الصورة المراهق والبالغ باثني عشر درهماً.

(٢) ثم طرق البلاد الشامية في سنة ٦٩٩، فكان الوقعة العظيمة بوادي الخزندار والظفر لغازان ودخل دمشق وخطب له على المنبر واستمرت من ربيع الآخر إلى رجب، وحصل في تلك الوقعة لأهل الشام في سبي الحُرَم والذرية وتعذيب الخلق بسبب المال ما لا يوصف، وهلك خلائق من العذاب والجوع ثم رجع ثم عاد مرة أخرى سنة سبعمائة فأوقع ببلاد حلب أشهراً، ثم جهز قطلوشاه بالعساكر ليغزو بهم حلب وأمره أن لا يجاوز حمص فلما حضر وجد العساكر قد تقهقرت فجاز البلاد إلى أن وصل إلى دمشق، واستمر طالباً مصر فكانت الكسرة العظيمة عليه في وقعة شقحب، وذلك في سنة ٧٠٢، وحمل غازان على نفسه بسبب ذلك فلم يلبث أن مات. وكان غازان أشقر ربعة خفيف العارضين غليظ الرقبة كبير الوجه وكان يعف عن الدماء لا عن المال. وكانت وفاته سنة ٧٠٣، بقزوين. قال الذهبيّ: كان شاباً عاقلاً شجاعاً مهاباً مليح الشكل ولم يكتهل. واشتهر أنه سم في منديل ملطخ تمسح به بعد الجماع فتعلل وهلك وكانوا أشاعوا موته مراراً ولا يصح، ثم تحقق فقال الوداعيّ:

قد مات غازان بلا مرية ... ولم يمت في المدد الماضيه

وكانت الأخبار ما افصحت عنه فكانت هذه القاضية[1]

المنصور صاحب ماردين

غازي بن قرا أرسلان بن أرتق الماردينيّ المنصور بن المظفر بن السعيد بن المنصور صاحب ماردين[2] وليها بعد أخيه السعيد داود، وكان المنصور سميناً فكان لا يركب إلا والمِحَفَّة[3] صحبته خشية أن يتعب فيركبها، ودامت سلطنته بماردين عشرين سنة. قال الذهبي: قدم في خدمة غازان دمشق وكان يسكر ويظلم إلا أنه يناصح السلطان في السر، ثم تزوج خَرْبندا[4] ابنته، ولما تسحب الأفرم[5] وقراسنقر[6] مرا به فأكرمهما فيقال إنهما سقياه. ومات سنة ٧١٢، واستقر ولده بعده الملك العادل علي فعاش في المملكة سبعة عشر يوماً فيقال سم أيضاً فاستقر أخوه الصالح وهو أمرد فدامت مملكته أربعاً وخمسين سنة ودامت مملكة الظاهر عيسى بن المنصور أحمد بن الصالح إحدى وثلاثين سنة، وبقتله سنة تسع وثماني مائة انقرضت دولتهم بماردين، وكان ابتداؤها في أيام تتش أخي ملكشاه السلجوقيّ بعد سنة تسعين وأربعمائة فكانت المدة ثلاثمائة سنة وبضع عشر سنة فسبحان من لا يزول ملكه[7].

فاطمة البغداديّة

فاطمة بنت عياش بن أبي الفتح البغدادية أم زينب الواعظة. كانت تدري الفقه جيداً، وكان ابن تيمية يثني عليها ويتعجب من حرصها وذكائها،

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٢٩٢ - ٢٩٤.
(٢) قلعة في بلاد الشام، انظر «معجم البلدان»: ٥/٣٩.
(٣) مثل الهودج للنساء.
(٤) ملك التتار.
(٥) نائب دمشق.
(٦) أمير من أمراء المماليك.
(٧) «الدرر الكامنة»: ٣/٢٩٦.

وانتفع بها نساء أهل دمشق لصدقها في وعظها وقناعتها، ثم تحولت إلى القاهرة فحصل بها النفع وارتفع قدرها وبعد صيتها، وكانت قد تفقهت عند المقادسة بالشيخ ابن أبي عمر وغيره، وقل من أنجب من النساء مثلها. ماتت سنة ٧١٤[١].

فرج المغربيّ

فرج بن عبدالله المَغْرِبي الصَّفَدِيّ الزاهد الفقيه الشافعيّ نزيل صفد. كان من العرب، ونشأ بصفد، ثم دخل العراق فقرأ بواسط القراءات وتعلم العلم، وطاف في الشرق، ولقي الصلحاء ثم رجع إلى بلاده فتحول إلى قرب طبرية فأقام بها، واشتهر وقصد بالزيارة من كل مكان، وصار له أصحاب وأتباع وكان يتكلم في العلم ويستحضر الروضة وأدلة الكتاب والسنة، ويسردها على لسانه كأنها مرآته، ومات سنة ٧٥١.

حكى العثماني قاضي صفد أنه توجه لزيارته صحبة الشيخ تاج الدين المقدسي فجرت مسألة النظر إلى الأمرد وأن الرافعيّ يحرم بشرط الشهوة، والنوويّ يقول: يَحْرُم مطلقاً. فقال الشيخ فرج: رأيت النبيّ ﷺ في المنام فقال لي: الحق في هذه المسألة مع النوويّ فصاح الشيخ تاج الدين وقال: صار الفقه بالمنامات فخضع الشيخ فرج، وقال: أستغفر الله أنا حكيت ما رأيت، والبحث له طريق فسكت الشيخ تاج الدين، وقال: نحن في بيتك.

وله أصحاب يعرفون بالخشوع، وعلى الكتاب والسنة[٢].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/ ٣١١ ـ ٣١٢.

رشيد الدولة الهَمَذانيّ

فضل الله بن أبي الخير بن غالي الهَمَذَانِيّ الوزير رشيد الدولة أبو الفضل. كان أبوه عطاراً يهودياً، فأسلم هو واتصل بغازان[1] فخدمه وتقدم عنده بالطب إلى أن استوزره، وكان يناصح المسلمين ويذب عنهم ويسعى في حقن دمائهم، وله في تبريز آثار عظيمة من البر، وكان شديداً على من يعاديه أو ينتقصه يثابر على هلاكه، وكان متواضعاً سخياً كثير البذل للعلماء، والصلحاء.

(١) وله تفسير على القرآن فسره على طريقة الفلاسفة فنُسِب إلى الإلحاد، وقد احترقت تواليفه بعد قتله.

(٢) وكان نسب إلى أنه تسبب في قتل خَرْبَنْدا ملك التتار، فطلبه جوبان إلى السلطان على البريد فقال له: أنت قتلت القان، فقال: معاذ الله أنا كنت رجلاً عطاراً ضعيفاً بين الناس فصرت في أيامه وأيام أخيه متصرفاً في الممالك، ثم أحضر الجلال الطبيب ابن الحزان اليهوديّ طبيب خَرْبَنْدا، فسألوه عن موت خربندا فقال: أصابته هيضة قوية انسهل بسببها ثلاث مائة مجلس وتقيأ قيئاً كثيراً، فطلبني بحضور الرشيد والأطباء، فاتفقنا على أن نعطيه أدوية قابضة مخشنة، فقال الرشيد: هو إلى الآن يحتاج إلى الاستفراغ، فسقيناه برأيه مسهلاً، فانسهل به سبعين مجلساً فسقطت قوته فمات وصدقه الرشيد عليّ ذلك، فقال جوبان للرشيد: فأنت قتلته، وأمر بقتله فقتل وفصلوا أعضاءه، وبعثوا إلى كل بلد عضو وأخروا بقية جسده، وحمل رأسه إلى تبريز، ونودي عليه هذا رأس اليهوديّ الملحد، ويقال إنه وجد له ألف ألف مثقال، وكان موته بعد موت خَرْبَنْدا، وكان موت خَرْبَنْدا كما سيأتي سنة ٧١٦، ووصل الخبر بقتله إلى دمشق سنة ٧١٨. قال الذهبيّ: كان له رأي ودهاء ومروءة، وكان الشيخ تاج الدين الأفضليّ يذمه

[1] (١) ملك التتار.

ويرميه بدين الأوائل، وقدر[1] عليه فصفح عنه، وفي الجملة فكانت له مكارم وشفقة وبذل وتودد لأهل الخير[2].

علم الدين البِرْزاليّ

القاسم بن محمد بن يوسف البِرْزَاليّ علم الدين بن بهاء الدين الدمشقيّ الحافظ. ولد سنة ٦٦٥. أحب الطلب وسمع بنفسه ودار على الشيوخ ورحل إلى حلب وبعلبك ومصر والحرمين وغيرها، وبلغ عدد مشايخه بالسماع ألفي نفس وبالإجازة أكثر من ألف وجمعهم في معجم حافل. قال فيه الذهبيّ:

إن رمت تفتيش الخزائن كلها ... وظهور أجزاء بدت وعوالي
ونعوت أشياخ الوجود وما رووا ... طالع أو اسمع معجم البرزالي

وله تاريخ بدأ فيه من عام مولده وهو السنة التي مات فيها أبو شامة فجعله ذيلاً على تاريخ أبي شامة، وكان باذلاً لكتبه وأجزائه مؤثراً متصدقاً، وكان وافر العقل جداً بحيث إنه كان يصحب المتعاديين فلا يكتم واحد منهما منه سره لوثوقه به وبلغ ثَبَتُه بضعاً وعشرين مجلداً أثبت فيه كل من سمع معه، وانتفع به المحدثون من زمانه إلى آخر القرن. قال الذهبيّ: كان رأساً في صدق اللهجة والأمانة، صاحب سنة واتباع ولزوم للفرائض، خيراً ديناً متواضعاً حسن البشر عديم الشر، فصيح القراءة، عالماً بالأسماء والألفاظ، سريع السرد مع عدم اللحن والدمج. قرأ ما لا يوصف وحدث بجملة كثيرة، وكان حليماً صبوراً متودداً لا تنكر فضائله ولا ينتقص فاضلاً بل يوفيه فوق حقه، ويلاطف الناس وله ود في القلوب وحب في الصدور، حلو المحاضرة قوي المذاكرة عارفاً بالرجال ولا سيما شيوخ زمانه وأهل عصره ولم يخلف في معناه مثله ولا عمل أحد في الطلب عمله، وكان

---

(١) أي رشيد الدولة.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٣١٤ ـ ٣١٦.

باذلاً لكتبه وأجزائه سمحاً في أموره متصدقاً مقصداً لمن يلتمس الاستماع، قال: وهو الذي حبب إليّ طلب الحديث فإنه رأى خطي فقال: خطك يشبه خط المحدثين فأثر قوله فيّ وسمعت منه وتخرجت به في أشياء.

قال الصفديّ: كان يصحب الخصمين فكل منهما راض بصحبته واثق به حتى كان كل من ابن تيمية وابن الزملكاني يذيع سره في الآخر إليه وثوقاً به، وسعى في صلاح ذات بينهما فلم يتيسر له.

وقرأت بخط البدر النابلسيّ: كان حسن الوجه واللباس كثير التواضع كريم النفس كثير الحلم ضحوك السن يحتمل الأذى ويغضي عمن يغض منه.

مات ذاهباً إلى مكة غريباً في رابع ذي الحجة سنة ٧٣٩ ودفن بخليص (١).

قِجليس

قِجْلِيسْ الناصريّ السلاح دار. كان من خواص الناصر يندبه في المهمات ولا يُمسَك أمير بالشام غالباً إلا على يده، عارفاً بالميقات وله أوضاع نفيسة وكان الفضلاء يلازمونه. وكان جميل المودة حسن الصحبة والعشرة، وكان له شغف بالكتب يجمع نفائسها.

(١) وتزوج بنت الملك، وكان يقال ليس بالقاهرة لها نظير في الحسن وكان يحبها محبة مفرطة وينفق عليها نفقات بالغة فلما مات لم تتزوج بعده.

(٢) وكان قوياً شديد البأس شجاعاً يأكل عظم الفخذ ثم يكسره بيد واحدة.

وكان قد نال من الناصر منزلة عظيمة فكثرت مهابته وعظمت حرمته

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٣٢١ - ٣٢٣.

حتى كان معداً للأمور العظيمة يقذف به فيها، ويعتمد عليه فيما يرومه منها. وكانت وفاته سنة ٧٣١[١].

قُديدار

قُدَيْدَارْ والي القاهرة. كان خفيف الروح مليح العبارة تام الخلقة عارفاً فتنقل إلى ولاية القاهرة في سنة ٣٤ في رمضان فأول شيء فعله ضرب الخبازين والسوقة بالمقارع وسمر بعضهم، ووسّط[٢] جماعة من المفسدين، وتتبع من عصر الخمر فأراق الكثير منها. وكبس باب اللوق فأحرق الحشيش وأقام قدر شهر لا يخلو باب زويلة في يوم منه من كسر جوار خمر وتحريق حشيش فأعجب الناصر ذلك منه وشكره شكراً زائداً، ومكنه تمكيناً قوياً، وكان النائب أرغون يبغضه ومع ذلك لم يتمكن منه. مات سنة ٧٣٠ فكانت مدة ولايته ست سنين، وكان شديد البأس[٣].

قَشْتَمُر

قَشْتَمُرْ المنصوريّ. كان من بقايا مماليك الناصر، وتنقل في الخِدَم بعده، إلى أن وَلِيَ نيابة السلطنة، ثم نيابة دمشق، ثم صفد، ثم أعيد إلى مصر، ثم وَلِيَ نيابة طرابلس، ثم أعيد إلى مصر، ثم وَلِيَ حاجب الحجاب، ثمّ نقل إلى نيابة حلب سنة ٧٠ ثانية، ذكره العثماني في تاريخ صفر وقال: كان كبير القدر، كثير الخير والإحسان ملازماً للقرآن، ويكتب الخط الحسن، مات مقتولاً بضواحي حلب سنة ٧٧٥ لأنه بعد دخولها نائباً بقليل بلغه أنه كثيراً من العرب المفسدين يقطعون الطرقات على الحجاج وغيرهم من المسافرين، فتجهز واستصحب عسكراً من الحلبيين، فلما وصل إلى تل السلطان وجد قوماً نزولاً من العرب في مضاربهم، فاستاقوا كثيراً من مواشيهم وجمالهم ونهبوا بيوتهم، فاستنهض من كان نازلاً من

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣٢٨/٣.

(٢) أي: قتلهم بتوسيطهم نصفين بالسيف.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٣٢٨/٣ - ٣٢٩.

العرب من قرب منهم من آل مهنا وغيرهم، فأدركوا العسكر مشغولاً بالنهب، فحملوا عليهم فكسروهم ونهبوا ما معهم، وقتل الأمير قَشْتَمُرْ في المعركة، ودخل العسكر البلد دخولاً شنيعاً، وكان قَشْتَمُرْ شيخاً شجاعاً عارفاً يكتب الخط الحسن، ويتكلم بالعربيّ فصيحاً وفي الوقعة المذكورة قال ابن حبيب:

تباً لجيش طمعوا فوقعوا　　في شرك العراب[1] والأعراب
وعاد كل منهم مجرداً　　من الثواب ومن الأثواب[2]

قَوْصُون

قَوْصُون الساقي الناصريّ. حضر مع الجماعة الذين أحضروا ابنة القان أزبك زوج الناصر فرآه السلطان فألزم كبير الجماعة ببيعه منه فاشتراه بثمانية آلاف درهم فسلمها التاجر المذكور لأخيه صوصون ثم عظمت منزلته عند الناصر وأمّره تقدمه[3] فكان يفتخر ويقول أنا اشتراني السلطان وكنت من خواصه وأمّرني وقدمني وزوجني بنته وأما غيري فتنقل من التجار إلى الطباق إلى الإصطبلات، وكان الناصر يبالغ في الإحسان إليه وزوجه بنته في سنة ٢٧ واحتفل السلطان بعرسه حتى كانت قيمة التقادم[4] التي حملت إليه من الأمراء خمسين ألف دينار. وهو صاحب الجامع الكبير بالقاهرة والخانقات[5] المشهورة بباب القرافة.

(١) ولما توفي الناصر تعصب للمنصور أبي بكر حتى سلطنه وقام هو

---

(١) لم أجد لها في القاموس معنى مناسباً وأقرب المعاني: أنواع من الإبل والخيل، وهو بعيد، والله أعلم.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٣٣٣ - ٣٣٤.

(٣) أي أمره على عدد من المماليك.

(٤) الهدايا.

(٥) مكان نزول الصوفية والفقراء.

بتدبير المملكة ثم قبض على بشتاك وسجنه بالإسكندرية وأرسل إليه من قتله واستبد بتدبير السلطنة على طريق النيابة للمنصور ثم وقعت الوحشة بينهما فعمل على المنصور حتى أخرجه إلى قوص ثم دس إليه من قتله. واستمر قوصون يجلس في مجلس نائب السلطنة في أيام الأشرف كجك ثم ترفع عن ذلك فبُني له دار وصار يجلس فيها ويمد السماط[1] بها أعظم من سماط السلطان ثم نازع الناصر أحمد وهو بالكرك وأساء إليه إلى أن سار لطلب السلطنة فجهز قطلبغا الفخري إلى حصار الناصر أحمد بالكرك ثم انعكس الأمر وأغرى الفخري الأمراء بقوصون فقاموا عليه لما بلغهم أنه يريد أن يستبد بالمملكة وأنه يقول: في ملكي سبعمائة مملوك ألقىٰ بهم أهل الأرض.

(١) فلما انهزم الطنبغا نائب الشام ممن تعصب للناصر أحمد وحضر إلى مصر خرج قوصون لتلقيه فخامر الأمراء عليه وثار العوام فنهبوا إسطبله وخانقاته ثم أمسكوا قوصون وقيدون واعتقل بالإسكندرية إلى أن حضر الناصر إلى مصر فجهز أحمد بن صبح وقتل قوصون في محبسه بالإسكندرية وذلك في أواخر شوال سنة ٧٤٢.

(٢) وكان خيراً كريماً يعطي الألف أردب قمح والعشرة آلاف الفضة ونحو ذلك وكان إذا انفرد عن السلطان في الصيد يروح معه ثلث العسكر ولما نهبت داره أخذ منها ما يجاوز الوصف حتى إن الذهب المختوم كان أربعمائة ألف دينار، وأما الزركش والحوائض الذهب والأواني الذهبية والفضيلة فقيمة ذلك مائة ألف دينار، وكان فيما نهب له ثلاثة أكياس مليئة

---

(١) ما يوضع عليه الطعام.

جواهر نفيسة يقال إن قيمتها مائة ألف دينار إلى غير ذلك، واستغنى العوام والرعاع حتى صاروا يتبايعون الدينار بأحد عشر درهماً، والقمح بستة دراهم وقس على ذلك[١].

كَتْبُغا

كَتْبُغَا المُغليّ المنصوريّ زين الدين الملك العادل. كان أسمر قصيراً صغير اللحية. أسر من عسكر هلاكو في آخر سنة ٤٨ ثمّ اشتراه الملك المنصور وتنقلت به الأحوال وعظم في دولته، ثم ازداد في دولة الأشرف، ووَلِيَ النيابة للناصر في سلطنته الأولى، وكان هو الملك في الحقيقة، ثم استقل بعد سنة واحدة وتسلطن ولقب العادل وذلك سنة ٦٩٤، ودبر المملكة معه لاجين وقراسنقر وطائفة، ثم دخل كَتْبُغا دمشق سنة ٩٥، وتوجه إلى حمص، ثم توجه إلى مصر فوثب عليه لاجين فهرب كَتْبُغا وذلك سنة ٩٦ ودخل قلعة دمشق فلم يجمع له أمر وبذل الطاعة للاجين، ودخل لاجين إلى مصر سلطاناً فاستقر له الأمر بغير منازع وجلس على التخت في عاشر صفر وشق المدينة في سادس عشر، فأمره لاجين[٢] أن يقيم بقلعة صرخد، وأطلق له بعض غلمانه ونسائه فأقام بها إلى أن كان بعد وقعة غازان، فأعطاه الناصر النيابة بحماة بعناية بيبرس وسلار فإنهما كانا العمدة في تدبير المملكة، وليس للناصر حينئذ سوى الاسم.

(١) وكان بيبرس في خدمة كَتْبُغا فصار كَتْبُغا بعد زمن يسير في خدمة بيبرس فباشر نيابة حماة إلى أن مات، وكان قليل الشر يؤثر أمور الديانة شجاعاً مقداماً سليم الباطن رفيقاً بالرعية، ووقع في سلطنته الغلاء الكبير

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣٤٢/٣ ـ ٣٤٤.
(٢) أي: أَمَرَ لاجين كَتْبغُا.

المشهور فتشاءم الناس به، فإن النيل في تلك السنة قصر إلى أن بلغ سعر الأردب تسعين درهماً ثم بلغ في آخر السنة مائة وخمسين درهماً ثم بلغ إلى مائة وتسعين، ولم يمطر بأرض الشام ثمّ تزايد الوباء بالقاهرة حتى ضبط في اليوم الواحد في ديوان المواريث خاصة سبعة آلاف نفس[1] سوى من لم يضبط، ولو لا أنه فرق الفقراء على الأمراء كل واحد على قدره، وإلا لمات الجميع من الغلاء.

(١) ورأيت في رحلة التجيبيّ أن كتاب المنصور لاجين ورد إلى الإسكندرية في استقراره في السلطنة: وفيه أن السبب في القيام على كَتْبُغا أنه مال إلى جنسه من الططر ففطن الأمراء لذلك، وأرادوا قتله فهرب في ثلاثين نفساً، وذلك بقرب غزة في المحرم سنة ٦٩٦ فاتفقوا على عقد السلطنة للاجين فبايعوه، وحلفوا له. قال في فصل من فصول الكتاب إنا لو أردنا القبض على كَتْبُغا ما عجز بنا لكنا أبقينا عليه لكونه كان من إخوتنا، قال: ومن العجائب أن الكتاب قرئ على أهل البلد بالجامع فسمعوه، وافترقوا، ولم يبالوا بشيء مما وقع، ولاغلق سوق، ولا عند أحد من الناس بسبب ذلك حركة، ولو اتفق بعض ذلك ببلاد المغرب لاشتعلت البلاد ناراً للفتنة، وانقطعت المعائش قال: وما ذاك إلا لقلة فضولهم، واشتغالهم بما يعنيهم.

وكانت وفاته سنة ٧٠٢[2].

كُهُرْدَسْ

كُهُرْدَسْ الزراق المنصوريّ. كان يتولى النفط، وغير ذلك وهو الذي تولى عمارة المأذنة المنصورية لما انهدمت في الزلزلة سنة ٧٠٢.

---

(١) أي من الأموات.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٣٤٨ - ٣٥٠.

(١) قدم لفتح جزيرة أرواد[١] فلما وصل إلى طرابلس والجزيرة المذكورة مقابلها جهز معه عسكراً فقاتلوا الفِرَنج فهزموهم إلى أن أخذوهم أسرى ووجد بها من سلاح الفِرَنج شيء كثير وعدّة أسرى كان الفِرَنج يأخذونهم من تجار المسلمين نحو ثلاثمائة نفس.

كان مولعاً بالشراب، ثم تاب لما حج مع السلطان سنة ٧١٢.

وكان أحد الأمراء بدمشق ذكياً فطناً له عناية بالكتب العلمية. مات سنة ٧١٤[٢].

لؤلؤ

لؤلؤ الفَنْدَشِيّ الحلبيّ غلام فَنْدَش. كان في أول أمره جزاراً ثم توصل إلى أن خدم عند فَنْدَش فباشر ضمان حلب فصار يؤذي الناس ويرافعهم، ووصل إلى مصر مرات بسبب ذلك. فلما مات فخر الدين حضر إلى القاهرة في سنة ٣٢ قدام السلطان ورمى بين يديه ديناراً ودرهماً وفلساً وقال: الدينار للمباشرين والدرهم للنائب والفلس لك فغضب السلطان وطلب الجميع من حلب فلما وصلوا وتبرأوا مما رافعهم به حاققهم والتزم[٣] بثمانين ألف دينار فسُلِّموا له فكان يقعد في ديوان الوزارة ويعاقب ويضرب ويعذب وبالغ في أذى الناس فقام عليه الناس فأرادوا رجمه فسيّره السلطان إلى حلب وصيره شادَّ الدواوين بها فبالغ في أذية الناس أيضاً إلى أن باعوا أولادهم ثم أحضره السلطان إلى القاهرة وولاه شد الجهات فاستمر على وظيفته في الأذى. عزله السلطان في سنة ٧٣٧ وأحيط بماله فصودر ثم أفرج عنه بشفاعة تِنْكِز[٤] وأخرج إلى الشام في سنة ٧٣٩ ثم توجه إلى

---

(١) جزيرة في البحر قرب إستانبول فتحها المسلمون سنة ٥٤ هـ أيام معاوية رضي الله عنه. انظر «معجم البلدان»: ١/١٦٢.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٣٥٥ - ٣٥٦.

(٣) أي أنه ألتزم باستخراج هذا المبلغ منهم.

(٤) أمير الشام.

وتجبرّ ونهى وأمر وعزل وأهان الأمراء الأكابر وروع الحُرَم والأصاغر وضرب بالعصي والسياط وكلف الناس إدخال الجمل في سم الخياط[1].

ابن جماعة

محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنانيّ الحمويّ البيانيّ الشافعيّ. ولد بحماة سنة ٦٣٩، وتفقه ومهر في الفنون، ثم وَلِيَ قضاء القدس في سنة ٨٧، ثم نُقِل إلى قضاء الديار المصرية فوليها سنة تسعين فأحسن السيرة، ثم نقل إلى قضاء الشام سنة ٩٣ فباشرها مع الخطابة أضيفت إليه، ثم وَلِيَ مشيخة الشيوخ مع التدريس والإنظار، ثم وَلِيَ قضاء الديار المصرية ثاني مرة بعد ابن دقيق العيد فباشرها إلى أن حضر الناصر من الكرك سنة ٧٠٩ وأقام عِوَضه نائبه جمال الدين الذرعي فباشر سنة وشهراً ثمّ أعيد ابن جماعة سنة عشر ودرس بالصالحية والناصرية وجامع ابن طولون والكاملية والزاوية المنسوبة للشافعيّ وأضر بآخرة ثم استعفى فصرف سنة ٧٢٧ وقيل إنه أقام مدة بعد أن عَمِيَ يباشر القضاء وهو منقطع في منزله. وكان يخطب من إنشائه ويؤديها بفصاحة ويقرأ في المحراب طيباً. واجتمع له من الوجاهة وطول العمر ودوام العز ما لم يتفق لغيره، وصنف كثيراً في عدة فنون. قال الذهبيّ: كان قوي المشاركة في الحديث عارفاً بالفقه وأصوله، ذكياً فطناً مناظراً متفنناً ورعاً صيِّناً تام الشكل وافر العقل حسن الهَدْي، متين الديانة ذا تعبد وأوراد، وكان في ولايته الثانية قد كثرت أمواله فترك الأخذ على القضاء عفة ثم ثقل سمعه ثم أضر فصرف نفسه. وكان صاحب معارف يضرب في كل فن بسهم وله وقع في النفوس وجلالة في الصدور، وقال: وكان مليح الهيئة أبيض مسمناً مستدير اللحية نقي الشيبة جميل البِزَّة رقيق الصوت ساكناً وقوراً وحج مراراً، وكان عارفاً بطرائق الصوفية، وقُصِد بالفتوى وكان مسعوداً فيها. وقال القطب: من بيت علم وزهادة وكانت فيه رياسة وتودد ولين جانب وحسن أخلاق ومحاضرة حسنة

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٣٥٩ - ٣٦٠، وسم الخياط هو ثقب الإبرة التي يخاط بها.

وقوة نفس في الحق، قرأت بخط البدر النابلسي: كان متقشفاً مقتصداً في مأكله وملبسه ومركبه ومسكنه حسن التربية من غير عنف ولا تخجيل.

(١) ومن ورعه أنه لما وَلِيَ تدريس الكاملية رأى في كتاب الوقف في شرط الطلبة المبيت فجمع ما كان أخذه وهو طالب وأعاده للوقف لأنه كان لا يبيت.

ولما عزل واستقر جلال الدين القزوينيّ مكانه ركب من منزله من مصر وجاء إلى الصالحية حتى سلم عليه فعد ذلك من تواضعه. ولما مات كان الجمع في جنازته متكاثراً ودفن بالقرافة بالقرب من الشافعيّ، وانقطع في منزله قريباً من ست سنين إلى أن مات سنة ٧٣٣ وقد جاوز التسعين بأربع سنين وأشهر[١].

الغَرناطيّ

محمد بن إبراهيم بن محمد الأنْصَارِيّ الغَرْنَاطِيّ المعروف بالصنادع الصالح. كان حسن السمت ظاهر الوضاءة كثير الذكر وكان على سنن الخيار من الفضلاء له حظ من طلب ومشاركة يقوم بها على ما يحتاج إليه من أمر دينه ويتكلم على طريقة شيخه.

(٢) وكان يميل إلى الكيمياء ليستعين بها على ما يؤمله من الخير فلم يحظ بطائل.

(٣) كان محبباً إلى أهل الثغور والبادية يعمل الرحلة إلى حصونهم فيتألفون عليه تألف النحل على اليعسوب معلنين بالذكر مهرولين يغشون مثواه ويتنافسون في القرب منه ويباشرون العمل في أرض له كان يزرعها فيعود عليه نفعها.

مات سنة ٧٤٩ وكانت جنازته حافلة[٢].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٣٦٧ - ٣٦٩.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٣٨١.

حلب فأقام بها إلى أن حضر طَشْتَمُر نائباً عليها فقتله بالمقارع سنة ٧٤٢.
قال ابن حبيب في تاريخه: وَلِيَ شد الدواوين بحلب فبادر وصادر وتنمر

تاج الدين المراكشيّ

محمد بن إبراهيم بن يوسف الشيخ تاج الدين المراكشيّ الفقيه الشافعيّ. ولد بالقاهرة بعد السبعمائة، وتفقه وتقدم في الفنون وكان قويَّ النفس فاستطال على القاضي جلال الدين القزوينيّ فشكاه إلى الناصر فأمر بإخراجه إلى الشام فأقام بها، ثم وَلِيَ تدريس المسرورية بدمشق ثم سكنها.

(١) وانقطع بالمدرسة الأشرفية ملازماً للقراءة والاشتغال صبوراً على ذلك جداً بحيث يمتنع عن الأكل والشرب والملاذ بسبب ذلك.

(٢) وذكروا أن سبب تركه للمسرورية أنه رأى في شرط واقفها أن شرط مدرسها أن يكون عارفاً بالخلاف[١]، قال: وأنا لا أعرفه.

وكان مطموس العينين يبصر بإحداهما قليلاً وكان يعطي الأجرة لمن يطالع له. وقال التاج السبكي كان فقيهاً نحوياً مفتياً مواظباً على طلب العلم. وقال الشيخ علاء الدين حجي: كان يتناظر هو والفخر المصريّ فكان من حضر لا يفهم كثيراً مما يقولون لسرعة عبارتهما. وكان قد حصلت له أول النهار حمى فصبر إلى أن صلى الظهر بالجامع ثم جاء إلى بيته فصلى العصر بالمدرسة ثم دخل البيت فوقع ميتاً سنة ٧٥٢ رحمه الله[٢].

المنفلوطيّ

محمد بن إبراهيم وَلِيّ الدين الديباجيّ المعروف بالمنفلوطيّ وكان يعرف أيضاً بابن خطيب ملوي. تفقه بأبيه وغيره ونشأ على قدم صدق في العبادة والأخذ عن أدب الشيوخ وله اليد الطولى في المنطق والأصلين

---

(١) أي خلاف الفقهاء.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٣٨٦ - ٣٨٧.

والفقه والتصوف، كثير التواضع والانطراح. كان قد سمع بدمشق من الحجار وأسماء بنت صصرى والبندنيجيّ وغيرهم. قدم القاهرة مراراً ثم استوطنها ودرس بالقبة المنصورية وغيرها. وكان قليل التكلف إذا لم يجد ما يركب مشى، كثير الإنصاف خبيراً بدينه ودنياه وكان ابن عقيل وَلِيَ درس مدرسة حسن من قِبَل صاحبها فلما قُتل أراد يَلْبُغا هدمها ثم تركها وولى تدريسها لولي الدين فغضب منه ابن عقيل فتوجه إليه حتى ترضاه.

(١) وكان يميل إلى مقالة ابن العربيّ ويدندن حولها في تواليفه ويجمجم ولا يكاد يفصح.

وكان يحضر السماعات ويرقص أحياناً.

(٢) ونقل العثمانيّ الصفديّ قاضي صفد في طبقات الشافعية أنه حصل له عند موته ما يدل على نجاته وأنه قال: انزعوا عني ثيابي فقد أُحضرت لي ثياب من الجنة أو نحو هذا من الكلام.

(٣) ومن كلامه الرشيق لما سئل: أيهما أفضل الإمام أو المؤذن؟ فقال: ليس المنادي كالمناجي.

مات سنة ٧٧٤[١].

ابن بَصْخان

محمد بن أحمد بن بَصْخَان شمس الدين بن عين الدولة الدمشقيّ. ولد سنة ٦٦٨. عني بالقراءات وقرأ العربية ودخل القاهرة سنة الجفل من التتار فجلس تاجراً في حانوت ثم قدم دمشق.

(٤) وتصدى للإقراء وظهرت فضائله ثم تبسط في الإقراء إلى أن قرأ بادغام الراء في اللام من قوله: ﴿والحمير لتركبوها﴾ وزعم أن ذلك يخرج من الشاطبية مع اعترافه بأنه لم يقله أحد فقام عليه ابن الزملكانيّ وساعده

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٣٩٥.

المجد التونسيّ وغيره، فطلبه ابن صصرى وعُقِد له مجلس فباحثوه وحاققوه فلم يرجع فمنعه القاضي من الإقراء بذلك وكان ذلك في سنة ٧١٤ فتألم وامتنع من الإقراء جملة، ثم عاد واقرأ بالجامع، ثم وَلِيَ مشيخة التربة الصالحية بعد المجد التونسيّ وشرط الواقف أن يكون شيخها أعلم أهل البلد بالقراءات وكان وقوراً مهيباً بهيّ المحيا شامخ الأنف ظريف الملبس، وإذا أقرأ لا يتنحنح ولا يتنخم ولا يلتفت. واشتهر عنه أنه كان لا يأكل اللحم إلا مصلوقة ولا الحلوى إلا سكرية ويقال: كان حسن الصوت بالقراءة طيب النغمة لا يأكل إلا ما يوافق إصلاح الصوت؛ أمر مرة بعض أتباعه أن يصلح له قطائف بشراب التفاح ودهن اللوز فلم يجد شراب التفاح فأصلحها بقطر النبات فغضب وألزم الذي أحضرها بأكله.

(١) ووقع بينه وبين الذهبيّ لكونه ذكره في طبقات القراء ببعض ما ذُكِر فكتب بخط غليظ على الصفحة التي بخط الذهبيّ كلاماً أقذع فيه في حق الذهبيّ بحيث صار خط الذهبيّ لا يقرأ غالبه فانتقم الذهبيّ منه بأن ترجمه في معجم شيوخه ووصف ما وقع إلى أن قال فمُحِي اسمه من ديوان القراء. وكان له مِلك يرتفق به ولا يتناول من الجهات شيئاً.

مات سنة ٧٤٣[١].

الصّالحيّ

محمد بن أحمد بن تمام الصَّالحيّ. ولد سنة ٦٥١ وتفقه قليلاً.

تأدب بآداب الصالحين من التقوى والإخلاص والتواضع والبشاشة والأوراد والقناعة. وكان صالحاً منجمعاً مقتصراً على الاكتساب من الخياطة، وكان معتقَداً يتردد إليه الأكابر إلى رباطه، وكان تِنْكِز[٢] يركب إليه ويزوره وكان هو يشفع عنده. قرأت بخط البدر النابلسيّ في صفته: العالم

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٢) نائب الشام.

الزاهد، له المراقبة التامة على ملوك الدنيا كان تِنْكِز ملك الأمراء يدخل عليه وهو يخيط الثياب وإحدى رجليه منصوبة والأخرى ممدودة فلا يتغير عن هيئته، وكان يفرق كل شيء يُهدى إليه على الحاضرين ولا يقتات إلا من الخياطة. ومُتِّع بحواسِّه، وخرج له الذهبيّ جزءاً كبيراً وقال: كان مليح الوجه بسّاماً، لين الكلام أمّاراً بالمعروف، له وقع في القلوب ومحبة في الصدور، نشأ في تصون وعفاف. مات سنة ٧٤١[1].

شمس الدين الباجربقيّ

محمد بن أحمد بن عبد الرحيم الدُّنَيْسَرِيّ الأصل ثم الموصليّ الدمشقيّ شمس الدين الباجربقيّ. اشتغل بالعلم ودرس بمدرسة جده الفتحية وكان كثير القناعة، فلما كان في رمضان سنة ٦١ ادُّعِيَ عليه أنه قال: ليس كل الحق مع أهل السنة بل بعض أقوال المعتزلة قد تكون حقاً أو نحو ذلك فعزره القاضي تاج الدين السبكيّ بكشف رأسه ونودي عليه من العادلية إلى الشامية البرانية ثم سجن ثم أطلق وكُلف أن يسأل ابن الكفريّ أن يحكم بإسلامه ففعل، ولما أطلق عزت نفسه فانعزل عن جهاته ففرقها القاضي وأقام بمنزله. ولم يزل مهاجراً للقاضي إلى أن صالحه في أواخر عمره، وكانت وفاته سنة ٧٦٥[2].

بدر الدين الحنبليّ

محمد بن أحمد بن عبد الله القاضي بدر الدين بن الحَبَّال الحَنْبَلِيّ. ولد سنة ٦٥ وبرع في الفنون وجمع وتصدر للتدريس مدة وناب في الحكم. وكان قليل الحظ مغضوباً عليه من جهة من يؤذي الناس.

(١) قرأت بخط البدر النابلسيّ: قال التقيّ السبكيّ فيما قرأت

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٤٠٠ - ٤٠١.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٤١٤.

بخطه: كان فاضلاً ناب عن التقيّ الحنبليّ، وحكى عن تقيّ الدين بن رزين حكاية وأنشد عنه لنفسه في قصة وقعت له:

تحالف الناس والزمان فحيث كان الزمان كانوا
عاداني الدهرُ نصفَ يوم فانكسف الناس في وبانوا
يا أيها المعرضون عني عودوا فقد عاود الزمان

وذكر أن سببها أنه عزل في كائنة اتفقت فجاءه الخبر أول النهار وعنده جمع كبير فانتقل ذلك الجمع في الحال، ثم جاءته الولاية آخر النهار، قال: فكاد باب منزلي يتكسر من الزحام فقلت ذلك.

مات سنة ٧٤٩[1].

شمس الدين بن اللبان

محمد بن أحمد عبد المؤمن الأسْعَرْدِيّ ثم الدمشقيّ نزيل القاهرة شمس الدين بن اللبان. ولد سنة ٨٥ أو نحوها وتفقه وبرع في الفنون ودرس بزاوية الشافعيّ بالجامع.

(١) تكلم على الناس على طريق الشاذلية فطار له بذلك صيت عظيم ولكنه ضبطت عليه كلمات على طريق الاتحادية فقام عليه الفقهاء وحضر إلى مجلس القاضي جلال الدين القزوينيّ وادُّعِيَ عليه عنده وانتصر له ابن فضل الله إلى أن استُنقِذ من يد القاضي المالكيّ شرف الدين عيسى الزواويّ بعد أن منع من الكلام. وله ترتيب الأمّ للشافعيّ، واختصر الروضة لكنه تعانى تعقيد الألفاظ فلا يفهم، واختصر علوم الحديث، وله مختصر في النحو وتفسير سور.

(٢) وكتاب على لسان الصوفية وفيه من إشارات أهل الوحدة وهو في غاية الحلاوة لفظاً وفي المعنى سم ناقع.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٤١٩ - ٤٢٠.

قال الإسنويّ: كان عارفاً بالفقه والأصلين والعربية أديباً ذكياً فصيحاً ذا همة وصرامة وانجماع، وعمل في كائنة الكمال جعفر الأدْفُويّ مقامة حط عليه فيها.

(١) قال العثمانيّ قاضي صفد: رأيته بمكة وقت صلاة الجمعة وأمير الحج يضرب الطائفين ويقول اجلسوا للصلاة فقام عليه وأمسك بكتفيه وقال: نبيك قال: لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت أيّ ساعة شاء من ليل أو نهار فسقطت العصا من يد الأمير وقبل يد الشيخ، قال: فاتفق أنه لما خرج الخطيب جلس الناس دفعة واحدة. مات في الطاعون العام سنة ٧٤٩[١].

الهَوّاريّ

محمد بن أحمد بن علي الأنْدَلُسِيّ أبو عبدالله الهَوَّاريّ المالكيّ الأعمى. ولد سنة ٦٩٨ وقرأ القرآن، والنحو والحديث ثم رحل إلى الديار المصرية، وصحبه أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطي فكان ابن جابر ينظم والغرناطيّ يكتب، ثم نبغ الغرناطيّ في النظم أيضاً لكن المكثر هو ابن جابر ثم حجا ورجعا إلى الشام فأقاما بدمشق قليلاً ثمّ تحولا إلى حلب، وسكنا البيرة فاستمرا بها نحواً من خمسين سنة ثمّ في الآخر تزوج ابن جابر فتهاجرا.

مات سنة ٧٨٠ بالبيرة[٢].

الجبرتي

محد حق الدين بن أحمد حرب أرعد بن علي صبر الدين بن ولسمع عمر الجَبَرْتيّ الحَبَشِي، ملك الحبشة. كان جده عمر أول من تأمر ببلد يقال لها وُفات، وكان أصله من مكة من بني عبد الدار وقيل من بني

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٤٢٠ - ٤٢١.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٤٢٩ - ٤٣٠.

عقيل بن أبي طالب، وكان يسكن بها جماعة من المسلمين تحت حكم الحطي ملك الحبشة فأمّر عليهم عمر المذكور فطالت مدته فملك أولاده منهم صبر الدين عليّ في سنة سبعمائة فقويت شوكته، وخرج عن طاعة الحطيّ ثم عاد إليها للاختلاف عليه فأقام الحطيّ ولده أحمد حرب أرعد مكانه وألزم علياً الإقامة عنده فأقام ثمان سنين ثم أعاده واستدعى ابنه أحمد عنده ثم رضى الحطيّ عن أحمد فولاه ما عمل من عمل أبيه ثم مات أحمد فأقام أبوه عوضه ابنه الآخر واسمه أبو بكر وخلف أحمد أولاداً منهم سعد الدين محمد، وحق الدين محمد فاشتغل حق الدين بالعلم وتقدم فيه فهجره جده علي وعمه ملا أصفح حتى ألزمه بالإقامة في عمله وأخرجه لجباية بعض البلاد فحنق من ذلك وجمع الناس على العصيان على عمه فانتصر حق الدين، وكان عمه استنصر بالحطيّ فأنجده فقتل العم في المعركة وانهزم الجيش وسار حق الدين إلى جده فتأدب معه وأمده جده بمال فبنى حق الدين مدينة سماها وحل وأسكن بها أكثر أهل مدينة وُفات واستمر على محاربة جيوش الحطيّ حتى قيل إنه وقعت بينهم مدة تسع سنين عشرون وقعة كلها ينتصر عليهم فلما كان في الوقعة الأخيرة استشهد وذلك سنة ٧٧٦ وكان مقداماً شجاعاً عجولاً، ملك تسع سنين واستقر بعده أخوه سعد الدين أبو البركات محمد[١].

شمس الدين بن غدير

محمد بن أحمد بن علي بن غدير الـوَاسِطِيّ الشيخ شمس الدين بن غدير المقرىء. أخذ القراءات عن العز الفاروثيّ وصحبه مدة وجاور معه بمكة وسمع من عبد الله بن مروان الفارقيّ وغيره، وكان ماهراً في القراءات عارفاً بطرقها مستحضراً. تصدر للإقراء بجامع الحاكم.

(١) وكان سيء الخلق بذيء اللسان؛ قال الذهبي: هو من فضلاء المقرئين على مزاح فيه ولعب وبلغني عنه سوء سيرة. انتهى. حضر عنده

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٤٣٢ - ٤٣٣.

طالبُ قراءة فقرُب منه فزجره، وقال: أتقعد مني مقعد القابلة هلا جلست مزجرَ الكلب. مات سنة ٧٣٩[١].

التُّجِيبِيّ

محمد بن أحمد بن أبي الوليد محمد التُّجِيبِيّ الأندلُسِيّ نزيل دمشق. ولد سنة ٦٣٨، ومات أبوه وجده معاً في سنة ٦٤١ ونشأ يتيماً.

(١) وكان له مال جزيل إلى الغاية فتمزق بأيدي الظلمة حتى يقال إن ابن الأحمر أخذ منه في دفعة واحدة عشرين ألف دينار.

وعدمت له كتب جليلة وسكن شريش ثم غرناطة ثم تونس، ثم رحل إلى المشرق فسكن دمشق وأم بمحراب المالكيّة. كتب بخطه كثيراً من كتب الفقه واللغة والحديث وعرض عليه نيابة الحكم فامتنع.

(٢) وكانت له عدة كاملة من السلاح والخيل أعدها للغزاة من ماله.

قال الذهبيّ في ذيل العبر: كان نبيلاً من بيت علم، وكتب تصانيف نافعة بالمغرب ومحاسنه جمة وقال في «سير النبلاء»: كان وقوراً منور الشيبة حسن الفضيلة متين الديانة والتأله منقبضاً. مات سنة ٧١٨[٢].

ابن جُزَيْء

محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَيء الكَلْبِيّ الغَرْنَاطِيّ يكنى أبا القاسم، قال ابن الخطيب: كان على طريقة مثلى من العكوف على العلم والاشتغال بالنظر والتقييد مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وأدب وحديث، تقدم خطيباً ببلده على حداثة سنه فاتفقوا على فضله، وله تصانيف.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤٣٣/٣.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٤٤٠/٣ ـ ٤٤١.

(١) ومن شعره:

لكل بني الدنيا مراد ومقصد وإن مرادي صحة وفراغ
لأبلغ في علم الشريعة مبلغاً يكون به لي في الحياة بلاغُ
ففي مثل هذا فلينافس أولو النهى وحسبي من الدنيا الغَرورِ بلاغُ
فما العيش إلا في نعيم مؤبد به العيش رغد والشراب يساغُ

(٢) قُتل في الكائنة بطريف سنة ٧٤١[1].

عز الدين ابن القلانسيّ

محمد بن أحمد بن محمد العُقَيْلِيّ عز الدين بن القلانسيّ. ولد سنة ٦٩٣.

باشر الحسبة وكان مهاباً مطاعاً مع أنه لم يضرب أحداً ضرباً مبرحاً ولا زاد على العشر تأديباً.

وَلِيَ نظر الخزانة بدمشق.

(٣) وكان كافياً فيما يتولاه متثبتاً في أمره، لما صودر الشمس غبريال الوزير طُلب منه أن يحل أوقافه بحكم أنه لما وقفها كان فقيراً فشهد بعض الناس بذلك والتمس من عز الدين هذا أن يشهد فقال: كيف أشهد وهو كان يصرف في كل شهر عشرة آلاف درهم مدة طويلة يتناولها غير مقطوعة فكيف يكون مثل هذا فقيراً؟ فبلغ السلطان الناصر ذلك فأعجبه وأثنى على دينه وثباته. مات سنة ٧٢٦[2].

أبو الحسين السبتيّ

محمد بن أحمد بن محمد التِّلِمْسَانيّ الأصل نزيل سبته أبو الحسين.

ولد سنة ٧٩. ٦ وَلِيَ الحسبة بغرناطة.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٤٤٦ - ٤٤٧. وكائنة طريف هذه بين الأندلسيين والإسبان.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٤٥٤.

(١) كان مشاركاً في الحديث والأدب قائماً على حفظ كتاب الله طيب النغمة به حتى يقال إن رجلاً فاضت نفسه لشجو نغمه.

ولم يؤثر عنه في أحد وقيعة مع اتصاله بالسلطان. كانت وفاته سنة ٧٦٢، وقد أسن[١].

ابو بكر المُرْسيّ

محمد بن أحمد بن أبي بكر الرقوطيّ المُرْسِيّ أبو بكر. قال ابن الخطيب: كان عارفاً بالفنون القديمة من المنطق والهندسة والطب والموسيقى، ولما تغلب الروم[٢] على مرسية[٣] أكرمه ملكهم وبنى له مدرسة، وكان يقرىء بها المسلمين واليهود والنصارى جميع ما يرغبون فيه بألسنتهم.

(٢) ويقال إن الملك أدنى مجلسه ونوه به وعرض عليه التنصر، فقال: أنا أعبد واحداً وقد عجزت عما يجب له عليّ من الحق فكيف حالي لو عبدت ثلاثة.

ثم استنقذه ثاني الملوك من بني نصر وأشاد بذكره وأخذ عنه الجم الغفير، وكان يُعِدُّه لمن يفد عليه من أصحاب الفنون فيجاريهم فيغلبهم غالباً، ولم يزل على ذلك إلى أن مات[٤].

المُرَّاكُشِيّ

محمد بن أحمد المُراكُشِيّ. قال ابن الخطيب: كان متسوراً على الكلام في الصنائع من غير تدرب ولا حيلة انتحل الطب وتصدر للعلاج ثم أخرج أخلوطة زعم أنه يستخرج منها الخبايا والإنذار بالكوائن وسماها

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٤٥٦ ـ ٤٥٧.
(٢) أي النصارى الإسبان.
(٣) مدينة في الأندلس.
(٤) «الدرر الكامنة»: ٣/٤٦٤ ـ ٤٦٥.

الزايرجة تشتمل على أعداد وخطوط ومدارك واصطلاحات يستخرج منها بالقسمة والضرب حروفاً إذا اجتمعت خرج منها شعر وأولها:

يقول سبيتني وبحمد ربي مصل على هاد إلى الناس أرسلا

وصار يتحدى بالإعلام بالكائنات فأقبل الناس عليه إقبالهم على المُمَخْرِقين[1] واتفق أنه أصاب في بعض القضايا فازدحموا عليه حتى سئل مرة عن مسئلة فقهية فزعم أنها يوجد فيها نص في كتاب في مَالَقة فكان كذلك. وكان أبو الحسن بن الجباب يظهر زيغه وينهى عن تصديقه وقامت له سوق بغرناطة وتلمسان. ومات في أول سنة ٧٣٧. قلت: ووقفت على الزايرجة عند شيخنا القاضي وليِّ الدين بن خلدون وكان يوهم أنه يعرفها ولا يعترف بها صريحاً وانتسخها من جماعة وذهبوا بها، واطلعت على أن بعضهم ينظم البيت الشعر في الحال ويدعي أنه من استخراجه، والعلم عند الله تعالى[2].

خُدَابندا

محمد بن أرغون بن أبغا بن هلاكو بن تولى بن جنكزخان المغلي السلطان غياث الدين القان المعروف بخُدابندا وعلى ألسنة العامة: خرْبَنْدَا ومعناه بالعربية عبد الله، ملك العراق وخراسان وآذربيجان بعد أخيه غازان، ولد سنة نيف وسبعين، وكان جميل الوجه إلا أنه أعور، وكان حسن الإسلام لكن لعبت بعقله الإمامية فترفض وأسقط من الخطبة ذكر الأئمة إلا علياً، وكان جواداً سمحاً يؤثر اللعب ويحب العمارة، أنشأ مدينة جديدة بأذربيجان سماها السلطانية، وقد حاصر الرحبة في سنة ٧١٢ وأخذها بالأمان وعفا عن أهلها ولم يسفك فيها دماً، ثم رحل عنها بغتة بغير سبب ظاهر وكان معه في حصارها الأفرم وغيره من الأمراء الذين فروا إليه من

---

(١) أي المشعوذين.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/٤٦٦ - ٤٦٧.

الناصر، وكان فيما يقال: قد رجع عن الرفض وأظهر شعار أهل السنة فقال بعضهم في ذلك:

رأيت لخَرْبَنْدا اللعين دراهما يشابهها في خفة الوزن عقله
عليها اسم خير المرسلين وصحبه لقد رابني هذا التسنن كله

وفي رحلته عن الرحبة يقول الوداعي:

ما فر خَرْبَنْدا عن الرحبة العظمى إلى أوطانه شوقا
بل خاف من مالكها أنه يلبسه من سيفه طوقاً

مات خربندا سنة ٧١٦[١].

السلطان الخزرجيّ الأندلسيّ

محمد بن إسماعيل بن فرج الأنصاريّ الخزرجيّ. ولد سنة ٧١٥، وقُرِّر في السلطنة بالأندلس يوم مهلك أبيه سنة ٧٢٧، وقام في تدبير دولته وزيره المُتغلِّب عليه عثمان بن أبي العلاء إلى أن فتك به وهو بعد في سن الشباب لم يبقل[٢] خده. كان من نبلاء الملوك صرامة وعزة وشهامة وجمالاً وخصالاً وشجاعة، مغرماً بالصيد يحب الأدب ويرتاح إلى الشعر وينبه على عيبه. وكانت له في الكفار وقائع وفتح الله عليه مدينة باغة وحصن قشتال وغير ذلك. ولم يزل في عزة وعزمة إلى أن كان في ثالث عشر ذي الحجة سنة ٧٣٣ عزم على ركوب البحر بظاهر جبل الفتح فثار به الجند وبادر بعضهم فطعنه فقضى لحينه وبايعوا أخاه أبا الحجاج يوسف، ورثاه الشعراء فأكثروا، فمن ذلك قول الشاعر أبي بكر بن شيرين:

عين بكى لميت غادروه في ثراه ملقى وقد غدروه
دفنوه ولم يصل عليه أحد منهم ولا غسلوه[٣]

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣/٤٦٨ - ٤٦٩.
(٢) أي لم ينبت فيه الشعر بعد.
(٣) «الدرر الكامنة»: ٤/٩ - ١٠.

محمد الخزرجيّ

محمد بن إسماعيل بن محمد الأنصاريّ الخزرجيّ. ولد سنة ٧٣٢، ونشأ دميم الخَلْق لئيم الخُلق كَلِفاً[١] بالأحداث[٢] يتخطفهم من الطرق ومولعاً بالصيد بالكلاب، وكان السلطان أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد بن نصر زوجه ابنته فلما مات ووَلِيَ بعده...[٣] قام أهل الدولة على هذا وألزموه أن لا يدخل القلعة لسوء سيرته فصار يتصرف على عادته السيئة في البلد وضواحيها، ثم راسل أم زوجته فأمدته بالمال، وسعى في تصيير الملك لولدها شقيق زوجته فثار معه الجهال والدعار فهجموا على القلعة في أواخر رمضان سنة ٧٦١ فقتلوا نائب السلطنة المعروف برضوان وجماعة من الشيوخ، ونصبوا الولد المذكور، وقام هذا في خدمته وبذل نفسه وتبذل حتى كان يمشي بين يديه في زي الشُّرَط، ثم حسن له التبسط في اللذات فانصاع له وانهمك وصار هو يظهر للناس الإنكار لصنعه واستكثر من ضم الرجال إلى نفسه موهماً للمبالغة في الاستظهار على حفظ صهره إلى أن كان في رابع شعبان سنة ٧٦١ فثار بالسلطان المذكور وقتله واستولى على المملكة وسار السيرة السيئة.

(١) ونازله ملك الفِرَنج فضاق به الحال واحتاج إلى المال حتى كسر الآنية والحلية وباع العقار، ثم توجه السلطان إلى جهته فانهزم بعد أن استولى على الذخائر وذلك في جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ واستمرت به الهزيمة إلى صاحب قشْتالة الفِرَنجيّ متذمماً به ضامناً له إتلاف الإسلام واستباحة البلاد والعباد فغدر به وقبض عليه وعلى من معه وهم زهاء ثلثمائة نفس منهم شيخ الجند المغربيّ إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الله بن عبد الحق واستولى على ما معهم من النفائس ثم أمر بهم فأخذتهم السيوف جميعاً وذلك في ثاني رجب سنة ٧٦٣.

---

(١) أي محباً.

(٢) صغار السن.

(٣) فراغ في الأصل.

(١) ومن عجائب ما يحكى عنه أن امرأة رفعت إليه أن دارها سرقت فقال: إن كان ذلك ليلاً بعد ما قفل باب الحمراء عليّ وعلى حاشيتي فهي والله كاذبة إذ لم يبق هناك سارق.

(٢) وكان استوزر على طريقته محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح فقاسى الناس منه شدة شديدة في أبدانهم وأموالهم ثم قبض عليه ثم استقر محمد بن مسعود فكان أدهى وأمرَّ معاملة[1].

القرندليّ

محمد بن بَكْتوت بدر الدين القرندليّ الكاتب المجود. نسخ من المصاحف وكتب العلم الكثير وكان يضع المحبرة في يده الشمال والمجلد من الكشاف على يده ويكتب وهو يغني ولا يغلط.

(٣) وكان قد أقام عند المؤيد بحماة يكتب له فأحب امرأةً نصرانية فكان ينفق عليها ما يمكنه وهام بها إلى أن أمرته أن يكون في رأسه صليباً ففعل وكان ربما التهى بها عن كتابة ما يريده السلطان فبلغه خبرها فأمر بنفيها إلى شيزر فكان المذكور يقيم بحماة إلى المغرب ويمشي من حماة إلى شيزر فيبيت عندها ويقوم من الفجر يمشي إلى حماة فلازم على ذلك سنة. وكانت وفاته سنة ٧٣٥[2].

ابن القيِّم

محمد بن أبي بكر بن أيوب الزّرعي الدِّمشقيّ. شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبليّ. ولد سنة ٦٩١. وكان جريء الجَنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف، وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وكان له حظ عند الأمراء المصريين.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/١٠ ـ ١١.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٤/١٦.

(١) واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروباً بالدرة، فلما مات أفرج عنه. وامتحن مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية. وكان ينال من علماء عصره وينالون منه. قال الذهبيّ في المختص: حبس مرة لإنكاره شد الرحل لزيارة قبر الخليل، ثم تصدر للإشغال ونشر العلم ولكنه معجب برأيه جريء على الأمور، وكان مدة ملازمته لابن تيمية منذ عاد من مصر سنة ٧١٢ إلى أن مات.

(٢) وقال ابن كثير: كان ملازماً للإشتغال ليلاً ونهاراً كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق كثير التودد لا يحسد ولا يحقد. ثم قال: لا أعرف في زماننا من أهل العلم أكثر عبادة منه وكان يطيل الصلاة جداً ويمد ركوعها وسجودها إلى أن قال: كان يُقصد للإفتاء بمسألة الطلاق حتى جرت له بسببها أمور يطول بسطها مع ابن السبكيّ وغيره.

(٣) وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار ويقول هذه غدوتي لو لم أقعدها سقطت قواي.

(٤) وكان يقول: بالصبر والفقر تنال الإمامة في الدين.

(٥) وكان يقول: لا بد للسالك من همة تسيره وترقيه وعلم يبصره ويهديه.

(٦) وكان مغرى بجمع الكتب فحصل منها ما لا يحصر حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهراً طويلاً سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم.

له من التصانيف «الهدى» و«أعلام الموقعين» و«بدائع الفوائد» و«طريق السعادتين» و«شرح منازل السائرين» و«القضاء والقدر» و«جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» و«مصائد الشيطان» و«مفتاح دار السعادة» و«الروح» و«حادي الأرواح» و«رفع اليدين» و«الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» وتصانيف أخرى، وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف وهو طويل النفس فيها يتعانى الإيضاح جهده فيسهب

جداً، ومعظمها من كلام شيخه بتصرف في ذلك، وله في ذلك ملكة قوية[1]. ولا يزال يدندن حول مفرداته وينصرها ويحتج لها. ومن نظمه قصيدة تبلغ ستة آلاف بيت سماها «الكافية في الانتصار للفرقة الناجية».

(۱) وهو القائل:

بُنَيُّ أبي بكر كثير ذنوبه	فليس على من نال من عرضه إثم
بُنَيُّ أبي بكر متصدراً	يُعلم علماً وهو ليس له علم
بُنَيُّ أبي بكر جهول بنفسه	جهول بأمر الله أنّى له العلم
بُنَيُّ أبي بكر يروم ترقياً	إلى جنة المأوى وليس له عزم
بُنَيُّ أبي بكر لقد خاب سعيه	إذا لم يكن في الصالحات له سهم
بُنَيُّ أبي بكر كما قال ربه	هلوع كنود وَصْفُه الجهل والظلم
بُنَيُّ أبي بكر وأمثاله غدت	بفتواهم هذي الخليقة تأتم
وليس لهم في العلم باع ولا التقى	ولا الزهد والدنيا لديهم هي الهم
بُنَيُّ أبي بكر غدا متمنياً	وِصال المعالي والذنوب له هم

وجرت له محن مع القضاة.

(۲) مات سنة ۷٥۱ وكانت جنازته حافلة جداً ورؤيت له منامات حسنة، وكان هو ذكر قبل موته بمدة أنه رأى شيخه ابن تيمية في المنام وأنه سأله عن منزلته فقال: إنه أنزل منزلة فوق فلان وسمى بعض الأكابر، قال له: وأنت كدت تلحق به ولكن أنت في طبقة ابن خزيمة[2].

---

(۱) قال الشوكاني في: «البدر الطالع»: ۲/۱۱٤: «وله من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين، بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان وتحبه القلوب، وليس له على غير الدليل معول في الغالب وقد يميل نادراً إلى المذهب الذي نشأ عليه ولكنه لا يتجاسر على الدفع في وجوه الأدلة بالمحامل الباردة بل لا بد له من مستند في ذلك، وغالب أبحاثه الإنصاف والميل مع الدليل حيث مال».

(۲) «الدرر الكامنة»: ٤/۲۱ - ۲۳.

تقي الدين الإخنائيّ

محمد بن أبي بكر الإخنائي المالكي تقيّ الدين. ولد سنة ٦٦٠ تقريباً واشتغل بالفقه على مذهب مالك وغيره وتقدم وتميز، ثم وَلِيَ قضاء الديار المصرية للمالكية وكان الناصر يحبه ويرجع إليه في أشياء. وحضر مرة في دار العدل فنظر إليه السلطان فتفرس فيه أنه أشرف على العمى فكان كذلك فالتمس من السلطان أن يمهل عليه إلى أن يعالج نفسه فأمهل عليه ستة أشهر فقدَح عينيه فأبصر. قرأت ذلك بخط البدر النابلسي وذكر في ترجمته أنه قرأ صحيح البخاري في مائتي وعشرة مجالس في مدة سنتين قراءة بحث ونظر وتأمل، وكان ذلك سنة ٧٣٢. واستمر في وظيفة القضاء يقال إنه[1] قال: لا أعزله أبداً ولو استمر أعمى حتى يموت. ومما اتفق من سعادته لما وَلِيَ القضاء أن القاضي شمس الدين الحريريّ الحنفيّ استصغره لأنه كان أصغر نواب المالكية فأنكر ولايته واستكتب فيه محضراً بخطوط وجوه المالكية بعدم أهليته وأكمله وأخذه في كمه وتوجه إلى القلعة فلما قرب من بابها ألقته بغلته فتهشمت عظامه وحُمل على الأعناق إلى منزله فأقام مدة معطلاً من الركوب والحركة مشتغلاً بنفسه عن الإخنائيّ وغيره فتمت ولايته. وقرأت بخط البدر النابلسي أن السلطان كان يقول له إذا انقطع عن الموكب لعذر: المجلس لا يحسن إلا بك. مات في الطاعون العام في أول سنة ٧٥٠[2].

السكاكينيّ

محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم الهَمْداني ثم الدمشقي السكاكينيّ الشيعيّ.

ولد سنة ٦٣٥ هـ بدمشق، وطلب الحديث وتأدّب وسمع وهو شاب وتلا بالسبع، روى عنه البزراليّ والذهبي وآخرون.

---

(١) أي السلطان.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢٧ - ٢٨.

(١) وأقعد في صناعة السكاكين عند شيخ رافضيّ فأفسد عقيدته فأخذ عن جماعة من الإمامية. له نظم وفضائل. وردّ على العفيف التلمساني في الاتحاد، وأمّ بقرية جسرين مدة وأقام بالمدينة النبوية عند أميرها منصور بن جماز مدة طويلة ولم يحفظ له سبٌّ في الصحابة بل له نظم في فضائلهم إلا أنه كان يناظر على القدر وينكر الجبر وعنده تعبد وسعة علم. قال ابن تيمية: هو ممن يتسنن به الشيعيّ ويتشيع به السنيّ.

قال الذهبيّ: كان حلو المجالسة ذكياً عالماً فيه اعتزال وينطوي على دين وإسلام وتعبد، سمعنا منه وكان صديقاً لأبي، وكان ينكر الجبر ويناظر على القدر ويقال إنه رجع في آخر عمره ونسخ صحيح البخاريّ.

ووُجِد بعد موته بمدة في سنة ٧٥٠ بخط يشبه خطه كتاب يسمى «الطرائف في معرفة الطوائف» يتضمن الطعن على دين الإسلام وأورد فيه أحاديث مشكلة وتكلم على متونها بكلام عارف بما يقول إلا أن وضع الكتاب يدل عى زندقة فيه وقال في آخره وكتبه مصنفه عبد الحميد بن داود المصريّ وهذا الإسم لا وجود له وشهد جماعة من أهل دمشق أنه خطه فأخذه تقيّ الدين السبكيّ عنده وقطعه في الليل وغسله بالماء[١].

مات هذا السكاكينيّ سنة ٧٢١[٢].

ظهير الدين الصرصريّ

محمد بن الحسن بن عبد الرحمن الصَّرْصَريّ الحنبليّ. ظهير الدين. كان رئيس العراق في دولة أبغا ومن بعده، وافر الجلالة محترم الجناب. ولد سنة ٦٥٢. وكان ذا مروءة وجود ومكارم وجاه وله مطالعة في العلم

---

(١) قال الشوكاني في «البدر الطالع»: ١٥٢/٢: «ومجرّد كون الخط يشبه خطه في ذلك الكتاب لا يحل الجزم بأنه مصنفه لاحتمال أن الخط غير خطه، وعلى فرض أنه خطه فقد يكون الواضع له غيره وكتبه بخطه».

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣٠/٤ - ٣١.

ومشاركة. كان يتردد إليه حكام البلد فيتحفهم ويتفضل. وكان يُفطِّر في رمضان كل ليلة مائة فقير وفقيرة، وكانت له نحو عشرين ضيعة لا يؤدي عنها شيئاً. وكان على بابه نحو عشرة خدام وبلغ من رياسته أنه تزوج زبيدة بنت هارون بن الوزير الجوينيّ فأصدقها اثني عشر ألف مثقال ذهباً.

(١) واتفق أنه كان وعد غلاماً له بزواج بنت جارية له ثم بدا له فزوجها لغيره فبادر المذكور وقتل الزوج فبلغ ذلك ظهير الدين فخرج فضربه القاتل بسكين في خاصرته فعاش بعدها ليلة واحدة ومات عن توبة وإنابة سنة ٧٠٦[١].

أبو عليّ الحسنيّ

محمد بن الحسن بن علي الحسنيّ، أبو علي بن سعيد أمير مكة. وثب على عم أبيه إدريس بن قتادة في سنة سبعين فقتله واستقل بالإمرة. وكان تام القامة حسن الصورة مهيباً كريماً عاقلاً جداً ذا رأي صائب ومروءة. وكان شجاعاً يقال: إنه لم يكن في بدنه مقدار شبر إلا وفيه جُرح وما قصده أحد فرجع خائباً. وكان يخفر الحاج بنفسه وأهله ولم يحفظ أنه نهب أحداً قط. وكان الحاج والمجاورون يدعون بحياته لشفقته عليهم. وله شعر جيد وأنجب أولاداً يقال إن عدتهم كانت أربعين نفساً ثمانية وعشرون ذكوراً والبقية إناث. قال ابن فضل الله: كان معه جرأة والملوك تراه بعين الإجلال وتتراآه كرأي الهلال وهو يبعد عنهم بعد الصائد من فخه وينفر نفرة الغراب من فرخه إلى أن أدركه أجله وخانه أمله. وأنشد له ما كتب به إلى بعض الملوك:

أراك طبيب المستغرقين وإنني ... لمن بيت أهل الخير بيت محمد
وها داري البطحاء في بطن مكة ... وفيها مماتي إذ أموت ومولدي
ومن زمزم الفيحاء وردي على الظمى ... فهل ثَمَّ ماء في المياه كموردي

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/٤١.

مات بمكة في سنة ٧٠١ وصُلِّيَ عليه صلاة الغائب بالقاهرة[١].

شمس الدين الكحّال

محمد بن دانيال بن يسوف المراغيّ الموصلِي الحكيم شمس الدين الكحال الفاضل الأديب تعانى الآداب ففاق في النظم وسلك طريق ابن حجاج[٢] ومزجها بطريقة متأخري المصريين. يأتي بأشياء مخترعة، وصنف «طيف الخيال» الشاهد له بالمهارة في الفن، وله أرجوزة سماها «عقود النظام في من وَلِيَ مصر من الحكام».

(١) كان كثير النوادر والرواية، توجه مرة صحبة الأمير سَلّار إلى قوص[٣] فاتفق أن بعض الخصيان الذين في خدمة الأمير توجه إلى النزهة في بستان مع شخص من أتباع الأمير يقال له: الحليق فبحث الأمير عنهما إلى أن وجدهما فأراد معاقبتهما فنهض ابن دانيال فقال: ياخوند[٤] احلق ذقن هذا القواد وأشار إلى الحليق وأخص هذا الخادم وأشار إلى الخصيّ فضحك الأمير سلّار وسكن غضبه.

(٢) وأعطاه الأشرف فرساً ليركبه إذا طلع القلعة للخدمة فرآه على حمار أعرج فاستدعاه وسأله، فقال: يا خوند، بعت الفرس وزدت عليه واشتريت هذا فضحك منه.

(٣) ودخل على سلار وقد قطع الوزير راتبه من اللحم فتعارج فقال: مالك؟ قال لي قطع لحم فضحك وأمر برده عليه.

مات سنة ٧١٠[٥].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/٤٢ - ٤٣.
(٢) وكان طريقه التفحش والبذاءة في شعره.
(٣) بلدة في صعيد مصر.
(٤) أي: يا رئيس.
(٥) «الدرر الكامنة»: ٤/٥٤ - ٥٦.

بدر الدين ابن السني

محمد بن أبي الدر ابن أحمد بدر الـدين بن السني (بتخفيف النون) التاجر كان يعرف بابن النحاس وهو من أعيان التجار.

(١) وكان أبوه من أعيان الشيعة بحلب وكان له حـانوت يبيـع فيه الـطعام فبعث بعض أولاد ابن العجمي بحلب غـلاماً لـه ليشتري عسـلاً فاشترى من ابن السني بدينار عسلاً وأحضره فقال له: ممن اشتريته؟ فقال: من ابن السني، فقال: رده، فلما أعاده قال له: من هو سيدك؟ قال: ابن العجميّ، قال: ووضع سيدك إصبعه في العسل؟ قال: نعم، فبدده وقال: خذ دينار أستاذك رده إليه، فـأعاد ذلـك على أستاذه فقـال: أردنا إهـانته فأهاننا.

مات سنة ٧٠٩[١].

جلال الدين بن البَياعة

محمد بن سليمان بن همام بن مرتضى جلال الدين بن وجيه الدين بن البَيّاعة. ولد سنة ٦٥٥ وتعانى الأدب فلم يمهر وصحب ابن الخليلي الوزير فأوهمه أنه يستخلفه في الوزارة فلم يتم، ثم دخل دمشق وكتب في ديوان الإنشاء وكان يستعين بتاج الدين عبد الباقي اليمانيّ ينشىء له ما يحتاج إليه.

(٢) وكان رؤساء دمشق يمازحونه في معنى الوزارة فيظن هو أن ذلك جد ودخل بعض أكابر الأمراء دمشق فحضر عنده الشمس غبريال الوزيـر فقال له: الساعةَ يدخل عليك شيخ مسترسل اللحية خفيفها طوال فأوهمه أنك سمعت أنه يلي الوزارة ثم رجع، فقـال لجلال الـدين: رأيت الأمير يسأل عنك فتوجه إليه وعرفني ما يقول لك فسارع إليه فعرفه بالصفة فأدناه وأسر إليه أن توقيعه بالوزارة واصل فدخل في أثناء ذلـك ابن الزملكـانيّ

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٥٨/٤ ـ ٥٩.

فتخطى جلال الدين وجلس فوقه فقال له: هذا سوء أدب، فعجب وسأل عن ذلك فأخبر بالقصة فقال له: يا مسكين ضحكوا عليك، فقام مغضباً.

(١) وقال مرة لشهاب الدين ابن غانم بلغني أنك لما كنت بمصر سعيت في إبطال تقليدي الوزارة، فقال له: إن دولةً أكون أنا مشيرها وأنت وزيرها لدولة كذا، ثم حصل لجلال الدين هذا فالج في آخر عمره.

مات سنة ثلاثين وسبعمائة[١].

محمد المُرْشديّ

محمد بن عبد الله بن أبي المجد إبراهيم المُرْشِدِيّ. ولد سنة بضع وسبعين، وقرأ في الفقه على الضياء بن عبد الرحيم، وتلا بالسبع على التقيّ الصائغ، وتفقه ثم انقطع في زاويته المشهورة بمنية بني مرشد.

وكانت له أحوال وهمة في خدمة الناس وضيافتهم بحيث يطعم كل من مر به من كبير وصغير وقليل وكثير، ويقدم لكل واحد ما يقع في خاطره، فاشتهر هذا عنه وذاع، ومع ذلك لم يكن يقبل لأحد شيئاً حتى أن السلطان تحيل عليه، وبعث مع الأمير بَكْتَمُر الساقي جملة من الذهب، فعالجه في قبولها ودسها معه في مأكول جهزه صحبته إلى السلطان، وحج في هيئة كبيرة وتلامذة فكان ينفق في كل ليلة عليهم تارة ألفاً وتارة أكثر وضبط عليه أنه أنفق في ثلاث ليال ما قيمته ألف دينار وفي خمس ليال أخرى ما قيمته نحو الخمسة وعشرين ألفاً. واجتمع بالسلطان فعظمه ولم يقبل منه شيئاً وعاب عليه الناصر أنه بالغ في إكرامه وتلقيه فلم يسأله لأحد حاجة ولا وصاه على أحد من الرعية، إلا على الفخر ناظر الجيش وكان الناظر هو الذي عرف السلطان به فتخيل الناصر منه وقال: هؤلاء يتقارضون الثناء. قلت: وما أظن الشيخ إلا قد أجاد فإن الفخر كان راداً للظلم ودافعاً عن الخلق مدة حياته كما في ترجمته.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/ ٧٠ ـ ٧١.

وكان كل من أنكر عليه حاله إذا اجتمع به زال عنه ذلك، منهم ابن سيد الناس وابن جَنَكْلي بن البابا وغيرهما، وأنكروا عليه أن في زاويته منبراً للخطيب فيصلي الناس الجمعة والجماعة ولا يصلي معهم. وكان إذا قدم عليه أحد فجاء وقت الصلاة أشار لمن يتعانى الأذان أن يؤذن ولمن يتعانى الإمامة أن يؤم ولمن يتعانى الخطابة أن يخطب من غير أن يكون له معرفة بأحد منهم، وكان أسمر مبدناً ربعة حسن الشكل منور الصورة جميل الهيئة حسن الأخلاق كثير التلاوة. قال الذهبي: كان صاحب أحوال واختلفت الأقاويل فيه ويحكى عنه عجائب في إحضار الأطعمة، وكان يخدم الواردين بنفسه ولا يقبل لأحد شيئاً وكان يتكلم على الخواطر، وكان قليل الدعوى عديم الشطح حسن المعتقد وكان يخرج للحاضرين الأطعمة الفاخرة من خلوته ولا يدخلها أحد غيره، قال: والذي يظهر لي أنه كان مجذوباً، وعظم شأنه في الدولة جداً حتى كان يكتب ورقة إلى كاتب السر[1] والدويدار[2] وغيرهما من أركان الدولة في المهمات فلا يستطيعون ردها، وكان بات في عافية فأرسل إلى من حوله أنه عرض أمر مهم يقتضي حضوركم فحضروا فدخل خلوته فأبطأ فطلبوه فوجدوه ميتاً وذلك في رمضان سنة ٧٣٨. وذكر ابن فضل الله في ترجمته نحو ما تقدم وزاد أن الذي يحكى عنه لم يسمع بمثله في سالف الدهر من رجل منقطع في زاوية في قرية صغيرة في طريق الرمل لا يوجد فيها شيء من هذه الأنواع مع أن الشائع والذائع أنه كان يأتيه جماعة وكل واحد منهم يشتهي شيئاً مما لا يوجد إلا في القاهرة أو دمشق فإذا حضروا غاب هنيهة وأحضر لكل واحد منهم ما اقترح وأكثر ما كان يحضره بنفسه وليس له خادم ولا عرف له طباخة ولا قدر ولا مغرفة ولا موقد نار مع اشتغاله أكثر نهاره بالناس ولا يختص ذلك بوقت دون وقت بل لو أتاه في اليوم الواحد من أتاه لا بد من أن يحضر له ما يشتهيه. قال: ولا

---

(١) وظيفة اختصاصها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها.

(٢) هو الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير ويتولّى أمرها مع ما ينضم لذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور.

يخلو أكثرها من مجازفة ولكن اشتهارها وشيوعها يدل على أن لها أصلاً، ثم حكى عن جماعة متنوعة وقوع ذلك لهم بغير وساطة إلى أن قال وقد زعم قوم أن جميع ما كان يأتي به كان يمده به قاضي فوة فإنه كان يختص بالشيخ فكان القاضي لا يُقدر على عزله فطالت مدته وانبسطت يده وأكثر من التجارة والزراعة والولاة ترعاه لجاهه بالشيخ فتمت أحواله واتسعت دائرته فلم يكن له شغل إلا تلقي من يقبل زائراً للشيخ فينزله ويحادثه حتى يقف على ما في خاطره ثم يرسل إلى الشيخ ذلك بأمارات ودواب مركزه بما يرسل إليه ويمده به[1] قال: وعلى الجملة فكان ذا بر ومعرفة ومعروف وطريق غير مألوف، رحمه الله تعالى[2].

لسان الدين ابن الخطيب

محمد بن عبد الله بن سعيد التلمسانيّ. قرطبيّ الأصل، ثم نزل سلفه طليطلة ثم لوشة ثم غرناطة، يكنى أبا عبد الله ويلقب لسان الدين. ولد سنة ٧١٣ بلوشة، وكان سلفه قديماً يعرفون ببني وزير، ثم صاروا يعرفون ببني الخطيب نسبة إلى سعيد جده الأعلى، وكان قد وَلِيَ الخطابة بها وتحول جده الأدنى سعيد إلى غرناطة ومات سنة ٦٨٣، ونشأ ابنه عبد الله في نعمة طائلة ثم وَلِيَ الوزارة بلوشة ورجع وخدم في المخزن بغرناطة ومات سنة ٧٤١. وقرأ لسان الدين القرآن على أبي عبد الله بن عبد الولي العواد حفظاً ثم تجويداً لأبي عمرو وقرأ القراءات أيضاً والعربية وتأدب بأبي الحسن بن الجباب، وأخذ الطب والمنطق والحساب عن يحيى بن هذيل الفيلسوف

---

(١) علّق الشوكانيّ على هذا في «البدر الطالع»: ٢/١٨٩: ولا يخفى ما في هذا من التكلف [أي أنه من غير المعقول أن يفعل له هذا القاضي كلّ ذلك المذكور] وقد سلك هذه الطريقة جماعة من متصوفة اليمن يقال لهم: بنو المُشَرِّع... وللناس الواردين إليهم أحاديث غريبة في شرح ما يرونه من نحو ما وصف عن صاحب الترجمة وقصص يطول شرحها، ولم يسمع بمثل هذه الطريقة لأحد قبل صاحب الترجمة كما يدل على ذلك كلام من ترجم له من معاصريه.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٤/٨٢ - ٨٤.

وبرز في الطب وتولع بالشعر فنبغ فيه وترسل ففاق أقرانه واتصل بالسلطان أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد بن نصر بن الأحمر فمدحه وتقرب منه واستكتبه من تحت يد أبي الحسن بن الجباب إلى أن مات أبو الحسن في الطاعون العام فاستقل بكتابة السر وأضاف إليه رسوم الوزارة واستعمله في السفارة إلى الملوك واستنابه في جميع ما يملكه حتى كان في جملة المناشير له: «وأطلقنا يده على كل ما جعل الله لنا النظر فيه»، فلما قتل أبو الحجاج سنة ٧٥٥ وقام ابنه محمد استمر ابن الخطيب على وزارته واستكتب معه غيره، ثم أرسله إلى أبي عنان المرينيّ بفاس ليستنجده فمدحه فاهتز له وبالغ في إكرامه فلما خلع محمد وتغلب أخوه إسماعيل على السلطنة قبض عليه بعد أن كان أمنه واستوصلت نعمته وقد وصفها بأنها لم يكن بالأندلس مثلها من تفجر الغلة وغبطة العقار وحصانة الآلات ورفعة البنيان واستجادة العدة ووفور الكتب إلى الآنية والفرش والطيب والمضارب والسائمة وبِيع جميع ذلك وصاحبها البخس ونقصها الخوف، وشمل الطلب جميع الأقارب واستمر مسجوناً إلى أن وردت شفاعة أبي سالم بن أبي عنان فيه وفي صاحبه وجعل خلاصه شرطاً في مسالمة الدولة فانتقل صحبة سلطانه إلى فاس وبالغ في إكرامه وأجرى عليه وأقطعه وجالسه، ثم نقله إلى مدينة سلا بعد أن دخل مَرَّاكُش فأكرمه عمالها ثم شفع له أبو سالم مرة ثانية فردت عليه ضياعه بغرناطة إلى أن عاد سلطانه إلى السلطنة فقدم عليه بولده فأكرمه وتوسل إليه بأن يأذن له في الحج فلم يجبه وقلده ما وراء بابه فباشره مقتصراً على الكفاية هاجرا للزخرف صادعاً بالحق في أسواق الباطل وعمر حينئذ زاوية ومدرسة وصلحت أمور سلطانه على يده فلم يزل في ذلك إلى أن وقع بينه وبين عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة منافرة أدت إلى نفي عثمان المذكور في شهر رمضان سنة ٧٦٤، فظن ابن الخطيب أن الوقت صفا له وأقبل سلطانه على اللهو وانفرد هو بتدبير المملكة، فكثرت القالة فيه من الحسدة واستشعر في آخر الأمر أنهم سعوا به إلى سلطانه وخشي على نفسه البادرة، فأخذ في التحيل في

الخلاص، وراسل أبا سالم صاحب فاس في اللحاق به وخرج على أن يتفقد الثغور الغربية فلم يزل حتى حاذى جبل الفتح فركب البحر إلى سبته، ودخل مدينة فاس سنة ٧٣، فتلقاه أبو سالم وبالغ في إكرامه وأجرى له الرواتب فاشترى بها ضياعاً وبساتين فبلغ ذلك أعداءه بالأندلس فسعوا به عند سلطانه، حتى أذن له في الدعوى عليه بمجلس الحكم بكلمات كانت تصدر منه وتنسب إليه، وأثبتوا ذلك وسألوه الحكم به فحكم بزندقته وإراقة دمه وأرسلوا صورة المكتوب إلى فاس، فامتنع أبو سالم فقال: هلّا أثبتم ذلك عليه وهو عندكم، فأما ما دام عندي فلا يوصل إليه، فاستمر على حالته بفاس إلى أن مات أبو سالم، فلما تسلطن بها أبو العباس بعده أغراه به بعض من كان يعاديه، فلم يزل إلى أن قبض عليه وسجن، فبلغ ذلك سلطان غرناطة فأرسل وزيره أبا عبد الله بن زمرك إلى أبي العباس بسببه، فلم يزل به إلى أن أذن لهم في الدعوى عند القاضي، فباشر الدعوى ابن زمرك في مجلس السلطان، وأقام البينة بالكلمات التي أثبتت عليه، فعزره القاضي بالكلام ثم بالعقوبة ثم بالسجن فطُرِق عليه السجن بعد أيام ليلاً فخنق وأخرج من الغد فدفن.

(١) فلما كان من غد دفنه وجد على شفير قبره محروقاً، فأعيد إلى حفرته وقد احترق شعره واسودّت بشرته وذلك في شهور سنة ٧٧٦، وقد اشتهر أنه نظم حين أرادوا قتله الأبيات المشهورة التي منها:

فقل للعِدا ذهب ابن الخطيب   وفات فسبحان من لا يفوت
فمن كان يشمت منكم به   فقل يشمت اليوم من لا يموت

وأما قصائده فكثيرة جداً رحمه الله تعالى[1].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/٨٨ - ٩٣، وقال الشوكاني في «البدر الطالع»: ٢/١٩٤: «وقتله على الصفة المذكورة هو من المجازفات التي صار يرتكبها قضاة المالكية ويريقون بها دماء المسلمين بلا قرآن ولا برهان، وأما وجوده على شفير القبر محرقاً فلا ريب أن ذلك من صنع أعدائه وليس بجرم ولا فيه دليل على صحة ما امتحن به، فإنّ الأرض قد قبلت فرعون وهامان وسائر أساطين الكفران».

المالقيّ

محمد بن عبد الرحمن بن عبد العظيم المالقيّ. كان من الرماة الحذاق مع ذكاء وهمة وله شعر لطيف.

(١) مات سنة ٧٣٦، قتل حية وجدها في بستانه فوجد في نفسه تغيراً فما ركب دابته حتى اشتد به الألم وما وصل إلى منزله حتى مات[١].

الإسنائيّ

محمد بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب الإسْنَائيّ الفقيه. أخذ عن بهاء الدين القفطيّ وقرأ عليه الأصول والفرائض وكان ذكياً جداً حتى كان شيخه يقول له: إن اشتغلت ما يقال لك إلا الإمام.

(٢) كان كثير المروءة حتى كان يسافر في حاجة صاحبه بالليل والنهار، ثم لج به الأمر في ذلك إلى أن ترك الاشتغال وأقبل على تحصيل المال ففاته هذا ولم يظفر بذاك.

مات بقوص سنة ٧٣٩[٢].

أبو القاسم القيسيّ

محمد بن عبد الرحيم بن الطيب القَيْسيّ الأَنْدَلُسِيّ الضرير المقرىء أبو القاسم. تلا بالسبع وأخذ عن أبي عبدالله الأزديّ.

(٣) كان أعجوبة في الحفظ أمره العزفي أمير سبتة أن يقرأ السيرة النبوية في رمضان فكان يدرس كل يوم جزءاً فيصبح فيورده حفظاً إلى أن حفظها كلها.

كان طيب الصوت صاحب فنون.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/١١٩.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٤/١١٩.

مات سنة إحدى وسبعمائة وله نحو السبعين[1].

جمال الدين الباجُرْبَقِيّ

محمد بن عبدالرحيم بن عُمَيْر الجَزرِي جمال الدين البَاجُرْبَقيّ ولد سنة ٦٧٦ وتحول به أبوه إلى دمشق سنة ثمانين وأسمعه من الفخر ابن البخاري وغيره.

(١) كان أبوه مدرساً عالماً فاشتغل جمال الدين بالعلم ثم تزهد وصحب الفقراء وحصلت له أحوال فصار يزار وكثر أتباعه فحسن لهم ترك الشرائع، وكان يظهر لهم من الخوارق ما يخلب به عقولهم حتى انصاع له صدر الدين بن الوكيل مع سعة علمه فكان يظهر اعتقاده ويلازمه ويقف قدامه ويطيل النظر إليه وينشد:

عجب من عجائب البر والبحـ ر ونوع فرد وشكل غريب

(٢) وحكى ابن فضل الله عن أمين الدين رئيس الأطباء قال: كنت عنده يوماً بالبستان فجاء فلاح البستان فقال له: اقعد فقعد قدامه ورمق الباجربقيّ وقال للفلاح: تحدث مع الرئيس إلى أن أستيقظ، قال: فشرع ذلك الفلاح يتحدث معي في كليات الطب وجزئياته وأنواع العلاج وخواص المفردات بما لا يعرفه إلا القليل من الحذاق فضلاً عن مثله ثم بعد ساعة رفع رأسه فبطل كلام الفلاح، ثمّ سألت الفلاح عن أمره فقال: والله ما أعرف ما قلت ولكن شيء جرى على لساني.

(٣) وقصده المجد التونسي فسلَّكه على عادته، فقال له في اليوم الثالث ما رأيت قال: وصلت في سلوكي إلى السماء الرابعة، قال: هذا مقام إدريس قد بلغته في ثلاثة أيام فرجع المجد إلى نفسه ولعن الشيطان وتوجه إلى القاضي جمال الدين المالكيّ فتاب على يده وجدد إسلامه فطلب الباجربقيّ وحكم بإراقة دمه بمحضر من العلماء سنة ٧٠٤ فتعصب

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١٢٨/٤.

له جماعة بسعي أخيه وجاء بيبرس العلائي وأخفوه إلى أن حكم القاضي تقي الدين الحنبلي بحقن دمه بعد سنين بعد أن ثبتت عنده عداوة الشهود له وكان الشهود ستة منهم مجد الدين التونسيّ وعماد الدين بن مزهر وجلال الدين خطيب الزنجيلية وأبو بكر بن شرف والذين شهدوا بالعداوة نحو العشرين ومما شهدوا به عليه أنه كان يتهاون بالصلاة وأنه كان يذكر النبي ﷺ باسمه مجرداً من غير تعظيم وأنه قال مرة: من محمدكم هذا؟ وكان يقول: إن الرسل طوّلت على الأمم الطرق إلى الله، فلما بلغ المالكيّ ذلك غضب وجدد الحكم بقتله ثم اختفى المذكور وتوجه إلى مصر وانقطع بالجامع الأزهر وتردد إليه جماعة ثم رفعوا فيه أشياء فتسحب أيضاً إلى دمشق ونزل القابون فأقام به إلى أن مات في سنة ٧٢٤.

(١) قال السبكيّ: اجتمعت به بمصر فذكر لي أن محي الدين بن العربيّ قال له: إنه غضبان على أصحابه قال: فقلت له: لعل هذا في النوم قال: فلم يعجبه كلامي(١).

صفي الدين الهنديّ

محمد بن عبد الرحيم صَفيُّ الدين الهِنْدِيّ الفقيه الشافعيّ الأصوليّ ولد بالهند سنة ٤٤ وخرج عن بلده دهلي سنة ٦٧ وقدم اليمن فأكرمه المظفر وأعطاه تسع مائة دينار ثم حج فأقام بمكة ثلاثة أشهر ثم دخل القاهرة في سنة ٧١ ودخل البلاد الرومية وخرج منها سنة ٨٥، وقدم دمشق فاستوطنها وعقد حلقة الاشتغال بالجامع ودرس بالرواحية وغيرها وكتب على الفتاوى مع الخير والدين والبر للفقراء، وصنف في أصول الدين «الفائق» وفي أصول الفقه «النهاية». ولما عقد بعض المجالس لابن تيمية عين الصفيّ الهنديّ لمناظرته فقال لابن تيمية في أثناء البحث: أنت مثل

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/ ١٣٠ - ١٣٢.

العصفور تنط من هنا إلى هنا ومن هنا إلى هنا. وكان خطه ضعيفاً وحشاً إلى الغاية، فالكمال لله[1].

(١) يقال إنه كان لا يحفظ [من] القرآن إلا ربعه حتى نقل أنه قرأ: ﴿المص﴾ بفتح الميم وتشديد الصاد.

(٢) ويقال إنه كان له ورد من الليل فإذا استيقظ توضأ ولبس أفخر ثيابه حتى الخف والمهماز ويقوم يصلي بتلك الهيئة.

وكانت في لسانه عجمة الهنود باقية إلى أن مات.

قال الذهبي: كان فيه دين وتعبد وله أوراد وكان حسن الاعتقاد على مذهب السلف.

توفي في سنة ٧١٥[2].

أبو بكر السَّقَطيّ

محمد بن عبد العظيم بن علي جمال الدين السَّقَطِيّ يكنى أبا بكر. ولد سنة ٦٣٢ وتفقه وناب في الحكم بالديار المصرية مدة أربعين سنة.

(٣) وكان صارماً مهيباً كثير التثبت. شهد عنده جماعة في قضية فتوقف فيها ثم ركب إلى القرافة فقرأ تاريخ الوفاة على قبر المشهود عليه فظهر له فسادها، وله في إخراج التزوير قضايا كثيرة، كان لا يقبل من الشهود إلا النادر حتى إن رجلاً شهد عنده فقال له: أحضر من يعرف بك فأحضر الشيخ علاء الدين الباجي فقام له وبجله وجلّه وأجلسه فوقه فقال الرجل: سيدي علاء الدين يعرف بي فقال له القاضي: سيدي علاء الدين

---

(١) نقل السبكيّ في الطبقات الكبرى: ١٦٣/٩ أنّه «كان خطه في غاية الرداءة، وكان رجلاً ظريفاً ساذجاً، فيُحكى أنه قال: وجدت في سوق الكتب مرة كتاباً بخط ظنتُه أقبح من خطي فغاليت في ثمنه واشتريته لأحتج به على من يدعي أن خطي أقبح الخطوط، فلمّا عدت إلى البيت وجدته بخطي القديم».

(٢) «الدرر الكامنة»: ١٣٢/٤ - ١٣٣.

أجل من هذا وأكبر، امض فأت بمن يعرف بك. وقال البِرزاليّ: كان جيداً مشكور السيرة حسن الهيئة عارفاً بالأحكام محترماً. وترك الحكم في آخر عمره، مات سنة ٧٠٧[١].

ابن السَّبع

محمد بن عبد المعطي بن سالم الكنانيّ العَسقَلاَنِيّ ثم المِصْرِيّ ثم المدنيّ شمس الدين بن زكي الدين الشهير بابن السبع، ولد سنة ثمانين. وَلِيَ قضاء المدينة والخطابة بها.

وكان جيداً حسن الملتقى قصير الباع في العلم، وقد حدث، وسمع منه شيخنا العراقي.

(١) واشتهر أنه صحف المثل المشهور: (إذا قالت حِذام فصدقوها) فصحفها بضم الخاء وتشديد الدال، وأشار إلى خدام الحرم الشريف.

وكان فصيحاً جهيراً في خطابته يُسمع من طرف السوق حسن الأخلاق بشوشاً.

فلما كانت سنة ٥٤ قدم جماعة من المجاورين فشنعوا عليه، ووافق ذلك هوى القاضي عز الدين بن جماعة في عزله لأنه وَلِيَ بغير اختياره فوقف جماعة من المدنيين بدار العدل وشهدوا عليه بأمور لا تليق بالحكام من أهل العلم منها أنه كان إذا دخل الحجرة[٢] للزيارة يقبل الأرض وسقطات كثيرة، فأمر السلطان بعزله فتوجه إلى مكة وجاور بها، وحدث بصحيح البخاري في مجاورته وسعى ولده علاء الدين بن السبع في عود والده، فاستقر في أول سنة ٥٦ فاستمر إلى ربيع الآخر سنة ٥٩، ثم صُرِف بالهورينيّ.

مات سنة ٧٦٥[٣].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/١٣٦ ـ ١٣٧.
(٢) الحجرة النبوية.
(٣) «الدرر الكامنة»: ٤/١٤٩.

محمد بن أيوب

محمد بن عبد الملك بن محمد بن أيوب بن الكامل بن السعيد فتح الدين بن الصالح إسماعيل بن العادل محمد بن أيوب. ولد سنة ٦٥٣، وكانت أمه بنت الملك الكامل خالة الناصر بن العزيز وزوجها صاحب الشام وهي خالة صاحب حماة أيضاً.

(١) كان فاضلاً ذكياً له نكت ونوادر، قيل له إن هلال رمضان ثبت، قال: من رآه؟ قالوا: الميت، عنوا شخصاً يلقب بذلك فقال: هذا ميت فضوليّ خلط شعبان برمضان.

(٢) وسمع شخصاً يقول: (اصفعوني وردوا شبابي) فقال: الأولى نقدر عليها بسرعة، والثانية ما يقدر عليها أحد.

(٣) وزار قبر الصالح بن الكامل في القبة بين القصرين فقال: اسأل الله أن لا يرحمك كما أحضرت الترك إلى هذه المملكة فأخذوا رزقنا وأقعدونا خلف الناس.

وكان تِنْكِز[١] قد أقبل عليه وحجر على إقطاعه لتبذيره وكثرة ما ركبه من الديون ولم يفد فيه شيئاً، ووَلِيَ مرة شد الأوقاف فأسرف فيها فصعب على ابن صَصْرى، ورفع يده عنها.

قال الذهبي: كان ذكياً خبيراً بالأمور منبسطاً من كبار أمراء دمشق.

مات سنة ٧٢٧ وخلف أولاداً أمراء[٢].

شمس الدين الحنفيّ

محمد بن عثمان بن أبي الحسن، الأنصاري القاضي شمس الدين بن صفيّ الدين الحريريّ الحَنفيّ. ولد سنة ٦٥٣ وحدّث وتفقه ودرس وكانت

---

(١) والي الشام.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٤/ ١٥٠ ـ ١٥١.

له عدة محفوظات في الفقه والنحو وغيرهما، منها «الهداية»[1] ومهر حتى علق على الهداية شرحاً، ثم وَلِيَ قضاء دمشق ودرس بالظاهرية وغيرها ثم طلب إلى مصر فوَلِيَ القضاء بالديار المصرية سنة ٧١٠، وأضيف إليه تدريس الصالحية والناصرية وجامع الحاكم وغيرها.

(١) وكان حريصاً على تخليص الحقوق وفصل القضايا، كثير النفع لأصحابه موصوفاً بالنزاهة لا يقبل لأحد هدية، وكان لا يزال يكرر على محفوظاته.

(٢) قال الذهبيّ: كان صارماً قوالاً بالحق حميد الأحكام قليل المِثْل متين الديانة إلا أنه كان يُنتقد عليه البأو[2] قلت: ويُذكر أنه اتخذ في منزله امرأة سماها النقيبة تتلقاه من الباب وتقول سيدنا قاضي القضاة بسم الله وتبالغ في نعوته وتفخيمه فإذا انتهى إلى مرتبة عالية في بيته جلس عليها ويأمر كل من كان في الدار من النساء بالوقوف إلى أن يصرفهن حيث يختار فكان يقول لامرأته: أكرمي النقيبة فإنها تعظم بَعْلَكِ.

وكان متشدداً في الأحكام، غير ملتفت لذوي الجاه، كثير التقعر في الكلام.

(٣) كان كثير الإهانة لكتاب النصارى وإذا رأى أحداً منهم راكباً أنزله وألزمهم الصَّغار والتنكيل وإذا رأى من عليه ثياب سَرِيّة أهانه فكانت أكباد الأقباط تتفتت منه.

(٤) ولما أراد بَكْتَمُرْ الساقي أن يستبدل مكاناً سأل الناصر أن يسأل القاضي الحريري في ذلك فسأله وعرض عليه أن يستبدل لبَكْتَمُرْ اصطبلاً ببركة الفيل يجري في وقف الملك الظاهر فقال: هذه رواية عن أبي يوسف ولا أعمل بها، فاغتاط السلطان فعزله وولّى سراج الدين صهر شمس الدين

---

(١) من كتب الفقه الحنفيّ.

(٢) الزهو والكِبر.

السروجيّ قضاء مصر مفرداً عن القاهرة، فوَلِيَ ذلك في أول رجب سنة ١٧ فلم يعش إلا سبعة وسبعين يوماً ومات فأعيد قضاء مصر للحريريّ وعظمت مكانته واستمر إلى أن مات سنة ٧٢٨[١].

كمال الدين ابن الزملكانيّ

محمد بن علي بن عبد الواحد الأنْصَارِيّ الدِّمشقيّ بن الزَّمْلَكَانِيّ كمال الدين أبو المعالي. ولد سنة ٦٦٧ وطلب الحديث وقرأ بنفسه وكان فصيح القراءة سريعها له خبرة بالمتون وتفقه على الشيخ تاج الدين بن الفركاح وأخذ العربية عن بدر الدين بن مالك.

(١) قال نجم الدين بن الكمال الصفديّ: قلت للشيخ كمال الدين: فرطتَ في المنطق، فقال: كان في طلبي له شخص يقال له الأقشنجيّ، وكنت قد تميزت ودرست والعلم المذكور صعب وعبارة الشيخ فيها عجمة، فإذا أردت منه زيادة بيان أدار وجهه فأنِفتُ منه وتركته.

وحفظ الشيخ كمال الدين أشياء من المختصرات وأطلق عليه الذهبي عالم العصر وأمير الشافعية قال: وكان بصيراً بالمذهب وأصوله، قويّ العربية ذكياً فطناً فقيه النفس له اليد البيضاء في النظم والنثر وكان يُضرب بذكائه المثل. أفتى وله نيف وعشرون سنة وتخرج عليه غالب علماء العصر ولم يروا مثل كرم نفسه وعلو همته وتجمله في مأكله وملبسه. وكان يزهزه لطلبته ويعظمهم وينوه بهم.

(٢) وكان لا يعيب على أحد من التلامذة بل إن رآه قاصر الذهن أبعده إلى غيره وإذا رآه ماهراً قربه ونوه به وعرف بقدره وسعى له ورفع درجته.

وصنّف رسالة في الرد على ابن تيمية في الطلاق وأخرى في الرد

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/١٥٨ ـ ١٥٩.

عليه في الزيارة ووَلِيَ نظر المرستان سنة ٧٠٧، ودرس بالشامية والظاهرية والرواحية، ووَلِي نظر وكالة بيت المال ونظر الخزانة قال ابن كثير: انتهت إليه رياسة المذهب تدريساً وإفتاء ومناظرة وساد أقرانه بذهنه الوقاد وتحصيله الذي منعه الرقاد وعبارته الرائقة وألفاظه الفائقة، قال: ولم أسمع أحداً من الناس يدرس أحسن منه ولا سمعت أحلى من عبارته وجودة تقريره واحترازاته وصحة ذهنه وقوة قريحته. انتهى. وَلِيَ قضاء حلب في سنة ٢٤ ثم صرف عنها فدخل إلى دمشق سنة ٢٧ وطلبه الناصر على البريد ليوليه قضاء دمشق فتوجه إلى القاهرة فمات ببلبيس، فيقال مات مسموماً. وكان كثير التخيل فكان يتأذى من أصحابه ويعاديهم ويعادونه وعمل عليه مرات بسبب ذلك وكانت وفاته سنة ٧٢٧ وحمل من بلبيس إلى القرافة فدفن بالقرب من الإمام الشافعيّ، رحمه الله تعالى.

(١) ذكر العثمانيّ عن ولده أنه مرض قال: أنا ميت لا محالة ولا أتولى بعد قضاء حلب شيئاً لأنه كان لي شيخ أدخلني الخلوة وأمرني بصيام ثلاثة أيام أفطر فيها على الماء واللبان الذكر، فاتفق آخر الثلاث يوم النصف من شعبان فخيل إليّ وأنا قائم في الصلاة قبة عظيمة بين السماء والأرض وظاهرها مراقي فصعدت فكنت أرى على مرقاة مكتوباً نظر الخزانة وعلى أخرى الوكالة وعلى أخرى مدرسة كذا وعلى آخر مرقاة قضاء كلب وأفقت من غيبتي وعدت إلى حِسِّي فقال لي الشيخ: القبة الدنيا والمراقي المراتب وهذا الذي رأيته تناله كله فكان كذلك[١].

الحفّار الغِرناطيّ

محمد بن علي بن محمد الأنصاريّ الحَفّار الغِرْناطِيّ. قال ابن الخطيب: خيِّرٌ مشهور، حسن الخلق والعشرة، كثير الصمت مقتصد.

(٢) قال: وقد بقي الحفار نحواً من عامين أو أزيد يخرج للصلوات

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١٩٢/٤ - ١٩٤.

الخمس يُهادَى بين رجلين لشيء كان برجله حتى كان بعض أصحابه يقول: الحفّار حجة الله على من لم يحضر الجماعة.

وكان مولده سنة ١٨ أو ١٩ وعاش إلى رأس القرن[1].

ابن دقيق العيد

محمد بن علي بن وهب المنْفَلوطِيّ المالكيّ ثم الشافعيّ، تقي الدين بن دقيق العيد، نزيل القاهرة. ولد بناحية ينبع في البحر سنة ٦٢٥، وصنف «الإلمام في أحاديث الأحكام» وشرع في شرحه فخرج منه أحاديث يسيرة في مجلدين أتى فيهما بالعجائب الدالة على سعة دائرته في العلوم خصوصاً في الاستنباط.

قال الذهبيّ: كان إماماً متفنناً مجوداً، محرراً فقهياً[2] مدققاً أصولياً

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١٩٩/٤.

(٢) ومما يدل على فقهه وعلمه رحمه الله ما ذكره السبكيّ في الطبقات: ٢٣٠/٩ حيث قال: «وله ديوان خطب مفرد معروف، ونحن نذكر هنا ما هو بالغ في الإجادة، ممّا خرج عن ديوانه، فمن ذلك قوله في خطبة شرح «الإلمام»: أما بعد حمد الله فإن الفقه في الدين منزلة لا يخفى شرفها وعلاؤها، ولا تحتجب عن العقول طوالعها وأضواؤها، وأرفعها بعد فهم كلام الله المنزّل: البحث عن معاني حديث نبيه المرسل؛ إذ بذاك تثبت القواعد ويستقر الأساس، وعنه يقوم الإجماع ويصدر القياس، وما تعين شرعاً تعين تقديمه شروعاً، وما يكون محمولاً على الرأس لا يحسن أن يجعل موضوعاً، لكن شرط ذلك عندنا أن يُحفظ هذا النظام، ويُجعل الرأي هو المأموم والنصّ هو الإمام، وتُرد المذاهب إليه، وترد الآراء المنتشرة حتى تقف بين يديه، وأما أن يُجعل الفرع أصلاً، ويُرد النصُّ إليه بالتكلف والتحيّل، ويُحمل على أبعد المحامل بلطافة الوهم وسعة التخيّل، ويرتكب في تقرير الآراء الصعب والذّلول، ويحتمل من التأويلات ما تنفر منه النفوس وتستنكره العقول فذلك عندنا من أردء مذهب وأسوء طريقة، ولا نعتقد أنه يحصل معه النصيحة للدين على الحقيقة، وكيف يقع أمرٌ مع رُجحان منافيه؟ وأنّى يصح الوزن بميزانٍ مال أحد الجانبين فيه؟ ومتى ينصف حاكم ملكته غصة العصبيّة، وأين يقع الحق مِن خاطر أخذته العِزة بالحميّة؟

ثمّ أخذ في ذلك إلى منتهى الخطبة».

مدركاً، أديباً نحوياً ذكياً غواصاً على المعاني، وافر العقل كثير السكينة تام الورع مديم السنن، مكباً على المطالعة والجمع، سمحاً جواداً، زكيّ النفس نزر الكلام عديم الدعوى، له اليد الطولى في الفروع والأصول، وبصير بعلم المنقول والمعقول.

وغلب عليه الوسواس في المياه والنجاسة وله في ذلك أخبار، ويقال إن جده لأمه الشيخ تقيّ الدين المفرج الأصوليّ المشهور كان يشدد ويبالغ في الطهارة.

تفقه بأبيه وابن عبد السلام وغيرهما واشتهر اسمه في حياة مشايخه وشاع ذكره وتخرج به أئمة.

كان لا يسلك المراء في بحثه بل يتكلم كلمات يسيرة بسكينة ولا يراجع.

(١) حكى الشيخ قطب الدين السنباطيّ قال: قال الشيخ تقيّ الدين: لِكاتب الشمال سنين لم يكتب عليّ شيئاً[١].

(٢) وقال قطب الدين الحلبيّ كان ممن فاق بالعلم والزهد عارفاً بالمذهبين[٢] إماماً في الأصلين[٣]، حافظاً في الحديث وعلومه يضرب به المثل في ذلك، وكان آية في الإتقان والتحري، شديدَ الخوف دائم الذكر لا ينام من الليل إلا قليلاً يقطعه مطالعة وذكراً وتهجداً وكانت أوقاته كلها معمورة.

(٣) قال وكان شفوقاً على المشتغلين كثير البر لهم.

(٤) قال: أتيته بجزء سمعه من ابن رواج والطبقة بخطه فقال: حتى

---

(١) ذكر السبكيّ في الطبقات: ٢١٢/٩: «وكان يقول: ما تكلمت كلمة ولا فعلتُ فعلاً إلّا وأعددت له جواباً بين يدي الله عز وجلّ».

(٢) أي المالكي والشافعي كما تقدم.

(٣) أي أصول الدين وأصول الفقه.

أنظر فيه، ثم عدت إليه فقال: هو خطي ولكن ما أحقق سماعه ولا أذكره ولم يحدث به وكذلك لم يحدث عن ابن المقير مع صحة سماعه منه لكن شك هل نعس حال السماع أم لا.

وقال ابن الزملكانيّ: إمام الأئمة في فنه وعلامة العلماء في عصره بل ولم يكن من قبله من سنين مثله في العلم والدين والزهد والورع، تفرد في علوم كثيرة وكان يعرف التفسير والحديث وكان يحقق المذهبين تحقيقاً عظيماً ويعرف الأصلين والنحو واللغة وإليه النهاية في التحقيق والتدقيق والغوص على المعاني. أقر له الموافق والمخالف.

(١) وعظمته الملوك وكان السلطان لاجين ينزل له عن سريره ويقبل يده.

وكان صحيح الاعتقاد قوياً في ذات الله وليس الخبر كالعَيان.

وقال ابن سيِّد الناس: لم أر مثله فيمن رأيت[١] ولا حملت عن أجلّ منه فيمن رويت وكنت مستملي تصانيفه والمتصدر لإفادة طلبته بدار الحديث من جهته وكان للعلوم جامعاً وفي فنونها بارعاً ولم يزل حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه ولو شاء العاد أن يحصر كلماته لحصرها، وله تخلق وبكرامات الصالحين تحقق، وعلامات العارفين تعلق.

(٢) وقال لي جمال الدين محمد بن علي الهمذانيّ: قرأنا البخاري في نوبة حمص سنة ٨٠ لدفع البلاء فلقيت ابن دقيق العيد فقال لي: انقضى الشغل من بعد العصر، فقلت: عن يقين؟ فقال: وهل يقال هذا عن غير يقين[٢].

(١) قال السبكيّ في الطبقات: ٩/٢٠٩: «ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة المشار إليه في الحديث المصطفويّ النبويّ، صلّى الله على قائله وسلمّ، وأنه أستاذ زمانه علماً وديناً».

(٢) هذا الأمر أيام التتار، وانظر في ذلك طبقات السبكيّ: ٩/٢١١.

له في الأدب باع وِشاع[1] وكرم طباع وحسن انطباع حتى لقد كان الشهاب محمود يقول لم تر عينيّ آدب منه ولو لم يدخل في القضاء لكان ثوريّ زمانه وأوزاعيّ أوانه انتهى كلام اليعمريّ. قال البرزاليّ في تاريخه وفي يوم السبت الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٥ وَلِيَ القضاء بالديار المصرية الشيخ الإمام مفتي الفرق بقية السلف تقيّ الدين أبو الفتح القشيري المعروف بابن دقيق العيد عوضاً عن تقي الدين ابن بنت الأعز قلت: فاستمر فيه إلى أن مات في صفر سنة ٧٠٢.

(١) قرأت بخط الشيخ الحافظ أبي الحسين بن أيبك المصريّ، سمعت الصاحب شرف الدين محمد بن الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب بهاء الدين رحمه الله تعالى قال: كان ابن دقيق العيد يقيم في منزلنا بمصر في غالب الأوقات فكنا نراه في الليل إما مصلياً[2] وإما يمشي في جوانب البيت وهو مفكر إلى طلوع الفجر فإذا طلع الفجر صلى الصبح ثم اضطجع إلى ضحوة. قال الصاحب شرف الدين وسمعت الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافيّ المالكي يقول: أقام الشيخ تقي الدين أربعين سنة لا ينام الليل إلا إنه كان إذا صلى الصبح اضطجع على جنبه إلى حيث يتضحى النهار.

(٢) ومما يدل على تقدم الشيخ تقي الدين في العلم أن زكي الدين عبد العظيم بن أبي الإصبع صاحب البديع ذكره في كتاب فقال: ذكرت للفقيه الفاضل تقيّ الدين محمد بن عليّ ابن وهب القشيريّ أبقاه الله تعالى ـ وهو من الذكاء والمعرفة على حالة لا أعرف أحداً في زمني عليها ـ

---

(١) واسع.

(٢) قال السبكيّ في الطبقات: ٢١١/٩: «وأما دأبه في الليل علماً وعبادة فأمر عُجاب، ربما استوعب الليلة فطالع فيها المجلد أو المجلدين، وربما تلا آية واحدة فكررها إلى مطلع الفجر؛ استمع له بعض أصحابه ليلةً وهو يقرأ فوصل إلى قوله تعالى: «فإذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» قال: فمازال يكررها إلى طلوع الفجر».

وذكرت له عدة وجوه المبالغة فيها[1] وهي عشرة ولم أذكرها مفصلة وغبت عنه قليلاً ثم اجتمعت به فذكر لي أنه استنبط فيها أربعة وعشرين وجهاً من المبالغة يعني في قوله تعالى: **﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾** الآية فسألته أن يكتبها لي فكتبها بخطه وسمعتها منه بقراءتي واعترفت له بالفضل في ذلك. انتهى. وقد عاش الشيخ تقي الدين بعد ابن أبي الإصبع زيادة على أربعين سنة.

(١) وقرأت بخط محمد بن عبد الرحمن العثماني قاضي صفد: أخبرني الأمير سيف الدين بلبان الحسامي قال: خرجت يوماً إلى الصحراء فوجدت ابن دقيق العيد في الجبانة واقفاً يقرأ ويدعو ويبكي فسألته فقال: صاحب هذا القبر كان من أصحابي وكان يقرأ عليّ فمات فرأيته البارحة فسألته عن حاله فقال: لما وضعتموني في القبر جاءني كلب كالسبع وجعل يروعني فارتعبت فجاء شخص لطيف في هيئة حسنة فطرده وجلس عندي يؤنسني فقلت: من أنت؟ فقال: أنا ثواب قراءتك سورة الكهف يوم الجمعة[2].

أبو خرشة

محمد بن علي المؤذن المعروف بأبي خرشة. قال ابن الخطيب: كان آية في عبارة الرؤيا، قليل التصنع. وكان يشتغل بعمل النجارة، وكان قد أخذ عن الأستاذ أبي عبد الله بن الرقام. واتفق أن صاحب غرناطة رأى رؤيا فطلب من يعبرها فدلوه عليه فقصها عليه ولم يعلمه أنه الرائي فعبرها له بمكروه يحصل للرائي فأمر بضربه بالسياط ونفاه إلى مَرَّاكُش فأقام بها قليلاً

---

(١) أي في آية ستذكر بعد قليل، وفي الكلام تقديم وتأخير نتج عنه غموض.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٤/٢١٠ - ٢١٤، ومن كراماته ما ذكره السبكيّ في الطبقات: ٩/٢١١ «وقال عن بعض الأمراء وقد خرج من القاهرة إنه لا يرجع فلم يرجع، وأساء شخص عليه الأدب فقال له الشيخ: نُعيت لي في هذا المجلس ثلاث مرات، فمات بعد ثلاثة أيّام».

وظهر صدق عبارته. وكان ينسب إلى السذاجة. مات سنة بضع وأربعين وسبعمائة[1].

صدر الدين ابن الوكيل

محمد بن عمر بن مكيّ، الأمويّ، صدر الدين ابن الوكيل وابن المرحل ويقال له ابن الخطيب أيضاً. ولد سنة ٦٥ بدمياط وقيل بأشموم، وتقدم في الفنون وفاق الأقران وقال الشعر فلم يتقدمه فيه أحد من أبناء جنسه وأتى فيه بالمرقِّص والمطرب.

(١) كان أعجوبة في الذكاء حفظ المفصل في مائة يوم وكتب له عليه الشيخ شرف الدين المقدسي قرأه في مائة يوم لا أراني الله له يوماً، وحفظ ديوان المتنبي في جمعة والمقامات في كل يوم مقامة، وكان لا يمر بشاهد للعرب إلا حفظ القصيدة كلها.

وكان نظاراً مستحضراً أفتى وهو ابن عشرين سنة، وكان لا يقوم بمناظرة ابن تيمية أحد سواه حتى إنهما تناظرا يوماً بالكلاسة فاستشهد ابن تيمية بعض الحاضرين فأنشد الصدر في الحال:

إن انتصارك بالإخوان من عجب   وهل رأى الناس منصوراً بمنكسر

ودرس بالمدارس الكبار مثل دار الحديث الأشرفية والشامية البرانية والجوانية.

(٢) وكان من أفتى بأن الناصر لا يصلح للملك، ودس أعداؤه إلى الناصر قصيدة ذكروا أنه هجاه بها فأراد الفخر ناظر الجيش القبض عليه والتعريف إلى السلطان بذلك فأحس بالشرّ فهرب إلى غزة. قال جلال الدين القزوينيّ: كنت عند الناصر بغزة فدخل بَكْتَمُر الحاجب فقال صدر الدين بن الوكيل بالباب فقال: يدخل، فلما دخل قال له بَكْتَمُرْ[2]:

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/٢١٩.

(٢) أحد الأمراء المماليك.

بُس[1] الأرض، فامتنع، وقال: مثلي لا يبوس الأرض إلا لله قال: فما شككت أن دمه يفسك فقال له الناصر: أنت فقيه تركب البريد وتروح إلى مصر وتدخل بين الملوك لتغير الدول وتهجو السلطان فقال: حاشى لله وإنما أعدائي وحسادي نظموا ما أرادوا على لساني وهذا الذي نظمته أنا معي ثم أخرج قصيدة في وزن تلك القصيدة التي نسبوها إليه تجيء مائتي بيت فأنشدها فصفح عنه. قال جلال الدين فلما أصبحنا رأيت ابن الوكيل يساير السلطان في الموكب والعسكر سائر وعظُم عند السلطان.

(١) ولما قدم مصر قديماً أول ما قدمها أفهم الكبار أنه ليس في البلد مثله وادعى دعوى عريضة فعقدوا له مجلساً وحضره ابن دقيق العيد وكان صدر الدين رتب شيئاً، فلما شرع فيه قال ابن دقيق العيد: هذا كلام معبّىً وإنما يقرأ شخص آية فقرأ بعض الحاضرين آية فقال: الشيخ يتكلم عليها وأورد سؤالاً فشرع صدر الدين يجيب فاعترضه عز الدين النمراويّ فاستصوب ابن دقيق العيد كلامه وقال: الزم هذا، فانحرفا فانفصل المجلس على ذلك وخرج صدر الدين مقهوراً.

(٢) وذكر العثمانيّ قاضي صفد أنه كان في الحفظ آية حتى قيل إنه حفظ كتباً وضع بعضها على بعض فكانت قامة.

وقرأت بخط الكمال جعفر كان فاضلاً ذكيَّ الفطرة متصرفاً في فنون كثيرة، فصيح العبارة حلو المحاضرة جواداً سمحاً أفتى وهو ابن ٢٢ سنة وكان من محاسن دهره مقبول الصورة محبباً إلى الأكابر مشهوراً بالدعابة حتى إنه لما سعى في خطابة جامع ابن طولون سعى له بعض الأمراء فولّاه فقاموا في وجهه ولم يمكنوه من طلوع المنبر وكتبوا عليه محضراً بعدم أهليته للخطابة أثبته القاضي شمس الدين بن الحريريّ الحنفيّ. وكان تقيّ الدين السبكي يعظمه ويثني عليه ويسميه فاضل عصره.

---

(١) أي قَبِّل.

وقال ابن فضل الله: إنه كان يعرف الطب علماً لا علاجاً فاتفق أن الأفرم[1] حصل له سوء هضم فرتب له سفوفاً فاستعمله فأفرطه الإسهال، فأراد مماليك الأفرم قتل صدر الدين وتدارك أمين الدين سليمان الرئيس الأمر، فعالجه برفق إلى أن نصل[2] عن قرب فأنكر الأفرم على مماليكه ما فعلوه مع صدر الدين وعاتبه بلطف، وقال له: كدت أروح معك غلطاً، وقال له أمير العرب: يا شيخ صدر الدين أقبل على فقهك ودع الطب فإن غلط المفتي يستدرك وغلط الطبيب لا يستدرك فاستصوب الأفرم مقالته وخجل صدر الدين، ثم تلافاه الأفرم وأعطاه مالاً وثياباً.

(١) وكان في صدر الدين لعب ولهو، قال الصفديّ: حكى لي جماعة ممن كان يعاشرهم في خلواته أنه كان إذا فرغ توضأ ولبس ثياباً نظافاً وصلى ومرغ وجهه على التراب وتضرع في طلب التوبة والمغفرة، وكان إذا مرض غسل ما نظمه من الشعر.

وكان قادراً على النظم مطبوعاً فيه غوّاصاً على المعاني، لكن كان في المهمات يستعين بشعر غيره، وقع له ذلك مع الملك الناصر لما بنى قصر قلعة الجبل أنشده قصيدة طويلة:

أولها:

لولاك يا خير من يمشي على قدم ... خاب الرجاء وماتت منة الكرم

يقول فيها:

بنيت قصراً بدا بالسعد طالعه ... قامت لهيبته الدنيا على قدم

وهذه القصيدة في ديوان ابن التعاويذيّ لم يغير فيها إلا قصراً كان بدله داراً.

---

(١) والي دمشق.
(٢) أي برىء من مرضه.

(١) وكان جواداً، قال العسجديّ: كنت معه ليلة عيد فوقف له فقير فقال: شيء لله فالتفت إليّ وقال ما معك؟ قلت: مائتا درهم قال: ادفعها إليه فدفعتها إليه ثم قلت له: يا سيدي غداً العيد وليس عندي شيء فقال: امض إلى القاضي كريم الدين فقل له: الشيخ يهنئك بهذا العيد. ففعلت فقال: كأن الشيخ يعوز نفقة ادفعوا له ألفي درهم فرجعت بها إليه فقال لي: الحسنة بعشرة أمثالها، وكان العسجدي وسليمان بن إبراهيم المتوفى خصيصين به، وكانا يحكيان عن مكارمه وصدقاته وبره للصالحين شيئاً عجيباً.

(٢) قال الصفديّ: الجيد من شعره طبقة عليا ويقع فيه اللحن الخفي مع مهارته في العربية، حتى قال المجد التونسيّ: ما اجتمعت به قط إلا استفدت منه في العربية. ولما دخل حلب وجد علم الدين طلحة رأساً في العربية، لكن كانت دائرته ضيقة لأنه كان يقرر الحاجبية وشرحها فقط فأخذ صدر الدين شرح سيبويه للسيرافيّ فصار يطالعه ويذاكر به طلحة فينقطع طلحة في الغالب.

(٣) واشتهر عنه أنه كان يجازف في النقل فإنه قال للأفرم: أحفظ للأسد ثلاثة آلاف اسم، وأنه قال في مجلس حافل: الكرَامية[1] بالتخفيف فأنكروا عليه وقالوا: بل هو بالتشديد فأنشد في الحال:

الفقه فقه أبي حنيفة وحده ... والدين دين محمد بن كرام

فأطبقوا على أنه نظمه في الحال، قلت: لكن ظهر بعد دهر أنهم ظلموه ووجد البيتان من نظم أبي الفتح البستيّ الشاعر المشهور في رأس الأربعمائة والأول:

إن الذين يجهلهم لم يقتدوا ... في الدين بابن كرام غير كرام

قال تقيّ الدين السبكيّ: عدته في مرض موته فقلت كيف تجدك

---

(١) فرقة من الفرق المبتدِعة منسوبة إلى محمد بن كرّام السجستانيّ.

فقال:

رجعت لا أدري الطريق من البكا رجعت عداك المغضبون كمرجعي

وكانت وفاته بمصر سنة ٧١٦ ولما بلغت وفاته ابن تيمية قال: أحسن الله عزاء المسلمين فيك يا صدر الدين، وتأسف الناس عليه كثيراً، رحمه الله تعالى[١].

ابن قبيلة الشافعيّ

محمد بن عوض بن سلطان البَكْرِيّ ناصر الدين الشافعيّ المعروف بابن قبيلة. ولد سنة سبعمائة وتفقه ووَلِيَ التدريس بمدينة الفيوم مدة وكان ماهراً في الفقه والأصول والعربية والهيئة وصنف تصانيف مفيدة.

(١) مات بدهروط وهو يصلي الصبح في شهور سنة ٧٧٤.

(٢) قرأت بخط الشيخ شمس الدين بن القطان في ذيل الطبقات له: سمعت الشيخ شهاب الدين بن عبد الوارث البكريّ المالكيّ يقول: كان بيني وبين الشيخ ناصر الدين بن قبيلة وقفة فرأيت النبيّ ﷺ في المنام فقال لي: اصطلح مع محمد البكريّ وأشار إليه فلما استيقظت سافرت إليه حتى اصطلحت معه.

قلت: واتفق أنهما ماتا في شهر واحد في هذه السنة[٢].

شمس الدين ابن كر

محمد بن عوض بن حسن بن كر البَغْدَاديّ ثم المِصْرِيّ الحَنْبَلِيّ شمس الدين المروانيّ من ولد مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان. قدم أبوه من بغداد حين غلب عليها هُلاكو وكان من الأمراء فولد له محمد بالقاهرة سنة ٦٨١، وحفظ القرآن والعمدة وكتاباً في مذهب أحمد وملحة

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/٢٣٤ ـ ٢٤١.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٤/٢٤٤.

الإعـراب. ووَلِيَ مشيخة الـزاوية التي بجـوار المشهـد الحسيني وأخـرى بالقرب من الدكة بشاطىء الخليج سمع منه شيخنا العراقي وغيره وأخذ علم الموسيقى عن غير واحد ففاق الأقران وصنف فيه تصنيفاً بديعاً وصار في فنه فرداً لا يلحق ونقل مذاهب القدماء وحررها وأخذ نفسه بأن لا يمر به صوت مما ذكره أبو الفرج الأصبهانيّ إلا ويجيء به على وجهه. وكان عزيز النفس شهماً عفيفاً ولم يتكسب بصناعة الموسيقى.

(١) ذكر ذلك ابن فضل الله وقال كان يتردد إليّ ويتودد ولقد رأيته يوماً غنى فأضحك ثم غنى فأبكى ثم غنى فنوم، فرأيت بعيني ما كنت سمعت بأذني عن الفارابي، وقال ابن الصائغ الحنفي مر ابن كر على قوم يغنون فحرك بغلته حتى مشت على إيقاعهم وهذا أعجب ما يحكى.

مات سنة ٧٦٣[١].

فخر الدين ناظر الجيش

محمد بن فضل الله القِبْطيّ فخر الدين ناظر الجيش. ولد سنـة ٥٩ ولما أسلم أعرض عن النصارى جملة وتسمى محمداً ولم يمكن نصرانياً أن يدخل داره أصلاً، وحج عشر مرات وزار القدس وأحرم مرة من القدس إلى مكة، ودخل كنيسة قمامة[٢] فسُمع وهو يقول: ﴿**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا**﴾[٣].

وكـانت صدقتـه في كل يـوم ألف درهم وبنى عدة مسـاجد وعـدة أحواض يسقى فيها الماء في الطرقات وله مارستان[٤] بالرملة وآخر بنابلس، وكان شديد العصبية وكان شرف الدين بن زنبور خالُه يصفه بالصـلابة في

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/٢٤٥.

(٢) أي كنيسة القيامة في القدس.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٨.

(٤) أي مستشفى الأمراض العقلية.

الدين قبل أن يسلم وتَـرْكِ استعمال الخمـر والإقبال على الصـلاة، وبنى بالديار المصرية عدة مساجد وأحواضاً ومدرسة بنابلس وبالـرملة مرستـانا، وكان كثير التعصب لأصحابه والقيام بأمورهم. وكان في أول أمـره كاتب المماليك، إلى أن مات بهاء الدين الحلي فوَلِيَ نظر الجيش مكانه واتصل بخدمة الناصر محمد وغضب عليه لما حضر من الكرك في المرة الثالثة، وقرر قطب الدين بن شيخ السلامية مكانه وأخـذ منه أربعمـائة ألف درهم وذلك في ربيع الآخر سنة ٧١٢ ثم أعيد إلى وظيفته بعد شهر وأمر بإعادة ما أخذ منه فقال: ياخوند[١] إني خرجت عنها لك، وأريد أن أبني لك بها جامعاً، فبنى له الجامع الجديد.

وغضب الناصر منه لكثرة معارضته له فصاح عليه: اخرج من وجهي ولا أرى وجهك من بعدها فخرج وهو يقول: لقد أراحني الله، فغضب منه ونزع خفيه وضربه بهما، ثم رضى عليه عن قرب ووصاه أن لا يعترض عليه في المجلس العام.

صودر أهله بعد موته وكان جملة ما حمل إلى الناصر من أمواله ألف ألف درهم سوى ما ترك لأولاده وأوقافه.

وكان أرغون النائب يكرهه فلم يزل فخر الدين يعمـل عليه إلى أن أخرج إلى الشام فقال للناصر يوماً: ما يقتـل الملوكَ إلا نوابهم؛ فتخيـل الناصر من أرغون، فلما رجع أرسله نائباً بحلب.

(١) ويقال: إنه لما مات لعنه الناصر وسبه، وقال: له خمس عشرة سنـة ما يـدعني أعمل مـا أريد، ومن بعـده تسلط السلطان على النـاس وصادرهم وعاقبهم وتجرّأ على كل شيء.

مات سنة ٧٣٢[٢].

---

(١) أي: يا رئيس.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٤/٢٥٥ - ٢٥٦.

الناصر محمد بن قلاوون

محمد بن قَلَاوُون بن عبد الله الصَّالِحِيّ الملك الناصر بن المنصور. ولد سنة ٦٨٤.

(١) شوهد منه أنه ولد وكفاه مقبوضتان ففتحتهما الداية فسال منهما دم كثير، ثم صار يقبضهما فإذا فتحهما سال منهما دم كثير، فأنذر ذلك بأنه يُسفك على يديه دماء كثيرة، فكان كذلك، وأول ما وَلِيَ السلطنة عقب قتل أخيه الأشرف في نصف المحرم سنة ٩٣، وعمره تسع سنين سواء، واستقر كَتْبُغا نائباً والشجاعيّ وزيراً ثم وقع بينهما وأنفق الشجاعي في يوم واحد ثمانين ألف دينار وكاد أن يغلب ثم انتصر بيسرى وبكتاش لكتبغا وحاصروا الشجاعيّ في القلعة فأغلقت أم الناصر باب القلعة وبقي الشجاعيّ محصوراً في دار الوزارة فانفل جمعه فطلب الأمان، فآل أمره إلى القتل وطلع كَتْبُغا إلى القلعة، وجددت العهود للناصر، وخطب له بعد ذلك بدمشق ولولي عهده كَتْبُغا واستقل كَتْبُغا بتدبير المملكة إلى أن تسلطن في المحرم سنة ٦٩٤، فكانت مدة سلطنة الناصر الأولى سنة إلا ثلاثة أيام.

خُلع كتبغا في صفر سنة ٩٦ فكانت مدة سلطنته سنتين وشهراً، واستقر لاجين فكانت سلطنته سنتين وشهرين، وكان كَتْبُغا قد جهز الناصر إلى الكرك بعد أن حلف له أنه إذا ترعرع وترجل يفرغ له عن المملكة بشرط أن يعطيه مملكة الشام استقلالاً كصاحب حماة، فلما قتل لاجين في شهر ربيع الآخر سنة ٦٩٨ أحضروا الناصر من الكرك وتسلطن الثانية، وله يومئذ أربع عشرة سنة وأربعة أشهر، واستقر في نيابة السلطنة سلار واستقرب بيبرس الجاشنكير دويداراً[١] ولم يكن للناصر معهما حكم ألبته، واستقر آقش الأفرم نائب دمشق وحضر الناصر وقعة غازان سنة ٦٩٩ بوادي الخزندار وثبت الثبات القوي وجرى لغازان بدمشق ما اشتهر، وقطعت خطبة

---

(١) هو الذي يحمل الدواة للأمير أو السلطان ويتولّى أمرها مع ما ينضم لذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور وغير ذلك.

الناصر من دمشق إلى رجب فأعيدت، ثم تحرك غازان في العود في سنة سبعمائة فوصل إلى حلب ثم رجع، وفي ولاية الناصر ألبست اليهود العمائم الصفر والنصارى العمائم الزرق وذلك في سنة سبعمائة، وفي شعبان منها كانت وقعة شقحب[1] وكان للناصر فيها اليد البيضاء من الثبات ووقع النصر للمسلمين.

(١) وفي ذي الحجة منها وقعت الزلزلة العظيمة بمصر والشام والإسكندرية، وذهب تحت الردم ما لا يحصى وغرق من المراكب العدد الكثير وهدمت الجوامع والمزارات، وانتدب سلار والجاشنكير وأكابر الأمراء في إصلاح ما وهى من ذلك، ولما كان في رمضان سنة ٧٠٨ أظهر الناصر أنه يطلب الحج فتوجه إلى الكرك وأقام به وطرد نائب الكرك إلى مصر، وأعرض عن المملكة لاستبداد سلار وبيبرس دونه بالأمور، وكتب الناصر إلى الأمراء بمصر يترفق لهم ويستعفيهم من السلطنة ويسألهم أن يتركوا له الكرك وبلادها برسم من ينقطع عنده من الخدم والمماليك فوافقوه على ذلك واتفق أنه يوم دخوله الكرك انكسر الجسر وسلم هو ومن سبق معه وسقط في الوادي نحو الخمسين من خواصه فمات منهم أربعة وخرج من بقي مصاباً، وبحث الناصر عن القضية فوجدها وقعت اتفاقاً فخلع على النائب وأعلمه بعزمه على الإقامة بالكرك وأمره بالتوجه إلى القاهرة، وأقام بالكرك يدبر أمورها ويحكم بين من يتحاكم إليه، ووصل كتاب الناصر بما عزم عليه عصر يوم الجمعة ثاني عشرى شوال، وتسلطن بيبرس الجاشنكير في ثالث عشرى من شوال. فلما كان في شهر رجب سنة ٧٠٩ ساق جماعة من مصر إلى الكرك وحملوا الناصر إلى دمشق فتلاحق به أكثر الأمراء فنزل بالقصر ثم توارد عليه نواب البلاد فقصد مصر في رمضان ففر الجاشنكير ولم يفر سلار، بل أقام وخرج للقاء الناصر وأظهر الطاعة. ووصل الناصر إلى القلعة واستقر في دست المملكة وهي السلطنة الثالثة، ولمّا استقرّت

---

(١) وكانت مع التتار.

قدمه قبض على أكثر الأمراء ثم عزل بدر الدين بن جماعة وولى القضاء نائبه جمال الدين الزرعيّ، فلما انقضت السنة أعاده وعزل السروجي عن قضاء الحنفية، وقرر شمس الدين بن الحريري مكانه، وكان نقم عليهما مبايعتهما للجاشنكير ولما تقدم الخليفة إلى السلام عليه قال له: كيف تسلم على الخارجيّ، وكيف تبايع بيبرس؟ هل ثبت عندك أنه من بني العباس فسكت مصفراً، ثم التفت إلى ابن جماعة فقال: كيف تفتي المسلمين بجواز قتالي؟ فتبرأ من ذلك، ثم قال للصدر ابن الوكيل: كيف تقول ما للصبي وللملك شأن الصبيّ يحتاج إلى من يكفله؟ فتنصل وقال للدويدار[1]: قل لابن عدلان لا يصل إلى ويكفيه قول الشاعر:

ومن يقوم ابن عدلان بنصرته   وابن المرحل قل لي كيف ينتصر

وأعطى المؤيد إسماعيل سلطنة حماة واستقر تِنْكز نائب الشام في ربيع الأول سنة ٧١٢ فاستمر بها بضعاً وعشرين سنة، وفي سنة ٧١٢ حضر الناصر العيد بالقلعة بمصر، ثم وصل إلى دمشق في ثالث عشرى شوال ثم توجه منها إلى الحجاز، ورجع بعد الحج إلى مصر. وبنى في سلطنته من الجوامع والمدارس والخوانق الشيء الكثير جداً، وفتحت في أيامه قلعة جعبر ومَلَطْيَة ودارندة وآياس وطرسوس، واشترى المماليك فبالغ في ذلك حتى اشترى واحداً بنحو أربعة آلاف دينار بل أزيد، ولم ير أحد مثل سعادة ملكه وعدم حركة الأعادي عليه براً وبحراً مع طول المدة، فمنذ وقعة شقحب إلى أن مات لم يخرج عليه أحد، ووجدت له إجازة بخط البرزاليّ من ابن مشرف وعيسى المغاري وجماعة، وسمع من ست الوزراء وابن الشحنة وخرّج له بعض المحدثين جزءاً، وكان مطاعاً مهيباً عارفاً بالأمور يعظم أهل العلم والمناصب الشرعية، لا يقرر فيها إلا من يكون أهلاً لها، ويتحرى لذلك ويبحث عنه ويبالغ، وأسقط من مملكته مَكْسَ[2] الأقوات

---

(١) انظر التعريف السابق.

(٢) الضريبة.

وحج بعد استقراره في ذلك ثلاث حجج أولها سنة ١٢ وثانيها سنة ٢٠ وثالثها سنة ٣٢.

كان ملكاً مطاعاً مهيباً محظوظاً ذا دهاء وحزم ومكر، طويل الصبر على ما يكره، إذا حاول أمراً لا يسرع فيه بل يحتاط غاية الاحتياط، ويقال إن بين غضبه من تِنْكِز[1] وهمه بإمساكه إلى أن أمسك ثماني سنين. وتسلطن من أولاده ثمانية أنفس على الولاء، وكان له عدة أولاد. وكانت وفاته سنة ٧٤١ بالقلعة في آخر النهار وحمل ليلاً إلى المنصورية فغسل بها وصلى عليه عز الدين بن جماعة القاضي إماماً بمحضر ناس قليل من الأمراء[2].

شرف الدين الأَمْيُوطِيّ

محمد بن محمد بن أحمد، اللّخميّ الشافعيّ شرف الدين أبو الفتح بن عز الدين الأَمْيُوطِيّ. ولد بالقاهرة سنة ٦٧٤ وبرع في الفقه وسمع الحديث، وولي قضاء نابلس، ودرس بالجامع الظافريّ.

(١)ثم وليَ القضاء والخطابةَ والإمامة بالمدينة الشريفة فباشرها إلى أن مات بها سنة ٧٤٥. واشتد على الشيعة وكان مهاباً فسطا على فقهائهم الإمامية وسبّهم على المنبر ووبخهم في المحافل.

وكان يحمل على نفسه في اتباع السنة والجد في العبادة ويحج على حمار ولم يكن يدخل المحراب بل يصلي على يساره.

وأبطل صلاة نصف شعبان بعد أن اعتادوها دهراً، وأبطل زينة المسجد وكثرة الوَقود، ومنع من الهياج في المسجد. وله خطب مدونة تسمى الجواهر السنية.

---

(١) والي دمشق.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٤/٢٦١ - ٢٦٥.

نزل مرة من المنبر وضرب رجلاً من الإمامية تنفل أربعة كهيئة الظهر ومع ذلك لم يقدر على رفع حكام الإمامية ولم يزل على ولايته وشهامته حتى مات[1].

بدر الدين بن الكمال

محمد بن أبي بكر، محمد بن الكمال أحمد بدر الدين.

(٢) تعانى اللغة حتى صار يستحضر الصحاح والجمهرة والنهاية وغيرها وحفظ الفائق للزمخشريّ كله والمنتهى وغريب أبي عبيد، وقد عقدت له مجالس متعددة بسبب ذلك ويحضر هذه الكتب وغيرها ويأخذ كل من الحاضرين مجلدة من الكتب ويمتحنه فيمر فيها حكى ذلك الصلاح الصفدي، والشيخ عماد الدين بن كثير وشيخنا مجد الدين اللغويّ.

وكان ديِّناً صيِّناً، وكان قليل الاختلاط بالناس.

وكان قد حفظ قطعة من شرح التنبيه لابن الرفعة فكان يوردها سرداً في درسه بالإقبالية، ومن محفوظه الألفية. مات بدمشق سنة ٧٧٠ وله ست وأربعون سنة[2].

أبو بكر القالوسيّ

محمد بن محمد بن إدريس القُضاعِيّ أبو بكر القالوسيّ.

(١) قال ابن الخطيب كان إماماً في العربية والعَرُوض، وكان شديد التعصب لسيبويه مع خفة فيه، حدثني شيخنا أبو الحسن بن الجباب قال: ورد أبو بكر القالوسيّ على القاضي أبي عمرو وكان شديد المهابة فتكلم في مسألة في العربية نقلها عن سيبويه فقال له القاضي: أخطأ سيبويه، فكاد

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٤/٢٨٢.

يجن ولم يقدر على جوابه لمكان منصبه فجعل يدور في المسجد ودموعه تنحدر وهو يقول: أخطأ من خطأه ولا يزيد عليها.

وكان مشاركاً في فنون من الفقه قراءة ولغة، وله تواليف حسان ونظم في العَروض وفي الفرائض.

وفاته سنة ٧٠٧[١].

ابن القَوْبع

محمد بن عبد الرحمن بن يوسف الجَعْفَرِيّ التُّونُسِيّ ركن الدين أبو عبد الله ابن القويع المالكي. ولد بتونس سنة ٦٦٤، وقدم سنة تسعين بدمشق ودرس بالمنكوتمرية وأعاد بالناصرية وغيرها ودرس في الطب بالمرستان واستمر على الاشتغال والاشغال، وكان يتردد إلى الناس من غير حاجة إلى أحد ولا سعى في منصب، وكتب على تفسير سورة (ق) مجلدة لطيفة وعلى عدة آيات، وكتب على ديوان المتنبي كتابة جيدة. وكان يستحضر جملة من الشعر ويعرف خطوط الأشياخ وكان ذهنه يتوقد ذكاء قد مهر في الفنون حتى صار إذا تحدث في شيء من هذه العلوم تكلم في دقائقه وغوامضه حتى يقول القائل إنه أفنى عمره في ذلك الفن. وكان تقي الدين السبكيّ يقول: ما أعرف أحداً مثله.

(١) وقال الصفديّ: قال لي ابن سيد الناس: لما قدم قعد بسوق الكتب والشيخ بهاء الدين بن النحاس هناك ومع المنادي ديوان ابن هانىء فنظر فيه ابن القويع فترنم بقوله:

فتكاتِ لحظك أم سيوفَ أبيك ... وكؤوسَ خمرك أم مراشفَ فيك

فقرأه بالنصب في الجميع فقال له ابن النحاس: يا مولانا هذا نصب كثير فقال له بنترة: أنا أعرف الذي تريد من رفعها على أنها أخبار لمبتدآت

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/٢٨٧ - ٢٨٨.

مقدرة والذي ذهبت أنا إليه أَغزَلُ وأمدحُ وتقديره: أقاسي فتكات لحظك إلى آخره. فقال له: يا مولانا فلم لا تتصدر وتشغل الناس؟ فقال: وإيش هو النحو في الدنيا حتى يُذكر.

كان صحيح الذهن مشهوراً بالعلم يفتي على مذهب مالك، وأعاد ببعض المدارس. وقال لي ابن سيد الناس: ابن القويع ثبت ثبت وأعاد ستاً أو سبعاً. قال الصفديّ: أخبرني الشيخ تاج الدين المراكشيّ عنه قال: أوقفني ابن سيد الناس على السيرة التي عملها فعلّمت فيها أكثر من مائة موضع أوهام.

(١) قال الصفديّ: وأخبرني ابن سيد الناس قال: جاء إليه إنسان يصحح عليه في «أمالي القالي» فكان يسابقه إلى ألفاظ الكتاب فبهت الرجل فقال له ابن القويع: لي عشرون سنة ما كررت عليه[١].

قال: وكان كثير التلاوة حسن الود جميل الصحبة يتصدق سراً فيكثر.

وكانت فيه سآمة وملل وضجر ويلثغ بالراء فيجعلها همزة.

وكان لا يخل بالمطالعة في كتاب الشفاء لابن سينا كل ليلة. قال ابن سيد الناس: فقلت له يوماً: إلى متى تنظر في هذا الكتاب؟ فقال: أريد أن أهتدي.

(٢) ومن نظمه:

تأمل صحيفات الوجود فإنها ... من الجانب السامي إليك رسائل
وقد خط فيها إن تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

مات سنة ٧٣٨. والقويع على الألسنة بضم القاف ونقل ابن رافع عنه أنه قال إنه بفتح القاف، وذكر عن بعض المغاربة أن القويع طائر[٢].

---

(١) أي ما راجعته.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٤/٢٩٩ ـ ٣٠٢.

ابن المؤذّن

محمد بن محمد بن عبد الرحمن التِّمِيمِيّ أبو عبد الله الحَلْفَاوِيّ التُّونُسِيّ نزيل غرناطة يعرف بابن المؤذن.

(١) قال ابن الخطيب: قدم معه مال في تجارة فأنفقه في سبيل البر وتجرد وأقبل على العبادة والتلاوة إلى أن اشتهر بالخير والصدق فصار يقصد بالصدقات فيفرقها في المحاويج، فانثال عليه الرجال والنساء والصبيان ومع ذلك فرِفْدُه يعمهم[١].

(٢) وكان صاحب مقامات وكرامات، حسن الصلاة جداً، وكان يختم في رمضان مائة ختمة.

مات سنة ٧١٥ وكانت جنازته حافلة جداً[٢].

تاج الدين المصريّ

محمد بن محمد بن علي الصاحب تاج الدين المصريّ.

ولد سنة ٦٤٠ وسمع من سبط السلفي جزء الذهليّ ومن المرسي وابن عبد الدائم وابن أبي اليسر وغيرهم، وحدّث.

ووليَ الوزارة في أوائل الدولة الناصرية سنة ٦٩٣، وكان يتعاطى الفروسية ويتصيد بالجوارح ويحضر الغزوات.

وكان جواداً ممدحاً، مدحه الشهاب محمود السراج الوراق وابن دانيال.

(٣) قال الشهاب محمود: كنت عنده فدخل عليه شاعر فاستأذنه في إنشاد قصيدة فأذن له فاستمعها إلى آخرها وأخذ الورقة منه فوضعها إلى

---

(١) أي: عطاؤه.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣٠٢/٤ ـ ٣٠٣.

جانبه ولم يتكلم ولا أشار فحضر خادم ومعه صرة فيها عشرة دنانير وتفصيلة فدفعها للشاعر فأخذها وخرج.

(١) وقيل إن أحواله دائماً في بيته كانت مرتبة على هذه الصورة لا يحتاج أن يقول شيئاً بحضرة الناس بل يعمل جميع ما يريد على أتم ما يريد من غير أن يتكلم أو يشير حتى قيل إن جده حضر عنده في ضيافته، فكان معه طول النهار وما حضر فيه من المأكول والمشروب والمشموم والفواكه والحلوى على أتم الوجوه مع كونه لم يقم من مكانه ولا تكلم ولا أشار بيده ولا طَرْفه ولا أسرَّ إلى أحد شيئاً ولا جهر به. وكان له إنسان مرتب معه حَمَام إذا خرج من القلعة أطلقها إلى الدار فيرمون الأشياء التي يحتاج إليها ساعة يصل إلى منزله فيجد ما يريد على غاية الكمال.

وله نظم حسن جمع في ديوان لطيف سمعه ابن شامة وغيره.

(٢) ومن مقاصده الجميلة أنه بنى مكتباً بالقرافة وشرط في كتاب وقفه أن ألواح الصبيان إذا غسلت يصب على قبره.

وهو الذي اشترى الآثار النبوية بمبلغ ستين ألف درهم وبنى لها المكان المنسوب إليه ووقف عليها البستان المعروف بالمعشوق وغير ذلك، وعمر الجامع بدير الطين. وكان له نظم ونثر لطيف وانتهت إليه رياسة مصر في عصره، وكان ذا سمت وسؤدد وشكل حسن.

قال أبو حيان: كان محباً للفقراء كثير الصدقة والتواضع، متناهياً في المطعم والملبس والمنكح والمسكن، ولما نكب على يد الشجاعيّ جرّده من ثيابه وأراد ضربه فلم يتمكن من أكثر من مقرعة واحدة فوق القميص مع عظمة الشجاعيّ وجبروته.

مات سنة ٧٠٧[١].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/٣٢٢ - ٣٢٣.

محمد ابن الأحمر

محمد بن محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر الأنْدَلُسِي أمير الأندلس.

وَلِيَ بعد أبيه فأقام ثمانية أعوام ثم وثب عليه أخوه أبو الجيوش نصر فخلعه وسجنه بشلوبينة واتفق أن مرض نصر فأُغمي عليه فأحضر الجند أخاه محمداً فأفاق نصر فأمر بتغريقه فغُرِّق وذلك سنة ٧١٠.

قال ابن الخطيب: كان من أعاظم أهل بيته صيتاً وهمة وكان قد دبر الملك في حياة أبيه فجاء غاية في الإدراك والفخامة والنبل، وكانت أيامه أعياداً وكان ينظم ويصغي إلى الشعر ويضرب في كل فن بسهم، وهو القائل من قصيدة:

واعدني وعداً وقد أخلفا أقل شيء في الملاح الوفا

وهو الذي بنى المسجد الأعظم بالحمراء، وله اليد البيضاء في الجهاد[1].

محمد بن نصر بن الأحمر

محمد بن محمد بن يوسف بن نصر بن الأحْمر الأنـدَلُسِيّ. أمير الأندلس أبو عبد الله. ولد بغرناطة عام ٦٣٣. ولي الملك بعد أبيه فأقام في المملكة ثلاثين سنة وشهراً وسبعة أيام وكان فارساً بطلاً شجاعاً، تلقب بالفقيه.

افتتح قيجاطة[2] عنوة سنة ٩٤، ثم افتتح القبذاق[3] عنوة سنة ٩٩، ونازل أرجونة[4] سنة سبعمائة.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٣٥٢/٤.

(٢) (٣) (٤) من بلدان الأندلس.

وكان فيه عدل وتصون مع الصمت والوقار وحسن السياسة والتجنب للدماء.

مات سنة ٧٠١، وقد نيف على السبعين.

قال ابن الخطيب: كان أحد الملوك جلالة وصرامة وحزماً مهد الدولة ورتبها وأقام رسوم الملك، وكان حسن الخط جيد الشعر[١].

محمد البالسيّ

محمد بن مسلم بن أحمد البَالِسِيّ الأصل التاجر الشهير. يُقال كان أبوه حمالاً ثم كثر ماله، وجده لأمه شمس الدين أحمد بن بشير كان من كبار التجار بمصر.

رزق الحظ الوافر في التجارة وفي العبيد السَفَّارة فكان يـرحل إلى الهند والحبشة واليمن والتكرور ويعودون له بالأرباح الكثيرة المفرطة. غاب مرة في قوص فأشاع ولده نور الدين عليّ أنه مات وبذل للأشرف شعبان مالاً عريضاً من ماله حتى مكنه من حواصله فبلغ ذلك أباه فحضر في أيام يسيرة واستعاد بعض المال وذهب أكثره، ولما مات سنة ٧٧٦ ورثه ولده عليّ وغيره من ولده فكان حصة الذكر أكثر من مائتي ألف دينار.

وهو صاحب المدرسة بالفسطاط من أحسن المدارس ولم تكمل إلا بعد موته وعمر مطهرة بجوار جامع عمرو، وكان كثير الصدقات كثير التقتير على نفسه[٢].

شمس الدين الحنبليّ

محمد بن مسلم بن مالك المِزِّيّ الأصل ثم الدمشقيّ شمس الـدين الحنبليّ القاضيّ. ولد سنة ٦٦٢. مات أبو وله ست سنين فلم يكن لـه

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٥/١٠.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/٢٦.

سوى مكتب بالصالحية فيه خمسة دراهم في الشهر فنشأ في تصون وتقنع، وسمع الكثير وخرّج له ابن الفخر مشيخة في مجلدة عن نحو أربعمائة شيخ. وكان قد تعلم الخياطة ثم اشتغل وحفظ القرآن ومهر في الفقه والعربية إلى أن تصدر لإقرائها ولم يدخل في وظيفة تدريس وطلب الحديث.

(١) فلما مات القاضي تقي الدين سليمان عين للقضاء وأثنِي عليه عند السلطان بالعلم والعبادة والوقار فولاه، فتوقف، فطلع ابن تيمية إليه ولامه على الترك وقوّى عزمه فأجاب بشروط أن لا يركب بغلة ولا يحضر الموكب فأجيب، واستقر في صفر سنة ٧١٦ فباشر أحسن مباشرة وعمر الأوقاف وحاسب العمال واستمر إحدى عشرة سنة.

وحج مرات، وكان مئزره سجادته ودواة الحكم من زجاج.

فلما كان في شوال سنة ٧٢٦ وتوجه إلى الحجاز بنية المجاورة فمرض من العُلا فلما قدم المدينة تحامل حتى وقف مسلماً على النبي ﷺ ثم أدخل إلى منزل فمات وقت السحر في الثالث والعشرين من ذي القعدة ودُفن بالبقيع.

قال الذهبيّ: برع في الفقه والعربية وتخرج به فضلاء، ولم يزل قانعاً راضياً يرتزق من الخياطة وليس له سوى الضيائية بقدر عشرين درهماً ولباسه لباس النساك وعلى رأسه عمامة لطيفة، لم يزاحم على وظيفة تدريس ولا غيرها، ثمّ قال: كان ديناً صيناً ساكناً حسن السمت خفيف اللحية ذا حلم وأناة ودين وورع شهد له أهل العلم والدين بأنه من قضاة العدل وكانت له أوراد وتعبد وحج مرات[١].

محمد بن مطرِّف

محمد بن مُطَرِّفْ الأَنْدَلُسِيّ قدم مكة فأقام بها نحواً من ستين سنة

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٥/٢٧ ـ ٢٨.

ملازماً للعبادة يطوف في اليوم خمسين أسبوعاً[1]، ومات في رمضان سنة ٧٠٦ وحمل جنازته حُميضةُ أميرُ مكة[2].

اليَزْديّ

محمد بن مُظَفَّر اليَزْدِيّ ملك شيراز. كان من أهل البوادي فنشأ ذا بأس شديد واشتهر بالشجاعة فاتفق أنه كان بين يَزْد[3] وشيراز قاطع طريق يُقال له الحمال لوك شديد البأس انضم إليه جماعة فكانت القوافل لا تأمن في زمانه وأكثر من النهب والسلب فبلغ خبَره محمد بن مظفر فكمن له في بعض الأماكن الصعبة فلما مرّ به برز له فصارعه وقطع رأسه وتقرب به إلى خاطر الملك يومئذ وهو شيخ بن محمود فقدمه وقربه وخلع عليه وقرره صاحب درك يزد[4] فاشتهر أمره وانضم إليه جمع جم وصاهر بعض الأكابر من أهل يزد، فلما مات شيخ ابن محمود وثب محمد بن مظفر على يزد فملكها وساعده أصهاره وأعوانه فاستقرت قدمه وسار سيرة جميلة ثم ملك شيراز وغير ذلك وكان له ولد بقرية يقال له شاه مظفر فمات في حياته.

(١) ثم آل أمر محمد بن مظفر إلى أن وثب عليه ولده شاه شجاع فقبض عليه بعد حرب جرت بينهما فانتصر شاه شجاع وقبض أباه وسجنه في بعض القلاع إلى أن مات في حدود السبعين وسبعمائة واستقر شاه شجاع في مملكته[5].

ابن منظور الإفريقي

محمد بن مكرم بن عليّ الأنصاريّ الإفريقيّ ثم المصريّ جمال الدين

---

(١) الأسبوع سبعة أشواط.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/٢٩.

(٣) مدينة متوسطة بين نيسابور وشيراز وأصبهان، انظر «معجم البلدان»: ٥/٤٣٥ - ٤٣٦.

(٤) أي: صاحب شرط يَزْد.

(٥) «الدرر الكامنة»: ٥/٢٩ - ٣٠.

أبو الفضل، كان ينتسب إلى رويفع بن ثابت الأنصاريّ. ولد سنة ٦٣٠ وعمر وكبر وحدث فأكثروا عنه.

(١) كان مغرى باختصار كتب الأدب المطولة؛ اختصر الأغاني والعقد[١] والذخيرة ونشوار المحاضرة ومفردات ابن البيطار والتواريخ الكبار وكان لا يمل من ذلك قال الصفديّ: لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطولاً إلا وقد اختصره، قال: وأخبرني ولده قطب الدين أنه ترك بخطه خمس مائة مجلدة ويُقال إن الكتب التي علقها بخطه من مختصراته خمس مائة مجلدة.

(٢) قلت: وجمع في اللغة كتاباً سماه «لسان العرب» جمع فيه بين التهذيب والمحكم والصحاح والجمهرة جوده ما شاء ورتبه ترتيب الصحاح وهو كبير.

خدم في ديوان الإنشاء طول عمره ووَلِيَ قضاء طرابلس. قال الذهبيّ: كان عنده تشيع بلا رفض.

(٣) وأنشد لنفسه:

الناس قد أثموا فينا بظنهم	وصدقوا بالذي أدري وتدرينا
ماذا يضرك في تصديق قولهم	بأن يحقق ما فينا يظنونا
حملي وحملك ذنباً واحداً ثقة	بالعفو أجمل من إثم الورى فينا

قال الصفديّ: هو معنى مطروق للقدماء لكن زاد فيه زيادة وقوله ثقة بالعفو من أحسن متمات البلاغة، وذكر ابن فضل الله أنه عمى في آخر عمره وكان صاحب نكت ونوادر.

(٤) وهو القائل:

بالله إن جُزت بوادي الأراك	وقبلت عيدانه الخضر فاك

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربّه، و«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسّام.

إبعث إلى عبـدك من بعضهـا فـإنني والله مـالـي سِـواك[1]

مات سنة ٧١١[2].

ابن سند

محمد بن موسى بن محمد بن سند الحافظ شمس الدين أبو العباس اللَّخْمِي المِصْريّ الأصل الشاميّ المعروف بابن سند. ولد سنة ٧٢٩ وتفقه قليلاً ودخل القاهرة وأخذ عن االشيخ جمال الدين الإسنـويّ، ثم صحب القـاضي تاج الـدين ولازمه وكـان يقرأ عليـه تصانيفـه في الـدروس وولاه القاضي تاج الدين عدة وظائف وكان ذكياً، وأذن له في الإفتـاء ابن كثير وتاج الدين والعلائيّ وطلب الحديث بعد الأربعين فسمع من جماعة بدمشق ومصر وقرأ بنفسه ورافق شيخنا العـراقيّ، وناب في الحكم عن القـاضي شرف الدين المالكي ثم عن القاضي ولي الدين بن أبي البقاء ووَلِيَ مشيخة الحديث بعدة أماكن.

وقد ذكره الذهبيّ في المعجم المختص ـ وهو آخر المذكـورين فيه وفاة ـ فقال: شاب يقظ، طلب الحديث وحصل أجزاء وخطه مليح ولسانه منطلق، قرأ عليّ «طبقات الحفاظ».

وفي أواخر عمره تغير ذهنه ونسي غالب محفوظاته حتى القرآن ويُقال إن ذلك كان عقوبة له لكثرة وقيعته في الناس عفا الله عنه بمنه وكرمه. مات سنة ٧٩٢[3].

محمد بن أبي الوليد بن الأحمر

صاحب غرناطة. كان غاية في الشجاعة وتسلطن بعد أبيه، وقتل سنة

---

(١) أي أنه لا يملك سِواكاً لأسنانه، ويصلح المعنى أيضاً أنه ليس له سوى محبوبه، وكلا المعنيين مقصودان.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/٣١ ـ ٣٣.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٥/٤٠.

٧٣٣ وكانت دولته ثمانية أعوام وعمره عشرون سنة. وكانت أمه أمةً رومية وأقيم أخوه أبو الحجاج يوسف وله حينئذ سبع عشرة سنة تقريباً.

وكان لمحمد من الإقدام والشجاعة والجرأة أمر عجيب بحيث إنه هجم على مدينة للفِرَنج في أربعين فارساً وبعث إلى ملكهم أن ابرز فقد حصلت في قبضك فما هجم عليه بل أضافه وخدمه[1].

محب الدين الحلبيّ

محمد بن يوسف بن أحمد الحَلَبيّ الأصل المصريّ، محب الدين. ولد بالقاهرة سنة ٦٩٧ واشتغل وحصل فنوناً من العلم، وقرأ بالسبع، وترقى إلى أن وليَ نظر الجيش بالديار المصرية، ففاق من قبله من الأكابر فضلاً عن أقرانه في المروءة والعصبية لجميع الناس ممن يقصده خصوصاً طلبة العلم، فكان لهم في أيامه من المكارم والأفضال ما لا يعبر عنه ولا يحصى كثرة حتى أني لم أدرك أحداً من المشايخ إلا ويحكي عنه في هذا الباب ما لا يحكيه الآخر ولم يزل في عزه وجاهه ومهابته إلى أن مات.

(١) وكان مع إحسانه ومكارمه بخيلاً على الطعام جداً حتى حكى لي حَموي كريم الدين بن عبد العزيز وكان ممن يلازمه أنه كان يسمعه يقول: إذا رأيت شخصاً أمعن في طعامي أظن أنه يضرب بطني بسكين.

وبلغني أنه أعاد القراءة على بعض أصحاب الصائغ لبعد عهده بالفن، ولم يزل في عزه وجاهه إلى أن مات سنة ٧٧٨[2].

شمس الدين الخيّاط

محمد بن يوسف بن عبد الله الدمشقيّ الحنفيّ شمس الدين الخياط الشاعر المشهور الملقب بالضفدع. ولد سنة ٦٩٣ وتعانى الأدب.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٥/٥٠، وهذه ليست شجاعة بل تهور، وكأن ملك الفِرَنج استهان به، والله أعلم.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/٦١ - ٦٢.

قال الصفديّ: وكان قد تسلط على ابن نباتة كلما نظم شيئاً عارضه فيه وناقضه، قلت: ولكن أين الثريا من الثرى.

قال الصفديّ: كان طويل النَّفَس في الشعر لكن لم يكن له غوص على المعاني ولا احتفال بطريقة المتأخرين ذات المعاني لكنه مقراض الأعراض وكنانة نبل أنفذ من سهام الأغراض، وكان هجوه أكثر من مدحه وقد أهين بسبب ذلك وصُفع وذلك أنه حج سنة ٥٥ فلم يترك في الركب من الأعيان أحداً إلا هجاه فاجتمعوا عليه ورفعوه إلى أمير الركب فاستحضره وأهانه جداً وحلق لحيته وطوفه ينادي عليه فانزعج من ذلك وكمد ومات عن قرب، قال الصفديّ: وكان مع ذلك كثير التلاوة حج مرات وقدرت وفاته بمعان بعد أن رجع من الحج سنة ٧٥٦ في ليلة ١٤ المحرم ودُفن على قارعة الطريق.

وقال ابن كثير: كان يذاكر في شيء من التاريخ ويحفظ شعراً كثيراً، وكان حسن المحاضرة، وكان قد أثرى من كثرة ما أخذ من الناس بسبب المديح والهجاء وكان الناس يخافون منه لبذاءة لسانه[١].

ابو حيّان الأندلسيّ

محمد بن يوسف بن علي الغَرْناطِيّ أثير الدين أبو حيّان الأندلسيّ الجيانيّ. ولد سنة ٦٥٤ وقرأ القرآن إفراداً وجمعاً وسمع الكثير ببلاد الأندلس وإفريقية ثم قدم الإسكندرية.

قال: وعدّة من أخذت عنه أربع مائة وخمسون شخصاً وأما من أجازني فكثير جداً.

(١) قال الصفديّ: لم أره قط إلا يسمع أو يشغل أو يكتب أو ينظر في كتاب ولم أره على غير ذلك.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٥/٦٨ - ٦٩.

(١) وكان له إقبال على أذكياء الطلبة يعظمهم وينوه بقدرهم.

وكان كثير النظم من الأشعار والموشحات.

وكان ثبتاً فيما ينقله عارفاً باللغة، أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما خدم هذا الفن أكثر عمره حتى صار لا يذكر أحد في أقطار الأرض فيهما غيره.

وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم وخصوصاً المغاربة، وله التصانيف التي سارت في آفاق الأرض واشتهرت في حياته واقرأ الناس قديماً وحديثاً حتى ألحق الصغار بالكبار وصارت تلامذته أئمة وأشياخاً في حياته.

(٢) وهو الذي جَسَّر الناس على قراءة كتب ابن مالك؛ رغبهم فيها وشرح لهم غامضها وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب: هذه نحو الفقهاء.

وألزم نفسه أن لا يقرىء أحداً إلا في كتاب سيبويه أو في التسهيل لابن مالك أو في مصنفاته.

(٣) وقال ابن الخطيب: كان سبب رحلته عن غرناطة أنه حملته حدة شبيبته على التعرض للأستاذ أبي جعفر بن الطباع وقد وقعت بينه وبين أستاذه أبي جعفر بن الزبير وحشة فنال منه وتصدى للتأليف في الرد عليه وتكذيب روايته فرفع أمره للسلطان بغرناطة فانتصر له وأمر بإحضاره وتنكيله واختفى ثم أجاز البحر مختفياً ولحق بالمشرق، وتكررت رحلته إلى أن حل الديار المصرية.

قال: وشعره كثير بحيث يوصف بالإجادة وضدها.

(٤) وكان ظاهرياً وانتهى إلى الشافعية واختصر «المنهاج» وكان أبو البقاء يقول إنه لم يزل ظاهرياً. قلت: كان أبو حيان يقول: محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه.

(١) وله:

إن الدراهم والنساء كلاهما ... لا تأمننّ عليهما إنساناً
ينزعن ذا اللب المتين عن التقى ... فيرى إساءة فعله إحساناً

(٢) وله:

أتى بشفيع ليس يمكن رده ... دراهم بيض للجروح مراهم
تصيِّر صعب الأمر أهون ما ترى ... وتقضي لبانات[1] الفتى وهو نائم

(٣) وله:

عداي لهم فضل عليّ ومنة ... فلا صرف الرحمنُ عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

(٤) ونظم قصيدة على وزن الشاطبية في القراءات بغير رموز وهي أخصر وأكثر فوائد ولكن ما رزقت حظ الشاطبية.

قال الكمال جعفر في ترجمته: شيخ الدهر وعالمه، ومحي الفن الأدبي بعد ما درست معالمه، ومجري اللسان العربي فلا يقاربه أحد فيه ولا يقاومه، وذكر أنه لازمه من سنة ثماني عشرة إلى أن مات، وذكر جملة كثيرة من شيوخه وأنه حفظ «المنهاج» واختصره، واختصر «المحلّى» لابن حزم، وذكر تصانيفه، وذكر أنه كان صدوقاً حجة ثبتا سالماً في العقيدة من البدع الفلسفية والاعتزال والتجسيم، وجرى على مذهب الأدب في الميل إلى محاسن الشباب، ومال إلى مذهب أهل الظاهر وإلى محبة علي بن أبي طالب والتجافي عن من قاتله.

قال الصفديّ: كان شيخاً طوالاً، حسن النغمة، مليح الوجه ظاهر اللون مشرباً بحمرة، منور الشيبة كبير اللحية مسترسل الشعر فيها لم تكن كثة، وعباراته فصيحة بلغة الأندلس، يعقد القاف قريباً من الكاف لكنه لا

---

(١) أي حوائج.

ينطق بها في القرآن إلا فصيحة متقنة. قد مدحه جماعة من الأدباء البلغاء وأخذ عنه كبار المشايخ ممن مات في حياته أو بعده بقليل لأنه عمر طويلاً وكان اختص بأرغون النائب وصار يبيت عنده بالقلعة.

كان ظاهري المذهب فلما قدم القاهرة ورأى مذهب الظاهر مهجوراً فيها تمذهب للشافعي.

(١) كان يعظم ابن تيمية ومدحه في قصيدة ثم انحرف عنه وذكره في تفسيره الصغير بكل سوء ونسبه إلى التجسيم فقيل إن سبب ذلك أنه بحث معه في العربية فأساء ابن تيمية على سيبويه فساء ذلك أبا حيان وانحرف عنه.

(٢) قال الأُدفُوِيّ: كان الشيخ سيء الظن بالناس كافة وتعقبه الصفديّ بأنه لم يسمع منه في حق أحد من الأحياء ولا الأموات إلا خيراً، قال: وكان يبلغني أنه كان يحط على ابن دقيق العيد لكن لم أسمع منه في ذلك شيئاً.

قال وكان فيه خشوع ويبكي إذا سمع القرآن ويجري دمعه إذا سمع الأشعار الغزلية.

(٣) كان يقول: يؤثر فيّ من الأشعار ما كان غزلاً أو حماسة إلا أشعار الكرم فإنها لا تؤثر وكان يفتخر بالبخل كما يفتخر الناس بالكرم ويقول: أوصيك: احفظ دراهمك ودع يقال بخيل ولا تحتاج إلى الأراذل. قال: وكان يلومني على بذل الدراهم في شراء الكتب ويقول إذا أردت كتاباً استعرته من كتب الأوقاف وقضيت حاجتي وإذا احتجت إلى درهم لم أجد من يعيرني إياه. وكان يقول يكفي الفقير في مصر كل يوم أربعة أفلس يشتري طلمة بائتة بفلس للعشاء وأخرى للغداء وبفلس زيتا وبفلس ماء.

وأضر قبل موته بقليل. مات بمنزله خارج باب البحر في سنة ٧٤٥[١].

أبو الثناء الأصبهانيّ

محمود بن عبد الرحمن بن أحمد العلامة شمس الدين أبو الثناء الأصْبَهانيّ. كان ينتسب إلى علاء الدولة الهمذاني، وكان مولده بأصبهان سنة ٦٧٤. واشتغل في بلاده ومهر وتقدم في الفنون ثم حج في سنة ٢٤ وقدم دمشق بعد زيارة القدس في صفر سنة ٢٥ فبهرت فضائله، وسمع كلامه الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية فبالغ في تعظيمه؛ قال مرة: اسكتوا حتى نسمع كلام هذا الفاضل الذي ما دخل البلاد مثله. وكان يلازم الجامع الأمويّ ليلاً ونهاراً مكباً على التلاوة وشغل الطلبة. قال الإسنويّ: كان بارعاً في العقليات صحيح الاعتقاد محباً لأهل الصلاح طارحاً للتكلف مجموعاً على العلم. انتهى.

(١) وكان بعض أصحابه يحكي أنه كان يمتنع كثيراً من الأكل ليلاً لأنه يحتاج إلى الشرب فيحتاج إلى دخول الخلاء فيضيع عليه الزمان.

وكان خطه قوياً وقلمه سريعاً. قال الصفديّ: رأيته يكتب في تفسيره من خاطره من غير مراجعة وانتفع الناس به كثيراً وأذن لجماعة في الإفتاء بمصر والشام.

كانت تعتريه فترة من شغل باله بالتفكر ومسائل العلم.

وكانت وفاته سنة ٧٤٩ بالطاعون العام[٢].

ابن خطيب بعلبك

(٢) محمود بن محمد بن عبد الرحيم السُّلميّ المعروف بابن خطيب

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٥/٧٠ ـ ٧٦.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/٩٥ ـ ٩٦.

بعلبك بهاء الدين المجود، ولد سنة ٦٨٨ واشتغل وعني بالخط فجوده إلى الغاية، وكان يخطب جيداً بنغمة حسنة، وكان مؤتمناً على أولاد الناس كريم الأخلاق محبوباً حسن الشكل، تام الخلق.

(١) وجرت له محنة مع تِنْكِز[1] لأنه وُصِف له حسن خطه، فأحضره وسأله أن ينسخ له صحيح البخاري، فاعتذر بأنه مشغول بتعليم أولاد الناس، فقال له: أنا أصبر عليك، فأعطاه الورق والأجرة وأغفله سنة، ثم طلبه، فأحضر له منه مجلداً، فرماه إلى الأرض وضربه ضرباً مبرحاً. قال الصفديّ: رأيت المجلد وهو نسخ عجيب إلى الغاية، قلت: رأيت بخطه نسخة كاملة في ثلاث مجلدات، وهي باسم تِنْكِز، وقابلها المِزِّيّ بقراءة ابن كثير وهي أعجوبة في الحسن والصحة، فكأنه أكمل المجلد المذكور.

مات ـ رحمه الله ـ بدمشق سنة ٧٣٥[2].

قطب الدين الشيرازيّ

محمود بن مسعود بن مصلح الفارسيّ قطب الدين الشِّيرَازِيّ الشافعيّ العلّامة ولد في شيراز سنة ٦٣٤ وكان أبوه طبيباً فقرأ عليه وعلى عمه، ورُتِّب طبيباً بالمرستان[3] وهو شاب، ثم سافر إلى النصير الطوسى فقرأ عليه الهيئة وبحث عليه الإشارات، وبرع، قال له أبغا بن هلاوو: أنت أفضل تلامذة النصير وقد كبرنا فاجتهد أن لا يفوتك شيء من علومه، فقال له: قد فعلت وما بقي لي به حاجة ثم دخل الروم فأكرمه صاحبها، وسكن تبريز وأقرأ بها العلوم العقلية وحدث بجامع الأصول عن الصدر القونويّ عن يعقوب الهذبانيّ عن المصنف، وكان كثير المخالطة للملوك متحرراً، وكان ظريفاً مزاحاً لا يحمل هماً ولم يغير زي الصوفية، وكان يجيد اللعب بالشطرنج ويديمه حتى في أوقات اعتكافه، وكان دخله في العام ثلاثين ألفاً

---

(١) والي الشام.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/١٠٤ ـ ١٠٥.
(٣) مستشفى الأمراض العقلية.

فكان لا يدخر منها شيئاً بل ينفقه على تلامذته، ودرس بدمشق الكشاف والقانون والشفاء وغيرها، وكان إذا صنف كتاباً صام ولازم السهر، ومسودته مبيضة، وكان يخضع للفقراء ويلازم الصلاة في الجماعة، وكان يتقن الشعبذة ويضرب بالرباب، وكان يورد الهزليات في دروسه، وكان غازان يعظمه ويعطيه، وكان كثير الشفاعات، وكان من بحور العلم، ومن أفراد الذكاء ويُقال كان أجود فنونه الرياضي، ومن تصانيفه شرح المختصر وشرح المفتاح للسكاكي، وشرح الكليات لابن سينا، وشرح الإشراق للسهرورديّ وصنف كتاباً في الحكمة سماه «غرة التاج» وكان من أذكياء العالم ولقبه عند الفضلاء الشارح العلامة. قال الذهبيّ: قيل: كان في الاعتقاد على دين العجائز، وكان يخضع للفقهاء ويوصي بحفظ القرآن. وكان إذا مُدِح يخشع، وكان يقول: أتمنى أن لو كنت في زمن النبي ﷺ، ولم يكن لي سمع ولا بصر رجاء أن يلحظني بنظره، وكان ذا مروءة وأخلاق حسان ومحاسن وتلامذة يبالغون في تعظيمه.

مات سنة ٧١٠[١].

مراد خان بن أُرخان

ولد سنة ٧٢٦، وتولّى السلطنة سنة ٧٦١ بعد وفاة أبيه أُرخان، وكانت فاتحة أعماله احتلال مدينة أنقرة، وافتتح في عهده مدينة أدرنة وصوفيا وسلانيك، واستطاع السلطان مراد الانتصار على الصرب في معركة «قوص أوه» ـ وهي مدينة كوسوڤو اليوم ـ سنة ١٣٨٩ م بعد معركة عظيمة.

وبعد تمام النصر والغلبة للعثمانيين مر السلطان بين القتلى فقام من بينهم جندي صربي اسمه «ميلوك كوبلوفتش» وطعن السلطان بخنجر طعنة كانت هي القاضية عليه، وذلك سنة ٧٩١ هـ، ١٣٨٩ م وبلغت مدة حكمه ثلاثين سنة، ونقلت جثته إلى مدينة بورصة[٢].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٥/١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) انظر «تاريخ الدولة العلية العثمانية»: ١٢٩ ـ ١٣٦.

مَلِكْتَمُر

مَلِكْتَمُر الناصريّ الحجازيّ وأصله من أولاد بغداد فاتصل بشمس الدين أحمد بن يحيى بن محمد بن عثمان بن السهرورديّ وكان مفرط الجمال فبلغ خبره الناصر فبذل فيه نحو الخمسين ألف درهم فلم يقبل واعتذر بأنه حر لا يُباع فلم يزل الناصر بالمجد السلاميّ التاجر حتى تحيّل على السهرورديّ وأخذه منه وأحضر للناصر وعلى رأسه فوطة زهرية فلُقِب بالحجازيّ.

وشغف به الناصر، وكان شاباً طويل القامة حسن الوجه خفيف الحركة مفرط الكرم؛ وهب لبعض الفقهاء مرة ألف دينار.

وتقدم في آخر أيام الناصر وتزوج بنته وحظي عنده حتى كان النشُّو[1] يقول: لو واظب على خدمة السلطان لأخذ منه مالاً لا يُحصى.

وكان من محبة السلطان فيه لا يدعه يلعب بالكرة معه في الجمع الكثير وكان يقول له: إذا لعبت الكرة تبَرْقَعْ حتى لا تؤثر الشمس في وجهك. وكان يمنعه من حضور الخدمة إلا أحياناً حتى لا يراه أحد. ثم إن الناصر زاد في إقطاعه النحريرية في رمضان سنة ٧٣٩.

وكان يحب اللهو ويعرف الموسيقى فأقبل على اللعب والشرب والصيد والتهتك والتنزه واتصل بالمنصور أبي بكر واختص به هو ورفقته وعكفوا معه على اللهو حتى قبض عليهم قوصون وسجنهم في صفر سنة ٧٤٢ ثم نقلهم إلى الإسكندرية، ثم أفرج عنه وأعيد إلى إمرته فلما كان في أيام المظفر نزل إلى لعب الأكرة فكانت الغلبة لمَلِكْتُمْر فعمل وليمة عظيمة وحضرها المظفر ثم وشى إليه بأنه يريد أن يركب عليه[2]، فقبض عليه في ربيع الآخر سنة ٧٤٨.

---

(١) أحد أمراء المماليك.

(٢) أي يثور عليه.

قال العسجديّ: كان على ذهنه مسائل فقهية.

(١) وكان يُصَفُّ له ثلاثة أرؤس من الخيل ثم يُهمز فيُعدِّيها إلى الأرض من ذلك الجانب الآخر من غير أن يضع يده إلى شيء منها، وأبان في وقعة الكامل عن فروسية ورُجْلَة.

ثمّ كان ممن قام بدولة المظفر وعظم في دولته ثم أمسكه المظفر لما تخيل منه وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٨ فكان آخر العهد به(١).

منصور الحسينيّ

منصور بن جماز بن شيحة الحسينيّ صاحب المدينة.

استقل بالإمرة في حياة والده سنة سبعمائة، ثم أُحضر أخوه مقبل فقتل مقبل، ثم توجه إلى مصر فأقام ولده كبيش بها وأعاد الناصر منصوراً إلى الإمرة سنة ٧١٦ فاستمر بها إلى أن قتله ابن أخيه حديثة بن قاسم بن جماز وقُتل قاتله في الحال سنة ٧٢٥. وأول من عرف من أمراء هذا البيت قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا كان في أيام السلطان صلاح الدين(٢).

واستقرّ بعده ولده كبيش.

مهنّا الحسينيّ

مُهَنَّا بن سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني الإماميّ المدنيّ قاضي المدينة.

اشتغل كثيراً وكان حسن الفهم جيد النظم، ولأمراء المدينة فيه اعتقاد وكانوا لا يقطعون أمراً دونه، وكان كثير النفقة متحبباً إلى المجاورين

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٥/١٢٧ - ١٢٨.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/١٣٢.

ويحضر مواعيد الحديث ويترضى عن الصحابة إذا ذكروا ويتبرأ من فقهاء الإمامية مع تحقيق المعرفة وحسن المحاضرة.

مات سنة ٧٥٤ [(١)].

مُهَنّا

مُهَنًّا بن عيسى بن مُهَنًّا التدمري أمير آل فضل من بني طيّ. ولد بعد سنة ٦٥٠. وكانت أولية هذا البيت من أيام أتابك زنكي، وكان مرى بن ربيعة أخو فضل أمير عرب الشام أيام طغتكين. وكان مهنا يلقب حسام الدين وكان ابن عمه أبو بكر بن علي ابن حديثة أميراً على العرب فاتفق أن الظاهر بيبرس قبل السلطنة رمته الليالي في بيوتهم فطلب من ابن علي فرساً فلم يعطه فرآه عيسى بن مهنا فتوسم فيه فضمه إليه وأعطاه فرساً وبالغ في إكرامه، فلما تسلطن انتزع الإمرة من أبي بكر وأعطاها لعيسى ثم ولده مهنا هذا في أيام المنصور قلاون.

(١) وكان معظماً خليقاً بالإمرة. قال الشهاب محمود: حضرت طرنطاي المنصوريّ وهو مخيم بالحزبة وعن يمينه مهنا هذا وعن يساره أحمد بن حجي أمير آل مرى فادعى أحمد بألف بعير أخذها عرب آل فضل من عربه فألحّ في المطالبة واحتد ورفع صوته ومهنا ساكت فلما طال الأمر قال طرنطاي لمهنا: يا ملك العرب: ما تقول؟ قال: ما أقول؟ نعطيهم ما ذكروا، هم أولاد عمنا إن كانت لهم عندنا هذه البعران [(٢)] فهي حقهم وإن كان ما لهم شيء فما هو كثير إذا أعطيناهم هذا القدر، فلما سمع أحمد هذا الكلام لم يعجبه وأطال القول في الاحتجاج والخصومة، فقال له مهنا: يا أحمد إن كان كلامك عليك هين فكلامي عليّ ما هو هين وهذه الأباعر أقل من أن يحصل فيها كلام، أنا أعطيك إياها وقام. فقال طرنطاي: هكذا والله يكون الأمير.

---

(١) «الدرر الكامنة»: ١٣٨/٥.

(٢) جمع بعير: وهو الجمل.

كان الأشرف قد غضب على مهنا بعد فتح قلعة الروم فأمسكه وسجنه وسجن أهله. قال موسى بن مهنا: كان عمي محمد بن عيسى حين حبسنا يدخل المرتفق فيطيل فيه فخرج يوماً وقال: البشرى، سمعت صائحة من النساء تقول: واسلطاناه[1]، فلما كان من الغد أطلقوا ثم ندموا على إطلاق مهنا فأرسِل إليه ليعود فامتنع، ثم صار يقدم القاهرة وهو حذر، ثم خدم الناصر لما كان بالكرك. ولما ولي قراسنقر حلب زاره فيها مهنا وكان صديقَه فأراه كتاب الناصر يأمره فيه بإمساك مهنا، وتحالفا فلما فرّ قراسنقر بالغت عائشة بنت عساف زوجة مهنا في خدمته وكتب مهنا إلى الناصر يستعطفه على قراسنقر وغيره ممن فرّ فأرسل إليهم الأمان فلم يطمئنوا وتجهزوا إلى خَرْبَنْدا[2] وكتب مهنا معهم إلى خَرْبَنْدا فقابلهم بالإكرام وخلع على سليمان بن مهنا وجهز لمهنا معه أموالاً جمة وخِلَعاً وأعطاه البلاد الفراتية، وبلغ الناصر فغضب وأعطى الإمرة لأخيه فضل فتوجه مهنا إلى خَرْبَنْدا فأكرمه وقرر معه أمر الركب العراقيّ فأعطاه مهنا معه عصاه خفارة لهم، وجهد الناصر أن يحضر إليه مهنا فصار يسوف به من وقت إلى وقت وفي طول المدة يرسل إخوته وأولاده والناصر ينعم عليهم بالأموال والإقطاعات وهم يمنونه حضوره ولا يحضر ومع ذلك فالمراسلات بين مهنا والناصر لا تنقطع وإذا ظهرت له نصيحة للمسلمين نبه عليها وأشار إليها وبادر الناصر لقبولها إلى أن كان في سنة ٧٣٣ فتوجه مهنا من قبل نفسه إلى الناصر فأكرمه زائداً ورده على إمرته إلى أن مات سنة ٧٣٥، قال الذهبي: كان مهنا وقوراً متواضعاً لا يحفل بملبس، ديناً حليماً ذا مروءة وسؤدد. وله من الأولاد موسى تأمر بعده وسليمان وأحمد وفياض وجبار وقارا وسعنة وغيرهم[3].

(١) أي أن السلطان توفي.

(٢) ملك التتار.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٥/١٣٨ ـ ١٤٠.

ملك التكرور

موسى بن أبي بكر سالم التَّكْرُوريّ ملك التكرور، قدم حاجا سنة ٧٢٤ في رجب وأدخل إلى الناصر فامتنع من تقبيل الأرض وقال: لا أسجد لغير الله، فأعفاه السلطان وقربه وأكرمه وأحسن تجهيزه إلى الحجاز، وكثر في أيدي الناس الذهب من التكاررة وانحط سعر الدينار، وسار في ركب بمفرده، وكان مهاباً في قومه فلا يخاطبه أحد إلا ورأسه مكشوف، وأقام بعد الحج ثلاثة أشهر بمكة ورجع ومات من رجاله عدد كثير من البرد، واقترض من التجار لما رجع مالاً كثيراً فسار معه جماعة إلى بلاده لقبض أموالهم، وكان عفيفاً ديناً اشترى جملة من الكتب، ويُقال إن جملة ما كان معه من المال مائة حمل فأنفقها في طريقه حتى استدان، ولما رجع وفى جميع ما عليه وأرسل لجماعة ممن رافقه في الحج من أكابر المصريين حتى والي مصر إنعامات كثيرة وكانت هديته إلى السلطان خمسة آلاف مثقال، وكان كثير المروءة جداً وقدم للخزانة السلطانية شيئاً كثيراً من التبر المعدنيّ الذي لم يصنع[1]، ولما رجع بعث للسلطان من هدايا الحجاز شيئاً كثيراً وجامله ولم يدع هو أميراً ولا صاحب وظيفة سلطانية حتى وصله بجملة من الذهب، وبقى موسى في مملكته خمساً وعشرين سنة، واستقر ابنه فيها أربع سنين ثم تملك عمه سليمان[2].

ابن الهِيتي

ناصر بن أبي الفضل بن إسماعيل المقرىء الصالحيّ ابن الْهِيتيّ. ولد سنة ست وستين ونشأ جميلًا جداً، وكان صوته مطرباً فكان يقرأ في الخِتَم والتُّرَب[3]، وحفظ التنبيه، ثم صحب الباجربقي[4] فصار يقع منه كلمات معضلة وسلك سبيل التزهد ودخل إلى بغداد مع ركب العراق فيُقال إنهم

(١) أي: الذهب الخام.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/١٥٤ ـ ١٥٥.

(٣) أي: المقابر.

(٤) قد مرت ترجمته.

نقموا عليه شيئاً وهموا به فتوجه إلى ماردين، ثم فرّ منها إلى حلب فجرى على عادته في الشطح فأنكر عليه كمال الدين بن الزملكانيّ وهو يومئذ قاضي حلب فقبض عليه وأرسله مقيداً إلى دمشق فقامت عليه البينة بالزندقة عند القاضي شرف الدين المالكيّ فأعذر إليه فما أبدى عذراً، بل تشهد وصلى ركعتين وجهد بتلاوة القرآن ثم ضُربت عنقه وذلك سنة ٧٢٦ ويُقال إنه أنشد حين قدم ليُقتل:

إن كان سفك دمي أقصى مرامهم ... فما غلت نظرة منهم بسفك دمي

قال ابن حبيب قلت فيه لما قُتل:

يا أيها الهِيتي هيت إلى الردى ... كم تجتري بلسان خب هالك

أرسلت من حلب لجلق موثقاً ... ونُقلت بعد الشافعيّ لمالك[1]

نفيس بن داود

نفيس بن داود بن عانان الداردى التِّبْرِيزي. قدم إلى القاهرة سنة ٦٥٤ في خدم وحشم فاشتمل عليه اليهود وفرحوا به فاتصل بالأمير قبلاي النائب وعالجه من وجع المفاصل فبرأ، وعُرِف بالتقدم في علم الطب فطلبه الناصر حسن وألزمه بالإسلام فلم يبعد منه ثم دخل أبو أمامة بن النقاش فناظره حتى أذعن وأسلم فسماه عبد السلام وأقطعه إقطاعاً ورتب له رواتب، وأسلم بإسلامه خلق كثير[2].

شرف الدين البارزيّ

هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم الشيخ شرف الدين أبو القاسم بن قاضي القضاة نجم الدين بن قاضي القضاة شمس الدين البَارِزِيّ الجهنيّ الحمويّ الشافعيّ. ولد سنة ٦٤٥، وتفقه بأبيه وجده، وتلا بالسبع واشتغل بالفقه ففاق الأقران، وحج مرات وأخذ الناس عنه فأكثروا، وأذن لجماعة

(١) «الدرر الكامنة»: ٥/١٥٩ ـ ١٦٠. والمقصود: مالك خازن النار.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/١٦٩.

في الإفتاء وعظم قدره جداً حتى كان برهان الدين بن الفركاح يقول: أشتهي أن أروح إلى حماة وأقرأ التنبيه على القاضي شرف الدين.

وكان لا يرى الخوض في الصفات ويثني على الطائفتين.

(١) وكان عنده من الكتب ما لا يحصى كثرة، وإذا سمع بتصنيف لأحد من أهل عصره جهز الدراهم واستحثه واستنسخه.

وباشر قضاء حماة بغير معلوم وما اتخذ دِرَّة[١] ولا عَزَّر أحداً قط، وعين لقضاء الديار المصرية فلم يوافق، وكان عظيم القدر والجلالة ببلده إلى الغاية مع التواضع المفرط، ولما مات أغلقت أبواب حماة لمشهده، وعمي في آخر عمره، واستمر يحكم ثم نزل عن وظيفة القضاء لحفيده نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم بن أبي القاسم واستمر يشاوَر في الأمور، وكانت مدة ولايته القضاء بحماة أربعين سنة، قال الذهبيّ: برع في الفقه وشارك في الفضائل وانتهت إليه الإمامة في زمانه ورحل إليه، وكان من بحور العلم قوي الذكاء مكباً على الطلب لا يمل مع التصون والديانة والفضل والرزانة وكان خيراً متواضعاً عَرِياً من الكِبْر، جم المحاسن كثير الزيارة للصالحين والخضوع لهم، حسن المعتقد. مات سنة ٧٣٨[٢].

عماد الدين البُصْرَوِيّ

يحيى بن أحمد بن يوسف الحسَينيّ عماد الدين الْبُصْرَوِيّ. ولد سنة ٦٢٦. كان خيراً متواضعاً سنياً شافعياً يحب الصحابة ويتبرأ من التشيع، وكان عالماً بالتاريخ حُفَظَةً للأخبار والنظم والنوادر.

(٢) وكان يقسم ما يتحصل له أثلاثاً: ثلثاً يتصدق به، وثلثاً يصرفه لأقاربه، وثلثاً يكتسي به.

(٣) وكان موصوفاً بالأمانة في مباشرته لا يقبل من فلاح هدية وكانوا

---

(١) عصا.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/١٧٤ - ١٧٦.

يتحيلون عليه في ذلك فلا يفعل، وبالغ حتى كان لا يشتري من أحد سكن في شيء يتعلق بالأشراف[1] حاجة، وكان محافظاً على الوضوء، وقد باشر نظر الأوقاف مدة وديوان الأيتام وتركه اختياراً واعتذر بعدم القيام بأمرهم، ووَلِيَ نظر ديوان الأشراف، ومات سنة ٧٠٥[2].

شهاب الدين القيسرانيّ

يحيى بن إسماعيل بن محمد القَيْسَرَانيّ المَخْزُومِيّ شهاب الدين. ولد سنة سبعمائة، وورد مع أبيه من حلب، وكان حسن الشكل جداً، تام الخُلق متودداً صبوراً على الأذى، كثير التجمل في ملبوسه وهيئته كلها ثم وَلِي كتابة السر[3] بعناية تِنْكِز[4] ثم أمسك بَعْدُ وصودر فلزم بيته مدة، ثم انتقل إلى القاهرة فكتب بها الإنشاء، ثم عاد إلى دمشق.

(١) قال الصفديّ: صحبته أكثر من عشرين سنة وما رأيت منه سوءاً قط، وكان يتودد للصالحين ويكثر الصوم والعبادة ويصبر على الأذى ولا يعامل صديقه وعدوه إلا بالخير وطلاقة الوجه. وكان مرض بعلة الاستسقاء وطال به الأمر إلى أن مات سنة ٧٥٣.

محي الدين القوصيّ

يحيى بن عبد الرحيم بن زكير القوصيّ محي الدين. قال الكمال جعفر: كان جيد الإدراك يجيد الفهم أخذ عن الجلال الدشنائي وابن دقيق العيد، وبدر الدين بن جماعة وغيرهم ودرس بقوص مدة وكان درسه مفيداً جداً، وولي الحكم نيابة وناب بقوص.

---

(١) ربما كان ذلك لأنه شريف فلا يريد أن يجامله أحد ممن تعامل مع الأشراف، والله أعلم.

(٢) «الدرر الكامنة»: ١٨٨/٥.

(٣) وظيفة يتولى صاحبها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة الردود عليها.

(٤) والي الشام.

(١) وكان محمود السيرة إلا أنه كان يستعمل العينة[1] كثيراً ويقول: إذا طولبت يوم القيامة قلت: أفتى بها أصحاب الشافعيّ وأنا مقلد، ثم صُودر وأُخذ منه مال كثير، ولقي وبال تلك الخصلة الشنيعة وتضعضع حاله.

مات سنة ٧١٨[2].

أبو يحيى المُرَيْنِيّ

يحيى بن عبد الله بن أبي العلاء المريني أبو يحيى شيخ الجند بمالقة، ولد سنة ٦٦٤.

قال الخطيب: اشتهر بالفضل والعقل والدين، وكان يجالس الفقهاء ويصاحب الصلحاء ويقتني الكتب ويفعل الخير ولم يزل رأساً يرجع إليه في حل المعضلات إلى أن مات سنة ٧٤٠ وقد أكمل في مدة عمره ثلاثاً وسبعين غزوة[3].

الصنافيريّ

يحيى الصَّنَافِيريّ نسبة إلى صنافير من عمل القليوبية. صحب الشيخ أبا العباس البصير ثم سكن بزاويته بصنافير ثم تحول إلى تربة شيخه فسكنها بطرف القرافة وكثرت مكاشفاته حتى صارت في حد التواتر فإنني لم ألق أحداً من المصريين أدركه إلا ويحكي عنه في هذا الباب ما لا يحكيه الآخر حتى إنّ والدي نظم فيما شاهده منه فيما يختص بالوالد أرجوزة ذكر فيها جملة من الكرامات، وكان لي أخ من أبي قرأ الفقه وفضل ثمّ أدركته

---

(١) العينة هي بيع يراد منه أن يكون حيلة للقرض بالربا بأن يبيع شيئاً بثمن مؤجل ثم يشتريه في الحال، وسمي بالعينة لأن مشتري السلعة إلى أجل يأخذ بدلها عيناً أي نقداً حاضراً، انظر «الفقه الإسلامي وأدلته»: ٤/٤٦٧ - ٤٧٠.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/١٩٤.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٥/١٩٦.

الوفاة فحزن الوالد عليه جداً فيُقال إنه حضر إلى الشيخ فبشره بأنّ الله سيخلف عليه غيره ويعمره أو نحو ذلك فولدت أنا له بعد ذلك بيسير وفتح الله بما فتح. ومن المشهور عنه أنه حذر يَلْبُغا[1] لما أراد الخروج على الأشرف بما يقع له فما قبل فكان أمره ما كان. وقرأت بخط بعض الطلبة أن الشيخ نشأ بالقرافة وكان يواظب زيارة الشافعي، ثم لما ترعرع سكن صنافير فظهرت على يده كرامات ثم رجع فأقام بضريح الشيخ أبي العباس وهرع الناس إلى زيارته.

ومما قيل فيه من الشعر:

فيا سائلي عن فضل يحيى فما الذي ... تروم وكم مَيْتٍ برؤيته يحيا

مُحَيّا سناه للقلوب حلاوة ... فللّه ما أحلى وأطيبه محيا

مناقبه قد شاع في الناس ذكرها ... فلو جُمعت كانت تفوق على الأحيا

وكانت وفاته سنة ٧٧٢ وحضر جنازته من لا يحصى كثرة يُقال إنهم حُزروا بخمسين ألف نفس[2].

يَلبُغا

يلْبُغَا بن طابطا الساقي اليَحْياويّ الناصريّ. ولد قُبيل سنة عشرين بقليل تقريباً وأبوه في خدمة الناصر، فنشأ حسن الصورة إلى الغاية قويم الشكل فتقدم وحظى عند الناصر محمد إلى أقصى غاية حتى إنه مرض مرة فكان هو الذي يتولى تمريضه وسمعه مرة يقول وقد جرى ذكر المال فقال: أنا والله عمري ما رأيت عشرة آلاف دينار فجهز له خمسة وعشرين ألف دينار إنعاماً وبنى له الإسطبل الذي بسوق الخيل ولم يعمر قبله مثله وكان هو يهندس فيه بنفسه وصرف عليه شيئاً كثيراً جداً، وعمل لما فرغ سِماطاً[3] عظيماً كان فيه ثلاثمائة قنطار سكر برسم المشروب فقط، وكان

---

(١) أحد الأمراء المماليك، وترجمته هي الآتية.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٢٠٧/٥.

(٣) أي: مائدة، والسماط ما يمد عليه الطعام.

يرسل له الخيول بسروجها المزركش والمرصع والتشاريف بالطرز الزركشية والحوائض المذهبة حتى يتعجب من إنعاماته.

ولما مرض الناصر كان هو الذي تولى تمريضه هو ومَلِكْتَمُرْ الحجازي، ثم قبض عليه قوصون ثم أفرج عنه، ووَلِيَ في أيام الصالح إسماعيل نيابة حماة، ثم وَلِيَ حلب، ثم نيابة دمشق وعمرّ بها الجامع على نهر بردى.

ثم أراد الخروج فخذل وذلك أن المظفر أراد إمساكه فخشى ففرّ من دمشق فضيقوا عليه حتى دخل حماة فأكرمه نائبها قطليجا ثم دخل الحمام فأمسكه وأمسك أباه إخوته وولده وجُهزوا إلى القاهرة وكان آخر أمره أن خُنق في سنة ٧٤٨ وجهز رأسه إلى القاهرة وجهز أبوه إلى البيرة على البريد. وكان كثير التلاوة للقرآن ويحب الفقراء ويجالسهم ولم يكن فيه شر ولا انتقام، رحمه الله تعالى[١].

يَلبُغا الناصريّ

يلْبُغَا بن عبد الله الخاصكيّ الناصريّ الأمير الكبير المشهور أوّل ما أمرّه الناصر حسن، ثم كان يلبغا رأس من قام على أستاذه الناصر حسن حتى قُتل وتسلطن المنصور محمد بن حاجي واستقر أتابك[٢]، ثم خلعه في شعبان سنة أربع وستين وتسلطن الأشرف شعبان وتناهت إليه الرياسة ولقب نظام الملك وصار صاحب الأمر والنهي والحل والعقد وهو السلطان في الباطن والأشرف بالاسم وانتهى إليه إلى أن صار العدد الكثير من مماليكه نواب البلاد ومقدمي ألوف واستكثر من المماليك الجُلبان وبالغ في الإحسان إليهم والإكرام حتى صاروا يلبسون الطرز الذهبية العريضة يركب معه منهم نحو ألف نفس إذا وقعت الشمس عليهم تكاد من شدة لمعانها تخطف البصر وبلغت عدة مماليكه ثلاثة آلاف فكان موكبه من أعظم

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٢١٢/٥ - ٢١٣.
(٢) أي نائب السلطان.

المواكب وكانت الطرقات في زمانه في غاية الفساد من العربان والتركمان بالبلاد الشامية، وأغزى بعض الأمراء أسوان ففتك بأولاد الكبير فكرّ بعضهم على أسوان فأخربها وفتك في أهلها وصاروا يقطعون الطرق على المسافرين.

(١) ثم كان في زمانه وقعة الإسكندرية وأخْذ الفِرَنْجْ لها في أوائل سنة ٧٦٧ فقام أتم قيام وأراد غزو بلاد الفِرَنج ونزعها من أيديهم وصادر جميع النصارى والرهبان واستنقذ من جميع الديارات[١] ما بها من الأموال فحصل على شيء كثير جداً حتى يُقال اجتمع عنده اثنا عشر ألف صليب منها صليب ذهب وزنه عشر أرطال مصرية.

وكانت ليَلْبُغا صدقات كثيرة على طلبة العلم ومعروف كثير في بلاد الحجاز وهو الذي حط المَكْس[٢] عن الحجاز بمكة وعوض أمراءها بلداً بمصر.

(٢) وكان يتعصب للحنفية حتى كان يعطي من يتمذهب لأبي حنيفة العطاء الجزيل ورتب لهم الجامكية[٣] الزائدة فتحول جمع من الشافعية لأجل الدنيا حنفيّةً، وحاول في آخر عمره أن يجلس الحنفيّ فوق الشافعي فعاجله القتل وذلك أن مماليكه اجتمعوا على قتله وهو مع السلطان بالبحيرة فبلغه الخبر فهرب ووصل إلى ساحل القاهرة وضم إليه المراكب ومنع العسكر كله من التعدية فلما جاء السلطان ركب هو وجميع العسكر في الشواني التي عمرها يلبغا لغزو الفِرَنج فحاربهم يَلْبُغا بعد أن أقام بجزيرة أرواد[٤] ونصب بها أنوك أخا الأشرف سلطاناً ومانعهم ثم غلبوا عليه ففر،

---

(١) جمع دَيْر وهو للنصارى.
(٢) أي: الضرائب.
(٣) أي: الرواتب.
(٤) جزيرة في البحر قرب القسطنطينية (إستانبول) فتحها المسلمون سنة ٥٤ هـ.

ثم جاء طائعاً في عنقه منديل فأمر السلطان بحبسه ثم أذن في قتله فقتله بعض مماليكه وذلك سنة ٧٦٨[١].

يلقطو

يلقطو بنت أبغا الخاتون عمة غازان، كانت جيدة الإسلام كثيرة المناصحة للمسلمين، وكان يُقال لزوجها عرب طي، ولما قتل ركبت بنفسها فقتلت قاتله، وخطبها الأفرم وهو نائب دمشق، فنهرت رسله وامتنعت بعد أن كان بذل لها حمص وبلادها مهرا. وحجّت سنة ٧٢٣ في تجمل زائد، فيُقال تصدقت في الحرمين بثلاثين ألف دينار، وكانت تتصدق طول الطريق ودخلت دمشق فتلقاها تِنْكِز وبالغ في إكرامها، ورجعت إلى بلادها[٢].

يوسف ابن الأحمر

يوسف بن إسماعيل بن فرح الخزْرَجِيّ أبو الحجاج بن أبي الوليد بن الأحمر سلطان الأندلس. ولد سنة ٧١٨ بعد أخيه، وكانت في زمنه الوقعة العظمى بظاهر طريف سنة ٧٤٠ بين المسلمين والفرنج فنازل صاحب قَشْتالة[٣] الجزيرة الخضراء عشرين شهراً وقتل فيها جماعة من المسلمين إلى أن فرّج الله عن المسلمين على يديه.

وكان موته مقتولاً بيد شخص مجنون رمى بنفسه عليه وهو في صلاة عيد الفطر سنة ٧٥٥. قال ابن الخطيب: كان أزهر أبيض براق الثنايا رَجل الشعر، كثّ اللحية يفضل الناس حسن مرأى وجمال هيئة، كما يفضلهم مقاماً ورتبة، مع عذوبة اللسَان ووفور العقل وعِظَم الهيبَة وثقوب الذهن

(١) «الدرر الكامنة»: ٢١٣/٥ - ٢١٥.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٢١٨/٥.
(٣) مملكةٌ إسبانية.

والتبريز في كثير من الصنائع. وكان كَلِفاً[1] بالأبنية، جمّاعاً للحليّ والذخائر، متميلا لمن عاصره من الملوك[2].

الكَرْكيّ

يوسف بن سليمان الكَرْكيّ. كان يتعانى عمل الكيمياء فاشتهر بها واتصل ببهادُر بصفد[3] فأتلف له مالاً كثيراً فاعتقله ثم أفرج عنه فتوجه إلى تِنْكِز نائب الشام فأراد أن يقتله فبلغ الناصر فطلبه فوصل على البريد واجتمع به فخلع عليه وأجرى له راتباً وأفرد له مكاناً فشرع يستدعي الآلات حتى أحكم أمره وأحضر رئيس دار الضرب جماعة من الأعيان عند السلطان وعملوا بوتقة فألقى يوسف فيها شيئاً وأوقدوا النار فخرجت سبيكة ذهب جيد فأعجِب الناصر وخلع عليه ثانياً، فاشتهر أمره وصار غالب حاشية الناصر يتقربون له ويخدمونه وحصل مالاً طويلاً ثم طلب أن يمكن من التوجه إلى الكرك ليأتي بالنبات الذي هو أصل صناعته فزوده وكتب له إلى غزّة وغيرها بالإكرام فاتفق أنه خادع من معه وفر فكتب الناصر إلى الأعمال بالتنقيب عليه فقبض عليه، وكان آخر أمره أن مات مسمراً مشهوراً على جمل سنة ٧٣١[4].

الحافظ المِزّي

يوسف بن الزكيّ عبد الرحمن بن يوسف الحلبي الأصل المِـزّيّ أبو الحجاج جمال الدين الحافظ. ولد سنة ٦٥٤ بالمعقلية بظاهر حلب، فلو كان له من يستجيز له لأدرك إجازة المرسيّ والمنذريّ واليلداني ونحوهم، ولو كان له من يسمعه صغيراً لسمع من ابن عبد الدائم والكرمانيّ وغيرهما، ولكنه طلب بنفسه في أول سنة خمس وسبعين.

---

(١) أي: مغرماً.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/٢٢٧.

(٣) مدينة بفلسطين. وبهادُر هذا هو أحد أمراء المماليك.

(٤) «الدرر الكامنة»: ٥/٢٣١.

(١) سمع الكتب الطوال كالستة والمسند والمعجم الكبير وتاريخ الخطيب والسنن الكبير والمتسخرج على مسلم والحلية والدلائل، ومن الأجزاء ألوفاً، ومشيخته نحو ألف شيخ، وأخذ عن الشيخ محيي الدين النوويّ وغيره، وسمع بالشام والحرمين ومصر وحلب والإسكندرية وغيرها، وأتقن اللغة والتصريف.

وكان كثير الحياء والاحتمال والقناعة والتواضع والتودد إلى الناس مع الانجماع عنهم، قليل الكلام جداً حتى يسأل فيجيب ويجيد، وكان لا يتكثر بفضائله ولا يغتاب أحداً، ويتوجه إلى الصالحية ماشياً إلى أن دخل في عشر التسعين وهو على ذلك. قال ابن تيمية لما باشرها[١] المزيّ: لم يلها من حين بنيت إلى الآن أحق بشرط الواقف منه لقول الواقف: فإن اجتمع من فيه الرواية ومن فيه الدراية، قدم من فيه الرواية.

(٢) وأوذي مرة في سنة ٧٠٥ بسبب ابن تيمية لأنه لما وقعت المناظرة له مع الشافعية وبحث مع الصفيّ الهنديّ ثم ابن الزملكانيّ شرع المزيّ يقرأ كتاب خلق أفعال العباد للبخاريّ، وفيه فصل في الرد على الجهمية فغضب بعضٌ وقالوا: نحن المقصودون بهذا، فبلغ ذلك القاضي الشافعيّ يومئذ فأمر بسجنه، فتوجه ابن تيمية وأخرجه من السجن فغضب النائب فأعيد ثم أفرج عنه، وأمر النائب وهو الأفرم بأن يُنادى بأن من يتكلم في العقائد يُقتل.

وصنّف تهذيب الكمال فاشتهر في زمانه، وحدث به خمس مرات، وبالغ أبو حيان في تقريظه والثناء عليه وكذلك ابن سيد الناس، قال: ووجدت بدمشق من أهل العلم الإمام المقدم والحافظ الذي فاق من تأخر من أقرانه ومن تقدم، أبا الحجاج بحرَ هذا العلم الزاخر وحبره القائل: كم ترك الأول للآخر، أحفظُ الناس للتراجم، وأعلمهم بالرواة من أعاربَ

---

(١) أي باشر مدرسة من المدارس.

وأعاجم، لا تخص معرفته مصراً دون مصر، ولا ينفرد علمه بأهل عصر، معتمـداً آثار السلف الصـالح، مجتهـداً فيما نيط بـه في حفظ السنة من المصالح، معرضاً عن الدنيا وأسبابها مقبلاً على طريقته التي أربى[1] بها على أربابها، وكان بما يضعه بصيراً، وبتحقيق ما يأتيه جديـراً، وهو في اللغة أيضاً إمام وله بالقريض[2] معرفة وإلمام، فكنت أحرص على فوائده لأحرز منها ما أحرز، وأستفيد من حديثه الذي إن طال لم يُمل وإن أوجز وددت أنه لم يُوجِز. وكانت رؤية ابن سيد الناس له سنـة تسعين، وكان معتدل القامة مشرباً حمرة مُتِّع بذهنه وحواسه، وكان يستعمل الماء البارد مع الشيخوخة.

(١) وقال الذهبيّ: كان خاتمة الحفاظ وناقد الأسانيد والألفاظ وهو صاحب معضلاتنا وموضح مشكلاتنا، حفظ القرآن في صباه وتفقه للشافعي مدة وعنى باللغة فبرع فيها وأتقن النحو والصرف وله عمـل في المعقول ومعرفة بشيء من الأصول، وكتابته حلوة وفيه حياء وحلم وسكينة واحتمال وقناعة وترك للتجمل وانجماع عن الناس وصبر على من يؤذيه، وكان طويل الروح ريِّض الخلق جداً لا يرد بعنف ولا يكاد يغتاب أحداً، وكان خيراً ذا ديانة وتصون من الصغر وسلامة باطن وعدم دهاء وكانت فيه سذاجـة قد توقعه على أمر فيأكله ويستأكله حتى لا يزال في إفلاس حتى احتاج إلى بيع أصله بتهذيب الكمال بخطه، وكان مأمون الصحبـة حسن المذاكـرة خَيِّر الطوية محباً للآثار معظماً لطريقة السلف جيد المعتقد.

(٢) مات سنة ٧٤٢ وهو يقرأ آية الكرسي ثم دُفن بمقابر الصـوفية بالقرب من ابن تيمية وكان الجمع في جنازته متوفراً جداً.

(٣) ومن نظمه:

---

(١) أي زاد.
(٢) أي بالشعر.

إن عـاد يـومـاً رجـل مسلم أخـاً لـه فـي الله أو زاره
فهو جديـر عند أهـل النهى بـأن يـحط الله أوزاره[1]

جمال الدين الدُّوريّ

يوسف بن علي بن عبد الرحمن الخواجا الكبير جمال الدين الدُّوريّ نزيل حلب. كان تاجراً رئيساً كبيراً شيخاً حسناً، عنده حشمة ومروءة ومكارم أخلاق وعصبية، وفيه دين وكياسة ومواظبة على فعل الخير والصلوات والقيام مع الأصحاب وقضاء حوائج الناس، وقف على قراءة البخاريّ بجامع حلب وكان يحتفل به ويجيء من بيته ليلاً وربما كان يجيء في الشتاء حافياً إلى الجامع الأعظم لسماع الصحيح كل يوم بعد صلاة الصبح ويجلس بالجامع بعد القراءة إلى أن يصلي الضحى ثم يتوجه إلى حانوته لقضاء حوائج الناس ويعطى الخِلَع يوم ختمه، وسائر أهل حلب يعظمونه ويحترمونه وكلمته نافذة مسموعة عند الأمراء والحكام، أنفق عدة ألوف دراهم على جهات البر ومكارم الناس.

مات سنة ٧٩٥ بحلب وكانت جنازته مشهودة[2].

يوسف المُرَينيّ

يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المُرَينيّ المغْرِبيّ، ومُرَيْن عرب من ظواهر فاس فرسان شجعان يقاتلون بغير جُنَّة[3]، وكان أول مظهرهم مع رئيسهم أبي سعيد عبد الحق جد هذا في سنة عشر وستمائة وكان داهية ماكراً شجاعاً فاستخلص لنفسه مملكة وضم إليه قومه، ثم قام أخوه عثمان أخو عبد الحق عم هذا في حدود سنة ٤٣ وهي الدولة المؤمنية وملك فاس ومات فقام أخوه محمد الأعرج ثم أخوه أبو بكر ثم عمر، ثم قام يعقوب

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٥/٢٣٣ - ٢٣٧. وأوزاره الثانية معناها ذنوبه.
(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/٢٤١.
(٣) أي بغير درع واق.

وتمكن ودانت له المغرب فبقى في الملك ثمانياً وعشرين سنة فمات بالجزيرة الخضراء فتملك ابنه أبو يعقوب هذا وتلقب الأصفر وحاصر تلمسان بعد السبعمائة فقُتِل بظاهرها وثب عليه خادم أسود على فراشه ففتك به مواطأة من أخيه أبي بكر وكان قتله في ذي القعدة سنة خمس وقُتل به، وتسلطن بعده حفيده عامر بن عبد الله ثم مات مسموماً بطنجة بعد سنة ونصف، ووَلِيَ أخوه أبو الربيع سليمان فأقام ثلاث سنين ومات، وتسلطن عم أبيه أبو سعيد عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق فامتدت أيامه.

قَتْلُه في سنة ٧٠٦، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة[١].

شرف الدين القَرْقَشَنْديّ

يونس بن أحمد بن صلاح القَرْقَشَنْدِيّ شرف الدين الشافعيّ. تفقه كثيراً واشتهر وأفتى وأعاد.

(١) وكان له سماع في الموطأ فقصدوه ليسمعوا عليه فامتنع استصغاراً لنفسه.

وكان يعيد بزاوية الشافعيّ بالجامع بمصر.

(٢) وقع بينه وبين المحوجب منازعة فانفصلا على غضب فبكر عليه المحوجب واستغفر له وقال: رأيت الشافعيّ في المنام فقال: لا تنازعه.

مات سنة ٧٢٥[٢].

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٥/٢٥٦ - ٢٥٧.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٥/٢٦٠.

مختارات القرن الثامن
من كتاب
«الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»

تأليف الشيخ
عبد الحي النّدويّ



صدر الدين الدهلويّ

الشيخ الفاضل الكبير الزاهد أحمد بن الشهاب الحكيم الصوفي الشيخ صدر الدين الدهلوي أحد المشايخ المعروفين بالفضل والكمال، ولد ونشأ بدار الملك دهلي، وقرأ على الأساتذة المشهورين في عصره.

وكان رجلاً حاذقاً في الطب مشاركاً في فنون أخر، زاهداً متقللاً حسن الفهم جداً، صحيح الذهن له اليد الطولى في تعبير الحقائق والمعارف، ومن مصنفاته «الصحائف في الحقائق والمعارف».

(١) قال الشيخ عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي في «أخبار الأخيار»: إن الجن خطفوه فعاش فيهم مدة حتى مرض بعضهم وبرىء من ذلك المرض بعلاجه فعرضوا عليه قنطاراً من الدراهم والدنانير فلم يلتفت إليها فعجبوا وأطلقوه ـ انتهى.

مات سنة تسع وخمسين وسبعمائة[1].

الأمير تاتار خان الدهلوي

كان من الرجال المعروفين بالفضل والصلاح والرياسة والسياسة، التقطه السلطان غياث الدين تغلق في بعض غزواته طريحاً في الأرض يوم ولد فاقتناه ورباه في مهد الإمارة وجعله من خاصته، ولما تولى المملكة محمد شاه قربه إليه وولاه الأعمال الجليلة فصار ركناً من أركان السلطنة.

---

(١) «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»: ٢/٨.

(١) كان فاضلاً عادلاً شجاعاً مقداماً سخياً حسن الأخلاق شديد التمسك بالشريعة المطهرة شديد الحِسبة على الملوك والأمراء لا يخاف في الله ولا يهاب فيه أحداً، أنكر على فيروز شاه مرة شرب الخمر فأقطعه فيروز شاه حصار فيروزه ونفاه من حضرته.

سار إلى الحرمين الشريفين فسعد بالحج والزيارة.

قال شمس الدين العفيف في تاريخه: إنه لم يزل يشتغل بالعلم ويجالس العلماء ويذاكرهم ويحسن إليهم، وإنه صنف كتاباً في التفسير وسماه التاتارخاني وهو أجمع ما في الباب.

وصنف بأمره عالم بن العلاء الدهلوي «الفتاوى التاتارخانية».

مات في أيام فيروز الشاه السلطان[1].

جلال الدين التبريزي

سافر إلى بغداد وصحب الشيخ الكبير شهاب الدين عمر السهرورديّ مدة طويلة حتى بلغ رتبة الكمال، وقدم الهند مرافقاً للشيخ بهاء الدين أبي محمد زكريا الملتاني فأقام ببدايون برهة من الزمان

ثم ارتحل إلى بنكاله، وهو ممن أدركه الشيخ محمد بن بطوطة المغربي الرحالة الذي قدم الهند عام أربع وأربعين وسبعمائة.

وأدركه الشيخ ابن بطوطة في جبال كامَرُ ـ بلدة بينها وبين سد كانوان مسيرة شهر ـ وهي جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل ببلاد التبت.

قال ابن بطوطة في كتابه: إن هذا الشيخ من كبار الأولياء وأفراد الرجال، له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة، وهو من المعمرين، أخبرني أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد وكان بها حين قتله التتر.

(٢) وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات ابن مائة وخمسين وأنه كان

---

(١) «الإعلام»: ٢/١٩ ـ ٢٠.

نحو أربعين سنة يسرد الصوم ولا يفطر إلا بعد مواصلة عشر، وكانت له بقرة يفطر على حليبها ويقوم الليل كله، وكان نحيف الجسم طوالاً خفيف العارضين، وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ولذلك أقام بينهم، قال: وأخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد وأوصاهم بتقوى الله وقال لهم: إني أسافر عنكم غداً إن شاء الله وخليفتي عليكم الله الذي لا إله إلا هو، فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها، ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبراً محفوراً عليه الكفن والحنوط، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به، ثم ذكر الشيخ ابن بطوطة كرامات عديدة له.

(١) ومن فوائده كتابه إلى الشيخ بهاء الدين الملتاني، قال فيه؛ يا أخي! من شرب من بحر مودته يحيى حياة لا موت بعدها، ومن لم يذق من صافي المحبة يخرج من الدنيا كالبهائم صفر اليدين وإذا مات صار جيفة ومات موتاً لا حياة بعده، كما قال أصدق القائلين ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾[1].

جمال الدين المغربي

الشيخ الفقيه الطبيب الأديب جمال الدين المغربيّ الغرناطيّ الأصل البجائيّ[2] المولد المستوطن بلاد الهند، قدمها مع أبيه وله بها أولاد.

(٢) لقيه محمد ابن بطوطة المغربي الرحالة بمدينة دهليّ وصاحبه وقال في كتابه: إني دخلت قصر السلطان جلال الدين ويعرف بكشك لعل (كوشك لعل) ولما دخلته طفت به وصعدت إلى أعلاه فكانت لي فيه عِبرة نشأت عنها عَبرة، وكان معي الفقيه جمال الدين المغربي فأنشدني عندما عايناه:

وسلاطينهم سل الطين عنهم فالرؤس العظام صارت عظاما[3]

---

(١) «الإعلام»: ٢/٢١ - ٢٣.

(٢) نسبة إلى بلدة بجاية بالجزائر.

(٣) «الإعلام»: ٢/٢٥.

جلال الدين البخاري

الشيخ الإمام العالم الكبير العلامة جلال الدين الحسين بن أحمد بن الحسين البخاريّ، أبو عبد الله.

كان مولده سنة سبع وسبعمائة بمدينة أچ ونشأ بها وقرأ على القاضي بهاء الدين الأچي من البداية إلى الهداية، ولما توفى القاضي إلى رحمة الله سبحانه سافر إلى مُلتان، فلقي بها الشيخ ركن الدين أبا الفتح الملتانيّ، فأمره الشيخ أن يقرأ على موسى حفيده وعلى مجد الدين الملتانيّ، فقرأ عليهما سائر الكتب الدرسية في سنة كاملة، ثم عاد إلى أچ ورحل إلى الحرمين الشريفين وصحب الشيخ عفيف الدين عبد الله المطري بالمدينة المنورة سنتين كاملتين وقرأ عليه.

ثم سافر إلى مصر والعراق وأدرك المشايخ الكبار وأخذ عنهم، وحج وزار غير مرة.

وكان عالماً بارعاً مجتهداً في الطاعات والخيرات متعبداً مرتاضاً فقيهاً محدثاً حنفياً في الأصول والفروع، يفتي على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، ويعمل بالعزيمة ولا يتتبع الرخص.

وله مختارات في المذهب، وكان يجوز القراءة خلف الإمام في الصلاة وكان يجوز الصلاة على الغائب من الموتى.

وكان رحمه الله متوقد الذهن في نهاية من الفطنة وسرعة الخاطر وحلاوة المنطق وعذوبة البيان وحسن الإنشاء وشرف الطبع وكرم الأخلاق، اشتغل عليه خلق كثير من قاصٍ ودان وتخرج عليه جماعات من الفضلاء، وقصدته الطلبة والمسترشدون حتى صار علماً مفرداً في الهند، وانتهت إليه المشيخة، ولاّه السلطان محمد شاه تغلق مشيخة الإسلام في أرض السند، وله خطب مبتكرة وإنشاءات بديعة وفوائد جمة.

ومن فوائده رحمه الله: اعلموا رحمكم الله تعالى أنه يلزم العبد

المسلم في يوم وليلة خمسون فريضة في كتاب الله عز وجل فمن يحفظها فهو عالم ومن لا يعلم هذه الفرائض فهو جاهل عاص مذموم ولا عذر له عند الله تعالى يوم القيامة:[1]

أولها معرفة الله تعالى بالربوبية، لقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ معناه ليعرفون.

والثاني: الإقرار بالوحدانية، لقول الله تعالى: ﴿وإلٰهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾.

والثالث: الوفاء بالعهود، لقوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم﴾.

والرابع: الإخلاص بالعبودية، لقوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾، وقوله: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾.

والخامس: إطاعة الله تعالى والرسول لقوله تعالى: ﴿من يطع الرسول، فقد أطاع الله﴾.

والسادس: الإيمان بوعد الله، لقوله تعالى: ﴿ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ إلى قوله ﴿في كتاب مبين﴾.

والسابع: الرضا بما قسم الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيٰوة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾.

والثامن: الحب في الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾.

التاسع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لقوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾.

---

(١) بعض ما ذكره الشيخ هو من المباح ولا شي في تركه.

العاشر: معرفة النفس ومحاربتها، لقوله تعـالى: ﴿إنّ النفس لأمارة بالسوء﴾.

الحادي عشر: محاربة الشيطان، لقوله تعالى: ﴿إن الشيـطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾.

الثاني عشر: الخوف من الله والاستخفاء، لقوله تعالى: ﴿يستخفون من الله وهو معهم﴾، وقول تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾.

الثالث عشر: الدعاء من الله تعالى، لقولـه تعالى: ﴿يـدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾ خوفاً من عصيانه وطمعاً في رحمته.

الرابع عشر: الحذر من مكر الله، لقوله تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾.

الخامس عشر: أن لا يقنط من رحمة الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾.

السادس عشر: ستر العورة، لقوله تعالى: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾، والزينة ما يوارى به العورة.

السابع عشر: طلب العلم، لقوله تعالى: ﴿فاسئلوا أهل الـذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

الثامن عشر: الوضوء، لقوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلوة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾.

التاسع عشر: غسل الجنابة، لقوله تعالى: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ معناه فاغتسلوا.

العشرون: التيمم عند عدم الماء، لقوله تعـالى: ﴿فتيمموا صعيـداً طيباً﴾ أي تراباً طاهراً.

الحادي والعشرون: الصلاة، لقوله تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ معناه فرضاً مُوقّتاً.

الثاني والعشرون: ذكر الله، لقوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾.

الثالث والعشرون: أداء الأمانات إلى أهلها.

الرابع والعشرون: أن لا تحزن على ما فاتك، لقوله تعالى: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾.

الخامس والعشرون: أن لا تسروا بالدنيا إذا أتتكم، لقوله تعالى: ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

السادس والعشرون: التفكر في قدرة الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾.

السابع والعشرون: الاعتبار في المخلوقات والمقدورات، لقوله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.

الثامن والعشرون: ترك اتباع النفس، لقوله تعالى: ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾.

التاسع والعشرون: أن تعرف منة الله عليك بالإيمان، لقوله تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم﴾ - إلى قوله تعالى: ﴿إن كنتم صادقين﴾.

الثلاثون: أن تعلم أنه معك في كل حال، لقوله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾.

الحادي والثلاثون: أن لا تريد العلو في الدنيا، لقوله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾.

الثاني والثلاثون: الصدق، لقوله تعالى: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ أي فاصدقوا.

الثالث والثلاثون: أكل الحلال، لقوله تعالى: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾.

الرابع والثلاثون: حفظ الفرج، لقوله تعالى: ﴿ويحفظوا فروجهم﴾.

الخامس والثلاثون: حفظ الأذن من الباطل، لقوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلاً﴾.

السادس والثلاثون: اعتزال النساء في المحيض، لقوله تعالى: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾.

السابع والثلاثون: ترك الغيبة والتجسس، لقوله تعالى: ﴿ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾.

الثامن والثلاثون: ترك السخرية، لقوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن﴾.

التاسع والثلاثون: ترك اللمز والألقاب، لقوله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظلمون﴾.

الأربعون: التوكل على الله، لقوله تعالى: ﴿فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾.

الحادي والأربعون: ترك سوء الظن، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾.

الثاني والأربعون: الرضا بما قضى الله، لقوله تعالى: ﴿فاصبر لحكم ربك﴾.

الثالث والأربعون: الصبر والتقوى، لقوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

الرابع والأربعون: الشكر على نعمة الله، لقوله تعالى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾.

الخامس والأربعون: أخذ الرهن في البيع والشراء، لقوله تعالى: ﴿فرهان مقبوضة﴾.

السادس والأربعون: ترك الرّبا، لقوله تعالى: ﴿لا تأكلوا الربوا أضعافاً مضاعفة﴾.

السابع والأربعون: أن يتقي الله، لقوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾.

الثامن والأربعون: العمل بالحجة، لقوله تعالى: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.

التاسع والأربعون: الدعاء، لقوله تعالى: ﴿أدعوني أستجب لكم﴾.

الخمسون: الاستغفار، لقوله تعالى: ﴿واستغفروا ربكم﴾. انتهى.

ومن فوائده رحمه الله تعالى:

(١) قال الله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ إذا أراد الله تعالى لعبد الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد يرزقه حسن الإحسان وصحة الاعتبار وصدق الاعتبار وصدق الافتقار وهو مِلاك الأمر، وعلامة الصدق صدق الافتقار وهو أن يكون أمام كل قول يقول وكل فعل يفعل يلتجىء إلى الله سبحانه ويستعين به، ولا يستبد بقليل وكثير بنفسه دون الالتجاء والاستعانة، ولا يقول ولا يفعل إلا بنية يلقى الله تعالى بصحتها.

(٢) ويعلم العبد أن لله تعالى عباداً يسلك بهم طريق المقربين وهؤلاء قرة

عينهم دوام الإقبال على الله تعالى بقلبهم وإدامة فعل الرضا بقالبهم، وذلك يكون جميع زمانهم إما في الصلاة وإما في تلاوة القرآن وإما في الذكر، ولا يكون للبطالة إليهم سبيل، حظ نفسهم النوم فلهم فيه استراحة، والأكل بقدر الحاجة، ورعاية الاعتدال في النوم والأكل، وهؤلاء القوم يزهدون في كثير من أبواب البر ويشغلهم ما يجدون في قلوبهم نقداً من الروح والأنس والتلذذ بمناجاة الله تعالى والمعاملة معه عن الوعد بما يكون من الثواب على البر، وهؤلاء اشتغلوا بأبواب البر مما يتعدى نفعه، والأصحاء منهم كانوا في حماية حسن النية، ومنهم من دخل في أبواب البر بمتابعة هوى النفس، وربما اتسع الخرق عليه فما زال يلعب به الشيطان حتى قطع عليه وقته وشغله بكثير مما لا يغنيه عما يغنيه.

(١) وصادق يستعين بالخلوة والعزلة على تبين ما يشتبه من أمره، قيل: أدنى الأدب الوقوف عند الجهل، وغاية الأدب الوقوف عند الشبهة، والمعنى بالجهل ما يجهل هل هو رضا الحق أم لا، والمعنى بالشبهة أنه يعلم رضا الله تعالى ولكن عنده فيه شبهة تريبه، فيتوقف في الشيء حتى يبين له الرشد، ولا شيء يبين به الرشد كدوام الالتجاء والتضرع بين يدي الله تعالى عز وجل، وإذا دعت النفس له إلى شيء ومالت إليه والعبد يقاومها والنفس تأبى الاحتراز فليخرج إلى الصحراء ويخلو بربه ويمرغ خده في التراب ويضع التراب على رأسه حتى يعينه الله على ترك ما يريب إلى مالا يريب.

ومبدأ الأمر صحة التوبة وتقييده الجوارح من المناهي والمكاره قولاً وفعلاً، ثم تقييدها عما لا يعنيه.

(٢) ثم بعد هذا صحة الأمر في الزهد في الدنيا، وجواهر الزهد اليأس عن الخلق واستواء قبولهم وردهم، وعند اليأس عن الخلق دوام الرَّوْح[1] وصحة العبادة ووجدان اللذة فيها.

(١) أي الراحة.

ونعم المعين بعد العزلة خِفة المعدة وقيام الليل.

(١) فإذا استقام قلب العبد بالتقوى والزهد لا يتخلف قلبه عن لسانه في الصلاة والأذكار ويمكنه الله تعالى من حسم مادة حديث النفس في الصلاة والتلاوة، وقال بعضهم: أسوأ المعاصي حديث النفس في الصلاة والتلاوة[١].

ويحفظ الصادق الجمعة والجماعة وتكفيه من بركة المسلمين الحضور معهم في الجمعة والجماعة، ويبكر إلى الجامع من طلوع الشمس[٢]، ويشتغل بأنواع العبادات.

(٢) ويحذر مجالسة الخلق إلا مع مفيد أو مستفيد، فالمفيد من يسلك به طريق المقربين، والمستفيد من يسلك إلى قوة في الحال، ولكل وجهة هو موليها، إلى غير ذلك.

وكانت له ثلاث زوجات. وكانت وفاته سنة خمس وثمانين وسبعمائة[٣].

سيف الدين غدا امير عرب الشّام

الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مهّنا أمير عرب الشام، قدم الهند على محمد شاه تغلق سلطان الهند فأكرم مثواه وأنزله بـ(كوشك لعل): قصر السلطان جلال الدين الخلجي بمدينة دهلى، وأجزل له العطاء وأحسن إليه إحساناً عظيماً، وأعطاه مرة أحد عشر فرساً من عتاق الخيل ومرة أخرى عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة عليها اللجم المذهبة، ثم زوجه بعد ذلك بأخته فيروز خاتون.

(٣) ولما كان بعد عشرين يوماً من زفافه اتفق أنه وصل إلى دار السلطان

---

(١) أسوأ المعاصي بالنسبة إلى الطائع غير المقترف للكبائر والله أعلم.

(٢) أي في صلاة الجمعة.

(٣) «الإعلام»: ٢/ ٢٩ - ٣٦.

فأراد الدخول، فمنعه كبير الخواص من البوابين فلم يسمع منه، فأمسك البواب بتلابيبه ورده، فضربه الأمير بعصاً كانت هناك فأدماه، وكان هـذا المضروب من كبار الأمراء يعرف أبوه بقاضي غزنه وهو من ذرية السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي والسلطان يخاطبه بالأب ويخاطب ابنه هـذا بالأخ فدخل على السلطان وأخبره بما صنع الأمير، فقال: القاضي يفصل بينكما، فقال القاضي كمال الدين للأمير: أنت ضربته؟ أو قل: لا ـ يقصد أن يعلمه الحجة ـ فقال سيف الدين: أنا ضربته، وأتى والد المضروب فرام الإصلاح بينهما فلم يقبل سيف الدين، فأمر القـاضي بسجنه تلك الليلة، وتخلص الأمير غداً عند الظهر من سجنه، فأظهر السلطان إهماله وأضرب عما كان أمر له بولايته وأراد نفيه. فجاء النقباء ليخرجوه فأراد دخول داره ووداع أهله فترادف النقباء في طلبه فخرج باكياً، وتوجه محمد بن بطوطة المغربي حين ذلك إلى دار السلطان فبات بها فسأله بعض الأمراء عن مبيته فقال له: جئت لأتكلم في الأمير سيف الدين حتى يرد ولا ينفى، فقال: لا يكون، فقال: والله! لأبيتن بدار السلطان ولو بلغ مبيتي مائة ليلة حتى يرد، فبلغ ذلـك السلطان فأمـر برده وأمـره أن يكون في خـدمة الأميـر قبـولـة اللاهوريّ، فأقام أربعة أعوام في خدمته يركب بركوبه ويسافر بسفره حتى تأدّب وتهذب، ثم أعاده السلطان إلى ما كان عليه أوّلاً وأقطعه البلاد وقدمه على العساكر ورفع قدره، ذكره ابن بطوطة في كتابه[1].

الملك شاه مرزا الكشميريّ

الملك المؤيد شمس الدين شاه مرزا بن الطاهر الكشميـري مؤسس الدولة الإسلامية بأرض كشمير، قيل إنه كان من نسل أرجن عظيم الوثنيين، رحل أحد أسلافه إلى خراسان فأسلم بها، ثم قدم شاه مـرزا إلى الهند ودخل كشمير سنة خمس عشرة وسبعمائة في أيام سيه ديو ملك كشمير، فخدمه مدة من الزمان، ولما توفى الملك المذكور وولي الملك ولده رنجن

(١) «الإعلام»: ٢/٤٩ ـ ٥٠.

ديو جعله وزيراً له وأستاذاً خاصاً لولده چندر، ولما توفي رنجن وملك بعده أودن ديو وكان من ذوي قرابته اجتباه للوزارة وجعله وكيلاً مطلقاً له في مهمات الدولة، وولى أبناء شاه مرزا على أقطاع فاستقلوا بها، فتوهم أودن ديو سوء نيته من استقلالهم ومنعهم أن يدخلوا عليه، فذهب شاه مرزا وأبناؤه إلى أقطاعهم وأخذوا في تكثير العدة والعدد، ولم يزل كذلك حتى مات أودن ديو وقامت بالملك صاحبته، فتزوجت بشاه مرزا وأسلمت ودبرت الحيلة لدفعه، فلما عرف ذلك شاه مرزا قبض عليها وجعلها محبوسة، ثم أقام له الخطبة، ولقب نفسه شمس الدين سنة أربع وأربعين وسبعمائة وأحسن إلى الناس، وبذل جهده في تعمير البلاد وتكثير الزراعة، وأبطل ما كان فيها من المكوس، وأمر أن يؤخذ السدس منهم على وجه الخراج.

وكان عادلاً كريماً محباً لأهل العلم محسناً إلى عامة الناس، وكان ذا عقل ودين وسياسة، أصلح الطرق والشوارع وساس المفسدين وقطاع السبل حتى ظلت الدولة آمنة مطمئنة، ثم اعتزل عن الناس لكبر سنه وولي مكانه ولده جمشيد سنة سبع وأربعين.

وكانت وفاته في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وكانت مدته ثلاث سنين وخمسة أشهر[١].

شمس الدين الكوئليّ

(١) الشيخ الصالح شمس الدين بن تاج العارفين الكوئليّ أحد المنقطعين إلى الزهد والعبادة، ذكره الشيخ ابن بطوطة المغربي في كتابه وقال: إنه كان كبير القدر، ولما دخل محمد شاه تغلق إلى مدينة كوئل فبعث في طلبه فلم يأته، فذهب السلطان إليه ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره.

(٢) واتفق بعد ذلك، أن أميراً من الأمراء خرج على السلطان ببعض الجهات وبايعه الناس، فنقل للسلطان أنه وقع ذكر هذا الأمير بمجلس

---

(١) «الإعلام»: ٢/ ٥٢ ـ ٥٣.

الشيخ شمس الدين فأثنى عليه وقال: إنه يصلح للملك، فبعث السلطان بعض الأمراء إلى الشيخ، فقيده وقيد أولاده وقيد قاضي كوئل ومحتسبها لأنه ذكر أنهما كانا حاضرين في المجلس الذي وقع فيه ثناء الشيخ على الأمير المخالف، وأمر بهم فسجنوا جميعاً بعد أن سمل[1] عيني القاضي وعيني المحتسب، ومات الشيخ بالسجن، وكان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجانين فيسألان الناس ثم يردان إلى السجن.

(١) وكان قد بلغ السلطان أن أولاد الشيخ كانوا يخالطون الكفار وعصاتهم ويصحبونهم، فلما مات أبوهم أخرجهم من السجن وقال: لا تعودوا إلى ما كنتم تفعلون، فقالوا: وما فعلنا؟ فاغتاظ من ذلك وأمر بقتلهم فقتلوا.

(٢) ثم استحضر القاضي المذكور فسأله عمن كان يرى رأي هؤلآء الذين قتلوا ويفعل مثل أفعالهم، فأملى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد، فلما عرض ما أملاه على السلطان قال: هذا يحب أن يخرب البلد اضربوا عنقه، فضرب عنقه[2].

شهاب الدين الجاميّ

الشيخ الصالح شهاب الدين بن شيخ الجام الخراساني، كان من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء، يواصل أربعة عشر يوماً، وكان قطب الدين مبارك شاه وغياث الدين تغلق السلطانان يعظمانه ويزورانه ويتبركان به.

(٣) فلما ولي محمد شاه أراد أن يستخدم الشيخ في بعض خدمته، فإن عادته كانت أن يستخدم الفقهاء والمشايخ والصلحاء محتجاً أن الصدر الأول رضي الله عنهم لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم والصلاح، فامتنع شهاب الدين من العمل، وشافهه السلطان في مجلسه العام فأظهر الإباء والامتناع، فغضب السلطان من ذلك وأمر الشيخ ضياء الدين السمناني أن

---

(١) السَّمْل إذهاب العين بحديدة محماة ونحوها.

(٢) «الإعلام»: ٢/٥٤ ـ ٥٥.

ينتف لحيته، فأبى ضياء الدين، فأمر بنتف لحية كل واحد منهما فنتفت، ونفي ضياء الدين إلى بلاد تلنگ، ثم ولاه بعد مدة قضاء ورنگل فمات بها، ونفي شهاب الدين إلى دولت آباد، فأقام بها سبعة أعوام، ثم بعث إليه فأكرمه وعظمه وجعله على ديوان وهو ديوان بقايا العمال يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل، ثم زاد في تعظيمه وأمر الأمراء أن يأتوا للسلام عليه ويمتثلوا أوامره، ولم يكن أحد في دار السلطان فوقه.

(١) ولما انتقل السلطان إلى السكنى على نهى كنگ وبنى هنالك القصر المعروف بسرگ دواره (معناه شيبة الجنة) وأمر الناس بالبناء هنالك طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له في الإقامة بحضرة دهلى، فأذن له أن يسكن بأرض موات على مسافة ستة أميال من دهلي، فحفر بها كهفاً كبيراً صنع في جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام وجلب الماء من نهر جمن، وعمر تلك الأرض وجمع مالاً كثيراً من مستغلها، لأنها كانت السنون قاحطة، وأقام هناك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان، وكان عبيده يخدمون تلك الأرض نهاراً ويدخلون الغار ليلاً ويسدونه على أنفسهم وأنعامهم خوفاً من سراق الكفار، لأنهم في جبل منيع هناك، ولما عاد السلطان إلى حضرته استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها، فعظمه السلطان وعانقه عند لقائه وعاد إلى غاره، ثم بعث إليه بعد أيام، فامتنع من إتيانه، فبعث إليه مخلص الملك الندرباري فتلطف له في القول وحذره بطش السلطان، فقال: لا أخدم ظالماً أبداً، فعاد مخلص الملك إلى السلطان فأخبره بذلك، فأمر أن يأتي به فأتى به فقال له: أنت القائل: إني ظالم، فقال: نعم، أنت ظالم، ومن ظلمك كذا وكذا ـ وعدد أموراً منها تخريبه لمدينة دهلى، وإخراجه أهلها، فأخذ السلطان سيفه ودفعه للقاضي كمال الدين وقال: إن ثبت هذا أني ظالم فاضرب عنقي بهذا السيف، فقال له الشهاب: ومن يريد أن يشهد بذلك فيقتل؟ ولكن أنت تعرف ظلم نفسك، فقيده بأربعة قيود وغل يديه، وأقام كذلك أربعة عشر يوماً مواصلاً لا يأكل ولا يشرب، وفي كل يوم منها يؤتى به إلى المشورة ويجمع الفقهاء

والمشايخ ويقولون: ارجع عن قولك، فيقول: لا أرجع عنه، وأريد أن أكون في زمرة الشهداء، فلما كان اليوم الرابع عشر بعث إليه السلطان بطعام فأبى أن يأكل وقال: قد رُفع رزقي من الأرض، فأمر أن يطعم خمسة أسيار[1] من العذرة، فأخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الأمور وهم طائفة من كفار الهنود، فمدوه على ظهره وفتحوا فمه بالكلبتين، وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك، وفي اليوم بعده أتي به إلى دار القاضي وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الأعزة، فوعظوه وطلبوا منه أن يرجع عن قوله، فأبى ذلك فضرب عنقه، انتهى ما في كتاب الرحلة لابن بطوطة.

وكانت وفاته على ما أظن في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة[2].

الملك شهاب الدين شاه الكشميري

الملك المؤيد شهاب الدين بن شمس الدين شاه مرزا الكشميري السلطان المجاهد، قام بالملك بعد أخيه علاء الدين وافتتح أمره بالعقل والتدبير.

وكان ملكاً عادلاً مجاهداً مقداماً باسلاً، فتح الحصون والبلاد وأخذ الخراج من ملوك تبت الصغير، ومَصّر بلدتين لچهمى نگر وشهاب پور، وامتدت أيامه إلى عشرين سنة.

(١) وكان إذا لم يصل إليه رسالة الفتح يوماً من الأيام من إحدى نواحي الأرض لا يحسب ذلك اليوم من أيام عمره ويحزن لذلك[3].

شهاب الدين الزاهدي

الشيخ العالم الفقيه شهاب الدين بن فخر الدين الزاهديّ الميرتهيّ المشهور بـ«حق گو» (معناه الصادق) كان من كبار المشايخ في عصره، أخذ عن أبيه ولازمه مدة من الدهر.

---

(١) قال المعلق: جمع سير، وهو الوزن الهندي المعروف يساوي كيلو تقريباً.
(٢) «الإعلام»: ٢/٥٨ - ٦٠.
(٣) «الإعلام»: ٢/٦٢.

(١) ثم سافر إلى دهلي، وقتله محمد شاه تغلق، قال محمد بن الحسن المندوي في «كلزار أبرار»: إن محمد شاه قال له يوماً من الأيام: إن النبوة لم تنقطع كالولاية، فاغتاظ به شهاب الدين ولم يملك نفسه فخلع نعله وضرب به وجه محمد شاه، فغضب عليه محمد شاه وأمر أن يلقوه في الخندق، فألقوه من القلعة فلم يمت فألقوه ثم ألقوه حتى مات في المرة الثالثة رحمه الله سبحانه بفضله وأفاض علينا بركات علومه[١].

عفيف الدين الكاشانيّ

الشيخ العالم الفقيه عفيف الدين الكاشانيّ أحد الرجال المعروفين بالفضل والصلاح، كان يدرس ويفيد بدهلي.

(٢) قتله محمد شاه تغلق بقصة شرحها محمد ابن بطوطة المغربي في كتابه، قال: كان السلطان في سنيِّ القحط قد أمر بحفر آبار خارج دار الملك وأن يزرع هنالك زرع، وأعطى الناس البذر وما يلزم للزراعة من النفقة، وكلفهم زرع ذلك للمخزن، فبلغ ذلك عفيف الدين فقال: هذا الزرع لا يحصل المراد منه، فوشى به إلى السلطان فسجنه وقال: لأيٍّ شيء تدخل نفسك في أمور الملك؟ ثم إنه سرحه بعد مدة فذهب إلى داره ولقيه في طريقه إليها صاحبان له من الفقهاء فقال له: الحمد لله على خلاصك، فقال الفقيه: الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، وتفرقوا فلم يصلوا إلى دورهم حتى بلغ السلطان ذلك، فأمر بهم فأحضر الثلاثة بين يديه، فقال: اذهبوا بهذا، يعني عفيف الدين، واضربوا عنقه حمائل، وهو أن يقطع الرأس مع الذراع وبعض الصدر، واضربوا أعناق الأخرين، فقالا له: أما هو فيستحق العذاب لقوله، وأما نحن فبأيّ جريمة تقتلنا؟ فقال لهما: «إنكما سمعتما كلامه فلم تنكراه فكأنكما وافقتما عليه، فقتلوا جميعاً»، انتهى[٢].

---

(١) «الإعلام»: ٢/٦٣.

(٢) «الإعلام»: ٢/٨٢، وبمثل هذا الظلم من هذا الظالم تخرب المدائن وتنهار الدول.

علاء الدين الأوديّ

الشيخ الفاضل العلامة علاء الدين الأوديّ المشهور بالنيلي. كان من كبار المشايخ، قرأ العلم على شيخ الإسلام فريد الدين الشافعي الأوديّ وعلى غيره من العلماء وبرع في العلم وتأهل للفتوى والتدريس، وسكن بدهلى عاكفاً على الدرس والإفادة.

وكان ذا زهد واستقامة وتورع وإقبال على الطاعة والإفادة والتدريس حسبة لله سبحانه، مخلصاً له في دينه ودنياه.

وهو ممن أدركه الشيخ محمد بن بطوطة المغربي وذكره في كتابه.

(١) قال ابن بطوطة: هو يعظ الناس في كل يوم جمعة، فيتوب كثير منهم بين يديه ويحلقون رؤوسهم ويتواجدون ويغشى على بعضهم، شاهدته وهو يعظ فقرأ القارى بين يديه: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾، ثم كررها الفقيه علاء الدين، فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة، فأعاد الشيخ الآية فصاح الفقير ثانية ووقع ميتاً، وكنت في من صلى عليه وحضر جنازته، انتهى.

وكانت وفاة علاء الدين سنة اثنتين وستين وسبعمائة[1].

علاء الدين البرنى

الأمير الكبير علاء الدين الملك بن بار بيگ برلاس البرنى.

كان من الرجال المعروفين بالحزم والدهاء والسياسة وأنواع الفضائل.

ولاه السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجيّ على مدينة كره وما والاها من البلاد في سنة ست وتسعين وستمائة، ثم استقدمه إلى دار الملك

---

(١) «الإعلام»: ٢/٨٣ - ٨٤.

وجعله الشِّحْنة بمدينة دهلي ـ وتلك الخطة كانت جليلة في ذلك العصر، لا يولى عليها إلا من يثق به السلطان، لأنه يكون حارساً له ولخزائنه وأهله ـ ولقّبه علاء الملك.

وكان رجلًا معروفاً بالعلم والدهاء، كثير المعروف، عميم الإحسان، صاحب عقل وسكينة ودين.

(١) يحكى أن السلطان علاء الدين لما فتح الفتوحات العظيمة فقد الصواب والاتزان فألقى على أصحابه مسألتين: إحداهما أن يضع شرعاً جديداً للناس كما شرع النبي ﷺ ليبقى اسمه إلى يوم القيامة، وثانيتهما أنه يريد أن ينيب عنه واحداً من خواصه بدار الملك ويخرج إلى نواحي الأرض ويملك البلاد كما ملك إسكندر بن فيلقوس المقدونيّ، وكان يلقي هاتين المسألتين على أصحابه فكانوا يهابونه ولا يجيبونه بالصدق، حتى أنه ذُكِر مرة أنه يخاطب علاء الملك ويسأله، فأطرق رأسه مليّاً وفكر في نفسه وقال لنفسه: إني بلغت الكِبرَ وليس بيني وبين الموت إلا قِيد شبر فلا ينبغي أن أهابه في ذلك، فإن غضب علي فلعلي أنال درجة الشهادة وهذا فوز عظيم.

فتقدم إليه وقال: إن لم يسعني إلا الجواب فينبغي أن تأمر أن ترفع الكؤوس ويخلى المجلس، فأمر به وقام الناس، فتقدم وقبل الأرض بين يديه[1] وقال: كبر سني في نعمة الملك واعتراني الضعف والهرم، فإن أصبت في الجواب فذلك من الله سبحانه، وإن أخطأت فيه تعذرني لكبر سني واختلال حواسي، ثم قال: إن الشريعة تتعلق بالأنبياء والنبوة بالوحي، والدين قد أُكمل على نبينا ﷺ، وبه ختم النبيون، فلا يمكن بعده وضع شريعة جديدة، فلا ينبغي لك أن تتفوه بهذا بعد ذلك، فإن الناس إن يسمعوها يتنفروا عنك ويولد الفتن ويكثر الفتك في الناس، وأما المسألة الثانية فهي تدل على ميل السلطان إلى أعالي الأمور وينبغي لمثل السلطان

---

(١) هذا كان تقليداً سائداً وهو لا يجوز لأنه كالسجود.

أن يجعلها مقصده، ولكن ينبغي للسلطان أن يتفكر ساعة في هذا الأمر، ولست أدري من ينوب عنك في غيبتك من أرض الهند، ويوفي بعهده إذا أراد السلطان أن يرجع إلى دار الملك ولا ينقض عهده ولا يغدر، ومن ينوب عنك كما ناب أرسطاطاليس عن الإسكندر إلى اثنتين وثلاثين سنة أيام غيبته عن دار الملك، فقال علاء الدين: وماذا أفعل بعد ذلك؟ فقال علاء الملك: إن الأهم لك أمران: الأول: تسخير البلاد الجنوبية من «وجاپور» و«چنذيرى» إلى البحر المحيط والبلاد الشمالية إلى «لمغان و«كابل» فإن تلك البلاد ملجأ للمفسدين وقطاع السبل، فإن ملكتها تظل الهند آمنة مطمئنة، والثاني: سد الثغور في سبيل التتر، فإنهم يطمعون في الهند ويأتون إليها كلما وجدوا فرصة انتهزوها ويفتكون وينهبون، فإن تيسر ذلك فيمكن للسلطان أن يبعث عساكره إلى بلاد أخرى، وإني أظن أن ذلك يتيسر إن تركت الخمر والتصيد والتفرج الدائم والانهماك في اللذات، فاستمع ذلك علاء الدين سماع القَبول، واستحسن رأيه وأحسن إلى علاء الملك[1].

علي الحيدريّ

الشيخ الفاضل علي الحيدري أحد القادمين إلى بلاد الهند، دخل گجرات وسكن بمدينة كهنباية، ولازم أحد أحبار الوثنيين وأخذ عنه علوم أهل الهند وتعلم لغتهم، وصحبه مدة من الزمان وأظهر له الإسلام، فمن الله سبحانه عليه بالملة الحنيفية البيضاء، وأسلم بسببه خلق كثير من أهل گجرات ممن كانوا يعرفون فضله وكماله، ولما كان عليٌّ شيعياً تشيع الناس، ويسمون بواهير، ثم لما قام بالملك مظفر شاه الگجراتي الأول أمر العلماء أن يهدوهم إلى طريق أهل السنة، فهدى بهم جمعاً كثيراً منهم، فصاروا فرقتين: فرقة منهم أهل السنة، وفرقة منهم الشيعة.

---

(١) «الإعلام: ٢/٨٤ ـ ٨٥.

(١) وقد ذكره محمد بن بطوطة المغربي في كتابه وقال: إنه كان عظيم القدر شهير الذكر بعيد الصيت يسكن بمدينة كهنباية على ساحل البحر، فلما خرج القاضي جلال الدين الأفغانيّ وقبيلته بمدينة كهنباية على محمد شاه تغلق بلغ السلطان أن الحيدريّ دعا للقاضي جلال وأعطاه شاشيته[١] من رأسه، وذكر أيضاً أنه بايعه، فلما خرج السلطان إليهم بنفسه وانهزم القاضي خلف السلطان شرف الملك أمير بخت بكهنباية وأمره بالبحث عن أهل الخلاف وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم، فأحضر الشيخ علي الحيدريّ بين يديه وثبت أنه أعطى للقائم شاشيته ودعا له فحكموا بقتله، فلما ضربه السياف لم يعمل فيه السيف وعجب الناس لذلك وظنوا أنه يعفى عنه بسبب ذلك، فأمر سيافاً آخر بضرب عنقه فضربه، انتهى[٢].

عماد الدين الغوري

(٢) الشيخ العالم الصالح عماد الدين الحنفي الغوري أحد عباد الله الصالحين.

قتله محمد شاه تغلق الدهلوي، وسبب قتله على ما في «أخبار الأخيار» أن محمد شاه قال له يوماً من الأيام: إن الفيوض الإلهية لم تنقطع حتى اليوم، فإن ادعى أحد بالرسالة وصدرت عنه المعجزات فتصدقه أم لا، فغضب العماد ولم يملك نفسه فقال بالفارسية: كه مخور، أي لا تأكل العذرة، فأمر محمد شاه أن يذبحوه ويخرجوا لسانه عن فمه، فامتثلوا أمره، رحمه الله تعالى[٣].

الملك غياث الدين تغلق شاه

الملك العادل الفاضل غياث الدين تغلق شاه الدهلوي.

كان من الأتراك وكان ضعيف الحال، فقدم بلاد السند في عهد

---

(١) قال المعلق: لفظة عامية يراد بها القلنسوة في عرف أهل المغرب.

(٢) «الإعلام»: ٢/٨٨ - ٨٩.

(٣) «الإعلام»: ٢/٩٦.

السلطان علاء الدين الخلجيّ، وأمير السند إذ ذاك أخوه أدلو خان، فخدمه تغلق وتعلق بجانبه، فرتبه في الرجالة، ثم ظهرت نجابته فأثبته في الفرسان، ثم صار من الأمراء الصغار، وجعله أدلو خان أمير خيله، ثم صار من بعدُ من الأمراء الكبار، وسمي «بالملك الغازي».

قيل إنه قاتل التتر تسعاً وعشرين مرة فهزمهم، فحينئذ سُمي «بالملك الغازي»، وولي مدينة ديبالپور وعمالتها، وجعل ولده محمد جونه أمير الخيل، فلما قتل قطب الدين الخلجي ووَلِيَ خسرو خان أبقاه على إمارة الخيل، فلما أراد تغلق الخلاف كتب إلى كشلو خان - وهو يومئذ بمُلتان وبينها وبين ديبالپور ثلاثة أيام - يطلب منه القيام بنصرته ويذكره نعمة قطب الدين ويحرضه على طلب ثأره، وكان ولد كشلو خان بدهلى، فكتب إلى تغلق أنه لو كان ولدي عندي لأعنتك على ما تريد، فكتب تغلق إلى ولده محمد يعلمه بما عزم عليه ويأمره أن يفر إليه ويستصحب معه ولد كشلو خان، فأراد ولده الحيلة على خسرو خان، وتمت له كما أراد، فلحق بأبيه واستصحب معه ولد كشلو خان، وحينئذ أظهر تغلق الخلاف وجمع العساكر وخرج معه كشلو خان في أصحابه. وبعث خسرو خان لقتالهما أخاه خان خانان فهزماه شر هزيمة، فرجع إلى أخيه وقتل أصحابه، ونفدت خزائنه وأمواله وقصد تغلق حضرة دهلى، وخرج إليه خسرو خان في عساكره ووقع اللقاء بينه وبين تغلق، وقاتل الوثنيون أشد قتال وانهزمت عساكر تغلق، وانفرد في أصحابه الأقدمين وكانوا ثلاثمائة يعتمد عليهم في القتال، فقال لهم: إلى أين الفرار؟ فلما اشتغلت عساكر خسرو خان بالنهب وتفرقوا عنه قصد تغلق وأصحابه موقفه، وحمى القتال بينهم وبين الوثنيين، ولم يبق مع خسرو خان أحد فهرب ثم قبض عليه وقتل، واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام.

وكان عادلاً فاضلاً، كريماً حليماً، متورعاً، حسن الأخلاق، راجح العقل، متين الدين، كان يلازم الصلوات الخمس بالجماعة، ويجلس

للناس في الديوان العام من الصباح إلى المساء، ويتفقد بنفسه أحوال الناس، ويشتغل بما يهمه من الأمور بنفسه، ويكرم العلماء والمشايخ، ويعظمهم تعظيماً بالغاً، بعث ولده جونه بعساكره إلى ورنكل ليفتح بلاد تلنكك، وتجهز بنفسه لقتال غياث الدين ملك بنكاله الذي قتل أخاه قتلو خان وسائر إخوته وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم إلى تغلق، فجد السير إلى بنگاله وتغلب عليها وأسر سلطانها وقدم به أسيراً إلى دهلى.

(١) فلما عاد من سفره وقرب من حضرته أمر ولده أن يبني له قصراً على واد هناك، فبناه في ثلاثة أيام وجعل أكثر بنائه بالخشب مرتفعاً على الأرض قائماً على سواري خشب، وأحكمه بهندسة تولى النظر فيها أحمد بن أياز الدهلويّ وكان صاحب شِحنة[1] القصور الملكية واخترعوا فيه أنه متى وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط، ونزل السلطان بالقصر، واستأذنه ولده أن يعرض الفيلة بين يديه، فأذن له فأتى بالأفيال من جهة واحدة حسب ما دبروه، فلما وطئتها سقط القصر على السلطان، وأمر ابنه أن يؤتى بالفؤوس والمساحي للحفر عنه، فلم يؤت بها إلا وقد غربت الشمس، فحفروا، وزعم بعضهم أنهم أخرجوه ميتاً، وبعضهم أنهم أجهزوا عليه حياً، فجهز ليلاً إلى مقبرته فدفن بها.

ومن مآثره الجميلة «تغلق آباد» بلدة كبيرة بناها خارج دهلى القديمة.

وكانت وفاته سنة خمس وعشرين وسبعمائة[1].

غياث الدين ملك بنكاله[3]

الملك المؤيد غياث الدين بن سكندر بن شمس الدين السلطان المشهور.

---

(١) أي متولي أمر القصور الملكيّة.

(٢) «الإعلام»: ٢/١٠٢ - ١٠٤.

(٣) أي البنغال وهي باكستان الشرقية اليوم.

قام بالملك بعد والده سنة سبع وستين وسبعمائة باكداله، كانت بلدة عامرة بأرض بنكاله في سالف الزمان.

وكان من خيار السلاطين متصفاً بالفضل والكمال، قرأ العلم على الشيخ حميد الدين أحمد الحسيني الناكوري، وقرب إليه العلماء والمشايخ، وأحسن إلى الناس وغمرهم بإحسانه وأرسل إلى الحرمين الشريفين صدقة كبيرة مع خادمه ياقوت الغياثيّ ليتصدق بها على أهل الحرمين ويبني له بمكة مدرسة ورباطاً ويقف على ذلك عقاراً يصرف ريعه على أعمال الخير كالتدريس ونحوه، وكان ذلك بإشارة وزيره خان جهان، فوصل ياقوت المذكور بأوراق سلطانية إلى السيد حسن بن عجلان شريف مكة يومئذ مع هدايا جميلة إليه فقبلها وأمره أن يفعل ما أمره السلطان، وأخذ ثلث الصدقة على معتاده ومعتاد آبائه، ووزع الباقي على الفقهاء والفقراء بالحرمين الشريفين، فعمتهم وتضاعف الدعاء له بالخير والدال عليه، واشترى ياقوت الغياثي لبناء المدرسة والرباط دارين متلاصقتين على باب أم هانىء، هدمهما وبناهما في عامه رباطاً ومدرسة، وجعل لها أربعة مدرسين من أهل المذاهب الأربعة وستين طالباً ووقف عليهم ما ذكرناه، واشترى داراً مقابلة للمدرسة المذكورة بخمسمائة مثقال ذهباً وقفها على مصالح الرباط.

وأخذ منه السيد حسن شريف مكة اثني عشر ألف مثقال ذهباً، وأخذ منه مبلغاً لا يعلم قدره كان جهزه معه السلطان لإصلاح عين عرفة، فذكر السيد حسن أنه يصرفه على إصلاحها، ويقال إن قدره ثلاثون ألف مثقال ذهباً، ثم إن السيد حسن عين أحد قواده لتفقد عين بازان وإصلاحها وإصلاح البركتين بالمعلاة وكانتا معطلتين، فأصلحهما إلى أن جرت عين بازان فيهما.

وكان خان جهان وزير السلطان غياث الدين أرسل مع ياقوت الغياثيّ خادماً له يسمى حاجي إقبال، أرسله بصدقة أخرى من عنده لأهل المدينة المنورة وجهز معه مالاً يبني له به مدرسة ورباطاً، وهدية إلى أمير المدينة

يومئذ جماز الحسيني، فانكسرت السفينة التي فيها هذه الأموال وغيرها بقرب جدة، صرح به المفتي قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي في «تاريخ مكة».

وبالجملة فإن السلطان غياث الدين كان من خيار السلاطين طار ذكره في الآفاق وقصده الناس في البلاد الشاسعة.

توفي سنة خمس وسبعين وسبعمائة[1].

فخر الدين الزرادي

الشيخ الفاضل العلامة فخر الدين الزرادي السامانويّ ثم الدهلويّ، الفاضل المشهور، أصله من سامانه[2].

اشتغل بالعلم من صغر سنه ودخل دهلى، فقرأ على مولانا فخر الدين الهانسوي، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار ورحل إلى بغداد وأدرك المشايخ وأخذ الحديث عنهم، ثم رجع إلى الهند وركب البحر فغرق.

(١) وكان صادق اللهجة حر الضمير، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يهاب أحداً ولا يترك كلمة الحق عند السلطان الجائر، قال الكرماني في «سير الأولياء»: إن محمد شاه تغلق طلبه يوماً يريد أن يتهمه ويؤاخذه في شيء، فقال: إني أريد أن أغزو فعليك أن تحرض المؤمنين على القتال! فقال الشيخ: إن شاء الله تعالى، فقال الملك: هذه كلمة شك، فقال: لا، بل هي كلمة ينبغي أن تقال في الأمر المستقبل، فاحمر وجه الملك غضباً وقال: أوصني بما ينفعني، فقال: عليك أن تكظم الغيظ، فقال السلطان: أي غيظ؟ قال: الغضب السبعيّ، فغضب السلطان أشد من الأولى فأخفاه، ثم أعطاه صرة مملوءة من الدنانير على الأقمشة الحريرية ويريد يؤاخذه إن

---

(١) «الإعلام»: ٢/ ١٠٤ ـ ١٠٦.

(٢) بلد بالقرب من أصبهان. انظر «معجم البلدان»: ٣/١٧٢ ـ ١٧٣.

لم يأخذ، فأخذها قطب الدين أحد تلامذه الزرادي مخافة منه وكان قائماً عند الملك فخرج الزرادي سالماً[1].

السلطان فيروز شاه

أبو المظفر كمال الدين فيروز شاه بن سالار رجب السلطان الصالح كان من بني أعمام محمد شاه تغلق.

ولد سنة تسع وسبعمائة وتربى في حجر عمه غياث الدين وابن عمه محمد شاه المذكور، ووَلِيَ الحجابة مدة من الزمان، ولما مات محمد شاه اتفق الناس عليه وبايعوه في الرابع والعشرين من المحرم سنة ٧٥٢ هـ، وكان يمتنع من ذلك فبالغ الناس في الإصرار عليه وألح عليه الشيخ نصير الدين محمود الأوديّ وغيره من الصدور والقضاة والفقهاء، فتولى الملك وافتتح أمره بالعدل والإحسان.

(١) وأسس مدينة كبيرة بقرب دهلي في سنة خمس وخمسين وسبعمائة وسماها فيروز آباد، وحفر خمسين نهراً، وبنى أربعين مسجداً، وعشرين زاوية ومائة قصر، وخمسين مارستاناً، ومائة مقبرة، وعشر حمامات، ومائة جسر، ومائة وخمسين بئراً.

(٢) وأما الحدائق فإنه أسس ألفاً ومائتي حديقة بناحية دهلي وثمانين حديقة بناحية سادره وأربعين حديقة بناحية چتور، كانت فيها سبعة أقسام من العنب، ويحصل له من تلك الحدائق ثمانون ألف تنكة[2] بعد وضع النفقات الكثيرة.

وتحصل له من جبايات الهند ثمانية وستون مليوناً ونصف مليون تنكة.

---

(١) «الإعلام»: ٢/١٠٦ - ١٠٧.

(٢) العملة السائدة في ذلك الوقت، وسيأتي تقديرها.

وكانت الوظائف والأرزاق في عهده للعلماء والمشايخ ثلاثة ملايين وستمائة ألف تنكة، ولغيرهم من أرباب الحاجات عشرة ملايين تنكة.

(۱) ومن مآثره الجميلة جامع كبير بدهلى، بناه فوق تل من الأحجار المنحوتة أبدع نحت، ومنها المدرسة الفيروزية أسسها على الحوض الخاص بدهلى جامعة بين الحسن والحصانة، يجري فيها الماء الغزير ولا يوجد لها نظير في الدنيا.

وللسلطان فيروز شاه كتاب في الرئاسة والسياسة، رتبه على ثمانية أبواب وأمر أن ينقشوها في الأحجار وينصبوها في المنارة المثمنة من الجامع الكبير بفيرز آباد دهلي.

(۲) ومن نوادر ما اخترعه فيروز شاه الساعة العجيبة يخرج في كل ساعة منها صوت عجيب يترنم، وكانت تستخرج منها أوقات الليل والنهار ووقت إفطار الصوم وكيفية الأظلال وزيادة اليوم ونقصانه باعتبار الفصول، وكان نصب تلك الساعة بمدينة فيروز آباد.

وكانت وفاته سنة تسع وتسعين وسبعمائة[1].

السلطان مبارك شاه الخلجيّ

الملك المؤيد قطب الدين مبارك شاه بن محمد شاه الخلجيّ السلطان الدهلويّ.

(۳) قام بالملك في سنة سبع عشرة وسبعمائة، وخلع أخاه شهاب الدين وبعث به إلى گواليار فحبس مع إخوته، ولما استقام له الأمر بعث بعد مدة من الزمان أحد الأمراء إلى گواليار وأمر بقتل إخوته جميعاً فقتلوا.

وبعث عساكره إلى ديوگير ـ لعله في سنة ثمان عشرة وسبعمائة ـ فقاتلوا صاحبها هريال ديو، فقتلوه واستولوا على بلاده، وأقاموا بها شعائر

(۱) «الإعلام»: ۲/۱۱۳ ـ ۱۱٥.

الإسلام، وأسسوا مسجداً بديوگير، وسموها دولت آباد، ثم بعث عساكره إلى بلاد المعبر، فساروا إليها وقتلوا ونهبوا، ثم ساروا إلى ورنكل وكانت كرسيّ بلاد دكن ، فقاتلوا صاحبها ثم صالحوه على مال يؤديه.

(١) ولما قتل قطب الدين إخوته ولم يبق من ينازعه ولا من يخرج عليه بعث الله تعالى عليه أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنده خسرو خان، وكان من أصحاب قطب الدين رجل يسمى قاضي خان وهو صاحب مفاتيح القصر، وكان يكره أفعال خسرو خان ويسوءه ما يراه من إيثاره للكفار الهنديين وميله إليهم فإن أصله كان منهم، ولا يزال يُلقي ذلك إلى قطب الدين، فلا يسمع منه لما أراد الله قتله على يديه، فلما كان في بعض الأيام قال خسرو خان للسلطان: إن جماعة من الكفار يريدون أن يسلموا، فقال السلطان: ائتني بهم، فقال: إنهم يستحيون أن يدخلوا عليك نهاراً لأجل أقربائهم وأهل ملتهم، فقال له: ائتني بهم ليلاً، فجمع خسرو خان جماعة من شجعان الوثنيين وذلك في أوان الحر والسلطان ينام فوق سطح القصر ولا يكون عنده في ذلك الوقت إلا بعض الفتيان، فلما دخلوا الأبواب الأربعة وهم شاكون في السلاح ووصلوا إلى الباب الخامس وعليه قاضي خان أنكر شأنهم وأحس بالشر فمنعهم من الدخول فهجموا عليه وقتلوه، وعلت الضجة بالباب ودخل الوثنيون فقتلوا السلطان وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر إلى صحنه، وكان ذلك سنة إحدى وعشرين وسبعمائة[١].

نظام الدين البدايونيّ

الشيخ الإمام العالم الكبير العلّامة صاحب المقامات العلية والكرامات المشرقة الجلية نظام الدين محمد بن أحمد بن عليّ البخاري البدايونيّ أحد الأولياء المشهورين بأرض الهند، انتهت إليه الرياسة في دعاء الخلق إلى الله تعالى، والتسليك في طريق العبادة، والانقطاع عن الدنيا مع التضلع من العلوم الظاهرة والتبحر في الفضائل الفاخرة.

---

(١) «الإعلام»: ٢/١٢٢ - ١٢٣.

ولد بمدينة بدايون في سنة ست وثلاثين وستمائة، وتوفى والده في صغر سنه فتربى في حجر أمه، واشتغل بالعلم، وقرأ الفقه والأصول والعربية على الشيخ علاء الدين الأصوليّ، ثم سافر إلى دهلي، وكان في الخامسة عشرة من سنه فقرأ الكتب الدرسية على أساتذتها.

(١) وأقام بدهلي في أمكنة عديدة يدور في محلاتها طالباً العزلة حتى أقام بغياث پور واشتغل بها بالمجاهدة من الصيام والقيام والذكر والفكر، وكان شيخه فريد الدين أوصاه عند توديعه أن يحفظ القرآن الكريم وأن يصوم دائماً وقال: إن الصوم نصف الطريق، فلازمه وحفظ القرآن وانقطع إلى الله سبحانه بقلبه وقالبه مع الزهد والعبادة والعفاف والقنوع والتوكل والإيثار وسائر الأخلاق المرضية، ولقد أحله الله تعالى من الولاية محلاً لا يرام ما فوقه، وهدى به في عهده ثم بأصحابه من بعده خلقاً لا يحصيهم إلا من أحصى رمل عالج، فلا ترى ناحية من نواحي المسلمين من بلاد الهند إلا وقد نمت فيها طريقته وجرى على ألسنة أهلها ذكره.

(٢) وكان إماماً مجاهداً زاهداً يقوم الليل ويصوم النهار، لم ينكح امرأة، ولم يبن داراً، ولم يدخر شيئاً.

(٣) ولم يرض بلقاء الملوك والسلاطين مع إلحاحهم على ذلك وشدة توقهم إليه، قال الكرمانيّ في «سير الأولياء» إن جلال الدين فيروز الخلجيّ كان يريد أن يلاقيه وهو يمنعه من ذلك فأراد أن يدخل عليه بغتة بغير إذن، فلما اطلع الشيخ على ذلك خرج من دهلي وذهب إلى أجودهن قبل أن يحضر الملك عنده، وكذلك أرسل إليه علاء الدين محمد شاه الخلجيّ كتاباً يشتمل على بعض مهمات الأمور ودعاه يستشيره في بعض المصالح، فأبى وقال: إن كان السلطان لا يحب أن أقيم في ملكه فيظهر ذلك من غير تورية فإن أرض الله واسعة، فأرسل إليه السلطان ابنه واعتذر من مخاطبته إياه في تلك الأمور واستأذن في حضوره لديه، فأبى الشيخ، ولما أصر

السلطان على ذلك قال: إن في داري بابين يدخل السلطان من باب وأخرج من الباب الآخر.

(١) ومن ذلك ما روي أن قطب الدين الخلجي كان معتاداً أن يحضر العلماء والمشايخ في غرة كل شهر للتهنئة، وكان الشيخ لا يذهب بنفسه النفيسة بل يذهب خادمه إقبال نيابة عنه، فاغتاظ السلطان منه وقال: إن لم يحضر الشيخ بنفسه في الشهر القابل نفعل به ما نشاء، فاغتم الناس وكانوا يتناجون بينهم والشيخ كان جذلا رَخِيّ البال فارغ الخاطر لا يرى عليه أثر الحزن حتى استهل الشهر وقتل السلطان المذكور في تلك الليلة.

(٢) قال الكرماني: إن غياث الدين تغلق شاه لما استقل بالملك حرضه بعض العلماء على أن ينكر على الشيخ استماع الغناء[1]، والسلطان يتأخر عنه ويقول: كيف أجترىء على ذلك؟ فإنه مع جلالته في العلم والعمل والتقوى والعزيمة كيف يرتكب الحرام، فعرضوا عليه الفتوى التي رتبها الفقهاء على القاضي حميد الدين الناگوريّ في استماع الغناء، فأمر السلطان بإحضار الشيخ للمناظرة بمحضر من الناس، فقبله الشيخ وحضر ذلك المجلس المحفوف بالعلماء والمشايخ والصدور والقضاة، فأقبل عليه القاضي جلال الدين الولوالجيّ وطفق يطعن عليه ويشنع عليه استماع الغناء، وكان الشيخ يسمعه بالتحمل والسكينة حتى أخذ القاضي في الزجر والتوبيخ إلى الغاية، فقال الشيخ: لعلك تقول ذلك بلسان الحكومة وإنك معزول عنها، فسكت القاضي، وقيل: إنه عزل عن خدمته بعد اثني عشر يوماً، ثم أقبل عليه حسام الدين شيخ زاده ونحا نحو القاضي المذكور فقال الشيخ: إن ذلك الكلام بمعزل عن أدب المناظرة فليكن عمود البحث متعيناً أولاً، ثم سأله عن معنى الغناء، فقال: لا أدري ما هو ولكني أعلم أنه حرام عند العلماء، فقال الشيخ: إن كنت لا تعلم ما هو فلست لي بالمخاطب في البحث والمناظرة، ثم كثر اللغط وقال القاضي كمال الدين:

---

(١) هو الإنشاد بدون معازف كما سيأتي.

إنه صح عن الإمام الأعظم أنه قال: السماع حرام والرقص فسق، فقال الشيخ: كلا! لم يصح ذلك عن الإمام، ثم جاء الشيخ علم الدين سليمان الملتاني فرفع السلطان تلك القصة إليه وحكمه في ذلك، فقال: إني صنفت في ذلك رسالة وبينت فيها دلائل الحل والحرمة وقضيت فيه بأنه حلال، فقال السلطان: إنكم سرتم إلى بلاد الروم والشام وبغداد هل يمتنع المشايخ عن استماع الغناء في تلك البلاد أم لا؟ فقال: لا، فإن المشايخ يستمعون الغناء بالدف من غير نكير عليه، فقال القاضي جلال الدين المذكور: ينبغي للسلطان أن ينصر مذهب الإمام الأعظم رحمه الله ويحكم بالمنع عنه، فقال الشيخ نظام الدين: لا ينبغي له أن يحكم بشيء قبل أن تفصل القضية، ثم لما كانت أدلة التضليل لمن يقول بالتحليل ظاهرة البطلان رجع البحث إلى الحل والحرمة، ثم آل إلى أولوية الترك أو الفعل، وكان من أول الضحى إلى الزوال ثم انفض المجلس وأذن له تغلق شاه بالرجوع مراعياً للأدب والإحترام.

(١) فلما رجع الشيخ إلى داره وفرغ من صلاة الظهر أمر بإحضار القاضي محيي الدين الكاشاني والقاضي ضياء الدين البرني وخسرو بن سيف الدين الدهلوي وقال: إني عجبت اليوم من جرأة الفقهاء كيف أنكروا الأحاديث وقالوا: إن الرواية الفقهية مقدمة عليها، وبعضهم قالوا: إن ذلك الحديث متمسك للشافعيّ وهو عدو لعلمائنا فلا نستمعه ولا نعتقده، وقالوا ذلك بمحضر الصدور والقضاة، فكيف يصح اعتقادهم في الأحاديث! فإن رضي السلطان بها ومنع عن رواية الحديث أخاف أن يحل عليهم غضب الله سبحانه ويهلك الحرث والنسل بسوء اعتقاد العلماء بالحديث، قال الكرماني: وقد وقع ما قال الشيخ بعد بضع سنين من يد محمد شاه تغلق، فإنه قتل من السادة والأشراف ما لا يحصر بحد وعد، ثم أخرج الناس من دهلي إلى دولت آباد فلم يبق في دهلي أحد، ومضت على ذلك شهور وأعوام وكان ذلك بعد وفاة الشيخ.

(١) قال الكرماني في «سير الأولياء» إنه كان حنفياً ولكنه كان يجوز القراءة بالفاتحة خلف الإمام في الصلاة وكان يقرؤها في نفسه، فعرض عليه بعض أصحابه ما روى: إني وددت أن الذي يقرأ خلف الإمام في فيه جمرة[١]، فقال: وقد صح عنه ﷺ: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، فالحديث الأول مشعر بالوعيد والثاني ببطلان الصلاة لمن لم يقرأ بالفاتحة، وإني أحب أن أتحمل الوعيد ولا أستطيع أن تبطل صلواتي، على أنه قد صح في الأصول أن الأخذ بالأحوط والخروج من الخلاف أولى، وكان رحمه الله يجوز صلاة الجنازة على الغائب ويستدل عليه بالحديث المشهور، وكان يقول: إذا سمعتم بالحديث ولم تجدوه في الصحاح فلا تقولوا: إنه مردود، بل قولوا: إنا ما وجدناه في الكتب المتلقاة بالقبول.

وكان يستمع الغناء بالدف.

(٢) وكان مغنيه ذا دين، وكان تواجده أن يقوم على سجادته ويبكي بكاء شديداً تبل دموعه المناديل، وكان يحب أن يخفي على الناس بكاءه، وقلما رآه الناس باكياً، وإنما يعرفون ذلك ببل المناديل، فكان يمسحها بيده ومنديله، ولم يسمع منه في ذلك الحال صوت التأوه قط، وكان يحترز عن المزامير ويمنع أصحابه عن ذلك ويقول: إنها حرام في الشريعة المطهرة.

وكان يقول: إن للسماع آداباً من حيث المستمع والمسمع والمسموع وآلة السماع، فلا بد أن يكون المستمع مائلاً إلى الحق، والمسمع رجلاً صالحاً لا امرأة ولا أمرد، والمسموع خالياً عن الهزل، وآلة السماع لا تكون محرمة كالرباب وغيرهما من المعازف والمزامير، ويقول: لا بد أن يكون المجلس خالياً من غير الصلحاء، انتهى.

---

(١) قال المعلق: هذا الحديث ليس بخبر مرفوع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل أثر رواه محمد بن الحسن الشيباني عن داود بن قيس عن بعض ولد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه ذكر له أن سعداً قال: وددت، الحديث، قال ابن عبد البر في الاستذكار: هذا الحديث منقطع لا يصح، انتهى (من المؤلف).

وقد ذكره علي بن سلطان القارى المكي في كتابه «الأثمار الجنية في أسماء الحنفية» وقال: إنه شيخ فقيه علماً وحالاً، وإليه المنتهى في دعاء الخلق إلى الله تعالى وتسليك طريق العبادة والانقطاع عن علائق الدنيا، هذا مع التضلع من العلوم الظاهرة والتبحر في الفضائل الفاخرة، ومكاشفاته والخوارق التي ظهرت على يده ولسانه أكثر من أن يطمع في إحصائها بقلم ولسان.

مات رحمه الله تعالى في سنة خمس وعشرين وسبعمائة وله تسع وثمانون سنة، ودفن بمدينة دهلى[1].

السلطان محمد بن تغلق شاه

أبو مجاهد فخر الدين محمد بن تغلق شاه التركي الدهلوي السلطان الجائر المشهور بالعادل.

ولد ونشأ بأرض الهند، وكان أبوه تركياً من مماليك صاحب الهند، فتنقل إلى أن وَلِيَ السلطنة واتسعت مملكته جداً، وكان هذا الملك من عجائب الزمن وسوانح الدهر، لم ير مثله في الملوك والسلاطين في بذل الأموال الطائلة وسفك الدماء المعصومة وفتح الفتوحات الكثيرة وتوسيع المملكة العظيمة، وسنذكر من أخباره عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه مما رأى الشيخ محمد بن بطوطة المغربي بعينه وكان ساح بلاد الهند ودخل دهلي في عهده وولي القضاء.

(١) قال ابن بطوطة في «كتاب الرحلة»: إنما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعاينته ولا سيما جوده على الغرباء، فإنه يفضلهم على أهل الهند ويؤثرهم ويجزل لهم الإحسان ويسبغ عليهم، ومن إحسانه إليهم أن سماهم الأعزة ومنع أن يدعوا الغرباء وقال: إن الإنسان إذا دُعي غريباً انكسر خاطره وتغير حاله.

---

(١) «الإعلام»: ٢/١٢٤ ـ ١٣١.

(١) فمن ذلك أنه قدم عليه ناصر الدين الترمذيّ الواعظ وأقام تحت إحسانه مدة عام، ثم أحب الرجوع إلى وطنه فأذن له في ذلك، ولم يكن يسمع وعظه فأمر أن يهيأ له منبر من الصندل الأبيض المقاصري وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب وألصق بأعلاه حجر ياقوت عظيم وخلع على ناصر الدين خلعة مرصعة بالجوهر ونصب له المنبر فوعظ وذكر، فلما نزل عن المنبر قام السلطان إليه وعانقه وأركبه على فيل وضربت له سراچة[1] من الحرير الملون وصيوانها من الحرير وخباؤها أيضاً كذلك، فجلس الواعظ فيها وكان بجانبها أواني الذهب أعطاه السلطان إياها، وذلك تنور كبير بحيث يسع في جوفه الرجل القاعد وقدران وصحاف، كل ذلك من الذهب، وقد كان أعطاه عند قدومه مائة ألف دينار.

(٢) ومن ذلك أنه وفد عليه غياث الدين محمد بن عبدالقاهر بن يوسف بن عبدالعزيز بن الخليفة المستنصر بالله العباسيّ، فلما وصل إلى بلاد السند بعث السلطان من يستقبله، ولما وصل إلى سرستي بعث لاستقباله القاضي كمال الدين الهانسوي وجماعة من الفقهاء، ثم بعث الأمراء لاستقباله، فلما وصل إلى خارج الحضرة خرج بنفسه واستقبله، ولما دخل دار الملك أنزله بدار الخلافة في القصر الذي بناه السلطان علاء الدين الخلجي، وأعد له فيه جميع ما يحتاج إليه من أواني الذهب والفضة حتى من جملتها مغتسل يغتسل فيه من ذهب، وبعث له أربعمائة ألف دينار لغسل رأسه على العادة وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجواري، وعين لنفقته كل يوم ثلاثمائة دينار بعث له زيادة إليها عدداً من الموائد بالطعام الخاص، وأعطاه جميع مدينة سيري أقطاعاً وجميع ما احتوت عليه من الدور وما يتصل بها من بساتين المخزن[2] وأرضه، وأعطاه مائة قرية، وأعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة لدهلي، وأعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ويكون علفها من المخزن.

---

(١) قال المعلق: سراچه بالفارسية معناه الخباء.

(٢) قال المعلق: المخزن بالعامية المغربية يراد به الدولة.

(١) ومما يحكى من تواضع السلطان وإنصافه أنه ادعى عليه رجل من كبار الوثنيين أنه قتل أخاه من غير موجب ودعاه إلى القاضي، فمضى على قدميه ولا سلاح معه إلى مجلس القاضي، فسلم وخدم وكان قد أمر القاضي قبل أنه إذا جاءه إلى مجلسه فلا يقوم له ولا يتحرك، فصعد إلى المجلس ووقف بين يدي القاضي، فحكم عليه أن يرضي خصمه من دم أخيه، فأرضاه.

(٢) ومن ذلك أنه ادعى صبيّ من أبناء الملوك عليه أنه ضربه من غير موجب ورفعه إلى القاضي، فتوجه الحكم عليه بأن يرضيه بالمال إن قبل ذلك وإلا أمكنه القصاص، فعاد لمجلسه واستحضر الصبي وأعطاه عصا وقال: وحق رأسي أن تضربني! فأخذ الصبي العصا وضربه بها إحدى وعشرين ضربة، وذلك مما شاهده ابن بطوطة، وإني رأيت الكلاه[١] قد طارت عن رأسه.

(٣) ومما يحكى في اشتداده في إقامة الشرع ورفع المغارم والمظالم أنه كان شديداً في إقامة الصلاة آمراً بملازمتها في الجماعات يعاقب على تركها أشد العقاب، ولقد قتل في يوم واحد تسعة رجال على تركها كان أحدهم مغنياً، وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الأسواق، فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عوقب حتى انتهى إلى عقاب الستائرين الذين يمسكون دواب الخدام إذا ضيعوا الصلاة وأمر أن يطالب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الإسلام، فكانوا يُسألون عن ذلك، فمن لم يحسنه عوقب، وصار الناس يتدارسون ذلك ويكتبونه، ومما قيل في ذلك أنه أمر أخاه أن يكون قعوده مع قاضي القضاة في قبة مرتفعة مفروشة بالبسط، فمن كان له حق على أحد من كبار الأمراء وامتنع من أدائه لصاحبه يحضره رجال أخيه عند القاضي لينصفه.

---

(١) قال المعلق: الكلاه، بالفارسية: القلنسوة.

(١) ومما فعل أنه أمر برفع المكوس عن بلاده، وأن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة، وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم في كل يوم اثنين وخميس، ولا يقوم بين يديه في ذلك اليوم إلا أمير حاجب وخاص حاجب وسيد الحجاب وشرف الحجاب لا غير، ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من المثول بين يديه، وعين أربعة من الأمراء الكبار يجلسون في الأبواب الأربعة لأخذ القصص من المشتكين، فإن أخذ الأول فحسن وإلا أخذه الثاني أو الثالث أو الرابع، وإن لم يأخذوه مضى إلى قاضي المماليك، فإن أخذه منه وإلا شكا إلى السلطان، فإن صح عنده أنه مضى إلى أحد منهم فلم يأخذه منه أدبه، وكل ما يجتمع من القصص[١] في سائر الأيام يطالعه بعد العشاء الآخرة.

وأما فتكات هذا السلطان وما نقم من أفعاله فلا تسأل عن ذلك، فإنه كان مع تواضعه وإنصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة كثير التجاسر على إراقة الدماء، لا يخلو بابه عن مقتول إلا في النادر، كان يعاقب على الصغيرة والكبيرة، ولا يحترم أحداً من أهل العلم والصلاح والشرف، وفي كل يوم يرد عليه من المسلسين والمغلولين والمقيدين مئون، فمن كان للقتل قتل أو للعذاب عذب أو للضرب ضرب.

(٢) فمن ذلك قتله لأخيه مسعود خان، أمه كانت بنت السلطان علاء الدين الخلجي، وكان من أجمل الناس فاتهمه بالقيام عليه، وسأله عن ذلك، فأقر خوفاً من العذاب، فإنه من أنكر ما يدعيه عليه يعذب، فيرى الناس أن القتل أهون من العذاب، فضرب عنقه في وسط السوق وبقي مطروحاً هنالك ثلاثة أيام، وكانت أم هذا المقتول قد رجمت في ذلك الموضع قبل ذلك بسنتين لاعترافها بالزنا.

(٣) ومن ذلك أنه عين فرقة من العسكر تتوجه لقتال الكفار ببعض الجبال

---

(١) عرائض الشكوى ونحوها.

المتصلة بحوز دهلي، فخرج معظم العسكر بقائده وتخلف قوم منهم، فكتب القائد إليه يعلمه بذلك، فأمر أن يطاف بالمدينة ويقبض على من وجد من أولئك المتخلفين، ففعل ذلك وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم، فأمر بقتلهم جميعاً فقتلوا.

(١) ومن ذلك أنه أمر فقيهين من أهل السند أن يمضيا مع أمير عيّنه إلى بعض البلاد وقال لهما: سلمت أحوال البلاد والرعية لكما ويكون هذا الأمير معكما يتصرف بما تأمرانه به، فقالا له: إنما نكون كالشاهدين عليه ونبين له وجه الحق ليتبعه، فقال لهما: إنما قصدتما أن تأكلا أموالي وتضيعاها وتنسبا ذلك إلى هذا التركيّ الذي لا معرفة له، فقالا: حاشا لله! ما قصدنا هذا، فقال: اذهبوا بهما إلى النهاونديّ ـ وكان الموكل بالعذاب ـ وقال لزبانيته: أذيقوهما بعض شيء، فألقيا على أقفائهما، وجعل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة، ثم قلعت بعد هنيهة فذهب بلحم صدورهما، ثم أخذ البول والرماد فجعل على تلك الجراحات، فأقرا على أنفسهما أنهما لم يقصدا إلا ما قاله السلطان واعترفا عند القاضي، فسجل على العقد وكتب فيه أن اعترافهما كان من غير إكراه وإجبار فقتلا.

(٢) ومن أعظم ما نُقِم عليه إجلاؤه لأهل دهلي عنها وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ويكتبون عليها: وحق رأس السلطان ما يقرؤها غيره! ويرمون بها في القصر ليلاً، فإذا فضها وجد فيها شتمه وسبه، فعزم على تخريب دهلي واشترى من أهلها جميعاً دورهم ومنازلهم ودفع لهم ثمنها، وأمرهم بالانتقال إلى دولت آباد، فأبوا ذلك فنادى مناديه أن لا يبقى بها أحد بعد ثلاث، فانتقل معظمهم واختفى بعضهم في الدور، فأمر بالبحث عمن بقي بها فوجد عبيده بأزقتها رجلين أحدهما مقعد والآخر أعمى، فأمر بالمقعد فرمي بالمنجنيق، وأمر أن يجر الأعمى من دهلي إلى دولت آباد مسيرة أربعين يوماً، فتمزق في الطريق وقضى نحبه، ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعاً وتركوا أثقالهم وأمتعتهم، وبقيت المدينة خاوية على

عروشها، ثم كتب إلى أهل البلاد أن ينتقلوا إلى دهلي ليعمروها، فخربت بلادهم ولم تعمر دهلي لاتساعها وضخامتها[1]، وذلك قليل من كثير من فتكاته نقلتها من «كتاب الرحلة» للشيخ محمد بن بطوطة المغربي الرحالة، وهو قد دخل الهند في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة فأكرمه محمد شاه وولاه القضاء بمدينة دهلي.

ولابن بطوطة قصيدة في مدح السلطان.

(١) قال القاضي محمد بن علي الشوكاني في «البدر الطالع» إنه كان جواداً متواضعاً عالماً بفقه الحنفية مشاركاً في الحكمة، ومن محبته للعلماء أنه أهدى له شخص أعجمي «الشفاء» لابن سينا بخط ياقوت الحمويّ في مجلد واحد، فأجازه بمال عظيم، يقال إن قدره مائتا ألف مثقال أو أكثر، وورد كتابه على الناصر صاحب مصر في مقلمة ذهب زنتها ألفا مثقال مرصعة بجوهر تقوم بثلاثة آلاف دينار، وجهز إليه مرة مركباً قد ملىء من التفاصيل الهندية الفاخرة الفائقة وأربعة عشر حقاً قد ملئت من فصوص الماس وغير ذلك، فاتفق أن رسله اختلفوا فقتل بعضهم بعضاً، فنمى ذلك إلى صاحب اليمن، فقتل الباقين بمن قتلوا واستولى على الهدية، فبلغ الناصر فغضب وكاتب صاحب اليمن في معنى ذلك، وجرت أمور يطول شرحها.

(٢) وكان مع سعة مملكته عِنِّينا كُوِيَ على صلبه وهو حدث لعلة حصلت له، ويقال إن عساكره بلغت ستمائة ألف، وإنه كان له ألف وسبعمائة فيل، وفي خدمته من الأطباء والحكماء والعلماء والندماء عدد كثير لم يجتمع لغيره، وكان يخطب له على منابر بلاده: سلطان العالم، إسكندر الزمان، خليفة الله في أرضه، انتهى.

---

(١) هذه عاقبة الظلم في الدنيا وهي خراب البلدان والممالك، أعاذنا الله من الظلم والظالمين.

وله أبيات رقيقة رائقة بالفارسية.

مات سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة[1].

السلطان محمد شاه البهمنيّ

الملك المؤيد محمد بن الحسن البهمنيّ، السلطان المجاهد في سبيل الله. قام بالملك بعد والده سنة تسع وخمسين وسبعمائة بأرض دكن، وافتتح أمره بالعدل والسخاء، وسار إلى بلاد تلكانه سنة ثلاث وستين، فقاتل أهلها ونهبها وغنم من الذهب والجواهر الثمينة مالا يحصى، وعاد إلى گلبرگه، ثم صار في سنة أربع وسبعين إلى تلك البلاد، ولما عرف صاحبها عجزه عن المقاتلة أرسل إليه يطلب المصالحة على مال يؤديه، فأبى محمد شاه ثم أجابه إلى ذلك على ثلاثمائة فيل ومائتي فرس وثلاثة عشر مائة هن وبلدة گولكنده، فأرسل إليه كل ذلك صاحبها وأرسل إليه سريراً مرصعاً من الذهب والجواهر، فرجع إلى گلبرگه وأرسل خمس الغنائم إلى الشيخ سراج الدين الجنيدي ليفرقها على من يستحقها من السادة والمشايخ.

(١) وفي تلك السنة قدم إليه صاحب بيجانگر وأخذ قلعة مدكل عنوة وقتل ثمانمائة من المسلمين ممن كانوا فيها، فلما سمع محمد شاه اشتعل غضباً وحلف أنه يقتل من الوثنيين مائة ألف في قصاص المقتولين، ثم جعل ولده المجاهد وليَّ عهده وأوصى إليه وسار بتسعة آلاف فارس إلى صاحب بيجانگر وكان معه ثلاثون ألف فارس وتسعمائة ألف راجل، ونهر كشنه كان عظيماً كثير الزيادة لا يخطر على قلب أحد أن محمد شاه يقدر على عبوره، وأيده الله سبحانه على العبور فأقام على شاطئه، وألقى الله تعالى الرعب في قلب صاحب بيجانگر فهابه وبعث الأحمال والأثقال كلها إلى بيجانگر، وأقام بمعسكره ليستشير أصحابه في الحرب، فإن رضوا بالحرب حاربوه

---

(١) «الإعلام»: ٢/ ١٣٢ ـ ١٣٩.

وإلا يذهب إلى بيجانگر ويتحصن بها، والأحمال التي بعثها إلى بيجانگر لم تتجاوز ميلين لشدة الوحل ذلك اليوم، فلما سمع محمد شاه أنه ينتهز الفرصة للفرار بكر إليه بعساكره، فتركوا الفيلة والأموال وما كان معهم من الأحمال وفروا إلى قلعة أودني فأقام محمد شاه في معسكره وقبض على أمواله وأمر بالقتل، فقتل من الوثنيين في ذلك اليوم سبعين ألفاً من الرجال والنساء والولدان من غير تفريق، وحصل له من المغانم ألفان من الفيلة وثلاثمائة من عجلات المدافع وسبعمائة من الأفراس.

ثم سار إلى مدكل وأقام بها، ولما انقضت أيام المطر قصد قلعة أودنى فلما سمع صاحب بيجانگر استخلف بها ابن أخيه وذهب إلى ناحية من نواحى بلاده، فسار محمد شاه إلى بلاد بيجانگر مع المقاتلة، وأرسل الأحمال والأفيال إلى گلبرگه وقصد معسكر صاحبها، فبعث إليه صاحب بيجانگر مقدم عساكره بأربعين ألف فارس وخمسمائة ألف راجل، وكان عساكر محمد شاه خمسة عشر ألف فارس وخمسين ألف راجل مع ما لحق به من بعض عساكر الأمراء بعد خروجه عن گلبرگه، فالتقوا واقتتلوا وانهزم الوثنيون، وأكثر محمد شاه في القتل فلم ينج منهم إلا القليل النادر، وأقام بها سبعة أيام، وسار محمد شاه في أثر صاحب بيجانگر من طريق إلى طريق ومن مضيق إلى مضيق حتى وصل إلى بيجانگر وحاصرها وضيق على أهلها وأدام الحصار إلى شهر كامل، ثم دبر الحيلة وتمارض وأمر برجوع العساكر من بيجانگر، فلما سمع المشركون ذلك طمعوا في قتلهم ونهب أموالهم، فخرج صاحب بيجانگر من القلعة وتعقب المسلمين حتى وصل إلى ماء تمهندره وعبرها ووصل إلى أرض قفراء، فقام محمد شاه من فراشه وجلس للناس وقت المساء وقويت عساكره برؤيته فأمرهم أن تجهزوا للحرب، وسار بعساكره في الليل إلى معسكر المشركين وكانوا مشتغلين بالرقص والغناء، ولم يعلموا بمجيئه إلا حين وقف على رؤوسهم في البكرة، فاختلت حواسهم وفر كل واحد منهم إلى ناحية من نواحي الأرض وتركوا جميع ما لهم من الأموال والأحمال، وأمر محمد شاه بقتلهم فقتل

منهم حينئذ عشرة آلاف، وغنم محمد شاه أموالاً طائلة، ثم تعقبهم إلى أربعين ميلاً من بيجانگر وقتل ونهب، فاضطروا إلى الصلح وأرسل كشن راي إلى محمد شاه يطلب الصلح على مال يؤديه عاجلاً، فرجع محمد شاه إلى گلبرگه واشتغل بمهمات الدولة، واستقل بالملك سبع عشرة سنة وتسعة أشهر.

وتاب في آخر عمره من الخمر.

وكانت وفاته سنة ست وسبعين وسبعمائة[1].

السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي

الملك المؤيد محمد بن مسعود الخلجي السلطان علاء الدين محمد شاه، كان ابن أخي السلطان جلال الدين الخلجي وخَتَنه، أقطعه مدينة كره وما والاها من البلاد، وذهب إلى ديوگير حيث لم يبلغ إليه أحد من الملوك في القرون الماضية، وديوگير كانت كرسيَّ بلاد مالوه ومرهته وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار، فأذعن له سلطانها بالطاعة وأهدى له هدايا عظيمة، فرجع إلى مدينة كره سالماً ظافراً، ولم يبعث إلى عمه شيئاً من الغنائم فأغرى الناس عمه به فبعث إليه، فامتنع من الوصول إليه، فقال عمه: أنا أذهب إليه وآتي به فإنه محل ولدي، فتجهز في عساكره وطوى المراحل حتى حل بساحة مدينة كره وركب النهر بقصد الوصول إلى ابن أخيه، وركب ابن أخيه أيضاً في مركب ثان عازماً على الفتك به وقال لأصحابه: إذا أنا عانقته فاقتلوه، فلما التقيا وسط النهر عانقه ابن أخيه وقتله أصحابه كما أمرهم، واحتوى على ملكه وعساكره، وعاد بعضهم إلى دهلي واجتمعوا على ركن الدين بن جلال الدين فخرج بقتاله، فهربوا جميعاً إلى علاء الدين وفر ركن الدين إلى السند.

ودخل علاء الدين دار الملك في سنة ست وتسعين وستمائة، واستقام

---

(١) «الإعلام»: ٢/ ١٣٩ ـ ١٤٢.

له الأمر عشرين سنة، ففتح البلاد وسخرها، وقاتل التتر قتالاً شديداً وأكثر الفتك والأسر فيهم فانهزموا إلى خراسان، ثم سير عساكره إلى گجرات في سنة سبع وتسعين فقاتلوا صاحبها راي كرن، وقتلوا ونهبوا في تلك البلاد ثم ملكوا نهرواله وما والاها من البلاد، وفر راي كرن إلى ديوگير واحتمى بصاحبها.

(١) وفي تلك السنة قدم قتلق خواجه عظيم التتر ومعه مائتا ألف فارس، فنهب البلاد وأحرقها ووصل إلى ظاهر مدينة دهلي، فخرج علاء الدين ومعه ثلاثمائة ألف فارس وألفان وسبعمائة من الفيلة، فقاتله قتالاً شديداً وهزمه إلى ما وراء النهر، وبعث عساكره إلى رنتهنبور في سنة تسع وتسعين وستمائة فحاصروها وضيقوا على أهلها، ثم سار علاء الدين بنفسه إلى تلك القلعة وشدد في القتال وفتحها بعد مدة من الزمان وقتل صاحبها همير ديو ووزيره أنمل وخلقاً كثيراً من أهله، وخرج عليه في أثناء ذلك رجال من أهله فقتلوا.

(٢) ولما رجع إلى مدينة دهلي جمع أصحابه وشاورهم في البغي والخروج[١]، فقالوا: إن أسباب ذلك أربعة: الأول: غفلة الملك عن الناس ومعاملتهم فيما بينهم، والثاني: إدمان الخمر وإعلانه، والثالث: مصاهرة الملوك والأمراء فيما بينهم، والرابع: إفراط المال في أيدي الناس، فقام السلطان لدفع الأسباب المذكورة وعين الجواسيس على الناس حتى ضاق عليهم الكلام في أمر من الأمور في الخلوة، ثم أصلح الطرق والشوارع بحيث لا يقدر أحد أن يتعرض لعجوز في الطريق من منتهى أرض بنگاله إلى بلاد السند، ثم نهى الناس عن شرب الخمر وأهرقها وكسر الظروف، ونهى الأمراء أن يصاهر بعضهم بعضاً بدون إذنه، ثم توجه إلى المال وقبض ما كان في أيدي الناس من أقطاع الأرض والقرى وقفاً كان أو ملكاً أو إنعاماً (تبرعاً) من الملوك فجعل كلها خالصة له، ومد يده في أموال

(١) أي في أسباب خروج الناس على السلطان.

الناس فأخذها بالمصادرة، ثم أسس القوانين للمالية ليستوي الضعيف بالقوي:

(ألف) أن يؤخذ النصف من غلات الأرض لبيت المال على وجه المساحة بغير استثناء.

(ب) أن ما يحصل للمقدم والچودهري[1] أيضاً يدخل في بيت المال.

(ج) لا يساغ للناس أن يزيدوا على أربع بقرات للزرع وجاموستين وبقرتين واثني عشر رأساً من المعز سواء كان مقدماً أو چودهرياً أو كان من عامة الناس.

(د) أن يؤخذ منهم مكس العلف على رؤس الدواب، ثم شدد في تنفيذها حتى استوت الضعفاء بالأقوياء[2].

(١) ثم سار بعساكره إلى حصن چتور وكان من أحسن الحصون وأمنعها في بلاد الهند، ففتحها عنوة في سنة ثلاث وسبعمائة، وبعث عساكره إلى ورنگل من بلاد دكن.

(٢) وقدم عساكر التتر العظيمة في تلك السنة فهزمهم، ثم قدم التتر في سنة سبع وسبعمائة بأربعين ألف فارس ووصلوا إلى أمروهه، فبعث إليهم الغازي ملك (تغلق الذي وَلِيَ الملك بعد مبارك شاه) فقاتلهم وأكثر الفتك والأسر فيهم وغنم منهم عشرين ألف فرس.

(٣) وبعث عين الملك المُلتانيّ إلى بلاد مالوه فقاتل صاحبها وقبض على أجين ومندو ودهار وچنديري وغيرها من البلاد العظيمة، ثم قدم التتر فبعث الغازي ملك (تغلق) إليهم فقاتلهم قتالاً شديداً وهزمهم إلى بلادهم، ثم

---

(١) قال المعلق: لفظ هندي معناه العريف.

(٢) المساواة بين الأغنياء والفقراء بالقوّة والظلم أمر محرم وهو خلاف الفطرة، وهو عين ما فعله الشيوعيون في البلاد العربية وغيرها في القرن الفائت، فخربت بلادهم.

بعث العساكر إلى ديوگير، ولما عرف صاحبها عجزه عن المقاتلة خرج منها ولقي مقدم العساكر الإسلامية وأهدى إليه الهدايا الجميلة، ثم جاء إلى دهلي وأدرك علاء الدين وأذعن له بالطاعة، فأقطعه علاء الدين بلاده وضم إليها بعض البلاد من إيالة گجرات.

(١) وأما عساكره المبعوثة إلى ورنگل، وكانت كرسيَّ بلاد دكن، فإنهم وصلوا إلى ذلك الحصن وحاصروه وأداموا الحصار وضيقوا على أهلها وقاتلوهم قتالاً شديداً حتى فتح الله سبحانه عليهم بالمصالحة على مال يؤديه صاحبها عاجلاً وآجلاً، وكذلك بعث عساكره إلى بلاد المعبر ففتحوها وأسسوا بها مسجداً وهو أول مسجد أسس بتلك البلاد.

(٢) قال محمد قاسم بن غلام علي البيجاپوري في تاريخه: إن عدة المعارك العلائية كانت أربعاً وثمانين وفي كلها ظفر وغنم، وكانت عدة خدمه سبعين ألفاً، سبعة آلاف منهم كانوا بنائين، انتهى.

(٣) ثم إنه أسس قواعد السعر للأطعمة والأقمشة ولكل ما يحتاج إليه الناس، أما وضع القواعد لسعر الأطعمة فالأُولى منها أنه وَلّى رجلاً من أهل الدين والأمانة على الاحتساب في سوق الأطعمة لينظر في الأسعار، والثانية أنه أمر أن ما تحصل من زروع الخالصة الشاهانية من الغلة تخزن في العمالات، فإن ارتفع السعر أو قلت الأطعمة بيعت أطعمة المخزن بثمن معين، والثالثة أنه أمر المحتسب باحضار التجار وإسكانهم على شاطىء جمنا بمدينة دهلي وأمرهم أن يأتوا بالأطعمة من نواحي الأرض ويبيعوها بالأسعار التي قررها السلطان، والرابعة أن يمنع الناس عن الاحتكار ويشدد عليهم إن ثبت ذلك، والخامسة أنه إذا حصد الزرع فلا يساغ لهم أن يختزنوه بل يبيعونه كله في تلك الساعة غير ما يكفيهم للقوت في تلك السنة، والسادسة أنه أمر المحتسب أن يعرض عليه كل يوم أسعارهم وكان يتفقد بنفسه ويسأل عن أسعارهم ويعزرهم إن لم يأتمروا بها.

(٤) ولما وضع القواعد لحفظ أسعار الأقمشة فالأُولى منها أنه بنى حوانيت

عالية البناء عند الباب البدايوني بمدينة دهلي وأمر أن يسكن به البزازون ويبيعوا الأقمشة بها من الصباح إلى الظهيرة ولا يبيع أحد في غير ذلك الموضع أصلاً، وسمى تلك الحوانيت «سراي عدل»، والثانية أنه وضع دفتراً للبزازين الذين كانوا يأتون بالأقمشة من بلاد أخرى ويبيعون بمدينة دهلي بالأسعار المعلومة، والثالثة أن من يريد من الأغنياء الأقمشة الثمينة يستأذن من شِحنة السوق[1] أولاً ثم يشتريها لئلا يشتريها البزازون بالأسعار المعهودة ويبيعوها في بلاد أخرى بغير تلك الأسعار، والرابعة أنه أمر أن يعطى التجار الملتانيون ألفي ألف تنكة[2] ليجلبوا الأقمشة من بلاد أخرى ويبيعوها في «سراي عدل» بالأسعار المعهودة.

وأما وضع القواعد لحفظ أسعار الخيل فالأولى منها أنه نهى أرباب الأموال أن يشتروا الخيل من التجار ونهى التجار أن يبيعوهم إياها وشدد في تنفيذها، الثانية أنه شدد على السماسرة إن ثبت أنهم توسطوا في الزيادة على الأسعار المعهودة، والثالثة أنه كان يتفقد بنفسه عن السماسرة ويسأل عن الأسعار، فإن ظهر الزيادة أو النقصان بما تعهده يعاقبهم جميعاً.

وكذلك قرر الأسعار للبقر والجواميس والإبل والمعز والضأن وغيرها، لكل شيء مما يحتاج إليه الناس من الإبرة فما فوقها على ما يناسبه الزمان.

أما النقود والأوزان التي كانت في أيامه فالتنكة كانت ذهبية وفضية بقدر التولة، والمراد ههنا الفضية وكانت تبادل بخمسين جيتل، والجيتل كان من النحاس بقدر التولة وقيل بقدر تولتين إلا ربعاً، وكان المن أربعين آثاراً، والآثار أربع وعشرون تولة.

أما عساكره فكانت خمسة وسبعين ألفاً وأربعمائة ألف فارس.

وكانت وفاته سنة ست عشرة وسبعمائة[3].

---

(١) إدارة السوق.

(٢) اسم للعملة السائدة في ذلك الوقت، وسيأتي تقديرها.

(٣) «الإعلام»: ٢/١٥٢ - ١٥٨.

السلطان محمود شاه البهمنيّ

الملك المؤيد محمود بن الحسن البهمني محمود شاه السلطان العادل الفاضل، وَلِيَ المملكة بعد أخيه داود شاه في سنة ثمانين وسبعمائة وجلس على سرير والده بمدينة گلبرگه، وافتتح أمره بالعدل والإحسان.

وكان من خيار السلاطين عادلاً باذلاً كريماً فاضلاً، عارفاً باللغة العربية والفارسية، يتكلم بهما في غاية الطلاقة، وكان جيد الكتابة حلو الخط جيده، وله ميل إلى قرض الشعر، وقد اجتمع العلماء عنده من كل ناحية وبلدة.

(١) ومن مآثره أنه أنشأ المكاتب لتعليم اليتامى فيگلبرگه وبيدر وقندهار وإيلچپور وجنير وجيول ودائل وفي بلاد أخرى من مملكته، وجعل الأرزاق السنية للمحدثين ليشتغلوا بالحديث بجمع الهمة وفراغ الخاطر، وكان يعظمهم غاية التعظيم، وجعل الأرزاق للعميان والمقعدين.

(٢) وكان يتكلف في الزي واللباس قبل أن يصل إلى السلطنة تكلفاً بالغاً، فلما قام بالملك ترك التكلف والتصنع في ذلك، وكان يقول: إن الملوك أمناء الله على بيت مال المسلمين، فلا ينبغي لهم أن يأخذوا منه ما يزيد على قدر الحاجة.

توفي إلى رحمة الله سبحانه في سنة تسع وتسعين وسبعمائة، وكانت مدته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً[١].

القاضي مغيث الدين اليبانويّ

الشيخ العالم الفقيه الصالح مغيث الدين الحنفي البيانويّ أحد كبار الفقهاء الحنفية، انتهت إليه رياسة العلم والعمل في عصر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجيّ، والسلطان كان يقربه إلى نفسه ويخلو به

(١) «الإعلام»: ٢/١٦٠ - ١٦١.

ويدعوه إلى مائدة الطعام، ويحسن الظن به دون غيره من العلماء، وكان القاضي لا يخافه في قول الحق.

(١) قال القاضي ضياء الدين البرنيّ في تاريخه: إن السلطان قال له مرة: إني سائلك عن أشياء فلا تقل غير الحق، فقال القاضي: أظن أن الموت قد دنا مني، فقال: كيف علمت ذلك؟ فقال: لأن السلطان يسألني عن أشياء، فإذا قلت ما هو الحق غضب علي ثمّ يقتلني، فقال: إني لست بقاتلك أبداً، ثم سأله عن الوثنيين كيف يصيرون ذميين في الشرع؟ فأجاب القاضي أنهم إذا أدوا الجزية عن يد وهم صاغرون حتى أن المحصل إذا أراد أن يبصق في أفواههم فتحوها لذلك، وهذا قول أبي حنيفة، وأما غيره من المجتهدين فإنهم لا يجيزون أخذ الجزية من الوثنيين، فعندهم إما السيف وإما الإسلام، فضحك السلطان وقال: ما كان لي علم بما تقول ولكني سمعت أنهم لا يؤدون الجزية ويركبون الخيل ويرمون النبال الفارسية ويلبسون الثياب الثمينة ويتزينون بكل زينة ويشربون الخمر ولا يخضعون للولاة فقلت في نفسي: إني عزمت على أن أفتح بلاداً أخرى وكيف أفتح إذ لم يخضع لنا أهل هذه البلاد؟ فأمرت بالتشديد حتى خضعوا، وأنت عالم ولكنك ما اختبرت الأمور، وإني جاهل ولكني اختبرت الأمور وجربت الأحوال، فاعلم أن الوثنيين لا يخضعون لنا حتى يعزروا ولا يترك لهم إلا ما يكفيهم.

(٢) ثم سأله عن السرقة والارتشاء والخيانة هل تجوز للعمال وكتاب الدواوين في الشرع أم لا؟ فأجاب القاضي: الذي وجدت في كتب الشرع أن العمال إن لم يعطوا ما يكفيهم للحوائج فأخذوا من بيت المال أو ارتشوا أو أنفقوا شيئاً من الخراج يجوز لأولي الأمر أن يأخذوهم بالمال أو بالحبس حسب ما اقتضاه الحال، وأما قطع اليد في ذلك فلم يرد به الشرع، فقال السلطان: إني أمرت أن يُعطى العمال ما يكفيهم موسعاً عليهم، ولكنهم إذا خانوا في العمل أخذ منهم بالضرب والحبس والقيد، ولذلك ترى أن السرقة والارتشاء والخيانة قد فقدت في هذا العهد.

(١) ثم قال: الأموال التي غنمتها في ديوگير في أيام الإمارة قبل أن أكون سلطاناً غنمتها بتحمل المحن والمشاق فهل هي لي خاصة لنفسي أو لبيت مال المسلمين؟ فأجاب القاضي أن الأموال التي غنمتها في ديوگير في أيام الإمارة غنمتها بعساكر المسلمين فهي لبيت مالهم، فلو كنت حصلتها بجهد نفسك على وجه يبيحه الشرع كانت تلك الأموال خاصة لك، فلما سمع السلطان ذلك غضب عليه وقال: كيف تقول؟ ألا يعلم رأسك ما تقول؟ الأموال التي أخذتها بجهد نفسي وقوة خاصتي من الخدم وحصلتها من الكفار الذين لا يعلمهم أحد في دهلي وما أدخلتها في بيت المال كيف تكون لبيت المال؟.

(٢) ثم سأله أنه كم لي ولأهلي وعيالي نصيب من بيت المال؟ فقال القاضي: إني أظن أن الموت قد دنا مني، فقال السلطان: لم تقول ذلك أيها القاضي؟ قال: لأن السلطان سألني عن مسألة إن أجبت عنها بما يوافق الشرع يقتلني، وإن أجبت بما يوافق هواه يدخلني الله في النار يوم القيامة، فقال السلطان: إن لست بقاتلك فقل ما بدا لك، فقال: إن اقتدى السلطان بالخلفاء الراشدين وأراد رزق الآخرة فله أن يأخذ من بيت المال ما وظفه الشرع للمجاهدين في سبيل الله، وهو أربع وثلاثون ومائتا تنكة لنفسه ولأهل بيته، وإن قال السلطان إن هذا القدر لا يكفيه لعزة السلطنة فله أن يأخذ ما يعطي غيره من الأمراء، وإن أراد أن يأخذ أكثر من ذلك بما أفتاه علماء السوء فله أن يأخذ أكثر من ذلك كثرة يعيش بها أحسن مما يعيش الأمراء، وإياه وإياه أن يأخذ أكثر من ذلك، وأن يعطي نساءه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة من بيت المال وقرى كثيرة من أرض الخراج والملابس الثمينة والظروف الغالية والجواهر الكريمة! فإنها تكون نكالاً ووبالاً لك في الآخرة، فقال السلطان: ألا تخاف سيفي فتقول: إن ما نعطيه نساءنا حرام في الشرع؟ فقال: إني أخاف سيفك ولذلك أحسب عمامتي كفني، ولكن السلطان سألني عن المسائل الشرعية فأجبت عنها بما علمته، فإن سألني

عما تقتضيه المصالح الملوكية أجيب بأن ما ينفقه السلطان على نسائه واحد من ألف.

(١) فقال السلطان: إنك حرمت عليّ كل ما سألتك عنه، فعلك تحرم ما أفعله من التعزير والتشديد، فإني أمرت في شاربي الخمر وبايعيها بالحبس في الآبار وبقطع أعضاء الزناة وبقتل النساء الزواني، وإني لا أميز الصالح من الطالح في البغاة فأقتلهم وأهلك نساءهم وأبناءهم، ومن يخون في بيت المال أمرت فيه أن يحبس في السجن ويوضع في الأغلال والقيود ويضرب ويطعن حتى يدفع ما عليه، فنهض القاضي من المجلس وذهب إلى صف النعال ووضع جبينه على الأرض ونادى بأعلى صوته سواء قتلني السلطانُ أو أبقاني لم يبح له الشرع ذلك ولم يطلق يده في أن يفعل بالمجرمين ما يشاء، فكظم السلطان غيظه ودخل في الحرم[1] ورجع القاضي إلى بيته.

(٢) ثم ودع أهله وأقرباءه في الغد توديع المحتضرين وتصدق واغتسل كغسل الميت وأتى قصر السلطنة ودخل على السلطان، فقربه السلطان إلى نفسه وخلع عليه وكساه ووصله بألف تنكة وقال: إني لم أقرأ شيئاً من العلم ولكني ولدت في بيت من بيوت المسلمين، وأخاف أن يخرجوا علينا فيقتل ألوف من المسلمين، ولذلك أمرتهم بما فيه خيرهم وصلاحهم، فلما لم يفعلوا ما أمرتهم شددت عليهم حسب ما اقتضته الحالة، ولا أعلم هل أجازه الشرع أم لا، ولا أعلم ما يفعل بي ربي يوم القيامة ولكني أناجيه وأقول: أنت تعلم يا ربي أن أحداً إن زنى بحليلة غيره لم ينقص من ملكي شيئاً، وإن شرب خمراً لم يضر بي، وإن سرق شيئاً لم يأخذ ما ترك لي أبواي، وإن خان الأمانة لم يهمني، وإني أعزرهم بما ورد به الشرع، وقد تغير الناس عما كانوا عليه في زمن النبوة، فلا أجد أحداً في مائة ألف أو خمسمائة ألف أو مائة ألف ألف من يكون له خوف من الله سبحانه، ولذلك

---

(١) دار نسائه وجواريه.

ترى كثيراً من الناس يقترفون الآثام ويجترئون على الزنا والخيانة والارتشاء مع ذلك التشديد والتعزيز، انتهى[1].

---

(١) «الإعلام»: ٢/١٧٠ - ١٧٣.

مختارات القرن الثامن
من كتاب
«البدر الطالع»

للإمام الشوكاني



الكينعيّ

إبراهيم بن أحمد بن عليّ الكينعيّ. بلَّ الله بوابل الرحمة ثراه. ولم أقف على تاريخ مولد بعد البحث عنه، وبنو الكينعيّ عرب لهم رياسة، وكانوا يسكنون قرية من قرى اليمن بينها وبين ذِمار مقدار بريد وبها مولده، وانتقل به أبوه إلى قرية معبر.

(١) كان فريد زمانه في الإقبال على الله والاشتغال بالعبادة والمعاملة والربانية، وبيته معمور بالعلم والزهد والصّلاح، وكان أحسن الناس وجهاً وأتم خِلقة قد غشيه نور الإيمان وسيماء الصالحين. وإذا خرج نهاراً ازدحم الناس على تقبيل يده والتبرك برؤية وجهه وهو يكره ذلك وينفر عنه. يغضب إذا مُدح، ويستبشر إذا نُصح.

ارتحل بعد موت والده وهو في سن البلوغ إلى صنعاء ولازم وليّ الله الزاهد العابد حاتم بن منصور الحملانيّ فقرأ عليه في الفقه.

(٢) وقرأ في الفرائض على الشيخ الخضر بن سليمان الهرش وفي الجبر والمقابلة. وفاق في جميع ذلك حتى أقرّ له أقرانه، وقال في نفسه إنه يقتدر على تقدير ما في البركة الكبيرة من الماء بالأرطال.

(٣) وكان يتكسب بالتجارة مع قنوع وعفاف واشتغال بأنواع العبادة فجمع مالاً حلالاً عاد به على أهله وإخوانه ومن يقصده. وكرر السفر إلى مكة المشرفة

وهو يزداد في أوصاف الخير على اختلاف أنواعها حتى خالط الخوف قلبه وشغل بوظائف العبادة قالبه، واستوحش من كل معارفه ومال إلى الانعزال عن الناس وانجمع عن المخالطة لهم وعكف على معالجة قلبه عن مرض حب الدنيا ولزم المحاسبة لنفسه من كل جليل ودقيق، وصام الأبد إلا العيدين والتشريق، وأحيا ليله بالقيام لمناجاة ربه.

(١) تناقل الناس عنه كلمات نافعة هي الدواء المجرب لإصلاح القلوب القاسية كقوله: (ليس الزاهد من يملك شيئاً إنما الزاهد من لا يملك شيئاً).

(٢) وكقوله لبعض إخوانه: (يا أخي جدد السفينة فإن البحر عميق، وأكثر الزاد فإن الطريق بعيد، وأخلص العَلم فإن الناقد بصير) وكقوله: (بالفقر والافتقار والذل والانكسار تحيي قلوب العارفين).

(٣) وكان مجاب الدعوة في كل ما يتوجه له، وله في ذلك حكايات وروايات، وكان إذا دُعِيَ إلى طعام ليس من الحلال الخالص يبست يده ولم يقدر على مدها إليه.

(٤) وقد رآه بعض الصالحين بعد موته وهو في مكان أرفع من مكان إبراهيم بن أدهم، فقال سبحان الله منزلة إبراهيم الكينعيّ أرفع من منزلة إبراهيم بن أدهم فسمع قائلاً يقول: لولا أن منازل الأنبياء لا يحل بها غيرهم لكان بها إبراهيم الكينعيّ.

(٥) وجاور في آخر عمره ثلاث سنين بالبيت الحرام فوصل إلى جازان وكان قد انقطع عنهم المطر مدة طويلة فسألوه أن يدعو لهم بالمطر فدعا لهم فحصل من المطر ما عم نفعه وبركته جميع تلك البلدان.

ثم وصل إلى صعدة وكان بها موته رحمه الله سنة ٧٩٣[١].

---

(١) «البدر الطالع»: ١/٤ - ٧.

الحملانيّ

الفقيه حاتم الحملانيّ اليمنيّ العلامة الزاهد، الورع القانت العابد حاتم بن منصور الحملانيّ الصنعانيّ.

كان عالماً عاملاً ورعاً تقياً فاضلاً رأساً في العبادة وإماماً يُقتدى به في الزهادة. أستاذ أهل زمانه في الفقه والأُصولَيْن[1] وعنه أخذ الزاهد الشهير إبراهيم الكينعيّ، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يدخر شيئاً لغده.

قال تلميذه الكينعيّ في نعته:

(١) صلى حاتم زهاء أربعين سنة إماماً، ما ترك صلاة واحدة في جماعة ولا سجد للسهو في جميع هذه المدة إلا ست مرات. وكان لا يدع البكاء في الصلاة مطلقاً انتهى.

(٢) وقال في الطبقات: روى الثقة أنها قبضت روحه وهو يصلي صلاة التسبيح مستلقياً من المرض انتهى.

مات سنة ٧٦٥، رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين[2].

ابن هشام

عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام.

وُلد سنة ٧٠٨، وسمع من أبي حيان ولم يلازمه، وكان شافعياً ثم تحنبل، وأتقن العربية ففاق الأقران ولم يبق له نظير فيها، وصنّف «مغني اللبيب» وهو كتاب لم يؤلف في بابه مثله واشتهر في حياته، وله تعليق على «ألفية ابن مالك».

(٣) وكان كثير المخالفة لأبي حيان شديد الانحراف عنه ولعل ذلك والله أعلم لكون أبي حيان كان متفرداً بهذا الفن في ذلك العصر غير مدافع عن

---

(١) أي أصول الفقه وأصول الدين.

(٢) «ملحق البدر الطالع»: ٦٧/١.

السبق فيه ثم كان المنفرد بعده هو صاحب الترجمة، وكثيراً ما ينافس الرجل من كان قبله في رتبته التي صار إليها إظهاراً لفضل نفسه بالاقتدار على مزاحمته لمن كان قبله أو بالتمكن من البلوغ إلى ما لم يبلغ إليه وإلا فأبو حيان هو من التمكن من هذا الفن بمكان ولم يكن للمتأخرين مثله ومثل صاحب الترجمة، وهكذا نافس أبو حيان الزمخشريّ فأكثر من الاعتراض عليه في النحو و«النهر الماد»[1] لكون الزمخشريّ ممن تفرد بهذا الشأن وإن لم يكن عصره متصلاً بعصره وهذه دقيقة ينبغي لمن أراد إخلاص العمل أن يتنبه لها فإنها كثيرة الوقوع بعيدة الإخلاص.

وقد تصدر صاحب الترجمة للتدريس وانتفع به الناس وتفرد بهذا الفن وأحاط بدقائقه وحقائقه وصار له من الملكة فيه ما لم يكن لغيره واشتهر صيته في الأقطار وطارت مصنفاته في غالب الديار حتى قال ابن خلدون: ما زلنا نحن بالغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم يُقال له ابن هشام أنحى من سيبويه.

مات سنة ٧٦١، وله نظم فمنه:

(١) من يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس في طلب العلا يسيرا يعش دهراً طويلاً أخا ذُلِّ

ورثاه ابن نباتة فقال:

(٢) سقى ابن هشام في الثرى نورُ رحمة تجر على مثواه ذيل غمام
سأروي له من سيرة المدح مسندا فما زالت أروي سيرة ابن هشام[2].

الذهبيّ

محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركمانيّ الأصل الفارقيّ ثم الدمشقيّ أبو عبدالله شمس الدين الذهبيّ الحافظ الكبير، المؤرخ صاحب التصانيف السائرة في الأقطار.

---

(١) كتاب لأبي حيان.

(٢) «البدر الطالع»: ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠٢.

وُلِد سنة ٦٧٣، وطلب بعد سنة ٦٩٠، ثم رحل إلى القاهرة، ومهر في فن الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة. قال ابن حجر: حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفاً وجمع تاريخ الإسلام فأربى فيه على من تقدمه بتحرير أخبار المحدثين خصوصاً انتهى. أي لا باعتبار تحرير أخبار غيرهم فإن غيره أبسط منه، واختصر منه مختصرات كثيرة منها «النبلاء» و «العبر» و «تلخيص التاريخ» و «طبقات الحفاظ» و «طبقات القراء»، ولعل «تاريخ الإسلام» في زيادة على عشرين مجلدا وقفت منه على أجزاء.

(١) والنبلاء في نحو العشرين مجلداً وقفت منه على أجزاء وهو مختصر من تاريخ الإسلام باعتبار أن الأصل لمن نبل ولمن لم ينبل في الغالب و «النبلاء» ليس إلا لمن نبل[1] لكنه أطال تراجم النبلاء فيه بما لم يكن في «تاريخ الإسلام».

(٢) وجميع مصنفاته مقبولة مرغوب فيها رحل الناس لأجلها وأخذوها عنه وتداولوها وقرأوها وكتبوها في حياته وطارت في جميع بقاع الأرض وله فيها تعبيرات رائقة وألفاظ رشيقة غالباً لم يسلك مسلكه فيها أهل عصره ولا من قبلهم ولا من بعدهم. وبالجملة فالناس في التاريخ من أهل عصره فمن بعدهم عِيال عليه، ولم يجمع أحد في هذا الفن كجمعه ولا حرره كتحريره. قال البدر النابلسي في مشيخته: كان علامة زمانه في الرجال وأحوالهم جيد الفهم ثاقب الذهن وشهرته تغني عن الإطناب فيه.

(٣) وقد أكثر التشنيع عليه تلميذُه السبكيّ وذكره في مواضعَ من طبقاته للشافعية ولم يأت بطائل بل غاية ما قاله إنه كان إذا ترجم الظاهرية والحنابلة أطال في تقريظهم وإذا ترجم غيرهم من شافعي أو حنفيّ لم يستوف ما يستحقه. وعندي أن هذا كما قال الأول:

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها.

---

(١) وهذا في الغالب أيضاً.

فإن الرجل قد ملىء حباً للحديث وغلب عليه فصار الناس عنده هم أهله وأكثر محققيهم وأكابرهم هم من كان يطيل الثناء عليه، إلا من قطع عمره في اشتغالٍ بما لا يفيد. ومن جملة ما قاله السبكيّ في صاحب الترجمة أنه كان إذا أخذ القلم غضب حتى لا يدري ما يقول، وهذا باطل فمصنفاته تشهد بخلاف هذه المقالة وغالبها الإنصاف والذب عن الأفاضل، وإذا جرى قلمه بالوقيعة في أحد فإن لم يكن من معاصريه فهو إنما روى ذلك عن غيره وإن كان من معاصريه فالغالب أنه لا يفعل ذلك إلا مع من يستحقه وإن وقع ما يخالف ذلك نادراً فهذا شأن البشر وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم والأهوية تختلف والمقاصد تتباين وربك يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

وقد تصدر للتدريس بمواضع من دمشق، وكان قد أضر قبل موته بسنوات وكان يغضب إذا قيل له يقدح عينيه ويقول: ما زلت أعرف بصري ينقص قليلاً قليلاً إلى أن تكامل عدمه. قال الصفديّ: لم يكن عنده جمود المحدثين بل كان فقيه النفس له دراية بأقوال الناس. مات سنة ٧٤٨[١].

(١) «البدر الطالع»: ٢/١١٠ - ١١٢.

مختارات القرن التاسع
من كتاب
«الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»

للإمام
شمس الدين السخاوي
رحمه الله تعالى



البيجوريّ

إبراهيم بن أحمد بن علي الإمام الفقيه برهان الدين أبو إسحاق البيجوريّ ـ نسبة لقرية بالمنوفية ـ القاهريّ الشافعيّ، وُلد في حدود الخمسين أو قبلها وقدم القاهرة وحفظ القرآن وكتباً، وبرع في الفقه جداً بحيث كان عجباً في استحضاره سيما كلام المتأخرين بل كان أمة في ذلك مع مشاركة في النحو والأصول.

(١) قال محيي الدين البصرويّ: لما سافرت إلى مصر حضرنا عند الجلال البُلقينيّ فتكلم فغوش عليه وقال له: اسكت يا بيجوريّ أنت ما تعرف أصولاً ولا نحواً، أنت ما تعرف إلا الفقه فقط وبكّته، زاد بعضهم أنه حدر من دمعه فتكلم فرفع له الجلال يديه على رأسه كالقرنين وقال له: وما عليّ إذا لم تفهم البقر، فزاد في الكلام معه فشحطوه برجله حتى أخرجوه من المجلس هذا والحق بيده فلما انفصل المجلس ورجع الجلال لبيته أرسل له دراهم وقماشاً وصالحه وقال له: الحق بيدك.

وقال المقريزيّ: إنه لم يخلف بعده أحفظ لفروع الفقه منه وقد تصدى لنشر الفقه وأخذ عنه الأئمة، وكذا أثنى عليه ابن قاضي شهبة.

وكان ديناً خيراً، حادّ الخلق، سليم الباطن جداً، متواضعاً ممتهناً لنفسه بالمشي وحمل طبق العجين على طريق السلف، لا يكترث بملبس ولا غيره بل معرضاً عن الرياسة التي كما قال المقريزيّ عرضت عليه فأباها، وعن الفتوى تورعاً، لا يتردد لأحد من بني الدنيا ولا يمل من الإقراء والمطالعة وخطه وضيء نير.

(١) وترك الاشتغال في آخر عمره وأقبل على التلاوة والتحدث وكان ورده في كل يوم ختمة أو قريبها حتى مات سنة خمس وعشرين وكثر التأسف على فقده لكونه لم يخلف بعده في حفظ الفروع مثله[١].

برهان الدين الخُجَنديّ

إبراهيم بن أحمد بن محمد الأديب برهان الدين أبو محمد الخُجَنديّ[٢] الأصل المدنيّ الحنفيّ. وُلد في سنة تسع وسبعين وسبعمائة بالمدينة النبوية ونشأ بها فحفظ القرآن والكنز والألفية والكافية وتلا بالسبع، وحج غير مرة وبرع في العربية وتعانى الأدب وجمع لنفسه ديواناً وأنشأ عدة رسائل بحيث انفرد في بلده بذلك.

(٢) وكتب بخطه أن الأمر الذي وسم به الرافضة أنهم رفضوا زيد بن عليّ ابن الحسين حين خرج على هشام بن عبدالملك فقالوا له: تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال: هما إماما عدل لا نبرأ منهما رضي الله عنهما فرفضوه ثم افترقت كل فرقة ثماني عشرة فرقة.

وكان فاضلاً بارعاً ناظماً ناثراً بليغاً محباً للفائدة كيساً، حسن المجالسة لطيف المحاضرة كثير النوادر والمُلح، ذا كرم زائد وآداب وغرائب. مات سنة إحدى وخمسين بالمدينة النبوية ودُفِن من يومه بالبقيع بعد الصلاة عليه بالروضة رحمه الله.

(٣) وأنشد:

كن جوابي إذا قرأت كتابي لا تردن للجواب كتاباً

واعفني من نعم وسوف ولي شغل وكن خير من دُعي فأجابا[٣]

---

(١) «الضوء اللامع»: ١/١٧ - ٢٠.

(٢) نسبة إلى خُجَندة: بلدة على شاطىء سيحون بينها وبين سمرقند عشرة أيام. انظر «معجم البلدان»: ٢/٣٤٧ - ٣٤٨.

(٣) «الضوء اللامع»: ١/٢٤ - ٢٥.

الباعونيّ

إبراهيم بن أحمد بن ناصر البرهان أبو إسحاق المقدسيّ الناصريّ الباعونيّ الدمشقيّ الصالحيّ الشافعيّ ويُعرف بالباعونيّ، وناصرة قرية من عمل صفد، وباعون قرية صغيرة من قرى حوران بالقرب من عجلون، وُلد سنة سبع وسبعين وسبعمائة بصفد ونشأ بها فحفظ القرآن، وحفظ بعض المنهاج[1] ثم انتقل منها قريباً من سن البلوغ مع أبيه إلى الشام فأخذ الفقه بها ودخل مصر أظنه قريباً من سنة أربع وثمانمائة وتردد بها إلى غير واحد من شيوخها وعلمائها ثم عاد إلى بلده فأقام بها على أحسن حال وأجمل طريقة.

واختصر الصحاح للجوهري اختصاراً حسناً، وجمع ديوان خطب من إنشائه وديوان شعر من نظمه، واشتهر ذكره وبعد وصيته وعمر حتى أخذ عنه الفضلاء طبقة بعد طبقة وصار شيخ الأدب بالبلاد الشامية بغير مدافع ولهم بوجوده الجمال والفخر.

وكان جميل الهيئة منور الشيبة، طوالا مهاباً، ذا فصاحة وطلاقة وحشمة ورياسة ومكارم، وتواضع وتودد وعدم تدنس بما يحط من مقداره، واقتدار على النظم والنثر بحيث كتب بخطه الحسن من إنشائه ما لا يُحصى كثرةً. مات سنة سبعين ودُفِن بالروضة من سفح قاسيون بوصية منه وكانت جنازته حافلة حضرها الأمراء والأعيان وجاء الخبر بذلك إلى الديار المصرية فُصلي عليه صلاة الغائب بالجامع الأزهر ـ رحمه الله وإيانا.

(١) ومما كتبته عنه قوله:

سل الله ربك ما عنده	ولا تسأل الناس ما عندهم
ولا تبتغي من سواه الغِنى	وكن عبده لا تكن عبدهم

(٢) وقوله:

إذا استغنى بنو الدنيا بمال	لهم جمٌّ فكن بالله أغنى
وإن مالوا إلى الإكثار فاقنع	فإن القنع كنز ليس يفنى

---

(١) كتاب فقه شافعي.

(١) وقوله:

سئمت من الدنيا وصحبة أهلها ... وأصبحت مرتاحاً إلى نقلتي منها
ووالله ما آسى عليها وإنني ... وإن رَغِبَتْ في صحبتي راغب عنها
فما زالت الأكدار محفوفة بها ... وما زال عنها دائماً ذو النهى ينهى

(٢) وقوله:

إذا استغنى الصديق وصا ... ر ذا وصل وذا قطع
ولم يبد احتفالاً بي ... ولم يحرص على نفعي
فأنا عنه واستغني ... بجاه الصبر والقنع
وأحسب أنه ما مر ... في الدنيا على سمعي

(٣) ومنه:

أشكو إلى الباري أناساً قد غدت ... ملأى بأنواع المخازي دورهم
تغلي علي صدورهم غيظا كما ... تغلي على الجمر الكثيف قدورهم
هم يعلنون لدى التقاءٍ مودتي ... والله يعلم ما تكن صدورهم

(٤) ومنه في شروط الوضوء:

احفظ شروطاً للوضوء نظمتها ... فبحفظها يُعنى الفقيه البارع
تميزُ إسلام وماء مطلق[١] ... والعلم بالإطلاق شرط رابع
ثم النقا عن حيضها ونفاسها ... وتيقن الحدث اشترط والسابع
إن يمكن استعماله لا عائق ... عنه وأن لا يعتريه مانع
ولِدائم الحدث اشتراط من بعد ذا ... أيضاً دخول الوقت وهو التاسع[٢].

ابن برية

إبراهيم بن برية برهان الدين مستوفي البيمارستان[٣] المنصوريّ وأحد

---

(١) الماء المطلق الذي أطلق عن التقييد فلا يُقال ماء ورد ولا غيره، وهو الماء الطهور.

(٢) «الضوء اللامع»: ١/٢٦ - ٢٩.

(٣) أي: المستشفى.

مسالمة النصارى من كتاب الأقباط. ارتد عن الإسلام وعرض عليه مراراً الرجوع فأبى بل أصرَّ على ردته ولم يبد سبباً لذلك فضربت عنقه بباب القلة من القلعة في سنة إحدى[1].

ابن خِضر

إبراهيم بن خضر بن أحمد شيخنا العلامة الفريد برهان الدين أبو إسحاق بن الزين العثماني الصعيدي القُصُوريّ، نسبه لقرية تسمى القُصُور، القاهريّ المولد والدار الشافعيّ ويُعرف بابن خِضْر. وُلِد سنة أربع وتسعين وسبعمائة بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن والعمدة والتنبيه[2] وغيرهما، ولا زال يدأب في تحصيل العلوم مع ما أوتيه من الذهن الثاقب والفهم الصائب حتى برع في النحو وفاق في الفقه وأصله، وتقدم في الفرائض والحساب وضرب في غالب الفنون بأوفر نصيب وصار في كل ذلك أحد الأئمة المُشار إليهم.

(١) وأما في قراءة الخطوط المتنوعة وسرعة السير فيها من غير نظرها قبلُ فشيء لا يشاركه فيه غيره مع تمام الاستقامة سيما في العربية بحيث عجز الأكابر عن ضبط هفوة منه في ذلك، وقد سمعت بقراءته جزءاً من تصانيف شيخنا من المسودة التي بخطه فمر فيه أحسن مرور ولم يكن شيخنا يقدم عليه في القراءة في رمضان غيره وكذا كان سريع الكتابة جداً مع الصحة ومزيد الإتقان وهي طريقة ظريفة نيرة وقد كتب بخطه الكثير خصوصاً من تصانيف شيخنا.

كل ذلك مع الديانة والأمانة والصفات الحسنة الجميلة من الكرم المفرط بحيث لا يبقي على شيء، ويحكي عن بعض شيوخه أنه أوصاه بذلك، وطرح التكلف وعدم التأنق في مركبه وملبسه بحيث لا يتحاشى لبس دنس الثياب سيما وكانت النزلة تعتريه كل قليل ويكثر لأجلها من استعمال الأدوية

---

(١) «الضوء اللامع»: ١/٣٣. وسنة إحدى أي إحدى وثمانمائة.

(٢) من كتب الفقه الشافعيّ.

وتعاطي الحقن ونحو ذلك مع بهاء صورته وضوئها وحسن المعاشرة وخفة الروح، مع السِّمن المفرط المنافي لأكثر صفاته لكنه كان طارئاً، ومزيد التواضع مع الشهامة وعدم التردد للأكابر ولو قصر نفسه على التصدي للإقراء لما اتسعت أوقاته، وما أعلم أنني أخذت بعد شيخنا عن أجلَّ منه ولم يكن مع هذه الأوصاف الحميدة والمناقب العديدة عنده أجل منه بل قصر نفسه على صحبته والانتماء إليه ومحبته حتى كان شيخنا يُغبط بذلك ولم يكن شيخنا أيضاً يقدم عليه من أصحابه غيره، وربما استملى عليه وقد وصفه في فتح الباري بالإمام العالم العلامة الفاضل الباهر الماهر المعين مفيد الطالبين جمال المدرسين، وفي موضع آخر بقوله: ولم يخلف بعده في مجموعه مثله صيانة وديانة وفهماً وحافظة وحسن تصور وانجماعاً عن أكثر الناس إلا من يستفيد منه علماً أو يفيده وعدم التردد إلى الأكابر مع ضيق اليد والعائلة وبسط النفس والتوسعة على الأقارب والأجانب وترك التشكي والصبر المستمر، قال: وقد أجاز له شيخنا العراقي وجماعة وسمع الكثير بقراءته وقليلاً بقراءة غيره ولازمني كثيراً من نحو أربعين سنة وقرأ عليّ جميع فتح الباري وتلقاه مني وقرأ عليّ الكتب الكبار في عدة سنين من شهر رمضان من كل منها وعند الله أحتسبه.

ومع هذا كله فلم يشغل نفسه بتصنيف نعم له على كثير من الكتب تقاييد نفيسة وحواش مفيدة، وأكثر ما يكتبه من ذلك بالبديهة وعبارته في غاية الجودة والتحرير والرشاقة مع ذلك، وقد ولي تدريس الفقه بالمنكوتمرية[1] وبالخروبية[1] بمصر وناب في تدريس الحديث عن شيخنا وغير ذلك مما حمد في جميعه، وحج مراراً وجاور في بعضها وحدث باليسير، وربما كتب على الفتوى بل كان شيخنا كثيراً ما يعرض عليه أجوبته في المسائل الفقهية والفرضية ونحو ذلك وربما أرسل إليه بالمسائل الدقيقة لا لعجزه عنها بل لاشتغاله بما هو أهم مما تَعَيّن عليه وكذا كان يرسل إليه

---

(١) أسماء لمدارس.

بمن يروم السلطان منه اختبار صلاحيته لولاية القضاء ونحوه لِعظَم وثـرقه بنفسه، ويعطيه في كل سنة مالاً جماً يفرقه زكاةً على الطلبة والفقراء، وكان يتحرى فيه حتى عاداه بعض الفضلاء لكونه امتنع من إعطائه لعلمه بعدم استحقاقه. وفي ترجمته في معجمي زيادة على ما ذكر ولم يزل على طريقته في العلم إلى أن تعلل بمرض في باطنه عظم منه توهجه ثم ظهر له خراج في مقعدته حتى نقل عن الجرايحي الذي كان يعالجه أنه طاعون فزاد به الأمر وشب في أحشائه اللهيب مع ضيق النفَس ومات وهو يستغفر الله بعد صلاة العشاء بساعة من الليلة المسفر صباحها يوم الخميس خامس عشر المحرم سنة اثنتين وخمسين وصُلِّي عليه من الغد في مشهد حافل ورؤيت له منامات صالحة كان جديراً بها، فرحمه الله وإيانا[1].

ابن المؤيّد

إبراهيم بن شيخ الأمير صارم الدين بن المؤيد أبي النصر المحمودي الظاهري. وُلِد بالبلاد الشامية في أوائل القرن تقريباً وأمه أم ولـد اسمها نوروز ماتت قبل سلطنة أبيه. ذكره ابن خطيب الناصرية وأنه كان مع أبيه وهو صغير حين كان نائب حلب ثم قدمها معه في أيام سلطنته، ثمّ لما جرده أبوه في سنة اثنتين وعشرين لفتح البلاد القرمانية دخل البلاد القرمانية فنزل أولاً على قيصرية[2] ففتحها ثم إلى بلاد نكدة[3] وولّى بها نوابا عن السلطان وأقام هناك ثلاثة أشهر ثم عاد إلى حلب في رجب ونزل بقلعتها وأقام بها إلى العشر الأخير من شعبان إلى أن رسم له بالرجوع إلى الديار المصرية فرجع بالعساكر في أواخر شعبان وبرز أبـوه لملاقـاته في سـابع عشرى رمضان وتيمن بطلعته فلم يلبث أن مات في يوم الجمعة منتصف

(١) «الضوء اللامع»: ١/٤٣ - ٤٧.

(٢) ويُقال لها: قيساريّة: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم. انظر «معجم البلدان»: ٤/٤٢١ - ٤٢٢. وهي اليوم في تركيا.

(٣) مدينة قديمة صغيرة بينها وبين روما ثلاثة أيام. انظر «معجم البلدان»: ٥/٣٠٣.

جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين مسموماً وهو في حدود العشرين، وكان شاباً حسناً شجاعاً عنده حشمة وملوكية، كريماً عاقلاً ساكناً مائلاً إلى الخير والعدل والعفة عن أموال الناس، ودخل السلطان إلى القاهرة من باب النصر وقد احتفل الناس بالزينة لولده وهو بتشريف هائل وخلفه الأسرى الذين أخذهم من قلعة نكدة وهم نحو المائتين في الأغلال وكان يوماً مشهوداً، ونزل إلى داره واستمر على حاله أشهراً.

(١) ودس كاتب السر[١] في غضون ذلك لأبيه من يُبغضه فيه لأنه بلغه عنه توعده إياه بالقتل فأُعلِم أبوه بأنه يتمنى موته لكونه يعشق بعض حظاياه ولا يتمكن منها بسببه إلا خفية وبرهن على ذلك بأمارات وعلامات وأنه صمم على قتله بالسم أو بغيره إن لم يمت عاجلاً من المرض مع ما في نفسه من محبة الاستبداد وأنه يَعِد الأمراء بمواعيد إذا وقع ذلك فحينئذ أذن السلطان لبعض خواصه أن يعطيه ما يكون سبباً لقتله من غير إسراع فدسوا إليه من سقاه من الماء الذي يُطفأ فيه الحديد، فلما شربه أحس بالمغص في جوفه فعالجه فلازموه نصف شهر إلى أن أَبلّ[٢] قليلاً من مرضه وكاد أن يتعافى فدسوا عليه من سقاه ثانياً بغير علم أبيه فانتكس واستمر إلى خامس عشرى جمادى الأولى ونزل له أبوه لعيادته فيها فلما كان في ثالث عشر جمادى الثانية عادوا به إلى القلعة وهو محمول على الأكتاف لعجزه عن الركوب في المحفة فمات في ليلة الجمعة خامس عشره فاشتد جزع أبيه عليه إلا أنه تجلد، وأسف الناس كافة على فقده وأكثروا الترحم عليه، وشاع بينهم أن أباه سمه إلا أنهم لا يستطيعون التصريح بذلك، ولم يعش أبوه بعده سوى ستة أشهر وأياماً كدأب من قتل أباه أو ابنه على الملك فتلك عادة مستقرة وطريقة مستقرأة قاله شيخنا، قال: وصار الذين حسّنوا له ذلك يبالغون في ذكر معايبه وينسبونه إلى الإسراف والتبذير

---

(١) وظيفة اختصاصها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها، وغير ذلك.
(٢) تعافى.

والمجاهرة بالفسق من اللواط والزنا والخمر والتعرض لُحَرَم أبيه وغير ذلك مما كان بريئاً عن أكثره بل يختلقون أكثره ليتسلّى أبوه عن مصابه، ودُفِن بالجامع المؤيديّ وحضر أبوه الصلاة عليه يوم الجمعة مع عدم نهضته للقيام وإنما يحمل على الأكتاف حتى يركب ثم يحمل حتى ينزل وأقام به إلى صلاة الجمعة وخطب البارزيّ خطبة حسنة سبك فيها قوله ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون» فأبكى السلطان ومن حضر، ثم عاد إلى القلعة وأقام القراء يقرؤون على قبره سبع ليال ولم يتفق أن السلطان بعد ذلك دخل المؤيدية، ووقع الخلل في أهل دولته واحداً بعد واحد ولم يتهن لهم عيش بجمعهم[1].

برهان الدين الأنصاريّ

إبراهيم بن علي بن عمر برهان الدين الأنصاريّ المتبوليّ ثمّ القاهريّ الأحمديّ. قدم من بلده متبول من الغربية إلى طنتدا[2] فأقام بضريحها مدة ثمّ تحول إلى القاهرة ونزل بظاهر الحسينية فكان يدير بها مزرعة ويباشر بنفسه العمل فيها من عزق وتحويل وغير ذلك من مصالحها وصار الفقراء يردون عليه فيها ويقوم بكلفتهم من زرعه وغيره فاشتهر أمره وتزايد خبره، وحج غير مرة وانتقل لبركة الحاج وأنشأ هناك زاوية كبيرة للجمعة والجماعات وبستاناً متسعاً وسبيلاً على الطريق هائلاً عم الانتفاع به سيما في أيام الحج، وكذا أنشأ جامعاً كبيراً بطنتدا وبرجاً بدمياط وأماكن غير ذلك، وكثرت أتباعه بحيث صار يخبز لهم كل يوم زيادة على أردب وربما بلغ ثلاثة أرادب سوى عليق البهائم وهو فيما بلغني ثمانية أرادب، وهرع الأكابر فضلاً عمن دونهم لزيارته والتبرك به.

---

(١) «الضوء اللامع»: ١/٥٣ ـ ٥٥.

(٢) هي طنطا.

نسب إليه جماعة من الكرامات الكثير واستفيض بينهم أنه لم يجب عليه غسل قط لا من جماع فإنه لم يتزوج ولا احتلام بل كان فيما قيل يذكر ذلك عن نفسه.

وتزاحم الناس عليه في الشفاعات وكان يرفدهم برسائله بل ربما توجه هو بنفسه في المهم منها كل ذلك مع أميته ومداومته على الإهداء لكثير من الأمراء ونحوهم من فاكهة بستانه ونحوها، والناس فيه فريقان وكنت ممن زرته ومِلت مع محبيه بل بلغني عن العز الحنبليّ أنه قال: لا شك في صلاحه ووددت لو كان ثَمّ آخر مثله ولو لم يكن إلا جمعُه الجمَّ الغفير على الطعام، وأكثر ما أنكر عليه اختلاط المردان من أتباعهم بغيرهم والله أعلم بهذا كله.

مات وقد توجه لزيارة القدس والخليل بعد توعكه مدة بمكان بين غزة والرملة يُقال له سدود سنة سبع وسبعين ودُفِن هناك وسنّه ظناً يزيد على الثمانين ـ رحمه الله وإيانا[1].

الداوديّ

إبراهيم بن فرج الله بن عبدالكافي الإسرائيلي اليهودي الداوديّ العافانيّ. هلك سنة أربع وأربعين وقد زاد على السبعين، أرخه المقريزيّ، قال: ولم يخلف بعده من يهود مصر مثله في كثرة حفظه نصوص التوراة وكتب الأنبياء وفي تنسكه في دينه مع حسن علاجه لمعرفته بالطب وتكسبه به. وكان يقر بنبوة النبيّ ﷺ ويجهر بأنه رسول إلى العرب ويقول في المسيح عليه السلام إنه صِدِّيق خلافاً لما يقوله اليهود لعنهم الله. قلت: وكذا صاحب الترجمة[2].

---

(١) «الضوء اللامع»: ١/٨٥ ـ ٨٦.

(٢) «الضوء اللامع»: ١/١١٦ ـ ١١٧.

ابو الوفاء

إبـراهيم بن محمد بن خليـل البرهـان أبو الـوفاء الـطرابلسيّ الأصل طرابلس الشام الحلبيّ المولد والدار الشافعيّ سبط ابن العجمي. وُلِد سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ومات أبوه وهو صغير جداً فكفلته أمه وانتقلت به إلى دمشق، وارتحل إلى الديار المصريـة مرتين؛ الأولى في سنـة ثمانين والثانية في سنة ست وثمانين فسمع بالقاهرة ومصـر والإسكندريـة ودمياط وتِنِّيس وبيت المقـدس والخليـل وغـزة والـرملة ونـابلس وحمـاة وحمص وطـرابلس وبعلبك ودمشق، وقـرأت بخطه: مشـايخي في الحديث نحـو المائتين ومن رويت عنه شيئاً من الشعر دون الحديث بضع وثلاثون، وفي العلوم غير الحديث نحو الثلاثين. وحج في سنة ثلاث عشرة وثمـانمائـة وكانت الوقفة الجمعة ولم يحج سواها وزار المدينة النبوية وكذا زار بيت المقدس أربع مرات.

(١) ولما هجم اللنك[1] حلب طلع بكتبه إلى القلعة فلما دخلوا البلد وسلبوا الناس كان فيمن سُلِب حتى لم يبق عليه شيء بل وأسر أيضاً وبقي معهم إلى أن رحلوا إلى دمشق فأطلق ورجع إلى بلده فلم يجد أحداً من أهله وأولاده قال فبقيت قليلاً ثم خرجت إلى القرى التي حول حلب مع جماعة فلم أزل هناك إلى أن رجع الـطغاة لجهـة بلادهم فـدخلت بيتي فعادت إليّ أمتي نرجس وذكرت أنها هربت منهم من الرها وبقيت زوجتي وأولادي منهـا وصعدت حينئـذ القلعة وذلـك في خـامس عشـرى شعبـان فوجدت أكثر كتبي فأخذتها ورجعت.

واجتهد الشيخ رحمه الله في هذا الفن اجتهـاداً كبيراً وكتب بخـطه الحسن الكثير وقرأ البخاري أكثر من ستين مرة، ومسلماً نحو العشرين سوى قراءته لهما في الطلب أو قراءتهما من غيره عليه، واشتغل بالتصنيف.

---

(١) أي: المغول.

(١) وكان إماماً علامة حافظاً خيراً ديناً ورعاً متواضعاً وافر العقل حسن الأخلاق متخلقاً بجميل الصفات جميل العشرة محباً للحديث وأهله كثير النصح والمحبة لأصحابه ساكناً منجمعاً عن الناس متعففاً عن التردد لبني الدنيا قانعاً باليسير طارحاً للتكلف رأساً في العبادة والزهد والورع، مديم الصيام والقيام سهلاً في التحدث، كثير الإنصاف والبِشْرِ لمن يقصده للأخذ عنه خصوصاً الغرباء، مواظباً على الاشتغال والإشغال والإقبال على القراءة بنفسه، حافظاً لكتاب الله تعالى كثير التلاوة له، صبوراً على الإسماع ربما أسمع اليوم الكامل من غير ملل ولا ضجر، عُرض عليه قضاء الشافعية ببلده فامتنع وأصر على الامتناع فصار بعدُ كلّ واحد من قاضيها الشافعي والحنفي من تلامذته الملازمين لمحله والمنتمين لناحيته.

(٢) واتُفِق أنه في بعض الأوقات حوصرت حلبُ فرأى بعض أهلها في المنام السراج البلقينيّ فقال له: ليس على أهل حلب بأس ولكن رُحْ إلى خادم السنة إبراهيم المحدث وقل له يقرأ عمدة الأحكام ليفرج الله عن المسلمين فاستيقظ فأعلم الشخ فبادر إلى قراءتها في جمع من طلبة العلم وغيرهم يوم الجمعة بكرة النهار ودعا للمسلمين بالفرج فاتفق أنه في آخر ذلك النهار نصر الله أهل حلب.

ولم يزل على جلالته وعلو مكانته حتى مات مطعوناً سنة إحدى وأربعين بحلب ولم يغب له عقل بل مات وهو يتلو، وكانت جنازته مشهودة[١].

إبراهيم الحنفي

إبراهيم بن محمد بن عبد المحسن الدمشقيّ الحنفيّ. ذكره شيخنا في معجمه وقال: رافقناه في سماع الحديث بالقاهرة ثم وَلي وكالة بيت المال بدمشق وكانت لديه فضائل.

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٣٨/١ ـ ١٤٥.

(١) ومن النوادر التي كان يخبر بها أن رجلاً من أصدقائه ماتت امرأته فطالت عُزبته فسُئل عن ذلك فقال: لم أهم بالتزويج إلا رأيتها فأواقعها فأصبح وهمتي باردة عن ذلك، قال فاتفق أنه تزوج أختها بعد ثلاث سنين فلم يرها بعد ذلك في المنام.

مات بدمشق في الفتنة العظمى[١] سنة ثلاث[٢].

ابن فلاح

إبراهيم بن محمد بن محمد البرهان النابلسي الحنبليّ، ويُعرف بابن فلاح.

(٢) حكى عنه ولده أنه حدث عن شيخه عبدالملك بن أبي بكر الموصليّ ثم المقدسيّ قال: رأيت في ترجمة وزير لصاحب الموصل أنه تعاهد هو وصاحب الموصل أن من مات منهما حمل إلى مكة وطِيف به أسبوعاً[٣] ثم يُرد إلى المدينة فيُدفن في رباط جمال الدين - يعني به محمد بن علي بن منصور الأصبهاني المعروف بالجواد الذي في ركن المسجد القبليّ - ويُكتب على باب الرباط (رابعهم كلبهم)[٤] فمات الوزير وفعل به ذلك، قال الشيخ عبد الملك فلما قرأت هذه الترجمة تاقت نفسي أن أحج وأرى هذا المكتوب فبينا أنا نائم ليلة رأيت أني حججت ودخلت المدينة وزرت القبر ثم لم تكن همتي إلا الرباط لأرى تلك الكتابة فلما رأيتها فإذا هي أربعة أسطر فعجبت وهي:

لي سادة قرّبهم ربهم   رجوت أن يحصل لي قربهم
فقلت إذ قربني حبهم   (ثلاثة رابعهم كلبهم)

فلما انتبهت من نومي بادرت لكتابتها في الظلام على هامش كتاب خوفاً من نسيانها.

---

(١) أي: فتنة المغول.
(٢) «الضوء اللامع»: ١/١٥٣.
(٣) أي: سبعة أشواط.
(٤) أي أنه مدفون قريباً من رسول الله ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما.

(١) وحكى عن شيخه أيضاً محمود الغزنويّ أنه دخل في سياحةٍ مَلَطْيَة[١] فبينا هو نائم إذ رأى بلالاً رضي الله عنه كأنه بمكان مرتفع وهو ينادي: أيها الناس هلموا إلى رسول الله ﷺ فبادرت إلى الخروج فرأيت رحبة متسعة فيها حلقة عظيمة تكون قدر أربعمائة نفس كلهم من الصحابة فنظرت فلم أعرف منهم إلا أبا ذر وأبا الدرداء والنبي ﷺ جالس في صدر الحلقة وبجانبه الجنيد البغدادي وهو يتكلم معه في المريد والإرادة قال ثم رفع ﷺ رأسه وهو يقول خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم قال مشيراً إلى الصحابة: أتظنون أنكم قرني فقط كل من كان على سنتي ومتابعتي فهو في قرني إلى يوم القيامة[٢].

برهان الدين الأبناسيّ

إبراهيم بن موسى بن أيوب البرهان أبو إسحاق وأبو محمد الأبناسيّ ثمّ القاهريّ المقسي الشافعيّ الفقيه. وُلد في أول سنة خمس وعشرين وسبعمائة تقريباً بأبناس وهي قرية صغيرة بالوجه البحري من مصر، وقدم القاهرة وهو شاب فحفظ القرآن وكتباً وتفقه وسمع الحديث.

(٢) عين مدة لقضاء الديار المصرية فلما بلغه ذلك توارى وذكر أنه فتح المصحف في تلك الحالة فخرج له: ﴿**قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه**﴾ الآية. فأطبقه فاختفى أياماً حتى وَلِيَ غيره.

وذكره العثمانيّ في الطبقات فقال: الورع المحقق مفتي المسلمين شيخ الشيوخ بالديار المصرية ومدرس الجامع الأزهر له مصنفات، يألفه الصالحون وتحبه الأكابر وفضله معروف. وقال المقريزيّ إنه صنّف في الفقه والحديث والنحو، وكان أبرَّ مشايخ مصر بالطلبة طارحاً للتكلف مقبلاً

---

(١) بلدة من بلاد الروم تتاخم الشام وهي للمسلمين. انظر «معجم البلدان»: ٥/١٩٢ - ١٩٣.

(٢) «الضوء اللامع»: ١/١٦٤ - ١٦٥.

على شأنه وللناس فيه اعتقاد. وقد حج كثيراً وجاور مرة وحدث هناك وأقرأ ثم رجع فمات في الطريق ثامن المحرم سنة اثنتين.

(١) حكى الشهاب أحمد بن محمد بن عبدالله الأسلميّ نزيل الجيزة وأحد فضلائها وصلحائها وهو من تلامذته أنه سمعه يقول للبُلقينيّ أنه سمع كلام الموتى في قبورهم وأنه كان في البقيع من المدينة فوقف عند قبر جديد ليسأل عن صاحبه فقال له شخص كان يقرأ عليه من قبر: يا سيدي لم تقف عند قبر هذه الرافضية؟ قال فرأيت البُلقينيّ احمر وجهه ونزلت دموعه وقال: آمنت بذلك، وناهيك بهذه القصة في جلالة البرهان.

(٢) وحكى لي الشريف الشهاب أحمد بن محمد بن عبد الله الجَرْوانيّ أنه كان عنده فجاءته فتيا فكتب عليها ثم بعد أن أخذها السائل تبين له الخطأ فيها فأرسل من يدركه فما أمكن فتألم لذلك فما مضى إلا اليسير وجاء السائل وأخبر بأن الورقة سقطت منه في البحر فحمد الشيخ الله وسُرَّ ثم كتب له الجواب[1].

برهان الدين الفاقوسيّ

إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم البرهان الفاقوسيّ ثم البلبيسيّ الشافعيّ الرفاعيّ وكان يُعرف قديماً بابن أبي الفتح الذي قيل إنه من ذرية محمد بن الحنفية فالله أعلم. وُلِد تقريباً سنة خمس وتسعين بفاقوس من شرقية مصر ثم انتقل إلى بلبيس وهو ابن ست عشرة سنة وحج مرتين وزار بيت المقدس.

(٣) وأقام ببلبيس يقرىء الأطفال دهراً وانتفعوا به في ذلك بحيث لم يكن بها من هو دونه في السن إلا وقد قرأ عليه واشتهر بينهم أن من لم يقرأ عنده لم يتيسر له إكمال حفظ القرآن بل يُقال أيضاً إن بعد موته ما ختم

---

(١) «الضوء اللامع»: ١/١٧٢ ـ ١٧٥.

أحد من أهلها القرآن وكان هذا بلحظ وليٍّ يُقال له الشيخ سليم لقيه في أول أمره وكأنه تضجر من ذلك فقال له: يا إبراهيم اثبت أو كما قال.

(١) وكان خيراً ساكناً معتقَداً ببلده سيما الخير عليه ظاهرة لمثابرته على أنواع العبادة ورغبته في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث لم يترك ببلبيس موطناً يُتجاهر بالزنا فيه، وأكثر من إراقة الخمور مع المحافظة على الأوراد صباحاً ومساءاً وتلاوة جزء من القرآن كل يوم، واستقر في مشيخة الصوفية التي استجدها عندهم ابن المصريّ التاجر بل حسنوا له الدخول في الحِسْبة ليكون عوناً له على مقاصده فباشرها مجتهداً في النصح وأدى قبوله للدخول فيها إلى التسلط عليه فلزم من ذلك أن دخل بأخرة في القضاء أيضاً بها نيابة عن النور البلبيسيّ أحد من قرأ عنده ولم يضبط عنه في الولايتين بما ينقم عليه لكن كان الأولى بحاله ترك الدخول فيهما. وبالجملة كان نادرة من نوادر تلك النواحي وممن اشتهر بالخير والعبادة.

مات سنة اثنتين بعد أن صلى العشاء إيماءً ولم يخلف بعده هناك مثله ـ رحمه الله[١].

ابن الأبله

إبراهيم الدمشقيّ الصالحيّ الحنبليّ الفراء نزيل المدرسة الصالحي من القاهرة ويُعرف بابن الأبله. رجل صالح منور سليم الفطرة صحب ابن زكنون وأبا شعر وابن داود وغيرهم من سادات الحنابلة وعادت عليه بركتهم وحفظ عنهم آداباً وفضائل.

(٢) وقدم القاهرة فقطن صالحيتها ولم يعدم من يحسن له لسذاجته عَمَلَ الكيمياء بزعمهم فكان ينفذ ما يحصله من كد يمينه وغيره في ذلك بحيث يصير مملقا وربما ليم في ذلك وهو لا ينكف.

---

(١) «الضوء اللامع»: ١/١٨٠ ـ ١٨١.

وبالجملة فكان في الخير بمكان وعلى ذهنه فوائد. مات في رمضان سنة ست وثمانين بالبيمارستان المنصوريّ.

(١) ودُفِن بجوار الشمس الأمشاطيّ وهو ممن كان يعتقده ويحسن إليه كثيراً مع إنكاره عليه ما قدمته بحيث كان يقول له: أود لو تيسر لي ما تنفقه في هذه المحنة من كدك لآكل منه أو نحو هذا، وأظنه جاز السبعين ونعم الرجل كان رحمه الله وعفا عنه[١].

أجود

أجود بن زامل العقيليّ الجبريّ ـ نسبة لجد له اسمه جبر ولذا يُقال له ولطائفته بنو جبر ـ النجديّ الأصل المالكيّ، مولده ببادية الحسا والقطيف من الشرق سنة إحدى وعشرين وثمانمائة وقام أخوه سيف على آخر ولاة الجراونة بقايا القرامطة حين رام قتله وكان الظفر لسيف بحيث قتله وانتزع البلاد المشار إليها وملكها وسار فيها بالعدل فدان له أهلها، ولما مات خلفه أخوه هذا بل اتسعت له مملكته بحيث ملك البحرين وعمان ثم قام حتى انتزع مملكة هرموزابن أخ لصرغل كان استقر فيها بعد موت أبيه وضيق على الابن المشار إليه وصار صرغل يبذل له ما كان يبذله له أخوه أو أزيد. وصار رئيس نجد ذا أتباع يزيدون على الوصف مع فروسية تعددت في بدنه جراحات كثيرة بسببها. وله إلمام ببعض فروع المالكية واعتناء بتحصيل كتبهم بل استقر في قضائه ببعض أهل السنة منهم بعد أن كانوا شيعة، وأقاموا الجمعة والجماعات وأكثر من الحج في أتباع كثيرين يبلغون آلافا مصاحبا للتصدق والبذل وغيرهم. أفاد حاصله السيد السمهوديّ وبالغ معي في شأنه وهو ممن يُكثر البذل له[٢].

---

(١) «الضوء اللامع»: ١/١٨٣ ـ ١٨٤.

(٢) «الضوء اللامع»: ١/١٩٠.

ابن النحّاس

أحمد بن إبراهيم بن محمد محيي الدين الدمشقي ثم الدمياطيّ الحنفيّ ثم الشافعيّ المجاهد ويُعرف بابن النحاس. انجفل في الفتنة اللنكية[1] من دمشق إلى المَنْزَلة فأكرمه أهلها، ثم تحول إلى دمياط فاستوطنها، وكان يعرف الفرائض والحساب أتم معرفة مع المعرفة الجيدة بالفقه والمشاركة في غيره من الفنون ولكنه كان يقول إنه اشتغل في النحو فلم يفتح عليه بشيء.

(١) وهو صاحب «مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام» في مجلد كبير ضخم حافل في معناه انتفع به الناس وتنافسوا في تحصيله وقرضه[2] الوليّ العراقيّ، وقد اختصره مؤلفه أيضاً وله كتاب «تنبيه الغافلين في معرفة الكبائر والصغائر والمناهي والمنكرات والبدع»، وغير ذلك وكان حريصاً على أفعال الخير مؤثراً للخمول لا يتكبر بمعارفه بل ربما يتوهمه من لم يعرفه عامياً مع الشكالة الحسنة واللحية الجميلة والقِصَر مع اعتدال الجسد.

(٢) أكثر المرابطة والجهاد حتى قُتِل شهيداً بأيدي الفرنج مع رفيقين له بعد أن قتلوا من الكفار جماعة سنة أربع عشرة فلف الثلاثة وحملوا إلى دمياط فدُفنوا بها بمكان واحد لكن جعل بينهم حواجز خشب واجتمع عند دفنهم من لا يحصى كثرة، وقد ذكره شيخنا في حوادث سنة أربع عشرة من أنبائه وقال إنه كان ملازماً للجهاد بثغر دمياط وفيه فضيلة تامة وجمع كتاباً حافلاً في أحوال الجهاد وأنه قتل في المعركة مقبلاً غير مدبر رحمه الله وإيانا[3].

---

(١) أي: فتنة المغول.

(٢) بمعنى قرَّظة؛ أي: قدّم له والكتاب في أخبار الجهاد، وقد طبع - بعد تحقيقه لنيل رسالة ماجستير - في مجلّدين.

(٣) «الضوء اللامع»: ١/٢٠٣ - ٢٠٤.

الناصر

أحمد بن إسماعيل بن عباس الناصر بن الأشرف صاحب زبيد وعدن وتعز وجبلة وغيرها من بلاد اليمن. ملك بعد أبيه سنة ثلاث وثمانمائة فلم تحمد سيرته وجرت له كائنات.

(١) وكان فاجراً جائراً من شرار بني رسول وفي أيامه خرب غالب بلاد اليمن لكثرة ظلمه وعسفه وعدم سياسته وتدبيره، ولم يزل على ذلك حتى سقطت صاعقة على حصنه المسمى «قوارير من زجاج» خارج مدينة زبيد فارتاع من صوتها وتمرض أياماً ثم مات سنة سبع وعشرين، قال الله تعالى: ﴿**ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء**﴾[1] وحُمل لتعز فدُفِن بمدرسة أبيه بها إذ لم يبن له مدرسة. ووصفه العفيف الناشريّ بأنه كان موصوفاً عند العام والخاص بوفور الحلم التام بحيث إنه ترفع إليه الأمور العظام التي لا تحتمل فلا يغضب لها[2].

الكورانيّ

أحمد بن إسماعيل بن عثمان شهاب الدين الشهرزوريّ الهمدانيّ التبريزيّ الكورانيّ ثمّ القاهريّ عالم بلاد الروم. وُلد سنة ثلاث عشرة وثمانمائة وتميّز في الأصلين[3] والمنطق وغيرها، ومهر في النحو والمعاني والبيان وغيرها من العقليات، وشارك في الفقه وقدم دمشق في حدود الثلاثين ثم القاهرة في حدود سنة خمس وثلاثين وهو فقير جداً. وأكب على الاشتغال والإشغال ولازم حضور المجالس الكبار كمجلس قراءة البخاريّ بحضرة السلطان وغيره وذُكِرَ بالطلاقة والبراعة والجرأة الزائدة، فلمّا وَلِيَ الظاهر جقمق وكان يصحبه تردد إليه فأكثر وصار أحد ندمائه وخواصه فانهالت عليه الدنيا فتزوج مرة بعد أخرى لمزيد رغبته في النساء مع كونه مطلاقاً.

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٣.

(٢) «الضوء اللامع»: ١/٢٣٩ - ٢٤٠.

(٣) أي: أصول الدين وأصول الفقه.

(١) ولم يلبث أن وقع بينه وبين حميد الدين النعمانيّ ـ المذكور أنه من ذرية الإمام أبي حنيفة ـ مباحثة سطا فيها عليه وتشاتما بحيث تعدى هذا إلى آبائه ووصل علم ذلك إلى السلطان فأمر بالقبض عليه وسجنه بالبرج، ثم ادعى عليه عند قاضي الحنفية ابن الديريّ وأقيمت البينة بالشتم وبكونه من ذرية الإمام فعزر بحضرة السلطان نحو الثمانين بل وأمر بنفيه.

وتوصل الشهاب إلى مملكة الروم ولا زال يترقى بها حتى استقر في قضاء العسكر وغيره وتحول حنفياً وعظم اختصاصه بملك الروم ومدحه وغيره بقصائد طنانة وحسنت حالته هناك جداً بحيث لم يصر عند محمد بن مراد[١] أحظى منه وانتقل من قضاء العسكر إلى منصب الفتوى وتردد إليه الأكابر. وبلغني أنه عَمِل تفسيراً وشرحاً على البخاريّ وقصيدة في علم العَروض نحو ستمائة بيت وغيرها من القصائد، وأنشأ بإسطنبول جامعاً ومدرسة سمّاها دار الحديث. ولما كنت بحلب وذلك في سنة تسع وخمسين دخلها ثمّ البلاد الشامية وهو في ضخامة زائدة وحج في سنة إحدى وستين. ولم يزل الكوارنيّ على جلالته وطريقته حتى مات سنة ثلاث وتسعين وصلى عليه السلطان فمن دونه ولعله دُفِن بمدرسته رحمه الله[٢].

---

(١) سلطان العثمانيين محمد الفاتح.

(٢) «الضوء اللامع»: ١/٢٤١ ـ ٢٤٣، وذكره الشوكاني في «البدر الطالع»: ١/٣٩ ـ ٤١ فقال منصفاً للمترجم: «وقد لطف الله بالمترجم له بمرافعته إلى حاكم حنفيّ فلو رُوفع إلى مالكيّ لحكم بضرب عنقه، وقبح الله هذه المجازفات والاستحلال للدماء والأعراض بمجرد أشياء لم يوجب الله فيها إراقة دم ولا هتك عرض فإن ضرب هذا العالم الكبير نحو ثمانين جلدة ونفيه وتمزيق عرضه والوضع من شأنه بمجرد كونه شاتم من شتمه ظلم بيِّن وعسف ظاهر ولا سيما إذا كان لا يدري بانتساب من ذُكِر إلى ذلك الإمام. لا جرم قد أبدله الله بسلطان خير من سلطانه، وجيران أفضل من جيرانه، ورزق أوسع مما منعوه منه، وجاه أرفع مما حسدوه عليه فإنه لما خرج توجّه إلى مملكة الروم... وحسنت حاله هنالك جداً... وقد ترجمه صاحب «الشقائق النعمانية» ترجمة حافلة ذكر فيها أن سلطان الروم السلطان محمد عرض عليه الوزارة فلم يقبلها، وأنه أتاه مرّة مرسوم من السلطان فيه مخالفة =

الشهاب الناشريّ

أحمد بن أبي بكر بن علي الشهاب أبو العباس بن الرضي بن الموفق الناشريّ الزبيديّ الشافعيّ. وُلِد مستهل المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وتفقه وسمع الحديث من أبيه وطائفة وكان عالماً عاملاً فقيهاً كاملاً فريداً تقياً ذكياً غاية في الحفظ وجودة النظر في الفقه ودقائقه، مقصوداً من الآفاق بحيث ازدحم عليه الخلائق وتفقه به جمع كثيرون في المملكة اليمنية.

(١) مع التواضع والتقلل من الدنيا وبذل همته للطلبة سيّما من أنِسَ منه الفائدة حتى أنه ربما قصده بنفسه إلى موضعه، وإذا عرض لأحدهم ما انقطع بسببه عن الحضور في وظيفته خرج إلى المدرسة وقرأ ما تيسر من القرآن كأنه للنيابة عنه قياماً بما عليه من العهدة محتسباً لخطاه تلك وفعله.

(٢) وَلِيَ قضاء زبيد وأعمالها سنة ست وثمانين فأقام إلى سنة تسعين ثمّ انفصل ولم يدع له الحق صديقاً، ولم يلبث أن أعيد في سادس عشر ربيع الآخر منها فأقام يسيراً ثم انفصل في ربيع الآخر من التي تليها، ثم أعيد في ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين فأقام دون شهر وضج منه كثير من الناس سيّما أهل الدولة وأتباع السلطان لما يعلمه منهم من التعدي والجَوْر فرموه عن قوس واحدة ونفرت طباع كثيرين عنه فصرفه السلطان بأخيه عليّ مع كونه لم يكن يرضى للقضاء غيره لصلاحه وعفته وورعه ومعرفته وكونه بأخرة لا نظير له ولكن خوفاً منهم.

(٣) وجرت له مع الصوفية بزبيد لما أنكر عليهم الاشتغال بكتب ابن عربي واعتقاد ما فيها لا سيما الفصوص وشق ذلك على أكابرهم فتعصبوا

= للوجه الشرعي فمزقه، وأنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحني له ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة، وأنه كان لا يأتي إلى السلطان إلّا إذا أرسل إليه، وكان يقول له: مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط، وذكر له مناقب جمّة تدل على أنه من العلماء العاملين لا كما قال السخاويّ».

عليه بسبب ذلك والتمسوا من السلطان منعه من التعرض لهم وكان للسلطان فيه حسن اعتقاد فلم يزده ذلك إلا حمية لله ورسوله ﷺ ولُقب في وقته لذلك بناصر السنة وقامع المبتدعة، وعمل كتاباً حافلاً بين فيه فساد عقيدة ابن العربي ومن ينتمي إليه.

مات سنة خمس عشرة وقد جاز السبعين، رحمه الله وإيانا[1].

ابن الرداد

أحمد بن أبي بكر بن محمد الشهاب أو العباس بن السراج القرشيّ البكريّ التيميّ ثم الزبيديّ الصوفيّ القاضيّ الشافعيّ ويُعرف بابن الرداد. وُلد سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وتفقه بأبيه وغيره، وسمع من بعض الشيوخ بمكة ودخل اليمن فاتصل بصحبة الأشرف إسماعيل بن الأفضل فلازمه واستقرّ من ندمائه ثمّ صار من أخصهم به وغلب عليه ولم يكن ينقطع عنه يوماً واحداً وكذا لازم الشيخ إسماعيل الجبرتيّ.

(١) وكانت لديه فضائل كثيرة ناظماً ناثراً ذكياً إلا أنه غلب عليه حبُّ الدنيا والميل إلى تصوف الفلاسفة وكان داعية إلى هذه البدعة التي ذاقها وعرف مغزاها يعادي عليها ويقرب من يعتقد ذلك المعتقد، ومن عرف أنه حصل نسخة بالفصوص قربه وأفضل عليه، وأكثر من النظم والتصنيف في ذلك الضلال البيِّن إلى أن أفسد عقائد أهل زبيد إلا من شاء الله، ونظمه وشعره ينعق بالاتحاد، وكان المنشدون يتحفظونه لإنشاده في المحافل تقرباً بذلك، وله تصانيف في التصوف.

(٢) وعلى وجهه آثار العبادة لكنه يجالس السلطان في خلواته ويوافقه على شهواته من غير تعاط معهم لشيء من المنكرات ولا تناول للمسكرات.

(٣) ووَلِيَ القضاء بعد وفاة المجد الشيرازيّ بثلاث سنين لكون

---

(١) «الضوء اللامع» ١/٢٥٧ ـ ٢٥٨.

الناصر بن الأشرف تركه شاغراً بعد المجد هذه المدة ينتظر قدوم شيخنا عليه ليوليه إياه فلما طال الأمد سعى فيه بعض الأكابر للفقيه الناشريّ فخشى صاحب الترجمة من تمكنه من الإنكار على المبتدعة بحيث يواجه ابن الرداد بما يكره وكان المجد يداهنه فبادر من أجل ذلك بطلب الوظيفة من الناصر والناصر لا يفرق بين الرجلين ويظن أن هذا عالم كبير فولاه له مع كونه مزجيّ البضاعة في الفقه عديم الخبرة بالحكم فأظهر العصبية وانتقم ممن كان ينكر عليه بدعته من الفقهاء فأهانهم وبالغ في ردعهم والحط عليهم فعوجل ومات عن قرب وذلك سنة إحدى وعشرين وصاروا يعدون موته من الفرج بعد الشدة[١].

ابن حجي

أحمد بن حجي بن موسى السعديّ نسبه للصحابي عطية بن عروة السعديّ الحسباني الدمشقي الشافعي ويعرف بابن حِجيّ. وُلد سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بظاهر دمشق ونشأ فحفظ القرآن والتنبيه وتفقه بأبيه ولازمه كما ذكر نحو عشرين سنة وكتب الكثير وتميز وتقدم في الفقه والحديث وأذِن له في الإفتاء والإقراء، وناب في الحكم مدة، ووَلِيَ خطابة الجامع الأمويّ ونظره مراراً، وترك النيابة بل أريد على القضاء الأكبر بدمشق مراراً وهو يمتنع حتى وليه في حياته أخوه النجم.

(١) وجمع تاريخاً مفيداً ذيّل به على تاريخ ابن كثير بدأ فيه من سنة إحدى وأربعين[٢] وآخر ما علق منه إلى ذي القعدة سنة خمس عشرة، وكتاباً نفيساً سماه «الدارس في أخبار المدارس» يدل على اطلاع كثير. وقدم القاهرة مراراً وحدث بالقاهرة وببلده بالكثير ودرس وأفتى، وانتهت إليه في آخر وقته رياسة العلم بدمشق وكان أشياخه ونظراؤه يثنون عليه كل ذلك مع الدين والصيانة والانجماع على نفسه والملازمة لبيته والحظ من العبادة.

---

(١) «الضوء اللامع» ١/٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) أي إحد وأربعين وسبعمائة.

(١) قال شيخنا: رأيت في تاريخه في ترجمة والده قال: رأيت أبي في النوم في أواخر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة فقمت خلفه فقلت: كيف أنتم؟ فتبسم وقال: طيب فمشيت معه إلى الباب فكان من جملة ما سألته: أيهما أفضل: الاشتغال بالفقه أو الحديث؟ فقال: الحديث بكثير قال: فقلت له: ادع لي فدعا لي بثلاث: بوفاء الدين، وخاتمة الخير، ونسيت الثالثة ثم التفت إليّ كالمودع فقال: إنهم يشكرونك فقلت: من؟ قال: الملائكة، فقلت: بالله، قال: نعم، قال: فاستيقظت مسروراً[١].

الشريف النعمانيّ

أحمد بن حسن بن علي الشريف الشهاب أبو العباس الحسينيّ القسنطينيّ الأصل المصريّ المولد والمنشأ الشافعيّ ويعرف بالنعمانيّ نسبة للأستاذ أبي عبد الله بن النعمان. وُلد تقريباً سنة أربع وخمسين وسبعمائة بمسجد النور شرقي زاوية الأستاذ المشار إليه. وسمع الصحيحين والمصابيح، وأقام بالزاوية المشار إليها مديماً للذكر والأوراد والإرشاد فانتفع به الناس وصارت له وجاهة وجلالة وشفاعات مقبولة.

(٢) وكان نقمة على أهل الذمة فيما يجدونه في كنائسهم بل هو القائم في هدم كنيسة النصارى الملكيين بقصر الشمع حتى صارت جامعاً وقال لي صاحبنا البرهان النعماني أحد أصحابه وخليفته في المشيخة أنه أسلم على يديه ثمانون كافراً وأنه لم يبق في قصر الشمع ولا في المدينة كنيسة لليهود ولا النصارى إلا وقد شملها من السيد إما هدم أو بعض هدم وإما إزالة منبر أو نحو ذلك مما فيه إهانة لهم.

وكان كثير الصدقة والصيام والتهجد والذكر والبكاء غير مانع له عن ذلك ما به من مرض الباسور والفتق وغيرهما، كثير المحاسبة لنفسه والتوبيخ لها، غايةً في التواضع والحث على الخير.

---

(١) «الضوء اللامع» ١/٢٦٩ - ٢٧١.

(١) حج وجاور بمكة سبع سنين وعزم على الاستيطان هناك لعداوة بعض من كان من أركان الدولة الناصرية له فاتفق أن بعض أهل الكشف لقيه إما في الطواف أو في الحرم فأمسك بأذنه وقال له: ارجع إلى مصر وعمر الزاوية فإن الكلاب تدخلها من حائط انهدم فيها فقد مات عدوك في هذا اليوم فانثنى عزمه عن الإقامة ورجع وكان الأمر كذلك. مات وقد عمر سنة اثنين وخمسين بمصر وصلى عليه من الغد بجامعها في مشهد حافل لم يُر بمصر أعظم منه ودُفِن بالزاوية النعمانية، رحمه الله وإيانا[١].

الأذرعيّ

أحمد بن حسن بن عليّ الشهاب الأذرعيّ الدمشقيّ ثم المصريّ الشافعيّ.

(٢) وُلِد بأذرعات وتحول منها إلى دمشق وحفظ القرآن وأمّ بجامع بني أمية فاتفق أن المؤيد حين كان نائبها سمع قراءته فطرب فاستدعى به فقرره إمامَه.

(٣) ولما كانت الوقعة بينه وبين الناصر وانهزم الناصر حضرت المغرب فتقدم للإمامة على العادة فقرأ في الأولى: ﴿واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ الآية[٢] فاستحسنها الأمير وتفاءل بتمام النصر فكان كذلك ولذا زاد حين تم الأمر له في تقريبه وجعله من ندمائه واستقر به وبذريته في إمامة جامعه ولم يزل يؤم مَن بعد المؤيد من الملوك حتى مات بعد تعلله نحو سبعة أشهر بالاستسقاء وغيره في العشر الأُوَل من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين عن ثلاث وسبعين سنة وخلف ثلاثة عشر ذكراً سوى الإناث.

(٤) كان عاقلاً ساكناً نيراً مشاركاً جيد القراءة في المحراب إلى الغاية

---

(١) «الضوء اللامع» ١/٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٢) الأنفال: ٢٦.

نديّ الصوت. منطوياً على ديانة وخير واهتمام مع من يقصده ومحبة في المعروف ومزيد انقياد للشرع وتعظيم حملته.

(١) من لطائفه أنه استعمل في إغراء السلطان بالأكرم النصرانيّ فقرأ به في الصلاة سورة (اقرأ) فلما انتهى إلى قوله (وربك الأكرم) بكى وقطع القراءة فسأله المؤيد عن ذلك فقال: أجللت هذا الوصف العظيم أن يتسمى به هذا اللعين وأشار إلى النصرانيّ فكان ذلك سبباً لإتلافه، ومحاسنه كثيرة[١].

ابن رسلان

أحمد بن حسين بن حسن الشهاب أبو العباس الرمليّ الشافعيّ نزيل بيت المقدس ويعرف بابن رسلان، كان والده خيراً قارئاً تاجراً وأمه أيضاً من الصالحات فولد لهما صاحب الترجمة في سنة ثلاث أو خمس وسبعين وسبعمائة برملة.

(٢) ونشأ بها لم تُعلم له صبوة على طريق والديه وخاله فحفظ القرآن وله نحو عشر سنين ويُقال إن أباه أجلسه في حانوت بزاز فكان يقبل على المطالعة ويهمل أمرها[٢] فظهرت فيها الخسارة فلامه على ذلك فقال: أنا لا أصلح إلا للمطالعة فتركه وسلم له قياده.

أقبل على الاشتغال وحفظ كتباً واتفق قدوم مغربيٍّ الرملة وكان يقرىء البيت من ألفية ابن مالك بربع درهم فلزمه حتى أخذها عنه بحيث تأهل لإقرائها واشتهر بحسن إفادتها وإلقائها، وتحول لبيت المقدس فتفقه بالقلقشنديّ وأخذ عن ابن الهائم وصحب الشهاب بن الناصح والجلال عبدالله بن البسطاميّ ومحمد القرميّ ومحمد القادري وأخذ عنهم التصوف وتلقن منهم الذكر.

---

(١) «الضوء اللامع»: ١/٢٧٦.
(٢) أي: الحانوت.

(١) سمع كثيراً، ولا زال يدأب ويكثر المذاكرة والملازمة للمطالعة والإشغال مقيماً بالقدس تارة وبالرملة أخرى حتى صار إماماً علامة متقدماً في الفقه وأصوله والعربية مشاركاً في الحديث والتفسير والكلام وغيرها مع حرصه على سائر أنواعِ الطاعات من صلاة وصيام وتهجد ومرابطة بحيث لم تكن تخلو سنة من سِنِّه عن إقامته على جانب البحر قائماً بالدعاء إلى الله سراً وجهراً آخذاً على يدي الظلمة مؤثراً صحبة الخمول والشغف بعدم الظهور تاركاً لقَبول ما يعرض عليه من الدنيا ووظائفها حتى أن الأمير حسام الدين حسن ناظر القدس والخليل جدد بالقدس مدرسة وعرض عليه مشيختها وقرر له فيها في كل يوم عشرة دراهم فضة فأبى بل كان يمتنع من أخذ ما يرسل به هو وغيره إليه من المال ليفرقه على القراء وربما أمر صاحبه بتعاطي تفرقته بنفسه.

(٢) محافظاً على الأذكار والأوراد والأمر بالعروف والنهي عن المنكر معرضاً عن الدنيا وبنيها جملة حتى أنه لما سافر الأشرف إلى آمد هرب من الرملة إلى القدس في ذهابه وإيابه لئلا يجتمع به هو أو أحدٍ من أتباعه ـ وإن تضمن ذلك تفويت الاجتماع بمن كان يتمناه كشيخنا فإنه سأل عنه رجاء زيارته فقيل: إنه غائب ـ حتى صار المشار إليه بالزهد في تلك النواحي وقُصِد للزيارة من سائر الآفاق.

(٣) وكثرت تلامذته ومريدوه وتهذب به جماعة وعادت على الناس بركته وشغل كلًّا فيما يرى حاله يليق به في النجابة وعدمها.

(٤) وهو في الزهد والورع والتقشف واتباع السنة وصحة العقيدة كلمة إجماع بحيث لا أعلم في وقته من يدانيه في ذلك وانتشر ذكره وبعد صيته وشهد بخيره كل من رآه.

(٥) قال ابن أبي عذيبة: وكان شيخاً طويلًا تعلوه صفرة، حسن المأكل والملبس والملتقى، له مكاشفات ودعوات مستجابات، غير عابس،

ولا يأكل حراماً، ولا يشتم ولا يلعن ولا يحقد ولا يخاصم بل يعترف بالتقصير والخطأ ويستغفر، وإذا أقبل على من يخاصمه لاطفه بالكلام اللين حتى يزول ما عنده، ولا ينام من الليل إلا قليلاً.

وله تصانيف نافعة في التفسير والحديث والفقه والأصلين والعربية وغيرها.

(١) ونسب إليه ابن عذيبة نظم القراآت الثلاث الزائدة على السبعة ثم الثلاث الزائدة على العشرة.

(٢) وعندي من نظمه وفوائده الكثير من ذلك قوله: لم أزل أسمع في ألسنة الناس الدعاء، بخاتمة الخير ولم أجد له أصلاً حتى ظفرت بذلك في الحلية لأبي نعيم من طريق الصلت بن عاصم المراديّ عن أبيه عن وهب بن منبه قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة فهبط عليه جبريل عليه السلام فقال: يا آدم هلا أعلمك شيئاً تنتفع به في الدنيا والآخرة؟ قال: بلى، قال: قل: اللهم أدم لي النعمة حتى تهنيني المعيشة، اللهم اختم لي بخير لا تضرني بذنوبي، اللهم اكفني مؤنة الدنيا وكل هول في القيامة حتى تدخلني الجنة، انتهى.

(٣) وعلى كلامه وشعره روح، ومما نظمه في المواطن التي لا يجب رد السلام فيها:

رد السلام واجب إلا على ... من في صلاة أو بأكل شُغِلا
أو شربٍ أو قراءةٍ أو أدعية ... أو ذكرٍ أو في خطبةٍ أو تلبية
أو في قضاء حاجة الإنسان ... أو في إقامة أو الأذان
أو سلّم الطِفلُ أو السكرانُ ... أو شابة يُخشى بها افتتان
أو فاسق أو ناعس أو نائم ... أو حالة الجماع أو محاكم
أو كان في الحمام أو مجنوناً ... هي اثنتان بعدها عشرونا

(١) وله:

دواء قلبك خمس عند قسوته — فادأب عليها تفز بالخير والظفر
خلا بطن وقرآن تدبره — كذا تضرع باك ساعة السحر
ثم التهجد جنح الليل أوسطه — وأن تجالس أهل الخير والخبر

وما لقيت أحداً إلا ويحكي لي من صالح أحواله ما لم يحكه الآخر.

(٢) ومما بلغني أنّ طوغان نائب القدس وكاشف الرملة وردت عليه إشارة الشيخ بكف مظلمة فامتنع وقال: طوّلتم علينا بابن رسلان، إن كان له سِرٌّ فليرم هذه النخلة لنخلة قريبة منه فما تمَّ ذلك إلا وهبت ريح عاصفة فألقتها فما وسعه إلا المبادرة إلى الشيخ في جماعة مستغفراً معترفاً بالخطأ فسأله عن سبب ذلك فقيل له فقال: لا قوة إلا بالله من اعتقد أنَّ رمي هذه النخلة كان بسببي أو لي فيه تعلق ما فقد كفر فتوبوا إلى الله وجددوا إسلامكم فإن الشيطان أراد أن يستزلكم ففعلوا ما أمرهم به.

(٣) وحكى صهره الحافظ التاج بن الغرابيليّ عنه أنَّه كان قليلاً ما يهجع من الليل وأنه في وقت انتباهه ينهض قائماً كالأسد لعل قيامه يسبق كمال استيقاظه ويقوم كأنه مذعور فيتوضأ ويقف بين يدي ربه يناجيه بكلامه مع التأمل والتدبر فإذا أشكل عليه معنى آية أسرع في تينك الركعتين ونظر في التفسير حتى يعرف المعنى ثم يعود إلى الصلاة.

ومناقبه كثيرة ومراتبه شهيرة، وعندي من ترجمته ما لو بسطته لكان في كراسة ضخمة.

مات سنة أربع وأربعين بسكنه من المدرسة الختنية بالمسجد الأقصى من بيت المقدس وارتج بيت المقدس بل غالب البلاد لموته وصُلِّي عليه بجامع الأزهر وغيره صلاة الغائب.

(٤) وقيل إنه لما ألحد سمعه الحفار يقول: «رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين».

(١) ورآه حسين الكرديّ أحد الصالحين بعد موته فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني بين يديه وقال: يا أحمد أعطيتك العلم فما عملت به؟ قال: علمته وعملت به، فقال: صدقت يا أحمد تمن عليّ فقلت: تغفر لمن صلى عليّ، فقال: قد غفرت لمن صلّى عليك وحضر جنازتك، ولم يلبث الرائي أن مات.

ولم يخلف في مجموعه مثله علماً ونسكاً وزهداً [١].

ابن المجديّ

أحمد بن رجب بن طيبغا المجديّ الشهاب بن الزين القاهريّ الشافعيّ ويُعرف بابن المجديّ نسبة لجده. وُلد سنة سبع وستين وسبعمائة بالقاهرة، ونشأ بها فحفظ القرآن وبعض المنهاج[٢] ثم جميع الحاوي وألفية النحو وغير ذلك، وتفقه وأخذ الفرائض والحساب، وجد في الطلب واجتهد بأعظم سبب، وبرع في فنون وتقدم بذكائه المفرط الذي قلّ أن يوازى فيه، وأشير إليه بالتقدم قديماً وصار رأس الناس في أنواع الحساب والهندسة والهيئة والفرائض وعلم الوقت بلا منازع، وانتفع به الفضلاء وأخذ عنه الأعيان من كل مذهب طبقة بعد أخرى.

(٢) وحُكِيَ لي عنه أنه صعد القلعة للاجتماع بالأشرف في قضية ضاق صدراً بها فما تيسر فرجع وقد تزايد كربه فاتفق أنه دخل مدرسة قريبة من القلعة فتوضأ وصلى ركعتين ورفع رأسه فوجد بجانب محرابها مكتوباً:

دعها سماوية تجري على قدر   لا تعترضها بأمر منك تنفسد

فاستبشر بذلك وآلى إن قُضي أمره أن يضمنه في أبيات فلم يلبث أن جاء قاصد السلطان بطلبه وحصل الغرض فقال في أثناء أبيات:

فقلت للفكر لما صار مضطربا   وخانني الصبر والتفريط والجلد

---

(١) «الضوء اللامع»: ١/٢٨٢ ـ ٢٨٨.

(٢) كتاب في الفقه الشافعيّ.

دعهـا سمـاويـة تجـري على قـدر لا تعترضهـا بـأمـر منـك تنفسـد
فحفَّني بـخفـيٍّ اللطف خـالـقُنـا نعم الـوكيل ونعم العـون والمـدد

(١) وله تصانيف كثيرة فائقة منها مختصر في الفرائض بديع لم يسبق إليه سماه «إبراز لطائف الغوامض في إحراز صناعة الفرائض» وآخر أكبر منه لكنه لم يشتهر كاشتهاره لكونه لم يتمّ، والتلخيص لابن البناء في الحساب وهو عظيم الفائدة بل هو من أعظم تصانيفه في مجلد ضخم، وله أيضاً في الحسـاب «المبتكرات» في دون كـراس، و«الـدرر في مبـاشـرة القمـر»، و«المنهل العذب الزلال في معرفة حساب الهلال»، ورسالة في استخراج التواريخ بعضها من بعض، وله في إخراج القبلة بثلاث نقط من غير دائرة اثنا عشر بيتاً وشرحهـا. و«التسهيل والتقـريب في طرق الحـل والتركيب» و«المنثورة» في علوم شتى، وله مصنف في الحـديث وكتابـة جيدة على الفتاوى، كل ذلك مع الديانة والأمانة والثقة والتواضع والسكون والسمت الحسن وإيراد النكتة والنادرة، والظرف والانجماع عن الناس بمنزله المجاور للأزهر والاستغناء عنهم بإقطاعٍ بيده بل كان يبر الطلبة والفقراء أيضاً.

(٢) وبلغني أنه كان يقول: إذا استغرقتُ في غوامض الميقات أحس بإظلام في قلبي وأني كالممقوت.

واستمـر على طريقتـه الجميلة حتى مـات سنـة خمسين عن أربـع وثمانين سنة.

(٣) وقد قال العينيّ في تاريخه: كان من أهل العلم والدين، كافّ الشر عن الناس منقطعاً عنهم ملازماً لبيته وعنده بعضُ مسك اليد مع القدرة على الدنيا انتهى، ومستنده في ذلك فيما ظهر لي أنه لأجل كون عياله كن إما كان يخرج لهن ما يحتجن إليه كل يوم بالمعروف خوفاً من تبذيرهن ويصل ذلك كذلك على لسان النسوة إلى البدر لكونه من جيرانه وإلا فلم أر من طلبته الفقراء ونحوهم إلا وهو يذكر بره وصلته إليه، رحمه الله وإيانا[١].

---

(١) «الضوء اللامع»: ١/٣٠٠ ـ ٣٠٢.

ابن حجر

أحمد بن علي بن محمد شيخي الأستاذ إمام الأئمة الشهاب أبو الفضل الكنانيّ العسقلانيّ المصريّ ثم القاهريّ الشافعيّ ويعرف بابن حجر وهو لقب لبعض آبائه. ولد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمصر العتيقة ونشأ بها يتيماً في كنف أحد أوصيائه: الزكيّ الخروبيّ فحفظ القرآن وهو ابن تسع، وصلى به على العادة بمكة حيث كان مع وصيه بها؛ والعمدة وألفية ابن العراقيّ والحاوي الصغير ومختصر ابن الحاجب الأصلي وغيرها، وجدّ في الفنون حتى بلغ الغاية وحبب الله إليه الحديث وأقبل عليه بكليته وطلبه من سنة ثلاث وتسعين وهلم جرا، لكنه لم يلزم الطلب إلا من سنة ست وتسعين فعكف على الزين العراقيّ وتخرج به وانتفع بملازمته وقرأ عليه ألفيته وشرْحَها ونكتَه على ابن الصلاح دراية وتحقيقاً والكثيرَ من الكتب الكبار والأجزاءَ القصار وحمل عنه من أماليه جملة واستملى عليه بعضها. وتحول إلى القاهرة فسكنها قُبيل القرن وارتحل إلى البلاد الشامية والمصرية والحجازية وأكثر جداً من المسموع والشيوخ فسمع العالي والنازل وأخذ عن الشيوخ والأقران فمن دونهم.

واجتمع له من الشيوخ المشار إليهم والمعول في المشكلات عليهم ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره لأن كل واحد منهم كان متبحراً في علمه ورأساً في فنه الذي اشتهر به لا يلحق فيه، فالتنوخي في معرفة القراآت وعلو سنده فيها، والعراقي في معرفة علوم الحديث ومتعلقاته، والهيثميّ في حفظ المتون واستحضارها، والبُلقينيّ في سعة الحفظ وكثرة الاطلاع، وابن الملقن في كثرة التصانيف، والمجد الفيروزباديّ في حفظ اللغة واطلاعه عليها، والغماريّ في معرفة العربية ومتعلقاتها وكذا المحب بن هشام كان حسن التصرف فيها لوفور ذكائه وكان الغماريّ فائقاً في حفظها، والعز بن جماعة في تفننه في علوم كثيرة بحيث إنه كان يقول: أنا أقرىء في خمسة عشر علماً لا يعرف علماء عصري أسماءها، وأذن له جلهم أو جميعهم.

وتصدى لنشر الحديث وقصر نفسه عليه مطالعة وقراءة وإقراءً وتصنيفاً وإفتاءً وشُهد له بالحفظ، وزادت تصانيفه ـ التي معظمها في فنون الحديث وفيها من فنون الأدب والفقه والأصلين وغير ذلك ـ على مائة وخمسين تصنيفاً، ورزق فيها من السعد والقَبول خصوصاً فتح الباري بشرح البخاريّ الذي لم يسبق نظيره أمراً عجباً بحيث استدعى طلبه ملوك الأطراف بسؤال علمائهم له في طلبه وبيع بنحو ثلثمائة دينار وانتشر في الآفاق، ولمّا تم لم يتخلف عن وليمة ختمه إلا النادر، واعتنى بتحصيل تصانيفه كثير من شيوخه وأقرانه فمن دونهم وكتبها الأكابر وانتشرت في حياته وأقرأ الكثير منها وحفظ غير واحد من الأبناء عدة منها وعرضوها على جاري العادة على مشايخ العصر. وأُنشد من نظمه في المحافل وخُطب من دواوينه على المنابر لبليغ نظمه ونثره.

وكان مصمماً على عدم دخوله في القضاء حتى أنه لم يوافق الصدر المناويّ لما عرض عليه قبل القرن النيابة عنه عليها ثم قدر أن المؤيد ولاه الحكم في بعض القضايا ولزم من ذلك النيابة ولكنه لم يتوجه إليها ولا انتدب لها إلى أن عرض عليه الاستقلال به وألزم من أجابه بقبوله فقبل واستقر في المحرم سنة سبع وعشرين بعد أن كان عرض عليه في أيام المؤيد فمن دونه وهو يأبى.

(١) وتزايد ندمه على القَبول لعدم فرق أرباب الدولة بين العلماء وغيرهم ومبالغتهم في اللوم لرد إشاراتهم وإن لم تكن على وفق الحق بل يعادون على ذلك واحتياجه لمداراة كبيرهم وصغيرهم بحيث لا يمكنه مع ذلك القيام بكل ما يرومونه على وجه العدل وصرح بأنه جنى على نفسه بتقلّد أمرهم وإنّ بعضهم ارتحل للقائه وبلغه في أثناء توجهه تلبسه بوظيفة القضاء فرجع، ولم يلبث أن صرف ثم أعيد ولا زال كذلك إلى أن أخلص في الإقلاع عنه عقب صرفه سنة اثنتين وخمسين بعد زيادة مدد قضائه على إحدى وعشرين سنة، وزهد في القضاء زهداً تاماً لكثرة ما توالى عليه من الأنكاد والمحن بسببه وصرح بأنه لم تبق في بدنه شعرة تقبل اسمه.

ودرس في أماكن، ووَلِيَ مشيخة البيبرسية[1] ونظرها، والإفتاء بدار العدل والخطابة بجامع الأزهر ثم بجامع عمرو وخَزْنَ الكتب بالمحمودية وأشياء غير ذلك مما لم يجتمع له في آن واحد، وأملى ما ينيف على ألف مجلس من حفظه واشتهر ذكره وبعد صيته وارتحل الأئمة إليه وتبجح[2] الأعيان بالوفود عليه وكثرت طلبته حتى كان رؤس العلماء من كل مذهب من تلامذته؛ وأخذ الناس عنه طبقةً بعد أخرى وألحق الأبناء بالآباء والأحفاد بل وأبناءهم بالأجداد ولم يجتمع عند أحد مجموعهم وقهرهم بذكائه وتفوق تصوره وسرعة إدراكه واتساع نظره ووفور آدابه؛ وامتدحه الكبار وتبجح فحول الشعراء بمطارحته وطارت فتواه التي لا يمكن دخولها تحت الحصر في الآفاق، وحدث بأكثر مروياته خصوصاً المطولات منها كل ذلك مع شدة تواضعه وحلمه وبهائه وتحريه في مأكله ومشربه وملبسه وصيامه وقيامه وبذله وحسن عشرته ومزيد مداراته؛ ولذيذ محاضرته ورَضِيِّ أخلاقه وميله لأهل الفضائل وإنصافه في البحث ورجوعه إلى الحق وخصاله التي لم تجتمع لأحد من أهل عصره؛ وقد شهد له القدماء بالحفظ والثقة والأمانة والمعرفة التامة والذهن الوقاد والذكاء المفرط وسعة العلم في فنون شتى؛ وشهد له شيخه العراقي بأنه أعلم أصحابه بالحديث.

(١) وقال كل من التقي الفاسيّ والبرهان الحلبيّ: ما رأينا مثله، وسأله الفاضل تغري برمش الفقيه: أرأيت مثل نفسك؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾. ومحاسنه جمة وما عسى أن أقول في هذا المختصر أو من أنا حتى يُعرِّف بمثله خصوصاً وقد ترجمه من الأعيان في التصانيف المتداولة وتجاسرت فأوردته في معجمي والوفيات وذيل القضاء بل وأفردت له ترجمةً حافلة لا تفي ببعض أحواله في مجلد ضخم أو مجلدين كتبها الأئمة عني وانتشرت نسخها وحدثت بها الأكابر غير مرة بكل

---

(١) اسم مدرسة.

(٢) أي: فَرِح.

من مكة والقاهرة وأرجو كما شهد به غير واحد أن تكون غاية في بابها سميتها: «الجواهر والدرر»[1].

وقد قرأت عليه الكثير جداً من تصانيفه ومروياته بحيث لا أعلم من شاركني في مجموعها وكان رحمه الله يودني كثيراً وينوه بذكري في غيبتي مع صغر سني حتى قال: ليس في جماعتي مثله؛ وكتب لي على عدة من تصانيفي وأذن لي في الإقراء والإفادة بخطه وأمرني بتخريج حديث ثم أملاه.

ولم يزل على جلالته وعظمته في النفوس ومداومته على أنواع الخيرات إلى أن توفي في أواخر ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين وكان له مشهد لم ير من حضره من الشيوخ فضلاً عمن دونهم مثله وشهد أمير المؤمنين والسلطان فمن دونهما الصلاة عليه وقدم السلطان الخليفة للصلاة؛ ودفن بالقرافة وتزاحم الأمراء والأكابر على حمل نعشه ومشى إلى تربته من لم يمش نصف مسافتها قط، ولم يخلف بعده في مجموعه مثله. ورثاه غير واحد بما مقامه أجل منه رحمه الله وإيانا.

ومن نظمه مما قرأته عليه وأنشدَنيه لفظاً:

خليلي ولى العمر منا ولم نتبْ ... وننوي فعال الصالحات ولكنّا
فحتى متى نبني بيوتاً مشيدةً ... وأعمارنا منا تهد وما تبنى[2]

الحنّاويّ

أحمد بن محمد بن إبراهيم الشهاب أبو العباس الأنصاريّ الفيشيّ ثم القاهريّ المالكيّ نزيل الحسينية ويعرف بالحنّاويّ. وُلِد سنة ثلاث وستين وسبعمائة بفيشا المنارة من الغربية بالقرب من طنتدا وانتقل وهو صغير مع والده إلى القاهرة.

---

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، وهذا الكتاب قد طبع الجزء الأول منه مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة.

(٢) «الضوء اللامع»: ٢/٣٦ ـ ٤٠.

(١) جوّد الخط عند الوسيميّ فأجاد وأذن له وكان يحكي أن بعضهم رآه عنده وقال له وقد رأى حسن تصوره: اترك الاشتغال بالكتابة وأقبل على العلم فقصارى أمرك في الكتابة أن تبلغ مرتبة شيخك: فقيه كُتاب، فنفعه الله بنصيحته وأقبل على العلم من ثَمّ.

حج مرتين وناب في الحكم عن الجمال البساطيّ فَمَن بعده وحُمِدت سيرته في أحكامه وغيرها وعرف بالفضيلة التامة لا سيّما في فن العربية، وتصدى للإقراء فانتفع به خلق وصار غالب فضلاء الديار المصرية من تلامذته.

(٢) وكان حسن التعليم للعربية جداً، وله فيها مقدمة سماها «الدرة المضية في علم العربية» مأخوذة من شذور الذهب كثر الاعتناء بتحصيلها وحرص هو على إفادتها بحيث كان يكتب النسخ منها بخطه للطلبة ونحوهم وكنت ممن أعطاني نسخة بخطه، حكى أن سبب تصنيفها أنه بحث الألفية جميعها في مبدأ حاله فلم يفتح عليه بشيء فعلم أنه لا بد للمبتدىء من مقدمة يتقنها قبل الخوض فيها أو في غيرها من الكتب الكبار أو الصعبة ولذا لم يكن يقرىء المبتدىء إلا إياها، وشرحها جماعة من طلبته.

وخطب ببعض الأماكن وحدث باليسير.

وكان خيراً ديناً وقوراً ساكناً قليل الكلام كثير الفضل في الفقه والعربية وغيرهما منقطعاً عن الناس مديماً للتلاوة سريع البكاء عند ذكر الله ورسوله كثير المحاسن على قانون السلف مع اللطافة والظرف وإيراد النادرة وكثرة الفكاهة والممازحة ومُتِّع بسمعه وبصره وصحة بدنه.

(٣) ومن لطائفه قوله: تأملت الليلة وسادتي التي أنام عليها أنا وأهلي فإذا فوقها مائة وسبعون عاماً فأكثر لأن كل واحد منا يزيد على ثمانين أو نحوها.

وكان يوصي أصحابه إذا مات بشراء كتبه دون ثيابه ويعلل ذلك

بمشاركة ثيابه له في غالب عمره فهو لخبرته بها يحسن سياستها بخلاف من يشتريها فإنه بمجرد غسله لها تتمزق أو كما قال.

مات سنة ثمان وأربعين[1].

الوجيزيّ

أحمد بن محمد بن عرندة الشهاب المحليّ القاهريّ الشافعيّ ويُعرف بالوجيزيّ. قال شيخنا في «أنبائه»: ولد سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة بالمحلة وقدم القاهرة فحفظ الوجيز فعرف به وأخذ عن علماء عصره وكتب الكثير جداً لنفسه ولغيره، وكان صحيح الخط ويذاكر بأشياء حسنة مع معرفة بالحساب، ثم حصل له سوء مزاج وانحراف لكن لم يتغير به عقله، مات سنة ثماني عشرة.

(١) وقد ذكره المقريزي في عقوده وأنه أخبره أنه ركب بحر النيل لبعض نواحي الصعيد فرافقه تركيٌّ وجمعٌ فيهم رجل فقير صالح معتقَد فكان يتورع عن الأكل معهم ودام على ذلك أياماً لا يتناول شيئاً فلما كان بعد ذلك هب ريح عاصف اضطرب منه النيل وعظمت أمواجه فإذا بحوت في الماء وثب وثبة ثم سقط على يديه فتناوله وجعله غناءً[2] له أياماً[3].

ابن تقيّ

أحمد بن محمد بن أحمد المصري القاهريّ المالكيّ ويُعرف بابن تقي وابن أخت بهرام. وُلِد سنة خمس وثمانين أو قبلها أو بعدها فحفظ بها القرآن والموطأ والعمدة وألفية النحو وغيرها.

(٢) واشتهر بقوة الحافظة بحيث كان فيها من نوادر الدهر يحفظ الورقة بتمامها من مختصر ابن الحاجب من مرتين أو ثلاث تأملًا بدون درس

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢/٦٩ ـ ٧٠.

(٢)

(٣) «الضوء اللامع»: ٢/٧٧.

على جاري عادة الأذكياء غالباً بل بلغني أنه حفظ سورة النساء في يومين والعمدة في ستة أيام والألفية في أسبوع وأن السراج عمر الأسوانيّ أنشد قصيدة مطولة من إنشائه وكررها مرة أو مرتين فأحب إخجاله فقال له: إنّها قديمة فأنكر السراج ذلك فبادر الشهاب وسردها حفظاً؛ وكانت نادرة، واتفق كما بلغني أن بعض شيوخه سأله في ليلة عيد: هل يحفظ له خطبة رجاء استنابته فقال: لا لكن إن كان عندك نسخة بخطبة فأرنيها حتى أمر عليها فأخرج له خطبة في كراسة بأحاديثها ومواعظها على جاري عادة خطب العيد فتأملها في دون ساعة ثمّ خطب بها.

ولم يزل مجداً في العلوم حتى برع وتقدم باستحضار الفقه وأصوله والعربية والمعاني والبيان والمشاركة في جميعها مع الفصاحة ومعرفة الشروط والأحكام وجودة الخظ وقوة الفهم والنظم الوسط والاستحضار لشرحي مسلم للقاضي والنوويّ ومع هذا كله فكان غير متأنق في هيئته مع ثروته، ودرس وأفتى وطار صيته وصار إليه مرجع المالكية خصوصاً بعد البساطيّ ولم يشغل نفسه بتصنيف نعم شرع في تعليق على كل من الموطأ والبخاري فكتب منهما يسيراً.

واستمر على جلالته حتى مات سنة اثنتين وأربعين ثم دُفِن بجوار بيته في تربة السيدة رقية بالقرب من المشهد النفيسيّ ولم يخلف بعده مثله[1].

ابن البرهان

أحمد بن محمد بن إسماعيل أبو هاشم المصريّ الطاهريّ التيميّ ويُعرف بابن البرهان. وُلِد فيما بين القاهرة ومصر سنة أربع وخمسين وسبعمائة واشتغل بالفقه شافعياً وسمع الحديث وأحبه ثم صحب بعض الظاهرية وهو شخص يُقال له سعيد السحوليّ فجذبه إلى النظر في كلام ابن حزم فأحبه ثم نظر في كلام ابن تيمية فغلب عليه بحيث صار لا يعتقد أن

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢/٧٨ - ٨٠.

أحداً أعلم منه، وكانت له نفس أبية ومروءة وعصبية ونظر كبير في أخبار الناس فطمحت نفسه إلى المشاركة في الملك مع أنه ليس له قدم لا من عشيرة ولا من وظيفة ولا مال، فلما غلب الظاهر برقوق على المملكة وحبس الخليفة رام جعل ذلك وسيلة لما حدثته به نفسه فغضب من ذلك وخرج في سنة خمس وثمانين إلى الشام ثم إلى العراق يدعو إلى طلب رجل من قريش فاستقرأ جميع الممالك ودخل حلب فلم يبلغ قصداً ثم رجع إلى الشام فاستغوى كثيراً من أهلها وكان أكثر الموافقين له ممن يتدين منهم الياسوفيّ والحسبانيّ لِما يرى من فساد الأحوال وكثرة المعاصي وفشو الرشوة في الأحكام وغير ذلك فلم يزل على هذه الطريقة إلى أن نمى أمره إلى بيدمر نائب الشام فسمع كلامه وأصغى إليه ولم يشوش عليه لعلمه أنه لا يجيء من يديه ثم نمى أمره إلى نائب القلعة شهاب الدين بن الحمصيّ وكانت بينه وبين بيدمر عداوة شديدة فوجد فرصة في التألب عليه بذلك فاستحضر ابن البرهان واستخبره وأظهر أنه مال إلى مقالته فبث له جميع ما كان يدعو إليه فتركه ثم كاتب السلطان بذلك كله فلما علم بذلك كتب إلى النائب يأمره بتحصيل ابن البرهان ومن وافقه على رأيه وبتسميرهم فتورّع النائب عن ذلك وتكاسل عنه وأجاب بالشفاعة فيهم والعفو عنهم وأن أمرهم متلاش وإنما هم قوم خفت أدمغتهم من الدرس ولا عصبة لهم واستمر ابن الحمصيّ في انتهاز الفرصة فكاتب أيضاً بأن النائب قد عزم على المخامرة فوصل إليه الجواب بمسك ابن البرهان ومن كان على رأيه وإن آل الأمر في ذلك إلى قتل بيدمر فمات الياسوفيّ خوفاً بعد أن قبض عليه وفر الحسبانيّ ولما حضر ابن البرهان إلى السلطان استدناه واستفهمه عن سبب قيامه عليه فأعلمه بأن غرضه أن يقوم رجل من قريش يحكم بالعدل فإن هذا هو الدين الذي لا يجوز غيره وزاد في نحو هذا فسأله عن من معه على مثل رأيه من الأمراء فبرأهم فأمر بضربه فضُرب هو وأصحابه وحُبِسوا في الخزانة حبس أهل الجرائم وذلك في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين ثم أفرج عنهم في ربيع الأول سنة إحدى وتسعين فاستمر ابن البرهان مقيماً بالقاهرة على

صورة إملاق إلى أن مات سنة ثمان وحيداً فريداً بحيث لم يحضر في جنازته إلا سبعة أنفس لا غير.

(١) ورأيته بعد موته فقلت له: أنت ميت؟ فقال: نعم، فقلت: ما فعل الله بك؟ فتغير تغيراً شديداً حتى ظننت أنه غاب ثم أفاق فقال: نحن الآن بخير.

وكان ذا مروءة عليّة ونفس أبية، حسن المذاكرة والمحاضرة عارفاً بأكثر المسائل التي يخالف فيها أهل الظاهر الجمهور يكثر الانتصار لها ويستحضر أدلتها ويرد على معارضيها، وأملى وهو في الحبس بغير مطالعة ـ مما يدل على وفور اطلاعه ـ مسألة رفع اليدين في السجود ومسألة وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة ورسالة في الإمامة، قاله شيخنا قال وقد جالسني كثيراً وسمعت من فوائده كثيراً وكان كثير الإنذار لما حدث بعده من الفتن والشرور بما جبل عليه من الاطلاع على أحوال الناس ولا سيما ما حدث من الغلاء والفساد[١].

ابن مظفّر

أحمد بن محمد المدعو مظفر بن أبي بكر الشهاب التركمانيّ الأصل القاهريّ الشافعيّ شقيق عمر.

(٢) وأمهما تونسية أقامت في صحبة والدهما خمسين سنة لم يختلفا. ويُعرف بابن مظفر. وُلِد تقريباً سنة أربع وثمانين وسبعمائة بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن وتلاه لأبي عمرو على أبيه والبعضَ من الشاطبية والمنهاج. وتكسب في بعض سنيِّ الغلاء بسقي الماء وإقراء الأطفال وقتاً، وانتفع في العزلة والتقلل وكان كثير السياحة يتوجه للقرافة على قدميه لزيارة الشافعيّ والليث وغيرهما ويتفكر في عجائب المخلوقات متقللاً من الدنيا بل متجرداً لا يلوي على أهل ولا مال ما علمته تزوج قطُّ إلا قبيل موته فيما قيل لا

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢/٩٦ ـ ٩٨.

قصداً للاستمتاع بل للسنة، وعرض عليه بعد أخيه التكلم له في وظائفه فأبى مؤثراً الانفراد وحب الخمول وعدم الشهرة بل ربما فر من بعض من يقصده للدعاء، قانعاً باليسير حريصاً على مواساة قريبة له، مائلاً لمخالطة الفقراء ونحوهم، كل ذلك مع لطف العشرة والتودد والأدب والفصاحة والسمت وحسن التلاوة والصلاة واستحضار أشياء من مقامات الحريريّ وغيرها من نكت وفوائد، وللناس فيه اعتقاد، ولما قدم العلاء البخاريّ مصرَ عرضوا عليه أن يؤم به ففعل ثم أعرض عن ذلك لكثرة القاصدين للعلاء وميله للعزلة، وصار بأخرة يبيت بالمنكوتمرية[1] ويؤثرها على غيرها لقلة من يأوي بها فكثرت مجالستي معه بها وصلّيت خلفه وسمعت قراءته الشجية بل قرأت عليه الفاتحة وسمعت من كلماته النافعة جملة ودعا لي كثيراً.

مات بالإسهال سنة ست وتسعين، رحمه الله وإيانا[2].

الزاهد

أحمد بن محمد بن سليمان الشهاب أبو العباس بن أبي أحمد القاهريّ الشافعيّ ويُعرف بالزاهد. صنف كثيراً للمريدين ونحوهم، وله مجالس في الفقه والترغيب في طلب العلم وذكر الحلال والحرام، وبنى عدة أماكن منها الجامع الشهير بالمقسم؛ واشتهر ذكره وبعد صيته، وقد ذكره شيخنا في أنبائه فقال إنه انقطع في بعض الأمكنة فاشتهر بالصلاح ثم صار يتبع المساجد المهجورة فيبني بعضها ويستعين بأنقاض البعض في البعض ثم أنشأ جامعاً بالمقس وصار يعظ الناس خصوصاً النساء، ونقموا عليه فتواه برأيه من غير نظر جيد في العلم مع سلامة الباطن والعبادة.

مات سنة تسع عشرة، ودُفن بجامعه المشار إليه وقبره ظاهر يُزار وتأخر أصحابه إلى سنة ثمان وثمانين.

---

(١) اسم مدرسة.

(٢) «الضوء اللامع»: ٢/١٠٧ - ١٠٨.

(١) وقد رأيت ورقة من إملائه في مرض موته نصها: يقول الفقير أحمد الزاهد إنني قائل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وأنني بريء من كل دين خالف دين الإسلام وكل فرقة غير فرقة النبي ﷺ وكل وهم وخاطر، آمنت بالله وبما جاء من عند الله على مراد الله وآمنت برسول الله وما جاء من رسول الله على مراد رسول الله وكل ما خطر في وهمي أو خاطري فالله عز وجل بخلافه أستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة يؤديها إليّ يوم أحتاج إليها ثم أوصيكم يا إخواني بتقوى الله والسمع والطاعة[١].

ابن القرداح

أحمد بن محمد بن عليّ الشهاب القاهريّ الواعظ ويعرف بابن القرداح وهو لقب أبيه.

وُلد سنة ثمانين، ولازم العز بن جماعة في فنون كالموسيقا وغيرها، وأخذ علم الميقات وغيره عن الجمال الماردانيّ، وعلم الفلك عن الشمس محمد بن أيوب رئيس الجامع العمريّ بمصر وضرب في كثير من الفنون بنصيب، ونظم ونثر النظم الوسيط فيما دونه وانتهى إليه حسن الإنشاد في زمانه مع قبول الوجه والكلام والفصاحة ورخامة الصوت وحسن الشكل وله اليد الطولى في الضرب بالعود، وكان المؤيد شيخ[٢] يميل إليه ويأخذه معه في منتزهاته وخلواته، وباشر التأذين والتسبيح عنده.

قال شيخنا: إنه من مفاخر الديار المصرية في حسن الإنشاد لا يفوقه أحد من أهل العصر فيه ولم يكن بمصر والشام في هذا الوقت أحدٌ يساويه فيما اجتمع فيه من طيب النغمة ومعرفة الفن واجتناب اللحن واختراع التلحين الذي لم يُسبق إليه، قال ونظم الشعر فكان ربما يدرك منه الوسط المقبول والكثير منه سفساف ولكن كان يسهله بحسن إنشاده، قال وقد حضر

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢/١١١ - ١١٣، وللوصية تكملة.

(٢) أحد سلاطين المماليك.

مجالس الحديث وسمعنا من نظمه الكثير ومدحني بأبيات عدة مراراً وطارحني بأبيات تائية وأبرزها في قالب الاستفتاء. وقال في «تاريخه»: وكان يعمل الألحان وينقل كثيراً منها إلى ما ينظمه فإذا اشتهر وكثر العمل به تحول إلى غيره.

مات سنة إحدى وأربعين بالقاهرة في الطاعون بعد أن أسرع إليه الشيب والهرم وخلف مالاً جزيلاً وكتباً تزيد على ألف مجلد سوى ما اختُلِس - فيما قيل - منها وقد ذكره العيني فقال: الواعظ الفائق لم يكن مثله في زمانه مع اشتغاله ببعض العلم[1].

تقي الدين الشُّمَنِّيّ

أحمد بن محمد بن محمد التقيّ أبو العباس التميميّ الداريّ القسطنطينيّ الأصل المالكيّ ثم الحنفيّ ويُعرف بالشُّمَنِّي نسبة لمزرعة ببعض بلاد المغرب أو لقرية وقد لا يتنافيا.

وُلد سنة إحدى وثمانمائة بالإسكندرية وقدم القاهرة وتفقه أولاً كأبيه لمالك وتحول حنفياً في سنة أربع وثلاثين.

(١) وسمعت من يذكر في سبب تحوله حنفياً كون البساطيّ قدم بعض رفاقه ممن التقيُّ أمثل منه بكثير عليه.

(٢) وأخذ العربية وأصول الدين والطب والهندسة والهيئة والحساب والمنطق والحديث عن شيخنا بحث عليه دروساً من شرح ألفية العراقيّ في سنة اثنتين وثلاثين وكان لازمه بعد والده فأحسن إليه وساعده في استخلاص مبلغ ممن وثب عليه في بعض وظائف أبيه وآثره هو بمثله وزاد إقبالاً عليه حين وقع السؤال عن حكمة الترقي من الذرة إلى الحبة إلى الشعيرة في قوله[2]: «فليخلقوا ذرة» وأجاب التقيّ بديهة بأن صنع الأشياء الدقيقة فيه

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢/١٤٢ - ١٤٣.

(٢) أي في الحديث.

صعوبة والأمر بمعنى التعجيز فناسب التدلي من الأعلى إلى الأدنى فاستحسنه وزاد في إكرامه والتعريف بفضيلته.

واستمر يدأب في الفضائل حتى اشتهر، وتصدى للإقراء، وكان إماماً عالماً علامة مفنناً سنياً متين الديانة زاهداً عفيفاً متواضعاً متودداً صبوراً حسن الصفات منقطع القرين، سريع الإدراك قويّ الحافظة مُمْتع المحاضرة جيد الكتابة فصيحاً رائق العبارة قادراً على التعبير عن مراده بعبارات متنوعة في نثر حسن وربما نظم أيضاً، كل ذلك مع الشهامة وحسن الشكالة والأبّهة وبشاشة الوجه ومحبة الحديث وأهله وحطه على الاتحادية ومن زاغ ممن ينسب إلى التصوف وتقلله من التبسط في الدنيا وتقنعه بخلوة في الجمالية يسكنها وأمة سوداء لقضاء وطره.

ولمّا التمس منه قانباي الجركسيّ حين ابتنى تربته - التي تحت قلعة الجبل بإرشاد بعض أصحابه له في ذلك - الإقامة فيها ويكون خطيبها وشيخ الصوفية بها مع غير ذلك من الوظائف ويهيء له مسكناً حسناً أجاب وتحول فأقام بها وكان ذلك سبباً لمزيد انجماعه وعكوفه على ما هو بصدده، ورسم له بفرس من اسطبل السلطان وألح عليه فركبها لحظة وعجز فنزل عنها وأرسلها لموضعها فرجعوا بها إليه وقالوا له إن لم تركبها فانتفع بثمنها.

(١) خُطِب للقضاء فأبى بعد مجيء كاتب السر[1] إليه وأخبره أنه إن لم يُجب نزل إليه السلطان فصمم وقال: الاختفاء ممكن، فقال له: فبماذا تجيب إذا سألك الله عن امتناعك مع تعيّنه عليك؟ فقال: يفتح الله حينئذ بالجواب.

(٢) ولم يكن يحابي في الدين أحداً؛ التمس منه بعض الشبان من ذوي البيوت إذنه له بالتدريس بعد أن أهدى إليه شيئاً فبادر لرد الهدية وامتنع من الإذن.

---

(١) وظيفة يتولى صاحبها قراءة الكتب الواردة على السلطان والرد عليها، وغير ذلك من لوازمها.

وقد عم النفع به حتى بَقِي جُلُّ الفضلاء من سائر المذاهب من أهل مصر بل وغيرها من تلامذته واشتدت الرغبة في الأخذ عنه وتزاحموا عليه وهرعوا صباحاً ومساءً إليه، وبالجملة فهو كلمة إجماع لم يتدنس بما يحط مقداره بل راعى لمنصب العلم حقه ومنحه الله تعالى كثرة الأسقام من قبل الثلاثين في الأعضاء الباطنة وكذا بحبس البول بالحصاة وكثرة الرعاف وغير ذلك فكان قَلّ أن يصح لكنه لا ينقطع إلا عن أمر كبير ويتحرى ما يلائمه من أكل ونحوه إلى قبيل موته وعرض له حينئذ استسقاء ورمد، ومات بمنزله سنة اثنتين وسبعين وتأسف الناس على فقده ولم يخلف بعده في مجموعه مثله وخلف ذكرين وأنثى من جارية وألف دينار وحُفِظت جهاته لولديه ورثاه غير واحد رحمه الله وإيانا(١).

ابن عيّاش

أحمد بن محمد بن الشهاب أبو العباس الجُوخِيّ الدمشقيّ المقريء الشافعيّ نزيل تعز ويُعرف بابن عيّاش. وُلِد سنة ست وأربعين وسبعمائة وتعانى بيع الجُوخ فرزق فيه حظاً وحصل منه دنياً طائلة، وعنى بالقراآت وانتفع به جمع من أهل الحجاز واليمن.

(١) ولقّن جمعاً القرآنَ احتساباً، وكان بصيراً بالقراآت ديناً خيراً غاية في الزهد في الدنيا ترك بدمشق أهله وماله وخيله وخدمه وساح في الأرض مع مواظبته وهو بدمشق على صلاة الأولى(٢) بجامعها الأمويّ وتلاوته كل يوم نصف ختمة، وجاور بمكة ثم دخل اليمن فأقام به عدة سنين في خشونة من العيش ومداومة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد ذكره ابن الجزريّ في طبقات القراء وقال: صاحبنا أبو العباس فاضل كامل مقريء خير صالح دين أخذ السبع عن شيخنا ابن اللبان وابن السلار وجلس

(١) «الضوء اللامع»: ٢/١٧٤ - ١٧٨.
(٢) هي صلاة الظهر.

للإقراء بالجامع الأمويّ وانتفع به جماعة مع التقوى والسكون وهو في زيادة علم وخير، وقال في موضع آخر: أخونا في الله وصاحبنا في تلاوة كتاب الله الشيخ الإمام العلامة الصالح الخاشع الناسك الذي جمع بين العلم والعمل فترك الدنيا وأعرض عن الخلق حتى جاءه الأجل. وقال ابن قاضي شهبة أنه حكى له أنه كان يشتري البيعة بخمسين ألفاً فربما يربح في الحال من مشتر غيره خمسة الآف، وقال عمر بن حاتم العجلوني: لم أر أحداً على طريقة السلف في رفض الدنيا وراء ظهره مع إقبالها عليه والقدرة عليها مثله.

وله سماع ورواية. مات سنة اثنتين وعشرين بتعز[1].

الباعونيّ

أحمد بن ناصر بن خليفة الشهاب المقدسيّ الباعونيّ الناصريّ، وباعون بالقرب من عجلون من عمل صفد كان أبوه منها فانتقل إلى الناصرة من عمل صفد، نزيل دمشق. وُلد بالناصرة سنة إحدى وخمسين وسبعمائة تقريباً ونشأ بها فحفظ القرآن والمنهاجين الفرعيّ والأصلي وألفية ابن مالك وغيرها وأقام بصفد إلى بعيد التسعين وسبعمائة، قدم القاهرة ونزل سعيد السعداء.

(١) وكان السالميّ يعرفه من صفد فنوه به عند الظاهر برقوق حتى أحضره عنده وقربه وعامله معاملة أهل الصلاح وزاد في إكرامه وولاه خطابة جامع بني أمية بدمشق ثم القضاء بها وسار سيرة مرضية في سلوك الحق وعدم المحاباة مع الحرمة الوافرة ثم امتحن لكونه امتنع من إقراض السلطان من مال الأيتام بالعزل والإهانة بالسجن ونحوه بعد المبالغة في التنقيب عليه وعدم وجودهم كبير أمر يتعلقون به وإن كان المرء لا يخلو من حاسد ثم أطلق ولزم داره ثم استقر في سنة اثنتين وثمانمائة في خطابة بيت المقدس وتوجه فباشرها مدة ثم أضاف إليه الناصر فرج معها قضاء دمشق وذلك في

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢/٢٠٣.

صفر سنة اثنتي عشرة فباشر ذلك مباشرة حسنة بعفة ونزاهة ومداراة وحرمة ثم عُزل فتوجه إلى بيت المقدس على خطابته ثم عاد إلى دمشق.

وكان إماماً بارعاً ديناً فاضلاً آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر شكلاً حسناً منور الشيبة طوالاً ذا نظم ونثر فائقين.

(١) ومن نظمه:

سلـــم إلـــى الله مــــا قضــــاه	لا بـــــد أن ينفــــذ القضــــاء
سيجعـــل الله بعـــد عســـر	يســـراً بـــه يـــذهـــب العنـــاء
يـــدبـــر الأمـــر منـــه جـمعـــاً	ويفعـــل الله مـــا يشـــاء

(٢) ومنه:

ولمـــا رأت شيـــب رأســـي بكـــت	وقـــالـــت عســـى غيـــر هـــذا عســـى
فقلـــت البيـــاض لبـــاس الملـــوك	فـــإن الســـواد لبـــاس الأســـى
فقـــالـــت صـــدقـــت ولكنـــه	قليـــل النَّفـــاق[1] بســـوق النســـا

مات سنة ست عشرة بدمشق.

ذكره شيخنا في معجمه وقال إنه اشتغل في الأدب وتفقه قليلاً وسمع الحديث، وكان شاعراً مجيداً وكاتباً وخطيباً مصقعاً.

(٣) قال واتفق أنه خرج ليخطب فلم ير السلطان الناصر حضر فاستمر جالساً على المنبر قدر ثلث ساعة حتى جاء فقام حينئذ وأشار إلى المؤذنين بالأذان فعاب عليه جماعة ذلك.

قال وكان كثير المنامات جداً حتى كان يتهم في الكثير منها، وكان يتعانى الوعظ ويكثر البكاء ولكنه كان لا يستحضر من الفقه إلا قليلاً[2].

---

(١) أي الرّواج.

(٢) «الضوء اللامع»: ٢/٢٣١ - ٢٣٣.

ابن هلال

أحمد بن هلال الشهاب الحسبانيّ ثم الحلبيّ الصوفيّ ويُعرف بابن هلال.

قال شيخنا في «أنبائه»: اشتغل قليلاً على القاضي شمس الدين بن الخراط وغيره، وكان مفرط الذكاء وأخذ التصوف عن الشمس البلاليّ ثم توغل في مذهب أهل الوحدة ودعا إليه وصار كثير الشطح وجرت له وقائع وكان أتباعه يبالغون في إطرائه ويقولون هو نقطة الدائرة إلى غير ذلك من مقالاتهم المستبشعة، وذكره في لسان الميزان فقال: أحد زنادقة الوقت. وُلد بعد السبعين ونشأ بدمشق وقدم حلب على رأس القرن فقرأ على القاضي شرف الدين الأنصاريّ في مختصر ابن الحاجب الأصليّ ودرس في المنتقى لابن تيمية وقرأ في أصول الدين فلما كانت كائنة الططر وقع في أسر اللنكيّة وشج رأسه، ثم خلص منهم بعد مدة وبرح إلى القاهرة فأقام بها وأخذ عن بعض شيوخها وصحب البلاليّ مدة، ثم رجع إلى حلب فصحب الأطعاني، ثم انقطع فتردد إليه الناس وعقد الناموس وصار يدعي دعاوى عريضة منها أنه مجتهد مطلق ويطلق لسانه في أكابر الأئمة وأنه مطلع على الكائنات، ولا يعتني بعبادة ولا مواظبة على الجماعات، ويدعي أنه يأخذ من الحضرة وأنه نقطة الدائرة ونقل عنه أتباعه كفريات صريحة. وسمع شخصاً ينشد قصيدة نبوية فقال: هذه فيّ، وقال لأتباعه: إن قصرتم بي عن درجة النبوة نقصتم منزلتي، وزعم أنه يجتمع بالأنبياء كلهم في اليقظة وأن الملائكة تخاطبه في اليقظة وأنه عرج به إلى السموات وأن موسى أعطِي مقام التكليم ومحمداً مقام التكميل وهو أعطِي المقامين معاً إلى غير ذلك مما ذاع واشتهر وكثر أتباعه وعظم بهم الخطب واشتدت الفتنة به وقام عليه جماعة وتعصب له بعض الأكابر إلى أن مات سنة ثلاث وعشرين[1].

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢/٢٤١ - ٢٤٢.

أرغون شاه

أرغون شاه الإبراهيميّ المنجكيّ نائب السلطنة بحلب. كان أصله لإبراهيم بن منجك فتنقّل حتى ولاه الظاهر نيابة صفد ثم طرابلس ثم حلب في سنة ثمانمائة وبها مات سنة إحدى ودُفِن خارج باب المقام بتربة بنت له، ويُقال إن بعض الأكابر سقاه، وقيل إن بعض العرب أغار على جمال له فتوجه في طلبهم ففروا منه فلج في أثرهم وغر بنفسه فأصابه عطش بحيث مات بعض من معه من أناس وخيول وضعف هو واستمر إلى أن مات.

(١) وكان حسن السيرة بل سار في حلب أحسن سيرة، قال شيخنا تبعاً لابن خطيب الناصرية: كان شاباً جسيماً عاقلاً عادلاً شجاعاً كريماً، ومن عدله أن غلمانه توجهوا لتحويل الملح الذي في أقطاع النيابة فاستكروا جمالاً فخرج عليهم العرب فنهبوهم فغرم لأصحابها ثمنها، وإن شخصاً ادعى عنده في جمل عند صلاة الجمعة وجد به عيباً ليرده فاستمهله إلى أن يصلي فمات الجمل فغرم له ثمنه وقال: نحن فرطنا[٢].

الزَّبيديّ

إسماعيل بن إبراهيم بن عبدالصمد الهاشميّ العقيلي الجبرتيّ ثم الزبيديّ الشافعيّ. ذكره شيخنا في معجمه فقال: صاحب الأحوال والمقامات لقيته بزبيد ولأهلها فيه اعتقاد زائد على الوصف وكان يلازم قراءة سورة يس ويأمر بها ويزعم أن قراءتها لقضاء كل حاجة ويروي فيها حديث: «يس لما قرئت له»، وأول ما اشتهر أمره في كائنة زبيد لما حاصرها الإمام صلاح الدين الهرويّ إمام الزيدية فقام هو في ذلك وبشر السلطان بالنصر وانهزام الإمام فوقع كما قال فصارت له عنده منزلة، وهو ملجأ لكل أحد أما أهل العبادة فللذكر والصلاة، وأما أهل البطالة فللسماع واللهو، وأما أهل الحاجات فلجاهه.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢٦٧/٢.

(١) وكان الشيخ مغرماً بالرقص والسماعات، داعية لمقالة ابن عربيّ يوالي عليها ويعادي بسببها وبلغ في العصبية إلى أن صار من لا يحصل نسخة من «الفصوص»[١] تنقص منزلته عنده، واشتد البلاء بأهل السنة به وبأتباعه جداً، وقد حدثني عن الحافظ أبي بكر بن المحب بالإجازة وعن أبي محمد بن عساكر بالإجازة العامة.

وفيه يقول شاعر اليمن الجمال الذواليّ من قصيدة وكان منحرفاً عنه معتقداً لصلاح صالح المصريّ وكان صالح هذا صاحب كرامات فقام على إسماعيل وأتباعه فتعصبوا عليه وأخرجوه إلى الهند:

رهط إسماعيل قطاع الطريـ ... ـق إلى الله وأرباب الريَب
سُفُل حمقى رِعاع غاغة ... أكْلُبٌ[٢] فيهم على الدنيا كَلَب[٣]
اتخذوا دينهم زندقة ... فاستباحوا اللهو فيه والطرب

وقال[٤] في «الإنباء» إنه ولد سنة اثنين وعشرين وسبعمائة على ما ذكر وتعانى الاشتغال ثم تصوف وكان خيراً عابداً حسن السمت والملبوس مغرى بالسماع محباً في مقالة ابن العربيّ وكنت أظن أنه لا يفهم الاتحاد حتى اجتمعت به فرأيته يفهمه ويقرره ويدعو إليه حتى صار من لم يحصل كتاب «الفصوص» من أصحابه لا يلتفت إليه، وكان يداوم قراءة سورة يس في كل حالة ويعتقد فيه حديثاً موضوعاً وأراني جزءاً جمعه له شيخنا المجد الشيرازيّ في ذلك، وقام عليه مرة الشيخ صالح المصريّ فتعصبوا عليه حتى نفوه إلى الهند ثم كان الفقيه أحمد الناشريّ عالم زبيد يقوم عليه وعلى أصحابه ولا يستطيع أن يغيرهم عما هم فيه لميل السلطان إليهم.

مات سنة ست وله بضع وثمانون سنة[٥].

---

(١) كتاب لابن عربي.
(٢) جمع كلب.
(٣) أي: حرص.
(٤) أي ابن حجر.
(٥) «الضوء اللامع»: ٢/٢٨٢ - ٢٨٤.

إسماعيل المقري

إسماعيل بن أبي بكر بن عبدالله المقري الشرف أبو محمد الشَّغْدَرِيّ الشاوريّ الشرجيّ اليمانيّ الحسينيّ - نسبة لأبيات حسين من اليمن - الشافعيّ ويُعرف بابن المقرىء، وأصله من الشرجة من سواحل اليمن كما قاله شيخنا في «أنبَائه». وُلد سنة خمس وخمسين وسبعمائة، بأبيات حسين ونشأ بها ثم انتقل إلى زبيد وتفقه وأخذ العربية عن علماء وقته ومهر فيهما وفي غيرهما من العلوم وبرز في المنطوق والمفهوم، وتعانى النظم فبرع فيه وأقبل عليه ملوك اليمن وصار له ثَمّ حظٌّ عند الخاص والعام. وولاه الأشرف تدريس المجاهدية بتعز والنظامية بزبيد فأفاد واستفاد وانتشر ذكره في سائر البلاد.

(١) وعين للسفارة إلى الديار المصرية ثم تأخر ذلك لطمعه في الاستقرار في قضاء الأقضية بعد المجد الشيرازيّ اللغويّ فلم يتم له مناه بل كان يرجوه في حياة المجد ويتحايل عليه بحيث إن المجد عمل للسلطان الأشرف كتاباً أول كل سطر منه ألف واستعظمه السلطان فعمل الشرف كتابه الحسن الذي لم يسبق إلى مثاله المسمى «عنوان الشرف»[1] والتزم أن تخرج من أوائله وأواخره وأواسطه علوم غير العلم الذي وضع الكتاب له وهو الفقه لكنه لم يتم في حياة الأشرف فقدمه لولده الناصر ووقع عنده بل وعند سائر علماء عصره ببلده وغيرها موقعاً عظيماً وأعجبوا به وهو مشتمل مع الفقه على نحو وتاريخ وعروض وقواف.

(٢) ونظمه كثير التجنيس[2] والبديع حسن الترتيب والترصيع[3] حتى أن

---

(١) «عنوان الشرف الوافي في الفقه والتاريخ والنحو والعَروض والقوافي» وهو مطبوع متداول.

(٢) الجناس هو تشابه لفظين في النطق واختلافهما في المعنى.

(٣) هو توازن الألفاظ مع توافق الأعجاز (أي أواخر الكلمات) أو تقاربها، ومثال التوافق قوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم﴾، ومثال التقارب قوله تعالى: ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم﴾.

النفيس العلوي قال إنه سمع باليمن كلا من شيخنا وشعبان الآثاري يقول: ما أعلم أعلم ولا أفصح في الشعر منه وهو يُربي على أبي الطيب المتنبي.

وقال[1]: هو الفقيه الإمام العالم ذو الفهم الثاقب والرأي الصائب بهاء الفقهاء نور العلماء علماً وعملاً، وصاحب الحال المرضي قولاً وفعلاً، والمعتكف على التصنيف والتحرير، والمقبل عليه ملوك اليمن في الرأي والتدبير، له الحظوظ التامّة عند الخاصة والعامة وهو بذلك جدير وحقيق، وقال الموفق الخزرجي إنه كان فقيهاً محققاً بحاثاً مدققاً مشاركاً في كثير من العلوم والاشتغال بالمنثور والمنظوم إن نظم أعجب وأعجز وإن نثر أجاد وأوجز فهو المبرز على أترابه والمقدم على أقرانه وأصحابه.

(۱) وكان يقول الشعر الحسن مع كراهته أن ينسب إليه. قلت حتى إنه قال:

بعين الشعر أبصرني أناس	فلما ساءني أخرجت عينه
خروجاً بعد راء كان رأيي	فصار الشعر مني الشر عينه

ثم قال الخزرجيّ: ويتعانى في غالبه التجنيس واستنباط المعاني الغريبة بحيث يأتي بما يعجز عنه غيره من الشعراء في أحسن وضع وأسهل تركيب، ولم يزل الأشرف يلحظه ويقدمه وهو جدير بذلك فقد كان غاية في الذكاء والفهم لا يوجد له نظير، وله تصانيف في النحو والشرع والأدب وغير ذلك، وقد قرأ عليّ ديوان المتنبي فاستفدت بفهمه وذكائه أكثر مما استفاد مني وكنت أحب أن لو أتمه لكن حصل عائق.

ولم يزل محترماً إلى أن توفى في سنة سبع وثلاثين بزبيد. وقال العفيف الناشري ـ وهو ممن أخذ عنه: مدقق وقته في العلوم وأشعر أهل زمانه، قال: وسمعت طلبته يذكرون عنه كثرة العبادة والذكر، كان غاية في التدقيق إذا غاص في مسئلة وبحث فيها اطلع فيها على ما لم يدركه غيره

---

(۱) الكلام للنفيس العلويّ.

لكون فهمه ثاقباً ورأيه وبحثه صائباً حتى أنه حرر كثيراً مما اختلف فيه أتم تحرير.

(١) ومع ذلك فكان غاية في النسيان قيل إنه لا يذكر ما كان في أول يومه ومن أعجب ما يحكى في نسيانه أنه نسى مرة ألف دينار بزنبيل ثم وقع عليه بعد مدة اتفاقاً فتذكره، وحاله لا يقتضي نسيان دون هذا القدر فضلاً عنه انتهى[١].

البرماويّ

إسماعيل بن أبي الحسن بن علي المجد أبو محمد البرماويّ ثم القاهريّ الشافعيّ. وُلِد سنة تسع وأربعين وسبعمائة في نواحي الغربية، ومات أبوه وهو حمل فلما ترعرع اشتغل بالفقه، ثم تحول إلى القاهرة وحضر دروس مشايخها وابتدأ بالسراج البُلقينيّ وتكلم معه فأقبل عليه واختص به وأسكنه هو وأمه بالمدرسة البديرية بباب سر الصالحية.

(٢) وأرسل إليه يوماً بطعام فأتعب أمه ذلك وقالت له: نحن سُؤَّال؟! وأمرت ابنها فرده ثم شرعت تعطيه من مصاغها فيبيعه وينفقون منه على أنفسهما إلى أن سأله الذي كان يشتري منه وكان نصرانياً في كتابة براءة بينهما ففعل وكتب في آخرها: قال ذلك فقير رحمة ربه فلان فقال له ذلك النصرانيّ أنتم عبتم على من قال من أهل الكتاب فقير ونحن أغنياء وأنت قد وقعت في ذلك وكان عامياً لا يفهم معاني الكلام قال فقلت له المكان يضيق عن شرح هذا فتعال إلى المنزل أزيل لك هذا الشك وفارقته فبينما أنا نائم في تلك الليلة رأيت المسيح بن مريم عليه السلام قد نزل من السماء وعليه قميص أبيض قال فقلت في نفسي: إن كان من لباس الجنة فهو غير مخيط قال فلمسته بيدى واستثبت في أمره فإذا هو قطعة واحدة ليس فيه خياطة فقلت له: أنت عيسى بن مريم الذي قالت النصارى إنه ابن الله؟

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢/٢٩٢ ـ ٢٩٥.

فقال: ألم تقرأ القرآن؟ قلت[1]: قال ﴿لقد كفر الذين﴾ ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ الآيات ثم استيقظت فأتاني ذلك النصراني في الصبح وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأسلم وحسن إسلامه ولم يكن لذلك سبب أعلمه إلا بركة رؤيتي عيسى عليه السلام.

ولم يزل المجد يلازم ـ مع مزيد تعلله ـ الاشتغال في فنون العلم ولا سيما على البُلقينيّ فإنه جعله محط رحله وعظم اختصاصه به بحيث كان يقول أنا السائل للبدر الزركشيّ منه الإذن له في الإفتاء والتدريس. وكانت مدة ملازمته له نحو أربعين سنة حتى صار أوحد أهل القاهرة وتخرج به عدة من علمائها بل أكثر علمائها، وكان من كبار الفضلاء، وصار عالماً علامة بحراً فهامة حبراً راسخاً وطوداً شامخاً مع صبره على الفقر.

(١) كان زاهداً في الدنيا موقناً بأن ذلك هو الحالة الحسنى حتى بلغنا أنه كان يسأل أن يجعل الله ثلاثة أرباع رزقه علماً فكان قرير العين بفقره وما آتاه الله من العلم بل يعتب على من يتردد إلى غنيّ لماله أو ذي جاه لجاهه.

(٢) وعرض عليه الجلال البُلقينيّ أن يقبل منه التفويض فيما فوض إليه السلطان فقال أنا لا أعرف حكم الله، فقال له: فإذا قلت أنت هذا فما نقول نحن؟ ألست مقلداً للشافعيّ فقال: أنا مقلده في العبادات. واستمر منقطعاً في بيته مقبلاً على خاصة نفسه وكان يدعو ببقاء شيخنا ويقول أنا أقدم حياته على حياتي فبحياته ينتفع المسلمون.

مات سنة أربع وثلاثين عن أربع وثمانين سنة بعد أن تعلل مدة[2].

المغربيّ

إسماعيل بن عمر المغربي المالكي نزيل مكة. كان ـ فيما قاله

---

(١) كأن هنا سقطاً تقديره: بلى أو نحوه.

(٢) «الضوء اللامع»: ٢/٢٩٥ ـ ٢٩٨.

الفاسي في تاريخ مكة ـ فقيهاً نبيلاً صالحاً ورعاً زاهداً كبير القدر لم أر مثله بمكة على طريقته في الخير.

(١) وأخبرني صاحبنا الإمام أبـو محمد عبـدالله بن أحمد العـريانيّ التونسيّ عنه بحكاية تدل على عظم شأنه وملخصها أن المخبر رأى بمكة في النوم شخصاً سماه ممن توفي بالإسكندرية فسأله عن حاله فقال له: إنه مثقف ـ أي مسجون ـ ولا يخلص إلا إن ضمنه أو شفع فيه الشيخ إسماعيل يعني صاحب الترجمة فأتاه وقص عليه الرؤيا وسأله الـدعاء لـه فدعـا له واستغفر فرآه بعدُ في المنام أيضاً فسأله عن حاله فأعلمه أنه خلص بشفاعة الشيخ إسماعيل أو بضمانه.

سكن إسماعيل الإسكندرية مدة ثم تحول إلى مكة فجاور بها من سنة إحدى وثمانين إلى أن مات إلا أنه ذهب في بعض السنين إلى المـدينة النبوية زائراً وأقام بها وقتاً برباط الموفق غالباً.

توفي سنة عشر بمكة ودُفِن بالمعلاة[١].

الأشرف

إسماعيل بن يحيى بن أحمد الأشرف بن الظاهر الغسانيّ، من ملوك اليمن.

استقر بعد أبيه وكانت فيه حدة مفرطة فعامل العسكر بالحدة والغلظة فكان لا يخلو يومـاً من قتل وعقـوبة ومصـادرة وتوجـه إلى بعض العرب المفسدين فهُزم غير مرة، وكحـل[٢] أخاه وشقيقـه أحمد خـوفاً منـه على الملك وأخاه حسن في آخرين جملتهم من أقربائه أحد عشر نفساً، بل قتل عمته شقيقة أبيه وامرأة أخرى بيده لاتهامه بمصاحبتها، وقطع يد امرأة أخرى تضرب بالـرمل؛ كـل ذلك لتخـوفه وتخيله أنهم يسعـون عليه في الملك

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢/٣٠٤.

(٢) أي أعمى عينيه بحديدة محماة أو نحوها.

ويفسدون الناس عليه، وكانت أيامه عجيبة وأحواله غريبة ولم يتهن بالسلطنة، ومات بمدينة تعز سنة خمس وأربعين[١].

بداق

بداق بن جهانشاه بن قرا يوسف، ناب عن أبيه في شيراز ثمّ خالف عليه فقصده أبوه ففر لبغداد فتملكها وحاصره أبوه دون السنتين حتى ملكها وقتله مع خلق كثيرين جداً، وغلت الأسعار بسبب الحصار حتى حكى لي بعض من كان في العسكر أن رأس الغنم بيع بما يوازي مائة دينار مصرية والرطل البغدادي من الثوم بنحو خمسة عشر ديناراً، قال: وأكلت لحوم البغال والحمر الأهلية ونحوها.

كان شجاعاً كريماً، ظهر له كنز كبير ففرقه على العسكر ولم ينظر إليه بل قال إن أصحابه لم ينتفعوا به فنحن أولى، هذا مع شيعيته وفساد عقيدته وتجاهره بالمعاصي بحيث يأكل في رمضان نهاراً على السماط مع كثيرين[٢].

الأشرف بَرْسْباي

بَرْسْبَاي الدقماقيّ الظاهريّ برقوق الأشرف أبو النصر[٣] ودقماق المنسوب إليه هو نائب حماة، من عتقاء الظاهر برقوق ابتاعه وأرسل به في جملة تقدمة[٤] لأستاذه فأنزله في جملة مماليك الطباق[٥]، ثم أخرج له قبل موته خيلاً وأنزله من الطباق وقد أعتقه واستمر في خدمته ثم خدمة ابنه

(١) «الضوء اللامع»: ٢/٣٠٨.
(٢) «الضوء اللامع»: ٣/٢ - ٣.
(٣) هو الثاني والثلاثون من ملوك الترك والثامن من ملوك الجراكسة. انظر «المنهل الصافي»: ٣/٢٥٦.
(٤) هدية.
(٥) هي ثكنات جيوش المماليك، جمع طبقة، وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد.

الناصر، ثم صار مع شيخ بعد قتل الناصر وحضر معه إلى مصر فولاه نيابة طرابلس، ثم غضب منه فاعتقله نائب دمشق فلما دخل ططر الشام بعد المؤيد استصحبه إلى القاهرة وقرره دواداراً كبيراً[1] فلما استقر ابنه الصالح محمد كان نائباً عنه في التكلم مدة أشهر إلى أن اجتمع الرأي على خلعه وسلطنة صاحب الترجمة وذلك سنة خمس وعشرين وثمانمائة وأذعن الأمراء والنواب لذلك وساس الملك ونالته السعادة ودانت له البلاد وأهلها وخدمته السعود حتى مات.

(۱) وفتحت في أيامه قبرص وأسر ملكها ثم فُودِيَ بمال جزيل حمله إليه وقرر عليه شيئاً يحمله كل سنة وأطلقه، وكان الفتح المشار إليه في رمضان سنة تسع وعشرين وثمانمائة ونظم الزين بن الخراط فيه قصيدة هائلة أنشدها للسلطان وخلع عليه حينئذ، أولها:

بُشراك يا ملك المليك الأشرف ... بفتوح قبرص بالحسام المشرفي
فتح بشهر الصوم تم فيا له ... من أشرفٍ في أشرفٍ في أشرفِ
فتح تفتحت السمواتُ العلى ... من أجله بالنصر واللطفِ الخفي[2]

مرض فعهد لابنه يوسف بالسلطنة في رابع ذي القعدة سنة إحدى وأربعين ولقب بالعزيز وأن يكون الأتابكيّ جقمق نظام المملكة وأقام في توعكه أكثر من عشرين شهراً إلى أن مات ثم دفن بتربته التي أنشأها بالصحراء قبل غروب الشمس وكثر ترحم العامة عليه.

قال المقريزيّ: وقد أناف على الستين وكانت أيام هدوء وسكون إلا أنه كان له في الشح والبخل والطمع مع الجبن والخور وسوء الظن ومقت الرعية وكثرة التلون وسرعة التقلب في الأمور وقلة الثبات أخبار لم نسمع

---

(۱) هو حامل الدواة للأمير أو السلطان مع القيام بما يلزم ذلك من تنفيذ الأمور وإبرام الأحكام.

(۲) انظر أخبار هذا الفتح ـ بتفصيل جميل ـ في «المنهل الصافي»: ٣/٢٦٣ ـ ٢٧٠، و «النجوم الزاهرة»: ١٤/٢٩٢ ـ ٣٠٤.

بمثلها، وشمل بلاد مصر والشام في أيامه الخراب وقلت الأموال بها وافتقر الناس وساءت سير الحكام والولاة مع بلوغ آماله ونيل أغراضه وقهر أعاديه وقتلهم بيد غيره انتهى.

(١) واتفق أن العينيّ أخذ في إطرائه ومدحه بأنه أحسن للطلبة والقراء والفقهاء بما فاق فيه على من تقدمه حيث لم يرتبوا للفقهاء كبير أمر فقال له: السبب في ذلك أنهم كانوا لا يوافقونهم على أغراضهم فلم يسمحوا لهم بكبير أمر وأما فقهاء زماننا فهم لأجل كونهم في قبضتنا وطوع أمرنا نسمح لهم بهذا النزر اليسير. قلت: وهذا كان إذ ذاك وإلا فالآن مع موافقتهم لهم في إشاراتهم فضلاً عن عباراتهم لا يعطونهم شيئاً بل يتلفتون لما بأيديهم ويحسدونهم على اليسير ويقدمون آحاد الغرباء ممن لا نسبة لكبيرهم لكثير منهم عليهم ويتكلفون لإعطائهم ما لا يوجد من هو يقارب شرط الواقفين إليهم فإنا لله وإنا إليه راجعون[1].

تغري برمش

تغري برمش بن يوسف بن المحب، قال شيخنا في «أنبائه»: قدم القاهرة شاباً وقرأ على الجلال التباني وغيره، وداخل الأمراء الظاهرية وصارت له عصبة.

(٢) وكان يتعصب للحنفية مع محبته لأهل الحديث والتنويه بهم وتعصبه لأهل السنة وإكثاره الحطَّ على ابن العربيّ ونحوه من متصوفي الفلاسفة ومبالغته في ذلك بحيث صار يحرق ما يقدر عليه من كتبه بل ربط مرة كتاب «الفصوص» في ذنب كلب وصارت له بذلك سوق نافقة عند كثيرين. وقام عليه جماعة من أضداده فما بالى بهم مع أنه لم يكن بالماهر في العلم.

ولمّا تسلطن المؤيد عرفه فقربه وأكرمه واستأذنه في الحج والمجاورة

---

(١) «الضوء اللامع»: ٣/٨ - ١٠.

بعد أن قرب منه بعض تلامذته فسافر إلى مكة فأقام بها من سنة سبع عشرة إلى أن مات. وصار التلميذ المشار إليه ينفق سوقه به ويحصل له الأموال ويرسلها له فتزايد جاهه وكُتب له توقيعٌ بتغيير المنكرات فأبغضوه ورموه بالمعائب. وفاته سنة ثلاث وعشرين[1].

تيمورلنك

تيمور، وهو تمرلنك بن طرغاي الحفظاي الأعرج وهو اللنك بلغتهم، فعرف بتمر اللنك ثم خفف فقيل: تمرلنك. تغلب على سلطانهم المتصل نسبه بعظيم القان إلى حفظاي واسمه محمود. وكان ابتداء ملكه أنه لما انقرضت دولة بني جنكزخان وتلاشت في جميع النواحي ظهر في أعقاب بني حفظاي بين كش وسمرقند تيمور هذا وتغلب على ملكهم محمود بعد أن كان أتابكه[2]، وتزوج أمه بعد مهلك أبيه واستبد عليه. وكان في عصره أمير لبخارى يعرف بحسن من أكابر المغل وآخر بخوارزم يعرف بالحاج حسن الصوفي وهو من كبار التتر فنبذ إليهم تيمور العهد وزحف إلى بخارى فملكها من يد حسن ثم زحف إلى خوارزم وتحرش بها وهلك حسن في خلال ذلك ووَلِيَ أخوه يوسف فملكها تيمور من يده وخربها في حصار طويل ثم كلف بعمارتها وتشييد ما خرب منها وانتظم له ملك ما وراء النهر، ونزل بخارى ثم انتقل إلى سمرقند ثم زحف إلى خراسان وطال تحرشه بها وحروبه مع صاحبها شاه ولي إلى أن ملكها عليه سنة أربع وثمانين وسبعمائة ونجا شاه وليّ في قلة إلى تبريز وبها أحمد بن أويس بن حسن صاحب العراق وأذربيجان إلى أن زحف عليهم تيمور سنة ثمان وثمانين فهلك شاه وليّ في حروبه عليها وملكها تيمور، ثم زحف إلى أصبهان سنة أربع وتسعين فملكها، ثم سار إلى فارس وبها أعقاب بني المظفر اليزدي المتغلبين عليها بعد هلاك بني هولاكو فملكها من أيديهم آخر سنة أربع

---

(١) «الضوء اللامع»: ٣/٣٢ - ٣٣.

(٢) أي: أمير أمراء جيشه.

وتسعين، ثم زحف إلى بغداد سنة خمس فأجفل عليها أحمد بن أويس المتغلب عليها بعد بني هولاكو وألحقه بالشام واستولى تيمور على بغداد والجزيرة وديار بكر إلى الفرات، واتصلت أخباره بالظاهر برقوق ملك مصر فاستعد للقائه وجمع ونزل عسكر حلب بالقرب من الفرات ونزل تيمور بالرها وأخذها ونهبها، وبلغه زحف طقتمش في جموع المغل ووصوله إلى الأبواب فأحجم وتأخر إلى قلاع الأكراد وأطراف بلاد الروم، ثم سار إليه تيمور أول سنة سبع وتسعين وغلبه على ملكه وأخرجه من سائر أعماله فلحق ببلغادر ورجع سائر المغل الذين كانوا معه إلى تيمور فأصبحت أمم المغل والتتر كلها في حملته وصاروا تحت لوائه والملك لله.

(١) فلما بلغه موت الظاهر برقوق فرح وأعطى من بشره بذلك خمسة عشر ألف دينار وتهيأ للمسير إلى بلاد الشام فجاء إلى بغداد فأخذها ثانياً لأنها كانت استرجعت من نائبه بها وهرب منها أحمد بن أويس فلحق بالشام ثم قصد تيمور سيواس في آخر سنة اثنتين وثمانمائة فحاصرها مدة ولم يأخذها ثم إلى عينتاب فأجفل أهل القرى بين يديه وجفل أهل البلاد الحلبية واجتمع عساكر المماليك الشامية بحلب ووصل تيمور إلى مرج دابق وجهز رسولاً إلى حلب فأمر سودون النائب بقتله ثم نزل في يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة ثلاث على حلب ونازلها وحاصرها فخرج النواب بالعساكر إلى ظاهرها من جهة الشمال وتقاتلوا يوم الخميس والجمعة فلما كان يوم السبت حادي عشر الشهر المذكور ركب تيمور وجمع وحشد والفيلة تقاد بين يديه وهي فيما قيل ثمانية وثلاثون وكان قد دخل بلاد الشام في جموع وأمم لا يعلمها إلاّ الله من ترك وتركمان وعجم وأكراد وتتار وزحف على حلب فانهزم المسلمون من بين أيديهم وجعلوا يلقون أنفسهم من الأسوار والخنادق والتتار في أثرهم يقتلونهم ويأسرونهم إلى أن دخلوا حلب عنوة بالسيف فلجأ النساء والأطفال إلى الجوامع والمساجد فلم يفد ذلك شيئاً واستحر القتل والأسر في أهل حلب من التتار فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وقتل خلق كثير من الأطفال تحت حوافر الخيل وعلى

الطرقات وأحرقوا المدينة وكانت وقعة فظيعة ثم في يوم الثلاثاء رابع عشرة تسلم قلعتها بالأمان وصعد إليها في اليوم الـذي يليه وجلس في إيـوانها وطلب القضـاة والعلماء للسـلام عليه فـامتثلوا أمره وجـاءوا إليـه في ليلة الخميس فلم يكرمهم وجعل يتعنتهم بالسؤال وكان آخر ما سألهم عنه أن قال: ما تقولون في معاوية ويزيد هل يجوز لعنهما أم لا؟ وعن قتال عليّ ومعاوية فأجابه القاضي علم الدين القفصيّ المالكي بأن عليّاً اجتهد وأصاب فله أجران ومعاوية اجتهد وأخطأ فله أجر واحد فتغيّظ من ذلك، ثمّ أجاب الشرف أبو البركات موسى الأنصاري الشافعيّ بأن معاوية لا يجوز لعنه لأنه صحابيّ فقال تمرلنك: ما حد الصحابيّ؟ فأجابه القاضي شرف الدين أنه كل من رأى النبي ﷺ، فقال تمرلنك: فـاليهود والنصـارى رأوا النبي ﷺ فأجاب بأن ذلك بشرط كون الرائي مسلماً وأجاب القاضي شرف الدين بأنه رأى حاشية على بعض الكتب أنه يجوز لعن يزيد فتغيظ لذلك وذلك بعد أن وعد بالعفو ثم أمر بالإنصراف وذلك في الثلث الأول من ليلة الخميس المسفرة عن سادس عشر فانصرفوا ثم إنّ تمرلنك حضر إلى مقام إبراهيم الخليل عليه السلام فجرى له مع القضاة بعض ما اتفق أولاً واستمر به إلى قريب طلوع الفجر ثم توجه إلى قاعة السلطان الكائنة بالقلعة وأمر بطلب دراهم ممن هو بالقلعـة من الحلبيين فكتبت أسماء النـاس وقبض عليهم وعوقبوا بأنواع من العذاب بحيث لم يسلم من العقوبة إلاّ القليل ونهبـوا القلعة وأخذوا من الأموال والأقمشة ما أذهل التتار ولم يظفروا في مملكة بمثله وأقام التتار بحلب يعاقبون ويأخذون الأموال إلى يوم السبت مستهل أو ثاني ربيع الآخر، ثم رحل إلى جهة دمشق وترك بحلب طائفة من التتار بالقلعة وبالمدينة وأمّر على القلعة الأمير موسى، وكان فيه لطف على ما قيل وإحسان معروف، وحُبس من كان في القلعة من الأعيان بها تحت أيدي التتار ولم يسلم من ذلك إلا من هرب فوصل تمر إلى دمشق وكان قد وصل إليها الناصر فرج بعساكر الديار المصرية لدفع التتـار وحصل بينهم قتـال أيـاماً، ثم إن العسكـر المصريّ وقـع الخلف بينهم في الباطن وداخلهم

الفشل فانكسروا وولوا راجعين إلى جهة مصر، واقتفى التتار آثارهم يسلبون من قدروا عليه أو لحقوه؛ ورجع السلطان إلى مصر، وأخذ تمرلنك دمشق وفعل بها أعظم من فعله بحلب فقصد من بالقلعة أن يتمنع منه فأخذ بالأخشاب والتراب والحجارة وبنى برجين قبالة القلعة من ناحية جسر الزلابية فأذعنوا حينئذ ونزلوا فتسلمها ونهب المدينة وخربها خراباً فاحشاً لم نسمع بمثله، ولم يصل التتار أيام هولاكو إلى قريب مما فعل بها التتار أيام تيمور، واستمر بدمشق إلى العشر الثاني من شعبان ثم رجع إلى ناحية حلب قاصداً بلاده فلما قرب منها أمر من كان من التتار بها بالرحيل وأن يصحبوا من بالقلعة من المعتقلين خلا القضاة فأطلق الشرف موسى الأنصاري والكمال عمر بن العديم وجماعة معهم وأخذ بقيتهم إلى جهة بلاده فمنهم من هرب من أثناء الطريق ومنهم من استمر معهم عجزاً، ورحل التتار كما أمرهم تمرلنك من حلب في العشر الثاني من شعبان وأسروا جميع من صادفوا في طريقهم من النساء والصبيان بعد أن أحرقوا حلب مرة ثانية وهدموا أبراج القلعة وسور المدينة وخربوا المساجد والجوامع والمدارس وقتلوا وسبوا وأسروا واستحلوا الدماء والفروج. وقال الشعراء في ذلك قصائد شبه الرثاء والتوجع ونحو ذلك، ولما رجع إلى جهة بلاده حشد وقصد بلاد الروم فجمع سلطانها أبو يزيد عسكره وتقدم كل من الفريقين إلى الآخر فحصلت مقتلة عظيمة انكسر فيها صاحب الروم وأسر وتفرق شمل عسكر الروم فأخذ تمرلنك ما يلي أطراف الشام من بلاد الروم وأخذ برصا وهي كرسي مملكة الروم ثم رجع إلى بلاده ومعه أبو يزيد صاحب الروم معتقلاً فتوفى في اعتقاله من السنة، واستمر تمرلنك في بلاد العجم ودخل الهند فنازل مملكة المسلمين حتى غلب عليها ثم جرى بينه وبين الناصر فرج مراسلات وصلح وأهدى كل منهما للآخر.

وكان شيخاً طوالاً مهولاً طويل اللحية حسن الوجه أعرج شديد العرج، ومع ذلك يصلي عن قيام، مهاباً بطلاً شجاعاً جباراً ظلوماً غشوماً فتاكاً سفاكاً للدماء مقداماً على ذلك أفنى في مدة ولايته من الأمم ما لا

يحصيهم إلا الله ووصل إلى أطراف الهند وخرب بلدانا كثيرة يفوتها الحصر؛ جهير الصوت يسلك الجد مع القريب والبعيد ولا يحب المزاح ويحب الشطرنج وله فيها يد طولى ومهارة زائدة وزاد فيها جملاً وبغلاً وجعل رقعته عشرة في أحد عشر بحيث لم يكن يلاعبه فيه إلا أفراد؛ يقرب العلماء والشجعان والأشراف وينزلهم منازلهم ولكن من خالف أمره أدنى مخالفة استباح دمه فكانت هيبته لا تدانى بهذا السبب وما أخرب البلاد إلا بذلك فإنه كان من أطاعه من أول وهلة أمن ومن خالفه أدنى مخالة وهى، ذا فكر صائب ومكائد في الحرب عجيبة وفراسة قل أن تخطيء، عارفاً بالتواريخ لإدمانه على سماعه لا يخلو مجلسه عن قراءة شيء منها سفراً أو حضراً، مُغرىً بمن له معرفة بصناعة ما إذا كان حاذقاً فيها، أمياً لا يحسن الكتابة، حاذقاً باللغة الفارسية والتركية والمغلية خاصة.

(١) يعتمد قواعد جنكزخان ويجعلها أصلاً ولذلك أفتى جمع جم بكفره مع أن شعائر الإسلام في بلاده ظاهرة.

(٢) وله جواسيس في جميع البلاد التي ملكها والتي لم يملكها؛ وكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة على جليتها ويكاتبونه بجميع ما يروم فلا يتوجه إلى جهة إلا وهو على بصيرة من أمرها، وبلغ من دهائه أنه كان إذا أراد قصد جهة جمع أكابر الدولة وتشاوروا إلى أن يقع الرأي على التوجه في الوقت الفلاني إلى الجهة الفلانية فيكاتب جواسيس تلك الجهات فتأخذ الجهة المعينة حذرها ويأمن غيرها، فإذا ضرب النفير وأصبحوا سائرين ذات الشمال عرج بهم ذات اليمين فإلى أن يصل الخبر الثاني دهم هو الجهة التي يريد وأهلها غافلون.

مات وهو متوجه لأخذ بلاد الخطا[١] على مدينة أترار سنة سبع، ولم يكن معه من بنيه وأحفاده سوى حفيده خليل بن ميران شاه وحسين ابن أخته

---

(١) جاء في الهامش ذكر من أرخ سيرته أن توجهه لبلاد الخطا كان في زفير الشتاء وبرد تلك الناحية قال فكان يستعين بشرب روح الخمر فتفتت كبده واحترقت.

فاتفق رأيهم على استقرار الحفيد المذكور عوضه بسمرقند مع وجود أبيه وعمه شاه رخ بهراة ووجود بير عمر في فارس؛ وكان تيمور قد جعل أولا ولي عهده حفيده محمد سلطان فمات على أقشهر من بلاد الروم في سنة خمس وثمانمائة؛ فعهد إلى أخيه بير محمد وأبعده فصار وليّ العهد وهو بفارس، فلما مات تيمور واستولى حفيده خليل على الخزائن وتمكن من الأمراء والعساكر بذل لهم الأموال العظيمة حتى دخلوا تحت طاعته وسار فلما قارب سمرقند تلقاه من بها وعليهم ثياب الحداد وهم يبكون ومعهم التقادم[1] فقبلها منهم ودخلها وجثة جده تيمور في تابوت أبنوس وجميع الملوك والأمراء مشاة مكشوفة رءوسهم وعليهم ثياب الحداد حتى دفنوه وأقاموا عليه العزاء أياماً ولعله قارب الثمانين فإنه قال للقاضي شرف الدين الأنصاري وغيره: كم سنكم؟ فقال له الشرف: سني الآن سبعة وخمسون سنة وأجابه غيره بنحو ذلك فقال: أنا أصلح أن أكون والدكم. وبالجملة فكانت له همة عالية وتطلع إلى الملك.

(١) وكان مُغرىً بغزو المسلمين وترك الكفار؛ وصنع ذلك في بلاد الروم ثم في بلاد الهند، وأنشأ بظاهر سمرقند عدة بساتين وقصور عجيبة فكانت من أعظم النزه، وبنى عدة قصبات سماها بأسماء البلاد الكبار كحمص ودمشق وبغداد وشيراز؛ وكان يجمع العلماء ويأمرهم بالمناظرة ويسألهم ويعنتهم بالمسائل، ولما مات كان له من الأولاد ميران شاه رخ وبنت اسمها سلطان تخت ومن الزوجات ثلاث ومن السراري شيء كثير، وأخباره مطولة وقد أفردها بعض من أخذت عنه بالتأليف؛ والقدر الذي اقتصرت عليه هنا اعتمدت فيه ابن خطيب الناصرية وشيخنا، وترجمته في عقود المقريزي نحو كراستين[2].

---

(١) الهدايا.

(٢) «الضوء اللامع»: ٣/٤٦ - ٥٠.

جانَبَك

جَانَبَك الظاهريّ جُقْمُقْ الجركسيّ الدوادار، شادّ جِدة[1]. أصله فيما قيل لجرباش المحمديّ الناصريّ، ثم ملكه قبل بلوغه اسنبغا الطياري واشتراه منه الظاهر قريباً من سنة سبع وثلاثين، وأعتقه فلما تسلطن صيره خاصكياً[2]، ثم ولاه النظر على الكنائس وهدم ما تجدد فيها، ثم شادية جدة في سنة تسع وأربعين، فنهض بخبرته في الظلم لما لم يصل إليه من قبله وعاد بشيء كثير له وللسلطان فزاد عنده حظوة، وظهرت له كفاءته ولا زال أمره فيها في نمو وزيادة وعِظَم حتى قيل له نائب جدة.

وانقادت له العظماء، وانثالت عليه الأموال من كل وجه لا سيما من بلاد الحجاز فهو المتصرف فيه بحيث كاتبه أكابر ملوك الهند وغيرها؛ وجلبوا إليه التحف، وصار مدبر المملكة وصاحب حلها وعقدها ومحط الرحال وزادت عظمته وشاع ذكره وبعد صيته في الآفاق، وكاتبه الملوك، وقصد في المهمات التي لا يسدها غيره وسمح بالبذل بما يفوق الذكر كألفي دينار دفعة ومائة ناقة ودون ذلك وفوقه، وكان مهاباً شهماً حاذقاً حسن الشكالة فصيح العبارة باللسانين، قصير القامة كيساً سيوساً، ومحاسنه كثيرة وضدها أكثر وأفحش.

(١) مات مقتولاً بيد الأجلاب[3] وقت الإسفار سنة سبع وستين عند باب الجامع الناصريّ فجهز ثم صلى عليه عند باب القلة ثم دفن بتربته بباب القرافة؛ وما تبعه إلا دون عشرة من مماليكه من أكثر من مائتي مملوك فسبحان المعز المذل الفعال لما يريد؛ وما أحسن ما قيل:

باتوا على قُلل الأجبال[4] تحرسهم   غُلُبُ الرجال فلم تمنعهم القلل

---

(١) أي: ناظر جدة ومديرها.

(٢) أي من خواص المماليك الذين يخدمون السلطان.

(٣) أي المماليك المجلوبين من الخارج.

(٤) القلل هي الرّؤوس، والأجبال جمع جبل.

واستُنزِلوا من أعالي عز معقلهم — فأسكنوا حفرةً يابئس ما نزلوا
ناداهمُ صارخ من بعد ما دفنوا — أين الأَسِرّة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجبة — من دونها تضرب الأستار والكلل[1]
فأفصح القبرُ عنهم حين ساءلهم — تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما نعموا — فأصبحوا بعد ذلك الأكل قد أُكِلوا[2]

جُقْمُق

جقمق الظاهر أبو سعيد الجركسيّ العلائيّ نسبة للعلاء علي بن الأتابك إينال اليوسفي لكونه اشتراه من جالبه إلى مصر الخواجا كزلك وهو صغير ورباه وأرسله إلى الحجاز صحبة والده ثم أعتقه وبقي عنده مدة حتى عرفه أخوه جركس القاسمي المصارع فكلم أستاذه الظاهر برقوق في طلبه له من سيده ففعل وأعطاه إياه من غير أن يعلمه بعتقه فدفعه الظاهر لأخيه وأنعم عليه بخيل وقماش ثم جعله خاصكياً[3] بعد أيام، كلّ ذلك بسفارة أخيه ولذا ينتسب ظاهرياً أيضاً، ثمّ صار في الدولة الناصرية ساقياً ثم أمير عشرة، ثم قبض عليه الناصر وحبسه بالقلعة لما خرج أخوه عن الطاعة ثم أطلقه واستمر إلى أن أعطاه المؤيد إمرة عشرة ثم طبلخاناه[4] وجعله خازنداراً[5] بعد يونس الركني الأعور ثم صار بعد المؤيد أحد المقدمين ثم استقر في أيام الأشرف برسباي في الأتابكية[6] واستمر فيها إلى أن مات الأشرف بعد أن أوصاه على ولده المستقر بعده في السلطنة والملقب

---

(١) الكُلل جمع كِلّة وهي الستر الرقيق.
(٢) «الضوء اللامع»: ٣/٥٧ - ٥٩.
(٣) نوع من المماليك يختارهم السلطان من المماليك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صغاراً ويجعلهم في حرسه الخاص.
(٤) الطبلخانة: هي موسيقى الجيش، وأمير الطبلخانة هو الذي يترقى حتى يكون أمير أربعين من المماليك فتضرب الموسيقى على بابه.
(٥) ممسك خزانة السلطان.
(٦) أي: إمرة الأمراء.

بالعزيز، وصار صاحب الترجمة نظاماً إلى أن خلع العزيز بعد يسير وتسلطن في يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين، ورام حين سلطنته أن يتسمى بمحمد تشرفاً ويبطل اسمه ثم رأى الجمع بينهما لما خيل من طمع الملوك فيه لظنهم كونه من غير الأتراك. واستمر في المملكة إلى أن عهد لولده المنصور أبي السعادات عثمان في يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة سبع وخمسين؛ وكانت مدته خمس عشرة سنة إلا نحو شهر.

(١) وكان ملكاً عدلاً ديناً كثير الصلاة والصوم والعبادة، عفيفاً عن المنكرات والقاذورات لا تضبط عنه في ذلك زلة ولا تحفظ له هفوة، متقشفاً بحيث لم يمش على سَنن الملوك في كثير من ملبسه وهيئته وجلوسه وحركاته وأفعاله، متواضعاً يقوم للفقهاء والصالحين إذا دخلوا عليه ويبالغ في تقريبهم وعدم ارتفاعه في الجلوس بحضرتهم، وما فعله في يوم قراءة تقليده من جلوسه على الكرسي والمعتضد بالله الخليفة دونه بحيث اقتدى به ولده المنصور في ذلك فكأنه لجريان العادة به وإلا فهو في باب التواضع لا يلحق، ذا إلمام بالعلم واستحضار في الجملة لكثرة تردده للعلماء في حال إمرته ورغبته في الاستفادة منهم كالعلاء البخاريّ؛ بل لا أستبعد أن يكون له حضور عند السراج البُلقينيّ وطبقته فضلاً عن ولده الجلال ونحوه، مديماً للتلاوة على بعض مشايخ القراء وجَوَّده في حال كونه أميراً، تام الكرم بحيث يصل إلى التبذير حتى إنه أعطى النجم بن عبدالوارث حين أعلمه بأنه عزم على الحج زيادة على ألف دينار دفعة وأما قاضي الحنابلة البدر البغداديّ حين حج فشيء كثير جداً وكذا الكمال بن الهمام.

(٢) وكان راغباً في إزالة ما يعلمه من المنكرات غير ناظر لكون بعضه من شعار الملوك كإبطاله المولد الذي يعمل في طنتدا[1] وما كان يعمل بالقلعة من الزفة بالمغاني والمواصيل والخليلية عند غروب الشمس

---

(١) طنطا.

وعند فتح باب القلعة باكر النهار وبعد العشاء التي يقال لها نوبة خاتون، وما كان يُسقاه الملوك ومن بجانبهم من الأمراء بداخل المقصورة وقت خطبة الجمعة من المشروب بإرشاد شيخنا له في هذا.

(١) كثير التفقد للمحابيس والكشف عنهم والإحسان إلى الأيتام بحيث إنه كان يرسل من يحضرهم له فيمسح رءوسهم ويعطي كل واحد منهم ديناراً، مائلاً لتجديد القناطر والجوامع ونحوها من المصالح العامة.

(٢) وكان يرى أن إصلاح ما يشرف على الهدم أولى من الابتكار؛ ولذا لم يبتكر مدرسة بل ولا تربة.

(٣) هادن ملوك الأطراف وهاداهم وتودد إليهم؛ ولكثير من التركمان حتى بالتزوج منهم؛ وكان يبدي مقصده في ذلك بقوله: كل ما أفعله معهم لا يفي بنعل الخيل أن لو احتيج إلى المسير إليهم.

(٤) وأثكل ولداً له من نوادر أبناء جنسه فصبر واحتسب.

(٥) كل ذلك والأقدار تساعده والسعد يعاضده، مع حدة تعتريه وسرعة بطش وبادرةً مفرطة ربما تؤدي إلى ما لا يليق به من إدخال غير واحد من الأعيان حبس أولي الجرائم وغيره من الحبوس وضربه لآخرين ونفيه لغيرهم بحيث وصفه بعض من أشرت إليه ممن سجنه بقوله: إنه حج في حدود سنة سبع وثلاثين وجرت له مع صاحب الحجاز قضية حقدها عليه فقابله عليها بعد تمكنه، قال: وقد كان أحقد الناس وأسوأهم انتقاماً لم يكن له دأب إلا أن عاجل كل من كان أغضبه يوماً ما انتهى. ووصفه بالحقد الزائد غير صحيح وكم ممن مسه منه مكروه مع كونه من خواصه وأحبابه وممن لم يبغضه قطُّ وما كان ينقم عليه إلا أنه بمجرد سماعه عن أحد ما ينكره قابله عليه بدون تفحص ولا تثبت، وعلى كل حال فالكمال لله.

ومما يعاب به أيضاً أنه كان ينفد ما يتحصل في يديه مع كثرته جداً

أولاً فأولاً حتى إنه لم يدع في الخزانة مالاً، والأعمال بالنيات.

مات وقد زاد على الثمانين، سنة سبع وخمسين، فمات والقراء حوله وحضر ولده المنصور الصلاة عليه وكذا الخليفة وهو الذي تقدم للصلاة عليه بالجماعة وكان يوماً مشهوداً لم تر جنازة لملك كجنازته في عدم الغوغاء وكثرة الأُنس.

(١) وحكى لي بعض الخِيار بعد دهر أنه رآه بعد موته وكأنه في قصر مرتفع ومعه جماعة منهم والده والشيخ أبو الجود وأنه سأله عما فعل الله به فقال له: والله لقد أعطانا الملك من قبل أن نَرِدَ عليه، قال الرائي: فقلت له: ما الملك الذي أعطاكه؟ قال: الجنة، ثم قال: وجاء جماعة بعدنا ليس لهم فيها وقت ولا مكان، رحمه الله وإيانا[١].

ملك البحار القحطانيّ

خلف بن حسن بن مهيوف القحطانيّ ملك البحار القائم بدولة الشهاب أبي المغازي أحمد متملك كلبرجة من الهند. ولد في حدود سنة تسعين وسبعمائة. ذكره المقريزيّ في عقوده مطولاً وبالغ في الثناء عليه وأنه كان جواداً يحب العلماء والأشراف والفقراء ويواسيهم أعظم مواساة حتى بالإرسال لمن يعلمه منهم بالأماكن النائية سيما أشراف بني حسن ولذلك لم يزل مظفراً بحيث إنه ما توجه لأمر إلا وظفر به مع صيانته ومنعه الفواحش. قال وبالجملة فهو أحد أفراد العالم في زماننا لما اشتمل عليه من الدين والورع والكرم والشجاعة ونفوذ الكلمة ووفور الحرمة وبسط اليد في الدول بحيث إنه لما مات سلطانه الشهاب أوصى به ابنه أبا المظفر شاه أحمد وقال إن أردتم قيام ملككم فلا تغيروا على الملك خلف فامتثل وصيته، وصار له من المكانة المكينة ما لم يزل له وأقامه فيما أقامه فيه أبوه. وأنشد من نظمه في قصيدة:

---

(١) «الضوء اللامع»: ٣/٧١ - ٧٤.

وإن زار داري زائـر داره دنـانيرُ تبـرٍ خلفها الخـزُّ[1] يحمل

ولم يؤرخ وفاته لأنه إنما قتل بعده بـزمن، وكان ممـدوحاً مقصـوداً بذلك من شعراء مكة وغيرهم[2].

خليل

خليل بن إبراهيم صاحب شماخي وما والاها مما يزيـد على ثلاثـة آلاف كورة[3]. أقام في المملكة نحو أربعين سنة بدون منازع، وصار من أجلّ ملوك الشرق وأحسنهم سيرة وأكثرهم سياسة وأحزمهم رأياً حتى قيل إن مراد بك بن محمد بك بن عثمان أوصاه على ابنه محمد متملك الروم الآن وأمر ولده أن لا يخرج عن طاعته ورأيه.

وكان ديناً خيراً يحض أتباعه على إقامة الصلاة ولا يتظاهر في بلاده بفاحشة بل غالبهم من مريدي الشيخ علي الأردبيليّ، ولم يكن له سوى زوجة بل الظن أنّه لم يتزوج غيرها وأما السراري فمائة، وكان مغرى بالصيد حتى أن له ألف مملوك برسم حمل الطيور بين يديه وعساكره زيادة على عشرين ألف مقاتل.

مات في سنة ثمان وستين؛ واستقر بعده في المملكة ابنه شروانشاه من زوجته المشار إليها[4].

أبو الصفا المشبِّب

خليل بن عثمان بن عبد الرحمن الشيخ أبو الصفا القرافيّ المصريّ المقرىء الحنبليّ ويعرف بالمشبِّب. ولد سنة خمس عشرة وسبعمائة تقريباً، وتلا بالسبع على جماعة وأقرأ الناس بالقرافة دهراً طويلاً.

---

(١) الحرير.

(٢) «الضوء اللامع»: ٣/١٨٣ - ١٨٤.

(٣) قرية.

(٤) «الضوء اللامع»: ٣ - ١٨٩.

(١) كان منقطعاً بسفح الجبل، وللملك الظاهر برقوق وغيره فيه اعتقاد كبير ويقبل الظاهر شفاعته وقد اجتمعت به وسمعت قراءته وصليت خلفه، وما سمعت أشجى من صوته في المحراب، قاله شيخنا في «أنبائه» إلا مولده. زاد في معجمه: وكان يرتل الفاتحة ويرسل في السورة. وأما ابن الجزريّ فإنه قال: محرر ضابط مجود دين صالح من خيار عباد الله، وهو على خير كثير بارك الله له. ثمّ أضر وأقعد. مات في سنة إحدى.

(٢) وقال غيرهما إنه كانت له طريقة في القراءة معروفة، قال وكان ينكر على جماعة من قراء الأجواق[1] بحيث إنه كان إذا مر بهم وهم يقرءون يسد أذنيه.

وسيرته حسنة وطريقته جميلة[2].

ابن الكُوَيْز

داود بن عبدالرحمن بن داود علم الدين أبو عبدالرحمن بن الزين الشوبكيّ الكركيّ ويعرف بأن الكُوَيْز تصغير كوز. مات بالقاهرة سنة ست وعشرين.

قال شيخنا: وكان أبوه من أهل الشَّوْبَك ثم سكن الكرك وهو نصراني يتعانى الديونة واسمه جرجس، فلما كان سنة سبع وستين ضيق يلبغا على جميع النصارى الملكيّة خصوصاً الشوابكة واتهموا بأنهم مالؤا الفِرَنج حتى هجموا على إسكندرية فأسلم هو وكثير منهم وتسمى عبدالرحمن وخدم نائب الكَرَك وتقرب منه حتى قرره في كتابة سرها ثم تحول إلى حلب فخدم كمشبغا الكبير وقدم معه للقاهرة صاحب ديوانه، ورأيته شيخاً طوالاً كبير اللحية؛ ونشأ ابنه علم الدين هذا ترفاً صلفاً مسعود الحركات فصاهر ابن أبي الفرج، وكان أخوه جليلاً أسن منه؛ ثم اتصل بشيخ حين كان نائب

---

(١) التجمعات والمحافل.

(٢) «الضوء اللامع»: ٣ - ٢٠٠.

طرابلس فخدماه بها ثم بدمشق ثم بحلب؛ ثم قدما معه القاهرة فعظم شأنهما وكبر قدرهما.

وكان يتدين ويلازم الصلاة ويصوم تطوعاً ويتعفف عن الفواحش ويلازم مجالسة أهل الخير مع طول الصمت.

(١) ومن فعلاته المستحسنة أنه لما كان بشقحب صحبة الظاهر راجعاً إلى مصر استأذنه في زيارة القدس فتوجه من طريق نابلس؛ فشكا إليه أهل القدس والخليل ما أضر بهم من أمر الجباية وكانت لنائب القدس وتحصل منها لفلاحي القرى إجحاف شديد ويتحصل للنائب ألوف الدنانير ولمن يتولى استخراج ذلك ضعفه فلما رجع استأذن السلطان في إبطال هذه المظلمة فأذن له فكتب بها مناشير وقرئت بالقدس والخليل فكثر الدعاء له بسبب ذلك.

(٢) ومن مضحكاته أن بعض الفقهاء صلى به فقرأ بعد الفاتحة: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون» الآية فقال ما علمت أن الصلاة تصح بالدعاء إلّا الآن. وإنه رأى مع بعضهم «التنبيه» في الفقه فقال: اسم هذا الكتاب عجيب «البُنَية في القُفة»[1].

سراج الدين الروميّ

سراج بن مسافر بن زكريا سراج الدين القيصريّ الروميّ ثم المقدسيّ الحنفيّ. ولد سنة تسعين أو بعدها تقريباً؛ وقيل سنة خمس وتسعين بالمشهد من الروم، ونشأ هناك فاشتغل كثيراً ثم ارتحل إلى بلاد العجم فقرأ بها العلوم العقلية، وعاد فلزم الفناريّ حتى كان يعد من أعيان جماعته ومما أخذه عنه الفقه والأصلان والنحو والصرف والمعاني والبيان، واشتغل أيضاً في الفرائض وغيرها، وتصدر للتدريس فدرس مدة، ثم بعد توغله في العقليات ومشاركته الجيدة في الشرعيات تجرد وسلك طرق التصوف

(١) «الضوء اللامع»: ٣/٢١٢ - ٢١٤.

فصحب جماعة منهم، وتوجه إلى الحج ثم عاد فقدم بيت المقدس سنة ثمان وعشرين مجرداً بقصد الإقامة بها للتعبد فكان القادمون إليها من الروم للزيارة يعظمون شأنه فتنبه المقادسة وغيرهم له ولا زال يتلطف به من له رغبة في الاشتغال والاستفادة إلى أن عاود التدريس والإفادة فأقبل الناس عليه وظهر تقدمه في فنون منها علم الكلام والمنطق والمعاني والبيان والنحو والصرف ومشاركته في غيرها وانتفع الناس به حتى قل أن يكون في الفضلاء والطلبة من لم يقرأ عليه واستغرق جُلَّ أوقاته في ذلك.

كان محرراً لما يلقيه ويذاكر به؛ ناصحاً في تعليمه، ذاقوّةٍ في النظر، له ممارسة جيدة لفقه مذهبه، مُديم الإشغال والاشتغال في كتب منه معتبرة، وكتب أيضاً بخطه كثيراً كالبخاري وكان معتنياً بالنظر فيه وفي شروحه وفي شرح مسلم للنوويّ والهروي وبالمصابيح وشروحه وبالكشاف وتفسير القاضي وغيرهما، ويراجع الفخر الرازيّ وغيره عند إقراء الكشّاف وحواشيه مع الإكثار من مطالعة الأحياء.

(١) وكان يبالغ في التحذير من كلام ابن عربيّ ويذكر أنه خالط المشتغلين بكلامه في بلاد الروم وغيرها ووجد كثيراً منهم زائغاً يتستر بالتأويل ظاهراً وهو في الباطن غير مؤول بل يعتقد ما هو أقبح من الكفر؛ ووجد بعضهم واقعاً في الغلط. وكان ينظر فيما كتبه ابن تيمية في الردّ على ابن عربيّ ويثني على رده وكتب هو أيضاً في الرد عليه كتابة جيدة.

وله نظم متوسط ونثر يُستكثر على كثير من أهل الروم.

(٢) وبُنيت له مدرسة ببيت المقدس بنتها له امرأة من نساء وزراء الروم تعرف بخانم العثمانية، فأقام بها إلى أن توفيت فآل النظر إلى ولدها، وكان فيما يقال يميل إلى ابن عربيّ فاتصل به مبالغة الشيخ في التحذير منه لأن ذلك كان دأبه سيما مع الواردين من الروم، فكان هذا باعثاً للولد على صرفه عن الدَّرس فلم يكترث الشيخ بذلك بل ظهر منه السرور به لكونه

سبباً لحمايته عن تناول ريع وقفه، وكان رحمه الله متين الديانة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر مواظباً على الخير إلى أن مات في سنة ست وخمسين ودفن بباب الرحمة شرقيّ المسجد الأقصى[1].

ابن الديريّ

سعد بن محمد بن عبدالله شيخنا القاضي سعد الدين شيخ المذهب وطراز عَلَمِه المذهّب العالم الكبير وحامل لواء التفسير أبو السعادات بن القاضي شمس الدين النابلسيّ الأصل المقدسيّ الحنفيّ نزيل القاهرة ويعرف بابن الديريّ. ولد سنة ثمان وستين وسبعمائة ببيت المقدس ونشأ به فحفظ القرآن وكُتُباً، وكان سريع الحفظ مفرط الذكاء فعنى به أبوه وأعانه هو بنفسه فأكب على الاشتغال وكحل عيني البصر والبصيرة بمَيْل السُّهاد[2] حتى صار من أوعية العلم مع ما رزقه الله من التواضع والحلم؛ واشتهر بمعرفة الفقه حفظاً وتنزيلاً للوقائع وخبرة بالمدارك واستحضاراً للخلاف حتى كان والده يقدمه على نفسه في الفقه وغيره. وانتفع الناس بدروسه وفتاويه، وجدّ في العلوم حتى رجح على والده في حياته؛ وحج مراراً أولها في سنة ثمان وثمانين، وسافر إلى دمشق وكذا قدم القاهرة مراراً أولها في سنة إحدى وثمانمائة، ثم وردها سنة سبع وعشرين، ووَلِيَ بها مشيخة المؤيدية تصوفاً وتدريساً.

سُئل في قضاء الحنفية وأُلِحّ عليه حتى قبله واستقر فيه سنة اثنتين وأربعين عوضاً عن شيخنا البدر العيني فباشره بمهابة وصرامة وعفة وأحبه الناس ولكنه لم يتم بل صار بطائن السوء يحتالون عليه بكل طريق.

وبالجملة فكان إماماً عالماً علامة جبلاً في استحضار مذهبه قوى الحافظة حتى بعد كبر السن، سريع الإدراك شديد الرغبة في المباحثة في

---

(١) «الضوء اللامع»: ٣/٢٤٣ - ٢٤٥.

(٢) المَيْل هو عود المكحلة، والسُّهاد هو السهر.

العلم والمذاكرة به مع الفضلاء والأئمة، مقتدراً على الاحتجاج لما يروم الانتصار له بل لا ينهض أحد يزحزحه غالباً عنه، ذا عناية تامة بالتفسير لا سيما معاني التنزيل؛ يحفظ من متون الأحاديث ما يفوق الوصف غير ملتزم الصحيح من ذلك؛ وعنده من الفصاحة وطلاقة اللسان في التقرير ما يعجز عن وصفه لكن مع الإسهاب في العبارة.

وصار منقطع القرين، ذا وقع وجلالة في النفوس وارتفاع عند الخاصة والعامة على الرؤوس من السلاطين والأمراء والعلماء والوزراء فمن دونهم.

وأما شيخنا فكان أمراً عجباً في تعظيمه والاعتراف بمحاسنه، وكذا كان صاحب الترجمة يكثر التأسف على فقد شيخنا بعد موته ولا يزال يترحم عليه ويذكر ما معناه أنه صار بعده غريباً فريداً، ويحكى من مذاكرته معه جملة ويقبح من كان يمشي بينهما بالإفحاش المقتضى للاستيحاش فرحمهما الله تعالى فلقد كان للزمان بوجودهما البهجة، وبهما في كل حادثة المحجة، ولذلك سُمِع هاتفٌ يقول: بعد أحمد وسعد ما يفرح أحد.

(١) ومما حكاه أنه كان عنده في القدس وهو شاب يهوديٌّ طبيب منجم؛ وكان حاذقاً فامتحنوه فيما حُكِي له بأن أخذوا بول حمار فجعلوه في قنينة وقالوا له انظر بول هذا العليل فنظر فيه طويلاً ثم قال اذهبوا به إلى البيطار؛ وأنه قال لهم: أنا أموت في هذه السنة فكان كذلك.

رزقه الله السمت الحسن وصحة الحواسّ، كلّ هذا مع كثرة البشر ولين الجانب والمحاضرة الفكهة وفرط التواضع؛ والقرب من كل أحد مع الوقار والمهابة والشهامة على بني الدنيا والتقلل من الاجتماع بهم والدين المتين وسلامة الصدر جداً ومزيد التعصب لمذهبه والميل الزائد لأصحابه وانقياده معهم واتباع هواهم تحسيناً للظن بهم؛ وما أُتِيَ إلا من قبل ذلك، مذكوراً بإجابة الدعوة.

(٢) عظيم الرغبة في القيام بأمر الدين وقمع من يتوهم إفساده لعقائد

المسلمين، اتفق أنه أحضر إليه شيخ من أهل العلم فادُّعِيَ عليه بين يديه أن عنده بعض تصانيف ابن عربي وأنه ينتحلها واعترف بكونها عنده وأنكر ما عدا ذلك فأمر بتعزيره فعزر بحضرته بضرب عُصيَّات ثم أمر به الظاهر جَقْمُق فنُفِي، رحمهما الله، كيف لو أدرك هذا الزمن الذي حل به الكثير من الرزايا والمحن.

ولم يشغل رحمه الله نفسه بالتصنيف مع كثرة اطلاعه وحفظه ولذلك كانت مؤلفاته قليلة.

ولم يزل على جلالته وعلو مكانته، وأكرمه الله قبل موته بنحو ستة أشهر بالانفصال عن القضاء باحتيال بعضه في التبليغ عنه أنه طلب الاستعفاء فأجيب لذلك واستمر متوعكاً حتى مات سنة سبع وستين بمصر القديمة وتأسف الناس على فقده كثيراً ولم يخلف بعده مثله[1].

المغربيّ

سعيد بن عبدالله المغربي المجاور بالأزهر. أحد من يُعتقد ويُزار بل زاره السلطان مرة، وكان عنده مال جم من ذهب وفضة وفلوس يشاهده الناس ويخرج أحياناً ذهبه ويصففه حوله قفاف ذوات عدد ملأى من الفلوس فلا يجسر أحد على أخذ شيء منه سيما وقد شاع بين الناس أن من اختلس منه شيئاً أصيب في بدنه.

مات سنة إحدى وثلاثين بعد مرض طويل وكانت جنازته حافلة؛ وحمل المال الذي وجد له لبيت المال، قاله شيخنا في إنبائه.

(١) وبلغنا أن البساطيّ احتاج مرة فتبعه لكثير من الأماكن وهو يفرق رجاء إعطائه فكاد النهار أن يمضي ونفدت تلك القفاف فتألم الشيخ لذلك فالتفت إليه وقال: يا محمد إما العلم أو المال، أو كما قال[2].

---

(١) «الضوء اللامع»: ٣/٢٤٩ ـ ٢٥٣.

(٢) «الضوء اللامع»: ٣/٢٥٥.

سليمان بن أُرخان

سليمان بن أُرخان بك بن محمد كرشجي بن عثمان.

كان جده ملك بلاد الروم(٢)، فلما مات قبض ابنه مراد بك على أخيه والد صاحب الترجمة فسلمه ثم حبسه ومنعه من إتيان النساء خوفاً من أن يعقب فدُسَّت له جارية فأولدها سليمان هذا وشاه زاده ثم مات ففرّ بهما مملوك لأبيهما وقدم بهما على الأشرف بَرْسْبَاي فأكرمهما وضم سليمان إلى ولده العزيز يوسف وأخته إلى الحُرَم السلطانية، ثم رام المملوك المشار إليه الفرار بهما إلى الروم لمال وُعِد به من بعض ملوكه واتفق مع جماعة من التركمان وغيرهم فأخذهما من القلعة وركب بهما بحر النيل؛ ولما علم السلطان بهذا تألم وأرسل في أثرهم فأُدركوا بالقرب من فم رشيد وقد عاقهم الريح عن الخروج إلى بحر المالح فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً فكان الظفر لجماعة السلطان، فوَسَّط(٣) المملوك وقطع أيدي جماعة وحبس هذا بالبرج؛ وكان يوماً مهولاً زاد فيه غضب السلطان إلى الغاية ثم أطلقه بعد مدة وصار عند العزيز على عادته ثم تزوج السلطان بأخته وصارت خوند شاه زاده وتزوجها الظاهر بعده واستولدها أولاداً إلى أن طلقها في سنة خمس وخمسين، ومات سليمان قبل ذلك بالطاعون سنة إحدى وأربعين وهو ابن خمس عشرة تقريباً(٤).

الإبشيطيّ

سليمان بن عبدالناصر بن إبراهيم بن محمد الصدر الإبشيطيّ ثم القاهريّ الشافعيّ ويعرف بالإبشيطيّ. ولد قبل الثلاثين وسبعمائة، وكتب الخط الحسن، وبرع في الفقه وغيره وجمع ودرس وأفاد وأفتى وخطب.

---

(١) أي البلاد العثمانية.

(٢) أي ضربه بالسيف في وسطه.

(٣) «الضوء اللامع»: ٣/٢٦١ - ٢٦٢.

(١) وحكىٰ لي بعض الآخذين عنه أنه هم بالاشتغال بالمنطق لكثرة معارضة من يبحث معه فيه وقصد استشارة بعض الصالحين في ذلك فأخذ الشمسية في كمه وتوجه للشيخ شعيب الحريفيش فبمجرد أن رآه قال: منّ الله علينا بكتابه العزيز وبالفقه والنحو والأصول وغير ذلك فما لنا وللمنطق وكررها فرجع عما كان هَمّ به، وعد ذلك في كراماتهما.

وكذا مما عد في كرامة الصدر أنه كان يجيء لحضور الشيخونية فينزل عن بغلته وليس معه من يمسكها له فتوجه إلى الرميلة فتقمقم مما تراه هناك ثم ترجع عند فراغ الحضور سواءً.

وقد عجز بأخرة وانهزم وتغير قليلاً، سيما وقد سقط قبل موته فانكسرت رجله بحيث صار لا يمشي إلا على عكاز مع استحضاره جيداً، ومات في سنة إحدى عشرة وقد جاز الثمانين[1].

الجِنانيّ

سليم بن عبدالرحمن بن سليم العسقلانيّ الأصل الجِنَانيّ القاهريّ الأزهريّ لإقامته به؛ أقام فيه ملازماً للعبادة وقراءة القرآن إلى أن ظهر أمره وصار للناس فيه اعتقاد وقُصد للزيارة، وتأهل ورزق الأولاد.

(٢) كان لا تأخذه في الله لومة لائم بل يكلم أرباب الدولة بما فيه الخشونة وبصوته العالي، مع بله وسلامة باطن، وإذا سمع بمنكر من خمر أو غيره جمع قراءه وتوجه إليه بالسلاح والمطارق فإن عُورِض قابلهم بمن معه فمرة ينتصر ومرة لا يتمكن.

(٣) وكان الأشرف يجلسه بجانبه ويصغي لكلامه، وربما يقول له الشيخ: لا تكذب عليّ فيضحك الأشرف ويقول له: ما أكذب عليك.

(٤) وقال مرّة وقت اجتماع الناس لصلاة الجمعة وقد خرج إلى

---

(١) «الضوء اللامع»: ٣/٢٦٥ ـ ٢٦٧.

صحن الجامع وبيده عصاه وهو يضرب بها على الأرض: الصلاة على ابن النصرانية وكرر ذلك وعنى به سعد الدين إبراهيم بن كاتب جكم فلم يُقِم المشار إليه إلا أياماً يسيرة ثم مرض ولزم الفراش حتى مات.

(١) وجاءه شخص فاستغفله حتى كتب بخطه بالشهادة له في مكتوب ثم اطّلع على تزويره فبادر إلى بعض القضاء وقال له: أنا شهدت بالزور فعزرني فقال له: يكفي رجوعك ولا تعزير يعني إن لم تكن متعمداً، فتوجه إلى غيره فقال له أيضاً كذلك فصار يستغيث منكراً على من لم يعزره؛ ثم قال: أنا أعزر نفسي وأخذ عدة نعال وعلقها في عنقه وطاف الأسواق وهو كذلك وأمر جماعة من أتباعه ينادون عليه: هذا جزاء من يشهد بالزور إلى أن تعب هو وهم.

(٢) وأحواله شهيرة، ويحكى أن شخصاً من الفضلاء ضربه أو هم بضربه حيث أشار إليه بعصا فلم يرتفع رأسه بعد ذلك.

(٣) وقد دخل الشام وسلك طريقه[1] فأراق من خمارة ما فيها.

ولم يزل على طريقته إلى أن مات بعد تمرضه مدة يسيرة في سنة أربعين وهو ابن أربع وستين، وكانت جنازته مشهودة[2].

شاه رخ

شاه رخ بن تيمور الطاغية، معين الدين صاحب هراة وسمرقند وبخارى وشيراز وما والاهما من بلاد العجم وغيرها، بل ملك الشرق على الإطلاق، ملكها بعد ابن أخيه خليل بن أميران شاه وحمدت سيرته.

(٤) وقدِم رسله لمصر غير مرة؛ وراسله ملوكها، ثم وقع بينه وبين الأشرف بَرْسْبَاي استيحاش لكونه طلب كسوة البيت وفاءً لنذره فأبى الأشرف

---

(١) أي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
(٢) «الضوء اللامع»: ٣/٢٧١.

وخشن له في الرد وتردد الرسل بينهما مراراً ثم أرسل إليه جماعة زعم أنهم أشراف وعلى يدهم خلعة له فاشتد غضبه من ذلك ثم جلس بالإسطبل السلطانيّ واستدعى بهم ثم أمر بالخلعة فمزقت وضربهم بحيث أشرف عظيمهم على الهلاك ثم ألقوا منكسين في فسقية ماء بالإسطبل والأوجاقية[1] ممسكة بأرجلهم يغمسونهم بالماء حتى أشرفوا على الهلاك والسلطان مع ذلك يسب مرسلهم جهاراً ويحط من قدره مع مزيد تغير لونه لشدة حنقه، ثم قال لهم وقد جيء بهم إلى بين يديه بعد ذلك: قولوا لشاه رخ الكلام الكثير لا يصلح إلا من النساء وكلام الرجال لا سيما الملوك إنما هو فعل وها أنا أبدعت فيكم كسراً لحرمته فإن كان له مادة وقوة فليتقدم وكتب له بذلك وأزيد، فتزايد رعبه وسكت عن مطلوبه مدة حياة الأشرف، ولما استقر الظاهر أرسل إليه بهدايا وتحف وأظهر السرور بسلطنته وأنه دقت لذلك البشائر بهراة وزُينت أياماً فأكرم الظاهر قصاده وأنعم عليهم ثمّ بعث إليه في الرسلية ششك بغا دوادار[2] السلطان بدمشق فتوجه إليه وعاد بأجوبة مرضية ثم أرسل في سنة ست وأربعين يستأذن في وفاء نذره فأذن له حسماً لمادة الشر ودفعاً لحصول الضرر بالمنع فصعب على الأمراء والأعيان فلم يلتفت السلطان لكلامهم، وقد تكرر مجيء قاصده بها في رمضان سنة ثمان وأربعين في نحو مائة نفس منهم قاضي الملك وهو مشهور بالعلم ببلادهم إلى غيرهم من الأتباع وتلقاهم الأمراء والقضاة والمباشرون وسلم عليه شيخنا وأنزلوا وأكرموا، ثم صعدوا إليه بالكسوة وهدية فأمر أن يأخذها ناظر الكسوة بالقاهرة ويبعثها لتلبس من داخل البيت وانصرفوا فلما وصلوا لباب القلعة أخذهم الرجم من العامة والسب واللعن، بل جاءوا ومعهم من المماليك السلطانية نحو ثلثمائة نفس سوى من انضم إليهم من الغلمان والغوغاء إلى المحمل النازلين به فنهبوا ما فيه مما يفوق الوصف؛ ويقال

---

(١) العساكر المماليك.

(٢) حامل الدواة للسلطان ومتولي ما يلزم من ذلك من إبرام الأحكام وتنفيذ الأمور.

إنها ما كانت تساوي ألف دينار مع سماعي من أهل تلك النواحي المبالغة في شأنها بل تحدث به بعض بني شيبة فالله أعلم. وتألم السلطان لهم وأمسك بعض من نسب له ذلك، وقطعت أيدي جماعة وضرب جماعة إلى غير هذا مما فيه تلافي خاطرهم بل ضم إليهم المبالغة بالإكرام والبذل ومع ذلك تحرك صاحب الترجمة للبلاد الشامية فلما وصل لنواحي السلطنة أهلكه الله؛ وذلك في سنة إحدى وخمسين وكفى الله المؤمنين القتال.

وكان ضخماً وافر الحرمة نافذ الكلمة نحواً من أبيه مع عفة وعدل في الجملة وتلفُّت لكتب العلم وأهله بحيث ورد كتابه في سنة ثلاث وثلاثين بترغيب ابن الجزري له على الأشرف بَرْسْباي يستدعي منه هدايا، ومن جملتها كتب في العلم منها فتح الباري لشيخنا فجهز له منه إذ ذاك ثلاث مجلدات ثم أعاد طلبه في سنة تسع وثلاثين فجهز له منه إذ ذاك ثلاث مجلدات ثم أعاد طلبه في سنة تسع وثلاثين فجهز له منه أيضاً قطعة أخرى ثم في زمن الظاهر جهزت له نسخة كاملة.

وبالجملة فكان عدلاً ديناً خيراً فقيهاً متواضعاً محبباً في رعيته محباً لأهل العلم والصلاح مكرماً لهم قاضياً لحوائجهم لا يضع المال إلا في حقه ولذا يوصف بالإمساك متضعفاً في بدنه يعتريه الفالج كثيراً محباً في السماع ذا حظ منه، بل كان يعرف الضرب بالعود بحيث كان ينادمه الأستاذ عبدالقادر بن الحاج غبى ويختص به، كل ذلك مع حظ من العبادة والأوراد ومحافظته على الطهارة الكاملة وجلوسه مستقبل القبلة والمصحف بين يديه[1].

السلطان شيخ

شيخ المحموديّ ثم الظاهريّ برقوق المؤيد أبو النصر الجركسيّ الأصل. ولد تقريباً سنة سبعين وسبعمائة. كان قدومه للقاهرة في أول سنة

---

(١) «الضوء اللامع»: ٣/٢٩٧ ـ ٢٩٨.

ثلاث وثمانين أو آخر التي قبلها وهو ابن اثنتي عشرة سنة فعُرض وهو جميل الصورة على الظاهر قبل تسلطنه فرام شراءه من جالبه فاشتطّ في الثمن ولم يلبث أن مات فاشتراه الخواجا محمود شاه اليزديّ تاجر المماليك بثمن يسير فنسب محمودياً لذلك وقدمه لبرقوق وهو حينئذ أتابك[1] العساكر فأعجبه فأعتقه.

ونشأ ذكياً فتعلم الفروسية من اللعب بالرمح ورمي النشاب والضرب بالسيف والصراع وسباق الخيل وغيره ذلك ومهر في جميع ذلك مع جمال الصورة وكمال القامة وحسن العشرة، واختص بسيده للغاية مع غضبه عليه بسبب نهيه غير مرة عن التهتك والميل إلى اللهو والطرب ولكن لم يعزله عن وظيفته ولا أبعده، ثم أنعم عليه بإمرة عشرة[2] في سلطنته الثانية بعد وقعة شقحب، وتأمر على الحاج سنة إحدى وثمانمائة بعد موت أستاذه وناب في طرابلس.

(١) ولما نازل اللنك[3] حلب خرج مع العساكر فأسر ثم خلص من اللنك بحيلة عجيبة وهي أنه لما أُسر استمر في أسْر اللنكية إلى أن فارقوا دمشق ثم رجعوا فاغتنم وقت رحيلهم وألقى نفسه بين الدواب وستره الله فركب ودخل القاهرة وأعيد كما كان أولاً لنيابة طرابلس ثم وَلِيَ نيابة الشام. وكانت مدة كونه في السلطنة ثمان سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام؛ وأقام في الملك عشرين سنة ما بين نائب ومتغلب وأتابك وسلطان.

قال شيخنا: وكان شهماً شجاعاً عالي الهمة كثير الرجوع إلى الحق، محباً في العدل، متواضعاً يعظم العلماء ويكرمهم ويحسن إلى أصحابه ويصفح عن جرائمهم، يحب الهزل والمجون، لكن مستتراً، ومحاسنه جمة.

---

(١) أي أمير أمراء العسكر.

(٢) أي: عشرة من المماليك.

(٣) أي: المغول.

وقال في معجمه إنه حدّث بصحيح البخاريّ عن السراج البُلقينيّ بإجازة معينة أخرجها بخطه وذكر أنها كانت معه في أسفاره لا يفارقها وحضرنا عنده عدة مجالس. وكان يحب العلماء ويجالسهم ويكرمهم ويعظم الشرع وحملته. وكان مفرطاً في الشجاعة محباً في الصلاة لا يقطعها وإن عرض له عارض بادر إلى قضائها. قال: وقد ذكرت في الوفيات كثيراً من محاسنه وما كان يُعاب به وأين أين مثله سامحه الله وعفا عنه.

وقال العينيّ في تاريخه: لما مات كان في الخزانة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار من الذهب على ما قيل فلم تمض السنة وفيها دينار واحد.

وقال المقريزي: كان شجاعاً مقداماً يحب أهل العلم ويجالسهم ويجل الشرع النبويّ ويذعن له ولا ينكر على الطالب منه أن يمضي من بين يديه إلى قضاة الشرع بل يعجبه ذلك وينكر على أمرائه معارضة القضاة في أحكامهم؛ غير مائل إلى شيء من البِدع، له قيام في الليل إلى التهجد أحياناً لكنه كان بخيلاً مسيكاً يشح حتى بالأكل، لجوجاً غضوباً نكداً حسوداً معياباً، يتظاهر بأنواع المنكرات فحاشا سباباً بذيئاً شديد المهابة، حافظاً لأصحابه غير مفرط فيهم ولا مضيع لهم وهو أكبر أسباب خراب مصر والشام لكثرة ما كان يثيره من الشرور والفتن أيام نيابته بطرابلس ودمشق ثم ما أفسده في أيام ملكه من كثرة المظالم ونهب البلاد وتسليط أتباعه على الناس يسومونهم الذلة ويأخذون ما قدروا عليه بغير وازع من عقل ولا ناه من دين[1]؛ وأرخ وفاته بعد تنوع الأسقام وتزايد الآلام سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وقد أناف على الخمسين، وحمل إلى جامعه فدفن بالقبة قبيل العصر، ولم يشهد دفنه كبير أحد من الأمراء والمماليك.

(١) قال: واتفق في أمره موعظة فيها أعظم عبرة، وهو أنه لما غسل

---

(١) هذا يناقض ما ذُكِر عنه قبل ذلك، فالله أعلم، وقد ذكر بعض هذه المعايب يوسف بن تغري بردي في «المنهل الصافي»: ٦/٣١٠.

لم توجد له منشفة ينشف بها فنشف بمنديل بعض من حضر غسله ولا وجد له مئزر تستر به عورته حتى أخذ له مئزر صوف صعيديّ من فوق رأس بعض جواريه فسُتر به، ولا وُجد له طاسة يصب عليه الماء بها حين غسله مع كثرة ما خلفه من المال.

قلت: وله مآثر كالجامع الذي بباب زويلة قيل إنه لم يعمر في الإسلام أكثر منه زخرفة ولا أحسن ترخيما بعد الجامع الأمويّ[1].

الزواويّ

صالح بن محمد بن موسى الشيخ مجد الدين أبو محمد الحسنيّ المغربيّ المالكيّ ويعرف بالزواويّ وهو لقب كما قال. ولد فيما قرأته بخطه على رأس الستين وسبعمائة بقرية مدوكال من إفريقية فحفظ القرآن واشتغل بالعلوم، وقدم القاهرة فسمع بها، وحج فسمع بالمدينة النبوية وأجاز له غير واحد وحدث سمع منه الفضلاء وأثنى عليه شيخنا في تاريخه فقال: كان خيراً ذاكراً لكثير من الفقه ملازماً لحضور مجالس العلم، جاور بالمدينة الشريفة مدة.

(١) ويُحكى أنه كان يسمع تسبيح النخل في مروره بين الينبوع[2] في النخل أيام الرطب بل سمعها تقول له: يا صالح كل مني، وكذا اتفق له وهو بمكة أنه وجد بعض الحطابين ومعه حطب فسأله أهو من الحل أم من الحرم؟ فقال: من الحل، فاشتراه وجاء به إلى منزله فلما أوقد النار صاح الحطب فقال: والله يا صالح أنا من حطب الحرم فأطفأه ولم يُقِدْ بعد ذلك بمكة ناراً، وهاجت مرة مركب في البحر وهو فيها بحيث أشرفت على الغرق فقام ورفع يديه فسكن الريح في الحال.

ثم قدم القاهرة وسكن وقتاً بتربة الظاهر برقوق بالصحراء وحَسُن ظن كثير من الناس فيه ثم سكن غيرها من القاهرة.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٣/٣٠٨ - ٣١١.

(٢) هي بلدة ينبع اليوم.

وكان يصل إليه كل سنة من سلطان المغرب مبلغاً، كل ذلك مع الشهامة والقيام في الحق عند الظلمة وعدم المبالاة بهم.

مات سنة تسع وثلاثين بالقاهرة[1].

الزّرزاريّ

عبادة بن علي بن صالح الزين الأنصاريّ الخزرجيّ الزرزاريّ القاهريّ المالكيّ ولد سنة سبع وسبعين وسبعمائة بزرزرا من قرى مصر وقرأ بها القرآن ثم انتقل إلى القاهرة فحفظ كتباً وسمع الكثير، وتفقه، وأخذ العربية والأصلين[2] والمعاني وكثيراً من العلوم عن العز بن جماعة وصار أحد أعيان مذهبه، ونسخ بخطه الحسن الكثير، وتصدى للتدريس والإفتاء والإفادة قديماً.

وأخذ الناس عنه من أهل كل مذهب طبقة بعد أخرى وانتفعوا به في الفقه وأصوله والعربية وغيرها من الفنون مع حسن تربيته للطلبة وعدم مسامحته لهم بل يغلظ على من لم يرتض فهمه أو بحثه منهم إلى أن اشتهر ذكره وبعُد صيته.

(١) عُين لقضاء المالكية بعد موت البساطيّ فأبى وصمم مع إلحاحهم عليه على الامتناع ثم اختفى بعد قول كاتب السر له عن السلطان إنه يخبر إنه قد وَلِيَ السلطنة مغصوباً فهو أيضاً يوليك مغصوباً فقال: حتّى أستخير الله ثم تسحب من وقته وسافر إلى دمياط فاختفى بها، وكذا أقام عند الشيخ إبراهيم المتبوليّ مختفياً أياماً حتى استقر البدر بن التنسيّ[3] فظهر حينئذ، ولم أعلم بعد البرهان الأبناسي من أهل هذا القرن من شاركه في الصدق لعدم قَبول القضاء غيره.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٣/٣١٦ - ٣١٧.

(٢) أي أصول الفقه وأصول الدين.

(٣) أي: استقر في القضاء.

ثم انقطع إلى الله تعالى وأعرض عن الاجتماع بالناس وأقام عند الشيخ مدين في زاويته مقبلاً على شأنه منقطعاً إلى العمل والعبادة في ازدياد من الخير والمحاسن حتى مات سنة ست وأربعين وصُلِّي عليه بالأزهر وكثر التأسف على فقده ولم يخلّف بعده في المالكية مثله.

كان فصيحاً طلق اللسان حسن التقرير علامة مبرزاً في المعقول والمنقول. صالحاً خيراً زاهداً ورعاً صلباً في الدين غاية في التقشف خصوصاً في آخر أمره، سالكاً طريق السلف لا يتحاشى المشي على قدميه في ضروراته وغيرها معللاً امتناع الركوب بما يترتب عليه من أمر المشاة ونحوهم بالاستناد له بغير ضرورة حتى يمر. عليه أُنسٌ ووقار، قليل الكلام إلا فيما يعنيه ومحاسنه كثيرة.

(١) وكان يقول مشيراً لشدة أعباء التزويج على سبيل المماجنة: لو كانت الشركة تصح في الزوجات لشاركت في جزء من أربعة وعشرين جزءاً؛ وهو مسبوق بنحوه من الأوزاعيّ فإنه قال لصديق له: إن استطعت أن تكتفي في هذا الزمان بنصف امرأة فافعل[١].

عبد الأحد الحنبليّ

عبدالأحد بن محمد بن عبدالأحد أبو المحاسن الحرانيّ الأصل الحلبيّ الحنبليّ. ولد سنة بضع عشرة وسبعمائة، وكان شيخاً ديناً ظريفاً حسن المحاضرة. مات في كائنة حلب بعد أن عاقبه التتار في ربيع الأول سنة ثلاث وقد عمر.

صنف «كافية القاري في فنون المقاري» في القراءات.

(٢) وحفظ المختار فرأى النبي ﷺ، فقال له: يا رسول الله على أي مذهب أشتغل؟ فقال: على مذهب أحمد؛ وأشار لذلك ولده في أرجوزته التي نظم فيها العمدة لابن قدامة فقال:

---

(١) «الضوء اللامع»: ٤/١٦ ـ ١٨.

لـمـا رآه والـدي إذ نـشـا	في البعض من كَـرّاتـه التي رأى
فيهـا رسـول الله وهـو يسـأل	منـه بـأي مـذهـب يشـتـغـل
قـال اشتغـل بمـذهب ابن حنبـل	أحمـد فـاخـتـرنـاه عن أمـر جلي
ولا أرى تـأويـل هـذي القصـة	إلا لـحـكـمـة بـنـا مـخـتـصـة
فـيـه أرادهـا لـنـا الـنـبـي	مـنـه وإلا كـلـهـم مـهـديّ
جـزاهـم الله جـزيـلَ الـرحمـة	عـنـا وكـل عـلـمـاء الأمـة[1]

المُرَيْنيّ

عبدالحق بن أبي سعيد عثمان بن أحمد بن أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني العبد الحقي ـ نسبة لبني عبدالحق، سلطان فاس.

(١) قام عليه الشريف محمد بن عمران الحسني نقيب الأشراف بسبب توليته الوزارة ليهودي وأخذه فذبحه في يوم الجمعة ثامن عشري رمضان سنة تسع وستين واستقر الشريف موضعه باتفاق من أهل الحل والعقد بفاس[2].

ابن أبي الوفا

عبد الرحمن ـ ويسمى محمداً أيضاً ـ بن أحمد بن محمد أبو الفضل بن الشهاب أبي العباس بن أبي عبدالله السكندريّ الأصل المصريّ المالكيّ الشاذليّ ويُعرف بابن أبي الوفا. ولد قبل التسعين واشتغل وأُحضر مجلس شيخنا البُلقينيّ، وتولع بالنظم فلم يزل حتى مهر فيه وكان حسن الأخلاق كيس العشرة.

مات غريقاً في النيل سنة أربع عشرة وثمانمائة في حياة أبيه، وكان ذكياً حسن الأخلاق لطيف الطباع.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٤/ ٢١.

(٢) «الضوء اللامع»: ٤/ ٣٧.

(١) قال العينيّ في تاريخه لما ذكر غرقه وهو وأصحابه: وكانوا اجتمعوا في منظرة على البحر ثم اجتمع رأيهم على ركوب بعض المراكب ويتوجهون إلى الآثار فامتنع أبو الفضل المذكور أشد امتناع فلم يزالوا به حتى ركب معهم ولما ركب قال لرفقته: عجباً إن نجونا من الغرق في البحر؛ فلم يتم كلامه حتى انقلب المركب بهم ولم يظفروا بجسده مع التفحص عنه أياماً فكأن الأرض ابتلعته[١].

أبو هريرة التَّفَهْنِيّ

عبدالرحمن بن علي بن عبدالرحمن الزين أبو هريرة التَفَهْنيّ ثم القاهريّ الحنفيّ. ولد سنة أربع وستين وسبعمائة بتفَهْنَا قرية بالقرب من دمياط، ومات أبوه ـ وكان طحاناً ـ وهو صغير فقدم مع أمه القاهرة وكان أخوه بها ولازم الاشتغال ودار على الشيوخ فمهر في الفقه وأصوله والتفسير وأصول الدين والعربية والمعاني والمنطق وغيرها، وصار من أفاضل طلبة الشيخونية[٢] ولم يلبث أن وَلِيَ مشيخة الصرغتمشية[٢] بعد أن تنازع فيها هو والشرف التبانيّ.

(٢) وكان يذكر أنه بحث مع الجلال التباني في درس الفقه بها فغضب منه فأقامه فخرج وهو مكسور الخاطر فدعا الله أن يوليه التدريس مكانه فحصل له ذلك.

وتزوج فاطمة ابنة كبير تجار مصر الشهاب المحليّ فعظم قدره، وسعى في قضاء الحنفية.

(٣) مات سنة خمس وثلاثين ويُقال إن أم ولده دست عليه سمّاً لأنها كانت ظنت انفرادها به بعد موت زوجته فما اتفق بل تزوج امرأة أخرى وأخرج الأمة فحصل لها غيرة فالله أعلم.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥٩/٤.
(٢) أسماء مدارس.

قال شيخنا في «أنبائه»: وكان حسن العشرة كثير العصبية لأصحابه، عارفاً بأمور الدنيا وبمخالطة أهلها على أنه يقع منه في بعض الأمور لِجاج شديد يُعاب به ولا يستطيع أن يتركه؛ قال: وكان قد انتهت إليه رياسة أهل مذهبه، ونحوه قوله في حوادثه أنه كتب على الفتاوي فأجاد وكان حسن الأخلاق كثير الاحتمال شديد السطوة إذا غضب لا يُطاق وإذا رضى لا يكاد يوجد له نظير. وقال في «رفع الإصر»[1]: إنه سار في القضاء سيرة محمودة وخالق الناس بخلق حسن مع الصيانة والإفضال والشهامة والإكباب على العلم، وقال التقيّ المقريزيّ: إنه حلف مرة أنه لم يرتش قط في الحكم ولا قبل لأحد شيئاً ولم يترك في الحنفية مثله، وقال في عقوده نحوه وأنه كان حشماً مهاباً مشكور السيرة له إفضال وفيه مروءة وهو خير من غيره من قضاة الحنفية وله نظم، وقال مرة: كان بارعاً في الفقه وأصوله والعربية، حسن السيرة في القضاء، باشره على أحسن الوجوه، وقال التقيّ بن قاضي شهبة إنه عزل بسبب تصميمه في الحق وعدم التفاته إلى الظلمة.

قلت: وجلالته مستفيضة وقد أخذ عنه الجم الغفير من شيوخنا فمن دونهم وكلهم يذكرون من أوصافه في العلم ما سبق حاصله.

(١) وأما العينيّ فإنه قال مما فيه تحامل كبير: كان أبوه عامياً من الزراع في تفهنة والمتسببين بها فهرب ابنه منه بعد بلوغه إلى القاهرة وخدم بها حَمّاراً لشخص يُقال له يوسف الضرير المقريء وصار يقرأ عليه في القرآن ثم استقر في كُتّاب الصرغتمشية مع الصغار، ثم خدم شخصاً يقال له يحيى الأشقر إلى أن كبر واختلط بالناس وتردد بين طلبة الصرغتمشية والشيخونية وقرأ بعض شيء من الفقه وأصوله على إمام الشيخونية ثم اتصل بالبدر الكلستانيّ وحصل له بعض تميز بين الناس فناب في القضاء واتصل ببعض الأمراء فتمول فبطر وطغى فسعى في قضاء الحنفية بالرشي والبرطيل، قال: ولم أعتقد صحة قضائه، وكان صاحب غرض فاسد يبذل

---

(١) كتاب لابن حجر اسمه «رفع الإصر عن قضاة مصر».

أشياء لأغراضه الفاسدة ولم يكن يتوقف على دين عند غرضه النفساني، وتولى الوظائف بالرشوة ولم يكن أهلاً لها خصوصاً مشيخة صرغتمش فإنه لم يكن لائقاً بها بالشرع وشرط الواقف وكل ما تناوله منها كان سحتاً وحراماً، ولم يُعهد أنه درس كتاباً كاملاً ولا كتب بيده كتاباً كاملاً ولا تأليفاً ولا جمعاً، وكان في الدعوى كثير الهذيانات والفشارات، وعُزل مرتين بكاتبه ووقع في قلبه نار أحرقته فلم يزل ضعيفاً بأمراض مختلفة إلى أن مات فالله يعلم ما كان حاله عند الموت؟!! ونحوه قول غيره: كان في إحدى عينيه خلل ولحيته صفراء غير نقية البياض لأنه فيما قيل كان يبخرها قديماً بالكبريت لإسراع الشيب، قال: وكان فقيهاً عالماً متبحراً في المذهب بصيراً بالاحكام إلا أنه كان سيء الخلق وله بادرة ويقوم في حظ نفسه وربما خاصم بعض من تحاكم عنده لغرض ما بحيث يظهر عليه الغضب سريعاً لكونه كان إذا حمق اصفرّ وجهه وارتعد، قال: وواقعته مع الميمونيّ مشهورة من حكمه بسفك دمه وعقد بسبب ذلك مجالس والميمونيّ يحاققه عن نفسه حتى كان من كلماته: اتق الله يا عبدالرحمن، أنسيت قبقابك الزحاف وعُمَيْمَتك القطن فبادر حينئذ وهو ظاهر التغير بقوله: حكمت بسفك دمك والتفت إلى شيخنا لينفذ حكمه فقال له: على مهل حتى يسكن غضب قاضي القضاة، وانفض المجلس وخلص الميمونيّ من يده[1].

ابن رسلان

عبدالرحمن بن عمر بن رسلان الجلال أبو الفضل وأبو اليُمْن بن السراج أبي حفص البلقينيّ الأصل القاهريّ الشافعيّ سبط البهاء بن عقيل. ولد سنة ثلاث وستين وسبعمائة بالقاهرة.

نشأ في كنف أبيه فحفظ القرآن وصلى به على العادة، والعمدة، وما كتبه أبوه لأجله من التدريب، ومختصر ابن الحاجب الأصليّ وألفية ابن

(١) «الضوء اللامع»: ٤/٩٨ - ١٠٠.

مالك وغيرها، وتفقه بأبيه ولم يأخذ من غيره لأن والده لم يكن له عناية بتسميعه، ودخل دمشق سنة تسع وستين وهو صغير مع أبيه حين وَلِيَ قضاءها وكان مفرط الذكاء قوي الحافظة بل قال شيخنا: إنه كان من عجائب الدنيا في سرعة الفهم وجودة الحافظة فمهر في مدة يسيرة، ثم استقر في قضاء العسكر، وسافر مع والده سنة ثلاث وتسعين في الركاب السلطانيّ إلى حلب فرجع في ضخامة زائدة وصحبته ثلثمائة مماليك مردان فصاروا يركبون في خدمته للدروس وغيرها ودُعيَ بقاضي القضاة لكونه قاضي العسكر ومن خاطبه بغيرها مقته؛ كل هذا ووالده ينوِّه به في المجالس ويستحسن جميع ما يرد منه ويحرض الطلبة على الاشتغال عليه بل كان أبوه أذن له بالإفتاء والتدريس قديماً في سنة إحدى وثمانين وقال في إجازته التي كتبها له بخطه أنه رأى منه البراعة في فنون متعددة من الفقه وأصوله والفرائض وغيرها مما يظهر من مباحثه على الطريقة الجدلية والمسالك المرضية والأساليب الفقهية والمعاني الحديثية، وأنه اختبره بمسائل مشكلة وأبحاث معضلة فأجاد، وصار ينوه به ويحض على سماع كلامه.

(١) ولما تحقق موت الصدر المناويّ ووثوب القاضي ناصر الدين الصالحيّ على المنصب شق عليه وسعى إلى أن وَلِيَ بالبذل سنة أربع وثمانمائة، واستمر قاضياً إلى سنة إحدى وعشرين سوى ما تخلل من أثنائها لغيره غير مرة وهو قليل ثم أعيد سنة اثنتين وعشرين إلى أن مات، قال شيخنا: وكان قد ابتلي بحب القضاء فلما صرف عنه بالهرويّ تألم لذلك كثيراً واشتد جزعه وعظم مصابه فلما قُرىء البخاري بالقلعة ساعده الناصري بن البارزيّ كاتب السر حتى أذن له السلطان المؤيد في الحضور مع الهرويّ فجلس عن يمين الهرويّ بينه وبين المالكيّ وصار يبدي الفوائد الفقهية والحديثية ويجاريه العلاء بن المغليّ الحنبليّ ولا يبدو من الهرويّ ما يعد فائدة مع كلامه ثم صار ابن المغليّ يدرس قدر ما يقرأ في المجلس من البخاري ويسرده من حفظه فحينئذ رتب الجلال أخاه في أسئلة يبديها

مشكلة ويحفظه أصلها وجوابها ويستشكلها ويخص الهرويّ بالسؤال عنها فيضج الهرويّ من ذلك والمراد من هذا كله إظهار قصوره والسلطان يشاهد جميع ذلك ويسمعه لكونه جالساً بينهم.

واستفيض أنه باشر القضاء بحرمة وافرة وعفة زائدة إلى الغاية وأنه امتنع من قبول الهدية من الصديق وغيره حتى ممن له عادة بالإهداء إليه قبل القضاء مع لين جانب وتواضع وبذل للمال والجاه ونحو ذلك مما تجدد له من شدة ما قاساه من السعي عليه؛ ولكنه ـ فيما قال شيخنا ـ كان كثير الانحراف قليل الاجتماع سريع الغضب مع الندم والرجوع بسرعة قال: وقد صحبته قدر عشرين سنة فما أضبط أنه وقعت عنده محاكمة فأتمها بل يسمع أولها ويفهم شيئاً فيبني عليه فإذا روجع فيه بخلاف ما فهمه أكثر النزق والصياح وأرسل المحاكمة لأحد نوابه.

(١) قال وما رأيت أحداً ممن لقيته أحرص على تحصيل الفائدة منه بحيث إنه كان إذا طرق سمعَه شيءٌ لم يكن يعرفه لا يقر ولا يهدأ ولا ينام حتى يقف عليه ويحفظه، وهو مع هذا مكب على الاشتغال محب في العلم حق المحبة.

(٢) وكان يذكر أنه لم يكن له تقدم اشتغال في العربية، وأنه حج في حياة أبيه يعني في سنة سبع وثمانين وسبعمائة فشرب ماء زمزم لفهمها فلمّا رجع أدمن النظر فيها فمهر فيها في مدة يسيرة. وقد ترجمه غير واحد فقال التقيّ المقريزيّ: إنه لم يخلف بعده مثله في كثرة علمه بالفقه وأصوله وبالحديث والتفسير والعربية مع العفة والنزاهة عما ترمى به قضاة السوء، وجمال الصورة وفصاحة العبارة؛ وبالجملة فلقد كان ممن يتجمل به الوقت. وقال التقيّ بن قاضيّ شهبة: كان فصيحاً بليغاً ذكياً سريع الإدراك لكنه قد نقص عما كان عليه قبل ولايته القضاء حتى إنه قال مرة: نسيت من العلم بسبب القضاء والأسفار العارضة بسبب ما لو حفظه شخص لصار عالماً كبيراً، ثم نقل عن شيخنا أنه قال: كان له بالقاهرة صيت لذكائه وعظمة

والده في النفوس وأنه كان من عجائب الدنيا في سرعة الفهم وجوده الحفظ ومن محاسن القاهرة. مات سنة أربع وعشرين، وتقدم في الصلاة عليه الشمس بن الديري قدمه أولاده، ويُقال إنهُ سُمّ.

(١) وقال غيره: لما مات ووضعوه على المغتسل سمعوا شخصاً يقول:

يا دهرُ بِعْ رتب العلا من بعده بيعَ الهوان ربحت أم لم تربحِ
قدِّم وأخِّر من أردت من الورى مات الذي قد كنت منه تستحي

(٢) ولما دخل حلب اجتمع به البرهان الحلبيّ وسأله عن حاله فقال معترفاً بالنعمة حسبما قيل: وظيفتي أجلُّ المناصب، وزوجتي غاية وكذا سكني، وفي مِلكي ألف مجلد نقاوة[1].

ابن الفاقوسيّ

عبدالرحمن بن محمد بن حسن تقي الدين أو زين الدين القرشيّ الزبيريّ القاهريّ ويُعرف بابن الفاقوسيّ. ولد سنة ست وثمانين وسبعمائة بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن وجوده وألفية ابن مالك.

(٣) حُبب إليه علم التعبير وأدمن مطالعة كتبه والاجتماع بأهله فمهر فيه بحيث فاق العارفين فيه على قلتهم، ومن بديع تعبيره قوله لمن قص عليه أنه رأى في إحدى يديه رغيفاً وفي الأخرى قرصاً وهو يأكل منهما أن له زوجة وهو يزني بابنتها فاعترف الرائي واستغفر وتاب.

وعرف بالخوض فيما لا يعنيه والتسارع لنقل ما لا خير فيه بحيث أوذي بسبب ذلك، وكذا عرف بالتعرض لأعراض الناس حتى صار ممن يُتقى لسانه ولكن تناقص حاله في كل هذا أخيراً.

مات سنة أربع وستين عفا الله عنه ورحمه وإيانا[2].

---

(١) «الضوء اللامع»: ٤/١٠٦ ـ ١١٣.
(٢) «الضوء اللامع»: ٤/١٢٨ ـ ١٢٩.

صفي الدين الإيجيّ

عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله السيد صفيّ الدين أبو الفضل الحسينيّ الايجيّ ثم المكيّ الشافعيّ. ولد سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة بإيج من بلاد العجم، ودخل الشام وحلب واجتمع بعلمائها وهمّ بدخول مصر فما أمكن، وحج ست حجات وجاور مرتين في كل من الحرمين وزار بيت المقدس.

(١) وأخذ عنه جماعة منهم ابن أخيه، وقال فيه: صاحب الكشف والإلهام، الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، وكان ذا زهد وورع وانجماع واتباع للسنة وكرامات جليلة ومداومة على التلاوة وشهود الخمس مع الجماعة حتى بعد كبر سنه، واستيعابِ ما بين المغرب والعشاء بالصلاة بحيث لا يتعشى دائماً إلا بعد صلاة العشاء صوماً كان أو فطراً، وصومِ السنة إلا شهراً واحداً حتى لا يدخل في صوم الدهر وعمل على منازل السائرين وغيره حواشي.

ونظم القليل فمن ذلك قوله:

ألا يا نفس ويحك لا تنامي   فكم نوماً يورث من ملامِ

مات سنة أربع وستين بمكة[1].

ابو هريرة ابن النقّاش

عبد الرحمن بن محمد بن علي الزين أبو هريرة بن الشمس أبي أمامة الدكالي الأصل المصريّ الشافعيّ ويعرف كأبيه بابن النقاش. ولد سنة سبع وأربعين وسبعمائة واشتغل بالعلم وحفظ المنهاج.

قال شيخنا في معجمه: ووَلِيَ وهو صغير تداريس تلقاها بعد أبيه وكذا الخطابة بجامع طولون وتكلم على الناس، وكان جزل الرأي كثير

---

(١) «الضوء اللامع»: ٤/١٣٥ ـ ١٣٦.

القيام في الحق يصدع بذلك في خطبه ومواعظه، عالي الهمة، شديد السعي والقيام مع من يقصده، محباً في أهل الحديث منخرطاً في سلكهم، عارفاً بأمر دنياه، يتكسب غالباً من الزراعة ويبرُّ أصحابه.

وقال غيره: إنه درس وحدث وأفتى سنين وكان لوعظه تأثير في النفوس، محبباً للأكابر محظوظاً منهم بل للناس فيه اعتقاد وحسن ظن مع النزاهة والديانة وعظم بأَخَرة في الدولة واشتهر ذكره.

وقال شيخنا في «إنبائه»: اشتهر بصدق اللهجة وجودة الرأي وحسن التذكير والأمر بالمعروف مع الصراحة والصدع بالوعظ في خطبه، وصارت له وجاهة عند الخاصة والعامة، وكان مقتصداً في ملبسه، مفضالاً على المساكين، كثير الإقامة في منزله، مقبلاً على شأنه عارفاً بأمر دينه ودنياه؛ قال: وله حكايات مع أهل الظلم وامتحن مراراً ثم ينجو سريعاً بعون الله. انتهى.

وقال ابن قاضي شهبة: كان فقيهاً متصوفاً، كثير الحط على الظلمة والمجاهرة لهم بالكلام القبيح ولم يكن في العلم بذاك إذ هو على قاعدة الخطباء، وكان ينسب إلى اعتقاد الحنابلة في آيات الصفات وأحاديثها.

ومكتوب على قبره بوصية منه:

بقارعة الطريق جعلتُ قبري لأحظى بالترحم من صديق
فيا مولى الموالي أنت أولى برحمة من يموتُ على الطريق

(١) مات سنة تسع عشرة ودُفن من الغد خارج باب القرافة على قارعة الطريق بوصية منه بعد أن صلى عليه في مشهد حافل تقدمهم الجلال البُلقينيّ، وصار كل من يمر بقبره يترحم عليه حتى قال بعض الناس: كان صاحبَ حيل في حياته وبعد موته[١].

---

(١) «الضوء اللامع»: ٤/١٤٠ ـ ١٤٢.

ابن خلدون

عبدالرحمن بن محمد بن وليّ الدين أبو زيد الحضرميّ من ولد وائل بن حجر الإشبيليّ الأصل التونسيّ ثم القاهريّ المالكيّ ويُعرف بابن خلْدون. ولد سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة بتونس، وحفظ القرآن والشاطبيتين ومختصر ابن الحاجب الفرعي والتسهيل في النحو، وتفقه، وكتب بخطه أنه سمع صحيح البخاري والموطأ وصحيح مسلم، وأخذ القراءات السبع إفراداً وجمعاً بل قرأ ختمة أيضاً ليعقوب، واعتنى بالأدب وأمور الكتابة والخط وأخذ عن أبيه وغيره ومهر في جميعه وحفظ المعلقات وحماسة الأعلم وشعر حبيب بن أوس وقطعة من شعر المتنبي وسقط الزند للمعريّ وتعلق بالخِدَم السلطانية؛ ثم توجه في سنة ثلاث وخمسين إلى فاس فوقع بين يدي سلطانها أبي عنان ثم امتحن واعتقل نحو عامين، ثم وَلِيَ كتابة السر[1] لأبي سالم أخي أبي عنان وكذا النظر في المظالم، ثم دخل الأندلس فقدم غرناطة في أوائل ربيع الأول سنة أربع وستين وتلقاه سلطانها ابن الأحمر عند قدومه ونظمه في أهل مجلسه، وكان رسوله إلى عظيم الفِرنج بإشبيلية فعظمه وأكرمه وحمله وقام بالأمر الذي ندب إليه، ثم توجه في سنة ست وستين إلى بجاية ففوض إليه صاحبها تدبير مملكته مدة؛ ثمّ نزح إلى تلمسان باستدعاء صاحبها وأقام ببوادي العرب مدة ثم توجه إلى فاس فنُهب في الطريق ومات صاحبها قبل قدومه ومع ذلك فأقام بها قدر سنتين، ثم توجه إلى الأندلس ثم رجع إلى تلمسان فأقام بها أربعة أعوام، ثم ارتحل في رجب سنة ثمانين إلى تونس فأقام بها من شعبانها إلى أن استأذن في الحج فأذن له فاجتاز البحر إلى إسكندرية، ثم قدم الديار المصرية في ذي القعدة سنة أربع وثمانين فحج ثم عاد إليها وتلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد إليه بل تصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة ولازم هو الطنبغا الجوباني فاعتنى به إلى أن قرره الظاهر برقوق في تدريس القمحية بمصر ثم قضاء المالكية بالديار المصرية في جمادى الآخرة سنة

---

(١) وظيفة يتولى صاحبها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة الردود عليها.

ست وثمانين فتنكر للناس بحيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع اعتذاره لمن عتبه عليه في الجملة، وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود وصار يعزر بالصفع ويسميه الزج فإذا غضب على إنسان قال زجوه فيُصفع حتى تحمر رقبته، ويقال إن أهل المغرب لما بلغهم ولايته القضاء تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفة: كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددناها بالضد من ذلك، وعزل ثم أعيد وتكرر له ذلك حتى مات قاضياً فجأة سنة ثمان[1] عن ست وسبعين سنة ودخل مع العسكر في أيام انفصاله من القضاء لقتال تيمور فقدر اجتماعه به وخادعه وخلص منه بعد أن أكرمه وزوده؛ وكذا حج قبل ذلك في سنة تسع وثمانين وهو أيضاً منفصل عن القضاء ولازمه كثيرون في بعض عزلاته فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم وتردد هو للأكابر وتواضع معهم ومع ذلك لم يغير زيه المغربيّ ولم يلبس بزي قضاة هذه البلاد لمحبته المخالفة في كل شيء، واستكثر في بعض مراته من النواب والعقاد والشهود عكس ما كان منه في أول ولاياته وكان ذلك أحد ما شنع عليه به، وطلب بعد انفصاله في المحرم سنة ثلاث وثمانمائة إلى الحاجب الكبير فأقامه للخصوم وأساء عليه القول وادعوا عليه بأمور كثيرة أكثرها لا حقيقة له وحصل عليه من الإهانة ما لا مزيد عليه. وقد ولي مشيخة البيبرسية وقتاً وكذا تدريس الفقه بقبة الصالح بالبيمارستان إلى أن مات وتدريس الحديث بالصَّرْغَتْمَشِيَّة ثم رغب عنه للزين التَفَهْنيّ.

(١) وقال المقريزيّ في وصف تاريخه: مقدمته[2] لم يعمل مثالها وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها إذ هي زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم، تُوقِف على كنه الأشياء وتُعرف حقيقة الحوادث والأنباء، وتعبر عن حال الوجود وتنبيء عن أصل كل موجود، بلفظ أبهى

---

(١) يعني سنة ٨٠٨.

(٢) أي مقدمة كتابه في التاريخ والمشهورة بمقدمة ابن خلدون والتي عُدّت من أوائل ما كتب في علم الاجتماع.

من الدر النظيم وألطف من الماء مر به النسيم، قال شيخنا: وما وصفها به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية مسلم فيه وأما ما أطراه به زيادة على ذلك فليس الأمر كما قال إلا في بعضٍ دون بعض غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى ترى حسناً ما ليس بحسن.

قال: وقد كان شيخنا الحافظ أبو الحسن يعنى الهيثميّ يبالغ في الغض منه فلما سألته عن سبب ذلك ذكر لي أنه بلغه أنه ذكر الحسين بن عليّ رضي الله عنهما في تاريخه فقال: قتل بسيف جده[1]، ولما نطق شيخنا بهذه اللفظة أردفها بلعن ابن خلدون وسبه وهو يبكي.

قال شيخنا في «رفع الإصر»[2] ولم توجد هذه الكلمة في التاريخ الموجود الآن وكأنه كان ذكرها في النسخة التي رجع عنها.

والعجب أن صاحبنا المقريزيّ كان يفرط في تعظيم ابن خلدون لكونه كان يجزم بصحة نسب بني عبيد ـ الذين كانوا خلفاء بمصر وشهروا بالفاطميين ـ إلى علي ويخالف غيره في ذلك ويدفع ما نقل عن الأئمة من الطعن في نسبهم ويقول إنما كتبوا ذلك المحضر مراعاة للخليفة العباسيّ، وكان صاحبنا[3] ينتمي إلى الفاطميين فأحب ابن خلدون لكونه أثبت نسبهم وغفل عن مراد ابن خلدون فإنه كان لانحرافه عن آل علي يثبت نسب الفاطميين إليهم لما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين وكون بعضهم نسب إلى الزندقة وادعى الإلهية كالحاكم وبعضهم في الغاية من التعصب لمذهب الرفض حتى قتل في زمانهم جمع من أهل السنة، وكان يُصرَّح بسبِّ الصحابة في جوامعهم ومجامعهم فإذا كانوا بهذه المثابة وصح أنهم من آل عليٍّ حقيقة التصق بآل علي العيب، وكان ذلك من أسباب النفرة عنهم[4].

---

(١) أي بسيف الشرع بسبب خروجه على بني أمية.

(٢) «رفع الإصر عن قضاة مصر».

(٣) أي المقريزيّ.

(٤) ما ذكره السخاوي عن ابن خلدون يحتاج إلى دليل، والله أعلم.

(١) وقال في «إنبائه» إنه صنف التاريخ الكبير في سبع مجلدات ضخمة ظهرت فيه فضائله وأبان فيه عن براعته ولم يكن مطلعاً على الأخبار على جليتها لا سيما أخبار المشرق وهو بَيِّن لمن نظر في كلامه، قال: وكان لا يتزيا بزي القضاة بل هو مستمر على طريقته في بلاده. وقال في معجمه: اجتمعت به مراراً وسمعت من فوائده ومن تصانيفه خصوصاً في التاريخ، وكان لَسِناً فصيحاً بليغاً حسن الترسُّل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة؛ وكتب لي في استدعاء: أجزت لهؤلاء السادة والعلماء القادة أهل الفضل والإجادة جميع ما سألوه من الإجازة، وكذا أثنى عليه الحافظ الأفقهسي في معجم الجمال بن ظهيرة وهما ممن أخذ عنه وساق له شعراً وقال إنه باشر القضاء بحرمة وافرة، وقال العيني: كان فاضلاً صاحب أخبار ونوادر ومحاضرة حسنة، وله تاريخ مليح وكان يتهم بأمور قبيحة قال شيخنا: كذا قال.

(٢) وترجمه ابن عمار أحد من أخذ عنه بقوله: الأستاذ المنوه بلسان سيف المحاضرة، وسحبان[1] أدب المحاضرة، كان يسلك في إقرائه الأصول مسلك الأقدمين كالإمام الغزاليّ والفخر الرازيّ مع الغض والإنكار على الطريقة المتأخرة التي أحدثها طلبة العجم ومن تبعهم في توغل المشاحة اللفظية والتسلسل في الحدية والرسمية اللذْين أثارهما العضُد وأتباعه في الحواشي عليه وينهر الناقل غضون إقرائه عن شيء من هذه الكتب مستنداً إلى أن طريقة الأقدمين من العرب والعجم وكتبهم في هذا الفن على خلاف ذلك وأن اختصار الكتب في كل فن والتعبد بالألفاظ على طريقة العضد وغيره من محدثات المتأخرين والعِلم وراء ذلك كله؛ وكان كثيراً ما يرتاح في النقول لفن أصول الفقه خصوصاً عن الحنفية كالبزدويّ والخبازيّ وصاحب المنار ويقدم البديع لابن الساعاتيّ على مختصر ابن

---

(١) نسبة إلى سحبان وائل؛ أحد المشهورين بالفصاحة.

الحاجب قائلاً: إنه أقعد وأعرف بالفن منه وزاعماً أن ابن الحاجب لم يأخذه عن شيخ وإنما أخذه بالقول، قال: وهذا فيه نظر.

(١) وله من المؤلفات غير الإنشاءات النثرية والشعرية التي هي كالسحر التاريخ العظيم والمترجم بالعبر في تاريخ الملوك والأمم والبربر، حوت مقدمته جميع العلوم وجلت عن محجتها ألسنة الفصحاء فلا تروح ولا تحوم ولعمري إن هو إلا من المصنفات التي سارت ألقابها بخلاف مضمونها كـ «الأغاني» للأصبهاني سماه الأغاني وفيه من كل شيء، و «التاريخ» للخطيب سماه تاريخ بغداد وهو تاريخ العالم، و «حلية الأولياء» لأبي نعيم سماه حلية الأولياء وفيه أشياء جمة كثيرة، وكان الإمام أبو عثمان الصابونيّ يقول: كل بيت فيه «الحلية» لا يدخله الشيطان[١].

الأبناسيّ

عبدالرحمن بن إبراهيم بن حجاج الأبناسيّ القاهريّ الشافعيّ، ولد سنة تسع وعشرين وثمانمائة بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن والعمدة والمنهاج الفرعي وألفية النحو والبعض من غيرها، وعرض على شيخنا، فلما ترعرع أقبل على الاشتغال.

(٢) صحب الزين مدين ثم ابن أخته بل كان هو القارىء لتائية ابن الفارض على أبي الصفا بن أبي الوفا، وبسبب ذلك كانت كائنة انجر فيها الكلام إلى ابن عربيّ ونحوه من الاتحادية بان فيها المزلزل من المكين كما شرحته في محله؛ ودأب في الفنون حتى تقدم وصار أحد الأماثل، وتصدى للإقراء فأخذ عنه الفضلاء، ولزم الانجماع بمنزلة مع التقلل والكرم والإعراض من مزاحمة الفقهاء وتقنع برُزَيْقات من قبل ولده.

(٣) كل ذلك مع صحة العقيدة ولكنّ مشيه في الخوض في تقرير

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٤٥/٤ ـ ١٤٩.

كلام هؤلاء وإخراجه عن ظاهره ببعيد التأويل إلى أن صار مرجعاً لهذه الطائفة ومحط رحال كثير منهم[1]، وكنت ممن نصحه مرة بعد أخرى فما أفاد مع اعترافه لي بتحريم توالي ارتكاب الألفاظ التي ظاهرها مستقبح. وله حواش وتقاييد مفيدة وكلام على حديث الأعمال بالنيات بل ربما نظم وبالنثر ألمّ؛ وبالجملة فمادته في التحقيق متوجهة وفاهمته أجود من حافظته وعبارته غير مطلقة بتقريره ومحادثته، مع رغبته في مساعدة من يقصده وتعبه بسبب ذلك، وشدة تعصب وكثرة تقلب يؤدي إليه غلبة سلامة الفطرة. وقد أقبل على الذكر والتوجه ومطالعة كلام القوم وزيارة الصالحين وانتمى إليه شخص ينسب للشرف من أعيان بلقس فارتفق به كثيراً، وحج في سنة خمس وثمانين.

(١) كان متزوجاً بحفيدة للبساطيّ ودامت معه دهراً وهي صابرة زائدة الطواعية له ثم صارت تتخيل وتتوهم اتصاله بغيرها من غير حقيقة لذلك بحيث كثر تضرره من إفحاشها في العشرة معه وتكرر طلاقه لها ثم تعُود حتى ماتت بعد حجها معه ولم يُنصَف في تركتها من جهة أخويها لعدم مشاحته ومزيد مسامحته بل ما حصل له كبير أمر مع كثرته بالنسبة إليه، وعقد على ابنة ابن الشيخ الجوهري أحد من أسند وصيته إليه وكان قديماً زوج أمه فما قدر الدخول عليها فإنه لم يلبث أن تعلل مُدَيْدة وتجرّع في غضونها فاقة مع عدم وجود من يلائمه في التمريض والعلاج حتى مات شهيداً بالإسهال سنة إحدى وتسعين وصلى عليه من الغد في مشهد حافل جداً ظاهر باب الشعرية ثم دفن عند أبيه.

وسمعت أن آخر كلامه كان لا إله إلا الله بعزم شديد مع أنه أقام أياماً لا يتكلم.

(٢) ونعم الرجل كان لولا ميله المشار إليه الذي تطرق بسببه إليه

---

(١) في الأصل كلام غير مفهوم حاصله أنه نسب لتلك الطائفة الاتحادية بسبب ما ذكر.

الفساق الحساد ممن هو مرتكب مالا خير في شرحه، رحمه الله تعالى وإيانا وعفا عنه[1].

الحافظ العراقي

(١) عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن الزين أبو الفضل الكرديّ الرازانيّ الأصل المهرانيّ المصريّ الشافعيّ، ويُعرف بالعراقيّ، قال ولده: انتساباً لعراق العرب وهو القطر الأعم وإلا فهو كرديّ الأصل؛ أقام سلفه ببلدة من أعمال إربل يقال لها رازان ولهم هناك مآثر ومناقب إلى أن تحول والده لمصر فاختص بالشيخ الشريف تقيّ الدين محمد بن جعفر القناويّ الشافعيّ ولازم خدمته ورزقه الله قرينة صالحة عابدة صابرة قانعة مجتهدة في أنواع القربات فولدت له صاحب الترجمة بعد أن بشره المشار إليه به وأمره بتسميته باسم جده الأعلى أحد المعتقَدين بمصر، وذلك سنة خمس وعشرين وسبعمائة بالمنشية المذكورة، وتكرر إحضار أبيه إلى التقي فكان يلاطفه ويكرمه وعادت بركته عليه.

(٢) حفظ القرآن وهو ابن ثمان والتنبيه وأكثر الحاوي وكان رام حفظَ جميعه في شهر فمل بعد اثني عشر يوماً وعد ذلك في كرامات البرهان الرشيديّ فإنه لما استشاره فيه قال: إنه غير ممكن، فقال: لا بد لي منه فقال: افعل ما بدا لك ولكنك لا تتمه.

(٣) وكذا حفظ «الإلمام» لابن دقيق العيد وكان ربما حفظ منه في اليوم أربعمائة سطر إلى غير ذلك من المحافيظ، ولازم الشيوخ فكان أول شيء اشتغل به القراءات ومع ذلك فلم يتيسر له إكمال القراءات السبعة إلا على التقي الواسطيّ في إحدى مجاوراته بمكة؛ ونظر في الفقه وأصوله وتقدم فيهما بحيث كان الإسنويّ يثني على فهمه ويستحسن كلامه في الأصول ويصغي لمباحثه فيه ويقول إن ذهنه صحيح لا يقبل الخطأ.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٤/١٦٤ - ١٦٦.

(١) وفي أثناء ذلك أقبل على علم الحديث بإشارة العز بن جماعة فإنه قال له وقد رآه متوغلاً في القراءات: إنه علم كثير التعب قليل الجدوى وأنت متوقد الذهن فاصرف همتك إلى الحديث.

(٢) مكث من رحلته إلى الشام سنة أربع وخمسين لم تخل له سنة غالبا من الرحلة إما في الحديث أو الحج. قال شيخنا في معجمه: اشتغل بالعلوم وأحب الحديث ـ وكان وقد لهج بتخريج أحاديث الإحياء وله من العمر نحو العشرين ـ وأكب عليه من سنة اثنتين وخمسين حتى غلب عليه وتوغل فيه بحيث صار لا يعرف إلا به وانصرفت أوقاته فيه وتقدم فيه بحيث كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة كالسبكيّ والعلائيّ وابن جماعة وابن كثير وغيرهم وصرّح ابن كثير باستفادته منه بل امتنع السبكي حين قدومه القاهرة سنة وفاته من التحديث إلا بحضرته؛ وقال العز بن جماعة: كل من يدعي الحديث بالديار المصرية سواه فهو مدع، وتصدى للتخريج والتصنيف والتدريس والإفادة فكان من تخاريجه تخريج الإحياء في كبير ومتوسط وصغير وهو المتداول سماه: «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار»، ومن تصانيفه الألفية في علوم الحديث، وفي السيرة النبوية، وفي غريب القرآن، وفي الفقه: «الاستعاذة بالواحد من إقامة جمعتين في مكان واحد»، وتاريخ تحريم الربا، وتكملة شرح المهذّب للنووي بنى على كتابة شيخه السبكي إلى غير ذلك، وحج مراراً وجاور بالحرمين وحدث فيهما بالكثير، ووَلِيَ قضاء المدينة النبوية وخطابتها وإمامتها سنة ثمان وثمانين ثم صرف الزين عن القضاء بعد مضي ثلاث سنين وخمسة أشهر وشرع في الإملاء بالقاهرة من سنة خمس وتسعين فأملى أربعمائة مجلس وستة عشر مجلساً.

وآخر ما أملاه كان في صفر سنة ست وثمانمائة لما توقف النيل ووقع الغلاء المفرط وختم المجلس بقصيدة أولها:

أقول لمن يشكو توقف نيلنا ... سل الله يمدده بفضل وتأييد

ويقول في آخرها:

وأنت فغفار الذنوب وساتر ال　　عيوب وكشاف الكروب إذا نُودي

وصلى بالناس صلاة الاستسقاء وخطب خطبة بليغة فرأوا البركة بعد ذلك من كثرة الشيء ووجوده مع غلائه ومع تمشية أحوال الباعة بعد اشتداد الأمر جداً، وجاء النيل في تلك السنة عالياً بحمد الله تعالى.

(١) قال شيخنا في معجمه: وكان يمليها من حفظه متقنة مهذبة محررة كثيرة الفوائد الحديثية.

(٢) وحكى رفيقه الحافظ الهيثميّ أنه رأى النبيّ ﷺ في النوم وعيسى عليه السلام عن يمينه وصاحب الترجمة عن يساره.

(٣) قال شيخنا: وكان منور الشيبة، جميل الصورة، كثير الوقار، نزر الكلام، طارحاً للتكلف، ضيق العيش، شديد التوقي في الطهارة، لا يعتمد إلا على نفسه أو على الهيثميّ المشار إليه ـ وكان رفيقه وصهره ـ لطيف المزاج سليم الصدر كثير الحياء قَلّ أن يواجه أحداً بما يكرهه ولو آذاه، متواضعاً منجمعاً، حسن النادرة والفكاهة، قال: وقد لازمته مدة فلم أره ترك قيام الليل بل صار له كالمألوف. وإذا صلى الصبح استمر غالباً في مجلسه مستقبل القبلة تالياً ذاكراً إلى أن تطلع الشمس، ويتطوع بصيام ثلاثة أيام من كل شهر وستة شوال، كثير التلاوة إذا ركب.

قال: وقد أنجب ولده الولي أحمد ورزق السعادة في رفيقه الهيثميّ. قال: وليس العيان في ذلك كالخبر، وقال في صدر أسئلة له: سألت سيدنا وقدوتنا ومعلمنا ومفيدنا ومخرجنا شيخ الإسلام أوحد الأعلام حسنة الأيام حافظ الوقت فلاناً، وفي «انبائه» أنه صار المنظور إليه في هذا الفن قال: ولم نر في هذا الفن أتقن منه وعليه تخريج غالب أهل عصره ومن أخصهم به شيخنا صهره الهيثمي وهو الذي دربه وعلمه كيفية التخريج والتصنيف بل كان هو الذي يعمل له خطب كتبه ويسميها له وصار الهيثمي لشدة ممارسته

أكثر استحضاراً للمتون من شيخه حتى يظن من لا خبرة له أنه أحفظ منه وليس كذلك.

قال: وقد لازمته عشر سنين سوى ما تخللها من الرحلات. وكذا لازمه البرهان الحلبيّ نحواً من عشر سنين وقال أيضاً: لم أر أعلم بصناعة الحديث منه وبه تخرجت.

(١) وقد أخبرني أنه عمل تخريج أحاديث البيضاويّ بين الظهر والعصر.

(٢) وكان كثير الحياء والعلم والتواضع، محافظاً على الطهارة، نقي العرض، وافر الجلالة والمهابة على طريق السلف، غالب أوقاته في تصنيف أو إسماع مع الدين والأوراد وإدامة الصوم وقيام الليل، كريم الأخلاق حسن الأدب والشكل ظاهر الوضاءة كأن وجهه مصباح ومن رآه عرف أنه رجل صالح.

قال: وكان عالماً بالنحو واللغة والغريب والقراءات والحديث والفقه وأصوله غير أنه غلب عليه فن الحديث فاشتهر به وانفرد بالمعرفة فيه مع العلو؛ قال وذهنه في غاية الصحة ونقلُه نقرٌ من حجر. قال: وكان كثير الكتب والأجزاء، لم أر عند أحد بالقاهرة أكثر من كتبه وأجزائه، قال: وله نظم وسط وقصائد حسان ومحاسنه كثيرة.

وقال ابن قاضي شهبة: وذُكِر لنا أنه كان معتدل القامة إلى الطول أقرب، كث اللحية، يصدع بكلامه أرباب الشوكة لا يهاب سلطاناً فضلاً عن غيره.

وكان للأمراء في أواخر ذاك القرن اعتناء بالعلماء فكان لكل أمير عالم بالحديث يُسمِع الناس ويدعو الناس للسماع فاتفق أن الجلال عبيد الله الأردبيليّ والد البدر بن عبيدالله أحد مشاهير الحنفية كان ممن يتردد

لنوروز(١) بسبب إسماع الحديث عنده فقيل له إن شيخ الحديث هو العراقيّ فاستدعى به فلما حضر قال: عبيد الله مرسومكم قد حصل الاستغناء، فقال: بل كونا معاً والظاهر أن العراقيّ ترك المجيء من ثَمّ فإن أميره كان إما أيتمش صاحب المدرسة التي بباب الوزير أو يشبك الناصريّ الكبير.

مات سنة ست وثمانمائة بالقاهرة وكانت جنازته مشهورة، ومات وله إحدى وثمانون سنة وربع سنة.

(١) ومن نظمه:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بمصر ففيها من أحب نزول

وهل أرِدَنْ يوماً موارد نيلها ... وهل يَبْدُوَنْ لي روضة ونخيل

(٢) وقوله في العشرة المشهود لهم بالجنة:

وأفضل أصحاب النبي مكانة ... ومنزلة من بشروا بجنان

سعيد زبير سعد عثمان عامر ... علي بن عوف طلحة العمران

قال المقريزيّ في عقوده بعد أن ترجمه أنه كان للدنيا به بهجة ولمصر به مفخر وللناس به أنس ولهم منه فوائد جمة(٢).

القَيْلويّ

عبد السلام بن عبد المنعم الحسينيّ القَيْلَويّ الأصل نسبة لقرية ببغداد يقال لها قَيْلَوَيْه كنَفْطَوَيْه، البغداديّ ثم القاهريّ الحنبليّ ثم الحنفيّ. ولد تقريباً بعد السبعين وسبعمائة بالجانب الشرقيّ من بغداد، ونشأ بها فقرأ القرآن لعاصم وحفظ كتباً جمة في فنون كثيرة وبحث في غالب العلوم على مشايخ بغداد والعجم والروم حتى أنه بحث في مذهبي الشافعي وأحمد وبرع فيهما وصار يُقرىء في كتبهما، ولازم الرحلة في العلم إلى أن صار

---

(١) من أمراء المماليك.

(٢) «الضوء اللامع»: ٤/١٧١ - ١٧٨.

أحد أركانه، وأدمن الاشتغال والإشغال بحيث بقِي أوحد زمانه، وارتحل إلى تبريز، ثم إلى أرزنجان من بلاد الروم ثم عاد من بلاد الروم بعد أن جال الآفاق، وأسِر مع اللنك[1] وقاسى شدة بحيث كانوا يقطعون الرءوس ويحملونه إياها إلى البلاد الشامية فلقي بحلب من شاء الله من العلماء، وناظر في الشام الجمال الطيماني واجتمع في القدس بالشهاب بن الهائم فعظمه كثيراً وزار إذ ذاك الخليل عليه السلام وبعدُ القاهرة بعد هذا كله في مستهل رجب منها؛ وقد أشير إليه في الصرف والنحو والمعاني والبيان والمنطق والجدل وآداب البحث والأصلين والطب والعروض والفقه والتفسير والقراءات والتصوف وغيرها فنزل بالجمالية وأقبل الناس عليه فأخذوا عنه.

(١) وصار غالب فضلاء الديار المصرية من تلامذته كل ذلك مع الخير والديانة والأمانة والزهد والعفة وحب الخمول، والتقشف في مسكنه وملبسه ومأكله، والانعزال عن بني الدنيا والشهامة عليهم، وعدم مداهنتهم، والتواضع مع الفقراء، والفتوة والإطعام وكرم النفس والرياضة الزائدة، والصبر على الاشتغال، واحتمال جفاء الطلبة والتصدي لهم طول النهار، والتقنع بزراعات يزرعها في الأرياف ومقاساة أمر المزارعين وأتعابهم، والإكثار من تأمل معاني كتاب الله عز وجل وتدبره مع كونه لم يستظهر جميعه ويعتذر عن ذلك بكونه لا يحب قراءته بدون تأمل وتدبر، والمحاسنِ الجمة بحيث سمعت عن بعض علماء العصر أنه قال لم نعلم قدم مصر في هذه الأزمان مثله ولقد تجملت هي وأهلها به.

(٢) ويلغني أنه كان ربما جاءه الصغير لتصحيح لوحه ونحوه من الفقراء المبتدئين لقراءة درسه وعنده من يقرأ من الرؤساء فيأمرهم بقطع قراءتهم حتى ينتهي تصحيح ذاك الصغير أو قراءة ذاك الفقير لدرسه ويقول أرجو بذلك القربة وترغيبهم وأن أندرج في الربانيين[2].

---

(١) هم المغول.

(٢) أي الذين يُعَلِّمون صِغار العلم قبل كباره.

ولم يحصل له إنصاف من رؤساء الزمان في أمر الدنيا ولا أعطي وظيفة مناسبة لِعَلِيِّ مقامه.

(١) وكان فصيح اللسان مفوهاً طلق العبارة، قويَّ الحافظة، سريع النظم جداً ولذلك فيه ما لا يناسب مقامه خصوصاً وهو لم يعطه كليته مع إكثاره منه، لا يهاب كبير أحد.

(٢) واعتذر عن عدم الإكثار من التصانيف والتصدي لها بأنه ليس من عدة الموت لعدم الإخلاص فيه أو كما قال.

ولم يزل على طريقته متصدياً لنشر العلم حتى مات سنة تسع وخمسين، ولم يخلف بعده في مجموعه مثله، رحمه الله وإيانا[١].

الحفصيّ

عبدالعزيز بن أحمد بن محمد أبو فارس الهنتاتي الحفصيّ ملك المغرب وصاحب تونس. قال شيخنا في «انبائه»: قرأت بخط صاحبنا أبي عبدالله محمد بن عبدالحق التونسيّ فيما كتب من سيرته أنه بلغه أنّه كان لا ينام من الليل إلا قليلاً بل حزر بقدر أربع ساعات لا تزيد قطّ وربما نقصت، وأنه ليس له شغل سوى النظر في مصالح ملكه، وأنه كان يؤذن بنفسه ويؤم بالناس في الجماعة ويكثر من الذكر ويقرب أهل الخير، وأنه أبطل كثيراً من التركات والمفاسد بتونس كالعيالة وهو مكان يباع فيه الخمر للفِرَنج يتحصل منه شيء كثير في السنة ولأكثر الجيش عليه رواتب وعوضهم عنه، وكذا المُكوس[٢] بحيث لم يكن ببلاده كلها شيء منها.

شُكِيَ إليه قلة القمح بالسوق فدعا تجاره فعرض عليهم قمحاً من عنده وقال أريد بيعه بدينار ونصف فاسترخصوه فأمر ببيعه بذلك السعر وأن لا يشترى من غيره بأزيد فاحتاجوا لبيع ما عندهم كذلك فترك هو حينئذ

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٩٨/٤ - ٢٠٣.

(٢) أي: الضرائب.

البيع فبلغه أنهم زادوا قليلاً فأمر ببيع ما عنده بدينار فقط وتقدم إلى خازنه أنه إن وجد القمح في السوق لا يبيع شيئاً وإلا باع بدينار فاضطربوا إلى أن مشى الحال فكانت من أحسن الحِيَل في تمشية حال الناس.

كان محافظاً على عمارة الطرقات بحيث أمنت القوافل في أيامه بجميع بلاده.

(١) حضر محاكمة مع منازع له في بستان إلى القاضي فحكم عليه فقبل الحكم وأنصف الغريم.

كان يبالغ في أخذ الزكاة والعشر، وإذا مر في السوق يسلم، ولا يلبس الحرير ولا يجلس عليه ولا يتختم بالذهب إلى غير ذلك من المحاسن، وكانت صدقاته إلى الحرمين بل وإلى جماعة من العلماء والصلحاء بالقاهرة وغيرها مستمرة فأرسل يستدعي نسخة من فتح الباري لشيخنا فجُهِّز له ما كمل وهو قدر الثلثين منه.

وما سافر قط مع كثرة أسفاره إلا قدم بين يديه صدقات امتثالاً لقوله [تعالى]: ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات﴾[١] وكذلك إذا عاد.

ولهذه الأوصاف الشريفة كتب إليه ابن عرفة مرة: والله ما أعلم يوماً يمر علي ولا ليلة إلا وأنا داع لكم بخيري الدنيا والآخرة فإنكم عماد الدين ونصرة المسكين انتهى. وقد استجاز له ولأولاده شيخنا الزين رضوان وغيره جمعاً من الأعيان وخرج له أربعين حديثاً عنهم بالإجازة مكافأة له على إفضاله وترغيباً له في مزيد إقباله.

مات سنة سبع وثلاثين عن ست وسبعين سنة بعد أن خُطب له بفاس وتلمسان وما والاهما من المدن والقرى إحدى وأربعين سنة وثلث سنة فأزيد.

---

(١) المجادلة: ١٣.

قال المقريزيّ: وكان خير ملوك زمانه صيانة وديانة وجوداً وإفضالاً وعزماً وحزماً وحسن سياسة وجميل طريقة، وأطال ترجمته جداً في عقوده وختمها بقوله ومناقبه كثيرة وفضائله شهيرة ولقد فجع الإسلام وأهله بموته والله يرحمه ويتجاوز عنه[1].

المتوكل على الله

عبدالعزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله، العز الهاشميّ العباسيّ.

سلك طريقة حسنة في محبة الفقراء والعلماء وزيارتهم والتأدب معهم والموافاة لمن يقصده حتى أحبه الخاص والعام لمزيد تواضعه وحسن سمته وبشاشته لكل أحد.

وسمع الحديث على جماعة، وما تهيأ له الحج كجل أسلافه.

بويع بالخلافة بعد موت عمه المستنجد بالله سنة أربع وثمانين.

وكان كلمة اتفاق لم يختلف في جلالته وارتفاع مكانته، ولزم طريقته في تقريب أهل الصلاح والفضل وقرىء عنده الحديث في رمضان وغيره فكان يجتمع عنده من شاء الله من أصحابه وغيرهم وربما واسى بعضهم بل تردد إليه بعضهم للإقراء في العربية وأصول الدين وغير ذلك وسمع علي في مجلسه مصنفي المسمى «عمدة الناس في مناقب العباس» وبالغ في التأدب معي جرياً على عوائده حيث لقبني بشيخنا أمير المؤمنين.

ومع جلالته عُورض في رزقة جارية تحت نظره، بل اختلق عليه العَلَم سليمان الخليفتي ما كان سبباً للقول له حين إظهار التخلي عن المملكة: ولِّ الآن من شئت ونحو ذلك فحجر عليه وأضيفت جهاته حتى المشهد النفيسيّ لمن رتب له في كل يوم ما زاد التضييق عليه بالاقتصار

---

(١) «الضوء اللامع»: ٤/٢١٤ - ٢١٥.

عليه، وصار بمنزله وحيداً فريداً هذا بعد أن عورض فيما جهز إليه من ملوك الهند ونحوه[1].

جمال الدين الخزرجيّ

عبدالعليم بن عبد الله بن علي الفقيه المقرىء المحقق المجود جمال الدين الخزرجيّ الأنصاريّ اليمانيّ. حفظ القرآن والحاوي والشاطبيتين، وتلا للسبع إفراداً وجمعاً وللعشر على ابن الجزريّ ونبهه على إغفال لفظة «دري» في سورة النور حيث قال في النشر: إن خلفاً لم يخرج عن قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر إلا في موضعين وهما ﴿وحرام على قرية أهلكناها﴾[2] والثاني السكت بين السورتين على ما ذكر أبو العز القلانسيّ فاستدرك صاحب الترجمة لفظة «دري» فإن خلفاً خالف في الثلاثة المذكورين ووقف عليه المؤلف فأمر به واستحسنه[3].

ابن أبي الفرج

عبد الغني بن عبد الرزاق بن أبي الفرج بن نقولا فخر الدين بن الوزير تاج الدين الأرمنيّ الأصل ويعرف بابن أبي الفرج. قال شيخنا في «أنبائه»: كان جده من نصارى الأرمن ويصحب ابن نقولا الكاتب فنسب إليه فلهذا كان يُقال له أبو الفرج بن نقولا وهو اسم جده حقيقة، وفي الجملة أبو الفرج أول من أسلم من آبائه ونشأ ولده عبد الرزاق مسلماً ثم دخل بلاد الفِرَنج ويُقال إنه رجع إلى النصرانية ثم قدم واستقر صيرفياً بقَطْيا[4] ووَلِيَ نظرهاثم إمرتها، ثم تنقلت به الأحوال بحيث وَلِيَ الوزارة، وولد ابنه هذا في سنة أربع وثمانين وسبعمائة فتعلم الكتابة والحساب وولى قَطْيا في رأس

---

(١) «الضوء اللامع»: ٤/٢٣٦ - ٢٣٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٥.

(٣) «الضوء اللامع»: ٤/٢٤١.

(٤) قرية في مصر. انظر «معجم البلدان»: ٤/٣٧٨.

القرن سنة إحدى حين كان أبوه وزيراً ثم صرف بصرفه وأعيد إليها بعد ذلك مراراً، ثم ولاه جمال الاستادار كشف الشرقية سنة إحدى عشر فوضع السيف في العرب وأسرف في سفك الدماء وأخذ الأموال فلما قُبِض على مخدومه واستقر ابن الهيصم في الاستادارية عِوَضَه بذل الفخر أربعين ألف دينار واستقر في ربيع الآخر سنة أربع عشرة مكانه ولم يلبث أن صرف في ذي الحجة منها بعد أن سار سيرة عجيبة من كثرة الظلم وأخذ الأموال بغير شبهة أصلاً والاستيلاء على حواصل الناس بغير تأويل ففرح الناس بعزله وعوقب فتجلد حتى رق له أعداؤه ثم أطلق وأعيد إلى ولاية قَطْيا، ثم لما وَلِيَ المؤيد استقر به في كشف الوجه البحري، ثمّ في جمادى الأولى سنة ست عشرة في الاستادارية فجادت أحواله وصلحت سيرته وأظهر أن الحامل له على تلك السيرة إنما هو الناصر ومع ذلك أسرف في أخذ الأموال من أهل القرى، ووَلِيَ كشف الصعيد فعاد ومعه من الخيول والإبل والبقر والغنم والأموال ما يُدهش كثرة، ثم توجه إلى الوجه البحري ففرض على كل بلد وقرية مالاً سماه ضيافة بحيث اجتمع له من ذلك في مدة يسيرة مالاً جزيلاً، ثم توجه لملاقاة المؤيد لما رجع من وقعة نيروز فبلغه أن المؤيد سمع بسوء سيرته وأنه عزم على القبض عليه ففر إلى بغداد وأقام عند قرا يوسف قليلاً فلم تطب له البلاد فعاد وترامى على خواص المؤيد فأمنه وأعاده إلى كشف الوجه البحريّ، ثم في سنة تسع عشرة إلى الاستادارية فحمل في تلك السنة مائة ألف دينار، وتوجه في شوالها لحرب أهل البحيرة ومعه عدة أمراء كانوا من تحت أمره فوصل إلى حد برقة ورجع بنهب كثير جداً، ثم لما مات تقي الدين بن أبي شاكر أضيفت إليه الوزارة في صفر سنة إحدى وعشرين فباشرها بعنف وقطع رواتب الناس وصار في كل قليل يصادر الكتاب والعمال، وبالغ في تحصيل المال وإحرازه فكان كل قليل يحمل من ذلك للمؤيد مالاً فيجل في عينه ويشكره في غيبته مع لين جانبه للناس وتودده لهم، ثم توجه للوجه البحريّ لأخذ ما سماه الضيافة على العادة ولاقى السلطان لما رجع من الشام بأموال عظيمة، ثم توجه للصعيد

وأوقع بأهل الأشمونين ورجع بأموال كثيرة جداً، ثم استعفى عن الوزارة في شوال سنة عشرين فاستقر فيها أرغون شاه؛ ثم مرض فعاده السلطان فقدم له خمسة آلاف دينار فأضاف إليه نظر الأشراف، ثم توجه للوجه القبليّ فأوقع بالعرب وجمع مالاً كثيراً جداً ثم أصابه الوعك في رمضان واستمر حتى مات في نصف شوال سنة إحدى وعشرين عن سبع وثلاثين سنة ودُفن بمدرسته التي أنشأها بين السورين ظاهر القاهرة واشتد أسف السلطان عليه وصولح عن تركته بمائتي ألف مثقال، وكان عارفاً بجمع الأموال شهماً شجاعاً ثابت الجأش قويّ الجنان ساد في أخر عمره وجاد سوى ما اعتاده من نهب الأموال بحيث جمع منها في ثلاث سنين ما لا يجمعه غيره في ثلاثين سنة. قال المقريزيّ: كان جباراً قاسياً شديداً جلداً عبوساً بعيداً عن الإسلام، قتل من عباد الله من لا يحصى وخرب إقليم مصر بكماله وأفقر أهله ظلماً وعتواً وفساداً في الأرض ليرضي سلطانه فأخذه الله أخذاً وبيلاً، وطول ترجمته في عقوده؛ زاد غيره أنه لا يستكثر عليه ما كان يفعله لأنه من بيت ظلم وعسف وعنده جبروت الأرمن ودهاء النصارى وشيطنة الأقباط وظلم المَكَسَة[1] لأن أصله من الأرمن وربي مع اليهود وتدرب بالأقباط ونشأ مع المَكَسَة بقَطْيا ولذا اجتمع فيه ما تفرق في غيره.

(١) واستفيض أنه لما دُفن سمعه جماعة يصيح في قبره[2].

ابن الفاخوريّ

عبد القادر بن محمد بن سعيد محي الدين الحسينيّ سكناً الشافعيّ ويعرف بابن الفاخوريّ وهي حرفة أبيه. ولد سنة ثلاثين وثمانمائة تقريباً بالحسينية، ونشأ بها فحفظ القرآن والعمدة والتنبيه وجمع الجوامع وألفية النحو والحديث «والتلخيص» وعرض على جماعة، وبرع في فنون، وأتقن

---

(١) أي: الذين يجمعون المكوس وهي: الضرائب.

(٢) «الضوء اللامع»: ٤/٢٤٨ - ٢٥١.

كتبه حفظاً ومعنى بل ناب في القضاء عن ابن البلقيني، وازدحمت عنده الأشغال وتمول واشترى بيت البدر حسن الأميوطيّ، وأقرأ بعض الطلبة وجمع محاسن ولكنه لم يكن متصوِّناً.

(١) ناكد العز بن عبدالسلام جاره وشافهه بالمكروه فيُقال إنه دعا عليه فلم يلبث أن ابتلي بالجذام ولا زال يتزايد إلى أن استحكم منه سيما بعد موت الشهاب بن بطيخ أحد الأطباء مع كثرة ما كان يلازمه من التهكم والازدراء والتهتك، وبلغني أنه بالغ في التخضع للعز والتمس منه العفو رجاء العافية فما قُدِّرت، ولم يترك بعد ابتلائه الاشتغال بالعلم ولا التردد إلى المشايخ وكنت أتألم له سيما حين قال لي عند موادعته لي وأنا متوجه لمكة: تمنيت أن يذهب مني كل شيء وأكون جالساً أستعطي تحت دكان ويذهب عني هذا العارض بحيث لما وصلت لمكة شربت ماء زمزم بقصد شفائه وعافيته فلم يلبث أن جاء الخبر بموته وأنه في حادي عشرى رجب سنة إحدى وسبعين، عفا الله عنه وعوضه خيراً[١].

ابن الحجازيّ

عبدالقادر بن محمد بن محمد محي الدين الأنصاريّ الحجازيّ الأصل القاهريّ نزيل درب القطبية ثم الشام ويعرف بابن الحجازيّ. ولد سنة تسع وثلاثين وثمانمائة فحفظ القرآن والعمدة والمنهاجين الفرعي والأصلي[٢] وألفية النحو وعرض على شيخنا وغيره، وتعانى الأدب ونظم ونثر وطارح وعمل مجموعاً بديعاً سماه «المنتهى في الأدب المشتهى» مع مشاركة في الفضائل والتخلق بالأخلاق الحسنة عِشرةً ولطفاً وأدباً وتواضعاً، وحج غير مرة وسافر الشام فقطنها. مات بدمشق بخلوته من زاوية الشيخ خليل القلعيّ سنة ثلاث وتسعين ولم يعلم بموته إلا بعد يوم أو يومين ولم يحصل له من

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢٨٩/٤.

(٢) كتب في الفقه الشافعيّ.

أهل دمشق إنصاف ولذا قال فيما كتب به من هناك لأخيه لأمه:

(١) دمشق غدا بها حالي عسيراً | وفيها ضاع مالي مع قماشي
وإسهالٌ ببطني مستمر | فحالي واقف والبطن ماش

(٢) وقال أيضاً:

قالوا دمشق نزهة لأنها | أعينها تسقى بها الجنان
قلت نعم عيونها كثيرة | لكنها ليس بها إنسان

(٣) وقال أيضاً:

قالوا دمشق لم يزل خريرها | يُسمع من أنهارها الجراره
فقلت مصر بعد خلجانها | تحكي لكم أنهارها الخراره

(٤) ومن نظمه:

إذا قيل في الأسفار خمس فوائد | أقول وخمس لا تُقاس بها بلوى
فتضييع أموال وحمل مشقة | وهم وأنكاد وفرقة من أهوى[1]

ابن السرّاج

عبداللطيف بن أحمد بن السرّاج الفويّ القاهريّ ثم الحلبيّ الشافعيّ.
ولد سنة أربعين وسبعمائة تقريباً؛ واشتغل بالفقه، وأخذ الفرائض عن صلاح الدين العلائي فمهر فيها وقرأ على البلقينيّ بحلب في فروع ابن الحداد؛ وكان قد قدمها ووَلِيَ بها قضاء العسكر ثم صرف وولي تدريس المدرسة الظاهرية خارج باب المقام ثم استقر له نصفها.

وكان فاضلاً في الفرائض مشاركاً في غيره مواظباً على الاشتغال ذا نظم كثير فمنه في مدح النحو والمنطق:

(٥) إن رمت إدراك العلوم بسرعة | فعليك بالنحو القويم ومنطق
هذا لميزان العقول مرجح | والنحو إصلاح اللسان بمنطق

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢٩٤/٤ ـ ٢٩٥.

ومنه في ذم المنطق:

(١) دع منطقاً فيه الفلاسفة الأولى ضلت عقولهم ببحر مفرق
واجنح إلى نحو البلاغة واعتبر إن البلاء موكل بالمنطق

ومنه:

أخفيت عشق حبيبي مظهراً جلداً فقال قولاً يحاكي الدر من فيه
إني سكنت شغاف القلب مبتدأ وصاحب البيت أدرى بالذي فيه

وله فيمن يحيض:

(٢) المرأة الخفاش ثم الأرنب للجاحظ انقل عنه مالا ينكر

وله نظم عدة مسائل للحاوي وتخميس البردة وغير ذلك.

مات وهو متوجه من حلب إلى القاهرة اغتيل خارج دمشق سنة إحدى وذهب دمه هدراً فلم يعرف قاتله رحمه الله[1].

ابن غانم المقدسيّ

عبداللطيف بن عبدالرحمن بن أحمد البدر السعديّ العباديّ الخزرجيّ الأنصاريّ المقدسيّ الشافعيّ الصوفيّ الرّحّال، ويعرف بابن بنانة وبابن غانم وهو أكثر، وربما نسب نفسه: الغانمي. ولد سنة ست وثمانين وسبعمائة بالقدس وقرأ به القرآن، وبحث النحو والصرف على أبيه وكذا بحث عليه في الفرائض والفقه والمعاني والبيان، وارتحل إلى المغرب في حدود سنة خمس عشرة وأقام هناك إلى أن حج في تونس سنة سبع عشرة ثم رجع إلى تلك البلاد وطوف بها ولقى مشايخ من أجلهم إبراهيم المسْراتيّ في مُسْراتا ـ قرية ببلاد طرابلس ـ وأطنب في وصف [صفات] علماء المغرب الجميلة من الدين والكرم والاوصاف الحسنة وكذّب الشائع بين الناس، ثم رجع إلى القدس بعد سنة عشرين فاجتمع بنور الدين الخافي وصحبه

---

(١) «الضوء اللامع»: ٤/٣٢٤ ـ ٣٢٥.

وسلك على يده ورحل معه إلى بلاد الشرق ولازمه ثلاث سنين وطوف ما بين هراة وهذه البلاد؛ واجتمع في تلك البلاد بأكابر العلماء منهم بهراة الجمال الواعظ والجلال القابنيّ وولد سعد الدين التفتازاني، ثم عاد إلى القدس فأقام به مدة.

(١) ثم رحل إلى الروم فأقام به ثلاث سنين يسلك طريق التصوف غير متردد إلى أحد بل الأكابر فمن دونهم يترددون إليه بحيث طلبه السلطان مراد بك بن عثمان فامتنع فجاءه خفية ومع ذلك لم يجتمع به، ثم رجع إلى القدس فأقام به إلى بعد سنة أربعين فقدم القاهرة فقطنها وكان بينه وبين الظاهر جقمق صحبة أكيدة في حال إمرته وبشره حينئذ بالملك فوعده إن وليَ ببناء زاوية له بالقدس فلم يوف له فانقطع عن الناس جملة. وكان شيخاً حسناً منوراً عليه سيما الخير والصلاح سليم الفطرة تقع له مكاشفات ومرائي عجيبة.

(٢) وله نظم كثير وقفت على منظومة في العربية قال إنه عملها لولده وسماها بالعقد وشرحها في كراريس سماه الدر اليتيم في حل العقد النظيم فرغه في بيت المقدس في رمضان سنة سبع وثلاثين، ومنه:

إنمـا النحـو كملح في الـطعـام	إذ بـه كـل تسـاوى في القـوام
مـن درى الـنّحـو تـراه قـارئـاً	يعـرف اللفظ على أصـل الكـلام
يـتـقـيـه كـل مـن جـالـسـه	من فقيـه حـاذق حَبْـرٍ هـمـام
هـاب أن ينـطق من لـم يَـدرِه	خـوف لحن ولِخزي في المـلام
يـرفـع النصـب كجـزم دائـمـاً	ينصب الـرفـع إذا جافى السـلام
يقـرأ الـقـرآن لا يـعـرب مـا	صـرف النحـو بـإعـراب المقـام
والـذي يـعـرفـه يـرجـع مـا	شـك فـي لفظ رواه بـالـسقـام
يـعـرف اللفظ فـيـبري سـقـمـه	يعـرف اللحـن بتـغيـيـر الـنظام
مـا همـا فيـه سـواء عـنـدنـا	ليس أعمى كبصيـر فـي القيـام

كم وضيع رفع النحوُ وكم وضع اللحنُ رؤساً في العوام
عبد اللطيف الغانمي ناظمها شهد الأمر عياناً والسلام

ومات فيما أظن مزاحماً للأربعين، رحمه الله[1].

السَّمهوديّ

عبدالله بن أحمد بن أبي الحسن عليّ الحسنيّ السمهوديّ الشافعيّ.
وُلِد سنة أربع وثمانمائة بسمهود ونشأ بها فحفظ القرآن والمنهاج الفرعي وألفية ابن مالك وعرضها على جماعة وارتحل إلى مصر قبل استكمال العشرين فأخذ بها الفقه، ثم قدم القاهرة في سنة ست وثلاثين فلازم دروس القاياتي وأذن له في الإفتاء والتدريس وأخذ العربية عن المحليّ؛ قرأ عليه ابن عقيل ثم لازمه بأخرة فيها وفي الفقه وأصوله وغير ذلك.

(١) لقي بمكة إذ جاور بها بعض سنة أبا القاسم النويريّ فأخذ عنه واجتمع هناك بالشهاب بن رسلان واستفتاه عن شيء يتعلق بالحج في أيامه فقال: أخشى من انتشار الكلام وطول المباحثة فيكون جدالاً.

(٢) ناب في قضاء بلده عن الجلال البُلقينيّ فمن بعده ولم يتعد لغيرها من الأعمال التي كانت مع والده مع استنجاز شيخه الميدوميّ المرسوم له بذلك وقدم على القاضي فأعلمه بهذا فصار يقضي العجب من شاب يزهد في المنصب وكون غيره من الشيوخ يبذل الأموال فيه، واتفق له مع القاياتي والمناويّ نحو ذلك واعتذر بأنه لو سئل في القيامة عن نفسه لم يجد خلاصاً فكيف بأهل إقليم؛ واقتصر على بلده لتعينه عليه فيها فكان يقضي ويدرس ويفتي فلما كانت سنة ثمان وخمسين عزل نفسه محتجاً بأنه لا يعلم ببلده مستكملاً شروط العدالة مع أنه لا يسعه إلا قبوله، هذا مع أن غالب قضاياه لم تكن إلا توقيفاً وصلحاً بحيث كان يُقصد من أقاصي

---

(١) «الضوء اللامع»: ٣٢٧/٤ ـ ٣٢٨.

الصعيد فما دونها لذلك احتساباً بل يضيفهم ويقوم بكلفهم وحين أعرض عن ذلك استقر ولده الكبير عبدالرحمن عوضه.

(١) ولزم صاحبُ الترجمة الإفتاء والتدريس والعبادة مع طريقته في الانجماع بمنزله وعدم البروز إلا للجماعة حتى كان لا يعرف سوق بلده مع صغرها بل اتفق أنه كان بجامع الصالح حين اجتياز الأشرف بعساكره متوجهاً لآمد فقام الجماعة كلهم لرؤيته وهو لم يتحرك من مكانه.

(٢) وهكذا كان دأبه لم يكن يصرف شيئاً من أوقاته في غير عبادة مع الورع التام بحيث إن بعض بني عمر أمراءِ الصعيد تزوج بأخته بعد مراجعة ومحاورة ومراغمة فما تناول لهم شيئاً ولا اختلط معهم في شيء حتى أنه أفرد ما جرت العادة بإرساله عند الخطبة إلى وقت الدخول فأرسل به إليهم.

(٣) ولم يزل على طريقته إلى أن مات شهيداً تحت هدمٍ عَقِبَ صلاة المغرب وقراءته سورة الواقعة سنة ست وستين[1].

السكسونيّ

عبدالله بن أبي عبدالله جمال الدين السكسونيّ المالكيّ، أحد مدرسي مذهبه. كانت وفاته سنة إحدى، وكان بارعاً في العلم مع الدين والخير.

(٤) أخبر أنه رأى النبيّ ﷺ لما تجهز الأشرف للحج في المنام وعمر رضي الله عنه يقول له: يا رسول الله: شعبان بن حسين يريد أن يجيء إلينا فقال: لا ما يأتينا أبداً، قال: فلم يلبث الأشرف أن رجع من العقبة[2].

البهاء الكازرونيّ

عبدالله بن علي بن عبدالله البهاء الكازرونيّ الأصل المكيّ رئيس المؤذنين بها بل ناب بالحسبة فيها وقتاً يسيراً وكانت وفاته بها سنة ثمان.

(١) «الضوء اللامع»: ٥/٥ ـ ٦.
(٢) «الضوء اللامع»: ٢٩/٥.

(١) صح عن من حضره وقت الاحتضار أنّه سمعه وهو في النـزع يقول: أنا ما أعرفك يا شيطان، أو أنت الشيطان، أشهد إن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم فاضت روحه، ولعل ذلك ثمرة ذكره لله في الأسحار.

وكان مولده سنة اثنتين وخمسين بمكة، ودخل مصر واليمن غير مرة للاسترزاق وذهبت منه في اليمن دنيا حصلها من التجارة[١].

الحضرميّ

عبـدالله بن محمـد بن عبـدالـرحمن الحضـرمي من بني سيف ثم الشنوي. ولد بوادي حضرموت سنة إحدى عشرة وهو من بيت دين وصلاح وعبادة لأهل حضرموت فيهم اعتقاد ويُقال لهم بنو بريك، وله في نفسه سلوك.

(٢) ذكره المقريزيّ في عقوده هكذا وأنه قدم في مجاورته بمكة سنة تسع وثلاثين فسمع عليه قطعة من صحيح مسلم وأشياء بل قرأ عليّ شيئاً من كتب التصوف وكتبت له شيئاً في كيفية السلوك وأخبرني أنه وُجد في شنوة من وادي حضرموت قبر فيه إنسان ذرعوا ما بين كعبه إلى ركبته فكان طول عظم ساقه ثلاثة عشر ذراعاً إلى غير ذلك من أخبار أودعتها في جزء في غرائب أخبار وادي حضرموت. انتهى[٢].

ابن الدمامينيّ

عبدالله بن محمد بن عبـدالله القرشيّ المخـزوميّ الدمـامينيّ الأصل السكندريّ المالكيّ ويُعرف بابن الدمامينيّ، من بيت قضاء ورياسة.

اشتغل قليلاً وسمع على جده البهاء أحد أئمة الأدب والمسندين من

---

(١) «الضوء اللامع»: ٣٤/٥.
(٢) «الضوء اللامع»: ٥٢/٥.

المائة الثامنة؛ ووَلِيَ قضاء بلده فطالت مدته في ذلك بحيث زادت على ثلاثين سنة وصار وجيهاً ضخم الرياسة مع نقص بضاعته في العلم والدين لكن لكثرة بذله ومزيد سخائه، وقد أفنى مالاً كثيراً في قيام صورته في المنصب ودَفْعِ من يعارضه حتى أنه كان يركبه بسبب ذلك الدَّيْنُ ثم يحصل له إرث أو أمر من الأمور التي يحصل تحت يده بها مال من أي جهة كانت ساغت أو لم تسغ فلا يلبث أن يستدين أيضاً. وآخر ما اتفق قيام سرور المغربي عليه حتى عزله الشمس بن عامر فقدم القاهرة وهو متوعك فتوسل بكل وسيلة حتى أعيد ووسع الحيلة في إفساد صورة سرور حتى تمت بل كان ذلك سبباً لإعدامه ولم ينتفع القاضي بعده بنفسه بل استمر متعللاً حتى مات سنة خمس وأربعين. قال شيخنا وأظنه جاز الستين، قال العينيّ: ولم يكن ممن له اشتغال بالعلم بل كان يخدم الناس كثيراً خصوصاً الظلمة الذين لا يستحقون شيئاً من ذلك، عفا الله عنه[1].

ابن الزيتونيّ

عبدالله بن محمد بن عيسى العوفي - نسبه فيما بلغني لعبدالرحمن بن عوف أحد العشرة - القاهري الشافعيّ ويُعرف بابن الجلال وابن الزيتونيّ أيضاً لكون عم جدته كان من منية الزيتون. ولد سنة خمس وسبعين وسبعمائة وحفظ القرآن والحاوي والتنبيه والمنهاج الأصليّ وغيرهما، وتفقه وتقدم في العلوم وأذن له غير واحد من شيوخه بالإفتاء والتدريس، وناب في القضاء قديماً وحديثاً وحمدت سيرته في قضائه وتصدر للإقراء والإفادة، وربما أفتى وخطب ببعض الجوامع، ثم أعرض عن ذلك كله في سنة تسع وثلاثين بل وتجرد عما بيده من الوظائف وانقطع بجامع نائب الكرك ولأجله عمره جوهر الخازندار عمارة حسنة.

وكان عالماً فقيهاً ثقة عدلاً في قضائه، متواضعاً ساكناً وقوراً منجمعاً

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/٥٣.

عن الناس قانعاً باليسير على قانون السلف، سريع الإنشاء نظماً ونثراً كالمدائح والخطب والمراسلات، مذكوراً بالولاية والسلوك والتقدم في طريق القوم وصحبة غير واحد من السادات، مجاب الدعوة ما قصده أحد بسوء فأفلح إلى غير ذلك من الكرامات.

(١) سمعت الشهاب أحمد بن مظفّر يحكي غير مرة وكان ممن كثرت مخالطته له أنه شاهد البحر[١] وقد اجتمع له حتى جازه وتخطاه، وبالجملة فصلاحه مستفيض، مات سنة خمس، وقال شيخنا وأظنه قارب السبعين.

(٢) ومن نظمه:

ووعدتني وعداً حسبتك صادقاً ... ومن انتظاري كاد لبي يذهب

فلِمَن رآنا أن يقول منادياً ... هذا مسيلمة وهذا أشعب[٢]

الغالب بالله

عبدالله بن محمد بن نصر الغالب بالله متملك غرناطة من الأندلس وحفيد الأمير أبي الجيوش نصر بن أمير المسلمين أبي الحجاج بن أبي الوليد إسماعيل بن نصر.

(٣) ذكر المقريزيّ في حوادث سنة أربع وأربعين أنه في رجب منها ورد كتابه يتضمن ما فيه المسلمون بغرناطة[٣] من الشدة مع النصارى أهل قرطبة وإشبيلية وتطلب النجدة[٤].

---

(١) يقصد بالبحر النيل.

(٢) «الضوء اللامع»: ٥/٦٠ - ٦٢.

(٣) جاء في الهامش: لم يتفق لأهل الأندلس وورود نجدة من مصر أصلاً مع قوة عساكرها ولكن عذرهم في ذلك واضح لحيلولة البحر مع بعد المسافة والاحتياج لكثرة المراكب ولم يكن لملوك مصر عناية بأمر الشحنة لأنهم أصحاب خيل فقوتهم برية وليست بحرية.

(٤) «الضوء اللامع»: ٥/٦٧ - ٦٨.

الريشيّ

عبدالمعطي بن محمد الزين الريشيّ ثم القاهريّ الحنفيّ. كان يتردد لأقباى الحاجب بحيث أقامه في عمارة له برأس البندقانيين وهو حينئذ نائب الغيبة وصاحب الترجمة ينوب في القضاء عن الحنفية فصار يأمر بصفع من يريد ممن يتحاكم إليه بل يرسل لمن يريد إهانته من بياض الناس فيُصفع فتحاماه الناس، وشاع عنه أنه رُفِع له شاب ابن نحو عشرين سنة فادُّعِي عليه إكراه صغير مراهق حتى فسق به فأمر في الحال من بحضرته من الفعلة الذين في العمارة بالفسق به قصاصاً، زعم، فعظمت الشناعة عليه بذلك فأرسل الأمير أحمد ابن أخت الجمال الاستادار وهو يومئذ ينوب عن خاله إليه فهرب واحتمى بأقباي فلما علم أقباي بصورة الحال أرسله إليه فضربه واجتمع عليه من تقدم له منه أذى من العوام فكادوا يقتلونه وبالغوا في إهانته وصفعه، ثم خلص وعاد إلى ما كان عليه وذلك في سنة عشر وثمانمائة في غيبة العسكر فلما قدم العسكر ذكر ولد الحنفيّ لأبيه ما جرى له لكونه كان يبالغ في الإساءة له بل ويزدري جميع النواب فتمالؤا عليه وأنهوا إلى الاستادار قصته فضربه بحضرة القضاة الأربعة سبعمائة عصا وسجنه وحصل له من الناس أيضاً حالة مجيئه وتوجهه إلى السجن صفع عظيم بل بلغ خبره السلطان فأمر بإحضاره فضربه بالمقارع وأقام في الحبس مدة طويلة ثم خلص بعد مدة وتناسى الناس الخبر وأظهر هو الرجوع عن تلك الطريقة فعاد إلى نيابة الحكم عن قضاة الحنفية.

واستمر على طريقته ومجونه إلى أن مات في أواخر سنة ثلاث وثلاثين مقهوراً بسبب أنه كانت له صرة ذهب خشي عليها من السراق فأودعها عند بعض القضاة ثم احتاج لشيء منها فادعى المودع أنها سُرقت من منزله وحلف على ذلك فما استطاع أن ينازعه لشدة سطوة القاضي وبادرته فكمد فمات[1].

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/٨١ ـ ٨٢.

ابن ابي شاكر

عبدالوهاب بن عبدالله المدعو ماجداً بن موسى القبطيّ المصريّ الحنفيّ ويعرف كسلفه بابن أبي شاكر. ولد سنة سبعين أو في التي بعدها بالقاهرة واشتغل بالفقه وغيره وتميز في الكتابة.

تنقل في المباشرات وعظم عند الناصر بحسن مباشرته ثمَّ وَلِيَ نظر الخاص بعد موت المجد بن الهيصم ثم قبض عليه في جمادى الأولى سنة ست عشرة وصودر على أربعين ألف دينار باع فيها موجوده وبقى في الترسيم بشباك البرقوقية يستحذي من كل من يمر به من الأعيان حتى حصل مالا له صورة وأفرج عنه وأعيد إلى مباشرة الذخيرة والأملاك، ثم قرر في الوزارة بعد صرف التاج بن الهيصم فباشرها مباشرة حسنة وشكره الناس كلهم بحيث كثر الدعاء له ولكن لم تطل مدته بل مات بعد تسعة أشهر وذلك في يوم الخميس حادي عشر ذي القعدة سنة تسع عشرة.

(١) وكان بعيداً من النصارى متزوجاً من غيرهم وهي علامة حسن إسلام القبطيّ سيما مع كثرة فعله الخير والصدقة ومحبته في أهل العلم وإن كان منهمكاً في اللذات شديد الوطأة على العامة موصوفاً بالدهاء.

وبالجملة فقد باشر الوزراء برفق لم يعهد مثله وكان عارفاً بالمباشرة جيد الكتابة[١].

التاج السكندريّ

عبدالوهاب بن علي حسن نور الدين النطوبسي ثم القاهريّ المالكيّ المقرىء ويُعرف في بلده بابن المكين وفي القاهرة بالتاج السكندريّ لمكثه فيها مدة. وُلد في سنة خمس عشرة وثمانمائة بنطوبس ونشأ بها فحفظ القرآن، ثم تحول مع والده إلى إسكندرية فأقام بها، وحفظ الشاطبيتين

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/١٠٢ - ١٠٣.

وألفية النحو وغالب المختصر في فروعهم وعرض بعض محافيظه على قاضيها الجمال الدماميني وغيره، وتلا بالسبع إفراداً وجمعاً ثم انتقل مع والده إلى القاهرة وقد قارب العشرين وقرأ على شيخنا في شرح النخبة وجميع الشاطبية من حفظه في مجلس واحد قراءة لم أسمع فيها أفصح منه ولا أتقن وسكت ليتنفس فبادر بعض الحاضرين وفتح عليه لظنه التوقف وتألم شيخنا لمبادرته للرد وصرح بذلك، وكذا أخذ عن شيخنا غير ذلك.

(١) لا زال يدأب في التحصيل على طريقة جميلة حتى برع وشارك في الفضائل وتميز في القراءات بحيث أخذها عنه جماعة ومن الأتراك الظاهر خشقدم حين كان أمير سلاح مسئولا في ذلك وعرض عليه حينئذ أن يكون إمامه فما وافق، فلمّا استقر في المملكة ألزمه بذلك فاشترط عليه عدم الطوق وركوب الخيل فما خالف وزاد معلومه عن رفقائه، وخالف العادة في كون الإمام حنفياً وأقبل عليه جداً.

وكان خيراً بهجاً نيراً، متحرياً صادق اللهجة سليم الصدر لوناً واحداً، مديماً للعبادة والتلاوة والتهجد والاشتغال والمذاكرة، فاضلاً مقرئاً حسن الأداء، عريض الصوت، محباً في الفائدة غير مستنكف بحملها عن أحد.

(٢) أقام في ابتدائه أعزب نحو أربعين سنة واستعمل ما ينفعه في كسر الشهوة إلى أن ألزم بالتزويج واضطر لاستعمال نقيضه.

ولم يزل في ازدياد من الخير حتى مات سنة ثمان وستين عن ثلاث وخمسين سنة وتأسف أهل الخير على فقده ونعم الرجل كان فقد كنت أحبه في الله، رحمه الله وإيانا[١].

ابن شرف

عبدالوهاب بن محمد بن محمد التاج أبو الفضل بن الشمس بن الشرف الجوجريّ ثم القاهريّ الشافعيّ ويُعرف بابن شرف.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/١٠٤ ـ ١٠٦.

وُلِد سنة عشرين وثمانمائة بالقاهرة ونشأ بها فاشتغل كثيراً في الفقه وأصوله والعربية والصرف وأصول الدين والمنطق والطب وغيرها من العقليات، ولكنه ممن عرف بالذكاء والجرأة ولزوم التهتك والانهماك في الشرب بحيث أهين بهذه وغيرها غير مرة أسوأها على يد قاضي المالكية اللقانيّ ثم بواسطة إبراهيم الدميريّ وهو لا ينفك بل لم يزل في ازدياد وصحب بسببه الأقباط فكانوا يسخرون به ويبالغون في صفعه ويتلذذون أو من شاء الله منهم بانتقاصه وإساءته وهجائه للناس خصوصاً العلماء إذ لم يسلم من لسانه كبير أحد.

(١) وهو القائم في مسئلة ابن الفارض ونظم فيها قبائح ثم تعدى إلى تأييد ابن عربي وصار يطوف بكلامه على المجالس وفي الأسواق ويصرح باعتقاده واعتقاد كلامه بل قيل إنه صنف في إيمان فرعون.

وسيرته مشهورة فلا فائدة في الإطالة بها هذا مع استفاضة الثناء على أبيه وكونه في الديانة والورع الفائق، ولذ لما جلس ابنه بحانوته ولم يقتف أثره بل زاد في الفسق والفساد كاد العامة قتله، وحينئذ تحول لحانوت بالكتبيين وصارت له خبرة بكثير من الكتب والله يهلكه ويقصمه أو يتوب عليه ولرشده يلهمه؛ وقد كتبت عنه قديماً قوله في بعض حجاته سنة ست وسبعين:

(٢) وعاص لأمر الله تاب من الذنب	وأقلع إقلاع المنيب إلى الرب
وأحرم من ميقاته وقت سيره	إلى مكة إحرام معتمر صَبٍّ[١]
ولبى بألفاظ النبي محمد	وصلى عليه باللسان وبالقلب
وطاف ببيت الله أعظم بِنْية	وصلى له خلف المقام مع الركب
وبعدُ سعَى سبعاً كما طاف سبعة	على قدم مكشوفة المشط والكعب
وأحرم بعد الحلق لكن بحجة	تلت عمرة في أشهر الفرض والندب
وزار مع الحجاج قبر محمد	عليه صلاة الله في الشرق والغرب[٢]

(١) محب.

(٢) «الضوء اللامع»: ٥/١١٠ - ١١٣.

عُبيدالله الأردبيليّ

عبيدالله بن عوض بن محمد الجلال بن التاج الشروانيّ الأصل[1] والمنشأ الأردبيليّ[2] المولد ثم القاهريّ الحنفيّ.

(١) كان والده بارعاً في الطب فاستدعاه الفقيه الجمال يوسف الأردبيليّ لطب ابنته فقدم عليه فوجد مرضها خطراً يحتاج لمشارفتها في كل لحظة فالتمس من أبيها التزوج بها ليتمكن من مخالطتها فتوقف فرغبته أمها فيه فأجاب فتزوجها وعالجها حتى عُوفيت ودخل عليها فحملت بصاحب الترجمة وكان مولده هناك بأردبيل فهو سبط الجمال المذكور.

قدم بلدة شروان ثم القاهرة وتفنن في العلوم، ودرس في المذهبين الشافعيّ والحنفيّ.

مات بالقاهرة سنة سبع.

(٢) حكى البدر بن التنسي المالكي أنه كان معظماً عند الأتراك منسوباً إلى العلم، وكان الأمراء في أواخر القرن الذي قبله يتنافسون في سماع الحديث فكان كل أمير منهم يجعل عنده شيخاً يسمع الناس ويدعو الناس للسماع، وكان جلال الدين بن القاضي بدر الدين بن أبي البقاء محباً في التقدم والرفعة والتصدر في المجالس وكان ذا هيئة عظيمة وكانت هيئة عبيدالله رثة فأراد أن يجلس فوقه فلم يمكِّنه وكان من الدهاة يغيظ ولا يغتاظ، فلما رأى رغبة الجلال في ذلك قال: إن كنت تريده فاعطني خمسمائة درهم فأعطاه فكان يجلس فوقه وذلك في بيت ايتمش[3]، فاتفق أنهم حضروا يوماً في بيت نوروز[4] فأراد الجلوس فوقه فلم يمكِّنه عبيدالله وقال له: إنما أخذت منك العِوَض على الجلوس هناك وأما غيره فإن كنت تريد ذلك فجدد عوضاً أو كما قال.

---

(١) شروان بلدة من نواحي فارس. انظر «معجم البلدان»: ٣/٣٣٩.

(٢) أردبيل من أشهر مدن أذربيجان. انظر «معجم البلدان»: ١/١٤٥ - ١٤٦.

(٣)،(٤) : من أمراء المماليك.

(١) وحكى القاياتيّ أن عبيدالله هذا كان شافعياً وكذا أسلافه وأن بعض آبائه صنف في المذهب بل أهل أردبيل بلده كلهم شافعية وإنه إنما تحنف على يد يلبغا[1] فإنه كان يقول: من ترك مذهب الشافعيّ وتحنف أعطيته خمسمائة وجعلت له وظيفة ففعل ذلك جماعة منهم صاحب الترجمة والسراج قاري الهداية، وحكى أنه رأى الشافعيّ في المنام ومعه مسحاة فقيل له: ما تفعل بهذه؟ فقال: أخرب بها الكبش وهو بيت يلبغا فلم يلبث أن نُكب يلبغا وخرب بيته إلى الآن[2].

عثمان المُرَينيّ

عثمان بن أحمد بن إبراهيم أبو سعيد ملك الغرب وصاحب فاس المرينيّ. أقام على سلطنة فاس وما والاها نحو ثلاث وعشرين سنة وثلاثة أشهر ثم قتله وزيره عبدالعزيز اللبابيّ في سنة ثلاث وعشرين وأقام عوضه ولده.

(٢) ويُقال إن سبب تسمية المدينة بفاس أنهم لما حفروا أسّها حين الشروع في بنائها وجدوا به فأساً فسُميت به[3].

عثمان التكروريّ

عثمان بن إدريس بن إبراهيم التكروريّ صاحب بزنووزعاي. ملك بعد أخيه إدريس المتملك بعد أخيه داود المتملك بها بعد والدهم إبراهيم أول من ملك من آل بيتهم وجدهم الأعلى كان ينتمي إلى الملثمين، وهم الآن على تلك الطريقة في ملازمة اللثام ويُقال إنه جمع من العسكر ألف فارس ورحل يقاتل من يليه من الكفار، والإسلام غالب في بلادهم.

مات في سنة اثنتين[4].

---

(١) من أمراء المماليك.

(٢) «الضوء اللامع»: ٥/١١٧ - ١١٨.

(٣) «الضوء اللامع»: ٥/١٢٤ - ١٢٥.

(٤) «الضوء اللامع»: ٥/١٢٦.

عثمان بن سليمان الصنهاجيّ المغربيّ

قال شيخنا في «إنبائه»: من أهل الجزائر الذين بين تلمسان وتونس، رأيته كهلاً وقد شاب أكثر لحيته، وطوله إلى رأسه ذراع واحد بذراع الآدميين لا يزيد عليه شيئاً مع كونه كامل الأعضاء، وإذا كان قائماً يظن من رآه أنه صغير قاعد وهو أقصر آدمي رأيته، ولديه فضيلة ومحاضرته حسنة.

مات في سنة خمس وعشرين وقد جاز الخمسين[١].

الفخر البلبيسيّ

عثمان بن عبدالرحمن بن عثمان الفخر البلبيسيّ ثم القاهريّ الشافعيّ المقرىء ويُعرف بالفخر، إمام الأزهر. وُلد سنة خمس وعشرين وسبعمائة ببلبيس ونشأ بها فحفظ القرآن وأدب الأولاد هناك دهراً ثم قدم القاهرة في سنة أربع وأربعين.

(١) قال شيخنا في «معجمه»: إمام الجامع الأزهر. رأس في القراءات فصار غالب طلبة البلد ممن قرأ عليه بل ذكر لي أن الجن كانوا يقرءون عليه من حيث لا يراهم، سمعت ذلك منه في سنة سبع وتسعين وحدث عنه ابن سكر أيضاً أنه أخبره أن الجان أخبروه أن الفناء يقع بمصر بعد سنة وأنه يكون عظيماً جداً، قال: وكنت قد عزمت على الحج فجاورت ووقع الطاعون العام الشهير كما قيل.

وقد أضر. مات سنة أربع وقد أكمل ثمانين سنة، وقال في «إنبائه»: تصدى للاشتغال بالقراءة فأتقن السبع وصار أمة وحده وأخبرني أنه لما كان ببلبيس كان الجن يقرءون عليه وقرأ عليه خلق كثير وحدث عنه خلق كثير في حياته وانتفع به من لا يحصى عددهم في القراءة، وانتهت إليه الرياسة في هذا الفن وكان صالحاً خيراً أقام بالجامع الأزهر يؤم فيه مدة طويلة؛

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/١٢٩.

وقال المقريزي: قرأ بالسبع والعشر والشواذ وأمّ بالأزهر زماناً وأخذ الناس عنه بالقراءات ورحلوا إليه من الأقطار وتخرج به خلائق، وكان خبيراً بالقراءات عارفاً بتعليلها صبوراً على الإقراء خيراً ديناً هيناً معتقَداً تخشع القلوب لقراءته ولنداوة صوته ولم يزل على ذلك حتى مات[1].

عثمان الحفصيّ

عثمان بن محمد بن عبدالعزيز الهنتاني الحفصيّ نسبة لجده الأعلى أبي حفص الذي كان يُقال له انتاب؛ أحد العشرة من أصحاب محمد بن تومرت المعروف بالمهديّ. وُلِد تقريباً بعد العشرين وثمانمائة بتونس وبها نشأ في كنف أبيه وجده وقرأ القرآن وشيئاً من العلم ويُقال إن جده أبا فارس كان يتوهم فيه النجابة وأنه صرح مرة بمصير الأمر إليه فكان كذلك فإنه لما مات تسلطن حفيده الآخر شقيق هذا أبو عبدالله محمد ولقب المنتصر وكان متمرضاً فلم يتهن بالملك بل ولم تطل أيامه حتى مات وقول من قال إن أخاه عثمان قتله باطل بل هو المتولي لتمريضه حيث أرسل إليه فأحضره عنده لذلك وربما قيل إنه عهد إليه بالملك مع كونه ابن أربع عشرة سنة أو فوقها بيسير، وبعد موته قتل القائد الهلاليّ وفتك بجماعة من أقاربه الحفاصة وتمهدت له الأمور وطالت أيامه فإنه وَلِيَ ملك تونس وهو ابن ثمان عشرة سنة في سنة تسع وثلاثين ودام في الملك أربعاً وخمسين سنة ودانت له البلاد والرعية، وضخم ملكه جداً واجتمع له من الأموال وغيرها ما يفوق الوصف وأنشأ الأبنية الهائلة والخزانة الشرفية بجامع الزيتونة وجعل بها كتباً نفيسة للطلبة، وبعد صيته وطارت شهرته وهادته ملوك تلك الأقطار وكذا ملوك الفِرنَج وخطب له بالجزائر وتلمسان، وجرى له مع صاحب تلمسان محمد بن أبي ثابت العبد الوادي أمور ومشى عليه غير مرة وتملك تلمسان وصالح صاحبها.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/١٣٠ - ١٣١.

أثنى عليه غير واحد ممن لقيه ولم يزل على مكانته بحيث عهد لولده مسعود فمات في شعبان سنة ثلاث وتسعين فحزن عليه جداً وعهد ليحيى بن مسعود المذكور، ولم يلبث أن مات صاحب الترجمة في ليلة عيد الفطر منها رحمه الله وعفا عنه[1].

الطاغيّ

عثمان فخر الدين البكريّ التلاويّ ثم القاهريّ ويُعرف بالطّاغي، خازن الكتب بالمدرسة المحمودية، استقر فيها بعد عزل السراج عمر إمام واقفها بتفريطه ثم عُزل هو أيضاً عنها بتفريطهِ بعد أن عُزِّر بالضرب بين يد السلطان واستقر عِوَضَه شيخُنا وحكى قصته في حوادث سنة ست وعشرين من «أنبائه» وأفاد أن الكتب التي بها من أنفس الكتب الموجودة الآن بالقاهرة وهي من جمع البرهان بن جماعة في طول عمره فاشتراها محمود الاستادار من تركة ولده ووقفها وشرط أن لا يخرج منها شيء من مدرسته واستحفظ لها إمامه سراج الدين ثم انتقل ذلك لصاحب الترجمة بعد أن رفع على السراج أنه ضيع كثيراً منها واختبرت فنقصت نحو مائة وثلاثين مجلدة، واستمر الفخر يباشرها بقوة وصرامة وجلادة وعدم التفات إلى رسالة لكبير أو صغير حتى أن أكابر الدولة وأركان المملكة كان الواحد منهم يحاوله على عارية كتاب واحد وربما بذلوا المال الجزيل فيصمم على الامتناع بحيث اشتهر ذلك، إلى أن رافع فيه شخص أنه يرتشي في السر فاختبرت الكتب وفهرست فنقصت العُشر لأنها كانت أربعة آلاف مجلدة فنقصت أربع مائة، فألزم بقيمتها فقومت بأربعمائة دينار فباع فيها موجوده وداره وتألم أكثر الناس له. قال شيخنا: ولم يكن عتبه سوى كثرة الجنف[2] على فقراء الطلبة وإكرام ذوي الجاه، قال حين أرخ وفاته من «الأنباء» أيضاً إنه كان شديد

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٣٨/٥ - ١٣٩.

(٢) أي: الميل والظلم.

الضبط لها ثم حصل له من تسلط عليه بالخديعة إلى أن وقع التفريط فذهب أكثر نفائس الكتب. مات سنة ثمان وعشرين[1].

عجلان

عجلان بن نعير بن منصور العلويّ الحسينيّ أمير المدينة النبوية. قبض عليه في سنة إحدى وعشرين وسُجِن ببرج في القلعة ثم أفرج عنه لمنام رآه العز عبدالعزيز ابن علي الحنبلي القاضي الماضي وقصه على المؤيد ثم قتل في حرب في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين.

(١) وقال المقريزيّ إنه وَلِيَ المدينة مراراً إلى أن قبض عليه المؤيد في موسم سنة إحدى وعشرين وحمل في الحديد إلى القاهرة وحبس بالبرج ثم أفرج عنه برؤيا العز المذكور في المنام كأنه بالمسجد النبويّ وإذا بالقبر قد انفتح وخرج منه النبي ﷺ وجلس على شفيره وعليه أكفانه وأشار بيده إلى الرائي فقام إليه حتى دنا منه فقال له: قل للمؤيد شيخ يفرج عن عجلان فلما انتبه صعد إلى القلعة وكان من جملة جلساء المؤيد فجلس على عادته وقص عليه الرؤيا وحلف له بالأيمان العظيمة أنه لم ير عجلان قط ولا بينهما معرفة فبادر المؤيد وخرج بنفسه بعد انقضاء المجلس واستدعى بعجلان من محبسه ثم أفرج عنه وأحسن إليه ورجع إلى بلاده.

وقعت له حوادث إلى أن قتل، عفا الله عنه[2].

ابن سلامة

علي بن أحمد بن محمد بن سلامة أبو الحسن السلميّ المكيّ الشافعيّ ويُعرف بابن سلامة ولد سنة ست وأربعين وسبعمائة بمكة ونشأ بها، وارتحل إلى بغداد فسمع بها من طائفة ثم سافر منها إلى دمشق فسمع

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/١٤٣ - ١٤٤.

(٢) «الضوء اللامع»: ٥/١٤٥.

بها وكذا بالقدس والخليل ونابلس وإسكندرية وعدة وسمع بالقاهرة وأقام بها سنين ثم رجع إلى مكة وأجاز له جماعة من كثير من البلدان التي سمع بها ومن غيرها، وتلا بالسبع بمكة وبالقاهرة وتوغل في القراءات وأذِن له في الإقراء وتصدى لإقراء القراءات والفقه وغيرهما بمكة زمناً طويلاً وكذا أفتى لكن قليلاً باللفظ غالباً تأدباً مع قضاة مكة، وكان شيخاً عارفاً عالماً بالقراءات السبع والفقه ذا فوائد حديثية وأدبية يذاكر بها، كثير التواضع حسن العشرة، ذا حظ من عبادة ومداومة على ورد في الليل، وفيه خير ومروءة وله نظم وصار بأخرة مسند الحجاز. مات سنة ثمان وعشرين بمكة، وكانت جنازته حافلة وبلغنا أنه ما زال يقول عنه احتضاره: (أحبه الله) حتى فارق الدنيا.

(١) ومما كتب به إلى ابن الجزريّ مع هدية ماء زمزم من نظمه:

ولقد نظرت فلم أجد يهدى لكم	غير الدعاء المستجاب الصالح
أو جرعة من ماء زمزم قد سمت	فضلًا على مد الفرات السابح
هذا الذي وصلت له يد قدرتي	والحقَّ قلتُ ولست فيه بمازح

فأجابه بقوله:

وصل المشرف من إمام مرتضى	نور الشريعة ذي الكمال الواضح
وذكرت أنك قد نظرت فلم تجد	غير الدعاء المستجاب الصالح
أو جرعة من ماء زمزم حبذا	ما قد وجدت ولست فيه بمازح
أما الدعاء فلست أبغى غيره	ما كنت قطُّ إلى سواه بطامح

(٢) والمقريزيّ في «عقوده» قال: كان له حظ من العبادة ونظم الشعر، صحبني مدة أعوام بالقاهرة ومكة وكان لي به أنس وفوائد، وصار مسند الحجاز حتى مات وكتب إلى من مكة مع هدية:

خير الهدايا من أباطح مكة	دعوات صدق من أخ لك قد صفا
وقت الطواف وفي السجود وعندما	يمضي إلى المسعاة من باب الصفا[1]

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/١٨٣ - ١٨٤.

نورالدين الهيثميّ

علي بن أبي بكر بن سليمان نورالدين أبو الحسن الهيثميّ الشافعيّ الحافظ ويُعرف بالهيثميّ، كان أبوه صاحب حانوت بالصحراء فوُلِد له هذا سنة خمس وثلاثين وسبعمائة.

ونشأ فقرأ القرآن ثم صحب الزين العراقيّ وهو بالغ ولم يفارقه سفراً وحضراً حتّى مات بحيث حج معه جميع حجاته ورحل معه سائر رحلاته ووافقه في جميع مسموعه بمصر والقاهرة والحرمين وبيت المقدس ودمشق وبعلبك وحلب وحماة وطرابلس وغيرها وربما سمع الزين بقراءته، وهو مكثر سماعاً وشيوخاً، ولم يكن الزين يعتمد في شيء من أموره إلا عليه حتى أنه أرسله مع ولده الوليّ لما ارتحل بنفسه إلى دمشق وزوجه ابنته خديجة ورزق منها عدة أولاد وكتب الكثير من تصانيف الشيخ بل قرأ عليه أكثرها.

(١) وتخرج به في الحديث بل دربه في إفراد زوائد كتب كالمعاجم الثلاثة للطبرانيّ والمسانيد لأحمد والبزار وأبي يعلى على الكتب الستة وابتدأ أولاً بزوائد أحمد فجاء في مجلدين وكل واحد من الخمسة الباقية في تصنيف مستقل إلا الطبرانيّ الأوسط والصغير فهما في تصنيف، ثم جمع الجميع في كتاب واحد محذوف الأسانيد سماه «مجمع الزوائد»، وكذا أفرد زوائد صحيح ابن حبان على الصحيحين، ورتب أحاديث الحلية لأبي نعيم على الأبواب ومات عنه مسودة فبيضه وأكمله شيخنا في مجلدين، وأعانه[١] بكتبه ثم بالمرور عليها وتحريرها وعمل خطبها ونحو ذلك وعادت بركة الزين عليه في ذلك وفي غيره كما أن الزين استروح بعد بما عمله سيما المجمع.

وكان عجباً في الدين والتقوى والزهد والإقبال على العلم والعبادة

---

(١) أي: زين الدين العراقي.

والأوراد وخدمة الشيخ وعدم مخالطة الناس في شيء من الأمور والمحبة في الحديث وأهله، وحدث بالكثير رفيقاً للزين بل قلّ أن حدث الزين بشيء إلا وهو معه وكذلك قل أن حدث هو بمفرده لكنهم بعد وفاة الشيخ أكثروا عنه ومع ذلك فلم يغير حاله ولا تصدر ولا تمشيخ، ولم يزل على طريقته حتى مات سنة سبع بالقاهرة، رحمه الله وإيانا.

(١) قال شيخنا في معجمه: وكان خيراً ساكناً ليناً سليم الفطرة شديد الإنكار للمنكر، كثير الاحتمال لشيخنا ولأولاده، محباً في الحديث وأهله، وكان يودني كثيراً ويعينني عند الشيخ وبلغه أنني تتبعت أوهامه في مجمع الزوائد فعاتبني فتركت ذلك إلى الآن، واستمر على المحبة والمودة. قال: وكان كثير الاستحضار للمتون ويسرع في الجواب بحضرة الشيخ فيعجب الشيخ ذلك، وقد عاشرتهما مدة فلم أرهما يتركان قيام الليل، ورأيت من خدمته لشيخنا وتأدبه معه من غير تكلف لذلك ما لم أره لغيره ولا أظن أحداً يقوى عليه.

(٢) وقال في «أنبائه» إنه صار كثير الاستحضار للمتون جداً لكثرة الممارسة وكان هيناً ديناً خيراً محباً في أهل الخير، لا يسأم ولا يضجر من خدمة الشيخ وكتابة الحديث سليم الفطرة كثير الخير والاحتمال للأذى خصوصاً من جماعة الشيخ، وقد شهد لي بالتقدم في الفن جزاه الله عني خيراً قال وكنت قد تتبعت أوهامه في كتابه المجمع فبلغني أن ذلك شق عليه فتركته رعاية له. قلت: وكأن مشقته لكونه لم يعلمه هو بل أعلم غيره وإلا فصلاحه ينبو عن مطلق المشقة أو لكونها غير ضرورية بحيث ساغ لشيخنا الإعراض عنها، والأعمال بالنيات.

(٣) وقال البرهان الحلبي إنه كان من محاسن القاهرة ومن أهل الخير، غالب نهاره في اشتغال وكتابة مع ملازمة خدمة الشيخ في أمر وضوئه وثيابه ولا يخاطبه إلا بسيدي حتى كان في أمر خدمته كالعبد؛ مع محبته للطلبه والغرباء وأهل الخير وكثرة الاستحضار جداً.

والثناء على دينه وزهده وورعه ونحو ذلك كثير جداً بل هو في ذلك كلمة اتفاق وأما في الحديث فالحق ما قاله شيخنا أنه كان يدري منه فناً واحداً يعني الذي دربه فيه شيخهما العراقيّ، قال: وقد كان من لا يدري يظن لسرعة جوابه بحضرة الشيخ أنه أحفظ وليس كذلك رحمه الله وإيانا[١].

البغدادي

علي بن جمعة بن أبي بكر البغداديّ خادم مقام الإمام أحمد كآبائه. وُلِد سنة خمسين وسبعمائة أو بعدها ببغداد ونشأ بها وتعلم صنائع، ثم ساح في البلاد وطوف العراق والبحرين والهند وأرض العجم وما وراء النهر ثمّ حج وطوّف البلاد الشامية ثمّ قدم القدس وسكن به وبالخليل ونابلس، ثمّ قدم القاهرة وسكنها وطوف في ريفها وارتزق بها من صنعة الشريط وجلس لصنعه بحانوت تجاه الظاهرية القديمة.

(١) وشاع عنه مما شاهده الثقات في سنة أربع وأربعين أن السباع إذا مُرَّ بها عليه تأتيه وتتلمس به هيئة المسلِّمين عليه بحيث يعجز قائدوه عن مرور السبع بدون مجيئه إليه بل وعن أخذه عنه سريعاً إلا إن أذن له هو وتكرر ذلك مدة إلى أن ملّ الشيخ فصار إذا سمع بالسبع من بعد يقوم ويفر إلى المدرسة أو غيرها رجاء زوال اعتقاد من لعله يعتقده بسبب ذلك، كل ذلك مع سكينته ونوره وكثرة تواضعه وهضمه لنفسه وإظهاره لمن يجتمع به أنه في بركة العلماء ونحو هذا ولا يخلو من قليل بَلَه، وبلغني عنه أنه أخبر أن عم والده واسمه عبدالملك كان يركب السباع.

مات سنة ثمان وستين بالقاهرة وكنت ممن تكررت رؤيتي له والتمست أدعيته بل أظن أنني شاهدت صنيع السبع معه، رحمه الله وإيانا[٢].

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/٢٠٠ - ٢٠٣.

(٢) «الضوء اللامع»: ٥/٢٠٩ - ٢١٠.

ابن زكنون

علي بن حسين بن عروة العلاء أبو الحسن المشرقي ثم الدمشقي الحنبلي ويعرف بابن زكنون. وُلد قبل الستين وسبعمائة ونشأ في ابتدائه حمالاً ثم أعرض عن ذلك وحفظ القرآن وتفقه وبرع وانقطع إلى الله تعالى في مسجد القَدم بآخر أرض القبيبات ظاهر دمشق يؤدب الأطفال احتساباً مع اعتنائه بتحصيل نفائس الكتب وبالجمع.

(١) رتب المسند على أبواب البخاري وسماه «الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاريّ» وشرحه في مائة وعشرين مجلداً طريقته فيه أنه إذا جاء لحديث الإفك مثلاً يأخذ نسخة من شرحه للقاضي عياض فيضعها بتمامها وإذا مرت به مسئلة فيها تصنيف مفرد لابن القيم أو شيخه ابن تيمية أو غيرهما وضعه بتمامه ويستوفى ذاك الباب من المغني لابن قدامة ونحوه. كل ذلك مع الزهد والورع الذي صار فيهما منقطع القرين والتبتل للعبادة ومزيد الإقبال عليها والتقلل من الدنيا وسد رمقه بما تكسبه يداه في نسخ العبي والاقتصار على عباءة يلبسها، والإقبال على ما يعنيه حتى صار قدوة، وحدث سمع منه الفضلاء وقُرىء عليه شرحه المشار إليه أو أكثره في أيام الجمع بعد الصلاة بجامع بني أمية ولم يسلم مع هذا كله من طاعن في عُلاه ظاعن عن حماه بل حصلت له شدائد ومحن كثيرة كلها في الله وهو صابر محتسب حتى مات، وقد ذكره شيخي في «انبائه» فقال: إنه كان عابداً زاهداً قانتاً خيراً لا يقبل لأحد شيئاً، ولا يأكل إلا من كسب يده، وثار بينه وبين الشافعية شر كبير بسبب الاعتقاد. مات سنة سبع وثلاثين بمنزله في مسجد القدم وكانت جنازته حافلة حمل نعشه على الرؤوس وكثر الأسف عليه، ورؤيت له منامات صالحة كثيرة قبل موته وبعده، رحمه الله وإيانا[١].

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/٢١٤ - ٢١٥.

الردماويّ

علي بن زيد بن علوان أبو الحسن اليمنيّ الردماويّ الزُّبيدّي القحطانيّ. وُلِد بردما - وهي في مشارف اليمن دون الأحقاف - سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ونشأ بها وجال في البلاد ثم حج وجاور مدة وسكن الشام ودخل العراق ومصر وبرع في فنون من حديث وفقه ونحو وتاريخ وأدب، وكان يستحضر كثيراً من الحديث والرجال، ويذاكر بكتاب سيبويه، ويميل إلى مذهب ابن حزم مع كثرة تطوره وتزييه في كل قليل بزي غير الذي قبله وخبرته بأحوال الناس، ثمّ تحول إلى البادية فأقام بها يدعو إلى الكتاب والسنة فاستجاب له حيار بن مهنا والد نعير فلم يزل عنده حتى مات ثم عند ولده نعير بحيث كان مجموع إقامته عندهما نحو عشرين سنة، ثمّ قدم القاهرة وقد ضعف بصره، ومات سنة ثلاث عشرة بالينبوع.

ومن نظمه:

ما العلم إلا كتاب الله والأثر	وما سوى ذاك لا عين ولا أثر
إلا هوى وخصومات ملفقة	فلا يغرنك من أربابها هذر
فعد عن هذيان القوم مكتفياً	بما تضمنت الأخبار والسور[1]

ابن سالم

علي بن سالم بن معالي نورالدين الماردينيّ القاهريّ الشافعيّ ويُعرف بابن سالم. ولُد سنة تسع وثمانين وسبعمائة تقريباً بنواحي جامع المارداني من القاهرة، وكان أبوه زياتاً فنشأ طالباً وحفظ القرآن وكتبا واشتغل بالفقه وأصوله والعربية والفرائض والحساب وغيرها ولازم الوليّ العراقيّ في الفقه والحديث وغيرهما وكذا لازم شيخنا أتم ملازمه وعظم اختصاصه به مع كونه رفيقاً له؛ وحج وناب في القضاء عنه.

(١) أهانه الأشرف ظلماً فإنه اشتكى له بسبب حكم فسأله عن

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/٢٢١ - ٢٢٢.

الشهود: لِم لم تكتب أسماءهم في الحكم؟ فقال: إنه ليس بشرط، فعارضه بعض الحاضرين بحيث كان ذلك سبباً للأمر بضربه خصوصاً وقد كلّمه بالتركي بعد أن كلمه السلطان بالعربيّ بقصد التقدم بذلك وغفل من كونه عيباً عندهم فضرب بحضرته وأخذ وأهين إهانة صعبة فخرج مكسور الخاطر لكونه مظلوماً وكثُر التوجع له ولم يكن إلا اليسير وابتدأ بالأشرف توعك موته.

ووَلِيَ قضاء صفد استقلالاً في سنة سبع وأربعين ثم انفصل عنه ثم أعيد فأقام على قضائها حتى مات سنة اثنتين وخمسين.

كان فاضلاً بارعاً مشاركاً في فنون، عارفاً باللسان التركيّ بحيث عمل قواعد النحو على اللغة التركية، حريصاً على الفائدة مديماً للمطالعة، خفيف الروح لطيف العشرة.

(١) كثيرُ التحري في الطهارة والأحكام والتردد في عقد النية بحيث يكاد يخرج من الصّلاة وقد أغلظ له شيخنا بسبب ذلك.

(٢) واتفق له مع بعض ظرفاء العوامّ أنه أحرم معه بصلاة المغرب فأطال جداً ثمّ لمّا سلم قال له: هل غلطتُ في الصلاة؟ فقال له العاميّ: أنا الذي غلطت بصلاتي معك[1].

ابن طاهر

علي بن طاهر بن معوضة بن تاج الدين الشيخ أبو الحسن ملك اليمن في عصرنا ويُعرف بابن طاهر. ولُد سنة تسع وثمانمائة واستولى على مملكة اليمن مملكة بني رسول بالسيف، وكان تملكه عدن في سنة ثمان وخمسين، وزبيد في التي تليها وتعز فيما بينهما، وملك حصن حب وهو حصن الملك ذورُعين - من ملوك حمير - المعقل الذي ليس في اليمن مثله حصانة ومنعة بعد محاصرته إياه سبع سنين، ودوخ العرب وضبط اليمن

(١) «الضوء اللامع»: ٥/٢٢٢ - ٢٢٣.

وأمنت الطرقات وأحيا البلاد بعد خرابها وأحبه الكافّة، وكان ملكاً عادلاً شجاعاً عاقلاً وللمعروف باذلاً وعلى الفقراء ونحوهم غيثاً هاملاً، صدقاته ومبراته ومعروفه فوق الوصف. ومن مآثره إحياء المجرى الذي بزبيد بعد خرابها وتجديد جامع بيت الفقيه ابن عجيل مع الوقف عليه ومسجد الدرسة بعدن بعد تزلزله بل زاد فيه وعمل عليها من البساتين والنخيل داخل زبيد وخارجها ما عمّ الانتفاع به وأنشأ مدرسة بتعز وأخرى ببلده ويُقال إنه وقف جميع ما في ملكه من عقار على المسلمين وجعل النظر في ذلك للمتولي من أولاد أخيه. وكان يرسل بألف دينار لفقراء مكة.

مات سنة ثلاث وثمانين[1].

السيد الفرضيّ

علي بن عبدالقادر الشريف نورالدين الحسنيّ الشاميّ الأصل القاهريّ الأزهريّ الفَرَضيّ الشافعيّ ويُعرف بالسيد الفرضيّ. وُلد سنة ثمان وثمانمائة تقريباً بالقاهرة ونشأ بها وجلس ببعض حوانيت البزّ تاجراً كأخواله فنفذ ما معه، وسافر إلى الشام ثم عاد فحضر مجالس شيخنا ولازم ابن المجديّ في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة ونحوها ملازمة كثيرة حتى أنه كما ذكر أخذ عنه قراءة أو سماعاً أشكال التأسيس في الهندسة وكان يسأله عن كل ما يعسر عليه فهمه فيحققه له ولهذا برع ولما مات تصدى للإقراء وتقدم في ذلك بحيث كاد أن ينفرد بِفَنّيِ الحساب المفتوح والغبار، والجبر والمقابلة والفرائض لعلمه بأصول الفنون المذكورة وطرق أعمالها واستحضاره لذلك بدون تكلف حتى أنه يقرىء مشكلاتها بدون مطالعة ولا مراجعة مع سرعته في التقرير وعدم النهضة لمجاراته فيه إلا مِن أفراد، وصنف في الفن الأول شرحاً على الوسيلة سماه: «الفوائد الجليلة في حل ألفاظ الوسيلة» في غاية الحسن وفي الفن الثاني شرحاً على المبتكرات

---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/٢٣٣.

لشيخه سماه «الفوائد الربانية في شرح المبتكرات الحسابية» غاية أيضاً في بابه إلى غير ذلك من بيان أعمال مشكلة وتنبيه على مناقشات مع أصحابها وتقييدات وإيضاحات وغير ذلك مما يقيده بهوامش الكتب لا سيما المقالة الثانية من مختصر شيخه في الفرائض والمعرفة لابن الهائم بل كان عنده عليها أوراق كثيرة التمس منه جماعة من الفضلاء إفرادها في تأليف فما تيسر. واشتهر بهذا الفن جداً وقُصِد بالمناسخات[1] ونحوها من الأعمال المشكلة، وكان يأخذ الأجرة على ذلك وكانت له مع ذلك مشاركة في الفقه وسمع شيئاً من العلوم الآلية إلا أنه لم يتصد لغير ما قدمته بل ولا برع في غيره، وقد أخذ عنه الفضلاء، ولو ألان كلمته وخفض جانبه وسمح بمعلوماته ولم يشح بها لكان كلمة إجماع ولهذا كان خاملاً فقيراً وحيداً، وفي آخر أمره حصل له قهر من أمة كان يتسرّى بها.

وسافر لمكة لقضاء الفرض في البحر فدخلها وهو متوعك وقاسى شدة وباع عامة ما كان صحبته من الكتب أو جلها واستمر متضعفاً حتى حج وزار ورجع إلى وطنه فسلمت عليه وهو مكروب واستمر إلى أن مات سنة سبعين ولم يخلف عاصباً فبيعت تركته بعد يومين ولم يوجد فيها شيء من كتب فنونه، وقيل إنه كان يقول إنه باعها بمكة ولست أقبل منه ذلك بل عندي أنها إن لم يكن أوصى بها لأحد فقد اختُلست، رحمه الله وعفا عنه وإيانا[2].

التركيّ

علي بن عبدالله التركيّ نزيل القرافة بالجبل المقطم، قال شيخنا في «إنبائه»: كان للناس فيه اعتقاد كبير وتحكى عنه كرامات وكانت شفاعته لا تُرد. مات سنة أربع عن أربع وثمانين.

---

(١) حساب متقدم من حسابات الفرائض.

(٢) «الضوء اللامع»: ٥/٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(١) كان أبوه من المماليك السلطانية فنشأ هو في بيت الملك الناصر محمد بن قلاوون الكبير، فلما كبر خرجت في وجهه قوبا فتألم منها وعالجها فلم ينجع فيها دواء فوجد شيخاً يُقال له عمر المغربيّ فطلب منه الدعاء فاستدعاه ولحس القوبا بلسانه فشفاه الله سريعاً فاعتقده ورمى الجندية وتبع الشيخ المشار إليه وسلك على يديه وانقطع إلى الله مع كونه لم يترك زي الجندية ولا أخذ في يده سبحة ولا لبس مُرَقّعة بل كان مقتصداً في مأكله وملبسه وكلما يفتح به عليه يتصدق به ويؤثر غيره.

(٢) وكان يقول: ما رأيت أروع من الشيخ عمر ولا أهيب من الناصر، وأعرف الناس من أيام الناصر وما رأيت لهم عناية بأمر الدين ولكن كان فيهم حياء وحشمة تصدهم عن أمور كثيرة، قال شيخنا بعد حكاية هذا: فكيف لو أدرك زماننا هذا، وأقول: فكيف لو أدرك زماننا هذا[١].

(٣) ومما حكاه صاحب الترجمة أنه مشى مع شيخه عمر لزيارة القرافة في وقت القائلة فكان لا يمشي إلا في الشمس ولا يستظل، فقلت له في ذلك؟ فقال إن القرافة مقبرة للمسلمين لا تملك ولا يحاز منها موضع فهذه الترب قد وضعت بغير حق فكيف يحل الاستظلال بها[٢].

زين الدين الحسينيّ

علي بن محمد بن أحمد الزين أبو الحسن الحسنيّ من بيت لهم جلالة وشهرة. كان إنساناً حسناً لطيفاً حسن الأخلاق كريماً، باشر الإنشاء بحلب سنين وعد في الأعيان بحيث عين لنظر الجيش بها.

(٤) لما عاقب التتار الناس أمسكوه وملأوا سطل نحاس من الماء والملح ليسقوه إياه وشرعوا في ربطه فجاء ثور فشربه في لحظة فتعجبوا وأطلقوه ولم يعاقبوه.

---

(١) فكيف لو أدرك زماننا هذا، رحمه الله.

(٢) «الضوء اللامع»: ٥/٢٥٥.

مات بعد ذلك بيسير بريحا في سنة ثلاث[1].

ابن عُدَيْس

علي بن محمد بن علي النحراريّ، قاضيها كآبائه المالكيّ، ويُعرف بابن عُدَيْس تصغير عدس. وُلد سنة تسع وسبعين وسبعمائة بالنحرارية وقرأ بها القرآن وحفظ تنقيح القرافيّ.

(١) حج مراراً أولها سنة إحدى وتسعين وجاور، قال: وحفظت هناك عمدة الأحكام والرسالة الفرعية وألفية ابن مالك في نحو عشرة أشهر وكنت إذا عسر عليّ الحفظ شربت من ماء زمزم وتوضأت وصليت في الملتزم ودعوت فأحفظ، قال: وعرضت هذه الكتب الثلاثة على المجد اللغويّ وغيره وبحثت في الفقه وأصوله.

وولي قضاء بلده مدة طويلة وحمدت سيرته، وكان ليناً هيناً عليه سكينة وعنده محاسنة ومسالمة للناس.

مات ببلده سنة أربعين وكان قد عزم على الحج فيها فعاقه المرض المستمر به حتى مات رحمه الله وعفا عنه[2].

الدلّال

علي بن محمد العوفيّ المصريّ المناويّ، الدّلال نزيل مكة. عاميّ طريف، ينظم ويتكسب بسمسرة الرقيق.

(٢) من نظمه قوله لما وقع السيل في مكة سنة سبع وثلاثين:

أتى لمكة سيل قد أحاط بها ... فأغرق الناس ليلاً وهو يغشاهم

فعند هذا لسان الحال أخبرنا ... هذا جزاؤهم مما خطاياهم[3]

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢٨٤/٥.

(٢) «الضوء اللامع»: ٣٢٢/٥.

(٣) يشير إلى قوله تعالى في سورة نوح: **﴿مما خطاياهم أغرقوا فأدخلوا ناراً﴾** و «خطاياهم» و «خطيئاتهم» قراءتان متواترتان.

(١) وقوله لما وقع الحريق بجدة في شوال سنة أربعين:

لما طغوا ساكني جدة وصيّروا لعبهم تجارة
بهم أحاط الجحيم صارت وقودها النَاس والحجارة

مات سنة ثلاث وأربعين بمكة، ودُفِن بالمعلاة[١].

ابن الشِّحنة

علي بن محمد بن محمد أبو الحسن الحلبيّ الحنفيّ ويُعرف بابن الشحنة. ولُد سنة ست وخمسين وسبعمائة وحفظ القرآن والمختار.

(٢) وكان فاضلاً له نظم من أحسنه قوله مما نفذ ابن أخيه وصيته بإلقائهما معه في قبره:

إلٰهي قد نزلت بضيق لحد بأوزار ثقال مع عيوب
وعفوك واسع وحماك حصن وأنت الله غفار الذنوب

(٣) قال ومن العجيب كونه لم يكن يلحن مع عدم اشتغاله بالعربية ولكنه كان يحكي أنه رأى النبي ﷺ وسأله في إصلاح لسانه فأطعمه حلوى عجمية فكان لا يخطىء العربية.

مات سنة إحدى وثلاثين[٢].

الهُوِّيّ

علي بن محمد بن محمد النعمان الأنصاريّ الهُوِّيّ نسبة لِهُو بالقرب من قوص بالصعيد الأعلى. ولد في حدود الأربعين وسبعمائة واشتغل بالفقه ثم تعانى التجارة ثم انقطع وكان كثير المحبة في الصالحين يحفظ كثيراً من مناقبهم سيما أهل الصعيد ويكثر التردد إلى القاهرة، وهو عم كريم الدين محتسب القاهرة في سلطنة الناصر فرج.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/١١.
(٢) «الضوء اللامع»: ٦/٢٠.

(١) ذكره شيخنا في «إنبائه» وقال: ذكر لي بعض أقاربه أنه مات سنة إحدى وقال اجتمعت به في مصر وفي مدينته «هُو» وكان يحكي عن ابن السراج قاضي قوص في زمانه أنه كان في منزله فخرج عليه ثعبان مهول النظر ففزع منه فضربه فقتله فاحتُمل في الحال عن مكانه بحيث فقد من أهله فأقام مع الجن إلى أن حملوه إلى قاضيهم فادّعى عليه وليّ المقتول فأنكر فقال له القاضي: على أيِّ صورة كان المقتول؟ فقيل: في صورة ثعبان، فالتفت القاضي إلى من بجانبه وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تزيا لكم فاقتلوه» فأمر القاضي بإطلاقه فرجعوا به إلى منزله[1].

ابن وفَا

علي بن محمد بن محمد بن وفا أبو الحسن القرشيّ الأنصاريّ السكندريّ الأصل المصريّ الشاذليّ المالكيّ الصوفيّ ويُعرف كسلفه بابن وفا.

وُلد سنة تسع وخمسين وسبعمائة بالقاهرة ومات أبوه وهو صغير فنشأ هو وأخوه في كفالة وصيهما الشمس محمد الزيلعي فأدبهما وفقههما، وكان هذا على أحسن حال وأجمل طريقة فلما بلغ سبع عشرة سنة جلس مكان أبيه وشاع ذكره وبعد صيته وانتشر أتباعه وذكر بمزيد اليقظة وجودة الذهن والترقي في الأدب والوعظ.

قال شيخنا في إنبائه: كان يقظاً حاد الذهن، اشتغل بالأدب والوعظ وحصل له أتباع وأحدث ذكراً بألحان وأوزان يجمع الناس عليه، وله نظم كثير واقتدار على جلب الخلق مع خفة ظاهرة اجتمعت به مرة في دعوة فأنكرت على أصحابه إيماءهم إلى جهته بالسجود فتلا هو وهو يدور في وسط السماع ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾، فنادى من كان حاضراً من الطلبة: كفرت، فترك المجلس وخرج هو وأصحابه.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/ ٢٠ - ٢١.

قال شيخنا: وله من التصانيف «الباعث على الخلاص في أحوال الخواص»، «والكوثر المترع من الأبحر الأربع»، يعني في الفقه، وديوان شعر وموشحات وفصول مواعظ وشعره ينعق بالاتحاد المفضي إلى الإلحاد وكذا نظم أبيه في أواخر أمره، ونصب في داره منبراً وصار يصلي الجمعة هو ومن يصاحبه مع أنه مالكيّ المذهب يرى أن الجمعة لا تصح في البلد ولو كبر إلا في المسجد العتيق من البلد.

وقال في معجمه إنه اشتغل بالأدب والعلوم وتجرد مدة وانقطع ثم تكلم على الناس ورتب لأصحابه أذكاراً بتلاحين مطبوعة استمال بها قلوب العوام ونظم ونثر وكان أصحابه يتغالون في محبته وفي تعظيمه ويفرطون في ذلك.

وقال في ترجمة أبيه من درره إنه أنشأ قصائد على طريق ابن الفارض وغيره من الاتحادية ونشأ ابنه على طريقته فاشتهر في عصرنا كاشتهار أبيه ثم أخوه أحمد من بعده ثم ذريتهم ولأتباعهم فيهم غلو مفرط.

وقال المقريزيّ إنه كان جميل الطريقة مهاباً معظماً صاحب كلام بديع ونظم جيد وتعددت أتباعه وأصحابه ودانوا بحبه واعتقدوا رؤيته عبادة وتبعوه في أقواله وأفعاله وبالغوا في ذلك مبالغة زائدة وبذلوا له رغائب أموالهم هذا مع تحجبه وتحجب أخيه التحجب الكثير إلا عند عمل الميعاد أو البروز لقبر أبيهم أو تنقلهم إلى الأماكن بحيث نالا من الحظ ما لم يرتق إليه من هو في طريقهم حتى مات سنة سبع. وللحافظ الزين العراقيّ: «الباعث على الخلاص من حوادث القصاص» أشار فيه للرد على صاحب الترجمة[1].

البعدانيّ

علي بن محمد بن يحيى الشيخ صالح نورالدين البعدانيّ اليمنيّ المكيّ؛ قطنها أكثر من أربعين سنة.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/٢١ - ٢٢.

(١) كان صالحاً مديماً للعبادة يعتمر كل يوم من الأشهر الثلاثة[١] مرتين ويحي الليل بالطواف والصلاة والتلاوة وينام في الربع الأخير منه، قائماً بحوائج من يقصده، زائد الاحتمال، كثير السخاء والبشاشة سيما لأهل الحرمين بل أهل المدينة بحيث يكون يوم قدومه على أهلها عندهم كالعيد.

زار القدس واعتمر منه وهو القائم بعمارة الرباط المشهور به لجهة فرجان: امرأة الأشرف بن الأفضل بل صارت ترسل إليه في كل سنة الطعام والطيب والفرش والشمع وما يحتاج إليه فيعمل للفقراء الأسمطة[٢] في رمضان وربيع والأعياد بل شرع في عمارة ما تقدم من مسجد الخيف ثم في بناء بئر على التي بدرب الماسي وكانت قد انهدمت، كل ذلك مع الكمال في لباسه وريحه وطعامه ونحافة جسمه وشدة ورعه وهو كلمة اتفاق معتقَد بين سلاطين اليمن وشرفاء صنعاء ومكة وأمراء مصر بل بينه وبين أبي فارس صاحب المغرب مكاتبة وصحبة بحيث كان يرسل إليه للبيمارستان كل عام مبلغاً جيداً، وأما صاحب مكة حسن بن عجلان فكان يجله ويعظمه حتى قال: ما رأيت في المشايخ أعرف بأحوال الطوائف على اختلاف طبقاتهم منه، وترجمته محتملة للتطويل.

مات سنة إحدى وثلاثين وقيل في التي قبلها ودُفِن بالشبيكة أسفل مكة بوصية منه، رحمه الله وإيانا[٣].

التوريزيّ

علي بن محمد بن يوسف نورالدين التوريزيّ. نشأ في كنف أبيه وكان كبير التجار، فلما مات اشتهر بالتجارة أخواه وتعانى هذا السفر إلى بلاد الحبشة والتجارة بها إلى أن اشتهر وصارت له عندهم منزلة وصورة كبيرة

---

(١) هي رجب وشعبان ورمضان.
(٢) الموائد التي يُمد عليها الطعام.
(٣) «الضوء اللامع»: ٢٦/٦ - ٢٧.

ووجاهة وكلمة مقبولة لقيامه في خدمته بما يرومونه من النفائس التي يحضرها لهم من القاهرة وغيرها فلما أكثر ذلك نقم عليه بعض الناس موالاته للكفار منهم، ونسب لشراء الأسلحة والخيول لهم وعثر عليه مرة بشيء من ذلك في الدولة المؤيدية فاستتيب وأقسم أنه لا يعود، فلما كان في أثناء سنة إحدى وثلاثين زعم بعض المتعصبين عليه أنه توجه رسولاً من ملك الحبشة إلى ملك الفِرَنْج يستحثه على المسلمين، وهذا عندي غير مقبول لأن معتقد الطائفتين مختلف ويُقال: إنه دخل بلاد الفِرَنج بسبب تحصيل صليب عندهم بلغ أمره ملك الحبشة فأحب رؤيته ولما شاع ذلك عنه خشي على نفسه فنزل بمكان قريب من خانقاه سرياقوس فنمّ عليه عبدالسلام الجبرتي ووشى به إلى السلطان فأمر والي القاهرة فقبض عليه فوجد معه أمتعة من ملابس الفِرَنج وشيء من سلاح وناقوسين من ذهب وكتاب بالحبشية فعُرِّب فكان إليه مراسلة من صاحب الحبشة يستدعي منه أشياء يصوغها له من صلبان ونواقيس ويحضه على شراء مسمار من المسامير التي سمر بها المسيح بزعمهم، فحبس ثم عقد له مجلس ففوض السلطان أمره للمالكيّ فتسلمه وسمع عليه الدعوى فأنكر فشهد عليه الصدر العجمي والشيخ نصرالله وآخرون ومستند أكثرهم الاستفاضة[1] فأعذر إليه فيمن شهد فادعى عداوة بعضهم وأعذر لبعضهم فحكم بقتله بشهادة من أعذر لهم فضربت عنقه بين القصرين تاسع عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وهو يعلن بالشهادتين وتبين لأكثر الناس أنه مظلوم ولم يمتع من شهد عليه بل لحق به بعد قليل. هكذا ترجمة شيخنا في إنبائه، قال: وذكر لي خادمي فاتن الطواشيّ الحبشيّ وكان هو الجالب له من الحبشة أنه كان هناك يواظب على الصلاة والتلاوة ويؤدب من لم يُصلّ من أتباعه وعنده فقيه يقرىء أولاده وأتباعه القرآن وللمسلمين به نفع وهم بسببه في بلاد الحبشة في إكرام واحترام، والله أعلم بغيبه[2].

---

(١) أي استفاضة أمره وشهرته مع أنهم لم يشاهدوه، وهذا لا يجوز.

(٢) «الضوء اللامع»: ٢٨/٦ - ٢٩.

ابن المُغلي

علي بن محمود بن أبي بكر العلاء أبو الحسن السَّلَميّ ثم الحمويّ الحنبليّ نزيل القاهرة ويُعرف بابن المغلي. كان أبوه تاجراً من العراق وسكن سَلَمْيَة[1] فعرف بذلك نسبة إلى المغل وولد له قبل هذا ولد نشأ على طريقته ثم ولد له هذا سنة إحدى وسبعين وقيل سنة ست وستين ـ ظناً ـ وسبعمائة بحماة فحفظ القرآن وله تسع سنين وأذهب عليه أخوه ما خلفه أبوهما له من المال.

وكان غاية في الذكاء وسرعة الحفظ وجودة الفهم فطلب العلم وتفقه ببلاده ثم بدمشق وسمع مسند أحمد، ومن محافيظه في الحديث «المحرر» لابن عبدالهادي وفي فروعهم أكثر «الفروع» لابن مفلح، وفي فروع الحنفية «مجمع البحرين»، وفي فروع الشافعية «التمييز» للبارزيّ، وفي الأصول مختصر ابن الحاجب، وفي العربية «التسهيل» لابن مالك، وفي المعاني والبيان «تلخيص المفتاح» وغير ذلك من الشروح والقصائد الطوال التي كان يكرر عليها حتى مات ويسردها سرداً مع استحضار كثير من العلوم خارجاً عن هذه الكتب بحيث كان لا يدانيه أحد من أهل عصره في كثرة ذلك وإن كان يوجد فيهم من هو أصح ذهناً منه، كل هذا مع النظم والنثر والكتابة الحسنة والتأني في المباحثة ومزيد الاحتمال بحيث لا يغضب إلا نادراً ويكظم غيظه ولا يشفي صدره، وإكرامِ الطلبة وإرفادهم بماله وعدم المكابرة.

(١) وصفه شيخنا بالزهو الشديد والبأو الزائد والإعجاب البالغ بحيث إنه سمعه يقول للجلال البُلقينيّ مرة وقد قال له: أنت إمام العربية، فقال له: لا تخصص، وسمعه يقول للشمس بن الديريّ وقد قال عنه: هذا عالم بمذهب الحنفية فقال: قل شيخ المذاهب انتهى. ووصفه بعضهم فيما قيل

---

[1] بلدة من أعمال حماة، انظر «معجم البلدان»: ٣/٢٤٠ ـ ٢٤١.

بأنه يحيط علماً بالمذاهب الأربعة فرد عليه وقال: قل بجميع المذاهب، واتفق أنه بحث مع النظام السيراميّ وناهيك به بحضرة المؤيد فقال العلاء: يا شيخ نظام الدين اسمع مذهبك مني وسرد المسئلة من حفظه فمشى معه فيها ولا زال ينقله حتى دخل به إلى علم المعقول فتورط العلاء فاستظهر النظام هذا وصاح في الملأ: طاح المحفوظ هذا مقام التحقيق فلم يرد عليه.

وأول ما ولي قضاء بلده بعد التسعين وهو ابن نيف وعشرين سنة ثم قضاء حلب في سنة أربع وثمانمائة واستمر بها إلى أثناء التي تليها ثم تركها ورجع إلى حلب على قضائه، وعرف بالعلم والدين والتعفف والعدل في قضائه مع التصدي للاشتغال والإفتاء والإفادة والتحديث فولاه المؤيد قضاء الحنابلة بالديار المصرية مضافاً لقضاء بلده بعناية ناصرالدين بن البارزيّ حيث نوّه عنده بذكره وأشار عليه بولايته وذلك سنة ثماني عشرة فتوجه إلى القاهرة وكان يستنيب في قضاء بلده، ولم يزل على قضائه وجلالته إلى أن ابتدأ في التوعك إذ سقط من سلم وذلك بعد أن كان عزم على الحج في هيئة جميلة وتأنق زائد فانقطع واستمر متمرضاً ثم عرض له قولنج فتمادى به إلى أن أعقبه الصرع ومات منه سنة ثمان وعشرين ولم يخلف بعده في مجموعه مثله فقد كان في الحفظ آية من آيات الله قل أن ترى العيون فيه مثله رحمه الله وإيانا.

وخلف مالاً جماً ورثه ابن أخيه محمود، وكان شديد الميل إلى التجارة والزراعة ووجوه تحصيل الأموال كما قاله شيخنا قال ومع طول ملازمته للاشتغال ومناظرة الأقران والتقدم في العلوم لم يشتغل بالتصنيف وكنت أحرضه على ذلك لما فيه من بقاء الذكر فلم يوفق لذلك[1].

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/٣٤ - ٣٦.

عمر بن رسلان بن نصير السراج أبو حفص الكناني البُلقينيّ ثم القاهريّ الشافعيّ؛ وُلِد سنة أربع وعشرين وسبعمائة ببُلقينة من الغربية وحفظ بها القرآن - وصلى به وهو ابن سبع - والشاطبية و«المحرر» و«الكافية الشافية» في النحو لابن مالك والمختصر الأصليّ، وأقدمه أبوه القاهرة وهو ابن اثنتي عشرة سنة فعرض محافيظه على جماعة كالتقيّ السبكيّ والجلال القزوينيّ وبهرهم بذكائه وكثرة محفوظه وسرعة فهمه ثم رجع به ثم عاد معه في سنة ثمان وثلاثين وقد ناهز الاحتلام فاستوطن القاهرة وحضر الدروس، وسمع الحديث وحج مع والده سنة أربعين ثم بمفرده بعدها.

(١) زار بيت المقدس واجتمع بالعلائيّ وعظمه وسكن الكاملية مدة وكان يحكي أنه أول ما دخلها طلب من ناظرها بيتاً فامتنع واتفق مجيء شاعر بقصيدة امتدحه بها وأنشده إياها بحضرته فقال له: قد حفظتها، فقال له الناظر: إن كان كذلك أعطيتك بيتاً قال: فأوردتها له سرداً فأعطاني بيتاً.

أذن له الأئمة بالإفتاء والتدريس وعظمه أجلاء شيوخه كأبي حيان والأصبهانيّ جداً، وولي إفتاء دار العدل رفيقاً للبهاء السبكيّ ثم قضاء الشام سنة تسع وستين عوضاً عن التاج السبكيّ فباشره دون السنة وجرت له معه أمور مشهورة وتعصبوا عليه مع قول العماد بن كثير له حينئذ: أذكرتنا سمت ابن تيمية، ونحوه قول ابن شيخ الجبل: ما رأيت بعد ابن تيمية أحفظ منك. ودخل حلب في سنة ثلاث وتسعين صحبة الظاهر برقوق ومرة أخرى بعدها وأشغل بها وعين لقضاء مصر غير مرة ولكنه لم يتم مع ارتقائه لأعظم منه حتى صار يجلس فوق كبار القضاة بل وَلِيَ ابنه في حياته وشاع ذكره في الممالك قديماً وحديثاً وعظمه الأكابر فمن دونهم، ومما كتبه له أبو حيان أنه صار إماماً ينتفع به الفن العربيّ مع ما منحه الله من علمه بالشريعة المحمدية بحيث نال في الفقه وأصوله الرتبة العليا وتأهل للتدريس والقضاء

والفتيا. وقال صهره ابن عقيل: هو أحق الناس بالفتيا في زمانه. وقال ابن حجي: كان أحفظ الناس لمذهب الشافعي واشتهر بذلك وطبقة شيوخه موجودون؛ قدم علينا دمشق قاضياً وهو كهل فبهر الناس بحفظه وحسن عبارته وجودة معرفته وخضع له الشيوخ في ذلك الوقت واعترفوا بفضله ثم رجع وتصدّى للفتيا فكان معول الناس عليه في ذلك وكثرت طلبته فنفعوا وأفتوا ودرسوا وصاروا شيوخ بلادهم وهو حي، قال وله اختيارات في بعضها نظر كثير، وله نظم وسط وتصانيف كثيرة لم تتم. وقال الأذرعي: لم أر أحفظ لنصوص الشافعي منه بل قال البرهان الحلبيّ رأيته رجلًا فريد دهره لم تر عيناي أحفظ للفقه وأحاديث الأحكام منه وقد حضرت دروسه مراراً وهو يقرىء في مختصر مسلم للقرطبي يقرؤه عليه شخص مالكيّ ويحضر عنده فقهاء المذاهب الأربعة فيتكلم على الحديث الواحد من بكرة إلى قريب الظهر وربما أذن الظهر وهو لم يفرغ من الحديث؛ قال ولم أر أحداً من العلماء الذين أدركتهم بجميع البلاد واجتمعت بهم إلا وهم يعترفون بفضله وكثرة استحضاره وأنه طبقة وحده فوق جميع الموجودين حتى أن بعض الناس يقدمه على بعض المتقدمين، ونحوه قول شيخنا: إنه استمر مقبلًا على الاشتغال متفرغاً للتدريس والفتوى إلى أن عمر وتفرد ولم يبق من يزاحمه وكان كل من اجتمع به يخضع له لكثرة استحضاره حتى يكاد يقطع بأنه يحفظ الفقه سرداً من أول الأبواب إلى آخرها لا يخفي عليه منه كبير أمر.

(١) وذكر لي[١] البرهان أن الشيخ قال له إنه كان يحفظ من «المحرر» صفحة من وقت ابتداء فلان الأعمى صلاة العصر إلى انتهائه، قال: ولم يكن يطول في صلاته.

(٢) ثم قال شيخنا: وذكر الكمال الدميريّ أن بعض الأولياء قال له

---

(١) أي: للحافظ بن حجر.

إنه رأى قائلاً يقول إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهـذه الأمة من يجدد لها دينها بدئت بعمر[1] وخُتمت بعمر.

قال شيخنا: واشتهر اسمه في الآفاق وبعد صيته إلى أن صار يضرب به المثل في العلم ولا تركن النفس إلاّ إلى فتواه، وكان موفقاً في الفتوى يجلس لها من بعد صلاة العصر إلى الغروب ولا يأنف إذا أشكل عليه شيء من مراجعة الكتب ولا من تأخير الفتوى عنده إلى أن يحقق أمرها.

وكان فيه من قوة الحافظة وشدة الذكاء ما لم يشاهد في مثله، وفي شرح ذلك طول، قال: وكان وقوراً حليماً مهيباً سريع البادرة سريع الرجوع ذا همة عالية في مساعدة أصحابه وأتباعه.

(١) قال: وكان مع توسعه في العلوم يتعانى النـظم فيأتي منـه بما يستحي من نسبته إليه وربما لم يُقِم وزنه.

وكان معظماً عند الأكابر، عظيم السمعة عند العوام إذا ذكر خضعت له الرقاب حتى كان الإسنويّ يتوقى الإفتاء مهابة له لكثرة ما كان ينقب عليه في ذلك، قال: وكانت آلة الاجتهاد في الشيخ كاملة إلا أن غيره في معرفة الحديث أشهر وفي تحرير الأدلة أمهر.

وكـان عظيم المـروءة جميل المـودة كثير الاحتمـال مهيباً مـع كثرة المباسطة لأصحابه والشفقة عليهم والتنويه بذكرهم، قال: ولم يكمل من مصنفاته إلا القليل لأنه كان يشرع في الشيء فلسعة علمه يطول عليه الأمر حتى أنه كتب من شرح البخاريّ على نحو عشرين حديثاً مجلدين وقال الصلاح الأقفهسيّ: لولا أن نوع الإنسان مجبول على النسيان لكان معدوماً فيه فلم يكن في عصره في الحفظ وقلة النسيان من يماثله بل ولا يدانيه، وَلِيَ قضاء دمشق وهي إذ ذاك غاصة بالفضلاء فأقروا له بالتقدم في العلوم ولم ينازعه واحد منهم في منطوق ولا مفهوم.

---

(١) هو عمر بن عبد العزيز.

(١) وكان في صفاء الخاطر وسلامة الصدر بمكان بحيث يحكى عنه ما يفوق الوصف. واعتقاده في الصالحين وراء العقل.

وتنفيره عن ابن عربيّ ومطالعة كتبه أشهر من أن أصفه، وقيامه في إزالة المنكر من إبطال المكوس والخانات ونحوها شهير، وردعه لمن يخوض فيما لا يليق مستفيض.

مات حادي عشر ذي القعدة سنة خمس وثمانمائة بالقاهرة وكثر أسف الناس عليه، قال شيخنا: وبلغتني وفاته وأنا مع الحجيج رحمه الله وإيانا[١].

الأسوانيّ

عمر بن عبدالله بن عامر الزين الأنصاري الأسوانيّ القاهريّ الشاعر. ولد بأسوان سنة اثنتين وستين وسبعمائة، وقدم القاهرة فأقام بها مدة ثم توجه إلى دمشق وأخذ الأدب عن ابن خطيب داريا ثم عاد إلى القاهرة وقطنها حتى مات، قال شيخنا في «أنبائه»: تعانى الآداب ودخل الشام فأخذ عن أدبائها ثم القاهرة واستوطنها من سنة تسعين وسلك طريق المتقدمين في النظم لكنه عريض الدعوى كثير الازدراء لشعراء أهل عصره لا يعد أحداً منهم شيئاً ويقول شعرهم بعر، ولم يكن نظمه بقدر دعواه إلا أن ابن خلدون كان يطريه ويشهد له بأنه أشعر أهل عصره بعد خطيب ابن داريا، وكان مشاركاً في لغة وقليل عربية، وقد حضر عندي في إملاء فتح الباري وأملى على الطلبة من نظمه أبياتاً من الرجز في معرفة أسواق العرب في الجاهلية، واتفق بأخرة أنه مدح أبا فارس صاحب تونس فأرسل إليه بصلة قيل إنها مائة دينار فقبضها وهو موعوك فنزل بالبيمارستان فطال ضعفه ثم عوفي فذكر لبعض أصحابه أنه كان دفنها هي وغيرها في مكان فلما رجع ووجدها جعلها في مكان آخر وانتكس فعاد إلى المرستان فأقام أياماً يسيرة

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/٨٥ ـ ٩٠.

ثم مات سنة ست وعشرين وقد جاز الستين ولم توجد الذهبية المذكورة ولا غيرها.

(١) ومن نظمه قوله:

إن ذا الدهر قد رماني بقوم	هم على بلوتي أشد حثيثاً
إن أفُهْ بينهم بشيء أجدهم	لا يكادون يفقهون حديثاً

(٢) وأورد في معجمه الرجز المشار إليه وهو:

إن شئت أن تعرف أسواق العرب	لتقتفي الآثار من أهل الأدب
فدومة الجندل والمشعر	وهذا القول عندي أظهر
كذا فجار ودثار الشحر	وعدن من دون هذي البحر
صنعاء منها وعكاظ الزاهية	وذو المجاز وحباش تاليه
وآخر الأسواق عند ذي الرشد	مجنة بها فكمل العدد

(٣) وقال التقيّ المقريزيّ في عقوده: كان يقول الشعر ويشدو شيئاً من العربية مع تعاظم وتطاول وإعجاب بنفسه واطراح جانب الناس لا يرى أن أحداً وإن جلّ يعرف شيئاً بل يصرح بأن أبناء زمانه كلهم ليسوا بشيء وأنه هو العالم دونهم وأنه يجب على الكافة تعظيمه والقيام بحقوقه وبذل أموالهم كلها له لا لمعنى فيه يقتضى ذلك سوى سوء طباع، وكان يحتذي[1] بشعره فلا يجد من يوفيه ما يرى لنفسه من الحق بزعمه فيعود إلى هجاء من يمدحه ثم رأى أن الناس أقل من أن يُمدحوا فهجا الكافة دهراً ثمَ أعرض عن هجائهم لاحتقاره إياهم فلذا كان مشنوءاً عند الناس مبغضاً إليهم لكثرة مدحه لنفسه ودعواه العريضة في فنون العلم التي لم يرزق منها غير شعر أكثره وبال عليه وقليل من نحو غير محتاج إليه هذا مع خلوه من العلوم الشرعية بأسرها وجهله بها، وتردد إليّ زيادة على خمس وثلاثين سنة وأنشدني كثيراً من شعره وأورد من ذلك قوله لما تحكم

---

(١) أي يطلب عطاءً، انظر «لسان العرب»: حذا.

الشاميون بديار مصر في الدولة المؤيدية مما امتحن بسببه وضرب وسُجن:

(١) شكت الشـآم ثقالـة ممن بها | جبلوا على شيء يفـوق جبالهـا
فلذاك في مـصـر لقـلة حـظهـا | دون الأراضـي خففت أثقـالهـا

(٢) وقوله:

وفتيـة فتكـوا بـالـظلم أزمنـة | كـأنـمـا هـادم اللذات آمنـهـم
حتى انتهوا وأتى ما كان يوعـدهم | فـأصبحوا لا تُـرى إلا مساكنهم[١]

ابن الملقِّن

عمـر بن علي بن أحمـد السـراج أبـو حفص الأنصـاريّ الأنـدلسيّ التكروريّ الأصل المصريّ الشافعيّ ويُعرف بابن الملقّن. وُلد سنة ثلاث وعشرين بالقاهرة، وكان أصل أبيه أندلسياً فتحول منها إلى التكرور وأقرأ أهلها القرآن وتميز في العربيـة وحصل مـالا ثم قدم القـاهرة فـأخذ عنـه الإسنويّ وغيره ثم مات ولصاحب الترجمة سنة فأوصى به إلى الشيخ عيسى المغربي رجل صالح كان يلقن القرآن بجامع طولون فتزوج بأمه ولذا عرف الشيخ به حيث قيل له: ابن الملقِّن. وكان فيما بلغني يغضب منها بحيث لم يكتبها بخطه إنما كان يكتب غالباً ابن النحـويّ وبها اشتهـر في بلاد اليمن، ونشأ في كفالة زوج أمه ووصيه فحفظ القرآن والعمدة وشَغَله مالكياً ثم أشار عليه ابن جماعة أحـد أصحاب أبيـه أن يقرئـه المنهاج الفـرعيّ فحفظه، قال شيخنا: إنه بلغه أنه حضر في الطاعون العام بيع كتب بعض المحدثين فكان الوصيّ لا يبيع إلا بالنقد الحاضر قال فتوجهت إلى منزلي فأخذت كيساً من الدراهم ودخلت الحلقة فصببته فصرت لا أزيد في كتاب شيئاً إلا قال: بع له فكان فيما اشتريته مسند الإمام أحمد بثلاثين درهماً، قال البرهان الحلبيّ إنه اشتغل في كل فن حتى قرأ في كل مذهب كتاباً وأُذِن له بالإفتاء فيه ودخل الشام في سنة سبعين واجتمع بالتاج السبكي ونوه

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/٩٥ ـ ٩٧.

به واشتغل بالتصنيف وهو شاب، واشتهرت في الآفاق تصانيفه وكان يقول إنها بلغت ثلثمائة تصنيف وشغل الناس فيها وفي غيرها قديماً، وحدث بالكثير منها وبغيرها من مروياته وانتفع الناس بها انتفاعاً صالحاً من حياته وهلم جرا، وقال شيخنا: إنه كان يكتب في كل فن سواءً أتقنه أو لم يتقنه ولم يكن في الحديث بالمتقن ولا له ذوق أهل الفن.

(١) وبالجملة فقد اشتهر اسمه وطار صيته وكانت كتابته أكثر من استحضاره ولهذا كثر الكلام فيه من علماء الشام ومصر حتى قال ابن حجي: كان لا يستحضر شيئاً ولا يحقق علماً وغالب تصانيفه كالسرقة من كتب الناس، زاد غيره نسبته للعجز عن تقرير ما لعله يضعه فيها ونسبته إلى المجازفة وكلاهما غير مقبول من قائله ولا مرضي.

وقال شيخنا في «إنبائه»: إنه كان مديد القامة حسن الصورة، يحب المزاح والمداعبة مع ملازمة الاشتغال والكتابة، حسن المحاضرة جميل الأخلاق كثير الإنصاف شديد القيام مع أصحابه موسعاً عليه في الدنيا مشهوراً بكثرة التصانيف حتى كان يُقال إنها بلغت ثلثمائة مجلدة ما بين كبير وصغير وعنده من الكتب ما لا يدخل تحت الحصر منها ما هو ملكه ومنها ما هو من أوقاف المدارس سيما الفاضلية ثم إنها احترقت مع أكثر مسوداته في أواخر عمره ففقد أكثرها وتغير حاله بعدها فحجبه ولده إلى أن مات، وقال في معجمه إنه قبل احتراق كتبه كان مستقيم الذهن.

(٢) قلت وأنشده من نظمه مخاطباً له:

لا يزعجنك يا سراج الدين أن ... لعبت بكتبك ألسن النيران
لله قد قربتها فتقبلت ... والنار مسرعة إلى القربان

(٣) قال وهؤلاء الثلاثة العراقيّ والبُلقينيّ وابن الملقن كانوا أعجوبة هذا العصر على رأس القرن: الأول في معرفة الحديث وفنونه، والثاني في التوسع في معرفة مذهب الشافعي، والثالث في كثرة التصانيف وقُدِّر أن كل

واحد من الثلاثة ولد قبل الآخر بسنة ومات قبله بسنة فأولهم ابن الملقن ثم البلقينيّ ثم العراقيّ.

مات سنة أربع ودُفِن على أبيه، وتأسف الناس على فقده[1].

عوض

رجل صالح كان يلازم مجلس الإملاء عند شيخنا وله فيه حسن اعتقاد وتبدو منه أشياء ظريفة كقوله وقد غاب الزين رضوان المستملي مرة: يا ابني يا أحمد اتخذ لك رضوانين أو ثلاثة، وقال مرة وقد قال له شيخنا يا شيخ عوض: فعل الله بمن سماني عوضاً، وذكر شيئاً مستقبحاً فقال له شيخنا بديهة إنما سماك أبوك وأمك.

وبلغني أنه كان يحضر مجلس الولي العراقيّ والجلال البلقينيّ ولهما فيه اعتقاد واتفقت لهما معه ما جريّات.

ومن ظرفه أنه قال وقد أعطاه الشهاب بن يعقوب شيئاً من النفقة: يا سيدي يا أحمد إن شاء الله قاضي القضاة، فقال له يا شيخ عوض: لا يجيء مني هذا فقال: أما علمت يا بني أن الزمان أخبث من هذا.

أظنه مات بعد شيخنا بيسير وقد زاد على السبعين رحمه الله[2].

غريب

غريب بن عبدالله الهنديّ البنكالي الحنفيّ ويُلقب أبوه نظام الدين. قدم القاهرة في سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة.

نقل عنه أنه اختلى في بعض خلاويها شهر رمضان كله بعد أن طين باب الخلوة ومنع نفسه من الطعام الشهر كله وأنه يفطر على قرنفلة؛ واجتمع به بعض الفضلاء ممن يعرف لغته وسأله عن سنه فقال نحو تسع

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/١٠٠ ـ ١٠٥.

(٢) «الضوء اللامع»: ٦/١٤٩ ـ ١٥٠.

وأربعين سنة وأن شيخه في السلوك سنن الدين البنكَاليّ وكان سنه حينئذٍ ثلاثاً وعشرين سنة فكان يطعمه في مبدأ أمره بالميزان وفي كل يوم ينقصه حتى صار يأكل في كل أربعين يوماً قرنفلة واحدة وأنه في كل ليلة عند الفطر يضع في كفه قليل ماء ويضع فيه قرنفلة ويلحس الماء مع بقاء القرنفلة فإذا مضى أربعون يوماً أكلها وأنه لا يفعل ذلك إلا في الخلوة فإذا خرج منها تناول بعض الشيء، كما أن الفضلات لا تحصل له منها في الخلوة وبعد الخلوة يحصل بحسب الحال، وأنه يكون في خلوته بمكان مظلم فيه السراج ليلاً ونهاراً، وأنه لم يتزوج قط ولا احتلم، وأنه رحل لكل من خراسان وبغداد والروم وحلب والشام والمساجد الثلاثة ومصر، وذكر أنه أسمر خفيف اللحية أسودها رقيق البشرة نحيف البدن خفي الصوت، يحسن بعض اللغة العربية بحيث يفهم ما يُقال له أو يجيب بتواضع وسكون وأدب(١).

الإسرائيليّ

فتح الله بن مستعصم بن نفيس فتح الدين الإسرائيليّ الداوديّ التبريزيّ الحنفيّ كاتب السر. ولد بتبريز سنة تسع وخمسين وسبعمائة وقدم مع أبيه القاهرة فمات أبوه وهو صغير فكفله عمه بديع بن نفيس فقرأ المختار في الفقه وتردد إلى مجالس العلم وتعلم الخط وعرف كثيراً من الألسنة ومن الأخبار، وتميز في الطب وباشر العلاج وصحب بيبغا الشافعي أيام الأشرف واختص به ورافقه من مماليكه الأمير الشيخ الصفويّ وكان بارع الجمال فانتزعه لما قبض على الشافعيّ وصار من أخص المماليك عنده فزوج فتح الله أمه وفوّض إليه أموره وأسكنه معه فاشتهر من ثَمّ وشاع ذكره واستقر في رياسة الطب بعد موت عمه بديع فباشرها بعفة ونزاهة، ثم عالج برقوق

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/١٦٠، وحال هذا الرجل يخالف ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه حيث إنهم كانوا يأكلون ليتقووا على الجهاد والعمل، ويخالطون الناس وهم أزهد الناس وأعبدهم وأتقاهم، والله أعلم.

بأعجوبة وراج عليه بما كان يعرفه من الألسنة والأخبار واختص به وصار له عنده مجلس لا يحضر معه فيه غيره، فلما مات البدر محمود الكلستانيّ قرره في كتابه السر[١] مع سعي البدر بن الدماميني فيها بمال كثير فباشر بعفة ونزاهة أيضاً وقُرْبٍ من الناس وبشاشة وحشمة وعمله الظاهر أحد أوصيائه واستمر في كتابة السر.

(١) قال شيخنا: وكانت خصاله كلها حميدة إلا البخل والحرص والشح المفرط حتى بالعاريّة[٢] وبسبب ذلك نُكِب فإن يشبك[٣] لما هرب من الوقعة التي كانت بينه وبين الناصر[٣] ترك أهله وعياله بمنزله بالقرب منه فلم يُقْرِهم السلام ولا تفقدهم بما قيمته الدرهم الفرد فحقد عليه ذلك وكان أعظم الأسباب في تمكين ابن غراب من الحط عليه، فلما كانت النكبة الشهيرة بجمال الدين كان هو القائم بأعبائها وعظم أمره عند الناصر من يومئذٍ وصار كلّ مباشرٍ جَلّ أو حَقُر لا يتصرف إلا بأمره فلما انهزم الناصر وغلب شيخ[٤] استقر به وقام بالأمر على عادته إلى أن نكب في شوال سنة خمس عشرة من المؤيد لشيء نقل عنه ولم يزل في العقوبة والحبس إلى أن مات مخنوقاً في ليلة الأحد خامس ربيع الأول سنة ست عشرة وأخرج من الغد فدُفن بتربة خارج باب المحروق من القاهرة.

قال ابن خطيب الناصرية: وكان إنساناً عاقلاً ديناً محباً في أهل الخير والعلم وجمع كتباً نفيسة؛ زاد غيره وكانت مدة ولايته كتابة السر أربع عشرة سنة ونحو شهر تعطل فيها أشهراً.

(٢) وقال المقريزيّ: كانت له فضائل جمة غطاها شحه حتى اختلق

---

(١) وظيفة يتولى صاحبها قراءة الكتب الواردة على السلطان والرد عليها مع ما يصاحب ذلك من أمور ولوازم.
(٢) أي ما يعار من ماعون ونحوه.
(٣) أحد أمراء المماليك.
(٤) أحد سلاطين المماليك.

عليه أعداؤه معايب برأه الله منها فإني صحبته مدة طويلة تزيد على عشرين سنة ورافقته سفراً وحضراً فما علمت عليه إلا خيراً، بل كان من خير أهل زمانه رصانة عقل وديانة وحسن عبادة وتـأله ونسـك ومحبة للسنـة وأهلها وانقياد إلى الحق مع حسن سفارة بين الناس وبين السلطان والصبر على الأذى وكثرة الاحتمال والتؤدة وجودة الحافظة.

(١) وكان يُعاب بالشح بجاهه كما يعاب بالشح بماله فإنّه كان يخذل صديقه أحوج ما يكون إليه وقد جوزي بذلك فإنه لمـا نُكِب هذه المـرة تخلى عنه كل أحد حتى عن الزيارة فلم يجد معيناً ولا مغيثاً فلا قوة إلا بالله.

وقال: فتح الدين هذا كان جده يهودياً من أولاد نبيّ الله داود عليـه السلام وقدم جده من تبريز أيام الناصر حسن إلى القاهرة واختص بالأمير شيخو وطَبّه، وصار يركب بغلة بخف ومهماز ثم إنه أسلم على يد الناصر حسن[1].

السلطان فرج

فـرج بن برقـوق بن أنس الناصـر الزين أبـو السعـادات بن الـظاهـر الجركسي المصريّ، وُلِد سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، وأمه أم ولدرومية، استقر في المملكة بعهد من أبيه وبعده سنة إحدى وثمانمائة وسنه دون عشر سنين. واختلف مماليك أبيه عليه كثيراً ونزل الشام مراراً في مماليك أبيه وغيرهم وتصافف هو وشيخ ومن انضم إليه فانكسر وفر على الهجن إلى دمشق فدخل قلعتها وتبعه شيخ ومن معه فحاصروه إلى أن نزل إليهم بالأمان فاعتقل وذلك في صفر سنة خمس عشرة واستفتوا العلماء فأفتوا بوجوب قتله لما كان يرتكبه من المحرمات والمظالم والفتك العظيم فقتل في ليلة السبت سابع عشر صفر المذكور ودُفِن بمقابر دمشق؛ وكان سلطاناً مهيبـاً فارسـاً

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/١٦٥ - ١٦٦.

كريماً فتاكاً ظـالماً جبـاراً منهمكاً على الخمـر واللذات طامعـاً في أموال الرعايا، وخلع في غضون مملكتـه سنة ثمـان وثمانمـائة بـأخيه المنصـور عبدالعزيز نحو شهرين ثم أُعيد في جمادى الآخرة منها وأمسك أخاه فحبسه ثم قتله[1].

فصل البدوي

أحد الخارجين عن الطاعة القائمين بقطع الطرق وإخافة السبل مع شجاعته وشـدة بأسـه حتى إنّه كـان يجيء إلى البلد الكبير نهـاراً فينزل خارجها ويرسل قاصده إلى أهلها يعلمهم بأنه قرر عليهم كـذا وكذا فـلا يسعهم إلا إرساله ومتى تخلفوا طرقهم بعد ذلك وأخذ منهم ما شاء فأقام على هذا مدة وأعيا الحكامَ أمرُه إلى أن قدم بنفسه إلى السلطان تائباً فأمنه وأقام بالقاهرة أياماً فكان إذا مشى في طرقها تكثر العامة النظر إليه والتفرج عليه ويكثر هو التعجب من صنيعهم والضحك عليهم في ذلك؛ ثم توجه إلى بلاده فأقام على التوبة أشهراً ثم بلغ الزين الأستادار أنه نقضها وأنه يتخطف لكن سراً فاحتال حتى استقدمه بالأمان وطلع به إلى السلطان ومعه ابن عم له سنة ثمان وخمسين فأمر بضربهما بالمقارع وتسميرهما وسلخهما

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/١٦٨. وزاد الشوكاني رحمه الله تعالى في «البدر الطالع»: ١/٢٦ - ٢٧ ما نصه: «والعجب أن هذا السلطان المشتمل على هذه الأوصاف هو المحدث للمقامات في بيت الله الحرام التي كانت سبباً لتفريق الجماعات واختلاف القلوب والتباين الكلي في أشرف بقاع الأرض فإنّا لله وإنا إليـه راجعون. وليس العجب من صاحب الترجمة فإنها إحدى مساويه وجهالاته ولكن العجب من تقرير من بعده لذلك وسكوت العلمـاء إلى الآن، وقد ذكـر قطب الـدين الحنفي في «الإعلام» ما يدل على أنه أنكر هذه المقامات علماء ذلك العصر فقال في ترجمة السلطان سليم خان سلطان الروم ما لفظه: إن تعدد المقامات في مسجد واحد لاستقلال كل مذهب بإمام ما أجازه كثير من العلماء وأنكروه غاية الإنكار في ذلك العهد. ولهم في ذلك العصر رسالات متعددة بأيدي الناس إلى الآن وأن علماء مصر أفتوا بعدم جواز ذلك وخطأوا من قال بجواز ذلك. انتهى.».

بعد ذلك وحشو جلدهما ففعل بهما ذلك كله وطيف بهما الشرقية مستراحٌ منهما[1].

حلال جور

فضل الله أبو الفضل الإستراباذيّ العجميّ واسمه عبدالرحمٰن ولكنه إنما كان يُعرف بالسيد فضل الله حلال جور أي يأكل حلال.

كان على قدم التجريد والزهد بحيث حُكِي عنه أنه لم يـذق عمرَه لأحد طعاماً ولا قبل شيئاً وأنه كان يخيط الطواقي الأعجمية ويقتات بثمنها مع فضيلة تامة ومشاركة جيدة في علوم ونظم ونثر؛ وحُفِظت عنه كلمات عقد لها بسببها مجالس بكيلان وغيرها بحضرة العلماء والفقهاء ثم مجلس بسمرقند حكم فيه بإراقة دمه فقتل بالنجاء من عمل تبريز سنة أربع؛ وكان له أتباع ومريدون في سائر الأقطار لا يحصون كثرة متميزون بلبس اللباد الأبيض على رأسهم وبدنهم ويصرحون بالتعطيل وإباحة المحرمات وتـرك المفترضات وأفسدوا بذلك عقائد جماعة من الأعاجم، ولما كثر فسـادهم بهراة وغيرها أمر القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك بإخراجهم من بلاده وحرض على ذلك ووثب عليه رجلان منهم وقت صلاة الجمعة وهو بالجامع وضرباه فجرحاه جرحاً بالغاً لزم منه الفراش مدة طويلة استمر به حتى مات وقتل الرجلان من وقتهما أشر قتلة[2].

قرا يوسف

قرا يوسف بن قرا محمد بن بيرم خجا التركمانيّ، كان أول أمره من التركمان الرحالة فتنقلت به الأحوال إلى أن استولى بعد اللنك[3] على عراق العرب والعجم ثم ملك تبريز وبغداد وماردين وغيرها واتسعت مملكته حتى كان يركب في أربعين ألف نفس، وكان نشأ مع والده الذي تغلب على

---

(1) «الضوء اللامع»: ١٦٨/٦.
(2) «الضوء اللامع»: ١٧٠/٦ - ١٧١.
(3) المغول.

الموصل وملكها بعد موته سنة إحدى وتسعين وسبعمائة وصار ينتمي لأحمد بن أويس[1] لتزوج أحمد بأخته ويكاتب صاحب مصر وأباه وينجد أحمد في مهماته، ثمّ وقع بينهما بحيث قتل أحمد رسله فغزاه فهرب أحمد منه لدمشق فملك بغداد سنة خمس وثمانمائة، فأرسل إليه اللنك عسكراً فهرب وقدم دمشق فلقى بها أحمد فتصالحا فتوجه سنة ثمان إلى الموصل ثم إلى تبريز ثم واقع أحمد مرزا بن بكر بن مرزا شاه ابن اللنك فقتله في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة واستبد بملك العراق وسلطن ابنه محمد شاه ببغداد بعد حصار عشرة أشهر، ثم ثار أهل بغداد وأشاعوا أن أحمد بن أويس حي فخرج محمد شاه من بغداد وكاتب أباه فما اتفق، فرجع ودخل بغداد وفر آل أحمد إلى تُسْتَر[2] ودخلها محمد شاه في جمادى الأولى سنة أربع عشرة، وفي غضون ذلك كانت لقرا يوسف مع شاه رخ ابن اللنك مَع إبراهيم الدربنديّ وقائع، ثم سار إلى محاربة قَرايُلك[3] وكان بآمد[4] ففر منه ثم تبعه ودامت الحرب مدة ثم حصر شاه رخ بتبريز فرجع قرا يوسف إليه وتبعه قرايلك فنهب سِنْجار[5] ونهب قَبلُ أهل الموصل وأوقع بالأكراد واختلف الحال بين شاه رخ وقرا يوسف حتى تصالحا وتصاهرا ثمّ انتقض الصلح سنة سبع عشرة وتحاربا.

(١) وفي سنة عشرين طرق البلاد الحلبية ثم صالحه قرايلك ثم رجع يريد تبريز خوفاً من شاه رخ، وفي التي تليها كانت بينه وبين قرايلك وقعات حتى فر قرايلك فقدم حلب وانتقل الناس من حلب خوفاً من قرايوسف وكان قد وصل إلى عينتاب، وكتب إلى المؤيد[6] يعتذر بأنه لم يدخل هذه البلاد

---

(١) أمير بغداد.

(٢) أعظم مدينة بخوزستان ـ في إيران ـ انظر «معجم البلدان»: ٢/٢٩ ـ ٣١.

(٣) هو أمير التركمان.

(٤) أعظم مدن ديار بكر ـ في تركيا اليوم ـ انظر «معجم البلدان»: ١/٥٦ ـ ٥٧.

(٥) مدينة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، انظر «معجم البلدان»: ٣/٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٦) سلطان المماليك والتي تتبعه تلك البلدان التي غزاها قرا يوسف.

إلا طلباً لقرايلك لكونه هجم على مارِدِين[1] وهي من بلاد قرايوسف فأفحش في القتل والأسر والسبي بحيث بيع الصغير بدرهمين وحرق المدينة فلما جاء قرايوسف أحرق عِنتاب وأخذ من أهلها مالاً كثيراً مصالحة وتوجه إلى البيرة فنهبها، ثم بلغه أن ولده محمد شاه عصى عليه ببغداد فتوجه إليه وحصره واستصفى أمواله وعاد إلى تبريز فمات في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وقام من بعده ابنه إسكندر بتبريز واستمر ابنه محمد شاه ببغداد.

وكان قرايوسف شديد الظلم قاسي القلب خربت في أيامه وأيام أولاده مملكة العراقين، لا يتمسك بدين واشتُهِر عنه أن في عصمته أربعين امرأة[2].

شمس الدين الكرديّ

محمد بن إبراهيم بن عبدالله الشمس الكرديّ الأصل ثم المقدسيّ ثم القاهريّ المكيّ الشافعيّ. وُلد سنة سبع وأربعين وسبعمائة ببيت المقدس ونشأ تحت كنف أبويه فتفقه، ومال إلى التصوف بكليته وصحب الصالحين ولازم الشيخ محمد القرمي ببيت المقدس وتلمذ له، ثم قدم القاهرة فقطنها وأقبل على الزهد.

(١) كان لا يضع جنبه بالأرض بل يصلي في الليل ويتلو فإن نعس أغفى إغفاءة وهو محتب ثم يعود، ويواصل[3] الأسبوع بتمامه، ويذكر أن السبب فيه أنه تعشى مع أبويه قديماً فأصبح لا يشتهي أكلا فتمادى على ذلك ثلاثة أيام فلما رأى أن له قدرة على الطَيّ[4] تمادى فيه فبلغ أربعاً إلى أن انتهى إلى سبع وذكر أنه يقيم أربعة أيام لا يحتاج إلى تجديد وضوء، وكان يعرف الفقه على مذهب الشافعيّ وكذا التصوّف.

---

(١) قلعة مشهورة.
(٢) «الضوء اللامع»: ٦/٢١٦ ـ ٢١٨.
(٣) أي لا يطعم الطعام.
(٤) أي الجوع وعدم الأكل. انظر «لسان العرب»: طوى.

(١) وله نظم ونثر فمن نظمه:

ولم يزل الطامع في ذلة قد شبهت عندي بذل الكلاب
وليس يمتاز عليهم سوى بوجهه الكالح ثمّ الثياب

وكان يكثر في الليل من قوله:

قوموا إلى الديار من ليلى نحييها نعم ونسألها عن بعض أهليها

ويقول أيضاً: «سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا».

مات بمكة سنة إحدى عشرة ـ رحمه الله وإيّانا ـ[١].

البدر البشتكيّ

محمد بن إبراهيم بن محمد البدر أبو البقاء الأنصاريّ الدمشقيّ الأصل المصريّ الشاعر الشهير الطاهريّ ويعرف بالبدر البشتكيّ. كان أبوه فاضلاً فوُلِد له هذا سنة ثمان وأربعين وسبعمائة بجوار جامع بشتك الناصريّ[٢] ونشأ بخانقاه[٣] بشتك وكان أحد صوفيتها فعرف بالنسبة إليها وحفظ القرآن وكتاباً في فقه الحنفية ثمّ تحوّل شافعياً، وصحب البهاء محمد بن عبدالله الكازرونيّ وكان عجباً في جذب الناس للإقامة عنده بحيث يهجروا[٤] أهاليهم ونحوهم خصوصاً المردان فاجتمع به صاحب الترجمة وهو كذلك مع كونه من أجمل أهل عصره صورة فلم يتمكن من مفارقته بل أقام عنده ينسخ له كتب ابن العربيّ بحيث كتب منها الكثير وغيرها ثم امتحن بسبب ذلك فأظهر الرجوع وأمعن النظر في كلام ابن حزم فغلب عليه حبه، وتزيّا بكل زيّ وسلك كل طريق واشتغل في فنون كثيرة ولكنه لم يتقن شيئاً منها، وأخذ عن الجمال بن نباتة جملة من شعره وعن غيره من معاصريه، وتعانى الأدبيات فمهر فيها وقال الشعر الجيد الكثير

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/٢٥٦ ـ ٢٥٧.
(٢) أحد أمراء المماليك.
(٣) كلمة فارسية تعني محل التعبد والتزهد.
(٤) كذا.

السائر ومدح الأعيان كالقاضي برهان الدين بن جماعة ولذا كان البرهان يعظمه جداً، وجمع كتاباً حافلاً في طبقات الشعراء وقفت على بعضه، وكذا جمع نظم شيخه ابن نباتة في مجلدين تعب في تحصيله ومع ذلك فقد فاته منه جملة بحيث استدرك عليه شيخنا مما فاته مجلداً رأيته أيضاً، ولم يعتن هو بجمع نظم نفسه وهو شيء كثير فانتدب لجمع ما أمكنه منه الشهاب الحجازي وذيل عليه بعض الطلبة، وقد حدث البدر بالكثير من نظمه كتب عنه الأئمة، وكان بينه وبين الجلال بن خطيب داريا مكاتبات لطيفة.

(١) وله قدرة على اختراع الحكايات والنوادر غاية في ذلك مع نزاهة نفس وإيثار للانفراد والوحدة والجلادة على النسخ مع الإتقان والسرعة الزائدة بحيث كان يكتب في اليوم خمس كراريس فأكثر وربما يتعب فيضطجع على جنبه ويكتب، وكتب بخطه من المطولات والمختصرات لنفسه ولغيره ما لا يدخل تحت الحصر كثرة خصوصاً النهر لأبي حيان، وإعراب السمين، والكرماني، وتاريخ الإسلام للذهبيّ حتى كتب من تصانيف شيخنا، ووُجِد له بآخر نسخة من النهر أنها الثانية والعشرون بعد المائة مما كتبه بخطه منه.

(٢) ولسرعة كتابته وملازمته لها كان موسعاً عليه حتى أنه بلغنا أنه أرسل يستعير من الكمال بن البارزيّ بيته ببولاق فأرسل له بالمفتاح ومعه عشرة دنانير فقبح بالقاصد وقال له: لم أرسل أستحذيه ثم أخرج جرابه ونثر ما فيه من ذهب وفضة وفلوس بحضرته ولكن عد هذا في سوء طباعه ولذا كان لا يقدر كل أحد على مصاحبته لحدة خلقه وسرعة استحالته وإنكاء جليسه بلسانه نظماً ونثراً، ويحكى عنه[أنه] قال للكمال الدميريّ حين شرح ابن ماجه: سَمِّه: بعثرة الدجاجة، بل كان يقول: لما لم يكن للشيطان سبيل للبُلقينيّ حسّن له نظم الشعر فأتى بما يُضْحك منه ونحو هذا.

وعلت سنه وهو مقيم بخلوة علو المنصورية يرتقي إليها بسبعين درجة

فعرض عليه شيخنا أن يعطيه خلوته السفلية قصد التخفيف للمشقة عليه فما أجاب بل صرح بما لا يناسب، ولم يزل على طريقته إلى أن مات فجأة خرج من الحمام واتكأ فمات وذلك سنة ثلاثين ـ عفا الله عنه ورحمه ـ وقد انتفع به شخينا في ابتدائه في الأدبيات بل قرأ عليه في العَرُوض وصار يمده بالأغاني ونحوها، وحضه على الإقبال على الحديث ثم قرأ عليه البدر بعد ذلك الكثير من صحيح البخاريّ وترجمه في طبقات الشعراء له بترجمة جليلة.

(١) ومن نظمه:

يا أخِلَّايَ والحياة غرور اذكروا الموت فالمصير إليه
واعلموا صالحاً يسر فلا بـ د من القدوم عليه[1]

ابن الخشاب

محمد بن أحمد بن إبراهيم الشرف أبو المعالي المخزوميّ القاهريّ الشافعيّ ويُعرف كسلفه بابن الخشاب.

وُلِد سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن والعمدة وقطعة من المنهاج الفرعي وجامع المختصرات وجميع «جمع الجوامع» و«التحفة» في أصول الفقه أيضاً ونظْمَ الجلال البلقينيّ لمختصر ابن الحاجب الأصليّ وألفية ابن مالك والحديث والنخبة لشيخنا ونَظْمَ الشمس البرماويّ في الفرائض ومنظومة ابن سينا في كليات الطب، ومنظومة الخزرجي في الكحل والخزرجية في العَرُوض وقطعاً مفرقة من التلويح للخجنديّ في كليات الطب وغير ذلك. وأقبل على الاشتغال واختص بشيخنا وعظمت رغبته فيه.

(٢) وأقبل على الاشتغال فأخذ الفقه والعَروض والنحو والطب بأنواعه عن إسماعيل التبريزيّ والسِّراج البلاذري، وأجاز له كل من شيخيه في الطب بالإقراء والمعالجة وأثنيا عليه كثيراً واختص بثانيهما حتى رغب له عن تدريسي البيمارستان وجامع ابن طولون فيه وأمضى ذلك في حياته وباشره

(١) «الضوء اللامع»: ٦/٢٧٧ ـ ٢٧٩.

فلما مات قام ابن العفيف مساعداً لابن خضروابن البندق وقرر عند الأشرف برسباي عدم أهلية الشرف لذلك فأمر بإعطاء البيمارستان لابن خضر والآخر للآخر فوقف للسلطان في رمضان أيام قراءة البخاري وتظلم وتلا قوله تعالى: ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض**﴾ الآية فرسم بعقد مجلس وتقديم المستحق فاتفق طلوع البدر العينيّ على عادته للسلطان فحكى له المجلس فأعلمه بأن تلاوة الشرف للآية مخاطباً للسلطان إساءة يستحق الضرب عليها، ولم يعلم الشرف بهذا فلما اجتمعوا للموعد مال السلطان عليه وأمر بضربه بين يديه ولم يعطه شيئاً بل استمر حتى مات فانتزعهما منهما في أيام الظاهر وعمل فيهما أجلاساً واستمرتا معه حتى مات.

وحج مراراً، وكذا جاور سنة تامة في سنة إحدى وخمسين وماتت أمه وسُرق بيته فلم يبق له شيء يعز عليه؛ ورجع إلى القاهرة.

وكان إنساناً حسناً فصيحاً مقداماً لطيف العشرة ثقة شديد التثبت عالي الهمة اجتمعت به كثيراً وسمعت من فوائده ونوادره.

(١) ومن نظمه:

في سبيل الله عمري ضاع في لهو شديد
لم أُحصِّل قطُّ شيئاً نافعاً يوم الوعيد
لا ولا أمراً لدنيا من خيول وعبيد
غير أني أترجى من إلَهي ومعيدي
رحمة لي ولآبا ئي ونسلي وجدودي

مات في سنة ثلاث وسبعين - رحمه الله وعفا عنه -(١).

الحجازيّ

محمد بن أحمد بن حسن الحجازيّ ثم المصريّ، كان يؤدب الأطفال ويقرأ القرآن في الأجواق وله صوت حسن ونغمة شجية مع لطف روح

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/٢٨٤ - ٢٨٦.

وجميل عشرة. ذكره هكذا المقريزيّ في عقوده وقال إنه رافقنا لمكة ذهاباً وإياباً ومجاورة في سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، وما علمنا عليه من سوء حتى مات سنة تسع.

(١) حكى عنه أن بعض معارفه بمكة حدثه أن صاحباً له ـ بعد طوافه وصلاته الصبح وجلوسه بمصلاه في مقام الحنفيّ يذكرُ ـ أخذته سِنَةٌ فرأى كأنه يجامع امرأة جميلة فلما انتبه إذا بتلك المرأة بعينها تطوف فارتقبها حتى قضت طوافها وتوجهت لبيتها فسأل عنها فإذا هي خلية فتزوج بها على أن يكون لها في كل يوم دينار وكان يملك مائة فلما فرغت اشتد غمه لاستمرار حبه لها ونفاد ما معه وخرج ليعتمر فوجد بطريقة كيساً فيه ألف دينار فسر به ثم عرّفه فلمّا عرفه صاحبه أخذه معه لمنزله وأخرج له ثلاثة أكياس فيها ثلاثة آلاف دينار وقال لي إن صاحب هذه الأربعة أمرني بإلقاء واحد منها ومن عرفه دفعت إليه الثلاثة فانصرف فرجع إلى أهله مسروراً وتهنّى بها، والله أعلم[١].

ابن خطيب داريّا

محمد بن أحمد بن سليمان الجلال أبو المعالي الأنصاريّ الدمشقيّ الشافعيّ ويُعرف بابن خطيب داريّا. وُلِد سنة خمس وأربعين وسبعمائة واشتغل بالفقه والعربية واللغة وفنون الأدب وغيرها من العلوم العقلية، وشارك في العقليّات والنقليات وكثر استحضاره للغة.

وعُرِف بوفور الذكاء وصحة التصور حتى قيل إنه لفرط ذكائه كان يقتدر على تصوير الباطل حقاً وعكسه ولذا كان متلاعباً بالأكابر متصرفاً بلسانه في الكلام كيف شاء ويستعمل إذا قصد ذلك نوعاً من الكلام يسميه سرياقات وهو عبارة عن كلام منسجم تُفهم مفرداته وأما تراكيبه فمهملة يتحير سامعها لخروجه من علم إلى علم بحيث يظن أنه سرد جميع العلوم.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(١) ومن الغريب أنه كان يشهد في قيمة الأملاك بدمشق فكتب كتاب قيمة دار وصفها وحددها وقدمه للبرهان بن جماعة القاضي ليأذن في عمله فبان له تلاعبه وأن هذه الدار هي الزاوية المعروفة بالغزالية من جامع بني أمية وأنه سلك في صنيعه طريقته في التصرف في الكلام وسماها الغزانية ليتمكن بعد من إصلاحها الغزالية ويبلغ مراده من التشنيع على القاضي في كونه أذن في بيع قطعة من الجامع الأموي ففطن القاضي لصنيعه ورام الإيقاع به ففر منه إلى القاهرة.

وبالجملة فالغالب عليه المجون والهزل مع تقدمه جداً في فنون الأدب حتى صار شاعر الشام في وقته بدون مدافع ولكن لم تكن طبقته في النثر عالية، وسلك بأخرة الطريق المثلى وتصوّن وتعفف وكان كثير المروءة؛ وله تصانيف كثيرة منها «ملاذ الشواذ» ذكر فيه شواذ القرآن من جهة اللغة، و«طَرف اللسان بطرق الزمان» بفتح الطاء في الأولى ذكر فيه أسماء الأيام والشهور الواقعة في اللغة أجاد فيه، وأرجوزة نحو ثلثمائة بيت ذكر فيها من روى عن النبي ﷺ من الصحابة وعدد ما لكل منهم من الحديث سماها «رونق المحدث» وشرح ألفية ابن مالك المسمى «طرح الخصاصة بشرح الخلاصة» مزج فيه المتن مع الشرح، وتقدم في الإجادة حتى صار شاعر عصره بغير مدافع، وقد طلب الحديث بنفسه كثيراً، وكان بعد الفتنة أقام بالقاهرة مدة ثم إلى بَيْسان من الغور الشاميّ وأقام هناك حتى مات سنة إحدى عشرة.

(٢) وهو القائل:

يا عين إن بعُد الحبيب وداره	ونأت مرابعه وشط مزاره
فلقد حظيت من الزمان بطائل	إن لم تريه فهذه آثاره

قال شيخنا: وأقمنا دهراً نستحسن ذلك منه ولا سيما إذ رأيناه قد كتبهما على حائط الآثار النبوية التي بالمعشوق قبلي الفسطاط إلى أن وجدت بخط محمد بن عبدالرحمن الأنصاريّ ما صورته: نقلت من خط

الصفديّ ما صورته: وقلت وقد زرت الآثار التي بالمعشوق بمصر في المكان الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حنا في سنة تسع وعشرين وسبعمائة:

أكرم بآثار النبي محمد ... من زارها استوفى السعود مزاره
يا عين دونك فالحظي وتمتعي ... إن لم تريه فهذه آثاره

انتهى.

(١) ومن نظمه:

شهدت جفون معذبي بملاله ... مني وأن وداده تكليف
لكنني لم أنأ عنه لأنه ... خبر رواه الجفن وهو ضعيف

(٢) وقوله:

إذا المرء أبدى فيك فرط محبة ... وبالغ في بذل الوداد وأكثرا
فإياك أن تغتر من بذل ورده ... ولو مد ما بين الثريا إلى الثرى
فما حبه للذات فيك وإنما ... لأمر إذا ما زال عنك تغيرا

(٣) وقوله:

اقبل نصيحة واعظ ... ولو أنه فيها مرائي
لربما نفع الطبيب ... وكان أحوج للدواء [١]

ابن قُدَيْدار

محمد بن أحمد بن عبدالله الشمس الدمشقيّ الشافعيّ ويُعرف بابن قُدَيدار. وُلد سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة تقريباً، وقرأ القرآن في صغره والعمدة والمنهاج وألفية النحو وعرض على جماعة وتلا بالسبع وتفقه لكن غلب عليه التصوف وأقبل على العبادة فاشتهر بالصلاح من بعد سنة تسعين حتى إن تمر[٢] لما قرب من دمشق أرسل إليه هو وجماعته بالأمان من حماة

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/٣١٠ - ٣١٢.
(٢) هو تيمورلنك ملك المغول.

فلم يصبهم مكروه، وكذا كان يكاتب الفِرَنج في مصالح المسلمين فلا يخالفونه غالباً، وكانت له عند المؤيد وهو نائب الشام منزلة كبيرة وبنى له بدمشق زاوية وسكنها حتى مات وصارت كلمته نافذة وله أتباع ومريدون ومحبة في قلوب العامة والخاصة وهو مع هذا لين الجانب حسن الخلق كثير العبادة جيد البزة شجيّ الصوت.

وقد قدم مصر في سنة ثمان وثمانمائة رسولاً إلى الناصر، قال شيخنا فسمعنا من فوائده وأدائه؛ قال شيخنا في معجمه: وكانت بيننا مودة؛ مات بدمشق بعد ضعف بدنه وثقله في ليلة عيد شوال سنة ست وثلاثين، ودُفِن يوم العيد، وكانت جنازته مشهودة وصلى عليه بحلب وغيرها صلاة الغائب.

(١) وقال بعضهم إنه كان يكثر التردد لساحل بيروت للرباط وبنى له زاوية هناك وعمل بها عدة للسلاح كثيرة ولم يكن يُبقي على شيء بل مهما حصل له أنفقه على مريديه وأتباعه. والثناء عليه كثير، وكان ديناً خيراً محباً في العلم وأهله، كثير التواضع والمرابطة ببيروت وبنى بها زاوية ووقف بها عُدداً للحرب ونعم الرجل رحمه الله وإيانا[١].

ابن سعد الدين

محمد بن أحمد الجبرتيّ الحبشيّ ويُعرف بابن سعد الدين ملك المسلمين من الحبشة، كان أخوه حق الدين محمد قد حبسه مدة فاتفق أنه ملك بعده سنة ست وسبعين وسلك مسلكه في محاربة الحطى[٢]، وتمكن في الملك بتُؤدة وسياسة واتسعت مملكته وكثرت جيوشه، ودام في الملك حتّى استشهد في سنة خمس عشرة فمدة مملكته نحو أربعين سنة. وكان خيّراً ديناً، وبعد ثمانية أشهر من وفاته انتظم شمل مملكته بأحد أولاده[٣].

---

(١) «الضوء اللامع»: ٦/٣٢٧ - ٣٢٨.
(٢) لقب ملك الحبشة الكافر.
(٣) «الضوء اللامع»: ٧/١٦.

السُّعوديّ

محمد بن أحمد بن عمر الشمس النحريريّ ثمّ القاهريّ الشافعيّ المؤدب الضرير، ويعرف بالسعوديّ نسبة لقريب له كان يخدم الشيخ أبا السعود. ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة بالنحرارية ونشأ بها فحفظ القرآن والعمدة والتنبيه وغيرهما، واشتغل بها في الفقه على قضائها، ثم انتقل إلى القاهرة فتكسب فيها ببعض حوانيتها وكذا بالشهادة مع أخذه في الفقه أيضاً عن الشمس البكريّ وفي الفرائض عن الشمس الغراقي، وتوجّه إلى القدس فأقام به شهراً ونصفاً وتلا فيه لأبي عمرو، ثم عاد لبلده فأقام مدة ثم رجع إلى القدس، وبحث في علوم الحديث والعربية والفرائض، ودخل إسكندرية فسمع بها من أوّل كلٍّ من صحيح البخاري والرسالة القشيرية، ولو وجد من يعتني به ويرشده لأدرك إسناداً عالياً.

(١) واستوطن القاهرة وتكسب بتأديب الأطفال بالمسجد الملاصق لسكن شيخنا وانتفع به من لا يُحصى كثرة، وأشير إليه بالتقدم في التأديب مع الحرمة الوافرة وشدة البأس على الأطفال حتى أن بعضهم رام أن يدس عليه سما وكاد يتم فلطف الله به لحسن مقصده.

وقد حدّث باليسير، سمع منه الفضلاء، وكان شيخاً جيداً فاضلاً مفيداً يقظاً ظريفاً فكِهاً منقبضاً عن الناس ملازماً للمسجد المذكور.

(٢) فلّما كان في حدود سنة ثلاثين حصل له مرض شديد ثم ماتت زوجته عَقِبَه وابناه منها فانزعج وذهب إلى المقبرة ثمّ رجع في حر شديد فأطعمه بعض أصحابه عسل نحل فغارت عينه اليمنى ثم بعد برهة تبعتها الأخرى مع ثقل سمعه، وانقطع ببيته في حدود سنة سبع وثلاثين مع إدامته التلاوة وعدم التشكيّ.

وكان شيخنا كثير البر له والتفقد لأحواله وكذا من شاء الله ممن قرأ عنده.

(١) وحصل له مرة مرض ومل منه أهله فنقلوه إلى البيمارستان إلى أن نصل منه.

وقد جودت عليه القرآن بتمامه حين انقطاعه بمنزله ودربني في آداب التجويد، وكنت شديد المهابة منه لشدة بأسه وصولته.

(٢) مات سنة تسع وأربعين بعد أن هشم وتحطم، وقد ذكره شيخنا في «أنبائه» وأثنى عليه بكثرة المذاكرة وبأنه خرج من تحت يده جماعة فضلاء وأنه كان لا يفتر لسانه عن التلاوة.

(٣) ومن لطائفه أنه قال: نُقِل لي أن شخصين تماشيا وأحدهما يقال له جلال الدين جعفر فتذاكرا قول العماد الكاتب للقاضي الفاضل مما لا يستحيل بالانعكاس[١]: «سر فلا كبابك الفرس» وقول الفاضل له «دام علا العماد»، فقال أحدهما بديها: «رفع جلال جعفر» فلما بلغني ذلك قلت: «رجح نبأ بن حجر»، وكذا قال: وقد بعث الطواشي فاتن إلى شخص اسمه نتاف وآخر اسمه بلبل «فاتن قال لبلبل لاق نتاف» وقال أيضاً مصحفاً لقولك: «ابن حجر شيخ محدثي زمانه»: «أتت حجر بنت نجم جدتي زمانة»، رحمه الله وإيانا[٢].

ابن النحّاس

محمد بن أحمد بن محمد الزين أبو الخير القاهريّ الشافعيّ ويعرف أولاً بابن الفقيه وبابن النحاس حرفة أبيه ثم حرفته. ولد سنة خمس عشرة وثمانمائة بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن وجوده، وبعض الحاوي، وحضر يسيراً عند الشرف السبكيّ والجمال الأمشاطيّ ولكنه لم يتميز ولا كاد بل استمر على عاميته؛ وسمع بالقاهرة على شيخنا وغيره وسافر لحلب وأخذ الشفا عن حافظها البرهان وجوّد الخط على الزين بن الصائغ وتكسب كوالده

---

(١) أي: مما يمكن قراءته من اليمين إلى اليسار وبالعكس فلا يتغير الكلام.
(٢) «الضوء اللامع»: ٧/ ٣٠ - ٣٢.

بسوق النحاس، وكثر طلبه بديون عليه للقضاة وغيرهم وهو مع ذلك يتردد للمزارات كالليث وغيره ويتلو مع قراء الجوق إلى أن رافع عند الظاهر جقمق[1] في أبي العباس الوفائيّ الذي كان جوهر الخازندار ألقى بمقاليده إليه وأكثر من الاعتماد عليه مع كونه منتمياً إليه ولكن حمله على ذلك كثرة مطالبة المشار إليه بماله عليه من الديون فرأى الظاهر من جرأته وإقدامه أمراً عجباً وفهم هو من تقحم الظاهر على الإحاطة بحواصل جوهر ومخبآته ما تمكن معه من المرافعة، وكان مما أبداه عنده من آلات السلاح كالخود ونحوها شيء كثير وعنده تنور وتحف تفوق الوصف فأرسل معه من أحضر له شيئاً من ذلك بعد إمساك المشار إليه فوقع هذا عند السلطان موقعاً عظيماً وأعطى أبا الخير خمسين ديناراً وبعض صوف ونحو ذلك وحضه على ملازمة خدمته فصار يطلع إليه أحياناً وربما أخذ معه بعض الأشغال من الأمور السهلة فتزايد ميل السلطان إليه، ولا زال يسترسل في هذا المهيع[2] حتى رافع في السفطي أيضاً وطلبه بإذن السلطان لباب القاياتيّ قاضي الشافعية حينئذ ونزع منه ثريا ادعى استمرارها في ملكه واعترف له السفطيّ بها وأنها معلقة بالجمالية واستقر به السلطان في وكالته ثمّ لمّا استقر السفطيّ في القضاء انتزع له منه وكالة بيت المال ثم أعطاه أيضاً نظر جامع عمرو ثم البيمارستان ثم المواريث ونظر السواقي، وزاد اختصاصه بالسلطان إلى الغاية، واشتهر وتعدّى طوره وفعل كل قبيح، وصارت الأمور جليلها وحقيرها مفوضة إليه لا ينبرم أمر دونه ولا يعول إلا عليه وكثر السعي من بابه وزيد في التنويه بذكره وخطابه وازدحم عنده الناس من سائر الأصناف والأجنَاس ونادمه غيرُ واحد من أهل الأدب ذوي الفضائل والمتعالين من الرتب إلى غيرهم ممن لا يراعي للعلم حقه بل ربما يصرح الواحد منهم بكونه في عبوديته قد ملك رقه، وتطبع هو الحشمة فتكلف وتنطع في ألفاظه التي ليس بها يعرف، وغلط في نفسه وأغلظ حتى في تخيله وحدسه وصار

---

(١) من سلاطين المماليك.

(٢) أي الطريق.

إلى رياسة وضخامة وغفلة عما يلاقيه أمامه ونفوذ كلمته وشدة شكيمته وهابته الأمراء والقضاء فضلاً عن المباشرين والنُظّار، وهادته الرؤساء من سائر الأقطار والسلطان يزيد في إرخاء العنان له والتصريح بشكر أياديه والدعاء الذي يجهر به بحضرة عدوه فكيف عند من يواليه لقيامه بما لم ينهض به غيره من جلب الأموال والتحف ولباسه لأجله من المظالم ما ارتدى به والتحف؛ إلى أن اتفق مجيء البلاطنسيّ بأحد أعوان صاحب الترجمة أبي الفتح الطيبيّ فصعد إلى السلطان في أواخر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين وأعلمه بمزيد الضرر من الطيبيّ على المسلمين فبادر بعد الإصغاء للمقال بعزله وكان هذا ابتداء إهانة صاحب الترجمة وذله فإنه بعد بيسير وثب طائفة من المماليك فضربوه وهجموا بيته وأخذوا ما به من جليل وحقير، وأعانتهم العامة حتى أُحرق بابُه وعظم صراخ كل من أعوانه وانتحابه، ولم يلبث أن جاء إليه نقيب الجيش فأخذه ماشياً بعد ذلك التيه والطيش وذهب به لقاضي الشافعية المناويّ وانطلقت الألسن بما اشتمل عليه من القبائح والمساوي ورام السلطان بذلك تسكين الفتنة ويأبى الله إلا صرف تلك المحنة فاستميل السلطان حتى رسم بنقله لباب المالكي لتحتم قتله فما وافق القاضي على ذلك بل أمر بسجنه لتتضح له في قتله المسالك، فأخذوه على حمار وفي عنقه جنزير وأودعوه فيه بعد إهانة من العامة وذل كبير، فأقام به إلى أن أمر السلطان بعوده للمناويّ لكونه أقرب للغرض الذي مضمره وله ناوي فحينئذ بادر إلى الحكم بإسلامه وحقن دمه وتعزيره ورفع ألمه ومع ذلك كله فكف الله السلطان عن عوده لمنزله وأهله وأمر بإخراجه من القاهرة منفياً إلى طَرَسُوس فأخرج ليلاً خوفاً من اغتياله الذي به ترتاح النفوس ثم صار يؤمر في كل قليل بضربه مع التبريح به والنكيل، بل ينقل أيضاً من مكان إلى مكان قصداً لتوالي الذل بذلك والامتهان، ولله در القائل:

يا من علا وعلوه أعجوبة بين البشر
غلط الزمان برفع قد رك ثم حطك واعتذر

ثم بعدُ بيسير لم يشعر الناس إلا وقد أشيع أنه ببيت أمير المؤمنين ليطلع معه في غد للشفاعة وجاء قاصد السلطان إلى الخليفة يأمره بالكف عن الطلوع معه فصعد هذا منفرداً، بل بادر السلطان لإنكار مجيئه بدون علمه فأجاب بسبق الإذن فيه فجحد وأمر بضربه بين يديه ولم يجن بصنيعه عليه، ثم أخرجه منفياً واستمر في نفيه وحبسه حتى مات الظاهر وراسل يستدعي المجيء ظاناً هو وأتباعه عوده لأعظم مما كان فرُسِم حينئذ بمجيئه بيقين ووصل في رمضان سنة ثلاث وستين وهو متوعك مكروب وبالوفاء بما ألزم به نفسه مطلوب فأحدث كثيراً من الظلامات التي باء بإثمها في الحياة وبعد الممات ولكن حبسه الله عن البلوغ لكثير من قصده وبغيته خصوصاً لمن أضمر السوء به. وبالجملة فلم يصل لشيء مما كان في أمله ولا رأى مسلكاً للولوج في تلك المسالك المألوفة من قِبله بل خاب ظنه وظن جماعته وطاب له الموت بصريحه وكنايته، وصار ألمه في نمو، وتدبيره في انتقاض، وعلمه في انحطاط وانخفاض، إلى أن ظهر عجزه واشتهر وتعرض له بالامتهان صبيان، ومات عن قرب سنة أربع وستين في ليلة الجمعة العشرين من المحرم ولا تمكن وارثه من كفن حتى تصدق محمد بن الأهناسيّ عليه بالكفن وصُلِي عليه من الغد عقب الصلاة بجامع الحاكم الشهير ومشى في جنازته فيما قيل نحو سبعة أنفس ولسان حاله ينشد:

إلى حتفي سعى قدمي ... أرى قدمي أراق دمي

وبكى العوام لأجل قلة من تبعه لما رأى من العز والجاه، فسبحان القادر القاهر عفا الله عنه وعن سائر المسلمين[1].

قاضي لامو

محمد بن إسحاق بن محمد قاضي مدينة لامو- إحدى مدائن الزنج على بحر بربراً غربي مدينة مَقْديشوه على نحو عشرين مرحلة منها، وقد

(١) «الضوء اللامع»: ٦٣/٧ - ٦٦.

غلب على أهل هذه المدينة الرمل فهو بها قامات عديدة ـ الشافعيّ. ولد سنة سبع وثمانين وسبعمائة.

(١) قال المقريزيّ في «عقوده» وغيرها: قدم مكة وأنا بها في أخريات سنة تسع وثلاثين وثمانمائة فبلوت منه معرفة بالفقه وبالفرائض، مع عبادة ونسك. وأخبرنا أن القردة غلبت على مدينة مَقْديشوه من نحو سنة ثمانمائة بحيث ضايقت النّاس في مساكنهم وأسواقهم وصارت تأخذ الطعام من الأواني وغيرها وتهجم الدور على الناس وتأخذ ما تجده من آنية حتى إن صاحب تلك الدار يتبع القرد يتلطف به في رد الإناء فيرده بعد أكل ما فيه، وإذا وجد امرأة منفردة وطئها قال: ومن عادة ممتلكها أن أرباب دولته يقفون تحت قصره فإذا تكاملوا فتحت طاقة بأعلاه فيقبلون له الأرض ثم يرفعون رءوسهم فيجدون الملك قد أشرف عليهم من تلك الطباق فيأمر وينهى. فلمّا كان في بعض الأيام كان المشرف عليهم قرداً، قال: وتمر القردة طوائف طوائف كل طائفة لها كبير يقدمها وهي تابعة له بتُؤَدة وترتيب قال فيرون ذلك عقوبة من الله لهم، وأن البحر يلقي بساحل مدينة لامو العنبر فيأخذه الملك ومرة كانت زنة قطعة منه ألف رطل ومائتى رطل، قال وشجر الموز عندهم كثير جداً وأنه عدة أنواع منها نوع تبلغ الموزة منه في الطول ذراعاً ويعمل عندهم منه دبس يقيم أكثر من سنة ويعقدون منه أيضاً حلوى انتهى وعندي توقف في صحة هذا على هذا الوجه فالله أعلم[1].

ابن أبي السعود

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المنوفيّ ثم القاهريّ الشافعيّ ويعرف بابن أبي السعود. ولد في سنة عشر وثمانمائة تقريباً بمنوف ونشأ فحفظ القرآن والعمدة والمنهاجين وألفية النحو وبداية الهداية للغزاليّ، وعرض على الوليّ العراقيّ والطبقة، وقطن القاهرة بعد أبيه تحت نظر الشريف

(١) «الضوء اللامع»: ٧/١٣٢ ـ ١٣٣.

الطباطبيّ بمصر فتهذب به وتسلك على يديه واختلى عنده عاماً، وكذا أكثر من التردد لصاحب والده الشيخ مَدْين بحيث اختص به وكان الشيخ يعظمه جداً، وأخذ في غضون ذلك في الفقه عن المحلِّيّ والمناويّ، وفي العربية عن ابن قديد ولازمه وفيها وفي الأصلين وغيرهما عن ابن الهمام وقبل ذلك أخذ عن البدرشيّ وبورك له في اليسير، وتنزل في صوفية الشيخونيّة وقرأ فيها صحيح مسلم والشفا على الزين الزركشيّ.

(١) حج وجاور وداوم العبادة والتقنع باليسير والانعزال عن أكثر الناس واقتفاء طريق الزهد والورع والتعفف الزائد والاحتياط لدينه حتى أنه من حين استقر المناويّ في القضاء لم يأكل عنده شيئاً بعد مزيد اختصاصه به وكذا صنع مع أخيه لمّا ناب في القضاء مع تكرر حلفه له أنه لا يتعاطى منه شيئاً، وأبلغ من هذا عدم اجتماعه بشيخنا أصلاً[١].

وذكرت له كرامات وأحوال صالحة مع حرصه على إخفاء ما يكون من هذا القبيل وميله إلى الخمول وعدم الشهرة ومثابرته على عدم تضييع أوقاته إلا في صلاة أو كتابة أو مطالعة وما رأيت أحداً ممن يعرفه إلا ويذكره بالأوصاف الجميلة.

مات سنة ست وخمسين وكان له مشهد عظيم وكثر الثناء عليه ونعم الرجل كان ـ رحمه الله ـ ونفعنا به[٢].

شمس الدين الحلبيّ

محمد بن إسماعيل بن يوسف الشمس الحلبيّ المقرىء الناسخ نزيل مكة.

كتب بخطه أنه لما بلغ سبع عشرة سنة حببه الله في كتابة القرآن ووفقه له، وأنه حفظ كتباً وعرضها واشتغل بعلوم وكذا بالقراءات السبع

---

(١) لأن ابن حجر تولى القضاء أيضاً.

(٢) «الضوء اللامع»: ١٣٤/٧ ـ ١٣٥.

بحلب وغيرها، بل كتب بخطه أنه قرأ بالعشر وكانت له بها معرفة جيدة ولديه ذكاء مفرط.

(١) وشُوهِد في غالب الأوقات يتلو من موضع ويكتب من آخر وقارىء يقرأ عليه من آخر في آن واحد ويصيب في ذلك تلاوة وكتابة ورداً، بل لا يفوته شيء في الرد مع جودة الكتابة وسرعتها.

(٢) وقد كتب بخطه كثيراً وبلغنا أنه قال: كتبت مصحفاً على الرسم العثمانيّ في ثمانية عشر يوماً بلياليها في الجامع الأزهر سنة خمس وستين، وأنه قال في آخر سنة ثلاث عشرة أنه نسخ مائة وأربعة منه بالقراءات السبع، وأنه كتب ما يزيد على خمسمائة نسخة بالبردة غالبها مخمس.

وقد جاور بالحرمين مدة سنين وأقام بمكة نحو خمس عشرة سنة وسافر منها إلى اليمن في سنة خمس وثمانمائة ثم عاد لمكة فلم يزل بها حتى مات. وقد جاز السبعين سنة أربع عشرة ودُفِن بالمعلاة[١].

ولسمع

محمد بن أبي البركات بن أحمد بن علي بن محمد بن عمر الملقب (ولسمع) جمال الدين الجبرتيّ الحنفيّ، ويُعرف بابن سعد الدين سلطان المسلمين بالحبشة. أصلهم فيما قيل من قريش فرحل من شاء الله منهم من سلفهم من الحجاز حتى نزل بأرض جبرة المعروف الآن بجبرت فسكنها إلى أن وَلّى الحطى[٢] ملك الحبشة مدينة دقات وأعمالها منها لولسمع فعظُم وقويت شوكته وحمدت سيرته وتداولها ذريته حتى انتهت لصاحب الترجمة بعد فقد أخيه منصور في سنة ثمان وعشرين، وحارب الحطى وشن الغارات ببلادهم حتى ملك كثيراً من بلاده وأطاعه خلق من أعوانه وامتلأت الأقطار من الرقيق الذين سباهم، ودام على ذلك حتى مات شهيداً في

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٤٣/٧ - ١٤٤.
(٢) ملك الكفّار من الحبشة.

بعض غزواته سنة خمس وثلاثين فكانت مدة مملكته سبع سنين؛ وكان ديناً عاقلاً عادلاً خيراً وقوراً مهاباً ذا سطوة على الحبشة أعز الله الإسلام في أيامه.

ذكره شيخنا في «إنبائه» فقال: محمد بن سعد الدين جمال الدين ملك المسلمين من الحبشة كان شجاعاً بطلاً مديماً للجهاد عنده أمير يقال له حرب جوشن كان نصرانياً لا يطاق في القتال فأسلم وحسن إسلامه فهزم الكفار من الحبشة مراراً وأنكى فيهم وغزاهم جمال الدين مرة وهو معه فغنم غنائم عظيمة بحيث بيعت الرأس من الرقيق بربطة ورق وانهزم منهم الحطي صاحب الحبشة مرة بل من جملة سعده هلاك الحطي إسحاق ابن داود بن سيف أرغد في أيامه سنة ثلاث وثلاثين وأقيم بعده اندراس ولم يزل صاحب الترجمة على طريقته في الجهاد حتى ثار عليه بنو عمه فقتلوه؛ وكان من خير الملوك ديناً ومعرفة وقوة وديانة يصحب الفقهاء والصلحاء وينشر العدل في أعماله حتى في ولده وأهله وأسلم على يده خلائق من الحبشة، واستقر بعده في مملكة المسلمين أخوه الشهاب أحمد ويُلقب بدلاي فأول ما صنع جد حتى ظفر بقاتل أخيه فاقتص منه[1].

المتوكل العباسيّ

محمد بن أبي بكر بن سليمان المتوكل على الله أبي العباس الهاشميّ العباسيّ. ولد في سنة نيف وأربعين أو نحوها وبُويع بالخلافة بعهد من أبيه له سنة ثلاث وستين وسبعمائة فاستمر إلى ثالث صفر سنة تسع وسبعين، وخلعه الأمير اينبك البدري بزكريا بن إبراهيم ثم أعيد بعد يسير في عشري ربيع الأول منها، ودام إلى سنة خمس وثمانين فأمسكه الظاهر برقوق لكونه بلغه مساعدته على القيام في خلعه، وقيّده وسجنه ببرج القلعة وعزله بقريبه عمر بن إبراهيم ولقب بالواثق ثم مات عمر فقرر أخاه زكريا ولُقِب

---

(١) «الضوء اللامع»: ٧/١٥٣ ـ ١٥٤.

المستعصم واستمر المتوكل محبوساً إلى أن أطلقه في صفر سنة إحدى وتسعين وأعاده إلى الخلافة مع التضييق عليه والحجر الزائد، فلما أخذ الناصريّ الديار المصرية واستقر أتابكا أحسن إليه جداً وأمره بالإنصراف إلى داره وركب معه الأمراء والقضاة ونُشرت على رأسه الأعلام السود وفرح الناس به [فرحاً] شديداً ولم يبق أحد حتى خرج لرؤيته فكان يوماً مشهوداً.

مات الخليفة في سنة ثمان، واستقر بعده ولده العباس بعهد منه ولُقِب بالمستعين بالله، رحمه الله وإيانا(١).

ابن جماعة

محمد بن أبي بكر بن عبدالعزيز العز أبو عبدالله الكنانيّ الحمويّ الأصل المصريّ الشافعيّ ويُعرف كسلفه بابن جماعة. ولد سنة تسع وأربعين وسبعمائة بينبع، وأجاز له خلق من الشاميين والمصريين بعناية الزين العراقيّ، واشتغل صغيراً ومال لفنون المعقول فأتقنها إتقاناً بالغاً، ونظر في كل فن حتى في الأشياء الصناعية كلعب الرمح ورمي النشاب وضرب السيف والنفط حتى الشعوذة، حتى في علم الحرف والرمل(٢) والنجوم، ومهر في فنون الطب وكان من العلوم بحيث يُقضى له في كل فن بالجميع وصار المشار إليه في الديار المصرية في العقليات والمفاخرَ به لعلماء العجم. تخضع له الرجال وتسلم له المقاليد بل هو في ذلك أمة وحده وفضلاء البلد كلهم عيال فيه، وكان يقول: أعرف خمسة عشر علماً لا يعرف علماء عصري أسماءها، وصنف التصانيف الكثيرة المنتشرة التي جمع أسماءها في جزء مفرد يقضي الواقف عليه العجب من كثرتها ولكن ضاع أكثرها بأيدي الطلبة لكنه لم يرزق ملكة في الاختصار ولا سعادة في حسن التصنيف، وكذا كان ينظم شعراً عجيباً غير موزون ولذا كان يخفيه

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٦٨/٧.

(٢) انظر حولهما ص:

كثيراً إلا عن من يختص به ممن لا يدري الوزن، بلى كان أعجوبة دهره في حسن التقرير بحيث كان بين لسانه وقلمه كما بينه هو وآحاد طلبته، كل هذا مع الانجماع عن بني الدنيا وترك التعرض للمناصب ومهابته في النفوس.

(١) وقد نفق له سوق في الدولة المؤيدية وكارمه السلطان عدة مرات بجملة من الذهب ومع ذلك فكان يمتنع من الاجتماع به ويفر إذا عرض عليه ذلك؛ وحضر المجلس المعقود للهروي فلم يتكلم في جميع النهار كله مع التفاتهم إليه واستدعائهم للكلام منه بل سأله السلطان يومئذ عن تصنيفه في لعب الرمح فجحد أن يكون صنف فيه شيئاً، وكان يبر أصحابه ويساويهم في الجلوس ويبالغ في إكرامهم، ويديم الطهارة فلا يحدث إلا توضأ، ولا يترك أحداً يستغيب عنده أحداً.

(٢) هذا مع ما هو فيه من محبة الفكاهة والمزاح واستحسان النادرة وكونه لا يتحاشى عن مواضع النُّزه والمفترجات، ويمشي بين العوام وربما يركب الحمار إذا أبعد ويقتصد في ملبسه، ولم يتفق له الحج مع حرص أصحابه له عليه ولا تزوج بلى كانت عنده زوجة أبيه فكانت تقوم بأمر بيته وهو يبرها ويحسن إليها؛ وكان يعاب بالتزيّ بزيّ العجم من طول الشارب وعدم السواك حتى سقطت أسنانه.

(٣) مات سنة تسع عشرة بعد انقضاء الطاعون وكان هو في غاية الاحتراز منه بحيث إنه لم يدخل في تلك الأيام الحمام وامتنع من مأكولات ومشروبات عينها لأصحابه فلما ارتفع وظن السلامة منه دخل الحمام وتصرف فيما كان احتمى منه فأصيب واشتد أسف الناس عليه ولم يخلف بعده مثله[1].

تاج الدين الدمشقيّ

محمد بن بهادر بن عبدالله التاج أبو حامد الجلال الدمشقيّ. ولد في

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٧٢/٧ ـ ١٧٤.

أواخر القرن الثامن تقريباً ومات أبوه وهو صغير فكفلته أمه، وحفظ القرآن وصلّى به، والمنهاجَ الفرعيّ وغيره من مختصرات الفنون.

(١) وكانت لوائح نجابته ظاهرة لكونه لم يكن يلعب كالأطفال بل عليه السكينة والوقار فأكب على الاشتغال وبرع في فنون كثيرة جداً وفاق أقرانه بفهمه الثاقب وذكائه الصائب وإقباله على العلوم المنطوق منها والمفهوم، منجمعاً عن الناس، مرتفعاً عن طرق اللوم والإلباس إلى أن أشير إليه بالتقدم في الفضائل.

وتصدى وشيوخه متوافرون للاشتغال وجلس لذلك بجامع العقيبة المسمى بجامع التوبة ثم بالجامع الأمويّ طول النهار حتى تخرج به جماعة.

(٢) كل ذلك مع حسن الشكالة والتواضع والسكينة والديانة وعدم الغيبة بل لا يمكن منها أحداً من طلبته ولا يتكلم فيما لا يعنيه وضبط أوقاته وصرفها في أنواع الخيرات كالصوم وختم القرآن في كل أسبوع ثم بعد وفاة أمه صار يختمه في الأسبوع مرتين، والتقلل من الأكل وسائر التفكهات وعدم مزاحمته للفقهاء في شيء من وظائفهم تورعاً وزهداً، بل كان ـ فيما حكاه ـ باسمه في صباه بعضها فلما عقل تركه.

(٣) وكان ينشد لبعضهم:

لك الحمد يا ربي على كل نعمة ... ومن جملة الإنعام قولي لك الحمد
ولا حمد إلا منك تعطيه نعمةً ... تعاليت أن يقوى على شكرك العبد

وبالجملة فهو جم الفضائل رفيع القدر أصيل المجد وقور المجلس عالي الهمة متقدم في فنون متعدد المزايا شديد البحث صحيح التصور بارع الخط حسن العشرة؛ ومحاسنه جمة وقد سمعت الثناء عليه من غير واحد.

مات سنة إحدى وثلاثين عن ثلاث وثلاثين سنة وعظم تأسف أهل

دمشق عليه واشتد بكاؤهم لفرقته ورفعوا نعشه على الأكف وحضر جنازته من يفوت الحصر، رحمه الله وإيانا[1].

ناصر الدين الجركسيّ

محمد بن جقمق الأمير ناصر الدين أبو المعالي بن الظاهر أبي سعيد الجركسيّ الأصل القاهريّ الحنفيّ. ولد سنة ست عشرة وثمانمائة بالقاهرة؛ وقرأ بها القرآن وحفظ كتباً واغتبط بمحبة العلم والعلماء وقربهم وأحسن إليهم، واشتغل بغالب الفنون: الفقه والفرائض والتفسير والحديث والأصلين والمنطق والعربية وغيرها حتى مهر في أقرب مدة لحسن ذكائه ومزيد صفائه، وصار مشاركاً في فنون بل عُدَّ من نوابغ الفضلاء، فلما ملك أبوه عظم أمره واتسعت دائرته وتأمّر بعد قليل وصار عين المقدَّمين وأقبل على الناس وزاد طلبه للعلم حتى كانت غالب أوقاته مصروفة فيه فيوماً لشيخنا في الحديث علوماً أو متوناً، ويوماً لسعد الدين بن الديري في الفقه أو التفسير ويوماً للكافياجيّ في علوم أخرى، كل هذا مع ما هو فيه من تعلقات الدنيا وتعاطي العلاج والرمي ولعب الرمح والكرة وغيرها من أنواع الفروسية والعقل الغزير والتدبير والسياسة والتواضع والبشاشة وحسن الشكالة والمحاضرة ومزيد البر وقلة الأذى والسيرة الحسنة، والحرص على التجمل في مماليكه وحشمه والسير على قاعدة الملوك في ركوبه وجلوسه بحيث تأهل للسطنة بلا مدافعة، بل لقبه جماعة من الشعراء بالناصر في قصائدهم، وانفراده بأوصافه عن سائر أبناء جنسه وكثرة إنكاره على ما لا يليق بالشرع وشدة بغضه للبدع وعيبه لمن يفعلها سيما الرافضة، خفيف الوطأة على الناس لم نسمع عنه بمظلمة لأحد ولا دخولاً فيما لا يعنيه ولا تعصباً في باطل، وكان يحضر كلَّ ما ذكر من الدروس جماعةٌ من الفضلاء ويقع بينهم البحث فيجاريهم أحسن مجاراة ويداري كلًّا منهم أجمل مداراة حتى كأنه أحدهم، وربما اقترح على بعضهم ما ينعش به الخاطر ويجبر به

---

(١) «الضوء اللامع»: ٧/٢٠٤ ـ ٢٠٥.

القلب، فكان منزله مجمع الفضلاء ومربع النبلاء لا سيما من الشافعية حتى تُكُلِّم فيه عند أبيه بسبب جعل إمامه منهم فلم يؤثر ذلك فيه وتعاقب عنده ثلاثة أئمة كلهم شافعية، وكان ينظم لكنه لعدم ارتضائه له لم يكن يثبته ولا يعتني بتهذيبه سيما وأكثره بديهة، ومع ما سلف من أوصافه كان منجمعاً عن معارضة أبيه فيما لا يرتضيه بل كان يكظم غيظه ويصبر ولا يبعد عن الميل إلى اللهو والطرب على قاعدة العقلاء والرؤساء من الملوك مع إقامة الناموس والحرمة لشهامة كانت فيه وقد انتفع شيخنا بمساعدته كثيراً، وكان يثني عليه بالفهم والحفظ وتعجب من اجتماعهما، ولم يزل على جلالته وعلو مكانته إلى أن ابتدأ به الوعك في سنة سبع وأربعين فدام قدر نصف سنة ثم عُوفي ثم انتكس في أوائل شوال وأصابه السل فصار ينقص كل يوم ثم انقطعت عنه شهوة الأكل وطرأ به الإسهال واستحكم السل إلى أن صلى صلاة العيد ونزل لبيته بالرميلة فضحّى ورجع؛ واستمر حتى مات بدون وصية في حياة أبويه وذلك في سحر يوم السبت ثاني عشري ذي الحجة منها شهيداً بالبطن، ويُقال إنه سحر فمرض من ذلك السحر ووُجِد السحر والساحر فمنعهم أبوه من الاعتماد على ذلك ومنهم من يزعم أنه سُقِيَ ولم يثبت من ذلك شيء، وصُلِّيَ عليه في مشهد لم يختلف عنه أحد.

(١) وقد ذكره العينيّ فقال: وكان له صِيت وحرمة عظيمة يتردد إليه الناس سيما الشافعيّ والحنفيّ في الجمعة مرتين أو ثلاثاً ويقاسيان مشقة السلالم والمدرج حتى كان الناس يسمونهما فقهاء الأطباق، قال: وكل هذا من عدم حفظ العلم ولكنهما وسائر المترددين إليه كانوا يؤملون استقراره في السلطنة عن قرب إما في حياة والده أو بعده فأتى القضاء بعكس ما في خواطرهم. انتهى. وكأنه ـ رحمه الله ـ لم يستحضر حين كتابته لهذا ملازمته التردد للأشرف وغيره في قراءة التاريخ ونحوه بل لو كان في أيامه قاضياً لبادرهما إلى الطلوع وأرجو أن يكون قصد الجميع حسناً، رحمهم الله وإيانا[١].

---

(١) «الضوء اللامع»: ٧/٢١٠ ـ ٢١٢.

النّواجيّ

محمد بن حسن بن عليّ الشمس النواجيّ ـ نسبة لنواج بالغربية بالقرب من المحلة ـ ثم القاهريّ الشافعيّ شاعر الوقت ويعرف بالنواجيّ. ولد بالقاهرة بعد سنة خمس وثمانين وسبعمائة تقريباً فحفظ القرآن والعمدة والتنبيه[1] والألفية والشاطبية.

(١) وحج مرتين وحكى كما أورده في منسكه الذي سماه «الغيث المنهمر فيما يفعله الحاج والمعتمر» أنه رأى شخصاً من أعيان القضاة الشافعية بالديار المصرية أراق دماً على جبل عرفات فقال له: ما هذا؟ فقال: دم تمتع، فقال: إنه غير مجزىء هنا، قال: ولم؟ قال: لأن شرطه أن يُذبح في أرض الحرم وعرفات ليست من الحرم، فقال كالمنكر عليه: هذا المكان العظيم ليس من الحرم، قال: فقلت له: نعم ولا يقدح هذا في شرفه، قال: إذا لم تكن عرفات من الحرم فما بقي في الدنيا حرم انتهى. ونحو هذا القاضي قاض آخر تأخر عن هذا كان يقصر المغرب وروجع في ذلك فأصر.

(٢) وأنشد في منسكه:

لا شيء أطيب عندي من مجاورتي ... ببيت ربي وسعي فيه مشكور
قد أثرت في أفعال الكرام وللـ ... ـمجاورات كما قد قيل تأثير

(٣) وأمعن النظر في علوم الأدب حتى فاق أهل عصره فما رام بديع معنى إلا أطاعه وكان متقدماً في اللغة والعربية وفنون الأدب مشاركاً في غيرها، حسن الخط جيد الضبط متقن الفوائد، عمدة فيما يقيده أو يفيده بخطه، وكتب لنفسه الكثير وكذا لغيره بالأجرة، وكان سريع الكتابة. رام المناويّ في أيام قضائه الإيقاع به بسبب تعرضه بالهجو لشيخه الوليّ العراقيّ، وبلغني أن شيخه أمير حاج كان يحكي أنه بينما هو واقف بعرفة

---

(١) في الفقه الشافعيّ.

في حجته ألقى الله في قلبه الدعاء عليه بسبب الولي ولعل ما كان يذكر أنه به من البرص بسببه هذا.

(١) اشتهر ذكره وبعد صيته وقال الشعر الفائق والنثر الرائق وجمع المجاميع وطارح الأئمة، وأخذ عنه غير واحد من الأعيان، ولو لا ضيق عطنه وسوء مزاجه وسرعة انحرافه وتعرضه للهجاء لكان كلمة إجماع، ومدح الأكابر وتمول من ذلك وأثرى خصوصاً مع مبالغته في الإمساك.

مات سنة تسع وخمسين بعد أن برص؛ وتغالى الناس في كتبه عفا الله عنه وإيانا[1].

ابن الزين

محمد بن زين بن محمد الشمس أبو عبدالله الطنتدائيّ الأصل النحراريّ الشافعيّ ويعرف بابن الزين. ولد قبل الستين وسبعمائة بالنحرارية من الغربية ونشأ فحفظ القرآن، وارتحل إلى القاهرة فحفظ الشاطبيتين والتنبيه والألفية، وتلا بالسبع وتمام إحدى وعشرين رواية على الفخر البلبيسيّ إمام الأزهر وأذن له، وعليه بحث الشاطبيتين.

وحج مرتين وشرح ألفية بن مالك نظماً وكذا الرائية وأفرد لقراءة كل من القرّاء السبعة منظومة؛ وله نظم كثير في العلم والمديح النبويّ وأفرد جملة منه في ديوان كبير جداً، مع ذلك فنظمه فوق الحصر، وهو صاحب المنظومة المتداولة في الوفاة النبوية وكذا عمل قصة السيد يوسف عليه السلام في ألف بيت، وسبك أربعي النوويّ في قصيدة. وكانت له قدرة على النظم وملكة قوية ولا يتحامى أحياناً الألفاظ المطروقة على ألسنة العامة بل ربما وقع في شعره اللحن، والظاهر أنه لم يكن يمعن التأمل فيه ولكلامه وقع في القلوب وفيه حكم ومعان، كل ذلك مع الصلاح والزهد وكونه خيِّراً منوراً مهاباً ذا أحوال وكرامات، وقد حدّث بالكثير من نظمه.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٧/٢٢٩ - ٢٣٢.

(١) وبلغنا أنه كان أصم فإذا قرىء عليه يدرك الخطأ والصواب بحركات شفاه القاريء لوفور ذكائه مع صلاحه.

(٢) ويُقال إنه كان في أول أمره تزوج امرأة عمياء يُقال لها ابنة معمر فحثته على قراءة القرآن فاعتذر بأنه فقير فأعطته ما دفعه لمن أقرأه القرآن فكان ذلك فاتحاً له إلى الخير حيث ارتحل وارتقى لِمَا تقدم.

(٣) وحكى هو أنه عنى بمدح النبي ﷺ مدة ثم ترك وتشاغل بنظم غيره فرأى في منامه النبي ﷺ منقبضاً عنه فحصل له هم عظيم فأشار عليه بعض الصالحين بالرجوع لما كان عليه فامتثل، وأنه ورد عليه بعد ذلك مطالعة من شخص يُقال له ابن ريحان من خدام المدينة فيها أنه رأى النبي ﷺ فقال له: بلغ سلامي محمد بن زين وقل له إني راض عنه ويرجع لِمَا كان عليه ويُقِلّ من عشرة الناس ويأكل من خبز الشعير.

مات سنة خمس وأربعين بعد رجوعه من الحج، رحمه الله وإيانا[١].

الكافياجيّ

محمد بن سليمان بن سعيد المحيوي أبو عبد الله الروميّ الحنفيّ ويعرف بالكافياجيّ. ولد بككجة كي من بلاد صروخان من ديار ابن عثمان الروم[٢] قبل التسعين وسبعمائة تقريباً وأكثر من قراءة الكافية لابن الحاجب وأقرأ بها حتى نسب إليها بزيادة جيم كما هي عادة الترك في النسب؛ وقدم الشام وأقرأ بها، وحج ودخل القدس ثم قدم القاهرة بُعيد الثلاثين؛ وهو متقلل من الدنيا جداً فأقام بالبرقوقيّة سنين واجتمع بالبساطيّ وشيخنا وغيرهما من المحققين، وظهرت كفاءته وكمالاته فأقبل عليه الفضلاء وتصدى للتدريس والإفتاء والتأليف وخضعت له الرجال وذلت له الأعناق وصار إلى صيت عظيم وجلالة، وشاع ذكره وانتشرت تلامذته وفتاواه وأخذ

(١) «الضوء اللامع»: ٧/٢٤٦ - ٢٤٧.
(٢) أي: تركيا الآن.

الناس عنه طبقة بعد أخرى بل والطبقة الثالثة أيضاً؛ وتقدمت طلبته في حياته وصاروا أعيان الوقت وتزاحموا عنده من سائر المذاهب والفنون وزادت تصانيفه على المائة وغالبها صغير. ومن محاسنها شرح القواعد الكبرى لابن هشام كتبه عنه غير واحد من الفضلاء وزادت عدة كراريس بعض نسخه على الثلاثين وعُتب على كاتبها لاستدعائه إعراض كثير من قاصري الهمم عنه إذا سمع أنه في هذا المقدار وهذا عكس ما وقع لابن الملقن، حيث عتب من كتبه شرحه على البخاري في مجلدين مع كونه في عشرين مجلداً، وسارت فتاويه ـ التي يسلك فيها البسط والإسهاب والتوسع في المعقول بحيث لا يحصل الغرض منها إلا بتكلف وربما لا يحصل وقد تُصادم المنقول ـ في الآفاق.

(١) كل ذلك مع الدين التام والصيانة والعفة بحيث امتنع من إقراء بعض المردان في خلوة، وسلامة الصدر والحلم على أعدائه والكرم وإكثاره الصدقة والإطعام واستحضار القرآن والبكاء الكثير عند سماعه وقوة الاستنباط منه، والوجه البهيّ والشيبة المنورة، ومزيد الرغبة في إلقاء العلم وتقريره وكذا في إطرائه وتعظيمه ولا يروج عنده غالباً إلا من يسلك معه ذلك، والإعراض عما يسلكه غيره من التعزية والتهنئة إلا في النادر معتذراً بعدم الإخلاص في ذلك؛ وإليه النهاية في حسن العشرة والممازحة مع أصحابه ومداعبتهم وملاطفتهم لكنه لا يعترف لكبير أحد بالعلم، نعم كان شيخنا عنده في الذِّروة بحيث إنه أنشدني أبياتاً في مدحه وأثبتها لي بخطه، ولو كان طلق اللسان كان كلمة إجماع ولكن كتابته دالة على توسعه في العلوم ومزيد استحضاره لها وإن كان بعض من قصر عن حفظه أمتن في التحقيق منه.

(٢) وهو ممن يميل إلى ابن عربيّ وربما ناضل عنه ومع ذلك فلما أبديت عنده شيئاً من كلماته انزعج وقال هذا كفر صراح لكن حتى يثبت عنه.

وبالجملة فقد صار علامة الدهر وأوحد العصر ونادرة الزمان وفخر هذا الوقت والأوان، الأستاذ في الأصلين[١] والتفسير والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والهيئة والهندسة والحكمة والجدل مع مشاركة حسنة في الفقه والطب ومحفوظ كثير من الأدب واستعمال للنثر في كتاباته بل ربما اخترع بعض العلوم، وقد عظمه الملوك خصوصاً ملك الروم ابن عثمان فإنه لا زال يكاتبه بما أثبتُّ بعضه في مكان آخر ويهدي إليه الهدايا السنية، وامتدحه غير واحد من شعراء الوقت، ولم يزل على جلالته ووجاهته إلى أن ابتدأ به المرض في أوائل المحرم سنة تسع وسبعين بالزحير[٢] وتوالي الإسهال بحيث كان يعتريه غم بسببه ولا يمكّن كبير أحد من الجلوس معه غالباً، ثم مات في صبيحة يوم الجمعة رابع جمادى الثانية منها وحمل نعشه حتى صلى عليه ثم دُفن بحوش كان أعده لنفسه وحوّطه قبل موته بثلاثة أيام بجوار سبيل التربة الأشرفية كان هو يدفن فيه الغرباء المترددين إليه ونحوهم، وتأسف الناس على فقده ولم يخلف مثله، رحمه الله وإيانا[٣].

البُصرويّ

محمد بن عبدالرحمن بن عمر القرشيّ البصرويّ الدمشقيّ الشافعيّ ويعرف بالبصرويّ. ولد سنة أربع وتسعين وسبعمائة ببُصرى ونشأ بها فحفظ القرآن والمنهاج الفرعيّ والأصليّ وألفية ابن مالك وعرضها على أبيه. ثم تحول لدمشق سنة ثمان عشرة بعد ما تنبه ولازم البرهان بن خطيب عذراء فقيه دمشق لأخذ الفقه فتكلم معه في أول مجلس قال: فلما قمت قال لي: أنت فقيه جيد وجعل كل وقت يزيد إعجابه بي، قال: وقد كان وقع في نفسي قبل انتقالي لدمشق أنه لا يمضي عليّ سنتان حتى يؤذن لي بالإفتاء فكان كذلك أذن لي البرهان به في سنة عشرين وأفتيت في حياته وأقرأت

(١) أصول الدين وأصول الفقه.

(٢) وهو المعروف بالدستاريا.

(٣) «الضوء اللامع»: ٧/٢٥٩ - ٢٦١.

بإذنه في الجامع الأمويّ والجماعة متوافرون بل كان ربما يحمل إليّ الفتيا وأنا بشباك التربة التي كنت نازلاً بها وهي بجانب منزله ويقول لي: انظر في هذه، ولم أحضر عند أحد من أشياخ الشافعية في عصره لعلمي أنهم دونه في الفقه.

(١) وكنت على مذهب الفقهاء يعني غالباً في حب الرياسة والتقدم على الأقران والمنافسة في المكان إلى أن أدركني الله بلطفه فأذهب ذلك عني فأنشدت جواباً لمن قال لي: لم لا تنافس كأصحابك في المجالس؟:

قد كنت أرغب فيما فيه قد رغبوا   واليوم أرغب عنه رهبة النار
إني رأيت أموراً خطبها خطر   إن لم يلم بنا عفو من النار

قال: ورأيت بعد قدومي دمشق بسنين نسخة بمختصر ابن الحاجب الأصليّ فوقع في نفسي أن هذا الكتاب لا يحفظه إلا فحول الرجال فحفظته.

(٢) ومن نظمه:

قومي قريش هم المعروف شأنهم   وفضلهم فذاك في أفضل الكتب
لا تستطاع مجاراة مكارمهم   ولا لحاقهم في القول والنسب
فكيف ينكِرُ فضلي من له نظر   أم كيف يجهل ما أُبدي من الأدب

وبالجملة فكان علامة ناظماً ناثراً تصدى للإقراء فانتُفِع به. مات سنة إحدى وسبعين بدمشق رحمه الله وإيانا[١].

السخاويّ[٢]

محمد بن عبدالرحمن بن محمد الملقب شمس الدين أبو الخير وأبو عبدالله السخاويّ الأصل القاهريّ المصنف ويُعرف بالسخاويّ وربما يُقال له ابن البارد شهرة لجده بين أناس مخصوصين ولذا لم يشتهر بها أبوه بين الجمهور ولا هو بل يكرهها ولا يذكره بها إلا من يحتقره. ولد سنة إحدى

---

(١) «الضوء اللامع»: ٧/٢٩٥ ـ ٢٩٧.

(٢) ترجم السخاوي لنفسه بصيغة الغائب تواضعاً.

وثلاثين وثمانمائة فقرأ القرآن وصلى به للناس التراويح في رمضان، وحفظ عمدة الأحكام مع حفظ التنبيه والمنهاج الأصليّ وألفية ابن مالك والنخبة، وكلما انتهى حفظه لكتاب عرضه على شيوخ عصره. سمع مع والده الكثير من الحديث على شيخه إمام الأئمة الشهاب بن حجر فكان أول ما وقف عليه من ذلك في سنة ثمان وثلاثين وأوقع الله في قلبه محبته فلازم مجلسه وعادت عليه بركته في هذا الشأن فأقبل عليه بكليته إقبالاً يزيد على الوصف بحيث تقلل مما عداه لقول الحافظ الخطيب إنه علم لا يعلق إلا بمن قصر نفسه عليه ولم يضمَّ غيره من الفنون إليه، وقول إمامنا الشافعيّ لبعض أصحابه: أتريد أن تجمع بين الفقه والحديث هيهات.

وداوم الملازمة لشيخه حتى حمل عنه علماً جماً واختص به كثيراً بحيث كان من أكثر الآخذين عنه، وأعانه على ذلك قرب منزله منه فكان لا يفوته مما يُقرأ عليه إلا النادر إما لكونه حمله أو لأن غيره أهم منه وينفرد عن سائر الجماعة بأشياء. وعلم شدة حرصه على ذلك فكان يرسل خلفه أحياناً بعض خدمه لمنزله يأمره بالمجيء للقراءة.

وقرأ عليه الاصطلاح بتمامه وسمع عليه جل كتبه وتدرب به في طريق القوم ومعرفة العالي والنازل والكشف عن التراجم والمتون وسائر الاصطلاح وغير ذلك. ولم ينفك عن ملازمته ولا عدل عنه بملازمة غيره من علماء الفنون خوفاً من فقده ولا ارتحل إلى الأماكن النائية، بل ولا حج إلّا بعد وفاته لكنه حمل عن شيوخ مصر والواردين إليها كثيراً من دواوين الحديث وأجزائه بقراءته وقراءة غيره في الأوقات التي لا تعارض أوقاته عليه غالباً سيما حين اشتغاله بالقضاء وتوابعه حتى صار أكثر أهل العصر مسموعاً وأكثرهم رواية، حتى بلغت عدة من أخذ عنه بمصر والقاهرة وضواحيها زيادة على أربعمائة نفس؛ كل ذلك وشيخه يمده بالأجزاء والكتب والفوائد التي لا تنحصر وربما نبهه على عوالٍ لبعض شيوخ العصر ويحضه على قراءتها. وشكا إليه ضيق عطن بعضهم فكاتبه يستعطفه عليه ويرغبه في الجلوس معه ليقرأ ما أحبه. وبعد وفاة شيخه توجه في البحر لقضاء فريضة

الحج وصحب والدته معه فلقي بالطور والينبوع وجدة غير واحد أخذ عنهم، ووصل لمكة أوائل شعبان فأقام بها إلى أن حج، وقرأ بها من الكتب الكبار والأجزاء القصار ما لم يتهيأ لغيره من الغرباء حتى قرأ داخل البيت المعظم وبالحِجْر وعلو غار ثور وجبل حراء وبكثير من المشاهد المأثورة بمكة وظاهرها على خلق ورجع للقاهرة فأقام بها ملازماً السماع والقراءة والتخريج والاستفادة من الشيوخ والأقران غير مشتغل بما يعطله عن مزيد الاستفادة، ثم عاد فارتحل إلى الثغر السكندريّ وأخذ عن جمع من المسندين والشعراء بها ودخل دمياط فسمع بها. ثم ارتحل إلى حلب وسمع في توجهه إليها بسرياقوس وغزة والمجدل والرملة وبيت المقدس والخليل ونابلس ودمشق وصالحيتها والزبداني وبعلبكّ وحمص وحماة ثم بالمعرة وطرابلس وغيرها شيئاً كثيراً من قريب مائة نفس، وأجاز له خلق باستدعائه واستدعاء غيره من جهات شتى ممن لم يتيسر له لقيهم أو لقيهم ولكن لم يسمع منهم بل كان وهو صغير قبل أن يتميز ألهم الله سبحانه وتعالى بفضله بعض أهل الحديث استجازة جماعة من محاسن الشيوخ له، ولهذا كله زاد عدد من أخذ عنه من الأعلى والدون والمساوي حتى الشعراء ونحوهم على ألف ومائتين، والأماكن التي تحمل فيها من البلاد والقرى على الثمانين.

(١) واجتمع له من المرويات بالسماع والقراءة ما يفرق الوصف وهي تتنوع أنواعاً: أحدها: ما رتب على الأبواب الفقهية ونحوها وهي كثيرة جداً منها ما تقيد فيه بالصحيح كالصحيحين للبخاري ولمسلم ولابن خزيمة ـ ولم يوجد بتمامه ـ ولأبي عوانة الإسفرايني وهو وإن كان مستخرجاً[١] على ثاني الصحيحين[٢] فقد أتى فيه بزيادات طرق بل وأحاديث كثيرة. وعنده من المستخرجات بالسماع المستخرج على صحيح مسلم لأبي نُعيم؛ كما

---

(١) المستخرج: هو أن يأتي المصنف إلى الكتاب فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب فيجتمع معه في شيخه أو من فوقه. انظر «تدريب الراوي»: ١/٨٥. طبع دار الكتاب العربي.

(٢) أي صحيح مسلم.

أن في مروياتـه لكن بالإجـازة من الكتب التي تقيد فيهـا بالصحـة كتاب المستدرك على الصحيحين أو أحدهما للحاكم وهو كثير التسـاهل بحيث أدرج في كتابه هذا الضعيف بل والموضوع المنافيين لموضوع كتابه، ومن الكتب الصحيحة الموطـأ لمالـك وإدراجه في الصحـاح إنما هـو بالنسبـة للتصانيف قبله وإلا فلا يتمشى الأمر في جميعه على ما استقر الأمر عليه في تعريف الصحيح.

ومنها ما لم يتقيد فيه بالصحة بل اشتمل على الصحيح وغيره كالسنن لأبي داود وقيـل إنه يكفي المجتهـد، ولأبي عبدالـرحمن النسائيّ، ولأبي عبدالله بن ماجه القزوينيّ، ولأبي الحسن الدارقطني، ولأبي بكـر البيهقي والسنن التي لـه أجمع كتـاب سمعـه في معنـاه وكـالجـامـع لأبي عيسى الترمذي، ولأبي محمد الدارميّ ويُقال له أيضاً المسند بحيث اغتر بعضهم بتسميته وأدرجه في النوع بعده وقد أطلق بعضهم عليه الصحة، وكان بعض الحفاظ ممن روى عن بعض الآخذين عنه يقول إنه لو جعل بدل ابن ماجه بحيث يكون سادساً للكتب الشهيرة أصول الإسلام لكان أولى؛ وكالمسند للإمام الشافعيّ وليس هو من جمعه وإنما التقطه بعض النيسابوريين من الأمّ له، والسنن له رواية المُزَنيّ ورواية ابن عبدالحكم، وشرح معاني الآثـار لأبي جعفر الطحاويّ، ثم إن في بعض هذه ما يميز فيه مصنفه المقبول من غيره كالجامع للترمذيّ ونحوه السنن لأبي داود، ومما يلتحق بهذا النوع ما يقتصر فيه على فرد من أفراده أو غيره كالشمائل النبوية للترمذيّ ودلائـل النبوة للبيهقيّ والشفا لعياض والمغازي لموسى بن عقبة والسيرة النبوية لابن هشام ولابن سيِّد الناس وبشرى اللبيب له، وأبي يعلي الموصليّ. وليس في واحد منها ما هو مرتب على حروف المعجم؛ نعم مما رتب فيه على الحروف من المسانيد مع تقييده بالمحتج به المختـارة للضياء المقـدسيّ ولكن لم يُكمـل تصنيفاً ولا استـوفى الموجـود سماعـاً، والمعجم الكبيـر للطبرانيّ وهو مع كونه يلي مسند أحمد في الكبِرَ أكثرها فوائد، والمعجم لابن قـانع والأحـاديث فيه قليلة ونحـوه الاستعياب لابن عبـدالبر إذ ليس

القصد فيه إلا تراجم الصحابة وأخبارهم وقريب منه في كون موضوعه التراجم ولكن لم يقتصر فيه على الصحابة مع الاستكثار فيه من الحديث ونحوه حلية الأولياء لأبي نعيم، وكذا مما يذكر فيه أحوال الصوفية الأعلام «الرسالة القشيرية»، وقد يقتصر على صحابي واحد كمسند عمر للنجاد وسعد للدروقيّ، كما أنه قد يقتصر على الفضائل خاصة كفضائل الصحابة لطراد ووكيع. ونحوه الذرية الطاهرية للدولابيّ؛ وقد يكون في مطلق التراجم لكن لأهل بلد مخصوص كأصبهان لأبي نعيم وبغداد للخطيب، وقد يكون في فضائل البلدان كفتوح مصر لابن عبدالحكم وفضائل الشام للربعي.

ثالثها: ما هو على الأوامر والنواهي وهو صحيح أبي حاتم بن حبان المسمى بالتقاسيم والأنواع والكشف منه عسر على من لم يتقن مراده.

رابعها: ما هو على الحروف في أول كلمات الأحاديث وهو مسند الشهاب للقضاعي

خامسها: ما هو في الأحاديث الطوال خاصة وهو الطوالات للطبرانيّ ولابن عساكر منها كتاب الأربعين

سادسها: ما يقتصر فيه على أربعين حديثاً فقط ويتنوع أنواعاً كالأربعين في التصوف لأبي عبدالرحمن السلمي إلى غيرها كالأحكام وقضاء الحوائج وما لا تقيد فيه كأربعي الآجُرِّيّ والحاكم وهي شيء كثير، وقد لا يقتصر على الأربعين كالثمانين للآجُرِّيّ والمائة لغيره.

سابعها: ما هو على الشيوخ للمصنف كالمعجم الأوسط والصغير كلاهما للطبرانيّ، وبعضها مرتب على حروف المعجم؛ ومنه ما لم يرتب ونحو هذا جمع ما عند الحافظ أبي بكر بن المقري وكذا الحارثيّ وغيرهما مما هو مسموع عنده مما عندهم من حديث الإمام أبي حنيفة وترتيبه على شيوخه ويسمى كل واحد منهما مسند أبي حنيفة.

ثامنها: ما هو على الرواة عن إمام كبير ممن يجمع حديثه كالرواة عن مالك للخطيب وممن روى عن مالك من شيوخه لابن مخلد.

تاسعها: ما يقتصر فيه على الأفراد[1] والغرائب[2] كالأفراد لابن شاهين وللدارقطني وهي في مائة جزء سمع منها الكثير ومنه الغرائب عن مالك وغيره من المكثرين. عاشرها: ما لا تقيد فيه بشيء مما ذكر بل يشتمل على أحاديث نثرية من العوالي وغيرها.

حادي عشر: ما لا إسناد فيه بل اقتصر فيه على المتون مع الحكم عليها وبيان جملة من أحكامها كالأذكار والتبيان والرياض[3] وغيرها من تصانيف النوويّ وغيره، إلى غيرها من المسموعات التي لا يتقيد فيها بالحديث كالشاطبيّة والرائية في علمي القراءة والرسم، والألفية في علمي النحو والصرف، والتصوف، والتنبيه والمنهاج في الفقه وتلخيص المفتاح في المعاني والبيان، وقصيدة بانت سعاد والبُردة والهَمْزية.

وليس ما ذُكر بآخر التنبيه؛ كما أنه ليس المراد بما ذُكر في الأنواع الحصر إذ لو سُرد كل نوع منه لطال ذكره وعَسُرَ الآن حصره بل لو سرد مسموعه ومقروءه على شيخه فقط لكان شيئاً عجباً.

وأعلى ما عنده من المروى ما بينه وبين الرسول ﷺ بالسند المتماسك فيه عشرة أنفس وليس ما عنده من ذلك بالكثير. وأكثر منه وأصح ما بين شيوخه وبين النبي ﷺ فيه العدد المذكور.

ثم توجه هو وعياله وأكبر إخوته ووالداه للحج في سنة سبعين فحجوا

---

(١) الفرد قسمان؛ فرد مطلق وهو تفرُّد راو برواية الحديث أو تفرد نسبي كتفرد أهل بلدٍ برواية حديث من الأحاديث. انظر «تدريب الراوي»: ٢٠٨/١. طبع دار الكتاب العربي.

(٢) تفسير الغرائب قريب من تفسير الأفراد. المرجع السابق.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن والرياض أي رياض الصالحين.

وجاوروا وحدث هناك بأشياء من تصانيفه وغيرها، وكذا حج في سنة خمس وثمانين وجاور سنة ست ثم سنة سبع وأقام منها ثلاثة أشهر بالمدينة النبوية. ثم في سنة اثنتين وتسعين وجاور سنة ثلاث ثم سنة أربع. ثم في سنة ست وتسعين؛ وجاور إلى أثناء سنة ثمان فتوجه إلى المدينة النبوية فأقام بها أشهراً وصام رمضان بها، ثم عاد في شوالها إلى مكة وهو الآن في جمادى الثانية من التي تليها بها ختم له بخير. وحمل الناس من أهلهما والقادمين عليهما عنه الكثير جداً رواية ودراية، وحصلوا من تصانيفه جملة؛ وسئل في الإملاء هناك فما وافق نعم أملى بالمدينة النبوية شيئاً لأناس مخصوصين.

(١) ثم لما عاد للقاهرة من المجاورة التي قبل هذا تزايد انجماعه عن الناس وامتنع من الإملاء لمزاحمة من لا يحسن فيها. كما أنه التزم ترك الإفتاء مع الإلحاح عليه فيه حين تزاحم الصغار على ذلك واستوى الماء والخشبة سيما وإنما يُعمل بالأغراض، وقد سبقه للاعتذار بنحو ذلك شيخ شيوخه الزين العراقيّ وكفى به قدوة، بل وأفحش من إغفالهم النظر في هذا وأشد في الجهالة إيرادُ بعض الأحاديث الباطلة على وجه الاستدلال وإبرازها حتى في التصانيف والأجوبة.

كل ذلك مع ملازمة الناس له في منزله للقراءة دراية ورواية في تصانيفه وغيرها بحيث ختم عليه ما يفوق الوصف من ذلك، وأخذ عنه من الخلائق من لا يُحصى كثرة وشرع في التصنيف والتخريج قبل الخمسين.

هذا كله وهو عارف بنفسه معترف بالتقصير في يومه وأمسه خبير بعيوبه التي لا يُطّلع عليها، مستغفر مما لعله يبدو منها، لكنه أكثر الهذيان طمعاً في صفح الإخوان مع كونه في أكثره ناقلاً والله يسأل أن يجعله كما يظنون وأن يغفر له ما لا يعلمون[1].

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢/٨ ـ ٣٢. وقد ذكر الشوكانيّ في «البدر الطالع»: ٢/١٨٧ أن السخاويّ «قد غلبت عليه محبة شيخه الحافظ ابن حجر فصار لا يخرج عن غالب أقواله كما غلبت على ابن القيم محبة شيخه ابن تيمية وعلى الهيثميّ محبة شيخه العراقيّ».

البلاطُنُسيّ

محمد بن عبد الله بن خليل الشمس البلاطُنُسيّ ثمّ الدمشقيّ الشافعيّ. ولد سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ببلاطُنُس[1] ونشأ بها فقرأ القرآن على جماعة، ونزح عنها في طلب العلم بطرابلس وبحماة وبدمشق.

(١) ولازم العلاء البخاريّ بحيث كان جلّ انتفاعه علماً وعملاً، وأقبل على كتب الغزاليّ حتى كاد يحفظ غالب الإحياء، وكذا سمع اليسير جداً على شيخنا لا عن قصد كما صرح به لحرمانه؛ ولكنه لم يكثر من ذلك بل ولا من غيره من الفنون إلا أن شيخه العلاء كان يميل إليه ويقدمه على غيره من طلبته فراج أمره خصوصاً وقد اقتدى به في أكثر أفعاله وأقواله حتى في تقبيح ابن عربيّ ومن نحا نحوه بل وفي الحط على التقي ابن تيمية وأتباعه وأكثر الحنابلة محض تقليد، مع ملازمته للعبادة وحثه على التقنع والزهادة وحرصه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يهاب أحداً بل يقول الحق ويصدع به الملوك والنواب والأمراء الجبابرة ونحوهم، فصار بذلك إلى محل رفيع ونفذت أوامره وقبلت شفاعته فازدَحم لذلك عنده أرباب الحوائج ولم يتخلف عن إغاثة الملهوفين وإكرام كثير من الغرباء والوافدين سيما أهل الحرمين فإنه كان يجبي من زكوات ذوي اليسار ما يفرقه عليهم، وتصدى مع ذلك للتدريس والإفتاء فأخذ عنه جماعة كثيرون من أهل دمشق والقادمين إليها قصداً للتجوه[2] بالانتساب إليه.

(٢) وناب عن البهاء بن حجي في تدريس الشامية البرانية بعد العلاء بن الصيرفيّ ثم عن ولده النجم وحضر عنده فيه شيخه التقي بن

---

(١) حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب، انظر «معجم البلدان»: ١/٤٧٨.

(٢) كأن المعنى: الوجاهة ولم أجده في اللسان، والله أعلم.

قاضي شهبة وولده البدر والتقي الأذرعيّ ومن شاء الله ممن لا يُتوقف أن فيهم من هو أفضل منه. وقال التقيّ: إنه وإن كان ديناً عالماً فقد استنكر الناس هذا لكبر المنصب بالنسبه إليه ولكن قد آل الزمان إلى فساد عظيم وعدم التفات لمراعاة ما كان الناس عليه انتهى، وحج غير مرة وجاور وكان قدومه لدمشق في سنة سبع وعشرين بعد أن أفتى في بلاده وخرج منها في قضية أمر فيها بالمعروف. وله تصانيف، وله فتاوى طنانة فيها ما يستحسن، ووقائع يطول شرحها، ولم يزل أمره في ازدياد وحرمته وشهرته مستفيضة بين العباد إلى أن حج في سنة إحدى وستين ورام المجاورة بالمدينة النبوية فمنعه ما كان يعتريه من وجع في باطنه ولم يزل به ذلك الوجع حتى مات بعد رجوعه بيسير في ليلة الثلاثاء سادس عشرى صفر سنة ثلاث وستين ودُفن من الغد وكانت جنازته حافلة بحيث قيل إنه لم يُر في هذا القرن بدمشق نظيرها، وحُمل نعشه على الأصابع وكان ذلك زمن الشتاء فلما حمل نعشه أمطرت فلما وضع سكن المطر، وعظم تأسف العامة وكثير من الخيار عليه رحمه الله وسامحه وإيانا.

(١) وقد لقيته بمشهد الإمام عليّ في الجامع الأمويّ محل إقامته وكذا بمكة ولست أعلم فيه ما يُعاب إلا منابذته للحنابلة والمحدثين وشدة تعصبه في أمور كثيرة ربما تخرجه عن الطور المتخلق به؛ ولما اجتمعت به بدمشق وسمعت منه تصريحه برجوعه عن الرواية عن ابن ناصر الدين سألته عن سببه فلم أر منه إلا مجرد عناد وتعصب؛ وكذا رأيت منه نفرة عن شيخنا سببها فيما يظهر تقريضه[١] مصنف أولهما[٢] في الانتصار لابن تيمية، وبالجملة فكان للشام به جمال[٣].

---

(١) أي تقديمه.

(٢) أي ابن ناصر الدين.

(٣) «الضوء اللامع»: ٨/٨٦ - ٨٨.

ابن الديريّ

محمد بن عبد الله بن سعد القاضي شمس الدين أبو عبد الله المقدسيّ الحنفيّ نزيل القاهرة، ويعرف بابن الديريّ نسبة لمكان بمردا من جبل نابلس. ولد بعد الأربعين وسبعمائة، وكان أبوه تاجراً فحبب إليه هو العلم وحفظ القرآن وعدة متون في فنون وأقبل على الفقه وعمل في غيره من الفنون وأخذ عن جماعة، ثم رحل إلى الشام وأخذ من علمائها وكان دخوله لها وهي ممتلئة من المسندين أصحاب الفخر بن البخاريّ وغيره فما تهيأ له السماع من أحد منهم، وكذا قدم القاهرة غير مرة واشتهرت فضائله سيما في مذهبه، وتقدم في بلده حتى صار مفتيها والمرجوع إليه فيها وعقد مجالس الوعظ وناظر العلماء، ومهر في الفنون وكتب الخط الحسن.

(١) وكانت له أحوال مع الأمراء وغيرهم يقوم فيها عليهم ويأمرهم بكف الظلم بحيث اشتهر ذكره فلما مات ناصر الدين بن العديم في سنة تسع عشرة استدعى به المؤيد وقرره في قضاء الحنفية بالقاهرة فباشره بشهامة وصرامة وقوة نفس وحرمة وافرة وعفة زائدة غير ملتفت لرسالة كبير فضلا عن صغير بل كان مع الحق حيث كان.

(٢) ويحكى أن امرأة رفعت له قصة فيها إن السلطان تزوجها قديماً ولها عليه حق فكتب عليها عاجلاً يحضر أو وكيله ثم أرسلها مع بعض رسله فأعلمه بذلك بغير احتشام فسر وأرسل خازنداره مرجان الهنديّ بعد أن وكله إلى القاضي يصالح المرأة بمبلغ له وقع، وأعلى من هذا أنه بغله أن الهرويّ قاضي الشافعية تصرف فيما كان تحت يده بغير طريق فبعث إلى نوابه بمنعهم من الحكم بمقتضى ثبوت فسق مستنيبهم وهددهم إن خالفوه فكفوا بأجمعهم بل لما اجتمعوا عند السلطان حكم بمنعه من الفتوى وعزله في مجلسه فلم يسعه إلا إمضاءه في أشياء من نمطهما.

ثم إنه انمزج مع المصريين وياسر الناس سيما كاتب السر[1] ناصر الدين بن البارزيّ فكان منقاداً له فيما يرومه ولذا لما كملت عمارة المؤيدية أشار على السلطان بتقريره في مشيختها تدريساً وتصوفاً ففعل بعد أن كان عين لها البدر بن الأقصرائي وظن ابن الديري استمراره في القضاء فلما قرره في المشيخة قال له بحضرة الجماعة: الآن استرحنا واسترحت، يشير بذلك إلى كثرة الشكاوى من الأمراء ونحوهم فيه وذلك سنة اثنتين وعشرين، ولم يسهل به ذلك بل ظهر عليه الأسف، وكان بعد إلقائه دروساً فيها بحضرة السلطان يجلس كل ليلة فيما بين صلاتي المغرب والعشاء بمحرابها ويعلم الناس ويذكرهم ويفقههم فلما كان في سنة سبع وعشرين فسافر في رجبها إلى بلده لزيارة أهله ثم أراد العودة في شوالها فعاقه التوعك ثم أفضى به إلى الإسهال فمات به يوم عرفة منها وكان يأسف على فراقه ويقول سكنته أكثر من خمسين سنة ثم أموت في غيره فقدرت وفاته فيه وقد قارب التسعين.

(١) قال في «الإنباء»: وكان كثير الإزدراء بأهل عصره لا يظن أن أحداً منهم يعرف شيئاً مع دعوى عريضة وشدة إعجاب يكاد يقضي المجالس بالثناء على نفسه مع شدة التعصب لمذهبه والحط على مذهب غيره.

وقال في «رفع الإصر»: ومهر في مذهبه واشتهر بقوة الجنان وطلاقة اللسان والقيام في الحق وكان حسن القامة مهاب الخلقة[2].

الرشيديّ

محمد بن عبد الله بن محمد الرشيديّ الأصل القاهريّ الشافعيّ ويُعرف بالرشيديّ. ولد سنة سبع وستين وسبعمائة بالقاهرة ونشأ بها فحفظ

---

(١) هي وظيفة اختصاصها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها مع ما يصاحب ذلك من لوازم وأمور.

(٢) «الضوء اللامع»: ٨/٨٨ - ٩٠.

القرآن والعمدة والتنبيه[1]، وجوّد القرآن على بعض الأئمة واعتنى به أبوه وأجاز له خلق، وحج في أول القرن ودخل إسكندرية وغيرها واشتغل وفضل وكتب الخط الحسن ونسخ به لنفسه جملة ووَلِيَ مشيخة التربة العلائية بالقرافة والتلقين بجامع أمير حسين وكذا خطابته تبعاً لأسلافه.

(١) وكان غاية في جودة أداء الخطبة قادراً على إنشاء الخطب بحيث ينشىء كل جمعة خطبة مناسبة للوقائع وارتفع ذكره بذلك بحيث سمعت الثناء عليه من ابن الهمام والعلاء القلقشندي لكنه كان يرجح قراءته في المحراب على تأديته لها وكأنه اتفق حين سماعه له ما اقتضى له ذلك وإلا فهو كان نادرة فيهما.

(٢) وقد قُصد من الأماكن النائية لسماع خطبته والصلاة خلفه بل كتب عنه بعض الفضلاء خطباً ثم أفردها بتصنيف ولو اعتنى هو بذلك لجاء في عشرة أسفار، وكان على قراءته أُنس مع الإتقان والصحة ومزيد الخشوع، وقد حدث بالكثير خصوصاً من بعد اجتماعي به وذلك في أواخر ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وإلى أن مات فإني أكثرت عنه جداً، وخرجت له مشيخة في مجلد قرضها[2] شيخنا والعيني والعلاء القلقشنديّ وغيرهم من الأكابر وسر بذلك وحضّني على أن أريها للبدر بن التنسيّ قاضي المالكية فإنه كان ناظر الجامع وربما كان يناكده حتى أن الشيخ قال له: إذا كان هذا عملك معي فكيف يكون مع ولدي إذا مت فأسأل الله أن لا يجعل قضائي في قضائك، فلم يلبث أن مات القاضي وتخلّف الشيخ بعده.

(٣) وكان شيخاً ثقة ثبتاً صالحاً خيراً محدثاً مكثراً متحرياً في روايته وأدائه، كثير التلاوة للقرآن، إماماً فاضلاً بارعاً مشاركاً ظريفاً فكهاً حسن

---

(١) في الفقه الشافعيّ.
(٢) أي قدّم لها.

النادرة والعبادة محباً في النكتة، بهيّ الهيئة نير الشيبة ذا سكينة ووقار، كريماً جداً، متواضعاً طارحاً للتكلف سليم الباطن، ذاكراً لكثير من مشكلات الحديث ضابطاً لمعانيها حسن الإصغاء للحديث صبوراً على التحديث، كثير البكاء من خشية الله عند إسماعه بل وقراءته له وفي الخطبة، طري النغمة؛ ومحاسنه غزيرة.

مات سنة أربع وخمسين عن سبع وثمانين عاماً وصلي عليه في مشهد عظيم، رحمه الله وإيانا[1].

ابن ناصر الدين

محمد بن عبد الله بن محمد القيسيّ الحمويّ الأصل الدمشقيّ الشافعيّ ويعرف بابن ناصر الدين. ولد سنة سبع وسبعين وسبعمائة بدمشق ونشأ بها فحفظ القرآن وعدة مختصرات واشتغل قليلاً وحصل وفضل وتفقه واعتنى بهذا الشأن، وحمل عن شيوخ بلده والقادمين إليها بقراءته وقراءة غيره الكثير، وارتحل لبعلبك وغيرها، وسافر إلى حلب؛ وحج قبل ذلك وسمع بمكة وكذا بالمدينة النبوية وما تيسرت له الرحلة إلى الديار المصرية؛ وأتقن هذا الفنَّ حتى صار المشار إليه فيه ببلده وما حولها وخرج وأفاد ودرس وأعاد، وأفتى وانتقى وتصدى لنشر الحديث فانتفع به الناس، وحدث بالكثير في بلده حلب وغيرها من البلاد. ومن تصانيفه طبقات شيوخه وجعلهم ثمان طبقات، وجامع الآثار في مولد المختار ثلاثة أسفار، ومورد الصادي في مولد الهادي في كراسة، واللفظ الرائق في مولد خير الخلائق أخصر من الذي قبله، ومنهاج الأصول في معراج الرسول، وبرد الأكباد عن فقد الأولاد، والإعلام بما وقع في مشتبه الذهبيّ من الأوهام، وبواعث الفكرة في حوادث الهجرة نظم، ومنهاج السلامة في ميزان يوم القيامة، وريع الفرع في شرح حديث أم زرع في كراريس، وزوال البوسى

---

(١) «الضوء اللامع»: ٨/١٠١ ـ ١٠٢.

عمـن أشكـل عليـه حديـث تحـاج آدم وموسى.

(١) وأحاديث ستة في معان ستة من طريق رواة ستة عن حفاظ ستة من مشايخ الأئمة الستة بين مخرجها ورواتها ستة.

(٢) وغير ذلك كالرد الوافر على من زعم أن من أطلق على ابن تيمية أنه شيخ الإسلام كافر قرضه له الأئمة كشيخنا وهو أحسنهم والعلم البُلقينيّ والتَّفَهنيّ والعَينيّ والبساطيّ والمحب بن نصر الله وخلق وحدث به غير مرة، وقام عليه العلاء البخاري لكون التصنيف في الحقيقة رد به عليه فإنه لما سكن دمشق كان يسأل عن مقالات ابن تيمية التي انفرد بها فيجيب بما يظهر من الخطأ فيها وينفر عنه قلبه إلى أن استحكم أمره عنه وصرح بتبديعه ثمّ بتكفيره ثم صار يصرح في مجلسه بأن من أطلق على ابن تيمية أنه شيخ الإسلام يكفر بهذا الإطلاق واشتهر ذلك، فجمع صاحب الترجمة في كتابه المشار إليه كلام من أطلق عليه ذلك من الأئمة الأعلام من أهل عصره من جميع المذاهب سوى الحنابلة بحيث اجتمع له شيء كثير، وحينئذ كتب العلاء إلى السلطان كتاباً بالغ فيه في الحط ولكنه لم يصل بحمدالله إلى تمام غرضه وساس القضية الشهاب ابن المحمرة قاضي الشام حينئذ مـع كونه ممن أنكر عليه في فتياه تصنيفه المذكور وتبعه التقيّ بن قاضي شهبة حتى أن البلاطنسيّ رجع عن الأخذ عنه بل والرواية عنه بعد أن كان ممن تتلمذ له كل ذلك عناداً ومكابرة وكانت حادثة شنيعة في سنة خمس وثلاثين وهلم جراً، ولكن لما كان شيخنا بدمشق حدث بتقريضه للمصنف المشار إليه ولم يلتفت إلى المتعصبين.

وقد وَلِيَ مشيخة دار الحديث الأشرفية؛ وبالجملة فكان إماماً علامة حافظاً، كثير الحياء سليم الصدر حسن الأخلاق، دائم الفكـر، متواضعـاً محبباً إلى الناس حسن البشر والود، لطيف المحاضرة والمحادثة بحيث لا

تمل مجالسته، كثير المداراة شديد الاحتمال قلّ أن يواجه أحداً بمكروه ولو آذاه، جود الخط على طريقة الذهبي حتى صار يحاكي خطه غالباً بحيث بيع بعض الكتب التي بخطه ورغب المشتري فيه لظنه أنه خط الذهبي ثم بان الأمر، وكتب به الكثير راغباً في إفادة الطلبة شيوخ بلده بل ويمشي هو معهم إلى السماع عليهم مع كونه هو المرجع في هذا الشأن وربما قرأ لهم هو، وصار حافظ بلاد الشام بغير منازع ولم يخلف هناك مثله، مات سنة اثنتين وأربعين بدمشق مسموماً فإنه خرج مع جماعة لقسم قرية من قرى دمشق فسمهم أهلها وحصلت له الشهادة؛ ودُفن بمقابر العقيبة عند والده ولم يخلف في هذا الشأن بالشام بعده مثله بل سُد الباب هناك، رحمه الله وإيانا[1].

الهادويّ

محمد بن عبد الله الحسنيّ الهادويّ الصنعانيّ. من فضلاء صنعاء وأدبائها الموجودين بها في سنة إحدى وسبعين.

(١) أنشدني نور الدين الصنعانيّ عنه من نظمه:

بقراط مسموماً مضى لسبيله	ومبرسماً[2] قد مات أفلاطون
ومضى أرسطاليس مسلولاً وجا	لينوس مات وإنه مبطون
ما إن دواء الداء إلا عند من	إن قال للمعدوم كن فيكون[3]

كمال الدين ابن الهمام

محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد الكمال بن همام الدين السيواسيّ الأصل ثم القاهريّ الحنفيّ ويعرف بابن الهُمام. ولد سنة تسعين

---

(١) «الضوء اللامع»: ٨/١٠٣ ـ ١٠٦.

(٢) مرض من الأمراض.

(٣) «الضوء اللامع»: ٨/١٢٠.

وسبعمائة ـ ظناً ـ بإسكندرية ومات أبوه وكان قاضي إسكندرية وهو ابن عشر أو نحوها فنشأ في كفالة جدته لأمه وكانت مغربية خيرة تحفظ كثيراً من القرآن وقدم صحبتها القاهرة فأكمل بها القرآن عند الشهاب الهيثميّ وكان يصفه بالذكاء المفرط والعقل التام والسكون وتلاه تجويداً على الزراتيتيّ. وحفظ القدوري[1] والمنار والمفصل للزمخشريّ، وألفية النحو، ثم عاد صحبتها[2] أيضاً إلى إسكندرية فأخذ بها النحو عن قاضيها وعاد إلى القاهرة أيضاً وقرأ على يحيى العجيسي بلديٍّ جدته وكان الكمال يقول إنه لم يكن عنده كبير فائدة بل أنكر أن يكون قرأ وإنما حضر عنده مع رفيق له وربما قال العجيسيّ له بعد أن كبر: ﴿ألم نربّك فينا وليدا﴾[3].

وغالب [4] شرح ألفية العراقي عن ولد مؤلفه الولي ورام أولاً التدقيق في البحث بحيث يشكك في الإصطلاح فلم يوافقه الوليّ على الخوض في ذلك، وتردد للعز بن جماعة في العلوم التي كانت تقرأ عليه وكان لوفور ذكائه إذا استشعر الشيخ بمجيئه قطع القراءة ولذا كان الكمال يرجح البساطيّ عليه، ولم يبرح عن الاشتغال بالمعقول والمنقول حتى فاق في زمن يسير.

وأشير إليه بالفضل التام والفطرة المستقيمة بحيث قال البرهان الأبناسيّ أحد رفقائه حين رام بعضهم المشي في الإستيحاش بينهما: لو طلبت حجج الدين ما كان في بلدنا من يقوم بها غيره. وقال يحيى بن العطار: واستمر يترقى في درج الكمال حتى صار عالماً مفنناً علامة متقناً درس وأفتى وأفاد وعكف الناس عليه واشتهر أمره وعظم ذكره وعمل أجلاساً بحضور شيوخه: شيخنا والبساطيّ وقارىء الهداية والبدر الأقصرائيّ وخلق

---

(١) من كتب فقه الأحناف.
(٢) أي: صحبة والدته.
(٣) سورة الشعراء: الآية ١٨.
(٤) أي وأخذ غالب.

من غيرهم وامتنع من الجلوس صدر المجلس أدباً بعد إلحاح الحاضرين عليه في ذلك بل جلس مكان القارىء تكلم فيه على قوله تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾[1] وقال الكلام على هذه الآية كما يجيء لا كما يجب أبان فيه عن يد طولى وتمكن زائد في العلوم بحيث أقر الناس بسعة علمه وأذعنوا له، وشرع شيخنا يصف علم المدرس وتفننه على العادة في الإشارة بذلك إلى الانتهاء فقال البساطيّ: دعوه يتكلم ويتلذذ بمقاله فإنه يقول ما لا نظير له.

(١) وقرره الأشرف برسباي شيخاً في مدرسته سنة تسع وعشرين إلى أن كان في ثالث عشرى شعبان سنة ثلاث وثلاثين فأعرض عنها لكونه عين تلميذه الشمس الأمشاطيّ لتصوف فيها وعارضه جوهر الخازندار بغيره فغضب وقال: اشهدوا على أنني عزلت نفسي من هذه المشيخة وخلعتها كما خلعت طيلساني هذا، وتحول في الحال لبيت في باب القرافة وبلغ ذلك السلطان فشق عليه وراسله يستعطف خاطره مع جقمق الذي صار سلطاناً وغيره من الأعيان فلم يجب وانتقل لطُرا[2] بالعدوية[3] فسكنها وانجمع عن الناس، وخشي جوهر غضب السلطان عليه بسببه فبادر للاجتماع به لتلافي الأمر فما أمكنه فجلس بزاوية هناك كانت عادة الشيخ الصلاة فيها حتى جاء فقام إليه حاسر الرأس ذليلاً فقبل قدمه مصرحاً بالاعتذار والاستغفار فأجابه بأنني لم أتركها بسببك بل لله تعالى، وحينئذ قرر الأمينيّ الأقصرائي فيها بعد تصميمه على عدم القبول، واستمر تارة في طرا وتارة في مصر إيثاراً للعزلة وحباً للانفراد مع المداومة على الأمر بالمعروف وإغاثة الملهوفين والإغلاظ على الملوك فمن دونهم، ولكن كاد أمره أن يقف[4] حتى استعان بالولوي السفطي وابن البارزي في تقريره في

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

(٢)، (٣) قريتان بصعيد مصر. انظر «معجم البلدان»: ٤/٢٤، ٩٠.

(٤) أي كاد يصيبه الفقر.

مشيخة الشيوخونية بعد موت باكير في جمادى الأولى سنة سبع وأربعين فباشرها بحرمة وافرة وعمر أوقافها وزاد معاليمها ولم يحابِ أحداً ولو عظم ولا وقف فيما لا يحسن في الشرع.

ومن تصانيفه جزء في الجواب عما سئل عنه في حديث «كلمتان خفيفتان» افتتحه بقوله: دخلت عليّ امرأة بورقة ذكرت أن رجلاً دفعها إليها يسأل الجواب عما فيها فنظرت فإذا فيها سؤال عن إعراب قوله ﷺ: «كلمتان خفيفتان» هل كلمتان مبتدأ أو سبحان الله الخبر أو قلبه، وهل قول من عين سبحان الله للابتداء لتعريفه صحيح أم لا؟ وهل قول من رده للزوم سبحان الله النصب صحيح أم لا؟ وهل الحديث مما تعدد فيه الخبر أم لا؟ فكتب العبد الضعيف على قلة البضاعة وطول الترك وعجلة الكتابة في الوقت ما نصه؛ وذكر الجواب، وكان إماماً علامة عارفاً بأصول الديانات والتفسير والفقه وأصوله والفرائض والحساب والتصوف والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق والجدل والأدب والموسيقى وجل علم النقل والعقل متفاوت المرتبة في ذلك مع قلة علمه في الحديث، عالم أهل الأرض ومحقق أولي العصر، حجة أعجوبة ذا حجج باهرة واختيارات كثيرة وترجيحات قوية، بل كان يصرح بأنه لولا العوارض البدنية من طول الضعف والأسقام وتراكمهما في طول المدد لبلغ رتبة الاجتهاد، وقد تخرج به جماعة صاروا رؤساء في حياته وهو أنظر من رأيناه من أهل الفنون ومن أجمعهم للعلوم وأحسنهم كلاماً في الأشياء الدقيقة وأجلدهم على ذلك مع الغاية في الإتقان والرجوع إلى الحق في المباحث ولو على لسان آحاد الطلبة.

(١) كل ذلك مع ملاحة الترسل وحسن اللقاء والسمت والبشر والبزة ونور الشيبة وكثرة الفكاهة والتودد والإنصاف وتعظيم العلماء والإجلال للتقي بن تيمية وعدم الخوض فيما يخالف ذلك وعلو الهمة وطيب الحديث ورقة الصوت وطراوة النغمة جداً بحيث يُطرِب إذا أنشد أو قرأ وله في ذلك

أعمال، وإجادته للتكلم بالفارسيّ والتركيّ إلا أنه بأولهما أمهر، وسلامة الصدر وسرعة الانفعال والتغير، والمحبة في الصالحين وكثرة الاعتقاد فيهم والتعهد لهم والانجماع عن التردد لبني الدنيا حتى الظاهر جقمق[1] مع مزيد اختصاصه به ولكنه كان يراسله هو ومن دونه فيما يسأل فيه بل طلع إليه بعد إحسانه إليه عند توجهه للحج فوادعه؛ ومحاسنه كثيرة، وقد حج غير مرة وجاور بالحرمين مدة وشرب ماء زمزم ـ كما قاله في شرحه للهداية ـ للاستقامة والوفاة على حقيقة الإسلام. ونشر فيهما أيضاً علماً جماً وعاد في رمضان سنة ستين وهو متوعك فسر المسلمون بقدومه وعكف عليه من شاء الله من طلبته وغيرهم أياماً من الأسبوع إلى أن مات في يوم الجمعة سابع رمضان سنة إحدى وستين وصلى عليه في مشهد حافل شهده السلطان فمن دونه وقدم للصلاة عليه قاضي مذهبه، ودُفِن بالقرافة[2].

غياث

محمد بن علي بن نجم غياث الدين بن خواجا الكيلانيّ التاجر وربما قيل له غياث. ولد في حدود السبعين وكان أبوه من أعيان التجار فنشأ ابنه هذا في عز ونعمة طائلة وتعاظم زائد؛ ثم شغله بالعلم بحيث كان يشتري له الكتاب الواحد بمائة دينار فأزيد ويعطي معلمه فيفرط، وكان يحضر له من يقرئه في الفنون فمهر في أيام قلائل واشتهر بالفضل فلما مات أبوه تنقلت به الأحوال والتهى عن العلم بالتجارة فصعد وهبط وغرق وسلم وزاد ونقص إلى أن مات خاملاً مع أنه كان عارفاً بالتجارة محظوظاً منها لكنه كان سيء المعاملة.

(١) وتزوج جارية من جواري الناصر يُقال لها سمراء فهام بها وأتلف عليها ماله وروحه بل ألزمته بطلاق زوجته ابنة عمه فطلقها لأجلها وأفرطت هي مع ذلك كله في بغضه حتى قِيل إنها سقته السم فتعلل مدة ولم تزل به

---

(١) سلطان المماليك.

(٢) «الضوء اللامع»: ١٢٧/٨.

حتى فارقها فتدله عقله من حبها إلى أن مات ولهاً بها؛ وبلغني أنها زارته في مرضه واستحللته فحاللها من شدة حبه لها وأنها تزوجت بعده رجلاً من العوام فأذاقها الهوان وأحبته فأبغضها عكس ما جرى لها مع غياث قاله شيخنا في «إنبائه»، قال: وترافقنا في السفر وهو آخر من عرفنا خبره من المتيّمين قال ومن شعره قصيدة مطولة في سمراء أولها:

سلوا سمراء عن حربي وحزني وعن جفن حكى هطال مزنِ
سلوها هل عراها ما عراني من الجن الهواتف بعد جنِ
سلوا هل هزت الأوتار بعدي وهل غنت كما كانت تغني

يقول في آخرها:

سأشكوها إلى مولى حليم ليعفو في الهوى عنها وعني

مات سنة إحدى وعشرين[1].

الدنجاويّ

محمد بن عمر بن عبدالله الشمس الدنجاويّ ثم القاهريّ الأزهريّ الشافعيّ ويعرف بالدنجاويّ. ولد سنة اثنتين وثمانمائة تقريباً بدمياط وقرأ بها القرآن، ثم اشتغل بالفقه وبالفرائض والنحو والحساب، وجاور بالجامع الأزهر وحج في سنة ثلاثين وزار القدس سنة خمس وثلاثين، وكان كثير التلاوة منجمِعاً عن الناس ذا تهجد تام لا يقطعه بحيث إذا ألمّ بأهله يغتسل لأجله، خفيف ذات اليد، على طريق السلف في ملبسه.

مات سنة خمس وأربعين بالقاهرة بعد توعك يسير بمرض صعب وصُلِّيَ عليه بجامع الأزهر.

(١) وكان ذكر لأصحابه أنه رأى في المنام أنه يؤم بناس كثيرين وأنه قرأ بسورة نوح ووصل إلى قوله تعالى: **﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾**

---

(١) «الضوء اللامع»: ٨/٢٢٣.

فاستيقظ وهو وَجِل فقصه على بعض أصحابه وقال هذا دليل على أني أموت في هذا المرض فكان كذلك بل حكوا عنه أنه كان يحدثهم في مرضه بأمور قبل وقوعها فتقع كما قال رحمه الله وإيانا.

(١) ومن نظمه:

وصالك معتز وحسنك حاكم ولحظك منصور وصدك قاهر
وصبري مأمون وقلبي واثق ودمعي سفاح ومالي ناصر[١]

ابن كُتَيلة

محمد بن عمر بن عبدالله الشمس أبو عبد الله الدميريّ ثم المحليّ المالكيّ ثم الشافعيّ ويعرف بابن كُتيلة، ابتنى لنفسه بالمنشية المجاورة للمحلة جامعاً وأقام به يدرس ويفتي ويربي المريدين بل ويعظ يوماً في الأسبوع مع المحافظة على الخير والعبادة والأوراد والذكر، واشتماله على مزيد التواضع وحسن السمت وبهاء المنظر وإكرام الوافدين وتقلله من الدنيا وقد لقيته بجامعه المذكور وسمعت من فوائده وعُمر طويلاً وضعفت حركته.

(٢) مات سنة سبع وثمانين، وفاحت إذ ذلك ـ فيما قيل ـ ريح طيبة ملأت البيت لا تشبه روائح الطيب ولا المسك بل أعظم بكثير، رحمه الله وإيّانا[٢].

الطَبَناويّ

محمد بن عمر بن محمد ناصر الدين بن ركن الدين الطَبَناويّ، ولد سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، ونشأ في محبة الفقراء وخدمتهم حتى تقدم فيهم بل صار مطاعاً عند الأمراء والأكابر، وقام في سنة أربعين بهدم الدير المعروف بالمغطس فاتفق تخذيل السلطان عن الأمر بذلك بعد أن كان أذعن له واقتصر على الأمر بغلقه ثم قدر الله أنه أمر بهدمه في التي بعدها

---

(١) «الضوء اللامع»: ٢٤٧/٨ ـ ٢٤٨.
(٢) «الضوء اللامع»: ٢٤٨/٨ ـ ٢٤٩.

فبادر الشيخ وأعوانه لذلك. ومات في آخر السنة، وكان على طريقة حسنة من العبادة والتوجه والرغبة في الخير وله أتباع؛ وقد قدم القاهرة مراراً.

(١) وبلغنا أن صاحب الترجمة كان يقدم القاهرة للاشتغال وأنه في بعض قدماته خيل في أثناء سفره من تعبث بعضهم في غيبته بزوجته ولم ينفك هذا الوارد عنه وإنه بمجرد اجتماعه بشيخه البدر الزركشي قال له ابتداءً: طب نفساً وقر عيناً فإنه لا يسقي زرعَك غيرُ مائك فانبسط حينئذ وزال الوارد. رحمهم الله وإيانا[١].

كاس

محمد بن فندو الجلال أبو المظفر ملك بنجالة من الهند ويعرف بكاس. كان أبوه كافراً فثار عليه الشهاب مملوك سيف الدين حمزة بن غياث الدين أعظم شاه بن إسكندر شاه بن شمس الدين فغلبه على بنجالة وأسره فبادر ابنه هذا إلى الإسلام وتسمى محمداً وثار على الشهاب فانتزع منه البلاد، ولحسن إسلامه أقام شعائر الإسلام وجدد ما خربه أبوه من المساجد ونحوها، وتقلد لأبي حنيفة، وبنى مآثر بل عمر بمكة مدرسة هائلة، وراسل الأشرف بَرْسْباى صاحب مصر بهدية واستدعى العهد من الخليفة فجُهِّز له مع تشريف على يد شريف فلبس التشريف ثم أرسل للخليفة هدية وكانت هداياه متواصلة بمصر وبدمشق.

مات سنة سبع وثلاثين واستقر بعده في المملكة ابنه وهو ابن أربع عشرة سنة، رحمه الله[٢].

الشُّمُنِّيّ

محمد بن محمد بن حسن الكمال التميمي الداريّ الشُّمُنِّيّ المغربي الأصل السكندريّ ثم القاهريّ المالكيّ.

---

(١) «الضوء اللامع»: ٨/٢٦٨ - ٢٦٩.
(٢) «الضوء اللامع»: ٨/٢٨٠.

وُلِد سنة ست وستين وسبعمائة، واشتغل بالعلم في بلده ومهر وسمع الكثير من شيوخنا فمن قبلهم، وتقدم في الحديث وصنف فيه، وقال الشعر الحسن واستوطن القاهرة، وكان خفيف ذات اليد، وأصيب بآفة في بعض كتبه وأجزائه.

مات سنة إحدى وعشرين.

(١) ومما كتبه من نظمه:

جزى الله أصحاب الحديث مثوبة ... وبوأهم في الخلد أعلى المنازل
فلولا اعتناهم بالحديث وحفظه ... ونفيهم عنه ضروبَ الأباطل
وإنفاقهم أعمارَهم في طِلابه ... وبحثهم عنه بجد مواصل
لَمَا كان يدري من غدا متفقها ... صحيح حديث من سقيم وباطل
ولم يستبن ما كان في الذكر مجملاً ... ولم ندر فرضاً من عموم النوافل
لقد بذلوا فيه نفوساً نفيسة ... وباعوا بحظ آجل كل عاجل
فحبهم فرض على كل مسلم ... وليس يعاديهم سوى كل جاهل

(٢) وقوله:

من يأخذ العلم عن شيخه مشافهة ... يكن من الزيف والتصحيف في حرم
ومن يكن آخذاً للعلم من صحف ... فعلمه عند أهل العلم كالعدم[١]

أبو المحاسن الحنبليّ

محمد بن محمد بن عبدالمنعم البدر أبو المحاسن البغداديّ الأصل القاهريّ الحنبليّ.

وُلِد بالقاهرة سنة إحدى وثمانمائة وأمه هي ابنة أخي الفقيه برهان الدين بن الصّواف الحنبليّ. نشأ فحفظ القرآن وتلاه ـ كما أخبر ـ لكل من أبي عمرو ونافع وحمزة. وحفظ الخِرَقيّ وغيره وعرض ثم أخذ في

(١) «الضوء اللامع»: ٩/٧٤ ـ ٧٥.

الفقه عن زوج أمه الفتح الباهي والعلاء بن مُغْلِي ولكن جل انتفاعه إنما كان بالمحب بن نصر الله واشتغل في النحو، وطلب الحديث، وناب في القضاء عن ابن مغلي فمن بعده وكذا ناب عن شيخنا وجلس لذلك في بعض الحوانيت ببولاق وغيره.

(١) رأى النبي ﷺ وبشره بأشياء منها القضاء، ووَلِيَ قضاء العسكر وإفتاء دار العدل وتدريس الفقه بالصالح بعد أبيه بعناية المحب شيخه وكان ينوب عنه فيه، وعُرف بالديانة والأمانة والأوصاف الحميدة مع البراعة في المذهب، فلما مات شيخه المحب استقل في القضاء فسار فيه سيرة حسنة جداً بعفة ونزاهة وصيانة وأمانة وتثبت وإمعان في نظر المكاتيب الشهود، مع التصميم على منع أشياء كانت فاشية قبله، ولا زال مع ذلك يستجلب الخواطر باللين والاحتمال والتواضع والبذل مع التقلل من الدنيا وعدم ادخارها إذا وقعت بيده ونصر المظلوم وإغاثة اللهفان والمداراة مع الصلابة عند الحاجة إليها حتى كان كما قيل ليِّنا من غير ضعف شديداً بدون عنف فصار إلى رياسة ضخمة وحرمة وافرة وكلمة مقبولة وأوامر مطاعة، وهرع الناس لبابه، وقُصِد في المهمات الكبار، وترامى عليه أصحاب الحوائج من الفقهاء والقضاة والمباشرين والأمراء وغيرهم ولم يتحاشى أحد عن الحضور عنده بحيث كان إذا مرض أو حصل له أمر يتردد إليه الخليفة فمن دونه لا يتخلف عنه منهم أحد لِما أَلِفوه من كثرة موافاته لهم وإعمال فكره في نصحهم بما ينفعهم في الدار الباقية، وتردد إليه جمهور الفقهاء والطلبة وغيرهم وبالغوا في الثناء عليه، ولما مات الزين عبدالباسط أسند وصيته لجماعة هو منهم وأوصى له بألف دينار يفرقها بحسَب رأيه وثوقاً منه بذلك ففرقها من غير تناول لدرهم منها فيما بلغني بل سمعت أنه أوصى له هو بألف أخرى فأعرض عنها وكذا اتفق له مع البدر بن التنسيّ وابن السلطان حسن حيث أوصى كل منهما له بخمسمائة دينار فأعرض عنها، وكثيراً ما كان يتفرق ما يخصه من الوصايا على الطلبة ونحوهم وكذا كان الظاهر

جقمق[1] منقاداً معه إلى الغاية حتى أنه كان يأمر بما لا يستطيع أحد مراجعته فيه فلا يزال يتلطف به ويترسل في حسن التوسل إلى أن يصغي لكلامه ويرجع إليه وكفه عن أشياء كانت بادرته تلجئه إلى الوقوع فيها خصوصاً مع الفقهاء ونحوهم.

(١) كل هذا مع المداومة على التلاوة والتهجد والصيام والمراقبة والحرص على المحافظة على الطهارة الكاملة وضبط أفعاله وأقواله واجتهاده في إخفاء أعماله الصالحة بحيث إنه يركب في الغَلَس إلى من يعلم احتياجه فيبره وربما حمل هو الطعام وشبهه لمن يكون عنده بالمدرسة وأمره في هذا وراء الوصف، ومزيد احتماله وحلمه والخبرة بالأمور وكثرة الإفضال وسعة الكرم وكونه في غاية ما يكون من الترفه والتنعم بالمآكل السنية والحلوى والرغبة في دخول الحمام في كل وقت ليلاً، ومزيد موافاته بالتهنئة والتعزية والعيادة ونحو ذلك بحيث لا يُلحق فيه، ولقد بلغني أن الشرف يحيى بن العطار تعلل مرة ثم أشرف على الخلاص ودخل الحمام فليم في تعجيله بذلك فقال والله ما فعلته إلا حياءً من فلان وأشار إليه لكثرة مجيئه في كل يوم فأحببت تعجيل الراحة له بل بلغني عن بعض الرؤساء أنه كان يقول ما كنت أعلم بكثير ممن ينقطع من جماعتي وحاشيتي إلا منه، وقيل لشيخنا في إمعانه من ذلك فقال مشيراً لتفرغه: كلٌّ ميسر لما خلق له، وأُثْكِل ولدَه الشرف فصبر واحتسب وتزايد ما كان يسلكه من أفعال الخير حتى أنه فرّق ما كان باسم الولد من الوظائف على جماعة مذهبه فأعطى إفتاء دار العدل لابن الرزاز وقضاء العسكر للخطيب وكان رغب عنهما لولده عند ولايته للقضاء وأكثر من إيصال البر إليه بالختمات المتوالية والصدقات الجزيلة وقرر جماعة يقرءون كل يوم عند قبره ختمة وحبس على ذلك رزقةً وانتفع هو بذلك بعد موته حيث استمر.

ولم يلبث أن مات سنة سبع وخمسين بعد تعلله أياماً. وصُلِّيَ عليه

---

(١) سلطان المماليك.

من الغد بباب النصر في مشهد حافل جداً تقدم أمير المؤمنين الناس ودُفِن جوار قبر ولده وكان فريداً في معناه، رحمه الله وإيانا[1].

الغِماريّ

محمد بن محمد بن عليّ الشمس أبو عبد الله الغماريّ ثم المصريّ المالكيّ النحويّ.

وُلِد سنة عشرين وسبعمائة، وقيل في التي قبلها، ولازم أبا حيان حتى أخذ عنه العربية بل وتلا عليه للثمان وسمع عليه قصيدته «عقد اللآلي» وكثيراً من كتب القراآت واللغة والحماسة وغيرها وعليه انتفع وبه تخرج وقرأ في الأدب على الجمال بن نباتة وعنه أخذ سيرة ابن إسحاق، وارتحل فقرأ ببيت المقدس على الصلاح العلائيّ أشياء من تصانيفه وبمكة على خليل بن عبد الرحمن المالكي الكثير من كتب الحديث وبه تفقه.

وكان أحفظ الناس لشواهد العربية وأحسنهم كلاماً عليها، مع مشاركة في القراآت والأصول والفروع والتفسير، وقد تصدى للإقراء دهراً واستقر بأخرة في مشيخة القراء بالشيخونية وأخذ عنه الأكابر وتخرج به خلق وصار شيخَ النحاة بدون مدافع وكان ممن أخذ عنه شيخنا وأدرجه في شيوخه الذين كان كل واحد منهم متبحراً ورأساً في فنه الذي اشتهر به لا يلحق فيه.

وكانت وفاته سنة اثنتين بالقاهرة، ولم يخلف في معناه مثله رحمه الله وإيانا.

وأنشدنا شيخنا رحمه الله غير مرة أن شيخه الغماري أنشده أن شيخه أبا حيان أنشده قوله:

(١) وأوصاني الرضيُّ وصاة نصح ... وكان مهذباً شهماً أبياً

---

(١) «الضوء اللامع»: ٩/١٣١ - ١٣٤.

بــأن لا تحسـنن ظـنــاً بشـخص ولا تصحب حيــاتــك مـغــربيّــاً

قال شيخنا: وشيخنا وشيخه والرضى مغاربة وذلك من الغرائب.

(١) ومما أورده الجمال بن ظهيرة عنه بالإجازة مما أنشده له أبو حيان من قوله:

عـداتـي لهـم فضـل عليّ ومنّـةٌ فـلا أذهب الرحمن عني الأعـاديا
هم بحثـوا عن زلتي فـاجتنبتهـا وهم نـافسوني فـاكتسبت المعـاليـا

(٢) وحدث المقريزيّ في عقوده عنـه عن شيخه أبي حيـان قال: ألزمني الأمير ناصر الدين محمد بن جنكلي بن البابا المسير معه لزيارة أحمد البدويّ بناحية طنتدا[1] فوافيناه يوم الجمعة وإذا هو رجل طوال عليه ثوب جوخ عال وعمامة صوف رفيع والناس يأتونه أفواجاً فمنهم من يقـول: يا سيدي خاطرك مع غنمي، وآخر يقول: مع بقري، وآخر مع زرعي إلى أن حان وقت الصلاة فنزلنا معه إلى الجامع وجلسنا لانتظار إقامة الجمعة فلما فرغ الخطيب وأقيمت الصلاة وضع الشيخ رأسه في طوقه بعد ما قام قائماً وكشف عن عورته بحضرة الناس وبال على ثيابه وحصر المسجد واستمر ورأسـه في طوق ثـوبه وهـو جالس إلى أن انقضت الصـلاة ولم يصـل، نفعنا الله بالصالحين[2].

شمس الدين المقدسيّ

محمـد بن محمد بن عليّ الشمس المـوصليّ الأصـل المقـدسيّ ثم القاهريّ الشافعيّ، وُلِد سنة ثمانمائة تقريباً ببيت المقدس ونشأ به فحفظ القرآن وكتباً، وأخذ الفقه والأصلين[3] والعربية وغيرها عن الشمس البرماويّ

---

(١) أي: طنطا.

(٢) «الضوء اللامع»: ٩/١٤٩ ـ ١٥٠، والعجب من السخاويّ كيف يقول هذا إلا إن كان قصده التعريض، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ومن أراد أن يعجب أكثر فلينظر إلى تـرجمتـه في شـذرات الـذهب: ٥/٣٤٥ـ ٣٤٧ ليعلم كيف ضـلّ بعض المسلمين.

(٣) أي: أصول الفقه وأصول الدين.

وبه انتفع وكان يجله، وقدم القاهرة سنة ثلاث وثلاثين امتثالاً لوصية شيخه البرماوي فإنه حضه على ذلك ولكن لم يسمح به إلا بعد موته فقطنها ولازم شيخنا أتم ملازمة حتى حمل عنه شيئاً كثيراً من تصانيفه وغيرها بقراءته وقراءة غيره دراية ورواية وتصدى للإقراء فانتفع به الفضلاء.

(١) وكان إماماً عالماً فقيها محققاً لفنون ذكياً بحاثاً نظاراً فصيحاً حسن التقرير مديماً للاشتغال والإشغال، منجمعاً عن بني الدنيا، قانعاً باليسير، متعبداً متين الديانة وافر العقل كثير التحري والحياء والحشمة والأدب، متواضعاً بشوشاً بهياً عطر الرائحة نقيّ الثياب، تاركاً للفضول وذكر الناس.

(٢) إذا سمع من أحد غيبة ولو جَلّ بادره وهو يبتسم بقوله: أستغفر الله.

محبباً للخاص والعام سريع الكتابة والقراءة راغباً في تقييد كتبه بالحواشي المفيدة غالباً، وقد رافقته في بعض ما قرأه على شيخنا وسمعت أبحاثه وكان شيخنا كثير الإجلال له وربما خرج من تصميمه فيما يبديه وصار بيننا مزيد اختصاص.

(٣) قال لي: كنت إذا انكشف ساقي وأنا في خلوتي أبادر لستره مع الاستغفار إلى غير هذا.

(٤) كتبت عنه قوله في الخصال التي ذكر ابن سعد أن العباس أوصى بها عثمان رضى الله عنهما:

اصفح تحبب ودار اصبر تجد شرفاً ... واكتم لسر فهذي الخمس قد أوصى
بهن عثمانَ عباسٌ فدع جدلاً ... وانظر إلى قدر من أوصى وما أوصى

(٥) وقوله في شروط الراوي والشاهد:

بلوغ وإسلام وعقل سلامة ... من الفسق مع خرم المروءة في الخبر
شروط وزدها في الشهادة سالماً ... من الرق فالمجموع يدريه من خبر

مات سنة خمس وخمسين ـ رحمه الله وإيانا ـ فقد كان من محاسن العلماء[1].

أبو الفضل المَشَدالِّيّ

محمد بن محمد بن أبي القاسم أبو الفضل، الورع الزاهد أبي عبد الله ابن العلامة الزاهد المنقطع إلى الله المَشَدالِّيّ نسبة لقبيلة من زواوة، الزواويّ البجائيّ المغربيّ المالكيّ ويُعرف في المشرق بأبي الفضل وفي المغرب بابن أبي القاسم وأبو القاسم ويُكنى أبا الفضل أيضاً.

وُلِد سنة إحدى أو اثنتين وعشرين وثمانمائة ببجاية وقال ـ فيما أملاه على البقاعي كما زعمه: ابتدأ في حفظ القرآن وهو في الخامسة فأكمل حفظه في سنتين ونصف وحفظ الشاطبيتين، ورجز الخرازيّ في الرسم، والكافية الشافية، ولاميّة الأفعال لابن مالك في النحو والصرف، وغالب التسهيل وجميع ألفيته، وابن الحاجب الفرعيّ والرسالة، وأرجوزة التلمسانيّ في الفرائض، ونحو الربع من مدونة سحنون، وطوالع الأنوار في أصول الدين للبيضاويّ، وابن الحاجب الأصليّ، وجمل الخونجي، والخزرجية في العروض، وتلخيص ابن البنا في الحساب وتلخيص المفتاح والديوان لامرىء القيس وللنابغة الذبياني ولزهير بن أبي سلمى ولعلقمة الفحل ولطرفة بن العبد، ثم أقبل على التفهم فبحث على أبي يعقوب يوسف الريفيّ الصرف والعروض ثم على أبي بكر التلمسانيّ في العربية والمنطق والأصول والميقات، ثم على يعقوب التيرونيّ في النحو، ثم على أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن أبي بكر فيه والمنطق، ثم على موسى بن إبراهيم الحسناويّ في الحساب، ثم الحساب أيضاً مع الصرف والنحو والأصلين[2] والمعاني والبيان وعلوم الشرع والتفسير والحديث والفقه على أبيه، ثم على أبي الحسن علي بن إبراهيم الحسناويّ في الأصلين، ثم

---

(١) «الضوء اللامع»: ٩/١٥٢ ـ ١٥٤.

(٢) أي: أصول الفقه وأصول الدين.

رحل في أول سنة أربعين إلى تلمسان فبحث في التفسير والحديث والفقه والأصلين والأدب بأنواعه والمنطق والجدل والفلسفيات والطب والهندسة والجبر والمقابلة، وجر الأثقال، والميقات بأنواعه من فنون الإسطرلابات والهيئة والموسيقا والطلسمات وما شاكلها وعلم المرايا والمناظر وعلم الأوفاق، ثم عاد إلى بجاية في سنة أربع وأربعين وقد برع في العلوم واتسعت معارفه وبرز على أقرانه بل على مشايخه بحيث كتب ابن مرزوق لأبيه فيما قيل: إنه قدم علينا وكنّا نظن به حاجة إلينا فاحتجنا إليه أكثر.

قال البقاعيّ: ما عرفت العلم حتى قدم عليّ هذا الشاب، فقيل: كيف؟ قال: لأني كنت أقول فيُسَلم كلامي فلما جاء هذا شرع ينازعني فشرعت أتحرز وانفتحت لي أبواب من المعارف أو نحو هذا.

ونقل البسطي عنه أنه قال: إن عاش كان عالم المسلمين وأنه كان هو وأبو الفضل ابن الإمام يأمران تلامذتهم بالقراءة عليه فأسرع إليه غالبهم فانتفعوا وتصدر للإقراء ببجاية إلى أن رحل منها في أواخرها أو أوائل التي بعدها فدخل قسطنطينة وحضر عند جميع علمائها ساكتاً ثم رحل في أواخرها نحو المملكة المصرية في البحر في مركب نصارى جنويين ثم أتاهم ريح عاصف فساقهم إلى جزيرة قبرص وحصل له مع بعض أساقفتهم مناظرة، ثم رحل من قبرص في ذي القعدة منها فأرسلوا إلى بيروت ثم رحل إلى دمشق ثم طوف في بلاد الشام طرابلس وحماة ثم قطن القدس مدة وشاع ذكره إلى أن ملأ الأسماع وصار كلمة إجماع، ثم حج سنة تسع وأربعين وجاور ثمّ رجع إلى القاهرة فزادت حظوته عند أهل المملكة السلطان وأركان الدولة، ودرس للناس في عدة فنون فبهر العقول وأدهش الألباب فكان يقرأ القارىء بين يديه ورقة أو أكثر ثم يسرد ما تتضمنه من تصوير المسائل ويستوفي كلام أهل المذهب إن كان فقهاً وكلام الشارحين إن كان غير ذلك ثم يتبع ذلك بأبحاث تتعلق بتلك المسائل كل ذلك في أسلوب غريب ونمط عجيب بعبارة جزلة وطلاقة كأنها السيل وتحرز بديع بحيث يكون جهد الفاضل البحاث عند غيره

أن يفهم ما يلقيه ويدرك بعض إدراك ما يجليه، ولقد حدثني غير واحد من ثقات الأفاضل أن الطلبة قالوا له: تنزل لنا في العبارة فإنا لا نفهم جميع ما تقول، فقال شيئاً يكاد أن يكون كشفاً: لا تنزلوني إليكم ودعوني أرقيكم إلي فبعد كذا وكذا لمدة حدها تصيرون إلى فهم كلامي فكان الأمر كما قال، وقد حصلت بيننا اجتماعات وصحبة ورأيت منه من حدة الذهن وذكاء الخاطر وصفاء الفكر وسرعة الإدراك وقوة الفهم وسعة الحفظ وتوقد القريحة واعتدال المزاج وسداد الرأي واستقامة النظر ووفور العقل وطلاقة اللسان وبلاغة القول ورصانة الجواب وغزارة العلم وحلاوة الشكل وخفة الروح وعذوبة المنطق ما لم أره من أحد، قال: وأخبرت عنه أن أباه أمره بمطالعة غزوة بدر وإلقائها في الميعاد فحفظها برمتها من سيرة ابن إسحق بما فيها من الأشعار وحاضر بها من العشاء إلى نحو نصف الليل وأصبح فساقها حتى بهر الحاضرين، وأن أخاً له كان يقرأ عليه في بعض العلوم فيجتهد في المطالعة حتى يتوهم أنه يفوق عليه فإذا وقع الدرس وقفه على مباحثات وإشكالات ما خطرت له مع امتحانهم له مراراً فيجدونه في خلوته نائماً غير مكترث بمطالعة ولا غيرها، ثم حضرت درسه في فقه المالكية بجامع الأزهر في ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين فظهر لي أنني ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه وإنّ من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ولا رأى الناس بل ولا خرج إلى الوجود قال ومن سمع كلامه في العلم علم أنه يخبر عن مشاهدة وأن غيره يخبر عن غيبة وليس المخبر عن المشاهدة كالمخبر عن المعاينة ولهذا نجد كلامه في القلب أثبت من كلام غيره؛ لم أر أعظم تحريكاً للهمم من حاله ولا أشد فعلاً للقلوب من مقاله، سماع درس واحد من تقريره أكثر نفعاً من سماع مائة من غيره، هيئة لعمري لا يحاط بكُنهها وهو آية أبرزه الله في هذا العصر للعباد فمن قبلها يرجى له بركتها ومن أباها خشي عليه معاجلة العقوبة، لا يشبه كلامه في جزالته وجلالته إلا كلام العرب العرباء ولا يضاهيه في طلاقته ورصانته سوى فحول الألباء على أنه محشو من دقيق المعاني بما يمنع لعمري من التصنيع ويشغل عن التكلف بل تلك منه سجية غير محتاجة إلى روية

وهمة علية ما جنحت قط في التحصيل لدنيّة:

صفـات يغـار البـدر منهـا وينثني لهـا خضعـانـاً رؤوس المنـابـر

لكنه مخل المروءة كثير الترفع على أصحابه سيّما في الملأ، عظيم التهاون بهم عديم النفع لهم، لين الجانب لمخالفيه غير بعيد من نفعهم، وهو يستر هذه النقائض غاية الستر فلا يذوقها منه إلا النحرير في أوقات الغفلات فإذا ظهر له منها شيء انهتك الباقي فهو لعمري أعجوبة الزمان حفظاً وفهماً وتوقداً وذكاءً وعلماً وخبثاً ومكراً ودهاءً وتواضعاً وكِبراً، قال: ومن عجائب حظه أنه تحبب لشيخنا ابن حجر بأنواع التحبب وأتاه لبيته فلم ير منه إنصافاً وظن أن الإشاعات بفضائله مغالاة أو غلط ممن لا نباهة له فترفع حينئذ عن التردد إليه مع توقع أن يراه في بيوت بعض الأكابر فيريه من أنظاره ودقة فكره ما يعلي عنده قدره بحيث كنت أظن أن ذلك يفضي إلى ضد المراد من غيظ وتعاد واجتهدت من الجانبين في الاجتماع على وجه جميل فلم أستطع فأراد الله أن مرض ابن حجر بأمراض منها ضيق النفس في نحو نصف ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين وطال مرضه فذكره له الكمال والشرف بن العطار وأنه يتعين أن ينظره ليشخص مرضه وينظر علاجه فإنه في الطب واحد عصره وفريد دهره وكان قد تكرر على سمعه من معارفه وعظمته عند الأكابر وعقله وسيـاسته وثباته ورزانته ما قرر عنده أمره وملأ صدره حتى اشتهى أن يراه ولو نظرة فطلبه منهما وألح عليهما فكلماه في ذلك فامتنع لكراهته أن يشتهر بطب ولِمَا تقدم من عدم إنصافه فلم يزالا يتلطفان به ويترققان إلى أن أجاب فعاده في يوم الأحد منتصف ذي الحجة وهو في أشد المرض فابتهج به ابتهاجاً كثيراً وعظمه تعظيماً كبيراً ثم نقل عن ابن الهمام أنه قال: هذا الرجل لا ينتفـع بكلامه ولا ينبغي أن يحضر دروسه إلا حذاق العلماء وسئل عن النسبة بينه وبين أبي القاسم النويري فقال: جهد أبي القاسم أن يفهم عنه، وعن الزين قاسم الحنفي قال: ما سمعت العلم من مثله، وعن الأمين الأقصرائي أنه وصفه بالشيخ الإمام العلامة خلاصة الزمان والعلماء.

قلت: وقد بالغ البقاعي بل جازف وممن جازف في شأنه مما أظن أنه

تبع فيه البقاعي ابن أبي عذيبة مع كونه ليس بعمدة فقال: الإمام العلامة أوحد أهل زمانه قدم علينا القدس سنة سبع وأربعين فأقرأ العضد وكتب المنطق والمعقولات وشهد له الأئمة ببلدنا وبدمشق ومصر وطرابلس أنه أوحد أهل الأرض وأنه عديم النظير في جنس بني آدم وأنني عاجز الآن عن عبارة أصفه بها فإن كل عبارة هو فوقها ثم دخل مصر فولى تدريس القبة المنصورية فدرس بها العجب العجاب وتعين لقضاء الشام ثم لمصر فأبى ولا يحضرني الآن من يضاهيه في كثرة علومه ثم نقل عن ابن الهمام أنه قال سألته عن مسألة في أواخر الأصول فأجابني عنها بأجوبة من لو طالع عليها ثلاثة أشهر لم يجب فيها بمثله، وعن سعد بن الديريّ قال: كنت إذا كلمته بكلام يفهم آخره قبل أن أتمه. انتهى.

وكان الناس في صاحب الترجمة فريقان فقال لي المحيوي عبد القادر المالكيّ: والله إنه لا عهد له بالفقه بل سمعت قراءته الفاتحة في الصلاة فما أجادها وتكلم في ديانته بما وافقه غيره من ثقات أهل مكة عليه مما لا أحب الإفصاح به، ونحوه قول أبي القاسم النويري: إنه لا يعرف مسألة من المسائل يعني الفقهية وكذا كان صاحبنا الجمال بن السابق يقدح في علمه وديانته بعد أن كان ممن قلد في شأنه أولاً وبلغني عن الشرواني أنه كان يتعجب من المصريين كيف راج عليهم ويقول: إنه قال لي: والله ما أخاف من مصر إلا من ابن حسان قال: فقلت له: فأنت آمن لأن المشار إليه مع كونه في العلم والدين بمكان في شأن غير شأنك ولا رغبة له في المجادلة إلا إن دعت ضرورة دينية أو كما قال، وكان العز الكنانيّ في وصفه متوسط الحال بل سمعته غير مرة يقول إنه لا نسبة له بالعلاء القلقشنديّ ولا ينهض لمقاومته في المناظرة أو نحو هذا، وأما شيخنا الذي لم يسعد صاحب الترجمة بالأخذ عنه فإنه لما بالغ عنده البقاعيّ في تقدمه في الطب وجاء بسبب ذلك إليه في مرض موته كما تقدم لم ينته في وصفه إلى الحد الأعلى بل صرح بكونه كالآحاد وإليه المرجع في معرفة الناس ثم مع تركه للأخذ عن شيخنا المرحول إليه من سائر الآفاق للدراية والرواية سمع على سارة ابنة ابن جماعة جزء ابن الطلاية

ببيتها وعلى أربعين من العلماء والمسندين ختم البخاري بالظاهرية القديم هذا مع سكوته الزائد وعدم كلامه في المحافل بل ربما أقرأ في بيته والباب مجاف حتى لا يدخل عليه أحد إلى غير ذلك مما يؤذن بحقيقة الحال، نعم ساعده الكمال بن البارزيّ وهو ممن كان يطريه حتى انتزع له تدريس التفسير بقبة المنصوريّة من المحيويّ الطوخيّ وعمل له أجلاساً حضره فيه الأكابر ولم يجسر أحد على التكلم معه لإغلاظه على الزين قاسم الزفتاويّ لما تكلم معه فجبن غيره وكنت ممن حضر هذا الدرس ورأيت من سرعة سرده وطلق عبارته وقوة جنانه في تأديته عجباً وإن كان مقام التحقيق وراء ذلك، وتشتت في البلاد والقرى وركب البحر والبر وتطور على أنحاء مختلفة وهيئات متنوعة إلى أن مات غريباً فريداً في عنتاب أواخر سنة أربع وستين.

(١) وبالجملة فكان غاية في جودة الذهن وسرعة الإدراك وقوة الحافظة إلا أنه كان سريع النسيان قليل الاستحضار ولأجل هذا لم يكن يتكلم في المجالس إلا نادراً خوفاً من الاستظهار عليه بالمنقول، وإذا طالع محلاً أتى بما يبهر السامع وقد تكرر اجتماعي معه بعد المجلس المشار إليه وما كنت أحمد انحرافه عن شيخنا وأرغب في لقاء أبي عبد الله التريكيّ لمزيد حبه شيخَنا وتقدمه على صاحب الترجمة في الشرعيّات ومحبته في المباحثة والمناظرة والمذاكرة.

(٢) وله نظم، فمنه ما قاله بتلمسان في سنة أربعين يخاطب بعض أخلائه ببجاية:

برق الفراق بدا بأفق بعادنا	فتضعضعت أركاننا لرعوده
كيف القرار وقد تبدد شملنا	والبين شق قلوبنا بعموده
لله أيام مضت بسبيلها	والدهر ينظم شملنا بعقوده[1]

---

(١) «الضوء اللامع»: ٩/١٨٠ - ١٨٨. وسياق الترجمة التي أوردها السخاوي فيها تناقض كبير فالله أعلم بحقيقة علم الرجل، والسخاويّ لا يصلح لأن يكون مرجحاً في هذا لأنه معروف بالتحامل على كثير من علماء عصره.

أبو عبد الله الراعي

محمد بن محمد بن إسماعيل أبو عبد الله المغربيّ الأندلسيّ ثم القاهريّ المالكيّ ويُعرف بالراعي. وُلِد بغرناطة من بلاد الأندلس في سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة تقريباً ونشأ بها وأخذ الفقه وأصوله والعربية عن أبي جعفر بن إدريس بن سعيد الأندلسيّ وغيره، ودخل القاهرة في سنة خمس وعشرين فحج واستوطنها وسمع بها من شيخنا واختص به، وتصدى للإقراء فانتفع به الناس طبقة بعد طبقة لا سيّما في العربية، بل كانت فنه الذي اشتهر به وبجودة إرشاده فيها، وشرح كلا من الألفية والآجرّومية والقواعد وغيرها بما حمله عنه الفضلاء.

وله نظم وسط كتبت عنه منه الكثير ومما لم أسمعه منه ما أودعه في مقدمة كتاب صنفه في نصرة مذهبه وأثبته دفعاً لشيء نسب إليه:

(١) عليك بتقوى الله ما عشت واتبع — أئمة دين الحق تُهدى وتسعد
فمالكهم فالشافعي فأحمد — ونعمانهم كل إلى الخير ويرشد
فتابع لمن أحببت منهم ولا تمل — لذي الجهل والتعصيب إن شئت تحمد
فكل سواء في وجيبة الاقتدا — متابعهم جنات عدن يخلد
وحبهم دين يزين وبغضهم — خروج عن الإسلام والحق يبعد
فلعنة رب العرش والخلق كلهم — على من قلاهم والتعصب يقصد

وكان حاد اللسان والخلق، أضر بأَخرة. ومات بسكنه من الصالحية سنة ثلاث وخمسين وصُلِّيَ عليه بالأزهر ودُفِن بالصحراء قريباً من تربة الزين العراقي رحمه الله وإيانا وذلك بعد أن أنشد قبيل موته بشهر في حال صحته بعض أصحابه من نظمه:

(٢) أفكر في موتي وبعدُ فضيحتي — فيحزن قلبي من عظيم خطيئتي
وتبكي دماً عيني وحُقّ لها البكا — على سوء أفعالي وقلة حيلتي
وقد ذابت اكبادي عناءً وحسرة — على بعد أوطاني وفقد أحبتي

فمالي إلا الله أرجوه دائماً ولا سيما عند اقتراب منيتي[1]

ابن البارزيّ

محمد بن محمد بن الكمال أبو المعالي الجهني الأنصاريّ الحمويّ ثم القاهريّ الشافعيّ ويُعرف بابن البارزيّ ويُقال إنها نسبة لباب أبرز ببغداد. وُلِد سنة ست وتسعين وسبعمائة بحماة ونشأ بها في كنف أبيه فحفظ القرآن وصلى به في سنة تسع وثمانمائة بالقاهرة حين كان فيها مع أبيه، وحفظ بعد عودته لبلده العمدة والتمييز في الفقه لقريبهم الشرف بن البازريّ وألفية النحو وغيرها، وبحث في دمشق حين كان بها سنة ثمان ألفية النحو على الشرف محمد الأنطاكيّ ثم رحل به أبوه إلى حلب قاضياً بها في سنة ثلاث عشرة ثم انتقلا إلى القاهرة في سنة خمس عشرة مع المؤيد فأخذ في الحديث والفقه وأصوله وأصول الدين والمعاني والبيان وغيرها واجتهد في الأدبيات حتى برع فيها وصارت له يد طولى في المنثور والمنظوم سيما في الترسل والإنشاء ولذا استنابه أبوه في في كتابة السر[2] بالقاهرة ثم استقل بها في شوال سنة ثلاث وعشرين بعد موته ولم يلبث أن انفصل عنها في محرّم التي تليها واستقر في نظر جيشها فأقام فيه نحو عشرة أشهر، وهو في غضون هذا كله غير منفك عن المطالعة والإشتغال بالعلوم والأدب والمذاكرة ولقاء الفضلاء والأدباء وتزايد إلى أن استقر في كتابة سر الشام في رجب سنة إحدى وثلاثين.

(۱) ثم بعد أزيدَ من أربع سنين بيسير حين قدم القاهرة صحبة نائبها سودون أضيف إليه قضاؤها وسُرّ شيخه العلاء البخاريّ بولايته مع شدة نفرته مّمن كان يلي القضاء ونحوه من جماعته حتى قال وكان بالشام إذ ذاك: الآن أمِن الناس على أموالهم وأنفسهم. ولم يلبث أن أعيد لكتابة سر القاهرة فدام سنين ثم صرف ورجع إلى الشام على قضائه وخطب بجامعه

---

(۱) «الضوء اللامع»: ٩/٢٠٣ - ٢٠٤.

(۲) وظيفة يتولّى صاحبها قراءة الكتب الواردة على السلطان والردّ عليها.

الأمويّ ثم أعيد في أول سلطنة الظاهر إلى كتابة سر القاهرة واستمر حتى مات سوى ما كان يتخللها من الأيام التي كان ينفصل فيها ثم يُعاد، وحُمدت سيرته في مباشراته كلها.

وكان إماماً عالماً ذكياً عاقلاً رئيساً ساكناً كريماً سيوساً صبوراً حسن الخلق والخلق والعشرة، متواضعاً، محباً في الفضلاء وذوي الفنون مكرماً لهم إلى الغاية لا سيما الغرباء حتى صار محطاً لرحالهم، راغباً في اقتناء الكتب النفيسة غير مستكثر لما يبذله في تحصيلها عجباً في ذلك، سمحاً بالعارية[1] جداً، ممدَّحاً امتدحه الفحول من الشعراء.

كل ذلك مع الشهامة والكرم والإحسان إلى الطلبة ومحبتهم وضمهم إليه بحيث يجري على كثير منهم المرتبات الشهرية والسنوية.

(١) ولما ارتفع سعر الغلال في بعض السنين حسن له بعض جماعته أن يصرف للمرتب لهم في البر دراهم فقبحه وقال: نعطيهم البُّر في حال كونه تراباً ثم نعطيهم التراب في حال كونه ذهباً أو نحو هذا.

(٢) كل ذلك مع ما يُضاف إليه من حسن البشاشة وحلاوة الكلام وظرف الشكالة ولطافة الشمائل وكونه هيناً ليناً ألوفاً سريع الانقياد إلى الخير مهذب العشرة ليس فيه أذى لأحد من خلق الله حتى ولا لمن يؤذيه كم ممن أكل ماله وأغضى عنه بل وربما أحسن إليه بعدُ، نعم إذا تحقق من أحد العناد وقصد المغالبة غضب غضب الحليم وأذاقه من أنواع الشدائد العذاب الأليم، مع الحشمة والمجاملة وعدم الإفحاش في المعاملة وهو منطبع في غالب العلوم لا سيّما فنون الأدب والنحو والمعاني والبيان والعَروض وغيرها، رائق الشعر فائق النثر ذوّاق للمعاني الدقيقة، حسن المذاكرة فكِه المحاضرة عجب لمن يتأمله فإنه يراه في غاية السكون بحيث يقضي عليه بالجمود وذهنه كالنار المضرمة.

---

(١) أي: في إعارة الكتب.

وبالجملة فهو عريق الأصالة ضخم الرياسة عظيم الآباء كريم الأجداد عين الرؤساء بغير منازع في تفرده بقطر من أقطار الأرض.

(١) وقد حج غير مرة منها في سنة خمسين فحمل معه من طلبة العلم والمشايخ المعتقدين والفقراء والمنقطعين من يتعسر حصرهم غير أنه كان معه نحو أربعمائة نفر ونحو ضعفهم من الدواب ولم يدع أحداً منهم يتكلف إلى شيء بل اشترى لأهليهم الهدايا ورجع كل منهم وهو ذاكر لما يبهر العقل من الاحتمال والإحسان وطلاقة الوجه ولين القول وتكلف الأكمل من وجوه العبادة كالتجرد في الإحرام على ضعف بدنه والمتابعة في سنن الحج وواجباته الأمر المشروع سيّما في أشياء قد هجرت، وحصل لأهل الحرمين منه إفضال وبر على جاري عادته، ثم قدم فملأ الناس خيراً وبراً.

وحدث في مكة باليسير وكذا حدث بالقاهرة سمع عليه الأئمة وقرأت عليه أشياء.

ومحاسنه كثيرة حتى شاع بها ذكره وبعد فيها صيته وصار كما قيل: قلّ أن ترى العيون في مجموعه مثله.

واستمر على جلالته حتى مات سنة ست وخمسين وصلى عليه في مشهد حافل شهده السلطان والأمراء وسائر القضاة والأئمة والأعيان تقدمهم أمير المؤمنين، ودُفِن بتربة أبيه المجاورة لقبة الإمام الشافعيّ من القرافة وأسف الناس على فقده وكثر الثناء عليه وعلى جلّ أوصافه ولم يخلف بعده في ،مجموعه مثله، ورثاه غير واحد وحصل التغالي في كتبه بحيث بيعت بأغلى الأثمان ووفيت ديونه وهي كثيرة جداً منها وظهر بذلك حسن نيته في كرمه وعطيته. رحمه الله وإيانا[١].

ابن الجزريّ

محمد بن محمد بن محمد الشمس أبو الخير العمريّ الدمشقيّ ثم

---

(١) «الضوء اللامع»: ٩/٢٣٦ - ٢٣٩.

الشيرازيّ الشافعيّ المقريء ويُعرف بابن الجزريّ نسبة لجزيرة ابن عمر قريب الموصل.

(١) كان أبوه تاجراً فمكث أربعين سنة لا يولد له، ثم حج فشرب ماء زمزم بنية ولد عالم فولد له هذا سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بدمشق.

ونشأ بها فحفظ القرآن وأكمله سنة أربع وستين وصلى به في التي بعدها وحفظ التنبيه وغيره وأخذ القراآت إفراداً عن عبد الوهاب بن السلار وجمعاً على أبي المعالي بن اللبان وحج في سنة ثمان، ودخل في التي تليها القاهرة فأخذها عن أبي عبد الله بن الصائغ والتقي البغدادي في آخرين بهذه الأماكن وغيرها واشتد اعتناؤه بها[1] وسمع على جماعة بدمشق والقاهرة وإسكندرية وغيرها، وأخذ الفقه عن الإسنويّ والبُلقيني والبهاء أبي البقاء السبكيّ، والأصول والمعاني والبيان عن الضياء القرمي، والحديث عن العماد بن كثير وابن المحب والعراقيّ، وأذن له غير واحد بالإفتاء والتدريس والإقراء، وتصدى للإقراء تحت النسرين من جامع بني أمية سنين، ثمّ وَلِيَ مشيخة الإقراء بالعادلية ثم مشيخة دار الحديث الأشرفية ثم مشيخة تربة أم الصالح بعد شيخه ابن السلار وعمل فيه أجلاسا بحضور الأعلام كالشهاب بن حجي وقال: كان درساً جليلاً، ووَلِيَ من برقوق[2] خطابة جامع التوتة عن الشهاب الحسبانيّ وتنازعا ثم قسمت بينهما، ثم وَلِيَ تدريس الصلاحية القدسية في سنة خمس وتسعين عوضاً عن المحب بن البرهان بن جماعة فدام فيها إلى ابتداء سنة سبع وتسعين ووقع بينه وبين قطلوبك[3] وادعى عليه أنه صرف أموالاً في غير مستحقها وعقد له بسبب ذلك عدة مجالس، وابتنى بدمشق للقرآن مدرسة بل وَلِيَ قضاءها بمال وعد به في شعبان سنة ثلاث وسبعين عوضاً عن الشرف مسعود وكتب

---

(١) أي بالقراءات.

(٢) سلطان المماليك.

(٣) استادار ايتمش وسيأتي تعريف اللفظين في الصفحة القادمة.

توقيعه ـ فيما قيل مما يحتاج لتحرير ـ العماد بن كثير وعزل بعد أيام قبل دخولها.

ثم امتحن بسبب مباشرته تعلقات ايتمش[1] على يد استاداره[2] قطلوبك وسلم لوالي القاهرة ليعمل له الحساب فوقف عليه مال عجز عنه ففر في سنة ثمان وتسعين وركب البحر من إسكندرية ولحق ببلاد الروم فاتصل بالمؤيد أبي يزيد بن عثمان صاحب مدينة برصا فأكرمه وعظمه وأنزله عنده بضع سنين فنشر علم القراآت والحديث وانتفعوا به، فلما دخل تمر[3] الروم وقتل ابن عثمان توصل إليه ودخل معه سمرقند فأقام بها حتى مات فتحول لشيراز ونشر بها أيضاً القراآت والحديث وانتفعوا به ووَلِيَ قضاءها وغيرها من البلاد من جهة أولاد تمر مدة طويلة، ثم قصد الحج في سنة اثنتين وعشرين فنُهِب في الطريق بحيث تعوق عن إدراك الحج وأقام بينبع ثم بالمدينة وكان دخوله لها في ربيع الأول من التي تليها، ثم توجه منها إلى مكة فدخلها مستهل رجبها فجاور فيها بقيتها وحدث في كل منهما، ثم سافر طالباً بلاد العجم ثم قدم دمشق في سنة سبع وعشرين فاستأذن منها في قدوم القاهرة فأذن له فقدمها واجتمع بالسلطان الأشرف فعظمه وأكرمه وتصدى للإقراء والتحديث، ثم توجه فيها لمكة مع الحاج، ثم سافر في البحر لبلاد اليمن تاجراً فأسمع الحديث عند صاحبها ووصله بحيث رجع ببضائع كثيرة وعاد لمكة فحج سنة ثمان ثم رجع إلى القاهرة فدخلها في أول التي تليها ثم سافر منها على طريق الشام ثم على طريق البصرة إلى شيراز فكانت مَنِيَّتُه بها سنة ثلاث وثلاثين بمنزله من سوق الإسكافيين منها ودُفِن بمدرسته التي أنشأها هناك. وله تصانيف مفيدة كـ «النشر في القراآت العشر» في مجلدين و «التقريب» مختصره، و «تحبير التيسير» في القراآت العشر، و «التمهيد في التجويد» وهما مما ألفه قديماً وله سبع عشرة سنة،

---

(١) أحد أمراء المماليك.

(٢) لقب يطلق على من يتولّى قبض المال السلطانيّ وصرفه.

(٣) هو تيمورلنك.

كذلك نظم «الهداية» في تتمة العشر وسماه الدرة، وله ثمان عشرة وربما حفظها أو بعضَها بعضُ شيوخه، و«إتحاف المهرة في تتمة العشرة» في ألف بيت و«المقدمة فيما على قارىء القرآن أن يعلمه» في التجويد، و«منجد المقرئين» و«طبقات القراء» في مجلد ضخم، و«غايات النهايات في أسماء رجال القراآت»، و«الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين» في الأذكار، و«الدعوات» غاية الإختصار والجمع، و«عدة الحصن الحصين وجنة الحصن الحصين»، و«التعريف بالمولد الشريف»، و«عَرف التعريف» مختصره، و«التوضيح في شرح المصابيح» و«البداية في علوم الرواية»، و«الهداية في فنون الحديث» أيضاً نظم و«عقد اللآلي في الأحاديث المسلسلة العوالي»، و«المصعد الأحمد في ختم مسند أحمد»، و«الإجلال والتعظيم في مقام إبراهيم»، و«أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب»، و«الجوهرة في النحو» وغير ذلك.

وقال شيخنا في معجمه: قد أجاز لي ولولدي وكتب في الاستدعاء ما نصه ونقلته من خطه:

إني أجزت لهم رواية كل ما	أرويه من سنن الحديث ومسند
وكذا الصحاح الخمس ثم معاجم	والمشيخات وكل جزء مفرد
وجميع نظم لي ونثر والذي	ألفت كالنشر الزكيّ ومنجد
فالله يحفظهم ويبسط في حيا	ة الحافظ الحبر المحقق أحمد
وأنا المقصر في الورى العبد الفقيـ	ـر محمد بن محمد بن محمد

قال: ولما قدم القاهرة انثال الناس للسماع عليه والقراءة وكان قد ثقل سمعه قليلاً ولكن بصره صحيح يكتب الخط الدقيق على عادته، وليس له في الفقه يد بل فنه الذي مهر فيه القراآت، وله عمل في الحديث ونظم وسط، ووصفه في «الإنباء» بالحافظ الإمام المقرىء وقال: إنه لهج بطلب الحديث والقراآت وبرز في القراآت، وإنه كان مثرياً وشكلاً حسناً وفصيحاً بليغاً كثير الإحسان لأهل الحجاز، انتهت إليه رياسة علم القراآت في

الممالك، وقال عن طبقات القراء إنه أجاد فيه وعن «النشر» إنه جوده وعن «الحصن» إنه لهج به أهل اليمن واستكثروا منه.

(١) ثم قال: وقرأت بخط العلاء بن خطيب الناصرية أن ابن الجزريّ مدح أبا البقاء السبكيَّ بقصيدة زعم أنها له بل وكتب خطه بذلك ثم بينت للممدوح أنها في ديوان ابن قلاقس؛ قال شيخنا وقد سمعت بعض العلماء يتهمه بالمجازفة في القول وأما الحديث فما أظن به ذلك إلا أنه كان إذا رأى للعصريين شيئاً أغار عليه ونسبه لنفسه وهذا أمر قد أكثر المتأخرون منه ولم ينفرد به، قال: وكان يلقب في بلاده الإمام الأعظم ولم يكن محمود السيرة في القضاء.

قلت: أما سرقة النظم فلم يكن بمدفوع عن النظم فكم له من تصنيف نظماً.

كذا أوردت من نظمه:

(٢) شيطاننا المُغوي عدو فاعتصم ... بالله منه والتجىء وتعوذ
وعدوك الإنسي دارِ ودِداه ... تملكه وادفع بالتي فإذا الذي[1]

ونسب إليه أيضاً:

(٣) ألا قولوا لشخص قد تقوى ... على ضعفي ولم يخشى رقيبه
خبأت له سهاماً في الليالي ... وأرجو أن تكون له مصيبه

(٤) وله في ختم الشمائل النبوية:

أخِلّايَ إن شط الحبيب وربعه ... وعز تلاقيه وناءت منازله
وفاتكم أن تبصروه بعينكم ... فما فاتكم بالسمع هذي شمائله[2]

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم﴾.

(٢) «الضوء اللامع»: ٩/٢٥٥ - ٢٦٠.

علاء الدين البخاريّ

محمد بن محمد بن محمد العلاء أبو عبد الله البخاريّ العجميّ الحنفيّ.

وُلِد سنة تسع وسبعين وسبعمائة ببلاد العجم ونشأ بها فأخذ عن أبيه وخاله والسعد التفتازانيّ في آخرين، وارتحل في شبيبته إلى الأقطار في طلب العلم إلى أن تقدم في الفقه والأصلين والعربية واللغة والمنطق والجدل والمعاني والبيان والبديع وغيرها من المعقولات والمنقولات، وترقّى في التصوف والتسليك ومهر في الأدبيّات، وتوجه إلى بلاد الهند فقطن كلبرجا منها ونشر بها العلم والتصوف وكان ممن قرأ عليه ملكها وترقى عنده إلى الغاية لِما وقر عنده من علمه وزهده وورعه، ثم قدم مكة فجاور بها وانتفع به فيها غالب أعيانها، ثم قدم القاهرة فأقام بها سنين وانثال[1] عليه الفضلاء من كل مذهب وعظمه الأكابر فمن دونهم بحيث كان إذا اجتمع معه القضاة يكونون عن يمينه وعن يساره كالسلطان.

(١) وإذا حضر عنده أعيان الدولة بالغ في وعظهم والإغلاظ عليهم بل ويراسل السلطان معهم بما هو أشد في الإغلاظ ويحضه على إزالة أشياء من المظالم مع كونه لا يحضر مجلسه وهو مع هذا لا يزداد إلا إجلالاً ورفعة ومهابة في القلوب.

(٢) وكان من ذلك سؤاله في أثناء سنة إحدى وثلاثين في إبطال إدارة المحمل حسماً لمادة الفساد الذي جرت العادة بوقوعه عند إدارته فأمر بعقد مجلس عند العلاء في ذلك فكان من قول شيخنا ينبغي أن يُنظر في سبب إدارته فيعمل بما فيه المصلحة منها ويزال ما فيه المفسدة وذلك أن الأصل فيها إعلام أهل الآفاق بأن طريق الحجاز من مصر آمنة ليتأهب للحج منه

---

(١) أي: انصبّ.

من يريده ولا يتأخر لخشية خوف انقطاع طريقه كما هو الغالب في طريقه من العراق فالإدارة لعلها لا بأس بها لهذا المعنى وما يترتب عليها من المفاسد إزالته ممكنة.

(١) واتّفق في هذا المجلس إجراء ذكر ابن عربيّ وكان ممن يقبحه ويكفره وكلٌّ من يقول بمقاله وينهى عن النظر في كتبه فشرع العلاء في إبراز ذلك ووافقه أكثر من حضر إلا البساطيّ ويُقال إنه إنما أراد إظهار قوته في المناظرة والمباحثة له وقال: إنما ينكر الناس عليه ظاهر الألفاظ التي يقولها وإلا فليس في كلامه ما ينكر إذا حمل لفظه على معنى صحيح بضرب من التأويل وانتشر الكلام بين الحاضرين في ذلك، قال شيخنا: وكنت مائلاً مع العلاء وإنّ من أظهر لنا كلاماً يقتضي الكفر لا نقره عليه؛ وكان من جملة كلام العلاء الإنكار على من يعتقد الوحدة المطلقة، ومن جملة كلام المالكيّ - أي البساطيّ - أنتم ما تعرفون الوحدة المطلقة، فبمجرد سماع ذلك استشاط وصاح بأعلى صوته أنت معزول ولو لم يعزلك السلطان يعني لتضمن ذلك كفره عنده بل قيل إنه قال له صريحاً: كفرت، كيف يُعذر من يقول بالوحدة المطلقة وهي كفر شنيع واستمر يصيح وأقسم بالله أن السلطان إن لم يعزله من القضاء ليخرجن من مصر فأشير على البساطيّ بمفارقة المجلس إخماداً للفتنة وبلغ السلطان ذلك فأمر بإحضار القضاة فحضروا فسئلوا عن مجلس العلاء فقصه كاتب السر وهو ممن حضر المجلس الأول بحضرتهم ودار بين شيخنا والبساطي في ذلك بعض كلام فتبرأ البساطي من مقالة ابن عربيّ وكفر من يعتقدها وصوب شيخُنا قوله، فسأل السلطان شيخنا حينئذ ماذا يجب عليه؟ وهل تكفير العلاء له مقبول؟ وماذا يستحق العزل أو التعزيز؟ فقال شيخنا: لا يجب عليه شيء بعد اعترافه بما وقع وهذا القدر كاف منه وانفصل المجلس وأرسل السلطان يترضى العلاء ويسأله في ترك السفر فأبى فسلم له حاله وقال: يفعل ما أراد ويُقال: إنه قال للسلطان: أنا لا أقيم في هذه الممالك إلا بشروط ثلاث

عزل البساطي، ونفي خليفة يعني نزيل بيت المقدس، وإبطال مكس[1] قطيا. وبغلنا أنه خرج من القاهرة غضبا إما في هذه الوقعة أو غيرها لدمياط ليسافر منها فبرز البرهان الأبناسيّ والقاياتيّ والونائيّ وكلهم ممن أخذ عنه إليها حتى رجعوا به وكان قبل بيسير في السنة بعينها وصل إليه بإشارته من صاحب كلبرجا المشار إليها ثلاثة آلاف شاش أو أكثر ففرق منها ألفاً على الطلبة الملازمين له من جملتها مائة للصدر بن العجميّ ليوفى بها دينه وتعفف بعضهم كالمحلي عن الأخذ بل فرق ما عينه العلاء له منها وهو ثلاثون شاشاً على الفقراء وامتنع العلاء من إعطاء بعض طلبته كالسفطيّ مع طلبه منه بنفسه ولم يدخر لنفسه منها شيئاً، وعمل وليمة للطلبة في بستان ابن عنان صرف عليها ستين ديناراً.

(١) ثم بعد ذلك سنة أربع وثلاثين أو قبلها تحول إلى دمشق فقطنها وصنف رسالته «فاضحة الملحدين» بين فيها زيف ابن عربيّ وقرأها عليه شيخنا العلاء القلقشنديّ هناك في شعبان سنة أربع وثلاثين.

(٢) وكذا اتفقت له حوادث بدمشق منها أنه كان يسأل عن مقالات التقيّ بن تيمية التي انفرد بها فيجيب بما يظهر له من الخطأ فيها وينفر عنه قلبه إلى أن استحكم أمره عنده فصرح بتبديعه ثمّ تكفيره ثم صار يصرح في مجلسه بأن من أطلق على ابن تيمية أنه شيخ الإسلام فهو بهذا الإطلاق كافر واشتهر ذلك فانتدب حافظ الشام الشمس بن ناصر الدين بجمع كتاب سماه «الرد الوافر على من زعم أن من اطلق على ابن تيمية أنه شيخ الإسلام كافر» جمع فيه كلام من أطلق عليه ذلك من الأئمة الأعلام من أهل عصره من جميع أهل المذاهب سوى الحنابلة وذلك شيء كثير وضمنه الكثير من ترجمة ابن تيمية وأرسل منه نسخة إلى القاهرة فقرّظه من أئمتها شيخنا والعلم البُلقينيّ والتَّفَهنيّ والعينيّ والبِساطيّ فكان مما كتبه البساطيّ

---

(١) ضريبة مفروضة على بلدة قَطْيا من مصر.

وهو رمي معذور ونَفْث مَصْدور[1]: هذه مقالة تقشعر منها الجلود، وتذوب لسماعها القلوب، ويضحك إبليس اللعين عجباً بها ويشمت، ثم قال له: لو فرضنا أنك اطلعت على ما يقتضي هذا في حقه فما مستندك في الكلام الثاني[2] وكيف تصلح لك هذه الكلية المتناولة لمن سبقك ولمن هو آت بعدك إلى يوم القيامة وهل يمكنك أن تدعي أن الكل اطلعوا على ما اطلعت أنت عليه وهل هذا إلا استخفاف بالحكام وعدم مبالاة ببني الأنام والواجب أن يطلب هذا القائل ويُقال له: لم قلت؟ وما وجه ذلك؟ فإن أتى بوجه يخرج به شرعاً من العهدة كان وإلا برح به تبريحاً يرد أمثاله عن الإقدام على أعراض المسلمين. انتهى. وكتب العلاء مطالعة إلى السلطان يغريه بالمصنف وبالحنابلة وفيه ألفاظ مهملة هو عندي مع كتاب قاضي الشام الشافعيّ الشهاب بن محمرة؛ وفي شرح القصة طول.

(١) وبلغنا عن أبي بكر بن أبي الوفا أن جنية كانت تابعة للعلاء وكانت تأتيه في شكل حسن وتارة في شكل قبيح وتتزيا له من بعيد وهو مع الناس وأنه التمس منه كتابة تحصين ونحوه لمنعها فكتب له أشياءَ ولازمها فاستفاد منها أكثر مما كتب له غيره، قال: ولم أنزل عندك ولا أكلت طعامك إلا لأنه بلغني عنك الحُجُب، قال: ولم أُعلم بذلك أحداً سواك واستكتمنيه فلم أذكره لأحد حتى مات وكان العلاء يكون مع الناس فتتراءى فيغمض عينيه ويقرأ ذا التحصين سرّاً ويغيب عن الناس فيظن أنه خشوع وتلاوة وذكر ثم لم يتفق حجبها بالكلية إلا على يد إبراهيم الأدكاويّ.

وقد ذكره شيخنا في «إنبائه» فقال: كان من أهل الدين والورع وله قَبول عند الدولة وأقام بمصر مدة طويلة وتلمذ له جماعة وانتفعوا به، وكان يتقن فن المعاني والبيان ويذكر أنه أخذه عن التفتازانيّ، ويقرر الفقه على

---

(١) وذلك لما تقدم من تكفيره للبساطيّ.

(٢) أي: أن من قال عن ابن تيمية أنه شيخ الإسلام فقد كفر، والعياذ بالله

مذهبين ثم تحول إلى دمشق فاغتبطوا بـه، وكان كثيـر الأمر بـالمعروف. ومات بها سنة إحدى وأربعين بالمزة. وقال المقريزيّ في عقوده:

(١) كان يسلك طريقاً من الورع فيسمج في أشياء يحمله عليها بُعده عن معرفة السنن والآثار وانحرافه عن الحديث وأهله بحيث كان ينهى عن النظر في كلام النوويّ ويقول هو ظاهر، ويحض على كتب الغزاليّ، وأغلق أبواب المسجد الحرام بمكة مدة حجه فكانت لا تفتح إلا أوقات الصلوات الخمس ومنع من نصب الخيام وإقـامة النـاس فيها أيـام الموسم، وكـان يقول: ابن تيمية كافر وابن عربيّ كافر فردّ فقهاء الشام ومصر قوله في ابن تيمية انتهى. رحمه الله وإيانا[١].

الفاتح

محمد بن مراد بك بن محمد بك بن بايـزيد بن مـراد بن أرخان بن عثمان. صاحب بلاد الروم الذي صار كرسيّ مملكته قسطنطينية بعد فتحه لها واقتلاعه إياها من الفِرَنج ويعرف كسلفه بابن عثمان.

استقر في المملكة بعد أبيه في سنة خمسة وخمسين، فكـان ملكاً عظيماً اقتفى أثر أبيه في المثابرة على دفع الفِرَنج بحيث فاق مـع وصفه بمزاحمة العلماء ورغبته في لقائهم وتعظيم من يرد عليه منهم وإهدائه في كل قليل للمحيويّ الكافياجيّ مع مكاتباته الفائقة وانخفاضـه عن أبيه في اللذات، وله مآثر كثيرة من مدارس وزوايا وجوامع.

مات في أوائل سنة ست وثمانين في توجهه من إسطنبول لجهة بُرصا ودُفِن بالبرية هناك ثم حـول إلى إسنطبـول في ضريـح بالقـرب من أجلّ جوامعه بها، واستقر بعده في المملكة ولده الأكبر أبو يزيد[٢] ويُكنى به عن الصاعقة، وورد ولده الآخر جام على السلطان بالـديار المصـرية مغـاضباً

---

(١) «الضوء اللامع»: ٩/٢٩١ ـ ٢٩٤.

(٢) ويسمى أيضاً بايزيد.

لأخيه فحج ثم رجع وسافر فأسره الفِرَنج وتحرك أخوه لذلك فيما قيل حتى كانت حوادث تلف فيها أموال ورجال والله تعالى يحسن العاقبة[1].

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/٤٧ وجاء في كتاب «تاريخ الدولة العليّة العثمانية»: ١٦١ - ١٦٥ وصف فتح القسطنطينية وأنقله ببعض التصرف: «حاصر السلطان المدينة سنة ١٤٥٣ (٨٥٧ هـ) من جهة البر بجيش يبلغ المائتين وخمسين ألف جندي، ومن جهة البحر بمائة وثمانين سفينة، وأقام حول المدينة أربع عشرة مدفعيّة وضع بها مدافع جسيمة - صنعها صانع مجري شهير اسمه أوربان - كانت تقذف كرات من الحجر إلى مسافة ميل، وفي أثناء الحصار اكتشف قبر أبي أيوب الأنصاري الذي استشهد حين حصار القسطنطينية سنة ٥٢ هـ، ولما شاهد قسطنطين آخر ملوك الروم هذه الاستعدادات استنجد بأوروبا فلبّى طلبه أهالي جنوه وأرسلوا له عمارة بحريّة تحت إمرة جوستنياني فأتى بمراكبه وأراد الدخول إلى ميناء القسطنطينية فعارضته السفن العثمانيّة وجرت بينهما حرب هائلة انتهت بفوز جوستنياني ودخوله الميناء بعد أن رفع المحصورون السلاسل الحديديّة التي وُضعت لمنع المراكب العثمانية من الوصول إليها ثم أعيدت بعد مروره كما كانت.

بعد ذلك أخذ السلطان يفكر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لإتمام الحصار براً وبحراً فخطر بباله فكرة غريبة وهي أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعه، وتمّ هذا الأمر المستغرب بأن مهد طريقاً على البر طوله ستة أميال رُصّت فوقه ألواح من الخشب صبت عليها كمية كبيرة من الزيت والدهن لسهولة زلق المراكب عليها، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو السبعين سفينة في ليلة واحدة حتى إذا أصبح النهار ونظرها المحصورون أيقنوا أن لا مناص من نصر العثمانيين عليهم، وأرسل السلطان محمد إلى قسطنطين يخبره أنه لو سلم البلد إليه طوعاً يتعهد بعدم مس حرية الأهالي أو أملاكهم وأن يعطيه جزيرة مورة فلم يقبل قسطنطين ذلك بل آثر الموت على تسليم المدينة.

(٢) وفي الليلة السابقة للهجوم أشعلت الجنود العثمانية الأنوار أمام خيامها وظلوا طول ليلهم يهللون ويكبرون حتى إذا لاح الفجر صدرت إليهم الأوامر بالهجوم فهجم مائة وخمسون ألف جندي وتسلقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وأعملوا السيف فيمن عارضهم، ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا، وسُميت المدينة إسلامبول، أي تخت الإسلام أو مدينة الإسلام.

ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب فأصدر أوامره بمنع كل اعتداء فساد الأمن، ثمّ زار كنيسة أيا صوفيا وأمر بأن يؤذّن فيها بالصلاة إعلاناً بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين. =

ابن الأحمر

محمد بن نصر بن محمد أبو عبد الله الأيسر صاحب غرناطة بالأندلس ويُعرف بابن الأحمر، وَلِيَها مدة إلى أن خلعه محمد بن المول ففر إلى مالقة وجمع الناس لحرب ابن المول حتى ملك غرناطة ثانياً، ثم ثار عليه محمد بن يوسف بن يوسف بن محمد بن السلطان أبي فارس عبد العزيز، فانهزم إلى تونس فأقام في كنف أبي فارس مكرماً مبجلاً حتى أعيد ثالثاً وقتل محمد بن يوسف وذلك في سنة ثمان وثلاثين[1].

الفيروز اباديّ

محمد بن يعقوب بن محمد المجد أبو الطاهر الفيروزاباديّ الشيرازيّ اللغويّ الشافعيّ. وُلِد سنة تسع وعشرين وسبعمائة بكازرون من أعمال شيراز ونشأ بها فحفظ القرآن وهو ابن سبع وجود الخط ثم نقل فيها كتابين من كتب اللغة، وانتقل إلى شيراز وهو ابن ثمان وأخذ اللغة والأدب عن والده ثم عن عبد الله بن محمود بن النجم وغيرهما من علماء شيراز، وارتحل إلى العراق فدخل واسط وقرأ بها القراآت العشر على الشهاب

= وبعد تمام الفتح أعلن في كافة الجهات بأنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين بل إنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم، فرجع من هاجر من المسيحيين وأعطاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين ا.هـ. بتصرف.

وبهذا الفتح تحقق حديث النبي ﷺ الذي أخرجه الحاكم وصححه «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الجيش ذلك الجيش ولنعم الأمير ذلك الأمير». وفي عهد هذا السلطان تم فتح بلاد الصرب والبوسنة وألبانيا. وفي عهده تمت بعض الإصلاحات الداخلية في أنظمة الحكومة.

(٣) وإلى هذا السلطان يُنسب وضع أول مبادىء القوانين المدنية حيث أبدل في العقوبات البدنية ـ (أي السن بالسن والعين بالعين على حد تعبير المصنف) وجعل مكانها غرامات نقدية، فإن صحّ هذا فهو سيئة عظمى تُنسب إليه، والعياذ بالله. والعهدة على ناقل هذا وهو مصنف تاريخ «الدولة العليّة»، والله أعلم.

انظر «تاريخ الدولة العلية العثمانية»: ١٧٧ ـ ١٧٨.

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/٦٨.

أحمد بن علي الديوانيّ، ثم دخل بغداد في السنة المذكورة، ثم ارتحل إلى دمشق فدخلها سنة خمس وخمسين فسمع بها من التقي السبكيّ وأكثر من مائة شيخ، وبالقدس من العلائيّ وطائفة وقطن بها نحو عشر سنين ووَلِيَ به تداريس وتصادير وظهرت فضائله وكثر الأخذ عنه، ثم دخل القاهرة بعد أن سمع بغزة والرملة، وجال في البلاد الشمالية والمشرقية ودخل الروم والهند ولقى جمعاً جماً من الفضلاء وحمل عنهم شيئاً كثيراً وقال فيما قرأته بخطه إن من مروياته الكتب الستة وسنن البيهقيّ ومسند أحمد وصحيح ابن حبان ومصنف ابن أبي شيبة.

ثم دخل زبيد في رمضان سنة ست وتسعين بعد وفاة قاضي الأقضية باليمن كله الجمال الريميّ فتلقاه الملك الأشرف إسماعيل بالقبول وبالغ في إكرامه وصرف له ألف دينار سوى ألف كان أمر ناظر عدن بتجهيزه بها واستمر مقيماً في كنفه على نشر العلم فكثر الانتفاع به، وبعد مضي سنة وأزيد من شهرين أضاف إليه قضاء اليمن كله وذلك سنة سبع وتسعين فارتفق بالمقام في تهامة وقصده الطلبة وقرءوا عليه الحديث السلطان فمن دونه فاستقرت قدمه بزبيد مع الاستمرار في وظيفته إلى حين وفاته وهي مدة تزيد على عشرين سنة بقية حياة الأشرف ثم ولده الناصر أحمد، وكان الأشرف قد تزوج ابنته لمزيد جمالها ونال منه براً ورفعة بحيث إنه صنف له كتاباً وأهداه له على الطباق فملأها له دراهم، وفي أثناء هذه المدة قدم مكة أيضاً مراراً فجاور بها وبالمدينة النبوية والطائف وعمل فيها مآثر حسنة لو تمت.

وكان يحب الانتساب إلى مكة فيكتب بخطه الملتجىء إلى حرم الله تعالى.

(١) ولم يقدر له قطُّ أنه دخل بلداً إلا وأكرمه متوليها وبالغ مثل شاه منصور بن شجاع صاحب تبريز، والأشرف صاحب مصر، والأشرف صاحب اليمن، وابن عثمان ملك الروم، وأحمد بن أويس صاحب بغداد، وتمرلنك

الطاغية وغيرهم، واقتنى من ذلك كتباً نفيسة، حتى نقل الجمال الخياط أنه سمع الناصر أحمد بن إسماعيل يقول إنه سمعه يقول اشتريت بخمسين ألف مثقال ذهباً كتباً، وكان لا يسافر إلا وصحبته منها عدة أحمال ويخرج أكثرها في كل منزلة فينظر فيها ثم يعيدها إذا ارتحل، وكذا كانت له دنيا طائلة ولكنه كان يدفعها إلى من يمحقها بالإسراف في صرفها بحيث يملق أحياناً ويحتاج لبيع بعض كتبه فلذلك فلم يوجد له بعد وفاته ما كان يظن به.

وصنف الكثير فمن ذلك: «منح الباري في شرح صحيح البخاريّ»، كمل ربع العبادات منه في عشرين مجلدة ويخمن تمامه في أربعين مجلداً، و«امتضاض السهاد في افتراض الجهاد» مجلد، و«الإسعاد بالإصعاد إلى درجة الجهاد» ثلاث مجلدات و«النفحة العنبرية في مولد خير البرية»، و«الصِّلات والبُشَر في الصلاة على خير البشر»، و«المغانم المُستطابة في معالم طابة»، و«مهيج الغرام إلى البلد الحرام»، و«كراسة في علم الحديث».

(١) وفي اللغة وغيرها: «اللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب وزيادات امتلأ بها الوطاب واعتلى منها الخطاب» ففاق كل مؤلف هذا الكتاب، يقدر تمامه في مائة مجلد كل مجلد يقرب من صحاح الجوهريّ في المقدار رأيت بخطه أيضاً أنه كمل منه مجاليد خمسة.

(٢) و«القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من لغة العرب شماطيط»[١] في جزءين ضخمين وهو عديم النظير، و«مقصود ذوي الألباب في علم الإعراب» مجلد، و«تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين» أخذه عن البرهان الحلبي الحافظ ونقل عنه أنه تتبع أوهام «المجمل» لابن فارس في ألف موضع مع تعظيمه لابن فارس وثنائه عليه، و«الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف» إلى غيرها من مختصر ومطول.

---

(١) أي: متفرقة.

قال التقيّ الكرمانيّ: كان عديم النظير في زمانه نظماً ونثراً بالفارسي والعربي جاب البلاد وسار إلى الجبال والوهاد ورحل واجتمع بمشايخ كثيرة عزيزة وعُظِّم بالبلاد.

(١) وقال الخزرجيّ في «تاريخ اليمن» إنه لم يزل في ازدياد من علو الوجاهة والمكانة ونفوذ الشفاعة والأوامر على قضاة الأمصار، ورام في سنة تسع وتسعين التوجه لمكة فكتب إلى السلطان ما مثاله: ومما ينهيه إلى العلوم الشريفة أنه غير خاف عليكم ضعف أقل العبيد ورقة جسمه ودقة بنيته وعلو سنه، وقد آل أمره إلى أن صار كالمسافر الذي تحزم وانتقل إذ وهن العظم بل والرأس اشتعل، وتضعضع السن وتقعقع الشن[١] فما هو إلا عظام في جراب وبنيان مشرف على خراب، وقد ناهز العشر التي تسميها العرب دقاقة الرقاب وقد مر على المسامع الشريفة غير مرة في صحيح البخاريّ قول سيدنا رسول الله ﷺ: «إذا بلغ المرء ستين سنة فقد أعذر الله إليه» فكيف من نيف على السبعين وأشرف على الثمانين ولا يجمل بالمؤمن أن تمضي عليه أربع سنين ولا يتجدد له شوق وعزم إلى بيت رب العالمين وزيارة سيد المرسلين وقد ثبت في الحديث النبويّ ذلك وأقل العبيد له ست سنين عن تلك المسالك وقد غلب عليه الشوق حتى جل عمره عن الطوق ومن أقصى أمنيته أن يجدد العهد بتلك المعاهد ويفوز مرة أخرى بتقبيل تلك المشاهد، وسؤاله من المراحم الحسنية الصدقة عليه بتجهيزه في هذه الأيام مجرداً عن الأهالي والأقوام قبل اشتداد الحر وغلبة الأوام[٢] فإن الفصل أطيب والريح أزْيَب[٣] ومن الممكن أن يفوز الإنسان بإقامة شهر في كل حرم، ويحظى بالتملي من مهابط الرحمة والكرم، وأيضاً كان من عادة الخلفاء سلفاً وخلفاً أنهم كانوا يبردون البريد عمداً قصداً لتبليغ

---

(١) الشَّنّ: القِربة الخَلَق، أي: البالية.

(٢) العطش.

(٣) نوع من أنواع الريح كما في القاموس.

سـلامهم إلى حضرة سيـد المرسلين صلوات الله وسـلامه عليـه فـاجعلني جعلني الله فداك ذاك البريد فلا أتمنى شيئاً سواه ولا أريد:

شوقي إلى الكعبة الغـراء قد زادا   فاستحمل القُلُص[1] الوجادة الزادا
واستـأذن الملك المنعام زِيـد عُلاً   واستـودع الله أصحـابـاً وأولاداً

(١) فلما وصل هذا إلى السلطان كتب في طرة[2] الكتاب ما مثاله: صدر الجمال المصري على لساني ما يحققه لك شفاهاً أن هذا شيء لا ينطق به لساني ولا يجري به قلمي، فقد كانت اليمن عمياً فاستنارت فكيف يمكن أن تتقدم وأنت تعلم أن الله تعالى قد أحيا بك ما كان ميتاً من العلم فبالله عليك إلا ما وهبت لنا بقية هذا العمر، والله يا مجد الدين يميناً بارة إني أرى فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك أنت اليمن وأهله.

(٢) وذكره التقيّ الفاسيّ فقال: وكانت له بالحديث عناية غير قوية وكذا بالفقه وله تحصيل في فنون من العلم سيما اللغة فله فيها اليد الطولى وألف فيها تواليف حسنة منها «القاموس» ولا نظير له في كتب اللغة لكثرة ما حواه من الزيادات على الكتب المعتمدة كالصحاح.

(٣) قلت: وقد ميز فيه زياداته عليه فكانت غاية في الكثرة بحيث لو أفردت لجاءت قدر الصحاح أو أكثر في عدد الكلمات وأما ما نبه عليه من أوهامه فشيء كثير أشار إليه في الهامش وأعراه من الشواهد اختصاراً، ونبه في خطبته على الاكتفاء عن قوله معروف بحرف الميم، وعن موضع بالعين وعن الجمع بالجيم، وعن جمع الجمع بجج، وعن القرية بالهاء، وعن البلد بالدال، وضبط ذلك بالنظم بعضهم بل أثنى على الكتاب الأئمة نظماً ونثراً وتعرض فيه لأكثر ألفاظ الحديث والرواة ووقع لـه في ضبط كثيرين خطأ فإنه كما قال التقيّ الفاسيّ لم يكن بالماهر في الصنعة الحديثية وله فيما يكتبه من الأسانيد أوهام.

---

(١) النوق الشّابة.
(٢) أي: جانب الكتاب.

(١) وأما شرحه على البخاريّ فقد ملأه بغرائب المنقولات سيما أنه لما اشتهرت باليمن مقالة ابن عربي وغلبت على علماء تلك البلاد صار يدخل في شرحه من قبوحاته الهلكية[1] ما كان سبباً لشين الكتاب المذكور، ولذا قال شيخنا أنه رأى القطعة التي كملت منه في حياة مؤلفه وقد أكلته الأرضة بكمالها بحيث لا يقدر على قراءة شيء منها قال: ولم أكن أتهمه بالمقالة المذكورة إلا إنه كان يحب المداراة ولقد أظهر لي إنكارها والغض منها.

قال الفاسيّ: وله شعر كثير في بعضه قلق لجلبه فيه ألفاظاً لغوية عويصة، ونثره أعلى، وكان كثير الاستحضار لمستحسنات من الشعر والحكايات.

(٢) وله خط جيد مع الإسراع وسرعة حفظ بلغني عنه أنه قال ما كنت أنام حتى أحفظ مائتي سطر.

مات وقد مُتِّع بسمعه وحواسه سنة سبع عشرة بزبيد وقد ناهز التسعين وكان يرجو وفاته بمكة فما قدر رحمه الله وإيانا، وعندي في ترجمته بأول ما كتبته من القاموس فوائد منها قول الأديب المفلق نور الدين علي بن محمد بن العليف العكيّ العدنانيّ المكيّ الشافعيّ وقد قرأ عليه القاموس:

(٣) مذ مد مجد الدين في أيامه ... من بعض أبحر علمه القاموسا
ذهبت صحاح الجوهريّ كأنها ... سحر المدائن حين ألقى موسى[2]

الماحوزيّ

محمد الخواجا الشمس الماحوزي أحد تجار الكارم وصاحب القاعة المجاورة لجامع الأزهر.

كان ممن اختص بالمؤيد ويتكلم على الجامع بطريق النيابة عن

---

(١) يشير إلى «الفتوحات المكيّة» لابن عربيّ.

(٢) «الضوء اللامع»: ١٠/٧٩ - ٨٦.

النظار فكان يُحرِّج على الناس في الدخول بالنعال بدون ساتر فيما بلغني بل وسمعت أنه أزال الكراسي المعدة للمصاحف وغيرها، ومنه أنه كان يدور فيه ومعه عصا لردع من لعلّه يخالفه.

(١) وقاسى المجاورون منه شدة فكانوا لذلك يتقصدونه بالمكروه بحيث إنه كان يُكتب له أوراق فيها بقلم غليظ: «لا حول ولا قوة» وتلصق إما بمكان جلوسه أو بطريقه لحول يسير كان بعينه واستفتى عليهم في ذلك فكتب له شيخنا: «لا حول» كنز من كنوز الجنة.

وحج مراراً وأخبرني من شاهده في سنة قل الظَّهْر[١] فيها وهو وعياله بالطريق ومحفّته[٢] بجانبه لا يجد ما يحملهم عليها مع ضخامته.

مات سنة إحدى وخمسين بمكة رحمه الله وعفا عنه[٣].

البباويّ

محمد البباويّ نسبة لببا الكبرى من الوجه القبليّ كان فيها خفيراً وراعياً وقدم القاهرة فخدم بعض الطباخين ثم عمل صبياً لبعض معاملي اللحم ثم ترقى فصار معاملاً وركب حماراً وتموّل وبقي رأس جماعته ومَن عليه معول الوزراء في رواتب المماليك.

واشتهر بين الأكابر فولاه السلطان نظر الدولة طمعاً في ماله وتزيا بزيّ الكتبة وتسمى بالقاضي بعد المعلم مع كونه عامياً جلفاً ثم رقاه إلى الوَزَر ولم يُعْلم وَلِيَه أوضع منه مع كثرة من وليه من الأوباش في هذا القرن، ولم يتحول عن عاميته ذرة ولا تطبع بما ينصرف به عنها خردلة بل لزم طريقته في الفحش والإفحاش وصار الرؤساء به في بلية وقال فيه الشعراء فقصروا،

---

(١) أي: المركوب.

(٢) مركب للنساء كالهودج إلا أنه بغير قبة.

(٣) «الضوء اللامع»: ١١٢/١٠ ـ ١١٣.

وبالغ في الظلم والعسف والجبروت والاستخفاف بالناس ومزيد المصادرة والإقدام على الكبير والصغير وغير ذلك مما هو مستفيض، ولكنه كان عفيفاً عن المنكرات والفروج المحرمة مظهراً الميل للصالحين ممن يدخل إليه مع صدقه في الجملة وتقريب لصاحبنا الفخر عثمان المقسي بحيث كان يقرأ البخاريّ عنده وربما توسل به الناس إليه في بعض الشفاعات مع أنه صار بأخرة لا يجيبه وشفعت عنده في جارنا البتنونيّ فأطلقه من أمر عظيم قرر عنده وقال لي: أنت تأخذه مني لماذا؟ فقلت: لله، فقال: قد أطلقته لله، وبالجملة فكان من مساوىء الزمان.

مات غريقاً في بحر النيل سنة تسع وستين وهو في الكهولة غير مأسوف عليه[1].

محمد الشاذلي المحتسب

محمد الشاذلي المحتسب صحب ابن الدمامينيّ وترقّى إلى أن وَلِيَ حسبة مصر ثم القاهرة مراراً بالرشوة مع كونه عَرِيّاً من العلم غاية في الجهل بحيث حُكِي عنه أن ابناً له مرض فعاده جماعة من أصحابه وقالوا له: لا تخف فالله تعالى يعافيه، فقال لهم: هذا ابن الله مهما شاء فعل فيه، وأنّه كان يقرأ: «وإن جهنم لموعدهم أجمعين» بضم الجيم فإذا أُنكِر عليه قال: هذه لغة. مات سنة عشرة[2].

العينيّ

محمود بن أحمد بن موسى البدر أبو محمد وأبـو الثناء بن الشهـاب الحلبي الأصل ثم القاهريّ الحنفيّ ويُعرف بالعينيّ. انتقل أبوه من حلب إلى عنتاب من أعمالها فوَلِيَ قضاءها وولد له البدر بها وذلك سنة اثنتين وستين وسبعمائة فنشأ بها وقرأ القرآن ولازم الشمس محمد الراعي وأكمل

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/١١٨ - ١١٩.
(٢) «الضوء اللامع»: ١٠/١١٢.

الدين ونظراءهما في الصرف والعربية والمنطق وغيرها، وقرأ المفصل في النحو والتوضيح مع متنه التنقيح على الأثير جبريل بن الصالح البغداديّ تلميذ التفتازاني، ولازم في المعاني والبيان والكشاف وغيرهما الفقيه عيسى ابن الخاص، وبرع في هذه العلوم وناب عن أبيه في قضاء بلده، وارتحل إلى حلب في سنة ثلاث وثمانين، ثم حج ودخل دمشق وزار بيت المقدس فلقي فيه العلاء أحمد بن محمد السيرامي الحنفيّ فلازمه واستقدمه معه القاهرة في سنة ثمان وثمانين وقرره صوفياً بالبرقوقية أول ما فتحت في سنة تسع وثمانين خادماً ولازمه في الفقه وأصوله والمعاني والبيان وغيرها، وكذا أخذ الفقه وغيره عن الشهاب أحمد بن خاص التركي ومحاسن الاصطلاح عن مؤلفه البُلقينيّ وعلى الزين العراقيّ صحيح مسلم والإلمام لابن دقيق العيد وقرأ على التقي الدجويّ الكتب الستة ومسند عبد والدارميّ وقريب الثلث الأول من مسند أحمد، وعلى القطب عبد الكريم حفيد الحافظ القطب الحلبي بعض المعاجم الثلاثة للطبرانيّ وعلى الشرف بن الكويك «الشفا»، وعلى النور الفوى بعض الدارقطني أو جميعه وعلى تغرى برمش شرح معاني الآثار للطحاويّ، وعلى الحافظ الهيثميّ في آخرين، ولم يزل البدر في خدمة البرقوقية حتى مات شيخها العلاء فأخرجه جركس الخليلي أمير آخور منها بل رام إبعاده عن القاهرة أصلاً مشياً مع بعض حسدة الفقهاء فكفه السراج البُلقينيّ، فلما مات الظاهر برقوق سُعِي له في حسبة القاهرة فاستقر فيها في مستهل ذي الحجة سنة إحدى وثمانمائة ثم انفصل عنها قبل تمام شهر وتكررت ولايته لها، وكان في مباشرته لها يعزر من يخالف أمره بأخذ بضاعته غالباً وإطعامها للفقراء والمحابيس.

(١) وكذا ولي في الأيّام الناصرية عدة تداريس ووظائف دينية كتدريس الفقه بالمحمودية ونظرِ الأحباس[1] ثم انفصل عنها وأعيد إليها في أيام المؤيد وقرره في تدريس الحديث بالمؤيدية أول ما فتحت وامتحن في

---

(١) أي: الأوقاف.

أول دولته ثم كان من أخصائه وندمائه بحيث توجه عنه رسولاً إلى بلاد الروم، ولما استقر الظاهر ططر زاد في إكرامه لسبق صحبته معه بل تزايد اختصاصه بعدُ بالأشرف حتى كان يسامره ويقرأ له التاريخ الذي جمعه باللغة العربية ثم يفسره له بالتركية لتقدمه في اللغتين ويعلمه أمور الدين حتى حكى أنه كان يقول لولاه لكان في إسلامنا شيء، وعرض عليه النظر على أوقاف الأشراف فأبى ولم يزل يترقى عنده إلى أن عينه لقضاء الحنفية سنة تسع وعشرين ثم صرفه على استكمال أربع سنين ثم أعاده، ومات الأشرف وهو قاض ثم صرف في أيام ولده سنة اثنتين وأربعين، ولزم البدر بيته مقبلاً على الجمع والتصنيف مستمراً على تدريس الحديث بالمؤيدية ونظر الأحباس حتى مات غير أنه عزل عن الأحباس سنة ثلاث وخمسين وتألّم، ولم يجتمع القضاء والحسبة ونظر الأحباس في آن واحد لأحد قبله ظناً.

وكان إماماً عالماً علامة عارفاً بالصرف والعربية وغيرها حافظاً للتاريخ وللغة كثير الاستعمال لها مشاركاً في الفنون، ذا نظم ونثر مقامه أجل منهما، لا يمل من المطالعة والكتابة، كتب بخطه جملة، وصنف الكثير بحيث لا أعلم بعد شيخنا أكثر تصانيف منه، وقلمه أجود من تقريره.

(١) وكتابته طريقة حسنة مع السرعة حتى استفيض عنه أنه كتب القدوري[1] في ليلة بل سمع ذلك منه العز الحنبلي وكذا قال المقريزي إنه كتب الحاوي في ليلة.

اشتهر اسمه وبعد صيته مع لطف العشرة والتواضع.

وعمر مدرسة مجاورة لسكنه بالقرب من جامع الأزهر وعمل بها خطبة لكونه كما بلغني كان يصرح بكراهة الصلاة في الأزهر لكون واقفه رافضياً سبّاباً.

---

(١) من كتب فقه الحنفيّة.

وحَظِي عند غير واحد من الملوك والأمراء، حدث وأفتى ودرس وأخذ عنه الأئمة من كل مذهب طبقة بعد أخرى بل أخذ عنه أهل الطبقة الثالثة وكنت ممن قرأ عليه أشياء وقرض[١] لي بعض تصانيفي وبالـغ في الثناء علي لفظاً وكتابة بل علق شيخنا عنه من فوائده بل سمع عليه ثلاثة أحاديث مع ما بينهما مما يكون بين المتعاصرين غالباً وكذا كـان هو يستفيـد من شيخنا. ولم يزل ملازماً للجمع والتصنيف حتى مات بعد أن صار يبيع من أملاكه وكتبه سوى ما وقفه على مدرسته منها وهو شيء كثير سنة خمس وخمسين ودُفِن بمدرسته التي أنشأها بعد أن صلّى عليه المناويّ بالأزهـر وعظم الأسف على فقده ولم يخلف بعده في مجموعه مثله.

(١) ومن تصانيفه شـرح البخاريّ في أحـد وعشرين مجلداً سمـاه «عمدة القارى» استمد فيه من شرح شيخنا بحيث ينقل منه الورقة بكمالها وربما اعترض لكن قد تعقبه شيخنا في مجلد حافل، وطول البدر شرحه بما تعمد شيخنا حذفه من سياق الحديث بتمامه وتراجم الرواة واستيفاء كلام اللغويين مما كان القصد يحصل بدونه وغير ذلك، وذُكِر لشيخنا عن بضع الفضلاء ترجيحُه بما اشتمل عليه من البديع فقال بديهة: هذا شيء نقله من شرح لركن الدين وكنت قد وقفت عليه قبله ولكن تركت النقل منه لكونه لم يتم إنما كتب منه قطعة يسيرة وخشيت من تعبي بعد فراغها في الاسترسال في هذا المَهْيع[٢] بخلاف البدر فإنه بعـدها لم يتكلم بكلمـة واحدة في ذلك، وبالجملة فشرح البدر أيضاً حافل لكنه لم ينتشر كانتشار شرح شيخنا ولا طلبه ملوك الأطراف من صاحب مصر ولا تنافس العلماء في تحصيله من حياة مؤلفه وهلم جراً.

وشرح كتباً كثيرة، وعمل سير الأنبياء، وتاريخاً كبيراً في تسعة عشر

---

(١) مثل قرّظ. أي: قدّم.
(٢) الطريق .

مجلداً رأيت منه المجلد الأخير وانتهى إلى سنة خمسين، ومتوسطاً في ثمانية واختصره أيضاً في ثلاثة، واختصر تاريخ ابن خلكان.

وله تقريض[1] على «الرد الوافر» لابن ناصر الدين غاية في الانتصار لابن تيمية ـ رحمه الله وإيانا[1].

محمود شاه

محمود شاه بن محمد بن أحمد بن محمد بن مظفر ناصر الدين أبو الفتح بن غياث الدين الدلّي الأصل الأحمد أباديّ المولد. ولد سنة ثمان وأربعين تقريباً، أسلم جد جده مظفر على يدي محمد شاه صاحب دلي وكان عاملاً له على فَتَن من كجرات فلما وقعت الفتن في مملكة دلي وتقسمت البلاد كان الذي خص مظفراً كجرات ثم وثب عليه ابنه وسجنه واستقر عوضه ولم يلبث أن استفحل أمر الأب بحيث قتل ولده، ثمّ بعد سنين انتصر أحمد لأبيه وقتل جده واستقر في كجرات وخلفه ابنه غياث الدين ثم ابنه قطب الدين ثم أخوه داود فلم يمكث سوى أيام وخلع واستقر أخوهم محمود شاه صاحب الترجمة وذلك في سنة ثلاث وستين حين كان ابن خمس عشرة سنة ودام في المملكة إلى الآن. وأخذ من الكفار قلعة الشابانية فابتناها مدينة وسماها محمد آباد، ومن جملة ممالكه كنباية[3].

ملك التجار

محمود بن محمد بن أحمد الخواجا الكمال الكيلانيّ، ويُقال له ملك التجار. وُلد في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة تقريباً ولَقِيَ شيخنا بالقاهرة في سنة ثلاث وأربعين فأخذ عنه مجالس من البخاريّ، ولقي بالشام أيضاً بعض الأئمة، واختص بصاحب كلبرجة[4] وغيرها همياون شاه بن أحمد شاه

(١) أي تقديم للكتاب.

(٢) «الضوء اللامع»: ١٠/١٣١ ـ ١٣٥.

(٣) «الضوء اللامع»: ١٠/١٤٤.

(٤) من بلاد الهند.

فرأى من مزيد تدبيره ووفور عقله ما ملك به لبه فوجه إليه قصده ورقاه إلى أن جعله ملك التجار ثم رقاه حتى دُعِيَ بخواجا جهان ثم لما أشرف على الموت أوصاه بأولاده فاستولى على المملكة وقرر ولده نظام شاه ولم يستكمل خمس عشرة سنة فلم يلبث أن مات فقرر أخاه محمد شاه وهو ابن سبع سنين، وساس الخواجا الأمور وقام بها خير قيام وثبت قواعد مملكته وأدخل فيها أماكن لم تكن مضافة إليها، ولكنه استبد بالتصرف وحجر عليه ومنعه من تعاطي الرذائل فضاق ذرعاً بذلك وأعمل الحيلة في إعدامه بممالاة بعض مَن حسده.

(١) وقدر أن السلطان توجه إلى بلده نرستك غازياً وصحبته الخواجا فانقطع عن الاجتماع به نحو سبعة عشر يوماً لاشتغال السلطان بلهوه فوشى أعداؤه به إليه بما غير خاطره منه، وأرسل بعض خواص السلطان من الوزراء إلى الخواجا افتياتاً[1] على لسان السلطان بالسلام عليه وعتبه في التخلف عن حضوره إليه هذه المدة وأنه بلغه أن عسكر نرستك عزم على كبس عسكره الليلة فينبغي التأهب والاستعداد لذلك فظن صحة هذا الخبر وصدوره عن السلطان فاستعد ولبس السلاح وكان على مقدمة العسكر ولما تم لهم هذا أعلموا السلطان بأن الخواجا ألبس عسكره بقصد الوثوب عليك ليقتلك وإن شككت فأرسل من يستعلمه لك ففعل فرأى تلك الهيئة وتمت المكيدة فلما كان من الغد استدعاه السلطان في حال سكره فحضر إليه فكلمه على عادته وما كان بأسرع من وثوب عبد حبشيّ من عبيده فضربه بالسيف على كتفه وكرر عليه حتى قتله صبراً وذلك سنة ست وثمانين ثم استدعى بغلام الخواجا أسعد خان وكان قد حضر معه ولكنه لم يدخل فلما دخل قتل أيضاً، وارتجت الممالك لذلك وجاء الخبر لمكة وأنا بها فعمل عزاؤه وعظم الأسف على فقده فقد كان جواداً مفضالاً كثير الإمداد للواردين وعلماء غالب الأقطار، وأمره يزيد على الوصف ولم يلبث السلطان المشار

---

(١) الافتيات هو السبق إلى الشيء بدون أمر.

إليه أن قتل في صفر من التي تليها وزال ذاك النظام وكثر الكلام وورد أكبر أولاده وهو الخواجا على القاهرة مع الركب في سنة تسعين فأكرم السلطان مورده وقبل هديته واستمر حتى سافر في جمادى الأولى منها، وذُكِر بتعاظم زائد وتكبر كبير مع اندلاق أرباب الدولة فمن دونهم على بابه، وما انشرح الخاطر للاجتماع به مع مزيد حبي في ابن عمه رحمه الله(١).

ابن العصياتي

محمود بن محمد بن النور الحمصيّ الشافعيّ الواعظ، ويُعرف بابن العصياتي.

وُلد سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة بحمص ونشأ بها فحفظ محافيظ أبيه إلاّ المغني وهي المنهاج وجمع الجوامع وألفية الحديث والنحو وتحوّل إلى بيت المقدس فقطنه، وعقد الوعظ فابتدأ من أول تفسير القرآن إلى سورة النمل، وقرأ البخاريّ في رمضان من كل سنة.

(١) ولقيته بمكة في سنة تسع وتسعين، ثم بلغني عنه أشياء أنكرت عليه وسأل هو عن اشتراط النية للثواب المترتب على رؤية الكعبة فوافقته وعن المنع من دخول البيت للملتبس بالنسك فأنكرته.

(٢) وحكى لي أن والده حكى له عن جده لأمه الشمس السبكيّ أنه حصل له قبل موته ضرر في عينيه وأنه حج فاتفق أنه عثر في شخص فقال له: أنت أعمى، قال: نعم، قال: فاذهب إلى الملتزم واسأل الله في رد بصرك تُجَبْ وأنه فعل ولما فرغ وأراد الانصراف وتهيأ ليقوم أصابه جدار البيت أو عتبة الباب فنزل الدم وأبصر.

(٣) واشتغل وتميز بذكائه ولطف عشرته وولي قضاء الحنفية بحلب

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/١٤٤ ـ ١٤٥.

بعد ابن الحلاويّ ببذل كثير[1] ونعم الرجل فهو الآن أشبه قضاة حلب فيه رياسة وحشمة وفضيلة[2].

مدين

مدين بن أحمد بن محمد الحميريّ المغربيّ ثم الأشمونيّ القاهريّ المالكي.

أصله من المغرب من بيت كبير معروف بالصلاح والعلم فانتقل جد والده إلى القاهرة وسكن أشموم جريس بالغربية وغالب أهلها إذ ذاك نصارى وبها عدة كنائس فولد له ابنه محمد فنشأ على طريقة حسنة واجتهد في هدم تلك الكنائس وبنى بها زاوية استوطنها المسلمون حتى كان مولد صاحب الترجمة بها في سنة إحدى وثمانين وسبعمائة تقريباً فحفظ القرآن ومختصر الشيخ خليل، وأخذ الفقه عن الجمال الأقفهسي والبساطيّ، وتسلك بأبي العباس الزاهد وانتفع بهديه وإرشاده بعد أن اجتمع بجماعة وخدمهم فما أثّر، ولازم التقوى والذكر والانجماع على الطاعة إلى أن ترقى وأشير إليه في حياة شيخه بل كان شيخه يجله ويعتمد عليه. وبعد وفاته بمدة صار يجلس في جامعه بالمقسم ثم انتقل لزاوية صاحبه عبد الرحمن بن بكتمر بالقرب من جامع شيخهما المذكور إلى أن بنيت له بجوارها زاوية هائلة في الحسن والنضارة قل أن يبني شيخ أو عالم نظيرها وأقيمت بها الجمعة والجماعات وحينئذ كثرت أتباعه وانتشر الآخذون عنه في الديار المصرية وكثير من القرى وصار الأكابر فمن دونهم يهرعون لزيارته والتبرك به ويواصلون الفقراء بالبر والإنعام والشيخ بالهدايا والتحف حتى أثرى وكثرت أملاكه وأراضيه وعظم الانتفاع به وبشفاعاته لمبادرة أرباب الدولة إلى قضاء مآربه حتى قلّ أن تُرَدَّ له رسالة وصارت زاويته جامعة

---

(١) أي: ببذل المال وتعهد دفعه، وكانت هذه عادة سيئة متفشية في ذلك الوقت.

(٢) «الضوء اللامع»: ١٠/١٤٧ - ١٤٨.

للمحاسن، وقد اجتمعت به كثيراً وتلقنت منه الذكر على طريقتهم قديماً مرة بعد أخرى وعرض عليه أخي بعض محافيظه؛ وكان كثير الميل إليّ، ونِعم الشيخ كان جلالة وسمتاً ووقاراً وبهاءً وعقلاً ومراقبة وملازمة للطاعة واتباعاً للسنة وجمعاً للناس على ذكر الله وطاعته واقتداراً على العبادة واستحضاراً لكثير من فروع مذهبه ولجملة من المتون حتى أنه سأل شيخنا عن حديث «حسنوا نوافلكم فبها تكمل فرائضكم» وقال له شيخنا: ما أعلمه، فقال الشيخ: قد ذكره التاج الفاكهانيّ وعزاه لابن عبد البر، فقال شيخنا: يمكن؛ إلى غير ذلك من النوادر والأشعار الرقيقة وسر الصالحين وكراماتهم بحيث لا تمل مجالسته مع لطيف ممازحة وفكاهة وأما في تحقيق مذهب القوم فهو حامل رايته والمخصوص بصريحه وإشارته مع أنه لم يكن يتكلم فيه إلا بين خواصه.

(١) وله الخبرة التامة في استجلاب خواطر الكبير والصغير ومخاطبة كل بما يليق به ومذاكرته فيما يختص بمعرفته وكرامات يتداولها أصحابه منها أنه عاد العلم البُلقيني في مرض أيس فيه منه فقال تُعافى وتُفتي وتصنف وتقضي فكان كذلك.

(٢) وقد مكث دهراً إلى حين وفاته لا تفوته التكبيرة الأولى من صلاة الصبح ويمكث في مصلاه وهو على طهارة إلى أن يركع الضحى وربما جلس بعد ذلك والأمر وراء هذا.

تعلل أياماً ومات سنة اثنتين وستين وصُلِّي عليه من الغد بالشارع المقابل لجامع شيخه بمحضر خلائق كثيرين ودُفن بزاويته وتأسف الناس على فقده ـ رحمه الله وإيانا[١].

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/١٥٠ ـ ١٥٢.

السلطان مراد

(١) مراد بك بن أبي الفتح محمد بن بايزيد بن مراد بن أرخان بن عثمان الملقب غياث الدين كرشجي ومعناه الوتريّ ـ نسبة للوتر لكونه أبيه مازحه يوماً قائلاً له ما حالك مع إخوتك بعدي؟ فقال: أخنقهم بالوتر[١] فضحك وأعجبه وقال له: عافية كرشجي فتم عليه[٢] ـ ابن يلدرم بايزيد بن مراد بك أرخان بن علي أردن بن أرخان بن عثمان بن سليمان بن عثمان جق صاحب بلاد جميع الأوجات والبلاد التي ما وراء بحر الروم من المضيق بأسرها ومن ذلك بر اصطنبول بأسره وبُرصا وبولي وأدرنة وهي كرسيه الذي يقيم به، ويُقال لكل من ملوكهم خوندكار ويعرف بابن عثمان.

وُلد في حدود عشر وثمانمائة وملك بعد أبيه في سنة أربع وعشرين وطالت أيامه وعظم وضخم ونالته السعادة وصار من عظماء ملوك الروم وأهلك الله على يديه ملكاً عظيماً من ملوك بني الأصفر[٣] في سنة ثمان وأربعين، أقام في الملك بعد أبيه دهراً أكثر من ثلاثين سنة، وكان قائماً بدفع الكفار والتوجه لغزوهم مع سذاجة فيما عدا الحرب وانهماك في لذاته ومحبة في العلماء ومآثره كثيرة وأحواله في الطرفين شهيرة. وبالجملة فهو خير ملوك زمانه حزماً وعزماً وكرماً وشجاعة. مات سنة خمس وخمسين وهو في أوائل الكهولة وملك بعده ابنه عفا الله عنهما[٤].

---

(١) وقد قال هذا لأن كثيراً من سلاطين آل عثمان كانوا إذا تولوا السلطنة يقتلون إخوانهم الصغار إما خنقاً بالوتر أو غير ذلك، وكان هذا الذنب الكبير منتشراً في العهد العثمانيّ، ويعد من مساوئه.

(٢) أي لزمه هذا اللقب.

(٣) ملوك أوروبّا.

(٤) «الضوء اللامع»: ١٠/١٥٢. وفي عهده ـ كما في «تاريخ الدولة العلية العثمانية»: ١٥٣ ـ ١٥٩ ـ توغّل السلطان في بلاد الصرب والمجر وألبانيا، وأعاد الولايات التي استولى عليها تيمورلنك.

معوضة

معوضة الفقير الصادق المخاطر في الله بروحه من أصحاب الشيخ عمر العرابي.

كان لا يرى منكراً إلا غيره ولا يهاب أحداً كائناً من كان بحيث صارت له هيبة ولا يخالفه أحد، وكان يحمل عصا بيده يضرب بها من يخالفه ويقوم بها في المطاف فيحول بين الرجال والنساء، ويدفع أهل الدكاكين في المسعى توسعة للساعين وأنكر على الأمير بيسق وهو يعمر في الحرم أموراً فرجع إليه، ولما أراد طواشي[١] صاحب بنجالة بناء مدرسة لأستاذه بمكة عند باب المسجد المعروف بباب أم هانىء وأراد الخروج بالجدار الذي يلي الشارع إلى حذاء مدرسة الشريف عجلان منعهم من ذلك واضطجع في محل البناء وقال: ابنوا فوقي فبذل الطواشي لحكام مكة مالاً فعجزوا عن دفعه.

مات في سنة ست عشرة، رحمه الله[٢].

مغامس

مغامس بن أحمد الزباع الحميضيّ المكيّ القائد الكبير المتقدم بالشجاعة والفصاحة عند بني عجلان ولاة مكة. ممن ظلم الحاج ثم تاب وتطلب براءة الذمة ولبس المرقعة وساح باكياً على ما فرط منه وصحب عمر العرابيّ ورافقه إلى اليمن، ثم رجع إلى مكة وخيّر نساءه وتعلل وأصابته جراحة في رجليه فكان يعيد ما يخرج منها من الدود إليها ويتوجه إلى الله أن لا يموت إلا بحضرة شيخه المشار إليه فأجيب فإنّه تمادى في الضعف خمسة أشهر ووصل الشيخ لمكة فمات بحضرته[٣].

---

(١) مثل الأغا وهو الخادم الخصيّ.
(٢) «الضوء اللامع»: ١٠/١٦٤.
(٣) «الضوء اللامع»: ١٠/١٦٤.

مهار

مهار بن فيروز شاه بن محمد تم بن بهم تم بن جرد شاه بن طغلق بن طبق شاه سيف الدين بن قطب الدين صاحب جزيرة هرمز والبحرين، قتل أباه واستبد بالملك وعظم قدره وفخم أمره وصارت في أيامه هرمز بندرَ[1] الدنيا يأتيها مراكب الهند والصين، ويقصدها تجار خراسان وسمرقند وغيرها فامتلأت خزائنه وشُكِرت سيرته وعمرت بلاده[2].

ابن العطّار

يحيى بن أحمد بن عمر بن يوسف بن عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم الشرف التنوخيّ الحمويّ الأصل الكَركِيّ المولد القاهريّ الشافعيّ ويعرف بابن العطار ويُقال إنه من عرب تنوخ.

وُلد سنة تسع وثمانين وسبعمائة بالكرك فتحول منها إلى القاهرة وقرأ القرآن واشتغل بالفقه والعربية وغيرهما، ونشأ صيناً مع جمال الصورة وحسن الشكالة وتعانى الأدب فأجاد.

صادق الزين بن الخراط وانحرفا معاً عن التقيّ بن حجة مع تعصب الناصري بن البارزي له ومزيد اختصاص الشرف ببيته لكون ابنيه الكمال وأحمد كانا زوجين لابنتي أخيه ناصر الدين محمد حتى كان الشرف كأحد ابنيه.

عادى شيخنا أتمّ عداوة لكونه قدم عليه مرة في رسالة فلم يأذن له في الجلوس وصار يبسبس لعشيره الولوي بن تقي الدين ويحسن له أموراً قابلهما الله عليها هذا مع كون شيخنا ذكره في معجمه وأثنى عليه بقوله سمعت من فوائده ومن نظمه وسمعت من لفظه مناماً رآه وفيه أبيات شعر

---

(١) أي: ميناء.

(٢) «الضوء اللامع»: ١٠/١٧٣.

له، وهو أحد الكملة في النظم والنثر والخط ولكنه كثير الانجماع مع لطافة زائدة ولم يكمل الخمسين حتى أسرع إليه الشيب. انتهى.

(١) والمنام المشار إليه قرأته بخط الشرف رائيه ونصه: رأيت في بعض ليالي سنة سبع وعشرين كأني مارٌّ في مرجة خضراء ذات جداول ومعي الشيخ شمس الدين بن عبد الرحيم رحمه الله فبينا نحن نمشي إذ قال لي يا فلان هذا الشيخ جمال الدين بن نباتة متكىء على جدول منها فملنا نحوه وسلمنا عليه فرد السلام فقال له: يا سيدي هذا يحيى بن العطار ينظم على طريقتك ويحبك هو وابن الخياط ويغضان من بعض الناس يشير إلى ابن حجة رحمه الله، فتبسم وقال: أعرف، أعرف، وفارقناه فلما انصرفنا خطر لي أني أخطأت في عدم سؤالي عن أحوال الآخرة من رجل ميت مسلم منسوب إلى قرآن وحديث واشتغالي بالكلام معه في الشعر والتعريض بابن حجة فرجعت إليه بمفردي على الفور وقلت له: يا سيدي ما الذي رأيت من أمور الآخرة أو نحو هذا فجثا على ركبتيه وأنشدني ارتجالاً:

إن أنت صدّقت ما جاء الحديث به ... وبالقديم كلامِ الله في الأزل
وجئت في الحشر مطلوقاً بلا أحد ... يشكو عليك ولو في أصغر الزلل
رأيت في الحال ما تقضي به عجباً ... ولو أتيت بظلم النفس كالجبل

قلت: ورأيت الشرف حضر لعيادة شيخنا قبيل موته بأيام فبالغ شيخنا في التلطف معه وحصلت بينهما مذاكرة لطيفة وأظهر شيخنا بشرى بالاجتماع به على جاري عادته في التودد مع من يفهم عنه شيئاً وأرسل إليه بعد مفارقته بتحف.

(٢) ثم حدثني العز السنباطيّ رحمه الله قال: رأيت بعد موت شيخنا كأني بين يديه أنا والولوي بن تقي الدين وكان شيخنا دفع لابن تقي الدين من القصب الأبيض قلماً بغير براية وقال له قل لصاحبك وسمى يحيى هذا: قد تقدم الخصم والمدعى عليه في الطلب والحاكم لا يحتاج إلى بينة، قال العز فلم نلبث إلا دون شهر ومات يحيى.

وبالجملة فكان يحيى أديباً فاضلاً مفنناً ذكياً، ذا عقل وافر، وهيئة لطيفة ونورانية ظاهرة وحشمة وسكون وكياسة وكرم وهمة عظيمة مع من يقصده، وقدم راسخ في فنون الأدب.

(١) ولم يزل على رياسته حتى مات سنة ثلاث وخمسين وصلى عليه من الغد في مصلي المؤمني بمحضر فيه السلطان تقدمهم الشافعيّ. سامحه الله وإيانا، قال البقاعي: على حالة حسنة، أُخبرت أنه ما زال يذكر الله جهراً فلما عجز صار سراً حتى طلعت روحه مع التبسم والإخبار برؤية الخضرة والياسمين، قال: وكانت جنازته حافلة وليس له وارث وعظم تأسف الناس عليه وأطبقوا على الثناء الجميل بحيث إن مبغضه لم يسعه إلا ذلك وكفاه فخراً أن مبغضه لا يستطيع ذمه بعد موته، قال ولم يخلف بعده مثله في كل خصلة من خصاله[1].

الأقصرائيّ

يحيى بن محمد بن إبراهيم أبو زكريا الأقصرائيّ الأصل - نسبة لأقصرا إحدى مدن الروم - القاهريّ الحنفيّ، ويُعرف بالأقصرائيّ.

ولُد في سنة سبع وتسعين وسبعمائة بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن والمنظومة والكنز والمنار والحاجبية.

ونشأ في غاية التصون وعدم التدنس، وشمر عن ساعده في العلوم حتى فاق، وأُذِن له في الإقراء والإفادة، ولم يستكثر من السماع ولا من الشيوخ في العلم بل اقتصر على من انتفع به علماً وتهذيباً.

وحج مراراً أولها مع أخيه في سنة خمس عشرة وجاور بعد ذلك وكذا زار بيت المقدس والخليل في سنة ثمان وعشرين ودخل دمياط وإسكندرية وتلك النواحي مودعاً لابن أخته لما سافر غازياً إلى قبرص.

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/٢١٧ - ٢٢١.

وتصدّى للإقراء فانثالت[١] عليه الفضلاء من كل مذهب فأخذوا عنه وارتحل الناس بسبب لقيه من غالب الأماكن، وأقرأ الفقه والأصلين[٢] والتفسير والحديث والعربية والمعاني والبيان وغيرها، وحدث بكثير من المطوّلات وغيرها، وقُصد بالفتاوى في النوازل الكبار وغيرها ونفع الله به في ذلك كله.

(١) واشتهر بحسن التعليم والإرشاد وإيضاح المشكل باللفظ اليسير والتأني من غير صخب ولا مزيد حركة، كل ذلك مع الديانة التامة وكثرة التعبد والتلاوة والذكر والتهجد، ومحبة الصالحين ومزيد الاعتقاد فيهم وزيارتهم وعدم التردد لبني الدنيا إلا في فعل سُنّة ونحوها، والتواضع والتودد والاستجلاب للخواطر والاحتمال لمن يجافيه أو ينتقصه والصبر على ما يبلغه من أذى، والنصح التام لخلق الله، وتعظيم أبناء جنسه، والاجتهاد في إزالة الوحشة بينهم، والمسارعة إلى إغاثة الملهوف، والرغبة التامة في إيصال البر للفقراء وطلبة العلم من ماله وبسفارته خصوصاً أهل الحرمين والغرباء حتى أنه صار محط رحالهم، والمحبةِ في الإطعام بحيث إنه قَلَّ أن يأكل وحده، والصدع في الحق بلسانه وقلمه ومشافهته للملوك بالمواعظ والتخويفات في المواطن التي لا يشركه في المعارضة فيها غيره فصار بهذه الأوصاف الحميدة والمناقب العديدة إلى ضخامة وعلو مكانة وأوامر مطاعة، واشتهر ذكره وبعد صيته وعرض عليه قضاء مذهبه مرة بعد أخرى وهو يمتنع، والتمس منه الشهاب حفيد العينيّ استقرار في مشيخة مدرسة جده قصداً للتجمل به وحفظ ما جدده بسببها من الأوقاف فما خالف.

(٢) ولما همّ الأشرف قايتباي للاستيلاء على فائض الأوقاف ونحوه من الأمور التي رام إحداثها محتجاً بالاحتياج في تجهيز العسكر لدفع بعض الخارجين، وجمع القضاة عنده بسبب ذلك كان من جملة من حضر فقام

---

(١) انثال أي: انصبّ.

(٢) أصول الفقه وأصول الدين.

بأعباء دفع هذه النازلة أعظم قيام وكفى الله المؤمنين القتال وما نهض غيره لمشاركته في ذلك وكف الله عنه ألسن المفسدين وأيديهم بحسن نيته وجميل سريرته ولم يجد الأعداء سبيلاً إلى الحط من مقداره بل كان ذلك سبباً في ارتقائه فإنه توعك بعد ذلك ووصل علمه إلى السلطان المشار إليه فنزل إليه منزله فسلم عليه وبالغ في التواضع معه.

وكذا اتفق من إجلال الملوك له أن الظاهر خشقدم أرسل يستشيره فيمن يصلح لقضاء الشافعية وصار يراجعه في ذلك حتى تعين من وافق على ولايته.

وبالجملة فقَلَّ أن ترى العيون في مجموعه مثله وللناس فيه جمال.

(١) ولم يزل على جلالته ولكن ثقل أمره على الأشرف لمشافهته له مرة بعد أخرى بما لم ينهض غيره لذكره بحيث قال له بحضرتي مرة لا تتلفت لما في أيدي الناس، وعارض في المجلس المعقود بسبب الكنيسة عند الدوادار الكبير بل فارق المجلس وعز ذلك على المتقين؛ ومع هذا فإنه لما حج في الركب المضاف للأتابك أزبك الظاهري وهو ضعيف الحركة أمده السلطان بستمائة دينار والدوادار المشار إليه بنقد خمسمائة، وبأزيد منها في مصروف الاحتياج، وسافر في مِحَفَّة[١] بأبّهة وزار في جملة الركب النبيّ ﷺ في توجهه ثم حج ورجع إلى وطنه فمات ولده أبو السعود وهو راجع فصبر وتجلد حتى دخل القاهرة وهو محزون مكروب مع كونه لا يظهر إلا التجلد بحيث إنه كلف للطلوع إلى السلطان للسلام عليه فأجاب ثم لم يلبث أن تعلل أياماً، ومات سادس عشرى المحرم سنة ثمانين وصلى عليه في محفل شهده السلطان فمن دونه وتأسف الناس على فقده وكثر ثناؤهم عليه ولم يخلف بعده مثله ـ رحمه الله[٢].

---

(١) مركب للنساء شبه الهودج ولكنه بدون قبّة.

(٢) «الضوء اللامع»: ١٠/٢٤٠ ـ ٢٤٣.

يعقوب بن عبد الله الخاقانيّ الفاسيّ

كان من أبناء البربر، فلما رأى الفساد الحادث بفاس بسبب الفتنة بين السعيد وبين أبي سعيد في سنة سبع عشرة صار يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويكف أيدي المفسد فتبعه جماعة وقويت شوكته بحيث حاول ملوك فاس القبض عليه فأعياهم أمره إلى أن قُتل أبو سعيد وأرسل ابن الأحمر يعقوبَ المريني إلى فاس فلم يتم الأمر فأرسل أبا زيان بن أبي طريف بن أبي عنان فحاصر فاس، وقد اشتدت شوكة صاحب الترجمة واستفحل أمره ففتك فيمن بقي من بني مرين وساعد أبا زيان وقام بأمره فدخل فاس ثم أرسل ابن الأحمر محمد بن أبي سعيد فعسكر على فاس ففر منه أبو زيان فمات ببعض الجبال وقتل هذا[1] ثم لم يلبث أن مات محمد عن قرب فأقيم ابن أخيه عبد الرحمن فثار به أهل فاس فقتلوه وقتلوا ولده وأخاه وأقاموا رجلاً من ولد أبي سعيد، وقام بمكناسة وهي على مرحلة من فاس أبو عمر بن السعيد وقام بتازة وهي على مرحلة ونصف من فاس آخر من ولد السعيد أيضاً فصار في مسافة مرحلتين ثلاثة ملوك ليس بأيديهم من المال إلا ما يؤخذ ظلماً فتلاشى الحال وخربت الديار وقتلت الرجال، والحكم لله. ذكره شيخنا في انبائه نقلاً عن خط المقريزيّ فيما نقله عن من يثق به من المغاربة القادمين للحج فالله أعلم[2].

يَلْبُغا

يلبغا أبو المعالي السالميّ الظاهريّ برقوق الحنفيّ. كان يذكر أنه سمرقنديّ وأن أبويه سمياه يوسف وأنه سبى فجلب إلى مصر مع تاجر اسمه سالم فنُسب إليه، واشتراه برقوق وصيره من الخاصكيّة[3] يعني لمهارته

---

(١) أي: يعقوب الفاسيّ صاحب الترجمة.

(٢) «الضوء اللامع»: ١٠/٢٨٣ - ٢٨٤.

(٣) نوع من المماليك يختارهم السلطان من المماليك المجلوبين من الخارج ويجعلهم في حرسه الخاص، ويتميزون عن باقي المماليك بالقرب من السلطان في كل وقت.

ورتبه لقراءة كتاب «الكلم الطيب» عنده، ثم كان ممن قام له بعد القبض عليه في أخذ صفد فحمل له ذلك، ووعده بالإمرة ولكن لم يعجلها له. فلما كان في سنة ثمانمائة أمّره عشرة[1]، وقرره في شعبانها ناظر الشيخونية[2] فباشر بعنف وكذا اتفق له في سعيد السعداء فإنه أخرج مكتوب وقفها ورام المشي على شرط الواقف، وجرت خطوب وحروب بحيث عمل فيها بعض الشعراء، وكان يترقب نيابة السلطنة فما تمّ، ثمّ جعله أحد الأوصياء فقام بتحليف مماليك السلطان لولده الناصر وتنقلت به الأحوال بعد فعمل الاستادارية الكبرى[3] وفعل من المحاسن ما يطول شرحه وسار في الاستادارية سيرة حسنة عفيفة وأبطل مظالم كثيرة.

وركب في صفر سنة ثلاث فكسر ما بمنية الشيرج وناحية شبرى من جرار الخمر على كثرتها، وهدم كنيسة النصارى وتشادد في النظر في الأحكام الشرعية وخاشن الأمراء وعارضهم فأبغضوه وقام في سنة ثلاث أيضاً فجمع الأموال لمحاربة تمرلنك ـ زعم ـ فشنعت عليه القالة كما شرح في محله ولم يلبث أن قبض عليه في رجب منها وتسلمه ابن غراب وأهانه وعوقب ونفي إلى دمياط ثم أحضر في سنة خمس وثمانمائة وقرر في الوزارة فباشرها على طريقته في العسف فقُبض عليه وعوقب أيضاً وسُجن، ثم أفرج عنه في رمضان سنة سبع وعمل مشيراً فجرى على عادته وسُلِّم لجمال الدين الاستادار وكان قد ثار بينهما الشر فعاقبه ونفاه إلى إسكندرية فرجمته العامة في حال سيره في النيل، ولم يزل بالسجن إلى أن بذل فيه جمال الدين للناصر مالاً جزيلاً فأذن في قتله فقتل في محبسه خنقاً وهو صائم في رمضان بعد صلاة عصر يوم الجمعة سنة إحدى عشرة وما عاش جمال الدين إلا دون عشرة أشهر.

---

(١) أي: عشرة من المماليك.
(٢) مدرسة من المدارس.
(٣) الاستادار هو متولي قبض المال السلطانيّ ومتولي صرفه.

وكان طول عمره يلازم الاشتغال بالعلم ولكنه لم يفتح عليه منه بشيء سوى أنه يصوم يوماً بعد يوم ويكثر التلاوة وقيام الليل والذكر والصدقة، ويحب العلماء والفضلاء ويجمعهم، وفيه مروءة وهمة عالية مع كونه سريع الانفعال طائشاً لحوحاً مصمماً على الأمر الذي يريده ولو كان فيه هلاكه ويستبد برأيه غالباً، ويبالغ في حب ابن عربي وغيره من أهل طريقته ولا يؤذي من ينكر عليه، وقد لازم سماع الحديث مدة وأقدم العلاء بن أبي المجد من دمشق حتى أسمع البخاري مراراً. وبالجملة فكان من محاسن أبناء جنسه، عفا الله عنه وإيانا[1].

الأمير يوسف الأيوبيّ

يوسف بن أحمد بن غازي بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن تورانشاه بن أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي بن مروان.

ذكره شيخنا في معجمه فقال: الملك الجليل العالم صلاح الدين بن الناصر بن العادل بن المجاهد بن الكامل بن الموحد بن المعظم بن الصالح بن الكامل بن العادل بن أيوب الأيوبيّ الحصنيّ. ولُد سنة بضع وسبعين في حجر المملكة ونشأ شجاعاً بطلاً، ثم اشتغل بالعلم فمهر فيه وتفنن في عدة علوم، ونظم الشعر فأجاد، ورغب عن الملك وزهد في الدنيا وأقبل على الآخرة فرحل عن بلاده طالباً ثغراً يجاهد فيه الكفار فدخل القاهرة سنة سبع عشرة فلازمني كثيراً وبحث عليّ مختصري النخبة ومختصر الكرمانيّ في علوم الحديث أيضاً وكان معه، ثم كتب عني شرح النخبة وكان يستحسنه جداً، وحضر في إملائي على شرح البخاريّ واستفدت منه وسمعت من فوائده، وكان شكلاً بهياً ونفساً رضية، كثير العبادة حسن التلاوة شجيّ الصوت سليم الفطرة ملوكيّ الأدب، بطلاً شجاعاً قليل النظير.

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(١) ولم يزل قاصداً التوجه لدمياط أو غيره من الثغور لنية المرابطة إلى أن استشهد بالطاعون في سنة تسع عشرة بعد أن عدته في مرضه فوجدته في الغمرات فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: طيب، ولما مات ودُفن اتفق أن القراء قرأوا على جنازته سورة يوسف ولم يعهد ذلك من قراء الجنائز ثم اتفق أنه دُلِّيَ في قبره عند انتهاء قراءتهم إلى قوله تعالى: «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» فكان هذا من الاتفاق النادر لكون اسمه يوسف[١].

ابن الحريريّ

يوسف بن أحمد بن محمد الأمير الجمال أبو المحاسن العثماني البيريّ ثم الحلبيّ ثم القاهريّ الاستادار[٢]، وكان يُعرف أولاً بابن الحريريّ ثم بالقاهرة باستادار بجاس. وُلد سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة بالبيرة[٣] وكان أبوه خطيبها، وكان أولاً بزيّ الفقهاء وحفظ القرآن وكتبا في الفقه والعربية منها ألفية ابن معطي وعرضها على أبي عبد الله ابن جابر الأندلسيّ وأخذ عنه في شرحها له بحلب وسمع عليه بديعيته وغيرها، ثم ارتحل على فاقة عظيمة لدمشق فتزيا للجند. وقدم القاهرة في سنة سبعين فخدم استاداراً عند الأمير بجاس فطالت مدته عنده بحيث تزوج ابنته وعرف به وعظم قدره ومحله، وكذا باشر الاستادارية عند جماعة من الأمراء كبيبرس الأتابك وسودون الحمزاويّ، وأثرى وعمر الدور الكبار منها في داخل القصر بجوار المدرسة السابقية منزلاً حسناً فيُقال إنه وجد فيه خبيئة للفاطميين. واشتهر ذكره بالعصبية والمروءة وقضاء حوائج الناس فقام بأعباء كثير من الأمور وصار مقصداً للملهوفين يقضي حوائجهم ويركب معهم إلى ذوي

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) هو متولي قبض المال السلطانيّ ومتوليّ صرفه.

(٣) من مدن سوريا قريبة من حلب.

الجاه فتزايدت وجاهته ونفذت كلمته وسأل في الاستادارية فاستقر فيها سنة سبع وثمانمائة فاستولى حينئذ على الأمور واستضاف الوزارة ونظر الخاص والكشف بالوجه البحريّ بل استقر مشير الدولة. ثم لما قتل يشبك صفا له الوقت وصار عزيز مصر على الحقيقة لا يعقد أمر إلا به ولا تنفصل مشورة إلا عن رأيه ولا يخرج إقطاع ولو قلّ إلا بإذنه، ولا يستخدم أحد من الأمراء ولو عظم كاتباً عنده إلا من جهته، ولا تباع دار حتى تعرض عليه ولا يثبت مكتوب على قاض حتى يستأذنه، ولا يباع شيء من الجوهر والصينيّ ولا من آنية الذهب والفضة ولا من الفرز والصوف والحرير ولا من كتب العلم النفيسة حتى تعرض عليه، ولا يلي أحد وظيفة ولو قَلّت حتى نواب القضاة إلا بأمره، ثم تجاوز ذلك حتى صار لا يتحكم أمير في فلاحه حتى يؤامره، ولا تكتب وصية حتى تعرض عليه أو يأذن فيها، وخضع له الآمر والمأمور وكثر تردد الناس إلى بابه حتى كان رؤساء الدولة ينزلون في ركابه إلى منزله ولا يصدر أحد منهم إلا عن رأيه.

(١) ثم شرع في انتهاك حرمة الأوقاف فحلها أولاً فأولاً حتى استبدل القصور الزاهرة المنيفة بالقاهرة كقصر بشتك والحجازية وغيرها بشيء من الطين في الجيزة وغيرها؛ وكان قبل ذلك يتوقى في الظاهر فربما رام استبدال بعض الموقوفات فيعسر عليه القاضي الذي مذهبه جوازه إلى أن تجتمع شروط الجواز فيبادر هو فيدس بعض الفعلة إلى ذلك المكان في الليل فيفسد في أساسه حتى يكاد يسقط فيرسل من يحذر سكانه فإذا اشتهر ذلك بادر المستحق إلى الاستبدال ومن غفل منهم أو تمنع سقط فنقص من قيمته ما كان يدفعه له لو كان قائماً، ثم بطلت هذه الحيلة لما زاد تمكنه بإعانة الحنفيّ تارة والحنبليّ تارة أخرى حتى أن القاضي كريم الدين بن عبد العزيز رافق ابن العديم الحنفيّ في جنازة ففتح له انتهاك حرمة الأوقاف بكثرة الاستبدال فقال له: إن عشت أنا والقاضي مجد الدين سالم يعني الحنبليّ لا يبقى في بلدكم وقف؛ والعجب أن رؤساء العصر كانوا ينكرون

أفعاله في الباطن رعاية له أو فرقاً[1] منه فما هو إلا أن قتل فتوارد الجميع على اتباعه فيما سن حتى لم يسلم منه أحد منهم ولم يزل الأمر يتزايد، ثم لم يزل الجمال يترقى ويحصل الأموال ويدارى بالكثير منها ويمتن على الناصر بكثير من الأموال التي ينفقها عليه إلى أن كاد يغلب على الأمر.

(١) وفي الآخر صار يشتري بني آدم الأحرار من السلطان فكل من تغير عليه استأذن السلطان في إهلاكه واشتراه منه بمال معين يعجل حمله إلى الناصر ويتسلم ذلك الرجل فيهلكه فهلك على يده خلق كثير جداً وأكثرهم في التحقيق من أهل الفساد، وفي الجملة كان قد نَفَذَ حُكْمُه في الإقليمين مصر والشام ولم يفته من المملكة سوى اسم السلطنة مع أنه كان ربما مُدِح باسم الملك ولا يغير ذلك ولا ينكره إلى أن قُدِّر تخيُّلُ الناصر منه في سفره للبلاد الشامية للقبض على شيخ وكان معه وأنه تمالأ عليه وأنه يريد مسكه ووجد أعداؤه سبيلاً إلى الحط عليه عنده وعدم نصحه بحيث تغير منه ولما وصل إلى بَلْبِيس وذلك في يوم الخميس تاسع جمادى الاولى سنة اثنتي عشرة قبض عليه وعلى ولده وحاشيته إلا أخاه فإنه فر في طائفة ثم لما دخل القلعة أمر كاتب السر بالحوطة على موجوده فاستعان في ذلك بالقضاة واستمر جمال الدين وولده يخرجان ذخيرة بعد أخرى إلى أن قارب جملة ما تحصل من موجودهما ألف ألف دينار، وأحضره الناصر مرة وتلطف به ليخرج بقية ما عنده وجد وأكد اليمين واعترف بخطأه واستغفر فرق له وأمر بمداواته فقامت قيامة أعدائه وألَّبوه عليه إلى أن أذن لهم في عقوبته وسلمه لهم فلم يزالوا به حتى مات خنقاً بيد حسام الدين الوالي وقطعت رأسه ثم أحضرت بين يدي الناصر فردها وأمر فدفنه وذلك في يوم الثلاثاء حادي عشر جمادى الثانية. قاله شيخنا في إنبائه.

(٢) قال ولقد رأيت له بعد قتله مناماً صالحاً حاصله أنني ذكرت وأنا في النوم ما كان فيه وما صار إليه وما ارتكب من الموبقات فقال لي قائل إن

---

(١) خوفاً.

السيف محاء للخطايا فلما استيقظت اتفق أني نظرت هذا اللفظ بعينه في صحيح ابن حبان في أثناء حديث فرجوت له بذلك الخبر.

(١) ولعمري لقد ارتكبوا في حقه منذ قبض إلى أن قُتل ما لم يرتكبه في حق من دونه فيما كان فيه من الإهانة والإفراط في ظلم البرآء من أهله حتى وضعت امرأته سارة ابنة الأمير بجاس وهي حامل على دست نار فأسقطت ورأت من الذل ما لا يوصف وماتت بعد ذلك قهراً.

مدحه شيخنا بقصيدة طنّانة، بل قال في معجمه إنه سمع منه بديعية المغربيّ الأعمى، وترجمه فيه برئيس المباشرين قاطبة وأنه انتظم الدواوين كلها ولقب نظام الملك وغلب على الأمر بحيث لم يكن لأحد معه كلام، قال: وكان جواداً ممدحاً رئيساً جمع كثيراً من المفسدين وأبادهم بالموت والقتل إلى نُكب وقُتل، وأطال المقريزيّ في عقوده ثم ابن تغرى بردى ترجمته وقال إنه كان شيخاً قصيراً جداً، أعور، دميماً، قبيح الشكل، سفاكاً للدماء، بطاشاً، محباً لجمع الأموال وأخذها عن غير استحقاق وصرفها كذلك، نسأل الله السلامة[١].

الخلوائيّ

يوسف بن الحسن بن محمود العز السرائي[٢] الأصل التبريزيّ الشافعيّ ويُعرف بالخلوائيّ.

(٢) وُلد في سنة ثلاثين وسبعمائة وتفقه ببلاده، واجتمع في بغداد بالكرمانيّ وأخذ عنه الحديث وشرحه للبخاري، ومهر في أنواع العلوم وأقام بتبريز يدرس وينشر العلم ويصنف، فلمّا بلغه أن ملك الدعدع وهو طقتمش خان قصد تبريز لكونه أرسل لصاحبها في أمر طلبه منه رسولاً جميل الصورة فتولع به فلما رجع إلى مرسله أعلمه بما صنع صاحب تبريز وأنه اغتصبه

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/٢٩٤ - ٢٩٧.

(٢) «سرا» قرية في نهاوند.

نفسه أياماً وهو لا يستطيع الطواعية وتفلت منه فغضب حينئذ أستاذه وجمع عساكره وأوقع بأهل تبريز فخرّبها، وكان أول ما نازلها سأل عن علمائها فجُمعوا له فآواهم في مكان وأكرمهم فسلم معهم ناس كثيرون ممن اتبعهم، ثم لمّا نزح عنهم تحول عز الدين إلى مارِدِين[1] فأكرمه صاحبها وعقد له مجلساً حضره فيه علماؤها فأقروا له بالفضل ثم لما وَلِيَ إمرةَ تبريز أمير زاه بن اللنك راسله للقدوم عليه فأجابه فبالغ في إكرامه وأمره بالاستقرار فيها وبتكملة ما شرع في تصنيفه ثم تحول إلى الجزيرة لما كثر الظلم بتبريز فقطنها حتى مات في سنة اثنتين وقيل سنة أربع ـ رحمه الله وإيانا.

وكان إماماً علامة محققاً حسن الخلق والخلق، زاهداً عابداً، معرضاً عن أمور الدنيا، لم يلمس بيده ديناراً ولا درهماً، مقبلاً على العلم لا يُرى إلا مشغولاً به تصنيفاً وإقراءً ومطالعة مع القيام بوظائف العبادة، لم تقع منه كبيرة ولم ير مهموماً قط.

(١) وقد حج ثم زار المدينة النبوية وجاور بها سنة وكان يذكر أنه لمّا أتاها جلس عند المنبر فرأى وهو جالس بجانب المنبر بالروضة الشريفة مغمض العينين أنّ المنبر على أرض من الزعفران قال: ففتحت عيني فرأيت المنبر على ما عهدت أولاً فأغمضت عيني فرأيته على الزعفران وتكرر ذلك كذلك[2].

الفارسكوريّ

يوسف بن علي بن محمد الفارسكوريّ الشافعيّ أصله من فارسكور[3] فانتقل أبوه إلى القاهرة فولد بها وذلك في سنة تسعين وسبعمائة تقريباً أو قبلها وقرأ بها القرآن ثم تحول إلى فارسكور فارتزق بالخدمة في الحمام، وبحث فصول ابن معطى والملحة على الشيخ العلامة محمد السكندريّ

---

(١) من قلاع سوريا.

(٢) «الضوء اللامع»: ١٠/٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٣) من قرى مصر.

الحريريّ، وتعانى النظم فبرع فيه وامتدح النبي ﷺ بعدة قصائد، كتب عنه ابن فهد والبقاعيّ وآخرون وكنت ممن كتب عنه بفارسكور.

(١) وكانت عدمت عينه فرأى النبي ﷺ في منامها فلمسها بيده الشريفة فصحَّت.

مع ثقل سمعه وكونه عَلِيَّ الهمّة كثير المحفوظ أنِساً.

(٢) ومما كتبته عنه قوله:

كم من لئيم مشى بالزور ينقله ... لا يتقي الله لا يخشى من العار

يود لو أنه للمرء يهلكه ... ولم ينله سوى إثمٍ وأوزار

فان سَمِعْت كلاماً فيك جاوِزه ... وخلِّ قائله في غيه ساري

فما تبالي السما يوماً إذا نبحت ... كلُّ الكلاب وحقِّ الواحد الباري

وقد وقعتُ ببيت نظمه درر ... قد صاغه حاذقٌ في نظمه داري

لو كل كلب عوى ألقمته حجراً ... لأصبح الصخر مثقالاً بدينار[١]

المستنجد بالله

يوسف بن محمد بن أبي بكر أمير المؤمنين المستنجد بالله أبو المظفر.

وُلد سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ونشأ فحفظ القرآن في حجر السعادة إلى أن بُويع له بالخلافة في الأيام الإينالية[٢] بعد أخيه القائم بأمر الله حمزة في أوائل رجب سنة تسع وخمسين وظهر بذلك مصداق رؤياه تعيين الخلافة له من الخليل إبراهيم عليه السلام فدام فيها نحو أربع وعشرين سنة.

توفي بعد تمرضه نحو عامين بالفالج سنة أربع وثمانين وغُسل من فوره ثم صُلِّيَ عليه بالقلعة في مشهد فيه السلطان وجمع من الأمراء كالحاجب الكبير وغيره من المقدمين والقضاة، ما عدا الحنفيّ، والمشايخ ودُفِن بالمشهد النفيسيّ على

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/٣٢٥ - ٣٢٦.
(٢) أي أيام الأشرف إينال أمير المماليك.

عادتهم وسمعت من يقول سنة على التحرير نحو خمس وثمانون سنة ودون أربعة أشهر بأيام ـ رحمه الله وإيانا ـ.

وكان فيما بلغني كثير التلاوة في المصحف، ساكناً بهياً مجاب الدعوة صادق المنامات.

قلد في أيامه خمسة ملوك، وصاهر العلمي البُلقينيّ على ابنته واستولدها ابنة ثم فارقها[1].

المَلَطيّ

يوسف بن موسى بن محمد الجمال أبو المحاسن الحنفيّ ويُعرف بالجمال المَلَطيّ.

وُلِد في سنة خمس وعشرين وسبعمائة تقريباً بمَلَطْيَة[2]، وقدم حلب في شبابه وحفظ القرآن ومتوناً واشتغل بها حتى مهر ثمّ ارتحل إلى الديار المصرية وهو كبير فأخذ من علمائها وحصل وعاد إلى حلب وقد صار أحد أئمة الحنفية يستحضر الكشاف، وتفقه على مذهبهم فشغل بها الطلب وأفتى وأفاد إلى أن انتهت إليه رياسة الحنفية فيها مع الثروة وولاه تغرى بردى تدريس جامعه بها.

(١) ثمّ استدعاه الظاهر برقوق على البريد لما مات الشمس الطرابلسيّ وقال حينئذ: أنا الآن ابن خمس وسبعين فحضر من حلب في ربيع الآخر سنة ثمانمائة ونزل عند البدر الكلستانيّ كاتب السر[3] إلى أن خلع عليه في العشرين منه بقضاء الحنفية فكانت مدة الفترة مائة وعشرة أيام فباشر مباشرة عجيبة فإنه قرب الفساق، واستكثر من استبدال الأوقاف، وقتل مسلماً بنصرانيّ، بل اشتهر أنه كان يفتي بأكل الحشيش وبوجوه من الحيل في أكل الربا.

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/٣٢٩ - ٣٣٠.

(٢) مدينة في تركيا.

(٣) وظيفة يتولى كاتبها قراءة الكتب الواردة على السلطان، والرد عليها.

(١) كان يقول: من نظر في كتاب البخاريّ تزندق[١].

ومع ذلك فلما مات الكلستانيّ في سنة إحدى استقر في تدريس الصرغتمشية مضافاً للقضاء وقد أثنى عليه ابن حجي في علمه وأنه لم يكن محموداً في مباشرته. وقال العيني: كان يتصدق على الفقراء في كل يوم بخمسة وعشرين درهماً يصرف بها فلوساً لا يخل بذلك، ولم يكن يقطع زكاة ماله مع بعض شح وطمع وتغفيل، وأنه أقام بحلب قريباً من ثلاثين سنة فكان يكتب في كل يوم على أكثر من خمسين فتوى بدون مطالعة لقوة استحضاره.

(٢) قال ابن خطيب الناصرية: كان فاضلاً كثير الاشتغال والاشغال، مجتهداً في تحصيل العلم والمال وله ثروة زائدة حصلها بحيلة العِينة[٢]، ولما هجم اللنك البلاد عُقِد مجلس بالقضاة والعلماء لمشاطرة الناس في أموالهم فقال المَلَطيّ: إن كنتم تفعلون بالشوكة فالأمر لكم، وأما نحن فلا نفتي بهذا ولا يحل أن نعمل به في الإسلام فانكف الأمراء عن التعرض لذلك ثم عن ارتجاع الأوقاف والإقطاع بزعم الاستعانة بذلك في دفع تمرلنك، وكان ذلك معدوداً في حسناته مع كونه لم تحمد سيرته في القضاء، وكونه نُسب إليه ما تقدم ولكنه قد ثبت أنّ الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

(٣) وقال شيخنا في «رفع الإصر» وغيره إن المحب بن الشحنة دخل عليه فذاكره يوماً بأشياء وأنشده هجواً فيه متوهماً أنه لبعض الشعراء القدماء في بعض القضاة وهو:

عجبت لشيخ يأمر الناس بالتقى ... وما راقب الرحمن يوماً وما اتقى
يرى جائزاً أكل الحشيشة والربا ... ومن سمع الوحيَ حقاً تزندقا[٣]

---

(١) لا أدري ما مستنده في هذه المقالة الباطلة؟

(٢) بيع العِينة معناه التحيُّل في بيع دراهم بدراهم أكثر منها إلى أجل، وهو من باب بيع ما ليس عندك.

(٣) يشير إلى مقالته الآنفة فيمن يقرأ صحيح البخاريّ.

مات سنة ثلاث، رحمه الله وعفا عنه[1].

يونس الألواحيّ

يونس بن حسين بن علي الشرف ذو النون الزبيريّ الألواحيّ المصريّ القاهريّ الشافعيّ، ويُعرف بيونس الألواحيّ. وُلد في سنة خمس وخمسين وسبعمائة تقريباً بالقاهرة وحفظ القرآن والعمدة وألفية ابن مالك وعرض على جماعة، وحج غير مرة وزار المدينة وبيت القدس وذلك بعد سنة ثلاثين وتكسب بالشهادة وخطب بجامع آل ملك وأمّ بالمصلى بباب النصر وغيرهما، وحدث وتفرد.

(١) سمع منه الأكابر وأخذ ما يعطاه على ذلك لحاجته من غير اشتراط مع الخير وسلامة الصدر والكلمات الظريفة والحوادث اللطيفة كقوله حين قرأ عليه التقي القلقشنديّ الشاطبية وصار يعجرف في أبياتها: والله يا سيدي ما قال سيدي الشاطبيّ هكذا، وقوله مما كتبه عنه شيخنا: إذا تزوج الشيخ ينتابه فرح صبيان الحارة، وقوله حين طلبه العَلَم البُلقينيّ لكونه لم يقم له إذا مر عليه وقال له: كيف تكون شاهداً وتجلس مكشوف العورة فأنكر هذا وسأله أهو متنور[2] أم لا فكان مضحكة، وقوله لابن فهد وقد قال له: استخرت الله وكنّيتك أبا الفتاوى: قل في الخير.

(٢) وكان شديدالحرص على الاستفتاء في الحوادث بحيث اجتمع عنده من ذلك جملة وصار فيه عديم المثل. مات بالقاهرة سنة اثنتين وأربعين، وقد ذكره شيخنا في «إنبائه» فقال: إنه حدث في آخر عمره واستحلى ذلك وأعجب به وحرص عليه، وكان يحب الأمر بالمعروف ويشدد في ذلك مع قصوره في العلم، ويتخيل الشيء أحياناً فيلح في كونه لا يجوز؛ أنكر قديماً كون مَلَك الموت يموت واستفتى القدماء، وسمع الخطيب يذكر في خطبة الجمعة في ذكر عمر أنه منذ أسلم فر الشيطان منه فأنكر عليه وقال: لا تقل: منذ أسلم،

(١) «الضوء اللامع»: ١٠/٣٣٥ - ٣٣٦.

(٢) أي: هل شعر عانته مُزالٌ بالنورة أم لا.

يقع في ذهن العاميّ أنْ في ذلك نقصاً لعمر، واستفتى فيه فبالغ؛ وسمع مدرساً يذكر مسألة الصرف[1] وقول أبي سعيد لابن عباس: إلى متى تُوكِل الناس الربا فاشتد إنكاره ونزه ابن عباس عن هذا واستفتى فيه أيضاً واجتمع عنده من الفتاوى من هذا الجنس ما لو جلد لجاء في خمس مجلدات.

وكان كثير الابتهال والتوجه، ولا يعدم في طول عمره عامياً يتسلط عليه وخصوصاً ممن يجاوره. وهو في عقود المقريزي وأرخ مولده سنة خمس وستين، قال: كان ينكر المنكر بحدة وشدة، ممن تردد إليّ مراراً ونعم الرجل.

(١) أخبرني قال: سمعت الشيخ عبد الله بن خليل اليمنيّ يقول: سبحان المتفضل المنعم على مستحقي النِّقم، سبحان الحليم مع تمكن القدرة. رحمه الله وإيانا[2].

ابن قاضي شهبة

أبو بكر بن أحمد بن محمد التقيّ الأسديّ الشهبيّ الدمشقيّ الشافعيّ من بيت كبير ويعرف كسلفه بابن قاضي شهبة لكون النجم والد جده أقام قاضياً بشهبة السوداء[3] أربعين سنة. ولد سنة تسع وسبعين وسبعمائة بدمشق، ومات أبوه وهو ابن إحدى عشرة سنة فاشتغل بالعلم وأخذ عن جماعة وتدرب في التاريخ بالشهاب بن حجي. وعمل مختصراً لطيفاً مفيداً في طبقات الشافعية استمد فيه بل وفي سائر تعاليقه التاريخية من تصانيف شيخنا ومراسلاته حسبما يصرح بالنقل عنه، وعليه فيها عدة مؤاخذات، وفنه الذي هو الفقه قد انتهت إليه الرياسة فيه ببلده بل صار فقيه الشام وعالمها ورئيسها ومؤرخها وتصدى للإفتاء والتدريس فانتفع به خلق، وحدث ببلده وببيت المقدس، سمع منه الفضلاء وصار الأعيان في وقته ببلده من تلامذته ورُحِل إليه من الأماكن النائية. كل ذلك مع الذكاء والفصاحة والشهامة

(١) هو بيع النقد بالنقد جنساً بجنس أو بغير جنس، كبيع الذهب بالذهب، أو الذهب بالفضة، وله شروط تنظر في كتب الفقه.

(٢) «الضوء اللامع»: ١٠/٣٤٢ - ٣٤٣.

(٣) من قرى حوران بالشام، انظر «معجم البلدان»: ٣/٣٧٤.

والديانة وحسن الخلق والخلق والمحاسن الوافرة، وحج وزار بيت المقدس

وناب في القضاء بدمشق مدة ثم استقّل به سنة اثنتين وأربعين عوضاً عن الكمال ثم أعيد ابن البـازريّ ولم يلبث أن صرف في شـوال التي تليها وانفصل عن قرب أول سنة أربع وأربعين وانقطع للعلم. وسافر قبيل موته بجميع عياله لزيارة بيت المقدس في رمضـان وقصد الشهـاب أبا البقـاء الزبيريّ بالمدرسة الطولونية لزيارته فقيل إنه تكلم على بعض المحال من البخاري بما أبهت به من حضر حتى قال بعضهم: لو كان هنا ابن حجر لم يتكلم بأكثر ولا أحسن، وتحققوا بذلك تقدمه فيما عدا الفقه أيضاً.

(١) ولما انقضى أَرَبه من الزيارة عاد فمات فجأة وهو جالس يصنف ويكلم ولده البدر بعد عصر يوم الخميس حادي عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين ودفن من الغد بمقبرة باب الصغير عند سلفه وكان له مشهد لم يُر لأحد من أهل عصره مثله وتأسف الدمشقيون على فقده.

(٢) ومن الغريب ما حكاه ولده أنه قبل موته أظنه بيوم ذكـر موت الفجأة وأنه إنما هو أخذة أسف للكافر وأما المؤمن فهو له رحمة، وقرر ذلك تقريراً شافياً، قلت: وقد ترجم البخـاري في الجنائـز من صحيحه مـوت الفجأة.

وقد ترجمه بعض المتأخرين فقال: انتهت إليه رياسـة المذهب في زمانه بل رياسة الشام كلها وصار مرجعها إليه ومعولها في مشكلاتها عليه ورزق من ذلك ما لم يرزقه فيـه غيره حتى قـال الحسام الحنفيّ أنـه لم يحصل لشافعي قطّ ما حصل له فإنه يُرى نصُّ الشافعي في مسئلة فتواه على خلافه فيعمل بها لكونه عندهم أخبر بنصّ الشـافعيّ من غيره، ولم يدانه في زمانه بل ولا قبله من مُدَدٍ - في معرفة فروع الشافعية سيما تخريج كلام المتأخرين - أحد.

(٣) وكتب بخطه الكثير بحيث لو قال القائل إنه كتب مائتي مجلد لم يتجاوز، وخطه فائق دقيق، وبِيع في تـركته نحـو سبعمائـة مجلد كاد أن يستوفيها مطالعة.

(١) وألف التاريخ الكبير ابتدأ فيه من سنة مائتين إلى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وفي أثنائه خَرْمٌ أكمله بعض تلامذته، وذيلاً على تواريخ المتأخرين: الذهبيّ، والبرزالي، وابن رافع، وابن كثير، وغيرهم، ابتدأه من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة إلى سنة نيف وعشرين وثمانمائة في ثمان مجلدات واختصره في مجلدين ثم اختصره في مجلد وكتب حوادث زمنه إلى يوم وفاته، وعمل طبقات الشافعية والحنفية إلى غير ذلك مما لا يُحصى اختصاراً وانتقاءً وجمعاً، قال العز القدسيّ: دخلت دمشق قبل الفتنة فلم أر فيها ولا سمعت ممن نشأ أحسن منه صورة وسيرة، وكان شكلاً حسناً يلبس القماش النفيس ويركب البغال المثمنة معظماً مكرماً وقوراً عليه جلالة ومهابة وعنده نفرة من الناس وبعض حدة مزاج لم أر مثله في معناه، ولما أرسل الظاهر جقمق[١] رسوله لشاه رخ[٢] كان أحد أربعة سأله فأجابه ببقائهم فقال: الحمد لله بعد في الناس بقية. ورؤيت له منامات كثيرة حسنة ذكرها ولده في مجلده وأفرد من مناقبه أيضاً جملة، ورثي بمراثٍ كثيرة ولم يخلف بعده مثله.

(٢) وكان في يوم الأربعاء درّس وذكر الخلاف في موت الفجأة ثم قال وأنا أختاره لمن هو على بصيرة لأن أقل ما فيه أمن الفتنة عند الموت، ثم ركب منها فلما استوى على بغلته قال لولده البدر: والله يا بني ما بقي فينا شيء، ثم توجه للناصرية فدّرس بها وجره الكلام إلى فضل الموت يوم الجمعة وليلتها ثم سأل الله الوفاة في ذلك اليوم، فأجاب الله دعوته فإنه لما كان ثاني يوم بعد العصر وهو جالس يحدث ولده والقلم بيده وهو يكتب فوضع القلم في الدواة واستند إلى المخدة والتوى رأسه فقام إليه ولده فوجده قد مات بحيث قال ولده والله ما أعلم أنه حصل له من ألم الموت ما يحصل من ألم الفصادة إلا دون ذلك، رحمه الله وإيانا[٣].

---

(١) سلطان المماليك في مصر والشام.

(٢) ابن تيمورلنك.

(٣) «الضوء اللامع»: ١١/٢١ - ٢٤.

أبو بكر بن احمد بن محمد المشيرقي

روى لنا عن المحب بن الشحنة أنه قال: رحلت في خدمة الخطيب ناصر الدين بن عشائر إلى القاهرة فلما نزلنا الصالحية ذُكِر لنا أن شيخنا بها اختطفه الجن وفي الظن أنه سماه محمداً وهو مشهور عندهم بالمخطوف، فاجتمعنا به فذكَر لنا أنه قتل وزغة بجامع الصالحية فاختُطِف واحتوشه جماعة من الجن كل يدعي لنا أنه قاتل قريبه فلقنه شخص طلبَ شرع الله فصاح يقول: شرعَ الله شرعَ الله فأحضر إلى شخص هو القاضي جالس على كرسي على رأسه برنس فادُّعِيَ عليه عنده فأنكر فسأل القاضي المدَّعي: في أي صورة ظهر قريبك؟ فقال في صورة وزغة فالتفت إلى من عنده وقال: ألم يخبرنا علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من تزيا بغير زيه فقتل فدمه هدر» دعوه، ثم سأله: هل يحسن قراءة القرآن؟ فقال: نعم، فعرض عليه أن يقيم عندهم ليعلمهم فأبى، وذكر له أنه قرأ الفاتحة على علي فتلقنها المخطوف منه وتلقنها من المخطوف ابن عشائر وخادمه هذا وقرأها على المحب بن الشحنة وسمعناها منه مراراً، والله أعلم بصحتها[1].

أبو بكر الملويّ

أبو بكر بن عبد الله بن أيوب الملويّ ثم المصريّ الشاذليّ، شيخ معتقَد له زاوية بملوي. ولد سنة اثنتين وستين وسبعمائة وصحب الفقراء وصار يتكلم على الناس بزاوية شيخه الحيار بقنطرة الموسكي ويفسر القرآن برأيه على قاعدته فضبطوا عليه أشياء ورفع إلى القاضي الجلال البلقيني فمنعه من ذلك إلا إن قرأ من تفسير البغويّ وغيره، واجتمع بي بسبب ذلك فوجدته حسن السمت عرياً عن العلم وكان قال فيما ذكر لي أنه رأى في قوله تعالى: ﴿كذبت قوم هود المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود﴾ إن الضمير في قوله: «أخوهم» للمرسلين، فقلت له: بل لعاد، فقال: لا لأنه

---

(١) «الضوء اللامع»: ١١/٢٥ ـ ٢٦.

لا يليق بالنبيّ أن يُوصف بأنه أخو الكفرة، فقلت له: فقد قال في الآية الأخرى: «واذكر أخا عاد» فسكت، وله نظائر لذلك إلا أنه كان كثير الذكر والعبادة يتكسب من التجارة في الغزل ولجماعة من الناس فيه اعتقاد كبير.

مات سنة إحدى وأربعين وكانت جنازته حافلة(٢).

ابو بكر السخاويّ

أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد شقيقي الزين السَّخاويّ الأصل القاهريّ الشافعيّ. ولد في أواخر سنة خمس وأربعين وثمانمائة بمنزلنا الشهير ونشأ به في كنف أبويه فحفظ القرآن والعمدة والمنهاج الفرعي وجمع الجوامع وألفيتي الحديث والنحو وغيرها، وعرض على جماعة وأحضرته على العز بن الفرات بل أسمعته على شيخنا وخلق، وأجاز له جم غفير من أماكن شتى.

تميز في العربية وشارك في غيرها مع صحة الفهم وسرعة الذكاء واستقامة التصور والتحري في المباحثة والإقراء، وتصدى للتدريس في الفقه وأصوله والعربية وغيرها وأخذ عنه غير واحد ممن صار في المدرسين، ووَلِيَ إعادة الحديث بالبيبرسية والخطابة بالباسطية وخَزْنِ كتبها، بل ناب عني في تدريس الحديث سنتين، وربما أفتى وكتب بخطه الكثير ومن ذلك شرحي للألفية وجملة من تصانيفي بل كتب شرحاً على الآجرومية والقواعد لابن هشام.

(١) وحج، ورزق الأولاد، واستعان في معيشته بالتكسب على وجه جميل وعرض عليه القضاء فأبى ولم يزل على طريقته في الإقبال على العلم مع القيام بالتكسب على العيال ومزيد كدره من أم أولاده مما ليس الخبر فيه كالعيان وهو متجلد متنهد إلى أن انحط ولزم الوِساد وتوالى عليه أمراض وآلام وقاسى شدائد وتفتحت في يديه عدة أماكن ونفذ ما كان بيده

---

(١) «الضوء اللامع»: ١١/٣٧ - ٣٨.

وهي مع ذلك تعالجه وتناكده بحيث إن مدة مرضه وقبله كان لأجل رضاها مقيماً بها ببركة الرطلي وكان الأحباب بتكلفون لعيادته ولمشاهدته وهي تأبى الرجوع بل وتسأل في الطلاق، ثم تحول بغير رضا منها إلى بيتنا وأبت أن توافقه وبالغت حتى أجابها لسؤالها وبذلها وإبرائها ودام أياماً، ثم مات في رابع ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين ودفن من يومه وكان له مشهد حافل وأرخت السماء مطراً من حين المرور بجنازته إلى انتهاء دفنه بل استمر المطر أسبوعاً، عوضه الله الجنة وإيانا فقلّ أن أعلم في مجموعه مثله متانة دين وصدق لهجة وبديع تصور وصحة فهم وإتقان في علمه وكتابته وتحرز في نقله مع الصفاء والضياء والمحاسن، ولما بلغتني وفاته وأنا بمكة صُلِّيَ عليه بها صلاة الغائب وقرأ غير واحد من جماعتنا له ختمات ولقد كان لي به جمال وانتفاع في الغيبة والحضور، فعند الله أحتسب مصيبتي به وأسأله خير العوض[١].

ابو بكر الحصنيّ

أبو بكر بن محمد بن شاذي التقيّ الحصنيّ الشافعيّ نزيل القاهرة.

ولد سنة خمس عشرة وثمانمائة بمدينة حصن كيفا[٢] وكان أبوه من مياسير تجارها فنشأ في كفالته وحفظ القرآن والشاطبية والحاوي والشافية والكافية وتمام عشرة كتب على ما كان يخبر، وجود القرآن على بعض شيوخ بلده بل وقرأ القراآت أيضاً على ولد لابن الجزري، وارتحل فلقى البساطيّ بحلب في سنة ست وثلاثين واستفاد منه يسيراً وأثنى البساطيّ على جودة فهمه حتى أنه قال: لم يجئنا مما وراء النهر مثل هذا الشاب، وأقام يسيرا ثم عاد متوجهاً إلى هراة وأقام هناك خمسة أعوام فأكثر مديماً للاشتغال مجداً في التحصيل إلى أن برع، وارتفق في إقامته بميراثه من أبيه، وحصل هناك من نفائس الكتب أشياء.

---

(١) «الضوء اللامع»: ١١/٤٤ - ٤٦.

(٢) بلدة واقعة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر، انظر «معجم البلدان»: ٢/٢٦٥.

(١) عاد من طريق العراق فحج ودخل القاهرة بعد أن اقتطع بمكان يقال له وادي السباع وأُخِذ جميع ما معه من كتب وغيرها فألقيت الكتب بالبرية لعدم التفاتهم إليها ولكنه لم يجد محملاً لها فتركها ونجا بنفسه مع أخذ يسير مما أمكنه منها وتأسف كثيراً بسببها حتى أنه صار كلما تذكر يتألم وأنشد لنفسه:

يا نفس لا تجزعي مما جرى وارضي بتقدير العزيز الغفور
واتلي على الطاغين في ظلمهم (ألا إلى الله تصير الأمور)

وتصدى حينئذ وذلك بعد سنة خمس وأربعين للإقراء بجامع الأزهر وبالمدرسة الملكية والبدرية المجاورين للمشهد لسكناه هناك وقتاً وتجرع فاقة كبيرة إلى أن استقر به الزيني الاستادار[١] في تدريس مدرسته الأولى المقابلة للحوض المجاور لبيت البساطيّ، ثم عزله عنها بطعن أبي العباس المجدلي عنده في علمه وترجيحه لنفسه عليه وقرر المذكور عوضه ثم لم يلبث أن صرفه حيث ذكر له عنه ما يقدح في ديانته وأعاد صاحب الترجمة.

(٢) ولزم الإقامة بها على طريقته في الإقراء إلى أن اتفقت كائنته مع زوجته ابنة الجمال بن هشام لصقت به لأجل غرضها كلاماً قبيحاً تنكره القلوب السليمة، فأمر الظاهر جقمق[٢] بنفيه فشُفِع فيه.

وتقدم في أيام الظاهر خشقدم[٣] فأخذه عنده وصار يجلس للإقراء هناك بمدرسة سودون المؤيديّ أحد الأمراء.

كل ذلك وهو ناصب نفسه لإلقاء الفنون حتى أخذ الناس عنه طبقة بعد طبقة بل أخذ عنه طبقة ثالثة وهو لا يمل ولا يفتر، وكثرت تلامذته من كل مذهب، وصار شيخَ العصر بدون مدافع، واشتهر بجودة التعليم ومزيد

---

(١) لقب يطلق على من يتولى قبض المال السلطانيّ وصرفه بأمر السلطان.
(٢) سلطان المماليك.
(٣) سلطان المماليك.

النصح والذكاء لكن بدون طلاقة، مع الديانة والأمانة والتواضع والتهجد والانجماع عن أكثر بني الدنيا وسلامة الصدر والفتوّة والرغبة في زيارة مشاهد الصالحين.

وقد حج بأخرة أيضاً ورجع وهو متوعك بحيث أشرف إذ ذاك على الوفاة ثم عوفي وأقام مدة إلى أن مات سنة إحدى وثمانين، وتأسف المسلمون على فقده رحمه الله وإيانا[1].

ابن الخيّاط

أبو بكر بن محمد بن صالح الهَمْداني الجِبْليّ ثم التعزيّ اليمانيّ الشافعيّ ويعرف بابن الخياط. ولد سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وحفظ القرآن وتلاه بالقراآت واختار قراءة ابن كثير، والحاوي، وارتحل للحج مرة بعد أخرى وأخذ بتعز عن الفقيه الجمال الريميّ وأبي بكر بن علي الناشريّ وكان يتبجح[2] به ويقول له: أنت أعرف بوسيط الغزاليّ مني.

(١) واتفق أن الجمال الريميّ سأله عن الإقالة في النكاح هل تصح كالفسخ فقال له: المسألة في الوسيط، فأحضره إليه فلم يجدها فاستمهله فأمهله ثلاثة أيام ونال منه ومن شيخه الرضي الناشري فخرج من عنده وأخذ في التفتيش عليها حتى مضى معظم الليل ولم يجدها فلما كان في السحر غلبته عيناه فرأى شيخه الرضي فعين له موضعها فلما استيقظ وجدها في المكان المعين فكانت غريبة.

ولازم النفيس العلويّ حتى قرأ عليه الكتب الستة وغيرها، وترقى في العلوم وتزايد استحضاره للحاوي وشروحه وكان له منه جزء في كل يوم كالقرآن.

---

(١) «الضوء اللامع»: ١١/٧٦ - ٧٧.

(٢) أي يُسر.

(١) واشتهر ذكره سيما حين سُمِع عبد العليم أحد الأولياء المقيمين بتعز يقول وقد استيقظ ببعض المدارس بصوت عال: الليلة هذه فتح على ابن الخياط بالعلم وقذف في قلبه النور، فإنه بعد انتشار هذه المقالة ازداد بين الناس قبولاً واتسعت حلقته ودائرته وعوِّل على فتياه بتعز وذي جِبَلة ـ وهي مسكنه غالباً ـ وانتهت إليه رياسة الفقه.

(٢) وجرى بينه وبين المجد الشيرازي مراجعات بسبب انكاره على المشتغلين بكتب ابن عربي وصنف في المنع جزءاً رد عليه المجد تعصباً مع صوفية زبيد.

وله بكتب العراقيين وكتب الغزالي وبالروضة والعزيز معرفة تامة، ولم يزل متصدياً لنشر العلم ببلده حتى أخذ عنه الجم الغفير وصار علماء اليمن تلامذته ونفع الله به في الفقه والحديث والأصلين والمنطق وغيرها، كل ذلك مع الأحوال المرضية والشمائل الحسنة والمعالي المستحسنة حتى مات سنة إحدى عشرة بمدرسة جبلة وشهد جنازته من لا يُحصى، رحمه الله وإيانا[١].

تقي الدين الحصنيّ

أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حَرِيز التقيّ الحسينيّ الحصنيّ ثمّ الدمشقيّ الشافعيّ ويعرف بالتقيّ الحصنيّ. ولد سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، وكان خفيف الروح منبسطاً له نوادر ويخرج مع الطلبة ويبعثهم على الانبساط واللعب والمماجنة، مع الدين والتحرز في أقواله وأفعاله، وتزوج عدة ثم انحرف عن طريقته وأقبل على ما خلق له وتخلى عن النساء وانجمع عن الناس مع المواظبة على الاشتغال بالعلم والتصنيف، ثم بعد الفتنة زاد تقشفه وزهده وإقباله على الله تعالى وانجماعه وصار له أتباع

---

(١) «الضوء اللامع»: ١١/٧٨ ـ ٧٩.

واشتهر اسمه وامتنع من مكالمة كثيرين وصار قدوة العصر في ذلك، وتزايد اعتقاد الناس فيه وألقيت محبته في القلوب.

(١) وأطلق لسانه في القضاة، وحط على التقيّ بن تيمية فبالغ وتلقى ذلك عنه طلبة دمشق وثارت بسببه فتن كثيرة، وتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع مزيد احتقاره لبني الدنيا وكثرة سبهم حتى هابه الأكابر، وانقطع في آخر وقته في زاوية بالشاغور[١] وكتب بخطه الكثير، وجمع التصانيف المفيدة في الفقه والتصوف والزهد وغيرها.

ووصفه التقيّ بن قاضي شهبة بالإمام العالم الرباني الزاهد الورع ونسبه حسينياً وقال ثبت نسبه على قاضي حسبان متأخراً. قلت: قبل موته بيسير مع قول نقيب الأشراف مخاطباً للتقي: إن الشرف قد انقطع في بلدكم من خمسمائة عام وليت نسبي نسبك وأكون مثلك في العلم والصلاح أو كما قال، وله في الزهد والتقلل من الدنيا حكايات تضاهي ما نقل عن الأقدمين. وأصيب سمعه وبصره فضعف، وكراماته كثيرة وأحواله شهيرة، مات سنة تسع وعشرين بدمشق وحملت جنازته على أعناق الأكابر وكان يوماً عظيماً ما تخلف عنه أحد من أهل دمشق حتى الحنابلة مع شدة قيامه عليهم والتشنيع على من يعتقد ما خالف فيه ابن تيمية الجمهور، هذا مع فوات الصلاة عليه لكثيرين لكونه أوصى أن يُخرج به بغَلَس ولكنهم ذهبوا إلى قبره وصُلِّيَ عليه غير مرة وختم على قبره ختمات كثيرة.

(٢) وذكره المقريزيّ في عقوده باختصار وقال: إنه كان شديد التعصب للأشاعرة، منحرفاً عن الحنابلة انحرافاً يخرج فيه عن الحد فكانت له معهم بدمشق أمور عديدة، وتفحش في حق ابن تيمية وتجهر بتكفيره من غير احتشام بل يصرح بذلك في الجوامع والمجامع بحيث تلقى ذلك عنه أتباعه واقتدوا به جرياً على عادة أهل زماننا في تقليد من اعتقدوه

---

(١) من أحياء دمشق.

وسيعرضان جميعاً على الله الذي يعلم المفسد من المصلح، ولم يزل على ذلك حتى مات، عفا الله عنه[1].

ابن أبي الوفا

أبو بكر بن محمد بن علي البهاء الحسينيّ المقدسيّ الشافعيّ الوفائيّ ويعرف كسلفه بابن أبي الوفا. ولد سنة سبع وقيل ثلاث وتسعين وسبعمائة ببيت المقدس ونشأ به فقرأ القرآن عند إسماعيل الناصريّ وتلاه تجويداً على العلاء بن اللفت والشمس بن الجزري وسمع عليه الحديث، وحفظ «المنهاج» وغالب «التنبيه» وجميع «الملحة» وبعض ألفية النحو، وحج مراراً، وتصدى للإرشاد وعقد المجالس للذكر لا سيما عقب الصلوات على طريق القوم فأخذ عنه جماعة من أهل بلده والقادمين إليها وصار شيخ الصوفية هناك بدون مدافع، عظيم الحرمة نافذ الكلمة مرعي الجانب مع الكرم والأبهة والإحسان للوافدين والغرباء قلّ أن ترى الأعين بتلك النواحي مثله وقد اجتمعت به هناك وأخذت عنه جزءاً وأملى عليّ نسبه وانتفعت بدعائه وإكرامه. مات سنة تسع وخمسين رحمه الله وإيانا.

قال فيه البقاعيّ إنه سار سيرة حسنة في طريقه وجمع الناس على الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتخليص المظالم من النواب وسائر الظلمة مع المداراة والخبرة باستعطاف القلوب حتى كان المرجع إليه في الأمور المعضلة في القدس وبلادها، وهو أمثل المتصوفة في زماننا باعتبار تشرعه وشدة انقياده إلى الحق وصلابته في الأمر بالمعروف وعفته وكرمه على قلة ذات يده، وتردد إلى القاهرة مراراً وكان معظماً عند الملوك فمن دونهم وعلى ذكره رونق زائد لا يمكّن جماعته من شيء مما يصنعه المتصوفة كالصياح والعجلة ونحوهما مما يظهرون به التواجد وغيبة الحس.

---

(١) «الضوء اللامع»: ١١/٨١ ـ ٨٤.

وله قدرة على إبداء ما في نفسه بعبارة حسنة غالبها سجع بل له نظم فيه الجيد.

وذكره ابن أبي عذيبة ووصفه بالشيخ الإمام الصالح القدوة المسلك، شيخ القدس ومقصد زواره وملجأ ذوي الضرورات فيه، اشتهر اسمه وبعد صيته وصار له أتباع ومريدون وزوايا وخلفاء في كل بلد بحيث لا يعرف في زماننا من يدانيه في الكرم وعدم التكلف والقيام بما عليه من حقوق العباد وقضاء حوائج من عرف ومن لم يعرف وأحيا لأجداده ذكراً كبيراً لم يكن فيمن قبله من آبائه وحصلت له رياسة بحق لا بتطفل، رحمه الله وإيانا[١].

ابن برابخ

علم الدين سليمان.

بلغني أنه كان مالكيّ المذهب، وأظنه الذي كان رئيس الأطباء في أيام الناصر بن الظاهر، وبنى القصر المعروف به في بولاق.

يقال إنه كان فائق الجمال عطر الرائحة زائد التأنق في ملبسه بحيث تحدث الخدّام فيما بينهم بالإنكار على الناصر في تمكينه من الدخول على حريمه لطبِّهن ووصل علم ذلك للناصر فتخيل سيما حين مرضت حظيّة من حظاياه ورام إحضار غيره لها فأبت وحينئذ أمر منهن واحدة بإظهار التمرض وأن تبالغ في التزين والتطيب ونحو ذلك ثم إذا جاءها تتعرض له اختباراً لأمره ففعلت فبالغ في النفرة فعظم بهذا عند الناصر وكلمه في سبب عدوله عن المشي معها فقال: إن الطبيب أمين ولا يليق بمن يدخل على الملوك فمن دونهم هذا سيما وأنا مخول في نعم السلطان وعندي غير واحدة في الجمال بمكان[٢].

---

(١) «الضوء اللامع»: ١١/٨٤ - ٨٥.

(٢) «الضوء اللامع»: ١١/٢٣٦ - ٢٣٧.

بيرم

بيرم ابنة أحمد بن محمد الديروطية المالكية. كان أبوها يقرأ القرآن ويخالط الفقهاء فنشأت هي كذلك، بل تلت بالسبع على الشمس بن الصائغ، وأكملت الجمع على ابنته فاطمة، ودخلت مع أبيها بيت المقدس فقرأت على من به من الشيوخ ووعظت النساء. ومن محافيظها العمدة وأربعي النووي والشاطبيتين والبردة وعقيدة الغزالي وغير ذلك، وأكثرت من مطالعة رياض الصالحين وطهارة القلوب ورسالة ابن أبي زيد وغيرها، وكذا دخلت مكة ودمياط وغيرها.

تزوجها شيخ البلد أحمد بن تريمس فتغير حالها بمخالطته[١].

تندو

تندو ابنة حسين بن أويس. كانت بارعة في الجمال وقدمت مع عمها أحمد بن أويس إلى مصر فتزوجها الظاهر برقوق ثم فارقها فتزوجها ابن عمها شاه ولد بن شاه زاده بن أويس فلما رجعوا إلى بغداد ومات أحمد أقيم شاه ولد في السلطنة فدبرت عليه زوجته هذه حتى قتل وأقيمت في السلطنة، فحاصرهم محمد شاه بن قرا يوسف سنة فخرجت في الدولة حتى صارت إلى واسط ثم ملكت تُسْتَر وأقاموا معها محمود بن شاه ولد فدبرت عليه أيضاً حتى قتل لأنه كان ابن غيرها واستقلت بالمملكة مدة وذلك في سنة تسع عشرة، وجدبت العرب بالبصرة، وصار في مملكتها الجزيرة وواسط يدعى لها على منابرها وتضرب السكة باسمها إلى أن ماتت في سنة اثنتين وعشرين فقام بعدها ابنها أويس بن شاه ولد وتحارب هو وأخوه محمد ثم سار إلى بغداد بعد محمد شاه بن قرا يوسف فقتل أويس في الحرب بعد سبع سنين[٢].

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٢/١٥.

(٢) «الضوء اللامع»: ١٢/١٦ - ١٧.

أم الفضل

حبيبة الله ابنة الصفي عبد الرحمن بن محمد أم الفضل. ولدت سنة سبع عشرة وثمانمائة بشيراز ونشأت في كنف أبيها وأجاز لها جماعة وتزوجها ابن عمها العلاء محمد بن السيد عفيف الدين واستولدها أولاداً تأخر منهم عبيد الله وقطنت معه وبعده مكة دهراً عى طريقة جميلة ومثابرتها على وظائف العبادة.

(١) وقد تزوج عليها ابن عمها بأخرة سراً، فلما علمت بادر لفراق الجديدة خوفاً من سخطها وعاشت بعده دهراً.

وكان لكثيرين فيها اعتقاد ولها أتباع من أقربائها وغيرهم تحسن إليهم، وكادت أن تفتقر فأدركتها المنية سنة خمس وتسعين ودفنت عند سلفها بالمعلاة رحمها الله وأيانا[١].

ابنة ابن خاص بك

زينب ابنة العلاء علي بن العالم البدر محمد الحنفيّ وتعرف بابنة ابن خاص بك.

تزوجها إينال الأجرود في إمرته في حدود سنة خمس وعشرين وثمانمائة بعد أخت لها ماتت تحته ولم ينفك عنها ولا بعد تملكه حتى مات لم يتزوج عليها بل ولا تسرّى وكل أولاده المؤيد أحمد وغيره منها بحيث انفرد عن سائر الملوك بذلك كما انفردت هي عن سائر الخوندات[٢] بالمزيد من نفوذ الكلمة ووفور الحرمة وطواعية السلطان جداً لأوامرها حتى كان لا اختيار له معها، وحجت في أيام عزها فكان أمراً زائداً على الحد وعوفيت من مرض مرة فطلعت من بيتها ببولاق إلى القلعة في مِحَفّة[٣] وكل

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٢/١٩.

(٢) أي الرئيسات والمتقدمات.

(٣) هي ما يوضع عليه المريض.

من ولدها وصهريها الدوادار[1] الكبير والثاني والزمام[2] والخازندار[3] بحواشيهم وغيرهم أمام محفتها وآخرون من الخدام والخدم والمماليك بجوانبها وخلفها إلى غير ذلك من الخوندات، ونساء الأمراء والمشاعل والشموع والفوانيس، والأمر في عظمتها فوق هذا كله، وتوصل بها أوضعاء فمن دونهم إلى ما لا يليق بهم بالبذل والخِدَم. وتزايدت ثروتها إلى حد لا ينحصر وأنشأت الدور الكثيرة وعملت رباطاً حسناً للأرامل بالقرب من زاوية بني وفا في حارة عبد الباسط وأضيف إليها من الجهات ما الله به عليم بحيث إنها حملت بعد انقضاء أيامها إلى الظاهر خشقدم[4] زيادة على خمسين ألف دينار ولا نسبة لذلك مما ادخرته، ثم بعد أن صارت مرعية بالأشرف قايتباي سيما وقد تزوج عظيم دولته الدوادار الكبير ابنة ولدها وسافرت وابنها في إسكندرية إليه وكان له بها جمال. ماتت وقد قاربت الثمانين ورأت أحفاد أولادها، عفا الله عنها وسامحها ورحمها[5].

شيرين

شيرين الرومية أم الناصر فرج بن برقوق، ولما تسلطن ابنها صارت خوند الكبرى[6] ولم تلبث إلا يسيراً وتعللت ولزمت الفراش واتهم جماعة بسحرها وظن ابنها أن ذلك من بعض الخوندات زوجات أبيه حسداً وبغضاً لأنها مع كونها كانت بارعة الجمال سارت سيرة جميلة من الحشمة والرياسة والكرم مع الاتضاع الزائد والخير والدين. ولها معروف ومآثر حسنة جددت

---

(١) حامل دواة السلطان أو الأمير، ومتولي أمرها مع ما ينضم لذلك من حكم وتنفيذ أمور.

(٢) القائد العسكري.

(٣) ممسك خزانة الأمير.

(٤) أحد السلاطين، ومعنى حملت إليه أي أدت إليه ما يشبه الغرامة بعد وفاة زوجها وذهاب عزها المشار إليه.

(٥) «الضوء اللامع»: ١٢/٤٤ - ٤٥.

(٦) أي مثل السيدة الأولى في أيامنا.

بمكة رباط الخوزي ووقفت عليه وقفاً وأصلحت ما كان تهدم منه. ماتت سنة اثنتين ودفنت بالمدرسة البرقوقية رحمها الله، ذكرها شيخنا في «إنبائه» باختصار وقال: كانت كثيرة المعروف والبر، زاد العيني واتهمت جارية بسحرها فضربت حتى اتهمت نصرانياً كاتباً فعوقب فلم يقر فحبس حتى مات هو والجارية(١).

ستيتة

فاطمة المدعوة ستيتة وربما يقال لها ناجية ابنة القاضي كمال الدين محمود بن شيرين الحنفيّ. ولدت سنة خمس وخمسين وثمانمائة بالقاهرة ويظهر أنه قبل ذلك ونشأت فتعلمت الكتابة وما تيسر، وتزوجت الناصري محمد بن الطنبغا واستولدها ابنتها وغيرها ثم مات عنها فتزوجها العلاء علي بن محمد بن بيبرس حفيد ابن أخت الظاهر برقوق فاستولدها بيبرس ولاحظ لها في ذلك، مع براعتها في النظم وحسن فهمها وقوة جنانها حتى كانت فريدة فيما اشتملت عليه، وقد حجت سنة أربع وثمانين سنة حج الملك ثم سنة ست وثمانين ثم سنة أربع وتسعين وجاورت في هذه بجوارنا ثم في سنة ثمان وتسعين مع ابنها وجاورا في التي تليها.

(١) وممّا كتبت إليّ من نظمها حين طالعت كتابي «ارتياح الأكباد» لتسلى عن ابنة أُثكلتها سائلة عن شيء من الأبيات التي أوردتها فيه فقالت:

يا إماماً قد حاز علماً وفهماً ... وله في الورى محاسن جلت
ما رأي الشاعر اللبيب بقول ... جرح القلب والدموع استهلّت
فاصطبر وانتظر بلوغ مداها ... فالرزايا إذا توالت تولّت
لم أطق سيدي بلوغ مداها ... ضعفت قدرتي لذاك وكلت

فقلت: يا بديعة المعاني ورفيعة المباني، ومن فاقت الكثير من

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٢/٦٩ - ٧٠.

الرجال فضلاً عن النساء، وراقت أبياتاً فحاكت الخنساء، حفظ الله تعالى دينك ودنياك وأراك كل محبوب في بنيك وعُقباك، تجرُّع الصبر على المكروه مسبب لطمأنينة النفس ورضاها بما أوقعه مولاها، ويكون تواليه لذلك مخففاً لألمه منزلاً له منزلة ارتفاعه وعدمه. لإلفه له وترجيحه به لكل ما أمله، ولذا حفت الجنة بالمكاره، والتشاغل بالأوراد والأذكار الصحيحة الإيراد والعبادة والزهادة مانع من استرسالها في هواها، سيما مع النظر في الآيات والأخبار الواردات النبويات المرغبة في الصبر، التي منها بشارة الله سبحانه للقائمين فيه بما أمرهم به بهدايتهم للجنة والثواب والحق والصواب وقوله: «ومن يؤمن بالله يهد قلبه» ولا أنفع في ذلك من مصنفي «ارتياح الأكباد» فهو غاية في الاعتماد بل مرهم للقلوب والأجساد، ثم إنه لا مانع فضلاً من ارتفاع المكروه أصلاً مع الإثابة إن وجدت الإنابة، فالمصائب مفاتيح الأرزاق والصبر عقباه الفرج وعند التناهي يكون الفرج، وربما يكون الفرج بالقدوم على الله سبحانه وتعويضه بالفضل الجزيل والفعل الجميل مما هو أعظم مفروح به ولكن الدعاء بطول عمر السائلة للازدياد من الخيرات والاجتهاد في الفضائل المتكاثرات الموجبة لجلب المسرات وسلب المضرات من المهمات.

(١) ثم كتبت إليّ سائلة أيضاً بقولها:

يا أيها الحبر وبحر الندى	يا حافظاً نقل حديث قديم
يا شمس دين الله يا من غدا	بكل علم في البرايا عليم
أسألك يا شيخ شيوخ النهى	ومن حوى في فيه در نظيم
فيمن أتاها عائق عاقها	عن أمل صارت به في حميم
قيامها إذ ذاك يا سيدي	بين مقام زمزم والحطيم
في ليلة أخبرنا أنها	يفرق فيها كل أمر حكيم
وهل لها أجر الذي قامها	وهل يساوي مقعداً مستقيم
وهل ينلها مثل ما نالهم	تكرماً من فضل رب كريم

الحمد لله، هذا أمر كتبه الله على بنات آدم فطيبي نفساً وقري عيناً بتفضل الله سبحانه إن شاء الله عليك بثواب ما كنت تؤملين فعله فقد صح قوله ﷺ: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له» أي سواء كان له عذر أو لا ولكنه في المعذور كهذا أولىٰ لأنه يكتب له ما كان يعمله قبل حصول العارض ففي الصحيح أيضاً أنه ﷺ قال: «ما من أحد من الناس يصاب ببلاء في جسده إلا أمر الله عز وجل الملائكة الذين يحفظونه بكتاب ما كان يعمل من خير في كل يوم وليلة له ما دام محبوساً بوثاقه» وفي لفظ عنه ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل مقيماً صحيحاً» فإن توجه هذا المبتلى بتفويت ما كان نواه وفاته الوقت المشروع لمن أداه وعمله فيما بعده من الأيام والليالي في شهره أو غيره كان الثواب أجزل والفضل أشمل ولا شك أن رب شعبان ورمضان واحد وهو الإله الواحد وفضله وجوده وكرمه للضعفاء من الموحدين في كل يوم بل لحظة وارد والأعمال بالنيات والفضل جزيل[1].

أم هاني

أم هاني ابنة العلامة نور الدين أبي الحسن علي بن القاضي تقي الدين عبد الرحمن بن عبد المؤمن الهورينية الأصل المصرية الشافعية وتسمى مريم أيضاً وهي سبطة القاضي فخر الدين القاياتي. ولدت سنة ثمان وسبعين وسبعمائة بمصر واعتنى بها جدها لأمها فأسمعها بمكة في سنة خمس وثمانين، وأجاز لها العراقيّ والهيثميّ وابن الملقن وغيرهم، وتزوجت بالحسام محمد بن الركن عمر بن قطلوبغا البكتمري فولدت له شجاع الدين محمداً الشافعي ثم سيف الدين محمداً الحنفيّ ثم فاطمة ثم الشرف يونس المالكيّ ثم منصور الحنبليّ واشتغل كل من المذكورين وتمذهب لما وصف به ومهر من بينهم الحنفيّ، ومات الحنبليّ وهو صغير

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٢/١٠٧ - ١١٢.

وكان غاية في الذكاء بحيث قيل قتله ذكاؤه، ولما مات زوجها تزوجها البدر حسن بن سويد المالكيّ واستولدها أحمد وعزيزة واستولى على تركة جدها القاياتي وتصرف فيها ما شاء، ومات فورثته، وقد حدثت قديماً سمع عليها الفضلاء وقرأت عليها جميع ما وقفت عليه من مرويها، وعندي أنها سمعت أكثر مما وقفت عليه بل لا أستبعد أن جدها أسمعها الكتب الستة.

(١) وهي امرأة صالحة خيرة فاضلة كثيرة النحيب والبكاء عند ذكر الله ورسوله، محبة في الحديث وأهله مواظبة على الصوم والتهجد متينة الديانة، كثيرة التحري في الطهارة، فصيحة العبارة مجيدة للكتابة ولديها فهم وإجادة لإقامة الشعر بالطبع، حفظت القرآن في صغرها ومختصر أبي شجاع في الفقه والملحة في الإعراب وغيرها، وسمعنا من لفظها وحفظها سورة الصف بفصاحة وحسن تلاوة، وحجت ثلاث عشرة مرة وجاورت في بعضها. وكُفَّت من زمن طويل فصبرت واحتسبت ثم أقعدت وقام ولدها الحنفي بإكرامها وخدمتها أتم قيام حتى ماتت وأنا بمكة سنة إحدى وسبعين ودفنت بتربة جدها الفخر القاياتيّ بالقرب من مقام إمامنا الشافعيّ من القرافة، رحمها الله وإيانا[١].

---

(١) «الضوء اللامع»: ١٢/١٥٦ ـ ١٥٧.

مختارات القرن التاسع
من كتاب
«الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»

للشيخ

عبد الحي الندوي
رحمه الله تعالى



الملك إسكندر الكشميري

الملك المؤيد المنصور إسكندر بن قطب الدين بن شاه مرزا الكشميري السلطان المجاهد، قام بالملك بعد والده في سنة ست وتسعين وسبعمائة وافتتح أمره بالعقل والسكون وبعث عساكره إلى تبت الصغيرة فقاتلوا أهلها وملكوها، وكان محباً لأهل العلم يقربهم إلى نفسه ويعظمهم ويستفيد من الشيخ محمد بن علي الحسيني الهمذاني أموراً من الدين وجعل وزيره سيد بث، الرجل الهندي وكان أسلم.

(١) وشدد على البراهمة تشديداً لا مزيد عليه حتى ألجأهم إلى الإسلام، ونهاهم أن يحرقوا النساء على عادتهم وأخذ عنهم الأصنام التي صيغت من الذهب والفضة وكسرها وجعل منها النقود، فأسلم منهم خلق كثير، ومن لم يتحمل أذاه ولم يستطع أن يخرج من بلدته قتل نفسه، وبعضهم أعلنوا بالإسلام تقية.

(٢) وبالجملة فإنه بذل جهده في كسر الأصنام وهدم الكنائس، ومن جملتها كانت كنيسة عظيمة في بستان يسمونها بحر آرا وينسبونها إلى «مها ديو» فهدمها، وكذلك هدم كنيسة أخرى كانت من أحصن الكنائس وأرفعها ببلدة «ترس پور» ولذلك لقبه الناس «بإسكندر بت شكن» ومعناه كاسر الأصنام.

(٣) ومن مآثره الجميلة أنه نهى الناس أن يبيعوا الخمر في بلاده، ومنها أنه نهاهم أن يؤخذ المكس من أحد مسلماً كان أو وثنياً.

استقل بالملك اثنتين وعشرين سنة، توفي سنة تسع عشرة وثمانمائة[1].

إسماعيل الردولويّ

الشيخ الفاضل الكبير إسماعيل بن الصفي بن النصير الردولوي أبو المكارم الخطيب النعماني ـ كان من نسل أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ولد سنة تسع وثمانين وسبعمائة.

وكان والده صفيّ الدين سبط القاضي شهاب الدين الدولة آبادي وصاحبه فاشتغل بالعلم على والده، وصنف له والده «دستور المبتدىء» رسالة في التصريف و«غاية التحقيق» شرح بسيط على كافية ابن الحاجب.

(١) وكان يأمره بقلة الطعام والمنام وكثرة المطالعة في جوف الليل ويقول إن المطالعة في الليل تزيد الحافظة قوة، ويوصيه أن لا يكون من علماء السوء لأن العالم بلا عمل كالقوس بلا وتر، والعالم بلا عمل كالمرآة بلا صيقل، هذا وكان إسماعيل مفرط الذكاء متوقد الذهن فرغ من تحصيل العلم وله نحو ست عشرة سنة فاشغل بالدرس، والإفادة، ولما توفي والده تولى الشياخة ورزق حسن القبول، وكان يُذكِّر في كل أسبوع يوم الجمعة ويدرس ويفتي، مات سنة ستين وثمانمائة[2].

حبيب الله الكرمانيّ

الشيخ الفاضل حبيب الله بن خليل الله بن نعمة الله الحسينيّ الكرمانيّ أحد رجال العلم والطريقة، قدم الهند مع والده سنة أربع وعشرين وثمانمائة فأملكه أحمد شاه البهمنيّ ابنته ورقاه إلى رتبة الإمارة فعاش مدة طويلة بأحمد آباد وصار من أهل الحل والعقد حتى تولى المملكة همايون شاه البهمنيّ وكان ظالماً شديد البطش حريصاً على سفك الدماء فخرج عليه

---

(١) «الإعلام»: ٣/٢٣ ـ ٢٤.

(٢) «الإعلام»: ٣/٢٥.

حسن بن علاء الدين البهمنيّ ورافقه حبيب الله فقتل حسن ومعه أصحابه وأسر حبيب الله فلبث في السجن أياماً، ثم خرج منه وفر إلى بيجاپور، وقتل بها في سنة أربع وستين وثمانمائة[1].

الملك حسين شاه

الملك الكبير حسين بن محمود بن إبراهيم الجونپوريّ سلطان الشرق.

قام بالملك بعد أخيه محمد شاه وافتتح أمره بالعقل والدهاء وجمع العساكر العظيمة: ثلاثمائة ألف فارس وأربعمائة وألف فيلة، ثم سار إلى أريسه وقاتل صاحبها ثم صالحه على مال يؤديه عاجلاً وآجلاً ثم رجع إلى جونپور سالماً وغانماً، وأسس قلعة بنارس سنة إحدى وسبعين وثمانمائة، وبعث عساكره إلى قلعة گواليار في تلك السنة وفتحها عنوة ثم صالح صاحبها على مال يؤديه، وسار نحو دهلي في سنة ثمان وسبعين وثمانمائة بمائة ألف وأربعين ألف فارس وأربعمائة فيلة ففتحها عنوة، ولما عرف بهلول عجزه عن المقاومة أرسل إليه يطلب منه دهلي وما والاها من البلاد إلى ثمانية عشر ميلاً فلم يجبه فالتجأ بهلول إلى عساكره وقاتله قتالاً شديداً على ماء جمن وهزمه، ففر حسين شاه إلى جونپور، وسار إلى دهلي مرة ثانية في سنة تسع وسبعين وقاتل بهلول فانهزم في هذه المعركة أيضاً ورجع إلى جونپور ثم سار إليه وانهزم ثم سار مرةً رابعة إلى دهلي وانهزم هزيمة فاحشة وقبض بهلول على بلاده وولي على جونپور باربك شاه أحد أبنائه فسار حسين شاه إلى أقصى بلاده وقنع على أقطاع تحصل له منها خمسمائة ألف من النقود، ولما توفى بهلول وولي الملك بعده سكندر بن بهلول حرض أخاه باربك شاه أن يخرج على أخيه فوقعت الحرب بينهما وغلب الإسكندر على أخيه فسار إلى حسين شاه وقبض على جميع بلاده وأخرجه

---

(1) «الإعلام»: ٤١/٣.

إلى بنگاله وانقرضت الدولة الشرقية من جونپور وما والاها من البلاد في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة، وحسين شاه عاش سبع سنين في بنكاله وكانت مدته تسع عشرة سنة.

وكان فاضلاً كبيراً جيد المشاركة في العلوم، قرأ على القاضي سماء الدين الجونپوري، وأخذ الموسيقى عن أساتذته وصار من الماهرين فيه وله مصنف لطيف في الموسيقى يسمى «تحفة الهند»[1].

السلطان زين العابدين الكشميريّ

الملك العادل الكريم زين العابدين بن الإسكندر بن قطب الدين الكشميريّ السلطان الصالح قام بالملك بعد أخيه وكان اسمه شاهي خان فلقب نفسه بـ «زين العابدين» في نحو سنة ست وعشرين وثمانمائة.

واستوزر أخاه محمد خان وفتح بلاد تبت وسخَّر أهلها واستقل بالملك وافتتح أمره بالعدل والسخاء وإطلاق الأسارى.

(١) وأعاد الوثنيين الذين أخرجوا من ديارهم في العهد السالف وأذن أن يدينوا بدينهم ويخطوا على جباههم كجري عادتهم ويحرقوا نساءهم مع بعولتهن الموتى، وأبطل الجزية عنهم ومنع المسلمين عن ذبح البقر تأليفاً لقلوب الوثنيين وحط الجبايات والمكوس، وأجاز للكفار الذين أكرهوا على الإسلام في عهد والده أن يرتدوا عن الإسلام[2]، ونهى التجار أن يخفوا متاعهم في دورهم وأمر أن يبيعوها بالمنافع القليلة وأن لا يغبنوا في المبيع.

(٢) وكان إذا افتتح بلدة قسّم المغانم على عساكره وأخذ الخراج من رعايا تلك البلدة وأدب المتمردين ورحم الضعفاء والمساكين، وقد جمع الله

---

(١) «الإعلام»: ٣/٤٦ - ٤٧. والموسيقى من الأمور المحرمة شرعاً.

(٢) كان ملوك الهند - غالباً - ما يقعون في هذه الأخطاء بدعوى تأليف قلوب الوثنيين، ولا يجدي ذلك كبير جدوى كما هو معلوم، وما قصة السلطان أكبر - التي تأتي في مختارات القرن الحادي عشر - إلا مثالٌ على عاقبة هذه التفريط.

سبحانه فيه من خصال الخير ما لم يجمع في غيره، ومنها إنه لم ينظر إلى أجنبية بنظر الشهوة قط، ولم ينظر إلى مال غيره بنية الخيانة قط، ومنها أنه كان يعفو ويسامح كثيراً من الناس وقلما يؤاخذهم في العقوبات وإذا وجبت العقوبة على أحد يأمر بجلائه عن بلاده بحيلة حيث إن المنفى لا يظن أنه أخذ في العقوبة، ومنها أنه لم يزل يشتغل بتعمير الولاية وتكثير الزراعة وحفر الأنهار وغرس الأشجار وسد الثغور وبناء الجسور حتى أنه لم يبق في بلاده أرض بلا ماء ولا قطعة منها بلا كلأ، ومنها أنه كان يكرم أرباب الفضل والكمال حتى اجتمع لديه خلق كثير من العلماء مسلمين ووثنيين فنقلوا كتباً كثيرة من العربية والفارسية إلى الهندية ومن الهندية إلى العربية والفارسية في كثير من الفنون، ومنها إنه كان راغباً عن حطام الدنيا فلم يدخر مالاً ولم يكنز ذهباً ولا فضة.

وبالجملة فإنه جمع فيه من حسن الخلق والتواضع وكرم السجايا ومعرفة حقائق القضايا والفطنة بدقائق الأمور والاطلاع على أحوال الجمهور وجودة التدبير والخبرة ومحبة أهل الفضائل وكراهة أرباب الرذائل والميل إلى معالي الأمور ما لا يمكن وصفه.

وكانت وفاته في آخر سنة سبع وسبعين وثمانمائة، وله تسع وستون سنة، وكانت مدة ملكه اثنتين وخمسين سنة[1].

السلطان علاء الدين البهمنيّ

الملك المظفر علاء الدين بن أحمد بن داود بن الحسن البهمنيّ سلطان أرض الدكن، قام بالملك بعد والده في سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وجلس على سرير والده بأحمد آباد بيدر وافتتح أمره بالعدل والإحسان وأحسن إلى إخوته بما لا مزيد عليه، ثم فتح الفتوحات العظيمة، وأخذ

---

(١) «الإعلام»: ٣/٥٥ ـ ٥٦.

الجزية عن ملوك بيجانگر وكوكن وعن غيرهم من كفار الهند، وخرب الكنائس وعمر المساجد والخوانق.

(١) وكان عادلاً فاضلاً كريماً بارعاً في بعض العلوم يجتهد في العدل والإحسان ويعين الصدور والقضاة والأمناء والمحتسبين في بلاده، وكان لا يفرق في العدل بين العزيز والذليل والشريف والوضيع والغني والفقير، حتى إنه كان أجرى الحد على واحد من أولاد الشيخ محمد بن يوسف الحسيني الدهلويِّ الدفين بگلبرگه في شرب الخمر والزنا.

(٢) وكان يقوم على المنبر ويخطب بنفسه أحياناً ويصف نفسه بهذه العبارة:

السلطان العادل الكريم الحليم الرؤوف بعباد الله الغنيّ علاء الدنيا والدين علاء الدين بن أعظم السلاطين أحمد شاه الوليّ البهمني فبينما كان يخطب مرة ووصل إلى هذه العبارة نهض أحد أهل الإحساء وقد وفد للتجارة فاشترى منه السلطان أفراساً ولم يعطه الوزراء أثمانها إلى تلك الساعة، فقال: لا والله لا عادل ولا كريم ولا حليم ولا رؤوف: أيها الظالم الكذاب! تقتل الذريّة الطاهرة وتتكلم بهذه الكلمات على منابر المسلمين! فتأثر منه السلطان تأثراً عظيماً وفاضت عيناه، وغضب على الوزراء غضباً شديداً ثم دخل بيته ولم يخرج منه إلى أن مات.

(٣) ومن مآثره الجميلة أنه أسس مارستاناً ببلدة أحمد آباد ورتب فيها الأطباء من الوثنيين وأهل الإسلام وأجرى عليهم الأرزاق السنية من بيت المال ورتب العقاقير والأدوية وسائر ما يحتاج إليه المرضى من حر ومملوك وغني وفقير.

كانت وفاته سنة اثنتين وستين وثمانمائة بأحمد آباد فدفن بها وكانت مدته ثلاثاً وعشرين سنة وتسعة أشهر[١].

---

(١) «الإعلام»: ٣/٧٧ ـ ٧٨.

القاضي عماد الدين الگجراتي

الشيخ الفاضل عماد الدين البروديّ الگجراتي ظهير الشرع السعيد الشهيد.

كان قاضياً بمدينة بروده، فلما نهض السلطان محمود شاه الگجراتي الكبير إلى جانپانير للجهاد أحب أن يكون قتاله لله سبحانه فحضر عند واليها أُلْغ خان واستقال من الخدمة ومحى اسمه من دفتر الجراية وعقد راية خاصة فاجتمع الناس تحتها وساروا إلى جانپانير وتزاحموا بالباب على الشهادة وهم أمام السلطان وخرج صاحب جانپانير بمن معه وكانت بين الفئتين ساعة هي الساعة وليست ببعيد لا يثبت فيها غير شهيد أو سعيد، واتفقت المقابلة بين القاضي عماد وصاحب جانپانير فأثبت العماد سيفه فيه وصادفت الضربة صدمة حجر لا يدري راميه فسقط الرانا صاحب جانپانير وغشي عليه واستأسر، والقاضي لم يزل يضرب بسيفه إلى أن بلغ الشهادة وكان ذلك سنة تسع وثمانين وثمانمائة[1].

الملك فيروز شاه البهمنيّ

الملك الفاضل المؤيد فيروز بن داود بن الحسن البهمنيّ سلطان الدكن. ولد ونشأ بگلبرگه، وتوفي والده حين كان ابن سبع سنين فتربى في حجر عمه محمود شاه وقرأ العلم على العلامة فضل الله بن فيض الله الشيرازيّ وفاق أهل زمانه في العلوم الحِكْمية وكان سريع الإدراك قويّ الحافظة كان لا ينسى ما سمع مرة أو مرتين، ثم لما توفي عمه محمود شاه إلى رحمة الله سبحانه قام بالملك ولده غياث الدين فخلعوه ثم صنوه شمس الدين فخلعوه أيضاً واتفقوا على فيروز فقام بالملك واستقل به خمساً وعشرين سنة وسبعة أشهر، وغزا الكفار أربعاً وعشرين مرة، واجتمع عنده من العلماء والشعراء مالم يجتمع عند غيره من الملوك في عصره.

---

(١) «الإعلام»: ٣/٨٥.

(١) وكان مع اشتغاله بمهمات الدولة يدرس ثلاثة أيام في كل أسبوع يوم السبت والاثنين والأربعاء، كان يدرس «الزاهدي» و «شرح التذكرة» و «شرح المقاصد» و «تحرير الإقليدس» والمطول، وإذا لم ينتهز فرصة في اليوم درس في الليل، وكان يحسن إلى طلبة العلم إحساناً جميلاً، ويحب المذاكرة بالعلوم، ولم يزل عازماً على أن يبني مرصداً للنجوم حتى اجتمع عزمه على ذلك في سنة عشر وثمانمائة فأمر ببنائه في «بالاگهات» قريباً من بلدة دولة آباد فاشتغل العلماء بذلك، وكان السيد محمد الگاذرونيّ والحكيم حسن علي الگيلانيّ رأسهم ورئيسهم فمات الگيلانيّ قبل أن يتم أمر المرصد، وحدث بعض ما عاقهم من إتمامه فلم يتم أمره.

(٢) وكان فيروز شاه مع ذلك مولعاً بالشهوات والنساء وشرب الخمر سراً واستماع الغناء، أراد أن يجمع من النسوة مالا تحصر بحد وعد ولكنه منعه الحياء من الشريعة الإسلامية فاستفتى العلماء فأشاروا عليه أن يطلق إحداهن ويتزوج بالأخرى، وقال شيخه فضل الله الشيرازيّ: إن المتعة كانت مباحة في زمن النبي ﷺ وكذلك في زمن أبي بكر ثم حرمها عمر بن الخطاب، فأنكر عليه العلماء من أهل السنة والجماعة، فاحتج فضل الله بأحاديث مروية في صحيح البخاري وصحيح مسلم و «مشكوة المصابيح»[١] فقبله فيروز شاه، وتمتع بثمانمائة امرأة في يوم واحد.

(٣) ومَصَّر بلدة تسمى فيروز آباد بنى بها الأسواق والدور في غاية الحسن والحصانة ثم فرق الدور على نسوته وعاش دهراً طويلاً يتمتع بهن حتى خرج عليه صنوه أحمد شاه وغلب عليه فسلم إليه الأمور، ومات بعد عشرة أيام من جلوس أحمد شاه على سرير الملك، وكان فيروز شاه شاعراً مجيد الشعر، له أبيات رائقة رقيقة بالفارسية.

مات سنة خمس وعشرين وثمانمائة[٢].

---

(١) قام الإجماع على أن المتعة حرام، ولقد وجه العلماء هذه الأحاديث.

(٢) «الإعلام»: ٣/٩٠ - ٩١.

الملك مبارك شاه

الملك العادل الكريم أبو الفتح معز الدين مبارك بن الخضر العلويّ الدهلويّ السلطان الصالح.

قام بالملك بعد والده في سنة أربع وعشرين وثمانمائة وكان من خيار السلاطين علماً وعقلاً ودهاء وتدبيراً، حسن الفعال زكي النفس متين الديانة، لم يتفوه قط في أيامه بسب ولا فسوق، وكان يشتغل بنفسه بما يهمه من الأمور، ويتفقد أخبار الرعية ويعدل بينهم ويقضي بالشرع ويبذل جهده في تعمير البلاد وتكثير الزراعة وإرضاء النفوس، ويُجري الأرزاق السنية على العلماء والمشايخ والأشراف وعلى كل من يستحقها، صنف في أخباره بعض العلماء كتابه «المبارك شاهي» ولم أره، ومن مآثره مدينة مبارك آباد على شاطىء نهر جمن.

(١) وكانت طائفة من الناس يبغضونه بعدله في الناس فقتلوه، وكانت وفاته سنة ثمان وسبعين وثمانمائة بمدينة مبارك آباد، وكانت مدته ثلاث عشرة سنة وبضعة أشهر[1].

الملك محمد شاه البهمنيّ

الملك المؤيد شمس الدين أبو المظفر محمد بن همايون بن علاء الدين البهمنيّ السلطان الفاضل قام بالملك بعد صِنوه نظام شاه سنة سبع وستين وثمانمائة وله تسع سنين، فاشتغل بالعلم وبذل جهده وأخذ عن الشيخ صدر جهان التستري فبرع وفاق أقرانه ومهر في الخط، ولما بلغ رشده أخذ عنان السلطنة بيده وجعل عماد الدين محمود الگيلانيّ وزيراً له وصالح السلطان محمود الخلجيّ بأن لا يطمع أحد منهما في بلاد الآخر وبعث وزيره محموداً بعساكره إلى قلعة كهينه وسنگيز وبلاد أخرى من أرض كوكن سنة أربع وسبعين وثمانمائة فقاتل أهلها وحاصر القلاع ودخل في

---

(١) «الإعلام»: ٣/٩٦ - ٩٧.

الغياض وقطعها وأحدث الطريق فيها ثم ملكهـا، ثم سار إلى بنـدرگووه فملكها ورجع محمود بعد ثلاث سنين إلى أحمد آبـاد بيدر وبعث نـظام الملك حسن البحريّ بعساكره إلى أوريا سنة ست وسبعين وثمانمائة فقاتل قتالاً شديداً وملكها.

وأقطع محمد شاه تلك المملكة واحداً من أهلها على مال يؤديه، ثم سار نظام الملك إلى راجمنـدريّ وكندنيـز فقاتـل أهلهما وملكهمـا وولى عليهما أحد الأمراء ورجع نظام الملك إلى أحمد آباد بيدر، ثم ولى محمد شاه يوسف خان العادل على دولت آباد وأمره بتسخير قلعة ويراكهيره وقلعة انتور فبعث إليهما عساكره وحاصرهما وضيق على أهلهما وفتحهما بعد ستة أشهر وغنم أموالاً كثيرة، وفي سنة سبع وسبعين وثمانمائة سار محمد شاه بنفسه إلى قلعة نلكوان فحاصرها وضيق على أهلها ولم يزل يقاتلهم قتالاً شديداً حتى فتحها.

ولما سمع محمد شاه أن الكفـار بعثوا عسـاكرهم إلى راجمنـدريّ وحاصروها سار إليهم بعساكره، فلما وصل إلى نـاحيتها تحصن صـاحب أوريا في قلعة كندنيز وصاحب اريسه عبر ماء راجمندري ونزل في حدوده فدخل محمد شاه براجمندري ولحق به نظام الملك المحصور بها فتـرك وزيره محمود بها وسار إلى صاحب اريسه بعشرين ألف فارس سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وعبر ماء راجمندري ودخل في اريسه، وانحاز صاحبها إلى ناحية من نواحيها فأخذ محمد شاه يقاتل أهلها ويقتلهم وينهب أموالهم ولم يزل كذلك ستة أشهر، فلما سمع صاحب اريسه أن السلطان يريد أن يقبض على بلاده ويولي عليها أحد أمرائه أرسل إليه يطلب الصلح على مال يؤديه.

وأرسل إليه فيلة مجهزة بجهازات جميلة من الذهب والفضة وأذعن له الطاعة فرجع محمد شاه منها إلى حدود أوريا وحاصر قلعة كنـدنيز وأدام الحصار إلى خمسة أشهر، فلما عرف صاحبها عجزه عن المقاومة أرسل

إليه يطلب الأمان، فتسلم منه القلعة وولى عليها أحد أمرائه وهدم الكنيسة العظيمة بها ثم بنى الجامع الكبير مكانها، وولى على بلاد تلنگ نظام الملك المذكور، ثم سار إلى نرسنگه وكان ملكاً كبيراً من الوثنيين صاحب العدة والعدد وبلاده كانت ما بين تلنگ وبلاد المعبر فأسس قلعة في حدوده ثم ترك وزيره في كونديوريلى وسار إلى كنجي وكانت كنيسة عظيمة بها فدخل فيها عنوة وأكثر القتل والأسر على ما كانوا بها، وبعث خمسة عشر ألف مقاتل إلى نرسنگه، وسار بنفسه إلى مچهلى فملكها.

(١) ورجع إلى كونديوريلى ولحق بوزيره محمود وكان محمد شاه مستأثراً بوزيره ولم يزل يخصه بعناية لا مزيد عليها، فحسده الناس ووقعوا في عرضه ونفسه واتهموه بخبث النية وعرضوا على محمد شاه رسالته إلى صاحب اريسه وعليها خاتم الوزير، وكان محمد شاه يعرف خاتمه فغضب عليه غضباً شديداً وأمر بقتله، فقتلوه في سنة ست وثمانين ثم ندم وحزن لقتله حزناً شديداً حتى مرض وأشرف على الموت، فسار إلى دار ملكه أحمد آباد ومات بها في سنة سبع وثمانين وثمانمائة وتزلزل بنيان السلطنة بعد موته فلم يبق لأبنائه إلا الاسم والرسم وذلك تقدير العزيز العليم[١].

الملك محمود شاه

الملك المؤيد محمود بن المغيث الخلجيّ المندويّ السلطان الكريم.

كان من كبار الأمراء في عهد هو شنگ شاه الغوريّ المندويّ وأخلافه، ثم من الله سبحانه عليه بالسلطنة فاستقل بالملك بعد محمد شاه الغوريّ يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر شوال سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وله أربع وثلاثون سنة ووالده كان حياً فجعله أمير الأمراء، وافتتح أمره بالعدل والإحسان وإيصال النفع إلى الناس ورد المظالم وسد الثغور والجهاد في سبيل الله سبحانه، وأرسل النقود والتحائف الثمينة إلى أرباب

---

(١) «الإعلام»: ٣/١١٦ - ١١٨.

الكمال فاجتمع لديه خلق كثير من العلماء ووفدوا إليه من بلاد شاسعة فصارت سدته محطة لأرباب الفضل، فأسس مدرسة عظيمة ببلدة مندو وأجرى على العلماء وطلبة العلم الأرزاق والرواتب، ثم أسس مارستاناً كبيراً في سنة تسع وأربعين وثمانمائة وولاها مولانا فضل الله الحكيم، وأمره بتفقد أخبار المرضى والمجانين.

(١) وكان ملكاً كريماً، له من معرفة الحقائق ومحبة معالي الأمور ونزاهة النفس والعفة والصيانة والجودة والخبرة وحسن مسلك الرئاسة والسياسة ما لا يمكن وصفه، ولذلك طار صيته في الآفاق، ووفد عليه سنة سبعين وثمانمائة أحد الخلفاء المصريين فأكرم مقدمه بتلقيه وبخروج إليه بأكثر تابعيه ولبس الخلعة، وذكر الخليفة معه في الخطبة، وكانت مدته أربعاً وثلاثين سنة.

مات سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة[١].

يوسف الملتاني

الشيخ الكبير يوسف بن إسماعيل بن ركن الدين أبو الفتح القرشيّ المُلتانيّ أحد مشاهير الرجال.

تولى الشياخة بالملتان بعد والده، ثمّ اتفق الناس عليه وولوه عليهم فخضع له مرازبة السند وزوجه أمير الأفاغنة من طائفة لنگاه بابنته وكان يتردد إليه لزيارة بنته وقتاً بعد وقت وكان الشيخ لا يأذن له أن يدخل بعساكره في الملتان، ثم إنه جاء مرة وتمارض بها وكاد يشرف على الموت واستأذن الشيخ أن يدخل عليه أصحابه فيوصيهم وكانوا خارج المدينة على جري عادتهم فأذن له فلما دخل عليه أكثر أصحابه وزعهم على أبواب البلدة ومنعوا الشيخ وأصحابه أن يدخلوا في القلعة ويتحصنوا بها ثم أخرج الشيخ عن البلدة وأجلاه إلى دهلي فلما وصل إلى دهلي احترمه بهلول بن كالا

---

(١) «الإعلام»: ٣/١٢٤ - ١٢٥.

اللودي وزوج ابنته بابنه عبد الله بن يوسف ووعده أن يعينه بعساكره ولكنه لم يف بوعده، ومات الشيخ بدهلي[٢].

---

(٢) «الإعلام»: ٣/١٤٠ - ١٤١.



مختارات القرن التاسع
من كتاب
«البدر الطالع»

للإمام الشوكاني
رحمه الله تعالى



البقاعي

إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعيّ، نزيل القاهرة ثم دمشق، الإمام الكبير برهان الدين. وُلِد تقريباً سنة ٨٠٩ تسع وثمانمئة بقرية من عمل (البقاع) ونشأ بها ثم تحول إلى دمشق ثم فارقها ودخل بيت المقدس ثم القاهرة.

(١) برع في جميع العلوم وفاق الأقران، لا كما قال السخاويّ (أنه ما بلغ رتبة العلماء بل قصارى أمره إدراجه في الفضلاء وأنه ما علمه أتقن فناً قال: وتصانيفه شاهدة بما قلته) قلت: بل تصانيفه شاهدة بخلاف ما قاله وأنه من الأئمة المتقنين المتبحرين في جميع المعارف ولكن هذا من كلام الأقران في بعضهم بعض بما يخالف الإنصاف لما يجري بينهم من المنافسات تارة على العلم وتارة على الدنيا. وقد كان المترجم له منحرفاً عن السخاويّ والسخاويّ منحرفاً عنه، وجرى بينهما من المناقضة والمراسلة والمخالفة ما يوجب عدم قبول أحدهما على الآخر.

(٢) ومن أمعن النظر في كتاب المترجم له في التفسير الذي جعله في المناسبة بين الآي والسور علم أنه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء الجامعين بين علمي المعقول والمنقول وكثيراً ما يشكل عليّ شيء في الكتاب العزيز فأرجع إلى مطولات التفاسير ومختصراتها فلا أجد ما يشفي وأرجع إلى هذا الكتاب، فأجد ما يفيد في الغالب. وقد نال منه علماء عصره بسبب تصنيف هذا الكتاب، وأنكروا عليه النقل من التوراة

والإنجيل، وأغروا به الرؤساء. ورأيت له رسالة يجيب بها عنهم وينقل الأدلة على جواز النقل من الكتابين وفيها ما يشفي.

وقد حج ورابط وانجمع فأخذ عنه الطلبة في فنون، وصنف التصانيف، ولما تنكر له الناس وبالغوا في أذاه لمّ أطرافه وتوجه إلى دمشق.

(١) وقد كان بلغ جماعةً من أهل العلم في التعرض له بكل ما يكره إلى حد التكفير، حتى رتبوا عليه دعوى عند القاضي المالكيّ أنّه قال إن بعض المغاربة سأله أن يفصل في تفسيره بين كلام الله وبين تفسيره بقوله أي أو نحوها دفعاً لما لعله يُتَوهّم. وقد كان رام المالكي الحكم بكفره وإراقة دمه بهذه المقالة، حتى ترامى المترجَم له على القاضي الزينيّ بن مزهر فعذره وحكم بإسلامه. وقد امتحن الله أهل تلك الديار بقضاة من المالكية يتجرءون على سفك الدماء بما لا يحل به أدنى تعزير، فأراقوا دماء جماعة من أهل العلم جهالة وضلالة وجرأة على الله، ومخالفة لشريعة رسول الله، وتلاعباً بدينه، بمجرد نصوص فقهية واستنباطات فروعية ليس عليها أثارة من علم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يزل المترجَم له رحمه الله يكابد الشدائد ويناهد العظائم قبل رحلته من مصر، وبعد رحلته إلى دمشق حتى توفاه الله بعد أن تفتت كبده كما قيل سنة ٨٨٥ ودُفِن خارج دمشق من جهة قبر عاتكة.

(٢) وقد ترجم له السخاويّ ترجمة مظلمة كلّها سب وانتقاص، وطوّلها بالمثالب بل ما زال يحط عليه في جميع كتابه المسمى «بالضوء اللامع» لأن المترجَم له كتب لأهل عصره تراجم ونال من أعراض جماعة منهم، لا سيما الأكابر الذين أنكروا عليه، فكان السخاويّ ينقل قوله في ترجمة أولئك الأكابر ويناقضه وينتقصه.

ولشعراء عصره فيه أمداح وأهاجي:

* وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح *

وهو كثير النظم جيد النثر في تراجمه ومراسلاته ومصنفاته.

ومن محاسنه التي جعلها السخاويّ من جملة عيوبه ما نقله عنه أنه قال في وصف نفسه أنه لا يخرج عن الكتاب والسنة بل هو متطبع بطباع الصحابة انتهى، وهذه منقبة شريفة ومرتبة منيفة(١).

المقريزيّ

أحمد بن عليّ عبد القادر التقيّ أبو العباس الحسينيّ العُبيديّ البعليّ الأصل القاهريّ، ويُعرف بابن المقريزيّ؛ وهي نسبة لحارة في بعلبك تُعرف بحارة المقارزة. قال السخاويّ: كان مولده حسبما كان يخبر به ويكتبه بعد الستين وسبعمائة، وقال ابن حجر إنه رأى بخطه ما يدل على تعيينه في سنة ٦٦ ست وستين بالقاهرة، ونشأ بها نشأة حسنة فحفظ القرآن وسمع من جماعة من الشيوخ، وحج فسمع بمكة من علمائها وسمع في الشام من جماعة واشتغل كثيراً، وطاف على الشيوخ ولقى الكبار وجالس الأئمة، وتفقه حنفياً على مذهب جده لأمه، ثم تحول شافعياً، قال السخاويّ: ولكن كان مائلاً إلى الظاهر وكذا قال ابن حجر إنه أحبّ الحديث فواظب عليه حتى كان يتهم بمذهب ابن حزم انتهى. ونظر في عدة فنون وشارك في الفضائل، وقال النظم والنثر، وناب في الحكم، وَوَلِيَ الحِسبة بالقاهرة غير مرة، والخطابة بجامع عمرو، والإمامة بجامع الحاكم وقراءة الحديث بالمؤيدية، وحمدت سيرته في مباشرتها كلها، وكان قد اتصل بالظاهر برقوق، ودخل دمشق مع ولده الناصر وعَرض عليه قضاءها مراراً فأبى، وحج غير مرة، وجاور، وكذا دخل دمشق مراراً وتولى بها تداريس ثم أعرض عن جميع ذلك.

---

(١) «البدر الطالع»: ١/١٩ - ٢٢، وقد ترجم له السخاويّ في «الضوء اللامع»، ولم أثبت ترجمة السخاويّ له لما فيها من تحامل ظاهر على هذا الإمام، كما ذكر الشوكانيّ.

(١) وأقام ببلده عاكفاً على الاشتغال بالتاريخ حتى اشتهر به ذكره، وبعد فيه صيته، وصارت له فيه جملة تصانيف (كالخطط والآثار للقاهرة) وهو من أحسن الكتب وأنفعها وفيه عجائب ومواعظ وكان ينشر فيه محاسن العبيدية ويفخم شأنهم ويشيد بذكر مناقبهم وكنت قبل أن أعرف انتسابه إليهم أعجب من ذلك لكونه على غير مذهبهم فلما وقفت على نسبه علمت أنه استروح[١] إلى ذكر مناقب سلفه.

(٢) قال السخاويّ: إن المترجم له ظفر بمسودة للأوحديّ في خطط القاهرة وآثارها فأخذها وزاد فيها زوائد غير طائلة ونسبها لنفسه. انتهى.

والرجل غير مدفوع عن فضل لا سيما في التاريخ وما يتعلق به والله أعلم.

وله مؤلفات، وُجِد بخطه أن تصانيفه زادت على مائتي مجلد وأن كبار شيوخه بلغت ستمائة نفس.

وكان متبحراً في التاريخ على اختلاف أنواعه، ومؤلفاته تشهد له بذلك وإن جحده السخاويّ فذلك دأبه في غالب أعيان معاصريه.

قال ابن حجر في ترجمته: له النظم الفائق والنثر الرائق والتصانيف الباهرة خصوصاً في تاريخ القاهرة فإنه أحيا معالمها، وأوضح مجاهلها، وجدد مآثرها، وترجم أعيانها.

وكان حسن الصحبة، حلو المحاضرة، مات سنة ٨٤٥ بالقاهرة[٢].

خليل

خليل بن أميران شاه بن تيمورلنك، ملك بعد موت جده تيمور، وكان

---

(١) وجد الراحة.

(٢) «البدر الطالع»: ١/٧٩ - ٨١، واخترت له ترجمة الشوكانيّ له لأنها أكثر إنصافاً من ترجمة السخاويّ، والله أعلم.

ذلك في حياة والده وأعمامه لكونه كان معه عند وفاته في سنة ٨٠٧ فلم يجد الناس بداً من سلطنته واستولى على الخزائن وتمكن من الأمراء ببذله، وفيه رفق وتودد مع حسن سياسة وصدق لهجة وجمال صورة، وأخذ في تمهيد ملكه وملك قلوب الرعية فاستفحل أمره وجرت حوادث إلى أن مات بالريّ مسموماً في سنة ٨٠٩ تسع وثمان مائة.

(١) ونحرت زوجته المسماة شادملك نفسها بخنجر من قفاها فهلكت من ساعتها وقد وصف مؤلف سيرة تيمور من أحواله وأشعاره بلسان قومه ومزيد عشقه لزوجته هذه وإفراط محبته لها ما يقضي منه العجب حتى قال إنه يقف معها في قميص واحد يدخلان فيه جميعاً لمزيد شغف كل واحد منهما بالآخر فلهذا قتلت نفسها بعد موته ووصف من جماله ما تعذر معه زوجته وكذلك وُصف من جمالها ما يخفف عنه الملامة فيما تهتك به من عشقها حتى كان ذلك سبب ذهاب ملكه ونفسه، والأمر لله[1].

الزيديّ

عليّ بن محمد بن أحمد البكريّ الزيديّ، أحد العلماء اليمنيين المحققين، له مصنفات.

كان متصلاً بالإمام المطهر بن محمد بن سليمان وقائماً بكثير من أمور خلافته.

(٢) قال صاحب «مطلع البدور»: وهو الذي حكى صفة الكتاب الواصل إلى الإمام المطهّر من الفقيه محمد بن الأصمّ أنّه اتفقت في زمن الإمام المذكور قصة عجيبة ونكتة غريبة في بلد تسمى الحمرة وذلك أنه كان فيها رجل من الزُّرَعة وكان ذا دِين وصدقة واتفق أنه بنى مسجداً يُصلِّي فيه وجعل يأتي ذلك المسجد كل ليلة بالسراج وبعشائه فإن وجد في المسجد من يتصدق عليه أعطاه ذلك العشاء وإلا أكله وصلى صلاته،

---

(١) «البدر الطالع»: ١/٢٤٤ ـ ٢٤٥.

واستمر على ذلك الحال، ثم إنها اتفقت شدة ونضب ماء الآبار وكانت له بئر فلما قل ماؤها أخذ يحتفرها هو وأولاده فخربت تلك البئر والرجل في أسفلها خراباً عظيماً حتى أنه سقط ما حولها من الأرض إليها فـأيس منه أولاده ولم يحفروا له وقالوا قد صار هذا قبرَه، وكان ذلك الرجل عند خراب البئر في كهف فيها فوقعت إلى بابه خشبة منعت الحجـارة من أن تصيبه فأقام في ظلمة عظيمة، ثم إنه بعد ذلك جاءه السراج الذي كان يحمله إلى المسجد وذلك الطعام الذي كان يحمله كل ليلة وكان به يفرق ما بين الليل والنهار، واستمر له ذلك مدة ست سنين والرجل مقيم في ذلك المكان على تلك الحال، ثم إنه بدا لأولاده أن يحفروا البئر لإعادة عمارتها فحفروها حتى انتهوا إلى أسفلها فوجدوا أباهم حياً فسـألوه عن حـاله فقـال لهم: السراج والطعام الذي كنت أحمل إلى المسجد يأتيني على ما كنت أحمله تلك المدة فعجبوا من ذلك فصارت قضيـة موعـظة يتعظ بها النـاس في أسواق تلك البلاد.

توفي سنة ٨٨٢[1].

ابن الوزير

السيد محمد بن إبـراهيم بن علي، الإمام الكبيـر المجتهد المـطلق المعروف بابن الوزير.

وُلد سنة ٧٧٥ بهجر الظهراوين من شظب. قرأ على أكابر مشايـخ صنعاء وصعدة وسائر المداين اليمنية ومكة، وتبحر في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر صيته وبعد ذكره وطار علمه في الأقطار.

(١) ترجم له الحافظ ابن حجر العسقلاني في أنبائه، ذكره في ترجمة أخيه الهادي لأن صاحب الترجمة إذ ذاك كان صغيراً فقال: وله أخ يُقال له محمد مقبل على الاشتغال بالحديث شديد الميل إلى السنة بخلاف أهل

---

(١) «البدر الطالع»: ١/٤٩٢ - ٤٩٣.

بيته انتهى. ولو لقيه الحافظ ابن حجر بعد أن تبحر في العلوم لأطال عنان قلمه في الثناء عليه فإنه يثني على من هو دونه بمراحل ولعلها لم تبلغ أخباره إليه وإلا فابن حجر قد عاش بعد صاحب الترجمة زيادة على اثنتي عشرة سنة.

(١) ولا ريب أن علماء الطوائف لا يكثرون العناية بأهل هذه الديار لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضى له إلا مجرد التقليد لمن لم يطّلع على الأحوال فإنّ في ديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة عدداً يجاوز الوصف يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة ويعتمدون على ما صح في الأمهات الحديثيّة وما يلتحق بها من دواوين الإسلام المشتملة على سنة سيد الأنام ولا يرفعون إلى التقليد رأساً، لا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب الله وما صح من سنة رسول الله مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وصرف وبيان وأصول ولغة وعدم إخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية ولو لم يكن لهم من المزية إلا التقيد بنصوص الكتاب والسنة وطرح التقليد فإن هذه خصيصة خص الله بها أهل هذه الديار في هذه الأزمنة الأخيرة ولا توجد في غيرهم إلا نادراً.

(٢) ولا ريب أن في سائر الديار المصرية والشامية من العلماء الكبار من لا يبلغ غالب أهل ديارنا هذه إلى رتبته ولكنهم لا يفارقون التقليد الذي هو دأب من لا يعقل حجج الله ورسوله ومن لم يفارق التقليد لم يكن لعلمه كثير فائدة وإن وُجِد منهم من يعمل بالأدلة ويدع التعويل على التقليد فهو القليل النادر كابن تيمية وأمثاله.

(٣) وإني لأكثر التعجب من جماعة من أكابر العلماء المتأخرين الموجودين في القرن الرابع وما بعده كيف يقفون على تقليد عالم من العلماء ويقدمونه على كتاب الله وسنة رسوله مع كونهم قد عرفوا من علم

اللسان ما يكفي في فهم الكتاب والسنة بعضه فإن الرجل إذا عرف من لغة العرب ما يكون به فاهماً لما يسمعه منها صار كأحد الصحابة الذين كانوا في زمنه صلى الله عليه وآله وسلم ومن صار كذلك وجب عليه التمسك بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترك التعويل على محض الآراء فكيف بمن وقف على دقائق اللغة وجلائلها إفراداً وتركيباً وإعراباً وبناء وصار في الدقائق النحوية والصرفية والأسرار البيانية والحقائق الأصولية بمقام لا يخفى عليه من لسان العرب خافية ولا يشذ عنه منها شاذّة ولا فاذّة وصار عارفاً بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير كتاب الله وما صح عن علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى زمنه وأتعب نفسه في سماع دواوين السنة التي صنفتها أئمة هذا الشأن في قديم الأزمان وفيما بعده فمن كان بهذه المثابة كيف يسوغ له أن يعدل عن آية صريحة أو حديث صحيح إلى رأي رآه أحد المجتهدين حتى كأنه أحدُ العوام الأعتام[1] الذين لا يعرفون من رسوم الشريعة رسماً فيالله العجب إذا كانت نهاية العام كبدايته وآخر أمره كأوله فقل لي أي فائدة لتضييع الأوقات في المعارف العلمية فإن قول إمامه الذي يقلده هو كان يفهمه قبل أن يشتغل بشيء من العلوم سواه كما نشاهده في المقتصرين على علم الفقه فإنهم يفهمونه بل يصيرون فيه من التحقيق إلى غاية لا يخفى عليهم منه شيء ويدرسون فيه ويفتون به وهم لا يعرفون سواه بل لا يميزون بين الفاعل والمفعول.

(١) والذي أدين الله به أنه لا رخصة لمن علم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف وشطر من مهمات كليات أصول الفقه في ترك العمل لما يفهمه من آيات الكتاب العزيز ثم إذا انضم إلى ذلك الاطلاع على كتب السنة المطهرة التي جمعها الأئمة المعتبرون وعمل بها المتقدمون والمتأخرون كالصحيحين وما يلتحق

---

(١) أي الجهلة.

بهما مما التزم فيه مصنفوه الصحة أو جمعوا فيه بين الصحيح وغيره مع البيان لما هو صحيح ولما هو حسن ولما هو ضعيف وجب العمل بما كان كذلك من السنة ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأي سواء كان قائله واحداً أو جماعة أو الجمهور فلم يأت في هذه الشريعة الغراء ما يدل على وجوب التمسك بالآراء المتجردة عن معارضة الكتاب أو السنة فكيف بما كان منها كذلك بل الذي جاءنا في كتاب الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**، **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾**، **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾** إلى غير ذلك وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد» فالحاصل أن من بلغ في العلم إلى رتبة يفهم بها تراكيب كتاب الله ويرجح بها بين ما ورد مختلفاً من تفسير السلف الصالح ويهتدي به إلى كتب السنة التي يُعرف بها ما هو صحيح وما ليس بصحيح فهو مجتهد لا يحل له أن يقلد غيره كائناً من كان في مسألة من مسائل الدين بل يستروي النصوص من أهل الرواية ويتمرن في علم الدراية بأهل الدراية ويقتصر من كل فن على مقدار الحاجة. والمقدار الكافي من تلك الفنون هو ما يصل به إلى الفهم والتمييز، ولا شك أن التبحر في المعارف وتطويل الباع في أنواعها هو خير كله لا سيما الاستكثار من علم السنة وحفظ المتون ومعرفة أحوال رجال الإسناد والكشف عن كلام الأئمة في هذا الشأن فإن ذلك مما يوجب تفاوت المراتب بين المجتهدين لا أنه يتوقف الاجتهاد عليه.

فإن قلتَ ربما ذاك يشتغل ولا يعرف ما هو الذي إذا اقتصر عليه في كل فن بلغ إلى رتبة الاجتهاد والذي يجب عليه عنده العمل بالكتاب والسنة.

(١) قلت: لا يخفى عليك أن القرائح مختلفة والفِطَن متفاوتة والأفهام متباينة فمن الناس من يرتفع بالقليل إلى رتبة علية ومن الناس من لا يرتفع من حضيض التقصير بالكثير وهذا معلوم بالوجدان ولكني ههنا أذكر ما

يكفي به من كان متوسطاً بين الغايتين، فأقول يكفيه من علم مفردات اللغة مثل «القاموس» وليس المراد إحاطته به حفظاً بل المراد الممارسة لمثل هذا الكتاب أو ما يشابهه على وجه يهتدي به إلى وجدان ما يطلبه منه عند الحاجة، ويكفيه في النحو مثل الكافية لابن الحاجب والألفيّة وشرح مختصر من شروحها، وفي الصرف مثل «الشافية» وشرح من شروحها المختصرة مع أن فيها ما لا تدعو إليه حاجة، وفي أصول الفقه مثل «جمع الجوامع» و «التنقيح» لابن صدر الشريعة و «المنار» للنسفيّ أو «مختصر المنتهى» لابن الحاجب أو «غاية السول» لابن الإمام وشرح من شروح هذه المختصرات المذكورة مع أن فيها جميعها ما لا تدعو إليه حاجة بل غالبها كذلك ولا سيما تلك التدقيقات التي في شروحها وحواشيها فإنها عن علم الكتاب والسنة بمعزل ولكنه جاء في المتأخرين من اشتغل بعلوم أخرى خارجة عن العلوم الشرعية ثم استعملها في العلوم الشرعية فجاء من بعده فظن أنها من علوم الشريعة فبعدت عليه المسافة وطالت عليه الطرق فربما بات دون المنزل ولم يبلغ إلى مقصده فإن وصل فبذهن كليل وفهم عليل لأنه قد استفرغ قوته في مقدماته وهذا مشاهد معلوم فإن غالب طلبة علوم الاجتهاد تنقضي أعمارهم في تحقيق الآلات وتدقيقها ومنهم من لا يفتح كتاباً من كتب السنة ولا سِفراً من أسفار التفسير فحال هذا كحال من حصّل الكاغد[1] والحبر وبرى أقلامه ولم يكتب حرفاً فلم يفعل المقصود؛ إذ لا ريب أن المقصود من هذه الآلات هو الكتابة.

ومن عرف ما ذكرناه سابقاً لم يحتج إلى قراءة كتب التفسير على الشيوخ لأنه قد حصّل ما يفهم به الكتاب العزيز، وإذا أشكل عليه شيء من مفردات القرآن رجع إلى ما قدمنا من أنه يكفيه من علم اللغة، وإذا أشكل عليه إعراب فعنده من علم النحو ما يكفيه، وكذلك إذا كان الإشكال يرجع إلى علم الصرف، وإذا وُجِد اختلافٌ في تفاسير السلف التي يقف عليها

---

(١) أي: الورق.

مطالعه فالقرآن عربي والمرجع لغة العرب فما كان أقرب إليها فهو أحق مما كان أبعد وما كان من تفاسير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو مع كونه شيئاً يسيراً موجودٌ في كتب السنة، ثم هذا المقدار الذي قدمنا يكفي في معرفة معاني متون الحديث. وأما ما يكفيه في معرفة كون الحديث صحيحاً أو غير صحيح فقد قدمنا الإشارة إلى ذلك، ونزيده إيضاحاً فنقول إذا قال إمام من أئمة الحديث المشهورين بالحفظ والعدالة وحسن المعرفة أنه لم يذكر في كتابه إلا ما كان صحيحاً وكان ممّن مارس هذا الشأن ممارسة كلية كصاحبي الصحيحين وبعدهما صحيح ابن حبان[1] وصحيح ابن خزيمة ونحوهما فهذا القول مُسَوِّغ للعمل بما وُجد في تلك الكتب وموجب لتقديمه على التقليد وليس هذا من التقليد لأنّه عمل برواية الثقة والتقليد عمل برأيه وهذا الفرق أوضح من الشمس وإن التبس على كثير من الناس.
وأما ما يدندن حوله أرباب علم المعاني والبيان من اشتراط ذلك وعدم الوقوف على حقيقة معاني الكتاب والسنة بدونه فأقول ليس الأمر كما قالوا لأن ما تمس الحاجة إليه في معرفة الأحكام الشرعية قد أغنى عنه ما قدمنا ذكره من اللغة والنحو والصرف والأصول، والزايد عليه وإن كان من دقائق العربية وأسرارها ومما له مزيد تأثير في معرفة بلاغة الكتاب العزيز لكن ذلك أمر وراء ما نحن بصدده وربما يقول قائل بأن هذه المقالة مقالة من لم يعرف ذلك الفن حق معرفته وليس الأمر كما يقول فإني قد شغلت برهة من العمر في هذا الفن فمنه ما قعدت فيه بين أيدي الشيوخ كشرح التلخيص المختصر وحواشيه وشرحه المطول وحواشيه وشرحه الأطول، ومنه ما طالعته مطالعة متعقب وهو ما عدا ما قدمته وقد كنت أظن في مبادىء طلب هذا الفن ما يظنه هذا القائل ثم قلت ما قلت عن خبرة وممارسة وتجريب، والزمخشريّ وأمثاله وإن رغبوا في هذا الفن فذلك من حيث كونه مدخلاً

---

(١) ليس ابن حبان معتمداً في تصحيحه بل هو معروف بالتساهل في هذا الأمر، والله أعلم.

في معرفة البلاغة كما قدمنا وهذا الجواب الذي ذكرته ههنا هو الجواب عن المعترض في سائر ما أهملته مما يظن أنه معتبر في الاجتهاد ومع ذلك فلسنا إلا بصدد بيان القدر الذي يجب عنده العمل بالكتاب والسنة وإلا فنحن ممن يرغب الطلبة في الاستكثار من المعارف العلمية على اختلاف أنواعها كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ومن رام الوقوف على ما يحتاج إليه طالب العلم من العلوم على التفصيل والتحقيق فليرجع إلى الكتاب الذي جمعته في هذا وسميته (أدب الطلب ومنتهى الأرَب) فهو كتاب لا يستغني عنه طالب الحق.

(١) على أني أقول بعد هذا أن كل من كان عاطلاً عن العلوم الواجب عليه أن يسأل من يثق بدينه وعلمه عن نصوص الكتاب والسنة في الأمور التي تجب عليه من عبادة أو معاملة وسائر ما يحدث له فيقول لمن يسأله علمني أصح ما ثبت في ذلك من الأدلة حتى أعمل به وليس هذا من التقليد في شيء لأنه لم يسأله عن رأيه بل عن روايته ولكنه لما كان لجهله لا يفطن ألفاظ الكتاب والسنة وجب عليه أن يسأل من يفطن ذلك فهو عامل بالكتاب والسنة بواسطة المسؤول، ومن أحرز ما قدمنا من العلوم عمل بها بلا واسطة في التفهيم وهذا يقال له مجتهد والعاميّ المعتمد على السؤال ليس بمقلد ولا مجتهد بل عامل بدليل بواسطة مجتهد يفهمه معانيه وقد كان غالب السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين هم خير القرون من هذه الطبقة ولا ريب أن العلماء بالنسبة إلى غير العلماء أقل من قليل، فمن قال إنه لا واسطة بين المقلد والمجتهد قلنا له قد كان غالب السلف الصالح ليسوا بمقلدين ولا مجتهدين أما كونهم ليسوا بمقلدين فلأنه لم يسمع عن أحد من مقصري الصحابة أنه قلد عالماً من علماء الصحابة المشاهير بل كان جميع المقصرين منهم يستروون علماءهم نصوص الأدلة ويعملون بها وكذلك مَن بعدهم من التابعين وتابعيهم ومن قال إن جميع الصحابة مجتهدون وجميع التابعين وتابعيهم فقد أعظم الفِرية وجاء بما لا يقبله عارف، وهذه المذاهب والتقليدات التي معناها قبول قول الغير دون حجة

لم تحدث إلا بعد انقراض خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

وخير الأمور السالفات على الهدى   وشر الأمور المحدثات البدائع

وإذا لم يسَع غير العالم في عصور الخلف ما وسعه في عصور السلف فلا وسّع الله عليه[1].

وهذا عارض من القول اقتضاه ما قدمناه فلنرجع إلى ما نحن بصدده من ترجمة هذا السيد الإمام فنقول وهو شاهد على ما قدمنا ذكره إن صاحب الترجمة لما ارتحل إلى مكة وقرأ علم الحديث على شيخه ابن ظهيرة قال للسيد: ما أحسن يا مولانا لو انتسبت إلى الإمام الشافعيّ أو أبي حنيفة فغضب وقال: لو احتجت إلى هذا النسب والتقليدات ما اخترت غير الإمام القاسم بن إبراهيم أو حفيده الهادي.

وبالجملة فصاحب الترجمة ممن يقصر القلم عن التعريف بحاله وكيف يمكن شرح حال من يزاحم أئمة المذاهب الأربعة فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم، ويضايق أئمة الأشعرية والمعتزلة في مقالاتهم، ويتكلم في الحديث بكلام أئمته المعتبرين مع إحاطته بحفظ غالب المتون ومعرفة رجال الأسانيد شخصاً وحالاً وزماناً ومكاناً وتبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية على حد يقصر عنه الوصف. ومن رام أن يعرف حاله ومقدار علمه فعليه بمطالعة مصنفاته فإنه شاهد عدل على علو طبقته فإنه يسرد في المسألة الواحدة من الوجوه ما يبهر لبّ مطالعه ويعرفه بقِصَر باعه بالنسبة إلى علم هذا الإمام كما يفعله في «العواصم والقواصم» فإنه يورد كلام شيخه السيد العلامة علي بن محمد بن أبي القاسم في رسالته التي اعترض بها عليه ثم ينسفه نسفاً بإيراد ما يزيفه به من الحجج

---

(١) كلام الشوكاني ـ رحمه الله ـ في هذه المسألة جيِّد، وإن كان لا يخلو من تعميمات في قضايا تحتاج إلى كلام أدقّ خاصّة قضية: مرتبة الاجتهاد ومتى تُبلغ، وفيه اتهام لبعض العلماء الأعلام بأنهم محض مقلدين لا ينتفع بعلمهم إلا قليلاً، والله أعلم.

الكثيرة التي لا يجد العالم الكبير في قوته استخراج البعض منها وهو في أربعة مجلدات يشتمل على فوائد في أنواع من العلوم لا توجد في شيء من الكتب ولو خرج هذا الكتاب إلى غير الديار اليمنية لكان من مفاخر اليمن وأهله ولكن أبى ذلك لهم ما جبلوا عليه من غمط المحاسن بعضهم لبعض ودفن مناقب أفاضلهم. ومن مصنفاته «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» وهو كتاب في غاية الإفادة والإجادة على أسلوب مخترع لا يقدر على مثله إلا مثله، ومنها كتاب «الروض الباسم» في مجلد اختصره من العواصم، وكتاب «إيثار الحق على الخلق» وهو غريب الأسلوب مفيد في بابه، وله كتاب جمعه في التفسير النبويّ. ومنها مؤلف في مدح العزبة والعزلة. ومؤلف في الرد على المَعَرِّي سماه «نصر الأعيان على شر العميان» وله كتاب «البرهان القاطع في معرفة الصانع» وله كتاب «التنقيح» في علوم الحديث، وله مؤلفات غير هذه ومسائل أفردها بالتصنيف وهو إذا تكلم في مسألة لا يحتاج الناظر بعده إلى النظر في غيره من أي علم كانت وقد وقفت من مسائله التي أفردها بالتصنيف على عدد كثير تكون في مجلد وما لم أقف عليه. أكثر مما وقفت عليه.

وكلامه لا يشبه كلام أهل عصره ولا كلام من بعده بل هو من نمط كلام ابن حزم وابن تيمية، وقد يأتي في كثير من المباحث بفوائد لم يأت بها غيره كائناً من كان، وديوان شعره مجلد وشعره غالبه في التوسلات والرقائق وتقييد الشوارد العلمية والمجاوبة لمن امتُحِن به من أهل عصره فإن له معهم قلاقل وزلازل وكانوا يثورون عليه ثورة بعد ثورة وينظمون في الاعتراض عليه القصائد وأفضى ذلك إلى أن اعترض عليه شيخه المتقدم ذكره برسالة مستقلة فأجابها بما تقدم، وكان يجاوبهم ويصاولهم ويجاولهم فيقهرهم بالحجة ولم يكن في زمنه من يقوم له لكونه في طبقة ليس فيها أحد من شيوخه فضلاً عن معارضيه والذي يغلب على الظن أن شيوخه لو جمعوا جميعاً في ذات واحدة لم يبلغ علمهم إلا مقدار علمه وناهيك بهذا.

ثم بعد هذا انجمع وأقبل على العبادة وتمشيخ وتوحش في الفَلَوات[1] وانقطع عن الناس ولم يبق له شغلة بغير ذلك وتأسف على ما مضى من عمره في تلك المعارك التي جرت بينه وبين معاصريه مع أنه في جميعها مشغول بالتصنيف والتدريس والذب عن السنة والدفع عن أعراض أكابر العلماء وأفاضل الأمة والمناضلة لأهل البدع ونشر علم الحديث وسائر العلوم الشرعية في أرض لم يألف أهلها ذلك لا سيما في تلك الأيام فله أجر العلماء العاملين وأجر المجاهدين المجتهدين ولكنه ذاق حلاوة العبادة وطَعِم لذة الانقطاع إلى جناب الحق فصغر في عينيه ما سوى ذلك. وقد ترجمه بعض بني الوزير في كراريس واستوفى أحواله ولو ترجمه في مجلد لم يكن وافياً بحقه وترجمه أيضاً جماعة من علماء الزيدية ومن غيرهم، ومدحه غير واحد من أعيان العلماء والحاصل أنه رجل عرفه الأكابر وجهله الأصاغر وليس ذلك مختصاً بعصره بل هو كائن فيما بعده من العصور إلى عصرنا هذا. ولو قلت إن اليمن لم ينجب مثله لم أبعد عن الصواب وفي هذا الوصف ما لا يحتاج معه إلى غيره.

وكانت وفاته تغمده الله بغفرانه، سنة ٨٤٠[2].

ابن شمس الدين

(١) محمد بن حمزة الدمشقيّ ثم الروميّ المعروف بابن شمس الدين الشيخ العارف بالله. ولد بدمشق ثم ارتحل مع والده إلى الروم وقرأ على علمائها حتى صار مدرساً ببعض مدارسها ثم مال إلى التصوف فخدم الحاج بيرام فحصّل عنده الطريقة، وصار مع كونه طبيباً للقلوب طبيباً للأبدان، فإنه اشتهر أن الشجر كانت تناديه وتقول: أنا شفاء من المرض الفلانيّ.

(٢) ثمّ اشتهرت بركته وظهر فضله حتى أنّ السلطان محمد خان

---

(١) أي: الصحارى.

(٢) «البدر الطالع»: ١/٨١ - ٩٣.

سلطان الروم لما أراد فتح القسطنطينيّة دعاه للجهاد فقال صاحب الترجمة للسلطان: سيدخل المسلمون القلعة في يوم كذا، فجاء ذلك الوقت الذي عينه لفتح القلعة فحصل مع بعض أصحابه فزع شديد من السلطان على الشيخ إذا لم يصح الخبر فذهب إليه في تلك الحال فوجده في خيمته ساجداً على التراب مكشوف الرأس وهو يتضرع ويبكي فرفع رأسه وقام على رجليه وكبر وقال الحمد لله مُنِحنا فتح القلعة، قال الراوي: فنظرت إلى القلعة فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففرح السلطان بذلك، وقال: ليس فرحي لفتح القلعة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني.

(١) ثم بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة صاحب الترجمة وهو مضطجع فلم يقم له فقبل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة، قال: وما هي؟ قال: أن أدخل الخلوة عندك فأبى فأبرم عليه السلطان مراراً وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال: إنه يأتي إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى عليّ، فقال الشيخ: إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك والغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح، ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل، ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لي فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلاطين العظام فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو، ثم إن السلطان دعا صاحب الترجمة في الثلث الأخير من الليل فخاف عليه أصحابه فذهب إليه فلما وصل تبادر الأمراء يقبلون يده وجاء السلطان يلقاه والليل مظلم فعانقه بالقلب لا بالبصر فعانقه الشيخ وضمه إليه ضماً شديداً حتى ارتعد وكاد يسقط من الهيبة وتحدث السلطان بعد ذلك أنه كان في قلبه شيء في حق الشيخ فلما ضمه زال ذلك.

(٢) ثم إن الشيخ جلس مع السلطان في خيمته إلى أن صلى به

الفجر والسلطان جالس أمامه على ركبته يسمع الأوراد فلما أتمها التمس منه السلطان أن يعين قبر أبي أيوب لأنه كان يرى في التواريخ أن قبره قريب سور القسطنطينية، فذهب الشيخ إلى هناك وقال لعلي أجده فعاد وقال التقيت أنا وروح أبي أيوب وهنأني بالفتح وقال: شكر الله سعيكم حيث خلصتموني من ظلمة الكفر فقال السلطان: إني أصدقك ولكن التمس منك أن تعين علامة أراها بعيني ويطمئن قلبي فقال الشيخ: احفروا هذا الموضع وستجدون بعد أن تحفروا ذراعين رخاماً عليه خط فلمّا حفروا مقدار ذراعين ظهر الرخام عليه خط فقرأه من يعرفه فإذا هو قبر أبي أيوب فتحير السلطان محمد خان وغلب الحال عليه حتى كاد يسقط لولا أن أخذوه.

(١) ولّما عاد لقي رجلاً من أجلاف بلاد الروم وتحته فرس نفيس يميل إليه كل قلب وذهب الرجل ولم يلتفت إلى الشيخ ولم يسلِّم عليه فلم يذهب إلا قليلاً حتى رجع ونزل عن فرسه ودفعه إلى الرجل وركب فرس الرجل فسأل الشيخَ بعضُ أصحابه عن ذلك فقال: لو كان لرجل عبد وكان في طاعته واستدعى منه يوماً شيئاً حقيراً هل يمنعه؟ فقالوا: لا، فقال: وأنا منذ ثلاثين سنة لم أخرج عن طاعة الله فلمّا مال قلبي إلى هذا الفرس ألهم الله ذلك الرجل حتى وهبه لي.

وله رحمه الله مصنفات منها رسالة في التصوف، ورسالة أخرى في دفع مطاعن الصوفية، ورسالة في علم الطب.

(٢) وكان له ابن صغير ولد مجذوباً فاتفق أنه دخل عند والده أمير يُقال له ابن قطار وكان أطلس لا شعر بوجهه فقال ابن الشيخ لما رآه: ما هذا رجل هذه امرأة، فغضب عليه والده، فقال الأمير للشيخ إنه يدعه ولا يزجره عن الكلام وتضرع إلى الشيخ ثم قال الأمير للولد المذكور: ادع لي أن يُنبِتَ لحيتي فأخذ المجذوب من فمه بصاقاً كثيراً ومسح بيده وجه الأمير

فطلعت لحيته، فلمّا دخل الأمير على السلطان قال للوزراء: اسألوه من أين حصلت لـه هذه اللحيـة فحكى له مـا جرى فـوقف على ذلـك الصغيـر أوقافاً[1].

الفناريّ

محمد بن محمد بن حمزة الفناديّ ويُقال الفناريّ بالراء مكان الدال. وُلد سنة ٧٥١ وارتحل إلى مصر، ثم رجع إلى الروم فوَلِيَ قضاء بروسا[2] وارتفع قدره عند ابن عثمان جداً وحل عنده المحل الأعلى فصار في معنى الوزير واشتهر ذكره وشاع فضله. قال ابن حجر: كان عارفاً بعلم العربية والمعاني والبيان والقراآت كثير المشاركة في الفنون، وكان حسن السمت كثير الفضل والإفضال. ولما دخل القاهرة يريد الحج اجتمع به فضـلاء العصر وذاكروه وشهدوا له بالفضيلة ثم رجع.

وكان قد أثرى إلى الغاية حتى يقال إن عنده من النقد خاصة مائة وخمسين ألف دينار.

(١) وحج سنة ٨٢٢ ثم حج في سنة ٨٣٣ ورجع إلى بلاده ومات بشهر رجب من هذه السنة. وهو مصنف «فصول البدائع في أصول الشرائع» جمع فيه المنار والبزدويّ ومحصول الإمام الرازيّ ومختصر ابن الحـاجب وغير ذلك وأقام في عمله ثلاثين سنة وهو من أجل الكتب الأصولية وأنفعها وأكثرها فوائد، وله تفسير للفاتحة، ورسالة أتى فيها بمسائل من مائة فن وتكلم فيها على مسائل مشكلة وسماها «نموذج العلوم»، وله منظومة في عشرين فناً أتى في كل فن بمسألة وغيّر أسماء تلك الفنون بطرق الألغاز امتحاناً لفضلاء دهره ولم يقدروا على تعيين فنونها فضلاً عن حل مسائلها مع أنه قال إنه عمل ذلك في يوم وقد حلهـا ابنه محمـد وكتب منظومـة تتضمن الجواب على منظومة والده.

---

(١) «البدر الطالع»: ٢/١٦٦ - ١٦٩.

(٢) هي بورصا.

(١) وقد انتفع بعلمه الطلبة في بلاد الروم مع اشتغاله بالقضاء وكان له جلالة وأبهة بحيث إن عبيده لا يكاد يحصون، منهم اثنا عشر يلبسون الثياب الفاخرة النفيسة، وله جوارٍ عدة منهن أربعون تلبس القلانس الذهبية ومع ذلك كان متزهداً في ملبوسه على زيّ الصوفيّة وكان يقول إذا عُوتب في ذلك: إن ثيابي وطعامي من كسب يدي ولا يفي كسبي بـأحسنَ من ذلك، وخلف ثروة عظيمة فيها من الكتب نحو عشرة آلاف.

(٢) ومن تصلبه في الدين وتثبته في القضاء أنه رد شهادة من سلطان الروم في قضية فسأله السلطان عن سبب ذلك فقال: إنك تارك للجماعة فبنى السلطان قدام قصره جامعاً وعين لنفسه فيه موضعاً ولم يترك الجماعة بعد ذلك فللّه درُّ هذا العالم الصادع بالحق مع ما هو فيه من التقلب في نعمة سلطانه التي سمعتَ بعض وصفها، ورب عالم لا يقدر على الكلمة الواحدة في الحق لمن له عليه أدنى نعمة مخافة من زوالها بل رب عالم يمنعه رجاء العطية ونيل الرتبة السنية عن التكلم بالحق ولم يكن بيده إلا مجرد الأماني الأشعبيّة ورحم الله هذا السلطان الذي سمع الحق فاتبع ولم تصده سَوْرة[1] الملك وما هو فيه من سلطان الذي كاد يُطبق الأرضَ عن قَبول ذلك وهذا السلطان المرحوم هو السلطان بايزيد بن مراد.

(٣) ثم إنه جرى بين صاحب الترجمة وبين السلطان المذكور بعض المخالفة فارتحل إلى بلاد قرمان وترك مناصبه. قال صاحب «الشقائق النعمانية»: وعين له صاحب قرمان في كل يوم ألف درهم ولطلبته كل يوم خمسمائة درهم ثم إن السلطان المذكور ندم على ما فعل في حق صاحب الترجمة فأرسل إلى صاحب قرمان يستدعيه منه فأجابه إلى ذلك وعاد إلى ما كان عليه.

وقد كان ضعف بصره ثم شُفي فحج شكراً لله الحجة الآخرة المتقدم ذكرها.

---

(١) سطوة.

(١) ويروى أن وزير السلطان قال في بعض الأيام: أرجو الله أن أصلي على هذا الشيخ الأعمى ـ يعني صاحب الترجمة ـ فسمعه فقال: إنه جاهل لا يحسن الصلاة على الميت وأرجو الله أن يشفيني ويعميه وأصلي عليه. فشفاه الله وكحل السلطان الوزير بحديدة محماة[1] فعمي ثم مات وصلى عليه صاحب الترجمة.

(٢) ويُروى في سبب عمى المترجَم له أنه لما سمع أن الأرض لا تأكل لحوم العلماء العاملين نبش قبر أستاذه علاء الدين الأسود ليتحقق ذلك فوجده كما وُضِع مع أنه مر عليه زمان طويل فسمع عند ذلك صوتاً يقول: هل صدقت؟ أعمى الله بصرك[2].

خواجة زاده

مصطفى بن يوسف بن صالح البروسويّ الروميّ الحنفيّ المشهور بخواجه زاده عالم الروم المشهور بالتحقيق وجودة التصور والذكاء المفرط وإفحام من يناظره. كان والده من التجار وله ثروة عظيمة فولد له صاحب الترجمة واشتغل بالعلم فسخط لذلك أبوه وأبعده عنه حتى صار لا يملك إلا قميصاً واحداً وهو لا يزداد في العلم إلا شغفاً.

(٣) ورآه بعض مشايخ الصوفية فقال له بأنه يكون له شأن عظيم وإن إخوانه الذين صار والده يعظمهم ويهينه سيقومون عنده مقام الخدم والعبيد.

وأخذ عن أكابر علماء الروم، وبرع في العربية والأصولَيْنِ والمعاني والبيان، وأمره السلطان مراد أن يدرس بمدرسة بروسا وعين له كل يوم عشرة دارهم فمكث كذلك ست سنين مشتغلاً بالعلم مع فقر وحاجة، ولما تولى السلطنة السلطان محمد خان بن مراد خان وأظهر الرغبة إلى العلم وأهله قصد العلماء حضرته وكان صاحب الترجمة يريد ذلك ولكن لم

---

(١) أي مررها على عينيه فعمي.

(٢) البدر الطالع»: ٢/٢٦٦ ـ ٢٦٩.

يستطع أن يَجْهَز إليه لشدة فقره وكان له خادم من أبناء الترك فأقرضه ثمان مائة درهم فاشترى بها فرساً لنفسه وفرساً لخادمه وذهب إلى السلطان فلقيه وهو ذاهب من قسطنطينية إلى أدرنة فلما رآه الوزير محمود باشا قال: أصبت بمجيئك وقد ذكرتك عند السلطان فاذهب إليه، فذهب إليه وسلم عليه فقال السلطان للوزير محمود باشا: من هذا؟ قال: خواجه زاده، فرحب السلطان به وكان عن يمين السلطان وعن يساره أعيان علماء حضرته فجرى بينهم البحث بحضرة السلطان فتكلم صاحب الترجمة وأفحم جماعة من العلماء الحاضرين ومال السلطان إليه حتى إنه بقي لديه بعد خروج العلماء من عنده ومشى معه. ثم إن السلطان وصل العلماء الذين بحثوا بحضرته بصلات ولم يعط صاحب الترجمة مثلهم فحصل معه هم وحزن حتى إن خادمه صار لا يخدمه ويواجهه بقوله: لو كان لك علم لأكرمك السلطان كما أكرمهم، وفي بعض المنازل نام الخادم فتولى صاحب الترجمة خدمة فرسه بنفسه ثم جلس حزيناً في ظل شجرة فإذا ثلاثة نفر قد أقبلوا إليه من حجاب السلطان يسألون عن خيمة خواجه زادة ويظنون أن له خيمة كسائر الأكابر فأشار بعض الناس إليه فأنكروا ذلك ثم جاؤوا إليه فقالوا له: أنت خواجه زاده؟ فقال: نعم، فقبلوا يده وقالوا إن السلطان جعلك معلماً لنفسه، قال: فظننت أنهم يسخرون بي، ثمّ ضربوا هنالك خيمة وقدموا إليه فرساً وعبيداً وملبوساً فاخراً وعشرة آلاف درهم وقدموا إليه فرساً منها وقالوا: قم إلى السلطان، والخادم المذكور نائم فذهب إليه صاحب الترجمة ونبهه من النوم فقال الخادم: خلني أنام، فقال له: قم انظر إلى حالي، قال: إني أعرف حالك، دعني، فأبرم عليه فقام ينظر إليه فقال: أيّ حال هذا؟ قال: إنّي صرت معلماً للسلطان فقبل الخادم يده وتضرع إليه واعتذر فقبل منه، وذهب إلى السلطان فشرع السلطان يقرأ عليه في التصريف وكتب هو شرحاً عليه.

(١) وتقرب منه غاية التقرب فحسده الوزير وقال للسلطان: إن صاحب الترجمة يريد قضاء العسكر فقال السلطان: لأيّ شيء يترك

صحبتي؟ فقال: هو يريد ذلك، وقال لخواجه زاده: أمر السلطان أن تتولى قضاء العسكر، فقال: أنا لا أريد ذلك، قال: هكذا جرى الأمر فامتثل، وصار قاضياً بالعسكر وكان ذلك بمنزلة قضاء الأقضية فعند ذلك بلغ والدَه أن ولده قد صار قاضياً للعسكر فلم يصدق فلما تواتر إليه الخبر قدم من بروسا إلى أدرنة لزيارة ولده فلما قرب من بلدة أدرنة تلقاه ولده وتبعه علماء البلد وأشرافه فلما نظر والده إلى ذلك الجمع العظيم قال: من هؤلاء؟ قالوا: ابنك، فنزل صاحب الترجمة من فرسه وسلم على أبيه وإخوته وأدخلهم على السلطان، وعمل ضيافة كبيرة اجتمع فيها أعيان المملكة وجلس في صدر المجلس وجلس الأكابر على قدر مراتبهم وضاق المجلس بمن فيه فقام إخوانه مقام الخدم فكان ذلك ما تقدمت الإشارة إليه من ذلك الصوفيّ.

ثم درس بمدارس عدة. وقد اشتهر في بلاد الروم وطار صيته وكثر تلامذته وصنف مصنفات.

مات في سنة ٨٩٣[1].

---

(١) «البدر الطالع»: ٢/٣٠٦ - ٣٠٨.

مختارات القرن العاشر
من كتاب
«الكواكب السائرة بأعيان
المائة العاشرة»

تأليف

الإمام نجم الدين الغزيّ
رحمه الله تعالىٰ



محمد النكساري

محمد بن إبراهيم بن حسن العالم العامل الفاضل الكامل المولى[1] محيي الدين النكساريّ الروميّ الحنفيّ.

كان عالماً بالعربية والعلوم الشرعية والعقلية، ماهراً في علوم الرياضة، وكان حافظاً للقرآن العظيم عارفاً بعلم القراآت ماهراً في التفسير. وكان يُذكّر الناس كل يوم جمعة تارة في أيا صوفيا وتارة في جامع السلطان محمد خان، وكان حسن الأخلاق قنوعاً راضياً بالقليل من العيش مشتغلاً بإصلاح نفسه منقطعاً إلى الله تعالى، صنّف تفسير سورة الدّخان، وكتب حواشي على تفسير القاضي البيضاويّ وحاشية على شرح «الوقاية» لصدر الشريعة.

(۱) ولما آن أوان انقضاء مدّته ختم التفسير في أيا صوفيا ثم قال: أيها الناس إني سألت الله تعالى أن يمهلني إلى ختم القرآن العظيم فلعل الله تعالى يختم لي بالخير والإيمان ودعا فأمّن الناس على دعائه ثم أتى إلى بيته ومرض وتوفي بالقسطنطينية في سنة إحدى وتسعمئة رحمه الله تعالى[2].

ابن الخطيب

محمد بن إبراهيم، العالم العلامة المولى محيي الدين الشهير بابن الخطيب الروميّ الحنفيّ.

---

(١) أي الوزير.

(٢) «الكواكب السائرة»: ١/٢٣ - ٢٤.

كان من مشاهير موالي الروم قرأ على والده وعلى العلامة علي الطوسيّ والمولى خضر بيك.

(١) تولى المناصب وترقى حتى جعله السلطان محمد بن عثمان معلماً لنفسه، ثم ادّعى البحث مع المولى خواجه زاده فقال له السلطان محمد: أنت تقدر على البحث معه؟ قال: نعم سيّما ولي مرتبة عند السلطان، فعزله السلطان لهذا الكلام.

(٢) ولما تولى السلطان أبو يزيد خان جمعه في ولايته مع المولى علاء الدين العربيّ في محفل من العلماء فجرى بينهما مباحثة في الرؤية والكلام انتهى فيها البحث إلى كلام أنكره عليه السلطان ففطن ابن الخطيب لذلك وصنف رسالة في البحث المذكور وذكر في خطبتها اسم السلطان وأرسلها إليه على يد وزيره إبراهيم باشا فلما عرضها على السلطان فقال السلطان: ما اكتفى بذلك الكلام الباطل باللسان حتى كتبه في الأوراق، اضرب برسالته وجهه وقل له يخرج ألبتّة من مملكتي، فتحيّر الوزير وكتم غضب السلطان عن ابن الخطيب وانتظر ابن الخطيب جائزة الرسالة وتألم من تأخرها وقال للوزير: استأذن السلطان أن أذهب من مملكته وأجاور بمكة وتحيّر الوزير، ثم أرسل إلى ابن الخطيب من ماله باسم السلطان عشرة آلاف درهم وناسى السلطان القضية، ثم إن المولى جلال الدين الدّوانيّ رحمه الله تعالى أرسل كتاباً إلى بعض أصدقائه إلى الروم وهو المفتي يومئذ وكتب في حاشيته السلام على المولى ابن الخطيب وعلى المولى خواجه زاده فسمع ابن الخطيب بذلك فطلب الكتاب وأرسله إلى الوزير وقال له: إنه يعتقد فضل خواجه زاده علي وأنا مفضل عليه ببلاد الروم يدل عليه كتاب المولى جلال الدين حيث قدمني عليه ذكراً، فلما وصل الكتاب إلى الوزير قال: إنه سؤال دوري والتقديم في الذكر لا يستلزم التقديم في الفضل.

(١) قلت: وهذا الرجل وإن كان من الموالي المحققين فأنت خبير بما اشتملت عليه سيرته من الدعوى والحسد وعدم الرضا من زمانه، وذكر صاحب «الشقائق» عن والده أنه دخل مع ابن الخطيب حين كان يقرأ عليه وهو متقاعد عن المناصب إلى السلطان أبي يزيد خان رحمه الله تعالى في يوم عيد فلما مرّ مع الموالي بالديوان والوزراء جالسون سلّم المولى ابن فضل الله، وكان مفتياً في ذلك الوقت، عليهم فضرب ابن الخطيب في صدره بظهر يده وقال: هتكت عرض العلم وسلّمت عليهم، أنت مخدوم وهم خدّام سيّما وأنت رجل شريف، قال: ثم دخل ونحن معه فاستقبله سبع خطوات وسلّم عليه وما انحنى له وصافحه ولم يقبل يده وقال للسلطان: بارك الله لك في هذه الأيام الشريفة ثم سلّم ورجع.

قلت: قد اشتملت هذه الحكاية على أمور بعضها معروف وبعضها منكر فأما ترك حنائه للسلطان وتقبيل يده فمن السُّنَّة، وأمّا إنكاره على المفتي السلام على الوزراء وأهل الديوان ولومه على ذلك وضرب يده في صدره فجرأة وقلّة أدب وخطأ ظاهر.

ولابن الخطيب من المؤلفات حواشي على شرح التجريد للسيّد الشريف، وحواشي على حاشية الكشاف للسيّد أيضاً وغير ذلك، وكانت وفاته في سنة إحدى وتسعمئة عفا الله تعالى عنه[١].

محمد المشهديّ

محمد بن أبي بكر الشيخ الإمام الفاضل المسند الصوفيّ بدر الدين ابن الشيخ العلامة المسند بهاء الدين المشهديّ المصريّ الشافعيّ.

وُلد في سنة اثنتين وستين وثمانمائة، وسمع على عدّة من أصحاب ابن الكويك وابن الجزريّ، وسمع على جماعة من أصحاب شيخ الإسلام

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢٤ - ٢٥.

ابن حجر وابن عمّه شعبان وغيرهما، ودرّس وأسمع قليلاً. وكان عاقلاً دمث الأخلاق ديّناً صيّناً.

(١) قال الشيخ عبدالوهاب الشعراويّ: كان عالماً صالحاً كثير العبادة محبّاً للخمول إن رأى أحداً يقرأ عليه فتح له وإلا أغلق باب داره، قال: فقلت له يوماً: ما أصبرك يا سيدي على الوحدة، فقال: من كان مجالساً لله فما ثمّ وحدة وقد جاوزت الأربعين سنة وما بقي يناسبنا إلا الجد والاجتهاد وعدم الغفلة عن الله تعالى، ثم قال لي: هكذا أدركنا الأشياخ خلاف ما عليه أهل هذا الزمان يتعلم أحدهم مسائل فيود أن لو عرف جميعُ أهل الأرض.

قال وكان يقول: مدح الناس للعبد قبل مجاوزته الصراط كله غرور. انتهى.

(٢) وفاته سنة اثنتين وثلاثين وتسعمئة، ثم دُفن بعد الصلاة عليه في جماعة قليلة بباب النصر في تربة الصلاحية على أبيه وتوفّر له حظه من إيثار الخمول على الشهرة حيّاً وميتاً، رحمه الله تعالى، وهو آخر ذرية ابن خلّكان ولم يعقب رحمه الله تعالى[١].

البهوتي

محمد بن أحمد القاضي بدر الدين بن أبي العباس البهوتيّ المصريّ الشافعيّ.

من أعيان المباشرين بمصر، كان ذا ثروة ووجاهة زائدة حتى هابه بنو الجيعان وغيرهم من أرباب الديوان، وكان قد عرض بعض الكتب في حياة والده على الشرف المناوي والجلال البكري والمحب ابن الشحنة والسراج العبادي وغيرهم، وكان ملازماً للشيخ محمد البكري النازل بالحسينية وله فيه اعتقاد زائد.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢٧ - ٢٨.

ولما دخل السلطان سليم بن عثمان القاهرة وتطلب العثمانيون الجراكسة ببيوت مصر وجهاتها خشي القاضي بدر الدين البهوتيّ على نفسه وعياله فحَسُنَ عنده أن يتوجه بهم إلى مصر عند صهره نور الدين البكريّ فأنزلهم في الشُّخْتور[1] ثم أتى مسرعاً لينزل معهم فوضع قدمه على حافة الشختور فاختلت به فسقط في النيل فغرق فاضطربوا لغرقه فانحدر الشختور إلى الوطاف[2] العثماني فظنوا أنهم من الجراكسة المتشبهين بالنساء فاحاطوا بهم وسلبوهم ما معهم بعد التفتيش فبينما هم على ذلك إذ أتى زوجةَ القاضي بدر الدين المخاضُ فرحمها شخص بقرب قنطرة قديدار فوضعت ولداً ذكراً في منزله وكان القاضي بدر الدين يتمنى ذلك وينذر عليه النذور فلم يحصل إلا على هذا الوجه، وأحِيط بماله وما جمعه فاعتبروا يا أولي الأبصار، وكان ذلك في أواخر سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة[3].

ابن النجار الدمياطي

محمد بن أحمد بن عيسى الشيخ الإمام الأوحد العلامة الحجة العمدة الفهَّامة شيخ وقته أمين الدين أبو الجود ابن النجار الدمياطيّ الشافعيّ خطيب جامع الغمري بمصر.

(١) وُلِد سنة خمس وأربعين وثمانمئة، وقد كان رحمه الله تعالى ممن جمع الله له بين العلم والعمل، وكان متواضعاً يخدم العميان والمساكين ليلاً ونهاراً ويقضي حوائجهم وحوائج الفقراء والأرامل ويجمع لهم من أموال الزكاة ويفرقها عليهم ولا يأخذ لنفسه من ذلك شيئاً.

(٢) وكان لا يترك قيام الليل صيفاً ولا شتاء، وكان ينام بعد الوتر لحظة ثم يقوم وينزل إلى الجامع فيتوضأ ويصلي والباقي للفجر نحو سبعين

---

(١) القارب الكبير.

(٢) لعلها: الوطاق وهو المخيّم.

(٣) «الكواكب السائرة»: ١/٣١ - ٣٢.

درجة ثم يصعد الكرسي ويتلو نحو ربع القرآن سرّاً فإذا أذّن الصبح قرأ جهراً قراءة تأخذ بجوامع القلوب، فمرّ نصراني من مباشري القلعة يوماً في السَّحر فسمع قراءته فرقّ قلبه وأسلم على يدي الشيخ وهو على كرسيّه وحسن إسلامه وصلى معه الفجر وبقي يصلي خلفه إلى أن مات، وكان يأتيه الناس للصلاة خلفه من بولاق ومن نواحي الجامع الأزهر في صلاة الصبح لحسن صوته وخشوعه وكثرة بكائه حتى يبكي غالب الناس خلفه، وكان سيدي أبو العباس الغمري يقول عن جامعه جثة والشيخ أمين الدين روحها.

(١) وكان يضيف كل وارد، وكان يخدم نفسه ويحمل الخبز على رأسه إلى الفرن ويحمل حوائجه من السوق ولا يمكّن أحداً من حمل ذلك، وكان مع هذا له هيبة عظيمة يكاد من لا يعرفه يرعد من هيبته، وكان قد انتهت إليه الرئاسة بمصر في علوم السنّة بالكتب الستة وغيرها، وكان يقرأ الأربع عشرة[١] رواية. ومناقبه كثيرة وله كرامات.

(٢) وجرت له محنة في أيام السلطان قانصوه الغوري وهي أن بعض التجار أودع عنده مالاً له صورة وقال له: إذا بلغ ولدي بعد موتي فادفعه إليه فجاء الولد إليه وهو دون البلوغ يطلب منه المال فقال له: حتى تبلغ، فذهب إلى السلطان فاشتكى عليه فطلبه السلطان وطالبه بالوديعة فأنكرها وحلف عليها ثم لما بلغ الولد أقرّ بها ودفعها إليه فعلم السلطان بذلك فطلبه فقال له: كيف تحلف ما عندك وديعة والآن قد أقررت بها، فقال له: إن فقهاء الشافعيّة كالنوويّ في الروضة قالوا إن الظالم إذا طلب الوديعة من الوديع وخاف منه عليها له أن ينكرها ويحلف على ذلك وأنت ظالم، فرسم عليه السلطان ثم شُفّع فيه فأطلقه.

أخبرنا شيخ الإسلام الوالد إجازة إن لم يكن سماعاً أن والده شيخ

---

(١) أي: القراءات العشر ومعها الأربع الشاذة.

الإسلام رضي الدين الجدّ نظم قصيدة في نحو مئة بيت في معنى سأله في نظمه تلميذه شيخ المسلمين أمين الدين ابن النجار صاحب الترجمة فأجابه إلى سؤاله وكتب إليه من القصيدة بهذه القطعة:

إلهي سيدي ربي أغثني ... وخذ بيدي ومن بعدي أجرني
إلهي قد جنيت وأي عبد ... ضعيف الخلق مثلي ليس يجني
إلهي ليس أجدر بالخطايا ... وبالتقصير والزلّات مني
إلهي لو أتيتُ بكل ذنب ... فلا أولى بعفو عنك عنّي
إلهي أنت ذو صفح جميل ... وجود واسع وعظيم منّ
إلهي ما عصيت بغير علم ... ولا أبداً أطعت بغير إذن
إلهي إن أطع فبمحض فضل ... وإن أعصِ فمن نقص ووَهن
إلهي ما لعبد حجة في ... تحمّله الجناية والتجني
إلهي إن حجتك التي قد ... علا برهانها من غير طعن
إلهي ليتني لو كنت عبداً ... بلا خطأ وهل يجدي التمني
إلهي لا كنت إذ لم ... أطعك وليت أمي لم تلدني
إلهي إن خوفي زاد لولا ... رجائي مت من همّ وحزن
إلهي مَن يناقشْ في حساب ... يعذب منه يا رب أقلني
إلهي أنت قهّار حليم ... بحقك منك يا ذخري أعذني
إلهي ليس إلا أنت ربي ... فلا أبداً بغيرك تمتحني
إلهي إن أسأتُ بغير علم ... فإني فيك قد أحسنت ظني
إلهي أنت قد حققت فقري ... إليك وليس شيء عنك يغني
إلهي إنني أخشى وأرجو ... أماناً منك فامنن لي بأمن
إلهي غيرَ بابك في أموري ... إذا ما ضقت ذرعاً لم يسعني
إلهي قد رجعت إليك عما ... سواك فلا إلى غيرٍ تكلني
إلهي مثل ما أحسنت بدءاً ... ففي العقبى بحقك لا تسئني
إلهي من يعين على وصولي ... إلى ما يرتضي إن لم تعني
إلهي من سواك يزيل همي ... ومن أدعوه مضطرّاً يجبني

إلهي لست أحصي ما به قد منحت من العطايا بلا تعني

كانت وفاة الشيخ أمين صاحب الترجمة رحمه الله تعالى سنة ثمان وعشرين وتسعمئة[1].

ابن عنان

محمد بن حسن الشيخ العالم الصالح الناسك العارف بالله تعالى الشهير بابن عنان المصريّ الشافعيّ.

تفقه بالشيخ يحيى المناويّ وهو ممن أخذ عنه أيضاً. وكان سيّدي محمد بن عنان ممن اشتهر بالجدّ في العبادة والاجتهاد في الطاعة وقيام الليل وحفظ الأوقات من التضييع، وكان يحفظ القرآن العظيم.

(١) كان لا يترك قيام الليل صيفاً ولا شتاء من حين كان صغيراً، وكان يتهيأ ويستعدّ لقيام الليل من صلاة العصر فلا يستطيع أحد أن يكلمه حتى يصلي الوتر بعد العشاء فإذا قام للتهجّد من الليل لا يتجرأ أحد أن يكلمه حتى يصلي الضحى.

وكان لا يصغي قطُّ لشيء من كلام الناس فيما لا يعنيه ولا يستمع إلى أخبار الناس لا سأل عن عزل من عُزِل ولا تولية من تولى.

(٢) قال الشيخ عبدالوهاب وسمعته مرة يقول: منذ دخلت طريق الفقراء[2] لا أقدر أجلس على حدث قطّ بل وضوئي دائم ليلاً ونهاراً، قال ولقد أصابتني جنابة مرة في ليلة باردة وكان على باب داري بركة جمد ظاهرها من البرد فنزلت فيها واغتسلت فوجدتها من شدة الهمة كأنها مسخنة بالنار، وكان إذا استنجى في الخلاء وأبطأ ماء الوضوء يرى أن يضرب يده في الحائط ويتيمم حتى يجيء الماء ولا يجلس على غير طهارة لحظة وكان

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٣٣ ـ ٣٥.

(٢) أي: الصوفية.

يقول: من ادّعى مجالسة الله عزّ وجلّ وهو يمكث على حدث لحظة واحدة فهو قليل الأدب.

(١) وظهرت له كرامات كثيرة منها ما ذكره الشيخ يوسف الحريثي أن طائفة الفقراء وردوا على سيدي محمد على غفلة وهو شاب وكانوا نحو خمسمئة فقير فأشبعهم كلهم من عجين أمّه، ستر إناء العجين بردائه وقال لأمه قرّصي منه ولا تكشفيه فأخذت منه ما كفاهم ثم أمرها فكشفت الإناء فلم تجد فيه شيئاً.

(٢) وقال الشيخ أمين الدين بن النجار: كنّا في سفر مع سيدي أبي العباس الغمري وسيدي محمد بن عنان فاشتد الحر علينا فنزل الشيخان وطرحا على حمارتيهما بردة وجلسا في ظلّها فعطش سيدي أبو العباس فلم يجد معنا ماء يشربه فأخذ سيدي محمد طاسته وغرف بها ماء بارداً من الأرض الناشفة وقدّمه لسيدي أبي العباس فلم يشرب منه فقال: يا شيخ محمد الظهور في هذه الأيام يقطع الظهور، فقال سيدي محمد: وعزة الله لولا خوف الظهور لسألت الله تعالى أن يجعلها بركة يشرب منها البهائم إلى يوم القيامة.

(٣) وقال الشيخ شمس الدين الطبخي وهو صهر سيدي محمد بن عنان إن شخصاً كان في مقبرة برهمتوش يصيح كل ليلة في قبره فأعلموا سيدي الشيخ محمد بذلك فمشى إلى قبره وقرأ عليه سورة الملك ودعا الله تعالى ساعة فمن تلك الليلة ما سمعوا له صياحاً.

(٤) وكان إذا دخل على فقير من إخوانه النافعين للناس وهو مريض يتحمل عنه المرض ويضطجع فيقوم ذلك المريض في الحال كأن لم يكن به مرض وفعل ذلك مع الشيخ أبي العباس الغمريّ وغيره.

(٥) قال الشيخ عبد الوهاب: ولما حضرته الوفاة فوق سطوح جامع باب البحر بخط المقسم مات نصفه الأسفل فصلى وهو جالس بالإيماء فلما فرغ

من الصلاة أشار إليّ: أضجعوني فأضجعناه فما زال يهمهم بشفتيه والسبحة في يده حتى كانت آخر حركة يده وشفته طلوع روحه وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة، رحمه الله تعالى[1].

المنزلاوي

محمد بن داود النسيميّ المنزلاويّ الشيخ الصالح أحد المتمسكين بالسنة المحمّدية في أقوالهم وأفعالهم.

(١) ألّف رسالة ضبط فيها أقوال النبيّ ﷺ وأفعاله وأحواله التي ظهرت لأمته وكان يقول: ليس لنا شيخ إلا رسول الله ﷺ، وكان يُضرب به المثل بمصر وبسيدي محمد بن عنان والشيخ يوسف الحديدي في اتّباع السنَّة.

(٢) وكان يقري الضيوف ويخدم الفقراء والمنقطعين عنده وينظف ما تحتهم من بول أو غائط وكان لا يتخصص عنهم بشيء ربما خصصه أهل بيته بشيء بعد أن ينام الفقراء فكان يخرج به إليهم ويوقظهم ويتساوى فيه هو وإيّاهم.

(٣) وكان ربما طرقه الضيف بعد العشاء ولم يكن عنده ما يقريه فيرفع القدر على النار ويضع فيه الماء ويوقد عليه فتارة يرونه أرزّاً ولبناً وتارة أرزاً وحلواً وتارة لحماً ومرقاً وربما وجدوا فيه لحم الدجاج.

(٤) وحكي أن سيدي إبراهيم المبتوليّ بعث إليه في الغلاء عشرة أرادب من القمح ففرقها على باب داره وفضل له منها نحو خمسة أقداح.

ومناقبه كثيرة مشهورة، وكانت وفاته في أوائل القرن العاشر ببلدة النسيميّة ودفن بجوار زاويته وقبره بها ظاهر يُزار، رحمه الله تعالى[2].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٣٩ - ٤٠.

(٢) «الكواكب السائرة»: ١/٤٦ - ٤٧.

ابن صدقة

محمد بن عبد الرحيم بن صدقة الواعظ أبو الفتح ابن الشيخ عبد الرحيم المصري. كان يعظ الناس بالأزهر وغيره إلا أنه تزوّج بامرأة زويلية فافتتن بها ـ فيما ذكره العلائي ـ حتى باع فتح الباري والقاموس وغيرهما من النفائس وركبته ديون كثيرة ثم خالعها وندم وأراد المراجعة فأبت عليه إلا أن يدفع إليها خمسين ديناراً فلم يقدر إلا على ثلاثين منها فلم تقبل فبعث بها إليها وبعث معها سماً قاتلاً وقال: إن لم تقبل الثلاثين وإلاّ أتحسّى هذا السم فردتها عليه فتحسّى السم فمات من ليلته.

وكان موته سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة[1].

ابن عراق

محمد بن علي بن عبد الرحمن، الشيخ الإمام العارف بالله تعالى المجمع على ولايته وجلالته الأستاذ أبو علي شمس الدين ابن عراق الدمشقي نزيل المدينة المنورة.

كان رحمه الله تعالى من أولاد أمراء الجراكسة وكان من طائفة الجند على زيّ الأمراء وكان صاحب مال عظيم وحشمة وافرة، ثم ترك الكل واتصل بخدمة الشيخ علي بن ميمون المغربي.

ولد في سنة ثمان وسبعين وثمانمئة، وقرأ القرآن العظيم بالتجويد على الشيخ عمر الداراني، قرأ عليه ختمات، ثم جوّد ختمة لابن كثير أفرد لروايته على الشيخ عمر الصهيوني وجوّد عليه الخط أيضاً وأخذ عنه علم الرماية ولزمه فيه ثلاث سنوات كاملات وفي أثنائها مات والده في سنة خمس وتسعين وثمانمئة، وتزوج في تلك السنة.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/ ٥٥ ـ ٥٦.

ثم توجه إلى بيروت بنية استبقاء إقطاع والده فسمع وهو في بيروت برجل فيها من الأولياء يسمى سيّدي محمد الرايق فزاره ودعا له وقال له: لا خيَّب الله سعيك، ثم قال له: يا ولدي إن أحببت التماس البركة من يد أهلها فعليك بأحد الثلاثة: رجل ببيروت يسمى الشيخ عفان، ورجل بطرابلس [يسمى] الشيخ ياسر ورجل بصيدا يسمى الشيخ عمر ابن المبيّض فيسَّر الله تعالى في ذلك الشهر باجتماعه بالثلاثة وسأل كل واحد منهم أن يدعو له أن ينقذه مما هو فيه، ثم عاد إلى دمشق واشتهر عنه أمر زيارته لهؤلاء لكنه اشتغل بالفروسية والرمي والصيد ولعب الشَّطْرنج والنرد والدّفاف والتنعُّم بالمأكولات والملبوسات وإنشاء الإقطاع والفدادين.

ولم يزل مع هذه الأمور مواظباً على الصلوات وزيارة الصالحين وحبّ الفقراء والمساكين حتى مضى خمسة أعوام ولم يتيسر له من يوقظه من هذا المنام حتى كان يوم جمعة صادف فيه الشيخ إبراهيم الناجي في جبانة الباب الصغير فنزل سيدي محمد عن فرسه إجلالاً للشيخ وسلم على الشيخ فقال الشيخ: من يكون هذا الإنسان؟ فقيل له فلان ابن فلان فأهّل به ورحَّب وترحّم على والده، فسأله سيدي محمد أنه يدعو له أن ينقذه الله تعالى مما هو فيه فقال له: لو حضرت الميعاد ولازمتنا لحصل الخير قال سيدي محمد: فوادعته وسرت لصلاة الجمعة فتعلَّق قلبي بحبّه وبت تلك الليلة وعزمت على حضور ميعاده بكرة السبت في زاوية سيدي أبي بكر الموصلي رضي الله تعالى عنه .

قال سيدي محمد فما صليت صبح نهار السبت إلا بالزاوية المذكورة وحضرت الميعاد وكان بحضرة جماعة من الصالحين ويسَّر الله تعالى ببركته ترك بعض ما أنا فيه فاشتغلت بالتجارة والزراعة وجعلتهما مهنتي. ثم استمر سيدي محمد رضي الله تعالى عنه في صحبة الشيخ

محمد الناجي حتى مات وأخذ عنه وعن الفضل ابن الإمام وعن الشيخ شهاب الدين ابن مكيّة النابلسي علم التفسير والحديث والفقه وهي العلوم الشرعية وأخذ علم الأصول والنحو والمعاني والبيان عن جماعة.

وكان بعد موت شيخه الناجي يدعو الله تعالى عقب صلاته وفي أسحاره أن ييسر الله تعالى له من ينقذه ويطهره من أوزاره حتى لاحت له ناصية الفلاح وجاء المرشد سيدي علي بن ميمون إلى باب داره عند الصباح فكان كماله على يده. وفي هذا السنة حج سيدي علي بن ميمون ثم قدم من الحج وتوجه إلى الروم وأقام بها خمس سنوات يدعوهم إلى الله تعالى على بصيرة، وكان سيدي محمد سأله المسير معه فقال له: توجه إلى سيدي عبد القادر بن حبيب يحصل باجتماعك به كل خير ثم قال: أقرئه عني السلام فسار إليه وتلقن منه الذكر وأقام عنده سبعة عشر يوماً وكان كل يوم يعدل سنين.

ثم أشار إليه ابن حبيب أن يرجع إلى والدته وسأله في الحج فقال: إن تيسرت لك الأسباب فلا بأس.

ودخل مصر سنة خمس وتسعمئة فاجتمع فيها بجماعة من العلماء الصالحين من أعلمهم وأفضلهم شيخ الإسلام زكريا والحافظ الجلال السيوطي والدمياطيّ، واجتمع من الأولياء بجماعة وحصلت له بركتهم، وأشاروا عليه بالعود إلى والدته فعاد في بحر النيل إلى دمياط واجتمع فيها بعلماء أخيار.

حصّل بالبلدتين المذكورتين في مدة يسيرة من أهل العلم ما لم يحصل المرء في أعوام، ثم ركب البحر الكبير إلى بيروت دخلها ليلة عيد الفطر سنة خمس المذكورة ثم عاد إلى والدته بدمشق ثم استأذنها في الحج فأذنت له فحج من دمشق فلما عاد من الحج خطر له أن يتوجه إلى سيدي علي بن ميمون فاستخار الله تعالى واستشار من إخوانه الشيخ

محمد ابن الشيخ يعقوب وسيدي الشيخ محمد البلاطنسي والشيخ محمد ابن البزة فاشاروا عليه أن يسير إلى بيروت بنيّة المرابطة والجهاد وطلب العلم فسار إليها وصحبه الشيخ محمد بن يعقوب فتلقاهما بها سيدي محمد بن الغصين البيروتي وسيدي محمد القطب الصرفندي وسيدي محمد الطيَّار ثم تكلموا في خطبة زوجته أم محمد عبد الله فقال لهم: كرروا الاستخارة في ذلك وما يلقيه الله تعالى في قلوبكم فهو خير فباتوا تلك الليلة وأصبحوا كل واحد منهم رأى واقعة تؤذن بالزواج فتزوج وبنى بها سنة ست وتسعمئة وبقي بساحل بيروت إلى سنة عشر وتسعمئة فخرج منها عن كل ما يملك ورفض الدنيا وأعرض عنها، وهاجر بأهله إلى دمشق.

سمعت شيخنا رضي الله تعالى عنه يحكي مراراً عن والده الشيخ يونس العيثاوي رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: ما رأينا من كان مقبلاً على الدنيا ثم تركها حقيقة وأعرض عنها إعراضاً كلياً ثم لم يعد إليها ولم يكن ليعرج عليها حتى لقي الله تعالى إلا سيّدي محمد بن عراق رضي الله تعالى عنه.

وبقي سيدي محمد بدمشق حتى قدم سيدي علي بن ميمون من الروم، إلى حماة سنة إحدى عشرة وتسعمئة فبعث إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الله تعالى فلما وصل كتابه إليه بادر إلى الامتثال وأسرع في الحال وسافر إليه ثاني اثنين فاجتمع به يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول فلما سلَّم عليه وأذن له بالجلوس بين يديه فتح عليه بإذن الله تعالى وأعطي لسان المعرفة من يومئذ وأقام بحماة أربعة أشهر وعشرة أيام كل يوم يزداد علماً وهدى من الله تعالى ثم أذن له الشيخ علي بالمسير إلى بيروت فسافر إليها وقعد لتربية المريدين.

ثم كاتبه جماعة من أعيان دمشق في القدوم عليهم فسافر إلى

دمشق ونزل ببيت ابن الباعوني من صالحية دمشق وجلس ثَمَّ للإرشاد أياماً وكان الناس يجتمعون إليه يوم الخميس للتأديب ويوم الجمعة لتجويد القرآن ويوم السبت لقراءة الحديث والفقه.

(١) ثم سافر إلى صفد فعزم على الإقامة بها والانقطاع بمغارة يعقوب عليه السلام فلم يتيسر له واجتمع عليه بها جماعة منهم ومن بلاد عجلون وعكا وكانت مدة إقامته بصفد ثلاثة أشهر وأياماً وهي رجب وشعبان ورمضان وفي سابع شوال وصل إليه كتاب من أهله يذكرون فيه أن نائب الشام ناوي المسير إلى الحج في سادس عشر الشهر وأنه جعل الحاج بيد سيدي محمد فأجابهم بأني لا أسير في ركب إلا أن يكون على الكتاب والسنة وهذا متعذر.

(٢) فلما وصل الجواب إلى دمشق وافق يوم وصوله وصول الشيخ علي رضي الله تعالى عنه إلى دمشق بنيّة حجة الإسلام فلما بلغه ذلك شقّ عليه وأرسل مندوبه إلى سيدي محمد بكتاب مضمونه: يا أخي إن لم يشرح الله صدرك للمسير وإلا رجعنا.

(٣) فألقى الله تعالى في قلبه إجابتهم وأرسل إليهم إني ألاقيكم إلى المزيريب وأذن لعياله بالمسير معهم فلما حصل الاجتماع كان المسير على السنَّة ببركة سيدي محمد رضي الله تعالى عنه، والمراد بكون المسير على السنَّة أنهم أبطلوا أجراس الجمال ونحو ذلك من البدع التي حدثت في ركب الحج وهذا ليس إلاّ كرامة لسيدي محمد.

وبلغني أن سيّدي محمد ذهب في هذه السفرة ماشياً، وكانت هذه السنة سنة أربع وعشرين وتسعمئة ثم قطن سيدي محمد من يومئذ بمدينة النبي ﷺ وتردد بين الحرمين الشريفين مراراً وحج كذلك مرات وقصد بالمدينة المنورة للإرشاد والتربية واشتهر بالولاية.

(٤) وبلغني أن رجلاً اشتطّ عليه مرّة بالمدينة وسيّدي محمد معرض عنه

محتمل لأذاه فلما انصرف قال له قائل: يا سيّدي ما لك لا تنتقم من هذا السفيه فاعتذر عنه بأنه لم يفعل ذلك إلا لأمر ظهر له علي أوجب الإنكار وإن كنت منه بريئاً.

وقد كان في عصره مفرداً علماً وإماماً مقدماً وليثاً على النفس قادراً.

(١) ومن كلامه أنه كان يقول: إني أرى الخمول نعمة وكل أحد يأباه، وأرى الظهور نقمةً وكل أحد يتمنّاه، إلاَ وإن في الظهور قصمَ الظهور.

(٢) ومن كلامه: اعلم أنه لا يجوز لمن يدّعي المشيخة أن يتظاهر بين أظهر العباد، ويتصدّر للسلوك والإرشاد، حتى يتصف باثنتي عشرة خصلة اثنتان من الله، واثنتان من رسول الله ﷺ، وثنتان من الصدّيق رضي الله تعالى عنه، وثنتان من الفاروق رضي الله تعالى عنه، وثنتان من ذي النورين رضي الله تعالى عنه، وثنتان من جدّ الحسنين رضي الله تعالى عنهم فأمّا اللتان من الله يكون غفوراً رحيماً، واللتان من النبي ﷺ يكون رؤوفاً رحيما، واللتان من أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يكون صديقاً سليماً، واللتان من عمر رضي الله تعالى عنه يكون غيوراً فهيماً، واللتان من عثمان رضي الله تعالى عنه يكون حيِيّاً كريماً، واللتان من علي رضي الله تعالى عنه يكون شجاعاً عليماً، ثم قال: فيحق لمن اتصف بذلك، أن يكون عمدة للسالك، ومرشداً ومنقذاً للهالك.

(٣) وكان يأمر أصحابه بحفظ القرآن، وكان يقول كل ليلة بعد صلاة العشاء عقب قراءة المُلك:

كلام قديم لا يملّ سماعه ... تنزه عن قلبي وفعلي ونيتي
به أشتفي من كل داء وإنه ... دليل لعلمي عند جهلي وحيرتي
فيا رب متّعني بحفظ حروفه ... ونوّر به قلبي وسمعي ومقلتي

دفن بمكة بعد أن مات بها سنة ثلاث وثلاثين وتسعمئة ودفن من الغد بباب المعلى وحضر جنازته سلطان مكة.

مات عن أربع وخمسين سنة[1].

محمد الجلجوليّ

الشيخ الإمام العالم العامل الخاشع الناسك وليّ الله تعالى العارف به سيدي أبو العون الغزّي الجلجولي الشافعي القادري أصله من غزة وسكن جلجوليا ثم انتقل في آخر عمره إلى الرملة ثم استمر بها إلى أن مات رضي الله تعالى عنه، صحب الشيخ العلامة وليّ الله تعالى الشيخ شهاب الدين الرملي الشهير بابن رسلان واصطحب هو وشيخ الإسلام رضيّ الدين الغزّي جدّي كثيراً. وكان نفعه متعدياً، وكان كثير القِرى للواردين عليه من الغرباء وغيرهم، وكان تفد إليه الناس بالهدايا وللزيارة والتبرك بأنفاسه، وترد عليه المظلومون ويستشفعون به فيشفع لهم وكانت شفاعته مقبولة وكلمته نافذة عند الملوك والأمراء فمن دونهم لا ترد له شفاعة وكانت أحواله ظاهرة وكراماته متوافرة.

(١) قلت: وبلغني أن بعض أولياء دمشق أراد أن يستكشف أمر سيدي أبي العون ويسأله عن بُدوٍّ أمره فبعث إليه بعض مريديه ولم يذكر له فيما بعثه بل قال له: اذهب زائراً إلى سيدي أبي العون وقل له: أخوك فلان يسلم عليك، ولم يزد على ذلك وقال له: انظر أول شيء يضيفك به فأخبرني عنه إذا رجعت، فذهب المريد إلى الشيخ أبي العون فأول شيء أقراه به قلقاس مطبوخ ثم لما انقضت زيارته وأراد الرجوع إلى شيخه قال له الشيخ أبو العون: إذا سألك شيخك عن أول طعام أكلته عندنا فقل له: قلقاس، فكان ذلك بدائع كشف سيدي أبي العون ولطائف إشاراته.

(٢) وحكي أن بعض الفقهاء ارتحل إلى الشيخ أبي العون يقصد الزيارة فلما دخل على الشيخ أبي العون رأى في جماعته الغث والسمين والبرّ

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/ ٥٩ ـ ٦٨.

والفاجر فقال في نفسه: لا ينبغي أن يكون أصحاب الشيخ كلهم إلا أخياراً ولا يليق بصحبته مثل هؤلاء الأشرار أو نحو هذا الكلام، فما استتم هذا الخاطر حتى قال له الشيخ أبو العون: يا أخي إن الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنه كان في جماعته البر والفاجر فأما الأبرار فكانوا يزدادون به براً وأما الأشرار فكان الله يصلحهم بصحبته فعرف الفقيه أن الشيخ كاشفه بخاطره فاستغفر الله تعالى واعتذر من الشيخ.

(١) حكى الشيخ موسى الكناوي رحمه الله تعالى أن امرأة من أهل حلب خرجت من الحمام في جماعة من النسوة فاحتملها رجل من الجند من جماعة نائب حلب وأراد أن يذهب بها إلى الفاحشة وعجز الناس عن خلاصها فجاء رجل يقال له قاسم بن زَنزَل وكان من أهل الشجاعة والزعارة فضرب الجندي ليستخلص منه المرأة فقضى عليه، فمضى قاسم لوجهه هارباً ثم لما أصبح عاد إلى المدينة ودخل الحمَّام فلما أحس به نائب حلب بعث في طلبه جماعة فدخلوا عليه الحمّام فقال لقيِّم الحمام: اعطني سراويلي وخنجري فخرج عليهم فتفرقوا عنه فهرب منهم، فاستمر على وجهه على طريق الساحل حتى دخل جلجوليا فدخل على الشيخ أبي العون فدعا له الشيخ وكاشفه بما وقع وقال له: كيف تقتل مملوك السلطان فاعتذر بما فعله الجندي فقال له: لك الأمان، ثم كتب الشيخ كتاباً إلى نائب دمشق قانصوه اليحياوي وكتاباً إلى نائب حلب وقال له: اسق الماء واترك الزعارة قال: نعم، ثم ذهب قاسم إلى دمشق بكتاب الشيخ أبي العون إلى اليحياوي فأكرمه ودفع إليه نحو مئة درهم لكرامة الشيخ ثم كتب إلى نائب حلب بإكرامه والعفو عنه لأجل الشيخ فأكرمه نائب حلب وعفا عنه واستمر قاسم يسقي الماء ويلازم زيّ الفقراء حتى صار رجلاً مذكوراً.

وكانت وفاة سيدي أبي العون بالرملة في سنة عشر وتسعمئة وصلي

عليه صلاة الغائب بجامع دمشق، وقبره رضي الله تعالى عنه داخل مدينة الرملة يقصد للزيارة[1].

محمد المغربي

الشيخ الصالح العالم الزاهد الورع المسلّك المرّبي العارف بالله تعالى سيدي شمس الدين المعروف بالمغربي الشاذلي بالقاهرة.

كان من أولاد الأتراك وإنما اشتهر بالمغربي لكون أمه تزوجت مغربياً.

(١) وكان كريم النفس يعطي السائل الألف كأنه لم يعطه شيئاً.

(٢) وكان ينفق النفقة الواسعة من الغيب وكثيراً ما كان يأتيه المدين فيقول: يا سيدي ساعدني في وفاء ديني فيقول له: ارفع طرف الحصير وخذ ما تحته فربما رأى تحته أكثر من ديونه فيقول له أوف دينك وتوسّع بالباقي وكان مع كثرة إعطاآته يفتّ الرغيف اليابس في الماء ويأكله وينشد:

اقنـع بلقمـة وشـربـة مـاء ولبـس الخيـش
وقـــل لقلبـــك ملـــوك الأرض راحوا بِيش

(٣) ودخل عليه السلطان قايتباي يزوره ورسم له بألف دينار فردّها وأنشد البيت فبكى السلطان قايتباي حتى بل منديله وقال له: فرقها على المحبين فقال له: من تعب في تحصيلها فهو أولى بتفرقتها ولم يقبل الألف دينار.

(٤) وكان يقول من أكثر على الله الردّ، فهو من أهل الطرد.

وكان علماء مصر قاطبة يذعنون له في العلوم العقليّة والوهبية ويستفيدون منه العلوم التي لم تطرق سمعهم قط.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/ ٧٤ ـ ٧٧.

وذكر الحمصي أنه كان مقيماً بقنطرة سنقر بالقاهرة وكان له كشف وكرامات ظاهرة.

وكانت وفاته سنة إحدى عشرة وتسعمئة بمنزله ودفن قريباً من باب القرافة وقبره ظاهر يزار رحمه الله تعالى[1].

محمد المحرقي

الشيخ الإمام العالم أبو الفضل محب الدين ابن المحرقي خطيب الجامع الأزهر بمصر.

وهو أحد الخطباء الذين أمرهم السلطان قانصوه الغوري أن يخطبوا بين يديه كل واحد في جمعة وسبب ذلك أن بعض القضاة أراد أن يشارك قاضي قضاة الشافعية في خطبة القلعة بمصر وكانت الخطبة إذ ذاك تختص بقضاة الشافعية وكان قاضي قضاة الشافعية يومئذ البرهان القلقشندي وكان يستنيب في الخطابة الشيخ شهاب الدين الحمصي وكان السلطان تعجبه خطبته على خطبة قاضي القضاة المستنيب له فاتفق أن الشيخ شهاب الدين الحمصي مرض وانقطع عن الخطبة فخطب قاضي القضاة المذكور أول جمعة في رجب سنة ثلاث عشرة وتسعمئة والخطبة الثانية فأرسل السلطان إليه أن لا يخطب إلا الشيخ شهاب الدين الحمصي فقيل له إنه مريض فقال السلطان: يخطب القاضي الحنفي جمعة، والمالكي جمعة، والحنبلي جمعة وخطباء البلد كلٌّ جمعة إلى أن يبرأ الحمصي وكان ذلك موافقاً لما أراده بعض القضاة المتقدم ذكره فبرأ الحمصيّ قبل يوم الجمعة فحضر الخطيب وخطب وحضر قاضي القضاة السريّ ابن الشحنة للخطبة فسبق وقفل عليه باب القلعة فدخل على السلطان واستأذن في الخطابة في الجمعة الآتية فأذن فلما كان يوم الجمعة وهي رابع جمعة في رجب

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٧٨ ـ ٧٩.

المذكور طلع القلعة قاضي القضاة الحنفية المشار إليه وتعمم بعمامة سوداء وألقى على رأسه وكتفيه طرحة سوداء فعلق طرفها بالحصير فسقطت عمامته عن رأسه فلبسها ثم صعد المنبر وخطب وانتقدت عليه تكلفات حصلت في خطبته.

(١) ثم خطب في الجمعة الثانية منها قاضي القضاة المالكية برهان الدين الدميري بعد أن استعفى فلم يقبل منه فارتج وسقط عن المنبر ثم قام بعضده رجل حتى رقي المنبر فلما شرع في الخطبة ارتج عليه القول وقام وقعد مراراً.

(٢) ثم خطب في الجمعة الثالثة قاضي القضاة الحنابلة شهاب الدين الشيشني وأجاد في الخطبة الأولى لكن أطال في الثانية وساق فيها المواعظ ونزل فصلى فسها عن الفاتحة وشرع في السورة فنبهه رجل من الحاضرين على قراءة الفاتحة فعاد لقراءتها.

ثم خطب في الجمعة الرابعة الشيخ العلامة كمال الدين الطويل الشافعي، ثم العلامة شمس الدين الغزي خطيب الغورية في الخامسة.

(٣) ثم القاضي شرف الدين البرديني الشافعيّ في السادسةِ ونسي الجلوس بين الخطبتين.

ثم الشيخ العلامة محب الدين المحرقي خطيب الأزهر وهو صاحب الترجمة والشيخ يحيى الرشيدي خطيب الأرتكية ثم القاضي فخر الدين الطويل نقيب الشافعي ثم قاضي القضاة البرهان القلقشندي صاحب الوظيفة، قال الحمصي في تاريخه وشرط عليه أن لا يعود.

ثم استقر الحمصي المذكور يخطب نيابة عنه.

(٤) ووقع رعب السلطان الغوري في قلوب بعض هؤلاء الخطباء بسبب الخطبة بين يدي السلطان حتى كان سبباً لموت القاضي

برهان الدين الدميريّ المالكيّ وصاحب الترجمة. واستمر ضعيفاً حتى مات يوم الأربعاء سنة ثلاث عشرة وتسعمئة رحمه الله تعالى[١].

محمد الضيروطيّ

الشيخ الإمام العالم الفقيه الواعظ شمس الدين الضيروطيّ الشافعيّ.

(١) قالت والدته: لما حملت به رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وأعطاني كتاباً فأولته بولدي هذا.

(٢) وكان محققاً بارعاً زاهداً كثير البكاء من خشية الله تعالى، وكان يرابط في برج له بناه بثغر دمياط ليلاً ونهاراً.

(٣) وكان يعظ الناس في الجامع الأزهر بمصر وكان على مجلسه أبّهة وسكينة يحضره الأمراء فمن دونهم فيكثر عويلهم وبكاؤهم.

وحصل له القبول التام عند الخاص والعام، وكان لا يكاد يمشي وحده بل الناس يتبعونه ومن لم يصل إليه رمى بردائه على الشيخ حتى يمس ثياب الشيخ به ثم يرده إليه ويمسح به وجهه.

(٤) وكان قوّالاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم وشدَّد النكير يوماً على السلطان الغوري في ترك الجهاد على الكرسي فبلغ السلطان ذلك فبعث إليه وقال له: ما حملك على أن تذكرني بالنقائص بين العوام؟ فقال: نصرة الدين، فقال: ما عندنا مراكب معدّة للجهاد، فقال: عمِّر لك مراكب أو استأجر وأغلظ على السلطان فاصفرّ لون السلطان وأمر له بعشرة آلاف دينار فردّها وقال: أنا رجل تاجر لا أحتاج إلى مالك فقال: عمّر بها في البرج فقال: أنا لا أحتاج إلى أحد يساعدني فيه ولكن إن كنت محتاجاً إلى شيء تصرفه على الجهاد أقرضك وأصبر عليك، ثم طال بينهما الكلام فقال الشيخ للسلطان: أمَا تؤدي شكر ما أنعم الله تعالى به عليك، قال: فبماذا؟ قال: كنت كافراً فمنَّ الله عليك بالإسلام، وكنت

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/ ٧٩ ـ ٨٠.

رقيقاً فمنَّ الله عليك بالعتق ثم جعلك أميراً ثم سلطاناً ثم عن قريب يميتك ويجعلون أنفك في التراب ثم يحاسبك على النقير والقطمير ويناديَ عليك يوم القيامة: من له حقٌّ على الغوريّ، فيا طول تعبك هناك فبكى السلطان.

(١) وكان الشيخ يتاجر في الأشربة والأدوية وكان لا يأكل من الصدقات ويقول إنها تسوّد قلب الفقير[١].

وكان يتواضع لأشياخه ولو في مسألة من العلم وكان إذا تكلم في علم من العلوم ينصت العلماء له ويعترفون بفضله.

(٢) وكان يتطوَّر ويختفي عن العيون وربما كان يتكلم مع جماعة فيختفي عنهم وربما كانوا وحدهم فوجدوه بينهم، وأشار مرة إلى سفينة فيها لصوص فتسمّرت ثم أشار إليها فانطلقت وتاب اللصوص على يديه، وأخبر زوجته أن ابنها حمزة يقتل شهيداً بمدفع يطيّر رأسه وكان الأمر كذلك.

وله من المؤلفات شرح المنهاج للنووي وشرح الستين مسألة لسيدي أحمد الزاهد، وكتاب القاموس في الفقه وقطعة من شرح الإرشاد.

(٣) مرض رحمه الله تعالى فأخبر والدته أنه يموت في هذه المرضة فمات رضي الله تعالى عنه سنة إحدى وعشرين وتسعمئة ودفن في زاويته في دمياط.

(٤) قال الشعراوي: وأخبرني ولده السريّ أن والدته أخبرته أنها رأت الشيخ بعد موته في المنام فقالت له: كيف حالك في منكر ونكير فقال: كلمونا في كلام مليح وأجبناهم بلسان فصيح، رضي الله تعالى عنه[٢].

محمد البدخشي

ويقال البلخشي باللام، الشيخ الصالح العارف بالله تعالى الصوفيّ الحنفيّ.

---

(١) أي الصوفي.

(٢) «الكواكب السائرة»: ١/ ٨٤ ـ ٨٥.

صحب الشيخ المشهور بابن المولى الانزاري، وكان على طريقة شيخه من ترك الدنيا والتجرد من علائقها، ثم توطن مدينة دمشق.

(١) ولما فتح دمشق السلطان سليم بن عثمان رحمه الله تعالى ذهب إلى بيت الشيخ المذكور مرتين.

(٢) وسمعت صاحبنا الشيخ الصالح إبراهيم ابن أبي بكر السيوري رحمه الله تعالى يحكي عن أبيه الشيخ الصالح أبي بكر أن هذا الشيخ كان مقيماً برواق الجامع الأموي الشمالي وكان يجلس عند شباك الكلاسة الذي يلي الزاوية الغزالية وأن السلطان سليم زاره بهذا الموضع مرتين وفي المرة الأولى لم يجر بينهما كلام، وفي المرة الثانية سكت السلطان سليم خان أيضاً وتكلم الشيخ محمد فقال: كلانا عبد الله وإنما الفرق بيني وبينك أن ظهرك ثقيل من أعباء الناس وظهري خفيف عنها فاجتهد أن لا تضيّع أمتعتهم.

(٣) قلت: وهذه منقبة عظيمة للسلطان سليم خان رحمه الله تعالى أفصحت على حسن خلق وأدب ومعرفة واتضاح فرحمه الله تعالى. وذكر ابن طولون في تاريخه أن زيارة السلطان للبلخشي كانت ليلة الاثنين سابع عشرة رمضان سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة وأنه دخل الجامع الأموي فصلى بالمقصورة وقرأ في المصحف العثماني وزار قبر رأس سيدي يحيى عليه السلام ثم قبر هود عليه السلام ثم صعد المنارة الشرقية ثم جاء إلى الكلاسة فزار بها الشيخ محمد البلخشي ثم مشى إلى داخل الجامع وجلس معه ساعة وعرض عليه دراهم فأبى أخذها ووصّاه بالرعية.

وفاته بدمشق في أواخر سنة اثنتين وعشرين أو في أوائل سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة[١].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/ ٨٩ ـ ٩٠.

ابن أبي شريف

الشيخ الإمام، الحبر الهمام، العلامة المحقق والفهامة المدقق شيخ مشايخ الإسلام ومرجع الخاص والعام مولانا وسيدنا قاضي القضاة أحد سيوف الحق المنتضاة أبو إسحاق برهان الدين ابن الأمير ناصر الدين ابن أبي شريف المقدسيّ المصريّ الشافعيّ أحد أجلاء شيوخ شيخ الإسلام الوالد.

ولد بالقدس الشريف في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمئة ونشأ بها واشتغل بفنون العلم على أخيه شيخ الإسلام الكمال ابن أبي شريف ورحل إلى القاهرة فأخذ الفقه عن قاضي القضاة علم الدين صالح البُلقينيّ وعن قاضي القضاة شمس الدين محمد القاياتي والأصول عن الشيخ جلال الدين المحلي وسمع عليه في الفقه أيضاً، وأخذ الحديث عن شيخ الإسلام ابن حجر وعن غيره، وتزوج بابنة قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناويّ قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية وناب عنه في القضاء ودرّس وأفتى وصنّف ونظم ونثر، ووقفت له على ديوان خطب في غاية البلاغة والفصاحة.

ترجمه صاحب «الأنس الجليل» فيه في حياته وقال: وَلِيَ المناصب السنية وغيرها من الأنظار بالقاهرة المحروسة وعظم أمره واشتهر صيته وصارَ الآن المعوّل عليه في الفتوى بالديار المصرية، قال: وهو رجل عظيم الشأن، كثير التواضع، حسن اللقاء، فصيح العبارة، ذو ذكاء مفرط، وحسن نظم ونثر، وفقه نفيس وكتابة على الفتوى نهاية في الحسن، ومحاسنه كثيرة وترجمته وذكر مشايخه يحتمل الإفراد بالتأليف.

وقال النعيمي: فُوِّض إليه قضاء مصر في تاسع عشر ذي الحجة سنة ست وتسعمئة عوض محيي الدين عبدالقادر ابن النقيب، قلت: وبقي في قضاء قضاة الشافعية بمصر إلى يوم الخميس رابع ربيع الأول سنة عشر وتسعمئة فعزل بقاضي القضاة شهاب الدين أحمد ابن الفرفور.

(١) ثم أنعم عليه السلطان الغوريّ بمشيخة قبّته الكائنة قبالة المدرسة الغورية بمصر في يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة عشر واستمر في المشيخة المذكورة إلى ذي القعدة سنة تسع عشرة وتسعمئة فوقعت حادثة بمصر وهي أن رجلاً اتهم أنه زنا بامرأة فرفع أمرهما إلى حاجب الحجّاب بالديار المصرية الأمير انسبائي فضربهما فاعترفا بالزنا ثم بعد ذلك رفع أمرهما إلى السلطان الغوريّ فأحضرا بين يديه وذكرا أنهما رجعا عمّا أقرّا به من الزنا قبل ذلك فعقد السلطان لهما مجلساً جمع فيه العلماء والقضاة الأربعة فأفتى شيخ الإسلام برهان الدين صاحب الترجمة بصحة الرجوع فغضب السلطان لذلك وكان المستفتي القاضي شمس الدين الزنكلونيّ الحنفيّ وولده فأمر السلطان بهما فضربا في المجلس حتى ماتا تحت الضرب، وأمر بشنق المتهمين بالزنا على باب صاحب الترجمة فشنقا وعزل صاحب الترجمة من مشيخة القبة الغورية والقضاة الأربعة: الكمال الطويل الشافعيّ والسريّ ابن الشحنة الحنفيّ والشرف الدميريّ المالكيّ والشهاب الشبشتي الحنبليّ، وكانت هذه الواقعة سبباً لتكدر دولة الغورية وتبادي انحلال ملكه حتى قتل بعد سنتين بمرج دابق ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢) واستمر صاحب الترجمة ملازماً لبيته والناس يقصدونه للأخذ عنه والاشتغال عليه في العلوم العقلية والنقلية واقتناص فوائده العلمية والأدبية، قال الشعراويّ: فكان من المقبلين على الله عز وجل ليلاً ونهاراً لا يكاد يسمع منه كلمة يكتبها كاتب الشمال، وكان لا يتردد لأحد من الولاة أبداً، وكان الإنسان إذا عرض عليه محفوظاته يتلجلج من شدة هيبته فيباسطه حتى يسكن روعه. وكان له في القدس مصبنة يعمل فيها الصابون وكان يتقوت منها، وكان لا يأكل من معاليم مشيخة الإسلام شيئاً. وكان قوالا بالحق آمراً بالمعروف لا يخاف في الله لومة لائم. وعارضه السلطان الغوريّ في واقعة[1] فما أفلح بعدها أبداً وسلب ملكه وكان الناس يقولون: جميع ما

---

(١) هي واقعة المتهمين بالزنا التي ذُكرت آنفاً.

وقع للغوري بسرّ الشيخ برهان الدين انتهى.

(١) ومن لطائفه ما ذكره عنه محدّث حلب الزين ابن الشماع في عيون الأخبار قال: وقد حضرت درسه بالقاهرة سنة إحدى عشرة فأتى بفوائد كثيرة وختم المجلس بنكتة فيها بشارة جليلة فقال ما حاصله: أختم المجلس ببشارة عظيمة ظهرت في قوله تعالى: ﴿نبّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ قال: قوله تعالى: ﴿نبّىء﴾ أي يا محمد، ﴿عبادي﴾ أي شَرَّفَهم بياء الإضافة إلى تقدس ذاته فأوقع ذكرهم بينه وبين نبيّه فعبادٌ وقع ذكرهم بين ذكر نبيهم وذكر ربهم لا ينالهم إن شاء الله تعالى ما يضرهم بل المرجو من كرم الله تعالى أن يحصل لهم ما يسرهم انتهى.

ومن مؤلفاته شرح المنهاج في أربع مجلدات كبار، وشرح الحاوي، وكتاب في الآيات التي فيها الناسخ والمنسوخ وغير ذلك.

وكانت وفاته رحمه الله تعالى سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة، دفن بالقرب من ضريح الشافعيّ رضي الله تعالى عنه[1].

الأرمنازيّ

إبراهيم بن أبي الوفاء بن أبي بكر الشيخ الصالح المعمر المعتبر برهان الدين الأرمنازيّ ثم الحلبيّ الشافعيّ.

كان من حفّاظ كتاب الله تعالى، وكان إماماً للسلطان الغوريّ حين كان حاجب الحجاب بحلب فلما تسلطن توجه الشيخ إبراهيم إليه بالقاهرة وحج منها في سنة ست وتسعمئة ثم عاد إليها واجتمع به فأحسن إليه وأمره بالإقامة لإقراء ولده فاعتذر فقبل عذره ورتب له ولأولاده من الخزينة ثلاثين ديناراً في كل سنة ثم عاد إلى حلب.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١٠٢ ـ ١٠٥.

(١) قال ابن الحنبلي: واتفق له أنه قرأ في طريق الحاج ذهاباً وإياباً وفي إقامته بمصر قدر شهرين ما يزيد على ثلثمئة وخمسين ختمة.

(٢) قيل: وكان راتبه في الإقامة مع قضاء مصالحه في اليوم والليلة ختمة وبدونه ختمة ونصفاً، وكان يمشي في الأسواق فلا يفتر عن التلاوة.

توفي بحلب سنة سبع وعشرين وتسعمئة رحمه الله تعالى[١].

فقيه اليشبكيّة

إبراهيم بن أحمد بن يعقوب الشيخ العلامة برهان الدين الكرديّ القصيريّ الحلبيّ الشافعيّ المعروف بفقيه اليشبكية بحلب لتأديبه الأطفال بها.

ولد بقرية عارة من القصير من أعمال حلب، وانتقل مع والده إلى حلب صغيراً فقطن بها وحفظ القرآن العظيم ثم الحاوي ودخل إلى دمشق فعرضه على البدر ابن قاضي شهبة والنجمي والتقوي ابني قاضي عجلون، وسمع الحديث بها وبالقاهرة على جماعة.

(٣) قال ابن الشماع: ولم يهتم بالحديث كما ظهر لي من كلامه وإنما اشتغل في القاهرة بالعلوم العقلية والنقلية. وقال ابن الحنبليّ: كان ديّناً خيّراً كثير التلاوة للقرآن، معتقداً عند كل انسان، طارحاً للتكلف، سارحاً في طريق التقشف، مكفوف اللسان عن الاغتياب، مثابراً على إفادة الطلاب، إلى أن قال: وقد انتفع به كثيرون في فنون كثيرة منها العربية والمنطق والحساب والفرائض والفقه والقراآت والتفسير قال: وكنت ممن انتفع به في العربية والمنطق والتجويد.

(٤) قال: ولما كفّ بصره رأى النبي ﷺ في المنام فوضع يده الشريفة على إحدى عينيه قال فكانت لها بعد ذلك رؤية ما.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١٠٦/١.

وكانت وفاته سنة ثلاث وثلاثين وتسعمئة رحمه الله تعالى[1].

العيدروسيّ

أبـو بكر بن عبـدالله الشيخ الصـالـح العـارف بـالله تعـالى الشـاذليّ المعروف بالعيدروسيّ.

هو مبتكر القهوة المتخذة من البن من اليمن وكان أصل اتخاذه لها أنه مرّ في سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكاً مع كثرته فوجد فيه تجفيفاً للدماغ واجتلاباً للسهر وتنشيطاً للعبادة فاتخذه قوتاً وطعاماً وشراباً وأرشد أتباعه إلى ذلك ثم انتشرت في اليمن ثم إلى بلاد الحجاز ثم إلى الشام ومصر ثم سائر البلاد، واختلف العلماء في أوائل القرن العاشر في القهوة وفي أمرها حتى ذهب إلى تحريمها جماعة ترجح عندهم أنها مضرة وآخر من ذهب إليه بالشام والد شيخنا الشيخ شهاب الدين العيثاويّ ومن الحنفية بها القطب ابن سلطان وبمصر الشيخ أحمد بن أحمد بن عبدالحق السنباطيّ تبعاً لأبيه والأكثرون ذهبوا إلى أنها مباحة وقد انعقد الإجماع بعد من ذكرناه على ذلك[2] وأما ما ينضم إليها من المحرمات فـلا شبهة في تحريمه ولا يتعدى تحريمه إلى تحريمها حيث هي مباحة في نفسها، وأما مبتكـرها صـاحب الترجمـة فإنـه في حدّ ذاتـه من سادات الأوليـاء وأئمة العارفين.

وكانت وفاة صاحب الترجمة في أوائل القرن المذكور ولعله لم يدرك العاشرة منه[3].

ابن قاضي عجلون

ابـو بكر بن عبـدالله بن عبدالـرحمن الشيخ العـالم العـلامـة المتقن

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) أي على الإباحة.

(٣) أي في حدود: ٩١٠ هـ، وانظر «الكواكب السائرة»: ١/١١٣ ـ ١١٤.

المحرر الفهامة القدوة الأُمّة والرُّحَلَة العمدة الإمام الهمـام، شيخ مشـايخ الإسلام، أبو الصدق تقي الدين ابن الشيخ العلامة أقضى القضاة ولي الدين ابن قاضي عجلون الزرعيّ الدمشقيّ الشافعيّ.

ولد بدمشق سنة إحدى وأربعين وثمانمئة واشتغل على والده وأخيه شيخ الإسلام الشيـخ نجم الدين وعلى شيـخ الإسلام زين الـدين خطّاب وسمع الحديث.

وأخذ عن ابن حجر والعلم صالح البُلقينيّ والشمس المناويّ والجلال المحِلّي، وكان إماماً بارعاً في العلوم وكان أفقـه زمانـه وأجل معـاصريـه وأقرانه، ودرّس بالجامع الأمويّ وبالقاهرة دروساً حافلة، وانتهت إليه مشيخة الإسلام ورئاسة الشافعية ببلاد الشام بل وبغيرها من بلاد الإسلام، وحصل له من السعد في العلم والرئاسة وكثرة التلامذة وقرة العين بهم في دمشق ما حصل لشيخ الإسلام زكريا بالقـاهرة إلا أن القـاضي زكريـا زاد عليه في السعادة بكثرة التصانيف رحمهما الله تعالى.

وبرع أكثر تلاميذ صاحب الترجمة في حياتـه. وحدثني شيخنـا عن والده أيضاً مراراً أن أهل مصر كانـوا يقفلون محابـرهم إذا قدمهـا الشيخ تقي الدين ويقولون جاء ابن قاضي زرع ويخلون له أمر الفتوى.

كان رحمه الله تعالى مرجع الناس في حل المشكلات والمعضلات وبيان الأحكام الشرعية والقيام في أمور العامة على الحكام وغيرهم.

(١) وكان ينكر على كثرة من المتصوفة المنتحلين لأمور ينكرها ظاهر الشرع وقام على الشيخ شمس الدين العمريّ المتصوف مـراراً ومنعه من التكلم وأدّبه وزجره عن مطالعة كتب ابن العربي وعن ما كان يقع منه من الشطحيات، ثمّ لما وقع اعتقاد العمري في قلب السلطان قايتباي وسافر إليه العمريّ وشكى من الشيخ تقي الدين فطُلب الشيخ تقي الدين هو والشيخ محب الدين الحصنيّ بسببه إلى القاهرة مع أن الشيخ تقي الدين كان مذهبه السكوت في أمر ابن العربي وعدم الإنكار.

(١) ولما قدم الشيخ العلامة برهان الدين البقاعيّ دمشق في سنة ثمانين وثمانمئة تلقاه الشيخ تقي الدين هو وجماعة من أهل العلم إلى القنيطرة ثم لما ألف كتابه في الرد على حجة الإسلام الغزاليّ في مسألة: «ليس في الإمكان أبدع مما كان» وبالغ في الإنكار على ابن العربي وأمثاله حتى أكفر بعضهم كان الشيخ تقي الدين ممن أنكر على البقاعيّ ذلك وهجره بهذا السبب خصوصاً بسبب حجة الإسلام(١).

(٢) وأضرّ الشيخ تقي الدين آخراً، وغلب عليه في آخر عمره الرقة والخوف والاعتراف بالتقصير، حدثني شيخنا فسح الله تعالى في مدته عن والده قال: دخلت على شيخنا شيخ الإسلام تقي الدين ابن قاضي عجلون بعد أن أضرّ فوجدته محتبياً جاعلاً رأسه بين ركبتيه فظننت أنه نائم فلم أتكلم ولم يشعر بي فبعد ساعة هب كما يستيقظ النائم ومسح بيديه على وجهه قائلاً: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** الآية قال: فمكث ساعة ثم أفهمته أني دخلت فسلمت.

(٣) قلت: وقد أحببت أن لا أخلي هذه الترجمة من نكتة ظريفة، وفائدة، منيفة، وهي أني أقول: ما رأيت ولا أظن أني أرى أفقه من شيخ الإسلام والدي، وسمعته أو حضرته وهو يقول: ما رأيت أفقه من شيخ الإسلام زكريا ولا أحسن تصرفاً إلا أن يكون شيخ الإسلام تقي الدين أبو بكر ابن عبدالله ابن قاضي عجلون وهو أكثر نقلاً واستحضاراً، وهما ما رأيا أفقه من شيخ الإسلام الشمس القاياتيّ، وهو ما رأى أفقه من شيخ الإسلام سراج الدين البُلقينيّ، وهو ما رأى أفقه من شيخ الإسلام تقي الدين السبكيّ، وهو ما رأى أفقه من سلطان العلماء ابن عبدالسلام، وهو ما رأى أفقه من الإمام فخر الدين ابن عساكر الحافظ، وهو ما رأى أفقه من القطب النيسابوريّ، وهو ما رأى أفقه من الإمام محمد بن يحيى وهو ما رأى أفقه من حجة الإسلام الغزاليّ، وهو ما رأى أفقه من أبي المعالي إمام

---

(١) أي الإمام الغزالي.

الحرمين، وهو ما رأى أفقه من والده الشيخ أبي محمد الجوينيّ، وهو ما رأى أفقه من القفّال، وهو ما رأى أفقه من الإمام أبي زيد المروزيّ، وهو ما رأى أفقه من شيخ الإسلام أبي إسحاق المروزي، وهو ما رأى أفقه من الباز الأشهب ابن سريج، وهو ما رأى أفقه من الإمام أبي القاسم الأنماطيّ، وهو ما رأى أفقه من الإمام أبي إبراهيم المُزَنيّ، وهو ما رأى أفقه من إمام الأئمة أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعيّ، وهو ما رأى أفقه من إمام دار الهجرة أبي عبدالله مالك بن أنس، وهو ما رأى أفقه من الإمام نافع، وهو ما رأى أفقه من عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهماوهو ما رأى أفقه من رسول الله ﷺ.

وأخبرنا شيخ الإسلام الوالد قال: أخبرنا شيخ الإسلام تقي الدين ابن قاضي عجلون عن أخيه شيخ الإسلام نجم الدين أن جميع الذين أفتوْا في عهد سيدنا رسول الله ﷺ في قوله رحمه الله تعالى:

لقد كان يفتي في زمان نبيّنا	مع الخلفاء الراشدين أئمةُ
معاذ وعمار وزيد بن ثابت	أبيّ ابن مسعود وعوف حذيفةُ
ومنهم أبو موسى وسلمان حبرهم	كذاك أبو الدرداء وهو تتمة
وأفتى بمرآه[1] أبو بكر الرضى	وصدقه فيها وتلك مزّية

توفي شيخ الإسلام تقي الدين ابن قاضي عجلون صاحب الترجمة سنة ثمان وعشرين وتسعمئة بمنزله داخل دمشق، ودفن بمقبرة باب الصّغير[2].

أبو بكر الحديديّ

الشيخ الصالح العابد الزاهد.

وافق الشيخ محمد المنيِّر في الحج كلّ سنةٍ أربعين سنة وكان يفعل

---

(١) أي بحضرة النبي ﷺ. وهو ما يعرف عند الأصوليين باجتهاد الصحابي بوجود رسول الله ﷺ.

(٢) «الكواكب السائرة»: ١/١١٤ ـ ١١٨.

كما يفعل من حمل القماش والسكر والصابون لفقراء مكة.

(١) وكان من طريقه سؤال الناس للفقراء حضراً وسفراً، وكان إذا دخل سوقاً سأل الناس يميناً وشمالاً فلا يخرج إلا وقد حصل لـه دراهم كثيرة فيصرفها للفقراء ويقول: أخذنا من الناس ما ينفعهم في آخرتهم.

(٢) وكان يغلب عليه البسط والانشراح ومع ذلك كان شديد الحرص على السنة لا يسامح أحداً في شيء من أدائها، وكان معه مقراض من رأى شاربه طويلاً قصه فإن امتنع تبعه قائلاً: وا ديناه ويا محمداه حتى يمكنه من قصِّه.

توفي بالمدينة المنورة سنة خمس وعشرين وتسعمئة[١].

أبو النور التونسي

الحافظ لكتاب الله تعالى المقرىء التونسيّ المالكيّ نزيل المـدرسة المقدمية بحلب. وكان يؤدب الأطفال بها.

(٣) وكان من عادته أن يقرأ ثلث القرآن بعد المغرب وثلثه بعد العشاء.

(٤) ومن غريب ما اتفق له أنه لما ركب البحر من تونس إلى إسكندرية حصل لملاح السفينة وكان فِرَنجياً حمّى أشغلته عن مصلحة السفينة وعجز ركابها عن علاج ينفعه وطُلب من الشيخ أبي النور ما يكتب للحمى فكتب له ورقة: **﴿خذوه فغلّوه ثم الجحيم صلُّوه ثم في سلسلة ذرعها سبعـون ذراعاً فاسلكوه﴾**[٢] ولف الورقة ودفعها له فوضعها في رأسه فما مضت تلك الليلة حتى ذهبت عنه الحمى.

توفي أبو النور بحلب سنة ست وعشرين وتسعمئة رحمـه الله تعالى رحمة واسعة[٣].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١١٩.
(٢) الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢.
(٣) «الكواكب السائرة»: ١/١٢١ ـ ١٢٢.

السلطان بايزيد

السلطان المفخم، والخاقان المعظم، بايزيد خان ابن السلطان محمد خان فاتح القسطنطينية العظمى ابن السلطان مراد خان.

مولده سنة ست وخمسين وثمانمئة، وجلس على تخت السلطنة بعد وفاة أبيه سنة ست وثمانين وثمانمئة وعمره إذا ذاك ثلاثون سنة وكان من أعيان الملوك الأكابر، وممن ورث السلطنة عن آبائه كابراً عن كابر، وتزينت باسمه رؤوس المنائر، وصدور المنابر، فتح الفتوحات، وغزا في سبيل الله الغزوات، كان محباً للخيرات، مثابراً على البر والصدقات، يميل إلى العلماء والصلحاء، ويعرف حقوق الفضلاء والنبلاء، ودخل الخلوة عند بعض المشايخ، وبنى الجوامع والمدارس والتكايا والزوايا، ورتّب للمفتي الأعظم ومن ببيته من العلماء في زمانه كل عام عشرة آلاف عثماني، ولكل واحد من مدرسي المدرسة العثمانية سبعة آلاف عثماني، ولمدرسي شرح المفتاح لكل واحد أربعة آلاف عثمانيّ، ولكل واحد من مدرسي شرح التجريد ألفي عثماني، وكذلك رتب لمشايخ الصوفية ومريديهم وأهل الزوايا ما يليق بهم، وعيّن لهؤلاء من الكسوة من الفراء والحوائج على قدر مراتبهم وصار ذلك قانوناً جارياً بعده مستمراً، وكان يحب أهل الحرمين الشريفين ويحسن إليهم إحساناً كثيراً وكان يجهز إلى فقراء الحرمين في كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهباً يصرف نصفها على فقراء مكة ونصفها على فقراء المدينة، وكان يكرم الواردين عليه من أهل الحرمين الشريفين أو من غيرهم ويصلهم ويحسن إليهم حتى ألف الشيخ جمال الدين المبرد الحنبلي الصالحي الدمشقي في مدحه ونشر مناقبه مؤلفاً مستقلاً وصنّف الشيخ شهاب الدين أحمد بن الحسين العليف شاعر مكة باسمه تاريخاً سماه «الدر المنظوم، في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم» لا يخلو من فوائد لطيفة وكتب في مدحه قصيدة رائية طنانة مطلعها:

خذوا من ثنائي موجب الحمد والشكر ... ومن در لفظي طيّب النظم والنثر

ومنها:

فيا راكبا يسري على ظهر ضامر ... إلى الروم يهدي نحوه طيب النشر

لك الخير إن وافت بروسا[1] فسِرْ بها ... رويداً لاستنبول سامية الذكر

إلى ملك لا يبلغ الوصف كنهه ... شريف المساعي نافذ النهي والأمر

إلى بايزيد الخير والملك الذي ... حمى بيضة الإسلام بالبيض والسُّمر

وجرد للدين الحنيفي صارماً ... أباد به جمع الطواغيت والكفر

وجاهدهم في الله حق جهاده ... رجاءً لما يبغي من الفوز والأجر

له هيبة ملء الصدور وصولة ... مقسمة بين المخافة والذعر

أطاع له ما بين روم وفارس ... ودان له ما بين بُصرى إلى مصر

إلى أن قال:

سليل بني عثمان والسادة الأُولى ... علا مجدهم فوق السِّماكين والنسر[2]

ملوك كرام الأصل طابت فروعهم ... وهل ينسب الدينار إلا إلى التبر[3]

محوا أثر الكفار بالسيف فاغتدت ... بهم حوزة الإسلام سامية القدر

فيا ملكاً فاق الملوك مكارماً ... فكلٌّ إلى أدنى مكارمه تجري

لئن فقتهم في رتبة الملك والعلى ... فإن الليالي بعضها ليلة القدر

فدتك ملوك الأرض طرًّا[4] لأنها ... سوار وأنت البدر في غرة الشهر

وهي طويلة ويحكى أنها لما وصلت إلى السلطان أبي يزيد خان سرّ بها وأمر لقائلها أحمد العليف بألف دينار جائزة ورتب له في كل عام مئة دينار ذهباً كانت تصل إليه في كل عام وصارت بعده لأولاده.

(١) وكان قد استولى على المرحوم السلطان أبي يزيد خان في آخر عمره مرض النقرس وضعف عن الحركة وترك الحروب والسفر سنين متعددة

---

(١) هي بورصا عاصمة العثمانيين قبل استانبول.
(٢) أبراج في السماء.
(٣) الذهب.
(٤) أي كلهّم.

فصارت عساكره يتطلبون سلطاناً شاباً قوي الحركة كثير الأسفار ليغازي بهم ويغنموا الغنائم فرأوا أن السلطان سليم خان من أولاد السلطان أبي يزيد أقوى إخوته وأجلدهم فمالوا إليه وعطف عليهم فخرج إليه أبوه محارباً فقاتله وهزمه أبوه ثم عطف على أبيه ثانياً لما رأى من ميل العساكر إليه واجتماعهم عليه فلما رأى السلطان أبو يزيد تَوجُّهَ أركان الدولة إلى السلطان سليم استشار وزراءه وأخصاءه في أمره فأشاروا إليه أن يفرغ له عن السلطنة ويختار التقاعد بعزه في أدرنة وأبرموا عليه في ذلك فأجابهم حين لم ير بدّاً من إجابتهم وطلب السلطان سليم إلى حضرته وعهد إليه بسلطنته ثم توجه مع بعض خواص خدامه إلى أدرنة فلما وصل إلى قرب جورلو كان فيها حضور أجله فتوفي بها في سنة ثمان عشرة وتسعمئة[1].

القسطلاني

أحمد بن محمد الشيخ الإمام العلامة، الحجة الرحلة الفهامة، الفقيه النبيه المقرىء المجيد المسند المحدث أبو العباس شهاب الدين القسطلانيّ المصريّ ثم القاهريّ الشافعيّ صاحب المؤلفات الحافلة، والفضائل الكاملة، أخذ عن ابن حجر العسقلاني وغيره وأخذ عنه شيخ الإسلام الوالد وغيره.

(١) كان من أزهد الناس في الدنيا وكان منقاداً إلى الحق من ردّ له سهواً أو غلطاً يزيد في محبته.

(٢) ألّف شرحه على البخاري قبل أن يؤلف شيخ الإسلام القاضي زكريا شرحه عليه وكان يقول للشيخ عبدالوهاب الشعراويّ: احضر عند شيخ الإسلام شرحي فمهما وجدته خالفني فيه فاكتبه لي في ورقة فكان يكتب له أوراقاً ويجهزها إليه وتارة يرسل الشيخ عبده فيأخذها وقال له مرة: لا تغفل عن كتابة ما يخالفني فيه الشيخ فإنه لا يحرر الكتابَ إلا الطلبة ولا طلبة لي.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١٢٢ ـ ١٢٤.

(١) وقال العلائي: إنه كان فاضلاً محصلاً ديّناً عفيفاً متقللاً من عشرة الناس إلا في المطالعة والتأليف والإقراء والعبادة.

(٢) وقال الشعراويّ: كان من أحسن الناس وجهاً طويل القامة حسن الشيب يقرأ بالأربع عشرة رواية وكان صوته بالقرآن يبكي القاسي إذا قرأ في المحراب تساقط الناس من الخشوع والبكاء.

وذكر شيخ الإسلام الوالد أنه أخذ عنه شرحه على البخاري والمواهب اللدنية وأجازه بهما وبسائر مؤلفاته ومنها كتاب «الأنوار، في الأدعية والأذكار»، ومختصر منه سماه «اللوامع، في الأدعية والأذكار والجوامع»، ومختصر من المختصر سماه «قبس اللوامع» وكتاب «الجنى الداني، في حل حرز الأماني» وهو للشاطبية كالتوضيح على ألفية ابن مالك وله غير ذلك.

كان يميل إلى الغلو في رفعة قدر النبي ﷺ حتى اختار مذهب مالك رضي الله تعالى عنه في تفضيل المدينة على مكة.

(٣) قلت: وأول دليل على قبول أعماله وإخلاصه في تأليفه عناية الناس بكتابه: «المواهب اللدنية» ومغالاتهم في ثمنه مع قلة الرغبات، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٤) وكانت وفاته سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة لعروض فالج له نشأ من تأثره ببلوغه قطع رأس إبراهيم بن عطاء الله المكي صديق السلطان الغوريّ بحيث سقط عن دابته وأغمي عليه فحمل إلى منزله ثم مات بعد أيام وصلي عليه بالأزهر عقب صلاة الجمعة ودفن بقبة قاضي القضاة بدر الدين العيني من مدرسته بقرب جامع الأزهر وتأثر كثير من الناس لموته لحسن معاشرته وتواضعه رحمه الله تعالى ورضي عنه، وصلي عليه غائبة بدمشق[1].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١٢٦ ـ ١٢٧.

الشعراويّ

أحمد بن علي بن شهاب الشيخ العالم الصالح شهاب الدين الشعراويّ الشافعيّ والد الشيخ عبدالوهاب الشعراويّ.

اشتغل في العلم على والده الشيخ نور الدين علي الشعراوي ووالده حمل العلم عن الحافظ ابن حجر والعَلم صالح البُلقيني والشرف يحيى المناويّ.

(١) وكان فقهياً نحوياً مقرئاً، وله صوت شجي في قراءة القرآن يخشع القلب عند سماع تلاوته بحيث صلى خلفه قاضي القضاة كمال الدين الطويل فكاد أن يخرّ إلى الأرض من فرط الخشوع وقال له: أنت لا يناسبك إلا إمامة جامع الأزهر.

(٢) وكان ماهراً في علم الفرائض وعلم الفلك وكان له شعر ونثر، أمّة في الإنشاء وربما أنشأ الخطبة حال صعود المنبر وكان مع ذلك لا يخلّ بأمر معاشه من حرث وحصاد وغير ذلك، وكان له توجه صادق في قضاء حوائج الناس ويشهد بينهم ويحسب ويكتب محتسباً في ذلك.

(٣) وكان يقوم كل ليلة بثلث القرآن أو بأكثر.

(٤) قال ولده الشيخ عبدالوهاب: وقد كنت أقرأ عليه مرة في سورة والصافات فلما بلغت قوله تعالى: **﴿فَاطَّلَع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين﴾** بكى حتى أغمي عليه وصار يتمرّغ في الأرض كالطير المذبوح.

(٥) قال: وصنف عدة مؤلفات في علم الحديث والنحو والأصول والمعاني والبيان فنهبت مؤلفاته كلها فلم يتغير وقال قد ألّفناها لله فلا علينا أن ينسبها الناس إلينا أم لا.

توفي رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعمئة ودفن في بلدته بناحية ساقية

أبي شعرة إلى جانب قبر والده بزاويتهم رحمهم الله تعالى[1].

أحمد الحسينيّ البخاريّ

الشيخ العارف بالله تعالى.

(١) صحب الشيخ الإلٰهيّ وسار معه إلى بلاد الروم وترك أهله وعياله ببخارى، وكان الشيخ الإلٰهيّ يعظمه غاية التعظيم وعين له جانب عيشه وكان يقول إن السيد أحمد البخاري صلى بنا الفجر بوضوء العشاء ست سنين وسئل السيد أحمد عن نومه في تلك المدة قال: كنت آخذ بغلة الشيخ وحماره في صبيحة كل يوم وأصعد الجبل لنقل الحطب إلى مطبخ الشيخ وكنت أرسلهما ليرتعا في الجبل وأستند إلى شجرة وأنام ساعة.

(٢) وجاور بمكة المشرفة قريباً من سنة ونذر أن يطوف بالكعبة كل يوم سبعا ويسعى بين المروتين سبعا وكان كل ليلة يطوف تارة ويتهجد أخرى وتارة يستريح ولا ينام ساعة مع ضعف بنيته، وزار القدس الشريف وسكنه مدة ثم رجع إلى شيخه وخدمته، ثم وقع في نفسه زيارة مشايخ القسطنطينية فاستأذن من شيخه فأذن له فذهب إليها ثم كتب إلى شيخه يرغِّبه في سكناها فرحل إليه شيخه، ثم لما مات شيخه صار خليفة في مقامه، وكان مجلسه عليه الهيبة والوقار، ولا يجري في مجلسه ذكر الدنيا.

(٣) وكان طريقه الأخذ بالعزيمة والعمل بالسنة والتجنب عن البدعة، والعزلة، وإحياء الليل وصوم النهار.

توفي في سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة ودفن عند مسجده وقبره يزار، رحمه الله تعالى[2].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١٣٨ ـ ١٣٩.
(٢) «الكواكب السائرة»: ١/١٥٢ ـ ١٥٣.

الحسامي

الشيخ الإمام العلامة المحقق المجد الفقيه النحويّ الصوفيّ شهاب الدين أحمد الحساميّ القاهريّ الشافعيّ. كان صالحاً قانعاً بارّاً بأمه قائماً بمصالحها، صابراً متواضعاً يخدم نفسه ويشتري حوائجه من السوق ويحملها بنفسه ولا يمكّن أحداً يحملها عنه، وكان يتعمم بالقطن وثيابه قصيرة اقتداءً بالسلف، وكان ملازماً للطهارة، لا يكاد يدخل عليه وقت وهو محدث، وكان كثير الصمت قليل الكلام تجلس معه اليوم واليومين فلا تسمع منه كلمة لغو.

(١) وكان كثير الصيام والقيام يقوم النصف الثاني من الليل كل ليلة. وكان يتورع عن صدقات الناس ولا يقبل هدية من أحد لا يتورع في كسبه، وكان صوفياً وكان العلماء مع ذلك يرجعون إليه في المعقولات ويعدلونه في العربية بابن مالك وابن هشام.

وكانت وفاته بالقاهرة سنة خمس وعشرين وتسعمئة رحمه الله تعالى[١].

المنوفيّ

(٢) الشيخ الفاضل المحدّث المعتقَد القاضي شهاب الدين أحمد المنوفي الشافعيّ متولي الظاهرية القديمة بمصر. وَلِيَ قضاء بلدة منوف العليا فباشر القضاء بعفة ونزاهة وطرد البغايا من تلك الناحية وأزال المنكرات واستخلص الحقوق بحيث كانت تأتيه الخصوم من بلاد بعيدة أفواجاً وتستخلص بهمته وعدله حقوقاً كانت قد ماتت.

قال العلائي وقد أوقفني على عدة مختصرات له في الفقه والفرائض والحساب والعربية حوت مع الاقتصار فوائد وفرائد خلت منها كثير من المختصرات والمطوّلات.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/ ١٥٣.

وكانت وفاته سنة سبع وعشرين وتسعمئة رحمه الله تعالى[1].

أحمد باشا الطاغية

كان من خواصّ مماليك السلطان سليم ابن السلطان أبي يزيد بن عثمان، ولما استعفى الوزير محمد الجماليّ المعروف ببيري باشا من الوزارة العظمى تقدم إلى التصدي لها أحمد باشا المذكور وكان ميل السلطان سليمان إلى تصدير إبراهيم باشا فأعمل السلطان سليمان الفكر في دفعه فأنعم عليه بنيابة مصر وأعطاها له ليستجلب خاطره ويستشلحه[2] عن الوزارة العظمى.

فسافر إلى مصر فدخلها في صبيحة الأحد ثامن عشر شوال سنة تسع وعشرين وتسعمئة ومعه الأمير جانم الحمزاوي والأمير إبراهيم المرقباني واستولى عليها وأظهر الطغيان والتجبر وصادر أكابرها في الأموال وقتل جماعة من أمرائها وكان ممن قبض عليه جانم الحمزاوي الذي أقامه الخنكار[3] معه مرجعاً ومستشاراً وعمدة في المملكة والأمير فارس وضمّ إليهما الأمير إبراهيم المرقباني صورة فإنه كان من أعوانه وخواصه واعتقلهم أياماً ثم أحضر مباشري الأمير فارس وعذبهم عذاباً شديداً بحيث قطع من لحومهم وأطعمهم منها فاعترفوا بما ليس عليهم فعاتبه الأمير فارس على ذلك ووبخه وقال له لأخبرن السلطان سليمان بتفاصيل أفعالك فأمر بضرب عنقه فضربت عنق الأمير فارس في الحال ثم ضيّق على الأمير جانم الحمزاويّ وطُلب منه مئة وستين ألف دينار وحبسه فتكلم في أمره قرا موسى والأمير محمد بيك الروميّ والأمير داود بيك وشفعوا فيه عنده فلم يقبل شفاعتهم فحنقوا عليه ثم أمر بقتل قرا موسى في قصص طويلة، ثم تطاول إلى السلطنة بمصر وقال إن السلطان سليمان قد سمح له بذلك فادعى

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/ ١٥٤.

(٢) يُبعده.

(٣) لم أجد لها معنى فيما بين يدي من مصادر، والله أعلم.

السلطنة لنفسه وأمر أن يخطب باسمه في المنابر وأن تضرب سِكة الدنانير والدراهم باسمه، ورتب عسكراً من الجراكسة والعامة وعصى عليه أهل قلعة الجبل وحاصرها وصمم الينكجرية[1] على عدم التسليم له وقالوا نحن مماليك السلطان الحافظون لقلعته فإن ورد علينا أمر منه نتركها ونسلمها وإلا نحن باقون على دركنا لا ندعه أبداً.

فابتدأ الحصار في يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الأول سنة ثلاثين وتسعمئة واستمر على ذلك يعمل الحيل البالغة في أخذها حتى دخلها في مستهل ربيع الثاني في السنة المذكورة فقبض على من فيها وقتل أئمة الجوامع والمؤذنين وهبّروا بالسيوف نحو ألف نفس ممن فيها ولم يرحموا صغيراً ولا كبيراً بحيث كان المقتول في هذه الحادثة من الفريقين من الينكجرية نحو ألف وخمسمئة ومن الجراكسة نحو ستمئة ومن العوام نحو ألف وانتُهِب بيوت من بقي من الينكجرية واستباحوا حريمهم ثم أمر باعادة بعض ما انتهب منهم، وأحضر القضاة يوم الخميس سادس ربيع الثاني المذكور وابن الخليفة في بيت طراباي وطلب منهم المبايعة على السلطنة بمصر وأعمالها ولبس شعار الملوك ثم برز به جهاراً إلى المقعد على رؤوس الأشهاد زاعماً أن السلطان سليمان رحمه الله تعالى منّ عليه بذلك في نصرته بفتح رودس حين البيعة بها بحسن صنيعه، ثم أخذ بعد ذلك في مصادرة الأكابر كالأمير جانم الحمزاوي طلب منه مئة وخمسين ألف دينار وكذلك قاضي القضاة الشافعية شرف الدين البرديني والقاضي بدر الدين ابن الوقاد السعوديّ والخواجا ابن عبدالله والخواجا قاسم الشروانيّ والخواجا عبدالرحمن ابن الجمال والخواجا ابن الصيرفيّ الإسكندريّ وطلب من كل واحد منهم مئة ألف دينار وأحضرهم في مجلس واحد وأحضر معهم جماعة من أعيان اليهود وغيرهم فأمر بتعذيبهم بحضرتهم بأنواع العذاب حيث مات بعضهم فقال القاضي بدر الدين: هذا لا يحل واستغاث، فقال له: ليس

(١) الإنكشارية، وهم الجيش.

هذا غيرة للإسلام وإنما هو توجع لليهود المعاملين لك وقيل: إنه أمر بضرب القاضي شرف الدين والتضييق عليه وأمر بضرب جماعة من التجار، ثم صادر الخواجا أبا سعيدة كبير المغاربة وأخذ منه ومن المغاربة أموالاً كثيرة وكذلك من اليهود والنصارى.

(١) وكان يساعده على ذلك ويفقهه في المظالم جماعة منهم الأمير إبراهيم المرقبانيّ فكان من تدبيره السّيء أن سعى عند أحمد باشا في أمان عبدالدائم ابن بقر الذي كان السلطان الغوري قد حبسه لفساده في بعض الأبراج فأطلقه وضمّنه البلاد الشرقية فالتزم بها بثلاثين ألف دينار يجمعها من العربان وضمنه المرقباني المذكور، فحذّره منه، فقال: إن حصل منه خلل اشنقني فاتفق أن عبدالدائم أظهر العصيان وانحاز إلى برج دمياط فقال أحمد باشا للمرقباني: أنت قلت في ضمانك: إن حصل منه خلل اشنقني، فأمر بشنقه وصَدَق عليه: من أعان ظالماً سُلِّط عليه.

(٢) ثم أصر أحمد باشا على هذه الأحوال أياماً وكان ذلك بإغراء قاضي زاده الأردبيليّ واستمالته لأحمد باشا عن اعتقاد أهل السنة إلى اعتقاد إسماعيل شاه[1] ومذهب الإمامية وإباحته له أموال أهل السنة فيما نقله العلائيّ، فلما كان ضحوة يوم الاثنين سابع عشر ربيع الثاني المذكور حَسُن عند أحمد باشا النزول إلى حمام خشقدم فدخلها وأمر جماعة من الجراكسة ومماليكه أن يحرسوا درب الحمام فبلغ الأمراء بمصر منهم الأمير جانم الحمزاويّ والأمير محمد بيك الروميّ والأمير تنم ناظر الدشيشة والأمير علي بن عمر أنه دخل الحمام فنزلوا إليه وبعثوا جماعة يقتحمون عليه الحمام فمانعهم المماليك والجراكسة وجماعة ووقع بعضهم في بعض حتى قتل بينهم نحو ستين نفساً فلما بلغه الخبر وهو بالحمام استغاث بالحمّاميّ فأخرجه من المستوقد ثم ألبس قفطاناً أخضر وركب فرساً ودار من جانب

---

(١) شاه العجم.

باب القرافة وانحاز إلى المبيت فلم يظفر بشيء من المال فنزل عند المساء في نحو خمسة عشر نفساً من جماعته فتوجهوا إلى بركة الحاج ثم انحاز إلى عبدالدائم ابن بقر فخرج في إثره الأمير جانم والأمير تنم في نحو خمسمئة نفس فاستكشفوا أمره فوجدوا معه قبائل من العربان والجراكسة والعثمانية منّاهم بأمور منها أن يبيح لهم القاهرة وأعمالها وأن يسامح العربان في الخراج ثلاث سنين فلم يجدوا لهم بهم طاقة فرجعوا إلى مصر يوم الخميس عشري ربيع الثاني المذكور فتبعهم بعض جماعة أحمد باشا فقطعوا منهم رأس بدوي وجركسي وعلقا بباب زويلة ثمّ قبضا في اليوم المذكور على هامان أحمد باشا قاضي زاده فقطعت رأسه وعلقت بباب زويلة أيضاً، ثم اجتمعت الأمراء وأُقيم الأمير تنم باشا على الجراكسة ونودي لهم بالأمان والأمير جانم باشا على الينكجرية والأمير محمد بيك محافظاً للقلعة ثم اجتمعوا أسفل مدرسة السلطان حسن فكتبوا وصرفت عليهم نفقاتهم وحرض عليهم الأمير تنم في المصادقة مع السلطان سليمان حفظاً لمهجهم ثم نودي بأن النفير عام فتأهب لذلك طوائف من الروم والعجم وأهل الشام والمغاربة والعوام وطلبوا القضاة وطلعوا إلى القلعة.

(١) وانكشف أمر أحمد باشا بأنه داعية لإسماعيل شاه الصوفي في سفارة قاضي زاده وتسويله ووجدوا تاجا عنده من شعار الصوفي واستفيض أنه استحل قتل أهل السنَّة وسلب أموالهم وعزم على تقديم الاثني عشر إماماً على اعتقاد الرافضة وإظهار ذلك على المنابر وغير ذلك بحيث ثبت عندهم كفره، ثم ركب القضاة الأربعة في محفل عظيم والتاج على رمح والمنادي ينادي أمامهم وسط القصبة أن أحمد باشا ثبت كفره وإظهاره شعار الصوفي فعليكم بالجهاد فيه وأن يقاتل كل إنسان عن نفسه وعن عياله ومن لم يخرج بنفسه أعطى دراهم للبدل عنه ثم توجه الأمير جانم الحمزاوي والأمير تنم في نحو ألفي نفس وثمان عربات وحصل بينهم مناوشات قتل فيها خلائق ثم حصل فيما قيل اختلاف بين العربان الذين اجتمعوا على أحمد باشا فافترقوا فرقتين واقتتلا فقتل بينهم نحو المئة ثم وصل إلى الإسكندرية ألف

ينكجريّ من الروم بعثهم السلطان سليمان لحفظ بعض الأبراج فصادف وصولهم هذه الحادثة فتلاءموا واجتمعوا على قتال أحمد باشا ومن معه فاجتمع الأمير أحمد بن بقر شيخ عرب الشرقية من أعمال مصر بأولاده الثلاثة المطيعين وبعثوا إلى عبدالدائم فقال له أبوه الأمير أحمد يا ولدي إمّا أن ترجع إلى الله تعالى وتكفينا شر سطوة السلطان سليمان وترحم نفسك وترحمنا وتعدل عن صحبة أحمد باشا ونصرته ونقبض عليه وإلا هلكنا عن آخرنا فإن الأمور تضايقت وقد وصل طلاع عسكر السلطان سليمان إلى مصر فانحل عبدالدائم عن أحمد باشا وانفلت عنه العربان وغالب الجراكسة فلما علم ضعف حاله وانفلال الخلق عنه قصد أن يعدي إلى زفتة فنزل هو وستة أنفار من خواصه فلما وصل إلى البر دهمته عربان الأمير حسام الدين بن بغداد فتوارى منهم وتنكر بلبس عباءة فلما فقدوه تتبعوا أمره واستقصوا عليه حتى قبض عليه وعلى من معه فقطعت أعناقهم وعلق رأس أحمد باشا في صنجقة وركب القضاة والأعيان واشتهرت ونودي عليها بعد أن زينت مصر والقاهرة وفرج عن الناس كرب كثير وذلك يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ثلاثين وتسعمئة ثم علقت رأسه على باب زويلة ثم جهزت إلى السلطان سليمان رحمه الله تعالى في ثالث جمادى الأول وضبط الأمراء مصر إلى أن وردها مصطفى باشا[١].

جان بردي الغزاليّ

جان بردي بن عبدالله الجركسيّ الشهير بالغزاليّ، سخيف الرأي، كان في الدولة الجراكسية[٢] كافل حماة ثم دمشق ثم لما قتل الغوريّ بمرج دابق رجع جان بردي إلى مصر وقد تسلطن طومان باي لما وصل موت الغوري إلى مصر فأقامه طومان باي كافلاً لدمشق وبعث معه قوة من الجيش

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١٥٦ - ١٥٩.
(٢) أي دولة المماليك.

فلما وصل جان بردي وعسكره إلى غزة تلاقى هو وسنان باشا وزير السلطان سليم وكان قد جهزه السلطان سليم أمامه إلى مصر فانتصر عليه وهرب جان بردي إلى مصر، فلما أخذ السلطان سليم مصر أمّنه وولاه كفالة الشام وصفد وغزة والقدس وأعمالها كما وعده بذلك ووعد خير بك بنيابة مصر حين كانا في عسكر الغوريّ وبعثا يطلبان من السلطان سليم الأمان أن لا يقتلهما وأن يكرمهما وأن يفرّا عن الغوريّ ولا يثبتا في عسكره فلما التقى الجمعان فرّ خير بك بمن معه من ميمنة الغوريّ وجان بردي بمن معه من ميسرته فوافاهما السلطان سليم بما وُعدا، ثم لما رجع جان بردي إلى مصر وافق طومان باي ومع ذلك ثبت السلطان سليم على ميثاقه ووعده وولاه نيابة الشام.

(١) ثم عاد إلى دمشق وقد ولّى السلطان سليم قاضي القضاة ابن الفرفور بعد أن تحنف وكان شافعياً وأبطل القضاة الأربعة إلا ابن فرفور فكان قاضياً وكان جان بردي نائباً وأعاد الشهود إلى مراكزهم على عادتهم في الدولة الجركسية بعد أن كان السلطان سليم قد رفعهم مع القضاة من مراكزهم ووقع بينه وبين ابن الفرفور بهذا السبب، ونشر العدل في دمشق وأعمالها، ومنع البوابين أن يأخذوا شيئاً من الداخلين إلى المدينة، وجرّد السيف على كل من تعرّض من الأرْوام[1] لامرأة أو صبيّ وكتب بذلك إلى السلطان سليم وأخبره بأن دمشق غير معتادة لهذه المناكر فأجيب بأنّا قلّدناك أمر الرعية فافعل ما هو الشرع، وزادت محبة السلطان له والناس وصار بينه وبين الفرفوريّ تباين وتنافر فإنه كان يميل إلى إبقاء القديم على قدمه وكان ابن الفرفور يأبى إلا قانون الأروام وهرب منه إلى حلب خوفاً من انتهاك حرمته وعرض جان بردي بالقضاء لقاضي القضاة شرف الدين ابن مفلح الحنبليّ بدلاً عن ابن فرفور فأجيب إلى ذلك وولي ابن مفلح القضاء إلى أن قُتِل جان بردي.

---

(١) أي جنود الروم، وهم جنود الدولة العثمانية.

(١) قال والد شيخنا: وكانت سيرتهما حسنة إلى سنة ست وعشرين وتسعمئة وكان الغزاليّ في بيروت وجاءه الخبر بموت السلطان سليم فركب من ساعته إلى دمشق وحاصر قلعتها أياماً يسيرة ثم سلمها إليه أهلها ونفى نائبها إلى بيت المقدس واستخدم من كان فيها من الينكجرية[١] وردّ أولاد العرب من المقدمين ورؤساء النوب والبارودية والبوابين إلى مناصبهم بالقلعة وجعل نيابتها للأمير إسماعيل ابن الأكرم وأمر الخطباء أن ينّوهوا بسلطنته ويدعون له بها على المنابر وفرح بذلك جهلة العوام دون عقلاء الناس لما يعلمونه من قوة بأس بني عثمان وحذراً عليه أن لا تبقى نيابة بيده بسبب ذلك فيعدمونه ويعدمون حسن سياسته ثم توجه إلى طرابلس وحمص وحماة وحلب وحاصر قلاعها ولم يظفر بطائل لكنه قبض على كافل حمص وقتله، ثم دخل حماة وقد فرّ كافلها وقاضيها إلى حلب فأخذ من كان معه في النهب وقتل من كان له غرض في قتله، ولما بلغ السلطان سليمان خان ما فعله جان بردي الغزاليّ جهز جيشاً إليه واشتد الخوف على أهل دمشق وأعمالها لما سمعوا بذلك واضطربت الأحوال واختلفت الآراء وودّ العقلاء موت الغزالي أو قبضه ليتلقوا الجيش به ليدفعوا عن أنفسهم تهمة ما فعله ويسلموا من انتهاك الحُرَم وأخذ المهج، وصار الغزاليّ إلى تحصين ما حول القلعة ويبني التداريب المانعة من الدخول إلى المدينة ونصب منجنيقا في داخل القلعة ليرمي بها الحاصرين لها، وكان الجهلاء والذين كتبهم في عسكره فرحين بذلك متدرعين بالسلاح يقولون نكسرهم إلى أبواب الروم والعقلاء مهمومون بذلك لعلمهم بما يحدث بعده من حكّام الأروام، ولا يقدرون على نصحه واستمر النّاس في الخوف وحاروا في أمورهم فمنهم من نقل حريمه إلى القرى ومنهم من دخل المدينة بماله وعياله وصار الغزاليّ يكثر الركوب إلى داخل القلعة ويرجع إلى دار السعادة وضاقت عليه الأرض وهمّ بالهرب، وكانت جهلة عساكره الذين جمعهم من القرى يقولون

---

(١) الإنكشارية وهم الجيش.

له نحن فينا كفاية لصدهم وصار ينادي كل يوم بالأمان والاطمئنان وأن لا يخرج أحدٌ من محلته.

قال الحمصيّ في تاريخه: وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين منه أي من شهر صفر سنة سبع وعشرين وتسعمئة أمر جان بردي الغزاليّ أن يخطبوا له بالسلطنة ويلقبوه بالأشرف فصلى بالجامع الأمويّ بالمقصورة وخطب له بالأشرف، قال وفي يوم السبت جمع مشايخ الحارات بالجامع الأمويّ وحلّفهم أنهم معه ولا يخونوه وإنما يكونوا على كلمة واحدة وفي يوم الاثنين ركب هو والعساكر وأهل الحارات إلى مسطبة السلطان بالقابون فبلغه أن عسكر السلطان ابن عثمان وصل إلى القصير وأن عدّتهم اثنان وستون ألفاً، فلما بلغ الغزالي ذلك ركب هو والعساكر إليهم واقتتلوا وكسر عسكر الغزالي واستؤصل جميع عسكره الأسافل وذكروا أن عدة القتلى سبعة آلاف ثم دخل العسكر العثمانية إلى دمشق على حمية على إثرهم فوجدوا أبواب دمشق مفتحة ولم يقف أحد منهم في وجوههم فطلع إليهم نائب القلعة الأمير إسماعيل ابن الأكرم بمفاتيح القلعة وسلمهم إياها ثم دخلوا البلد وانتهبوها ولم يسلم منهم إلا ما قلّ.

وذكر والد شيخنا أن رعايا أهل دمشق كانوا يتضرعون إلى الله تعالى أن يلقى الغزاليّ عساكر الأروام في الفلاة ليسلموا هم وحريمهم فاستجاب الله دعاءهم وقبل تضرعهم فخرج الغزاليّ إليهم وهو وعسكره وكان معه الأمير يونس ابن القواس بعشيره والأمير عمر ابن الغرقيّ بعشيره فلما التقى الجيشان فرّ ابن القواس بعشيره وثبت الغزاليّ هو وقليل ممن معه فقتلوا وقتل معه عمر ابن الغرقيّ، وآخر عسكر الروم بل أثناؤهم لا يعرفون أن الغزاليّ برز إليهم حتى رأوا القتلى فقالوا: ما شأن هؤلاء؟ فقيل لهم: إنه عسكر الغزاليّ ولم يدخل من عسكر الغزاليّ إلى البلد أحد بل من سلم منهم من القتل فرّوا في القرى والقفار سوى عبد أسود بيده رمح راكب على فرس سايقها سوقاً حثيثاً فقال له الواقفون برأس الأباريز: بشّر، بشّر فقال: انكسروا فكبّروا فرحين ظناً منهم أن الغزاليّ انتصر فقال لهم رجل من

العقلاء: من له بيت أو محلة فليذهب إليها فإنما أراد بقوله انكسروا: الغزاليّ وعسكره فقيل له: بل انتصر، فبينما هم في المحاورة إذ نادى رجل من أعلى القلعة من كان بيته داخل المدينة فليدخل قبل إغلاق الباب فهرع الناس إلى مساكنهم وبيوتهم فلم يكن بأسرع أن دخل عسكر الروم المدينة وكان ذلك يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر صفر سنة سبع وعشرين وتسعمئة[1].

جان بلاط

جان بلاط بن عبد الملك، الأشرف أبو النصر سلطان مصر.

اشتراه بشتك الدوادار وقدمه للأشرف قايتباي بعد طلبه له فجعله خاصكيا[2] وقرّبه إليه وعلمه القرآن والحساب والرمي وصار رئيساً محتشماً، ثم رقاه أستاذه حتى وَلِيَ الدوادارية الكبرى[3] في زمن ولده الناصر، ثم أنعم عليه بنيابة حلب وأقام بها سنة ثم نقله إلى نيابة الشام وأقام بها سبعة أشهر. قال ابن طولون: وفي أيام ولايته بدمشق ذهبت في خدمة شيخنا المحدّث الجمال ابن المبرد إليه فقال له عنّي: هذا ولدك؟ قال: لا، هذا طالب علم، فأنشد:

يا طالب العلم لا تركن إلى الكسل ... واعجل فقد خلق الإنسان من عجل
واستعمل الصبرَ في كسب العلوم وقل ... أعوذ بالله من علم بلا عمل

ثم قدم القاهرة في زمن الظاهر فولاه الإمرة الكبرى وزوجه بأخته وصار العادل طومان باي يرمي الفتنة بينه وبين الظاهر إلى أن تنافرا وقدر جان بلاط على الظاهر فخرج من قلعة مصر وتركها له فصعد جان بلاط

---

(1) «الكواكب السائرة»: ١/١٦٨ - ١٧١.
(2) نوع من المماليك الأجلاب يختارهم السلطان صغاراً ويجعلهم في حرسه الخاص.
(3) الدوادارية وظيفة موضوعها نقل الرسائل والأمور عن السلطان، وعرض القصص والبريد، وأخذ الخط السلطاني على عامّة المناشير.

القلعة وتسلطن في ضحوة يوم الاثنين ثاني القعدة سنة خمس وتسعمئة، ثم جرّد قصروه نائب الشام فأرسل إليه عسكراً مقدمهم الدوادار الكبير وأمير سلاح العادل طومان باي فاتفقا عليه وعادا إلى القاهرة فحصروا القلعة جمعة وخامر عسكر جان بلاط عليه ففروا عنه فطلع إليه طومان باي في يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة ثاني سنة ولايته وهي سنة ست وتسعمئة فأمسكه وأرسله إلى الإسكندرية ثم قتله خنقاً ودفن بها مدة شهر ثم نقل إلى القاهرة ودفن بتربة أستاذه قايتباي الأشرف نحو ثلاثة أيام ثم ردّ إلى ترتبته التي أعدّها لنفسه خارج باب النصر فنقل إليها ولم تتغير جثته، رحمه الله تعالى(١).

ابن السيوفيّ

حسن بن علي بن يوسف الشيخ الإمام شيخ الإسلام بدر الدين الإربليّ الأصل الحصكفيّ الحلبيّ الشافعيّ الشهير بابن السيوفيّ خاتمة علماء الشافعية بحلب.

ولد تقريباً في سنة خمسين وثمانمئة بحصن كيفا وحفظ القرآن العظيم، والمنهاج للنوويّ، والإرشاد لابن المقري، وألفيّتي العراقي في الحديث وفي السيرة، ومنهاج البيضاويّ في الأصول، والطوالع له أيضاً في أصول الدين، والشاطبية في القراآت، والكافية لابن الحاجب والألفية لابن مالك في النحو، وتصريف العزي في الصرف، والشمسية في المنطق، وأجازه بالإفتاء والتدريس جماعة وصار أعجوبة زمانه، وواسطة عقد أقرانه، ثم تصدر ببلده للإفادة وانتفع الناس بتدريسه وإفادته وصار شيخ بلده ومفتيها ومحققها ومدققها مع الديانة والصيانة غير أنه كان يكثر الدعوى والتبجح والمشاحّة لطلبة العلم في ألفاظ وغيرها.

وكان طويل القامة نيِّر الشيبة مهيباً من رآه لا شك أنه من كبار العلماء وعظام النبلاء.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١٧١.

(١) ومن شعره رحمه الله تعالى:

إذا ما نالت السفهاء عرضي ... ولم يخشوا من العقلاء لوما
كسوت من السكوت فمي لثاماً ... وقلت نذرت للرحمن صوما

(٢) وقال في مؤذن اسمه قاسم ولم يكن حسن الصوت:

إذا ما صاح قاسم في المنار ... بصوت منكر شبه الحمار
فكم سبّابةٍ في كلّ أذن ... وكم سبّابة في كلّ دار

توفي بحلب سنة خمس وعشرين وتسعمئة.

(٣) رآه أحد ولديه في المنام وهو يشكو من سقوط لَبِن القبر على ضلعه فتوجه إليه ولده والحاج أبو بكر الحجار المعروف بابن الحصين فنظرا فإذا هو قد سقط قال أبو بكر فكشفت عليه فوجدته لم يتغير ولا ظهر له رائحة كريهة وإنما انقطع الكفن من عند كتفه قليلاً، رحمه الله تعالى[1].

الحبّار الرحيبي

الشيخ الصالح المبارك حسن بن عمر الحبار الدوباي الرحيبي نسبة إلى الرحيبة من عمل دمشق ثم الدمشقي، كان من عباد الله تعالى الصالحين، وأوليائه المقربين، وكان يعمل الحبر المليح ويبيعه ويقتات من كسب يمينه، وكان لا يلقى أحداً إلا مبتسماً ويسابقه بالسلام، وكان سليم الصدر من الغش والحسد، ملازماً على الذكر، مشغول القلب بالله تعالى.

(٤) وكان يقرأ عنده جماعة بتربة عمر بن منجك منهم رجل اسمه موسى الرشاني فمرض فقال للشيخ حسن إني دفنت في موضع كذا سبعين أشرفياً قايتبائياً[2] أخرِج عليّ منها[3] والباقي لك لا أستحق فيه حقاً دونك فمات موسى المذكور وصرف عليه الشيخ أشرفيين، وبعد أيام حضر ابن عم له

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١٧٨ - ١٨٠.
(٢) أي سبعين ديناراً أشرفياً نسبةً إلى السلطان الأشرف قايتباي.
(٣) أي أنفق منها ما أحتاج إليه بعد موتي من كفن وغيره.

فسأل: هل خلّف شيئاً؟ فأحضر له جميع المبلغ المذكور ودفعه إليه ولم يأخذ شيئاً.

(١) وكان بميدان الحصا امرأة غاب عنها زوجها ولها أولاد أيتام وكان الشيخ يجمع لها من الفطرة كل سنة ثلاثة أكيال فاستأجر في بعض السنين من رجل يقال له عمر الأقباليّ الحمصيّ حماراً يحمل عليه القمح فذهب مع الشيخ إلى بيت تلك المرأة فلما أفرغ المغلّ رأى المرأة قد أقبلت على الشيخ فدعت له ولم يردّ عليها الشيخ ولا كلمة ولا أعارها طرفه قال: فرأيتها امرأة جميلة، فلما كنّا في أثناء الطريق قلت له: يا سيدي هذه امرأة جميلة ولم لا تتزوجها؛ قال وما أعلمك بأنها جميلة فقلت: قد رأيتها، فقال: هَهْ كلمة تعجب وزجر قال: ولم يخاطبني ولم ينظر إليّ بعد ذلك يومين. وكانت هذه عادته مع الأرامل والأيتام يتفقدهم ويملأ لهم الماء ويقضي حوائجهم ويدفع إليهم مما يدفعه إليه أهل الخير من زكوات أموالهم؛ وكانوا يستحبون دفع الصدقات والزكوات إليه ليصرفها على مستحقيها ثقة بأمانته وديانته ومعرفته للمحتاجين والحكايات عنه في ذلك كثيرة.

وكانت وفاته رضي الله تعالى عنه سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة ودفن بتربة باب الصغير قريباً من تربة عمر بن منجك.

(٢) قال الشيخ موسى الكناوي رحمه الله تعالى: ورأيته بعد موته في المنام فقلت له: كيف وجدت الله فقال: خير موجود، رحمه الله[١].

حميد الدين الحسينيّ

حميد الدين ابن أفضل الدين العالم العلامة المولى حمد الله الحسينيّ.

كان له حظ عظيم من الورع والتقوى والعلم والفضل قرأ على والده ـ

(١) «الكواكب السائرة»: ١/ ١٨٠ ـ ١٨١.

وكان والده عالماً صالحاً زاهداً قانعاً صبوراً ـ وعلى غير والده ثم أعطي تدريس مدرسة السلطان مراد خان ببروسا وعزل عنها في أوائل دولة السلطان محمد خان.

(١) أتى القسطنطينية فبينما هو ذات يوم مارّ في بعض طرقاتها إذ لقي السلطان محمد وهو ماش مع عدة من علمائه وكان ذلك عادته قال فعرفته ونزلت عن فرسي ووقفت فسلم علي وقال: أنت ابن أفضل الدين؟ قلت: نعم، قال: احضر الديوان غداً. قال: فحضرت، فلما دخل الوزراء عليه قال: جاء ابن أفضل الدين؟ قالوا: نعم، قال: أعطيته مدرسة والدي السلطان مراد خان ببروسا وعيّنت له كل يوم خمسين درهماً وطعاماً يكفيه من مطبخ عمارتي. قال: فلما دخلت عليه وقبّلت يده أوصاني بالاشتغال بالعلم وقال: أنا لا أغفل عنك، ثم أعطاه السلطان محمد إحدى المدارس الثماني ثم جعله قاضياً بالقسطنطينية ثم صار مفتياً بها في أيام السلطان أبي يزيد خان واستمر حتى مات.

(٢) وكان عالماً كبيراً ذكر تلميذه المولى محيي الدين الفناريّ أنه لم يجد مسألة من المسائل شرعية أو عقلية ألا وهو يحفظها وقال: لو ضاعت كتب العلم كلها لأمكن أن يمليها من حفظه، وهذا الكلام في نفس الأمر غلوّ وإغراق.

(٣) وحكى في «الشقائق»[1] عنه أنه حكى عن نفسه أنه وقع بالقسطنطينية طاعون حين كان مدرساً بإحدى الثماني فخرج ببعض أولاده إلى بعض القرى وهي زلَّة لا تليق بمقام مثله[2].

(٤) وكان حليماً صبوراً لا يكاد يغضب حتى أنه تحاكم إليه وهو قاض رجل وامرأة فحكم للرجل فاستطالت عليه المرأة وأساءت القول في حقه

---

(١) «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» لطاشكبري زادة.

(٢) وذلك لأن النبي ﷺ أمر أن لا يُخرج من بلد فيها الطاعون، ولا يدخل إليها من كان خارجاً عنها.

فلم يزدها على أن قال: لا تتعبي نفسك حكم الله لا يغيّر وإن شئت أن أغضب عليك فلا تطمعي.

وله حواش على شرح الطوالع للأصبهاني وهي متداولة مقبولة، وحواش على شرح المختصر للسيد الشريف وهي مقبولة أيضاً. وكانت وفاته في سنة ثمان وتسعمئة[1].

دمرداش المحدث

دمرداش المحمدي الشيخ الصالح الورع المعتقَد صاحب الزاوية والغيط بالقاهرة.

كان أجلَّ أصحاب سيدي أحمد بن عقبة المغربيّ المدفون في حوش السلطان برقوق بصحراء مصر، فلما مات شيخه ساح في البلاد حتى دخل تبريز العجم فصحب الشيخ العارف سيدي عمر روشني بها وأقام عنده مدة، ثم رجع إلى مصر فنزل بالبرية خارج الحسينية فسأل السلطان قايتباي أن يأذن له في إحياء أرض زاويته والغيط المعروف به الآن فأذن له فأقام بغرس النخيل وسقيه نحو خمس سنين وهو في خصّ هو وزوجته فغرس ألف نخلة فلم يخطىء منها واحدة وليس منذ غرس غيطه بمصر أحسنُ تمراً من غيطه ولتمره شهرة زائدة وكل ذلك ببركة التقوى وملاحظة النية عند غرسه فإنه أخبر عن نفسه أنه لم يغرس نخلة قط إلا على نية الفقراء والمساكين الذين هو من جملتهم، وذكر أن سيدي إبراهيم المتبوليّ هو الذي أشار عليه بذلك وقال له: يا دمرداش كل من عمل يدك وإيّاك والأكل من صدقات الناس فإنهم يتقاسمون حسناتك في الآخرة، وقد وقف غيطه وشرط أن تنقسم غلته أثلاثاً ثلث لمصالح الغيط وثلث لورثته وثلث للفقراء والمساكين القاطنين بالزاوية والواردين إليها وشرط على القاطنين بزاويته أن يقرؤوا كل يوم ختماً يتناوبونه.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١٨٦ - ١٨٧.

وقال الشعراويّ:

وزاوية الشيخ دمرداش عامرة بالسماط والفقراء، وليس في مصر زاوية يأكل فقراؤها حلالا مثلها لأن وقفها من عمل الشيخ بيده لا منّة لأحد فيه على الفقراء ولا رياء فيه ولا سمعة.

توفي سنة تسع وعشرين وتسعمئة[1].

زكرياالأنصاريّ

زكريا بن محمد زكرياالشيخ الإمام، شيخ مشايخ الإسلام، علّامة المحققين، وفهامة المدققين، ولسان المتكلمين، وسيد الفقهاء والمحدثين، الحافظ المخصوص بعلوّ الإسناد، والملحِق للأحفاد بالأجداد، العالم العامل، والولي الكامل، والسالك إلى الله تعالى أقوم مسالك الطريقة، مولانا وسيدنا قاضي القضاة، أحد سيوف الحق المنتضاة، زين الدين أبو يحيى الأنصاريّ السُّنيكيّ المصريّ الأزهريّ الشافعيّ، وسُنَيْكة المنسوب إليها بليدة من شرقية مصر.

(١) ولد سنة ثلاث وعشرين وثمانمئة وحكى العلائيّ عن الشيخ الصالح المعتقد ربيع ابن الشيخ عبد الله السلميّ أنه يوماً بسُنيكة مسقط رأس الشيخ زكريا وإذا بامرأة تستجير به وتستغيث أن ولدها مات أبوه وعامل البلد النصرانيّ قبض عليه يروم أن يكتبه موضع أبيه في صيد الصقور فخلصه الشيخ منه وقال لها: إن أردت خلاصه فافرغي عنه يشتغل ويقرأ بجامع الأزهر وعليّ كلفته فسلمت إليه الشيخ زكريا على ذلك ليتنصل من الفلاحة فلا زال يشتغل الشيخ زكريا حتى صار إلى ما صار إليه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، قال العلائيّ: وكان إذا ورد عليه الشيخ ربيع أو زوجته أو أحد من أقاربه يجله في زمن منصبه وكان يقضي حوائجهم ويعترف بالفضل لهم وربما مازحته زوجة الشيخ ربيع التي ربته.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١٩٢ ـ ١٩٣.

(١) وحكى الشيخ عبد الوهاب الشعراويّ عن الشيخ زكريا رضي الله تعالى عنه أنه قال: جئت من البلاد وأنا شاب فلم أعكف على الاشتغال بشيء من أمور الدنيا ولم أعلق قلبي بأحد من الخلق، قال: وكنت أجوع في الجامع كثيراً فأخرج في الليل إلى الميضأة وغيرها فأغسل ما أجده من قشيرات البطيخ حوالي الميضأة وآكلها وأقنع بها عن الخبز فأقمت على ذلك الحال سنين.

(٢) ثم إن الله تعالى قيّض لي شخصاً من أولياء الله تعالى كان يعمل في الطواحين في غربلة القمح فكان يتفقدني ويشتري لي ما أحتاج إليه من الأكل والشرب والكسوة والكتب ويقول لي: يا زكريا لا تُخفِ عني من أحوالك شيئاً فلم يزل معي كذلك عدة سنين فلما كان ليلة من الليالي أخذ بيدي والناس نائمون وقال لي: قم معي فقمت معه فأوقفني على سلم الوقادة الطويل بالجامع وقال: اصعد هذا الكرسي فلم يزل يقول لي اصعد إلى آخر درجة ثم قال: انزل فنزلت، فقال لي: يا زكريا، إنك تعيش حتى تموت أقرانك ويرتفع شأنك وتتولى مشيخة الإسلام يعني قضاء القضاة مدة طويلة وترتفع على أقرانك وتصير طلبتك مشايخ الإسلام في حياتك حتى يكف بصرك قلت: ولا بد لي من العمى فقال: لا بد، ثم انقطع عني فلم أره بعد ذلك. انتهى.

اشتغل رضي الله تعالى عنه في سائر العلوم المتداولة وبرع فيها فقرأ القرآن العظيم على جماعة، تفقه بجماعة منهم شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانيّ وفقيه الوقت الشرف موسى بن أحمد السبكيّ ثم القاهري، وأذن له جماعة بالتدريس والإفتاء، وأخذ العربية والأدب والأصول والمعقولات عن شيخ الإسلام ابن حجر وعن المحيوي الكافيجي والتقي الحصكفي وعن غيرهم، وأخذ القاضي زكريا رحمه الله تعالى الحديث عن جماعة منهم ابن حجر وسمع عليه أشياء كثيرة، وأجازه خلائق يزيدون على مائة وخمسين نفساً ذكرهم في ثبته.

(١) قال الشعراويّ: وأخبرني أنه من حين كان شاباً يحب طريق الصوفية ويحضر مجالس ذكرهم حتى كان أقرانه يقولون: زكريا لا يجيء منه شيء في طريق الفقهاء لكوني كنت مكبّاً على مطالعة رسائل القوم مواظباً على مجالس الذكر، قال ولما اشتغلت بالعلم وبرعت فيه بحمد الله تعالى شرحت البهجة قال فلما أتممت شرحها غار بعض الأقران فكتب على بعض نسخ الشرح: كتاب الأعمى والبصير تعريضاً بأني لا أقدر أشرح البهجة وحدي وإنما ساعدني فيه رفيق أعمى كنت أطالع أنا وإياه، قال: فاحتسبت بالله تعالى ولم ألتفت إلى مثل ذلك قال: وكان تأليفي لشرح البهجة في يوم الاثنين والخميس لكونها ترفع فيها الأعمال كما ورد في الحديث. انتهى.

وكان رضي الله تعالى عنه بارعاً في سائر العلوم الشرعية وآلاتها حديثاً وتفسيراً وفقهاً وأصولاً وعربية وأدباً ومعقولاً ومنقولاً فأقبلت عليه الطلبة للاشتغال عليه وعمّر حتى رأى تلاميذه وتلاميذ تلاميذه شيوخ الإسلام وقرَّت عينه بهم في محافل العلم ومجالس الأحكام.

قصد بالرحلة إليه من الحجاز والشام، وَوَلِيَ الجهات والمناصب.

(٢) وولاه السلطان قايتباي قضاء القضاة فلم يقبله إلا بعد مراجعة كلية، ثم عزل عن القضاء بسبب خطه على السلطان بالظلم وزجره عنه تصريحاً وتعريضاً.

(٣) قال العلائيّ: وعاش عزيزاً مكرماً محظوظاً في جميع أموره ديناً ودنيا بحيث قيل إنه حصل له من الجهات والتداريس والمرتبات والأملاك قبل دخوله في منصب القضاء كل يوم نحو ثلاثة آلاف درهم، وجمع من الأموال والكتب النفيسة ما لم يتفق لمثله قال: ومتع بملازمة العلم والعمل ليلاً ونهاراً مع مقارنة مئة سنة من عمره من غير كلل ولا ملل مع عروض الانكفاف[١] له بحيث شرح البخاريّ جامعاً فيه ملخص عشرة شروح

---

(١) العمى.

وحشّى تفسير البيضاوي في هذه الحالة، وكان يُقرأ عليه الدروس ومروياته في الحديث ويراجع مصنفاته فيصلحها ويحررها المرة بعد الأخرى إلى آخر وقت، قال: وكان رجاعاً إلى الخير منقاداً للمعروف ولو من الأداني، غير متكثر بالعلوم والمشيخة، ضابطاً لأوقاته غير مضيع لعمره، سليماً من العوارض والعواطل.

(١) غير أنه تحمل في منصب القضاء لمراعاة مصالح دنياه وحفدته أموراً تخشى عاقبتها حتى أنشد فيه الشيخ تاج الدين ابن شريف:

قاضي سُنَيْكَةَ عالم متبحر ... لكنّه لكنّه لكنّه

(١) ثم انتقد عليه أموراً ظاهرها التعصب ومنها حادثة وقعت للعلائيّ نفسه مع الأمير أزبك اليوسفيّ بسبب المدرسة العلائية الديلمية زعم العلائي أن صاحب الترجمة راعى جانب الأمير أزبك فيها ثم قال العلائي معتذراً: لعمري إني في تأثر وحيرة: فإنه من شيوخنا في الجملة دراية ورواية وإن شاركناه في كثير من شيوخه وقد جمع من أنواع العلوم والمعارف والمؤلفات المقبولة ومكارم الأخلاق وحسن السمت والتُؤدة والأخذ عن الأكابر ما لم يجمعه غيره، إلى أن قال: وكان قلمه أجود من تقريره لكنه رزق حظاً وافراً وتكاثرت عليه صغار الطلبة والمشايخ الكمل ووسع الناس واستجلبهم بقبول ما يأتون والتوجه إلى ما يبدون قال وسبب ذلك في الحقيقة كثرة اطلاعه وتحصيل الكتب الواسعة ولفظ نكت المتأخرين ونوابغهم وغفلة غالب الناس عن ما أخذه لقصور هممهم وعدم اطلاعهم. انتهى. وإنما ذكرت كلام العلائي هذا لاشتماله على تقرير حال الشيخ رضي الله تعالى عنه وإن اشتمل على غضٍّ قليل من مقامه لأن الفاضل لا يخلو من حاسد مناكد ولا بد لكل من تولى القضاء من راضٍ عنه وساخطٍ وكذلك تباعد أكثر السلف عن تولية القضاء كأبي حنيفة وسفيان الثوريّ ويحيى بن يحيى النيسابوريّ وأمثالهم فمثل ذلك لا يكون جرحاً في مثل صاحب الترجمة مع إطباق الناس على تعديله واعتقاد تقديمه وتفضيله.

(١) وقد كان رضي الله تعالى عنه يتأسف على تولية القضاء، قال الشعراوي: قال في مرة: إنها كانت غلطة، فقلت له: ما هي؟ فقال لي: توليتي للقضاء، صيرتني وراء الناس مع أني كنت مستوراً قال: فقلت له: يا سيدي: إني سمعت بعض الأولياء يقول: كانت ولاية الشيخ للقضاء ستراً لحاله لِما شاع عند الناس من صلاحه وزهده وورعه ومكاشفاته، قال: فقال: الحمد لله الذي خففت عني يا ولدي.

قال الشعراويّ: وكانت أول شهرته ـ يعني بالصلاح والولاية ـ في أيام السلطان خشقدم[١] وذلك أنه كان في باب النصر رجل مشهور بالصلاح فمرّ عليه السلطان خشقدم فوقف عليه يزوره، فقال للسلطان: إذا كان لك حاجة فاسأل فيها الشيخ زكريا فركب السلطان فزاره فأسرعت الناس إليه فمن ذلك اليوم اشتهر بالصلاح.

(٢) قلت: وحُدِّثت عن والدي رضي الله تعالى عنه أن الشيخ دخل إلى الغوريّ في حادثة تعصب الغوريّ فيها فعلم الغوريّ بأن الشيخ جاء في ذلك فأمر البوابين فوضعوا السلسلة على بابه فجاء الشيخ وهو راكب على بغلته فقطع السلسلة بكراسة كانت في يده من غير اكتراث ثم دخل ودخل الناس معه.

(٣) وبالجملة فقد صار أمثل أهل زمانه وأرأس العلماء من أقرانه ورزق البركة في عمره وعلمه وعمله وأُعطي الحظ في مصنفاته وتلاميذه حتى لم يبق بمصر إلا طلبته وطلبة طلبته وقرىء عليه شرحه على البهجة سبعاً وخمسين مرة حتى حرّره أتم تحرير ولم ينقل ذلك عن غيره من المؤلفين، وكانت مؤلفاته أحداً وأربعين مؤلفاً.

(٤) وكان صاحب الترجمة مع ما كان عليه من الاجتهاد في العلم اشتغالاً واستعمالاً وإفتاءً وتصنيفاً، ومع ما كان عليه من مباشرة القضاء ومهمات

---

(١) من سلاطين المماليك.

الأمور وكثرة إقبال الدنيا لا يكاد يفتر عن الطاعة ليلاً ونهاراً ولا يشتغل بما لا يعنيه، وقوراً مهيباً مؤانساً ملاطفاً، يصلي النوافل من قيام مع كبر سنه وبلوغه مئة سنة وأكثر ويقول: لا أعوِّد نفسي الكسل حتى في حال مرضه كان يصلي النوافل قائماً وهو يميل يميناً وشمالاً لا يتمالك أن يقف بغير ميل للكبر والمرض فقيل له في ذلك فقال: يا ولدي النفس من شأنها الكسل وأخاف أن تغلبني وأختم عمري بذلك.

(١) وكان إذا أطال عليه أحدٌ في الكلام يقول له: عجِّل قد ضيعت علينا الزمان، وكان إذا أصلح القارىء بين يديه كلمة في الكتاب الذي يقرأه ونحوه يشتغل بالذكر بصوت خفي لا يفتر عن ذلك حتى يفرغ، وكان قليل الأكل لا يزيد على ثلث رغيف.

(٢) وكان رضي الله تعالى عنه كثير الصدقة مع إخفائها، وكان له جماعة يرتب لهم من صدقته ما يكفيهم إلى يوم وإلى جمعة وإلى شهر وكان يبالغ في إخفاء ذلك حتى كان غالب الناس يعتقدون في الشيخ قلة الصدقة وكان إذا جاءه سائل بعد أن كفّ بصره يقول لمن عنده من جماعته هل هنا أحد فإن قال له: لا أعطاه، وإن قال له: نعم قال له: قل له يأتينا في غير هذا الوقت.

(٣) وكان شِعر الشيخ رضي الله تعالى عنه متوسطاً، ومنه ما رواه عنه شيخ الإسلام الوالد رضي الله تعالى عنه في المواضع التي تباح فيها الغيبة:

وتباح غيبة لمستفت، ومن ... رام إغاثة لدفع منكر
ومُعَرِّفٍ، متظلم متكلم ... في معلنٍ فسقاً، مع المحذّر

وكانت وفاته رضي الله تعالى عنه سنة ست وعشرين وتسعمئة عن مئة وثلاث سنوات.

(٤) وكان الشيخ عبد الوهاب الشعراويّ قد رأى قبل موته مناماً وقصه عليه وكاشفه به قبل أن يخبر به وقال له يوماً وهو بين يديه يطالع له في شرح البخاري: قف واذكر لي ما رأيتَ في هذه الليلة فقال له: رأيت أني معكم

في مركب وأنت جالس عن يسار الإمام الشـافعيّ فقلت لي: سلم على الإمام، فسلمت عليه ودعا لي والمركب مقلعة في بحر مثل عباب النيل، ورأيت المركب كلها مفروشة بالسندس الأخضر وكذلك القلع والحبال كلها حرير أخضر ومتكآت خضر فلا زلنا مقلعين حتى انتهينا إلى جنينة عظيمة أصولها في ساحل البحر وثمارها مدلاة من شراريف الحائط قال: وطلعت أنا من المركب إلى البستان فرأيت حوراً حساناً يجنين من الزعفـران في قفاص بيض على رؤوسهن كل قمعة من الزعفران قدرها في الجرم اسباطة البلح قال: فاستيقظت، فقال له شيخ الإسلام زكريا: إن صح منامك فإني سوف أدفن بالقرب من الإمام الشافعيّ وكان حاضراً بالمجلس حينئذ الشيخ جمال الدين الصافي والشيخ أبو بكر الظاهريّ، فلما توفي شيخ الإسلام زكريا فتحوا له فسقية في باب النصر فقال الشيخ جمال الـدين الصافي للشعـراويّ: أين رؤياك؟ قـال: فقلت لـه: إن الشيـخ قـال: إن صحت رؤياك، قال: فبينما نحن كذلك وقد كفن الشيخ وما بقي إلا حمله جاء قاصد ملك الأمراء خاير بيك فقال: إن ملك الأمراء ضعيف ولا يستطيع أن يأتي إلى باب النصر ومقصوده أن تحملوه إلى سبيل المؤمنين ليصلّىٰ عليه فحمل إلى الرُمَيلة وصلي عليه هناك فلما صلوا عليه قـال ملك الأمراء: ادفنوه عند الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ثم حمل نعشَه ملك الأمراء وغيره ومشى أمامه الأمير جانم الحمزاويّ والقضاة والعلماء والأمراء والخاص والعام، قال الشعراويّ: وكانت جنازته مشهورة ما رأيت أكثر خلقاً منها، رحمة الله تعالى[١].

السلطان سليم

سليم بن أبي يزيد بن محمد ابن مراد السلطان المفخم، والخـاقانِ المعظم، سليم خان ابن عثمان.

هو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الإسلامية، ومن قوم

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/١٩٦ - ٢٠٧.

أبرز الله تعالى لهم ما ادّخره من الاستيلاء على المدائن الإيمانية، رفعوا عماد الإسلام وأعلوا مناره، وتواصوا باتباع السنة المطهرة وعرفوا للشرع الشريف مقداره، وصار صاحب الترجمة منهم هو الذي ملك بلاد العرب، واستخلصها من أيدي الجراكسة بعد ما شتت جمعهم فانفلوا عن مليكهم وجدوا في الهرب.

ولد في أماسية في سنة اثنتين وسبعين وثمانمئة وجلس على تخت السلطنة وعمره ست وأربعون سنة بعد أن خلع نفسَه والدُه السلطان أبو يزيد خان عن السلطنة وسلمها إليه وتحول إلى مدينة أدرنة في قصة تقدمت في ترجمة والده رحمه الله تعالى، وكان السلطان سليم سلطاناً قهاراً وملكاً جبّاراً قوي البطش كثير السفك شديد التوجه إلى أهل النجدة والبأس، عظيم التجسس عن أخبار الملوك والناس، وربما غيّر لباسه وتجسس ليلاً ونهاراً، وكان شديد اليقظة والتحفظ، يحب مطالعة التواريخ وأخبار الملوك، وله نظم بالفارسية والرومية والعربية منه ما ذكر القطب الهندي المكي أنه رآه بخطه في الكوشك الذي بني له بروضة المقياس بمصر ونصّه:

الملك لله من يظفر بنيل غنى	يسلبه قسراً ومن ذا يضمن الدركا
لو كان لي أو لغيري قدر أنملة	فوق التراب لكان الأمر مشتركا

(١) ولما استقر على سرير السلطنة أخذ في قهر الملوك والسلاطين فبدأ بمقاتلة شاه إسماعيل ابن الشيخ حيدر الصوفيّ لما بلغه إشاعته للرفض وقتله لعلماء أهل السنّة وأكابرها فسافر إليه السلطان سليم إلى بلاد العجم وتلاقيا بالقرب من تبريز وتصافّا فانكسر عسكر الصوفي وانهزم ودخلت عساكر السلطان سليم إلى تبريز ونفذت فيها أوامره ونواهيه وأراد الإقامة بها ليستولي على إقليم العجم وما فيه فما أمكنه ذلك لكثرة القحط واستيلاء الغلاء حتى بيع الرغيف بمئة عثماني فرجع إلى الروم وأخذ من أراد من أكابر العجم وفضلائها وأماثلها وعظمائها وساقهم إلى البلاد الرومية، على قوانين السلاطين العثمانية.

(١) ثم سافر بعد أن استقر أمره من الرجوع من الأرض العجمية وقصد بعساكره البلاد الحلبية ولما سمع سلطان الجراكسة قانصوه الغوريّ بخروج السلطان سليم من أرض الروم خرج بعساكره من أرض مصر وأشاع في عساكره أنه يريد الإصلاح بين السلطان سليم والسلطان شاه إسماعيل الصوفي وسافر من بلاد مصر إلى بلاد الشام ودخل دمشق ثم حلب وكاتب السلطان سليم بما جاء إليه من الإصلاح بينه وبين الصوفي فارتاب منه السلطان سليم وبعث إليه: إني أبدأ بقتالك قبله لأنك مبتدع وهو مبتدع فتحرك الشر بينهما وقامت الحرب على ساق والتقيا بعساكرهما في مرج دابق وانكسر عسكر الجراكسة ومات الغوريّ من شدة ما دخل عليه من القهر والغلبة وتفرقت عنه العساكر، ثم دخل السلطان سليم إلى حلب وملكها ثم ملك ما بينها وبين دمشق ثم ملك دمشق ودخلها يوم السبت مستهل رمضان سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة وأقام بدمشق مدة حتى دبّر أمورها وأقام قوانينه فيها، ثم سافر منها قاصداً بلاد مصر فخرج منها يوم الاثنين عشرين ذي القعدة من السنة المذكورة وكانت أمراء الجراكسة قد سلطنوا بمصر طومان باي ولقّبوه بالأشرف. فلما سمعوا بخروج السلطان سليم من دمشق إليهم تأهبوا لقتاله والخروج إليه وبرزوا إلى الريدانية خارج مصر وقاتلوا عساكر الروم وثبتوا معهم ساعة وقتل من أعيان عساكر السلطان سليم وزيره سنان باشا وكان اسمه يوسف ثم انكسر عسكر الجراكسة وتفرقوا شذر مذر وهرب طومان باي، ثم دخل السلطان سليم إلى مصر وكان دخوله إليها يوم الثلاثاء خامس المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة ثم قبض بعد ذلك على طومان باي وصلبه على باب زويلة، وبقي بمصر مدة حتى مهّد أمورها وسار إلى الإسكندرية وعاد إلى مصر ثم إلى دمشق وأخذ معه جماعة من أعيان مصر، وكان دخوله إلى دمشق يوم الأربعاء حادي عشرى رمضان سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة ونزل بالقصر الظاهريّ بالميدان الأخضر وهو موضع التكية السليمانية الآن، وكان خروج السلطان سليم خان من دمشق يوم الاثنين سابع عشري محرم سنة أربع وعشرين المذكورة عائداً

إلى محل سلطنته ودخل القسطنطينية يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة أربع وعشرين وتسعمئة وأقام بها نحو سنتين وظهرت له في ظهره جمرة منعته الراحة، وحرمته الاستراحة، وعجزت في علاجه حذاق الأطباء وتحيرت في أمره عقول الألباء، ولا زالت به حتى حالت بينه وبين الأمنية، وخلّت بينه وبين المنية، فمات رحمه الله تعالى في رمضان أو شوال سنة ست وعشرين وتسعمئة بعد أن طالت علته نحو أربعين يوماً.

(١) وذكر العلائيّ في تاريخه نقلاً عن بعض المراسلات التي وردت إلى مصر من الروم بموت السلطان سليم أنه خرج من القسطنطينية إلى جهة أدرنة وقد خرجت له تلك الجمرة تحت إبطه وأضلاعه فلم يفطن لها حتى وصل إلى المكان الذي بارز فيه أباه السلطان أبا يزيد حين نازعه في السلطنة فطلب له الجرايحية والأطباء فلم يدركوه إلا وقد تأكلت ووصلت إلى الأمعاء فلم يستطيعوا دفعاً عنه ولا نفعاً ومات بها ودفن بالأسِتَانة عند قبر أبيه السلطان أبي يزيد خان رحمهما الله تعالى رحمة واسعة آمين[١].

قاضي زاده

ظهير الدين المولى الأردبيليّ الحنفيّ الشهير بقاضي زاده.

قرأ في بلاد العجم على علمائها، ولما دخل السلطان سليم خان إلى مدينة تبريز في قتال شاه إسماعيل الصوفي أخذه معه إلى بلاد الروم وعيّن له كلّ يوم ثمانين درهما.

(٢) وقال في «الشقائق»[٢]: كان عالماً كاملاً صاحب مجاورة ووقار وهيبة وفصاحة وكانت له معرفة بالعلوم خاصة بعلم الإنشاء والشعر وكان يكتب

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/ ٢٠٨ ـ ٢١١. وقال صاحب تاريخ الدولة العلية العثمانية: «كان ميّالاً لسفك الدماء فقتل سبعة من وزرائه لأسباب واهية، وكان كل وزير مهدد بالقتل لأقل هفوة حتى صار يُدعى على من يُرام موته بأن يصبح وزيراً له» انظر ص: ١٩٧.

(٢) «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» لطاشكبري زاده.

الخط الحسن، قتل مع الوزير أحمد باشا بمصر سنة ثلاثين وتسعمئة وذكر العلائيّ أن صاحب الترجمة استمال أحمد باشا إلى اعتقاد إسماعيل شاه الصوفي طلباً لاستمداده به واستظهاره معه بمكاتبات وغيرها، وعزم على إظهار شعار الرفض واعتقاد الإمامية على المنابر حتى قال صاحب الترجمة: إن مدح الصحابة على المنبر ليس بفرض ولا يخل بالخطبة، وقد ذكرنا ذلك في ترجمة أحمد باشا، وذكر العلائيّ أيضاً أنه قبض على صاحب الترجمة يوم الخميس عشرى ربيع الثاني سنة ثلاثين وتسعمئة وقُطعت رأسه وعلقت على باب زويلة[1].

الكناويّ

عبدالله بن عمر بن سليمان الكناويّ الصفديّ الشافعيّ جدّ الشيخ موسى الكناويّ لأمه.

(١) كان عالماً مؤثراً للصمت والعزلة عن الناس لا يحضر مجالسهم إلا لحضور الصلاة والجنائز ونحو ذلك وللتدريس وقراءة صحيح البخاري على كرسي بصوت حسن ونغمة طيبة وترتيل وتأنّ وحضور قلب وسكون جوارح، وكان يقرر معاني الأحاديث لمن يحضر مجلسه. وكان إماماً بالمسجد الذي يجري إليه الماء خارج كفر كنا وكان يفتي أهل تلك البلاد ويقرىء الطلبة بها في الفقه والفرائض والحديث والنحو ومكث على ذلك قريباً من خمسين سنة.

(٢) وكان صوته في القراءة لطيفاً ومع ذلك كان يسمعه من يتسمع لقراءته وهو يتهجد في هدوّ الليل من نحو ميل، وكان في صوته رقة وتحنن.

(٣) وحكى سبطه الشيخ موسى عن رجل سكن كفر كنا أربعين سنة ولازم الشيخ عبد الله في تلك المدة في صلاة الفجر كلّ يوم أنه لم ير الفجر سبق الشيخ عبد الله قطُّ بل كان هو دائماً يسبق الفجر وسبب ذلك أن الشيخ

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢١٦.

عبد الله لما ذهب إلى القدس الشريف للاشتغال على الشيخ الإمام الفقيه العارف بالله تعالى شهاب الدين ابن أرسلان الرمليّ ثم المقدسيّ قدّس الله تعالى سره أقام الشيخ عبد الله المذكور بالمدرسة الختنية جوار المسجد الأقصى عند الشيخ شهاب الدين مدة فخرج الشيخ شهاب الدين في ليلة من الليالي آخر الليل فوجد الطلبة منهم من يقرأ القرآن ومنهم من يدرس في قراءة العلم ومنهم من يصلي ومنهم من يذكر الله تعالى ووجد الشيخ عبدالله هذا نائماً فوكزه الشيخ شهاب الدين برجله فجلس فزعاً فقال له: يا ولدي أرسلك أهلك لتشتغل بالعلم أو بالنوم فاستمر الشيخ عبدالله لا ينام في تلك الساعة ببركة الشيخ شهاب الدين ابن أرسلان رضي الله تعالى عنه.

وكانت وفاة الشيخ عبد الله ببلدة كفر كنا من أعمال صفد سنة اثنتي عشرة وتسعمئة وهو في عشر التسعين، رحمه الله تعالى[1].

السيوطيّ

عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد همام الدين الشيخ العلامة الإمام المحقق المدقق المسند الحافظ شيخ الإسلام جلال الدين أبو الفضل ابن العلامة كمال الدين الأسيوطيّ الخضيريّ الشافعيّ صاحب المؤلفات الجامعة، والمصنفات النافعة.

ولد سنة تسع وأربعين وثمانمئة وعرض محافيظه على قاضي القضاة عز الدين أحمد بن إبراهيم الكنانيّ الحنبليّ فسأله: ما كنيتك؟ فقال: لا كنية لي، فقال: أبو الفضل.

(١) وتوفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر قد وصل في القراءة إذ ذاك إلى سورة التحريم وأسند وصايته إلى جماعة منهم العلامة كمال الدين بن الهمام فأحضر ابنه عقيب موته فقرره في وظيفة الشيخونية

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢١٨ - ٢١٩.

ولحظه بنظره وختم القرآن العظيم وله من العمر دون ثماني سنين، ثم حفظ عمدة الأحكام ومنهاج النوويّ وألفية ابن مالك ومنهاج البيضاويّ وعرض الثلاثة الأولى على مشايخ الإسلام العلم البُلقينيّ والشرف المناويّ والعز الحنبلي وشيخ الشيوخ الأقصرائيّ وغيرهم وأجازوه، وشرع في الاشتغال في العلم من ابتداء ربيع الأول سنة أربع وستين وثمانمئة وأجيز بالإفتاء والتدريس، وقد ذكر تلميذه الداووديّ في ترجمته أسماء شيوخه إجازة وقراءة وسماعاً مرتبين على حروف المعجم فبلغت عدتهم أحداً وخمسين نفساً، وألّف المؤلفات الحافلة الكثيرة الكاملة الجامعة النافعة المتقنة المحرّرة المعتمدة المعتبرة نيفت عدّتها على خمسمئة مؤلف وقد استقصاها الداوودي في ترجمته وشهرتها تغنينا عن ذكرها هنا، وقد اتفقت روايتنا لها عن شيخ الإسلام الوالد عنه بحق إجازته له وأذن له بروايتها عنه، وقد اشتهر أكثر مصنفاته في حياته في البلاد الحجازية والشامية والحلبية وبلاد الروم والمغرب والتكرور والهند واليمن.

(١) وكان في سرعة الكتابة والتأليف آية كبرى من آيات الله تعالى قال تلميذه الشمس الداوودي: عاينت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً وكان مع ذلك يملي الحديث ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة، وكان أعلمَ أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه ورجاله وغريبه واستنباط الأحكام منه.

(٢) وأخبر عن نفسه أن يحفظ مئتي ألف حديث قال: ولو وجدت أكثر لحفظته قال: ولعله لا يوجد على وجه الأرض الآن أكثر من ذلك.

(٣) ولما بلغ أربعين سنة من عمره أخذ في التجرّد للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاشتغال به صرفاً والإعراض عن الدنيا وأهلها كأنه لم يعرف أحداً منهم وشرع في تحرير مؤلفاته وترك الإفتاء والتدريس واعتذر عن ذلك في مؤلف ألّفه في ذلك وسمّاه «بالتنفيس» وأقام في روضة المقياس فلم يتحول منها إلى أن مات؛ لم يفتح طاقات بيته التي على النيل من سكناه.

(١) وكان الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته ويعرضون عليه الأموال النفيسة فيردها وأهدى إليه الغوريّ خصيّاً وألف دينار فردّ الألف وأخذ الخصيَّ فأعتقه وجعله خادماً في الحجرة النبوية وقال لقاصد السلطان: لا تعد تأتينا قَطُّ بهدية فإن الله تعالىٰ أغنانا عن مثل ذلك.

(٢) وكان لا يتردد إلى السلطان ولا إلى غيره وطلبه مراراً فلم يحضر إليه، وقيل له: إن بعض الأولياء كان يتردد إلى الملوك والأمراء في حوائج الناس فقال: اتباع السلف في عدم ترددهم أسلم لدين المسلم، وألف كتاباً سماه «ما رواه الأساطين، في عدم التردد إلى السلاطين»، قلت: وقد نظمت هذا الكتاب في منظومة لطيفة حافلة وزدت على ما ذكره زيادات شريفة.

(٣) ورؤي النبي ﷺ في المنام والشيخ السيوطيّ يسأله عن بعض الأحاديث والنبي ﷺ يقول له: هات يا شيخ السنة، ورأى هو بنفسه هذه الرؤيا والنبي ﷺ يقول له: هات يا شيخ السنة.

(٤) وذكر خادم الشيخ السيوطيّ محمد بن علي الحبّاك أن الشيخ قال له يوماً وقت القيلولة وهو عند زاوية الشيخ عبدالله الجيوشيّ بمصر بالقرافة: نريد أن نصلّي العصر في مكة بشرط أن تكتم ذلك عليّ حتى أموت، قال: فقلت: نعمَ، قال: فأخذ بيدي وقال: غمّض عينيك فغمضتهما فرمل في نحو سبع وعشرين خطوة ثم قال لي: افتح عينيك فإذا نحن بباب المعلى[١] فزرنا أمنا خديجة والفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة وغيرهم ودخلت الحرم فطفنا وشربنا من ماء زمزم وجلسنا خلف المقام حتى صلينا العصر وطفنا وشربنا من زمزم ثم قال لي: يا فلان ليس العجب من طيّ الأرض لنا وإنما العجب من كون أحد من أهل مصر المجاورين لم يعرفنا ثم قال لي: إن شئت تمضي معي وإن شئت تقم حتى يأتي الحاج، قال: فقلت: بل أذهب مع سيدي فمشينا إلى باب المعلا وقال لي: غمض عينيك فغمضتهما فهرول بي سبع خطوات ثم قال لي: افتح عينيك فإذا نحن

(١) هذه كرامة للسيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ وليست بمستغربة، إن صحت، فإن الله على كل شيء قدير.

بالقرب من الجيوشيّ ثم ركب الشيخ حمارته وذهبنا إلى بيته في جامع طولون.

(١) وذكر الشعراويّ عن الشيخ أمين الدين النجّار إمام جامع الغمريّ أن الشيخ أخبره بدخول ابن عثمان مصر قبل أن يموت وأنه يدخلها في افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة وأخبره أيضاً بأمور أخرى تتفق في أوقات عيّنها وكان الأمر كما قال رضى الله تعالى عنه.

ومحاسنه ومناقبه لا تحصى كثرة ولو لم يكن له من الكرامات إلا كثرة المؤلفات مع تحريرها وتدقيقها لكفى ذلك شاهداً لمن يؤمن بالقدر.

وله شعر كثير أكثره متوسط وجيّده كثير وغالبه في الفوائد العلمية، والأحكام الشرعية، فمن شعره:

(٢) قال في الشافعي رضي الله تعالى عنه مضمناً مكتفياً:

إن ابن إدريس حقاً ... بالعلم أولى وأحرى
لأنه من قريش ... وصاحب البيت أدرى

(٣) وقال مقتبساً رضي الله تعالى عنه:

أيها السائل قوماً ... ما لهم في الخير مذهب
اترك الناس جميعاً ... وإلى ربك فارغب

(٤) وقال مقتبساً:

لا تقابل الجهلا ... بالذي أتوا تفلح
إن ترد أن تسوءهم ... فاعف عنهم واصفح

(٥) وقال:

اعبد الله ودع عنك ... التواني بالهجود
ومن الليل فسبحه ... وأدبار السجود

(٦) وقال:

إني عزمت وما عزم بمنخرم ... ما لم يساعده تقدير من الباري

أن لا أصاحب إلا من خبرتهم ... دهراً مقيماً وأزماناً بأسفار
ولا أجالس إلا عالماً فطناً ... أو صالحاً أو صديقاً لا بإكثار
ولا أسائل شخصاً حاجة أبداً ... إلا استعارة أجزاءٍ وأسفار[1]
ولا أذيع ولا للعالم الفطن الصديق ... ما يحتوي مكنون أسراري
ولا أصاحب عاميّاً وإن شهدوا ... بأنه صالح معدوم أنظار
ولست أحْدِثُ فعلاً غير مفترض ... أو مستحب ولم يدخل بإنكار
ما لم أقم مستخير الله متكلاً ... وتابعاً ما أتى فيها من آثار

(١) وقال متشكياً:

طوبى لمن مات فاستراحا ... ونال من ربه فلاحاً
ما نحن إلا في قوم سوء ... أذاهُمُ قد بدا ولاحا

وكانت وفاته رضي الله تعالى عنه سنة إحدى عشرة وتسعمئة في منزله بروضة المقياس بعد أن تمرض سبعة أيام بورم شديد في ذراعه الأيسر وقد استكمل من العمر إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً، وكان له مشهد عظيم ودفن في حوش قوصون خارج باب القرافة[2].

---

(١) أي كتب.

(٢) «الكواكب السائرة»: ١/٢٢٦ - ٢٣١.

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى في «البدر الطالع»: ١/٣٢٨ - ٣٣٥ ما نصه: تصانيفه في كل فن من الفنون مقبولة قد سارت في الأقطار مسير النهار، لكنه لم يسلم من حاسد لفضله وجاحد لمناقبه؛ فإن السخاويّ في «الضوء اللامع» وهو من أقرانه ترجمه ترجمةً مظلمة غالبها ثلب فظيع وسب شنيع وانتقاص وغمط لمناقبه تصريحاً وتلويحاً ولا جَرَم فذلك دأبه في جميع الفضلاء من أقرانه وقد تنافس هو وصاحب الترجمة منافسة أوجبت تأليف صاحب الترجمة لرسالة سماها: «الكاوي لدماغ السخاويّ» فليعرف المطلع على ترجمة هذا الفاضل في «الضوء اللامع» أنها صدرت من خصم له غير مقبول عليه فمن جملة ما قاله في ترجمته: أخذ من كتب المحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدمة التي لا عهد لكثير من العصريين بها في فنون فغيّر فيها يسيراً وقدّم وأخّر ونسبها إلى نفسه وهوّل في مقدماتها بما يتوهم منه الجاهل شيئاً مما لا =

= يوفي ببعضه، وقال: ولا زال ويسترسل حتى قال إنه رُزِق التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع. قال: والذي أعتقده أن الذي وصلتُ إليه من الفقه والنقول التي اطلعت عليها مما لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي فضلاً عمن دونهم. قال ودون هذه السبعة أصول الفقه والجدل والصرف، ودونهما الإنشاء والترسل والفرايض، ودونها القراآت ولم آخذها عن شيخ، ودونها الطب، وأما الحساب فأعسر شيء عليّ وأبعده عن ذهني وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلاً أحمله قال: وقد كملت عندي آلات الاجتهاد بحمد الله.

قال السخاويّ بعد أن نقل هذا الكلام عن صاحب الترجمة في وصف نفسه: ما أحسن قول بعض الأستاذين في الحساب: ما اعترف به عن نفسه مما توهم به أنه متصف أول دليل على بلادته وبعد فهمه لتصريح أئمة الفن بأنه فن ذكاء ونحو ذلك، وكذا قول بعضهم دعواه الاجتهاد ليستر خطأه ونحو هذا، وقد اجتمع به بعض الفضلاء ورام التكلم معه في مسألة فقال: إن بضاعتي في علم النحو مُزجاة، وقول آخر له: أعلمني عن آلات الاجتهاد ما بقي أحد يعرفها؟ فقال له: نعم ما بقي من له مشاركة فيها على وجه الاجتماع في واحد بل مفرقاً، فقال له: فاذكرهم لي ونحن نجمعهم لك ونتكلم معهم فإن اعترف كل واحد لك بعلمه وتميزك فيه أمكن أن نوافقك في دعواك فسكت ولم يبد شيئاً. وذكر أن تصانيفه زادت على ثلثمائة كتاب رأيت منها ما هو في ورقة وأما ما هو دون كراسة فكثير وسمى منها شرح الشاطبية، وألفية في القراآت، مع اعترافه بأنه لا شيخ له فيها. ومنها ما اختلسه من تصانيف شيخنا يعني ابن حجر، وليته إذ اختلسها لم يمسخها ولو مسخها على وجهها لكان أنفع. ومنها ما هو لغيره وهو الكثير هذا إن كان المسخيات موجودة كلها وإلا فهو كثير المجازفة؛ جاءني مرة فزعم أنه قرأ مسند الشافعي على القميصي في يوم فلم يلبث أن جاء القميصي وأخبرني متبرعاً بما تضمن كذبه حيث أخبر أنه بقي منه جانب، ثم قال: كل ذلك مع كثرة ما يقع له من التحريف والتصحيف وما ينشأ عن عدم فهم المراد لكونه لم يزاحم الفضلاء في دروسهم بل استند بأخذه من بطون الدفاتر والكتب.

وأقول: لا يخفى على المنصف ما في هذا المنقول من التحامل على هذا الإمام فإنه ما اعترف به من صعوبة علم الحساب عليه لا يدل على ما ذكره من عدم الذكاء فإن هذا الفن لا يفتح فيه على ذكي إلا نادراً كما نشاهده الآن في أهل عصرنا، وكذلك سكوته عند قول القائل له: نجمع لك أهل كل فن من =

فنون الاجتهاد، فإن هذا كلام خارج عن الإنصاف لأن رب الفنون الكثيرة لا يبلغ تحقيق كلّ واحد منها ما يبلغه من هو مشتغل به على انفراده وهذا معلوم لكل أحد، وكذا قوله إنه مسخ كذا وأخذ كذا ليس بعيب فإن هذا ما زال دأب المصنفين يأتي الآخر فيأخذ من كتب من قبله فيختصر أو يوضح أو يعترض أو نحو ذلك من الأغراض التي هي الباعثة على التصنيف، ومن ذاك الذي يعمد إلى فن قد صنف فيه من قبله فلا يأخذ من كلامه؟ وقوله إنه رأى بعضها في ورقة لا يخالف ما حكاه صاحب الترجمة من ذكر عدد مصنفاته فإنه لم يقل إنّها زادت على ثلثمائة مجلد بل قال إنها زادت على ثلثمائة كتاب وهذا الاسم يصدق على الورقة وما فوقها. وقوله إنه كذبه القميصيّ بتصريحه أنه بقي من المسند بقية ليس بتكذيب فربما كانت تلك البقية يسيرة والحكم للأغلب لا ـ سيّما والسهو والنسيان من العوارض البشرية فيمكن أنه حصل أحدهما للشيخ أو تلميذه. وقوله إنه كثير التصحيف والتحريف مجرد دعوى عاطلة عن البرهان فهذه مؤلفاته على ظهر البسيطة محررة أحسن تحرير ومتقنة أبلغ إتقان.

(١) وعلى كل حال فهو غير مقبول عليه لما عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل بعدم قبول الأقران في بعضهم بعضاً مع ظهور أدنى منافسة فكيف بمثل المنافسة بين هذين الرجلين التي أفضت إلى تأليف بعضهم في بعض. فإن أقلّ من هذا يوجب عدم القبول.

(٢) والسخاويّ رحمه الله وإن كان إماماً غير مدفوع لكنه كثير التحامل على أكابر أقرانه كما يَعرف ذلك من طالع كتابه «الضوء اللامع» فإنه لا يقيم لهم وزناً بل لا يسلم غالبهم من الحط منه عليه وإنما يعظم شيوخه وتلامذته ومن لم يعرفه ممن مات في أول القرن التاسع قبل موته أو من كان من غيرِ مصره أو يرجو خيره أو يخاف شره.

(٣) وأما ما نقله من أقوال ما ذكره من العلماء مما يؤذن بالحط على صاحب الترجمة فسبب ذلك دعواه الاجتهاد كما صرح به، وما زال هذا دأب الناس مع من بلغ إلى تلك الرتبة ولكن قد عرفناك في ترجمة ابن تيمية أنها جرت عادة الله سبحانه كما يدل عليه الاستقراء برفع شأن من عُودي لسبب علمه وتصريحه بالحق وانتشار محاسنه بعد موته وارتفاع ذكره وانتفاع الناس بعلمه. وهكذا كان أمر صاحب الترجمة فإن مؤلفاته انتشرت في الأقطار وسارت بها الركبان إلى الأنجاد والأغوار ورفع الله له من الذكر الحسن والثناء الجميل ما لم يكن لأحد من معاصريه، والعاقبة للمتقين.

عبد الغفار الضرير

الشيخ الإمام العلامة المفنن الشيخ زين الدين المصريّ الشافعيّ الضرير.

قال الحمصي: مات قتلا في صلاة الجمعة ببلدة يقال لها: مطبوس بالقرب من إسكندرية، قال: وسبب ذلك أن هذه[1] كانت جاريةً في إقطاع الأمير طراباي وبها رجل متدارِك لمالها اسمه أبو عمرو فوقع بينه وبين أهل البلدة لفسقه وظلمه فشكوا حالهم للأمير طراباي فأرسل أخاه للبلد يحرر ذلك فلما حضر شكا أهل البلدة إليه ظلم أبي عمرو لهم فضرب أخو طراباي واحداً من أهل البلدة بالدبوس فرجمه أهل البلدة فأمر بضرب السيف فيهم فقتل منهم ما يزيد على ثلاثين نفراً فقال الشيخ عبد الغفار: هذا ما يحل، فضربت عنقه وألقي في البحر فساقه البحر إلى قرية تسمى كوم الأفراح بها جمع من الأولياء فدفن بها، وكان قتله رحمه الله تعالى سنة ثلاث عشرة وتسعمئة[2].

عبد الكريم بن عبد الله الرومي

العالم الفاضل المولى المشهور الروميّ الحنفيّ.

كان هو والوزير محمود باشا والمولى إياس من مماليك أمير من أمراء السلطان مراد خان الغازي ابن عثمان كان اسمه محمد أغا، وكان عبد الكريم ومحمود عِدْلاً[3] لإياس على الدابة حين أتى بهم محمد أغا، وكان سيدهم محمد أغا قد نصب لهما معلماً أقرأهم وعلمهم ثم أرسل محموداً إلى السلطان مراد خان الغازي فوهبه لابنه محمد خان فلما ولي محمد خان السلطنة جعله وزيراً ثم إن عبد الكريم جدّ في طلب العلم

---

(١) أي البلدة المذكورة.

(٢) «الكواكب السائرة»: ١/ ٢٤٠.

(٣) العِدل هو الراكب المقابل للآخر على الدابّة الموازن له.

وحصّل فنوناً عدة وفضائل جملة، ثم صار مدرساً ببعض المدارس التي بناها السلطان محمد خان عند فتح القسطنطينية، ثم ولاه قضاء العسكر ثم جعله مفتياً وبقي إلى أن مات في دولة السلطان أبي يزيد ولعل وفاته في حدود التسعمئة أو بعدها بقليل.

(١) قال في «الشقائق»[١]: حكى لي بعض من حضر مجلس محمود باشا أن المولى الشهير بولدان قال يوماً للوزير محمود باشا إني أحبك محبة شديدة قال: ومن العجب أنك تحب عبد الكريم أكثر مني قال: صدقت، قال: أيأخذ عبد الكريم بيدك ويدخلك الجنة؟ قال: أرجو ذلك منه قال: كيف؟ قال: كنت رئيس البوابين عند السلطان محمد خان وكنت مبتلى بشرب الخمر وأفرطت منه ليلة فجاء عبد الكريم وقت الصبح فطهرت بيتي وأزلت منه آلات الخمر وبخّرته حتى لا يطّلع عليه فتكلمت معه ساعة ثم قام فلما وصل إلى الباب وقف وقال: أكلمك شيئاً؟ قلت: تكلم، قال: إنك بحمد الله من أهل العلم ولك منزلة عند السلطان وعن قريب من الزمان تصير وزيراً له فلا يليق بك أن تصبّ في باطنك هذا الخبيث قال: فعرقت استحياء منه حتى ترشح العرق من ثوبي وكان يوماً بارداً وكنت ألبس الثوب المحشو، قال: وكان المولى عبد الكريم سبباً لتوبتي فهل أحبّه أم لا؟ قال المولى بولدان: وجب عليك محبته من صميم القلب. انتهى[٢].

عبد الوهاب المصريّ

الشيخ الصالح المُسَلِّك المجد القائم برتبة المشيخة الداعي إلى الله تعالى العارف به سيدي الشيخ تاج الدين الذاكر المصريّ رُبِّيَ يتيماً بمكتب مدرسة الحساميّ فلما ترعرع تعلق على صنعة البناء، ثم وفقه الله تعالى للاجتماع على الشيخ نور الدين ابن خليل فلازمه وصار يحضر المحافل

---

(١) «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» لطاشكبري زادة، رحمه الله.

(٢) «الكواكب السائرة»: ١/٢٥٤ - ٢٥٥.

ويتردد إلى الشيخ تقي الدين عبد الرحيم الأوجاقيّ وأوقاته ومجالسه حتى اشتهر فجمع الناس ولازم الذكر والخير وأقرأ البخاري والشفا والعوارف.

(١) وكان رحمه الله تعالى نيِّر الوجه حسن السمت كثير الشفاعات شديد الاهتمام بقضاء حوائجهم مجدّاً في العبادة دائم الطهارة لا يتوضأ عن حدث إلا كل سبعة أيام وسائر طهاراته تجديد وانتهى أمره آخراً إلى أنه كان يمكث اثني عشر يوماً لا يتوضأ عن حدث ولم يعرف ذلك لأحد في عصره إلا للشيخ أبي السعود الجارحيّ، وامتحنه قوم دعوه وجعلوا يطعمونه ويؤكدون عليه سبعة أيام ولم يُحدِث ثم علم أنهم امتحنوه فدعا عليهم فانقلبت بهم المركب فقيل له في ذلك فقال: لا غرق وإنما هو تأديب وينجون وكان كذلك، ثم ندم على الدعاء عليهم وقال: لا بد لي من المؤاخذة فمرض أكثر من أربعين يوماً.

(٢) ومكث خمساً وعشرين سنة لم يضع جنبه على الأرض إنما ينام جاثياً على حصير وقال عند موته: لي أربعون سنة أصلي الصبح بوضوء العشاء.

(٣) ولما سافر الغوري لقتال ابن عثمان طلب الشيخ تاج الدين الذاكر ليسافر معه وجميع أشياخ البلد فتوعدهم فقال الشيخ: ما بقي بيننا اجتماع هو لا يرجع ونحن نموت وكان الأمر كما قال.

مات الشيخ تاج الدين سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة ودفن بزاويته رحمه الله تعالى[١].

الحصكفيّ الشافعيّ

علي بن محمد بن عبد الرحيم، الشيخ العلامة المفنن المتقن المفيد علاء الدين أبو الحسن الحصكفيّ الموصليّ الشافعيّ. قطن دمشق أولاً مع أبيه وقرأ بها على الشيخ عماد الدين المعروف بخطيب السقيفة والبرهان ابن المعتمد وغيرهما وحج ماشياً، ثم قطن حلب ودرس بها وأفاد وربما أفتى،

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢٥٨ ـ ٢٥٩.

وتردد الطلبة إليه وتلقى منه جمع جم من الأفاضل حتى ترقى بعضهم إلى الإفادة، وكان له يد طولى في النحو والصرف والمنطق والعَروض والقوافي، وكان له تقرير حسن في الفقه ومشاركة كلية في الأدب.

(١) وشعره لطيف منه:

تمر الليالي والحوادث ... كأضغاث أحلام ونحن رقود
وأعجب من ذا أنها كل ساعة ... تجد بنا سيراً ونحن قعود

(٢) قال يمدح النوويّ رحمه الله تعالى:

إلى الشيخ محيي الدين علّامة الورى ... وروضته تعزى الدراية في الفتوى
دقائقه كنز وأذكاره هدى ... ومنهاجه السامي هو الغاية القصوى

(٣) وأجاب عن قول فضلاء النحو:

سلّم على شيخ النحاة وقل له ... عندي سؤال من يجبهُ يعظم
أنا إن شككت وجدتموني جازماً ... وإذا جزمت فإنني لم أجزمِ

بقوله:

قل في الجواب بأنّ إن في شرطها ... جزمت ومعناها التردد فاعلم
وإذا بجزم الحكم إن شرطيةً ... وقعت ولكن شرطها لم يجزم

(٤) وقال ـ ملمحاً بما ذكره ابن هشام في شرح القطر ـ قال: روي أنه قيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: (وقالوا يا مالِ) فقال: ما أشغل أهلَ النار عن الترخيم، ذكره الزمخشري وغيره وعن بعضهم أن الذي حسن الترخيم هنا أن فيه إشارة إلى أنهم يقطعون الاسم لضعفهم عن إتمامه. انتهى.

فقال صاحب الترجمة:

ما كان أغنى أهل نار جهنم ... إذ رخّموا يا مالِ وسط الجحيم
عجزوا عن استعمال كلمة مالك ... فلأجل ذا نادوه بالترخيم

(٥) وقال ملغزاً في الثلج وأجاد:

اسـم الـذي ألـغـزتـه   يـطفي شـرار الـلهـب
مـقلوبـه مـصحـفـاً   وجـدتـه فـي حـلـب

توفي سنة خمس وعشرين وتسعمئة، رحمه الله تعالى[١].

علاء الدين الجماليّ

علي بن أحمد العالم العلّامة العامل الفاضل المولى علاء الدين الجماليّ الروميّ الحنفيّ. دخل إلى القسطنطينية وقرأ على المولى خسرو، ثم تقلبت به الأحوال على وجه يطول شرحه واتصل بخدمة العارف بالله تعالى مصلح الدين ابن أبي الوفا، ثم لما تولى السلطان أبو يزيد السلطنة رآه في المنام فأرسل إليه الوزراء ودعاه إليه فامتنع فأعطاه تدريساً بثلاثين جبراً ثم رقاه في التدريس حتى أعطاه إحدى الثماني[٢] فدرّس بها مدة طويلة ثم توجه بنيّة الحج إلى مصر فلم يتيسر الحج في تلك السنة لفتنة حدثت بمكة المشرفة، فأقام بمصر سنة ثم حج وعاد إلى الروم، وكان توفي المولى أفضل الدين مفتي التخت السلطاني في غيبته فأعطاه السلطان أبو يزيد منصب الفتوى وعيّن له مئة درهم،ثم لما بنى مدرسة القسطنطينية ضمها له إلى الفتوى وعيّن له خمسين درهماً زائدة على المئة.

(١) وكان يصرف جميع أوقاته في التلاوة والعبادة والتدريس والفتوى ويصلي الخمس في الجماعة، وكان كريم الأخلاق لا يذكر أحداً بسوء.

(٢) وكان يغلق باب داره ويقعد في غرفة له فتلقى إليه رقاع الفتاوى فيأخذها ويكتب ثم يدلّيها؛ فعل ذلك لئلا يرى الناس فيميز بينهم في الفتوى.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢٦٤ ـ ٢٦٦.
(٢) هي المدارس الثمانية التي أنشأها السلطان محمد الفاتح في القسطنطينية لما فتحها.

(١) وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويصدع بالحق ويواجه بذلك السلطان فمن دونه حتى إن السلطان سليم خان أمر بقتل مئة وخمسين رجلاً من حفاظ الخزينة فتنبه لـذلك المـولى علاء الـدين المذكـور فذهب إلى الديوان ولم يكن من عـادتهم أن يذهب المفتي إلى الـديوان إلا لحـادثة عظيمة فلما دخل على أهل الديوان تحيروا في الأمر وقالوا: أيّ شيء دعا المولى إلى المجيء فقال: أريد أن ألاقي السلطان ولي معه كلام فعرضوا أمره على السلطان فأمر بدخوله وحده فدخل وسلّم وجلس وقال: وظيفـة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان وقد سمعت بأنك أمرت بقتل مئة وخمسين رجلاً من أرباب الديوان لا يجوز قتلهم شرعاً فغضب السلطان سليم وكان صاحب حدّة وقال: لا تتعرض لأمر السلطنـة وليس ذلك من وظيفتك، فقال: بل أتعرض لأمر آخرتك وهو من وظيفتي فإن عفوت فلك النجاة وإلا فعليك عقاب عظيم فانكسرت سَوْرة غضبه وعفا عن الكل ثم تحدث معه ساعة ثم سأله في إعادة مناصبهم فأعادها لهم.

(٢) وحكي أن السلطان سليم أرسل مرة إليه أمراً بأن يكون قاضي العسكر وقال له: جمعت لك بين الطرفين لأني تحققت أنك تتكلم بالحق فكتب المولى المذكـور في جوابـه وصل إليّ كتـابك سلّمـك الله تعالى وأبقـاك وأمرتني بالقضاء وإنني أمتثل أمرك إلا أنّ لي مع الله تعـالى عهداً أن لا تصدر عني لفظة: (حَكَمْتُ) فأحبه السلطان محبـة عظيمـة لإعراضـه عن المال والجاه والمنصب صيانة لـدينه ثم زاد في وظيفتـه خمسين عثمانيـاً وصارت مئتي عثماني.

وكانت وفاته رحمة الله تعالى في سنة اثنتين وثلاثين وتسعمئة[١].

علي بن ميمون

علي بن ميمون ابن أبي بكر، الشيخ المرشد المربّي القدوة الحجة

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢٦٧ - ٢٦٨.

وليّ الله تعالى العارف به السيد الشريف الحسيب النسيب أبو الحسن ابن ميمون الهاشميّ القرشيّ المغربيّ العماريّ الفاسيّ.

اشتغل بالعلم ودرّس، ثم تولى القضاء ثم ترك ذلك ولازم الغزو على السواحل وكان رأس العسكر، ثم ترك ذلك أيضاً وصحب مشايخ الصوفية ومنهم الشيخ عرفة القيروانيّ فأرسله الشيخ عرفة إلى أبي العباس أحمد التوزيّ الدباسيّ ومن عنده توجه إلى المشرق فدخل بيروت في أول القرن العاشر وكان اجتماع سيدي محمد بن عراق به أولاً هناك ولما دخل بيروت مكث ثلاثة أيام لم يأكل شيئاً فاتفق أن ابن عراق كان هناك وأتى بطعام فقال لبعض جماعته ادع لي ذلك الفقير فقام السيد علي بن ميمون وأكل ثم انفتح الأمر بينهما إلى أن أشهر الله تعالى الشيخ علي بن ميمون وصار من أمره ما صار.

قال في «الشقائق»[1]: إنه دخل القاهرة وحج منها ثم دخل البلاد الشامية وربّى كثيراً من الناس ثم توطن بمدينة بروسا ثم رجع إلى البلاد الشامية وتوفي بها.

(١) قال: وكان لا يخالف السنة حتى نقل عنه أنه قال: لو أتاني السلطان أبو يزيد ابن عثمان لا أعامله إلا بالسنّة، وكان لا يقوم للزائرين ولا يقومون، وإذا جاءه أحد من أهل العلم يفرش له جلدة شاة تعظيماً له، وكان قوّالاً بالحق لا يخاف في الله تعالى لومة لائم، وكان له غضب شديد إذا رأى في المريدين منكراً يضربهم بالعصا. قال: وكان لا يقبل وظيفة ولا هدايا الأمراء والسلاطين وكان مع ذلك يطعم كل يوم عشرين نفساً من المريدين وله أحوال كثيرة ومناقب عظيمة. انتهى.

(٢) وكان من طريقته ما حكاه عنه سيدي محمد بن عراق أنه لا يرى لبس الخرقة ولا إلباسها، وذكر الشيخ علوان رضي الله تعالى عنه أنه كان لا يرى الخلوة ولا يقول بها.

---

(١) «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» لطاشكبري زادة.

(١) وكان إذا بلغه أن أحداً سبّه أو ذمه أو نسبه إلى جهل أو فسق أو بدعة يتأول ما يتأول عنه.

(٢) وكان يقال عنه: كنّاز، وكيماويّ، ومطالبي، فيقول: نعم أنا كنّاز وعندي كنز عظيم ولكن لا يطلبونه ولا يسألوني عنه، وأنا كيماويّ ولكن لا يطلبون ما عندي من الكيمياء، وأنا مطالبي وعندي مطلب نفيس مزهود فيه ويشير إلى كنز العلم ومطلب المعرفة وكيمياء الحقيقة.

(٣) وكان كثيراً ما يقول: جواب الزفوت السكوت.

(٤) ومن وصاياه اجعل تسعة أعشارك صمتاً وعشرك كلاماً.

(٥) وكان يقول: الشيطان له وحي وفيض فلا تغتروا بما يجري في نفوسكم وعلى ألسنتكم من الكلام في التوحيد والحقائق حتى تشهدوه من قلوبكم.

(٦) وكان إذا أتاه متظلم من الحكام يقول له: اصلح حالك مع الله فمن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين خلقه.

(٧) وكان ينهى أصحابه عن الدخول بين العوام وبين الحكام ويقول: ما رأيت لهم مثلاً إلا الفأر والحيّات فإن كلًّا منهما مفسد في الأرض، فالحيات مسلطة على الفأر والفأر مسلطة على الناس وكذلك العوام سُلِّط بعضهم على بعض فسلط الله تعالى الحكام عليهم وكما أنه لا بد أن يسلّط على الحية قاتلاً يقتلها أو يأتيها أجلها سلّط على الظالم ظالماً آخر.

(٨) وكان شديد الإنكار على علماء عصره وكان يسمي القضاة القصاة والمشايخ المسايخ والفقيه الفقيع من فقع اللبن إذا فسد.

(٩) وكان من كلامه لا ينفع الدارَ إلا ما فيها.

(١٠) وكان يقول أيضاً: لا تشتغل بعدّ أموال التجار وأنت مفلس.

(١١) وكان يقول: اسلك ما سلكوا تدرك ما أدركوا.

(١) وكان يقول: يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عينه. قلت: هو حديث رواه الإمام أحمد من طريق أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ولفظه: «يبصر أحدكم القذى في عين أخيه وينسى الجذع في عينه».

(٢) وكان يقول: كنزك تحت جدارك وأنت تطلبه من عند جارك.

وله كلام غير هذا وله من المؤلفات كتاب «غربة الإسلام في مصر والشام، وما والاهما من بلاد الروم والأعجام»، ورسائل عدة.

(٣) ومن كراماته أن المطر حبس بدمشق في سنة ثلاث عشرة وتسعمئة فكتب سيدي علي بخطه درجاً[1] إلى نائب دمشق سيبائي فحضر النائب بالدرج إلى الجامع الأمويّ في يوم الجمعة رابع رمضان فقرأه على مفتي دار العدل السيد كمال الدين ابن حمزة وقضاة القضاة الثلاثة الشافعي ابن الفرفور والمالكيّ خير الدين والحنبليّ نجم الدين ابن مفلح فإذا فيه آيات من القرآن العظيم وأحاديث من السنَّة في التحذير للتُّرك ونحوهم من الظلم، ثم انتقل إلى الفقهاء والقضاة فحذرهم من أكل مال الأوقاف ثم حث على الاستغفار وذكر ما يتعلق بذلك ومن نقل ذلك من السلف بحيث أن سيبائي ذرف دمعه، فهم في أثناء قراءة الدرج وقع المطر وجاء الله تعالى بالغيث وأنا لا أشك في أنها كرامة ظاهرة.

(٤) وحكى سيدي محمد بن سيدي علوان في تحفته قال: أخبرني جمع ممن سكن قرية مجدل معوش التي هي قرية الشيخ وقبره فيها أنه كان في جوارهم وفي قريتهم كروم قد يبست أغصانها، وفسدت عروقها، وتعطلت بالكلية فمذ حلّ الشيخ المذكور بتلك الأراضي عادت الأراضي المجدبة مخصبة وعادت أشجار العنب المذكورة أيضاً إلى أحسن ما يكون وأينعت ثمارها قال وهي مستمرة من ذلك الآن إلى هذا الزمان ولم يعرف ذلك إلا من بركته.

---

(١) رسالة.

(١) وذكر أيضاً أن بعض أهل العلم حكى له وقد توجه لزيارة قبر سيدي علي ابن ميمون رضي الله تعالى عنه في سنة سبع وثلاثين وتسعمئة فقال: إن من غريب كرامات من أنتم متوجهون لزيارته ما شاهدته بعيني ذلك أن رجلًا من الأجناد أرسل كلباً قال أو صقراً على غزال فركضت الغزال حتى جاءت إلى الأرض التي هو مدفون فيها فدخلتها فقيل للجنديّ: دعها فإنها قد فعلت فعل العائذ بقبر الشيخ فلم يلتفت إلى مقالتهم وجاء إليها وهي قائمة فلم تبرح من مكانها حتى أمسكها الجندي بيده وذبحها وأكل من لحمها فلما فرغ من أكله أخذه وجع في بطنه واستمر حتى مات من ليلته فلما غسّل كان لحمه على المغتسل متقطعاً قطعاً حتى كأنه أكل شيئاً مسموماً قال: فعلمت أنا وغيري أن ذلك كله من بركة الشيخ. انتهى.

وقال ابن طولون في حوادث سنة سبع عشرة وتسعمئة من تاريخه ويوم الجمعة تاسع عشرته يعني جمادى الآخرة بعد صلاتها بالجامع الأموي نودي بالسدّة بالصلاة غائبة على الشيخ العالم السيد علاء الدين علي بن ميمون المغربيّ، رحمه الله تعالى[١].

علاء الدين الفناريّ

(٢) علي بن يوسف بن أحمد العالم العلامة المولى علاء الدين سبط المولى شمس الدين الفناريّ الروميّ الحنفيّ. رحل في شبابه إلى بلاد العجم فدخل هراة وقرأ على علمائها ثم إلى سمرقند وبخارى وقرأ على علمائها أيضاً وبرع في كل علم حتى جعلوه مدرّساً ثم غلب عليه حب الوطن فعاد إلى بلاد الروم في أوائل سلطنة محمد خان بن عثمان وكان المولى الكورانيّ يقول له: لا تتم سلطنتك إلا أن يكون عندك واحد من أولاد الفناريّ فلما دخل بلاد الروم أعطاه السلطان محمد مدرسة بمدينة بروسا بخمسين درهماً ثم مدرسة والده مراد خان بها بستين درهماً، ثم ولاه

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢٧١ - ٢٧٨.

قضاء بروسا ثم قضاء العسكر ومكث فيه عشر سنين وارتفع قدر العلماء في زمان ولايته إلى أوج الشرف وكانت أيامه تواريخ، ثم عزله ورتب له ولأولاده مرتبات سنية، ثم لما تولى ولده أبو يزيد خان السلطنة من بعده جعل المولى علاء الدين قاضياً بالعسكر في ولاية روم ايلي[1] ومكث فيه ثماني سنوات ثم عزله ورتب له ما يكفيه.

(١) وكان شديد الاهتمام بالعلم، وكان لا ينام على فراش وإذا غلبه النوم استند إلى الجدار والكتب بين يديه فإذا استيقظ ينظر في الكتب.

ولم يعتن بالتصنيف كثيراً، ولكنه شرح الكافية في النحو وكان ماهراً في سائر العلوم وحصل له من علوم الصوفية ذوق، لكنه كان مغرى بصحبة السلاطين بحيث كان يغلب عليه الصمت إلا إذا ذكر له صحبته مع السلاطين فعند ذلك يورد الحكايات اللطيفة والنوادر.

(٢) ومن لطائفه أنه كان يوماً وجماعة ينتظرون الإفطار في رمضان وكان يوماً شديد الحر فاستبطأوا المغرب فقال: الشمس أيضاً لا تقدر على الحركة من شدة الحر.

(٣) وحكى عنه تلميذه المولى الخيالي أنه قال يوماً: ما بقي من حوائجي إلا ثلاث: الأُولى: أن أكون أولَ من يموت في داري، والثانية أن لا يمتد بي مرض، والثالثة أن يختم لي بالإيمان. قال الخيالي فكان أوّلَ من مات في الدار، وتوضأ يوماً للظهر ثم مرض وحمّ ومات مع أذان العصر قال فاستجيبت دعوته في الأُولَيْيْنِ وظني أنه أجيبت في الثالثة.

وتوفي في سنة ثلاث وتسعمئة تقريباً رحمه الله تعالى[2].

---

(١) هي بلاد العثمانيين في أوروبًا.

(٢) «الكواكب السائرة»: ١/٢٧٨ - ٢٧٩.

عمر البجائيّ

المغربيّ الإمام العلامة، القدوة الحجة الفهامة، ولي الله تعالى العارف به.

(١) قدم إلى مصر في زمان السلطان الغوريّ وصار له عند الأكابر وغيرهم القول التام وكان له كشف ظاهر، وكان يخبر بالوقائع الآتية في مستقبل الزمان فتقع كما أخبر وهو ممن أخبر بزوال مملكة الجراكسة وقتالهم لابن عثمان وقال إن الدولة تكون للسلطان سليم، ومرّ على المعمار وهو يعمّر القبة الزرقاء للغوريّ تجاه مدرسته فقال: ليس هذا قبر الغوريّ فقالوا له: وأين قبره فقال: يقتل في المعركة فلا يعرف له قبر، وكان الأمر كما قال.

وكان شاباً طويلاً جميل الصورة طيب الرائحة على الدوام، حفظ المدوّنة الكبرى للإمام مالك وسمع الحديث الكثير، وكان يصوم الدهر وقوته في الغالب الزبيب، ولم يكن على رأسه عمامة إنما كان يطرح ملاءة عريضة على رأسه وظهره ويلبس جبّة سوداء واسعة الأكمام.

مات سنة تسع عشرة أو عشرين رضي الله تعالى عنه[1].

عائشة الباعونية

عائشة بنت يوسف بن أحمد الشيخة الأديبة العالمة العاملة أم عبد الوهاب الصوفية الدمشقية بنت الباعونيّ أحد أفراد الدهر ونوادر الزمان فضلاً وعلماً وأدباً وشعراً وديانة وصيانة.

نالت من العلوم حظّاً وافراً، وأجيزت بالإفتاء والتدريس وألّفت عدة كتب منها: كتاب «در الغائص، في بحر المعجزات والخصائص»، وهو قصيدة رائية، وكتاب «الإشارات الخفية، في المنازل العلية»، وهي أرجوزة اختصرت فيها منازل السائرين للهروي، وأرجوزة أخرى لخصت فيها «القول البديع، في الصلاة على الحبيب الشفيع»، للسخاويّ.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢٨٦.

(١) ومن كلامها: وكان مما أنعم الله تعالى به عليَّ أنني بحمده لم أزل أتقلب في أطوار الإيجاد، في رفاهية لطائف البر الجواد، إلى أن خرجت إلى هذا العالم المشحون بمظاهر تجلياته، الطافح بعجائب قدرته وبدائع آياته، المشوب موارده بالأقذار والأكدار، الموضوع بكمال القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار، دار ممر لا بقاء لها إلى دار القرار، فربّاني اللطف الرباني في مشهد النعمة والسلامة، وغذاني بلبان مدد التوفيق لسلوك سبيل الاستقامة، في بلوغ درجة التمييز، أهلني الحق لقراءة كتابه العزيز، ومنّ علي بحفظه على التمام ولي من العمر ثمانية أعوام، ثم لم أزل في كنف ملاطفات اللطيف حتى بلغت درجة التكليف.

دخلت إلى القاهرة في سنة تسع عشرة وتسعمئة فأصيبت في الطريق بشيء كان معها من مؤلفاتها ومنظوماتها.

(٢) قال الشيخ شمس الدين ابن طولون الحنفي: أنشدتنا عائشة بنت القاضي يوسف الباعونيّ:

نزّه الطرف في دمشق ففيها	كلما تشتهي وما تختار
هي في الأرض جنّة فتأمل	كيف تجري من تحتها الأنهار
كم سما في ربوعها كل قصر	أشرقت من وجوهها الأقمار
وتناغيك بينها صادحات	خرست عند نطقها الأوتار
كلها روضة وماء زلال	وقصور مشيدة وديار

ذكر ابن الحنبلي أن صاحبة الترجمة دخلت حلب في سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة والسلطان الغوريّ بها لمصلحة لها كانت عنده فاجتمع بها من وراء حجاب البدر السيوفيّ وتلميذه الشمس السفيري وغيرهما، ثم عادت إلى دمشق وتوفيت بها في السنة المذكورة رحمها الله تعالى[١].

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢٨٧ - ٢٩٢.

قانصوه الغوريّ

قانصوه بن عبد الله الجركسيّ السلطان الملك الأشرف المشهور بالغوريّ وسماه ابن طولون جندب وجعل قانصوه لقباً له، قال: والغوريّ نسبة إلى طبقة الغور قال ابن الحنبلي: إحدى الطبقات التي كانت بمصر مدة تعليم المؤدبين.

مولده في حدود الخمسين وثمانمئة، وترقى في المناصب حتى صار نائب طَرَسُوس فانتزعها منه جماعة السلطان أبي يزيد ابن عثمان فهرب منها وعاد إلى حلب فلما انتصر عسكر مصر على الأروام عاد إلى طَرَسُوس مرة ثانية ثم أخذها الأروام مع ما والاها فهرب منها أيضاً إلى حلب ثم نُصِر عسكر مصر ثانياً فعاد إليها مرة ثالثة، فلما مات الملك الأشرف قايتباي رجع إلى مصر ووقعت له أمور في دولة الملك الناصر ابن قايتباي ثم أعطاه تقدمة ألف[1]، ثم في دولة جان بلاط أعطاه رأس نوبة النوب[2]، ثم توجه صاحب الترجمة صحبة العسكر المصري إلى الشام بسبب عصيان قصروه نائبها فخامر أمير العسكر طومان باي واتفق مع قصروه على أن يكون سلطاناً وأمسكوا جماعة من الأمراء وجعل صاحب الترجمة دواداراً[3] كبيراً ثم توجهوا إلى الديار المصرية وحاصروا الأشرف جان بلاط ثم أمسكوه وتولى السلطنةَ طومان باي واستمر صاحب الترجمة دواداراً إلى أن وقع بينه وبين طومان باي فاتفق مع العسكر على أن يركبوا عليه واختفى هو في حيلة فهرب السلطان طومان باي ليلة الجمعة مستهل شوال سنة ست وتسعمئة فتولى السلطنة بعده صاحب الترجمة في يوم عيد الفطر.

(١) ولما تسلطن أخذ يتتبع رؤوس الأمراء وذوي الشوكة فيقتلهم شيئاً شيئاً

---

(١) أي قيادة ألف من المماليك.

(٢) هو الذي يأمر مماليك السلطان أو الأمير وينفذ أمره فيهم.

(٣) الدوادرية وظيفة موضوعها نقل الرسائل والأمور عن السلطان، وعرض القصص والبريد، وأخذ الخط السلطانيّ على عامة المناشير.

ثم فشا ظلمه ومصادرته للناس في أموالهم حتى صار شيخ الإسلام زكريا يعرض بظلمه في الخطبة وهو تحت منبره يسمع ولم يتعظ حتى حصل منه أذية بالغة للبرهان ابن أبي شريف عالم مصر يومئذ ومفيدها بسبب الرجل الذي رُمي بالزنا فأقر بالتهديد والضرب ثم أنكر فأفتى ابن أبي شَريف بعصمة دمه وعدم رجمه فغضب عليه الغوريّ بسبب ذلك وعزله من مدرسته التي جددها بالقاهرة وصلب الرجل على باب شيخ الإسلام ابن أبي شريف حتى جزع الناس له واستعظموا هذا الأمر الشنيع مع مثله واستمر في منزله لا يخرج منه والناس يقصدونه في أنواع العلوم إلى أن أزعج الله تعالى الغوريّ فأمر العسكر بالتجهيز لحلب وأشاع أنه يريد الإصلاح بين ملك الروم وملك شاه إسماعيل الصوفيّ الخارجي ثم سافر من تخت ملكه في عاشر ربيع الثاني سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة وصحبته الخليفة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد العباسي وقضاة الشرع الأربعة وغيرهم من العلماء والمشايخ وستة عشر أميراً مقدماً.

(١) فلما دخل غزة شكا إليه أهل القدس ظلم نائبه وغيره فأهانهم بالطرد والضرب، ثم دخل دمشق في موكب عظيم ونائب الشام حامل القبة والطير على رأسه على عادة الملوك المتقدمين، وشكا إليه أهل حمص وغيرهم ظلم نوابهم فلم يشكهم، وأقام سبعة أيام ولم يحضر جمعة ولا جماعة وتوجه إلى حلب ومعه نواب الشام وحمص وحماة وطرابلس وغيرهم من الأمراء ولم يقرّ بحمص ولا زار بها سيدي خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه مع أنّ الطاغية تيمورلنك دخلها لزيارته.

وعند وصوله إلى حلب جاءه قاصدان من ملك الروم وأخبراه بوصول ملكهم إلى القيسارية متوجهاً لقتال الصوفي فخلع عليهما وأكرمهما وذكر لهما ما يريد من الإصلاح بين السلطان سليم وشاه إسماعيل وأرسل بذلك إلى السلطان سليم قاصداً يقال له الأمير مغلباي الدوادار فلما وصل إليه قبض عليه حتى وصل إليه قاصداه فحلق لحيته وأخذ جميع ما كان معه من متاع وقال له قل لأستاذك: هذا خارجي وأنت مثله وأنا أقاتلك قبله والميعاد

بيننا وبينك في مرج دابق، ثم سافر خلفه وصار يأخذ كل بلد يدخله من أعمال ملك الغوري فلما بلغ الغوريَّ ذلك من قاصده ومن غيره خرج من حلب في نحو ثلاثين ألفاً وترك ولده في قلعتها وكان خروجه منها يوم الثلاثاء عشري رجب بعد إقامته بها شهرين.

(١) وقد كان الغوريّ في أول الأمر مصمماً على مباينة شاه إسماعيل حتى وقع في قلبه رعبه بسبب أن شاه إسماعيل كان قد قتل صاحب هراة وولده قبرخان فبعث برأس الأب إلى ملك الروم السلطان سليم وبرأس الابن إلى الغوريّ وكتب إلى الأول رسالة مطلعها:

(٢) نحن أناس قد غدا شأننا ... حب علي بن أبي طالب
يعيبنا الناس على حبه ... فلعنة الله على العائب

وكتب إلى الثاني رسالة مطلعها:

السيف والخنجر ريحاننا ... أفّ على النرجس والآس
وشربنا من دم أعدائنا ... وكاسنا جمجمة الراس

(٣) فردّ عليه الأول بهذين البيتين:

ما عيبكم هذا ولكنه ... بغض الذي لقّب بالصاحب[1]
وكذبكم عنه وعن بنته ... فلعنة الله على الكاذب

وردّ عليه الثاني بمقاطيع منها قول شيخ الإسلام البرهان ابن أبي شريف:

السيف والخنجر قد قصّرا ... عن عزمنا في شدة الباس

(٤) فكانت هذه القصة محرّكة للسلطان سليم خان رحمه الله تعالى إلى السفر إلى قتال شاه إسماعيل وشجعته السنّة عليه وأنهضه حب الشيخين إليه، وأما الغوريّ فوقع رعبها في قلبه حتى قرّب رجلًا أعجمياً بسبب ذلك وكان الأعجمي ينسج المودة في الباطن بينه وبين شاه إسماعيل حتى أخرجه

---

(١) أي أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

من مصر قاصداً للإصلاح بينه وبين السلطان سليم فلما كان مبطناً مودته لأهل البدعة رد الله تعالى كيده في نحره وسلّط عليه ملك الروم فتوجه إليه السلطان سليم وخرج الغوري إليه من حلب في التاريخ المذكور فوصل إلى مرج دابق ليلة الخميس ثاني عشري رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة ونزل عند القبر المنسوب لنبي الله داود عليه الصلاة والسلام ومكث عنده ثلاثة أيام.

(١) ثم جاءتهم العساكر الرومية فركبوا على خيولهم فوقع الحرب بينهم فدفع عليهم العسكر الروميّ بالعَرّادات[١] ورموا بها عليهم فأظلم الأفق وصار له دوي وجفلت الخيل فقاتلوهم ساعة ثم هرب الغلمان وبعض العساكر وقتل جماعة من أمراء الجراكسة ثم غشي على الغوري وكان بطيناً سميناً فطاح عن فرسه ثم طاح عنها ثانياً فأقعدوه وقالوا له: اثبت لنا، فقال لهم: ما بقي شيء فرغت، وأسكت من وقته، ثم زحف عليهم عسكر الروم فتفرق عنه عسكره وتركوه ملقى على الأرض فمات ولم يعلم به أحد وصار عبرة لمن اعتبر وصارت حاله كما قيل:

جاءته من قِبَل المنون إشارة	فهوى صريعاً لليدين وللفم
ورمى بمحكم درعه وبرمحه	وامتد ملقى كالفنيق الأعظم
لا يستجيب لصارخ أن يدعه	أبداً ولا يرجى لخطب معظم

ثم ملك السلطان سليم بلاد حلب وما والاها من بلاد الشام ودخل إلى دمشق كما تقدم في ترجمته وإلى مصر ثم عاد إلى تخت ملكه وصارت البلاد لأولاد عثمان إلى الآن، وفقهم الله تعالى، والغوري آخر ملوك الجراكسة[٢].

---

(١) آلة حرب أصغر من المنجنيق ترمي بالحجارة المرمى البعيد.

(٢) «الكواكب السائرة»: ١/٢٩٤ - ٢٩٧.

قايتباي الجركسيّ

قايتباي أبو النصر ابن عبد الله السلطان الملك الأشرف الجركسيّ الظاهريّ نسبةً إلى الملك الظاهر جقمق.

ميلاده في سنة ست وعشرين وثمانمئة في سلطنة الملك الأشرف برسباي ثم انتقل إلى الملك الظاهر جقمق فأعتقه ونسب إليه ثم رفعه الله تعالى ورقاه حتى ملكه الله تعالى بلاد العرب.

حَكَى أنه مر في حلبة المماليك على دمشق فتفرس فيه بعض أوليائها أن أمره يؤول إلى السلطنة فكان يعرفها له ولعل هذا هو السبب في اعتقاده لأهل العلم والصلاح.

بويع له بالسلطنة في يوم الاثنين سادس شهر رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمئة بحضرة الخليفة المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن محمد العباسي وقضاة القضاة الأربعة، وأركان الدولة.

(١) ثم سلك الملك الأشرف قايتباي أحسن المسالك، وسار أحسن السير في تدبير الممالك، وكان يتألف قلوب العلماء، ويتواضع لعامة الصلحاء، وكان له في سيدي عبد القادر الدشطوطي غاية الاعتقاد وكان سيدي عبد القادر يتولى تربيته وإرشاده كلما مر عليه وكان يمتثل أمره وينقاد.

(٢) بلغني أنه كان يمر وهو راكب في موكبه على سيدي عبد القادر فيحبس فرسه عنده، وربما نزل إليه فقبل يديه، فقال سيدي عبد القادر له يوماً والذباب منعكف عليه وعلى ثيابه يا قايتباي: قل لهذا الذباب يذهب عني، فحار قايتباي فقال: يا سيدي: كيف يسمع الذباب مني قال: وكيف تكون سلطاناً ولا يسمع الذباب منك، ثم قال سيدي عبد القادر: يا ذباب اذهب عني فلم يبق عليه ذبابة.

وكان بين السلطان قايتباي وبين الجدّ غاية الاتحاد ولكل منهما في الآخر مزيد الاعتقاد وكان الجدّ يقطع له بالولاية حتى قال من أبيات:

إمـام النـاس في العصـر ولـيّ الله فـي السـرّ
وكـنّـاه أبـا النـصـر وقـايـتبـاي قـد سـمّـاه
أدِمْ يـا رب سـلطانـه وثـبـت فـيـه أركـانـه
ومـكِـنّ فـيـه عـرفـانـه وظـفـره بـمـن عـاداه

(١) وكتب الشيخ الجدّ ديواناً لطيفاً من نظمه وإنشائه في مناقبه ومآثره سماه بالدرة المضيّة، في المآثر الأشرفية، ونظم في مآثره وعمائره قصيدة رائية ضمّنها الديوان المذكور فمنها أنه عمّر حصناً بالإسكندرية ومدرسة بالقرب منه، وحَصّن ثغر دمياط وبنى حصوناً، وبنى مدرسة معظمة بمكة لصيق الحرم الشريف مما يلي المقام وأعطى تدريسها لشيخ الإسلام البرهان ابن ظهيرة، وعمّر مسجد الخيف وساق الماء من عرفات إلى منى والمحصب ولما ذكر الجد ذلك في قصيدة قال:

وسقتــه لمنى ثم المحصب بــل وعن قريب على باب السلام يرى

(٢) فاتفق للجد في هذا البيت كرامة عجيبة وهو أنه أخبر أن ماء عرفات سينساق إلى مكة حتى يرى جارياً على باب السلام وكان الأمر كما ذكر فإن السلطان سليم ساق الماء إلى مكة وهو الآن يجري بالمسعى بالقرب من باب السلام، وعمر قايتباي الحجرة الشريفة والقبة المبتناة عليها، وعمر مسجد رسول الله ﷺ وعمر بالمدينة مدرسة ورباطاً وساق ماءَ العين الزرقاء إليها وهذا كما قال الشيخ رضي الله تعالى عنه:

هـذا وحقـك شيءٌ مـا سبقت لـه وكـم مليـك تـمنـاه ومـا قـدرا
أليس يكفيـك هذا سيـدي شـرفـاً على الملوك وفخـراً زيّن السيـرا

(٣) وعمر بالقدس الشريف مدرسة عظيمة، ورمّ الجامع الأمويّ، وعمّر مدرسة بغزة، وجامعاً بالصالحيّة المصرية، وجامع الروضة وجامع الكبيـر وتربة بصحراء مصر، ولقد كان من محاسن الدهر ورؤوس ملوك الأرض.

(٤) ولم ينتقد عليه أحد عظيم أمر سوى ما كان من أمره بإعادة كنيسة اليهود بالقدس الشريف بعد هدمها وعقوبته لعالم القدس البرهان الأنصاريّ

وقاضيها الشهاب بن عبيّة وغيرهم بسبب هدم الكنيسة حتى حُمِلوا إليه وضرب بعضهم بين يديه وقد شنّع ابن عبيّة على قايتباي في ذلك وبالغ في حقه حتى زعم أنه لم يفعل ذلك إلا لمودة بينه وبين اليهود وتعصب منه على الدين وهذا تحامل من ابن عبيّة فإن قايتباي لم يقصد بالأمر بإعادة الكنيسة نصرة لليهود وإنما أمر بذلك بعد أن عقد مجلساً جمع فيه العلماء وأفتى بعضهم بأن هدم الكنيسة لم يصادف محلاً.

كانت وفاة السلطان قايتباي رحمه الله تعالى سنة إحدى وتسعمئة ولذلك قيل إنه المجدّد من الملوك على رأس القرن العاشر.

قال النعيميّ: ومدة ولايته ست وعشرون سنة وثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً[1].

لطف الله التوقاتي

لطف الله المولى العالم الفاضل الشهير بمولانا لطفي التوقاتيّ الروميّ الحنفيّ. تخرج بالمولى سنان باشا، ولما دخل المولى علي القوشجي بلاد الروم قرأ عليه العلوم الرياضية بإشارة المولى سنان، ولما كان سنان وزيراً عند السلطان محمد خان بن عثمان رباه عنده فجعله السلطان محمد أميناً على خزانة الكتب فاطلع على الغرائب منها، ثم لما ولي السلطنة أبو يزيد خان أعطاه مدرسة السلطان مراد خان الغازي بمدينة بروسا ثم رقاه حتى أعطاه إحدى الثماني[2] ثم ولاه مراد خان ثانياً وأقام ببروسا.

(١) وكان ذكياً فطناً خاشعاً يُقرأ عليه في صحيح البخاري فيبكي حتى تسقط دموعه على الكتاب حتى ختم القراءة.

(٢) وكان فاضلاً عالماً غير أنه كان يطيل لسانه على أقرانه حتى أبغضه علماء الروم ونسبوه إلى الإلحاد والزندقة وفُتِّش عليه واستُحْكِم في قتله

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٢٩٧ - ٣٠٠.

(٢) أي إحدى المدارس الثمانية التي بناها السلطان محمد الفاتح حين فتح القسطنطينية.

المولى أفضل الدين فلم يحكم وتوقف في أمره فحكم المولى خطيب زاده بإباحة دمه فقتلوه، قال في «الشقائق»: ولقد سمعنا من حضر يحكي أنه كان يكرر كلمتي الشهادة وينزه عقيدته مما نسبوه إليه من الإلحاد حتى قيل إنه تكلم بالشهادة بعدما سقط رأسه على الأرض. قال ورُوي أن الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ محيي الدين القوجويّ لما سمع بقتله قال: أشهد أنه بريءٌ من الإلحاد والزندقة.

(١) ومن نوادره العجيبة أنه كان مع أصحابه على جبل بروسا حين كان مدرساً بها فجاءه رجل من أهل القرى وبيده خطام دابة وعلى عنقه مخلاة[1] فشرب من عين جارية هناك ثم استلقى على ظهره فقال المولى لطفي لأصحابه بعدما تأمل ساعة: إن هذا الرجل من قصبة إينه كول وقد أُخذت دابته وهو في طلبها ثم تأمل ساعة وقال: اسم الرجل سوندك، ثم تأمل ساعة فقال: إن في مخلاته نصف خبزة وقطعة جبن وثلاث بصلات فتعجب أصحابه من ذلك ثم طلبوا الرجل فقالوا له: من أين أنت؟ قال: من إينه كول، قالوا له: ما اسمك؟ قال: سوندك، قالوا: أي شيء في مخلاتك؟ قال: طعام الفقراء فاستخرجوه فإذا فيه نصف خبزة وقطعة جبن وثلاث بصلات كما أخبر المولى المذكور.

وله من المؤلفات حواشي شرح المطالع، وحواشٍ على شرح المفتاح للسيد الشريف، ورسالة سمّاها بالسبع الشداد مشتملة على سبعة أسئلة على السيد الشريف في بحث الموضوع ولو لم يؤلف إلا هذه الرسالة لكفته فضلاً، ورسالة ذكر فيها أقسام العلوم الشرعية والعربية بلغ فيها مقدار مئة علم أورد فيها غرائب وعجائب.

وكان قتله في سنة أربع وتسعمئة رحمه الله تعالى، وقيل في تاريخه: ولقد مات شهيداً[2].

---

(١) وعاء أو كيس.

(٢) «الكواكب السائرة»: ١/٣٠١ - ٣٠٢.

يوسف السلموني

الشيخ الفاضل شاعر مصر وأديبها.

كان هجّاء بالغ الهجاء ووقع له واقعة بسبب ذلك في سنة إحدى عشرة وتسعمئة وهي أنه هجا القاضي معين الدين ابن شمس وكيل بيت المال بمصر هجواً فاحشاً منه هذه البيت:

وحرفته فاقت على كل حرفة يركب ياقوتاً على فصّ خاتمه

فلما بلغ معين الدين ذلك شكا السلمونيّ إلى السلطان الغوريّ فقال: إن وجب عليه شيء في الشرع أدِّبه، فنزل من عند السلطان ومسك السلمونيّ في الحديد وأتى به إلى بيت القاضي سريّ الدين عبد البر ابن الشحنة وادّعى عليه فضربه عبد البر وعزّره وأشهره على حمار وهو مكشوف الرأس، وقد ورد أن سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه أول من عاقب على الهجاء، وقال بعض فضلاء مصر في واقعة السلمونيّ:

وشاعر قد هجا شخصاً فحل به من حاكم الشرع توبيخ وتعزير
فأشهروه وجازوه بفعلته تباً له شاعر بالهجو مشهور

فلما بلغ السلطان ما فعله ابن شمس بالسلمونيّ شق عليه ذلك وأمر بقطع لسانه فإنه قال: رسم السلطان لي بأني أشهر السلمونيّ ولم يكن السلطان رسم بذلك واستمر ابن شمس في الترسيم مدة طويلة حتى أرضى السلطان بمال له صورة فرضي عنه وألبسه خلعة.

ثم إن السلمونيّ هجا القاضي عبد البر بقصيدة طويلة أفحش فيها مطلعها:

فشا الزور في مصر وفي جنباتها ولم لا وعبد البر قاضي قضاتها

(١) وذكر الحمصي في تاريخه في شوال سنة عشر وتسعمئة أن الجمال السلمونيّ جاء إلى بيت القاضي شهاب الدين ابن الفرفور ليسلم عليه فمنعه عز الدين القسلتي من الدخول فغضب وكتب رقعة وجهزها للقاضي وفيها هذه الأبيات:

بـبــاكــم كــلـب عــقــور مــسـلّط	عديم الحيا والعقل في البعد والقـرب
أقمتــوه صــدّاً للفقيــر مــلالــة	ولم تذكروا بين الورى نِعَم الرب
يــظن بجهــل منــه أن مجيئنــا	إليكم لأجـل النَّيْـل والأكـل والشـرب
ولم يعلم المفتــون أن نفــوسنــا	لهـا شرف يسمـو على السبعة الشهب
وليس الغنى بــالمـال قــال نبيّنــا	ولكن غنـاء النفس مـع عـدم الكسب
ومــا جئتـكـم والله إلا مـهــنئــاً	لأني من بعض المحبين والصحب
تــذكـرت لمــا أن اتيت وصـدّني	مقالة بعض النـاس في معرض العتب
ومن يـربط الكلب العقـور ببــابـه	فـإن بلاء النـاس من رابط الكلب

فلمـا وصلت الرقعـة إلى القـاضي عـرف أنهـا من السلمـونيّ وأن عز الدين منعه من الدخول (فتفّ) عليه ووضع في ورقة عشرة دنانير ودفعها إلى السلمونيّ وأوصى البوّاب أن لا يمنعه من الدخول وإن أراده كل يوم عشر مرات.

والظاهر تأخر وفاة السلموني عن سنة ثلاثين[1].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ١/٣١٨ - ٣١٩.



الطبقة الثانية من الكواكب السائرة
في مناقب أعيان المئة العاشرة
فيمن وقعت وفاتهم من أعيان البارعين
من مفتتح سنة أربع وثلاثين
إلى مختتم سنة ست وستين



الحيضريّ

محمد بن محمد القاضي كمال الدين ابن أبي اليمن ابن قاضي القضاة قطب الدين الحيضريّ الدمشقيّ الشافعيّ، ولي القضاء بميدان الحصى وغيره في أيام قاضي دمشق ابن إسرافيل.

(١) وكان عنده حشمة وفضيلة، وكان أحد المدرسين بالجامع الأموي إلا أنه كان يستعمل الأفيون وكان في الغالب مستغرقاً وربما حدث له ذلك وهو مار في الطريق فدخل يوم السبت مستهل ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وتسعمائة إلى ميضأة العنبرانية بالقرب من جامع الأموي لقضاء الحاجة وأغلق عليه الباب فكأنه شرد على عادته فسقط على رأسه في الخلاء فلما أحسوا به أخرجوه فخرجت روحه في الحال ولا حول ولا قوة إلا بالله، فحمل إلى بيته فغُسل وكفن وحُمل إلى الأموي وصلّي عليه ودفن بمقبرة باب الصغير، وكانت جنازته حافلة، رحمه الله تعالى[١].

ابن سلطان

محمد بن محمد بن عمر بن سلطان الشيخ الإمام العلامة، المحقق المدقق الفهامة، شيخ الإسلام، مفتي الأنام ببلاد الشام، أبو عبد الله قطب الدين بن القاضي كمال الدين المعروف بابن سلطان الدمشقيّ الصالحيّ الحنفيّ. ميلاده سنة سبعين وثمانمائة، أخذ عن قاضي القضاة عبد البر ابن الشحنة وغيره، وله مؤلف في الفقه ورسالة في تحريم الأفيون وغير ذلك.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/٩ ـ ١٠.

(١) قال والد شيخنا الشيخ يونس العيثاويّ: كان من أهل العلم الكبار جليل المقدار مهيباً عظيماً نافذ الكلمة عند الدولة يردّون الأمر إليه في الفتوى، ماسك زمام الفقهاء في التجمّل بأحسن الثياب، يعرف مقام الشافعية وما هو لهم من القدم على غيرهم ويرفع مقامهم. وكان له تدريس في الجامع الأموي وغير ذلك من المناصب العليّة، ووَلِيَ القضاء بمصر في زمن الغوريّ نيابةً عن شيخه ابن الشحنة وكفّ بصره من بعد مع بقاء جمال عينيه بحيث يُظنّ أنهما بصيرتان. وكان حسن الوجه والذات وكان يملي من الكتب الجواب على الأسئلة التي ترفع إليه. واتخذ خاتماً منقوشاً يختم به على الفتوى خوفاً من التلبيس عليه.

(٢) قال بتحريم القهوة التي حدثت بدمشق وقال: إنها من جملة المصائب التي حدثت بهذا الزمان، قال: وحدثني عن شيخنا السيد كمال الدين يعني ابن حمزة أنه كان يسمي بيت القهوة الخمّارة وأنه لما سلم عليه حال رجوعه من مصر سأله عن رجل كيف حاله فقال: إنه ملازم الخمارة، فقال له: كيف جرى؟ قال: حدثت بمصر شرب القهوة يجتمعون عليها كاجتماعهم على شرب الخمر وهو معهم.

(٣) توفي سنة خمسين وتسعمئة وصلي عليه في الجامع الأمويّ، وأوصى أن يلقن بعد دفنه، فلقنه أحد السادة الشافعية. وكان يتعبد بمذهب الشافعية، رحمه الله تعالى[١].

مغوش

محمد بن محمد بن مغوش الشيخ الإمام المحقق العلّامة الملقب بمغوش، التونسيّ المالكيّ. اشتغل على علماء المغرب وسمع الصحيحين والموطأ والترمذي والشفاء، وفضل في بلاده وبرع وتميّز، وولي قضاء عسكر تونس في دولة سلطانها مولاي حسن بن محمد الحفصي، ثمّ قدم من طريق البحر إلى القسطنطينية في دولة السلطان سليمان خان بن عثمان

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/١٢ - ١٤.

خان فعظمه وأكرم مثواه. وشاع فضله بين أكابرها وأخذ عنه جماعة من أعيانها حتى صار قاضياً للعسكر إذ ذاك ولم يزل بها معظماً مبجّلاً نشر الفوائد وحرر الفرائد وأملى بها أمالي على شرح الشاطبيّة للجعبريّ، ثم استأذن من السلطان في الرحلة إلى مصر واعتذر بعدم صبره على شتاء الروم وشدّة بردها فأذن له في الرحلة إليها وأمر أن يستوفي ما عين له من خزنتها فتوجّه إلى البلاد المصرية من طريق البر في سنة أربع وأربعين وتسعمئة.

وقال ابن الحنبليّ في ترجمته كان عالماً علامة متفنناً مفنناً ذا إدراك عجيب واستحضار غريب.

(١) قال ولده محمد: وكان من عادته الاستلقاء على القفا ولو حالة التدريس وعدم النهوض لمن ورد عليه من الأكابر إلا لبعض الأفراد وقليل ما هم، كل ذلك لما كان عنده من حب الرفاهية والراحة والانبساط والشهامة انتهى

(٢) وقال صاحب «الشقائق»: كان رحمه الله تعالى آية كبرى من آيات الله في الفضل والتدقيق، والحفظ والتحقيق، وكان يقرىء القرآن العظيم للسبعة بل للعشرة من حفظه بلا مطالعة كتاب، وكان يعرف علم النحو والصرف في غاية ما يمكن، وكانت قواعد المنطق محفوظة له بحيث لا يغيب منها شيء عن خاطره، ولم نجد شيئاً من قواعد علم الأصول إلا وهي محفوظة [عنده] وكذا الكشاف مع حواشي الطيبي كان محفوظاً من أوله إلى آخره وبالجملة كان من مفردات الدنيا إلى أن قال: ومع ذلك كان لين الجانب طارحاً للتكليف متصفاً بالأخلاق الحميدة، وكان مشتغلاً بتلاوة القرآن في أعمّ أوقاته.

(٣) وكان يطالع في حفظه كلما أراد من العلوم ولم يكن عنده كتاب ولا ورقة أصلاً انتهى.

وكانت وفاته رحمه الله تعالى سنة سبع وأربعين وتسعمئة[١].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/١٥ ـ ١٩.

الغمري

محمد بن أحمد الشيخ الصالح الورع سيدي أبو الحسن ابن الشيخ العارف بالله تعالى سيدي أبي العباس الغمريّ المصريّ الشافعيّ الصوفي.

(١) رأى الشيخ محمد الشناوي في منامه أن نخلة في جامع الغمريّ قطع رأسها فطلع لها رأس في الحال فأوّل ذلك أن سيدي أبا الحسن يخلف أباه فكان كذلك.

(٢) قال الشعراويّ: جاورت عنده ثلاثين سنة ما رأيت أحداً من أهل العصر على طريقته في التواضع والزهد وخفض الجناح، وكان يقول إذا سمع أحداً يعدّ ذهباً: يضيق صدري. وكان لا يبيت وعنده دينار ولا درهم ويعطي السائل ما وجد حتى قميصه الذي عليه وكان يخدم في بيته ما دام فيه ويساعد الخدام بقطع العجين ويغسل الأواني ويقد تحت القدر ويغرف للفقراء بنفسه.

(٣) وكان شديد الحياء لا ينام بحضرة أحد أبداً ويقول أخاف أن يخرج مني ريح وأنا نائم.

(٤) وكان حِلْساً[١] من أحلاس بيته لا يخرج منه إلا للصلاة وقراءة الجزء أو ضرورة وإذا خرج ترك الأكل والشرب لئلا يحتاج إلى قضاء الحاجة في غير منزله.

مات رضي الله تعالى عنه في سنة تسع وثلاثين وتسعمئة[٢].

جوي زاده

محمد بن الياس الروميّ، المولى الفاضل العلامة الكامل محيي الدين الحنفيّ أحد الموالي الروميّة الشهير بجوي زاده. قرأ على علماء عصره، ثم خدم المولى بالي الأسود وصار معيداً لدرسه ثم أعطي

---

(١) الحِلْس: الكساء يُبسط تحت الثياب في البيت؛ أي أنه لا يخرج من البيت.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/٢٤.

تدريس مدرسة أمير الأمراء بمدينة بروسا ثم ترقى في التدريس حتى أعطي إحدى الثماني[1] ثم صار قاضياً بمصر ثم عاد من مصر، وقد أعطي قضاء العساكر الأناضولية ثم صار مفتياً بالقسطنطينية.

(١) ثمّ تقاعد عن الفتوى وعيّن له كل يوم مئتا عثماني وكان تقاعده عن الفتوى في خامس عشري صفر سنة ثمان وأربعين وتسعمئة، وكان سبب عزله عن الفتوى إنحراف السلطان عليه بسبب إنكاره على الشيخ محيي الدين بن العربي وغالب الأروام على اعتقاده فخالفهم في ذلك ووافقه على ذلك العلّامة الشيخ إبراهيم الحلبيّ القسطنطينيّ خطيب عمارة المرحوم السلطان محمد خان بن عثمان.

ثم صار صاحب الترجمة بعد التقاعد مدرّساً بإحدى الثماني ثم قاضياً بالعساكر الروميلية[2].

(٢) وكان مرضيّ السيرة محمود الطريقة طارحاً للتكليف متواضعاً، مقبلاً على الاشتغال بالعلم، مواظباً على الطاعات مثابراً على العبادات قوالاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم. وكان يحفظ القرآن العظيم وكان له يد طولى في الفقه والتفسير والأصول ومشاركة في سائر العلوم وبالجملة كما قال صاحب «الشقائق» كان سيفاً من سيوف الحق قاطعاً فاصلاً بين الحق والباطل حسنة من حسنات الأيام. مرض ـ رحمه الله تعالى ـ بعد صلاة العشاء فلم يمض إلا نصف الليل حتى مات وقيل مرض بعد صلاة العصر ومات قبل صلاة المغرب وذلك في سنة أربع وخمسين وتسعمئة[3].

بهاء الدين زاده

محمد بن بهاء الدين بن لطف الله، الشيخ الإمام العلامة المحقق

---

(١) مدارس ثمانية، أنشأها السلطان محمد الفاتح في القسطنطينية بعد فتحها.

(٢) الروملّيّ هي بلاد أوروبا التي ضُمت إلى الدولة العثمانية.

(٣) «الكواكب السائرة»: ٢/٢٨ ـ ٢٩.

الصوفي المعمّر المنوّر محيي الدين الحنفي أحد الموالي الروميّة الشهير ببهاء الدين زاده.

كان عالماً فاضلاً في العلوم الشرعية والفرعية ماهراً في العلوم العقلية عارفاً بالتفسير والحديث والعربية، زاهداً ورعاً ملازماً لحدود الشريعة مراعياً لآداب الطريقة، ولما مرض مفتي التخت السلطاني علاء الدين الجمالي وطالت مرضته وعجز عن الكتابة قيل له اختر من العلماء من يكون مقامك فاختار المولى المذكور لوثوقه بفقهه وورعه وتقواه.

(١) وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم ووقع منه كلام في حق إبراهيم باشا الوزير بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحنق عليه الوزير فخافوا على الشيخ منه وأشاروا إليه أن يسكت عنه فقال: غاية ما يقدر عليه القتل وهو شهادة والحبس وهو عزلة والنفي وهو هجرة.

وله تآليف حسنة منها: شرح الأسماء الحسنى وتفسير القرآن الكريم، وشرح الفقه الأكبر للإمام الأعظم أبي حنيفة جمع فيه بين طريق الكلام وطريق التصوف، وله في التصوف رسائل كثيرة.

وحجّ صاحب الترجمة في سنة إحدى وخمسين فدخل بلاد الشام ولما رجع في السنة القابلة مات ببلده قيصرية[١].

ناصر الدين الطبلاويّ

محمد بن سالم بن علي، الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام بقية السلف الكرام الشيخ ناصر الدين الطبلاويّ الشافعيّ أحد العلماء الأفراد بمصر.

(٢) قال: تلقيت العلم عن أجلة من المشايخ منهم قاضي القضاة زكريا وحافظ عصرهم السيوطي، والبرهان القلقشنديّ. وقال الشعراويّ: صحبته

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/٢٩ ـ ٣٠، وقيسارية مدينة في تركيا.

نحو خمسين سنة ما رأيت في أقرانه أكثر عبادة [منه]، لا تكاد تراه إلا في عبادة إما يقرأ القرآن وإما يصلي وإما يعلم الناس العلم وانتهت إليه الرئاسة في سائر العلوم بعد موت أقرانه.

(١) وكان رضي الله تعالى عنه مشهوراً في مصر برؤية رسول الله ﷺ وأقبل عليه الخلائق إقبالاً كثيراً بسبب ذلك فأشار عليه بعض الأولياء في ذلك فأخفاه.

(٢) قال: وليس في مصر أحد الآن يقرر في بيان العلوم الشرعية وآلاتها إلا هو، حفظاً، وقد عدّوا ذلك من جملة كراماته فإنه من المتبحرين في التفسير والقراآت والفقه والحديث والأصول والمعاني والبيان والطب والمنطق والكلام والتصوّف وله الباع الطويل في كل فن من العلوم وما رأيت أحداً في مصر أحفظ لمنقولات هذه العلوم منه يجتمع في درسه غالب طلبة العلم بمصر وشهد له الخلائق بأنه أعلم من جميع أقرانه وأكثرهم تواضعاً وأحسنهم خلقاً وأكرمهم نفساً لا يكاد أحد يغضبه، وله صدقة كثيرة لا يكاد يبيت على دينار ولا درهم مع كثرة دخله تبعاً لشيخه زكريا.

(٣) قال: وقد عاشرته مدة سنين أطالع أنا وإياه لشيخ الإسلام المذكور(١) فكنت أطالع من طلوع الشمس إلى الظهر ويطالع هو من الظهر إلى غروب الشمس فما كنت أظن أحداً بمصر أكرم مني مجلساً فكنت إن نظرت إلى وجه شيخ الإسلام سررت وإن نظرت إلى وجه الشيخ ناصر الدين سررت وكأنما النهار الطويل يمرّ كأنه لحظة من أدبه وأدب شيخه، من حلاوة منطقهما وكثرة فوائدهما لا سيما في علم التأليف والوضع انتهى.

توفي سنة ست وستين وتسعمئة ودُفِن في حوش الإمام الشافعيّ وكان له جنازة عظيمة وقيل إنه عُمِّر نحو المئة وانتفع به خلق كثير، رحمه الله تعالى(٢).

---

(١) أي: شيخ الإسلام زكريا الأنصاريّ ـ رحمه الله ـ.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/٣٣ ـ ٣٤.

شمس الدين الدمشقيّ

القاضي محمد بن يوسف الدمشقيّ الحنفيّ. ناب في القضاء عن قاضي القضاة ابن الشحنة وعن قاضي القضاة ابن يونس بدمشق ثم ثبت عليه وعلى رجل يُقال له حسين البعليّ البقسماطيّ عند قاضي دمشق أنهما رافضيّان فحرقا تحت قلعة دمشق بعد أن ربطت رقابهما وأيديهما وأرجلهما في أوتاد ثم ألقي عليهما الحطب ثم أطلقت النار عليهما حتى صارا رماداً ثم ألقي رمادهما في بردى، وكان ذلك سنة اثنتين وأربعين وتسعمئة. قال ابن طولون وسُئل الشيخ قطب الدين بن سلطان مفتي السادة الحنفية عن قتلهما فقال: لا يجوز في الشرع بل يستتابان[1].

محمد بن عبد الأول الحسيني

السيد الشريف قاضي القضاة شمس الدين الحسينيّ الجعفريّ التبريزيّ الشافعيّ ثم الحنفيّ سبط صدر تبريز نعمة الله بن البواب الشافعيّ أحد الموالي الرومية المعروف بشصلي أمير. اشتغل على والده وغيره ودرّس في حياة أبيه في سنة ست عشرة أو سبع عشرة ثم دخل الروم وترقى في التدريس بمدارسها، ثم ولي قضاء حلب في أواخر سنة تسع وأربعين وتسعمئة.

(١) منع وهو قاضٍ بحلب من شرب القهوة على الوجه المحرم، ثم ولي قضاء دمشق فدخلها في ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وتسعمئة ووافق القطب ابن سلطان الحنفيّ والشيخ يونس العيثاويّ في القول بتحريم القهوة البنيّة ونادى بإبطالها في يوم الأحد سابع ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين، ثم عرض في إبطالها إلى السلطان سليمان خان فورد أمره الشريف بإبطالها في شوال من السنة المذكورة فاشتهر النداء بذلك.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/٣٥.

وكان صاحب الترجمة عالماً فصيحاً حسن الخط، وذكر ابن طولون أنه كان محمود السيرة وكان له حرمة زائدة.

توفي بالقسطنطينية سنة ثلاث وستين وتسعمئة، رحمه الله تعالى[1].

شمس الدين بن المنيِّر

محمد بن عبد الرحيم الفصِّي البعليّ الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد وليّ الله تعالى العارف به شمس الدين بن المنير البعليّ الشافعيّ.

كان يحترف بعمل الإسفيذاج والسيرقون والزنجبار ويبيع ذلك وسائر أنواع العطارة.

(١) كان يجلس في حانوته ببعلبك وفي كل يوم يضع مِن كسبه من الدنانير والدراهم والفلوس في أوراق ملفوفة ويضع الأوراق في مكان عنده وإذا وقف عليه الفقراء أعطاهم من تلك الأوراق ما يخرج في يده لا ينظر في الورقة المدفوعة ولا في الفقير المدفوع إليه.

وكان كثير الصدقة معاوناً على البر والتقوى وكان يعمّر المساجد الخراب ويكفّن الفقراء.

وكان له مهابة عند الحكام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان ناصحاً للطلبة في الإفادة وله أوراد ومجاهدات.

توفي سنة سبع وثلاثين وتسعمئة ودُفن بمدينة بعلبك وصلي عليه غائبة بدمشق بالأموي[2].

جلال الدين البصرويّ

محمد بن علي بن يوسف الشيخ الإمام العلامة القاضي

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/٣٩ - ٤٠.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/٤٢.

جلال الدين بن القاضي علاء الدين البصرويّ الدمشقيّ الشافعيّ، خطيب الجامع الأمويّ.

وُلد سنة تسع وستين وثمانمائة واشتغل على والده وغيره وولي خطابة التابتية وتدريس الغزالية ثم العادلية وفُوض إليه نيابة الحكم قاضي القضاة بن الفرفور سنة اثنتي عشرة وتسعمئة، ثم استنابه قاضي القضاة ابن فرفور في خطابة الأمويّ حيث كانت الخطابة به يومئذ مشروطة لقاضي قضاة الشافعية فصار يخطب بالأمويّ نيابة ثمّ استقلالاً إلى أن مات.

(١) وكان لخطبته وقعٌ في القلوب لم يخرج بصوته عن طريقة خطبة أبناء العرب لا يراعي في الخطبة تنغيماً ولا إطراباً بل يخطب وعليه السكينة والوقار بحيث تخشع القلوب وتذرف منها العيون.

وكان يقرأ سيرة ابن هشام في الجامع الأمويّ في كل عام بعد صلاة الصبح شرقي المقصورة.

(٢) قال والد شيخنا وكان من أهل العلم والصلاح والدين له محفوظات في الفقه وغيره وقيام في الليل، حافظ لكتاب الله تعالى مواظب على تلاوته راكباً وماشياً حكي لي عن ورده في الليل أنه متى منعه مانع من جنابة اشتغل بدلاً عنه بقراءة في «المنهاج»[1] حتى يغتسل قبل الفجر ثم يعود إلى التلاوة قلت: وحدثني عنه الشيخ الصالح المعمر الشيخ عبد القادر بن سوار بدمشق بمثل ذلك وقال لي: كان لا يفتر من قراءة القرآن ليلاً ولا نهاراً وكان كثيراً ما تتفق له التلاوة وهو في الخلاء فقيل له في ذلك فقال: إن القرآن يجري على لساني اتفاقاً من غير قصد.

(٣) قال والد شيخنا وفي آخر خطبة خطبها بالأموي وكانت في ثامن ربيع الآخر من سنة ست وأربعين وكان مريضاً سقط عن المنبر مغشياً عليه، قال ابن طولون: ولولا أن المرقي احتضنه لسقط إلى أسفل المنبر، قال: ولم

---

(١) من كتب فقه الشافعيّة.

يكمل الخطبة الثانية فصلى الجمعة إمام الجامع الشيخ عبد الوهاب الحنفيّ من غير نظر إلى تتميم أركان الخطبة والبناء على ما تقدم منها قبل سقوط الخطيب.

توفي سنة ست وأربعين وتسعمائة، ودُفن بمقبرة باب الصغير[1].

ابن الهويديّ

محمد بن علي بن يوسف الجعبري ثم الحلبيّ المولد والدار المتعبد على مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه، القصاب بمدينة حلب، المعروف بابن الهويديّ.

(١) كان شيخنا معمّراً كثير التلاوة باللفظ الواضح الجليّ حتى في حال سيره في الطريق غزير البكاء عند تلاوة القرآن إذا مرّ بآية رحمة أو آية عذاب، منفرداً عن أبناء حرفته بهذا الشأن.

(٢) وكان يحكى عن جده كمال الدين يوسف أنه كان مع صلاحه قاضياً حنفياً بمدينة جعبر ثم انتقل إلى مدينة الباب بسبب منام رأى فيه أن الله تعالى تجلى على مدينة جعبر، فلما أخذ في الرحيل عنها قيل له في ذلك فقال إنها عن قريب ستخرب لما يشير إليه قوله تعالى: **﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا﴾** فخربت بعد رحيله بقليل.

توفي مبطوناً سنة اثنتين وخمسين وتسعمئة، رحمه الله تعالى رحمة واسعة. آمين[2].

شمس الدين ابن طولون

محمد بن علي بن طولون، الشيخ الإمام العلامة المسند المفنّن الفهّامة شمس الدين أبو عبد الله الشهير بابن طولون الدمشقي الصالحي

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/٤٧ - ٤٨.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/٤٩ - ٥٠.

الحنفيّ المحدّث النحوي. مولده بصالحية دمشق سنة ثمانين وثمانمائة تقريباً، وسمع وقرأ على جماعة، وكان ماهراً في النحو علامة في الفقه مشهوراً بالحديث، ووَلِيَ تدريس الحنفية بمدرسة شيخ الإسلام أبي عمر وإمامة السليمية بالصالحية، وقصده الطلبة في النحو ورغب الناس في السماع منه وكانت أوقاته معمرة بالتدريس والإفادة والتأليف. كتب بخطه كثيراً من الكتب وعلّق ستين جزءاً وسمّاها بالتعليقات كل جزءٍ منها مشتمل على مؤلفات كثيرة أكثرها من جمعه وبعضها لغيره ومنها كثير من تأليفات شيخه السيوطيّ. وكانت أوقاته معمورة كلها بالعلم والعبادة وله مشاركة في سائر العلوم حتى في التعبير والطب.

(١) حدثني الشيخ الشلّاح، قال: كنت عند والدي فدخل عليه الشيخ شمس الدين بن طولون زائراً فلمّا جلس تقدّم رجل من الفقراء فقصّ على الوالد أنه رأى في منامه النبيّ ﷺ وأنه أسود اللون فقال الشيخ سليمان: هذا مولانا الشيخ شمس الدين يعبّر لك هذه الرؤيا، فقال الشيخ شمس الدين: هذه الرؤيا تدل على أن الرائي مبتدع مخالف لسنّة النبيّ ﷺ لأن السواد غير صفة النبيّ ﷺ والرؤيا تدل على حال الرائي فالظاهر أنه على غير السنة، فاستعاذ الرجل من ذلك وقال: ليس في عقيدتي شيء من ذلك فقال له الشيخ: لا بد لك أنك مخالف للسنّة في شيء فلا بد أن تتوب منه فقال: ما أعرف في نفسي شيئاً من ذلك إلا أنه ربما تشاغلت عن الصلاة فقال: هو ذلك فإن الصلاة عمود الدين وأي مخالفة للسنة أعظم من ترك الصلاة فاستعبر[1] الرجل وأخذ عليه الشيخ العهد على التوبة.

وقد أخذ عن الشيخ شمس الدين بن طولون جماعة من الأعيان وبرعوا في حال حياته.

(٢) ورأيت بخط بعض الفضلاء أن من شعره رحمه الله تعالى:

---

(١) بكى.

ميلوا عن الدنيا ولذاتها	فإنها ليست بمحموده
واتّبعوا الحقّ كما ينبغي	فإنها الأنفاس معدوده
فأطيب المأكول من نحلةٍ	وأفخر الملبوس من دوده

توفي رحمه الله تعالى سنة ثلاث وخمسين وتسعمئة، ولم يعقب أحداً، ولم يكن له زوجة حين مات[1].

زين العرب

محمد بن محمد بن عوض الواعظ المشهور بالديار الروميّة بمنلا عرب الأنطاكيّ الحنفيّ، ولقّبه ابن طولون زين العرب. كان جدّه مما وراء النهر من تلاميذ الفاضل التفتازاني ثم رحل فاستوطن أنطاكية وبها ولد محمد هذا، وحفظ القرآن في صغره ثم حفظ الكنز والشاطبيّة وغيرهما وتفقه على أبيه وعمّيه وقرأ عليهما الأصول والقراآت والعربية، ثم نزل إلى تبريز وأخذ عن علمائها واشتغل هناك سنين، ثم رجع إلى أنطاكية وحلب وأقام مدة ووعظ ودرّس وأفتى، ثم رحل إلى مكة فحج ثم إلى مصر فأخذ عن الجلال السيوطيّ وغيره ووعظ بها ودرّس وأفتى وحصل له قبول تام حتى طلبه قايتباي الملك الأشرف فدخل عليه ووعظه وألّف له كتاباً في الفقه سماه «النهاية» فأحسن جائزته وأكرمه غاية الإكرام وبقي عنده إلى أن توفي سنة ثلاث وتسعمئة.

(١) ثم سافر إلى الروم ودخل بروسا[2] فأحبه أهلها فأقام عندهم واشتغل بالوعظ والنهي عن المنكرات، ثم ذهب إلى القسطنطينية فأحبه أهلها وسمع السلطان أبو يزيد خان وعظه فمال إليه كل الميل وألف له كتاباً سماه «تهذيب الشمائل» في السيرة النبوية وكتاباً آخر في التصوّف وخرج معه إلى السفر وحضر فتح قلعة متون وكان ثاني الداخلين إليها أو ثالثهم.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/٥٢ ـ ٥٤.

(٢) هي: بورصا.

ثمّ رجع إلى القسطنطينية وبقي بها يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا يخاف في الله لومة لائم وكان ينكر على الملاحدة والرافضة.

(١) ثمّ رجع ومعه أهله إلى حلب فأكرمه ملك الأمراء خير بك جداً وقرأ عليه والتزم بجميع مصالحه فمكث ثماني سنين مشتغلاً بالتفسير والحديث والوعظ والرد على الملاحدة والرافضة سيما على طائفة أردبيل وكانت تلك الطائفة يبغضونه بحيث يلعنونه مع الصحابة في الجامع.

(٢) قال ابن الحنبليّ واتفق له أن حضر في مجلس وعظه شيعيّ متسلّح من أتباع الإيجيّ بعثه شاه إسماعيل إلى الغوريّ صاحب مصر ـ فتوجه إليه وعاد من عنده إلى حلب ـ فهمّ بإشهار سيفه فقتله الحلبيون وحرقوه فتغير الإيجيّ من ذلك وكاتب الغوريّ في ذلك فاضطرب له فإذا محضر خير بك كافل حلب يتضمن إخماد الفتنة وتسكين غضب الغوريّ على الشيخ ثمّ بدا للغوريّ فكتب أمراً بخروجه من حلب فاجتمع به خير بك خفية فأخبره بما وردت به المكاتبة وأمره بالمهاجرة خفية فهاجر إلى البلاد الروميّة.

(٣) وذكر صاحب الشقائق أنه لما دخل الروم في هذه القِدمة كان في زمن السلطان سليم فاجتمع به وحرّضه على قتال عساكر [الرافضة] وألّف له كتاباً في الغزو وفضائله نفيساً جداً وذهب معه إلى حربهم وكان يعظ الجند في طريقهم ويحرضهم على الجهاد خصوصاً لتلك الطائفة والسلطان يكرمه ويحسن إليه فلما التقى الجمعان وحمي الوطيس أمره السلطان بالدعاء وهو يؤمّن فانهزم العدو وفتحت تبريز حينئذ ثم سار الشيخ إلى ولاية روم ايلي فوعظ أهلها ونهاهم عن المعاصي وأمرهم بالفرائض فانصلح به كثير من الناس وبنى جامعاً في مدينة سراي ومسجداً آخر في أسكوب[1] وأقام هناك عشر سنين وأسلم على يديه كثير من الكفّار.

(٤) وغزا مع السلطان سليم أيضاً انكروس في سنة اثنتين وثلاثين وتسعمئة ودعا له حال القتال فجاء الفتح.

---

(١) من مدن تركيا.

ثم انتقل إلى بروسا وسكن بها وشرع في بناء جامع كبير فتوفي بها قبل إتمامه.

وعمّر وولد له قريب من مئة نفس وألّف كتباً ورسائل غير ما تقدم.

(۱) وكان له احتياط في مأكله ومشربه ونفقته وكان يختار لذلك ما يفتح به عليه من التجارة لأنها من أطيب ما أكل الرجل منه كما في الحديث وكان يحفظ أحاديث كثيرة، وله قدرة على التفسير من غير مطالعة وكان دأبه في يوم الجمعة أن يتكلّم على ما يقرأه الخطيب في الصلاة بخطبة بليغة ووجوه مختلفة وعلوم جمة.

(۲) قال ابن الحنبليّ: وكان له قوة حافظة لا نظير لها بحيث حكى لي شيخنا الشهاب الأنطاكيّ أنه سأله عن حالته في الحفظ فذكر له أنه إذا مرّ على الكراسة التي تكون في خمسة وعشرين سطراً مرة واحدة فإنه يحفظها ويفهم مضمونها، قال: وكان محدثاً مفسراً جامعاً لفضائل شتّى سالكاً طريق السنة في إرخاء العَذَبَة[1] وراء ظهره.

(۳) قال: ومما بلغني أن جدّه الشيخ حمزة كان يقرأ الكشاف في حلب وكان إذا أجرى ذكر مؤلفه قال: رحمه الله إن كان مستحقاً للرحمة. انتهى[2].

كان صاحب الترجمة آية من آيات الله وأعجوبة من عجائب الدهر، أمات بدعاً كثيرة وأحيى سنناً كثيرة وانتفع به خلائق كثيرة.

وكانت وفاته سنة ثمان وثلاثين وتسعمئة ببروسا، وصلى عليه غائبة بدمشق، رحمه الله تعالى[3].

---

(۱) العَذَبة: طرف العمامة.

(۲) وذلك لسوء عقيدته إذ كان معتزليّاً، ولقلة أدبه مع أنبياء الله تعالى كما هو معلوم لمن اطّلع على كتابه.

(۳) «الكواكب السائرة»: ۲/٥٤ - ٥٦.

إبراهيم أحد موالي الروم

العالم العامل المولى الأجل الكامل الحسيب النسيب، كان والده من سادات العجم رحل إلى الروم وتوطن بقرية من قرى أماسية.

(١) كان[1] من أكابر أولياء الله تعالى وله كرامات وخوارق منها أنه كف بصره في آخر عمره فكشف ولده السيد إبراهيم رأسه بين يديه يوماً فقال له: يا سيد إبراهيم لا تكشف رأسك ربما يضرك الهواء البارد فقال له ولده: كيف رأيتني وأنت بهذه الحالة؟ قال: سألت الله تعالى أن يريني وجهك فمكنني من ذلك فصادف نظري انكشاف رأسك وقد كفّ بصري الآن كما كان.

نشأ ولده المذكور في حجره بعفة وصيانة ورحل في طلب العلم إلى مدينة بروسا، ثم ولي التدريس حتى صار مدرّساً بمدرسة السلطان بايزيد خان بمدينة أماسية وفوّض إليه أمر الفتوى ثم تركها، وعيّن له السلطان بايزيد كل يوم مئة عثماني على وجه التقاعد، ولما جلس السلطان سليم خان على سرير الملك اشترى له داراً في جوار أبي أيوب الأنصاريّ رضي الله تعالى عنه والآن هي وقف وقفها السيد إبراهيم على من يكون مدرساً بمدرسة أبي أيوب.

(٢) وكان مجرداً لم يتزوج في عمره، بعد أن أبرم عليه والده في التزوج ثم رجع عنه بعد أن أجابه إلى ذلك وكان رجوعه عنه بإشارة النبي ﷺ في المنام.

(٣) وكان منقطعاً عن الناس في العلم والعبادة، زاهداً ورعاً يستوي عنده الذهب والمدر، ذا عفة ونزاهة وحسن سمت وأدب واجتهاد ما رآه أحد إلا جاثياً على ركبتيه لم يضطجع أبداً مع كبر سنه، وكان من عادته لا يأمر أحداً بشيء أصلاً وربما أخذ الكوز فوجده فارغاً فلا يقول لأحد من خدمه املأه حذراً من الأمر، وكان طويل القامة كبير اللحية حسن الشيب يتلألأ وجهه نوراً، وكان متواضعاً خاشعاً يرحم الفقير ويجل الكبير ويكثر الصدقة

---

(١) أي والده.

ويـلازم على الصلوات في الجماعـة ويعتكف بين العشائين في المسجـد وكف في آخر عمره مدة ثم عولج فأبصر ببعض بصره.

(١) وكان رجل من الطلبة يطيل لسانه فيه فأخبر بذلك مراراً فلم يتأثر حتى قيل له يوماً: إن ذلك الرجل ذكرك بسوء فقال: هل يتحرك لسانه الآن؟ فاعتقل لسان الرجل وبقي كذلك حتى مات.

لخصت هذه الترجمة من «الشقائق النعمانية» وذكر أنه توفي في سنة خمس وثلاثين وتسعمئة.

(٢) قال: وقد ذهبت إليه في مرض موته وهو قريب من الاحتضار ففتح عينيه فقال: إن الله تعالى كريم لطيف شاهدت من كرمه ولطفه ما أعجز عن شكره، ثم اشتغل بنفسه ودعوت له وذهبت، ومات في تلك الليلة ودُفن عند جامع أبي أيوب الأنصاريّ، رحمه الله تعالى[1].

إبراهيم عصيفير

الشيـخ الصالـح المجذوب المصـري المعروف بعصيفيـر من أهـل الكشف الكامل. أصله من نواحي الصعيد. كان ينام مع الذئاب في القفار ويمشي على الماء جهاراً. وجاء أبو موسى المحتسب مرة فقال له: ادع لي فقال: الله يبتليك بقاتل يقتلك عن قريب فقُتل تلك الليلة، ومرّ على الأمير سودون وهو يعمّر في خربة جداراً ليعمّرها قصراً فرجمه وقال: أنتم فرغت مدتكم ما بقيتم تلحقوا أن تسكنوا فسافر الغوريّ لقتال ابن عثمـان فقُتل وخُرِّبت دور عسكره كلهم. قال الشعراويّ: واشترى لي الخربة فجعلتها مسجداً، وأخبرني بحريق يقع في مكان فوقع تلك الليلة ورمى مرة جرو كلب في دست الطباخ فبحث الناس فوجدوا في القدر لحم ميت، ومرّ عليه شخص بإناءٍ فيه لبن فرماه فكسرت فإذا فيه حيّة ميتة، وأحواله عجيبة.

توفي سنة اثنتين وأربعين وتسعمئة، رحمه الله تعالى[2].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/٨٣ ـ ٨٤.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/٨٥.

إبراهيم الرحبيّ

كان مقيماً في زاويته على باب جامع الأزهر، وكان لـه في بدايتـه سياحات كثيرة؛ ساح سبع عشرة سنـة في جبال الشـام وغيرهـا واجتمع بمشايخ كثيرة، ثم دخل مصر واجتمع بالشيخ أبي السعود الجارحيّ فأجلسه في باب جامع الأزهر وقال له: كل من رأيته من العميان وذوي العاهات جاء يطلب القرآن يرده أهل الجامع ولم يعلموه فاسأل الناس واعط فقيهاً الجامكية[1] ليقرئهم ولا يخيّبهم، وكان يخدم كلّ من مرض في الجامـع بنفسه وينحّي القذر من تحته ويعمل له المزوّرات[2] وغيرها حتى يشفى أو يموت فيغسله ويكفنه لوجه الله تعالى، وكان يسأل الناس ما تحتاج الفقراء المقيمون عنده إليه من الدراهم والثياب والطعام وسائر ما يحتاجون إليه. وكان يأخذ من الخُضَريّة ما يكسد عندهم من السلق والرجلة والجزر وغير ذلك ويطبخه للفقراء وإذا احتاجوا إلى قمح أو غيره من الحبوب أو كسوة طلع إلى السلطان قايتباي فيأمر له بجميع ما يحتاج إليه، وكان يجمع عنده ما تحتاج إليه الفقراء من ملح أو شعير أو بصل أو غيرها من منخل أو غربال أو رحى أو مسامير أو سيور للقباقيب فكل من احتاج إلى شيء من ذلك يقول له: ادخل وخذ حاجتك. وكان مع ذلك يصبر على الفقراء وقلة أدبهم ويرى لهم الفضل عليه.

مات سنة أربع وخمسين وتسعمئة[3].

تقي الدين البلاطنسي

أبو بكر بن محمد بن محمد الشيـخ الإمام شيـخ مشايـخ الإسلام، العلامة المحقق، الفهامة المدقق، الحافظ الناقد تقي الـدين البلاطنسيّ. كان عالماً عاملاً كاملاً. مولده تمام إحدى وخمسين وثمانمائة. أخذ العلم

---

(١) أي: الراتب أو المال المتحصل عليه.

(٢) قال المحقق: المزورات طعام أو مرقة يطعمها المريض.

(٣) «الكواكب السائرة»: ٢/٨٥ ـ ٨٦.

عن والده وعن شيخ الإسلام زين الدين خطاب والقاضي بدر الدين ابن قاضي شهبة وغيرهم، ورحل إلى دمشق في طلب العلم وأخذ من علمائها ثم استوطنها.

(١) ولم يتناول من أوقاف دمشق شيئاً حتى أرسِل إليه شيءٌ من مال الشامية البرانية[1] فرده وقال: إنما استحق بالمباشرة والحضور فيها، وبعث إليه نائب دمشق بمال فردّه إليه فبعث إليه مرة أخرى وقال للرسول: قل له: إنه حلال، فردّه أيضاً وقال: أنا في غنية عنه، وبعث إليه إبراهيم أغا نائب القلعة بمال فسأله الدعاء فردّه ولم يقبله ودعا له وقال للرسول: قل له: غيري أحوج إليه مني. وعين له متولي الجامع الأموي ثمانية عثمانية في مقابل تدريسه به فلم يقبل ليكون تدريسه بغير عِوض.

وكان له مهابة في قلوب الفقهاء والحكّام يُرجع إليه في المشكلات وكان لا يتردد لأحد لغناه.

وكان له همة مع الطلبة ونصيحة واعتناء بالعلم.

وكان أمّاراً بالمعروف نهاءاً عن المنكر لا يخاف في الله لومة لائم، لا يداهن في الحق، قائماً بنصرة الشريعة، حاملاً لواء الإسلام، مجدّاً في العبادة، مجانباً للرياء.

(٢) لا يحب أن يمدحه أحد، مدحه بعض طلبته بقصيدة منها:

أيا من يروم العلم والبحث في الدرس ... ويسأل بين الإنس عن مجلس الأنس
فعدّ إلى الشيخ التقي محمد ... أبا بكر البحر الخضمّ البلاطنسي

ولم يجسر أن يعرضها عليه فالتمس من والد شيخنا عرضها عليه وأقسم عليه في ذلك، قال والد شيخنا: وأنا أعلم منه كراهية مدحه غير أني تجرأت عليه وقلت: صاحبنا فلان قال أبياتاً تتضمن المدح، فغضب وقال: اسكت، فسكت ولم أقرأها عليه.

---

(١) إحدى المدارس.

(١) وكان يختم القرآن في كل جمعة ويفرغ من الختم قبل صلاتها، وكان يختم في رمضان في كل ليلة ختمتين وأكبَّ في آخر عمره على التلاوة فكان لا يأتيه الطلبة لقراءة الدرس إلا وجدوه يقرأ القرآن.

وكان وقّافاً عند الشروط والحدود إذا رأى كتاباً موقوفاً مكتوباً عليه أن لا يخرج من موضع كذا ردّه ولا يبقيه عنده.

(٢) وله شعر لا بأس به منه قصيدة نونية مدح فيها السلطان سليمان رحمه الله تعالى وتعرض فيها لما حصل في زمانه من الفتوحات كرودس وغيرها وما قام فيه من نصرة الدين ويشكو فيها ما أحدثه القضاة والولاة بدمشق فقال في هذا الفصل الأخير:

وعن رشوة حادوا إلى اليسق[1] الذي ... أهانوا به والله ملك ابن عثمانا

ووالله إن الشافعي ومالكاً ... وأحمد والثوريّ أيضاً ونعمانا

ومن جاء يقفو أثرهم متمسكاً ... بهديهم المنصوص نصاً وقرآناً

يرون جميعاً حظر ذا اليسق الذي ... يراه قضاة العصر شرعاً وميزاناً

وهذا وإن المنكرات التي فشت ... وأظلم منها الشام ريفاً وبلداناً

وعادت بها الأخيار سكرى وصيرت ... شرار الورى يسطون بغياً وطغياناً

أعلت وأبكت واسطاً وشرارها ... وفتّتت الأكباد سناً وأبدانا

وقد شاع أن الله أرسل عبده ... الموفّق سلطان البرايا سليمانا

لغوث رعايا قد دهتهم مصائب ... وهدّت من الدين الحنيفيّ أركانا

فكيف وأنّى كان هذا وشبهه ... وسلطاننا من أكمل الناس إيماناً

فهذا سؤالي ثم إني ضارع ... يديم إله العرش ملك ابن عثمانا

واختم نظمي بالصلاة مسلّماً ... على المصطفى المختار من نسل عدنانا

توفي سنة ست وثلاثين وتسعمئة، ودُفِن بمقبرة باب الصغير[2].

---

(١) انظر في معنى «اليسق» هذا «الكواكب السائرة»: ٢/ ١١٦، ٣/ ٦٣، وحاصل كلامه هناك أنّ اليسق هو رزق القاضي أو مرتبه، ولكنّه لا يأخذه من بيت المال ولكن يأخذه من الأخصام الذين يشتكون إليه.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/ ٨٧ - ٨٩.

شهاب الدين المنزلاوي

أحمد بن محمد بن داود الشيخ الصالح الورع الزاهد محيي السنّة المحمدية في دمياط والمنزلة الشيخ شهاب الدين المنزلاويّ.

كان محدثاً فقيهاً، صوفياً، كريماً يخدم الفقراء بنفسه كما كان والده.

(١) وكان يقرىء الضيوف كثيراً وتظهر عليه الخوارق في ذلك فربما وضع الماء والأرز في القدر فيجعل الله تعالى فيه الدسم من لبن وغيره حتى يقول الضيف ما ذقت ألذّ منه، وربما ملأ الإبريق من البئر شيرجاً أو عسلاً للضيوف. وكان له هيبة عند الحكام.

وكان قائماً بشعار السنة في بلاد المنزلة وإزالة المنكر بحيث لا يقدر أحد أن يتظاهر فيها بمعصية أو ترك صلاة.

(٢) وكان قائماً بشعار السنة في بلاد المنزلة وإزالة المنكر بحيث لا يقدر أحد أن يتظاهر فيها بمعصية أو ترك صلاة.

توفي سنة إحدى وخمسين وتسعمئة عن نيف وثمانين سنة[١].

ابن كمال باشا

العالم العلامة، الأوحد المحقق الفهّامة، المولى شمس الدين أحد موالي الرومية الشهير بابن كمال باشا صاحب التفسير.

كان جده من أمراء الدولة العثمانية واشتغل هو بالعلم وهو شاب ثم ألحقوه بالعسكر.

(٣) حكى عن نفسه أنه كان مع السلطان بايزيد خان في سفر وكان وزيره حينئذ إبراهيم باشا بن خليل باشا، وكان في ذلك الزمان أمير ليس في الأمراء أعظم منه يُقال له: أحمد بيك بن أورنوس، قال: فكنت واقفاً على قدمي قدام الوزير وعنده هذا الأمير المذكور جالساً إذ جاء رجل من العلماء رث الهيئة فجلس فوق الأمير المذكور ولم يمنعه أحد عن ذلك فتحيرت في هذا الأمر وقلت لبعض رفقائي: من هذا الذي تصدّر على مثل هذا الأمير،

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/١٠٦ - ١٠٧.

قال: هو رجل عالم مدرس يُقال له: المولى لطفي قلت: كم وظيفتة؟ قال: ثلاثون درهماً، قلت: فكيف يتصدر على هذا الأمير ووظيفته هذا القدر؟ فقال رفيقي: العلماء معظمون لعلمهم فإنه لو تأخر لم يرض بذلك الأمير ولا الوزير، قال: فتفكرت في نفسي فوجدت أني لا أبلغ رتبة الأمير المذكور في الإمارة وإني ولو اشتغلت بالعلم يمكن أن أبلغ رتبة هذا العالم فنويت أن اشتغل بالعلم الشريف، فلما رجعنا من السفر وصلت إلى خدمة المولى المذكور وقد أعطي عند ذلك مدرسة دار الحديث بأدرنة وعُيِّن له كل يوم أربعون درهماً قال: فقرأت عليه، ثم قرأ على المولى القسطلانيّ والمولى خطيب زاده والمولى معروف زاده ثم صار مدرساً بمدرسة علي بيك بمدينة أدرنة، ثم بمدرسة اسكوب ثم ترقى حتى درّس بمدرسة السلطان بايزيد بأدرنة، وأعطي تقاعداً كل يوم مئة عثماني ثم صار مفتياً بالقسطنطينية بعد وفاة المولى علي الجمال وبقي على منصب الإفتاء إلى وفاته، ذكره في «الشقائق».

كان من العلماء الذين صرفوا جميع أوقاتهم إلى العلم، وكان يشتغل به ليلاً ونهاراً ويكتب جميع ما سنح بباله وقد فتر الليل والنهار ولم يفتر قلمه، وصنف رسائل كثيرة من المباحث المهمة الغامضة وعدد رسائله قريب من مئة وله تصانيف. وكانت وفاته سنة أربعين وتسعمئة وصلي عليه غائبة بجامع دمشق. رحمه الله تعالى رحمة واسعة[1].

شهاب الدين السبناطيّ

أحمد بن عبدالحق بن محمد، الشيخ الإمام العالم العلامة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ عبدالحق السنباطيّ المصريّ الشافعيّ الواعظ بجامع الأزهر، أخذه عن والده وغيره وكان معه بمكة في مجاورته بها سنة إحدى وثلاثين وتسعمئة ووعظ بالمسجد الحرام في حياة أبيه وفتِح عليه

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/١٠٧ ـ ١٠٨.

في الوعظ حينئذ وهو الذي تقدم للصلاة على والده حين توفي بمكة المشرفة.

(١) وقال الشعراويّ: لم نرَ أحداً من الوعاظ أقبل عليه الخلائق مثله وكان إذا نزل من فوق الكرسي يقتتل الناس عليه.

قال: وكان مفنناً في العلوم الشرعية وله الباع الطويل في الخلاف ومعرفة مذاهب المجتهدين، وكان من رؤوس أهل السنة والجماعة وكان قد اشتهر في أقطار الأرض كالشام والحجاز واليمن والروم وصاروا يضربون به المثل وأذعنوا له علماء مصر الخاص منهم والعام.

وعمل له الحسدة النكاية عند نوّاب مصر ونجّاه الله تعالى.

(٢) وهدم كذا كذا كنيسة وبيعة.

(٣) قلت: وكان رحمه الله تعالى يشدد في قهوة البن ويقول بتحريمها وتبعه جماعة من طلبة العلم بمصر، كما كان والد شيخنا الشيخ يونس العيثاوي يشدّد فيها بدمشق وتبعه بعض جماعة من طلبة العلم بها حتى ضمّنها بعض مؤلفاته، ثم انعقد الآن الإجماع على حلها في ذاتها وأما في الاجتماع على إدارتها كالخمر وضرب الآلات عليها وتناولها من المرد الحسان مع النظر إليهم وغمز بعض أعقابهم فلا شبهة في تحريمه.

وكانت وفاة الشيخ سنة خمسين وتسعمئة.

(٤) قال الشيخ عبد الوهاب الشعراوي: ولما مات أظلمت مصر لموته وانهدم ركن عظيم من الدين، قال: وما رأيت في عمري كله أكثر خلقاً من جنازته إلا جنازة الشيخ شهاب الدين الرملي لكونهم صلوا عليه في الجامع الأزهر يوم الجمعة، رحمه الله تعالى[١].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/١١١ ـ ١١٢.

صفي الدين المزجّد

أحمد بن عمر، الشيخ الإمام العالم العلامة قاضي القضاة القاضي صفي الدين المزجّد الزبيديّ الشافعيّ صاحب «العُباب».

(١) قال القاضي جمال الدين محمد بن عمر الحضرمي: رأيت في النوم ليلة العشرين من شهر صفر سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة في وقت السحر رسول الله ﷺ وبين يديه كتاب يطالع فيه فقلت لرسول الله ﷺ: ألك اطلاع على تصنيف أمتك، قال: نعم فقلت له: فما تقول في عقيدة إحياء علوم الدين؟ قال: لا بأس به، قلت: فهل لك اطلاع على تصانيفهم الفقهية؟ فقال: نعم ولم أرَ أجزل عبارة من إمام الحرمين، وما رأيت مثل مجموع لابن أبي السرور ضمّنه الروض وزاد عليه باقي مسائل المذهب قال: فوقع حينئذ ببالي أن المجموع هو العُباب تصنيف شيخنا القاضي صفيّ الدين المزجّد. انتهى[1].

الشيخ حسن

حسن بن اسكندر بن حسن. الشيخ الفاضل العالم العلامة بدر الدين الحلبيّ ثم المصريّ الضرير المعروف بالشيخ حسن. مولده سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة. كان عالماً بارعاً في الفقه والنحو والقراآت والتجويد، قدم دمشق سنة أربع وثلاثين وتسعمئة، ورام الإقامة بدمشق فضاعت له دراهم فتغيّر بسببها واضطرب ظاهراً وباطناً، ثم سافر إلى طرابلس وشتّى بها على أن يرجع بعد فراغ الشتاء إلى مصر ثم عاد إلى مصر في البحر في السنة المذكورة.

قلت: وكان يعرف بمصر بالشيخ حسن الشاميّ ثم الغمريّ، ذكره الشعراوي وقال: شيخي وقدوتي إلى الله تعالى العلامة الورع الزاهد. كان عالماً عاملاً حافظاً لمتون الكتب الشرعية وآلاتها عن ظهر قلب.

(٢) وكان حافظاً للسانه ملازماً لشأنه، مواظباً على الطهارة الظاهرة والباطنة

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/١١٣.

غزير الدمعة، لا يسمع آية أو حديثاً أو شيئاً من أحوال الساعة وأهوال القيامة إلا بكى حتى أرحمه من شدة البكاء. قال: وكان كريم النفس جميل المعاشرة أمّاراً بالمعروف لا يداهن أحداً في دين الله عز وجل.

(١) قال: وكثيراً ما يقول لي مقصودي آكل أنا وإياك من الحلال فأقول له: في أي المواضع؟ فيقول في بركة الخازندار خارج مصر فأقوده إليها فيجلس على شاطئها ويقول لي: اجمع من ورق الخس والجزر والفجل ما تراه في جانب الشط مما تساقط من الذين يغسلون الخضروات من الطين، قال: فألتقط له شيئاً من ذلك فيأكله ويشرب من البركة ويقول الحمد لله الذي أطعمنا في هذا اليوم حلالاً لا شبهة فيه، قال: ثم يرجع إلى جامع الغمريّ وربما واظبنا على مثل ذلك الأسبوع كاملاً لا يذوق طعاماً ولا شراباً غير الورق والشرب من البركة، قال: وكان إذا أعطاه أحد شيئاً وشك فيه بشبهة يشتري به حطباً للطعام وصابوناً ويقول إنه أهون من الأكل والشرب من حيث الحساب.

مات رحمه الله تعالى بعد الخمسين وتسعمئة بمصر ودُفِن خارج باب النصر[١].

شهاب النشيليّ

شهاب الطويل النشيلي المصريّ المجذوب.

(٢) وكان من أهل الكشف، لقي مرة إنساناً وهو داخل إلى جامع الغمري وهو جنب فلطمه على وجهه وقال: ارجع اغتسل، وجاء رجل كان قد فعل الفاحشة بعبده فقال له: يا سيدي أسألك الدعاء فأخذ خشبة وضربه بها مئة ضربة، وقال: يا كلب تفعل في العبد، فافتضح ذلك الرجل وخجل.

مات بعد الأربعين وتسعمئة ودُفِن بزاويته بمصر العتيقة[٢].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/١١٤ ـ ١٣٥.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/١٥٢.

الأجهوريّ

المصريّ المالكيّ الشيخ الإمام العلامة الزاهد الخاشع زين الدين مفتي المسلمين. تلا على الشيخ شهاب الدين القسطلانيّ للأربعة عشر وحضر عليه قراءة «المواهب اللدنية» من تصنيفه، وأخذ الفقه وغيره من الشيخ شمس الدين اللقاني وعن أخيه الشيخ ناصر الدين وغيرهما وأجازوه بالإفتاء والتدريس فأفتى ودرّس وصنف كتباً نافعة منها شرح مختصر الشيخ خليل، وسارت الركبان بمصنفاته إلى بلاد المغرب والتكرور. وكان الشيخ ناصر اللقاني إذا جاءته الفتيا يرسلها إليه من شدة إتقانه وحفظه للنقول. وكان كريم النفس، قليل الكلام واللغو، حافظاً لجوارحه، كثير التلاوة والتهجد.

(١) قال الشعراويّ: فلما مرض دخلت إليه فوجدته لا يقدر يبلع الماء من غصّة الموت فدخل عليه شخص بسؤال فقال: أجلسوني قال: فأجلسناه وأسندناه فكتب على السؤال فلم يغب له ذهن مع شدة المرض، وقال: لعل ذلك آخر سؤال نكتب عليه فمات تلك الليلة.

وكانت وفاته بعد الستين وتسعمئة ودُفِن تجاه إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام بجوار جامع محمود بالقرافة وقبره ظاهر يزار.

(٢) قال الشعراويّ وكان كلما مر على موضع قبره يقول: أنا أحب هذه البقعة[1].

السيد عبدالرحيم العباسيّ

عبدالرحيم بن أحمد الشيخ العلامة الإمام، والمولى الفهامة الهمام، شيخ الإسلام، ومحقق القاهرة والروم والشام، السيد الشريف الحسيب النسيب أبو الفتح بدر الدين العباسيّ القاهريّ ثم الإسلام بوليّ. مولده سنة

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/ ١٦٠.

سبع وستين وثمانمائة بالقاهرة وأخذ العلم بها عن علمائها، وسمع صحيح البخاري، ثم لازم آخراً شيخ الإسلام الجد الشيخ رضي الدين الغزيّ وانتفع به في العلوم والمعارف شيئاً كثيراً وحصل له بصحبته خير كثير وفوائد جمّة ولما دخل شيخ [الإسلام] الوالد بلاد الروم أكرم السيد عبدالرحيم مثواه، وعرّف أكابر الموالي بمكانته في العلوم وزكّاه، وحصل بينهما في تلك الرحلة من لطيف المجاورة، وعجيب المسايرة، ما هو أرق من النسيم، وأعذب من التسنيم، وأخذ كل واحد منهما عن الآخر، ومن أراد الوقوف على تفصيل ذلك فليراجع رحلة الشيخ الوالد المسماة «بالمطالع البدرية في المنازل الرومية» وهذه التسمية من لطائف السيد عبدالرحيم أيضاً.

(١) ومن غريب ما ذكره الوالد عنه في الرحلة المذكورة ما سمعه السيد في المنام وقد مات السلطان سليم رحمه الله تعالى وأُخفي موته إلى أن يحضر ولده السلطان سليمان:

قل لشياطين البغاة اخسئوا قد أوتي الملك سليمان

وكان مصداق هذه الواقعة ما شاع واشتهر من العدل الذي حصل في دولة السلطان سليمان رحمه الله تعالى واشتداد بأسه في جهاد أهل الكفر والطغيان بحيث إنه أعدل ملوك بني عثمان، ولذلك طالت مدته واتسع له الزمان، وكم للسيد المذكور رحمه الله تعالى في فتوحات السلطان سليمان ووقائعه من قصيد نضيد خصوصاً في فتح «رودس».

(٢) وذكر صاحب «الشقائق» للسيد المشار إليه ترجمة مليحة أثنى عليه فيها ثناءً بالغاً وقال: كانت له يد طولى وسند عالٍ في علم الحديث ومعرفة تامة بالتواريخ والمحاضرات والقصائد الفرائد وكان له إنشاء بليغ ونظم حسن مليح إلى أن قال: وبالجملة كان من مفردات العالم صاحب خلق عظيم وبشاشة ووجه بسّام لطيف المحاورة، عجيب النادرة، متواضعاً متخشعاً أديباً لبيباً، يبجّل الصغير ويوقّر الكبير، وكان كريم الطبع سخي

النفس مباركاً مقبولاً، قال: وجملة القول فيه إنه كان بركة من الله في أرضه.

(١) وذكر أيضاً أنه دخل القسطنطينية في زمن السلطان بايزيد، وكان له شرح على البخاري أهداه إلى السلطان بايزيد فأعطاه السلطان جائزة سنيّة ومدرسته التي بناها بالقسطنطينية ليقرىء فيها الحديث فلم يرض ورغب في الذهاب إلى الوطن، ثم لما انقرضت دولة الغوريّ أتى إلى القسطنطينية وأقام بها وعين له كل يوم خمسون عثمانياً على وجه التقاعد.

وأما شعر السيد فإنه في الطبقة العليا من الحسن والبلاغة مع إتقان النكات البديعية فيه.

(٢) ومن ذلك قوله وأجاد فيه:

حالُ المُقِلِّ ناطقٌ عما خفا من عيبه
فإن رأيتَ عارياً فلا تسل عن ثوبه

(٣) وقال أيضاً:

يا من بنى داره لدنيا عاد بها الربح منه خُسْرا
لسان أقوالها ينادي عمرت داراً لهدم أخرى

(٤) وأنشد له شيخ الإسلام في المطالع البدرية:

دع الهوى واعزم على فعل التقى ولا تسل
فآفة الرأي الهوى وآفة العجز الكسل

(٥) وأنشد صاحب الشقائق النعمانية للسيد:

أرعشني الدهر أيّ رعش والدهر ذو قوة وبطش
قد كنت أمشي ولست أعيي[1] والآن أعيي ولست أمشي

وكانت وفاته رحمه الله تعالى في سنة ثلاث وستين وتسعمئة[2].

---

(١) أي: أتعب.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/١٦١ - ١٦٥.

ابن المؤيد

عبدالرحيم بن علي بن المؤيد المولى الفاضل العلامة الكامل العارف بالله تعالى المشهور بحاجي جلبي الرومي القسطنطينيّ الحنفيّ. عُرف بابن المؤيد. أحد الموالي الأجلاء بالروم قال في «الشقائق»: كان من طلبة العلم الشريف وقرأ على المولى الفاضل سنان باشا وعلى المولى الفاضل خواجه زاده وكان مقبولاً عندهما، وكان جامعاً بين الفضيلتين العلم والعمل وكان فضله وذكاؤه في الغاية لا سيما في العلوم العقلية وأقسام العلوم الحِكْميّة وكان له معرفة تامّة بالعربية وآية كبرى في معارف الصوفيّة. وقد ظهرت له كرامات عليّة. انتهى.

واجتمع به شيخ الإسلام الوالد في رحلته إلى الروم وذكره في «المطالع البدرية» وقال فيه: هو صدر من صدور أئمة الدين، وكبير من كبراء الأولياء المهتدين، وقدوة في أفراد العلماء الزاهدين، حامل لواء المعارف، ومحور التالد منها والطارف، محافظ على الكتاب والسنة، قائم بأداء الفرض ثمّ السنة، حامل لأعباء صلاح الأمة، باسط للضعفاء وذوي الحاجات جناح الرأفة والرحمة، ذو أذكار وأوراد يعمر بها مجالسه، وأحوال وأسرار يغمر بها مجالسه، وجدّ في العبادة، وملازمة قيام:

(١) يقضي بنفع الناس سائر يومه   وتجفوه في جنح الظلام مضاجع
فينفك عنه يومه وهو ذاكر   وينفك عنه ليله وهو راكع

(٢) قال: وأنشدته لنفسي:

من رام أن يبلغ أقصى المنى   في الحشر مع تقصيره في القُرب
فليخلص الحب لمولى الورى   والمصطفى فالمرء مع من أحب

(٣) قال: وممّا أفادني إياه نقلاً عن بعض العارفين أن الإنسان إذا قال: «ربنا» خمس مرات ودعا استجيب له واحتجّ بقوله تعالى حكايه عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ربّنا إنّي أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع﴾ إلى قوله: ﴿ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾.

(١) قال: فاستحضرت في الحال دليلاً آخر ببركته وهو قوله تعالى: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ إلى قوله ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ الآية وهي تمام الخمس ثم عقبها بقوله ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ فسر بذلك كثيراً وشكر ودعا.

(٢) قلت: ويساعد هذا ما روي عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أنه قال: من حزبه أمر فقال خمس مرات «ربنا» أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد وقرأ: ربنا ما خلقت هذا باطلاً، الآيات.

(٣) وقد قلت:

جاء في الآثار أن العبد إن ... ربَّنا في خمس مرات يقل
فحقيق بجواب ثابت ... وعليه نص آيات يدلّ
ربنا فاغفر لنا أوزارنا ... واهدنا فعلاً إلى خير السبُل
ربنا وامنن علينا رحمة ... باشتغال بك عن كل شغل
ربنا واجعل هواناً تابعاً ... للذي جاء به خير الرسل
ربنا إنا لنرجو دائماً ... منك ما نطلب من كُثْر وقُلْ
ربنا اصلح لنا شؤوننا ... كلها يا خير مولى لم يخل

توفي في سنة أربع وأربعين وتسعمئة[١].

عبدالعزيز المغربيّ المكناسيّ

عبدالعزيز بن عبدالواحد بن محمد العالم الفاضل الأديب المغربيّ المكناسيّ المالكيّ شيخ القرّاء بالمدينة المنوّرة. كان فاضلاً مفنناً شاعراً صالحاً دمث الأخلاق كثير التواضع له عدّة منظومات في علوم شتى.

(٤) ومن شعره:

ذوو المناصب إمّا أن يكون لهم ... نَصَبٌ وإلا فهم ذوو نَصب

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/١٦٥ - ١٦٧.

فلا تعرِّج عليها ما بقيت وكن ... لله محتسباً في تركها تُصِبِ
لا سيما منصب القاضي فإنك إن ... تزغ عن الحقّ فيه كنت ذا عطبِ
فإن قضى الله يوماً بالقضاء أخي ... عليك فاعدل ولكن لا إلى الذهب

(١) قلت من لطيف ما اتفق لي قولي:

عجبت من أهل هذا العصر كلهم ... وكلّ أمرهم عندي من العجب
قالوا قضاة الزمان قد عدلوا ... فقلت ما عدلوا إلا إلى الذهب

(٢) قدم صاحب الترجمة دمشق بعد أن زار بيت المقدس من جهة المدينة في سنة إحدى وخمسين وتسعمئة وأنشد:

قالوا دمشق جنّة زخرفت ... من كل ما تهوى نفوس البشر
أما ترى الأنهار من تحتها ... تجري فقلت مجاوباً بل سقر
لأنها حفت بما يُشتهى ... فهي إذا نارٌ كما في الخبر

(٣) وأقول كالمعارض له:

قالوا دمشق جنة ... قد زخرفت قلت نعم
للعارفين الشاكرين ... ما حوت من النعم
فاعجب لخال عن حجى[1] ... في حقها بالشتم عَم
الربوة التي لها ... في الذكر ذكر[2] لا تذم

عاد إلى المدينة المنورة وتوفي بها في سنة أربع وستين وتسعمئة[3].

ابن سعيد

عبدالقادر بن أبي بكر بن سعيد، الشيخ محيي الدين الحلبي الشافعيّ المشهور بابن سعيد، كان جده سعيد هذا يهودياً فأسلم.

---

(١) الحِجَى: هو العقل.

(٢) يقصد قوله تعالى: ﴿وَءَاْويناهم إلى ربوة ذات قرار معين﴾، إذ جاء في التفسير أن المراد بها ربوة في دمشق، وفيها حديث مرفوع ضعيف، انظر «روح المعاني» للآلوسي: ١٨/ ٣٨.

(٣) «الكواكب السائرة»: ٢/ ١٦٩ - ١٧٠.

اشتغل صاحب الترجمة بالعلم في حلب، وأخذ عن الكمال بن أبي شريف ببيت المقدس، وكان ذا همّة عالية في النسخ حتى كتب البخاري وما دونه في القَدْر ورحل إلى دمشق والقاهرة. وكانت له شهرة ولديه رئاسة، ثم عاد إلى حلب وصار مفتي دار العدل بها في الدولة الجركسية ثم ولي المناصب في الدولة العثمانية.

(١) قال ابن الحنبلي: وتعاظم على الشيخ علاء الدين الموصليّ فبلغه أنّه صحّف كلمة يُشِبْه في المنهاج الفرعيّ من الشوب وهو الخلط بلفظة يشبه من الشبه، وحمل ما ذكره الشيخ البيضاويّ في قوله تعالى: ﴿فسحقاً لأصحاب السعير﴾ من قراءة التثقيل على تشديد القاف مع ضمّ الحاء مع أن المراد بها مجرد ضم الحاء من غير تشديد القاف فهجاه بقوله:

يا سائلي عن جهولٍ	يتيه في الجهل حمقا
لم يدر بين يُشِبْه	وبين يُشْبه فرقا
وخالف اللّه فيما	أبداه في الذكر حقا
وقال فيه سحُقّاً	سحقاً له ثم سحقا

مات سنة أربع وثلاثين وتسعمئة بحلب وصلي عليه غائبة بجامع دمشق[١].

عبدالمطلب بن مرتضى

كان والده من بلاد العجم وكان شريفاً صحيح النسب كاتباً مجيداً كتب مصاحف كثيرة رغب السلاطين فيها لحسن خطها، وصار نقيب الأشراف ببلاد الروم، وولده صاحب الترجمة حينئذ في سن الشباب وقد رغب في التحصيل وكان يكتب الخط الحسن وصار له معرفة بالأنساب بالفارسية والعربية، ونظم بالتركية والفارسية.

مات رحمه الله تعالى في سنة خمس وخمسين وتسعمئة.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/١٧٣.

(١) قلت: وعندي في تسميته عبد المطلب نظر لأن المطلب ليس من أسماء الله تعالى ولا يجوز التعبد لغيره وإنما هي تسمية قديمة في الجاهلية أشهر من سمي بها عبدالمطلب جد رسول الله ﷺ[١].

عرفة القيروانيّ

المغْربيّ المالكيّ الشيخ العارف بالله تعالى.

(٢) قال الشيخ علوان في كتابه تحفة الحبيب إن سلطان المغرب قد حبسه بنقل واشٍ كاذب فوضعه في السجن وقيده بالحديد وكان الشيخ عرفة إذا حضر وقت الصلاة أشار إلى القيود فتتساقط فيقوم ويصلي، فقال له بعض من كان معه في السجن: إذا كان مثل هذا المقام لك عند الله فلأي شيء ترضى ببقائك في السجن، فقال: لا يكون خروج إلا في وقت معلوم لم يحضر إلى الآن واستمر على حاله حتى رأى سلطان المغرب رسول الله ﷺ فقال له: عجّل بإطلاق عرفة من السجن مكرماً وإياك من التقصير تكن مغضوباً عليك فإنه من أولياء الله تعالى فلما أصبح أطلقه مكرماً مبجلاً.

وفاة سيدي عرفة سنة ثمان وأربعين أو قبلها وصلي عليه غائبة بدمشق في الأموي يوم الجمعة تاسع عشر المحرم سنة تسع وأربعين وتسعمئة، رحمه الله[٢].

ابو الحسن البكريّ

علي بن محمد الشيخ الإمام العلامة نادرة الزمان وأعجوبة الدهر الفقيه المحدّث الأستاذ الصوفيّ أبو الحسن ابن القاضي جلال الدين البكريّ.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/١٨٣ - ١٨٤.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/١٩١.

أخـذ الفقه والعلوم عن القـاضي زكريـا والبرهـان ابن أبي شـريف وغيرهما.

(١) وبلغني أن سيدي عبد القادر الدشطوطي كان من معتقديه والد الشيخ أبي الحسن القاضي جلال الدين وكان قد انكسر عليه مال للغوريّ عسوفاً فطالب القاضي جلال الدين بـالمال وأراد أن يعـاقبه عليـه فجاء القـاضي جلال الدين إلى سيدي عبدالقـادر وشكى إليه أمـر الغوريّ فقـال له: يـا جلال الدين: إن رددت عنك الغوريّ تعطيني ولدك أبا الحسن يخدمني؟ قال: نعم وبعث إليه بأبي الحسن وكان إذ ذاك شاباً بارعاً فاضلاً له اشتغال على مشايخ الإسلام، فقال له: يا أبا الحسن: لا تقرأ على أحـد واترك الاشتغال حتى يجيء شيخك من الشام فامتثل أمره، ثم إن سيدي عبدالقادر بعث إلى الغـوريّ وكان لـه فيه مـزيد اعتقـاد وقـال لـه: هبني مـا على جلال الدين من الدَّين ففعل، فقال له سيدي عبدالقـادر: اعطه مـرسومـاً بالبراءة وأن لا يطالبه أحد ففعل الغوريّ، ثم انقطع القاضي جلال الدين وولده الشيخ أبو الحسن لخدمة سيدي عبدالقادر الدشطوطيّ وعمّر الجامع المعروف به بالقاهرة وكلما أراد أبو الحسن أن يعاود المشايخ في الدروس واستأذن سيدي عبد القادر يقول له: لا حتى يجيء شيخك من الشام، فلما قدم شيخ الإسلام الجدّ رضي الدين الغزيّ القادريّ في سنة سبـع عشرة وتسعمئة جاء مسلّماً على سيدي عبد القادر وكان بينه وبينه قبل ذلك محبة وصحبة، قال سيدي عبد القادر للشيخ أبي الحسن: قم يا أبا الحسن هذا شيخك قد جاء من الشام وسلمه للشيخ رضيّ الدين وأمر أبـا الحسن أن يذهب مع الشيخ ويلازمه فلازم الشيخ رضي الدين في سكنه ليلاً ونهـاراً وكان يذهب هو وشيخ الإسلام الوالد كل يوم يقرآن الدروس على الشيخ رضي الدين وعلى غيره من علماء مصر إذ ذاك بـأمر الشيـخ رضي الدين وإشارته.

(٢) وكان الشيخ يربّي أبا الحسن ويهذّب أخلاقه ويعلمه الآداب ويلقي

إليه الفوائد وينهضه في الأحوال والطاعات حتى أنِس منه الكمال. فقال له: يا أبا الحسن ما بقت مصر تسعنا وإياك فمن ثمّ سافر الشيخ رضي الدين راجعاً إلى الشام، واشتهر الشيخ أبو الحسن البكريّ وقد تمت فتوحاته، ونمت نفحاته، وصار يتكلم على الناس.

(١) ذكره الشيخ عبد الوهاب الشعراويّ في طبقاته وقال: أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام، والتصوف على الشيخ رضي الدين الغزي، وتبحر في علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث وغير ذلك وكان إذا تكلم في علم منها كأنه بحر زاخر، قال: وأخبرني بلفظه ونحن بالمطاف أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق وقال: إنما أكتم ذلك عن الأقران خوفاً من الفتنة بسبب ذلك كما وقع للجلال السيوطيّ. قال: وكانت مدة اشتغاله على الأشياخ نحو سنتين ثم جاء الفتح من الله فاشتغل بالتأليف، قال وحججت معه مرة فما رأيت أوسع خلقاً ولا أكثر صدقة في السر والعلانية منه، وكان لا يعطي أحداً شيئاً نهاراً إلا نادراً وأكثر صدقته ليلية، وكان له الإقبال العظيم من الخاص والعام في مصر والحجاز وشاع ذكره في أقطار الأرض كالشام والروم واليمن وبلاد التكرور والغرب مع صغر سنه وله كرامات كثيرة وخوارق وكشوفات فما قاله أو وعده لا يخطىء.

(٢) من شعر الشيخ أبي الحسن وهي قصيدة مشهورة، فمنها:

وقع النداء لنا ألست بربّكم ... قلنا بلى وأجابت الذرّات
شهد الشهود وأثبت القاضي على ... إشهادكم وتسجّل الإثبات
وعلى قديم العهد نحن إلى اللقا ... هيهات أن تتحوّل الحالات
واهاً على أحوال قوم أعرضوا ... عن بابكم كم فاتهم خيرات
من احتمى يوماً بغير حماكم ... حلّت به الآفات والهلكات
فيا نائمين تيقظوا من نومكم ... لم يبق من قرب الحبيب سبات
يا معرضين عن الكريم تعرضوا ... فلربكم في دهركم نفحات
خلوا الغرور فكل شيء هالك ... لا شك إلا الله والطاعات

أين الجبابرة الفراعنة التي ضاقت لعِظم جيوشها الفَلَوَاتُ[1]
أين الملوك السالفون ومدحهم أين البنود السود والرايات
بل أين ذو القرنين من دانت له الآفاق والبلدان والظلمات
أين المعارف أين إخوان الصفا والإخوة الأنساب والأخوات
جُز في ديارهم وسائل عنهم يخبرك أنهم جميعاً ماتوا
لله كم تحت الثرى من أمّة راحت وملء فؤادها حسرات
كانوا وكانت في الحمى أوقاتهم ماتوا وماتت معهم الأوقات
يبكي الزمان عليهم متأسفاً وتفيض من أجفانه العبرات
بالأمس كانوا في المنازل كلهم واليوم هم تحت التراب رفات
ثم الصلاة على النبيّ وآله ما دامت الأزمان والساعات

توفي في سنة اثنتين وخمسين وتسعمئة وكانت جنازته مشهورة ودُفِن بجوار الإمام الشافعيّ[2].

علاء الدين الجوبريّ

علي بن أحمد بن موسى الديريّ ثم الجوبريّ الدمشقيّ الشافعيّ الأديب، علاء الدين أبو الحسن. مولده بقرية الشوبك ببلاد نابلس سنة سبع وخمسين وثمانمائة.

كان مؤذناً بالجامع الأموي متسبباً ببابه، فاضلاً بارعاً شاعراً له ديوان شعر.

(١) ومن شعره تخميس أبيات ابن حجر:

أمر يطول ومدة متقاصرة وبصائر عميت وعين باصره
فإلى متى بالصبر ويحك صابره قرُب الرحيل إلى ديار الآخره
فاجعل إلهي خير عمري آخره

---

(١) أي: الصحاري.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/١٩٤ ـ ١٩٧.

فـالعيش والـدنيـا كلذّة حـالمٍ   وسـواك يـا مـولاي ليس بـدائم
وإليـك مـرجعنـا بـأمـر حـازم   فلئن رحمت فـأنت أكـرم راحم
وبحار جودك يا إلهي زاخره

يـا رب إن الـدهـر أبلى جِـدّتي   وعصيت في جهل الشباب وجدتي
فـإذا تصـرم مـا بقي من مـدتي   آنس مبيتي في القبـور ووحـدتي
وارحم عظامي حين تبقى ناخره

إذا كنت ترحم من مضت أعوامـه   فـي لهـوه حـتى نـمـت آثـامـه
والعفـو منـك رجـاؤه ومـرامـه   فـأنـا المُسَيْكِين الـذي أيـامـه
ولت بأوزار غدت متواتره

فبـوجهـك البـاقي وعـز جـلالـه   ومـحـمـد سـرّ الـوجـود وآلـه
رفقـاً بمن أنت العليم بحـالـه   وتـولـه بـاللطف عنـد مـآلـه
يا مالك الدنيا وربُّ الآخره

توفي سنة سبع وثلاثين وتسعمئة، رحمه الله تعالى[١].

الشيخ علوان

الشيخ الإمام العلامة، الهمام الفهامة، شيخ الفقهاء والأصوليين، وأستاذ الأولياء والعارفين، الشيخ علي بن عطية بن علوان الهيتيّ الشافعيّ الحمويّ الصوفيّ.

سمع على الشمس محمد بن داود البازلي كثيراً من البخاري وقرأ عليه من أول مسلم إلى اثناء كتاب الصلاة وسمع أيضاً بعض البخاري بحماة على الشيخ نور الدين علي بن زهرة الحنبليّ الحمصيّ.

(١) حدثني شيخنا فسح الله تعالى في مدته مراراً عن والده الشيخ يونس أن الشيخ علوان حدثه في سنة أربع وعشرين وتسعمئة (أنه) كان واعظاً بحماة على عادة الوعّاظ من الكراريس بأحاديث الرقائق ونوادر الحكم

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/٢٠٠ ـ ٢٠١.

ومحاسن الأخبار والآثار، فمرّ به السيد الحسيب النسيب سيدي علي بن ميمون وهو يعظ بحماة فوقف عليه وقال: يا علوان عِظْ من الراس ولا تعظ من الكراس، فلم يعبأ به الشيخ علوان فأعاد عليه القول ثانياً وثالثاً، قال الشيخ علوان: فتنبهت عند ذلك وعلمت أنه من أولياء الله تعالى، قال: فقلت له: يا سيدي: لا أحسن أن أعظ من الرأس يعني غيباً، فقال: بل عظ من الرأس، وتوكل على الله. قال: فلما أصبحت جئت إلى المجلس ومعي الكراس في كمي احتياطاً قال: فلما جلست فإذا بالسيد في قبالتي قال فابتدأت غيباً وفتح الله تعالى عليّ واستمر الفتح إلى الآن.

وبالجملة فإن سيدي علوان ممن أجمع الناس على جلالته وتقدّمه وجمعه بين العلم والعمل وانتفع به الناس وبتآليفه في الفقه والأصول والتصوف، وتآليفه مشهورة.

(١) وقرأت بخط الشيخ شمس الدين بن طولون في تاريخه وأخبرنا عنه شيخنا الزين بن سلطان الحنفي وغيره قال في يوم الأربعاء ثالث عشري جمادى الآخرة يعني سنة خمس وثلاثين وتسعمئة وصل إليّ كتاب محدث حلب زين الدين بن الشماع الحلبي وفيه: وقد توجهت العام الماضي سنة أربع وثلاثين إلى حماة في أول رمضان وأقمت عند شيخ الوقت سيدي علوان الشافعي فأكرمني وأنزلني في خلوته وسمعت منه أشياء، وقد أذكرني حاله قول علي بن الفُضيل بن عياض لأبيه كما في آخر جزء البطاقة يا أبه: ما أحلى كلام أصحاب محمد ﷺ، قال: يا بني: وتدري لم حَلِيَ؟ قال: لا، قال: لأنهم أرادوا به الله تعالى، قال وكذلك أقول في سيدي علوان نفعني الله تعالى وإياكم وسائر المسلمين ببركاته.

(٢) وحُدِّثت أن سيدي الشيخ علوان وسيدي محمد بن عراق حجّا معاً في سنة واحدة وكان سيدي محمد بن عراق ماشياً والشيخ علوان في محمل فبلغ الشيخ علوان في أثناء الطريق أن سيدي محمد بن عراق مرض ومنعه المرض من المشي وطرحه إلى الأرض فقصده الشيخ علوان فقال له: يا

أخي: ما هذا؟ قال: أمر الله، قال: يا أخي تركب في محملي؟ قال: لا: إني عاهدت الله أن أمشي إلى بيته. قال الشيخ علوان: هذا لا يكـون، كيف تمشي وأنت مريض ونركب ونحن أصحاء؟ قال: فكيف الحال؟ قال: نحن نحمل عنك فما افترقا حتى قام سيدي محمد بن عراق صحيحاً ليس به بأس ولزم الشيخ علوان المحمل مريضاً.

(١) وكرامات الشيخ علوان كثيرة منها ما ذكره ولده سيدي محمد شمس الدين في كتابه المسمى «بتحفة الحبيب» أنه كان ليلة من الليـالي يتكلم في طريق السلوك مع بعض فقرائه بعد صلاة العشاء في بيت وفي البيت سراج موقد ففرغ منه الزيت فقام بعض فقرائه يصبّ فيه زيتاً فانطفأ فأراد أن يشعله فقال له الشيخ اقعد فإن من عباد الله من إذا قال للسراج اتقد من غير زيت ولا دهن يتقد فما فرغ الشيخ من كلامه إلا والسراج قد اتقد من غير زيت ولا شيء من الأدهان إلى آخر الليل واستمر كذلك إلى قرب طلوع الشمس قال: واظن الراوي قال في هذه الرواية: ولم ينطفىء حتى جاء الشيخ وأطفأه بنفسه.

(٢) قال: ولما فتح السلطان رودس شوهد الشيخ الوالد راكباً على فرس شهباءَ أو بيضاء وقبل فتحها بنحو ساعة شهد قوم الشيخ قد تقدم وفتح باب المدينة فمشى ذلك الرجل المشاهـد له وأخبـر بعض الوزراء والخـواص فابتدروا باب المدينة فإذا بـه مفتوح فـدخلوا فلما جـاءوا بعض الكنائس وجدوا الشيخ ومعه طائفة يصلون ويهللون ويكبرون ويرفعون أصواتهم بكلمة الإسلام والصلاة على النبي ﷺ فجاءه ذلك الرجل وابتدر الشيخ بـالسلام فنظر الشيخ إليه مغضباً وخفي عن بصره، فأخبر بعض الوزراء وحوله جماعة فصدّقه بعض الحاضرين وقـال: أنا رأيت ذلـك الرجـل يعني على ذلك الوصف، فتعجب الوزير من ذلك وزاد اعتقاده فيه، ثم لما رجع الرجل اجتمع بالشيخ بحماة وبكى، فقال: لا تفش شيئاً مما رأيت تهلك، فكأنه كلّم بعض الناس خفية فأرسل خلفه وزجره وقال: له مالك وللوصول إلى ساحة هذا الكلام أما علمت أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

(١) قال: ولقد أخبرني لصوص بعد توبتهم بأنهم جاءوا إلى زاوية الشيخ بقصد أذيّته فوجدوه قائماً يصلي والمحل ممتلىء عليه نوراً وكانت الليلة مظلمة ولم يكن ثمّ سراج ولا قنديل.

(٢) قال: ولقد قال لبعض أصحابه سنة من السنين في رمضان إذا كنت غداً في مجلس الكلام والوعظ يمرّ على باب المسجد ثلاثة من اليهود فأما اثنان منهم فينصرفان والواحد يقف على باب المسجد ويستمع ثم لا ينفصل المجلس إلا وقد دخل الإسلام، فلما أصبح الشيخ وجلس في جامعه على كرسيه وأخذ في الكلام كان الأمر كما قال.

وقد انتفع بالشيخ علوان جماعة حتى صار كل واحد منهم قدوة.

وكانت وفاة الشيخ علوان جماعة بحماة سنة ست وثلاثين وتسعمئة.

(٣) قال ولده سيدي محمد في «تحفة الحبيب»: وقد أخبرني بموته قبل حلول مرضه وعرّف بأمور تصدر في بلدته وغيرها بعد موته من أصحابه وغيرهم فجاءت مواعيده التي أشار بها كفلق الصبح.

(٤) قال: وفي يوم موته طلب أن يتيمّم ثم دخل في الصلاة فبينما هو عند قوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ إذ خرجت روحه أو وصلت إلى الغرغرة.

(٥) مات وقد قارب الثمانين وصُلِّي عليه غائبة بعد صلاة الجمعة بالجامع الأموي، وعرض خطيبه الجلال البصرويّ لذكره في الخطبة فانتحب الناس بالبكاء عليه[١].

علي النجار

الشيخ المعمر المقيم بباب الخلق من القاهرة.

(٦) قال الشيخ عبدالوهاب الشعراويّ: صحبته ساعةً واحدة في سنة ثلاث وأربعين وتسعمئة وذلك أني كنت ماراً في الخليج الحاكميّ أيام الصيف

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/٢٠٦ ـ ٢١٣.

فوجدته قائماً، فقلت له: السلام عليكم، فقال لي: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته قال: فجلست عنده فقبض على أصابع يدي فكاد أن يلصق بعضها لبعض، فقال لي: ما تقول في هذه القوة؟ فقلت: شديدة. فقال: هذه من لقيمات الزمن الذي أدركناه حال الصبا من الكسب الحلال وأما لقمة هذا الزمن فإنها تجعل الجسم مثل النخالة من حيث المكاسب.

(١) ثم قال: يا ولدي عمري الآن بلغ مئة وخمساً وثلاثين سنة قد تغير حال الناس في هذه الثلاث سنين الأخيرة أكثر ما تغير في عمري كله؛ قد صار ولدك كأنه ما هو ولدك وأخوك كأنه ما هو أخوك وجارك كأنه عدوك، وصار الإنسان إذا نزلت به مصيبة لا تجد أحداً من الخلق يشكو له لأن الناس قسمان لا ثالث لهما، أحدهما شامت والآخر قلبه فارغ، وصار الموت تحفة لكل مسلم.

ولم يؤرخ الشعراوي وفاته بل قال: ولم أدر الآن أهو حي أو ميت[١].

علي البرلّسي الخواص

أحد العارفين بالله تعالى وأستاذ الشيخ عبدالوهاب الشعراويّ الذي أكثر اعتماده في مؤلفاته على كلامه وطريقه.

كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ومع ذلك كان يتكلم على الكتاب والسنّة وأحوال القوم ومقاماتهم بكلام نفيس عال، ويتكلم على خواطر الناس ويكاشفهم، وكان يبيع الجمّيز وهو شاب عند سيدي إبراهيم المتبولي في بركة الحاج خارج مصر ثم أذن له الشيخ أن يفتح دكان زيّات فمكث فيها نحو أربعين سنة ثم ترك ذلك واشتغل بضفر الخوص إلى أن مات، وكان لا يأكل من كسب أحد إلا إن علم ورعه وخوفه من الله تعالى. وكان يرد جميع ما يعطيه له القضاة والأمراء وأعوانهم ثم قبل ذلك أواخر عمره، وكان يضعه

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/٢٢٠.

عنده ويفرقه على من مر بدكانه من العميان والشيوخ والعجائز الذين يسألون الناس.

(١) ورمدت عيناه رمداً شديداً فدفع إليه شخص من معتقديه ثلاثة أنصاف وقال له: انفقها اليوم وأرح عينيك فردّها وقال له: يا أخي أنا أضفر الخوص في هذا الحال ولا يعجبني أن آكل من كسبي فكيف آكل من كسبك. فقال: يا سيدي خاطري طيّب بذلك، فقال: أنا خاطري ما هو طيب.

(٢) وكان إذا وضع الحزمة من الخوص يضفر منها ثلاثين قفة فإن شعر به أحد قال له: اكتم عليّ، الكلُّ فعل الله تعالى.

(٣) وكان له طب غريب يداوي به ذوي العاهات والأمراض المزمنة التي عجز عنها الأطباء.

(٤) وكان يطوف على المساجد يوم الخميس والجمعة يكنسها وينظف أخليتها ويحمل الكناسة إلى المزابل.

(٥) وكان ينظف المقياس[1] كل سنة فيكشط سمه من الطين ثم ينزل يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يدعو ويبكي ويتضرع إلى الله تعالى في طلوع النيل يفعل ذلك كل سنة. قال الشعراويّ وكان يرسل وراءنا ذلك اليوم ويقول: تعالوا زوروا محل نزول الرحمة لأهل مصر، ويأمرنا أن لا نخرج في الروضة ريحاً ولا نبول ويقول من كان له حاجة فليفعل ذلك في ساحل مصر ولا تطلبوا الروضة إلاّ على طهارة، وكان يأخذ معه ذلك النهار الأموال الجزيلة من ذهب وفضة وفلوس مخلوطة فيفرق على كل من رآه من الفقراء حتى يرجع.

توفي سنة تسع وثلاثين وتسعمئة رحمه الله تعالى رحمة واسعة[2].

---

(١) أي مقياس النيل الذي يُقاس به عمق الماء.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/٢٢٠ - ٢٢١.

علي العياش المصريّ

الشيخ الصالح الورع المجدّ على العبادة ليلاً ونهاراً. كان من أجلّ أصحاب سيدي أبي العباس الغمريّ وسيدي إبراهيم المتبوليّ.

(١) مكث نحو ستين سنة ما وضع جنبه على الأرض، وكان يقرأ القرآن ويردده ويبكي إلى الصباح ولا يزيد على خمسة أحزاب، وقراءة كل ليلة سورة طه من بعد صلاة العشاء فما زال يرددها ويبكي إلى الصباح.

وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً.

(٢) مرض مرضاً شديداً نحو أربعة أشهر بمصر فلم يُنقض من أوراده شيئاً ثم حمل مريضاً إلى دمياط وقال: أسافر إلى قبري فمات هناك بعد وصوله في سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبره بها ظاهر يزار رحمه الله تعالى[١].

عمر العقيبي

الشيخ العارف بالله تعالى المربي زين الدين الحمويّ الأصل ثم العقيبي الدمشقيّ الشافعيّ المعروف بالإسكاف. كان في بداءته إسكافاً يصنع النعال ثمّ صحب الشيخ علوان الحمويّ وبقي على حرفته غير أنه كان ملازماً للذكر وكان يتقن صناعته.

ثم غلبت عليه الأحوال فترك الحرفة وأقبل على المجاهدات ولزوم خدمة أستاذه الشيخ علوان حتى أمره أن يذهب إلى دمشق ويرشد الناس. وكان كثير المجاهدات شديد التقشف ورعاً. وكان أمياً لكنه ببركة صدقه فتح الله تعالى عليه.

(٣) كان في بداءته ينظر بستاناً بحماة وفيه العنب والتين وكثير من أنواع الفواكه فيقطفون العنب وغيره ويبيت في البستان فيصبح وعليه الندى فيكتسي بذلك حسناً فلا يلتفت إليه ولا يعرج عليه ولا يأكل منه حبة واحدة

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٢/٢٢٢.

وبقي على ذلك سنين كما قرأت ذلك بخط الشيخ موسى الكناوي وذكر أنه سمع ذلك من لفظ الشيخ عمر. قال: وسمعته مرة يقول كنت مرة أنظر في بستان وكان أيام الدُّرَّاقن الخواجكي[1] وكنت أقطف من ذلك لصاحبه ويبيت في الإناء فيصبح وعليه الندى فتتوق نفسي إليه فأمنعها وكذلك كنت أفعل مع نفسي مع جميع الفواكه.

قلت: وكذلك كان يعامل أصحابه ومريديه بالمجاهدات الشاقة على النفوس.

(١) وبلغني أنه أتى بعض أصدقائه ذات يوم إلى بستانه فذهب وذهب معه الفقراء فلما دخل من باب البستان وجد ساقية ماء فشرب منها وأمر الفقراء أن يشربوا من الماء فشربوا ثم قال: كل ما في البستان أصله من هذا فقد أخذنا كفايتنا منه فارجعوا فرجع ورجعوا معه ولم يتناولوا من فاكهة البستان شيئاً.

(٢) وبلغني أن إنساناً جاء إليه يطلب الإرشاد والتزمه فأمره أن يعترف بين يديه بظلامات الناس ليأمره بالتوبة منها والتحلل وكيف يتوب ويخرج من المظالم فاعترف بين يديه بقتل إنسان عمداً فقال له: لا بد أن تعترف لأوليائه وتطلب منهم العفو فإن عَفَوْا كان طريقك مبنياً على أمر صحيح وإن اقتُصَّ منك خرجت من عهدة الجناية في الدنيا باستيفائهم منك ما لهم عليك من القصاص والصبر على القصاص، في الدنيا أهون من الصبر على عذاب الآخرة ففعل واعترف عند أولياء القتيل فأمسكوه وضيقوا عليه واستعدوا عليه عند الحاكم ثم لما بلغهم قصته مع الشيخ عمر عَفَوْا عنه ووهبوه له.

(٣) ومر بعض الأيام على أحد فقرائه فأشرف عليه فوجد نظره طامحاً إلى غلام جميل الصورة فجاء الشيخ حتى حاذاه وأوقع بصره عليه ففطن الرجل أن شيخه أشرف عليه فخجل وقال: يا سيدي: ما وقفت هنا إلا لأتعجب

---

(١) نوع من أنواع الدُّراقن: والدُّرَاقن هو الخوخ.

من صانع هذه الخلقة الشريفة ومصور هذه الصورة البديعة، يا سيدي: ما أحسن تلوينَ عينيه وحمرة خديه وبياض وجهه وكذا وكذا فقال له الشيخ رحمه الله تعالى: انظر إلى زنجيّ أسود شديد السواد على رأسه طرطور والناس يضحكون منه، يا كذاب وهلّا تعجب من خلقة هذا الأسود وتعجبت من شدة سواد بدنه وشدة بياض أسنانه وطالعت صنعة الله فيه من غير أن يكون للشرع عليك إنكار فيه بخلاف نظرك في هذا الأمرد الجميل فإنك ممنوع منه شرعاً، وكيف يكون طريق الله فيما حرمه الله تعالى.

(١)وصحب الشيخ عمرَ رجلٌ رافضي فقبله الشيخ على ما فيه من عوج فلما طالت صحبته مع الشيخ توهم الشيخ فيه الصدق قال له الشيخ يوماً: يا فلان: خطر لي أن أزور غداً جبل قاسيون ولا يكون معي غيرك فجئني في غدٍ مبكراً فلما أصبح غدا على الشيخ فخرج الشيخ عمر من زاويته والرجل معه حتى كان في أثناء الجبل أظهر الشيخ عمر الإعياء والعجز عن المشي والحركة حتى تحير الرجل في أمره وقد قرعتهما الشمس فقال الرجل: يا سيدي أنا أحملك على ظهري فقال له الشيخ: أكلفك وأخاف المشقة عليك لكن ما بقي لي مجال للمشي ولا خطوة ثم قعد الرجل وحمل الشيخ على ظهره فمشى به خطوات وأعي ووقف فقال له الشيخ ما بالك؟ قال يا سيدي: أعييت حتى أستريح فلما تحقق ذلك الشيخ منه قال له: يا هذا، اشتهر عند الناس أن الرافضة حمير اليهود ويركبونهم يوم القيامة على الصراط ويكبكبون جميعاً في النار وأنت الآن تدعي صحبتي وعجزت عن حملي في هذا الطريق الواسع فبالله عليك إن كان في قلبك شيء من البدعة وبغض الشيخين فارجع عنه وتب إلى الله تعالى فبكى ذلك الرجل بكاءً شديداً واعترف ببدعته وأقلع إلى الله تعالى منها وصار يثني على أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما بعد ذلك وصار من مريدي الشيخ حقيقة بعد ذلك.

ووقائع الشيخ عمر كثيرة، ولطائفه في سلوكه شهيرة.

(٢) وكان عيسى باشا كافل المملكة الشامية يعتقد الشيخ عمر اعتقاداً

زائداً وكان سبب اعتقاده، فيه فيما بلغني، أنه امتحنه فبعث إليه ثمانين ديناراً ذهباً فردها عليه وقال: نحن في كفاية وغنية عنها ولا يجوز لنا تناولها إلا مع الاضطرار ولا اضطرار لنا فكان ذلك سبب اعتقاده.

(١) وكان يتردد إليه في كل جمعة مرة أو مرتين ويشكو إليه الخواطر وأخذ عنه الطريق وشكى إليه مرةً خاطراً فقال: يا سيدي: يخطر لي أن طالما أوتي الرجل سارقاً أو شارباً أو غير ذلك فيُقال لي: هو من جماعة الشيخ عمر وكنت أحب أن لو كانت جماعتك أخياراً، فقال له: يا عيسى ـ وكان هذا خطابه في الغالب ـ لو أن إنساناً جاء إلى معلم نجار ومعه ضبة[١] منجورة محكمة الصناعة لا تحتاج إلى شيء أصلاً فقال له: اعمل لي هذه الضبة أما كان يتعجب منه ويقول له: وما أصنع فيها وهي ضبة تامة الصناعة محكمة متقنة لا تحتاج إلى إصلاح؟ ما هذا إلا عبث، قال: نعم، قال: فلو جاء بقطعة خشب غير مصنوعة فقال: اعمل لي هذه ضبة محكمة ماذا كان يصنع بها؟ قال: كان يبادر ويصنعها، قال: ولذلك لو جاءني الكُمّل مثل فلان وفلان وعدد جماعة من كُمّل العلماء والصالحين ما كانوا يحتاجون إلي وإنما يجيئني هؤلاء الذين تذكر لأنهم يحتاجون إلى إصلاحهم وتربيتهم، فأعجب عيسى باشا جوابُه.

وكانت وفاة الشيخ عمر في سنة إحدى وخمسين وتسعمئة، رحمه الله تعالى[٢].

---

(١) خشبة تُوضع على الباب لإغلاقه.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٢/٢٢٩ ـ ٢٣٣.

الطبقة الثالثة من الكواكب السائرة
بمناقب أعيان المئة العاشرة،
في من وقعت وفاته من الأعيان
من أول سنة سبع وستين
إلى تمام سنة ألف



المحمَّدون

بدر الدين الغزي

محمد بن محمد بن محمد، الشيخ الإمام العالم العلامة، المحقق المدقق الهمام، شيخ الإسلام والمسلمين، حجة الله على المتأخرين، المجمع على جلالته وتقدّمه وفضله الذي سبق من بعده ولم يفته من تقدم من قبله، شيخ أهل السنة، وإمام الفرقة الناجية، الحائز قصبات السبق في تحقيق العلوم الشرعية وتدقيق الفنون العقلية والنقلية، الفقيه المفسر المحدث النحوي المقرىء الأصولي النظّار، القانع الخاشع الأوّاه، وليّ الله العارف بالله، الداعي إلى الله، أبو البركات بدر الدين بن القاضي رضيّ الدين الغزيّ العامريّ القرشيّ الشافعيّ والدي رضي الله تعالى عنه وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركاته، وجمع بيننا وبينه في مقعد الصدق ودرجاته. كان ميلاده سنة أربع وتسعمئة، وأحسن والده تربيته ثم قرأ القرآن العظيم على المشايخ الكمّل الصالحين، الفضلاء النبلاء البارعين، ثم لزم في الفقه والعربية والمنطق والده الشيخ العلامة رضي الدين وقرأ في الفقه على شيخ الإسلام تقي الدين أبي بكر بن قاضي عجلون وكان معجباً به يلقّبه شيخ الإسلام وأكثر انتفاعه بعد والده عليه، وسمع عليه في الحديث، ثمّ رحل مع والده إلى القاهرة فأخذ عن شيخ الإسلام بها القاضي زكريا وأكثر انتفاعه في مصر به والبرهان ابن أبي شريف والبرهان القلقشندي والقسطلّاني صاحب المواهب اللدنية وغيرهم وبقي في الاشتغال بمصر مع والده نحو خمس سنوات، واستجاز له والده قبل ذلك من الحافظ جلال الدين الأسيوطي، وبرع ودرّس وأفتى وألّف وشيوخه أحياء فقرّت

أعينهم به وجمعه والده بجماعة من أولياء مصر وغيرها والتمس له منهم الدعاء.

ثم لما رجع مع والده من القاهرة إلى دمشق ودخلها في رجب سنة إحدى وعشرين وتسعمئة بعد ما برع ودرّس وألّف ونظم الشعر كان أول شعر نظمه وهو ابن ست عشرة سنة قوله:

يا رب يا رحمان يا الله   يا منقذ المسكين من بلواه

امنن عليّ وجد بما ترضاه   بجزيل فضل منك يا الله

تصدّر بعد عوده من القاهرة للتدريس والإفادة واجتمعت عليه الطلبة وهو ابن سبع عشرة سنة واستمر على ذلك إلى الممات مشتغلاً في العلم تدريساً وتصنيفاً وإفتاءً ليلاً ونهاراً مع الاشتغال بالعبادة وقيام الليل وملازمة الأوراد وتولّي الوظائف الدينية كمشيخة القراء بالجامع الأموي ودرّس بالعادلية ثم بالفارسية ثم الشامية البرّانية ثم المقدّمية ثم التقوية[1]، ثم جُمِع له بينها وبين الشامية الجُوانية ومات عنهما، وانتفع به الناس طبقة بعد طبقة ورحلوا إليه من الآفاق.

(١) ولزم العزلة عن الناس في أواسط عمره لا يأتي قاضياً ولا حاكماً ولا كبيراً بل هم يقصدون منزله الكريم للعلم والتبرك وطلب الدعاء.

(٢) وإذا قصده قاضي قضاة البلدة أو نائبها لا يجتمع به إلا بعد الاستئذان عليه والمراجعة في الإذن.

(٣) وقصده نائب الشام مصطفى باشا فلم يجتمع به إلا بعد مرّات، فلما دخل عليه قبّل يده والتمس منه الدعاء فقال له: ألهمك الله العَدل ولم يزده على ذلك فكرر طلب الدعاء منه فلم يزده على قوله: ألهمك الله العدل وكانت هذه دعوته لكل من قصده من الحكام.

(٤) واستأذن عليه درويش باشا نائب الشام فلم يأذن له إلا في المرّة

---

(١) أسماء مدارس.

الثالثة فقبّل يده ورجله وأشار إليه الشيخ أن يجلس معه على فراشه فأبى درويش باشا وجلس بين يديه وطلب منه الدعاء فقال له: ألهمك الله العدل، وأوصاه بالرعية، وقال له الباشا يا سيدي: ماذا تسمعون عني؟ فقال: الظلم، بلغني أن صوباشيك[1] ضرب إنساناً في تعزير حتى مات وضرب آخر فبالغ في ضربه فاستغاث بالله فلم يخلِّ عنه فقال له: بحياة رأس درويش باشا فخلّى عنه، وهذا يدّل على كفر كامن في قلبه وعتوٍّ وتجبر فأمر دوريش باشا برفع صوباشيه في الحال وغضب عليه وجاء بعد ذلك الصوباشي إلى الشيخ فزجره وطرده.

(١) وكان الشيخ لا يأخذ على الفتوى شيئاً بل سدّ باب الهدية مطلقاً خشية أن يهدي إليه من يطلب منه إفادة أو فتوى أو شفاعة فلم يقبل هدية إلا من أخصائه وأقربائه وكان يكافىء على الهدية أضعافاً.

(٢) وكان يعطي الطلبة كثيراً ويكسوهم ويُجري على بعضهم[2].

(٣) وإذا ختم كتاباً تدريساً أو تصنيفاً أولم وجعل ختماً حافلاً ودعا أكابر الناس إليه وفقراءهم ثم أضافهم وساوى في ضيافته بين الفقراء والأمراء، وأحسن إلى الطلبة.

(٤) وكان يحب الصوفية ويكرمهم وإذا سمع عنهم شيئاً مما ينكره الشرع بعث إليهم ونصحهم ودعاهم إلى الله تعالى وكانوا يمتثلون أمره ويقتدون به.

(٥) وكان إذا ورد إلى دمشق طالب علم أو فقير سأل الشيخ عنه واستدعاه وأكرمه وأحسن إليه. وكان يُضاعف نفقته في رمضان ويدعو إلى سِماطه[3] كل ليلة منه جماعة من أهل العلم وأهل الصلاح والفقراء ويجلس معهم على السماط.

---

(١) وظيفة عثمانية صاحبها وكيل أو نائب.
(٢) أي يصرف لهم رواتب أو أرزاقاً.
(٣) أي: مائدته.

(١) وأما تصانيف الشيخ في سائر العلوم فبلغت مئة وبضع عشر مصنفاً من أشهرها التفاسير الثلاثة المنثور والمنظومان[١] وأشهرها المنظوم الكبير في مئة ألف بيت وثمانين ألف بيت. وثلاثة شروح على الألفية في النحو منظومان ومنثور، ومنظومة في خصائص النبي ﷺ، ومنظومة في خصائص يوم الجمعة وشرحها، ومنظومة في موافقات سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه للقرآن العظيم وشرحها، و«العقد الجامع، في شرح الدرر اللوامع، نظم جمع الجوامع» في الأصول لوالده وغير ذلك.

وشعره في غاية الحسن والقوة وأكثره في الفوائد العلمية ومنه:

إلهَ العالمين رضاك عني ... وتوفيقي لما ترضى مناي
فحرماني عطائي[٢] إن ترده ... وفقري إن رضيتَ به غِناي

(٢) وقال مقتبساً[٣]:

من رام أن يبلغ أقصى المنى ... في الحشر مع تقصيره في القُرَب
فليخلص الحب لمولى الورى ... والمصطفى فالمرء مع من أحب

(٣) وقال شيخ الأزارقة[٤] عمران بن حطّان قبحه الله تعالى في قاتل علي رضي الله تعالى عنه وقبّح الله تعالى قاتله وهو عبد الرحمن بن مُلجِم أشقى الآخرين كما ثبت عن النبي ﷺ:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا
لله در المراديّ الذي سفكت ... كفاه مهجة شرّ الخلق إنسانا
أمسى عشية غشّاه بضربته ... مما جناه من الآثام عريانا

---

(١) أي: كتابان في التفسير على هيئة أبيات شعرية.
(٢) عطائي هو خبر للمبتدأ: فحرماني، كأنه يقول إن الحِرمان يصبح كالعطاء إذا أردت يا رب لي الحرمان.
(٣) الاقتباس هو أن يضمن الكلام أو النظم شيئاً من القرآن أو الحديث.
(٤) فرقة من الخوارج.

(١) وقد عارض هذه الأبيات الخبيثة جماعة من العلماء، وقال شيخ الإسلام وإمام أهل السنة والدي وهو أحسن ما عورضت به:

يا ضربة من شقيٍّ ما استفاد بها ... إلا اقتحاماً بيوم الحشر نيرانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه ... من أخسر الناس عند الله ميزانا
أمسى عشيّة غشّاه بضربته ... مما عليه ذوو الإسلام عريانا
فلا عفا الله عنه ما تحمله ... ولا سقى قبر عمران بن حِطانا

(٢) ولقد كان رضي الله تعالى عنه ممن جمع بين العلم والعمل والسيادة والرئاسة وحسن السَّمت وحسن الخلق والسخاء والحياء، عاش ثمانين سنة إلا أياماً قليلة ما عُهدت له فيها صبوة، ولا حفظت عليه كبوة بل كان فيها موفر الحرمة، موقر الكلمة، مقبول الشفاعة عند القضاة والحكام، معظّماً معتَقداً عند الخواص والعوام، إن نزلت بالناس نازلة فزعوا إليه في كشفها، أو عرضت لهم معضلة هرعوا إليه في حلّها، وإذا خرجت من بابه رقاع الفتاوى بادر الناس إلى تناولها من السائل وتقبيلها والتبرك بها. رحلت الناس إليه من الأقطار، ووجّهت إليه الفتاوى من سائر الأمصار. فما تعلّق بشيء ممّا يشينه في عرضه ولا في دينه، كانت له الدنيا خادمة، وإليه ساعية، من غير تجارة ولا سعي. أخلاقه مرضية، وهمته عليّة، وعيشته هنيّة، مات ولم يقف على بابه طالب لدين، ولا مُطالب بعين، مع ما يسّره الله تعالى من الرفاهية والنعمة وهو مع ذلك مكبّ على العلم مشتغل بالعبادة صياماً وقياماً وذكراً وتلاوةً وكان مواظباً على الأوراد ملازماً للطهارة، مختلياً عن الناس، مقبلاً على الله تعالى.

(٣) وإذا بلغه منكر بعث إلى الحكام في إزالته، وأنكره بقدر طاقته، يصدع بالحق، ولا يخاف في الله لومة لائم، ولا يحابي ولا يُداهن في فتاويه ولا في غيرها، وبالجمة فكان عين ذلك الوقت وإنسان ذلك الزمان:

حلف الزمان ليأتينّ بمثله ... حنثت يمينك يا زمان فكفّر

تمرّض أياماً وكان ابتداء مرضه في ثاني شوال سنة أربع وثمانين

وتسعمئة واستمرّ مريضاً إلى يوم الأربعاء سادس عشري شوال المذكور فتوفي إلى رحمة الله تعالى عقب أذان العصر وهو يسمع الأذان جالساً، ودُفِن بتربة الشيخ أرسلان خارج باب توما من أبواب دمشق وكانت جنازته حافلة جداً.

(١) وأظلتها[١] طائفة من الطير خضر كان الناس يقولون إنها الملائكة، ولما وصلت الجنازة على الرؤوس إلى المقبرة أظلتهم سحابة لطيفة وأمطرتهم مطراً مباركاً أرسله الله تعالى وكان ذلك سبباً لزيادة عويل الناس وضجيجهم، وتزاحم الأكابر على حمل الجنازة[٢].

شمس الدين بن أبي اللطف

محمد بن محمد الشيخ الإمام العلامة، الفاضل البارع الفهامة، شمس الدين بن أبي اللطف.

مولده في سنة أربعين أو إحدى وأربعين وتسعمئة، وبرع وهو شاب وفضل وتقدم على من هو أسن منه، وصار مفتي القدس الشريف على مذهب الإمام الشافعي وكان له يد طولى في العربية والمعقولات.

(٢) وله شعر منه قوله مقيّداً لأسماء النوم بالنهار وما في كل نوع منها:

النوم بعد صلاة الصبح غليوله	فقر، وعند الضحى فالنوم فيلوله[٣]
وهو الفتور وقبل الميل[٤] قيل له	إذ زاد في العقل أي بالقاف قيلوله
والنوم بعد زوال بين فاعله	وبين فرض صلاة كان حيلوله
وبعد عصر هلاكاً مورثاً وكذا	كقلة العقل بالإهمال عيلوله

توفي رحمه الله تعالى بالقدس الشريف سنة ثلاثة وتسعين وتسعمئة[٥].

---

(١) أي: الجنازة.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٣/٣ - ١٠.

(٣) قال المحقق: مصدر من فال، أي أخطأ.

(٤) أي قبل الزوال.

(٥) «الكواكب السائرة»: ٣/١١ - ١٢.

البهنسي

محمد بن محمد بن رجب الشيخ الإمام، شيخ الإسلام الفقيه العلامة، النبيه الفهامة، شمس الدين وقيل نجم الدين البهنسيّ الأصل الدمشقيّ المولد والمنشأ أحد الرؤساء بدمشق وخطيب خطبائها.

ميلاده سنة سبع وعشرين وتسعمئة وأخذ عن ابن فهد المكيّ وغيره وتفقّه بالشيخ الإمام العلامة قطب الدين بن سلطان وبه تخرج ثم أفتى استقلالاً من سنة خمسين وتسعمئة، واشتغل في بقية العلوم، وتخرج به أكثر من لقيناهم من الحنفية بدمشق، ورأس في دمشق بعد وفاة شيخ الإسلام الوالد. وكان إماماً بارعاً في الفقه مشاركاً في غيره، وَلِيَ خطابة الجامع الأمويّ بدمشق، وحجّ مرّتين.

وكان رحمه الله تعالى حسن السمت ساكتاً ساكتاً عما لا يعنيه، خاشعاً سريع الدمعة لطيف الطباع حسن المعاشرة وله مع ذلك شهامة، وكان طويل القامة أبيض اللون عليه عمامة كبيرة على عادة علماء ذلك العصر.

(١) وحدثني ولده الشيخ يحيى خطيب الجامع الأموي الآن نفع الله تعالى به أنّ والده كان له نخوة وشهامة في أول أمره فدخل على شيخه الشيخ أبي الفتح السبستري فقال له: يا شيخ: أريد أن تذهب إلى السوق تشتري لي بهذه القطعة الفضية بطيختين وتحملهما بنفسك من السوق إلى خلوتي، فذهب الشيخ محمد البهنسيّ واشترى بطيختين كبيرتين وأنِف من حملهما وأراد أن ينظر من يحملهما عنه فذكر كلام الشيخ وخشي أن يكاشفه بما يفعله إذا حمّلهما لأحد ولا يرضى بفعله فحملهما إلى منزل الشيخ أبي الفتح وقد تصبّب عرقاً لمحل نظر الناس إليه، فلما دخل على الشيخ قال له عسى أن تصغر نفسك الآن، قال فمن حينئذ ذهبت عني الأنفة والكِبْر.

(٢) وكان الشيخ البهنسيّ يجمع ما يتحصّل له من الغلال في كل سنة ويتربص به حتى يبيعه آخر السنة ومثل ذلك لا يعد احتكاراً إذ الاحتكار شراء الطعام الذي تمسّ إليه حاجة العامة في زمن الغلاء ليبيعه بأغلى وكان

بعض حسَّاد الشيخ ربما طعنوا عليه لذلك حتى وُشِيَ به إلى قاضي القضاة ابن المفتي في بعض السنين فبعث إلى حاصل الشيخ البهنسيّ من فتحه وباع ما فيه ثم ارتفع السعر بعد ذلك وفات الشيخ منه جملة من المال فانكفّ البهنسيّ عن التردد إلى القاضي بسبب ذلك ووقع بينهما، فاتفق أن القاضي حصل له حمى شديدة ومرض أياماً حتى أعياه المرض فالتمس من الشيخ عمر الرائي وكان يرى النبي ﷺ في منامه كثيراً أن يسأل من النبي ﷺ إذا رآه في منامه أن يشفع إلى الله في شفائه فرجع إليه الشيخ عمر الرائي وقال له: يا قاضي القضاة: سألت لك رسول الله ﷺ فقال: قل له: يلتمس الدعاء من الشيخ محمد البهنسيّ يحصل له الشفاء ولم يعلم الشيخ عمر ما كان بينهما فبعث القاضي من تلطف بالشيخ البهنسي وأتى به إليه فلما اجتمعا تعانقا وتباكيا ودعا الشيخ البهنسيّ له بالشفاء فشفاه الله تعالى بعد ذلك قريباً.

وبالجملة فقد كان رحمه الله تعالى من أفراد الدهر وأعاجيب العصر، توفي رحمه الله تعالى سنة ست وثمانين وتسعمئة ودُفِن بمقبرة باب الصغير بعد العصر عند قبر معاوية ونصر المقدسي رضي الله تعالى عنهما[1].

جوي زاده

محمد بن محمد بن الياس المولى الفاضل، والعلامة الكامل، قاضي القضاة محيي الدين أحد موالي الروم المعروف بجوي زاده أحسن قضاة الدولة العثمانية وأعفهم وأصلحهم سيرة.

ترقى في المدارس على عادة موالي الروم، وولي قضاء دمشق فدخلها في سنة سبع وسبعين وتسعمئة وانفصل في ختام السنة عن قضاء دمشق وأعطِي قضاء مصر ثم صار قاضياً بالعساكر، وفي آخر أمره صار مفتياً بالتخت السلطانيّ. وكانت سيرته في قضائه في غاية الحسن بحيث يضرب بها المثل. وكان عالماً فاضلاً بارعاً ديّناً خيّراً عفيفاً.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/١٣ - ١٥.

وكان بحمد الله في قيام الحق ونصرة الدين سيفاً ماضياً، وصار كلٌّ من أهل الصلاح به راضياً.

وهو والله عفيف نزه ... وله عرض مصون ما اتُّهم
وخبير بمداراة الورى ... ومدارة الورى أمر مهم

(١) وكان رحمه الله تعالى حليماً إلى الغاية إلاّ في أمر الدين ومصالح المسلمين فإنه كان صلباً يغضب لله تعالى. منع نائبه الجالس ببابه أن يسمع دعاوى حكام السياسة بل كان هو يسمعها بنفسه ويبالغ في ردعهم ويتوعدهم وربما ضرب بعضهم بحيث قلّ الظلم في زمانه وانكفّ الظلمة عن أمور كثيرة. وكان إذا شفع عنده أحد من الأكابر أظهر له قبول الشفاعة فإن خالفت الحق والإنصاف تناساها وأعرض عن ذكرها، ولم يقبل من أحد هديّة في مدة قضائه.

(٢) ولما انفصل عن دمشق أمر منادياً ينادي يوم الجمعة بالجامع الأموي: إن قاضي القضاة عزل عن دمشق فمن أعطاه شيئاً أو تعدى عليه أحد من جماعته فليرفع قصته إليه حتى يرد إليه ما انتزع منه فرفعت الناس أصواتهم بالبكاء والدعاء وأظهروا التأسف عليه لعزله وتمنوا لو دامت ولايته عليهم.

داوم في ولايته كلها على التعبد والتورع في طعامه وشرابه ولباسه.

مات وهو مفتي التخت العثماني سنة خمس وتسعين وتسعمئة، رحمه الله تعالى رحمة واسعة[١].

الزغبي

محمد بن محمد بن عبدالرحيم الشيخ الصالح الدمشقيّ المعروف بالزغبيّ. كان سميناً طويل اللحية له شيبة بيضاء. وكان له ذوق ونكت ولطائف على لسان القوم وإشارات الصوفية، وكان قد صحب في طريق الله تعالى جماعة منهم.

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/٢٧ - ٢٩.

(١) وكان منزله بمحلة القيمرية وكان كل من دخل إليه يُريه الكنيف[١] ويقول له هذا بيت المال يشير إلى أنه مرجع الدنيا وأموالها غالباً.

(٢) وحُكي أنه دخل مرة على بعض القضاة بدمشق فقال السلام عليك يا قاضي الشياطين فغضب منه القاضي، فقال له: لا تغضب واصبر حتى أبيّن لك إذا كان لأحد عندي حق فدفعته إليه ولم أظلمه منه شيئاً أو كان لي عند أحد حق فأعطاني حقي أترانا نجيء إليك حتى إذا أراد أحدنا أن يظلم الآخر أو جحد شيئاً من حقه أو استطال عليه جئنا إليك فأنت لست بقاضي المحقين وإنما أنت قاضي المبطلين والشياطين فسُرِّيَ عن القاضي وانبسط معه.

(٣) وحكي أن بعض القضاة حبسه بالبيمارستان[٢] فابتلي القاضي بالقولنج تلك الليلة فقيل له هذا بسبب إساءتك إلى الزغبيّ فبعث إلى البيمارستان ليلًا ليخرجه منه فلما جاءوا إليه قال: لا أخرج أنا في ضيافة سيّدي نور الدين الشهيد[٣] والضيافة ثلاثة أيام فلم يخرج منه إلا بالجهد فلما خرج زال العارض عن القاضي فاعتقده بعد ذلك.

(٤) واعتقدَتْه بعض المُخدَّرات[٤] ورغبت في محبته فتزوجها وسلكت على طريقته وخرجت عن كل ما تملك وكانت لا تحتجب[٥] وتذهب معه حيثما ذهب مسفرة وكان هذا من جملة ما انتقد عليه وسأله بعض الناس عن إسفار وجه زوجته فقرأ الآية: **﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾** الآية[٦].

---

(١) بيت الخلاء.

(٢) هو المستشفى.

(٣) هو نور الدين زنكي، مؤسس البيمارستان.

(٤) أي: النساء اللاتي يلزمن الخِدر، أي السِّتر.

(٥) أي: لا تغطي وجهها كما سيأتي.

(٦) لا شك أن هذا دعابة، أو أنها كبيرة السنِّ فعلاً، أو أنه يرى أن الوجه ليس عورة، والله أعلم.

وكانت وفاة زوجته قبله في سنة سبع وسبعين وتسعمئة.

(١) وحُكي عن الشيخ علي بن عبد الرحيم الصالحيّ، قال: كنت مع الشيخ محمد الزغبيّ قبل أن يموت بسنة في الصالحية حتى إذا وصلنا إلى الزقاق الذي يذهب منه إلى ضريح الشيخ أبي بكر بن قوام غربي الصالحية فقال: لا إله إلا الله إن لنا هنا حبسة طويلة وأشار إلى المقبرة التي بالسفح في الجهة المذكورة قال: فما زلت متفكراً في مقالته تلك حتى توفي ودُفِن هناك. وكانت وفاته في سنة ثمان وسبعين وتسعمئة أو قبلها بيسير أو بعدها بيسير، رحمه الله تعالى رحمة واسعة[١].

الإيجيّ

محمد بن محمد الشيخ الإمام العلامة العارف بالله تعالى شمس الدين أبو النعمان ابن كريم الدين الإيجيّ العجميّ الشافعيّ الصالحيّ نزيل صالحية دمشق.

قدم دمشق وهو شاب في سنة عشرين وتسعمئة واشتغل بالعلم قبل أن يدخل بلاد الشام وبعده على الشيخ الصفويّ الإيجيّ وغيره.

وكان له يد في المعقولات، ملازماً على الأوراد والعبادات، أمَّاراً بالمعروف نهَّاءً عن المنكر وكان يتردّد إلى الحكام وغيرهم لقضاء حوائج الناس والشفاعة فيمن يحتاج إليها عندهم.

(٢) وسافر إلى الروم[٢] في قصة هي أن يهودياً سبّ الجناب الرفيع صلّى الله عليه وسلم فذهب إلى باب السلطان سليمان رحمه الله تعالى وذكر ثَمّةَ أنه هاجر من دياره إلى ديار العرب فراراً من سبّ الصحابة فكيف يقع في بلاد أهل السنة والجماعة سبُّ جنابه ﷺ من يهوديّ فأحضر اليهوديّ فأسلم اضطراراً، قال: فقلت لأركان الدولة: إن إسلامه غير صحيح،

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/٣٢ - ٣٤.

(٢) أي: الدولة العثمانيّة.

فقالوا: ما لنا إلا الظاهر والأثر كذلك[1] فما مضى زمان إلاّ ومضى اليهوديّ إلى بلاد النصارى وأظهر يهوديته.

(١) وقد حدثني الشيخ محمد التليلي الحنبليّ فقيه التليل من البقاع ونحن عند عين العابد في جبل لبنان أن رجلاً من أعيان صفد قال: سافرت في شبيبتي إلى دمشق في تجارة فقبضت مرّة خمسين ديناراً ذهباً ثم ذهبت إلى منزلي في آخر النهار فعرض لي رجل كأنه رآني حين قبضت المال فسلم عليّ سلام من يعرفني ويعرف أبي وعشيرتي وادّعى قدم المودة بين أبي وبينه وحلف عليّ أن أذهب معه وأكون في ضيافته تلك الليلة قال: فما وسعني إلا أني ذهبت معه فخرج بي من ناحية العمارة فما شعرت إلا وأنا معه في مقبرة هناك يعني مقبرة الفراديس فنظرت يميناً وشمالاً فما رأيت هناك أحداً ونظرت إلى الشمس فإذا هي غربت قال: فما وسعني أن أظهر له أني تريّبت منه وسألته عن بيته فقال: ههنا قريب قال: فمشينا حتى تجاوزنا المقبرة والطواحين بالقرب منها فرأيت نفسي بين البساتين وقد دخل الليل ولم يمكنني الفرار لأني لم أعرف كيف أذهب قال: فما مشينا غير ساعة فلقينا جماعة من اللصوص فأهلوني ورحّبوا بي وتكلم هو معهم بكلام ما فهمته غير أني تريّبت منهم وسقط في يدي وأيقنت بأني مقتول فجعلت أتلطف بهم وهم يقولون لي لا تخف تكون معنا الليلة على أكل وشرب قال: وذهبوا بي يريدون مكاناً يستقر فيه أمرهم على ما يصنعون بي فبينما هم ماشون وأنا معهم في أسوأ حال إذا بجماعة صادفوهم فتعارفوا وتسالموا وفي الجماعة التي لقيناهم شيخ مُوقر التفت إلى الجماعة التي أنا معهم فسماهم بأسمائهم وقال: يا فاعلون من هذا الذي معكم؟ فقالوا: هذا ضيف معنا فقال الشيخ: نحن أحق بضيافته منكم وشتمهم واستخلصني منهم ثم سار هذا الشيخ هو وجماعته وأنا معهم والشيخ يسكن خاطري ويقول: كيف صار لك حتى وقعت في أيدي هؤلاء الفاعلين الصانعين ما

---

[1] أي أن الحديث الشريف ورد بذلك في قصة أسامة بن زيد وغيره.

أرادوا إلا قتلك وأخذ أمتعتك فذكرت له قصتي وسِرنا ساعة وإذا نحن صاعدون جبلاً فيه أشجار كثيرة فانتهينا إلى عين ماء وإذا جماعة هناك قاموا إلى لقائنا وصافحوا ذلك الشيخ وقبلوا يده وسلموا على من معه ثم جلس في أوسطهم وقعدوا يذكرون الله تعالى ويتذاكرون إلى الصباح فتوضأوا وصلى ذلك الشيخ الفجر بهم إماماً ثم ودّع بعضهم بعضاً ورجع الشيخ بجماعته ومشى بنا نحو ساعة فما تعارفت الوجوه إلا ونحن بصالحية دمشق فودّعني الشيخ وقال لي: يا ولدي لا تعُد إلى مثلها ولا تطرِّف بنفسك بعد ذلك وانصرف وتفرقت عنه جماعته فلما فارقنا الشيخ رافقني رجل منهم فسألته عن الشيخ وعن المكان الذي كنّا نحن فيه فقال لي: هذا هو الشيخ الإيجيّ، وهذه الصالحية، وبيت الشيخ الإيجيّ بها والمكان الذي كنا فيه مصلى الصالحين عند عين العابد من جبل لبنان وهو عن دمشق مرحلتان والجماعة التي أخذوك اللصوص والشيخ يعرفهم واحداً واحداً وقد أنقذك الله تعالى منهم ببركة الشيخ وهذه القصة من لطائف القصص وهي كافية في تعريف مقام الشيخ محمد الإيجيّ رحمه الله تعالى رحمة واسعة[1].

شمس الدين بن قيصر الحنبليّ

محمد بن خليل الشيخ الزاهد العابد المعتقد المربي شمس الدين بن قيصر القبيباتيّ الحنبليّ الصوفيّ.

اجتمع بأكابر ذلك العصر وعلمائه وتوجه إلى بلاد الروم[2] وحصل له غاية الإكرام والتعظيم من إبراهيم باشا الوزير وأعيان الدولة وقضاة العساكر ثم رجع إلى دمشق وانجمع عن الناس.

وكان نائب الشام عيسى باشا يحبّه ويتردّد إلى زيارته وكذلك الأمراء

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/٣٧ - ٣٩.

(٢) أي: الدولة العثمانيّة.

والقضاة وللناس فيه اعتقاد تام، وكان يعتكف العشر الأواخر من رمضان بالجامع الأمويّ.

(١) قال ابن طولون: وفي سنة سبع وثلاثين وتسعمئة سألني الشيخ محمد بن قيصر القبيباتيّ الحنبليّ في عمل شرح على أبيات ثلاثة نظمها في عقيدته وهي:

في الله اعتقد الذي قد قاله عن نفسه وكذا الذي قال الرُسُل
عنه بغير تأوّل في ذاته وصفاته أو كل فعل قد فعل
فهو الإله الفرد ليس كمثله شيء سواه وغير هذا لم أقل

(٢) قلت: ووقفت على شرح ابن طولون على هذه الأبيات في تعاليقه بخطه، والإيمانُ بما جاء في الكتاب والأخبار من الصفات من غير تأويلٍ مذهبُ السلف وهو أسلم من مذهب التأويل وهو مذهب الخلف.

(٣) ورأيت بخط بعض العلماء الفضلاء لابن قيصر المذكور:

قنعت من الدنيا بأيسر بلغة وثوب يواريني وزوجة واحدة
وذلك يكفيني من الكون كله وما زاد عن هذا فما فيه فائدة

وكانت وفاته سنة خمس وسبعين وتسعمئة وقد جاوز المئة سنة رحمه الله تعالى[١].

شمس الدين البكريّ الصديقيّ

محمد بن علي بن محمد الشيخ الإمام شيخ الإسلام وابن شيخ الإسلام العارف بالله وابن العارف به الأستاذ ابن الأستاذ الشيخ شمس الدين بن أبي الحسن البكريّ الصديقيّ المصريّ الشافعيّ مشهور الآفاق.

قال الشعراويّ: حججت معه مرتين فما رأيت أوسع منه خلقاً ولا

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/٥٩ ـ ٦٠.

أكرم نفساً ولا أجلّ معاشرة ولا أحلى منطقاً. درّس وأفتى، وأجمع أهل الأمصار على جلالته. ونشأ رضي الله تعالى عنه كما نشأ والده على التقوى والورع والزهد وعزّ النفس حتى أتته الدنيا وهي راغمة.

(١) حدثني الخواجا إبراهيم بن عثمان بن مكسب قال: كنت لا أقول إن في الدنيا مثل شيخ الإسلام الشيخ بدر الدين والدك. وقد دخلت مكة والمدينة واليمن ومصر وغيرها، وكنت يوماً ببعض أسواق مصر فمرّ الشيخ محمد البكريّ فرأيت الناس أكبّوا عليه وقبّلوا يده فقلت: مساكين أهل مصر كيف لو رأوا شيخ الإسلام الشيخ بدر الدين؟ فلما حاذاني سيدي محمد البكري قبّلت يده فأمسك على يدي وقال لي: انظر، الشيخ بدر الدين الغزيّ شيخنا وأستاذنا ولكن الاعتقاد[1] مليح فوقع كلام الشيخ في قلبي ثم تردّدت إليه وكان هذا سبب اعتقادي فيه.

وله رضي الله تعالى عنه تآليف ورسائل في السلوك وغيره.

(٢) ومن كراماته ما حدث عنه أحد جماعته الشيخ الفاضل عبد الرحيم الشعراويّ قال: جاورت بمكة المشرفة مع الأستاذ سيدي محمد البكري الصديقي في بعض مجاوراته وكنت كثير الملازمة له شديد الاتصال به فبينما هو جالس يوماً بالحرم الشريف عند منزله بباب إبراهيم وأنا عنده إذ جاءه الخادم من منزله فطلب شيئاً من النفقة ولم يكن معه إذ ذاك ما ينفق فقال للخادم: نرسل الآن إن شاء الله فمضى الخادم ثم عاد وألحّ في الطلب فأجاب الشيخ بما أجاب أولاً وتكرر ذلك من الخادم فنهض الشيخ للطواف وأنا معه وهو يقول:

صوّح[2] النبت فاسقه قطرة من سحائبك
وأغثنا فإننا في ترجّي مواهبك

وما زال يكررها في الطواف وإذا بشخص هنديّ أقبل على الشيخ

---

(١) أي: اعتقاد الصلاح في الصالحين.
(٢) أي: جفّ.

وقبّل يده ودفع له من جيبه صُرّة من الدنانير وقال: يا سيدي هذه هدية أرسلها لك معي ملك الهند فسجد الشيخ شكراً لله تعالى وانقلب إلى أهله مسروراً.

ومنها تسخير الطاغية سليمان باشا بن قباد ـ وكان نائب القدس إذ ذاك وكان عسوفاً ـ له بحيث إنه كان يخدمه ويمشي بين يديه وهكذا كان اعتقاد أركان الدولة بمصر فيه وأشراف مكة وأعيانها.

وبالجملة فإن ترجمته تحتمل مؤلفاً مستقلاً.

(١) وبلغني أن رجلاً ذكر سيدي محمد البكري مرة فقال: لا أدري كيف أمر الشيخ في سعة دنياه وتبسّطه فيها إلى حد الإسراف في المطعم والملبس فمرّ عليه الشيخ فلما قبّل يده قال له: يا بنيّ: الدنيا بأيدينا وليست في قلوبنا.

وكانت وفاة سيدي محمد البكري رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين وتسعمئة[١].

محمد الفارضي

الشيخ العلامة شمس الدين القاهري الحنبليّ المعروف بالفارضي الشاعر المشهور.

(٢) أخذ عن جماعة من علماء مصر واجتمع بشيخ الإسلام الوالد حين كان بالقاهرة سنة اثنتين وخمسين وكان بديناً سميناً فقال الوالد يداعبه:

الفارضي الحنبليّ الرضي ... في النحو والشعر عظيم المثيل
قيل ومع ذا فهو ذو خفة ... فقلت كلا بل رزين ثقيل

(٣) ومن محاسنه أنّه صلّى شخص إلى جانبه ذات يوم فخفف جدّاً فنهاه فقال: أنا حنفيّ فقال الفارضيّ:

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/٦٧ ـ ٧٢.

معاشرَ الناس جمعاً حسبما رسمت ... أهل الهدى والحِجَى من كل من نبها
ما حرّم العَلمُ النعمان[1] في سند ... يوماً طمأنينة أصلاً ولا كرها
وكونها عنده ليست بواجبة ... لا يوجب الترك فيما قرّر الفقها
فيا مُصرّاً على تفويتها أبداً ... عُدْ وانتبه رحم الله الذي انتبها

(١) وأنشدني الشيخ العلامة الفقيه شمس الدين محمد المقدسي العلمي، قال: أنشدنا شيخنا العلامة الشاعر المجيد محمد الفارضي المصري الحنبلي لنفسه وذكر أن القاضي البيضاويّ خطّأ من أدغم الراء في اللام ونسبه إلى أبي عمرو:

أنكر بعض الورى على من ... يدغم في اللام عنه راء
ولا يخطّي أبا شعيب[2] ... والحق يغفر لمن يشاء

(٢) وأنشدني شيخنا المحب الحنفي رحمه الله تعالى قال: أنشدنا الفارضيّ لنفسه:

ألا خذ حكمة منّي ... وخلّ القيل والقالا
فساد الدين والدنيا ... قبول الحاكم[3] المالا

(٣) وأنشدني شيخنا المشار إليه أن الفارضيّ قال يرثي الشيخ مغوش التونسي المغربي حين مات بمصر:

تقضّى التونسيّ فقلت بيتا ... يروّح كل ذي شخص ويُونس
أتوحشنا وتونس بطن لحد ... ولكن مثلما أوحشت تونس

كان الفارضي في سنة ثمانين وتسعمئة في الأحياء[4].

---

(١) هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت.
(٢) هو السوسي الراوي عن أبي عمرو البصريّ.
(٣) أي: القاضي ومن في مرتبته من أهل تنفيذ الأحكام.
(٤) «الكواكب السائرة»: ٣/ ٨٣ ـ ٨٥، وقال المحقق في الهامش أن صاحب «شذرات الذهب» ذكر أن وفاته سنة ٩٨١ هـ.

شهاب الدين الغزيّ

أحمد بن محمد بن محمد، الشيخ الإمام العلامة المحقق شيخ الإسلام شهاب الدين الغزيّ الشافعيّ. وُلِد سنة إحدى وثلاثين وتسعمئة وقرأ القرآن العظيم على شيخنا الشيخ يحيى العماديّ المغربيّ وتلاه للسبعة على والده وعلى شيخنا المقرىء المجيد الشيخ حسن الصلتي، واشتغل في العلم على والده ولازمه في الأصول والفقه والنحو والمعاني والبيان والتفسير والقراءات وقرأ بمصر على شيخ الإسلام بدر الدين بن الطباخ المصريّ وعلى شيخ الإسلام شهاب الدين الرمليّ وغيرهم حين دخل مصر في صحبة والده سنة اثنتين وخمسين وتسعمئة، وبرع وأفتى ودرّس.

(١) وكان أبرّ الناس بأبيه، كان أودّ أهل زمانه وأرأفهم يفيد العلم وينشره، ويُضَوِّع[1] كل مجلس جلس فيه ويعطره جمالاً محضاً وبهاءً صرفاً، خاشعاً بكّاءً من خشية الله تعالى، لطيف المحاضرة، حسن المجاورة، حلو المذاكرة لطيف الذات والصفات حسن الأخلاق حليماً جواداً كريماً، يؤثر إخوانه، ويوقر أقرانه، ويتودّد إلى من يعاديه، كما يتودد إلى من يواليه، تنجذب إليه القلوب، وترتاح إليه الأرواح، وتنشرح لجمال طلعته الصدور، وأجمع الناس على محبته واعتقاده، وتقديمه واعتياده، ورجاء بركته وطلب الدعاء، لا يرى جنازة غريب أو فقير إلاّ مشى فيها، ولا يسمع بمسجد خراب إلاّ ذهب إليه، وتردّد إليه، يعمره بالصلاة والذكر والتدريس.

(٢) وكان رحمه الله تعالى لا يمرّ بسوق ولا شارع ولا محلة إلاّ والناس يقبلون عليه، ويقبلون يديه، ويلتمسون بركته، ويبتسم في وجه كل واحد منهم ويلاطفهم.

(٣) وكان له نظر خارق في رؤية الآثار، وسماع الأطيار، وملاحظة القدرة في الثمار والأزهار.

---

(١) (ضوّع): نشر رائحة المسك.

(١) ولم يكثر من التصنيف لاشتغاله بقراءة كتب والده وكتابتها ومقابلتها ومساعدته في تحرير كثير منها حتى كان الشيخ يرجع إلى قوله في بعضها. وكان مشتغلاً أيضاً بالنفع والإفادة والإقراء، ودرّس، ووَلِيَ إمامة الشافعية بالجامع الأموي وانتفع به أكثر الفضلاء.

(٢) وكان الناس لا ينكرون ولايته بل كانوا جازمين بأنه من كمل العارفين وحدثني الشيخ يوسف النوويّ وكان من جماعته، قال: كنا بين يدي الشيخ شهاب الدين في الجامع الأموي في بعض الليالي فتذاكرنا في مناقب أولياء الله تعالى فقال: إن لله تعالى عباداً قطع الشوق أكبادهم، وملأ الحب فؤادهم، وبكى وانتحب قال: فلما قام جماعة وخلوت بالشيخ قلت: يا سيدي: بالله الذي لا إله غيره أنت من هؤلاء الذين ذكرتهم؟ فقال: إي والله يا يوسف، وكان له كرامات كثيرات، وخوارق عادات.

(٣) ومن محاسن قوله:

فطور التمر سُنَّه ... رسول الله سَنَّه
ينال الأجرَ شخص ... يحلّي منه سِنَّه

(٤) وقال:

إن كان على البعاد من نهواه ... لا يذكرنا فنحن لا ننساه
قد طال تشوقي إلى لقياه ... كم أصبر لا إله إلا الله

(٥) وكان الأخ رضي الله تعالى عنه أبرّ ولد بوالده، وكان يحترم والده بحقّ بنوّته النسبية والعلمية وكان يقبّل أخمصيه كلما دخل عليه، وكان كلما حضر مجلس ذكر أو علم أو خير وتوقع فيه الإجابة قال للحاضرين: قولوا آمين فإذا قالوا: آمين، قال: اللهم اجعل يومي قبل يوم أبي.

(٦) ودخل على والده يوم الجمعة مستهلّ ذي الحجة الحرام سنة ثلاث وثمانين وتسعمئة وكان متمرضاً فأمر أن يفرش له فراش تجاه والده وقال: أتودّع منه ولازم والده ذلك اليوم بطوله وصلّى معه في خلوته بالجامع الأموي الجمعة ثم عاد إلى مجلسه والفتاوى ترد على شيخ الإسلام الوالد

فيقول كلما جاءه رقعة: اكتب يا شهاب الدين فيكتب ثم يأخذ الرقعة ويتأمل كتابته ويدعو له حتى كتب له على بضع وعشرين رقعة ثم أراد مفارقة أبيه آخر النهار وقال له: يا سيدي: أخرج لي رجليك فقبلهما على عادته وبكى وطلب الرضى من أبيه وشيخ الإسلام يبكي ويدعو له بالرضوان وغيره، ثم خرج من عنده إلى بيته فقعد معظم ليله يقرأ في صحيح البخاري وغيره على من عنده من الأهل ثم أغفا إغفاءة وقام على عادته قبل الأذان فخرج إلى الحمام وكان يحبّ دخول الحمّام لأجل الطهارة فإنه كان عنده تحرّز ووسوسة، فلما دخل الحمام المعروف بحمام السلسلة بالقرب من داره حلق له الحلّاق رأسه ثم نزل إلى المغطس فأغمى عليه فأخرج إلى مصاطب الحمام فإذا هو قد مات فأعلم أهله فجاءوا إليه وحملوه ميتاً إلى دار أبيه وأبوه رحمه الله تعالى في الخلوة لم يدر، ثم أمر والدُه بتجهيزه فجهّز وصلى عليه إماماً بالجامع الأمويّ وحملت جنازته على الرؤوس ولم تحفل بدمشق جنازة فيما عهده أهل عصره أعظم مما حفلت جنازته إلا جنازة أبيه من بعده[1].

نوري أفندي

أحمد بن عبد الله الشيخ الإمام، فخر الموالي الرومية الكرام، مفتي الحنفية بدمشق الشام، المعروف بنوري أفندي. كان من العلماء البارعين، والفضلاء المحققين.

(١) وَلِيَ تدليس السليمانية بدمشق والإفتاء بها وعمل درساً عاماً استدعى له العلماء وكتب إلى شيخ الإسلام الوالد يستدعيه إليه وكان الشيخ مريضاً مدة طويلة فكتب إليه يعتذر إليه:

حضوري عند مولاي مناي	ولكن الضرورة لا تساعد
لضعف ليس يمكنني ركوب	ولا مشي يقارب أو يباعد
وأشهُرُ علتي لا شك عشرٌ	تعذر أن أُرى فيهن قاعد

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/١٠٠ - ١٠٩.

وأحسن حالتي ذا الحين مشي يكون به المعاون والمساعد
ولو لا ذاك مولانا قعدنا لسمع دروسك العليا مقاعد
بقيت مدى الزمان فريد عصر إلى أعلى المراتب أنت صاعد

(١) وكان قد اتصل بالمسامع السلطانية أن النصارى قد جدّدوا شيئاً في الكنيسة الكائنة ببيت المقدس فورد أمر سلطاني لقاضي قضاة الشام ثم القاهرة محمد أفندي جوي ومفتي دمشق المشار إليه أن يتوجها إلى بيت المقدس للتفتيش على الكنيسة المذكورة والكشف عليها فخرجا من دمشق يوم الاثنين ثامن عشر شعبان سنة ثمان وسبعين وتسعمئة وزارا بيت المقدس والخليل والكليم عليهما السلام وكشفا على الكنيسة فوجدا النصارى وقد أحدثوا أوضاعاً منكرة ووجدوا إلى جانب الكنيسة مسجداً قديماً هدم الكفار حيطانه وحوّلوا وضعه القديم وجددوا بنيانه فأمر قاضي القضاة المذكور بمحضر من المفتي المذكور وعلماء بيت المقدس بهدم ما جدده الكفار من البنيان، وإعادة القديم كما كان فهدم المسلمون بنيان النصارى وأعلنوا التكبير وأقيمت صلاة الجماعة في عصر ذلك اليوم في المسجد المذكور وصلى قاضي القضاة المشار إليه إماماً بالناس حينئذ، ثم لما أتما ما كان بصدده من الهدم والعمارة توجها إلى قضاء ما هو مندوب إليه من الزيارة وعاد المفتي المذكور إلى دمشق لمحل إفتائه وذهب قاضي القضاة إلى مصر محل قضائه.

وكانت وفاة المفتي المذكور بعد عوده إلى دمشق في ختام شوّال يوم الثلاثاء سنة ثمان وسبعين وتسعمئة ودُفِن بتربة باب الصغير، رحمه الله تعالى[١].

إسماعيل شاه سلطان العجم

إسماعيل شاه بن طهماز بن عباس بن إسماعيل شاه بن حيدر بن

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/١١٧ ـ ١١٨.

جنيد بن الشيخ صفي الدين الأردبيليّ الشهير بالصوفيّ سلطان العجم المعروفين بقزل باش[1]. وإنما سُمّي سلطانهم بالصوفي نسبة إلى جبل الصوف المزاحم لأنطاكية لكون جدّهم جنيد كان مقيماً بها. ولما ظهرت بدعته قام عليه عالم أنطاكية العلامة شمس الدين العجمي واستنصر عليه بكافل حلب في حدود سنة ثمان وخمسين وثمانمئة، ثم تغلب بعده ولده حيدر وجمع عساكر والتقى هو وعساكر أهل السنة فقتل هو وكسر عسكره، ثم نشأ بعده ولده إسماعيل وتغلب على العراق والعجم وسار إليه السلطان سليم بن با يزيد بن عثمان والتقى وعساكره معه وهو في عساكره فكسره السلطان سليم ثم نشأ بعده ولده عباس شاه بن إسماعيل فسافر إليه السلطان سليمان بن سليم ففرّ منه إلى ملك خراسان فاستولى على العراقين ثم ترك له عراق العجم، وعمر ببغداد قلعة، ثم لما هلك عباس شاه نشأ بعده ولده طهماز ثم هلك وولي بعده إسماعيل شاه صاحب الترجمة.

(١) وكان إسماعيل هذا يظهر التسنن ويجمع بين علماء السنة وعلماء الشيعة فينصر علماء السنة على علماء الشيعة فسمته أخته بري خان فقتل سنة ست وثمانين وتسعمئة[1].

السلطان سليم

سليم بن سليمان بن سليم خادم الحرمين الشريفين سلطان الإسلام وملك القسطنطينية العظمى، تولى السلطنة بعد أبيه وكانت مدة سلطنته نحو ثمان سنين. وورد الخبر بموته ـ إلى دمشق ـ سنة اثنتين وثمانية وتسعمئة، وتولى بعده ولده السلطان مراد، رحمه الله تعالى[2].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٣/ ١٥٦، وجاء في (تاريخ الدولة العثمانية ما يلي: «ولم يكن هذا السلطان متصفاً بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلاً عن إضافة شيء عليها «وأبوه هو المترجم بعده»، ولولا وجود الوزير محمد باشا صقلي المدرب على الأعمال الحربية السياسية للحق الدولة الفشل) ثم ذكر أنه في عهد هذا السلطان =

السلطان سليمان بن سليم

سليمان بن سليم بن بايزيد عين الملوك العثمانية، ورأس السلاطين الإسلامية، حامي حماها الأحمى، ملك القسطنطينية العظمى، تولى السلطنة بعد موت أبيه السلطان سليم في أواخر سنة ست وعشرين وتسعمئة.

خرج الغزاليّ بدمشق في زمنه فأرسل إليه عساكره فقتلوه خارجها.

ووزر للسلطان سليمان رحمه الله تعالى إبراهيم باشا مدة طويلة ثم قتله ثم رستم باشا ثم محمد باشا وكان أحسن وزرائه وبقي وزيراً في زمن ولده السلطان سليم ثم في زمن ولده السلطان مراد.

(١) وكان السلطان سليمان ملكاً مطاعاً مجاهداً يحب العلم والعلماء ويقف عند الشرع الشريف.

(٢) عمر السليمانية بالقسطنطينيّة وهي أعظم مساجدها وأنورها. حُكِيَ أنه رأى النبي ﷺ في بستانه في المنام فأشار إليه بتعمير مسجد جامع به وأراه مكاناً فلما استيقظ من منامه اقتطع جانباً من سراياه منه البستان المذكور وعمره مسجداً عظيماً شيّد بناءه ووسع فضاءه، قيل ووضع محرابه في الموضع الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في منامه وعمر إلى جانبها المدارس العظيمة أعظمها دار الحديث السليمانية وكان مصرف ذلك من غنائم رودس[1] وأمر بتعمير التكيّة السليمانية بدمشق فعُمِّرت، وعمّر إليها مسجداً جامعاً ومدرسة عظيمة، وكان ابتداء عمارة التكية والمسجد في سنة اثنتين وستين وتسعمئة وكملت هذه العمارة في أوائل صفر سنة سبع وستين وتسعمئة.

= فتحت قبرص سنة ٩٧٨ هـ، وأن السلطان توفي سنة ٩٨٢ هـ ويُعرف بالسلطان سليم الثاني، انظر «تاريخ الدولة العلية العثمانية»: ٢٥٣ ـ ٢٥٨.

(١) جزيرة فُتحت سنة ٩٢٩ في عهده.

(١) وفي ذي القعدة الحرام منها وصل أمر شريف من قبل المرحوم السلطان سليمان صاحب الترجمة إلى دمشق بتعمير قلاع بطريق الحاج الشاميّ: واحدة بالقطرانة، وثانية بمعان، وثالثة بذات حج، ورابعة بتبوك، فعمرت كما أمر وبقي الانتفاع بها إلى الآن. وله المدارس العظيمة بمكة المشرفة وغيرها.

(٢) مات في بعض غزواته سنة أربع وسبعين وتسعمئة ولما وصل الخبر بموته إلى دمشق ركب قاضي قضاتها على جلبي قنالي زاده وشيخ الإسلام الوالد للصلاة عليه إلى التكية السليمانية ووضع القاضي على رأسه مئزراً أصفر وكذلك الشيخ الطيبيّ وبعض الفقهاء ولم يفعل ذلك الوالد وأنكره عليهم لما فيها من إظهار الحِداد[1].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/١٥٦ - ١٥٧.
وذكر صاحب «تاريخ الدولة العلية» أن الدولة بلغت في مدته أعلى درجات الكمال، وأنّه كان يستهل خطاباته إلى كافة الولاة بالآية الشريفة: «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم»، وذكر أن مدينة بلجراد فتحت في عهده سنة ٩٢٧، ومدينة بودابست سنة ٩٣٢، وحاصر فيينا مراراً ولكنها لم تُفتح، وذكر أن السلطان تغلب على شاه العجم الرافضي مراراً ودخل تبريز وبغداد سنة ٩٤١ هـ، وفي عهده دخلت الجزائر وتونس في طاعة الدولة العثمانية، وقد اشتهر هذا السلطان بالقانوني لِما وضع من الأنظمة الداخلية في كافة فروع الدولة، وكان فيها بعض ما يخالف الشرع كما ذكر ذلك صاحب «تاريخ الدولة العلية العثمانية»: ص ١٧٧ - ١٧٨، وقد بدأ الانحطاط والتقهقر يصيب الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليمان ولذلك أسباب ذكرها صاحب «تاريخ الدولة العلية».
(٢) أسباب الانحطاط:
وتقدّمت الفتوحات في أيامه تقدّماً عظيماً لم تصل إليه بعده، وبلغت الدولة أوج سعادتها، وأخذت بعده في الوقوف تارة والتقهقر أخرى، حتى وصلت إلى الحالة التي عليها الآن لجملة أسباب، منها زيادة الثروة بسبب الفتوحات العديدة والغنائم الكثيرة، ولا يخفى أن الثروة تورث غالباً المفاخرة في المصرف والتغالي في الزهو والترف وكل أمة سادت فيها هذه الخصال لا بدّ لها من التأخر، ومنها أن الإنكشارية كانوا لا يخرجون إلى الحرب إلا إذا كان السلطان معهم ولذا كانت أهم الحروب والغزوات تحت إمرة السلطان وقيادته لأنه إن لم يخرج بنفسه لَمَا حاربت =

. . . .

= الإنكشارية التي عليها المدار الأوّل في الحروب، فغير السلطان سليمان هذه السنة الحميدة وأجاز للإنكشارية القتال تحت إمرة قائدهم الأكبر ولو لم يكن السلطان موجوداً، فكان هذا التغيير سبباً في تقاعس أغلب من خَلَفه من السلاطين عن الخروج من قصورهم الباذخة وتفضيلهم البقاء بين غلمانهم وجواريهم المختلفات الأجناس على الخروج للقتال وتكبد مشاقه، ومنها أن كافة أمور الدولة المهمة كانت تنظر في ديوان الوزراء تحت رئاسة السلطان فأبطل السلطان سليمان هذه العادة وصار الديوان ينعقد تحت رئاسة أكبر الوزراء وهو الصدر الأعظم والسلطان لاه عن ذلك، معرض عن دسائس الوزراء، ومن يستعينون بهم من جواريه وأزواجه، وترتب على ذلك، أن صارت الأمور بيد الوزراء المغايرين للجنس العثماني أصلاً ونسباً، إذ أن أغلبهم ممن أسلم أو تظاهر بالإسلام من النصارى أو من غلمان وخدم السلاطين، ونتيجة ذلك واضحة كما ظهر للقارىء عند مطالعة أسباب قتل مصطفى ابن السلطان سليمان بناء على دسائس زوجته والوزير رستم باشا، ومنها الإباحة للإنشكارية بالتزوّج والإقامة خارج ثكناتهم مع إعطائهم بعض امتيازات وقبول الأخلاط ضمن زمرتهم مما جعلهم من أكبر موجبات تأخر الدولة بعد أن كانت من أعظم عوامل تقدمها، إلى غير ذلك من الأسباب». انظر «تاريخ الدولة العلية»: ٢٥٢.

وذكر صاحب تاريخ «الدولة العلية»: ٢٤٦ ـ ٢٤٨ بعض النقائص التي حدثت في عهد السلطان سليمان، فقال:

(١) «ولنذكر هنا حادثة شنيعة وهي قتل السلطان لولده الأكبر مصطفى بناء على دسيسة إحدى زوجاته المسماة في كتب الإفرنج روكسلان، أما في كتب الترك فاسمها (خورّم) أي الباسمة، ذلك حتى يتولى بعده ابنها سليم، ولما لها من الثقة بالصدر الأعظم رستم باشا إذ كان تعيينه بمساعيها لدى السلطان وما زالت تساعده حتى زوجه السلطان ابنته منها فكاشفته بمرغوبها، وهو تمهيد الطريق لتولي ابنها سليم، فانتهز هذا الوزير فرصة انتشاب الحرب بين الدولة ومملكة العجم في سنة ١٥٥٣ ووجود مصطفى ضمن قوّاد الجيش، وكتب إلى أبيه بأن ولده يحرض الإنكشارية على عزله وتنصيبه كما فعل السلطان سليم الأول مع أبيه السلطان بايزيد الثاني. فلما وصل هذا الخبر إلى السلطان وكانت والدة سليم قد تمكنت من تغيير أفكاره نحوه قام في الحال قاصداً بلاد العجم متظاهراً بأنه يريد أن يتولى قيادة الجيش. ولما وصل إلى المعسكر استدعى ولده المسكين إلى سرادقه في يوم ١٢ شوال سنة ٩٧٠ هـ (٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٣) وبمجرد وصوله إلى الداخل خنقه =

= بعض الحجاب المنوطين بتنفيذ مثل هذه الأوامر، فقتل رحمه الله شهيد دسائس زوجة والده وعدم تثبت أبيه مما نسب إليه. وكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء في تاريخ السلطان سليمان الذي اتسعت دائرة السلطنة في أيامه. ولولا دسيسة هذه المرأة الأجنبية التي ربما كانت مؤجرة لهذه الغاية لبقي اسمه لا تشوبه شائبة ثم نقلت جثة هذا الشهيد إلى مدينة بورصه ودفنت مع جثث أجداده. ولم تكتف هذه المرأة البربرية الطباع بقتل مصطفى سلطان بل أرسلت إلى مدينة بورصة مَن قتل ابنه الرضيع وقال في ذلك بعض الشعراء.

يا دهر ويحك ما أبقيت لي جلداً   وأنت والدسوء تأكل الولدا

وكان رحمه الله محبوباً لدى الإنكشارية لشجاعته ولدى العلماء والشعراء لاشتغاله بالأدب وميله إلى الشعر فرثاه كثير من الشعراء بقصائد رنانة ولم يخشوا سطوة أبيه.

أما الإنكشارية فثاروا وطلبوا من السلطان قتل الوزير رستم باشا المدبر لهذه المكيدة حباً في حفظ منصبه، فعزله السلطان تسكيناً لخاطرهم وولى مكانه الوزير أحمد باشا، لكن لم يهدأ بال زوجة السلطان حتى أغرت زوجها على قتل هذه الوزير وإرجاع رستم باشا مكافأة له على تنفيذ سيء أغراضها».

(١) «وبعد ذلك بقليل توفيت هذه المرأة التي سودت بدسائسها آخر سنيّ حكم السلطان سليمان الذي اشتهر قبل ذلك بكل الكمالات.

ولم تكن هذه الحادثة خاتمة الفظائع بل أعقبها بقتل ابنه الثاني بايزيد وأولاده الخمسة، وذلك أن مربي بايزيد المدعو (لا له مصطفى) عين ناظر خاصة سليم سلطان، ولكون هذا الأمير كان يخشى مزاحمة أخيه بايزيد له في الملك بعد موت أبيهما كاشف لاله مصطفى بأنه يريد إيغار صدر أبيه على بايزيد ليقتله ويكون هو (سليم) الوارث الوحيد لملك آل عثمان، فأخذ مصطفى يبحث عن الطريقة الموصلة لهذه الغاية المشؤمة حتى هداه شيطان عقله وإبليس سريرته إلى أن يكتب لبايزيد يقول له إن سليماً منهمك في الشهوات ولا يليق أن يخلف والده ومع ذلك فوالده مصمم على استخلافه مع عدم أهليته للملك وعدم استعداده للخلافة فتبادلت بينهما المكاتبات بشأن ذلك وأخيراً كتب بايزيد إلى أخيه سليم خطاباً به بعض عبارات تمس كرامة والدهما، فأرسل سليم الخطاب لأبيه ولما اطلع السلطان سليمان على هذا الخطاب غضب غضباً شديداً وكتب لبايزيد يوبخه على ما أتاه ويأمره بالانتقال من قونيه التي كان معيناً والياً عليها إلى مدينة أماسيا فخشي بايزيد أن يكون قصد أبيه الغدر به وامتنع عن التوجه إلى أماسيا، وجمع جيشاً يبلغ عدده عشرين ألف نسمة وأظهر التمرد فأرسل إليه أبوه الوزير محمد باشا الملقب بصقللي =

سليمان باشا

سليمان باشا بن قباد بن رمضان باشا. يتصل نسبه إلى الملوك السلجوقية. ولِيَ نيابة القدس الشريف مدة طويلة وضبط نواحيها وقطع العصاة والمفسدين وقطاع الطريق وخافته الأعراب واشتهر اسمه وبعد صيته، ثم تولى نيابة جرجة من معاملة مصر ثم نيابة بغداد ثم نيابة قرامان وهي البلاد التي نشأ بها هو وأبوه وأجداده بنو رمضان، ثم انفصل منها وقدم دمشق سنة تسعين وتسعمئة محافظاً بها عوض نائبها أويس باشا حين كان في سفر السلطان فنزل بالمرجة.

وكان سفاكاً شديد البطش طائش السيف ينوّع أنواع العذاب للسراق والقطاع والزناة والمعرسين والمزوّرين حتى هرب منه من بقي من المتهمين وجَلَوْا عن دمشق.

وتملك بساتين بدمشق وكان من الجبارين إلّا أنه قطع المناحيس.

قتله عبيده بداره سنة سبع وتسعين وتسعمئة ودُفِن بسفح قاسيون[1].

الرملي

عبد الله بن أحمد بن أحمد الرمليّ المالكيّ. باشر وظيفتي الأذان والميقات بالجامع الأموي مدة ثم ولي إمامية المالكية به بعد وفاة القاضي محيي الدين المالكي، ثمّ ولِيَ رئاسة المؤذنين بعد الشيخ بركات. كان

= لمحاربته فتقابل الجيشان بقرب قونية واستمرّ القتال يومي ٣٠ و ٣١ مايو سنة ١٥٦١ وأخيراً هزم بايزيد وتقهقر إلى أماسيا ومنها إلى بلاد العجم حيث التجأ هو وأولاده إلى الشاه طهماسب، فقابله، وأظهر له الإخلاص والاستعداد لحمايته لكنه كاتب السلطان سليمان وابنه سليماً سرّاً على تسليم بايزيد وأولاده إليهما مع أنهم احتموا بحماه ولم يرع ذمتهم بل خانهم وسلمهم إلى رسل السلطان فقتلوهم جميعاً وهم بايزيد وأولاده الأربعة أورخان ومحمود وعبدالله وعثمان في مدينة قزوين ببلاد العجم في ١٥ محرم سنة ٩٦٩ (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٦١) ونقلت جثتهم إلى مدينة سيواس حيث واروها الثرى وكان لبايزيد ابن صغير في مدينة بورصه فخنق أيضاً ودفن في جانب والده وإخوته.

(١) «الكواكب السائرة»: ١/ ١٥٧ ـ ١٥٨.

صيّتاً حسن الصوت عارفاً بالموسيقى معرفة تامة وصوته ما على حسنه في المؤذنين الموجودين في عصره مزيد. ولما مات أبوه خلف له مالاً كثيراً ودنيا واسعة فسعى في نيابة القضاء على مذهب الإمام مالك رضي الله تعالى عنه فوَلِيَ النيابة في الصالحية ثم بالكبرى.

(١) وكان يحلف بالطلاق كثيراً وربما حلف في مجلس الحكم به حتى عاتبه بعض قضاة القضاة فقال له: بلغني أنك تحلف بالطلاق كثيراً وهذا لا يليق فقال: لا، علي الطلاق يا أفندي.

مات سنة أربع وتسعين وتسعمئة رحمه الله تعالى[(١)].

عبد الوهاب بن محمد

الشيخ العلامة تاج الدين إمام الجامع الأموي الحنفيّ. كان مؤذناً في مسجد أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه داخل قلعة دمشق ثم اشتغل في الفقه، وتصدر للتدريس بالجامع الأمويّ فأفتى وتولى خطابة السليمية وإمامة الحنفية بمقصورة الأمويّ. ولما توفي الشيخ أبو البقاء البقاعيّ خطيب الأمويّ قُرِّر مكانه في الخطابة في سنة ست وستين وتسعمئة ثم وجهت الخطابة بعد أربعة أشهر إلى الشيخ نجم الدين البهنسي فرجع الشيخ عبد الوهاب إلى خطابة السليمية، وأخذ وظيفة الوعظ بالجامع الأمويّ.

وكان له قراءة حسنة ومعرفة بالموسيقى، وكان قليل الاختلاط بالناس.

(٢) وكان جهوري الصوت وربما انقطع نفسه فوقف في غير حد الوقف حتى مر به الشيخ شهاب الدين الطيبيّ الشافعيّ إمام الشافعية فسمعه يقرأ في سورة النمل فوقف على ﴿**أنا**﴾ من قوله تعالى: ﴿**قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك**﴾ فأنشد الشيخ الطيبيّ:

قد رأينا عجباً ذا الزمنا   إمام قومٍ جنسه من جنسنا

(١) «الكواكب السائرة»: ١٦١/٣.

سمعته وكان يقرأ معلنا قال عفريت من الجن أنا

توفي سنة ثمانين وتسعمئة[1].

تاج الدين الصلتي

عبد الوهاب بن عبد الوهاب السيد تاج الدين الصلتي ثم الدمشقي نقيب الأشراف بدمشق. مولده سنة خمس وثمانين وثمانمئة تقريباً.

وكان وكيل قاضي القضاة وليّ الدين بن الفرفور. وقرأ على الشيخ تقي الدين القاري رُبع العبادات من «المنهاج»[2] ولم يكن له فضيلة في شيء من العلوم غير أنه كان يخالط الحكّام فتولّى نظر القيمرية[3] ثم ترقّى فصار ناظر الأمويّ.

(٢) وكان هو وولده يمطلون الناس في معاليمهم[4] حتى قال شيخ الإسلام الوالد له:

أكلت معاليمنا جهرةً فإما حراماً وإما حلالاً
فإن قلت حِلاً فذا ردّة وإن قلت حرماً أتيت ضلالاً

وهي قصيدة طويلة.

(٢) وكان السيد تاج الدين يلثغ بالراء ووقعت لولده محنة اتّهم فيها بقتل فشكا حاله وبثّ حزنه للشيخ الوالد فكان يقول ظلموا ولدي واتّهموه ووالله إنه لبغيء ممّا اتّهموه يريد إنه بريء فقال الوالد وتلطف:

قد جاءني التاج يوماً يقول أنت غضي
وإنّ نَجْلي نَدْبٌ[5] مثل السحاب غوي

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) كتاب فقه على المذهب الشافعي.

(٣) مدرسة من المدارس.

(٤) أي: رواتبهم.

(٥) أي: خفيف ظريف نجيب.

قد اتهموه بقتل وإنه لبغي

يريد رضي، وروي، وبري، فخرج من لثغته خلاف بغيته.

مات في سنة اثنتين وثمانين وتسعمئة، رحمه الله تعالى[1].

علاء الدين الحسينيّ

السيّد الشريف نقيب الأشراف بدمشق القاضي علاء الدين بن السيد كمال الدين مفتي دار العدل ابن حمزة الحسينيّ الشافعيّ.

مولده سنة ثمان وتسعمئة. أخذ عن والده وغيره، وكان من أذكياء الناس.

وكان يبدل القاف همزة.

له قبول تام ومباسطة في الكلام، صاحب نكتة ونادرة لطيف المعاشرة، حلو المحاضرة، ولِيَ عدة أنظار وتداريس وكان نائباً شافعياً بباب القاضي.

(١) وكان يحكي أن فلاحاً أهدى إليه مرة سطل لبن وقال له: يا مولاي القاضي، أنا رجل لم أدرك الأمور الشرعية ولي عند رجل دَين وهو يجحده فأحضره في غدٍ وأنا أطلب منك أن تساعدني عليه فإني ما دخلت المحكمة قط وما وقفت بين يدي ظالم، فضحك القاضي حتى استلقى على قفاه، وكان يحكي هذه القصّة. وله نوادر ونكت ولطائف من هذا القبيل.

(٢) وكان يقول: إن الناس يقولون إن القاضي يأكل. سبحان الله وإذا لم يأكل يموت. يتلطف بالإبهام، فإن معنى قوله: القاضي يأكل: الكناية عن الرشوة وهو يحوّله إلى الأكل الحقيقيّ أي إذا لم يأكل الطعام بالكليّة ينتهي أمره إلى الموت وربما قال: وإذا لم يأكل فكيف يعيش.

توفي سنة تسع وثمانين وتسعمئة وقد جاوز الثمانين[2].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/١٧٧ - ١٧٨.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٣/١٧٩ - ١٨٠.

فرهات باشا

كان نائب حلب، وَلِيهَا في سنة أربع وستين ثم كان نائب بغداد.

(١) كان لا يسفك دماً وإن وجب ويقول: بنية خلقها الله فلا نخربها، ولا يقطع يد سارق ولا يقيم حداً وإنما يجزي بإنعام على المجرم بما سامحه من العقوبة[1].

وكان يتكلم بالعربية ويحفظ تواريخ ويخوض في دقائق الصوفية.

(٢) ذكره ابن الحنبلي وذكر أنه أمر خطيب الجامع الأعظم بحلب وهو الزين الأرمنازيّ أن يذكر السبطين قبل ذكر الستة الباقين من العشرة. قال ابن الحنبلي: وقد كان كما هو الحق لا يذكر بعد الأربعة إلا الستة ولا بعد الستة إلا العمّين حمزة والعباس ثم السبطين قال: وأغلظ على الشيخ زين الدين القول في تأخير السبطين فاضطرب الناس لِما أحدثه، وذكر أنه ألف رسالة سماها «تأهيل من خطب في ترتيب الصحابة في الخطب».

مات ببغداد سنة ثمان وستين وتسعمئة، رحمه الله تعالى[1].

ابن حامد الصفدي

يحيى بن محمد بن عبد اللطيف، الشيخ العلامة شرف الدين بن شيخ الإسلام شمس الدين الشهير بابن حامد الصفديّ الشافعيّ. وُلِد بصفد في سنة خمس وتسعمئة، وأخذ العلم عن والده وعن الشيخ تقي الدين البلاطنسيّ والسيد كمال الدين، ودخل دمشق مراراً في أيام الطلب وبعدها ووعظ بالجامع الأموي.

(٣) ومن شعره ما أنشدنا له مصطفى بن النعيم البقاعيّ:

سلم لمولاك ما قضاه ... واصبر على الحال إن تمادى

---

(١) هذا لا يجوز، فليس هناك أضرُّ على المجتمع من ترك حدود الله.

(٢) «الكواكب السائرة»: ٣/١٩٩.

لا تخشى ناراً ذَكَت بليل		كم جمرة أصبحت رمادا

(١) وله أيضاً:

سلم لمولاك ما قضاه		واصبر ترَ المرّ فيه شهدا
قد أججت للخليل نار		فأصبحت بالسلام بردا

(٢) ولمؤلفه:

سلم لمولاك ما قضاه		واصبر وإن عضت النوائب
يوسف من بعد طول حبس		مُتِّع بالملك والمطالب

وكانت وفاته بصفد سنة خمس وثمانين وتسعمئة، رحمه الله تعالى[١].

السنيكي

يوسف بن زكريا، الشيخ العلامة الصالح جمال الدين بن شيخ الإسلام القاضي زين الدين زكريّا الأنصاري السنيكيّ.

(٣) قال الشيخ عبد الوهاب الشعراويّ إنه رُبي في نزهة وطاعة وعدم الخروج عن دار والده، قال: وقد اجتمعت به بعد أن دارت لحيته فقال: طول عمري ما خرجت من الدار ومقصودي أنظر بين القصرين وباب زويلة فقلت له: إن شاء الله تعالى يشرب الشيخ يعني والده دواء وأمشي معك إلى ما ذكرت فإن الشيخ كان لا ينفك عن مطالعة العلم والتأليف يوماً واحداً من حين كف بصره. قال فمرض الشيخ وشرب دواء وخرجت معه إلى ما طلب فرأى الكنافة فصار يتعجب ويقول: ما كنت أظن أن الكنافة تعمل إلا في رمضان، ثمّ قال مقصودي أرى البحر فإني ما رأيته في عمري ولا المراكب قال: فخرجت معه لما مرض الشيخ ثاني مرة فصار يتعجب. قال: ثم بعد موت والده لازم خلوة والده في النهار فلا يركب إلا لزيارة والده وللبيت ولا يتردد لأحد مطلقاً، وهو ممن جبله الله تعالى على الأخلاق الحميدة وضبط

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/ ٢١٩.

الجوارح، درّس في المدرسة الصالحية بجوار الإمام الشافعيّ.

توفي في سنة سبع وثمانين وتسعمئة رحمه الله تعالى[1].

شرف الدين العيثاويّ

يونس بن عبد الوهاب بن أحمد العيثاويّ الشافعي، الشيخ الفقيه العلامة شرف الدين مفيد الطالبين خطيب المسلمين والد شيخنا شيخ الإسلام الشيخ أحمد.

مولده سنة ثمان وتسعين وثمانمئة.

قام بخطابة الجامع الجديد خارج باب الفرج وهو جامع بردسك وسمي بالجديد لتجديده ويُقال له: الجامع المعلق لكونه مبنياً على نهر بردا وكان إمامه أيضاً.

(١) وكان ممن ينكر القهوة البُنية وصمم على إنكارها وألف فيها رسالة وكان يعلن بالإنكار على شربها على المنبر.

(٢) وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولما كانت الدولة التركية وكان قضاة دمشق لا يكونون إلا من الروم كان كثير منهم ينهى عن كتابة عقود الأنكحة في غير المحاكم فقال له[2] الشيخ يونس: يا مولانا: لو صعد الموجبان والشاهدان إلى أعلى شاهق وعقد النكاح هناك أكان يصح؟ قال: نعم كان يصح، قال له: يا مولانا: لو نزلوا إلى أعمق واد فعقد النكاح أكان يصح؟ قال: نعم، كان يصح قال: يا مولانا: فما هذا التحريج على الناس أن لا يكتب نكاح إلا في المحاكم؟ قال: يا شيخ: ينقص من محصولنا. قال: يا مولانا: ما نقص من ذلك خير مما زاد.

وانتفع به جماعات وله تآليف، وعبارته لا تخلو عن ضعف في

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/٢٢١.

(٢) أي لأحد قضاة الدولة العثمانية.

العربية والغالب عليها الصحة.

(١) حدثني شيخنا أن والده كان إذا قعد يقرأ القرآن يأتي ديك كان عندهم فيقف بين يدي الشيخ يرفع رجلاً ويضع أخرى فلا يبرح حتى يفرغ الشيخ من قراءته.

(٢) وحدثني أنه كان في مرضه الذي مات فيه لا يجري على لسان غير السؤال عن الأذان ثم يشرع في الصلاة حتى مات رحمه الله تعالى.

توفي سنة ست أو سبع وسبعين وتسعمئة[١].

---

(١) «الكواكب السائرة»: ٣/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

مختارات القرن العاشر
من كتاب
«الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»

للشيخ

عبد الحي الندوي الحسنيّ
رحمه الله تعالى



السلطان إبراهيم بن إسكندر اللوديّ

كان آخر ملوك الهند من الأسرة اللودية، تربع على أريكة السلطة بعد وفاة أبيه سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة في آگره، وكان فظاً غليظاً مستكبراً قليل السياسة، كثير المؤاخذة، شديد البطش، تعدى على أمراء أبيه، فتشتت به شمل الأفغان الذين كانوا أنصار الدولة ومصدر قوتها، ودارت الحرب بينه وبين الأمراء، فانتصر عليهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة فأوغر ذلك صدور الأمراء، واستدعى أحدهم (وهو دولت خان اللوديّ حاكم بنجاب) بابر شاه التيموري من كابل، فقصد الهند، وقاتل الولاة في أثناء الطريق، وأخذ القلع والبلاد، فلما وصل إلى پانى پت وقع اللقاء بينه وبين إبراهيم، وإبراهيم ركب في مئة ألف من الفرسان وألف من الفيلة، وكان في عساكر بابر شاه خمسة عشر ألف راجل وفارس، فقاتله بابر شاه أشد قتال، وفر أصحاب إبراهيم فلم يبق معه أحد، فقتل، وقتل معه خمسة آلاف أو ستة آلاف من أصحابه، وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين وتسع مائة، وكانت مدته تسع سنين[1].

القاضي أحمد بن محمود النصير آبادي

السيد الشريف القاضي أحمد بن محمود بن العلاء الحسنيّ النصير آباديّ المعروف بسيد راجي، جدنا الكبير.

---

(١) «الإعلام»: ٤/ ٤.

كان من نسل الأمير قطب الدين محمد بن أحمد المدني البغدادي نزيل الهند.

(١) تولى القضاء ببلدة نصير آباد بعد صنوه الكبير القاضي محمد سنة خمس وتسعين وثمانمائة، واستقل به سبعاً وثلاثين سنة، ثم اعتزل وهاجر من بلدته إلى رائي بريلي.

(٢) وسبب الهجرة على ما ذكره السيد نعمان بن نور النصير آباديّ في «أعلام الهدى» أنه كانت مناقشة فيما بين أولاد السيد نصير الدين النجمي النصير آبادي في الإرث، وقد رفع إلى القاضي فقضى فيه بما ورد في الشرع فلم يتفقوا عليه وقالوا: لا نرضى بذلك الحكم أبداً، فاعتزل القاضي وهاجر من تلك البلدة وقال: إنها لا تصلح للإقامة.

مات في سنة خمس وثلاثين وتسعمائة ببلدة رائي بريلي فدفن بها[١].

الشيخ أحمد السنديّ

الشيخ الفاضل العلامة أحمد بن نصر الله الشيعيّ التتويّ السنديّ.

كان من نسل سيدنا عمر بن الخطاب، وكان من أهل السنة والجماعة، فاتفق ورود بعض علماء الشيعة على بلاده فصحبه وسافر معه إلى المشهد، وأخذ الفنون الرياضية والحديث والكلام على مذهب الشيعة عن الشيخ أفضل القائني، ثم رحل إلى يزد ثم إلى شيراز، وقرأ كليات القانون وشرح التجريد مع حواشيه على كمال الدين حسين اليزديّ وعلى الفاضل مرزا جان الشيرازيّ، ثم سافر إلى قزوين وكانت عاصمة تلك البلاد، فتقرب إلى طهماسپ شاه ومكث عنده زماناً، ولما تولى المملكة إسماعيل ـ وكان يميل إلى أهل السنة ـ خرج من قزوين وذهب إلى العراق، وأخذ جملة من العلوم على مشايخها ثم رجع ودخل الهند وتقرب إلى أكبر

(١) «الإعلام»: ٤/٢٥ ـ ٢٦.

شاه التيموري، فأمره بتأليف التاريخ من بدء الإسلام إلى سنة ألف وسماه «الألفي».

ذكره البدايوني وقال: إنه كان فاضلاً جيداً بشوشاً، ولكنه كان مضطرب العقل صاحب دعوة وهوى.

(۱) وقال عبد الرزاق في «مآثر الأمراء»: إنه كان متصلباً في التشيع متعصباً على أهل السنة والجماعة طويل اللسان عليهم شديد العزيمة على المناظرة معهم، وكان مرزا فولاد الخراساني متعصباً على الشيعة فقتله وقُتل قصاصاً عنه بمدينة لاهور، انتهى.

قتل سنة ست وتسعين وتسعمائة[1].

إسكندر ملك الهند

الملك العادل الفاضل إسكندر بن بهلول بن كالا اللوديّ السلطان الصالح.

(۲) قام بالملك بعد والده سنة أربع وتسعين وثمانمائة، وافتتح الأمر بالعدل والإحسان، واستقدم العلماء من بلاد شاسعة وأجزل عليهم الصلات والجوائز، وكان شديد الرغبة إلى مجالسة العلماء عظيم المحبة لهم، يقربهم إلى نفسه ويدعوهم إلى مائدته، وربما يدخل عليهم بغتة فيختفي في إحدى زوايا المسجد أو المدرسة ليحتظ في دروسهم.

(۳) كان شديد التمسك بالسنة المطهرة، شديد التعصب على أهل الأهواء، يبذل جهده في محق الباطل، وكان لا يتصنع في الزيّ واللباس، ويكره صحبة الأراذل ولا يتبع هواه، ويخاف الله سبحانه في أمر الدين والدولة، ويتفقد الأمور بنفسه، ويجتهد في فهم القضايا جهده، ويأمر وكيله

---

(۱) «الإعلام»: ٤/٢٦ - ٢٧.

دريا خان أن يجلس بدار العدل إلى شطر من الليل ومعه القضاة والفقهاء ويستدرك القضية ساعة بعد ساعة ولا يصبر عن ذلك.

وكان يجالس العلماء بعد صلاة الظهر ويذاكرهم، ويقرأ القرآن الكريم، ويدخل في الحرم فيخلو بنسوته ساعة ثم يخرج ويجلس في قصره، ويحضر لديه العلماء فيذاكرهم إلى نصف الليل ثم يرجعون إلى بيوتهم فيخلو ويشتغل بأمور الدولة ما شاء.

وكان يكتب المناشير والتواقيع بيده، وينظر في مهمات الدولة نظراً بالغاً جيداً، ويبذل الأموال الطائلة على أهل الحاجة، ويوظف العلماء، ويجعل الرواتب لأهل الصلاح والأرزاق السنية للأيتام والأرامل، ويعمر المساجد والمدارس، ويروج العلوم، ويعامل أهل الجند معاملة حسنة، ويحسن إلى أهل الزروع ويبالغ في تعمير الأرض وتكثير الزراعة وإصلاح الشوارع والطرق، ولا يسامح البغاة وقطاع السبل، فيؤاخذهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وإذ يحشد الجيوش ويبعثها إلى إحدى جهات الملك يتتبع أخبارهم ويرسل المنشورات إليهم كل يوم مرتين فيهديهم إلى ما يهمهم.

(١) وكان شديد التصلب في الدين، خرب كنائس كثيرة وأسس المساجد والمدارس والرباطات مكانها، ومنع كفار الهند من أن يحلقوا رؤوسهم ولحاهم، وأبطل المكوس[1]، وهدم بنيان البدع والرسوم، وهو أول سلطان أمر كفار الهند أن يتعلموا اللغة الفارسية والكتابة بها، وأمر العلماء أن ينقلوا العلوم الهندية إلى الفارسية، وجمع الأطباء من خراسان ومن أقصى بلاد الهند فصنفوا له «طب إسكندري»، وصنفوا له كتباً كثيرة.

(٢) ومن نوادره أنه لما سار إلى جونبور لدفع فتنة أخيه باربك شاه لقيه قلندر[2] في أثناء المعركة فأخذ يده وبشره بالفتح، فجذب يده استكراهاً من

---

(١) أي الضرائب.

(٢) أحد من اشتُهر بالصلاح.

قوله، فتعجب الناس من كراهته فقال: إذا التقى الجمعان من أهل الإسلام فلا ينبغي لأحد أن يحكم بغلبة طائفة على أخرى، بل يدعو لما فيه خير للإسلام.

وكان شاعراً مجيد الشعر ماهراً بالموسيقى.

توفي سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة[1].

السلطان بابر

الملك المؤيد بابر بن عمر بن أبي سعيد بن ميران شاه بن تيمور التيموريّ، السلطان ظهير الدين محمد بابر شاه سلطان الهند.

كان مولده سنة ثمان وثمانين وثمانمائة فسماه الشيخ الكبير عبيد الله الأحرار بظهير الدين محمد، ولكنه اشتهر باسمه المشهور بابر شاه.

نشأ في مهد السلطة، وتلقى الفنون الحربية، وكان ذكياً فطناً حاد الذهن، سريع الإدراك، قوي الحفظ، فتبحر في كثير من الفنون لا سيما الشعر والإنشاء والعروض والألغاز والخط.

جلس على سرير الملك يوم الثلاثاء الخامس من رمضان سنة تسع وتسعين وثمانمائة في أندجان من بلاد ما وراء النهر وله اثنتا عشرة سنة، عَرض له في البلاد من المصائب ما لا يحصيه البيان، ولكنه غلب الشدائد، ووطىء النوائب، وقهر الأعداء، وسخر البلاد حتى ملك كابل، وزحف على بلاد الهند، وكانت سلطة الهند حينئذ في غاية من الوهن والاختلال، وكان معه في تلك المعركة اثنا عشر ألفاً من الرجالة والفرسان، وكان مع خصمه إبراهيم بن إسكندر اللوديّ ملك الهند مائة ألف من الفرسان وألف فيلة، فالتقى الجمعان بين پانى پت وكرنال، فهزمه بابر وقتل إبراهيم في سلخ جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وقتل مع

---

(1) «الإعلام»: ٤/٣١ - ٣٣.

إبراهيم ستة آلاف من الفرسان وهرب الآخرون، فدخل دهلي وجلس على سرير الملك، ثم ذهب إلى آگره واستقر بها.

(١) وشعر أحد أمراء الهند الوثنيين القدامى بخطر قيام حكومة يحكمها المسلمون الغزاة الوافدون من الخارج، وإفلات الأمر من يدهم، وهو الأمير «رانا سانگا» حاكم «چتور»، وكان قائداً باسلاً محنكاً فعبأ جيشاً فيه ثمانون ألف فارس وخمس مائة جنديّ، واتفق معه من الأفغان من كان منتصراً للأسرة اللودهية الأفغانية التي انتزع منها «بابر» الحكم، فتألف بذلك نحو مائتي ألف محارب، وتوجه الجيش إلى «آگره» وتوجه «بابر» بجيشه وهو يتألف من اثني عشر ألف جندي، وذلك في جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وتسع مائة للهجرة، واستقر في موضع يسمى «كانوه» أو «خانوه».

(٢) وكاد الوهن يدب إلى جيش «بابر» فقام في الجيش وأعلن توبته عن تعاطي الخمر الذي كان معتاداً له، واستحلف قادة الجيش على الصمود حتى يقضي الله في شأنهم وحميت المعركة واستعر القتال، وكان الفتح للجيش الإسلاميّ، وقتل من الجيش المنافس من لا يأتي تحت العد والحصر، وكان فتحاً حاسماً قضى بقيام حكومة مسلمة، على رأسها الأسرة المغولية من أحفاد بابر دامت أكثر من ثلاثة قرون، حتى انتزعها منها الإنجليز في سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف، وكانت هذه الحرب المقررة لمصير المسلمين السياسيّ في الهند في ثلاث وثلاثين وتسع مائة.

(٣) وسخّر من بلاد الهند أكثرها، ثم اشتغل في توطيد أركان ممالكه المتسعة، فمهد الطرق للمسافرين وأقام لهم مراكز على الطريق، وأمر بمسح الأرض لكى يعين عليها إتاوة[١] عادلة، وغرس بساتين، وأدخل في البلاد أشجار الفواكه، وأقام محلات مختلفة للبريد من آگره إلى كابل.

وكان مع اتساع معارفه السياسية والعسكرية كَلِفاً[٢] بالمعارف والفنون

(١) أي ضريبة.
(٢) محبّاً.

المستظرفة، مقتدراً على الشعر بالفارسيّ والتركيّ، له ديوان شعر في التركيّ، وقوله في تلك اللغة على ما قيل في غاية الحلاوة والعذوبة، وله منظومة في المعارف الإلهية، وله الوقائع البابرية في التركية، كتب فيها أخباره من بدء حكومته إلى آخر عهده بالدنيا، نقلها إلى الفارسية مرزا عبد الرحيم بن بيرم خان، وله رسائل في العَروض، وله كتاب في الفقه الحنفي.

ومن مخترعاته خط سماه بالخط البابريّ كتب بذلك الخط القرآن الكريم وبعث به إلى مكة المباركة.

وكان، سامحه الله تعالى، مدمن الخمر، تاب في آخر عمره، تاب الله عليه.

(١) ومرض ابن بابر وهو نصير الدين همايون فقلق بابر قلقاً شديداً لحبه الشديد له، ودعا الله بأن يكون هو مكانه، وشفي «همايون» ومرض بابر ولما حضرته الوفاة أوصى بأن ينقل إلى كابل ويدفن هناك لميله الشديد وحبه المفرط لهذا البلد، ونفذت وصيته، وكان ذلك في سنة سبع وثلاثين وتسع مائة وله من العمر تسع وأربعون أو خمسون سنة[١].

برهان نظام شاه

الأمير الكبير برهان بن أحمد بن الحسن البحري الأحمد نگرى برهان نظام شاه ملك أحمذ نگر.

قام بالملك بعد والده سنة أربع عشرة وتسعمائة وله سبع سنين من عمره، وأخذ مكمل خان الدكنيّ الحل والعقد بيده وبذل جهده في تربية برهان وتعليمه، فاشتغل بالعلم ومهر في النسخ وله عشر سنين، فلما ترعرع وشد أزره بالشباب تولى المملكة بنفسه.

---

(١) «الإعلام»: ٤٢/٤ - ٤٥.

(١) وتشيع وبالغ في ذلك، حتى إنه أمر الناس أن يسبوا الخلفاء الثلاثة في المساجد والأسواق والشوارع، وجعل الأرزاق السنية للسابين من خزانته، وقتل وأسر خلقاً كثيراً من أهل السنة والجماعة، وسبب ذلك على ما ذكره محمد قاسم في تاريخه: أن الشيخ طاهر بن رضى الإسماعيليّ القزوينيّ لما أمر بقتله إسماعيل بن الحيدر الصفوي سلطان الفرس خرج من بلاده وقدم الهند وأقام بقلعة پرينده من قلاع الدكن عند خواجه جهان الدكنيّ، فلما سمع برهان شاه قدومه إلى بلاده اشتاق إليه واستقدمه إلى أحمد نگر سنة ثمان وعشرين وتسعمائة، وبنى له مدرسة داخل القلعة فكان يدرس بها يومين من كل أسبوع، ويحضر العلماء كلهم في دروسه ويحضر برهان شاه أيضاً لميله إلى العلم ويجلس عنده إلى آخر البحث، حتى إنه كان يحقن الماء في البطن ولا يخرج من ذلك المجلس لقضاء الحاجة، وقد اتفق في ذلك الزمان أن ولده عبد القادر ابتلي بمرض عسير عجز الأطباء عنه واستيأس الناس من حياته وكان برهان شاه يبذل النقود والجواهر والأموال الطائلة فيه، فبشره الشيخ طاهر ذات يوم بشفائه وعهد إليه أن يخطب للأئمة والجمع والأعياد ويروج مذهبهم في بلاده، فعاهده برهان شاه.

(٢) ورأى في تلك الليلة كأن رجلاً يقدم عليه وستة رجال معه في جانبه الأيمن وستة كذلك في جانبه الأيسر وقيل له: إن القادم هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه الأئمة من أهل بيته، فسلم عليه برهان شاه، فقال له الرجل القادم: إن الله سبحانه قد شفى ولدك فعليك أن تجتهد فيما أشار إليه ولدي طاهر، ثم انتبه برهان شاه من نومه فرأى أن ولده قد شفاه الله سبحانه في تلك الليلة فتلقن من الطاهر مذهب الإمامية من الولاء والبراء وتشيع وتشيع أهل بيته وخدمه نحو ثلاثة آلاف، وصار الطاهر مقضيَّ المرام في ترويج مذهبه بأرض الدكن. انتهى ما ذكره محمد قاسم الشيعيّ البيجاپوريّ.

توفي سنة إحدى وستين وتسعمائة ببلدة أحمد نكر فدفن عند والده[1].

الملك مرزا شاه حسين السنديّ

الملك المؤيد المظفر حسين بن شاهي بيگ بن ذي النون الأرغون القندهاريّ ثم السندي الفاضل الكبير، ولد في سنة ست وسبعين وثمانمائة، وقام بالملك بعد والده في سنة ثمان وعشرين وتسعمائة، فاستقل به أربعاً وثلاثين سنة.

وكان من كبار العلماء أخذ العلم عن الشيخ مصلح الدين اللاري والشيخ يونس السمرقندي وعن غيرهما من الأساتذة ولازمهم مدة، وجدّ في البحث والاشتغال حتى تبحر في العلوم وتفنن في الفضائل.

وكان ملكاً عادلاً كريماً، محباً لأهل العلم والأشراف، يجتمع بهم ويحسن إليهم بالصلات والجوائز، وكان يقضي في مهمات الأمور وفق الشريعة المطهرة.

توفي سنة اثنتين وستين وتسعمائة، فنقل جسده إلى مكة المباركة ودفن بالمعلاة عند أبيه[2].

القاضي شكر الله السندي

الشيخ العالم الفقيه القاضي شكر الله بن وجه الدين بن نعمة الله بن عرب شاه بن ميرك شاه بن المحدث جمال الدين الحسنيّ الدشتكيّ الشيرازيّ ثم التتويّ السنديّ، كان من العلماء المبرزين في الفقه والأصول والعربية، انتقل من هراة إلى قندهار سنة ست وتسعمائة، وإلى تته من بلاد

---

(١) «الإعلام»: ٤/٤٩ - ٥١. ولا شك أن هذه الرؤيا فاسدة أو مكذوبة - وإن كان الرؤى لا تؤخذ منها أحكام العقائد والشرائع - لأن رسول الله ﷺ يستحيل عليه الأمر بهذا المذهب الباطل ولكن الجهل أوقع هذا الأمير فيما وقع فيه.

(٢) «الإعلام»: ٤/٨٤.

السند سنة سبع وعشرين وتسعمائة، فولي القضاء بها في أيام شاهى بيگ واستمر في القضاء سنين.

(١) وكان فقيهاً محدثاً تقياً، مشكور السيرة في القضاء مهاباً رفيع القدر، لا يخاف في الله سبحانه أحداً، حتى قيل إن شاه حسين بن شاهي بيگ ملك السند اشترى أفراساً من بعض التجار وماطله في أداء الثمن، فرفع التاجر القضية إلى القاضي، فأمر أن يحضر السلطان بين يديه ويقوم حيث ما قام التاجر، ثم قضى عليه بحق التاجر، فأرضى السلطان التاجر، ثم قام القاضي من مقامه وخدم السلطان على جري العادة، فقعد السلطان عنده وأراه خنجراً كان معه، وقال له: جئت به لأقتلك لو عدلت عن الحق مهابة مني، فأخرج القاضي السيف من تحت وسادته وقال له: وضعت هذا السيف لأقتلك لو جاوزت عن حدك، ثم خرج السلطان مسروراً وكان مطله في أداء الثمن لأجل الامتحان.

ثم بعد مدة من الزمان استعفى القاضي عن القضاء ولازم بيته معتزلاً عن الناس[١].

مير شمس الدين العراقي

كان من فضلاء العراق[٢]، بعثه السلطان حسين مرزا صاحب خراسان إلى الحسن بن الحيدر صاحب كشمير بالرسالة سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وكان الحسن مريضاً مات في ذلك المرض، وقام بالملك بعده ولده محمد شاه، ثم فتح شاه ثم محمد شاه مرة ثانية، فلم ينل شمس الدين مرامه.

(١) وصحب إسماعيل الكشميري ودعا الناس إلى التشيع فتشيع بابا على البحار وسار إلى خراسان سنة تسعمائة، فلماوصل إلى بلاده ووقف على

---

(١) «الإعلام»: ٤/١٢٤ - ١٢٥.

(٢) هو من الرافضة كما سيأتي.

عقائده السلطان حسين مرزا نفاه من بلاده فرجع إلى كشمير، وبذل جهده في دعوة الناس إلى مذهبه إعلاناً، فتشيع موسى رينه وكاچي چك وغازي چك الذين كانوا من الأمـراء، فلما وقف عليـه الوزيـر محمد بن الحسن البيهقيّ في أيام محمد شاه المذكور نفاه إلى أسكرود، فاغتاظ به أصحابه وخـرجوا على محمـد شاه ثم ولـوا عليهم فتح شـاه مـرة ثـانيـة، فقـدم شمس الدين دار الملك وطابت له الإقامة بها، وبنى له موسى رينه زاوية كبيرة بدار الملك، فبالغ في الدعوة وقتل الناس، وأخرج بعضهم إلى بلاد أخرى فتشيع خلق كثير كرهاً، وكذلك أكره الهنادك على ذلك حتى قيل إن أربعاً وثلاثين ألفاً من الهنود تشيعـوا فضلاً عن المسلمين، واستمـر على الدعوة تسع سنين ثم قتل.

وله كتاب «الأحوط» صنفه لكاجى چك وهو كتاب مبسوط في الفروع والأصول.

(١) وقيل إنه اخترع مذهباً جديداً سماه النور بخشية، وصنف كتاباً في الفقه لا تطابق مسائله مسائل أهل السنة ولا مسائل الشيعة الإمامية، قال فيه: إن الله أمرني أن أرفع الاختلاف من بين هذه الأمة في فـروع سنن الشريعة المحمدية كما كانت في زمانه من غير زيادة ونقصان، وثانياً في الأصول من بين الأمم وكافة أهل العالم باليقين، انتهى، فتبعه قوم من أهل كشمير وكانوا يسبون الثلاثة من الخلفاء الراشدين ويسبون عائشة الصديقة رضي الله عنها وعنهم[1].

شير شاه السوريّ سلطان الهند

السلطان العادل شير شاه بن حسن خان بن إبراهيم السوري، وكان اسمه فريد خان، وسور قبيلة من الأفغان وهم ينتسبون إلى الملوك الغورية.

وكان شير شـاه من خيار السـلاطين، عادلاً بـاذلاً، كريمـاً رحيماً،

---

(١) «الإعلام»: ٤/١٢٦ ـ ١٢٧.

شجاعاً مقداماً محظوظاً جداً، كان لا يقصد باباً مغلقاً إلا انفتح، ولا يقدم على أمر مبهم إلا اتضح، نال السلطة الكبرى في كبر سنه، وكان يتحسر على ذلك.

(١) وكان وزع أوقاته من يوم وليلة، شطراً منها للعباد، وشطراً للعدل والقضاء، وبعضاً منها لإصلاح العسكر، فكان ينتبه من النوم في ثلث الليل الآخر ويغتسل ويتهجد ويشتغل بالأوراد إلى أربع ساعات نجومية، ثم ينظر في حسابات الإدارات المختلفة ويرشد الأمراء فيما يهمهم من الأمور في ذلك اليوم ويهديهم إلى برنامج العمل اليوميّ لئلا يشوشوا أوقاته بعد ذلك بالأسئلة، ثم يقوم ويتوضأ لصلاة الفجر ويصليها بالجماعة، ثم يقرأ الأوراد، ثم يحضر لديه الأمراء فيسلمون عليه، ثم يقوم ويصلي صلاة الإشراق، ثم يسأل الناس عن حوائجهم ويعطيهم ما يحتاجون إليه من خيل وأقطاع وأموال وغير ذلك لئلا يسألوه في غير ذلك من الأوقات، ثم يتوجه إلى المظلومين والمستغيثين ويجتهد في إغاثتهم، ومن عوائده بعد الإشراق أنه ألزم أن يعرض عليه العساكر فينظر إليهم وإلى أسلحتهم، ثم يعرض عليه من يريد أن يثبت في العسكرية فيتكلم معه ويختبره ثم يأمر أن يثبت اسمه في العسكرية، ثم يعرض عليه الجبايات التي تورد عليه من بلاده كل يوم، ثمّ يتمثل بين يديه الأمراء وسفراء الدول والوكلاء فيتحدث معهم، ثم تعرض عليه عرائض الأمراء والعمال فيسمعها ويملي جوابها، ثم يقوم ويقبل إلى الطعام وعلى مائدته جماعة من العلماء والمشايخ، ثم يشتغل نحو ساعتين بأمور خصوصية، ويقيل إلى وقت الظهر ثم يقوم ويصلي بجماعة، ويشتغل بتلاوة القرآن الحكيم ثم بمهمات الأمور للدولة، وكان لا يترك شيئاً من ذلك في الظعن ولا في الإقامة.

(٢) وكان يقول: إن الرجل الكبير من يصرف جميع أوقاته في الأمور الضرورية.

(٣) وكان يقول: إن العدل صفة محمودة عند جميع الناس مسلماً كان أو كافراً.

(١) وكان يتوجه إلى المهمات ويباشر الأمور بنفسه ويقول: إنه لا ينبغي لصاحب الأمر أن يستصغر ما يهمه من الأمور نظراً إلى علو مرتبته فيلقيها على من حوله من رجاله، لأنهم لا يجتهدون فيها وربما يتغافلون عنها طمعاً وارتشاء.

(٢) وكان يعاقب البغاة وقطاع السبيل والظلمة أشد عقوبة ويعزرهم أشد تعزير، وكان لا تأخذه بهم رأفة وإن كانوا من أصهاره وأقربائه.

(٣) وكان شير شاه أول من أسس قواعد السلطنة بعد علاء الدين الخلجيّ ومهدها لمن بعده من الملوك، ووضع القانون لترتيب العساكر على أسلوب جديد، ووضع القانون للمالية ووضعها للنقود، ووضع لغير ذلك من الأمور.

(٤) وأما القانون الذي وضعه للمالية فمنه أنه أمر أن يمسح الأرض كل سنة. وقرر المالية على أجناس الغلة، وكان يأخذ ثلث ما يحصل من الأرض المزروعة، وأبطل المكوس الكثيرة[1]، وأمر أن يؤخذ المكس من أهل التجارة مرتين: مرة حين تدخل أموال التجارة في بلاده، ومرة إذا بيعت. وهو أول من أصلح نظام النقود وضربها ووضع لها قانوناً.

(٥) ومن مآثره أنه أسس شارعاً كبيراً من سنارگانون أقصى بلاد بنگاله إلى ماء نيلاب من أرض السند، مسافتها ألف وخمسمائة كروه - والكروه في عرف أهل الهند ميلان من الأميال الإنكليزية - وأسس في كل كروه رباطاً، ورتب بها مائدتين لأهل الإسلام خاصة وللهنادك خاصة، وأسس مسجداً في كل كروه من الآجر والجص، ووظف المؤذن والمقرىء والإمام في كل مسجد.

(٦) وعين في كل رباط فرسين للبريد، فكان يرفع إليه أخبار نيلاب إلى أقصى بلاد بنگاله كل يوم، وغرس الأشجار المثمرة بجانبي الشارع الكبير،

---

(١) أي الضرائب.

فيستظل بها المسافر ويأكل منها ما تشتهي نفسه، وكذلك غرس الأشجار المثمرة على الطريق من آگره إلى مندو - وبينهما مسافة ثلاثمائة كروه - وأسس الرباطات والمساجد.

(١) وبلغ الأمن والأمان في عهده مبلغاً لا يستطيع أحد أن يمد يده في الصحراء إلى عجوز تحمل متاعها.

(٢) وكان شير شاه يتأسف على أنه نال السلطة في كبر سنه، ويقول: إن ساعدني الزمان أبعث رسالة إلى عظيم الروم[1] وأسأله أن يركب بعساكره إلى بلاد الفرس ونحن نركب من ههنا إلى تلك البلاد، فندفع بمساعدة ملك الروم شر الأوباش الذين يقطعون طريق الحجاج، ونحدث شارعاً آمناً إلى مكة المباركة، ولكن الأجل لم يمهله، فمات قبل بلوغه إلى تلك الأمنية، وكان ذلك سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة[2].

آصف خان

أبو القاسم عبد العزيز الگجراتيّ المعروف بآصف خان، الوزير الكبير أبو القاسم عبد العزيز بن محمد بن محمد السنديّ الگجراتي، الشهيد السعيد المسند العالي آصف خان، كان أعظم الوزراء بمملكة گجرات.

ولد سنة سبع وتسعمائة بجانپانير، ونشأ في حجر والده واشتغل عليه في علوم شتى، منها الصرف والنحو والمعاني والبيان، ثم اشتغل بالعلوم الشرعية على القاضي برهان الدين النهرواليّ ومن جملة ما أخذ عنه علوم الحديث، ثم قرأ المنطق والحكمة والأصول والطب على الخطيب أبي الفضل الگاذرونيّ وعلى السيد أبي الفضل الاستر آباديّ من أكبر تلامذة المحقق الدوانيّ.

ثم لم يزل يتدرج في مراتب السعادة والكمال، وتظهر عليه بشائر

---

(١) أي الخليفة العثمانيّ.

(٢) «الإعلام»: ٤/١٣٣ - ١٣٨.

النجابة والإقبال، حتى اختاره بهادر شاه الگجراتيّ بحضرته، ولحظه بعين عظمته إلى أن أهله لوزارته، وقلده كثيراً من أعمال مملكته، فخاطبه أولاً بحبيب الملك، ثم لما ضعف الوزير مجد الدين محمد بن محمد الإيجيّ عن تعاطي ما تقتضيه الوزارة العظمى لكبر سنه تخيره لما علم من شدة ميل السلطان إليه ومزيد اعتنائه، فأنابه منابه في القيام بالخدمة السلطانية، فقام في كل ذلك على أكمل الأحوال وأتقنها وأوفقها للملك وأبهة السلطنة ومصالح الرعية فازداد قربه من السلطان، فعلم الوزير الأعظم أنه لم يبق له من الأمر شيء فاستعفى من الوزارة، فولاه السلطان الولاية العظمى ولقبه بالمسند العالي آصف خان.

(١) واستمر قائماً بذلك إلى أن دهمهم همايون شاه التيموريّ، فأرسله بالحريم والخزانة إلى مكة المشرفة، فوصل إليها سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة، وكانت معه سبعمائة صندوق، ويتبعه من الأمراء ومن العسكر ما يزيد على الألف ومن الحشم مثله.

(٢) وفي أول اجتماعه بصاحب مكة أبي نمي بن بركات الحسني أحب أحدهما الآخر وعمت صِلاته أهل مكة فكاد يسمع الدعاء كما تسمع التلبية، ونُعي بوفاة سلطانه بهادر شاه.

(٣) وسار إلى أدرنه واجتمع بالسلطان[١] واتفق له معه ما لم يتفق لأحد قبله من المصافحة والجلوس وبعض الكلام بلا واسطة، وأعجب السلطانَ كلامه وأدبه، فسأله: كيف كان الحادث بملك فيه مثلك[٢]؟ فأجاب: وقع الإجماع على أن الملك يفتح بالسيف ويحفظ بالرأي، وزال ملك بني أمية ولم يكن أشجع من مروان حتى لصبره على الشدة لقب بالحمار، ولا أرأى[٣] من عبد الحميد حتى أنه لما أمر بقتله المنصور وقال له: أبقني

---

(١) أي السلطان العثمانيّ.

(٢) لأن الملك بهادر شاه مات مقتولاً.

(٣) من الرأي. وعبد الحميد هو عبد الحميد الكاتب الأديب المشهور كاتب الخليفة الأمويّ مروان بن محمد.

لرسائلك كان جوابه: وهل غيرها أضرت بنا - وكانت أوقع من سيوفهم - لا أبقاني الله إن أبقيتك؛ ليعلم من يدل[1] بهما أنه ليس بشيء، وإنما الملك لله سبحانه، ومع هذا كان له سبب يتعلل به، وهو أن صاحب الملك بلغ به الآفاقيّ تمكيناً ولم يدع لأهل المملكة إمكاناً[2]، وعند مخالفة الهوى صار ضعف أهل الملك له وقوة الآفاقيّ لعدوه! فازداد به السلطان عجباً، ثم قال له: تمن فسأل لِما صرفه من الخزانة سنداً ولِما أسلمه حجة[3] فأجابه إليه، ثم قال: تمنّ فاستأذن لحريم السلطنة في الرجوع إلى الهند فأجاب، ثم قال: سل شيئاً لنفعك كإمارة الشام وحلب وغيرها، فسأل ألف أشرفي[4] يكون له في السنة ليثبت اسمه في دفتر العناية[5] وكان ذلك، ثم رجع إلى مكة ظافراً، ثم بعد ذلك أرسل الحريم بالدفائن التي لم ترها عين ولا سمعت بها أذن.

(١) وصرف أيام إقامته بمكة على الأمراء والعسكر والحشم من بيع الآلات والأسباب والظروف المتخذة من الذهب والفضة، وقد وصل منها لأهل الحرمين من جانب السلطنة كل سنة سبعون ألف مثقال ذهب، ولصاحب مكة منها كل سنة خمسة وعشرون ألف مثقال.

ثم إنه لما أرسل الحريم إلى گجرات عزم على المجاورة بمكة وتأهل بها وأقام إلى سنة خمس وخمسين وتسعمائة حتى طلبه محمود شاه الگجراتيّ إلى الهند وولاه النيابة المطلقة، وازداد محمود شاه بنيابته سعة في التمكين والإمكان ووجد راحة في أوقاته، وقال لأصحابه ذات يوم: إلى يومي هذا كان لي شغل فكر بمهمات لا أجد لي عليها معيناً، وكنت أرى جماً غفيراً في الديوان إلّا أني في شك أهؤلاء لي أو علي؟ وأما الآن

---

(١) يعجب بهما ويعتمد عليهما.

(٢) المعنى - والله أعلم - أن الملك الهنديّ بهادر شاه توسع في فتح الممالك بدون تعزيز لقوة مملكته أصلاً فوقع الخلل في ممالكه كلها.

(٣) أي من الأموال التي أرسلها معه بهادر شاه إلى مكة.

(٤) نوع من الدنانير.

(٥) السجلات السنوية التي يكتب فيها مستحقو العطايا.

فملكت رأيي واسترحت بتدبير آصف خان لي عن أشياء كنت أتحاشاها عجزاً وأسكت عنها خشية أن ينفتح باب لا يمكنني إغلاقه.

(١) واستمر آصف خان على وزارته مدة، ثم قتله برهان الدين الشرابيّ، وسبب ذلك أنه كان ساقياً لمحمود شاه ومقرباً لديه، فوسوس له الشيطان وزين له حب الدولة فسمه ثم قتله وجلس على سرير الملك وأراد أن يعدم رجال الدولة ليصفو له الملك والدولة، فطلب آصف خان على لسان السلطان، فاغتسل وتطيّب وجلس في المِحَفّة[1] وهو يتلو القرآن الكريم، فلما دخل دار السلطنة وانتهى إلى موقف أفيال النوبة اعترضه كبير الفيالة بفيله في النوبة ليصده عن الدخول شفقة على آصف خان مما دُعي إليه، فأحبّ أن يتربص عساه ينجو وأنى له وما بينه وبين الجنة إلا خطوات، ولهذا لما اعترضه الفيل وقف وأمر بكفه ففعل وتقدم حملة المِحَفّة به، فلما دخل المقام المحمود أخذت السيوف من جهاته وانجدل سريعاً وتمت له السعادة بالشهادة.

(٢) وكان ذلك سنة إحدى وستين وتسعمائة فرثاه غير واحد من العلماء بمكة، وصنف شهاب الدين أحمد بن حجر المكي رسالة مفردة في مناقبه، قال فيها: إنه كان من أهل الدنيا باعتبار الصورة الظاهرة، لكنه في الباطن من أكابر أهل الآخرة، لما اشتمل عليه من الاجتهاد في العبادات مما لم يسمع مثله إلا عن بعض من مضى من العلماء العاملين والصلحاء العارفين، وإننا لم نر أحداً قدم إلى مكة من أرباب المناصب بل ولا من العلماء وغيرهم لازم من العبادات ملازمة هذا الخان بحيث لا يضيع له وقت نهاراً ولا ليلاً في غيرها إلا فيما يضطر إليه من العادات، فمن ذلك أنه أقام بمكة المشرفة أكثر من عشر سنين لا نعرف أنه ترك الجماعة فيها مع الإمام بالمسجد الحرام في فرض واحد من غير مرض، ونحوه مع ما انضم لذلك من قراءة القرآن ومطالعة كتب العلم من الفقه والتفسير والحديث

---

(١) شبيه بالهودَج يحمل على أكتاف الرجال عادةً.

والعلوم الإلهية وإقرائها واجتماع الفقهاء والعلماء عنده لاستماع ذلك والبحث معه فيه، كان يمضي لهم عنده الأوقات الطويلة كل يوم في ذلك، وكان يقع لهم معه كثير من الأبحاث الدقيقة والمعاني العويصة لا سيما ما يتعلق بعويصات تفسير القاضي البيضاويّ وأصله «الكشاف» وحواشيهما، وكذلك كتب الأصلين كالتلويح وشرح المواقف وحواشيهما، وكذا كتب الفقه كالهداية وشروحها و«الكنز» وشروحه والمجمع وشروحها والبخاري ومسلم وبقية الكتب الستة وشروحها وحواشيها، حتى نَفَق[1] العلم في زمنه بمكة نَفاقاً عظيماً، واجتهد أهله فيه اجتهاداً بالغاً، وثاب[2] الطلبة وعكفوا عكوفاً باهراً عليه، وبحثوا عن الدقائق لينفقوها في حضرته، وتحفظوا الإشكالات ليتقربوا بها إلى خواطره، كل ذلك لإسباغه على المنتسبين إلى العلم بأي وجه كانوا من ضوافي الإحسان وواسع الامتنان ما لم يسمع بمثله عن أهل زمنه ومن قبله بمدد مديدة.

(١) قال: وكان مع ما هو عليه من التنعم البالغ والسراري والزوجات والحشم والخدم وغير ذلك، له تجهد طويل بالليل بحيث يقرأ في تهجده في كل ليلة نحو ثلث القرآن مع الفكر والخشوع والخضوع بين يدي الله تعالى، لا يفتر عن ذلك حضراً بل ولا سفراً كما أخبر عنه الثقات الذين صحبوه في السفر من مكة إلى الروم ثم منه إلى مكة، قال: وكان يعتكف في رمضان كلّ سنة مدة إقامته بمكة في المسجد الحرام بما ينبغي للمعتكف الاشتغال به من التفرد والتجرد والطاعة، فيقرأ ويسمع عدة ختمات، ولهذا استمر على طريقته بعد عوده من مكة إلى بلدته مع مباشرته للوَزَر الأعظم[3] حتى توفاه الله إلى جنته إلى دار كرامته، لأن أعماله لم تكن مدخولة وإلا لانقطعت وبطلت، فإذا داوم عليها مع المزيد منها دل ذلك على خلوص نيته وطهارة سريرته.

---

(١) راج.

(٢) رجعوا.

(٣) أي رئاسة الوزارة العظمى.

قال: وكان له شدة إنكار على من يكثر في كلامه لغو اليمين «كلا والله» و«بلى والله»، في كل حقير وجليل، كما هو دأب أكثر الناس.

قال ابن حجر(1): إنه كان مع ما هو عليه من الفخامة الدنيوية شديد التواضع للفقراء والعلماء كثير الإحسان والتردد إليهم، حتى إنه لكثرة ذلك معه جلب الناس كلهم إلى منزله بحيث لم يبق أحد من أعيان مكة وعلمائها وصلحائها إلا ودعاهم إحسانه إلى التردد إليه وحضور مجالسه والكلام فيما يقع فيها من المباحث العلمية، ولقد كان شيخنا الإمام أبو الحسن البكريّ الشافعيّ لا يتردد لأحد من أبناء الدنيا إلا في نادر لأمر مهم وكان يعيب على من يتردد إليهم، فلما جاء إلى مكة واجتمع به وزاد إحسانه وتردده إليه صار يذهب إلى بيته ويأكل طعامه ويقبل هداياه.

(1) قال: وكنت عنده يوماً فجاءه مملوك سلطانيّ أرسله إليه نائب مصر خسرو باشاه بن خير الدين، معه خلعة سنية ومراسيم بالإجلال والتعظيم والتوقير، والتمس منه أن يلبسها إجلالاً للسلطان وامتثالاً لأمر نائبه بمصر، فأبى وقال: وكيف يجوز لي لبس الحرير! فألح فامتنع ولم يبال بتشويش المملوك ولا بكونه يُنهي ذلك(2) لمرسله إيثاراً لرضى الله تعالى على رضى غيره، انتهى كلام الشيخ ابن حجر.

وللشيخ عز الدين عبد العزيز الزمزميّ المكي قصائد غراء في مناقبه.

بنى مدرسة بباب العمرة في البلدة المباركة وولاها الشيخ عز الدين عبد العزيز الزمزميّ والشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر المكي وغيرهما من علماء مكة المشرفة للتدريس(3).

---

(1) أي الهيتميّ.
(2) أي يوصل ما حدث.
(3) «الإعلام»: ١٦٥/٤ - ١٧٣.

القاضي عبد الله السنديّ

الشيخ العالم الفقيه القاضي عبد الله بن إبراهيم العمريّ السنديّ المهاجر إلى المدينة المنورة.

ولد بدربيله ـ من بلاد السند ـ وقرأ العلم على الشيخ عبد العزيز الأبهريّ شارح المشكاة، ودرس بها مدة، ثم لما تسلط على بلاد السند شاهي بيگ القندهاريّ خرج من بلاده عازماً إلى الحرمين المحترمين، فدخل گجرات سنة سبع وأربعين وتسعمائة، ولقي بها الشيخ عليّ بن حسام الدين المتقيّ البرهان پوريّ.

(١) وكان المتقيُّ مرزوقَ القبول في بلاد گجرات، وكان بهادر شاه الگجراتي معتقداً بفضله وكماله يريد أن يحضر لديه والمتقي لا يرضى بذلك فشفع له القاضي، فقال له المتقي: كيف يجوز أن يأتيني بمنكراته ولا آمره بالمعروف ولا أنهاه عن المنكر! فأجاز له بهادر شاه أن يأمره بما شاء وينهاه عما شاء فأذن له المتقي فدخل عليه السلطان وقبل يده، ثم بعث إليه مائة ألف تنكه[١] فتفضل المتقي بها على القاضي، فصارت له زاداً وراحلة إلى الحرمين الشريفين وأقام بالطابة الطيبة مدة حياته[٢].

الكنكوهيّ

الشيخ العالم المحدث عبد النبي بن أحمد عبد القدوس الحنفيّ الگنگوهيّ، أحد العلماء المشهورين في أرض الهند، ولد بگنگوه، وقرأ القرآن والفقه والعربية وسائر العلوم في بلاده.

(٢) ثم سافر إلى الحرمين الشريفين وسمع الحديث بها عن الشيخ شهاب الدين بن حجر المكيّ وعن غيره من المحدثين، وتردد إلى الحجاز غير مرة، وصحب المشايخ مدة طويلة حتى رسخ فيه مذهب المحدثين،

---

(١) هي عملة هندية دارجة في ذلك الزمان.

(٢) «الإعلام»: ٤/ ١٨١.

فرجع إلى الأهل والوطن وخالفهم في مسألة السماع والتواجد ووحدة الوجود والأعراس[1] وأكثر رسوم المشايخ الصوفية ونصر السنة المحضة والطريقة السلفية واحتج ببراهين ومقدمات، فخالفه والده وأعمامه فأوذي في ذات الله من المخالفين، وأخيف في نصر السنة حتى أنهم أخرجوه من الأهل والوطن.

ولكنه لما قيض الله له صدارة الهند طلبه أكبر شاه التيموريّ سلطان الهند وولاه الصدارة في أرض الهند بعرضها وطولها سنة إحدى وسبعين وتسعمائة، فاستقل بها زماناً، وأعطي من الأرض والأموال ما لم يعط أحد قبله من الصدور، وحصل له القبول التام عند الخاص والعام.

(١) وكان أكبر شاه يذهب إلى بيته لاستماع الحديث الشريف ويضع نعليه قدامه بيده ويتلقى إشاراته بالقبول. قال البدايونيّ: إنه استمر على ذلك سنين، ثم دخل في الحضرة ابنا المبارك فدسا في قلب أكبر شاه ما رغب به عن أهل الصلاح والمشايخ، فنزله عن منزلته وصار يتدبر حيلة لعزله، إذ حدث أمر عظيم بمدينة متهرا، وهو أن القاضي عبد الرحيم كان يريد أن يبني مسجداً فيها، فغصب عمارته أحد البراهمة وجعلها هيكلاً، فلما تعرض له القاضي المذكور سب النبيّ ﷺ، على رؤوس الأشهاد وهتك حرمة الإسلام، فرفع القاضي تلك القضية إلى الشيخ عبد النبي، فطلبه الشيخ فلم يأت، فبعث أكبر شاه أبا الفضل ابن المبارك وبيربر الوثنيّ إلى متهرا ليأتيا به، وقال الشيخ أبو الفضل: إن أهل متهرا كلهم متفقون على أنه سب النبي ﷺ، فصار العلماء على قسمين: طائفة منهم تفتي بقتله، وطائفة تفتي بالتشهير والمصادرة! فاستصوب عبد النبي قتله، فأعرض السلطان عن القول به، فتأخر الشيخ عن ذلك وسأله مرة ثانية وثالثة، وكلما كان يسأله يقول له: لا تسألوني عنه فإن السياسات الشرعية تتعلق بكم،

---

(١) الحفلات السنوية المقامة على قبر الأموات.

وكانت في حرم السلطان طائفة من بنات الكفار تشفع لذلك الكافر، ولكن السلطان يضمره في قلبه، فلما استيأس عن ذلك عبد النبيّ قضى بقتله، فغضب عليه السلطان غضباً شديداً ورفع الشكوى إلى مبارك بن خضر الناگوري، فقال له المبارك: إن السلطان أعدل الأئمة وأعقلهم وأعلمهم بالله سبحانه، لا ينبغي له أن يقلد أحداً من الفقهاء والمجتهدين، ورتب محضراً في ذلك، وبعث السلطان إلى عبد النبيّ وعبد الله، فحضرا في مجلسه فلم يقم أحد لتعظيمهما، فجلسا في صف النعال وأثبتا توقيعهما على ذلك المحضر كرهاً، ثم أمر السلطان لإخراجهما إلى الحرمين الشريفين، فسافر عبد النبيّ إلى الحجاز وأقام بها زماناً، ثم رجع إلى الهند وطلب العفو والمسامحة من السلطان، فأمر وزيره راجه أن يحاسبه، فقبض عليه ذلك الكافر ونقمه أشد نقمة حتى مات، انتهى.

وفي «مآثر الأمراء» أن السلطان حبسه للمحاسبة وفوض أمره إلى أبي الفضل بن المبارك الناگوري فقتله مخنوقاً، انتهى[1].

المتقي الهندي

الشيخ الإمام العالم الكبير المحدث علي بن حسام الدين بن عبد الملك بن قاضيخان المتقي الشاذليّ المدينيّ الچشتيّ البرهانپوريّ المهاجر إلى مكة المشرفة والمدفون بها.

ولد بمدينة برهانپور سنة خمس وثمانين وثمانمائة، ونشأ على العفة والطهارة، ثم أراد صحبة شيخ يدله على ما أهمه من طريق الحق، فسافر إلى بلاد الهند ولازم الشيخ حسام الدين المتقيّ الملتانيّ وصحبه سنتين، وقرأ عليه تفسير البيضاويّ وعين العلم، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين وأخذ الحديث عن الشيخ أبي الحسن الشافعي البكريّ، وقرأ الحديث على الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر المكيّ، وأقام بمكة المشرفة مجاوراً للبيت الحرام.

---

(١) «الإعلام»: ٤/١٩٦ - ١٩٧.

ووفد إلى الهند مرتين في أيام محمود شاه الصغير الگجراتيّ وكان من مريديه، قال الآصفيّ في تاريخه: إنه وفد عليه من مكة المشرفة زائراً فلم يدع له حاجة في نفسه إلا وقضاها، ثم عاد الشيخ إلى مكة، فعمر بالقرب من رباطه بسوق الليل بيتاً لسكناه له حوش واسع يشتمل على خلاوي لأتباعه والمنقطعين إليه من أهل السند، وكان يعيل كثيراً ويعين على الوقت من سأله، وكان في وقف السلطان المتجهز في كل سنة مدة حياته مبلغ كليّ يقوم بمن يعول.

(١) وظهر الشيخ بمكة غاية الظهور، فنما خبره إلى السلطان سليمان بن سليم بن بايزيد بن محمد الروميّ فكتب إليه يلتمس الدعاء منه له وكان يواصله مدة حياته.

(٢) ثم دخل الشيخ الهند ثانياً واجتمع بمحمود شاه، وبعد أيام قال الشيخ له: هل تعلم ما جئت له؟ فقال: وما يدريني! فقال: سنح لي أن أزن أحكامك بميزان الشريعة فلا يكون إلا ما يوافقها، فشكر السلطان سعيه وأجابه بالقبول وأمر الوزراء بمراجعته في سائر الأمور، ونظر الشيخ في الأعمال والسوانح أياماً واجتهد في الأحكام، فأمضى ما طابقت شرعاً ووقف فيما لم يطابق، فاختل كثير من الأعمال القانونية وتعطلت السياسة وانقطعت الرسوم واحتاج الوزراء إلى ما في الخزانة للمصرف، والشيخ قد التزم سيرة الشيخين رضي الله عنهما في وقت ليس كوقتهما ورعية ليست كرعيتهما.

(٣) ولم يمض القليل حتى خرج عن وصية الشيخ مريدُه الذي استخلفه عن نفسه في تحقيق الأمور العارضة، وكان يراه أزهد منه في الدنيا وأعف نفساً وأكمل ورعاً، فنفض الشيخ يده مما التزمه وقام ولم يعد إلى مجلسه، قال الآصفي وبيانه: أنه لما تمسك بميزان الشريعة كره أن يجالسه عمال الدنيا وتخلط نفسه بأنفاسه في المراجعة، وكان لديه من يعتمد عليه من تلامذته وأكبر أصحابه ويعتقد فيه ديناً وورعاً ويتوسم فيه التحفظ من الشبهات واسمه «شيخ چيله» فأمر أن يجلس مع العمال ويستمع لهم ويخبره

بالحال بعد تحقيقه، فكان يجلس ويسمع ويتحقق ويخبر ويرجع إليهم بجواب الشيخ وعلى ما قاله المتنبيّ.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

(١) فأبت نفسه إلا ما هي شيمتها فجانست من جالست، فحملت صاحبها على مضلة الطريق ولا خلاف في أن الصحبة مؤثرة قاهرة، ودس الوزراء من يرشيه ويرضيه، وكان يكره شرب الماء من فضة فصار يبيحه ويسرق الفضة إن نالها، وفي قضية دخلت عليه امرأة بإيعاز من الوزير ومعها مصاغ مرصع رشوة له وأسلمته زوجته بحضوره ورجعت إلى الوزير تخبره، ودخل على السلطان وقال له: تعطلت المعاملات القانونية والرسمية ولم تبرأ الشريعة من تدليس الرشوة والشيخ من رجال البركة لا من عمال المملكة، وهنا امرأة بذلت لوكيله رشوة كذا وكذا، وكان السلطان متكئاً على وسادة، فلما سمع الخبر استوى جالساً وقال: أين هي؟ فأحضرها فسألها، فأخبرت بما أرشت، فاستدعاه السلطان وسأله عنه فأنكر، ثم جمع بينه وبينها فقالت: أنا آتيك به وفعلت، فتأثر السلطان ورد الحكم إلى الوزير على ما كان عليه في سالف الأيام، وبلغ الشيخ ذلك، فنوى السفر إلى مكة.

(٢) وعلم به السلطان فأرسل غير مرة يسأل رجوعه فلم يجب، ثم حضر الأمراء الكبار لتسليته من جانب السلطان، فشرع لهم الشيخ يبين لهم ما قيل في الدنيا، ومنه ما روي أنه ذم الدنيا رجل عند أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فقال: الدنيا دار صدق لمن صدقها، دار نجاة لمن فهم عنها، دار غنى لمن تزود منها، مهبط وحي الله ومصلى ملائكته ومسجد أنبيائه ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة واكتسبوا فيها الجنة، فمن ذا الذي يذمها! وقد آذنت ببينها ونادت بفراقها، ونعت نفسها، وشبهت بسرورها السرور وببلائها البلاء ترغيباً وترهيباً، فيا أيها الذام لها المعلل نفسه! حتى خدعتك الدنيا ومتى استدمت، أبمصارع آبائك في البِلى أم بمضاجع أمهاتك في الثرى:

إذا نلت يوماً صالحاً فانتفع به فأنت ليوم السوء ما عشت واحد

(١) وبينما الأمراء لديه جاء السلطان إليه وسأله البركة بإقامته في الملك وليعمل في دنياه لآخرته بيمن صحبته، فأجاب بأن مكة شرفها الله تعالى تشتمل على مواطن الإجابة، والدعاء لكم بها أوفق للحال وأصلح للمآل، وقدماً قيل: إن الدين والدنيا ضرتان لا تجتمعان، فكان يختلج في صدري إمكانه، فأحببت بأن أكون على بينة منه بالتجربة، فأعملت الفكر فيه فحملني على السفر من مكة إليكم لتوفيق كنت رأيته منكم، فلما اجتمعت بكم وكان ما سبق ذكره من توفيقكم ومن خِذلان من فضحه الامتحان علمت بالتجربة أنهما ضرتان لا تجتمعان[1]، وقد حصل ما جئت لأجله، فلزمني الآن صرف الوقت في التوجه إلى بيت الله وإمضاء العمر في جواره.

قال: وهنا من ينوب عني في الحضور وهو الموفق للرشد ـ عبد الصمد ـ وفيه أهلية للدعاء فالتمسوه منه، وأوصيكم بالإنابة إلى الله في سائر الأحوال، وإمضاء حكم الشرع وإعزاز أهله وصحبة الصالحين، ثم استودعه الله تعالى وتوجه إلى بندر كهوكه، ومنها إلى مكة المشرفة، انتهى.

(٢) وقال الحضرمي في «النور السافر»: إنه كان على جانب عظيم من الورع والتقوى والاجتهاد في العبادة، وله مصنفات عديدة، وذكروا عنه أخباراً حميدة، ومن مناقبه العظيمة أنه رأى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وكانت ليلة جمعة وسبعة وعشرين من شهر رمضان، فسأله عن أفضل الناس في زمانه، قال: أنت، قال: ثم من؟ فقال: محمد بن طاهر بالهند، ورأى تلميذه الشيخ عبد الوهاب في تلك الليلة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسأله مثل ذلك، فقال: شيخك ثم محمد بن طاهر بالهند، فجاء إلى الشيخ علي المتقي ليخبره بالرؤيا، فقال له قبل أن يتكلم: قد رأيت مثل الذي رأيت.

---

(١) قد يئس الشيخ من أول فتنة حدثت له بسبب تلميذ له خائن، ولم يكن له ذلك فإنه كان يستطيع توظيف غيره قبل أن ينفض يده من ذلك المشروع الإسلامي العظيم الذي قبله السلطان.

(١) وكان يبالغ في الرياضة[1] حتى نقل عنه أنه كان يقول في آخر عمره:
وددت أن لم أفعل ذلك، لما وجده من الضعف في جسده عند الكبر، قال الفاكهيّ: وكان لا يتناول من الطعام إلا شيئاً يسيراً جداً على غاية من التقلل فيه بحيث يستبعد من البشر الاقتصار على ذلك القدر، وما ذاك إلا بملكة حصلت له فيه وطول رياضة وصل بها إليه، حتى كان إذا زيد في غذائه المعتاد ولو قدر فوفلة لم يقدر على هضمه، قال: وكذا كان قليل الكلام جداً، قال غيره: وكان قليل المنام مؤثراً للعزلة من الأنام، إلى أن قال: وكانت ولادته ببرهانپور سنة ثمان وثمانين وثمانمائة، وقيل خمس وثمانين وثمانمائة، ومؤلفاته كثيرة نحو مائة مؤلف ما بين صغير وكبير، ومحاسنه جمة، ومناقبه ضخمة، وقد أفردها العلامة عبد القادر بن أحمد الفاكهيّ في تأليف لطيف سماه «القول النقي في مناقب المتقي» ذكر فيه من سيرته الحميدة ورياضته العظيمة ومجاهداته الشاقة ما يبهر العقول.

(٢) وقال الچلبيّ في «كشف الظنون» في ذكر «جمع الجوامع» للسيوطي:
إن الشيخ العلامة علاء الدين علي بن حسام الدين الهندي الشهير بالمتقيّ رتب هذا الكتاب الكبير كما رتب الجامع الصغير وسماه «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال» ذكر فيه أنه وقف على كثير مما دوّنه الأئمة من كتب الحديث، فلم ير فيها أكثر جمعاً منه حيث جمع فيه بين أصول السنة وأجاد مع كثرة الجدوى وحسن الإفادة وجعله قسمين لكن عارياً عن فوائد جليلة، منها أنه لا يمكن كشف الحديث إلا بحفظ رأس الحديث إن كان قولياً، أو اسم راويه إن كان فعلياً، ومن لا يكون كذلك يعسر عليه ذلك، فبوب أولاً كتاب الجامع الصغير وزوائده وسماه «منهج العمال في سنن الأقوال»، ثم بوب بقية قسم الأقوال وسماه «غاية العمال في سنن الأقوال»، ثم بوب قسم الأفعال من جمع الجوامع وسماه «مستدرك الأقوال»، ثم جمع الجميع في

(١) سيأتي تفسير هذه الرياضة وأنها محاولة التقليل من الطعام إلى الحد الأدنى.

ترتيب كترتيب جامع الأصول وسماه «كنز العمال» ثم انتخبه ولخصه فصار كتاباً حافلاً في أربعة مجلدات.

(١) وقال الچلبيّ في ذكر «الجامع الصغير»: وللشيخ العلامة عليّ بن حسام الدين الهنديّ الشهير بالمتقيّ مرتب الأصل والذيل معاً على أبواب وفصول، ثم رتب الكتب على الحروف كجامع الأصول سماه «منهج العمال في سنن الأقوال» أوله: الحمد لله الذي ميز الإنسان بقريحة مستقيمة، إلخ، وله ترتيب الجامع الكبير يعني جمع الجوامع، انتهى.

وقال عبد الحق بن سيف الدين الدهلوى في «أخبار الأخيار»: إن الشيخ أبا الحسن البكري الشافعي يقول إن للسيوطيّ منّةً على العالمين وللمبتقيّ منة عليه، انتهى.

توفي سنة خمس وسبعين وتسعمائة بمكة المباركة، وعمره سبع وثمانون سنة، وقيل: تسعون سنة.[1].

الأمير فتح الله الشيرازيّ

الشيخ الفاضل العلّامة فتح الله بن شكر الله الشيعيّ الشيرازيّ، أحد العلماء المتبحرين في العلوم الحِكْميّة، ولد ونشأ بشيراز، وقرأ العلم في مدرسة العلامة جمال الدين محمود، ومولانا كمال الدين الشرواني ومولانا كُرد، ولازمهم مدة حتى صار أوحد أبناء العصر واشتهر ذكره في الآفاق، فطلبه علي عادل شاه البيجاپوريّ إلى بلاد الهند وطابت له الإقامة بمدينة بيجاپور مدة طويلة.

ولما قتل علي عادل شاه المذكور وتولى المملكة إبراهيم عادل شاه وكان صغير السن صار لعبة في أيدي الوزراء، فنفى أحدهم فتح الله الشيرازيّ عن بيجاپور فدخل آگره سنة إحدى وتسعين وتسعمائة، فنال

(١) «الإعلام»: ٤/٢٠٩ - ٢١٧.

الحظ والقَبول من أكبر شاه التيموريّ سلطان الهند ووَلِيَ الصدارة سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة، ولقبه أكبر شاه بأمين الملك ثم بعضد الدولة ثمّ بعضد الملك، وأدخله في ديوان الوزارة، ولكن الموت لم يمهله فحزن لموته أكبر شاه وقال: لو كان وقع في أسر الإفرنج وكنت أفديه بالأموال والخزائن كلها لكنت ربحت بإطلاقه من أيديهم بتلك الفدية.

(١) قال ابن المبارك: ولم يكن له نظير في الدنيا، قال: ولو امّحت أسفار القدماء في العلوم الحِكْمية كلها لكان مقتدراً على أن يخترع العلوم ويبدع من تلقاء نفسه، انتهى.

وقال عبد الرزاق في «مآثر الأمراء»: إنه كان مع اقتداره في العلوم المتعارفة ماهراً بالنيرنجات والطلسمات.

(٢) قال: ومن مخترعاته «رحى» كانت تتحرك بنفسها بلا تحريك وتدوير، تطحن الحبوب.

(٣) ومنها المرآة يتراءى فيها الأشكال من القريب والبعيد.

(٤) ومنها أنه اخترع بندقية كانت تطلق اثنتي عشرة طلقة في الدورة الواحدة.

(٥) ومنها أنه أحدث التاريخ الجديد ووضعه على الدورة الشمسية. انتهى.

قال البلگراميّ في «مآثر الكرام»: هو الذي دخل الهند بمصنفات المتأخرين كالمحقق الدوانيّ والصدر الشيرازيّ غياث الدين منصور ومرزا جان، فأدخلها في حِلَق الدرس وتلقاها العلماء بالقبول، انتهى.

ومن مصنفاته «منهج الصادقين» تفسير القرآن بالفارسي، وتكملة حاشية الدوانيّ على تهذيب المنطق، وحاشية على تلك الحاشية.

مات سنة سبع وتسعين وتسعمائة[١].

(١) «الإعلام»: ٤/٢٢٦ - ٢٢٧.

المفتي فيروز الكشميريّ

الشيخ الفاضل الكبير المفتي الحنفيّ الكشميريّ، أحد العلماء المشهورين.

سافر في صغر سنه إلى الحجاز، ولما رجع إلى الهند سكن ببدايون واشتغل بالعلم على من بها من العلماء، وجدّ في البحث والاشتغال حتى برع في كثير من العلوم والفنون واشتهر ذكره في البلاد، فطلبه أكبر شاه التيموريّ سلطان الهند وولاه الإفتاء بكشمير، فسافر إلى بلدته واشتغل بالدرس والإفتاء.

وكان مدرساً محسناً إلى الطلبة مع فضل ودين وعقل ووداعة، استشهد في عهد حسين شاه أحد ولاة كشمير.

(١) وقال محمد قاسم: إن شهادته كانت في سنة ست وسبعين، وبيان ذلك على ما صرح محمد قاسم في تاريخه أن القاضي حبيباً الحنفي - الذي كان صهر الشيخ كمال الدين السيلكوتي - خرج يوم الجمعة من الجامع الكبير يريد زيارة القبور سنة ست وسبعين وتسعمائة، فلقيه يوسف الشيعي خارج البلدة وضربه بالسيف فجرح رأسه، ثم ألقى عليه الضربة ومد القاضي يده فأصابها وقطع أنامله، وذلك من غير عداوة سابقة، فلما سمع حسين شاه هذه القصة أمر له بالسجن واستفتى ملا يوسف والمفتي فيروز وغيرهما من العلماء في أمره، فقالوا: يجوز قتل أمثاله سياسة، وكان القاضي حبيب المذكور حاضراً في ذلك المجلس فقال لهم: وكيف يجوز قتله وأنا حي! فرجموا يوسف الشيعيّ حتى مات.

(٢) وكان أكبر شاه التيموريّ سلطان الهند بعث مرزا مقيم الشيعيّ بالرسالة إلى حسين شاه صاحب كشمير، فشهد عنده القاضي زين الدين الشيعيّ أن العلماء اخطأوا في الإفتاء، فأهانهم مرزا مقيم على رؤوس الأشهاد وآذاهم وفوضهم إلى فتح خان فقتلهم بأمره وشد الحبال في أرجلهم وجرّهم في الأسواق، ولما كان حسين شاه صاحب كشمير شيعياً

رضي بفعله، ثم بعث إلى أكبر شاه جواب ما طلبه منه ومعه بنته، فردها أكبر شاه وقتل مرزا مقيم قصاصاً عن العلماء سنة سبع وسبعين وتسعمائة، انتهى ما ذكره محمد قاسم[1].

قرا حسن الرومي

الأمير الكبير قرا حسن الرومي السلماني المجلس المنصور چنگيز خان، كان من الأتراك، دخل الهند سنة سبع وثلاثين وتسعمائة مع صاحبه مصطفى بن بهرام الرومي واجتمع بالسلطان بهادر شاه الگجراتي بجانپانير ونال منه الحظ والقبول فخدمه زماناً.

ولما قتل بهادر شاه ووَلِيَ المملكة محمود شاه تقرب إليه وخدمه، وسار إلى ديو لقتال الإفرنج تحت قيادة الأمير خداوند خان خواجه صفر الرومي سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وجاهد في سبيل الله وقاتل معه أشد القتال، ولما قتل خداوند خان اجتمع الناس على ولده رومي خان محرم، واعتنى به قرا حسن وعزم أن يتجاوز درجة أبيه في الإمرة والشهرة، فنقب برجاً من القلعة وملأه باروداً وأخبر بـه رومي خان واجتمعـوا على البرج للحرب، فاجتمع لمدده من كل برج، فلما كثروا فيه أمر قرا حسن بالنار فإذا البرج ومن فيه في الهواء مع الطير، وحث قرا حسن على الدخول من حيث انفتح وهمّ رومي خان به لكن بعض الأمراء توقف إما لتقاصر في الهمة أو تحامل البشرية، وبقي الأسف وضاعت المشقة، واتفق بهذا وصول المدد إلى أهل القلعة من صاحب گوه، ودخلت القلعة ثلاثون ألفاً من أهل الإفرنج، ويوم وصولهم أمر قرا حسن بحمل الآلات والعدد التي هي لفتح القلاع إليها وهكذا بقايا الأثقال، والتفت إلى رجال الحرب وقال: خلص وقتنا للسيف والجنة تحت ظلال السيوف، ثم اجتمع برومي خان ودعا له وثبته، ثم دعا رجالاً وكانوا نحو سبعة آلاف وقال: اليوم يوم الرهان، اليوم

---

(1) «الإعلام»: ٤/٢٣١ ـ ٢٣٢.

يوم الامتحان، اليوم يوم الغفران، اليوم يوم رضى الرحمان، افتتحت أبواب الجنان، أشرفت الحور والولدان، ما على الباب رضوان، فادخلوها بسلام آمنين، عباد الله! ما بعد اليوم ملتقى إلا الساعة، ويد الله على الجماعة، فاثبتوا وسارعوا واستعينوا بالصبر ساعة، فإما ثواب المحسنين وإما درجات الأحياء، عند ربهم فرحين، ثم ذكرهم بالأحاديث النبوية، على صاحبها السلام والتحية، ثم قال: عباد الله! فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً، ثم ذكرهم بما قال خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ عند موته، وقرأ الفاتحة وصلىّ على النبي ﷺ وكبر وكبروا، وتقدم إلى موقف يرضاه الله ورسوله، ولحق به دولت خان وبرهان الملك وأصحابهما، قال الآصفيّ: وبعد ارتفاع الشمس قيد رمح خرج من القلعة بيرزى صاحب گوه وبين يديه ثلاثون ألفاً، ومدافع القلعة تشتعل نارها، وتتطاير من الأغربة شرارها، فاعتكر الجو وأظلم، عند ذلك زحف حزب الله وقد أعلوا التكبير وشقوا الغبار وجلوا ذلك الظلام ببوارق الأسنة والحسام، ولما انتهوا إلى الصفوف حطموا بالسيوف، وقطعوا الحناجر بالخناجر، وجالوا جولة الأسد، وحالوا بين الروح والجسد، وكشفوا العدى وحملوا منهم الصف على الصف حتى بلغوا العَلَم، فكانت شدة قضت بما القلم به جف، وسببها كان في المسلمين قلة العدد وفي المشركين كثرة فيه وفي العدد، وبلغ الشهادة منهم ألف ومائتان، وقتل من الفرنج في الحصار ألف وسبعمائة، وفي الصف أحد عشر ألفاً ومائة، ولو وقف برهان الملك في المعركة بأصحابه لكان ظهيراً للمسلمين لكنه في نزول أهل الأغربة[1] إلى الساحل من طرشة بنادقهم رد وجهه مدبراً بحزبه، فكأنه في أجنحة العصافير فزعاً تطير به، وخلى ظهر أهل الزحف فاقتفاه أهل الأغربة، فصاروا كالمركز في الدائرة، فانحازوا إلى الجسر وتكاثروا عليه، وكان ممدوداً من خشب فانكسر بالمارة عليه، فوقعوا في الخندق، وكانت أسياخ من حديد مركوزة فيه، فهلك بها من سقط، وكان منهم رومي

(١) السفن.

خان، واستشهد دولت خان في المعركة، وأما قرا حسن فإنه خرج من طريق يعرفه على الخندق وكان آخر الناس خروجاً، فمن تبعه نجا، وبلغ من سقط في الخندق ثلاثمائة رجل، فكان جملة الهالكين ألفاً وخمسمائة، والجريح ألفاً، والخارج بالسلامة مع قرا حسن أربعة آلاف وخمسمائة، وبات قرا حسن بنوا نگر واجتمع الغريب عليه وظل يومه بها، وتلافى الجريح بالجرائحي وتفقد سائر الناس بمواصلة النقد من الخزانة وأمسى بها، وأصبح سائراً إلى أحمد آباد بالمدافع والأثقال.

(١) ولما اجتمع بالسلطان استدناه واستخبره عن الحادثة، فكان هو يحكي والسلطان يبكي، فلما نجز بيانه استرجع السلطان واستدعى بأصحابه وخلع على الجميع[1] وجعل قرا حسن أميراً على المدافع ولقبه بالمجلس المنصور جنگيز خان في يومه، وأمره بصب المدافع التي يتأتى به فتح ديو، وأمر حكام البنادر بمنع الفرنج من المساكنة والتردد، وحكم بجمع خشب الساج لنجر الأغربة وابتدأ بنجرها حكام سورت ثم بهروج وكوكه والدمن وكنباية.

وشرع جنگيز خان في صب المدافع، ففي عام فرغ من عمل مائة مدفع مكتوب على كل واحد جنگيز محمود شاه، ونادى ببراءة الذمة ممن يعامل الفرنج أو يتجر لهم أو يساكنهم في ديو من مسلم وكافر أو يحمل إلى ديو من المنافع شيئاً، وبهذا تعطل ديو وعمرت نوانگر وسكنها العسكر وبنيت بها قلعة في غاية الاستحكام، ولم نقرأ له شيئاً من الأخبار بعد ذلك في كتب التاريخ والتراجم[2].

الفاكهيّ

الشيخ الفاضل العلامة محمد بن أحمد بن عليّ الحنبليّ الفاكهيّ المكيّ أبو السعادات الگجراتيّ، كان من كبار العلماء.

---

(١) أي كافأهم.

(٢) «الإعلام»: ٤/٢٣٧ - ٢٤٠.

ذكره عبد القادر الحضرمي في «النور السافر»، قال: إنه ولد سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، وكانت له اليد الطولى في جميع العلوم، وإنه قرأ في المذاهب الأربعة، ومن شيوخه الشيخ الكبير المحقق العلامة أبو الحسن البكريّ، وشيخ الإسلام ابن حجر الهيتميّ والشيخ محمد بن الخطاب في آخرين من أهل مكة وحضرموت وزبيد يكثر عددهم، ويقال إن الذين أخذ عنهم يزيدون عن تسعين وأجازوه، ومقروءاته كثيرة جداً لا تنحصر.

(١) ومن محفوظاته: الأربعين النواوية، والعقائد النسفية، والمقنع في فقه الحنابلة، وجمع الجوامع في أصول الفقه، وألفية ابن مالك في النحو، وتلخيص المفتاح في المعاني والبيان، والشاطبية في القراءات، ونور العيون في السير لابن سيد الناس، وكان يحفظ القرآن الكريم، ويقرأ للسبعة مع التجويد، ونظم ونثر، وألفّ غير واحدة من الرسائل المفيدة، منها رسالة تكلم فيها على آية الكرسيّ وهي مفيدة جداً، ومنها شرح مختصر الأنوار المسمى نور الأبصار في فقه الشافعية، ومنها رسالة في اللغة، ومنها كتاب جليل جعله باسم باب السلاطين، ورزق الحظ في زمانه.

(٢) سمعته يقول: الأنس بالله نور ساطع والأنس بالناس سمع قاطع، رحمه الله.

(٣) ومن غرائب الاتفاق أنه قال: حضرت بعض مجالس الوزراء فوقع الكلام في الاستفهام الإنكاري فقال بعض أهل العلم: هذا كقوله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وأشار إليّ بالتعريض، ففهمت منه ذلك فاستخضرت حينئذٍ وقلت مخاطباً له: وقوله تعالى ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعده الله أفلا تذكرون﴾ فخجل ذلك الرجل.

قال الحضرميّ: وكان والدي يسميه: شيخ الإسلام، وكان جواداً، قال بعضهم: ما رأيت أسخى منه، وقال آخر: ما أظن أحداً من الأشراف

والعرب دخل الهند إلا وله عليه إحسان، وكان لا يمسك شيئاً، ولذلك كان كثير الاستقراض، وكان يغلب عليه الحدة، وكان من شدة تواضعه لأصحابه ربما ينسبونه إلى التملق، وكان له عقيدة مفرطة في السادة آل باعلوى وذهب إلى حضرموت لزيارتهم فلقي جماعة من أعيانهم وعادت عليه بركتهم ودخل الهند وأقام بها مدة مديدة، ثم رجع إلى وطنه مكة المشرفة في سنة سبع وخمسين فحج ذلك العام وزار النبي ﷺ، ثم حج في السنة التي تليها وعاد إلى الهند في سنة ستين وتسعمائة فأقام بها إلى أن توفي إلى رحمة الله سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة بمدينة أحمد آباد فدفن بها[1].

محمد بن طاهر الفتّنيّ

الشيخ الإمام العالم الكبير المحدث اللغوي العلامة مجد الدين محمد بن طاهر ابن علي الحنفي الفتنيّ الگجراتيّ صاحب «مجمع بحار الأنوار في غريب الحديث» الذي سارت بمصنفاته الرفاق واعترف بفضله علماء الآفاق.

ولد سنة ثلاث عشرة وتسعمائة بفتن من بلاد گجرات ونشأ بها، وحفظ القرآن وهو لم يبلغ الحنث، واشتغل بالعلم على أستاذ الزمان ملا مهته والشيخ الناكوريّ والشيخ برهان الدين السمهوديّ وعلى غيرهم من العلماء، ومكث كذلك نحو خمس عشرة سنة حتى برع في فنون عديدة وفاق أقرانه في كثير منها، ورحل إلى الحرمين الشريفين سنة أربع وأربعين وتسعمائة فحج وزار وأقام بها مدة، وأخذ عن الشيخ أبي الحسن البكريّ والشهاب أحمد بن حجر المكيّ والشيخ علي بن عراق والشيخ جار الله بن فهد والشيخ عبيد الله السرهنديّ والسيد عبد الله العيدروس والشيخ برخور دار السندى، ولازم الشيخ عليّ بن حسام الدين المتقيّ وأخذ عنه وذكره في مبدء كتابه «مجمع البحار» ورجع إلى الهند وقصر همته عن التدريس والتصنيف، وكان طريقه الاشتغال بعمل المداد إعانة لكتبة العلم بها.

---

(١) «الإعلام»: ٤/٢٥٢ - ٢٥٤.

قال الحضرميّ في «النور السافر»: إنه كان على قدم من الصلاح والورع والتبحر في العلم، قال: وبرع في فنون عديدة وفاق الأقران حتى لم يعلم أن أحداً من علماء گجرات بلغ مبلغه في فن الحديث، كذا قاله بعض مشايخنا.

(١) قال: وورث عن أبيه مالاً جزيلاً فأنفقه على طلبة العلم الشريف، وكان يرسل إلى معلم الصبيان ويقول: أي صبي حسن ذكاؤه وجَيِّدٌ فهمه أرسله إليّ، فيرسل إليه فيقول له: كيف حالك؟ فإن كان غنياً يقول له: تعلم، وإن كان فقيراً يقوله له: تعلم ولا تهتم من جهة معاشك، أنا أتعهد أمرك وجميع عيالك على قدر كفايتهم، فكن فارغ البال واجتهد في تحصيل العلم، فكان يفعل ذلك بجميع من يأتيه من الضعفاء والفقراء ويعطيهم قدر ما وظفه، حتى صار منهم جماعة كثيرة علماء ذوي فنون كثيرة، فأنفق جميع ماله في ذلك.

(٢) وحكي أنه في أيام تحصيله قاسى من الطلبة وغيرهم شدائد فنذر إن رزقه الله سبحانه علماً ليقومن بنشره ابتغاء لمرضاة الله سبحانه، فلما تم له ذلك فعل كذلك وقام به احتساباً لله، فانتفع بتدريسه عوالم لا تحصى، رحمه الله، انتهى.

(٣) وكان رحمه الله من البوهرة المتوطنين بگجرات الذين أسلم أسلافهم على يد الشيخ علي الحيدريّ المدفون بكنباية، ومضى لإسلامهم نحو سبعمائة سنة، وعامتهم يكسبون المعاش بالتجارة وأنواع الحرف، كما يدل عليه اسم البوهرة، وهي مشتقة من بِيوهَار في لغة أهل الهند معناه التجارة، وهم في العقائد على مذهب الشيعة الإسماعيلية وبعضهم سنيون، أرشدهم إلى طريق أهل السنة جعفر بن أبي جعفر الگجراتي وكان إسماعيلياً هداه الله سبحانه فقام بنصر السنة جزاه الله عنا وعن سائر المسلمين، والشيخ محمد بن طاهر كان من أهل السنة والجماعة.

(١) وكان رحمه الله عزم على دفع المهدوية[1] وعهد أن لا يلوث على رأسه العمامة حتى تموت تلك البدعة التي عمت بلاد گجرات وكادت أن تستولي على جميع جهاتها، فلما فتح أكبر شاه التيموريّ بلاد گجرات سنة ثمانين وتسعمائة واجتمع بالشيخ محمد بن طاهر عممه بيده وقال له: على ذمتي نصرة الدين وكسر الفرقة المبتدعة وفق إرادتك، وولى على گجرات مرزا عزيز الدين أخاه من الرضاعة، فأعان الشيخ وأزال رسوم البدعة ما أمكن، فلما عزل مرزا عزيز ووَلِيَ مكانه عبد الرحيم بن بيرم خان اعتضد به المهدوية وخرجوا من الزوايا، فنزع الشيخ عمامته وسافر إلى آگره، وتبعه جمع من المهدوية سراً وهجموا عليه في ناحية أجين فقتلوه.

(٢) وله مصنفات جليلة ممتعة أشهرها وأحسنها كتابه «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار» في مجلدين كبيرين، جمع فيه كل غريب الحديث وما ألف فيه، فجاء كالشرح للصحاح الستة، وهو كتاب متفق على قبوله بين أهل العلم منذ ظهر في الوجود، وله منة عظيمة بذلك العمل على أهل العلم. ومنها «تذكرة الموضوعات» في مجلد كبير، ومنها «المغنى في أسماء الرجال».

توفي سنة ست وثمانين وتسعمائة ببلدة أجين، فنقلوا جسده إلى فتن ودفنوه بمقبرة أسلافه[2].

محمد بن يوسف الجونپوري

الشيخ محمد بن يوسف الحسيني الجونپوري المتمهدي المشهور بالهند.

ولد سنة سبع وأربعين وثمانمائة بمدينة جونپور، وحفظ القرآن

---

(١) هم طائفة مبتدعة من أهل الهند تكلم عليهم المصنف في الترجمة الآتية بعد هذه، فانظرهم هناك.

(٢) «الإعلام»: ٤/٢٦٥ ـ ٢٦٨.

واشتغل بالعلم على الشيخ دانيال بن الحسن العمري البلخي وبرز في الفضائل وله خمس عشرة سنة.

وكان ذا جرأة ونجدة في البحث والتدقيق ولذلك لقبوه بأسد العلماء، اشتغل بالدرس والإفادة مدة، وأخذ الطريقة عن شيخه دانيال، واجتهد في الرياضة والمجاهدة مدة من الزمان، ثم ترك الأهل والوطن وسافر مع عياله وأصحابه إلى أودية الجبال، وجاب الأغوار والأنجاد مدة مديدة، وادعى في أثناء السفر أنه مهديّ، ثم قدم چنديري ـ وكانت مدينة كبيرة من بلاد مالوه ـ واشتغل بالوعظ والخطابة، فمال إليه الناس وصار محسوداً بين المشايخ، فحرضوا الولاة على نفيه من تلك البلدة فدخل مندو دار ملك مالوه ومال إليه غياث الدين شاه الخلجيّ، وبايعه الشيخ إله داد، فعظمت بذلك رتبته.

ثم رحل إلى بلدة جانپانير من بلاد گجرات، وشدد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الناس إلى الزهد والتجريد والاستقامة على الشريعة الغراء، فعزم محمود شاه الكبير أن يحضر مجلسه، فلما رأى العلماء ميله إليه منعوه عن ذلك القصد وأنكروا عليه.

ثم دخل گلبرگه وسافر إلى الحرمين الشريفين، وادعى بمكة المباركة مرة ثانية أنه مهديّ وقال: من تبعني فهو مؤمن، فكان أول من آمن به الشيخ نظام والقاضي علاء الدين، وكان ذلك سنة إحدى وتسعمائة، ثم رجع إلى الهند وأقام بأحمد آباد گجرات، واشتغل بالتذكير حتى بايعه خلق لا يحصون بحد وعد، وادعى هناك مرة ثالثة على رؤوس الأشهاد أنه مهدي، وذلك في سنة ثلاث وتسعمائة، فاتفق العلماء على نفيه من البلد، فنفاه محمود شاه الكبير الگجراتي من أحمد آباد، فرحل إلى قرية سوله سانيج ثم إلى بلدة فتن ثم إلى قرية بدلى على ثلاثة أميال من فتن وادعى فيها مرة رابعة أنه مهدي، من أنكره فقد كفر، فتعقبه العلماء وباحثوه ونفوه من ذلك المقام أيضاً، فرحل إلى بلاد السند ودخل الناس في دينه أفواجاً، فأمر بقتله صاحب السند فشفع له ندماؤه، وأمر بإخراجه من أرض السند،

فرحل إلى خراسان ومعه ثمانمائة رجل من أصحابه، فلما وصل إلى قندهار أمر واليها مرزا شاه بيگ أن يحضر في الجامع الكبير بمحضر من العلماء، فأحضروه فذكر وبكى وأبكى الناس، ومال إليه مرزا شاه بيگ فخلى سبيله، فرحل إلى بلدة فراه وحضر لديه الأمير ذو النون فحال بينه وبين السفر، وبعث إلى السلطان حسين مرزا ملك خراسان يسأله في أمره وانتظر جوابه، واستمر على ذلك تسعة أشهر، وتوفي بها السيد محمد صاحب الترجمة قبل أن يصل جواب السلطان، فانتشر أصحابه في الآفاق واجتهدوا في الدعوة إلى طريقته ودخل الناس فيها، وبقيت بقيتهم إلى يومنا هذا في بلاد دكن وگجرات.

واختلف الناس في شأنه، وقال اللاهوري في «خزينة الأصفياء»: إنه قال: أنا مهديّ في غلبة الحال، ولكنه تاب عن ذلك القول في حالة الصحو والإفاقة كغيره من الصوفية، وأما أصحابه الجهلة فإنهم لم يعتبروا إقالته فأصروا على أنه مهدي موعود، وضلوا عن الطريق وأضلوا كثيراً من الناس، واخترعوا مذهباً جديداً، وانتسبوا إلى الفرقة المهدوية.

وقال أبو رجاء محمد الشاهجهانپوري في «الهدية المهدوية»: إن الجونپوري لم يمنع أصحابه عن ذلك، وبدل اسم أبيه بعبد الله واسم أمه بآمنة، وأشاعها في الناس، وصنف كتباً في أصول ذلك المذهب، ثم نقل أبو رجاء أصول ذلك المذهب في كتابه، واقتبس تلك الأصول عن كتبهم، منها أنه مهديّ موعود، وأنه أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، بل أنه أفضل من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى على نبينا وعليهم السلام، ومنها أنه كان مساوياً لسيدنا محمد ﷺ في المنزلة وإن كان تابعاً له في الدين، ومنها أن ما خالف من الكتاب والسنة قوله وفعله فهو غير صحيح، ومنها أن تأويل كلامه حرام وإن كان مخالفاً للعقل، ومنها أن الجونپوري وسيدنا محمداً ﷺ كلاهما مسلمان كاملان وسائر الأنبياء ناقصو الإسلام، ومنها أن الإنسان إن لم يشاهد الأنوار الإلهية بالعين أو

بالقلب في اليقظة أو في المنام فليس بمؤمن، ومنها أن الواجب على كل مسلم أن يهجر وطنه ويختار صحبة الصادقين بعد الهجرة، ومنها أن الجونپوريّ شريك في بعض الصفات الإلهية بعد فوزه بمنصب الرسالة والنبوة، انتهى بقدر الحاجة[1].

كانت وفاة الجونپوري سنة عشر وتسعمائة[2].

السلطان محمود بن محمد الكجراتيّ

السلطان العادل المجاهد أبو الفتح سيف الدين محمود بن محمد بن أحمدَ الگجراتي المشهور بمحمود بيكره.

كان من خيار السلاطين، ولد بگجرات سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وقام بالملك بعد داود شاه سنة اثنتين وستين وثمانمائة وكان يوماً مشهوداً، واستقل بالملك خمساً وخمسين سنة، وفتح قلعة باردو وفتح قلعة كرنال وكانت من أمنع قلاع الهند، وأنشأ مدينة في سفح الجبل وسماها مصطفى آباد وجعلها دار المملكة.

(١) وفتح قلعة بِيت ودوارْكا وفيها صنم من أشهر أصنام المشركين في الهند، يحجون إليه ويرون من العبادة تكلف المشاق في الوصول إليها، حتى إن منهم من ينبطح على وجهه ويمد يديه أمامه ويقف ثم يضع قدمه على منتهى يده وينبطح ويمد يده ويقف، وهكذا يقطع الطريق إليها ولو من مسافة أشهر، فملكها سنة خمس وثمانين وثمانمائة، وسار إلى جانپانير وحاصر قلعتها، وكانت قلعة حصينة متينة على قلة جبل[3] لا تكاد تفتح، فضيق في الحصار وحاصرها مدة طويلة حتى فتحها سنة تسع وثمانين وثمانمائة، وأنشأ مدينة بسفح الجبل وسماها محمد آباد وجعلها دار

---

(١) إن صحّ هذا فهو كفر صراح، والعياذ بالله.

(٢) «الإعلام»: ٤/٢٨٦ - ٢٩٠.

(٣) رأس جبل.

المملكة، فكان يقيم بها سنة وفي مصطفى آباد سنة، وذلك لقرب السند منه.

(١) ومن مآثره الجميلة قيامه بالعدل والإحسان وإنفاذ أمر الشرع في السياسة، ومما يحكى عنه في ذلك أنه بلغه عن بهاء الملك بن علاء الملك ألغ خان سهراب أنه قتل سلاحداراً[1] له فطلبه، فلاذ بعماد الملك وعضد الملك واستجار بهما، فلم يجدا لخلاصه سبيلاً سوى نسبة القتل إلى غيره، فأرضيا شخصين على ضمان الخلاص لهما، وبعد الإقرار به سعياً في الدية وكانا عوّلا عليها في الخلاص فلم تقبل الدية ومضى الحكم بقتلهما وخلص بهاء الملك، وبعد يسير وقف محمود شاه على حقيقة الحال وتعب إلى الغاية وجلس للقضاء وأمضى في الملكين حكم القصاص، ولم يمنعه كونهما من عظماء ملوكه الخاصة به من أن يعمل بالشريعة.

(٢) من مكارمه أنه استقل بالملك خمساً وخمسين سنة وجاهد في الله حق الجهاد ووسع حدود ملكه إلى مالوه وإلى بلاد السند كما علمت، ولكنه في تلك المدة الطويلة لم يطمح إلى بلاد المسلمين ولم يستشرف لها قط، وإذا استولى القويّ منهم على الضعيف قام بنصرة الضعيف، كما وقع له في سنة ست وستين وثمانمائة إذ وصل إليه حاجب نظام شاه البهمنيّ صاحب دكن يخبره أن محمود شاه الخلجيّ صاحب مالوه خرج إليه بعساكره، فعطف السلطان عنانه من الصيد وتوجه إلى سلطان پور بمن حضر معه، وأمر الوزير أن يلحقه بالعسكر، ولما نزل بسلطان پور قدم حاجب آخر يخبر بالحرب وأنه حاصر دار ملكه بيدر، فنهض السلطان من سلطان پور، ولما كان منزله تهالنير قدم حاجب آخر يخبر برجوع الخلجيّ، وذلك لأنه سمع بوصول محمود شاه الگجراتي فترك بيدر ورجع إلى مندو، وكذلك في سنة سبع وستين وثمانمائة وصل حاجب نظام شاه يخبر أن الخلجيّ خرج بتسعين ألف فارس إلى حدود نظام شاه، فنهض السلطان مع الحاجب وبلغ

---

(١) أي حافظ الأسلحة ومتوليها.

الخلجيّ ذلك بفتح آباد من أعمال تلنگانه فرجع إلى دار ملكه، فكتب السلطان إلى محمود شاه الخلجيّ ما معناه: ليس من المروءة قصد طفل لم يبلغ الحلم وقد التزمت حفظ ملكه إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، فإن دخلت في حده خرجت إلى حدك وفيما يليك من جهات الكفر ما يغني عنه ويرفع درجتك بالجهاد.

وإذا انتهيت إلى السلا   مة في مداك فلا تجاوز

(١) وكذلك لما بلغ محمود شاه سنة سبع وسبعين وثمانمائة خروج النوتك القواسه على سلطان السند بلغ عددهم أربعين ألفاً، وهي طائفة بحرية تسكن الجزر بنواحي السند، لا تجتمع على طاعة أحد، إنما هي من لصوص البحر، فنهض من مصطفى آباد يسير كل يوم ستين فرسخاً، فلما قرب من السند تفرقوا، فتوقف السلطان بمنزله إلى أن وصل رسول ملك السند برسالة تتضمن شكره، فرجع إلى دار ملكه، وكذلك لما بلغه أن جماعة من الأمراء تغلبت في خانديس واختل بها نظام الملك نهض إلى برهانپور بعساكره، وولى عليها عالم خان بن أحسن خان الفاروقي أحد وارثي المملكة، ولقبه أعظم همايون عادل خان، وكان ابن بنته، وذلك في سنة أربع عشرة وتسعمائة.

(٢) ومن ذلك أنه لما توفي محمود شاه الخلجي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وبلغ وفاته ترحم عليه فعرض عليه بعض أرباب الرأي الخروج إلى مندو، فأجابه: ليس من الفتوة اجتماع مصيبتين في وقت واحد على أهل بيته: فقد ذاته، وخلل جهاته.

(٣) ومن ذلك أنه لما سمع سنة ست وتسعمائة أن ناصر الدين شاه الخلجي سم أباه غياث الدين الخلجي خرج إلى مندو وقصد تأديبه لا ملكه، وبينما كان ينهض تواترت الرسل من ناصر الدين ببراءة ذمته فتركه، وفي كلها مفخرة عظيمة له.

(١) ومن مكارمه قيامه بتعمير البلاد، وتأسيس المساجد والمدارس والخوانق، وتكثير الزراعة، وغرس الأشجار المثمرة، وبناء الحدائق والبساتين وتحريض الناس على ذلك، وإعانتهم بحفر الآبار وإجراء العيون، ولذلك أقبل عليه الناس إقبالاً كلياً، ووفد عليه البناؤون والمعمارون وأهل الحرف والصنائع من بلاد العجم، فقاموا بحرفهم وصنائعهم، فصارت گجرات رياضاً مخضرة بكثرة الحياض والآبار والحدائق والزروع والفواكه الطيبة، وصارت بلاد گجرات متجرة تجلب منها الثياب الرفيعة إلى بلاد أخرى، وذلك كله لميل سلطانها محمود شاه إلى ما يصلح به الملك والدولة ويترفّه به رعاياه.

ومن مكارمه قيامه بتربية العلماء والصالحين لما كان مجبولاً على حب العلم وأهله، فاجتمع في حضرته خلق كثير من أفاضل العرب والعجم، حتى صارت بلاد گجرات عامرة آهلة من العلماء، ووفد عليه المحدثون من بلاد العرب، وأقبل الناس على الحديث الشريف، فتشابهت باليمن الميمون، وفاقت على سائر بلاد الهند في ذلك.

وكان غاية في العفة والحياء، حسن الأخلاق عظيم الهمّة كريم السجية شريف النفس كثير البر والإحسان.

(٢) وكان أنشأ لمضجعه قبة يتعهدها أحياناً وفي هذه النوبة فتح القبر وجلس عنده وقال: اللهم إن هذا أول منازل الآخرة فسهله واجعله من رياض الجنة، ثم ملأه فضة وتصدق بها، قال الآصفي: وفي سنة سبع عشرة شكى ضعفاً، فاستحضر ولده مظفراً وكان ببروده، وأسند الوصية إليه، فعوفي فرجع مظفر إلى بروده، ثم شكى الضعف، ثم أمر بطلب مظفر وقبل وصوله بساعة فلكية فارق الدنيا.

وكانت وفاته سنة سبع عشرة وتسعمائة وله ثمان وستون سنة، ومدة سلطنته خمس وخمسون سنة[١].

---

(١) «الإعلام»: ٤/٣٠٤ - ٣١٠.

محمود بن محمود الگجراتي

الشيخ الفاضل العلامة محمود بن محمود العباسي الحكيم شهاب الدين بن شمس الدين السندي ثم الگجراتي أحد كبار العلماء، ذكره عبد القادر الحضرمي في «النور السافر»، قال: إنه كان آية في الحكمة والمعالجات، وحكى أن بعض السلاطين أهدى إلى السلطان محمود صاحب گجرات أشياء نفيسة من جملتها جارية وصيفة، فأعطاها السلطان بعض الوزراء، فاتفق أن الحكيم المذكور جس نبضها قبل أن يمسها ذلك الوزير فحذره عن ذلك وقال: إن من يجامعها سيموت، فأرادوا تجربته في ذلك فجاؤوا بعبد وأدخلوه عليها فمات لوقته، فازداد تعجب الوزير لذلك وسأله عن السبب فيه فقال: إنهم أطعموا أمها في حملها بها أشياء ورثت ذلك وأن مهديها قصد هلاك السلطان، قال الحضرمي: فلله دره من طبيب ما أحذقه.

وكانت وفاة الحكيم سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة بأحمد آباد[1].

السلطان مظفر الحليم الگجراتي

السلطان الفاضل العادل المحدث الفقيه مظفر بن محمود بن محمد الگجراتي أبو النصر شمس الدين مظفر شاه الحليم صاحب الرياستين.

ولد سنة خمس وسبعين وثمانمائة بأرض گجرات، ونشأ في مهد السلطة ورضع من لبان العلم وترعرع وتنبل في أيام أبيه، وقرأ على مجد الدين محمد بن محمد الإيجيّ العلامة وعلى غيره من العلماء، وأخذ الحديث عنه وعن الشيخ جمال الدين محمد بن عمر بن المبارك الحميري الحضرمي الشهير ببحرق، وتدرب في الفنون الحربية، حتى فاق أسلافه في العلم والأدب وفي كثير من الفعال الحميدة، وقام بالملك بعد والده سنة

(١) «الإعلام»: ٤/٣١٠ - ٣١١.

سبع عشرة وتسعمائة من الهجرة، وافتتح أمره بالعدل والسخاء والنجدة والجهاد وسد الثغور وإكرام العلماء.

وكان غاية في التقوى والعزيمة والعفو والتسامح عن الناس، ولذلك لقبوه بالسلطان الحليم، وكان جيد القريحة سليم الطبع حسن المحاضرة مشاركاً في أكثر العلوم والفنون، ماهراً في الفنون الحربية من الرمي والضرب بالسيف والطعن بالرماح والفروسية والمصارعة خطاطاً جيد الخط، كان يكتب النسخ والثلث والرقاع بكمال الجودة، وكان يكتب القرآن الحكيم بيده ثم يبعثه إلى الحرمين الشريفين، وحفظ القرآن في حياة والده في أيام الشباب.

وكان يقتفي آثار السنة السنية في كل قول وفعل، ويعمل بنصوص الأحاديث النبوة، وكثيراً ما يذكر الموت ويبكي، ويكرم العلماء ويبالغ في تعظيمهم، كان لا يحسن الظن بمشايخ عصره في بداية حاله ثم مال إليهم.

ولم يزل يحافظ على الوضوء ويصلي بالجماعة ويصوم رمضان، ولم يقرب الخمر قط، ولم يقع في عرض أحد، وكان يعفو ويسامح عن الخطائين، ويجتنب الإسراف والتبذير وبذل الأموال الطائلة على غير أهلها.

(١) وكان كثير التفحص عن أخبار الناس عظيم التجسس عن أخبار الممالك، وربما يغير زيه ولباسه ويخرج من قصره آناء الليل والنهار ويطلع على الأخبار ويستكشف الأسرار.

(٢) قال الآصفي: إنه وصل إليه يوماً من القاضي بجانپانير رسول الطلب وقد تظلم منه مَن يتجر في الخيل فكما بلغه وعلى ما كان عليه في حال الخلوة أجاب الرسول وخرج ماشياً إلى مجلس القاضي وجلس مع خصمه بين يديه، وادعى التاجر عليه أنه لم يصله ثمن أفراسه، وثبت ذلك وأبي التاجر أن يقوم من مجلسه قبل أداء الثمن وحكم القاضي به، فمكث السلطان مع خصمه إلى أن قبض التاجر الثمن، وكان القاضي لما حضر

السلطان المحكمة وسلم عليه لم يتحرك من مجلسه، وما كفاه ذلك حتى أنه أمره أن لا يترفع على خصمه ويجلس معه والسلطان لا يخرج عن حكمه، ولما قبض التاجر الثمن وسأله القاضي، هل بقيت لك دعوى عليه؟ وقال: لا، عند ذلك قام القاضي من مجلسه وسلم على سلطانه على عادته فيه ونكس رأسه فيما يعتذر به، فقام السلطان من مجلسه مع الخصم وأخذ بيد القاضي وأجلسه في مجلس حكمه كما كان، وجلس إلى جنبه وشكره على عدم مداهنته في الحق حتى أنه قال: لو عدلت عن سيرتك هذه رعاية لي لانتصفت للعدالة منك وأنزلتك منزلة آحاد الناس لئلا يأتسي بك بعدك غيرك، فجزاك الله عني خيراً بوقوفك مع الحق! فمثلك يكون قاضياً، فأثنى عليه القاضي، وقال: ومثلك يكون سلطاناً.

(١) قال الآصفيّ: ومن بره المستفيض لأهل الحرمين الشريفين أنه نجر مركباً وشحنه بالقماش المثمن وأرسله إلى بندر الحجاز جدة، وجعله وما فيه صلة لهم، وله بمكة المشرفة رباط يشتمل على مدرسة وسبيل وعمارة غيرها، وعين وقفاً يتجهز محصوله إلى مكة في كل موسم للمدرسين بمدرسته والطلبة وسكنة الخلاوى وخدم السبيل وما في معناه، وكان ذلك مستمراً في أيامه.

(٢) ومن نوادر أفعاله أنه لما تغلب (مندلي رأى) على بلاد مالوه ضيّق على المسلمين وخرج محمود شاه الخلجيّ صاحب مالوه من بلاده هارباً عنه إلى گجرات نهض السلطان مظفر الحليم من بلاده إلى مالوه سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة بعساكره فوصل إلى دهار ثم إلى مندو ونزل على القلعة وشرع في المحاصرة، وأما (مندلي رأى) فإنه لما بلغه نزول السلطان بديوله قال لأصحابه: قرب منا المظفر ولا سبيل إلى الحرب إلا إذا حضر رانا سانگا صاحب چتور فاكفوني أنتم القلعة وأنا أسير إليه وأصل به، وعلى هذا ودعهم وعزم لطلبه، فلما نزل السلطان على القلعة خرج يوماً فوج فيه نخبة من رجال القلعة على أن يفتكوا بالمسلمين وكانوا حذرين فشدوا

عليهم وقتلوا منهم كثيراً وهرب الباقون وتركوا السيف واعتمدوا الخديعة فطلبوا الأمان لتسليم القلعة وترددوا فيه أياماً ثم سألوا الأمان لأموالهم، فلما أجيبوا طلبوا المهلة لجمعة ثم سألوا التباعد عن القلعة ليأمنوا في الخروج، ولما فعل ذلك بلغه وصول رانا سانگا إلى أجين فغضب السلطان وركب إلى ربوة مرتفعة هناك وجلس عليها، وأما الأمراء فكل منهم في سلاحه الكامل في ظل علمه واقف تحت الربوة، فطلب من بينهم عادل خان الفاروقي صاحب برهانپور وقلده إمارة العسكر المجهز لحرب صاحب چتور وخلع عليه وقلده سيفاً وحياصة ومجناً وتسعة من الخيل وحلقة من الأفيال وأوصاه وودعه، وكذلك طلب فتح خان صاحب رادهن پور وأعطاه مثله، وكذلك طلب قوام خان ثم أوصاهما بعادل خان وودعهما، ثم استدعى عسكر هؤلآء ووعدهم جميلاً، وخص وجوه العسكر بالأقبية، وأمر بسائرهم بالتنبل على عادة الهند في الرخصة لهم، ونهض إلى منزله الأول وجد في أسباب الفتح، ودخل القلعة عنوة في ثاني يوم نزوله، وعمل السيف فيهم، وكان آخر أمرهم أنهم دخلوا مساكنهم وغلقوا الأبواب وأشعلوها ناراً فاحترقوا وأهليهم، والسلطان تحت المظلة وهكذا محمود وهما يسيران رويداً رويداً والدماء تسيل كالعين الجارية في سكك القلعة من كل جانب إلى مخارج الماء منها، وبلغ عدد القتلى من الكفرة تسعة عشر ألفاً سوى من غلق بابه واحترق وسوى أتباعهم، فلما وصل السلطان إلى دار سلطنة الخلجي التفت إليه وهنأه بالفتح وبارك له في الملك وأشار بيده المباركة إلى الباب وقال له: «بسم الله ادخلوها بسلام آمنين» وعطف عنانه خارجاً من القلعة إلى القباب، ودخل الخلجي منزله واجتمع بأولاده وأهله وسجد شكراً لله سبحانه، فلما بلغ (مندلي رأى) شهق شهقة وغشي عليه وسمع رانا سانگا بعادل خان وقد قرب من أجين فاضطرب وقال لمندلى رأى: ما هذه الشهقة؟ قد قضي الأمر فإن عزمت على أن تلحق بأصحابك فها عادل خان يسمع نفيره وإلا فأدرك نفسك، ثم أمر به فحمل على فيل وخرج من أجين إلى جهاته خائباً سعيه، وتبعه عادل خان إلى ديالپور وتوقف بها حتى

جاءه الطلب.

(١) ثم إن الخلجي تفقد ذخائره وهيأ الضيافة ونزل إلى مظفر شاه السلطان وسأله التشريف بالطلوع فأجابه، فلما فرغ من الضيافة دخل به العمارات التي من آثار أبيه وجده، فأعجب بها وترحم عليهم، ثم جلسا في جانب منه وشكره الخلجي وقال: الحمد لله الذي بهمتك رأيت بعيني ما كنت أتمناه بأعدائي ولم يبق لي الآن أرب في شيء من الدنيا والسلطان أولى بالملك مني وما كان له فهو لي فأسالك قبول ذلك وللسلطان أن يقيم به من شاء، فالتفت السلطان إليه وقال له: أول خطوة خطوتها إلى هذه الجهة كانت لله تعالى، والثانية كانت لنصرتك وقد نلتها فالله يبارك لك فيه ويعينك عليه! فقال الخلجيّ: خلا الملك من الرجال فأخشى ضياعه، فأجابه مظفر شاه المظفر الحليم وقال له: أما هذا فمقبول، سيكون آصف خان معك باثني عشر ألف فارس إلى أن يجتمع رجالك، فطلب الخلجيّ أن يكون عنده ولده تاج خان وألح عليه، فأجاب إلى ذلك ووعده بالنصر في سائر الأوقات وقال لآصف خان: مالك ولأصحابك كافة من الجراية والولاية عندي فهي على حالها إلى أن ترجعوا إلى منازلكم، وما يعطيكم الخلجي فهو مضاف إليه للتوسع في الوقت، وأمر للخلجي بخزانة ثم ودعه ونزل.

(٢) وقيل: إن مظفر شاه لما فتح القلعة ودخلها سأله أركان سلطنته أن يستأثر بها، فالتفت إلى الخلجي وودعه للنزول وقال له: احفظ باب القلعة برجال لا يدعوا أحداً يدخلها بعد نزولي حتى من ينتسب إلي، فالتمس الخلجي أن يمكث أياماً، فأبى ونزل، ثم بعد ثلاث أضافه الخلجيّ ودار به في العمائر التي ما مثلها يذكر في الهند وانتهى إلى عمارة، بابها مغلق، فاستفتحه ودخل إلى حجر هناك فأمر الطواشية بفتحها واستدعاء من فيها، فإذا بنساء برزن في حلي وحلل قل أن رأت العين مثلهن وبأيديهن أصناف الجواهر، وما منهن إلا من سلمت ونثرت ما بأيديها على قدم السلطان،

فلما رأى. . . .[1] أشار بأن يحتجبن لعدم حلية النظر إلى الأجنبية، فقال الخلجي: كلهن ملكي وأنا مالك، والعبد وما ملك لمولاه، فدعا له وعاد إلى قبابه، وبالجملة فلما نهض للمسير راجعاً نزل الخلجيّ ومعه تاج خان وآصف خان، وشيعه إلى حده وسأله الدعاء ورجع، ورخص السلطان لعادل خان فرجع إلى برهانپور، ووصل السلطان بالفتح والدعاء إلى جانپانير، وكان يوم دخوله مشهوداً كثر فيه الدعاء له من سائر عباد الله تعالى.

وكان فتح مندو سنة أربع وعشرين وتسعمائة، وقال بعضهم في تاريخه: «قد فتح المندو سلطاننا» وهذا من نوادر الوقائع لا يذكر مثله لأحد من ملوك الهند وسلاطينها بل سلاطين غيرها من البلاد.

(١) وأعجب من ذلك أن هذا الخلجي وأسلافه كانوا من أعداء دولتهم، فإنّ جده محمود شاه الخلجيّ الكبير كان ـ سامحه الله ـ يصول عليهم مرة بعد أخرى، وفي كل مرة يخسر ويخيب في أمله، وأبوه غياث الدين الخلجيّ خرج إلى گجرات لنصرة كفار الهنود على محمود شاه الگجراتيّ الكبير، وكذلك جده في أيام محمد شاه الگجراتي، سامحهما الله تعالى! ولله در من قال:

هيهات أن يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

(٢) قال الآصفي: وفي سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة خرج السلطان إلى مصلى العيد للاستسقاء وتصدق وتفقد ذوي الحاجة على طبقاتهم وسألهم الدعاء ثم تقدم للصلاة، وكان آخر ما دعا به كما يقال «اللهم إني عبدك ولا أملك لنفسي شيئاً، فإن تك ذنوبي حبست القطر عن خلقك فها ناصيتي بيدك! فأغثنا يا أرحم الراحمين» قال هذا ووضع جبهته على الأرض واستمر ساجداً يكرر قوله: يا أرحم الراحمين، فما رفع رأسه إلا وهاجت ريح ونشأت بحرية ببرق ورعد ومطر، ثم سجد لله شكراً ورجع من صلاته بدعاء الخلق له وهو يتصدق وينفح بالمال يميناً وشمالاً.

---

(١) بياض في الأصل.

(١) وبعد الاستسقاء بقليل اعتراه الكسل ثم ضعف المعدة ومنه شكى ضعف الجسد، وفي خلال ذلك عقد مجلساً حفلاً بسادة الأمة ومشايخ الدين واجتمع بهم، وتذاكروا فيما يصلح بلاغاً للآخرة إلى أن تسلسل الحديث في رحمة الله سبحانه وما اقتضاه منه وإحسانه، فأخذ يشرح ما من الله عليه من حسنة ونعمة ويعترف بعجز شكرها إلى أن قال: وما من حديث رويته عن أستاذي المسند العالي مجد الدين بروايته له عن مشايخه إلا وأحفظه وأسنده وأعرف لراويه نسبته وثقته وأوائل حاله إلى وفاته، وما من آية إلا ومنَّ الله عليَّ بحفظها وفهم تأويلها وأسباب نزولها وعلم قراءتها، وأما الفقه فأستحضر منه ما أرجو به مفهوم «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ولي مدة أشهر أصرف وقتي باستعمال ما عليه الصوفية وأشتغل بما سنه المشايخ لتزكية الأنفاس عملاً بما قيل «من تشبه بقوم فهو منهم» وها أنا أطمع في شمول بركاتهم متعللاً بعسى ولعل، وكنت شرعت بقراءة «معالم التنزيل»[١] وقد قاربت إتمامه إلا أني أرجو أن أختمه في الجنة إن شاء الله تعالى، فلا تنسوني من صالح دعائكم، فإني أجد أعضائي فقدت قواها، وليس إلا رحمة الله سبحانه دواها، فدعا له الحاضرون بالبركة في العمر.

قال: وفي سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة على خروجه من جانپانير ظهرت منه مخايل المستودع بفراق الأبد لها ولأهلها، وأكثر من أعمال البر فيها وفي طريقه إلى أحمد آباد.

(٢) وكان له حسن الظن بالعلاّمة خُرَّم خان فقال له يوماً: نظرت فيما أوثر به أولى الاستحقاق من الإنفاق فإذا أنا بين إفراط في صرف بيت المال وتفريط في منع أهله، فلم أدر إذا سئلت عنهما بِمَ أجيب.

(٣) وفي آخر أيامه وكان يوم الجمعة قام إلى المحل واضطجع إلى أن زالت الشمس، فاستدعى بالماء وتوضأ وصلى ركعتي الوضوء وقام من

---

(١) تفسير الإمام البغويّ.

مصلاه إلى بيت الحرم، واجتمعت النسوة عليه آئسات باكيات يندبن أنفسهن حزناً على فراق لا اجتماع بعده، فأمرهن بالصبر المؤذن بالأجر، وفرق عليهن مالاً ثم ودعهن واستودعهن الله سبحانه، وخرج وجلس ساعة، ثم استدنى منه راجه محمد حسين المخاطب بأشجع الملك وقال له: قد رفع الله قدرك بالعلم، أريدك تحضر وفاتي وتقرأ علي سورة «ياسين» وتغسلني بيدك وتسامحني ثم سمع أذاناً قال: أهو في الوقت؟ فأجاب أسد الملك هذا أذان الاستدعاء لاستعداد صلاة الجمعة ويكون في العادة قبل الوقت، فقال: أما صلاة الظهر فأصليها عندكم، وأما صلاة العصر فعند ربي في الجنة إن شاء الله تعالى، ثم أذن للحاضرين في صلاة الجمعة واستدعى مصلاه وصلى، ودعا الله سبحانه بوجه مقبل عليه وقلب منيب إليه، دعاء من هو مفارق للقصر مشرف على القبر، ثم كان آخر دعائه «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تاويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين» وقام من مصلاه وهو يقول: استودعك الله، واضطجع على سريره وهو مجتمع الحواس ووجهه يلتفت إلى القبلة وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفاضت نفسه والخطيب على المنبر يدعو له، وفي ذلك عبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة، وحمل تابوته إلى سركهيج ودفن عند والده طيب الله ثراه!.

ويحسن الاستشهاد هنا بما رثى به العماد الكاتب سلطانه الملك العادل نور الدين الشهيد رحمه الله:

يا ملكا أيامه لم تزل ... لفضله فاضلة فاخرة
ملكت دنياك وخلفتها ... وسرت حتى تملك الآخرة[1]

(١) «الإعلام»: ٣١٦/٤ - ٣٢٥.

همايون شاه التيموريّ

الملك الفاضل همايون بن بابر بن عمر التيموريّ، السلطان نصير الدين همايون شاه، ولد سنة ثلاث عشرة وتسعمائة بقلعة كابل، ونشأ في مهد السلطة وأخذ من الفنون الحربية والسياسة ما يليق بأبناء الملوك، وأضاف إلى ذلك معرفة اللغة التركية والفارسية وعلم الهيئة والهندسة والنجوم والشعر والألغاز، وكان دائم الاشتغال بمطالعة الكتب ومذاكرتها.

قام بالملك بعد أبيه سنة سبع وثلاثين وتسعمائة بمدينة آگره، فأرخ له بعض العلماء: «خير الملوك»، ووزع الأموال الطائلة على الخاصة والعامة، ثم نفذ وصية والده وحاصر قلعة كالنجر الشهيرة بالمناعة والحصانة وفتحها، ثم توجه إلى جونپور حيث كان محمود اللودهيّ قد جمع الأفغان وثار على همايون فهزمه، وأضاف المقاطعة الشرقية إلى مملكته وعطف عنان عزيمته إلى گجرات، وهزم تاتار خان وعسكره، ثم واجه بهادر شاه الگجراتيّ في مندسور، فتغلب همايون على مالوه ثم على گجرات في قتال شديد وحصار طويل.

وبينما كان همايون في مالوه حيث كان يستجم ويروح نفسه إذ سمع أن منافسه الكبير في حكومة الهند شير خان قد جمع قوة كبيرة في بنگال وبهار وهو خطر يهدد الدولة المغولية، فتوجه همايون من مالوه وقصد الشرق ووقعت المعركة بينه وبين شير خان في «چوسه» على خمسين ميلاً من مدينة آره، وانهزم همايون هزيمة منكرة، وغرق آلاف من رجاله في ماء «گنگ»، وأشرف همايون على الغرق ولكنه نجا بمساعدة نظام السقاء وكان ذلك سنة ٩٤٦ هـ، والتجأ همايون إلى آگره حيث جمع فل جنوده وحشد عساكره، ثم توجه إلى شير خان ووقعت المعركة في قَنُّوج، وانهزم همايون مرة ثانية وذلك في المحرم سنة ٩٤٧ هـ، والتجأ إلى آگره ثم إلى لاهور وشير خان يتبعه وإخوته يخذلونه ويغدرون به حتى دخل السند وهو هائم على وجهه لا يجد من يؤويه وينجده ولا يملك إلا بعيراً ركبه مع زوجه

وهي حامل حتى وصل إلى عمر كوت حيث ولد ابنه جلال الـدين أكبر، ووصل إلى قندهار وسمع أن أخاه مرزا عسكريّ خرج ليأسره فترك ولده في قندهار ودخل في حدود إيران، وتم استيلاء شير خان على الهند وتلقب بشير شاه.

وعن طريق هرات والمشهـد وصل همـايون إلى قـزوين، واستنجد طهماسپ شاه الصفـوي الذي أحسن ضيـافته وأكـرم مثواه وأنجـده بألف وأربعمائة مقاتل، ورجع همايون إلى الهند وأخضع إخوته الثلاثـة وصفح عنهم، وكان شير شاه السوريّ الملك العظيم قد توفي في هذه المـدة، وفتح همايون پنجاب، وانتزع من سكندر شاه السوريّ آگره ودهلي، واسترد ملك الهند وأراد أن يتتبع أعداءه ومنافسيه ولكنه فوجىء بالوقوع من مكتبته التي كان يطالع فيها وقد سمع الأذان، ومات بعد بضعة أيام وكان ذلك سنة ٩٦٣ هـ.

وكان همايون ملكا فاضلاً، له اليد الطولى في العلوم الرياضية وكان شغوفاً بالعلم، دائم الصحبة للعلمـاء وأهل الفضـل، وكان يحـافظ على الوضوء ويكره أن يسمي الله على غير وضوء، ونسبه بعض المؤرخين إلى التشيع، ونفاه آخرون وذكروا أنه كان سني العقيدة حنفي المذهب مجتنباً عن المناهي.

(١) وكان لا يقل عن أبيه في الشجاعة والكفاءة ولكنه كان دونه في الجلادة وتحمل المشاق، وكان إذا حارب طويلاً استراح طـويلاً بخـلاف أبيه.

(٢) وله أخبار تدل على شجاعته، ورباطة جأشه، منها أنه لما استعصى عليه فتح قلعة جانپانير وطال الحصار غرز همايون الأوتار في سور القلعة وصعد على القلعة ودخل فيها في ثلاثمائة رجل وفتح باب القلعة قسراً وكان الفتح.

(٣) وقد غلبته طبيعة الجود والرحمة وأسرف فيهما، فكان ذلك من أعوان أعدائه عليه، ومن أسباب نكبته مراراً، كان إخوته يغدرون به دائماً وهـو

يصفح عنهم دائماً ويوليهم الأعمال الجليلة، ولذلك فقد گجرات وپنجاب مرتين.

وكان شاعراً أديباً وسيماً أسمر اللون، مات في قلعة دهلي القديمة ودفن في كيلو كهرى، وصنف في أخباره جواهر الأفتايچي كتابه «واقعات همايون» وأخته گلبدن بيگم «همايون نامه»(١).

يوسف عادل شاه البيجاپوري

الملك الفاضل يوسف عادل شاه الشيعيّ البيجاپوري، قيل: إن أصله من العائلة العثمانية وإنه كان من أبناء مراد بن بايزيد اليلدرم المتوفى سنة أربع وخمسين وثمانمائة، خرج - بعد ما توفي والده وولي مكانه صنوه محمد - مخافة القتل. وسافر إلى ساوه ثم دخل الهند وقدم أحمد آباد بيدر(٢) وخدم سلطانها مدة طويلة، وولي على بيجاپور بعد مدة واستقل بالملك سنة خمس - وقيل ست - وتسعين وثمانمائة، وضبط البلاد واستولى على أكثر بلاد الملوك البهمنية وذلك في أيام محمود شاه البهمنيّ، ولقب نفسه بعادل شاه، وخطب للأئمة الأثني عشر بمدينة بيجاپور سنة ثمان وتسعمائة وروج في أهلها مذهب الإمامية. وهو أول ملك من ملوك الهند خطب للأئمة في بلاده وروج ذلك المذهب.

وكان عادلاً كريماً حليماً مقداماً باسلاً ماهراً في العروض والقافية والشعر والموسيقى وضرب العود والطنبور، وكان جيد الخط، حسن الشكل محباً لأهل العلم محسناً إليهم.

توفي سنة ست عشرة وتسعمائة(٣).

---

(١) «الإعلام»: ٤/٣٤٧ - ٣٤٩.

(٢) قال المعلِّق: كذا، والمعروف «محمد آباد».

قلت: قد قال المصنف قبل ذلك إنها كانت تعرف بهذا الاسم قديماً ثم سميت محمد آباد.

(٣) «الإعلام»: ٤/٣٥٤.



مختارات القرن العاشر
من كتاب
«تاريخ الإسلام في بنتن»

تأليف الأستاذ

أحمد السقاف



هداية الله سونن جاتي

أمّا ضريحه فمعروف بجبل جاتي بالقرب من «شربون» لما لصاحبه من المكانة في قلوب المسلمين لكونه أول من نشر الإسلام بشربون ونواحيها كما قام بنشره في جاوه الغربية كلها.

وأما نسبه فقد ذكر صاحب دليل بانتن نسب مولانا حسن الدين ابن سونن جاتي المذكور فقال هو مولانا حسن الدين في بانتن بن مولانا شريف هداية الله في «شربون» بن راجا عمدة الدين في «جمقا» بن علي نور عالم في «انام»[1] بن مولانا جمال الدين الأكبر الحسين في البوقيس[1] بن سيد أحمد شاه جلال في هندستان[2] بن أمير عبد الملوك[3] في هندستان بن سيد علوي في تريم حضرموت بن سيد محمد صاحب مرباط حضرموت بن سيد علي خالع قسم بتريم حضرموت بن سيد علوي في بيت جبير حضرموت بن سيد محمد في بيت جبير حضرموت بن سيد علوي في سُمل حضرموت بن عبد الله في العرض بور حضرموت بن إمام أحمد بن عيسى بحضرموت بن إمام عيسى النقيب في البصرة بن إمام محمد نقيب في البصرة بن إمام علي العريضي في المدينة بن إمام جعفر الصادق في المدينة بن إمام محمد الباقر في المدينة بن سيد علي زين العابدين في المدينة بن سيد حسين السبط في المدينة بن سيدة فاطمة زهراء في المدينة بنت سيدنا ونبينا محمد

---

(١) أسماء مدن وقرى في أندونيسيا.

(٢) أي المتوفى في الهند.

(٣) أي عبد الملك، كما سيأتي.

رسول الله ﷺ، هذا نسبه الذي ذكره صاحب دليل بانتن إسماعيل بن محمّد من علماء بانتن وقد قابلناه بالشجرات المعتمدة كالشجرة التي بـ «فلمبغ» عند ذرية سلاطين «فلمبغ» والشجرة التي بشربون شجرة رادين صفوان من ذرية سونن جاتي والشجرة التي من بانيوواغي وغيرها فكانت مطابقة لما ذكر، نعم وقع تحريف في بعض الكلمات من النُسّاخ وسقط فقوله عمدة الدين هذا لقبه واسمه عبد الله، عبد الملوك: الصحيح عبد الملك، ومرباط حضرموت والصحيح أن مرباط ظفار القديمة على ساحل بلاد العرب وليست في حضرموت وعبد الله يقال له عبيد الله ونقيب الصحيح النقيب وكذلك كلمات سيد وإمام يلزم أن تكون بالتعريف السيد والإمام في جميع ما تقدم ونحن نقلنا ما تقدم كما هو بالأصل وقد دخلت العجمة على الكلمات أمّا الأماكن والبلدان التي ذكرها فهي أماكن وفيات المذكورين. وقال صاحب دليل بانتن بخصوص السلسلة التي نقلناها عنه ما تعريبه: سلسلة نسب كنچع مولانا حسن الدين منقول عن المصادر الصحيحة المؤيدة من العارفين بالتواريخ.

(١) وقد ذكر المؤرخون من الجاويين كالحاج علي خيرالدين والكياهي محمّد أرشد بن حاج أسعد من علماء بانتن والكياهي عبدالجبار بوغو وماس رباعي وغيرهم ذكروا أنّ أوّل من جاء إلى جاوه من جهة الهند هو مولانا جمال الدين الحسين وأنهم يلقبون بآل عظمه خان وإن منهم من جاء من طريق كمبوجا (هندوجينا) وآل عظمة خان ذرية الإمام عبد الملك بن علوي معروفون في شجرات العلويين فذرية الإمام جمال الدين حسين المذكور هم الذين قاموا بنشر الإسلام في جاوه في القرن الخامس عشر الميلاديّ.

وحيث قد عرفنا من هو الملقب سونن جاتي فلنرجع الآن إلى ترجمة حياة المذكور وذكر ما قام به من عظيم الأعمال في سبيل نشر

الدعوة إلى الله وما تمّ على يديه من هداية الألوف المؤلفة من البشر إلى دين الفطرة.

(١) وإنّما المرء حـديـثٌ بعـده   فكـن حـديثاً حسناً لمـن وعـى

(٢) إن ما يبقيه علماء الرجال من عظيم آثار حياتهم يغنيهم عن كل ترجمة وعن كل تعريف ومولانا هداية الله قد كتب لنفسه ترجمة بأعماله العظيمة في سبيل الدعوة إلى الله وهداية نصف سكان جزيرة جاوه إلى دين التوحيد فجاوه الغربية كلها: «بانتن» وما حواليها و «جكرتا» وما حواليها و «شربون» وكل القرى حولها و «سمداغ» وكل بلاد «فريڤان» تشرفت بالإسلام على يد هذا الداعي المخلص فهي حسنة من حسناته، وله بذلك الأجر والثواب من ذلك الوقت إلى الوقت الحاضر وما دام في تلك البلاد من يقول لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله إلى يوم القيامة.

وذكر المؤرخون من الجاويين كالحاج علي خير الدين وغيره ما اتصف به مولانا هداية الله من الاستقامة وصرف الوقت في العبادة ونشر العلم والدعوة إلى الله، وذكروا تصوفه وزهده وماله من صيام وقيام وتلاوة وأذكار وتبحر في العلوم.

(٣) والغريب أنه مع ظهوره بمظهر الصوفية وتصدره في المحافل العلمية كان قائداً شجاعاً خبيراً بتدابير الحروب وسياسة الممالك وإجراء النظامات وإرشاد السلاطين والأمراء إلى ما يوطد الملك ويحفظ استقلال بلاد الإسلام ويقيم العدل وينعش التجارة والزراعة.

وقد عرف السلطان المعظم ترنقانوا سلطان دمك الثالث في المذكور هذه الصفات فقرّبه إليه وجعله من خاصة خاصته فكان يستشيره في كل الأمور ويستعين بخبرته في المهات ولا يختار غيره لقيادة الجيوش التي تجهز على المعتدين على الإسلام والمناوئين لسلطاته، ومن محبة السلطان له أن زوجه شقيقته بنت السلطان عبد الفتاح.

(١) وقد كانت سلطنة دمك التي هي أول سلطنة إسلامية في جزيرة جاوه فتية وقريبة عهد وجاوه كما هو معلوم هي التي قامت فيها أعظم الدول الوثنية قبل دخول الإسلام بقرون وقد قضى الإسلام على آخر دولة وثنية بجاوة وهي مملكة (موجو ڤاهيت) عام ١٤٧٨ ميلادية وقامت على أنقاضها سلطنة دمك الإسلامية غير أنه بقي أناس ممن نشأوا في الوثنية ولم يباشر الإيمان الصادق قلوبهم على شيء من عقائدهم وأفكارهم وعاداتهم القديمة وإن تظاهروا بالإسلام، وظهر أفراد ممن كان لهم ظهور أو مكانة في الدولة الوثنية البائدة يحاولون التظاهر بعوائدهم القديمة أو على الأقل صبغها بصبغة إسلامية ولكن كان السلطان عبد الفتاح أخبر الناس بهم وبمكائدهم شديد الحذر من أولئك المنافقين فكان صارم الرأي شديداً على من يريد فتنة المسلمين في دينهم غيوراً على الإسلام وخلفه ولداه يونس ثم ترنقانو فكانا كأبيهما شدة وصلابة في الدين وترنقانو هو الذي كان مولانا هداية الله من أقرب المقربين إليه وبواسطة مولانا هداية الله قرر السلطان ترنقانو القوانين والنظامات في سلطنة دمك على أساس الشريعة المطهرة.

وقد شهد لمولانا هداية الله ببعد النظر والخبرة بالأمور كثير من مؤرخي الإفرنج الذين يكتبون للتاريخ لا للسياسة.

ذكر المؤرخ هارهاب فيما ترجمه عن المؤرخ الشهير فيت وعن رافلس مع بيان الصفحات التي ترجم عنها فقال ما ملخصه:

(٢) إن مما أعان سونن جاتي على عمله أنه داوى بنتاً مصابة بالجذام فشفيت وإن عمله رغم ما لقى من معارضة الوثنيين كان مكللاً بالنجاح وإن من بين الذين اعتنقوا الإسلام على يده في جاوه الغربية نحو ٨٠٠ شخص من رؤساء الديانة الهندية، وإن واحداً من أبناء الملوك الوثنيين تشرف بالإسلام عن اقتناع بأنه الحق، بعد بحث في الديانة صار بينه وبين

مولانا هداية الله، ثمّ ذكر كيف أن الإسلام انتشر في تلك الجهات جميعها بواسطة هذا الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وبدون إشهار سيف وبغير أن تراق لذلك قطرة دم.

(١) وهكذا قال «بيخمان» وغيره من المؤرخين أن الإسلام انتشر بجاوه الغربية على يد سونن جاتي بالدعوة وبالطرق السلمية وقد استشهدنا بأقوال هؤلاء ليكون كرد على بعض المؤرخين من الإفرنج وبعض المقلدين لهم من الوطنيين فمن هؤلاء من يحرف اسم مولانا هداية الله فيسميه (فلتهان) ومنهم من يقول إنه مجهول الأصل ومنهم من يقول أو يومىء في كلامه إلى أنه إنما يخدم مصالحه الخاصة وكل ما قالوه يدل على الجهل أو على الغرض فيكفي للرد عليهم ما تقدم.

والذي يُستخلص من كلام المحققين من المسلمين والإفرنج وغيرهم هو ما سنذكره بصفة إجمالية ليحيط القارىء بالموضوع من جميع جهاته إحاطة ترجع الأسباب إلى مسبباتها وهذا هو المقصود من التاريخ.

(٢) كان لسلطنة دمك الإسلامية عدو داخلي ممن يحنون إلى قديمهم من عادات الوثنيين وعدو خارجي وهم في ذلك الوقت البرتقيس[1] وكان من أهم مراسي جاوه في ذلك الوقت مرسى سندا كلاڤا وبانتن فلما علم مولانا هداية الله أن أمير فجاجران في سندا كلاڤا أمضى معاهدة مع البرتقيس لتثبيت قدمهم في تلك البقعة استأذن السلطان ترنقانو وذهب مسرعاً لنشر كلمة التوحيد في جاوه الغربية ولطرد الكفار ـ كما يقول «ديوس ديكر» ـ لأنّ وجودهم هناك يهدد استقلال البلاد فتلقاه أهل بانتن بكل فرح واعتنق رؤساهم الإسلام ثم أسلم الرعية على يد مولانا هداية الله وبقي يعلمهم قواعد الإسلام وأركانه ودعا أهالي سندا كلاڤا

---

(١) أي البرتغاليون.

(جكرتا) إلى الإسلام فأسلم الكثير منهم، وقد عرف مولانا هداية الله أن البرتقيس سيأتون بمراكبهم وعدتهم وسلاحهم وبما وعدوا به أهل سندا كلافا من مساعدة وكان حازماً فأرسل في طلب جيش من دمك فبادر السلطان ترنقانو بإرسال جيش مكون من ألوف المجاهدين كامل العدة والسّلاح وكانت عند المسلمين مدافع وكانوا هم بأنفسهم يصنعونها كما كانوا يصنعون السفن الحربية المستعملة في ذلك الوقت فلما وصل الجيش تولى قيادته مولانا هداية الله فكان هو بنفسه يرتب وضع المدافع في القلاع المهمة، فلما جاء البرتقيس بمراكبهم نزل فريق من جنودهم إلى البر فقيل لهم إن أهل البلاد قد أسلموا وإن البلاد صارت بلاداً إسلامية فغاظهم ذلك فبدأوا يقاتلون المسلمين فحمل المسلمون عليهم من كل جهة فأبادوهم عن آخرهم وغنموا ما معهم من عدة وسلاح وأخذت مدافع المسلمين تصلي مراكب البرتقيس ناراً حامياً وتلك المراكب ترمي المسلمين بقنابل مدافعها ولكن المدفعية الإسلامية صمدت لهم فمزقت أسطول البرتقيس وشب الحريق في بعض تلك المراكب وبعضها غرق وما استطاع أن ينجو منها إلا القليل وبذلك تم النصر للمسلمين على يد هذا القائد العظيم ورفعت راية الإسلام على ربوع تلك البلاد.

(١) وعندما عرف مسلمو بانتن وجكرتا أن هذا الجيش الذي جاء يدافع عن البلاد مؤلف من المسلمين وأنهم إخوانهم في الدين زادهم ذلك سروراً وغبطة، وكانوا قد عرفوا من مولانا هداية الله صلاحه وتقواه وعطفه على الكبير والصغير ورأوا ما رأوا من شجاعته ومهارته في القيادة لذلك طلبوا من مولانا هداية الله أن يكون سلطاناً عليهم وأنهم سيكونون طوع أمره وتحت حكمه فاسمع بماذا أجابهم هذا الرجل العظيم، قال لهم:

إنني لا أستطيع قبول طلبكم لأنني إنما فتحت هذه البلاد بأمر السلطان وبجيوشه وهو السلطان ترنقانوا سلطان مسلمي جاوه كلهم المقيم في دمك وأنا قائد من قواد جيشه وأنا وأنتم رعية للمذكور، وهذه البلاد صارت تابعة لسلطنة دمك فالسلطان ترنقانو هو الذي له الحق في أن يولي من شاء على هذه البلاد فيجب عليكم طاعة من يوليه عليكم.

هذه هي الكلمات الذهبية التي سطرها التاريخ بمداد الفخر، هذه هي الصورة الكاملة للنفس العلوية والإخلاص والنزاهة والوفاء، هذه هي الوثيقة التاريخية الثمينة التي تجبه بها دعاة الاستعمار وأذنابهم الذين شوهوا بمفترياتهم تاريخ الإسلام بأندونسيا.

بلغ السلطان ترنقانو خبر هذا الانتصار الباهر فسر به سروراً كبيراً وبشر المسلمين بذلك، وكان السلطان ترنقانو ذا خبرة واسعة ومهارة تامة في إدارة شؤون المملكة الإسلامية، وكان أعرف النّاس بالرجال أهل الرأي وأهل العلم وأهل الخبرة بقيادة الجيوش وتدبير الممالك فكان ينتخب منهم النخبة ويقربهم إليه ويستشيرهم في الأمور ويولي منهم الولاة في البلاد التابعة لسلطنة دمك ويعرف لكل منهم مقامه ويقدر لكل عامل مخلص عمله وخدماته في رفع شأن المملكة الإسلامية.

فلما قام مولانا هداية الله بهذا العمل العظيم وفتح الله على يده تلك البلاد التي أضيف بها إلى سلطنة دمك كل جاوه الغربية أراد أن يكافئه على ذلك العمل من جهة وأن يختار لإدارة شؤون تلك البلاد من يرى فيه الكفاءة التامة ومن يثق به في دينه وتقواه، وكان ترنقانو كما قدمنا أخبر الناس بالرجال، لذلك اختار لولاية بانتن مولانا حسن الدين بن مولانا هداية الله فأصاب غرضين بحجر، وكان عمل السلطان ترنقانو هذا دليلاً على بعد نظره وفكره في عواقب الأمور، وكان السّلطان ترنقانو قد زوج مولانا حسن الدين بإحدى بناته كما أن مولانا هداية الله والد حسن

الدين كان قد تزوج بأخت السلطان ترنقانو بنت السلطان عبد الفتاح فالاتصال العائلي بين سلاطين دمك وبين القائمين بنشر الإسلام من آل عظمة خان كان متيناً وثيق العُرى وقد كان لهذا الاتصال أثره وفوائده في نشر الإسلام والدفاع عنه، وللسلطان ترنقانو بنت أخرى زوجها الإمام بصرى بن مولانا هداية الله.

ولقد سَرَّ مولانا هداية الله ما قرره السلطان ترنقانو من تولية ابنه حسن الدين ولم يغب عنه أن في ذلك تقديراً لخدماته كما أن ثقة السلطان ترنقانو بمولانا حسن الدين في محلها فقد قام هذا السلطان بالأمر في بانتن أتم قيام وقام من بعده أولاده كما سيأتي تفصيل ذلك فعظم أمر بانتن بعد سقوط سلطنة دمك وقامت بما كانت دمك قائمة به من حماية عقائد المسلمين.

وبعد تولي مولانا حسن الدين أمر بانتن رجع مولانا هداية الله عائداً إلى دمك لأن السلطان ترنقانو لا يستغني عن مشورته في مهام الدولة ولا يجد مثله في الخبرة بأساليب القيادة وتجهيز الجيوش.

هذه خلاصة ما ذكره المؤرخون بخصوص فتح جاوه الغربية وتولية مولانا حسن الدين على بانتن.

وكانت هذه الحوادث على ما ذكره أكثر المؤرخين في نحو ثلاث سنوات من عام ١٥٢١ ميلادية الموافق عام ٩٢٧ هجرية إلى عام ١٥٢٤ ميلادية الموافق عام ٩٣٠ هجرية.

فقيام بانتن هو من ذلك التاريخ أي من عام ٩٣٠ هجرية.

(اسم جكرتا)

(١) إن المحل الذي سمي باسم جاكرتا الآن هو المحل المسمى سنداً كلاڤا سابقاً فلما أسلم أهل سندا كلاڤا وتم النصر للمسلمين بطرد

البرتقيس من هناك وضع مولانا هداية الله اسم (جاياكرتا) على ذلك المحل بدلاً من سندا كلافا فالواضع لذلك الاسم (جاياكرتا) هو مولانا هداية الله ومعنى جايا (الانتصار) ومعنى كرتا (العمران) وقد بقي ذلك الاسم حتى استولت هولندة على جكرتا فأبدلت ذلك الاسم عام ١٦٢١ باسم بتافيا بتاوي ولكن الوطنيين في أواخر حكم هولندة عادوا يستعملون الاسم القديم جاكرتا، وبعد سقوط هولندة واستيلاء اليابان على جاوه ألغوا اسم بتافيا واثبتوا اسم جاكرتا ولا يزال إلى الآن بعد سقوط اليابان أيضاً كذلك.

لم نجد عندنا من المصادر تحقيق السنة التي عاد فيها مولانا هداية الله من جاوة الغربية إلى دمك ولكن من المحقق أنه هو القائد للجيش الذي جهز على فاسروان بجاوه الشرقية، وفي أثناء الحرب قتل السلطان ترنقانو غيلةً وكان ذلك عام ١٥٤٦.

أمّا تخلي مولانا هداية الله عن أمور السياسة وانقطاعه للعلم والعبادة بشربون فقد اجمعوا على أنّ ذلك كان عام ١٥٥٢ أي بعد موت السلطان ترنقانوا بست سنوات.

وفاة مولانا هداية الله كانت عام ١٥٧٠ م.

(١) بناء على ما تقدم فالمدة التي بين سقوط سلطنة دمك ووفاة السلطان ترنقانو آخر سلاطينها عام ١٥٤٦ وقيام سلطنة فاجغ التي قام بتأسيسها هادي وجايا في جاوة الوسطى عام ١٥٦٧ هي إحدى وعشرون سنة ففي بحر تلك المدة كانت الاضطرابات والمنازعات والقتال بين الأمراء، وفيها ظهر أولو الأطماع والأغراض وأهل المذاهب والآراء الشاذة وأرباب المنازع [التي] ترمي إلى إدخال العقائد والعادات الوثنية في الإسلام ومزجها بعقائده الطاهرة فكانت دمك ميداناً لهذه المنازعات تحركها الأيدي التي تريد فتنة المسلمين في دينهم. ويظهر أنه لم تبق

هناك كلمة مسموعة لناصح أو مرشد أو مصلح فلا عجب أن يعتزل مولانا هداية الله بشربون ليحمي إسلام أهل تلك البلاد من نزعات أهل جاوه الوسطى وأن يعلن مولانا حسن الدين استقلال بانتن لئلا تسري إليها الفوضى أو تنتشر بها تلك الفتن بل إن ذلك كان هو الواجب عليه ليس طمعاً في ملك أو رغبة في سيادة.

والمتبع لسير الحوادث بإمعان يرى أن إعلان ذلك الاستقلال هو إجابة لرغبات عموم مسلمي جاوه الغربية.

(١) ومن أغرب ما حفظه لنا التاريخ أن الأمر في تلك السلطنة الإسلامية هو في يد الشعب الذي يمثله العلماء وأهل الحل والعقد فالمسلمون هم الذين يولون السّلاطين ويعزلون من خالف الشرع أو أساء السيرة ففي بانتن نفسها حدثت حوادث تدل بكل وضوح [إلى] ما أشرنا إليه منها أنه في عام ١٥٨٠ لما توفي السلطان يوسف ولم يكن هناك من يخلفه إلا ابنه الذي لم يتجاوز عمره ٩ سنوات جاء من (جڤارا) أمير يقول بعض المؤرخين إنه أخ ليوسف ربي هناك جاء هذا الأمير من جڤارا مع جمع من أهل تلك البلاد بسلاحهم وتفاوض مع أهل الحل والعقد فيما جاء من أجله وهو تولي السلطنة بعد أخيه فهاج المسلمون وثاروا على هذا الأمير ومن معه حتى فرّ هارباً وولوا الولد الصغير ابن السلطان يوسف وجعلوا عليه وصياً يقوم بتدبير أمر السلطنة وهم يقولون: لا نريد أن يتولى أمرنا غير من نرضاه، وفي تاريخ الإسلام [في] باجي وملاكا وغيرها من بلاد الإسلام تتكرر مثل هذه الحادثة التي تكون الكلمة الأخيرة فيها لأنصار الدين.

وسنرى فيما سيأتي أن هذه السلطنة صارت أعظم سلطنة بجاوه وأن حاصلاتها ربما بلغت الملايين، والمليون في ذلك الوقت شيء كبير، وأن أحد السلاطين قدر له الوزير نفقات قصره وخدمه وحشمه ثلاثمائة ربيّة

فقط وأن نساءه كن يشتغلن بالباتيك ليتحصل على ما يلزم للكماليات مع أن السلطنة ذلك الوقت قادرة على أن تقرر له أضعاف أضعاف ذلك حتى مع ضعف ماليتها في ذلك الوقت فهذا أعظم دليل على أن أولئك السلاطين إنما يسعون إلى ما تكون به عظمة الدولة الإسلامية وقوتها لا إلى ما يخص ذواتهم وما ذكرناه قد شهد به حتى مؤرخو الإفرنج وهم غير متهمين في مثل هذا وسنزيد الموقف إيضاحاً بخصوص أسباب الاستقلال عندما نصل إلى ذكر ذلك في محله[1].

مولانا حسن الدّين

١٥٢٤ ـ ١٥٧٠ ميلادية، ٩٣٠ ـ ٩٧٨ هجرية. لانعلم على التحقيق متى كان ابتداء ولاية مولانا حسن الدين فالسنة المذكورة هي السنة التي تم فيها إسلام جاوه الغربية وفيها أو قبلها بسنة تم الانتصار على البرتقيس وإجلاؤهم عن جاوه، ويفهم من كلام بعض المؤرخين أن مولانا هداية الله بقي يرتب أمور بانتن كوكيل عن سلطان دمك إلى أن جاء مولانا حسن الدين.

(عمران بانتن وتقدمها في عهد)
(مولانا حسن الدّين)

أسهب المؤرخون الأجانب في وصف تقدم بانتن واستفحال عمرانها واتساع تجارتها ووفرة حاصلاتها وكثرة سكانها ورغبة التجار المسلمين في الهجرة إليها من شتى النواحي ثم الاستيطان بها، وذكروا علاقاتها التجارية والسياسية بالممالك الأخرى في جزائر الأرخبيل وغيرها كالهند والصين وكمبوجا وبرمانيا وسيام إلى بلاد العرب وإفريقيا وعزوا أسباب ذلك التقدم إلى أسباب ظاهرية من موقع بانتن الجغرافي ومضايقة

---

(١) «تاريخ الإسلام في بنتن»: ٢٠ ـ ٣٥.

البرتقيس لتجارة المسلمين وصلاحية أراضيها لإنتاج الحاصلات الرابحة في الخارج كالفلفل وغيره وهذه الأسباب التي عزوا تقدم بانتن إليها صحيحة وواقعة ولها دخل كبير في عظمة بانتن وتقدمها ولكنها ليست هي كل شيء، إن السبب الحقيقي في تقدم بانتن في جميع المظاهر ورغبة المسلمين في الهجرة إليها هو قيام تلك السلطنة على أساس إسلامي سلفي متين وهذا الأساس هو بطبيعته موطد للأمان، باسط لبساط العدل، حافز على العمل لخير الدنيا والآخرة، متكفل بالحرية الواسعة لكل شخص في تعاطي أسباب المعيشة بكل أنواعها لا يرده عن مباشرة أي نوع منها إلاّ حدٌّ شرعي يوقفه عن التعدي والإضرار بنفسه أو بغيره، على هذا الأساس قامت سلطنة بانتن وهذا هو السبب الحقيقيّ في تقدمها وهو وحدة الحجر الأساسي في بناء مجدها وعزها ومنعتها ووقوفها أمام أعداء يفوقونها عدداً ثلاثة قرون كاملة[1].

مولانا يوسف بن حسن الدين

من سنة ١٥٧٠ ـ ١٥٨٠ ميلادية أو ٩٦٩ ـ ٩٨٠ هجرية توفي مولانا حسن الدين عام ١٥٧٠ أي سنة وفاة والده مولانا هداية الله.

(١) وبعد وفاة مولانا حسن الدين تولى ابنه السلطان يوسف بن حسن الدين وفي عهده وعهد ابنه محمّد بن يوسف بلغت بانتن أوج عزِّها وعمرانها وقوتها، وقد وجه مولانا يوسف وجهته نحو إنعاش الزراعة فقامت الحكومة بإحياء الأرضي الزراعية المهملة وشق الترع وإقامة السدود التي ترفع مياه الأنهار إلى مستوى الأراضي الغامرة، كما وجه أيضاً هو وبعده وزير ابنه محمّد وجهتهما نحو العلم فأقيمت المدارس لتعليم [الدين] الإسلامي والكتابة والحساب واللغة العربية فسلطنة بانتن

---

(١) «تاريخ الإسلام في بنتن»: ٣٥ ـ ٥٣.

هي أول سلطنة إسلامية بجاوه أقامت المدارس الرسمية لتعليم اللّغة العربية على نفقة الحكومة.

(١) قال «ديوس ديكر»: في عهد يوسف هذا خطت بانتن خطوات واسعة، وشعائر الدين وأحكامه تقام كما يلزم، وقامت بانتن في عهد المذكور باخضاع (فاكوان).

وهكذا نسخت من التاريخ مملكة فجاجران مع ملكها (فروبا سيدا)، ثم انتقل المؤرخ إلى ذكر ما كان في عهد السلطان محمد بن يوسف الذي تولى بعد وفاة أبيه وهو ابن ٩ سنوات وقام بالوصاية عليه (منكوبومي) بعد حوادث:

(٢) «إن هذا الوزير قد أبقى بجدِّه ذكراً عاطراً لبانتن وسار بها في سبيل التقدم سيراً سريعاً فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى صارت مدينة بانتن أكبر عاصمة في شرق آسيا ذلك أن ملاكاً قد تضعضعت باستيلاء حكومة البرتقيس عليها تلك الحكومة التي كانت تجري على نظام، فأخذ التجار الذين يأتون من خارج هنديا (شرق آسيا)، اسطمبول، مصر، الحبشة يفدون إلى بانتن ويأخذون في تعاطي الأسباب وهناك ينشئون السفن وأخيراً يستوطنون تلك البلاد بصفة دائمة، ومن جميع البلدان يأتي التجار بالبضائع إلى بانتن، وميناء بانتن دائماً مزدحم بالمراكب، والأشراف أهل ثروة عظيمة ولهم نفوذ واسع يلبسون الملابس الجميلة ويحملون الأسلحة العجيبة يحفهم الأتباع والحشم إظهاراً لما هم عليه من عزٍّ ومقام، ويبذل هؤلاء الأشراف كل جهد لأن يكون جيش بانتن بالغاً الغاية من النظام والقوّة.

(٣) وقد صارت بانتن ذات ثروة عظيمة واسعة فكان لها ما كان من القوة والمنعة وقد تقدمت صناعة السفن في بانتن تقدماً باهراً وبلغت حركة الملاحة فيها غاية التقدم.

(٤) وأكثر المنازل تقام من الخشب والقصب ولكن الصينيين يبنون

منازلهم عادة من الحجر، وقد أقيم المسجد وهو مبني من الحجر وقاعته الداخلية والخارجية مفروشة بالآجُرّ.

(١) ثمّ ذكر ما هو كترجمة للسلطان محمد بن السلطان يوسف، قال إن السلطان محمد كان رجلاً صالحاً وكان صورة كاملة لزمانه، وقد كان عهده عهد التقدم التجاري ولكن ذلك التقدم التجاري كان بصفة لازمة ضمن حدود الشريعة الإسلامية وبناء على ذلك فجميع الذين يباشرون أعمال التجارة هم ملزمون بأن يتبعوا أحكام الشريعة وهكذا كان الأمر في أوربا.

(٢) وقد بلغ من شدة محافظة الحكومة على الأخلاق والآداب أن جعلت في المدينة سوقين أحدهما خاص بالرجال لا يبيع البضائع فيه غير الرجال ولا يدخله غير الرجال، والآخر للنساء لا يدخله للبيع والشراء غير النساء انتهى[١].

---

(١) «تاريخ الإسلام في بنتن»: ٥٣ ـ ٥٨.

مختارات القرن الحادي عشر
من كتاب
«خلاصة الأثر في أعيان
القرن الحادي عشر»

للشيخ

فضل الله المحبيّ



ابن المنلا

الشيخ إبراهيم بن أحمد بن عليّ الحصكفيّ الأصل الحلبيّ المولد العباسيّ الشافعيّ المعروف بابن المنلا. حج بعد الألف ورجع إلى حلب وانعزل عن الناس ولزم المطالعة والكتابة والتلاوة للقرآن كثيراً، وكان صافي السريرة لا تعهد له زلّة. وبالجملة فإنه يغلب على طبعه الأدب وكان له حسن محاضرة.

(١) وله شعر قليل منقح منه قوله:

ولما انطوت بالقرب شقة بيننا وغابت وشاة دوننا وعيون
بسطت لها والوجد يعبث بالحشا شجونَ حديث والحديث شجون

(٢) الحديث شجون مثل من أمثال العرب وأصله ذو شجون أي ذو طرق، والواحد شَجْن بسكون الجيم، وقد نظم أبو بكر القهستاني هذا المثل ومثلاً آخر في بيت واحد وأحسن ما شاء وهو قوله:

تذكر نجدا والحديث شجون فجنّ اشتياقاً والجنون فنون

كانت وفاته بعد الثلاثين وألف بقليل.

(٣) والحصْكَفيّ بفتح الحاء وسكون الصاد المهملتين وفتح الكاف وفي آخرها الفاء هذه النسبة إلى حصن كيفا وهي من ديار بكر، قال في «المشترك»: وحصن كيفا على دجلة بين جزيرة ابن عمر وميافارقين وكان القياس أن ينسبوا إليه الحِصنيّ وقد نسبوا إليه أيضاً كذلك لكن إذا نسبوا إلى اسمين أضيف أحدهما إلى الآخر ركبوا من مجموع الاسمين اسماً واحداً ونسبوا إليه كما فعلوا هنا وكذلك نسبوا إلى رأس عين رسعنيّ وإلى

عبد الله وعبد شمس وعبد الدّار عَبْدَليّ وعَبْشَميّ وعَبْدَريّ وكذلك كل ما هو نظير هذا[1].

السلطان إبراهيم بن أحمد

السلطان إبراهيم بن أحمد بن محمد بن مراد بن بن سليم بن سليمان بن سليم بن بايزيد بن محمد بن مراد بن محمد بن يلدرم بايزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه السلطان الأعظم أحد ملوك آل عثمان المطوّق بعقد مفاخرهم جيد الزمان.

(١) قد تقرّر أن أصل بيتهم من التركمان النازلة الرحالة من طائفة التتار وينتهي نسبهم إلى يافث بن نوح وهو الجدّ السادس والأربعين للسلطان إبراهيم، ولما كانت أسماؤهم أعجمية أضربت عن ذكرها لطولها واستعجامها وربما يقع فيها التصحيف والتحريف إن لم يضبط شيء منها ولا حاجة إلى الإحاطة فيها بلا فائدة فإنها مذكورة في التواريخ التركية.

(٢) تولى السلطان بعد موت أخيه السلطان مراد سنة تسع وأربعين وألف، وكان ملكاً معظماً حسن المنظر سمح الكف، وكان زمانه أنضر الأزمان وعصره أحسن العصور وأطاعته جميع الممالك وسكنت بيمن دولته الفتن واعتدل به الزمن وكان صاحب طالع سعيد ما جهز جيشاً إلى ناحية إلا انتصر ولا قصد فتح بلدة إلا ظفر، ومن الفتوحات التي وقعت في عهده فتح قلعة أزاق وكان أهل دائرتها من الكفار أظهروا الشقاق فجهز إليهم جيشاً فافتتحوها في سنة اثنتين وخمسين وألف ومنها فتح خانية حد البلاد المشهورة بجزيرة أقْرِيطِش، وتعرف الآن بجزيرة كريت وكانت لملوك الفرنج المعروفين بالبندقية، وهذه الجزيرة من أعظم الجزائر وأكبرها وذكر بعض من دخلها أن بها من القرى أربعاً وعشرين ألف قرية، وهي ذات رياض نضرة وبها أنواع الفواكه والثمار وخيراتها وافرة وبالجملة فإنها من أحاسن

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/ ١١ ـ ١٢.

الجزائر وكان السلطان إبراهيم أرسل إليها عساكره بالسفن الكثيرة وقدم عليهم حاكم البحر يوسف باشا الوزير فدخل الجزيرة وحاصر قلعة خانية وافتتحها وكان ذلك في عشري جمادي الآخرة سنة خمس وخمسين وألف، ثم بعد ما قدم إلى القسطنطينية قتله السلطان لأمر نقمه عليه وأمّر مكانه الوزير الكبير حسين باشا المعروف بدالي حسين وجهز معه عدّة من وزرائه وأمرائه إلى فتح الجزيرة بتمامها فوصل إليها ونازل قلعة رتمو واستعان عليها باللغم حتى أهلك خلقاً كثيراً من الفرنج بسبب ذلك وفتحها واستولى على جميع قرى الجزيرة ولم يبق منها مما خرج من ملك آل عثمان في تلك الجزيرة إلا قلعة قندية وطال أمرها مدّة مديدة حتى فتحت في زمن سلطان زماننا السلطان محمد كما سنذكر تفصيل فتحها في ترجمة الوزير أحمد باشا الفاضل.

(١) وبالجملة فإن السلطان إبراهيم المذكور كان ميمون النقيبة منصور الكتيبة وكانت ولادته في سنة أربع وعشرين وألف وخلع عن الملك في نهار الخميس سادس عشر رجب سنة ثمان وخمسين وألف وكانت مدّة سلطنته ثمان سنين وتسعة أشهر وذكر سبب خلعه يحتاج إلى تفصيل ممل أعرضنا عنه لشهرته ومحصله أنه كان ارتكب بعض أمور تتعلق بهوى النفس وأطال في تعاطيها حتى ملته أركان دولته ثم اجتمعوا وخلعوه من السلطنة وسلطنوا مكانه ولده السلطان محمد وفي ثالث يوم من خلعه قتلوه ودُفن في مدفن عمه الصالح السلطان مصطفى إلى جانبه بجامع أيا صوفيا، ومما اتفق له ولم يتفق لغيره من السلاطين فيما أعلم أنه رأى سلطنة أبيه وعمه وأخويه وولده.

(٢) ووجدت في بعض المجاميع القديمة فائدة غريبة يناسب إيرادها هنا محصلها أنه استُقرىء من وَلِيَ السلطنة وكان اسمه إبراهيم فوجدوا لم يتم لأحدهم أمرها إلا قتل. وقال الراغب في محاضراته: قال أبو علي النطاح: كان المهديّ يحب ابنه إبراهيم فقالت له شكلة أم إبراهيم: ألا تراه يلي الخلافة فقال: لا ولا يليها من اسمه إبراهيم، إن إبراهيم الخليل أوّل نبي

عُذب بالنار، وإن إبراهيم بن النبيّ عليه السلام لم يعش وبويع إبراهيم بن المهديّ فلم يتم له الأمر وأحكم إبراهيم الإمام أمر الملك فقتل وتم لغيره، وطلب الخلافة إبراهيم بن عبد الله بن الحسين فما تمت له على جلالته وكثرة جيشه، وقد بايع المتوكل لابنه إبراهيم المؤيد فلم يتم له وقتل.

(١) وما ذُكر من اللغم[١] هو شيء غريب ينبغي التعرّض للكلام عليه فإنه مستحدث وهو في الأصل من عمل الفِرَنج اصطنعوه في محاصرة بعض الحصون في أوائل القرن التاسع على عهد السلطان سليم الأكبر واشتهر عند ملوك الروم حتى فاقوا فيه على الفِرَنج، وكيفية عمله على ما تلقيته من الأفواه ثم وجدته في بعض المجاميع بخط بعض الأدباء أنه إذا حوصرت قلعة أو حصن وتعسر تملكه لصعوبته يسوقون أمامه تلّاً عظيماً من التراب ثم يحفرون من تحت ذلك التراب سرداباً عظيماً إلى أن يصلوا إلى الأساس ثم يجوّفون قعر الأساس مقدار ما يريدون وينقلون التراب من السرداب إلى خارجٍ خفية ليخلو ما تحته ثم يملؤونه بالنفط والبارود طولاً وعرضاً ويضعون فتيلة ثخينة من القطن مقدار شبرين فيحرقون أطرافها بالنار في الخارج ويضعون فتيلة أخرى على قدرها ثم يأخذون بالساعة مقدار زمان احتراقها ليعلموا في أي وقت تصل نار الفتيلة إلى البارود تحت الأرض ثم إن العسكر يأخذون الأهبة للهجوم ويسدّون باب اللغم سدّاً محكماً خوفاً من رجوع البارود إلى خلف وعند احتراق البارود ينقلب ما فوقه من جدار أو سور أو غير ذلك فيهجم العسكر دفعة واحدة ويملكون القلعة بهذه الحيلة وهذا ما انتهى إليّ من خبره على هذا التفصيل، والله أعلم[٢].

ابن الطبّاخ

إبراهيم بن محمد بن محيي الدين الدمشقيّ الحنفيّ المعروف بابن

---

(١) أي في فتح جزيرة كريت.

(٢) «خلاصة الأثر»: ١/١٣ - ١٦.

الطباخ. أصل والده من بلدة الخليل وإبراهيم هذا ولد بدمشق وبها نشأ، واشتغل في بداية أمره ثم لحق بقاضي القضاة السيد محمد بن معلول ووَلِيَ عنده بعض النيابات وسافر إلى قسطنطينية ثم عاد في حدود سنة أربع وتسعين وتسعمائة وأقام بدمشق، وسعى في دولة سنان باشا الوزير بدمشق على شيء من علوفة العلماء[1] بخزينة الشام فحصل له في كل يوم ما يقرب من ستين عثمانياً قطعة. ودرس بالسليميّة بصالحية دمشق وكان ملازماً على العبادة بالجامع الأمويّ مدة طويلة لا يبرح منه.

(١) وكان شديدَ التعصب، دائمَ المخاصمة للعلماء ويُظهر ذلك في صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاتفق أنه سمع النجم الغزيّ وهو يملي تفسير والده البدرِ المنظومَ فأنكر عليه وكان ينادي في الجامع الأمويّ على رؤوس الأشهاد بأعلى صوته: يا معشر المسلمين: متى سمعتم بأن كلام الله تعالى ينظم من بحر الرجز؟ وكيف ينزه الله تعالى نبيه ﷺ عن الشعر ويأتي رجل من علماء أمته يدخل كلامه في الشعر؟ فتصدّى لمعارضته جدّي المرحوم القاضي محب الدين وألف رسالة في الردّ عليه سماها «السهم المعترض في قلب المعترض» ولما وصلت إليه الرسالة شرع في تصنيف رسالة لردّ ما ردّ به عليه ونُسِب فيها إلى الحمق ولقد وقفت عليها وطالعتها من أوّلها إلى آخرها فرأيتها من هذيان الكلام لأنّ غايته فيها أن ينقل قول المعترض ثم يقول تارة: مَن عرف ما قلته لم يعتبر هذا القول، وتارة: من عرف مقالتي عامل بالإنصاف الذي هو شأنه. وهكذا لما شاعت الرسالة ألف الجدّ رسالة ثانية وسماها «بالردّ على من فجر ونبح البدر بإلقامه الحجر» وأطال فيها وبين زيف رسالة إبراهيم بوجوه متنوعة وكان العلامة الشهاب أحمد العيثاويّ ألّف رسالة أخرى في الردّ عليه والتصدي لنصرة البدر وسماها «الصمصامة المتصدّية لردّ الطائفة المتعدّية» فشاعت الرسائل بين علماء الشام، واتفق أنه لم تطل مدّته بعد ذلك حتى مات وكانت وفاته

---

(١) رواتبهم.

سنة ست بعد الألف، عُفِي عنه[1].

إبراهيم باشا

المعروف بدالي إبراهيم باشا، أحد وزراء دولة السلطان مراد الثالث ذكره الحسن البورينيّ في تاريخه فقال في ترجمته: هو على ما بلغني في الأصل من طائفة الأرمن ودخل هو وأخوه وأخته إلى دار السلطنة فخدموا وأخوه اسمه محمود ولم يزل إبراهيم من لدن دخوله في خدمة السلطنة يتقلب في الولايات حتى صار أمير الأمراء في ديار بكر بأسرها ففتك فيها وظلم أهلها وأظهر من أنواع الظلم أشياء مستكرهة جدّاً؛ منها أنه كان كلما سمع بامرأة حسناء اجتهد على الاجتماع بها بأيّ طريق أمكن، وكان في ديار بكر رجل يُقال له رجب وكان من التجار كثير الأموال إلى الغاية فجعله أباه وهو ابنه فبينما رجب في بيته إذا بقائل يقول له: إبراهيم باشا على الباب يريد الدخول وكان ذلك ليلاً فارتعدت فرائصه لذلك فخرج إليه فوجده قد اقتحم البيت فبهت رجب لذلك فقال: يا أبت أريد أن أنظر أخواتي يعني بناته وأريد أن تجعل لي حصة من مالك كما جعلت لبقية إخوتي فلم يزل يلاطفه حتى أرضاه بنحو خمسة آلاف من الذهب الأحمر ولم يزل به بعد ذلك حتى قتله وقطعه أربع قطع.

وفعل في ديار بكر الأفاعيل العظيمة فذهب غالب أعيانها واشتكوا عليه للسلطان مراد فأمر أن يؤتى به مقيداً فأتوا به كذلك ولما حضر إلى السدّة السلطانية أمر السلطان أخصامه أن يقفوا معه في مجلس الشرع فما أطاق أحد أن يشهد عليه ولا قدر القاضي أن يدقق عليه في سماع الدعوى لأن أخته كانت عند السلطان مراد مقبولة جداً وانصرف خصماؤه، وقررّه السلطان في ديار بكر فذهب إليها ناوياً على إهلاك كل من اشتكى عليه ومنهم ملك أحمد باشا وعماد الدين بيك فإنه أهلكهما تحت العذاب ووصل إلى أن ثار عليه أهل البلد وقاموا عليه قومة رجل واحد فتحصن في القلعة

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٣٢ - ٣٣.

وصار يضرب على أهل المدينة المدافع الكبار حتى قتل منهم خلقاً كثيراً وكان إذ ذاك السلطان محمد بن السلطان مراد وليّ عهد أبيه مقيماً في بلدة مغنيسا فأرسل إلى إبراهيم باشا يستشفع عنده في الرعايا عموماً وفي ملك أحمد باشا المذكور خصوصاً فقال: أما الآن ما له حكم مع وجود والده وإذا صار سلطاناً يفعل بي ما أراد فنذر السلطان محمد قتله يوم يصير سلطاناً فلما منّ الله تعالى عليه بالسلطنة وحضر إلى مقر تختنه سأل عن إبراهيم باشا المذكور فقيل له: إنه محبوس بحبس والدك فأمر بقتله فقُتِل صبرا من غير تأخير، قال البورينيّ: وأخبرني بعض من شاهد قتله أنه كان جالساً في الحبس بعد صلاة العشاء فدخل عليه كبير من خواص خدم الديوان ومعه جماعة من الجلادين مغيرين صورهم حتى لا يرتاب منهم وجلس ذلك الكبير يصاحبه في أمور مموّهة وأقدم عليه الجلادون من خلفه ووضعوا في عنقه حبلاً وقالوا أمر بذلك السلطان قال: فرأيته رفع مسبحته مشيراً بالشهادة فلما مات ألقوه في البحر ثم شفعت فيه أخته فدفنوه وصار عِبرة للمعتبرين، انتهى ما قاله البورينيّ في ترجمته.

وكانت قِتلته في سنة ثلاث بعد الألف، والله سبحانه وتعالى أعلم[١].

الميرزا إبراهيم الهَمَدانيّ

أحد علماء العجم الكبار الذين فاقوا وامتازوا، وقد ذكره ابن معصوم في سلافته، قال في ترجمته: كان الشيخ العلامة محمد بهاء الدين بن حسين العاملي يشهد بفضله ويعترف بمقدار سموّه ونبله، واتفق أن سلطان العجم عباس شاه قصد زيارته فرأى بين يديه من الكتب ما ينوف على الألف، فقال له السلطان: هل في العالم عالم يحفظ جميع ما في هذه الكتب، فقال له: لا وإن يكن فهو الميرزا إبراهيم.

(١) ومن إنشائه قوله: نسأل الله فتح أبواب السرور بقطع علائق عالم

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٥٧ ـ ٥٩.

الزُّور، وحسم عوائق دار الغرور، وتبديل الأصدقاء المحاربين بالأخلاء الروحانيين، والانزواء في زاوية العزلة والانفراد عن مجالس السوء والمذلة، وصَرْفَ الأوقات في تلافي ما فات، وإعداد الزاد ليوم المعاد.

وفاته سنة ١٠٢٦ هـ.

السيد أبو بكر الشليّ

السيد أبو بكر بن أحمد بن أبي بكر بن عبدالله بن أبي بكر بن علوي بن عبدالله بن علي بن الشيخ الإمام عبدالله بن علي بن الأستاذ الأعظم الفقيه محمد المقدم بن علي بن محمد بن علي بن علويّ بن محمد بن علويّ بن عُبيد الله بن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضيّ بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب باعلوي الشلي السيد الأجلّ الشافعيّ المذهب.

ولد بتَرِيم[1] في سنة تسعين وتسعمائة وحفظ القرآن على المعلم الأديب عمر بن عبد الله الخطيب ورباه والده وأدبه معلمه بأحسن تربية، ومات أبوه وهو دون الاحتلام فقام بتربيته شيخه شيخ الإسلام عبد الرحمن بن شهاب الدين ثم اشتغل بتحصيل العلوم الشرعية، ثم سافر إلى الواديين وادي دوعن ووادي عمد المشهورين وأخذ بهما عن جماعة من العارفين.

(١) ثم أشيع في تَرِيم بأنّه يريد الحج في ذلك العام وكتبت له والدته وبعض مشايخه يعتبونه في عدم استشارتهم فعلم أنه نُودي حيث لم يخطر له الحج فحج على قدم التجريد وزار جدّه سيد المرسلين وجاور بالمدينة أربع سنين وأخذ بالحرمين عن جماعة من العلماء ثم ساح فوصل إلى بندر عدن، ثم نوى الرحلة إلى الديار الهندية فلما استشار شيخه صرفه عن هذه النية، ولما وصل إلى بلده وذلك سنة أربع عشرة وألف تزوّج ولازم الشيخ

(١) بلدة في حضرموت.

عبد الله بن شيخ العيدروس وقرأ عليه أكثر من مائة كتاب من الكتب المشهورة منها الأمهات الست. ولما مات شيخه أبو بكر بن علي المعلم أمره جماعة من المشايخ بالجلوس للدرس في محله في مسجد آل باعلويّ الدرس العام بعد العشاء فتوقف لكون هذا الدرس يحضره جماعة من أكابر العلماء وكثير من الأدباء والفضلاء إلى أن رأى الأستاذ الأعظم الشيخ الوليّ عبد الله باعلويّ يأمره بالجلوس فانشرح صدره ولما درّس حضره الأجلاء وكان من أحسن أهل زمانه قراءة وبياناً وفتح الله تعالى له ما استغلق على كثير ولازمه جماعة في منزله لقراءة بعض الفنون وأخذ عنه خلق، وكان له مع أدباء عصره مجالس وتنزهات.

وكان فائقاً في الظرف والملح، حافظاً للسيرة النبوية وتراجم السلف والصالحين وتواريخ المتقدمين متقناً لما يعرفه ثبتاً فيما ينقله، له يد طولى في علم الأدب، وصنف عدة كتب ورسائل ومختصرات.

(١) وكان كثير المطالعة للكتب له جَلَد عظيم على قراءتها فربما استوعب المجلد الضخم في يوم أو ليلة ويُقال إنه قرأ الإحياء في عشرة أيام وهذا أمر عجيب بالنسبة إلى أهل هذا الزمن وأنه كان حُكِي عن بعض الحفاظ ما هو أعظم من هذا فقد قرأ مجد الدين الفيروزاباديّ صحيح مسلم في ثلاثة أيام، وذكر القسطلانيّ أنه قرأ البخاريّ في خمسة مجالس وبعض مجلس، وذكر الذهبيّ أن الحافظ أبا بكر الخطيب قرأ البخاريّ في ثلاثة مجالس، قال: وهذا شيء لا أعلم أحداً في زماننا يستطيعه والذي في ترجمته أنه قرأه في خمسة أيام وأظنه الصواب انتهى. وذكر السخاويّ أن شيخه الحافظ ابن حجر قرأ سنن ابن ماجه في أربعة مجالس وصحيح مسلم في أربعة مجالس وكتاب النسائي الكبير في عشرة مجالس كل مجلس نحو أربع ساعات ومعجم الطبرانيّ الصغير في مجلس واحد بين الظهر والعصر وهذا أسرع ما وقع له. وفي تاريخ الخطيب أن إسماعيل بن أحمد النيسابوريّ قرأ البخاريّ في ثلاثة مجالس يبتدىء من المغرب ويقطع القراءة وقت الفجر

ومن الضحى إلى المغرب والثالث من المغرب إلى الفجر وحكى أن حافظ المغرب العبدوسيّ قرأ البخاري بلفظه أيام الاستسقاء في يوم واحد.

(١) قال: وكان الوالد له اعتناء تام بالذكر لا سيما قراءة القرآن وكان يتهجد ويصلي الوتر مع مقدمته كل ليلة ثلاث عشرة ركعة وكان يحث أصحابه على التهجد وكان يقول تعوّد القيام آخر الليل ولو أنّك تعب.

(٢) وكان يعسر عليه الصوم فلا يصوم إلا رمضان وربما صام ستاً من شوال. قال بعض العلماء: وما كان ذلك إلا لحدّة ذهنه فكان لا يطيق الصوم، وكان يجتزىء باليسير من الغذاء ومن الملبس ومن الملاذ الدنيوية، كثير التقشف، طارحاً للتكلف، كثير الاحتمال. وكان يؤثر العزلة على الاجتماع. وكان كثير الشفقة على أصحابه، كثير الاعتناء بأقاربه مبالغاً في تعظيم العلماء والأولياء، وكان يكره المدح في المراسلات والمكاتبات.

(٣) وكان لا يحب إظهار الكرمات ويتأذى من خرق العادات وكان إذا دعا لأحد بشيء استجاب الله دعاءه، وما عاداه أحد إلا رجع واعتذر إليه، وما مكر به أحد إلا رجع مكره عليه.

(٤) وقال ولده: ومما وقع لي معه أني كنت أرى أنه يطلع على ما يصدر مني حال غيبتي عنه فإذا اشتغلت بطاعة قابلني بوجه مسرور وإذا اشتغلت بلعب قابلني بضدّ المذكور، ولما شاورته في السفر إلى الهند قال: أرى أن المدّة قرب انقضاؤها وكنت أودّ أنك تحضر وفاتي فقلت: أتخلف عن السفر، فقال: سافر فأنت في وديعة الله تعالى وما أراده سيكون وكان الأمر كما ذكر فكان انتقاله لخمس بقين من صفر سنة ثلاث وخمسين وألف وقبض وهو جالس محتب بالحبوة في دهليز داره التي بالقرب من مسجد بني علوي من غير مرض ظاهر بل كان يشتكي صدره فقال له بعض أصحابه ممن له اعتناء بالطب: دواك كذا وكذا، فقال: هذا داء عضال مشعر بالارتحال، رحمه الله تعالى.

(٥) وآل باعلويّ منسوبون إلى علويّ وهذه النسبة وإن لم تكن من وضع

العربية لكنها معروفة لأهل الديار الحضرموتية فإنهم يلزمون الكنية الألف بكل حال على لغة القصر فيقولون لبني علويّ باعلويّ، ولبني حسن باحسن، ولبني حسين باحسين.

(١) وعلوي هو ابن عبيدالله بن أحمد بن عيسى فإنه جدهم الأكبر الجامع لنسبهم، ونسبهم مجمع عليه عند أهل التحقيق، وتوطنهم حضرموت أنّ الله تعالى لما أراد بأهلها خيراً أهدى إليهم السيد المذكور فاستقر بها هو وأهله ومواليه قاطبة وتديّرها، وكان سبب هجرة جدّهم أحمد بن عيسى من البصرة وما والاها من البلاد ما حصل بها من الفِتن والأهوال حتى وجبت الهجرة منها فهاجر منها سنة سبع عشرة وثلثمائة وسافر معه ولده عبد الله لصغره وتخلف ولده محمد على أمواله، واستمر محمد بالبصرة إلى أن توفي بها، وارتحل مع الإمام أحمد من بني عمه اثنان أحدهما محمد بن سليمان بن عبيد الله بن عيسى بن علوي بن محمد حمحام بن عون بن موسى الكاظم جدّ السادة بني الأهدل والثاني جدّ السادة بني قُدَيْم، وتوطن جدّ السادة المهادلة السيد الكبير جدّ بني قُدَيْم بوادي سُرْدُد، وهذان الواديان مشهوران باليمن خرج منهما كثيرون واشتهر بالفضل والولاية.

(٢) وفي سنة ثماني عشرة وثلثمائة حج الإمام أحمد بن عيسى ومَن معه من بني عمه ومواليه ولم يتيسر لهم التوطن بأحد الحرمين وسألوا الله أن يختار لهم ما يرضاه من البلاد ثم رأوا أن إقليم اليمن سالم من المحن والفتن في ذلك الزمن مع ما ورد فيه من الأحاديث، وأوّل مدينة أقام بها مدينة الهجرين وهي من مدينة تريم على نحو مرحلتين ثم سكن قارة بني جُشَير ولم تطب له فرحل عنها إلى الحُسَيِّسَة وهي قرية على نصف مرحلة من تريم واستوطنها وأقام بنصرة السنة حتى استقامت بعد الاضمحلال وطلعت شمسها بعد الزوال وأظهر إمامة الإمام الشافعيّ بنشر مذهبه وأقعد النسب الهاشمي في أعلى رتبه، وتاب على يديه خلق كثير ورجع عن البدعة إلى السنة جمع غفير، ولم يزل كذلك حتى مات بالحُسَيِّسَة ثم

خربت الحُسَيِّسَة واستوطن أولاده سمل واشتروا بها أموالاً ثم بعد برهة من الزمان ارتحلوا عنها وسكنوا بيت جُبَير.

(١) ثم توطنوا مدينةَ تريم وكان جلوسهم بها سنة إحدى وعشرين وخمسمائة وأوّل من سكنها منهم السيد علي بن علوي الشهير بخالع قسم وأخوه سالم ومن في طبقتهما، سُميت باسم الملك الذي اختطها وهو تريم بن حضرموت وقيل إن الذي اختطها الكامل، ومن أسمائها الغنّاء، سُميت بذلك لكثرة أشجارها وأنهارها، وتُسمى مدينة الصديق رضي الله عنه لأنّ عامله زياد بن لبيد الأنصاري لما عاد لبيعة الصِّدّيق أوّل من أجابه أهل تَرِيم ولم يختلف عليه أحد منهم وبعث للصديق بذلك فدعا الله بثلاث دعوات أن تكون معمورة وأن يبارك في مائها وأن يكثر فيها الصالحون، وأعظم خصائص هذه المدينة العظيمة هي الذريّة السنية الكريمة فلقد شرفت بهم وسمت واتسمت من الفضائل بما اتسمت فهي بهم كالعروس تتهادى بين أقمار وشموس، وما مُدحت الديار إلا لكونها محلاً للأخيار[١].

ابن الحكيم

أبو بكر بن محمود بن يونس الملقب تقيّ الدين بن شرف الدين الدمشقيّ الحنفيّ المعروف بابن الحكيم.

وُلِد تقيّ الدين هذا بدمشق واشتغل وحصل وأخذ عن البدر الغزيّ وابنه الشهاب وقرأ الطب على والده واعتنى ببقية الفنون حتى برع في العقليات، وكان مفرط الذكاء حسن المطالعة وكان له يد طولى في العلوم الغريبة مثل علم الوفق[٢] وعلم الحرف[٣] وأخذ التصوف عن الشيخ

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٧١ - ٧٨.

(٢) الوفق: جداول مربعة لها بيوت مربعة يُوضع في تلك البيوت أرقام عددية أو حروف بدل الأرقام، وله شروط تجعل من هذه الجداول ذات خصائص مؤثرة، انظر «أبجد العلوم» لصديق حسن خان: ٢/٧٩.

(٣) علم الحرف: يقترب من علم الوفق وهو استعمال خصائص الحروف بطريقة خاصة لأغراض ومنافع معينة.

أحمد بن سليمان الصوفي.

(١) سافر إلى قسطنطينية في سنة سبع وثمانين وتسعمائة وانتهى أمره بها إلى أن اتصل بالسلطان مراد بن سليم وصار مصاحباً له وحَظِيَ عنده، وحكى البورينيّ أن سبب اتصاله به هو ما اشتهر عن السلطان مراد هذا من أنه كان يميل إلى المتصوّفة ويحب كلامهم وشطحاتهم وربما كان هو يتكلم بشيء من اصطلاحاتهم، فكان في ابتداء دخوله أن رجلاً من حواشي السلطنة يُقال له ناصف فدخل يوماً تقيّ الدين إلى مقر السلطان فبصر به ناصف المذكور فقال له: عندنا بعض مرضى من أولاد الخزينة السلطانية وقد قال بعض الناس إن عندكم علماً بالطب وعلماً من العلوم المتعلقة بالأسرار الإلٰهية فقال: نحن نداوي بالعقاقير المعنوية فقال له: هي مرادنا فكتب له في فنجان بعض كلمات وأسرار فكان ذلك صادف وقوع المقادير بشفاء من سُقي من ذلك الفنجان فقال ناصف المذكور للسلطان مراد: لقد صادفت لك مطلوبك فإن مولانا السلطان من زمان طويل يطلب رجلاً من أرباب الأحوال وقد قدم إلينا رجل من رجال الشام وسماه وذكر أنه داوى المرضى الذي عندنا بالكتابة والتعويذات فيُقال إن السلطان طلبه ورآه ويُقال بل كان يراسله.

(٢) ولم تزل حالته ترتقي إلى أن تقدم على الموالي وربما صار يأنف من التواضع لقضاة العساكر فحسدوه. وكان إمامُ السلطان ضاق ذرعه منه، وكان يتظاهر بإنكار المنكرات فحرشه عليه الموالي فبينما هو ذات يوم ذاهب إلى مقر السلطان أدركه عند الباب فأغرى به جماعة من الطلبة فمزقوا عباءة فرسه وأهانوه ثم رفعوا أمره إلى السلطان وأدخلوا عليه أموراً أوجبت أن طرده من قسطنطينية إلى الواح من ضواحي مصر، وكان ذلك في سنة إحدى أو اثنتين بعد الألف ثم استأذن بالمكاتبات حتى أذن له بدخول القاهرة، ثمّ ورد الشام في سنة ثلاث بعد الألف ثمّ ذهب إلى الروم ولم

يتيسر له اجتماع بالسلطان ولا أمكنه العَوْد إلى ما كان حتى توفي ببلاد الروم وكانت وفاته في سنة سبع بعد الألف، رحمه الله تعالى(١).

الشيخ ابو بكر الزيلعيّ

الشيخ أبو بكر بن المقبول بن عبد الغفار الزيلعيّ العقيليّ. كان شيخاً جليلاً، كامل العقل، غزير الفضل، شديد الهيبة، بعيد الهمة، ذا رأي ثاقب، محباً للفضائل تاركاً للرّذائل، باذلاً في أماكن العطاء ممسكاً في أماكن الحزم، مرجعاً عند الخطوب، مفزعاً عند ما ينوب، حالاً للمشكلات بغرائب الكرامات. له في العلم والولاية يد متمكنة.

وُلِد باللحية(٢) وبها نشأ وحفظ القرآن وجوّده وأخذ عن والده وتخرج بأخيه، وجدّ واجتهد حتى فاق.

(١) رُوِيَ أنه لما قدم قانصوه باشا متوجهاً إلى اليمن كان المترجَم بمكة فوُشِيَ به إليه وأنه هو صاحب اللحية وسلطان نواحيها وأوحدها بلا خلاف وأنه لا يتم له الأمر حتى يقتله، فأتوا به وقت العصر إليه، وذهب معه تلميذه الفقيه مقبول بن أحمد المحبب فلما دخلا عليه تلقاهما وأجلسهما مكانه فلما أجلسا سكت ولم يقدر على الكلام والتحرّك واستمرّ مطرقاً وأتباعه والجند واقفون والجميع مبهتون حتى دخل وقت المغرب فقال له: يا قانصوه قم صل المغرب فالتفت وقام كالمنتبه من نومه وقال له: يا سيدي ألك حاجة نقضيها لك؟ فقال له: لا حاجة لي عندك، وقام من عنده وزادت جلالته، فلما ذهب من عنده قال للفقيه مقبول لعلك خفت منه؟

فقال: نعم، فقال: والله ما دخلت عليه إلا وأعطيت التصرّف فيه وفي عسكره جميعاً، ولما قام من عنده انقطعت سبحته فشرعوا في جمعها وجمع قانصوه معهم لِما تبدّد منها، فقال الفقيه مقبول: اللهم شتت شمله وفرّق

---

(١) «خلاصة الأثر» ١/٩٦ - ٩٧.

(٢) بلدة في اليمن.

جمعه كما تفرّقت هذه السبحة فاستجاب الله تعالى دعاءه فإنه لما وصل إلى اليمن وطغى وبغى وقتل جماعة من السادة والأعيان قامت عليه عساكره وأرادوا قتله فهرب في ليلة منهم وأتى طائعاً بنفسه إلى السيد الحسن بن الإمام القاسم وقال له: ها أنا بين يديك فافعل بي ما تشاء، فقال: لو جئتك على هذه الحال ما كنت تفعل بي؟ فقال له: أقتلك شرّ قِتلة، فضحك ثمّ سأله عما يريد فقال له: تبلغني إلى مكة فأرسل من جماعته من بلغه إلى مكة ثم توجه منها إلى الروم وتبدّد عسكره.

(١) ولصاحب الترجمة كرامات كثيرة منها أنه مرض بمكة مرضاً شديداً أشرف فيه على الموت فدخل عليه حينئذ الفقيه وحزن عليه لما رأى حاله اشتدّ ومرضه زاد وقال في نفسه: إن هذا مرض الموت فبمجرّد ورود هذا الخاطر عليه، قال له: يا مقبول: لا تخف عليّ فإني لا أموت إلا باللحية فعوفي من ذلك المرض وقدم اللحية فلما دخل بيته تباشر أهله بقدومه وفرحوا وجمعوا النساء ليفعلوا على عادتهم من الغطرفة والغناء وغير ذلك فنادى بناته وقال لهم: ما هذا الذي تفعلونه؟ أنا ما جئت عندكم إلا لأموت من قريب فصاحوا لِما يعرفون من حاله.

وكانت وفاته في سنة اثنتين وأربعين وألف، وعمره قريب من تسعين سنة، باللحية[١].

ابن الكاتب

أبو السعود بن أحمد بن أبي السعود الدمشقيّ المعروف بابن الكاتب.

كان جدّه أبو السعود هذا من كبار التجار المياسير بدمشق وله رياسة وتقدّم بين أبناء نوعه وجمع أموالاً كثيرة وكان له أوقاف دارّة وإحسانات وافرة، وولده أحمد كان أيضاً على أثره وتزوّج بابنة العلامة محمد الجوخيّ وجاءه منها أبو السعود المترجم ونشأ في عز باهر ونعمة طائلة وقرأ وتنبل.

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٩٧ - ٩٩. واللحية موضع في حضرموت.

(١) ابتُلي بمحبة غلام وأنفق عليه مالاً كثيراً وكان الغلام كثير التجني عليه واتفق أن أهل صاحب الترجمة أكثروا في لومه وتعنيفه فلم يرجع عما كان فيه وأدّاه ولهه وغرامه إلى قتل نفسه، قِيل إنه أكل سبعة دراهم من الأفيون وعولج فلم يفد علاجه ومات من ليلته وهو الذي أحدث هذه الفعلة بدمشق وكان الناس عنها غافلين وبعد ذلك تبعه في فعلها أناس واشتهر هذا الأمر وهذه القصة مشهورة حتى صارت بين أهالي دمشق مداراً للتمثيل بها في أغراض كثيرة وبالجملة فقد فتح مبدعها باباً شنيعاً، وارتكب أمراً فظيعاً.

وكانت وفاته سنة ست وخمسين وألف ودُفن بمقبرة باب الصغير وعمره خمس وعشرون سنة[١].

ابو السعود الكازورني

أبو السعود بن الشرف يحيى بن أحمد الكازورنيّ المدنيّ الزبيريّ نسبة إلى الزبير بن العوّام رضي الله عنه الشافعيّ إمام الشافعية بطيبة الطيبة.

كان فاضلاً ذا همة عالية ونفس مطمئنة ومحاضرة لطيفة وجاه عريض مع خشية الله تعالى والتورّع في كثير من أمور الدنيا والتقلل منها والتعفف عنها، خطبته المناصب السنية فأباها ورفعت له عن نقاب زخرفها فنهاها. وكان له همة عظيمة في النسخ لم يضيع أوقاته بلا شيء منه فجمع بذلك كتباً نفيسة بخطه، وحفظ القرآن وجوّده وحفظ كتباً في الفقه والأصلين[٢] وألفية ابن مالك والشاطبية والرحبية وغيرها، وقرأ على كثير من المشايخ.

(٢) لزم صلاة الجماعة بالمسجد النبوي بحيث لا يفوته فرض إلا لعذر وكان لا يخرج من المسجد إلا آخر الناس خصوصاً بعد صلاة العشاء ويقول: أحب أن أكون آخر الناس خروجاً وأوّلهم دخولاً.

(٣) وكان والده يُلزمه وهو مراهق بحضور صلاة الصبح مع الجماعة

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/١١٨ - ١١٩.

(٢) أي: أصول الدين وأصول الفقه.

وحضور قراءة الوظائف واستمر على ذلك ومن عادة أهل المدينة غالباً إذا جاء وقت الصيف يخرجون إلى النخل، قال: وكان لوالدي نخل بالمقصرة فطلع هو وطلعنا معه والوقت صيف فانتبهت ليلة من النوم وكانت مقمرة فتوهمت أن النهار أسفر وفاتني حضور الجماعة فانزعجت ثم توضأت وفتحت باب النخل وذهبت إلى أن وصلت محل الداعي بباب الجمعة فإذا الريس أوّل ما ابتدأ في التهليل على المنارة فتحيرت حينئذ وعرفت أني قد اغتريت بالقمر وإن الليل باق ولا يمكنني الرجوع إلى المحل لأني أهاب الدخول بين تلك النخيل ولا أجد قدرة على الدخول في البقيع في تلك الساعة لكون المحل مهيباً عادة ثم ألهمني الله تعالى وقوّى جناني إلى أن عزمت على التقدّم إلى البقيع في تلك الساعة فتقدّمت باسم الله إلى أن جلست على باب عمات النبيّ ﷺ واتكأت على باب القبة ووضعت العباءة على رأسي فبعد ساعة لم أشعر إلا بفانوس أقبل من جهة سيدنا أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى وقف به حامله بالقرب مني ومعه جماعة مبيضون ثم بعد ساعة أقبل فانوس آخر من جهة قبة العباس رضي الله عنه ووقف به حامله بالقرب من باب الجمعة ومعه جمع مبيضون أيضاً، ثم بعد ساعة أقبل جماعة كثيرون من الدرب الذي أتيت منه إلى المحل الذي أنا به من درب الغنم ومعهم فانوس ولهم حركة عظيمة فسلم واحد على الجمع الأوّل فردّوا سلامه فقصدوا باب السيدة فاطمة رضي الله عنها فإذا هو مفتوح فدخلوا فدخلت معهم وقصدوا جهة الصحابة فأردت الدخول معهم فوقف لي رجل منهم وقال لي: ههنا حدّك فوقفت عند قبر السيدة فاطمة أتهجد ساعة ثم خرجوا وخرجت معهم فخرجوا من باب الجبر ثم من باب الجمعة فخرجت معهم فوقفوا هناك بعد أن توجهوا إلى القبلة ودعوا وأنا معهم فالتفت إليّ رجل منهم وضيء وقال لي: من أنت؟ قلت: أبو السعود بن يحيى الكازورنيّ فرفع يده وطبطب بها بين كتفيّ وقال: بارك الله فيك حصلت لك العناية ولذرّيتك ثم تفرّقوا على أسرع ما يكون حتى كأنه لم يكن والوقت باق فرجعت إلى المكان الذي كنت فيه بقية

ليلتي فبعد هنيهة إذا بحس قافلة مقبلة أسمع ولا أرى ثم بعد ذلك رأيت رجلاً مقبلاً من جهة درب الجنائز يقود جملاً عليه شقدف عليه ثوب أبيض ورجل من خلف الجمل يسوقه وهما في صفة يمانيين بإزار فقط فقلت هذه قافلة لبعض أهل الحارة تحط هنا أتونس بها إلى أن يفتح الباب فإذا هما طلعا إلى البقيع وأخذا في السير فبقيت متعجباً من هذين الرجلين من أين وإلى أين، إلى العُرَيْض[1] فما هو وقته، أو إلى العوالي فما اتفق أن أحداً يذهب إليه بشقدف فإذا هم قصدوا جهة بالقرب من سيدنا إبراهيم بن رسول الله ﷺ فبركوا الجمل ثم أخذوا في الحفر أراهم أخرجوا من ذلك القبر شيئاً وأدخلوه في الشقدف وأخرجوا من الشقدف شيئاً وأدخلوه ذلك القبر ثم دفنوه وأنا أنظر إليهم من مكاني وبعد ساعة أثاروا الجمل فقام وإذا بالشقدف وعليه ثوب مسود بعد ذلك البياض الأوّل ومرّوا عليّ فلما جاوزوني قمت فمسكت قائد الجمل من يده وقلت له: من تكونا؟ فقال: إليك عنا نحن الملائكة النقالة، فتأخرت واقشعر جلدي وذهب لبي ثم أذّن الريس للصبح وفتح الباب فكنت أوّل من دخل فقصدت المسجد وزرت الحضرة الشريفة وصليت سنة الفجر ثم قامت الصلاة المفروضة فصليت مع الجماعة ثم حضرت وظائفي فقرأتها مع أصحابي ورجعت للنخل وأخبرت والدي بذلك كله فقال: لا بقيت تذهب وأنا أقيم وظائفك نائباً عنك وناب عني. انتهى.

ولصاحب الترجمة نظم ونثر ثابتان في مجاميعه، وله تذكرة لطيفة جمع فيها من كل غريبة ونادرة.

وكانت ولادته في سنة ثمانين وتسعمائة بالمدينة وتوفي بها سنة ثمان وخمسين وألف وصُلِّي عليه في المسجد النبوي بعد صلاة العصر ودُفِن ببقيع الغرقد عند قبر سيدنا إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

---

(١) وادٍ بالمدينة.

(٢) «خلاصة الأثر»: ١/١٢٤ ـ ١٢٥.

سنان الدين الروميّ

أحمد بن حسن الشيخ سنان الدين البياضيّ الروميّ الحنفيّ قاضي العسكر وأحد صدور الدولة العثمانية.

من أجلاء علماء الروم وأجمعهم لفنون العلم، وكان صدراً عالماً وقوراً جسيماً عليه رونق العلم ومهابة الفضل، واشتهر بالفقه وفصْل الأحكام وشاعت فضائله وذاعت. وقد أخذ عنه جماعة منهم شيخ الإسلام يحيى بن عمر المنقاريّ، وحج مع والده وحضر دروس الشمس البابليّ بمكة لما كان أبوه قاضياً بها وأجازه في عموم طلبته ونبل ودرس بالروم وأفاد. ووَلِيَ قضاء حلب في سنة سبع وسبعين وألف واعتنى به أهلها وبالغوا في توقيره وتعظيمه وجرى له مع مفتيها العلامة محمد بن حسن الكواكبيّ مباحثات ومناقشات كثيرة دوّنت واشتهرت عنهما ثم عزل ووَلِيَ قضاء بورسة، ثم قضاء مكة في سنة ثلاث وثمانين وألف وسار فيها أحسن سيرة وعقد بمجلس الحكم درساً وقرأ شرحه على الفقه الأكبر وهو شرح استوعب فيه أبحاثاً كثيرة وأحسن فيه كل الإحسان وسماه «إشارات المرام من عبارات الإمام» وقد رأيته بالروم واستفدت منه، ثم عزل عن قضاء مكة وقدم دمشق واجتمعت به فيها فرأيته جبلاً من جبال العلم راسخ القدر، ثم وَلِيَ قضاء قسطنطينية في أواخر سنة ست وثمانين وألف وكنت إذ ذاك بها، ثمّ وَلِيَ قضاء العسكر بروم ايلي[1] وكان يوم ولايته كثير الثلج فأنشدت بعض حفدته قولي:

والأرض سُرت به لهذا قد لبست حلة البياضي

(١) ووقع في أيام قضائه أنه ثبت على امرأة أنها زنى بها يهوديّ وشهد أربعة بالزنا على الوجه الذي يقتضي الرجم فحكم برجم المرأة فحفر لها حُفيرة في آت ميداني ورُجمت وهذا الأمر لم يقع إلا في صدر الإسلام[2].

---

(١) الروملي: هي بلاد العثمانيين في أوروبا.

(٢) لا أدري علام استند المصنف في دعواه أن الرجم لم يقع إلا في صدر الإسلام.

ثم عزل وأقام بداره إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين وألف[1].

المنطقيّ

الملوى أحمد بن المنلا زين الدين العجميّ الأصل، الدمشقيّ المولد والوفاة، قاضي القضاة الملقب بالمنطقيّ الفاضل الأديب الشاعر الناثر، أحد أفراد الدهر ومحاسن العصر. كان فاضلاً، سامياً هضباتِ الأدب، متفنناً بليغاً في إنشائه عذب المنطق سريع الفهم وبالجملة فقد كان روحاً كله من فَرقه إلى قدمه. وكان ينظم وينثر في الألسن الثلاثة[2] وهو فيما عدا العربيّ نسيج وحده ومفرد وقته، وشعره فيما بين أهل الروم أغلى قيمة من الدر.

وذكر لي بعض الثقات منهم أنّ الأديب شاعر الروم في وقته سليمان البوسنويّ كان يقول في شعر المنطقي: إنّ كل غزل من شعره يعادل ديواناً من شعر غيره وكنت وأنا بالروم جمعت من أشعاره حصة وافرة فأردت ذكر شيء منها هاهنا ثم منعني من ذلك أن أهل بلادنا ليس لهم اعتناء بهذا النوع وغالب النساخ عندنا لا يعرفون التركية فكثيراً ما يحرفون الكلم عن مواضعه فيقع التخبيط والحاجة ليست بماسة لذلك جداً، وأما شعره العربي فقليل.

وُلِد بدمشق وقرأ وبرع واشتهر، وبرز بروزاً غريباً فجلس لإلقاء الدروس وهو حدث السن، فاجتمع في حلقة درسه جماعة من الأكراد والأعاجم، ونبُل قدره وعلا صيته ووَلِيَ تدريس المدرسة السليمية بصالحية دمشق، ثمّ سافر إلى حلب فاجتمع بقاضيها الأديب المنشىء المشهور عبد الكريم بن سنان فأحسن إليه كل الإحسان، ولما عزل من قضاء حلب صحبه إلى الروم وكان ذلك في حدود سنة ثمان وعشرين وألف فدخل إلى

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) العربية والتركية والفارسيّة.

دار السلطنة وأقام بها فرغب كثير من كبرائها في معاشرته لحسن محاضرته وأدبه وحَظِيَ عندهم ولازم ودرس بعد مدة بعدة مدارس وجمع مالاً كثيراً وجاهاً عريضاً.

(١) وترقّى في الشهرة حتى وصل خبره للسلطان مراد فاتخذه نديم مجلسه وكان يجتمع هو ونفعي الشاعر المشهور أحد الندماء في المجلس السلطانيّ ويجري بينهما مكالمات ومخاطبات تأخذ بالعقول، وكان كل منهما شديد الحط على الآخر في غيبته ومن أبلغ ما وقع بينهما أن السلطان أمر صاحب الترجمة أن يهجو نفعي فهجاه بقصيدة أفحش فيها، فلما سمعها نفعي استشاط غيظاً وجزم على مكيدته وعرض في المجلس السلطاني بأن المنطقيّ يحسن محاكاة كل جيل من الناس وإن أحسن ما رآه منه محاكاة الفِرَنج في الملبس والمكالمة فنادى السلطان صاحب الترجمة وذكر له ما قاله نفعي عنه فحلف الأيمان الأكيدة أنه لم يصدر منه مثل ذلك قطٌّ وما زال يتخضع ويبكي حتى خلص نفسه من هذه الورطة التي كان أدنى عاقبتها القتل.

ولما تحرّك الجند على السلطان وقتلوا الوزير الأعظم أحمد باشا الحافظ انقطع صاحب الترجمة عن صحبة السلطان خوفاً من الجند ولزم زاوية العزلة وظهر السلطان بعد ذلك على الجند وقتل منهم من قتل وفرّق شملهم فظهر المنطقيّ إلى الوجود إلا أنه ضرب بالحجاب بينه وبين صحبة السلطان كغيره من الندماء ولكنه بقي على التردّد إلى مجالس الصدور كالمفتي الأعظم المولى يحيى بن زكريا وغيره.

وكان كثير الحط على من يعاديه مغالياً في إظهار زيف أبناء عصره خصوصاً أهالي بلدته دمشق.

ولم يزل المنطقيّ على حالته المذكورة حتى صار قاضي قضاة حلب ونقل منها إلى قضاء الشام فوردها وكان سيره بها حسناً ومدحه شعراء ذلك العصر بالقصائد الطنانة.

(١) ووجهت حكومة الشام في أيام قضائه إلى صاحب السلطان مراد الوزير مصطفى باشا السلاحدار فأرسل من قبله لضبطها رجلاً يُقال له عثمان الجفتلري، وهو الذي صار حاكماً مستقلاً بالشام في سنة ثمان وأربعين وألف، فاتفق أنه وقع بينه وبين صاحب الترجمة لمنعه إياه عن بعض المظالم فعرض فيه بما لا يليق عرضه وأسند إليه أموراً منها هدم قبة المزار المنسوب لسيدي عبد الرحمن حفيد سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه بمقبرة الفراديس وكان هدمه بسبب أنه كان يصير فيه بعض مناكر من الفساق، ومنها أنه ورد أمر فتح قلعة روان حين أخذت من يد شاه العجم عباس شاه واتفق يومئذ وجود القاضي في الصالحية فأرسل إليه الخبر فتباطأ في النزول وحضور الديوان، ومنها أنه ربما أطلق لسانه في أركان الدولة ومنهم الوزير المذكور فبعد مدّة قليلة من إرسال العرض ورد خبر عزله عن قضاء الشام ثم ورد أمر شريف بقتله فأخذ إلى قلعة دمشق وخنق بها واتفق يوم وصول خبر قتله دخول المولى عبد الله بن عمر معلم السلطان عثمان قاضي مصر إلى الشام وجرى ذكر المنطقيّ في مجلسه وما وقع له من الخنق فقال متمثلاً: إن البلاء موكل بالمنطقي، وكأنه أحال ذلك على سببية إطلاق لسانه في حق بعض الصدور.

وبالجملة فقد عاش المنطقيّ حميداً ومات شهيداً فرحم الله تعالى فضائله ومعارفه.

وكانت ولادته في سنة ثلاث بعد الألف ومات سنة خمس وأربعين وألف وضبطت أمواله لجهة بيت المال وصُلِّي عليه بعد أداء صلاة الجمعة في جامع الأمويّ[١].

أحمد بن سعد بن الحسين المسوريّ اليمنيّ

كان هذا العلامة الحبر عظيم الشأن، جليل القدر، واحد الدهر وفريد

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/١٩٧ - ٢٠١.

العصر، وعالم السهل والوعر. ذكره ابن أبي الرجال في تاريخه: «مطلع البدور ومجتمع البحور» وأثنى عليه بما لا مزيد فوقه ثم قال: أصله من بلاد مسور، واشتغل بالعلم وحرر العلوم وكان في العلوم النقلية والعقلية شيخها الأكبر، وفي الأدب الذي فيه انحصرت مزاياه، وبالجملة فإنه كان من الأفراد في اليمن وكانت دولة القاسم زاهية به وهو صدر مجالسهم ونور مقابسهم، تصدّر للإفادة والكتابة في مجلس الإمام القاسم، ثم في مجلس ولده الإمام المؤيد بالله محمد، ثمّ في مجلس أخيه القائم بعده أحمد أبي طالب، ثمّ في مجلس أخيه الإمام المتوكل على الله إسماعيل وانتهت مدّته في هذه الدولة وهو كاتب الإنشاء ومتقلد منصب الخطابة في حضرة الأئمة المذكورين، وانتهى إليه علم اللغة والحديث والتفسير والنحو والصرف والأصلين والدراية بمناطيق العرب ومفاهيمها وما اشتملت عليه من الكنايات والإشارات وعلى كل حال فالواصف له مقصر، وشيوخه كثيرون والآخذون عنه مثل ذلك، وله مؤلفات فائقة ومنشآت من خطب وغيرها بليغة.

(١) وله من الورع ما لا يحصر بقيد، ولا وصل إليه عمرو بن عبيد[1]، وكانت الأئمة تراسله بالكتب والهدايا فيأباها ولا يرى في ذلك من الملوك عقباها فمن ذلك ما أجاب على الأمير الكبير الشريف الحسين بن أحمد الخواجي صاحب صنعاء وقد كتب إليه كتاباً وأصحبه هدية: «وبعد فوصل كتابكم الذي هو جواب جوابي عليكم مشتملاً على وجوه من الخطاب صيرت ما كان سبق مني من الإحسان بإجابة الكتاب الأوّل ذنباً، وما كنت أحسبه حمداً عند الله وعند خير عباده سباً؛ إذا لم يقع مني ما صدر من البِشْر السابق لمن وصل إليّ من الحضرة الإمامية من إخوانكم الشرفاء، ثم ما جوابي لكم في كتابكم الذي ابتدأ به المولى إلا رعاية لحق رسول الله ﷺ إذ كنت وأولئك الجماعة من أهل بيته وممن ينسب إلى ذريّته ثم صيانة لعرض مولانا أمير المؤمنين ومحبة في أن يكون من في حضرته

---

(١) أحد المعتزلة المشهورين بالورع.

الكريمة من المكرمين كما جاء في الحديث النبويّ «المؤمن إلف مألوف» وكنت أظنكم رعاكم الله وأولئك الجماعة ممن له في خوف الله نصيب وممن أقلع عما يوجب البعد من القريب المجيب، وممن دعواه صادقة أنه لا يريد إلا الله ولا يسعى إلا في طاعته وتقواه، فخدعتموني تالله فانخدعت ولو أخذت بالحزم الذي هو سوء الظن لما أبعدت فحملتم تلك الحالة مني على ما زهدني والله وغيري من المؤمنين فيكم ونبهني على الحذر والريب في كل ما يصدر من قول أو فعل عنكم إذ أحللتموني محلاً لست من أهله وكتبتم إليّ بتصدير هديتكم المردودة إليكم غير مشكورة ولا محمودة ولم ترها والحمد لله عيني ولا لمستها يدي إذ أردتم خديعتي عن ديني والتوصل بها إلى ما تريدون من أغراض الأهواء في هلكتي فأكون كما قيل:

بت كأني ذُبالة[1] نصبت تضيء للناس وهي تحترق

ومعاذ الله أن أكون ممن يبيع دينه بكل الدنيا فضلاً عن عرض منها هو أقل وأدنى أو أن يحبط أعماله ويبطلها بإماطة الأوساخ عن الناس. لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، وكيف إن بقى شيء من المعقول آمر الناس بالبرّ وأنسى نفسي وأتصدّر لإمام الحق في إنشاء المواعظ يخطب بها على المنابر لنصيحة الخلق وأخونها وهي أعز الأنفس عندي على أني والمنة لله عليّ من فضل ربي وفضل إمامي في خير واسع ورزق جامع وآمل في كل بلاغ راتع.

(١) ثم إنه لا يسلك أحد طريقة إلا وله فيها سلف يقتدى بهم بعد رسول الله ﷺ فأوّلهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يقول في خطبته: «والله لأن أبيت على حسك السعدان[2] مسهداً أو أجر في الأغلال مصفداً أحب إليّ من أن ألقى الله تعالى ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد أو غاصباً لشيء من الحطام وكيف أظلم أحداً والنفس يسرع إلى البلى قفولها ويطول في الثرى حلولها، والله لقد رأيت أخي عقيلاً وقد أملق حتى استماحني من بُرِّكم صاعاً ورأيت صبيانه شعث الألوان من

---

(١) الذُّبالة: الفتيلة. (٢) نوع من النبات فيه شوك ذو ثلاث شعب.

فقرهم كأنما سوّدت وجوههم، وعاودني مؤكداً وكرّر عليّ القول مردداً فأصغيت إليه سمعي فظنّ أني أبيعه ديني وأتبع قياده مفارقاً يقيني فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضج ضجيج ذي دَنِف[1] من ألمها وكاد أن يحترق من مسها فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرّني إلى نار أضرمها جبارها لغضبه، أئتن من الأذى ولا أخاف من لظى». وأعجب من هذا طارق يطرقنا بملفوفة في وعائها ومعجونة كما عجنت بريق حية أرياقها فقلت: أصِلة أم زكاة وصدقة فذلك محرم علينا أهلَ البيت، قال: لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية، فقلت: هبلتك الهبول أعن دين الله أتيتني لتخدعني أمخبط أنت أم ذو جِنّة أما والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها خلب شعيرة ما فعلتها وإن دنياكم هذه لأهون عند الله من ورقة في فم جرادة.

نعوذ بالله من سيئات العمل وقبح الزلل وبه نستعين. وأقرب أئمتي إليه إمام عصري بعد والده أمير المؤمنين القاسم بن محمد بن علي رضوان الله عليهم وهما جميعاً ممن علم الخاص والعام سلوكهما تلك الطريق وتمسكهما بذلك الحبل على التحقيق ورفضهما الدنيا بعد ملك المشرق والمغرب ورضاهما منها بأدناها مع نفوذ أمرهما في العرب والعجم والبعد والقرب:

والشمس إن تخفى على ذي مقلة نصف النهار فذاك تحقيق العمى

وأما آبائي الذين أنتسب إليهم فأدناهم أبي الذي ولدني كان والله كما ورد في الحديث النبويّ يغضب لمحارم الله كما يغضب الجمل إذا هيج لا تأخذه في الله لومة لائم وكما قيل:

القائل الصدق حتى ما يضر به والواحد الحالتين السرّ والعلنِ

(١) ثم أخوه عمي الذي أدّبني كما قال أمير المؤمنين علّي كرّم الله

---

(١) مَرَض.

وجهه في صفة المؤمن: «المؤمن بشره في وجهه، وحزمه في قلبه، أوسع شيء صدراً، وأذل شيء نفساً، يكره الرِفعة ويَشْنأ[1] السمعة، طويل غمه، بعيد همه، كثير صمته، مشغول وقته، شكور صبور، مغمور بفكرته، ضنين بخلته، سهل الخليقة، لين العريكة، نفسه أصلد من الصلد، وهو أذل من العبد»، ثم أبوهما جدّي المسمى سلمان أهل البيت الذي لا نعلم أن إماماً من الأئمة مدح غيره بذلك فقال الإمام شرف الدين لولده شمس الدين بن أمير المؤمنين:

جاءكم سلمان بيتي	فاعرفن يا شمس حقه
ولرجواه فحقق	وببشر فتلقّه

(١) وأنا بحمد الله لم أعرف غير سبيلهم ولا ربيت إلا في حجورهم وإني والناس لكما قال عمر بن عبد العزيز رحمه[2] الله تعالى:

يقولون لي فيك انقباض وإنما	رأوا رجلًا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم	ومن أكرمته عزة النفس أُكرِما
ولم أقض حق العلم إن كنتُ كلما	بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني	ولا كل من في الأرض ألقاه منعما
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى	ولكنّ نفس الحرّ تحتمل الظما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي	لأخدم من لاقيت لكن لأُخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة	إذا فاتباع الجهل قد كان أسلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم	ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا	مُحَيّاه بالأطماع حتى تجهّما

(٢) اللّهم إني لا أقول ذلك افتخاراً لي ولا تزكية لنفسي بل لما ينبغي من تجنب مواقف التهم معترف بأني أحقر من أن أذكر وأهون من قلامة الظفر، ولكن مظلوم رفعت ظلامتي إليك كما قال زين العابدين رضي الله عنه: يا

---

(١) أي: يُبغض.

(٢) هذه الأبيات منسوبة للشافعيّ، رحمه الله.

من لا يخفى عليه أنباء المتظلمة ويا من لا يحتاج في قصصهم إلى شهادة الشاهدين ويا من قربت نصرته من المظلومين ويا من بعد عونه عن الظالمين قد علمت يا إلهي ما نالني من فلان إلى آخر ما ذكره في دعائه وحسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم هذا ولولا تحرج أمير المؤمنين عليّ في إعادة الجواب لما توجه مني بعد ذلك خطاب وهذا إن شاء الله تعالى بيني وبينكم آخر كتاب والسلام[1].

الأياشيّ

المولى أحمد بن سليمان الروميّ المعروف بالأياشيّ قاضي القضاة بحلب ثمّ بالشام.

(١) وَلِيَ الشام سنة سبع بعد الألف. وكان في ابتداء قضائه معتدلاً وسلك مسلك الإنصاف ومدحه شعراء دمشق بالقصائد البديعة ومنهم أبو المعالي درويش الطالوي فإنه كتب إليه قصيدة شينية استحسنها أدباء وقته مع صعوبة رويها ومطلعها:

كيف أخشى في الشام أمر معاشي	وملاذي بها جناب الأياشي
أفضل القوم من سما للمعالي	فاعتلاها طفلا وكهلا وناشي
فهو بدر العلوم صدر الموالي	من سماهمُ فضلاً ولست أحاشي
ساق عدلاً بالشام حتى شهدنا	مَشْيَ ذئب الفلاة بين المواشي

(٢) ثم تغيرت أحواله وفسدت أطواره واشتهرت في أيامه الرشوة وأبطل كثيراً من الحقوق حتى ضجر منه أهل دمشق وأعياهم الجهد وقامت عوامها على ساق فرجموه عند خندق القلعة بين سوق الأروام والعمارة الأحمدية وأفحشوا في رجمه، وكان رجمه يوم دخول السيد محمد باشا الوزير إلى دمشق حاكماً بها وقد كان طلع لاستقباله فكان الناس يشيرون إلى الوزير

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧.

بالشكاية عليه في وجهه ويتظلمون وهو ساكت ولم يزل الناس ممسكين أيديهم عن الرجم إلى أن دخل الوزير المذكور إلى دار الإمارة ففارقه القاضي فاستقبله الناس عند انصرافه يصيحون في وجهه ويقابلونه بكلمات لا تليق وأعقبوا ذلك بالرجم حتى فرّ منهم هارباً وأدركه مع ذلك ما أدركه من الأحجار.

(١) وهجاه بعد ذلك أبو المعالي المذكور بقصيدة طويلة سماها «رفع الغواشي عن ظلم الأياشي» وقسمها فصولاً وجعل كل فصل في حال من أحواله وابتدأها ببيتين من شعر شيخه أبي الفتح المالكيّ مفتي المالكية بالشام وهما قوله:

الشام تبكي بدموع غزار بكاء ثكلى ما لها من قرار
بكاء مظلوم له ناصر لكن بعيد الدار والخصم جار

(٢) ثم ذكر فصولها فمن ذلك قوله مشيراً إلى ظلمه مع وكيله لرجل بدمشق يُقال له عقيص مات وخلف ثلاثة آلاف قرش أخذ منها ألفاً فقال:

كيف استحل ألف قرش لنا وجملة المال ثلاث كبار
وجملة الأوقاف في عهده تباع في الدلال بيع الخيار
ويدعي الرقة في طبعه مثل المخاديم الموالي الكبار

(٣) ثم عزل عن قضاء الشام بُعَيْد رجمه بقليل واتفق عزله يوم عيد النحر من سنة ثمان بعد الألف فقيل في تاريخ عزله:

رُجِم الأياشي في دمشق وجاءه عزل وكان العيد عيدا أكبرا
وسئلت عن تاريخه فأجبتهم بالعزل شيطان رجيم دُمرا

وكانت وفاته في سنة عشر بعد الألف.

والأياشيّ نسبة إلى أياش بليدة يُصنع بها الصوف من نواحي أنقره ببلاد قرمان، والله أعلم[١].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٢٠٨ ـ ٢٠٩.

المنصور

مولاي أحمد بن عبد الله بن محمد الشيخ أبو العباس المنصور بن الخليفة المهدي بن أبي عبد الله القائم بأمر الله الشريف الحسنيّ ملك مراكش وفاس السلطان العالم الأديب.

(١) كان من أمر جده الشيخ أنه كان في بداية أمره من أهل العلم وكان مجتهداً في تحصيل الكمالات، فصار قاضياً في نواحي السوس من ديار الغرب ثم وثب على بني حفص المنتسبين إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يزل يقاتلهم حتى ملك ديارهم وعفا من السلطنة آثارهم وقتل كثيراً من العلماء ومن جملة من قتل الشيخ الزقاق وكان يقول من قتل سوسيا كان كمن قتل مجوسياً فلما مسكه قال له: أنت زق الضلال فقال له: لا والله بل أنا زق العلم والهداية فجعل عليه هذا الكلام حجة وبه قتله، واستمر يؤسس قواعد ملكه إلى أن مات في سنة أربع وستين وتسعمائة.

(٢) وقام بالأمر بعده ولده عبدالله وتوفي فتولى الملك بعده ولده محمد أخو مولاي أحمد صاحب الترجمة، وكان أكبر إخوته ولما جلس على سرير السلطنة أظهر مولاي أحمد المنصور أنه غير طالب للملك وأنه لا ينفق رأس مال عمره في غير ما للعلم من كنوز ومطالب فلما مات أخوه قام ولده في محله واستولى عليه الغرور وأشار عليه بعض خدمته بقتل من بقي من أعمامه فلما علم بذلك مولاي أحمد وجف[1] بجيش من الروم ومعه أخوه وجيش من عنده وقاتله فتمت على ابن أخيه الهزيمة وذهب إلى ملك الفِرَنج فأمده ورجع إلى الحرب ثانياً فتقاتلا ولما تمت عليه الكسرة ثانياً أسرع إلى البحر وأغرق نفسه فتبرجت لمولاي أحمد عروس تلك الممالك وثبتت قواعده وارتفعت معاهده.

(٣) وكان موادعاً لسلاطين آل عثمان فيرسل إليهم بالهدايا في كل سنة

---

(١) أي: تحرك.

وكانوا هم يرسلون إليه المكاتيب والخِلَع السَنيّة حتى أن السلطان مراد بن سليم خان كتب إليه في أثناء مكاتيبه: لك عليّ العهد أن لا أمدّ يدي إليك إلا للمصافحة، وأن خاطري لا ينوي لك إلا الخير والمسامحة. ورسله دائماً تأتي إلى قسطنطينية من جانب البحر ويمكثون زماناً طويلاً ويتعهدون الوزراء ويكاتبون من له قرب إلى الدولة ولم يحصل لأحد من أولاد محمد الشيخ ما حصل لهذا المنصور فإنه قد طالت في الملك مدته واتّسعت مملكته وقويت شوكته وكان ابتداء ملكه من حدود إفريقية إلى حافة النهر المحيط وملك حصة من بلاد السودان، وكان ابتداء تملكه في آخر سنة خمس وثمانين وتسعمائة واستمر سلطاناً ثمانية وعشرين سنة وكان له أولاد قد فرقهم في البلاد فجعل الأكبر وهو مولاي محمد الشيخ في فاس وجعل زيدان في مكناس وكان هو بنفسه يقوم في مراكش. وكان سلطاناً عادلاً عظيم القدر حسن التدبير أديباً له شعر نضير عليه رونق السلطنة.

(١) ومن أدبه الباهر أن بعضهم أنشده قول الأبِيوَرْدِيّ:

ولو أني جعلت أمير جيش   لما حاربت إلا بالسؤال
لأن الناس ينهزمون منه   وإن ثبتوا لأطراف العوالي

(٢) فقال: لو كان البيت لي لقلت:

ولو أني جعلت أمير جيش   لما حاربت إلا بالنوال

قال الخفاجيّ: وأين كلام سائل ملّ السؤال من كلام ملك يملك القلوب بالنوال. وبالجملة فأشعار المنصور كلها جارية على نهج الرقّة والعذوبة. وفيما أوردنا له كفاية وأما جلالة شأنه وعظم قدره فمما تكفّلت بهما شهرته وأخباره وحاشية من العلماء والأدباء كالمقّري والثعالبيّ وأضرابهما. وتوفي في سنة اثنتي عشرة بعد الألف[١].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٢٢٢ - ٢٢٥.

الشريف أحمد بن عبد المطلب بن حسن بن أبي نمي شريف مكة

كان من أداب أهل بيته فاضلاً نبيها نجيباً جيد الذكاء، وكان حسن الصورة عظيم الهيبة.

(١) ولما تولى أمر مكة استولى على أموال الناس ولم يرحم أحداً، وعاقب كثيراً ممن كان قبلُ استبعدها عنه وسخر منه، وكان له أخدان وجلساء قبل الولاية فعجّل لهم الأذية، واستمر متغلباً على مكة وهو في الحقيقة مغلوب عليه واستولى على أموال مكة ورقاب أهلها وصادر التجار وحبس من حبس وقتل من قتل فنفرت الناس وجلت عن مكة وخالفت القبائل وتقطعت الطرق وأكثر العسكر الفساد في أشراف البلاد وسكنوا ببيوت الأشراف وانتهكوا حرمتهم، وقبض على جماعة من الأعيان من أجلّهم الشيخ عبد الرحمن المرشديّ وحبسه مغضباً عليه فلما كان موسم سنة سبع وثلاثين وألف قدم الحاج المصريّ وأميره إذ ذاك قانصوه باشا وكان بينه وبين المرشديّ مودّة أكيدة ومكاتبات سابقة فلما صعد الحجيج إلى عرفة أتى حريم المرشديّ إلى مخيم قانصوه مستشفعين به إلى الشريف أحمد بن عبد المطلب في إطلاقه من الحبس فرق لهنّ رقة عظيمة وتوجه إلى الشريف يوم عرفة مستشفعاً به فلم يقبل رجاءه فلما كان ليلة النحر أمر به فخنق شهيداً وكان ذلك سبباً لوقوع ما وقع من قانصوه باشا في الشريف أحمد ثانياً لما قدم أميراً على اليمن ثم استمرّ قانصوه متوجهاً لفتح اليمن وصحبته العساكر وعدّتها ثلاثون ألفاً وضرب مخيمه أسفل مكة وكان بين الشريف مسعود بن إدريس وبين الشريف المذكور ممالأة ومواطأة قبل نزوله لبندر جدّة مضمونها إني لا أريد الملك لنفسي إنما أريده لك أو هو بيننا فخذل عني من استطعت من آل أبي نمى وثبطهم وحل عزائمهم ووعده بذلك ففعل ما فعل وحصل به على الشريف محسن ما حصل ولله الأمر فلما نزل الشريف أحمد إلى جدة تقمصها لنفسه ولم يف الشريف مسعود

ببعض تلك العهود بل أراد قتله ففرّ إلى قانصوه والتجأ إليه فصادف قانصوه مملوءاً بالوجا[٢] على الشريف أحمد، فلما أقبل قانصوه قاصداً لليمن لاقاه الشريف مسعود من الينبع وجاء معه مختفياً وواجه في المجيء الأوّل الشريف أحمد قانصوه بالزاهر وردّ عليه تحية القدوم وعزم على محاربة قانصوه فازداد قانصوه عليه حنقاً على حنق وشرع يستميل عسكر الشريف فأطاعوه فخرجوا من مكة ثم خيم قانصوه ولما أن قضت الحجاج مناسكهم وذهبوا إلى بلادهم تخلف قانصوه بثقله أسفل مكة فلما تحرّك السفر قدّم ثقله ولم يبق إلا مخيمه وخيام العسكر فأشار قانصوه إلى شخص يتعاطى خدمته من أبناء الطواف يسمى محمد إلياس أنه يحسن للسيد أحمد الوصول إلى قانصوه للوداع ففعل وذهب إلى الشريف أحمد وحسّن له ذلك يوم السبت رابع عشر صفر فلما كانت ليلة الأحد خامس عشر الشهر المذكور سنة تسع وثلاثين وألف ركب الشريف أحمد إليه وصحبته من الأشراف بشير بن بشير بن أبي نمي ومحمد بن حسن بن صيقان وراجح بن أبي سعيد ومن أعوانه وزيره مقبل الهجاني وأحمد البشوتي متولي بيت المال وفليفل فلم يزالوا يدخلون في المخيم من باب إلى باب حتى وصلوا إليه فتحادثا ملياً ثم نصبا نطع الشطرنج فلما كانت الساعة الخامسة من الليلة المذكورة قبض على الجميع فقُتِل الشريف أحمد فتحرّكت عساكره فأظهره لهم مقتولاً ونشر العلم ونودي: المطيع للسلطان يقف تحته فوقفت العساكر تحته وخلع على الشريف مسعود بن إدريس.

وكان للشريف أحمد زوجان من القنا الطويل جدّاً بسنان مذهب تحته أكرة من الفضة مطلية يحمل كلَّ واحد رجل يمشي على قدميه إذا سار في موكبه يسيران أمامه قريباً منه يصوّبانهما ويصعدانهما بحركة سريعة لطيفة التصويب والتصعيد على حدّ سواء وربما كان فيهما أجراس.

---

(١) الحنق والغضب.

قلت: رأيت بخط بعض الفضلاء أن هذا يفعله أئمة اليمن وأكابر أمرائه إلى الآن إذا ساروا في المواكب. انتهى. وليس أهل اليمن أوّل من ابتدعه فقد كان يفعله الخلفاء العباسيون وقد ذكر ذلك شعراؤهم في قصائدهم.

وكان إذا سار بالليل لا يوقد بين يديه إلا الشمع الموكبيّ بدلاً عن المشاعل.

(١) وكان دخوله مكة متملكاً لها وأجفل الشريف محسن وبني عمه عنها ضحى يوم الأحد سابع عشر شهر رمضان سنة سبع وثلاثين فكان يتبجج[1] ويقول: فتحت مكة بالسيف كما فتحها رسول الله ﷺ ودخلتها في اليوم الذي دخلها فيه رسول الله ﷺ قال صاحبنا ومولانا الشيخ عبد الملك بن حسين العصامي: أما قوله كما فتحها إلخ فالمشهور والذي عليه الجمهور أنها لم تُفتح عنوة وإنما فُتحت صلحاً وما وقع من خالد بن الوليد رضي الله عنه فإنه قاتل بعض قتال مع الأحابيش وعبدان أهل مكة في أسفل مكة وقد نهاه ﷺ عن القتال ولكنه لما قوتل قاتل وهذا هو شبهة القائل بأنها فتحت عُنوة وأما قوله فدخلها إلى آخره فخطأ لأنه لم يدخلها ﷺ سابع عشرة وإنما دخلها ثامن عشرة وهب أنه ﷺ دخلها كذلك ولكن أين هذا الدخول من ذلك فإن هذا جرأة وبغي على حرم الله وسكان حرمه وذرية نبيه إذ في ضمن هذا التشبيه تشبيه من فيها من المسلمين الآن بالمشركين إذ ذاك.

وكانت مدة ولايته سنة واحدة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوماً[2].

السقّاف

الشيخ أحمد بن عمر بن عبد الرحمن السقاف الفقيه الشافعيّ اليمنيّ البيتيّ نسبة إلى بيت مسلمة قرية قرب مدينة تَرِيم.

---

(١) أي: يفرح.

(٢) «خلاصة الأثر»: ١/٢٣٩ - ٢٤١.

أحد العلماء الأعلام وُلد بتريم، وحفظ القرآن والجزرية والآجرومية والأربعين النووية وغير ذلك وعرضها على مشايخه.

وبرع في طريق القوم وأكثر الأخذ والتردّد على علماء عصره وأذن له غير واحد من مشايخه بالإفتاء والتدريس وكان يحضر درسَه جمٌّ غفير، واشتهر بالفتح لكل من قرأ عليه وقصدته الطلبة من كل مكان لِمَا يحصل في درسه من البحث والإيضاح، وكان له في تعليم المبتدئين تدريج حسن.

قال الشلي: وهو أوّل شيخ أخذت عنه في عنفوان عمري أخذت عنه الحديث والفقه والتصوّف والنحو ولازمته مدّة مديدة وقرأت عليه كتباً كثيرةً وكانت أخلاقه رضية.

(١) وكان الغالب عليه بذاذة حاله وعدم الاحتفال بنفسه، وقد روى أبو داود: «البذاذة[١] من الإيمان»، ولا ينافي هذا خبر «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» وخبر «إن الله جميل يحب الجميل» وفي رواية «النظافة» لأن الأوّل محمول على من آثر ذلك للتواضع لا غير والثاني على من قصد به إظهار نعمة الله عليه.

وكانت وفاته في سنة خمسين وألف[٢].

شهاب الدين المتبوليّ

الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد شهاب الدين المتبوليّ الأنصاريّ الشافعيّ المصريّ الإمام المؤلف المحرّر المتقن.

ذكره الشيخ مدين القوصونيّ فيمن ترجمه فقال: بركة المسلمين ومفيد الطالبين شيخنا أحمد شهاب الدين. كان ورعاً متواضعاً وكان يجلس للوعظ

---

(١) سوء الهيئة والتجوّز في الثياب، ورجل باذّ الهيئة إذا كان رث الهيئة واللباس، وانظر في معنى هذا الحديث وإسناده «عون المعبود شرح سنن أبي داود» ١١/٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) «خلاصة الأثر»: ١/٢٦٢.

بالمدرسة المؤيدية وكان لا يسمع أصلاً وإنما كنا نكتب له ما نسأله عنه.

وله من المؤلفات شرح على الجامع الصغير وهو شرح مفيد جامع ومنه كان يستمدّ الشيخ عبد الرؤوف المناويّ في شروحه وله مقدمة وضعها قبل الشرح المذكور تشتمل على أربعة وعشرين علماً، قلت: وقد رأيت هذا الشرح وطالعته فرأيته استوعب في مقدمته أشياء نفيسة جمة الفائدة.

(١) (خاتمة) في بيان عبارة صاحب الترجمة وعبارة غيره من شراح الجامع الصغير في جواز اللعن وتحريمه قال الأوّل ما نصه: وقد أجمعوا على تحريم لعن المسلم المصون وأما لعن أهل المعاصي لا المعيّنين والمعروفين كلعن الله آكل الربا فجائز وأما لعن معين متصف بمعصية كيهوديّ أو مصوّر أو آكل ربا فظاهر الأحاديث أنه جائز وأشار الغزاليّ إلى تحريمه، وأما لعن الحيوان والجماد فكلّه منهيّ عنه مذموم. قال الحافظ ابن حجر: واحتج شيخنا يعني البُلقينيّ على جواز لعن المعين بالحديث الوارد في المرأة إذا دعاها زوجها إلى فراشه فأبت لعنتها الملائكة حتى تصبح وهو في الصحيح وتوقف فيه بعضهم فإن اللاعن هنا الملائكة فيتوقف الاستدلال به على جواز التأسي بهم وعلى التسليم فليس في الخبر تسميتها والذي قاله شيخنا أقوى فإن المَلَك معصوم والتأسي بالمعصوم مشروع والبحث في جواز المعين وهو موجود. قلت: يحتمل أن يُقال هو من خصائص المعصوم ليسقط الاستدلال به فتأمّل هذا وقد ثبت النهي عن اللعن فحمله على المعين أولى انتهى بحروفه.

(٢) وقال شيخنا عبد الرؤوف المناويّ في شرحه ما نصه «وأجمعوا على تحريم لعن المسلم المصون وأما أهل المعاصي غير المعينين فجائز وأما لعن معين متصف بمعصية كيهوديّ أو نصرانيّ وآكل ربا فظواهر الأخبار جوازه وأشار الغزاليّ إلى تحريمه وجوز البُلقينيّ لعن العاصي ولو مُعيناً لخبر «إذا دعا المرأةَ زوجُها إلى فراشه فأبت لعنتها الملائكة حتى تصبح» واعتُرض بأن الاستدلال متوقف على وجوب التأسي بالملائكة أو جوازه مع

أن ليس في الخبر تسميتها وزَعْمُ بعضٍ من كتب على الكتاب أنه من خصائص المعصوم فلا يستدل به ساقطٌ إذ لا بدّ في دعوى الخصوصية من دليل انتهى كلام كل من الشارحين وقد رأيت أصل العبارة للإمام النووي في أواخر «الأذكار» وعبارته أن الغزاليّ أشار إلى التحريم إلا في حق من علمنا أنه مات على الكفر كأبي لهب لأنّ اللعن هو الإبعاد عن رحمة الله تعالى وما ندري ما يختم به لهذا الفاسق والكافر.

وكانت وفاته سنة ثلاث بعد الألف، رحمه الله تعالى(١).

السلطان أحمد

السلطان أحمد بن محمد بن مُراد السلطان الأعظم والخاقان الأفخم، أعظم ملوك آل عثمان وأحلمهم وأكرمهم. كان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر محباً للعلماء وآل البيت متمسكاً بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشراً لأرباب الفضائل سمح الكف جواداً لا تزال إحساناته للفقراء واصلة وعطاياه لأرباب الاستحقاق مترادفة، وكان مائلاً إلى الأدب والمحاضرات وله شعر بالتركية.

ولما توفي والده كان الوزير له إذ ذاك قاسم باشا فأخفى الوزير موت السلطان ودخل إلى داخل بيت السلطنة وذكر للسلطان أحمد المذكور كلاماً يقتضي أن يلبس السواد ويحضر في الجمع ويجلس على الكرسيّ وإذا حضر أعيان العلماء وأصحاب المناصب وأركان الدولة من أكابر الوزراء والأمراء وقبلوا يده وبايعوه على السلطنة على قانونهم فيقول لهم: كل واحد منكم يمشي على طريقه ويصله كمال الشفقة ونهاية المرحمة. فلما صدر ذلك خرج الوزير وأرسل وراء الأعيان والوزراء فحضروا وأخذ كل واحد منهم مجلسه فبعد هنيهة رأوا شاباً حسن الوجه رقيق الجسم تعلوه هيبة عظيمة ووقار جسيم فجاء حتى جلس على كرسيّ السلطنة وعليه ثياب سود

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٢٧٤ ـ ٢٧٧.

ومئزر من الصوف على رأسه على عادة آل عثمان فيما يلبسون عند موت واحد منهم فلما جلس علموا أنه السلطان وتحققوا موت والده فقاموا وقبلوا يده وحدثهم بما عهد إليه به الوزير وانقضى المجلس على ذلك وشرعوا بعد ذلك في تجهيز السلطان محمد ودفنه، وكان ذلك سنة اثنتي عشرة وألف، وكان عمر السلطان أحمد يومئذ أربع عشرة سنة.

(١) ولما التحم أمره ابتدأ بإرسال وزيره علي باشا الوزير الأعظم إلى جهة المجر بالعساكر فمات وهو متوجه فعين مكانه محمد باشا، ثم بعد ذلك سعى في الصلح مراد باشا بين السلطان والمجر على مدة عشرين سنة ودخل إلى الديار الرومية برسل الكفار ومعهم الهدايا والتحف فقبل السلطان أحمد ذلك، ثم سعى في قطع دابر البغاة الخارجين على السلطنة في أيام والده وقد كان جرى على أيامه منهم ما لم يجر على أحد من أهل بيته ممن تقدمه ولا تأخره حتى أنهم ملكوا غالب النواحي والبلدان وقويت شوكتهم وكبر شأنهم منهم حسين باشا الذي كان حاكماً في بلاد الحبشة ولخروجه أسباب يطول الكتاب بذكرها فأفسد وجبى الأموال من البلاد وأحرق بعض النواحي من بلاد قَرْمان ونواحي أناطولي وقتل وسبى وأسر بعض القضاة واستمر في غلوائه حتى وصل إلى مدينة الرها وبها العاصي الذي أسس بناء السكبانية وهو عبد الحليم اليازجي فلما وصل المدينة المذكورة التقى ثعبانان منثعبان وأبرز كل منهما للآخر حكما يشهد بأن آل عثمان قد أمروه بقتل الآخر وقد اتفقا على المخالفة لآل عثمان دفعة واحدة ونزلا في قلعة الرها وتحالفا على أن لا يتخالفا فلما شاع توافقهما عين السلطان لقتالهما الوزير محمد باشا بن سنان باشا وضم إليه عساكر الروم والشام وحلب وغيرهما فرجع الأمر لتسليم عبد الحليم لحسين باشا وأرسل يطلب رهناً من العسكر السلطانيّ على أن يدفع لهم حسين باشا ويتركوه في القلعة حاكماً فأرسلوا له من عسكر دمشق كنعان الجركسي وهو من أعيان عسكر دمشق وحاكم دمشق خسرو باشا الخادم وجماعة فأذعن لاعطاء حسين باشا وسلمه.

ولما أخذت العساكر السلطانية حسين باشا مالت إلى ترك اليازجيّ في قلعة الرها لأن العهد هكذا صدرت منه فغضب لذلك السردار محمد باشا وعرض ذلك للسلطان أحمد وكاد أن يُقتل بسببه حاكم دمشق خسرو باشا المذكور لولا أن تداركته المعونة، واستمر عبد الحليم عاصياً حتى قدم عليه الوزير حسين باشا ابن الوزير محمد باشا مع العساكر السلطانية بأسرها فالتقوا بجمع البغاة وكبيرهم عبد الحليم وأخوه حسن في مكان يقال له البستان من نواحي مرعش فاقتتلوا هناك وكسر عسكر البغاة وقتل منهم ما يزيد على أربعة آلاف رجل، ثمّ إنّ عبد الحليم مات في قصبة سامسون[1] واجتمع البغاة على أخيه حسن وكان أشجع من أخيه فوصل إلى الوزير المذكور وطلبه للمقابلة فخرج إليه بمن معه من العساكر فما ثبتوا قدام البغاة لحظة حتى كسروا وهرب حسن باشا إلى قلعة توقات وما رفعوه إلا بالحبال وهجم العدو على المدينة بأسرها وصارت عساكر السلطان في أسر البغاة ما عدا حسن باشا مع بعض الخواص فإنه اعتقل في القلعة وأغلقت أبواب القلعة والعدو يحفها إلى أن وقع موت حسن باشا على يد بعض خدمه، فرحل حسن الخارجي عن توقات وتقرب من جانب قراحصار.

ثم إن جماعة قربوه إلى خاطر السلطان أحمد وقالوا له: إنه يقنع بمنصب في بلاد الروم فأعطوه مدينة طشموار وهي في أقصى مدن الإسلام ومنها بداية ولاية الكفر فدام فيها مدة طويلة وحسن حاله وقلّت أحقاده وخدم خدمة حسنة إلى أن قدر الله عليه المخالفة بينه وبين أهل ولايته فأخرجوه منها فذهب إلى مدينة بلغراد فوضعه حاكمها في القلعة مكرماً في الظاهر محبوساً في الباطن وعرض أمره إلى السلطان فأرسل أمراً إلى حاكم بلغراد بقتله فقطع رأسه.

(١) وخرج بعد ذلك على السلطنة ابن جانبولاذ حاكم كلس وعزاز ووصل إلى أن جرد العساكر وقاتل عسكر السلطان على حماة وكان رئيس العساكر

---

(١) مدينة في شمال تركيا.

الأمير يوسف بن سيفا التركمانيّ حاكم بلاد طرابلس الشام وانكسر عسكر ابن سيفا ومن معه وآل أمر ابن جانبولاذ إلى الطغيان الزائد وجاء إلى دمشق ونهبها وسيأتي تفصيل ما وقع وفعل بدمشق في ترجمته ثم رحل إلى حلب ومكث بها وكانت جماعته تزيد يوماً فيوماً واشتهر أمره وقوى جأشه إلى أن ورد الوزير الأعظم مراد باشا إلى قسطنطينية من محاربة كفار المجر وتشاور الوزراء معه في شأن ابن جانبولاذ فكان شوراه أن يذهب إليه وهو بحلب وأن يسعى في إزالته وقهره ففعل ذلك وورد إلى حلب وانتزعها من أعوان ابن جانبولاذ إلى أن آل الأمر إلى دخوله إلى قسطنطينية واجتمع مع السلطان وحكى له قصته فقبل عذره وأعطاه حكومة طمشوار ولم يزل على حكومتها إلى أن عرض له أمر أوجب قتاله لرعايا تلك البلاد وانحصر في بعض القلاع فعرض أمره إلى السلطان فبرز الأمر بقتله فقتل وأرسل رأسه إلى باب السلطان وكان كلما قتل واحداً من البغاة وضع رأسه في مكان تقبل فيه الوزراء ليعتبروا به.

(١) وكان أجلّ من قتله السلطان منهم نصوح باشا الوزير الأعظم وكان سبب قتله أن جماعة جاءوا إلى السلطان بمكاتيب ادعوا أنه كتبها لجهة العجم فيه التحريض على عدم الصلح والتلويح بمساعدتهم فحين قرأ السلطان المكاتيب أرسل خلف بعض الوزراء وأمره بفعل وليمة لجماعة نصوح باشا بأسرهم وكان نصوح باشا إذ ذاك متمرضاً فجاء أتباعه بأجمعهم إلى الوليمة فحين خلا محله من أتباعه أرسل السلطان جماعة لقتله فاستأذنوا في الدخول عليه فقال لهم بعض جماعته: لا يمكن الاجتماع به فقالوا: لا بد من ذلك فدخلوا عليه وليس عنده أحد وأظهروا الأمر السلطانيّ بقتله، فقال لهم: أمهلوني لأصلي ركعتين فأمهلوه فقام وتوضأ وصلى ركعتين ثم لما فرغ خنقوه على سجادة الصلاة ثمّ ذهبوا إلى السلطان وأخبروه فقال: ائتوني به فجاؤوا به فأمر بعوده ودفنه وكان السبب في قتله المفتي الأعظم المولى محمد بن سعد الدين ثم ولى مكانه محمد باشا زوج ابنة السلطان وجهزه بالعساكر إلى بلاد العجم ووقع المصاف بينه وبين عساكر العجم

وكانت الهزيمة على العجم. ولما رأت الأعاجم ذلك أرسلوا استمالوا أتباعه فحصل التواني ووقع الاختلال وقتل من عسكر السلطان جانب كبير وعاد بلا فائدة فغضب السلطان وأراد قتله كما فعل بمن قبله ثم عفا عنه بواسطة أم الوزير بشرط جلوسه في أسكدار.

(١) وكان السلطان أحمد مدة حياته لا يفتر عن عمارة المساجد وفعل الخيرات ومن جملة آثاره الجميلة أنه كسا البيت الشريف وكذلك فعل بالحجرة النبوية، وكان أراد أن يجعل حجارة الكعبة الشريفة ملبسة واحداً بالذهب وواحداً بالفضة فمنعه المولى محمد بن سعد الدين المفتي. وقال: هذا يزيل حرمة البيت ولو أراد الله سبحانه وتعالى لجعله قطعة من الياقوت فكف عن ذلك وجعل ثلاث مناطق من الفضة المحلاة بالذهب أيضاً داخل الكعبة الشريفة صونا لها من الهدم، وأول من حلاها في الجاهلية عبد المطلب بن هاشم جدّ النبيّ ﷺ وفي الإسلام الوليد بن عبد الملك وقيل أبوه وقيل ابن الزبير، وحلّاها من العباسيين الأمين والمتوكل والمعتضد، وحلّتها أم المقتدر العباسيّ والملك المجاهد صاحب اليمن، ومن ملوك آل عثمان صاحب الترجمة. ومن آثاره أيضاً عمارة مسجد البيعة وهو بالقرب من عقبة مِنى ووهِم من قال إنه من مِنى، ومنها عمارة العين، وأصلح مآثر كثيرة بمكة وأنشأ وقفاً من قرى مصر على خدام الحرمين. وجدّد عمارة العلمين اللذين هما حدّ الحرم من جهة عرفة في سنة ثلاث وعشرين وألف على يد الباشا حسن المعمار وأوّل من وضع أنصاب الحرم خوف اندراسه الخليل إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام، بدلالة جبريل عليه السلام وهي في جميع جوانبه خلا جهة جدة وجهة الجعرانة فإنه ليس فيهما أنصاب ثم نصبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ثم قصيّ بن كلاب وقيل ابن عدنان بن أد أوّل من وضع أنصاب الحرم حين خاف أن يندرس، ونصبتها قريش بعد أن نزعوها والنبيّ ﷺ بمكة قبل هجرته، وأمر النبيّ ﷺ عام الفتح تميم بن أسد فجدّدها، ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث أربعة نفر لتجديدها، ثم عثمان ثم معاوية ثم

عبد الملك بن مروان ثم المهديّ العباسيّ ثم أمر الراضي العباسي بعمارة العلمين الكبيرين اللذين هما حدّ الحرم من جهة التنعيم في سنة خمس وعشرين وثلثمائة، ثم أمر المظفر صاحب إربل بعمارة العلمين اللذين هما حدّ الحرم من جهة عرفة في سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة ثم صاحب الترجمة كما ذكرنا، وبعث إلى بيت المقدس فضة مطلية بالذهب لتُوضع على القدم الشريف بالصخرة وهي إلى الآن موجودة وفي شوّال سنة ست وعشرين وألف أرسل لأحمد باشا محافظ مصر بأن يرسل مقداراً من الخزينة لأجل عمارة الحرم النبويّ على حكم الحرم المكيّ فامتثل وأرسل. ومات السلطان أحمد قبل الشروع في ذلك، وبالجملة فإن محاسن هذه الدولة العثمانية كثيرة وخيراتهم عزيزة.

(١) ومن آثاره التي بقسطنطينية الجامع الذي لم يعمل مثله في إنشائه وإحكام بنائه ودقة صنائعه إلى غير ذلك وله ست منارات حسنة الوضع إلى الغاية وداخله مزين بأنواع القناديل من البلور والقاشانيّ والصدف وغير ذلك وفيه كل أعجوبة لا نظير لها ولما تمّ وضعه هادته ملوك الأقاليم بالتحف من قناديل الذهب وغيرها لتعلق فيه وبلغت مصارف نفقته نحو نفقة عمارة جامع بني أمية بدمشق فإنه يُقال إن الوليد بن عبد الملك الخليفة الأمويّ أنفق الذهب. وفي خارجه المكان المعروف بآت ميداني وهو ميدان واسع.

(٢) ويُروى أنه بعد تمام بنائه واستحكامه كان بقي في أحد جوانبه اعوجاج بسبب بيت صغير كان لعجوز وقد أرغبت بالمال الكثير لتبيعه فأبت فاتفق أنها ماتت عن غير وارث وآل البيت إلى بيت المال فأضيف إلى الجامع وتناسب بذلك وضعه، ومما قيل فيه من التواريخ تاريخ المولى محمد بن عبد الغني قاضي العسكر وهو قوله:

(٣) ذا جامع مؤسس … على تقى الرب المتين
بناه سلطان الورى … بعدله الجزل الرزين

سميّ أحمد الهدى ظلّ إله العالمين
حاولت تاريخاً له من نص قرآن مبين
فجاء فيه قوله لنعم دار المتقين

وبالجملة فإن هذا السلطان أعظم سلاطين آل عثمان قدراً وكانت ولادته سنة تسع وتسعين وتسعمائة وابتدأه المرض في شوّال سنة ست وعشرين وألف بقرحة في ظهره.

(١) وأخبر عنه مصطفى أغا ضابط الحرم أنه قبل موته بيوم وكان قبل العصر يقول: وعليكم السلام إلى أن قال ذلك أربع مرات. قال مصطفى أغا: تسلمون على من؟ فقال: حضر لي في هذا الوقت سيدنا أبو بكر الصدّيق وسيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي رضوان الله عليهم أجمعين وقالوا لي: إنك تجتمع بسلطان الدنيا والآخرة سيدنا محمد ﷺ في غد مثل هذا الوقت فكان كما قال فمات في ثاني يوم وهو يوم الأربعاء ثالث عشر ذي القعدة سنة ست وعشرين وألف وقد بلغ من العمر ثماني وعشرين سنة ودُفِن بجامعه المذكور رحمه الله تعالى وخلف من الأولاد أربعة وهم السلطان عثمان، والسلطان محمد توفي شهيداً في سنة ثلاثين وألف، والسلطان مراد والسلطان إبراهيم وثلاثتهم ولوا الخلافة[١].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٢٨٤ - ٢٩٢. وجاء في تاريخ الدولة العلية العثمانية، أنه «في سنة ١٦١٢ م تحصلت ولاية الفلمنك [هولانده] على امتيازات تجارية تضارع ما مُنِحته كل من فرنسا وانكلترا، وهم - أي الفلمنك - الذين أدخلوا في البلاد الإسلامية استعمال التبغ - أي تدخين الدخان - فعارض المفتي في استعماله وأصدر فتوى بمنعه. فهاج الجند واشترك معهم بعض مستخدمي السرايا السلطانية حتى اضطروه إلى إباحته».
وذكر أيضاً أن السلطان أحمد - لصغر سن ولده عثمان - «خالف العادة المتبعة من ابتداء الغازي السلطان عثمان الأول، أي تنصيب أكبر الأولاد أو أحدهم مكان والده، وأوصى بالملك بعده لأخيه» انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية» ٢٧٤ - ٢٧٥.

أبو العباس المقّري

أحمد بن محمد بن أحمد أبو العباس المقّري التلمسانيّ المولد المالكي المذهب نزيل فاس ثم القاهرة، حافظ المغرب جاحظ البيان ولم ير نظيره في جودة القريحة وصفاء الذهن وقوّة البديهة. وكان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث، ومعجزاً باهراً في الأدب والمحاضرات، وله المؤلفات الشائعة منها «عرف الطيب في أخبار ابن الخطيب»[1] و«أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» و«الروض الأمر العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس» و«الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين» وغير ذلك.

وُلِدَ بتلمسان ونشأ بها وحفظ القرآن وقرأ وحصل بها على عمه الشيخ الجليل العالم أبي عثمان سعيد بن أحمد المقّري مفتي تلمسان، ومن جملة ما قرأ عليه صحيح البخاريّ سبع مرات وروى عنه الكتب الستة بسنده.

(١) وكان يخبره عن بلده تلمسان أنها بلدة عظيمة من أحاسن بلاد المغرب وأنها في يد العثمانيين سلاطين مملكتنا وهي الحدّ المضروب بين سلطاننا وسلطان المغرب.

ورحل إلى فاس مرّتين مرّة سنة تسع بعد الألف ومرّة سنة ثلاث عشرة وكان يخبر أنها دار الخلافة للمغرب وكان بها الملك الأعظم مولاي أحمد المنصور المشهور بالفضل والأدب المقدّم ذكره وإن الفتوى صارت إليه في زمنه ومن بعده لما اختلت أحوال المملكة بسبب أولاده إلى حديث يطول ذكره ارتحل تاركاً للمنصب والوطن في أواخر شهر رمضان سنة سبع وعشرين بعد الألف قاصداً حج بيت الله الحرام.

---

(١) وهو المعروف بـ«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر حال وزيرها لسان الدين بن الخطيب» وقد جاء في الهامش: ذكر في كشف الظنون أنه سماه بعد ذلك نفح الطيب.

(١) ثمّ ورد إلى مصر بعد أداء الحج في رجب سنة ثمان وعشرين وألف وتزوّج بها، وسكنها وقد سأل عن حظه بها فقال قد دخلها قبلنا ابنُ الحاجب وأنشد فيها قوله:

يا أهل مصر وجدت أيديكم   في بذلها بالسخاء منقبضة
لما عدمت القِرى بأرضكم   أكلت كتبي كأنني أرَضة

(٢) وأنشد هو لنفسه:

تركت رسوم عزي في بلادي   وصرت بمصر منسيّ الرسوم
ونفسي عفتها بالذل فيها   وقلت لها عن العلياء صومي
ولي عزم كحدّ السيف ماض   ولكن الليالي من خصومي

ثم زار بيت المقدس في شهر ربيع الأوّل سنة تسع وعشرين وألف ورجع إلى القاهرة وكرّر الذهاب إلى مكة فدخلها بتاريخ سنة سبع وثلاثين خمس مرات وأملى بها دروساً عديدة ووفد على طيبة سبع مرات وأملى الحديث النبويّ.

ثمّ رجع إلى مصر في صفر سنة تسع وثلاثين ودخل القدس في رجب من تلك السنة وأقام خمسة وعشرين يوماً.

(٣) ثم ورد منها إلى دمشق فدخلها في أوائل شعبان، وأملى صحيح البخاريّ بالجامع تحت قبة النسر بعد صلاة الصبح ولما كثر الناس بعد أيام خرج إلى صحن الجامع تجاه القبة المعروفة بالباعونية وحضره غالب أعيان علماء دمشق وأما الطلبة فلم يتخلف منهم أحد وكان يوم ختمه حافلاً جدّاً اجتمع فيه الألوف من الناس وعلت الأصوات بالبكاء، وأتي له بكرسي الوعظ فصعد عليه وتكلم بكلام في العقائد والحديث لم يسمع نظيره أبداً وتكلم عن ترجمة للبخاريّ وأنشد له بيتين وأفاد أن ليس البخاريّ غيرهما وهما:

اغتنم في الفـراغ فضـل ركـوع　　فعسى أن يكـون مـوتـك بغتـة
كم صحيح قد مات قبل سقيم　　ذهبت نفسه النفيسـة فلتـة

وكانت الجلسة من طلوع الشمس إلى قرب الظهر.

ونزل عن الكرسي فازدحم الناس على تقبيل يده وكان ذلك نهار الأربعاء سابع عشرى رمضان سنة سبع وثلاثين وألف، ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشق ما اتفق له من الحظوة وإقبال الناس وكان بعد ما رأى من أهلها ما رأى كثر الاهتمام بمدحها وقد عقد في كتابه «عرف الطيب» فصلاً يتعلق بها وبأهلها وأورد في مدحها أشعاراً.

(١) ومن محاسن شعره في حقها قوله:

مـحـاسـن الـشـام جـلّت　　عـن أن تُـقـاس بـحـدّ
لـولا حـمى الـشـرع قلنـا　　ولـم نـقـف عـنـد حـدّ
كـأنـهـا مـعـجـزات　　مـقـرونـة بـالـتـحدّي

وجرى بينه وبين أدبائها وعلمائها مطارحات شتّى.

(٢) ومن إملائه لبعض فضلاء دمشق أنه قال: حُكِيَ أن أفلاطون كتب إلى بقراط قبل أن يتعلم منه: إنى أسألك عن ثلاثة أشياء إن أجبت عنها تلمذت لك، فكتب إليه بقراط: سل وبالله التوفيق، فكتب إليه: أخبرني من أحق الناس بالرحمة؟ ومتى يضيع أمر الناس؟ وما تتلقى به النعمة من الله؟ فكتب إليه بقراط: أما أحق الناس بالرحمة فثلاثة: البرُّ يكون في سلطان فاجر فهو الدهرَ حزينٌ لما يرى ويسمع، والعاقل في تدبير الجاهل فهو الدهرَ متعبٌ مغموم، والكريم يحتاج إلى اللئيم فهو الدهرَ خاضعٌ ذليل، وأما تضييع أمور الناس فإذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه، وأما ما به تتلقى النعمة من الله فبكثرة الشكر ولزوم طاعته واجتناب معصيته فأقبل إليه أفلاطون وصار تلميذاً له إلى أن مات.

وكانت إقامته بدمشق دون الأربعين يوماً ثمّ رحل منها في خامس

شوّال سنة تسع وثلاثين إلى مصر وعاد إلى دمشق مرّة ثانية في أواخر سنة أربعين وحصل له من الإكرام ما حصل في قدمته الأولى.

ودخل مصر واستقر بها مدّة يسيرة ثم طلق زوجته وأراد العود إلى دمشق للتوطن بها ففاجأه الحِمام قبل نيل المرام وكانت وفاته سنة إحدى وأربعين وألف ودُفِن بمقبرة المجاورين.

والمقّري نسبة إلى قرية من قرى تلمسان وإليها نسبة آبائه[1].

أحمد بن محمد الهادي بن عبد الرحمن

أخذ عن والده وعميه الشيخ شهاب الدين وأبي بكر عدّة علوم منها التفسير والحديث والفقه والنحو والتصوّف، ثم ارتحل إلى الحرمين وأخذ بهما عن جماعة، وأجازوه بالإفتاء والتدريس، فجلس للإقراء بالمسجد الحرام، وكان له اعتناء بكتاب «إحياء علوم الدين» فأقرأه في المسجد الحرام ست مرّات وقرأه على والده أربع مرّات وعلى شيخه عبد الله بن شيخ العيدروس أربع مرّات، وربما قرأ في التفسير وحضره جم وافر وكان طلق اللسان متدرعاً جلباب الطاعة عاملاً بعلمه حافظاً للسانه وفهمه مواظباً على السنن النبوية، كثير التلاوة للقرآن ملازماً للذكر مع غاية من الزهد والقناعة.

(١) وكان شديد الإنكار يثِب على المنكر كأنه صاحب ثأر لا تأخذه في الله لومة لائم ولا تأخذه رأفة في دين الله وإذا حضر مجلساً احتاط الحاضرون في ستر المنكرات والمستهجنات وحُكِيَ أنه دخل على بعض أرباب الدولة وعنده من يضرب بالآلة فأسكت المستمِعين ووعظ الحاضرين وأمرهم بالتوبة.

(٢) وكان لطيف المعاشرة حسن المذاكرة له كرامات كثيرة منها أنه دعا لجماعة من أصحابه بمطالب دينية ودنيوية فنالوها ببركة دعائه، ومنها أن

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٣٠٢ - ٣١١.

بعض أصحابه اعتراه وسواس شديد حتى اتفق له أنه كان في الطواف فتخيل له أنه خرج منه بول فأسرع بالخروج من المسجد خشية تلويثه ثم نظر إلى ثوبه فلم يجد بللاً وشك في وضوئه وطهارة ثوبه وتعب تعباً شديداً فمرّ به صاحب الترجمة وهو في تلك الحالة فتعلق به وألزمه بالدعاء في رفع تلك الوسوسة فدعا له فأذهبها الله عنه من حينئذ.

وكان يحب الفقراء والضعفاء ويكرمهم، ولم يزل على حالته إلى أن مات.

وكانت وفاته في سنة خمس وأربعين وألف، ودُفِن بالمعلاة عند قبور السادة الأشراف بني علوي وقبره معروف يزار، رحمه الله تعالى[1].

شهاب الدين الخفاجي

الشيخ أحمد بن محمد بن عمر قاضي القضاة الملقب بشهاب الدين الخفاجيّ المصريّ الحنفيّ صاحب التصانيف السائرة وأحد أفراد الدنيا المجمع على تفوّقه وبراعته.

كان في عصره بدر سماء العلم، رأس المؤلفين ورئيس المصنفين، وكل من رأيناه أو سمعنا به ممن أدرك وقته معترفون له بالتفرّد في التقرير والتحرير وحسن الإنشاء وليس فيهم من يلحق شأوه ولا يدعي ذلك مع أن في الخلق من يدعي ما ليس فيه. وتآليفه كثيرة ممتعة مقبولة، وانتشرت في البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة فإن الناس اشتغلوا بها، وأشعاره ومنشآته مسلمة لا مجال للخدش فيها والحاصل أنه فاق كل من تقدّمه في كل فضيلة وأتعب من يجيء بعده مع ما خوّله الله تعالى من السعة وكثرة الكتب ولطف الطبع والنكتة والنادرة.

وقد ترجم نفسه في آخر «ريحانته» من حين مبدئه فقال: قد كنت في التمييز في حجر والدي ممتعاً فلما درجت من عشي قرأت على خالي

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٣١٥ - ٣١٦.

سيبويه زمانه يعني أبا بكر الشنوانيّ علوم العربية، ثم ترقيت فقرأت المعاني والمنطق ونظرت كتب المذهبين مذهب أبي حنيفة والشافعيّ مؤسساً على الأصلين من مشايخ العصر، ومن أجلّ من أخذت عنه شيخ الإسلام محمد الرملي حضرت دروسه الفرعية وقرأت عليه شيئاً من صحيح مسلم وأجازني بذلك وبجميع مؤلفاته ومروياته، ومنهم العلامة الفهامة خاتمة الحفاظ والمحدّثين إبراهيم العلقميّ قرأت عليه الشفاء بتمامه وأجازني به وبغيره وشملني نظره وبركة دعائه لي، وممن أخذت عنه الطب الشيخ داود البصير. ثم ارتحلت مع والدي للحرمين الشريفين، ثم ارتحلت إلى قسطنطينية فتشرّفت بمن فيها من الفضلاء والمصنفين واستفدت منهم وتخرّجت عليهم وهي إذ ذاك مشحونة بالفضلاء الأذكياء، ثم لمّا عدت إليها ثانياً بعد ما توليت قضاء العسكر بمصر رأيت تفاقم الأمر فذكرت ذلك للوزير فكان ذلك سبباً لعزلي وأمري بالخروج من تلك المدينة، وقد منّ الله تعالى عليّ بالسلامة.

قلت: وله كتاب «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، والنادر الحوشيّ القليل» وكتاب «ديوان الأدب في ذكر شعراء العرب» ذكر فيه مشاهير الشعراء من العرب العرباء والمولدين، وله كتاب «طراز المجالس» وهو مجموع حسن الوضع جم الفائدة رتبه على خمسين مجلساً ذكر فيه مباحث تفسيرية ونحوية وأصولية وغيرها.

وكان لما وصل إلى الروم في رحلته الأولى وَلِيَ القضاء ببلاد روم ايلي[١] حتى وصل إلى أعلى مناصبها كأسكوب وغيرها، ثمّ في زمن السلطان مراد توصل حتى اشتهر بالفضل الباهر فولاه السلطان قضاء سلانيك فحصل بها مالاً كثيراً ثم أعطى بعدها قضاء مصر وبعد ما عزل عنها رجع إلى الروم، وكان إذ ذاك مفتيها المولى يحيى بن زكريا، فأعرض عنه لأجل أمور انتقدت عليه أيام قضائه في سلانيك ومصر من الجرأة وبعض الطمع

---

(١) هي بلاد العثمانيين الواقعة في أوروبا.

فصنع مقامته التي ذكرها في «الريحانة» وتعرّض فيها للمولى المذكور فكان ذلك سبباً في نفيه إلى مصر وأعطي قضاء ثمّةَ على وجه المعيشة فاستقر بمصر يؤلف ويصنِّف ويُقرىء وأخذ عنه جماعة اشتهروا بالفضل الباهر.

(١) ومن تحريراته في أن القرآن هل فيه السجع أو لا؟ قال: وقال البقاعيّ في كتاب «مصاعد النظر»: اختلف فيه السلف فقال أبو بكر الباقلّاني في كتاب «الإعجاز» ذهب أصحابنا الأشاعرة كلهم إلى نفي السجع عن القرآن كما ذكره أبو الحسن الأشعريّ في غير موضع من كتبه وذهب كثير ممن خالفهم إلى إثباته انتهى والقول الثاني فاسد من اختلاف أكثر فواصله في الوزن والرويّ ولا ينبغي الاغترار بما ذكره بعض الأماثل كالبيضاويّ والتفتازانيّ من إثبات الفواصل والسجع فيه وإن مخالفة النظم في مثل هارون وموسى بحسبه، ونقل أبو حيان في قوله تعالى: **﴿ولا الظل ولا الحرور﴾** في فاطر إنه لا يقال في القرآن قدّم كذا وأخرّ كذا للسجع لأنّ الإعجاز ليس في مجرّد اللفظ بل فيه وفي المعنى ومتى حوّل اللفظ لأجل السجع عما كان يتم به المعنى بدون سجع نقص المعنى ثم إنه قال: لو كان في القرآن سجع لم يخرج عن أساليب كلامهم ولم يقع به إعجاز ولو جاز أن يُقال: سجع معجز جاز أن يُقال: شعر معجز، والسجع ما تؤلفه الكهّان، وقد أنكر ﷺ على من سجع عنده على ما عرف في كتب الحديث ولو كان سجعاً لكان قبيحاً لتقارب أوزانه واختلاف طرقه فيخرج عن نهجه المعروف ويكون كشعر غير موزون وما احتجوا به من التقديم والتأخير ليس بشيء وأنه كذكر القصة بطرق مختلفة أقول: أطال بلا طائل لتوهمه أن السجع كالشعر لالتزام تقفيته ما ينافي جزالة المعنى وبلاغته لاستتباعه للحشو المخل وإن الإعجاز بمخالفته لأساليب الكلام فشنع على هؤلاء الأعلام وليس بشيء والعجب منه أنه ذكر كلام الباقلانيّ مع التصريح فيه بأن من السلف من ذهب إليه والحق أنه وقع في القرآن من غير التزام له في الأكثر فكان من نفاه نفى التزامه أو أكثريته ومن أثبته أراد وروده فيه على الجملة فاحفظه ولا تلتفت إلى ما سواه، والذي عليه العلماء أنه تطلق

الفواصل عليه دون السجع. انتهى.

(١) ومن شعره قوله:

أخـوك الـذي إن جئتـه لملمـة يشمـر عن سـاق بعـزم مسـدد
يبـادر أمـر اليـوم قبـل مضيـه وليس محيلاً في الأمور على غـد

أصله ما روى عن المفضل الضبيّ أنه قال: قال لي المهديّ يوماً: أبغض شيء إليّ أن أجعل عمل اليوم في غد فقلت له: إنه الحزم يا أمير المؤمنين كما قال أخو تميم:

أخوك له عزم على الحزم لم يقل غـداً يومهـا إن لم تعقـه العـوائق

(٢) ومن شعره قوله:

إن يعْـدُ ذو بغـي عليـك فـخله وارقب زمـانـاً لانتقـام الـطاغي
واحذر من البغي الوخيم فلو بغى جبـل على جبـل لـدُكَّ البـاغي

أصله ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لو بغى جبل على جبل لدُكّ الباغي».

(٣) وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه الأمين:

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة فـاعدل فخيـر فعال المـرء أعدلـه
فلو بغى جبـل يـومـاً على جبـل لانـدك منـه أعـاليـه وأسـفـله

(٤) وقال في هذا المعنى أيضاً:

بـغى علـيّ لئيـم دون سـابقـة تدعوه غيـر فضول الجهـل والجاه
فلم ألمه سوى أن قلت مِن جزع الـموعد الحشـر والقاضي هـو الله

(٥) ولــه:

من يتـرك الـدنيا يَسُـدْ أهلهـا ويـقتـطف زهـرتـهـا بـاليـد
لا تسكن التقـوى ولا حكمـة تنـزل قلبـاً فيـه هم الـغـد

والخفاجيّ نسبة إلى أبيه خفاجي ولا أدري معناه، والله تعالى أعلم.

وكـانت وفاتـه رحمه الله تعـالى سنة تسـع وستين وألف وقـد أنـاف على التسعين[1].

أحمد باشا الفاضل

أحمد باشا بن محمد باشا، الوزير الأعظم المعروف بالفاضل أحمد باشا الكوبري[2] الأصل القسطنطينيّ المولد أحد وزراء الدولة العثمانية بل أوحدهم الذي عزت به السلطنة وافتخرت الدولة، كان عصره إلى أواسط مدّته أحسن العصور ووقته أنضر الأوقات، ولم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله، صعباً شديداً في أمور الشرع سهلاً في أمور الدنيا، وكان حاذقاً مدبـراً للملك قائمـاً بضبطه وملك من نفـائس الكتب وعجائب الذخائر ما لا يدخل تحت الحصر ولا يضبط بالإحصاء.

وِلِد بقسطنطينية ونشأ بها واعتنى أبوه بتهذيبه وأقرأه العلوم حتى مهر وسمت همته نحو معالي الأمور، وسلك في بداية أمره طرق المدرسين ثم عدل إلى طريق والده فتولّى وأبوه في الصدارة العـظمى ولاية أرض روم ايلي[3] فظهرت كفايته وحمدت طريقته ثم انتقل منها إلى حكومـة الشام وأعطيها برتبة الوزارة وذلك في سنة إحدى وسبعين وألف وقدمها وكـانت أمورها مختلة النظام فأصلحها وتقيّد في أمـور الأوقاف وأزال مـا بها من محدثات الوظائف وغيرها، وقمع أهل الفتن وكان قبل وطأة قدمـه دمشق ولعت بها أيدي القحط حتى عمها.

(۱) ثمّ طُلِب من البقاع إلى الروم فسار بالسرعة وعُزل عن حكومة دمشق وجاءه أمر حكومة حلب وهو ذاهب في الطريق ولم يدخلها وبعد وصوله إلى قسطنطينية صار قائماً مقام أبيه فيها وكان السلطان إذ ذاك بأدرنة وأقام أياماً قليلة ثم طلب إلى أدرنة وكان والده قد ابتدأه المرض فلما وصلها صـار قائماً مقامه في حياته وبعد أيام قليلة توفي والده فتولى مكانه وذلك في سنة

---

(۱) «خلاصة الأثر»: ۱/۳۳۱ - ۳٤۳.

(۲)، (۳) أراضي الدولة العثمانية في أوروبا.

اثنتين وسبعين وألف وأرخ بعضهم توليته بقوله: «دولته نعمة الإله» وسلك طريقاً في وزارته لم يسبقه إليها أحد وبلغ من الأحكام ونفوذ القول مبلغاً ليس فيه مستزاد ولم يبق للناس سوى التمسك بعنايته ومراعاة حاشيته.

(١) وكان صائب الرأي كامل الفراسة ومما ينسب إليه من الفطنة أنه جاءه يوماً شخص بتوقيع فتفرس فيه أنه مصنوع فناوله أحد جماعته وأمره بحفظه ومضى على ذلك ست سنوات فجاءه يوماً شخص آخر برقعة فلما رآها طلب التوقيع فجيء به فقابله على الرقعة ثم سأل صاحبها عن كاتبها فأخبره به فأرسل إليه فلما مثل بين يديه أراه التوقيع وقال: أليس هذا بخطك؟ فاعترف بأنه هو الذي كتبه فأمر بقطع يمينه، وعين له من بيت المال ما يكفيه في كل يوم.

وقصده الشعراء من البلاد ومدحه جماعة.

(٢) ومن الغزوات التي وقعت أيام وزارته وعين إليها غزوة إيوار عيّنه السلطان محمد إلى فتحها فسار بجميع العساكر إليها وحاصرها ووقع بينه وبين كفار المجر وقعة عظيمة ومكروا بعسكره مرّات وخلصهم الله تعالى بيُمْن تدبيره ثم افتتحها في حادي عشر صفر سنة أربع وسبعين وألف وهدم مما يليها قلعة تسمى بالقلعة الجديدة كان الكفار بنوها ليتحصنوا بها، وبعد ما قدم إلى مقر الدولة واستقرّ مدّة وقد قويت شوكته وعظمت مهابته أمره مخدومه بالسفر إلى جزيرة كريت لفتح بلدة قندية التي كانت بقيت في هذه الجزيرة من بين بلادها لم تفتح كما شرحنا ذلك في ترجمة السلطان إبراهيم فوصلها في خامس ذي الحجة سنة سبع وسبعين وألف وبنى بالقرب منها مكاناً كان متهدماً لتهيئة مهمات الحصار ثم نزلها بمن معه من العساكر وكان أهلها حصنوها بأشياء لا يمكن حصرها وأضافوا لسورها سوراً آخر عمروه من داخل السور القديم وطالت الحرب بين الفريقين مدّة ثمّ افتتحها صلحاً في غرة جمادى الأول سنة ثمانين وألف ووردت البشائر إلى الأطراف بالزينة وكثرت تباشير الناس بفتحها وبالجملة فإن أمرها كان بلغ الغاية وطال حتى

مَلّ الناس من خبرها. وبعد ما مهد أمورها وبنى ما كان تهدم أيام المحاربة من مساكنها رجع إلى مقر حكومته وكان السلطان إذ ذاك بأدرنة فأقام مدة ثم عينه السلطان إلى محاربة النصارى فسار في جمع عظيم لم يشهد مثله وافتتح قلعة قمنيجة في سنة أربع وثمانين وعاد إلى أدرنة وأخذ في نقض الأمور وإبرامها على الوجه الحميد والرأي السديد ثم تغيرت أطواره وحببت إليه العزلة فانقطع عن الديوان وتعاطى المصالح واشتغل باتخاذ الندماء وكان مجلسه كله فوائد ولم ينسب إليه ما يشينه سوى بعض التشاغل عن أمور الرعية وإلا فقد يقال إن جميع مزايا الحسن جمعت فيه فحاز من كل وصف كماله وغايته ثم رحل السلطان عن أدرنة إلى قسطنطينية وذلك في أواسط المحرم سنة سبع وثمانين وألف فرحل هو معه فعند وصوله ابتدأه المرض وكان ابتداء مرضه اليرقان الأسود وعولج مقدار ستة أشهر فلم يفد العلاج واشتد به إلى أن سافر السلطان إلى أدرنة في شعبان من هذه السنة وخرج هو على أثره من البحر في مركب إلى بلد سلورية ووصل من البر إلى نواحي جورلي فأدركه أجله في قرية بالقرب منها وغسل بها وأتوا بجنازته إلى قسطنطينية فدفن مما يلي والده بتربته التي كان أنشأها بدرب الديوان وصلى عليه مكان دفنه وذلك سنة سبع وثمانين وألف، وكانت ولادته في سنة خمس وأربعين وألف. وكان قبل وفاته وقف كتبه ووضعها في خزانة بالتربة المذكورة ورتب لها أربعة حفاظ وفيها من نفائس الكتب ما لا يوجد في مكان، رحمه الله تعالى[١].

سلطان كيلان

خان أحمد الكيلانيّ الشريف الحسينيّ سلطان بلاد كِيلان[٢] من بيت

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٣٥٢ ـ ٣٥٦.

(٢) هي مجموعة قرى من وراء بلاد طبرستان، وينطق العجم اسمها: كيلان، وهي في العربية: جِيلان، ينسب إليها عدد من العلماء، انظر «معجم البلدان»: ٢/٢٠١، ولم يبق منها إلا بعض قرى وهي تقع في إيران اليوم. انظر «بلدان الخلافة الشرقية»: ٢٠٦ ـ ٢٠٩.

السلطنة أبا عن جد وكان مع كونه من الملوك أحد أفراد العالم في العلوم الرياضية والحِكمية؛ حصّل علم الهيئة والهندسة والفلك، وكان إليه النهاية في الموسيقى والشعر الفارسي وإذا نظم غزلاً ربطه في أصوات ونغمات، وكان طهماسب شاه[1] قد اعتقله في قلعة دهقهه في بلاد العجم ومكث بها معتقلاً سنين عديدة وكان ولد طهماسب شاه إسماعيل محبوساً عنده فقال لـه: إن أطلقني الله من الحبس وولاني أمر النـاس فللّه عليّ أن أطلقك وأوليك بلادك فاتفق أنّ الله تعالى أطلقه وأعطاه سلطنة العراقين وأذربيجان وشروان وشيراز وخراسان وهَمَدَان وبلاد الجبال فأخرجه من دهقهـه لكن وضعـه في قلعة اصـطخر وقـال له: أريـد أرسلك إلى بلادك مـع مزيـد التعظيم، فلم تطل مدة إسماعيـل ومات ثم استخـرجه الشاه الأعمى أخو إسماعيل المسمى بخداي بنده محمد عندما تولى السلطنة ـ وكانت إقامته في زمن سلطنـة أبيه وأخيـه الشاه إسمـاعيل في شيـراز فلما مـات أخوه إسماعيل لم يجدوا في بيت السلطنة ذكراً قابلاً للملك سوى هذا فقالوا: هو من بيت السلطنة ليس إلا فنحن نوليه ملك أبيه ولو كان أعمى ـ فلما تولى السلطنة أرسل إلى خان أحمـد واستخرجـه من اصطخـر وولاه بلاد كيلان كما كان فلم يزل بها إلى أن أخذ سلطان الإسلام السلطان مراد بن سليم غالب بلاد عراق العجم وكل عراق العرب وأذربيجان وشروان وبلاد الكرج فلزم أن شاه عباس بن خداي بنده الضرير المذكور أرسل عسكـراً وافراً فأخذوا كيلان من يد خان أحمد فهرب مع جماعة معدودين إلى جانب السلطان محمد بن مراد فدخل عليه وامتدحه بقصيدة عظيمة يحثه فيها على أخذ كيلان من يد شاه عباس وأهدى له شمعداناً مرصعـاً قيل إنـه خمن بثمانين ألف دينار، ولم يحصل على مراده من العسكر وذهب إلى بغداد بإذن السلطان فمات بها في سنة تسع بعد الألف[2].

---

(١) ملك العجم (إيران).

(٢) «خلاصة الأثر»: ١/٣٧٣ ـ ٣٧٤.

الحافظ

أحمد شاه باشا المعروف بالحافظ أحد وزراء الدولة العثمانية الكبراء.

(١) كان فاضلاً كاملاً عارفاً بالعربية والفارسية ويعرف علوم الأدب والعَروض، وكان متيقظاً مدبراً حاذقاً خدم في مبادىء أمره بدار السلطنة ولم يزل يترقى في المناصب حتى وَلِيَ كفالة دمشق ودخلها سنة ثمان عشرة وألف وساس الأمور في بداية أمره على النهج القويم إلا أنه لما طالت مدّته تجبر وظلم الناس ظلماً بلغ الغاية وملأ من الرعب قلوب أهل دمشق. ولما مات الشيخ محمد بن سعد الدين تنازع في المشيخة أخوه سعد الدين وابن أخيه كمال الدين وكل منهما ذو أموال كثيرة وعقارات غزيرة فأخذ من كل واحد منهما أموالاً لا تحصى ثم بعد ما استصفى منهم الأموال أخذ بستاناً عظيماً يساوي خمسة آلاف دينار من الشيخ سعد الدين حتى حاز على المشيخة وقطع آمال الشيخ كمال الدين وكتب الشيخ سعد الدين حجة بالبيع له وقبض الثمن منه.

(٢) وقد كان صاحب الترجمة ذا شهامة ومعرفة تامة بأحوال الحروب وتغريم الأموال فصادر جماعات في دمشق وأخذ منهم أموالاً بغير حق، وكان أرباب الدولة من مقربي السلطنة يبعدونه دائماً عن السلطان لعلمهم أنه إذا قربوه سحر السلطان بسعة عقله وتمام فضله وكثرة حيله وقوة مكره. ثمّ إنّ السلطان اتخذه سرداراً[١] على قتال الأمير فخر الدين بن معن[٢] وأمر كافل حلب وكافل ديار بكر وكافل طرابلس وأمراء الأكراد ونحو النصف من السباهية[٣] وعساكر دمشق وعساكر حلب الجميع يكونون تبعاً له فتوجه بنحو

---

(١) السردار هو القائد العام للجيش.

(٢) زعيم الدروز.

(٣) هم جنود فرسان عثمانيون على درجات، كانوا مقيمين في المزارع في الأراضي التي أُقطعوا عشرها وبدل محصولها بصفتهم غزاة، وكانوا معفيين من جميع التكاليف.

ثلاثين ألفاً وحاصر ابن معن تسعة أشهر فلم يقدر أن يأخذ قلعة من القلاع ثم بعده أخرج رجلاً من جماعته وقال لمن في القلاع: أنا ما لي عندكم غرض الوزير الأعظم له غرض فقولوا للأمير فخر الدين أن ينزل إلى خيامنا وعليه أمان الله ونأخذ منه دراهم للسلطان وللوزير ونقرره في أماكنه فقالوا: الأمير ذهب في المراكب إلى بلاد الفرنج فلما تحقق ذلك رضي بنزول أم فخر الدين فقالت: نحن ما ضبطنا بلداً بغير إذن السلطان ولا انكسر عندنا مال فعند ذلك أعطت للسلطان مائة ألف قرش وللوزير خمسين ألفاً وللحافظ مثلها وانفصل الأمر على ذلك.

(١) ثم تولى كفالة آمد فقدّر الله عز وجلّ أن كفلاء بغداد تجاوزوا في الظلم وتولى يوسف باشا بغداد وكان وزيراً شهماً فظلم وكان بكر أحد أجناد بغداد استطال على العسكر لكثرة أتباعه وأمواله فوقع بينه وبين الوزير المذكور وأراد الوزير قتله فحاصر بكر بمعونة أكثر عساكر بغداد قلعة بغداد وفيها الوزير فكان ينظر من أسوارها فضُرِبت مكحلة من جانب عسكر بكر فأصابت الوزير فقتلته واستولى بكر على بغداد وجعل نفسه حاكمها وبعث الأموال والعروض والمحاضر إلى دار السلطنة ليتولى على بغداد فما أجيب إلى ذلك ثم في خلال ذلك كتب الحافظ أبياتاً بالتركية تتضمن الخطاب للسلطان أحمد أنه ما بقي عندكم عسكر ولا رجال ولا أموال حتى تُعيِّنوا سرداراً على بغداد وكان مراده التوصل إلى الوزارة العظمى، ثم بعد ذلك جعله السلطان سرداراً على بغداد وأمر عدّة أمراء أن يكونوا تبعاً له وجميع الأكراد لكن ما جعله وزيراً أعظم فلما سمع ذلك بكر كتب لشاه عباس مكتوباً يقول له: أسلمك بغداد بشرط أن تكون الخطبة والسكة[١] باسمك فقط فرضي الشاه بذلك فقيل له[٢]: أنت سني وهذا شيعي كيف تُحكِّم الشيعة في السنية، فقال: أنا أكذب على الشاه إذا رجع الحافظ لا أطمع بني عثمان ولا الشاه فجاء الحافظ وحاصر بغداد وقدّر الله تعالى أن بغداد كانت

---

(١) أي: النقود. (٢) أي لبكر المذكور.

في غاية القحط فتحمل بكر المضض واستمرّ الحافظ على المحاصرة حتى سمع بقرب الشاه منه وبقي بينه وبين الشاه أربعة أيام فكتب الحافظ أمراً إلى بكر: إني جعلتك حاكم بغداد، ثم تحوّل الحافظ لعلمه بكثرة عساكر الشاه وعدم استطاعته وتحوّل الحافظ إلى ديار بكر وحاصر الشاه بغداد فضاقت المعيشة بعساكر بغداد ووصلوا إلى أنهم كانوا يأكلون الآدميين وكان بكر جعل على كل باب ببغداد رجلاً من أكابر أقاربه وسلم القلعة لابنه محمد علي فلما رأى محمد علي أن الأمور صائرة إلى الهلاك سمح بهلاك والده لنجاة نفسه فبعث للشاه ورقة التسليم وأدخل ليلاً للقلعة عساكر الشاه.

(١) ولما كان وقت الصباح إذا بطبول الشاه تضرب في القلعة فانقطعت قلوب أهل السنة من الخوف وامتلأت قلوب الشيعة من الفرح والسرور فدخل الشاه صباحاً وقتل بكراً شرّ قتلة ووضع أخا بكر عمر في السفينة وألقى فيها النفط والقطران والنار، وأحضر المنلا عليّ وكان سنيّاً حنفياً شيخاً كبيراً فأحضره إليه وقال له: العن الشيخين، فقال يا شاه: أنا عشت هذا العمر ما بقي لي غرض في الحياة لعنة الله على من يلعن أصحاب رسول الله ﷺ فأخذ الشاه السيف بيده وضربه ضرباً متوالياً حتى قتل شهيداً سعيداً ثم نادى بقاضي بغداد الذي ولاه السلطان مراد وطلب منه أن يسعى بينه وبين السلطان مراد في أن يولي ابن الشاه بغداد وتكون السكة والخطبة باسم السلطان مراد يرسل ابنه في كل سنة خمسين ألف قرش فوعد القاضي بالخير فقال له خواصه إن القاضي يضرّك عند السلطان ويحسن له أخذ بغداد قال: صدقتم وقتله ثم قتل السيد محمد نائب المحكمة والخطيب العظيم في بغداد.

(٢) وكانت امرأةٌ فسخت نكاحها عن زوجها بسبب تعذر النفقة كما هو مذهب السادة الشافعية وعند الشيعة لا يجوز الفسخ وكان السيد محمد في المنبر يبالغ في الدعاء على الشاه وفي لعنه فقال له: أسمعنا تلك الخطبة البليغة فقال له: لا ولكني أسمعك مولد النبيّ ﷺ. فقال له: كيف تزوّج

امرأة زوجها حي؟ قال: فسخ عنها على قاعدة مذهب الشافعيّ فلعن الشافعيّ ولعن بقية الأئمة الأربعة وضرب السيد محمد بكلاب أخرجه من لسانه وصلبه.

(١) وحكى الشيخ عثمان الخياط البغداديّ أنه رفس برجله صندوق الشيخ عبد القادر[١] وألقى عمامته عند الصندوق وسمر بابه واتخذ تكيته اصطبلاً للخيل والجمال وفعل بقبر الإمام أبي حنيفة أكثر من ذلك فقال له السيد دارج وكان نقيب الأشراف ببغداد: الشيخ عبد القادر شريف فلِمَ تهينه؟ فقال جماعة من أتباع الشاه: ليس بشريف، وقال له رجل نزل بباب الأزج: أجعل للشيخ إهانة عظيمة يهلك بها أهل السنة وهي أن أسدّ جميع المراحيض في باب الأزَج وأسد باب مزار الشيخ عبد القادر وأفتح من القبة طاقة على قبر الشيخ فجميع من كان مراده أن يبول ويتغوّط تنزل فضلاته على قبر الشيخ فقال: خوب خوب[٢] وباتوا تلك الليلة وأخذ في سدّ الأبواب من الغد، فقبل المغرب أصابه قولنج ثم مات سريعاً.

(٢) وأهان جميع أهل السنة وحكى أن البغداديين الشيعة كانوا إذا وقفوا يقرؤون الفاتحة عند قبر الشيخ عبد القادر أو قبر أبي حنيفة يقولون: يا عار يا عار يا أنجس من الفار إن كان الله حرمك من الجنة لا يحرمك من النار. وبدل الجمعة بخطيب يصعد إلى المنبر ويذكر أئمة البيت الاثني عشر ويلعن أصحاب محمد ﷺ وعليهم ويلعن الأئمة الأربعة والعلماء الموجودين في الأحياء وينزل ويصلون فرادى وينتظرون خروج المهديّ ويؤذنون ويقولون بعد الحيعلتين: حي على خير العمل محمد وعليّ خير البشر.

وضبط الشاه جميع أموال عساكر بني عثمان وأموال المنسوبين إليهم ثم بعد ذلك عين السلطان جركس محمد باشا سردارا[٣] على الشاه، ولما

---

(١) هو الشيخ عبد القادر الجيلاني المدفون ببغداد.

(٢) كأنها كلمة استحسان.

(٣) القائد العام للجيش.

ورد إلى توقات[1] انكسر وتفرّقت العساكر وكان جركس محمد باشا يقعد في خيمته ويتهجد ويدعو الله أن لا يظلم أحداً ولا يكسر خاطر أحد أصلاً فأدركه الموت وخلّصه الله من هذه المشاق، فاجتمع رأي أرباب الدولة أن يجعلوا الحافظ وزيراً أعظم فتوجه لكن اغترّ بعزمه فكان يقول للعساكر: مفاتيح بغداد بيدي وسببه أن ضابط بغداد بعث إليه أن يسلمه بمجرّد وصوله إليها بشرط أن يعطيه منصباً جليلاً وأنا ما أقدر أسلم ما لم تحضر فإني أخاف من عسكر الشاه أن يقتلوني.

(١) فلما وصل الحافظ بالعسكر العظيم إلى خارج بغداد أرسل جماعة الشاه المكاحل وهم يصرخون ويقولون بالتركية خذ هذه مفاتيح بغداد فعلم أنهم أرادوا الخداع والمكر حتى لا يتدارك مهمات الحصار واتخذوا لغومات[2] عديدة فما أفادت شيئاً سوى لغم واحد اصطنعه ضابط الجند خسرو باشا ففتح جانباً عظيماً ولكن العسكر لم يهجموا كلهم عليه فإن من عادة أكابر العسكر أنهم يريدون تدبير بعضهم بعضاً فحينئذ أقدم عساكر بغداد حتى سدّوا اللغم فكان خسرو باشا يبكي وينتف لحيته من قهره.

وكان الشاه نزل بالقرب من بغداد نحو ثلاثة أيام حتى تسمع عساكره في بغداد بخبره فتقوى قلوبهم وتضعف قلوب عساكر السلطان وكان مراد باشا الأرنبوديّ كافل حلب يقبح صنيع الحافظ ويسبه ويقول لأي شيء لا يرسل عساكر من عنده وكان هو معه عساكر كثيرة وجاء إلى الحافظ وقال له: أعطني إجازه حتى أتوجه إلى الشاه وأقتل جماعته وربما قبضت عليه فيقول له الحافظ مراد باشا: لا تفرق عساكرنا وتضعفهم فيهجم عساكر بغداد علينا ويقتلونا ومراد باشا يصمم على قتال الشاه فقال له الحافظ: إن فعلت فأنت تعلم فجمع مراد باشا نحو أربعة آلاف وكبس الشاه فتحاربوا شيئاً قليلاً ثم رجع مراد باشا مكسوراً فقال له الحافظ: عرفت أن قول

---

(١) بلدة في تركيا قريبة من قونية.

(٢) لغومات: جمع لغم وهو ما يُفجّر به.

الشيوخ أصوب من رأي الشبان، وضاق الأمر على عساكر الحافظ ووقع الغلاء فيهم وهرب غالبهم، ثم بعد ذلك اجتمع العسكر ورجموا الحافظ وطلبوا منه أن يقوم بالعساكر عن الحصار ويرجعوا إلى أوطانهم، فقال: اصبروا عليّ أسبوعاً فصبروا أسبوعين ثم جاؤوا فلم يزل يواعدهم حتى اجتمعوا عليه ووضعوا في عنقه محرمة وجذبوه حتى قام من مكانه وشرع في الرحيل، فتبعهم الشاه وأراد العسكر أن يعجلوا في الرجوع فنادى كل من فارق الوزير وخرج عن خيامه تخرج عنه علوفته[1] فتبعهم الشاه مرحلة مرحلة وأراد الهجوم عليهم فلم يبالوا به وجمعهم الحافظ وتوجه إلى الشاه وقاتله حتى رجع الشاه من خوفه وبعد يومين أحضر إليه مراد باشا وقال له: ألم أقل لك لا تركب حتى كسرت العساكر وأظهرت الصيت القبيح لنا وقتله في الحال بين خيامه وأرسل جثته إلى جماعته، وجاء الحافظ إلى حلب فبعث الهدايا والتحف إلى السلطان وجماعته واسترضى السلطان وجماعته حتى لا يُقتل لكنه عزل ونزل بقسطنطينية خائفاً مختفياً.

وتولى الوزارة بعده خليل باشا وبعده خسرو باشا. ثم تولاها الحافظ صاحب الترجمة ثانياً وكان للعساكر الطغيان العظيم فاجتمع عليه العساكر وقتلوه وكان السلطان خيره بين أن يقتله بنفسه ويبعث برأسه إليهم ليطفىء نار غضبهم وبين أن يمكن العساكر منه فقال: الأولى أن تسلمني للعساكر ولا تتقلد دمي ليبقى الإثم في عنق العسكر ويكون لي في القيامة المطالبة الكبرى.

وكان قتله في شهر رمضان سنة إحدى وأربعين وألف رحمه الله تعالى[2].

---

(١) كأن العلوفة ـ هنا ـ بمعنى الراتب أو النصيب من الطعام.

(٢) «خلاصة الأثر»: ١/ ٣٨٠ ـ ٣٨٥.

كوجك

أحمد باشا الوزير الكبير المعروف بكوجك أحمد الأرنوديّ أحد الوزراء المشهورين بالشجاعة وشدة البأس وحسن التدبير.

(١) وكان عارفاً بأحوال الحروب وله طالع سعيد ورأي سديد وكان في مبدأ أمره خامل الذكر ثم نهض به الحظ حتى ورد دمشق حاكماً بها أوّلاً في سنة تسع وثلاثين وألف، وبعد ما عُزِل عنها وَلِيَ حكومة كوتاهيه[1] فنجم في بلاد الروم الياس باشا وأظهر العقوق للدولة العثمانية فعيّن السلطان مراد صاحب الترجمة لمحاربته مع جملة من العساكر فسار إليه وقابله وفتك به فتكة بالغة وأسره وغنم منه غنائم كثيرة وعاد به إلى الأبواب العالية فأكرمه السلطان لذلك وفوّض إليه ثانياً كفالة دمشق وكان ذلك في سنة اثنتين وأربعين وألف وخلع عليه خلعة الوزارة وعينه لمقاتلة الأمير فخر الدين بن معن[2] وقد كان خرج عن طاعة السلطنة وجاوز الحد في الطغيان وأخذ كثيراً من القلاع من ضواحي دمشق وتصرف في ثلاثين حصناً وجمع من طائفة السكبان[3] جمعاً عظيماً وبالجملة فقد بلغ مبلغاً لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة وكان في ابتداء أمره تعين لمقاتلته الحافظ المارّ ذكره فلم يقابله وهرب إلى بلاد الفِرَنج كما سلف الإيماء إليه ولما عاد أفرط فيما كان يرتكبه إلى أن تعين له صاحب الترجمة، وأمر كافل حلب نوالي باشا وجميع أمراء أطراف الشام كطرابلس وغزة والقدس ونابلس واللجون وعجلون وحمص وحماه أن يكونوا تبعاً له وهو رئيسهم فبعد قدومه إلى دمشق جمع أعيان العلماء وكبراء العسكر وقرأ عليهم الأوامر السلطانية فقابلوها بالطاعة وبادروا إلى مهمات تدارك السفر وأخذت أمراء الأطراف يرِدون واحداً بعد واحد، فاتفق من ألطاف الله أن الأمير عليّ بن فخر الدين بن معن أمير صفد

---

(١) بلدة في تركيا.

(٢) زعيم الدروز.

(٣) هم طائفة من متولي كلاب الصيد، وكانوا يرافقون السلطان في الحرب والصيد.

كان متوجهاً لناحية والده لمساعدته فالتقى العسكران عند صلاة الصبح فانقضت فرقة العسكر السلطانيّ انقضاض النسور على أضعف الطيور فمزقوهم بدداً وفرشوا الفضا بجثث القتلى ولم يعلم أحد أن الأمير عليّ بينهم ولو علموا لما ثبت أحد لكبر صيته.

وكان من الاتفاق العجيب أن بعض الشجعان صادفه فطعنه برمح رماه عن جواده وما عرفه فأتاه رجل من الجند وكان خدم الأمير عليّ في مبدئه فنزل إليه ليحرز رأسه فعرفه الأمير عليّ فقال له: خلصني ولك عليّ من المال ما تريد فقال له: إن بقاءك بعد هذه الجراح محال ثم قطع رأسه وأتى إلى مخيم الوزير فدخل عليه وهو نائم فنبهه خدمه الموكلون به ولما أفاق قبل يديه ووضع الرأس قدّامه وقال له: هذا رأس رئيس القوم فلم يصدّقه حتى جاء من عرفه وحقق له الأمر فضربت البشائر، وكان العسكر الذين تلاقوا مع عسكر الأمير عليّ انتصروا وغنموا غنيمة عظيمة وقتلوا وأسروا ولم ينج من أيديهم إلا شرذمة قليلة، وأرسل أحمد باشا رأس الأمير عليّ إلى دمشق في جملة من الرؤوس وأدخلوهم مشرعين على رؤوس الرماح وجهزوهم بعد أيام إلى الأبواب السلطانية، ثم إن أحمد باشا سار إلى البقاع العزيزيّ وافتتح قلعة قبر الياس وتوجه إلى جانب صيدا وأقام بها مدّة شهر والأخبار عن الأمير فخر الدين مختلفة فمنهم من يقول: إنه في قلعة نيحا ومنهم من يقول إنه في قلعة جزين وكان الوزير الأعظم محمد باشا في حلب فاستدعى أحمد باشا فسار بخواص أتباعه وأبقى جميع العسكر بمدينة صيدا واجتمع به في حلب وعاد بالسرعة وكان تحقق أن فخر الدين في قلعة جزين فأخذ يحاصرها ولما رأى فخر الدين أنه مأخوذ خرج من القلعة وأتى طائعاً إلى أحمد باشا فقبض عليه وأتى به إلى دمشق بموكب حافل وفخر الدين خلفه مقيد على فرس وكثر دعاء الناس له ومدحه شعراء دمشق بالقصائد الطنانة، ثم أرسله أحمد باشا مع من وكله به إلى مقر السلطنة فبعد وصوله أمر السلطان بقتله.

ولما تمّ الأمر على هذا المنوال رجع صاحب الترجمة إلى بلاد فخر الدين لضبط ماله من الأموال والأمتعة فنازل قلعة فيحة وتسلمها واستدعى قاضي القضاة بالشام وعلماءها وأعيانها فتوجهوا إليه وحضروا الضبط، ولم يظهر من النقود إلا شيء يسير وأما الأملاك والعقارات والأمتعة وحلي النساء وأواني الذهب والفضة وآلات الحرب فقد ظهر منها شيء وافر وكتب بذلك حجة.

وعاد صاحب الترجمة إلى دمشق وأقام بها مدّة وكان عمر بدمشق تكية خارج باب الله بالقرب من قرية القدم ووقف عليها قرى من ضواحي صيدا وبعلبك، وألحق تعيينات لأهالي الحرمين، وبنى سبيلاً بالقرب من عمارته عظيم النفع.

ثم طلبه السلطان مراد إلى محاربة العجم في قلعة روان وعُزل عن حكومة دمشق وأراد المقاومة لشاه العجم عباس باشا فما ساعده القدر فقتل وأسر غالب من معه من العساكر وأرسل رأسه إلى دمشق فدُفِن في تكيته المذكورة، وكان قتله سنة ست وأربعين وألف رحمه الله[1].

اسكندر

إسكندر بن يوسف بن إسحاق الروميّ الأصل الدمشقيّ أحد كتاب خزينة الشام.

(١) كان كاتباً منشئاً عارفاً بالقوانين العثمانية، وله خبرة تامة بالحساب وإنشاء الرسائل التركية مع جرأة وإقدام وهو الذي سعى في قطع رزق العلماء والصلحاء بالشام من جوالي[2] السلطان وسافر إلى الروم وتعاضد هو والدفتريّ بالشام إذ ذاك وبعض الكتاب وعرضوا ما أبرموه على الوزير فجرت المقادير على وفق ما أحكموه من الرأي الفاسد وقُطع عن الناس

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٣٨٥ - ٣٨٨.

(٢) الجوالي هي الجزية المأخوذة على أهل الكتاب.

شيء كثير، وبسبب ذلك ضعفت قوّة العلماء بالشام واستولى عليهم الفقر وكان ذلك في حدود سنة ستين وألف.

ومما قيل في هذا الخطب الفادح:

شكت الشام عمها[1] المتوالي ... نحو باب المراد[2] في عرض حال
قطعوها ظلماً وأبقوا يتامى ... فاقدي الزاد ما لهم من نوال
والفقيرات باكيات بضعف ... فقدوا قوّة لجسم ومال
ويح من يستبيح رزقة محيا ... وإمام وطالب ذي عيال
وكذاك المؤذنون أصيبوا ... وهم الذاكرون جنح الليالي
دفتريّ له القساوة طبع ... مبغض خائن دنيّ الفعال
أكل المال بالخيانة حتى ... صار ذا ثروة وطول سبال
ساعدوه جماعة أشقياء ... ظهروا بغتة بزيّ الرجال
منهم إسكندر الخبيث المداجي ... مع بعضٍ أصون عنه مقالي
لا جزاهم إلهنا غير نار ... تتلظى وحسرة في الوبال
هل لهذا المصاب مبلغ خير ... نحو باب المراد بين الموالي
علهم يبلغون كهف العطايا ... منبع العدل والندى والمعالي
ملك زاده الإله بهاء ... وله اليمن صاحب والعوالي
نسأل الله أن يديم علينا ... ملكه دائماً بأحسن حال

ولم تطل بعد ذلك مدّة إسكندر حتى مات بقسطنطينية مطعوناً[3] في سنة إحدى وستين وألف وقيل فيه:

يقولون لي قد مات إسكندر وما ... أصيب بسيف مستحق بسَيْرِهْ
فقلت لهم سهم القضاء أصابه ... ومن لم يمت بالسيف مات بغيره[4]

---

(١) التحير والضلال، أو العمىٰ.
(٢) أي: السلطان مراد.
(٣) أي: مصاباً بالطاعون.
(٤) «خلاصة الأثر»: ١/٤٠٢ ـ ٤٠٤.

المتوكل

الإمام إسماعيل بن القاسم بن محمد المتوكل على الله الزيديّ صاحب اليمن.

وَلِيَها بعد وفاة أخيه محمد المؤيد وخلع أخيه الإمام أحمد في سنة خمس وخمسين وألف، وعظمت حرمته ورهبت سطوته ودانت له الأقاليم اليمنية وسار بالناس سيرة حسنة. وكان حازم الرأي خبيراً بتدبير الأمور حسن المعاملة محمود الأوصاف بعيداً عن الخناء والفحش يملك نفسه عند المحارم ويعد مغانم الفاحشة من المغارم، سار السيرة العادلة بحيث لم يكن له همة بعد الاشتغال بالعلم إلا التفكر في أمور الرعايا فأمنت السبل في أيامه ورخصت الأسعار ولم يتمكن أحد من ظلم أحد في ولايته ولو كان كافراً، ولم يجسر أحد من عماله على ظلم أحد من الرعايا وأمن الناس على أنفسهم وحريمهم وأولادهم وتردّدت التجار لسائر الأقطار.

وكان حسن الشكل مليح الوجه عالماً متضلعاً أخذ عن كثير من المشايخ من علماء الشافعية والزيدية وجدّ بالاشتغال بالعلوم الشرعية والآلية وبرع في سائر الفنون وألف تآليفاً رائقة منها شرحه على جامع الأصول لابن الأثير، وجمع أربعين حديثاً تتعلق بمذهب الزيدية وشرحها شرحاً مستوعباً ذكر لي بعض الإخوان من أهل دمشق وكان رحل إلى اليمن أنه رآه وهو يحتوي على تحقيقات وأبحاث بديعة.

وكان بحاثاً مناظراً وكان يعظم الشرع ولا يخرج عن حكمه ويوقر من زاره من الفضلاء وكان إذا اجتمع بأحد من أهل العلم يقبل بوجهه عليه ويودّه ويؤانسه ومن سعادته أنه كان إذا غضب على أحد في الغالب لا يزال ذلك المغضوب عليه في خمول وتعس ونكد إلى أن يموت وبالجملة فإن جميع أيامه كانت غرراً.

(١) وفي سنة سبعين وألف استولى الإمام إسماعيل على حضرموت كلها وأمرهم بأن يزيدوا في الآذان: حيّ على خير العمل وترك الترضي عن

الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وانتهت دولة آل كثير من تلك الديار وكان آخرهم عبد الله بن عمر فإنه لما خلع نفسه وتولى أخوه بدر بن عمر وفي آخر دولته ظلم وطغى فهجم عليه ابن أخيه بدر بن عبد الله وحبسه فدانت له العباد إلى أن ظلم وصادر السادة فاجتمعوا ودعوا عليه فقدّر الله أن كتب عمه بدر بن عمر وهو في الحبس إلى الإمام إسماعيل وهوّن عليه أمر حضرموت فكتب الإمام إلى السلطان بدر بن عبد الله بإخراج عمه من الحبس فأخرجه ثم اتصل بالإمام وطلب منه التجهيز على حضرموت وتكفل لهم بأشياء وساعده على ذلك الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن العموديّ شيخ العموديين وكان والياً على أكثر وادي دوعن فكاتبوا مشايخ القبائل وأرسلوا لهم بالأموال فلما التقى الجيشان انكسر جيش السلطان بدر الدين ولم يقاتل معه إلا خواصه ثم انكسر منهزماً وولى مدبراً إلى جبل أخواله السناقر وطلب لنفسه الأمان فأعطيه ولما لم يطب لأحمد المقام بحضرموت أقام بها بدر بن بدر الكثيري ورجع إلى عمه الإمام إسماعيل وبقيت حضرموت في تصرف الإمام إلى مماته وتمكن غاية التمكن.

ومدحه شعراء عصره بالقصائد الطنانة، وكان ينظم الشعر ورُوي له أشعار جيدة مقبولة.

وكانت ولادته في سنة تسع عشرة بعد الألف، وتوفي سنة سبع وثمانين وألف وقام بعده في طلب الإمامة لنفسه أحمد بن الحسن بن القاسم ونازعه فيها القاسم بن محمد ابن عمه وحصل بينهما محاربة ثم تمت الولاية لأحمد[1].

إله بخش

إله بخش العارف بالله تعالى وإله بخش لفظ فارسيّ معناه عطية الله، الهنديّ النقشبنديّ. كان صاحب معرفة وكمال وتكميل.

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٤١١ - ٤١٦.

(١) نقلت عنه التصرّفات العجيبة والكرامات الغريبة وهو من أجلّ مشايخ العارف بالله تاج الدين الهنديّ النقشبنديّ نزيل مكة وله معه خوارق منها أن الشيخ أرسله إلى بلدٍ لخدمة فكان يمشي في الطريق فرأى في أثناء طريقه امرأة جميلة فتعلق قلبه بها وصار مشغوفاً بها حتى خرج زمام اختياره من يده ونسى تلك الخدمة وتبعها فبينما هو كذلك إذ رأى الشيخ على يمين تلك المرأة ينظر إليه واضعاً إصبعه السبابة في فمه على طريق التنبيه والتعجب فلما رآه حصل له منه غاية الحياء وانقطع أصل محبتها من قلبه ومضى لسبيله ولما رجع من الخدمة وصل إلى الشيخ فلما رآه ضحك منه فعرف أنه كان مُشْعَراً بذلك.

(٢) ومنها أنّ واحداً من أصحاب الشيخ إله بخش كان يقرأ عليه فجاء الجراد إلى البلد ووقف على أشجار الناس وزروعهم فجاء راعي بستان الشيخ وأخبره بالجراد فأرسل الشيخ واحداً من أصحابه إلى البستان وقال له: قل للجراد منادياً بصوت رفيع: إنكم أضيافنا ورعاية الأضياف لازمة إلا أن بستاننا أشجاره صغار لا تحتمل ضيافتكم فالمروءة أن تتركوه فمجرد ما سمع الجراد هذا الكلام من الرجل طار وخرج من بستان الشيخ وصار زروع الناس وبساتينهم كعصف مأكول إلا بستان الشيخ.

(٣) ومنها أن رجلاً جاء إلى الشيخ إله بخش وشكا إليه الفقر والضيق في المعيشة وجلس أيّاماً في خدمته فقال له الشيخ: إذا حصل لك شيء من الدنيا ما تخرج لنا منه؟ فقال: العشر، فقال له: لا تستطيع فكرّر عليه الكلام حتى استقرّ الحال على أن يخرج له من كل مائة واحداً فأمره أن يروح إلى واحد من أهل الدنيا فحصل له ببركة الشيخ دنيا كثيرة في أيام قليلة فكان الشيخ يرسل إليه الفقراء ويكتب له بأن يعطيهم فلا يؤدي إليهم شيئاً ثم اجتمع عنده دراهم كثيرة من حصة الشيخ فكتب إلى الشيخ أنكم ترسلوا واحداً من خدّامكم حتى نرسل هذه الدراهم إليكم فلما وصل

مكتوبه حصل للشيخ غيرة وغضب فجاءه بعد أيام خبر موته، وله كرامات كثيرة.

وكانت وفاته سنة اثنتين وألف وعمره اثنتان وثمانون سنة وهو على ركبة تلميذه الشيخ تاج الدين وأوصاه أن لا يغسله ولا يكفنه إلا هو فقبل وصيته رحمه الله تعالى(١).

ويسي

المولى أويس، القاضي الروميّ المعروف بويسي واحد الزمان في النظم والنثر ولم يُر مثله في حسن التأدية والتصرّف في قوالیب الشعر والإنشاء باللسان التركيّ وكان في حياته سلطان الشعراء باقي يشار إليه بالبراعة التامة فلما مات باقي أذعنت له الشعراء جميعاً حتى خاطبه أحدهم يوم موت باقي ببيت بالتركية ترجمته هكذا:

لئن مضى للنعيم باقي فكن لنا الدهرَ أنت باقي

(١) وكان سريع البديهة إذا أخذ القلم بيده لا يدعه حتى يستوفي غرضه، وأخبرني جماعة عنه أنه كان يقول عن نفسه: إذا أخذت القلم بيدي لأنشىء شيئاً تزاحمت عليّ المعاني فربما حررت في مقصد واحد أشياء كثيرة ثم أعود فأنتخبها وأنتقيها وقريب من هذا ما يُقال إن صديقاً لكلثوم العتابيّ طلب منه يوماً أن يصنع له رسالة فاستمدّ مدّة ثم علق القلم فقال له صاحبه: ما أرى بلاغتك إلا شاردة عنك فقال العتابيّ: إني لما تناولت القلم تداعت عليّ المعاني من كل جهة فأحببت أن أترك كلّ معنى حتى يرجع إلى موضعه، وهذا مثل قول امرىء القيس يُقال إنه قالها وهو ابن عشر سنين:

أذود القوافي عني ذياداً كذود غلام غويّ جواداً

فلما كثرن وعنينه تخير منها جوادا جواداً

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٤٢٣ ـ ٤٢٤.

فـأعـزل مـرجـانهـا جـانبـاً   وآخـذ من درّهـا المستجـادا

(١)وله تآليف حسنة الوضع منها سيرة النبيّ ﷺ بالتركية أحسن فيها كل الإحسان وقد طالعتها كثيراً فشكرت صنيعه فيها، وأورد فيها أشياء مناسبة للمقصود فمن ذلك ما ذكره في فصل سفر النبيّ ﷺ إلى الشام واجتماعه بُحيرا الراهب قال: أخبرني الشاب الفاضل علي الحلبي الأسكوبيّ وأنا قاض بأسكوب وقد طارحته في الوقائع النبوية فحكى لي أنه في أثناء سياحته مرّ على قصبة من قصبات الروم تدعى دبرى، قال: فدخلت إلى دير معظم بالقرب منها فلم أر أحسن منه وضعاً وتزييناً ورأيت فيه مجلساً عظيم الشأن قد رتب ترتيباً أنيقاً فسألت عنه ثَمّةَ راهباً من الرهبان الطاعنين في السنّ فجذبني إلى مكان لا يرانا فيه أحد ثم قال لي: هذه صورة المجلس الذي رتب فيه بُحيرا الضيافة لنبيكم محمد ﷺ لما ورد الشام للتجارة، قال: فتأمّلته فإذا هو على طبق ما ذكره أهل السير ثم قلت للرّاهب: أترى أن نبينا إن لم يكن عندكم مبعوثاً بالحق هل كان صناديدكم يتكلفون في تخليد مآثره هذا التكلف وهل كانوا يعتنون في إقامة رسومه بينكم فما هو إلا كما نقول، قال: فقال لي: إنا نحن مصدقون بنبوّته موقنون بها وربما أنا لو لم نخف من الجهلة لأقررنا بالشهادتين في الملأ العام فهو النبيّ الصادق الوعد المبعوث في آخر الزمان غير أننا قائلون ببعثته إلى العرب خاصة، والله أعلم.

(٢) وله كتاب بالتركية حاصل تأليفه أنه رتب رؤيا وأبرزها في هذا القالب ـ وذلك في عهد السلطان أحمد في حدود سنة سبع عشرة وألف وكان أمر الدولة إذ ذاك في غاية الاضمحلال ـ قال: لما لاحظت الحوادث في عالم الكون والفساد كنت أتمنى لو كلمت السلطان في هذا الشأن بلا واسطة حتى طرقني النوم في أثناء هذه الفكرة فرأيت جماعة كل منهم في ناصيته نور السعادة لامع وشعاع الإقبال في وجهه ساطع فنزلوا في بستان وكل منهم استقرّ على كرسي وبقيت أنا مع الخدم فناداني المتأمر منهم

وأجلسني فسألت عنه فقيل لي إنه الإسكندر ذو القرنين والذين حوله هم ملوك آل عثمان الماضين ثم أقبل موكب حافل وأسفر عن السلطان أحمد فجاء وجلس على سرير مقابل للإسكندر وأخذ هو والإسكندر في المكالمة فكان تارة يتكلم وذاك ينصت وتارة ينصت وذاك يتكلم حتى ابتدر الإسكندر وقال: إن السلطان قلب فإذا لم يكن القلب معتدل الأحوال انحرف العالم عن حدّ الاعتدال، والعدل والرشاد مادّة السداد، والمرحمة والإنصاف سبب جمعية الرعايا، والجور والاعتساف باعث تفريق البرايا، فتأوّه السلطان ثمّ قال: أيها السلطان الأعظم كلامك حق معلوم أما اعتدال القلب فموجود وأما الجور فغير مجحود وذلك لأنّ السلطنة لم تسلم لنا إلا بعد خراب الدنيا فإنه من عهد جدّي المرحوم السلطان مراد الثالث قد ارتكبت مكروهات لا محيد عنها وذلك بسبب التصميم على قلع شجرة الرفض والإلحاد فاقتضى الأمر تعيين العساكر التي لا نهاية لها ولزم من ذلك إعطاء المناصب العلية والمراتب السنيّة لغير أهلها ولزم من ذهاب العساكر وإيابها في كل سنة تكاليف الرعايا ووقع بينهم وبين العساكر وربما أدّت مخاصمة اللسان إلى محاكمة السيف والسنان فوقع بسبب ذلك الخراب فقال: إن قُطع النظر عن ذلك وادُّعي العَمَار فيما قبله وأن الدنيا لم تخرب إلا في هذا الزمان فياليت شعري متى كانت معمورة أفي زمان آدم؟ ثم ذكر وقائع نبي بعد نبي إلى نبينا ثم إلى الخلفاء، ثم إلى الملوك إلى زمان الملك الناصر بن قلاون ولا يتعرّض إلا لصاحب ماجرية غريبة[1] وبعد إيراد الماجرية يقول في أي زمان هذا كانت الدنيا معمورة إلى آخر ما ذكره.

وكانت وفاة أويس في سنة سبع وثلاثين وألف. رحمه الله تعالى[2].

---

(١) أي: حادثة غريبة.

(٢) «خلاصة الأثر»: ١/٤٢٥ - ٤٢٨.

الجُنيد

جمال الدين بن محب الدين المعروف بالجنيد الدمشقيّ الشافعيّ وشهرة أهله ببني الكوكيه وينتهي نسبهم إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكانوا بدمشق من التجار المياسير ولهم مآثر وخيرات ولهم أقارب بمكة وهم أيضاً أصحاب إدارات وشهرة وجمال الدين هذا خرج من بينهم كامل الأدوات حسن الآداب لطيف المطارحة حلو الحديث صاحب نكات ونوادر ورواية واسعة في الأخبار والأشعار والأحاديث، وعمر كثيراً ولقي أساطين العلماء وجالسهم والتقط من فوائدهم وروى عنهم ولازم الذكر والأوراد من ابتداء عمره واشتغل بالعبادة ولذلك لقب بالجنيد.

وكان يحكي عن نفسه أنه لم يتفق له مدّة عمره صلاة من قعود. وكان مواظباً على السنن والرواتب، وله صدقات سِرِّية، وكتب الكثير من الكتب بخطه وكان خطه حسناً وضبطه بيناً وبالجملة فإنه كان من مفردات وقته وحسنات عصره وذكره والدي رحمه الله تعالى في تاريخه وقال في ترجمته:

لا يراه أحد من الناس إلا يودّ أن يكون له من الندماء والجلّاس، يحب التلاق ويكره الفراق لا يودع مسافراً ولا يعود مريضاً ولا يشيع جنازة إلا نادراً، وكانت أوقاته مستغرقة في النزهات وكان له بعض ثروة يتعاطى صنعة القماش، وحج مرتين متتابعتين وسافر إلى القدس وحلب، وكان يورد قصصاً وحكايات كثيرة وربما شاهد غالبها بالعين.

(١) وكان يكتم سنه فإذا ألح عليه في السؤال مُلِحٌّ لم يزده على أن سني عظم ويتمثل كثيراً بقول أبي العلاء البغداديّ:

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة ... سن ومال ما استطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تُبتلى بثلاثة ... بمكفر وبفاضح ومكذب

(٢) وحكى لي والدي المرحوم أنه حضر سماطاً وأمامه الجنيد فبالغ في النهمة وكان في المجلس بعض الأدباء فأنشد قول أبي محمد القزوينيّ

الضرير في رجل أكول:

وصاحب لي بطنه كالهاويه كأن في أمعائه معاويه

قال لي الوالد: وهذا البيت قد ذكره الثعالبيّ في «اليتيمة» واستجاد وجازة لفظه ووقوع الأمعاء إلى جنب معاوية لمزية ثالثة وهي كون الذي أنشد فيه من نسل معاوية.

(١) وحضر ليلة في دعوة كان فيها حافظ المغرب أبو العباس أحمد المقري وأحمد بن شاهين المقدم ذكرهما فلما قدم الطعام قام الجنيد وتوضأ وصلى بعض ركعات، فقال المقرى مستجيزاً:

قام الجنيد يصلي ونحن نأكل عنه

فأجابه ابن شاهين:

تقبل الله منا ولا تقبل منه

(٢) وقصيدة محمد الكريمي التي قالها في هجائه مشهورة وهي طويلة فنذكر بعضاً منها فإنها من رائق الكلام وسبب إنشائها أن بعض أدباء دمشق ومنهم الجنيد كانوا مجتمعين في محل وبين يديهم رمان يأكلون منه فطلع عليهم الكريميّ فقام القوم كلهم إلا الجنيد فأنشأ الكريميّ هذه القصيدة منها:

إن المعظم نفسه يا شيخ في بحر المهالك

يا عَيْرُ[1] قام القوم لي إلا حماراً من مثالك

لكن عذرك واضح فالأكل من أقوى اشتغالك

هذا عتاب لاهِجَا وعظيم أنفك مع سبالك

حررته مستغفراً إذ كدت أدخل في وبالك

هذا وما عُهِد القيام من الجماد فدم بحالك

---

(١) العَيْر: الحمار.

(١) ومن نوادر الجنيد أنه لما وصله خبر الأبيات من الكريميّ اجتمع به واستنشده إياها فلما أتم قراءتها نظر إليه بنظر المستهزىء به ولم يزده على أن قال له: أين الأم المشفقة التي تبكي عليك؟ وهذه كناية عن سوء الحال فإن الكريميّ ورث من أبيه مالاً كثيراً فأتلفه في مدة جزئية وساء حاله بعد ذلك.

(٢) وحكى عن الكريميّ أنه قابلني بكلمة لو صرفت عمري في هجوه ما وفيت بها.

(٣) ومن غرائب وقائعه التي تسند إلى حسن عشرته وتحمله وتقديم النشاط على غيره أنه مات له ولدان وجيء إليه بخبرهما وهو مع جماعة في بستان بالصالحية يلعب بالشطرنج فلم يُشعِر به أحداً وقام وأعطى المخبر دراهم وفوّض إليه تجهيزهما وعاد إلى ما كان فيه.

وبالجملة فإنه كان من نوادر الزمن، وكانت وفاته سنة ثمان وسبعين وألف، ودُفِن بمقبرة الفراديس رحمه الله تعالى[١].

الشريف حسن بن أبي نمي محمد بن البركات

ذكره الشلي في تاريخه وقال: وُلِد سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة، ونشأ في كفالة والده سعيداً رئيساً حميداً، ولبس الخلعة الثانية[٢] بعد وفاة أخيه أحمد في سنة اثنتين وستين وتسعمائة ثم فوّض إليه والده الأمر فلبس الخلعة الكبرى التي لصاحب مكة ولبس أخوه ثقبة الخلعة الثانية واستمرّ مشاركاً لوالده في الإمرة إلى أن انتقل والده يوم تاسوعاء سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة فاستقل بسلطنة الحجاز وقام بها أحسن قيام وضبط الأمور والأحكام على أحسن نظام، وأمنت البلاد واطمأنت العباد وقطع دابر أهل

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١/٤٩٠ - ٤٩٤.
(٢) كأنها ولاية العهد.

الفساد فكانت القوافل والأحمال تسير بكثرة الأموال مع آحاد الرجال ولو في المخاوف والمهالك، وخافه كل مقدام فاتك.

(١) وكان عظيم القدر مفرط السخاء بصيراً بفصل الأمور شجاعاً مقداماً حاذقاً صاحب فراسة عجيبة، حُكِيَ أنه سُرقت الفرضة السلطانية بجدّة وضاع منها قماش له صورة وأموال كثيرة ولم يكسر بابها ولا نقب جدارها ولا أثر يحال عليه معرفة المطلوب والطالب بل حبل مسدول من بعض الجوانب فلما عرض عليه طلب الحبل ثم شمه ثم قال هذا حبل عطار ثم دفعه إلى ثقة من خدّامه وأمره أن يدور على العطارين فعرفه بعضهم وقال: هذا حبل كان عندي اشتراه مني فلان ثم نقل من رجل إلى رجل إلى أن وصل لشخص من جماعة أمير جدّة ثم وجدت السرقة بعينها في المحل الذي ظنها فيه.

(٢) ومع ما كان فيه من هذه الصفات كان صاحب فضل باهر وأدب غض ومحاضرة فائقة واستحضار غريب. حكى البديعيّ في كتابه الذي ألفه في حيثية المتنبي وسماه «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي» عن بعض علماء القاهرة وأظنه محمد الفيوميّ، قال: كنت في حرم البيت المنيف فدعاني إلى بعض الأماكن الشريفة حسن الشريف وسمع بتلك الدعوة أحد بني عمه الكرام فسارع إلينا مسارعة القطر من الغمام واتفق أن سقط من يده الكريمة خاتم به حجر ثمين القيمة، فقال له: لم لا تقف على طلب ذلك الخاتم الثمين؟ فقال له: ألستُ من أبناء أمير المؤمنين فلمح الشريف إلى قول أبي الطيب:

بَلِيتُ بِلَى الأطلال إن لم أقف بها ... وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

ولمح ابن عمه إلى قول المتنبي أيضاً:

كذا الفاطميون الندى في أكفهم ... أعزّ انمحاءً من فصول الرواجب[1]

---

(١) الرواجب: مفاصل أصول الأصابع.

(١) والبيت الأوّل من قصيدة للمتنبي كثيرة العيوب، وذكر البديعيّ المذكور عند الكلام على هذا البيت نكتة أوردها ولم يتنبه لمحذورها وهي: سأل بعضهم كم قدر ما يقف الشحيح على طلب الخاتم، فقال: أربعين يوماً، ثم قيل له: ومن أين علمت ذلك؟ قال: من سليمان بن داود عليهما السلام، فإنه وقف على طلب الخاتم أربعين يوماً، فقيل له: ومن أين علمت أنه بخيل؟ قال: من قوله تعالى: **﴿هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾** وما كان عليه أن يهب الله لعباده أضعاف ملكه انتهى وهذا كلام كما تراه صادر عن قلة التدّبر فإن الأنبياء عليهم السلام يُنزه مقامهم عن البخل المخل بنبوّتهم وما يتوهم فيه من إسناد البخل إلى سليمان قد دفعه أئمة التفسير بأجوبة كثيرة منها أنّ المُراد بقوله: **﴿لا ينبغي لأحد﴾** أي أن يسلبه مني في حياتي كما فعل الشيطان الذي لبس خاتمه وجلس على كرسيه، ومنها أنّ الله تعالى علم أنه لا يقوم غيره من عباده بمصالح ذلك الملك واقتضت حكمته تخصيصه به فألهمه طلب تخصيصه به، ومنها أنه أراد بذلك ملكاً عظيماً فعبر عنه بتلك العبارة ولم يقصد بذلك إلا عِظَم الملك وسعته كما تقول: لِفلانٍ ما ليس لأحد من الفضل أو من المال وتريد بذلك عِظَم فضله أو ماله وإن كان في الناس أمثاله وهذا كلام وقع في البَيْنِ وقصدت إيراده تطرية للسامع فإنّ الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر يحسن عند ذوي الآراء السليمة.

(٢) عوداً إلى تتمة خبر الشريف حسن، وحكى بعض أهل الأدب في مجموع ذكر فيه بعض محاضرات أدبية أن بعض بني عم الشريف حسن ورد ناديه وهو يجر ذيلي التيه والحمية الهاشمية فتصدر عليه بعض من حضر ذلك المجلس فتجعدت أساريره وظهرت حدّة طبعه فلما فطن الشريف حسن لذلك قال: إنه ليقودني للعجب ويهز من عطف أريحيتي ساعد الطرب قصيدة أبي الطيب التي أوّلها:

فؤاد ما يسليه المدام وعمر مثل ما يهب اللئام

فتسلى بذلك وتبسم وجهه بعد القطوب لأنه علم تلميحه إلى قوله فيها:

ولو أنّ المقام له علو تعالى الجيش وانحط القتام[1]

وفي سنة ثمان بعد الألف أمر أمراء الحجاج أن يلبسوا الخلعة الكبرى ولده أبا طالب وهو يومئذ أكبر أولاده وولي عهده في بلاد والخلعة الثانية لولده عبد المطلب.

(١) وقد أفرد ذكره السيد الإمام العلامة عبد القادر الطبريّ من أرجوزته المسماة بحسن السيرة، وشرحها المسمى بحسن السريرة، فقال:

وذب عن بيت الإله بالأثل[2] منزهاً من التواني والكسل

وأمّن السبل جميعاً وحمى كل المخاليف[3] فأضحت حرما

فطالما قد شدّت الرحال مُوقَرة من فوقها الأموال

من مكة لبصرة ونحوها قاطعة لقفْرها وبدوها

ولم يكن معها سوى حاديها من حاضري البلدة أو باديها

فتصل المقصد وهي سالمة ثم تعود مثل ذاك غانمة

وشاع هذا الأمن منه واشتهر معطراً باقي الممالك الأخر

فكل من حج إلى البيت الحرام وشاهد الأمن استخار في المقام

(٢) أشار بذلك إلى أنه لم يزل حامياً حوزة البيت المعظم وذاباً عن سوحه المطهر المفخم حتى أنه من مزيد أمنه اختلط فيه العرب والعجم ورعى الذئب مع الغنم، وأمّن السبل الحجازية، ومهد الطرق الحَرَمية، فكانت تشدّ الرحال في سائر جهاته وليس معها خفير سوى الأجير لا يفقد منها صواع ولا يختلس منها ولا قَدْر صاع، وربما ترك المتاع أو المنقطع في القفر ليؤتى له بما يحمل عليه أو يركب فيوجد سالماً من الآفاق ولو

---

(١) الغبار.

(٢) الرّماح.

(٣) المواضع والمنازل.

طالت الأوقات، مع كثرة الطارقين لتلك المعاهد والسالكين لهذه المواطن والمقاصد، ولم يعهد هذا إلا في زمن هذا الملك العادل ولم ينقل مثله عن مثله من الملوك الأوائل؛ فلقد كانت هذه الطرق في مبدأ ولايته مَخُوفة، والمخاليف[1] كلها غير مألوفة، حتى من أراد أن يعزم من مكة إلى التنعيم للاعتمار لا بد له أن يأخذ خفيراً من أرباب الدولة الكبار وإن لم يفعل ذلك يعطب في نفسه وماله ولا يرثى في أخذ الثأر لحاله، ولطالما نهبت الأموال ما بين مكة وعرفة ليلة الصعود إليها وسفكت الدماء في تلك المشاعر وجدلت الأجساد لديها وإذا سرق متاع قَلَّ أن يُظفر به، وربما قتل صاحبه عند طلبه بسببه، وكل ذلك من العرب المحيطين بأطراف البلاد الساعين في الأرض بالفساد، فمذ بسط الله بساط الأمان بولايته ألزمهم بحراسة هذه المواطن وغرّم ما يذهب للناس في هذه الأماكن، وعاملهم بصنوف العقاب وأنواع العذاب من الصلب وقطع الأيدي وتكليف أحدهم بالقتل إن لم يدري إلى غير ذلك من أصناف الاجتهادات السياسية والآراء السلطانية المرضية حتى صلح حال العالم غاية الإصلاح، ونادى منادي الأمن بالبشر والفلاح، فاطمأنت النفوس بإقامة هذا الناموس، واعتدلت أحوال الرعايا واتصل ذلك إلى علم الملوك البقايا، فشكر كلٌّ سعيه في هذه المآثر الحميدة وحمد الله تعالى في هذه المعدلة الظاهرة المجيدة، وكثر حجاج بيت الله العتيق وضربوا إليه آباط الإبل من كل فج عميق فيرون ما كانوا يسمعون به عياناً فيستخيرون الله في أن تكون بلده لهم مسكناً وأهلها إخواناً.

(۱) فمن هنا مكة صارت مصراً ... محشودة بالعالمين طُرّاً[2]
وقبل هذا العهد لم يقم بها ... إلا أناس شغفوا بحبها
نحو ذوي البيوت ممن قطنوا ... دهراً بها واستوطنوا وسكنوا

---

(۱) المواضع والمنازل.
(۲) أي: كلهم.

لـذا انـتهـت إليـهم الـريـاسـة	بـطيبهـم منـاصـب النـفـاسـه
والغيـر يـدعـو بمنـادي الـملك	يـا من قضى مـرامـه من نسـك
ارحـل إلـى بـلادك الأصـليّـة	مـن يـمـن أو جـهـة شـامـيّـة
فـإن هـذا الـبـلد الـحـرامـا	وادٍ بـلا زرع يُـرى ولا مـا[1]
فـيـرحلون مـا عـدا مـن ذكـرا	من أهلهـا خلص من قـد أمـرا
فـإنـهـم شـوكـتـه الـقـويـه	وخـادمـو حضـرتـه الـعـليـة

أشار إلى القواعد القديمة لولاة مكة الكريمة أن ينادى بعد تمام الحج يا أهل الشام شامَكم ويا أهل اليمن يمنَكم فيرحل كلٌّ إلى بلده ولا يقيم بمكة إلا خواص أهلها من ذوي البيوت القديمة فلما تولى مكة وشاع ذكره رغب كل أحد في المجاورة بها وصارت مصراً من الأمصار:

هـذا ومـا عـاداه قطّ أحـد	إلا وخـاب خيـبـة لا تـجـحـد

(١) ومن كمال سعده أنّه ما عاداه أحد إلا وعاد بالخيبة وقبْح الأوْبة، ولا نواه أحد بسوء إلا ودارت عليه دائرته فمن ذلك أنّ الوزير الأعظم مصطفى باشا قصده بالأذى وجهز العساكر الرومية إلى مكة وصمم على إيذاء هذه الذرية فما زال كل من في قلبه ذرة إسلام يثبطه عن هذا العزم فلم يُجْدِ فيه نفعاً فاجتمع جماعة من أهل الخير وقرؤوا الفاتحة وقالوا: إن هؤلاء أولاد النبيّ ﷺ فنسأل الله بحرمة جدّهم وحرمتهم أن يرينا في الوزير ما يكون به عبرة لمن اعتبر فما فارقوا مجلسهم إلا وجاءهم خبر أنه أصيب بالقولنج ومات لوقته فأوصلوا الخبر للسلطان وقصوا عليه القصة فرجع عن ذلك واستغفر الله.

(٢) ومن ذلك أن الشيخ العلامة عبد الرحمن المرشديّ قصد السفر إلى اليمن فاستأذنه فلم يأذن له فكان منعه له عن السفر عين المصلحة والنجاح فإن الأمر بعد ذلك أسفر عن تغير قطر اليمن وانقطاع سبله وكثرة الخوف في طرقه بموجب بعض الفتن فإنه قام ثَمّةَ قائم من أهل البيت يُسمى بالقاسم

---

(١) أي: ولا ماء.

وادّعى الإمامة وظهر شأنه وقويت في الجبال دون تِهامة شوكته والناس إذ ذاك في أمر مريج وقد عزم جماعة إلى تلك الديار فعادوا مبادرين للفرار وأراد الله للمذكور الراحة حيث استقرّ بمكة.

(١) من أنه ابن مستجاب الدعوة ... ومـالـه فـي عمـره مـن صبـوة
وكيف لا وقد حمى البيت الحرام ... بنفسه خمساً وأربعين عام
مـؤيـداً شـرائـع الإسـلام ... مـشـيـداً شـعـائـر الإحـرام
مـع أنـه فـي زمـن أيّ زمـن ... مـظـنـة لـكـل قـول وفـتـن
فـأظهـر الصـلاح في الـرعـايـا ... وفـي مـلـوك الـدول الـبـقـايـا

(٢) قد اشتهر عنه أنه مجاب الدعوة منها أنه كان في عام أربع بعد الألف في محل يُقال له: «غدير وشحا» فأصاب الناس غاية التعب من الظمأ فورد إليه رعاء إبله وتفاوضوا معه في ورودها ومن أي محل ترد فعدّدت أماكن بعيدة عن منزلهم هذا فما ارتضى ذلك وتوجه إلى الله تعالى قائلاً: اللهم اسقها فما كان بينه وبين السقيا إلا ليلتهم تلك فانهلت عليهم السماء كأفواه القرب ثلاثة أيام حتى إنّ الإبل صدرت منتهلة من مباركها واستمروا مدّة لا يردون إلا من مآثر دعوته المباركة.

(٣) ومنها أن الناس أرجفوا في سنة ثلاث وألف بوصول عزيز أحمد باشا إلى مكة في عدّة من العساكر وكذلك وزير اليمن حسن باشا فانزعجت لذلك الرعية إذ صح عزمها لجهة مكة فتوجه بخاطره إلى الله تعالى فصرف أولئك عن العزم وأشغلهم بموت السلطان مراد بن سليم رحمه الله تعالى.

فـاق الملوك بـالنُّهي والحدْسِ[١] ... كمـا بـه يشهـد عـدل الحسِ
وكـم لـه قـضـيـة شـهـيـرة ... بين الـورى كالشمس في الـظهيرة

(٤) قد فاق المملوك بمزيد الفطنة وله في ذلك قضايا مشهورة منها أنه اختصم عنده رجلان مصريّ ويمانيّ في جارية فادّعى كل منهما أنها لـه

---

(١) الظن والتخمين.

وأقام بذلك بينة فأجال فكرته الوقادة وطلب قليلاً من الحَبّ وقال لها: ما اسم هذا في بلادكم؟ فقالت: بُرّ، فحكم بها لليمنيّ فظهر بعد ذلك أنّها ملكه[1].

(١) ومن ذلك أنه اختصم لديه رجلان شاميّ ومصريّ في جَمل وادّعى كل منهما أنه له وأقام بذلك حجة ثم قال لهما: إني سأحكم بحكم فإن ظهر لي أنّ الحق بيد أحدكما غرّمت الآخر ثمن الجمل فأمر بذبح الجمل فذبح وأمر باستخراج مخه فاستخرج فتأمله وقضى بالجمل للشاميّ وأمر المصريّ بتسليم القيمة فقيل له في ذلك فقال: رأيت مخه منعقداً فاستدليت بذلك فإنّ أهل الشام يعلفون دوابهم الكِرْسِنّة[2] وهي تعقد المخ وأهل مصر يعلفون الفول وهو يعقد الشحم دون المخ فظهر بعد ذلك أن الحق كما قال.

(٢) ومن ذلك أن شخصاً دفن مالاً بالمزدلفة وكان شخص يرقبه فلما قصد النفر منها إلى منى وجد المال قد حفر عنه وأخِذ ولم يظفر بأثر من آثار الغريم إلا بعصا ملقاة فأخذها ورفع شكواه إليه وذكر له القصة فسأله: هل وجد من أثر؟ فقال: نعم، وجدت عصا ملقاة فطلبها منه فأحضرها ثم تأملها فأمر بإحضار جماعة مخصوصين من العرب فحضروا فأشرفهم على العصا وسألهم هل يعرفون صاحبها؟ فقالوا: نعم هي عصا فلان فأحضره وسأله فأنكر فشدّد عليه فأقرّ بالمال.

(٣) ومن ذلك أنّ شخصاً من سادات اليمن وصل إلى مكة بجارية حسناء سنها نحو العشر سنوات فتعصب عليه طائفة من الجبرت وادّعى بعضهم أنّها حرّة الأصل وأنها بنت فلان وشهد منهم شاهدان من طلبة العلم بذلك واستخلصوها من يد ذلك السيد قهراً فرفع القضية له فطلب الشاهدين وأخذ يستدرجهما بمدحهما وأنهما من مشاهير من جاور بمكة من مدّة طويلة وأن

---

(١) أي: أنه عرف أنّها لليمني بتسميتها القمح بُرّاً.

(٢) شجرة صغيرة لها ثمر مُصدِّع، مسهل، مسمن للدواب، نافع للسعال.

شهادتهما مقبولة ثم سألهما عن الشهادة فأدّياها كما سبق وأنها بنت فلان الجبرتيّ ولدت ببلده ونحن بها قبل وصولنا إلى مكة فقبل شهادتهما ثم سألهما عن مدّة إقامتهما بمكة وهل خرجا بعد دخولهما فذكر أنّ المدة تنوف عن ثلاثين سنة وأنهما ما خرجا منها إلى بلدهما بعد أن دخلا فشاغلهما بالكلام ساعة ثم سألهما عن سنّ الجارية فقالا له: نحو عشر سنين فأخذ يسبهما ويتكلم عليهما حيث شهدا بولادتها وهما ببلدها وقصد إتلافهما وأعاد الجارية إلى سيدها وكانت هذه الحكومة منه حكمة بالغة فإنه قصم بها طائفة الجبرت عن مثل ذلك فإنهم سلكوا هذا المسلك مدة واستخلصوا به أرقاء الناس من أيديهم.

وكانت وفاته سنة عشرة بعد الألف وصُلِّيَ عليه في المسجد الحرام في محفل جمع من العلماء والأشراف والعامة ودُفِن بالمعلاة وله من العمر نحو تسع وسبعين سنة.

واستقل بعد ابنه الشريف أبو طالب.

(١) وأوّل من وَلِيَ مكة من أجداد الشريف قتادة بن الشريف إدريس أخذها من ملوكها الهواشم في سنة سبع أو ثمان أو تسع وتسعين وخمسمائة واستمرّ ملكهم إلى هذا الحين أدامه الله تعالى[١].

حسن باشا

الأمير حسن باشا بن أحمد بن رضوان الغزيّ المولد، الأمير الكبير حاكم غزّة.

(٢) كان حسن السيرة جواداً ممدحاً عظيم القدر، وكان مغرماً بالنساء وله في النكاح حظ وافر وجمع من الحظايا عدداً كثيراً ورزق منهنّ أبناء كثيرة نحو الخمسة وثمانين ولداً ينقل عنه أنه كان إذا حضر أحدهم لديه يسأله

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/٢ - ١٤.

عن اسمه واتفق أنه مات أحدهم فلم يعرفه حتى عرفوه له بوالدته وقالوا له: هذا ابن فلانة.

وكان يحسن غالب الصنائع، وحبب إليه الانعزال عن الناس فكان ينفق أوقاته في أرغد عيش وأهناه، وركبته ديون كثيرة لتبذير كان فيه وعمر مكاناً بغزّة وتأنق فيه جدّاً حتى صيره أحسن منتزه في تلك الدائرة ومات ولم يكمله وبالجملة فإنه كان ممتعاً في دنياه.

توفي سنة أربع وخمسين وألف[1].

حسن بن شدقم

السيد حسن بن شدقم المدنيّ الحسينيّ، الفاضل الأديب الكامل.

ذكره ابن معصوم في «السلافة» فقال في حقه: واحد السادة وأوحد الساسة، القَدْر عَلِيّ والحسب سَنِيّ، والخلق كالاسم حسن والنسب حسينيّ، جمع إلى شرف العلم عز الجاه، ونال من خيري الدنيا والآخرة مرتجاه. وكان قد دخل الديار الهندية في عنفوان شبابه فصدّره الشرف في مجلس أهله وأربابه، فأملكه أحد ملوكه ابنته ورفع في مراتب العلياء مرتبته، واقتعد الرتبة القَعْسا[2] وأصبح وهو رئيس الرؤسا، وكان من أحسن ما قدّره من عزمه ودبره وحرره في صفحات غرسه وحَبّره إرساله في كل عام إلى بلده جملة وافرة من طريف ماله وتلده فاصطفيت له به الحدائق الزهية وشيدت له القصور العالية ولما هلك الملك أبو زوجه، وهوى قمر حياته من أوجه، انقلب بأهله إلى وطنه مسروراً، وتقلب في تلك الحدائق والقصور بهجة وسروراً إلا أن الرياسة التي انتشى في تلك الرياض بكؤوسها والمكانة التي تميز بعلوّها بين رئيسها ومرؤوسها لم يجد عنهما في وطنه خلفاً، ولم ترض أنفته أن يُرى في وجه جلالته كلفاً فانثنى ثانيه، ودخل

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/١٦.

(٢) أي: رتبة العز الثابتة.

الديار الهندية مرة ثانية، فعاد إلى أبهة عظمته الفاخرة وبها انتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

(١) وله شعر بديع فائق كأنما اقتطفه من أزهار تلك الحدائق، فمنه قوله حين أنف من مقامه في وطنه بين أهله وأقوامه بعد عوده من الديار الهندية والانتقال من ظلال عزه الندية:

وليس غريباً من نأى عن دياره ... إذا كان ذا مال ويُنسب للفضل
وإني غريب بين سكان طيبة ... وإن كنت ذا مال وعلم وفي أهلي

(٢) وهو من قول البستي رحمه الله:

وإني غريب بين بست[1] وأهلها ... وإن كان فيها جيرتي وبها أهلي
وليس ذهاب الروح يوماً منية ... ولكن ذهاب الروح في عدم الشكل[2]
وما غربة الإنسان في شِقة النوى ... ولكنها والله في عدم الشكل

(٣) ومن شعره أيضاً قوله:

لا بدّ للإنسان من صاحب ... يبدي له المكنون من سرّه
فاصحب كريم الأصل ذا عفة ... تأمن وإن عاداك من شرّه

وله غير ذلك.

وكانت وفاته سنة ست وأربعين وألف رحمه الله تعالى[3].

حسن باشا

حسن باشا بن محمد باشا الوزير ابن الوزير نائب الشام.

وَلِيَ في مبدأ أمره كفالة حلب ودخلها ولم يلتح أو لم تكمل لحيته، ثم وَلِيَ بعدها كفالة الشام في سنة خمس وثمانين وتسعمائة، وعزل عنها

---

(١) بلدة في أفغانستان، وكانت من سجستان قديماً.
(٢) أي: عدم المِثل والنظير.
(٣) «خلاصة الأثر»: ٢/٢٣ - ٢٤.

ووَلِيَ ولاية أناطولي ثم ولاية أرزن الروم، وأقبل السلطان عليه وولاه نيابة الشام؛ وكان ذلك في حدود سنة سبع وتسعين وتسعمائة واستمرّ بها حاكماً مدّة تزيد على سنتين وسار بها سيرة حسنة.

(١) ووقع في زمنه في سنة ثمان وتسعين ثلوج عظيمة بدمشق ودامت نحو أربعين يوماً وسقط منها بيوت كثيرة على أقوام هلكوا تحت الرّدم فأمر أن لا يكشف على أحد منهم ونادى أنّ كل من مات عنده أحد تحت الهدم يدفنه.

ثم عُزِل وأعيد ثالثاً ولم يسبق لأحد غيره من أمراء آل عثمان أن يتولى الشام ثلاث مرّات.

(٢) ومن عجيب ما وقع في أيامه حادثة محمود البواب المعروف بتكرى بلمزاي الذي لا يعرف الربّ وهذه الحادثة شهيرة ولم يبق أحد من المؤرخين وأصحاب المجاميع إلا ساقها وفيها طول وملخصها أنّ شخصاً يُقال له محمد بن يونس بن شاهين الأعور كان قد هلك في ذي القعدة لسنة ثمان وثمانين وتسعمئة بدمشق واتفق أن شخصاً يقال له يوسف السقا من الأجناد الدمشقيين تزوّج بزوجة الأعور وذهب إلى الديار الرّومية وأنهى عن الشيخ شمس الدين محمد بن خطاب وولده القاضي كمال الدين المالكيّ خليفة الحكم بدمشق والقاضي شمس الدين محمد الرجيحي الحنبليّ وعلاء الدين بن الخشاب الترجمان أنهم أخذوا جميع مال محمود الأعور وجملة ما خلفه بعد موته ثلاثة وثلاثون ألف دينار ذهباً واقتسموه وقد كان حق بيت المال لموته عن غير وارث وقرّر أنهم أثبتوا له ولداً صلبياً لا أصل له فعين بمجرّد إنهائه محمود البواب المذكور وجاء وصحبته يوسف السقا المذكور وقبض على القضاة المذكورين بعد أن هرب شمس الدين الخطابي إلى طرابلس الشام وأقام في بيت رجل من أصحابه فسار البواب وقبض عليه وأتى به إلى دمشق وعلى رأسه قلنسوة نصرانيّ وفي رجليه القيود وفي عنقه الغل ودخل به على هذه الهيئة والناس ترمقه وأمّا القاضي الرجيحيّ فإنه

هرب إلى مصر وأقام بها مستخفياً، ووضع الذين قبض عليهم من هؤلاء في القيود وأخذهم مكبلين بالحديد إلى دمشق والزناجير في رقابهم على ملأ الأشهاد وشرع يأخذ جميع ما يملكونه من الأقمشة والأموال والعقار والغلمان حتى سلبهم الجميع وعاقبهم معاقبة بالغة وقبض في أثناء ما فعل على غالب أعيان دمشق وشيوخها منهم شيخ الإسلام إسماعيل النابلسيّ والشيخ محمد الحجازيّ ومن رؤساء الصوفية أبو الوفا العقيبيّ العمريّ واغتصب من تجارها المشاهير وبعض أهلها الضعفاء مالاً جزيلاً أناف على مائتي ألف دينار ومن التحف والأقمشة مالا يحصى، ثم قبض على نائبي الحكم العزيز بالمحكمة الكبرى القاضي شمس الدين محمد بن جانبك الشافعيّ والقاضي عبد الله بن الرملي المالكيّ وضم معهما القاضي نجم الدين بن أبي الفضل الشافعيّ وابن عمير الصالحيّ وأصر على التعديّ وإضرار الناس مدّة تسعة أشهر وطفق يتعاطى المنكرات وتوارى منه علماء دمشق وأعيانها خيفة منه فكتب جدّي القاضي محب الدين رسالتين وقصيدتين وأرسل كلاً منهما واحدة إلى المفتي الأعظم المولى محمد بن محمد بن الياس بن جوى والأخرى إلى المولى سعد الدين معلم السلطان مراد بما فعل البواب مفصلاً فعرضت الرسالتان على السلطان مراد بواسطة الوزير الأعظم سياغوش باشا فخرج الحكم بقتله بعد الإثبات عليه وورد الحكم إلى دمشق ونائبها صاحب الترجمة وقاضي القضاة المولى علي بن المولى سنان فجمع الوزير أعيان الشام بأسرهم وكان قاضي القضاة بالمجلس وأخرجوا من كان في حبس البواب على صورتهم بالقيود والأغلال في أعناقهم ولما أحضر البواب إلى الديوان الوزير فأمر بنزع كسوة السلطان عنه وألبس قلنسوة نصرانيّ وأوقف في حاشية الديوان وادّعى عليه بعض المحبوسين من القضاة وأرباب المناصب وقامت عليه البينة بتحقير العلماء وازدرائهم فحكم عليه القاضي بالقتل لثبوت الردّة عليه وكان ذلك في بعض أيام التشريق والأرجوحة مركبة على باب دار الإمارة على قاعدة الأروام في تركيبها أيام العيد فأنزلوه فلما تحقق أنه مقتول لا محالة طلب المهلة إلى أن يغتسل كأنه كان جنباً فأمهلوه

حتى اغتسل في مسجد عيسى باشا الذي على باب دار الإمارة وصلى ركعتين وصلبوه في خشب الأرجوحة وكثر سرور الناس بقتله ولشعراء ذلك العصر في هذه الحادثة قصائد وتواريخ لو ذكرتها مستوفاة لبلغت إلى مجلدة.

(١) ولما عزل صاحب الترجمة عن الشام في هذه المرة سافر إلى دار السلطنة وتقلبت به الأحوال إلى أن صار حاكماً في بلاد الروم واستمرّ هناك ونسبوا إليه في حكومته أموراً لا أصل لها فورد حكم سلطانيّ بقتله فلم يسلمه العسكر للقتل ثم حضر بعد ذلك إلى طرف السلطنة وبحث عن أصل الحكم الذي ورد بقتله فلم يجد له أصلاً وإنما هو منسوب إلى صنع بعض النساء.

ولم يزل يطلب التفلت من قسطنطينية حتى أعطيَ ولاية بغداد وما يليها من بلاد عراق العرب فذهب إليها بعسكر جرار ودخلها، ولم يزل بها حاكماً حتى حدّثته نفسه بحفر نهر أخذه من دجلة فأجراه يسقي أماكن كثيرة قيل إنّ محصولها يزيد في السنة على عشرين ألف دينار ذهباً وحدث بينه وبين العسكر العراقيّ أمور أدّت إلى أن عرضهم على الحضرة السلطانية فأمروه بالخروج من بغداد فخرج منها خائفاً من شق العصا وأقام بالموصل أياماً ثم نازلهم منازلة المحارب إلى أن جاءه الأمر بالانفصال بعد أن نهبت جماعته.

(٢) فتوجه إلى ديار بكر فبينما هو فيها وإذا بالأمر السلطاني جاءه أن يذهب لقتال عبد الحليم اليازجيّ الباغي الناجم[1] في نواحي سيواس[2] فتوقف في نواحي ديار بكر إلى أن اجتمع عليه العساكر من كل ناحية ولما تحقق قدومهم إلى نواحي الفرات تقدّم هو أيضاً واجتمع بهم في مدينة عينتاب وهناك عرض العساكر كلها واستدعى الشاميين وكان أميرهم إذ ذاك

---

(١) أي: الخارج عن الطاعة.

(٢) بلدة في تركيا.

السيد محمد الأصفهانيّ ورجفوا[1] إلى جانب الخارجيّ فورد الخبر بأنّ حاجي إبراهيم ورد بالعساكر الرومية وأنه بادر بهم إلى لقاء عبد الحليم وكسره عبد الحليم كسرة شنيعة فاستقبح الناس مبادرته إلى ذلك قبل استكمال العساكر وطمع العدوّ وكان عبد الحليم يقول: بقي علينا لقاء هذه القافلة يشير إلى حسن باشا وعساكره ولم يزل العسكر السلطانيّ يتقرّب قليلاً قليلاً واليازجيّ يقابلهم إلى أن التقى الجيشان في مكان من نواحي سيواس يُقال له البستان فاستند اليازجيّ إلى ذيل جبل ووضع المدافع الكبيرة التي كان أخذها من عسكر إبراهيم باشا حين كسره وصفّ رجاله وضرب المدافع في وجه العسكر فلم تصب أحداً وصدم عسكر الأكراد وعسكر أرزن الروم إلى أن أرجعهم إلى مواقفهم وحسن باشا واقف والألوية تخفق فوق رأسه وكان الأمر قد سبق لعسكر الشام بأن يتوافقوا في لقاء اليازجيّ ويكونوا كميناً فلما تراجعت العساكر السلطانية بادر الشاميون بالتكبير ودهموا عسكر اليازجيّ فردّوهم على أعقابهم ووضعوا فيهم السيف فما مضت لحظة من النهار إلا وقد انكسر عسكر العدوّ وولوا ولم يزل عبد الحليم هارباً إلى أن استقرّ بجبال جانبك وأقصر العساكر عن طلبه، في نواحي قونية ولما تحققوا مكان عبد الحليم عطفوا السير نحوه وسارت وراءه العساكر كلها إلا شرذمة من عسكر الشام ولما قرب السردار[2] من مقرّ عبد الحليم أرسل إليه عسكراً كثيفاً فلحقوه في بعض الجبال فواقعهم وكان السردار عليهم حينئذ عثمان باشا ابن باقي بيك التبريزيّ الأصل وهو من أقارب شيخ الإسلام المولى سعد الدين معلم السلطان فتقدّم إلى أن توسط هاتيك الجبال فبينما هو عند الصباح وإذا بقوم قد وقع بينهم وما عرفهم فتحقق الحال فإذا هم جماعة عبد الحليم فقبضوا عليه وأخذوه أسيراً إلى عبد الحليم فأكرمه واستمرّ عنده مقدار أربعين يوماً مقيماً حتى شيعه إلى

---

(١) تحركوا.
(٢) قائد العسكر.

جانب السردار ولما قدم واجتمع به أشهر له العداوة وآلمه بالكلام ظناً منه أن ذهابه إلى عبد الحليم كان بصنعه وصعب ذلك على عثمان باشا فخرج في ليلة مستخفياً من العسكر إلى طرق السلطنة يسير الليل والنهار حتى وصل إلى باب الدولة واختفى عند قدومه حتى طلبه السلطان وسأله عن اليازجيّ فقال: يا مولانا السلطان أمّا اليازجيّ فإنّه أقسم عليّ بأنني إذا وقعت في أعتابكم أقول لكم يطلب أن يعطى منصباً في ولاية الروم ويتكفل بجهاد الكافرين وأمّا أنا فالذي أعلمه من حاله أنه خائن لا يثبت على قول وأنه يقصد بما ذكره من الطلب أن يرفع عنه السردار ويعود إلى العصيان فعند ذلك صدّق السلطان كلامه وأرسل إلى السردار رجلاً من خواصه المقرّبين يُقال له قيطاس كتخدا وأرسل معه من جانب السلطان تجملات ورسالة بخط يد السلطان في بقائه على السردارية، وفي أثناء ذلك مات عبد الحليم في قصبة ساميسون[1] واجتمع البغاة بعده على أخيه حسن وجاء إلى محاربة الوزير صاحب الترجمة على حين غفلة ليلة عيد الأضحى بعد أن كان نهب أسبابه وتجملاته القادمة عليه من آمد، وكان أرسل خمسمائة رجل من جماعته ليأتوا إليه بها فخرج عليهم حسن ونهبهم وقتل الجماعة المعينين وكان معهم حظاياه وجواريه فلم يتعرّض لهنّ بل جهزهنّ إليه بالأمانة والصيانة وطلبه للمقابلة فخرج إليه حسن باشا ومن معه من العساكر فما ثبتوا قدّام البغاة لحظة حتى كسروا وهرب حسن باشا إلى قلعة توقات ورفعوه إليها بالحبال وهجم العدوّ وجنوده يحفها ومازال على منازلتها حتى قتل حسن باشا داخل القلعة، فسار حسن إلى قره حصار وتمام قصته وموته ذكرته في ترجمة السلطان أحمد فارجع إليه هناك.

(١) وكان سبب قتل حسن باشا صبيّاً من جماعته يُقال له دري كان قد نال منه مقاماً فضرب صبيّاً من صبيان خزينة حسن باشا فنزل الصبيّ المضروب

---

(١) بلدة في تركيا.

إلى المدينة وخالط البغاة إلى أن امتزج به وحكى لهم ما صدر من دري في ضربه له وأنه جاء مصادقاً لهم فقالوا له: إن كنت صادقاً في مقالك فأين يجلس الوزير من القلعة فقال لهم إنه يجلس دائما في هاتيك الغرفة وراء ذلك الدفوف فجاء رجل من البغاة وجلس تحت تلك الغرفة التي عينها له الصبيّ وفي يده بندقية فيها رصاصتان فضرب بها فجاءت للقضاء المقدر تحت إبط حسن باشا فمات لساعته واستمرّ مستنداً إلى الجدار لا يعلم أحد حاله من الصباح إلى الظهر والناس يظنون أنه حيّ ساكت فبعد ذلك أشرفوا عليه فوجدوه قد مات وهو يابس جالس فغسلوه ودفنوه، وكان ذلك في سنة اثنتي عشرة بعد الألف رحمه الله تعالى[1].

ابن الأعوج

الأمير حسن بن محمد، الأمير الجليل أبو الفوارس المعروف بابن الأعوج أمير حماة. أوحد أمراء الدهر وعين باصرة الأدب وشمس فلك المجد، قد جمع الله له بين أدوات المحاسن ورقاه إلى أعلى ذروة المفاخر مع أدب بارع وحسَب، وكان في الكرم غاية لا تُدرك.

وُلِد بحماة ونشأ بها وهو من بيت أصيل الرياسة عريق النسب، ونشأ في صدر العز بنعم جزيلة فمال طبعه نحو الكمال فقرأ على علماء بلده علوم العربية والفنون الأدبية وعاشر الأدباء وجالس الشعراء، ولما شاع خبره شدّ الرحال إليه الأدباء من الأقطار واجتمع عنده منهم ما لم يجتمع عند أحد من أمراء عصره، وسافر إلى الروم في أيام السلطان مراد بن سليم شاه واجتمع بمعلمه المولى سعد الدين بن حسن جان ومدحه بعدّة قصائد فأكرمه ومدحه للسلطان وجمعه به فولاه ولاية حماة ورجع إليها فأقبل عليه الشعراء من كل مكان وأقام حاكماً بها ثلاث سنين ثم عُزل وأقام بمنزله، ثم بعد مدّة وَلِيَ إمارة معرّة النعمان وتوجه إليها بعشائره وتكرّر له العزل عنها وعن

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/٤٠ ـ ٤٥.

حماة والتولية لهما وعانده الدهر في بعض الأحيان وكان صبوراً على نوائبه.

وكان في جميع حالاته مشتغلاً بالأدب وكان ينظم الشعر فيأتي فيه بكل معنى رائق ولفظ شائق مما يليق أن يعلق تميمة في جيد الزمان وينظم فريدة في عقد الحسن والإحسان.

(١) ومن شعره قوله من جملة قصيدة يتشكى فيها من الزمان وما لاقى من الألم في وطنه:

حادي العَيْس[١] سر بغير ارتياب	ففؤادي قد حنّ للاغتراب
لا أريد الأوطان والذل فيها	واضعٌ طوقَه بأعلى الرقاب
كيف مكثي ما بين أظهر قوم	عهدهم في ثباته كالسراب
جارهم إن غدا عزيز عليهم	كان كالشاة في مقيل الذئاب
هم إذا صادروا أسود شراء	وإذا حاربوا فدون الكلاب
كم أناس من دارهم أخرجوهم	ليسومونهم[٢] بسوء العذاب
إن فرعون ثمّ نمرود كانا	دونهم في اختراع شؤم العقاب
ومساويهم التي مثل هذا	عدد الرمل والحصى والتراب
رب يا من أباد عاد وأودى	بثمود ذوي النفوس الصعاب
لا تذر منهم على الأرض شخصاً	إنهم جاحدون نص الكتاب
وانتقم مسرعاً وعجل عليهم	ليس فينا صبر ليوم الحساب

(٢) وقوله في حلاق سيء الخلقة:

ألا رب حلاق بليت بشرّه	فأثر في رأسي الجراحة والبوسا
أنامله كالطور من فوق جبهتي	ورأسي كليم كلما حرك الموسا

(٣) ومن غريب ما اتفق له أنه كان من أقربائه شاب يُسمى الأمير يحيى وكان بارع الجمال، وكان الأمير حسن يحبه محبة شديدة بمنزلة ولده وكان

---

(١) العَيْس: الإبل، والحادي: الزاجر والسائق.
(٢) كذا.

من المنسوبين إليه رجل من طلبة العلم كرديّ الأصل يُسمى يحيى أيضاً وكان عينه معلماً للأمير يحيى المذكور يقرئه العلم ويعلمه الأدب فواظب على إقرائه دهراً طويلاً وكان الأمير يحيى ساكناً في دار مستقبلة قبالة دار الأمير حسن وكان يتيماً فاتفق أن الأمير حسن بنى داراً عظيمة وصرف عليها مالاً جزيلاً ولما تمت عمارتها وفرش مساكنها صنع وليمة عظيمة ودعا أعيان بلدته وكانت الوليمة ليلة الجمعة فاجتمع أكابر البلدة وكان الأمير يحيى من جملة القوم فسهروا قريباً من ثلث الليل الأخير وباركوا للأمير بالدار وتفرّقوا فتوجه الأمير يحيى إلى منزله ونام واستغرق من تعب السهر فلما أصبح الصباح جاء الشيخ يحيى الكرديّ ودق الباب عليه فخرجت الجارية فقال لها: نادي لي الأمير لأقرئه الدرس لأنّ لي حاجة مهمة أريد المسير إليها فتعجبت الجارية من مجيئه في ذلك الوقت وقالت له: إنّ الأمير أطال السهر في هذه الليلة وهو نائم وإنّ اليوم يوم الجمعة ومن عادتكم ترك القراءة في الجمع، فقال لها: لي حاجة مهمة أخاف من التعويق بسببها عن درس غد فرجعت الجارية إلى الدار ونبهت الأمير يحيى فخرج مسرعاً إلى الشيخ وتلقاه وسلّم عليه وتوجه هو إلى قضاء الحاجة فلما دخل بيت الراحة تبعه الشيخ وأشهر سكيناً ومسكه بعنف وطرحه على الأرض وذبحه وخرج من الدار هارباً يريد الخلاص ولم يكن في الدار إلا الجارية ففطنت للأمير وخرجت خلفه إلى الطريق ونادت بأعلى صوتها يا قوم الشيخ ذبح الأمير يحيى فأدركوه من جميع الجهات وأحاطوا به فقاتل مع الناس قتالاً شديداً وقتل ثلاثة رجال ثم ضربه رجل من العوام بحجر كبير على ظهره فسقط مغشياً عليه فمسكوه ثمّ أحضروه بين يدي الأمير حسن فسأله عن سبب ذلك فلم ينطق بحرف فأمر بإحراقه فجمعوا حطباً وأوقدوه ثم ألقوه في النار فاحترق وعجل بروحه إلى النار والذي يظهر أن قتله له إنما كان عن ولوع وهيام ورأى أنه إذا قتله يقتل به فيخلص مما كان فيه من المشقة والألم.

وبالجملة فإنه زينة أمراء عصره ومع شهرته التامّة وأدبه الغض لم يذكره أحد من المؤرخين ولم أظفر بشيء من خبره إلا في وريقات بخط

إبراهيم رامي، وهذا من أعجب العجب، وقد ذكر إبراهيم المذكور أن وفاته سنة تسع عشرة وألف.

(١) قال إبراهيم المذكور: وأخبرني بعض أفاضل حماة ممن كان ينخرط في سلك ندماء الأمير حسن بن الأعوج قال: دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه فعند دخولي أقبل بريد من الباب العالي وبشره بإمارة حماة وكان له مدّة لم يتولها وناوله من يده منشور الحكومة فالتفت إلى البريد وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال بصوت ضعيف: قُضِي الأمر الذي فيه تستفتيان قال: فدعوت له بطول العمر وسَلَّيته عما كان فيه من الاضطراب والألم فتلهف وتفجع وبكى بكاء شديداً ثم مسك يدي وقال: أرى الأمر قد آن وقرب الارتحال ولا أرى لي مخلصاً بعد ما أنا فيه من شدّة المرض، ثم فارقته ففي تلك الليلة قضى نحبه ولقي ربه، رحمه الله تعالى[١].

حسن باشا

حسن باشا الوزير صاحب اليمن. كان من أعيان الوزراء أرسله السلطان مراد بن سليم إلى اليمن في سنة ثمان وثمانين وتسعمائة فدخل إلى صنعاء عاشر المحرم سنة تسع وثمانين وكان ذلك الوقت جبال اليمن وحصونها في أيدي الحكام من الأشراف.

وكان الوزير المذكور كما قال الشاعر:

إن المكارم والمعروف أودية ... حله الله منها حيث تجتمع

(٢) وكان عادلاً وقوراً عارفاً خيراً راجحاً مشكوراً مُهاباً يحبّ الأشراف وينصفهم ومن أعجب الأمور أنه كان بعض أعداء آل المطهر حسّن له التقبيح إليهم فقال: لا أغير شيئاً لآل الرسول ولا أرميهم بالنار رعاية لجدّهم ﷺ.

وفي دخوله إلى صنعاء فكّر في أحوال اليمن وشاور العقلاء وجالس

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/٤٥ - ٥١.

ذوي الفِطَن ثم نهض لحرب ملوك اليمن، فعين على العساكر الأمير سنان.

فلم يزل الأمير سنان يغاديهم ويراوحهم بالحرب فأعطاه الله النصر عليهم ورجع سالماً غانماً وقد فتح اليمن بأسرها.

(١) ولما استولى حسن باشا عليها وسكنت عنه الفتن وساعدته الأقدار ودانت له الأقطار ونامت عنه عيون الحوادث استكثر العساكر فشرع في تقليلهم فظهر في بلاد الشرق الإمام القاسم بن محمد بن عليّ وادّعى الإمامة في سابع عشرى المحرّم سنة ست بعد الألف فأطبق أكثر أهل جبال اليمن على طاعته وسارعوا إلى إجابته وصاروا من جملة جماعته فاشتعلت نار الفتن وضاقت أحوال الوزير من تردّد أصحاب الإمام إلى صنعاء وقام عليه الأعلى والأدنى وحاربه من كان لديه في المحل الأسنى ولم يبق مستقيماً على الطاعة إلا الأمير شمس الدين أحمد بيك ابن محمد بيك ابن شمس الدين بن الإمام شرف الدين الحاكم بمحروسة كوكبان فإنه لزم ما التزمه والده للأمير محمد من الطاعة للسلطنة حسبما تقرّر بينه وبين الوزير الأعظم سنان باشا فبذل النفس والنفيس في إشادة نصرها حتى نال بذلك ما نال وفاز فوزاً عظيماً وقفاه على فعله ولداه وتلاهما الأمير جمال الدين علي بن شمس الدين وولداه، فنهض الأمير حسن باشا وجمع أهل النجدة من الرجال وبذل الأموال وعيّن الأمير سنان سرداراً على العساكر وأمدّه بالرجال والأموال وطلب حاكم الحبشة علي باشا الجزائري فوصل وكان لوصوله تأثير في تسكين الفتن من بلاد اليمن الأسفل ثم توجه إلى بلاد ينوه فاستشهد بها في سنة ثمان وألف وانضافت خزائنه بالعساكر إلى جانب الوزير حسن باشا، وتوجه السردار[1] الأمير سنان إلى جهة كوكبان فاجتمع هو والأمير أحمد بن شمس الدين بن شرف الدين فافتتحا بلاد كوكبان جميعها بعد استيلاء الإمام عليها، ثمّ توجه السردار على سائر البلاد ففتح بلاد ثلا وحصنها وبلاد عمران وحصن مدع وحصن غفار وحصن بلاد

(١) أي: قائد الجيش.

الطاهر وبلاد حضور وبلاد الحمية وبلاد سنحان وبلاد مغرب أنس وذمار وبلاد تريم وبلاد جبل اللوز وبلاد خَوْلان، ثمّ ضعفت شوكة القاسم ولم يبق في يده إلا حصن شهارة في بلاد الأهنوم فتحصن به فعين الأمير سنان عليه فأحدق به فخرج وهرب من الحصن متنكراً ولم يشعر به أحد وبقي ولده السيد محمد متحصناً مكانه فضاق حاله فخرج بالأمان وأن يكون مقرّه عند صاحب كوكبان فأعطاه الأمان على ذلك وكان ذلك في سنة ست عشرة وألف.

ولما طالت مدّة صاحب الترجمة باليمن عُزِل عنه وخرج على وجه مستحسن فتوجه إلى الروم سنة ثلاث عشرة وألف وولي بعده سنان باشا، ثمّ توفي صاحب الترجمة بقسطنطينية سادس سنة عشرة وألف، رحمه الله تعالى[1].

حسن باشا

حسن باشا، الناجم على الدولة[2] في عهد السلطان محمد بن إبراهيم. كان في ابتداء زمنه حاكم التركمان، ثم وَلِيَ كفالة حلب وخرج بها عن الطاعة وفتك في تلك النواحي وانضم إليه بعض أمراء ورعاة، وقويت شوكته، ولما تعين نائب الشام أحمد باشا ابن الطيار إلى سفر السلطان في أواسط شعبان سنة ثمان وستين وألف خرج من الشام ومعه خمسمائة نفر من جندها فلقيهم حسن باشا في أطراف انطاكية وضمهم إليه وأرسل إلى جانب السلطنة يقول إنّه لا يتوجه إليهم إلا أن يقتلوا الوزير الأعظم فلم يجيبوه إلى ذلك وأرسلوا إليه ليأتي إليهم فلم يفعل ومازال ينهب ويفتك إلى أن وصل إلى بروسة ثم عاد وعسكر الشام معه فعين السلطان لقتاله الوزير مرتضى مع عدّة أمراء وعساكر فتقابل الجيشان وانكسر

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/٧٣ - ٧٦.

(٢) أي: الخارج عن طاعتها.

مرتضى ونُهبت أمواله ثم خرج عنه عسكر الشام بأمره ورجعوا إلى دمشق وبلغ السلطان ما فعل فازداد غضبه عليه وأرسل إلى الوزير مرتضى ومن معه من العساكر يقول لهم إنهم يدخلون حلب وأضاف إليهم عساكر أخرَ وأمّر مرتضى باشا عليهم وكان من جملة أولئك قدري باشا نائب الشام فلما دخلوا إلى حلب جاء حسن باشا إلى كلس فدخل بين الفريقين بعض أمراء تلك الناحية بالصلح وكانت حيلة من مرتضى باشا على أن يأتي حسن باشا إلى عند مرتضى باشا فإذا اجتمعا حصلت المصافاة واتبع حسن باشا أمر السلطان في المسير مع مرتضى باشا إلى طرف السلطنة ورتب مرتضى باشا لحسن باشا ضيافة وكل من أمراء مرتضى باشا أضاف واحداً من جماعة حسن باشا المتعينين بأمر مرتضى باشا حتى صار كل واحد من أولئك عند من عين له وأوقعوا بهم المكيدة وقتلوا حسن باشا وأعيان جماعته وتفرق عسكره ونُهبت أمواله وكان ذلك في آخر جمادى الأولى سنة تسع وستين وألف[1].

السقاف

الشيخ حسن بن أبي بكر بن سالم السقاف اليمنيّ العيناتيّ الشيخ الكبير العارف.

كان أحد أجواد زمانه وله أحوال باهرة وكرامات شائعة. وُلِد بمدينة عينات وقرأ القرآن وصحب أباه واشتغل بالعلوم الشرعية والتصوّف ولزم مطالعة كتب الغزاليّ وصحب أعيان عصره وأخذ عنهم ولما مات أبوه قام مقامه وشاع أمره وصارت إليه الرحلة في وقته وكانت له حفدة كثيرون.

وكانت العُربان تفد إليه من أقطار الأرض وترفع أمورها إليه.

(١) وكان محسناً إلى الفقراء[2] ويكره لهم التفعل في طلب المقامات

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/٧٨ - ٧٩.

(٢) أي الصوفية.

ويأمرهم بإخلاص العمل ويقول لا تتخذوا الأعمال وسائل لمقاصد النفوس تحشروا مع الخاسرين.

(١) وكان يكره الجبابرة ولا ينظر إليهم إلا شزراً[١]؛ ولما كتب إمام الزيدية إلى أهل البلاد الحضرمية يستدعيهم إلى الدخول في طاعته فلم يردّ لهم جواباً، قال: حقيق لمن لم يدع إلى ما يرجى فيه الثواب أن ينقلب صاحبه بغير جواب.

(٢) وكان شديد الإنكار على من يشرب التّبغ واعتنى بإزالته من تلك الديار فتم له وصنف له الشيخ محمد علي بن علان المكيّ في حرمته مصنفين وتبعه بعض الحنفية في تحريمه والذي أفتى به الشيخ عبد العزيز الزمزميّ والشيخ عبد الله بن سعيد باقشير من شافعية الحجاز عدم الحرمة إلا لمن حصل له به ضرر.

(٣) قلت: وظهور التنباك المسمى بالتبغ وبالتتن بجهة الغرب والحجاز واليمن وحضرموت كان في سنة اثنتي عشرة وألف كما وجدته بخط بعض المكّيين، وأمّا ظهوره في بلادنا الشامية فلا أتيقنه لكنه قريب من هذا التاريخ.

ومحصل القول إنه كان من صلحاء وقته، وكانت وفاته سنة أربع وأربعين وألف ودُفن بمقبرة عينات بالقرب من والده رحمه الله تعالى[٢].

أخي زاده

المولى حسين بن محمد بن نور الله بن يوسف المعروف بأخي زاده مفتي دار السلطنة وأحد أفراد العالم في الفضل والذكاء والمعرفة. وكان أعجوبة وقته في التبحر في الفنون ومعرفة العربية، وشاع ذكره واشتهر

---

(١) هو النظر الذي فيه إعراض، أو نظر الغضبان بمؤخر العين.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٢/٨٠ ـ ٨١.

فضله، وله تحريرات ورسائل تدل على دقة نظره وتفوّقه وأشعاره بالتركية كثيرة.

مولده بقسطنطينية وبها نشأته ودأب في التحصيل حتى فاق أهل عصره ومازال يترقى في المناصب إلى أن وَلِيَ قضاء قسطنطينية في سنة سبع عشرة وألف، ووَلِيَ بعد ذلك قضاء روم ايلي[1] مرّتين عزل في المرّة الأخيرة سنة سبع وثلاثين.

(١) وحين كان قاضي بعساكر روم ايلي[1] كان الوزير الأعظم حسين باشا وكانت العساكر متغلبة على الدولة بسبب قتل السلطان عثمان ونسب القضاة والمدرسون إلى الوزير الأعظم أنه قال عن صاحب الرسالة ﷺ إنّ من مات من ألف سنة كيف كلامه يعتبر وقد صار عظماً رميماً فسعى صاحب الترجمة في قتله وعزل عن الوزارة العظمى وقُدِّم حسين باشا لضرب عنقه فضج العساكر في الديوان وقالوا: لا تقتلوه إن شاء الله تعالى حتى نقتلكم فلم يبال صاحب الترجمة بل صعق بصوت هائل وقال للجلاد اضرب عنق هذا اللعين فضرب الجلاد عنقه في الحال.

(٢) ثم بعد ذلك سعى في الفتوى والعسكر متغلبون والسلطان مراد ضعيف معهم، ثمّ إن صاحب الترجمة قوّى جنان السلطان مراد حتى جمع السلطان جمعية على السباهية[2] وزعزع أركان دولتهم وجلس السلطان على سرير جلالته القديمة وقتل الوزير الأعظم وهو رجب باشا الذي كان مستظلاً بظل العساكر.

(٣) ثمّ إن السلطان مراد بعد ما قتل صناديد الأجناد أخذ يقتل بعض أعيان القضاة من الموالي وغير الموالي وكان من عادة بني عثمان لا يقتلون

---

(١) هي البلاد العثمانية الواقعة في أوروبا.

(٢) هم جنود مقيمون في المزارع وقت السلم للفلاحة، ثمّ يجمعون في وقت الحرب.

العلماء ففي أثناء ذلك توجه السلطان إلى بروسة فاجتمع جماعة من الموالي وشكوا فيما بينهم من السلطان وأنه خالف قانون أجداده في قتل العلماء ثم إنّ صاحب الترجمة كتب ورقة لحضرة والدة السلطان متضمنة أنّ قوانين السلاطين أن لا يقتلوا العلماء وإذا حصل منهم ظلم طردوهم إلى بلاد بعيدة ونحن من الداعين لابنك حضرة السلطان فنؤمل إذا قدم بالصحة من السفر تذكرين له ذلك بحسن عبارة ليترك هذا الأمر فلما وصلت الورقة إليها فكأنه وشي المفسدون أنّ المفتي والعلماء يريدون الاجتماع على خلع السلطان فكتبت إلى السلطان ورقة بذلك وبعثت بورقة المفتي فلما وصل الخبر إليه بادر بالمجيء من بروسة على أجنحة السرعة ودخل قسطنطينية وأحضر المفتي وخنقه في الحال وذلك في خارج قسطنطينية في قرية بساحل البحر ودفنه في مكان لا يعلم قبره وبعث بابنه إلى قبرس فاختل عقل ابنه ومات في غضون ذلك.

كان قتله سنة ثلاث وأربعين وألف، رحمه الله تعالى[1].

حسين الكفويّ

أحد موالي الرّوم المشهور بالفضل والبراعة.

ذكره ابن نوعى وأثنى عليه كثيراً ثم قال: قدم إلى قسطنطينية ولزم داود زاده قاضي المدينة ودرس إلى أن وصل إلى المدرسة السليمانية ثم وَلِيَ منها قضاء القدس في شعبان سنة سبع بعد الألف، ثم وجه إليه قضاء مكة في شوّال سنة ثمان بعد الألف، ثم عزل في صفر من سنة عشرة.

كان صاحب لطائف وفضائل متداولة وأشعاره وآثاره شائعة، ومن تأليفاته الجليلة تعليقاته على البخاري ومسلم.

(١) وله كتاب «فال نامه» يذكر فيه غرائب وقائع وقعت لمن تفاءل بالقرآن

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/١٠٩ - ١١١.

وهو أثر لطيف رأيته وطالعته ونقلت منه أشياء، فمن ذلك ما حكاه عن يعقوب الجرخي بهاء الدين نقشبند قال فرأيت من كرمه وظهر لي أنه من الأولياء فتفاءلت في شأنه من المصحف فورد قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾[1]، وحكى أنه لما توفي المولى سنان مُحَشِّي البيضاوي والهداية أخذ بعض أرباب القلوب المصحف وتفاءل فيه على حسب حال المولى سنان فورد قوله تعالى: ﴿**ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين**﴾[2]، وحكى عن نفسه قال: كنت عزمت على الرحلة من بلدتي في سنة خمس وثمانين أنا ووالدتي لكن تردّدت هل أذهب بحراً أو براً وتشعّبت في المخيلة وساوس الخوف من الغرق أو كثرة التعب فتفاءلت من القرآن فورد قوله تعالى: ﴿**قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى**﴾[3] ثم أعقبت ذلك بتفاؤل آخر فورد: ﴿**ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره**﴾[4] فتيمنت بالفال وركبنا البحر فوصلنا سالمين بعون الله تعالى، وحكى أنّ المولى معروف أحد الموالي العظام الأحبار قال: رأيت ليلةً رؤيا عظيمة سررت بها كثيراً فلما استيقظت أخذت أفكر فيما هل هي من قبل الرحمن أو من جانب الشيطان فتفاءلت في الجامع الصغير للسيوطي فورد قوله ﷺ: «رؤيا المؤمن الصالح بشرى من الله وهي جزء من خمسين جزءاً من النبوّة». انتهى.

كانت وفاته في سنة عشرة بعد الألف رحمه الله تعالى[5].

خير الدين الرّملي

الشيخ خير الدين بن أحمد بن نور الدين الأيوبيّ العُليميّ الفاروقيّ

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٠.
(٣) سورة طه: الآية ٤٦.
(٤) سورة الحج: الآية ٦٥.
(٥) «خلاصة الأثر»: ٢/١٢١ - ١٢٢.

الرمليّ الإمام المفسر المحدث الفقيه اللغويّ الصرفيّ النحويّ البيانيّ العروضيّ المعمر شيخ الحنفية في عصره وصاحب الفتاوى السائرة.

له التآليف النافعة في الفقه، ورسالة سماها «الفوز والغُنم في مسألة الشرف من الأم» ورسالة فيمن قال: إن فعلت كذا فأنا كافر، كان أرسل يسأله عنها شيخ الإسلام يحيى المنقاري مفتي السلطنة العلية.

(١) له ديوان شعر مرتب على حروف المعجم رأيته وانتخبت منه بعض مستحسنات من أشعاره فمن ذلك قوله في قول أبي العلاء المعريّ:

إذا ما سمعنا آدماً وفعاله وتزويجه ابنيه بنتيه في الخنا
علمنا بأنّ الحق من نسل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا

(٢) وجواب بعضهم في ردّه بقوله:

لعمرك أمّا القول فيك فصادق وتكذب في الباقينَ مَن شَطَّ أوْدنا
كذلك إقرار الفتى لازم له وفي غيره لغو كذا جاء شرعنا

(٣) فكتب عليه: لا يخفى على الجدليّ فساد كلام هذا الرّاد، والذي يأخذ بخناقه ويقضي بسماجة أخلاقه قولي في الرّدّ عليه:

كذب بإجماع الأنام جميعهم لإفكك فيما تدعيه من الخنا
وكيف وقد فاض الدليل بحله فأنّى يكون الناس من عنصر الزنا

وأوقفني صاحبنا الفاضل الأديب إبراهيم بن سليمان الجينينيّ الحنفيّ نزيل دمشق على كراسة ترجم فيها شيخنا صاحب الترجمة فما أذكره ملخص منها قال سلمه الله تعالى: كان مولد شيخنا بالرملة وبها نشأ وقرأ القرآن ثم جوّده على الشيخ القدوة موسى بن حسن الشافعيّ الرمليّ وقرأ عليه شيئاً من أبي شجاع في فقه الشافعي ولازمه في صغره وانتفع به وشملته بركته، ثم رحل إلى مصر صحبة أخيه الكبير عبد النّبيّ في سنة سبع بعد الألف وكان أخوه العلامة شمس الدين تقدّمه لمصر لطلب العلم وكان أسنّ منه وخير الدين أصغرهم قال وكان يحدّثنا أنه في ليلة دخوله إلى مصر أحس بالاحتلام فلما أصبح طلب من أخيه عبد النبيّ أن يدخله الحمام

فأدخله ثم جاء به إلى جامع الأزهر وكان بالجامع من الأولياء المشهورين الشيخ فايد وكان مقره دائماً بباب الجامع وكان معتقَدَ أهلِ مصر في وقته قال وعند دخول شيخنا الجامع أراد أن يقبل يد الشيخ فايد فقطب وجهه فيه وقال له: رح عني ولم يمكنه من تقبيل يده فدخل وخاطره منكسر من ذلك ومكث أياماً في الجامع ففي بعض الأيام كان ماراً وإذا بالشيخ فايد يقول: تعال يا شيخ الإسلام تعال يا شيخ الإسلام بهذا اللفظ، قال: فما عرفت لمن النداء وإذا به يشير إليّ فجئت إليه وقبلت يده فهش لي وكان بعدها إذا جئت إليه استقبلني وأجلسني واستنشدني من كلام القوم حتى كنت إذا أردت القيام لا يمكنني إلا بعد الجهد وحصلت لي بركته، وكان يحلق للناس لوجه الله تعالى وعلمني الحلاقة ووهبني موسين وحجر مسن وهم عندي.

واجتهد ودأب في تحصيل العلوم وأخذها عن أهلها وفاق أخاه وأقام بمصر بالجامع الأزهر في أخذ العلم ست سنين وحصل كتباً بخطه وكتب لغيره وأفتى وهو بجامع الأزهر وكتب له إجازة شيخه النحريريّ وشيخه ابن عبد العال عند توجهه في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة وألف وقدم بلدة الرملة في ذي الحجة أواخر هذه السنة واجتمع في عوده بعلماء غزة وبحاكمها الأمير أحمد بن رضوان فأكرمه وحصل له منه إنعام واعتنى به وأقام ببلده.

ثم أخذ في الإقراء والتعليم والإفتاء والتدريس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واشتهر علمه وبعد صيته وشاعت فتاواه في الآفاق ووردت إليه الأسئلة من كل جانب حتى إنه كان لا يكاد يفرغ من الاشتغال بالفتوى لكثرة ما يرد عليه فيها لجودة كتابته عليها.

(١) وأخذ في غرس الكروم ومباشرتها بيده حتى أنه غرس ألوفاً من الأشجار المختلفة من الفواكه والتين والزيتون وحصل أملاكاً وعقارات غالبها من بنائه وكان يأكل منها وكسبه من حل ولم يتعرّض من الجهات والأوقاف

لشيء، وكانت خيراته عامّة على أهله وأتباعه وجيرانه بل على أهل بلده وانتفعوا به ديناً ودنيا ورمم كثيراً من جوامعها ومساجدها، وحصل من الكتب شيئاً كثيراً ما ينوف عن ألف ومائتي مجلد غالباً من نفائس الكتب ومشاهيرها من كل علم وكان عنده منها نسخ مكرّرة، وانتفع به خلق لا يحصون وكانت الوزراء والأمراء والموالي والعلماء والمشايخ يسعون إليه وعظمت بركته وعم نفعه وكثر أخذ الناس عنه وغالب من أخذ عنه من أكابر الناس وأجِلّاؤهم منهم الموالي والعلماء الكبار والمفتون والمدرسون وأصحاب التآليف والمشاهير، وقصده الناس من الأقطار الشاسعة للأخذ عنه وطلب الإجازة منه.

(١) وانتفع به ناس فألحق الأصاغر بالأكابر والأحفاد بالأجداد وكان سمحاً بالإجازة ما طلبها أحد منه وردّه بل كل من طلبها منه يجيزه إما بالكتابة وإما باللسان حتى أنه أجاز أهل عصره وكان حريصاً على إفادة الناس وجبر خواطرهم مكرماً للعلماء وطلبة العلم غيوراً عليهم ناصراً لهم دافعاً عنهم ما استطاع، وكان معتدل الطول أبيض بياضه مشرب بحمرة ذا شيبة حسنة وهيئة مستحسنة لم ير الناظر أبهى منه وجهاً، من اجتمع به لا يكاد ينساه لكثرة تواضعه ولين جانبه وحسن مصاحبته وكثرة فوائده وفصاحة منطقه وإكرامه للوارد عليه، ومجلسه محفوظ من الفحش والغيبة، لا يخلي أوقاته من الكتابة أو الإفادة أو المراجعة للمسائل وتحريرها، صادق اللهجة ذا فراسة إيمانية وحكمة لقمانية، متين الدين عظيم الهيبة تهابه الحكام من القضاة وأهل السياسة وكانت الرملة في زمنه أعدل البلاد وللشرع بها ناموس عظيم وكذا في غالب البلاد القريبة منها فإنه كان إذا حُكِم على إنسان بغير وجه شرعيّ جاءه المحكوم عليه بصورة حجة القاضي فيفتيه ببطلانه فتنفذ فتواه وقل أن تقع واقعة مشكلة في دمشق أو في غيرها من المدن الكبار إلا ويستفتى فيها مع كثرة العلماء والمفتين، وكانت أعراب البوادي إذا وصلت إليهم فتواه لا يختلفون فيها مع أنهم لا يعملون بالشرع في غالب أمورهم والحاصل أنه خاتمة العلماء الكبار وما ذُكر من أحواله بالنسبة إلى جلالة

قدره وعلوّ شأنه قطرة من بحر.

وكانت ولادته سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وتوفي سنة إحدى وثمانين وألف.

والعُلَيْميّ هذه النسبة إلى سيدي علي بن عُلَيم الوليّ المشهور، والفاروقي نسبة إلى الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه صح نسبة ابن عليم إليه، والأيوبيّ نسبة إلى بعض أجداده دون ابن عُليم رحمه الله تعالى[1].

داود الأنطاكيّ

الحكيم داود بن عمر البصير الأنطاكيّ، نزيل القاهرة الحكيم الطبيب المشهور رأس الأطباء في زمانه وشيخ العلوم الحِكْمية وأعجوبة الدهر.

(١) ذكره أبو المعالي الطالويّ في «سانحاته» وأطال في توصيفه ثم قال: وقد سألته عن مسقط رأسه فأخبر أنه وُلِد بأنطاكية، قال ثم إني بلغت من السنّ عدد سيارة النجوم وأنا لا أقدر على أن أنهض ولا أقوم لعارض ريح تحكم في الأعصاب منع قوائمي من حركة الانتصاب وكان والدي رئيس قرية سيدي حبيب النجار فاتخذ قرب مزار سيدي حبيب رباطاً للواردين، وبنى فيه حجرات للفقراء والمجاورين ورتب لها في كل صباح من الطعام ما يحمله إليها بعض الخدّام، وكنت أُحمل في كل يوم إلى صحن الرباط فأقيم فيه سحابة يومي ويعاد بي إلى منزل والدي عند نومي، وكنت إذ ذاك قد حفظت القرآن ولقنت مقدّمات تثقيف اللسان وأنا لا أفتر في تلك الحال عن مناجاة قيم العالم في سري ومبدع الكل فيما إليه تؤول عاقبة أمري، فبينا أنا كذلك إذا برجل جاء من أقصى المدينة يسعى كأنه ينشد ضالة أو أضل المسعى فنزل من الرباط بساحته فإذا هو من أفاضل العجم ذو قدر

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/١٣٤ ـ ١٣٩.

منيف، يدعى بمحمد شريف، فبعد أن ألقى فيه عصا التسيار وكان لا يألف منزلاً كالقمر السيار استأذنه بعض المجاورين في القراءة عليه وابتدأ في بعض العلوم الإلهية فكنت أسابقه إليه فلما رأى ما رأى مني استخبر ممن هنالك عني فأجبته ولم يك غير الدمع سائلاً ومجيباً، فعند ذلك اصطنع لي دهناً مسدني به في حرّ الشمس ولفني بلفافة من فرقي[1] إلى قدمي حتى كدت أفقد الحس وتكرّر منه ذلك مراراً فمشت الحرارة الغريزية فيّ كالحميا في المفاصل فبعدها شدّ من وثاقي، وفصدني من عضدي وساقي فقمت بقدرة الواحد الأحد بنفسي لا بمعونة أحد، ودخلت المنزل على والدي فلم يتمالك سروراً وانقلب إلى أهله فرحاً مسروراً فضمني إلى صدره وسألني عن حالي فحدّثته بحقيقة ما جرى لي فمشى من وقته إلى الأستاذ ودخل حجرته وشكر سعيه وأجزل عطيته فقبل منه شكره واستعفاه برّه وقال إنما فعلت ذلك لما رأيت فيه من الهيئة الاستعدادية لقبول ما يلقى إليه من العلوم الحقيقية فابتدأت عليه بقراءة المنطق ثم أتبعته بالرياضي فلما تم شرعت في الطبيعي فلما أكملت اشرأبت نفسي لتعلم اللغة الفارسية فقال: يا بني إنها سهلة لكل أحد ولكني أفيدك اللغة اليونانية فإني لا أعلم الآن على وجه الأرض من يعرفها أحداً غيري فأخذتها عنه وأنا بحمد الله الآن فيها كهو إذ ذاك ثم ما برح أن سار كالبدر يطوي المنازل لدياره وانقطعت عني بعد ذلك سيارة أخباره.

ثم جرت الأقدار بما جرت وخلت الديار من أهلها وأقفرت بتنكرها عليّ لانتقال والدي فكان ذلك داعية المهاجرة لديار مصر والقاهرة فخرجت عن الوطن في رفقة كرام، نؤم بعض المدن من سواحل الشام إلى أن دخلت حِمى دمشق المحمية فاجتمعت ببعض علمائها من مشايخ الإسلام ثم لم ألبث أن هبطت مصر هبوط آدم من الجنة لَمّا وجدتها كما قال أبو الطيب ملاعب جنة، وأنا المعنيّ فيها بقوله:

---

(١) أي: من مقدمة رأسي.

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللّسان

وكان فيه دعابة يؤنس بها جليسه كيلا يعرف الوحشة أنيسه، تعرف في وجهه نضرة النعيم، وأما فَرَقه من المعاد وخشيته من رب العباد فلم ير لغيره من أهل هذا الطريق وأصحاب أولئك الفريق وكثيراً ما يتمثل بهذين البيتين وهما لعبد الله طاهر بن الحسين:

إلام تطيلي العتب في كل ساعة فلم لا تملين القطيعة والهجرا
رويدك إنّ الدهر فيه كفاية لتفريق ذات البين فانتظري الدهرا

(١) وكان إذ سُئِل عن شيء من الفنون الحكمية والطبيعية والرياضية أملى السائل في ذلك ما يبلغ الكراسة والكراستين كما هو مشهور مثل ذلك عن الشيخ الرئيس أبي علي بن الحسين[1] فمن ذلك ما شاهدته وقد سأله رجل عن حقيقة النفس الإنسانية فأملى على السائل رسالة عظيمة في ذلك عرضها عليه، وله من التآليف والرسائل ما هو بأيدي الناس مألوف، وعند أربابه من الفضلاء معروف، فمن ذلك الكتاب الذي صنفه وسماه «بتذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب» جمع فيها الطب والحكمة وهي بأيدي الناس شهيرة ثم اختصرها لقصور الهمم في مجلد، «والدرة المنتخبة فيما صح من الأدوية المجرّبة».

(٢) قلت: وله في «التذكرة» فصل عقده لدعوة الكواكب وهو الذي فتح عليه باب الوقيعة حتى استهدفه كثير من الناس بسهام بذكر مناجاة الكواكب والسجود لها، فإن وقع في وهمك شيء من الإنكار فطالع ذلك الفصل من أوّله تجده قد قال: ومنهم من يتوصل إلى خطاب الأرواح بدعوات الكواكب وفيه إخلال بنواميس شرعنا لا يملكها إلا من يخرقه، وحاشا أن مثل هذا الأستاذ يرضى لنفسه خرق الشريعة وإنما ذكر مثل هذا في كتابه ليكون مشتملاً على فنون شتى.

---

(١) هو: ابن سينا.

(١) نعم قد رأيت مدين القوصونيّ ترجمه وجزم بأنه شيعيّ وعبارته في حقه هكذا: «وكان شيعياً مخالفاً لعقيدة الأشعرية وهم الذين يثبتون لله صفات قديمة ويثبتون الإمامة بالاتفاق والنص وموافقاً لعقيدة الشيعة وهم الذين بايعوا علياً وقالوا بإمامته نصاً ووصية والحق أحق أن يتبع في بيان معتقد الإنسان وما هو عليه.

(٢) وصاحب الترجمة له اعتقادات فاسدة وأقاويل كاذبة باطلة منها قوله في شرح منظومة الشيخ ابن سينا التي أوّلها (هبطت إليك من المحل الأرفع) فيما يتعلق بخرق الأفلاك مانصّه أنّ جواز الخرق محال لا يُقال يلزم عليه تكذيب صاحب الشرع في دعوى المعراج لعدم جوازه بدون ذلك لأنّا نقول هذا شيء تقول به سخفاء العقول من المتشرعين؛ فإن المعراج إن لم يكن مشروطاً بعدم جواز الخرق لم يكن إعجازاً إذ المعجز الخارق للعادة والصعود إلى السماء يستلزم الخرق فلو كان جائزاً لم يكن له عليه السلام مزية على غيره وقد فرضناه منفرداً عن بني آدم كافة بذلك. انتهى.

(٣) قلت: قال النّسَفيّ: والمعراج برسول الله ﷺ في اليقظة بشخصه إلى السماء ثم إلى ما شاء الله تعالى من العلا حتى قال السعد التفتازانيّ: أي ثابت بالخبر المشهور حتى أن منكره يكون مبتدعاً وإنكاره وادعاء استحالته إنّما ينبني على أصول الفلاسفة وإلا فالخرق والالتئام على السموات جائز والأجسام متماثلة يصح على كلٍّ ما يصح على الآخر والله تعالى قادر على الممكنات كلها. انتهى.

(٤) هذا وما يقوله هذا الزاعم في قوله تعالى: ﴿وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه﴾[1] في حق سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام؟ وما يقول أيضاً في الحديث الصحيح الذي أخرجه القاضي عياض في الشفا والإمام مسلم في صحيحه وغيرهما بالسند المتصل عن أنس بن مالك أنّ

---

(١) سورة النساء: الآية ١٥٧، ١٥٨.

رسول الله ﷺ قال: «ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل: من؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففُتِح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا» فعلم بما ذكر في النص من كتاب الله تعالى برفع سيدنا عيسى والنص من حديث رسول الله ﷺ أنه وجده في السماء الثانية فقد قال الإمام النسفيّ: وردّ النصوص كفر.

(١) ومنها قوله أيضاً[1] بعدما يطول ذكره ناقلاً ما في التنزيل عن سيدنا موسى لأخيه هارون فقال: «اخلفني في قومي وأصلح» وهذا قال - يعني النبيّ ﷺ - لسيدنا عليّ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى» فالمشاروة المشرّفة للتخيير على مقامات النّبوّة خلية عن الوحي الملكي لا للتخيير فنبيٌّ أمن من الخطأ يحرّض على الإصلاح ووصيّ لم ير عصمته إلا الخواص يشاوَر على الرضى بأعمال الأنبياء هل هذا الأمر إلا سر جلبته الخلافة وحققته الألوهية إذ كان الكفر خلافه. انتهى. فانظر إلى هذا الاعتقاد الظاهر الفساد الذي أوجب له ما أوجبه لغيره المخالفين له وهم أهل السنة مع إجماع الصحابة على خلافة أبي بكر وكيف وقد قال السعد التفتازانيّ بعد قول الإمام النسفيّ وخلافتهم ثابتة على هذا الترتيب يعني أن الخلافة بعد رسول الله ﷺ لأبي بكر ثم لعمر ثم لعثمان ثم لعليّ رضي الله عنهم أجمعين وذلك لأن الصحابة قد اجتمعوا يوم توفي رسول الله ﷺ في سقيفة بني ساعدة واستقر رأيهم بعد المشاورة والمنازعة على خلافة أبي بكر فأجمعوا على ذلك وبايعه عليّ على رؤوس الأشهاد بعد توقف كان منه ولو لم تكن الخلافة حقاً لما اتفق عليها الصحابة ولنازعه عليّ كما نازع معاوية ولاحتج عليهم لو كان في حقه نص كما زعمت الشيعة فكيف يُتصورّ في حق أصحاب رسول الله ﷺ الاتفاق على الباطل أو ترك العلم بالنص الوارد انتهى كلام السعد.

---

(١) أي: من الأقوال المتضمنة الاعتقادات الفاسدة.

(١) هذا وقال صاحب الترجمة أيضاً[١] في الشرح المذكور «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ»: قام الحصر دليلاً على القصر. وهذا بعض ما ذكره من الكلام في هذا المقام والله أعلم والسلام فتأمّل ما فيه من الفساد والله لطيف بالعباد.

(٢) وكان شريف مكة يلهج بتذكاره ويستهدي من الحجاج تفاريق أخباره، وهزه الشوق على أن استقدمه عليه واستحضره إليه ليجعل السماع عياناً والخبر برهاناً فلما مثل بساحته طامعاً في تقبيل راحته أمر أن يُعرض عليه أحد حاضري مجلسِ أنسه ليختبر بذلك قوّة حدسه فمذ صاحفت يده ذلك الجليس قال: هذه يد دعي خسيس لا يضوع منها أَرَج النبوّة ولا يستنشق عرف الفتوّة، ثم أمر بعرضه على القوم واحداً بعد واحد حتى وصل إلى الشريف فقبل يده تقبيل المحب الواجد.

(٣) وأعجب من ذلك ما أخبرني به من أثق به بالقاهرة المُعِزِّية قال: كان له حجرة بالمدرسة الظاهرية اتخذها لاجتماعه بالناس ومداواة أصحاب الباس فورد عليه في بعض الأيام رجل من الأجناد مجهر بالسلام فمذ سمع سلامه عرف مرامه وقال اذهب فلا شفى الله لك عِلة، ولا برد لك غلة، تشرب الخمر وتفعل ذلك الأمر حتى يُحدثا لك هذا الداء وتأتي الضرير تروم من الأدواء، ثم استتابه وشفاه من دائه بعد ما أشفاه وما فهم كنه علته إلا من تحرك شفته، وعجائبه في هذا الباب لا تُحصى وغرائبه لا تستقصى.

(٤) وقال الشليّ في تاريخه «العقد» عندما ذكره أنه استدعاه الشريف حسن لبعض نسائه فلما دخل قادته جارية ولما خرجت به قال للشريف: إن الجارية لما دخلت بي كانت بكراً ولما خرجت بي صارت ثيِّباً فسألها الشريف وأعطاها الأمان من المعاقبة فأخبرته أن فلاناً استفضها قهراً فسأله فاعترف بذلك.

---

(١) أي: من الأقوال المتضمنة الاعتقادات الفاسدة.

(١) وحكى الشمس البابليّ المصريّ أنّ الحكيم داود مرّ ببعض الحارات التي يسكنها الضعفاء والفقراء فسمع صوت مولود حال ولادته فقال هذا صوت بكريّ[١] فتفحصوا عن ذلك فوجدوه كما قال وإن بعض البكريين تزوّج ببنت فقير خفية ووافق مرور صاحب الترجمة حال ولادتها بالولد.

وبالجملة فإنه من نوادر الزمان، وكانت إقامته بمكة دون السنة ومات بها في سنة ثمان بعد الألف. وكان مرض موته الإسهال بعد تناول عنب وبعضهم يزعم أنه سُمَّ، والله أعلم[٢].

المؤيد

مولاي رشيد بن علي الملك المؤيد الشريف الحسنيّ ملك المغرب السلطان العظيم القَدْر السعيد الحركات المظفر الكامل.

كان من أمره أنه تسلطن أوّلاً في بلاد تافيلات ثم وثب على مولاي محمد الحاج بن محمد بن أبي بكر سلطان فاس ومكناس والقصر وما والاها من أرض الدلا وسلا وغيرها من أرض المغرب وكان له في الملك أربعون سنة فانتزعه منه وحبسه إلى أن مات مسجوناً وخرب مدينتهم المعروفة بالزاوية سُميت بذلك لأنّ والد محمد الحاج وهو محمد بن أبي بكر بنى بها زاوية عظيمة وكانت مأوى لمن يفد يطعم بها الطعام للفقراء والمساكين ورحل شيعة الحاج خوفاً منه إلى تلمسان وهي كما تقدّم من بلا العثامنة سلاطين بلادنا أعز الله تعالى نصرهم.

ثم قويت شوكة مولاي رشيد ورغبت الناس في خدمته وكثر جمعه وعظمت دولته وساس الرعية سياسة لم يروها في عهد سلطان من سلاطينهم ومازال يتملك بلداً بعد بلد حتى دخل بلاد السودان وتملك منها جانباً عظيماً ولم يبق بجميع أقطار المغرب من البحر المحيط إلى أطراف تلمسان

---

(١) أي: من سلالة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.
(٢) «خلاصة الأثر»: ٢/١٤٠ - ١٤٩.

إلا ما هو في طاعته وداخل في ولايته إلى غير ذلك.

وتقدّم في ترجمة مولاي أحمد المنصور أنه كان قسم الولايات بين بنيه وكان بقي الأمر على ذلك حتى ظهر مولاي رشيد فجعلها مُلكاً واحداً، وكان مَلِكاً معتدلاً هاشمياً محسناً محباً للعلماء واستقام في السلطنة سبع سنوات وتوفي في سنة ثمان وثمانين وألف، وأخبرني بعض المغاربة في سبب موته أنه أصابه في ما يلي أذنه عود من شجرة في بستان له كان يركض جواده فيه فنفذ العود ووقع مولاي رشيد ميتاً، رحمه الله تعالى[1].

الشريف زيد

الشريف زيد بن محسن بن حسين شريف مكة الحسينيّ.

كان من أمر زيد أنه وُلِد بمكة في سنة أربع عشرة بعد الألف وتربى في حجر والده وسافر معه إلى اليمن، ولما تُوفي أبوه بصنعاء رجع إلى الحجاز وكان قام بأمر الحجاز الشريف أحمد بن عبد المطلب، فلما قتل وَلِيَ مكانَه الشريف مسعود بن إدريس بن حسن وولوه الإمارة وكان مريضاً فمات بعد سنة وشهرين وذلك سنة أربعين وألف فاجتمع الأشراف على الشريف عبد الله بن حسن وولوه الإمارة واستمرّ نحو سنة ثم خلع نفسه وقلد الإمارة ولده محمداً فبقي أمرهم على هذا الاتفاق مدّة قليلة، فدخل القنفذة في سنة إحدى وأربعين وألف بعضُ عسكر اليمن الذين طردهم حاكمها قانصوه فأرسلوا إلى الشريف محمد المذكور إنا نريد مصر وقصدنا الإقامة بمكة أياماً لنتهيأ للسفر فأبى خوفاً من الفتنة والفساد فلما وصلهم الخبر أجمع رأيهم على دخول مكة قهراً واستعدّوا وخرج إليهم الأشراف وحصل القتال بينهم إلى أن قتل الشريف محمد المذكور وقتل من الفريقين جمع وانهزم الأشراف ودخل أولئك القوم مكة وولوا الشريف نامي بن

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/١٦٤.

عبد المطلب وأشركوا معه الشريف عبد العزيز بن إدريس وأرسلوا إلى أمير جدّة ليسلمها إليهم فأبى وقتل الرسل فتجهزوا وحاصروهم يومين ثم دخلوا جدّة ونهبوها.

واستمر الشريف نامي يصادر أهل مكة ونهب عسكره البلاد واستباحوا المحرمات وكان الشريف زيد هرب إلى المدينة وكتب عروضاً وأرسلها إلى صاحب مصر مع السيد عليّ بن هيزع، ولما وصل خبرهم لصاحب مصر أرسل إليهم سبعة من الأمراء وأرسل بخلع سلطانية للشريف زيد وبلغهم أن الشريف زيداً بالمدينة فدخلوا وخلعوا عليه بملك الحجاز في الحجرة الشريفة، وتوجه إلى العسكر وأتوا جميعاً إلى مكة ولما وصلت العساكر إلى مرّ الظهران خرجت الخوارج إلى جهة الشرق وحج بالناس الشريف زيد سنة إحدى وأربعين، ولما فرغوا من المناسك توجهوا إلى مسك الخوارج فلما بلغهم قصد العسكر إليهم تحصنوا بحصن تربة فحاصرتهم العساكر السلطانية وكانت الخوارج فرقتين فرقة رئيسهم يُقال له الأمير عليّ والثانية رئيسهم يُقال له الأمير محمود فاستمسك الأمير عليّ على نفسه من أمراء مصر أن يسلموه من القتل والتزم لهم بالأمير محمود فقبلوا ذلك ومسكوا الأمير محمود بحيلة دبروها وأتي به إلى مكة وطيف به على جمل معذباً بالنار ثمّ صلب حيّاً بالمعلاة إلى أن مات وأخذته العامة وأحرقته.

وكانت الخوارج أقامت الشريف نامي كما تقدّم وكان له اسم الأمر فقط فلما فرغوا من أمر الخوارج قبضوا على الشريف نامي وأخيه السيد وحبسوهما واستفتوا فيهما العلماء فأفتوا بقتلهما فقتلوهما وصلبوهما بالمدّعى.

وتمت الولايات للشريف زيد، وكان عادلاً مشفقاً على الرعية وأزال في زمانه كثيراً من المنكرات وأبطل ما خالف الكتاب والسنة وأمنت في أيامه الرعايا وعمر عمائر مستحسنة من جملتها سبيل وحنفية بمكة.

(١) وفي أيامه وقع بمكة سيل مرتين مرة في ليلة الأربعاء لثلاث عشرة

بقين من شوّال سنة خمس وخمسين وألف وخرب دوراً وأبنية ودخل المسجد الحرام وعلا على عتبة باب الكعبة مقدار ذراع وأتلف ما في قبة الفراشين من المصاحف والرباع والكتب وامتلأ المسجد بالتراب والقمامات فتصدّى الشريف زيد ونادى على العامة بتنظيف المسجد وحضر بنفسه وساعده شيخ الحرم الأمير مصطفى صاحب جدّة وبذل من ماله مالاً جزيلاً واستمر العمل فيه إلى النصف من ذي القعدة فتم تنظيفه من سائر جهاته، ومرة في يوم السبت بعد الظهر سابع شعبان سنة أربع وسبعين وكان حصل مطر شديد وسالت أودية مكة وأخذ السيل جملة من الأبنية والعشش والدور وزاد الماء في الرفعة والعلوّ، وكلما مر على حيوان أوعشة حمله واقتلع ما مر عليه من خيمة أو مكان ولما وصل باب أجياد تمانع هو وسيل أجياد في السير فغلب سيل أجياد ودخل من سائر الأبواب فامتلأ صحن المسجد واستمر المطر نحو ثلاثين درجة وبلغ قفلَ الكعبة وأتلف ما في خلوة الفراشين وما في الخلاوي القريبة من المسجد من المصاحف والكتب وامتلأ المسجد من التراب والقمامات وأتلف أموالاً كثيرة في البيوت القريبة من المجرى وخرب دوراً كثيرة وغرق فيه ستة أنفس وتعطل المسجد عن الأذان والجماعة في خمسة أوقات من الظهر، فتقيد الشريف زيد في تنظيف المسجد وحضر بنفسه ونادى على العامة وكذلك صاحب جدّة الأمير سليمان وهو يومئذ شيخ الحرم المكيّ وعمل العلماء والمدرسون والأشراف بأيديهم وبذل الشريف والأمير مالاً جزيلاً وأعملوا همتهم فتمّ تنظيفه في سبعة أيام.

وكان مسعوداً في سائر حركاته ولم يقصده أركان الدولة بسوء إلا خيبهم الله تعالى، واتفق في زمانه أن صاحب جدّة الأمير مصطفى عظمت شوكته ونفذت كلمته وظهرت منه أطوار لا تليق بشأن الشريف زيد ولم يزل كذلك والشريف صابر عليه حتى كان أوائل سنة سبع وخمسين طلع الأمير المذكور إلى الطائف للزيارة وطلع معه بشير الحبشي غلام السلطان مراد وهذا في مجيئه الثاني متولياً مشيخة الحرم النبويّ فأقام ما شاء الله أن يقيم

فلما أن كان نازلاً إلى مكة طالعاً في المحل الذي يُقال له النقب الأحمر وجه جبل كرا مما يلي الطائف وقد تفرّقت عساكره خلفاً وأماماً ولم يبق معه سوى السايس وحامل كوز الماء اعترضه رجل عربيّ كان يتعهده بالإحسان يُقال له الجعفريّ فضربه وهو متجرد للإحرام بجنبية أنفذها إلى أحشائه وذهب فلم يدر محله فتلاحقت العساكر فلم يلبث إلا نحو ساعتين وتوفي، وكان قتله يوم التاسع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

وبالجملة فأحوال الشريف زيد طويلة وأخباره كثيرة ولو بسط القول في وقائعه وغزواته وسعوداته وموافقات الأقدار لمراداته لطال الكلام، وقد مدح بالقصائد الطنانة النفيسة وقصدته الشعراء من البلاد البعيدة، وكانت وفاة الشريف زيد سنة سبع وسبعين وألف، ودُفِن بالمعلاة وأسف الناس عليه وقام بعده أصغر أولاده الشريف سعد وكانت مدّة ولاية صاحب الترجمة خمساً وثلاثين سنة وشهراً وأياماً.

وكان متخلقاً بالأخلاق الحميدة متصفاً بالصفات الجميلة، كثير الحلم والصبر والشفقة ولم يضبط عليه أنه قتل شخصاً بغير حق في هذه المدّة. وكانت الأقطار في زمنه آمنة مطمئنة[1].

الشبشيريّ

سالم بن حسن الشبشيريّ نزيل مصر الشافعيّ الإمام الحجة شيخ وقته وأعلم أهل عصره.

كان في الفقه بحراً لا يُجارى وفي بقية العلوم قدره مشهور، وكان آية من آيات الله تعالى في استحضار مسائل الفقه وتصويرها ومعرفة الفرق والجمع بينهما والاطلاع على النقول والإحاطة بالفروع والأصول.

(١) وكان مع كونه فقيهاً من أكابر الأولياء له كرامات خارقة وأحوال باهرة

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/١٧٦ - ١٨٦.

منها ما حكاه النور الشبراملسيّ في درسه أنه طالع كتاب الغرور من «الإحياء» للغزالي فلما رأى ما قاله الغزاليّ في علماء عصره وما هم فيه من الغرور مع ما كان عليه أهل ذلك العصر من الخير أضمر في نفسه أن يتخلى للعبادة والصوم وقراءة القرآن وأن يترك القراءة على الشيوخ والاجتهاد في الطلب لأنه قد حصل ما يكفيه في إقامة دينه ودنياه وكان إذ ذاك يحضر درس صاحب الترجمة فجاء ذلك اليوم إلى الدرس بغير مطالعة واشتغل سراً بقراءة القرآن بحيث لا يسمع أحداً من الحاضرين ولم يخبرهم بما أضمره في نفسه وإنما جاء إلى الدرس مراعاة لخاطر الشيخ لئلا يفتقده فيسأل عنه أو يأتي إليه فقال له صاحب الترجمة شفاها: يا عليّ: مالك اليوم ساكت؟ فقال له يا سيدي: ما طالعت، فقال له يا عليّ: الغزاليّ ما ألف «المستصفى»؟ ما ألف «الوجيز» ما ألف كذا؟ ما ألف كذا؟ وعدّ مؤلفاته فقال له: نعم يا سيديّ، فقال له: كأنك اغتريت بكتاب الغرور من «الإحياء» ولا بقيت تفعل هذا واطلب العلم واتق الله ما استطعت عسى الله أن يجعلك من المخصلين، قال الشبراملسيّ فلما كاشفني بذلك رجعت لما كنت عليه من طلب العلم والاشتغال به وصرف أوقاتي في المطالعة وتركت ما كنت أضمرته في نفسي وأنبأني الشيخ عنه حتى كان من أمر الله ما كان والحمد لله وحده.

ولم يزل صاحب الترجمة منهمكاً على بث العلم ونشره حتي توفي، وكانت وفاته بمصر سنة تسع عشرة وألف، ولم يجزع علماء مصر على أحد من العلماء ما جزعوا عليه، رحمه الله[1].

سنان باشا

(١) سنان باشا الوزير الأعظم صاحب الآثار العظيمة في البلاد من جملتها الجامع بدمشق خارج باب الجابية والحمام والسوق المتفق على حسن

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/٢٠٢ ـ ٢٠٣.

وضعهم ودقة صنعتهم وله خانات ينزلها المسافرون، وله ببولاق جامع عظيم ومثله باليمن وقسطنطينية وغيرها من البلاد جوامع ومساجد ومدارس وخانات وحمـامات تنـوف على المائـة وبالجملة فهـو أكثر وزراء آل عثمـان آثاراً وأعظمهم نفعاً للناس.

(١) كان وزيراً عالي القدر رفيع الهمة، وَلِيَ الحكومة بمصر في زمن سلطنة السلطان سليم ابن سليمان ومن غريب ما وقع له وهو حاكم بها أنه لما تعين الوزير لالا مصطفى باشا إلى فتح اليمن سار إلى مصر وتقاعس بها عن السير رجاء أن تضم له إمارة الأمراء بمصر إلى سردارية[1] العساكر المعينة لليمن فاتفق مع بعض خواصه أن يضيف سنان باشا ويضع له السم في المشروب ثم دعاه فأجاب وكان الشيخ أدهم بن عبد الصمد العكاريّ من معتقَدي سنان باشا وهو عنده بمنزلة مرشده ومربيه ولا يصدر في الأمور إلا عن رأيه فاستدعاه وقال له: قم نذهب إلى الضيافة، فقال: والله ما أنا بـذاهب معك ولكن احتـرز أنت على نفسك فـإني أخاف عليـك والقوم عازمون على أن يضروك فلما قدّموا إليه الإناء المسمـوم في ماء الشعيـر المحلى بالسكر لم يتناول منه شيئاً ودعا بعض الأمراء الحاضرين إلى شربه فقال له من دعاه: أما أنا فلا أشرب من هذا الإناء فازداد وهمه فقال رجل واقف للخدمة إلى متى تتوقفون في شربه وتناوله ليشربه فلمـا وضعه بين شفتيه تناثر لحم فمه في الحال ووقع مقدّم أسنانه وسقط شعر لحيته فألقى الكأس من يده وعلم الحاضرون بالقصة فقام سنان بـاشا وهـو يقرأ قـوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾[2] ونادى بفرسه فركبها وذهب.

(٢) ثم عينه السلطان إلى اليمن وكان السبب في ذلك أن إقليم اليمن من صنعاء إلى عدن كان داخلًا في حوزة سلاطيننا العثمانيين في أيام السلطان سليمان وكان له نائب واحد واستمرّ زماناً إلى أن فُوِّضت حكومتـه لاثنين

---

(١) أي: قيادة.
(٢) سورة فاطر: الآية ٤٣.

وعين لكل منها حدّ من البلاد فكان ذلك باعث الاختلاف والجدال، وكان مطهر بن شرف الدين يحيى الزيديّ لعب الشيطان بعقله وسوّلت لـه نفسه العصيان فصادف انقسام المملكة ووصول خبر وفاة السلطان سليمان فانقطع الطريق وحاصر تعز وصنعاء، فلما وصل الخبر إلى السلطنة عينوا مصطفى باشا كما تقدّم ثم عزلوه وعينوا مكانه سنان باشا سردارا[1] على العساكـر فتوجه وأصلح ما كان اختل واستنقذ ما كان مطهر أخذه بعد وقائع وأمور يطول شرحها.

(١) ثم إنه بعد تمهيد هذا الأمر عاد فدخل مكة المشرفة وحج حجة الإسلام، وأنشأ بمكة آثاراً حسنة منها تعميره حاشية المطاف دائرة حولـه مفروشة بالحصى يدور بها دور حجارة منحوتة مبنية حول الحاشية كالإفريز لها فأمر أن تفرش هذه الحاشية بالحجر الصوّان المنحوت ففرشت به في أيام الموسم وصار محلاً لطيفاً دائراً بالمطاف من بعد أساطينه وصار ما بعد ذلك مفروشاً بالحصى الصغار كسائر المسجد الحرام وهذا الأثر خاص به، ومنها تعميره سبيل التنعيم أنشأه وأمر بإجراء الماء إليه من بئر بعيدة يجري الماء منها إلى السبيل في ساقية مبنية فيما بينهما بالحصى والنورة وعين لها خادماً يستقي من البئر ويصب في الساقية فيصل الماء إلى السبيل ليشرب منه ويتوضأ المعتمرون وعين لمصارف ذلك من ريع أوقاف له بمصر، ومنها آبار حفرها بقرب المدينة المنورة لقوافل الزوّار في وادي مفرّع وغيرها كثيرة النفع جدّاً، ومنها قراءة ختمة شريفة في كل يوم يقرؤها ثلاثون نفراً بمكة وأخرى بالمدينة.

(٢) ثم بعد أن قدم إلى تخت السلطنة عينه السلطان سليم إلى فتح حلق الوادي ببلاد تونس الغرب وكان النصارى استولوا عليهـا بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين الغرب من آل حفص فصار بعضهم يقوى على بعض بالفِرَنج وأطمعوهم في بلاد المسلمين فاستولوا عليها وتمكنوا منها وحصنوا

---

(١) قائداً.

الحصون وأحكموا القـلاع بحيث أيس المسلمون من فتحهـا وصار تحت حكم الفِرَنج وأخذوا مملكة تونس ووضعوا السيف في أهلها فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غِراب[1] مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحرب وعين معهم سنان باشا وقلج علي باشا وكانت غزوة مشهورة من أعظم غـزوات بني عثمان يحتـاج تفصيلها لمؤلف فنقتصر منها على خلاصتها وهو أنّ المسلمين انتصروا على الكفار وقتلوا منهم عشرة آلاف مع الحصار المديد والقتال ومن العجب أنّ الفِرَنج كانت بنت هناك حصاراً حصيناً وقلعة منيعة أقاموا في استحكامها واتقـان بنائها ثلاثاً وأربعين سنة ففتحها سنان باشا في ثلاث وأربعين يوماً من أيام محاصرتها وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ثم خرب الوزير القلاع والحصون فلم يبق لها رسم.

ثم توجه سنان باشا إلى دار السلطنة فولى بعد مدّة الوزارة العظمى وذلك في زمن السلطان مراد الثالث في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وثمانين وتسعمائة ثم عزل عنها ووَلِيَ بعدها نيابة الشام وشرع في عمارة الجامع المذكور أوّلاً ثمّ وَلِيَ الوزارة العظمى بعد ذلك أربع مرات عزل من الثالثة في شهر ربيع الأوّل سنة أربع بعد الألف وصار مكانه لالا محمد باشا فبعد ثلاثة أيام توفي محمد باشا فأعيد إلى مكانه ولم تطل مدّته فتوفي في شعبان من تلك السنة.

(١) وكان في أحد تولياته الوزارة تعين لمحاربة الكفار المعروفين بالنمسة ووقفت على ترجمة له ترجمه بها منشي الديوان عبد الكريم بن سنان ذكر فيها غزوة مع الكفرة ومن زبدتها قوله: ملأ بقتالهم الهُضُب واليَفَاع[2] وأخذ منهم القلاع والبقاع، وجبر قلوب الإسلام بكسر الصلبان والأصنام، ومن غريب فتوحاته تسخير الحصن الموسـوم بيانق وهـو على ما يُقـال لِسماك

---

(١) سفن حربية ذات أشرعة ومجاديف.

(٢) التِّلال.

السماء معانق أحكمت يد الدهر بنيانه وقد ازدرى بالهرم في الحصَانة، وقد أحاطت به الأنهار إحاطة الهالات بالأقمار وتيسير فتحه في نحو سبعين يوماً وجفون الغزاة لم تكتحل بغير نقع الهيجاء، ولم تذق نوماً وقد ثبتوا في الحرب تثبيت الجبال علماً بأنها بين الرجال سجال فهناك باحت أغماد السيوف بأسرارها فطارت غربان البنادق من أوكارها. وكم قتيل غدا بألسنة الأسنة مكلماً وأصبحت درعه تبكي عليه بألف عين دماً، شكر الله مساعيه الراضية، وأحلّه في قصور الجنان العالية. انتهى(١).

شرف الدين الأنصاريّ

شرف الدين بن زين العابدين بن محيي الدين بن ولي الدين بن جمال الدين بن القاضي زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاريّ السُّنَيْكِيّ المصريّ الشافعيّ.

(١) كان صدراً من صدور زمنه معظماً عند العلماء مقبول الشفاعة، متقشفاً ورعاً ديناً، أخذ الحديث والفقه وغيرهما من والده، وأجازه شيوخه وتصدّر للإقراء وأفاد وانتفع به خلق كثير، وألف مؤلفات عديدة، وأقعِد في آخر عمره وانقطع في بيته فكانت الطلبة تأتيه وتأخذ عنه، وكانت كتبه كثيرة بحيث إنه اجتمع عنده كتب جدّه شيخ الإسلام ومَن بعده من أسلافه على كثرتها وأضاف إليها مثلها شراء واستكتاباً فكان إذا أتاه أحد بكتاب للبيع لا يخرجه من بيته ولو بزيادة على ثمن مثله. وكان حريصاً على خطوط العلماء ضنيناً بها، ورأيت بخط صاحبنا الفاضل مصطفى بن فتح الله أنه أخبره أنّ عنده من طبقات السبكيّ الكبرى ثماني عشرة نسخة، وثمانية وعشرين شرحاً على البخاريّ، وأربعين تفسيراً إلى غير ذلك ولما مات تفرّقت كتبه شذر مذر وكانت تُباع بالزّنبيل بعد أن كان يشح بورقة منها، قال واتفق أنّ شيخنا العلامة إبراهيم الكورانيّ المدنيّ أراد تحصيل رسالة للحافظ ابن

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/٢١٤ - ٢١٧.

حجر العسقلاني فيما علق الشافعيّ القول به على الصحة وكانت موجودة عنده فعوّل عليّ لما توجهت إلى مصر في استعارتها منه وكتابتها فلازمته لأجلها نحو شهرين وهو يعتذر إليّ ولم يمكن تحصيلها منه.

وكانت ولادته في سنة ثلاثين وألف تقريباً وتوفي سنة اثنتين وتسعين وألف ودُفن بالقرافة الكبرى بقرب تربة الإمام الشافعيّ عند قبر جدّه القاضي زكريا في قبة جدوده المعروفين[1].

الملا صفيّ الدين

الملا صفيّ الدين بن محمد الكيلانيّ نزيل مكة المشرفة الشافعيّ الأديب الطبيب فريد عصره.

كان أعجوبة في الذكاء والفهم، اشتغل بالطب حتى أتقن العلوم العربية والمنطق ثم تعانى الطب حتى رأس فيه، وله مؤلفات عديدة في الطب وغيره، وانتفع به جماعة في الطب وغيره.

(١) ويُحكى عنه في الطب غرائب منها أنّه مُرَّ عليه بجنازة بعض الطرحاء الفقراء فدعا به وأخذ من دكان بعض العطارين شيئاً نفخه في أنف الطريح فجلس وعاش مدّة فتعجب الناس من ذلك وسأله بعض أصحابه عن ذلك فقال: رأيت أقدامه واقفة فعلمت أنه حيّ، ومنها أنّ بعض التجار كان يطعن فيه ويتكلّم عليه فلما بلغه أرسل بعض الفقراء بغصن من نبات له رائحة طيبة فلما شمه التاجر انتفخ بطنه وعجز الأطباء الموجودون عن علاجه فاضطر إلى صاحب الترجمة فأرسل إليه واستعطفه فأعطاه سفوفاً من ذلك النبات فعوفي مما به، ونظير ذلك ما وقع لابن البيطار المشهور أن بعض معاصريه امتحنه عند السلطان فجاء للسلطان بنبات وقال إذا طلع عليك ابن البيطار مُرْهُ أن يشم من هذا المحل يتبين لك معرفته وجهله فلما طلع إليه أمره أن يشمه من المحل المعين فشمه منه فرعف لوقته رعافاً شديداً فقلبه

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/٢٢٢ - ٢٢٣.

وشمه من الجانب الآخر فسكن رعافه لوقته ثم قال للسلطان: مُرِ الذي جاء به أن يشمه من الموضع الأوّل فإن عرف أنّ فيه الفائدة الأخرى فهو طبيب وإلا فهو متشبّع بمالم يُعْط فلما طلع أمره بشمه من الموضع فرعف رعافاً شديداً، فقال له: اقطعه فعجز وحار في أمره وكاد أن يهلك فأمره أن يقلبه ويشمه ففعل فانقطع رعافه فمن يومئذ زادت مكانة ابن البيطار عند السلطان.

(١) ومنها أنّ بعض أولاد الشريف حسن أصابته علة فأمر صفيّ الدين أن يُعْمَلَ له كوفية من العنبر ففعل له فزالت العلة وأصابت تلك العلة بعض الرعية ففعل له كوفية من ضفع البقر[1] فعوفي فقيل له: أليس علة الرجلين واحدة؟ فقال نعم ولكن ولد الشريف نشأ على الرائحة الطيبة فلو عملت له من الضفع لزادت علته والآخر بعكسه فداوينا كلا بما يناسبه.

(٢) وكان يأمر من مرض أن يخرج من مكة ولو إلى المنحنى لأن هواء مكة في غاية الاعتدال لكن رائحة البالوعات تفسده ولهذا بنى بيتاً بالمحصب يسكنه من به مرض.

وبالجملة فقد كان من أعاجيب الدنيا وكانت وفاته في سنة عشر بعد الألف[2].

الشاه عباس

الشاه عباس بن سلطان محمد خدابنده بن طهماسب بن شاه إسماعيل بن سلطان حيدر.

(٣) أوّل من بالغ في التشيع وأظهره سلطان حيدر وكان ذلك في سنة ست وتسعمائة، ومن ذلك العهد هاجر كثيرٌ من أهل السنة الذين في بلادهم إلى

---

(١) جاء في الهامش «قال في القاموس: الضفع نجو الفيل» أي: ما يخرج من فضلات الفيل.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٢/٢٤٤ ـ ٢٤٥.

كثير من البلاد وتغلبت سلاطين بلادنا العثامنة على ملوكهم من عهد السلطان سليم الأوّل فإنه ركب على شاه إسماعيل وأخذ منه بلاداً وقهره، وكذلك فعل السلطان سليم الثاني فإنه جهز عليهم جيشاً فأخذوا منهم تبريز وشروان وكيلان وروان وكثيراً من الولايات، واستمرّوا مغلوبين إلى أن ظهر شاه عباس صاحب الترجمة فوَلِيَ السلطنة بخراسان في سنة خمس وتسعين وتسعمائة مكان والده في حياته وكان جلوسه بقزوين لكون والده كان أعمى وقد استولت في أيامه أمراء قزلباش على الدولة واتخذوها حصصاً فسفك فيهم واستقل بالأمر وكان في ابتداء أمره يداري طرف آل عثمان ويرسل ابن أخيه حيدراً بالهدايا والتحف إلى أن مات ملك الأوزبك: أوزبك خان وولده عبدالمؤمن في سنة عشر بعد الألف وكان ملوك الأوزبك أخذوا من خراسان بلاداً فاستخلصها واحدة بعد واحدة ثم قصد جد آل عثمان لما كان وقع من الاختلال في زمن السلطان أحمد ونقض العهد الذي بينه وبينهم وحاصر مملكة تبريز وروان واستولى عليهما ثم أخذ قندهار من بلاد الهند[1] واستولى على خوارزم وكيلان وسجستان ثلاثاً وأربعين سنة، وكان سلطاناً صاحب جأش وقوّة مكر غداراً محتالاً فاستردّ بعض البلاد وتقوّى في العسكر والعدّة فأخذ بغداد من يد آل عثمان وقد قدّمنا سبب أخذه لها وأنه كان الفاعل لذلك بكرُ كبير عسكرها وأنّ الشاه دخلها بمخامرة[2] منه ومن ابنه محمد وفعل ما فعل فيها وفي أهلها وكان أخذه لها في ثالث شهر ربيع الثاني سنة اثنتين وثلاثين وألف واستمرّت في يده إلى سنة ثمان وأربعين فأخذها من يده السلطان مراد وسنذكر خبر أخذها إن شاء الله تعالى في ترجمة السلطان المذكور، ومن ذلك العهد لزم شاه عباس حدّهم الأصليّ الذي كان في زمن الشاه إسماعيل ولم يتجاوزه لاهو ولا أبناؤه إلى يومنا هذا.

---

(١) قندهار من بلاد الأفغان، ولكن كان يشملها قديماً اسم الهند.

(٢) أي: بخيانة.

وطال عمره في السلطنة وبلغ من العزة والحرمة نهاية أمانيه وخدمه أجلاء العلماء في مناصبه منهم الشيخ الأستاذ محمد بهاء الدين بن حسين الحارثيّ الهَمْدانيّ الشاميّ فإنه كان مفتيه ومشيد أركان دولته باسمه ألف كثيراً من كتبه ورسائله ونوّه به.

(١) وقد رأيت في بعض كتبه غريبة حكاها في سياق ذكره قال: إن سلطان زماننا خلد الله ملكه، وأجرى في بحار التأبيد فلكه عرض له يوماً في مصيده خنزير عظيم الجثة طويل السن فضربه بالسيف ضربة نصفه بها نصفين. ثم أمر بقلع سنه والإتيان بها إليه فوجد مكتوباً عليها لفظ الجلالة بخط بيِّنٍ مثبت ناتىء منها فحصل له ولنا ولمن حضر المصيدة من العسكر المنصور نهاية العجب فإن ذلك من أغرب الغرائب ولمّا أرانيها أدام الله نصره وتأييده قال لي: كيف يجتمع هذا مع نجاسة الخنزير؟ فقلت له: إن السيد مرتضى قائل بطهارة ما لا تحله الحياة من نجس العين ووجود هذا الخط على هذا السن ربما يؤيد كلامه طاب ثراه فإن السن مما لا تحله الحياة انتهى.

(٢) ومن المقربين إليه الحكيم شفائي، وكان حكيمه وطبيبه ونديمه الخاص وكان شاعراً مطبوعاً، وكان عند الشاه في المكانة المكينة ثم غضب عليه فحمى ميلاً حديداً وكحله به فأعماه وأبعده عن مجلسه.

(٣) أحواله وأموره غريبة جدّاً ومما يحكى عنه في باب اللطائف والنكات مما يستظرف وأبدعها ما كان يقع له مع الرسول المرسل إليه من طرف سلطاننا السلطان مراد المسمى بانجيلي جاويش وكان طلق اللسان حاضر الجواب نهاية في اللطائف والأعاجيب وكان الشاه يبتدره بمخترع من الفعل أو القول ويقصد بذلك الإزراء بجانب سلطاننا فيجيبه عنه بأحسن جواب يدفع به ذلك الإزراء وربما قلب عيانه فأزرى بطرف الشاه وكان الشاه يعجب من تيقظه وينتقل معه انتقالات عجيبة خارجة عن الإزراء ومن جملتها أنه جلس الشاه يوماً على حرف جبل في الصحراء والجاويش

المذكور عنده فقال له الشاه: أتحبني؟ فقال له: نعم، فقال: إن كنت تحبني فارم بنفسك من هذا الجبل إلى تحت فقام ومشى مسافة بعيدة إلى ظهر الجبل ثم رجع وهو يركض حد الركض حتى انتهى إلى طرف الجبل ثم وقف فقال له الشاه: مالك؟ فقال: محبتي لك انتهت إلى هذا المحل وأراها لا تتجاوزه، وله من هذا القبيل أشياء أخر.

وللشاه عباس في سياسة الرعية والرعاية لجانبهم والذب عنهم وإكرام التجار الواردين إلى بلاده من أهل السنة أحوال مستفيضة شائعة وبالجملة فلم يجيء من سلسلتهم مثله وكانت وفاته سنة ثمان وثلاثين وألف بدار ملكه مدينة أصفهان ودُفن بأردبيل في تربة الشيخ صفيّ الدين وكان عمره ينيف عن السبعين[1].

الفيوميّ

عبدالبر بن عبدالقادر بن محمد الفيوميّ العوفيّ الحنفيّ أحد أدباء الزمان المتفوّقين وفضلائه البارعين.

كان كثير الفضل جم الفائدة شاعراً مطبوعاً مقتدراً على الشعر قريب الأخذ سهل اللفظ حسن الإبداع للمعاني، مخالطاً لكبار العلماء والأدباء معدوداً من جملتهم، أخذ العلم بمصر عن الشيخ أحمد الوارثيّ الصديقيّ والأدب عن الشيخ محمد الحمويّ والقراآت عن الشيخ عبدالرحمن اليمنيّ وفارق موطنه فحج سنة اثنتين وأربعين وألف، ثم دخل دمشق وحلب في سنة ثمان وأربعين، ثم خرج إلى الروم.

ووَلِيَ من المناصب إفتاء الشافعية بالقدس مع المدرسة الصلاحية، ودخل دمشق وأقام بها في حجرة بجامع المرادية نحو سنتين.

وله شعر كثير غالبه مسبوك في قالب الإجادة وعليه رونق الانسجام والبلاغة فمن ذلك قوله:

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/٢٦٧ - ٢٦٩.

(١) صديقك إن أخفى عيوباً لنفسه ... وأظهر عيباً فيك وهو يصرّح
فخذ غيره واترك مناهج ودّه ... فكل إناء بالذي فيه ينضح

(٢) أصله ما في تاريخ ابن خلكان قال الشيخ نصر الله بن مجلي وكان من ثقات أهل السنة: رأيت في المنام عليّ بن أبي طالب فقلت له: يا أمير المؤمنين: تفتحون مكة فتقولون: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ثم يتم على ولدك الحسين ما تمّ فقال لي: أما سمعت أبيات ابن الصيفيّ في هذا فقلت: لا، فقال: اسمعها منه، ثم استيقظت فبادرت إلى دار حَيْصَ بَيْصَ فخرج إليّ فذكرت له فشهق وأجهش بالبكاء وحلف بالله إن[1] كانت خرجت من فمي أو خَطِّي إلى أحد وإن كنت نظمتها إلا في ليلتي هذه ثم أنشدني:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا عن الأسرى نعف ونصفح
وحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

(٣) وله في بعض المحتجبين:

أتيت باب كبير عند نائبة ... وجدته مغلقاً قلت الفتى فطن
فقال لي صاحبي: الرأي؟ قلت له ... رأي ابن عبدوس رأي كامل حسن

(٤) ولابن الخصال مثله:

جئناك للحاجة الممطول[2] صاحبها ... وأنت تَنْعُمُ والإخوان في بوس
وقد وقفنا طويلاً عند بابكم ... ثم انصرفنا على رأي ابن عبدوس

(٥) ورأي ابن عبدوس قوله:

لنا قاض له خلق ... أقلُّ ذميمه النزق
إذا جئناه يحجبنا ... فنلعنه ونفترق

---

(١) إن هنا بمعنى «ما» النافية.
(٢) المطل: التأخير.

(١) وله في الخضوع:

يا من له مهجتي رقّ ولي شرف ... بأنني عبده جهري وإسراري

عتقت قلبي من زيغ ومن زلل ... وعتق ذي سفه فيما بقى ساري

مننت باللطف في الأولى ولا عجب ... أن تعتق الجسم في الأخرى من النار

(٢) وللحافظ ابن حجر:

يا رب أعضاء السجود عتقتها ... من فضلك الوافي وأنت الواقي

والعتق يسري في الفتى ياذا الغنى ... فامنن على الفاني بعتق الباقي

(٣) والأصل فيه قول ذي الرمة، وهو آخر شعر قاله:

يا رب قد أسرفَت نفسي وقد علمت ... علماً يقيناً لقد أحصيت آثاري

يا مخرج الروح من نفسي إذا احتضرت ... وفارج الكرب زحزحني عن النار

وكانت وفاته في سنة إحدى وسبعين وألف بقسطنطينية، والفيوميّ نسبة إلى الفيوم وهي بلدة مشهورة في إقليم مصر[١].

ابن عتيق

عبدالرحمن بن عبدالله بن عتيق الحضرميّ الأصل المكيّ المولد والمنشأ، وزير الشريف حسن بن أبي نميّ صاحب مكة، تزوّج والده بنت الشيخ محمد جار الله بن أمين الظهيري فجاءت منه بصاحب الترجمة وأخيه أبي بكر فخدم الشريف حسن بن أبي نميّ سنة ثلاث بعد الألف وأفهمه النصح في الخدمة وسحره إلى أن تمكن منه غاية التمكن وبقى حاله معه كما قال الشاعر:

أمرك مردود إلى أمره ... وأمره ليس له ردّ

فتسلط على جميع المملكة وتصرف فيها كيف شاء وبقي كل من يموت من أهل البلد أو من الحجاج يستأصل ماله بحيث لا يترك لوارثه شيئاً

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/٢٩١ - ٢٩٨.

فإذا تكلم الوارث أظهر له حجة أن مورثة كان قد اقترض منه في الزمن الفلاني كذا كذا ألف دينار ويقول أخذته دون حقي وبقي كذا وكذا، وطريق كتابته لهذه الحجة وأمثالها أن كتبة المحكمة تحت أمره وقهره فيأمرهم بكتابة الحجة فيكتبونها وعنده أكثر من مائة مهر للقضاة والنوّاب السابقين فيمهرها ويأمر عبد الرحمن المحالبيّ أن يكتب إمضاء القاضي الذي قد مهر الحجة بمهره ويكتب خاله الشيخ علي بن جار الله وعبد القادر بن محمد بن جار الله شهادتهما ويكتب الشيخ علي أيضاً عليها ما نصه: تأملت هذه الحجة فوجدتها مسدّدة وشهد بذلك محمد بن عبدالمعطي الظهيريّ وابن عمه صلاح الدين بن أبي السعادات الظهيريّ وأحمد بن عبد الله الحنبليّ الظهيريّ وغيرهم ثم إنه يظهر الحجة ويقرؤها بين الناس وجميعهم يعرف أنّها زور ولا أصل لها ولا يقدرون أن يتكلموا بكلمة واحدة خوفاً من شره وقوّة قهره، واستولى بهذا الأسلوب على ما أراد كما أراد، وإذا شُكِيَ إلى الشريف حسن يقول هذه حجة شرعية وشهودها مثل هؤلاء الجماعة الأجلّاء فنفرت قلوب الناس من ابن عتيق وضجوا وضجروا وكل من أمكنه السفر سافر وما تأخر إلا العاجز وكان الشريف أبو طالب بن حسن كلما سمع شيئاً من هذه الأمور تألم غاية التألم فأوّل ما استقل بالشرافة أرسل من المبعوث قبل وصوله إلى مكة رسله بمسك ابن عتيق فمسك يوم الجمعة بعد العصر واستمر في الحبس يوم السبت والأحد فلما وصل الشريف أبو طالب إلى مكة وتولى أمر والده الشريف حسن ودفنه استدعى ابن عتيق وسأله عن أحواله فقال: قد فعلت جميع ذلك ثم ردّه إلى الحبس ففي ليلة الاثنين أخذ ابن عتيق جنبية العبد الوصيف المرسم عليه وهو نائم فاستيقظ العبد وخلصها منه فأخبر سيده الشريف أبا طالب بذلك فأعطاه جنبية وقال له: خذ هذه وقل له: لا تسرق الجنبية بالليل وأسرع بإرسالها إلى جهنم وبئس المصير، فأخبره الوصيف بما قاله الشريف فأخذها منه وأدخل منها في بطنه نحو إصبع ثم أخرجها ثم أعادها وأدخل منها ضعف الأوّل ثم أدخلها جميعها ثم أخرجها وقال: وامالي، واستمر ذلك اليوم إلى ظهر يوم

الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة سنة عشر وألف فمات.

(١) وكان يتبجج ويقول: الشرع ما نريده، وأبطل في أيامه عدّة من المسائل الشرعية كالوصايا والعتق والتدبير[١].

(٢) ورُمِي به في درب جدّة في حفرة صغيرة بلا غسل ولا صلاة ولا كفن ورمت عليه العامة الحجارة وعملت الفضلاء فيه تواريخ فمنها قول بعضهم:

أشقى النفوس الباغية ابن عتيق الطاغية
نار الجحيم استعوذت منه وقالت ماليه
لما أتى تاريخه أجب لظى والهاويه[٢]

بافقيه

عبد الرحمن بن علويّ بن أحمد، يُعرف ببافقيه المحدّث الصوفيّ الفقيه الإمام.

قال الشليّ: كان مقيماً بمدينة حضرموت ومولده تَرِيم، ونشأ بها وحفظ القرآن واعتنى بالفقه واجتهد في الفروع الفقهية، وشارك في الأصلين[٣]، وأجاز غير واحد بالإفتاء والتدريس، وكان منعزلاً عن الناس زاهداً في الدنيا، مواظباً على الجماعة وأنواع الخير، وانتفع به كثير ونشر العلم بعد اندراسه ولزمته الطلبة.

(٣) وكان متين المناظرة حسن العبارة لطيف الإشارة قويّ الحافظة إذا قال في المسألة: لا أحفظ فيها شيئاً لا تكاد توجد في كتب الأصحاب[٤].

---

(١) التدبير: هو أن يقول لعبده أنت حرٌّ بعد موتي.
(٢) «خلاصة الأثر»: ٢/٣٦١ - ٣٦٢.
(٣) أي: أصول الفقه وأصول الدين.
(٤) أي: الشافعيّة.

وكان مبارك التدريس يحكي عن جماعة ممن قرؤوا عليه أنّهم قالوا ما وجدنا عند أحد ممن قرأنا عليه ما وجدنا عنده وغالب علماء العصر أخذوا عنه.

(١) وكان لا يقول بالمحاباة فيزيف[1] كلام الغير إذا لم يرضه ولو كان أباه.

(٢) وكان شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع لا سيما ما أُجمع على حظره أو ترجح الإنكار في نظره، لا يقنع في أمر الحق بغير إظهاره مطبوعاً على الالتذاذ به متحملاً للأذى من الناس بسببه، يدافع ذلك بيده ولسانه بحسب وسعه وإذا لم يستطع الدفع تأثر تأثراً شديداً وربما أصابته الحمى، وكان لصدقه وحسن نيته تهابه أرباب الفسق ويهربون منه، وربما إذا أحس به الصبيان تركوا اللعب هيبة منه.

وكان في جميع أحواله ملازماً للأدب زاهداً في الدنيا وعرض عليه قضاء بلدة تَرِيم فلم يقبل، وكان ملازماً للتلاوة والاعتكاف وبالجملة فهو من محاسن عصره وتحائف دهره.

كانت وفاته في سنة سبع وأربعين وألف، رحمه الله تعالى[2].

عبدالقادر

عبدالقادر بن علي بن يوسف، المغربيّ الفاسيّ المالكيّ الإمام العلامة المحدّث المفسر الصوفيّ البارع في العلوم، وجميع من انتسب إلى المغرب متفقون على جلالته وتوحده وأنه عديم النظير وأوحد المشايخ والعلماء وشيخ الشيوخ وسلطان علماء الزمان.

اشتهر ذكره من حال صغرهّ وكثر الثناء عليه وبعد صيته في مشارق

---

(١) يرده ولا يقبله.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٢/٣٦٥ ـ ٣٦٦.

الأرض ومغاربها وكثر أخذ الناس عنه بحيث إن تلامذتـه لا يحصون ولم يحرم أحدٌ منهم من العلم لسر فيه وفي آبائه، وبركته مشهورة بحيث إن الطلبة تقصده من البلاد النائية لذلك وقـد جرب ذلـك واشتهر عنـد أهل المغرب، وكان عظيم الحفظ عجيب الإملاء إذا قرأ كتاباً استوفى ما فيه فإن وجد فيه مسألة ناقصة تممها أو شيئاً مستغلقاً شرحه أو طويلاً اختصره دون أن يخل بشيء من معانيه أو مسائل مختلطة رتبها، أو وجد فيه خطأ بيَّنه بغاية الأدب بحيث لا ينتقص مصنفه، وكان من الحلم والبذل والصبر بحيث فاق أقرانه في ذلك خصوصاً مع ندرة ذلك في أهل المغرب. وكان من الهيبة بحيث تخافه الملوك وتخشى سطوتَه الأمراء وكانت العلماء والعـامة منقادين لأمره فيما يرومه مع وقوفه عند حده في سائر شؤونه، وأدّب نفسه ولسانه إلى ما هو عليه من حسن اللقاء وجميل المعاملة والإكرام لجليسه وكان لجماله وبداعة وجهه وحسن صورته لا يملأ الناس منه نظرهم.

وقد أفرد ولده عبدالرحمن لترجمته مجلداً حافلاً سماه تحفة الأكابر بمناقب الشيخ عبد القادر، فقال: وُلِد بالقصر الكبير عند زوال يوم الاثنين ثاني شهر رمضان سنة سبع بعد الألف وتسمّى هذه السنة بالمغرب سنـة الفيل وسبب ذلك أن في هذه السنة في شهر رمضان منها بعث السلطان أبو العباس المنصور لولده المأمون هدية من مراكش إلى فاس اشتملت على تحف وبعث معها فيلة خرج أهل فاس كلهم للقائها بمائة ألف أو يزيدون فعظم وقعها وكثر التعجب منها، ونشأ في حجر والـده مصونـاً عن عبث الصبيان ملازماً لدار جدّه، فقرأ على والده وتعلم القرآن وحفظه على معلمه غانم السفيانيّ، ثم لازم القراءة على أخيه أبي العباس أحمد وقـرأ أيضاً على الفقيه محمد الـزيات ومحمـد الرفـاس وعبدالقـويّ كلهم من فقهاء القصـر، ثم رحل إلى فـاس بقصد القـراءة في أوائل رجب سنـة خمس وعشرين وألف فنزل بالمدرسة المصباحية.

(١) وأكب على الاجتهاد فكان كثيراً ما يجد نفسه في الطريق سائراً لتعلق

قلبه بمجالس العلم وحنينه إلى أماكن القراءة في وقتها وفي غير وقتها فانتفع في أقرب مدّة وقرأ على جماعة من الأشياخ.

(١) ونشأ منذ صباه مستقيم النفس على التزكية بالطاعات فيسر الله له التعلم حتى كان يحفظ دون كثير قراءة فحدّثنا من كان يقرأ معه في الصغر أنه كان ينظر في اللوح ويحرك شفتيه من غير أن يسمع له صوت ثمّ يعرض لوحه كما ينبغي.

(٢) ثم قال: وكان أعلم أهل زمانه وأثبتهم وأضبطهم وأكثرهم تحريراً، وكان يحفظ ما يسمع لا يعتريه نسيان منذ زمن قراءته. وكان لا يدع مشكلاً في علم إلاّ ويسأل عنه، ولا يُتكلم معه في نازلة إلا ويفكها ولا يُتكلم معه في علم إلا ويفيد ثمرته عن روية لا بتكلف مطالعة ولا تردّد بعبارة سهلة لا يتكلف لها تأنقاً ولا يلتزم لها خروجاً عن لسان الوقت بل كان تدريسه على ذلك تارة بعبارة الوقت وتارة بالعربية المحضة فإذا كتب ظهرت الفصاحة والبلاغة على الوجه الذي يبلغ من استحسانه كل مبلغ، وما رأينا تحصيلاً أتمّ من تحصيله مع التبحر في العلوم والجمع لأدوات الاجتهاد وكان يميل إليه إلا أنه يوفق بين رأيه ورأي أهل المذاهب حتى يصيره قولاً جارياً على مشهور المذاهب، وكان له التمكين العظيم مع قوّة التضلع في التفسير والحديث ومعاني الكتاب والسنة، وأما العربية يقول تلميذه الإمام العلامة أبو العباس أحمد بن جلال: كل من يحسن النحو بفاس ويزعم أنه أخذه من غير سيدي عبدالقادر فهو كذاب، وأما الأصول والمنطق والبيان فكان يقول تلميذه المذكور: مارسنا العلماء فكان إذا أشكل علينا في شيء أتينا شيخنا أبا العباس أحمد بن عمران وهو المشار إليه معه في ذلك فسألناه فيأخذ الكتب من أيدينا فيتأملها ثم يجيبنا وإذا أتينا سيدي عبدالقادر وسألناه: أجابنا على البديهة دون تأمل كتاب، وقد نفقت بضاعة سائر العلوم في عصره ببركته فتضلع بها تلامذته وتلامذة تلامذته.

وبالجملة فهو أكمل أهل زمانه، وكانت وفاته في سنة إحدى وتسعين وألف[1].

الطبريّ

عبدالقادر بن محمد بن يحيى الحسينيّ الطبريّ المكيّ الشافعيّ إمام أئمة الحجاز.

وُلِد ونشأ بمكة وترعرع في حجر أبويه وأكمل حفظ القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة وصلى به التراويح في مقام إبراهيم عليه السلام وهو في هذا السن، وحفظ عدّة متون منها الأربعين النووية في الحديث والإشارات عليها، والعقائد النسفية، وألفية ابن مالك في النحو وثلث المنهاج لشيخ الإسلام زكريا في الفقه وعرض جملتها على عدّة مشايخ في سنة إحدى وتسعين وتسعمائة، وشرع في الاشتغال وحل المتون على المشايخ ولازم ودأب، وأعانه فهمه الثاقب فتصرف في النظم والإنشاء وإنشاء الرسائل البديعة واطلع على العلوم الغريبة الأدبية فانقادت له طائعة، ثم صنف وأجاد كتباً عديدة. وكانت ولادة صاحب الترجمة سنة ست وسبعين وتسعمائة بمكة وتوفي في سنة ثلاث وثلاثين وألف.

(١) وسبب موت صاحب الترجمة أنه لما كان ليلة الأربعاء سلخ شهر رمضان أمر حيدر باشا متولي اليمن أن لا يخطب العيد في هذا العام إلا خطيب حنفيّ وكانت النوبة لصاحب الترجمة وكان قد تهيأ للخطبة وأخذ جميع ما يحتاجه من السماط والحلوى على عادة خطيب العيد بمكة فراجع حيدر باشا في ذلك فلم يفعل وشدّد في منعه مباشرة خطبة العيد فتعب لذلك تعباً شديداً فمات فجأة وصلى عليه بعد صلاة العيد من يومه.

(٢) والطبريون بيت علم وشرف مشهور في مشارق الأرض ومغاربها وهم أقدم ذوي البيوت بمكة فإن الشيخ نجم الدين عمر بن فهد ذكر ذلك في

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢/٤٤٤ - ٤٥١.

كتابه «التبيين بتراجم الطبريين» وقال إنّ أوّل من قدم مكة منهم الشيخ رضي الدين أبو بكر محمد بن أبي بكر بن علي بن فارس الحسينيّ الطبريّ قيل سنة سبعين وخمسمائة أو في التي بعدها وانقطع بها وزار النبيّ ﷺ وسأل الله تعالى عنده أولاداً علماء هداة مرضيين فولد له سبعة أولاد، وكانوا كلهم فقهاء علماء مدرسين، وكان دخول القضاء وإمامة مقام إبراهيم في بيتهم سنة ثلاث وسبعين وستمائة، ولم تزل إمامة المقام المذكور مخصوصة بهم ولا مدخل معهم في ذلك لأجنبيّ، وكلّ من كمل منهم للمباشرة يباشر ولا يحتاج إلى إذن جديد لوقوع الإذن المطلق لهم من زمن السلاطين السابقين والأشراف المتقدّمين، واتفق في عام إحدى وأربعين وألف أن إنساناً رام الدخول معهم في ذلك ووقع كلام طويل في ذلك ثم منعه الشريف عبدالله بن الحسن ثم ورد أمر من وزير مصر حينئذ محمد باشا بمنع المذكور أيضاً واستمرّ ذلك إلى الآن، وما زالت المناصب العلية في أيديهم يتلقونها كابراً عن كابر ويعقدون عليها في مقام الافتخار بالخناصر من القضاء والفتوى والتدريس والإمامة والخطابة ببلد الله النفيس.

(١) وكان منصب الخطابة قديماً ينتقل بمكة في ثلاث بيوت: الطبريين والظهيريين والنويريين، وبيت الطبري أقدمهم في ذلك كما يعلم من كتب التواريخ القديمة.

(٢) ثم إنه في حدود الثلاثين وألف جدد خطيب مالكي ثم حنبليّ ثم آخر حنبليّ في عام ثلاث وأربعين، وكان منصب الخطابة محفوظاً عن أحداث الناس فلا يقلده إلا العظيم علماً أو نسباً واتفق في عام إحدى وأربعين أن باشر الخطابة الشيخ محمد المنوفيّ فورد أمر من وزير مصر مخاطباً به صاحب مكة وقاضيها وشيخ حرمها بمنعه من ذلك، ثم الخطباء في زماننا بغاية الكثرة بحيث إنه لا يصل الواحد منهم إلى نوبته إلا بعد مضي سنة.

(٣) ولبني الطبريّ مزيد التقوى والورع والصلاح وتوفر أسباب الخير والفلاح وزيادة الإلفة بينهم وبين ولاة مكة المشرفة والتراسل بينهم بالأشعار

الحسنة اللطيفة حتى أن تلك الإلفة بينهم اقتضت المواصلة بالمصاهرة وأكملت ما هو من أسباب المفاخرة فقد نقل الفاسي أن زينب بنت قاضي مكة الشهاب أحمد بن قاضيها أيضاً الجمال محمد الطبريّ كانت زوجة الشريف عجلان صاحب مكة سنة سبعين وسبعمائة ثم اختلعت منه لتسريه عليها.

ومن طالع «العقد الثمين»[1] علم ما لهم من المناقب وما اشتملوا عليه من المناصب[2].

النيسائي

عبدالله بن عبدالله بن المهلا النيسائيّ ثم الشرفي الأنصاريّ الخزرجيّ. قال ابن أبي الرجال في تاريخه: هو العلامة المحقق المدقق الحافظ لعلوم المعقول والمنقول شيخ شيوخ زمانه وإمام الاجتهاد في أوانه، رحل إليه الطلبة وانتفعوا بعلومه، وكان نظيراً للسعد التفتازاني في علوم العربية والتفسير، وله أجوبة مسائل تدل على علم واسع ومن تلامذته الإمام القاسم وأكثر الفضلاء في زمانه عيال عليه، وكان له أولاد علماء نبلاء وله أحفاد فيهم الفضيلة والعلم ما منهم إلا عالم شهير مصنف مرجوع إليه في التحقيق وحل المشكلات.

(۱) وله كرامات كثيرة، منها الكرامة الشهيرة من بلوغه إلى قريب مكة على مرحلة أو مرحلتين وكان يتخلف عن القافلة للصلاة ويلحق بها على حمار موصوف بسرعة المشي فأبطأ في بعض الأيام عن اللحوق بالقافلة ركوناً منه على ما جرت عادته به فركب حماره فلم يقدر على المشي ألبتة فلما علم تعذر مشيه وفوت القافلة وعدم معرفته بالطريق تحير وصلى ركعتين ودعا الله تعالى وأقبل على التلاوة فإذا برجل حسن القامة ينحط عن

---

(۱) «العقد الثّمين في تاريخ بلد الله الأمين» لتقي الدين الفاسيّ، وهو مطبوع متداول.
(۲) «خلاصة الأثر»: ٢/٤٥٧ - ٤٦٤.

جبل قريب منه ويسرع المشي نحوه فحياه باسمه وقال: أبطأت عن القافلة فاقف أثري وحمل ما معه من أشياء كان يستصحبها فوقع في نفسه انقطاعه عن الناس وأن هذا رجل لا يدري من هو فالتفت إليه مبتسماً وأخبره بما وقع في نفسه فاطمأن وما زال يحدثه حتى بلغ به بركة ماجن في مكة وأخذ له ماء اغتسل به وأعلمه بالحرم الشريف والطريق إليه بعد أن أحرم من الميقات وقال: إن لقيتني بعد ذلك وإلا فأنا أستودع الله تعالى دينك ودنياك وأمانتك وخواتيم عملك وودّعه ومضى ولم يره بعد ذلك وكان من العجائب مصادفة الحمار على أحسن أحواله بعد مدّة في موضع الانقطاع انتهى.

وكانت وفاته سنة ثمان وعشرين وألف بالشجعة[1] وقبره بالاشعاف بها وكان عمره ثمانية وسبعين سنة ورثاه بعد موته جماعة عظام[2].

باذنجان

السيد عبدالله بن علويّ باذنجان علوي أحد أولياء حضرموت ذكره الشلي وقال في ترجمته: ولد بظفار في أوائل سنة تسع وتسعين وتسعمائة ونشأ بها، وكان أمياً لا يقرأ وله سيرة حميدة مرضية صحب شيخنا السيد عقيل باعمر وانتفع به.

(١) ومن كراماته أنه كان إذا آذاه أحد أصيب إما في حال أو مآل، وقال مرة في رجل وقد آذاه: يقتل، فقُتل بعد مدة يسيرة فلما قتل قال: ما أحدٌ يستوفي به قصاصاً ولا دية فكان الأمر كما قال.

(٢) ومنها أن امرأة أتت إلى زرع له وأخذت منه حمولة قصب على رأسها وبقيت قائمة فكأنها لا تستطيع المشي ثم بعد ساعة جاء صاحب الترجمة وهي لا تعرفه فقال لها: اذهبي لئلا يراك صاحب الزرع يعني نفسه.

وكانت وفاته في سنة اثنتين وستين وألف[3].

---

(١) من قرى اليمن.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٣/٥٧ ـ ٦٠.

(٣) «خلاصة الأثر»: ٣/٦٠ ـ ٦١.

العيدروس

السيد عبد الله بن علي بلفقيه بن عبد الله العيدروس.

قال الشليّ في وصفه: كان من عباد الله الصالحين أهل الولاية وله كرامات خارقة منها أن رجلاً من أصحاب السيد هاشم الحبشي أمر بقتله مع آخرين الشريف إدريس وهو بالطائف فلما مروا به في سوق المعلاة رآه أخوه مكتوفاً فجاء إلى السيد هاشم وبكى وقال له: ذهبوا بأخي للقتل، فقال: ليس هذا من وظيفتي فذهب به السيد هاشم إلى صاحب الترجمة فدعا الله تعالى وقال: يسلم من القتل إن شاء الله تعالى، فلما أصبحوا خرجوا بهم من الحبس إلى محل القتل فتعب أخو الرجل وأتى للسيد وهو يبكي فقال له: لا بأس على أخيك فبينما هم كذلك إذ جاء رسول من عند الشريف إدريس بفك الرجل المذكور: وسببه أن الشريف كان يصلي المغرب فدخل عليه صاحب الترجمة ومعه الرجل فقال له: فك هذا الرجل، فلما فرغ من الصلاة قال للحاجب: اطلب السيد عبدالله فقال الحاجب: ما دخل عليَّ أحدٌ فأرسل إلى أهل الفريق أن السيد عبدالله ضيفنا أرسلوه لنا فسألوا عنه في الفريق فلم يوجد فأرسل في الحال قاصداً بفك الرجل فأتى وقد قتل أصحابه فلما هموا بقتله إذا هم بالرسول فأطلقوه.

وكانت وفاته في سنة خمسين وألف ودفن بقبة أبيه وجده بالشبيكة[1].

البرجي

عبدالواحد الرشيديّ البرجيّ الشافعيّ ترجمه الخفاجيّ وقال في نعته: حسنة بها ذَنْبُ الزمان غُفِر، وأصبح به عصره على سائر الأزمان يفتخر.

(١) ثم قال: فمن لؤلؤه الرطب ورشْحِ قلمه العذب قوله في نائبٍ غيرِ رشيدٍ تفلج به ثغر رشيد[2]..

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٦٢ - ٦٣.

(٢) بلدة في الوجه البحريّ من مصر.

قلت للنائب الذي قد رأينا معائبه
لست عندي بنائب إنما أنت نائبه[1]

(١) ومثله قول الآخر:

وقاض لنا حكمه باطل وأحكام زوجته ماضيه
فياليته لم يكن قاضياً ويا ليتها كانت القاضيه

وقال الشيخ مدين القوصونيّ في ترجمته: شيخنا الشيخ الفاضل والإمام الكامل الورع الزاهد كان عارفاً بعلوم شتى وكان يستحضر أشياء كثيرة من النوادر قال ورأيت له من المؤلفات كتاب: «نزهة السامرة في أخبار مصر والقاهرة» ذكر فيه الوزراء الذين تولوا مصر إلى الوزير الأعظم محمد باشا.

(٢) وأنشد من شعره قوله:

يقولون لي قهوة البن هل تحلّ وتؤمن آفاتها
فقلت نعم هي مأمونة وما الصعب إلا مضافاتها

(٣) قال: وسألته عن مضافاتها فأجابني هي ما يستعمل معها من المكيفات.

وكانت وفاته بمصر سنة ثلاث وعشرين وألف، وبلغ من العمر مائة فأكثر[2].

الحوالي

عبدالوهاب بن سعيد بن عبدالله الحميريّ الحواليّ ذكره ابن أبي الرجاء في تاريخه وقال في وصفه: كان عالماً مجتهداً من بيت شهير بالعلم معمور بالفضل نسبهم إلى ذي حوال فهم وآل يعفر والفقهاء آل الأكوع في نسب واحد، وكان من فضلاء وقته، ويُسمى الصنعاني نسبه إلى أمه، وكان

---

(١) أي مصيبة.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٣/٩٩ ـ ١٠٠.

متعلقاً بالسياحة دمث الأخلاق كريم السجايا وله مكارم وآداب، وكان يأتي إلى ذيبين للتنزه أيام الخريف فيجتمع به الفضلاء ويتم لهم به الأنس، وكان جميل الثياب حسن الهيئة.

(١) وله صناعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يدل على ذلك ما اشتهر عنه أنه طلع إلى بعض جبال ذيبين فوجد في بعض الكهوف امرأة تبكي وعندها رجل رقيب عليها فسألها عن شأنها وما سبب بكائها فأخبرته أنها امرأة محتشمة ليست من ذوات الرِيَب وأنه اتفق بها نحو ثمانية من العتاة العصاة فاغتصبوها نفسها وأمروا ذلك الرجل رقيباً بحفظها وعزموا ليأتوا بما يليق بمعصيتهم من لحم يسرقونه ونحو ذلك فلما أطال معها الحديث جاء ذلك الرقيب واستنكر الخطاب فقال القاضي المذكور له: يا مسكين ترضى لنفسك بهذه الحال الدنية والحال العلية تمكنك، قال: وما هي؟ قال: أزوجك هذه المرأة وتكون لك خاصة، قال الرجل: وهذا يتم؟ قال: نعم، فعقد له بغير شهود فلما وصل أصحاب ذلك الرجل لقيهم وقال لهم: هذه صارت زوجتي بحكم القاضي فلا يقربها أحد فمنعهم ونزل القاضي وعقد له عقداً جديداً.

توفي سنة ثمان عشرة وألف[١].

السلطان عثمان

السلطان عثمان بن السلطان أحمد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن السلطان سليم الثاني بن سليمان بن سليم السلطان الأعظم أحد ملوك آل عثمان رحم الله الماضين منهم وأبقى الباقين. كان السلطان المذكور أحسن هؤلاء الملوك خَلْقا وخُلُقا وأجملهم شيماً وطباعاً له أدب وحياء وعرفان، وفيه شجاعة وفروسية. وكان ينظم الشعر التركي.

(٢) وَلِيَ الخلافة عن عمه السلطان مصطفى لما خلع سنة سبع وعشرين

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/١٠٢ - ١٠٣.

وألف وسافر على القزق وقبل ذهابه قتل أخاه السلطان محمداً خوفاً من الفتنة بعده ولما أرادوا قتله أحضره إلى محل جلوسه وكان جالساً وبيده كتاب يقرأ فيه فلما حضر بين يديه قال له: بالله عليك لا تدخل في دمي ولا تجعلني خصمك يوم القيامة وأنا أقنع منك برغيف فما كان من جوابه إلا الأمر بخنقه فخنق بالوتر بين يديه ففار من منخريه الدم إلى أن وصل إلى عمامة السلطان ويُقال إن آخر كلام قاله في خطاب أخيه: سلط الله عليك من لا يرحمك ولا يخشاك وكان قتله في جمادى الآخرة سنة ثلاثين فما فات الحول بكثير حتى فُعِل به كما فعل بأخيه[1].

وخرج للقتال في أواخر جمادى الآخرة في نحو ستمائة ألف مقاتل وجعل القنطرة التي على البحر الحاجز بينه وبين الطائفة المذكورة وأتقنها وهذه القنطرة هي التي أحدثها هو من حين حِلول ركابه ببلاد القزق وأخذ الجزية منهم عن ثلاث سنين وانتصر عليهم مع أخذ قلاع متعددة وغنائم وعاد إلى مقر خلافته في أواخر السنة المذكورة وأنعم على العساكر إنعامات عظيمة فهابته ملوك الآفاق وقويت شوكته واتسعت في أيامه دائرة الملك.

واتصل بعقيلة شيخ الإسلام المولى أسعد ولم يتفق التزوج بنكاح لأحد من آل بيته إلا لجده الأعلى وسميه السلطان عثمان فإنه تزوّج بابنة المولى إده بالي كما هو مذكور في «الشقائق النعمانية».

(١) وكان فيه صلاح وتعطف وخشوع وأمر في أيامه بتعطيل حانات الخمر ودار عليها بنفسه وقفل أبوابها وطرد أصحابها.

(٢) وفي أيامه في سنة ثلاثين جمد البحر الحاجز بين قسطنطينية وأسكدار والغلطة من شدة البرد ومر على الجليد أناس من أسكدار إلى قسطنطينية وهذا لم يتفق في زمن من الأزمنة.

(٣) وقصد السفر إلى الشام بنية الحج وأخرج خيامه وسرادقه إلى أسكدار

---

(١) كان قتل السلطان لإخوانه سُنّة متبعة عند كثير من سلاطين بني عثمان خوفاً من المزاحمة على السلطة، وهذا لا ينهض عذراً للقتل والبغي.

وذلك في يوم الأربعاء سابع رجب سنة إحدى وثلاثين وصمم على هذا الأمر فحصل اللغط من العسكر في ذلك اليوم وقامت الفتنة واجتمعت العساكر واتفقوا على عدم السفر معه ثم تجمعوا في المكان المعروف بآت ميداني واتفقوا على قتل الوزير الأعظم دولار باشا وضابط الحرم السلطاني والدفتردار ومعلم السلطان المولى عمر بدعوى أنهم كانوا السبب لتحرك السلطان على السفر إلى الحج وهجموا في ذلك اليوم بعد الظهر على بيت معلم الملك ونهبوا أمواله وأرادوا قتله فما وجدوه، ثم في وقت العصر اجتمع كبار العلماء بالسلطان وسألوه أن يسلم الوزير الأعظم وضابط الحرم أو يقتلهما هو حتى تسكن الفتنة وأبرموا عليه بالسؤال فامتنع ثم تفرق العسكر وفي ثاني يوم وهو يوم الخميس اجتمعوا أيضاً والعسكر كلهم بالأسلحة وآلة الحرب وذهبوا إلى المولى وجمعوهم بالجامع الجديد الذي عمره السلطان أحمد وأرسلوا قاضي العسكر وقاضي دار السلطنة وبعض الموالي إلى السلطان بطلب الجماعة الذين اتفقوا على قتلهم المذكورين أولاً فامتنع من تسليمهم واستمروا في مراجعته إلى وقت الظهر وملّ العسكر من الانتظار فهجموا على دار الخلافة فوجدوا السلطان مصطفى بين الأبواب فأخرجوه وأجلسوه ولما رأى السلطان ما حل به تحير في أمره فأخذ معه الوزير الأعظم السابق حسين باشا وذهب إلى بيت ضابط الجند ليدبر أمره وقال له السلطان تذهب وتأخذ خاطر العسكر وتجعل لكل إنسان منهم خمسين شريفياً وخمسة أذرع من الجوخ وألزمه بذلك فذهب إلى العسكر وكلمهم في ذلك فما كان من جوابهم إلا قتله وذهبوا من وقتهم إلى بيته وقتلوا حسين باشا وقبضوا على السلطان وأحضروه بين يدي السلطان مصطفى فأرسله إلى يدي قلة[1] وأحضروا دولار باشا وضابط الحرم وقطعوا رأسهما وعلقوا رؤوس الجميع على جامع السلطان بايزيد ووقعت البيعة العامة للسلطان مصطفى فجعل زوج أخته داود باشا وزيراً أعظم.

---

(١) قلعة من القلاع تُسمى بهذا الاسم.

وبعد العصر من هذا اليوم ذهب داود باشا إلي يدي قلة من غير علم السلطان مصطفى وخنق السلطان عثمان وغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه عند أبيه السلطان أحمد وكان ذلك في اليوم الثامن من رجب، وجرت أمور هائلة ونهبت دور كثيرة من دور أركان الدولة[1] وقيل في تاريخ قتله:

(۱) مات سلطان البرايا فهو في الأخرى سعيد
قال لي الهاتف أرخ إن عثمان شهيد

وكانت ولادته في سنة ثلاث عشرة وألف ومدة خلافته أربع سنوات وشهراً واحداً وقتل وله من العمر سبع عشرة سنة[2].

السقاف

السيد علوي بن علي بن عقيل السقاف نزيل مكة الأستاذ الكبير الوليّ صاحب الكرامات الخارقة والأنفاس الصادقة، قال الشلي: وُلد بتريم في

---

(۱) وقد ذُكر سبب آخر لقتله، انظر «تاريخ الدولة العلية»: ۲۷۸، وهذه الأمور الهائلة التي أجملها المصنف ها هنا توسع في ذكرها صاحب «تاريخ الدولة العلية» فقال: «وبعد ذلك صارت الحكومة ألعوبة في أيدي الإنكشاريّة ينصبون الوزراء ويعزلونهم بحسب أهوائهم، فعزلوا داود باشا قاتل السلطان بعد بضع أيام، وصاروا يمنحون المناصب لمن يجزل إليهم العطايا، فكانت الوظائف تُباع جهاراً، وارتكبوا أنواع المظالم في القسطنطينية. ولما بلغ خبر قتل السلطان إلى الولاة وانتشرت بينهم أخبار الفوضى السائدة في الأستانة وسوس لهم إبليس الطمع فأطاعوه... فأشهر والي طرابلس الشام استقلاله وطرد الإنكشارية من ولايته، واقتفى أثره والي أرضروم، المدعو أباظة باشا مدعياً أنه يريد الإنتقام للمرحوم السلطان عثمان شهيد الإنكشارية... واستمرت الاضطرابات الداخلية في نفس كرسي الخلافة العظمى (أي القسطنطينية) ولا أمن ولا سكينة مدة ثمانية عشر شهراً متوالية، حتى إذا شعر العموم بما وراء هذه الفوضى من الدمار والخراب وشبع الإنكشارية نهباً وسلباً وقتلاً في نفوس الأهالي وأموالهم عينوا من يُدعى كمانكش علي باشا صدراً أعظم لتوسمهم فيه الخبرة والاستعداد، فأشار عليهم بعزل السلطان مصطفى ثانياً لضعف عزيمته ووهن قواه العقلية فعزلوه في ١٥ ذي القعدة سنة ١٠٣٢ وولوا مكانه السلطان مراد الرابع» انظر «تاريخ الدولة العلية»: ۲۷۹.

(۲) «خلاصة الأثر»: ۳/۱۰۵ ـ ۱۰۸.

سنة ثمان وخمسين وتسعمائة ونشأ بها، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وارتحل إلى اليمن والحرمين وكان يتردّد إليهما ويتعاطى أول أمره التجارة وصحب جماعة من أكابر العارفين وانتفع بصحبتهم ورأى ليلة القدر ودعا بدعوات منها أن يبارك الله في رزقه وعمره، ودعا بدعاء القنوت: اللّهم اهدني فيمن هديت إلى آخره، ثمّ أقام بمكة واستوطنها وترك التجارة وتزوج بها وولد له أولاد نجباء وأقبل عليه الناس، واختلفت إليه أكابر مكة وأعيانها لالتماس بركته ودعائه وكان يكره تردّد الناس إليه ويهضم نفسه على الدوام.

له آداب نبوية ومكارم حاتمية، مقبول الشفاعة عند الملوك فمن دونهم. وكان شريف مكة يحترمه غاية الاحترام وانتفع الناس بصحبته.

(١) وله كرامات كثيرة منها أنه كان كثير العطب لمن يتعرض له بالأذى فكل من آذاه أو أنكر عليه لا بد أن يحصل له نكد إما مرض أو موت أو سرقة مال أو موت من يحبه أو خروج من وطن أو نحو ذلك.

(٢) منها أن شريف مكة كان إذ ذاك الشريف محسن بن حسين كان وزيره أخذ بعض حبوب الجراية التي تَرِد لمكة من مصر فأرسل إليه السيد علوي يشفع في رده لأهله فلم يقبل شفاعته فأرسل إليه ثانياً يقول له: إن أخذت حبوب الفقراء تكن هذه السنة آخر سنة لك ولسيدك فلم يلتفت إليه فكان الأمر كما قال فما حال عليها الحول حتى استلبوا دولتهم وعُذِّب ذلك الوزير بعذاب عظيم.

(٣) ومنها أن بعض المتعجرفين أساء الأدب بحضرة السيد علويّ فزجره بعض أقاربه فلم ينزجر وقال: إن كان السيد كذا فليدع الله عليّ بالموت فدعا السيد علويّ عليه بالموت فمات في ذلك اليوم.

(٤) ومنها أنه جاءه جوخ فطلب صاحب المكس[1] مكس ذلك الجوخ فقال السيد ما عليّ مكس ولا أعطي شيئاً في ذلك فأرسل المكاس يقول:

---

(١) المكس: هو الضريبة.

لئن لم تعط طوعاً وإلا أرسلنا عشرة عبيد يأخذون منك ذلك كرهـاً فقال السيد للرسول: قل له: إن أصبحت على وجه الأرض فأرسل مائة وصيف فمات تلك الليلة.

(١) ومنها أن زبدية ملآنة قهوة في الروشن فجاءت يده عليها على غفلة فطاحت إلى الزقاق فأمر عبده أن يأتي بها فخـرج وفي ظنه أن الـزبديـة صارت رضاضاً لكونها طاحت من علو وهي ملآنة فوجدها سالمة والقهوة فيها فبهت عند ذلك.

(٢) ومنها أن بعض الفقراء أتى إليه وقال له ليس عنده نفقة هذا اليوم وكان عنده عمال يفرشون طيناً فقال له السيد: اعمل معهم لعلك تجد ما تنفقه فعمل معهم فإذا بدينار ذهباً.

(٣) ومنها أن بعض آل باعلوي طلب أن يدعو الله تعالى أن يوسع عليه في الدنيا فدعا له بذلك وقال له: اذهب واعمل أكياساً للدراهم ففعل فأتته الدنيا وهي راغمة حتى امتلأت تلك الأكياس.

(٤) ومنها أنه أتى من سفر فلما وصل بندر القنفذة طلب منه بعض المسافرين أن يتقدم إلى أهله ليخبرهم بوصوله وطلب منه سبحة علامة فأبى فأخذ السبحة على حين غفلة من السيد وسافر بها فتعرضت له حية عظيمة على طريقه فمنعته السفر إلى مكة حتى رجع إلى السيد واعتذر إليه. ومناقبه كثيرة.

وكان زاهداً في الدنيا ورياستها ومن زهده فيها أنه طلب ورثته من حضرموت وقسم بينهم جميع ما عنده من المال على حسب إرثهم وتجرّد عن الدنيا وتكفل بخدمته ونفقته تلميذ.

(٥) ولم تطل حياته بعد ذلك وكان سبب موته أنه سئم من الحياة وطلب من الله تعالى أن يقبضه إليه فظهر في بدنه بَثْرة[1] ولم تزل تزداد كل يوم

(١) البَثْرة: هي الخُرّاج.

واشتد به الألم وعرض على كثير من الأطباء والذين يعانون الجراحات فلم يوجد عندهم طب ولم يعرفوا لها دواء واستمر مرضه نحو اثني عشر يوماً ومات سنة ثمان وأربعين وألف وحزن الناس لفقده واجتمع الخلائق للصلاة عليه في المسجد الحرام، ودُفِن بالمعلاة في حوطة آل باعلوي وقبره بها معروف، رحمه الله تعالى[1].

ابن جانبولاذ

الأمير علي بن أحمد بن جانبولاذ الكرديّ القصيريّ.

قد أكثر أهل التاريخ والمجاميع ممن لحقوا واقعته من ذكره وذكر ما فعله بدمشق وما جرى لحكام الشام وأهلها معه من الوقائع وقد اخترت من ذلك ما أودعته في هذه الأوراق من مبدأ أمره إلى منتهاه. وأما ذكر أصله ومنزعه فجدّه جانبولاذ هذا كان يعرف بابن عربوا وكان أمير لواء الأكراد بحلب، وَلِيَ حكومة المعرّة وكلس وعزاز[2] وكان له صيت شائع وهمة علية، ومبدأ الأمير عليّ هذا أنه كان في طليعة عمره وَلِيَ حكومة العزيزيّ[3] وقد تقدّم في ترجمة عمه حسين باشا أنه لما قتله الوزير ابن جغال لتراخيه في أمر السفر الذي كان عين له خرج الأمير عليّ عن طاعة السلطنة وجمع جمعا عظيماً من السكبانية[4] حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف ومنع المال المرتب عليه وقتل ونهب في تلك الأطراف ودبر على قتل نائب حلب حسين باشا، ونما خبره إلى الأقطار واستمر في حلب يظهر الشقاق إلى أن أرسل الأمير يوسف بن سيفا صاحب عكار إلى باب السلطنة رسالة يطلب فيها أن يكون أميراً على عساكر الشام والتزم بإزالة الأمير عليّ عن حلب فجاءه الأمر على ما التزم وأرسل إلى عسكر

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/١١٨ - ١٢٠.

(٢) بلاد في أرض الشام.

(٣) هو سهل البقاع.

(٤) هم متولو كلاب الصيد، ويرافقون السلطان في الحرب والصيد.

دمشق وأمراء ضواحيها يطلبهم إلى مجتمع العساكر وهو مدينة حماة فتجمعوا هناك من كل ناحية وجاء ابن جانبولاذ إلى حماه وتلاقيا وتصادما فما هو إلا أن كان اجتماعهم بمقدار نحر جزر فانكسر ابن سيفا وأتباعه ورجع بأربعة أنفار واستولى ابن جانبولاذ على مخيمه ومخيم عسكر الشام، ثم إنه راسل الأمير فخر الدين بن معن أمير الشوف وبلاد صيدا وأظهر له أنه قريبه مع بعد النسبة فحضر إليه واجتمعا عند منبع العاصي وتشاورا على أن يقصد طرابلس الشام لأجل الانتقام من ابن سيفا فسار ابن سيفا في البحر وأخلى لهم طرابلس وعكار وأرسل أولاده وعياله إلى دمشق وأجلس مملوكه يوسف في قلعة طرابلس فتحصن بها، وبعث ابن جانبولاذ الأمير درويش بن حبيب بن جانبولاذ إلى طرابلس فضبطها واستولى على غالب أموال من وجد هناك واستخرج دفائن كثيرة لأهلها ولم يستطع أن يملك قلعتها.

وسار الأمير عليّ ومعه ابن معن إلى ناحية البقاع العزيزيّ من نواحي دمشق ومرا على بعلبك وخرّبا ما أمكن تخريبه منها واستقرا في البقاع وأظهرا أنهما يريدان مقاتلة عسكر الشام، ولم تزل العساكر الشامية ترد إلى دمشق حتى استقر في وادي دمشق الغربيّ ما يزيد على عشرة آلاف وتزاحف العسكران، وكان ابن سيفا وصل إلى دمشق وأظهر التمارض ولم يرحل مع العسكر الشاميّ واستمرت الرسل متردّدة بين الفريقين ليصطلحا فلم يقدر لهم الاصطلاح وتزاحف الجيشان فتوهم ابن جانبولاذ من صدمة العسكر الشامي فشرع في تفخيذ أكابر العسكر[1] عن الاتفاق وأوقع بينهم ثم إنه أرسل إلى طائفة من أكابرهم فوردوا عليه في مخيمه ليلاً وألبسهم الخلع وتوافقوا معه على أنهم ينكسرون عند المقابلة وكان في جانب ابن جانبولاذ ابن معن وابن الشهاب أمير وادي التيم ويونس بن الحرفوش فطابت نفسهم لملاقاة الشاميين وتقابل الفريقان في يوم السبت من أواسط جمادى الآخرة سنة خمس عشرة بعد الألف ولم يقع قتال فاصل بين الفريقين ثم

(١) أي: أن ابن جانبولاذ شرع في استمالة قواد العسكر الشاميّ المعادي له، ونجح في ذلك كما سيأتي.

في صبيحة نهار الأحد وقف العسكر الشامي في المقابلة واقتتلا فما مر مقدار جلسة خطيب إلاّ وقد انفلّ العسكر الشاميّ حتى قال ابن جانبولاذ: العسكر الشاميّ ما قاتلنا وإنما قابلنا للسلام علينا.

فلما ولى عسكر دمشق زحف ابن جانبولاذ حتى نزل بقرية المزَّة[1] وكان نزوله في الخيام وأما ابن معن فإنه كان ضعيف الجسد في هاتيك الأيام وكان نزوله في جامع المزة وأصبحت أبواب البلدة يوم الاثنين مقفلة وقد خرج منها ابن سيفا وجماعته ليلاً بعد أن اجتمع به قاضي القضاة بالشام المولى إبراهيم بن عليّ الأزنيقيّ وحسن باشا الدفتريّ ولم يمكناه من الخروج حتى دفع إليهما مائة ألف قرش ليفتدوا بها الشام من ابن جانبولاذ ثم خرج ومعه الأمير موسى بن الحرفوش، ولما بلغ الأمير ابن جانبولاذ خروجه غضب وقال: أهل دمشق لو أرادوا السلامة مني ما مكنوا ابن سيفا من الخروج وهم يعرفون أنني ما وردت بلادهم إلا لأجله ونادى عند ذلك بالسكبانية[2] أن يذهبوا مع الدروز جماعة ابن معن لنهب دمشق فوردت السكبانية والدروز أفواجاً إلى خارج دمشق وشرعوا في نهب المحلات الخارجة فلما اشتدّ الكرب والحرب على المحلات وتلاحم القتال خاف العقلاء في دمشق فخرج جماعة إلى ابن جانبولاذ وقالوا له: إن ابن سيفا قد وضع لك عند قاضي الشام مائة ألف قرش وتداركوا له خمسة وعشرين ألف قرش أخرى - كما وقع عليه الاتفاق - من مال بعض الأيتام التي كانت على طريق الأمانة في قلعة دمشق وبعد ذلك أدّاها أيضاً ابن سيفا كالمائة ألف فلما تكلم الناس في الصلح طلب ابن جانبولاذ المال الذي وقع عليه الصلح على يد الدفتريّ وقال: إن جاءني المال في هذا الوقت رحلت فحملوا له مئة ألف قرش وخمسة وعشرين ونادى بالرحيل عن المزة في اليوم الرابع من نزوله واستمر النهب في أطراف دمشق ثلاث أيام متوالية

---

(١) هي جزء من مدينة دمشق اليوم.
(٢) مرّ تعريفهم قريباً.

وكانوا يأخذون الأموال والأولاد الذكور ولم يتعرّضوا للنساء، ولما رحل ابن جانبولاذ ارتفع النهب عن المدينة وفتحت أبواب المدينة في اليوم الرابع فازدحم الناس على الخروج أفواجاً ودخل إليها من نهبت أسبابه من المحلات الخارجة فكانوا لا يُعرفون لتغير أسبابهم ووجوههم وابتدأت العساكر الهاربة تتراجع إلى دمشق ولم يُبالوا بما صدر منهم من الفضيحة.

ولما فارق ابن جانبولاذ دمشق سار على طريق البقاع وفارق ابن معن هناك ورحل إلى أن وصل إلى مقابلة حصن الأكراد وأقام هناك وأرسل إلى ابن سيفا يطلب منه الصلح والمصاهرة فأجابه وأعطاه ما يقرب من ثلاث كرات من القروش وزوّجه ابنته وتزوّج منه أخته لابنه الأمير حسين.

ورحل ابن جانبولاذ من هناك إلى جانب حلب وجاءته الرسل من جانب السلطنة تقبح عليه ما فعل بالشام فكان تارة ينكر فعلته وتارة يحيل الأمر على عسكر الشام وشرع يسدّ الطرقات ويقتل من يعرف أنه سائر إلى طرف السلطنة لإبلاغ ما صدر منه حتى أخاف الخلق ونفذ حكمه من أدنه إلى نواحي غزة، وكان ابن سيفا ممتثلاً لأمره غير تارك مداراة السلطنة واتفق معه على أن تكون حمص تحت حكم ابن سيفا وكانت حماة وما وراءها من الجانب الشماليّ إلى أدنة في تعلق ابن جانبولاذ وانقطعت أحكام السلطنة عن البلاد المذكورة نحو سنتين ووقعت الوحشة وانقطعت الطرقات إلى أن وَلِيَ الوزارةَ العظمى مراد باشا وكان سافر في ابتداء وزارته إلى الروم وأصلح ما بين السلطان وما بين سلاطين المجر، فلما قدم عينه السلطان لدفع ابن جانبولاذ وبقية الخوارج مثل العبد سعيد ومحمد الطويل الخارج في نواحي سيواس فقدم الوزير المذكور ومعه من العساكر الرومية ما يزيد على ثلثمائة ألف ما بين فارس وراجل وكان كلما مر بقوم من السكبانية[1] الخارجين يقتلهم حتى أزال السكبانية الخارجين ولم يبق سوى العبد سعيد

(١) إحداهما الكبانية.

والطويل محمد فإنهما حادا عن طريقه ولم يستطع لحاقهما ووصل إلى أدنه فخلصها من يد جمشيد الخارجيّ.

ولما انفصل عن جسر المصيصة إلى هذا الجانب تيقن ابن جانبولاذ أنه قاصده فجمع جموعه المتفرقة في البلاد حتى اجتمع عنده أربعون ألفاً وخرج من حلب والوزير في بلاد مرعش وجزم بمقابلته وكان الوزير في أثناء ذلك يراسله بالكلمات الطيبة طمعاً في إصلاح أمره فلم يزدد إلا عتوّاً ولما تلاقى الفريقان برز عسكر ابن جانبولاذ إلى المقاتلة يومين ولم يظهر لأحد الفئتين غلبة على الأخرى ففي اليوم الثالث التحم القتال حتى كاد أن يكون عسكر البغاة غالب وكان من أعاجيب الأمر أن وزيراً يُقال له حسن باشا الترياقيّ وكان من جملة العسكر السلطانيّ رتب عسكر السلطان وقال: قاتلوا البغاة إلى وقت الظهر فإذا حكم وقت الظهر فافترقوا فرقتين فرقة منكم تذهب لجانب اليمين وأخرى تذهب لجهة الشمال واجعلوا عرصة القتال خالية للأعداء وحدهم وقد أخفى المدافع الكبيرة في مقابلة العدوّ وملأها بالبارود فلما افترق عسكر السلطان ظن حزب ابن جانبولاذ أنهم كُسِروا فبالغوا في اتباع عسكر السلطان إلى أن كادوا يخالطونهم فلما قربوا وخلت لهم عرضة القتال أطلقوا عليهم المدافع ولحقوهم بالسيوف إلى أن أزاحوهم عن خيامهم وكسروهم كسرة شنيعة وقتلوا منهم خلقا كثيراً وهرب ابن جانبولاذ إلى حلب ولم يقم بها إلا ليلة واحدة فوضع أهله وعياله وذخائره في قلعتها وخرج منها إلى أن ألجأه الهرب إلى مَلَطْيَة[1] وبقي الوزير يتبع أعوان ابن جانبولاذ فأبادهم قتلاً بالسيف وجاء إلى حلب بالجنود فرأى قلعتها في أيدي بعض أعوان البغاة فرام محاصرتها فتحقق فيها أن كل محصور مأخوذ فطلبوا الأمان من الوزير فأنزلهم بأمانه وكانوا نحو ألف رجل وكان معهم نساء ابن جانبولاذ وكان أكابر الجماعة أربعة من رؤوس السكبانية فلما نزلوا بادروا إلى تقبيل ذيل الوزير فأشار إلى النساء بالسكن

---

(١) بلدة في تركيا.

في مكان معلوم وفرق الرجال على أرباب المناصب وطلع إلى القلعة ورأى ما بها من أموال ابن جانبولاذ وتحفه العزيزة فضبط ذلك كله لبيت المال ثم شرع يتجسس في حلب على الأشقياء وأتباعهم فقتل جملة من الأتباع وهجم الشتاء ففرق العساكر في الأطراف وشتى هو في حلب.

وأما ابن جانبولاذ فإنه خرج من مَلْطْيَة وسار إلى الطويل العاصي في بلاد أناطولي وأراد أن يتحد معه فأرسل إليه الطويل يقول له: أنت بالغت في العصيان وأنا وإن كنت مسمى باسم عاص لكني ما وصلت في العصيان إلى رتبتك فرحل عنه بعد ثلاثة أيام وسار إلى العاصي المعروف بقرا سعيد ومعه ابن قلندر ولما وصل إلى جمعية هؤلاء العصاة تلقوه وعظموه وحسنوا فعلته مع العساكر السلطانية وأرادوا أن يجعلوه عليهم رئيساً فشرط عليهم شروطاً فما قبلوها فاطمأن تلك الليلة إلى أن هجم الليل وأخذ عمه حيدر وابن عمه مصطفى وابن عمه محمداً وخرج ولم يزل سائراً حتى دخل بروسة مع الليل وتوجه إلى حاكمها وأخبره بنفسه فتحير منه ولما تحقق ذلك قال له: ما سبب وقوعك؟ فقال ضجرت من العصيان وها أنا ذاهب إلى الملك فأرسلني إليه في البحر فأرسله من طريق البحر فلما دخل دار السلطنة أعلِم به السلطان فقال: أحضروه، فلما حضر إليه قال له: ماسبب عصيانك؟ فقال له: ما أنا عاص وإنما اجتمعت عليّ فرق الأشقياء وما خلصت منهم إلا بأن ألقيتهم في فم جنودك وفررت إليك فرار المذنبين فإن عفوت فأنت لذلك أهل وإن أخذت فحكمك الأقوى فعفا عنه وأعطاه حكومة طمشوار في داخل بلاد الروم ونجا بذلك، ولم يزل على حكومتها إلى أن عرض له أمر أوجب قتاله لرعايا تلك الديار ولزم أنه انحصر في بعض القلاع في بلاد الروم فعرض أمره إلى باب السلطنة الأحمدية فبرز الأمر بقتله وعدم إخراجه من تلك القلعة فقتل وأرسل رأسه إلى باب السلطنة وكان ذلك في حدود العشرين وألف، والله أعلم[1].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/١٣٥ - ١٤٠.

الاجهوريّ

علي بن زين العابدين بن محمد بن محمد بن أبو الارشاد نور الدين الأجْهوريّ - نِسبة إلى أجهور الورد قرية بريف مصر - المالكيّ شيخ المالكية في عصره بالقاهرة وإمام الأئمة وعلم الإرشاد وعلامة العصر وبركة الزمان.

وكان محدثاً فقيهاً رُحَلة كبير الشأن وقد جمع الله تعالى له بين العلم والعمل وطار صيته في الخافقين وعم نفعه وعظمت بركتُه، وقد جد فبرع في الفنون فقها وعربية وأصلين[1] وبلاغة ومنطقاً، ودرس وأفتى وصنف وألّف.

وعُمِّر كثيراً ورحل الناس إليه من الآفاق للأخذ عنه فألحق الأحفاد بالأجداد.

أخذ عن مشايخ كثيرين نحو ثلاثين رجلًا، وأملى الكثير من الحديث والتفسير والفقه وألف التآليف الكثيرة.

(١) أصيب آخراً في بصره بسبب غريب وهو أن بعض الطلبة ممن أراد الله به شراً كان يحضر مجلس الأجهوريّ وكان في ظاهر حاله صالحاً فاتفق أن تزوّج ووقع بينه وبين زوجته مشاجرة فطلقها ثلاثاً فاستفتى الأجهوريّ فأفتاه بأنها لا تحل له إلا بعد زوج آخر فتوعده بأنه يقتله إن لم يردها فلم يكترث الأجهوريّ بكلامه فترك الأجهوريّ يوماً حتى جلس للتدريس على عادته فجاء وتحت صوفه سيف فاستله وضرب الأجهوري على رأسه فقام عليه أهل الحلقة ومن حضرهم من أهل الجامع فتناولوه يميناً وشمالاً بالنعال والحصر حتى حالوا بينه وبين الأجهوريّ وقد شجه في رأسه وما زالوا به حتى قتلوه دوساً بالأرجل وضرباً بالأيدي والنعال والعصيّ ورُفع الأجهوريّ إلى داره فأثرت تلك الشجة في بصره.

وللأجهوريّ فوائد وآثار كثيرة معجبة.

---

(١) أصول الدين وأصول الفقه.

(١) ومن فوائده المأثورة عنه أن من قرأ عند النوم قوله تعالى: ﴿وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم. إنّ الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون[1]﴾ أمِن من الاحتلام تلك الليلة.

(٢) وأفاد لقضاء الحوائج أن تقول وأنت متوجه إلى حاجتك عشر مرات: اللهم أنت لها ولكل حاجة فاقضها بفضل بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ما يفتحِ الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾[2].

(٣) وله في تقديم بعض الفاكهة على الطعام وتأخيرها عنه ومعية بعضها:

قدّم على الطعام توتاً خوخاً ومشمشا والتين والبطيخا
وبعده الإجاص كمثرى عنب كذاك تفاح ومثله الرطب
ومعه الخيار والجميز قثا ورمان كذاك الجوز

وبالجملة فإنه جم الفائدة.

وكانت ولادته في سنة سبع وستين وتسعمائة بمصر وتوفي بها سنة ست وستين وألف وكان قد بلغ تسعا وتسعين سنة[3].

نور الدين الشبراملسيّ

علي بن علي أبو الضياء نور الدين الشبراملسيّ الشافعيّ القاهريّ خاتمة المحققين ووليّ الله تعالى.

(٤) محرّر العلوم النقلية، وأعلم أهل زمانه لم يأت مثله في دقة النظر وجودة الفهم وسرعة استخراج الأحكام من عبارات العلماء، وقوّة التأني في البحث، واللطف والحلم والإنصاف بحيث إنه لم يعهد منه أنه أساء إلى

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠٠، ٢٠١.
(٢) سورة فاطر: الآية ٢.
(٣) «خلاصة الأثر»: ٣/١٥٧ ـ ١٦٠.

أحد من الطلبة بكلمة حصل له منها تعب بل كان غاية ما يقول إذا تغير من أحد من تلامذته: الله يصلح حالك يا فلان.

(١) وكان شيخاً جليلاً عالماً عاملاً له قوّة إقدام على تفريق كتائب المشكلات ورسوخ قدم في حل أقفال المقفلات، مهاباً موقراً في النفوس بحيث إن الإنسان إذا تأمل وجهه النورانيّ ولحيته البيضاء الطاهرة وهيئته الحسنة يخشع لرؤيته ولا يريد مفارقته، وكان حسن المنادمة لطيف المداعبة لا يتكلم إلا في ما يعنيه، وكان مجلسه مصوناً عن الغيبة وذِكْر الناس بسوءٍ وجميع أوقاته مصروفة في المطالعة وقراءة القرآن والصلاة والعبادة. وكان زاهداً في الدنيا لا يعرف أحوال أهلها ولا يتردّد إلى أحد منهم إلا في شفاعة خير.

(٢) وكان إذا مر في السوق تتزاحم الناس مسلمها وكافرها على تقبيل يده.

ولم ينكر أحد من علماء عصره وأقرانه فضله بل جميع العلماء إذا أشكلت عليهم مسألة يراجعونه فيها فيبينها لهم على أحسن وجه وأتمه، وقال فيه العلامة سريّ الدين الدروريّ: لا يكلمه أحد إلا علاه في كل فن. وكان يقول: ما في الجامع إلا الأعمى ويشير إليه وكان سريّ الدين هذا فريد عصره في العلوم النظرية وسئل البشبيشيّ عن سريّ الدين وعن المترجم، فقال: إن سريّ الدين كان إذا طالع الدرس لا يقدر عليه أحد فيه وإذا نقل إلى غيره وقف يشير إلى قلة استحضاره، وأما الشبراملسيّ فكان إذا نقل إلى أيّ فنّ كان لا يختل ولا يتوقف لقوّة فهمه وسرعة استحضاره للقواعد من العلوم.

وكان جبلاً من جبال العلم لا يضجر من البحث في الدرس ويتعب إن لم يبحث معه الطلبة ويقول لهم مالنا اليوم هكذا.

(٣) وإذا بحث مع أحد من المتقدّمين يبحث بغاية الأدب، ومن مقولاته: قيراط من الأدب خير من أربعة وعشرين قيراطاً من العلم.

(٤) وُلِد ببلدة شبراملس وحفظ بها القرآن وكان أصابه الجدريّ وهو ابن

ثلاث سنين فكف بصره وكان يقول: لا أعرف إلا الأحمر لأنه كان يومئذ لابسه، ثم قدم مصر صحبة والده في سنة ثمان بعد الألف وحفظ «الشاطبية» و«الخلاصة» و«البهجة الوردية» و«المنهاج» و«نظم التحرير» للعمريطيّ، والغاية، والجزرية، و«الكفاية» و«الرحبية» وغير ذلك وتلا جميع القرآن للسبعة من طريقي التيسير والشاطبية وختمه في سنة ست عشرة وألف ثم قرأه كله للعشرة وختمه في سنة خمس وعشرين وألف على شيخ القراء في زمانه الشيخ عبد الرحمن اليمنيّ وحضر دروس الشيخ عبد الرؤوف المناويّ في مختصر المزني في المدرسة الصلاحية جوار الإمام الشافعيّ، وأخذ الفقه والحديث عن النور الزيادي وسالم الشبشيريّ وانتفع به كثيراً، ولزم في العقليات الشهاب الغنيمي وكان لا يفتر عن ذكره. وسمع الصحيحين والشفاء على المحدث الكبير الشهاب أحمد السبكيّ شارح «الشفاء» وسمع أيضاً صحيح البخاريّ والشمايل والمواهب وشرح عقائد النسفي وشرح جمع الجوامع و«مغني اللبيب» وشرح ابن ناظم: «الخلاصة» وشرح «جوهرة التوحيد» كل ذلك على البرهان اللقانيّ، وحضر الأجهوريّ في شرح «نخبة الأثر» وشرح «ألفيه السيرة» و«الجامع الصغير» وشرح الشمسية وشرح التهذيب والحفيد، وحضر عبد الله الدنوشريّ في جميع شرح ابن عقيل وشرح البهجة للولي العراقيّ في مقدّمتين في العَروض، وتصدر للإقراء بجامع الأزهر فانفرد في عصره بجميع العلوم وانتهت إليه الرياسة وكان آخر أقرانه موتاً. ولازمه لأخذ العلم عنه أكابر علماء عصره.

(١) وكان يكتب على جميع ما يقرؤه من الكتب ولو جمع ما كتبه لجاوز الحدّ ولكنه تبدّد بين يدي طلبته فمنهم من نسب ما بيده له ومنهم من مات وذهب ما كتبه، ولم يشتهر من مؤلفاته إلا حاشيته على المواهب اللدنية في خمس مجلدات ضخام، وحاشية على شرح الشمايل لابن حجر، وحاشية على شرح الورقات الصغير لابن قاسم، وحاشية على شرح أبي شجاع لابن قاسم الغزيّ، وحاشية على شرح الجزرية للقاضي زكريا، وحاشية على شرح المنهاج: «النهاية» للشمس الرملي وسبب كتابته عليه أنه كان يطالع

«التحفة» لابن حجر فأتاه الشمس الرمليّ في المنام وقال له: يا شيخ علي أحْي كتابي «النهاية» يُحي الله قلبك، فاشتغل بمطالعتها من ذلك الحين وتقيد به وكتب عليه هذه الحاشية في ست مجلدات ضخام.

(١) وكان إذا أتى إلى الدرس في آخر عمره يجلس وهو في غاية التعب من الكبر بحيث إنه لا يستطيع النطق إلا بصوت خفيّ ثمّ يقوى في الدرس شيئاً فشيئاً حتى يصير كالشاب ويتجلد للبحث، وكان كثير المطالعة وإذا تركها أياماً تأتيه الحمى، والحاصل أنه مُسْتَحْسَن الخصال كلها.

(٢) وكانت ولادته في سنة سبع أو ثمان وتسعين وتسعمائة، وتوفي سنة سبع وثمانين وألف، وتولى غسله بيده تلميذه الفاضل أحمد البناء الدمياطي فإنه أتاه في المنام قبل موته بأيام وأمره أن يتولى غسله فتوجه من دمياط إلى مصر فأصبح بها يوم وفاته وباشر غسله وتكفينه بيده، وحَكَى أنه لما وضأه ظهر منه نورٌ ملأ البيت بحيث إنه لم يستطع بعدُ النظر إليه.

وصُلِّي عليه بجامع الأزهر وكان له مشهد عظيم. وحصل للناس عليه من الجزع ما لم يعهد لمثله.

والشبراملسيّ بشين معجمة فموحدة فراء فألف مقصورة على وزن سكرى كما في «القاموس» مضافة إلى مَلِّس بفتح الميم وكسر اللام المشدّدة وبالسين المهملة أو مركبة تركيب مزج وهي قرية بمصر[١].

نور الدين الحنفيّ

علي بن محمد بن عليّ الخزرجيّ السعديّ العباديّ المقدسيّ الأصل القاهريّ المولد والسكن الملقب نور الدين الحنفيّ[٢]، العالم الكبير الحجة الرُّحَلة القدوة، رأس الحنفية في عصره وإمام أئمة الدهر على الإطلاق، وأحد أفراد العلم المجمع على جلالته وبراعته وتفوّقه في كل فنّ من

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/١٧٤ ـ ١٧٧.

(٢) ويُلقب أيضاً: ابن غانم المقدسيّ.

الفنون. وبالجملة والتفصيل فهو أعلم علماء هذا التاريخ وأكثرهم تبحراً وأجمعهم للفنون مع الولاية والورع والزهد والشهرة الطنانة التي سلم لها أهل عصره وأذعنوا لها مع أن العصريين يجحدون فضل بعضهم بعضاً ولا يذعنون كل الإذعان، وقد وقفت على أخباره كثيراً في التواريخ وكتب الآداب المؤلفة فانتقيت ما يحصل المراد من ترجمته فأقول إنه نشأ بمصر وحفظ القرآن وتلاه بالسبع على الشيخ الفقيه الورع الزاهد شهاب الدين أحمد المقدسيّ الحنبليّ، وأخذ عن قاضي القضاة محب الدين الحنفيّ قرأ عليه القراآت والفقه وسمع عليه كثيراً، وعن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز الحنبليّ الشهير بابن النجار قرأ عليه الصحيحين وبعض كل من السنن الأربعة وسمع عليه بعض معاني الآثار للطحاويّ وغير ذلك من كتب الحديث وغيرها، وتفوّق على أهل عصره في كل علم وكان إليه الرحلة من الآفاق وأفتى مدّة حياته وانتفع به الجم الغفير من كبار أهل زمانه ممن لا يحصى، ووَلِيَ المناصب الجليلة وحج مرتين، ورحل إلى القدس ثلاث مرات وألف التآليف النافعة في الفقه وغيره.

(١) وذكره ابن نوعيّ في «ذيل الشقائق» واستوعب ذكر علومه وأحواله ثم قال: وكان مع علمه الزاخر عالماً بغرائب الفنون وله أفاعيل عجيبة في باب السيمياء[١] منها ما حُكِيَ أن أحمد باشا الحافظ لما كان والياً بمصر في حدود سنة ألف غضب على بعض الجناة وكان له والد ووالدة فتوسلا بالشيخ فشفع عنده فيه فلم يقبل شفاعته فأراه في الحال من ضروب السيمياء أنه جاءه من طرف الدولة بريد وأنه خرج إلى استقباله في مركب فصادف مراكب الفِرَنج فأسروه هو وجماعته وربطوهم للجدف بالمجاديف فبينما هو كذلك إذ رأى الشيخ المترجَم واقفاً على ساحل البحر وهو

---

(١) «حاصله إحداث مثالات خيالية في الجو لا وجود لها في الحس» وطريقته أن «يركب الساحر شيئاً من خواص أو أدهان أو مائعات خاصة أو كلمات خاصة توجب مخيلات خاصة وإدراك الحواس مأكولاً أو مشروباً أو نحو ذلك، ولا حقيقة له» مفتاح السعادة: ٣١٦/١.

يخاطبه: كيف رأيت جدف المجاديف هل هو سهل وهل تريد الخلاص؟ فاستغاث به فمسك بيد الحافظ وحركه فتنبه ونظر إلى حالته فرأى نفسه في مقامه الأول والمجلس لم يتغير وكأنّ غيبته كانت لحظة فهوى على يد الشيخ يقبلها. وأمر بإطلاق ذلك الرجل.

(١) واتفق بعدها مع الحافظ المذكور أنه صحبه للتنزه في المكان المعروف بالسبيكة فطلب منه أن يريه شيئاً من الأعمال الغريبة في السيمياء فطلب الشيخ منه خاتمه الذي في يده فلما أعطاه إياه ألقاه في النيل، فبعد حِصّة من النهار جيء إلى المجلس ببطيخ فأشار إلى الحافظ بأن الهواء حار جداً فلا بأس بأن تقطعوا البطيخة أنتم ليحصل لكم رطوبة فامتثل أمره فلما فلقها خرج الخاتم في وسطها.

(٢) قال وحكى أنه نشأ له ولد وكان يميل إليه ميلاً زائداً فعلمه العلوم الغريبة بأسرها ثم إنه تغلغل في الهوى والفسق والفجور وتعرض لبعض حُرَم المسلمين فأفتى الشيخ بقتله آخراً وذهب إلى الحافظ وأمره بقتله فسجل عليه وقُتِل.

(٣) ومن فوائده المنظومة نظم من حفظ القرآن في زمنه صلى الله عليه وسلم:

وحافظ القرآن بالغيوب زيد أبو زيد أبو أيوب
عثمان منهم وتميم الداري عبادة معاذ الأنصاري

(٤) ونظمهم أيضاً وهم ثمانية:

وجامع القرآن في عصر النبيّ زيد وثابت معاذ وأبي
عثمان منهم وتميم الداري عبادة بن الصامت الأنصاري

(٥) وله نظم من أفتى في عصره صلى الله عليه وسلم:

فاز جمع في الصحب بالإفتاء فمعاذ مع أربع الخلفاء
وأبيّ ونجل مسعود زيد وابن عوف كذا أبو الدرداء

ثم سلمـان مع حـذيفـة عمـار مـع الأشـعـريّ رب الـثـنـاء

ورأى المصطفى ﷺ مرات عـديدة، ولم يـزل على هذا حتى حـل بحماه الحِمام[1] وتوفي سنة أربع بعد الألف وصلى عليه بجامع الأزهر في محفل حافل[2].

السلطان الكثيريّ

السلطان عمر بن بدر بن عبد الله الكثيريّ سلطان حضرموت بالشحر.

ذكره الشليّ وقال في ترجمته: كان حسن الشمايل، وافر العقل، كثير العدل. وكانت سيرته مرضية وله التفات تام إلى الرعايا، حسن السياسة، صادق الفراسة، صاحب أخلاق حميدة قَلَّ أن ورد عليه أحد من الغرباء إلا وصدر يثني عليه الثناء الجميل. وكان شجاعاً مقداماً، وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين وألف.

(١) وتولى بعده ابنه السلطان عبدالله وكان حسن الخلق والخلق مهاب المنظر آمراً بالمعروف نـاهياً عن المنكـر، وَلِيَ الملك فأحسن القيـام به وأظهر السطوة وقهر البادية وغيرهم فهابته النفوس وأمنت البلاد، ثم خرج عن أهله وماله وقصد الحرم الشريف وأعرض عن الملك وأقام بمكة إلى أن توفي في سنة خمس وأربعين وألف، ودُفِن بالشبيكة[3].

نفعي

عمر المعروف بنفعي بن رومي عالم الرّوم وشاعرها المتفوّق، وكان أحد أعيان كتاب الدولة وله شهرة طنانة.

(٢) قدم إلى قسطنطينية وتعانى الكتابة والأدب ومهر فيها وشعره غاية في

---

(١) أي: الموت.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٣/١٨٠ ـ ١٨٥.

(٣) «خلاصة الأثر»: ٣/٢٠٩ ـ ٢١٠.

الملاحة سيما مدائحه، وأما أهاجيه فلما يصل أحد إلى فحشها فيما أعلم وقد دوّنها، وحُكِي أنه لما تم جمعها وصل خبرها إلى السلطان أحمد فطلبها وقرئت بمحضر منه فما تمت قراءتها إلا وأرعدت السماء وأبرقت صاعقة بالقرب من مكان القراءة ولهذا شاع بين الناس أن قراءتها تورث بلاء.

(١) وأدرك عهد السلطان مراد، وكان السلطان يحبه ويقربه وتعجبه مسامرته، ولما وَلِيَ الوزراة العظمى بيرام باشا وكان طاعناً في السن وفيه غفلة أمره السلطان بهجائه فامتنع من ذلك فألح عليه السلطان ففعل قصيدة طويلة أفرط فيها كل الإفراط فبلغت الوزير فتألم وأكن له القتل ثم دخل الوزير إلى السلطان شاكياً منه وقال له: إن لم تقتل نفعي فقد اخترت أن تقتلني وأبرم على السلطان بذلك ففوّض إليه أمره فقتله هكذا تلقيته من الأفواه ثم حكى بعض من له اطلاع على أمره أن الوزير لما بلغه هجوه إياه طلب نائلي الشاعر المشهور وكان ممن تخرّج على نفعي وله به زيادة اتصال وأمره بأن يهجو نفعي ولا زال يبرم عليه حتى هجاه بقصيدة وكتبها للوزير بخطه وأعطاه إياها فطلب نفعي وأعطاه الورقة ففطن للغرض وأخذته الحدّة فطرح الورقة قبالة الوزير بغيظ فحنق الوزير وقتله في الحال وكان قتله في سنة اثنتين وأربعين وألف.

(٢) قلت: وقصة قتله شبيهة بقصة قتل ابن الروميّ وقد حكاها كثير من المؤرخين وذلك أن الفضل بن مروان وزير المعتصم العباسيّ دعا أناساً لوليمة صنعها ولم يدْعُ ابن الروميّ فافتكره في آخر الوليمة فجهز خلفه فلما حضر أحضِر طبقٌ فيه بيض مصبوغ سبعة ألوان فمدّ يده ابن الروميّ وأكل بيضة حمراء فصنع هذين البيتين وهما قوله:

وزيرنا أكرم من حاتم　　أكلت في دعوته بيضه
قد أدخلتها أمه في استها　　وضمختها بدم الحيضه

فلمّا سمع المعتصم البيتين ضحك ثم نادى ابن الروميّ وقال له:

اهجني، فقال: الله الله من ذلك يا أمير المؤمنين، كيف أهجو من مدحه الله ورسوله؟ فقال له المعتصم: هذا على سبيل المداعبة لأجل خاطر الوزير لا يغتاظ فامتنع من ذلك فألح عليه المعتصم، فقال:

ملوك بني العباس في الأرض سبعة ... ولم تأتنا عن ثامن لهم كُتْبُ
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة ... كرام إذا عدوا وثامنهم كلبُ

فضحك المعتصم وأسرها في نفسه وقال: متى خرج من عندي أشهر عني الهجو فلما حضر السماط[1] أخذ المعتصم سنبوسكة وشغلها بالسم وناولها لابن الرومي، فقام وأخذها ولم يشعر بما فيها فلما أكلها والسم فيها قام مستعجلاً وهو ماسك قلبه، فقال له المعتصم: إلى أين؟ فقال: إلى مكان بعثتني إليه، فقال: وإلى أين بعثتك؟ قال: إلى القبر، فقال له المعتصم: سلم على أبي هارون، فقال: مالي على جهنم طريق، قال: وهل أبي في جهنّم؟ قال: نعم، من تكون أنت ولده فما يكون مأواه إلا جهنم، وأتى منزله ومات[2].

الملك عنبر

الملك عنبر شنبو سنجس خان وزير الهند ومدبره ومرجع أهله، هو في الأصل حبشيّ ويُقال إنه من عبيد القاضي حسين المشهور بمكة ثم اشتراه بعض التجار وجلبه إلى الهند فاشتراه الوزير سنجس خان، ولما مات سنجس خان تنقلت به الأحوال إلى أن صار من عساكر عادل شاه صاحب بيجافور من إقليم الدكن وكان المال الذي يعطاه لا يكفيه لكثرة سماحته وإنفاقه فاستزاده من الوزير الأعظم فلم يزده فخرج الملك عنبر من حينه خائفاً يترقب، وكان السيد الجليل علي حدّاد باعلوي قد وعده بأنه سيصير ملكاً عظيماً فكان له ظهور عجيب يحتاج إلى تاريخ مستقل ولعذوبته ذكرته

---

(١) أي: المائدة.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٣/٢٢٨ - ٢٣٠.

لكني لخصته من ملخص ما ذكره الشليّ في ترجمته قال: وحاصله أنه خرج من عند عادل شاه سنة ست بعد الألف وهو يومئذ مفلس وخرج معه السيد علي ثم وصل به الحال إلى أنه لم يقدر على نفقة يومه، ثم أعلم السيد علياً بما هو فيه من ضيق الحال، فدعا الله تعالى فوجدوا ركازاً[1] جاهلياً، فاتسع أمره. وأكثر من العساكر والأتباع ولا زال أمره يعظم إلى أن ملك بلاداً كثيرة، وكان كلما ملك بلداً أو قرية أحسن إلى الرعايا وأظهر العدل والإحسان ونصب قاضياً للأحكام وحاكماً للسياسة، ثم استدعاه السلطان حسين نظام شاه من سلاطين الدكن فانحاز إليه وهو من أعظم سلاطين الهند لكن مذهبه في الاعتقاد مذهب الرفض وكان مقرّ سلطنته دولة آباد وكان وزيره الأعظم كافراً شجاعاً فاتكاً صاحب جيوش وأموال مستولياً على المملكة، وكان الملك عنبر يعجز عن مقاومته فصار يداريه ويترصد له فرصة حتى قتله على حين غفلة ووَلِيَ مكانه الوزارة العظمى ورأى السلطان محبته وجِدّه فأمدّه، واتفقت له وقائع كثيرة وفتح قلاعاً ونفذت كلمته واتسعت مملكته وأخرب الكنائس وعمر شعائر الإسلام، ثم مات السلطان حسين نظام شاه وكان ولده برهان صغيراً فعقد الملك عنبر له البيعة ولم يكن له من السلطنة إلا الاسم وجميع الأمور بيد الملك عنبر كما كان الخلفاء العباسيون ببغداد، ثم استبدّ الملك عنبر بالأمور واستمرّ في القتال والجِلاد وأزال المظالم من تلك الجهة وعمرها وأخمد الفتنة والبدعة وعمر المساجد والمآثر، وكان مؤيداً في حروبه ومغازيه مسدّداً في رأيه، مسعوداً في أحواله، وكان كثير الإحسان إلى السادة وأهل العلم وقصدته الناس من جميع البلدان فغمرهم بإحسانه خصوصاً أهل تَرِيم[2] من السادات.

(١) وكان عصره أحسن الأعصار وزمانه أنضر الأزمنة، وكان يحمل كل سنة إلى حضرموت من الأموال والكسوات للسادة والمشايخ والفقراء ما يقوم

---

(١) الركاز: الكنز المدفون.

(٢) بلدة في حضرموت.

بهم سنة، ووقف بمكة والمدينة مصحفين، واشترى في الحرمين دوراً ووقفها على من يقرأ فيهما ويهدي ثواب القراءة إليه، ومن آثاره الحسنة أنه عقّم نهر الكركي وهو نهر عظيم يمر تحت البلاد ولا تنتفع به وسبب ذلك أنّ بعض وزراء عادل شاه وهو المنلا محمد الخراساني استبعد وقوع ذلك لسعته وكثرة مائه وظنّ أنه يحتاج إلى عمل كثير لا يقدر عليه أحد من المخلوقات وغرم مالاً كثيراً للملك عنبر إن قدر على ذلك فشرع فيه وساعد القدر فكمل العمل في خمسة أشهر وجعل له قنوات تجري إلى البساتين والزراعات وكثر به النفع وجمع من في ذلك المكان من السادة والأعيان وأنعم عليهم وأجزل الصدقات وكانت عمارته في سنة أربع وعشرين وألف، وأكثر من شراء الحبوش وكانت التجار تجلبهم إليه ويتغالون في أثمانهم إلى أن كثروا جداً يُقال إن جملة ما اشتراه من الذكور نحو ألفي حبشي، وكان الجلب أوّل ما يشتريه يسلمه إلى من يعلمه القرآن والخط ثم إلى من يعلمه الفروسية واللعب بالسيف والعود والسهام إلى أن يتفرّس في أنواع الحرب والحيل والخداع ثم يترقى، وصاروا يترقون في المراتب ويتفاضلون في المناصب كلٌّ بمقدار سعيه واستحقاقه ومرتبته، وكان لهم اعتناء بإقامة الجماعة وأمور الدين، وكان لكل أمير منهم فقيه يتعلم منه الفقه وأمور الدين وإمام يصلي به ومؤذن وجماعة يتدارسون القرآن وجماعة يذكرون الله تعالى، وكان لكل أمير سماط مملوء بأنواع الأطعمة الفاخرة وبالجملة فإنهم وإن كانوا عبيداً حبشة فلم تكن العرب تفوقهم إلا بالنسب.

(١) وقصده جماعة من مشاهير شعراء عصره من البلاد الشاسعة ومدحوه بأحسن المدائح وكان السلطان إبراهيم عادل شاه أظهر له العداوة والحسد وبلغ غاية جهده في اضمحلال هذا الرجل وبذل أموالاً كثيرة لمن يقتله أو يسمه فلم يقدر له ذلك، ومن عداوته له أنه عزم جهان كير أعظم سلاطين الهند لمقاتلته وعهد إليه أن يبذل له في كل مرحلة مائة ألف هُن والهُن نحو دينار ذهباً فأرسل جهان كير بعساكر وخيل وأفيال ضاق عنها الفضاء وجرى على مراد الله القدر وأقبل عادل شاه بعساكر من الجانب الثاني وأيقن كل

من عند الملك عنبر بالهلاك فجمع من عنده من السادة الأشراف والعرب وطلب منهم أن يجتمعوا للدّعاء كل يوم وبذل الخزائن للعساكر وأقبل بعساكره على القتال ثابتين ثبات الجبال وحمل بمن معه فقتلوا خلائق لا يحصون وأسروا من وزراء جهان كير وعادل شاه أربعين أو يزيدون ورجع الملك عنبر ظافراً منصورا. ثم بعد ذلك جرد الحِمام[1] سيفه عليه ومزق جلباب ملكه وتوفي في سنة خمس وثلاثين وألف، وأكثر الناس والضعفاء والفقراء والأرامل والأيتام من البكاء حول جنازته ويُقال إنه لم يعهد عند أهل الهند مثل ذلك اليوم ودُفِن بالروضة وهي موضع بالقرب من دولة آباد ورثاه الشعراء والفضلاء وأحسن المراثي وكان موته بالسم.

وبعد موت الملك عنبر فوّض السلطان برهان نظام شاه تدبير مملكته إلى عبد العزيز فتح خان أكبر أولاد الملك عنبر وجعله أمير الأمراء وكان شجاعاً مقداماً كبيراً سخياً لكنه قليل التدبير مبذر لا يصغي لقول مشير وارتكب الأمر الفظيع فكان حَجاج زمانه ووقع بسببه فتن ثم تضعضع الزمان وآل ذلك إلى حصاد العلم والدين إلى أن رماه الدهر عن قوس وزارته ثم خربت تلك الديار وذهبت بهجتها.

(١) قال الشليّ: قلت: وقد تكرّر ذكر الدكن في هذه الترجمة وقد يتشوّف إلى الوقوف على معرفته من لا معرفة له بحقيقته وتفاصيل أمره تحتاج إلى تأليف كبير ولا يحتمل هذا المحل إلا اليسير فلنذكره بطريق الإجمال لضيق المجال، ومجمل ذلك أنه إقليم عظيم من أقاليم الهند التي هي أمّ الدنيا، كثير الحصون والقلاع حسن الهواء كثير الأمطار والأنهار والبساتين، أعدل الأقطار وفيه حصون وقلاع وفي غاية الاستحكام والإتقان، وكل قصر شامخ له شرف في السماء باذخ تحاكي الأهرام في إحكام البنيان عالية البناء تسامي السماء، وهي الروضة المورقة والغَيْضة المونقة، وقلاعها مشحونة

---

(١) الحِمام: الموت.

بآلات الحرب والمدافع الكبار مملوءة بالمكاحل الكثيرة حصينة الحصار، وأهل حرفه أحذق الفطناء، وأفطن الحذاق، فما من صنعة إلا ومن مشربهم مطلعها، وما من حكمة إلا وعندهم شرفها وإليهم منزعها، وما من حرفة توجد إلا وجدتها فيهم، وما من عمل يعرف إلا اجتني من مغانيهم.

ومن أعظم حصونه حصن دولة آباد الذي ضاهى إرم ذات العماد وهو عجيب الوضع والبناء بحيث يزعم الناظر إليه أنه من وضع الجنّ لغرابة أمره.

ومن عادة سلاطينها وملوكها ووزرائها أنهم يعتنون بالليالي الفاضلة كليلة العيدين وليالي رمضان يحيونها بالذكر وتلاوة القرآن ويجتمع عندهم في تلك الليالي العلماء والصلحاء والقراء والكبراء والفقراء ويمدّون لهم الأسمطة العظيمة[1].

ثم حصل لهاتيك الديار تغير واضمحلال بسبب أنهم اتخذوا رؤساء جهلاء، والله أعلم[2].

غازي باشا

غازي باشا بن شاهسوار الجركسيّ الأصل، أحد وزراء الدولة العثمانية.

كان من مشاهير فضلاء الوزراء مطلعاً على كثير من المسائل والنكات، عارفاً باللغات العربية والفارسية والتركية، حافظاً لكثير من أشعارها.

كان والده من الأمراء واقتفى هو أثره في طليعة عمره، ثم صار أمير الأمراء بمدينة قونية، ولما وَلِيَ الوزير البشير الوزارة العظمى توجه من حلب

---

(١) الأسمطة: الموائد.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٣/٢٣٠ - ٢٣٣.

قاصداً بلاد الروم ومر على قونية فاستدعاه ووجه إليه نيابة الشام فقدم إليها في نهار الخميس خامس جمادى الأولى سنة خمس وستين وألف.

(١) وكان شاباً خفيف اللحية جميل المنظر وكان مع حداثة سنه ورقة طبعه معرضاً عما يقتضيه الشباب من غلوائه مقبلاً على محبة العلماء لا يُعرف له صبوة وربما أنه ما نظر إلى وجه أمرد، وحُكي عنه أنه طلع يوماً للتنزه في الوادي التحتاني فالتقى مع جماعة من أرباب الصنائع خرجوا للسير فأرسلوا له قهوة مع شاب منهم خالي العِذَار[1] فلم يتناولها منه وأمر بعض أتباعه من الكهول بمناولتها.

ثم صرف عن دمشق في ثالث ذي القعدة سنة خمس وستين وجاءته رتبة الوزارة وهو مقيم بها، ثم رحل إلى الروم ووَلِيَ بعد مدة محافظة مصر وورد دمشق وهو متوجه إليها وذلك سنة سبع وستين واستمرّ بها حاكماً ثلاث سنين وسيرته فيها مذكورة مشكورة.

(٢) ثم عزل عنها وأسند إليه بعض أمور هو بريء منها فحبس أياماً ثم قُتِل ودُفِن بالقرافة تجاه شباك الإمام الشافعيّ رحمه الله تعالى وكان قتله في سنة إحدى وسبعين وألف.

(٣) ومن لطائفه أنه كتب إليه الأستاذ محمد بن زين العابدين البكريّ وهو في السجن رسالة في شأن مال أخذه منه تعدياً في زمن توليته من جملتها إن كان الذي أُخِذ منا من المال عاد عليكم فأنتم في حلّ منه وإن كان عاد إلى الغير فلا بأس بالإعلام به لنسترجعه فكتب إليه الجواب بيتاً ولم يزد عليه وهو:

شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة ... وللأرض من كأس الكرام نصيب

(٤) وحُكِي أنه لما قُتِل وُجِد في جيبه كاغد مكتوب عليه هذه الأبيات وكان وهو في السجن كثيراً ما ينشدها وهي:

---

(١) العذار هو الشعر النابت على الخدين.

تَجنَّوْا لي ذنوباً ما جنتها يداي ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله ما أضمرت غدراً كما قد أظهروه ولا نويت
ويوم الحشر موقفنا وتبدو صحيفة ما جنوه وما جنيت
ويحكم بيننا المولى بعدل فويل للخصوم إذا ادّعيت

قلت: وقد تداولت الناس هذه الأبيات كثيراً وخمسوها وأغلبهم يظن أنها من نظمه. وليس كذلك فإنها للأمير أسامة بن منقذ ذكرها في ترجمته ابن خلكان ولها أبيات أُخَر في أولها مثبتة في ديوانه وكان كتبها لأبيه جواباً عن أبيات كتبها أبوه إليه وهي:

وما أشكو تلون أهل ودّي ولو أجدت شَكِيّتهم شكوت
مللت عتابهم ويئست منهم فما أرجوهمو فيمن رجوت
إذا أدمت قوارصهم فؤادي كظمت على أذاهم وانطويت
ورحت عليهمو طلق المحيا كأني ما سمعت ولا رأيت

تجنوا إلى آخر الأبيات[1].

فخر الدين بن معن

الأمير فخر الدين بن قرقاص بن معن الدرزيّ الأمير المشهور من طائفة كلهم أمراء ومسكنهم بلاد الشوف، ولهم عراقة قديمة ويزعمون أن نسبتهم إلى معن بن زائدة ولم يثبت. وكان بعض حفدة فخر الدين حُكِي لي عنه أنه كان يقول: أصل آبائنا من الأكراد سكنوا هذه البلاد فأطلق عليهم الدروز باعتبار المجاورة لا أنهم منهم وهذا أيضاً غير ثابت فإنهم منشأ زندقة هذه الفرقة وكثرتهم.

وفخر الدين هذا وَلِيَ إمارة الشوف من جانب السلطنة بعد موت أبيه وعلا شأنه وتدرج واستولى على بلاد كثيرة منها صيدا وصفد وبيروت وما في تلك الدائرة من أقطاع كالشقيف وكسروان والمتن والغرب، وخرج عن

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٢٤٤ - ٢٤٦.

طاعة السلطنة، ولما وصل خبره إلى مسامع الدولة بعثوا لمحاربته أحمد باشا الحافظ نائب الشام وكثيراً من أمراء هذه النواحي فلم يقابلهم وهرب إلى بلاد الفِرنج وأقام بها سبع سنين إلى أن عزل الحافظ عن نيابة الشام فطلع إلى مستقرّه في شوال سنة سبع وعشرين وألف وزاد بعد ذلك في الطغيان والاستيلاء على البلاد وبلغت أتباعه إلى نحو مائة ألف من الدروز والسكبان[1] واستولى على عجلون والجولان وحوران وتدمر والحصن والمرقب وسليمة وبالجملة فإنه سرى حكمه من بلاد صفد إلى أنطاكية وتنبل ولده الأمير علي ووليَ حكومة صفد، وكان وقع بين فخر الدين وبين بني سيفا حكام طرابلس الشام حروب شديدة ودهمهم مرة فنهب دمشق وأباد كثيراً من ضواحيها وكان سبباً لخراب هاتيك البلاد، ثم صاهر بني سيفا هو وابنه وتزوجا منهم وجاءهما أولاد.

وبلغت شهرته الآفاق حتى قصده الشعراء من كل ناحية ومدحوه ورأيت مدائحه مدونة في كتاب يبلغ مائة ورقة وأكثرها قصائد مطولة، ولما تحقق السلطان مراد مخالفته وتعديه بعث لمقاتلته الوزير المعروف بالكوجك عين معه أمراء وعساكر كثيرة فركب عليه وقتل أوّلاً ابنه الأمير علياً ثم قبض آخراً عليه وجهزه إلى طرف السلطنة فقتله السلطان، وكان قتله في سنة ثلاث وأربعين وألف، ورأيت في المجموع الذي جمعت فيه مدائحه أن ولادته كانت في سنة ثمانين وتسعمائة.

(١) والدرزية طائفة كبيرة ينتسبون إلى رجل من مولدي الأتراك يُعرف بالدرزيّ وقد ظهر في زمن الحاكم بأمر الله العبيديّ هو ورجل أعجميّ يُقل له حمزة وكان الحاكم لعنه الله يدعي الإلهية ويصرح بالحلول والتناسخ ويحمل الناس على القول بذلك، وكان حمزة والدرزيّ ممن وافقوه وأظهروا الدعوة إلى عبادته والقول بأن الإله حل فيه واجتمع عليها جماعة كثيرة من غلاة الإسماعيلية.

---

(١) طائفة مرذولة أصل عملها رعاية كلاب صيد السلطان.

فثـار عليهم عوام المصـريين فقتلوا أكثرهم وفـرقوا جمعهم، وذكـر صاحب «مرآة الزمان» أن الدّرزيّ المذكور كان من البـاطنية مصـراً على ادعاء الربوبية للحاكم لعنهما الله تعالى وصنف له كتاباً ذكر فيه أن الإله حل في عليّ وأن روح عليّ انتقلت إلى أولاده واحداً بعد واحد حتى انتقلت إلى الحاكم وتقدّم بذلك عند الحاكم وفوّض إليه الأمور بمصر ليطيعه الناس في الدّعوة وأنه أظهر الكتاب فثار عليه المسلمون وقتلوا جماعته وأرادوا قتله فهرب منهم واختفى عند الحاكم فأعطاه مالاً عظيماً وقال له: اخرج إلى الشام وانشر الدعوة هناك وفرق المال على من أجاب الدعوة، فخرج إلى الشام ونزل بوادي تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق من أعمال بـانياس فقـرأ الكتاب على أهله واستمالهم إلى الحاكم وأعطاهم المال وقرّر في نفوسهم التناسخ وأباح لهم الخمر والزنا وأخذ يبيح لهم المحرمات إلى أن هلك لعنه الله تعالى.

(١) فهذا أصل وجود الدروز في هذه البلاد، وأمّا القول فيهم من جهة الاعتقـاد فهم والنصيريـة والإسماعيليـة على حد سـواء والجميـع زنـادقـة وملاحدة وقـد صرح قـاضي القضاة ابن العـز والشيـخ بـرهـان الـدين بن عبد الحق من الحنفية، والشيخ صدر الدين بن الزملكاني والشيخ البلاطنسيّ والشيخ جمال الدين الشربينيّ من الشافعية، والشيخ صدر الدين بن الوكيل من المالكية، والشيخ تقيّ الدين بن تيمية من الحنابلة في فتاويهم وغيرهم أن كفر هؤلاء الطوائف مما اتفق عليه المسلمون وأن من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم وأنهم أكفر من اليهود والنصارى لأنهم لا تحل مناكحتهم ولا تؤكل ذبائحهم بخلاف أهل الكتاب وأنهم لا يجوز إقرارهم في ديار الإسلام بجزية ولا بغير جزية ولا في حصون المسلمين، وجزم الشيخ ابن تيميـة بأنهم زنادقة وأنهم أشدّ كفراً من المرتدّين لأنهم يعتقدون تناسخ الأرواح وحلول الإله في عليّ والحاكم ومن طالع كتبهم عرف حقيقتهم الخبيثة فإن فيها ما يستبشع جدّاً. ومن جملة معتقداتهم أن الإلهية لا تزال تظهر في شخص بعد شخص كما ظهرت في عليّ وشمعون ويـوسف وفي غيرهم

وأنها ظهرت بعد ذلك في الحاكم، وأن كل دور يظهر فيه إله، ويقولون هو الآن ظاهر في مشايخهم الذين يسمونهم العقال، ويجحدون وجوب الصلاة وصوم شهر رمضان والحج ويسمون الصلوات الخمس بأسماء غيرها ويوالون من تركها، ويجعلون أيام شهر رمضان أسماء ثلاثين رجلاً ولياليه أسماء ثلاثين امرأة وهكذا يقولون في سائر الشريعة المطهرة، وينكرون قيام الساعة وخروج الناس من قبورهم وأمر المعاد. ويقولون بتناسخ الأرواح وانتقالها إلى أبدان الحيوانات وأن من ولد في تلك الليلة انتقلت روح من مات فيها إليه، ويقولون إن العالم أرواح تدفع وأرض تبلع، وبالجملة فمعتقدهم ضلال كله وإنما ذكرت حالهم وأطلت فيه لكثرة تشعب الآراء فيهم فهذا يقرر ما هم عليه في الأذهان وبالله تعالى التوفيق.

المحبي

فضل الله بن محب الله بن محمد تقيّ الدين والدي المرحوم، الدمشقيّ المولد والوفاة.

كان حسن المعرفة بفنون الأدب يجمع تفاريق الكمالات ويرجع معها إلى لفظ عذب ومعرفة باللغتين الفارسية والتركية، واستكثر في أوائله من القراءة على الشيخ أحمد بن شمس الدين الصفوريّ فأخذ عنه الفصاحة وتفتحت له أبواب الشعر ثم لزم الشيخ عبد اللطيف الجالقي فأخذ عنه الفقه وسما في حداثة سنة إلى مراتب أعيان الأدباء التي لا تدرك إلا مع الانتهاء.

(١) وكان قويّ البديهة حسن المناسبة. حكي لي من لفظه قال: إن والده دُعِيَ إلى وليمة وكان فصل القيظ قد اشتد فحضر وفي يده مروحة وكان الأديب أحمد بن شاهين أحد من حضر فقال: جاءنا المحبيّ بمروحتين يعني المروحة الحقيقية وكبر اللحية، وكان الشاهينيّ أحول فلما بلغ والدي مقالته قال: هو رآها ثنتين وهي في نفس الأمر واحدة، وله من هذا القبيل أشياء أُخَر.

(١) وكان يحب المداعبة ويستعملها إذا خلا مع بعض خلانه، وأذكر ليلة خرج الناس بالجامع ينظرون هلال شهر رمضان فرآه رجل من جيراننا وحده ولم يزل يومىء إليه حتى رآه معه غيره وعاينوه ثم جاء إلى الوالد مهنياً وهو مفتخر برؤية الهلال وحده فقال له: أخشى على بصرك من تحديقك فيه أن لا تراه ليلة عيد الفطر.

ومات أبوه وسنه ست عشرة سنة فاتصل بخدمة العلامة عبدالرحمن العماديّ المفتي وتخرج بالاقتباس من نوره والاغتراف من بحره وراض طبعه على أخذ نمطه في الإنشاء فصار منشئاً متبحراً في ترسله وشعره وإن كان جيداً إلا أن نثره أجود وألطف موقعاً وأبدع صنعة. وأنا ـ بحمد الله تعالى ـ قد أخذت الإنشاء عنه وتلقيت أساليبه منه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وكان أخذ الحديث عن النجم الغزي وأجازه إجازة عامة في سنة ثمان وأربعين وألف. ثم سافر إلى حلب في سنة ثمان وأربعين وألف، وألّف في سفرته هذه رحلته الحلبية ثم سافر إلى الروم في سنة إحدى وخمسين وألّف رحلته الرومية وأقام بها مقدار سنة، ثمّ رجع إلى دمشق وأقام مشتغلاً فيها بالتأليف، ثمّ رحل إلى مصر في سنة تسع وخمسين في خدمة قاضيها المولى محمد بن عبدالحليم البورسويّ وناب عنه في محكمة الصالحية وحظي عنده كثيراً، ولم يزل مدّة إقامته مشتغلاً بأخذ العلم على كبراء الجامع الأزهر، ثم قدم إلى وطنه وهو مريض واسترسل به المرض حتى استغرق عمره فتخلى للتأليف.

(٢) وأما منشآته فكثيرة جداً ولما كانت هي المقصودة بالذات من آثاره ذكرت فصولاً منها ليتم الغرض فمن ذلك قوله من فصل كتب به إلى قاض نُقِل إليه عنه أنه يزدريه: مولاي حرس الله تعالى مجلسه، وشرح صدره وأدام أنسه، إن الأعداء ما زالوا يترقبون فرصة ويرتادون وسيلة ليتوصلوا بها في القدح بي لدى هاتيك الحضرة الجليلة حتى غفل البواب وفتح لهم الباب، رتبوا شباك الغدر ونصبوا حبائل المكر واستفرغوا في السعاية جهدهم، وأخرجوا أقصى ما عندهم، وسلكوا في الافتراء طريقاً عجباً،

وكانوا يتمنون لذلك سبباً، ولو رأيت ما افتروه في المنام، لتحققت أنه أضغاث أحلام، وتعوّذت بالله من شر منامي، وسألته سبحانه العافية من طوارق أحلامي، ولظننت أن تلك الرؤيا نتيجة فكر رديّ وبخار خلط سوداويّ، وإنما دفعت في منامي إلى هذا التخليط لأكل الباذنجان والقنّبيط، فبحق حياتك العزيزة عندي، وشرف طبعك الذي استأثر بمجموع شكري وحمدي أن ما قيل من محض الأباطيل، ودعوى من غير دليل، والله على ما نقول وكيل، اللهم إنا نسألك عقلاً يعقلنا عن مثل تلك الحماقات، ورشداً يمنعنا عن تلك الدعاوى الباطلات:

والدعاوى ما لم يقيموا عليها   بينات أبناؤها أدعياءُ

فالباطل يصغر من حيث يكبر، ويقل من حيث يكثر، والسعاية سلاح من لا سلاح له، والكذب كيد من لا كيد له، فمن جبل على الكدر لا يصفو أبداً، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً.

(١) ومن فصل آخر كتب به إلى صديق له عزل عن منصب وبدل بشخص دنيّ: يعز عليّ أن أنظر إلى ذلك الصدر وقد جلس فيه غير ذلك البدر وإني لأستحي لعيني أن أفتحها على الصغير وقد جلس مجلس الكبير فإني لذلك ضيق ساحة الصدر، فما أسرع الأيام على الكريم فيما يضره وعلى اللئيم فيما يسره، فترفع كل وغد خسيس وتخفض كل حر نفيس، فما هي إلا البحر تسفل فيه الجواهر النفيسة وتطفو فيه الجيفة، وكالميزان يرفع من الكفة ما يميل إلى الخفة، ويخفض ما يفي بالرجحان ويبعد من النقصان، ولا بدع فهي علامة على قيام القيامة، وهذا الخروج مقدّمة يأجوج ومأجوج:

يا ضيعة الأعمار في طلب العلى   بالعلم والنسب الذي بالشين

على أن المنصب يشرف بصاحبه، والمركب يجل براكبه فالصغير منه بالكبير كبير والكبير منه بالصغير صغير.

أنت الكبير الذي لا العزل ينقصه   قدراً ولا المنصب العالي يشرّفه

وهي جلسة خطيب، وسحابة صيف تقشع عن قريب، ومن فرح النفس ما يقتل وقد تهافت تهافت الفراش بالشهاب، وولغ ولوغ الذباب في الشراب، ولو أن الدهر يجيب من خاطبه ويعتب من عاتبه لاستدركت هذه الغفلة عليه وفوّقت سهام الملام إليه، لكنه أصم عن الكلام، صبور على وقع سهام الملام، فمن عمود إلى عمود فرج، وكم صِبر يُشم منه طيب الأرَج[1].

فنثره كما تراه مفرغ في قالب السلاسة، خال من وصمة التعقيد، وفيه معان عذبة وألفاظ رائعة.

وكانت ولادته سنة إحدى وثلاثين وألف، وتوفي سنة اثنتين وثمانين وألف وصلِي عليه بجامع بني أمية[2].

فضل الله باشا

فضل الله باشا الوزير نائب اليمن، وَلِيَها بعد محمد باشا فكان وصوله إلى بندر الصليف في ثاني شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وثلاثين وألف ودخل صنعاء في رجب من هذه السنة.

هو في جميع أحواله من أهل الحزم والدّهاء، وكان يخاف من الله تعالى ويلوذ بالصالحين، وكان كثير الصدقات للعلماء والسادة والفقراء، وكان يدور في الليل بنفسه على بيوت الأشراف ويحسن إليهم، وكان مجدّاً في الأمر بالصلوات في الجماعات ومن تأخر عاقبه وبرزت أوامره إلى سائر الولاة بأن يأمروا كافة أهل الإسلام بحضور الجماعات حتى عمرت المساجد في زمنه، ونُسي اسم الخمر، وكان يسعى على قدميه إلى الجوامع للصلوات، وكان زمانه زمان خصب وخير رخصت فيه الأسعار وكثرت الأمطار وحصل الأمن في الطرقات، ولما وصل الخبر إليه بأن بلاد

---

(١) ريح الطِّيب.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٣/٢٨٦ - ٢٨٧.

اليمن قد وجهت للوزير حيدر باشا نهض قبل مجيئه بسبعة أشهر خوفاً أن يقع في جانبه كما وقع على من تقدّمه من الحكام وخاف من عاقبة هذا الأمر أن يكون سبباً لخراب البلاد فلم يملك نفسه في التربص والتوقف مع علوّ صيته وبطشه في الحروب حين كان في اليمن بل شمر ونهض معلناً أنه يريد أن يطوف في ولاية اليمن وقد فعل قبل ذلك ليكون سبيلاً لمثل ذلك وأن مراده إظهار العدل والإنصاف ولأجل قمع شوكة الفِرَنج الذين تسلطوا على المراكب في البحر وكان خليقاً بهذا الأمر لولا استعجاله بالنهوض وباطنه بخلاف ما أظهر فإنه أضمر في نفسه الخلوص من اليمن قبل أن يحصل له فتنة فكان خروجه من صنعاء في حادي عشرى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وألف فوصل إلى أبي عريش وهي انتهاء حدّ ولاية اليمن وذلك في شعبان من السنة المذكورة فانتقل إلى رحمة الله تعالى[1].

كيوان

كيوان بن عبدالله أحد كبار أجناد الشام.

كان في الأصل مملوكاً لرضوان باشا نائب غزة، ثم صار من الجند الشاميّ وسردارا[2] عند صوباشي[3] الصالحية فنزع إلى التعدّي وأخذِ الناس بالتهمة وتطاول إلى أخذ أملاكهم حتى استولى على أكثر بساتين الربوة والمزة وضم بعضها إلى بعض.

(١) وكان إذا أخذ حصة في مكان احتال على الشركاء فيه حتى يأخذ أشقاصهم[4] طوعاً أو كرهاً، وكان يساعده على ذلك نوّاب محكمة الباب وأعيان شهودها ويبالغون في نصيحته في كتابة التمسكات يعلمونه الحيلة وهو يبالغ في إكرامهم.

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٢) السردار: قائد الجيش.

(٣) الصوباشي: رئيس فرقة من الفرسان.

(٤) أي: نصيبهم.

(١) ومن غريب خبره أنه كان مستأجراً لبستان من بساتين وقف بني العنبريّ قرب المزة وكان ملاصقاً لبساتين بيده فطلب من ناظر الوقف أن يأذن له بقطع الغراس ويحكره أرض البستان فلم يفعل ووقع بينه وبينه مشاجرة فأدّى طغيان كيوان إلى أن جمع جمعاً من الفلاحين وأتى بهم إلى البستان ليلاً وأمرهم بقطع جميع غراسه الكبير ففعلوا وغرسوا مكانه غراساً لطيفاً وحرثوا الأرض وغيروا حدود البستان وبابه وأضافوه إلى بساتينه ثم استدعى قاضي القضاة بالشام للكشف عليه وأحضر أولاد العنبريّ فادّعوا أن البستان داخل في وقفهم وأبرزوا كتاب الوقف فقرىء بالمحضر العام فلم توافق الحدود والغراسات فمنعهم القاضي وسلط يد كيوان على البستان.

(٢) وبقي كيوان يترقب لابن العنبريّ الناظر فرصة ليوقعه في هلاك حتى قدم نائب الشام محمد باشا في سنة إحدى بعد الألف فتقرّب منه كيوان وأطمعه بجريمة عظيمة في أن يوقع بابن العنبريّ فعلا فأمر منادياً ينادي على الخواجا محمد بن العنبريّ بأن من له عنده من جهة بستان أو معاملة أو ظلمه أو زوّر عليه فليحضر في غد بعد صلاة الجمعة إلى الحجاجية وهو بستان بالقرب من القنوات كان قد ادّعى المذكور أنه اشترى نصفه من رجل وأبرز تمسكات تشهد بذلك فلما كان من الغد بعد صلاة الجمعة صلى الباشا في السنانية وأرسل خلف الشيخين الشيخ محمد وأخيه الشيخ إبراهيم ابني سعدالدين فخرجا من الجامع بالفقراء وانضم إليهما من رعاع الناس من لا يحصر وأرسل الباشا إلى القاضي فحضر وأمر بإحضار ابن العنبريّ فأحضر وعقد له مجلس بالبستان وادّعى عليه السيد محمد الجعفريّ بأن من الجاري في وقف السبع النوريّ البستان المعروف بالحجاجية وأن الخواجا محمد المذكور وضع عليه يده بغير طريق فسئل عن ذلك فأجاب بأنّ نصفه بيده بطريق الإجازة والنصف الآخر بطريق الشراء من فلان وأبرز من يده تمسكات تشهد له بطبق جوابه فأبرز الجعفريّ ما يدل على أنّ جميع البستان وقف السبع النوريّ فقال له القاضي: يا رجل هذا ظهر به كتاب وقف يشهد بوقفيته فكيف تشتري ما هو وقف؟ فقال: لم أعلم بكونه وقفاً

وإنما اشتريته على كونه ملكاً كما يشهد لي بذلك هذه التمسكات على أني لما اطلعت على كونه وقفاً خرجت عنه وأعدته وقفاً كما كان وأظهر تمسكاً يشهد بإعادته وقفاً كما كان، فقال له القاضي: يلزمك ريع مدّة وضع يدك عليه فقال: إن لزمني شيء دفعته فقال له القاضي: ألزمتك بمائة قبرصيّ بدل ريعه الذي استوفيته منه فقال: نعم أدفع ذلك، فلما لم يظهر في هذه الدعوى نتيجة كبيرة قال الجعفريّ للشيخين ومن معهما: يا مشايخنا ويا ساداتنا ماذا تقولون في هذا الرجل وفي سيرته؟ فقال الشيخان: نشهد أنه رجل مزوّر مفسد ورموه بأمور وأجابهم الناس من كل جانب هذا مزوّر مفسد واجب القتل وأمثال هذا حتى صار للخلق ضجة عظيمة فأمر بردّه إلى القلعة والناس خلفه يضجون عليه ـ قيل كان هيأهم لذلك كيوان ـ ووقع بعد ذلك أنّ الباشا أمر بدمغ الخواجا محمد بن العنبريّ فدمغ بالنار في جبهته وأنفه ووجهه وأركب حماراً مقلوباً وكشف رأسه وعري حتى صار بالقميص وطيف به في أسواق دمشق وشوارعها: هذا جزاء من يزوّر على أوقاف نورالدين الشهيد ثم بعد التطواف به أُعيد إلى القلعة وحزن الناس عليه حزناً عظيماً وكل ذلك كان بتدبير كيوان لعداوته له.

(١) ثم عظم أمر كيوان وانتقل إلى سردارية دمشق[1] وأخذ أكابر أهلها بالحيلة وعوامهم بالرهبة وكان له كُتخداً[2] يُقال له إبراهيم بن البيطار وكان من أخبث الناس وأسعاهم في الأذية. وكان من جملة خيانته أنه يحتال بنسوة عنده بأخذ المرأة منهنّ حلياً أو حاجة من نساء الأكابر، إمّا على سبيل العرض على البيع أو على سبيل العارية وتأتيه به فيأخذه في كمه ويذهب إلى وليّ تلك المرأة وهو مظهر لحزنه وهمه ثم يطلعه على ما يكون معه سرّاً ويقول له: قد دفعت اليوم عنك شرّاً فإن صاحبة هذا المتاع أخذها البارحةَ جماعةُ العسس في جمعية فخفت عليك من غائلة هذه القصة فقلت

---

(١) قيادة جيش دمشق.
(٢) الكُتخدا: الوكيل المعتمد.

هذا المتاع لبنتي أو لأختي خذ هذا المتاع واكتم هذا السر وقد وزنت عنك لكيوان كذا وكذا فما يسع الرجل إلا أن يدفع إليه المال ويتحمل منته، ولم يزل كيوان على تجريه حتى وقع بينه وبين الجند فتنة عظيمة وصمموا على قتله وقتل كتخداه ابن البيطار فاختفيا ثم هرب ابن البيطار فلحق بالدروز ثم نزل في البحر وسافر إلى مصر وضبطت أمواله، واصطلح كيوان مع الجند بعد أمور جرت وبقيت الضغينة في قلبه لهم.

(١) ولما كانت فتنة الأمير علي بن جانبولاذ تعين لمحاربته الأمير يوسف بن سيفا كما تقدّم ومعه أمراء الشام فبعثوا كيوان إلى أحمد باشا أمير غزة ليأتي به فوافق وصوله موت أمير غزة وكان ابن سيفا والعساكر تلاقوا مع ابن جانبولاذ وكسروا، فوصل خبر الكسرة إلى غزة فرجع كيوان منها إلى ابن معن وحمله على معاونة ابن جانبولاذ واغتنم الفرصة وما زال بابن معن حتى قوّى رأس ابن جانبولاذ على المسير إلى دمشق وانتهاك حرمتها وانتهبوا ما أمكنهم نهبه من خارجها، ثم إنّ السلطان عين الوزير مراد باشا لمقاتلة ابن جانبولاذ فلما وصل إلى حلب قاتله وفتك فيه وفي أعوانه حتى كاد يستأصلهم فذهب أهل الشام إليه للشكاية على ابن معن فترك الوزير ابن معن على حاله ثم رجع كيوان إلى دمشق بالأموال السلطانية من عند ابن معن واستقرّ قليلاً ثم عاد إلى الفتن ورجع ابن معن إلى التمرّد على حكام الشام حتى وَلِيَها الحافظ أحمد باشا الوزير فكاتب في شأنه إلى عتبة السلطان فجهز إليه العساكر من أوّل ولاية أناطولي إلى أرض دمشق ثم خرج إلى ابن معن فحصل له ولكيوان رعب شديد واقتضى رأيهما آخراً إلى أن نزلا البحر ولحقا ببلاد الفِرَنج واستقرا هناك إلى أن عزل الحافظ عن ولاية الشام فخرج كيوان من صيدا وحده وترك ابن معن في بلاد الفِرَنج ليكشف له الحال فرأى محمد باشا الوزير قد صار سرداراً[١] على العجم ونزل حلب وأراد تصحيح أمر الشام فخرج إليه الأمير يونس بن الحرفوش

---

(١) أي: قائد الجيش المتقدم لمحاربة العجم.

أمير بعلبك وكيوان وتوافقا معه على أن يهدما قلعة الشقيف وقلعة بانياس ويسلما إليه مالاً وتعطى البلاد لابنه الأمير عليّ وطلبا الأمان للأمير فخرالدين فجاء من بلاد الفِرَنج، وكان كيوان قد استقرّ بدمشق فأظهر أنه انفرد عن ابن معن واستقل أمره في الشام ثم ذهب إلى مكة ورجع وقد أظهر كثيراً من عمل الخير وسمى نفسه الحاج كيوان وأمسك عن قبول هدية الناس وبقي في انفراده وصدارته إلى أن تحرّك ابن معن على البقاع وخرج لمقاتلته الوزير مصطفى باشا الخناق نائب الشام وكان كيوان ممن سارع إلى ابن معن لمعاونته ولما انكسر عسكر الخناق وقبض ابن معن عليه وقعت الفتنة بين ابن معن وكيوان بسبب ذلك وآل الأمر بينهما إلى أن ضرب ابن معن كيوان بخنجره في رأسه فقتله وكان قتله في صبيحة يوم الخميس الثالث والعشرين من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وألف ودُفِن عند باب دمشق من أبواب بعلبك، وذهب دمه هدراً، والله تعالى أعلم[1].

الرامينيّ

محمد بن إبراهيم بن عمر، القاضي أكمل الدين، الرامينيّ، المحدث الرُّحَلة المؤرخ.

أخذ عن مشايخ عصره، ثم سافر إلى الروم وأقام بها مدّة، ووَلِيَ قضاء بعلبك وصيدا ثم استقرّ بدمشق.

(١) وكان كثير الفوائد ورأيت بخطه مجاميع كثيرة ونقلت عنها أشياء مستظرفة فمن ذلك هذه الفائدة فيما تقوله العرب إنه أحد الشيئين: حُسن شَعْر المرأة أحد الوجهين، والقلم أحد اللسانين، وحسن المرافقة أحد النفقتين، ونشيد الهجاء أحد الهجاءين، والعَزْل عن المرأة أحد الوأدين، والأدب أحد الحَسَبين، وحسن المنع أحد البَذْلين، والسؤال عن الصديق أحد اللقاءين، والتثبت أحد العزمين، والقرض أحد الهبتين، والتلطف في

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٢٩٩ - ٣٠٣.

الحاجة أحد الشافعين، واللطافة أحد الحضتين، وحسن الخط أحد البلاغتين، واليأس أحد الراحتين، والطمع أحد المعرتين، وسوء الخلق أحد المصيبتين.

(١) ومن ذلك هذه العجيبة قال: أخبرني شيخنا شيخ الإسلام أبو الفتح المالكيّ ابن عبدالسلام أنه لما توجه في سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة إلى دار السلطنة قسطنطينية نزل بمدينة قونيه فرأى بها رجلاً بلحية كبيرة سائلة إلى صدره وهو يتعاطى المتجر فتحرر أمره أنه امرأة وله فرج أنثى وكشف عليه حاكم تلك المدينة فوجده أنثى بفرج فحلق لحيته وأمره بالسترة وبلغني بعد ذلك أنّها تزوّجت وولدت من فرجها.

(٢) قلت: ومن هذا القبيل ما نقله المقريزيّ أنّه في أوّل المحرم سنة ست وسبعين وسبعمائة وقع بمصر أن الأمير شرف الدين بن عيسى كانت له بنت فلما بلغت من العمر خمس عشرة سنة استدّ فرجها ونبت لها ذكر وأنثيان واحتلمت كما يحتلم الرجال واشتهر ذلك بالقاهرة حتى بلغ الأمير منجك فاستدعى بها ووقف على حقيقة خبرها فأمر بنزع ثياب النساء عنها وألبسها ثياب الرجال من الأجناد وسماها محمداً وجعله من جملة خدمه وأنعم عليه بإقطاع وشاهد ذلك كل أحد.

(٣) ورأيت في الكشكول تأليف البهاء الحارثيّ نقلاً عن حياة الحيوان عن ابن الأثير في «كامل التاريخ» في حوادث سنة ثلاث وعشرين وستمائة قال: كان لنا جار وله بنت اسمها صفية فلما صار عمرها خمس عشرة سنة نبت لها ذكر وخرج لها لحية، قال البهاء ونظير هذا ما أورده حمد الله المستوفي في كتاب «نزهة القلوب» وأورده بعض المؤرخين أيضاً أن بنتاً كانت في قميشة ـ وهي من ولايات أصفهان ـ فزوّجت فحصل لها ليلة الزفاف حكة في عانتها ثم خرج لها في تلك الليلة ذكر وأنثيان وصارت رجلاً.

(٤) وذكر الأكمل أنه يعرف قصة وقعت بدمشق في سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وهو أنه كان بمحلة القيمرية شاب أمرد أسمر اللون يُسمى علي بن

الرفاعيّ وكان يجلد الكتب ويهواه شخص يُسمى عبدالرحمٰن فوقع له معه واقعة أفضى أمرها للوقوف بين يدي القاضي كمال الدين العدويّ الشافعيّ البقاعيّ الحاكم بمحكمة الميدان فترجح عنده أنّ علياً خنثى وأنه للأنوثة أميل فأمر الأطباء بالكشف عليه فوجدوا له فرجاً له حلمة صغيرة فوقها ثلاثة أبخاش صغار فأزالوا ذلك بالقطع فظهر تحت المحل المذكور فرج أنثى فعند ذلك حكم الحاكم الشافعيّ بأنوثته وسموه عَلْيا وزوّجوها بعاشقها عبدالرحمٰن المذكور فدخل عليها فوجدها بكراً وأزال بكارتها وحملت منه ووضعت أولاداً متعدّدة شاهد ذلك وتحققه غالب أهل دمشق انتهى.

وكانت ولادة الأكمل سنة ثلاثين وتسعمائة. وتوفي سنة إحدى عشرة بعد الألف، ودُفِن بمقبرة سفح قاسيون في قبر والده[١].

شمس الدين الرمليّ

محمد بن أحمد بن حمزة الملقب شمس الدين بن شهاب الدين الرمليّ المنوفيّ المصريّ الأنصاريّ الشهير بالشافعيّ الصغير، وذهب جماعة من العلماء إلى أنه مجدّد القرن العاشر ووقع الاتفاق على المغالاة بمدحه، وهو أستاذ الأستاذين وأحد أساطين العلماء وأعلام نحاريرهم، محيي السنة وعمدة الفقهاء في الآفاق.

(١) اشتغل على أبيه في الفقه والتفسير والنحو والصرف والمعاني والبيان والتاريخ وبه استغنى عن التردّد إلى غيره وحكى عن والده أنه قال: تركت محمداً بحمد الله تعالى لا يحتاج إلى أحد من علماء عصره إلا في النادر.

وحفظ القرآن والبهجة وغيرهما.

(٢) وأخذ عن شيخ الإسلام القاضي زكريا والشيخ الإمام برهان الدين بن أبي شريف رحمه الله تعالى، قال: رأيت الشيخ زكريا كالألف في الانتصاب ورأيت برهان الدين وهو قاعد إلى هيئة السجود أقرب من الهرم فقلت

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٣١٤ - ٣١٦.

لوالدي: ما بال الشيخ زكريا كونه أسنّ من الشيخ برهان الدين أصح جسماً ومنتصب القامة فقال: كان الشيخ برهان الدين يكثر الجماع جدّاً فأسرع إليه الهرم وأما الشيخ زكريا فكان معرضاً عن ذلك جدّاً انتهى.

(١) وكان عجيب الفهم جمع الله تعالى له بين الحفظ والفهم والعلم والعمل، وكان موصوفاً بمحاسن الأوصاف، وذكره الشيخ عبدالوهاب الشعرانيّ في طبقاته الوسطى فقال: صحبته من حين كنت أحمله على كتفي إلى وقتنا هذا فما رأيت عليه ما يشينه في دينه ولا كان يلعب في صغره مع الأطفال بل نشأ على الدين والتقوى والصيانة وحفظ الجوارح ونقاء العرض، رباه والده فأحسن تربيته ولما كنت أحمله وأنا أقرأ على والده في المدرسة الناصرية كنت أرى عليه لوائح الصلاح والتوفيق فحقق الله رجائي فيه وأقرّ عين المحبين به فإنه الآن مرجع أهل مصر في تحرير الفتاوى، وأجمعوا على دينه وورعه وحسن خلقه وكرم نفسه ولم يزل بحمد الله في زيادة من ذلك انتهى.

(٢) وجلس بعد وفاة والده للتدريس فأقرأ التفسير والحديث والأصول والفروع والنحو والمعاني والبيان وبرع في العلوم النقلية والعقلية وحضر درسه أكثرُ تلامذة والده وممن حضره الشيخ ناصرالدين الطبلاويّ الذي كان من مفردات العالم مع أنه في مقام أبنائه فليم على ذلك وسئل عن الداعي إلى ملازمته فقال: لا داعي لها إلا أني أستفيد منه ما لم يكن لي به علم.

ولازمه تلميذ أبيه الشهاب أحمد بن قاسم ولم يفارقه أصلاً وسئل ابن قاسم مرة أن يعقد مجلس الفقه فقال: مع وجود الشيخ شمس الدين الرملي لا يليق، وطار صيته في الآفاق ووَلِيَ عدّة مدارس، ووليَ منصب إفتاء الشافعية وألف التآليف النافعة، واشتهرت كتبه في جميع الأقطار وأخذ عنه أكثر الشافعية من أهل مصر ورجعوا إليه.

(٣) قال الشليّ: والظاهر أنه مجدّد القرن العاشر لأنه لم يشتهر الانتفاع بأحد ممن انقضى القرن وهو موجود مثل اشتهاره واحتياج الناس لكتبه لا

سيما فيما يتعلق بالعلوم الشرعية، قال النبي ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها أمر دينها» أخرجه أبو داود وغيره، واختلف في رأس المائة هل يعتبر من المولد النبويّ أو البعثة أو الهجرة أو الوفاة ولو قيل بأقربية الثاني لم يبعد لكن صنيع السبكي وغيره مصرح بأن المراد الثالث.

(١) وقد ذكر الحافظ السيوطي المجدّدين في أرجوزة سماها «تحفة المهتدين بأخبار المجدّدين» وهي:

الحمد لله العظيم المنة ... المانح الفضل لأهل السنة

ثم الصلاة والسلام نلتمس ... على نبيه دينه لا يندرس[1]

لقد أتى في خبر مشتهر ... رواه كل حافظ معتبر

بأنه في رأس كل مائة ... يبعث ربنا لهذي الأمة

منّاً عليها عالماً يجدّد ... دين الهدى لأنه مجدّد

فكان عند المائة الأولى عمر ... خليفة العدل بإجماع وقر

والشافعي كان عند الثانية ... لما له من العلوم السارية

وابن سريج ثالث الأئمة ... والأشعري عدّه من أمّه

والباقلاني رابع أو سهل[2] أو ... الإسفرايينيُّ خُلْفٌ قد حكَوْا

والخامس الحبر هو الغزالي ... وعده ما فيه من جدال

والسادس الفخر الإمام الرازي ... والرافعيّ مثله يوازي

والسابع الراقي إلى المراقي ... ابن دقيق العيد باتفاق

والثامن الحبر هو البُلقيني ... أو حافظ الأنام زين الدين[3]

والشرط في ذلك أن تمضي المائة ... وهو على حياته بين الفئه

يشار بالعلم إلى مقامه ... وينصر السنة في كلامه

---

(١) أي: لا يزول.

(٢) سهل الصعلوكيّ، إمام الشافعية.

(٣) هو زين الدين العراقي.

وأن يكـون جـامعـاً لـكـل فن ... وأن يعم علمـه أهـل الـزمـن

وكـونـه فـرداً هـو الـمشـهـور ... قـد نطق الحـديث والجمهـور

وهـذه تـاسعـة المئـين قـد ... أتت ولا يخالف ما الهادي وعد

وقـد رجـوت أنـني المـجـدّد ... فيهـا ففضـل الله لـيس يُجـحـد

وآخـر المئـين فيـهـا يـاتي ... عـيسى نبـي الله ذو الآيـات

يـجـدّد الـديـن لـهـذي الأمـة ... وفي الصـلاة بعضـنـا قـد أمّـه

مـقـرّراً لشـرعـنـا ويـحـكـم ... بحكمنـا وفي السمـاء يعلم

وبـعـده لـم يـبـق مـن مـجـدّد ... ويـرفـع القـرآن مثل مـا بـدي

وتـكـثـر الأشـرار والإضـاعـة ... من رفعـه إلى قيـام السـاعـة

وأحـمـد الله عـلى مـا عـلمـا ... ومـا جـلا من الخفـا وأنعـمـا

مصـليـاً عـلى نـبـيّ الـرحـمـة ... والآل مـع أصحـابـه المكـرمـة

انتهت الأرجوزة.

(١) قال الحافظ عماد الدين بن كثير: قد ادّعى كل قوم في إمامهم أنه المراد بهذا الحديث والظاهر أنه يعم حملة العلم من كل طائفة وكل صنف من أصناف العلماء من مفسرين ومحدثين وفقهاء ونحاة ولغويين انتهى.

(٢) وقال في «جامع الأصول»: تكلموا في تأويل هذا الحديث وكلٌّ أشار إلى القائم الذي هو من مذهبه وحمل الحديث عليه والأولى العموم فإنّ «مَنْ» تقع على الواحد والجمع ولا يختص أيضاً بالفقهاء فإن انتفاع الأمة يكون أيضاً بأولي الأمر وأصحاب الحديث والقراء والوعاظ لكن المبعوث ينبغي كونه مشاراً إليه في كل من هذه الفنون. ففي رأس الأولى من أولي الأمر عمر بن عبدالعزيز، ومن الفقهاء: محمد الباقر والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله والحسن وابن سيرين وغيرهم من طبقتهم، ومن القراء: ابن كثير، ومن المحدّثين الزهريّ.

وفي رأس الثانية من أولي الأمر: المأمون[1]، ومن الفقهاء: الشافعيّ، واللؤلؤيّ من أصحاب أبي حنيفة، وأشهب من أصحاب مالك، ومن الإمامية: عليّ بن موسى الرضا، ومن القرّاء: الحضرميّ[2]، ومن المحدثين: ابن معين، ومن الزهاد: الكَرْخيّ.

وفي الثالثة من أولي الأمر: المقتدر، ومن الفقهاء: ابن سريج الشافعيّ، والطحاويّ الحنفيّ، والخلالّ الحنبليّ، ومن المتكلمين الأشعريّ، ومن المحدّثين: النسائيّ.

وفي الرابعة من أولي الأمر: القادر بالله، ومن الفقهاء: الإسفراينيّ الشافعيّ والخوارزميّ الحنفي، وعبدالوهاب المالكيّ، والحسين الحنبليّ، ومن المتكلمين: الباقلانيّ وابن فُورَك، ومن المحدثين: الحاكم، ومن الزهاد: الثوريّ وهكذا يقال في بقية القرون.

(١) وقال في «الفتح» نبّه بعض الأئمة على أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل قرن واحد فقط بل الأمر فيه كما ذكره النوويّ في حديث «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» من أنه يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعدّدة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدّث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد ولا يلزم اجتماعهم ببلد واحد بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وتفرقهم في الأقطار ويجوز اجتماعهم ببلد وأن يكونوا في بعضٍ دون بعض ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أوّلاً فأوّلا إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد فإن انقرضوا أتى أمر الله.

(٢) وقال الحافظ زين الدين العراقيّ في أوّل تخريج أحاديث «الإحياء» في ترجمة الغزاليّ بعد أن ذكر نحو ما مر: وإنما قلت من تعيين من ذكرت

---

(١) كيف ذلك وهو من هو في نصرته لمذهب الاعتزال؟!

(٢) هو يعقوب الحضرميّ، أحد القراء العشرة.

على رأس كل مائة بالظن والظن يخطىء ويصيب والله أعلم بمن أراد نبيه ﷺ ولكن لما جزم أحمد بن حنبل في المائتين الأوليين بعمر بن عبدالعزيز والشافعيّ تجاسر من بعده بابن سريج والصعلوكيّ وسبب الظن في ذلك شهرة من ذكر بالانتفاع بأصحابه ومصنفاته، والعلماء ورثة الأنبياء، وكذلك من ذكر أنه مظنون في المائة الثامنة فعلمه إلى الله تعالى، والله تعالى يبقي العلماء ويديم النفع بهم إلى أزمان متطاولة، ولكن لم تزل الصحابة يظنون قرب الأمر حتى قال بعضهم في الرجل الذي يخرج إلى الدجال ويقتله فكنا نرى أنه عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله، ولا إنكار في اقتراب الساعة فقد قال الله تعالى: ﴿فقد جاء أشراطها﴾[1] انتهى.

(١) قال العلامة عبدالله بن عمر بامخرمة ويقرب عندي أنّ المجدّد للمائة العاشرة القاضي زكريا لشهرة الانتفاع به وتصانيفه واحتياج غالب الناس إليها لا سيما فيما يتعلق بالفقه وتحرير المذهب بخلاف كتب السيوطيّ فإنها وإن كانت كثيرة فليست بهذه المثابة على أن كثيراً منها مجرد جمع بلا تحرير وأكثرها في الحديث من غير تميز الطيب من غيره بل كأنه حاطب ليل وساحب ذيل والله تعالى يرحم الجميع ويعيد علينا من بركاتهم، قال: ولا ندري من يكون على رأس العاشرة، فإن الجهل عم وأفق العلم أظلم، بل قد انمحى رسمه ولم يبق إلى اسمه وصار المعروف منكراً والمنكر مشتهراً، وعاد الدين غريباً، وصار الحال عريباً[2] انتهى.

(٢) قال المناويّ في شرح «الجامع الصغير» وهنا تنبيه ينبغي التفطن له وهو أنّ كل من تكلم على حديث «إنّ الله يبعث» إنما يقرّره بناء على أنّ المبعوث على رأس القرن يكون موته على رأسه وأنت خبير بأن المتبادر من الحديث إنما هو البعث وهو الإرسال يكون على رأس القرن أي أوّله ومعنى

---

(١) سورة القتال: الآية ١٨ وهي نفسها سورة محمد ﷺ.
(٢) لم أجد لها معنى مناسباً منصوصاً عليه فيما رجعت إليه من المعاجم.

إرسال العالم تأهله للتصدّي لنفع الأنام وانتصابه لنشر الأحكام وموته على رأس القرن أخذ لا بعث فتدبر بالإنصاف.

(١) وزعم الجمال محمد بن عبد السلام النزيليّ أن المجدّد في العاشر الشيخ عليّ بن مطير وقال السيد عبدالقادر بن شيخ والظاهر أنّه عبدالملك بن دعسين ويحتمل أنه الشيخ محمد البهنسيّ. قلت: أين هؤلاء من الرمليّ صاحب الترجمة وشهرته كافية في هذا الباب.

وكانت ولادته سنة تسع عشرة وتسعمائة بمصر، وتوفي سنة أربع بعد الألف.

والرمليّ نسبة إلى رملة، قرية صغيرة قريبا من البحر، بالقرب من منية العطار بالمنوفيّة[١].

سيبويه

محمد بن أحمد بن سلامة الأحمديّ الشافعيّ البصير، الشهير بسيبويه. كان عالماً نحريراً محققاً عارفاً بجميع العلوم النقلية والعقلية متقناً لها ولكنه اشتهر بالعربية لغلبتها عليه وكثرة إقرائه لها، وكان مرجعاً لحل المشكلات العلمية. وإذا قرّر المسائل تظهر للطلبة بأدنى إشارة وتنطبع في قلوبهم وذلك لأنه جمع الله تعالى له بين العلم والولاية وكل من قرأ عليه نفعه الله تعالى وكل من خدمه خدمةً ما أسعده الله تعالى ديناً ودنيا وما بشر أحداً بشيء إلا ناله ألبتة.

(٢) وكان عزباً لا يخرج من جامع الأزهر إلا إذا تعطلت فسقية[٢] الجامع فيخرج لأقرب مكان لقضاء الحاجة، وكان ملبسه في الصيف والشتاء جبة حمراء، وكان من الزهد في الدنيا بحيث لا يأخذ من أحد شيئاً إلا بقدر الضرورة.

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٣٤٢ ـ ٣٤٨.

(٢) حوض الماء المعد للسقيا والوضوء.

(١) وكان يعتريه في بعض أوقاته سكوت فلا يقدر أحد أن يبتدئه بكلام حتى يكون هو البادىء وكل من بدأه بكلام متعمداً حصلت له متعبة دنيوية بالتجربة وعرف ذلك عنه غالب الناس. وكان الغالب عليه الجمال لا يرى متكدّراً بل منشرح الصدر مداعباً ولا تذكر الدنيا عنده بحال، لا يعرفها ولا يعرف أحوال أهلها والغالب عليه سلامة الصدر فلا يظنّ بالناس إلا خيراً.

وإذا قرأ عليه أحد ولو درساً واحداً يسأله عن اسمه واسم أبيه ولا يزال يذكره ويسأل عنه وإذا غاب عنه سنين وجاء إليه يعرفه بمجرد تكلّمه معه.

(٢) وكان إذا فرغ من الدرس يشتغل بتلاوة القرآن ولم يتخلف في سائر الأوقات عن صلاة الجماعة في الصف الأوّل بالأزهر، ويقوم فيه من النصف الآخر ولا يزال يتهجد حتى يصلي الصبح مع الجماعة وبعدها يقرأ الناس عليه في القراآت إلى طلوع الشمس فيذهب حينئذ إلى فسقية الجامع ويتوضأ ويجلس للتدريس إلى قبيل الظهر. هذا دأبه طول عمره إلى أن نقله الله إلى دار كرامته.

ولم يمت أحد أخذ عنه إلا بخير، وكراماته كثيرة شهيرة.

(٣) كانت وفاته في نيف وخمسين وألف ولم يخلف درهماً ولا ديناراً إلا ثيابه التي عليه ودُفِن بتربة المجاورين.

ولما مات سمع الناس قائلاً يقول وهم في جنازته: مات العلم الخالص لوجه الله تعالى وذهب الزهد فيما بين الناس بعد محمد، إنا لله وإنا إليه راجعون، فضجّ الناس وصاحوا وبكوا رحمه الله تعالى ورضي عنه[١].

الأسطوانيّ

محمد بن أحمد بن محمد المعروف بالأسطوانيّ الدمشقيّ الحنفيّ الفقيه الواعظ الأخباريّ أعجوبة الزمان ونادرة الوقت.

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٣٧٥ - ٣٧٦.

(١) كان من منن الله تعالى على عباده، لم يزل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان ورعاً ناسكاً متقشفاً مخشوشناً، كثير العبوس في وجوه الناس لما يكرهه منهم، شديد الإنكار عليهم فيما يخالف الشرع، لا يقنع في أمر الله بغير إظهاره، وكان مطبوعاً على الالتذاذ بذلك متحملاً للأذى من الناس بسببه.

وكان أحد أعاجيب الدنيا في حلاوة المنطق وحسن التأدية ومعرفة أساليب الكلام لا يمل حديثه بحال، بل كلما طال طاب، وبالجملة فلم ير نظيره في هذا الدور ولم يسمع بمثله في أوصافه.

كان في الأصل على مذهب أسلافه حنبلياً ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وقرأ الفقه على مشايخ عصره، ودرس بالجامع الأمويّ ثم رحل إلى مصر وأخذ بها، وقدم إلى دمشق في سنة تسع وثلاثين وألف ودرس بها وأفاد، ووقع بينه وبين شيخه النجم الغزيّ في مسألة فسافر إلى الروم بحراً فأسرته الفِرَنج ثم خلص بعد مدّة قليلة ووصل إلى دار الخلافة فأقام بها وحسن حاله، وتزوّج وجاءه أولاد، ثم تحنف وصار إماماً بجامع السلطان أحمد ثم قدم إلى دمشق حاجاً في سنة ثلاث وستين وألف.

(٢) وعاد إلى الروم فصار واعظاً بجامع السلطان أبي الفتح محمد خان واشتهر بحسن الوعظ ولطافة التعبير فانكبت عليه الناس ولزمه جماعة قاضي زاده الروميّ وعظم حزبه فبالغ في النهي عن أشياء كان غنياً عنها فكاد أن يوقع فتنة فعُزل عن وظيفة الوعظ ونُفي إلى جزيرة قبرص.

ثم أمر بالمسير إلى دمشق فوردها في سنة سبع وستين وأقام بها ولزم الدرس تحت قبة النسر بالجامع الأموي بين العشاء وبعد الظهر ونشر علم القراآت والمواعظ، ورغب الناس في حضور دروسه من علماء وعوام لحسن تقريره وعذوبة تفهيمه ولطافة مناسباته، وسمعت والدي رحمه الله تعالى يقول: إن درسه كان يليق أن يرحل إليه من بلد إلى بلد، وإنه قرّر أشياء لم يسمعها من أهالي دمشق أحدٌ.

(١) وكان بدمشق بعض مناكر فتقيد بإزالتها أو تخفيفها ومن جملتها لبس السواد خلف الميت ورفع الصوت بالولولة وأعهده يوماً في جنازة بعض أقاربه وأقاربي أمر جماعته بحمل عصي تحت أصوافهم فلما خرجت الجنازة من باب السلسلة وباشر النساء بالولولة أشار إلى جماعته بضربهنّ فضربوهنّ ولم يدعهنّ يخرجن إلى المقبرة وله غير ذلك مما يحمد.

ثم وجهت إليه المدرسة السليمية بدمشق، ولما انحلت بقعة درس الحديث تحت قبة النسر بجامع بني أمية عن الشيخ سعودي الغزيّ مفتي الشافعية وطلبها الأسطوانيّ من قاضي القضاة واجتمع هو والشيخ محمد بن تاج الدين المحاسنيّ في مجلس القاضي وكان الآخر طالباً لها فوقع بينهما مقاولة ومخاصمة وقيل إنهما تشاتما بألفاظ قبيحة ثم وجهت البقعة للمحاسنيّ ومرض الأسطوانيّ من يومه وبعد أسبوعين توفي ولم تطل مدّة الآخر حتى توفي بعده.

ولادته كانت سنة ست عشرة بعد الألف. وتوفي سنة اثنتين وسبعين وألف بالحمى المحرقة ودُفن بمقبرة الفراديس المعروفة بالغرباء[١].

العبادي

محمد بن أحمد أبي عصبة بن الهادي.

اشتهر بالعبادي نسبة لجدّه لأمه الشيخ العارف بالله تعالى محمد البكري العبادي نسبة إلى عبادة قرية بمصر.

وُلِد بمكة سنة ثمان وعشرين وألف تقريباً، ونشأ في حجر والده أميا وظهرت له في أواخر عمره خوارق عادات عجيبة.

(٢) ومن كراماته ما أخبر به ثقة أن جماعة وفدوا عليه للزيارة فأمر أن يصب لهم قهوة من إناء معين وقد تحقق المأمور خلوه من القهوة ولم

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٣٨٦ - ٣٨٩.

يستطع أن يواجه أمره بالإباء عن صب القهوة فأمره ثانياً فامتثل أمره فتناولها ليصب منها فوجدها ملآنة قهوة فصب لهم منها ما كفاهم وبقيت بحالها.

(١) ومنها أن شخصاً كان يحب آخر لغرض فاسد فذهب معه لمحل ليختلي به فمر من تحت بيت المترجم فرآه فناداه فطلع إليه فأمره بالجلوس مع صاحبه بقية يومه ومنعهما من الذهاب وجلسا عنده في ذلك اليوم إلى آخر النهار فأمرهما بالانصراف وقال للمحب يا فلان ذهب عنك الحال الذي كنت فيه اليوم قال: فزال والله من ذلك الوقت عني جميع ما كنت أجده من تلك المحبة المذكورة وتبت إلى الله توبة خالصة.

وله من هذا القبيل كرامات كثيرة لا يمكن استقصاؤها لكثرتها.

(٢) ومن غريب ما اتفق له أن ثلاثة من أصحابه زاروه يوماً سنة موته فتذاكروا الموت فقال لهم على سبيل المداعبة: قد قرُبت وفاتي جدّاً وأنت يا فلان تلحقني بسرعة ثم فلان ثم فلان فصاحوا عليه وقالوا: ما كان لنا حاجة بهذا الكلام، فقال: لا بدّ من ذلك فما مضت أيام قليلة حتى مات ولحقه المذكورون كما ذكروا واحداً بعد واحد.

كانت وفاته سنة ثلاث وثمانين وألف ودُفِن ببيته الذي كان يسكنه ملاصقاً لقبر أبيه وجدّه لأمه على طريق الذاهب إلى المعلاة، رحمه الله تعالى[1].

ابن عبدالهادي الدمشقي

محمد بن أحمد بن محمد العمريّ المعروف بابن عبدالهادي الدمشقيّ الصوفيّ الشيخ البَركة المعمر بقية السلف. كان من خير خلق الله، مهاب الشكل عليه نور الولاية والصلاح وكان عالماً بالعقائد والتصوّف وكلام القوم، حسن الفهم، مداوماً على الدرس والإفادة وانتفع به خلق، وكان لطيف الطبع حلو العبارة متواضعاً خلوقاً.

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٣٨٩ - ٣٩٠.

ولم يكن أصبر منه على الفاقة، وحكى لي بعض من أعتمد عليه أنه سمعه مرة يقول أنا منذ ثلاث سنوات لم أر في يدي شيئاً من المعاملة وليس ذلك تورعاً وإنما هو لعدم دخل شيء.

(١) وكان طريقه التوكل التام، أخبرني هذا المخبر أنه كان يقرأ عليه كتاباً للغزاليّ وصل فيه إلى التوكل قال: فقرّر لي في التوكل أشياء متداولة ولم يزد، قال فقلت له: أريد ما يعرفني حقيقة التوكل، فقال: في غد ائتني إلى الجامع الأمويّ ولا تصحب معك شيئاً من الدراهم وصل الصبح عند محراب المالكية ثم انتظرني ثم قال: ففعلت ما قال لي، فلما فرغنا من صلاة الصبح أخذ بيدي ومشى فتبعته حتى انتهينا إلى ميدان الحصا وكنت بلغت الجهد من الجوع وفقد القهوة قال: فدعانا شخص إلى داره فقدّم لنا مائدة عظيمة فأكلنا وأمره الشيخ بأن يسقيني قهوة ثم مضينا فدعانا آخر في القبيبات ثم خرجنا إلى خارج باب الله، قال: وكان التعب أمضني وخشيت أن يذهب بين الشيخ إلى قرية من القرى ولا أقدر على المشي، قال: فنحن واقفون إذا برجل مكاري راكب على حمار وهو يسحب بغلين فقال لنا: إن أردتم التوجه إلى سبينه فاركبا هذين البغلين قال فركبنا ومضينا إلى سبينه فطلع أهلها إلى لقاء الشيخ وأنزلوه فنزلنا وحصل لنا إكرام زائد وبتنا تلك الليلة هناك ثم خرجنا في الصباح وما زلنا سبعة أيام ونحن طائفون على قرى ومتنعمون بولائم حتى جئنا إلى دمشق قال، فقال لي الشيخ: أرأيت حقيقة التوكل؟ قلت بلى.

وله وقائع وكرامات كثيرة جدّاً وكان يُستسقى به الغيث وللناس فيه اعتقاد عظيم.

كانت ولادته في سنة ست بعد الألف وتوفي سنة ثمان وتسعين وألف.

(٢) وكان تمرض مدّة طويلة وأخبرني بعض الإخوان أنه قبل أن يموت بيومين أسكت فلم يتكلم بشيء إلا صبيحة وفاته فسمعه ابنه الشيخ محمد

يقول: ديننا حق ودينكم شك، قال: فقال له: يا سيدي: ألست عن ربك براض؟ فقال: بلى، وكان هذا آخر كلام قاله[1].

الحرّ العامليّ

محمد بن حسن بن عليّ المعروف بالحرّ العامليّ الشاميّ الأديب المشهور. ذكره ابن معصوم في «السلافة» فقال في حقه: له شعر ليستلب نُهى العقول بسحره ويحل من البيان بين صدره ونحره.

(١) قدم مكة في سنة سبع أو ثمان وثمانين وألف وفي الثانية منهما قتلت الأتراك بمكة جماعة من العجم لما اتهموهم بتلويث البيت الشريف حين وُجد ملوثاً بالعذرة، فلما حصلت المقتلة فيهم خاف على نفسه فالتجأ إلى السيد موسى بن سليمان أحد أشراف مكة الحسنيين وسأله أن يخرجه من مكة إلى نواحي اليمن فأخرجه مع أحد رجاله إليها.

(٢) قلت: وهذه القصة التي قد ذكرها أفضح فضيحة وما أظن أن أحداً ممن فيه شمة من الإسلام بل فيه شمة من العقل يجترىء على مثلها وحاصلها أن بعض سدنة البيت شرفه الله تعالى اطلع على التلويث فأشاع الخبر وكثر اللَّغط بسبب ذلك واجتمع خاصة أهل مكة وشريفها الشريف بركات وقاضيها محمد ميرزا وتفاوضوا في هذا الأمر فانقدح في خواطرهم أن يكون هذا التجرى من الرفضة وجزموا به وأشاروا فيما بينهم أن يقتل كل واحد من وجد ممن اشتهر عنه الرفض ووُسِم به فجاء الأتراك وبعض أهل مكة إلى الحرم فصادفوا خمسة أنفار من القوم وفيهم السيد محمد مؤمن وكان ـ كما أُخبِرتُ به ـ رجلاً مسناً متعبداً متزهداً إلا أنه معروف بالتشيع فقتلوه وقتلوا الأربع الأخر وفشا الخبر فاختفى القوم المعروفون بأجمعهم ووقع التفتيش على بعض المتعينين منهم ومنهم صاحب الترجمة فالتجأوا إلى الأشراف ونَجَوْا، ورأيت بخط بعض الفضلاء أن صاحب الترجمة رجع بعد القصة إلى العجم.

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(١) وأنشِد له من شعره قوله:

فضل الفتى بالجود والإحسان ... والجود خير الوصف للإنسان
أوَ ليس إبراهيم لما أصبحت ... أمواله وقفاً على الضيفان
حتى إذا أفنى اللهى أخذ ابنه ... فسخا به للذبح والقربان
ثم ابتغى النمروذُ إحراقاً له ... فسخا بمهجته على النيران
بالمال جاد وبابنه وبنفسه ... وبقلبه للواحد الديان
أضحى خليلَ الله جل جلاله ... ناهيك فضلاً خلّةُ الرحمٰن
صح الحديث به فيالك رتبة ... تعلو بأخمصها على التيجان

أصل هذا الحديث قدسي رواه أبو الحسن المسعوديّ في أخبار الزمان قال: «إن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أنك لما سلمت مالك للضيفان وولدك للقربان ونفسك للنيران وقلبك للرحمٰن اتخذناك خليلاً».

وكانت وفاته باليمن أو العجم في سنة تسع وسبعين وألف[1].

بهاء الدين الحارثيّ

محمد بن حسين بن عبدالصمد الملقب بهاء الدين بن عزِّ الدين الحارثيّ العامليّ الهَمْدانيّ صاحب التصانيف والتحقيقات، وهو أحق من كل حقيق بذكر أخباره ونشر مزاياه وإتحاف العالم بفضائله وبدائعه، وكان أمّةً مستقلة في الأخذ بأطراف العلوم والتضلع بدقائق الفنون وما أظنّ الزمان سمح بمثله ولا جاد بندِّه، وبالجملة فلم تتشنف الأسماع بأعجب من أخباره.

ذكره السيد عليّ بن معصوم وقال: وُلِد ببعلبك سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وانتقل به أبوه إلى بلاد العجم وأخذ عن والده وغيره من الجهابذة حتى أذعن له كل مناظر ومنابذ فلما اشتدّ كاهله وصفت له من العلم مناهله وَلِيَ بها مشيخة الإسلام، ثم رغب في السياحة فترك المناصب ومال لما هو

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٤٣٢ ـ ٤٣٥.

لحاله مناسب، فحج بيت الله الحرام وزار النبيّ عليه الصلاة والسلام ثم أخذ في السياحة فساح ثلاثين سنة واجتمع في أثناء ذلك بكثير من أهل الفضل ثم عاد وقطن بأرض العجم فألف وصنّف، وقصدته علماء تلك الأمصار، واتفقت على فضله أسماعهم والأبصار، وغالت تلك الدولة في قيمته، واستمطرت غيث الفضل من دِيمته فوضعته على مفرقها تاجاً، وأطلعته في مشرقها سراجاً وهاجاً، وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس واستنارت بشموس رأيه عند اعتكار حنادس[1] الباس، فكان لا يفارقه سفراً وحضراً ولا يعدل عنه سماعاً ونظراً إلى أخلاق لو مُزج بها البحر لعذب طعماً وآراء لو كحلت بها الجفون لم يُلْفَ أعمى، مع تمسكٍ من التقى بالعروة الوثقى، وإيثار الآخرة على الدنيا والآخرة خير وأبقى، ولم يزل أنِفاً من الانحياز إلى السلطان راغباً في الغربة عن الأوطان يؤمل العود إلى السياحة ويرجو الإقلاع عن تلك الساحة فلم يقدر له حتى وافاه حِمامه[2].

وقد أطال أبو المعالي الطالوي في الثناء عليه ونصُّ عبارة الطالوي في حقه: تنقلت به الأسفار إلى أن وصل إلى أصفهان فوصل خبره إلى سلطانها شاه عباس فطلبه لرياسة علمائها فوليها وعظم قدره وارتفع شأنه إلا أنه لم يكن على مذهب الشاه في زندقته، إلا أنه غالى في حب آل البيت، وألف المؤلفات الجليلة وكان يجتمع مدّة إقامته بمصر بالأستاذ محمد بن أبي الحسن البكريّ، وكان الأستاذ يبالغ في تعظيمه فقال له مرة: يا مولانا: أنا درويش فقير كيف تعظمني هذا التعظيم؟ قال: شممت منك رائحة الفضل.

(١) وامتدح الأستاذ بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

يـا مصـر سقيـا لـك من جنـة	قـطوفـهـا يـانـعـة دانـيـة
تـرابـهـا كـالتِّبـر فـي لـطفـه	ومـاؤهـا كـالفضـة الـصـافيـة
قـد أخجـل المسـكَ نسيمٌ لهـا	وزهـرهـا قـد أرخص الـغـاليـة[3]

---

(١) الحِندس: الظلمة.

(٢) الحِمام: الموت.

(٣) العطر.

دقيقة أصناف أوصافها ... وما لها في حسنها ثانية
منذ أنختُ الركب في أرضها ... أنسيت أصحابي وأحبابيه
فيا حماها الله من روضة ... بهجتها كافية شافية

(١) قلت: ولما ورد دمشق نزل بمحلة الخراب عند بعض تجارها واجتمع به الحافظ الحسين الكربلائيّ القزوينيّ أو التبريزيّ فاستنشده شيئاً من شعره، وكثيراً ما سمعت أنه كان تطلب الاجتماع بالحسن البورينيّ فأحضره له التاجر الذي كان عنده بدعوة وتأنّق في الضيافة ودعا غالب فضلاء محلتهم فلما حضر البورينيّ إلى المجلس رأى فيه صاحب الترجمة بهيئة السياح وهو في صدر المجلس والجماعة محدقون به وهم متأدبون غاية التأدب فعجب البورينيّ وكان لا يعرفه ولم يسمع به فلم يعبأ به ونحاه عن مجلسه وجلس غير متلفت إليه وشرع على عادته في بث رقائقه ومعارفه إلى أن صلوا العشاء ثم جلسوا فابتدر البهائيّ في نقل بعض المناسبات وانجر إلى الأبحاث فأورد بحثاً في التفسير عويصاً فتكلم عليه بعبارة سهلة فهمها الجماعة كلهم ثمّ دقق في التعبير حتى لم يبق يفهم ما يقول إلا البورينيّ ثم أغمض في العبارة فبقي الجماعة كلهم والبورينيّ معهم صموتاً جموداً لا يدرون ما يقول غير أنهم يسمعون تراكيب واعتراضات وأجوبة تأخذ بالألباب فعندها نهض البورينيّ واقفاً على قدميه وقال: إن كان ولا بدّ فأنت البهائيّ الحارثيّ إذ لا أجد في هذه المثابة إلا ذاك واعتنقا وأخذا بعد ذلك في إيراد أنفس ما يحفظان وسأل البهائيّ من البورينيّ كتمان أمره وافترقا تلك الليلة ثم لم يُقِم البهائيّ فأقلع إلى حلب.

(٢) وذكر الشيخ أبو الوفاء العرضي في ترجمته قال: قدم حلب مستخفياً في زمن السلطان مراد بن سليم مغيراً صورته بصورة رجل درويش فحضر دروس الوالد يعني الشيخ عمر وهو لا يُظهر أنه طالب علم حتى فرغ من الدرس فسأله عن أدلة تفضيل الصدّيق على المرتضى فذكر حديث «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر»

وأحاديث مثل ذلك كثيرة فرد عليه ثم أخذ يذكر أشياء كثيرة تقتضي تفضيل المرتضى فشتمه الوالد وقال له: رافضيّ شيعيّ وسبه فسكت، ثم إنّ صاحب الترجمة أمر بعض تجار العجم أن يصنع وليمة ويجمع فيها بين الوالد وولده فاتخذ التاجر وليمة ودعاهما فأخبره أنّ هذا هو المنلا بهاء الدين عالم بلاد العجم فقال للوالد: شتمتونا، فقال له: ما علمت أنك المنلا بهاء الدين ولكنّ إيراد مثل هذا الكلام بحضور العوام لا يليق ثمّ قال[1]: أنا سنيّ أحب الصحابة ولكن كيف أفعل سلطاننا شيعيّ[2] ويقتل العالم السنيّ. قال: وكان كتب قطعة على التفسير باسم شاه عباس فلما دخل بلاد السنة قطع الديباجة وبدلها وذكر أنه كتب ذلك باسم السلطان مراد.

وكانت وفاته سنة إحدى وثلاثين وألف بأصبهان ونقل إلى طوس قبل دفنه فدُفن بها.

(١) حكى بعض الثقات أنه قصد قبيل وفاته زيارة القبور في جمع من الأخلاء الأكابر فما استقر بهم الجلوس حتى قال لمن معه: إني سمعت شيئاً فهل منكم من سمعه فأنكروا سؤاله واستغربوا مقاله وسألوه عما سمع فأوهم وعَمَّى في جوابه وأبهم ثم رجع إلى داره وأغلق بابه فلم يلبث أن أهاب داعي الردى فأجابه[3].

البورسويّ

محمد بن عبدالحليم المعروف بالبورسويّ وبالأسيريّ، مفتي السلطنة ورئيس علمائها المشهور بالعلم والتصلب في الدين.

---

(١) أي: بهاء الدين العامليّ.

(٢) هو الشاه عباس سلطان العجم.

(٣) «خلاصة الأثر»: ٣/٤٤٠ - ٤٥٥.

كان طوداً من العلم راسخاً متمسكاً بحبل الله في سره ونجواه، يناضل عن الحق ويباحث عنه، وكان كثير العبادة والتلاوة للقرآن مهاباً متواضعاً، أخذ ببلده بروسة عن المولى محمد المعروف بابن المعيد وعن الشيخ الكامل محمد حافظ زاده ولازم درسه، ثمّ دخل قسطنطينية وتلمذ بها للشريف الشروانيّ، ثم اتصل بخدمة شيخ الإسلام يحيى بن زكريا وصار من خواص طلبته، وتعين لكتابة الفتاوى، ثمّ صار أمين الفتوى وانفرد في هذه الخدمة بأشياء من التفرس وسرعة الأخذ لم يسبقه إليها أحد، وأقبلت عليه الدنيا ونفذت كلمته وشاع ذكره وقصدته الناس من أقاصي البلاد ووصل خبره للسلطان مراد، وكانت الوزراء وقضاة العساكر ومن في رتبتهم يراجعونه في المهام.

ثمّ درّس بمدارس قسطنطينية إلى أن وصل إلى مدرسة السلطان سليم القديم ووليَ منها قضاء مكة وسافر هو وسنبل أغا حافظ الحرم السلطاني بحراً فأسرتهما الفِرَنج وأُخذا إلى جزيرة مالطة وذهب لهما من الأمتعة والأموال شيء كثير واستمر صاحب الترجمة أسيراً قريباً من أربع سنين ثم خلص ووصل إلى دار الخلافة فأُعطي قضاء مصر وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وألف، وقدم إلى دمشق وتوجه إلى القاهرة فصحبه والدي رحمه الله تعالى ونال منه قبولاً تاماً، ثم فارقه في مصر.

عزل فخرج إلى دمشق ونزل في دارنا وولد له ولد أسماه يحيى، ثم توجه إلى الروم فمات ولده هذا بأنطاكية وبعد وصوله بمدّة أعطي قضاء أدرنه، ثمّ عُزل ونفي إلى ينبولي، ثم جيء به ووَليَ قضاء دار الخلافة ووجه إليه رتبة قضاء العسكر بأناطوليّ، ثم وليَ قضاء أناطولي استقلالاً وأقبل عليه الوزير الأعظم محمد باشا الكوبريلي فصيره مفتياً، ولما سار السلطان محمد إلى بورسة وأدرنة كان في خدمته واستبدّ بالإقبال التام.

ووقع من الوزير المذكور قتل جماعات في أطراف البلاد وفي محل

التخت السلطانيّ[1] فكان لا يقدم على ذلك حتى يستفتيه وهذا مستفيض على الألسنة والله أعلم بما هنالك.

(١) وكان لما وَلِيَ الإفتاء استرضاه والدي فرضي وكتب إليه بالصفح عن تباعده عنه فراجعه والدي برسالة اقترحها على لسان فرس كانت عنده من مشاهير الخيل وكان صاحب الترجمة في قدمته إلى الشام رآها وعرفها فأظهر اعتذاره عن التقصير الذي نُسب إليه في خدمته على لسان حالها والرسالة هي هذه * حضرة المولى شيخ الإسلام، مفتي الأنام الهمام، المقدّم في حلبة الرهان جعل الله تعالى مجمل سعادته غنياً عن الإفصاح، وجياد أوصافه الحسنة متبارية في ميدان المُدَّاح، وبعد فالذي يُعرض على عالي حضرته بعد تقبيل سامي عتبته أنه لا يخفى ما ورد في الحديث الشريف عن النبيّ النبيه أهدى الله إليه صلاته وسلامه: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» وإنني تلك الفرسة الأصيلة؛ فأبي من العتاق وأمي من الصافنات الجياد، معروفة الأب والجد في تِهامة ونجد، صحيحة النسب بين العرب:

وما الخيل إلا كالصديق قليلة ... وإن كثرت في عين من لا يجرب

وقد كان شرفني المولى بالركوب، وأمّلت منه المطلوب، وسبقت الجياد، وفزت بالشرف والمراد، ومشيت بالأدب والوقار، ولم يصدر مني عثار ولا نفار، ولا غَرْوَ فالسيوف على مقادير الأعضاء تَفْرِي، والخيل على حَسَب فرسانها تجري:

والخيل عالمة ما فوق أظهرها ... من الرجال جباناً كان أو بطلا

وفي المثل «الخيل بفرسانها والدار بسكانها» وقد طرق سمعي أن المولى صار فارس الميدان وسابق الرهان، وامتطى من الصدارة صهوة الإقبال، وملك زمام الأمور وشدّ حزام عزمه في مصالح الجمهور، فحصل لي بذلك كمال السرور والنشاط، وكدت أن أفك ما بي من الرباط، وأجدّ

---

(١) أي: في دار الحكم السلطانيّ؛ وهي القسطنطينية.

في المسير إلى تهنئة جنابه الخطير، لكن أقعدتني الأيام عن ذلك ومنعتني عن سلوك هذه المسالك، بما حل بي من مواصلة الصيام والركوع والسجود عند القيام وتقدّمني في المسير الرفيق الذي جمعني وإياه هذا الطريق.

وكان بلغني أنه ركض عليّ في ميدان حضرتك بعض اللئام، ووضع قدم قوله حيث شاء من الملام ونسبني إلى البطر والجموح وسلك طريق قلة الأدب المتروك المطروح، وإن البحر تعكر والورد الصافي تكدّر:

قد كان لي مشرب يصفو بموردكم   فكـدّرتـه يـد الأيام حين صفـا

فوالله ليس لما قيل أصل أصيـل، وكنت أودّ أنني أتوسـل إلى بره وأكرع من فائض بحره، وأرد موارد إحسانه، وأفوز بلطفه وامتنانه، ومعلوم حضرته أن البهائم لا تعلم شعر أبي تمام ولا تعرف ما بلاغة أبي الطيب الهمام، ولا تطرب الخيل إلا لسماع الكَيْل، ولا تستغني الأكاديش[1] عن أكل الحشيش، والعلاف لا يعرف مسائل الخلاف، ومالكي وإن كان هو الأصيل العريق لكنه مقتر للضيق في العليق كثير الشِّعر قليل الشّعير ينشد بلسان التقصير:

ومـالـي صنعـة غيـر القـوافي   وشـعـر لا يـبـاع ولا يـعـار

فالبطن ضامر لا يشد عليه حزام، والفم خال ليس فيه سوى اللجام، وقد بليت بعد الهزال بالخرس وغيري ممن هو دخيل ليس لـه أصل ولا فضل ولا أدب ولا فضل يرتع في رياض الإنعام والبر التام.

فإنْ أنعم المولى دام له المسارُّ بمنصب في هذه الديار فأكرم الخيل أشدُّها حنيناً إلى وطنه وأعتق الإبل أكثرها نزاعاً نحو عَطَنه[2]، فلينتهز فرص الاقتدار ويغتنم التجاوز عن عثرات الأحرار، فليس لي سواه من أعول عليه وأرفع قصتي إليه:

---

(١) الكديش: الحصان الكبير المسن، وهي كلمة غير عربية.
(٢) العَطَن: مبارِك الإبل.

وهيهات أن يُثنى إلى غير بابه عنان المطايا أو يُشدّ حزام

والله سبحانه وليّ التوفيق، والهادي بكرمه إلى سواء الطريق. وهو قاضي الحاجات وميسر المرادات، وعالم بكل الأحوال، وعليه في جميع الأمور الاتكال.

(١) قلت: وقد حذا في هذه الرسالة حَذوَ الوهرانيّ في رقعته التي كتبها على لسان بغلته وعلقها في عنقها وسيّبها في دار الأمير عزالدين موسك وهي من محاسن مخترعاته، ولطائف نزعاته، يقول فيها المملوكة رَيْحانة بغلةُ الوهرانيّ تقبل الأرض بين يدي الأمير عزالدين حسام أمير المؤمنين، نجاه الله من حرّ السعير، وعظم بداره قوافل العِير، ورزقه من التبن والشعير، وِسْقَ مائة ألف بعير، واستجاب فيه أدعية الجم الغفير من الخيل والبغال والحمير، وتُنهي إليه ما تقاسيه من مواصلة الصيام والتعب في الليل والدواب نيام، قد أشرَفت مملوكته على التلف وصاحبها لا يحمل الكلف، ولا يوقن بالخلف، ولا يقول بالعلف وإنما يحل به البلاء العظيم في وقت حاجتي إلى القضيم، والشعير في بيته مثل المسك والعبير، والتبن أحب إليه من الابن، والجلبان[١] أعز عنده من دهن البان، والقضيم بمنزلة الدر النظيم، والفِضّة أجلُّ من سبائك الفِضّة، والفول من دونه ألف باب مقفول، وما يهوّن عليه يعلف الدواب إلا بفنون الآداب، والفقه اللباب، والسؤال والجواب وما عند الله من الثواب، ومن المعلوم أن الدواب لا تُوصف بالحلوم[٢] ولا تعيش بسماع العلوم، ولا تطرب بشعر أبي تمام ولا تعرف الحارث بن همام، ولا سيما البغال التي تستعمل في جميع الأشغال؛ قُفة من الدريس أشهى إليها من فقه محمد بن إدريس، ولو أكل البغل كتاب «المقامات» لمات، ولو لم يجد إلا كتاب الرِّضاع لضاع، ولو قيل له أنت هالك لم يأكل موطأ مالك، وكذلك الجمل لا يتغذى بشرح أبيات الجُمل

---

(١) أي البازلاء.

(٢) أي: العقول.

ووقوفه في الكَلا أحب إليه من شعر أبي العلا، وليس عنده طَيِّب شِعْر أبي الطيِّبِ، وأما الخيل فلا تطرب إلا إلى استماع الكَيْل، وإذا أكلت كتاب «الـذيل» مـاتت بالنهـار قبل الليـل، والويـل لها ثم الـويل، ولا تستغني الأكاديش عن أكل الحشيش بكل ما في الحماسة من شعر أبي الخريش، وإذا أطعمت الحمار شعر ابن عمّار حلّ به الدّمار وأصبح منفوخاً كالطبل على باب الاصطبل، وبعد هذا كله فقد راح صاحبها إلى العلاف، وعرض عليـه مسائـل الخـلاف، وطلب من تبنـه عشـر قِفـاف، فقـام إلى رأسـه بالخفاف[1] فخاطبه بالتقصير وفسّر له آية العِير، وطلب منـه قفة شعيـر، فحمل على سؤاله ألف بعير فانصرف الشيخ منكسر القلب، وهو أخسر من ابن بنت الكلب، فالتفت إلى المسكينة وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة وقال لهـا: إن شئت أن تكدّي فكـدّي لاذقت شعيـرة مـادمتِ عنـدي، فبقيت المملوكة حائرة لا قائمة ولا سائرة، فقال لها العلاف: لا تجزعي من خباله ولا تنظري إلى نفقته، هذا الأمير عـزالدين سيف المجاهدين أنـدى من الغمام، وأمضى من الحسام، وأبهى من البدر ليلة التمام، لا يردّ سائلاً ولا يُخيِّب آملاً، فلما سمعت المملوكة هذا الكلام جذبت اللجـام، ورفست الغلام، وقطعت الزمام، وشقت الزحام، حتى طرحت خدّها على الأقدام، ورأيك العالي والسلام، انتهى.

(١) ولما مات الوزير الكوبريليّ المذكور عزل عن منصب الفتوى ونفي إلى كليبولي وحكي أنه جـاءه خبر العـزل يوم الجمعـة وهو في الجـامع والخطيب يخطب فلم يمكنه التخلف ونهض مسرعـاً وأُخذ من وقتـه إلى السفينة فأركب فيها وجهز، وبعد مدّة أعطي قضاء رودس وأمر بالمسير إليها فأقام بها مدّة تسع سنوات ثمّ استأذن في الحج فأُذن له وورد دمشق سنة إحدى وثمانين وألف وكان وُجِّه إلى أخيه شقيقه المولى مصطفى قـاضي قضاء مكة فاجتمعا في دمشق ورحلا صحبة الحاج وحجا وجاورا بمكة سنة

(١) أي: النعال.

ثم فارقه أخوه وبقي هو في المدينة سنة أخرى ثم قدم إلى دمشق وأقام بها مدّة، ثم أعطي قضاء القدس فتوجه إليها وحكم بها نحو سنة، ثمّ عُزِل وقدم إلى دمشق ثم أمر بالتوجه إلى بلده بروسة فخرج من دمشق وصحِبته أنا إلى الروم وكان خروجنا من دمشق سنة ست وثمانين وألف واستمريت واستمر مدّة إلى أن توفي وكانت وفاته سنة ثلاث وتسعين وألف[1].

البهائي

محمد بن عبد العزيز بن محمد بن حسن جان الشهير بالبهائيّ مفتي الديار الروميّة وأحد أفراد الدنيا. ذكره والدي المرحوم في ذيله فقال في وصفه: عزيز الروم وابن عزيزها، وبدر أفق المعالي الحائز قصبات السبق في مضمار العلى وتبريزها، ومن أطاعته البلاغة ففتحت له عن كنوزهـا، واطلع على دقائق حقائقها ورموزهـا الحريّ بمـا قالـه فيه خـاله ابن أبي السعود النبيه:

ابن عبـد العـزيـز في آل سعـد ... كـابن عبـد العـزيـز بيـن أميـة

(١) نشأ في حجر العز العالي، وتربى في عهد العز والمعالي، اشتغل بطلب العلم وجدّ فوجد، ومدّ باعه إلى أقصر الفضائل فنـالها في أقصى أمـد، ولازم القراءة على بغض الأفـاضـل، ثم قـرأ على شيـخ الإسـلام عبد الرحيم فأقرأه وبذل في ذلك جهده، وأتى في النصح بأقصى ما عنده، وكان له نفَس مبارك في القراءة والتعليم والتقرير والتفهيم.

(٢) ولما اشتهر فضله وشاع كماله ونبله تحاسدت عليه العيون والآذان وحقق الخبر في فضائله العيان، حكى بعض الفضلاء أنّه لمّا بلغت شهرته المولى محمد بن عبد الغني قاضي العساكر وفاضل الـروم ظنّ أنّ الناس يبالغون في وصفه فطلب الاجتماع به من شيخه المشار إليه فجاء به فلما ذاكره رآه فوق ما وصف فالتفت إلى عبد الرحيم وقال له سراً: كنت أظنك

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣/٤٨٢ ـ ٤٨٧.

فطناً فإذا أنت غبيّ وسبب ذلك أنك بالغت في النصح مع شخص يصير عليك نقمة لأنه من آل حسن جان وهم أولو المناصب العالية ولهم الغيرة العظيمة على طريق أسلافهم وقد وقع ما قاله فإنه كان سبباً لعزل الأستاذ عن قضاء روم ايلي[1] والفتيا ووليهما مكانه.

(١) وشعر البهائي في الذروة العليا في المتانة والمضامين العجيبة لكنه قلق التراكيب يستعمل فيه الألفاظ الغريبة ولهذا كان يقول عنه المولى يحيى: من أراد أن يطالع شعر البهائيّ فليهيء القاموس ولغة الدشيشة الفارسية ثم ينظر فيه.

ولما شاع أمره أعطي مدرسة بقسطنطينية ولم يزل يدرس في مدرسة إثر مدرسة حتى وصل إلى مدرسة شهزاده فنظم قصيدة للسلطان مراد وأوصلها إليه على يد بعض أركان الدولة من المقربين فوقعت من السلطان في أتم موقع فوجه إليه قضاء سلانيك، ثم نقل منها إلى حلب ثم عُزل منها ونُفي إلى جزيرة قبرص فأقام بها مدّة ثم أعيد مكرّماً، ولما سافر السلطان مراد إلى بغداد صحبه في خدمته وولاه في الطريق قضاء الشام وذلك في المحرم سنة ثمان وأربعين، ثم عزل عنها في ذي القعدة سنة خمسين، ثم وَلِيَ قضاء أدرنة وقسطنطينية وقضاء العسكر، ثم ترقى إلى روم إيلي في عشرى ذي القعدة سنة ست وخمسين وعزل، ثم أعيد في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ثم وَلِيَ الإفتاء في ثامن رجب سنة تسع وخمسين، ثم عزل وأعيد ثانياً في سنة ثلاث وستين.

(٢) وبالجملة فقد كان رونق علماء الدولة علماً وكرماً وسماحة، ويحكى عنه في الكرم أشياء غريبة جداً منها أنه كان يجود بثوبه الذي يستره كما قيل وقس عليه غيره.

ولطف طبعه وظرفه مما يقضى منهما بالعجب حتى يروى أنه كان إذا

---

(١) هي بلاد العثمانيين في أوروبا.

جاء رمضان استعمل خادمين نصرانيين إشفاقاً على خدمه المسلمين من تأذيهم بالخدمة من قبل أن يستوعبوا المأكل والمشرب وآلاتهما.

ونوادره وأشعاره وآثاره كثيرة.

(١) وسئل عن صاحب كتاب «إخوان الصفا» وحكم قراءتها فكتب: أنا الفقير رأيتها منسوبة للمجريطيّ وما تحققت من هو وما أخباره وحاصل تلك الرسائل ليس إلا مذهب الباطنية الإسماعيلية وهم على أنحاء شتى، ومعظم القول في هذه الشعبة من شعبهم تناسخ الأرواح وادّعاء حلول الباري - جل وعلا عما يقوله المبطلون - في الأنبياء المشهورين من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام وفي أئمة آل البيت وآخرهم المهدي ويعظمونه على الجميع. والإسماعيلية يوافقون الإمامية في ذلك في الصادق ومن قبله ويخالفونهم في الكاظم ويقولون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وإليه ينسبون بالسبعية لقولهم بسبعة أئمة.

(٢) قلت: ورأيت في بعض المجاميع مما يتعلق بهذه الرسائل أن الوزير صمصام الدولة ابن عضد الدولة سأل أبا حيان التوحيديّ عن زيد بن رفاعة وقال: لا أزال أسمع عن زيد مقالاً يربيني ومذهباً لا عهد لي به وقد بلغني أنك تعاشره كثيراً وتجلس إليه وعنده دائماً ومن طالت عشرته لإنسان أمكنه اطلاعه على مستكن رأيه فقلت له: أيها الوزير هناك ذكاء غالب وذهن وقاد فقال: فعلى هذا ما مذهبه؟ قلت لا ينسب إلى شيء لكنه أقام بالبصرة زماناً طويلاً وصادف بها جماعة عندهم أصناف العلم فصحبهم وخدمهم وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعِشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله تعالى وذلك أنهم قالوا إنّ الشريعة قد دُنِّست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال فصنفوا خمسين رسالة في خمسين نوعاً من الحكمة ومقالة حادية وخمسين

جامعة لأنواع المقالات على طرق الاختصار والإيجاز وسموها: «رسائل إخوان الصفا» وكتموا فيها أسماءهم وبثوها في الورّاقين ووهبوها لأكثر الناس فحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق المموّهة وهي محشوّة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات فتعبوا وما طربوا وعنوا وما أغنوا ونسجوا فهلهلوا وبالجملة فهي مقالات مشوقات غير مستقصاة ولا ظاهرة الأدلة والاحتجاج، ولما كتم مصنفوها أسماءهم اختلف الناس في الذي وضعها فكل قوم قالوا قولاً بطريق الحَدْس والتخمين؛ قوم قالوا: هي من كلام بعض الأئمة العلويين، وقال آخرون: هي تصنيف بعض متكلمي المعتزلة في العصر الأوّل والله أعلم بحقيقة الحال. انتهى.

(١) ثم رأيت ابن حجر المكيّ ذكر في فتاويه وقد سئل: من صاحب رسائل إخوان الصفا وما ترجمته وما حال كتابه؟ فأجاب بقوله: نسبها كثير إلى جعفر الصادق وهو باطل وإنما الصواب أن مؤلفها مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطيّ، ومجريط من قرى الأندلس[1]، ويكنى أبا القاسم، كان جامعاً لعلوم الحكمة من الإلٰهيات وطبائع الأحجار وخواص النبات وإليه انتهى علم الحكمة بالأندلس وعنه أخذ حكماء ذلك الإقليم وتوفى بها سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة وهو ابن ستين سنة، وممن ذكره ابن بشكوال وغيره وكتابه فيه أشياء حِكمية وفلسفية وشرعية وممن شدّد عليه ابن تيمية. انتهى.

كانت ولادة البهائيّ في سنة عشرة وألف وتوفي سنة أربع وستين وألف ودفن قبالة داره في تربة مخصوصة عمرها لنفسه بالقرب من جامع السلطان محمد الفاتح[2].

---

(١) وهي اليوم: مدريد، عاصمة أسبانيا.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٢/٤ ـ ٩.

محمد بن عتيق

الحمصيّ الشافعيّ نزيل مصر، الشيخ الفاضل كان قوي الذكاء والفطنة حسن الإشارة فصيح العبارة ذا دعابة لطيفة وطبع مستقيم.

(١) دخل القاهرة في أيام شبابه واشتغل بفنون العلوم، وجدّ واجتهد وبرع في سائر الفنون وفاق أقرانه وتقوّى على حل المشكلات العلمية، وألّف رسائل في فنون شتى ثم عرض له قاطع عن العلم واشتغل بتحصيل الدنيا وفتح حانوتاً للبيع والشراء وكثرت دنياه بحيث أعرض عن النظر في كتب العلم نحو عشرين سنة، ثم طرقه طارق الخير فرجع إلى ما كان عليه في بدايته من الجدّ والاجتهاد واشتغل بتصحيح جميع ما عنده من الكتب على كثرتها وجدّ في تحصيل كتب الحديث وكتبها بخطه وكان حسن الخط ولم يزل على هذا الحال إلى أن مات.

وكانت ولادته بحمص في سنة عشرين وألف، وتوفي سنة ثمان وثمانين وألف بمصر ودفن بتربة المجاورين.

(٢) رآه بعض إخوانه في المنام بعد موته فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وكتبني عنده من العلماء، قال: فقلت له: كيف وقد كنت انقطعت عن العلم مدة؟ فقال لي: الفضل أوسع وما رأيت إلا كل خير، وإن أردت النجاة في الآخرة فعليك بالاشتغال بالعلم فإنه من أعظم أسباب المغفرة عند الله تعالى وإياك والتكلم في أحد بسوء فإن عليك رقيباً أيّ رقيب[١].

شمس الدين البابليّ

محمد بن علاء أبو عبد الله شمس الدين البابليّ القاهريّ الأزهريّ الشافعيّ الحافظ الرُّحَلة أحد الأعلام في الحديث والفقه، وهو أحفظ أهل

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٣٤.

عصره لمتون الأحاديث وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان شيوخه وأقرانه يعترفون له بذلك.

وكان إماماً زاهداً ورعاً بركة من بركات الزمان.

حكى أنه رأى ليلة القدر ودعا بأشياء منها أن يكون مثل ابن حجر العسقلانيّ في الحديث فكان حافظاً نبهاً ما وقع نظره قبل انكفافه على شيء إلا وحفظه بديهاً، والذي عدّ من محفوظاته القرآن بالروايات و«الشاطبية» و«ألفية العراقيّ» في أصول الحديث وألفية ابن مالك و«جمع الجوامع» وغيرها، وكتب بخطه كتباً كثيرة منها فتح الباري لابن حجر.

وكان قدم به أبوه من قريتهم بابل من أعمال مصر إلى القاهرة وهو صغير دون التمييز وسنه دون أربع سنين وأتى به إلى خاتمة الفقهاء الشمس الرمليّ وهو منقطع في بيته فدعا له بخير ودخل في عموم إجازته لأهل عصره، وجدّ واجتهد إلى أن وصل إلى ما لا يطمع في الوصول إليه من أهل زمانه أحد، وكان من أحسن المشايخ سيرة وصورة، وكان يواظب على التهجد وصرف عمره في الدروس والنفع التامّ.

(١) وكان قانعاً باليسير عارفاً نفسه كمال المعرفة؛ حكى بعض الأخباريين أنه سمع علامة الزمان يحيى بن عمر المنقاريّ مفتي الروم يقول: كنت وأنا قاض بمصر وجهت إلى البابليّ تدريس المدرسة الصلاحية بعد موت الشمس الشوبريّ وهو مشروط لأعلم علماء الشافعية، قال وكتبت تقريرها وأرسلته إليه فجاء إليّ وامتنع من قبولها جداً مع الإقدام عليه مرات وادّعى أنه لا يعرف نفسه أنه أعلم علماء الشافعية قال: فقلت له حينئذ: تنظر لنا المستحق لها من هو حتى نوجهها له فقال: اعفني من هذا أيضاً وانصرف.

وقد حج مرات وجاور بمكة عشر سنين وأخذ عنه جماعات لا يحصون، ومع تبحره في العلوم لم يعتن بالتأليف.

(٢) وأُلجيء من الوزير الأعظم أحمد باشا الفاضل إلى تأليف كتاب في

الجهاد وفضائله فألف فيه في أيام قليلة كتاباً حافلاً أتى فيه بالعجب العجاب من الآثار الواردة فيه وأحكامه المختصة به.

(١) وكان ينهى عن التأليف ويقول: التأليف في هذه الأزمان من ضياعة الوقت فإنّ الإنسان إذا فهم كلام المتقدّمين الآن واشتغل بتفهيمه فذاك من أجلّ النعم وأبقى لذكر العلم ونشره والتأليف في سائر الفنون مفروغ منه، وإذا بلغه أن أحداً من علماء عصره ألف كتاباً يقول لا يؤلف أحد كتاباً إلا في أحد أقسام سبعة ولا يمكن التأليف في غيرها وهي إما أن يؤلف في شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه، أو شيء مفرق يجمعه.

(٢) قلت: ويجمع ذلك قول بعضهم شرط المؤلف أن يخترع معنى أو يبتكر مبنى.

وحصل له عارض في عينيه أذهب بصره قبل انتقاله[١] بنحو ثلاثين سنة وكان إذا طالع له أحد حثّه على الإسراع بحيث إنّ السامع لا يفهم ما يقرأه القارىء وإذا توقف القارىء في محل سابقه بالفتح عليه حتى كأنه يحفظ ذلك الكتاب عن ظهر قلب.

(٣) وكان كثير العبادة يواظب على قراءة القرآن سراً وجهراً، وكان راتبه في كل يوم وليلة نصف القرآن ويختم يوم الجمعة ختمة كاملة، وكان كثير البكاء عند قراءة القرآن ولا يفارقه خوف الله في جميع الأحيان، وكان يعفو عند الاقتدار وله خلق سهل رَضيّ.

(٤) وكان منصفاً جدّ الإنصاف، حكى لي بعض العلماء وأنا بمكة عن الشهاب البشبيشيّ عن البابليّ أنه كان يقول: إذا سئلنا من أفضل الأئمة نقول: أبو حنيفة[٢].

---

(١) أي وفاته

(٢) وهذا من إنصافه ـ حسَب رأي المصنِّف ـ لأنه شافعي.

وبالجملة والتفصيل فقد اجتمعت فيه الصفات الحسنة بأسرها ولم يكن في وقته أرأس منه ولا أورع ولا أكثر تقللا.

كانت ولادته في سنة ألف، وتوفي سنة سبع وسبعين وألف(١).

العيدروس

محمد بن علي بن عبد الله المشهور في مكة كأبيه وجده بالعيدروس.

ذكره الشليّ في تاريخه وأطال في وصفه بما لا مزيد عليه، ثم قال: ولد بمكة ونشأ بها وحفظ القرآن وتفقه على الشيخ عبد العزيز الزمزميّ والشيخ عبد القادر الطبريّ، وصحب والده وغيره من أكابر الأولياء، وكان واحد عصره وشيخ زمانه وانتهت إليه الرياسة، وكان يلبس الملابس الفاخرة وتهابه الصدور ولا تردّ له شفاعة، وكان يقيم بمنى المدّة المديدة فتفد عليه الأعيان ويكرمهم بالأطعمة الفاخرة ويعمهم بخيراته وكان يعطي العطايا الجزيلة. وكانت سيرته سيرة الملوك ثم انخلع من تلك الحالة وترك اللهو وتجرّد للطاعة. قال: وكنت ممن لازمه إلى الممات ودعا لي بدعوات ظهر لي نفعها.

(١) وكانت تقع له كرامات خوارق منها أن بعض الفقراء شكى إليه حالته فقال له: اذهب إلى شريف مكة يحصل لك مطلوبك فذهب إلى الشريف وأنشده قصيدة وافقت ما في ضميره فطرب لذلك وأمر له بكسوة وجائزة.

(٢) ومنها أن حاكم مكة مات وطلب مرتبته من شريف مكة جماعةٌ من المتأهلين لها ووقفوا على باب الشريف ينتظر كل واحد أن يوليه الحكومة، وكان الأمير سليمان يعتقد صاحب الترجمة فجاء إليه وأخبره بذلك وكان لا يرومها لضعف حاله فألبسه السيد ثوباً من ثيابه وقال له: اذهب الآن إلى الشريف فأنت حاكمها، فلما دخل على الشريف وجده مفكراً فيمن يوليه من الطالبين للحكومة فلما رآه انشرح صدره وخلع عليه خلعة الإمارة.

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٣٩ - ٤٢.

(١) ومنها أن عين مكة انقطعت وقرب مجيء الحجاج والبرك فارغة وكان الشريف بعيداً فكتب لحاكمه أن يجتهد في تملية البرك بأيّ وجه أمكن وعلم الحاكم عجزه عن ذلك لقرب المدّة فأتى إلى صاحب الترجمة وشكى إليه حاله فقال له: أعط الخادم يتصدّق على الفقراء فلما أصبحوا أمطرت السماء وسالت أودية مكة وامتلأت البرك من السيل، وغير ذلك.

كانت وفاته سنة ست وستين وألف، وكانت له جنازة حافلة[1].

شمس الدين الدمشقي

محمد بن عمر بن فواز الملقب شمس الدين الدمشقيّ الشافعيّ.

كان فاضلاً أديباً لطيف الذات حسن الخلال عذب المفاكهة، له مشاركة في عدّة فنون، وله شعر حسن لطيف السبك. أخذ بدمشق عن العلامة العماديّ الحنفيّ، ثم رحل إلى القاهرة وأقام بها سنين وصحب أفاضلها المشاهير، ورجع إلى دمشق ودرس ببعض المدارس.

(٢) وكان كثيراً ما يألف الشيخ محمد الحجازيَّ مفتي الشافعية بدمشق وولده عبد الحق، وكان عبد الحق يقرأ عليه وانتفع به وكان يراسله فممّا كتبه الفوازي إليه وقد انقطع عن صحبته أياماً لجفوة صدرت منه وتعتب عليه في المهاجرة:

يا غائباً والذنب ذنبك ... متعتباً الله حسبك
لا تبعدنّ فإنما ... أملي من الأيام قربك
فَلأصبرنّ وأرضين ... بما قضاه الله ربك

(٣) وقد ذكره البورينيّ في تاريخه وأحسن الثناء عليه ثم قال: وكان عندنا في يوم قد هبّ نسيمه، وصح بوصف السلامة سليمه، فقرأ بعض الأصحاب هذا البيت من كتاب «الصادح والباغم» لابن الهبارية وظاهره لا يخلو من شيء على مقتضى الشريعة المحمدية والبيت هذا:

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٥٦ - ٥٧.

وليس في العالم ظلم جاري   إذا كان ما يجري بأمر الباري

(١) فأظهر إشكاله وأودع حقيقة الحق أقواله، فقال:

هذا كلام ظاهر الإشكال   ظاهره لم يخل من مقال

إذ عالم الكون مع الفساد   كم قد حوى كفراً على عناد

وكم به ظلم على اعتداء   والله لا يأمر بالفحشاء

ومدعي هذا أتى بهتاناً   إذ قوله يصادم القرآنا

مناقضٌ فائدة الإرسال   وحكمة التكليف بالأعمال

كقوله لا تقربوا أقيموا[١]   فظالمنا مرتعه وخيم

فإن أراد العلم والإرادة   بالأمر فهو ظاهر الإفاده

وهي صفات ربنا في القدم   والظلم في فعل العباد فاعلم

وربنا منزه عن ظلم   إذ فعله عن حكمة وعلم

وما جرى في الكون بالتقدير   مع القضا في سائر الأمور

والله سمى البعض ظلماً حقاً   فليس من ينكره محقاً

وكم حوى القرآن ذم الظالمين   وكل من خالف نهج المؤمنين

ويجب الإيمان بالقضاء   ولم يكن سراً بلا امتراء

وامتنع الرضاء بالمقضيّ   إذ كان شيئاً ليس بالمرضيّ

كقول أهل العلم وهو الصدق   إنّ الرّضا بالكفر كفرحق

فلا تجوِّزِ الرِّضا بالظلم   أنكر ولو بالقلب ياذا الفهم

هذا جواب حسن محقق   والله مولانا هو الموفق

وفاته كانت بمكة سنة خمس بعد الألف، ومات وله من العمر نيف وخمسون سنة تقريباً[٢].

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿لا تقربوا الصلٰوة وأنتم سكرىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلٰوة﴾.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٤/٧٤ـ ٧٦.

العباسيّ

السيد محمد بن عمر العباسيّ الدمشقيّ الصالحيّ الحنبليّ شيخنا، ولي الله ومعتقَد الشام.

ينسب إلى العباس عم النبيّ ﷺ من جهة والده وإلى الشيخ أبي عمر بن قدامة الحنبليّ من جهة والدته.

كان شيخاً جليلاً من أكابر العارفين والأولياء المتمكنين، أخذ الفقه عن الشهاب أحمد الوفائي المفلحيّ.

(١) وكان يؤثر الخمول على الظهور إلى أن أراد الله سبحانه ظهوره لما حبس الغيث عن دمشق سنة سبعين وألف واستسقى أهلها مرات فلم يمطروا وكان شيخنا رحمه الله تعالى لا يخرج معهم هضماً لنفسه فأنطق الله بعض المجاذيب بأنكم إن أردتم الغيث فاستسقوا بالعباسيّ فأمره نائب الشام بالخروج للاستسقاء بهم فخرج وهو في غاية الخجل وقال: اللهم إنّ هؤلاء عبادك قد أحسنوا الظنّ بي فلا تفضحني بينهم فأُغِيثوا من ساعتهم وما رجعوا إلى البلد إلا بمشقة من كثرة المطر واستمر المطر ثلاثة أيام فاشتهر عند ذلك ذكره ولم يمكنه أن يكتم أمره وانتفع به الجمّ الغفير الذين لا يمكن حصرهم وأعطاهم الله تعالى حسن السمت والقَبول ونوّر حالهم ببركته ودعائه، وقد وفقني الله سبحانه وتعالى للأخذ عنه والتبرك بدعواته.

(٢) ثم انقطع عن الناس، وكان لا يقبل من الحكام هدية ولا يتردد إليهم.

كانت وفاته في سنة ست وسبعين عن سنّ عالية ودفن بمقبرة الفراديس، وقبره معروف يزار[١].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١٠٣/٤.

شمس الدين بن المنقار

محمد بن القاسم الملقب شمس الدين بن المنقار الحلبيّ ثم الدمشقيّ الحنفيّ العالم البارع المناظر، القويّ الساعد في الفنون.

(١) كان من أعيان العلماء الكبار، قال النجم في ترجمته: ولد بحلب ونشأ بها ولازم الرضيّ بن الحنبليّ وغيره ثم وصل إلى دمشق في سنة إحدى وستين وتسعمائة ودرس بعدّة مدارس، وأفتى على مذهب الإمام أبي حنيفة، وكان عالماً متضلعاً من علوم شتى إلا أن دعواه كانت أكبر من علمه وكان يزعم أنّ مَن لم يقرأ عليه ويحضر درسه فليس بعالم. وكانت بينه وبين رفيقه النابلسيّ والمنلا أسد مهاجراتٌ بسبب المناظرة والمباحثة حتى يؤدّي ذلك إلى المنافرة، وكان كثير المخاصمة والجدال يحب التصدّر على أعلام الشيوخ في المجالس الحافلة ويتمثل بأشعار الجاهلية وغيرهم كقول سحيم:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

وقول أبي الطيب:

أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت ... وإذا نطقت فإنني الجوزاء

(٢) وكان كثيراً ما يلهج بأبيات أبي العلاء المعريّ من قصيدته اللامية المشهورة:

إذا وَصف الطائيَّ بالشُّح مادرٌ[١] ... وعَيّر قِسّاً بالفهاهة باقلُ[٢]

وطاولت الأرض السماء سفاهة ... وفاخرت الشهب الحصى والجنادل[٣]

وقال السهى[٤] للشمس أنت خفية ... وقال الدجى للصبح لونك حائل

فيا موت زُرْ إن الحياة ذميمة ... ويا نفس جدي إن دهرك هازل

---

(١) أحد بخلاء العرب.

(٢) باقل اسم رجل من العرب يضرب به المثل في العَيّ، وهو العجز عن النطق الصحيح، وقِس من المشهورين بالفصاحة عند العرب، والفهاهة: العِيّ.

(٣) الحجارة.

(٤) السُّهى: كوكب خفيّ يمتحن به الناس أبصارهم.

وكان إذا وصل إلى قوله: «وقال السهى للشمس» يضع يده على صدره مشيراً إلى نفسه؛ إلى غير ذلك.

(١) وقصة حطِّه على النجم الغزيّ مشهورة وملخصها كما قال النجم في ترجمته أن النجم كان يعظ ويقرأ الحديث في الجامع الأمويّ وهو دون العشرين فأنكر ذلك الشمس واتفق أنه حضر يوماً إلى الجامع وكانت الشمس كسفت وصلى الشهاب العيثاويّ إماماً بالناس صلاة الكسوف بمحراب الشافعية ثم حضر الشرف الحكيم الخطيب بالجامع وصلى وحضر ابن المنقار ولما فرغ الناس من الصلاة أخذ في الإنكار على العيثاويّ والنجم في الصلاة وعطف عليه أنه علم النجم وقوّاه على النظم والتدريس، فاجتمع به العيثاويّ والنجم فلما تكالموا ثارت العوام عليه وألجأوه حتى خرج من باب البريد حافياً وهو بعمامة صغيرة غير عمامته المعتادة وهم يصيحون به، ثم آل الأمر إلى أن عقد له مجلس عند قاضي القضاة مصطفى بن بستان وحضر جماعة من أعيان العلماء منهم الجد القاضي محب الدين والشهاب العيثاويّ فأصلحوا بينهما ثم طلبوا المناظرة بينهما فتناظرا في عبارة من تفسير البيضاويّ وكانت الغلبة للنجم وألف العيثاويّ رسالة حافلة فيما وقع بينهما وكان ذلك اليوم قد ظهرت نجوم السماء نهاراً لقوّة الكسوف فقال بعض الأدباء مصراعاً أجاد فيه وهو قوله:

وعند كسوف الشمس قد ظهر النجم.

فسبكه النجم في أبيات هي قوله:

بعام ثمان بعد تسعين حجة ... وتسعمىءٍ مرّت جرى الأمر والحكم

بأن حضر الشمس ابن منقار الذي ... تحرى جدالاً حين زايله الحزم

وناظرنا يوم الكسوف فلم يطق ... لنا جدلاً بل خانه الفكر والفهم

فقيل وبعض القول لا شك حكمة ... وعند كسوف الشمس قد ظهر النجم

ولولا تلافي الله جل جلاله ... أصاب تلافاً حين تابعه الرجم[١]

---

(١) يشير إلى ما حدث من رجم العامة له كما ذكر آنفاً.

والحاصل أنه كان ضيق الخلق، وأما علمه فمسلّم عند من يعرفه وإن طعن فيه طاعن فعن عداوة وحسد، وله أشعار كثيرة.

كانت ولادته في سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة، وتوفي سنة خمس بعد الألف[1].

التركيّ

محمد بن محمد بن عبد الله التركيّ الخلوتيّ المصريّ.

ذكره المناوي في «طبقاته» وقال: كان شيخاً صالحاً متعبداً متزهداً ريِّض الأخلاق حسن الشمايل جيد الخبرة بطريق التصوّف، وكان مع تخلقه بأخلاق القوم وتمكنه في طريقهم لا يأكل إلا من عمل يده فكان يعمل المناخل ويبيعها ويتقوّت منها وهو مع ذلك ملازم للجد والاجتهاد بحيث لا يغفل طرفة عين، وكان محمديّ الصفات إن ذكرت الدنيا ذكرها معك وإن ذكرت الآخرة ذكرها معك، ولم يكن للغضب عليه سبيل.

(١) وكان قد انتهى إلى حالة يسمع معها نطق الحيوانات والجمادات بالتسبيح.

(٢) قال ولزمته فما رأيته غضب وقال لي: إنه أقام ثلاثة عشر عاماً لا يضع جنبه إلى الأرض بل يصلي الصبح بوضوء العشاء.

(٣) ووقع له أن دخل بيتاً ليس فيه مصباح فأضاء بدنه.

وحج في آخر عمره ورجع مريضاً، ومات في سنة سبع بعد الألف بعد نحو شهر من قدومه، وصُلِّي عليه بجامع الأزهر ولم يخلف بعده مثله، رحمه الله تعالى[2].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/١١٥ ـ ١٢١.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٤/١٥٣ ـ ١٥٤.

ابن الخوجه

محمد بن محمد سعد الدين بن حسن جان الشهير بابن الخوجه مفتي السلطنة ورئيس علمائها.

(١) كان في الفضل والفطنة والحافظة في مرتبة خارجة عن طوق البشر ولقد يحكى عنه أنه ركب يوماً البحر بقصد السير في بستان له، وكان أمين الفتوى في خدمته، وكان توزيع الفتاوى قرب فقال له: أخرج الأسئلة واقرأها عليّ لأستحضر أجوبتها فإذا وصلنا البستان سهلت الكتابة عليها فأخرجها وقرأها حتى أتى على آخرها وكان يضع المقروء أمامه في الزورق الذي هم فيه فهبت ريح عاصفة بالأوراق وألقتها في البحر فاضطرب الأمين لذلك غاية الاضطراب فقال له: لا بأس عليك، فلما وصل البستان استدعى بقراطيس وقسمها صوراً وقال: اكتب ما أملي عليك وأخذ يمليه الأسئلة المكتتبة وهو يكتب حتى لم يبق شيء منها ويلغني من بعض الروميين أنها كانت تنوف على مائة سؤال، وهذه المنقبة من أعظم ما يكون وهي كافية له عن الإطناب في وصفه.

وله نظم بالألسنة الثلاثة، وله انشاء وخطب وتقاريظ كلها ممتعة.

(٢) وقد وَلِيَ قضاء دار الخلافة ثم قضاء العسكر سنة أربع بعد الألف وسافر هو وأبوه مع السلطان محمد بن مراد في سفر «أكري» وظهرت كفايتهما في ذلك السفر، وحُكِيَ أن صاحب الترجمة تدرع أيام المحاربة وجاهد مجاهدة عظيمة ونفع النفع التام عند هجوم الكفار على صف السلطان فكان يجمع العسكر إلى طرف السلطان ويقاتل أشدّ القتال حتى وهب الله النصر والظفر وفُتحت قلعة أكري، ولما رجع السلطان عزل عن قضاء العسكر، ثم وَلِيَ قضاء روم ايلي[١] سنة سبع بعد الألف، وعزل سنة

---

(١) هي بلاد العثمانيين في أوربا.

تسع بعد الألف ووَلِيَ الإفتاء سنة عشر وألف، وعزل سنة إحدى عشرة ثم أعيد سنة سبع عشرة وبقى إلى أن مات سنة أربع وعشرين وألف[1].

شمس الدين الحمويّ

محمد بن محمد بن يوسف الملقب شمس الدين، الحمويّ الأصل الدمشقيّ المولد الميدانيّ الشافعيّ عالم الشام ومحدثها وصدرعلمائها الحافظ المتقن.

كان بديع التقرير متين التحقيق، غاية في دقة النظر وكمال التدقيق، حافظاً ضابطاً ذا ذهن ثاقب وقريحة وقادة وسرعة فهم ونظر مستقيم، ومروءة وعقل وافر، وشكل نورانيّ، شديدَ الانقباض عن الناس، شديداً في الدين، مهاباً جداً عند الناس.

ولد بدمشق، وقرأ القرآن وغيره على الشيخ قزيحة إمام جامع منجك بميدان الحصى خارج دمشق، وقرأ الفرائض والحساب على الشيخ محمد بن إبراهيم التنوريّ، ثم قرأ في القراآت وغيرها على شيخ الإسلام الشهاب أحمد بن أحمد الطيبيّ والشهاب أحمد بن البدر الغزيّ، وقرأ العلوم العقلية على أبي الفداء إسماعيل النابلسيّ والعماد الحنفي والشيخ محمد الحجازيّ والشهاب العيثاويّ ثم أنكر مشيخة هذين بعد عوده من مصر، ورحل إلى مصر في سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة وجاور بالأزهر تسع سنين وحضر دروس مشايخ الإسلام بها كالشمس الرمليّ والنور الزياديّ ومن في طبقتهما من علماء وقته، وانهمك على الطلب واستغرق فيه جميع أوقاته حتى كان أهل الأزهر يضربون المثل بفهمه وثباته، وكتب جملة كتب بيده، ثم قدم الشام في سنة إحدى وتسعين وتسعمائة فتصدر بها للتدريس والقراءة فاجتمع إليه الطلبة طبقة بعد طبقة نحو أربعين سنة وشاع أمره.

(١) قال النجم: وكان أعظم معلوماته الفقه إلا أنه كان يشبه على الطلبة

---

(١) «خلاصة الأثر»: ١٦٨/٤ - ١٦٩.

ويورد الإشكالات عليهم فإذا أجابوه خطأهم فإذا احتجوا عليه بكلام المتأخرين كشيخه الرمليّ والزياديّ وابن حجر يقول: ما علينا من كلامهم ويخطئهم وإذا روجع غلط من يراجعه، وكان يحب التبكيت[1] بالطلبة والنداء عليهم بالجهل وعدم الفهم، وكان لا يتواضع مع العلماء والأفاضل فبهذا السبب مكث بدمشق سنين ولم يجعل له من الجهات والوظائف إلا قليل حتى ظفر بعض تلاميذه بالوظائف السنية وهو محروم منها، وكان يتكبر على الأكابر من العلماء الموجودين إذ ذاك كالشمس ابن المنقار والقاضي محب الدين الذين يحتاج إلى ملايمتهم[2] والتردد إليهم وحضور دروسهم ولم يحصل على مراده منهم، ثم حصل على إمامة الشافعية الأولى بجامع بني أمية، ثم انحلت قراءة الحديث عن الشيخ نجم الدين بن حمزة العاتكيّ، فوجهت إليه، وقراءة الحديث والوعظ عن الشيخ وليّ الدين الكفرسوسيّ فوجهت إليه ولم يباشرهما قطُّ.

وكان لما مات الشمس الداوديّ فقد الناس مجلسه للحديث فقامت الطلبة على الميدانيّ لعقد مجلس في الحديث بعد موته بسنتين أو أكثر فأقرأ في صحيح البخاري بعد صلاة العصر واختار أن يكون جلوسه تحت قبة النسر[3] وكانت العوام تحمل عنه مسائل فنشأ عنه القول بتفضيل الملائكة مطلقاً، وإنكار أن تكون قراءة كل قارىء بالنسبة إليه متواترة إلا أن يتلقاها عن مشايخ يبلغ عددهم التواتر وكان له من هذا القَبيل أشياء.

ولما توفى الشيخ عبد الحق الحجازيّ وجه إليه قاضي القضاة بالشام المولى نوح بن أحمد الأنصاريّ تدريس دار الحديث الأشرفية.

فلما كان طاعون سنة تسع وعشرين مات له ولد بالغ كفيف البصر له فضيلة وكان اسمه محمداً ولم يكن له ولد غيره سوى بنت فوجد لفقده

---

(١) التعيير وتقبيح الفعل.

(٢) مداراتهم.

(٣) في الجامع الأمويّ.

وحمله حزنه على أن تفرغ عن وظائفه وأظفر أنه يريد الحج والمجاورة بمكة ثم سافر صحبة الشيخ سعد الدين إلى مكة وجاور ثمّ رجع من العام المقبل سنة ثلاثين.

(١) ثم ورد عليه في سنة اثنتين وثلاثين براءة في تدريس الشامية البرانية[١] سعى له فيها محمد البحري بدلالة باكير محضر باشي عن مدرسها النجم الغزى فبادر قاضي القضاة بدمشق وسلمها إليه فسافر النجم لأجلها إلى الروم وألّف رحلته التي سماها «بالعقد المنظوم في رحلة الروم» وقُرِّر بالمدرسة بقيد الحياة وتسلمها، فلما كان أواخر ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين بعث باكير براءة بتقرير الشمس في المدرسة أيضاً وترافعا لدى قاضي القضاة فأبرز النجم نقلاً عن علماء الحنفية أنّ السلطان إذا أعطى رجلاً وظيفة بقيد الحياة، ثم وجهها لغيره لا ينعزل عنها إلا أن ينص السلطان على الرجوع عن الإعطاء بقيد الحياة فلما رأى قاضي القضاة المولى عبد الله المعروف ببلبل زاده النقل قال للنجم: الحق لك تطيعنا على رعاية سن هذا الرجل ونقسم بينكما التدريس فصارت الوظيفة بينهما شطرين إلى أن مات الميدانيّ فضم الشطر الثاني إلى النجم، وكان الميدانيّ مبتلياً بالقولنج، قال النجم: ولم يدرس بالأشرفية ولا بالشامية ولم يباشر وظائفه إلا الإمامة في بعض الأوقات.

(٢) وكان يغلب عليه الفقه إلا أنه انفرد بمسائل كان يفيدها على خلاف المذهب وكان ينكر أن يقال: تحية المسجد، ويقول: قولوا: تحية رب المسجد، ويحتج بما تأوّل به ابن العماد في قولهم تحية المسجد وهو خلاف المنقول الجاري على ألسنة العلماء قديماً وحديثاً.

(٣) ومن أغرب ما وقع له في مجلس عثمان باشا نائب الشام في ليلة النصف من رمضان سنة إحدى عشرة وألف وكان في المجلس الشهاب

---

(١) اسم مدرسة في دمشق.

العيثاويّ والعلاء الطرابلسيّ والنجم الغزيّ فتذاكروا فضل دمشق وجامعها حتى ذُكر السيد معاوية رضي الله عنه وأنه مدفون بباب الصغير وقبره معروف يزار وكان الذاكر لذلك العلاء فقال الشمس هذا المشهور بباب الصغير قبر معاوية الصغير لا معاوية الكبير ومعاوية الصغير ابن يزيد بن معاوية وكان صالحاً بخلاف أبيه، فقال له العلاء: فأين قبر معاوية الكبير؟ قال: في بيته في قبلة الجامع الأمويّ، وقيل إن قبره غير معروف وأُخفي قبره وهذا منه غير تثبت ولا أحسب أنه يُرى له نقلٌ فإن كون قبر معاوية في باب الصغير شائع محفوظ في الألسن وذكره غير واحد منهم الحافظ السيوطيّ فإنه قال في تاريخ الخلفاء في ترجمة معاوية رضى الله عنه أنه دفن بين باب الجابية وباب الصغير.

وبالجملة فالقول فيه إنه عالم عصره ورئيس محدثيه وفقهائه خصوصاً بعد موت الشهاب العيثاويّ.

(١) وبلغ به سطوع الشأن إلى مرتبة قلَّ من يضاهيه فيها حتى أن الحكام كانوا لا يستطيعون الظلم خوفاً منه ويحترمونه أقوى احترام مع عدم تردده إليهم وقلة اكتراثه بهم وحطِّه عليهم.

وأكثر الناس من الأخذ عنه والقراءة عليه، وجمع من الكتب شيئاً كثيراً.

(٢) وكانت وفاته سنة ثلاث وثلاثين وألف وصلي عليه قبل صلاة العصر ودفن بمقبرة باب الصغير عند قبر والده ولما أنزل في قبره عمل المؤذنون ببدعته التي ابتدعها مدة سنوات بدمشق من إفادته إياهم أن الأذان عند دفن الميت سنة وهو قول ضعيف ذهب إليه بعض المتأخرين وردّه ابن حجر وغيره، فأذّنوا على قبره[1].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/١٧٠ ـ ١٧٤.

نجم الدين الغزيّ

محمد بن محمد بن محمد محدّث الشام ومسندها الشيخ الإمام نجم الدين أبو المكارم وأبو السعود بن بدر الدين بن رضي الدين الغزيّ العامريّ الدمشقيّ الشافعيّ شيخ الإسلام، ملحق الأحفاد بالأجداد، المتفرد بعلو الإسناد.

ترجم نفسه في كتابه «بلغة الواجد» في ترجمة والده البدر فقال: مولدي كما رأيته بخط شيخ الإسلام يوم الأربعاء حادي عشر شعبان المكرم سنة سبع وسبعين وتسعمائة وسط النهار وقت الظهيرة، ودعا لي الوالد بعدما كتب ميلادي فقال: أنشأه الله تعالىٰ وعمّره وجعله ولداً صالحاً براً تقياً، وكفله وحماه من بلاء الدنيا والآخرة، وجعله من عباده الصالحين وحزبه المفلحين وعلمائه العاملين ببركة سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل. انتهى ما وجدته بخط الشيخ الوالد.

(١) ولا بأس بذكر شيء مما منّ الله تعالى عليّ به على عادة علماء الحديث وإن كنت في نفسي مقصراً وعن حلبة العلماء مقهقراً فأقول: رُبِّيت في حجر والدي وتحت كنفه حتى بلغت سبع سنوات وقرأت عليه من كتاب الله تعالى قصار المفصل وحضرت بين يديه يوم عيد الفطر عام وفاته وقلت: يا سيدي أريد أن أقرأ عليك من أوّل البقرة، قال: وتعرف تقرؤها؟ قلت: نعم، قال: هاتِ المصحف، فجئته به فقرأت عليه الفاتحة ثم من أوّل البقرة إلى المفلحون، فقال لي: يكفيك إلى هنا فأطبقت المصحف بعد أن لقنني ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين﴾ وأنعم عليّ حينئذ بأربع قطع فضة ترغيباً لي، وأمرني وأنا ابن ست سنوات أن أصوم رمضان ويعطيني في كل يوم قطعة فضة فصمت معظم الشهر وكان ذلك ترغيباً منه وحسن تربية، وصمت رمضان السنة التي مات فيها إلا يوماً أو يومين وأنا ابن سبع وبقيت

أجلس معه للسحور وكان يدعو لي كثيراً وأحضرني دروسه أنا وأخي الشيخ كمال الدين في سنة اثنتين وثمانين وثلاث وثمانين وأربع وثمانين وحدثتني والدتي عنه أنه كان يقول: إن أحياني الله تعالى حتى يكبر نجم الدين أقرأته في كتاب التنبيه[1]، وأجازني فيمن حضر دروسه إجازة خاصة.

(١) ثم ربيت بعد وفاته في حجر والدتي أنا وإخوتي فأحسنت تربيتنا ووفرت حُرمتنا وعلمتنا الصلوات والآداب وحرصت على تعليمنا القرآن وجازت شيوخنا على ذلك وكافأتهم وقامت في كفالتنا بما هو فوق ما تقوم به الرجال مترملة علينا راغبة من الله سبحانه في حسن الثواب والنوال وجزيل الحظ من قوله ﷺ: «أنا أوّل من يفتح باب الجنة إلا أني أرى امرأة تبادرني فأقول لها: مالك ومن أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي» رواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال الحافظ المنذري وإسناده حسن إن شاء الله تعالى، وقال ﷺ: «أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة وأومأ بيده» يريد ابن زريع السبابة والوسطى، «وامرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى باتوا أوماتوا» رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعيّ رضى الله عنه، قال الخطابيّ: السفعاء التي تغير لونها إلى الكمودة والسواد من طول الأيمة يريد بذلك أنها حبست نفسها على أولادها ولم تتزوج فتحتاجَ إلى الزينة والتصنع للزوج، فجزاها الله عنا أحسن الجزاء وعوضها عما تركت من أجله لوجهه في دار البقاء، وساعدها على ذلك كله شقيقها وأجزل إلينا خيراً، وكانت معيشتنا من ريع وقف جدِّنا وملك أبينا وميراثه الذي تلقيناه عنه أحسنت والدتنا التصرف في أموالنا وفي مؤنتنا وكسوتنا ولم تحملنا منة أحد قط وتقول هو ببركة والدهم، ثم إنها أعزها الله ومدّ في أجلها أشغلتنا بقراءة القرآن وطلب العلم ثم أخذت في طلب العلم، وفتح الله تعالى علي بالنظم والنثر والتأليف من سنة إحدى وتسعين وتسعمائة.

---

(١) هو كتاب في الفقه الشافعي.

ومن مؤلفاته «كتاب عقد النظام لعقد الكلام» وهو كتاب غريب الوضع مبنيّ على مقولات للسلف في النصيحة والزهد وأشباههما ثم ينظم تلك المقولات ويذكر نظمه عند آخر كل مقولة نقلت منه أشياء منها:

(١) ذكر النوويّ في تهذيب الأسماء واللغات عن الإمام الشافعيّ أنه قال: ما أفلح في العلم إلا من طلبه في القلة ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر عليّ، وقال: لا يطلب أحد هذا العلم بالمال وعز النفس فيفلح ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة المعلم والتواضع في النفس أفلح.

(٢) وله كتاب «تحبير العبارات في تحرير الإمارات» وهو أيضاً عجيب نقل فيه ما نصه: يُبتلى المغتاب بأن يُغتاب، روى أبو الشيخ بن حيان في كتاب النكت والنوادر عن عبد الله بن وهب قال: قال مالك بن أنس رضي الله عنه: كان عندنا بالمدينة قوم لا عيوب لهم تكلموا في عيوب الناس فصارت لهم عيوب، وكان عندنا قوم لهم عيوب سكتوا عن عيوب الناس فنسيت عيوبهم، قلت:

عائب الناس وإن كان سليماً يستعاب
والذي يمسك عن عيب الورى سوف يهاب
ما دخول المرء فيما ليس يعنيه صواب

(٣) وذكر فيه أيضاً: روى أبو الشيخ أيضاً عن مُطَرِّف قال: قال لي مالك بن أنس رضي الله عنه: ما تقول الناس فيّ، قلت: أما الصديق فيثني وأما العدوّ فيقع، فقال: ما زال الناس كذلك لهم صديق وعدوّ ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسن كلها[1].

(٤) ونقل فيه عند ذكر إمارات الصبيان قال: ومن لطائف العلامة الشيخ زين الدين عمر ابن المظفر الورديّ وقد وَلِيَ السلطنةَ صبيٌّ مميز غير بالغ:

سلطاننا اليوم طفل والأكابر في خلف وبينهم الشيطان قد نزغا

---

(١) أي من تتابع الألسن وتضامنها على ذكر مساوىء الإنسان.

وكيف يطمع من مسته مظلمة   أن يبلغ السؤل والسلطان ما بَلَغا

(١) وله كتاب «التنبيه في التشبيه» وهو كتاب بديع في سبع مجلدات، لم يسبق إلى تأليفه وهو أن يذكر ما ينبغي للإنسان أن يتشبه به من أفعال الأنبياء والملائكة والحيوانات المحمودة وما يتشبه به من اجتناب ما يذم فعله رأيته ونقلت منه أشياء لطيفة منها قوله:

(٢) لقد مر بي في بعض مجالسي من نحو عشرين سنة أني دعوت الله تعالى فقلت: اللهم اجعلنا من الصالحين فإن لم تجعلنا من الصالحين فاجعلنا من المخلطين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً أو ما هذا معناه فبعد انقضاء المجلس اعترض عليّ بعض السامعين فقال: يا سيدي: كيف تدعو الله أن يجعلنا من المخلطين والمعصية مقررة فيهم؟ قلت: سبحان الله والعمل الصالح مقرر فيهم أيضاً وهو أولى من أن نكون من المصرين ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾[١]، ثم وقفت على كلام مُطرِّف وهو ما روى البيهقيّ عن مطرف قال: إني لأستلقي في الليل على فراشي وأتدبر القرآن فأعرض نفسي على أعمال أهل الجنة فإذا أعمالهم شديدة ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾[٢] ﴿يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾[٣] ﴿أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً﴾[٤] فلا أراني منهم فأعرض نفسي على هذه الآية: ﴿ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين﴾ إلى قوله: ﴿نكذب بيوم الدين﴾[٥] فأرى القوم مكذبين فلا أراني منهم فأمرّ بهذه الآية ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾[٦] فأرجو أن أكون منهم فحمدت الله تعالى على موافقته على أن المخلطين المذكورين كانوا من

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٥

(٢) سورة الذاريات: الآية ١٧.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٦٤.

(٤) سورة الزمر: الآية ٩.

(٥) سورة الحاقة: الآية ٤٢ - ٤٦.

(٦) سورة التوبة: الآية ١٠٢.

أعيان الأنصار والصحابة الأخيار وأنى لنا باللحاق بـأقلهم، وقولـه تعالى: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾[1] فعسى ولعلّ في القرآن يدلان على تحقيق ما بعدهما بإجماع المحققين من المفسرين فالتوبة مقبولة منهم بفضل الله تعالى. انتهى.

(١) وله التاريخ الذي ألفه في أعيان المائة العاشرة وسماه «بالكواكب السائرة»، والذيل الذي سماه «لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر» والثاني أحد مادة تاريخي هذا وكلا الأثرين له جيد جزاه الله على صنعهما خيراً إلا أنهما يحتاجان إلى تنقيح وحسن ضبط فإن فيهما الغثّ وتكرير بعض تراجم وبعض سهو في الوفيات إلا أنه أجاد كل الإجادة في هذا الجمع على كل حال وأما ما فيه من بعض الأغراض فقد عُرفت بها المؤرخون في الماضي وأبرأ أنا منها في الحال ومن نظر في كتابي بعين الرضا عرف أني أتلافى كثيراً مما مضى وبـالله أستعين وأستدفع المكروه وأسأله أن يبيض وجهي يوم تبيض الوجوه.

ثم تصدر للإقراء والتدريس، وأذن له العيثاويّ بالكتابة على الفتوى قبل وفاته بنحو عشرين سنة فكتب في هذه المدّة على فتـوى واحدة في الفقه وغير واحدة في التفسير تأدباً مع العيثاويّ فلما كان قبل وفاته بنحو خمسة أيام دخل النجم عليه فحضرت فتوى فقال له: اكتب عليهـا فكتب وقال: أكتب اسمكم؟ قال: بل اكتب اسمك فكتبه ثم تتابعت عليه الفتاوى فاستمر يفتي من سنة خمس وعشرين وألف إلى سنة إحدى وستين وهي سنة وفاته.

وكان مغرماً بالحج إلى بيت الله الحرام واتفق له مرات.

وجلس تحت القبة في الجامع الأمويّ لإقراء صحيح البخـاريّ في الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان، ورأس الرياسة التامة ولم يبق من

---

(١) تكملة الآية السابقة.

أقرانه الشافعية أحد، وهرعت إليه الناس والطلبة وعظم قدره وبعُد صيته، وكانت مدة جلوسه تحت قبة النسر سبعة وعشرين عاماً، وانتفع الناس به وأخذوا عنه طبقة بعد طبقة وهم في الكثرة لا يحوم الإحصاء حولهم.

(١) وكان له بالحجاز الصيت الذائع والذكر الشائع، وحكى الشيخ العالم التقي الشيخ حمزة بن يوسف الدومانيّ ثم الدمشقيّ الحنبليّ أبقاه الله تعالى غير مرة أنه لما حج في سنة تسع وخمسين وألف كان النجم حاجا تلك السنة وهي آخر حجاته وكذلك الشيخ منصور السطوحيّ المحليّ كان حاجاً قال: وكنت في صحبة الشيخ منصور فبينما أنا ذات يوم عند الشيخ منصور بخلوة عند باب الزيادة وإذا بحس ضجة عظيمة قال: فخرجت فنظرت وإذا بالشيخ النجم بينهم وهم يقولون له: أجزنا، ومنهم من يقول: هذا حافظ العصر، ومنهم من يقول: هذا حافظ الشام، ومنهم من يقول: هذا محدّث الدنيا، فوقف عند باب الزيادة وقال لهم: أجزتكم بما تجوز لي روايته بشرطه عند أهله بشرط أن لا يلحقنا أحد حتى نطوف، ثم مشى إلى المطاف فما وصل إليه إلا وخلفه أناس أكثر من الأوّل فوقف وأجازهم كما تقدّم وقال لهم: بشرط أن لا يشغلنا أحد عن الطواف، قال: فوقف الناس وطاف الشيخ، قال ولم يكن يطوف مع الشيخ إلا أناس قلائل كأنما أُخليَ له المطاف، فلما فرغ من الطواف طلبوا منه الإجازة أيضاً فأجازهم ثم أرسل الشيخ منصور ودعاه إلى الخلوة فذهب، ولحقه الناس إلى باب الخلوة وطلبوا منه الإجازة فأجازهم ودخل الخلوة ثم جاء الشمس محمداً البابليّ ثم بعد هنيئة جاء الشريف زيد صاحب مكة فلما استقرّ بهم المجلس تذاكروا أمر الساعة فأخذ الشمس البابليّ في الكلام فقال النجم بصوت مزعج وقد جلس على ركبتيه وشرع يورد أحاديث الساعة بأسانيدها وعزوها لمخرجيها ويتكلم على معانيها حتى بهر العقول وأطال في ذلك، ثم لما فرغ قال البابليّ: تجيزونا يامولانا بما لكم، وكذلك استجازه الشيخ منصور والشريف زيد وأنا ومن حضر فأجاز الجميع ثم قدّم لهم الشيخ

منصور من عنده سماطا[1] وأردفه الشريف زيد بأشياء من المآكل فلما فرغوا انصرف الشيخ النجم وبقي البابليّ فقال للشيخ: سبحان الله ما هذا إلا عن نبأ عظيم فقال له الشيخ منصور: أنا كنت إذا رأيت كتبه وتصانيفه أعجب منها وإذا اجتمعت به لا يتكلم إلا قليلاً فأعجب من ذلك ولكن الآن تحقق عندي علمه وحفظه انتهى.

وكان قبل موته بست سنوات أو سبع سنوات اعتراه طرف فالج فكان لا يتكلم إلا قليلاً فعُدّ هذا المجلس وكثرة الكلام فيه بالمناسب لما هم بصدده من غير توقف ولا تلعثم كرامة له وهو محل الكرامة.

وبالجملة فهو خاتمة حفاظ الشام وكانت وفاته سنة إحدى وستين وألف عن ثلاث وثمانين سنة وعشرة أشهر وأربعة أيام.

(١) ووقع له قبل موته بيومين أنه طلع إلى بساتينه أوقافِ جده واستبرأ الذمة من الفلاحين وطلب منهم المسامحة، وفي اليوم الثاني دار على أهله ابنته وبنتها وغيرهم وزارهم، وأتى إلى منزله وصلى المغرب ثم جلس لقراءة الأوراد وأخذ يسأل عن أذان العشاء وأخذ في ذكر لا إله إلا الله وهو مستقبل القبلة ثم سمع منه وهو يقول: بالذي أرسلك ارفق بي فدخلوا عليه فرأوه قد قضى نحبه ولقيَ ربه رحمه الله تعالى، ورثاه جماعة من الفضلاء[2].

العيثاويّ

محمد بن محمد بن أحمد العيثاويّ الدمشقيّ.

كان علامة فهامة في جميع العلوم، ومشايخه يزيدون على الثمانين، وفاق أقرانه في الأخذ بأنواع الفنون، ودرس وأفاد وانتفع به جماعة.

---

(١) مائدة عليها طعام.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٤/١٨٩ ـ ٢٠٠.

(١) وكان متصلباً في أمر الدين قوّالاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم، ومما اتفق له أنه دخل مرّة على محافظ الشام في مصلحة فتشاغل الباشا عنه بأوراق فمسك الباشا من طوقه وجذبه وقال له: انظر في أمر هؤلاء الفقراء واقض مصلحتهم، فالتفت إليه وقضى له ما جاء فيه.

(٢) ودخل مرّة أخرى على حاكم آخر بسبب معاليم الجامع الأمويّ وكان سنان باشا المتولي عليه كتب بها دفتراً وأراد قطع شيء منها فوجد الباشا ينظر في دفتر المتولي ويتأمله فجذبه أيضاً من طوقه وقال له: لا تلتفت إلى ما كتبه هذا الظالم وكان حاضراً في المجلس وانظر إلى عباد الله بنور الله فعمل على مراده وترك ما أراد المتولي، وله من هذا القبيل أشياء أخر.

وله تحريرات على التفسير وغيره لكنها لم تجمع وذهبت، ووَلِيَ آخر أمره تدريس البخاريّ في الأشهر الثلاثة[١] تحت قبة النسر بجامع بني أمية ودرّس وكان يقرر تقريراً جيداً إلا إنه كان ضيق العبارة.

وكانت وفاته سنة ثمانين وألف بداء الاستسقاء ودفن بتربة باب الصغير[٢].

الرُّودانيّ

محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي - وهو اسم له لا نسبة إلى فاس - السوسيّ الروداني المغربيّ المالكيّ نزيل الحرمين.

(٣) الإمام الجليل المحدث المفنن فرد الدنيا في العلوم كلها، الجامع بين منطوقها ومفهومها والمالك لمجهولها ومعلومها. ولد في سنة سبع وثلاثين وألف بتارُودَنت - قرية بسوس الأقصى - وقرأ بالمغرب على كبار المشايخ، ثم رحل إلى المشرق ودخل مصر وأخذ عمن بها من أعيان العلماء وأجازوه، ثمّ رحل إلى الحرمين وجاور بمكة والمدينة سنين عديدة

---

(١) رجب وشعبان ورمضان.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٤/٢٠١ - ٢٠٢.

وهو مكب على التصنيف والإقراء، ثم توجه إلى الروم في سنة إحدى وثمانين وألف، ولما وصل إلى الروم حظِيَ عند الوزير ومن دونه ومكث ثَمّةَ نحو سنة، ورجع إلى مكة المشرفة مجللاً وحصلت له الرياسة العظيمة التي لم يُعهد مثلها وفُوِّض إليه النظر في أمور الحرمين مدّة حتى صار شريفُ مكةَ لا يصدر إلا عن رأيه، وأنيطت به الأمور العامّة والخاصّة إلى أن مات الوزير فرقَّ حالُه وتَنَزَّل عما كان فيه، ثم ورد أمر السلطان إلى مكة سنة ثلاث وتسعين وألف بإخراجه منها إلى بيت المقدس وسببه عرض الشريف بركات أمير مكة فيه إلى السلطنة وطلب إخراجه من مكة بعد أن كان بينهما من المرابطة ما كان وعلى يده تمت له الشرافة ونهض به الحظ وكان يوم ورود الأمر يوم عيد الفطر فألح عليه الشريف سعيد بن بركات شريف مكة يومئذ وقاضي مكة في امتثال الأمر السلطانيّ فامتنع من الخروج في هذه الحالة وتعلل بالخوف من قطاع الطريق فأبى أن يسلم نفسه وماله فأمهل بعد علاج شديد وتشفع عند بعض الأشراف إلى مخرج الحج ثم توجه صحبة الركب الشاميّ وأبقى أهله بمكة وأقام في دمشق في دار نقيب الأشراف سيدنا عبد الكريم بن حمزة حرس الله جانبه، واستمر بدمشق مدّة منفرداً بنفسه لا يجتمع إلا بما قلّ من الناس.

واشتغل مدّة إقامته بتأليف كتاب الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ على طريقة ابن الأثير في جامع الأصول إلا أنه استوعب الروايات من الكتب الستة ولم يختصر كما فعل ابن الأثير، وله من التآليف الشاهدة بتبحره ودقة نظره مختصر التحرير في أصول الحنفية لابن الهمام وشرحه، وله منظومة في علم الميقات وشرحها، وله جدول جمع فيه مسائل العروض كلها.

(١) واخترع كرة عظيمة فاقت على الكرة القديمة والأسطرلاب وانتشر في الهند واليمن والحجاز، وغير ذلك من الرسائل.

(٢) وله فِهرست يجمع مروياته وأشياخه سماها «صلة الخلف بموصول

السلف»[1] ذكر فيه أنه وقع له بالمغرب غرائب منها أنه كان مجتازاً على بلد العارف بالله تعالى أبي عبد الله محمد بن محمد الواورغتيّ الناوليّ وهو قاصدٌ بلداً أخرى فسأل عن البلد فقيل له: إن فيه شيخاً مُربيّاً صفته كذا وكذا قال: فجذبني الشوق إليه ولم أملك نفسي حتى دخلت بلده فلقيني رجل خارج إليّ وقال: أمرني الشيخ أن أخرج إليك وآتيه بك فلما دخلت عليه رفع إليّ بصره فوقعت مغشياً عليّ بين يديه وبعد حين أفقت فوجدته يضرب بيده بين كتفيّ ويقول: ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾[2] ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه﴾[3] فأمرني بملازمته ومذاكرة أولاده بالعلم فقلت له: إني طلبت كثيراً لكن إلى الآن ما فتح الله تعالى عليّ بشيء ولا أقدر على استخراج كتاب ولا الآجرومية ـ وكنت إذ ذاك كذلك ـ فقال لي: اجلس عندنا ودرِّس أيّ كتاب شئت في أي علم شئت ونطلب من الله تعالى أن يفتح لك فجلست ودرست طائفة من الكتب التي قرأتها وكنت إذا توقفت في شيء أحس بمعان تُلقى على قلبي وغالب تلك المعاني هي التي كانت مشايخنا تقررها لنا ولا نفهمها ولا أتذكرها قبل ذلك.

(١) وشاهدت له العجب العجاب في نزول البركة في الطعام وغير ذلك بما هو محض كرامات الأولياء، ومنها أنه لقِيَ يوماً العلامة عيسى المراكشيّ مفتي مرّاكش وقد احتف به خلق كثير يزدحمون على تقبيل يده وركبته وهو راكب فزاحمهم حتى قبل يده تبركاً قال: فانحنى إليّ دون الناس وقال: أجزتك بجميع مروياتي فكأنما طبعها في قلبي الآن وكان ذلك قبل اشتغالي بطلب العلم ولست متزيياً بزيّ طلبته حتى يقال إنه رأى علامة الأهليّة ولا إن ذلك من عادته مع المتأهلين للإجازة بل لم يظفر بالإجازة منه إلا القليل

---

(١) هذا الكتاب مطبوع متداول.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٩.

(٣) سورة القصص: الآية ٦١.

من أخصَّائه فيما أظن، ثم بعد غيبتي عنه ثمانية أعوام في طلب العلم الشريف منّ الله تعالى بالرجوع إليه وتجديد الأخذ عنه في سنة ستين وألف قبل وفاته بسنة ولله تعالى الحمد والمنة.

(١) قلت: والظاهر من شأنه ـ كما نقلت عن شيخنا المرحوم عبد القادر بن عبد الهادي وهو ممن أخذ عنه وسافر إلى الروم في صحبته وانتفع به وكان يصفه بأوصاف بالغة حدَّ الغلوِّ ويذكر الفنون التي كان يشير بمعرفتها فيستغرق العدّ ـ أن ذلك فيه بمجرد فتح إلهيّ ببركة شيخه الواورغتيّ المذكور فإنه كان يقول إنه يعرف الحديث والأصول معرفة ما رأينا من يعرفها ممن أدركناه، وأما علوم الأدب فإليه النهاية فيها، وكان في الحكمة والمنطق والطبيعيّ والإلهي الأستاذ الذي لا تنال مرتبته بالاكتساب، وكان يتقن فنون الرياضة، ويعرف أنواع الحساب والمقابلة والموسيقى والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها، وكان يبحث في العربية والتصريف بحثاً تاماً مستوفياً، وكان له في التفسير وأسماء الرجال وما يتعلق به يد طائلة، وكان يحفظ في التواريخ وأيام العرب ووقائعهم والأشعار والمحاضرات شيئاً كثيراً، وكان في العلوم الغريبة كالرمل والحروف والكيمياء حاذقاً أتم الحذق وبالجملة فقد كان كما قال الشاعر:

وكان من العلوم بحيث يُقضى ... له في كل علم بالجميع

وقد أخذ عنه بمكة والمدينة والروم خلق ومدحه جماعة وأثنوا عليه.

وكانت وفاته بدمشق سنة أربع وتسعين وألف، ودفن بسفح قاسيون بوصيّة منه[1].

يَغْبُغ

محمد بن محمود بن أبي بكر التنبكتيّ المالكيّ عُرفَ بيَغْبُغْ.

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٢٠٤ ـ ٢٠٨.

قال تلميذه العلّامة أحمد بابا في كتاب «كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج»: كان من صالحي خيار عباد الله الصالحين والعلماء العاملين، مطبوعاً على الخير وحسن النية وسلامة الطويّة والانطباع على الخير واعتقاده في الناس حتى كان الناس يتساوون عنده في حسن ظنه بهم. يسعى في حوائجهم، ويضر نفسه في نفعهم، وينفجع في مكروههم، ويصلح بينهم وينصحهم.

(١) عُرف بمحبة العلم وملازمة تعليمه وصرف أوقاته فيه ومحبة أهله والتواضع التام وبذل نفائس الكتب العزيزة الغريبة لهم ولا يفتش بعد ذلك عنها كائناً ما كان من جميع الفنون فضاع له بذلك جملة من كتبه ـ نفعه الله تعالى بذلك ـ وربما يأتي لبابه طالب يطلب كتاباً فيعطيه له من غير معرفة فكان العجب العجاب في ذلك إيثاراً لوجهه تعالى مع محبته للكتب وتحصيلها شراءً ونسخاً، وقد جئته يوماً أطلب منه شيئاً من كتب النحو ففتش في خزانته فأعطاني كل ما ظفر به منها.

(٢) مع صبر عظيم على التعليم وإيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا ضجر حتى يَملَّ حاضروه وهو لا يبالي حتى سمعت بعض أصحابنا يقول: أظن هذا الفقيه شرب ماء زمزم لئلا يملّ من الإقراء تعجباً من صبره.

(٣) اشتهر بملازمة العبادة والتجافي عن رديء الأخلاق وإضمار الخير لكل البرية حتى الظلمة مقبلاً على ما يعنيه متجنباً الخوض في الفضول. ارتدى من العفة والمسكنة أزين رداء، وأخذ بيده من النزاهة أقوى لواء، مع سكينة ووقار وحسن وأخلاق وحياء، فأحبته القلوب كافة وأثنوا عليه بلسان واحد فلا ترى إلا محباً مادحاً ومثنياً بالخير صادقاً.

(٤) طلبه السلطان لتولية القضاء بمحله فأنف وامتنع وأعرض عنه واستشفع فخلصه الله تعالى.

(٥) لازم الإقراء سيما بعد موت سيدي أحمد بن سعيد فأدركته أنا يقرىء من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبيرة ثم يقوم إلى بيته ويصلي

الظهر بالناس ويدرس إلى العصر ثم يصليها ويخرج لموضع آخر يدرس فيه للاصفرار أو قربه، وكان غوّاصاً على الدقائق حاضر الجواب سريع الفهم منور البصيرة ساكناً صامتاً وقوراً وربما انبسط مع الناس ويمازحهم، وكان آية الله في جودة الفهم وسرعة الإدراك معروفاً بذلك.

ولد عام ثلاثين وتسعمائة، وكانت وفاته سنة اثنتين بعد الألف[1].

السلطان محمد

السلطان محمد بن مراد بن سليم الملك الأعظم الباهر الشأن.

كان سلطاناً عظيم القدر مهيباً جواداً عالي الهمة، مظفراً في وقائعه، وقوراً أريباً وجيهاً مهيباً صالحاً عابداً، ساعياً في إقامة الشعائر الدينية، مراعياً لأحكام الشريعة الشريفة، طيعاً لأوامر الله منقاداً لما يُقرِّب إليه، مداوماً للجماعة في الأوقات الخمس، قائماً بالسنن والرواتب، وبالجملة فأوصافه كلها حسنة فائقة. وكان على عادة أجداده الكرام وربما نظم الشعر.

(١) ذكر مبدأ أمره أنه لمّا بلغ من العمر ست عشرة سنة صنع له أبوه الختان الذي لم يتفق لأحد من أبناء الملوك مثله على الإطلاق، ثمّ في ثاني سنة من ختانه وهي سنة إحدى وتسعين وتسعمائة خلع عليه أبوه خلعة الإمارة وقلده بلاد قاعدة الملك صاروخان ومدينته العظمى «مغنيسا» فتوجّه إليها ثاني ذي الحجة من السنة المذكورة واستمر بها إلى أن اندرج أبوه إلى عفو الله وغفرانه سنة ثلاث بعد الألف فأُرسل إليه بالخبر وأُخفِيَ موت والده عشرة أيام حتى وصل، وقيل في تاريخه الذي تسلطن فيه:

قد مهد الله البلاد بحكم سلطان نبيل
والكون نادى منشداً تاريخه ظل ظليل

قال المولى عبد الكريم المنشي: لما تلألأت أنوار السلطنة المحمدية

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٢١١ ـ ٢١٢.

من سريرها وأصبحت الدنيا بتلك الأنوار مشرقة بحذافيرها بدأ ـ أحسن الله مبداه وختامه وأغمد في قراب الظالمين حسامه ـ بقتل إبراهيم باشا مَنْ عَمَّ العالَمَ ظلمُه وفشا[1].

قلت: ثم صير رأسَ المقربين إليه محمد باشا وزيراً، وفرهاد باشا صدر الوزراء وكان قائماً مقام الوزير وعينه سرداراً[2] على العساكر لقتال ميخال حاكم بلاد الأفلاق من قبل السلطنة العثمانية وكان خرج عن الطاعة وجمع جموعاً من الكفار الأرجاس وتمرد وعاث في بلاد روم ايلي[3]، فوصل إليها فرهاد باشا وجرد عزمه لمقاتلته.

(١) وكان بعض المقربين إلى السلطان حسّن له عزله وتولية سنان باشا المشهور الوزارة ففعل وعينه للسفر مكانه فوصل سنان باشا إلى العسكر وبلغ ميخالَ عزلُ فرهاد باشا وكان ألقى رعبه في قلبه ففرح بعزله وقوى جاشه وقابل العسكر فظهر بعض الظهور وزاد في عتوه بعد ذلك وأرسل السلطان لمحاربته عساكر مرات فلم يظفروا منه بمراد ثم عزل السلطان سنان باشا وولّى محمد باشا الصدارة في منتصف شهر ربيع الأوّل سنة أربع بعد الألف فمات بعد عشرة أيام من توليته بمرض الأكَلة فأعيد سنان باشا وبهذه المرة تم له خمس مرات ثلاثة في عهد السلطان مراد وثنتان في عهد السلطان محمد ففتح حرب الأنكروس المشهور وشرع في تهيئة لوازمه ومهماته وألزم السلطان بأن يسافر بنفسه فأدركه الأجل في شعبان من هذه السنة قبل أن يسافر فولى الوزارة إبراهيم باشا الوزير الثاني وكان السلطان صمم على السفر فخرج من دار خلافته في شوّال سنة أربع بعد الألف ووصل إلى قلعة في غاية المنعة والتحصين فنازلها بجنوده فاشتد البلاء بمن فيها فخرجوا منها طائعين وسلموها في أواخر صفر سنة خمس وألف ووصل

---

(١) أحد الوزراء الظلمة، وقد مرّت ترجمته.

(٢) قائداً.

(٣) بلاد العثمانيين في أوروبا.

خبر أخذها إلى ملك الأنكروس فقام وقعد وأرغى وأزبد لأنها كانت عندهم من القلاع المعتبرة فكاتب ملوك النصارى يطلب الإمداد منهم بـالعساكـر والذخائر فجاؤوا إلى إمداده بسبعة جيوش يضيق عنها الفضاء وكان السلطان محمد سار بعسكره إلى القلعة التي بها المعدن فبينما هو في أثناء المرحلة الثالثة إذ دهمته النصارى من كل جانب وأحاطوا به وكان عسكر الإسلام حينئـذ غير مستعـدّ والنصارى في غـايـة الكثـرة جـداً بحيث إن جمعهم المخذول لا يُحصى وكان يوم دهمتهم يوم الخميس ثاني شهر ربيع الأول من السنة ووقع حرب عظيم في ذلك اليوم كله إلى أن دخل الليل فتفرقوا وأصبحوا يوم الجمعة متحاربين أيضاً واستعدت النصـارى أزيد من اليـوم الأول فكـانوا غـرقى في الفولاذ ثم هجمـوا دفعة واحـدة على المسلمين وفـرقوهم بـدداً ووصلوا إلى مخيم السلطان فـطلب السلطان إليـه معلمـه الخوجه سعد الدين وكان في صحبته فحضر بين يديه وجعل يثبته والسلطان يستنهض عساكره الخاصة به ويستغيث بالله فلم يكن بأسرع مِن أن قَوِيَ المسلمون وأدركهم بعض المنهزمين ففرقوا شمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم والتحم القتال وتراجع جميع العسكر فكسروا النصارى وردّوهم على أعقابهم ووقع السيف فيهم وهم فارّون حتى قتل بعضهم بعضاً من الزحام وغيره، ووهب الله تعالى له النصر والتأييد ولم يسلم أحد من الكفار إلا من هرب، وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة وأكثر ذلك كان على يد الوزير سنان باشا ابن جغال والوزير حسن باشا ابن محمد باشا وأحصيت قتلى المسلمين فكـان الذي استشهـد من القوّاد مـا يقـرب من أربعمـائـة ومن أصحاب الألوية المعبر عنهم في اصطلاح الروم بالصناجق بضعة عشر رجلاً ومن الأمراء الكبراء أربعة أنفار ومن العساكر ما بين فارس وراجـل ما لا يُحصىٰ، ووافق بعد الظفر أن السلطان قتل من عسكـره الفارّين جمـاعة كثيرين وقبض على باقيهم وحقرهم غاية التحقير في منصرفه وعاقب بعض من فرّ بقطع علوفته[1] وضبط ملكه وماله لجهة بيت المال، والحاصل أن ما

---

(١) راتبه.

وقع له من هذه النصرة لم يقع لأحد من ملوك آل عثمان وذلك إنما هو بمحض لطف إلٰهيّ وإمداد ربانيّ غير متناه، ولقد حكى كثير من السيّاح أن ملوك الفِرَنج تطلق على هذا السلطان: «صاحب القران» وهذا الوصف إنما هو لمن بلغ في الشجاعة المرتبة التي لا تسامىٰ وأنهم على عادتهم يصوّرون ملوك آل عثمان فيقدمون هذا في التصوير على كل الملوك وذلك كله بسبب هذه النصرة التي رُزِقها.

(١) وحكى ابن نوعيّ في ذيل الشقائق عن أبيه قال: بينما الناس في ترقب أمر النصرة للسلطان إذ هو بشرني بهذه المبشرة الغيبية وذلك أنه رأى في منامه أنه دخل مجلساً فيه النبيّ ﷺ وأصحابه فسمع أصحابَ النبيّ ﷺ يتذاكرون أمر هذه الغزوة ووقائعها ويحكون ما جرياتها على الترتيب أمراً بعد أمر قال ثم سمعت حضرة الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه يقول: إن انهزام المسلمين كان مقرّراً لكن لما كان السلطان محمد أكرمه الله تعالى فأمدّه بملائكة النصر حتى حصل له الظفر والتأييد.

ثم أمر العسكر بالرحيل إلى جانب دار الملك ورحل بهم، ودخل إلى مقر ملكه في ثالث جمادى الآخرة سنة خمس وألف بموكب حافل واستقر.

(٢) وفي سنة ثمان فتحت قلعة قاينسره وكان فتحها على يد الوزير الأعظم إبراهيم باشا وكان فتحاً عظيماً يعادل فتح أكري وسر بها المسلمون وزينت البلاد لهذا الفتح ثلاثة أيام، وكان في أيام محاصرتها وقع اضطراب عظيم فرأى بعض الصلحاء في منامه شيخ الإسلام صنع الله بن جعفر وهو يأمره بقراءة هذا الدعاء وهو: اللهم قوِّ قلوب المؤمنين بقوّة الكرام البررة وألق الرعب في قلب الكفرة الفجرة، فشاع هذا الدعاء ودام على قراءته الناس فظهر أثره ولله الحمد.

(٣) وفي سنة إحدى عشرة بلغ السلطان عن ولده محمود وهو أكبر أولاده بعض أمور تتعلق بالملك فأحضره وقال له: مالك تدخل في أمور الملك؟

فأجابه بجواب ما أرضاه فضربه بخنجر فقتله وكان عمره نحو ثمان عشرة سنة ثم ندم على ذلك الندم الكليّ.

(١) وكانت ولادته سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وتوفي يوم الأحد سابع عشر رجب سنة اثنتي عشرة بعد الألف، وحكى ابن نوعيّ أنه وقع له في ثاني عشرى جمادى الأولى وكان متوجهاً إلى دار سعادته فاستقبله شخص مجذوب وقال له: أيها الملك إنه يحدث بعد ست وخمسين يوماً حادثة عظيمة فلا تكن غافلاً عنها فإذا هي موته، ومما نقل عنه أنه قبل وفاته بثلاثة أيام جمع إليه سائر الوزراء والمفتي وقضاة العسكر وسائر أركان الدولة وعهد بمحضرهم لولده السلطان أحمد بالملك ثم أحضره وأوصاه بأن تكون جدته وهي والدة صاحب الترجمة في السراي العتيقة وأن لا يقبل فيها قولاً، وبأن لا يقتل أخاه السلطان مصطفى ولا يجعل وزيره إلا علي باشا صاحب مصر ثم أمرهم بالإنصراف، فلمّا توفي اجتمع أهل السراي وأرسلوا إلى قاسم باشا قائم مقام الوزير والمفتي وضابط الجند فلما اجتمعوا بالسراي خرج عليهم السلطان أحمد وأعلمهم بموت والده فقبلوا يده ودعوا له ثم جُهِّز السلطان محمد وحضر للصلاة عليه العلماء والوزراء وتقدم شيخ الإسلام أبو الميامن مصطفى فصلى عليه ودفن مما يلي تربة السلطان سليم.
(٢) وكانت مدّة عمره تسعة وثلاثين سنة ومدّة سلطنته تسع سنين وشهرين ومن ألطف ما قيل في تاريخ وفاته قول بعض الفضلاء (مات السلطان محمد بن مراد) ثم قال في تاريخ تولية ولده وهو التاريخ بعينه (وتسلطن السلطان أحمد على العباد)، وأولاده أربعة وهم السلطان سليم توفي في ثالث عشرى شهر رمضان سنة خمس بعد الألف، والسلطان محمود قتله في سابع عشرى ذي الحجة سنة عشر، والسلطان أحمد، والسلطان مصطفى ووزراؤه العظام تسعة[1].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٢١٦/٤ ـ ٢٢٣. قال صاحب «تاريخ الدولة العلية العثمانية» إنه «كان له تسعة عشر أخاً غير الأخوات فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه ودفنوا معاً تجاه أيا صوفيا». ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نجم الدين

محمد بن يحيى الملقب نجم الدين أستاذنا النجم الفرضيّ روَّح الله تعالى روحه وجعل من الرحيق المختوم غَبوقه وصَبوحه[١].

(١) كان أعظم شيخ أدركناه واستفدنا منه، وكان في العلم والتقوى والزهد فرد الزمان وواحد الأقران، ولم أر مثله في تفهيم الطلبة والحرص على تهذيب قرائحهم وجبر خواطرهم مع أنه كان رحمه الله تعالى حادّ المزاج سريع الانفعال لكنه إذا انفعل يرضى في الحال ويتلافى ما كان منه، وكان نَفَسُه مباركاً ما قرأ عليه أحد إلا انتفع ببركته وبركة إخلاصه وسلامة طويته، وهو في علوم العربية فارس ميدانها لم يكن أحد مثله فيها، وله في الحديث والفقه فضل لا يردّ، وأما في الفرائض والحساب ففضائله فيها جاوزت الحد والعد.

مات سنة تسعين وألف، ودفن بمقبرة باب الصغير.

(٢) ورؤيت له بعد موته منامات صالحة منها أن رجلاً من الصالحين رأى بعض أصحابه من الموتى لابساً حلة عظيمة لم ير مثلها في الدنيا فسأله عن حاله فقال له: كنا بأسوأ حال فلما دفن الشيخ نجم الدين الفرضيّ في جَبَّانتنا ألبس الله تعالى جميع أهل جبّانته حللاً مثل هذه الحلة وغفر لهم ببركته، رحمه الله تعالى[٢].

محمد باشا الكوبري

الوزير الأعظم في عهد السلطان محمد بن السلطان إبراهيم. كان من أمره أنه وَلِيَ حكومة الشام في سنة ست وخمسين وألف، وَلِيَ حكومة القدس، ثم طرابلس الشام ولم يزل خامل الذكر مهضوم الجناب إلا أن له حسن تدبير وحزماً في الأمور.

---

(١) ما يشرب في الصباح والمساء.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٤/٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(١) وكان أمر المُلْكِ من عهد أن وَلِيَ السلطان محمد المذكور السلطنة قد اختلّ، وتهاون رؤساء الدولة لصغر السلطان في نظم الأمور على نسق يرضي الجمهور، وتغيرت الدول، وذهبت الناس الأول، وقامت الفتن على ساق وانتصب الخلاف وارتفع الوفاق، وتقوّت ضعاف الدولة، وأظهروا العُتُوَّ والصَّوْلة، وبهذا السبب كان يُوَلَّى الوزير أياماً فلا يرى هدوّاً ولا راحة ولا إن كان مناماً ثم يقتل أو يعزل أو ينهب أو يُسلب إلى أن بغت طائفة من العبيد اللئام الذين هم داخل حرم السلطان من الخدام وهجموا على جدّة السلطان صاحبة الخيرات فقتلوها ليلاً ولم يخشوا إثماً ولا ويلاً، ولم تزل نار تلك الفتن تتقد، والجمعيات السوء في كل حين تنعقد إلى أن وقع الاختيار على صاحب الترجمة أن يكون وزيراً ومدبراً للملك ومشيراً.

(٢) ومن هنا أشرع في الترجمة فأقول: أخبرني من أثق به أنه لما استصعب الأمر في لم شعث الدولة جمع السلطان المقربين من أهل الحرم السلطانيّ وفيهم علي أغا الطويل المشهور وتفاوضوا فيمن يصلح للوزارة العظمى ويحسم مادّة التفرّق فكل منهم أشار إلى واحد حتى انتهت النوبة إلى علي أغا المذكور فأشار إلى أنه لا يليق بالوزارة إلا صاحب الترجمة فسخروا منه على ما يعرفون من انحطاط قدره فقال: أنا أقول هذا عن اختبار وممارسة والأمر مأخوذ على التراخي فيمكن أن يكون وزيراً أياماً ثم إذا لم يُحكم الأمر عزل وليس عزله بالصعب على الدولة فاتفق الرأي عليه ثم في ثاني يوم ناداه السلطان وسلم إليه الختم وأوصاه بما يلزم التبصر فيه فكان أوّل ما ابتدأ فيه من الأمور نفي علي آغا الذي كان سبباً لتوليته لجزيرة قبرص وإبعاده عن الدولة وقال: من قدر على التولية قدر على العزل، ثم أطلق القتل في أركان الدولة واحداً بعد واحد وقام بأعباء السلطنة وأخمد بحسن تدبيره ثائرة الفتن، وأضعف العسكر بالأسفار، وأكثر من محو أصحاب الكلمة وفرّق شملهم.

(٣) وأبلغ ما يحكى عنه في خصوص القتل أنه كان يواخي وزيراً أحسب

أن اسمه خسرو باشا وكان بينهما مواثيق ومودة زائدة يعرفها الناس فاستحضره يوماً إليه وقال له: أريد قتلك اليوم فقال له: لِم تقتلني ولم يصدر مني ما يوجب القتل وأنا على عهدك وميثاقك فماذا يحصل من قتلي؟ فقال له: إن في قتلك إرهاباً عظيماً للقوم فإنهم يقولون الوزير قتل أقرب الناس إليه فهو لا يتوقف في أمر القتل فيُلقىٰ الرعبُ في قلوبهم فأبرم عليه في ترك ذلك فلم يفعل وقتله في الحال.

(١) قلت: وقد وقع مثل هذا كثيراً، وأعجبه ما وقع في زماننا القريب للإمام محمد بن أحمد بن الحسن سلطان اليمن أنه قتل ابنه إرهاباً لعسكره وقال لهم: ما فرطت في ابني إلا ليعلم الناس أني لا أعرف إلا القتل ولا أتوقف فيه بحال فملك البلاد وقهر رعيته بهذا الصنيع الفظيع، وكذلك أخاف صاحب الترجمة الناس بفعله هذا ولزم كل أحد منهم في زمانه طوره وسالمه الزمان وانقاد له فيما أبرمه وعظمت دولته وجُبيت إليه ذخائر الدنيا.

ثم إن السلطان محمد سافر إلى أدرنه في سنة سبع وستين وجهز صاحب الترجمة إلى قتال الكفار فسافر وافتتح قلعة ينوه وبعض قلاع أُخَر.

(٢) وخرج في ذلك الأثناء على الدولة حسن باشا محافظ حلب وتبعه ابن الطيار كافل الشام والوزير كنعان وانضاف إليهم من العسكر جمع عظيم وكان خروجهم خوفاً من صاحب الترجمة وحسداً له فصرف وجه همته إلى الانتقام منهم فقتلوا على يد مرتضى باشا، وأوقع القتل فيمن كان تبعهم.

ثم توجه السلطان إلى بروسه وصاحب الترجمة معه وأقاما بها أياماً ثم رجعا إلى مقرِّ السلطنة وقد تمهدت البلاد وتأطدت أحوال الملك وأمنت الغوائل واطمأنت الناس، وتفرّغ الوزير صاحب الترجمة لإجراء الخيرات فعمر الخان المعروف به في طريق قسطنطينية بين إسكي شهر وازنيق، والخان والعمارة العظيمة بقصبة الثغور والعمارات الكثيرة في إدلب وفي بلاد

روم ايلي[1] ثم وقف على جهات.

وكان وفاة صاحب الترجمة في سنة اثنتين وسبعين وألف ودفن بالتربة التي عمرها[2].

الشيخ محمود الأسكداريّ

الشيخ محمود الأُسْكداريّ، مرشد العصر والأوان.

أصله من بلدة سوري حصار ولد بها، ثم لزم التحصيل إلى أن برع ونظم الشعر وخرج من بلده إلى قسطنطينية فوصل إلى ناظر زاده وتلمذ له، فلما تمت عمارة مدرسة السلطان التي بأدرنه وجهت ابتداء لأستاذه المذكور فصار بها معيداً في سنة ثمان وسبعين وتسعمائة.

(١) ثم في المحرم سنة ثمانين وتسعمائة أُعطِيَ المدرسة الفرهادية ببروسة ووَلِيَ بها نيابة الجامع العتيق فاتفق أنه عزر بعض الصلحاء لأمر دعا إلى ذلك فرأى في تلك الليلة في منامه كأنه جيء به للفرجة على جهنم فرأى فيها أناساً كان يظن أنهم لكثرة صلاحهم في صدر الجنة ومنهم أستاذه ناظر زاده وكان اسمه رمضان وكان مشهوراً بالديانة والاستقامة فتأثر من هذه الرؤويا ولم يخرج عليه النهار إلا وقد باع جميع ما يملكه وترك النيابة والمدرسة وذهب إلى أُسكدار واختار الإقامة بها.

ثم في سنة اثنتين بعد الألف أُعطِيَ الوعظ والتذكير والتحديث والتفسير بجامع السلطان محمد، وفي سنة سبع وألف زيد له من الوقف مائة عثماني كل يوم، ولما أتمّ عمارة الجامع الذي بناه بزاويته التي بأسكدار اختار هو أن يكون خطيباً فيه وتفرغ عن وعظ جامع السلطان محمد لبعد المسافة وطلب وعظاً بجامع مهروماه الذي بأسكدار في يوم الخميس فأعطيه وكان يعظ به إلى أن مات، ولما أتم السلطان أحمد جامعه

---

(١) البلاد العثمانية في أوروبا.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٤/٣٠٩ - ٣١٢.

في سنة ست وعشرين وألف فوّض إليه فيه وعظاً في نهار الاثنين فكان يعظ فيه.

(١) وكان معتقداً للسلطان أحمد يعظمه كثيراً ولا يصدر إلا عن رأيه ووقع له معه مكاشفات وحكايات تؤثر عنه فمن ذلك ما يذكر أن السلطان ذهب هو وبعض خواصه إلى أحد المنتزهات بأسكدار وطلب لحماً مشوياً فجيء باللحم وحُفِر له حُفَيْرة وشُوي بحضرته فلما أراد التناول منه حضر الشيخ محمود ونهاه عن تناول شيء منه وقال له: إنه كان بجنبه حيّة وقد احترقت وسرى سمها إلى اللحم وأمر بالقاء قطعة لحم إلى كلب هناك فلما أكلها مات ثم حفروا المكان فرأوا آثار الحية كما أخبر.

(٢) وحُكِي أن السلطان كان عزل أحد وزرائه العظام وأرسل ختم الوزارة إلى وزير كان مقيماً بأسكدار فغرق الرسول ومعه الخاتم فلما بلغ السلطان ذلك توجه إلى الشيخ محمود وذكر له الأمر فكان جوابه أنه كشف السجادة وناوله الخاتم من تحتها.

(٣) ومن اللطائف التي تنقل عنه أنه قال له السلطان المذكور: بلغني أنك صرت في ابتداء أمرك نائباً فقال: نعم صرت نائباً في عدة بلاد ثم وضعت لنفسي نقطة فصرت تائباً بعد أن كنت نائباً.

وله رسائل كثيرة وديوان شعر منظوم ومنثور وإلٰهيات وكل ذلك مشهور متداول عند الروم.

وكانت وفاته في سنة ثمان وثلاثين وألف[١].

السلطان مراد

السلطان مراد بن السلطان أحمد بن السلطان محمد بن السلطان مراد، أعظم سلاطين آل عثمان مقداراً وأسطاهم همة واقتداراً، الذي خضعت

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣٢٧/٤ - ٣٢٩.

لعظمته رؤوس الأكاسرة وذلت لحرمته وقهره، مَن تصلب في قمع المفسدين بسداد الرأي في أمره.

كان من أمره أنه لما تحرّكت العساكر وغدروا بأخيه عثمان كما ذكرنا أوّلاً أعادوا عمهما السلطان مصطفى إلى السلطنة فلم تظهر كفايته واختلّ أمر السلطنة في عهده فاختير للسلطنة صاحب الترجمة باتفاق الآراء من العلماء والوزراء وبويع في يوم الأحد رابع عشر ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وألف بعد أن خُلع عمه السلطان مصطفى وكان عمره يومئذ إحدى عشرة سنة وسبع أشهر وقيل في تاريخ سلطنته (مراد خان العادل)، وكان السلطان مصطفى وَلّىٰ في آخر سلطنته علي باشا المعروف بكمانكش الوزارة العظمى فأبقاه على ما كان وكذلك أبقى شيخ الإسلام يحيى بن زكريا في منصب الفتوى وأقام شعار الملك أتم قيام.

وابتدأ أوّلاً باستئصال الطغاة من العسكر الذين قتلوا أخاه فاهتم بأمر تحصيلهم من البلاد وتحرى قتلهم وقد أجاد وبقي على هذا الحال مدة وأعد له من رأيه الصائب كل عدّة، وجعلهم ديدنه وشغله.

(١) وحكى بعض المتقربين إليه أنه خرج ليلة من الحرم وما عليه إلا ثياب المنام قال: وكانت ليلة شديدة الثلج وأمر بفتح باب السراي السلطانيّ وخرج منه فتسارع الخَدَمة إليه وكنت أنا من جملتهم فصحبت معي فروتين من فِرى السلطنة وتبعناه فانتهى إلى البحر وطلب زورقاً وركب وركبنا ومازال إلى أن أشار إلى الملاح بأن ينحو إلى نحو أسكدار ثم خرج منها إلى التربة المشهورة في طرفها الآخذ إلى أناطولي فاستقر تحت شجرة ثمَّةَ ووقفنا معاشرَ الخَدَمة وكنا نشاهد منه غاية التضجر حتى ان بخار الحرارة ليتصعد من وجهه لشدة ما عنده من الانزعاج ثم أشار إليّ وقال: انظر هذين الشبحين اللذين لاحا من بعيد أدركهما وسلهما من أين أقبلا قال: فأدركتهما وسألتهما فقالا: مقدمنا من حلب فقلت لهما: السلطان طلب أن يراكما وهو جالس هنا وأشرت إليه فأسرعا إلى أن وقفا قدّامه وقبلا الأرض

ثم قال لهما: ما الذي جاء بكما فقالا: معنا رؤوس أقوام من الطغاة قتلوا بحلب فأمرهما بإخراج الرؤوس فحين وقع بصره عليها انصرف عنه ما كان يجده من التلهب وطلب فرواً فوضعنا عليه ما كان معنا من فرى وغيرها وهو يشتكي البرد ثم نهض وأسرع إلى السراي التي بأسكدار وقال: إني مـذ أويت إلى الفراش في ليلتي هذه أخذتني الفكرة في أمر هؤلاء المقتولين وتحصيلهم فلم أملك نفسي أن نهضت من مرقدي وجرى ما جرى.

(١) وكان بطلاً من الأبطال، قويّ الجأش، متينَ الساعد ذُكِر أنه أرسل إلى مصر درقة نحو إحدى عشرة طبقة مطبقة ضربها بعود فثَبُتَ فيها وبرز أمره إلى العساكر المصريـة بإخـراج العود منهـا وأن من أخرجـه يُزاد في علوفته[١] فحاولوا إخراجه فعجزوا عن ذلك.

(٢) وجهز عساكره لافتتاح البلدان وتوجه هو بنفسه في سنة أربع وأربعين لغزو العجم، وكان سلطانها الشاه عباس خذله الله قد تمكنت في السلطنة قواعده وخلا له الوقت مدّة وأخذ كثيراً من البلدان التي كانت مضافة لبلاد آل عثمان، فجرد السلطان مراد عزمه لمحاربته وإذلاله وتوجه إلى بـلاده بعساكر يضيق عنها الفضاء وحاصر من بلدانه روان وافتتحها، ثم توجه في سنة ثمان وأربعين لفتح بغداد ونازلها بجنـده وكان الشـاه عباس حصنهـا بالعدد والعسكر فأمر السلطان بحفر لغم عظيم ووضع فيه البارود وأطلقت فيه النار فهدم جانباً عظيماً من جدار السور بحيث قيل إنه لم يرم لغم مثله في محاصرة قلعة من القلاع فصار يرى من هدم اللغم ما في مدينة بغداد من البيوت والدور لأنه صار في ذلك الجانب جدار السور سهلاً مستويا مع سطح الأرض فلما رأى أهل بغداد ما دهمهم مما لم يعرفوه قط تـلاشوا وبعثوا إلى الشاه عباس المراسيل يريدون التسليم، وكان عسكر السلطان قد توانوا في الهجوم وتثبطت همتهم، وفي أثناء ذلك أرسل الشاه رسولاً يطلب الصلح وكان الرسول المذكور من أعيان عسكر الشاه يُسمّى جانبك سلطان،

---

(١) راتبه.

وفي يوم الجمعة ثالث عشر رجب بكرة النهار اجتمع بالوزير الأعظم في ديوان عظيم ودفع إليه كتاب الشاه بالصلح فقرىء بمسمع من الناس وفهم الكل منه ما قصده الشاه من الحيلة فأبى السلطان وجميع الوزراء والأركان الصلح، ثم أطلق السلطان الأمر بالمحاصرة وشدد في ذلك فلما كان يوم الجمعة ثامن عشر شعبان يسر الله تعالى فتحها وكان مدّة حصارها أربعين يوماً ودخلها العسكر والسلطان في أثرهم وقتلوا من العجم أكثر من عشرين ألفاً وأسروا من رؤسائهم وأهل شوكتهم جماعة وضعفت شوكتهم وزالت قوتهم لأن معتمديهم كانوا بها، وصرف السلطان همته إلى إزالة ما كان أحدثه الأرفاض[1] خذلهم الله تعالى في مرقد الإمام الأعظم[2] ومرقد الشيخ عبد القادر الجيلانيّ رضي الله عنهما، وأمر بتجديد عمارة محلهما وأحكم أمرهما غاية الإحكام وبنى ما كان تهدم من سور القلعة وشحنها بالعسكر والعُدد وعين لكفالتها وزيراً، وقد أكثر الناس من نظم الشعر والتواريخ لفتحها، ثم رحل السلطان عنها قاصداً دار ملكه.

(١) هذا ما وقع في عهده من الفتوحات، وأمّا ما وقع من الحوادث في أيام سلطنته فمنها تغلب العسكر بعد أن كان أضعفهم بالقتل والنهب بعد توليته الملك كما قدّمناه آنفاً فتجاوزوا الحدود ونصب نفسَه المولى حسين لزعزعتهم وقوّى جَنان السلطان حتى جمع جمعية وأباد كبراءهم وقتل الوزير الأعظم رجب باشا الذي كان مستظلاً بظلهم وفي ذلك الإبَّان سافر السلطان إلى بروسة فبلغه أن المفتي والعلماء يريدون الاجتماع على خلعه فبادر في المجيء ودخل دار ملكه وخنق المفتي وخمدت نار فتنة العسكر بعد ذلك.

(٢) ومنها تبطيله القهوات في جميع ممالكه، والمنع عن شرب التبغ بالتأكيدات البليغة وله في ذلك التحريض الذي ما وقع في عهد ملك أبداً.

(٣) ومما يدل على سعادته العظمى توجه خاطره إلى أهل الحرمين وأمره

---

(١) أي الرافضة

(٢) أي أبي حنيفة رحمه الله.

لمتولي الجهات خصوصاً مصر بإجراء حبوبهم وإرسال مغلات أوقافهم فما من أمر يرد عنه إلا وفيه الحث على ذلك، ومن ذلك أيضاً التفاته إلى أخبار الرعية مطلقاً والبحث عن أحوال ولاة البلدان التفاتاً وبحثاً تامّين.

(١) وفي زمانه وقع السيل العظيم المشهور بمكة المشرفة في سنة تسع وثلاثين وألف ودخل المسجد الحرام وطاف بالبيت، وبسببه انهدمت الكعبة، وفي سنة أربعين كان بناء البيت الشريف ومن التواريخ المنثورة فيه (رفع الله قواعد البيت)، وكانت هذه الفضيلة مما اختُصّ بها السلطان مراد.

(٢) ومن تاريخ الفاسي لغيره قوله:

بنى الكعبةَ الغرّاءَ عشرٌ ذكرتهم	ورتبتهم حسب الذي أخبر الثقه
ملائكة الرحمن، آدم، ابنه	كذاك خليل الله، ثم العمالقه
وجرهم، يتلوهم قصيّ، قريشهم	كذا ابن زبير، ثم حجاج، لاحقه

(٣) وذيل ذلك بعضهم بقوله:

وخاتمهم من آل عثمان بدرهم	مراد المعالي أسعد الله شارقه

(٤) وبيت آخر:

ومن بعدهم من آل عثمان قد بنى	مراد حماه الله من كل طارقه

وكانت ولادة السلطان مراد في سنة إحدى وعشرين وألف، وتوفي سنة تسع وأربعين وألف ومدة سلطنته ست عشرة سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيام، رحمه الله تعالى[1].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٣٣٦ - ٣٤١.
أ ـ وذكر صاحب «تاريخ الدولة العلية العثمانية» إنه «كانت فاتحة أعماله أن أصدر أمراً بعدم شرب الخمر الذي شاع استعماله أيام السلطان السابق وأفرط فيه الجنود خصوصاً الإنكشاريّة، فثار الإنكشارية لذلك واضطروه لإباحته لهم بمقدار لا يترتب منه ذهول العقل وتكدير الراحة العمومية» ولا حول ولا قوة إلا بالله.
ب ـ وذكر أيضاً أن السلطان حارب العجم ودخل العثمانيون تبريز، وتفليس =

السلطان مراد

السلطان مراد بن السلطان سليم بن سليمان جد والد الذي قبله، السلطان الجليل الشان أوحد سلاطين الزمان. كان أجلّ آل بيته علماً وأدباً وأوفرهم ذكاء وفهماً، اشتغل بالعلوم حتى فاق وملأ صيته بالأدب الآفاق وكان له في علم التصوف المهارة الكلية، وفي النظم بالألسن الثلاثة[1] أعظم مزّية، وكان بعيداً عن التهمة فيما يشوب بشائبة.

جلس على سرير الملك سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة بعد موت والده، وكان والده قد مات وأخفي موته إلى أن قدم السلطان صاحب الترجمة من مغنيسا وبويع بالخلافة.

(١) وأمر بقتل إخوته على ما هو قاعدة سلطنتهم وكانوا خمسة فخنقوا في الوقت وأمر بتجهيزهم مع والده فجُهِّزوا وصُلِّيَ عليهم داخل السراي في عدة من الوزراء والأركان والموالي وتقدم للصلاة عليهم مفتي الوقت المولى حامد بإشارة من السلطان.

(٢) وفي سنة تسعين وتسعمائة احتفل السلطان بختان ولده السلطان محمد وصنع لذلك فرحاً لم يقع في زمن أحد من الخلفاء والملوك وامتدت الولائم والفرحة واللهو والطرب مدة خمسة وأربعين يوماً وجلس للفرجة في دار إبراهيم باشا بمحلة آت ميدان وأغدق النعم العظيمة ورأيت في تاريخ الكبريّ أنه جعل صواني صغاراً من ذهب وفضة وملأ الذهب بالفضة

= [عاصمة جورجيا الآن].

جـ ـ وذكر أيضاً أن السلطان «كان كثير الميل لاقتناء الجواري الحسان عاملاً بمشورتهنّ، وكان من ضمن حظيّاته جارية بندقية الأصل من عائلة شهيرة بها اسمها (بافو) سباها قراصين البحر وبيعت في السرايا السلطانيّة وسُميت صفية، اصطفاها السلطان لنفسه وتدخلت كثيراً في السياسية الخارجية وساعدت بلادها الأصلية كثيراً، وهي والدة السلطان أحمد الثالث». انظر «تاريخ الدولة العلية العثمانية». ٢٥٩ ـ ٢٦٦.

(١) العربية والتركية والفارسية.

والفضة بالذهب وألقى ذلك لأرباب الملاهي وغيرهم من طالبي الإحسان، وجعل بعد ذلك دشيشة لأجل فقراء المدينة الشريفة ووقف عليها أوقافاً كثيرة وبها النفع التام لأهل المدينة.

(١) ومن العجائب التي وقعت في هذه السنة أنه في خامس صفر منها ولد بحارة بلاط من قسطنطينية بدار رجل يقال له الحاج خضر مولود له لحية بيضاء طويلة وليس له عينان ولا فم وعلى حاجبه أو جبينه ثؤلول قدر الباقلا وأذناه في عنقه وحين ولد سطع له نور وبقي إلى أن مات من يومه ولما مات ذهب ذلك النور وجيء به إلى مجلس قاضي استانبول ورآه الناس وسُجِّل بالسجل وبُعث بصورة الواقعة للأمصار.

(٢) وفي سنة سبع وتسعين وردت أوامر إلى الأقطار بأنه ظهر بمدينة مراكش من المغرب ثلاثة أنفار أحدهم اسمه يحيى بن يحيى وهو لابس ثوباً من ليف النخل وفي صدره مرآة وهو راكب جملاً ويقول لا إله إلا الله ويقول الجمل محمد رسول الله، وإنه يقول للجدار انهدم بأمر الله فينهدم ويقول كن جداراً كما كنت بإذن الله فيكون جداراً عامراً، وإن الثلاثة تفرقوا واحد إلى الشام وآخر إلى مصر وآخر إلى قسطنطينية، وإن الثلاثة يجتمعون بالشام، وإن المهديّ يتلاقى معهم بالشام ومعهم محضر نائب القاضي على قاضي طرابلس الغرب وخطوط العلماء وغيرهم وإن البندق والسهام والسيوف لا تؤثر في واحد منهم، ولما اتصل بعلم السلطان مراد أمرُهم أرسل إلى بلاد الغرب أن لا يعتبروا شيئاً من ذلك وكذلك إلى مصر والشام وصح هذا الخبر وثبت.

(٣) وفي نهار الثلاثاء ثالث عشرى شهر ربيع الآخر سنة إحدى بعد الألف وقعت الفتنة بإسلامبول وذلك أن العساكر من طائفة اليمين واليسار وغيرهم اتفقوا ودخلوا إلى ديوان السلطان بسبب إبطاء علوفاتهم[1] عن العادة

(١) رواتبهم.

وأرسلوا يطلبون محمد الشريف صاحب الدفاتر يومئذ فامتنع السلطان من تسليمه لهم خوفاً من أن يقتلوه ولم تزل قضاة العساكر يترددون لهؤلاء الجماعة لدفع هذه الفتنة فلم يقدروا فرجموهم واستمروا واقفين مصرين حتى هجم عليهم من الداخل بعض الصبيان وساعدهم من وجد من القواد وخدمة السرايا واستمروا يرجمونهم بالحجارة فازدحموا عند خروجهم من الباب الوسطاني حتى تراكم بعضهم على بعض بين البابين واستد الباب فكان الناس يمشون عليهم فقتل منهم ومن المتفرجين نحو من مائة وسبعة عشر إنساناً فأمر السلطان بإلقاء أجسادهم في البحر وسَلِم الدفتريّ المذكور.

(١) وفي هذه السنة عين الوزير سنان باشا لمحاربة كفار المجر وأرسل معه العساكر ففتح تلك السنة قلعة بستريم وقلعة طالما وشَتّى بمدينة بلغراد، وفي السنة الثانية فتح قلعة قران وقلعة يانق وهي من أحصن القلاع وأصعبها قد أحاط بها الماء وهي مدينة ماتت الملوك بحسرتها لحصانتها ومنعتها ومتانتها وكان فتحها عند النصارى بمنزلة المحال لصعوبة مراقيها واستعلاء مراميها؛ وذلك بعد أن نال المسلمين شدة عظيمة قيل إن النصارى رموهم بالمدافع فجاء مدفع بصنجق النبيّ ﷺ صحبه عسكر الشام معهم فكاد يسقط فتلقاه رجل قبل السقوط فلم يسقط ثم بعد أيام لما اشتد بهم الحصار سلط الله عليهم مَوَتانا فجعلوا يموتون في مدينتهم من غير قتال فسلموا المدينة للمسلمين فدخلوها فوجودها قد جافت من الموتى وسر المسلمون بذلك سروراً عظيما.

وهذه جملة الوقائع التي وقعت في زمن السلطان صاحب الترجمة وبالجملة فإنه كان سعيد البخت وكانت أيام سلطنته معتدلة غاية الاعتدال والعلماء والسادات فيها مكرمون وقد كثر في زمنه العلماء، وكان محباً لجمع الكتب مع حسن مطالعتها. وله أدب باهر وشعر بليغ.

(٢) وكان غاية في التواضع والاستكانة لله تعالى، حكى النجم عن

الخطيب أحمد بن النعيمي الدمشقي خطيب أيا صوفيا بقسطنطينية أنه كان في حضرة السلطان مراد حين دخل قسطنطينية بعض أقارب سلطان العجم لطلب المصالحة وقد أمر السلطان أن تعرض عليه عساكره مارّين عليه بين يدي الأعجام على وجه الاستيفاء وجلس في مكان له على كرسيه وبين يديه شيخ الإسلام المفتي والخوجه ونقيب الأشراف وإمامه وخطيب أيا صوفية وهو المحدّث قال: فعُرضت عليه العساكر من أوّل النهار إلى وقت الظهر في موكب عظيم قال فرأينا السلطان قد بكى وانتحب وخرّ عن كرسيه ساجداً ثم قال لنا: اشهدوا عليّ أني عبد الله تعالى من جملة عبيده هؤلاء لا مزيّة بسلطنتي عليهم فأبكانا، وبهذا المقدار من الاستكانة لله تعالى والاعتراف يرجى له المغفرة.

وكانت ولادته بمدينة قسطنطينية في سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وتوفي سنة ثلاث وألف بحصر البول بعد أن استمر مدة طويلة منقطعاً واستمر ميتاً عشرة أيام حتى جاء ولده السلطان محمد وجلس على التخت ثم جُهِّز وأخرج بعد صلاة العصر وصُلِّي عليه بساحة أيا صوفيا وتقدّم للصلاة عليه شيخ الإسلام محمد بن بستان ودفن بالقرب من تربة والده بقرب أيا صوفيا وله من العمر خمسون سنة وكانت مدّة ملكه عشرين سنة.

(١) وخلف عشرين ولداً ذكراً غير الإناث فلما استقر ابنه سلطاناً أمر بخنق إخوته والله أعلم[١].

السلطان مصطفى

السلطان مصطفى بن السلطان محمد بن السلطان مراد الملك الصالح الزاهد المتقشف تقدّم ذكره إجمالاً مرات من جملتها في ترجمة والده وأنه أوصى ولده السلطان أحمد حين عهد إليه بالسلطنة أن يراعي أخاه صاحب الترجمة وأن لا يقتله، فلما توفي السلطان أحمد تولى السلطان مصطفى

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/ ٣٤١ ـ ٣٥٤.

مكانه وذلك سنة ست وعشرين وألف وبقي ثلاثة أشهر وثمانية أيـام فلم تظهر أهليته ولا كفايته لشدة بذله الأموال وكثرة ركوبه إلى المحلات البعيدة من غير تقيد بأمر مركوب ولا غيره لأنه تارك للدنيا وليس براغب فيها بحيث إنه كان في مدة ملكه لبسه جوخة خضراء بأكمام عربية، وأما أكله فإنه لم يأكل الزفر مطلقاً وإنما كان يأكل الكعـك الناشف واللوز والبنـدق وأنواع الفواكه وأما أمره في النساء فإن والدته أحضرت له جواري عديدة فلم يقبل منهن واحدة وكان لا يدري من أحوال الملك إلا ما أُلقِيَ إليه، فلما رأى أركان الدولة أن الأمر به لا ينتظم ذهب المفتي المولى أسعد بن سعد الدين إلى أُسكدار لمولانا الشيخ محمود المعتَقد الصالح العالم العامل يستشيره في أمر خلعه فأشار بخلعه وأن يوليَّ مكانه السلطان عثمان ثم جاء من عنده وأخبر قائم مقام الوزير مصطفى آغا ضابط الحرم قريب العشـاء من ليلة الأربعاء ثالث شهر ربيع الأول فأرسل القـائم مقام إلى الصـوباشيّ[1] إذا جاءتك في غدٍ ورقة مختومة فافعل بما فيها واحترس على الأبواب فقال: سمعا وطاعة، وأما مصطفى آغا فإنه أول ما مضى من ليلة الأربعاء ست ساعات ذهب إلى أبواب السراي وقفلها جميعاً وكذا أبواب الأمكنة التي فيها أكابر الخدم وأخذ المفاتيح وهيأ المحل الذي فيه تخت السلطنة وأوقد فيه الشموع وفرشه بأحسن الفـرش وذهب من حينه إلى السلطان عثمـان في مجلسه الذي هو فيه وهو محل عمه صاحب الترجمة الذي كان فيه في حياة أخيه السلطان أحمد وفتح عليه الأبواب فحصل لـه رعب وتخوّف من أن يكون عمه أرسله ليقتله فقال له: لا تخف أنت صرت سلطاننا، فلم يصدق ذلك فصار يحلف له أن القول صحيح ولا زال يتلطف به إلى أن أدخله إلى محل التخت فألبسه ثياب الملك وأجلسه على التخت وقبل يده وصار يفتح أبواب السراي باباً باباً ويُدخل من كان داخل الأبواب للمبايعة حتى لم يبق أحد في السراي بغير مبايعة هذا كله والسلطان مصطفى نائم عند والدته،

---

(١) قائد العسكر.

ثم أرسل مصطفى آغا للمفتي وقائم مقام الوزير فحضرا وبايعاً ثم ذهبوا إلى السلطان مصطفى قبل الفجر فطلبوه من الداخل فخرج إليهم وقال: ما جاء بكم في هذا الوقت؟ فكان أول من تكلم شيخ الإسلام أسعد فقال له: أن أمر المملكة اختلّ، وإن الأعداء تسلطت علينا ونحن نخشى ضياع الملك وأنت لست بلائق للسلطنة فأجابه بقوله: أنا ما طلبت منكم الملك ولا أردته وليس لي به مصلحة، فقالوا جميعاً: لا نكتفي بقولك هذا ولا بد أن تذهب وتبايع ولد أخيك السلطان عثمان فإنا قد أجلسناه على التخت فقال: جعله الله مباركاً وأنا ليس عندي مخالفة، وذهب وبايع السلطان عثمان فقالوا الآن نحضر جميع الوزراء وأركان الدولة وأشهد على نفسك بالخلع فقال لهم: أفعل ذلك فأرسلوا أحضروا الوزراء وقاضي العسكر وكتبوا عليه حجة بخلع نفسه وأرسل القائم مقام الورقة وهي الموعود بها إلى الصوباشيّ وفيها الأمر بالمناداة وتولية السلطان عثمان فنودي بذلك.

ثمّ لما قتل السلطان عثمان وقعت البيعة العامة للسلطان مصطفى سنة إحدى وثلاثين وألف ففوض أمر الوزارة العظمى لزوج أخته داود باشا فلم تُحمد سيرته فعزل بعد عشرين يوماً من توليته، ثم فوض أمر الوزارة لمره حسين باشا وعزل بعد أربعة وعشرين يوماً فولّى مكانه مصطفى باشا اللفكوى وعزل بعد أربعة أشهر لفرط حمقه وغلبة طمعه، ثمّ ولّى مكانه محمد باشا الكرجيّ وكان وزيراً كامل العقل ناصحاً للدولة قائماً برعاية أمور الملك إلا أنه لم يسلم من مكيدة مره حسين باشا فحرك عليه السباهية[1] وثارت فتنة عظيمة لم يمكن أن تهمد إلا بعزل الكرجيّ وتولية مره فوليها مره ولما وليها وافق أمر الله أن قامت أمراء أناطولي ونوابها على ساق لطلب دم السلطان عثمان وأظهروا الاستقلال التام في ولايتهم فاتفق الرأي على تعيين محمود باشا ابن جغال لتسكين فتنتهم فسار إلى أن وصل إلى أنقره ولم يتفق له مقابلة أحد فرجع لمحافظة بروسة.

---

(١) نوع من الفرسان.

(١) وفي سنة اثنتين وثلاثين اتفق أن الوزير عزر قاضياً في حضرته فاجتمع العلماء بجامع السلطان محمد وقصدوا إيقاع أمر فلم يمكنهم وبلغ الوزير ذلك ففرق الجمعية وعزل بعض أشراف من العلماء ونفى بعضاً، ثمّ في شوّال من هذه السنة اجتمعت السباهية على عزله وتبعهم الجم الغفير فلم يخلص من أيديهم إلا بإرسال مهر الوزارة إلى السلطان واختفى مدّة وكان قتله على يد السلطان مراد ووَلِيَ الوزراة مكانه علي باشا المعروف بكمانكش.

ثم اختار السلطان ـ صاحبُ الترجمة ـ التخلي عن السلطنة والعزلة فخلع عن السلطنة في سنة اثنتين وثلاثين وألف وكانت مدة خلافته سنة واحدة وأربعة أشهر وما عاش بعد ذلك كثيراً. وكانت ولادته سنة ألف، رحمه الله[١].

عزمي زاده

مصطفى بن محمد الشهير بعزمي زاده، قاضي العسكر وأشهر متأخري العلماء بالروم وأغزرهم مادة في المنطوق والمفهوم، وله التآليف التي ملأت سمع الزمان فائدة، وله الشعر النضير في العربية والتركية.

وبالجملة فآثاره كلها لطيفة، وأخباره جميعها ظريفه، وقد ذكره ابن نوعيّ فقال في ترجمته: حصّل الفنون الرائقة إلى أن أحرز المرتبة اللائقة، ووَلِيَ قضاء الشام سنة إحدى عشرة، ثم وَلِيَ قضاء مصر سنة ثلاث عشرة وفي زمن قضائه بها وقعت فتنة محافظها إبراهيم باشا وقتله العسكر فعُزل لتقصيره في تلافي الفتنة، ثم وَلِيَ قضاء بروسه سنة خمس عشرة، وفي أيام قضائه بها تسلط ابن قلندر الخارجيّ عليها وحاصرها وحرق بعض أماكنها فعزل عنها بُعَيْدَ ذلك، ثمّ وَلِيَ قضاء أدرنه في شهر ربيع الآخر سنة عشرين واتفق أنه عزر قاضياً مجهولاً فاجتمع عليه جماعة أزعجوه بالمكالمة والمخاصمة فنقل في شعبان من هذه السنة إلى قضاء دمشق.

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٣٦٣ ـ ٣٦٥.

(١) قال الحسن البورينيّ في بعض مجاميعه: ووقع في قضائه يوم الخميس خامس عشر شعبان سنة إحدى وعشرين وألف أن رجلاً كان نصرانياً من قرية صِدنايا من نواحي دمشق فأسلم وأتى إلى مجلس قاضي القضاة مُسْلِماً من مدّة تزيد على عشرة أعوام وخُتِن ثم أتى في التاريخ المذكور إلى نائب صاحب الترجمة أوّلاً وألقى عمامته وصرح على نفسه بالكفر فأرسله النائب إلى قاضي القضاة يعني صاحب الترجمة فاستفهم عن حاله واستنطقه فصرح بما قاله فقال القاضي: لعل لك شبهةً دينية أو ظلامة دنيوية فإن رغبت في المهلة أمهلناك وتوقفنا إلى التأمل بما في هناك فأبى إلا التعجيل بروحه إلى الهاوية وقال: إنه لا يرغب إلا في الفرقة الغاوية وصرح بأنه في مدّة اتصافه بالإسلام لم يوصف بصلاة ولا زكاة ولا صيام، وكان يبادر إلى طلب النار ويستعجل اللحاق بأهل دار البوار فكتب القاضي ما يستحقه من القتل بالتعجيل وأرسل الصك إلى الحافظ الوزير الجليل فأمضى فيه السيف الماضي امتثالاً لما به الشرع الشريف قاضي، وذهب شقيّاً إلى نار الجحيم **﴿وما يُلقّاها إلا الذين صبروا وما يُلقّاها إلاّ ذو حظ عظيم﴾**[١].

قلت: وقد مدح في دمشق بقصائد كثيرة، وكان مقبلاً على الأدباء.

(٢) ومما أملاه من شعره العربي قوله في التوسل مقتبساً:

يا نفس عوذي بالكريم وعرّجي فهو الذي يسدي إلينا نعمته
وينزل الغيث الذي يروى الرُّبىٰ من بعد ما قنطوا وينشر رحمته

ثم عزل عن قضاء دمشق سنة اثنتين وعشرين، ووَلِيَ بعدها قضاء قسطنطينية وقضاء العسكرين وانعقدت عليه وعلى المولى محمد بن عبد الغنيّ صدارة العلماء بالروم.

وكانت ولادته سنة سبع وسبعين وتسعمائة، وتوفي في حدود سنة أربعين بعد الألف[٢].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٥.

(٢) «خلاصة الأثر»: ٤/٣٩٠ ـ ٣٩٢

مصطفى المعروف بكوجك مصطفى

أحد الموالي الرومية. وَلِيَ قضاء الشام في سنة إحدى بعد الألف، قال النجم: وسلك في قضائه مسلكاً حسناً وكان يتحرى في أحكامه ويحررها خصوصاً فيما يتعلق بالجند ومداينتهم.

(١) وكان يحط على المرابين ودخل عليه خصمان أحدهما جنديّ فحرّر عليه ولم يسع الجنديّ إلا الترك لرباه، ولمّا فاته ما يحصل له رباه أنكر رَهناً كان عنده للمديون، فقال للراهن: أقم عليه البينة، فقال: إنه لا يتجرأ أحد على الشهادة عليه، فقال للجنديّ: ادن مني، فدنا منه فأخذ خاتمه منه وأعطاه للمعيّن عليه وقال له: خذ هذا الخاتم واذهب إلى بيت هذا الرجل وقل لهم: أعطوني الرهن الذي صفته كذا وكذا وخذوا هذا الخاتم أمارة فذهب وجاء بالرهن كما وصفه الراهن فاعترف به، وكان له من قبيل هذه الفراسة أشياء كثيرة فتهارع الناس إليه في طلب الحقوق، وكان إذا مر في أسواق دمشق دعا له أهلها.

ثم أُعطِيَ في السنة المذكورة قضاء مكة وسافر إليها في تلك السنة، ثم قال: وأحسب أنه مات قبل العشرة وألف، والله أعلم[١].

مصطفى باشا المرزيفونيّ

الوزير الأعظم في عهد السلطان محمد بن إبراهيم وهو الشهير بقره مصطفى باشا وبالمقتول.

كان من أمره أنه خدم محمد باشا الوزير الأعظم الشهير بالكوبريلي فنهض به الحظ على يده، وما زال في عزة تتزايد وسعادة تتصاعد إلى أن مات أستاذه المذكور، ووَلِيَ ابنه أحمد باشا الفاضل الوزارة العظمى وكان هو لا يهمه إلا مراعاة جانب مخدومه المذكور ولا يعرف إلا رعاية حقوقه، ولما توجه الفاضل إلى جزيرة كريد صيره قائماً مقامه وأقبلت الدولة عليه

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٣٩٤

إقبالاً ليس وراءه لأحد مطمع، واتسعت دائرة جاهه وأنيطت برأيه الأمـور وكثرت في ذلك الإبّان حفدته وحواشيه، وتملك الأملاك الكثيرة.

ثم مات الوزير الفاضل فسعت إليه الصدارة ولم يسع لها فقام بأعبائها وتصلب في حمل أثقالها، وتمكن منها تمكناً عظيماً، ونال من إقبالها حظاً جسيماً، وكان في حقيقة أمره مدبراً حازماً عاقلاً متمولاً وجيهاً، وله محبة في العلماء والفضلاء يحب المـذاكرة العلميـة ويرغب في الفـائدة وربمـا اشتغل وذاكر في صنوف من الفنون، وكان ملتفتاً لأحوال الناس فيما ينظم أمرهم إلا أنه كان شديد الطمع في جمـع المال وعنده عجب وخيلاء.

(١) وسافر سفرة جهرين بأمر مخدومه السلطان محمد بجيوش عظيمة وافتتحها واحتوى على المملحة التي بالقرب منها، وهذه المملحة كما نقله الثقات من أعظم مجالب النفع لبيت المال حتى إنهم يبالغون فيما يدخل منها، وسبب ذلك أن بلاد النصارى المعروفين بالمسقو والقزق محتاجون إليها وليس في بلادهم مملحة غيرها، ولما فتحت هذه القلعة سر الناس سروراً عظيماً لأن فتحها كان في غاية الصعوبة وكان كثير من نصارى الروم يزعمون استحالة فتحها ويهزؤون بالوزير صاحب الترجمة في قصدها وشاع عنهم أخبار في انكسار عسكر المسلمين وهزيمتهم وكانوا يظهرون الشماتة وسبب ذلك ما يعرفونه من أنها تابعة لملك المسقو وهذا الملك هو أكثر ملوك النصارى جيوشاً وأكبرهم ملكاً قيل إن مملكته مسافة سنة طولاً ومثلها عرضاً وبالجملة فإن فتح هذه القلعة كان من أعظم الفتوحات.

(٢) وزينت دار الخلافة ثلاثة أيام وكان السلطان محمد إذ ذاك ببلدة سلستره بروم ايلي فكتب إلى قائم مقام الوزير بقسـطنطينيـة عبدي بـاشا النيشانيّ أنه يريد القدوم إلى دار المملكة وأنه لم يتفق له رؤية زينة بها مدّة عمره وأمره بالنداء لتهيئة زينة أخرى إذا قدم فوقع النداء قبل قدوم السلطان بأربعين يوماً وتهيأ الناس للزينة ثم قدم السلطان فشرعوا في التزيين وبذلوا جهدهم في التأنق فيها واتفق أهل العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة

في دَوْر من الأدوار، وكنت الفقير إذ ذاك بقسطنطينية وشاهدتها ولم يبق شيء من دواعي الطرب إلا صرفت إليه الهمم ووجهت إليه البواعث، واستغرقت الناس في اللذة والسرور، واستوعب جميع آلات النشاط والحبور، وفشت المناهي وعلمت العقلاء أن هذا الأمر كان غلطاً وأن ارتكابه جرم عظيم، وما أحسب ذلك إلا نهاية نهنهة السلطنة وخاتمة كتاب السعادة والميمنة، ثم طرأ الانحطاط وشوهد النقصان وتبدّل الربح بعدها بالخسران، فوقع بُعَيْد ذلك في القسطنطينية حريق عظيم بناحية الفنار حُرق فيه نحو اثني عشر ألف بيت ثم تراسل الحريق في كثير من المحلات حتى حسب ما وقع منه فكان تسعين حريقاً كل ذلك في سنة واحدة.

ثم طلب الوزير صاحب الترجمة الإذن من السلطان بالسفر على بلاد الأنكروس وكان عقد الصلح الذي أوقعه معهم الوزير الفاضل بعد فتح إيوار على خمس عشرة سنة قد مضى عليه ثلاث سنين فأذن له السلطان وشرع في تهيئة الأسباب من الذخائر ومكاتبة نواب البلاد والعساكر وجمع من الجيوش والجنود ما لا يدخل تحت حصر حاصر ولم يتفق جمع مثله فيما مضى من الزمان الغابر، ثمّ طلع صاحب الترجمة من قسطنطينية بأبهته العظيمة مصمماً على أخذ بلاد النصارى بالقوّة الجسيمة ولم يدر ما خبىء له في الغيب حتى وقع ما وقع فزال الشك والريب، ولْنَسُقْ أمر هذا السفر فصلاً فصلاً ونبينه بمعونة الله تعالى فرعاً وأصلاً وما أقول الذي أقوله إلا عن نقل وعزو مع التحري في ذلك بإثبات ومحو فأقول ناقلاً عن كتاب ورد من بعض الأجناد ملخصاً منه محل المراد: قال: ولم يزل الوزير بمن معه من العساكر سائرين إلى أن وصلوا سنة أربع وتسعين وألف قلعة بج قلت: وهذه القلعة هي التي كانت مقصودة له بالذات، وأطلق أمره في نهب القلاع والقرى التي على الطريق فما كان للعسكر مشغلة إلا نهبها وإحراقها وإتلاف زروعها فأحرقوا من القلاع المعلومة نحو مائة قلعة وما يتبعها من القرى أشياء كثيرة جداً، وكل قرية من هذه القرى بمثابة بلدة تحتوي على ألف بيت أو أكثر وجميع هذه القلاع والقرى في نهاية الإحكام وحسن البناء

وبيوتها في غاية من إتقان الصنعة مسواة بالرخام وأكثر بيوت هذه البلاد ثلاث طبقات الثالثة منها مصنوعة بالدف والخشب، وعاثت عساكر التاتار في بلاد الكفار إلى قريب قزل ألما التي هي محل ملك الإنكروس المعروف بالباب ونهبوا ما قدروا عليه من البلاد وحرقوها.

(١) ورأيت بخط بعض الروميين أن رجلاً من كبار عقلاء النصارى دخل عسكر المسلمين ثم جاء إلى الشيخ محمد الواني واعظ السلطان مُسلَماً قال: وكان له وقوف على أحوال ملكهم وأنهم ذكروا عنده أمر هذه النصرة ولعل لها أسباباً من جانب النصارى أوجب الانتقام منهم فقال: إن الملك البابا دخل يوماً على زوجته بنت ملك الإسبانية وهو مغموم فقالت له زوجته: ما أغمك؟ فقال: أرى أمر هؤلاء العثمانية قد بلغ النهاية في الغلبة علينا ومن أعظم ما يغمني من أمرهم طاعة نوابهم وأمرائهم لهم فإذا طلبوهم بأدنى خطاب من أقصى البلاد لا يمكن أن يتخلفوا ويبادرون إلى الحضور إليهم وامتثال أمرهم وأما أنا إذا أرسلت إلى الأمراء مراسيل أطلبهم لأمر فلا يطيعون أوامري ولا يحضرون إلي فقالت له: إنما يطيع حكام المسلمين أمر سلطانهم لأنهم كلهم أهل ملة واحدة ومذهب واحد فخرج الملك من عند زوجته مغضباً وجهز الرسل إلى بلاد المجر يدعوهم إلى مذهبه فلم يقبلوا فأرسل عساكر مِن قِبَله فقبضوا على أكثرهم وأحضروهم إليه فعذبهم وقتلهم وفعل في بلاد المجر أفعالاً شنيعة جداً لم تصدر من ملك قطُّ مع أنهم رعاياه ويؤدون إليه ما عليهم بلا خلاف له فبهذا تحقق النصارى أن الله تعالى سلط المسلمين عليه فخربوا بلاده وألقى الرعب في قلبه وقلب عسكره وهربت رعاياه من هذا الحد إلى حد قزل ألما وتشتتوا في البلاد كل ذلك بسبب ما فعله مع المجر الذين هم رعاياه وحزبه. انتهى.

ثم إن خان التاتار نور الدين كراي لحق كثيراً من الهاربين فقتل منهم مقتلة عظيمة ومن أغرب ما وقع في هذا الأثناء أن سوقة العسكر كانوا يدخلون قلعة من القلاع المذكورة فيرون فيها أناساً قلائل من النساء

والرجال العاجزين عن الحركة فيقتلونهم ويستولون على القلعة ثم يطلقون فيها النار فعلوا هذا في أكثر من أربعين قلعة، واستولى قره محمد باشا على قلعة تسمى أووار يقال إنها أحصن من إيوار التي افتتحها الوزير الفاضل في سنة خمس وسبعين وألف، وفتح بكر باشا قلعة هانبرق وهي على ما سمعت في الحصانة لا تقصر عن قلعة حلب ثم حرقوا القلعتين المذكورتين وغنم المسلمون غنائم لا تحصر ولا تضبط وأسروا نحو مائة ألف أسير بحيث بيعت الجارية مع ولدها بثلاثة قروش، والأبكار لا يتجاوز ثمنها العشرين قرشاً إلا في النادر، وبيع الرأس من الغنم بقطعتين، ورطل الطحين العال بقطعتين، ورطل النحاس بثلاث قطع، وهرب عسكر النصارى من بج ونواحيها وأخذوا معهم كثيراً من الأموال فلحقهم جماعة من التاتار فأدركوهم عند لنجه قلعة داخل بج بنحو ستين ساعة فاستأصلوهم قتلاً ونهبوا جميع ما كان معهم.

وفي عشرى رجب توجه نور الدين كراي نحو بابا طاغى بنحو عشرة آلاف من عسكره التاتار فلقي جماعة من النصارى في عدد عشرين ألفاً فقتل بعضاً وأسر آخرين ولم ينج منهم إلا القليل، وكذلك فعل حاج كراي سلطان في بعض النواحي فغنم غنائم عظيمة.

(١) ثم وصل الوزير صاحب الترجمة إلى بج[(١)] وضرب مخيمه بها وخيمت العساكر، وهذه القلعة كما تلقيت خبرها ذات قلعة داخلها يحيط بها من جوانبها الثلاثة الدور والأبنية والعمارات والحدائق ومن جملة ذلك سبعة عشر مكاناً باسم الملك تحتوي هذه الأمكنة على عجائب الزخارف والفواكه، وقد قدمنا أن عسكر بج كانوا قد هربوا وكذلك هرب أهل الخارج من الرعية ولم يبق إلا نحو عشرين ألف رجل عشرة آلاف من العسكر وعشرة آلاف من الرعية في داخل القلعة فأمر الوزير بإحراق الخارج فأحرق في أقل من طرفة عين ولم يبق إلا محل أو طاق السلطان سليمان ومحله

---

(١) بلد من بلدان أوروبّة.

المذكور كانت الكفار قديماً بنته بناء عظيماً وصيرته من أحسن المنتزهات بالبلدة المذكورة تعظيماً منهم للسلطان سليمان فإنهم يعظمونه كثيراً، ثم أمر بمحاصرة القلعة وشرع العسكر في رميها بآلات الحرب فضاق بمن فيها الخناق في أقل من قليل والتجؤوا إلى أن يسلموها طوعاً فأبى الوزير خوفاً من أن ينهب العسكر ما فيها من الأموال وحُكِيَ أنه أبرم عليه أعيان الوزراء والعسكر في المبادرة إلى دخولها صلحاً خوفاً من أمر يأتى فقال: إن ضمنتم لي العسكر في أن لا يأخذوا شيئاً فعلت فأبوا فتمادى الأمر يومين أو ثلاثة وهو وبقية الوزراء في إعمال الفكر على أن يفتحوها عنوة ومالهم علم بما سيحدث عليهم من الأمر وإذا بطلائع الكفار أقبلت وفي إثرها عسكر سد الفضاء لا يبالون بقتل ولا ضرب بل يقدمون على الموت بجنان من الصخر وقلب، وهجموا دفعة واحدة والعسكر في غفلة عما يراد بهم واختلطوا بهم طامعين في قتلهم وسلبهم، وأطلقوا السيوف وجردوا أسنة الحتوف فلم يكن بأسرع مما انقلب العَيان وكان المقدم من المسلمين من عمد إلى الفرار ولم يقر له في تلك الحالة القرار فقتل من قتل ونجا من نجا لكن نجاةُ من عَدِم المعونة والالتجاء، واحتوت الكفار على السرادقات والخيول وفازوا بأمر كان يتعسر إليه في أحلامهم الوصول، وكر الوزير بمن معه هارباً وللنجاة من اللحاق به طالباً وتفرق العسكر في تلك البراري والوهاد ولم يجدوا من مرشد لهم ولا هاد، ونفد ما معم من الزاد فبعضهم وصل إلى بودم والبعض إلى إكري وهكذا حتى اجتمعوا بعد مدة ببلغراد ونفذ أمر العلي الكبير وهو على جمعهم إذا يشاء قدير، وأقام الوزير صاحب الترجمة ببلغراد يدبر أمراً في تلافي ما مضى واختلفت بعيد ذلك الآراء وكثرت التخاليط وأظهرت نصارى الأفلاق والبغدان والأردل العصيان وعم الغم وعظم الوهم وزحفت الكفار على بلاد الإسلام فأخذوا بعض قلاع.

(١) وبعث الوزير في ذلك الأثناء إلى ملك الأنكروس رسولاً برسالة يتهدده فيها ويقول له إنه لا بد من مقابلتك وكسرك وأخذ جميع بلادك

وقهرك في كلام آخر يُعلم من الجواب الذي ورد من ملك النصارى الأنكروس وهذا صورته * من سلطان الملة المسيحية وقهرمان السلطنة النصرانية الذي هو ملك ملوكهم وصولته قد أحاطت بأربعة أطراف عالمهم واستولى على جميع المجاز وما عداهم قد استقر في ملكه خمسة آلاف مدينة وحصن حصين وجلس على تخت نوشروان وقيصر وصلصال وصار لجملة أمة عيسى سلطان السلاطين أُنهِي إليك أيها الوزير الأعظم والسردار[1] الأكرم بناء على المحبة دعاء لائقاً وثناء فائقاً، وقد ورد من طرفك رسالة فحين وصولها جمعنا وكلاءنا وأمراءنا ورهباننا وقرئت الرسالة بمحضورهم وفهم مضمونها فقولك فيها إن السلطان مراد الغازي القديم لمّا مضى إلى رحمة الله الجواد الكريم ولّي ابنه الذي فتح قسطنطينية وهو السلطان محمد فصرف في سبيل الغزاء ألف حمل ذهب، وإن سلطنتكم اليوم أعظم شأناً وأزيد مملكة وأعواناً مما كانت عليه في زمنه فهذا السلطان محمد الذي ذكرته كان سلطاناً عاقلاً عادلاً وملكاً، لا نجد له بين الملوك معادلاً قد نال ما ناله بعدالته وظفره الله تعالى بما أراده بعنايته، وأما أنتم فلم تقفوا في كتب التاريخ أن قلعة قسطنطينية يأخذها منا سلطان مسمى بمحمد وأيضاً نحن نأخذها من سلطان اسمه محمد وقد ظهر الآن ذلك حد الظهور وتأكد حيث أخذنا منكم ثماني عشرة قلعة وما عدا ذلك فحكام البغدان والأفلاق والأردل جاؤوا إلى خدمتنا واختاروا الانحياز إلى عبوديتنا، وقولك: إنا نرفع يدنا عن المجار لأنهم هم السبب في هذه الفتنة فهذا الكلام بعيد عن الأفهام وهل هو إلا أمر بنزع تاجنا عن رأسنا فإن التاج لهم، وأما قولك: ويكون ذلك مدار الصلح والصلاح فهل طلبنا منكم الصلاح والصلح نحن لا نطلب الصلح ولا نترجاه ولا يخطر على بالنا بعد الفساد الذي شاهدناه وأما نقض العهد فمن ابتدأ به سيلقى غِبَّه ويتجرع منه ما لا يسيغه إذا كلف شربه، قد راعينا فيما سلف العادة القديمة ورعينا

---

(1) قائد العسكر.

الذمة المستقيمة، فأرسلنا هديتنا المعتادة فخرج حاكم بوديم جلالي باشا وأغار على بلادنا وأنزل بها الهوان فهل يليق هذا التعدي الذي ما وقع في عصر من العصور، ثم بعد ذلك وقع لرسلنا من الإهانة والحبس ما استدللنا به على النصرة لطرفنا فإن الله غيور، وقولك: إن سلاطينكم أصحاب مال وعسكر كثير فنحن نعرف هذا المقدار ولكن كَسْر العسكرِ الكثير وهلاكُ من نقض العهد عادة أزلية لذي الجلال القهار، والحاصل إن كان المراد الصلح فيكون لنا من البلاد من حدنا الآن إلى حد أسكوب وإلا فلنا معك سوق حرب يقام فيه المتاع المجلوب.

ثم لم يزل الوزير صاحب الترجمة مقيماً ببلغراد والناس في قلق واضطراب وفي كل يوم يحدث خبر مذهل لأولي الألباب، ونصب أهل الممالك له العداوة، وذهبوا كل مذهب في إنه من أهل الغباوة والشقاوة ولهجوا بالدعاء عليه وفوّقوا سهام ذمهم إليه حيث كان السبب في انتهاك حرمة الإسلام وامتهانه بتغلب الكفرة الفجرة اللئام، ولهم فيه بسبب ذلك أقاويل كثيرة، وكلمات مزرية شهيرة، من أخفها أن أمر الدولة كان غنياً عن هذه المحاربة، وأنه كان يمكن الانتصاف من الكفرة وهو الأقرب بنوع من المطالبة، وإنما الطمع أدّاه إلى هذه الأفعال فكان عاقبة أمره الوبال والنكال، وما زال الوزير في قلق واضطراب مترقباً لما يظهر في حقه من طرف السلطنة من الجزاء والعقاب فبرز الأمر السلطانيّ بقتله وتدميره جزاء له على ما جناه من سوء تدبيره، فقتل في المحرم من سنة ألف وخمس وتسعين عليه رحمة المولى المعين[1].

الأمير منجك بن محمد بن منجك اليوسفيّ

الأمير منجك بن محمد بن منجك اليوسفيّ الدمشقيّ.

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٣٩٧/٤ - ٤٠٣.

نشأ في أيام أبيه متفيئاً ظلال نعمه، وشغف من حين نشأته بالطلب، وصرف نقد عمره على تحصيل الأدب، وقرأ على مشايخ عظام، وانتظم في سلك الفضلاء أيّ انتظام، ووهبه الله تعالى الذكاء وقوّة الحافظة وحسن الأداء، وكان فصيح اللهجة، فسيح ميدان المحادثة، كثير المحفوظات، جيد المناسبات، كريم الطبع خلوقاً متواضعاً.

ولما مات والده تقلبت به الأحوال وفجأته طوارق الأهوال، ونفق ما ورثه عن والده؛ وذلك لمبالغته في البذل والسرف.

ثم انزوى مدّة في داره، ولزم الوحدة باختياره إلى أن أنف من الإقامة فقوّض عن الشام خيامه وهاجر إلى الديار الروميّة وأقام بها مؤملاً إدراك ماله من الأمنية، والدهر يعده ويمنيه، ولقد قاسى في الغربة من المشقة المبرحة والكربة.

ومما اتفق له أنه كان أشار إليه العلامة يوسف الفتحيّ الإمام السلطانيّ بنظم قصيدة في مدح السلطان إبراهيم لتكون وسيلة إلى شيء من الأماني لنظم قصيدته الميمية التي أولها:

لو كنت أطمع بالمنام توهماً   لسألت طيفك أن يزور تكرما

فبيّضها له المولى عبد الرحمن بن الحسام بخطه المدهش، وترجمها بالتركية على الهامش، وكان الفتحيّ عرّف به السلطان فدخل لإعطاء القصيدة ثم وقف وتناولها الفتحيّ وقرأها وحصل من السلطان التفات وقبول لكن القصيدة لم تسفر عن شيء من المواهب، ولا قوبلت بمطلب من المطالب.

(١) ومن حكمياته قوله:

لا تغترر بشبابك الغض الذي   أيامه قمر يلوح ويأفل
ودع اتباع النفس عنك فإنما   حب الجمال الصبر عنه أجمل
نعم العيون الفاتنات قواتل   لكن سهام الله منها أقتل

(١) ومن رباعياته المتعلقة بالإلٰهيات والنصائح قوله:

إن آمالنا التي شغلتنا عن طِلاب الحظوظ والأرزاق
آيستنا من كل شيء ولكن ما أيِسْنا من رحمة الخلاق

(٢) وقوله:

يا إلهي هبني لعفوك إني وجل القلب من شنيع الذنوب
حسناتي جميعها سيئات واعتذاري إليك عين الذنوب

وكانت وفاته في سنة ثمانين وألف عن ثلاث وسبعين سنة.

(٣) وروي عنه أنه قال عند حالة نزعه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين وعلى خاتم الرسل الكرام الذي هدانا ودلّنا على سبيل الله، أشهد الله عليّ وملائكته بأني أشهد أن لا إله إلا الله، آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم[١].

منصور بن علي السطوحيّ المحليّ

منصور بن علي السطوحيّ المحليّ نزيل مصر ثم القدس ثم دمشق، الشافعيّ العالم العامل والفاضل الكامل المشهور بالعبادة والعرفان، والبالغ إلى مرتبة التفرُّد في الزهد وعِظَم الشان.

جاور بجامع الأزهر وقرأ الكثير ومهر وبهر، ومشايخه كثيرون. ثمّ قدم إلى القدس وأقام بها منعكفاً على العبادة وتلاوة كلام الله تعالى وإلقاء حديث النبيّ العظيم، واستقرّ منعزلاً عن الناس ولا يخالطهم في وحشة ولا إيناس فحسده أهل القدس على حبه الخفاء وشهرته تأباه ولإقبال الكبراء والأعيان عليه مع أن ذلك بخلاف رضاه فأظهروا له التجري وأسندوا إليه أموراً هو منها في غاية التبري:

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٤٠٩ - ٤٢٣.

وحاشاه من قول عليه مزوّر   وما عَلِمت ذنباً عليه الملائك

فهاجر إلى دمشق فقابلته بتأهيل وترهيب، وأنزلته في صدر منها رحيب، وأقام بالجامع المعروف بالصابونية قرب باب الصغير يقصد ويزار، وإليه بالورع التام والزهد الكامل يشار، انعكفت عليه أهل دمشق قاطبة واعتقدوه وأحبوه حتى صار من تلامذته ومريديه خلق كثير من أهلها وكان سبباً لنشر حفظ القرآن فيها فإن الحفاظ صاروا أكثر من أربعمائة نفر بنفَسه المبارك وأقام على حالته المذكورة أيضاً منعزلاً لا يذهب إلى أحد من الحكام بل هم يأتون إليه ويلتمسون منه الدعاء، ويأتي محبوه إليه بالأطعمة النفيسة والإحسانات وهو لا يدخر منها شيئاً وكان كثيراً ما يحج في غالب السنين.

(١) وحج في سنة خمس وستين وألف وجاور بالمدينة تلك السنة وهي السنة التي مات فيها فأرسل إليها الشيخ عبد الجواد المنوفيّ من مكة إلى المدينة هذه القصيدة يهنئه بالمجاورة عند خير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم:

دار الحبيب أحق أن تهواها   وتحنّ من طرب إلى ذكراها
لا تحسب المسك الذكي كتربها   هيهات أين المسك من رباها
طابت فإن تبغي التطيب يا فتى   فأدم على الساعات لَثْم ثراها
أبشرففي الخبر الصحيح مقرّر   أن الإله بطيبة سماها
واختصها بالطيبين لطيبها   واختارها ودعا إلى سكناها
لا كالمدينة منزلاً وكفى بها   شرفاً حلولُ محمدٌ بفناها
حظيت بجيرة خير من وطىء الثرى   وأجلهم قدراً فكيف تراها

كانت وفاته سنة ست وستين وألف، ودفن بالبقيع بالقرب من مرقد سيدنا إبراهيم بن النبيّ صلى الله عليه وسلم[١].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٤٢٣ ـ ٤٢٦.

نظام الدين السنديّ النقشبندي

ذكره البورينيّ وقال في ترجمته: ورد إلى دمشق ومعه أخ له صغير وصار يدعي علماً غزيراً ويزعم أنه حمل فضلاً كثيراً ولم يكن كما قال ولا صدقت منه الأقوال غير أنه كان ذكياً جداً، وترك دمشق ورحل إلى صالحيتها وقطن بمدرسة شيخ الإسلام أبي عمر وصار يدعي أنه مهديّ الزمان الموعود به فقيل له: ذاك محمد وأنت نظام الدين، فقال: محمد يلقب بنظام الدين، فقيل له: ذاك شريف وأنت سنديّ أسود، فقال: أنا شريف علويّ صحيح النسب غير أني تركت دعوى ذلك إلا في وقته، وأما سواد الوجه فكان يعتذر عنه بأن المراد البياض المعنويّ الذي يكون في الأفعال، وزاد به الحال إلى أن صعد المنارة الشرقية بين المغرب والعشاب وقال: يا أهل دمشق أنا مهديّ الزمان وأنا أدعوكم إلى إجابتي واتباعي، وسمع ذلك كثير من الصالحين وغيرهم ممن كان بالجامع الأمويّ.

وكان مرة بالجامع السّلِيميّ السلطانيّ يوم الجمعة فلما نزل الخطيب عن المنبر قام وأمر رجلاً أن يصعد المنبر ويلعن أمين الدفتريّ العجميّ وقال بصوت عال: إن الدفتردار محمد أمين رافضيّ يبغض أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وقد أمرني رسول الله ﷺ أن ألعنه وشاع ذلك الأمر وذاع فوضع في البيمارستان القيمريّ بالصالحية مدّة وسكن عن التخليط وقلّل من التخبيط، فأمر قاضي القضاة بإخراجه بعد أن أمر بإيلاجه وضاقت به دمشق بعد هذه الدعوى، وكان يذوق من الزمان شديد البلوى، فطار من دمشق إلى بيت المقدس ومر بنابلس ودخل غزة واقتتل مع بعض علمائها ووصل إلى مصر ومكث بها قليلاً ولم تطل مدَّته بها بل توفي هو وأخوه بها. انتهى ما قال البورينيّ[١].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٤٥١ ـ ٤٥٣.

الإيجي

نعمان بن محمد بن محمد الإيجي العجمي الدمشقيّ الشافعيّ الشيخ العارف بالله تعالى. كان من أجلّ الصوفية فاضلاً أديباً، يؤثر بماله في وجوه الخير، وللناس فيه اعتقاد.

(١) قال النجم في ترجمته: وكان يتزوّج كثيراً ويطلق حتى بلغني أنه وقفت عليه سائلة تسأله فقال لها: ألك زوج؟ فقالت: لا، فأخذها إلى المحكمة العونية وعقد عقده عليها ثم لزِمها حتى اجتمع بها في منزلها.

(٢) قلت: وقد وقفت له على أشعار منها:

أضعت العمر في لهو وطيش ... وكنت أظن في الدنيا صديقا
فلما صرت محتاجاً لفلس ... فقدت الأهل والخل الشفيقا

(٣) وقوله:

صديق المرء في الدنيا قليل ... وأصدقهم على التحقيق درهم
تسمك إن ظفرت به ودع ما ... سواه فإنّه للهم مرهم

كانت وفاة الشيخ نُعمان سنة ست عشرة وألف[١].

يحيى بن زكريا بن بيرام

يحيى بن زكريا بن بيرام شيخ الإسلام وأوحد علماء الروم[٢] باتفاق الأعلام، ذكره والدي رحمه الله تعالى فقال في حقه سلطان علماء المغرب والمشرق، واحد الزمان وثاني النعمان[٣] مَن بمكارم الأخلاق في الآفاق موصوف، وفي تعداد أفراد النوع الإنسانيّ واحد يعدل ألوف، كبير المملكة السلطانية دون منازع، بركة الدولة العثمانية من غير مدافع.

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٤٥٣ ـ ٤٥٥.
(٢) أي الدولة العثمانية.
(٣) إشارة إلى الإمام أبي حنيفة النعمان.

ولد بقسطنطينية ونشأ بها، واجتهد في التحصيل على علماء عصره حتى برع وتفوق، ثم درّس بمدارس قسطنطينية، وأُعطِيَ قضاء حلب وكانت أوّل مناصبه، فدخلها في سنة أربع بعد الألف خلفاً عن المولى الكمال ابن طاشكبري ثم بعد مدّة قليلة وقع بينهما مبادلة فنُقل صاحب الترجمة إلى قضاء دمشق والكمال إلى قضاء حلب.

وكانت سيرته في هذين القضاءين من أحسن سيرة لقاض، ثمّ عزل وتوجه من دمشق إلى معرة النعمان قاصداً دار الخلافة وكان خرج من دمشق وعليه دين سابق لم يقدر على وفائه وكان قصد أن يمر على حلب ويستدين من بعض أهلها مبلغاً يوفي به مما عليه واتفق ان كتخداه[1] دخل عليه وشكى من المضايقة فلم يستتم الكلام إلا ودخل عليهم قاصد من طرف الدولة ومعه أمر بتوجيه قضاء مصر إلى صاحب الترجمة فسرّ بذلك وسار إليها مسلكه المعتاد ثم عُزل وسار إلى قسطنطينية، وبعد مدّة صار قاضياً ببروسة ثم وَلِيَ قضاء أدرنه ثم قضاء قسطنطينية، ثم صار قاضي العسكر بأناطوليّ مدّة يسيرة ونقل إلى روم ايلي[2]، ثم عُزِل وأُعيد مرة ثانية سنة ثمان عشرة.

(١) ووقع في أيام قضائه أن درويش باشا الوزير الأعظم أمر بقتل رجل في الديوان فقال له صاحب الترجمة: ما الذي أوجب قتله؟ فقال له: أنت ما لك علاقة بهذا، فقام من الديوان وترك منصب قضاء العسكر، فلما سمع السلطان أحمد بذلك بعث إليه يستخبر منه عن قضية تركه فأجابه بقوله: إن القضاء أمانة والسلطان إنما يولي قضاء العسكر لسماع الدعاوى وإنصاف الظالم من المظلوم والآن قد قتل رجل من غير أن يوجب الشرع قتله فلم يوجد اتِّصاف بما وُلِّينا لأجله القضاء فتركنا المنصب لذلك، ففي ذلك اليوم

---

(١) وكيله

(٢) بلاد العثمانيين في أوروبا.

قتل السلطان أحمد درويش باشا المذكور وحصل لصاحب الترجمة غاية الإقبال من السلطان.

وعزل بعد مدة وأعيد ثالثاً، ثم وَليَ الإفتاءَ السلطانيّ في يوم جلوس السلطان مصطفى سنة إحدى وثلاثين وألف.

(١) وكان أول سؤال كُتِب إليه: أوّل واجب على المكلف ما هو؟ فأجاب: هو معرفة الله تعالى: «فاعلم أنه لا إله إلا الله».

(٢) ثمّ عُزِل وأعيد ثانياً وكان أول سؤال رفع إليه: المؤمن إذا أراد الشروع في أمر ذي بال بماذا يبدأ حتى يكون ما شَرع فيه مباركاً فأجاب: يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم.

(٣) ثمّ عُزل ثانياً في رجب سنة إحدى وأربعين في حركة العسكر بمخامرة الوزير رجب باشا وشيخ الإسلام حسين ابن أخي وجمعوا جمعاً عظيماً عند السلطان مراد وأرسلوا إلى صاحب الترجمة رسولاً يطلبونه إلى الديوان على لسان السلطان وكانوا صمموا على قتله في الطريق إذا جاء حتى إنهم رأوا المولى محمد الشهير بجشمي قاضي العسكر بأناطولي وهو متوجه فظنوه هو وما حققوه بعينه فلما عرفوه أطلقوا سبيله، فأرسل إلى صاحب الترجمة رسولاً يحذره الحضور من الطريق العام فسار من طريق آخر فلما رآه السلطان عرف أنها مكيدة فأشار إليه بالعود بيده فلم يمكنه ذلك فأرسل إليه السلطان رسولاً وأخذه إلى الداخل ثم إن العسكر قتلوا الحافظ الوزير الأعظم ونصبوا رجب باشا مكانه وجعلوا ابن أخي مفتياً وخمدت الفتنة، ثم إن السلطان التفت إلى صاحب الترجمة وقال له: قد عزلك القوم وأنا ما عزلتك فسر إلى حديقتك واشتغل لنا بالدعاء وإذا صار سلطانك سلطاناً كما كان صرت مفتياً كما كنت ثم فارقه فسار إلى داره ثم توجه إلى بستانه، وبقيَ ثمّة إلى أن قتل ابن أخي في رجب سنة ثلاث وأربعين فأعيد وبقي في هذه المرة إلى أن مات ولم يتفق لأحد من المفتين

ما اتفق له من طول المدة والإقبال والحُرمة والجلالة، ولم يُمدح أحد بما مدح به من مشاهير الشعراء.

كانت ولادته في سنة تسع وتسعين وتسعمائة، وتوفي سنة ثلاث وخمسين وألفٍ[1].

يحيى بن عيسى الكَرَكي

يحيى بن عيسى الكَرَكي من كَرك الشويك ويقال: السِّلْطِيّ الملحد الزنديق.

كان رجلاً أسود خفيف العارضين، قيل إنه سافر إلى مصر في طلب العلم وكأنه عاشر بعض الملاحدة فغلبت عليه اعتقادات فاسدة وبث فيها شيئاً من اعتقاداته حتى ضُرِب ثَمَّةَ، ثم انتقل إلى الكَرَك وأخذ يسعى على ترويج أمره فكان يكتب أوراقاً مشحونة بألفاظ الكفر ويرسلها من الكَرَك إلى عجلون وكان بعجلون رجل من فقهاء الشافعية يقال له: عبد الله بن المدله فلما شاهد ما كتبه يحيى المذكور استشاط وثار وأخذته الغيرة الدينية فأرسل إليه من جانب حاكم البلاد الأمير حمدان ابن الأمير فارس بن ساعد الغزاويّ فلما وصل إلى عجلون ادعى عليه الشيخ عبد الله المذكور فأدبه القاضي بضرب خمسمائة سوط على رجليه وعلى بدنه ورجع إلى مقره في بلاد الكرك، فأخذ أهل الكرك يُشنِّعون عليه ويقولون له: لولا إلحادك ما ضربك القاضي فإن كنت تريد إغماض العين عنك وترك التعرض لك فاذهب إلى دمشق واستكتب علماءها على كلامك هذا بأنه من قواعد أهل الإيمان، وكان قبل ذلك يراسل الشيخ شمس الدين الميدانيّ من علماء دمشق بالثناء عليه، ثم بث اعتقاداته القبيحة ويقول له: أريد أن تكون نصيري ووزيري حتى أُظهر الدين وكان الميدانيّ يكتم تلك الرسائل ويقول: لعله مجنون أو جاهل، ثم دخل دمشق وسكن القبة الطويلة بمحلة القبيات واجتمع بعوام هوام لا يفرقون بين الصحيح والمعتل ولا يميزون بين المنتظم والمختل،

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٤٦٧ - ٤٧٢.

وشـرع يكتب أوراقاً مشتملة على عبـارات فاسـدة التركيب مختلة المعنى والترتيب لا لفظ لها ولا معنى، وربما تشتمل الصحيفـة مما يكتبـه على مكفرات عديدة، وموجبات للردة، وخاض في ذلـك حتى غرق في بحـر الضلالة.

فمن جملة ما كتب والعياذ بالله تعالى أنـه صعد إلى العـرش وأنه شاهد الله تعالى وشاهد فوقه الله أعظم ثم شاهد تحته الله غيرهمـا فصرح بالإشراك والعياذ بالله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً.

وكتب أن الخضِر عليه السـلام أخطأ في خـرق السفينة وأن الـذي اعترض عليه أجهل منه وحمل عنه بعض الطلبة رسالة من رسالاته فيها كثير من ضلالاته وهو غير منكر عليه فيها بل أتى بهـا إلى الشهاب العيثـاويّ يقرظها ويزكيها، وكان قبل ذلك بيوم وهو يوم الجمعة رابع ذي القعدة سنة ثمان عشرة وألف قد حضر إلى الجامع الأمويّ وعقد مجلساً اجتمع عليه فيه كثير بث فيهم ضلالاته فحُمل إلى قاضي القضاة السيد محمد بن السيـد برهان الدين فأمر بوضعه في البيمَارستـان ثم ذهب الشمس الميداني في اليوم الثاني إلى قاضي القضاة المـذكور وعـرض عليه رسـالة كـان بعثها الكَـرَكيّ إليـه من عجلون مشتملة على الحط من مقـام النبيّ ﷺ، وشتم العلماء ودعاوى فاسدة واعتقادات مكفرة فدعا قاضي القضاة الكَرَكيّ إليه ليلاً وسأله عن الرسالة فاعترف بها وأنها بخطه وذكر أنه تكلم بذلك في وقت الغَيبة، وفي أثناء ذلك وصلت الرسـالة الأخـرى إلى العيثاويّ وهي بخطه أيضاً في ستة أو سبعة كراريس كانت مشتملة على الطعن في الدين وأهله وعلى إنكار وجود الصانع جل وعلا رب العالمين، وتجهيل الأنبياء والمرسلين صلاة الله تعالى وسلامـه عليهم أجمعين، والحط من مقامـات العلماء والانحراف عن طريقة الحكماء، تارة يدعي فيها الحلول والاتحاد، وتارة يعتقد حِلَّ ما في أيدي العباد، وتارة يعتقد التناسخ والانتقال، وتارة يصف بالعجز والحيرة الكبيرَ المتعال.

وهو مع ذلك داعية ضلالة، ودجال يأمر بالجهالة، والعوام أتباع كل دجال لا يفرقون بين هداة وضلال، فثار العلماء بدمشق لذلك وتحزبوا واجتمعوا لإزالة هذا الخبيث وانتدبوا ثم ذهب منهم أوّلاً إلى القاضي الشهاب العيثاويّ والشمس الميدانيّ والحسن البورينيّ والنجم الغزيّ والقاضي تاج الدين التاجيّ، فبادر القاضي للخروج إليهم وقال لهم: والله لقد أزلتم عني كربة بت فيها وشبهة قامت عندي أسأت بها الظن في علماء هذه البلدة، فإني تأملت كفريات هذا الملعون وإعلانه بها وقد قبضت عليه واستودعته البيمارستان دون السجن خوفاً من أن تغلب علينا العامة وتستخرجه خصوصاً وقد بلغني أن بعض أكابر الجند وأشقاهم يعتقده وقلت في نفسي: سبحانه الله أكون في مدينة دمشق وتقع لي هذه الحادثة ولا أجد فيها من يساعدني على إنكارها ويعضدني في دفع ضلالة هذا الخبيث وأنتم الآن بحضوركم قد أزلتم عني هذا الذي أثقلني والشبهة التي أساءت في العلماء اعتقادي، ثم حضر بقية علماء البلدة فلما تكامل المجلس أمر بالضالّ فأُحضر في الأغلال، وقام الشيخ الميدانيّ إليه وبادر فادعى عليه فاعترف بما ادعى به ولم ينكر سبباً من أسبابه فاتفق أهل المجلس على إكفاره وحكم القاضي بإراقة دمه بعد تحقق إصراره وكتب سجلاً بمحضر من العلماء وجم غفير من الناس وأرسل ما كتب إلى الوزير الحافظ ليأمر بقتله حذراً من الفتنة والباس فوقع الوزير بقتله وأشار بتطويفه كما يُفعل بمثله، وحضر عند القاضي أعوان الوالي وأرادوا تشهيره في البلد فأشار بعض العقلاء بأنه ربما تظاهر بعض العوام بتخليصه فيقع الخصام فالأولى أن يُهرق دمه عند مجلس الشرع الشريف ليظهر بذلك أن سيف الشريعة طائل الوقع لأهل الضلال والتحريف، فضربت عنقه بفناء المحكمة، وأطفئت نار ضلالته المظلمة، وكان ذلك سنة ثمان عشرة بعد الألف وطمس قبره على حافة نهر[1].

---

(١) «خلاصة الأثر»: ٤/٤٧٨ - ٤٨٠.



مختارات القرن الحادي عشر
من كتاب
«الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»

تأليف

السيد عبد الحي الندوي الحسني



أبو الفضل بن المبارك الناكوريّ

الشيخ العالم الكبير العلامة، أعلم وزراء الدولة التيمورية وأكبرهم في الحدس والفراسة وإصابة الرأي وسلامة الفكر وحلاوة المنطق والبراعة في الإنشاء.

ولد سنة ثمان وخمسين وتسعمائة، وتعلم الخط والحساب والإنشاء واشتغل بالعلم، وقرأ أياماً في العربية على صنوه الكبير أبي الفيض بن المبارك وعلى أبيه، وفرغ من تحصيل العلوم المتعارفة في الخامس عشرة من سنه، ثم أقبل على العلوم الحِكْمية إقبال كلياً، واستفاد بعض الفنون عن الشيخ حسن علي الموصليّ، ودرس وأفاد نحو عشر سنين حتى فاق فيه أهله المنسوبين إليه، ودعاه السلطان أكبر بن همايون التيموريّ بمدينة أكبر آباد مع والده، فأدركه في حدود سنة إحدى وثمانين وتسعمائة مرة أولى، وأهدى إليه كتابه في تفسير آية الكرسي، ثم أدركه في حدود سنة اثنتين وثمانين مرة أخرى، وأهدى إليه كتابه في تفسير سورة الفتح فاستحسنه السلطان وقربه إلى نفسه، فتدرج إلى نهاية القرب حتى نال الوزارة الجليلة.

(١) قد وصفه صاحبه عبد القادر بن ملوك شاه البدايونيّ بالإلحاد والزندقة وقال في «المنتخب»: إنه دس في قلب السلطان أشياء منكرة، ورغبه عن الملة السمحة البيضاء[1]، انتهى.

---

(١) قال المعلِّق: كان أبو الفضل من كبار المسؤولين عن انحراف الملك جلال الدين أكبر عن الدين والشريعة وزيغه، كما تحقق من كتب التاريخ الموثوق بها.

ومن مصنفاته المشهورة: «آثين أكبري»، وهو كتاب عجيب لا يكاد يوجد مثله كتاب في كتب الأخبار، ذكر فيه نظام السلطنة وآدابها في الأمور المالية والملكية، وبيان أقطاع الهند وما يختص بها من الحرث والنسل وغير ذلك، وذكر فيه أموراً من عادات الهنود والبراهمة في تقسيم الأزمنة والساعات وضبط التواريخ والأوقات، واعتقاداتهم في ابتداء خلق الفلكيات والعنصريات من تقادم عهده إلى ما ينتهي من بعده.

ومن مصنفاته المشهورة «أكبر نامه» وهو أيضاً كتاب كبير ذكر فيه أخبار ملوك الهند من أولاد تيمور گوركان إلى عهد جلال الدين أكبر، وقد خلط بينهما الچلپي في كشف الظنون.

ومن مصنفاته المشهورة مجموع الرسائل والمكاتيب، جمعها ابن أخته عبد الصمد بن أفضل محمد التميميّ الأكبر آباديّ في ثلاثة أجزاء، وهي متداولة في أيدي الناس يدرسونها في المدارس، ومن مصنفاته ترجمة «حياة الحيوان الكبرى» للدميريّ، ترجمه بالفارسية سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة بأمر السلطان، وقال البدايونيّ في المنتخب إن هذه الترجمة لوالده المبارك عزاها إلى ابنه، ومنها ترجمة الإنجيل بالفارسية ترجمه نحو سنة ست وثمانين وتسعمائة بأمر السلطان، وله غير ذلك من الكتب والرسائل.

قتله راجه نرسنكه ديو بأمر جهانكير بن أكبر شاه حين مراجعته من أرض الدكن سنة إحدى عشرة وألف في أيام جلال الدين أكبر[1] فتأسف السلطان بموته تأسفاً شديداً وبكى عليه، وأرخ لوفاته كثير من الناس[2].

ابو الفيض بن المبارك الناكوريّ

الشيخ الفاضل العلامة الذي لم يكن له نظير في الشعر والعَروض

---

(١) قال المعلّق: لأنه كان يعتبره المسؤول عن انحراف الملك أكبر عن الإسلام ومحاربته له، كما جاء في بعض كتب التاريخ.

(٢) «الإعلام»: ٥/٢٨ ـ ٣٠.

والقافية واللغة والتاريخ واللغز والإنشاء والطب.

ولد بمدينة آگره سنة أربع وخمسين وتسعمائة، وقرأ العلم على والده، وأخذ بعض الفنون العربية عن الشيخ حسين المروزيّ، ثم أقبل على قرض الشعر إقبالاً كلياً، وخاض كثيراً من الحكمة والعربية، له مصنفات تدل على اقتداره على العلوم الأدبية.

(١) وكان حريصاً على جمع الكتب النفيسة، بذل عليها أموالاً طائلة، وجمع ثلاثمائة وأربعة آلاف من الكتب المصححة النفيسة، أكثرها كانت مكتوبة بأيدي مصنفيها، وبعضها كانت قريبة العهد من عصر التأليف.

(٢) وكان يُرمى بالإلحاد والزندقة ـ ونعوذ بالله منها ـ قال الشيخ عبد الحق بن سيف الدين الدهلويّ في كتابه في «أخبار الشعراء»: إنه كان ممن تفرد في عصره بالفصاحة والبلاغة والمتانة والرصانة، ولكنه لوقوعه وهبوطه في هاوية الكفر والضلالة، أثبت على جبينه نقوش الردة والإنكار والإدبار، ولذلك يستنكف أهل الدين والملة وأحباء النبي ﷺ ومن ينتسب إليه من أن يذكروا اسمه وأسماء رهطه ـ تاب الله عليهم إن كانوا مؤمنين! انتهى معرباً.

(٣) وقال عبد القادر بن ملوك شاه البدايونيّ في «المنتخب»: إنه كان مخترع الجد والهزل والعجب والكبر والحقد، وقد جمع فيه من الخصال الغير المرضية ما لم يجمع في غيره من النفاق والخبث والرياء والخيلاء وحب الجاه والرعونة، وكان غاية في العناد والعداوة لأهل الإسلام والطعن في أصول الدين، والحط من الصحابة وتابعيهم والسلف والخلف من القدماء والمتأخرين والمشايخ من الأحياء والأموات، حتى كان يفوق اليهود والنصارى والهنود والمجوس ألف مرة في هذا الباب، فضلاً عن النزارية والصباحية[١].

---

(١) هما من فرق الباطنية.

(١) وكان يحل المحرمات الشرعية على رغم الدين ويحرم الفرائض والمباحات، وصنف تفسير القرآن لتطهير عرضه عن ذلك بمشهد من الناس، ولكنه كان يصنفه في حالة السكر والجنابة، وكانت الكلاب تطأ أوراقها حتى مات على ذلك الإنكار والإصرار والاستكبار والإدبار، تورم وجهه في مرض الموت واسودّ، وكان يعوي كالكلاب، وكان السلطان جلال الدين أكبر صاحب الهند يقول مع رضائه عنه في الديوان بمشهد عظيم من الناس إنه لما عاده في بيته عوى عليه كالكلب، وقد استخرج الناس لوفاته تواريخ فظيعة الألفاظ والمعاني، قال بعضهم: «خالد في النار» انتهى.

توفي سنة أربع وألف، ودفن بآگره وقيل: بمدينة لاهور عند أبيه[١].

احمد بن عبد الأحد السرهنديّ

الشيخ الأجل الإمام العارف، بحر الحقائق والأسرار والمعارف، محيي السنن النبوية، ناصر الشريعة البيضاء السنية، مشيد مباني الطريقة، مجدد معالم الحقيقة، برهان العارفين والمحققين، وحجة الأولياء المتقين، مفتخر الأعصر والدهور، آية من آيات الله العظام، ونادرة من نوادر الأيام، جاء مجدداً للألف الثاني، وبرهاناً ساطعاً على أشرفية النوع الإنساني.

ولد بسرهند سنة إحدى وسبعين وتسعمائة، وأخذ أكثر العلوم والطريقة الچشتية عن أبيه، واستفاد بعض العلوم العقلية عن الشيخ كمال الدين الكشميريّ، وأسند الحديث عن الشيخ يعقوب بن الحسن الصرفيّ الكشميريّ الذي أخذ عن الشيخ شهاب ابن حجر الهيتميّ المكيّ.

ولما فرغ من تحصيل ما تيسر له من العلوم الظاهرة وكان إذ ذاك ابن سبع عشرة سنة اشتغل بالتدريس والتصنيف، ومما صنفه في تلك الأيام

---

(١) «الإعلام»: ٥/ ٣٠ ـ ٣٥.

رسالة في إثبات النبوة وأخرى في الرد على الشيعة الإمامية وغير ذلك مما أثنى عليه العلماء.

فلما توفي أبوه عام سبعة وألف ارتحل إلى دهلي يريد الحج فقاده قائد توفيق من الله عز وجل إلى الشيخ الأجل رضي الدين عبد الباقي النقشبندي رضي الله عنه، فأخذ عنه الطريقة النقشبندية، واشتغل بها.

فرجع إلى سرهند وجلس على مسند الإرشاد، وأخذ في الدرس والإفادة، وكان يدرس في علوم شتى من الفقه والأصول والكلام والتفسير والحديث والتصوف.

(١) وله مكتوبات في ثلاثة مجلدات، وهي الحجج القواطع على تبحره في العلوم الشرعية، وفيها ما لا يتبادر إلى الإذهان لمن ليس لهم درك في مقامات العرفان، فشدوا النطاق في خصامه، وسعوا إلى جهانگير بن أكبر سلطان الهند، فأمر باحضار الشيخ ورضي بجوابه، فعرضوا عليه أن الشيخ ما سجد للسلطان تكبراً مع أنه ظل الله وخليفته، بل لم يتواضع تواضعاً جارياً، فغضب عليه السلطان وحبسه في قلعة گواليار، وكان شاهجهان ولد جهانگير مخلصاً للشيخ فأرسل إليه أفضل خان والمفتي عبد الرحمن من رجاله مع بعض كتب الفقه قبل أن يحضر عند السلطان وقال إن سجدة التحية تجوز للسلاطين[١]، فإن تسجدوا للسلطان عند اللقاء فأنا ضامن من أن لا يصل إليكم ضرر منه، فلم يقبل الشيخ وقال: هذه رخصة والعزيمة أن لا يسجد لغير الله سبحانه، فلبث في السجن ثلاث سنين وحفظ القرآن في تلك الحالة، ثم أخرجه السلطان من السجن بشرط أن يقيم في عسكره ويدور معه، فأقام الشيخ في معسكره ثماني سنوات، وبعد وفاة السلطان رخصه ولده شاهجهان المذكور، فعاد إلى سرهند وصرف عمره بالدرس والإفادة.

---

(١) أي حال الضرورة، والله أعلم بمراده.

ومن مصنفاته «الرسالة التهليلية» ورسالة في إثبات النبوة ورسالة في المبدأ والمعاد، وله رسالة في المكاشفات الغيبية، ورسالة في آداب المريدين ورسالة في المعارف اللدنية ، ورسالة في الرد على الشيعة، وتعليقات على «عوارف المعارف» للسهروردِيّ، ومكتوبات في ثلاث مجلدات، وله غير ذلك من المصنفات الرشيقة الممتعة، وفي كل ذلك كشف القناع عن وجوه الحقائق والمعارف مما لم يتيسر لأحد قبله.

(١) ومن أياديه على رقاب كثير من الناس أنه باحث الملاحدة الذين كانوا في زمانه وجادلهم جدالاً حسناً بقلمه ولسانه، وكذلك ردّ على الروافض ونقض بدعاتهم، ورد على الضعفاء مكايدهم، فحمى بذلك حمى الدين، وحرس بيضة المسلمين، ومنها أنه حقق الفرق بين البدعة والسنة وأقيسة المجتهدين، واستحسانات المتأخرين، والمتعارف عن القرون المشهود لها بالخير وما أحدثه الناس في القرون المتأخرة وتعارفوه فيما بينهم، فرد بذلك مسائل استحسنها المتأخرون من فقهاء مذهبه.

(٢) ومنها أنه كان يأمر بما يراه معروفاً وينهى عن ضده، ولا يخشى في الله لومة لائم ولا يخاف من ذي سطوة في سلطانه، فكان ينكر على الأمراء ويرشدهم إلى مراشد دينهم، وينفرهم من صحبة الروافض ومن شاكلهم من أعداء الدين، ويبذل لهم نصحه، فنفع الله كثيراً منهم بذلك، وصلحت بصلاحهم الرعية، فسدّ الله ثلمة ظاهر الدين كما رقع به خرق باطنه، فهُذب به وبأصحابه في البلدان النائية فئام[1] ممن وفق لسبيل القوم، وذلك لأنه كان فقيهاً زكيَّ النفس، حريصاً على اتباع السنن مجتهداً فيه، شديد النصح لأبناء زمانه، فجاءت لذلك ـ والله أعلم ـ طريقته وعلومه وشمائله محمودة عند المحققين وأهل الإنصاف، ورغب فيها الناس وقل ما تعقب به ورد من قوله، والمسائل التي شدد بها النكير عليه بعض أهل العلم، والحق أنه مصيب في بعضها وله تأويل سائغ في البعض الآخر،

(١) جماعات كثيرة.

وقد شاركه فيها غيره من هذه الطائفة ممن لا يحصى كثرة، فليس إذاً يخصه الإنكار، ولو أخذناهم بأمثال ذلك لم ينج أكثر المتأخرين منهم، ولا يتعين القول بالخطأ فيها إلا في مسألة أو مسألتين من باب السنن وقد اعتذروا عنه في أحدهما والعذر فيهما واحد، وقد شهد له بما ذكرت من فضائله أو بما يقرب منه وأجاب عن شبهات المتقشفة وذب عنه الشيخ وليّ الله بن عبد الرحيم العمري الدهلويّ وأنعم الثناء عليه، فلم يترك فيه مجالاً لعائب ولا مقالاً لراثب، وكفاك به إماماً يشهد لإمام، والقول ما قالت به حِذام، انتهى.

(١) وأما مخالفوه فمنهم الشيخ محمد صالح الأورنگ آبادي ومحمد عارف وعبد الله السورتيّ من أصحاب الشيخ محمد صالح، فإنهم صوّروا سؤالاً وذكروا فيه أقوالاً، وزعموا أنهم استخرجوها من مكتوبات الشيخ أحمد، ثم عربوها بقدر معرفتهم ومقتضى مرادهم وأرسلوها إلى السيد محمد البرزنجيّ أحد مجاوري المدينة المنورة، ثم بعد وصول ذلك السؤال إليه علق رسالة بتكفير الشيخ أحمد بسبب الأقوال المكتوبة في السؤال بملائمة خاطر المرسل إليه وتصدى لإثبات كفره بها وسأل قاضي المدينة المنورة ومفتيها وعلماءها أن يكتبوا على تلك الفتوى على وفق مراده، فامتنعوا عن ذلك وردوا عليه كلاماً وأجوبة تليق بالعلماء العاملين لعلمهم، ثم بعد ذلك أتى إلى مكة المشرفة فسأل الكتابة على السؤال المذكور من قاضيها ومفتيها وعلمائها أيضاً، فما وافقه على ذلك أحد فأجابوه بقولهم: هذا الأمر الذي ارتكبته عظيم، فلا يوافقك في تكفير مسلم إلا كل هالك، وما وافقه بالكتابة من العلماء على ذلك إلا آحاد من الناس ممن لا معرفة له بالطريقة، وبعضهم وافقه لملائمة هواه، وبعضهم لا علم له رأساً ولا حقيقة، فحصل ما حصل من القيل والقال، فاحتاج الناس إلى تتبع مكتوبات الشيخ المذكور وتعريب ألفاظه من الفارسية إلى العربية على وجه يتضح به الحق على الناس، ولذلك صرف الشيخ الأجل العالم الفاضل نور الدين محمد بيك همته العلية وطلب جميع مكتوبات الشيخ وقابل

الأقوال التي في ورقة السؤال مع مكتوبات المرحوم، فوجد بعضها غير موافق معها بسبب التحريف وتَرْك بعض الألفاظ وزيادة أخرى، فكتب رسالة وبين فيها اصطلاحات السادة النقشبندية ومقاصد الشيخ أحمد، فعرب ألفاظه إلى العربية وأحسن واهتم وأتقن وارتفع من أهل الحق سوء الظن، وندم كثير ممن كتب على السؤال المذكور.

(١) ومما يدل على شدة تمسكه بالشريعة الغراء وغيرته عليها أشد الغيرة، واستنكافه عن كل ما عارضها من أقوال الصوفية وكلام المشايخ وما جاء في رسالة له إلى معاصر كتب إليه أن الشيخ عبد الكبير اليمني قال:

«إن الله عليم بالكليات فقط»[١] فقال في الرد عليه:

(٢) «يا سيدي! إن هذا الفقير لا يكاد يحتمل سمع مثل هذا الكلام، إن عرقي الفاروقيّ ينبض عند ذلك، سواء كان ذلك كلام عبد الكبير اليمني أو محيي الدين ابن عربي، نحن في حاجة إلى محمد العربي لا ابن عربي، إن الفتوحات المدنية[٢] أغنتنا عن الفتوحات المكية[٣] عمدتنا النص لا الفص[٤]».

(٣) وقد أنكر وجود بدعة حسنة، وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أطلق القول فقال: كل بدعة ضلالة، فلا يستثنى من هذا الإطلاق بدعة، وله رسائل قوية واضحة في الإنكار على أعمال شركية وتقاليد وعادات تسربت في مسلمي الهند عن أهل البلاد الوثنيين[٥].

---

(١) هذا القول كفرّ به أئمة الإسلام الفلاسفة لأنهم يقولون بما قاله ذلك الشيخ اليمنيّ.

(٢) قال المعلق: إشارة إلى الرسالة المحمدية والشريعة الغراء التي استفيدت منها.

(٣) قال المعلق: كتاب الشيخ ابن عربي المشهور.

(٤) قال المعلق: إشارة إلى كتاب الشيخ محيي الدين ابن عربي «فصوص الحكم».

(٥) قال المعلّق: يرجع إلى قصة مقاومة الإمام السرهندي لثورة الملك «أكبر» على الإسلام ومحاولة توجيهه للبلاد إلى وحدة الأديان، والانتصار للديانة البرهمية، والحضارة الهندية القديمة البائدة، وعدائه لشعائر الإسلام، وإنكاره أنه هو الدين =

وكانت وفاة الشيخ أحمد المجدد سنة أربع وثلاثين وألف بمدرسة سرهند، فصلى عليه ابنه محمد سعيد ودفنه بها[1].

السلطان أكبر

السلطان أبو الفتح جلال الدين محمد أكبر بن همايون بن بابر التيموريّ الگورگانيّ.

ولد في قلعة أمركوث من أرض السند سنة تسع وأربعين وتسعمائة؛ انهزم والده همايون من شير شاه، ولم يبق معه إلا القليل، فقصد فارس وترك ولده هذا عند أخيه كامران مرزا بكابل، ورجع بعد بضعة سنين فافتتح قندهار وكابل وأكثر بلاد الهند، ثم مات سنة ثلاث وستين وتسعمائة فجلس على سريره ولده أكبر، وكان سنه حينئذ نحو ثلاث عشرة، أجلسه على

= الخالص الذي لا يقبل الله سواه، وتقريبه للبراهمة، والقساوسة، والملحدين، وتحريمه ذبح البقرة إرضاءاً للهنادك عباد البقر، والعقوبة عليه بالإعدام، وتحليله للخمر تباع وتشرب، وكراهيته لتسمية الابن محمداً، إلى غير ذلك مما يدل على بغضه للإسلام، وشعائره، وقضاء الإمام السرهندي على خطر الردة العقائدية والحضارية على بلاد الهند والشعب المسلم، وأسلوبه الحكيم في هذه المقاومة، ونجاحه المنقطع النظير في إبقاء هذا القطر والأمة على الإسلام وعقيدته وشعائره، ونجاحه في جهوده، حتى خلف الملك أكبر شاه التيموري ابنه الملك نور الدين جهان گير وهو أحسن منه حالاً، وأسلم ديانة وعقيدة، وخلفه الملك شهاب الدين شاهجهان (باني تاج محل) وهو أقوى منه ديانة وأكثر منه صلاحاً، وخلفه الملك المسلم، المصلح المجاهد، الملك محيي الدين عالمگير أورنگ زيب، الذي لقبه بعض المؤرخين العارفين بسادس الخلفاء الراشدين (يرجع في ذلك إلى ترجمته في هذا الكتاب) والفضل في كل ذلك يرجع بعد توفيق الله تعالى وأمره إلى جهود الإمام السرهندي وأنجاله وأحفاده.

يرجع في كل ذلك إلى الجزء الثالث من كتاب صاحب التعليق (رجال الفكر والدعوة في الإسلام الجزء الثالث الخاص بالإمام السرهنديّ) طبع دار القلم الكويت.

(١) «الإعلام»: ٥/٤٦ ـ ٦٢.

سرير الملك بيرم خان أحد قواد والده، وأخذ عنان السلطنة بيده، ورتق ما فتق من مهمات الدولة حتى ظلت آمنة مطمئنة.

(١) ولما بلغ أكبر أشدّه استقل بالملك، ثم افتتح أمره بالعدل والسخاء، وقرب إليه أهل العلم والصلاح، وكان يذهب بنفسه إلى بيت الشيخ عبد النبيّ بن أحمد الگنگوهيّ لاستماع الحديث، ويسوي نعليه بيده ويضعهما قدامه، وكان يتبرك بالشيخ سليم بن بهاء الدين السيكروي، وبنى مساجد وزوايا له.

(٢) بنى مدينة بأرضه وجعلها عاصمة بلاد الهند، وبنى بها قصراً وسماه «عبادت خانه» وقسمه على أربعة منازل وأمر أن يجتمع فيه علماء البراهمة والنصارى والمجوس وأهل الإسلام، فيجتمعون في ذلك القصر ويباحثون في الخلافيات بحضرة السلطان حتى دخل في مجلسه أبو الفيض وصنوه أبو الفضل والحكيم أبو الفتح ومحمد اليزديّ، فدسّوا في قلبه أشياء ورغبوه عن أهل الصلاح وقالوا: لا ينبغي للسلطان أن يقلد أحداً من الفقهاء المجتهدين، وإن مرتبة الإمام العادل فوق مرتبة المجتهد، وإن أكبر بن همايون أعدل الأئمة وأعقلهم وأعلمهم بالله، له أن يرجح المرجوح في المسائل المختلفة، ورتب الشيخ مبارك بن خضر الناگوري محضراً في ذلك بالفارسيّ فألجأ السلطان الشيخ عبد الله مخدوم الملك والشيخ عبد النبيّ صدر الصدور والمفتي صدرجهان مفتي الممالك والقاضي جلال الدين المُلتانيّ قاضي القضاة والشيخ نظام الدين البدخشيّ ورجالا آخرين من العلماء فأثبتوا توقيعاتهم على ذلك المحضر، وانشرح به صدر السلطان وفتح أبواب الاجتهاد، فجوز متعة النساء ونكاح المسلم بالوثنية، حتى اجترأ على الطعن والتشنيع على السلف الصالح، لاسيما الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وأمر بإخراج الشيخ عبد الله بن شمس الدين السلطانپوري والشيخ عبد النبيّ الگنگوهي إلى الحجاز، والقاضي جلال الدين المُلتانيّ إلى أرض الدكن، ونقل الشيخ الصالح محمد الأمروهوي من خدمة مير

عدل إلى حكومة بكر وسيوستان، واجتمع لديه شرذمة من علماء الوثنيين والنصارى والمجوس ومن أحبار الهنود ومن الشيعة ومن أهل السنة والجماعة يباحثهم أصحابه في الديانات، وكان كل واحد منهم يجتهد أن يرغبه إلى مذهبه، وكانت تحته طائفة من الأميرات الوثنيات بنات ملوك الهند، وكان پرگوتهم برهمن وديبى برهمن صاحبيه في الظعن والإقامة يزينان له عبادة الأصنام وتعظيم النار والشمس، فتدرج في الاجتهاد وترقّى من الفروع إلى الأصول، وقال بخلق القرآن، واستحالة الوحي والتشكيك في النبوات، وأنكر الجن والملك والحشر والنشر وسائر المغيبات، وأنكر المعجزات، وجوز التناسخ، وحرم ذبح البقرة، وحطّ الجزية عن أهل الذمة، وأحلّ الخمر والميسر والمحرمات الأُخَر، وأمر بإيقاد النار في حرمه على طريق المجوس، وأن يعظم الشمس وقت طلوعه على طريق مشركي الهند، وبدل الكلمة الطيبة بقول: لا إله إلا الله أكبر خليفة الله.

(١) فقلما رأى الفتنة العظيمة بإشاعة تلك الكلمة أمر أن يتفوه بها في حرمه، وأخذ البيعة عن أصحابه على ترك الرسوم والتقليد، وسمى مذهبه «ديناً إلهياً» وقرر أن الحق دائر بين الأديان كلها، فينبغي أن يقتبس من كلها أشياء، وكان يسجد للشمس والنار في كل سنة يوم النيروز، وربط سلكاً من الجواهر عن أيدي البراهمة تبركاً، فعرض عليه الأمراء الجواهر الثمينة في ذلك اليوم ووافقوه في ذلك الربط، وهي عبارة عن صوف مفتول يربطها الكفار من الهند في يوم معهود في كل سنة. وكذلك كان يفعل كل ما يفعله كفار الهند ويستحسنه ويحرض أصحابه على ما فعله، ويحثهم على ترك التقليد، يعني به دين الإسلام، ويهجنه ويقول: إن واضعه فقراء الأعراب، وأمر أن لا يقرأ من العلوم العربية غير النجوم والحساب والطب والفلسفة، وهذا قليل من كثيره، ذكره البدايوني في «المنتخب»[1].

---

(١) قال المعلق: وقد ثبت أكثر ما جاء في انحرافات «أكبر» ومروقه من الدين، وعدائه للإسلام، في كتاب أحد أركان دولته، ورجال بلاطه، أبو الفضل بن المبارك في =

وأما الكتب المصنفة بأمره فكثيرة: منها:

١ ــ ترجمة حياة الحيوان الكبرى للدميريّ بالفارسية، ترجمه أبو الفضل بن المبارك الناگوري سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة.

٢ ــ ترجمة الإنجيل بالفارسية، ترجمة أبو الفضل المذكور سنة ست وثمانين وتسعمائة.

٣ ــ ترجمة كليلة ودمنة من اللغة الفارسية الغير المتعارفة إلى المتعارفة، نقله أبو الفضل.

٤ ــ «آئين أكبري» بالفارسية، كتاب ضخم لأبي الفضل، صنفه سنة أربع وألف، وهو أحسن الكتب المصنفة في أيام أكبر.

٥ ــ «أكبر نامه» كتاب في التاريخ لأبي الفضل، ذكر فيه أحوال ملوك الهند من أولاد تيمور گورگان إلى عهد جلال الدين أكبر.

٦ ــ ترجمة (ليلاوتي) في الحساب والمساحة نقله من سنسكرت إلى الفارسية أبو الفيض بن المبارك بأمر السلطان.

توفي سنة أربع عشرة وألف ودفن في سكندر آباد قريب آگره[١].

السلطان جهانكير بن اكبر شاه

السلطان نور الدين محمد جهانگير بن أكبر بن همايون بن بابر الگورگاني سلطان الهند، ولد سنة سبع وسبعين وتسعمائة بأكبر آباد، وتولى المملكة بعد والده سنة أربع عشرة وألف، وكان اسمه سليم سماه به والده على اسم الشيخ سليم بن بهاء الدين السيكروى، لأن الشيخ بشر به والده قبل ولادته ودعا له، فلما استقل بالملك لقب نفسه نور الدين محمد

= كتابه «آئين أكبرى» و«أكبر نامه» فلا يشك في صحة هذه الأخبار ونسبة انحرافات «أكبر» عن الدين الإسلامي، فإن مؤلف الكتاب من شيعة الملك وأنصاره، وموضع ثقته واعتباره.

(١) «الإعلام»: ٥/٨٤ ـ ٩٠.

جهانگير، وافتتح أمره بالعدل والسخاء وقرّب إليه العلماء، وكان صحيح العقيدة خلافاً لوالده، وهو سمع الحديث من الشيخ محمد سعيد الهرويّ المشهور بمير كلان، وقرأ عليه شيئاً من العلم بأمر والده، وسمع أيضاً من المفتي صدر جهان البهانوى.

(١) وكان مدمن الخمر، تزوج بمهر النساء بنت غياث الدين الطهرانيّ وكانت عشيقته، فخطبها بعد ما قتل بعلها شيرافگن خان فأبت ثم رضيت، فتزوج بها ولقبها نور جهان بيگم، فحببت إليه وملكت فؤاده حتى ألقى زمام السلطنة بيدها، فدبرت لختنها شهريار بن جهانگير من زوجه الأخرى ليوليه الملك، ورغبت زوجها جهانگير عن ابنه شاهجهان الذي دبر الملك لولايته بالملك بعده، فوقع الخلاف بينهما وآل إلى الحرب، وتوفى جهانكير ساخطاً عنه.

وكان جهانكير رحيماً حليماً كريماً شاعراً لطيف الطبع حسن المعاشرة ظريف المحاضرة حسن الصورة سليم الذهن باهر الذكاء فصيح العبارة، له يد بيضاء في التحرير والتحبير، صنف كتاباً في أخباره وسماه (تزك جهانگيري) وهو مقبول متداول في أيدى الناس ، وصنف في أخباره معتمد خان كتابه «إقبال نامه» ومرزا كامگار الملقب بعزت خان كتابه «مآثر جهانگيرى»، ومن مصنفات جهانگير «پندنامه» بالفارسية في أوراق عديدة صنفه لأبنائه، وأمر الشيخ محمد ابن الجلال الحسيني الگجراتي أن يترجم القرآن الكريم بالفارسية ولا يباشر فيه التصنع ولا يزيد على الترجمة اللفظية حرفاً من جانبه.

توفي سنة ست وثلاثين وألف، وكانت مدته إحدى وعشرين سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشرة يوماً[1].

---

(١) «الإعلام»: ١٣٢/٥ - ١٣٤.

چاند سلطان الأحمد نكرية

كانت أخت برهان نظام شاه البحري، تزوج بها علي عادل شاه البيجاپوريّ فلما مات عادل شاه المذكور قامت بحضانة ابن أخيه إبراهيم عادل شاه بأرض بيجاپور، وحملت أعباء السلطنة وقابلت الخطوب مقابلة جيدة، واستقام أمرها مع طول مدتها، فلما بلغ إبراهيم سن الرشد رجعت إلى أحمد نگر، فلما توجه مراد بن أكبر شاه الدهلويّ بأمر والده إلى أحمد نگر وتوجه معه عبد الرحيم بن بيرم خان وجمع كثير من الأمراء مع عساكرهم فحاصروا القلعة ثم ضيقوا على أهلها فقامت تلك المرأة الوحيدة للدفاع، ودافعت عنها كل المدافعة حتى استيأس الأمراء الأكبرية عن فتحها، فاجتمعوا وشاوروا في ذلك ثم نقبوا حول القلعة في مواضع عديدة وأوصلوا النقوب إلى جدران القلعة تحت الأرض بحيث ما ظهر الأمر على أحد ثم ملؤوها بالبارود وسدوا أفواه النقوب ليوقدوا النار فيها في وقت واحد وترقبوا ذلك الوقت، فقام أحد منهم فأخبر أهل القلعة بذلك ترحماً بهم، فقاموا وتجسسوا ثم حصروا وخلوا نقبين من البارود وملؤوهما بالحجارة ثم اشتغلوا بالتجسس حتى حان الوقت الموعود وطار الجدار من جانب بقدر مائة ذراع في الطول وفر الناس من هيبتها، فلما سمعت چاند سلطان تلك القصة قامت متنقبة متدرعة وسلت السيف، ثم جاءت إلى الجدار وأمرت الجنود أن يرموا النشاب إلى العساكر الأكبرية لئلا يقتحموا عليهم، وصارت تجتهد في ذلك كل الاجتهاد حتى استيأس الأمراء عن دخولهم القلعة من تلك الفتقة فرجعوا إلى منازلهم، وأما چاند سلطان فإنها لم ترجع إلى منزلها حتى رفعت الجدار في تلك الليلة قدر مائة ذراع من طول وثلاثة أذرع من فوق، فلما رأى مراد جهادها في الدفاع مال إلى الصلح، وأجمع الناس كلهم من مؤالف ومخالف أن الشهامة التي صدرت من چاند سلطان هي مما لا نظير له.

ولكن الدهر أبو العجائب! هي التي دافعت عن بلادها وأجمع الناس على شهامتها قتلت من أيدي أبناء الوطن وظن الناس أنها رغبت إلى

سلطان الهند! وحاشا لله أن يصدر من مثلها ما يكون سبباً لزوال الدولة! والقصة أن أمراء تلك الدولة خالفوا فيما بينهم وصاروا متفرقين على فرق عديدة وتفرقوا، ثم دعا أحدهم دانيال بن أكبر شاه الدهلوي واستعان به على غيره، فاستفاد دانيال من ذلك الخلاف وقصد أحمد نگر، ثم أرسل أكبر شاه المذكور قائده البطل المشهور عبد الرحيم بن بيرم خان مع عساكره، ثم سار بنفسه إلى تلك البلاد وحاصر قلعة أسير، فاستيقنت چاند سلطان بزوال الدولة فدبرت أن تصالح أكبر شاه وتسلم إليه أحمد نگر ثم تهاجر إلى جَنير وتنتهز الفرصة بها، فظن الناس أنها دبرت المكيدة لزوال الدولة، فهجموا عليها وقتلوها سنة ست بعد الألف، ثم إنهم لم يقدروا على الدفاع[1].

شاهجهان بن جهانكير الكوركاني

السلطان الفاضل الباذل شهاب الدين محمد شاهجهان بن جهانگير بن أكبر شاه الگورگاني ملك ملوك الهند.

ولد سنة ألف بمدينة لاهور، وقام بالملك بعد والده سنة ست وثلاثين وألف، كان اسمه خُرَّم، معناه مسرور، سماه به جده أكبر شاه، ولقبه والده شاهجهان، ولما قام بالملك تلقب شهاب الدين محمد.

(١) كان أشهر ملوك الهند وأبذلهم، افتتح أمره بالعدل والسخاء ورفع سجدة التحية التي اخترعها جده أكبر شاه، وأزال المظالم من البلاد وعمرها، وأخمد الفتنة والبدعة، وأسس المساجد والمشاهد، وكان كثير الإحسان إلى السادة والعلماء، قصده الناس من جميع البلدان فغمرهم باحسانه، وكان عصره أحسن الأعصار وزمانه أنضر الأزمنة.

(٢) ومن آثاره مدينة شاهجهان آباد بقرب دهلي القديمة، والقلعة الحمراء، والجامع الكبير في تلك البلدة، والأبنية الفاخرة في تلك القلعة،

---

(١) «الإعلام»: ٥/١٣٦ - ١٣٧.

والمسجد الكبير بأكبر آباد، وروضة تاج گنج[1] في تلك البلدة، وغيرها من الأبنية التي لا يعلم نظيرها في مدن الإسلام كلها بالمشرق ولا بالمغرب بل لم ير نظيرها في بلاد الدنيا، يتحير النـاس برؤيتهـا ويندهشـون، وقصده مشاهير شعراء عصره من البلاد الشاسعة ومدحوه بأحسن المدائح.

وكانت له أربعة أبناء: دارا شكوه، وشجاع، وأورنگ زيب، ومراد بخش، فأعطى كلا منهم أقطاعاً كبيرة من الهند، ودبر لأكبرهم دارا شكوه بولاية العهد ومكنه أن يقيم عنده وينفذ الأمـور، والملك ابتلي باحتبـاس البول ومرض ولزم الفراش، فسد دارا شكوه أبواب الخبر بحاله فظنوا أن أباهم مات، فنهض كل واحد منهم عن مكانه وحصلت بينهم حروب كثيرة، وغلب ثالثهم أورنگ زيب فطوى بساط إخوته وأقعد أباه شاهجهان في قلعة أكبر آباد، فعاش شاهجهان بعد ذلك نحو ثماني سنوات[2].

شهباز خان كنبو

الأمير الكبير شهباز خان كنبو المارهروي، كان من نسل الشيخ جمال أحد أصحاب الشيخ بهاء الدين زكريا الملتانيّ، ولد ونشأ في عفاف وتأله.

(١) اعتزل في بيته مدة من الزمان، ثم تقرب إلى أكبر شاه وتدرج إلى الإمارة، وكان رجلاً صالحاً ديناً تقياً صالح العقيدة مع تقربه إلى السلطان المذكور، وكان ذا جرأة ونجدة، لا يقصر عن قول الحق عند السلطان ولا يخافه ولا يبتغي رضاه في الأمور الشرعية، فلم يقصر اللحية ولم يشرب الخمر ولم يرغب إلى الدين الإلهٰيّ المخترع قط.

(٢) قال شاهنواز خان في «مآثر الأمراء»: إن أكبر شاه السلطان كان يتفرج يوماً بين العصر والمغرب على بركة ماء بفتحپور وكان شهباز خان بين يديه فأخذ يده والتفت إليه وكان يمشي ويتكلم معه، والناس كانوا يزعمون أن

---

(١) قال المعلق: وهي المعروفة «بتاج محل»، يعني قصر التاج المشهور في العالم.
(٢) «الإعلام»: ٥/١٧٧ ـ ١٧٩.

شهباز لا يستطيع أن ينزع يده عن يد السلطان فتفوته الصلاة، وكان من عادته أن لا يتكلم بعد العصر إلى المغرب، فلما رأى شهباز أن الشمس قد مالت إلى الغروب استأذن السلطان للصلاة، فقال السلطان: تداركها بالقضاء ولا تتركني خلياً، فنزع يده شهباز وبسط مئزره على الأرض واشتغل بالصلاة ثم بالأوراد الراتبة والسلطان قائم على رأسه يشدد عليه.

توفي بأجمير سنة ثمان وألف[1].

ضياء الله الأكبر آباديّ

الشيخ ضياء الله بن محمد غوث الشطاريّ الگواليريّ.

كان من ذرية الشيخ فريد الدين العطار صاحب «تذكرة الأولياء».

سافر في صغر سنه إلى گجرات، وقرأ العلم على الشيخ وجيه الدين بن نصر الله العلوى الگجراتي، وأخذ الحديث عن الشيخ محمد بن طاهر بن علي الگجراتيّ ولازمه عشر سنين، ورجع إلى گواليار بعد وفاة أبيه سنة سبعين وتسعمائة وأقام بها زماناً، ثم دخل أكبر آباد وسكن بها، وصرف خمساً وثلاثين سنة في نشر العلم والمعرفة.

وكان شيخاً وقوراً عظيم الهيئة، عارفاً بدقائق التصوف والتفسير والحديث وأقوال المشايخ، حلو الكلام، يدرس في علوم عديدة، حصل له القبول التام عند عوام أهل البلد والوجاهة عند الأمراء ، استقدمه أكبر شاه بن همايون السلطان غير مرة وتمتع بصحبته.

(١) وذكره البدايونيّ في تاريخه وقال: إني لقيته بأكبر آباد سنة سبعين وتسعمائة فحضرت بين يديه بدون معروف يعرفنيه فحييته على الوجه المسنون، فشق عليه لأنه كان معتاداً بالآداب المرسومة، فسألني: من أين أنت قادم؟ فقلت: من سهسوان، وكان الوالي بها أحد أصحاب والده

---

(١) «الإعلام»: ١٨٥/٥ - ١٨٦.

محمد غوث، فنظر إليّ بعين الاحتقار وسألني عن علوم قرأتها، فقلت: إني كنت قرأت صغار الكتب الدرسية في كل علم وفن. فطفق يستهزأ بي وأشار إلى بعض أصحابه ـ وقد رأيت ذلك ـ فقال ذلك الرجل: إني شممت رائحة عطرة فتشوش دماغي بذلك، فقال رجل آخر: قد عضه كلب كَلِب مرة فكلما يشم رائحة عطرة يتشوش بها دماغه ويجن ويؤذي الناس ويعضهم، فاضطرب الناس وفروا واضطرب الشيخ أيضاً ليخوفني وانحاز عن ذلك المجلس وذهب إلى دار آخر من دوره، فقلت: العجب كل العجب إن الناس يأتون إلى الشيخ من الأقطار البعيدة لينالوا مآربهم وهو لا يقدر أن يعالج من يعضه الكلب العقور! فقالوا: إنك تستطيع أن تعالجه؟ فقلت: نعم، فقالوا: ما العلاج؟ فقلت: النعال والأحجار تضرب بها على رأسه، فلما علم الشيخ أن سهامه لم تصب الغرض رجع إلى مكانه واشتغل بذكر الله سبحانه وفتح القرآن وشرع في الدرس يتكلم عن بعض آيات سورة البقرة وفسرها بالغرائب، فقلت: هل هي مستندة إلى تفسير يعتمد عليه؟ فقال: إني أقول من باب الإشارة وهو واسع[1]، فقلت: هل هو من الحقيقة أو المجاز؟ فقال: من باب المجاز، فقلت: ما العلاقة بين معناه الحقيقي والمجازي؟ فبهت وصار يخبط خبط عشواء، انتهى.

توفي سنة خمس وألف[2].

طاهر السنديّ

الشيخ العالم الكبير العلامة المحدث طاهر بن يوسف بن ركن الدين السندي، أحد العلماء المبرزين في الفقه والحديث، ولد بقرية پاترى من أرض السند، ثم سافر إلى گجرات سنة خمسين وتسعمائة، وأخذ الحديث عن الشيخ عبد الأول بن علي الحسينيّ الجونپوريّ ثم الدهلويّ، ولازمه مدة من الزمان وأسند عنه، ثم سافر إلى أحمد آباد بيدر من بلاد الدكن

(١) قيد السيوطيّ في «الإتقان» التفسير الإشاري ببعض القيود المهمّة.
(٢) «الإعلام»: ٥/١٩٩ - ٢٠١.

وأخذ عن الشيخ إبراهيم بن محمد الملتاني، ثم دخل بلدة إيلج پور من بلاد برار، فأقام بها مدة من الزمان، ثم راح إلى خانديس وسكن بمدينة برهان پور.

وله مصنفات كثيرة، منها «مجمع البحرين» في تفسير القرآن الكريم على مشرب الصوفية وذوقهم، ومنها «مختصر قوت القلوب» للمكيّ، ومنها «منتخب المـواهب اللدنية» للقسطلانيّ، ومنها «مختصر تفسير المـدارك» ومنها «تلخيص شرح أسماء رجال البخاريّ» للكرمانيّ.

(١) ومن فوائده من «مجمع البحرين» في تفسير قوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾ إلخ، المـرض حقيقة فيمـا يعرض للبـدن فيخرجـه عن الاعتدال الخاص ويوجب الخلل في أفعاله، ومجاز في الأعراض النفسانية التي تخل بكمالها كالجهل وسوء العقيدة والزيغة وحب المعاصي، لأنها مانعة عن نيل الفضائل ومؤديـة إلى زوال الحياة الحقيقيـة الأبديـة، والآية تحتملهـا فإن قلوبهم كانت متألمة حزناً على ما فات عنهم من الرئاسة وحسداً على ما يرون من إثبات أمر الرسول واستعلاء شأنه يوماً فيوماً فزاد الله عنهم بما زاد في إعلاء أمره وإشادة ذكره، ونفوسهم كانت ماؤفة بالكفر وسـوء الاعتقاد ومعاداة النبيّ ﷺ ونحوها فزاد الله ذلك بالطبع أو بازدياد التكاليف وتكرير الوحي وتضاعيف النصر.

(٢) وفي «الرحماني» ﴿في قلوبهم مرض﴾: هو تفريطهم في القوة الحِكمية وإفراطهم في الشهوية، وفي «الإحياء»: اعلم أن جنديّ الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقياداً تاماً فيعيناه على طريقه الذي يسلكه، وقد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه، وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد، وللقلب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكر، وحقه أن يستعين بهذا الجند، فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين، فإنهما قد يلحقان بحزب الشيطان، فإن من ترك الاستعانة وسلط على نفسه جنديّ الغضب والشهوة هلك هلاكاً يقينياً وخسر

خسراناً مبيناً، وذلك حال أكثر الخلق فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة، وكان ينبغي أن تكون الشهـوة مسخرة لعقولهم.

(١) أما بيان علامات مرض القلب فكما أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، ومرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق لأجله، كذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الذي خلق لأجله وهـو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى أو عبادته والتلذذ به وإيثار ذلك على شهوة سوء، وخاصية النفس التي هي للآدمى ما يتميز به عن البهائم، ولم يتميز بها بقوة الأكل والوقاع بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه، وموجدِها ومختـرعها الذي جعلها شيئاً هو الله تعالى، فإذا عرف كل شيء ولم يعرف الله تعالى فكأنه لم يعرف شيئاً، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واندرست في هـذه الأعصار واشتغلوا بتـوسيط الخلق في الخصومـات الثائـرة من اتباع الشهوات وقالوا: هو الفقه، وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقـه الدين من جملة العلوم، وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا رفع الشواغل ليتفرغ لفقه الدين، وكان فقه الدنيا من فقه الدين بواسطة هذا الفقه.

(٢) وفي بعض الكتب: اعلم أن القلب في الحقيقة بمنزلة القالب في الشريعة، ولا معول إلى على القلب، لأنه موضع نظر الله تعالى إليها، كما قـال عليه السـلام «إن الله لا ينـظر إلى صـوركم، إلـخ»[١] فللقلب علل وأمراض مثل أمراض الأشخاص، فإن القلب إنسان حقيقيّ وله من الأعضاء حقائق، فللقلب رأس يحيى به كما يحيي البدن برأسه، فإذا جز رأس البدن لا يحيى فكذلك القلب، ورأس القلب إدراكه لطائف الغيب، وهذا الإدراك ينقسم مثل انقسام حواس الرأس، وأقسامه البصيرة والتذكر والمراقبة والتميز والتفكـر، فالبصيـرة عين القلب، والتذكـر لسان القلب، والمـراقبة سمـع القلب، والتفكر خيال القلب، والتميز تجاربه وفعله، فإذا أراد تعالى بعبد

(١) الحديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

خيراً فتح عيني قلبه وشرح لسانه وسمع أذنه، وإذا أراد الله بعبد شراً ختم على سمعه وبصره ومنعه عن إدراكاته، وذلك المنع مرض روحانيّ يكون صداع القلب منه، ومهما زاد تولدت الغفلة، والغفلة للقلب بمنزلة الصرع، وغلبة الظنون الفاسدة مثل الماليخوليا للرأس، فإن الرأس إذا يبتلى به يتخبط أعماله، والقلب إذا انفعل بالظنون الفاسدة تظهر فيه تخبطات كثيرة، ويصير كالمجنون المتحير الممنوع من معرفة الله تعالى وحسن الظن به وامتلأ القلب بفضول الطمع، والطمع به يورث الاستسقاء في القلب حتى أنه يروى من المال والجاه، ودخان الغفلة يورث عمى البصيرة، فإن البصيرة تظلم ويقل نورها بدخان الهوى، كما يظلم البصر ببخار الهواء في عالم الدنيا، انتهى.

وكانت وفاته في سنة أربع بعد الألف[1].

عبد الحق الدهلويّ

(١) الشيخ الإمام العالم العلامة المحدث الفقيه شيخ الإسلام، وأعلم العلماء الأعلام، وحامل راية العلم والعمل في المشايخ الكرام، الشيخ عبد الحق بن سيف الدين بن سعد الله البخاريّ الدهلويّ المحدث المشهور، أول من نشر علم الحديث بأرض الهند تصنيفاً وتدريساً.

(٢) ولد سنة ثمان وخمسين وتسعمائة بمدينة دهلي، وقرأ القرآن على والده في شهرين أو ثلاثة أشهر، ثم تعلم الكتابة والإنشاء في شهر واحد، وقرأ في الصرف والنحو على والده، وقرأ أجزاء من «اللب والإرشاد» و«شرح الشمسية» و«شرح العقائد» وله اثنا عشر عاماً، وقرأ «المختصر» و«المطول» وله خمس عشرة سنة، وقرأ سائر الكتب الدرسية على هذا الأسلوب البديع.

(٣) وأخذ كل ذلك في سبع سنوات أو ثماني عن الأستاذ محمد مقيم

---

(١) «الإعلام»: ٥/٢٠٢ - ٢٠٦.

تلميذ الأمير محمد مرتضى الشريفي وعن غيره من العلماء بمدرسة دهلي وكانت على مسافة ميلين من منزله، يروح ويغتدي إليها كل يوم في حر وبرد.

(١) وكان دائم الاشتغال مكباً على المطالعة في دياجير الليالي حتى أنه قد احترقت عمامته غير مرة بالسراج الذي كان يجلس أمامه للمطالعة فما كان يتنبه له حتى تتصل النار ببعض شعره.

(٢) حفظ القرآن في سنة واحدة.

سافر للحج والزيارة سنة خمس وتسعين وتسعمائة، فحج وأقام بمكة عشرة أشهر، وسافر إلى المدينة المنوّرة، ثم رجع إلى مكة وأقام بها زماناً وحج مرة ثانية، ثم رحل إلى الطائف سنة تسع وتسعين وتسعمائة، ثم رجع إلى مكة وأقام بها زماناً قليلاً، ورجع إلى الهند في ذلك العام.

أخذ الحديث بمكة وبالمدينة المنورة، وأطنب في مدحه القاضي علي بن جار الله، قال: «إنه الفرد العلم في القطر الهندي» وقال: «إنه ممن أعلى الله همته في الطلب ووفقه للسعي فيما يوصل إلى بلوغ الأَرَب وخدم العلم الشريف وضرب فيه بالسهم الأعلى والقدح المعلى، وقد شرفني بالحضور عندي برهة من الزمان في المسجد الحرام بقراءة قطعة من صحيح الإمام البخاريّ وقطعة من «ألفية الحديث» للعراقي البحر الهمام، فاستفدت منه أكثر مما استفاد، وأبدى من الأبحاث ما أحسن فيه وأجاد قراءة ظهر بها أنه بالإفادة أحق منه بالاستفادة، وأن له رسوخ قدم في الاشتغال على جمل الوجوه المعتادة» انتهى.

وقرأ على الشيخ عبد الوهاب المذكور «مشكاة المصابيح» وأخذ عنه آداب الذكر وأوضاعه وتقليل الطعام وآداب الخلوة، ولازمه واستفاد منه فوائد كثيرة، وكان الشيخ يحبه ويثني عليه، وبشره ببشارات، ففاق الأقران وصار عجباً في سرعة الاستحضار وقوة الجنان، والتوسع في المعقول والمنقول والاطلاع على مذاهب السلف، أقام بدهلي اثنيتن وخمسين سنة،

ونشـر العلوم لا سيما الحـديث الشريف بحيث لم يتيسـر مثله لأحد من العلماء السابقين في ديار الهند.

(١) قال القنّوجيّ في «الحطّة بذكر الصحاح الستة»: إن الهند لم يكن بها علم الحديث منذ فتحها أهل الإسلام بل كان غريباً. . . حتى منّ الله تعالى على الهند بإفاضة هـذا العلم على بعض علمائهـا كالشيـخ عبد الحق بن سيف الدين الدهلويّ المتوفي سنة اثنتين وخمسين وألف وأمثالهم، وهو أول من جاء به في هذا الإقليم، وأفاضه على سكانـه في أحسن تقويم، ثم تصدى له ولده الشيخ نور الحق المتوفى سنة ثلاث وسبعين وألف، وكذلك بعض تلامذته على القلة و «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» كما اتفق عليه أهل الملة، وتحديث هؤلاء أهل الصلاح وإن كان على طريق الفقهاء المقلدة القـراح دون المحدثين المبـرزين المتبعين الأقحاح ولكن مع ذلك لا يخلو عن كثير فائدة في الدين وعظيم عائدة بالمسلمين - جزاهم الله تعالى عن المسلمين خير الجزاء وأفاض عليهم رحمته السحاء - انتهى.

وبالجملة فإنه درّس وأفتى وصنّف، وشرح الكتب ونقل معانيها من العربية إلى الفارسية، وكشف عن إشاراتها الباهرة ولطائفها الزاهرة بالعبارة الجليـة المشرق عليهـا نور الإذن الـرباني، والـلائـح عليهـا أثـر القبـول الرحماني.

وتصانيفه من الصغار والكبار كثيرة.

توفي سنة اثنتين وخمسين وألف بدار الملك دهلي[1].

العلامة عبد الحكيم السيالكوتيّ

الشيـخ الإمام العـلامة الكبيـر الفاضـل صاحب التصـانيف الفـائقة والتـآليف الرائقـة الشيخ عبـد الحكيم بن شمس الدين السيـالكوتي، أحـد

(١) «الإعلام»: ٥/٢١٩ - ٢٢٩.

مشاهير الهند، اتفق على فضله علماء الآفاق، وسارت بمصنفاته الرفاق.

ولد ونشأ بسيالكوت من بلاد پنجاب، واشتغل على الشيخ كمال الدين الكشميريّ ولازمه مدة وتخرج عليه وصار عجباً في استحضار المسائل وقوة العارضة وكثرة الدرس والإفادة.

(١) وزنه شاهجهان بن جهانگير التيموري صاحب الهند مرتين بالفضة في الميزان ومنحه ما جاء في الوزن، وهو كل مرة ستة آلاف من النقود، وأنعم عليه بقُرىً متعددة يعيش بها في النعم ويدرس ويصنف، وتصانيفه كلها مقبولة عند العلماء محبوبة إليهم ولا سيما عند علماء بلاد الروم يتنافسون فيها، وهي جديرة بذلك.

قال الشيخ محمد بن فضل الله المحبيّ في خلاصة الأثر: إنه كان من كبار العلماء وخيارهم، مستقيم العقيدة صحيح الطريقة، صادعاً بالحق مجاهراً به الأمراء الأعيان، وكان رئيس العلماء عند سلطان الهند خُرَّم شاهجهان، لا يصدر إلا عن رأيه، لم يبلغ أحد من علماء الهند في وقته ما بلغ من الشأن والرفعة، ولا انتهى واحد منهم إلى ما انتهى إليه، جمع الفضائل عن يد، وحاز العلوم وانفرد، وأفنى كهولته وشيخوخته في الانهماك في العلوم وحل دقائقها، وألف مؤلفات عديدة، انتهى.

توفي سنة سبع وستين وألف بمدينة سيالكوت فدفن بها[1].

مرزا عبد الرحيم بن بيرم خان

الأمير الكبير البطل الأعظم صاحب السيف والقلم مبارز الدين عبد الرحيم بن بيرم خان الدهلويّ خانخانان الذي لم ينهض من الهند أحد مثله ولا من غيره من الأقاليم السبعة من يكون جامعاً لأشتات الفضائل.

ولد سنة أربع وستين وتسعمائة بمدينة لاهور، فلما طعن في الرابعة

---

(١) «الإعلام»: ٥/٢٢٩ - ٢٣١.

من سنه قتل أبوه سنة ثمان وستين وتسعمائة بمدينة فتن من بلاد گجرات، فحملوه إلى أگره فتربى في مهد السلطنة، وخصّه أكبر شاه بن همايون التيموريّ بأنظار العناية والقبول، وقرأ بعض الكتب الدرسية على مولانا محمد أمين الأندجاني وبعضها على القاضي نظام الدين البدخشيّ، واستفاد فوائد كثيرة عن الحكيم علي الكيلانيّ والشيخ العلامة فتح الله الشيرازيّ، ولما وصل إلى گجرات أخذ عن الشيخ وجيه الدين بن نصر الله العلوي الگجراتي، وحيث كان مربياً للعلماء جمع لديه من رجال العلم ما لم يجتمع عند غيره من الملوك والأمراء فلم يزل يستفيد منهم في كل باب حتى تبحر في العلوم.

وكان من أهل التفنن في الفضائل واللغات، مقدماً في المعارف متكلماً في أنواعها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف والحلم والتواضع والشجاعة والكرم، جعله أكبر شاه مؤدباً لولده جهانگير ولقبه مرزا خان وله ثمان وعشرون سنة، ولم يزل في ازدياد من الرقي حتى نال منزلة في الإمارة لا يرام فوقها، وفتحت على يده بلاد گجرات وبلاد السند وأقطاع من إقليم الدكن، ولقبه أكبر شاه المذكور بـ «خان خانان» أي أمير الأمراء.

وكان له من النقاوة التامة والشهامة الكاملة وعلو الهمة والكرم ما لا يمكن وصفه مع المعرفة للأدب ومطالعة كتبه، والإشراف على كتب التاريخ، ومحبة أهل الفضائل، وكراهة أرباب الرذائل، والنزاهة والصيانة والميل إلى معالي الأمور، حتى لم أجد ممن كان قبله أو بعده من يساويه في مجموع كمالاته.

(١) وكان مع ذلك لا يُعفي نفسه عن مطالعة الكتب، فإذا كان على ظهر الفرس وقت طعنة أو نهضة رأيت الأجزاء في يده، وإذا كان يغتسل رأيت الأجزاء في يد خدامه يحاذونه وهو يطالعها ويغتسل.

قال عبد الرزاق الخوافي في «مآثر الأمراء»: إنه كان أوحد أبناء العصر

في الشجاعة والكرم، ماهراً باللغات المتنوعة من العربية والفارسية والتركية والهندية وغيرها، وكان يتكلم في كل من تلك الألسنة بغاية الفصاحة والطلاقة، وينشىء الأبيات الرائقة، ويكرم العلماء ويبذل عليهم الأموال ويعطيهم الصلات والجوائز سراً وجهاراً، ويرسل إليهم في البلاد النائية، وقال في موضع آخر من ذلك الكتاب: إنه كان مغناطيس القلوب، جمع حوله من العلماء والشعراء وغيرهم من أرباب الكمال ما لا مزيد عليه، انتهى.

وقال السيد غلام علي الحسيني البلگراميّ في «الخزانة العامرة»: لو وضعت صِلاته في كفة من الميزان، وصِلات الملوك الصفوية كلهم في كفة أخرى لرجحت كفته، انتهى.

توفي سنة ست وثلاثين وألف بدار الملك دهلي ودفن قريباً من مقبرة همايون[1].

مولانا علم الله الأميتهوي

الشيخ الفاضل علم الله بن عبد الرزاق بن خاصة خضر الصالحي الأميتهوي أحد العلماء المبرزين في الفقه والحديث والعربية، ولد سنة أربع وخمسين وتسعمائة ببلدة أميتهي، وقرأ العلم على والده وعلى الشيخ نظام الدين العثماني الأميتهويّ رحمه الله، ثم سافر إلى الحجاز ولبث بها ثماني عشرة سنة وأخذ الحديث والفقه وقرأ على مشايخ عصره، ثم رجع إلى الهند ودخل برهانپور، فاغتنم قدومه عادل شاه الفاروقي أمير تلك الناحية وأكرمه غاية الإكرام، فأقام بها مدة طويلة حتى كبرت سنه، وعزم مرة ثانية للحج سنة اثنتين وعشرين وألف فدخل بيجاپور ومات بها.

(١) قال إبراهيم بن مرتضى البيجاپوري في «روضة الأولياء»: كان ختنه نصير الدين يقرأ عليه بعض الكتب الفقهية فإذا هو أورد إشكالاً على بعض

---

(١) «الإعلام»: ٥/٢٣٥ - ٢٣٧.

المسائل فأجاب عنه علم الله ثم احتج عليه بقول أبي حنيفة، فقال نصير الدين: هو رجل وأنا رجل! فغضب عليه علم الله وسلّ السيف[1]، ففرّ نصير الدين فتعقبه علم الله إلى بيجاپور.

(١) وقال عبد الباقي النهاونديّ في «مآثر رحيمي»: إن ختنه نصير الدين كان يرجح الحديث أياً ما كان على قياس المجتهد، وكان ينكر القياس ويقول إن حديث «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» موضوع، فكفره علم الله وأفتى بقتله وإحراقه في النار ورتب المحضر لذلك، فأثبت العلماء توقيعاتهم على المحضر، فانتصر له عبد الرحيم بن بيرم خان أمير تلك الناحية فرفعوا تلك القضية إلى جهانگير بن أكبر شاه فأمر بإحضارهما في المعسكر، فذهب القاضي نصير الدين إلى الحجاز وذهب علم الله إلى بيجاپور والتجأ إلى إبراهيم عادل شاه البيجاپوري.

قال: وكان علم الله ديناً متقناً متبحراً عابداً متهجداً صاحب سنة واتباع وزهد وتورع واستقامة، صرف عمره في الدرس والإفادة، وكان عبد الرحيم بن بيرم خان شديد الإكرام له ويفتخر بصحبته ولا يتركه يفارقه، ويغمره بالصلات الجزيلة، ويقبل شفاعته، انتهى.

توفي سنة أربع وعشرين وألف[2].

علم الله النقشبنديّ البريلويّ

السيد الشريف العفيف، ناصر السنة البيضاء قامع البدعة الظلماء، عمدة العلماء الربانيين وارث الأنبياء والمرسلين، الإمام الهمام الداعي إلى دار السلام السيد علم الله بن فضيل بن معظم، الشريف الحسنيّ النصير آباديّ البريلويّ، ينتهي نسبه إلى سيدنا الإمام حسن السبط الأكبر عليه وعلى جده السلام.

---

(١) هذا تعصب مذموم.

(٢) «الإعلام»: ٥/٣٠٠ ـ ٣٠١.

ولد في سنة ثلاث وثلاثين وألف ببلدة نصير آباد وقد شخص والده إلى الحجاز قبل ولادته وتوفي بالمدينة المنورة، فتربى في مهد خاله أبي محمد بن محمد بن محمود النصير آباديّ، وقرأ العلم على ابن عمه خواجه أحمد بن إسحاق الحسني النصير آباديّ، ثم سافر مع خاله إلى دار الملك ورافقه زماناً للاسترزاق ثم تنحى عنه واعتزل، وكان يأتي بحزمة من الحطب على رأسه ويبيعها في عسكر خاله، فلما بلغ غاية من هضم النفس ارتحل إلى الشيخ آدم بن إسماعيل الحسينيّ البنوريّ ولازمه مدة من الزمان ونال حظاً وافراً من العلم والمعرفة.

(١) وقد عرض عليه عالمكير بن شاهجهان صاحب الهند أقطاعاً من الأرض فلم يقبل، واستأثر الفقر والفاقة.

(٢) وكان عالماً ربانياً، عارفاً بالعلوم الشرعية والمعارف الإلٰهية، زاهداً قنوعاً عفيفاً ديناً، ملازماً لأنواع الخير والعلوم، قوياً في دينه، جيد التفقه، كثير الصدقات والإيثار في حضره وسفره مع فقره وقلة ذات يده بصدق وإخلاص وتوجه وعرفان وانقطاع بالكلية عن الناس قانعاً باليسير، وكان أحسن الناس وجهاً وأتمهم خلقة، قد غشيه نور الإيمان وسيما الصالحين، إذا خرج نهاراً ازدحم الناس على تقبيل يده والتبرك برؤية وجهه وهو يكره ذلك وينفر عنهم، وكان يغضب إذا مدح ويستبشر إذا نصح، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحتسب على كل من رأى عليه أثراً خلافاً للشرع سواء كان ملكاً قاهراً أو عالماً كبيراً أو شيخاً جليلاً، وكان يكثر الرد على المبتدعين ويظهر فضائحهم مع استيلائهم على بلاد المسلمين في عصره، وكان لا يبالي إذا تمسك بالدليل بمن يخالفه كائناً من كان، وله كشوف وكرامات ووقائع غريبة.

(٣) وفي «در المعارف» للشيخ رؤوف أحمد، إن الشيخ غلام علي العلويّ الدهلويّ كان يقول إن عالمگير بن شاهجهان[١] رأى في المنام أن

---

(١) سلطان الهند الكبير.

رسول الله ﷺ توفي تلك الليلة، فعرض على العلماء والمشايخ وسألهم تأويله، فأولوه بأنه توفي في تلك الليلة من كان له نسبة صحيحة بالنبي ﷺ وقدم راسخة في اتباعه، ثم أخبر بأن السيد علم الله توفي في تلك الليلة، فأجمع العلماء والمشايخ على أنه هو المعبر عنه بذلك المنام، انتهى.

وله مصنفات.

توفي سنة ست وتسعين وألف[1].

الحكيم علي الكيلانيّ

الفاضل العلامة الكبير علي بن أبي علي الحكيم الگيلانيّ، أحد الأساتذة المشهورين في الهند، أخذ عن خاله حكيم الملك شمس الدين الگيلانيّ وعن العلامة فتح الله الشيرازيّ، وأخذ العلوم الشرعية عن الشيخ عبد النبي الگنگوهيّ، وكان ذكياً فطناً حاد الذهن سريع الملاحظة، يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك أسرار السرائر، دقيق النظر في المسائل الحِكْمية.

قال البدايونيّ في تاريخه: إنه عالم كبير بارع في المنطق والحكمة ماهر بالشرع والنقل، قرأ كتب أهل السنة على الشيخ عبد النبيّ ونظر في مذهبهم ولكنه زيديّ غال في التشيّع.

(١) معجَب بفضله، يخطىء أحياناً لعُجبه وقلة تجاربه حتى أنه أطعم الهريسة أستاذه فتح الله في الحمى المحرقة فمات، انتهى.

(٢) قال شاهنواز خان في «مآثر الأمراء»: إنه اخترع حوضاً عجيباً ملآناً بالماء فيه طريق إلى بيت تحته، إذا غاص الرجل في الماء وجد فيه باباً فيدخل من ذلك الباب إلى البيت ولا يدخل الماء فيه، وكان في البيت قدر كاف من الهواء الطيب والضياء المشعشع ومكان واسع نظيف يسع لاثني

---

(١) «الإعلام»: ٥/٣٠١ ـ ٣٠٢.

عشر رجلاً، وفيه ذخيرة من الفرش والأقمشة والكتب والأطعمة مما يشتهيه الرجل، انتهى.

توفي سنة ثمان عشرة وألف[1].

كمال محمد العباسيّ

الشيخ العالم المفتي كمال محمد العباسي الگجراتيّ، أحد العلماء المبرزين في الفقه والأصول والعربية، ولد ونشأ بأحمد آباد من أرض گجرات، واشتغل بالعلم من صباه على العلامة وجيه الدين بن نصر الله العلوي الگجراتي، ولازمه ملازمة طويلة حتى برع وفاق أقرانه، ثم أخذ عنه الطريقة، وأسند الحديث عن الشيخ عبد الملك البنانيّ، ثم خرج من أحمد آباد سنة ثمانين وتسعمائة ورحل إلى أجين من أرض مالوه فسكن بها، وتزوج بابنة الشيخ أولياء بن سراج.

ووَلِيَ الإفتاء فاشتغل بالفتيا والتدريس ثلاثين سنة.

(١) ومن عوائده أنه كان يستيقظ في الليل إذا بقي ثلثه، فيغتسل ويتهجد ويقرأ سبعة أجزاء من القرآن في الصلاة، ثم يدعو بالأدعية المأثورة، ثم يذكر الله سبحانه، ثم يصلي الفجر، ثم يشتغل بتلاوة القرآن إلى صلاة الإشراق، ثم يصلي ويجلس للدرس والإفادة فيدرس إلى زوال الشمس، ثم يتغدى ومعه جماعة من المحصلين عليه، ثم يقيل ساعة ثم يصلي الظهر، ثم يجلس للإفتاء فيشتغل به إلى العصر، ثم يصلي ثم يشتغل به، ثم يصلي ويقبل على أصحابه فيتحدث معهم إلى العشاء، ثم يدخل في حجرته ويشتغل بمطالعة الكتب التي يدرسها إلى الثلث الأول من الليل، ثم يدخل في المنزل، وكان من الخامسة عشرة من سنه إلى أربع وخمسين صرف عمره على هذا الطريق، توفي سنة ثلاث عشرة وألف[2].

---

(١) «الإعلام»: ٥/٣١٠.

(٢) «الإعلام»: ٥/٣٤٢ - ٣٤٣.

مبارك بن خضر الناگوريّ

الشيخ العلامة مبارك بن خضر الناگوري، أحد العلماء المشهورين بأرض الهند، ولد سنة إحدى عشرة وتسعمائة بمدينة «ناگور» وسافر للعلم إلى گجرات فاشتغل بها على الخطيب أبي الفضل الگاذروني ومولانا عماد الدين محمد الطارميّ وعلى غيرهما من العلماء، وجد في البحث والاشتغال حتى برز في الفضائل وتأهل للفتوى والتدريس.

وكان مفرط الذكاء يحضر المجالس والمحافل في صغره فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار ويأتي بما يتحير به أعيان العلم.

دخل أكبر آباد سنة خمسين وتسعمائة وتصدر بها للدرس والإفادة، وقد انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يستطيع أحد من الأمراء أن يحضر في مجلس تذكيره وعليه ملابس حمراء أو من الحرير أو في يده خواتم الذهب أو إزاره مسبل، وكان في ذلك الزمان شديد النكير على السماع حتى إذا قرع صماخه في أثناء الطريق صوت الغناء ينزجر عنه ويثب إلى غير ذلك المكان، ثم رغب إلى السماع في آخر أمره قلما يخلو عنه وربما لا يستريح بدون الغناء والمزامير.

قال صاحبه عبد القادر بن ملوك شاه البدايونيّ في تاريخه: إنه كان ذا أطوار مختلفة، لحق بالمهدوية[1] وصحب الشيخ علاء بن الحسن البيانوي مدة مديدة، فلما شاعت الطريقة النقشبندية في أوائل عهد أكبر شاه صار يقتفي آثار تلك الطائفة العلية، ولما رأى أن أهل إيران غلبوا ونالوا في الدولة أعز منال صرف إليهم عنان العزيمة، وهلم جرا[2].

---

(١) فرقة مبتدعة تدعي أن محمد يوسف الجونپوريّ كان هو المهديّ، انظر تفصيل أمر هذه الفرقة في ترجمة المذكور.

(٢) قال المعلق: لقد كان ملا مبارك ـ وهو الركن الأول من هذا الثالوث (ملا مبارك وابناه فيضي وأبو الفضل، الذين كان لهم أكبر نصيب في توجيه الملك جلال الدين =

قال: وكان عالماً كبيراً بارعاً في الفقه وأصوله، عارفاً بدقائق العربية، ماهراً بالتصوف والشعر واللغز وفنون أخرى، وكان يقرأ القرآن بالقراءات العشر ويدرس «الشاطبي»[1]، وكان كثير المطالعة دائم الاشتغال بالدرس والإفادة سريع الإدراك قويّ الحفظ لم يكن يحفظ شيئاً فينساه، ولما ضعف بصره لكبر سنه وعجز عن المطالعة اشتغل بتفسير القرآن وصنف تفسيراً كبيراً في أربع مجلدات كبار سماه: «منبع نفائس العيون»، واظب في آخر عمره على التائية لابن الفارض، وقصيدة البردة للبوصيريّ، وقصيدة كعب بن زهير، وقصائد أخرى كانت محفوظة له فيقرأها كل يوم عن ظهر قلبه.

توفي سنة إحدى وألف بلاهور فدفن بها[2].

= أكبر) مضطرب النفسية، قلق التفكير، موزع الهم، درس المذاهب الفقهية الأربعة، واطلع على الخلافات فيها، فاتجه إلى الكراهية لها والنفور منها وإنكار فضلها بدل أن ينحو نحو الجمع والتطبيق والتوجيه الصحيح، وأنكر هذا التراث الفقهي العظيم وجهود السلف الصالحين، وسيطرت عليه الفلسفة، لانضمامه ـ فيما بعد ـ إلى حلقة أبي الفضل الگاذروني من كبار فضلاء العلوم العقلية المعروفين من أبناء شيراز، وبدأ يطالع كتب التصوف والإشراق مباشرة من غير مراجعة أئمة هذا العلم، فوقعت الأخطاء ونشأت فيه طبيعة متقلبة متلونة مضطربة بعد أن مر بهذه الأودية والشعاب ووجدت فيه ـ من جراء ذلك ـ ملكة التلون بكل لون والتكيف مع كل حال، والسير في مسار التوجيه الاستغلالي: «در مع الدهر حيث دار» يقول عنه الشيخ خواجه كلان ابن الشيخ الكبير خواجه عبد الباقي النقشبندي، الذي تربى في بيت ابنة الشيخ مبارك المذكور: «كان يعتنق في كل دور من أدوار حياته المذهب أو الديانة التي يرغب فيها الأمراء والملوك».

ويقول مؤرخ إنجليزي كبير «لقد اعتنق ملا مبارك ـ في مختلف أدوار حياته ـ السنية والشيعية، والصوفية والمهدوية، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله».

ويبدو أنه كان مصاباً بمركب النقص لأنه كان يرى أن من كان دونه في العلم والذكاء قد حظي بمناصب عالية وثروات طائلة، فنافسهم واتخذ التقلب ومجاراة الأوضاع وسيلة للبلوغ إلى ثقة الملك وتقديره، والتمتع بالإجلال والتقدير.

(١) أي منظومة الإمام الشاطبي في القراءات.

(٢) «الإعلام»: ٥/٣٤٦ ـ ٣٤٨.

محمد أفضل الپاني

الشيخ الفاضل محمد أفضل الپاني پتي، أحد العلماء المبرزين في الإنشاء والشعر والعلوم الحِكْمية.

كان يدرس ويفيد ويصرف أوقاته آناء الليل والنهار في التدريس واشتغل به مدة العمر، وكان بين ذلك إذ رأى فتاة من بنات الوثنيين بديعة الحسن والجمال فافتتن بها وترك البحث والاشتغال وجاور بيتها، فلما رأى أهل بيت الجارية هيمانه في العشق أرسلوها إلى «متهرا» سراً، فازداد قلقه واضطرابه وخرج من بلدته متجسساً لها حتى وصل إلى «متهرا» وأدركها يوماً خرجت مع أترابها للتفرج، فلما رأته عشيقته في تلك الحال عيرته وقالت: لا ينبغي لشيخ هرم أن يعشق جارية كاعباً، فتأثر من قولها وخطرت في قلبه مكيدة، فحلق لحيته ولبس الزنار وتزيا بزيّ البراهمة، ثم ذهب إلى كنيسة عظيمة بها، واشتغل على حبر من أحبار الهنادك وأخذ عنه العلوم الهندية ولازمه زماناً حتى بلغ الكمال في علومهم ومعرفة دينهم، فأوصى له ذلك الحبر، فلما توفي اتفق الهنادك عليه وأجلسوه مكانه، فاشتهر أمره وصار مرجعاً ومقصداً للهنادك كافة، وكانت عادتهم أن يخرجوا من البلدة كل سنة ويحتفلوا ويأتوا إلى تلك الكنيسة للتبرك والزيارة، فلما جاء ذلك اليوم المعهود واحتفلوا حفلة عظيمة واجتمع إليه الناس من رجل وامرأة على جري العادة وكانت فيهم عشيقته، فلما جاءت ودنت منه لتقبل قدمه عرفته أنه هو الرجل الذي خرج من بلدته لها، فبهتت وسكتت هنيهة ثم تأثرت بحالته وأخذتها الموجدة فبكت بكاء شديداً وألقت أمرها بيده، فعرض عليها الإسلام فأسلمت وخرجت معه من بلدة «متهرا» فجاء بها إلى «پاني پت» وعاش مدة من الدهر معها في رفاهة ونعيم، توفي سنة خمس وثلاثين وألف[1].

---

(١) «الإعلام»: ٥/٣٩٠ ـ ٣٩١.

وما فعله هذا الشيخ أمر لا يصح فعله ولا أن يصدر مثله من مثله، فتأمّل.

المفتي محمد صادق الجونپوريّ

الشيخ العالم الفقيه المفتي محمد صادق بن شمس الدين الصديقيّ الحنفيّ البرونويّ الجونپوريّ، أحد كبار العلماء، قرأ بعض الكتب الدرسية على والده وأكثرها على العلامة محمود بن محمد العمري الجونپوري، وجد في البحث والاشتغال حتى برع في العلم وتأهل للفتوى والتدريس فولي الإفتاء مكان أبيه المرحوم.

(١) وكان ورعاً تقياً قنوعاً عفيفاً ديناً شديد التعبد كثير الدرس والإفادة، لا يراه أحد إلا في المدرسة أو في المسجد، عرض عليه تلميذ والده ركن الدين البحري آباديّ شالاً كشميرياً هدية جاء إلى بلدته بعد مدة من الزمان وكان من ندماء شائسته خان[1]، فلم يقبل هديته.

(٢) وحيث كان تقواه في غاية كان لا يأتم في الصلاة بشيخه محمود لتوغله في الفلسفة ومختاراته فيها.

(٣) وحكى أن نواب الله وردي خان أمير بلدته أمره مرة أن يثبت خاتمه على سجل مشتمل على أمر مشروع فلم يقبله، فاستصحبه الله وردى خان في سفينة فلما بلغ إلى وسط النهر أكرهه على ذلك فدفع إليه خاتمه مكرهاً، فأراد الأمير أن يثبته على السجل المذكور وجدّ في إثباته، ولكنه لم يؤثر فيه، فخجل الأمير واعترف بورعه وتقواه.

توفي سنة ثمان وستين وألف[2].

مير محمد معصوم السنديّ

الشيخ الفاضل محمد معصوم بن السيد صفائي الحسينيّ الترمذيّ القندهاريّ ثم السنديّ البهكريّ، أحد رجال العلم والمعرفة، ولد ونشأ بمدينة «بهكر»، وقرأ العلم على ملا محمد الكنگرويّ، نسبة إلى

---

(١) أحد الأمراء.

(٢) «الإعلام»: ٥/٤٠٧ ـ ٤٠٨.

«كنگريّ»، قرية من أعمال بهكر ولازمه زماناً، ثم سار إلى گجرات فلقى بها الشيخ إسحاق السنديّ، فقربه إلى نظام الدين أحمد الأكبر آباديّ ثم قربه إلى شهاب الدين أحمد خان أمير تلك الناحية فمنحه منصباً وخدمة، فحظي بملازمة أكبر شاه بن همايون سلطان الهند، وولي السفارة إلى بلاد إيران.

قال الخوافي في «مآثر الأمراء»: إنه كان عالماً مؤرخاً خطاطاً شاعراً، له ديوان شعر فارسيّ، وله تاريخ السند، ومختصر في الطب يسمى: «المفردات المعصومية»، وله كتابة في باب القلعة بأكبر آباد وكتابة في الجامع الكبير بفتحپور، ومن آثاره أبنية رفيعة بمدينة بهكر، قال: وكان زاهداً سخياً جواداً، يبعث إلى بهكر لبعضهم راتباً سنوياً، ولبعضهم شهرياً ولبعضهم يومياً، ولبعضهم جعل حقاً في محاصل الأرض في الموسم وهكذا انتهى.

(١) وقال البدايوني في «المنتخب»: إنه كان شاعراً ماهراً بالألغاز، ذا سخاء وشجاعة وصدق وأمانة يجتهد في الخيرات، ويلازم تلاوة القرآن وعبادة الله سبحانه، وله دعابة معجبة، منها ما نقل عنه أنه قال له رجل مرة: لم لا تبايع مرشداً من مشايخ الطرق ليهديك إلى سبيل الرشد؟ ولا محيص عنه في هذا الطريق! فقال إن لي ثلاثة مرشدين فلا حاجة بي إلى مرشد آخر: الأول أني لما هاجرت الوطن المألوف ودخلت دار الخلافة كنت في ريعان الشباب لا أخضع لأهل المناصب الرفيعة، فلما وصلت إلى الحضرة وسئمت المحن ثم فزت بمنصب قصّرت حبال الآمال وخضعت تسليماً لأمر الله سبحانه، فذلك أول مرشدي، قال: والمرشد الثاني المير أبو الغيث البخاريّ الذي كان أرفع مني منصباً، وكنت إذا لم أجد العلف والحبوب للدواب والأفراس أشتعل غضباً ولا أكلم أحداً لفرط الغيظ والغضب، ورأيت أبا الغيث تمضي عليه ثلاثة أيام أو أربعة لا يضرم في مطبخه النار ولا يوجد في إصطبله العلف والحبوب وهو يعيش نشيطاً بشوشاً

طيب النفس لا يرى عليه أثر الفاقة، فأرضيت النفس بذلك الحال، والمرشد الثالث جارية أعطانيها السلطان فإذا خطر على قلبي خاطر سوء دخلت بيتي ودفعته بها، فليس لي حاجة بعد هذه الثلاث إلى مرشد آخر، انتهى.

توفي سنة خمس عشرة وألف[1]، سنة اثنتين وألف.

نواب مرتضى البخاريّ

الأمير الكبير مرتضى بن أحمد بن أبي بكر الحسينيّ البخاري، نواب فريد الدين مرتضى خان أحد أجواد الدنيا، لم يكن له نظير في زمانه في السياسة والتدبير والسخاء والكرم والمحبة لأهل الفضائل والميل إلى معالي الأمور، أدرك أكبر شاه بن همايون التيموريّ في صغر سنه فتقرب إليه، وتدرج إلى الإمارة، ثم لما ولي المملكة ولده جهاگير بن أكبر شاه أضاف في منصبه ولقبه بصاحب السيف والقلم، ثم لقبه بمرتضى خان وولاه على گجرات، فاستقل بها أربع سنين، ثم ولي على پنجاب فأقام بها مدة حياته.

وكان أجود الناس وأنفعهم خيراً وأثبتهم رأياً وأشدهم بطشاً، جمع الشجاعة والسخاء بما لا يساويه فيها أحد.

(١) قال الخوافي في «مآثر الأمراء»: إنه لم يخب سائله قط، وكان يقسم الدراهم والدنانير على الفقراء بيده، ويبذل عليهم قباءه ودثاره ورداءه وما كان معه.

(٢) ومن أخباره أنه كان يوظف الأيامى والمتوكلين وأهل الحاجة من يومية وسنوية، ويرسل إليهم الرواتب في حضر وغيبة، ولا يلجئهم إلى عرض الأسانيد المجددة، وكان يكفل اليتامى ويربيهم كتربية الآباء للأبناء، ويستخدم المعلمين لهم، وكانوا يلعبون في حجره فيفرح بهم، ومن أخباره

---

(١) «الإعلام»: ٥/٤١٩ - ٤٢١.

أنه أحصى أعداد السادة والأشراف في ولاية گجرات فجهز لبناتهم، وأعطى للحوامل أموالاً.

وكان لا يعطي المغني والمطرب شيئاً.

ومن آثاره بأحمد آباد، حارة كبيرة بها تدعى «بخارا محله»، ومنها جامع كبير بأحمد آباد، ومنها بلدة عامرة بقرب دهلي سماها «فريد آباد»، فيها عمارات عالية وبساتين زاهرة له، ومها حارة كبيرة وحمام نظيف بمدينة لاهور، ومنها رباطات كثيرة في بلاد أخرى.

وكان يأكل على سفرته ألف وخمسمائة نفس، وكان يقسم الرواتب بحضرته ولا يضيق ذرعاً بضوضاء الناس وصياحهم، وهذا قليل من كثير، إن شئت التفصيل فارجع إلى «مآثر الأمراء».

توفي سنة خمس وعشرين وألف[1].

---

(١) «الإعلام»: ٥/٤٣٣ - ٤٣٥.



مختارات القرن الحادي عشر
من كتاب
«البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع»

للإمام

محمد بن علي الشوكاني

رحمه الله تعالى



الحيميّ

الحسن بن أحمد بن صلاح اليوسفيّ الجماليّ اليمانيّ المعروف بالحيميّ، أحد أعيان دولة الإمام المؤيد بالله القاسم، وأخيه الإمام المتوكل على الله وهو من أكابر العلماء وأفاضل الأدباء، وكان يقوم بالأمور العظيمة المتعلقة بالدولة ثم يشتغل بالعلم درساً وتدريساً وكان يوجهه الإمام المتوكل على الله في المهمات لفصاحته ورجاحة عقله وقوة تدبيره. فمن جملة ما بعثه إليه من المهمات إرساله إلى حضرموت لما وقع الاختلاف بين السلاطين آل كثير، فقام بالأمر أتم قيام وصلحت الأمور بحميد رأيه وجميل عنايته.

(١) ووجهه أيضاً إلى سلطان الحبشة لما وصلت إليه منه كتب تتضمن رغوبه في الإسلام ويطلب وصول جماعة من آل الإمام إليه ليسلم على أيديهم فتوجه في نحو خمسين رجلاً، ولاقى مشاقاً عظيمة واستمر في الطريق سفراً وإقامة نحو تسعة أشهر فوصل إلى سلطان الحبشة في يوم عيد للنصارى فدخل على السلطان لابساً شعار الإسلام من الثياب البيض وكان السلطان غير مريد لما أظهره في كتبه من الرغوب في الإسلام بل معظم قصده المراسلة كما يفعله الملوك وأنه يريد إصلاح الطريق. فلما استقر صاحب الترجمة في مدينة السلطان أضافه وأكرم أصحابه وأراد أن يخلع عليه خلعة حرير خالص وسوارين من الذهب فقال له: هذا لا يحل في شريعتنا، وكان لصاحب الترجمة في تلك البلاد صولة عظيمة حتى كان أصحابه يبطشون بالنصارى إذا تعرضوا لهم ويضربونهم. وشاع عند الحبشة

أن العرب الذين هم أصحاب المترجم له يأكلون الناس فزادت مهابتهم في صدورهم. وكان أعظم معين لهم على ذلك البنادق فإنه لا يعرفها أهل الحبشة إذ ذاك ولولا هي ما قدروا على مرور الطريق فإنهم كانوا ينصبُّون عليهم كالجراد فيرمونهم بالبنادق فيقتلون منهم وينهزمون ويفزعون لأصواتها وتأثيرها. ثم لما أيِس صاحب الترجمة من إسلام السلطان طالبه بالإذن له بالرجوع إلى ديار الإسلام فتثاقل عنه ثم بعد حين أذن له وكان لا يصحى من شرب الخمر فعين له وقتاً يصل إليه للوداع، وترك شرب الخمر في ذلك اليوم وجمع وزراءه وأمراءه وأعيان دولته فأمر صاحب الترجمة أصحابه أن يرموا بالبنادق عند وصولهم إلى باب السلطان كما يفعله أهل اليمن ويسمون ذلك تعشيرة، فلما سمع السلطان أصوات البنادق هرب من إيوانه وهرب الوزراء وسائر أصحاب السلطان فدخل صاحب الترجمة الدار ثم بعد ذلك عاد السلطان إلى مكانه وأخذ أهبة توجيهه إلى بلاد الإسلام. وكان جملة بقائه لديه ثلاث سنين ورجع إلى حضرة الإمام سالماً وهذه الرحلة مشتملة على عجائب وغرائب قد جمعها صاحب الترجمة في كراريس هي بأيدي الناس.

وله أشعار أيام إقامته هنالك، وشعره جيد. مات سنة ١٠٧٠[١].

العبـاليّ

السيد علي بن صلاح بن محمد العباليّ. أصله من الحَرَجة، قرية ما بين الحجاز وصعدة.

(١) وهو من أكابر العلماء ومن جملة أنصار الإمام القاسم بن محمد، كان يبعثه في مهماته ويصفه بالأوصاف الجميلة حتى قال فيه: لا أخاف على أهل اليمن وفيهم هذا يعني صاحب الترجمة، وأرسله في أول دعوته

(١) «البدر الطالع»: ١/١٨٩ - ١٩١.

إلى القاضي العلامة يوسف الحماطيّ ليأخذ منه البيعة فقال القاضي: لا معرفة لي بمقدار الإمام في العلم ولا بد أن أورد عليه مسائل، فقال: هات ما تريد إيراده عليه من المسائل، فذكر له مسائل مشكلة فأجاب في الحال بجوابات ارتضاها فقال له: امدد يدك أبايعك فأنت أهل للإمامة، فقال له: لا تفعل فليس علمي بالنسبة إلى علم الإمام شيئاً فاطمأنت نفس القاضي وبايع.

مات سنة ١٠١٩ بشَهَارة، وله أولاد أمجاد منهم محمد بن علي.

(١) وهو القائل:

مـن خـالفـت أقـوالـه أفعـالـه ... تحـولـت أفعـالُـه أفعـى لَـهُ

من أظهر السر الذي في صدره ... لغيـره وهـالَـه وهـى لَـهُ

مـن لـم يكـن لسانـه طـوعـاً لـه ... فتـركُـه أقـوالَـه أقـوى لَـهُ

ومـن نـأى عـن الحـرام طـالبـا ... مـن رشـده حـلالَـه حلـى لَـهُ

وهي أبيات جيدة وفي البيت الأول نظر لأن أفعالُه فاعل تحولت فهو مرفوع وأفعى له لامه مفتوح بخلاف بقية الأبيات فهي متوافقة الجناس بالحروف والحركات.

(٢) وجرى القلم عند كتب هذه الأبيات بشيء من جنسها مثل عددها وهو:

لا تشتغـل بملبـس فكـل ذي ... فضـل تـرى أسمـالـه[1] أسمـى لَـهُ

من يطلب الشيء العظيم عاجزا ... عـن حمـلـه ونـالـه ونـى[2] لَـهُ

مـن لـم يـذد رقيبـه عـن مـربـع ... يلقـى بـه غـزالَـه غـزى لَـهُ

فـي راحـة المـرء وفـي تـرويحـه ... فـؤاده وبـالَـه وبـى لَـهُ[3]

(١) ملابسه.

(٢) ضَعُفَ.

(٣) راحة، وانظر «البدر الطالع»: ١/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨.

السنحاني

عليّ بن قاسم السنحانيّ، نسبة إلى بلاد سنحان، اسم لقبيلة قريبة من مدينة صنعاء. كان صاحب الترجمة هو القائم بمذهب الزيديّة أيام ولاية الأتراك على صنعاء وكانوا يجتمعون إليه إلى مسجد داود أحد مساجد صنعاء ويأخذون عنه فقه الزيديّة، وبالغ أمراء الأروام[1] في اتصاله بهم فلم يفعل.

(١) واتفق في أيامه قضية هي أن بعض أولاد الأشراف من أهل صنعاء دخل يتوضأ في ذلك المسجد فلم يشعر إلا بتركيّ قد دخل عليه وأراد به الفاحشة فطعنه بسكين فمات، وخرج من مطاهير الماء إلى المسجد وصاحب الترجمة يقرىء الطلبة فسارّه بما وقع ثم طلب السانيّ[2] الذي يسني من البئر إلى المطاهير وأمره أن يكثر المسنى إلى المطاهير وأمر بتغليق أبواب المطاهير فانتصب الماء حتى ملأ ساحات المطاهير ثم أمر بتقطيع التركيّ قطعاً صغاراً وأُخرج إلى محل بعيد.

(٢) ومما يُحكى عنه أنه بلغه أن رجلاً من أهل صنعاء له ولدان أمردان جميلان وأن لهما دكانين يقعدان فيهما ويصل إليهما أهل الفساد من الأتراك فيقع المعاصي والمغاني ونحوها هنالك فقال صاحب الترجمة لرجل من أهل الصلاح: هل يمكنك أن تدعي أن الدكانين لك وأحكم لك بذلك؟ فقال: ليس لي فيهما ملك، فقال: قد علمت ذلك ولكن هذا مما يُسَوِّغه الشرع ففعل الرجل ذلك وحكم له صاحب الترجمة، وكان له من إنكار المنكرات قضايا مستحسنة.

وله تلامذة نبلاء، ولعل موته في حدود الألف من سنيّ الهجرة[3].

---

(١) أي أمراء العثمانيين.

(٢) الساني هو رافع الماء من البئر.

(٣) «البدر الطالع»: ١/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤.

السيد محمد بن عبدالله بن الإمام شرف الدين

الشاعر المشهور المجيد، وغالب شعره موشحات في غاية الرقة والانسجام وللناس إليها ميل.

(١) ومن نظمه العذب هذه الأبيات:

أفدي التي بِت أبل الجوى[١]	من ريقها باللثم والمصّ
قالوا لها لما رأوا خدها	وفيه أثر العضّ والقرص
ماذا بخديك فقالت لهم	نمت ولم أشعر على خُرص[٢]
يا حُسن خديها وعضٌ على	ناعمِ خدٌّ تَرِف رَخْصِ[٣]
كفص ياقوت على درة	آه على الدرة والفصّ

(٢) ومن جملة ما حكاه عنه في ذلك الديوان أنه أقام بصنعاء عند آل لطف الله بن المطهر خالياً عن الأنيس فاحتاج إلى جارية سُرِّيَّة فاشترى جارية اسمها غزال حبشية فلاطفه في بعض الأيام إسماعيل بن لطف الله وقال: يا سيدي أرى هذه الجارية مسنة ولعلها قد أولدت في الحبشة، قال ذلك مداعباً له فلما رجع سألها صاحب الترجمة هل خرجت من الحبشة صغيرة أو كبيرة، وهل ولدت؟ فأخبرته أنها ولدت لسيدها ولداً واحداً وهو رجل من مسلمي الحبشة وأنه فقيه فاضل، فسأله عن سبب خروجها عن ملكه وكيف باعها فقالت: لم يبعني وإنما أرسلني في بعض الأيام من بستانه إلى بيته فأخذني اللصوص ولم أستطع الخلاص منهم فباعوني، فلما سمع ذلك تغير لبه وذهل عقله خوفاً من الله أن يطأها وهي حرام فشكى

(١) شدة الوجْد والهوى.
(٢) قُرط.
(٣) ناعم.

ذلك إلى بعض العلماء فقال له ذلك العالم: أما إذا قد صادقتها في الكلام فالواجب الكف عنها فعند ذلك أيس وتزايد وجده وهجر الطعام ولما أخبرها بذلك صرخت صرخة عظيمة أبكت من في البيت وعقدت مأتماً وقال فيها قصيدة موشحة أولها:

الله يعلــــم يـــا غـــزال أنـــي　　　عليــك سهــران بــاكــي العيــن

ثم أرسل إلى زبيد للبحث عن خبرها فأخبروه أنه صحَّ لهم أنها هربت من سيدها وارتدت ثم أخذت ثانياً من دار الحرب فعاد إلى ما كان عليه وتمتع بها وتمتعت به، وهذه القصة تدل على تورعه.

الضمـديّ

المطهر بن عليّ بن محمد الضمديّ اليمانيّ العالم المشهور، المفسر النحويّ، مؤلف التفسير المسمى بالفرات وهو تفسير مفيد جداً مع اختصاره يدل على قوة ملكة صاحب الترجمة في العلوم ورسوخ قدمه في فنون عدة. وكان مشهوراً بالذكاء والفطنة وجودة الحفظ.

وله شعر سائر في غاية الجودة منه:

ويـــلاه مـــن جفنـــه السقيـــم　　　وخـــده الأبلـــج القسيـــم(١)
يلـــوح صبـــح الجبيـــن منـــه　　　تحـــت دجـــى شعـــره البهيـــم(٢)
كـــأنمـــا الخـــد مـــن نضـــار　　　والثغـــر مـــن لـــؤلـــؤ نظيـــم(٣)
كـــأنمـــا اللحـــظ منـــه مـــوسـى　　　يجـــرح فـــي قلبـــي الكليـــم

---

(١) الجميل.
(٢) الحالك السواد.
(٣) منظوم مرتب.

إذا رآه الوشاة قالوا   تبارك الله من حكيم
يقول إن رمتُ وصله ما   لظالم قطُّ مِن رحيم
معتزلي رافض لهذا   لا يعرف الجبر للنديم

توفي بضمد في سنة ١٠٤٩[1].

---

(٤) «البدر الطالع»: ٢/ ٣١٠ ـ ٣١١.



مختارات القرن الحادي عشر
من كتاب
«تاريخ الإسلام في بنتن»

تأليف:

الأستاذ أحمد السقاف



السلطان محمّد بن يوسف بن حسن الدين

من ١٥٨٠ إلى١٥٩٦ ميلادية موافق عام ٩٨٨ إلى ١٠٠٤ هجرية.

قد تقدم شيء من الكلام على ما صار من تقدم وعمران في عهد هذا السلطان فلنذكر ما بقي مع ما صاحب ذلك من الحوادث السياسية:

كان وجود السلطان محمّد حوالي عام ١٥٧١ ميلادية وولايته عام ١٥٨٠ ووفاته عام ١٥٩٦ فمدة ولايته ١٦ سنة وتوفي وهو في ريعان الشباب ومقتبل العمر إذ لم يجاوز عمره ٢٥ سنة.

نشأ هذا السلطان نشأة صالحة في ذلك الوسط الإسلامي والبيئة الطاهرة وفي بحبوحة العز والمجد وفي أسمى مقام من مقامات الاعتزاز بالدين والتمسك بالتقوى والاستقامة حتى سماه مؤرخو الافرنج بالمتنسك والعابد، رباه والده السلطان يوسف على علم وعمل وإيمان وصلاح ولم يقصر في تدريبه من الصغر على الاهتمام بأمر السلطنة ورعاية مصالح المسلمين والعطف على الرعية فكان له منذ صغره منزلة في قلوب الرعيّة ولهم فيه محبة عظيمة حتى إنهم أطلقوا عليه فيما بعد اسم (داتو بانتن) أي سيد بانتن، وكم كان أسفهم شديداً حين أصابته خطأً تلك الرصاصةُ في حرب فلمبغ فقَصفت غصن شبابه الغض وقطعت حبل آماله العظيمة في خدمة الإسلام[1].

---

(١) «تاريخ الإسلام في بنتن»: ٧٤ - ٨٢.

حرب فلمبغ

قبل أن نبحث الأسباب الحقيقة لهذا الحرب لا بد لنا من بيان بعض أمور تضيء لنا سبيل البحث نذكرها فيما يلي:

تثبت الشجرات المعتبرة والتواريخ الجاوية الإسلامية أن سلاطين فلمبغ يرجع نسبهم إلى مولانا محمد عين اليقين الملقب (دارين فاكو) وهو الملقب أيضاً سونن قيري المقبور بقيري في فرسي وهو ابن مولانا إسحاق بن إبراهيم زين الأكبر. فالقرابة موجودة بين سلاطين بانتن وسلاطين فلمبغ لأن مولانا إسحاق ومولانا هداية الله ينتهي نسبهما إلى جمال الدين الحسين بن أحمد بن عبد الله بن عبد الملك بن علوي بن محمد صاحب مرباط.

وحيث عرفنا تلك القرابة بين الفريقين وأضفنا إلى ذلك أنهم جميعاً على دين واحد ومذهب واحد وأنهم سلاطين دول إسلامية وأن الدين يأمر بالتعاون والتناصر فالمعقول أن لا يكون بين الفريقين نزاع أو خصام فضلاً عن إشهار حروب بدون مبرر صحيح لذلك. وهناك أمر آخر وهو من الأهمية بمكان وهو أن فلمبغ إلى ذلك الوقت معترفة أو تعد نفسها تابعة لسلطنة ماترام في جاوه الوسطى وقد عرفنا أكبر الأسباب التي حملت سلطنة بانتن على إعلان استقلالها عن سلطنة فاجغ التي قامت بعدها بمدة قصيرة سلطنة ماترام في جاوه الوسطى أن ذلك السبب هو ما سلكته دول جاوه الوسطى من إدخال العقائد والعادات الوثنية في عقائد الإسلام.

(١) ولئلا يظن ظان أننا نكتب بدافع من دوافع التعصب الجنسي أو القوميّ ولنثبت أننا بما نبينه ونشرحه إنما نريد خدمة العلم والدفاع عن الإسلام وكشف حقائق التاريخ التي صورتها الأغراض بغير صورها وألبستها الكتب التي كتبها بعض مؤرخي الغربيين وجلّ الكتاب الوطنيين المتأخرين غير لباسها إننا لنثبت ما تقدم ولندفع ما قد يظن بنا نقول إننا لا ننظر إلى المسلمين من عرب وهنود وجاويين وسنداويين وملايو وغيرهم إلا من وجهة

نظرة واحدة أساسها قوله تعالى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

(١) فالمقت الذي نمقت به عمل سلاطين جاوه الوسطى على إدخالهم في الإسلام ما جاء الإسلام لتطهير النفوس منه نمقت به أيضاً سلطان بانتن أبو النصر عبد القهار الذي مهّد للهولنديين سبيل الاستيلاء على بلاد المسلمين مع علمنا بأنه عربي ومن ذرية النبيّ ونمقت بها من سلك مسلكه من أي جنس من البشر، وعبارات الثناء التي تخلد بها الذكر العاطر لسلاطين دمك وهم وطنيون خلّص نثني بمثلها على غيرهم من حماة الإسلام من العرب أو من غير العرب، معتقدين أننا بذمنا للعربي الذي يعمل ضد الإسلام ومدحنا للجاوي الذي يعمل لصالح الإسلام إنما نخدم الإسلام في الحالتين ونؤدي أمانة العلم ونطهّر التاريخ الإسلامي مما ألصقه به المغرضون.

(٢) وبعد هذا البيان نقول في صراحة أن العداء قد استحكم بين فئتين من المسلمين بجاوه منذ سقوط سلطنة دمك عام ١٥٤٦: فئة المسلمين الثابتين على الإسلام وعقائده وآدابه المغتبطين بثقافته وصبغته فكانت سلطنة دمك في ساحل جاوه الوسطى وبعدها سلطنة بانتن بجاوه العربية من هذه الفئة، والفئة الأخرى هم المناصرون لفكرة تكييف الإسلام بكيفية تتفق مع عادات الجاويين الوثنية وما يتصل بها من عقائد وأفكار، فكانت سلطنة (فاجغ) بنقلها العاصمة إلى جاوه الوسطى هي الممهّدة لمناصرة هذه الفئة، وقامت سلطنة ماترام بعد ١٥ سنة فقط لأن سلطنة فاجغ لم يتجاوز مدتها ١٥ سنة وسلطنة ماترام هذه هي التي ناصرت هذه الفئة مناصرة ظاهرة بل كانت تؤيدها بالقوة وهي في جاوه الوسطى أيضاً وليس لهذه الفئة نفوذ لولا مناصرة البلاط لها، وقد وقعت في مدة قيام هذه الدول حروب وثورات واضطرابات واغتيال لكثير من الأمراء والسلاطين، وقتل كثير من العلماء ظلماً، وقع كل هذا قبل قيام الثورات والحروب بين الأهالي وهولنده، وبعد أن تداخلت هولنده في أمور السلطنات الإسلامية بجاوه قامت بينها وبين تلك السلطنات حروب ومنازعات، كثيراً ما نجد فريقاً من الأهالي يقوم في

صف الهولنديين ضد إخوانه في الوَطنية وأحياناً في الدين وربما إذا قدر لمن يشتغل بالأبحاث التاريخية الوقوف على مناشىء تلك الحركات يجدها دينية أكثر منها سياسية وقد يصل به البحث إلى معرفة جلّ تلك الحركات التي وقعت بين الفئتين اللتين ذكرناهما وأن الفئة التي تناصر العادات الوثنية هي التي تكون على الغالب في صف أعداء الإسلام من هولنديين وغيرهم.

قلنا فيما سبق أن فلمبغ إلى ذلك الوقت كانت تابعة لسلطنة ماترام وبيّنا الخطّة التي سلكتها سلطنة ماترام وأنها ضد الخطة التي عليها سلطنة بانتن وتبعيّة فلمبغ لماترام تجعلها على الأقل غير مستنكرة لما يجري في جاوه الوسطى من تلاعب بالدين وإفساد لعقائد المسلمين وبذلك صار موقفها تجاه بانتن كموقف متبوعتها ماترام.

ووقوفها ذلك الموقف مع كونها على حدود لامفوغ وسليبار التابعين لبانتن وخوف بانتن من تأثير ماترام على فلمبغ تأثيراً إن لم يبلغ إلى حد انتشار العقائد الفاسدة قد يبلغ مبلغ استعانة المتبوع بالتابع إذا اقتضت الأحوال يكفي لأن يفسر لنا معنى ما عربناه عن ديوس ديكر من أن السلطان محمّد بن يوسف يرى أن حرب فلمبغ واجب ديني يفرض عليه الدين القيام به.

ومع كل ما تقدم فهناك قرائن تدل على أن هناك أسرار غامضة لو كشفت لصورت لنا أن تلك الحادثة هي أشبه بمناورة حربية تقصد بها بانتن تخليص فلمبغ من نير تلك التبعية التي فرضت عليها فرضاً لماترام ومن يدري لعل هناك تواطأً سرياً بين بانتن وأمير فلمبغ لغرض شريف هو حماية الإسلام والمسلمين بسمطرا من تأثير النزعات السائدة بجاوه الوسطى وتكوين جبهة إسلامية قوية على أساس اتحاد المشرب والمذهب تحرس بوغاز سيده وبوغاز ملاكا، والجزائر المنبثة بينهما من تعديات المتزاحمين على المراكز الحربية والتجارية بتلك النواحي من انكليز وهولنديين وغيرهم وقد حدث شيء من ذلك التعدي فإن انكلترا بعد حادثة فلمبغ بمدة أرسلت

مندوباً إلى سلطان ماترام ليأذن لها في بناء قلعة بجزيرة (بنكا) وذلك لأن جزيرة بنكا تابعة لفلمبغ وفلمبغ تابعة لماترام، ومن يشك في أن مثل ذلك التفريط من ماترام يضر بالبلاد الإسلامية كلها ويوجب حذر بانتن ويجعل فلمبغ بأنّ تبعيتها لماترام لم تعد عليها إلا بمثل تلك المصايب.

ونرجع الآن إلى النظر في العلاقات التي بين فلمبغ وبانتن وفلمبغ وماترام نجد أن العلاقات والروابط التي بين بانتن وفلمبغ أقوى من علاقات ماترام بفلمبغ وهناك أدلة تكاد [تكون] صريحة في أن تلك الحرب التي وقعت بين فلمبغ وبانتن هي صورية أكثر منها حقيقية وقد أجمع المؤرخون على أن الرصاصة التي أصيب بها السلطان محمد كانت خطأً أي أن أهل فلمبغ لم يتقصدوا ذلك وكل المؤرخين قالوا لو لم يقتل السلطان محمد لتم استيلاء بانتن على فلمبغ بكل سهولة بل يرون أن ذلك الاستيلاء كان واقعاً لا محالة وما قالوا ذلك إلا لأنهم قد أحاطوا بتفاصيل عن تلك الحادثة بنوا عليها حكمهم. أما رجوع جيش بانتن ورفعه الحصار عن فلمبغ بمجرد ما وقع السلطان قتيلاً فهذا يدل دلالة واضحة على ما قد أشرنا إليه من أن تلك الحرب هي مناورة حربية ليست بدافع عداء ولا يقصد منها إهراق دماء ولا إزهاق أرواح فلما أصيب السلطان داخل بقية رؤساء جيش بانتن المطلعين على خفية الأمر الشك والريب وظنوا أن فلمبغ خدعتهم، وقد عرفنا أن أهل بانتن يجلّون (راتو بانتن) ويعظمونه ويحبونه محبةً زائدة ويفاخرون به وذلك لما خصه الله به من مكارم الأخلاق وما هو عليه من تمسك شديد بالدين وصرامة في سبيل الدفاع عنه. فكانت الصّدمة عليهم بوفاته شديدة والخسارة فادحة فلم يعودوا يفكرون في أمر فتح فلمبغ لما ظنوه من مكر وخديعة ولما أوهى قواهم المعنوية من الحزن والأسى لوفاة ذلك الزعيم فعادوا يرون الاحتفاء بتشييع جنازته ودفنه في عاصمة السلطنة بكل ما يليق بمقامه من أبهة وحسم ما ربما يحدث من اضطراب بتولية ولي عهده هو أولى بهم وأعود عليهم من فتح فلمبغ التي اشتبه عليهم موقفها ويظهر أنهم لم يعلموا أن تلك الإصابة كانت بغير قصد إلا بعد رجوعهم وبعد مناقشات

ومثل هذا كثيراً ما يقع يعرفه من له أقل إلمام بالتاريخ.

والخلاصة أن تجهيز بانتن على فلمبغ كما قد فصلنا ليس مجرد تعدي بدافع الرغبة في حاصلات أو طمع في منابع ثروة كما يقول بعض المؤرخين وإنما هو بدافع ديني محض كما أيدنا ذلك بالحجة سواء كانت تلك الحرب مقصودة لحماية الإسلام بتلك الجهات، أو كوسيلة لتخليص فلمبغ من تبعية تضربها وبالإسلام وتعرض بلاد المسلمين لاستعمار الأجانب، أو بقصد تعميم الإسلام بتلك البلاد التي لا يزال أكثر أهلها على وثنيتهم، هذا ما تدلّ عليه القرائن من أسباب حرب فلمبغ[1].

(مولانا السلطان أبو المفاخر بن السلطان محمّد)

من ١٥٩٦ إلى ١٦٤٠ ميلادية موافق ١٠٠٥ إلى ١٠٥٠ هجرية المدة ٤٤ سنة.

وولي السلطنة خلفاً عنه[2] ابنه أبو المفاخر الذي لم يزل عمره خمسة أشهر، فولي أمر الوزارة الشريف (آريارانا مغالا)[3]وهو الذي استطاع أن يحكم البلاد حكماً حازماً ويعيد الأمن والاطمئنان إلى نصابه.

كان الوزير (آريارانا مغالا) حسن المقابلة للهولنديين لأنهم ممن لهم أثر في إنعاش حركة التجارة في بانتن غير أنه لا يتسامح معهم قطُّ في حقوق البلاد فكان يوجد من كل فريق[4] من يحول دون مقاصد الأخر.

لذلك انتقل الهولنديون إلى جكرتا، وكان الحاكم في جكرتا فغيران وجاياكراما وكان غرض هذا الحاكم إنعاش الحركة التجارية حيث أصبحت جكرتا في حالة تأخر بعد أن تقدمت بانتن فلهذا السبب أذن للهولنديين في الإقامة وتعاطي أسباب التجارة في تلك البلدة.

---

(١) «تاريخ الإسلام في بنتن»: ٧٤ ـ ٨٢.

(٢) أي السلطان محمد السابق ذكره.

(٣) قال المؤلف: (آريارانا مغالا) هذا هو ابن مولانا حسن الدين.

(٤) قال المؤلف: أي من الأروباويين كالانكليز والدينمارك والاسبانيين وغيرهم.

وأجاب الهولنديين إلى شراء قطعة من الأرض في جكرتا وإقامة بيت في تلك القطعة بثمن ١٢٠٠ ريال (٢٧٠٠ ربية) وعلى شرط أن يدفع الهولنديون شيئاً معلوماً على كل ما يشترونه في جاكرتا ما سوى مواد الغذاء التي يصدرها الهولنديون إلى الخارج، ومن الشروط أنّ الإسبانيول والبرتقيس لا يسمح لهم بدخول تلك البلدة ثم إن فيتربوتPIETER BOTH طلب من وجاياكراما أن يسمح له ببناء قلعة في جكرتا ولكن وجاياكراما رفض هذا الطلب بل قدر أن مواد الغذاء التي تصدر إلى الخارج يجب أن يدفع عليه جمرك. ولكن مع هذا استطاع (بوت) أن يتحصل على إذن في بناء مخزن للبضائع في محل أنسب شرقي نهر چي ليوغ[1].

(١) ومن الحوادث المهمة التي وقعت في عهد السلطان أبي المفاخر بل هي أهم حادثة في تاريخ الإسلام بأندونسيا حادثة (وِجاياكراما) حاكم جكرتا وبيعه تلك القطعة الصغيرة من الأرض على الهولنديين.

وتفصيل تلك الحادثة كما ذكره المؤرخون هو كما يلي:

عندما تأسست شركة الهند الهولنديّة (كمفنى مترجم) اشترى الهولنديون من وجاياكراما حاكم جكرتا قطعة أرض سعتها خمسون باعاً (٩٤ متراً) بثمن ١٢٠٠ ريال (٢٧٠٠ ربية) وكان ذلك بتاريخ ١٠ نوفمبر عام ١٦١٠، وأمضى الهولنديون صك البيع يوم ١٣ ذلك الشهر في بانتن.

إن وِجاياكراما أقدم على فعله وتم الاتفاق بينه وبين الهولنديين بصفته حاكم جكرتا وبدون موافقة من سلطنة بانتن وأنه كان من السهل على سلطنة بانتن عدم الاعتراف بذلك ولكن هذا قد يؤدي إلى حرب طاحنة مع الهولنديين يرى (آريا رانا مغالا) لزوم تجنبها في ذلك الوقت سيما بعد الاضطراب الذي وقع قبل توليه للوزارة وقبل هذه الحادثة بسنوات قليلة وهناك أمر آخر يوجب على بانتن تجنب الحرب مع الهولنديين في تلك الآونة هو ما كان يحاوله سنافاني سلطان ماترام بعد استيلائه على شربون

(١) «تاريخ الإسلام في بنتن»: ٦٩ - ٧٤.

عام ١٥٩٥ فقد ذكره المؤرخون أنه كان في ذلك الوقت وبعده كان يتأهب لحرب بانتن وجَعْلِها تابعة لماترام فلو اشتبكت بانتن ذلك الوقت في حرب مع هولنده فمن المحتمل أن تتفق هولنده مع ماترام وفلمبغ التابعة لماترام للقضاء على بانتن فمن هذا يتبين لنا جلياً بعد نظر الوزير (آريارانا مغالا) وحصافته وحسن سياسته، ومن هذا يتضح أن الموقف التي وقفته بانتن تجاه تلك المعضلة هو الموقف الجدير بالإعجاب كما أنه الموقف الذي لا تستطيع أن تتخذ غيره بدون تعريض سلطنة بانتن بل وجاوه كلها لخطر عاجل.

(١) إن هذه القطعة التي اشترتها هولنده والتي لا تزيد مساحتها عن ٩٤ متراً مربعاً صارت مساحتها بعد ١٦٧ سنة ١٣١,٥٠٠ كيلو متراً مربعاً وهذا هو مقدار مساحة جاوه ومدورة أي أن تلك القطعة كانت البذرة التي كان ثمرها استعمار هولنده لجزيرة جاوه كلها مع مدورة وكل الجزائر التي منيت بالاستعمار الهولندي وبقيت ترسف في قيوده ثلاثة قرون ونصف؛ ذلك أن الهولنديين بعد أن اشتروا تلك القطعة ليقيموا فيها مخزناً للبضائع ومنزلاً للسكنى أقاموا فيها أو حولوها حصناً ثم أقاموا حول الحصن سوراً منيعاً ثم حصنوا ذلك الحصن بالمدافع والآلات الحربية ثم شحنوه بالعساكر، ثم لم يمض عشر سنوات حتى ناصبوا صاحب جكرتا العداء وشهروا عليه الحرب وأخيراً أحرقوا كل مساكن الوطنيين ومنها قصر حاكم جاكرتا ثم أعلنوا أن البلاد بلادهم وأقاموا فيها الحصون والمعاقل وجعلوها مركزاً لجيوشهم، وقام المسلمون يدافعون عن دينهم وبلادهم فاستمرت الثورات على الهولنديين فلم تنقطع مدة ثلاثمائة سنة وإذا كان هذا مما يدعو إلى الأسف فإن أدعى منه إلى الأسف أن هولنده لم تستطع التغلب على المسلمين [إلا] بتعضيد بعض سلاطين المسلمين أنفسهم كسلطان ماترام الذي كانت عساكره قائمة مع عساكر هولنده في صف واحد لمحاربة المسلمين والذي يجعل من أول شروط الصلح مع هولنده أن تساعده على حرب بانتن وحرب الإمارات الإسلامية التي على سواحل جاوه الأمر الذي كانت نهايته القضاء على ماترام ثم بانتن في رقاب المسلمين جميعهم بهذه الجزائر.

حالة الهولنديين قبل مجيئهم إلى هذه البلاد

قبل وصول الهولنديين إلى هذه الجزائر كان قد سبقتهم البرتقيس[1] واستولوا على امبوك وترناتي وتيدويري في جزائر الملوك عام ١٥٠٩ واستولوا على ملاكا بعد حروب قامت بينهم وبين الأهالي عام ١٥١١، وأسسوا لهم مراكز في البلدان التي استولوا عليها وبنوا بها المعاقل والحصون، واحتكروا التجارة بين ملاكا وجزائر الملوك وبلغ ذلك الاحتكار أقصاه عام ١٥٢٢، ثم تضعضع نفوذهم بتغلب الإسبانيول عليهم عام ١٥٨٠ بعد حروب وقعت بين الفريقين.

وفي عام ١٥١٥ كان الهولنديون خاضعين لملك الإسبانيول كارل الخامس وقامت في أوربا الثورات والحروب الدينية من عام ١٥٦٨ فدامت ٨٠ سنة، وفي ذلك الوقت قام الهولنديون بثورة ضد ملك الإسبانيول (فيليب الثاني) ابن كارل الخامس وكان الهولنديون يترددون إلى (لشبونه) للتجارة فصار الإسبانيول يعاكسونهم ويصادرون تجارتهم وبعد أن استولى الإسبانيول على انتويرڤن عام ١٥٨٥، تضاعفت عليهم الخسائر لأن تلك البلدة كانت مركزاً لتجارة الهولنديين، ولكي نتصور شدة بعض الإسبانيول للهولنديين نذكر أن ملك الإسبانيول مرة أصدر أمراً بأخذ جميع مراكب الهولنديين الراسية في موانىء البرتقيس والإسبانيول وكانت كثيرة فكانت خسارتهم بذلك عظيمة وصاروا في مأزق حرج جدّاً وشعروا أن تجارتهم المحاصرة من كل جانب أخذت في الاضمحلال وكاد ينقطع أملهم في الحصول على بضائع الشرق التي كانوا يجلبونها من لشبونة ولم يبق أمامهم للحصول على تلك البضائع إلا طريق واحد هو طريق بحث المسالك المؤدّية إلى جزائر الشرق الأقصى ليجلبوا منها تلك البضائع رأساً، واستطاعوا بحيلة أن يتحصلوا على بعض خرائط وبيانات كانت مع البرتقيس. وكانت الطريق من أوربا إلى جزائر الشرق الأقصى هي الطريق القديمة تذهب من أوربا جاعلة سواحل أفريقيا عن اليسار حتى تصل إلى

---

(١) أي البرتغاليون.

رأس الرجاء الصّالح ثمّ تعطف وتتجه نحو مدغشكار فالهند فأرض الملايو أو سمطرا فجاوه فجزائر الملوك غير أن الهولنديين لخوفهم من غارات مراكب الإسبانيول الحربية بحثوا عن طريق آخر ظنّوه أقرب وآمن من المخاطر وكان قد سار بتلك الطريق بعض المكتشفين عام ١٥٩٤ ومعهم أربعة مراكب ساروا فيها من أوربا إلى جهة الشمال مسائرين لسواحل روسيا الشمالية فبلغوا إلى خليج (بيريغ) الموصل إلى بحر الصين ورجع أولئك المكتشفون من هناك يحملون البشرى بفتح هذا الطريق، فجهز الهولنديون ٧ مراكب وأبحرت بتلك الطريق الشمالية عام ١٥٩٥ ولم تكد تصل إلى نصف الطريق حتى نشبت بين جبال الثلج العائمة ولم تستطع تخليص نفسها إلا بعد عناء وإتعاب وخسائر فادحة في الأموال والأرواح، وفي سنة ١٥٩٦ أعادوا تلك التجربة فسار من هولنده مركبان بتلك الطريق فما وصلا قرب (نوفازمبلا) حتى اصطدما بصخور الثلج فتحطما ولم يسلم من الركاب إلا القليل عادوا إلى هولنده عام ١٥٩٧ بعد أن ذاقوا الأمرّين، وكان الهولنديون بعد هذه المحاولات انقطع أملهم عن سلوك تلك الطريق، وكانوا قد جهزوا مركباً بالمدافع والآلات الحربية سار بطريق رأس الرجاء الصالح برياسة (كورنيليس) هوتمان عام ١٥٩٥ وبعد الترحل من بلاد إلى بلاد مدة سنة وشهرين وصل إلى بانتن عام ١٥٩٦ (أي السنة التي توفي فيها السلطان محمد بن يوسف).

هذا ملخص ما ذكره المؤرخون عن حالة الهولنديين في بلادهم حين وفد أول وفد منهم إلى هذه الجزائر فالإسبانيون يتربصون بهم الدوائر ويتخطفون مراكبهم من المراسي ويهددون تجارتهم في البحر والبر، وقد سدت في وجوههم أبواب المدن العامرة بالتجارة في أوربا: منعوا عن دخول لشبونة، ثم عن التجارة في انتويرڤن التي كانت أهم مركز تجاري لهم وذهبوا يبحثون عن طريق آمن إلى اندونسيا فحطمت مراكبهم الثلوج وكانت خسائرهم عظيمة في المال والرجال بينما هم في تلك الحالة من الشتات والضعف والذل والهوان وصلوا إلى هذه الجزائر التي قد صار أهلها

أوجلّهم مسلمين، وصار للمسلمين بها دول وممالك عظيمة مستقلة بكلّ معاني الاستقلال مستغنية عن غيرها بما أودع الله في بلادها من منابع الثروة ووفرة الحاصلات وطيب التربة وكثرة الأنهار وأنواع المعادن الثمينة ورخص المعيشة، وكان الإسلام قد رفع هممهم وأعلى مستواهم الفكريّ ودمث من طباعهم وثقفهم بثقافته العالية، كما عودهم مكارم الأخلاق من صدق في المعاملة ورغبة في مساعدة الضعيف ووفاء بالعهود وإكرام للضيف وحسن مقابلة الغريب وغير ذلك من الأخلاق الإسلامية.

(١) فلما جاء هؤلاء الغرباء من الهولنديين إلى جاوه تلقتهم سلطنة بانتن كغيرهم من التجار بالرحب والسعة وأذنت لرئيسهم ببيع بضاعته وشراء ما يحتاج إليه من حاصل البلاد، وكان قد تقدم من الهولنديين من التجار الغرباء كما مر كثير من المسلمين وغير المسلمين من أنحاء مختلفة كالعرب الذين كانوا بجاوه قبل مجيء الهولنديين بقرنين من غير شك أي من قبل عام ١٤١٩ وجاء تجار الكلغ والقزراتيين[١] والملايو وأهل سمطرا وأهل التيمور والصين والبرتقيس وغيرهم وكان هولاء الأجناس يلاقون من حسن المعاملة ومن المساعدات والإرشادات والتسهيلات والأمن على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ما جعلهم يعترفون بالجميل ويقابلون ذلك الجميل بمثله، وحين جاء الهولنديون عوملوا بما يعامل به غيرهم من الغرباء من حسن المقابلة والإكرام ولكن الطبع يغلب التطبع، نسي (هوتمان) أنه غريب وظنّ أنّ حسن المقابلة إنما هي بدافع الخوف منه ومن رجاله فبدرت منه بوادر وقاحة وقلة أدب اضطر حاكم البلد أن يزج به في السجن ليفهم هوتمان أن هناك حكومة وأن هناك نظاماً وعدالة وليفهم أنه كواحد من الناس لا أكثر ولا أقل فلما فهم كل ذلك أطلق سراحه[٢] وعندما سجن تقلد

---

(١) بعض أهل الجمهوريات المسلمة المستقلة عن الاتحاد السوفيتيّ سابقاً.

(٢) قال المؤلف: عاد هوتمان هذا مرة أخرى إلى آچيه وبمجرد ما بدا منه التّغطرس تقربوا إلى الله بقتله.

جماعته السلاح ليظهروا سخف عقولهم وقلة حيائهم فحصلت منهم تعديات خسرتهم نصف عددهم أو نحو ١٥٠ قتيلا وكان مجموعهم مع عمال المركب ٢٤٩ لم يرجع منهم إلى هولنده سوى ٨٩ شخصاً والبقية ذهبوا ضحية الغطرسة والحمق وبعضهم مات في الطريق.

ولما جاءت الطائفة الثانية في ٨ مراكب عام ١٥٩٨ وكان من رؤساها (فان نيك) الذي جاء بصفة أخرى حيث كان ملتزماً ما كان ينبغي من احترام الأهالي وامتثال الحكم واتباع الأوامر على رغبة الهولنديين في إيجاد روابط الصداقة والولاء مع سلطنة بانتن، جاء برسالة خاصة لسلطان بانتن من ملك هولنده ولا يبعد أن يكون في ذلك الكتاب اعتذار عما سبق من (هوتمان) وتأكيد بأن لا يحدث مثل ذلك في المستقبل وذكر بعض المؤرخين أنهم جاؤوا بهدية للسلطان أبي المفاخر الذي لا يزال في دور الصبا وأن تلك الهدية لكونها مما يناسب من هم في مثل سنه أفرحت السلطان كثيراً فسر بسروره الرّعيّة ورجال السلطنة وعدوا تلك المعاملة وذلك الكتاب مع الهدية خير برهان على صدق الرغبة في الصداقة والتعاون فقابلوهم بالمثل وزيادة ورجعت تلك المراكب الثمانية مشحونة بالبضائع منها أربعة شحنت من بانتن واثنتان شحنتا من بندا، ورجع بهما أحد رؤساء ذلك الوفد (هيمس كريك) وأرسل معه على لسان السلطان كتاب لملك هولنده جواب على كتابه السابق، والمركبان الأخيران شحنا من (أمبون) و (ترناتي) يرأسهما (فاوايرويك) وقد تأخر عن أصحابه فوصل إلى هولندا عام ١٦٠٠ ومن أسباب تأخره أنه أقام في بعض تلك الجهات مخزناً للبضائع، ولعل هذا أول مخزن بضائع للهولنديين بهذه الجزائر.

قال المؤرخون إن الهولنديين ربحوا في تلك البضائع أرباحاً ما كانوا يحلمون بها بلغ في بعضها الربح أربعة أضعاف رأس المال فانتعشت تجارتهم وأخذت ثروة بلادهم تنمو وتتضاعف وجاءهم اليسر بعد العسر وذاقوا طعم الحياة بعد الإشراف على الموت: أرباح هائلة ومعاملة حسنة من المسلمين ومن السلطنات الإسلامية، أمن على الأنفس والأموال،

تسامح وكرم ووفاء وأمانة وصدق وبعد عن الغش والخداع ممن عاملوهم من أهل البلاد الذين يحتم عليهم دينهم ذلك وهم أناس غرباء يخالفونهم في الدين والعقيدة كانوا أضعف جنداً وأوهى قوة ذلك الوقت من أهل البلاد فما هو واجب الإنسان بصفته إنسان إزاء هذا كله أليس الواجب عليه أن يقابل الإحسان بمثله وأن يحفظ الجميل لأهله وأن يعرف قيمة ما عومل به من صدق ووفاء نعم إن هذا كان هو الواجب.

فلننظر ماذا قابل الهولنديون ذلك وما هو الأثر المباشر لما أدركوا من ثروة وعرفوا من وفرة حاصلات جاوه.

لقد دلت القرائن وشواهد الأحوال كلها على أن الهولنديين قدروا من ذلك الوقت ومن تلك السنة أن تكون هذه الجزائر لهم وحدهم وأن يستولوا عليها وعلى أهلها وعلى خيراتها ومن لم يخضع لهم من السلاطين والأمراء أخضعوه بالقوة، هذا الذي قرروه في أنفسهم وأجمع عليه أولوا الأمر في هولنده ولكي يصلوا إلى هذه النتيجة بدون أن يشعر أهل البلاد بمقاصدهم تظاهروا بأن لا قصد لهم سوى التجارة وتبادل البضائع مع أهل البلاد فأقاموا عام ١٦٠٢ تلك الشركة التجارية التي سموها شركة الهند الشرقية والمعروفة عند الأهالي باسم (كمفني) والتي يدل عليها بالأحرف الثلاثة(V. O. C.) ولا أدل على مقاصد هولنده بإقامة هذه الشركة من تلك السلطة والحقوق التي أعطيت لها. ذكر (سنوسي فاني) بعض تلك الحقوق فقال ص٢ ج ٢ ما تعريبه: الشركة هي التي لها الحق دون غيرها في التجارة في البلاد التي تكون شرق رأس الرجاء الصالح بأفريقيا إلى خليج ماخلهانس بأمريكا الجنوبية، وللشركة الحق في أن تحارب وتعقد المعاهدات وتمتلك الأراضي وتقيم الحصون والقلاع من تلك الأماكن وزاد المؤرخ (رشيدين) صاحب كتاب تاريخ أندونسيا ص ٩ قوله: وأعطيت هذه الشركة وكالة في عقد المعاهدات مع الملوك والأمراء الوطنيين ودفع مرتبات العساكر وإقامة القلاع وضرب النقود وإقامة الولاة والحكام وعلى كل موظفي الشركة أن يحلفوا

يمين الإخلاص وعلى الشركة أن تقوم بكلّ ما يمكنها من محاربة أعداء هولنده انتهى.

هذه هي الحقوق التي أعطيت للشركة وهذا الذي اطلعنا عليه وفيه الكفاية لأن يجعلنا لا نشك في أن هذه حكومة في صورة شركة تجارية إذ أن لها عساكرها وقلاعها وحصونها وولاتها وحكامها وموظفوها ولها حق عهد المعاهدات مع الملوك والسلاطين ومحاربة من يناصب الحكومة الهولندية العداء.

وقد قلنا إنه لا أدل على مقاصد هولنده من تلك الحقوق التي أعطيت للشركة ومن لا يصدق بعد هذا أن الهولنديين قرروا الاستيلاء على هذه البلاد نهائياً فابتدأوا العمل بإقامة هذه الشركة لتمهد لهم طريق الاستيلاء، وقد وقع هذا بالفعل عام ١٦٧٨ صارت جاوه كلها تقريباً تحت حكم الشركة أي بعد تأسيسها بست وثمانين سنة فقط، أما الأرباح التي تحصلت عليها في بحر تلك المدة تفوق كل تصور ومن تلك الأرباح التي اكتسبتها بالظلم والعسف بنت حكومة هولنده في بلادها المعاقل الحصينة وأقامت الجسور والسدود ومدت السكك وصنعت البوارج ووسعت مصانع الأسلحة والآت الحرب لتقاوم بذلك من يثور عليها من أهل البلاد التي جنت منها تلك الأرباح، وهذا هو الوفاء ومعرفة الجميل في اصطلاح أوربا التي هولنده جزء منها تشاركها في أخلاقها ومبادئها، وأكبر برهان على أن تلك الشركة بما ربحته هي المصدر الوحيد لقوة هولنده أنه عندما وقعت الحرب بين هولنده وانكلترا عام ١٦٦٥ ـ ١٦٦٧ قدمت الشركة الهولندية مساعدات عظيمة من جملتها عشرون مركباً حربياً.

ولما بلغت الشركة ذلك المبلغ تسببوا في إيجاد خسائر وديون على الشركة وجعلوا ذلك وسيلة إلى تحويلها إلى الحكومة أو بمعنى أوضح تحويل تلك الشركة إلى حكومة تحويلاً صريحاً رسميّاً لا شائبة فيه وتم ذلك عام ١٨٠٠ وسموا هذه الجزائر (هنديا نيدرلاند) أي الهند الهولندية.

لم نذكر هذه كلّه إلا لتقرير تلك الحقيقة التي أشرنا إليها من أن

هولنده من تلك السنة التي عرفت فيها جاوه وخيراتها وأخلاق أهلها قد قررت الاستيلاء عليها وأن جميع المظاهر التي كانت تتستر بها من شركة تجارية ومعاهدات ومفاوضات كلها مكر وخداع كشفها ما وقع بالفعل من تلك الأمة.

(١) فلننظر الآن إلى ما كان لتلك الحادثة في تمركز الإسلام وانتشار تعاليمه بجاوه وغيرها وتقوية أوامر الوحدة الدينية بين مختلف العناصر التي يتألف منها مجموع سكان هذه الجزائر وازدياد فهم تلك العناصر لمعنى الأخوة الإسلامية حتى أصبحت تلك الوحدة الدينية هي وحدها القوة الروحية المسيطرة على المجتمع الأندونيسي كله وهي التي غذّت جميع الثورات في سمطرا وجاوه وبرنيو وجزائر التيمور فكانت تلك الثورات كسلسلة متواصلة الحلقات من حوالي عام ١٦٢٠ إلى عام ١٩١٣ - أي مدة ٣٠٠ سنة فكل تلك الثورات دينية وكلّها ضد الاستعمار الهولنديّ.

(٢) وتلك القوّة هي التي من جهة أخرى كانت تغذي تلك الأربطة والمعاهد الدينية التي بقيت طول تلك المدة في ازدياد وانتشار مستمر حتى صارت لا تخلو منها قرية من القرى فضلاً عن المدن فمن النادر أن تجد قرية ليس فيها عالم ديني (كياهي) له رباطه وله تلامذة.

(٣) ومن مظاهر تلك الوحدة الدينية والأخوة الإسلامية ما أقيم في مدة الثلاثة القرون من مساجد ومعابد ومصليات وجوامع عظيمة في كل ناحية حتى في رؤوس الجبال وداخل الغابات، فهذه القوة بقيت تعمل عملها حتى بعد أن قضى الاستعمار الأوربي على كل سلطة إسلامية في جاوه وفي غيرها.

(٤) وقد أشار إلى ما ذكرنا العلامة المؤرخ الشهير (بيارغونو) كما لحظ ذلك عنه الأمير شكيب أرسلان في حاضر العالم الإسلامي ص ٣٥٠ جزء١ فقال: فالعرب لم يؤسسوا في الحقيقة سلطنة إسلامية جامعة في بلاد الجاوي لأنه كان يحول دون اتحاد السلطة هناك حوائل كثيرة وإنما أسسوا

هيئة اجتماعية إسلامية مانعة يمكنها أن تبقى ثابتة من فوق الممالك المتداعية إلى السقوط فالآن توجد أمة ماليزية[1] محمّدية قد وحّد الإسلام بين أجزائها وأورثها قوة جعلتها تقف في وجه الغرباء الذين يحاولون فك أوصالها ومكنتها تمكيناً في تلك الأرض فليس في الجاوى قوة سواها».

(١) بعد هذا التمهيد نستطيع أن نتصور الموقف الدقيق الذي منع بانتن من الدخول في حرب مع هولنده قد تنتهي بالقضاء على مستقبل الإسلام بهذه الجزائر كما وقع في جزائر (فليفين)[2] فقد دخل الإسلام إلى تلك الجزائر منذ عام ١٤٧٥ وقامت بها دول إسلامية فلما جاء الإسبانيول إلى هناك عام ١٥٢١ كانت سياستهم موجهة إلى نشر النصرانية ومحو الإسلام فكان ذلك بادىء بدء في صلاح الإسلام فازداد انتشاره بتلك الأصقاع وقويت شوكته على خلاف ما كان يظن الإسبانيول ولذلك أسباب معقولة ذكرها المؤرخون.

(٢) قال سالم هارهاب فيما ترجمه عن (عراو فورد) eraw furd ص ٤٨ أن سبب تغلب الإسلام هو ما تحققه الأهالي بأن اعتناقهم للنصرانية معناه إضاعة استقلالهم وما كان لهم من حرية في التمتع بمرافق بلادهم وما صحب الدعوة إلى النصرانية من استعباد لهم ومما يتخذه الدعاة إلى النصرانية من ظلم واضطهاد فظهر لهم بذلك الفرق البعيد بين الدعاة إلى النصرانية والدعاة إلى الإسلام فإن الدعاة المسلمين كانوا يخاطبون أهل البلاد بلغتهم وقد صاهروهم وتعودوا عادتهم ولم يظهر منهم ترفع واستكبار ولم يجعلوا لأنفسهم امتيازات مادية تجر إليهم منافع خصوصية لأنفسهم ولم يحصل منهم اضطهاد للأهالي ولم يعتبروهم كالمتاع أو الحيوان الذي لا قيمة له في حين أن الإسبانيول لا يفهمون لغة أهل البلاد وعاداتهم وليسوا على شيء من اللطف فهم بما صدر منهم من اضطهاد وظلم وغطرسة قد

---

(١) قال المؤلف: يريد عموم سكان هذه الجزائر من الوطنيين والذين يطلق عليهم الآن اندونيسيون.

(٢) يقصد جزائر الفلبين.

شوهوا سمعة النصرانية أيّ تشويه، وجعلوا نشرها بين الأهالي وسيلة إلى التغلب السياسي[1].

(١) وبالجملة فقد استمرت الحروب والثورات والغارات البرية والبحرية بين المسلمين والإسبانيول مُدة قرون وأخيراً تداخلت أميركا في الأمر وطردت الإسبانيول من الفليفين حوالي عام ١٨٩٧ واستعمرت هي تلك البلاد وأحسنت معاملة المسلمين وحاولت ترقية شؤونهم ولكن كانت تلك الحروب مع الإسبانيول قد أنهكت قواهم الحسية والمعنوية وقبل أمريكا كان الإنكليز قد احتلوا مانيلا عام ١٧٦٣ ثم انجلوا عنها، ولما احتل الإنكليز مانيلا عاملوا المسلمين معاملة حسنة ولكن لم يبق من زعماء المسلمين على ما يظهر من يستطيع أن يستفيد بالطرق السلمية من الإنكليز ولا من أمريكا فيما بعد ولهذا أسباب أخرى قد تظهرها الأبحاث التي يقوم بها المنصفون في المستقبل ولعل في ذلك الأسباب بين عوامل بقاء الإسلام متغلباً على كل شيء في جاوه الغربية والشرقية وفي سواحل جاوه وفي آچيه ومواضع أخرى بسمطرا وبين العوامل التي سببت ضعف أمر المسلمين في فليفين وكمبوجا والصين وغيرها.

(٢) اشترت هولنده تلك القطعة في جكرتا.

ثم استولت على جكرتا بعد تسع سنوات عام ١٦١٩

واستولت على كراواغ عام ١٦٧٧

واستولت على سماراغ عام ١٦٧٨

واستولت على شربون وفريغين عام ١٧٠٥

واستولت على مدورة وسُربايه وجرانا وربمغ عام ١٧٤٣

واستولت على تقل وفكلوغن عام ١٧٤٦

واستولت على بانتن عام ١٧٥٢

واستولت على ماترام عام ١٧٤٩

---

(١) قال المؤلف: لا تنس أن هذا الكاتب الذي نقل عنه سالم هارهاب هو أوروبيّ نصرانيّ يشهد بذلك للمسلمين.

ثم صولو وجكجاعام ١٧٥٥
واستولت على بانيوواغي عام ١٧٧٧

وبذلك تم لها الاستيلاء على جاوه ومدوره كلها.

ووقعت حروب وثورات من تلك الدول ومن الأهالي بعد تلك التواريخ التي ذكرناها وقامت في سمطرا حروب وثورات هائلة بقيت إلى حوالي عام ١٩١٣.

ترونوجويو

كلّ مسلمي جاوه شافعية على مذهب أهل السنة والجماعة، هذا هو الذي تم به التماسك وتوثّق به الارتباط بين عموم مسلمي هذه الجزائر وهذا هو الذي حصر فكرة مزج العقائد الإسلامية بما لا يتفق بها من اعتقادات الجاويين القديمة في دائرة ضيقة جدّاً لم تستطع الخروج عنها وقد تجلى هذا الحصر بأكمل معانيه عندما ثار الزعيم الديني والمجاهد العظيم المسمى (ترونوجويو) عام ١٦٧٤ - ١٦٧٧ قام هذا الزعيم يدفعه صدق الإيمان وسلامة العقيدة والغيرة على الدين ولأجل تتضح للقارىء الأسباب الحقيقية لقيامه لا مندوحة لنا عن ذكر ما قاله المؤرخون مما يصح أن يكون من أسباب تلك الثورة.

قال سنوسي فاني عند ذكر منكورات الأول[١] ما تعريبه:

(١) إن الهولنديين يذكرون أن منكورات الأول كان ظالماً وأنه لذلك قامت الرعية ضده، نعم إن واحداً من أولئك الكتاب قال إن منكورات يحكم بيد من حديد لأجل توحيد جاوه ومنع سقوط ماترام وأنه آخر الأمر أصيب بمرض روحي[٢] ثم قال:

---

(١) قال المؤلف: هذا هو سلطان ماترام الذي تولى من عام ١٦٤٥ إلى ١٦٧٧ بعد وفاة والده الملقب سلطان اقغ، ومنكورات هذا هو الذي ثار عليه المسلمون بزعامة ترونوجويو.

(٢) قال المؤلف: لعله عقليّ.

ويقولون أيضاً إن منكورات الأول كان ضد الإسلام لأنه أمر بقتل كثير من العلماء.

(١) إن منكورات هذا هو الذي ثار عليه المسلمون بزعامة المجاهد العظيم ترونوجويو وقد استشهدنا بكلام سنوسي فاني فيه لنقول (وشهد شاهد من أهلها) لأن سنوسي فاني كما قد ذكرنا مراراً هو أكثر الكتاب المتأخرين تعصباً لماترام وهندوكيتها وهو وإن لم يظهر موافقته وإنما حكى ما قاله مؤرخو الهولنديين فإنه لم يستطع أن يكذب ذلك أو ينفيه بحجة ولو استطاع ذلك لما تأخر عنه وشهادة الهولنديين بذلك هي أكبر حجة لأن منكورات المذكور هو أكبر المناصرين والموالين لهم، فقول الهولنديين إن منكورات ضد الإسلام وأنه أمر بقتل كثير من العلماء يغنينا عن الإطالة في بيان أسباب تلك الثورة.

(٢) لم يبق لدى المسلمين صبر ولا احتمال على ما تريد أن تحملهم عليه ماترام بالقوة ولقد تجلت في هذه الثورة معاني الأخوة الإسلامية بأجلى معانيها حيث توافد المجاهدون من كل النواحي ليس من جاوه ومدورة فقط بل فيهم من البوقيس أهل (سليبس) وأهل(مكاسر) وهم من أشجع مسلمي هذه الجزائر وأشدهم تمسكاً بمذهب أهل السنة، هاجروا من بلدانهم التي تغلبت عليها هولنده بالقوة فكانوا أعواناً لكل من يقوم ضد هولنده وأذنابها ولم تقصر سلطنة بانتن في مساعدة هذا المجاهد فأمدته بالسلاح والمال والرجال[١]، وبدت في هذه الثورة صورة الوحدة الإسلامية بأندونسيا مجسمة وذلك بإقبال المجاهدين المتطوعين من كل حدب وصوب بكثرة وبرغبة شديدة من قلوبهم في الانضمام إلى الثوار وهاك ما قاله سنوسي فاني عن ثورة (ترونوجويو) معرّبا بتلخيص بعد أن ذكر استيلاء هولنده على مكاسر قال: كثر المجاهدون من أهل مكاسر إلى بانتن وجاوه الشرقية لمتابعة كفاحهم ضد الهولنديين كذلك البوقيسيون هاجر كثير منهم من بلاده

---

(١) قال المؤلف: في عهد السلطان أبو الفتح عبد الفتّاح.

واستطاعوا الاستيلاء على بعض أماكن وقد عقد أولئك المكاسريون اتفاقاً مع ترونوجويو[1].

وكان ترنوجويو غير مرتاح من بقاء عمه (چكرا ننقرات الثاني) في ماترام غير مهتم بأمر الحكومة في مدورة كما أنه أي (ترونوجويو) شديد الأسف لما يراه من ازدياد نفوذ الهولنديون بجاوه لذلك رأى أن يستقل بالأمر في مدوره [وسرعان ما قبله] الأهالي والياً عليهم.

وكان أهل مدورة يكرهون چكرا ننقرات الثاني أشد الكره وقام بتعضيد ترونوجويو الزعيم المسمى (كاريغ فاليسون) وهو الزعيم الأكبر لأهل (مكاسر) كما قام بنصرة ترونوجويو ومساعدته أيضاً شريف قيرى، وبدأ المكاسريون بإقامة العراقل في سبيل الهولنديين الذين يأخذون الأرز إلى بتاوي فجهز الهولنديون جيشاً سار مع جيش ماترام إلى ديموغ، وكان الأسطول الهولنديّ في البحر مساير للجيوش البرية معضداً لحركاتها وكان ذلك عام ١٦٧٦ فعمد المكاسريون لهذه الجيوش (جيش هولنده وجيش ماترام) من البر وأسطول هولنده من البحر، وبعد معارك حامية دارت الدائرة على ماترام وهولنده ومزق المسلمون تلك الجيوش البرية والبحرية كل ممزق وخسر الهولنديون وماترام في تلك الوقائع خسائر هائلة.

بعد ذلك الانتصار ضمّ رئيس المكاسريين جيشه إلى جيش ترونوجويو، (فتكونت بذلك جبهة واحدة من جيوش أهل السنة والجماعة ضد الهولنديين المستعمرين وماترام المساعدة لهم والقائمة بتأييد خطة مزج العقائد الوثنية بعقائد الإسلام[2]) بعد انهزام هولنده وماترام هذا الانهزام رأى الهولنديون أن الأولى بهم فتح باب المفاوضة مع المجاهدين فطلبوا من ترونوجويو وكارغ قليسوغ المفاوضة لأول مرة فكان جواب الاثنين معاً رفض كل مفاوضة رفضاً باتاً ثم توجهت جيوش المجاهدين إلى جاوه وما

---

(١) قال المؤلف: بايعوه على الجهاد.

(٢) قال المؤلف: هذا الذي بين القوسين بيان من عندنا لا من الأصل.

كادت تلك الجيوش تطأ أرض جاوه حتى أقبل الجاويون المتطوعون إلى الانضمام إلى المجاهدين بكثرة لأن الرعية يكرهون الهولنديين، ثم التحم القتال بجاوه بين جيش المجاهدين وجيش هولنده وماترام حتى تم النصر للمجاهدين واستولوا على دمك واستولوا على سماراغ وكان ذلك عام ١٦٧٦.

هذا ما أردنا تعريبه عن سنوسي فاني وسنأتي على بقية كلامه بعد البيان المهم الذي سنذكره في ما يلي:

منكروات الأول يبيع جاوه

عندما تحرّج موقف منكورات الأول لم يجد طريقة يتحصل بها على مساعدة جدية من الهولنديين غير التضحية ببلاد المسلمين في صورة معاهدة يضمنون له بها إخضاع الثائرين عليه ويتحمل هو مصاريف جيش هولنده التي لا تقل عن مليون وسبعمائة ألف ربية كل ذلك ليقوم الهولنديون وأعوانهم بالقبض على المجاهد العظيم (ترونوجويو) وقد قام الهولنديون بذلك وحشدوا كل قواهم وتحملوا خسائر فادحة حتى تمّ القبض على المجاهد (ترونوجويو) وجيء به أسيراً إلى منكورات الأول وشفى هذا الظالم غليله فتولى هو بنفسه قتل ذلك المجاهد الذي قام بالدفاع عن الإسلام والمسلمين.

وقد انتقم المولى منه فلم يتمتع بعد ذلك بملك ولا سلطان فاختل عقله وترك قصره ومن فيه وما فيه وذهب هائماً على وجهه حتى مات وحيداً فريداً طريداً.

وولت هولنده بعده منكورات آخر ليمضي لها في حجة أخرى بأن سواحل جاوه تكون مرهونة في يد هولنده تستلم حاصلاتها إلى أن تستوفي كل ما لها من الديون ولم تطل المدة حتى وقع ما يعرفه كل الناس من استيلاء هولنده على جاوه كلها وكل الجزائر الأخرى بأندونسيا.

أيّ جناية على الإسلام أكبر من هذه الجناية؟ أي تعد على حقوق المسلمين أعظم من هذا التعدي؟ وأي ظلم أشنع من هذا الظلم؟ هذا ما سجله التاريخ على سلاطين ماترام وشهد به عليهم كل المؤرخـون حتى أشدهم تعصباً لماترام وهندوكيتها مثل سنوسي وأضرابه.

ولقد ظنّ الهولنديّون أنهم بالقضاء على تلك الثورة قد تمّ لهم كل شيء وأنّهم بجرّة قلم من منكورات على قصاصة من الورق قد ملكوا قلوب المسلمين وزلزلوا أساس الوحدة الإسلامية وما دروا أن تلك التعديات هي العوامل الفعالة لتقوية أواصر الجامعة الإسلامية بأنـدونسيا، تلك الجـامعة التي قد حازت طور التكون وبلغت من القوة والمتانة مبلغاً لا يؤثـر عليه إخضاع ثورة أو قتل زعيم واستعداء حاكم أو استيلاء على حـاصلات أو سلب سلطة لا قيمة لها.

لو كان ما ظنه الهولنديون حقّاً لما سمعنا تاريخ الإسلام بأنـدونسيا يحدثنا بثورات عنيفة قام بها المسلمون ضد هولنده تبتدىء من عام ١٦٨٣ أي بعد ثورة ترونوجويو بست سنوات فقط ثم تتتابع هنا وهناك فلا تنتهي إلاّ عام ١٩١٣ ويرينا المولى انهزام هولنده عام ١٩٤٢ ويبقى الإسلام بعد ذلك كما كان وزيادة بمساجده ومعاهده وأربطته وجمعياته وأحزابه يكوّن ٩٠ في المائة من السبعين مليون الذي يسكنون هذه الجزائر[١] والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظّالمين.

---

(١) هذا كان في الماضي أما الآن فإنهم يقاربون مائتي مليون.

مختارات القرن الحادي عشر
من كتاب
«نشر المثاني لأهل القرن
الحادي عشر والثاني»

تأليف الشيخ

محمد بن الطيب القادري



المائة الحادية

فمن اهل العشرة الأولى منها:

احمد بن علي الزمّوريّ

الشيخ الفقيه الأستاذ الأديب العالم أبو العباس الزمّوريّ، لا أدري أنسبةً للقبيلة المعلومة من البربر أم للبلد التي هي تعرف بساحل دكالة أو غير ذلك.

كان إماماً عالماً أديباً من أعلام أئمة فاس. قال في المطمح: «وكان يبعث إليه أبو العباس المنصور في رمضان يقدم لمراكش يصلي به التراويح لحسن صوته وجودة حفظه.

(١) ودخل يوماً على الشيخ أبي النعيم رضوان فوجده مع الفقراء[1] وهم مجتمعون للذكر، فلما فرغوا سلم على الشيخ وقال كلمة لم يستحسنها الشيخ منه وأعادها كالمنكر عليه وغلظ له القول، فعمل ذلك عنده وقال في نفسه: إن هذا الشيخ لراض عن نفسه وسقط بذلك من عينه. فرأى الشيخ رضوان في نومه بيده سوط يهدده يقول له: تعاتبني! ويكررها عليه، ثم قال له: لو لا ما في صدرك من العلم لأوجعتك بهذه، قال: ثم انتبهت وبقلبي ارتجاف لما رأيت، فاستغفرت الله من ذلك.

ثم قال: وأخذ عن الشيخ أبي القاسم بن محمد بن محمد بن إبراهيم المشترائي، أخذ عنه القراآت السبعة، وله معرفة وافرة بالعلوم القرآنية وغيرها من رسم وأداء وتفسير وحديث وعربية وغير ذلك» انتهى.

---

(١) الصُّوفيَّة.

وقال العلامة الصالح إبراهيم الكلاليّ: من جملة من وجدت حياً من أشياخ فاس الأستاذ الحافظ المعبر المنشىء الفقيه الفهامة شيخنا وبركتنا سيدي أبو العباس أحمد الزمّوريّ رحمه الله تعالى.

(١) وكان رحمه الله حلو العبارة فصيح اللسان جيد الحفظ دقيق الفهم. وكان يقرأ التفسير للإمام الفخر الرازيّ، حضرت مجلسه ذات يوم فقرأ قوله تعالى: ﴿وأحل الله البيع وحرّم الربا﴾ حكى فيها رحمه الله ما ينوف على الثلاثة والعشرين تأويلاً كلها بالحفظ، وهو ينقلها رحمه الله ويعد في أصابعه، ثم قال رحمه الله ما نصه: فإن قلت قوله تعالى: ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ هذه الآية تشهد لمذاهب المعتزلة في قولهم: العصاة أهل الكبائر الذين ماتوا ولم يتوبوا هم مخلدون في النار، لقوله: ومن عاد إلى فعل الربا فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ثم قال رحمه الله: وأجيب عن الآية لأهل السنة بأوجه أقربها وجهان أحدهما أن قوله: ومن عاد، معناه عاد إلى اعتقاده حلية الربا بدليل قوله: «وأحل الله البيع وحرم الربا» أي فمن خالف ذلك واعتقد حلية الربا فهو مخلد في النار، ولا شك أن من حلل ما حرم الله فهو كافر، وهذا على إبقاء الخلود على بابه. والجواب الثاني أن نقول: الخلود بمعنى طول المدة. هكذا سمعت منه رحمه الله من لفظه ذلك، وآخر يوم من قراءته في التفسير المذكور وقف على قوله تبارك وتعالى: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾ الآية. فكررها على لسانه رحمه الله ورددها وخللها بما يناسبها من المواعظ، فما بقي إلا قليلاً ومرض مرضه الذي توفي منه[1].

محمد بن علي الحاج الأغصاويّ

قتله أمير فاس في وقته، السلطان محمد الشيخ المأمون بن أبي العباس المنصور.

---

(١) «نشر المثاني»: ١/٣٦ - ٣٨. وتوفي - رحمه الله - سنة ١٠٠١ هـ.

«معارضة صاحب الترجمة في بيع حصن العرائش للنصارى»:

(١) كتب له رسالة أغلظ له فيها القول فرأيت في بعض التقاييد أن محمد الشيخ المأمون أراد أن يبيع مدينة القصر وحصن العرائش وحصن أصيلا للنصارى دمرهم الله في فكاك أولاد عمه الذين كانوا مأسورين عند النصارى، فكان صاحب الترجمة يقول: لو حمل أهل الغرب خراجاً يدفعونه للنصارى في فكاك المأسورين لكان أهون. فخالفه في ذلك محمد الشيخ بأنه لابد من بيع المدائن المذكورة، ووافقه على ذلك بعض من لا خلاق له، فصرح صاحب الترجمة بأن محمداً الشيخ تنقض بيعته بهذا السبب، فغضب لذلك الشيخ حيث وصله خبره، فكتب أخ صاحب الترجمة وهو علي إلى الشيخ يعتذر عن أخيه، ويتطلب بأن أخاه مجذوب تغلب عليه الأحوال ومن كان هكذا لا يؤاخذ بما يصدر منه، ثم إن صاحب الترجمة اطلع على ما كتب للشيخ فكتب بظهر كتاب أخيه المذكور مخاطباً السلطان محمد الشيخ ما نصه: ما قاله علي، يعني أخاه، بعضه حق وبعضه كذب، بأي موجب قلعت محلتك من سلا وأتيت مهرولاً لهتك حرمة الإسلام؟ ومن ألزمك صرخة عبدة الأصنام والأوثان؟ أكفر بعد إيمان؟ والله ما تبدل لي ديني أنت ولا عليّ، وبالله الذي لا إله إلا هو لا يحلف بأجلّ منه المهيمن الديان لو وصلت إلى تطاون إلا لقيتك بالله ورسوله حماية للكلمة الإسلامية وغيرة على الأمة المحمدية حتى تسمع مني ما قال فيه سيدنا رسول الله ﷺ: «معظم الدين النصيحة». لكن لا إيمان لك مع الذين على عهده ولا عهدة، الحمد لله الذي أبعدني عن صحبتك، فقد أراد بي خيراً والله لا سعيت في وصلك أبداً لأن وصلك بعدٌ من الله، وفصلك قرب من الله. فالوجود كله كان يخاطبني باللعنة الصريحة بسبب مخالطتك، فلا تطمع بوصالي أبداً لأني وصلتك في الله، ولم أخش في الله لومة لائم، وليس محمد بقائم[1] والموت محيط بكل أحد، وهو قنطرة بين

---

(١) يعني نفسه ـ رحمه الله ـ.

دار البقاء ودار الفناء فإذا لقيت الله وهو راض عني لا أبالي بما ألقى قبل لقائه، ولا خوف إلا لمن يقتل ولا يغفر، فإن كنت تقتل والله يغفر فلا فائدة في قتلك، والموت كما قيل مسلك ينتهج فيه المالك والمملوك، فأنا اليوم وأنت غداً، وعند ربكم تختصمون، أليس الله بكاف عبده، ويخوفونك بالذين من دونه، ومن يضلل الله فما له من هاد، ومن يهد الله فما له من مضل. فكيف يا مخذول تسلم للنصارى ـ دمرهم الله ـ حصون المسلمين ومعاقل الدين والمساجد التي عبدوا فيها الله وتلي فيها كلام الله وانتصبت محاربهم لقبلة الإسلام وتعلقت بهم من حرمة مسجد الله الحرام ما أقامه مقامه في محلهم، كأنك لم تسمع قوله جل من قائل: **﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام﴾**[1] وكيف تصح النسبة للإسلام لمن لم ينصر شرائع الدين قلماً وقدماً؟ سبحان الله وبحمده، نعم لو بعثت أربعة رجال من سلا[2] لِمَا ظهر لك لوقع الكلام مع الناس ويتفاوضون في الرأي الصالح والحاضر ويصير فيها ما يوافق شريعة الإسلام وفقاً طوعياً عن رضى وتراض لكان أسلم لك عن هذا الخصوص، وإلا حيث سولت لك نفسك تسمع كلام من لا خلاق له، من باع آخرته بدنياه، ومن يرى القرب منك أعظم من القرب من الله، ورأيت كأن الخلق ليس لهم خالق بل أنت خالقهم وليس غيرك، وأنك أحطت بجميع الخلق وأرواحهم بيدك، فإذا استطعت قبض أرواحهم فافعل ما تريد، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فكيف يا مسكين انطمست بصيرتك عن منهاج الحق وتحملت سريرتك ما لا يطاوع من الخبث؟ لو كان الخير فيك لعكس بصرك إلى بصيرتك ولاتخذت من العلماء لصحبتك أهل الورع الذين تجدهم دنيا وأخرى ولظهر حسن سيرتك على خديمك من زمان، من هو ملازم لخدمتك الآن لا يحرم حراماً كان، ولا يكون لك عليه ملك، لا حاجة لي بخلطتك ألبتة، قل فللّه الحجة البالغة، ومن أسر سريرة ألبسه الله رداءها، والسلام.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٨.

(٢) أي: اثنين وعشرين وألف.

تمكين المأمون السعديّ النصارى من العرائش:

(١) وهذا الأمر الذي رام هذا الظالم لنفسه أمر عظيم. فإن في تسليم هذه الحصون للنصارى أعداء الله ورسوله إدخالاً للوهن على بيضة الإسلام، وتوهيناً لأمة النبي عليه الصلاة والسلام وتمكيناً لهم من أسرهم مدى الليالي والأيام، فإن كثيراً من أهل تلك الناحية ضعفة لا يستطيعون حرص أنفسهم من الكفار مع كونهم معهم قرب منازلهم فيفضي الأمر إلى أسر أكثر وأكثر من الذين أراد فداءهم، ولا يُضَر مسلم لإنقاذ مسلم آخر، فإن الجميع له ذمة الإسلام، على أنه ربما لزم منه استئصال الإسلام من أصله من هذا الغرب المشتمل على أمم لا يحصيها إلا الله تعالى، وفيهم من الضعفاء والأرامل كذلك من لا يستطيعون دفعاً عن أنفسهم كما وقع في بلاد الأندلس، أعادها الله دار إسلام، فإن سبب أخذها واستيلاء النصارى على حصونها ورباطاتها بغفلة المسلمين وتراخيهم ومسامحتهم، وكلما استولوا على حصن وقع اليأس من استنقاذه حتى استولوا على الجميع، دمر الله العدو ونصر الإسلام، بعد أن قاتلهم أهل الإسلام أشد القتال وفعلوا بهم الأفاعيل العظيمة، ومع ذلك لم يغنوا شيئاً في رد الحصون إذ كان العدو محتفلاً لها شديد الحرص على أخذها ينتهز الفرصة في ذلك دائماً حتى تمكن من الجميع، فكان مراد الله تبارك وتعالى، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، فالحمد الله على نصر الإسلام. فإن هذا الظالم تمادى على رأيه الفاسد في عامه هذا حتى تمكن النصارى من حصن العرائش عام تسعة عشر كما يأتي في محله، واغتم المسلمون من ذلك خوف أن يمكن الكفار حصناً آخر لما في ذلك من هزم قلوب الإسلام، ثم بعد ذلك أو قبله أحل بلاد النصارى وتكلم معهم أن يمدوه بالعدد، والعدو رام الخروج من البحر على تطاون فمنعه من له بها الشوكة حينئذ كأولاد النقسيس، فخرج من الريف ثم بعد ذلك قتله المقدم أبو الليف وكان قتله عام اثنين وعشرين.

«استعادة العرائش على يد السلطان مولاي إسماعيل»:

ثم بعد مدة من نحو ثمانين سنة رد الله تعالى حصن العرائش المذكور للمسلمين، ففتحت على يد السلطان المظفر الملك الأغر الشريف الأشهر مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف الحسنيّ في عام واحد ومائة وألف فهي الآن في أيادي الإسلام والحمد لله.

(١) «محاولة الفرنصيص الاستيلاء على العرائش سنة ١١٧٩ هـ»:

وقد قصد النصارى ـ دمرهم الله ـ من الفرنصيص وغيرهم الحصار عليها وذلك في سابع محرم عام تسعة وسبعين ومائة وألف فقصدوا حصولها فرموا نحو سبعة آلاف من كور الأنفاض وعدة كثيرة من البنب[1] فيما بلغنا حتى هدموا سورها مما يلي البحر، وهدم غالب دورها ومساجدها حتى خرج منه المسلمون، ولما علم النصارى بإخلائها خرجوا فعمدوا لبعض سفن مولانا السلطان نصره الله وأدام علاه قاصدين إحراقها فنهض إليهم جيش المسلمين، وناجزوهم بالقتال وهم بالواد، فمنحهم الله أكتافهم، فبقي النصارى بين أيدي المسلمين بين أسير وقتيل نحو ستمائة منهم أحياء وثمانون أقدمهم للسلطان الإمام المظفر ذي الملك الشامخ الأظهر سيدي محمد بن مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل الحسنيّ أدام الله نصره وأعلى بين الأنام قدره وهو بحضرة مراكش المحروسة بالله تعالى فأمر بتحصين المدينة وبناء أسوارها وحصنها تحصيناً منيعاً وهيأ لها العدد، فهي منه في حصن منيع وقدر رفيع، ولله الحمد.

(٢) «الحديث الذي استند إليه الأغصاويّ في معارضة المأمون»:

ولنرجع إلى المقصود. اعلم أن الحديث الذي أشار إليه صاحب الترجمة أخرجه مسلم عن تميم بن أوس الداري، أخرجه أيضاً البخاري في تاريخه أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة»، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال:

---

(١) القنابل.

لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. قال الشيخ زروق رضي الله عنه في «النصيحة الكافية»: فالنصيحة لله باتباع أمره ونصرة دينه والتسليم له في حكمه، والنصيحة لرسوله باتباع سنته وإكرام قرابته والشفقة على أمته، والنصيحة لكتابه بتدبير آياته واتباع أموراته وتحسين تلاوته، والنصيحة لعامة المسلمين بالذب عن أعراضهم وإقامة حرمتهم والنصر لهم في جميع أحوالهم جلباً ودفعاً، والنصيحة لخاصتهم بالطاعة للأمراء إلا في محرم مجمع عليه، والتصديق للعلماء إلا فيما لا يهدي العلم إليه. انتهى بنصه. فقول صاحب الترجمة في مكاتبة السلطان المذكور: معظم الدين النصيحة، زاد لفظه «معظم» كالإشارة لما اشتمل عليه هذا الحديث الكريم من أمور الدين التي هي من المهمات فهي من مهماته.

(١) ثم إن تغليظه له في محله، وإن أفضى ذلك إلى قتله، فقد فاز بالشهادة لقول رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه والإمام أحمد والطبرانيّ وغيرهم. قال المناويّ: له شاهد مرسل بإسناد جيد عن الزهري بلفظ: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر»، وقال النوويّ في «رياض الصالحين»: رواه النسائي بإسناد صحيح، وكذا قال المنذريّ فظهر أن الحديث صحيح من غير الطريق التي ضعفوه فيها، وهي طريق فيها عطية السوفيّ وهو ضعيف، ولا يضر ذلك لصحته من غير هذا الطريق، وإنما كان هذا القول شهادة لأنه بذل نفسه لله تعالى في الدفع عن الدين لأن تكون كلمة الله هي العليا ولصون شريعة الله عن امتهان الكافرين ولحماية حرمة المسلمين[١].

من حوادث السنة

(٢) خروج المسلمين من بلاد الأندلس:

ومن حوادث العام أن خرج من بقي من المسلمين في بلاد الأندلس تحت حكم العدو فخرجت ألوف بفاس وألوف أُخَر بتلمسان، وجمهورهم

(١) «نشر المثاني»: ١/١٤٠ - ١٤٤. وتوفي - رحمه الله - سنة ١٠١٧ هـ.

خرج من تونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله في الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا ببلد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة، إلا أن الذين خرجوا بنواحي تونس سلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطوان وسلا وفسحة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً سكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا قلعة سلا وبنوا الدور والقصور والحمامات وهم الآن بهذه الحال. ووصل جماعة منهم إلى قسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها، قاله في نفح الطيب.

(١) وقال غيره: وفي سنة أربع وتسعمائة نقض الكافر على المسلمين جميع الشروط وفرض عليهم المغارم وقطع لهم الأذان من الصوامع، ومجموع أخبار انقطاع الإسلام من الجزيرة مذكور في كتاب «أخبار العصر في انقراض دولة بني نصر». والسلطان الذي انقطعت عليه دولة الإسلام من الأندلس، قال في نفح الطيب: هو محمد بن السلطان أبي الحسن بن السلطان سعد بن الأمير علي بن السلطان يوسف بن السلطان محمد الغني بالله الأنصاريّ الخزرجيّ، انتهى إلى فاس بعد نزوله مليلية بأهله وولده، وبنى بفاس بعض القصور على صفة بنيان الأندلس، توفي بفاس عام أربعين وتسعمائة ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة، وخلف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد، وعقب هذا السلطان الآن بفاس سنة سبع وثلاثين وألف يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ويعدون من جملة الشحاذين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم انتهى كلامه في نفح الطيب.

(٢) قلت: وقد أدركنا قوماً بفاس يُقال لهم أولاد ابن يوسف ويذكر أنهم أولاد يوسف المذكور، والآن انقرضوا ولم يبق أحد منهم. وقد بكى شهاب الدين الخفاجي الأندلس بقوله في رحلته: هنالك تسكب العبرات، لتطفيء نيران الحسرات. فهذه الأندلس دار الإسلام، ملكها الكفار وبدلوا نورها بالظلام، وجوامعها صارت كنائس، وأسودها للكلاب الكفرة فرائس، وجامع قرطبة الكبير مملوء بالكتب مردود الباب، ومأوى الحشرات ومرقد

الكلاب، وأسطول الروم ينفق عليه الأموال، فتخرج رؤساؤهم بعُدد الحرب والرجال، ويأخذون الجزية من فقراء المسلمين، فإذا عادوا عدوا أنفسهم غـزاة غالبين، ولـو لا أهل المغـرب والجزائـر، لم يكن للدين معين ولا ناصر[1].

القَسطليّ

(١) أبو عمر أحمد بن دراج الأندلسيّ القَسْطلي، ثم المراكشيّ. قال في الممتع: وكان كثير الإطعام أمرا خارجاً عن الوصف، ومبايناً للعادة والإلف. وكان يطعم الناس على طبقتهم وما يناسب حالهم في جودة الطعام ورداءته، على سنة إطعام شيخه أبي عمر وطريقته فقال له إنسان: إن طعامك فيه الرياء، فإن سيدي فلاناً إنما يطعم الناس سواء. فقال له: من حسب الناس سواء، فليس لحمقه من دواء، فإن الناس أصناف، وكل واحد ما اعتاده في الغذاء، فالبدوي الذي ألف الطعام الغليظ من الدُّخن وشبهه إن أطعمتـه الرقيق لم يشبعه وبات جائعاً، وإن بات أحدهما جائعاً ولم أطعمه ما يجب فقد أهنته ولم أكرمه. وقال النبي ﷺ: من كان يؤمن الله واليوم الآخر فليكرم ضيفه.

وكان شديد المحافظة على السنة حاضاً على تعلم العلم وتعليمه، تالياً للقرآن، كثير الذكر والصـلاة على النبي ﷺ، زاهداً في الـدنيا غيـر مترقب ولا ملتفت إليها وغير ناظر إلى زهرتها، وكلما يفتح عليه منها يصرفه في المعروف. وكان الغالب عليه الرحمة لجميع المؤمنين.

(٢) سأله رجل كسوة وعليه ثياب رثة فقال له: اكسني، فقال لإنسان عنده: قم وفتش ما عليه فوجد في درابيله عدداً كثيراً من الدنانير، فقال: اشتر له كسوة وناوله ما بقي، وقال له هكذا ينبغي للرجل أن يكسو نفسه ولا يكون لأحد عليه جميل.

---

(١) «نشر المثاني»: ١/١٤٥ ـ ١٤٧.

(١) ولصاحب الترجمة كرامات كثيرة، وأذكر بعض ما رأيت منها بخط بعض حفدته، وهو العالم العلامة الضابط الثقة الحجة أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد المسناوي بن محمد بن أبي بكر رحمه الله، فمنها أنه كان يفهم منطق الطير وغيرها من الحيوانات العجم وقد مرّ يوماً بشاة وهي تصيح، فقال لمن معه: أتدري ما قالت تلك الشاة في صياحها؟ فقال: لا! فقال: إنها قالت لولدها أسرع لئلّا يأكلك الذئب، فقد أكل أخاك في ذلك الموضع في السنة الماضية، فسئل الراعي عن ذلك فأخبر بأن الأمر كذلك. ولما قربت وفاته جعلت الدجاج تتوجه إليه وتحدق به وتصوت، فقالت له بعض بناته: ما هذا يا سيدي؟ فقال: هذه نوائح أبيك.

(٢) ومنها أن الزرع نفد له في بعض السنين، فأمر القيم على ذلك أن يدفع للناس على عادته ما كان يدفع، فقال له: يا سيدي إنه قد نفد. فنظر إليه نظر مغضب، فرجع للهري[1] فدفع الباب فلم يقدر لامتلاء الهري بالزرع.

(٣) ومنها أن ولده سيدي الخديم بات ليلة وهو صبي صغير بتاله وهو يبكي من شدة إذاية البرغوث، فشكت أمه ذلك للشيخ سيدي أبي بكر، فقال لها: لا تؤذيه بعد اليوم! فكان سيدي الخديم يبيت بعد ذلك في موضع كثرتها في وقت هيجانها، ويلاقي من معه منها شدة ولا يرى هو منها ألماً.

(٤) وحكي أن بعض إخوانه نقم عليه كثرة ذبح الماشية، فقال له: كل ما ولدت من الإناث فهو لك، وكل ما ولدت من الذكور فهو لي، وتعاقدا على ذلك. فلم تلد في تلك السنة إلا الذكور.

(٥) ودخل عليه سارق بيتاً وهو به، فجعل السارق يأخذ جلد سمن صغير، فقال له: خذ هذا الجلد الكبير.

---

(١) مخزن الحبوب.

ولم يزل أولاده يتوارثون مكارم الأخلاق، فقد فتح الله عليهم من العلم والعمل والجود والنجدة ما ظهر عليهم بركته، ونالوا حرمته ومزيته، فظهر فيهم من الحفظ والتحقيق والتدريس، خصوصاً علم الأدب، كالنحو والتصريف والبيان وأيام العرب واللغة وغير ذلك. وليس في أقطار المغرب في أعصارهم مثل دار الشيخ أبي بكر ودار الشيخ أبي المحاسن في تحصيل العلم وتحقيقه[1].

أبو البركات التلمسانيّ

علي بن يحيى التلمسانيّ، الوليّ البركة صاحب الخوارق والكرامات، أبو البركات.

قال سيدي أحمد المذكور في «بذل المناصحة»: ولادته عام ثلاثة وعشرين وتسعمائة ووفاته عام اثنين وعشرين وألف، وذلك مائة سنة تنقص عاماً.

(١) حدثني بحديث حاكم الجان عن الشيخ المقري المذكور، عن الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن بن جلال، ووفاته سنة ثمانين وتسعمائة عن الشيخ المانوي المذكور، عن الشيخ الإمام أبي العباس أحمد بن محمد بن زكري، وفاته عام تسعة وتسعين وثمانمائة، عن سيدي محمد الميورقي، عن حاكم الجان، عن رسول الله ﷺ: من تشكل على غير شكله فدمه هدر.

(٢) وحدثني بقضية قال: كان الميورقيّ هذا بتلمسان، وكان ذا مال إلا أنه لا ينتفع بشيء منه كلما دخل يده قفل عليه، وكان من ذلك في أشر حالة هو وعياله، لا ينفق عليهم إلا بكد وشظف عيش. وكان يوماً في جنان له إذ رأى حية بيضاء هاربة من حية أخرى سوداء، فقتل السوداء. وما فرغ حتى أحاط به قوم لا يعرفهم، ولببوه وأخرجوه من هذا العمران إلى آخر

---

(١) «نشر المثاني»: ١/١٦٨ - ١٧٣. وتوفي - رحمه الله - سنة ١٠٢١ هـ.

وقالوا له: قتلت أخانا! وذهبوا به إلى الأمير. فجاءته امرأة وقالت له: إذا جئت الأمير فقل: ما قتلت إلا حية! ولا تتبدل عن قولك. فلما مثل بين يدي الأمير ذكروا دعواهم فقال: إنما قتلت حية، لم أقتل أخاكم. فقال لهم الأمير: لا سبيل لكم عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تشكل فذكره». فجاءت تلك المرأة فقالت له: اطلب تعط، أنجيتَ ولدي وقتلت عدوه. فجاءت امرأة منهم فقالت لـه: لاَ تطلب لها إلا صداقها فقال: تعطيني صداقك، فترددت ثم أعطته له. وانطلقت من يومئذ يده في ماله، وبنى مسجداً، وهو معروف اليوم بتلمسان بمسجد الميورقي. انتهى كلام سيدي أحمد بن علي في كتابه «بذل المناصحة».

(١) وقريب من هذا ما ذكره الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في حليته بسنده في ترجمة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، عن العباس بن راشد، عن أبيه راشد قال: زار عمر بن عبد العزيز مولاي، فلما أراد الرجوع قال لي: شيعه، فلما مررنا إذا نحن بحية سوداء ميتة، فنزل عمر فدفنها، فإذا هاتف يهتف: يا خرقا يا خرقا! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول لهذه الحية: لتموتن بفلاة من الأرض وليدفننك خير أهل الأرض. فقال: نشدتك بالله إن كنت ممن يظهر إلا ظهرت لي، فقال: أنا من السبعة الذين بايعوا رسول الله ﷺ في هذا الوادي، وإني سمعته يقول لهذه الحية: لتموتن بفلاة من الأرض وليدفننك خير أهل الأرض يومئذ، فبكى عمر حتى كاد أن يسقط عن راحلته. فقال يا راشد: أنشدك الله أن لا تخبر بهذا أحداً حتى تواريني التراب.

(٢) وقضية وفد الجن على رسول الله ﷺ مشهورة في الصحيحين وغيرهما. وفي الحكاية المقدمة أن حاكم الجان سمع من رسول الله ﷺ، ولا بُعدَ في عيشه إلى زمان الميورقي الذي حدث عنه، فإن الجان يعيش ويطول عمره كثيراً، وروي ذلك في أحاديث نقل بعضها الجلال السيوطي في خصائصه الكبرى وغيره. وكذلك هاتف عمر، فقد صرح بسماعه من

رسول الله ﷺ. ولما عرف ابن حجر في أول كتابه «الإصابة» الصحابي بقوله: من لقي النبي ﷺ وسلم مؤمناً به ومات على الإسلام، قال: ويدخل في قولنا مؤمنا به كل مكلف من الإنس والجن، فحينئذ يتعين ذكر من حفظه ذكره، يعني في الصحابة، من الجن الذين آمنوا بالشرط المذكور. وأما إنكار ابن الأثير على أبي موسى تخريجه بعض الجن الذين عرفوا في كتب الصحابة فليس بمنكر لما ذكرته. وقد قال ابن حزم في كتاب الأقضية من المحلي: من ادعى الإجماع، يعني على عدم ذكرهم في الصحابة، فقد كذب على الأمة؛ فإن الله قد أعلمنا أن نفراً من الجن آمنوا وسمعوا القرآن من النبيّ ﷺ، فهم صحابة فضلاء، فمن أين للمدعي إجماع أولئك وهذا الذي ذكره في مسألة الإجماع لا نوافقه عليه، وإنما أردت نقل كلامه في كونهم صحابة. انتهى كلام ابن حجر[1].

العمراني

إدريس بن أحمد العمراني، الشريف النقيب بفاس، التونسيّ الجوطيّ الحسنيّ.

قال في «الدر السني»: وقد كان وقع لأحد آبائهم انتقال إلى مدينة تونس لإجلاء بني وطاس لهم، وسبب انتقالهم من فاس الدخول في الإمامة الكبرى. وذكر قضيتهم في «درة الحجال وفصه» في ترجمة عبد الحق المرينيّ الأصغر وهو الذي ثارت عليه عامة فاس بمشورة الفقيه الخطيب أبي فارس عبد العزيز الورياغلي.

وسبب ابتداء هذه الفتنة أن عبد الحق المذكور لما مات علي بن يوسف الوطاسيّ قدم للوزارة يحيى بن الوزير أبي زكريا بن زيان الوطاسيّ، وكانت أيام وزارة علي المذكور مواسم يحسن تدبير أمر الرعية، ولما استقل يحيى بالوزارة صار يبدل ويغير في الجند وأمور الملك، ومن جملة ما فعل

---

(١) «نشر المثاني»: ١/١٧٨ ـ ١٨٠. وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ١٠٢٢ هـ.

عزله لقاضي فاس الفقيه ابن علال المصمودي، وقدم الفقيه يعقوب التسولي. فلما تبين لعبد الحق فعله وأنه غير عليه ملكه ذبحه هو وأخويه: بوشامة وأبو بكر، وعمه فارس بن زيان، ومحمد بن الوزير علي بن يوسف ووقع البحث عن أخويه الشيخ ومحمد الحلو فلم يجدهما، لاختفاء الحلو وخروج الشيخ للصيد في ذلك اليوم. فكان ذلك من لطف الله تعالى بهما. فصار الشيخ فاراً بالبلاد إلى أن احتال الحلو في الخروج خفية ولحق به، وبقيا تارة بنواحي الصحراء، وتارة بالبلاد الهبطية، إلى أن احتال الشيخ في أخذ مدينة أصيلا بعد مدة طويلة مضت، واستقر بها، وصار عمال بني مرين من جند عبد الحق المذكور يبعثون خفية للشيخ الوطاسيّ المرة بعد المرة إلى أن يصل إليهم فلم يمكنه ذلك، وكان عبد الحق لم يقدم أحداً للوزارة بعد يحيى، وجملة أيام وزارته سبعون يوماً.

(١) فلما صح عنده أنهم نقموا عليه ذبح بني وطاس، وميلهم للشيخ، وشافهوه بذلك، ولّى عليهم اليهود، وتمكن بالظفر بهم، وقدم للوزارة اليهوديين هارون وشاويل، وشرعا في أخذ أهل فاس بالضرب الوجيع، والفيء رجالاً ونساءً. وكانت اليهود تتحكم في الشرفاء والفقهاء وأكابر الناس. وكان له حاكم يُقال له: لحيسن، ولم يزل الحال كذلك إلى أن أخذ لحيسن امرأة شريفة في البليدة، قيل بدار الكومي بدرب جنيارة، وصار يضربها الضرب الموجع ويقول لها هاتي المال، وتقول له: توسلت بجدي رسول الله ﷺ، فيقول اليهوديّ لعنه الله: أكثروا عليها الضرب لتوسلها إليّ بالرسول. فلما أن بلغ خبرها للعامة وشاع، اجتمع الناس عند خطيب القرويين أبي فارس عبد العزيز الورياغلي وقالوا له: هل ترى ما نحن فيه من الذل وتحكم اليهود فينا؟! فاجتمع رأيهم على بيعة محمد بن علي الشريف بن عمران الجوطي مزوار الشرفاء بفاس، ووزارة ولده محمد المدعو بالحفيد فبايعوه وقامت العامة وطلع الشريف من القلقليين إلى فاس الجديد لدار الملك، وذلك في أواخر شهر رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة، ووقع القتال على اليهود لعنهم الله، وأخذوا بأجمعهم، وفيئت

أموالهم. وكان عبد الحق بالحركة بحوز ازاجن، فلما بلغه الخبر رحل وأسرع في مجيئه، وثبت ذلك عند جنوده فتنكرت الوجوه، وصار في كل منزلة تقل عليه المحلة، وأيقن عبد الحق النكبة. فلما أن بلغ إلى حوز فاس استشار وزيره هارون اليهوديّ ماذا يفعل فقال له اليهوديّ: لا تقدم إلى فاس، وإنما يكون قدومنا إلى مكناسة، لأنها بلدنا وبها قائدنا، ويظهر لنا الحال. فما استتم كلامه حتى ضربه رجل برمح من بني مرين يدعى يتبار، بين يدي عبد الحق وقال: متى يبقى علينا ذل اليهود؟ وصار يضربه باقي الجند ومات، وقالوا لعبد الحق: لا اختيار لك في نفسك. تقدم أمامنا إلى فاس! وانتهبت محلته ووقع فيها الفيء وعاين المنية، وجاء إلى أن بلغ عين القادوس خارج فاس الجديد، فخرج له الوزير الحفيد وأركبه على بغلة بالبردعة، ونزع خاتم الملك من يده، وعبثت به أيدي الإهانة في يوم مشهور برز فيه كافة أهل المغرب، وأجمع الناس على ذمه، وشكروا الله على أخذه، وأدخل لفاس الجديد وذبح بالفور سنة تسع وستين وثمانمائة، ودُفِن ببعض جامع فاس الجديد، وذلك في غدوة الجمعة سابع وعشري رمضان، وبقي نحواً من سنة وقلع من قبره ودُفن بالقلة، وخلص الملك للشريف. والملك لله تعالى وحده. انتهى.

وبقي الشريف العمراني بفاس إلى سنة خمس وسبعين وثمانمائة، فعزل عنها وخلع، وأزال ملكه أبو الحجاج بن منصور بن زيان الوطاسيّ، وكان ذلك سبباً في طلوع الشريف المذكور إلى تونس بعد مدة يسيرة. قاله في «جذوة الاقتباس»، في ترجمة الشريف العمراني المذكور[1].

احمد سلطان اصطنبول

(١) خرج يوماً لزيارة سيدنا أبي أيوب الأنصاريّ الصحابي المشهور هناك رضي الله عنه، ثم إلى زيارة أجداده وأسلافه، فقرأ المشاهد التي كُتبت

---

(١) «نشر المثاني»: ١/١٩٣ - ١٩٦. وتوفي - رحمه الله - سنة ١٠٢٢ هـ.

على رؤوسهم فوجد لكل واحد منهم غزوات وفتوحات إلى أن وصل إلى قبر أبيه فلم يجد له شيئاً من ذلك ورجع إلى منزله مهموماً فأمر بجمع أعيان الجيش وجلس على كرسي في جمعهم وقال لهم: أردت أن تخبروني عن والدي ـ رحمه الله ـ ما منعه من الجهاد كما فعله أسلافه؟ فقالوا له: إن ملوك الروم المجاورين لنا قد طغوا في ملكهم وتكافأوا علينا في البر والبحر وكان والدك رحمه الله يستعد ويذكر ويحتال على انهزامهم ثم إن المنية أدركته فقال لهم: نستعد لهم في هذه السنة إن شاء الله ويفعل الله للمسلمين خيراً. ثم دخل قصره وخرج من حينه ينظر ماذا صنعوا في تدبيرهم؟ ثم قالوا له: يا مولانا ما زلت صغيراً والآن ما تقررت في ملكك، فلا تعجل عليهم. ففهم منهم العجز والفشل فزاده ذلك هماً على هم، فدخل عنهم وأرسل إلى رؤساء الجيش فعزلهم فجاؤوا إليه وقالوا: ما ذنبنا؟ فقال لهم: أنتم تكنون من رؤساء الإسلام ولا يقام بكم الديوان لخروجكم عن طريقنا وطريق أسلافكم وعجزكم عن الجهاد؟ فما لي بأمثالكم حاجة. (١) ثم ولى مكانهم أقواماً آخرين من الجيش،وأمر بأربعة أحمال من المال، وأرسلها إلى مكة المشرفة حرسها الله وإلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام بقصد الصدقة والتوسعة على الضعفاء والمساكين، وأمر رحمه الله بكسوة الكعبة وبكسوة الروضة النبوية بالمؤبر الأحمر بخيط الذهب، وأرسل إلى الأشراف كساوي وإلى البكريين كذلك، وإلى العمريين كذلك، ثم أخذ في تخليص الجيش فخلص القريب والبعيد من المدن والحضور، وخرج في أواخر عام ثلاثين وألف.

وأخرج خيمة يستظل في ظلها عدد كثير، وأخرج وزيره خيمة أخرى تقرب منها، وأخرج الباشا والقواد ما يقرب من ذلك. ثم لم تزل الجيوش تخرج حتى استوفى السلطان جميع جيوشه، ثم أخرج ما يناسب ذلك من العدة والسلاح والميرة وأهبة السفر وما يعد للحرب وأفرد محلة للحدادين والنجارين، وجمع فيها من القوم ما لا يُحصى وخرج على رأسه لواء النبي ﷺ الذي قاتل به هرقل، وأخرج من الألوية ما لا يُحصى وكل من

معه من القواد والباشات بقاضيه فكان عدة القواد والرؤساء عشرة آلاف دون قضاة اصطنبول وقوادها.

(١) وخرج بجيشه يرفعون أصواتهم بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ لمن الملك اليوم؟ فيجيبهم السلطان بلسان فصيح: لله الواحد القهار، وهو في الخشوع والتذلل والدموع تجري من عينيه. وكان لباسه لباس التواضع والاحتقار، وأخرج من المال مائتي بغلة بأحمال الذهب، ومماله لابسون أرفع الثياب. وكان أعطى لكل واحد مرتبه بما يسعه وأخرج من آلات الهدم أيضاً عدداً كثيراً، ثم أمر باشا من باشاته أن يتقدم أمامه فتقدم بجيش عظيم. فلما سمع بخروجه ملك النصارى صاحب أرمينة أخرج لها قبطاناً بجيش من الروم فالتقى الجمعان، فمكن الله المسلمين من رقبات الكفار، وكانت على الكفار هزيمة عظيمة قتلت فيها رؤساءهم، وأسروا منهم خلقاً لا يُعد ولا يُحصى. ثم أتي بالغنائم والأسارى لما لا يُحصى عدده إلى السلطان فسُر بها سروراً عظيماً وتباشر بالظفر والنصر. ثم ورد عليه خبر الباشا الآخر الذي كان أرسله إلى أطراف الروم التي كانت تحت ذمة أسلافه، وقامت على أبيه بأن الباشا ظفر بها وأخذهم وسبا المال والفضة والثياب الفاخرة.

(٢) بينما هو كذلك إذ وردت عليه هدية عظيمة من ملك الصين، ومن عجب ما فيها قردان يلعبان بالشطرنج في سفرتهما.

ثم أتت الهدايا من عند النصارى من كل ناحية، ثم ورد عليه كتاب من بعض الروم الذين تحت حكمه يشكونه بطاغية من طواغي النصارى أراد أن يدخلهم في طاعته وضايقهم في ذلك واستعانوا به ليدفعه عنهم فوجه إليه الجيوش، فلما أقبلوا عليه انهزم قبل القتال فاستأصلوهم وأخذوهم، وقتلوا أميرهم، وغنموا منهم ما لا يُحصى، ثم ضرب الجزية على جميع من دخل تحت حكمه من النصارى فخضعوا له بالسمع والطاعة. فكان ما ملك من ذلك إحدى وعشرين مدينة من الأمصار، فرجع إلى اصطنبول

وأرسل أكثر الجيوش إلى بلادها[1].

الدلائيّ

محمد بن أبي بكر الدلائيّ، الشيخ الإمام العالم الكبير الهمام، كهف الأنام، وملجأ المستضعفين من ذوي الإسلام، المكرم لأهل بيته عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، أبو عبد الله بن الشيخ أبي بكر بن محمد بن سعيد الدلائيّ. وتقدم الكلام على نسبه في ترجمة والده سيدي أبي بكر.

قال في المرآة: المجاطيّ الصنهاجيّ، خاتمة مشايخ المغرب، انتهت إليه رياسة الدين والدنيا، واستقل بسياسة الأمور الجليلة والرتبة العليا، متوسع في علم التفسير ومعاني الحديث وعلم الكلام، حسن المشاركة فيها وفي غيرها، رزين العقل، سديد الرأي جميل المعاشرة مراع لحقوق الصحبة كريم النفس، علي الهمة، فياض الإعطاء، واسع المعروف.

وُلد رضي الله عنه تقريباً سنة سبع وستين وتسعمائة، وتوفي سنة ست وأربعين وألف. صحبته سنين في محبة خالصة ومراعاة تامة ومجالس خاصة وعامة جرت فيها من الفوائد والنكت ما لا يُحصى ولا ينحصر نفع الله بذلك. انتهى.

(١) كان آية في السخاء والكرم، فمن خط حفيده الشيخ العلامة الضابط المحقق الثقة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المسناوي ابن صاحب الترجمة ما نصه: وأما جوده فحدث عن البحر ولا حرج. كان فياض العطاء، واسع المعروف يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وكان يقول: قفة تبر[2] عندي كقفة تبن، وكان لا يصر الدراهم بل لا يمسها بيده. ولقد كان في سنة من سني الغلاء يطعم سبعة آلاف من أهل المرقعات زيادة على الواردين عليه والمضافين إليه من طلبة العلم وغيرهم. أخبرني بذلك ابن

---

(١) «نشر المثاني»: ١/٢٤٨ ـ ٢٥٣. وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ١٠٢٦ هـ.

(٢) التِّبر: الذهب.

عمنا سيدي أحمد ابن الفقيه العلامة سيدي الشاذلي نقلا عن والده. وكان يعول دياراً كثيرة، ويقوم بمؤن كثير من أهل الحاجة والأيتام والأرامل والضعفاء والمساكين والمتفرغين للعبادة أو لطلب العلم، ويُعين كثيراً منهم بحسب الحاجة والإمكان. وكان يرسل مواشيه إذا أقبل عيد الأضحى إلى نواحي المغرب من فاس وتطوان وتفلالت ودرعة وغيرها لتفرق على المحتاجين من الأشراف وغيرهم إعانة لهم على أداء سنة الضحية. وكانت التجار تأتيه بأنواع الثياب من سائر البلدان فيشتريها منهم، فإذا كان فصل الخريف عند استقبال الشتاء دعا الأشراف فأعطى كل واحد ما يحتاج إليه. فمن كان ذا عيال أعطاه ما يكفيه هو وعياله، ومن كان خالياً من العيال أعطاه القدر الذي يكفيه في نفسه. فإذا فرغ من الأشراف فرق على طلبة العلم ما يحتاجون إليه، كل على حسب حاله، فإذا فرغ منهم أمر المنادي في البلاد: ألا من احتاج الكسوة فليأت اليوم الفلاني، حتى يعم النداء البلد ويسمعه جميع من بها من أهلها والواردين عليها. فإذا كان ذلك اليوم اجتمع عنده من الخلائق ما لا يُحصي عددهم إلا الله، فقسم عليهم جميع ما بقي من الثياب حتى يصدروا عن آخرهم.

(١) وكان آية باهرة في إطعام الطعام، للخاص والعام، وكان يجعل قَيِّمات من النساء على الطعام تحت كل قَيِّمة عدد من إماء الخدمة، فيدفع من يقدمه لذلك لكل واحدة من القيمات من الدقيق وما يخصه على عدد من تحت يدها من الخدم ويوظف عليها من أواني الطعام العدد الذي يحتمله ما دفع لها. فإذا كان وقت الإطعام حرز من بالحضرة من الأضياف وغيرهم فتومر كل واحدة من القيمات بدفع ما عندها. وكانت له برمة معدة لطعام المساكين لها قيم يخصها أقل ما قيل إنها تسع من اللحم بقرة أو ثوراً، والكسكاس الذي يوضع عليها يسع أكثر من وسق، ويلقى تحتها في الدفعة الواحدة من الحطب قدر حمل الدابة. والجفنة التي كان يجعل لهم الطعام فيها تكفي المئين من الناس وتدعى قديحة. ولكثرة ما يصنعون من الطعام كانوا لا يعالجون تبريد ما يحتاج إليه كالكسكس بالأيدي لعجزها عن

تبريده، بل بالألواح التي يذرى بها الزرع عند الدرس. هـذا شأنـه على الدوام وفعله مع الخاص والعام.

(١) أما إعطاؤه المخصوص بالبعض، ونوافله الزائدة على هذا الغرض، فلو أفرِد لها ديوان مستقل لم يجمع منها إلا ما ينزر ويقل، فإن الشيخ كان منتجع الوفود من مشارق الأرض ومغاربها، وملتجـأ القاصـدين من الأئمة باختلاف طبقاتها ومراتبها، فكان يجيز كلًّا على قدره، ولا يدخر عن أحد شيئاً من بره، بل يبذل ما حضر لديه، ويسوق ما ساقه الله إليه، ولا سيما كبراء الأقدار، وذوي الصيت والاشتهار، من الشرفـاء والفقهاء، والأعيـان والنبهاء، وأعطى مرة لبعض الأشراف وقد تزوج جميع ما تحتاج إليه الدار من جليل الأشياء وحقيرها، وأنفق في ذلك مالاً جزيلاً، فقيل له في ذلك، فقال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: ما قدر الدنيا حتى يُبخل بها عمن لا يستحقها؟ فكيف بمن يستحقها؟

(٢) وحكى عمنا الشرقي أنه ورد على الشيخ بعض الطاهريين فشكا إليه حاله وأنه خطب من الفضلاء أولاد الشيخ سيدي يحيى بن بكار امرأة كانت عند بعض الشاميين إحدى قبائل أهل (الثروة) بفاس، فمات عنها، فتعصبوا عليه وامتنعوا من إعطائه لفقره وثروتهم، فأخرج له الشيخ ثوباً من ثيـاب الفراش، إشارة إلى أنها تكون فراشاً له، فسر بذلك غاية. ثم إن الله تعالى يسر عليه أمرها فتزوجها وأسكنها بدويرة غير صـالحة، ثم إنـه قدم على الشيخ مرة أخرى فسأله عن مسكنها، فأخبره بذلك، فقال له: لا يكون هذا بعد أن أسكنها الشامي في عرصة الريحان تُسكنها أنت في الدويرة فاشترى له داراً بخمسمائة مثقال بالموضع المسمى بدرب الخطار، وهي الآن باقية على ملك أولاده. انتهى كله من خط الشيخ المسناوي[١].

(١) «نشر المثاني»: ١/٣٣٩ - ٣٤٧.

محمد العربي الصقلي الحسيني

الشريف الأصيل، كبير وقته، وفريد نعته، أبو عبد الله محمد العربي الصقليّ الحسينيّ رحمه الله، المتوفى سنة تسع وخمسين وألف مع الشيخ الإمام، العالم الهمام، الولي الصالح صاحب وقته أبي عبد الله سيدي محمد بن الشيخ الولي الشهير سيدي أبي بكر الدلائي.

(١) كان هذا الشريف أراد خطبة امرأة من ذوات القدر والجاه فأبت عليه فرأى الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر النبي ﷺ مناماً وهذا الشريف معه وهو يوصيه به. فاتفق أن سافر الشريف إلى الزاوية البكرية، فلما رآه الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر وعرف شخصه الذي كان مع النبي ﷺ، ولم يكن يعرفه قبل ذلك، لم يتمالك أن بادر إليه يسلم عليه، والتزمه، وأكب عليه، وأنزله عنده، وفرح به فرحاً عظيماً، وأعطاه عطايا جزيلة، وأرسل إلى أولياء المرأة، وخطب له بنفسه عندهم، فزوجوه إياها، والتزم أداء صداقها من ماله وكل ما اشترطوا عليه، وبقي معه في مواصلة ومودة إلى أن مات، فورث ذلك منه بنوه فكانوا يعظمون هذا الشريف ويجلونه أجل تعظيم وأعظم إجلال.

(٢) من مآثر صاحب الترجمة أن ولده شيخنا الإمام العلامة القدوة الصالح البركة الحاج الأبرّ الخطيب البليغ حائز قصب السبق في العلوم اللسانية في عصره أبا عبد الله محمد الشهير بالمرابط، أخبر بأنه كان يعتريه في ابتداء أمره وسواس في العقائد بالله، فشق ذلك عليه حتى كان كثيراً ما يريد أن يلقي نفسه من بعض الشواهق، فحضر مجلس والده في التفسير يوماً بين العشاءين، والمجلس غاص بالطلبة والعلماء، فجلس في أخريات المجلس وبينه وبين الشيخ خلق كثير وأدخل رأسه في ثيابه وقال: يا أبت! إني أشكو إليك نفسي، ثلاث مرات، والشيخ إذ ذاك في أثناء التدريس يلقي إلى الحاضرين ما لديه من العلوم والمعارف، فالتفت إليه وقال يخاطبه: قد أمّنّاك في نفسك، ثلاث مرات، قال شيخنا المذكور: فلم أجد ما كنت أعهده من الوساوس من ليلتي إذ شفاني الله شفاءً تاماً.

(١) ومنها ما أخبرنا به شيخنا أنه كانت بإحدى عينيه سلفة كادت أن تطمسها، وخشى على بصره أن يذهب بسببها، فاغتم لذلك وهاله أمرها، فتذكر الصحابي الذي كانت بكفه سلفة منعته من إمساك السيف فأتى النبي ﷺ فشكا له ذلك، فجعل النبي ﷺ يلمسها بيده الكريمة حتى ذهبت واضمحلت كأنها لم تكن، فلما أن تذكر ذلك أتى والده فشكا إليه ما بعينه فوضع الشيخ يده عليها وهو يتلو آية قرآنية، فما انقضى يومه حتى شفاه الله منها.

(٢) ومنها أنه كان في وجهته الحجازية في بعض المواضع فجاء طائر ووقف بإزائه وجعل يترنم، فلما سمعه بكى وقال: إن هذا الطائر نعى إلي إخوتي وأولادي، ثم قال: إن عاش لي سيدي أبو بكر، يعني والده، فكل مصيبة بعده جلل. فلما بلغوا مدينة طرابلس ملتقى الركب، وهم قافون، أتاه نعي إخوته وأبنائه كما ذكر. ونقلت الثلاث من خط سيدي محمد ابن شيخنا سمع الأوليين من والده، والثالثة من غيره ممن وثق به.

(٣) ومنها أنه لما أراد أن يتوجه لأداء فريضة الحج شق فراقه على أمه وأسفت لذلك كل الأسف، فلما رأى منها ذلك قال لها: أو ما كنت وهبتني لله أيام كنت حاملة بي؟ فتعجبت من ذلك وقالت له: يا ولدي! كان هذا ولكن لم يطلع عليه إلا الله. وذلك أنها لما أحست بحمله حلت بموضع وأشارت إلى ما في بطنها وقالت: وهبتك لله. أو قالت: إن كنت ذكراً فقد وهبتك لله.

(٤) ومنها أنه وقف يوماً على برمة طعام وهم يغترفون منها للأضياف، فجعلوا يأخذون منها حتى أطعموا منها خلقاً كثيراً يستحيل عادة أن تكفيهم ولم ينقص ما فيها من طعام، فضجرت من ذلك مولاته التي كانت قائمة على ذلك وقالت: حتى متى لا تفرغ هذه البرمة؟ فعنفها وقال: ها هي قد تمت فلم يرفعوا منها بعد ذلك إلا ما لا بال به.

(٥) ومنها أن بعض بنيه جاءه يوماً، وقد نفد الطعام وفرغ الناس من

الأكل، فسأل: هل بقي شيء من الطعام. فأتى بفضلة يسيرة جداً فضلت عن بعض الآكلين لا تسمن ولا تغني من جوع، فأمر بها فغطيت بما يُقال له في العرف المكب، فبقي كذلك مدة ثم عجل بعض نسائه، فرفع الغطاء فإذا الإناء ممتليء طعاماً.

(١) قال: ومنها إخباره بما آل إليه أمر بنيه من الرياسة والملك والسلطنة، فكان يقول لهم: إن الله مبتليكم بنهر من الملك فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني.

(٢) ومنها أنه أخبر يوماً بأن خيلاً بموضع كذا، الموضع هنالك معلوم، لا يُدرى ما هي، فقام فارغاً وقال: الله طار قلبي! إلى أن كاد يخرج من فمي. ثم قال لمن أخبره: لو علمتم ما يأتيكم من ذلك الموضع! فكان ورود مولانا الخليفة أمير المؤمنين مولانا الرشيد بن مولانا الشريف المحمدي الحسنيّ السجلماسيّ لأخذ زاوية بنيه من ذلك الموضع.

(٣) ومنها أن صبياً انكفأت على فخذه قدر بعدما اشتد غليانها فاحترق فخذه حتى ظهر العظم، فحمل إلى الشيخ، فمسح ذلك المحل وأمر الحاملة له أن تبيته في ظهرها، فلما أصبح التمس الصبي فلم يوجد به أثر.

(٤) ومنها أنه وقع حريق مرةً بجواره فجعل يشير إلى النار بخفية على بعد منها، وقد اشتد اشتعالها، وخشى الناس منها، فخمدت من حينها من غير سبب ظاهر.

فهذا الذي نقلناه من هذه الكرامات وما قبله من وصف الشيخ بالجود والاطعام إلى آخره، كله من خط الشيخ المسناوي .

(٥) ولا غرابة في مثل هذا السيد وأمثاله، فإن كرامات الأولياء حق، ووقع منها ما لا يُحصى، وقد ملئت منها دواوين العلماء الكبار، وإنكارها بدعة وضلالة. قال ابن رشد في «الأجوبة» بثبوتها في الناس، وأنكرها أهل الزيغ والتعطيل، الذين لا يقرون بالوحي والتنزيل، ويجحدون آيات الأنبياء

والمرسلين. وقال الغزالي في «الإحياء» بعد كلام: ومن أنكر طور الولاية لزمه أن ينكر طور النبوءة انتهى. والعياذ بالله ونسأل الله السلامة. وكون إنكار الكرامة بدعة نقله القاضي أبو بكر الباقلاني وإمام الحرمين والغزاليّ والقشيريّ والإمام الرازي والبيضاويّ. وفي «جمع الجوامع»: وكرامات الأولياء حق. قال الزركشيّ: كون كرامات الأولياء حق هذا قول أهل الحق، والدليل على الجواز أنه لا يلزم من فرضه محال، والدليل على الوقوع قصة أصحاب الكهف، ولم يكونوا نقباء بالإجماع. ثم قال بعد كلام: والمنكرون لها هم المعتزلة. ولعلّ من نقل عنهم وَهِم، وإنما أنكروا خرق العادة. انظر تمامه. ودليل وقوعها في الكتاب والسنة يفيد القطع لو لم تقع، كيف وقد وقع منها ما لا يُحصى، حتى صارت مشاهدة لعامة الناس[1].

عبد الله الغالب الشريف الحسنيّ

معركة وادي المخازن:

(١) ولما خرج مولاي محمد بن عبدالله من مراكش وفر إلى جبل سوس اتبعه خدام السلطان مولاي عبد الملك مع أخيه أبي العباس مولاي أحمد المنصور بالله فقاتله، ففر من ذلك وصار يتبع الجبال إلى أن دخل بلاد النصارى - دمرهم الله - فبقي عندهم مدة، ثم إنه خرج بجيوش النصارى من ناحية طنجة معه من النصارى مائة ألف وخمسة آلاف مقاتل، فخرج إليه مولاي عبد المالك مع أخيه مولاي أحمد من مراكش، ونادى في المسلمين بالجهاد فانتصر المسلمون، فالتقوا بواد المخازن على مقربة من أصيلا، فانهزم الكفار، وكانت غنيمة عظيمة للمسلمين، لم ينج منهم من الكفار أحد من بين قتيل وأسير، وكان ذلك اليوم يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى، عام ستة وثمانين وتسعمائة.

وفي ذلك اليوم تولى الملك مولاي أحمد المنصور بالله تعالى بعد

---

(١) «نشر المثاني»: ١/٣٤٧ - ٣٥٦.

موت أخيه مولاي عبد الملك وكانت بيعته متفقاً عليها لعدم المعارض حساً وشرعاً. فبقي خليفة وتمهدت له البلاد واطمأن عليه العباد واستوطن مراكش.

«تمام الكلام على غزوة وادي المخازن»:

في «المرآة»: يقال إن مجموع النصارى كان مائة ألف وعشرين ألفاً، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل، وكانت أصيلا تصيرت إليهم قبل ذلك بأشهر فعاين أهل القصر الهلاك لقرب العدو منهم وقوته وفشا النفاق لأجل السلطان محمد الذي معهم[1] وبُعد صريخ المسلمين؛ فإن السلطان أبا مروان عبد المالك كان إذ ذاك بمراكش فلم يبق لهم تدبير إلا الفرار والتحصن بالجبال، فقال أبو المحاسن الفاسيّ لبعض أصحابه: ناد في الناس أن الزموا بلادكم فإن عظيم النصارى مسجون حيث هو حتى يجيء السلطان من مراكش، والنصارى غنيمة للمسلمين، فما انتقل النصارى من مكانهم ذلك أزيد من شهر حتى قدم السلطان، وكان مريضاً، فالتقى الجمعان يوم الاثنين مكمل جمادى الأولى سنة ست وثمانين، فمنح الله المسلمين النصر وقتل سبستيان في ذلك اليوم واستولى على من معه فما نجا من النصارى إلا القليل.

(١) وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قطُّ مثلها، إلا أنها لم تقسم وإنما انتهبها الناس وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام، فظهر ذلك من غلاء وغيره، وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ، وسبب عدم قسم الغنيمة موت السلطان أبي مروان قبل هزيمة النصارى، وكان مريضاً فأخفى أصحابه موته حتى أظهر الله للمسلمين، فاشتغل أخوه أحمد المنصور بجمع الكلمة، فتم له ما قصد انتهى كلام «المرآة» بحذف قليل.

---

(١) أي: مع النصارى كما مرّ آنفاً.

(١) وذكر بعضهم أن الكافر العدو فادى من أسر من النصارى من المنصور فلما مثلوا بين يديه قال لهم: ما بالكم لم تأخذوا الحصون أولاً؟ قالوا: إن الذي أمرت عليها لم يتركنا لذلك فأحرقهم بالنار. ثم لما رأى الرومَ قِلةً أباح إناثهم لذكورهم فوثبوا عليهم كالحُمُر رجاء كثرة النسل لعنهم الله[١].

الدرعي

الشيخ الكبير، الولي الشهير، سيدي أحمد بن إبراهيم بن عبد الله الدرعيّ، إمام راسخ، وصدر من المشايخ.

(٢) قال سيدي أبو عبدالله الحسين بن ناصر في فهرسته: كان صاحب الترجمة يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا ينام من الليل شيئاً إلى أن مات، ولا يدخل على زوجته إلا ليلة الإثنين وليلة الخميس، يمكث ساعة ويخرج، وكان قوته سبع عشرة تمرة وزهاء أربع لقم من الطعام.

وكان بديع زمانه، وأعجوبة أوانه، وكان عارفاً بمقامات الصالحين وأيامهم ودرجاتهم وأحوالهم وكان في العطاء والكرم بحراً خضماً، وما رأيت شيئاً أبغض إليه من الدنيا ولا أزهد.

(٣) قال لي: تركُ شهوة من شهوات النفس أنفعُ للقلب من صيام سنة وقيامها، ولو بأن تقول لها: اصبري ساعة إذا قالت لك: اسقني.

(٤) ودخلت المقبرة لزيارة أخيه سيدي علي بن إبراهيم سحراً فوجدته أمامي عند قبره فالتفت فقال لي: كن رجلاً رجلُه في الثرى وهمه في الثريا، وما افترقتِ الناس إلاّ في الهِمَم، من علت همته علت رتبته، ولا يكون أحد إلا فيما رضيتْ له همتُه.

(٥) من كلامه: أقبح كل قبيح صوفيٌّ شحيح.

(٦) إذا رأيت المريد يتتبَّعُ الرُّخَص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء.

---

(١) «نشر المثاني»: ١/٣٦٦ - ٣٧٠.

(١) ما رجع من رجع من الطريق، ولو وصل لما رجع.

(٢) لا تعجب من هالك كيف هَلَك، بل تعجّب من سالكٍ كيف نجا.

(٣) كان شديد الخوف من الله، له زفرات كثيرة طويلة يكاد ينشق لها قلب السامع.

(٤) ومن حسن خلقه أنه ما جالسه أحد إلاّ ظنّ الجليس أنه المستبد بصحبته ومحبته دون جميع النّاس.

(٥) يقول: من جاهد نفسه وترك النعاس ليلةً تعوّد الشهور.

كان مولده عام واحد وألف، ووفاته عام اثنين وخمسين وألف[١].

عائشة الفخار

قال سيدنا الجد ـ رحمه الله ـ في المقصد: هي السيدة الفاضلة الزكيّة الكاملة الطيبة المطهرة، الخيرة المنورة، ذات البركات الواضحة، والأنوار اللائحة، والأعمال الصالحة، والمتاجر الرابحة، والأخلاق الكريمة، والسيرة المستقيمة، أم أحمد السيدة عائشة بنت السيد الأمثل الولي الجليل، ذي البركة الغزيرة والأنوار، سيدي شقرون الفخار، رحمه الرحمان ووالى عليه المنة والرضوان.

كانت ـ رحمها الله تعالى ـ من الصالحات القانتات القائمات، الحازمات، المطيعات لله، المتابعات لسنة رسول الله، معتنية بأمر الدين، ماسكة بحبله المتين، مصروفة الوجهة إليه، مجموعة القلب عليه، لا تعرف منذ نشأت سواه، ولا تلتفت لما عداه، لها من الصلاح مكانة علية، ومرتبة سنية، وحظ عظيم من البرّ والإحسان، والتفضيل والامتنان.

(٦) كانت ـ رحمها الله ـ كثيرة البرور والإرضاء لوالدها سيدي شقرون المذكور، بالغة في ذلك الغاية، وواصلة فيه حد النهاية، قائمة بحقوق

---

(١) «نشر المثاني»: ٢/٢١ ـ ٢٤.

بعلها الشيخ سيدي محمد ـ رضي الله عنه ـ مطيعة لأمره وكلامه، شديدة الاعتناء بشأنه ومرامه، تتحرّى مراده، وتهتم بما أراده، سالبة له الإرادة، وممتثلة له منقادة، تجل قدره، وتعظم أمره، وتراعي فيه حق مولاه، وما خوله وأولاه، كثيرة الصدقة من عمل يدها على الفقراء، والمساكين والضعفاء، من أصحاب بعلها المنتسبين إلى الله، والمجموعِين به على الله، تواسي مديانهم، وتُعين محتاجهم بالهبة الكثيرة والمنحة الغزيرة، من حيث لا يشعرون بما صرفت من ذلك عليهم، لكونها تمكنه من يد بعلها الشيخ سيدي محمد ليوصله إليهم.

قوالةً للحق، ناصحة للخلق، تحض على الدين وسنن المتقين، وتحمل أولادها وأقاربها عليه، وترشدهم بالتي هي أحسن إليه، كثيرة النصح لهم، والرحمة بهم، حافظة للسانها عما لا يعني، آمرة بذلك، مجتنبة لكل ما يُتَّقى هنالك، كثيرة الأذكار، والصلاة على النبيّ المختار، مواظبة على ذلك آناء اللَّيل وأطراف النهار. وسمعت سيدي المهدي الفاسي ـ حفظه الله ـ يقول سمعت الشيخ سيدي محمد بن عبد الله بعد موت زوجته هذه يقول: إنها كانت لا يفتر لها لسان عن الصلاة على النبي ﷺ، وذكر لنا غيره من الأصحاب أنه سمع الشيخ سيدي محمد يقول فيها أيضاً بعد موتها: إنها من اللواتي يُزَرْنَ، وكانت البركة معها مصحوبة في أمورها وكافة شؤونها.

(١) سمعت ولدها سيدي أبا العباس ـ رضي الله عنه ـ يقول: إنها كانت لها بُرمة[1] صغيرة تطبخ بها دائماً، ويأكل منها أهل الديار والأضياف إن أتوا، لا تزيد على مقدارها ولا تبدلها بغيرها، وتتناول ذلك بيدها، ولا تدع من يتناوله معها، فيكفيهم ذلك كائنين ما كانوا.

وكانت لا تحتكر شيئاً ولا تدخره، بل تصرف ما يأتي من فوره على العيال والأقارب، فلما ماتت وتزوج سيدي محمد امرأة أخرى لم يبق الأمر

---

(١) قِدْر.

على ما كان عليه وظهر أثر ذلك. انتهى كلامه في المقصد. ثم قال: توفيت ـ رضي الله عنها ـ في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وألف[1].

سلطان المصري

شيخ القراء بالقاهرة ورئيس أهل التجويد لا مدافع سلطان المصري.

قال أبو سالم: زرناه ودعا لنا، وكانت في خلقه ـ رضي الله عنه ـ شدة لا يترك أحداً يقبل يده غالباً، وإن ألح أحد في طلب الدعاء انتهره ويمضي ويتركه، ولا يتحمّل للطلبة الذين يقرؤون عليه أدنى غلط يقع منهم، بل يبالغ في التقريع والتوبيخ، بل وربما زاد إلى الشتم، والناس يحتملون ذلك منه لتحقيقه وانفراده بذلك، مع تقشفه وورعه وحمله على ملازمة وظائف العبادة جل نهاره، وأوقاته مقسمة بين صلاة وتلاوة وتدريس وفتيا.

(١) والحدة تعتري خيار هذه الأمة ومن أخلاق المؤمنين، إلا أن الشيخ ـ رحمه الله ـ أفرط فيها إلى غاية لا يتحملها له إلاّ من علم حقيقة حاله، والمغاربة لما في أخلاقهم من المشاكسة لا يكادون يصبرون على القراءة عليه، فأكثر الملازمين له أهل بلده لما طبعوا عليه من سعة الخلق وتحمل الأذى والصبر الذي لا يوازيهم فيه أهل قطر من الأقطار. انتهى.

ثم قال فيه آخر في محل آخر من الرحلة: ولكن الله بلطف صنعه وخَفِيِّ حكمته قادر على أن يجمع له بين تلك الأخلاق المباركة التي هي أمرُّ من الصبر وأحدُّ من رؤوس الإبر، وبين الصدق في هيئته، وتعففه في كسبه، وإعراضه عن الرياسة الدنيوية انتهى[2].

ابن ناصر الدرعيّ

الإمام الكبير، الولي الصالح الشهير، العالم العلامة، علم الأعلام

(١) «نشر المثاني»: ٢/٣٨ ـ ٤٠.

(٢) «نشر المثاني»: ٢/١٤٥ ـ ١٤٦. وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ١٠٧٥ هـ.

ومصباح الظلام، أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن ناصر بن عمر الدرعي ثم الأغلاني. قال اليوسيّ: واشتهر بابن ناصر نسبة إلى جده كما تَرى. انتهى.

قال الشيخ أبو سالم العياشيّ في فهرسته في صاحب الترجمة: شيخنا الحافظ الخاشع الزاهد، ألين أهل زمانه عطفاً، وأشدهم لله خوفاً الموفق في السكون والحركة، المقرونة أحواله بالبر والبركة، كان رضي الله عنه شديد الاتباع للسنة في سائر أحواله حتّى في لباسه وأكله، وفي أنواع العبادات والعادات، سلك في ذلك سبيل الشيخ المرجانيّ وابن أبي جمرة وابن الحاج ونظائرهم. حضرت مجالسه في كثير من العلوم فقهاً وتفسيراً ونحواً وحديثاً وتصوفاً، عديم النظير في العربية.

(١) وقال أبو علي اليوسيّ في فهرسته: كان قائماً بالتعليم والتربية للمريدين بقوله وفعله والترقية بهمته، عن همة عالية، وحالة مرضية، وعلم صحيح، وبصيرة نورانية، مع التمكن والرسوخ. فكان إذا تكلم انتقش كلامه في القلب، وإذا وعظ وضع الهناء موضع التعب. وقد كنت بعد أن صحبته أجمعت السفر إلى ناحية الغرب، وكنت إذ ذاك أعاشر الطلبة، ولا نخلو عند الاجتماع كما هي العادة من كثرة اللغو والهذر، فلما ودعني قال: عليك بالعزلة عن الخلق ما استطعت، وأشاح بوجهه فلم يزل كلامه قائماً بين عيني. فلما بلغت الزاوية البكرية، تزوجت فانقطعت عن تلك الخلطة، ثم وقعت في مهاوي الشهوات، ودخلت مداخل النساء، فرجعت إليه مرة أخرى زائراً. فحين جلست إليه قال: عليك بمخالفة النفس. وجعل يلاحظني وكأنه يقول: فعلتَ وفعلتَ، وأدركني خجل عظيم.

(٢) وحكَى لي عن أستاذه سيدي عبدالله بن حسين أنه كان يقول للفقراء: إذا طلبت أحداً منكم نفسه بشرب الماء فليماطلها ساعة لا لأن في شرب الماء حرجاً، ولكن لئلا يعودها المسارعة إلى ما تحب. فلم يزل كلامه هذا أيضاً قائماً بين عيني، وقد وقع دواؤه في الموضعين على الداء

العارض في الوقت من غير تعرض منه لما عَرّض، ولا تعريج على مواطن الفراسة والكشف، فأكثر مما يلوح إليه ذكر الدواء الذي لا بدّ منه.

(١) ومن عجيب ما اتفق لي معه في هذا المعنى أن سافرت إليه مرة زائراً، فحين وصلت، قيل لي إن عندهم العقيقة الليلة على مولود للشيخ من فلانة بنت فلان أمة من إماء الزاوية وأبوها من أكابر عبيدها. فقلت في نفسي: سبحان الله، كيف توصل الشيخ إلى الاستمتاع بهذه الأمة؟ وإنما هي حبس ولا ملك له فيها، وذلك لأن الشيخ سيدي أحمد بن إبراهيم هو حبس أولئك العبيد لخدمة الزاوية. فأشكل عليّ هذا الأمر، ثم إنه خطر لي أيضاً أن أملاك الزاوية حبسٌ من الشيخ المذكور، فكيف تأتّى للشيخ أن يتوسع فيها بالتزوج هو وأولاده، ولئن كان فيها وجه بأن يقال إنها تكون من قبيل المصالح العامة، والشيخ عالم فيكون له مدخل في ذلك لا يُرضى له أن يسلك هذه المداخل الضيقة، ولا يسلك إلا الورع التام. ثم قلت: كيف حج هو وأولاده من ذلك؟ وهي إنما وقف على المساكين ليأكلوا منها في موضعها مع أنهم لا يخاطبون بالحج باعتبارها، إذ لا ملك لهم فيها. فأشكلت علي هذه المسائل الثلاث، فلم ألبث إلا ليلة أو ليلتين حتّى أجابني عنها جميعاً في مجلس واحد، وذلك أني اجتمعت به في خلوة من الدار فانبسط إليّ انبساطاً لم أعهده قط، وجعل يحدثني عن تزوجه وسائر أحواله، ثم ذكر ما أنعم الله به عليه من الأزواج والأولاد والأحوال المستقيمة في الدين والدنيا، ثم بشرني فقال: سيصلح الله لك ذلك كله أو سيعطيك لأنه أصلحه لي أو لأنه أعطانيه، فسرني ذلك، ثم إنّه ألمّ بحديث المسائل من غير أن أستطعمه حديثها ولا أن يشير إليّ فيما وقع في نفسي، بل على سبيل التحدث على غاية التثبت، فقال: وكنت استسلفت من إحدى نسائي دراهم حصلت لها من ميراث أبيها طيب، فاشتريت بها غنماً، وقلت إن نتجت فعسى أن يحج الإنسان بها، فأصلحها الله حتّى كانت غنم الناس تُباع بسوم وكان الكبش من غنمها يُباع بأربعة دنانير. قال: وكانت الخلة وهي موضع أسفل درعة محرثة كريمة، قال الشيخ وكان يقال بلسان العامة:

لو كان في المغرب خلتين ما ابناع الزرع بدرهمين، قال وكانت ساقيتها فسدت وتعطلت فجاءني أربابها فقالوا: إن جئت لنا بهذه الساقية فلك هذه الأرض فتعاقدنا على ذلك، وكتب الوثيقة سيدي علي بن محمد الفركلي، قال: فخرجت أنا ونفر من الإخوان إليها فحركناها فسهلها الله تعالى وطلعت، فكنا نحرثها، فمن ذلك كله كان تزوُّجنا وحجُّنا، ومن ذلك نخص من رأينا أن نخصه بكرامة أو عطية من الواردين. وهذه مسألة أخرى كنت غفلت عنها فزادنيها وانجلت المسألتان بغاية البيان، وبقيت مسألة الأمَة، ثم قال: وإن الشيخ سيدي أحمد بن إبراهيم حبس هؤلاء العبيد على أن يخدموا الزاوية وأن يحافظوا على دينهم ويشتغلوا بما يعنيهم، وشرط في أصل التحبيس أن من خرج عن هذا الوصف منهم يُباع ولا يبقَى في الزاوية. ثم إن بنت فلان يعني الأمَة المذكورة، خرجت عن ذلك واشتغلت في الدار بأمور قبيحة، فاقتضى شرط من المحبس أن تباع فبعناها من أهل تسط وذهبوا بها ومكثنا مدة بعد ذلك، فلم أشعر بهم يوماً إلا وقد أتوني فقالوا: نطلب منك الإقالة في تلك الأمة فإنها لم تعجبنا. قال: وكان الحسين، يعني أخاه، حاضراً في المجلس، فلما سمع كلامهم وإلحاحهم عليّ أن أقيلهم تكلم فقال: أمّا رجوع الأمَة إلى الزاوية فلا سبيل إليه، فإن أراد أخي أن يأخذها منكم بماله وتصير في ملكه في الحبس فهو ذاك. قال الشيخ فلما ألحوا على استحييت منهم فأخذتها لنفسي بمالي، فنويت أن أذهب بها إلى الحج فكان بأول ملاقاتي لها أن حملت بذلك المولود، فلما قضَى الشيخ حديثه اتضح العُذر وذهب كل إشكال، وقضيت العجب من جمعه هذه الأمور المتباعدة في مساق واحد مع أنه في غاية الضبط والبعد عن فضول القول، وعلماً أنه ما جاء بذلك إلا ليبين لي ويشفيني من الحيرة.

وقال العلامة أبو العباس أحمد بن يعقوب الولالي في كتابه مباحث الأنوار: وهو، أي صاحب الترجمة، وقع عليه اتفاق أهل المغرب، فلا ينكر عليه إلا سخيف العقل، لمتانة علمه وقوّة ديانته، وله عناية بتسهيل ابن

مالك أقرأه غير ما مرة. وتمسك بالسنة في لباسه وكلامه وكل أموره، وكثر عنه الأخذ شرقاً وغرباً. وحج مرتين. وكان يواظب على قراءة الحديث، ولا تفوته ركعة من الصلوات الخمس في جماعة. وكان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يخاف في الله لومة لائم.

(١) ولا يُرَى واقفاً بباب ملك من الملوك، ويتولّى صلاة الجمعة بمسجده ولم يخطب لملك قط. ووقع بينه وبين بعض الملوك شنآن[١] على ذلك حتّى هم به ذلك الملك، ثم عُصِم منه، ونقل عنه حينئذ لما رأى خوف أصحابه عليه قال: رأيت كأن سوراً من حديد ضُرِب عليّ من ستر الله تعالى، فلا تخافوا علينا.

وله كلام موجز جامع في رسائله من غير تكلف ولا تعمل، وكل ذلك مما يدل على كمال إيمانه، وقوة يقينه، واستواء القريب عنده والبعيد في الحق وإن كان القريب ولداً[٢].

رقية بنت ابن عبد الله

السيدة الولية الكاملة العليّة. زاهدة ورعة ناصحة متبعة، شقيقة سيدنا أحمد بن عبد الله مُعَنّ الأندلسيّ رضي الله عنها.

كانت آية من آيات الله في رفع الهمة والزهد والحزم في الطريق والجد، في غاية الإخمال والإهمال والتقشف والإقلال، لا تبالي بقلة ولا بمسكنة وعَيْلة[٣] ومع ذلك لا تقبل من أحد شيئاً وإذا أعطاها أخوها شيئاً ردته بملاطفة فتقول: اعطوه من هو أحوج مني، وتارة يتلطف معها حتّى تأخذه. وكان يقول إنها لفارغة القلب من الدنيا مع الحزم في أمور الدين والتمسك بحبله المتين، تعتريها أحوال لا تخرجها عن ظاهر حسها.

---

(١) بُغض.

(٢) «نشر المثاني»: ٢/٢١١ ـ ٢١٥. وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ١٠٨٥ هـ.

(٣) العَيْلة: الفقر.

(١) وأثنى عليها أخوها بعد وفاتها وقال: كانت تخبرني بأمور لا يجدها المنتصبون للمشيخة، وحكى عنها أنها قالت له: إني أرى نوراً ينتشر في محل سجودي كلما سجدت وأخاف أن يكون الشيطان يلعب بي. قال: فقلت لها: نعم يُخاف من ذلك، ثم قال للحاضرين: هكذا شأن الصدِّيقين يخافون وإن كانوا محققين.

وكان تزوجها الرجل الصالح أبو الحسن علي بن محمد المكنى الأندلسي المربي من أجلة أصحاب والدها.

(٢) وكانت في المرض الذي توفيت فيه مسرورة بلقاء الله، جميلة الرجاء فيه، ولما قربت وفاتها جعلت تسأل عن وقت الظهر فأخبرت بدخوله فصلت وماتت.

وكانت وفاتها سنة سبع وثمانين وألف[١].

عبد الله بن عبد الجليل البرناوي

الشيخ العالم الكبير الولي قاطن بلاد برنو من بلاد السودان ودفينها.

قال الحلبي في «ريحان القلوب»: وأمّا نسبه فإنه يتصل بحمير بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

(٣) وحكَى السراج عن الشيخ اليمنيّ، أنه قال: كانت أم صاحب الترجمة حال حملها به لا تحضر لهواً ولا زهواً ولا شيئاً، مما لا ينبغي حضورها فيه لمقتضى الشرع، إلا وأخذها وجع عظيم في جوفها وألم جسيم واضطراب ونحو ذلك. ولما وضعته ورضع ثديها فتارة تأخذه حال عظيمة ويضطرب ويمتنع عن الرضاع مدّة، ثم بعد ذلك يرضع ثدي أمه، ثم تحصل له تلك الحالة أيضاً إلى أن نطق وقت بلوغ النطق على العادة، فأخبر أمه بجميع ما كان يأخذها من الوجع والألم وأخبرها بأسباب ذلك.

---

(١) «نشر المثاني»: ٢/٢٢٠. وتوفيت ـ رحمها الله ـ سنة ١٠٨٧ هـ.

(١) وكانت حالته رضي الله عنه الإقتار: قال له بعض أصحابه: أنا ما في ملكي شيء من الدنيا سوى مُدِّينِ من الدُّخْن. فقال له الشيخ: أنا ما عندي مُدٌّ ولا أملكه. قال الشيخ اليمنيّ لما حدث عنه بهذا: وهذه صفته حتّى لحق بالله تعالى. قال: وكان لا يلتفت لما يأتيه من الهدايا، فإنها كانت تنزل بين يديه لا يأمر فيها ولا ينهي، لكأنها ما هي بين يديه وما هي في تصريفه.

(٢) وكان يذهب بأصحابه إلى موضع خال فيأمرهم بالتفرق ثم يقول لهم: تفكروا في ملكوت ربكم، وينعزل عنهم في ناحية، إلى وقت الظهر، فيرجع حينئذ ثم يجتمعون عليه، فيرجعون إلى قريتهم. هكذا كانت حالته كل يوم.

وكان دأبه التواضع مع الكبير والصغير، دائمَ البشر مستوٍ عنده القريب والبعيد في الكلام ولا يلبس إلا قميصاً واحداً ضيق الكمين إلى نصف ساقيه.

(٣) وكان شديد الاحتمال، واسع الخلق؛ حكَى عنه الشيخ اليمني أنه ما رآه مغضباً إلا يوماً واحداً إذ قال له رجل بحضرته: اللهم اقطع أصل التوارك! قبيلة وافرة من العرب يقطعون الطريق، فتغير وجه الشيخ، وقال للرجل: لا تساكنني، ثم شفع فيه الفقراء، فسمح له.

(٤) ووشَى به القاضي أبو بكر من علماء البلد إلى السلطان، فلم يقبل حتّى أوهمه أنه يحاول الملك ويفسد عليه الرعية، فأثر ذلك فيه، فأشخصه إليه. فلما دخل الشيخ على الأمير استعمل السنة النبوية في دخوله وسلامه وخطابه، فأثر ذلك في قلب الأمير تأثيراً حسناً. وكان من قول أبي بكر للسلطان في شأن الشيخ: إنه كافر. فقال الشيخ للسلطان: صدق أبو بكر أيها الأمير، الجهل كفر. فنسب لنفسه الجهل رضي الله عنه حتّى لا يزكي نفسَه، والحامل لأبي بكر، على فعله ذلك، الحسد لأنه كان عالماً، لكن أكب الناس على الشيخ دونه فكانوا يزدحمون عليه أشد الازدحام.

(١) قال الشيخ أحمد بن عبد الحي الحلبي في «ريحان القلوب»: جيء به إلى المكتب وهو طفل صغير فكان لوحه موضوعاً حذاءه، وهو جالس لا يقرأ فيه، ولكن ينظر فيه مرة واحدة فيأخذه شبه السِّنَة[١] فيأتي على اللوح كله مرة واحدة، فإذا أفاق حفظ ما في اللوح فلا ينساه أبداً. وهكذا دأبه حتّى حفظ القرآن في الزمن اليسير. وعلومه كلها كانت وهبية لم يعرف له شيخ تعليم، فلهذا قال ولده الشيخ عمر لمّا سُئِل هل الشيخ عبد الله والده شيخ في الطريق أم لا؟ فأجاب بقوله: ومنهم من يتولاه الجليل وذلك نادر ماله مثيل.

(٢) ومن غريب حاله أنه كان مشاركاً في جميع علوم اللسان، زيادة على ما عنده من علوم القلوب، كالنحو والفقه والبيان والأصول والكلام وغيرها من جميع علوم اللسان. وكان يفسر القرآن كتفسير العلماء الأكابر، ولما سمع بعضهم أصحابه يثنون عليه بذلك قال في نفسه: لعل هذا من مدح الفقراء[٢]، قال: فلما كنت معه في موضع خال أخذ بيدي وقال لي: ما أظهر الله ولياً إلا أمده ونصره بالعلم، وقال: وجدنا هـذا العلم من اتباع الأوامر وترك النواهي، وقال: إنا كنا من قبل هذا الأمر لا نعرف شيئاً لكن كلما سُئِلنا عنه نجيب عنه بإذن الله.

مات صاحب الترجمة في محاربة وقعت بين التوارك وبين أهل مدينة كلنبر من السودان التي كان بها الشيخ، فاستشهد في تلك الوقعة هو وجماعة من أصحابه لإغارتهم أي التوارك على المدينة وإرادتهم استئصال من فيها. فتغير حال التوارك من يومئذ، وسلط عليهم قائم من أهل السودان، فقتل منهم العدد العديد انتقاماً من الله تعالى.

كانت وفاة صاحب الترجمة سنة ثمان وثمانين وألف، وهو ابن ثلاث وستين سنة[٣].

---

(١) النعاس.

(٢) أي الصوفية.

(٣) «نشر المثاني»: ٢/٢٢٤ ـ ٢٢٨. وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ١٠٨٨ هـ.

عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي

الإمام قدوة الأنام، وحجة الإسلام، محيي الدين وعمدة السالكين، العلامة المشارك المحصل للمفهوم والمنقول.

قال حفيده وتلميذه العلامة أبو محمد الطيب بن الإمام سيدي محمد ابن صاحب الترجمة في فهرسته: وُلد رحمه الله بمدينة القصر الكبير قصر كتامه سنة سبع وألف، وقرأ هنالك على والده، ومن أدرك من أهل بلده، ثم ارتحل إلى فاس أوائل رجب سنة خمس وعشرين وألف، وأكب على التعلم والتعليم والاجتهاد، فحصل علماً غزيراً، وانتفع في أقرب مدّة ثمّ تأهل بفاس، وبَعُد صيته في جميع الآفاق. وسارت بحمل حديثه الركبان والرفاق، وتنافس في الرواية والأخذ عنه العلماء الكبار، وأعمل الناس الرحلة إليه من بعيد الأقطار؛ لِما شاع وعلم من سرعة الانتفاع بعلمه وانتشار بركته، ووفور اتساع عارضته في الفهم والحفظ والتحقيق في سائر الفنون، مع ما ضم إلى ذلك من رشاقة العبارة وبلاغتها، وإذلال عويص المسائل، حتّى يستوي في فهمه الذكي والغبي.

وثبت له مناقب وكرامات قد ألف الناس في استقصاء عدد وافر منها.

وكانت له همة عالية في قيام الليل والدؤوب على نشر العلم وقراءة القرآن في غالب أحيانه لا يكاد يفتر لسانه عن الذكر وتلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار.

(١) وكان ملجأ الخاصة والعامة في عويص مسائلهم الدينية، تنفصل المجالس عن قوله ولا تأخذه في الله لومة لائم، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، قوالاً للحق، يواجه به الكبراء والملوك، قد أعطي قوة على التلطف في توصيل ذلك وإبلاغه على أجمل صورة، حتّى تنفعل له النفوس الأبية، وتذعن لسامعها آذان الأغيال الجبابرة، ولا تستنكف عن الانقياد له الأنوف الشامخة، مهاباً في الأعين، معظماً في القلوب، قلما تجد عالماً أو متعلماً بإفريقية والمغرب إلا من تلامذته أو من تلامذتهم أو يروم التمسك

في الانتساب إليه بأي وجه أمكنه.

توفي رحمه الله سنة إحدى وتسعين وألف، واحتفل الناس بجنازته ورثي بقصائد كثيرة.

ولم يتصد لتأليف كتاب مخصوص ولا لشرح، وإنما كانت تصدر منه أجوبة يُسأل عنه فيجيب بأفيد من تآليف المؤلفين فيبدىء فيها ويعيد، وهي كثيرة موجودة أكثرها بأيدي الناس اليوم، يجتمع منها نحو السفرين الضخمين. وله العقيدة المشهورة المنسوبة إليه، وكراسة في الفرائض والسنن مشهورة أيضاً بأيدي العامة. انتهى.

(١) ومن الجاري على الألسنة وحكاه بعضهم عن شيخنا أورع أهل زمانه سيدي الكبير بن محمد السرغيني رضي الله عنه قولهم: إنه لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن الحادي عشر لكثرة الفتن التي ظهرت فيه، وهم سيدي محمد بن أبي بكر في ملوية من بلاد فزاز، وسيدي محمد بن ناصر في الصحراء وسيدي عبد القادر الفاسي بفاس[1].

(٢) وقال أبو العباس الولالي في مباحث الأنوار: وكان عالم وقته، وبحر الفنون في أزمنته، وكان أزهد العلماء بوقته فيما في أيدي الناس، وكان مع اتساع علمه وعظم جاهه يأكل من عمل يده، فكان ينسخ الجامع الصحيح للبخاري كثيراً، وكان يبيعه يتعيش به. وكان الناس يرغبون في النسخ التي تكون بخطه للتبرك والإتقان.

---

(١) جاء في الهامش زيادة نصها: «أما الأوّل وهو محمد بن بكر الدلائيّ فإنه يكرم طلبة العلم ويواصلهم بالعطاء الجزيل إعانة لهم على طلب العلم كما هو معلوم. كان مرتباً عنده بباب داره من طلبة العلم أزيد من ثلاثة عشرة مائة، وأما الثاني، وهو سيدي محمد بن ناصر، فإنه كانت له مواصلة يسيرة لم تبلغ عشر من ذكر قبله. وأما الثالث، وهو سيدي عبد القادر الفاسي، فإنه اعتنَى بتدريس علوم الحديث والمغازي والسير، فإن أهل فاس كانوا اشتغلوا بطلب علم الفقه والعلوم العقلية وتركوا علوم الحديث، فاعتنَى بالتدريس لها حتّى أحياها رحمه الله».

(١) ولما تولى السلطان مولانا الرشيد رحمه الله تعالى، وهو حينئذ كبير السن، أراد أن يمده بشيء من الدنيا، فبلغه ذلك فقال: قولوا له يشغل نفسه بغيري، فالذي رزقني من المهد إلى أن ابيضت لحيتي هو يرزقني. ثم جعل يحكي ما قاله الشيخ السنوسي لبعض ملوك وقته حين عرض عليه شيئاً من الدنيا وهو أنه قال له: أمّا نيتك فالله يجازيك عليها خيراً، وأما أنا فأخاف أن تفيض علي بحور الآخرة، فأردت أن تجدني حينئذ خفيفاً من الدنيا لعلّي أقطعها بخفة.

وكان ملازماً لما ينبغي له، لا يوجد له وقت إلا في مذاكرة علم أو توصية بعمل، وكل من عاشره شهد له بقوة الإيمان، وهو مشارك في الفنون: فله خط وافر في المعقول، وباع واسع في المنقول ينتفع الحاضرون بحاله ومقاله.

وكان له أخلاق شريفة، فلا يستدعيه أحد إلا خرج إليه ووقف معه وأوسع له فيما يريد حتّى يكون المستدعي هو الذي ينصرف عنه باختياره.

(٢) ولما مرض مرضه الذي توفي فيه دخلت عليه أنا وواحد من أهل البيت لنعوده فسلمنا عليه وقلنا له: كيف تجدك؟ فقال: بخير والحمد لله، أنا لا أجد في نفسي وجعاً، ومرضي هذا الهرم، وهو لا يبرأ، ومع كوني لا أجد وجعاً طال بي أمر الصلاة بالإيماء، ومسست يده فوجدت عليه حمّى قوية، ومع ذلك يقول لم أجد وجعاً، ثم قال: لكني أقول اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي. مثلنا كما قال الثعالبيّ وغيره كمثل عبيد أمرهم سيدهم بشغل على أنهم إن بعث إليهم وقد فرغوا منه فلهم من التكريم ما لا يُحصى، ومن فرّط في شغله حتّى بعث إليه فله من الانتقام ما لا طاقة له به، فمنهم من خاف أن يبادره السيد بالإرسال قبل الفراغ فبادر إلى شغله، وبعد فراغه أعدّ لسيده هدايا زائدة على شغله، والشغل الفرائض، والهدايا النوافل، فلما جاء الرسول وجده كما يحب السيد فبشره بأن خبره عند السيد، وقد أعد له ما وعده، فذهب

إلى الكرامة مع الرسول مسروراً. ومنهم من سوّف العمل حتّى جاءه الرسول فوجده على غير ما يحب السيد من التفريط، فأغلظ له الرسول، وأعلمه أن السيد عالم بتفريطه، فأخذه بعنف واستشفع إليه بالسيد في التأخير فلم يمهله، وذهب به إلى الانتقام. قال: هكذا نحن والله تعالى ينظر إلينا برحمته، فقلت له: يا سيدي أريد منك أن تقبل لي الصحبة لله. وأخذ بيدي وقال: تقبل الله منا جميعاً، ثم التفت إلى الذي معي من أهل البيت، فقال: تشهدون لنا بأننا ما ادعينا دعوى، وإنما كنا نتعاطى حروف العلم مع أصحابنا، فخرجنا عنه مودعين، وفي الغد توفي رحمه الله تعالى.

(١) وفي ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة سمع صوت قراءة ونحوه من قبر صاحب الترجمة بعد صلاة العشاء، وحضره نحو الأربعين، وكان سمعه قبل ذلك نحو اثنين في الشهر الذي قبله[(١)][(٢)].

فاطمة الشقوِري

فاطمة بنت أحمد حمدون الشقوِري الصالحة السيدة الناصحة ذات التجارة الرابحة.

---

(١) جاء في الهامش زيادة نصها: «وهذا شبيه بما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني بسنده في حليته عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، في ترجمة أبي الجوزاء قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباء على قبر ولا يحسب أنه قبر فإذا هو بإنسان يقرأ سورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ حتّى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ضربت خباء لي على قبر وأنا لا أحسب أنّه قبر فإذا إنسان يقرأ سورة تبارك حتّى ختمها. فقال رسول الله النبي ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر». وقال أبو نعيم: غريب، من حديث أبي الجوزاء لم نكتبه مرفوعاً مجرداً إلا من حديث يحيى بن عمر عن أبيه. انتهى.

ووردت أحاديث صحاح وغيرها في فضلها: قال الجلال السيوطي في حاشية الموطأ: وعرف من مجموعها أنها تجادل في القبر وفي القيامة معاً لتدفع عنه العذاب وتدخله الجنة.

ولعل الشيخ صاحب الترجمة لما كان ديدنه القرآن، كما قدمناه، جعله الله أنيسه في قبره.

(٢) «نشر المثاني»: ٢/٢٧٠ ـ ٢٧٩. وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ١٠٩١ هـ.

(١) كانت رضي الله عنها من الزاهدات العابدات المجتهدات. ولما توفي بعلها ترك أولادها: فالأول من نحو سبع سنين، والثاني من نحو أربع وأخت لهما من سنتين، فألزمت ولديها القراءة. وكان الزمان إذ ذاك شديد الأهوال والشرور والغلاء المفضي إلى قتل الناس أولادهم للاستراحة منهم حيث لا يجدون ما يقومون به بهم في الغلاء، وقد أكل الأموات جهاراً بشوارع فاس. فكانت تجتهد في طلب الكسب، من عمل يديها بما يحصل قوتها وقوتهم. فكان خالها السيد محمد بن خلف الأنصاريّ يشتري لها قَدراً معلوماً من الكتان تغزله ويبيعه لها، وما يفضل لها يشتري لها قدراً معلوماً من القمح والشعير فتصنع منه خبزة واحدة وتجعلها بفور خروجها من المطبخ في زير من الزيت حتّى تروى ثم تخرجها من الزيت، فتقسم الخبزة أربعاً فتعطي كل من الأولاد ربعاً وتأخذ هي ربعاً من جملتهم. فعلى ذلك عاشوا في تلك المجاعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والزيت المشار إليها كانت عندها قبل الغلاء في زير كبير ممتليء زيتاً، فاستعانت به عليهم في تلك المجاعة، وكان عندها نبق فكانت تعطي لكل واحد حفنة أول النهار، فكان يظهر عليهم الشبع وحمرة اللون، لأن النبق من خاصيته إنارة الوجه للمداوم على أكله. وكل ذلك منة من الله وكرم منه وعون وتوفيق في الخارج للعادة. ولا زال يظهر في أبدانهم جودة اللون والصحة حتّى يظن الظان أنهم ممن يتمتعون في الأكل غاية التمتع، وذلك من بركة توجهها لله سبحانه.

(٢) وكانت حيث تتيقظ آخر الليل تغزل غزلاً آخر، وهي تذكر الله، وتتركه حتى تجمع منه ما تنسج به شِقّةً وتصرف ثمنها في أجرة معلم ولديها القرآن، وهي متعلقة البال لقراءتهما، مجتهدة في إرشادهما، راغبة في إصلاح حالتهما. فوفَى الله تعالى بقصدها وأجابها إلى مرغوبها، وكان من أمرهما ما كان مما سيأتي ذكره في ترجمة كل منهما وأدّى ذلك في الأقارب إلى حسد ومنافسة في بعض الأوقات[١].

---

(١) «نشر المثاني»: ٢/٣٥٩ ـ ٣٦١.

شعبان بن مساهل الطرابلسيّ

قال في الرحلة العياشية: ممن لقيته بطرابلس، من أفاضل أهلها، سيدي شعبان بن مساهل ابن عم شيخنا المذكور. وكانت له معرفة بنوادر التاريخ وجزئيات من علم النجوم. ومما أفادنيه من التاريخ أن الترك دخلوا تونس وأخذوا حلق الوادي من أيدي النصارى عام اثنين وثمانين وتسعمائة. قلت: وسمعت من غير واحد أن أمير المؤمنين الخليفة مولانا عبد المالك بن أمير المؤمنين مولاي محمد الشيخ الأكبر الشريف الحسني الدرعي السعدي سلطان المغرب، كان حاضراً مع الترك في دخول تونس حيث كان هو وأخوه أمير المؤمنين مولاي أحمد المنصور بالله مستصرخين بالترك على ابن أخيهما أمير المؤمنين مولاي محمد الشيخ المأمون بن أمير المؤمنين مولاي عبد الله المتوكل على الله، فحضر القتال وأبلى بلاءً حسناً، ولما رأوا منهما ما رأوا من شهامتهما بعثوا معهما، إلى أن كان مع ابن أخيهما ما كان، فرضي الله عنه، لأنه كان ابتداء الأمر أن ظهر في الجهاد وختم له بأن توفي في الجهاد. والبداية كما قيل مجلة النهاية، فمن طابت بدايته زكت نهايته. قال أبو سالم: ومما أفادنيه من تاريخ هذا البلد أن العدو دمره الله استولى على هذه المدينة يعني طرابلس سنة ست عشرة وتسعمائة، وافتُكت منهم عام ثمانية وخمسين وتسعمائة، وافتكها درغوت باشا صاحب جربة ومراد باشا صاحب مسلاته وبقي بها درغوت إلى أن توفي بها. وسبب أخذها من العدو أن مراكب للمسلمين جاءت من اصطنبول إمداداً للعمارة الحاضرة لحلق الوادي بتونس فمرت بسواحل طرابلس، فكلمهم أهل السواحل في إغاثتهم على النصارى، فقالوا: إنا لم نومر بذلك من السلطان، فقال لهم الباشا مراد: أعينوني في هذا الأمر فإن كانت عقوبة من السلطان فأنا المواخذ بها دونكم. فحاصروها براً وبحراً إلى أن أخذوها، فذهب معهم مراد باشا إلى السلطان وقال له: إن كانت عقوبة فأنا المواخذ بها دون هؤلاء الأمراء. فرضى الله عنه وعنهم وأكرمهم.

(١) وأما أخذ النصارى لها فذكروا لذلك قصة غريبة وهي أن أهل هذه

المدينة فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة فيما يُقال، وليس فيهم غَناء ولا لهم بالحروب خبرة. فبينما هم كذلك قدمت سفن للنصارى تجاراً بسلع كثيرة، فنزلت بالمرسى، فخرج إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع، ونقد لهم ثمنها، ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاماً فاخراً. فلما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة ودقها دقاً ناعماً ودرّها على طعامهم، فبهتوا من ذلك. فلما فرغوا قدم لهم دلاعاً[1] فطلبوا سكيناً لقطعها فلم توجد في داره سكين ولا عند جاره إلى أن خرجوا للسوق فأتوا بسكين. فلما رجعوا إلى بلدهم، سألهم ملكهم عن حال البلد التي قدموا منها فقالوا: ما رأينا بلداً أكثر منها مالاً وأقل سلاحاً وأعجز أهلاً عن مدافعة عدوهم، فحكوا له الحكاية، فتأهب ملكهم لدخولها في مراكب البحر، فدخلها في ليلة واحدة بلا كبير مشقة واستولى عليها، ولم ينج من أهلها إلا من تسور ليلاً. وانحاز المسلمون إلى تاجورا وجبال غربان ومسلاته، وصارت المدينة للنصارى، إلى أن كان من أمرها ما كان في التاريخ المذكور.

(١) قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه «نزهة الناظرين» عند ذكر السلطان سليم ولد السلطان سليمان ما نصه: وكانت ولايته سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وفي أيامه كان فتح حلق الوادي ببلد تونس المغرب بعد استيلاء النصارى عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب وآل حفص فصار بعضهم يتقوى على بعض بالإفرنج وأطمعوهم في بلاد المسلمين فاستولوا عليها وتمكنوا منها وحصنوا الحصون وأحكموا القلاع بحيث أيس المسلمون من فتحها وصاروا تحت حكم الإفرنج وأخذوا مملكة تونس ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد، فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب[2] مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحرب وصحبة ذلك سنان باشا وقلج علي باشا، وكانت غزوة مشهورة ووقعة معدودة من أعظم غزوات بني عثمان يحتاج تفصيلها لمؤلف،

---

(١) نوع من البطيخ. (٢) سفينة.

فنصر الله المسلمين بعد أن قُتل منهم عشرة آلاف مع الحصار المديد والقتال الشديد. ومن العجائب أن الإفرنج كانوا أنشأوا هناك قلعة منيعة أقاموا في استحكامها وإتقان بنائها ثلاثة وأربعين سنة فافتتحها المسلمون بصحبة الوزير المذكور في ثلاثة وأربعين يوماً من أيام محاصرتها، وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، ثم خرّب الوزير القلاع والحصون ولم يبق لها رسم ووصلت البشائر للسلطان سليم، وكان في نفسه فتح إقليم الأندلس في ثاني سنة فلم يمهله الأجل رحمه الله. انتهَى.

أتينا بهذه الفائدة وإن كانت خارجة عن المقصود. ولو أمسك التاجر طعامه وياقوتته لكان خيراً، أو أنفقه على المسلمين أو في تحصين البلاد لكان أميناً[1].

ابو الحسن النفاتي السوسيّ التونسيّ

أمير ركب الحجاج، السوسيّ التونسيّ الأصل الينبعيّ الوفاة. قال أبو سالم في الرحلة: أخبرني الشيخ الأجل قاضي مدينة القدس محمد الحنفي النفاتي التونسي أيام لقائي له بالقدس الشريف أنه حج في صغره مع أخيه أبي الحسن النفاتي، وكان أمير الركب، فمروا بهذا المكان وهو وادي ينوت بقرب طرابلس في زمان الصيف فألجأهم العطش إلى بئر وادي ينوت فنزلوا عليها قائلة، ووافتهم هنالك قفول قدمت من فزان، حاجتهم مثل حاجتهم، فذهب الناس إلى البئر فنزحوا ما فيها من الماء فلم يشف بعض أوامهم[2] ورجع الناس مغمومين، فمن قائل: نرتحل هذا الوقت لندرك الماء قبل حلول الهلاك، ومن قائل: نؤخر إلى آخر النهار. قال لي الشيخ: فدخلت على أخي وأخبرته بذلك وقلت له: إن الناس قد أشرفوا على الهلاك واضطرب أمرهم في الرحيل، فمُرهم بالرحيل لئلا يهلكوا، قال فاغتمّ لذلك واسترخى كالنائم، فلما أفاق قال لي: ناد في الناس بالإقامة وقل لهم

(١) «نشر المثاني»: ٢/٣٧١ - ٣٧٣.

(٢) الأوام: شِدة العطش.

يذهبون إلى الماء. فقلت له: أبك جنون؟ أنا أخبرك أنه لا قطرة في البئر والناس قد أشرفوا على الهلاك، فقال لي: افعل ما أمرتك. فقلت له: لست بأحمق أنادي بالإقامة والذهاب لسقي الماء ونحن على غير ماء. فلما أبيت، نادى الغلام وقال له: ناد في الناس بالإقامة والذهاب لسقي الماء، فلما سمعته استحييت وتغيبت عن الناس، وذهبوا إلى البئر فوجدوها قد امتلأت بالماء حتّى كادت تفيض من جوانبها، فاستقى الحجاج وجميع القوافل حاجتهم والماء كما هو. قال لي الشيخ: فلما رأيت ذلك ذهبت إليه وقصصت عليه الخبر، فقال لي: مر الناس بالإقامة. فعلمت أن الله سيجعل لهم فرجاً. قلت ولا يستبعد ذلك في حق رئيس وفد الله وزوار نبيه ﷺ، فإن لله بهم عناية ولهم منه أعظم وقاية. وقد أخبرني عن أخيه هذا بأمور من جنس هذا في سفرته تلك، وفيها توفي بقرية الينبوع التي ينزل بها الحجاج، والله يتغمدنا برحمته في الدنيا والآخرة آمين[1].

الشريف زيد

زيد بن محسن، أمير الحجاز، شريف الفضلاء وفاضل الشرفاء وأمير الكبراء سلطان مكة بيت الله الحرام ومجاور مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

قال أبو سالم في «الرحلة»: بينما نحن جالسون، يعني بمكة، بمنزل بعض أشياخنا إذ مر بنا أمير مكة الشريف زيد في موكبه، وله شارة حسنة، معه طائفة من الأشراف والجند ذاهباً لرمي الجمار، قد ظلل على رأسه بمظلة كبيرة من حرير يحملها فارس بجانبه يسايره، وهو في ظلها، والناس يحيونه عن اليمين والشمال: فالعوام يقولون في تحيتهم: نصرك الله يا زيد، والخواص يقولون: السلام عليكم، وهو يرد على كل من حياه من وضيع وشريف ولا يهمل أحداً، ويشير برأسه إلى كل من حياه، وذلك لشدة تواضعه رضي الله عنه. وهو رجل أسمر اللون، أبيض اللحية، سمح

---

(١) «نشر المثاني»: ٢/٣٧٣ - ٣٧٤.

الوجه، ضرب من الرجال إلى النحافة أميل. وأثنى من حضر المجلس عليه كثيراً في سيرته وعقيدته، وأثنى لي عليه شيخنا أبو مهدي.

(١) وهذا الأمير من أحسن أمراء عصره سياسة وحسن تدبير، ولم تزل الإمارة في أسلافه منذ أعصار متطاولة، وأسلافه هم المشهورون بآل أبي نُمي وهو بطن من بني حسن، وإخوانه بنو حسَيْن لهم إمارة المدينة. وولاية الحجاز الآن بأطرافه، من أطراف اليمن إلى أقصى نجد مما يلي البصرة ثم إلى خيبر مما يلي ناحية الشام ثم إلى الينبع، كلها للأمير زيد بن محسن ولأسلافه. وليس لبني حسين في ولاية المدينة في هذا الزمان إلا الاسم فقط وبعض تصرف من تحت يد الأمير زيد.

(٢) وكان هذا الأمير فيما مضى على معتقد أهل بيته كاعتقاد الزيديّة، ثم إنه باينهم ورجع إلى معتقد أهل السنة وتمذهب بمذهب الإمام أبي حنيفة، وحسُن اعتقاده في علماء السنة وبالغ في تعظيمهم، وكف أهل بيته عن كثير مما كانوا ينالون من أهل السنة، ومنعهم من إظهار معتقداتهم. وقد بلغنا أنهم اجتمعوا ذات يوم ولاموه على رجوعه عن مذهبهم، فقال لهم: ألا يكفيكم مني أني لم أجبركم ولم أنهركم على الرجوع عما أنتم عليه؟ إنما هو دين لا يسع المرء فيه إلا اعتقاد ما هو الحق واتباع من يغلب على ظنه أنه على الحق والهدى، وقد ظهر لي صحة ما رجعت إليه، فإن رأيتم ما رأيت وتبين لكم أن ترجعوا إلى الحق والهدى وإن لم تروه فلكم دينكم ولي دين. فمن ذلك اليوم أيسوا منه.

(٣) وقد استفاض على الألسنة أنه من الأولياء لما يرون من إجابة دعوته وكثرة عبادته وشدة تواضعه، وإن كان تصرفات عُمّاله لا تخلو من جور في الأموال كما هي ولاة العصر. وقد أخبرني من أثق به أنه ذات يوم دعا بعض عماله ليذهب إلى خليص في أيام الموسم ليجلس فيها مع طائفة من عسكره ردعاً للصوص وتأميناً للسبل كما هو شأنه في سائر الطرقات أيام الموسم، فاعتذر العامل بأنه مريض ولا مرض به. فألحّ عليه في ذلك

فقال: إني مريض لا أقدر. فقال له: إن كنت صادقاً فشفاك الله، وإن كنت كاذباً فأماتك الله. قالوا: وكان ذلك صباحاً، فلم يأت الظهر حتّى مات ذلك العامل. وأمثال هذا من إجابة دعوته كثير حتّى كانت أعراب الحجاز تقول: نخاف من إجابة دعوة زيد أكثر مما نخاف من سيفه.

ومن محاسنه أنه لم يقتل قط أحداً من أهل بيته مع كثرتهم وكثرة خروجهم عليه وسعيهم بالفساد في ملكه، ولكن كل من أحسّ منه ذلك يقول له: لا تسعك بلادي، فيخرجه من مكة، فلا يزال يحارب مع الأعراب ويسعى في إفساد المملكة حتّى يذهب ما بيده من الأموال فيرجع إليه صاغراً، حتّى يئسوا من القيام عليه فأذعنوا له.

مكث في ولاية مكة أكثر من ثلاثين سنة، والغالب أن الله تعالى لا يمكن من حرمه الأمين وبلاد نبيه المكين هذه المدة المتطاولة مع حسن دفاعه عنه وكفايته أعداءه إلا من له عنده مكانة وله به عناية مع ما منّ الله عليه من حسن الاعتقاد والإكثار من العبادة والطواف بالليل في غمار الناس حيث لا يعرف.

(١) وكثير من الناس ربما يرميه بالبخل، وقد أخبرني شيخنا أبو مهدي أنه على خلاف ذلك وأنه يتعمل بصدقاته ومعروفه الأخفياء من العلماء والأتقياء ممن ليست له وظيفة معلومة ويبعث لهم وإلى الفقراء من معروفه بليل بحيث لا يشعر بذلك إلا خواص أصحابه. وأما أهل المناصب والوظائف فلا ينالهم من معروفه إلا القليل فيَسِمُونه لذلك بالبخل.

ومن محاسنه تورعه عن سفك الدماء مع شدة بأسه بحيث تضرب به الأمثال في الشجاعة في حروبه، وأكثر ما يعاقب بالمال إلا في حد من الحدود، وكثيراً ما يقع من عماله ما يخالف الشرع في الجباية ويبالغون في ظلم الرعيّة، ولم يُر في أحواله ما يُغمص عليه إلاّ هذا، وأمّا ثناء الناس عليه فأكثر من هذا كله. وأهل الحجاز يرون أنهم تحت جناح العافية وفي

ظل الأمان ما دام حياً، ويفدونه بآبائهم وأمهاتهم. نسأل الله تعالى أن يطيل بقاءه آمين[1].

(١) «نشر المثاني»: ٢/٣٨٠ - ٣٨٢. وتوفي - رحمه الله - سنة ١٠٧٧ هـ.

مختارات القرن الثاني عشر
من كتاب
«سلك الدرر في أعيان
القرن الثاني عشر»

تأليف الشيخ

محمد خليل المراديّ



ابو المواهب الحنبليّ

أبو المواهب بن عبد الباقي بن عبد الباقي الحنبليّ البعليّ الدمشقيّ مفتي الحنابلة بدمشق، الوليّ الخاشع، التقيّ النورانيّ، شيخ القراء والمحدثين فريد العصر وواحد الدهر.

كان إماماً عاملاً حجة، خاشعاً، محدثاً ناسكاً تقيّاً، فاضلاً علامة فقيهاً محرراً، ورعاً زاهداً آية من آيات الله سبحانه وتعالى، صالحاً عابداً، غواصاً في العلوم.

وُلِد بدمشق سنة أربع وأربعين وألف ونشأ بها في صيانة ورفاهية في كنف والده وقرأ القرآن العظيم وحفظه، وجود على والده ختمةً للسبع من طريق الشاطبية وختمة للعشر من طريق الطيبة والدرة، وقرأ عليه الشاطبية مع مطالعة شروحها، وأخذ العلم عن جماعة كثيرين من دمشق ومصر والحرمين.

مات أبوه في غيبته بمصر ثم عاد إلى دمشق وجلس للتدريس مكان والده في محراب الشافعية بين العشائين وبكرة النهار لإقراء الدروس الخاصة فقرأ بين العشائين الصحيحين والجامعين الكبير والصغير للسيوطيّ، «والشفا»، و«رياض الصالحين» للنوويّ، و«تهذيب الأخلاق» لابن مسْكَويه، و«إتحاف البررة بمناقب العشرة للمحب الطبريّ»، وغيرها من كتب الحديث والوعظ وأخذ عنه الحديث والقراآت والفرائض والفقه ومصطلح الحديث والنحو والمعاني والبيان أمم لا يُحصون عدداً، وانتفع

الناس به طبقة بعد طبقة وألحق الأحفاد بالأجداد، ولم يُر مثله جلداً على الطاعة مثابراً عليها.

(١) وكان يُسقىٰ به الغيث حتى استُقِيَ به في سنة ثمان ومائة وألف فكان الناس قد قحطوا من المطر فصاموا ثلاثة أيام وخرجوا في اليوم الرابع إلى المصلى صياماً فتقدم صاحب الترجمة وصلى بالناس إماماً بعد طلوع الشمس ثمّ نصب له كرسيّ في وسط المصلى فرقى عليه وخطب خطبة الاستسقاء وشرع في الدعاء وارتفع الضجيج والابتهال إلى الله تعالى وكثر بكاء الخلق وكان الفلاحون قد أحضروا جانباً كثيراً من البقر والمعز والغنم وأمسك المترجم بلحيته وبكى وقال: إلهي لا تفضح هذه الشيبة بين عبادك فخرج في الحال من جهة الغرب سحاب أسود بعد أن كانت الشمس نقيّة من أول الشتاء لم يُر في السماء غيم ولم ينزل إلى الأرض قطرة ماء ثمّ تفرق الناس ورجعوا فلما أذن المغرب تلك الليلة انفتحت أبواب السماء بماء منهمر ودام المطر ثلاثة أيام بلياليها غزيراً كثيراً وفرج الله الكربة بفضله عن عباده.

(٢) وله كرامات كثيرة وصدقات على طلبة العلم والصالحين، وكسبه من الحلال الصرف في التجارة مع التزام العقود الصحيحة.

(٣) في سنة خمس عشرة ومائة وألف كان والياً بدمشق محمد باشا بن كرد بيرم فأرسل إليه من طرف الدولة العلية أن يضبط بعلبك والعائد منها ويرسله إلى طرفهم لكونها كانت في يد شيخ الإسلام المولى فيض الله مفتي الدولة العثمانية فحين قتل صارت للخزينة السلطانية العائد منها حتى الحرير وغيره وكان لما وصل إليه الحرير طرحه على التجار بدمشق فذهب جماعة إلى عند المترجم وترجّوْا منه برفع هذه الظلمة عنهم فأرسل ورقة مع خادمه ابن القيسيّ إلى الباشا فلما وصل إليه هدده فهرب من وجهه، فلما ذهب كان حاضراً في مجلس الباشا أحد أعيان جند دمشق وهو محمد آغا الترجمان وباش جاويش وغيرهما فأخبروه بمقام الشيخ وعرفوه بحاله من النسك

والعلم والعبادة والولاية. فلما تحقق ذلك ـ وكان مراده أن يأخذ من الشيخ مالاً لمّا سمع بخبره من مزيد الثروة ـ أرسل خبراً: لا أحد يتعدى على التجار، ثم إن التجار وقعوا على الشيخ مرة ثانية فأرسل ورقة أخرى إلى الباشا وذكر أن الرعية لا تحتمل الظلم فإما أن ترفع هذه المظلمة وإما أن تهاجر من هذه البلدة والجمعة لا تنعقد عندكم وأيضاً الحرير للسلطان لا لك، فلما وصلت إليه ترك مراده بعدما علم بمقام الشيخ وأن الرعية تقوم عليه إذا فعل ذلك. انتهى.

وكان المترجم ـ رحمه الله تعالى ـ لا يخاف في الله لومة لائم ولا يهاب الوزراء ولا غيرهم.

وأصيب بولده الشيخ عبد الجليل قبل وفاته بسبع سنوات فصبر واحتسب، ثم بولده الشيخ مصطفى وكان شاباً فصبر واحتسب.

ولم يزل على حالته الحسنة وعلى طريقته المثلى إلى أن اختار الله له الدار الباقية وكانت وفاته سنة ست وعشرين ومائة وألف ودُفِن بتربة مرج الدحداح رضي الله عنه[1].

حسب الله البابيّ

حسب الله بن منصور الحنفيّ البابيّ الأصل[2] الحلبيّ كاتب الفتوى.

كان محققاً مشهوراً بالدراية والديانة والتقوى، قرأ على علماء عصره وجهابذة مصره وتنبل على يد المولى أبي السعود الكواكبيّ، وكان لطيفاً ظريفاً ديناً عفيفاً نحيف الجسم صبيح الوجه له فضل وأدب.

(١) أخبر عنه من يُوثق به أنه قال: كنت سُئِلت سؤالاً بعد وفاة أستاذي أبي السعود الكواكبيّ والسائل في غاية اضطرار إلى الجواب فاستمهلته أياماً

---

(١) «سلك الدرر»: ١/٦٧ ـ ٦٩.

(٢) نسبة إلى الباب، قريةٍ من قرى حلب.

فلم أظفر بالجواب والسائل في غاية الإلحاح فبت ليلة في كرب عظيم لذلك فرأيت في النوم العلامة محمد الكواكبيّ جد أبي السعود الكواكبيّ وهو يقول: ليست المسألة في كتب الفتوى التي طالعتها بل هي في الكتاب الفلاني ذكرها استطراداً في باب كذا فانتبهت من النوم مسروراً لرؤيته وتناولت الكتاب الذي ذكره في النوم فإذا المسألة بعينها في الباب الذي عيّنه.

(١) وقد كان المولى أبو السعود الكواكبيّ يقول: قبل أن أتولى خدمة الفتوى رأيت الجد يعني العلامة محمد الكواكبيّ المذكور في النوم ومعه صاحب الترجمة حسب الله وهو يقول لي: إذا توليت الفتوى فاجعل كاتبك هذا وأشار إلى صاحب الترجمة فما مضى للرؤيا نحو عشرة أيام إلا وأتى لنا الإذن بالفتوى من غير طلب.

وكانت وفاة صاحب الترجمة في سنة تسع وخمسين ومائة وألف وقد ناهز الثمانين ودُفِن بمقابر الصالحين غربي مقام خليل الرحمن عليه السلام بينهما الطريق[١].

سليمان الحلبيّ

سليمان بن خالد بن عبد القادر المعروف بالنحويّ الحنفيّ الحلبيّ العالم الفاضل البارع، المفضال النحويّ المفنن، المحقق الماهر.

كان والده من أمراء الأكراد الكائنين في ناحية حلب، وولده المترجم نشأ بحلب وقدم دمشق وقرأ بها وحصل الفنون وحضر دروس مشايخها وأخذ عنهم، ثم رجع بعد تحصيل الفضل التام لحلب وتوطنها واشتهر بها بالنحو وتولى تدريس جامع الفردوس وغيره وأخذ عنه الأفاضل وتفوق واشتهر.

(٢) ومما وصلني من شعره قوله في قصيدة:

---

(١) «سلك الدرر»: ١٩/٢.

في روضة غنّا بغوطة جُلّق[1] يجري اللجين بها على الرضراض

أقول وقوله بغوطة جُلّق إلى آخره هي بقعة بناحية دمشق الشام ذات أزهار وأشجار ومياه ومحاسن وأطيار تشتمل على عدة قرى ذات أدواح وغياض ورياحين ورياض وغير ذلك، وقد أجمع جُوّاب الأرض أن منتزهات الدنيا أربع وهي شعب بوان، وصغد سمرقند، ونهر الأبله، وغوطة دمشق. قال أبو بكر الخوارزميّ: وقد رأيتها كلها فكان فضل الغوطة على الثلاث كفضل الأربع على سائر الأماكن فأما شعب بوان فهو كورة من نواحي نيسابور ومنسوب لبوان بن أفرح بن أفريدون وقد ألحفتها الأشجار وجاست في خلالها الأنهار وهي فرسخان في مثلها، وأما صغد سمرقند فهو نهر تحف به بساتين وقصور اثني عشر فرسخاً في مثلها، وأما نهر الأبلة فهو نهر من أعمال البصرة وعلى جانبه بساتين كأنها بستان واحد قد خط أشجارها في يوم واحد وهو أربعة فراسخ، وأما غوطة دمشق فإنها بقعة مشتبكة القرى والضياع لا يكاد أن يقع للشمس على أرضها شعاع لالتفاف أشجارها وطولها عشرة فراسخ في عرض خمس فراسخ. انتهى.

كانت وفاته في حلب في سنة إحدى وأربعين ومائة وألف عن نيف وثمانين سنة، رحمه الله تعالى وأموات المسلمين[2].

عبد الجليل المواهبيّ

عبد الجليل بن أبي المواهب بن عبد الباقي الحنبليّ الدمشقيّ الشيخ العالم المحقق المدقق الفَهَّامة الإمام الفاضل.

وُلِد بدمشق سنة تسع وسبعين بعد الألف، ونشأ بها في كنف والده المتقدم ذكره، واشتغل بطلب العلم على والده وعلى غيره، وبرع في المعقولات لا سيما النّحو والصرف والمعاني والبيان، وجلس للتدريس

---

(١) جُلّق: هي دمشق.

(٢) «سلك الدرر»: ٢/١٥٨ ـ ١٥٩.

بالجامع الأمويّ وعكف عليه الطلبة للاستفادة، وكان عجباً في تقرير العبارة يؤديها بفصاحة وبيان، وله من التآليف نظم الشافية في الصرف وشرحها شرحاً حافلاً، وله تشطير[1] بديع على ألفية ابن مالك في النحو، وله أرجوزة في العروض وغير ذلك من الرسائل.

(١) وكان وقوراً ساكناً كثير البر بوالده وشوهد مراراً إذا كان في درسه ومرّ عليه والده يقوم من الدرس ويأخذ مداس والده منه ويمشي خلفه بأدب وسكينة، ويلازم حضور دروس والده بالجامع الأمويّ بين العشائين، وكان والده يحبه كثيراً ويحترمه ويدعو له لما كان عليه من البرِّ والديانة والصيانة وملازمة الطاعات وكف اللسان عن اللغو والانقطاع عن الناس.

(١) وكان ينظم الشعر الباهر. فمنه قوله مشطراً الأبيات المنسوبة لجعفر الصادق رضي الله عنه:

عتبت على الدنيا وقلت إلى متى ... تسيئين صنعاً مع ذوي الشرف الجلي
أفاقدة الإنصاف حتى عليهم ... تجورين بالهم الذي ليس ينجلي
فكل شريف من سلالة هاشم ... بسيء حظ في مذاهبه ابتُلي
ومع كونه في غاية العز والعلا ... يكون عليه الرزق غير مسهلِ
فقالت: نعم يا ابن البتول لأنني ... خسيسة قدر عن علاكم بمعزِل
وأما إساآتي فذلك إنني ... حقدت عليكم حين طلقني علي[2]

(٢) وقوله:

إذا ملكٌ لم يكن ذا هِبة ... فدعه فدولته ذاهبَهْ
فجد للفقير بما يبتغي ... وأفضل مالك كن واهبَهْ
ولا تُلفَ دهرك مستوهباً[3] ... فخير اليدين يد واهبَهْ

---

(١) التشطير: هو: أن يدخل الناظم بيتاً بين كل شطرين من قصيدة غيره ولا يخل ذلك العمل بالمعنى.

(٢) علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أي: لا يراك الناسُ تطلب هِبةً.

وفي الله عن كل شيء غنى ... فكن راغباً فيه أو راهبَهْ
ونل طيب العيش وانعم به ... ولا تك أشعث كالراهبَهْ
وعمرك رأس جميع الذي ... ملكت فبالخير كن ناهبهْ
وحاذر معاصي الإله التي ... تكون لأجر الفتى ناهبهْ
ومن مال ربك فأنفق فما ... تملكت عارية لا هِبهْ
ودم في علاه لترقى العلا ... وتنجو من ناره اللاهبهْ

(١) وقوله:

سلِّم للّه الأمر ولا ... تيأس أبداً من رحمته
جَهِلتْ نفس عرفته وما ... رضيت بنفوذ إرادته
عجلا يأتيك الرَّوْحُ[1] إذا ... سلمت له ولحكمته
لله الأمر فلا تضرع ... للخلق وخف من نقمته
للحال وإن ضاقت فرجٌ ... يأتي المهمومَ بنصرته
لَيُبَيْنَ بذلك قدرة من ... تجري الأشياء بقدرته
هون ما ضاق عليك ولا ... تيأس أبداً من رحمته
دع ما يدعوك إلى الدنيا ... من حب المال وفتنته
فعسى المولى يؤتيك غنى ... ويزيل الفقر بنعمته
سله ما شئت فإن جميع ... الخير له في قبضته
وبه يرجوه أخو الضرا ... والكربِ لدفع مضرته
يا نفسُ ثقي بالله عسى ... تحظيْ برضاه وجنته
سَعِدت نفسٌ أبداً رضيت ... بقضا المولى ومشيئته
رفقاً يا رب بمن يرجو ... منك التفريج لكربته
ارحمه وجد بالعفو فأنت ... هو الغفار لزلته

---

(١) الرَّوح: الراحة.

كانت وفاة المترجم سنة تسع عشرة ومائة وألف وتأسف عليه الغالب من الناس لا سيما والده فصبر واحتسب[1].

عبد الرحمن البعليّ

عبد الرحمن بن عبد الله الحنبليّ البعليّ الدمشقيّ نزيل حلب، الشيخ الفاضل العالم الصالح. كان فقيهاً بارعاً بالعلوم خصوصاً في القراآت وغيرها.

وُلد سنة عشرة ومائة وألف، ثم لما بلغ سن التمييز قرأ القرآن حتى ختمه على والده في مدة يسيرة ثم شرع في الاشتغال بطلب العلم في سنة عشرين، وكان ينظم الشعر وله ديوان فائق محتو على رقائق، فمنه ما قاله مقتبساً:

اعبد اللّه وجاهد فإذا فرغت فانصب
والزم التقوى خلوصاً وإلى ربك فارغب

ومن ذلك قول بعضهم:

أيها السائل قوماً ما لهم في الخير مذهب
اترك الناس جميعاً وإلى ربك فارغب

(١) أقول: والاقتباس هو إتيان المتكلم في كلامه المنظوم أو المنثور بشيء من ألفاظ القرآن أو الحديث من غير تغيير كثير على وجه لا يكون فيه إشعار بأنه من القرآن أو الحديث وهو على ثلاثة أقسام: الأول: مقبول وهو ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومَدْح النبيّ ﷺ ونحو ذلك، والقسم الثاني مباح: وهو ما كان في الغزل والرسائل والقصص، والقسم الثالث: الاقتباس المردود الغير مقبول: وهو ما أدّى إلى التشبيه بالله تعالى أو استخفاف بكلامه القديم، ونعوذ بالله تعالى، أو بالرسول عليه أنمى الصلاة وأسمى السلام أو بحديثه الشريف كقول عبد المحسن الصوريّ:

---

(١) «سلك الدرر»: ٢/٢٣٤ - ٢٣٨.

(١)قلت وقد أوردني حبه مـوارداً ليس لها مصدر
أفسدت دنياي ولا دين لي تفسده فاصدع بما تؤمر

قال الأستاذ الشيخ عبد الغنيّ النابلسيّ: وقد أقرّ أنه لا دين له فلا يعترض عليه حينئذ.

(٢) وأما ما جاء في المقبول والمباح فكثير كقوله:

اعبد الله ودع عنك التواني بالهجود
ومن اللّيل فاسجد وأدبار السجود

(٣) وقول الآخر: ـ

لا تكن ظالماً ولا ترضى بالظلم وانكر بكل ما يُستطاع
يوم يأتي الحساب ما لظلوم من حميم ولا شفيع يُطاع

(٤) وللمعمار: ـ

ما مصر إلا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقاً ومغربا
هذا وإن كنتم على سفر به فتيمموا منه صعيداً طيبا

وفي اقتباس الحديث شيء كثير منه قول ابن عباد حيث قال:

قال لي إن رقيبي سيء الخلق فداره
قلت دعني، وجهك الجنة حُفت بالمكاره

وهو اقتباس من حديث: «حفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات».

وأما الذي يتغير بيسير في اللفظ فقد جاء في كثير من كلام البلغاء منه قول بعضهم: قد كان ما خفت أن يكونا، إنا إلى الله راجعونا. وفي القرآن: ﴿إنّا لله وإنا إليه راجعون﴾ فتغييره ظاهر ولا بأس به والصواب عندي التحرز عن التغيير خصوصاً في الآيات القرآنية.

(٥) ولصاحب الترجمة عاقداً الحديث:

حصِّل العلم فمن حصله نال عِزاً والغنى مع دِين

رغّب المختار فيه قائلاً　　اطلبوا العلم ولو بالصين

أقول: والعقد هو غير الاقتباس وهو أن يأخذ المنثور من قرآن أو حديث أو حكمة أو غير ذلك بجملة لفظه أو بمعظمه فيزيد الناظم فيه أو ينقص ليدخل في وزن الشعر وحينئذ لا يكون على طريقة الاقتباس، ومنه قول بعضهم:

(١) أنلني بالذي استقرضت خطّاً　　وأشهد معشراً قد شاهدوه
فإن الله خلاق البرايا　　عنت لجلال هيبته الوجوه
يقول إذا تداينتم بدين　　إلى أجل مسمى فاكتبوه

(٢) ولأبي العتاهية:

ما بال من أوله نطفة　　وجيفة آخره يفخر

عقد فيه قول علي رضي الله عنه: ما لابن آدم والفخر وإنما أوله نطفه وآخره جيفة.

كانت وفاته بحلب سنة اثنين وتسعين ومائة وألف، رحمه الله تعالى[١].

الدوركي

عثمان الوزير بن عبد الرحمن باشا بن عثمان الحلبيّ، انتقلت بوالده الأحوال إلى أن صار في الباب العالي رئيس الجاويشية، وهي رتبة قعساء لا ينالها إلى من هو مجرب في معرفة قوانين الدولة ومنها أنعمت عليه الدولة بمنصب حلب ورحل من إسلامبول إلى مقر حكومته حلب ففي الطريق ناداه داعي المنون فأجاب، فامتحن صاحب الترجمة ثم ترقّت أحواله إلى أن صار محصل الأموال الميرية بحلب وكانت له دُرْبة في الأمور فجمع الأموال وبنى وشيّد ورأس وساعده الوقت، وبنى داره الكائنة بمحلة داخل باب

---

(١) «سلك الدرر»: ٢/٣٠٤ ـ ٣٠٨.

النصر على شفير الخندق وهي أحد الدور العظام في الارتفاع والإحكام، ثم إن المترجم شرع في عمارة جامعه المعمور لصيق داره أوائل سنة إحدى وأربعين ومائة وألف فاشترى الدور التي كانت في محل الجامع من أهلها بالأثمان المضاعفة، وكان يقترض المال من التجار أهل الخير والصلاح المعروفين بحل المال ويصرفه في عمارة الجامع ويوفيهم من ثمن حنطة كانت عنده إلى أن فرغ بناء الجامع وتمّ على أكمل الوجوه. وعين له خطيباً ومدرساً ومحدثاً وواعظاً.

«استطراد»: «ذكر الأذان بمصر وما كان فيه من الاختلاف»:

(١) اعلم أن أول من أذن لرسول الله ﷺ بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بالمدينة الشريفة وفي الأسفار، وكان ابن أم مكتوم - واسمه عمرو بن قيس بن شريح ربما أذن بالمدينة، وأذن أبو محذورة - واسمه أوس وقيل سمرة بن معبر بن لوذان - وكان استأذن رسول الله ﷺ في أن يؤذن مع بلال فأذن له وكان يؤذن في المسجد الحرام وأقام بمكة ومات بها ولم يأت المدينة، وقال ابن جريج: علّم النبيّ ﷺ أبا محذورة الأذان بالجعرانة حين قسم غنائم حنين ثمّ جعله مؤذناً في المسجد الحرام.

وذكر ابن سعد أن بلالاً أذن بعد رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وأن عمر رضي الله عنه أراده أن يؤذن له فأبى عليه فقال له: إلى من ترى أن أجعل النداء فقال إلى سعد القرظ فإنه قد أذن لرسول الله ﷺ فدعاه عمر رضي الله عنه فجعل النداء إليه وإلى عقبه من بعده، وقد ذكر أن سعد القرظ كان يؤذن لرسول الله ﷺ من قبل.

وقد كان عند فتح مصر الأذان إنما هو بالمسجد الجامع المعروف بجامع عمرو وبه صلاة الناس بأسرهم.

وكان من هدي الصحابة والتابعين رضي الله عنهم المحافظة على الجماعة وتشديد النكير على من تخلف عن صلاة الجماعة.

(١) وكان الأذان أولاً بمصر كأذان أهل المدينة وهو: الله أكبر الله أكبر وباقيه كما هو اليوم فلم يزل الأمر بمصر على ذلك في جامع عمرو بالفسطاط وفي جامع العسكر وفي جامع أحمد بن طولون وبقية المساجد إلى أن قدم القائد جوهر بجيوش المعز لدين الله وبنى القاهرة فلما كان في يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلثمائة صلى القائد جوهر الجمعة في جامع أحمد بن طولون وخطب به عبد السميع بن عمر العباسيّ، وأذن المؤذنون: حيّ على خير العمل، وهو أول ما أذن به بمصر وصلى به عبد السميع الجمعة فقرأ سورة الجمعة وإذا جاءك المنافقون، وقنت في الركعة الثانية وانحط إلى السجود ونسي الركوع فصاح به عليّ بن الوليد قاضي عسكر جوهر: بطلت الصلاة أعد ظهراً أربع ركعات، ثم أُذّن بحيّ على خير العمل في سائر مساجد العسكر، وأنكر جوهر على عبد السميع أنه لم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة ولا قرأها في الخطبة فأنكره جوهر ومنعه من ذلك، ولأربع بقين من جمادى الأولى المذكور أُذِّن في الجامع العتيق بحيّ على خير العمل وجهروا في الجامع بالبسملة في الصلاة فلم يزل الأمر على ذلك طول مدة الخلفاء الفاطميين إلا أن الحاكم بأمر الله في سنة أربعمائة أمر بجمع مؤذني القصر وسائر الجوامع وحضر قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقيّ وقرأ أبو عليّ العباسيّ سجلاً فيه الأمر بترك حيّ على خير العمل في الأذان وأن يُقال في صلاة الصبح: الصلاة خير من النوم وأن يكون ذلك من مؤذني القصر عند قولهم السلام على أمير المؤمنين ورحمه الله فامتُثِل ذلك، ثم عاد المؤذنون إلى قول حيّ على خير العمل في ربيع الآخر سنة إحدى وأربعمائة.

(٢) ومُنع في سنة خمس وأربعمائة مؤذنو جامع القاهرة ومؤذنو القصر من قولهم بعد الأذان: السلام على أمير المؤمنين وأمرهم أن يقولوا بعد الأذان: الصلاة رحمك الله، ولهذا الفعل أصل، قال الواقديّ: كان بلال رضي الله عنه يقف على باب رسول الله فيقول: السلام عليك يا رسول الله وربما قال: السلام عليك بأبي أنت وأمي يا رسول الله: حيّ على الصلاة حي

على الصلاة، السلام عليك يا رسول الله قال البلاذريّ: وقال غيره: كان يقول السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، الصلاة يا رسول الله، فلما وَليَ أبو بكر رضي الله عنه الخلافة كان سعد القرظ يقف على بابه فيقول: السلام عليك يا خليفة رسول الله ورحمه الله وبركاته: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، الصلاة يا خليفة رسول الله، فلما استخلف عمر رضي الله عنه كان سعد يقف على بابه فيقول: السلام عليك يا خليفة خليفة رسول الله ورحمه الله وبركاته، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح: الصلاة يا خليفة خليفة رسول الله، فلما قال عمر رضي الله عنه للناس أنتم المؤمنون وأنا أميركم فدُعي أميرَ المؤمنين استطالةً لقول القائل: يا خليفة خليفة رسول الله ولمن بعده خليفة خليفة خليفة رسول الله، كان المؤذن يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح: الصلاة يا أمير المؤمنين، ثم إن عمر رضي الله عنه أمر المؤذن فزاد فيها رحمك الله، ويُقال إن عثمان رضي الله عنه زادهما، وما زال المؤذنون إذا أذنوا سلموا على الخلفاء وأمراء الأعمال ثم يقيمون الصلاة بعد السلام فيخرج الخليفة أو الأمير فيصلي بالناس هكذا كان العمل مدة أيام بني أمية ثمّ مدة خلافة بني العباس أيام كانت الخلفاء وأمراء الأعمال تصلي بالناس، فلما استولى العجم وترك خلفاء بني العباس الصلاة بالناس تُرك ذلك كما تُرك غيره من سنن الإسلام، ولم يكن أحد من الخلفاء الفاطميين يصلي بالناس الصلوات الخمس في كل يوم فسلم المؤذنون في أيامهم على الخليفة بعد الأذان للفجر فوق المنارات فلما انقضت أيامهم وغير السلطان صلاح الدين رسومهم لم يتجاسر المؤذنون على السلام عليه احتراماً للخليفة العباسي ببغداد فجعلوا عوض السلام على الخليفة السلام على رسول الله ﷺ واستمر ذلك قبل الأذان للفجر في كل ليلة بمصر والشام والحجاز وزيد فيه بأمر المحتسب صلاح الدين عبد الله البُرُلسيّ الصلاة والسلام عليك يا رسول الله وكان ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة فاستمر ذلك.

(١) وأول من قال في الأذان بالليل: «محمد وعليّ خير البشر» الحسين المعروف بابن شِكَنْبَه ويُقال: اشكنبه وهو اسم أعجميّ معناه الكرش وهو علي بن محمد بن علي بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب. وكان أول تأذينه بذلك في أيام سيف الدولة بن حمدان بحلب في سنة سبع وأربعين وثلثمائة قاله الشريف محمد بن أسعد الجواني النسابة ولم يزل الأذان بحلب يُزاد فيه: حيّ على خير العمل ومحمد وعليّ خير البشر إلى أيام نور الدين محمود فلما فتح المدرسة الكبيرة المعروفة بالحلاوية استدعى أبا الحسن علي بن الحسن بن محمد البلخيّ الحنفيّ إليها فجاء ومعه جماعة من الفقهاء وألقى بها الدروس فلما سمع الأذان أمر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان وقال لهم: مروهم يؤذنوا الأذان المشروع ومن امتنع كبوه على رأسه فصعدوا وفعلوا ما أمرهم به واستمر الأمر على ذلك، وأما مصر فلم يزل الأذان بها على مذهب القوم إلى أن استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بسلطنة ديار مصر وأزال الدولة الفاطميّة في سنة سبع وستين وخمسمائة وكان انتحل مذهب الإمام الشافعيّ رضي الله عنه وعقيدة الشيخ أبي الحسن الأشعريّ رحمه الله فأبطل من الأذان قول: حيّ على خير العمل وصار يؤذّن في سائر إقليم مصر والشام بأذان أهل مكة وفيه تربيع وترجيع الشهادتين فاستمر الأمر على ذلك إلى أن بنت الأتراك المدارس بديار مصر وانتشر مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه في مصر فصار يُؤذن في بعض المدارس التي للحنفية بأذان أهل الكوفة وتُقام الصلاة أيضاً على رأيهم وما عدا ذلك فعلى ما قلنا.

(١) إلا أنه في ليلة الجمعة إذا فرغ المؤذنون من التأذين سلموا على رسول الله ﷺ وهو شيء أحدثه محتسب القاهرة صلاح الدين عبد الله بن عبد الله البُرُلسيّ بعد سنة ستين وسبعمائة فاستمر إلى أن كان في شعبان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ومتولي الأمر بديار مصر الأمير منطاش القائم بدولة الملك الصالح المنصور أمير حاج المعروف بحاجي بن شعبان بن

حسين بن محمد بن قلاون فسمع بعض الفقراء[1] الخلّاطين سلام المؤذنين على رسول الله ﷺ في ليلة الجمعة وقد استحسن ذلك طائفة من إخوانه فقال لهم: أتحبون أن يكون هذا السلام في كل أذان؟ قالوا: نعم، فبات تلك الليلة وأصبح متواجداً يزعم أنه رأى رسول الله ﷺ في منامه وأنه أمره أن يذهب إلى المحتسب ويبلغه عنه أن يأمر المؤذنين بالسلام على رسول الله ﷺ في كل أذان فمضى إلى محتسب القاهرة ـ وهو يومئذ نجم الدين محمد الطنبديّ وكان شيخاً جهولاً وبلهاناً مهولاً سيء السيرة في الحسبة والقضاء متهافتاً على الدرهم ولو قاده إلى البلاء، لا يحتشم من أخذ الرشوة ولا يراعي في مؤمن إلا ولاذمة، قد تجسد من أكل الحرام، يرى أن العلم إرخاء العَذَبة[2] ولبس الجبة ويحسب أن رضى الله سبحانه في ضرب العباد بالدِّرَّة وولاية الحسبة، ولم تحمد الناس قط أياديه ولا شَكرت أبداً مساعيه بل جهالاته شائعة وقبائح أفعاله ذائعة، أشخص غير مرة إلى مجلس المظالم وأوقف مع من أوقف للمحاكمة بين يدي السلطان من أجل عيوب فوادح وما زال في السيرة مذموماً ومن العامة والخاصة ملوماً ـ وقال له: رسول الله يأمرك أن تتقدم لسائر المؤذنين بأن يزيدوا في كل أذان قولهم: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله كما يُفعل في ليالي الجمع، فأعجب الجاهلَ هذا القول وجهل أن رسول الله ﷺ لا يأمر بعد وفاته إلا بما يوافق ما شرعه الله على لسانه في حياته، وقد نهى الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن الزيادة فيما شرعه حيث يقول: «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله». وقال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحدثات الأمور» فأمر بذلك في شعبان من السنة المذكورة وتمت هذه البدعة واستمرت إلى يومنا هذا في جميع ديار مصر وبلاد الشام وصارت العامة وأهل الجهالة ترى أن ذلك من جملة الأذان الذي لا يحل تركه، وأدّى ذلك

---

(١) أي الصوفية، والخلاطين بمعنى المخلطين الذين لا علم عندهم.

(٢) أي: إرخاء جزء من العمامة خلف الرأس.

إلى أن زاد بعض أهل الإلحاد في الأذان ببعض القرى السلام بعد الأذان على شخص من المعتقَدين الذين ماتوا فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

(١) وأما التسبيح في الليل على المآذن فإنه لم يكن من فعل سلف الأمة وأول ما عُرف من ذلك أن موسى بن عمران صلوات الله عليه لما كان ببني إسرائيل في التيه بعد غرَق فرعون وقومه اتخذ بوقين من فضة مع رجلين من بني إسرائيل ينفخان فيهما وقت الرحيل ووقت النزول وفي أيام الأعياد وعند ثلث الليل الأخير من كل ليلة فتقوم عند ذلك طائفة من بني لاوي سبط موسى عليه السلام ويقولون نشيداً منزلاً بالوحي فيه تخويف وتحذير وتعظيم الله تعالى وتنزيه له تعالى إلى وقت طلوع الفجر، واستمر الحال على هذا كل ليلة مدة حياة موسى عليه السلام وبعده أيام يوشع بن نون ومن قام في بني إسرائيل من القضاة إلى أن قام بأمرهم داود عليه السلام وشرع في عمارة بيت المقدس فرتب في كل ليلة عدة من بني لاوي يقومون عند ثلث الليل الآخر فمنهم من يضرب بالآلات كالعود والدف والمزمار ونحو ذلك ومنهم من يرفع عقيرته بالنشائد المنزلة بالوحي على نبيّ الله موسى عليه السلام والنشائد المنزلة بالوحي على داود عليه السلام، ويُقال إن عدد بني لاوي هذا كان ثمانية وثلاثين ألف رجل قد ذُكر تفصيلهم في كتاب الزبور فإذا قام هؤلاء ببيت المقدس قام في كل محلة من محال بيت المقدس رجال يرفعون أصواتهم بذكر الله سبحانه من غير آلات فإن الآلات كانت مما يختص ببيت المقدس فقط وقد نهوا عن ضربها في غير البيت فيتسامع من قرية بيت المقدس فيقوم في كل قرية رجال يرفعون أصواتهم بذكر الله تعالى حتى يعم الصوت بالذكر جميع قرى بني إسرائيل ومدنهم وما زال الأمر على ذلك في كل ليلة إلى أن خرّب بخت نصر بيت المقدس وجلا بني إسرائيل إلى بابل فبطل هذا العمل وغيره من بلاد بني إسرائيل مدة جلائهم في بابل سبعين سنة فلما عاد بنو إسرائيل من بابل وعمروا البيت العمارة الثانية أقاموا شرائعهم وعاد قيام بني

لاوي بالبيت في الليل وقيام أهل محال القدس وأهل القرى والمدن على ما كان العمل عليه أيام عمارة البيت الأولى، واستمر ذلك إلى أن خرب القدس بعد قتل نبي الله يحيى بن زكريا وقيام اليهود على روح الله ورسوله عيسى بن مريم صلوات الله عليه على يد طيطش فبطلت شرائع بني إسرائيل من حينئذ وبطل هذا القيام فيما بطل من بلاد بني إسرائيل.

وأما في الملة الإسلامية، فكان ابتداء هذا العمل بمصر وسببه أن مسلمة بن مخلد أمير مصر بنى مناراً لجامع عمرو بن العاص واعتكف فيه فسمع أصوات النواقيس عالية فشكا ذلك الرجل إلى شرحبيل بن عامر عريف المؤذنين فقال: إني أمدد الأذان من نصف الليل إلى قرب الفجر فانههم أيها الأمير أن ينقسوا إذا أذنت فنهاهم مسلمة عن ضرب النواقيس وقت الأذان ومدد شرحبيل ومطط أكثر الليل، ثم إن الأمير أبا العباس أحمد بن طولون كان قد جعل في حجرة تقرب منه رجالاً تعرف بالمكبرين عدتهم اثنا عشر رجلاً يبيت في هذه الحجرة كل ليلة أربعة يجعلون الليل بينهم عقباً فكانوا يكبرون ويسبحون ويحمدون الله سبحانه في كل وقت ويقرأون القرآن بألحان ويتوسلون ويقولون قصائد زهدية ويؤذنون في أوقات الأذان وجعل لهم أرزاقاً واسعة تجري عليهم، فلما مات أحمد بن طولون وقام من بعده ابنه أبو الجيوش خمارويه أقرهم بحالهم وأجراهم على رسمهم مع أبيه ومن حينئذ اتخذ الناس قيام المؤذنين في الليل على المآذن وصار يعرف ذلك بالتسبيح.

فلما وَلِيَ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر ووَلِيَ القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعيّ كان من رأيه ورأي السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعريّ في الأصول فحمل الناس إلى اليوم على اعتقادٍ حتى يُكفّر من خالفه، وتقدم الأمر إلى المؤذنين أن يعلنوا في وقت التسبيح على المآذن بالليل بذكر العقيدة التي تعرف بالمرشدة فواظب المؤذنون على ذكرها في كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى وقتنا هذا.

(١) ومما أحدِث أيضاً التذكير في يوم الجمعة من أثناء النهار بأنواع من الذكر على المآذن ليتهيأ الناس لصلاة الجمعة وكان ذلك بعد السبعمائة من سنيِّ الهجرة، قال ابن كثير رحمه الله: في يوم الجمعة سادس ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وسبعمائة رُسِم بأن يُذكر بالصلاة يوم الجمعة في سائر مآذن دمشق كما يُذكر في مآذن الجامع الأمويّ ففعل ذلك. انتهى.

توفي سنة ستين ومائة وألف[١].

عثمان الخطيب الموصليّ

الشيخ الصوفيّ الزاهد، العالم الربانيّ الأوحد، الشاعر البارع لم يُسمع له في عصره بمناظر له في الفضل والبلاغة.

(٢) ومما يدلك على فضله الباهر قوله في مدح النبي المكرم زكريا صلى الله على نبيّنا وعليه وسلم:

سِر بنا صاح راشداً مهديا … وتهيأ ونادِ بالركب هيّا
ثِق بوعد الإله فهو كريم … إنه كان وعده مأتيّاً
واستعن بالقويّ في كل أمر … إنه كان بالضعيف حفيّاً
وتقدس عن السُّوى وتطهر … واذكر الله بكرة وعشيا
خفف السير يا خليلي وانزل … في مقام الخليل وامكث مليّاً
وإذا ما حللت في حلة الشهبا … ء فاقصد هناك بدراً بهيّاً
قف وسلم وحيِّه فهو حيّ … وإذا حلّ طيفُه الحيُّ حيّاً
خاف من بعده ضلالَ الموالي … فدعا ربه دعاءً خفيا
وهن العظم وامتلا الرأس شيباً … يا إلهي فمنك هب لي وليا
يرث العلم والنبوة مني … ولدَى ربه يكون رَضيّاً
فاستجاب الدعا وبشره مَن … لم يزل محسناً جواداً غنياً
بغلام كبدر تم ولم يجِ … على بديع السما ليحيى سميّاً

---

(١) «سلك الدرر»: ٣/١٥١ - ١٥٩.

قـال من أي لي يكـون غـلام ومـن الكبـر قـد بلغت عتيـاً
قـال ذو الكبـريـا كـذلـك لكن قـال مـولاك هـيـن ذاك عـليّـاً
إنـنـي قـادر عـلى كـل شيء لـم أجـد قبله بـخـلقـك عَـيّـاً
ولـه الحمـد حيث جاء بمن قـد أوتـي الحـكم والـرشـاد صبيـاً
حبـذا الفـرد في المحـاسن يحيى حبـذا الـوالـد الكـريم المحيـا
وصـلاة الإلـه تـغـشـى دوامـاً سيـد الـرسـل أحمـد العـربيّـا
وعـلى السـادة الـنبيين طُـرّاً[1] سيّمـا البـدر سيـدي زكـريّـا

وله غير ذلك، وكانت وفاته في حدود سنة أربع وأربعين ومائة وألف عن ثمان وخمسين سنة[2].

الظاهر

عمر بن صالح الملقب بالظاهر الصفديّ الزيدانيّ حاكم مدينة عكـا وشيخ شيوخ البلاد الصفدية، صاحب المواقع الشهيرة، الخارج عن طاعة الدولة العثمانية.

مولده بصفد سنة ست ومائة وألف، وكان والده وجده وأعمامه حكاماً بصفد وعكا ويُعرفون ببني زيدان، لكن صاحب الترجمة نبغ نبغة ما سبقه إليها أحد من عشيرته واشتهر في أواخر أمره وطار صيته بالبغي والتعدِّي على هـاتيك الـديار هـو وأولاده صُلَيبيّ وعليّ المقتولَيْنِ وعثمـان الشاعـر وأحمد. وكان الوزير الكبير سليمان باشا العظميّ جهز عليه عسكراً وركب عليه بعد أن قبض على أخيه مصطفى الزيدانيّ وشنقه بدمشق فلما وصل الوزير المرقوم إلى قرب عكّا بقصد حصاره وشا عليه بعض أتباعه فأدخل عليه السم في طعامه فمات وجيء به إلى دمشق ميتاً شهيداً.

وبلغ من تَجرِّي صاحب الترجمة أنه أركب آخر أمره مع أبي الذهب

---

(1) أي: كلهم.
(2) «سلك الدرر»: ٣/١٧٠ - ١٧٢.

أولاده وعساكره لأخذ دمشق من الدولة العثمانية في أمور يطول شرحها ولم يتم الأمر على مراده ورجعت صفقته خاسرة، وكان قتله في سنة تسعين ومائة وألف على يد الوزير حسن باشا رئيس السفن السلطانية واندثرت دولتهم ولم يبق لهم أثر.

استطراد: سنة تسع وثمانين ومائة وألف فيها عزم محمد بك أبو الذهب على السفر والتوجه إلى البلاد الشامية بقصد محاربة الظاهر عمر واستخلاص ما بيده من البلاد فبرز خيامه إلى العادلية وفرّق الأموال والتراحيل على الأمراء والعساكر والمماليك واستعدّ لذلك استعداداً عظيماً في البحر والبر، وأنزل بالمراكب الذخيرة والمدافع والمدفع الكبير المسمى بأبو مايلة الذي سبكه في العام الماضي وسافر بمجموعه وعساكره في أوائل المحرم ولم يزل في سيره حتى وصل إلى جهة غزة وارتجت البلاد ولم يقف أحد في وجهه وتحصن أهل يافا بها وكذلك الظاهر عمر تحصن بعكا.

(١) فلما وصل إلى يافا حاصرها وضيّق على أهلها وامتنعوا هم أيضاً عليه وحاربوه من داخل وحاربهم من خارج ورمى عليهم بالمدافع عدة أيام وليال فكانوا يصعدون إلى أعلا السور يسبون المصريين وأميرهم سبّاً قبيحاً فلم يزالوا بالحرب عليها حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل ناحية وملكوها عنوة ونهبوها وقبضوا على أهلها وربطوهم في الحبال والجنازير وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ثم جمعوا الأسرى خارج البلد ودَوَّروا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم ولم يميزوا بين الشريف والنصرانيّ واليهوديّ والعالم والجاهل والعاميّ والسوقيّ ولا بين الظالم والمظلوم وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع وجوهها بارزة تنسف عليها الأتربة الرياح والزوابع.

(٢) ثم ارتحل عنها طالباً عكا فلما بلغ الظاهر عمر ما وقع بيافا اشتد خوفه وخرج من عكا هارباً وتركها وحصونها فوصل إليها محمد بك ودخلها من غير مانع وأذعنت له باقي البلاد ودخلوا تحت طاعته وخافوا سطوته

وداخل محمد بك من الغرور والفرح ما لا مزيد عليه وما آل به إلى الموت والهلاك وأرسل بالبشائر إلى مصر والأمر بالزينة فنودي بذلك وزُينت مصر وبولاق والقاهرة وخارجها زينة عظيمة وعُمل بها أفراح ثلاثة أيام بلياليها وذلك في أوائل ربيع الثاني فعند انقضاء ذلك ورد الخبر بموت محمد بك واستمر في كل يوم يفشو الخبر وينمو ويزيد ويتناقل ويتأكد حتى وردت السعاة بتصحيح ذلك وشاع في الناس وصاروا يتعجبون ويتلون قوله تعالى: ﴿حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾[1] وذلك أنه تمّ له الأمر وملك البلاد المصرية والشامية وأذعن الجميع لطاعته، وقد كان أرسل إسماعيل آغا أخو علي بك الغزاوي إلى إسلامبول يطلب أمر مصر والشام وأرسل صحبته أموالاً وهدايا فأجيب إلى ذلك وأعطوه التقاليد والخِلَع وأرسل له المراسلات والبشائر بتمام الأمر فوافاه ذلك يوم دخوله عكا فامتلأ فرحاً وحُمّ بدنه فأقام محموماً ثلاثة أيام ومات ليلة الرابع ثامن ربيع الثاني ووافى خبر موته إسماعيل آغا عندما تهيأ ونزل في المراكب يريد المسير إلى مخدومه فانتقض الأمر وردت التقاليد وباقي الأشياء.

(١) ولمّا تم له أمر يافا وعكا وباقي البلاد والثغور فرح الأمراء والأجناد الذين بصحبته برجوعهم إلى مصر وصاروا متشوقين للرحيل والرجوع إلى الأوطان فاجتمعوا إليه في اليوم الذي نزل به ما نزل في ليلته فتبين لهم من كلامه عدم العود وأنه يريد تقليدهم المناصب والأحكام بالديار الشامية وبلاد السواحل وأمرهم بإرسال المكاتبات إلى بيوتهم وعيالهم بالبشارات بما فتح الله عليهم وما سيفتح لهم ويطمنونهم ويطلبون احتياجاتهم ولوازمهم المحتاجين إليها من مصر فعند ذلك اغتموا وعلموا أنهم لا براح لهم وأن أمله غير هذا وذهب كل إلى مخيمه يفكر في أمره، قال الناقل: وأقمنا على ذلك الثلاثة أيام التي مرض فيها وأكثرنا لا يعلم بمرضه ولا يدخل عليه إلا بعض خواصه ولا يذكرون ذلك إلا بقولهم في اليوم الثالث أنه منحرف

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٤.

المزاج، ثمّ زاد الحال وظهر أمر موته وحضر مراد بك وجمع كبراءهم وتشاوروا في أمرهم وأرضى خواطرهم خوفاً من وقوع الفشل فيهم وتشتتهم في بلاد الغربة وطمعِ الشاميين وشماتتهم، واتفق رأيهم على الرحيل وأخذوا رِمَّة سيدهم صحبتهم لما تحقق عندهم إن هم دفنوه هناك في بعض المواضع أخرجه أهل البلاد ونبشوه وأحرقوه، فغسلوه وكفنوه ولفوه في المشمعات ووضعوه في عربة وارتحلوا طالبين الديار المصرية فوصلوا في ستة عشر يوماً ليلة الرابع والعشرين من شهر ربيع الثاني أواخر النهار فأرادوا دفنه بالقرافة، وحضر الشيخ الصعيديّ فأشار بدفنه في مدرسته تجاه الجامع الأزهر وخرجوا بجنازته من بيته ومشى أمامه المشايخ والعلماء والأمراء وأولاد المكاتب وأمام نعشه مجامر العنبر والعود ستراً على رائحته ونتنه حتى وصلوا به إلى مدفنه، وعملوا عنده ختمات وقراءات وصدقات عدة ليال وأيام نحو أربعين يوماً. واستقر أتباعه أمراء مصر ورئيسهم إبراهيم بك ومراد بك وباقيهم الذين أمّرهم في حياته ومات عنهم(١).

عمر بن محمد البصير المصريّ

نزيل حلب، المقرىء المتقن العارف باختلاف القرآت ووجوهها، النحويّ العالم العامل.

قدم حلب في سنة خمسة عشر ومائة وألف فاعتنى به الرجل الخيِّر مصطفى الكرديّ العماديّ وأنزله في المسجد، فكان يقرىء القرآن العظيم في المسجد، وكان حديث السن وقد جمع الله فيه المحاسن والكمالات.

(١) انفرد بحسن الصوت والألحان الشائقة والعلم التام بتحقيق التجويد ومخارج الحروف والإتقان وسرعة استحضار عند جمع وجوه القرآت وطول النفس، لكنه كان ضنيناً بتعليم القرآت السبع لم يقرىء أحداً بذلك وكل من طلب منه الإقراء بغير قراءة حفص يُسَوِّفه ويماطله ولا يقرئه.

---

(١) «سلك الدرر»: ٣/١٨٤ ـ ١٨٧.

(١) أخبر تلميذه المتقن عمر بن شاهين إمام الرضائية قال: حفظت عليه القرآن العظيم وسني اثنتا عشرة سنة والتزمت خدمته وكنت أقيم أكثر أوقاتي عنده ويأخذني معه إلى القراآت وكنت أقوده، وكان يتفرس فيّ النجابة وبعد القراءة يعلمني الألحان[1] من رسالة كانت عنده ويعلمني كيفية الانتقال من نغم إلى نغم ويقول: إن ذلك يلزم من كان إماماً وأنت ربما تصير إماماً، وكان يعلمني كيفية قراءة التحقيق والترتيل والتدوير والحدر والوقف والابتداء ويباحثني في طول النفس لأنه كان يدرج ثلاث آيات أو أربعاً من الآيات المتوسطات في نفس واحد، وكان يقرأ آية المداينة[2] في ثلاثة أنفاس من غير إخلال في الحرف ولا في مده، وكان يصلي التراويح إماماً ويقرأ جزءاً من القرآن بقصر المد المنفصل والإمام الراتب يصلي في القبلة الصلاة المتعارفة بين أئمة التراويح فكان يسبقه الإمام بالوتر فقط.

(٢) قال: وجرى لي معه مرة واقعة وذلك أني أتيت يوماً لأقرأ وكنت لم أحفظ ما تلقيته وألزمني بالقراءة ولم يكن ثمّ أحد غيري فأخرجت مصحفاً صغير الحجم فأصغى إلي هنيئة ثم وثب عليّ ورمى بنفسه عليّ وقبض على المصحف من يدي فارتعت وشرع يضربني ويقول: يا خبيث تدلس عليّ وتغش نفسك فحلفت له أني لم أفعلها إلا هذه المرة فتركني حينئذ، فلما سكن روعي قبلت يده وقلت له: من أين علمت أني أقرأ بالمصحف، فقال: سمعت صوتك يأتي من سقف المحل فعلمت أن في يدك شيئاً يمنع مجيء الصوت مواجهة.

(٣) ومرة أخرى كنت أذهب معه إلى دور بعض أحبابه وكان في الطريق بالوعة إذا وصلنا إليها أخبره بها فيتخطاها فبعد مدة سُترت تلك البالوعة فلما مررت به من ذلك الطريق بعد مدة وصل إلى موضعها وتوقّف ثم تخطى، قلت له: لم تخطيت؟ قال: أليس هنا بالوعة؟ قلت: بلى كانت

---

(١) تُكره القراءة بالألحان إن حصلت المحافظة على أحكام التجويد، وإن لم تحصل المحافظة على الأحكام تحرم القراءة بالألحان.

(٢) آية الدين التي في سورة البقرة، وهي أطول آية في القرآن.

ولكنها من مدة زالت. انتهى. قلت: ومثل ذلك ما يُحكى عن أبي العلاء المعريّ، أنه كان سافر مع رفيق له إلى جهة فمرا في طريقهما بشجرة فلما قربا منها قال له رفيقه: إياك والشجرة أمامك فانحنى حتى تجاوزها فلما رجعا من ذلك الطريق أيضاً انحنى أبو العلاء لما قرب من مكان الشجرة ورفيقه ينظر إليه.

(١) ويُحكى عن حَذق أبي العلاء المذكور أنه أنشده المنازيّ أبياتاً بالشام، فقال له: أنت أشعر من بالشام، ثم اتفق اجتماعهما بالعراق بعد سبع سنين فأنشده المنازيّ أبياتاً أخر فقال له: وَمَن بالعراق.

(٢) ومثله ما حُكِي عن داود الحكيم الأنطاكيّ صاحب التذكرة وغيرها أن رجلاً دخل عليه وقال له: أيّ شيء يقوم مقام اللحم، فقال: البيض، فغاب عنه سنة وجاءه فرآه منهمكاً في تركيب معجون وهو يجمع أجزاءه فقال له: بأي شيء يُقلى فقال: بالسمن. وحكايات حَذقه كثيرة.

ثم إنه ـ أعني صاحب الترجمة ـ في آخر عمره ترك الإقراء وخرج من ذلك المسجد واشترى له داراً.

وكانت وفاته بحلب في سنة سبع وثلاثين ومائة وألف.

ولم يعقب غير بنت، وخلف مالاً كثيراً، رحمه الله تعالى[١].

علي المصريّ

علي بن حسين الشافعيّ المصريّ نزيل دمشق وإمام الشافعية بجامعها. الشيخ الفاضل اللبيب الألمعيّ صاحب القدم الراسخ في كل كمال. كان عالماً فاضلاً ملازماً للتقوى والصلاح، حافظاً لكتاب الله. قطن أولاً بالمدرسة الخناثية الكائنة قرب الجامع الأمَويّ ثم تحول إلى المدرسة

---

(١) «سلك الدرر»: ٣/١٨٨ ـ ١٩٠.

الجقمقية، ثم إلى الظاهرية وأقرأ فيها الأولاد القرآن العظيم، وأقرأ في النحو وغيره، ودرّس بالجامع الأمويّ.

(١) ولما سلط الله تعالى على قرى دمشق الجراد وأكل زرعهم مدة سنين حصل لأهل الشام ضيق وشدة فاختاروا أن يرسلوا المترجَم والشيخ العالم عبد الرحمن الكفرسوسيّ لأجل جلب الماء المعروف بماء السمرمر وجاءوا به إلى دمشق.

(٢) قلت: وقد ذكره غير واحد منهم ابن الورديّ في «خريدة العجائب» وقال: عينٌ بين أصفهان وشيراز بها مياه مشهورة وهي من عجائب الدنيا وذلك أن الجراد إذا نزلت ووقعت بأرض يحمل إليها من تلك العين ماء في ظرف لا غير فيتبع ذلك الماءَ طيورٌ سود تُسمى السمرمر ويُقال لها: السوادية بحيث إن حامل الماء لا يضعه على الأرض ولا يلتفت وراءه فتبقى الطيور على رأس حامل ذلك الماء كالسحابة السوداء إلى أن يصل إلى الأرض التي بها الجراد فتصيح الطيور عليها وتقتلها فلا ترى من الجراد متحركاً بل يموتون من أجل تلك الطيور، وذكر ابن الحنبليّ في تاريخه أن من شرطه أن يكون الوارد به من أهل الصلاح ولا يمر به تحت سقف، وقال الصلاح الصفديّ في الجزء الثاني والثلاثين من تذكرته: قال الشيخ شمس الدين أبو الثناء محمود الأصفهاني: إن بمدينة قشمين مسيرة ثلاثة أيام عن أصفهان عين ماء يُسمى ماؤها بماء الجراد له خاصية وهي من حمل من مائها في إناء إلى الأرض التي أتاها الجراد فيتعلق ذلك الإناء في تلك الأرض فيقصدها مالا يُحصى من طير يُقال له سار يأكل ما فيها من الجراد حتى يفنى وشرط هذا الإناء أن لا يمس في طريقه ولا في مكان تعليقه. انتهى.

(٣) ورأيت في بعض المجاميع أنه في سنة إحدى وستين بعد الألف جاء جراد إلى الشام فكتبوا له مراسلات مِن قبل الشرع إلى الأطراف وعلقت في الأماكن فلم يصر ضرر على الزرع وظهر من ذلك تأثير عجيب في دفع مضراته وصورة المراسلات المرسلة:

(بسم الله الرحمن الرحيم، وهو حسبي ونعم الوكيل)

بسم الله ما شاء الله، لا يسوق الخيرَ إلا الله ولا يأتي بالحسنات إلا الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، أيها الجراد المنتشر ببستان كذا بأراضي كذا تحضر مجلس الشرع الشريف بدمشق وترحل بقدرة الله تعالى عن البستان المذكور، وبفضل ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

وكانت وفاة المترجم بدمشق في سنة ثلاث وستين ومائة وألف، رحمه الله تعالى[1].

السيد عليّ الكيلانيّ

السيد علي بن يحيى بن أحمد الكيلانيّ القادريّ الحمويّ.

الشيخ المرشد الفالح الصالح السيد الشريف الحسيب النسيب المُسَلِّك المربي الصوفيّ العالم العلامة.

كان فطناً حميد الأفعال معظم القدر عند الناس كأسلافه، حليف مجد وسيادة.

(١) وُلِد بحماة سنة أربعين وألف واتفق أن والده ليلة ولادته رأى في المنام جده الأستاذ الشيخ عبد القادر الكيلانيّ رضي الله عنه وفي يده مصباح يضيء فقال له يا يحيى: خذ عليّ، وأعطاه المصباح فاستيقظ قريب الصباح، فرأى زوجته جالسة وخادمتها يقظانة فقال لها: يا أم مكيّ قد رأيت جدي في منامي فصدقي بما أقوله ولا تشكي، رأيته وبيده مصباح يضيء وقال لي: يا يحيى خذ عليّ فإن أتيت بمولود نسميه عليّ، وأنت والجارية

(١) «سلك الدرر»: ٣/٢١٣ - ٢١٥.

حوامل فعسى أن تسبقيها، فأجابته الجارية بالاعتراض: سيدي قد سَبَقَت ستّي إليه ومن أول الليل قد طرقها المخاض، وهذا أوان الولادة، ثم مكثت زوجته غير بعيد ووضعته.

(١) فنشأ صالحاً متعبداً وقرأ القرآن العظيم وجوده، واشتغل بقراءة العلوم وأخذها، وتلقى الأدب فقرأ الفقه والعربية والمنطق واللغة والتصوف وأجازه جماعة من المشايخ الأجلّاء في الحديث وغيره، وكان مكباً على تحصيل العلوم والحقائق، محباً لأرباب الكمال، محبوباً لدى الخاص والعام، وبالجملة فقد كان أوحد زمانه ذكاء وسناء وعقلاً وفضلاً وظرفاً ولطفاً وأدباً مع حسن ورع وعفة ونجابة وديانة واعتدال خَلق وخُلق.

ومما قيل فيه:

لقد طالت خطاه إلى المعالي ... وسار لنيلها سير الجواد
فما للفجر غيرُ علاه باب ... ولا للمجد غير سناه هادي
محل ما ارتقى أحد إليه ... ولا حظيته همة ذي ارتياد

(٢) ثم توجه للحج وهو مراهق دون البلوغ في صحبة والدته وابن عمه الشيخ عبد الرزاق في سنة اثنتين وخمسين وألف واختتن في المدينة المنورة واتفق أنه رأى النبيّ ﷺ في المنام وهو في الحرم الشريف النبويّ قبل أن يحج وحوله جماعة فقال له: ﷺ: يا عليّ تحج في تلك السنة وتُولىَّ نقابة الأشراف بحماة وحمص، وذلك في سنة سبعين وألف فاستقام نقيباً.

وفي سنة تسعين وألف قدم دمشق حاجّاً هو وعياله وأولاده وأتباعه وخدامه واستقبله أهالي دمشق وأعيانها بمزيد التوقير والاحترام، وسعوا إليه وترددوا إلى منزله ولم يبق أحد من العلماء والأجناد والمشايخ إلا وأتى إليه، وامتدحوه بالقصائد الغر وامتدحهم.

وكان أديباً ناظماً وله ديوان يجتمع على تغزلات ومدائح ومقاطيع وألغاز وقصائد مطوّلة.

(١) وبالجملة فقد كان شيخ الشيوخ وقد رأيت ديوانه وذكرت منه ما رقّ وطاب فمن ذلك قوله متغزلاً بحماة:

هي الشامة الشماء في خدِّ شامنا ... هي الغرة الغراء في جبهة القطر
هي الحلة الفيحاء مخضرة الرُّبا ... هي الروضة الغناء زاهية الزهر
أتيه بها فخراً على سائر الدُّنا ... بأشياء لم توجد بشام ولا مصر
فغيضاتها جنات عدن تزخرفت ... ألم تنظر الأنهار من حولها تجري
فما رأت الراؤون كالبركة التي ... تكنفها الجسران باليمن واليسر
كذا الجامع الغزبي في غربها بدا ... يقابل في إشراقه ساطع الفجر
يناظره من جانب الشرق بقعة ... وزاوية في الأوج عالية القدر
تفوق على ذات العماد برونق ... بإيوان كسرى والخورنق كم تُزري
مراتع غزلان وخدر خرائد ... ومطلع أنوار الغزالة والبدر
نواعيرها تشدو بكل غريبة ... فتغني عن العيدان والناي والزمرِ
تجاوبها الأطيار من كل جانب ... بتغريد تفريد بتلحينها الجهرِ
ينقطها كف الغمام بلؤلؤ ... يروقك حسناً في النظام وفي النثر
أيا جيرتي يا أهل ودي وبغيتي ... فلا تجنحوا بعد التعاهد للغدرِ
ولا تنكروا ما بيننا من مودة ... فحبي لكم مادمت حياً وفي القبرِ

(٢) ولما أخذت النصارى بلغراد واستردها مصطفى باشا الوزير الجليل الشهير بابن الكوبريلي الصدر الأعظم كتب إليه المترجم بهذه القصيدة مهنئا له ومطلعها:

تنفس الدهر والعيش الكدور صفا ... والوقت طاب فأسدى للنفوس صفا
أضحى الزمان جديداً مثل عادته ... في أعصر الراشدين السادة الخُلفا

كانت وفاته بحماة سنة ثلاث عشرة ومائة وألف، رحمه الله تعالى[١].

---

(١) «سلك الدرر»: ٣/٢٤٦ ـ ٢٥٧.

الأجهوريّ

عطية الله بن عطية البرهاني القاهريّ الشـافعيّ الشهير بـالأجهوريّ، الشيخ الهمام العالم العلامة.

ألّف مؤلفات نافعة، يأتي كل يوم إلى الجامع الأزهر صبيحة النهار.

(١) الجامع الأزهر: هذا الجامع أول مسجد أسس بالقاهرة، والذي أنشأه القائد جـوهر الكـاتب الصقليّ مولى الإمـام أبي تميم معد الخليفـة أمير المؤمنين المعز لدين الله لمّا اختط القاهرة وشرع في بناء هذا الجامع في يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلثمائة وكمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلثمائة وأول جمعة جُمعت فيه في شهر رمضان لسبع خلون منه سنة إحدى وستين وثلثمائة.

ثم إن العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز لدين الله جدّد فيه أشياء.

وفي ثمان وسبعين وثلثمائة سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس الخليفة العزيز بالله في صلة رزق جماعة من الفقهاء فأطلق لهم ما يكفي كل واحد منهم وأمر لهم بشراء دار وبنائها فبينت بجـانب الجامـع الأزهر.

ثم إن الحاكم بأمر الله جدده، ثم إن المستنصر جدد هذا الجامـع أيضاً، وجدده الحافظ لدين الله وأنشأ فيه مقصورة لطيفة عُرفت بمقصـورة فاطمة من أجل أن فاطمـة الزهـراء رضي الله تعالى عنهـا رُؤيت بها في المنام، ثم إنه جُدِّد في أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري، قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في كتاب سيرة الملك الظاهر: فعمّر الواهي من أركانه وجدرانه وبلّطه وفرشه وكسـاه حتى عاد حـرماً في وسط المـدينة، واستجدّ به مقصورة حسنة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعيّ رحمه الله، ورتب في هذه المقصورة محدثاً يسمع الحديث النبويّ والرقائق ووقف على ذلك الأوقاف الدارّة، ورتب به سبعة لقرءاة القرآن، ورتب به مدرساً أثابه الله على ذلك، ولمّا تكمّل تجـديده

تُحدِّث في إقامة جمعة فيه فنُودي في المدينة بذلك، وأقيمت الجمعة.

وكان قد جرى الحديث في أمر جواز الجمعة في الجامع[1] وما ورد فيه من أقاويل العلماء وكُتب فيها فتيا أخذ فيها خطوط العلماء بجواز الجمعة في هذا الجامع وإقامتها فكتب جماعة خطوطهم فيها وأقيمت صلاة الجمعة به واستمرت ووجد الناس به رفقاً وراحة لقربه من الحارات البعيدة من الجامع الحاكميّ.

وكان سقف هذا الجامع قد بني قصيراً فزيد فيه بعد ذلك وعُلِيَ ذراعاً واستمرت الخطبة فيه حتى بُنِيَ الجامع الحاكميّ فانتقلت الخطبة إليه فإن الخليفة كان يخطب فيه خطبة وفي الجامع الأزهر خطبة وفي جامع ابن طولون خطبة وفي جامع مصر خطبة.

وانقطعت الخطبة من الجامع الأزهر لما استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالسلطنة فإنه قلد وظيفة القضاء لقاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس فعمل بمقتضى مذهبه وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد كما هو مذهب الإمام الشافعيّ فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقر الخطبة بالجامع الحاكميّ من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام من حين استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس كما تقدم ذكره، ثم لما كانت الزلزلة بديار مصر في ذي الحجة سنة اثنتين وسبعمائة سقط الجامع الأزهر والجامع الحاكميّ وجامع مصر وغيره فتقاسم الأمراء عمارة الجوامع، ثم جددت عمارته في سنة إحدى وستين وسبعمائة.

(١) وفي سنة ثمان عشرة وثمانمائة ولِيَ نظرَ هذا الجامع الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب فجرت في أيام نظره حوادث لم يتفق مثلها وذلك

---

(١) لأن الشافعية لا يجيزون تعدد الجمع في البلد الواحد.

أنه لم يزل في هذا الجامع منذ بني عدة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه وبلغت عدتهم في هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزيالعة[1] ومن أهل ريف مصر ومغاربة، ولكل طائفة رُواق يعرف بهم فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم: الفقه والحديث والتفسير والنحو، ومجالس الوعظ وحِلَق الذكر فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره، وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات لا سيما في المواسم، فأمر في جمادى الأولى من هذه السنة بإخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الإقامة فيه وإخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسي ومصاحف زعماً منه أن هذا العمل مما يُثاب عليه وما كان إلا من أعظم الذنوب وأكثرها ضرراً فإنه حلّ بالفقراء بلاء كبير من تشتت شملهم وتعذر الأماكن عليهم فساروا في القرى وتبذلوا بعد الصيانة وفقد من الجامع أكثر ما كان فيه من تلاوة القرآن ودراسة العلم وذكر الله، ثمّ لم يرضه ذلك حتى زاد في التعدّي وأشاع أن أناساً يبيتون بالجامع ويفعلون فيه منكرات وكانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس في الجامع ما بين تاجر وفقيه وجنديّ وغيرهم منهم من يقصد بمبيته البركة ومنهم من لا يجد مكاناً يأويه ومنهم من يسْتروح بمبيته هناك خصوصاً في ليالي الصيف وليالي شهر رمضان فإنه يمتلىء صحنه وأكثر أوقاته، فلما كانت ليلة الأحد الحادي عشر من جمادى الآخرة طرق الأمير سودوب الجامع بعد العشاء الآخرة والوقت صيف وقبض على جماعة وضربهم في الجامع وكان قد جاء معه من الأعوان والغلمان وغوغاء العامة ومن يريد النهب جماعة فحلّ بمن كان في الجامع أنواع البلاء ووقع فيهم النهب فأخذت فرشهم وعمائمهم وفُتشت أوساطهم وسلبوا

---

(1) نسبة إلى زيلع من بلاد الصومال.

ما كان مربوطاً عليها من ذهب وفضة فعاجل الله الأمير سودوب وقبض عليه السلطان في شهر رمضان وسجنه بدمشق.

عَوْد: كانت وفاته سنة أربع وتسعين ومائة وألف ودُفِن بتربة المجاورين، رحمه الله تعالى[1].

فتحي الدفتريّ

(١) فتحي بن محمد بن محمد الحنفيّ الفلاقنسيّ الأصل الدمشقيّ المولد الدفتري الصدر الكبير، صاحب الدولة والشهامة، المقدام الوقور المحتشم، كان بدمشق صدرَ أعيانها وواسطة عقد رؤسائها يُشار إليه بالبنان في كل حين وآن، وقد اشتهر بمحاسن الشيم والشهامة والجرأة والإقدام وهابته الصناديد من الرجال ورزق الإقبال التام والحظوة مع الثروة وصار دفترياً[2] بدمشق مدة سنوات وتصدّر بدمشق وكان المرجعَ بها في الأمور وهو المدبر لأمور الملأ والجمهور، وصار المآب في المهمات، والموئل لأولي الحاجات. وكانت دولته من ألطف الدول وله الخدام الكثيرة والأتباع واتساع الدائرة، وكان يصطحب من العلماء والأفاضل شرذمة أجلاء، وكذلك من الأدباء البارعين زمرة اكتسوا بجلابيب الآداب والفضائل، وكذلك جملة من أرباب المعارف والموسيقى والألحان والمضحكين وبالجملة فقد كانت داره منتزه الأرواح ومنتدى الأفراح غير أنه كان ظلمه عامّاً، وأتباعه متشاهرين بالفساد والفسوق وشرب الخمر وهتك الحرمات، وهو أيضاً متجاهر بالمظالم لا يبالي من دعوة مظلوم ولا يتجنب الأذى والتعدي، ونسب إلى شرب الخمر أيضاً وغير ذلك لكن كانت له جسارة وإقدام ونفع في بعض الأوقات للأنام، وكان ذا إنشاء بديع حسن لطيف مستحسَن.

(٢) ولما كان المترجم يُراجع في الأمور حتى من الوزراء والصدور طالت دولته وعظمت عليه من الله نعمته واشتهر صيته وعلا قدره ونشر ذكره لكنه

---

(١) «سلك الدرر»: ٣/٢٦٥ - ٢٧٣.

(٢) المسؤول المالي في الولاية.

كان يتصدى للاستطالة في أفعاله وأقواله فلذلك كانت أقرانه وغيرهم يريدون وقوعه في المهالك لكونه كان يعارضهم، ولما توفي الوزير سليمان باشا العظم والي دمشق الشام وأمير الحاج وجاء من قبل الدولة الأمر بضبط أمواله ومتروكاته نُسِب المترجم إلى أمور في ذلك الوقت، ففي خلال تلك السنة تولى دمشق حاكماً وأميراً للحاج ابنُ أخيه الوزير أسعد باشا العظم وكان المترجم في ذلك الوقت منتمياً إلى أوجاق البرليه[1] المحلية، وكان الأوجاق في ذلك الحين عصبة قد انتهكوا الحرمات وأباحوا المحرمات وأتاحوا المفسدات، ولم يزالوا في ازدياد حتى عم فسادهم البلاد والعباد، وكانت رؤساؤهم زمرة ضالة، وفئة متمردة، وصاحب الترجمة يوليهم مكرماته، ويمنحهم إحسانه وإنعاماته، وهم لبابه وفود قد اتخذوه عضداً، وجعلوه ركناً وسنداً وأرباب العقول في دمشق في همّ وكدر وخوف وحذر، كل منهم متحير في أمره ومتخوف من هذا الحال وعواقب شره، ووالي دمشق وأمير الحاج أسعد باشا المذكور ناظر لهذه الفعال متحير من تلك الأحوال لأن الشقيّ منهم كان إذ ذاك يجيء إلى حبس السرايا ويخرج من أراد من المحبوسين من غير إذن أحد علناً وقهراً وإذا مر الوزير المذكور بهم وهم جالسون لا يتلفتون إليه ولا يقومون له من مجالسهم عند مروره بهم بل يتكلمون في حقه بما لا يليق بمسمع منه فيتحمل مكارههم ولا يسعه إلا السكوت واستمر أمرهم على ذلك إلى أن كتب في شأنهم للدولة العلية فورد الأمر بقتلهم وإبادتهم فأخفاه الوزير مدّة ثم بعد ذلك أظهره وشرع في قتالهم وإبادتهم وأعطاه الله النصر وفرجت عن أهالي دمشق الشدائد وأزاح الله هذه الظلمات بمصابيح النصر والفتوحات، ثم بعد أشهر قليلة كتب الوزير المذكور إلى الدولة العلية بخصوص صاحب الترجمة وما هو عليه فجاء الأمر بقتله ولما وصل الأمر جيء بالمترجم إلى سراي دمشق وخنق في دهليز الخزنة التي عند حرم السرايا وقطع رأسه وأرسل للدولة

---

(١) الأوجاق خدم السلطان الذي يختصون بتسيير الخيل للرياضة والحرب.

وطيف بجثته في دمشق ثلاثة أيام في شوارعها وأزقتها مكشوف البدن عرياناً، وضبط تركته الوزير المذكور للدولة العلية فبلغت شيئاً كثيراً، وقتل بعض أتباعه وخدامه وضبطت كذلك أموالهم وتفرق الباقون أيدي سبأ كأن لم يكونوا وانقضت دولته كأنها طيف خيال.

وكان قتله سنة تسع وخمسين ومائة وألف، رحمه الله تعالى وعفا عنه[1].

الدكدكجيّ

محمد بن إبراهيم بن محمد التركمانيّ الأصل الدمشقيّ المولد المعروف بالدكدكجيّ الحنفيّ الصوفيّ الشيخ الإمام، المتفنن البارع الأديب، نادرة العصر.

كان فاضلاً كاملاً مهيباً صالحاً أخلاقه شريفة، ورزقه الله الصوت الحسن في الترتيل. وُلد بدمشق ونشأ بها وقرأ القرآن العظيم وجوّده على الشيخ محمد الميدانيّ، وطلب العلم فلزم شيخ الإسلام الشيخ محمد أبا المواهب الحنبليّ فقرأ عليه الشاطبية وختمة كاملة جمعاً للسبعة من طريقها، وقرأ عليه شرح ألفية المصطلح لشيخ الإسلام زكريا، وسمع عليه صحيح البخاريّ وبعض صحيح مسلم، وسمع عليه كثيراً من كتب الحديث والمصطلح والتجويد والقراآت.

وله ديوان شعر فمنه قوله مداعباً رجلاً يُلقب بالعفريت:

إن شخصاً شغل المجلسَ ... باللهو والمزح وأنواع الغنا
يُضحك العالم في أفعاله ... يجلب البشر وينفي الحزنا
وكذا في كل وقت دأبه ... ليس يُلفى مثله في عصرنا
لُقِّب العفريت من قوّته ... وخلاعات توالت علناً
فسألناه من الإنس تُرى ... أنت أم جن تشكلت لنا

---

(1) «سلك الدرر»: ٣/٢٧٩ - ٢٨٧.

فبدا منه جواب مازحاً قال: عفريت من الجن أنا[1]

وكتب هذه الوصية لولده إبراهيم:

زر والديك وقف على قبريهما فكأنني بك قد نُقلت إليهما
لو كنتَ حيث هما وكانا بالبقا زاراك حبواً لا على قدميهما
ما كان ذنبهما إليك فطالما منحاك نفس الودّ من نفسيهما
كانا إذا ما أبصرا بك علة جزعا لما تشكو وشقّ عليهما
كانا إذا سمعا أنينك أسبلا دمعيهما أسفاً على خديهما
وتمنيا لو صادفا بك راحة بجميع ما تحويه ملك يديهما
لتلحقنهما غداً أو بعده حتماً كما لحِقَا هُما أبويهما
ولتندمنّ على فعالك مثل ما ندِما هما قِدَماً على فعليهما
بُشراك لو قدّمت فعلاً صالحاً وقضيت بعض الحق من حقيهما
وقرأت من آي الكتاب بقدر ما تسطيعه وبعثت ذاك إليهما
فاحفظ حُفظت وصيتي واعمل بها فعسى تنال الفوز من بِرَّيهما

وأشعاره كثيرة، وكان للنّاس به محبة عظيمة واعتقاد وافر، وألّف مؤلفات نافعة منها شرح على «طيبة النشر في القراآت العشر»، وشرح على الجزرية، وديوان خطب، وجمع بخطه الحسن المضبوط عدّة مجاميع علمية وأدبية.

وكانت ولادته بدمشقَ سنة ثمانين وألف، وتوفي سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف، ووقع في ساعة موته مطر عظيم واستمر المطر حتى غسل وكفن يوم الجمعة وصلي عليه بالجامع الأموي بعد جمعتها ودُفن بتربة الغرباء بمرج الدحداح.

(١) وتمثل الشمس محمد الغزيّ العامريّ يوم وفاته بقول الشيخ نجم الدين بن إسرائيل:

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال عفريت من الجن أنا ءاتيك به﴾ سورة النمل: الآية ٣٩.

بكت السماء عليه ساعة موته | بمدامع كاللؤلؤ المنثور
وكأنها فرحت بمصعد روحه | لما سمت وتعلقت بالنور
أو ليس دمع الغيث يهمي بارداً | وكذا تكون مدامع المسرور[1]

ابن الطيب

محمد بن الطيب بن محمد الشرفي الفاسيّ المالكيّ الشهير بابن الطيب، نزيل المدينة المنورة، الشيخ الإمام المحدث المسنِد اللُّغويّ العالم العلامة المفنن أبو عبد الله شمس الدين.

وُلِد بفاس سنة عشر ومائة وألف ونشأ بها وأخذ عن جماعة من العلماء ممن ينوف على مائة وثمانين شيخاً، وبرع وفضل وصار إمام أهل اللغة والعربية في وقته، محققاً فاضلاً متضلعاً في كثير من العلوم، ودرّس بالحرم الشريف النبويّ وانتفعت به الطلبة، ورحل للروم من الطريق الشاميّ ورجع منها على الطريق المصريّ وأخذ عنه في الشام ومصر خلق كثيرون وحصل بينه وبينهم مباحث في فنون من العلم، وله تآليف حسنة مما ينوف على خمسين مصنفاً.

(١) وله شعر لطيف ينبىء عن قدر في الفضائل منيف، فمنه قوله هذه القصيدة في مدح السفر:

سافر إلى نيل المعزة | إن في السفر الظفر
وانفر لنيل المجد فيمن | للمعالي قد نفر
واعلم بأن المكث في الـ | أوطان يدعو للضجر
ويورِّث الأخلاط والـ | أجسام أنواع الضرر
أوَما رأيت الماء لِطو | ل المكث يعلوه الوضَر[2]
والبدر لو لزِم الإقا | مة في محلٍّ ما بدر

---

(١) «سلك الدرر»: ٤/٢٥ - ٢٧.

(٢) الوسخ.

والدرّ لو أبقوه في قعر البحار لما افتخر
والتّبر تُربٌ في المعا دن وهو أفخر مدّخر
والعود معدود لدى الغابات من جنس الشجر
والباتر المغمود لو لم يخرجوه لما بتر
فادأب على الترحال في الـ أحوال أجمعها تُسَرّ
واعلم بأن البعد عن وطن به تمّ الوطر
واغرب بشرق واشرقن في الغرب إن تك ذا نظر
لا تؤثرن بدوا ولا حضرا وكن مع ما حضر
فالبدو عز واللطا فة والظرافة في الحضر
فإذا بدوت فكل عز باذخ فيك استقر
وإذا حضرت فكل ظر ف ظرفه لك مستقر
لا تبك إلفاً لا لا داراً ولا رسماً دثر
فالناس إلفك كلهم والأرض أجمعها مقر
فمتى وجدت العز والعيـ ش الهنيّ أقم تُبَرّ
ومتى رأيت الضدّ والصـ د الخفيّ فدع وذَرْ
واجعل بضاعتك التقى مع من أسرّ ومن جهر
فإذا اتقيت الله فز ت بكل كنز مدّخر

(١) وقوله:

ألا ليت شعري هل أرى البيت معلماً وهل أردَنْ يوماً على الريّ زمزما
ومن لي بحج البيت في خير معشر حدا بهم الحادي وغنى وزمزما
ومن لي بأن أمسي على حجراته وأصبح ممن للمغاني به انتمى
ومن لي بالخلّ الذي قد ألفته فنُدعى جهاراً أنتما القصد أنتما
نطوف بذاك البيت طوراً وتارة نلمّ بهاتيك البقاع فنلثما
وآونة نأتي إلى الحِجر الذي سما قدره حتى تطاول للسما
نعفر فيه الخدّ والوجه كله ولست أرى ممن يخص به فما
وطوراً نصلي ثم نسعى إلى الصفا لنصفي الفؤاد المستهام المتيّما

ونسرع كي نلقى المنى ولدى مِنى نخيم فيمن كـان لليمـن خيمـا
ونجني ثمـار العرف من عـرفـاتـه ونغـرف منه الخيـر غـرفـاً معممـاً
ونبـرأ من كـل العقـاب إذا دنت عقـاب جمار تحـرق الذنب أينمـا
وتـصبـح فـيـمـن بـرّ لله حـجـه وأصبح في تلك الريـاض منعمـاً
ويا ليت شعري هل أرى طيبة التي بهـا طابت الأكـواب نجداً وأتهُمـا
وهل تبصر القبر الشريف محاجري فـأصبح فيـه منشـداً متـرنمـاً
ويسعـدني القـول البليـغ فـانثني إذا مـا نظمت القـول فيـه تـنظمـاً
وأرجـع مملوء الحقـائب غـامـراً بما شئت من علم وحلم وما ومـا
وتخـدمني الدنيا وأصبح في غـد لـدى رتبة شمّـاء في منـزل سمـا
تحف بيَ الأملاك من كل جـانب لـدى جنة الفـردوس فوزاً معـظماً
فتـربـح هـاتيـك التجـارة كلهـا ويغنم مـولاهـا ابتـداء ومختمـاً
وأهـدي إلى خيـر الأنـام محمـد سـلاماً بعـرف الـطيبـات مختمـاً

(١) وله وقد أنشدهما في الحجر والحطيم:

هُـدِيتُ إلى الصـراط المستـقيـم فجئت لـحجـة الـبيـت العـظيـم
وعنـد الحِجـر قـال الحجـر أبشـر فقـد حـطمت ذنـوبـك بـالحـطيم

وله غير ذلك من الأشعار الرائقة، والمكاتبات الفائقة، وكان له الباع الطويل في اللغة والحديث، وكان فرداً من أفراد العالم فضلاً وذكاء ونبلاً، وله حافظة قوية، وفضله أشهر من أن يذكر. وكانت وفاته بالمدينة المنوّرة سنـة سبعين ومائـة وألف ودُفِن عند قبـر السيدة حليمـة رضي الله عنهـا، رحمه الله وإيانا[١].

محمد باشا

الوزير محمد باشا، ابن مصطفى بن فارس، الوزير الكبير، صاحب الرأي السديد والحزم والتدبير:

---

(١) «سلك الدرر»: ٤/٩١ - ٩٤.

ذا وزير لم يأل في النصح جهداً ظـل يسعى بكـل أمـر حـميـد
ومتى عُـدّ آل عـثمـان جـمعـا يـا لعمـري فـذاك بيت القصيـد

كـان من رؤساء الـوزراء عفةً وكمـالاً وعدلاً وديناً وسخاء ومـروءة وشجاعة وفراسة وتدبيراً، وكان واسع الرأي مهاباً بحيث إنه يتفق فصـل الخصومة بين الشخصين بمجرد وقوفهما بين يديه ونظره لهما ينقاد المبطل منهما للحق وهذه المزية قد استأثـر بها، وكـان يحب العلماء والصلحـاء والفقراء ويميل إليهم الميل الكليّ ويكرمهم الإكرام التام باليد واللسان، ذا شهامة وافرة وشجاعة متكاثرة وحرمة واحتشام وكمـال مشهور في الأنـام، طـاهراً من كـل ما يشين، مشغـول الأوقات إمـا بفصل الخصـومات بين المسلمين، أو بتلاوة كتاب الله المبين، أو بالصلاة على سيد المرسلين، أو اصطناع يد أو إسداء معروف إلى أحد من المساكين. لم تسمع عنه زلة ولـم تعهـد له صبـوة، ولـم يوقف لـه على كبوة ولا هفـوة، ميمون الحـركات والسكنات مسعوداً في سائر الأطوار والحالات بحيث إنه لم يتفق له توجه إلى شيء إلا ويتمه الله له على مراده ولم يتعاص عليـه أحد إلا ويكـون هلاكه على يديه. وُلِد بدمشق سنة ثلاثة وأربعين ومائة وألف، وبها نشأ وقرأ وحصّل، وبرع وتنبّل، ثم ذهب إلى حلب سنة ثلاث وستين ومائة وألف مع خاله الوزير الشهير سعد الدين باشا لمّا وَلِيَها ودخل معه طرابلس مرات ثم استقـام بـدمشق وعكف على تحصيـل الكمـالات إلى أن بلغ السلطانَ مصطفى بن السلطان أحمد خلّد الله ظلال دولتهم في الأنام وفـاةُ الوزيـر سعد الدين باشا فنظر إلى المترجَم بأنظار اللطف، وأنعم عليه برتبـة أمير الأمراء بروم إيلي[1]، وبعد برهة من الزمان أنعم عليه برتبة الوزارة فأتت إليه منقادة مع الإنعام بمنصب صيدا وذلك سنة ست وسبعين ومائة وألف، فنهض من دمشق إليها وسار السيرة الحسنة بين أهليها ثم انفصل عنها ووليَ حلب فدخلها سنة سبع وسبعين ومائة وألف.

---

(١) بلاد العثمانيين في أوروبا.

(١) وكانت حلب مجدبة ولم يصبها المطر فحصل بيمن قدومه كثرة أمطار ورخاء أسعار ونموّ زروع، وعامل أهلها بالشفقة والإكرام، ورفع عنهم من البدع ما كان ثلماً في الإسلام، فأثلج بذلك الصدور، وأحيا معالم السرور؛ منها إزالة منكر كان قد حدث بها سنة إحدى وسبعين ومائة وألف وذلك أنه جرت العادة في بعض محلاتها أن تفتح حانات القهوة ليلاً وتجتمع بها الأوباش إلى أن زاد البلاء وفجرت النساء مع ما ينضم إلى ذلك من شرب الخمور وفعل المنكرات وأنواع الفساد فحانت التفاتة من صاحب الترجمة في بعض الليالي من السطح إلى ذلك فقصده مختفياً وأزاله، وفي ثاني يوم أمر بإزالة هذا المنكر ونبه على أن لا تفتح الحانات ليلاً أبداً فطوى بسبب ذلك بساط الفجور.

(٢) ومن جملة ما رفعه من المظالم بحلب حين توليه لها بدعة الدومان عن حرفة الجزارين التي أوغرت صدور المسلمين، وكان حدوثه بها سنة إحدى وستين بعد المائة والألف؛ والدومان اسم لمال يجتمع من ظلامات متنوعة يستدان من بعض الناس بأضعاف مضاعفة من الربا ويصرفه متغلبو هذه الحرفة في مقاصدهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة وطريقتهم في وفائه أن يباع اللحم بأوفى الأثمان للناس من فقراء وأغنياء وتؤخذ الجلود والأكارع والرؤوس والكبد والطحال بأبخس ثمن من فقراء الجزارين جبرا وقهراً كل ذلك يصدر من أشقياء الجزارين ومتغلبيهم إلى أن هَجر أكلَ اللحمِ الأغنياءُ فضلاً عن الفقراء، واتفق أنه في سنة ست وسبعين كان قاضياً بحلب المولى أحمد أفندي الكريديّ فسعى في رفع هذه البدعة فلم تساعده الأقدار فباشر بنفسه محاسبة أهل هذه الحرفة الخبيثة ورفعها وكتب عليهم صكوكاً ووثائق وسجلها في قلعة حلب فلما عُزل عاد كل شيء لما كان عليه، فما كان أواخر محرم سنة ثمان وسبعين قبض صاحب الترجمة على رئيسهم وقتله وأبطل تلك البدعة السيئة وصار لأهل حلب بذلك كمال الرفق والإحسان، وامتدحه أدباؤها بالقصائد البديعة.

ثم إن المترجم عزل عن حلب في منتصف شوال سنة ثمان وسبعين ووليَ الرها فنهض إليها ودخلها سلخ ذي القعدة ولم تطلب إقامته بها فعزل عنها ووليَ أدنة فنهض منها واجتاز بحلب ودخلها في المحرّم سنة تسع وسبعين ونزل بتكية الشيخ أبي بكر وتوجه إلى أدنة فقبل وصوله إليها وليَ صيدا فكرّ راجعاً إلى صيدا ودخلها في أوائل صفر من السنة المرقومة، ثم عزل عنها وأعطِيَ قونية، ثم وليَ الشام وإمارة الحاج الشريف بعد الوزير عثمان باشا فدخلها في شهر رجب سنة خمس وثمانين ومائة وألف وصار لأهلها به كمال الفرح والسرور، ثم عزل عنها في ربيع الأوّل سنة ست وثمانين وأعطِيَ قونية، ثم أعيد إلى ولاية دمشق وإمارة الحاج في سنة سبع وثمانين وأقبل على أهلها بكمال الإكرام ووفور الاعتناء التامّ وكانت أيامه بها مواسم أفراح واستمرّ واليها إلى وفاته، وراج في أيامه سوق الشعر، فمدحه الشعراء بالقصائد الطنانة وكانت أيامه مواسم إقبال وأهلك الله على يديه جملة من الخوارج منهم عليّ بن عمر الظاهر الزيداني قتله في رمضان سنة تسع وثمانين وصالح العدوان من بغاة المشايخ ومرعى المقدّاني الشيعيّ وغيرهم من البغاة وقطاع الطريق، وراقت دمشق وما والاها في أيامه وصفا لأهلها العيش ونامت الفتن وسلم الناس من الإحن، وبنى بدمشق آثاراً حسنة صار بها ارتفاق للمسلمين.

وكان رحمه الله تعالى له مبرّات كلية، وصدقات جليّة وخفية خصوصاً لمن أدركم الفقر من ذوي البيوت وأهل العلم بدمشق فكان يتفقد أحوالهم ويبرهم ويكرم نزلهم، وله عطايا جزيلة كل سنة للعلماء وأهل الصلاح والدين، وإغاثة كلية للضعفاء والمساكين، طاهر الذيل واللسان واليد من كل ما يشين، ومُدح من أدباء دمشق بالقصائد العديدة التي لو دوّنت لبلغت مجلدات وكان يجيزهم على ذلك الجوائز السنية، وكانت أوقاته مصروفة في أنواع القربات من تلاوة القرآن واشتغال بالصلاة على النبيّ ﷺ، أو رفع ظلامة عن مظلوم أو تنفيس كربة عن مكروب، وبالجملة فهو أحسن من أدركناه من ولاة دمشق وأكملهم رأياً وتدبيراً ولم يزل على أحسن حال

وأكمل سيرة حتى توفي بدمشق وهو وال عليها، وكانت وفاته سنة سبع وتسعين ومائة وألف وتمرّض أياماً قلائل واجتمعت الأعيان والرؤساء بداره فغسل بها وخرجوا بجنازته على السوق الجديد حتى وصلوا به إلى الجامع الأمويّ فوضعت تجاه ضريح سيدنا يحيى وتقدم للصلاة عليه المولى أسعد أفندي الصديقي المفتي ثم حمل بمجمع عظيم لم يتخلف عنه أحد من أهل دمشق من الرجال والنساء وخرجوا بالجنازة على سوق جقمق ودفن بتربة الباب الصغير شمالي ضريح سيدنا بلال الصحابي الجليل وكثر الأسف عليه وجرت لذلك العَبرة، رحمه الله تعالى وجعل في الفراديس العلية مقرّه[1].

محمد بن محمد الطيب المالكيّ

المغربيّ، مفتي القدس الشريف، علامة العصر الفائق على أقرانه وله الفضل الباهر وكان في الأدب الفرد الكامل، له الشعر الحسن مع البداهة في ذلك وسرعة نظمه.

(١) وُلد بالمغرب الأقصى وحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين، ثم اشتغل في حفظ المتون على والده وقرأ عليه الآجرومية وعلى الشيخ محمد السعديّ الجزائريّ السنوسيّة ومنظومة في العبادات مختصة في المسائل الفقهية، ودرّس السنوسيّة للطلّاب قبل أوان الاحتلام ورحل من بلاده في البر إلى طرابلس الغرب وما وجبت عليه صلاة ولا صيام، ومن طرابلس ركب البحر إلى الجامع الأزهر فطلب العلم بمصر سنتين وثمانية أشهر.

(٢) ثم سافر لزيارة والدته في البحر فأسره الفِرَنج وذهبوا به إلى مالطة مركز الكفر ثمّ نجّاه الله تعالى بعد سنتين وأيام وناظرته رهبان النصارى مناظرة واسعة وكان فيهم راهب له دراية بالمسائل المنطقية والعربية ويزعم أن همته بارعة وكانت مدة المناظرة نحو ثمانية أيام فأخرسهم الله وأكبتهم

---

(١) «سلك الدرر»: ٤/٩٧ - ١٠٢.

ووقعوا في حَيْصَ بَيْص، فمن جملة مناظرتهم معه في ألوهية عيسى أن قال كبيرهم يا محمديّ: إن حقيقة عيسى امتزجت مع حقيقة الإله فصارتا حقيقة واحدة، قال: فقلت له: لا يخلو الأمر فيهما قبل امتزاجهما أن تكونا قديمتين أو حادثتين أو إحداهما قديمة والأخرى حادثة وكل الاحتمالات باطلة فالامتزاج على كل الاحتمالات باطل أما على الأول فإن الإمتزاج مُفْضٍ للحدوث قطعاً لأنه تركيب بعد إفراد وكل تركيب كذلك لا محالة حادث والحادث لا يصلح للألوهية، وأما الثاني فظاهر البطلان، وأما الثالث بوجهيه فباطل أيضاً لأن القديمة منهما بعد الامتزاج يلزم حدوثها والحادثة منهما بعده يلزم قدمها فيؤدّي إلى قلب الحقائق وقلبها محال، ويلزم أيضاً اجتماع الضدّين وهو باطل باتفاق العقول، ولما سُقِط في أيديهم ورأوْا أنهم قد ضلوا في هذا الطريق قال لي كبيرهم: عقولنا لا تصل لهذا الأمر الدقيق فقلت له: هذا عندنا من علوم أهل البداية لا من علوم أهل النهاية فبهت الذي كفر وعبس واكفهرّ، قلت لكبيرهم: بالله عليك: أعيسى كان يعبد الصليب؟ قال: لا وإنما ظهر الصليب بعد قتله ـ على زعمهم ـ ونحن نعبد شبيه الإله فقلت له: بالله عليك أللهِ شبيه؟ قال: لا، فقلت له: يجب عليكم حرق هذه الصلبان بالزفت والقطران فاستشاط غيظاً وقال لي: كنت أوقعك في المهالك وأجعلك عبرة لكن الله أمرنا بحب الأعداء، فقلت له: لكن الله أمرنا ببغض الأعداء، فقال لي: إذاً شريعتنا كاملة فقلت له على طريقة الاستهزاء: شريعتكم كاملة لأنها تعبد الأصنام والصلبان وشريعتنا ناقصة لأنها تعبد الله وحده لا شريك له فاشتد غضبه حتى كاد أن يبطش بي ولكن الله سلم لمزيد اللطف بي ثم إن كبيرهم قال لي: يا محمديّ إني رأيت في كتبكم الحديثة أن نبيكم انشق له القمر نصفين فدخل نصفه من كم والنصفه من الكم الآخر وخرج تامّاً من جيب صدره ومساحة البدر مثل الدنيا ثلاث مرات وثلث وهي ثلاثمائة وثلاث وثلاثون سنة وثلث فما هذه الخرافات؟ فقلت له: أما ورد أن إبليس جاء لسيدنا إدريس وهو يخيط بالإبرة وبيده قشرة بيضة وقال له: أيقدر ربك أن يجعل الدنيا في قشرة هذه

البيضة؟ فقال لي: نعم ورد ذلك، فقلت له: كيف يقدر؟ فقال: إما أن يكبر القشرة أو يصغر الدنيا، فقلت له: سبحان الله تحلونه عاماً وتحرّمونه عاماً وإذا سلمت هذا فلم لا تسلمه لنبينا فغص بريقه واصفر وعبس وتولّى فقتل كيف قدّر، وهذا الجواب مني من باب إرخاء العنان للإلزام وإلا فدخول نصفي البدر في الكمين باطل عند جميع المحدّثين الأعلام لكن كبيرهم لا يعرف اصطلاح علمائنا ذوي المقام العالي فلو أجبته ببطلانه لقال لي: رأيته في كتبكم فلا يصغي لمقالي فلذلك دافعته بالبرهان القطعيّ العقليّ لأنه لا يمتثل بعد ما رآه للدليل النقليّ، ثم إن كبيرهم في ميدان البحث أنكر نبوّة نبينا السيد الكامل وقال: إنه عندنا ملك عادل، فقلت له: ما المانع من نبوّته؟ فقال: نحن لا نقول بها وإنمانقول بشدّة صولته، فقلت له: أليس النبيّ الذي أتى بالمعجزات وأخبر بالمغيبات؟ فقال كبيرهم: أيّ معجزة أتى بها وأيّ مغيبات أخبر بها فسردت له بعض المعجزات وأعظمها القرآن وذكرت له بعض المغيبات، فقال لي: رأيت البخاريّ من علمائكم ذكر بعضها، ثم قال لي: إنّما علّمه ذلك الغلام يشير لقوله تعالى: ﴿إنما يعلمه بشر﴾[1] فقلت له: بالله عليك لسان ذلك الغلام ماذا؟ قال: أعجميّ، فقلت له: بالله عليك لسان نبينا ماذا؟ قال: عربيّ، قلت له: بالله عليك نبيّنا يقرأ ويكتب أم أمّيّ؟ قال: أميّ لا يقرأ ولا يكتب، فقلت له: بالله عليك هل سمعت عربيّاً يتعلم من عجميّ، قال: لا، فأفحِم في الجواب وانقطع عن الخطاب.

(١) ثم قال لي: كيف يقول قرآنكم: ﴿يا أخت هارون﴾؟ وبينه وبينها ألف من السنين؟ فقلت له: أنت أعجميّ لا تعرف لغة العرب كيف مبناها، فقال لي: وكيف ذلك؟ فقلت له: يُطلق الأخ في لغتهم على الأخ النِّسبيّ وعلى الأخ الوصفيّ والمراد هنا الثاني ومعنى الآية يا أيتها المتصفة عندنا بالعفة والديانة والعبودية مثل هارون الموصوف بتلك الصفات الكاملة وهذا

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

المعنى في لسان العرب شائع وفي مجاراتهم ومجاري أساليبهم ذائع، فوقف حمار الشيخ في الطين، ولما رآني صغير السن وكان سني إذ ذاك نحو تسع عشرة سنة، قال لي: تصلح أن تكون مثل ولد ولدي فمن أين جاءتك هذه المعرفة التامة؟ فقلت له: جميع ما سألتني عنه هو من علوم البداية ولو خضت معي في مقام النهاية لأسمعتك ما يصم أذنيك وفي هذا القدر كفاية، فترك المناظرة ورجع القهقرىٰ، وشاع صيتي في مالطة بين الرهبان والكبراء وكنت إذا مررت في السوق يحترموني وما خدمت كافراً قط وكان سبب خلاصي رؤيا مبشرة، من يومها ركبت سفينة النجاة متوجهاً لإسكندرية ثم منها لمصر القاهرة.

ثم سافرت للحجاز مراراً ودخلت اليمن وعمان البحرين والبصرة وحلب ودمشق وتوجهت للروم ثم ألقيت عصا التسيار في بيت المقدس، وجاءتني الفتيا وأنا لها كاره. ومراسلاته وأشعاره كثيرة.

وكانت وفاته في القدس سنة إحدى وتسعين ومائة وألف، رحمه الله تعالى[1].

---

(١) «سلك الدرر»: ١٠٢/٤ ـ ١٠٨.

سلسلة التاريخ والأعلام
(٢)

المختار المصون من أعلام القرون

مختارات تسعة عشر كتاباً

من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر
١٠٠٠ ترجمة من أصل ٢٨٠٠٠ ترجمة

اختيارات وفهرسة
محمد بن حسن بن عقيل موسى

المجلد الثالث

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة
(١١)

مختارات القرن الثاني عشر
من كتاب
«الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»

تأليف

السيد عبد الحي الندوي
الحسنيّ



أبو الحسن تانا شاه الحيدر آباديّ

(١) الملك الفاضل أبو الحسن تانا شاه الشيعيّ الحيدر آباديّ، أحد ملوك الدكن. وَلِيَ المملكة بعد صهره عبد الله قطب شاه سنة ثلاث وثمانين وألف، وألقى عنان السلطة بيد وثنيين: «مادنا» و«ينكنا» فأحيا رسوم الكفر والجاهلية في الإسلام، ولم يزل تانا شاه منهمكاً في اللذات والخمور فسير إليه عالمگير بن شاهجهان الدهلويّ جيوشه، فقاتلت قتالاً شديداً حتى وصلت إلى حيدر آباد وفر تانا شاه إلى قلعة «گولكنده» فحاصروها وضيقوا على أهلها، ودافع أهل القلعة دفاعاً حسناً مدة من الزمان، فلما استيأس الناس عن الخلاص قتلوا مادنا وينكنا، وأسر تانا شاه فأمر بحبسه عالمگير بقلعة «دولة آباد» وانقرضت الدولة القطب شاهية عليه..

وكان تانا شاه من كبار العلماء، رأيت حواشيه على «الكشاف» للزمخشري.

ولد ونشأ بحيدر آباد وقرأ العلم ثم لازم الفقراء والدراويش مدة طويلة، ثم طلبه عبد الله قطب شاه وزوجه بابنته، واتفق عليه الناس بعد موت صهره لما جمع الله فيه من حسن الخلق وطلاقة الوجه والتفحص عن أخبار الناس وحسن المعاشرة لهم في جميع الأمور.

ومن عجائب تانا شاه تقسيم عمره على حصص متساوية كلها أربع عشرة سنة، فمن ذلك أيام صباه وهي أربع عشرة سنة، ومنها أيام تحصيله للعلم وهي أيضاً كذلك، ومنها مصاحبة الصوفية وهي أيضاً كذلك، ومنها ولاية الملك وهي أيضاً كذلك، ومنها أيامه في الأسر وهي أيضاً كذلك.

وكان شاعراً مجيد الشعر بالفارسية والهندية.

توفي سنة إحدى عشرة ومائة وألف بقلعة «دولة آباد»[1].

أحمد شاه الدرانيّ

الملك القاهر أحمد شاه بن زمان خان الدرانيّ المعروف بالأبداليّ، نسبة إلى قبيلة كان أبوه أميراً عليها، وهو أفغانيّ الأصل ومؤسس الدولة الأفغانية بقندهار.

ولد سنة ١١٣٦ هـ، ولما توفي أبوه قبض حسين شاه صاحب قندهار عليه وأسره عنده، فلما غزا نادر شاه[2] قندهار سنة ١١٥١ هـ أطلق أحمد شاه من أسره، ووجهه إلى بلاد فارس، وجعله على فرقة من الفرسان واستأثر به وتفرس فيه النجابة والنبوغ، وكان معه عند غزوه للهند سنة ١١٥١ هـ، وتوسم فيه نظام الملك مؤسس الدولة الآصفية في حيدر آباد آثار الرشد والعظمة، وتنبأ بأنه سيكون في يوم من الأيام ملكاً كبيراً، ولما قتل نادر شاه حاول أحمد شاه أن يأخذ ثأره وبذل جهده فلم يساعد القدر لكثرة جيوش الفرس وقوتهم، فلجأ إلى معاقل الجبال في بلاد قومه الأفغانيين ونشر راية الاستقلال وجرى تتويجه في جامع قندهار سنة ١١٦٠ هـ ولقب نفسه «أحمد شاه» و«در دوران» فاجتمع إليه كثير من الأمراء بقبائلهم العديدة، وبذل فيهم أموالاً كثيرة، وأحسن صلتهم، فغزا بهم الجهات المجاورة لمملكته، فاستولى على تلك الولايات، وعلى قسم من مملكة الفرس، وجعل مركز سلطته قندهار، ثم اجتاز إلى أراضي الهند وداس أرض بنجاب وكشمير، وغزا الهند عدة مرات بين ١١٦١ هـ و ١١٧٠ هـ، وتوغل في البلاد حتى وصل إلى دهلي سنة ١١٧١ هـ، وصاحبها حينئذ عزيز الدين عالمگير الثاني ووزيره عماد الملك الذي نصبه،

---

(١) «الإعلام»: ٦/٩ ـ ١٠.

(٢) ملك إيران.

وكان داخله الحسد لامتداد سطوة وزيره المذكور وحاول كسر شوكته فلجأ عزيز الدين إلى أحمد شاه واستماله إليه ووافقه على أفكاره فحمله على أن يبقي له السلطة ودخل أحمد شاه دهلي واستباح غنائمهما وولّى ابنه تيمور شاه على بنجاب بعد أن أقام شهراً في دهلي، وزوج ابنه بابنة صاحب الهند.

(١) ثم خرج من دهلي بعد أن استخلفه عليها، فلما خرج قام الوزير فطرده من دهلي وقتل سلطانه وأقام مكانه محيي السنة بن كام بخش بن عالمگير الأول فاهتبلت «المرهتة»[1] الفرصة وطردوا الأولياء وأقاموا أولياء من الهنود فجرد أحمد شاه عساكره سنة ١١٧٣ هـ وقصدهم، فمضت عليهم سنة وهو في التأهبات الحربية والمقاتلات الخفيفة إلى أن تحصن المرهتة في بعض الحصون المنيعة فحاصرهم أحمد شاه وأكرههم على القتال، فانتشبت الحرب وكان يوماً مشهوداً، قاتلت فيه المرهتة قتالاً شديداً وأبلوا بلاءاً حسناً، وقد رأى أحمد شاه باب الفرج غير أنهم أطبقوا عليه من كل جانب، وضيقوا على عساكره وبذلوا الجهد في المقاتلة فانكسرت عساكر أحمد شاه واستولى المرهتة على دهلي وأسروا العائلة الملكية بجملتها واستولوا على كل المجوهرات غير أن أحمد شاه جدد القتال فكانت المعركة الحاسمة في ساحة پاني پت في سنة ١١٧٤ هـ، واجتمعت الجيوش الإسلامية تحت رايته فظفر في هذه الواقعة بالمرهتة وقتل منهم مقتلة عظيمة، قتل فيها من المرهتة ثمانية وعشرين ألفاً، وأسر اثنين وعشرين ألفاً، وفي تلك الأثناء خرج عليه خارجة من لاهور، فسار إليها وانقض على المتمردين بجموعه فهزمهم أقبح هزيمة وفتح للأفغانيين طريق كشمير، وتوفي أحمد شاه سنة ١١٨٦ هـ بقرب مدينة قندهار.

كان أحمد شاه من كبار القادة العسكريين ومؤسسي الحكومات الذين نبغوا في منتصف القرن الثاني عشر الهجريّ، قد جمع شمل الأفغان، ونظمهم في سلك واحد، وضبط البلاد، وحفظ الثغور، وسن القوانين

(١) قوم من كفار الهنود.

العادلة، وأقام الحسبة، وكان جامعاً بين صفات الفروسية ومكارم الأخلاق والنبل، محباً للعلوم والآداب، أليفاً ودوداً، وقوراً مهيباً إذا كان على منصة الحكومة، متواضعاً بعيداً عن التكلف في غير هذا الوقت، متديناً حريصاً على صحبة العلماء والصالحين، مكرماً للسادة والمشايخ، يذاكرهم في الأمور الدينية، والمسائل العلمية، رحيماً كثير العفو عن الأعداء، كارهاً للقسوة محباً للمساواة، منح الحرية الدينية لجميع الطوائف، وشجع على النكاح الثاني للأيامى، الذي كان يكرهه الأفغان ويتعيرون منه، حمل العلماء والمؤلفين على وضع كتب في تاريخه، وتسجيل وقائعه وأيامه، وكان كاتباً يؤلف، ويتمنى أن يصل إلى درجة الولاية.

(١) ومن أشهر مآثره وأعظمها أنه هزم المرهتة الذين شكلوا أكبر خطر على الحكومة الإسلامية في الهند وعلى الكيان الإسلاميّ هزيمة منكرة، لم تقم لهم قائمة بعدها، وكان في توجهه إلى الهند لحماية المسلمين سهم كبير لشيخ الإسلام وليّ الله بن عبد الرحيم الدهلويّ، الذي حث الأمير نجيب الدولة على دعوته إلى الهند، وكان ـ لو بقي في الهند ـ تاريخ آخر للمسلمين فيها، ولكنه كان مرتبطاً ببلاده ومصالحها، لا يحب أن يعيش بعيداً عن مركز سلطته وقوته، فعاد إلى قندهار على أثر الفتح العظيم، فاضطربت الأحوال في الهند، ولم يستطع المسلمون أن ينتفعوا بهذا الفتح طويلاً لضعف القيادة، وتفرق الكلمة، فكان ما كان، وكان أمر الله قدراً مقدوراً[١].

مرزا مظهر جان جانان الدهلويّ

الشيخ الإمام العالم المحدث الفقيه الزاهد شمس الدين حبيب الله مرزا جانجانان بن مرزا جان بن عبد السبحان العلويّ الدهلويّ، يرجع نسبه إلى محمد ابن الحنفية وينتهي إلى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه بتسع عشرة واسطة.

---

(١) «الإعلام»: ٦/ ٢٩ ـ ٣٢.

ولد سنة إحدى عشرة بعد المائة والألف، فتربى في مهد أبيه وتعلم اللغة الفارسية عنه وقرأ القرآن على الحافظ عبد الرسول الدهلويّ تلميذ شيخ القراء عبد الخالق المصريّ ثم أحرز الكمالات العلمية، ولما بلغ الثامنة عشرة من سنه توفي أبوه فتردد إلى الأمراء أياماً ليحصل الخدمة الملوكية ثم انجذب إلى الشيخ نور محمد البدايونيّ فأعرض عن الدنيا وصحبه أربع سنين وأخذ عنه الطريقة النقشبندية ثم لازم الشيخ محمد أفضل السيالكوتيّ وقرأ عليه المطولات وأخذ عنه الحديث، ثم تصدر للتدريس ودرس وأفاد مدة.

وكانت مدة اشتغاله على المشايخ ثلاثين سنة، ومدة إرشاده خمساً وثلاثين سنة.

كان من أعاجيب الزمان في ذكاء الحس والفطنة والقوة الغريبة في إبقاء الذكر والاستغناء عن الناس والزهد والورع واتباع السنة السنية واقتفاء آثار السلف، وكان لا يتقيد برسوم المشايخ ولا يجيب الدعوة العامة ولا يذهب إلى مجالس الصوفية المتعارفة، ولم يبن داراً قط فكان يسكن في الدار المستعارة أو المستأجرة، وكان يأكل طعاماً يشتريه مطبوخاً كل مرة، ولا يملك من الثياب غير لباس واحد.

(١) وكان يقول: إن رد الهدية ممنوع ولكنا ما أمرنا بالأخذ وجوباً، إني أقبل من أصحابي يأتون بها بإخلاص واحتياط ولا أقبل من الأغنياء فإن هداياهم قلما تخلو عن الشبه وربما يتعلق بها حقوق العباد.

(٢) قال الشيخ غلام علي العلويّ الدهلويّ في «مقامات مظهرية»: إن محمد شاه بعث إليه وزيره قمر الدين خان وقال له: إن الله أعطاني ملكاً كبيراً فخذوا مني ما شئتم، فأجابه إن الله تعالى يقول: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ فلما كانت أمتعة الأقاليم السبعة قليلة فكيف بما في يدكم من قطعة حقيرة من إقليم واحد والفقراء لا يخضعون للملوك لأجل ذلك الأقل.

(٣) وقال: إن نظام الملك أعطاه ثلاثين ألفاً من النقود فلم يقبل، فقال له

نظام الملك: إن لم تكن لكم حاجة إليها فخذوها ثم قسموها على المساكين: فقال: إني لست بأمينكم إن شئتم التقسيم فباشروه بأنفسكم إذا خرجتم من داري، انتهى.

(١) وكان حنفياً في الفروع لكنه كان يترك العمل بالمذهب إذا وجد حديثاً صحيحاً غير منسوخ ولا يحسب ذلك خروجاً عن المذهب ويقول: العجب كل العجب أن الحديث الصحيح غير المنسوخ لا يعمل به مع أنه يروى عن النبي المعصوم عن الخطأ ﷺ ببضع وسائط من الرواة الثقاة ويعمل بالروايات الفقهية التي نقلها القضاة والمفتون بوسائط عديدة عن الإمام غير المعصوم مع أن ضبطهم وعدلهم غير معلوم، انتهى.

(٢) قال محسن بن يحيى الترهتي في «اليانع الجني»: إنه كان ذا فضائل كثيرة، وكان يرى الإشارة بالمسبحة[١] ويضع يمينه على شماله تحت صدره ويقوي قراءة الفاتحة فيما لا يجهر الإمام فيه بالقراءة، وأقر المحدث حياة السنديّ المدني على قوله بوجوب العمل بالحديث بشرطه وإن خالف المذهب، انتهى.

(٣) وقال أحمد بن الحسن القنوجي في «الشهاب الثاقب» وأجاب مولانا مظهر جانجانان في بعض مكاتيبه من سؤال العمل بالحديث والانتقال من مذهب إلى مذهب بما معناه: انتقل كثير من السلف والخلف من مذهب إلى مذهب ولو كان الانتقال غير جائز لما ارتكبوه، ومن قال خلاف ذلك فقول بلا دليل وغير مقبول ولا معقول، وكان يقول: علم الحديث جامع للتفسير والفقه ودقائق السلوك يزداد نور العلم ويتولد توفيق العمل الصالح والأخلاق الحسنة من بركاته، والعجب أنهم لا يعملون بالحديث الصحيح الغير المنسوخ الذي بينه المحدثون وعلم أحوال رواته وانتهى إلى النبي المعصوم الذي لا سبيل للخطأ إليه بواسطة عديدة، ويعملون برواية الفقه

(١) أي الإشارة حال قراءة التشهد في التحيّات.

التي ناقلوها قضاة ومفتون وأحوال ضبطهم وعدلهم غير معلومة وتنتهي بأكثر من عشر وسائط إلى المجتهد ومن شأنه الخطأ والصواب.

(١) وكان يقول: قدِّم الورع والتقوى واتبع المصطفى بالقلب واعرض أحوالك على الكتاب والسنة فإن كانت موافقه للسنة فاقبلها وإن كانت مخالفة للسنة فارددها، وتعلم الحديث والفقه على التزام عقيدة أهل السنة والجماعة، وادخر الثواب الأخرويّ في صحبة العلماء، وإن استطعت أن تواظب على العمل بالحديث فافعل وإلا فاعمل به أحياناً لكيلا تحرم نوره.

(٢) وكان يقول: ترك الرفع[1] من جناب المجدد للاجتهاد والسنة المحفوظة من النسخ مقدمة على اجتهاد المجتهد، وترك الرفع بعد ثبوت سنيته بحجة ترك المجدد غير مقبول وقد حذر المجدد من ترك السنة تحذيراً كثيراً، وكان على المذهب الحنفيّ[2] وقد قال الإمام أبو حنيفة: إذا ثبت الحديث فهو مذهبي واتركوا قولي بقول رسول الله ﷺ، فالمرجو أن لا يتغير المجدد بترك هذا الأمر الاجتهادي والأخذ بالأحاديث الصحيحة، انتهى.

وله مكاتيب نافعة وديوان شعر بالفارسية و«خريطة جواهر» مجموع انتخب فيه كلام الشعراء المتقدمين.

(٣) توفي رحمه الله شهيداً سنة خمس وتسعين ومائة وألف، وأرخوا سنة وفاته بهذه الكلمات «عاش حميداً، مات شهيداً» ودفن في بلدة «دهلي»[3].

شجاع الدولة جلال الدين الأودي

الأمير الكبير شجاع الدولة جلال الدين الحيدر بن أبي المنصور التركماني الأودي أحد الرجال المعروفين بالعقل والدهاء والسياسة، قام بالملك بعد وفاة والده سنة سبع وستين ومائة وألف وضبط بلاد «أوده»

---

(١) أي رفع اليدين حال الركوع والرفع منه.
(٢) كأن المقصود بالمجدد هنا هو الإمام أحمد السرهندي، وقد مرّت ترجمته.
(٣) «الإعلام»: ٦/ ٥٥ ـ ٥٩.

وأحسن إلى الرعية وساس الأمور وعمر بلدة «فيض آباد» قريباً من «أجودهيا» التي يقال لها «أوده» واتخذها عاصمة بلاده، ووَلِيَ الوزارة الجليلة في أيام شاه عالم الثاني سنة خمس وسبعين ومائة وألف وسار معه إلى «بنگاله» فقاتل الانكليز وانهزم عنهم فرجع إلى «إله آباد» واستعد للقتال مرة ثانية فقاتلهم في «بِكسر» وانهزم هزيمة فاحشة فالتجأ إلى الحافظ رحمت خان البريلويّ ثم إلى نواب أحمد خان الفرخ آباديّ فأشار إليه أحمد خان المذكور أن يلتجىء إلى الإنكليز فسار إليهم وقام بالملك مرة ثانية بأرض الأوده تحت سيادة الإنكليز، ومات بها سنة ثمان وثمانين ومائة وألف(١).

قطب الملك البارهويّ

الأمير الكبير حسن علي بن عبدالله الحسينيّ الواسطيّ البارهويّ نواب عبد الله خان قطب الملك، أحد الوزراء المتغلبين على الدولة التيمورية، ولد ونشأ بأرض الهند وتقرب إلى عالمگير وخدمه مدة من الزمان، ولما توفي عالمگير لحق بولده شاه عالم وقاتل أخاه محمد أعظم وجرح في المعركة فولاه شاه عالم على «أجمير» وأعطاه منصباً رفيعاً ثم ولاه على «إله آباد». ولما توفي شاه عالم وولي مكانه ولده معز الدين عزله عن الولاية ونصب مكانه أحد أصحابه فقاتله حسن علي خان وهزمه ثم لحق بفرخ سير بن عظيم الشان ابن شاه عالم وسار معه إلى «دهلي» فقاتل معز الدين وهزمه، فلما تولى المملكة فرخ سير جعله وزيراً وأعطاه منصباً رفيعاً، وجعل صنوه حسين علي خان أمير الأمراء فأخذا الحل والعقد بيدهما وفرخ سير صار لعبة بين أيديهما فوقع النفاق بينه وبين وزيريه فقبضا عليه وقتلاه، ثم آتفقا على رفيع الدرجات بن رفيع القدر بن شاه عالم فأجلساه على سرير الملك وكان مسلولاً فمات بعد أربعة أشهر، ثم أخرجا رفيع الدولة بن رفيع القدر من السجن وأجلساه على السرير فمات بمرض الإسهال وما كان له من السلطة إلا الاسم، ثم اتفقا على محمد شاه بن جهان شاه بن شاه

---

(١) «الإعلام»: ٦/ ٦٢ ـ ٦٣.

عالم، فلما رأى محمد شاه أنه لعبة بين أيديهما دبر الحيلة لخلاصه وأمر بعض رجاله فقتل حسين علي خان في أثناء السفر غيلة، فلما سمع بذلك حسن علي خان وكان بدهلي أخرج بعض أبناء الملوك من السجن وسار معه بعساكره العظيمة إلى محمد شاه فوقع اللقاء بين فئتين وهزم حسن علي خان فقبض عليه.

(١) وكان شجاعاً مقداماً باسلاً متهوراً صاحب جرأة ونجدة، لم يكن في زمانه مثله في الشجاعة ومع ذلك كان جاهلاً مغتراً مختالاً فخوراً لم يكن له نصيب من السياسة والتدبير، فلما تولى الوزارة اشتغل بالنساء وترك الحل والعقد بيد ديوانه رتن چنـد الكافـر الهنديّ فـاختل النـظام وكان أمـر الله مفعولاً.

مات سنة خمس وثلاثين ومائة وألف بمدينة دهلي[١].

الأمير حيدر علي الميسوريّ

الأمير الكبير حيدر علي بن فتح علي بن علي خان الكوهيريّ الحيدر آباديّ ثم الميسوري أحد رجال السياسة والتدبير، ولد سنة خمسين ومائة وألف وتدرب على الفنون الحربية في ظل والده ثم دخل في خدمة راجه «ميسور» وكان ملازماً لركابه أبا عن جد فارتقى إلى مأمورية قائد الجيوش في مدة عشر سنين وتدرج إلى الإمارة وجمع العساكر العظيمة تحت لوائه. وكان راجه نند رام ملك «ميسور» مائلاً إلى التعبد فألقى زمام الملك بيد وزيره كنارو، فلما رأى كنارو أن حيدر علي صار قويّ الشوكة خافه ودبر الحيلة لاستئصاله واستقدم «المرهته»[٢]، فلما وقف حيدر علي على ذلك حارب كنارو وقاتله وهزمه، فاستوزره نند رام وألقى بيده الحل والعقد فرتق ما فتق من مهمات الدولة في أيام كنارو ثم قبض على نـنـد رام واستقل

---

(١) «الإعلام»: ٦/ ٧٠ ـ ٧٢.

(٢) قوم من كفار الهنود.

بالملك وافتتح أمره بالسياسة والرئاسة وقبض أكثر بلاد المرهته ووسع ملكه إلى نواحي «مدراس» وضرب السكة باسمه.

(١) وإذ كانت الدولة الإنكليزية تحسب لنمو سطوته حساباً عقدت محالفة المرهتة ونظام الملك ضده إلا أن حيدر علي استمال نظام الملك إليه وأضرم على الإنكليز نيران حرب هائلة وجر عساكرهم إلى بعد عن مدراس وركب في ستة آلاف فارس وقطع عشرين ومائة ميل في ثلاثة أيام حتى طلع على المدينة المذكورة فاضطرت حماية «مدراس» أن تجيب طلبه وقرر هو معاهدة من أهم شروطها أن الإنكليز يكونون حلفاء له في حروبه الدفاعية، فلما أغارت المرهته على أملاكه طلب إلى الإنكليز المساعدة الموعود بها، فلم ينل منهم إلا إعلانهم بأنهم على حياد ولما تهددته الرهتة مرة ثانية طلب مساعدة الإنكليز فلم يجيبوه فغاظه ذلك فخالف المرهته أنفسهم ونظام الملك وأغار على مملكة «كرناتك» الإنكليزية وخربها بالنار والسيف وفتح قلاعاً كثيرة إلا أنه احترز من الدخول معهم في الحرب مواجهة، وكان الخراب الذي ألحقه في مدة سنتي الحرب عظيماً حتى أن العساكر الإنكليزية وأهل مدراس كانوا في خطر من المجاعة وقد رفض شروط المصالحة التي عرضها عليه حاكم مدراس عندما أدركته المنية، وخلفه ابنه ثيپو سلطان.

توفي سنة ست وتسعين ومائة وألف هجرية[١].

نواب زيب النساء بيگم

الملكة الفاضلة زيب النساء بنت السلطان محيي الدين أورنگ زيب عالمگير أكبر ملوك الهند وأكرمهم.

(٢) ولدت سنة ثمان وأربعين وألف، ونشأت في نعمة أبيها وحفظت القرآن على مريم أم عناية الله الكشميريّ فأعطاها عالمگير ثلاثين ألفاً من

---

(١) «الإعلام»: ٦/ ٨٢ ـ ٨٣.

النقود الذهبية، ثم تعلمت الكتابة من نسخ وتعليق وشفيعة وغيرها، وقرأت الكتب الدرسية على الشيخ أحمد بن أبي سعيد الحنفيّ الأميتهوي وعلى غيره من العلماء، وأخذت الشعر والإنشاء وغيرهما عن الشيخ محمد سعيد المازندرانيّ، وأحرزت الكتب النفيسة في خزانتها واجتمع عندها من العلماء والشعراء ما لم يجتمع عند أحد.

(١) وكانت شاعرة ساحرة تسحر الألباب وتفلق القلوب لا تضاهيها امرأة في الهند في جودة القريحة وسلامة الفكرة ولطافة الطبع، لم تتزوج قط لغيرتها بأن تكون ضجيعة لأحد من الرجال.

وأما مصنفاتها فهي لا تكاد توجد في الدنيا غير «زيب المنشآت» وهو مجموع لرسائلها، وأما ديوان الشعر المنسوب إليها فهو لواحد من شعراء الفرس، وديوانها قد ضاع في حياتها، وأما «زيب التفاسير» فهو ترجمة «التفسير الكبير» للرازي بالفارسيّ نقله من العربية إلى الفارسية الشيخ صفي الدين الأردبيليّ ثم الكشميريّ بأمرها ولذلك سماه باسمها.

توفيت سنة ثلاث عشرة ومائة وألف في حياة أبيها فدفنت بحديقة بناها في «لاهور»[١].

نواب زينت النساء بيگم

الملكة الفاضلة زينت النساء بيگم بنت السلطان محيي الدين أورنگ زيب عالمگير بن شاهجهان بن جهانگير التيموريّ، ولدت في سنة ثلاث وخمسين وألف ونشأت في نعمة أبيها وتربيته.

(٢) وتزوجت أورنگ شاه والي تركستان، وآل الأمر إليها في ولاية بخارا بذكائها وحسن تدبيرها حتى صار الحل والعقد بيدها، ومن مآثرها «زينة

---

(١) «الإعلام»: ٦/٩٩ ـ ١٠٠.

المساجد» المشهور في دهلي، المبني بالحجارة الحمراء، وفي فناء المسجد في الجهة الشمالية قبرها[1].

سعد الله السلونيّ

الشيخ العالم الكبير العلامة سعد الله بن عبد الشكور الحسينيّ السلونيّ البريلويّ أحد فحول العلماء، ولد ونشأ بسَلون، وأخذ الطريقة عن والده عبد الشكور، ثم سافر إلى الحجاز فحج وزار وأقام بها اثنتي عشرة سنة وأخذ الحديث ودرس العلوم مدة، أخذ عنه الشيخ عبد الله بن سالم البصري والشيخ أحمد النخليّ وغيرهما من الأئمة، ثمّ رجع إلى الهند وسكن ببندر «سورت».

(١) أعطاه عالمگير بن شاهجهان سلطان الهند قريتين تحصل له منهما ثمانية آلاف ربية كل سنة، وكان السلطان يكرمه ويجله ويتلقى إشاراته بالقبول، والشيخ سعد الله يكتب إلى السلطان في الشفاعات فيقبلها السلطان ويكتب الأجوبة بيده الكريمة حتى أن الشيخ بعث إليه يشفع لواحد من العمال فأمر السلطان أن يكتب إليه أنك رجل عالم لا ينبغي لك أن تخاطبني في الذين ظلموا.

(٢) ثم ترك السلطان الكتابة إليه بيده والشيخ لم يزل يكتب إليه ويحثه على محبة الأئمة الإثني عشر من أهل البيت، فلما كرر الكتابة إليه في ذلك الأمر التفت السلطان إلى من حضر عنده من العلماء وقال: إن ما يوصيني الشيخ بحب أهل البيت صحيح لا غبار عليه ولكن الإمامة لا تنحصر عند أهل السنة والجماعة في الأئمة الاثني عشر.

(٣) وفي «الحديقة الأحمدية»: أن السلطان عالمگير كان يخاطبه في المراسلات بسيدي وسندي.

---

(١) «الإعلام»: ١٠٠ ـ ١٠١.

وله مصنفات كثيرة منها «آداب البحث» رسالة له في المنطق ورسالة له في إثبات مذهب الشيعة، وغيرها من الرسائل.

توفي سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف بمدينة «سورت» فدفن بها[1].

شاه جي القرمطيّ الكجراتيّ

كان من نسل السيد إمام الدين القرمطيّ، وكان إماماً مطاعاً قائماً بالدعوة إلى مذهبه، ولم يزل مستوراً عن أتباعه فإذا ألحوا عليه يظهر قدمه لهم من وراء الحجاب فكانوا يقبلونها ويلقون النذور عليها، فلما سمع عالمگير بن شاهجهان خبره أمر ولاته أن يبعثوه إليه فأبى ذلك، فأراد الوالي أن يبعثه قهراً فخرج من بيته وأكل السم فمات قبل أن يصل إلى الحضرة، فلما نعي به أتباعه خرجوا من نواحيهم فوجاً فوجاً وذهبوا إلى «بهروج» فقاتلوا أهلها وملكوا قلعتها عنوة ثم تحصنوا بها فسير شجاعت خان أمير تلك الناحية عسكره فحاصروها وضيقوا على أهلها ثم فتحوها وقتلوهم.

ثم أمر عالمگير أن يبعث أهل العلم إلى «أحمد آباد» ونواحيها ليعلموا ذراريهم العقائد الصحيحة ويجري أرزاق العلماء من أموالهم، وكان ذلك في سنة أربع عشرة ومائة وألف[2].

شاه عالم بهادر شاه الدهلويّ

الملك الفاضل الحليم محمد معظم بن أورنگ زيب التيموريّ شاه عالم بهادر شاه بن عالمگير الدهلويّ سلطان الهند.

ولد سنة ثلاث وخمسين وألف، ونشأ في مهد السلطنة في أيام جده وأبيه وحفظ القرآن وقرأ العلم وتدرب على الفنون الحربية وتأدب بآداب السلطة وفي كل حين يزداد كمالاً مع أخلاق شريفة وخصال محمودة، وهو أكبر أولاد أبيه بعد سلطان محمد بن عالمگير المتوفي في حياة أبيه، وولي

---

(١) «الإعلام»: ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢) «الإعلام»: ٦/١٠٩ ـ ١١٠.

أعمالاً منها ولاية «لاهور» ثم ولاية «كابل»، ولما توفي والده سنة ثمان عشرة ومائة وألف قام بالملك، وكان أخوه محمد أعظم ينافسه ويترشح للإمارة فدار الحرب بينهما ثم بينه وبين أخيه كام بخش فقُتل أخوه محمد أعظم المذكور، وقتل كام بخش فبايعه جميع الناس من كابل إلى أقصى بلاد «الدكن» واستبشروا بدولته واغتبطوا بها.

(١) ولكنه كان سيىء التدبير والسياسة، غلب في عهده عظيم «المرهته»[1] فتغلب على أكثر بلاد المسلمين فسلم له شاه عالم ربع الخراج من بلاد «الدكن» وهو أول وهن ظهر منه فأدى إلى زوال شوكته ثم انقراض ملكه من أولاده.

وكان عادلاً رحيماً كريماً بارعاً في العلوم لم يزل يشتغل بمطالعة الكتب والمذاكرة.

(٢) وكان شيعياً أمر أن يدخل في خطب الجمع والأعياد لفظ الوصيّ عند ذكر سيدنا علي المرتضى كرم الله وجهه فارتفع الصخب وكثر الضوضاء بمدينة «لاهور» فأمر بإحضار العلماء بين يديه وباحثهم في ذلك وقرأ بعض ما رُوي في إثبات الوصاية لسيدنا علي رضي الله عنه وبعض أقوال الفقهاء والمجتهدين في ذلك حتى كثر اللغط ورغب الناس كافة إلى العلماء سراً حتى أن ولده عظيم الشان أيضاً مال إليهم، فلما علم السلطان رغبة الناس أمر أن يرجع الأمر إلى الأول حسبما كان جارياً في عهد عالمگير.

مات سنة أربع وعشرين ومائة وألف[2].

القاضي شيخ الإسلام الكجراتي

الشيخ العالم الكبير العلامة شيخ الإسلام ابن قاضي القضاة

---

(١) قوم من كفار الهند.
(٢) «الإعلام»: ٦/ ١١٠ ـ ١١١.

عبد الوهاب الحنفيّ الأحمد آبادي الگجراتي، أحد مشاهير الفقهاء الحنفية، انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الصدق والأمانة والعفة والصيانة وحسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله تعالى وشدة الخوف منه.

(١) قال خافي خان في «منتخب اللباب»: إنه ما أخذ شيئاً من متروكات والده بل قسم بعضها على الفقراء والمساكين ليخفف أثقاله، وقسّم سائرها على غيره من أرباب الفرض والعصوبة وكان والده ترك مائتي ألف «أشرفي» وخمسمائة ألف ربية فضلاً عن الجواهر الثمينة والأثاث الوافر، فلم يأخذ منها شيئاً كما فعل الشيخ صدر الدين محمد بن زكريا المُلتاني غير أن صدر الدين أخذ نصيبه وقسمه على الفقراء وشيخ الإسلام ما أخذ شيئاً ووجه ذلك أن والد الشيخ صدر الدين كان صاحب الورع والعزيمة لم يجمع المال من غير حقه ووالد شيخ الإسلام كان غير مشكور السيرة في الجمع ولذلك ما أخذ شيئاً من متروكاته.

(٢) قال: ولما توفي والده ولاه عالمگير بن شاهجهان قضاء المعسكر مكان والده سنة أربع وثمانين وألف فأبى قبوله فلما لم يقبل منه عالمگير إلا القبول قبله كارهاً وبذل جهده في الصدق والتحري للحق وتزكية الشهود والتفتيش ورفع النقاب عن وجه المعاملة وتطهير الذيل عن أدناس الغرض فضلاً عن الارتشاء، وقولِ الحق عند السلطان ولو كان يخالفه، انتهى.

(٣) وقال شاه نواز خان في «مآثر الأمراء»: إن عالمگير لما قصد ملوك «الدكن» استفتاه في ذلك فأجاب بما يخالفه، قال: وإنه ترك المنصب والخدمة بعد مدة مع حرص السلطان على استخدامه.

(٤) سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار ورجع إلى الهند فسكن بأحمد آباد، ولما سمع عالمگير أنه رجع بذل مالا مزيد عليه من العناية

وعرض عليه القضاء ثم الصدارة فلم يقبلها ولما أصر السلطان وبالغ في إصراره ارتحل من بلدته كرهاً لقبول تلك الخدمة وتوفي إلى رحمة الله سبحانه في أثناء الطريق فتأسف السلطان بموته تأسفاً شديداً، انتهى.

مات سنة تسع ومائة وألف[١].

عالمگير بن شاهجهان سلطان الهند

الإمام المجاهد المظفر المنصور السلطان بن السلطان أبو المظفر محيي الدين محمد أورنگ زيب عالمگير بن شاهجهان، الغازي المؤيد من الله القائم بنصرة الدين الذي أيد الإسلام وفتح الفتوحات العظيمة وساس الأمور وأحسن إلى الرعايا وصرف أوقاته في القيام بمصالح الناس وبما يرضي به رب العالمين من صيام وقيام ورياضة لا يتيسر بعضها لآحاد الناس فضلاً عن الملوك والسلاطين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولد سنة ثمان وعشرين وألف، في أيام جده جهانگير بن أكبر شاه، ونشأ في مهد السلطة وتنبل في أيام جده وأبيه، وقرأ العلم على مولانا عبد اللطيف السلطانپوريّ ومولانا محمد هاشم الگيلانيّ والشيخ محيي الدين بن عبد الله البهاريّ وعلى غيرهم من الأساتذة، وصار مضرب المثل في جودة الخط، وبرز في كثير من العلوم والفنون، وأخذ الطريقة عن الشيخ سيف الدين بن محمد معصوم، وكان يلازمه بأمر والده حتى حصلت له نفحة منه وبشره بأشياء واشتهر ذكره في حياة والده وعظم قدره، فولاه والده الأعمال العظيمة في أرض «الدكن» فباشرها أحسن مباشرة.

ثم حصل لوالده مرض صعب عطله عن الحركة وكان ولي عهده من بعده أكبر أولاده دارا شكوه فبسط يده على البلاد وصار هو المرجع والسلطان معنى، فلم ترض نفوس إخوته بذلك فنهض شجاع من «بنگاله» ومراد بخش من «گجرات» وعالمگير من أرض «الدكن» كل منهم يريد أن

---

(١) «الإعلام»: ٦/١١٧ ـ ١١٩.

يقبض على أخيه دارا شكوه ويتولى المملكة، فاتفق عالمگير ومراد بخش على ذلك فقاتلاه وغلبا عليه، ثم احتال عالمگير على مراد بخش وقبض عليه، واعتقل أخويه ثم قتلهما لأمور صدرت منهما وأفتى العلماء أنهما استوجبا القتل، وحبس والده في قلعة «أكبر آباد» وهيأ له ما يشتهيه من الملبوس والمأكول وأهل الخدمة من الجواري والغلمان، وكانت جهان آرابيگم بنت شاهجهان تقيم مع والدها في القلعة والسيد محمد الحسينيّ القنوجيّ يلازمه يشتغل عليه ويذاكره في ما ينفعه في عقباه.

(١) وجلس عالمگير على سرير الملك سنة ثمان وستين وألف فافتتح أمره بالعدل والإحسان ورفع المظالم والمكوس وأسر غالب ملوك الهند المشهورين وصارت بلادهم تحت طاعته، وجبيت له الأموال وأطاعته البلاد والعباد، ولم يزل في اجتهاد من الجهاد ولم يرجع إلى مقر ملكه وسلطته بعد أن خرج منه، وكلما فتح بلاداً شرع في فتح أخرى حتى لحقت حدود ملكه في الجهة الشمالية إلى حدود «خيوا» و «بخارا» وفي الجهة الجنوبية إلى البحر المحيط الهنديّ وفي الجهة الغربية إلى «سومنات» على شاطىء بحر الهند وفي الجهة الشرقية إلى «پورى» منتهى أرض «أريسه».

(٢) وكان عالمگير عالماً ديناً تقياً متورعاً متصلباً في المذهب، يتدين بالمذهب الحنفيّ لا يتجاوز عنه في قول ولا فعل، وكان يعمل بالعزيمة، وكان يصلي الصلوات المفروضة في أوائل أوقاتها بالجماعة في المسجد مهما أمكن ويقيم السنن والنوافل كلها ويصلي صلاة الجمعة في الجامع الكبير ولو كان غائباً عن البلدة لأمر من الأمور يأتيها يوم الخميس ويصلي صلاة الجمعة ثم يذهب حيث شاء، وكان يصوم في رمضان في شدة الحر ويحيي الليالي بالتراويح ويعتكف في العشرة الأخيرة من رمضان في المسجد، وكان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة في كل أسبوع من أسابيع السنة ويصوم في أيام ورد عن النبي ﷺ أنه كان يصوم فيها، وكان يخرج الزكاة من أمواله قبل أن يجلس على سرير الملك وبعده مما خص

لنفسه من عدة قرى وبعض معادن الملح للمصارف الخاصة من نقير وقطمير، وكان يريد أن يرحل إلى الحرمين الشريفين للحج والزيارة في أيام والده فلم يرض بفراقه وبعد ذلك لم تمهله المصالح الملكية ولكنه كان يرسل الناس إلى الحرمين الشريفين للحج والزيارة ويبذل عليهم العطايا الجزيلة ويبعث إليهما أموالاً طائلة لأهل الحوائج في أيام الحج بعد سنة أو سنتين، ويوظف الذاكرين والذاكرات ويجعل لهم الأرزاق السنية، ويداوم على الطهارة بالوضوء، ويحافظ على الأذكار والأدعية المأثورة عن النبي ﷺ في غالب أوقاته، ويحيي الليالي المتبركة بالصلاة والصدقة وصحبة العلماء والمشايخ في المسجد، وكان يحترز عن كل سوء ومكروه منذ نعومة أظفاره، لم يشرب الخمر قط، ولم يقارب امرأة لا تحل له، وكان لا يستمع الغناء بالمزامير منذ جلس على سرير الملك مع أنه كان ماهراً بالإيقاع والنغم، وما كان يلبس الملبوسات غير المشروعة وما كان يأكل في الظروف الذهبية والفضية، ونهى الأمراء أن يلبسوا الغير المشروع، وكان يمنعهم أن يتذاكروا بين يديه بكذب وغيبة وقول الزور وأمرهم أن يعبروا عن الأمور المستكرهة إن وقع لهم حاجة إلى ذلك بكناية واستعارة.

(١) وكان موزعاً لأوقاته فوقت للعبادة، ووقت للمذاكرة، ووقت لمصالح العساكر، ووقت للشكاة، ووقت لقراءة الكتب والأخبار الواردة عليه كل يوم وليلة من مملكته لا يخلط شيئاً بشيء فإنه كان ينهض في الليل قبيل الصبح الصادق فيتوضأ ويذهب إلى المسجد ويصلي الفجر بجماعة ثم يشتغل بتلاوة القرآن والأوراد الموظفة ثم يجلس بدولت خانه ويتمثل بين يديه الأمراء المقربون ويحضر لديه ناظر العدلية بجماعة من المتظلمين سواء كانوا من أهل دهلي أو من خارجها فيقضي فيهم بما يبدو له من الشرع أو العرف ثم كان يذهب إلى البرج المشرف على نهر «جمن» على سنة أسلافه وبعد مدة من الزمان ترك ذلك فكان يدخل المنزل فيمكث به نحو ساعتين أو ثلاث ساعات ثم يظهر في الديوان العام ويجلس للناس فيحضر لديه أبناء الملوك وكبار الأمراء وعظماء الهند والسفراء وكلهم يقفون بين

يديه ومن ورائهم تقف عامة الأمراء ويتلوهم الناس من كل صنف ودرجة أعلاهم وأدناهم، ثم يتمثل بين يديه الأمراء الوافدون من بلاد ويستأذنه الأمراء المأمورون إلى جهات فيخلع عليهم ويأذن لهم بالخروج، ويُعرض عليه عرائض الأمراء والولاة وغيرهم، وصدر الصدور يعرض عليه حوائج السادة والعلماء والمشايخ وغيرهم من أهل الاستحقاق وناظر العرض المكرر الأحكام السلطانية من المناصب والأقطاع والنقود وغيرها، ثم يعرض عليه ناظر الاصطبلات الأفراس الخاصة وشحنة الفيلة الأفيال الشاهانية على الرسم المعتاد،وكان يجلس بالديوان العام نحو خمس ساعات، ثم يذهب إلى «دولت خانه» فيحضر لديه الوزير والديوان والبخشى وصدر الصدور وغيرهم من كبار الأمراء فيكلمه الوزير في مهمات الدولة والديوان في الأموال الخالصة الشريفة والمير بخشي في العسكرية، وصدر الصدور في أهل الحوائج والسلطان يجاوبهم بما يبدو له من المعروف ويكتب بيده بعض التوقيعات ويأمر في بعضها أن يكتبه الوزير ثم يعرض عليه المناشير التي أنشأها الوزير فيقرأها ويصلحها إن رأى فيها خللاً ويجلس بها نحو خمس ساعات، ثم يدخل المنزل ويتغدى ويقيل نحو ساعة ثم يتوضأ ويمشي إلى المسجد ويصلي الظهر بجماعة، ثم يذهب إلى «خلوت خانه» ويشتغل بتلاوة القرآن وكتابة المصحف ومطالعة الكتب وتحقيق المسائل، وربما يدعو بها بعض الأمراء ويباشر المهمات من أمور الدولة وربما يدعو أهل المظالم والشكاوى فيقضي بينهم بالمعروف وربما يدعو المخدَّرات فيعرضن عليه حوائج النساء فيبذل عليهن العطايا الجزيلة، ثم يذهب إلى المسجد ويصلي العصر بجماعة ثم يجلس بدولت خانه مرة ثانية فيتمثل بين يديه الأمراء ويكلمونه في المهمات كأول النهار كما تقدم،ثم يخرج إلى المسجد ويصلي المغرب بجماعة ويشتغل نحو ساعتين بالأذكار والأشغال ثم يذهب إلى «دولت خانه» ويشتغل بالمهمات إلى وقت العشاء ثم يذهب إلى المسجد ويصلي العشاء ثم يدخل المنزل.

وأما يوم الأربعاء فكان لا يجلس بالديوان العام والخاص ويجلس

بدار العدل على سنة أسلافه فيحضر لديه المفتون والقضاة ويعرض عليه ناظر العدلية المتظلمين واحداً بعد واحد فيستنطقه السلطان بنفسه ويسأله بكل هوادة ورفق ويقضي بينهم بالمعروف.

وأما يوم الخميس فإنه كان يكتفي بالجلوس بالديوان العام والخاص على أول النهار ويترك الجلوس بعد العصر فكان يشتغل سائر أوقاته بالعبادة.

وكان يجلس للمذاكرة في الكتب الدينية «كالإحياء» و «الكيمياء» و «الفتاوى الهندية» وغيرها في كل أسبوع ثلاثة أيام على السيد محمد الحسينيّ القنوجيّ والعلامة محمد شفيع اليزديّ ونظام الدين البرهانپوريّ وغيرهم من العلماء.

(١) ومن مآثره الجميلة أنه حفظ القرآن الكريم بعد جلوسه على سرير الملك فأرخ بعض العلماء لبدء حفظه من قوله تعالى ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ ولتمامه من قوله ﴿لوح محفوظ﴾.

(٢) ومنها أنه كانت له معرفة بالحديث، له «كتاب الأربعين» جمع فيه أربعين حديثاً من قول النبي ﷺ قبل أن يتولى المملكة وله كتاب آخر جمع فيه أربعين حديثاً بعد الولاية وترجمهما بالفارسية وعلق عليهما الفوائد النفيسة.

(٣) ومنها أنه كانت له مهارة تامة بالفقه ويضرب به المثل في استحضار المسائل الجزئية، وقد صنف العلماء بأمره «الفتاوى الهندية» في ستة مجلدات كبار فاشتهرت في الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والرومية وعم النفع بها وصارت مرجعاً للمفتين وأنفق على جمعها مائتي ألف من النقود.

ومنها أنه كان بارعاً في الخط يكتب بغاية الجودة والحلاوة، كتب مصحفاً بيده قبل جلوسه على السرير، وبعثه إلى مكة المباركة، وبعد

جلوسه مصحفاً آخر وأنفق على التذهيب والتجليد سبعة آلاف ربية ثم بعثها إلى المدينة المنورة، وكان انتسخ «الألفية» لابن مالك في صباه فأرسلهاإلى مكة بيد الحاج عبد الرحمن المفتي لينتفع بها الناس من أهل البلدة المباركة.

(١) ومنها أنه كان ماهراً بالإيقاع والنغم ولكن كان يحترز من استماع الغناء تورعاً، قال مكرم خان الصفويّ: سألته يوماً عن الغناء، فقال: لأهله مباح، فقلت له: إني لا أعلم أحداً يتأهل له غيركم، فقال: إن الغناء بالمزامير حرام بالاتفاق فإذن لا أرغب إلى الغناء بغيرها.

ومنها أنه كان ماهراً بالإنشاء والترسل لم يكن له نظير في زمانه في ذلك، وقد جمع شيئاً كثيراً منها أبو الفتح قابل خان التتوي في «آداب عالمگيري» وعناية الله خان في «الكلمات الطيبات» و«الرقائم الكرائم» وبعضهم في «دستور العمل».

(٢) وأما الشعر فإنه كان مقتدراً عليه ولكنه كان لا يعتني به ويمنع الناس أن يضيعوا أوقاتهم في الشعر لقوله تعالى ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون﴾، ولله در الشافعي رحمه الله:

ولولا الشعر بالعلماء يزري   لكنت اليوم أشعر من لبيد

(٣) ومنها أنه كان ماهراً بالرمي والطعن والضرب والفروسية وغيرها من الفنون الحربية والتصيد، كان شجاعاً مقداماً باسلاً لا يظهر له في الهيجاء فزع ولا جزع ولا طيش ولا خفة ولا وجل ولا خطل بل من رآه ظن أنه جاء من بعض المتنزهات وهو قد خرج من معركة تطير لها العقول وتشيب لها الولدان وترجف منها الأفئدة وتخرس الألسن.

(٤) وإنك تقرأ في كتب الأخبار أن والده شاهجهان كان يوماً يتفرج في البرج المشرف على نهر «جمن» على مصارعة الأفيال التي كانت في عرصة القلعة فيما بينها وبين النهر والأفواج كانت قائمة بين ظهرانيها وخلق كثير يتفرجون عليها في تلك العرصة وكان عالمگير أيضاً في ذلك الزحام وهو

يومئذ في الرابع عشر من سنه وكان على فرس على جري العادة فإذا هي بفيلة قد ثارت وقصدت الأفواج ففر الناس كلهم من بين يديها إلا عالمگير فإنه ثبت على مقامه فتوجهت إليه الفيلة ولفت فرسه بخرطومها وصرع عالمگير من صهوة الفرس ثم قام وسل السيف عليها ثم جاء الناس ودفعوها بالضرب والطعن وإيقاد النار وغير ذلك، وهذه مفخرة عظيمة في الثبات والعزيمة لا تجدها لغيره من أبناء الملوك في تلك السن.

(١) ومن مآثره: أنه كان سخياً جواداً كريماً يبذل على الفقراء وأهل الحاجة العطايا الجميلة ويسامحهم في الغرامات، ومن ذلك أنه أبطل ثمانين نوعاً من المكوس[1] في سنة تسع وستين وألف وكانت تحصل له من تلك الأبواب ثلاثون لكا (ثلاثة ملايين) في كل سنة.

(٢) ومن ذلك أنه نهى المستوفين أن يطالبوا الأبناء بغرامات الآباء ويصادروا أموالهم في القضاء وأمرهم أن يميزوا في ذلك فيما بين أهل المناصب، فإن ورثوا من آبائهم مالاً قدر المطالبة أو فوقها فيؤخذ عنهم بالتقسيط في سنين عديدة، وإن ورثوا مالاً أقل من المطالبة فيؤخذ عنهم بقدر الميراث تدريجاً، وإن علم أنهم لم يرثوا شيئاً فتعفى المطالبة ولا يؤخذ عنهم شيء.

(٣) ومن ذلك أنه بذل أموالاً طائلة على إصلاح الشوارع والطرق في نواحي الهند من «أورنگ آباد» إلى «أكبر آباد» ومن «لاهور» إلى «كابل» وكذلك من لاهور إلى «كشمير»، وحفر الآبار وأجرى العيون وأسس الجسور ورباطات وحمامات ومساجد وإصطبلات لأبناء السبيل في تلك المسالك ليستريح الناس بها فظلوا آمنين مطمئنين.

(٤) ومن ذلك أنه بذل الأموال الطائلة في بناء المساجد وبنى مساجد كثيرة في أرض الهند وعمر القديمة منها وجعل الأرزاق للأئمة والمؤذنين والرواتب للمساجد من بسط وسرج وغير ذلك.

---

(١) الضرائب.

(١) ومن ذلك أنه أسس دور العجزة في أكثر البلاد فوق ما كانت في العصور الماضية والمارستانات في أكثر بلاده.

(٢) ومن ذلك أنه كان يرسل العطايا الجميلة إلى أهل الحرمين الشريفين زادهما الله شرفاً.

(٣) ومن ذلك أنه وظف خلقاً كثيراً من العلماء والمشايخ ليشتغلوا بالعلم والعبادة منقطعين فارغي القلوب عن كل هم ولم يفرق فيها بين أهل الإسلام وكفار الهند، توجد مناشيره عند أحبار الهنادك في «بنارس» وفي غير تلك البلدة حتى اليوم.

(٤) وأما الصدقات التي يتصدق بها في الأيام والمواسم فكان والده شاهجهان ومن قبله من الملوك التيمورية يتصدقون باثني عشر ألف في المحرم واثني عشر ألف في ربيع الأول وعشرة آلاف في رجب وخمسة عشر ألفاً في شعبان وعشرين ألفاً في رمضان فكانوا يتصدقون بتسع وسبعين ألفاً في كل سنة، وأما عالمگير فإنه أمر أن يتصدق بها في تلك الأيام ويتصدق بعشرة آلاف في كل شهر غير الأشهر المذكورة فكان يتصدق بتسع وأربعين ألفاً ومائة ألف في السنة غير ما يتصدق به في الأعياد والمواسم.

(٥) ومن مآثره: أنه كان مقتصداً في الخيرات غير مسرف في المال فإنه كان لا يعطي الشعراء شيئاً ولا لأهل الإيقاع والنغم خلافاً لأسلافه فإنهم كانوا يجيزون رجلاً منهم بما لا يسعه أن يحمل تلك العطية ويبذرون في المال تبذيراً كثيراً. وكان عالمگير إذا وظف العلماء وأقطعهم أرضاً يشترطها بالدرس والإفادة لكيلا يجعلوها ذريعة لأخذ المال فقط، ومتى يبعث الأموال إلى الحرمين الشريفين - زادهما الله شرفاً - يشترطها بأن تعطى لأهل الحاجة غير الأغنياء ولذلك كان الناس ينسبونه إلى البخل وحاشاه عن ذلك.

(٦) وهو أول من نصب المحتسبين في بلاده وامتاز في الملوك التيمورية في ذلك وقد جمع سيرته كثير من الأخباريين في كتبهم.

قال المحبي في «خلاصة الأثر»: ولما أراد الله تعالى بالهند خيراً وإحساناً وقدر ظهور العدل فيهم كرماً وامتناناً أظهر في خافقها شموس السلطنة بلا ريب وأنار في سماء سلطنتها أنوار بدور الملك السلطان أورنگ زيب.

(١) وصف بالملك العادل الزاهد وبلغ من الزهد مبلغاً أناف فيه على ابن أدهم فإنه مع سعة سلطانه يأكل في شهر رمضان رغيفاً من خبز الشعير من كسب يمينه ويصلي بالناس التراويح، وله نعم بارة وخيرات دارّة جداً، وأمر من حين وَلِيَ السلطنة برفع المكوس والمظالم عن المسلمين.

(٢) ونصب الجزية بعد أن لم تكن على الكفار، وتم له ذلك مع أنه لم يتم لأحد من أسلافه، أخذ الجزية منهم لكثرتهم وتغلبهم على إقليم الهند، وأقام فيها دولة العلم وبالغ في تعظيم أهله وعظمت شوكته وفتح الفتوحات العظيمة، وهو مع كثرة أعدائه وقوتهم غير مبال بهم مشتغل بالعبادات، وليس له في عصره من الملوك نظير في حسن السيرة والخوف من الله تعالى والقيام بنصرة الدين، انتهى.

ولم يزل على ذلك حتى توفي بدكن سنة ثماني عشرة ومائة وألف وأقام في الملك خمسين سنة[1].

عبد النبيّ الكشميريّ

الشيخ الفاضل عبد النبيّ الكشميريّ المشهور محتوى خان. كان من أهل الفضل والصلاح شديد التصلب في الدين شديد الخصومة لكفار الهند، قام بالأمر سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف بكشمير واجتمع لديه كثير من أهل الإسلام فأمر القضاة والولاة أن ينفذوا أحكام الشرع ويمنعوا الهندو عن الركوب على الأفراس وعن لبس الدروع والأسلحة وعن إعلان رسوم الكفر والشرك وغير ذلك، فلما رأى أنهم لا يقدرون على ذلك قام بجمع

---

(١) «الإعلام»: ١٢٩ ـ ١٤٣.

من المسلمين فأخذ الهنـدو وقتلهم ونهب أموالهم ثم دخل المسجد وجلس فيه للأمر وعزل الولاة بمشهد من الناس وأخذ الأمر بيده واستقل بالملك ونصب الولاة والقضاة من تلقائه، فلما بلغ ذلك محمد شاه سلطان الهند وعناية الله خان الذي كان والياً في «كشميـر» وكان بـدهلي عند السلطان وينوب عنه مير أحمد خان بعث إلى كشمير مؤمن خان النجم الثاني نيابة عنه فسافر إلى كشمير ولما كاد يدخل بهـا انطلق عبـد النبيّ إلى خواجـه عبـد الله الكشميري وأمـره أن يستقبل مؤمن خـان ويجيء بـه إلى البلدة بترحيب وإكرام، فأشار عليـه عبد الله أن يـدخل على ميـر شاهنـواز خان البخشي أولاً ويعتذر لديه ثم يبعث جماعة لاستقبال نائب الوالي فدخل عليه فدبروا عليه الحيلة وقتلوه، وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف[1].

محمد شاه الدهلويّ سلطان الهند

الملك الكبير محمد شاه بن جهان شاه بن شاه عالم بن عالمگير بن شاهجهان ابن جهانگير بن أكبرشاه التيموريّ الگورگـانيّ الدهلويّ سلطان الهند، قام بالملك بعد ابن عمه فرخ سير سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف، وافتتح أمره ببذل الأموال على الناس وحارب عبد الله خان وصنوه حسين علي خـان المتغلبين على السلطة فقتلهمـا وخـلا ذرعـه وسـاحتـه عن المعاندين.

(١) اشتغل بما لا يعنيه وانغمس في الشهوات والملاهي واشتهر ذكره في بلاد أخرى فقصد الهند نادر شاه الإيراني سنة إحدى وخمسين ومائة وألف وقاتل الولاة في أثناء الطريق وانتزع البلاد والقلاع حتى وصل إلى «پاني پت» فتلقاه محمد شاه بجيوش عظيمة فوقع بين الجيشين قتال وتطاول أياماً وقتل في بعضها أمير الأمراء وكان محمد أمين النيسابوري يطمع أن يكون مكانه فولى محمد شاه قمر الدين بن غازي الدين السمرقنديّ فخامر عليه

---

(١) «الإعلام»: ٦/١٧٨ ـ ١٧٩.

النيساپوريّ وانسل بطائفة من جنوده إلى نادر شاه فضعف بذلك السبب محمد شاه، ثم سعى النيساپوري في الصلح بين الملكين فتواعدا للاجتماع إلى مكان عيناه فسبق إليه محمد شاه ثم وصل نادر شاه فتم الصلح على أن يدخل نادر شاه بجيوشه إلى مدينة دهلي.

(١) وكان جيش نادر شاه منتشراً في المدينة نازلين مع أهلها فكان أوباش الهند إذا ظفروا بواحد منهم قتلوه غيلة، فبلغ نادر شاه ذلك فأمر جيوشه بقتل أهل المدينة فما زالوا يقتلون من وجدوه ثلاثة أيام حتى أربى القتلى من أهل الهند على مائة ألف ثم أمرهم بعد اليوم الثالث برفع السيف ونادى بالأمان، وأخذ من خزائن محمد شاه ما أحب أخذه ثم ارتحل وقد دوخ بلاد الهند، ثم صار محمد شاه نائباً عنه ببلاد الهند وكانت مدة حكومته تسع عشرة سنة وستة أشهر.

(٢) ومن مآثره أنه جمع من علماء عصره من أقطار مملكته وأمرهم أن يصنعوا الآلات الرصدية وأن يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها بها ففعلوا ذلك وتولوا الرصد بمدينة «دهلي» و«جيپور» و«بنارس» تحت نظارة جي سنگه صاحب جيپور، وبذل على ذلك محمد شاه ثلاثين مائة ألف (ثلاثة ملايين) من النقود فأدركوا بعض ما لم يدركه القدماء من الراصدين.

(٣) ونقلوا الكتب الرياضية من العربية إلى سنسكرت كشرح الملخص للچغميني وغيره.

كانت وفاته سنة إحدى وستين ومائة وألف بمدينة دهلي[١].

محمد حسن اللكهنويّ

الشيخ العالم الكبير العلامة محمد حسن بن غلام مصطفى بن محمد أسعد الأنصاري السهالويّ ثم اللكهنويّ أحد أذكياء العالم، لم يكن في زمانه مثله في الذهن والذكاء وسرعة الخاطر وقوة الحفظ.

---

(١) «الإعلام»: ٦/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

ولد ونشأ ببلدة «لكهنؤ» وقرأ بعض الكتب الدرسية على خاله العلامة كمال الدين الفتحپوريّ وأكثرها على عم والده الشيخ الكبير نظام الدين الأنصاريّ السهالويّ، ثم تصدى للدرس والإفادة ببلدته، ولما ذهب مولانا عبد العليّ بن نظام الدين اللكهنوي إلى «شاهجهانپور» انتهت إليه الرئاسة العلمية وصار المرجع والمقصد في التدريس فدرس بلكهنؤ نحو عشرين سنة.

(١) وكان يتقرب إلى أمراء الشيعة ليأمن غائلتهم ولكن الله سبحانه لما قيض أن يخرج من بلدته كما خرج مولانا عبد العليّ المذكور حدث أمر عظيم خلافاً لما دبره من الحكمة وبيان ذلك أن محمد كامل المنكلكوتي ومحمد شريف الدكنيّ كانا ممن يحصلون العلم في مدرسته، فاختلفا ذات يوم في أمر من الأمور ورجع الاختلاف إلى المخاصمة وسطا أحد على الآخر، فقال محمد شريف: نحن السادة المظلومون منكم السفيانيين أبا عن جد، فأجابه محمد كامل: إنك عزوتني إلى أبي سفيان كأنك شتمتني بأني من نسل يزيد بن معاوية وذلك سب استحققت به التعزير، فخافه محمد شريف ولاذ بالشيعة، فانتهزوا الفرصة ولما جن الليل هجموا على محمد كامل فشبه لهم فقتلوا خير الله الحسينيّ ظناً منهم أنه محمد كامل وقبضوا على محمد غوث، فلما علم أهل السنة أنهم قتلوا خير الله وحبسوا محمد غوث اتفقوا على تخليصه فأطلقوه من الأسر وهجموا على تلك الفئة الطاغية، فحلفوا بالله سبحانه أنهم ما فعلوا ذلك تقية منهم كما هو دأبهم، ثم اجتمعوا وأمرهم القاضي غلام مصطفى الشيعيّ اللكهنويّ أن يهجموا على أهل السنة وهم غافلون عن ذلك، فهجموا عليهم وقتلوا محمد عطاء الحسينيّ، ثم لما علم أهل السنة ذلك اجتمعوا وفرقوهم فدبروا الحيلة بقتل الشيخ محمد حسن، فأشار عليه بنو أعمامه أن يذهب إلى «فيض آباد» ويرفع القصة إلى نواب شجاع الدولة أمير بلاد «أوده» وكان شيعياً، فسافر محمد حسن ومعه بنو أعمامه إلى «فيض آباد» ولبثوا بها مدة وأخفق سعيهم، فهاجر إلى «شاهجهانپور» وكان حافظ الملك أمير تلك الناحية فلم

يقدر أن يكفيه مؤنته فسار إلى نواب ضابطه خان بن نجيب الدولة فولاه التدريس بمدرسة أسسها بدار انگر فأقام بها زماناً ودرس وأفاد بها، ولما انقرضت دولة الأمير المذكور ذهب إلى دهلي ودرس بها مدة، ثم جاء إلى «رامپور» فأكرمه نواب فيض الله خان فسكن بها ولم يخرج من تلك البلدة مدة حياته.

توفي سنة تسع وتسعين ومائة وألف[1].

محمد حيا البريلويّ

الشيخ العارف الكبير محمد حيا بن محمد سنا بن محمد هدى بن الشيخ الكبير علم الله الحسنيّ النقشبنديّ البريلويّ المتفق على ولايته وجلالته.

ولد بنصير آباد سنة خمس عشرة ومائة وألف ونشأ بها، وأخذ عن جده لأمه الشيخ محمد ابن علم الله النقشبنديّ وصحبه مدة من الدهر حتى فتح الله سبحانه عليه أبواب الحقائق والمعارف وجعله من العلماء الراسخين، لم ير له نظير في زمانه في العفة والطهارة والتقوى والعمل بالعزيمة.

(١) وكان غاية في التواضع والخدمة وهضم النفس والإيثار، يستقي للناس ويخدم الفقراء والواردين في زاوية جده يكبس أبدانهم ويجتهد في راحتهم.

(٢) وكان مجذومٌ في «نصير آباد» له رائحة كريهة ينفر عنه الناس ويتقذرونه فقام بمداواته ومعالجة شؤونه وخدمته وعرض عليه الإسلام، فشفى وأسلم، وربما حمل بعض المرضى المهجورين المزدرين من الكفار على أكتافه وعالجه ودعاه إلى الإسلام فشفاه الله من المرضين.

وسافر في آخر عمره إلى الحرمين الشريفين وأقام بمدينة النبي ﷺ فمات بها، وكان جد جد أمي من جهة الأم.

---

(١) «الإعلام»: ٦/ ٣٠٤ ـ ٣٠٦.

مات سنة ثمان وستين ومائة وألف في حياة أبيه بالمدينة المنورة فدفن ببقيع الغرقد[1].

مرتضى المُلتانيّ

الشيخ العالم الصالح مرتضى الحسيني المُلتاني الدفين ببلدة «برهانپور».

كان سيفاً مسلولاً على المبتدعين، عابداً قواماً صواماً ذاكراً لله تعالى آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا يخاف في الله ولا يهاب أحداً، ولا يختلط بأهل الدنيا ولا يتركهم يختلطون به، ولا يقبل عن الملوك والسلاطين شيئاً من الأرض الخراجية والرواتب الشهرية والسنوية ولا يستمع الغناء، وكان ينهي عن الرسوم المروجة في ليلة البراءة والعاشوراء والعيدين وعن الطعام الذي يطبخونه للميت ولكنهم لا يعطونه الفقراء والمساكين بل يقسمونه على الأغنياء من إخوتهم وعشيرتهم، وكان ينهى عما اعتاده الناس من قراءة الفاتحة برفع الأيدي على الأطعمة المطبوخة.

(١) وكان يجتهد في إثبات حرمة التتن[2] ويشدد في في ذلك، ويشنع على علماء السوء وينكر عليهم في مصاحبة الأمراء وجذبهم قلوب الأغنياء بمداهنة في الشرع والدين واستماعهم الغناء في مجالسهم مع الفسقة واجتماعهم على قبور المشايخ بالغناء والرقص وعلى هذا القبيل ينكر أشياء كثيرة يهجنها على رؤوس المنابر.

(٢) وفي ذلك أوذي من المخالفين وأخيف حتى أنه لما وصل إلى أورنگ آباد ووعظ الناس على عادته وشدّد النكير على المبتدعين وشنع على العلماء والمشايخ بمداهنتهم في دين الله طلبه القاضي محمد أكرم قاضي «أورنگ آباد» بمحضر من أهل الحكومة، فطفق الناس يهجمون على

---

(١) «الإعلام»: ٦/ ٣٠٩.

(٢) قال المعلق: التبغ ومعناه بالتركية دخان.

القاضي فمنعهم السيد مرتضى عن ذلك وذهب إلى محاكمة القاضي، فباحثه القاضي في حرمة التتن وحِلّه حتى انتهى الكلام إلى أن يهجر المسجد لضيقه لا يسع النّاس.

(١) ثم لما وصل المرتضى إلى حضرة السلطان عالمكير وعرض عليه رسالته المسماة بـ «حق‌گو» وقرأ السلطان شيئاً منها قال: إني أحمد الله سبحانه على أن في عهدي رجالاً يصدعون بالحق، ثم أمر ابنه كام بخش أن يذهب به إلى قصره ويتبعه في كل ما يأمر به ثم كلفه بأن يقبل العطايا السلطانية فأبى.

(٢) ثمّ بعد مدة عرض عليه الاحتساب وقال له: أيّ بلد ترضى ماءه وهواءه أكتب لك في ذلك البلد، فأجابه: إنكم إذا كتبتموا لي على خاصة الناس أقبله لأن العامة في أكثر البلاد على أثري، فقال له عالمكير: إني ما فهمت معناكم، فقال القاضي محمد أكرم وكان موجوداً في ذلك المجلس وكان قاضي القضاة في ذلك الزمان: إن مقصده من الخاصة قبور الأولياء، قال: وإنه يقول على المنبر: إنه ينبغي أن يخرج العظام من قبر يغنى ويرقص على ذلك القبر فتحرق، فقال عالمكير: إني لا أشاركه في هذا الأمر، فأنكره المرتضى وقال: هذا افتراء عليّ ولكنه لم يقبله، فانحاز المرتضى عن حضرته وذهب إلى «برهانپور» فحصلت ضجة من المشايخ في تلك البلدة حتى تناولوه بالأذى وهو على المنبر وأهانوه، فاعتزل المرتضى عن الناس ودخل بيته فلم يخرج منه حتى مات[1].

نصير الدين البرهانپوريّ

(٣) الشيخ العالم الفقيه نصير الدين الحسينيّ البرهانپوريّ أحد العلماء الربانيين، ولد ونشأ في تصون تام وتألُّه واقتصاد في الملبس والمأكل ولم يزل على ذلك براً تقياً ورعاً عابداً ناسكاً صواماً قواماً ذاكراً لله سبحانه في كل أمر رجاعاً إليه في سائر الأحوال، كان لا ينام في الليل إلا نحو ساعتين

(١) «الإعلام»: ٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨١.

بعد العشاء ثم ينهض ويتهجد ويشتغل بتلاوة القرآن بلحن شجي ويبكي كثيراً في أثناء التلاوة حتى تبل دموعه ملابسه، وكان يكتب القرآن وكتب التفسير والسلوك فيسترزق بها وكانت قدماه ويده اليسرى مشلولة، وكان لا يختلط بأهل الدنيا ولا يتركهم أن يختلطوا به ولو كان يقبل شيئاً من الهدايا من أحد يجزيه بأفضل منها وأثمن.

(١) قال خافي خان في «منتخب اللباب»: إنه كان يتنفر عن اختلاط الأمراء فيقابلهم بوجه عبوس ولا يقبل نذورهم بل يعظهم بقول مُرٍّ ليتنفروا عنه، قال: إن منور خان جاء يوماً في حضرته وكان والياً على تلك الناحية فقال له نصير الدين: إني لا أعلم في وصولكم إليّ طائلاً غير أن فيلتكم وعساكركم تضيق على الناس طرقهم في ذهابهم وإيابهم ويشركونني في هذا الظلم واللوم فليت شعري ما الحامل لكم على إيقاع الناس في الضيق لسد الطريق؟ فأجابه منور خان: إني أتردد إليكم لتجذبوني إليكم، فقال له: إني أذنبت ذنباً كان عاقبة ذلك أن شلت قدماي وإحدى يديّ فإن استعددت لذلك فانتظر مكافأة سوء المعاملة لمخلوق الله سبحانه.

(٢) قال[1]: إن عناية الله خان كان من معتقديه فحرض السلطان أن يجعل له شيئاً من بيت المال فأشار السلطان إلى خواجه أدهم الذي كان صدراً بمدينة «برهانپور» أن يفتش عن حاله ثم يعرض على السلطان ما يناسب له من يومية أو شهرية، فذهب إليه أدهم وأقرأه رسالة السلطان، فقال له نصير الدين: لعلك أخطأت في مجيئك عندي لأن الصفات الأربعة التي كتبوها في المراسلة لا توجد في، أما السيادة فلا أنكرها ولا أدعيها ولكن الصفات الأخرى من العلم والصلاح والاستحقاق فليس لها عين ولا أثر في نفسي فلعلهم أرادوا بها غيري ممن يسمى باسمي، فانقبض الصدر من قوله وتكدر باله وقال: لعل عندكم بضاعة التوكل، فقال: بلى إن مفاتيح رزقي بيد من يحتاج إليه مائة مائة آلاف مثل سيدك تحتاج إليه، انتهى.

---

(١) أي خافي خان المتقدم ذكره قريباً.

توفي سنة تسع عشرة ومائة وألف[1].

شيخ الإسلام وليّ الله بن عبد الرحيم الدهلويّ

الشيخ الإمام الهمام حجة الله بين الأنام إمام الأئمة قدوة الأمة علامة العلماء وارث الأنبياء آخر المجتهدين أوحد علماء الدين زعيم المتضلعين بحمل أعباء الشرع المتين، محيي السنة وعظمت به لله علينا المنة شيخ الإسلام قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمريّ الدهلويّ.

(١) العالم الفاضل النحرير أفضل من بث العلوم فأروى كل ظمآن ونسبه يتصل بالإمام موسى الكاظم عليه وعلى آبائه السلام، وكان أبوه الشيخ عبد الرحيم من وجوه مشايخ دهلي ومن أعيانهم، له حظ وافر من العلوم الظاهرة والباطنة مع علو كعبه في طريقة الصوفية وهو بُشِّر بولده في رؤيا صالحة بشره بذلك الشيخ قطب الدين بختيار الأوشي وقال له أن يسميه باسمه إذا ولد فلذلك قيل له «قطب الدين».

(٢) ولد سنة أربع عشرة ومائة وألف في أيام عالمكير، فلما بلغ من عمره ما يندفع فيه الموفق من السعداء إلى طريق العلم وطلبه وينسلك فيه بين نظام طلابه أخذ العلوم عن والده الشيخ عبد الرحيم المذكور وقرأ عليه الرسائل المختصرة بالفارسية والعربية وشرع في «شرح الكافية» للعارف الجاميّ وهو ابن عشر سنين، وتزوج وهو ابن أربع عشرة سنة، وقرأ «تفسير البيضاويّ» وأجيز بالدرس وفرغ من التحصيل وهو في الخامس عشر من سنه، وكان قرأ طرفاً من «المشكاة» و«صحيح البخاريّ» و«شمائل الترمذيّ» و«المدارك» ومن علم الفقه «شرح الوقاية» و«الهداية» بتمامهما إلا طرفاً يسيراً، ومن أصول الفقه «الحسامي» وطرفاً صالحاً من «التوضيح» و«التلويح» ومن المنطق «شرح الشمسية» وقسطاً من «شرح المطالع»، ومن

---

(١) «الإعلام»: ٦/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

الكلام «شرح العقائد» وجملة من «الخيالي» و«شرح المواقف»، ومن التصوف قطعة من «العوارف» ومن الطب «موجز القانون»، ومن الحكمة «شرح هداية الحكمة»، ومن المعاني «المختصر» و«المطول»، وبعض الرسائل في الهيئة والحساب، إلى غير ذلك، وكلها على أبيه، وكان يختلف في أثناء الدرس إلى إمام الحديث في زمانه الشيخ محمد أفضل السيالكوتيّ فانتفع به في الحديث، واشتغل بالدرس نحواً من اثنتي عشرة سنة، وحصل له الفتح العظيم في التوحيد والجانب الواسع في السلوك، وخاض في بحار المذاهب الأربعة وأصول فقههم خوضاً بليغاً ونظر في الأحاديث التي هي متمسكاتهم في الأحكام.

اشتاق إلى زيارة الحرمين الشريفين فرحل إليها سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف، فأقام بالحرمين عامين كاملين، وصحب علماء الحرمين صحبة شريفة وتتلمذ على الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكرديّ المدني في المدينة المنورة فتلقى منه جميع «صحيح البخاري» ما بين قراءة وسماع، وشيئاً من «صحيح مسلم» و«جامع الترمذي» و«سنن أبي داود» و«سنن ابن ماجه» و«موطأ الإمام مالك» و«مسند الإمام أحمد» و«الرسالة» للشافعي و«الجامع الكبير»، وسمع منه «مسند الحافظ الدارميّ» من أوله إلى آخره في عشرة مجالس كلها بالمسجد النبويّ عند المحراب العثمانيّ تجاه القبر الشريف وشيئاً من «الأدب المفرد» للبخاريّ وشيئاً من أول «الشفاء» للقاضي عياض، فأجازه الشيخ أبو طاهر إجازة عامة بما تجوز له وعنه روايته من مقروء ومسموع وأصول وفروع وحديث وقديم ومحفوظ ورقيم[١]، وذلك في سنة أربع وأربعين ومائة وألف، ثم ورد بمكة المباركة وأخذ موطأ مالك عن الشيخ وفد الله المالكيّ المكيّ، وحضر دروس الشيخ تاج الدين القلعيّ المكيّ أياماً حين كان يدرس صحيح البخاري وسمع عليه أطراف الكتب الستة وموطأ مالك ومسند الدارمي و«كتاب الآثار» لمحمد، وأخذ الإجازة

---

(١) أي: مكتوب.

عنه لسائر الكتب وأخذ عنه الحديث المسلسل بالأولية عن الشيخ إبراهيم بن الحسن المدني وهو أول حديث سمع منه بعد عوده من زيارة النبي ﷺ. وعاد إلى الهند سنة خمس وأربعين ومائة وألف.

ومن نعم الله تعالى عليه ما أكرمه الله تعالى به من الفصاحة في اللغة العربية والربط الخاص بالفنون الأدبية من النظم والنثر كأنما الإعجاز أو السحر من رقة اللفظ ومعناه وصفاء المورد ومغناه.

ومنها علوم الفقه على المذاهب الأربعة وأصحابهم والاطلاع على مأخذ المسائل ومنازع الحجج والدلائل.

ومنها علم الحديث والأثر مع حفظ المتون وضبط الأسانيد والنظر في دواوين المجاميع والمسانيد ولم يتفق لأحد قبله ممن كان يعتني بهذا العلم من أهل قطره ما اتفق له من رواية الأثر وإشاعته في الأكناف البعيدة.

ومنها علم تفسير القرآن وتأويل كتاب الله العزيز فمن نظر في كتبه شهد بتوفر حظه منه.

ومنها أصول هذه العلوم ومبادئها التي هذبها تهذيباً بليغاً وأكثر من التصرف فيها حتى يكاد يصح أن يقال: إنه باني أُسِّها وباري قوسها، فأما أصول التفسير فكتابه «الفوز الكبير» فيها شاهد صدق على براعته على كثير من أهلها، والحق أنه متفرد بتحقيق هذا الفن وتدقيقه، وأما أصول الحديث فله فيها باع رحيب، وقد أشار ابنه عبد العزيز أن له فيها تحقيقات مستظرفة لم يسبق إليها، وأما أصول الفقه فإنه شرح أصول المذاهب المختلفة وجمعها وبين الفرق بين الأمور الجدلية والأصول الفقهية ورد وجوه الاستنباط على كثرتها إلى عشرة، وأسّس قواعد الجمع بين مختلف الأدلة وبين قوانين الترجيح.

لا أقول: إنه لم يشاركه فيها من علماء أرضه ممن عاصرهم أو تأخر زمانه بقليل عن زمانهم إلا أنه فضلهم بعلوم وهبية ضمها إلى علومه وهي كثيرة لا تضبط، فمنها فنون من علم التفسير كبيان العلوم الخمسة القرآنية،

وتأويل الحروف المقطعات في أوائل السور، وتوجيه قصص الأنبياء عليهم السلام وبيان مباديها التي نشأت من استعداد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقابلية قومه ومن التدبير الذي دبرته الحكمة الإلهٰية في زمانه فقد ألف لذلك رسالة جيدة سماها «تأويل الأحاديث»، ومنها ترجمة القرآن بالفارسية على شاكلة النظم العربيّ في قدر الكلام وخصوص اللفظ وعمومه وغير ذلك وسماها «فتح الرحمن في ترجمة القرآن»، ومنها ما ألقى الله في قلبه وقتاً من الأوقات ميزاناً يعرف به سبب كل اختلاف وقع في الملة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والتحية ـ وقد ذكر نموذجاً من ذلك حين سئل عن الاختلاف في «الإنصاف» و «عقد الجيد» و «الهمعات» وغير ذلك من مصنفاته.

(١) ومنها ما صب الله تعالى في صدره من نور كشف له وجوه أسرار الشريعة ثم شرح صدره لبيانها فبينها على أحسن وجه في «حجة الله البالغة» وقد قال ولده عبد العزيز في كتابه إلى أمير حيدر البلگراميّ: وكتاب حجة الله البالغة التي هي عمدة تصانيفه في علم أسرار الحديث ولم يتكلم في هذا العلم أحد قبله على هذا الوجه من تأصيل الأصول وتفريع الفروع وتمهيد المقدمات والمبادىء واستنتاج المقاصد منها وإنما يستنشم نفحات قليلة من هذا العلم في كتاب «إحياء العلوم» للغزالي وكتاب «القواعد الكبرى» للشيخ عز الدين بن عبد السلام المقدسيّ.

ومن نعم الله تعالى عليه أن ألهمه الجمع بين الفقه والحديث وأسرار السنن ومصالح الأحكام وسائر ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من ربه عز وجل.

(٢) وقد أثنى عليه الأجلة من العلماء ومنهم شيخه أبو طاهر محمد بن إبراهيم المدني قال: إنه يسند عني اللفظ وكنت أصحح منه المعنى، أو كلمة تشبه ذلك، وكتبها فيما كتب له وهذا يقرب من قول البخاريّ في أبي عيسى حين قال له: ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بي، وليس وراءه مفخرة ترام ولا فوقها منقبة تتمنى.

(١) وقال السيد صديق حسن القنوجي في «الحطة بذكر الصحاح الستة» في ذكر من جاء بعلم الحديث في الهند: ثم جاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ من بعدهم بالشيخ الأجل والمحدث الأكمل ناطق هذه الدورة وحكيمها وفائق تلك الطبقة وزعيمها الشيخ وليّ الله بن عبد الرحيم الدهلويّ المتوفي سنة ست وسبعين ومائة وألف وكذا بأولاده الأمجاد وأولاد أولاده أولي الإرشاد المشمرين لهذا العلم عن ساق الجد والاجتهاد فعاد لهم علم الحديث غضاً طرياً بعدما كان شيئاً فريا وقد نفع الله بهم وبعلومهم كثيراً من عباده المؤمنين ونفى بسعيهم المشكور من فتن الإشراك والبدع ومحدثات الأمور في الدين ما ليس بخاف على أحد من العالمين فهؤلاء الكرام قد رجحوا علم السنة على غيرها من العلوم وجعلوا الفقه كالتابع له والمحكوم وجاء تحديثهم حيث يرتضيه أهل الرواية ويبغيه أصحاب الدراية، شهدت بذلك كتبهم وفتاويهم ونطقت به زبرهم ووصاياهم ومن يرتاب في ذلك فليرجع إلى ما هنالك فعلى الهند وأهلها شكرهم ما دامت الهند وأهلها.

وأما مصنفاته الجيدة الحسان الطيبة فكثيرة تدل على سعة نظره وغزارة علمه.

ومن مصنفاته في الحديث وما يتعلق به: «المصفى شرح الموطأ» برواية يحيى بن يحيى الليثي مع حذف أقوال الإمام وبعض بلاغياته تكلم فيه ككلام المجتهدين.

ومنها «المسوى شرح الموطّأ» مكتفياً فيه على ذكر اختلاف المذاهب وعلى قدرٍ من شرح الغريب.

ومنها شرح تراجم الأبواب للبخاريّ أتى فيه بتحقيقات عجيبة وتدقيقات غريبة.

ومنها «النوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر».

ومنها «إنسان العين في مشايخ الحرمين».

ومنها رسالة بسيطة له في الأسانيد بالفارسية مشتملة على تحقيقات غريبة وتدقيقات عجيبة.

(١) ومن مصنفاته في أصول الدين وأسرار الشريعة وغيرها: «حجة الله البالغة» في علم أسرار الشريعة، ولم يتكلم في هذا العلم أحد قبله على هذا الوجه من تأصيل الأصول وتفريع الفروع وتمهيد المقدمات والمبادىء واستنتاج المقاصد.

ومنها «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» كتاب عديم النظير في بابه، لم يؤلف مثله قبله ولا بعده يدل على أن صاحبه لبحر زخار لا يرى له ساحل.

ومنها «قرة العينين في تفضيل الشيخين» بالفارسي.

ومنها «حسن العقيدة» رسالة مختصرة له في العقائد بالعربية.

ومنها «الإنصاف» في أسباب الاختلاف بين الفقهاء والمجتهدين.

ومنها «عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد».

ومن مصنفاته في الحقائق والمعارف والسلوك وغيرها: «ألطاف القدس في لطائف النفس».

ومن مصنفاته في السير والأدب: «سرور المحزون» مختصر بالفارسي ملخص من «نور العيون في تلخيص سير الأمين المأمون» لابن سيد الناس، صنفه بأمر الشيخ الكبير جان جانان العلويّ الدهلويّ.

توفي سنة ست وسبعين ومائة وألف بمدينة دهلى فدفن عند والده خارج البلدة، وله اثنتان وستون سنة[١].

---

(١) «الإعلام»: ٦/ ٤١٠ ـ ٤٢٨.



مختارات القرن الثاني عشر
من كتاب
«البدر الطالع بمحاسن
من بعد القرن السابع»

للشيخ

محمد بن علي الشوكاني

رحمه الله تعالى



الخدائي

أحمد بن عامر الخدائي ثم الصنعانيّ، أخذ علم الفقه والفرائض بصنعاء عن جماعة من علمائها، وتصدر للتدريس في الفنَّيْنِ بجامع صنعاء، واستفاد عليه جماعة من الأعيان. وكان في لسانه ثِقَل لا يكاد يعرف عبارته ويفهمها إلا من مارس ذلك.

وكان زاهداً، متقللاً من الدنيا مواظباً على الطاعات، آمراً بالمعروف؛ ناهياً عن المنكر. يغضب إذا بلغه ما يخالف الشرع. وفيه سلامة صدر زائدة.

(١) وكان مواظباً على التدريس، لا يمنعه منه مانع، فإنه يقع المطر العظيم الذي يمنع من خروج من هو في سن الشباب فلا يكون ذلك عذراً لدى صاحب الترجمة؛ لرغبته في الخير وحرصه على إفادة الطلبة. ولقد استمر انصباب المطر في بعض السنين من قبل الفجر إلى قريب وقت الظهر وكان معنا درس عليه وقت الشروق فما تركت الذهاب إلى الجامع، لعلمي بأن مثل ذلك لا يمنعه مع علو سنه. فانتظرت له في المكان المعد للدرس فلم يأت هو ولا أحد من الطلبة وهم كثيرون فجاء اليوم الثاني وقال لي: هل أتيت إلى هنا؟ قلت: نعم، قال: لو علمت أنك أتيت [ما تخلّفت]، ثم تأسف كثيراً على فوت الدرس.

وما زال كذلك حتى مات سنة ١١٩٧، ولعله قد جاوز السبعين، رحمه الله وإيّاي(١).

---

(١) «البدر الطالع»: ١/٦٢ - ٦٣

أحمد بن يوسف

السيد أحمد بن يوسف بن الحسين بن الحسن بن الإمام القاسم، المحقق العلامة المحدث البارع في علم السنة المشهور بحفظها وحفظ رجالها حتى لُقب [الحديث] لغلبته عليه. كان عارفاً بفنون الآلة جميعاً وله يد طولى في علم الأدب، وقصائد طنانة.

(١) وكان مشهوراً بدماثة الأخلاق والتواضع والاحتمال والصبر وسكون الطبع والوقار، وله في ذلك أحوال عجيبة حتى كان إذا تركه أهله من طعامه وشرابه أو شيء مما يحتاج إليه لا يطلب ذلك منهم ولا يظهر عليه غضب بل يحتمل كل شيء، وهذا في خواص أهله الذين هم محل تبذل الإنسان وعدم تحفظه فما ظنك بسائر الناس.

فمن قصائده الطنانة القصيدة التي أولها:

أيها القاصر الفِعال على اللهو ... ألمّا يَئْنِ لك الإقصار
قد أتاك المشيب فيه من الله ... إليك الإعذار والإنذار
فاترك اللهو جانباً واحتشمه ... فهو ضيف قِراه[١] منك الوقار
إن سُكْر الشباب لم يبق منه ... بعد صحو المشيب إلا الخمار
قد تولى ريعانه وهو ليل ... وأنار القتير[٢] وهو نهار
أضلال من بعد أن وضح الصبح ... لرائيه فاستبان المنار
ضحك الشيب منه فابك خطايا ... ك وأقلل فحتفك الإكثار
ليس خمسون حِجة[٣] بعدها عز ... ف ولا صبوة ولا استهتار
ذهب المتقون بالله بالعز ... وذَلّ العصاة والذل عار
واتبع في الورى الذين قفوا أحمد ... في فعله وما عنه جاروا
سلكوا نهجه القويم فللحق ... على الخلق عندهم إيثار

---

(١) القِرى: ما يُقدم للضيف.

(٢) هو الشّيب أو أول الشّيب.

(٣) أي: سنة.

ما لهم مذهب سوى الخبر المر وي عنه ولا لهم اختيار

وهي أبيات طويلة.

واستمر على حاله الجميل ناشراً لعلومه متواضعاً في كل أحواله حتى توفاه الله تعالى سنة ١١٩١، وكان مولده بعد سنة ١١٢٠ ونشأ بصنعاء وأخذ عن علمائها[1].

المقبليّ

صالح بن مهديّ بن عليّ المقبليّ ثمّ الصنعانيّ ثمّ المكيّ. وُلِد في سنة ١٠٤٧ في قرية المقبل من أعمال بلاد كوكبان، وأخذ العلم عن جماعة من أكابر علماء اليمن.

(١) ثم دخل بعد ذلك صنعاء. وجرت بينه وبين علمائها مناظرات أوجبت المنافرة لما فيه من الحدة والتصميم على ما تقتضيه الأدلة وعدم الالتفات إلى التقليد، ثم ارتحل إلى مكة ووقعت له امتحانات هنالك واستقر بها حتى مات في سنة ١١٠٨.

وهو ممن برع في جميع علوم الكتاب والسنة وحقق العربية والمعاني والبيان والحديث والتفسير وفاق في جميع ذلك. وله مؤلفات مقبولة كلها عند العلماء محبوبة إليهم متنافسون فيها ويحتجون بترجيحاته وهو حقيق بذلك، وفي عباراته قوة وفصاحة وسلاسة تعشقها الأسماع وتلتذ بها القلوب.

(٢) ولكلامه وقع في الأذهان، قلّ أن يمعن في مطالعته من له فهم فيبقى على التقليد بعد ذلك وإذا رأى كلاماً متهافتاً زيفه ومزقه بعبارة عذبة حلوة. وقد أكثر الحطّ على المعتزلة في بعض المسائل الكلامية وعلى الأشعرية في بعضٍ آخر وعلى الصوفية في غالب مسائلهم وعلى الفقهاء في كثير من تفريعاتهم وعلى المحدثين في بعض غلوهم ولا يبالي إذا تمسك بالدليل

---

(١) «البدر الطالع»: ١٢٨/١ - ١٣٠.

بمن يخالفه كائناً من كان. فمن مؤلفاته الفائقة حاشية (البحر الزخار) للإمام المهدي المسماة بالمنار سلك فيها مسلك الإنصاف ومع ذلك فهو بشر يخطىء ويصيب ولكن قد قيد نفسه بالدليل لا بالقال والقيل، ومن كان كذلك فهو المجتهد الذي إذا أصاب كان له أجران وإن أخطأ كان له أجر، ومنها (العلم الشامخ) اعترض فيه على علماء الكلام والصوفية.

(١) وقد كان ألزم نفسه السلوك مسلك الصحابة وعدم التعويل على تقليد أهل العلم في جميع الفنون، ولما سكن مكة وقف عالمها البرزنجيّ محمد بن عبد الرسول المدنيّ على (العلم الشامخ في الرد على الآباء والمشايخ) فكتب عليه اعتراضات فرد عليه بمؤلف سماه (الأرواح النوافخ) فكان ذلك سبب الإنكار عليه من علماء مكة ونسبوه إلى الزندقة بسبب عدم التقليد والاعتراض على أسلافهم ثم رفعوا الأمر إلى سلطان الروم فأرسل بعض علماء حضرته لاختباره فلم ير منه إلا الجميل وسلك مسلكه.

(٢) وأخذ عنه بعض أهل داغستان ونقلوا بعض مؤلفاته، وقد وصل بعض العلماء من تلك الجهة إلى صنعاء، وكان له معرفة بأنواع من العلم فلقيته بمدرسة الإمام شرف الدين بصنعاء فسألته عن سبب ارتحاله من دياره هل هو قضاء فريضة الحج فقال لي بلسان في غاية الفصاحة والطلاقة إنه لم يكن مستطيعاً وإنما خرج لطلب «البحر الزخار» للإمام المهدي أحمد بن يحيى لأن لديهم حاشية المنار للمقبليّ وقد ولع بمباحثها أعيان علماء جهاتهم داغستان وهي خلف الروم بشهر حسبما أخبرني بذلك، قال وفي حال مطالعتهم واشتغالهم بتلك الحاشية يلتبس عليهم بعض أبحاثها لكونها معلقة على الكتاب الذي هو حاشية له وهو البحر فتجرد المذكور لطلب نسخة البحر ووصل إلى مكة فسأل عنه فلم يظفر بخبره عند أحد فلقى هنالك السيد العلامة إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الأمير فعرّفه أن كتاب البحر موجود في صنعاء عند كثير من علمائها قال فوصلت إلى هنا لذلك. ورأيته في اليوم الثاني وهو مكب في المدرسة على نسخة من البحر يطالعها مطالعة من له كمال رغبة وقد سر بذلك غاية السرور، وما رأيت مثله في

حسن التعبير واستعمال خالص اللغة وتحاشي اللحن في مخاطبته وحسن النغمة عند الكلام فإني أدركت لسماع كلامه من الطرب والنشاط ما علاني معه قشعريرة ولكنه رحمه الله مات بعد وصوله إلى صنعاء بمدة يسيرة ولم يكتب الله له الرجوع بالكتاب المطلوب إلى وطنه.

(١) والمترجم له مع اتساع دائرته في العلوم ليس له التفات إلى اصطلاحات المحدثين في الحديث ولكنه يعمل بما حصل له عنده ظن صحته كما هو المعتبر عند أهل الأصول مع أنه لا ينقل الأحاديث إلا من كتبها المعتبرة كالأمهات وما يلتحق بها، وإذا وجد الحديث قد خرج من طرق وإن كان فيها من الوهن ما لا ينتهض معه للاحتجاج ولا يبلغ به إلى رتبة الحسن لغيره عمل به وكذلك يعمل بما كانت له علل خفيفة فينبغي للطالب أن يتثبت في مثل هذه المواطن وقد ذكر في مؤلفاته من أشعاره ولكنها سافلة بخلاف نثره فإنه في الذروة.

(٢) ومن أحسن شعره أبياته التي يقول فيها:

قبح الله مفرِّقا بين القرابة والصحابة

وقد أجاب عليه بعض جارودية[1] اليمن بجواب أقذع فيه ثم هجاه بعض الجارودية فقال:

المقبلي ناصبي أعمى الشقاء بصره

(٣) وبعده بيت أقذع فيه وهكذا شأن غالب أهل اليمن مع علمائهم ولعل ذلك لما يريده الله لهم من توفير الأجر الأخرويّ.

(٤) وكان ينكر ما يدعيه الصوفية من الكشف فمرضت ابنته زينب في بيته من مكة وكان ملاصقاً للحرم فكانت تخبره وهي من وراء جدار بما فعِل في الحرم وكان يغلق عليها مراراً وتذكر أنها تشاهد كذا وكذا فيخرج إلى الحرم فيجد ما قالت حقاً[2].

---

(١) هم فرقة من الزيدية، وانظر الملل والنحل: ٥/ ٣٥.

(٢) «البدر الطالع»: ١/ ٢٨٨ ـ ٢٩٢.

طهماسب ملك بلاد العجم

طارت أخباره إلى اليمن في وسط المائة الثانية عشر من الهجرة وأخبر عنه الأغراب بقوة باهرة وسلطنة عظيمة ومحصل ما بلغ عنه حسبما نقله من أدرك تلك الأيام من أهل هذه الأرض أنه كان خادماً في بعض مشاهد الأئمة التي هنالك ثم بعد ذلك خرج إلى بعض الأمكنة ودعا جماعة من الناس إلى اتباعه فاتبعوه وما زال أمره يظهر حتى استولى على ملك تلك الديار وعلى سائر ممالك العجم وعلى ممالك العراق، ثم لما تقرر ملكه لها غزا بجيوش لا تحصى إلى بلاد الهند ـ وكان ملكها إذ ذاك يقال له محمد شاه ـ فتلقاه بجيوش عظيمة فوقع المصافّ بين الجيشين وتطاول أياماً وقتل في بعضها أمير أمراء ملك الهند وكان من يليه في الرتبة من أمراء السلطان يطمع في أن يكون مكانه فولّى السلطان رجلاً آخر فخامر عليه ذلك الأمير وانخزل بطائفة من جنوده إلى طهماسب فضعف بذلك السبب سلطان الهند.

ثم سعى ذلك الأمير في الصلح بين الملكين فتواعدا للاجتماع إلى مكان عيناه فسبق إليه سلطان الهند ثمّ وصل طهماسب فقعدونظر إلى سلطان الهند وهو يشرب التنباك ولحيته محلوقة فأنكر عليه ذلك ووبخه.

ثم تمّ الصلح على أن يدخل طهماسب بجيوشه إلى مدينة السلطان وهي مدينة عظيمة تُسمى ني خور ويكون أهلها في أمان ويعود سلطان الهند معه مكرماً ويبقى في مملكته فدخلا المدينة ولما حضرت صلاة الجمعة خاف أهل الهند أن يغير طهماسب رسومهم في الخطبة إلى رسوم العجم فلم يفعل بل تركهم على حالهم ففرحوا بذلك، وكان جيشه منتشراً في جميع المدينة نازلين مع أهلها فكان أوباش الهند إذا ظفروا بواحد من جيوش طهماسب قتلوه غيلة وأفنوا بهذا السبب جماعة كثيرة فبلغ السلطان طهماسب ذلك فبحث عنه وتفقد أصحابه ففقد كثيراً منهم فأمر جيوشه بقتل أهل المدينة فما زالوا يقتلون من وجدوه في ثلاثة أيام حتى بلغ القتلى من الهند زيادة على مائة ألف، ثم أمرهم بعد اليوم الثالث يرفع السيف ونادى بالأمان وصادر أهل المدينة واستخرج ما معهم من الأموال وأخذ من خزائن سلطانهم ما أحب

أخذه ثم ارتحل وقد دوخ بلاد الهند وصار سلطانُها المذكور نائباً له فيها وعاد إلى بلادهم.

ثمّ عزم على الغزو إلى مصر والشام والروم وقد خافته الملوك وأيقنوا بأنه لا طاقة لهم به فكفى الله شره ودفع عن المسلمين ضره وسلط عليه جماعة من غلمانه تواطؤوا عليه فقتلوه وهو على فراشه وكانت مدة ملكه تسع سنين هذا حاصل ما علق بحفظي من أخبار من أخبرنا عن أخبار من أخبرهم في تلك الأيام من الغرباء الواصلين إلى هذه الديار.

(١) ثم وصل إلى صنعاء السيد إبراهيم العجميّ الحكيم، وكان أبوه من جملة الأطباء لطهماسب وذكر لنا من أخباره غرائب وعجائب، وأخبره أنه كان في ابتداء أمره سايساً من سُواس الجمال وكان عظيم الخِلقة قويّ البدن فاتفق أن ملك الهند غزا بلاد العجم وكان سلطانها إذ ذاك مشتغلاً باللهو والبطالة فما زال سلطان الهند يفتحها إقليماً بعد إقليم ومدينة بعد مدينة حتى لم يبق إلا المدينة التي فيها سلطان العجم، وسلطان العجم مشتغل بما هو فيه من البطالة ثم التجأ سلطان العجم إلى بعض المشاهد المعتقَد فيها في تلك المدينة خوفاً من صاحب الهند فلما وقع منه ذلك قام صاحب الترجمة يدعو الناس إلى جهاد سلطان الهند ودفعه عن مدينة سلطان العجم التي قد أشرف على أخذها فتبعه جماعة وخرجوا من المدينة وهو أمامهم فهزموا جيوش سلطان الهند وتبعوهم وأخرجوا من قد كان منهم في مدائن العجم حتى أخرجوهم من بلاد العجم ثم رجعوا إلى المدينة فصار صاحب الترجمة المتكلم في مملكة العجم وما زال أمره يقوى حتى خلع السلطان العجميّ المذكور سابقاً وبعد ذلك غزا بلاد الهند مكافئاً لهم بما فعلوا في بلاد العجم ووقع منه في بلادهم من القتل والأسر والنهب ما لا يأتي عليه الحصر، ووصف لنا أنه لما كان من الهنود ما قدمنا من القتل لأصحابه غيلة خرج اليوم الثاني إلى سطح جامعها وهو مكان مرتفع وحوله فسحة كبيرة من جميع الجهات وكان لابساً للحمرة وذلك علامة القتل ثم صعد على سطح الجامع وجيوشه حول الجامع من جميع جهاته ينظرون إليه ويرتقبون ما يأمر به فاستقر ساعة ثم أخذ سيفه وسلّه من غمده

ووضعه مسلولاً وصاح الجيش صيحة واحدة وشهروا سلاحهم وسعوا نحو المدينة يقتلون من وجدوه ثم استمر ذلك من أول اليوم إلى وقت العصر فوصل سلطان الهند وكان قد أمّنه وعلم أنه لا ذنب له فيما وقع من الهنود ووصل وعليه كفن منشور وسيف مشهور واضع له على رقبته ثم رمى نفسه بين يدي صاحب الترجمة، وقال: يا أيها السلطان قد كان هلك غالب أهل المدينة ووصل القتل إلى الأخيار ولم يقع ما وقع إلا من جماعة يسيرة من الأشرار. فلما سمع ذلك أخذ السيف الذي قد كان سله في أول اليوم فأغمده في غمده فذهب جماعة كثيرة من الباقين حوله يصيحون للجيش الذي صار يقتل أهل الهند فمن سمع الصائح رجع وترك القتل.

(١) ثم من جملة ما ذكره لنا السيد إبراهيم أن صاحب الترجمة صار لا يصبر بعد ذلك عن سفك الدماء وصار يقتل من لا ذنب له من أصحابه ورعيته فأجمع رأي ابن أخيه ونحو ثلثمائة نفر من جنده على قتله وهو في الغزو فدخلوا عليه وقد تساقط أكثرهم في الخيام من هيبته ثم قتلوه، وله أخبار طويلة[١].

الكبسي

السيد عبد الله بن لطف الباري الكبسي ثم الصنعانيّ[٢].

وُلِد في سنة ١١١٣، وهو أحد علماء صنعاء المبرزين في علم القراءات والآلات والحديث والتفسير وكان يقرىء في جميع هذه العلوم وله تلامذة صاروا علماء نبلاء ومن جملة من قرأ عليه الإمام المهديّ العباس ابن الحسين قبل مصير الخلافة إليه.

---

(١) «البدر الطالع»: ١/٣٠٣ - ٣٠٦.

(٢) جاء في الهامش: وفي الجزء الثاني من نفحات العنبر أن ولادة السيد عبدالله بن لطف الباري بن عبدالله الكبسي في سنة ١١١٠ عشرة ومائة وألف بصنعاء وأنه حقق النحو والصرف والبيان ولم يبلغ سنه العشرين السنة ثم قرأ الأصولَيْنِ والمنطق والفقه والحديث والتفسير. وبعد إكماله لقراءة علوم الاجتهاد اشتغل بحفظ القرآن العظيم وعلم القراءات السبع وقرأ فيها على الفقيه صالح اليماني ونظم فيما نظن بالقراءات فوائد وضوابط مهمة. =

وكان زاهداً متقللاً من الدنيا آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر وله في ذلك مقامات جليلة وكان مقبول الكلمة عند الإمام المهدي لا ترد له شفاعة كائنة ما كانت لمزيد ورعه وعدم طمعه في شيء من الدنيا وكذلك سائر أرباب الدولة كانوا يجلونه ويهابونه.

وكان يعمل بالأدلة ويرشد الناس إليها وينفرهم عن التقليد.

(١) وله في نهي النكر عناية عظيمة أخبرني بعض الثقات أنه مشى معه في بعض شوارع صنعاء فرأى رجلاً جندياً وقد أراد الفاحشة من امرأة أو صار يفعل الفاحشة بها ففرق صاحب الترجمة بينهما فسبه ذلك الجنديّ سباً فظيعاً فمرّ ولم يتلفت إلى ذلك فقال له الذي كان معه: لو تدعني أعرف هذا الجندي حتى ترفع أمره إلى الدولة ليعاقبوه فقال: الذي وجب علينا من إنكار المنكر قد فعلناه لله ولا أريد أن أفعل شيئاً لنفسي، دعه يسبني كيف شاء.

(٢) وكان لا يسمع بمنكر إلا أتعب نفسه في القيام على صاحبه حتى يزيله وإذا أصيب رجل بمظلمة فرّ إليه فيقوم معه قومة صادقة حتى ينصف له فرحمه الله وكافأه بالحسنى فلقد كان من محاسن الدهر[1].

= وحجّ في آخر عمره ولما قرب عزمه وصل إليه بالليل رجل مستتر بثيابه لئلا يعرفه أحد وأعطاه قدراً كثيراً من الذهب فتصدق به جميعه في طريق الحج وسمعه بعض الفضلاء يقول وهو متعلق بأستار الكعبة باكياً: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي فرجع إلى صنعاء ولم يلبث إلا أقل من شهر ثم توفاه الله سنة ١١٧٣ . انتهى.

(١) «البدر الطالع»: ١/ ٣٩٢-٣٩٣.

المهدي

الإمام المهديّ محمد بن أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم ابن محمد.

وُلِد في سنة ١٠٤٧، وكان بعد موت والده أحد الرؤساء الأكابر في الديار اليمنية وولي الخلافة بعد موت الإمام المؤيد بالله محمد بن المتوكل على الله إسماعيل بعد نزاع شديد وحروب طويلة واجتمع لحربه جميع أكابر سادات اليمن من أقاربه وغيرهم وحصروه وكادوا يحيطون به وبمن معه فخرج إليهم بمن معه من الأجناد وهم يسير فهزمهم وأسر جماعة من أكابرهم وشرد آخرين ودانت اليمن وصفا له الوقت ولم يبق له مخالف إلا قهره، ونازعه بعد ذلك جماعة فغلبهم وسجنهم.

(١) والحاصل أنه ملك من أكابر الملوك كان يأخذ المال من الرعايا بلا تقدير وينفقه بلا تقدير، وكانت اليمن من بعد خروج الأتراك منها إلى أن ملكها صاحب الترجمة مصونة عن الجَوْر وأخْذِ ما لا يُسَوِّغه الشرع، فلما قام هذا أخذ المال من حله وغير حله فعظمت دولته وجلت هيبته وتمكنت سطوته وتكاثرت أجناده وصار بالملوك أشبه منه بالخلفاء ومع ذلك فهو يتزهد في ملبوسه فإنه كان لا يلبس الحرير ولا رفيع الثياب وكان يسمى صاحب السجدة لأنه كان إذا خرج من موكبه ورأى ما بين يديه من الأجناد المالئة للفضاء ترجّل عن جواده وسجد شكراً لله وتواضعاً ومرّغ وجهه بالأرض.

(٢) وكان سفاكاً للدماء بمجرد الظنون والشكوك وقد قتل عالمَاً بذلك السبب وشاع على الألسن أنه كان يأتيه في الليل من يخاطبه بأنه يقتل فلاناً وينهب مال فلان ويعطي فلاناً ويمنع فلاناً فإذا كان النهار عمل بجميع ذلك ولعل هذا المخاطب له من مردة الجن.

(٣) وكان يميل إلى أهل العلم ويجالسهم ويتشبه بهم وربما قرؤوا عليه ولم يكن عالماً ولكن كان يحب التظهر بالعلم فيساعده على ذلك علماء حضرته رغباً ورهباً.

(١) وله تصنيف سماه «الشمس المنيرة» في مجلد لطيف وقفت عليه وفيه نقل مسائل من مؤلفات جد أبيه الإمام القاسم بن محمد ولكنها غير مرتبة ولا منقولة على أسلوب بل لا يدري المطلع على ذلك الكتاب ما موضوعه ولا ما غرض مؤلفه وسبب ذلك كون مؤلفه ليس من العلماء ومع هذا فكان يقرأه عليه جماعة من أكابر العلماء وليس في وسعهم نصحه وتعريفه بالحقيقة لما جبل عليه من الطيش وتعجيل العقوبة.

ومن علو همته إذا أراد الإيقاع بوزير من وزرائه أو أمير من أمرائه أمر الجند بانتهاب ماله ولا يأخذ منه شيئاً وقد يكون مالا جليلا، وكان تملكه لليمن واستيلاؤه عليها في سنة ١٠٩٧، واستمر على ذلك إلى سنة ١١٢٦ وشرع المتوكل على الله القاسم بن الحسين في معارضته وإخراج البلاد عن مملكته حتى خلع نفسه في سنة ١١٢٩ فكان ملكه الديار اليمنية بأسرها زيادة على ثلاثين سنة فسبحان الفعّال لما يريد.

(٢) ومن أعظم الحوادث في أيامه حادثة السيد إبراهيم المحطوريّ الشرفي الذي يسميه الناس اليوم المحدوريّ، وكان بارعاً في علم الطلسمات والشعوذة، وبالجملة فكان من أعظم السحرة وظهور أمره في سنة ١١١١ وله أتباع مجاذيب ينطقون بلفظ الجلالة، فسفك الدماء ونهب الأموال وكان لا تؤثر الرصاص في أصحابه ولا يقطع أجسامهم السلاح فكانت الرصاصة إذا بلغت إلى أصحابه أمسكها بيده وأرجعها إلى صاحبها، وارتجت الديار اليمنية لهذه الحادثة بل وسائر الديار حتى قيل إن سلطان الروم كتب إلى نائبه بمصر يسأله عن هذا القايم باليمن الذي لا يعمل في أصحابه السلاح ولا الرصاص. ووقعت له ملاحم دمر فيها عالما لا يحصون فأرسل إليه صاحب الترجمة جيشاً بعد جيش وهو يهزمهم ويقتل أكثرهم وامتد أصحابه في مواضع من اليمن ولم يكن عنده من العلم شيء فكان إذا سئل عن وجه ما يسفك من الدماء ويهتك من الحرم وينهب من الأموال قال إن سيفه هو الذي يأمره بذلك ويُحكى أن سيفه المذكور كان يُسمع له صليل وهو في غمده ولعل ذلك من جملة أثر سحره، وكان تارة يقول إنه لا

يخرج إلا لأجل شرب الناس للتنباك وكل هذا من أعظم المشعرات بمزيد جهله، وكان أصحابه إذا توجهوا إلى حصن من الحصون فتحوه في أسرع وقت وإن كان في غاية الحصانة لأنهم يرمونهم فلا تؤثر ذلك ويضربونهم بالسلاح فلا يؤثر ذلك فإذا لم يستسلموا ويفتحوا لهم الأبواب تسوروا من الجدارات ودخلوا فاتفق في فتحهم لحصن ثَـلاَ أن امرأة أرسلت على أحدهم حجراً فهشمته فلما رأوا أهل المحل ذلك أخذوا الأحجار ورموهم بها فشدخوهم وقتلوا جماعة منهم، ولم يزل صاحب الترجمة يجهز جيشاً بعد جيش حتى جهز في آخر الأمر أولاده في جيش ضخم فكان الفتح وتقهقر أمر الناجم وتفرق أصحابه بعد أن فعلوا الأفاعيل وهزموا الجيوش وفتحوا الحصون ثم نجا بنفسه إلى جهات صعدة وشرع في إفساد أهلها وكادت الفتنة أن تعود فتلطف أمير صعدة إذ ذاك وهو السيد علي بن أحمد بن الإمام القاسم بن محمد حتى وصل إليه فسأله عن سبب سفكه للدماء ونهبه للأموال وتحليله للمحرمات فأجابه بمثل ما اعتذر به سابقا مما يؤذن بإفراط جهله فسجنه ثم ضرب عنقه وأرسل إلى صاحب الترجمة يخبره بذلك.

(١) وقد اتفق مثل هذه الفتنة في أوائل أيام الإمام المهديّ العباس بن الحسين والد مولانا خليفة العصر الإمام المنصور بالله حفظه الله وذلك أن رجلاً من السودان يُقال له أبو علامة ظهر من المحل الذي ظهر منه المحطوريّ وهو بلاد الشرق وصار له أتباع كثير مجاذيب لا يعمل فيهم سلاح ولا رصاص واجتمع منهم ألوف مؤلفة وفتحوا غالب حصون بلاد حاشد وبكِيل ثم بعد ذلك استفتحوا مواضع من البلاد الإمامية وانتهوا إلى تِهامة وقتلوا من الناس من لا يأتي عليه الحصر ورجفت اليمن لذلك وتضعضعت أركان المملكة وصار الناس لا يجري في حديثهم غيره وصار النساء ومن يشابههن من العوام إذا سقط صبي لهم نادوا باسم هذا الناجم[1] وعظمت فتنته واشتعلت الأرض به، وما زال الإمام المهديّ يرسل

---

(١) أي: الخارج عن الطاعة.

إليه بالجيوش ويدافع بها عن بلاده التي انتشر فيها أصحاب أبي علامة المذكور وآخر الأمر عملت فيهم الأسلحة وأثّر فيهم الرصاص ولكنهم قد صاروا جيوشاً متكاثرة فتارة تكون الدائرة لهم وتارة عليهم وغالبهم من السودان، ثمّ اتفق أن أبا علامة أرسل إلى شام صعدة أنهم يمدونه بجيش فخرجوا في جيش كثير فوصلوا إليه وقد أدبر أمره فقتله جماعة منهم وحملوا رأسه إلى الإمام المهديّ العباس.

(١) وأخبرني شيخنا أنه سأل عن سبب ما هو فيه فقال إنه دخل صنعاء في أيام سابقة وكان المؤذنون يسبحون من المنارات في آخر الليل ثلاث تسبيحات ثم دخل مرة أخرى فوجدهم قد تساهلوا بذلك فمنهم من يسبح تسبيحتين ومنهم من يسبح تسبيحة واحدة ومنهم من لا يسبح فانظر إلى هذا الجهل العجيب الذي استحل به هذا الطاغية سفك الدماء وهتك الحُرَم، وكان ظهوره في سنة ١١٦٤ أو في التي بعدها فانتقم الله منه وأهلكه.

وكان موت المهديّ صاحب المواهب المترجَم له في سنة ١١٣٠ ثلاثين ومائة وألف[١].

الصنعانيّ

(٢) السيد محمد بن إسماعيل بن صلاح الكحلانيّ ثم الصنعانيّ المعروف بالأمير، الإمام الكبير المجتهد المطلق صاحب التصانيف. ولد سنة ١٠٩٩ بكحلان، ثمّ انتقل مع والده إلى مدينة صنعاء سنة ١١٠٧ وأخذ عن علمائها، ورحل إلى مكة وقرأ الحديث على أكابر علمائها وعلماء المدينة وبرع في جميع العلوم وفاق الأقران وتفرد برئاسة العلم في صنعاء، وتظهّر بالاجتهاد وعمل بالأدلة ونفر عن التقليد وزيّف ما لا دليل عليه من الآراء الفقهية وجرت له مع أهل عصره خطوب ومحن؛ منها في أيام المتوكل على الله القاسم بن الحسين ثم في أيام ولده الإمام المنصور بالله

(١) «البدر الطالع»: ٢/ ٩٧ ـ ١٠١.

الحسين بن القاسم ثم في أيام ولده المهديّ العباس بن الحسين وتجمع العوام لقتله مرة بعد أخرى وحفّظه الله من كيدهم ومكرهم وكفاه شرهم وولاه الإمام المنصور بالله الخطابة بجامع صنعاء فاستمر كذلك إلى أيام ولده الإمام المهديّ.

(١) واتفق في بعض الجمع أنه لم يذكر الأئمة الذين جرت العادة بذكرهم في الخطبة الأخرى فثار عليه جماعة من آل الإمام الذين لا أنسة لهم بالعلم وعضدهم جماعة من العوام وتواعدوا فيما بينهم على قتله في المنبر يوم الجمعة المقبلة وكان من أعظم المحشدين لذلك السيد يوسف العجميّ الإماميّ القادم في أيام الإمام المنصور بالله والمدرس بحضرته، فبلغ الإمام المهديّ ما قد وقع التواطؤ عليه فأرسل لجماعة من أكابر آل الإمام وسجنهم وأرسل لصاحب الترجمة أيضاً وسجنه وأمر من يطرد السيد يوسف المذكور حتى يخرجه من الديار اليمنية فسكنت عند ذلك الفتنة وبقي صاحب الترجمة نحو شهرين ثمّ خرج من السجن وولّى الخطابة غيره، واستمر ناشراً للعلم تدريساً وإفتاء وتصنيفا.

(٢) وما زال في محن من أهل عصره وكانت العامة ترميه بالنَّصْب[١] مستدلين على ذلك بكونه عاكفاً على الأمهات وسائر كتب الحديث عاملا بما فيها ومن صنع هذا رمته العامة بذلك لا سيما إذا تظهّر بفعل شيء من سنن الصلاة كرفع اليدين وضمهما ونحو ذلك فإنهم ينفرون عنه ويعادونه ولا يقيمون له وزنا مع أنهم في جميع هذه الديار منتسبون إلى الإمام زيد بن عليّ وهو من القائلين بمشروعية الرفع والضم، وكذلك ما زال الأئمة من الزيدية يقرأون كتب الحديث الأمهات وغيرها منذ خرجَت إلى اليمن ونقلوها في مصنفاتهم الأول فالأول لا ينكره إلا جاهل أو متجاهل، وليس الذنب في معاداة من كان كذلك للعامة الذين لا تعلق لهم بشيء من المعارف العلمية فإنهم أتباع كل ناعق، إذا قال لهم من له هيئة أهل العلم

---

(١) أي بعداوة آل البيت.

إن هذا الأمر حق قالوا حق وإن قال باطل قالوا باطل إنما الذنب لجماعة قرأوا شيئاً من كتب الفقه ولم يُمعنوا فيها ولا عرفوا غيرها فظنوا لقصورهم أن المخالفة لشيء منها مخالفة للشريعة بل لقطعيٍّ من قطعياتها مع أنهم يقرأون في تلك الكتب مخالفة أكابر الأئمة وأصاغرهم لما هو مختار لمصنفها ولكن لا يعقلون حقيقة ولا يهتدون إلى طريقة بل إذا بلغ بعض معاصريهم إلى رتبة الاجتهاد وخالف شيئاً باجتهاده جعلوه خارجاً عن الدين والغالب عليهم أن ذلك ليس لمقاصد دينية بل لمنافع دنيوية تظهر لمن تأملها وهي أن يشيع في الناس أن من أنكر على أكابر العلماء ما خالف المذهب من اجتهاداتهم كان من خُلّص الشيعة الذابّين عن مذهب الآل وتكون تلك الشهرة مفيدة في الغالب لشيء من منافع الدنيا وفوائدها فلا يزالون قائمين وثائرين في تخطئة أكابر العلماء ورميهم بالنصب ومخالفة أهل البيت فتسمع ذلك العامة فتظنه حقاً وتعظم ذلك المنكر لأنه قد نفق[1] على عقولها صدق قوله وظنوه من المحامين عن مذهب الأئمة ولو كشفوا عن الحقيقة لوجدوا ذلك المنكِر هو المخالف لمذهب الأئمة من أهل البيت بل الخارج عن إجماعهم لأنهم جميعاً حرموا التقليد على من بلغ رتبة الاجتهاد وأوجبوا عليه أن يجتهد رأي نفسه ولم يخصوا ذلك بمسألة دون مسألة ولكن المتعصب أعمى والمقصر لا يهتدي إلى صواب ولا يخرج عن معتقده إلا إذا كان من ذوي الألباب مع أن مسألة تحريم التقليد على المجتهد هي محررة في الكتب التي هي مدارس صغار الطلبة فضلا عن كبارهم بل هي في أول بحث من مباحثها يتلقنها الصبيان وهم في المكتب.

(١) ومن جملة ما اتفق لصاحب الترجمة من الامتحانات أنه لما شاع في العامة ما شاع عنه بلغ ذلك أهل جبل برط من ذوي محمّد وذوي حسين وهم إذ ذاك جَمْرةُ اليمن الذين لا يقوم لهم قائم فاجتمع أكابرهم ومن أعظم رؤسائهم حسن بن محمد العنسيّ البرطيّ وخرجوا على الإمام المهديّ في

---

(١) راج.

جيوش عظيمة ووصلت منهم الكتب أنهم خارجون لنصرة المذهب وأن صاحب الترجمة قد كاد يهدمه وأنّ الإمام مساعد له على ذلك فترسل[1] عليهم العلماء الذين لهم خبرة بالحق وأهله ورتبة في العلم فما أفاد ذلك وآخر الأمر جعل لهم الإمام زيادة في مقرراتهم قيل إنها نحو عشرين ألف قرش في كل عام فعادوا إلى ديارهم وتركوا الخروج لأنه لا مطمع لهم في غير الدنيا ولا يعرفون من الدين إلا رسوماً بل يخالفون ما هو من القطعيات كقطع ميراث النساء والتحاكم إلى الطاغوت واستحلال الدماء والأموال وليسوا من الدين في ورد ولا صدر.

(١) ومن محن الدنيا أن هؤلاء الأشرار يدخلون صنعاء لمقررات لهم في كل سنة ويجتمع منهم ألوف مؤلّفة فإذا رأوا من يعمل باجتهاده في الصلاة كأن يرفع يديه أو يضمها إلى صدره أو يتورك أنكروا ذلك عليه وقد تحدث بسبب ذلك فتنة ويتجمعون ويذهبون إلى المساجد التي تقرأ فيها كتب الحديث على عالم من العلماء فيثيرون الفتن وكل ذلك بسبب شياطين الفقهاء الذين قدمنا ذكرهم وأما هؤلاء الأعراب الجفاة فأكثرهم لا يصلي ولا يصوم ولا يقوم بفرض من فروض الإسلام سوى الشهادتين على ما في لفظه بهما من عوج.

(٢) واتفق في الشهر الذي حررت فيه الترجمة أنه دخل جماعة منهم وفيهم عُجْب وتيه واستخفاف بأهل صنعاء على عادتهم وقد كانوا نهبوا في الطرقات فوصلوا إلى باب مولانا الإمام حفظه الله فرأى رجل بقرة له معهم فرام أخذها فسلّ من هي معه من أهل بكيل السلاح على ذلك الذي رام أخذ بقرته فثار عليهم أهل صنعاء الذين كانوا مجتمعين في باب الخليفة وهم جماعة قليلون من العوام وهؤلاء نحو أربعمائة فوقع الرجم لهؤلاء من العامة. ثم بعد ذلك أخذوا ما معهم من الجمال التي يملكونها وكذلك سائر دوابهم فضلا عن الدواب التي نهبوها على المسلمين وأكثر بنادقهم وسائر

(١) ترسل: ترفّق.

سلاحهم وقتلوا منهم نحو أربعة أنفار أو زيادة وجنوا على جماعة منهم وما وسعهم إلا الفرار إلى المساجد وإلى محلات قضاء الحاجة ولولا أن الخليفة بادر بزجر العامة عند ثوران الفتنة لما تركوا منهم أحداً فصاروا الآن في ذلة عظيمة زادهم الله ذلة وقلّل عددهم.

وقد كان كثر أتباع صاحب الترجمة من الخاصة والعامة وعملوا باجتهاده وتظهّروا[1] بذلك وقرأوا عليه كتب الحديث وفيهم جماعة من الأجناد بل كان الإمام المهديّ يعجبه التظهر بذلك وكذلك وزيره الكبير الفقيه أحمد بن علي النهمي وأميره الكبير الماس المهديّ، وما زال ناشراً لذلك في الخاصة والعامة غير مبال بما يتوعده به المخالفون له ووقعت في أثناء ذلك فتن كبار وقاه الله شرها.

وله مصنفات جليلة حافلة منها «سبل السلام» اختصره من البدر التمام للمغربيّ، ومنها «العدة» جعلها حاشية على شرح العمدة لابن دقيق العيد، ومنها «شرح الجامع الصغير» للأسيوطيّ في أربعة مجلدات شرحه قبل أن يقف على شرح المناويّ، وله مصنفات غير هذه. وقد أفرد كثيراً من المسائل بالتصنيف بما يكون جميعه في مجلدات، وله شعر فصيح منسجم، وغالبه في المباحث العلمية والتوجع من أبناء عصره والردود عليهم وبالجملة فهو من الأئمة المجددين لمعالم الدين.

(١) وقد رأيته في المنام في سنة ١٢٠٦ وهو يمشي راجلاً وأنا راكب في جماعة معي فلما رأيته نزلت وسلمت عليه فدار بيني وبينه كلام حفظت منه أنه قال: دقق الإسناد وتأنق في تفسير كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخطر ببالي عند ذلك أنه يشير إلى ما أصنعه في قراءة البخاريّ في الجامع وكان يحضر تلك القراءة جماعةٌ من العلماء ويجتمع من العوام عالم لا يحصون فكنت في بضع الأوقات أفسر الألفاظ الحديثية بما يفهم أولئك

---

(١) أي: أعلنوا وأظهروا.

العوام الحاضرون فأردت أن أقول له إنه يحضر جماعة لا يفهمون بعض الألفاظ العربية فبادر وقال قبل أن أتكلم: قد علمت أنه يقرأ عليك جماعة وفيهم عامة ولكن دقق الإسناد وتأنق في تفسير كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم سألته عند ذلك عن أهل الحديث ما حالهم في الآخرة فقال بلغوا بحديثهم الجنة أو بلغوا بحديثهم بين يدي الرحمن الشكُّ مني ثم بكى بكاء عالياً وضمني إليه وفارقني فقصصت ذلك على بعض من له يد في التعبير وسألته عن تأويل البكاء والضم فقال لا بد أن يجري لك شيء مما جرى له من الامتحان، فوقع من ذلك بعد تلك الرؤيا عجائب وغرائب كفى الله شرّها.

توفي رحمه الله سنة ١١٨٢ ورثاه شعراء العصر وتأسفوا عليه وله تلامذة نبلاء علماء مجتهدون، ووالده كان من الفضلاء الزاهدين في الدنيا الراغبين في العمل. وله عرفان تام وشعر جيد[١].

الشامي

السيد هاشم بن يحيى بن أحمد الشاميّ الصنعانيّ، أحد العلماء المشاهير والأدباء المجيدين. وُلِد تقريبا سنة ١١٠٤، ونشأ بصنعاء وأخذ العلم عن أكابر علمائها، وبرع في جميع العلوم وفاق الأقران ودرس للطلبة وانتفع به أهل صنعاء، وتخرج به جماعة من العلماء وتولى القضاء بصنعاء أياماً. وله شعر فائق وفصاحة زائدة.

(١) ومن جملة من ترجم له تلميذه القاضي العلامة أحمد بن محمد قاطن في كتابه الذي سماه «تحفة الاخوان» وفي كتابه الذي سماه «إتحاف الأحباب» وقال فيه إنه أخبره أن إقرارات النساء لقرابتهن وتمليكهنّ لهم وإباحتهن ونحو ذلك لا يصح عنده لضعف إدراكهنّ وعدم خبرتهن[٢]،

---

(١) «البدر الطالع»: ٢/١٣٣ - ١٣٩.

(٢) سيأتي تفسير هذا بمثال.

وحكى عنه أنه وصل إليه بعض أهل صنعاء بقريبة له وقد كتب مرقوماً تضمن أنها ملكته أموالاً وجاء بجماعة يعرفونها فقرأ عليها ذلك المرقوم فأقرّت به، فقال لها: هل معك حلقة في يدك؟ قالت: نعم، قال: أريد أن أنظر إليها، فأعطته حلقة بإصبعها، فقال لها: وهذه اجعليها من جملة التمليك، فقالت: لا أفعل إنها لي. وكرر ذلك عليها فلم تُسْعِد. قال: فعلمت من ذلك أن المرأة لا تعد ما غاب عنها ملكاً لها ثم مزّق المكتوب.

(١) وأقول: لا ريب أن غالب النساء ينخدعن ويفعلن[١] ـ لا سيما للقرابة ـ كما يريدونه بأدنى ترغيب أو ترهيب خصوصا المحجبات وقد يوجد فيهنّ نادراً من لها من كمال الإدراك ومعرفات التصرفات وحقائق الأمور ما للرجال الكملاء وقد رأيت من ذلك عجائب وغرائب، والذي ينبغي الاعتماد عليه والوقوف عنده هو البحث عن حال المرأة التي وقع منها ذلك فإن كانت ممارسة للتصرفات ومطّلعة على حقائق الأمور وفيها من الشدة والرشد ما يذهب معه مظنة التغرير عليها فتصرفها صحيح كتصرف الرجال، وإن لم يكن كذلك فالحكم باطل، وأما تصرفاتها بالبيع إلى الغير والمعاوضة فالظاهر الصحة وإذا ادّعت الغُبن كانت دعواها مقبولة وإن طابقت الواقع. ولا يحل دفعها بمجرد كونها مكلفة متولية للبيع ولا غبن على مكلف فإنها بمن ليس بمكلف أشبه إلا في النادر. وكان موته سنة ١١٥٨[٢].

أحمد الراعي الصنعاني

الفقيه التقيّ أحمد الراعي الصنعانيّ، المتألة الزاهد، العابد التقيّ.

(٢) قال مؤلف «النفحات»: كان والد المترجم له وإخوته يتعلقون بالتجارة فنشأ صاحب الترجمة ولازم أهل العلم والفضل واشتغل بكتب الرقائق وواظب على الطاعات، ثمّ اعتزل عن الناس وأقبل على عبادة الله تعالى

---

(١) أي يتنازلن عن حقوقهن.

(٢) «البدر الطالع»: ٢/ ٣٢١ ـ ٣٢٤.

وكان يحب الخلوة في جبل وإذا رآه أحد من الناس فر منهم وربما فاجأه من كان يتصل به في الابتداء فيعتذر بأن معه علة ويشير إلى بطنه موهماً أن تلك العلة تمنعه الملاقاة، وكان لا يرضى بأكل ما يسد رمقه من عند إخوته ولبس ما يستر عورته إلا بعد أن يعمل لهم أشق الأعمال ويتولى غسل ثيابهم وتربية أولادهم وغير ذلك. واشتهرت عنه كرامات عديدة مع شدة نفوره عن الناس وعمن يريد التبرك به أو التماس الدعاء منه.

(١) قال القاضي أحمد قاطن: إني حدثت نفسي في بعض الأيام بأن صلاة الجمعة والجماعة لعلها تفوته ولم يشعر أحد بما حدثت نفسي فلم ألبث أن جاء الفقيه أحمد بن سعيد الحطوار وهو رجل فاضل يقرأ عليّ في النحو فأخبرني أنه صلى الجمعة بجنب الفقيه أحمد الراعي وإنه سلم عليه وأمره أن يسلم علي ويقول لي إنه يحضر الجمعة والجماعة.

(٢) قال القاضي وأخبرني من أثق به عن بعض أهل صنعاء إنه دخل من بير العزب بعد صلاة المغرب وأراد الدخول من باب اليمن أحد أبواب صنعاء المعروفة فوجد الباب قد أغلق فحصل معه قلق عظيم واعتراه ذل ووحشة فبينما هو يفكر في أمره عند المقابر إذ رآه شخص وبيده فانوس وقد جاء من جهة الجبل «نقم» فأنِس به وقصده فإذا هو الفقيه أحمد الراعي فأخبره أن باب اليمن قد أُغلق فأجاب الفقيه أحمد بأنه مفتوح وإنما تخيلتَ أنه قد أغلق ثم قبض على يده ودخلا جميعاً من باب اليمن ورآه مفتوحاً فلما فارق الفقيه أحمد رجع إلى الباب لينظره فوجده مغلقاً فسأل الموكَّلين به فأخبروه أن له مدة طويلة من حين أغلق وأنه لم يفتح ولم يروا أحدا قد دخل منه انتهى كلام القاضي. قلت: وسمعت أنه استكتمه ذلك وأمره أن لا يخبر به أحدا. واشتهرت عنه كرامات أخرى.

توفي في سنة نيف وخمسين ومائة وألف، رحمه الله وإيانا والمؤمنين آمين[1]

---

(١) «ملحق البدر الطالع»: ٢/٣١ - ٣٢.

الذَّماريّ

الفقيه إسماعيل بن أحمد بن القحيف الذِّماريّ.

كان أديباً أريباً لطيفاً، تولى أعمالاً للمهديّ صاحب المواهب.

(١) ومن شعره معارضاً لأبيات عمرو بن مَعْدِي كرب المشهور بقوله:

أعـــددت للحَـــدَثـــان رحمـ	ـــة محصـــي الأنفـــاس عـــدّا[1]
إن كـــان عمـــرو عـــدّ ســـا	بغـــة وعـــداً علنـــدا[2]
ولنعـــم مـــا أعـــددتـــه	ولبئـــس مـــا عمـــرو أعـــدا
مـــن كـــان غـــير الله عـــد	تـــه بـــحـــادثـــة تـــردى
يـــا مـــن لـــه تـــعـــنـــو الـــملـو	ك وكـــلـــهـــم آتـــيـــه عـــبـــدا
أرجـــوك لـــلأمـــر الـــذي	لا أســـتـــطـــيـــع لـــه مـــردا
فـــأجـــب دعـــائـــي ولا تـــذر	نـــي يـــا جـــمـــيـــل الـــصـــنـــع فـــردا
واغـــفـــر لـــعـــبـــدك وابـــن عـــبـــدك	مـــا جـــنـــى ســـهـــواً وعـــمـــدا

مات بمدينة ذمار في سنة ١١٢١، رحمه الله تعالى[3].

الحداد

الفقيه الصالح الحسن بن صالح الحداد الصنعانيّ.

رأس أهل العبادة والاجتهاد، كهف الضعفاء والأرامل، المؤذن بجامع

---

(١) الحدثان: هي الأحداث.

(٢) العلندي: الغليظ من كل شيء.

(٣) «ملحق البدر الطالع»: ٢/ ٥٦ ـ ٥٧.

صنعاء. مولده سنة ١١١٥، وحفظ القرآن عن ظهر قلب وأخذ في النحو والأصول وأخذ في علم الحديث عن السيد المحقق هاشم بن يحيى الشاميّ وغيره، وكان يدخل في صغره على الإمام المتوكل القاسم بن الحسين فيدنيه ويقول: أرى على هذا مخايل الصلاح.

(١) وكان حسن الصوت لا يسمع تلاوته أحد إلا تحير لحسن صوته، واشتغل به المنصور الحسين بن المتوكل وكان يستدعيه كثيراً نصف الليل فيذهب إليه ويأمره بالتلاوة.

ولازم مدارسة المنصور الحسين حتى توفي ثم أدناه ولده المهديّ العباس منه ورفع ذكره وعرف قدره وساق إليه الخير وأناط به آمال المحتاجين وأمره بصرف صدقة جارية على يده لا تنقطع في كل أسبوع بسبعة ريالات طعاما وفي يوم الجمعة ثلاثين قدحا طعاما تفرق لأهل الحاجة وثلاث صِلات في كل عام وفي الشتاء وفي رمضان وفي ذي الحجة. وكان يبعث إليه خلال أيام السنة بالدنانير والدراهم فيفرقها على الضعفاء ولا يدع الشفاعة لدى المهديّ العباس فيقبلها ويعرفه بعمارة مسكن لفقير وإعانة متزوج وقضاء دين معسِر وغير ذلك. وكان طاهر اللسان لا يذكر بالعيب إنسانا.

(٢) كمن له رجل من أهل الشر في الليل بجامع صنعاء وليس فيه أحد من الناس فقام الرجل يشهر السلاح، فقال صاحب الترجمة: حسبنا الله ونعم الوكيل واستسلم فسقط ذلك الرجل مغشيّاً عليه.

وكان المترجَم له طيب العيش محبا للطيب يلبس الفاخر من الثياب.

(٣) أصابه حصر البول فبعث المهديّ العباس من يُبضِع للحصاة ولما وصل إليه البضّاع أراد أن يستعمل المخدر لئلا يجد ألم البضع فقال له صاحب الترجمة: لا سبيل إلى استعمال ذلك وسأصبر فباشره البضاع فلما وجد الألم استغاث بالله وأكثر من قول: «يا غياث المستغيثين» فلما وقف

البضاع على الحجر بالمثانة استبعدها فقال له: بُل لتنزل الحجر عن محلها فبال ونزلت ودخلت قصبة الذكر فاسترجع البضّاع، فقال: مالك؟ فأخبره الخبر وأرشده إلى استعمال المخدر فقال: لا، سأصبر فشقّ قصبة ذكره واستخرجها وهو صابر وعاش بعد ذلك صحيحا إلا أنه انقطع نسله.

(١) ولما مات المهديّ العباس حزنه صاحب الترجمة حزناً شديداً وعاف الحياة بعده وتخلى عن الدنيا ولبس الخشن من الثياب وباع داره التي في بير العزب وصرف قيمتها في وجوه الخير ثم باع متاعه وملبوسه وصرف قيمته في أهل الحاجات وكتب إلى المنصور علي بن المهدي العباس بكتاب يطلب منه شراء بيته بصنعاء واشترط سكونه فيه إلى الموت فأسعفه المنصور وأرسل من يقوِّم البيت فبذل للمقوِّم له عشرة ريالات على أن يزيده في الثمن فقال المقوِّم: لا يجوز لي ذلك، فقال: المال من بيت مال المسلمين والمشتري أمير المؤمنين والبائع سيصرف الثمن في وجوه الخير، فقال: نعم وزاد ثمن البيع مائة وخمسين ريالا ولما وصلت القيمة إلى المترجَم له شرى بها بيوتا صغارا لأهل الحاجات وفك ديوناً لضعفاء شكوا أمرهم إليه، وكان المنصور علي قد استدعاه وأناط به أمور الصلات والصدقات إلا أنه لم يوفرها كما كانت في أيام والده المهديّ العباس.

(٢) ولما حضرت صاحب الترجمة الوفاة قال: اسندوني أصلي العصر فصلّاها ثم سلّم والتفت يمينا وشمالا ورفع أصبعه السبابة وقال: أشهد أن لا إله إلا الله ففاضت نفسه سنة ١١٩٥، رحمه الله تعالى وإيانا آمين[١].

المحبشيّ

الشيخ ناصر بن الحسين المحبشيّ الشيخ العلامة الورع التقي.

أخذ عن علماء عصره، وكان عالماً تقياً ورعاً ناسكاً زاهداً عابداً خاشعاً متقشفاً، ولاه المهديّ العباس القضاء بعد أن مضى من عمره نحو ستين عاماً فكان أوحد أهل زمانه ديناً وورعاً وزهداً وتعففاً وقنوعاً.

(١) «ملحق البدر الطالع»: ٢/ ٧٠ ـ ٧٢.

(١) ولما تولّى القضاء كتب إليه السيد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير نصيحة تناقلها الناس وأثبتناها بكمالها هنا لما اشتملت عليه من النصائح البالغة وهي:

ذبحت نفسك لكن لا بسكين ... كما رويناها عن طه وياسين[١]
ذبحت نفسك والستون قد وردت ... عليك ماذا تَرَجَّى بعد ستين
ذبحت نفسك يا لهفي عليك وقد ... كنا نعدك للتقوى وللدين
أي الثلاثة تغدو في غداة غد ... إذ يجمع الله أهل الدون والدين
فواحد في جنان الخلد مسكنه ... واثنان في النار دار الخزي والهون
يأتي القيامةَ قد غُلت يداه فكن ... يوم التغابن فيه غير مغبون
فإن يكن عادلا فكت يداه وإ ... لا كان في النار من أقران قارون
فإن تقل أكرهونا كان ذا كذبا ... فنحن نعرف أحوال السلاطين
وإن تقل حاجة مست فربتما ... فأين صبرك من حين إلى حين
و الله وصى به في الذكر في سورٍ ... كم في الحواميم منه والطواسين
قد شد خير الورى في بطنه حجرا ... ولو أراد أتاه كل مخزون
ما مات والله جوعاً عالم أبداً ... سل التوارث عنه والدواوين
ليس القضا مكسبا للرزق نعرفه ... كما عرفناه في أهل الدكاكين
إلا لمن للرِّشا كفاه بُسِطت ... بسطَ اللصوص شباكا للثعابين
سل المنى والغنى ممن خزائنه ... سبحانه بين حرف الكاف والنون
وحيث قد صرت مذبوحا فخذ جُملا ... للنصح ما بين تخشين وتليين
إياك إياك كُتّاباً تخالهمو ... إنسا وهم مثل إخوان الشياطين
واحذر حِجابا وحُجَّابا مع خدم ... فهمهم أكل أموال المساكين
وجانب الرشوة الملعون قابضها ... نصا فسحقاً لإخوان الملاعين
وفي الرشاء خفيات ويعرفها ... من كان ذا همة في الحفظ والدين
واحذر قرينا تقل بئس القرين غدا ... كم حاكم بقرين السوء مقرون

(١) أي النبي ﷺ.

ولا تقــل ذا أمين الشــرع أرسله فكم رأينــا أمينا غيــر مــأمــون
واحـذر وكيلا يـريك الحق بـاطله بــرقــة بين تـنميـق وتـحسـيـن
ولا تنفــذ أحكـامــا ومستنــد الأ حكــام رجم بـتبـخيـت وتخـمين
لا تجعـلن بيــوت الله مَـحْكـمــة ولا تحلق مـن خلف الأســاطين
لِتنــظرن بـين أقــوام صــراخـهم صـراخ ثكـلا ولكن غيـر محـزون
لا يستطيع المصلى من صـراخهم يـأتي بفـرض ولا يـأتي بمسنـون
وثَمّ أشيــاء مـا بينتهــا لــك في نـظمي وتعـرفهــا من غيـر تبييني
إن عشت سوف ترى منها عجائبها إن كـان قلبـك حيـا غيـر مفتـون
فمن يمت قلبـه لا يهتـدي أبــدا لــو جئته بصحيحــات البــراهين
هذي النصائح إن كان القبول لها مهـرا ظفرت غـدا بـالخلد والعين
مـا لم ظفرت أنـا بالفـوت منفردا بـأجر نصحي يقينـا غيـر مـظنـون
ثم الصـلاة على خير الـورى أبدا وآلــه الســادة الغــر الـميــامين

ولما وصلت هذه القصيدة إلى صاحب الترجمة بكى وقال: أمرٌ كُتب على ناصر وقد عاهدت الله أن لا أحيف ولا أميل.

مات صاحب الترجمة سنة ١١٩١، رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين[١].

السيد يوسف بن الحسين بن أحمد زبارة

العـلامة الفهـامة، إمـام أهل النسـك والعبادة، قـطب أهـل الـورع والتقشف والزهادة، الهادوي الحسنيّ اليمنيّ الصنعانيّ.

مولده سنة ١١١٦ ونشأ في ثياب العفة والطهارة، فأخذ عن أكـابر علماء عصره، وفاق أقرانه في النحو والصرف والمعاني والبيـان والتفسير والحديث وبرع في المعارف، وكان أوحد أهل زمانه عبادة وزهادة وعفافاً وتولى الخطابة بجامع صنعاء واستمر فيها إلى تاريخ وفاته. ولـه كرامـات مشهورة ومناقب جمة.

(١) «ملحق البدر الطالع»: ٢/ ٢١٩ ـ ٢٢١.

(١) ومن شعره في حصر سبعة عشر من أنواع الكبائر:

ألا إن أنــواع الـكبـائــر سبعــة ... وعشر فمنها أربع قيل في القلب[١]

هي (الشرك) بالرحمن مع (أمن مكره) ... (ويأس) (وإصرار) المسيء على الذنب

وفي الفم صنع (السحر) (قذفٌ) لمحصن ... (يمين غمـوس) (والشهادة بـالكذب

وفي البـطن (شرب للخمـور) و (أكله ... لمـال اليتيم) (والـربـا) بئس للمـربي

وثنتــان في الفـرج (الـزنـا) (وتلوط) ... وأمـا يد (فـالسـرق) (قتـل) بـلا ذنب

وإن (فر من زحف) ففي الرِّجل واللتي ... تعم (عـقــوق) العــاق لــلأم والأب

(٢) ومن شعره رحمه الله في صيغة الأمر وتستعمل لخمسة وعشرين معنى[٢] فقال:

أتــت لمعــان صيغــة الأمــر فلتكــن ... لهــا حــافظــاً يــا صــاح غيــر مسهــلِ

لندب[١] وإرشاد[٢] وجوب[٣] إباحة[٤] ... دعــاء كيــا رب اعــف عنــي وجمــلِ

ومنها احتقار[٥] وامتنان[٦] إهانة[٧] ... وتسـويـة[٨] تعجيـزهـم[٩] بـالمنـزل

كـذلـك تكـويـن[١٠] تمـن كقـولـه ... ألا أيهــا الليــل الطـويــل ألا انجلـي

ومــن ذاك[١١] إنــذار كمثــل تمتعــوا ... قليلاً وتأديب[١٢] ككل أنت ما يلي

---

(١) هذا الحصر اجتهاديّ؛ إذ الكبائر لم يأت دليلٌ يحصرها.

(٢) جاء في الهامش أمثلة لتلك الأنواع على ترتيبها في الأبيات أولاً بأول:

١ ـ ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾.

٢ ـ ﴿واستشهدوا شهيدين﴾.

٣ ـ ﴿أقيموا الصلاة﴾.

٤ ـ ﴿كلوا واشربوا﴾.

٥ ـ ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾.

٦ ـ ﴿فكلوا مما رزقكم﴾.

٧ ـ ﴿ذق إنك أنت العزيز﴾.

٨ ـ ﴿اصبروا أو لا تصبروا﴾.

٩ ـ ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾.

١٠ ـ ﴿كن فيكون﴾.

١١ ـ ﴿تمتعوا فإن مصيركم النّار﴾.

١٢ ـ ﴿كل مما يليك﴾.

وجاءت لتفويض[13] وأيضاً مشورة[14] كـذاك اعتباره[15] والتماس[16] المماثل
ومن ذاك تكذيب[17] كهاتوا اتلهفا[18] كوتوا وتصبير[19] كذرهم[20] فمهل[21]
كـذا خبر جاءت[22] بمعنى رواية إذا لم تستح ما شئت فاعمل
وجاءت لتسخير[23] وأيضاً تهدد[24] وآخرها الإكرام[25] والحمد للعلي

مات بصنعاء سنة ١١٧٩[2].

---

١٣ ـ ﴿فاقض ما أنت قاض﴾.
١٤ ـ ﴿فانظري ماذا تأمرين﴾.
١٥ ـ ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر﴾.
١٦ ـ ﴿فعل كذا﴾.
١٧ ـ ﴿هاتوا برهانكم﴾.
١٨ ـ ﴿موتوا بغيظكم﴾.
١٩ ـ ﴿فمهل الكافرين﴾.
٢٠ ـ ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾.
٢١ ـ ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويدا﴾.
٢٢ ـ ﴿إذا لم تستحي فافعل ما شئت﴾ من رواية الطبرانيّ.
٢٣ ـ ﴿كونوا قردة﴾.
٢٤ ـ ﴿اعملوا ما شئتم﴾.
٢٥ ـ ﴿ادخلوها بسلام﴾.

(٢) «ملحق البدر الطالع»: ٢/٢٣٨ ـ ٢٤٠.



مختارات القرن الثاني عشر
من كتاب
«نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني»

للشيخ

محمد بن الطيب القادري



الكوراني

أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكوراني المدني، أصله من شهرزور من جبل الكرد. وفي القاموس شهرزور مدينة زور بن الضحاك. وقال في زور إنه ملك بني شهرزور. انتهى.

وقال عبد الحق في «اختصار اقتباس الأنوار» للرشاطي: شهرزور نهر من بلاد أذربيجان.

(١) ثم قال وأنشدنا الفقيه الحافظ أبو علي الصدفي قال: أنشدنا أبو محمد السراج لنفسه:

وعدتِ بأن تزوري كلَّ شهر فزُوري قد تقضَّى الشهرُ زُوري

وشقةُ بينِنا نهر المعالي إلى البلد المسمى شهرزُورِ

وشهر صدودك المحتوم صدقٌ ولكن شهر وصلِكِ شهر زُورِ

قال أبو عبد الله محمد الطيب بن محمد بن عبد القادر الفاسي في «فهرسته» في حق صاحب الترجمة ما نصه: نشأ ببلده وقرأ هنالك ومهر في المعقولات والعربية، ثم قدم بغداد وأقام بها ثم ارتحل إلى دمشق ثم إلى مصر ثم إلى الحجاز وأقام بالمدينة المنورة، وتوفي سنة إحدى ومائة وألف، ودفن بزاويته بالمدينة المشرفة. وولد سنة خمس وعشرين وألف. وله مؤلفات كثيرة في فنون شتَّى ويروي عن مشايخ كثيرين مذكورين في فهرستِهِ انتهى كلام صاحب الفهرسة المذكورة.

وقد أغفل رحمه الله تعالى بيان مسائل شنيعة معروفة عن صاحب الترجمة ذكرها عنه أئمة عصره:

(١) فمنها القول بأن القدرة محدثة تؤثر في أفعال العباد وإن قيدها بأقدار الله تعالى قدرها وألّف في ذلك ثلاث رسائل لنصرة قوله ورد على إمام الحرمين في ذلك وقد انتصر الأئمة للرد عليه في ذلك منهم الإمام سيدي المهدي بن أحمد الفاسي وقد ألف رسالة في الرد عليه بما لا مزيد عليه.

(٢) ومنها أنه ألّف في تصحيح مسألة الغرانيق التي يذكرها بعضٌ في تفسير سورة النجم.

(٣) قال في «النبذة»: وسمعت أنه ألف تأليفاً في شبيه المعدوم ينتظر به للمعتزلة ثم سمعت أن له تأليفاً في إيمان فرعون لعنه الله وكذا سمعت أن له تآليف متعددة في إحياء أمور أمثال هذه وندرتها في هذا الزمان الذي رق فيه الدين وعم الجهل والتقليد وقلة اليقين واتباع كل ناعق انتهى.

(٤) وأما مسألة الغرانيق فألّف فيها صاحب الترجمة رسالة سماها «اللمعة السنية في تحقيق الإلْقاء في الأمنية»، وقد رأيتها ومضمنها الكلام على ما روي أن النبي ﷺ لما قرأ سورة والنجم قال: «أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّى وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَى تِلْكَ ٱلْغَرَانِيقُ ٱلعُلَا». القصة المشهورة عند المفسرين وصحح صاحب الترجمة حديثها، وهو حديث باطل وقصة موضوعة.

(٥) قال عياض في «الشفا»: هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سالم متصل وقد نفى القصة غير واحد من حذاق المفسرين كأبي حيان والبرهان البقاعي وغيرهما ولو سلم صحة حديثها جدلاً لكان خبر آحاد معارض بالقاطع وهو وجوب العصمة فلم تبق عبرة به.

(٦) والحال أن هذه القصة ليس لها وجه أَصْلاً وقول شيخ شيوخنا أبي عبد الله المسناوي: وكان رأي شيوخنا فيه أي في صاحب الترجمة مختلفاً في كيفية الرد عليه، فمنهم من سلك مسلك الملاطفة والشفقة. ومنهم من سلك مسلك الغلظة والرد والزجر ليعترف بقدره وما أدب به من كلامهم.

(١) وأما رد كلامه فقد اتفقوا عليه بأنه بلغ من الشناعة والبشاعة والخروج عن السنة غاية ذلك. وأما ثناء صاحب «الرحلة» عليه، يعني أبا سالم العياشي، وثناء غيره عليه من الأئمة ممن ألف الفهارس وغيرهم فالمقام اقتضَى ذلك. إذ ليس ذلك المقام مقام الرد والبحث عن القدح والتجريح والتعديل وبيان من تكلم أو اتهم أو رمي بشيء من البدع وتحقيق المسائل وإنما هو عد الأشياخ وذكر أسانيدهم ومروياتهم وأشياخهم ومؤلفاتهم. وقد طلب القاضي عياض مع جلالته من الزمخشريّ الإجازة مع اشتهار اعتزاله وبدعته وتعصّبه، وفي رجال الصحيحين وغيرهما من كُتُب الحديث الصحيحة المحتج برجالهم فإنهم قد خرّجوا عن كثير من المبتدعة غير ما رووا من بدعتهم واحتجوا بهم وقد ترجم لهم الأئمة وأثنوا عليهم بالحفظ والضبط وبينوا بدعتهم فينحط من رواياتهم ما رووا مما هو دعي إلى بدعتهم، ومن الشيوخ من كان لا يبين ما رُمِيَ به بعضهم بل ينفر عن مطالعة كتابه وكلامه ويحذر من النظر فيه وكذلك فعل بعضهم بمن رُمِيَ من الصوفية وكان يقول إن فهمه قبيح وكلامه في علم الباطن وطريق القوم وبعض مسائل الاعتقاد، والله أعلم بحقيقة حال ذلك.

(٢) ونحو هذا ذكره الشيخ زروق وغيره في كتب الحاتمي[١] وما ضاهاها.

(٣) ووقفت على جواب للشيخ ولي الدين العراقي في المسألة مدار كلامه على أنه يتكلم في الكلام بما يعطيه ظاهره ولا يتعرض للقائل لاحتمال أن يكون مراده غير ظاهره أو تاب من ذلك قبل موته. انتهى[٢].

اليوسيّ

الإمام الكبير، المحقق الشهير، أُعجوبة الدَّهر، ونادرة العصر، سيف السنة القائم عن وجود أهل عصره، بجزيل المنة، أبو علي الحسن بن

---

(١) أي ابن عربيّ.

(٢) «نشر المثاني»: ٣/ ٥ ـ ١٥.

مسعود اليوسي. قال في «محاضراته»: أنا الحسن بن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف وهو أبو القبيلة ابن داوود ابن يدراسن بن يلنتي. فهذا ما نعد من النّسب. ثم قال: وأما اليوسي فأصله اليوسفي كما مرّ من أن يوسف هو أبو القبيلة ويسقطون الفاء في لغتهم.

قلت: وهذا أعجب، فإن جده يوسف هذا هو رابع الآباء ومع قربه من زمنه تفرع منه خلق كثيرون فإن القبيلة اليوم كبيرة جداً ولا عجب من أمر الله.

(١) كان صاحب الترجمة رحمه الله عالماً ماهراً في المعقول والمنقول بحراً زاخراً في المعارف والعلوم، وخُص عن أهل عصره بالصدع بالحق بين يدي خليفة الوقت اعتناء به ومبالغة في نصحه ومحبته فيه راجياً منه أن يكون على سيرة الخلفاء الراشدين.

(٢) وقياماً منه بالذب عن الدين وحماية للرعية وحرصاً على سنن المهتدين تواتر في ذلك قضايا متعددة. وأقبل الناس عليه إقبالاً عظيماً، فكان حيثما قرأ أطبق الناس عليه وغص عليه المجلس بالخلائق، ما لا يتفق لغيره، مع استمالة العامة إليه، فكان بسبب ذلك لا يدعه السلطان يتقرّر في موضع، بل يأمره بالرحيل لموضع آخر فيكثر الناس عليه أكثر من ذلك وهلم جراً.

(٣) كتابه «المحاضرات» لم يُسبق لمثله، ضمنه التعريف بنفسه وأفصح عن معان كثيرة، وتخلص لوجوب عدم الإذعان لأهل المناصب، ومنه الحسد ونقل محفوظات كثيرة نظماً ونثراً في العزلة والصبر على الأذى والإعراض عن السُّفهاء والتأسّف على ذهاب ذوي الفضل وخلو الدنيا من أهل العلم والجود والكرم.

(٤) فمن ذلك قول القائل:

ذَهَبَ ٱلَّذِينَ إِذَا رَأَوْنِي مُقْبِلاً ... هَشُّوا وَقَالُوا مَرْحَباً بِٱلْمُقْبِلِ
وَبَقِيتُ فِي خَلْقٍ كَأَنَّ حَدِيثَهُمْ ... وَلَغُ ٱلْكِلاَبِ تَهَاوَشَتْ فِي مَنْهَلِ

(١) ومن ذلك:

مَضَى دَهْرُ آلسَّماحِ فَلاَ سَمَاحُ ... وَلاَ يُرْجَى لِذِي كَرَمٍ فَلاَحُ
رَأَيْتُ آلنَّاسَ قَدْ مُسِخُوا كِلاَباً ... فليس لَدَيْهِمُ إلاَّ آلنُّبَاحُ
وَأَضْحَى آلظُّرْفُ عِنْدَهُمُ قَبِيحاً ... أَلاَ وَآللَّهِ إنَّهُمُ آلْقِبَاحُ

فأشفَى الغليل راجياً القليل وأطال جداً لما بيَّن به آفة القال والقيل، جزاه الله جزاء المتقين وأدام أمثاله حماية للسنة والدين.

(٢) ولصاحب الترجمة مراسلات ومحاورات مع السّلطان المظفر الهمام أبي النصر المنصور بالله أمير المؤمنين مولانا إسماعيل بن الشريف الحسني السجلماسي، ووقفت على رسالة من ذلك نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلَّى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم، ورضي الله تعالى عن الخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلى خليفتنا أمير المؤمنين الإمام قطب المجد ومركزه، وفخار الفخار ومئزره، وأساس الشرف ومنبعه، ومناط الفضل الشامخ ومجمعه، السّلطان الأعظم، الأجل الأفخم مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف لازالت أعلامه منشورة، وأيامه على العز واليمن مقصورة، وسلام على مولانا ورحمة الله تعالى وبركاته. هذا ولا زائد عندنا سوَى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والإجلال، والدعاء له بصلاح الحال، وذلك بعض ما أوجبته يده علينا المبسوطة بالبر والإحسان، والتفضل والامتنان، والتوقير والاحترام، والإنعام والإكرام، مع ما له علينا وعلى غيرنا من الحقوق التي أوجبتها منزلته السّلطانية، ومثابته العلوية الفاطمية، فكتبنا هذه البطاقة، وهي في الوقت منتهى الطاقة، وكنا كثيراً ما نرى من سيدنا التشوف إلى الموعظة والنصح، والرغبة في افتتاح أبواب الربح والنجح، فأردنا أن نرسم لسيدنا بعض ما إن وُفِّقَ للنهوض إليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة، والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة، ورجونا وإن لم نكن أهلاً لأن نعظ أن يكون سيدنا أهلاً لأن يتعظ، وأن يحتمي من جميع المذام ويحتفظ. فليعلم سيدنا أن الأرض

وما فيها مُلك لله تعالى لا شريك له، والناس كلهم عبيد لله تعالى وإماء له والسلطان واحد من العبيد وقد ملكه الله تعالى عبيده ابتلاء وامتحاناً، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عباده وله الدرجة العالية عند الله تعالى، وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والإفساد فهو متجاسر على مولاه في مملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير حق ومتعرض لعقوبة الله تعالى الشّديدة وسخطه. ولا يخفى على سيدنا حال من تسلّط على رعيته يروم تملكهم بغير إذنه كيف يفعل به يوم يتمكن منه، ثم نقول إن على السلطان حقوقاً كثيرة لا تفي بها البطاقة، ونقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها: **الأول**: جمع المال من حق وتفريقه في حق. **الثاني**: إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله، وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج من عدد وعدة. **الثالث**: الانتصاف للمظلوم من الظالم، وفي معناه كفّ كل يد عادية عليهم منهم ومن غيرهم. وهذه الثلاثة قد اختلت كلها في دولة سيدنا، فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع أو بالغفلة، فإن تنبّه وفعل فقد فاز وفي ذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة، وإلا فقد أدّينا الذي علينا.

(١) أمّا الأمر الأول فليعلم سيدنا أن المال الذي يجبى من الرعيّة قد أعده الله تعالى للمصالح التي ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من أهل البيت والعلماء والقضاة والأئمة والمؤذنين والمجاهدين والأجناد والمساجد والقناطير وغير ذلك من المصالح، ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن الوصول إلى قبضها إلا بوكيل، ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل، فإن استوفَى الوكيل الدين بلا زيادة ولا نقصان وأدّاه إلى اليتامى بحسب ما يجب لكل فقد برىء من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم وحصل له أجران: أجر القبض وأجر الدفع، وإن هو زاد على الدين الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم للمديان، وإن نقص بغير موجب فهو ظالم لليتيم وكذا إن استوفَى الديون وأمسكها ولم يدفعها لأربابها فهو ظالم لهم. فلينظر سيدنا فإن جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا

اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس ديناً ولا دنيا، أما الدنيا فقد أخذوها، وأما الدين فقد فتنوهم عنه وهذا شيء شهدناه لا شيء ظنناه، ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم. فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكلام من يزين له الوقت، فإن أكثر الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون الله ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب، وفي أفضلَ منهم قال جد سيدنا أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: المغرور من غررتموه، وأن يتفقد المصالح ويبسط يد الفضل على خواص الناس وأهل العلم والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل:

أَفَـادَتْكُمُ ٱلنَّعْمَـاءُ مِنِّي ثَـلَاثَـةً ... يَـدِي وَلِسَانِي وَٱلضَّمِيـرَ ٱلْمُحَجَّبَـا

(١) وقد جُبلت النفوس على حب من أحسن إليها، ولا يُهملْهم فيتمنّوا غيره ويتطلبوا دولة أخرى كما قيل:

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ فِي دَوْلَةِ ٱمْرِىءٍ ... نَـصِيـبٌ وَلَا حَظٌّ تَمَـنَّـى زَوَالَـهَـا

وَمَـا ذَاكَ مِنْ بُغْضٍ لَهَا غَيْـرَ أَنَّـهُ ... يُـرِيدُ سِـوَاهَا فَهْـوَ يَهْوَى ٱنْتِقَـالَهَـا

وليعلم سيدنا أن السلطان إذا أخذ أموال العامة ونثرها في الخاصة وشيد بها المصالح فالعامة يَدْعون له ويعلمون أنه سلطان وتطيب قلوبهم بما يرون من إنفاقِ أموالهم في مصالحهم وإلا فالعكس، وأيضاً السلطان متعرض للسهام الراشقة من دعوات المظلومين من الرعية، فإذا أحسن إلى الخاصة دعوا له بالخير والسلام والبقاء فقابل دعاء بدعاء والله الموفق.

(٢) وأما الأمر الثاني فقد ضاع أيضاً، وذلك أنه لم يتأت في الوقت الآن عمارة الثغور وسيدنا قد غفل عنها. فقد ضعفت اليوم غاية. وقد حضرت بمدينة تطاون أيّام مولانا الرشيد رحمه الله فكانوا إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلاً ورماة: وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخاً من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصيّ والمقاليع، وهذا وهن في الدين وغرر على المسلمين، وإنما جاءهم الضعف من المغارم

الثقيلة وتكليفهم الحركة واعطائهم العدة كسائر النـاس. فعلى سيدنـا أن يتفقّد السّواحل كلها من القليعة إلَى ماسة ويحرضهم على الجهاد والحراسة بعـد أن يحسن إليهم ويعفيهم مِمَّا يكلف بـه غيـرهم ويتـرك لهم خيلهم ورجالهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجـون إليه، فهم حمـاة بيضة الإسـلام ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهـاد ونجدة في المضايق وغيرة على الإسلام وأهله ولا يولي فيها مَنْ همته ملء بطنه والاتكاء على أريكته.

(١) وأما الأَمر الثالث فقد اختل أيضاً لأَن المنتصبين للانتصاف بين الناس هم العمال في البلدان وخدامهم وهم المشتغلون بظلم الناس. فكيف يزيل الظلم من يفعله؟ ومن ذهب يشتكي سبقوه إلى الباب فزادوا عليه فلا يقدر أحد أن يشتكي. فليتّق سيدنا دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب، وليجتهد في العدل فإنه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. ثم ذكر المنصورين وشرائط النصر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾. فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الأمور الأربعة، فمتَى اختل عليهم أمر الرعية وتسلط عليهم من يفسد عليهم الدولة علموا أن ذلك من إخلالهم بهذه الأمور، فكان عليهم الرجوع إلى الله تعالى وتفقّد ما أمرهم به ورعاية ما استـرعاهم إيـاه. وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور لا يثبت معه الملك ولا يستقيم وأن العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفـر، وقد عـاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا يتحافظون عليه من العدل في الرعية استصلاحاً لدنياهم،

فكيف بمن يرجو صلاح الدنيا والدين والآخرة. وقال بعض الحكماء: الملك بناء والجند أساسه. فإذا ضعف الأساس سقط البناء. فلا سلطان إلا بجند، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية إلا بعمارة. ولا عمارة إلا بالعدل، فالعدل أساس الجميع، وصنع أرسطاطاليس الحكيم للاسكندر الشكل المستند عنه وكتب عليه: العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تعضده السنة، السنة سياسة يسوسها الملك، الملك راع يعضده الجيش، الجيش أعوان يكفلهم المال، المال رزق يجمعه الرعية، الرعية عبيد يقودهم العدل، العدل مألوف وبه صلاح العالم، العالم بستان انتهى. وقال ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ فَٱلإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». وقال ﷺ: «إِنَّ رِجَالاً يَخُوضُونَ فِي مَالِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ لَهُمُ ٱلنَّارُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ». وقال ﷺ أو كما قال: «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي وِلَايَةً إِلَّا جَاءَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَيَدَاهُ مَغْلُولَتَانِ. فَإِمَّا عَدْلٌ يَفُكُّهُ وَإِمَّا جَوْرٌ يُوبِقُهُ». وعن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره بالأبطح فقلت: يا أمير المؤمنين، أين تسير؟ قال: بعير شرد من إبل الصدقة أطلبه. فقلت: أذللت الخلفاء من بعدك. فقال لا تلمني، والذي بعث محمداً [بالحق] عليه السلام لو أن عنقاً[1] ذهبت بشاطىء الفرات لأُخِذَ بها عمر يوم القيامة، ألا إنه لا حرمة لوال ضيع المسلمين، وقد رأى رضي الله عنه شيخاً يهودياً يسأل على الأبواب فقال عمر: ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية ما دمت شاباً ثم ضيعناك اليوم. وأمر أن يُجرى عليه قوته من بيت المال. وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل في نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال إلا بحق وليسأل العلماء عما يأخذ وما يعطي وما يأتي وما يذر وقد كان بنو إسرائيل يكون فيهم الأمير على يد نَبي، فالنبي يأمر والأمير ينفذ لا غير،

---

(١) لو كانت الكلمة هكذا فمعناها سَيْر الدابة، ولو كانت عناقاً ـ كما هو مشهور ـ لكانت: أنثى المعز.

ولمّا كانت هذه الأمة المشرفة انقطعت النبوءة بنبينا خاتم النبيين ﷺ وعلى إخوانه النبيين، فلم يبق إلا العلماءُ يُقتدَى بهم. قال ﷺ: «عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ». فكان حقاً على خلفاء هذه الملة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذاً وعطاءً. وقد توفي النبي ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه وكان قبل ذلك يبيع ويشتري بالسّوق لِعياله، فلما بويع أخذ متاعه إلى السوق على عادته حتّى رده علماء الصحابة وقالوا له: إنك في شغل بأمر الخلافة عن السوق، وفرضوا له ما يكفي عياله وجعلوا المال على يد أمين وكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره، وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده. فعلى سيدنا أن يقتدي بهؤلاء الفضلاء، ولا يقتدي بأهل الأهواء ويسأل من معه من الفقهاء الثقات كسيدي محمد بن الحسن وسيدي أحمد بن سعيد وغيرهما من العلماء العاملين الذين يتقون الله ولا يخافون في الله لومة لائم فما أمروه به مما ذكرناه ومما لم نذكره فعله، وما نهوه عنه انتهَى، هذا سبيل النجاة إن شاء الله تعالى، نسأل الله أن يرزق سيدنا توفيقاً وتسديداً وإرشاداً وتأييداً وأن يصلح بوجوده البلاد والعباد وأن يحسن بسيفه أهل الزيغ والفسد آمين والحمد لله رب العالمين. وكتب العبد الفقير الذليل الحسن بن مسعود اليوسي تاب الله عليه آمين، انتهَى.

(١) والأحاديث التي ذكر كلها في الصحيح بالألفاظ التي ذكر وبغيرها إلا أن قوله: ما من وال الخ الذي عزاه المنذري «لصحيح ابن حبان» من رواية إبراهيم بن هشام الغساني عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولةً يمينُهُ فكه عدلُه وغله جوره» انتهَى. وأورد المنذري في «ترغيبه» أَحاديث كثيرة في هذا المعنى، وأما حديث: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، فقال السيوطي في «الدرّ المنثور»: لا أصل له. نعم أخرج صاحب الترجمة الأربعة عن أبي الدرداء: علماء أمتي ورثة الأنبياء.

(١) وكان الخليفة مولانا إسماعيل المذكور يثني عليه خيراً، ومما يحكى عنه في ذلك أنه كان يقول: علماء الوقت على أربعة أقسام: قسم لا يخاف إلا من الله ولا يخاف منا، يعني نفسه، وقسم يخاف من الله ومنا، وقسم يخاف منا ولا يخاف من الله، وقسم لا يخاف من الله ولا منا، ويمثل للقسم الأول بصاحب الترجمة وتركنا ذكر أصحاب التماثل الثلاثة إذ كل نفس بما كسبت رهينة، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم.

(٢) وقد فاز صاحب الترجمة بدينه فلم يتحمل بشيء من غمزات المسلمين إلا ما سعَى لهم في المصالح وارتكاب المخاطرة في إرشاد السلطان إلى ما هو واجب عليه بأشد من الخطاب المتقدم في الرسالة المنقولة مشافهة حيث سعَى للمسلمين في المصالح ونصح الخليفة المذكور غير ما مرة وقد راجعه برسالة أخرى أطول من هذه جواباً عن ما نعته به بطانة السلطان الذين يلونه ويقربون منه، واجتمع معه وشافهه، وقضاياه معه كثيرة. وكان صاحب الترجمة غاية في الجود والسخاء وجامعاً لكثير من الأخلاق العظيمة.

(٣) وقد استعار منه عمنا الأرضَى النزيه الأديب الفقيه الصوفي أبو العباس أحمد ابن الفقيه العدل الأرضَى عبد القادر القادري الحسني نسخة من «قوت القلوب» لأبي طالب المكي كان يملكها وخاطبه بهذين البيتين:

أَحَبْـرَ المؤمنين أتيتُ قصداً لِبابك كي أُحصلَ مِن نصيبِ
وها قلبِي بجوع الجهل يفنَى وعندك سيِّدي قوتُ القلوبِ

فأرسله إليه في الحين وقال له: هو لك.

(٤) ولصاحب الترجمة فهرسة جيدة وقد أشار فيها لعلوم كثيرة وفوائد غزيرة، ولما أشار إلى علم التاريخ قال فيه: فقد يقع في الدول من أول المملكة الإنسانية، وقد يختص بخبر دون غيره، وقد يختص بالدولة الإسلامية، وقد يكون في أعمار الأعيان ووفياتهم، وقد يكون في اختطاط البلدان أو المساجد والرباطات ونحو ذلك، وكل ما يحتاج فيه إلى شيء من

أمور الشرع كتاريخ سكة معلومة أو مكيال معلوم أو مسجد عتيق أو التقَى فلان من الرواة بفلان أو مكان التقائه، أو كـون فلان من المتقـدمين أو المتأخرين أو من الصحابة أو لا وغير ذلك، فهو داخل في العلوم الشرعية وما سوَى ذلك فخارج عنه غير أنه إن أفاد فائدة أخرى كالاعتبار والاستبصار وكالاهتزاز لوصف محمود بسماع أخبار من اتصف به من صلاح أو عبادة أو زهـد أو شجاعـة أو حِلم أو سخاء ونحـوه وغير ذلـك من المصالـح فهو محمود. انتهَى.

(١) ومن فوائده الجليلة أنه ذكر حقيقة الإقراء فقال: الإقراء تصحيح المتن وحل المشكل والزيادة على هذا ضررها أكثر من نفعها. قال: ولا بد أن يدرج فيما ذكر من تصحيح المتن أو حل المشكل التنبيهُ على النقص أو الحشو وتوجيهُ ما يحتاج إلى التوجيه ونحو ذلك، فهذا وظيفة الإقراء، وهذا كله للمبتدىء. وأما غيره فيعامل بما يليق به.

(٢) ولد صاحب الترجمة سنة أربعين وألف ونشأ في ديانة وعفة وصيانة قال في «فهرسته»: وكنت أطالع «المورد العذب» للجوزي و«بحر الدموع» له فأطالع حكايات الصالحين كأويس القـرني وإبراهيم بن أدهم وإبـراهيم الخواص وغيرهم فانتقشت تلك المآثر في عقلي ووقعت حلاوتها في قلبي فكان ذلك بذرا لما أنعم الله به عليّ من الإيمان بالطريقـة ومحبة أهلهـا انتهَى.

ثم تصدر للأخذ عن المشايخ.

ولصاحب الترجمة مؤلفات منها «زهر الأكم في الأمثال والحكم»، وله «حاشية جليلة على مختصر »الشيخ السنوسي في المنطق وشرحه، وكتاب «المحاضرات» و«ديوان» في الشعر ساجل به فحول البلغاء من المتقدمين وله كلام في كراريس مع قاضي سجلماسة الشيخ عبد المالك التجموعتي في قوله ﷺ: «أوتيت عِلْمَ كلِّ شيء».

قال بعض تلامذته: وقد حدثني بعض الثقات أن جميع من لقيه من

الأشياخ يتعجب من إدراكه وتحصيله وإتقانه ويقول: يكون لهذا الرجل شأن عظيم في الإدراك السليم، ومما كتب له به أستاذه أبو عبد الله بن ناصر:

أَبَا عَلِيٍّ جُزِيتَ ٱلْخَيْرَ وَالنِّعَمَا وَنِلْتَ كُلَّ ٱلْمُنَا [مِنْ] رَبِّنَا قَسَما

يَا مَرْحَباً بِكَ كُلَّ ٱلرَّحْبِ لاَ بَرِحَتْ قَرَائِحُ ٱلْفِكْرِ مِنْكَ تَجْتَنِي حِكَمَا

(١) ولما خاطبه الشيخ بهما أخذ علمه في الزيادة وفاض بحره وعظم في الرتبة قدره، ومن مُلَحه أن بات عنده جماعة من الفقهاء فأرسل إليهم مع ظرف الطعام هذين البيتين:

كُلُوا وَاعْذِرُونِي فِي ٱلتَّخَلُّفِ إِنَّنِي رَأَيْتُ ٱتبَاعَ ٱلظَّرْفِ لَيْسَ مِنَ ٱلظَّرْفِ

وَأَحْسَنُ ظُرْفِي تَرْكُ ضَيْفِي كَمَا يَشَا وَلَيْسَ ارْتِقَابُ الظَّرْفِ مِنْ شِيَمِ الظَّرفِ

وكان قدومه من الزاوية البكرية إلى فاس وسكناه بها آخر المحرم سنة تسع وسبعين وألف، وبقي بها إلى سنة أربع وثمانين ثم ارتحل عنها ورجع إلَى فاس فدخلها أيضاً في شوال عام خمسة وتسعين.

وكان لصاحب الترجمة أصحاب وأتباع وإقبال من الناس، ولا يكون مجلسه إلا غاصاً بالأعيان. وكان محققاً للدراية والرواية، له عارضة كبيرة في النقل والتحقيق. وحُكي لنا أنه بقي في تدريس تفسير الفاتحة بفاس نحو ستة أشهر. وهو ممن يستحق أن توضع مجلدات في ترجمته.

(٢) وتوفي ـ رحمه الله ـ عقب قفوله من الحج يوم الاثنين خامس عشر ذي الحجة متم عام اثنين ومائة وألف، ودفن بازاء داره بموضع يعرف بقرية تَمْزِيزِيت بقرب قرية صفرو على أقل من مرحلة من فاس. ونقل بعد نحو عشرين سنة إلى موضع آخر هنالك فوجد كما دفن ـ رضي الله عنه ـ على ما حكي. ووقع مثل هذا للشيخ الجزولي فإنه نقل من مدفنه أولاً إلى مراكش بعد مدة تزيد على سبعين سنة فوجد كما دفن ومثل هذا معلوم وقع لغير واحد من الأولياء.

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/ ٢٥ ـ ٤٩.

ومن حوادث السنة[١١٠٢ هـ]

فتح مدينة العرائش:

ومن حوادث هذا العام فتح مدينة العرائش، وذلك أن أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الخليفة مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف الحسني السجلماسي وجه إليها الجيوش مع وزيره القائد عبد الله الرويسي وأكثر عليهم من الأمر بالقتال ونسب إليهم عدم النصح. وألحوا بالقتال على من بها من الروم إلى أن اقتحموها عنوة وفتحوها وغنموا أهلها.

ومما كتب به مولانا إسماعيل إلى قائده عبد الله الرويسي ما نصه بعد البسملة والتصلية: خديمنا القائد عبد الله بن حمدون الرويسي سلام عليك ورحمه الله وبركاته وأصلح الله رأيك وسهل علينا في فتح العرائش وجعله على يديك. واعلم أنك عندي ممن لم يتهم في خدمتنا ومن أنصح الناس إلينا وتحب الخير إلينا أكثر من جميع الناس، وليس عندي في خدامي مثلك ولا أعز منك كما تعلم مني ما ذكرته لك. ثم الآن ظهر لي أنك غير ناصح لدين الإسلام حيث وجهتك إلى فتح العرائش ولم تقم بالواجب الذي عينته عليك. ويجب على من ولاه الله أمر المسلمين مثلنا إذا ولى أميراً على القتال أن يكون من أهل النجدة في القتال، ومن أهل المحبة في نصر دين الإسلام ومحو دين الكفار. فاخترناك عن غيرك ووجهناك لذلك لظننا أن فيك ما وصفناه لك، والآن خاب المظنون فيما نويناه فيك، والله هو حسبي وحسبك ونعم الوكيل. وإن أردت أن نقدم عليكم بنفسي وما يكون ما ينوب المسلمين من الكلفة أنت المتحمل بإثمِه فأنا فاعل ذلك، وليس أنا أفضل ممن فعل ذلك قبلي ولا أنت أفضل من سيف الدولة ولا أبي فراس وابن حمدان الذين قاموا بما وجهناك إليه عند غيرنا. في ١٣ من ذي العقدة عام ١١٠٠.

فلما قرأ الرويسي هذا الكتاب بكى وقال هو وصفني بما ذكر في

خدمته لم يسألني لأن ذلك من فعل الخلفاء لأمرائهم، وحيث وصفني بعدم النصح للإسلام أخذت في نفسي عليه[1].

ثم تقلد سيفه وما نزعه حتّى فتحت، واشتد في القتال ليلاً ونهاراً وما نام ليلة إلى أن فتحت. فجيء أولاً بمن كان بها من المقاتلة أذلّة سوى من هو ساكن بها وممن هرب في البحر فبلغ عدتهم إلى ألف وسبعمائة. فمنَّ مولانا إسماعيل على طاغيتهم وأطلقه فقط وأرسله إلى بلاده، قصده بذلك إيصال الخبر. ثم أمر بمجيء من بقي من سكانها من الروم فجيء بهم عن آخرهم إلى مكناس بنسائهم وذراريهم، ولم يحضرني الآن تحقيق عددهم. وأما الأموال والأقوات والسلاح فبدا للمجاهدين في ذلك ونهبوه ولم يتأت إلى أمير المؤمنين جمعه وتخميسه لعدم الحصر فيه فعفا عمن فعل ذلك ووكل أمره إلى الله، ولم يحصل له منه إلا المدافع والمهاريز، واكتفَى بفوز الفتح والأسر، وقيل في فتحها قصائد[2].

محمد بن الحسن المجاصي

القاضي الشهير، الفقيه العلامة المدرس المفتي النافد البصير، الخطيب البليغ الواعظ، المحقق المحرر الحافظ، أبو عبد الله محمد بن الحسن المجاصي به شُهِر، وفي بعض التقاليد: المغراوي من مغراوة الجزائر. لم يبينوا حاله في القضاء وإنما ينسبونه للعلم والتدريس. ولي قضاء فاس الإدريسية آخر جمادى الثانية عام تسعة وسبعين وألف بعد عزل حمدون المزوار. وفي ثامن وعشرين من رجب أربعة وثمانين وألف ولي خطبة مسجد القرويين وفي رابع القعدة من عام ثمانية وثمانين عزل عن القضاء والخطبة والفتوَى وولى القضاء والخطبة والإمامة والفتوَى مكانه العربي بردُلة، ثم طلب صاحب الترجمة من بردلة أن يوليه بعض ما ولي

---

(١) جاء هذا الكلام مضطرباً كما ترى.

(٢) «نشر المثاني»: ٣/ ٤٩ ـ ٥٣.

فامتنع فأخذ صاحب الترجمة في التدريس في القرويين من غير ولاية إلى أن ولاه مولانا إسماعيل قضاء حضرة مكناسة الزيتون.

(١) وسبب ولايته قضاء فاس أن أمير المؤمنين مولانا الرشيد بن الشريف الحسني رفع حكماً إلى قاضي فاس حمدون المزوار فلم يتضح له بما يحكم به وطال أمر الخصمين وهما ينتظران القاضي فيما يحكم به بينهما وهو يقول لهما لم أجد الآن نصاً في المسألة أمهلوني حتّى أنظر ما أحكم به بينكما. فوشي به إلى مولانا الرشيد أنه يداهنه فعزله، وقال لا أولي على أهل البلاد إلا من كان غريباً ليس من أهلها فيكون الناس عنده سواء ولا يداهن أحداً. فنظر إلى الطلبة الذين في المدارس فلم يجد فيهم أنجب من صاحب الترجمة، ففي الحين ولاه قضاء فاس، فسلك فيه مسلكاً حسناً.

وكفى به أن سيدي الحسن اليوسي ارتضاه للمشورة لما كتب الرسالة المتقدمة في ترجمته إلى مولانا إسماعيل فراجعها.

(٢) وهذه المسألة مما اختصت بها فاس فما ولي أحد من أهلها ولاية إلا وكان بعض أهل تلك الخطة في أشرّ حال ونفاق، وما ولي أحد خطة من غير أهلها إلا وكان أهل تلك الخطة بخير، فإذا أساء فيهم سهل عليهم الشكاية به، بخلاف إذا كان الوالي منهم فإنه يصعب عليهم الشكاية به من نفاق من هو ينافقه منهم وما أراده السلطان من اتخاذ القاضي غريباً هو من أسباب العون على العدل وتيسيره، وما زال أهل العدل يحتاطون لذمتهم بالعزلة، وله أجوبة حسنة تدل على ما له من العارضة في العلوم.

(٣) وله تقييد في الأشراف الجوطيين وقد قال في آخره: أدركت والدي رحمه الله وعمّاً لِي من حملة القرآن العظيم وهو ابن الصغير ابن يعقوب المغراوي، وينتمون للجانب العلوي ولا يرتفعون في ذلك. ورأيت رسم شرفه وظهائر لا أدري أين صارت. وكان أبي يقول إنهم من ذرية ولي صالح مشهور يدعى بسيدي يعقوب أو بأبي يعقوب وإنهم يعرفون هناك ببني مرزية سموا ببيت يعرف بذلك. أما أبي فإنما ولد بحوز فاس ببني ورثين على

ما حدثنا به، وبأيديهم رسم الإراثة بشيوخ مسنين ممن أدرك الأب والعم والله يحقق لنا النسبة الروحانية ويرعانا بعين رعايته في الدارين وأدعو بدعاء العارف بالله: اللهم الحقني بنسبه وحققن بحسبه والسلام على من يقف عليه محمد بن الحسن المجاصي بتاريخ تسعة وتسعين وألف. انتهى.

(١) وهو مما يدل على شدته وقوته في دين الله حيث لم يصرح مِن عنده لا بدخول في النسب ولا بخروج منه بل حكَى ما وقف عليه كما هو وطلب من الله تبارك وتعالى الإلحاق بهذا النسب العظيم وذلك هو مصدر قوله ﷺ فيما اتفق الجماعة على تخريجه من انتسب إلى غير أبيه أو انتمَى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

(٢) فالوعيد كما يشمل الداخل يشمل الخارج من نسبه الذي لا يعرف لنفسه سواه من غير وجه. فالاحتياط ما فعل هذا الشيخ ـ رحمه الله ـ وقد اتسع أهل هذا الزمان ومن قبلهم بهتك حرمة هذه النسبة بالانتساب لها من غير وجه ويبنون ذلك على أوهام لا حقيقة لها كما اتسع آخرون في هتك أعراض قوم منسوبين ولا مانع لهم من نسبتهم فينفونهم بأوهام وأباطيل لا يقبل الشرع شيئاً منها مع ما قام بهم من الجهل وعدم التمييز حتَّى في المسائل الضرورية من الدين. فليحذر العاقل من جميع ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

توفي عام ثلاثة ومائة وألف ودفن بمكناسة الزيتون[١].

من حوادث السنة[١١٠٤ هـ]

(٣) إزالة سارية عبد القادر الجيلاني من القرويين:

ومن حوادث هذه السنة، ففي عشرين من جمادَى الثانية أزيلت السارية التي كانوا ينسبونها لمولاي عبد القادر الجيلاني وكانت بالصف

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/ ٥٥ ـ ٥٨.

الأول من مسجد القرويين قرب الخلوة المنسوبة للشيخ المذكور بأمر من قاضي الوقت أبي عبد الله بردلّة.

(١) قال مؤلفه محمد بن الطيب: وهذه النسبة في السارية والخلوة وغيرهما جارية منذ قديم على لسان عامة أهل فاس، وهي من الكذب المحض بحسب ظاهر اللفظ، فإنهم يقولون خلوة مولانا عبد القادر الجيلاني فظاهره أنها محل متعبّده، إذ ذاك هو مدلول الخلوة، وهو من الكذب الصراح فإن الشيخ مولاي عبد القادر الجيلاني لم يدخل للمغرب أصلاً بل ولا خرج من مكانه لناحية، وإنما محل استقراره بغداد وما والاها. وإنما خرج للحج ورجع من عامه، وهذا لاشك فيه، ولكنهم يزعمون أن بعضهم رأى الشيخ عبد القادر الجيلاني مناماً في الموضع الذي سموه بالخلوة فصاروا يتبركون به لأجل ذلك. ومنهم من يزيد التبرك بماء من معدة بالمحجة التي تحتها لقسم ماء يمر لدور متعددة ويدخل يده فيها ويمر به على وجهه، وهذا أبعد. ولا شيء من ذلك يفيد بركة الشيخ عبد القادر الجيلاني، وإنما تنال بركته بالدعاء له والهداء والصدقة له وتلاوة القرآن على القول بوصولها للميت. نعم يتبرك بذلك الموضع من حيث كونه من المسجد الأعظم بفاس ومحل تلاوة القرآن ومطلق التبرك في مثل هذا قريب. وأما تتبعه وتأكيده كما عليه كثير من عامة فاس فلا شك أنه منكر، لأن ذلك الموضع إنما له من الحرمة ما لسائر المسجد وتصحّ فيه العبادات التي تصح في المسجد إن لم يقدح في ذلك التحجير القائم به الآن، وأما في القدر الزائد فلا يقع فيه العمل الموقوف له يقرؤون فيه. ومن هذا المعنىَ نسي الصحابة ـ رضوان الله عنهم ـ موضع شجرة بيعة الرضوان مع عظيم شأنها التي جلس النبي ﷺ تحتها وبايعه أهل الحديبية الذين هم أفضل الصحابة، وبايع بإحدَى يديه الأخرى عمَّن غاب ممن كان خرج معهم وذكرها الله في كتابه إذ قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآية، فلم يثبت على معرفة موضعها الصحابة الذين بايعوا تحتها فضلاً عن غيرهم مخافة أن يتطرق أمر لا يليق. قال

الشيخ اليوسي: نعم التبرك بآثار الصالحين مع صحة العقيدة لا بأس به وله أصل في فعل الصحابة فقد كان ابن عمر يمر براحلته حيث رأى النبي ﷺ ويتحرى الأماكن التي صلَّى فيها ﷺ وذلك مذكور في الصحيح. انتهى.

قلت: ويمكن البحث فيه بأن فعل ابن عمر من الحرص على السنة والمحافظة على الاقتداء به ﷺ لصحة العبادة ولما في فعله ﷺ من الأسرار التي لا يحاط بها والله أعلم. قال الشيخ اليوسي.

(١) وفي بلاد المغرب مواضع اشتهرت بمآثر الصالحين ووقع التغالي فيها، منها شالة في رباط سلا فلا يعرف بها إلاّ أنها مزارة يزورها الناس ويتبركون بها ولم يظهر من التبرك بالصالحين فيها لهذا العهد إلا يحيَى بن يونس وهو معروف بها، ولا تعرف له ترجمة، وملوك بني عبد الحق وهم معروفون بالظلم والجور وكل ما يذكر فيها سوى ذلك ويوجد في بعض الأوراق المجهولة من الأخبار فلا يعرف له أصل ولا يعوّل عليه، ومنها ميسُرة من بلاد ميسور حيث مدفن الشيخ أبي الطيب بن يحيى الميسوري، ويقال لها تامغروت قال بعض أولاد أبي الطيب: ما ثبت فيه شيء إلا أنه كان متعبداً لأسلافنا. قال ومنها رباط شاكر بدكالَة وهو مشهور وكان مجمعاً للصالحين من قديم. وفي «التشوف» أن شاكراً ذُكر أنه من أصحاب عقبة بن نافع الفهري انتهَى[1].

الرايس

الفقيه الأستاذ أبو زيد عبد الرحمان بن محمد المدعو الرايس الفاسي.
كان أستاذاً مجوداً مقرئاً جمع السبع على الشيخ أبي زيد ابن القاضي وغيره، وأخذ عن الحافظ الفاسي، وأحمد بن الحاج وغيرهم، وتولى إقراء الطلبة بمدرسة العطارين القرآن بالروايات. وكان يدرس «الألفية والشاطبية والكراريس والرسالة ونظم الرقعى»، فانتفع به أقوام. وكان ذا حالة مرضية.

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/ ٦١ ـ ٦٣.

(١) وكان يؤم بمسجد القفاصين من عدوة فاس القرويين، فكان يجمع بين العشائين بأدنَى سبب، فمرت بقرة بباب المسجد المذكور فقال بعض المداعبين يمازح صاحبها: أنهض بقرتك للسير لئلا تبول بباب المسجد فيجمع الإمام[١].

توفي عام تسعة ومائة وألف[٢].

اليمني

الإمام الولي الكامل، العارف بالله تعالى الصديق الشهير الفقيه العلامة الشريف أبو العباس سيدي أحمد بن الشيخ الولي الجليل أبي عبد الله سيدي محمد بن الشيخ العارف الكبير الولي الشهير أبي العلاء إدريس الشريف شهر باليمني. قال العلامة أحمد بن يعقوب الولالي في كتابه «مباحث الأنوار» في حق صاحب الترجمة ما نصه: أصله ـ رضي الله عنه ـ من اليمن، وكان لأهلَه ملكٌ وإمارة في بلدهم. وقد أخبرني من خالطه أنه فُتح عليه بما رفض به أهله وما لهم من الوجاهة وساح في الدنيا كما وقع لإبراهيم بن أدهم.

(١) وقال في «المقصد»: وسيدي أحمد اليمني شريف النسب، أصيل الحسب، إلا أنه لا يشيع نسبه بل لا يذكره، وصرح لبعض الأصحاب أنه ترك ذلك لله وهو من قرية يقال لها مَهَّلَو بين أَرْبجِي وبين سُنَّر مدينتان بصحراء بين أعالي صعيد مصر وبلاد السودان، بينهما نحو عشرين يوماً. بيتُه بيت ولاية وصلاح. يذكر أنه من ذرية سيدنا عبد القادر الجيلاني. انتهَى ثم قال بعد: جال في الأقطار برسم الحج ولقي المشايخ، وأتَى على بلاد السودان، وأتَى على سجلماسة وأقام بها، ودخل فاسا.

قال في «مباحث الأنوار»: ثم أطلع الله تعالى الشيخ اليمني بأن أظهره

---

(١) أي فيظن الإمام ذلك البول مطراً فيجمع.

(٢) «نشر المثاني»: ٣/ ٨٤.

للخلق إطلاع البدر فوق الأفق، فأضاءت به أركان ظلمات هذا المغرب، فلم يبق عالم ولا شريف ولا عامي إلا عرفه، وله من أحوال التوكّل وسقوط خوف الخلق وهمِّ الرزق ما بهر العقول، وله من الأخلاق السنية وحسن المعاملة ومعاشرة الخلق ما يشهد بسببه على صحة حاله المعقول والمنقول، وله دراية حسنة في علم الفقه، وله إشارات بادية في حال الكشف فتظهر كما أشار إليها، فترى الناس يشكون إليه أمر دينهم ودنياهم، ولا ينفصلُ عنه أحد إلا وقد فُرج عنه من بركته، إما بدفع ما خاف وإما بتقوية على ما نزل. وتَرى أصحابه يزدادون في معاني اليقين والتقوَى. وأنا أشار إلي بأمور فوقعت كما أخبر، وفرّج الله تعالى عني أموراً بلقائه، رضي الله عنه ؛ وأطال عمره للمسلمين.

(١) وقد زاره يوماً رجل يشكو بعض الولاة وأنه كلفه أن يدخل في جملة الجيش ويغزو مع الجيش بعض بلاد المسلمين، فلما رآه صادقاً في الرغبة عما كلف به قال له: لعلك لا تفعل ما آمرك به، فقال له: والله يا سيدي لأفعلنّ: فقال له إن كنت تفعله فاذهب لمن أمرك بالدخول في الرماة ليعطيك كل ما تحتاج إليه الرماة ويكمل عليك ما كلفك به، فقال له: يا سيدي ومِن هذا أفِرُّ، فقال له: ألم تقل إنك تفعل ما أمرتك به؟ فقال له نعم، فقال: لم أر ما يصلح بك إلا هذا. فأذعن ذلك الرجل وذهب ليدخل في الرماة الجيشية ويطلب كل ما يحتاج إليه، فلما تمثل بين يدي متولي أمر الجيش قال له: ما تريد؟ قال: أنا من جملة من قيّدتم في الرماة فأعطوني راتبي ومكحلتي والبارود والرصاص لأتهيأ. فتأمل فيه ذلك الوالي فأبدله الله تعالى بين عينيه، فرأى نفي الأَهلية عنه، فسبّه وسبّ من قيّده في الرماة فقال: اذهب لسبيلك فلست أهلاً لهذا، فرجع ذلك الرجل فرحاً، فقال له: يا سيدي عافاني الله من هذا الذي نزل وقصّ عليه الخبر.

(٢) وأخبرني بعض الثقات من علماء فاس أنه عقد على امرأة ولم يكن عنده ما يقوم به أمرها، فشكا إليه ذلك فقال له: اذهب بين المغرب والعشاء إلى مولانا إدريس وزره. قال ففعلت، قال: ولم أشعر [إلاّ] أن

ألقَى إليّ رجل أربعين مثقالاً حينئذ فبقيت متحيراً في ذلك الأمر، وكفتني في مؤونة المرأة.

(١) وأخبرني هذا البعض أيضاً أن عندهم امرأة خطبها بعض الناس فأبوا أن يزوجوه، فسُحرت فمرِضت وتقوّى ظننا أن ذلك الخاطب هو الساحر، قال: فشكوت إلى الشيخ أحمد اليمني أمرها فكأنه رأى أنه هو الساحر وأن مرضها من سحره. قال: فقال لي: وأين ذلك الرجل؟ هذا زمان ما رأيته. فبقيت لحظة من الزمان معه، فإذا ذلك الرجل داخل، فسلم عليه فقال له: يا سيدي إنا على الباب الفلاني من المدينة نريد الخروج لحاجة، فإذا قلبي كأنه مجذوب لأراك فلم أستطع أن أخطو خطوة حتَّى أراك فرجعت إليك. فلما فرغ من الكلام مع الشيخ قال له الشيخ: ألا تتقي الله تعالى في هذه المسكينة؟ قال: فتاب إلى الله تعالى من أمرها، فعوفيت لحينها، ووقائعه في هذا المعنَى أكثر من أن تحصَى.

(٢) وقد مرض لي مريض يوماً مرضاً شديداً، فلما رأَى ما بي من شدة الاهتمام بأمره رحمني فقال لي صراحة وأنا حينئذ كالآيس من ذلك المريض: لا تخف عليه فإنه يبرأ بإذن الله تعالى، فكان الأمر كذلك بحمد الله تعالى.

(٣) وقد كنت خطبت بنت الشيخ العلامة الحسن بن مسعود اليوسي، وكانت بعض العوارض تعرض في تزويجها، فكنت أتردد هل يكمل أمرها أم لا؟ ثم توفي بعض أقاربها فأرسلت ولد أخينا لينوب عني في تعزيتهم، وأمرته أن يلقى بعد التعزية الشيخ أحمد اليمني، فلما عزَّاهم لقيه فقال له متبسماً: قل لعمك لِمَ لَمْ يأت لتعزية أصهاره؟ فلما رجع ولد أخي قلت له: وما قال الشيخ؟ فاستحيي مني فتبسم، ثم قلت له: تكلم ولا تستحي، فأخبرني بأنه قال لِمَ لَمْ يأت لتعزية أصهاره؟ فقلت له: سيكونون أصهاراً إذا قال الشيخ أحمد ذلك، فكان الأمر كذلك بإذن الله، وقد أخبرني قبل ذلك

أني أسكن مكناسة على حال معين، وكان عندي ذلك كالمحال، فوقع الأمر كما أخبر، جعل الله عاقبة ذلك خيراً.

وبالجملة، إنك لا تلقي مَن عاشره إلا أُخبرك بكرامة عنه وأمَّا أمره في علم القلوب فبحر لا تكدِّرهُ الدلاء، فلا تتكلم معه في فن من الفنون في ذلك العلم إلا بهرك وأراك من نفسك ما عرفت به قدرك بلا مطالعة ولا ملازمة تدريس ولا كتاب، بل بالبصيرة الواضحة، والحالة الراجحة. وأما أمره في الصبر فجبل لا تحركه الرياح وتصيبه الأمراض الشاقة فلا تؤثر فيه جزعاً، وكثيراً ما يُؤذَى من قبل الخلق فيدفع بالتي هي أحسن مرارا.

فلا يزداد مع الإذاية إلا صبراً، ولا مع الجفاء إلا حلماً سرّاً وجهراً، وتراه يتستّر بمعاشرة الخلق وبالخوض معهم حيثما خاضوا طول نهارهم لا يتخذ عنهم خلوة ولا سترا، ولا يزيده ذلك إلا مهابة من بينهم، وإلا محبة فيه وطموحاً لأعينهم، انتهَى. وفي «المقصد» أن سيدي أحمد اليمني من أجلة الزمان، وأكابر الأعيان، ومن أهل الرسوخ العرفان وزهدُه وورعه وكمال اتباعه للسنة المحمدية وكرم أخلاقه أدلُّ دليل على ذلك. وقد أخبرني هو عن نفسه بما يؤذن بعظيم المعرفة.

لقي عدداً كثيراً من المشايخ، وفحول الرجال، وأخذ عنهم وانتفع بهم نفعاً تامّاً يذكرهم لنا في كثير من الأحيان ويذكر أخبارهم[1].

محمد بن مولاي إسماعيل

الفقيه الشريف، العالم العلامة المنيف، الماجد الأسعد، الفارس الأنجد، أبو عبد الله مولاي محمد ابن السلطان الجليل أبو النصر مولاي إسماعيل السجلماسي الحسني. كان ماهراً في علوم كالنجوم والبيان والمنطق والكلام والأصول، وله مشاركة في علوم أخرى. وكان حريصاً

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/ ١٢١ ـ ١٣١. وتوفي رحمه الله سنة ١١١٣ هـ.

على مجالسة العلماء لأخذ العلم منهم، ويبالغ في تعظيمهم وإكرامهم. فاجتمع به منهم جماعة لحرصه على العلم رجاء نفع الخلائق وأن يسير سيرة المهتدين من الولاة، فلم يكن إلا ما قدر الله تعالى؛ فقد كانت على يده فتنة في الخلائق عظيمة، فثار على والده ودعا الناس إلى بيعته. ففي يوم عيد الفطر من عام أربعة عشر ومائة وألف ورد الخبر لفاس بنزول مولاي مَحمد من مراكش بمن كان معه من قبائل المغرب وجيش الدولة الذين وجّههم والده معه حيث وجهه إلى سوس وجمع قبائل سوس يريد بهم الاستيلاء على المغرب. ثم وجه إليه السلطان مولاي اسماعيل ولده مولاي زيدان مع قبائل الغرب وجيوشه، فوجه مولاي محمد لملاقاة أخيه مولاي زيدان أخاه مولاي بنّاصر، وكان ممن بعثه معه والده حيث وجهه إلى سوس، فالتقى الجمعان قرب وادي المربع فكانت الهزيمة على مولاي بنّاصر. ثم زحف مولاي زيدان بجموعه إليه فنزل مراكش، فكانت بينهما حروب عظيمة كان الظفر في آخرها لمولاي زيدان. ومن جملة ما وقع بأهل فاس الذين كانوا مع مولاي محمد وعددهم أربعمائة رامٍ أنه كانت الهزيمة على مولاي محمد لم يرضوا بذلك فثبتوا وجعلوا ظهور بعضهم لبعض فأمر مولاي زيدان الجيوش أن تحيط بهم فقاتلوا حتّى نفذ لهم البندق أي الرصاص الذي يجعل في المدافع فجعلوا يجعلون مكانه دنانير الذهب ويرمون به إلى الليل ونفذ القتال جميعهم ولم ينج منهم إلا من كان به رمق فجُرح ففرّ إلى إخوانه الرماة الذين مع مولاي زيدان ليلاً فأخفوه ونسبوه من جرحاهم.

(١) ثم تخلى مولاي محمد عن مراكش ولحق بتارودانت واستقر بها، ودخل مولاي زيدان مراكش بجيوشه فنهبوا أموالها وسبوا ووثبوا على الأبكار والنساء بالوطء، ووقع الفساد والقتل للرجال والنساء والصبيان. ثم ارتحل مولاي زيدان من مراكش في طلب أخيه مولاي محمد، فكانت بينهما حروب كان الظفر في آخرها لمولاي زيدان، فتحصّن مولاي محمد بتارودانت وحاصره بها أخوه مولاي زيدان إلى أن دخل عامُ ثمانية عشر

ومائة وألف فدخلها عليه مولاي زيدان عنوة قهراً، وقتل رجالها ونساءها وصبيانها وسبَى أهلها ونهب أموالهم، وقبض أخاه مولاي محمد وقيّده في الحديد ووجّه به إلى والدهما السلطان مولاي إسماعيل، فجيء بصاحب الترجمة مصفَّداً في الحديد إلى مكناسة الزيتون، فخرج والدهما السلطان مولاي إسماعيل للقائه وظن أنه قريب من مكناسة، فلم يلقه حتَّى قطع وادي بهت وخرج معه العلماء وجميع وزرائه وأتباعه وحشمه، فلم يحتفل بطعام لظنه الرجوع عن قريب حتَّى أدركه الجوع وجميع من معه، فكان ذلك مما زاد في غضبه، وكان خديمه القائد عبد الله الروسي تركه مولاي إسماعيل بمكناسة على مصالحه، فبعث الواردين إلى مكناس الذين جاؤوا في رفقة مولاي محمد: أين تركوه بالأمس؟ فعلم أن مولاي إسماعيل لم يدركه قريباً مع علمه أنه خرج بغير زاد ظناً منه أنه يلقاه قريباً فأمر أصحابه أن يشتروا له جميع ما بمكناسة من الطعام، فاشتروه له بمعجَّل وبدَيْن حتَّى يرجع، واكترَى جميع دواب الحمارة وحمله عليهم وأسرع السير في اتباعه.
فلما اشتد بأصحاب السلطان الجوع رأوا الروسي مسرعاً في أثره، فسأل عنه فأخبر بأنه الروسي، فقال لهم السلطان: ولعله سأل عن خبر مولاي محمد فأخبر بأنه بعيد وعلمه بنا أنّنا خرجنا بغير زاد، فترك ما تركته على خدمته ورأى هذا آكد، فهو قد أتاكم بالطعام، فسألوه فأخبرهم الروسي بما أخبرهم به السلطان، ثم دفع للسلطان طعاماً كثيراً ففرقه على الناس فسكن روعهم، ورجع الروسي إلى خدمته بمكناسة التي تركه عليها، ثم لقي الذين أتوه بولده مولاي محمد ودفعوه إليه فجعل مولاي إسماعيل يسأل الفقهاء عن حكم الله فيه، فأجابه من كان يبغض مولاي محمد من المتطلبة المتعصبين بقطع يده ورجله من خلاف، وتلا عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية، ففعل به ذلك، فبقي مولاي محمد أياماً ثم مات رحمة الله عليه، وصلَّى عليه القاضي سيدي العربي بردلة، ودفن بمكناس ثم سكن روع السلطان فندم على ما فعل بولده من القطع، فكان ندمه على ما فعل رحمة للطلبة الذين كانوا يخالطون ولده مولاي

محمد فلم ينكب واحداً منهم ولم يعاتبهم على معرفته.

(١) وكان وُشي إليه بالشيخ أبي عبدالله المسناوي بأنه من أخصّ خاصته الذين لا يتحرك في القيام على والده إلا عن مشورته، وبادر العامل إلى قبضه، فلما بلغه أن مولاي إسماعيل ندم على ما فعل بولده سرحه، فكان ذلك من لطف الله به. وكان لمَّا وصل الخبر للغرب بابتداء قيام مولاي محمد كتب له الشيخ المسناوي بهذه الأبيات الثلاثة فلم يجبه عنها:

مهــلاً فــإنّ لكــل شيءٍ غــايــةً والــدهــرُ يعكسُ حِيلةَ المحتــال

والبــدرُ ليس يلوحُ ســاطــعُ نــوره والشمسُ بـاهرةُ السَّنا في الحـال

فلما وجد السلطان هذه الأبيات مقيدة في كناش صاحب الترجمة ونسبها للشيخ المسناوي علم أنه نهاه عما يريد قبل منه عدم موافقته وخلَّى سبيه.

(٢) ولما توفي صاحب الترجمة ـ رحمه الله ـ صلَّى عليه القاضي أبو عبد الله بردلة، فنقم عليه بعض الطلبة ووشَى إلى السلطان به وأوغر قلب السلطان عليه قبل نَدمه على ما فعل بولده بإشارة الطلبة، وقال له: إنـه يبغضك ويحب ما فعل ولدك، ولولا شدة بغضه لك ما صلَّى على عدوك الذي قام عليك. فكتب السلطان إلى أبي عبد الله بردلة يعاتبه ويهـدده، فأجابه بأن صلاته عليه لم تكن من غير إذن بل جاءه الإذن من الدار العالية بلغ مبلغ الشهـرة وخرج عن طـريق الشك، وذلـك كله آداب مع الأمـر العالي، بل الواجب حينئذ هو القيام بذلك كما فعل بردلة إجلالاً له. وإذا كان المقصود تعظيم السلطان فلا ينصت إلا لما يعاتب به في الآداب معه، ولما قال ﷺ في قضية الحديبية امْحُ يَا عَلِيُّ رسول الله، قال: والله لا أمحُو رسول الله أبداً، فتعارض وجوب امتثال أمره ﷺ بالمحو ووجوب الإجلال لمقامه، فرجّح عليٌّ ـ رضي الله عنـه ـ جانب التعـظيم، وفي شرح الآبي لمسلم أن الحسن البصـري لمـا ليم على صـلاتـه على الحجـاج قـال: استحييت من الله عـز وجل أن أستعـظم ذنب الحجاج في جـانب عفوه.

(١) والصحيح أن الحدود كفارات، ففي كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» عن عبادة بن الصامت وكان شهد بدراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايِعُوني عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ شَيْئاً وَلاَ تسْرقُوا وَلاَ تَزْنُوا ولا تَاتُوا بِبُهْتَانٍ تفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوف فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ وَمَنْ أَصابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ فِي ٱلدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ثُمَّ سَتَرَهُ ٱللَّهُ فَهُوَ إِلَى ٱللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ» انتهى. فهذا حاصل ما اعتذر به وهو جيد مناسب، وهذه الترجمة تستدعي طولاً. وكان حبس صاحب الترجمة في سادس عشر صفر، وفي رابع ربيع الأول قطعت يده ورجله، وبعد ذلك بعشرة أيام مات.

(٢) [سبب] ثورة مولاي محمد العالم على والده:

وذلك أنه قام على والده منكراً لما هو عليه من تكسيب العبيد والتصرف في بناتهم بغير وجه شرعي حقيقي. وخالف أمره وثار عليه حتَّى اهتز الغرب من أجله ومال الناس محبة فيه إليه[١].

حوادث السنة[١١٢١ هـ]

امرأة بتازا ولدت إنساناً برأسين وثلاثة أرجل:

(٣) وفي هذا الشهر نفسه جاء لفاس من تازا أن امرأة ولدت إنساناً برأسين وثلاثة أرجل وليس بذكر ولا بأنثى والله على كل شيء قدير.

(٤) ومما يقرب من هذه الحكاية ما ذكره القاضي عياض في «مداركه» لما عرّف بالشافعي ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما أدور في طلب الحديث باليمن قيل لي هنا امرأة من وسطها إلى أسفل بدن، وإلى فوق بدن ثانٍ، مفترقان، بأربع أيد، ورأسان، فأحببت رؤيتها ولم أستحلّ ذلك، فخطبتها ودخلت بها فوجدتها كما وصف. فلعهدي باليدين يلتطمان ويتقاتلان ويصطلحان

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/١٦٦ ـ ١٧٢ وتوفي رحمه الله سنة ١١١٨ هـ.

ويأكلان ويشربان. ثم نزلت عنها وغبت ورجعت بعد مدة فسألت عنها فقيل لي مات الجسد الواحد ورُبط أسفله بحبل وثيق وتُرك حتَّى ذبل ثم قطع ودفن. فرأيت الشخص الواحد بعد ذلك في الطريق يذهب ويجيء.

(١) قال عياض في نكاح مثل هذا نظر، وهما أختان. انتهَى. وكونهما أختان في محل المنع لاتحاد محل الوطء كما قرره علماؤنا ـ رضي الله عنهم ـ[١].

التهامي بن محمد اليملحي الوزاني

الشيخ الإمام الولي الصالح الزاهد الكبير، العارف بالله الرباني المنور الشهير، الشريف أبو عبد الله سيدي محمد المدعو مولاي التهامي بن سيدي محمد بن مولاي عبد الله بن مولاي إبراهيم اليملحي الحسني العلمي دفين وازان.

(٢) قال في «الأنيس المطرب»: ما رأيت منذ عقلت ولا حفظت ولا نقلت أحداً أشد ذكراً لله تعالى ولرسوله ﷺ وللقيامة وأهوال الموقف وغير ذلك منه ـ رضي الله عنه ـ، والإكثار من الدعاء لخاصة المؤمنين وعامتهم، وخصوصاً أمير المؤمنين، فإنه لا يكاد يغفل بالدعاء له بالنصر والتوفيق والهداية، ويحض الناس على الدعاء له بمثل ذلك. وكذلك كان والده ـ رضي الله عنه ـ ولا تراه إلّا لاهجاً بالذكر والاستغفار والتسبيح والتقديس والتهليل والتكبير، على ما يقاسيه من حقوق العباد، وإيصال نواله للحاضر منهم والباد، وكنت إذا جلست إليه أحاول أن أسمع منه كلمة في غير الأمور الدينية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية فلا أحفظ كلمة سوى ذلك، وهو من التبري من الادعاء والإعجاب بنفسه والفرار من الكرامات على أكمل حال، مع تراكم الناس عليه، وانحياشهم إليه، من كل الأقطار وانعقاد إجماعهم على أنه واحد زمانه وتشد الرحال إليه من أقاصي البلاد وأطراف

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/ ٢٠٩.

الأرض، حتّى رأيت الناس وفدوا عليه برسم الزيارة من البلاد المشرقية، وقرأت أنا غير ما مرة رسائل وفدت عليه من الديار المصرية والشامية والعراقية مشتملة على طلب الدعاء والتصريح بما لا يسع كتمه من ظهور بركاته الواضحة هنالك، على أن تلك الرسائل مشتملة على عدة رجال من أعيان البلاد والفقهاء وأكابر الثقات العدول. وأما بلاد الصحراء فأمرها في الاعتناء بشأنه أكثر من أن يقال، وهو مع ذلك يَرى أنه غير أهل لتلك الرتبة

(١) وأكثر ما نجده ينشد:

يَظنُّونَ بي خيراً وما بِيَ مِنْ خَيْرِ ... وَلَكنَّنِي العبدُ الظَّلومُ كَمَا تَدْرِي
سَتَرْتَ عيوبي كلَّها عن عُيُونِهِمْ ... وألبَسْتَنِي ثوباً جميلاً مِن السِّتْرِ
فلا تَفْضَحَنْ يومَ القيامةِ أعْيُبِي ... ولا تُخْزِنِي اللَّهُمَّ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ

وكنت إذا أشكلت عليّ مسألة أجابني عنها بآية قرآنية أو حديث نبوي كريم من غير أن يتأمل ولا يتردد في ذلك، فأجد لجوابه وكلامه انفعالاً في قلبي وقشعريرة في جلدي، وكان إذا تكلم في غير القرآن والحديث فأكثرُ ما تجده يميل إلى «حِكَم» ابن عطاء الله ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) ذكرت بين يديه يوماً ما يحتج به المشركون على إشراكهم من قولهم: لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وقلت له بعد خوضي في المسألة إن حاصل ما أجاب به علماؤنا ـ رضي الله عنهم ـ أن الدعوة عامة، والهداية خاصة. فقال: والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فوالله لكأني ما سمعت هذه الآية قبل ذلك ولا مرت لي على لسان. وكان ـ رضي الله عنه ـ إذا تكلم في مسألة عويصة عدل عنها إلى قياس منطبق عليها من الأشياء المحسوسة تقريباً على الأفهام. وفي هذه المسألة بعينها قال لي: مثال ذلك ـ والله أعلم ولله المثل الأعلى ـ أن رجلاً عمد إلى أرض حراثة وزرع فيها من جميع أنواع الحبوب ثم أمر مؤذناً يؤذن في تلك الأرض على تلك الحبوب المزروعة ألا إن رب الأرض يأمر جميع ما هنا من الحبوب على اختلاف أجناسها أن تكون عند النبات كلها قمحاً، ومن لم ينبت استحق

منه أشد العقاب، ورب تلك الأرض سابق في علمه أن كل جنيس لا يخرج عند الإنبات إلا موافقاً لجنسه. فلما كان إبان خروجه خرج كل واحد على حسب ما زرع، فما زرع براً خرج براً، وما كان شعيرا خرج شعيرا، وهكذا، فالزراعة الأولى - ولله المثل الأعلى - هي خلود الأرواح في الأزل، ورب الأرض هو الباري سبحانه، والمؤذن هو النبي ﷺ فإنه جاء آمراً عن ربه لجميع الخلائق أن يؤمنوا، وتلك هي الدعوة العامة. ولكن عند بروز الخلائق إلى الوجود تبع كل واحد ما سبق له في علم القدر من إيمان وكفر وطاعة ومعصية وغير ذلك، وتلك هي الهداية الخاصة وأنواع الحبوب المختلفة هي فرق بني آدم: مؤمن وكافر ومجوس ورافضي وقدري ومعتزلي وغير ذلك مما لا حاجة لذكره في هذا المحل.

(١) وقال في وصفه في موضع آخر: وكان - رضي الله عنه - يعني صاحب الترجمة، إذا أكثر عليه العوام أنت أنت تغير لونه لذلك وتكدر صفوه، ونظر إلى قائله شزراً وقال على جهة الإنكار والرد والتوبيخ: أَإِلَهٌ مَعَ ٱللَّهِ، ثم يقول: عبداً مملوكاً لا يَقدرُ على شيء. وذكر عنه حكاية في الرجاء ثم أطال في وصفه فيما يرجع إلى التبري [من] الدعوَى، ودلالة الخلق على الله وترغيبهم في حفه وجمعهم عليه. وهذه من أوصاف أكابر الصالحين رضي الله عنهم.

(٢) وأبغض الحديث الاطراء عليه فإنه كان إذا سمع شيئاً من ذلك قام من مجلسه وظهر أثر الكراهة في وجهه وألزم قائل ذلك عدم العودة إليه.

توفي صاحب الترجمة عام سبعة وعشرين ومائة وألف، ودفن بوازان من بلاد مصمودة المغرب رحمه الله تعالى[١].

الولّالي

الشيخ الفقيه العالم العلامة المشارك الدراكة الفهامة أبو العباس

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/٢١٩ - ٢٢٧.

أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الولّالي، دفين مكناسة الزيتون، ومدرس قصبة الحضرة السلطانية الإسماعلية أدام الله شرفها اتصل بالعارف بالله سيدي محمد بن عبد الله السوسي، وألّف فيه وفيمن لقيه وفي تلامذته كتابه «مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار».

(١) ومن دعاء هذا الشيخ لصاحب الترجمة ما حكي به عنه أنه قال له: اقرأ قوله تعالى: ﴿قَدَ افْلَحَ المُومِنُونَ﴾، فقرأت إلى: ﴿الذين يَرِثُون الفِرْدَوْسَ﴾ قال: فقال لي: جعل الله فيك هذه الأوصاف. ثم قال لي: كلّ ما أحببت يقضى لك. قال: فقلت له: إني أريد علوماً مثل الفقه والأصول والبيان والمنطق، فقال لي: يحسن بك أن تتعلم من كل علم. فمن بركته فُتح لي في تلك العلوم التي سميت وفي غيرها، فيقضي الله تعالى من له خبرة في فن من الفنون بلقائي فآخذه عنه، أعني ذلك العلم، كالتوقيت، والأسطرلاب، والعَروض، والجدول، والحساب.

(٢) ثم أوصاني بكُتب السِّيَر ورجحانها على كتب التصوف قال: لأن فيها سيرة الصحابة، وفي كتب التصوف سيرة الأولياء، فكم بينهما!.

(٣) ثم قال بعد كلام، قال لي: أتعرف أدب المتعلم وأدب المعلم؟ أما أدب المتعلم فهو الذي إذا فهم مسألة لم يتخط لأخرى حتّى يعرض تلك على نفسه، فإن وجد نفسه قد تخلقت بتلك المسألة حمد الله على عملها وعلى التخلق بها أيضاً. وكذا المعلم إذا قرر مسألة وقف حتى يعرضها على نفسه، فإن تخلق بها حمد الله تعالى على العلم والتخلق بها، وإن لم يتخلق بها تاب إلى الله تعالى وألزم نفسه التخلق بها، ثم يحمد الله تعالى على العلم بها وعلى التخلق، وإلا تاب وتخلق بها فحمد الله على الأمرين، حتّى يصير الإنسان حامداً الله تعالى على كل مسألة. قال فهذا يكون العلم علماً نافعاً، وإلّا كان حرفة لصاحبه والعياذ بالله تعالى.

(٤) قال صاحب الترجمة: وكلام الشيخ هذا هو فصل الخطاب فيما يلزم طالب العلم، والله يوفقنا لمرضاته.

(١) ثم استأذنه في الوصية التي كتب بها لأصحابه فأذن له فأخذها عن أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان الصومعي ونصُّ ما أورده منها: بسم الله الرحمن الرحيم وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم: ينبغي لمن وُفق للخير وأُلهم للرشد وأُعين على مراعاة أحواله أن يميز بين الحق والباطل، وبين مراده ومراد نفسه، ومراد ربه منه، ومراد كل إنسان لقيه وخاض معه فإذا عرف ذلك قرب الخير إليه كقربه من نفسه حتَّى كأنه يراه بعينيه، بمنزلة من راقب الفجر ووجهُهُ للجهة التي يطلع منها، وليس بعد الفجر إلَّا الشمس، فإذا طلعت الشمس زال الشك واللبس. ولا يستعان على ذلك بالوالد إلا إذا كان صالحاً، ومما يستعان به على ذلك مواصلة الأبرار، وملازمة الاستغفار، والصلاة على النبي المختار ﷺ وكذلك كل ذكر يجمع على الله وينفي عن القلب سواه، كَلا إِلَهَ إِلَّا الله، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله. وكذلك التمييز بين حب الله تعالى وحب غيره. وكذلك تلاوة القرآن مع التدبّر، وربما يكون سماعه من الغير أقوى تأثيراً في القلب.

(٢) والأصل العظيم لذلك كله أكل الحلال، ولكن وإياك والتوغل في طلبه لأنه يدخل عليه وسواساً عظيماً.

(٣) والحزن لا تفارقه ولا تصاحبه، فإن البقاء مع أحدهما يفسد القلب فإذا كنت محزوناً فاستعمل الفرح والسرور، وإذا كنت فرحاً فاستعمل الحزن.

(٤) وعليك بمطالعة كتب المحبين، ثم إذا نظرت مراتبهم في محبوبهم فقل في نفسك هذا الذي بلغ حب المخلوق فكيف ينبغي أن يكون حب المخلوق للخالق.

(٥) وعليك بملازمة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى فإنه لا يصفو القلب إلا بالدعاء. انتهَى.

توفي صاحب الترجمة عام ثمانية وعشرين ومائة وألف بمكناسة الزيتون[١].

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣٣.

محمد المسناويّ الدلائيّ

الإمام الكبير، العلامة الشهير، الحافظ المتقن، الدراكة المشارك المتفنن فارس التعبير، وممارس التحبير، وتاج الكراسي والمنابر، وعين أعيان المشايخ الأكابر، شيخ الجماعة وخاتمة المحققين، ورئيس الهداة وقادة الموفقين، سيدي أبو عبد الله محمد الشهير بالمسناوي بن أحمد بن محمد المسناوي بن سيدي محمد بن سيدي أبي بكر الدلائي.

كان صاحب الترجمة ـ رضي الله عنه ـ آية في العلوم، وحجة في صحة الإدراك والفهوم. آخذاً بأوفر نصيب في غالب فنونها، لا ينقر المسائل إلا في سواد عيونها. وقد أُعطي ملكة التدريس والفتيا، وسلم له أعيان عصره في مراتبها العليا. ولم يزل منذ بلغ ذلك مقصوداً للمشكلات، ومعتمداً في النوازل والمعضلات. تلمذ له جميع أهل عصره، وانفرد برئاسة التدريس والعلم في وقته ومصره.

أخذ ـ رضي الله عنه ـ عن جماعة من المشايخ، وتصدّر للتدريس بفاس الحديث و«مختصر» خليل وغيره من كتب الفقه والتفسير وعلم الكلام والسير وعلم المعقول. ولمَّا كمل بالبناء مسجد مولانا إدريس بفاس وأمر السلطان بإعادة الخطبة إليه وإقامة الجمعية فيه، ولِّي صاحب الترجمة الإمامة والخطبة والتدريس به، فكان يأتي في خطبته بالعجب العجاب، وبما يسحر الألباب، اتقاناً ولفظاً، وبياناً وحفظاً. وكان مرجوعاً إليه في كل أمور العامة والخاصّة، وأذعن له مشايخ عامة عصره، فأمرُه عندهم هو المطاع، ولا يسعهم فيما أفتَى به إلَّا الاتباع، لا ينقل من المسائل إلا عنوانها، ولا يصيب من الجواهر إلا مكنونها.

(١) ورأيت له جواباً عن سؤال في قضية القاضي أبي عبدالله المقري مؤلف «القواعد» مع مزوار الشرفاء يومئذ بفاس الشريف العمراني. وإيراد السؤال والجواب يستدعي طولاً، ونورد منه هنا القضية. قال أبو العباس المقري في كتابه «نفح الطيب» ما نصه: ومن أخبار مولانا الجد الدالة على

حرمته ما حكاه ابن الأزرق أنه كان بحضرة مجلس السلطان أبي عنان لِبَثِّ العلم، وكان نقيب الشرفاء بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من في المجلس إجلالاً له إلا الشيخ المقري فإنه لا يقوم في جملتهم، فَأَحَسَّ النقيب من ذلك وشكاه إلى السلطان، فقال له السلطان: هذا رجل واردٌ علينا نتركه على حاله إلى أن ينصرف. فدخل النقيب في بعض الأيام على عادته، فقام له السلطان على العادة وأهل المجلس، فنظر إلى المقري وقال له: أيها الفقيه مالك لا تقوم كما يفعل السلطان ـ نصره الله ـ وأهل مجلسه إكراماً لجدي ولشرفي؟ ومن أنت حتّى لا تقوم لي؟ فنظر إليه المقري وقال له: أما شرفي فمحقق بالعلم الذي أنا أبثّه، وأما شرفك فمظنون، ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة سنة؟ ولو علمنا شرفك قطعاً لأقمنا هذا من هنا، وأشار إلى السلطان أبي عنان، وأجلسناك مجلسه. قال ابن الأزرق: وعلى اعتذاره ذلك أن الشرف الآن مظنون، فمن معنى ذلك أيضاً ما يحكَى عنه أنه كان يقرىء بين يدي السلطان أبي عنان المذكور «صحيح مسلم» يحضره أكابر فقهاء فاس وخاصتهم، فلما وصل إلى أحاديث «الأئمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ» قال الناس: إن قال الشيخ الأئمّة من قريش وأفصح بذلك استوغر قلب السلطان، وإن وَرَّى وقع في محظور، فجعلوا يتوقعون له ذلك. فلما وصل إلى الأحاديث قال بحضرة السلطان: والجمهور أن الأئمة من قريش ثلاثاً، ويقول بعد كل كلمة: وغيرُهم مُتَغلِّبٌ. ثم نظر إلى السلطان وقال له: لا عليك فإن القرشي الآن مظنون، أنت أهل للخلافة، إذ بعض الشروط توفرت فيك والحمد لله. فلما انصرف إلى منزله بعث إليه السلطان بألف دينار انتهى.

(١) وسئل صاحب الترجمة عما في «نوازل البرزلي» عن ابن عرفة عن ابن عبد السلام من قوله: نَسَبٌ له سبعمائة سنة يثبت في هذا الزمان ضعيف. فأجاب عن ذلك بجواب حسن وإيراده هنا يستدعي طولاً.

(٢) وسئل صاحب الترجمة عن رجل يدعِي المعرفة والفقه قال في حق الشرفاء: إن الزمان قد طال وليس على الفروج أقفال والنساء غير مؤتمنات.

(١) فأجاب بأن ما ذكره الرجل لا يختص بالشرف بل هو عام فيمن يريد إثباته لهم. وينبغي أن يعتقد فيهم أن نسبتهم محققة، والمتشكك يلزمه ذلك في نفسه. وفي علمك أن الولد للفراش ويظن بأُمَّهاتهم أنهنّ من أهل النزاهات والصدق والذين لا تتطرق إليهم التهمة. ومن يريد الطعن قيل له هذا مشترك الالتزام بينك وبين مَن تطعن فيه، فإن صحّحته فهو جواب لك ولا يوصف به غيرك. ثم إنّ القول المذكور وإن كان محتملاً في نفسه وجائزاً في حدّ ذاته لا يقدح في حق من ينتسب للجناب النبوي، فإن نسبهم ثبت شرعاً، واستفاض نقلاً وسمعاً وما صدر من القاضي المقري مع الشريف العمراني هفوة لا تناسب مقام أهل البيت ومنصبهم حيث وجّهه بما يغضب الشريف بمحضر الخاص والعام من أهل الدولة ووجوه المملكة بما يذيب وجوه الكبراء من الخجل، مع ما فيه من تزكية النفس المنهي عنها، على أنه يتوجه عليه من البحث أن يقال له إن شرف العلم إنما هو من حيث هو ثمرته وقبوله عند الله وإثباته عليه، وحصول علو الدرجة به لديه. وذلك أمر مغيّب عنا، فليس هو بمظنون فضلاً عن كونه مقطوعاً به، لاحتمال شقاوة صاحبه والعياذ بالله. قال في «لطائف المنن»: ولا يغرّنّك في العالم أن يكون أنفع للبادي والحاضر، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

والحاصل أنها زلة من عالم كبير، يضل بها عالَم كثير، فالله يغفر له. والعجب ممن يذكرها له على أنها من المناقب، وهي من أشنع المثالب. انتهَى المراد منه. ونقل تمامه يطول.

(٢) وفيه شرف العلم باحتمال شقاوة صاحبه وإن كان قائماً بالنظر إلى ذاته فهو من التجويز العقلي وليس هو حكماً شرعاً، وإن كان كذلك فلا يقدح في مرتبة العلم؛ لأنّه يجب تعظيمه شرعاً، وله ثمرة موجودة محسوسة ومشاهدة، وهو بثه في الناس وإقامة الدين به بين الأحكام والفتيا التي لا يخلو الزمان ممن يحتاج إليها. ولا مانع من أن يكون مقبولاً عند الله تعالى لما في الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي). والغالب على العلماء

حسن الظن بالله تعالى. فتجويز شقاوة صاحب العلم ممنوع، وإن ما سيقع على وفق قدر الله تعالى في الأزل ليس لنا أن نبني عليه حكماً في الظاهر بحيث نترك ما بَرز في الوجود لاحتمال مخالفته ما سبق في علم الله، وإلا لَتعطَّلت الشريعة، إذ كل فرد وجد من أهل العلم يصح فيه هذا التجويز، فيلزم عليه سقوط شرف العلم مطلقاً إلا باعتبار ما عند الله. نعم واجبٌ على كل عالم أن لا يركن إلى علمه، ويخاف من عدم قبوله وشقاوته وأن يكون من أهل الوعيد، ويكون ذلك شأنه في نفسه، وفي غيره من أبناء جنسه، مع ما تقدم من حسن الظن بالله تعالى، فيجمع بين الرجاء والخوف اللذين قال فيهما العلماء إنهما ما اجتمعا في قلب شقي. وهذا في نفسه، وأما إذا نظر إلى غيره فلا يجب عليه إلاَّ النظر بعين الكمال، والتعظيم والإجلال، لحصول النفع به في الحال، إذ لا ضرر في تعظيمه ولو مع الاحتمال.

(١) فالحق أنه لا محلّ للتشنيع على القاضي المقري وإن صدر منه من الغلظة على الشريف العمراني يغتفر له في مثل هذه القضية، وإن لزمه محظور لا ينبغي أن يصدر من مثله، لأن الشريف أغضبه بشكواه للسلطان بعدم قيامه له كما تقدم في حكاية القضية، ثم بعد ذلك شافهه بأمره للقيام له، ووهَّن قدره بقوله: ومن أنت حتَّى لا تقوم؟ وما كان ينبغي لهذا الشريف أن يصدر منه مثل هذا في حق هذا العالم الذي هو كبير علماء المغرب وولي منصب القضاء الذي هو نائب عن رسول الله ﷺ ومنزّل في منازل الأحكام منزلته، والشريف مِمَّنْ تجب عليه طاعته وتلزمه مبرَّته وتعظيمه. وَأَوْلَى مَن يَرْعَى هذه الحرمة سادتنا الشرفاء الذين هم أحق بموروثهم من المصطفَى ﷺ وهو العلم والصلاح، فينبغي لهم طلبه وتعظيم من يطلبه وحرص الشريف على القيام له تعرض لما هو منهى عنه لقول ﷺ: «مَنْ أَحبَّ أَنْ يُقَامُ لَهُ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ ٱلنَّارِ». والعلماء حماة الشريعة، فكأنّه رأى زجره على ذلك واجباً عليه.

(٢) وأما ما وجَّهه به من قوله وأما شرفك فمظنون به إلى آخره، الشرف على خمسة أقسام: **الأول**: المتواتر تواتراً عاماً وهو عمود النسب النبوي في

الجملة. **الثاني**: المتواتر تواتراً خاصاً، وهو في قبائل معروفون بأسمائهم في حواضر وقرَى وجهات مخصوصة، كل معروف في بلاده، وتواترهم خاص بها، لأن غير بلادهم لا شعور لهم بهم فضلاً عن معرفتهم. **الثالث**: المظنون وهو الثابت بالشهادة المستوفاة (كذا) لشروط العمل بها، وما في معناها من الأخبار المفيدة للظن، وقد تعضدها قرائن فتلحق المرتبة التي قبلها. **الرابع**: المشكوك المستوي الطرفين. **الخامس**: المرجح الشك فيه. فالقسم الأول لا يتعين فيه وإنما يتعين في الأربعة بعده. وأعلى الأربعة القسم الثاني ثم ما بعده مرتبة بعد مرتبة إلى آخر المراتب. فإذا فهمت هذا فإنما كان خطاب المقري لأهل المرتبة المظنون بهم، ولعله ظن أنه من أهلها. وأما التغليظ في قوله: ومن لنا بصحته منذ سبعمائة سنة؟ لا يحتمل لأن المتبادر منه نفي صحة النسب مطلقاً قطعاً أو ظناً. وقوله لأبي عنان إن القرشية في وقتنا مظنونة لم يصرح بما يدلّ على أن ذلك في جميع الأقطار أو عند جمع من الناس، بل في موضع دون موضع أو في أشخاص دون أشخاص، فيكون كلامه من باب الكلّ لا مِن باب الكلية، بمعنى أن الظن فيها محكوم به على مجموع الأفراد لا على جميعها، ولا شك أنها مظنونة في كثير من المنتسبين لقريش، ومحققة في البعض منهم، على أنك إذا حققت علمت أن تعيين الفرد المنسوب ليس فيه إلَّا الظن، ولا سبيل للقطع فيه وأيضاً فقد وقع بين الناس من كلام المقري المتقدم بحوث وسوء ظنون وتوهم في آل البيت، فمرضت من ذلك القلوب والعياذ بالله.

وكان صاحب الترجمة في زمنه أكثر الناس تحسيناً ظنون الناس في ذلك، وجال في الأنساب، وعلم بالأحساب، وانفرد بالتحري في هذا الطريق، وممن له القدم الراسخ بهذا العلم والتحقيق. فكان المرجعُ فيها زمنَه إليه، ومعول كل الناس فيما أشكل منها عليه. وحقق أنواعاً كثيرة من العلوم، وطالت ممارسته لها فانجلت له عرائس الفهوم، وتلمذت له شيوخ الزمان، واشتهر فيه بالنقد والإتقان. وألف تآليف عديدة وله أجوبة كثيرة وتقاييد جيدة لو جمعت كانت مجلداً في مسائل من أبواب من العلم يرحل

إلى سماعها من أقصى المغرب إلى المدينة، وله خطب بليغة جيدة المناسبة. ولم يكن لصاحب الترجمة اعتناء بالتصنيف لقيام تلامذته في زمنه بذلك، فتركه لهم واعتنى بالتدريس، فانتهت الرياسة له فيه، وقام به أحسن قيام إلى أن صار إلى رحمة الله ورضوانه.

وكان رضي الله عنه نظيف الثياب، جميل المعاشرة، حسن الأخلاق، عالي الهمة، لا يستطيع الكلام في مجلسه الأكابر لهيبته وعظيم سمته. وكان في تدريسه إذا أخذ في تقرير مسألة يأتي على وجوه احتمالاتها، ولا يدع شيئاً مما تشتهي بيانه نفوس الحاضرين من أبحاثها، مع جودة التحقيق والتحرير بما يغبط به العقل من النقل، مع اختصار في العبارة، وسرعة في بيان الإشارة، ويفهمه الحاضر والبادي ومن هو مغبون، وجميع مَن بالمغرب من اللسون. مجلسه مجلس سكون ووقار، وخشية وتذكار، لا يحسب جالسه أن أحداً أكرم عليه منه، وله باع طويل في الرسائل والمخاطبات بمقتضَى الحال، وأنظام عجيبة، بمعاني غريبة.

(١) وكان صاحب الترجمة له اعتناء بالتدريس بحيث إذا بدأ كتاباً يعتني به حتَّى يختمه لا يلتمس عذراً إلاَّ إذا نزل به ضروري سماوي، فكان كثير الختم، وكان شعراء الوقت يرصدون ذلك فيمدحونه بالقصائد ويتنافسون بينهم في أي المدح أحسن. ومضمن المدح الثناء على أهل العلم والكتاب المختوم ومؤلفه وفنه، والثناء عليه بضخامة علمه ودقة فهمه، فيمتنع من قراءة تلك القصائد بمجلس الختم استحياء من الله تعالى أن يسمع المدح في نفسه. وكان إذا دخل شهر رمضان بدأ في أول يوم تدريس «صحيح البخاري»، يقتصر في تدريسه على بيان المعاني من الأحاديث التي توافق أحكام مذهب الإمام مالك، ويترك ما سوى ذلك فلا يتكلم عليه. فكان الناس يقصدون حضور ذلك المجلس من البوادي والحواضر لحصول الفوائد منه وسرعة ختمه، ويختمه في اليوم التاسع من شهر رمضان، ولما ختم «المرشد» في قراءته بين العشاءين مدحه الشريف الأديب أبو

عبد الله بن الطيب، فمنعه من قراءتها في مجلس الختم على عادته في المنع من ذلك، فأخذ في نفسه عليه حيث سوَّى بينه وبين غيره، فكتب إليه الشيخ يعتذر له لكرامة النسبة النبوية عليه بما نصه: حيًّا الله بنسيم رضوانه الطيّب، وسقي بغيث رحمته الصيِّب، الشريف الأرضى سيدي محمد بن الطيب. أما بعد السلام عليك أيها الفاضل، فقد أتحفتني من عرائس فكرك بما أنا دونه بمراحل، لحسن طويتك، وكمال سجيتك:

والفضل عندك في الضمير وإنما جودُ الفتى أبداً بما في الكيس

فاستصغرت نفسي أن يقال فيها ذلك المقال، أو تتحلى بتلك الحلل ولا سيما في المجامع والحقول، المشتملة على مختلف الآراء ومباينة العقول، والله شاهد بأني على النقيض، من جميع ما تضمنه من الأوصاف المدحية ذلك القريض. وأجهل الناس، من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس:

لعمرُ أبيك ما نسب المعالي إلَى كرمٍ وفي الدنيا كريمُ
ولكنَّ البلادَ إذا اقشعرَّتْ وَصَوَّحَ[1] نَبْتُها رُعي الهشيمُ

فهذا موجب المنع من قراءة قصائدكم الرائقة، وإمتاع الأسماع ببدائعها الفائقة لا غير ذلك مما عسَى أن يختلج في البال أو يوسوس بعض من لا علم له بحقيقة الحال، فإنه محض إفك وزور، يعلم ذلك من يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور. والله المسؤول أن يعاملك بحسن نيتك، ويجازيك خيراً على بليغ مدحتك، بمنِّه. ولولا الشعر بالشعر ربا، وأنه لا يناسب من ولَّت عنه مثلي أيامُ الصبا، لَجَلَوْتُ عليك من عرائسه ما يكون كِفاء ودّك، وأثبتك من نفائسه ما يليق طرازاً بحلة مجدك، ولكن الأمر كما قال قائله:

صحا القلبُ عن سلمى وأَقْصَرَ باطلُه وعرى أفراس الصبا ورواحله

(١) أي جفّ.

والسّـلام عليكم من كـاتِبـه محب آل البيت النبـوي وغبـار نعـالهم محمد بن أحمد المسناوي كان الله له.

توفي ـ رحمه الله ـ عام ستة وثلاثين ومائة وألف[1].

السلطان إسماعيل

الخليفة السلطان المنصور، أمير المؤمنين الملك المشهور، أبو النصر مولانا إسماعيل ابن السلطان مولانا الشريف الذي شرفت سجلماسة بأماكنه ودياره، بل وجميع المغرب وجهات أقطاره.

كان ـ رضي الله عنه ـ إكليل ملوك زمانه، وفريد عِقده وأوانه، أقام الله به الجهاد، وأحيا به الدين بالمغرب بعدما باد، وأضمر به كل ظالم معتد، وقطع به دابر كل بـاغ ومعانـد. وأعز الله بـه رسوم الـدين بعد دروسـه، وأضحك به وجه الزمان بعد طول عبوسه. وأخمد به الشرور بعد تاجيـج نارها. وأحيَى به المعالي بعد الأخذ بثارها. وبسط الله له اليد على المغرب فعلت أقدارُه، ولاحت في الآفاق شموسه وأقمـاره، وتكاملت في الحسن أنجاده وأغواره. وشمخ فيه مُلكُه، فدار بالنصر والتمكين فلكه. وانتعش به كل الأرامل والأيتام، ورسمت للدين فيه أئمة وأعلام.

(١) ومن مفاخره، وكريم مآثره، أَن هدَّ حصوناً في المغرب للكفرة، وخرَّب دياراً لأهل الشرك والفجرة. فمنها فتح المهدية بالمعمورة فأخذها عنوة يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الثاني عام اثنين وتسعين وألف، قيل بقتال وقيل بغير قتال وانما أخذها بقطع الماء عنها. ومن لطف الله أن لم يمت أحد من المسلمين وغنم من كان بها من النصارى وجعل الله ذلك له من العمـل المقبول الـذي ينال بـه رضى الله. ومنها فتـح طنجة، ففي رابـع وعشرين من المحرم عام تسعين وألف وقعت غزوته بها فمات من المسلمين نحو خمسين ومن الكفار نحو ثلاثمائة، وأخذ لهم قصبة منها بأربعة أبراج.

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/ ٢٦٥ ـ ٢٧٨.

(١) ثم في ربيع الأول من عام خمسة وتسعين وألف أخذها من غير قتال فتركها الكفار وهربوا بما قذف الله في قلوبهم من الرعب منه بعد أن خربوا دورها جعل الله له ثوابها من الذخائر التي يجدها يوم لقاه. ومنها فتح العرائش، ففي آخر شوال عام مائة وألف أنزل عليها الجيوش وحاصرها ثم أمر بإرسال البارود تحت أسوارها بحفر العَمَلة، ثم أرسلوا فيها النيران حتّى تصدعت أسوارها ففتحها عنوة وغنم ما فيها من النصارى. وكان عددهم ألفاً وسبعمائة، ومنَّ على أميرهم بالعتق. وفرح المسلمون بهذا الفتح المبارك وصحبهم منه سرور عظيم ومما قال في ذلك سيدنا الجد ـ رحمه الله ـ هذه القصيدة التي مطلعها وذكر فيها الفتوحات المتقدمة ويمدح مولانا صاحب الترجمة:

علا عرشُ دين الله كلَّ عرائش   وهُدَّ بنصر الله حِصنُ العرائش

إلى أن قال فيها:

هنيئاً بعز المسلمين وجمعِهِم   وإذلال أهل الكفر أهلِ الفواحش
هنيئاً بنصر الله أمة أحمدٍ   وإمدادهم منه بجندٍ مباطش
بهذا لِيهنَ عيشُ كلِّ موفقٍ   بهذا ليفرح دائماً كلّ عائش
لنا النصرُ والبشرَى لنا بإمامنا   هِزَبْرِ الوغا غيظِ العدُوِّ المُناقِشِ
أبي النصر إسماعيلَ ناصرِ ديننا   وحامي الحمَى بالمُرهفات البواطش

بويع صاحب الترجمة بعد وفاة أخيه الخليفة مولانا الرشيد في يوم الأربعاء خامس عشر ذي الحجة عام اثنين وثمانين وألف من الهجرة النبوية بفاس. وكانت ثورة أهل فاس القديم عليه بين عشاء يوم الخميس أول يوم من جمادى الأولى عام ثلاثة وثمانين وألف. وفي آخر يوم من جمادَى الثانية لجؤوا إليه ورجعوا لديه فوجدوا فيه كل خير لم يظنوه وهو معدنه وأصله، فعفا عنهم وصفح ولم يمنن عليهم في ذلك. فاستكثر الله له الخير ووقع الصلح بينهم، ورحل عنهم في ضحوة الثلاثاء التاسع عشر من رجب عام أربعة وثمانين وألف. وتمهد له ملك المغرب فكثرت عمارته جداً، وجدّد

الناس لأيام العلوم عهداً، فكانت أسواق العلم في خلافته عامرة، ونجوم أفلاكه نيرة زاهرة.

توفي ـ رضوان الله عليه ورحمته ـ عام تسعة وثلاثين ومائة وألف. وكان الناس في حياته يغبطون به غاية ويتخوفون موته لما يرتقبون بعده من الفتن. وكثير منهم يطلب الله تعالى أن لا يدرك موته وأن يموت في حياته لما شهدوا في أيامه من عيش الضعفاء والأيتام، وإذا تتبعنا أخباره ومآثره فلا يسعها مجلد[1].

من حوادث السنة[١١٣٩ هـ]

ثورة أهل فاس وقتلهم العامل الروسي:

(١) ومن حوادث هذه السنة ففي صبيحة اليوم الذي ورد فيه الخبر على فاس بموت السلطان صاحب الترجمة قتل أهل فاس قائده بها الرئيس أبا علي بن عبد الخالق بن عبد الله الروسي عامل السلطان على فاس، بما أضمروا له من الحقد لتصرفه فيهم بالمغارم، وأخذ الحق من الظالم للمظلوم، وزجر السفهاء عن أهل المروءة، ولعدم اتخاذه منهم العمال والوتادين والمفردين وأهل الضرب والتجريد، بعد أن حاول مدافعتهم وقتالهم، وتحصنه بالدار المقابلة لباب حفاة مسجد الأندلس، وجمع الوتادين أصحابه بالعدة فلم يُغنه شيء من ذلك، ودخلوا عليه في داره وقتلوه، ومُثّل به بين الأزقة، وقتلوا من أصحابه مَن ظفروا به، ولم يفلت منهم إلاَّ مَن تحصن بالحرمات والاختفاء في الدور ونحوها، وعددهم نحو أربعة وعشرين. ثم اجتمع أهل فاس على أن يوجهوا اثنين من كل قبيلة من مشاهد الأشراف للسلطان الذي بويع بمكناسة، وهو مولاي أحمد بن إسماعيل بقصد الاعتذار، فتغيّظ أولاً، ثم لما أعلم بأن الموجَّهين له من كبار الأشراف فرح بهم وقبل اعتذارهم وشفاعتهم، وبالغ في تعظيمهم

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/ ٢٨٥ ـ ٢٩١.

واحترامهم، ورجعوا لفاس فرحين. ووقعت هدنة بين الناس عن الحرب إلا أنهم رفضوا جميع ما كان يجري عليهم من الوظائف السلطانية، وحملوا الأسلحة وركبوا الخيل، وضجَّ الناس بالفرح والسرور، واشتغلوا بالملاهي والاجتماع في النزهات والتنقي في اللباس والجلوس أفواجاً مقبلين على اللهو واللعب والهذيان في كل متسع من أزقة فاس. ولم يكن للأحكام السلطانية نفوذ فيها في سائر المغرب، وليس للسلطان سوى الدعاء على المنابر والاسم، وكمل العام كله على هذه الحالة، وكثر في المغرب الفتن والأهوال، فكان هذا هو الأصل للفتن التي أتت بعده[1].

ابن زكري

الشيخ العلامة النحوي أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي المولد والمنشأ والوفاة. وللناس فيه آراء، والذي عندنا أنه قوي محقق حسبما عرفناه من تقاييده التي سمعناها من أشياخنا الذين أخذوها عنه.

(١) وسمعنا سماعاً مستفيضاً أنه ألف تأليفاً في أفضلية العجم على العرب، ولم نر من شيوخ وقتنا من أهل الدين إلَّا مَن يعيب عليه ويُشنع عليه غاية التشنيع، وهو جدير بذلك، لأن العرب لهم مزية على غيرهم مِن الخلق برسول الله ﷺ. قال الإمام التّنَسي: وخالفت في ذلك طائفة من أهل الأهواء يقال لهم الشعوبية، وهم فرقتان: فرقة تدَّعي التسوية، وفرقة تدعي تفضيل العجم على العرب، فبادر علماء الإسلام بالرد عليهم برسائل حسان اهـ كلام التنسي بحذف منه.

(٢) أدلة أفضلية العرب على العجم:

قلت: وأدلة أفضلية العرب على العجم معلومة مشهورة في الكتاب والسنة. ولم يبق فيمن خرج عنها إلَّا الحكم عليه بما يحكم على أهل

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٢.

الأهواء، ولْنورد هنا ما تيسير لنا من أدلة أفضلية العرب بعد تعريف الشعوبي من هـو. قال عبـد الحق الإشبيلي الأزدي المالكي في «مختصـر اقتباس الأنوار» للرشاطي، قال في «مختصر العين»: الشعوبيّ هو الذي يُصغّر أمر العرب. وحكى الهروي عن الليث قال: الشعوبي الذي يصغر أمر العرب ولا يَرى لهم فضلاً على غيرهم، ثم قال: إن الشعوب من العجم كالقبائل من العرب. نتهَى كلام عبد الحق، انظر بقيته وفي القاموس: والشعوبي محتقر أمر العرب وهم الشعوبية. انتهَى.

قلت: وأدلة الرد على الشعوبية في السماعيات كثيرة، أخرجها أهل الصحة وغيرهم. فمن ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه في صفته ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنـاً فَقَرْنـاً حَتَّى بُعِثْتُ مِنَ ٱلْقَرْنِ الَّـذِي كُنتُ فِيهِ». قـال الشهاب القسطلانيّ: والمراد بالبعث نقلُه في أصلاب الآباء أباً فأباً قرنـاً فقرناً حتَّى ظهر في القرن الذي وُجد فيه، أي انتقلتُ أولاً من صلب ولد إسماعيل، ثم من كِنانة، ثم من قريش، ثم من بني هاشم. فالفاء في قوله قرناً فقرناً للترتيب في الفضل على سبيل الترقي من الأب الأبعد إلى الأقرب فالأقرب، كما في قولهم خذ الأفضل فالأفضل، واعمل الأحسن فالأجمل انتهَى كلام القسطلاني. وأخرج الترمذي وحسَّنه:

. . . قُلتُ يَا رَسولَ اللَّهِ إنَّ قُريشاً جَلَسوا يَتَذاكَرُونَ أَحْسابَهُم بَيْنَهُم فجعلوا مَثَلَكَ كَمَثَلِ نَخْلَةٍ في كَبْوَةٍ منَ الأَرْضِ، فقالَ ﷺ: «إنَّ اللَّهَ خَلَقَ ٱلْخَلْقَ فجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ قَبِيلَةٍ ثُمَّ تَخَيَّرَ الْبُيُوتَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ فَأَنَا خَيْـرُهُم بَيْتاً وَخَيْـرُهُمْ نَفساً». قـال المناويّ في «شـرحه الكبيـر للجـامـع الصغيـر»: فالحـديث صريـح في تفضيـل العـرب على العجم. وأخـرج الترمذي وحسَّنه أيضاً عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا سَلْمَانُ لَا

تُبْغِضْنِي فتُفَارِقَ دِينَك، قلتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ كيفَ أُبغِضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّه. قَالَ: تُبغِضُ الْعَرَبَ فتُبْغِضُنِي».

وأخـرج الطبـراني والبيهقي عن أبي نعيم عن ابن عمر قـال، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَاخْتَارَ مِنَ ٱلْخَلْقِ بَنِي آدَمَ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَبَ وَاخْتَارَ مِنَ ٱلْعَرَبِ مُضَرَ وَاخْتَارَ مِنْ مُضر قُرَيْشاً وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا مِنْ خِيَارٍ إِلَى خِيَارٍ». فما حسنه الترمذي في الحديثين المتقـدمين قد ارتقَى عن مـرتبة الحسن إلى الصحة بكثرة طرقه المشار إليها هنا وفيما نذكره بعد. وقد صرح ابن حجر في «النخبة وشرحها» بهذا فقال: وبكثرة طرقه يصحح، وإنما يحكم لـه بالصحة عند تعدد الطرق لأن للصورة المجموعة قوة تجبُر القدر الذي قصَّر به ضبط راوي الحسن عن راوي الصحيح. انتهَى. فشواهده رواها عدة من الصحابة بروايات كثيرة.

(١) وهذا كله في مطلق العرب الجامع للقحطانية والعدنانية وغيرهم، وأما الخصوص منهم فالنصوص في أفضليتهم مخرجة في الكتب الصحاح ولا يسع أحداً إنكارُها. فأخرج مسلم في «صحيحه» عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ٱللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَـاعِيلَ، واصْـطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، واصْـطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَـاشِم، واصطفَـانِي مِنْ بَنِي هَاشم». وأخرجه الترمذي أيضاً في كتاب المناقب من «جامعه» وصححه أيضاً عن واثلة بن الأسقع مرفوعاً بزيادة: «إنَّ الله اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إسماعيلَ، واصطَفَى مِنْ وَلَدِ إسمَاعيلَ بَنِي كِنَانَة» الحديث بتمامه المتقدم.

(٢) ومما هو صريح في فضل العرب الإسماعيلية ما ورد في كثير من الأحاديث في فضائل الأعمال، فمنه ما رواه الإمام أحمد بإسناد حسن عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «لأنَ أَقْعُدَ أَذْكُرُ ٱللَّهَ وأُكبِّرُه وأَحْمَدُه وأُسبِّحُه

وأُهَلِّلُه حتَّى تـطلعَ الشمسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَن أُعـتِقَ رَقَـبَتَـيْن مِـنْ وَلَــدِ إِسماعِيلَ».

وما رواه الطبراني في كبيره عن أبي الدرداء: «مَنْ قَالَ بَعْـدَ صَلاَةِ الصُّبحِ وهُو ثَانٍ رِجْلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لاَ إِلَه إِلاَّ آللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيت بِيَدِهِ آلْخَيْرُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِير عَشْرَ مَرَّاتٍ كَتَبَ آللَّهُ لَهُ لِكُلِّ مَرَّةٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَرفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرجَاتٍ وَكُنَّ لَهُ فِي يَوْمِهِ حِرْزاً مَنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَحَرَساً مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَكَانَ لَهُ بِكُلِّ مرةٍ عتقُ رَقَبةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْماعيلَ ثَمَنُ كلِّ رقبةٍ اثْنَا عَشَرَ ألفاً، وَلَم يَلْحَقْهُ يومئذٍ ذَنْبٌ إِلاَّ الشِّرْكَ بِاللَّهِ. وَمَنْ قَـالَ ذلِكَ بَعْـدَ صَلاَةِ الْمَغْرِبِ كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ». وهذا النوع كثير، راجع «ترغيب المنـذري» وغيره تقف عليه.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن نسيبة من بني تميم كانت عند عائشة فقال لها النبي ﷺ: «اعْتِقِيهَا فَإِنَّهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ».

(١) وأما ما ورد في الأنصار فقوله ﷺ: «لا يُحِبُّهُم إلاَّ مؤمنٌ ولا يُبغِضُهم إلا مُنافق فَمَنْ أَحبَّهم أَحبَّه الله وَمَنْ أَبغَضَهُمْ أبغضَهُ آللَّهُ» وقوله ﷺ: «آيةُ الإِيمان حُبُّ الأَنصارِ وآيةُ النِّفَاقِ بُغضُ الأَنصارِ». وقال لهم: «أَنتُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ» قالها مراراً. وقـالوا للنبي ﷺ ادْعُ اللَّهَ أَن يجعـل أتباعنـا منا فقـال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَتبـاعَهُم منهُم». وقال ﷺ: «وفي كـلِّ دُورِ الأَنصار خيرٌ». وقد افتخروا بمبايعتهم عنده، فقال قائلهم وذاك في غزوة الخندق:

نحنُ الـذيـن بـايَعُـوا مـحمـدا ... على الجِهـاد مـا حَيِينَـا أَبـدا

فـأجابهم ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا عيشَ إِلاَّ عيشَ الآخـرة، فـأكـرِم الأنصـار والمهاجرة». وقـال ﷺ: «أوصِيكمُ بالأَنْصَـار فإِنَّهُم كَـرِشِي وَعَيْبَتِي[1] وقد قَضَـوا الذِي عَلَيهم وبقِيَ الَّـذِي لَهُم فـاقْبَلُوا مِن مُحْسِنِهِم وتجَـاوَزُوا عن

(١) أي خاصتي وموضع ثقتي.

مُسِيئِهِم». وقال: «فإنَّ النَّاسَ يَكْثُرونَ وَيَقِلُّ الأنصارُ حَتَّى يكونوا كالمِلحِ في الطَّعَامِ فَمَنْ وَلِيَ منكم أمراً يَضُرُّ فيه أحداً أو ينفعُه فَلْيَقْبَلْ مِن مُحسنهم وَلْيَتَجَاوَزْ عَن مُسِيئِهِم».

وأما غير الأنصار فقال ﷺ: «إنَّ هَذَا الأَمرَ فِي قُريش لا يُعاديهم أَحَدٌ إلَّا أكبَّهُ اللَّهُ على وَجهِهِ في النَّـار مَا أَقَـامُوا الـدِّين». وقال ﷺ: «قـريشٌ والأنصارُ وجُهَيْنَةُ ومُزَيْنَة وأَسلمُ وأشجعُ وغِفَارُ موالِي ليس لهم مولى دون اللَّهِ ورسولِه». وقال ﷺ: «لَا يَزالُ هذا الأمرُ في قريشٍ ما بقيَ مِنهم اثْنان ونزل القرآن بلسان قريش». والروايات في هذا المعنَى كثيرة، ولكن اقتصرت هنا على ما في الصحيحين أو أحدهما.

(١) وأيضاً فإن أعظم جيشه ﷺ والمقاتلين معه في الحروب والوقائع العظيمة هم العرب وإن كان معهم غيرهم فقليل، وحاربوا آباءهم وأبناءهم وقتلوهم في مرضاة الله ورسوله، وبايعوه ﷺ على الموت دونه واختصوا بهذه المزية دون غيرهم من جميع من كان حينئذ على وجه الأرض، وأثنَى الله عليهم بذلك فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِم يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً﴾ الآية. وقال ﷺ في أهل بـدر: «ومَا يُدْرِيكَ لعلَّ الله اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُم» راجع لفظ تمامه في البخاري وأيضاً فإن سادة هذه الأمة الذين هم العشرة سادات الأمة بالإطلاق كلهم من العرب. وكون المقاتلين والمقتولين عرب أيضاً لم يخرج من قاتلهم عن المزية، ووقائعهم في أهل الشام والعـراق ومصر وغيـرها معلومة معروفة. وأين بنو إسرائيل وسائر العجم من هذه المزايا. وأيضاً فإن من الفقهاء من يفرق في أخـذ الجزيـة والاسترقـاق بين العرب والعَجم، ويفـرق بين حكم نصارَى بني تغلب وبين حكم سـائر أهـل الكتاب في الجزية.

قال ابن راشد: الجزية تؤخذ من أهل الكتاب والمجوس من العجم باتفاق، ولا تؤخذ من قريش ولا من المرتدين باتفاق. فأما المرتدون فإنهم

ليسوا على دِين يُقرُّون عليه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فاضْرِبُوا عُنُقَه» وأما قريش فقيل لمكانتهم من النبي ﷺ انتهى. نقله المواق، ونقل اللخمي وغيره عن ابن وهب أن الجزية لا تؤخذ من مجوس العرب، ونقل عنه الباجي والمازري عدم أخذها من العرب مطلقاً لا بقيد المجوس. وأما الاسترقاق فيجوز على مذهبنا استرقاق جميع العرب، ومنع ابن وهب استرقاق قبائل قريش والأنصار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار، نقله السنهوري وغيره. ودليل قول ابن وهب ما سبق للبخاري، وليس هذا هو دليل المسألة، بل الدلائل تقدمت.

(١) ومع ما قررنا فلا يجوز تنقيص مَن ليس من العرب أو من كان قريب عهد بكفر هو وسلفه وحقره بمجرد ذلك، ولا سيما إن ظهر عليه وصف معظم شرعاً كالدين والعلم، فإن هذا من الباطل والظلم. وقد قال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ» الحديث. وقال عليه السلام في خطبة الوداع: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ» الحديث. وقال عليه السلام: «المُسلمُ أخو المُسلمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُه ولا يَحْقِرُه. التَّقْوَى هَا هُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صدرِهِ ﷺ. بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَن يحقرَ أخاه المُسلمَ. كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ دَمُهُ وعرضُه ومالُهُ».

ونصوص ذلك كثيرة.

(٢) استنكار تعيير حديثي العهد بالإسلام:

وأعظم من ذلك تعييرُ قريب العهد بالإسلام فيقولون لِمَنْ عُلِم قُربُ عهده بالإسلام: يا إسلامِي، وقصدهم به التعيير بالكفر الذي هو قريب عهد به، وأحدثوا له ألقاباً أخرى، وذلك لا يحل، بل الواجب التسوية بين المسلمين في كل الحقوق، بل يتأكد على أهل الهمم العلية زيادةُ اعتناءٍ بِهِم والحرصُ في جبر خواطرهم حتّى يرضيهم أبلغ الإرضاء.

(٣) ولا يلزم من هذا أن يخالطهم في الأمور المتعلقة بنفسه، فإن له

الخيار في التحري عن ملاقاتهم هم وغيرهم وجميع من يتخيل فيه عدم السلامة من خلطته، فلا يلزمه الإنكاح منهم وإليهم، كما لا يلزم لغيرهم ذلك كأعيان الحواضر لأهل البوادي لأسباب، ومن أوضحها عدم الموافقة في المألوفات، فإن لكل فريق أعرافاً مخصوصة به. ونص ابن الحاج على أن ذا الصناعات الدنية ليس كُفؤاً لِمَن هو من أهل المروءات والصنائع الجليلة، نقله عنه ابن عرفة. والنظر في الكفاءة في أمور، منها الجاه كما في كلام ابن الحاجب. قال ابن رشد: والمراد به المنصب انتهَى، وقد تقرر أن للعرب جاهاً على غيرهم، فلا يلزم من اعتبار هذا كله التفرقة بين المسلمين، مع أن كل صنف من الناس له مألوفاتٌ وعوائد تُباين عوائدَ غيره، فإذا خالفها تفاقم ضرره، فلكل واحد أن يعتبر ما يناسبه وما يطيب به عشرته مع زوجته أو زوجه، فلا يكون من اعتبر هذا وإن التزمه أبداً مُفرقاً بين المسلمين. ولئن فرضنا السلامة من كل هذه الآفات في الذي هو حديث عهد بالإسلام فلا يلزم أهل الشّرف مناكحته للمعرة اللاحقة لهم في ذلك، وقد صرح جماعة من الفقهاء منهم القاضي عبد الوهاب بأن للناس مناكح قد عرفت لهم وعرفوا بها.

(١) وما وقع في «المدونة» بأنّ المولى كُفْءٌ للعربية لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُم﴾. رَدَّه اللخمي بأن الآية لا مدخل لها هاهنا، لأن مضمنها الحال عند الله في الآخرة، ومنزلة الدنيا وما يلحق به المعرة غير ذلك، نقله بهرام وغيره، وكما يجب على العربي التحرز من استحقار العجمي وتنقصه بسبب حدُوثِ إسلامه، فكذلك يجب على العجمي عدم مؤاخذته بما التزم في نفسه من الأشياء التي شرعها له الشرع. ويجب عليه كذلك أن يحترز من الغضّ من العرب وكراهيته بسبب خروجه من جنسه، فإن كلاً من الفريقين فيه أنفة من غيره. لكن هي في العجم أشد شيئاً في المدن التي في بلاد العجم، وتعصّبهم لأبناء جنسهم أشدّ التعصبِ أمرٌ مشاهد، ولهم تفريق بَيِّن في ذلك بين المسلمين وزادهم في ذلك إغراءً ما سمعوه عن صاحب الترجمة حتّى أدخل عليهم داءً عضالاً في دينهم زيادة

على أنفة نفوسهم، وتفاقم ذلك إلى هوس وتخليط ينبغي الإعراض عنه، ولكن لم ينقل لنا عنه ذلك بطريق متصلة، وإنما عندنا مجرد السماع، فإن كان مبَّرءاً منه فهو مرادنا وهو الظن به، وان كان صحيحاً عنه فالله يغفر له ويكرمنا وإياه برحمته.

(١) وأما ما ذكره الشيخ أبو عبدالله ميارة الأكبر في كتابه المسمى «بنصيحة المغترين في التفرقة بين المسلمين» فأمره قريب، وكثير مما اشتمل عليه حق وصدق، ولكن له فيه تحامل. وقد يتوجه له من العذر مِن أنَّ جهلة أهل زمنه أغضبوه، إذ كانوا أشداء على هؤلاء القوم الذين هم حديثو عهد بالإسلام، وما كان يسوغ لهم إذايتهم بما أجروا عليهم من العوائد التي لا تلزمهم شرعاً، بل يجب زجر مَن ظلمهم بذلك ونهيُهم عنه، والحق أحق ما قيل، وما كان الواجب إلَّا معاملتهم بمقتضَى أخوة الإيمان والإسلام ومراعاة حرمة النبي فيهم عليه السلام. وهذا الحكم متقرر في جميع مَن خرج عن العرب، سواء كان من بني إسرائيل أو من غيرهم.
(٢) وقوله تعالى في خطاب بني إسرائيل: ﴿وأنِّي فَضَّلْتُكُم عَلَى الْعَالَمِين﴾ وقوله تعالى: ﴿ولَقَد اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَـالَمِين﴾ لا يقتضي تفضيلهم على العرب حتَّى يعارض ما تقدم، لأن هذا التفضيل كما قال المفسرون إمَّا أن يكون على عالم زمانهم فقط دون من بعدهم من أمة محمد ﷺ ومن قبلهم من الأنبياء، وإما أن يكون بأشياء مخصوصة من المنّ والسلوَى وما ذكر معهما وهو عشرة بينها المفسرون. ولا يلزم من التفضيل بأشياء مخصوصة التفضيلُ مطلقاً قال ابن عطية: في آية البقرة وفي الكلام اتساع قال قتادة وابن زيد وابن جريج وغيرهم: المعنى على عالم زمانهم الذي كانت فيه النبوءة المتكررة والملك، لأن الله تعالى يقول في أمة محمد ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وقال في الآية التي بعدها: ﴿تَـأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُومِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إن قدرنا فضيلة بني إسرائيل بخصوصية كثرة الأنبياء وغير ذلك، فالعالَمُون عمومٌ مطلق، وإن قدرنا

تفضيلهم على الإطلاق فالعالَمون عالمو زمانهم، لأن أمة محمد ﷺ أفضل منهم بالنص. انتهى. وقد أطبق عليه مَن رأينا من المفسرين، ولا يصح تعميمه على إطلاقه، وإلاَّ لزم تفضيلُهم على رسول الله ﷺ وعلى الملائكة لأنهم من العالمين، وهو باطل قطعاً، أما تفضيل عمومهم على رسول الله ﷺ فكفرٌ، وأما تفضيل خصوصهم عليه وهم الأنبياء الذين كانوا منهم فبدعة.

(١) ومما يتأكد بيانه هنا قوله ﷺ: «ثلاثةٌ يُؤتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَيْنِ رجلٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ وَصَدَّقَه فَلَهُ أَجْرَانِ، وعبدٌ مملوكٌ أَدَّى حَقَّ ٱللَّهِ وَحَقَّ سيدِه فله أَجران، ورجلٌ كانت له أَمَةٌ فغذَّاها فأَحْسَنَ غِذَاءها ثم أَدَّبها فأحسن تأديبَها وعلَّمها فأَحسنَ تعليمَها وتَزَوَّجها فلَه أَجران». أخرجه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(٢) قال القرطبي: الكتابيّ الذي يضاعف أجره مرتين هو الذي كان على الحق في شرعه عقداً وفعلاً إلى أن آمن بنبينا ﷺ، فيُوجر على اتباع الحقّ الأول والثاني انتهى.

(٣) قال ابن حجر في «الفتح» بعد نقله: ويشكل عليه أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل: «أَسْلِمْ يُؤْتِكَ ٱللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»، وهرقل كان ممن دخل في النصرانية بعد التبديل، وأعطي هرقل الأجر مرتين لكونه كان مؤمناً بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ[1] وهو موافق لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَيْنِ﴾ ويحتمل أن يكون تضعيف الأجر له من جهة إسلامه ومن جهة أن إسلامه يكون سبباً لإسلام اتباعه.

(٤) فإن قيل ما قدرتم من أفضلية العرب على العجم ينافيه أحاديث وردت وهي مذكورة في كتب العلماء، منها قول جابر: خطَبَنا رسول الله ﷺ

---

(١) هناك خلاف في ثبوت إيمان هرقل بالنبي ﷺ.

في أواسط أيام التشريق خطبةَ الوداع فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُم وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ لَا فَضْل لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ولا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ولَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ولَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ آللَّهِ أَتْقَاكُم. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ آللَّهِ، قَالَ: فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» الحديث رواه البيهقي. وحديث أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «انظُرْ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِالتَّقْوَى» وحديث أبي هريرة قال إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ آللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُم غية الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَها بِالْآبَاءِ. النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ أَوْ فاجِرٌ شَقِيٌّ لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِرِجَالٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى آللَّهِ مِنَ آلْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ النَّتْنَ بِأَنْفِها».

قلنا: كل هذه الأحاديث لا تصلح للاحتجاج.

(١) فإذا تقرر هذا تبين أن لا معارضة بين هذه الأحاديث وبين الأحاديث المتقدمة في الدلالة على أفضلية العرب لقصور هذه المعارضة لها وضعفها لأن المتقدمة مشتملة على الصحيح وغير ذلك مع كثرتها.

(٢) فإن كان مراد صاحب الترجمة أن لا يُهان واحد من المسلمين من أي جنس كان ولا يحقر ولا يغض منه ولا يترفع عليه ولا يؤذى بشيء لم يلزمه شرعاً ولا يُتطاول عليه بالنسبة العربية وغير ذلك فصحيح. وهو واجب على كل مسلم، وبه ندين الله، وهذا ما جاء به رسول الله ﷺ إذ قال تعالى: ﴿النَّبِيءُ أَوْلَى بِآلْمُومِنِينَ﴾ وفي الحديث المشهور: (والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤمِن مِن نَفْسِهِ، اقْرَؤُوا إن شِئتُم: النَّبِيُّ أولى بالمؤمِنِين من أنفسهم) الحديث. ولا يُعيِّرُ من هو حديث عهدٍ بالإسلام بشيء مما يؤذيه إلَّا مَنْ لا حَياء فيه. ولقد رأيت منهم أقواماً خيرين دينين ولهم مروءة، ولا يغضُّ منهم إلَّا مَن لا أخلاق له ومَن لا يبالي بدينه. وإن كان مراد صاحب الترجمة إنكار محبة العرب ونفي مزيتهم، سيما من صحت فيهم الأحاديث

كالأنصار وقريش وأهل البيت ومن في معناهم، فقد ابتدع بدعة شنيعة، ويُحكم عليه بما يُحكم على أهل الأهواء، وقد تقدم بيانه.

(١) وأمّا التمسك بهذه البدعة بأنَّ مَن كان حديث عهد بالإسلام ومن في معناهم دليلُ أفضليتهم بأنهم من بقايا بني إسرائيل وفيهم أولاد الأنبياء عليهم السلام كسيدنا موسَى وسيدنا هارون وسيدنا زكرياء وترفعُهُم بذلك على العرب وغيرهم من الأمة، فهذا من الضلال المبين، والهوس الذي ليس فيه إلَّا الخروج من الدين، لأنه غير ممكن إلا فيمن هو مميز بالنص من رسول الله ﷺ، كزوجه أم المؤمنين صفية كما صح بذلك الحديث. وأما غيرها ممن لا يُميِّزهُ النص فلا يمكن ثبوته ولا يوجد في ذلك إلَّا مجردُ الادعاء والتوهم، لأنه هؤلاء الأنبياء عليهم السلام كانوا قبل زمان الإسلام بقرون كثيرة وسنين متطاولة بعيدة، وكما لا يوجد نقل صحيح مما قبل الإسلام إلّا بالخبر من رسول الله ﷺ. فكذلك نقل النسب لأنه نقل بالخبر ومندرج فيه. وقد قال الحافظ ابن حزم وغيره من أئمة هذا الشأن: نقل الثقة عن الثقة يبلغ به المصطفَى مع الاتصال بخصوص المسلمين دون جميع الملل، أما مع الارسال والاعضال فيوجد في اليهود لكن لا يقربون من موسَى قربنا من نبينا حيث يكون بينهم وبينه أكثر من ثلاثين نفساً، وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق انتهَى كلام ابن حزم. على أن هذا النقل المتوهم إنما هو يُحكى عن اليهود ومَن في معناهم ممن دخل في أهل الكتاب، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُم» كما في الصحيح. قال العارف ابن أبي جمرة: ومنع الفقهاء تصديقهم مرة واحدة كان ذلك في كتبهم أو غيرها من الشهادة. ثم قال بعد كلام: فحصل من كلا الوجهين العمومُ لعدم صدقهم على الاطلاق، وهذا هو الحكم وعليه السلف انتهَى. وقال ابن سيرين: إنّ هذا الأمر دين فانظروا عمن تأخذوا (كذا) دينكم، وقال عبد الله بن المبارك: الإسناد من الدين، ولولا أن الاسناد من الدين لقال من شاء ما شاء، ذكره مسلم في خطبة «صحيحِه». وقد حذّر العلماء من الإسرائيليات وتركوا رواية

مَن كان يخالطها مخافة إدخال شيء منها في أحاديث رسول الله ﷺ. وقد بالغ العرب في حفظ أنسابهم وخصوصاً بني هاشم من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن، ونقلوه بشهادة أئمة كل زمان، ومع ذلك لا يوجد ما هو مسلّم إلا القليل بالنسبة لما لا يسلم منه، مع اعتناء المؤلفين في التاريخ بذلك والتنبيه عليه في كتبهم، إلى غير ذلك مما ليس هذا محله. فكيف يعتبر بما هو بمجرد الادعاء أو بالاستناد إلى شبهة كافر معلوم بالتبديل والتغيير والتلبيس من أول نشأته، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وهذا ما ظهر في تقرير حكم المسألة في الخارج. وأما الإنسان في خاصة نفسه سواء كان عربياً أو غيره فلا يطمئن لشيء ولا تسكن نفسه لمزية وان كانت له فيها منزلة بمقتضَى الظاهر، فإن الأمر عند الله تعالى مغيبٌ عنا، ولا نتحقق درجة من درجات التعظيم من شرف وعلم وولاية إلا بحسن الخاتمة. قال العارف بالله سيدي عبد الرحمان بن محمد الفاسي: ينبغي لكل أحد له فضيلة وُعد عليها في العُقبَى أن لايقطع بذلك لنفسه، فإن شرط ذلك الإيمانُ عند الله، وهو غيب لا يقطع لأحد إلاَّ مَن ميزه النص. على أنّ مَن تحقق قبضةَ الحقِّ تعالى لا يسكن لوعد وُعد به(١).

(١)

المدَرَّع

الولي الصالح البركة العابد الزاهد الورع الفقيه الأستاذ المقرىء المجود المحقق الأنصح الأنفع، أبو عبد الله محمد المدعو المدرع الأندلسي الفاسي، كان متجرداً للعبادة والذكر لا يفتر عنه أصلاً وجهته كلها لمولاه، لا يدع مراقبته في علانيته ونجواه.

(٢) ومن رسائله هذه الرسالة التي نذكرها، كتب بها لبعض الشرفاء: إلى سيدنا حفظك الله ورعاك، وطهر قلبك من شهواتك وهواك، ورزقك من التوفيق ما يزجرك وينهاك. أمّا بعد. أما آن لك سيدي أن ترجع إلى مولاك؟ أما تستحي أن يراك حيث نهاك؟ أما تخشَى من سطوته وانتقامه؟ أما

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/٣٣٨ ـ ٣٥٣ وتوفي رحمه الله سنة ١١٤٢ هـ.

تخاف من عذابه وعقابه؟ أما لك عقلٌ يزجرك؟ أما لك حياء يمنعك؟ أما تراقب ربك المنان، ذا الطول والإحسان؟ أتبارزه بالمخالفة والعصيان؟ ورحم الله القائل:

إِذَا لم تَصُنْ عِرضاً ولم تَخْشَ خَالِقاً وَتَسْتَحْيِ مَخلوقاً فَما شئت فَاصْنَعِ

أما تَرى الشيب دخل بمفرقك ولحيتك، وأنت في تهاديك وغفلتك؟ أما تَرى العمر يُنهب، والذنبُ يُكتب؟ ورحم الله الشاعر:

نسيُر إلى الآجَالِ في كلِّ ساعةٍ وأيامُنا تُطوَى وهُنَّ رواحِلُ

وما أقبحَ التفريطَ في زمنِ الصِّبا فكيف به والشيبُ في الرأس شاملُ

تزَوَّدْ مِنَ الدنيا بزادٍ مُبلِّغٍ فعُمْرُك أيامٌ وهنَّ قلائلُ

لكنَّ النفس أمرها عسير، وفي مخالفتها جهاد كبير، فإنّ رِضَى الملكِ القُدوس في مخالفة النفوس، وما استولى عليه فهو في سجن الهوَى محبوس، ومن تغافل عن دائه، أُيس من دوائِه. فاطلب سيدي التوبة من الله في جميع أوقاتك، فهو الكريم الذي لا يخيِّب آمال الطالبين. قال جلّ من قائل: «إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِين». والسلام.

توفي حدود الأربعين ومائة وألف(١).

اللمطي السجلماسي

علامة الزمان، فريد العصر والأوان، فارس التدريس والتَّحقيق، وحامل راية التحرير والتدقيق، شيخنا أبو العباس سيدي أحمد بن مبارك اللمطي السجلماسي. له باع طويل وتبحّر في المنطق والبيان والأصول والحديث والقراءات والتفسير. أخذ القراءات بجميع الروايات السبع على ابن خالته الإمام الكبير، الولي الصالح الزاهد سيدي أحمد الحبيب، ورحل إلى فاس فدخلها عام عشرة ومائة وألف، فأخذ عن سيدي محمد

---

(١) «نشر المثاني»: ٣/ ٣٦٧ ـ ٣٦٩.

القسمطيني، والحاج أحمد الجرندي، وسيدي محمد المسناوي. وقرأ النحو عن سيدي عبد السلام الحلوي، وأجازه في رواية البخاري الوجيه سيدي علي الحريشي.

(١) وكان لصاحب الترجمة عارضة في المقابلة بين أقوال العلماء والبحث معهم ويجيب عنهم بمقتضَى الصناعة والآلات، وينفرد بأقوال يُخرجها بفهمه أو عن رأيه بما يظهر له، ولا يبالي بمن يخالفه كبيراً أو صغيراً تقدمه أو تأخر عنه، ويصرح لنفسه بالاجتهاد المطلق، ويردّ على الأكابر من المتقدمين والمتأخرين، ويصرح بأنهم لو أدركوه لانتفعوا به.

(٢) وكان كثير التنويه بقدر مولانا محمد رسول الله ﷺ، ويحمل الناس على شدة محبته، ويدركه عند ذكر ذلك البكاء وهو على كرسي درسه، وربما يطول، وربما يعرض له ضحك وسرور وهو على كرسي درسه أيضاً، ويستطرد بعض الحكايات المضحكات ويطول ضحكه. وقد حضرت جميع ذلك في مجالس من إقرائه.

(٣) وكان يأخذ الأحكام من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من غير واسطة أحد على ما هو مقرر ومدوَّن في كتب الفقه القديمة المشهورة. ورأيته يسرد في درسه بالقرويين سنة ثمانية وأربعين من حفظه خمسين حديثاً بإسنادها وما عرض له من العلل والأجوبة عنها.

وألف صاحب الترجمة تأليفاً في معنَى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُم﴾. واختلف في هذا الكتاب أهل عصره، فمنهم من استحسنه، ومنهم من أنكره عليه وشنَّعه وهم الأكثر. وسُلِّمت له رئاسة العِلم بفاس في زمنه، ولحظوه بالإجلال والإعظام. وَكان يحترف الكسب من الماشية والحراثة، ويتجر ويبيع بالدّين إلى أجل ويحرس درهمه ويتنافس في الدراهم ويصلح. ولد حدود تسعين وألف وتوفي بالطاعون عام [١١٥٦][١].

(١) «نشر المثاني»: ٤/ ٤٠ ـ ٤٢.

محمد الكبير السرغِيني

الفقيه الإمام العالم، العلامَة الهُمام الزَّاهد الورع الصَّوام القوَّام، الساجد الراكع على الدوام، المدرس المحصل النفَّاع، الولي الصالح المنوَّر التلامذة والأتباع، شيخنا سيدي محمد المدعُو الكبير بن محمَّد بن محمد بن محمد السَّرغيني العبدي. أحد أعْلام الزَّمان المشهورين بالعلم والتحصيل والإتقان، والزهد والورع والولاية والعرفان. أخذ عن سيدي الحسن بن رحال المعداني ولازمه، وتربّى بالعلامة الصالح سيدي محمد بن عبد الرحمن الصومعي التادلي، وأخيه سيدي العافية. وكان دخوله لفاس من بلده بقَصد القراءَة عام عشرة ومائَة وألف، وولي الخطبَة والإمامة والتَّدرِيس بجامع الحَمراء من فاس المرينيَّة. ثم في حُدود اثنين وخَمسين ولي الخطْبة والإمامة والتَّدريس بمَسجِد الشُّرفاء من فاس القرويين، وارتحل لسكنَى فاس الإدريسية ولزم ولاية ما ذُكِر إلى أن تُوفي.

اختصر صحيح مسلم، وألف في قوله تعالى: ﴿وهوَ مَعَكُم أيْنَمَا كُنْتُم﴾. وكان رَضي الله عنه من أهل المجاهدة في العلم والدِّين، والمُحافظَة على اتِّباع السُّنة وطريق المهتدين، لا تراه إلَّا ذاكراً أو مصلياً أو مدرساً، فإذا صلَّى الصُّبح جلس يذكر الله تعالى إلى حِلِّ النافِلة، فيتنفل ويطيل، فإِذَا فرغ يجلس يدرس مختصر خليل نحو ثمن ونصف، ولا يدركه إعياءٌ بآخر التدريس كأوله.

(١) وكل تدريسه ممزوج بالوعظ والتذكّر وحكاية أحوال السلف الصالح، يحضُّ على الاقتداء بهم كثيراً، ويحضُّ على تعظيم الأولياء والعلماء. وإذا اضطره الحال إلى المناقشة مع كلام بعض الشروح اقتصر على القدر الضروري ويقول: إن الاعتراض على العلماء من قبيل الغِيبة، فلا يجوز إلا لضرورة بيان الحق. ومجلسه مجلس تحصيل وتحقيق، وبيان وتدقيق، وتذكر وخشوع. سريع الإنصاف وقبول النصوص، وكثيراً ما يجلب من الفوائد والنقول مع حلاوة لفظه ونطقه، وأنشدت فيه:

تُـرِيـكَ بَهْجَتُـهُ مـا ضَمَّ بـاطِنُـهُ مِنَ ٱلْمَعَـارِفِ والأَسْـرارِ والْكَـرَمِ
فَهُوَ الفَرِيـدُ الَّذي جَـادَ الزَّمَـانُ بِهِ فِي العِلمِ والدِّينِ والتَّحْقيقِ والحِكَمِ

وكان يقول: إذا وقع في المجلس ضلال فللشيطان فيه سبيل.

(١) والغالب على تدريسه بعد صلاة الصبح تفسيره القرآن، يفتتح بالإعراب والشواهد، ثم يقدم ما ورد تفسيره بالحديث ويقول: كل ما لم يُسافر في بَحر السُّنة فسفينته غرق، ويذكر مـا تيسر من النكت البيـانيّة، والمباحث العرفانية، والأسرار الربانية، والمواهب الرحمانية، وهو مع ذلك في غاية الأدب والخشوع، والسكينة والخضوع، وتفتح بمواعظه القلوب، وتفرج بمعارفـه الكروب. فـإذا فرغ من درس التفسيـر تنفَّل، ثم يـذهب لداره، ثم يعود لدرس مختصر خليل، ثم بعد فراغه يأخذ في الصلاة إلى الظهر فيصلي، ثم يدرس البخاري ينقل فيه كلام الفتح لابن حجر. ثم بعد فراغه يجدُّ في الذكر إلى أن يصلي العصر، فيقرىء غيره من الكتب التي سنَذكرُها إن شاء الله، ثم يتمادَى في الذكـر إلى أن يصلي المغرب، ثم يدرس إمَّا المرشد المعين أو الرسالة إلى أن يصلي العشاء فينصرف لداره. هذا دأبه، دام على هَذه الحالة وهو إمام وخطيب بمسجد جامع الشرفاء إلى أن توفي نحو اثنتي عشرة سنة. والغالب على تدريسه من الكتب **مختصر خليل**، والتفسير، **والصحيحين**، **والموطأ**، **والـرسالـة**، **والمرشـد**، **وجمع الجوامع** للسبكي، **والألفية**.

(٢) ويحفظ كثيراً من شواهد النحو ويحُضُّ على تعليمها ويقُول: تعليمُهَا من الـدين. ويسرد في أيَّـام العواشـر من الأعيـاد **الحِكَم** لابن عـطاء الله **والقوت**، **والإحياء**، وكتب الشيخ زروق، **والشفا والشمائل**.

وله معرِفَة تامَّة بأحوال الرجال ومراتب المحدثين.

ويعتريه في مجلس درسه كثير من الخشوع والاصفرار والجمال ما لا أستطيع التعبير عنه، ويجالسه الطلبة والعـوام في بعض الأحيان فـلا ينفر

منهم، فإذا جاوز أحدٌ الحدّ في كلامه يزجره بقوله: حسبك حسبك. ولا يداهن أحداً ويواجههم بما يكرهون.

(١) ويحذِّر الطلبةَ من موالاة الوُلاة ويقول لهم: إنهم لا حاجة لهم بعالم أو صالح، وإنما قصدهم فيكم ما يتوقف عليكم من الإيصال إلى مَا يريدُون.

(٢) ويقبح على الطَّالب أن يجعل ما أنعم الله به عليه من القُرآن والعلم حرفةً كالخدمة يتوصل به إلى الأجرة، ويقول: فمِن ذلك قبض الأجرة على الفتيا، ويقول بعدم جواز قبض الأجرة عليها لمن عنده ما يكفيه هو وعياله عيش عامه أو ما يقوم به عيشه من قبض الأوقاف المحبسة التي تحصل إليه على قيامه بما وقفت عليه.

(٣) وكان لا يفتي إلا فيما وجب على الإنسان من العبادات وما يصدر منه من اليمين، فإذا أتوه يستفتونه في نوازل البيع وبحوث الخصام فيمتنع من كَتْبِ الجواب ويقول إن ذلك توطِئَةٌ للفجور والخداع، وكل من الخصمين يريد التوصل لمال غيره، والجواب كالسيف يحمله اللص يقطع به على مال غيره، فلا يحلّ حمل السيوف في الطرقات يرتهبون بها المستضعفين من الناس. وإذا رأى جوابين لخصمين كل واحد منتصر لِمَنِ استفتاه يقول: علماء الوقت إذا ظَهر لهم شيءٌ من اللحم وثبوا عليه، ويتعوذ من الجوابين، وتظهر الكراهة في وجهه ويمتنع من الجواب لأحدهما أصلاً.

(٤) ولا يداهن العمَّال وأهل الظلم ويواجههم بما يكرهون. ولقد جاءه الباشا أبو بكر بن زيد قائد جمع الأودَاية ومعه شاب صغير يتبعه في أيام إقامَة صاحب الترجمة بفاس الجديد، فقال له: يا سيدي: ادع لهذا الشَّاب، وكانت له صورة حسنة، فإنه عندي عزيز، فقال له: لعنك الله وإياه[١].

---

(١) لأن الشاب أمرد ومخالط لهذا الباشا فحصلت الريبة من حالهما عند المترجم له.

(١) وجاءه بعد ذلك إلى فاس ليتبرك به حين انتقل إليها لمَّا ولي الإمَامة والتدريس بمسجد الشرفاء ليتبرك به، فكلمه في تسريح بعض المساجين كان أهله ألحّ بالطلب منه يتكلم في تسريحه، وكان اتُّهِم بأنه عنده مال للمخزن، فقال له: يا سيدي: أخبرني مَن يُوثق به بأنّ ما اتهموه به صحيح من أنه عنده مال المخزن، فقال له: مَن يُوثق به لا يخبرك بما ذَكر. وأخبارُه مع الوُلاة كثير يطُول إيرادُه هنا.

(٢) ويقول لمن يريد من أصحَابه تَعَاطِيَ الشَّهَادة[1]: إن تَعاطِي العدَالة اليَوم كالمُحترف يتحيل على أجرة الخدمة لا عَلى حصول الحق للجانبين، ثم يذكر قول ابن عبد السلام: وحاصل الخطط الشرعية في زمننا هذا أسماء شريفة على مسميات خسيسة، ويقرر أن تولِّيَ الخطط في زماننا جرحة في دين متوليه ولا يقبل في ذلك عذراً، ويقول إن جانب العمال مستغرق الذمة، وكذلك أهل الشبهات في مكاسبهم، ويحذِّر من مخالطة الكلّ ويقول: لا نرضى لطالب العلم إلا رفع الهمة عن الخلق.

(٣) ويُحذِّر من موالاة أصحاب الدنيا والجاه ويقول: إنهم لا يخالطون الطالب إلا لتكميل دنياهم.

(٤) ويحضُّ على الكسب من الحلال ويحذّر من الوسوسة فيه وكثرة البحث فيه، ويردّ قول من قال إنه انقطع، ويستدل على بقائه بخبر: **لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي ظاهرينَ عَلَى الْحَقِّ إلى يَوْمِ القِيامَة**، ويقول لو لم ياكلوا الحلال ما كانوا على الحق، فإن من لم يكن عنده إلا الحرام فليس هو على الحق. ويقرر أن أسواق المسلمين محمولة على الحلال إلا إذا ظهرت قرينة أو شُبهة تدل على التحريم فيعمل بها.

وكان يَحُضُّ على قيام اللَّيْل والتمادي على الذكر واتباع السنَّة وسيرة السَّلف الصالح وتعظيمهم، يعتني بأخبار الصَّالحين ونقل أحوالهم.

---

(١) أي بالأجرة.

(١) وينكر البدع ويقول: مَنْ أظهر بدعة أخمد سنة، ويتعرض في مجلس درسه لِما ظَهر من البدع في الوقت وينكر ذلك بلسانِه جهراً.

(٢) ومن ذلك ما حَدَث من الدَّفن بجامع الأشياخ الَّتي قرب جواره من عدوة فاس الأندلس وما أحدث من الدَّفن بجامع الشرفاء الذي هو إمامه، فصرَّح بتحريمه في مجلس درسِه على رؤوس الملأ بمحضر مَن أحدث فعل ذلك لئلا يتوهم من سكوته استحسانُه، وخرج من العهدة التي عليه، وأشهد مَن حضر تدريسه من الطَّلبة أن ذلك بدعة ونهى عنها. ولمَّا أُتي بهدية ليتزين بها المَسجد المذكور وضرب الطَّالبون بصحن المَسجد للفرح بذلك فقال: لعن الله الشيطان، فقد جاء بخيله ورجله.

(٣) وكانت له محبَّة قوية في آل البَيت ويحب لهم الخير أكثر مِن أنفسهم، ويكره لهم الشرَّ ويطلب من الله السَّلامة لهم أكثر من نفسه، ويقول هم أولَى منَّا من أنفسنا في كل شيء، ويتمنىً لهم العلم وطلبه والدِّين، ويقُول إنَّهم أولى النَّاس به، لأن رسول الله لم يترك لهم ما يَرِثُون منه إلَّا العِلم والدِّين واتباع سنته، وأما المال فتصدق به على غيرهم. وإن وصله عنهم أو رأى منهُم ما لا يصلُح أشفقَ من ذلك عليهِم وناله منه غيار أكثر من نفسه ويطلب من الله هدايَتهم وإصلاح أحوالهم وسلامتهم من مثل ذلك، ويحض منهم من والاه على عُلو الهمَّة والحرص على الدِّين وترك ما لا ينبغي له في كل شيءٍ، وينصحهم وجميع المسلمين. وكل ما نقلت من أقواله فقدْ سمعتها منْه، وما ذكرت من أفعاله فقد شهدتها منه، ولزمته أزيد من عشرة أعوام إلى أن مرِضَ فلزم الفراشَ نحو سَبْعة أشْهر، وتوفي ـ رحمه الله ـ عام أرْبَعة وستين ومائة وألف.

(٤) حدثَني تلميذُه الأخ في الله الفَقيه الدَّيِّن التقي سيدي عبد الوهاب بن محمد الدرعاوي، وكان ممن يلازم مجلس درسه، أنه رآه بعد موته في النوم فقال له: ما فَعل الله بك يا سيِّدي؟ فقال له: غفر لي ورحمني وأدخَلني الجنة أنا ومن اجتمع عليَّ.

(١) واتفقت لي رؤيَتُه بعد موته وقبل الشروع في غلسه فرأيت في وجهه ضَحكَة بينة جدّاً مع ما لا يوصف من الجَمَال والبهاء. والحاصل أنِّي لم أر مثله ولم أر بعدُ في اتباع السنة والحرص على إحيائها مثْله[١].

السلطَان مولاي عبد الله بن اسماعيل [وولده محمد]

الخليفةُ السلطان[٢] الهمام، الواحد الَّذي لا نَظِير له في البطْش والإقدام، وظل الله على الأنَام، أميرُ المومنين المنصُور بالله أبو محمد مولانا عبد الله ابن أمير المؤمنين الخليفة الأعظم، والسُّلطان الأفْخم، والمنصُور بالله مولانا إسماعيل ابن السلطان مولاي الشَّريف ابن المُجاهد المثاغِر صاحب الأوقاف الجاريات، والمآثِر العاليات، أو الحسن مولانا علي الشَّريف الحسني السجلماسي، تقدمت تراجم آبائِه الكرام المذكُورين، الذين لم يزالوا في سبِيل ربِّهم مُجاهدين، تابعين جدّهم المصطفَى الذي أرسلَه الله بهذا الدِّين، وأحيوا آثار أبيهِم رابع الخُلفاء الرَّاشدين، أدام الله عزَّهم وظلهم على الأنام إلى يَوم الدِّين. أطلع الله بهَذا الخَليفَة السُّلطان شَمس الخلافة وأقمارها، وعمرت به الأرض فأَحْيَا أنْجَادها وأوعارَها، وسعد به أهل العزِّ من كل فريقٍ، وتمهدت له السبيلُ في كلِّ فج عميق، وشقت هيبته المشارقَ والمغارب، ونال الضعفاء بعزمه ما تمنوه من المآرب، وعمر به سوق العلم بعد دروسه، وضحك وجه الزَّمان لأهله بعد عُبوسه، ولما استقر بداره الَّتي بناها في المسرة توفي رحمه الله وأرضاه عَامَ واحد وسَبْعين ومائة وألف، وحضر تشييعه خاصة النَّاس وعامَّتهم ومن غده بويع ولده الخَليفة سلطان العَصر أمير المُومنين، المُجاهد في سبيل العالمين، المنصُور بالله، سيدي محمد ابن مولانا عبد الله المذكُور بإجماع أهل الحَل والعقد، وهو يومئذ خليفته بمُراكش وغيرها من بلاد السوس والمغرب، ولا علم له بشيء من ذلك، وتبعهم في ذلك جميع المسلمين

(١) «نشر المثاني»: ٤/ ٨٤ ـ ٨٩.
(٢) كان لهذا السلطان من حدود تلمسان في الجزائر إلى موريتانيا اليوم، أما تلمسان وما يواليها إلى مصر فكانت للسلطان العثماني.

أهل الغَرب والسُّوس، فكانت بيعَة تامَّة مرضية كاملة الأوْصَاف لموت الخَليفة قبلُ وعدَم العَوارض، وطلبَ المسلمُون منه ذلك وعيَّنوه عليه عن رِضىً منهم، فأجابهُم لما طلبوا منه، وما من مُسلم إلَّا ودخل عليه منه فرح وسُرور، واستبشَر بالرَّحمة العامَّة في جميع الأمور، وتوالت به الأَفْراح، وما منهُم إلَّا من يزيد بسطاً وانشراح. وخرج جَماعَة من أعْيان فاس شرفاء وعُلماء وعُرفاء فوفَدُوا عليه لمُراكش ودفعوا له البيعَة المعقودة بفاس له، فأكرمهم وبسط عليهم الإنعام، وأكرمهم غايَة الإكْرام، وأجَازهُم بجوائز، فرجعُوا لفاس في غايَة الفَرح والاستبشار، وراقَب النَّاس قدومه مراقبة الشُّموس والأَقمار.

ثمَّ جاء الخَبر بمجيئه فتهيَّأ النَّاس للقائه وفرحوا بإقباله عليهم ورضاه. وخرج من فاس جمٌّ غَفِير، وجمع حَافِل قوِي كَثير، من الشُّرفاء والعلماء والرمَاة من أهل فاس، وصحبهم من الخير واليمن ما لا يُحِيط به قياس، فكان لُقْياهم معه بمكناسة، فأسدَى عليهم من الخير والإحسان، ما لا يُحيطُ به لِسان، فأكمل الله لهُم برضاه الفرح والسُّرور، وما منهم لا وله وجهٌ يتهلَّل وينور، فأضَافَهُم ثلاثة أيَّام كما هي سنة جده عليه الصَّلاة والسَّلام، ووالَى عليهم مِن أنواع الخيرات بالطعام، ثم أذِن لهم بالرجوع. ثم ورد بعد ذلك على فاس، وكان يوم دُخُوله يوم عظيمٌ، ومشهدٌ كريم. وبقي - أدام الله نصره - مقيماً والنَّاس مِن آفاق المَغرب يحضرون حضرتَه العلية صباحاً ومساء، ويحضر مَعه الشُّرفاء والعُلَماء والطَّلبة من أهل فاس وغيرها في صَلاة الجُمعة بالمسجد القريب من دَار المُلك ويطعمهُم بعد الفراغ من الصَّلاة من أنواع الأطعمة الرَّفيعة المختارة المنتخبة، وهو في ذلك كله يحضُّ على الخير ويأمر به ويؤسس مصالح الدُّنيا والدِّين، وهو يجدد في ذلك كله أمر الخِلافة. ثم لما أحسَّ منه أهل فاس أنَّه يُريد الرجوع لمُرَّاكش خرجوا راغِبين له في جمٍّ غفير من أهل فاس فمثلُوا بين يده ورغَّبوه في الإقامة في أرضِهم اغتباطاً به وحبّاً في جانبِه، فأجابهم بأنَّه لا سبيلَ لَه إلى الإقامة في أرضٍ واحِدَة، ولا بدَّ له من الإقامة في كل بلدٍ

مدَّة ليَتَيسَّر لكل من أهلِها الاِتّصال بمُلاقاته ليتوصل إليه من له شكية أو رَفع خُصومة، لا سيَّما من لا يقدر على السَّفر بسبيل رفقاً بالرَّعيَّة، فحمدوا الله على ذلك لما رأَوْا من صلاح نَظَره فيهم والشَّفقَة والرَّحمة لهم. ثم بالقرب من ذلك دخل فاس وشرَّفَها بقدومه السَّعيد على حين غفلة من أهْلِها، ووصل الشرفاء بألف من الريال، والعلماء وسائر الطَّلبة بألف من الريال، فرقه عليهم من ارتضاه من الولاة حتَّى لم يبق أحد منهم لم ينَلْ من ذلك المال. وواسَى الضُّعفاء والمساكين والفقَراء وأهل العَاهَات بمال أيضاً. ثم استدعىَ عُلماء فاس لمحلَّته، فجمعهم قاضِي فاس سيِّدِي عبد القادر بن العربي بوخريص الكَاملي، فكانوا حينئذ أربعة وعشرين، ومراتبهم على ثلاث طبقات، فجَلسنا معه فذاكرنَا في أنواع العلُوم كل واحد في فن مَهَر فيه. فكان نَصَره الله في سائِر العُلُوم بحراً لا يجارى، وفي التَّحقيق لا يُسارى ولا يُبارى، وقد جمع من المعارف والمعالي ما أبقَى به العلماء دونه، فكملَت له بذَلك شموسه وأنواره، فكان من منَّة الله تَعالى على العباد، وأحيا الله به الدِّين في الأَرض والبلاد، مع فرط الكَرم والجُود، الَّذي ورثَه من أَصله الطَّاهر من آبائه والجدود، ولم يزل ـ أيَّده الله ـ يتابع الخَير حتَّى صار معروفُه مبذُولاً لكل أحد، ونال منهُ القريبُ والأَبعَد، في كل حين ـ أدَام الله نصره، وأعزَّ عساكرَه وجنوده ـ فهو يتفقد الضُّعَفاء والمساكين في بيوتِهم لئِلا يضرّ بهم الحاجة، وقد صَادَف في ذلك أجراً كثِيراً، فكان له عزٌّ وفخرٌ مع ما أعْطاه الله من الحِلم والكرم والجُود وعلو الهمَّة والدِّين والصَّلاح، وسلَّمه من الزنا وشرب الخمر وجميع الشَّهَوات.

(١) علَّق الله همَّته بالجِهَاد، وتوجه لجميع الآلات وما يحتاجُه المُجاهدون من العِدَّة. وقد جمع من ذلك ما لم يسبق لأحد من مُلوك المَغرب، وهَابَه الرُّوم فلا يأمُرهم بشيءٍ إلا بادروا إلى امتثالِه وجاؤوه به مُسرِعين، مع علمه بجَميع ما هو من المَصالح العامَّة والخاصَّة للدنيا والدِّين. فهو رضي الله عنه عالِم الشُّرفاء وشَريف العُلَماء والخُلفاء ولما أَحسَّ مِن الكُفَّار أهل البريجَة الَّتي هي بساحِل البحر قرب أزمُّور الإذَاية لمن جاورها من بِلاد

المُسلمين، توجَّه إليها بالجُيوش الَّتي لا قِبَلَ لهم بها، وحصرَها ورماها بالكور والبُنب، فلم يلبث إلى أن أخرجهم منها أذلةً وهم صاغِرون وهدَّمها، فهي الآن تسمَّى المهدومة، وانقطعت منها عبادة الأَوثان والأَصْنام، وصارت بحمد الله مقراً ومحلاً لأَهل الإيمَان والإِسْلام. ورحِم الله البوصيري حيث قال في هَمَزيته:

وإذا سخَّرَ الإلَهُ أُناساً لِسعيدٍ فإنَّهُم سُعداءُ

(١) وكانت عند أهلِ المَغْرب من الفتوحَات العَظيمة على يد مولانا ـ أَدام الله نصره، وأعلَى بين أهل المَلإِ الأعْلَى ذكره ـ وكانت منِيعة جدّاً، وحار فيها الأوَّلون والآخرون، ففتحها الله عليه ومعه جيشه المُلازم له ومن تيسَّر واستطاع من متطوعة أهل السوس، فأجرَى نفقته على الجَمِيع من يوم النُّزول إلى يوم الرَّحِيل عنها، ووصَل الجَميع بالمُرتَّب، منه ما هو خاص ومنه ما هو عامّ. وما زال ـ أَدَام الله وجُودَه ـ مُجمِعاً علَى الجِهاد على أن يخرج الكَفَرة الَّذين بساحل المغرب من كل بلاد، متَّع الله المسلمين برضاه، وأدام الله لهم بوجُوده عافيته، ووفَّق الجَميع لكل ما يحب ويرضَاه.

(٢) [وفي الصَّحيحين عن أبي هُريرة عن النبي ﷺ قَال: **سَبعةٌ يُظلُّهُم ٱللَّهُ تَعالى في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلّه إمامٌ عَادِلٌ وشابٌّ نَشأَ في عِبادَةِ ٱللَّهِ تَعالَى ورجلٌ قلبُه مُعَلقٌ بالمَساجِدِ ورَجُلان تَحابًا فِي ٱللَّهِ تَعالَى اجْتَمَعا عَلَيْهِ وتَفرَّقَا عَلَيْه ورجلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصبٍ وَجَمالٍ فَقَال إِنِّيَ أَخَافُ ٱللَّهَ ورجُلٌ تَصَدَّقَ صدقَةً فأخْفَاهَا حَتَّى لا تَعلَمَ شِمالُه مَا تُنفِقُ يَمِينُه ورجلٌ ذَكَرَ ٱللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاه**. وكل هذه الخِصال بحَمد الله من شيم سيدِنا نصره الله. نَطلب الله تعالى أن يحرسه بعيِنه الَّتي لا تَنام، ويحرزه من الشيطَان والفِتن على الدَّوام، ويُبقي نعمته علينا إلَى يوم الدِّين. وأخرج مسلم عن عياض بن حمار قال سمعت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **أَهْلُ الجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِط مُوفَّق، ورجُلٌ رحِيمٌ رقيقُ القَلب لكلِّ ذي قربَى، ومسلمٌ عفيفٌ متعفِّفٌ ذو عِيال**. والمقسط العدل. وأخرج الطَّبراني في الكبير بسَنَد

حسن، والأوسط عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: **يومٌ مِن إمام عادلٍ أفضلُ من عبادةِ ستين سنة، وَحَدٌّ يُقام في الأرض بحقه أزْكَى فيها مِن مَطَر أَربَعِين صباحاً.** والأخْبَار في مثل هذا كَثير، إنما اقتصرت على هذه النبذة منها لما تضمنت من كرامة مولانا ـ نصره الله وأدام وجُوده وعزَّة للمسلمين ـ آمِين آمين آمين يا رب العالمين.

البعثة التركية بالمغرب أيام سيدي محمد بن عبد الله

ولما عزم السلطان على حصار مدن الساحل التي بأيدي الصبنيول[1] أهل قشتالة المتغلبين على بلاد الأندلس، واحتاج إلى بعض الآلات العظمَى التي تُرمَى بها المدن من البُنب والمهارز، وأراد أن يصنع ذلك بالمغرب ويتعلَّمَه أهل المغرب، لأنه لم يسبق لهم فيه خبرة، أرسل السيد طاهر قاضي مراكش، وكان فصيحاً متكلماً أديباً وجيهاً يُحسن السياسة ومخاطبة الملوك، ورفيقه شيخ الركب النبوي الحاج الخياط عْدِيِّل، وهو مثله في بعض الأوصاف، فساروا إلى القسطنطينية العظمَى فكلموا وزير السلطان العثماني الغزي التركي أن يأذن لمريد الخدمة بأجرته أن يسير معهم، فجاؤوا بستة عشر رجلاً من المعلمين، منهم من يخدُم المهارز والبُنب والنفط والكور، ومنهم من يصنع السفن، فأكرمهم السلطان ورتَّب لهم الأجرة والنفقة ووكَّل من يدفع لهم الإقامة، فكانوا يخدمون البُنب بتطوان إلى أن تعلموا عليهم بعد مرورهم بفاس، وصناع السفن ساروا إلى سلا فرتَّب لهم مثل إخوانهم ودخلوا الصنعة بالرباط مع معلمي المغرب، فكان أهل اصطنبول أحكم صنعة من أهل المغرب، وأهلُ المغرب أحكم تفصيلاً في صناعة السفن، فمكثوا سنين إلى أن أُخذ ذلك عنهم ورجعوا إلى بلادهم مكرمين[2].

---

(١) أي الإسبان.

(٢) «نشر المثاني»: ٤/ ١٢١ ـ ١٢٧، ٢٠٩ ـ ٢١٠.

مختارات القرن الثاني عشر والثالث عشر من كتاب «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور»

للأستاذ

الطالب محمد البرتلي



الطالب

محمد عبد الله بن أبي بكر الصديق بن عبد الله البرتلي، عرف بالطالب محمد بن أبي بكر الصديق. وهو الإمام المشهور العلامة من الأفراد العلية في فنون الشرع وصلاح الأحوال، شيخ الإسلام الذي له القدمُ الراسخ، له أنظام كثيرة، وفوائده أيضاً وتصانيفه كثيرة، لا يعرفها إلا من أحاط بكتبه.

(١) وكان يحب أشياخه جميعاً ويعظمهم ويمدحهم إذا ذكر عنده أحد من أهل الكرامات يقول هو: حسبي بشيخي فلان.

(٢) وكان يؤذن، وأذانه هو آخر الأذان، قيل له في ذلك، قال: غرضي من كان عازماً على الصلاة في المسجد، إذا سمع أذاني علم أن الصلاة حانت فينهض مسرعاً.

وكان كثير الورع والإعراض عن الدنيا، لأنه كان لا يدخر شيئاً لغد.

(٣) وكانت همته الكتب حتى حكى أنه كان يوماً مع أصحابه يتحدثون، فكلهم قال منيتي كذا وكذا، فقال هو: منيتي كثير من الكتب، فأكون بينهم[١] تارة أنظر وتارة أقرأ.

وكان ورعاً جميل الخلق، فقد أخذ من خُلقه ﷺ، دائم البشر متواصل الأحزان، وكان كثير الصمت مستعملاً قوله تعالى ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَيٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ الآية. وكان مطاعاً إذا أمر بشيء لا يُفعل

---

(١) كذا.

(١) إلا ما قال. وكان إذا حبس المطر وذهب الناس لصلاة الاستسقاء يقول: لن تزالوا بخير ما دمتم على بعض سنته ﷺ.

(٢) حدثني بعض التلاميذ أنه كان ينام معه شهوراً فقال: ينام أول الليل ويستيقظ جوفه، ومن ثم لا ينام إلى الصبح. فقال لي: قمت ليلة فوجدته مضطجعاً في لحافه أحسب أنه نائم، فلما أصغيت سمعي له سمعته يذكر الله بقلب حزين مع التدبر، وكان فعله ديمة.

(٣) وكان لا تأخذه في الله لومة لائم، وإذا عزم توكل، وإذا حدَّث صدق، وإذا عاهد وفى، وإذا غضب عفا، وإذا خاطبه الجاهل قال سلاماً. وممن قال الله تعالى فيهم في كتابه العزيز ﴿وعبادُ الرَّحْمَنِ الذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خاطَبَهُمُ الْجهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾ الآيات.

(٤) وكان ورعاً يبغض أعداء الله ويحب أولياءه، وقد قص قصته مع اليهوديين اللذين أتيا مع الشريف مولاي الحسن بن مولاي عبد القادر إمامي، وهي أنه لما رأى اليهوديين أبغضهما حق البغض، وأتى الشريف المذكور فقال له: خذ العشر من صاحبي الشيطان الذي عندك! قال إنهما ضيفاي، فقال له الشيخ: إن لم تأخذه منهما أغريت عليهما أحداً من المغافرة، فأقول له إنه أحلُّ عليك من لبن أمك. فقبل الشريف أن يأخذه بنفسه، ولكن قال للشيخ: أحضرني لآخذ منهما ما قلت، قال الشيخ: نعم وأجل، والله ما أحب علي منهما شيء. فلما كان الغد أتى الشيخ ومعه رجلان من عشيرته، فعشَّروا مال اليهوديين كلِّه، فأعطوه عشره للشريف. فلما كان بعد ذلك بيومين أو ثلاثة أتى أحد اليهوديين للشيخ بجزية، فلما بلغ الدار أرسل إلى الشيخ رسولاً فأتاه الشيخ يحسب أنه غيره. فلما رآه عبس في وجهه، قال: ما أتى بك يا ذمي؟ قال له اليهودي: أريد أن أقول لك شيئاً. فلما أراد اليهودي الدخول إلى البيت، قال الشيخ له: إليك إليك! لا تدخل! فخرج إليه الشيخ مسرعاً خيفة أن يدخل، فأجلسه في قدم الطريق، قيل له في ذلك، قال غرضي أن يؤذوه الناس بمرورهم لعلهم

يطؤون ثيابه ويمزقوها[1]. فلما اطمأنَّ اليهودي في الأرض، كشف له عن هدية كبيرة. فلما رآها الشيخ قال: لا أقبل هديتك. قال اليهودي: أريد بها وجه الله، قال: لا أقبلها لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وأحذر على نفسي من أن تُحب عدواً لله ورسوله، فذهب اليهودي منكسر الرأس خائباً لا يساوي نقيراً ولا قطميراً.

(١) وكان يحب أبناء النبي ﷺ، وكان إذا أخذ يد أحدهم يطأطىء لها ليقبلها مرة بعد مرة حتى لا يكاد يرسلها. ومن ذلك رأيته في مرضه الذي توفي فيه رحمه الله تعالى دخل عليه شريف فلما رآه وهو حينئذ منع من الكلام، وأظن أنه في الاحتضار، أراد أن يقوم فلم يقدر، فأشار إلى الشريف أن يعطيه يده فأخذها وهو يرتعد من شدة ما هو فيه، فلم يزل يقبلها حتى عجز.

وكان كثير الورع كثير الحياء دائم الفكرة.

ومن دعائه لنا إذا طلب أحدنا منه الدعاء: رزقك الله العلم والتقى.

وكان يعبر الأحلام تعبيراً لا يتخلّف في الغالب.

وكان نابذاً للدنيا وراء ظهره كما قدمنا، لأنه كان ما يأخذ منها إلاَّ ما يجعله في الكتب.

وكان يقول في بداية كل أمر خير: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، ما شاء الله لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٢) وكان لا يحب من الطعام والشراب إلا اللبن، لأنه ﷺ اختار الفطرة.
(٣) وكان كثير التبارك، حدثني بعض أصحابه أنه كان يقرأ معه ليلة عند النار إذا بعود من القضا، فتعجب من صحة العود، فقال الشيخ: ما شاء الله لا قوة

---

(١) كذا.

إلا بالله، قال له في ذلك، فقال أخاف أن يطير من العود شيء فيضر أحدنا. وكان إذا كتب ورقة نظرها وقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

ولد عام أربعين ومائة ألف، وتوفي عام تسعة عشر ومائتين وألف، غفر الله له ونور ضريحه، وجعل الرحيق المختوم شرابه[1].

التنواجيويّ

الطالب أحمد بن محمد رَارَ التنواجيويّ رحمهما الله تعالى.

كان رحمه الله تعالى عابداً زاهداً صالحاً تقياً، ذا خلق حسن، صاحب انفاق في سبيل الله، فقيهاً نحوياً منطقياً بيانياً قارئاً بالسبع، أكثر عبادته إقراء القرآن العظيم وتعليم الناس العلم، انتفع به كثير من الطلبة.

(١) كان معمر الأوقات بالتعليم، ربما يقرىء التلاميذ قبل صلاة الصبح، ثم بعد الصلاة يشتغل بأوراده إلى حل النفل، ويصلي ركعتي الضحى ثم يجلس للتعليم إلى قرب الزوال، فينام نوماً خفيفاً، ثم بعد الصلاة يشتغل بالتعليم إلى صلاة العصر، ثم يشتغل به بعدها إلى أذان المغرب، ثم يصلي النوافل بعد صلاة المغرب إلى العشاء، ويتنفل بعد العشاء أمام بيته. وإذا كان ثلث الليل الأخير يقوم فيركع، ويشتغل بالتعليم إلى الصبح، نفعنا الله تعالى به. وتعليم العلم لمن لا يعلمه صدقة ودرجة عظيمة.

(٢) وكان فهماً نجيباً، سمع ليلةً رجلاً ينشد قصيدة فحفظها بالسمع. وإذا حضر إلى تفسير لوح لا يحتاج له إلى شيخ، وإذا كتب لوحاً حفظه، وإذا قرأ شيئاً لا يحتاج أن ينظره في كتاب، وما لم يقرأ فهمه بالنظر في الكتاب.

وكان مقتدياً بما قاله الشيخ خليل[2].

---

(١) «فتح الشكور» ١٧ ـ ٢٣.

(٢) أي خليل بن إسحاق من أئمة المذهب المالكي.

وكان ملازماً للطهارة، يدخل في الآبار ليلاً لأجل أخذ ماء الطّهارة.

(١) وكان رحمه الله تعالى سخياً. ومن سخائه أن بعض تلامذته تزوج وأمسك أصهاره زوجته حتى يدفع لهم حالّ الصداق وليس عنده ما يدفع لهم، فأعطاه عشرين بقرة دفعها لهم، وهو قليل ذات اليد. ولقد صدق فيه قول الشاعر:

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديْك قليل

وكان متواضعاً، فإذا رأيته لا تميز بينه وبين تلامذته، ويركب على الفرس بلا سرج قائماً بمصالح أهله. يحضر لحفر الآبار، ويتبع البقر إذا سرح.

وكان كثيراً فيه: لا أدري.

وكان حسن الخلق كثير التبسم قليل القهقهة.

(٢) ولا يزجر التلاميذ على أمر غير حرام، بل يصبر عليهم، ويتغافل عن أولادِهِ فلا يأمرهم بالقراءة.

وكان زاهداً في الدنيا، فإذا كان عنده بقرات قلائل يرد زكاة الفطر ولا يقبلها، وإذا قبلتها امرأة له يطلقها.

(٣) وصام سنة مجاهداً للنفس لما طلق امرأة يحبها.

(٤) وكان التلاميذ عنده سواء من يعطيه منهم ومن لا يعطيه، بل جميع الناس عنده سواء.

(٥) ولا يبالي بالظلمة ولا يقوم لأحد منهم، وإذا صافحَه يمدّ له رؤوس أصابعه زاهداً فيه.

توفي رحمه الله تعالى عام عشرة بعد مائتين وألف[1].

---

(١) «فتح الشكور»: ٥٩ ـ ٦١.

الطالب الأمين

الطالب الأمين بن الطالب الحبيب الحرشي.

كان رحمه الله تعالى من أولياء الله تعالى، غاية في علم التوحيد ومعرفة رسالة ابن أبي زيد، لم ير مثلُه فيها ولا سمع به في بلاد التكرور، مع الشفقة على المتعلم والرأفة والصبر على التعليم.

(١) وكان رحمه الله تعالى كثير التواضع والخشوع، يسمع لصدره أزيز، كثير التنهد في الصلاة، يبكي عند خطبة الجمعة، غاضاً بصره حتى يظن من لا يعرفه أنه لا يبصر، مداوماً على إحياء الليل بالصلاة، معمر الأوقات بالتفسير والنسخ، ومصالح المسلمين وعيادة مرضاهم، والمطالعة وإحياء الليل، ذا أوراد واجتهاد في العِبادة، ولم يزل دؤوباً على الخير من صغره حتى توفي رحمه الله تعالى، كثير الصدقة للأحباب وعيادة مرضاهم، إن أتاهم يسأل عن الكبير والصغير حتى تظن أنه مخالط لهم من حسن خلقه الذي خصه الله به عن أهل زمانه، ويدعو الناس بأحب أسمائهم إليهم، ولا يدعوا ذا لقب قبيح بلقبه، ولا يدعو عَلى ظالم إلا أن يكون ضارّاً للمسلمين فحينئذ يدعو عليه.

وخطه من أحسن الخط وأبدعه، وانتفع الناس بكتبه.

(٢) وأهل بلده يحبونه كلهم ومتوافقون على فضله ويمدحُونه، بل كل من يعرفه أو سمعه، وبذلك جرت عادة الله تعالى مع عباده المتقين. قال تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدّاً﴾. وقال بعض العلماء لمالك: اتق الله يحبك الناس وإن كرهوا.

ويأتيه الناس يتبركون به عند كل صلاة ويسألونه أن يدعو لهم.

وكان رحمه الله تعالى أباً لليتامى والضعفاء والمساكين والأرامل والغرباء شديد الرحمة والرأفة بهم.

وكان قائماً بأمور المسجد حتى قال بعض الناس يوم وفاته: اليوم تيتم المَسجد.

(١) كثير القيام بالسنة، ولقد رأيته يوماً خسفت الشمس وأرسل للناس يأتون للصلاة، فاعتذروا ولم يأته أحد فمضى وحده نحو المسجد يريد أن يصليها ومشيت معه، فلما دخلنا المسجد انجلت الشمس. ورأيته يخرج لصلاة الاستسقاء في بعض المرات ما معه إلاَّ نحو رجلين أو ثلاثة، ويمر بالجماعة الكثيرة ويدعوها للصلاة فلا يقوم معه أحد وربما قام معه واحد أو اثنان.

(٢) ولم يقل من الشعر إلا نحو قصيدتين اتباعاً للسنة، ولِما قال ابن أبي زيد في الرسالة: ولا ينبغي أن يكثر منه ومن الشغل به.

(٣) وكان أول دهره يصلي صلاة التراويح في بيته، حتى رآها ضعفت في المسجد فداوم عليها حتى قبضه الله تعالى.

(٤) وكان لا يحضر مجلس الحديث حتى رأى قلة الجماعة لما مات بعض الأشياخ الذين كانوا يحضرونه، فداوم عليه حتى توفي رحمه الله تعالى. ويكره قراءة الجماعة للقرآن على الميت.

(٥) وكان مشتغلاً بما يعنيه وتاركاً لما لا يعنيه، فلم يُر قط جالساً في المجالس، ولا في الطرق إلا إذا أراد أن يقول لأحد كلاماً ربما قعد معه وأخبره ثم قام عندما تم الكلام.

(٦) ويصلي على النبي ﷺ إذا جلس قبل أن يتكلم لئلا ينساها في ذلك المجلس فيقوم منه ولم يصلّ، امتثالاً للحديث.

(٧) ويخدم أهله بنفسه، ولا تراه جالساً لا يفعل شيئاً قط، بل لا تراه إلا يفسر أو يكتب أو قائماً في أمور المسلمين ومصالحهم، أو منتظر الصلاة يذكر الله تعالى. ولقد أعانه الله ووفقه حتى كان ليس له حركة ولا سكون

ولا نفس من الأنفاس من ليل أو نهار إلا في طاعة الله، حتى توفاه الله تعالى على ذلك.

وكان مبرزاً فائقاً على أقرانه في العدالة واتباع السنة. وكان أشياخنا إذا ذكروه في التعليم يقولون: المبرز فريد دهره ووحيد عصره بالاتفاق. ولقد قال لي الثقة بعدله الصالح محمد بن أحمد: ما رأيت مثل الطالب الأمين، وأنا أيضاً ما رأيت مثله والله أعلم. ولا يأمر الناس بصدقة أو معروف إلا فعله قبلهم. وكان يظهر الصدقة ليلة سبع وعشرين من رمضان بعد ختم القرآن، وفي يوم الفطر والأضحى ليُقتدى به.

قبضه الله تعالى إلى رحمته ـ إن شاء الله ـ عام ستة وستين ومائة وألف، تغمده الله تعالى برحمته، وأسكنه بحبوحة جنته.

(١) ورآه تلميذه الإمام عمر بعد موته في النوم وسأله هل رأى ملكي السؤال؟ فقال له: نعم، رأيتهما. فقال له: ما قلت لهما؟ قال له: قلت لهما الذي كنت أقول[١].

الطالب البشير

الطالب البشير بن الحاج الهادي الايديلبي.

الشيخ الفقيه العالم المتفنن المقرىء، شيخنا عالم بلاد التكرور وفقيهها ومدرسها ومفتيها بلا مدافع، حريصاً على العلم استفادة وإفادة، ولا يأنف على أخذه عن أقرانه.

(٢) أفنى عمره في طلب العلم، أسهر جفونه في النظر، وأحيى ليله في تحصيله بالسهر، يعمر الأوقات فيه، فنهاره في التدريس والشرح والإفتاء، وليله في المطالعة، وكان على غاية اجتهاد، فكان يرى في عمامته أثر الدخان لكثرة مطالعته بالليل.

---

(١) «فتح الشكور»: ٦٤ ـ ٦٧.

كان ـ رحمه الله تعالى ـ شيخاً جواداً كريم الخلق حسن العشرة، حافظاً حق الجار، حسن الجواب، حسن الفهم، سريع القلم، حسن الخط، مجتهداً في تحصيل الكتب كثير الاعتناء بها، حتى حصل منها بالنسخ والاستكتاب ما يحتاج إليه من كل فن، حتى حصل شرح كل كتاب قرأه.

(١) وإذا استعار كتاباً اجتهد فيه حتى يقضي حاجته منه ويرده في أقرب مدة. أحيى العلم في بلاده من كثرة طلبة الفقه عنده، فصاروا علماء، واشتهر في البلاد وطار صيته فيها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، فكانت النوازل والأسئلة ترد عليه من كل مكان، فيجيب عنها بالنصوص الصريحة والنقول الواضحة. حفظ القرآن وهو صغير، ثم صرف همته العلية وفكرته الزكية في تحصيل فنون العلم، يقرئها فنًّا فنًّا حتى مهر فيها واشتهر.

قرأ بالسبع على الشيخ العالم المقرىء الطالب عمر بن محمد بن بوه الايديلبي. وكان يحصل «الشاطبية» حفظاً، مستحضراً لها يستشهد بها لحضورها عنده، ويقرئها الناس. ويقرأ «الدُّرَرَ اللوامع» لابن بري ويُقرأ عليه السبع، وله ورد في القرآن، وهذا الفن عنده من أطيب فنونه وأوضحها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

يقرأ الرسالة ومختصر خليل وعلوم أصول الدين وأصول الفقه، ويقرأ لامية الزقاق والقواعد أعني المنهج، وأكثر ما يقرىء الناس مختصر خليل والألفية، فاشتغل باقرائهما عن إقراء فنون العلم غيرهما التي هي بقبضة يده ـ رحمه الله تعالى ـ ويُقرِىءُ ألفية العراقي الأثرية في علم الحديث، وقرأت عليه في المسجد وسمعت ممن أثق به من تلامذته أنه يحفظ ثلاثة أرباع من صحيح البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ وقرأ الحكم العطائية على شيخنا الطالب الأمين، ويُقرىء السلم في المنطق. وكان يقول ـ رحمه الله ـ: أنا نحوي نحو الفقهاء، وما ذلك إلا تواضعاً منه، وأما هو فكان يقرىء الألفيتين في النحو ألفية ابن مالك وألفية السيوطي، وكفى بهما نحوا.

(١) وما رأيت أكثر فيه من قول لا أدري حين يُسأل، ويقول إن مالكاً ـ رحمه الله تعالى ـ سئل عن أربعين مسألة فأجاب في عشرها أربعة، فكيف بنا نحن ـ لطف الله تعالى بنا وبجميع المسلمين آمين. وما ذلك إلا من ورعه وتحريه في الفتيا ـ رحمه الله تعالى ـ ونفعنا به آمين.

(٢) ولم تيبس دواته منذ سنين عديدة، وسمعت أنها نحو ثلاثين سنة، والله أعلم. وكان يقول إنها من أوثق أعمالي عندي، ويستدل بالحديث عن أنس بن مالك ـ رضي الله تعالى عنه ـ، وعمران بن حصين والنعمان بن بشير ـ رضي الله تعالى عنهم ـ، وهو: يُوزَنُ يَوْمَ الِقيَامَةِ مِدَادُ العُلَمَاءِ ودَمُ الشُّهَدَاءِ فَيَرْجَحُ مِدَادُ الْعُلَماءِ عَنْ دَمِ الشُّهَدَاءِ انتهى[١]. ومعلوم أن أعلى ما للشهيد دمه المهراق في سبيل الله، وأدنى ما للعالم مداده والله أعلم.

(٣) وكان ـ رحمه الله تعالى ـ ذاباً على الشريعة، ناصراً لتواليف أئمة الفقه، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ في جواب مسألة سئل عنها، أمّا ما في مختصر سيدي خليل ونظم ابن عاصم ـ رحمهما الله تعالى ـ من النصوص، معمول به ومعول عليه في مذهب مالك ـ رحمه الله تعالى ـ ومن أبطل ما فيهما بالكلية فلا يعمل بقوله ولا يلتفت إليه، لأنهما لهما نحو خمسمائة عام تتعاطاهما الأئمة شرقاً وغرباً إلى الآن، حتى صارا في الفروع الظنية كالتواتر على صحة ما فيهما، فلم يقل أحد من العلماء فيهما ما قال هذا السيد من الإبطال، والأمة المحمدية لا تتفق على الضلال، فلو كان ما فيهما باطلاً لنُقل إلينا، كما صرحوا بالكتب التي تحرم بها الفتوى انتهى.

وله فتاوى مجموعة انتفع الناس بها، ولله الحمد والمنة.

توفي ـ رحمه الله تعالى ـ عام سبعة وتسعين ومائة وألف[٢].

---

(١) قال العجلوني في «كشف الخفاء»: ٢/ ٤٠٠ ما نصه: «رواه الشيرازيّ عن أنس، ورواه الموهبيّ عن عمران بن حصين، وأخرجه ابن عبد البر عن أبي الدرداء، وابن الجوزي في «العلل» عن النعمان بن بشير قال المناويّ: وأسانيده ضعيفة لكن يقوي بعضها بعضاً».

(٢) «فتح الشكور»: ٧٨ ـ ٨١.

٥ ـ مولاي زيدان

سيدي مولاي زيدان بن سيدي محمد بن مولاي أحمد بن مولاي عبد الكريم بن سيدي حم المكني بابن الحاج بن مولاي الحسن بن مولاي محمد بن مولاي عبد الله بن مولاي محمد بن مولاي علي الشريف بن مولاي الحسن بن مولاي محمد بن مولاي الحسن بن مولاي قاسم بن مولاي محمد بن مولاي أبي القاسم بن مولاي محمد بن مولاي الحسن بن مولاي عبد الله بن مولاي أبي محمد بن مولاي عرفة بن مولاي الحسن بن مولاي أبي بكر بن مولاي علي بن مولاي الحسن بن مولاي أحمد بن مولاي إسماعيل بن مولاي القاسم بن مولاي محمد ذي النفس الزكية بن مولاي عبد الله الكامل بن مولاي الحسن المثنى بن مولاي الحسن السبط بن مولانا علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ورضي عنه ـ وابن فاطمة الزهراء البتول سيدة النساء عليها السلام. فبينه وبينها ـ رضي الله عنها ـ واحد وثلاثون أبا.

أحد الأولياء العاملين، والصلحاء المتقين، ذو جد واجتهاد، ولزوم أذكار وأوراد.

(١) ومبنى أمره على النية والصدق مع الله تعالى، فتراه يحب الشيء مجتهداً في تحصيله، فإذ بان له فيه نهي كان أبعد الناس منه، فيكون منه مناط الثريا. قال بعض العلماء ـ رحمه الله تعالى ـ: ترك المنهيات أشد من فعل الطاعات، فالطاعات يقدر عليها كل أحد، وترك المنهيات لا يقدر عليه إلّا الصديقون.

وكان مظهراً لنعم الله تعالى عليه، يلبس الملابس الحسنة الفاخرة، ويأكل الطيبات من الحلال.

كان ـ رحمه الله تعالى ـ سخيا من الأسخياء، نجيباً من النجباء، وتقياً من الأتقياء، مشهوراً بالفضل والصلاح وحسن الخلق والسخاء، عارفاً بالسياسة بصيراً بأحوال الناس ينزل الناس منازلهم، حتى صار الناس كلهم سواء في محبته. له كرامات عديدة، ومفاخرُ مجيدة.

(١) فمن كراماته ـ رحمه الله تعالى ـ طي الأرض له، كما شاهده من سافر معه، فشهد أهل الخبرة بالطريق يقولون الموضع الفلاني لا نأتيه إلا غداً، إن شاء الله، فما يتم اليوم حتى يقولوا ذلك الموضع خلفناه وراءنا. والسحابة تمطر وراءهم وأمامهم ولا يصيبهم من المطر شيء، فكان أعجوبة زمانه في الكرامات وخرق العادات.

ومنها كونه ـ رحمه الله تعالى ـ سيفاً صارماً من سيوف الله، لا يتعرض له بَرٌّ ولا فاجر إلاَّ قطعه. ولذلك خاف الناس كلهم منه، فرهبوت خير من رحموت: أن تُرهب خير من أن تُرحم. وأخباره في ذلك مشهورة.

ومنها استقامته مع الشريعة، فكان مسدداً موفقاً في القول والعمل، أعطي قدرة في الكلام فلا يناظره أحد إلا أفحمه في الجواب، حتى كأنَّ الحجج تنزل على طرف لسانه.

توفي رحمه الله عام اثنين ومائتين وألف[١].

محمد الولاتي

الفقيه محمد بن الفقيه الطالب أبي بكر بن علي بن الشيخ الولاتي المحجوبي رحمهم الله تعالى.

كان رحمه الله تعالى من العلماء النجباء الأذكياء، الأدباء الأتقياء، جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة. وكان عارفاً بعلم أصول الدين متفنناً، حصل العلوم كلها كلاماً وحديثاً وأصولاً وفروعاً ونحواً وأدباً، وهو صغير السن، سليل الفقهاء ونتيجة العلماء بيته بيت علم وجلالة، أبوه وعمه وجده علماء فقهاء رحمهم الله تعالى، فهو فقيه ابن فقيه ابن فقيه ثلاثة في نسق، مكث العلم في بيته نحو تسعين سنة من نشأة جده الفقيه أبي بكر إلى وفاته هو، رحمهم الله تعالى.

---

(١) «فتح الشكور»: ٩٧ ـ ١٠١.

(١) وكان رحمه الله تعالى جيد النظر حسن الفهم ثاقب الذهن ذا جد واجتهاد في العلم أفنى فيه عمره، كثير المطالعة، ربما كان يطالع آخر النهار، فإذا نزلت ظلمة الليل طلع إلى سطح الغرفة فيصلي المغرب، فإذا اشتملت الظلمة نزل وأوقد النار وطالع على ضوئها، ورأيت له كلاماً كتبه على الخصائص الكبرى للسيوطي في السدس الأخير من الليل.

(٢) قل أن ترى كتاباً في ولاته إلا رأيت أثره فيه، حتى أنه لما عجز في مرض وفاته عن إمساك الكتاب تمسكه له زوجته ينظر فيه، فإذا أكمل وجه الورقة قلبتها له فينظر في الوجه الآخر منها.

ألف عقيدة منظومة في علم أصول الدين تزيد على ثلاثمائة بيت، وهو ابن واحد وعشرين سنة.

(٣) ومن نظمه في الحكم رحمه الله تعالى:

مَنِ احْتَاجَ لِلْمَخْلُوقِ لاَنَتْ قَنَاتُهُ ... لَدَيْهِ وَأَسْقَاهُ كُؤوسَ مَهَانَةِ

ولِلَّهِ سِرٌّ في احْتِيَاجِ عَبِيدِهِ ... إلَيْهِ مَصُونٌ فِي أَعَزِّ صِيَانَةِ

مولده رحمه الله تعالى في السابع بعد المائة والألف، وتوفي رحمه الله تعالى في السابع والثلاثين بعد المائة والألف، فعمره نحو ثلاثين سنة والله تعالى أعلم[١].

محمد الأمين

سيدي محمد الأمين بن الطالب سيدي أحمد بن البشير بن محمد السوقي نسباً الجبيهي داراً ووطناً، رحمهم الله تعالى.

كان ـ رحمه الله تعالى ـ إماماً يقتدى به في العبادات والمهمات، عالماً علامةً كلامياً محدثاً فقيهاً نحوياً إعراباً وتصريفاً. وله اليد الطولى في التصريف إعلالاً وتعويضاً واعتلالاً، متقناً للقراءات السبعة[٢]، فاق أشياخه فيها وفيما قرأ عليهم.

---

(١) «فتح الشكور»: ١١٩ ـ ١٢١.

(٢) كذا.

(١) وجلّ انتفاعِهِ من والده رحمه الله تعالى همة وتعليماً، سأل بعض الكبراء والده: أيهما أعلم؟ أعني صاحب الترجمة ووالده، فقال: لا أبلغ كعبي محمد الأمين.

ووافق اشتغاله بالتعليم زمن الفتن والحروب والغلاء وتراكم الأهوال بوجوه، فلم يشغله ذلك كله عن التعليم، بل جاهد مجاهدة حتى فتح الله عليه والحمد لله. وتصدر للتدريس من صغره في الفنون.

ويسبق لبيان علل وجوه وتوجيهات القراءات السبعة وعلل رسمها حذفاً وحَمـلاً ونقلاً ووصـلاً وفصلاً وغيـرها من في إقليمـه، وفي علل وقفها، مشتغلاً بعلومه وتدريسها من صغره إلى كهولته، بل إلى أن توفاه الله، وبما يعنيـه عما لا يعنيـه، وعن بعض المباح زاهـداً فيه مـع تهيىء الأسبـاب والحمد لله، لاشتغاله بعلومه وتعليمه وأوراده قرآناً وصلاةً وأذكاراً.

وكان يُبعث إليه بالمشكلات، ويستند إليه من المعضلات، ويرحل إليه من الأقطار للتعلم. ويظهر نفعه في القريب والبعيد، والحاذق والبليد، والحاضر والبادي، معمراً أحيانه بذلك وبالفصل بين المسلمين بالعدل، ولا يكتب الحكم بينهم إلا بأساس على القرآن والحديث ثم القواعد فالفروع، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يستحيي من أحد ما في الشرع، واشتهر عدله عند بلده حتى كانوا يقرون بظلم من أبى شرعه والحكم عنده، ولا يطلب الرّشا ولا يقبلها، وربما أفشى سر من أراد إعطاءه شيئاً ويقول له: تريد أن تعطيني أعطه لخصمـك على رؤوس الأشهاد. وأحب الخصمـاء عنده من تفاصلوا بينهم قبل وصوله. وإليه انتهت رياسة الإفتاء والقضاء في قطره.

ومن بركة عدله وعلامته عدم إظهار الحسد من معاصريه من العلماء والقضاة وغيبته، بل أظهروا فضله وشهدوا بعدله.

(٢) رأى والده عند طلق أمه به خديجة ابنه عبد الله المحفوظية ـ

رحمها الله تعالى ـ في النوم أن النبي ﷺ يرشّ أي الوالد بالماء، فانتبه مسروراً.

(١) وكان صدوق اللهجة من صغره بالتواتر لم يُقبض عليه كذب فيه إلى أن توفي رحمه الله تعالى. روي أنه زار الفقيه العلامة القاضي سنبير بن القاضي سيدي الوافي مع بعض الأعيان، فقال له العلامة سنبير: من أنا؟ قال له: قال لي فلان أنت سنبير، فعجب الحاضرون من صدقه وإسناده للأخبار.

ويمازح قليلاً تلامذته بطرح المسائل وباللحن الخفي، ويلاعب صبيان أقاربه صلة، وصله الله تعالى[١].

عثمان الولي

هو الشيخ الفقيه العالم العامل الصالح الزاهد التقي النقي سيد الوقت وبركته، أحد العلماء العاملين، والصلحاء المتقدمين، سيدي عثمان بن عمر الولي بن الشيخ رحمهم الله تعالىٰ.

(٢) كان رحمه الله غرة عصره في سلوك طريق السلف الصالح على قدم صدق من الصلاح والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يواجه بذلك أكابر الظلمة من الباشات والقياد[١] وغيرهم من لصوص المغافرة والتوارق، وأما أكابر الظلمة بين يديه [فأحقر] من دابة. كم صدع بالحق في الله تعالى ولم يخش لومة لائم! فكانت الباشات واللصوص تهابه. فلما جاء الباشا الخضر لولاته في محلته أخذ يغلظ عليه الكلام، وابن عمه عبد الوهاب بن علي بن الشيخ يقول له: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ وكانت الظلمة تطيش عقولهم عند رؤيته ولا يستطيعون مقابلته ومن دخل حرمه لا يخاف، فكانت البوادي يدخلون عليه في ولاته بمواشيهم وأموالهم وذراريهم

---

(١) «فتح الشكور»: ١٤٩ ـ ١٥٠.

(١) كذا ولعلّها القوّاد.

ونسائهم فلا يتعرض لهم، وكان الجاني إذا دخل داره أمن ما دام فيها.

(١) وكان أعظم أهل زمانه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم وأمشاهم في حوائج الناس، وكان قائماً بأمور المسجد وإصلاحه إذا هدم منه شيء، قائماً بالمهمات في بلده من دفع المضار واللصوص والظلمة، ويكتب إلى الملوك ورؤوس الظلمة في أمور الخاصة والعامة، وكلامه يقع في قلوبهم موقعاً لحسن نيته وحبه الخير للمؤمنين. قال الفقيه سيدي عمر بن باب: سيد أهل قريته وولي أمرهم القائم بأمورهم وأمور كثير من المسلمين غيرهم، والنافع لهم والدافع عنهم، وهو من أئمة المسلمين العدول، صالح تقي ذو جاه وحرمة ومهابة عظيمة.

(٢) وقيل من كرامته إنه إذا غضب على الظالم وأشار له بعكازه يموت بإذن الله تعالى.

(٣) وكان رحمه الله تعالى بذولاً للنصيحة لكل أحد، فترى رسائله لمن خرج عن الطريق ينهاه ويعظه حباً للنصيحة للمؤمنين، وقد قال عليه السلام: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ».

وبالجملة: فأيامه في ولاته كالعافية.

توفي رحمه الله تعالى في الثامن والعشرين بعد المائة والألف[1].

---

(١) «فتح الشكور»: ١٩١ ـ ١٩٥.

مختارات القرن الثاني عشر
من كتاب
«التعليقات على شمس الظهيرة»

تأليف

السيد ضياء الدين شهاب



السيد حسين القدري
الشبان الأربعة

سافر أربعة من الشباب من تريم - بعد أن أذن لهم شيوخهم - من أجل الدعوة إلى الله في أقطار الشرق وهم:

١ ـ السيد حسين بن أحمد بن حسين بن محمد القدري بن سالم بن عبد الله بن محمد بن سالم بن أحمد بن عبد الرحمن، من سلالته سلاطين فونتيانق.

٢ ـ السيد عثمان بن عبد الرحمن بن حسن بن عمر بن حسن بن علي بن أبي بكر السكران، من سلالته سلاطين سياك SIAK. المعروف بآل شهاب.

٣ ـ محمد بن أحمد كريشة.

٤ ـ عيدروس بن عبد الرحمن بن علي بن حسن صاحب الريضة بن علوي صاحب ثبي بن عبد الله صاحب الطاقة بن أحمد بن حسن بن عبد الله العيدروس، سلالته أمراء كوبو بجزيرة كاليمانتن - بورنيو.

وصل هؤلاء الأربعة إلى ملابر بالهند وأقاموا بها أربع سنوات يستزيدون من العلم لدى السيد محمد بن حامد (لعله ابن عبد الله بن علي السقاف) والسيد شيخ بن محمد الجفري، مؤلف «كنز البراهين».

كانو يترددون بين كويلندي وكاليكوت: ثم أذن لهم شيخهم بالشخوص فتوجهوا إلى جزائر الشرق، فأقام محمد كريشه في ترنقانو ينشر

الدعوة، وتوفي في «مارانغ» بماليزيا، وأقام السيد العيدروس في آشي .ACHEH وبها توفي، ويلقب هناك «توان بسار آچيه».

(١) ووصل السيدان عثمان وحسين إلى سولاويسي .SULAWESI ولم يمكثا بها طويلاً حتى غادراها إلى كاليمانتن ومعظم سكانها من قبائل الداياك البدائية، وفيها قليل من المسلمين فأخذا ينشران الإسلام، ثم سافر عثمان إلى «سياك» في سومترا في عهد سلطانها عالم بن رحمت ووصل السيد حسين إلى آشي وأقام بها زمناً ثم جاكرتا وأقام بها سبعة أشهر، ثم سمارانغ وأقام بها سنتين لقي عربياً يدعى الشيخ سلام حنبل وكان السيد في انتظار سفينته تنقله إلى الشرق فساعده الشيخ سلام بنحو مائتي ريال اشترى بها بضائع للتجارة. وأشار عليه الشيخ سلام أن لا يتجاوز في سفره «ماتان».

(٢) وفي ليلة غاب الشيخ سلام فامتطى السيد جواده باحثاً عنه في ظلمة الليل حتى عثر عليه تحت زورق في «نوربايا» ملطخاً بالوحل، فسأله: لماذا تعمل في هذا الليل الدامس؟ قال: لأن البحر نهاراً يكون في حالة المد، فقال السيد: هكذا يكون طالب الدنيا، إذنْ لن أتجر، وما تركت وطني لهذا فخذ ما اشتريته من البضائع، فراجعه الشيخ سلام وعرض عليه مبلغاً أكثر فلم يرضَ.

(٣) وتجرد السيد للدعوة وسافر إلى «ماتان» ومعه الشيخ سلام فلقيا هناك السيد هاشم بن يحيى، ويلقب هناك بذي اللحية الحمراء، وكان معروفاً بالشدة لا تفارقه عصاه الحديدية، فلا يرى رسماً ولا تمثالاً إلّا حطمه.

(٤) دعا السلطان السيد حسين ورفيقه الشيخ سلام والسيد هاشم بن يحيى إلى مأدبة حضرها رجال السلطنة والأعيان وكانت التقاليد تقضي أن تقدم أولاً للضيوف أوراق التانبول، فقُدم ذلك في طبق من ذهب وعليه مقص من الفضة لقص الفوفل، وبرأس المقص تمثال ثعبان من صنع جزيرة بالي فلما وقع عليه نظر السيد هاشم أخذ المقص وهشمه بعصاه الحديدية في

المجلس، ولم ينبس السلطان ببنت شفة وبعد انتهاء الحفلة سأل السلطان وزراءه عن آرائهم في السيدين فقالوا إن السيد هاشم يدعو إلى التشديد في الـدين بمثل هـذه الشدة وينكـر البدع بعصبيـة وإن السيد الحسين يـدعو بالحسنى فأسلوبه أجدى.

أحب الناس السيد الحسين، وزوجه السلطان ابنته الملقبة «نياي تُوا» فرزق منها أربعة أولاد: خديجة وعبد الرحمن (ولد في يوم الأثنين ١٥ ربيع الأول ١١٥٥) وعلوية وعلي (الملقب توان بوجانغ).

وبعـد سنتين أو ثلاث جـاء رسل سلطان ممڤـاوا «دائينـغ فنـامبـون PENAMBUN DAENG» في سفينتين يطلب قدومه إلى ممڤاوا، فاعتذر.

(١) كان في ماتان تجار غرباء بينهم رجل يدعى «أحمد مودا» ذكروا أنه اعتدى على امرأة بسوء فغضب السلطان وعزم على قتله غير أنه فـوض الحكم عليه إلى السيد حسين لأنه المكلف بإصدار الأحكام فحكم عليه بغرامة ووجوب استتابته وصدق السلطان على حكمـه، ثمّ استأذن التـاجر أحمد مودا للعودة إلى بلده فسافر مع رفقائه ورجال من قِبَل السلطان في سفينتين فلما بعدوا عن البر هجم رجال السلطان عليهم ونهبوا ما معهم ثم قتلوهم فاستنكر السيد حسين ذلك على السلطان، ثم فضل الرحيل وكتب إلى سلطان ممڤاوا يذكره بكتابه الذي بعثه مع الوفد مشترطاً للإقامة في بلده أن يبني مسجداً على ضفة نهـر، فجمع سلطان ممڤـاوا الأمراء والـوزراء وأبناءه وأعلن لهم سروره بقدوم السيد، وقال إن من العسير وجود أحد من آل بيت رسول الله ﷺ في هذا البلد فقدومه سعادة.

وبنى المسجـد والمنزل في الحي المسمى «كـالَهْ هيـرانغKALAH HERANG.» وأرسل السلطان ابنه «قـوستي حاجي» وثلة من الجنـد في سفينتين إلى ماتان، وفي المحرم ١١٦٠ هـ توجه السيد حسين وقد زوده عمه السلطان بثلاث سفن شراعية بعد أن قضى في ماتان نحو ١٧ سنة.

وأقام السيد حسين مع أسرته في منزله الجديد، وأخذ في تدريس

العلوم للطلاب الذين قصدوه من كل ناحية وصار منزله مأوى للغرباء ومقصداً للأضياف، كما صار الموقع مدينة علم وتجارة.

توفي السلطان فتولى ابنه «قوستي حاجي» ولقب «فنمباهن آدي ويجايا PANEMBAHAN ADIWIJAYA.

وفي عام ١١٦٦ هـ جاء وفد من فاليمبانغ برئاسة السيد علوي بن محمد بن شهاب الدين يطلب قدوم سلطان ممفاوا للاجتماع به مدة ثلاثة أشهر فاجتمع السلطان بالوزراء والأعيان فقرروا عدم تلبية الدعوة وكتب السيد حسين لرئيس الوفد معتذراً، وعاد الوفد إلى فاليمبانغ.

كان في فاليمبانغ حينئذ السيد عيدروس بن عبد الرحمن عام ١١٦٨ هـ (١٧٥٣ م) متزوجاً أخت السلطان ومنها رزق بنتاً فسافر إلى ممفاوا من دون رضا السلطان، فأرسل السلطان علياً بن الشيخ أبي بكر وجماعة معه من العلويين والوزراء يطلبون من سلطان ممفاوا أن يعيد إليه السيد عيدروس وابنته فاتفقوا جميعاً على تحكيم السيد حسين فأمر السيد حسين بإعادة البنت الشريفة مزنة غير أن الوفد ألح على عودة أبيها معها فوقع خلاف دام زمناً طويلاً وأيّدت سياك موقف فاليمبانغ فانتصرا معاً على ممفاوا وهرب عيدروس.

توفي السيد حسين القدري في ٣ ذي القعدة ١١٨٤ هـ وعمره ٦٤ سنة[١].

السيد الحدّاد

السيد العلامة الحبيب عبد الله بن علوي الحداد (١٠٤٤ - ١١٣٢ هـ) نادرة الدهر، وعلامة العصر، ذو الأعمال الجمة، والآثار البارزة الباقية، والآراء الحصيفة، ولد بالسُّبَيْر من ضواحي تريم، وكف بصره وهو في الرابعة من عمره، وحفظ القرآن الكريم والإرشاد وغيره من المتون، عني به والده ووالدته بتربيته وتهذيبه، فنبغ وفاق غيره، وتلقى عن علماء وطنه.

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ٢/٥٠٨ - ٥١٠.

كان عابداً منذ كان صغيراً فصارت العبادة تخامر روحه، شغوفاً بمختلف العلوم، يميل إلى الأدب والشعر، وهكذا ما زالت ترتقي به معارفه، وتسمو به مداركه حتى أصبح لا يجاري، ولا يشق له غبار، فبلغ رتبة الاجتهاد، ذا مواهب نادرة، وعبقرية خلابة.

ألف كتباً كثيرة ما زالت إلى الآن منتشرة متداولة، طبع الكثير منها عدة طبعات، وانتفع به خلائق، سواءً أكان انتفاعاً مباشراً أم غير مباشر، كان قوي العارضة، متين الحجة، وتخرج على يديه الكثير من رجال العلم.

(١) كان كثير الاهتمام بشؤون المجتمع، عاملاً للإصلاح، يكاتب الأعيان والحكام والسلاطين، يرشد وينصح وينتقد ما عليه بعض الناس مما لا يرضي الله تعالى، كما ينتقد الجهلاء والمغرورين من أي طائفة أو طبقة كانوا، بل ينتقد بعض المتصوفة الذي تخالف ظواهرهم الشرع الشريف، له آراء قيمة وجريئة أودعها كتبه ومكاتباته، وكثيراً ما يوجه أعماله للإصلاح بين القبائل المسلحة المتخاصمة كتدخله في الإصلاح بين آل العمودي عندما احتدم النزاع ودخلوا في عراك مسلَّح.

(٢) لم يكن السيد الحداد كذلك فقط، بل كان يرشد الزراع في شؤون الزراعة، وهو شخصياً يملك مزارع ويربي الدواجن، هذا بجانب إكرامه للمحتاجين وسخائه للقاصدين والطلبة والأقارب، يربي الأيتام وينفق عليهم من ماله، بل يحث أرباب الأموال على الإنفاق للفقراء والمشاريع الخيرية وتشييد المساجد والسقايات وغيرها.

له أشعار حِكمية جمعت في ديوان مطبوع، وقد شرح إحدى قصائده المسماة بالعينية تلميذه السيد العلامة أحمد بن زين الحبشي، كما شرح السيد أحمد بن أبي بكر بن سميط في زنجبار إحدى قصائده، وآخرون شرحوا ما شرحوا من قصائده أو راتبه أو أوراده.

أما رحلته إلى الحرمين فكانت في عام ١٠٧٩ هـ حيث أقام هناك ما أقام.

ولقي السيد الحداد ما لقي من المنغصات حتى انتقل إلى الحاوي تباعداً من اضطهاد يافع حكام تريم.

وقد قيل:

قد كنتَ يا وادي الأنوار مشحوناً بالخير والأخيار
حتى دهانا زمان العار بخلف سوء من الأغمار

وقال أيضاً:

هم شوشوا عيش وادينا بالجور والظلم والطغيان

(١) ومن فخرياته قصيدة يقول فيها:

نعرف البطحا وتعرفنا والصفا والبيت يألفنا
ولنا المعلى وخيف منى فاعلمن هذا وكن وكن
ولنا خير الأنام أب وعلي المرتضى حسب
وإلى السبطين ننتسب نسباً ما فيه من دخن

وله مديحة غراء في مدح سيد الأنام ﷺ.

أسلوبه الكتابي: في عباراته وجمله بل معانيه قوة ورصانة وبلاغة ووضوح، وإذا كان معظم كتاب عصره وبلغاء زمنه قد يذهبون إلى السجع ويتساوقون مع المحسنات اللفظية ويرونها أقرب إلى القلوب وأعذب في السمع فإن المترجم قد جانب السجع المتكلف، فهو قلما يجري على لسانه إلّا ما يأتي عفواً من القول، وجاءت به السليقة، فمعظم همه في معنى ما يقول، ليأخذ السامع إلى الغاية السامية من روح العبارة وسمو المعنى، في أسلوب سهل ممتنع، وألفاظ قريبة الأخذ.

إذا شرح موضوعاً علمياً فصّله بما يفهمه العامي كما يفهمه طالب العلم.

(١) يربأ بنفسه أن يترك العامي على جهله، والطالب المبتدىء في حيرته، فقال «وينبغي للشيخ والعالم إذا سأله مريده أو تلميذه عن شيء يضر علمه أو لا يألفه فهمه أن ينظر[1]، فإن عرف من حال السائل أنه إن أخبره بعدم أهليته لا ينكسر قلبه انكساراً يضره في دينه، ولا ينفر منه نفرة يعرض بها عن مطلوبه فليخبره، وإلاّ فليتنزل له في جوابه إلى حد علمه وفهمه».

(٢) ومن أساليبه الرصينة ما يتجلى في مقدمة كتابه «إتحاف السائل» ص ٣ منها «الحمد لله الذي لا يخيب من أمله، ولا يرد من سأله، ولا يقطع من وصله، ولا يبخس من عامله، ولا يسلب من شكره، ولا يخذل من نصره، ولا يوحش من استأنس بذكره، ولا يسلم من لم يستسلم لقهره، ولا يكل من توكل عليه، ولا يهمل من وثق به والتجأ إليه، ولا يضل من استمسك بكتابه، ولا يذل من لاذ بجنابه... إلخ».

كأن معانيها اقتبست من عالم الغيب، وانبجست من معين الإيمان، وانفرطت من عقود لا تلمس بالحواس.

(٣) أما تواضعه وعلمه فبالرغم من سعة علمه ومكانته الاجتماعية يقول «ثم أني أعترف عن علم ويقين لا عن ظن وتخمين بإفلاسي وخلوي من حقائق أهل الله...».

(٤) وهكذا من ازداد علمه، وارتفع في القمم مقامه ازداد تواضعاً.

أما علمه فالدليل عليه كتبه وأحاديثه، ويكفي ما كتبه مفتي الديار المصرية سابقاً وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشيخ حسنين محمد مخلوف في مقدمته لكتاب «الفصول العلمية والأصول الحكمية» للمترجم له قال: قرأت للإمام الحجة العامل العالم الداعي إلى الله الشريف عبد الله بن علوي بن محمد الحداد رسالة موجزة في آداب سلوك المريد أملاها في سنة ١٠٧١ هـ ثم رسالة أخرى تشتمل على فصول علمية وأصول حِكمية فوجدت فيها علماً غزيراً وإشراقاً ونوراً يستضيء به السائر، ويهتدي به

---

(١) أي ينبغي له أن ينظر.

الحائر، في بيان سهل ممتنع، وأسلوب جزل رصين، تشفي الصدور حقائقه، وتمتع النفوس دقائقه، يروّض العصي الجائح، ويدنيه من مهيع السلف الصالح» إلى أن قال «أولئك هم سلف الأمة التي جعلها[الله] وسطا بين الأمم».

وقد ألف الأستاذ محمد التونسي بن عثمان مكي المقيم زمناً بجاوا كتاباً عن العرب في أندونيسيا، بذل فيه جهده، معتمداً على مصادر مخطوطة ومطبوعة، وساعده في مهمته بعض الإخوان العرب، وقد رأيت ما كتبه، ومما قال لي إن السيد عبد الله بن علوي الحداد جاء قبل أوانه، فهو شخص عظيم يجب أن يقارن بأعاظم علماء اليوم، وإنني غير مطمئن إذا لم تصلني به صلة ما، لذلك طلبت من السيد علي بن حسن الحداد أن يوصلني به فأجازني، وقيل إن الكتاب صار طعمة النار بعد وفاته[1].

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ٢/٥٦٨ - ٥٧١.

مختارات القرن الثالث عشر
من كتاب
«حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر»

للشيخ

عبد الرزاق البيطار



إبراهيم باشا بن محمد علي باشا خديوي مصر والقاهرة

غشوم ظالم، وظلوم غاشم، خليفة الحجاج في أفعاله، وناهج منهجه في أقواله وأحواله، محتو على الفساد، منطو على الإنكاد، مجبول على الغلظة والقساوة، مجعول من الفظاظة معدوم من اللطافة والطلاوة، متضلع من الأذى، لم يخلق الله تعالى في قلبه شيئاً من الرحمة فينتزع، ولم يودع الله لسانه لفظاً من الخير فيستمِع، سفاك لدماء المسلمين، نباذ لطاعة أمير المؤمنين، كان يعتقد أن ذلك ليس أمراً ذميماً، ولا يهوله قوله تعالى: **﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾**[1].

(١) فإن هذا المترجم لما اشتد أزره، وقوي أمره، تولى قيادة العساكر المصرية، ثم بعد ذلك وجهه والده إلى الأراضي الشامية ليضمها إلى الحكومة المصرية، فلم يزل يسير بعساكره، متقلداً لسيف طغيانه ومناكره، حتى حل حي عكة، وكان الوالي بها عبد الله باشا من طرف الدولة العثمانية فدكها دكة أي دكة، وسبب ذلك أن عبد الله باشا وقعت بينه وبين محمد علي باشا عداوة كلية، بسبب أنه خابره بتسليمه بلاد الشام فلم يجبه إلى هذه الأمنية، فأرسل محمد علي باشا إلى السلطان شكاية على عبد الله باشا تطعن بعظيم شأنه لعله يعزله ويجعله في مكانه، فيصل إلى مطلوبه، ويحصل من غير ضرر على مرغوبه، غير أن السلطان لم يجبه إلى مراده، ولم يوصله إلى ما تأمله في اجتهاده، فجمع إبراهيم باشا الجموع الكثيرة،

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

وتغلب على غالب البلاد الشامية الشهيرة التي تحت ولاية عبد الله باشا كغزة والرملة والقدس والخليل ونابلس وبلاد الساحل، وحصّن قلعة طرابلس وساعده أمير جبل الدروز الأمير بشير ورؤساء جبل نابلس، لكون عبد الله باشا في العام الماضي حاصر قلعة سينور وهدمها وحصل منه ضرر لأهل نابلس وكان ذلك من أسباب الغلاء الذي وقع في البلاد الشامية.

(١) فأرسل حضرة السلطان إلى والي مصر يأمره برفع عساكره عن عكا، فامتنع، فأمر السلطان بجمع العساكر العثمانية وأمر والي حلب بالتوجه إلى مساعدة عبد الله باشا.

(٢) وفي هذه المدة كلها يظهر محمد علي باشا الطاعة للسلطان ولم يصرح السلطان بخروجه عن الطاعة بل وقع التصريح بخروج إبراهيم باشا وعباس باشا طمعاً في رجوعهما عن هذا الأمر، فلما رأت الحضرة الشاهانية أن محمد علي باشا مصِرٌ على القتال أرسل إلى البلاد يعلن بأن محمد علي باشا معزول من المناصب، وأمر أهل البلاد بقتاله وورد الأمر إلى دمشق في نصف ذي الحجة بذلك وبتحصين البلد.

(٣) وفي ثالث محرم الحرام سنة ألف ومايتين وثمان وأربعين أرسل إبراهيم باشا إلى دمشق يطلب منهم أن يمكنوه من الدخول إليها فلم يرسلوا إليه جواباً، ثم طلب ثانياً فأرسلوا إليه: إنا لا نمكنك من الدخول أصلاً، وفي ثامن المحرم جاء الخبر أن عسكره وصل إلى جسر بنات يعقوب فاستعد أهل دمشق لقتاله، واجتمع رؤساؤهم وتعاقدوا وتحالفوا على أنهم يد واحدة بعد ما كان بعضهم يميل إلى إبراهيم باشا خوفاً من انتقام الدولة من الشام بسبب قضية سليم باشا الآتية في ترجمته في حرف السين؛ وحصل لأهل البلد والقرى انزعاج شديد، وشرع أهل القرى والأطراف في نقل الأمتعة لداخل السور، وكتب وزير الشام إلى الباشوات الذين في حمص ومعهم وزير حلب أن يعينوا أهل الشام بعساكر من عندهم، وأرسل إبراهيم باشا إلى بعض أعيان دمشق كتاباً مؤرَّخاً في تاسع المحرم يهددهم

فيه، وفي آخره أن بلاد عربستان قد ملكناها بسيفنا ولا يأخذها أحد منا ما دمنا في قيد الحياة.

(١) وفي رابع عشر المحرم وصل بعض جيوشه إلى قريب من قرية داريا قرية من قرى الشام بينهما نحو ثلاثة أميال، فخرج إلى لقائهم خلق كثير من أهل دمشق فقاتلوهم قتالاً يسيراً، ولم يقصد كل من رؤساء الفريقين إضرار الآخر، وقتل من كل فريق رجل أو رجلان، ثم رجع أهل الشام مظهرين الانكسار، ولم يبق من أهل الشام رجل خارج البلد، وبات أهل البلد تلك الليلة في كرب شديد وكل أهل محلة يحفظون محلتهم، وفي ليلة الخميس خامس عشر المحرم نصف الليل هرب علي باشا وزير الشام وعسكره والقاضي والمفتي المراديّ، وجميع أبناء الترك الموظفين، وغالب وجوه الشام، وأصبحت البلدة نهار الخميس خالية من رؤسائها وأعيانها ولم يبق أحد ممن يعتمد عليه، فأرسل إبراهيم باشا إلى أحمد بيك الدالاتي ربيب يوسف باشا الكنج فأقام متسلماً في البلد، وأمر منادياً ينادي بالأمان، وفي ضحوة النهار دخل العسكر إلى السرايا والمرجة، ثم دخل إبراهيم باشا قبيل الظهر وطلب أن يتسلم القلعة من رئيسها علي آغا عرمان فأجابه بالإمتثال وفتح الباب، فأدخل ذخيرته إليها وعسكره وقت العصر، وجاءه في ذلك النهار أمراء الدروز ومعهم خلق كثير من نصارى ودروز، وقد لطف المولى سبحانه وتعالى كما هي عادته برفع القتال وبالإذعان والتسليم من دون ضرب ولا طعن ولا سفك دماء، ثم كتب إلى الهاربين أن يرجعوا إلى أوطانهم، فالذين ذهبوا إلى حمص وهم الباشا والقاضي والداراني ورؤساء المغاربة والأكراد أبوا الرجوع واستقاموا مع بشاوات العساكر السلطانية، وأما الذين ذهبوا إلى القريتين وهم المفتي والنقيب ورشيد آغا فإنهم رجعوا إلى دمشق، ثم عزم إبراهيم باشا على قتال الذين في حمص فشرع في جمع الذخائر والعساكر، وورد إليه من مصر عسكر كثير من النظام والأعراب وغيرهم، واجتمع عند عباس باشا أيضاً في بعلبك جموع كثيرة، ثم خرج

إبـراهيم باشـا من دمشق في ثالث صفـر وأخرج معـه رؤسـاء المحـلات كالرهينة، وأقام مقامه أحمد بك الدالاتي.

(١) ثم جاء الخبر يوم الثلاثاء في ثاني عشر صفر أنه حصل بينه وبين العسكر السلطاني في حمص قتال نهار السبت تاسع صفر، وأنه قتل منهم نحو خمسة آلاف وأسر نحو أربعة آلاف وفر باقي العسكر والباشوات وكانوا نحو ثلاثين ألفاً، وأخذ مدافعهم وذخائرهم وخيامهم وسـائر مـوجوداتهم، وكان في قلعة حمص جماعة منهم فطلبوا منه الأمان فـأمنهم وأنزلهم من القلعة وتسلمها منهم، وبعث إلى متسلم الشام بأن يعلن بالنصر فأمر أهلها بالزينة ثلاثة أيام.

ثم توجه نهار الثلاثاء ثاني عشر صفر إلى جهة حماة
وهرب متسلمها، فأقام فيها متسلماً رشيد آغا الشُّمَّلِي.

ثم بلغه الخبر أن حسين باشا سردار[1] وصل إلى حلب وأن الباشوات الهاربين من حمص ذهبوا إلى حلب أيضاً مع عساكرهم، فلحقهم إبراهيم باشا ونزل قبيل حلب بنحو أربع ساعات، فطلب حسين باشا من أهل حلب أن يخرجوا معه لقتال إبراهيم باشا فقالوا له: نحن لا نقاتل معك ولا معه بل نحن رعية لمن غلب فإنا نخاف على أنفسنا وعيالنا، فخرج حسين باشا من حلب هارباً هو وبقية العساكر والباشوات وترك بعض المعسكر الـذي جاء به وذخائره، فخرج أعيان حلب إلى إبراهيم باشـا يستقبلونه وينـالون أمانه، فدخلها ليلة الثلاثاء تاسع عشر صفر بلا قتال أصلاً.

(٢) ثم خرج منها يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر إلى أنطاكية وعينتاب واللاذقية، وورد الخبر نهار السبت سابع ربيع الأول أنه استولى على حصن إسكندرونة وعلى حصن بانياس وبيلان، وكان فيه حسين باشا وحصلت مقتلة عظيمة، ثم هرب حسين باشا ومن معه من الوزراء والعساكر

(١) القائد العثمانيّ الذي أرسله السلطان لقتال إبراهيم باشا.

الكثيرة، وقد شاع أنها مائة وخمسون ألفاً، وترك جميع مهماته ومدافعه وذخائره.

(١) ثم سار إبراهيم باشا بعد ذلك إلى أدنه وقد دخلها من غير قتال في غرة ربيع الثاني وأقام بها شهراً.

وفي آخر جمادى الثانية قدم إلى دمشق رشيد بك أميراً عليها من قبل محمد علي باشا، وفوض إليه النظر في أمر بلاد الساحل والقدس وغزة والشام وحلب.

(٢) ثم جاء الخبر في خامس رجب أن إبراهيم باشا دخل إلى قونية وكان فيها أربعة عشر وزيراً، فلما سمعوا بوصوله هربوا ودخلها بلا حرب ولا قتال، وجاء الأمر إلى دمشق بالزينة وضرب المدافع ثلاثة أيام في كل يوم ستين مدفعاً، ثم جاء الخبر في آخر شعبان أن الوزير الأعظم جاء إلى قريب من قونية، فخرج إليه إبراهيم باشا وأسره وفرّق جمعه وأسر من عساكره نحو سبعة آلاف، وأرسل إلى مركز سورية دمشق الشام بعمل الزينة ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً مع ضرب المدافع وإظهار دواعي السرور والحبور.

(٣) ثم إن إبراهيم باشا أراد أن يتجاوز حدوده، وأن يبلغ مراده ومقصوده، وذلك أنه في خامس شعبان صدر الأمر من والي الشام شريف بك بجمع أعيان البلدة وعلمائها ورؤسائها، وغِبّ اجتماعهم أخرج كتابة من محمد علي باشا مضمونها أن السلطان محمود خرج عن طور أسلافه وأنه زاد في الظلم والبغي وأنه أمر بتغيير زي الناس وملبوسهم ومساواة النصارى مع المسلمين في الزي، وأن سبب ذلك سوء رأيه ولذلك تغلب عليه أعداؤه من الفِرَنج حتى ملكوا معظم بلاد الإسلام، وأنه لم يبق له عند الملوك احترام ولا اعتبار ولا عند رعيته، وأنه بسبب ذلك صارت المصلحة في عزله من السلطنة وتولية ابنه محله لأجل نظام الملك وإقامة أحكام الشريعة، لأنه لو بقي في السلطنة يزيد الضرر على المسلمين، وطلب إخراج فتوى بجواز ذلك وأن يكتب عليها المفتي وعلماء البلدة من جميع

المذاهب، فكتبوا له ما أراد، وسايروا هذا الباغي الذي لربوع الطغيان شاد.

إذا لم تكن إلا الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها

(١) وأفتوه بأنه يجوز خلع الإمام، إذا جار ونهج منهج اللئام، ولزم من إبقاءه ضرر، ولم يلزم من خلعه فتنة هي أكبر وأضرّ، وأدهى وأمرّ، وادّعى كذلك هذا الباغي على حضرة المرحوم السلطان محمود، أن الذي وقع من عماله في أيامه لم يسمع بمثله من اختلال نظام البلاد، وأحوال العباد، حتى خربت بلاد الروم والأناضول من أخذ رجالهم للحرب وسلب أموالهم واستيلاء الإفرنج عليهم، وكذا غيرها من البلاد وما وضع من الأعشار والمكوس[1] والمصادرات وزوال الأمن عن أهل المدن في بيوتهم فضلاً عن البراري، فاستولت الأعراب على القرى وعلى الأغلال وارتفعت الأسعار وانتهبت القوافل.

وفي غرة رمضان أمر والي الشام وهو شريف بك بجمع المفتي والنقيب وغيرهما، فاجتمعوا عنده ليلة شهر رمضان، فقال: إن أفندينا محمد علي باشا كتب إلى البلاد، من شهرين بأن من أراد الحج فليقدم إلى الشام، فما حضر إلا نادر من الأفراد فلذلك لم يخرج الحاج.

(٢) ثم إن إبراهيم باشا لما ازداد في سموه وزاد في عتوه منعته الأجانب، وتعصبت الإنكليز إلى الدولة في الظاهر لتوطيد أركانها، وفي الباطن خشية من انتشار قوة إسلامية شابّة ذات سلطة ومركزها مصر، فتخشى أن تمتد من هناك إلى الهند الذي هو روح قوة الإنكليز لا سيما إذا عاضدته إحدى الدول الأروباوية مثل فرنسا، فلذلك حاربته مع الدولة العثمانية التي هي إذ ذاك على تعب شديد من حرب الروسيا والثورات الداخلية واستقلال اليونان وغير ذلك فقهروا محمد علي باشا، ولكن لإتمام مقاصد الإنكليز لم تسمح

---

(١) الضرائب.

للدولة بالإستيلاء التام على مصر لمراعاة المقاصد المشار إليها أيضاً، فكان الأوفق لها إبقاء مصر على شبه استقلال ليضعف كل من الجهتين، وبقي محمد علي باشا والياً على مصر على شروط معلومة في ترجمته، وجاء خبر الصلح على ذلك إلى الشام تاسع عشر ذي الحجة سنة ثمان وأربعين ومايتين وألف.

(١) وكان قد تمكن إبراهيم باشا من البلاد الشامية وقهر الناس واستباح الحرام، وفعل جميع الموبقات والآثام، فلم يبق شيء من القبائح في زمنه إلا وقد فُعِل بدون إنكار ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وكان قد وضع بعد إحصاء أهل المدن والقرى في دفتر على كل فرد من البالغين منهم مالاً أقله خمسة عشر قرشاً وأكثره خمسماية قرش، تؤخذ منه في كل سنة، كما وضع ذلك من قبل على أهل مصر واستولى العسكر على أكثر المساجد والمدارس والتكايا، ومنعوا المصلين من دخولها وجعلوها لسكناهم ولدوابهم، وذلك سنة تسع وأربعين، فكان ذلك سبباً لضياع أوقافها وخرابها، وقدّم العيسوية[١] على المحمدية، وأذلّ أهل الشرف والعلم وذوي الاحترام، وأعزّ الأسافل والطغاة على الإسلام، ثم بعد رجوعه من البلاد الرومية، لا زال يدور في البلاد الشامية، حتى وصل في أواخر سنة تسع وأربعين إلى القدس الشريف في أيام الموسم، فوقعت هناك فتنة بين العيسوية تلف منها خلق كثير.

(٢) وفي سنة ألف ومايتين وخمسين اشتغل بإدخال من وقع في أيديهم من الناس في العسكرية، فهرب الناس وتشتت أمرهم وكثر البكاء والنحيب وتوقفت الأشغال والمصالح، وطلب من جبل نابلس إجراء ذلك عليهم، فخرجوا عن الطاعة وحصروا إبراهيم باشا في القدس، واجتمع منهم خلق كثير ولا زالوا محاصرين له نحو شهرين، وكان رئيسهم الشيخ قاسم الأحمد، فلما ضاق به الحصار وأيقن بالهلاك والدمار أرسل إلى قاسم

---

(١) أي النصرانيّة.

الأحمد كتابة لطيفة مصحوبة بمال جسيم، ووعده بالالتفات والتقديم، وأنه لا يأخذ منهم عسكراً ولا مالاً، وأنه يوسعهم نعمة ونوالاً، فرضي قاسم الأحمد لقلة عقله، وسوء رأيه وجهله، وفك عقدة الحصار والضيق، وتفرق الناس متمسكين بما جرى من العهود والمواثيق، فخرج إبراهيم باشا حتى وصل إلى يافا فوجد العساكر قد وصلت لنجدته، وتخليصه من نكبته، فنكص على عقبه في الحال، واشتغل بالقتل والنهب والحرق وسلب الأموال، فهرب قاسم الأحمد إلى الخليل، فلحقه إبراهيم باشا بعساكره واشتغل بالنهب والسلب والقتل حتى لم يبق منهم إلا القليل، ثم دار على الساحل، ففعل بأهله هذه الرذائل، ولم يزل يتتبع آثار قاسم الأحمد حتى قبض عليه، وقتله بدمشق هو والبرقاويّ ونكث العهد الذي عهد به إليه، وأمر بجمع السلاح من سائر البلدان، التي تحت أمر هذا الشيطان.

(١) ولم يزل في ظلم وعناد، وقبح وفساد، وسفك وسلب، وقتل وضرب، إلى أن دخلت سنة ثلاث وخمسين هجرية، فطلب من جبل الدروز الشرقي مائة وثمانين نفراً للعسكرية، فحضر مشايخ الدروز وطلبوا استبدال ذلك بالمال، فلم يرض إلا بإحضار الرجال، فأجابوه بأنهم يبادرون إلى الإحضار، من غير تأخير ولا اعتذار، وقصدهم التخلص من هذا الظالم؛ والعاتي الغاشم، فلما وصلوا إلى الأوطان، أزمعوا على عدم الطاعة والإذعان، وغِبّ وصول الخبر، توجهت إليهم العساكر كالجراد إذا انتشر، وكان أمير الجيوش علي آغا البصيلي وهو كبير طائفة الهوارة والصعايدة ومعه عبد القادر آغا أبو حبيب من أهل الشام من ميدان الحصى، فعقدوا هناك مع كبراء الدروز مجلساً للمشاورة في هذا الأمر، فامتنع الدروز من دفع الأنفار، وقالوا ندفع من المال ما يزيد عن البدلات، فقال البصيلي: إني أرسل مراسلة أستشير بها أفندينا وعلى ذلك قر القرار، ففي تلك الليلة كبست الدروز العساكر، وأذاقتهم كؤوس المنية حتى لم يبق منهم إلا النادر، ومن جملة من قتل عبد القادر آغا أبو حبيب، وكان المتسلم في جبل حوران والدروز، وآلت جميع أمتعة العساكر وآلات

حروبها إلى الدروز، ولم يسلم من القتل سوى علي آغا البصيلي ومعه خمسة عشر نفراً، فوصل الخبر إلى إبراهيم باشا فصعب عليه الأمر، وصار بصره يتوقد كالجمر، وابتدر بجمع العساكر، واستعد فوق العادة من المهمات والذخائر، ووجههم للقتال، وأوصاهم بالاستئصال، فحين علم الدروز جمعوا جميع متاعهم ودخلوا اللجاه، ولا ريب أنه محل الأمن والنجاة، لأنها حصن حصين، وملجأ رصين، فغِبَّ وصول المعسكر قامت الحرب على ساق، وكان الفناء على العساكر الإبراهيمية قد ركب جواده وساق، وأول من قتل من رؤساء العساكر العظام، محمد باشا القائد العام، وتبعه يعقوب بك فقتلا أقبح قتلة، وامتد القتل إلى البقية من غير مهلة، فكانت الدروز على هذا الباغي سيف الانتقام والهوان، وبعد مدة تحرك للعصيان جبل الدروز الغربي تحت رئاسة الشيخ شبلي العريان، ولم تزل بعد ذلك يد الصبغار تستطيل عليه، وتُوَجِّه جيوش التأخير إليه.

(١) وفي سنة خمس وخمسين توفي السلطان محمود، وتولى إمارة المؤمنين السلطان عبد المجيد خان، لا زالت دولتهم محفوظة إلى آخر الدوران، وبعُيد مدة أمر السلطان عبد المجيد خان بخروج إبراهيم باشا بعساكره من الأرض الشامية، إلى الأقصار المصرية، فأجاب الأمر بالسمع والطاعة، وجمع عساكره وذخائره ومتاعه، وفرق ذلك بالشام، على المساجد والجوامع وبيوت الأرامل والأيتام، ثم بعد شهرين من مجيء الأمر بخروجه خرج من باب الله بعساكره ونزل بسهل القدم، بعد أن جعل الشام وأهلها من كل نعمة في عدم، وذلك في اليوم السادس من ذي القعدة الحرام، سنة ست وخمسين ومايتين وألف من هجرة سيد الأنام، وكان يوم خروجه يوماً شديد الثلج والبرد، وكان يحث عساكره على العجلة والسرعة، ومن تأخر ولو لتعب كان قبره موضعه، وأخذ معه جميع الحبوب والمواشي، من غير خوف ولا تحاشي، ولما وصل مصر امتدحه مهنئاً له الشاعر الأديب، والماهر الأريب، محمد شهاب الدين صاحب الديوان، وإن كان مدحه في غير محله.

وكانت وفاة المترجَم سنة أربع وستين ومائتين وألف من هجرة سيد الأنام، وكان ذلك في حياة والده لأن والده توفي أول ليلة من شهر رمضان المبارك سنة خمس وستين ومائتين وألف، ودفن في جامعه الذي أنشأه في قلعة الجبل[1].

أبو بكر باشا الطرابلسي
والي مصر من طرف
الدولة العثمانية

(١) كان وزيراً عاقلاً إلا أنه لم تساعده يد الإقبال، ولم تلاحظه عين العناية في تسديد الأقوال والأفعال، وذلك لاستطالة المماليك على الأراضي المصرية، ونفوذ كلمتهم بها على كلمة الوزارة العثمانية، فكان ما كان من خروجه ودخول الأجانب، وتسلطها على بلاد مصر وإيقاعها في المعاطب، وبيان ذلك مع التفصيل، المقتضي عدم التطويل، قال في الفتوحات الإسلامية، المنسوبة للحضرة الأحمدية الدحلانية: كانت مصر قبل أن تملكها الدولة العثمانية بيد ملوك الجراكسة، وكان لهم كثير من المماليك الذين هم أيضاً من الجراكسة ومن غيرهم من الترك، فلما تملكت الدولة العثمانية مصر لم تزل المماليك باقين وفي كل وقت يزدادون حتى بلغوا غاية الكثرة، وكان منهم أمراء ورؤساء، فصارت لهم عصبية قوية، فتغلبوا على الأملاك والأراضي والأطيان والمحصولات والخراجات والجمارك، وكانوا إذا جاء الباشا المتولي على مصر من الدولة العلية ينقادون له في الظاهر وفي الباطن هم متغلبون، فكانوا يبقونه إذا أرادوا ويعزلونه إذا أرادوا، ولا يصل إلى الدولة من محصولات مصر إلا القليل والباقي بأيديهم، وكان لهم رؤساء، وعلى الجميع أمير كبير تحت أمر الوزير المتولي من السلطنة صورة وظاهراً فقط.

(٢) فلما تغلبوا هذا التغلب كثر منهم الظلم والعدوان على المسلمين وغيرهم من طوائف النصارى واليهود، فيتعدون كثيراً عليهم لا سيما

---

(١) «حلية البشر»: ١/١٥ - ٢٩.

على تجارهم، وكانت الدولة العلية مشتغلة عنهم بكثرة الحرب مع النصارى، فطمع الفرنسيس في تملك مصر وإبعاد هؤلاء المماليك المتغلبين، وأوهموا على المسلمين أنهم إنما يريدون تخليص مصر منهم وبقاء الحكم فيها للدولة العلية، فجهز الفرنسيس عليها جيوشه بالسر والكتمان من غير اطلاع أحد على ذلك وجاؤوهم بغتة فتملكها على الوجه الآتي ذكره، وكان ذلك في شهر المحرم سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، وكان الوزير المتولي على مصر من السلطنة العلية في تلك السنة هو المترجم المرقوم أبو بكر باشا الطرابلسيّ، وكانت ولايته من سنة إحدى عشرة ومائتين وألف، وكان للمماليك المتغلبين على مصر أميران رئيسان على جميعهم وهما إبراهيم بك ومراد بك، كان تحت طوعهما جميع العساكر، فلما شاعت الأخبار بقدوم الفرنسيس للاستيلاء على مصر خرج الوزير المتولي من السلطنة العلية وهو أبو بكر باشا المتقدم ذكره من مصر وتوجه إلى غزة، ثم منها إلى دار السلطنة، وكان توجهه من مصر يوم السبت سابع شهر صفر من السنة المذكورة، وبقيت مصر بيد إبراهيم بك ومراد بك والأمراء والعساكر التي تحت أيديهما، وكان أهل مصر عند خروج أبي بكر باشا من مصر وقبل خروجه بأيام يسمعون إشاعات من مسير الفرنسيس إلى تملك مصر، ولم يقفوا على حقيقتها، فلما كان العشرون من المحرم من سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وصلت مراكب الفرنسيس مشحونة بالعساكر وآلات الحرب، فتقاتل من كان فيها من العساكر مع أهل الإسكندرية، ولم يكن أهل الإسكندرية مستعدين لقتالهم فلم يقدروا على دفعهم، لا سيما وقد جاؤوهم بغتة فقاتلوهم قليلاً ثم طلبوا الأمان منهم، فأمنوهم ودخلوا الإسكندرية وملكوها.

(١) فلما جاء الخبر إلى مصر أخذ إبراهيم بك ومراد بك بالاستعداد لهم، وأبرزا جيشاً من العسكر إلى موضع يقال له: الجسر الأسود، وأخرجوا المدافع وآلات الحرب واضطربت الناس في مصر، وكثر الهرج والمرج، وتقطعت الطرق وارتفع السعر وكثر السراق.

(١) ثم جاءهم مكتوب من الفرنسيس فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، وبعد ذلك كلام كثير من جملته: إني[١] أعبد الله وأحترم نبيه والقرآن العظيم وإنهم مسلمون (يعنون أنفسهم) مخلصون، وإثبات ذلك أنهم نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة أهل الإسلام، ثم قصدوا مدينة مالطة وطردوا منها الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة أهل الإسلام، وكل ذلك من الكلام الذي يوهمون به على أهل الإسلام أنهم موحدون لله تعالى، وأنهم يحبون أهل الإسلام ويحبون سلطانهم، وأنهم إنما جاؤوا لنصرة سلطان الإسلام، وإبعاد المماليك المتغلبين على ممالكه، ودفع ظلمهم عن الرعية.

(٢) ومن جملة ما في ذلك الكتاب خطاباً للمسلمين: وما جئتكم لإزالة دينكم، وإنما قدمت إليكم لأخلص حقكم من يد الظالمين المماليك الذين يتسلطون في البلاد المصرية، ويعاملون الملة الفرنساوية بالذل والصغار، ويظلمون تجارهم ويؤذونهم بأنواع الإيذاء والتعدي، ويأخذون أموالهم ويفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها مثله، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم بانقضاء دولتهم، وإني أعبد الله سبحانه أكثر من المماليك، وأحترم نبيه والقرآن العظيم، وقولوا لهم: إن جميع الناس متساوون عند الله تعالى، وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بأحسن ما فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة، فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن

---

(١) أي: نابليون.

الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العلية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء منهم سيديرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها، وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

(١) أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون، ومع ذلك فالفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه، ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم، طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم، طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد الفريقين المتحاربين، فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر، وإن جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية، فواجب عليها أن ترسل (للسر عسكر) من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا، وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وأكحل وأحمر، وأن كل قرية تقوم على العسكر الفرنساويّ تحرق بالنار، وأن كل قرية تطيع العسكر الفرنساويّ أيضاً تنصب صناجق[1] السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه، والواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم، وعلى كل أحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئناً، وتكون الصلاة تامة في الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله تعالى على انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال: أدام الله إجلال السلطان العثمانيّ، أدام الله جلال العسكر الفرنساويّ،

---

(١) أي ألوية.

لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية، وعلى المشايخ في كل بلد أن يختموا حالاً على جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي للمماليك، وعليهم الاجتهاد التام أن لا يضيعوا أدنى شيء منها.

وفي التاسع والعشرين من المحرم قدموا إلى مصر فاستقبلهم عسكر مصر عند الرحمانية وهزموا إلى الجيزة، والتقوا عند بشقيل وحصلت مقتلة عظيمة، وقدر الله أن المسلمين هُزِموا ففرّ مراد بك ومن معه إلى الصعيد، وفر إبراهيم بك ومن معه في البر الشرقيّ إلى الشام، وقيل لم يقع قتال كثير وإنما هي مناوشة من طلائع العساكر بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين، وكانت مراكب في البحر لمراد بك فاحترقت بما فيها من الآلات الحربية واحترق من فيها من المحاربين، فلما عاين ذلك مراد بك دخله الرعب وولى منهزماً، وترك الأثقال والمدافع التي في البر، وتبعته العساكر، وركب إبراهيم بك إلى ساحل بولاق طرف البر الشرقي، ورجع الناس منهزمين طالبين مصر، فاجتمع الباشا والعلماء ورؤوس الناس يتشاورون في هذا الحادث العظيم، فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا، ويتولى الإقامة ببولاق إبراهيم بك وكشافه ومماليكه.

(١) وقد كانت العلماء عند ابتداء هذا الحادث تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرؤون البخاري وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ الطرائق وأتباعهم، وكذا أطفال المكاتب، ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء.

ويوم الاثنين حضر مراد بك إلى بر إمبابة وشرع في عمل متاريس هناك ممتدة إلى بشقيل، وتولى ذلك هو وأمراؤه، وكان معه في ذلك علي باشا الطرابلسي ونصوح باشا، وأحضروا المراكب الكبار التي أنشأها بالجيزة وأوقفها على ساحل إمبابة، وشحنها بالعساكر والمدافع والمتاريس والخيالة والمشاة.

(٢) ومع ذلك فقلوب الأمراء لم تطمئن بذلك، فإنهم من وصول الخبر الأول لهم من الإسكندرية شرعوا في نقل أمتعتهم من البيوت الكبار

المشهورة المعروفة، إلى البيوت الصغار التي لا يعرفها أحد، واستمروا طول الليالي ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم، وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف، وأخذوا أيضاً في استحضار دواب للشيل وأسباب الارتحال، فلما رأى أهل البلد منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع، واستعدّ الأغنياء وأهل المقدرة للهرب، ولولا أن الأمراء منعوهم من ذلك لما بقي بمصر منهم أحد.

وفي يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق، وخرج الجميع لبولاق، فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياماً ويجلسون في مكان خراب أو مسجد، ويرتبون أمرهم فيمن يصرف لهم ما يحتاجون إليه من الدراهم التي جمعوها، ويجعلون عليهم قيِّماً يباشر ذلك، وبعض الناس يتطوع على بعض في الإنفاق، ومن الناس من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك، بحيث إن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوّتهم وطاقتهم، وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح أحد في ذلك الوقت بشيء يملكه، ولكن لم يسعفهم الدهر.

(١) وخرجت الفقراء[1] بالطبول والزمر والأعلام، وهم يضجون ويصيحون بأذكار مختلفة، وصعد السيد عمر مكرم نقيب الأشراف إلى القلعة فأخرج بيرقاً[2] كبيراً سمّته العامة بيرق النبي ﷺ، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالعصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور، وغير ذلك وأما مصر فإنها صارت خالية الطرق لا تجد بها سوى النساء في البيوت، وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة، وغلا سعر البارود والرصاص جداً وغلا جنس أنواع السلاح وقل وجوده، وخرج معظم الرعايا بالعصي، وجلس

---

(١) أي الصوفية.

(٢) العَلَم أو الراية.

مشايخ العلماء بزاوية على بيك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله تعالى بالنصر، وأقام غيرهم من الرعايا بالبيوت والزوايا والخيام. ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق، وأقام بها إلى وقت الهزيمة، سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى فيرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق، وأرسل إبراهيم بيك إلى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا من المقدمة بنواحي شبرا وما والاها، وكذلك اجتمع عند مراد بيك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد وأولاد علي وغيرهم، وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول، ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوماً فيوماً لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد.

(١) وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم، وكذلك العرب أغارت على الأطراف والنواحي، وقامت الأرياف على ساق يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب وإخافة طريق وقيام شر وغارة على الأموال وإفساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد الذي لا يحصى.

(٢) وطلب أمراء مصر تجار الإفرنج الذين بمصر وحبوسهم في القلعة، وفي بعض أماكن غير القلعة من بيوت الأمراء، وصاروا يفتشون في بيوت الإفرنج على الأسلحة وغيرها، وكذلك بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام والكنائس على الأسلحة، والعامة لا ترضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهم، ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة وقت هذه الفتنة، ثم في كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر، وتختلف الناس في الجهة التي يجيئون منها، فمنهم من يقول إنهم واصلون من البر الغربي، ومنهم يقول من الشرقي، ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين، وليس لأحد من الأمراء همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة تناوشهم القتال قبل قربهم ووصولهم إلى فناء مصر، بل كل من إبراهيم بيك ومراد بيك جمع

(١) عساكره ومكث في مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم، وليس هناك قلعة ولا حصن ولا معقل، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو.

ولما كان يوم الجمعة سادس شهر صفر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود، وأصبح يوم السبت فوصل أم دينار، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين والمجاورة بلادهم، ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم، منحلة عزائمهم، مختلفة آراؤهم، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتم، مختالون في ريشهم مغترون بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مرتبكون في رؤيتهم مغمورون في غفلتهم، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم. وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين بل أشيع ذلك، فلم يأتوا إلا من البر الغربيّ، ولما كان وقت القيلولة ركب جماعة من العساكر التي بالبر الغربي، وتقدموا إلى ناحية بشقيل بلد مجاورة لأنبابه، فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس فكروا عليهم بالخيول، فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة الرمي وأبلى الفريقان، وقتل أيوب بيك الدفتردار وكثير من كشاف محمد بيك الألفيّ ومماليكهم، وتبعهم طابور من الإفرنج نحو الستة آلاف، وكان رئيسهم الكبير بونابارته لكنه لم يشهد الوقعة، بل حضر بعد الهزيمة، وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير، ولما قرب طابور الفرنسيس عن متاريس مراد بيك ترامى الفريقان بالمدافع، وكذلك العسكر المحاربون البحرية، وحضر عدة وافرة من عساكر الأرناؤوط من دمياط، وطلعوا إلى إنبابه وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم في المتاريس.

(٢) فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقي القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح، ورفعوا الأصوات بقولهم: يا رب يا لطيف، ويا رجال الله[1] ونحو ذلك وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم، فكان العقلاء من الناس يأمرونهم بترك ذلك، ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب، لا برفع

---

(١) هذه الاستغاثة لا تجوز.

الصوت والصراخ والنباح، فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه، ومن يقرأ ومن يسمع؟

وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضي الشرقي ومعهم إبراهيم بيك الوالي، وشرعوا في التعدية إلى البر الغـربيّ في المراكب، فتزاحموا على المعادي لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً، فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين، هذا والريح العاصفة قد اشتد هبوبها وأمواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين، فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه مع شدة الغبار وكون الريح من ناحية العدو، وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه.

ثم إن الطابور الذي تقدم لقتال مراد بك انقسم على تراتيب معلومة عندهم في الحرب وتقارب من المتاريس، بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه، ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتابعة والمـدافع تـرمي. واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح، وصُمَّت الأسماع من توالي الضرب، بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزت والسماء عليها سقطت، واستمر الحرب والقتال نحو ثلثي ساعة ثم كانت الهزيمة على العسكر الغربي، فغرق الكثير من الخيالة في البحر لإحاطة العدو بهم وظلام الـدنيا، والبعض وقـع اسيراً في يـد الفرنسيس وملكـوا المتاريس.

وفر مراد بك ومن معه إلى الجيزة فصعد إلى قصـره وقضى بعض أشغاله في نحو ربع سـاعة، ثم ركـب وذهب إلى الجهـة القبلية، وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقـاة على الأرض ببر أنبـابه، وألقى كثير نفسه في البحر، ولما انهزم العسكر الغربي تحول الفرنسيس بـالمدافـع والبنادق على البـر الشرقي وضـربوهـا وتحقق أهل البـر الآخر الهزيمة، فقامت فيهم ضجة عظيمة، وركب في الحال إبراهيم بك والأمراء

والعسكر والرعايا وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هي لم يأخذوا منها شيئاً، فأما إبراهيم بك والأمراء فساروا إلى جهة العادلية.

وأما الرعايا فهاجوا وماجوا ذاهبين جهة المدينة ودخلوها أفواجاً أفواجاً، وهم جميعاً في غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك، وهم يضجون بالعويل والنحيب، ويبتهلون إلى الله تعالى من شر هذا اليوم الوصيب، والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت، وقد كان ذلك قبل الغروب، فلما استقر إبراهيم بيك بالعادلية أرسل يأخذ حريمه، وكذلك من معه من الأمراء، فأركبوا النساء على الخيول والبغال والحمير والجمال، والبعض ماش كالجواري والخدم، واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر، البعض بحريمه والبعض ينجو بنفسه ولا يسأل أحد عن أحد، بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه، فخرج تلك الليلة معظم أهل مصر، البعض لبلاد الصعيد والبعض لجهة الشرق وهم الأكثر، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ممتثلاً للقضاء متوقعاً للمكروه، وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم في الغربة، فاستسلم للمقدور ولله عاقبة الأمور.

والذي أزعج قلوب الناس بالأكثر أن في عشاء تلك الليلة شاع في الناس أن الإفرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها، وكذلك الجيزة، وإن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء، وكان السبب في هذه الإشاعة أن بعض عسكر مراد بيك الذين كانوا في الغليون[١] لمرسى إنبابة لما تحقق الكسرة أضرم النار في الغليون الذي هو فيه، وكذلك مراد بيك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه إلى الجهة القبلية، فمشوا به قليلاً فوقف في الطين لقلة الماء وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانه فأمر بحرقه أيضاً، فلما صعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق ظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين، فماجوا

(١) سفينة حربية ضخمة.

واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفزع والروع والجزع، وخرج أعيان الناس وأكابرهم ونقيب الأشـراف وبعض المشايخ القادرين، فلمـا عاين العـامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحـركت عزائمهم للهـرب واللحاق بهم، والحال أن الجميع لا يدرون أي جهة يسلكون وأي طريق يذهبون وأي محل يستقرون، فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كـل حدب ينسلون، وبيع الحمار الأعرج والبغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج أكثرهم ماشياً أو حاملاً متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها، ومن قدر على مركوب أركب زوجتـه أو ابنته ومشى هـو على أقدامـه، وخرج غـالب النساء مـاشيـات حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين في ظلمـة الليل، واستمـروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها، وأخذ كل إنسان ما قدر على حمله من مال ومتاع.

(١) فلما خرجوا من باب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون، فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسد جوعته، فكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً يفوق الحصر بحيث إن الأموال والذخائر التي خرجت من مصر في تلك الليلة أضعاف ما بقي فيها بلا شك، لأن معظم الأمـوال عند الأمـراء والأعيان وحـريمهم، وقد أخذوه صحبتهم، وغالب مساتير النـاس وأهل المقـدرة أخرجـوا أيضاً مـا عندهم، والذي أقعده العجز وكان عنده ما يعجز عليـه حمله من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل، ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين، فذهب ذلك جميعه، وربما قتلوا من قدروا على قتله أو دافع عن نفسه ومتاعه، وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن، فمنهم من رجع عن قريب وهم الذين تأخروا في الخروج وبلغهم ما حصل للسـابقين، ومنهم من جاز متكـلاً على كثرتـه وعزوتـه وخفارتـه فسلم أو عطب، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة، جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر، ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين، ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس

ووقوع المكروه، ورجع الكثير من الفارين وهم في أسوأ حال من العري والفزع، فتبين أن الإفرنج لم يعدوا إلى البرّ الشرقي وإن الحريق كان في المراكب المتقدم ذكرها.

(١) فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الإفرنج وينتظروا ما يكون من جوابهم، ففعلوا ذلك، وأرسلوا صحبة شخص مغربي لا يعرف لغتهم وآخر صحبته، فغابا وعادا وأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه ومضمونها الاستفهام عن قصدهم، فقال على لسان الترجمان: وأين عظماؤكم ومشايخكم لِم تأخروا عن الحضور لدينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة؟ وطمنهم وبشّ في وجوههم. فقالا: نريد أماناً منكم، فقال: قد أرسلنا لكم سابقاً، يعنون الكتاب المذكور فيما تقدم، فقالا: وأيضاً نريد أمانا لأجل اطمئنان الناس، فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها أننا أرسلنا لكم في السابق كتاباً فيه الكفاية، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساويّة بالذل والإحتقار، وأخذ مال التجار ومال السلطان، ولما حضرنا إلى البرّ الغربي خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه، وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم ونحن في طلبهم حتى لم يبق منهم أحد بالقطر المصري، وأما العلماء والمشايخ وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين وفي مساكنهم مرتاحين ونحو ذلك من الكلام، ثم قال لهم: لا بد أن المشايخ والشربجية يأتون إلينا لنرتب لهم ديواناً ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور. ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس، وركب الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون إلى الجيزة، فتلقاهم وضحك لهم، وقال: أنتم المشايخ الكبار؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا، فقال: لأي شيء يهربون اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديواناً لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة فكتبوا لهم عدة مكاتيب بالحضور والأمان، ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشاء وحضروا إلى مصر، واطمأن برجوعهم الناس، وكانوا في وجل وخوف على

غيابهم، وأصبحوا فأرسلوا الأمان إلى المشايخ، فحضر شيخ السادات والشيخ الشرقاوي والمشايخ ومن انضم إليهم من الناس القادرين من ناحية المطرية، وأما عمر أفندي نقيب الأشراف فإنه لم يطمئن ولم يحضر، وكذلك الروزنامجي والأفندية. وفي ذلك اليوم اجتمعت الجعيدية وأوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بيك ومراد بيك وحرقوهما، ونهبوا أيضاً عدة بيوت من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك وباعوه بأبخس الأثمان.

(١) وفي يوم الثلاثاء دخلت الفرنساوية إلى مصر وسكن بونابارته بيت محمد بيك الألفي بالأزبكية الذي أنشأه الأمير المذكور في السنة الماضية، وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة وفرشه بالفرش الفاخرة، وعند تمامه وسكناه حصلت هذه الحادثة، فما دخلوه بل تركوه بما فيه فكأنه إنما كان يبنيه لأمير الفرنسيس، وكذلك حصل في بيت حسن كاشف بالناصرية.

(٢) ولما دخل كبيرهم وسكن بالأزبكية كما ذكر استمر غالبها بالبر الآخر ولم يدخل المدينة إلا القليل منهم، ومشوا في الأسواق من غير سلاح ولا تعد، بل صاروا أيضاً يحاكون الناس ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن، فيأخذه أحدهم الدجاجة ويعطي صاحبها في ثمنها ريالاً (فرانسي)، ويأخذ البيضة بنصف فضة قياساً على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم، فلما رأى منهم العامة ذلك أنِسوا بهم واطمأنوا لهم، وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات، وغير ذلك مثل السكر والصابون والدخان والبن، وصاروا يبيعون إليهم بما أحبوا من الأسعار، وفتح غالب السُّوقة الحوانيت والقهاوي، واطمأن الناس لذلك وهدأت الخواطر وطابت الأفكار، وغلب الأمان على الخوف وراج أمر البيع والشراء.

(٣) وفي يوم الخميس ثالث عشر شهر صفر أرسلوا يطلبون المشايخ عند قائم مقام سر عسكر، فلما حضروا تشاور معهم في تعيين عشرة أنفار من

المشايخ للديوان وفصل الحكومات، فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاويّ والشيخ خليل البكريّ والشيخ مصطفى الصاويّ والشيخ سليمان الفيوميّ والشيخ محمد المهديّ والشيخ موسى الرسيّ والشيخ مصطفى الدمنهوري والشيخ أحمد العريشيّ والشيخ يوسف الشبرخيتيّ والشيخ محمد الدواخليّ، وحضر ذلك المجلس أيضاً مصطفى كتخدا والقاضي، وقلدوا علي آغا الشعراوي والي الشرط وحسن آغا أمين احتساب، وذلك بإشارة أرباب الديوان فانهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك، فعرّفوهم أن سُوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك، ولا يحكمهم سواهم، وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم، وقلدوا ذا الفقار كتخدا بيك كتخدا[1] بونابارته، وسأل أرباب الديوان المذكورين عما وقع من النهب للبيوت، فقالوا: هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس، فقال: لأي شيء يفعلون ذلك وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم عليها؟ فقالوا: هذا أمر لا قدرة لنا على منعه، وإنما ذلك وظيفة الحكام، ثم أمروا بالنداء بالأمان وفتح الدكاكين والأسواق والمنع من النهب، فلم يسمعوا ولم ينتهوا واستمر غالب الأسواق والدكاكين معطلة، والناس غير مطمئنين. وفتح الفرنسيس بعض البيوت المغلقة التي للأمراء ودخلوها، وأخذوا منها أشياء وخرجوا منها وتركوها مفتوحة، فعندما يخرجون منها يدخلها طائفة الجعيدية يستأصلون ما فيها، ثم إن عسكرهم صارت (١) تدخل المدينة شيئاً فشيئاً حتى امتلأت منها الطرقات، وسكنوا في البيوت ولم يشوشوا على الناس، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها، وبعد أيام طلبوا سلفة خمسماية ألف ريال من التجار، فأخذوا في تحصيلها بعد مراجعتهم في تخفيفها فلم يفعلوا، ونادوا بالأمان لنساء الأمراء، وأمروا كل من عندها شيء من متاع زوجها تأتي به، وصالحت زوجة مراد بيك عن نفسها وأتباعها من نساء الأمراء بمائة وعشرين ألف ريال، واستخرجوا من الخبايا شيئاً كثيراً، ثم طلبوا من أهل الحرف والأسواق مبلغاً من المال

---

(١) وكيل.

يعجزون عنه، فاستغاثوا بالمشايخ فشفعوا عندهم فلطفوها لهم.

(١) ولما جاء وقت مولد النبي ﷺ أمروا بصنعه على المعتاد وأعطوا من عندهم إعانة على ذلك ثلاثمائة ريال.

وجاءت مراكب الإنكليز وحاربت مراكب الفرنسيس، وأحرقوا لهم مركباً كبيراً، واستمر أياماً ثم ذهبوا، وأما إبراهيم بيك ومراد بيك فذهبوا إلى غزة ثم رجعوا إلى جهة الفيوم. وفي شهر ربيع الثاني طلبوا من الناس حجج أملاكهم وقيدوها عندهم، ووضعوا عليها قدراً معلوماً من الدراهم، وأمروا المشايخ أن يكتبوا للسلطان كتاباً مضمونه الثناء عليهم وحسن سيرتهم، وأنهم من المحبين للسلطان، وأنهم محترمون للقرآن ففعلوا.

وفي عاشر جمادى الأولى جمعوا الناس وقرروا على الأملاك أموالاً زيادة عما كان قبل ذلك، وهاج عامة الناس ونادوا بالجهاد، ووقع قتال قتل فيه خلق كثير، ثم صار النداء بالأمان، ثم تتبعوا كثيراً ممّن كان قائماً في تلك الفتنة فقتلوه.

وأما كيفية مجالسهم وبقية الترتيب في مطلعات دولتهم فهو طويل لا حاجة لذكره، وكذا ما كان يجري من الحوادث.

(٢) ولما جاءت أخبار دخول الفرنسيس مصر إلى الحجاز قام شيخ عالم مغربي بمكة يقال له محمد الجيلاني واستنفر الناس للجهاد، فاجتمع معه خلق كثير ووصلوا إلى الصعيد وقاتلوا من وجدوه من الفرنسيس، ولم يقدروا على استخلاص الأقطار المصرية منهم، فقاتلوا حتى قتل أكثرهم ورجع القليل منهم.

ثم جهز الفرنسيس جيشاً لمحاربة أحمد باشا الجزار في عكا، فملكوا كثيراً من قرى الشام وحاصروا أحمد باشا في عكا ثم عجزوا عن أخذها، فارتحلوا عنها.

(٣) وأجروا ما يعتاده أهل مصر من مولد السيد أحمد البدوي وغيره على

حسب المعتاد، وكذا إخراج المحمل والحج.

وحصل بينهم وبين أهل الأرياف محاربات كثيرة حتى ملكوهم كلهم، وصاروا يتبعون الأمراء من المماليك ويقتلون من ظفروا به، وحضرت مراكب إلى السويس فيها أموال وبضائع للشريف غالب، فسمحوا عن عشورها[1] وحصل بينه وبينهم مكاتبات ومهاداة بهدايا عندهم.

(١) ووضعوا الشيخ العريشي قاضياً للمسلمين يحكم بالشرع.

وتوجه بونابارته إلى بلاد الفرنسيس سنة أربع عشرة وجعل نائباً عنه بمصر، ثم ترقى بانوبارته حتى صار ملكاً على كافة الفرنسيس.

(٢) وفي شهر رجب سنة أربع عشرة جاء جيش من السلطان سليم يقوده يوسف باشا ومعه نصوح باشا جعلوه والياً على مصر، وهو الذي يقال له أيضاً ناصف باشا، وسار من جهة الشام حتّى وصلوا إلى العريش، فاستعد الفرنسيس لقتالهم وخرج بجنوده إلى الصالحية، ثم توسط الإنكليز بالصلح على شروط كثيرة، منها أن الفرنسيس يتنحّى عن الديار المصرية بعد ثلاثة أشهر، ففي تلك المدة صار الناس يحتقرونهم ويسخرون بهم، ويقول بعضهم لبعض سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة، كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس وهم يحقدون ذلك عليهم، وكشف همج الناس نقاب الحياء معهم بالكلية، وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يفكروا في عواقب الأمور، حتى إن فقهاء الأطفال كانوا يجمعون الأطفال ويمشون فِرَقاً وطوائف وهم يجهرون ويقولون كلاماً مقفى بأعلى أصواتهم بلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم، كقولهم ينصر الله السلطان ويهلك فرط الرمان. ولم يملكوا لأنفسهم صبراً، حتى تنقضي الأيام المشروطة، على أن ذلك لم يثمر إلا الحقد والعداوة التي تأسّسَت في قلوب الفرنسيس، وأخذ الفرنساوية في أهبة الرحيل، وشرعوا في بيع أمتعتهم وما فضل من

---

(١) أي لم يأخذوا عليها ضرائب.

سلاحهم ودوابهم، وسلموا غالب الثغور والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس.

(١) ثم إن العثمانيين تدرجوا في دخول مصر وصار كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة، ووصل الوزير يوسف باشا إلى بلبيس والتقى بالأمراء المصريين وأخلى الفرنساوية قلعة الجبل وباقي القلاع التي أحدثوها ونزلوا منها، فلم يطلع إليها أحد من العثمانيين، وطلع كثير من العلماء والتجار للسلام على الوزير في مدينة بلبيس في رمضان، فقابلوه وقابلوا والي مصر نصوح باشا وخلع عليهم خِلعاً وانصرفوا.

ثم في شهر شوال وقعت حادثة كانت سبباً للنقض، وذلك أن جماعة من عسكر العثمانيين تشاجروا مع جماعة من عسكر الفرنسيس فقتل بينهم شخص فرنساوي، فثار من ذلك فتنة، ثم قتلوا ستة أنفار كانوا سبب الفتنة فسكنت، لكن لم تطب نفوس الفرنسيس، ثم إن الفرنساوية طلبوا ثمانية أيام مهلة زيادة على المهلة السابقة لما قرب تمامها، فأعطوهم الثمانية أيام ونصبوا عسكرهم وخيامهم بساحل البحر متصلاً بأطراف مصر ممتداً إلى شبرا ترددوا إلى القلاع وهي لم يكن بها أحد، وشرعوا باجتهاد في رد الذخيرة وآلات الحرب والبارود والقلل والمدافع، واجتهدوا في ذلك ليلاً ونهاراً والناس يتعجبون من ذلك، وأشيع أن الوزير اتفق مع الإنكليز على الإحاطة بالفرنساوية إذا صاروا بظاهر البحر، وكان الفرنساوية عندما تراسلوا وترددوا إلى جهة العرضي تفرسوا في عرضي العثمانيين وعسكرهم وأوضاعهم، وتحققوا حالهم فعلموا ضعفهم عن مقاومتهم، فلما حصل ما ذكر تأهبوا للمقاومة ونقض الصلح والمحاربة، وردوا آلاتهم إلى القلاع، فلما تمموا أمر ذلك وحصنوا الجهات وأبقوا من أبقوه بها من عساكرهم، خرجوا بأجمعهم إلى ظاهر المدينة جهة قبة النصر، وانتشروا في النواحي ولم يبق في المدينة إلا من كان داخل القلاع.

فلما كان اليوم الثالث والعشرون من شوال ركب السر عسكر

الفرنساوي بعدده وعُدده صباحاً ومال على العساكر المصرية من كل جانب فشتت شملهم وفرق جمعهم، ولم تزل العساكر المصريّة فارة من عدوها حتى دخلت مصر، مع وقت العصر.

(١) ولما دخل نصوح باشا صار يقول للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم فعج الناس وهاجوا، وخرجوا من عقولهم وماجوا، ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشام وساروا إلى حارات النصارى يقتلون وينهبون ويأسرون[1] فتحزبت النصارى ولا يزالون يتقاتلون إلى آخر النهار، وبات الناس في هذه الليلة خلف المتاريس، فلما أظلم الليل أطلق الفرنساوية المدافع والكرات على البلد من القلاع، ووقع للناس في هذه الليلة من الكرب والمشقة والخوف مالا يوصف، وأحاط الفرنساويون بالبلد إحاطة السوار بالمعصم، وأكثروا من الرمي بالمدافع على البيوت من القلاع، وعدمت الأقوات، وهلكت البهائم، وليس للناس من مجير ولا راحم، ثم هجموا في ليلة شاتية على البلد من كل ناحية، فقتلوا الرجال، وسبوا الحريم ونهبوا الأموال، وأحرقوا البلاد، وأذاقوا الناس كؤوس الإهانة فوق المراد، ووضعوا أيديهم على البيوت والحوانيت وسائر الأموال، وملكوا النساء والصبيان والرجال.

وفي أوائل ذي الحجة سنة خمس عشرة ومائتين وألف خرج العثمانيون من مصر، واستولى الفرنساويون على سائر آلاتهم ومدافعهم وعددهم وتم لهم أمر الاستيلاء على مصر، وأمنوا الناس، ثم إنه قرر على أهل مصر - يدفعون عاجلاً تأديباً لهم زيادة على ما وقع منه - عشرة آلاف ألف ألف فرنك، وسافر السر عسكر وأقام مكانه يعقوب القبطي يفعل بالمسلمين ما يشاء، ودارت العساكر للتحصيل، فباعت الناس أمتعتها الجليل منها والقليل، إلى أن انفقد المشتري ولو بأبخس الأثمان، وذل في

---

(١) قال المحقق: القاعدة الشرعية توجب علينا قتال المعتدين ومن يعاونهم وإخراجهم من أرضنا، وأمّا أهل ذمتنا فتجب علينا المحافظة عليهم كأهل ملتنا.

ذلك الوقت كل عزيز وهان، ولم يزل ذلك الظلم يتفاقم ويزكو ويتعاظم، والناس يتمنون المنية، في كل بكرة وعشية، إلى آخر شوال سنة خمس عشرة ومائتين وألف برز الأمر من مولانا السلطان سليم بالتجهيز إلى مصر براً وبحراً، فعساكر البر بمعية يوسف باشا وعساكر البحر بمعية الإنكليز، وفي أوائل ذي القعدة وردت مراكب الإنكليز إلى ثغر الإسكندرية، وجاءت الأخبار إلى الفرنساويين بأن يوسف باشا وعساكره وصلوا إلى العريش، ثم وقع الحرب بين الإنكليز والفرنساوي براً في الإسكندرية، وكانت الهزيمة على الفرنساويين، وقتل منهم كثير، ثم وقع في مصر طاعون مات فيه خلق كثير.

وفي خامس المحرم عام ستة عشر ومائتين وألف تحصن الفرنساويون وأكثروا من نقل الماء والدقيق والأقوات إلى القلعة بمصر، وكذلك البارود والكبريت والقلل وغير ذلك، ووضعوا المتاريس خارج البلد وحفروا الخنادق، وشاعت الأخبار بأن العثمانيين والإنكليز تقدموا وتملكوا رشيد ودمياط.

وفي ثالث صفر وقع الحرب بين العثمانيين والفرنساويين وكان النصر للعثمانيين، ثم انعقد الصلح على خروج الفرنسيس من مصر، وتسليمها للدولة العثمانية، فخرجوا في أواخر صفر، ودخل الوزير يوسف باشا مصر في التاسع والعشرين من شهر صفر بموكب حافل، وكانت مدة تملك الفرنساويين مصر ثلاث سنين وشهراً.

وهذا مجمل ذلك ولو فصلناه لطال المسير على السالك[١].

---

(١) «حلية البشر»: ١/١٠٤ - ١٢٢. هذا وقد ذكر الجبرتي في كتابه «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس»:

أ ـ «ولما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع بعضٍ منهم نساؤهم ـ كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات... فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل... فلما وقعت الفتنة الأخيرة وحارب =

أحمد باشا الجزار البشناقيّ والي عكّا

ولد في بوسنة سنة خمس وثلاثين ومائة وألف.

(١) ولما بلغ من العمر ست عشرة سنة، خان أخاه بامرأته، فما أقبحه وما ألعنه، وذلك لِما كان مطبوعاً عليه من فساد الطبيعة، ومخالفة الملة والشريعة، فاضطره الأمر إلى الهرب من بلاده إلى القسطنطينية، فقضى بها مدة بالذل والشقاء والفاقة القوية، فأوجبت عليه ضرورة الهوان والتنكيد، إلى أن باع نفسه لأحد تجار العبيد، فآل به الأمر إلى أن بيعَ بمصر، فدخل في سلك المماليك المصرية، وجعل الزمان يساعده على المرام والأمنية، فارتقى من منصب إلى أعلى، حتى صار والي البحيرة في مصر السفلى، وتولى قيادة جيش محاربة العرب الخارجين على الدولة، فظفر بهم وغدر برؤسائهم وصال عليهم أي صولة، ومن ثم لقب بالجزار، عليه ما يستحقه من المنتقم الجبار.

وكان ـ قاتله الله ـ مجبولاً على الفظاظة، والقسوة والغلاظة، قليل الرحمة، عديم الإسلام، مطبوعاً على الفسوق والآثام، قد اتخذ هواه من دون الله هادياً ونصيراً، واستكبر في نفسه وعتا عتواً كبيراً، وكان سفاكاً للدماء، لا يتقيد بشرع بل كان يفعل ما يشاء، فأكرمه على قتل العرب

= الفرنسيون أهل بولاق وفتكوا بهم. . . وأخذوا ما استحسنوا من النساء والبنات وصرن مأسورات عندهم، فزيوهن بزيّ نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء. وخطب الكثير منهم [الفرنسيس] بنات الأعيان وتزوجوهنّ.

ب ـ ولما أوفى المنيل أذرعه ودخل الماء الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهن لهم في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل، وصحبتهم آلات الطرب».

جـ ـ وقال محقق ذلك الكتاب إن الفرنسيس أنشأوا محالاً عامة للرقص والملاهي الأخرى على النسق الفرنسي، وكان يسودها المجون والخلاعة، وتباح فيها المحرمات. . . فتأثر كثير من المصريين بالفرنسيس وتشبهوا بهم فشرب الرجال الخمر علانية وتبرجت النساء تبرج الفرنسيات.

حضرة علي بيك حاكم مصر، ولقبه بلقب بيك جزاء ذلك النصر.

(١) غير أنه بعد ذلك ساءت سيرته فركن إلى الفرار، ومكث في قسطنطينية أياماً ثم هرب إلى سورية بقصد الاستتار، فدخل دير القمر ملتجئاً إلى الأمير يوسف الشهابي الوالي حينئذ على جبل لبنان، سنة خمس وثمانين ومائة وألف من هجرة سيد ولد عدنان، فرحب به الأمير وأكرمه، وأبقاه عنده واحترمه، ثم بعد أيام أرسله إلى بيروت، وعامله معاملة الأكارم من ذوي البيوت، ورتب له شيئاً من الرسومات، فأقام أياماً ثم سار إلى دمشق وخدم عند عثمان باشا والي الشام، وفي سنة سبع وثمانين ومائة وألف جعله الأمير يوسف متسلماً من قِبله على بيروت وجعل معه طائفة من المغاربة، ثم إنها لم تطل المدة حتى خان ورام أن يبلغ مآربه، فصمم على مبارزة الأمير وشرع في ترميم الأسوار، وجعل يهيء الميرة وآلات الحرب للحصار، ويمنع أهل البلاد من الدخول إلى المدينة، ولا يدع شيئاً يخرج منها بهمة مكينة، ثم لما دخل بيروت ثانية وفعل ما فعل، استغاث الأمير يوسف بحسن باشا وأخبره بما حصل، وكان قد سافر إلى قبرص قاصداً القسطنطينية، فعاد حسن باشا من قبرص بهمة قوية، وأخرج الجزار من بيروت، وهو مقهور ممقوت، ووعد الأمير أنه سيعزله وعاد إلى القسطنطينية، وسار الجزار بعسكره براً إلى صيدا وعساكره ستمائة من الشجعان ثم سار إلى صيدا ثم إلى بعلبك وعظم أمره في تلك الأقطار، وحينئذ خرجت بيروت من يد الأمير يوسف ودخلت في حكومة الجزار، ثم بعد ذلك وقع الصلح بين الأمير يوسف والجزار، فصار يساعده ويوادّه وهو عنده بمنزلة المستشار.

(٢) ثم إن الجزار بعد أن أنعم عليه الأمير ظاهر العمر وقلده قيادة جيشه وعدده ومدده، جحد معروفه وخانه وقتله بيده، وحيث كان ظاهر العمر عدواً للدولة أنعمت على الجزار مكافأة على ذلك بولاية عكّا وصيدا معاً، فبقي عليهما إلى حين أن أوقعته المنية في أودية المهالك.

ثمّ بعد تلقيب السلطان له بالوزارة ولاه على دمشق زيادة على توليته، وذلك عام ألف ومائتين وثمانية عشر فزاد في الطغيان على عادته، من قتل الأنفس وسلب الأموال، حتى قتل من أعيان دمشق خلقاً كثيراً من ذوي الكمال، من أجلّهم وأفضلهم السيد عبد الرحمن أفندي المراديّ مفتي الحنفية وأسعد أفندي المحاسنيّ مفتي الحنفية أيضاً.

(١) واصطنع للناس أنواع العذاب بآلات اخترعها له طائفة من الأكراد، وأعانوه على ظلمه للعباد، حتى أكثروا في البلاد الفساد، وأقروه على دعواه أنه مجدد الوقت، بل باء هو وإياهم بالطرد والمقت، وكان رئيسهم رجلاً يدعي التصوف، ويقول: إن الشيخ الأكبر[١] في فتوحاته المكية أخبر عنه، وادعوا أن قتل الأنفس وسلب الأموال، وجميع ما يفعله ليس حراماً عليه بل حلال، هكذا شاع عنهم حتى أكفروا علماء العصر بإنكارهم عليهم، وألف بعض المتهورين ممن أضله الله على علم في ذلك كتاباً وادعى فيه أنه المجدد، وكان من أعوانه.

(٢) وكان من جملة أعوانه أيضاً رجل اسمه عبد الوهاب، له اطلاع في بعض العلوم، أرسله إلى دمشق مع طائفة من المعذبين والعساكر وكان رئيسهم وإليه المشورة في أمورهم، فما زال يتغالى في قباحته، ويتعالى في مضرّته وإساءته، ويتلذذ بقتل الرجال، وسلب الأموال، حتى كادت تخافه الأطفال، وترتج لسطوته الجبال، وكان قد اجتمع هذا الضال يوماً مع الفاضل العلامة السيد شاكر العقاد في دار المولى حمزة أفندي العجلانيّ مفتي السادة الحنفية، فشرع الخبيث يطنب في مدح الجزار، وأقسم بالله العظيم أنه ليس بظالم وأنه عادل وكرر ذلك مراراً: ثم أقسم أنه على الكتاب والسنة، ثم التفت مخاطباً السيد شاكر المرقوم وقال له: يا شيخنا أما تقول إنه عادل؟ فحاوله الشيخ المرقوم رحمه الله تعالى وقال له: إن له على الناس فضلاً عظيماً حيث دفع عنهم شر الفِرَنج لما حاصروه في عكا

(١) هو محيي الدين بن عربيّ.

وبذل جهده في ذلك، فقال له: لا أسألك عن هذا، فقال له: أنا أقول إن ذنوبنا كثيرة والله تعالى أرسله إلينا لينتقم منا بـه. فعرض بـذلك إلى أن الظالم ينتقم الله تعالى به ثم ينتقم منه: قال السيد شاكر رضي الله عنه: وفهم الخبيث مني ذلك حتى رأيت شعر شاربيه كالمسلات واقفاً من شدة الغيظ، ثمّ قام الشيخ وانقضى المجلس على ذلك، فرحم الله تعالى روحه ونور ضريحه، ما أصلبه في دينه، حيث لم يُوَرِّ في كلامه ويرضيه لخوف ضرره، وقد كفاه الله تعالى شرّ هذا الخبيث.

(١) ثم إنه لا زال هذا الضال يتغالى في الظلم في البلاد الشامية، إلى أن قدّمت الناس على مجاورته المـوت وشراب كؤوس المنيـة، فتحركت الدولة الفرنساوية على الإتيان إليها لإنقاذها من يد هذا الظالم المجبـول على الضرر، وذلك عام ألف ومائتين وأربعة عشر، فحـاصر عكـا وضيق عليها المسالك، فالتمس الجزار من الأمير بشير الوالي حينئذ المساعدة، فاعتذر بأن الأهالي لا توافقه على ذلك. ثم قدمت مراكب الإنكليز لعكا لرد الفرنساويين، فلم تطل المدة حتى رجع بونابرت بعساكره، وصفـا الوقت للجزار عمدة الظالمين، فاشتغل بتعذيب الناس وظلمهم بالقـطع والقتل، والجدع والسمل[١]، إلى غير ذلك من الأفعال الفظيعة، والأحوال الشنيعة، حتى صار جوره وعدوانه مثلاً سائراً، ولم يزل إلى أن هلك قبحه الله في عكا سنة ألف ومائتين وتسع عشرة ودفن بها في الجامع المنسوب إليه.

وعند موت الجزار كان في سجنه إسماعيل باشا فأخرجه الشيخ طه الكرديّ الظالم وأجلسه عوضاً عن الجزار مدعياً بأنّ الجزار بايعه بالولاية قبل موته، وكتب إسماعيل باشا للولايات يبشرهم بولايته، أما نائب الجزار في دمشق فلم يقبل أن يعترف بإسماعيل باشا والياً، فكتب للأمير بشيـر يطلب منه محافظة الطرقات وأن يمده برأيه، فأجابه الأمير: إني فعلت كل شيء قبل ورود رسالتك، وأما إسماعيل باشا فلا يكون لأن الدولة لم تجعله

(١) السمل هو إذهاب العين بحديدة محماة ونحوها.

في هذا المنصب، وبعد برهة أتى إبراهيم باشا والياً على دمشق فسار مع عساكر الأمير بشير وقتل إسماعيل باشا والي عكا، ووضع عوضاً عنه سليمان باشا وكان ذلك سنة ألف ومائتين وعشرين.

(١) وبعد موت أحمد باشا الجزار، تسلط الناس على عزوته، وذوي شوكته، فأذاقوهم كؤوس العذاب، وفتحوا عليهم للهون والذل كل باب، خصوصاً وقد كانوا يعتقدون في الجزار وجماعته ما أخرجهم ظاهراً من الدين، وأدخلهم في عداد الطاغين المعتمدين، فمال الناس عليهم ميلة الاستئصال، وأذاقوهم كؤوس العذاب والنكال، إلى أن أبادوهم أجمعين، وسيوقفهم الله بين يديه فالحمد لله رب العالمين[١].

أحمد مسلم بن عبد الرحمن الكزبريّ الشافعيّ الدمشقي

من أهل بيت قد عمر بالعلم ربوعه، وزين بالفضل أصوله وفروعه، ورفعت العبادة مقامه، ولا ريب أن هذا المترجم كان على طريقه آبائه الكرام، وأصوله السادة العلماء الأعلام.

ولد سنة ألف ومايتين وست وثلاثين، وحضر دروس والده وغيره من العلماء الأفاضل، وكان للمترجم عز وجاه، وصولة قد رفعت بين الناس رتبته وعلاه، إلى أن صار مقصوداً في الحوائج، قد أحبه الولاة والحكام، ورفعوا قدره على كاهل الاحترام، وأقبل الناس من كل جانب عليه، حتى كادوا لا يجنحون إلا إليه، وبعد موت أخيه الشيخ عبد الله سنة خمس وستين ومائتين وألف جلس مكان أخيه تحت قبة النسر[٢]، لقراءة صحيح البخاري كل يوم بعد العصر، واستمرت فيه هذه العادة في شهر رجب وشعبان ورمضان.

---

(١) «حلية البشر»: ١/١٢٧ - ١٣٢.

(٢) في المسجد الأمويّ بدمشق.

ولم يزل مواظباً على الدروس والأذكار إلى أن جذبته يد المنيّة إلى الدار الباقية العليّة سنة ألف ومائتين وتسع وتسعين[1][2].

---

(١) «حلية البشر»: ١/١٤٦ ـ ١٦٧.

(٢) أورد المحقق الشيخ محمد بهجة البيطار ـ في الهامش ـ ما يلي:

خلاصة تاريخ المسجد الأمويّ.

ذكر مؤرخ الشام الحافظ الكبير علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ٤٩٩ في باب ما ذكر في بناء المسجد واختيار بانيه موضعه على سائر المواضع، ناقلاً عن عبد الرحمن بن إبراهيم أن الوليد بنى كل ما كان داخل حيطان المسجد، وزاد في سمك الحيطان، وبنى قبة المسجد، فلما استقلت وتمت، وقعت فشق ذلك عليه، إلى آخر ما جاء في قصة بناء المسجد وقبة النسر (انظر ج ١ ص ٢٠٣ من تاريخه طبع دمشق سنة ١٣٢٩ هـ).

وقال النعيمي [المتوفى سنة ٩٢٧]: ويشتمل هذا الجامع في وقتنا على تسعة أئمة، وثلاثة وسبعين متصدراً لإقراء القرآن، وإحدى عشرة حلقة للاشتغال بالعلم، والصرف عليها من مال المصالح، وثلاث حِلَق للاشتغال بالحديث. وذكر النعيمي أيضاً في تحفة الطالب وإرشاد الدارس خلاصة تاريخ الجامع الأموي، وما عرض له من الحرائق والتجديد حتى عصره.

وأما الأستاذ بدران [المتوفى سنة ١٣٤٦ هـ] فقد بسط الكلام على الجامع الأموي في كتابه: «منادمة الأطلال ومسامرة الخيال» وقد طبع سنة ١٣٧٩ هـ ونقل عمن تقدمه من المؤرخين خلاصات في وصفه وتاريخه، وخرابه وتجديده، وقال: ثم في أيامنا [سنة ١٣١١] احترق الجامع ولم يبق فيه شيء من الآثار القديمة، وأعيد بناؤه على الحالة الحاضرة اليوم، جعله الله عامراً مدى الأيام. اهـ.

محدثو دار الحديث الأشرفية وقبة النسر:

عُرفت الشام من الصدر الأول بأنها بلد السنة، فمسند الشاميين ـ أي الصحابة الذين نزلوا الشام ـ هو جزء كبير من مسند الإمام أحمد المطبوع ومعه منتخب كنز العمال سنة ١٣١٣ هـ. ويجده المطالع في الجزء الرابع منه، وبالأسانيد المتصلة بهؤلاء الشاميين وغيرهم من الصحابة الذين تفرّقوا في الأمصار، أخرج الأئمة الحفاظ أحاديثهم كالبخاريّ (المتوفى سنة ٢٥٦) ومسلم (٢٦١) وأصحاب السنن والمسانيد والمعاجم والجوامع، وعنهم أخذ أئمة الرواية والدراية مدرسو دار الحديث الأشرفية بدمشق كابن الصلاح (المتوفى سنة ٦٤٣) وابن شامة (٦٦٥) والنواويّ (٦٧٦) وابن الوكيل (٧١٦) وابن الزملكانيّ (٧٢٧) والحافظ المزيّ (٧٤٢) وعلم الدين البرزاليّ (٧٣٩) والحافظ الذهبيّ (٧٤٨) والتقي السبكيّ =

أحمد الراوي بن رجب بن حسن

ترجمه السيد أبو الهدى أفندي في كتابه: «تنوير الأبصار في طبقات السادة الرفاعية الأخيار»، فقال: نشأ السيد أحمد المترجم براوة بلدة من أعمال بغداد، واشتهر وظهر وتربى بتربية والده، ثم بعد وفاة والده التحق بخدمة الشيخ العارف الكبير السيد نور الدين حبيب الله الحديثيّ الرفاعيّ وسلك على يديه وانتفع بصحبته.

(١) وقد أظهر الله شأن السيد أحمد، وأعلى قدره، وجرت على يديه الخوارق التي لا تعد ولا تحد، مر ببلدة الكبيسة بالشرقية فشكا إليه أهلها قلة الماء العذب وأن ماء أرضهم كله مالح وأنهم في ضنك، فخرج بهم خارج البلدة وأمرهم أن يحفروا بمحل هناك، ونام وقال: لا توقظوني حتى يظهر الماء ويجري إن شاء الله تعالى، فلما باشروا الحفر ما كان غير يسير حتى ظهر لهم الماء كالسيل أعذب ما يكون من الماء، ففرحوا به وما صبروا فأيقظوا السيد أحمد وذكروا له الحال، فقال: بارك الله بكم لو صبرتم لجرى على وجه الأرض كما قلت لكم ولكن هذا قَسَم في الأزل، وهذا البئر المذكور باق إلى الآن في الكبيسة ولا نظير له بين مياه تلك الديار، ولو صرفنا عنان القلم لتعداد خوارق صاحب الترجمة لطال المجال، توفي سنة خمس وعشرين ومائتين وألف[1].

= (٧٥٦) والحافظ ابن كثير (٧٧٤) وابن جماعة (٧٣٣) أولئك الذين كانوا من مفاخر الدنيا في عصورهم.

وروى بالسند عن هؤلاء الأئمة الحفاظ طائفة من محدثي قبة النسر الأعلام، ومن أكبر الأسر التي تسلسل فيها العلم في ديار الشام. وقد كان من شروط قبة النسر أن يقوم على درس الحديث فيها أعلم علماء دمشق، فآل أمرها بالاستحقاق والكفاءة إلى وارث علوم أولئك الأئمة خليفتهم وخاتمتهم شيخنا الشيخ بدر الدين الحسني المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ ولم يأت بعده من يخلفه في علمه وعمله على ما سيأتي في ترجمته، رحم الله أولئك الأبرار، وعوض الأمة عنهم خيراً.

(١) «حلية البشر»: ١/٢٠٣ - ٢٠٤.

أحمد بن إدريس
المغربيّ الإدريسيّ

(١) من ذرية الإمام إدريس بن عبدالله، قال العلامة السيد حسن بن أحمد البهكليّ في «الديباج الخسرواني»: هو شيخنا إمام المفسرين، ومقدام المحدثين، جعل الكتاب والسنة إمامَيْه، وجعلهما الدليل الذي لا يعتمد في عبادته إلاّ عليه، فليس له مذهب يقلده، أو منهج يقويه ويشيده، سوى السنة والكتاب، فيعمل بهما بلا شك ولا ارتياب، وكان يكافح أهل التقليد، بالملام والإنكار الشديد، ويعلن لهم بأن قصر الحق على هذه المذاهب المعروفة من البدع، وإن الجزم بتعذر الحكم من دليله لا مستند له، وإنه من باب تضييق الواسع لأن فضل الله غير مقصور على شخص دون شخص، والفهم الذي هو شرط التكليف قد منحه الله تعالى كل أحد ولو كان مختصّاً به أحد دون أحد أو زمان دون زمان، لما قامت الحجة على العباد بكتاب الله العزيز والسنة البيضاء، وهذا لا يرتضيه أحد، وهذا الصنيع من كفران النعمة، وقد تكلم في هذه المسألة جماعة من أهل العلم وأفردها الشيخ صالح الفلاني بمؤلف، وأجاد في الكلام على هذه المسألة الإمام الحافظ محمد بن إبراهيم الوزير في عواصمه.

(٢) نعم انحرف عنه علماء مكة لهذا السبب ولله در القائل:

ألا قل لمن بات لي حاسداً ... أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله ... لأنك لم ترض لي ما وهب

ومع هذا فهم إذا أشكلت عليهم مسألة دسوا إليه من سأله فيجليها لهم؛ وقد نشر الله تعالى له من الصيت وحسن الذكر ما ملأ الآفاق، وما ضره حسدهم ولا تمالؤهم على غمط فضائله، والاتفاق على أنه طاهر السريرة صافي القلب من داء الحسد والحقد، وكان عند ملوك مكة هو العين الناظرة، منزولاً عندهم في أرفع المنازل، ملحوظاً بعين الإجلال في جميع المحافل، وفي آخر مدته خرج من مكة إلى اليمن وكان وصوله إلى زبيد سنة ألف ومائتين وثلاث وأربعين، وتلقاه شيخنا الحافظ السيد

عبد الرحمن بن سليمان الأهدل وجعل نفسه له مقام التلميذ وأجلّه غاية الإجلال، ثم ترجح له المسير نحو الشام وأنشد لسان حالهم قول بعض الأنام:

أيها السائر عنا عجلا ... إنما سرت فما عنك خَلَفْ
إنما أنت سحاب هاطل ... حيثما صرفه الله انصرف
ليت شعري أي قوم آجْدِبوا ... فأغيثوا بك من بعد التلف

وكانت ولادة المترجم سنة عشر ومائتين وألف.

وقد ذكر صاحب «النفس اليماني» لصاحب الترجمة، ترجمة حافلة قد ذكرت حاصلها وهو: شيخنا السيد العلامة الإمام ذو المعارف الربانية، والمواهب الرحمانية، صفي الإسلام أحمد المغربيّ الحسينيّ، وفد إلى مدينة زبيد سنة ألف ومائتين وأربع وأربعين ناشراً فيها ما منحه الله من علوم أسرار الكتاب والسنة، وكاشفاً عن إشارتهما الباهرة، ولطائفهما الزاهرة، بعبارته الجلية المشرق عليها نور الإذن الرباني، واللائح عليها أثر القبول الرحماني.

(١) قال ابن قيم الجوزيّة رحمه الله تعالى في «شرح منازل السائرين»: القوم يسمون أخبارهم عن المعارف والمطلوب إشارة، لأن المعروف والمطلوب أجل من أن يُفصح عنه بعبارة تطابقه وشأنه فوق ذلك، فالكامل إشارته إلى الغاية، ولا يكون ذلك إلا لمن فني عن اسمه وهواه وحظه، وبقي بربِّه، وكل أحد فإشارته بحسَب معرفته وهمته، ومعارف القوم وهممهم تؤخذ بإشاراتهم انتهى.

(٢) وهذا السيد الجليل طريقته السالك بها والداعي إليها الإقبال بالكلية على تدبر معاني كتاب الله، وإطالة التفكر في استجلاب أسرار معانيه، ولقد ذكر لي أنه مكث عدة سنين لا شغل له إلا تلاوة كتاب الله والتعرض لنفحات أسرار علومه، ولطائف رقائقه وفهومه، حتى منح الله بما منح وفتح بما فتح، وهذه الطريقة هي التي أشار إليها الإمام ابن القيم في شرح منازل

السائرين حيث قال ما نصه: والطريقة المختصرة القريبة السهلة الموصلة إلى الرفيق الأعلى التي لا يلحق سالكَها خوفٌ ولا عطب، ولا فيها آفة من آفات سائر الطرق ألبتة، وعليه من الله حارس وحافظ يحرسه ويحفظه ويحميه، ويدفع عنه كل أذى، هي أن تنقل قلبك من وطن الدنيا إلى وطن الآخرة، ثم وأنت بهذا الموطن لا تجعل له التفاتاً إلا إلى معاني القرآن واستجلائها وتدبرها وفهم ما يراد به وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته وتنزيلها على أدواء قلبك، ولا يعرف قدر هذه الطريقة إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وقُطّاعها والله المستعان انتهى كلامه.

(١) قال: ونزل السيد المذكور على العبد الحقير، وكان نزوله كنزول العافية على السقيم والشفاء للجرح الأليم، والحمد لله على ذلك، ونسأله التوفيق لدوام الشكر على ما هنالك. ثم بدا له التوجه إلى جهة بندر المخا ثم جهة موزع، فلما وصل إلى تلك الجهات ازدحم عليه الخاص والعام وانتفعوا به في أمر دينهم انتفاعاً عظيماً، لأن السيد هديه في عباداته وعاداته الهدي النبوي لا سيما الصلاة فإنه ـ نفع الله به ـ يقيمها ويحسنها على الوجه التام، الذي وردت به الأحاديث الصحاح والحسان، عن معلم الشريعة ﷺ، لا يلتزم في إقامتها ولا إقامة غيرها مذهباً من المذاهب، بل مذهبه ما صح به الحديث كما هي طريقة خلائق من العلماء الأعلام.

أقول: وقد توفي المترجَم سنة ألف ومائتين وثلاث وخمسين هجرية[١].

أحمد أبو العباس شهاب الدين البربير الشاميّ البيروتيّ

ذو الأدب الباهي الباهر، والنفس الزكية والأخلاق المرضية، من تستعذب النفوس نثره، وتستطيب نظمه وشعره، فلا ريب أنه العمدة الإمام، الذي ما رأى أحد مثله في مصر والشام، وكان مولده رحمه الله في ثغر دمياط سنة ستين ومائة وألف حيث كان والده بها يتعاطى التجارة، ولما بلغ

---

(١) «حلية البشر»: ١/٢٠٦ ـ ٢١٠.

رشده، وملك أشده، قرأ على أفاضل عصره العلوم النقلية، والعقلية، غِبَّ[1] أن حفظ القرآن المجيد وجملة من الأحاديث النبوية، ونظم الشعر وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وحضر إلى بيروت وطنه الأصلي في سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف، ثم توجه إلى دمشق الشام، ثم عاد إلى بيروت، فأكرهه الأمير يوسف الشهابيّ على تولية القضاء بها، فقام بأعبائه، ثم استعفى منه لورعه وتقواه، ثم عاد إلى دمشق سنة خمس وتسعين ومائة وألف وسكن في الصالحية، وأقبل على الترقي بهمة قوية، إلى أن صار فرداً يشار إليه وعمدة في المشكلات يعتمد عليه، وشهد له مشايخه بالفضل.

وله مقامة تشهد بعلاه، وتقضي لمطالعها بأن يعترف لمنشئها بأنه قد جمع ما تفرق من الفضل وحواه، وقد أحببت أن أثبتها في هذا المكان، لتكون للواقف على تلاوتها جالبة للسرور ومذهبة للأحزان، ليعلم الإنسان فضل منشئها فأقول ذاكراً لها بتمامها:

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن خلق العناصر، وجعل لكل منها فضلاً تعقد عليه الخناصر، وصلاة وسلاماً على من هو في الدارين سيد بني آدم وعلى آله وصحبه، ومن تعلق بحبه، ما اكتحلت عيون الطروس بمراود الأقلام. وقلدت نحور الدروس بعقود ألفاظ العلماء الأعلام. وبعد فإن الفكر والخيال دخلا بي إلى رياض ضاع زهرها[2] فنم عليه النسيم ودار عليه الماء الزلال. أكلها دائم وظلها. كأنما قابلت مرآتها جنة النعيم فانطبع فيها مثالها وشكلها فتلقتنا طيورها بالصدح وورودها بالنفح، وقامت لنا الأشجار على سوقها، ورقصت بين أيدينا جواري الماء، وظهرت مع وجود شمولنا

(١) أي بعد.
(٢) انتشر ريح زهرها.

وبدورنا نجوم النبات حتى ظنناها نجوم السماء. غير أننا كنا نسمع محاورة ضمنها منافرة ومحاضرة، فسألنا الرياض عن جلية الأثر فقالت: سلوا النسيم فقد أصبح عند النسيم الخبر، فوجهنا وجه السؤال الوسيم إلى قبلة النسيم فتدلى وتدلل وما ألطف النسيم إذا تعلل، ثم مر بنا مُقبلاً ومقبِّلاً، وكلما مر حلا، وقال: يا أهل الفراسة والسياسة، والفتوة والمروءة والحماسة، إنها منافسة بين الماء والهواء أوجبها حب انفراد كل منهما عن صاحبه بالرياسة، فهل تنعمون بحضورهما لديكم، ومثولهما بين يديكم، ليعرض كل ما له من حسن الأوصاف، وتحكموا بينهما بالعدل والإنصاف، فقلنا: لا نكره ذلك ولا نأباه، فهلم بهما إلينا لنرفع ما بينهما من الاشتباه، فشمس الحق لا يحجبها حجاب الباطل، وهيهات تُكتم في الظلام مشاعل، فلم يزل الحق أبلج، والباطل لجلج، وحسبك قول خالق الخلائق، ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾[1]، فعند ذلك سرى النسيم إليهما مسرى النوم في الأجفان، والروح في الأبدان، فأتى بهما وهو يتبسم ويتنسم فحيا كل منهما وبيّا وسلم، فقلنا: وأنتما حُييتما ما عطس الفجر ودب الظلام، فإنكما أعظم دعائم الجماد والنبات والحيوان والإنسان، وأنتما الشقيقان اللذان لم يوجد لهما ثالث في عالم الإمكان، فهل ولج بينكما ذو نفاق، حتى صدر منكما هذا الشقاق، أو ذلك من دسائس النفس الأمارة، ووساوس تلك العدوة الغدارة الغرارة، التي لا تأمر إلا بالشر ولا تصبو إلاّ إلى الضر، كيف لا وهي عروس إبليس، ومصدر أفعال التدليس والتلبيس، أعدى العِدى، وسبب الرَّدىٰ، فالشر في إهمالها والخير في إعمالها وإذلالها، فمن أطاعها ندم، ومن عصاها سلم، فالرأي للعاقل أن يحذر مَكرها، ويخالف أمرها، لا سيما إن أمرته بقطع رحم القرابة والأرَب، أو رحم الصحبة أو الحرفة التي كل منها لُحمة كلُحمة النسب. والمرء قليل بنفسه كثير بالإخوان، والرحم مشتقة من الرحمن، ولهذا يصل من وصلها، ويفصل من فصلها.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٨.

وخير الناس من جنح إلى الصلح، ولم يداو جرحاً بجرح، كما قال الشاعر:

وما كنت إلا مثل قاطع كفه ... بكف له أخرى فأصبح أجذما

والجزم فيما قاله الشاعر:

قومي هم قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت أصابني سهمي

(١) على أن الدنيا دار زوال، ومنزلة ارتحال، ولا يليق بالعاقل أن ينافس فيما يزول، ويوجه وجه آماله ما للفناء يؤول، كما قيل:

منافسة الفتى فيما يزول ... على نقصان همته دليل

ومختار القليل أقل منه ... وكل فوائد الدنيا قليل

(٢) ولقد استعاذ النبي ﷺ من جار السوء في دار المقامة، إشارة إلى أن جار الدنيا يتحول عنك أو تتحول عنه، وإنه لا يليق الضجر منه ولا السآمة، ومن المعلوم أن الدنيا إن بقيت لها لم تبق لك، فطوبى لمن جعلها قنطرة لآخرته فمر بها على هذا القصد وسلك، وويل لمن اغتر بسكونها وهي تمر مع السكون كالظل مر السحاب، وظنها شراباً ولو اختبرها لم يجدها غير سراب، ويا سعادة من أقصر، عندما أبصر، واعتبر لمّا اختبر، فالدهر أفصح مُؤْذِن بالزوال، وأنصح مُؤَذِّن بالارتحال.

فلما سمع الماء ما قلناه من الكلام، وتأمل ما فيه من منثور النثر وقلائد النظام، تموج وتأود، ورغا وأزبد، وجرى واضطرب، وعبس بعد القهقهة وقطب، وقال: يا معشر الأكابر، أما بلغكم قول الشاعر:

إذا لم تكن إلا الأسِنة[١] مركباً ... فلا رأي للمضطر إلا ركوبها

(٣) وقول آخر:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة ... بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

وقول الآخر:

---

(١) الرِّماح.

وظلم ذوي القـربى أشد مضـاضة على المرء من وقع الحسام المهند

وقول السفاح وهو أول من وطد الخلافة العباسية حين قَتَل بنو عمه بني أمية:

نُـفلق هــامــاً مـن رجــال أعــزة علينــا وإن كــانــوا أعق وألأمــا

أما عرفتم أن الأخ المعاند، كالعضو الزائد، يشين الـذات، ويمنع اللذات، فقطعه من الرشد وإن آلم الجسد، هذا ولا يَغُرّ الهواءَ صفـائي فكم تكدرت، فإن زعم الهواء أن له عليّ فضيلة، فليعرضها على أسماعكم غير متعلل بعلة ولا متحيل بحيلة، فقلنـا: نعوذ بـالله من اجتماع النفس والهـوا، فعند ذلـك ثار الهـواء وله غبـار، وصعد منبـر الفخـار، وقـال: الحمد الله الذي رفع فَلك الهواء، على عنصر التراب والماء، ونفخ في آدم من روحه وعلمه جميع الأسماء، أما بعد فمن عـرفني فقد اكتفى، ومن جهلني فسأبدو له بعد الخفا، أنا الهواء الذي أؤلف بين السحاب، وأنقل ريح الأحباب، وأهب تارة بالرحمة وأخرى بالعذاب، نصر الله بي محمداً وصحبـه الأمجاد[١]، وأهلك الله بي قـوم عـاد، وأنـا الـذي تم بي ملك سليمان، وأجرى الماء في خدمتي بكل مكان، وسير بي الفُلك في البحر كما تسير العيس[٢] في البطاح، وأطار بي في الجو كل ذات جناح، إذا صفوت صفا العالم وكان له نضرة وزهـو، وإذا تكدرت انكـدرت النجوم وتكدر الجو، لا أتلون مثل الماء، المتلون بلون الإناء، ولولاي لما تكلم آدميّ ولا صوّت حيوان، ولا غرد طائر على غصن بان، ولولاي ما سُمع قرآن ولا حديث، ولا عرف طيب المسموع والمشموم من الخبيث، فكيف يفاخر بين الماء الذي يشبه الله به الدنيا البغيضة[٣]، التي لا تعدل عنده جناح بعوضة، وأنا الذي أطير بلا جناح إلى جميع الجهات، وهو الذي يخر

(١) أي يوم الأحزاب.

(٢) الإبل.

(٣) أي في قوله تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا كماء أنزلناه﴾.

على وجهه ويمشي على بطنه كالحيات، وحسبي وحسبه هذا التفاوت العظيم ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾[1]. وحَسْبُ الماء ذمّاً كون الرطوبة فيه طبيعية غريزية، وأنا الذي جعلني الله نشراً بين يدي رحمته، وجعل مني طوفاناً استأصل به ما تركه آدم من ذريته، هذا وما خصني الله به من المزايا يعجز عنه فم الدواة ولسان القلم وصدر الرقيم[2]، وفوق كل ذي علم عليم، وأما أنت فحسبك عيباً قول بعض الأدباء: فلان كالقابض على الماء، وبالله قل لي أي فخر لمن يعز مفقوداً، ويهون موجوداً، ومن إذا طال مكثه، ظهر خبثه، وإذا سكن متنه، تحرك نتنه، ومن نبع من الصخور، ومَرُرَ مذاقه في البحور، وشرق به شاربه، وغرق فيه مجاوره ومصاحبه، وعلت فوقه الجيف، وانحطت عنده اللآلىء في الصدف، وقد بان الصحيح من السقيم، والمنتج من العقيم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

ثم انحدر من منبره، ووعينا ما سرده من مفخره، وقال للماء: هاتِ. فعلا الماء بموجه، حتى صعد إلى ما انحطّ عنه الهواء من أوجه، ولولا الأرض تملكه لسال، لكنه تجلد وأقبل علينا وقال: الحمد لله الذي خلق كل شيء، وجعل من الماء كل شيء حي، أما بعد فقد سمعت جعجعة ظننتها صرير باب، أو طنين ذباب، باطل في صورة حق، وسرابٌ إذا تأملته زال وانمحق، فاسمع أيها الهواء ما أتلوه من آيات فخري الشامل، وما أجلوه عليك من عقد فضلي الذي أنت منه عاطل، ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾[3]، اعلم أولاً أن الدعوى قبيحة، وإن كانت صحيحة، كما قيل:

وما أعجبتني قطُّ دعوى عريضة ... ولو قام في تصديقها ألف شاهد

فكيف إذا كانت بالزخارف ممّوهة، فهي أقبح من الخلقة المشوهة،

---

(١) سورة تبارك: الآية ٢٢.

(٢) أي اللوح.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨١.

ولعمري لا يروج الدرهم المغشوش، وإن أحكموا فيه أنواع النقوش، لا سيما إذا كان الناقد بصير، ولا ينبؤك مثل خبير، هذا وقد سردتَ ما زعمته فيك من الخصوصيات على سبيل المفاخرة والمباهاة، وأنا أقول ما منّ الله به عليّ على سبيل التحدث بنعمة الله، فأقول: أنا مخلوق ولا فخر، وأنا لذة الدنيا والآخرة ويوم الحشر، وأنا الجوهر الشفاف، المشبه بالسيف إذا سُلَّ من الغلاف، وقد خلق الله مني جميع الجواهر حتى اللآليء في الأصداف، أُحيي الأرض بعد مماتها، وأُخرج منها للعالم جميع أقواتها، وأكسو عرائس الرياض أنواع الحلل، وأنثر عليها لآلىء الوبل والطل[1]، حتى يضرب بها في الحسن المثل، كما قيل:

إن السمـاء إذا لم تبـك مقلتهـا لم تضحك الأرض عن شيء من الز

وأنـا الذي أقتـل العجوز، وأُذهب حـرارة آب وتموز، وقـد أفتـاني الأفاضل، أن من دخل علي من باب المفاخرة أنه لا يجوز، فكيف ينكر فضلى من دب أو درج، وأما أنت أيها الهـواء فكم ذهبت فيك نصـائح النصاح، كما قال ابن هرمه: وبعض القول يذهب في الرياح.

ولعمري إنه لا يفي قبولك بدبورك، ولا تقوم جنتك بسعيرك، ولطالما أهلكت أمماً بسمومك وزمهريرك، فكم تواتر عنك حديث تشمئز منه النفس وتمجه الأذن، وحسبك من العناد أنك تجري بما لا تشتهي السفن، وأنت المولع برقص الجواري كفعل الفساق، وأنت الذي تهيج التـراب وتغري النار بالإحراق ومن عيوبك أنك لا تسكن ولا يقـر لك قـرار، ولم تفهم الإشارة في قوله تعالى: ﴿**وله ما سكن في الليل والنهار**﴾[2]، وقد ضربت العرب بعدم استقامتك الأمثال، كما نقله عنهم أصحاب القصص فمن ذلك قولهم:

إن ابن آوى[3] لشـديـد المقتنص وهـو إذا ما صيـد ريح في قفص

---

(١) الوابل: المطر الشديد، والطل: الخفيف.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٣.
(٣) الثعلب.

وأما قولـك لولاي لمـا عاش إنسـان، ولا بقي على أرض حيوان، فجوابه لو شاء الله لعاش العالم بلا هواء، كما عاش عالم الماء في الماء، ولم لا قلت إن غالب هلاك كل ذي روح من الوباء.

وأما قولك إن طبيعتي الرطوبة فذلك أعظم فخري، لأن الرطوبة مادة الحيـاة التي في الأجسام تسـري، إذ الحرارة بمنـزلة النـار في الأبـدان، والرطوبة لها بمنزلة الأدهان، فإذا خلص الدهن انطفأ السراج، وزال ما فيه من النور الوهاج، وأما تعييرك لي بأني متلون، فالتلون صفة عارف الزمان، المتخلق بقوله تعالى: ﴿**كل يوم هو في شان**﴾[1].

وأما قولك إن الله شبه بي الدنيا فقد شبه فيك أفئدة الكفار[2]، وجعل زمهريرك سعيراً في النار، فأنت المذموم مقصوراً وممدوداً[3] إن مددت كنت جباراً عنيداً، وإن قصرت كنت إلٰهاً معبوداً، وأنا الذي لا أتغير بالمد ولا بالجزر، وكيف يتغير من هو مادة البحر.

وأما افتخارك برفعة المنازل، وعدك ذلك من أعظم الفضائل، فـلا فضيلة للشخص بالمكان ولا بالزمان كما قال الشاعر الملسان:

ولـو كـان الـمـكـان لـه عـلـو   لـطار الجيش وانـحط القتـام[4]

وقال الطغرائي:

وإن عـلاني من دوني فـلا عجب   لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل

هذا وأُنشدك الله أيُّنا كان عليه عرش الرحمن قبل خلق العـالمين، وأيّنا الذي جعل منه كل شيء حي وذكره بذلك في كتابه المبين، وأيّنـا الذي بعث فيه ابن عباس إلى ملك الروم في قارورة كان أرسلها إليه مع بعض الجنود، وطلب منه أن يضع له فيها كل شيء والشيء عنـدنا هـو

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٩.

(٢) في قوله تعالى: ﴿**وأفئدتهم هواء**﴾، سورة إبراهيم: الآية ٤٣.

(٣) أي: الهوى والهواء.

(٤) الغبار.

الموجود، أما كفاك شهادة الله لي بالظهورية في قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا من السماء ماء طهوراً، لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا إنعاماً وأناسيّ كثيراً**﴾[1]، أما بلغك شهادة الله ببركتي وحسبي بها فخراً في طول البلاد والعرض، حيث قال في كتابه العزيز: ﴿**وأنزلنا من السماء ماء مباركاً فأسكناه في الأرض**﴾[2]، أما رأيت ما حباني الله به من عظيم المنة، حيث جعلني الله نهراً من أنهار الجنة، أما علمت أن مني حوضَ من كان إذا مشى في الشمس تظله الغمامة، أما تيقنت أنني نبعت من بين أصابعه فكنت له معجزة كما أكون لوارثي مقامه الرفيع كرامة، أما عرفت أني أرفع الأحداث، وأطهر الأخباث، وأجلو النظر، وأكون للمؤمنين في الآخرة نوراً في محل التحجيل والغُرر، أما رأيت الناس إذا غبت عنهم يتضرعون إلى الله بالصوم والصلاة والصدقة والدعاء، ويسألونه تعالى إرسالي من قِبل السماء، واعلم أنني ما نلت هذا المقام الذي ارتفعت به على أبناء جنسي، إلا بانحطاطي الذي عيرتني به وتواضعي وهضم نفسي، وأنا لا أحب المعالي، وأنا سِلْم للمحل المنخفض، وحرب للمحل العالي، لا أتجاوز حد العبيد، ولا أنازع فيما اختصّ به من الصفات التي لا تفنى ولا تبيد، بل أخشى دائماً بطشه، وأستحضر قوله تعالى: ﴿**إن بطش ربك لشديد**﴾[3]، فلذلك باعدني الله من النار، وجعلك حجاباً بيني وبينها أتقي بك ما تطاير منها من الشرار، وقد علم كل عالم أن فضائلي تجل عن الحصر، وأني سيد العناصر الأفخر، أقول قولي هذا وأستغفر الله من لغو الكلام، وأسأل لي ولأحبابي حسن الختام.

ثم نزل والتمس منا أن نحكم له بالفضل على الفور، وأن نجانب في

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤٨.

(٢) قال المحقق: نصّ الآية الكريمة: ﴿**وَأنزلنا من السماء ماءً بقدر، فأسكناه في الأرض**﴾ المؤمنون: الآية ١٨ والآية الثانية: ﴿**ونزلنا من السماء ماءً مباركاً، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد**﴾ سورة ق/٩.

(٣) سورة البروج: الآية ١٢.

حكمنا الميل والجور، فقلنا له بأن كلاً منكما أدلى إلى الفضل بحجة، وسلك من الدلائل العقلية والنقلية أوضح محجة، غير أن تكافؤ الأدلة، غادر منا الأفكار مضمحلة، وقد عجزت عن ترجيح فضلكما الأفكار، كما عجز القاضي الأفعى[1] عن الحكم لأبناء نزار، وليس لهذه المعضلة، والحادثة العظيمة المشكلة، إلا الكبار لا الهمج الرعاع، كما قيل: إن الكبار أطبُّ للأوجاع، قال بعضهم:

إن العظيم يحمل العظيما كما الجسيم يحمل الجسيما

ولعمري ليس لها غير إمام عصرنا، وعزة شامنا ومصرنا، المجتهد الذي قلد ببره أعناقنا تقليداً، وأخجل لطفه غض الزهر فتستّر بأكمامه حتى رأينا في خدوده توريداً، خلاصة العُبّاد من العباد، وثمرة دوحة روض الحقائق من آل مراد، جناب مولانا وسيدنا عين أعيان الموالي الكرام السيد عبد الرحمن أفندي فهلم للوفود عليه، والمثول بين يديه، فهو الذي يستنبط المسائل ويرضى بفضله وبذله كل مسائل، وإن لم يكن غير مكارمه إليه وسائل. فلما سمع الماء والهواء بمعروف ذلك الحبيب السَّرِيّ[2]، والإمام الهمام العبقري، تعشقاه على السماع، وطلبا منا المبادرة إلى جنابه ليبلغا منه حظ الإجتماع، فسرنا بهما إلى جنابه، حتى بلغنا فسيح رحابه، فصادف دخولنا خروج كعبة ذاته من حرم الحُرَم فكأنما خرج الورد من الأكمام والليث من الأجَم[3]، فنهضنا له على الأقدام، وحيانا بألطف سلام، وتسلم سلم قصره الفريد، وأشار إلينا أن نتبعه في الصعود إلى ذلك القصر

---

(١) قال المحقق: الأفعى الجرهمي: حكيم جاهلي قديم، كان منزله بنجران، تقصده العرب في قضاياهم فيحكم ولا يرد حكمه، وقصته مع أبناء نزار في ابن الأثير ٢/ ١١.

(٢) الكريم صاحب المروءة.

(٣) جمع أجَمَة وهي بيت الأسد.

المشيد، فرأينا قصراً ينسُب الخورنق[1] للقصور، ويغمد غمدان[2] كما تغمد في أجفانها الذكور[3]، وما بالك بنسر شهدت فضلاء الأكياس، بأنه جمع محاسن الدنيا كما جمع صاحبه محاسن الناس، ثم أمر لنا بالجلوس، وقد اشتمل مجلسنا على كل أديب ألمعيّ، كأنه الأصمعيّ[4] تراه الكامل في الأدب، والعمدة في كل مطلب، يأتيك من البديع بما يخجل ربيع الزهر وزهر الربيع، يثمر المسامرة ويحضر المحاضرة، ويتقن المحاورة، ويحسن المجاورة، يبادهك بما رق وراق، ويجلب لك الغصن من أزهار الأفكار وثمرات الأوراق، وما زلنا نقتطف منهم زهور الآداب، حتى أقبل ملك الليل بسواده الأعظم، ونثر على الأفلاك جواهر النجوم التي كأنها العقد المنظم. هذا ونحن في فلك السعود، كواكبنا وسماؤنا دخان العنبر والعود، فأسكرتنا سِنة النوم والنعاس، وهجم علينا ملك الكَرَى[5]، وقد كاد أن يشيب عارض الليل مما سال من دمع الشمع وجرى، وعند ذلك طوينا من المنادمة بساطها، وتفرقنا تطلب كل نفس منا راحتها وانبساطها، ثم اضطجعنا على الوساد للرقاد، وأعطينا الجفون حقها من الإغفاء بعد السهاد، ولم نزل في ضيافة المنام، حتى لفظ الشرق من لهواته ياقوتة سهيل، ودب مشيب الفجر في عارض الليل، فنهضنا للصلاة، وجلس كل منا بعدها في مصلاه حتى طلعت شمس صاحبنا الفائق على الصاحب ابن عبّاد[6]، فنفذ شعاعها من ظواهرنا إلى كل قلب منا وفؤاد، ثم دخلنا عليه وسلمنا ودعونا له بطول البقاء، فأجاب وأجاد وأجاز وتلقانا أحسن اللقاء.

---

(١) قال المحقق: قصر في العراق عمره نعمان اللخمي لبني ساسان، ثم وسعه العباسيون.

(٢) قال المحقق: قصر في صنعاء اليمن، كان يعتبر من عجائب الدنيا.

(٣) قال المحقق: أي كما تغمد في أغمادها السيوف.

(٤) قال المحقق: عبد الملك، من مشاهير لغويي العرب، حفظ لغة البدو ولهجاتها، وعهد إليه هارون الرشيد بتعليم الأمين (مات سنة ٢١٦ هـ).

(٥) النعاس.

(٦) قال المحقق: وزير غلب عليه الأدب، توفي سنة ٣٨٥.

(١) فلما استوفينا أوفر حظ، وخلا مجلسنا من كل بارد ثقيل فظ، بادرته بالدعاء، وعرضت عليه مفاخرة الماء والهواء، وسألته فصل الخطاب، والإنعام بالجواب، فالتفت عند ذلك للماء وأخيه، وقال: إن كلا منكما محق فيما يدعيه، ففضلكما معجز، لا يكاد يميز أحدكما عن أخيه مميز، وقد نفع الله بكما العالم على تباين أنواعه وأشكاله، وقد ورد أن الخلق عيال الله وأن أحبهم إليه أنفعهم لعياله، فلا تشتغلا بالمفاخرة عن شكر هذه النعمة، واعلما أن حب الفخار أهبط إبليس إلى حضيض اللعنة من أوج شرف الرحمة، فلا تجعلاه لكما إماماً، فمن يفعل ذلك يلق أثاماً، واعلما أن الفخر في الدنيا بالمال، وفي الآخرة بالأعمال، وأحسن الافتخار الافتقار، وظهور الذل والانكسار. فمن كان عبداً الله كان له به الافتخار، لا من كان عبد النفس أو الهوى أو الدرهم أو الدينار، فمن مناجاة علي كرم الله وجهه وزاده منه قرباً: سيدي كفانا شرفاً أن نكون لك عبيداً، وكفانا عزاً أن تكون لنا رباً.

(٢) وللقاضي عياض:

ومما زادني شرفاً وتيهاً	وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي	وأن صيّرت أحمد لي نبياً

على أن مرآة الحق أرتني فضيلة تفضل بها أيها الماء أخاك الهواء، وحققت لي أنكما لستما في الفضل سواء، وهي إن الله خلق آدم من الماء وخلق منك إبليس، فاعترف لأخيك بالفضل عليك، ودع عنك زخارف التلبيس، فأكبرُ من الحق مَن قَبِله، وأصغر من الباطل من عمله، والتذلل للحق أقرب من التعزز بالباطل، وأعظم الزلات زلة العاقل، فعند ذلك عدل الهواء عن هوجه واعوجاجه، ومخاصمته وعلاجه، وأقبل يقبل ذيل الماء ويعتذر إليه، من استطالته عليه، وأقبل كل منهما على صاحب المنزل يؤدي بالدعاء له حقوقه.

ثم رجعت من عالم الخيال إلى عالم الإحساس، فلم أر أحداً ممن

رأيته من تلك الأنواع والأجناس، فعلمت أن الدنيا كلها خيال، والناس كلهم نيام، وما يرونه في الدنيا أضغاث أحلام[1] فسألت الله أن ينبهني وأحبابي من نوم الغفلة قبل هجوم الحِمام[2]، وأن يمتعنا بوجهه الكريم في دار النعيم والسلام، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والحمد لله على التمام.

وله تأليفات كثيرة، عديدة شهيرة، وله ديوان شعر، رفيع القدر، توفي بدمشق عقيماً سنة ست وعشرين ومائتين وألف ودفن بسفح قاسيون[3].

أحمد باشا والي ومشير دمشق الشام

الوزير الكبير، والوالي المشير، من بهر بحسن تدبيره واهتمامه، وظهر في الناس ظهور البدر ليلة تمامه، ونهج أوج مناهج التقوى والعبادة، وكان على مرور أيامه من الكمال على زيادة، مع أدب باهر، ومذهب مستقيم طاهر، ونفس زكية، وفكرة علية.

(١) دخل دمشق سنة خمس وسبعين ومائتين وألف، وكان والياً على القطعة السورية، ومشيراً على الفرقة العسكرية، فكانت له السيرة الحسنة والأوصاف المستحسنة، وأخذ الطريقة الخلوتية، عن الشيخ المهديّ المغربيّ القاطن في الخضيرية، فسلك سلوك أهل الوصول، وتمسك من السنة بالفروع والأصول، وذلك بعد أن كان لا يصرف عمره إلا بين ريحان وراح، وأخدان[4] تسعى له بجلب المسرات والأفراح، وقد ركب في فعاله وأقواله هواه، وأعطى نفسه ما تحبه وتهواه، فأضرب عن جميع ما كان عليه صفحاً، ومحا بحسناته سيآته وازداد فلاحاً وربحاً، فصار لا يصرف نقد

---

(١) قال المحقق: أي أحلام مختلطة ملتبسة لا يصح تأويلها لاختلاطها.

(٢) الموت.

(٣) «حلية البشر»: ١/٢١٧ ـ ٢٣٨.

(٤) أصحاب.

عمره في غير أنفس الأعمال، ولا يحرك لسانه إلا بذكر أو صلاة على سيد ذوي الكمال، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر بأحسن خطاب، أو حكم بحق على مرتكب خلاف الحق والصواب، ولم يزل يترقى أمره، ويعظم ويسمو قدره، إلى أن سلبته حلاوة الطاعة الإقبال على دُنياه، وأفاضت عليه معرفة أن الإنسان هو الذي يعمل لما ينفعه في أخراه، فأهمل النظر في أمور السياسة، وتنبهت عيون ذوي الشقاوة والخساسة، ولم يزل يتفاقم هذا الحال، ويعظم أمر الجهال، إلى أن وقعت فتنة بين الدروز والنصارى في جبل لبنان[1] واشتد بسببها الضرب والطعان، وعاثت طائفة الدروز وفسقوا، وانتظموا في سلك الطغيان واتسقوا، ومنعوا جفونَ أهل الذمة السنات[2]، وأخذوا البنين والبنات من حجور الأمهات، وخربوا القرايا والبلدان، وسفكوا الدماء وحرّقوا العمران، ونهبوا الأموال ومالوا عليهم كل الميل، وبادرت لمساعدتهم والغنيمة معهم دروز الجبل الشرقي تجري على خيولها جري السيل، ولم يروا في ذلك معارضاً ولا منازعاً، ولا مدافعاً ولا ممانعاً، والنصارى بين أيديهم كغنم الذبح، هم وأموالهم وأولادهم وبلادهم غنيمة وربح، ودام هذا الأمر واستقام، إلى ابتداء ذي الحجة الحرام، سنة ست وسبعين بعد الألف والمائتين، وقد هرب كثير من النصارى إلى الشام، ظانين أن الحكومة تحميهم من الدروز اللئام[3]، فصارت الدروز تدخل إلى

---

(١) قال المحقق: جاء في خطط الشام للأستاذ كرد علي ما يلي: لم تكد تخلي الجنود المصرية بلاد الشام، حتى رجعت إلى حالتها قبل المصريين، وثارت العداوات القديمة في الصدور، وزادت الدسائس الأجنبية، وأخذت فرنسا تساعد الموارنة وبريطانيا تعاون الدروز، فتعدى هؤلاء على الموارنة في سنة ١٢٥٧ ودخلوا دير القمر وارتكبوا فيه الفظائع المنكرة، وزحف الدروز سنة ١٢٥٧ بثمانية آلاف، وانتشب القتال بينهم وبين أهل زحلة، ومعهم أهل بعلبك، إلخ (ج ٣/٧٦).

(٢) النعاس.

(٣) قال المحقق: في الخطط: «ولم يكن من مصلحة الدولة أن تسود الألفة بين الطوائف، وأن يتعامل أهل الوطن الواحد بالحسنى، فكان أكثر رجالها يوقدون =

الشام بأنواع السلاح، ويخاطبون الأشقياء بقولهم كنا نظن بكم الفلاح، لقد أخلينا البر من النصارى، وأنتم عنهم كأنكم سكارى، فاذبحوهم ذبح الأغنام، وأذيقوهم كأس الحِمام، واغنموا ما عندهم من الأموال والأمتعة الكلية، وإن الحكومة بذلك راضية مرضية، ولو لم يكن لها مراد بذلك، ما مكنتنا من إذاقتهم كؤوس المهالك، والوالي ساكت عن هذا الأمر كأنه لم يكن عنده خبر، حتى ظن أكثر القاصرين أن هذا الواقع عن أمر شاهانيّ صدر:

يمضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وما زالت الأشقياء تتطاول أعناقها، وتتزايد لهذه الأفعال أشواقها، والدروز في كل وقت يجددون لهم همة، ويتواردون عليهم أمة بعد أمة، وقد قامت لديهم الأفراح، وزالت عنهم برفع القيد الهموم والأتراح:

أمور تضحك السفهاء منها ويخشى من عواقبها اللبيب

وصاروا يتكلمون بكلام، لا يليق إلا بالأشقياء اللئام، كقولهم: حنّا يقول لنخلة، إسماعيل الأطرش حرق زحلة[1]، وأمثال ذلك خصوصاً ممّا يدل على التخويف والتهديد، وصارت الأولاد تقوله على طريقة الأناشيد، فذهب بعض النصارى إلى والي البلد، لينقذهم من هذا الهم والنكد، وكان

= جذوة التعصب الديني، ويساعدون الدروز على المسيحيين في لبنان، حتى يتيسّر للدولة أن تنزع الحكم من أرباب الإقطاعات، وتقيم له والياً كما لطرابلس وصيدا والقدس وحلب ودمشق، ولذلك كثرت الفتن والمناوشات، بل الإحن والمحن بين المسيحيين والدروز».

(١) قال المحقق: وفي نكبات الشام أن الحروب الأهلية التي حدثت في دير القمر وزحلة وغيرهما من أنحاء البلاد (سنة ١٢٦٥) انتهت بقتل ثلاثة آلاف رجل من النصارى قتلوا في لبنان والبقاع وبعضهم في المدن؛ ونحو أربعمائة رجل من الدروز: ولولا محاربة الدروز المسيحيين بالخيانة، ومساعدة الحكومة لهم في كل مكان على نزع السلاح، لكثر عدد القتلى وزاد على هذا القدر. وأما الخسائر المالية فلم تقدر في ذلك الحين».

ذلك يوم الإثنين من ذي الحجة الحرام، سنة ألف ومائتين وست وسبعين من هجرة سيد الأنام، فأمر الوالي بـالقبض على بعض الأولاد، فمسكوا منهم جملة وقيدوهم بالحديد وأمروهم بالكنس والرش تأديباً لهم عن هذا الفساد، فقامت عصبة جاهلية في باب البريد من الجهال الطغام، ونادوا بأعلى صوتهم: يا غيرة الله ويا دين الإسلام، وكان الوقت قبيل العصر من ذلك اليوم المرقوم، وتلاحقت الأشقياء إلى حارة النصارى كـأنه لم يكن عليهم بعد ذلك عتب ولا أحد منهم على فعله مذموم[1]، وأقبلت عليهم الدروز أفواجـاً أفواجـاً، واشتغلوا بالحـرق والقتل والسلب والنهب أفـراداً وأزواجاً، فأنشأت في الحال خطبة وخـطبتها في جـامع كـريم الدين في

---

(١) قال المحقق: في الخطط: قال اللورد دوفرين «لم يبق أدنى ريب يحول دون نسبة المذابح الأخيرة وجميع الحروب والاضطرابات والمنازعات التي انتابت لبنان في مدى الخمس عشرة سنة الأخيرة إلى استياء الحكومة العثمانية من الاستقلال النوعيّ الممنوح للجبل، فجعلت مرمى سياستها أن تبرهن على أنه يتعذر العمل بطريقة الحكم التي منحتها الدول لبنـان في سنة ١٨٤٥، ولهـذا كان الأتـراك يغتنمون الفرصة لإثارة دفائن الأحقاد القديمة بين الدروز والمـوارنة. ولمـا ازداد تعجرف المسيحيين وتعصبهم بقوة المساعدات الأجنبية التي فـازوا بها ثقـل على الأتراك احتمـال وطأة استقـلالهم فعقدوا العـزم على اتخاذ الـدروز آلـة ليـوقعـوا بهم، ويضربوهم ضربة أشد إيلاماً مما تقدمها، بيد أن ما حصل في حاصبيا وراشيا ودير القمر، قد جاء مجاوزاً الحد المنوي، لعدم توفر شروط اللياقة في خورشيد باشا وأعوانه لإنفاذ سياسة دماء كهذه، فأفرطوا فيها بحيث افتضح سر سياستهم، وكان له دوي هائل في الأندية الأوروبية».

إلى أن يقول: فمن العبث وصف المسيحيين بأنهم شهداء قديسون، فهم يضاهون جيرانهم الدروز في حروبهم همجيّة وظمأً إلى الدماء، فكثيراً مـا كانـوا يقتتلون بعضهم مع بعض، ولا يعفون عن النساء. يؤيد ذلك ارتكابهم الفظائع مع المشايخ الخازنيين منذ سنين، ومثل هذه المعايب كثيرة في تاريخهم، بيد أن الدروز هم من هذا القبيل أكثر شفقة من غيرهم فلا يقتتلون بعضهم مع بعض، ويحترمون النساء»، وقال الأستاذ كرد علي وما كان يخطر بالبال أن هذه الشرارة تسري إلى دمشق، مدينة التسامح واللطف، ويقوم رعاع المسلمين بمعاونة الدروز، يؤذون من أُمروا بالاحسان إليهم، بعد أن عاشوا وإياهم ثلاثة عشر قرناً في صفاء وهناء».

الميدان بحرمة هذه الأفعال، وإنها موقعة لأربابها في أودية النكال، وإنهم محترمون لا يجوز لهم التعرض بحال، وإن لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ومن تعرض لهم بسوء فقد باء بالخزي والنكال، فانكف أهل الميدان عن سفك الدماء، واجتلبوا ما قدروا على اجتلابه من الرجال والنساء، لحمايتهم من الأشقياء.

والوالي ما زال على إهماله وسكوته وعدم سؤاله، غير أنه عين للمحافظة أربعة من الأعيان، اثنين من المدينة واثنين من الميدان، فقام من كان من الميدان بحق الحماية، وقصر من عداهما في البداية والنهاية، غير أن سعادة الأمير المعظم، والكبير المفخم، حضرة الأمير السيد عبد القادر الجزائري قد بذل كامل همته في ذلك، وبذل أمواله ورجاله في خلاص من قدر عليه من المهالك، واستقامت النار تضطرم في حارة النصارى سبعة أيام، والناس فوضى كأنه لم يكن لهم إمام، فلما أحضروا من أحضروه من النصارى إلى الميدان، وقد امتلأت البيوت أخذنا نطوف عليهم نهنيهم بالسلامة ونطيب قلوبهم بالأمن والأمان، وكنا ما نرى منهم غير دمع سائل، وبصر جائل، وقلب واجف، ورجاء قليل وبال كاسف، وهذه تقول: أين ولدي؟ وهذه تقول: قد انفلق كبدي، وهذه تقول: مالي، وهذه تقول: كيف احتيالي؟ والرجال منهم حيارى وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، وقد ذهب عنهم البهاء والجمال، وأوقعهم المقدور في الضيق والنكال، فلم نستطع الصبر عن البكاء والنحيب، وكدنا مما رأينا أن نذهل عن نفوسنا ونغيب، فيا لها من مصيبة ما أعظمها، ونكبة ما أجسمها، قد أبكت ذوي الرحمة بدل الدمع دماً، وكادت أن تثبت لهم بعد الإبصار العمى، ثم ذهبنا من الميدان لعلنا نجد حياً نخلصه ونقيه، وننقذه من أيدي من يريد قتله ولا يبقيه، فلم نجد غير من أمضى عليه حد الحسام حكمه، وأنفذ فيه جور الأيام ظلمه، فمنهم من استوفى القضاء المحتوم، ومنهم من قد بلغت الروح الحلقوم، وما ترى في محلتهم من مغيث سوى كلب عقور أو شقيّ خبيث، والأرض رويت من دمائهم، وتعطلت الأماكن من أسمائهم، وعاد

صبح جمالهم عاتماً، وأقامت محلاتهم عليهم مآتماً، فخروا على الوجوه والأفواه، وصعقوا على الصدور والجباه، بعد أن وقعوا في أسنة المكاره والخطوب، صرعى على وجه الأرض، معقرين كأنه يوم النشور والعرض، قد افترشوا التراب بدلاً من الأرائك الحسان، وتضرجوا بالدماء بعد التضمخ بالمسك والزعفران، وصارت لحومهم للوحوش ولائم، والطيور عليها ما بين هابط وحائم، والنار تلعب ألسنتها في تلك القصور، وقد جعلتها رماداً بعد زينتها بالولدان والحور.

ولما علم دروز الجبل الشرقي أن أهل الميدان، قد أدخلوا النصارى في حصن الأمان، ووضعوهم في أماكنهم مع عيالهم، واجتلبوا لهم سرورهم بقدر الإمكان وراحة بالهم، تجمعوا وتحزبوا وتوجهوا إلى الشام، إلى أن وصلوا إلى أرض القَدَم بالكبرياء والعظمة والاحترام، ثم أرسلوا خبراً إلى الميدان إما أن تسلمونا النصارى لنذيقهم كؤوس المنية، ونبيدهم بالكلية، وإما أن ننشر بيننا راية القتال، ونطوي بساط السلم واستقامة الحال، فبرز أهل الميدان إليهم بروز الأسد، وقالوا لهم بلسان واحد: ليس لكم على قتالنا من جَلَد، أظننتم أنكم تصلون إليهم، وتحكمون بما تريدون عليهم، إن ذلك أمر محال، إياكم أن تتوهموه بحال، إننا وحقِّ من أحيا الأشباح بالأرواح، لا نسمح لكم منهم بقلامة ظفر وليس لكم في مطلوبكم من نجاح، وكثر القيل والقال، وكانت البيداء قد امتلأت من الفرسان والأبطال، وتجمع الصفان، وتقابل الصنفان، وارتفع العجيج وعلا العجاج، وكثر الضجيج من كل الفجاج، وأشهر كلٌ سلاحه، واعتقد أن في قتل عدوه فلاحه، وأنّ شرر الموت ينقدح من ألحاظه، ويفصح بصريح ألفاظه، فلما رأى الدروز ما كان، من المشاة والركبان من أهل الميدان، علاهم الوجل، وقد خاب منهم الأمل، وضاق بهم من الأرض فضاؤها، وتضعضعت من أركانهم أعضاؤها، فتنازلوا عن العناد إلى الوداد، وقالوا نحن العين وأنتم لها بمنزلة السواد، وليس لنا عنكم غنى، وأنتم لنا غاية المنى، ونزيلكم عندنا مصون، ومن كل ما يضره مأمون، والذي وقع منا

كان هفوة مغفورة، وقسطة هي بعفوكم مستورة، فقابلوها بالسماحة والغفران، ونحن وإياكم أحباب وإخوان، ثم تفرقوا بعد الوداع، وانقاد كل منهم للسلم وأطاع، وتفضل الله وأنعم، وحسم مادة الشر وتكرم[1].

ولا زال أهل الميدان في الليل والنهار، يحرسون النصارى من الأشقياء والأشرار، إلى السادس والعشرين من محرم الحرام، دخل الشام محمد معمر باشا ومعه أربعة آلاف جندي من عسكر النظام، وفي غرة محرم سنة سبع وسبعين، دخل خالد باشا المصري للنظر في أمر هذه الخيانة، وكان قبل دخوله بيوم قد سافر أحمد باشا المذكور أولاً إلى بيروت متوجهاً إلى الآسِتانة، وفي حادى عشر المحرم الحرام، دخل ناظر الخارجية فؤاد باشا إلى الشام، مرخصاً من قبل الدولة وباقي الدول، مهما شاء أجرى ومهما أراد فعل، ومعه عوضاً عن أحمد باشا المترجم المذكور عبد الحليم باشا المشير المشهور، واجتمع بالشام من العساكر السابقة واللاحقة نحو ثلاثين ألفاً، ثم بعد ثلاثة أيام، أمر بعقد مجلس عام، وطلب فيه مأخوذات النصارى ومسلوباتهم، ومغصوباتهم ومنهوباتهم، وذلك يوم الخميس خامس عشر المحرم، وشدد غاية التشديد، وأكد أعظم تأكيد، ولما أصبح صباح الجمعة سادس عشر المحرم، وجد الناس الشام قد امتلأت من العساكر، وقد أغلقوا أبواب البلد ولم يعرف أحد ما الأمر إليه صائر، فدخل على الناس من الهم والكدر، ما هو عبرة لمن اعتبر، وهذا أول الامتحان على ما سلف من القباحة والعصيان، حمانا الله من شر الفساد والطغيان، ووقانا من حيف الزمان، ثم إن الحكومة أرسلت مأموراً لتحصيل المسلوبات، وجمع المنهوبات، وقد حصل التنبيه بأن من عنده شيء فليأت به ولا يخفيه، فبادر الناس بالإحضار، وصار من عنده شيء كأنه قد اشتعلت به النار، ودخل على الناس من الوجل ما يُستصغر عنده حضور الأجل، وصار بعض الناس يلقون ما عندهم في الطريق ليلاً للتستر والكتم، وذهب شعورهم لما

---

(١)

اعتـراهم من الخـوف والـوهم، وصـاروا يقبضـون على بعض النـاس ويحبسونهم في التكية، ولا يعلمون ما يجري عليهم من البلية، واستدام جمع المسلوبات إلى ثاني وعشرين محرم، ثم صارت النصـارى تتشكى للحكومة على بعض الناس، وتفاقم الأمر واشتد الالتباس، فهذا يقول: هذا قتل ولدي، ويقول الآخر: قتل والدي، ويقول الآخر: أخذ مالي، ويقول الآخر: تعرض لأطفالي، وزال الإئتلاف وزاد الاختلاف، والعساكر تقبض على من يتهم سواء كان من الأصناف أو من الأشراف، حتى اجتمع في التكيّة نحو ثلاثة آلاف، ثم إنه في غرة صفر أعيد أحمد باشا السر عسكر من الأستانة إلى الشام، معزولاً من منصبه ومفوضاً أمره إلى فؤاد باشا يحكم عليه بما رام، فصار إلى الحبس صاغراً، وقد تحول إلى الذل بعد أن كان ناهياً آمراً.

وفي ثاني صفر يوم الأحد عمل فؤاد باشا مجلساً خصوصياً خفياً لم تمسه يد الإعلان، وقد اجتمع فيه العلماء والصدور والأعيان، لم يطلع أحد على ما حصل من المذاكرة فيه، ولا علموا بظواهره ولا خوافيه، غير أنهم علموا بأن فؤاد باشا قد قسم ذوي الجنايات إلى ثلاثة أقسام سالب ومهيج وقاتل مرتكب للإعدام، ولم يعلموا غير ذلك، والله أعلم بما هنالك، فلما أصبح الناس يوم الاثنين ثالث صفر وجدوا سبعين رجلاً قد صلبوا مفرقين في البلد، من أهل الشام الذين كان أكثرهم عليه في الوجاهة يُعتمد، وفي خامس صفر تعاظم الشر، وتفاقم الضر وطمّ الغم، وانتشر وعم، حيث حبس عالم الشام وفاضل الأنام الشيخ عبد الله الحلبيّ في دار البلطجية، وعمر أفندي الغزي في التكيّة، ومفتي دمشق طاهر أفندي، وأحمد أفندي الحسيبي، وعبد الله بك العظم، وسعيد بك بن شمدين آغا، وعبد الهادي أفنـدي العمريّ وأحمـد أفندي العجـلانيّ نقيب الأشراف، وصـالح آغـا المهايني وغيرهم من الصدور، كل واحد بمحل بمفرده لا يدخل عليه أحد غير خدمة ولاة الأمور، وكانوا يستنطقونهم في كل يوم، لينظروا ماذا يترتب عليهم من اللوم، وفي سابع صفر أمر فؤاد باشا بتفريغ بعض البيوت لسكنى

النصارى المصابين، ففرغوا من بيوت القيمرية والقنوات وباب توما والسماكة والشاغور، وبعض بيوت باب المصلى بمقدار ما يكفيهم أجمعين.

وفي حادي وعشرين من صفر فرق على بعض الناس أوراق رسمية، إمّا بتقديم أولادهم للعسكرية أو بدفع بدل مائتي ليرة عثمانية، وشددوا عليهم في الطلب، وما نجا إلا القليل من العاجزين عن الدفع واستجاروا بالهرب.

وفي ثاني وعشرين من شهر صفر حكم فؤاد باشا على أحمد باشا بالإعدام، وعلى جملة من أمراء عساكر النظام، فأخذوهم إلى القشلة القريبة من المولوية، وأعلموهم بما حصل من الأمر عليهم بالقتل فاستسلم أحمد باشا لهذه القضية، وكان صائماً فصلى ركعتين ثم سلم نفسه للممات، فعرضوا عليه الماء قبل إزهاق نفسه المطمئنة، فقال: لا أفعل لا أفطر إلا في الجنة، فصفوهم وجعلوهم هدفاً للرصاص، وكانوا متأملين أن حسن اعتذارهم ينتج لهم الخلاص، فلا حول ولا قوة إلّا بالله، لا راد لما حكم به وقضاه.

وفي رابع ربيع الأول صلبوا اثني عشر رجلاً من دروز وإسلام، وفي عاشر ربيع الأول قبضوا على سعيد بك جنبلاط في بيروت وصحبته بعض دروز الجبل الغربي، وفي ثاني وعشرين من ربيع الأول فرضوا على أهالي الشام خمسة آلاف فراش وخمسة آلاف لِحاف وخمسة آلاف وسادة، وفي رابع وعشرين من ربيع الأول رجع فؤاد باشا إلى الشام.

وحينما انتقل النصارى إلى البيوت التي فرغها لهم ذلك الوزير الكبير، عين لكل فرد منهم خرجا يكفيه من كبير وصغير، وسافر كثير من النصارى إلى بيروت وإسكندرية، ليتسلوا عن مصيبتهم القوية، وفي غرة ربيع الثاني أنزلوا ورقة بدل العسكرية من مائتي عثمانية إلى مائة عثمانية، وفي رابع ربيع الثاني أحضروا علي بك العظم ومحمد صالح أفندي بن

الشيخ عبد الله الحلبي ووضعوهما في الدائرة الحبسية، وفي خامس ربيع الثاني نهار السبت عند طلوع الشمس نفوا الذوات المرقومين جميعاً إلى الماغوصة[1] ذات الغم الشديد، وفي ثاني يوم سافر فؤاد باشا وصحبته جميع العسكر الجديد، وفي يوم الثلاثاء من ربيع الثاني وضعوا مجلساً مخصوصاً لجمع السلاح من أهل الشام، وبعد تمام جمعه نقلوه إلى القلعة ووضعوه تحت الحرس بكل اهتمام.

وفي يوم سادس وعشرين من ربيع الثاني أغلق فؤاد باشا المحاكمة والتفتيش على التهمة، بحيث لو اشتكى واحد من النصارى بأن فلاناً قتل ولدي أو والدي أو أخذ مالي لا يقبل منه، لأن القضية من وقتئذ انتقلت إلى البدل بالمال.

وفي يوم السبت ثامن عشر جمادى الأولى حضر إلى الشام معتمدون من طرف الدول الأجانب الأوروباوية، لينظروا بما حصل على النصارى وبما حصل من المجازاة على الأشقياء ذوي التعدي، ثم إنه في هذا التاريخ أرسل فؤاد باشا إعلانات لتقرأ على العموم، بحيث لا يجهله أحد، ونصها حرفياً هو: معلوم لدى الجميع أن الواقعة المؤلمة التي حصلت في دمشق لم يسبق لها مثال، ولا ذكر لها نظير في التواريخ القديمة ولا الحديثة، وهي مادة فاضحة منافية لأحكام الشريعة المحمدية العادلة، ومخالفة للإنسانية والمدنية، وبما أن الله سبحانه قد كلف عباده العدل والإحسان، وأمرهم أن يتجنبوا الجور والغدر، وبما أنه فرض على ذمة ولي الأمر إنفاذ الأوامر الإلهية على الدوام، فقد تعلقت الإرادة السنية بأن تجري على الفور المعاملات التي يقتضيها الحال في هذا الباب، فأصحاب الجنايات قد لقوا تأديبهم وتربيتهم جزاء لقبائحهم وذنوبهم التي ثبتت لدى التحقيق بالبراهين الكافية، والذين أفلتوا من المجازاة الدنيوية فإنهم ينتظرون بالندم عقاب الآخرة على ارتكاباتهم، ثم لا يخفى أنه من آثار تلك الواقعة، هو أن

---

(1) مدينة في قبرص.

من التبعة السلطانية لا محل لهم ولا مأوى يتعيشون من الإعانة المعطاة لهم من طرف الدولة العلية، ولما كان استحصال الأسباب لإصلاح أحوال هؤلاء المصابين ورفع اضطرابهم من أخص مرغوبات الدولة العلية كان يجب على أهالي دمشق وأهالي الايالة قاطبة صرف الهمة والجهد في هذا الباب، لأجل تطهير وطنهم من هذه النقيصة التي عرضت له، وبناء عليه ينبغي أن يُعطَى هؤلاء المصابون المسيحيون مبلغاً كافياً من الدراهم لأجل تعمير بيوتهم وترميمها، ولأجل سد احتياجاتهم الضرورية، وتيسير لوازمهم، ومع أن أمر تحقيق متلفاتهم هو مباشر فيه الآن، ومعلوم أن إيفاء جميع تضميناتهم دفعة واحدة من الأهالي هو خارج عن دائرة الإمكان، وأن أمر تسوية ذلك من طرف الخزينة هو مما لا يساعد عليه الوقت ولا الحال، ومن ثم قد حصل القرار على طرح ضريبة فوق العادة على أهالي مدينة دمشق نفسها وأهالي النواحي الأربع التي في جوارها، والقضاوات التابعة لها، وعلى طلب إعانة من بعض المحلات، وقد أعلنت صورة طرح ذلك وطريقة استيفائه في قرار مخصوص، فالدراهم المطلوبة الآن ضريبة فوق العادة، ربما ظهرت في أول الأمر كثيرة، إلا أنها تظهر لا محالة قليلة إذا قيست بالجناية الواقعة، وحسبت القسامة الشرعية من المقتولين الذين لا يعرف قاتلوهم، لأنه في دمشق لم يتلف المال فقط، بل أريق دماء كثيرين أيضاً كما لا يخفى، وبما أن أمر التعمير وتضمين الضرر الذي لحق بمسيحيّي دمشق هو من مقتضيات معدلة الشرع والقانون، تكون الدراهم التي تعطى لذلك إيفاء وظيفة وخدمة عائدة إلى المعدلة، وتكون المساعي التي تصرف وجوباً لاصلاح أحوال المصابين واسطة لتطهير ذلك القطر من وصمة الدم المظلوم الذي التطخ به، ووسيلة لزوال عارض الكساد الذي اعترى صنائعه وتجارته، وبما أن باب الدعاوى والمحاكمات من جهة الوقوعات السابقة قد أضحى من الآن فصاعداً مغلقاً كما تبين في إعلان آخر، فمهما بذل طمعاً في استحصال كذا نتيجة لا يكون شيئاً كثيراً، إذا كان ما طرح على كل إنسان مطابقاً لقاعدتي العدل والحقانية، لا ينبغي

لأحد أن يستصعب أداء ما يلحقه من ذلك، بل يليق بكل إنسان أن يسمح بخسارة شيء من راحته بواسطة الحصة التي يؤديها حباً بدفع هكذا بلية، فإنه لا يخل برفعة واعتبار من كانت عادته ركوب جواد مسوّم مثلاً إذا ركب برذونا، ولا باعتبار من اعتاد تناول الأطعمة المتفننة أن يقتات بالطعام البسيط، والإنسان العاقل يجب عليه أن ينظر إلى المصيبة التي أصيب بها جاره، ولا يلتفت منعكفاً على خسارته المالية، وليعلم أن تأدية ما توزع من هذه التضمينات في المدة المعينة هو فرض لا بد منه، وعلى موجبه يكون إجراء العمل، ومن أظهر أدنى رخاوة أو تهاون في ذلك لا يمضي أدنى وقت عن إجراء تربيته وتأديبه، ولكي يكون ذلك معلوماً لدى الجميع قد نشر هذا الإعلان، لإصلاح أحوال سوريا فاعلموه واعتمدوه كل الاعتماد. انتهى.

ثم إن فؤاد باشا في تاسع جمادى الأولى عين في كل ثمن من أثمان دمشق مجلساً مؤلفاً من أعضاء ورئيس، لكي يطلبوا أنفاراً ودواب لتعزيل حارة النصارى من التراب، لتيسير عمارتها وإعادتها، ونظير ذلك في القرى المجاورة لدمشق من مسافة عشرة أميال إلى سور البلد من النواحي الأربع، وأرسلوا كذلك مأموراً بأن يقطع الأخشاب اللائقة للعمارة، ويحضرها إلى محلة النصارى.

ثم إنه بعد ذلك استقامت الأحوال، وأخذ الكرب الشديد يميل نحو الإضمحلال، وابتدأت المحبة تعود بين عموم أهل الوطن، وزالت عن الجميع تواترات المحن، وتألفت القلوب، وتنحت الكروب، وكاد أن يعود الوداد إلى أصله، وأضربت الظواهر صفحاً عما كان ذلك الكرب والغم من أجله، إلى أن أعاد الله المحبة القديمة، والراحة العميقة، وحقت كلمة العذاب على أهل الشقاء، ودارت عليهم والعياذ بالله دوائر البلاء. فالحمد لله على راحة العباد، وعود المحبة بين العموم والوداد، وقد تم الكلام على هذه الحادثة بالاختصار الغير المخل، ولو أردت ذكرها

بتفاصيلها وتفاريعها لأدى ذلك إلى الإسهاب الممل[1]. والله أعلم[2].

تركي بن عبد الله بن سعود
أمير نجد وناصر عقيدتها

كان رجلاً شهماً شجاعاً مقداماً صداماً، مشهوراً بمواقع الحروب، كان له صولة وصيت وسمعة، وأيام مشهورة في العرب، ولما قويت شوكة نجد وتقدمت صولتها وجهت الدولة العلية إبراهيم باشا بن محمد علي باشا المصري لقتالهم وكسر شوكتهم، فقاتلهم قتالاً تشيب له الأطفال، وتغيب له عقول النساء والرجال، فأسر إبراهيم باشا عبد الله بن سعود وجميع أولاده، ونقلهم وعائلاتهم إلى مصر، وذلك سنة ألف ومائتين وثلاث وثلاثين، غير أن المترجم قد انفلت من يد إبراهيم باشا وغاب عنه ولم يقع له بعد التفتيش على خبر، فتركه وتوجه بابن سعود وأولاده وعائلته إلى مصر، ولم يزل المترجم متنكراً يتنقل من قبيلة إلى قبيلة ومن قرية إلى قرية بحالة لا يعرفه بها إلا قليل من الناس، وعساكر المصريين تتطلبه من كل جانب، وتدور عليه لتوقعه في أشد المعاطب، إلى سنة ألف ومائتين وتسع وثلاثين، وكان قد فتر أمر التفتيش عليه، فاغتنم الفرصة وشد أزره وظهر للناس وعرفهم بنفسه وحرضهم على مساعدته، وتظاهر وتطلب إمارة آبائه وأجداده، وما برح يتقوى شيئاً فشيئاً والناس تساعده على مرامه، إلى أن صار عنده جم غفير، وعدد من الشجعان كثير، فملك نجداً وما حولها وجلس على مهاد الإمارة النجدية، ولم يبق له معارض ولا منازع، وطرد عساكر المصريين، واستقر على عرش الراحة والتمكين، إن أمر فما لأمره من عاص، وإن نهى فما لمخالفه من خلاص، وبقي على مهاد هذه الإمارة عشر سنوات. وفي أثناء هذه المدة تخلص بعمل الحيلة ابنه فيصل، وفر

(١) قال المحقق: تجد تفصيلاً واسعاً لهذه الحوادث المؤسفة، مع ذكر بواعثها ونتائجها، في (ج ٣/ ٧٥ - ١٠٠) من خطط الشام للأستاذ كرد علي رحمه الله.

(٢) «حلية البشر»: ١/ ٢٦٠ - ٢٨٠.

من مصر هارباً، ولم يزل يقطع البراري والقِفار، ويقاسي الشدائد الكبار، إلى أن وصل إلى أبيه المترجَم، وأحسن الله له بالخلاص من الأسر وأنعم، ثم إن ابن أخت المترجم مشاري ثار على خاله المترجم، وأراد نزع الإمارة من يده، فعمل الوسائل، وقام قيام الأسد الصائل. وفي أثناء هذه المدة توجه ابن المترجم فيصل غازياً البحرين، فوجد مشاري أنـه قد خـلا له الجو، ولم يبق للمترجم من مانع يمنعه، فاغتنم الفرصة وقتله واستولى على الإمارة مكانه، وذلك سنة ألف ومائتين وتسع وأربعين، ولما بلغ فيصل بأن مشارياً قتل أباه حضر إليه من غير مهلة وقتله، وكانت إمارة قاتل المترجم أربعين يوماً وتأمر فيصل مكانه[1].

الشيخ حسن الكفراويّ الشافعيّ الأزهريّ

يتيمة الدهر، وعلامة القطر.

قال الإمام الجبرتيّ: ولد ببلده كفر الشيخ حجازي بالقرب من المحلة الكبرى، فقرأ القرآن وحفظ المتون بالمحلّة، ثم حضر إلى مصر، وحضر شيوخ الوقت، ومهر في الفقه والمعقول، وتصدر ودرس وأفتى واشتهر ذكره، وتداخل في القضايا والدعاوى وفصل الخصومات بين المتنازعين، وأقبل عليه الناس بالهدايا والجعالات، ونما أمره، وتجمل بالملابس وركوب البغال، وأحدق به الأتباع، ووفدت عليه الناس، وأطعم الطعام واستعمل مكارم الأخلاق، ثم تزوج ببنت المعلم درع الجزار بالحسينية وسكن إليها، فاجتمع عليه أهل تلك الناحية وأولوا النجدة والزعارة والشطارة، وصار له بهم نجدة ومنعة على من يخالفه أو يعانده، ولو من الحكام، وتردد إلى الأمير محمد بك أبي الذهب قبل استقلاله بالإمارة، وأحبه وحضر مجالس دروسه في شهر رمضان بالمشهد الحسيني. فلما استبد بالأمر لم يزل يراعي له حق الصحبة ويقبل شفاعته في

---

(١) «حلية البشر»: ١/٤٢٤ - ٤٢٥.

المهمات، ويدخل عليه من غير استئذان في أي وقت أراد، فزادت شهرته، ونفذت أحكامه وقضاياه، ولما بنى محمد بك جامعه كان هو المتعين فيه بوظيفة رئاسة التدريس والإفتاء ومشيخة الشافعية، وثالث ثلاثة المفتين الذين قررهم الأمير المذكور وقصر عليهم الإفتاء، وهم الشيخ أحمد الدردير المالكيّ والشيخ عبد الرحمن العريشيّ الحفنيّ والمترجم، وفرض لهم أمكنة يجلسون فيها، حصة من النهار في ضحوة كل يوم للإفتاء، بعد إلقائهم دروس الفقه، ورتب لهم ما يكفيهم، وشرط عليهم عدم قبول الرشا والجعالات، فاستمروا على ذلك أيام حياة الأمير.

واجتمع المترجَم بالشيخ صادومة المشعوذ، ونوه بشأنه عند الأمراء والناس وأبرزه لهم في قالب الولاية، ويجعل شعوذته من قبيل الخوارق والكرامات، إلى أن اتضح أمره ليوسف بك فتحامل عليه وعلى قرينه الشيخ المترجَم من أجله، ولم يتمكن من إيذائهما في حياة سيده، فلما مات سيده قبض على الشيخ صادومة وألقاه في بحر النيل، وعزل المترجَم من وظيفة الإفتاء، وقلد ذلك الشيخ أحمد بن يونس الخليفيّ، وانكسف باله وخمد مشعال ظهوره بين أقرانه إلا قليلاً، حتى هلك يوسف بك قبل تمام الحلول، ونسيت القضية، وبطل أمر الوظيفة والتكية، وتراجع حاله لا كالأول.

وافاه الحِمام[1] بعد أن تمرض شهوراً وتعلل، وذلك من السنة الثانية بعد المائتين والألف، وصلي عليه بالأزهر بمشهد حافل، ودفن بتربة المجاورين.

ومن مؤلفاته إعراب الآجرومية وهو مؤلف نافع مشهور بين الطلبة.

(١) وكان قوي البأس شديد المراس، عظيم الهمة والشكيمة، ثابت الجنان عند العظائم، يغلب على طبعه حب الرياسة، والحكم والسياسة،

---

(١) الموت.

ويحب الحركة بالليل والنهار، ويمل السكون والقرار، وذلك مما يورث الخلل، ويوقع في الزلل، فإن العلم إذا لم يقرن بالعمل، ويصاحبه الخوف والوجل، ويجمّل بالتقوى ويُزَيّنُ بالعفاف، ويُحلّى باتباع الحق والإنصاف، أوقع صاحبه في الخذلان، وصيره مثلة بين الأقران، كما قال البدر الحجازي رحمه الله تعالى:

إذا بعبدٍ أراد الله نائبة ... أعطاه ما شاء من علم بلا عمل

فَعُدّه لاصطياد المال مصيدة ... يعدو به عَدْوَ معدودٍ من الهمل

مثل الحمار الذي الأسفار يحملها ... وما استفاد سوى الإجهاد والملل

يقول بالأمس عند القاضي كنت كذا ... عند الأمير وقد أبدى البشاشة لي

وقام لي وبقَدْري قام أطعمني ... حلوى وألبسني الحالي من الحلل

ومَن مكاني والحكام طوع يدي ... وأين مثلي وما في الكون من مثلي

أجيد فقهاً وتفسيراً ومنطق مع ... علم الحديث وعلم النحو والجدل

وغيرها من علوم ليس من أحد ... يحاول البعض منها غير منخذل

فصال إذا صار بالأشرار متصلاً ... على الأنام صيال الصارم الصقل

له يشار إذا ما سار وهو على ... ركوب بغل سمين في الدواب علي

يقال: هذا فلان والصحاب به ... قد أحدقت ملأت كفيه بالقبل

يصيح إذ رام يقريهم بهمته ... صياح شخص عن المعقول في عِقَلِ

يقول: ذا مذهبي أو ما فهمت وذا ... بالرد عندي أولى ليس ذا بِجَلى

كأنه في الورى قد صار مجتهداً ... كالشافعي وأبي ثور أو الذهلي

فتاه في تيه وادي العجب ليس له ... إلى هداه سبيل ما من السبل

وصار منجدلاً في المقت ميت هوى ... أثوابه كفناً عدت بلا جدل

يالداهية دهياء قد نزلت ... به وزل بها في هوة الزلل

أذ أعقبته عقاباً لا عقيب له ... وعلة ما علاها قط من علل

فحين حلت به حلت حلاه وما ... لمن يحاول عنه الحمل من حيل

إليك يا ملجأ الجاني لجا حسن ... هو للحجازي الذي قد جال في الوجل

من الدعاء الذي لا نفع فيه ومن ... فحش المقال وسوء الحال والمحل

وصل رب وسلم ما استنار ضحى   على نبيك طه أفضل الرسل
والآل والصحب والأتباع مَن كملوا   ما أوجد الله من عال ومستفل

اللهم الطف بنا، ووفقنا وارحمنا، وأحسن عاقبتنا، وقنا واكفنا شر أنفسنا يا أرحم الراحمين، اللهم آمين[1].

الشيخ حسن بن سالم الهواري
المالكيّ الأزهريّ المصريّ

هو من رجال الإمام العلامة الجبرتي فقال في ترجمته: قرأ على الشيخ الصعيديّ ولازمه في دروسه العامة، وبعد وفاة شيخه ولي مشيخة رواق الصعايدة[2]، وساس فيهم أحسن سياسة بشهامة زائدة، مع ملازمته للدروس، وتكلمه في طائفته مع الرئيس والمرؤوس، وكان فيه صلابة زائدة، وقوة جنان وشدة جرأة، واشترى خرابة بسوق القشاشين بالقرب من الأزهر، وعمرها داراً لسكنه، وتعدى حدوده وحاد على أماكن جيرانه، وهدم مكتب المدرسة السنانيّة، وكان مكتباً عظيماً ذا واجهتين وعامودين وأربع بوايك، وزاوية جداره من الحجر النحيت عجيبة الصنعة في البروز والإتقان، فهدمه وأدخله في بنائه من غير تحاش أو خشية لوم مخلوق أو خوف خالق، وأوقف أعوانه من الصعايدة المنتسبين للمجاورة وطلبِ العلم يُسَخِّرون من يمر بهم من حمير الترابين وجِمال الأعيان المارين عليهم، فيستعملونها في نقل تراب الشيخ لأجل التبرك، إما قهراً أو محاباة، ويأخذ من مياسير الناس والسُّوقة دراهم على سبيل القرض الذي لا يرد، وكذلك المؤن، حتى تممها على هذه الصورة وسكن فيها، وأحدق به الجلاوزة[3] من الطلبة يغدون ويروحون في الخصومات والدعاوى، ويأخذون الرشوات

---

(١) «حلية البشر»: ١/٤٨١ - ٤٨٤.
(٢) في الأزهر.
(٣) قال المحقق: جمع جلواز، وهو الذي يخف في الذهاب والمجيء بين يدي الأمير والشرطي لجَلوَزته في ذهابه ومجيئه.

من المحق والمبطل، ومن خالف عليهم ضربوه وأهانوه ولو عظيماً من غير مبالاة ولا حياء، ومن اشتد عليهم اجتمعوا عليه من كل فج حتى البوّابين في الوكائل، وسكان الطباق وباعة النشوق، وينسب الكل إلى الأزهر، ومن عذلهم ولامهم كفروه ونسبوه إلى الظلم والتعدي والاستهزاء بأهل العلم والشريعة، وزاد الحال وصار كل من رؤساء الجماعة شيخاً على انفراده يجلس في ناحية ببعض الحوانيت يقضي ويأمر وينهى، وفحش الأمر إلى أن نادى عليهم حاكم الشرطة فانكفوا ومرض شيخهم بالتشنج شهوراً، وتوفي في السنة العاشرة بعد المائتين والألف، رحمه الله تعالى[١].

داود باشا والي بغداد

الإمام الألمعي، والهمام اللوذعيّ، حبر العلماء، وبحر اغتراف الفضلاء.

ولد سنة ألف ومائة وثمان وثمانين، وهو من الكَرْج، ثم لما صار عمره إحدى عشرة سنة جلبه بعض النخاسين[٢] إلى بغداد، فاشتراه مصطفى بيك الربيعي ثم اشتراه منه سليمان باشا والي بغداد، فرباه وأحسن تربيته، وعلمه القرآن والكتابة وأنواع العلوم، إلى أن شهد له الخاص والعام بأنه فاق في زمانه على العلماء الأعلام، وعُدّ من كُمَّل الرجال أهل الكمالات الموصوفين بالدقة وعلو الفهم والمباحثة والمناظرة، وقد أخذ عن المترجم جماعة سادة، وجملة قادة.

وكان المترجم المذكور حسن الأخلاق جميل المحاضرة، كثير العطايا دائباً على البحث والمذاكرة في العلوم الشرعية والعقلية، ولما صار عمره سبعاً وعشرين سنة تولى الخازندارية[٣] لسليمان باشا والي بغداد.

(١) ولم يزل يترقى على درج الصعود، وتلحظه عين العناية بأنواع الحظ

---

(١) «حلية البشر»: ١/٤٩٢ - ٤٩٤.

(٢) النخّاس: متولّي بيع الرقيق والتجارة فيه.

(٣) الخزانة.

والسعود، إلى أن آلت ولاية بغداد إلى سعيد باشا بن سليمان باشا، وذلك سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف. وكان الأمير في ذلك الوقت على عرب المنتفق حمود بن ثامر بن سعدون بن محمد بن مانع الشبيبيّ، وكان من فرسان العرب وأذكيائهم ودهاتهم، وكان مكّاراً، وله وقائع وأيام مشهودة أقر له فيها أخصامه وأضداده، وأموره غريبة يطول الكلام عليها، فلما تولى سعيد باشا صار أمره بيده حمود، حتى ما كأنه إلّا طفل صغير تحت تصرف وصيه أو وليه، ولهذا أعطاه سعيد باشا ما في جنوب البصرة من القرى جميعها، وهو يقارب ثلث إيراد العراق فطار صيت بني المنتفق في البلاد، وأطاعهم الحاضر والباد، ونفذت أقوالهم، واتسعت أموالهم، وقصدهم الشعراء من جميع النواحي والأقطار، وأجازوهم بما يفوق جوائز ملوك الأمصار، إلى أن قصر مدح الناس عليهم، وصار لا يسمع بين الناس ثناء إلا وهو مصروف إليهم، ولم يزل حمود عند سعيد باشا في بغداد يرفع مكانه، ويشيد بنيانه، إلى أن تثبت في القلوب قدره، واعتدل بين الأهالي أمره، فعلا حمود إلى مقره، ولكن لا زال زمام سعيد باشا بيده من سره وجهره، فلا يفعل سعيد باشا شيئاً إلا بعد استئذانه، فازداد بنو المنتفق من الطغيان، وامتدت يدهم على الناس بالظلم والعدوان، فنقم الناس على الباشا المرقوم، وضاقت صدورهم من فعله المذموم، وفي سنة تسع وعشرين ومائتين وألف، جعل الباشا المرقوم حضرة المترجَم رئيس عساكره، فنهض نهوض الأسد، وتهدد الأعراب والطغاة بما يوقعهم في النكد، ومن أقبحهم خزاعة وزبيد وشمَّر وآل الضفير، فإنهم منعوا الخراج ونهبوا القرى وقطعوا السبيل حتى إن بعضهم حاصر كربلاء مدفن سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنه، وكان إذ ذاك في كربلاء نحو الأربعين ألفاً من زوار العجم، ومعهم حرم شاه العجم، فلما بلغ الوالي إفسادُ العربان حول كربلاء، خاف أن يصيب الزوار ضرر فيرجع عليهم شاه العجم بالويل والثبور، وعظيم الأمور، وتلومهم الدولة على الإهمال، وعدم الإعتناء فيما يلزم من الأعمال، فتوجه أمير العساكر المترجَم المرقوم بعساكر وافرة، ونزل الحلة ووقع بينه وبين العصاة

حروب قاهرة لهم وكاسرة، فركنوا إلى الفرار، وتشتتوا في القفار، فأرسل بعض عساكره إلى كربلاء، لتأمين الزوار وحفظهم من بلاء أولئك الملأ، ولم يـزل محافـظاً لهم إلى أن وصلوا إلى مأمنهم، ثمَّ تـوجه داود بـاشا بعساكره إلى خزاعة، فقابلوه جميعاً بالخضوع والطاعة، وفي أثناء الطريق عزل شيخ زُبَيد المختال، ووضع مكانه شَفَلَّح بن شلال، ثم أرسل وراء كثير من العربان، وعاقبهم على ما كان منهم من العدوان، وشن الغارة على أهاليهم، وغنم مواشيهم، وسار إلى أن نزل بأرض الديوانية مقـر العشيرة الروافض الخزاعية، فصار للمترجم شهرة في الآفاق، وعلا ذكره في الإقدام وفاق، ورأى الناس من عدالته وشهامته وشجاعته ومروءته ما لم يروه من ذوي الأحكام المتقدمين على مدته، مع النصح للأمة وعدم الطمع فيما في أيدي الناس والعفة والصيانة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث على التقوى والديانة، ولم يقبل من أحد رشوة ولا هديـة ولا يسمح في عساكره وقوع شيء من ذلك بالكلية، بل كل واحد ممن يلوذ به عـارف حده، وواقف عنده، ومع كثرة حروب المترجَم المرقوم، لا يُرىٰ في وقت غيـر مشتغل بـالمعارف والعلوم، مـع تلامـذتـه المـلازمين لـه في السفـر والحضر، والمتحلين من بحور لآلئه بعقود الدرر، وطلب بقية الأعراب منه الأمان، بعد أن أذاقهم من حروبه كؤوس الذل والهوان ولم يزل المترجم ساعياً لسعيد باشا بالتأييد والنجاح، والنصح والصلاح، مع الصدق والأمانة، والعفة والصيانة.

(١) وكان يُعرِّف الوالي دائماً بدسائس ذوي الفساد، وينبهه على مرادهم من البغي والعناد، فداخلهم الحسد، وأرادوا إتلافه على كل حال، وكان المترجَم يتحمل ذلك لما لوالد الوالي عليه من الحقوق المشهورة، ويقول: **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره﴾**[1]. ولما اشتد غيظ الأعداء والحساد، قالوا للوالي: إن مراد داود قتلك والاستيلاء

(١) سورة الصف: الآية ٨.

على بغداد، وأنت تعلم أن جميع العساكر في قبضته، والأهالي كلهم متفقون على محبته، وأتوا بمن شهد على ذلك عند الوزير، وقالوا: إن داود باشا وعدنا على قتلك بمال كثير، ونحن لحبنا لك وخوفنا عليك، كشفنا لك عن هذا الأمر وأبديناه إليك. وعظموا الأمر لديه، وأكثروا من إقامة البراهين بين يديه، فدخل على الوالي رعب عظيم، وخوف جسيم، ثم إنه اتفق مع هؤلاء المنافقين بأنهم يرسلون خبراً من طرف الوالي للمترجم بالحضور لمذاكرة في قضية، فإذا حضر أذاقوه في الحال كؤوس المنية، فبلغ المترجَمَ جميعُ ما اتفقوا عليه، وجنح فكرهم إليه، فلم ير المترجَم أحسن من الفرار والتحصن في بعض الحصون، خوفاً من هذه المضار، فخرج من بغداد وقد تزايد كربه، قائلاً: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾**[1] وكان معه من جماعته نحو المائتين، ولم يزل إلى أن وصل إلى كركوك وهناك راسل الدولة العلية، وأخبرها بما كان من سعيد باشا من الأفعال الدنية، وتضييع حقوق الدولة، ومعاملة الأعداء بما يوجب لهم كل قدر وصولة، وكشف لها عن سوء سياسته، وعن عكس معرفته وفراسته، وعن تقليده أزمة الممالك المهمة لأعراب البادية، أهل النهب والسلب والظلم واليد العادية. وكان للمترجَم عبارات عالية، وأساليب في الكتابة سامية، وكان له اليد الطولى في التركية والفارسية والعربية، وله النظم والنثر والكتابة في هذه اللغات كلها على أتم حالة سنية، وكانت تشهد له الأفاضل بأنه إمام همام كامل، فلما وصلت رسالته إلى الدولة العلية، تحيروا من فصاحتها وبلاغتها وما اشتملت عليه من الأمور السياسية، فعلموا أن الذي يكتب مثل هذه التحريرات، ويسطر مثل هذه التسطيرات، هو الأحق والأحرى بالإسعاف والإسعاد، بالتولية على ولاية بغداد، فما كان من الدولة العلية إلا أنها بادرت بإرسال الفَرَمان، العالي الشان، الواجب الإطاعة على كل إنسان،

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٣.

إلى داود باشا ذي القدر المصان، ومضمونه عزل سعيد باشا عن تولية بغداد، وتولية داود باشا بدله على تلك البلاد. فلما وصل الفَرَمان إليه قرأه علناً على رؤوس ذوي الطاعة والشقاق، ثم أرسل صورته إلى حمود بن ثامر لأنه هو المقيم المقعد في أرض العراق، وذلك لأجل أن يعلم أن سعيد باشا قد فاته المرام، وترتفع عنه برؤية صورة الفرمان الشكوك والأوهام، خصوصاً وهو أكبر أعداء المترجَم وأكبر أسباب الفساد والمكر الذي تقدم. فلما وصلت صورة الفرمان إلى حمود بن ثامر، طرحها في الأرض وأهملها إهمال المستهزىء الساخر. فتعجب قومه من إهماله ونبذ الطاعة، ونصحوه بأن أمر السلطان لا يُلقى في أودية الإضاعة، ومخالفة أوامر الدولة أمرها وخيم، وخطرها عظيم، وأن الأمر منوط بك فسعيد باشا لا ينظر إلا إليك، ولا يعول في قبوله وعدمه إلا عليك، والأولى أن تنصحه بالقبول والطاعة وعدم القتال، لأن خصمه رجل مطاع، وقد حوى من العقل وحسن السياسة ووفور الخديعة والدهاء نصيباً عظيماً، ومن الشجاعة والقوة وثبات الجنان حظاً جسيماً، فما بالك لو جر معه عسكراً من الأكراد، وقدم بهم وبغيرهم إلى بغداد، فهل يعارضه من أحد، مع أن الأهالي جميعاً يحبونه محبة الوالد للولد، فلما أكثر على حمود أعمامه وإخوانه وأولاده النصائح، رجع إلى رأيهم، وأرسل إلى سعيد باشا ونصحه بالطاعة وترك القتال، والانقياد لأوامر الدولة العلية والامتثال، فأبى سعيد باشا قبول هذا الكلام، وصغى إلى قول من أشار عليه بالعناد والخصام، فلما رأى حمود مخالفة سعيد باشا له عرف أنه لا طاقة له على مبارزة داود وأن من حَسَّن له أمر المخالفة فقد حسن له المذموم لا المحمود، ففر من منزله ورجع إلى وطنه ومقره، وترك سعيد باشا يتقلب على فرش ضره.

وتوجه داود باشا من الكركوك إلى بغداد، ومعه نحو الألفين من الأكراد، فخافته العباد، وهابته البلاد، فلما قرب من الزوراء، وقع بين الأهالي ثورة عظيمة وغوغاء، ومرادهم إخراج سعيد باشا بالتي هي أحسن، فدخل سعيد باشا القلعة وبها تحصن، فأرسل أهالي بغداد لداود باشا

بالدخول، وأنه هو حاكمهم وراعيهم والمحاسب عنهم والمسؤول. فدخل بغداد بعد الظهر خامس ربيع الثاني سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف، ووفد عليه العلماء والفضلاء وهنأه الأدباء والشعراء، لأنه هو الذي كان يعرف مقامهم، وينشر بين الناس أعلامهم، ويكرمهم غاية الإكرام، ويعاملهم بالإحسان والإنعام، فلما استقر في مركز الحكومة، خمدت الشرور والفتن، ورجع إلى الصواب من كان افتتن، وأمنت الطرقات وذهبت المخوفات، وارتاح أهل الكمال، وتعب ذوو الغرور والوبال، لعلمهم أنه ظهر الذي يعاقب المجرمين، ويحسن إلى المحسنين، فرفع أهل الفضائل والعلوم، ونفذ أوامر الدولة حسب الأمر المرسوم. وبعد استيلاء المترجم المرقوم على بغداد، قُتِلَ سعيد باشا الوزير السالف، وكان قتله على مراد الوزير داود باشا المترجَم وبإشارته.

(١) وغِبَّ[1] سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف تمت سلطنته، وتناهت قوته، وأطاعه جميع أهالي العراق من حاضره وباديه وكرده وعجمه، وقد تاقت نفسه لأن يكون سلطاناً مستقلاً، وقد جلب الصنائع والصناع إلى بغداد من أهل أوروبا، بل ومن سائر الأقطار، وأخذ في أسباب التمدن والعمران، وأمر بصنعة المدافع والبنادق على الطرز الجديد، وشكل جيوشاً عسكرية منظمة بتعليمات مخصوصة اخترعها لهم، إلى أن بلغت جيوشه أكثر من مائة ألف، وبهذه الجيوش والاستعداد طمع في أنه يستولي على جميع آسية الصغرى والكبرى، وكان دائماً مطمع أنظاره الاستيلاء على بلاد العجم، وقد داخلهم الرعب والخوف منه ومن جيوشه ومن تعليماته الغريبة الأشكال والأوضاع، ولكنه لم تساعده المقادير كما ساعدت محمد علي باشا على ولاية مصر، فإن داود باشا بينما هو في هذه الأبهة والسلطنة والاستقلال، والخروج عن طاعة الدولة العليّة، إذ أرسل عليه السلطان محمود خان العثماني جيشاً نحو العشرين ألفاً، ورئيسهم علي باشا اللاظ،

---

(١) أي: بَعْد.

فلما قرب من بغداد ضحك داود باشا واستهزأ بهذا الجيش الضعيف الذي يريد أن يستولي على بغداد، فأخذه الغرور، فقال: لـو نرسـل على هذا الجيش نساء بغداد لما يطيق مقاومتهن، إلا أن الوزير داود باشا لم يعلم ما هو مخبوء له في زوايا القدر، مما هو عبرة لمن اعتبر. فبينما هو مشتغل في جيوشه لمحاربة علي باشا اللاظ وأمله أَسْر جميع الجيش ثم الاستيلاء على ما وراءه، إذ دهمه الوباء الطاعوني داخل بغداد الذي أفنى أكثر أهلهـا، حتى قيل إنه كان يموت في كل يوم أكثر من عشرة آلاف نفس من داخل بغداد. وأما جيش علي باشا اللاظ فإنه بتقدير الله تعالى لم يصبه شيء من ذلك الطاعون، وذلك تقدير العزيز العليم، وانقلب الفرح حزناً، واشتغل الصراخ في كل بيت من بيوت أهل بغداد إلا ما ندر. وقيل إنّ الذي مات بهذا الطاعون من أولاد داود باشا لصلبه أكثر من عشرة أولاد الذين يركبون الخيل، فانكسـرت شوكتـه، وانحلت قوتـه، وداخله الهم، ولازمه الغم، وانحل عضده وانفلّ جيشه، البعض بالموت والبعض بالهرب والفرار، إلى البوادي والقِفار، وذلك سنة ألف ومائتين وسبع وأربعين، فلما طلب علي باشا اللاظ، المحاربة معه لم يسعه إلا المصالحة، على أنه يسلم إلى علي باشا بغداد بما فيها، وداود باشا يرتحل إلى الأسِتانة ويستقيم بها، فسافر داود باشا إلى الأستانة واستقام بها إلى سنـة ستين ومائتين وألف، وكـان معظماً عند السلطان محمود، ثم عند ابنه السلطان عبد المجيد ورجال دوته لكبر سنه ولطول زمانه في الوزارة مع كمال عقله، ووفور رأيه، حتى إن كسـوته الـرسمية يـوم العيد مكتـوب على صدرهـا شيخ الـوزراء بالـطراز الملوكاني المذهب، لأن هذا كان لقبه خاصة.

ثمّ إن السلطان عبد المجيد أرسله سنة ستين ومائتين وألف شيخاً على الحرم النبويّ، فاشتغل هناك في العبادة، وتفرغ لها فـوق العادة، وكـان مرجع الخاص والعام، فيما يشكل على العلماء الأعلام، وقرأ بها للطلبة كثيراً من الكتب والفنون النادرة، وانتفع بـه العموم فيمـا يتعلق بدنيـاهم والآخرة.

وفي سنة سبع وستين ومائتين وألف ذهبت مع والـدي إلى الحجاز الشريف، فاجتمعت مع والدي به في المدينة الشريفة، وكان رجلاً كبيراً مهاباً عليه سيما الفضل والصلاح، وله خضوع وذل وسكينة وتواضع. وكان يمضي بينه وبين والدي الوقت الطويل في المذاكرة.

وكان قد أخبر أن مراده أن يفتح مدرسة بأمر الدولة في المدينة للإفادة والاستفادة في سائر العلوم والفنون، ولكن اخترمته المنية قبل تمكنـه من ذلك في تلك السنة، وهي سنة سبع وستين ومائتين وألف، ودفن في البقيع الشريف تجاه قبة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأمر أن لا يبنى عليه تابوت ولا قبة اتباعاً للسنة، فجعلوا له شباكاً من الحديد حول قبره.

ومن آثاره بالمدينة البستان المعروف بالداودية خارج المدينة، عنـد منهل العين الزرقاء[1].

السلطان سليم

السلطان سليم خان الثالث بن السلطان مصطفىٰ بن السلطـان أحمد الثالث.

ولد سنة ألف ومائة وخمس وسبعين، وجلس على تخت الملك عام ألف ومائتين وثلاثة في ثاني عشر رجب، ففي الحال أخذ بتدبير الأحوال لينجو بصلاح الدولة من وبال النكال، فبعث بالجيوش لقتال روسيا والنمسا، وأخيراً تداخلت بروسيا[2] وإنكلترا، فعقد الصلح مع النمسا ثم مع روسيا، فسر أهل العاصمة بالصلح، على أن أخبار سوريا ومصر لم تكن مرضية للدولة.

---

(١) «حلية البشر»: ١/٥٩٧ - ٦٠٧.

(٢) ألمانيا.

(١) وكان السلطان المشار إليه قد رأى مضرة الإنكشارية[١] وتجاوزهم الحدود فرغب أن يلاشي وجاقهم[٢] ويقيم مكانهم عسكراً جديداً على الطريقة الإفرنجية؛ لأن الإنكشارية كانوا قد زعزعوا أركان السلطنة بعصيانهم وعدم انقيادهم، وكان قد نظم في العام الماضي بعض الفرق من النظام الجديد، فهاج الإنكشارية من ذلك، وأثاروا في القسطنطينية شغباً عظيماً يطول الكلام بذكره، واعتصبوا عصبة واحدة.

(٢) وكان موافقاً لهم على منع النظام الجديد عطا الله أفندي شيخ الإسلام وقائمقام الصدر الأعظم، فقَوِيَ أمرهم به وقال لهم: إنه لا يجوز أن تكون عساكر الإسلام مشبهة بالكفار، وحيث أحدثوا النظام الجديد كانوا متشبهين بالكفار، فقويت هذه الحجة في صدورهم وقالوا: سيروا بنا لنلاشي النظام الجديد وننتقم من الوزراء الذين أفسدوا طهارة الإيمان بأفعالهم الشنيعة، وتحالفوا على ملاشاة وجاقات العساكر الإنكشارية، الذين هم عمدة مملكة الدولة العلية، وبعد هذا الحديث أخرجوا ورقة فيها أسماء بعض أشخاص من رجال الدولة يريدون قتلهم، أرسلها إليهم المفتي عطا الله أفندي، فأخذوا يتلونها ويسمون الأشخاص الذين يرون قتلهم، ثم ساروا يفتشون عليهم فوجدوا بعضاً منهم فقتلوهم، واختفى كثير منهم في بيوت النصارى واليهود، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأحضروا سبعة عشر رأساً من أعظم رجال الدولة، ودام الدم جارياً في القسطنطينية ثلاثة أيام، ثم صمموا على طلب السلطان سليم والقبض عليه ليخلعوه، وصاروا يقولون: يا أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم أنسيت أنك أمير المؤمنين، وعوضاً عن اتكالك

---

(١) قال المحقق: الإنكشارية: Janissaires أي الجنود الجُدُد: هو الجيش المنظم الذي أحدثه العثمانيون في القرن (١٤م) ثم فقدت الإنكشارية الروح العسكرية، وقويت شوكتهم على الدولة، فأبادهم السلطان محمود الثاني (١٢٤١هـ = ١٨٢٦م) انظر (ص ٢١٩) وما بعدها من تاريخ الدولة العلية العثمانية.

(٢) قال المحقق: الوُجاق: النسق من الجند وغيرهم، والنسق: ما كان على طريقة نظام واحد من كل شيء.

على الله القادر العظيم الذي يبدد بدقيقة واحدة الجيوش الكثيرة العدد أردت أن تشبه الإسلام بالكفار وأغضبت الله فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين، ومحامياً عن الدين، فالعساكر المحافظة على كرسيك لم يبق لهم ثقة بك، والمملكة أضحت مضطربة فيجب عليك أن تلاحظ وتفضل على كل شيء الإيمان وسلامة الإسلام.

وبعد كلام كثير صارت قراءة الفتوى التي مضمونها أن السلطان الذي يخالف القرآن الشريف هل يُترك على تخت السلطنة؟ الجواب: كلا، ثم قال القارىء: قد صار معلوماً عندكم أنه تحتم عزل السلطان فما قولكم الآن؟ هل تسلمون له يفعل ما يخل بالإسلام، فصرخت العساكر: كلا ثم كلا لا نقبله سلطاناً علينا فليعزل، وصرخوا باسم السلطان مصطفى بن السلطان عبد الحميد وقالوا: ليعش السلطان مصطفى، وأرسلوا المفتي إلى السلطان سليم ليتنازل عن السلطنة من دون مقاومة، فدخل عليه متذللاً منخفض الرأس قائلاً: يا مولانا إني قد حضرت بين يديك برسالة محزنة أرجوك قبولها لتسكين الهيجان، وليس خافياً على مسامعكم الشريفة بأن العساكر الإنكشارية قد نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك سلطاناً عليهم، فالآن لا سبيل إلى المقاومة فالتسليم لأمر الله أوفق من كل شيء، فلم تظهر على السلطان سليم كآبة من هذا الحديث، وقبل كلام المفتي ونزل عن السلطنة، وكان ذلك في إحدى وعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف، فمدة سلطنة المترجم ثمانية عشر عاماً وثمانية أشهر.

وبينما كان ذاهباً يختلي في مكان منفرد عن السرايا التقى بالسلطان مصطفى قادماً ليجلس مكانه على تخت السلطنة، فقال له: يا أخي أهبطني الله من العرش العتيد لأن تجلس عليه أنت، لأنني أردت وضع تنظيمات لتقوية المملكة والدين، وإصلاح حال العساكر الذين جهلوا تعليمهم وتركوا قوانينهم، فهاجت عليّ العساكر مع بعض رجال الدولة وأرسلوا يطلبون مني التنازل عن تخت السلطنة، ونادوا باسمك، وها أنا

ماض بكل رضا أعيش منفرداً، وأما أنت فإنك سعيد أكثر مني، فأرغب إليك أن تسلك معهم بالحكمة اللازمة الحسنى؛ فلم يصغ السلطان مصطفى لكلام السلطان سليم، وأراد السلطان سليم أن يعانقه فلم يمكنه من معانقته، فلما وصل السلطان سليم إلى المكان الذي يريدون وضعه فيه وجد السلطان محموداً أخا السلطان مصطفى ماكثاً في ذلك الموضع، وعليه آثار الرقة والنباهة، وعندما شاهد السلطان سليم التقاه فقبل يده ذارفاً دموعاً غزيرة، فحرك السُلطان سليم إلى البكاء، وجلسا في ذلك الموضع وطال ما كانا يتحدثان دائماً بالأمور المشيدة أركان الدولة والدين.

توفي رحمه الله تعالى سنة ألف ومائتين وثلاث وعشرين ودفن في تربة السلطان مصطفى[1].

الشيخ سليمان الجوسقيّ شيخ طائفة العميان

العمدة الشهير، تولى شيخا على العميان بعد وفاة الشيخ الشبراويّ، وسار فيهم بشهامة وصرامة وجبروت، وجمع بجاههم أموالاً عظيمة وعقارات؛ فكان يشتري غلال المستحقين المعطلة، ويخرج كشوفاتها وتحاويلها على الملتزمين، ويطالبهم بها كيلاً وعيناً، ومن عصى عليه أرسل إليه الجيوش الكثيرة من العميان، فلا يجد بداً من الدفع، وإن كانت غلاله معطلة، صالحه بما أحبّ من الثمن. وله أعوان يرسلهم إلى الملتزمين بالجهة القبلية يأتون إليه بالسفن المشحونة بالغلال والمعاوضات من السمن والعسل والسكر والزيت وغير ذلك، ويبيعها في سني الغلا بأقصى القيمة، ويطحن منها على طواحينه دقيقاً ويبيع خلاصته، ويعجن نخالته خبز الفقراء العميان، يتقوتون به مع ما يجمعونه من السؤال في طوافهم آناء الليل وأطراف النهار بالأسواق والأزقة، وتغنيهم بالمدائح والخرافات، وقراءة

---

(١) «حلية البشر»: ٢/٦٧٥ ـ ٦٧٩، وتوفي هذا السلطان مقتولاً بأمر السلطان مصطفى ـ كما سيأتي في ترجمة السلطان محمود خان ـ ثم قتل السلطان مصطفى أيام سلطنة السلطان محمود.

القرآن في البيوت ومساطب الشوارع، وغير ذلك، ومن مات منهم ورثه الشيخ المترجَم المذكور، وأحرز لنفسه ما جمعه ذلك الميت، وفيهم من وُجد له مال عظيم، ولا يجد لنفسه معارضاً في ذلك.

واتفق أن الشيخ الحنفيّ نقم عليه في شيء فأرسل إليه من أحضره موثوقاً مكشوف الرأس مضروباً بالنعال على دماغه وقفاه من بيته إلى بيت الشيخ، ولما انقضت تلك السنون وأهلها صار المترجم من أعيان الصدور المشار إليهم في المجالس تُخشى سطوته، وتُسمع كلمته، ويقال: قال الشيخ كذا، وأمر الشيخ بكذا، وصار يلبس الملابس الفاخرة ويركب البغال وأتباعه محدقون به من كل جانب، وتزوج الكثير من النساء الغنيات الجميلات، واشترى السراري البيض والحبش والسود، وكان يقرض الأكابر المقادير الكثيرة من المال ليكون له عليهم الفضل والمنة.

ولم يزل حتى حمله التفاخر في أيام الفرنسيس على المداخلة في الفتنة والرئاسة مع من ترأس، وقُتل فيمن قتل بالقلعة ولم يعلم له قبر، وكان ذلك في سنة أربع عشرة ومائتين وألف رحمه الله تعالى[1].

الشيخ صادق أفندي الواعظ الحنفيّ

كان إماماً كاملاً، وعالماً عاملاً، متمسكاً بدينه، متمكناً بعقيدته ويقينه، لا يخشى سطوة أمير مكابر، ولا إمام جائر، صداعاً في قوله، معتمداً على الله في قوته وحوله، لا يميل مع نفسه إلى ملائم، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

وفي سنة بضع وثمانين بعد المائتين والألف حضر لدار السلطنة العلية، وعاصمة الأمة الإسلامية، في أيام خلافة السلطان عبد العزيز خان، عليه الرحمة والرضوان، وكان دخول المترجم أوائل رمضان، فكان يقرأ درس الوعظ في أياصوفيا إلى اليوم السابع والعشرين، وقد جرت العادة أن

---

(١) «حلية البشر»: ٢/٦٩٣ - ٦٩٤.

السلطان في ذلك اليوم يدور على الدروس، فمتى أتى لدرس يختم المدرس الكلام، ويدعو للسلطان، فما زال السلطان يُجري العادة ومعه وكلاء الدولة العظام، وشيخ المسلمين والإسلام، إلى أن وصل لدرس المترجَم، فلم يُجر العادة من الختم في الحال والدعاء، بل التفت إلى الوكلاء، وخاطبهم بما لا يليق خطابهم به من كونهم أدخلوا على السلطان الغرور، وأبطلوا الشريعة وارتكبوا سفاسف الأمور، ونكسوا أعلام الدين، وقدموا المخالفين على المؤمنين، وأطال الكلام، وتجاوز الحدّ في هذا المقام، والسلطان صاغ إليه، فحقد الوكلاء عليه، فبعد أن ختم ذهب، وقد أضمروا له كل عطب، ثم بعد ذلك اجتمعوا وذهبوا إلى السلطان، فدخلوا عليه بعد تقديم الاستئذان وتكلموا في حق المترجَم بما غير قلب أمير المؤمنين عليه، وقالوا له: قد فعل ما أوجب توجيه المضرة إليه، فلا بد من إعدامه، ليتأدب غيره عن التكلم بمثل كلامه. فقال أمير المؤمنين: نعم ولكن لا بد من مرافعتكم معه في مجلس شيخ الإسلام، لئلا يقول الناس: قُتِل ظلماً فنقع بين العموم في الملام، فحينما أحس شيخ الإسلام، دخل على الملك خفية عن الوكلاء العظام، ولم يزل يتعطف السلطان، ويسترحمه بالعفو عن هذا الإنسان، ويقول له: إن قتلناه قيل بالعبارات الصريحة: إن السلطان قد قتله لبذله النصيحة، ولكن نفيه أولى، ورأي أمير المؤمنين أعظم وأعلى. فأمر السلطان بنفيه في الحال، فأُرسل إلى عكّا من غير إمهال.

مطلب

قصة محمد بهاء الله رئيس البابية

وكان ممن نُفي من بلاد العجم قبله إلى عكا محمد بهاء الله رئيس البابية. والناس قد اختلفوا فيه على أنواع، فمنهم من يدّعي بأنه المهديّ، ومنهم من يقول: إنه يدعي النبوة، ومنهم من يقول يدعي الألوهية، فألف المترجَم رسالة في عقيدتهم غير وافية المقصود، غير أني أحببت ذكرها بعد تعريبها لأنه ألفها باللغة التركية وهي:

(١) كان مبدأ ظهور البابية في تاريخ سنة ألف ومائتين وخمس وستين وهو أنه ظهر رجل في شيراز سنة خمس وعشرين ومائتين وألف، واسمه علي بن محمد بن رضا الحسينيّ وهو رجل تاجر، فذهب إلى مكة لمصداق الأحاديث من أن المهديّ يظهر من مكة، ووقف عند مقام إبراهيم يوم الجمعة والخطيب على المنبر وصاح بأعلى صوته إنه هو المهديّ وأنه قد ظهر، فأخذه رفقاؤه في الحال لمنزلهم ثم ساروا به إلى شيراز، وأخذ هناك يدعو الناسَ إليه سّراً وجهراً، ويقول لهم: إنه هو المهديّ المنتظر، فما زال يتفاقم أمره، ويعظم ذكره، وتكثر جماعته، وتزداد دعوته إلى أن سجن في السجن، وكان قبل ذلك قد سجن مراراً وشاه العجم يطلقه، لكنه في هذه المرة، قد تجسمت منه المضرة، وطغت عليه نفسه، فصار من اللازم إهانته وحبسه، وفي السنة السابعة من ظهوره، قتل بالرصاص وهو مصلوب، وعاملته الأيام بعكس المرغوب.

وفي هذه المدة التي مضت عليه في الحبس قد حرر ستة وتسعين مصحفاً، وتمكن بعد مشقة عظيمة من إرسالها إلى خارج السجن، ووصولها إلى إخوته وجماعته، ومن بعد قتله، وصل إلى أخويه بعضٌ من كتبه فباشرا الدعوة بالنيابة عنه، إلا أن كل واحد منهما يدعيها لنفسه ويكذب الآخر، ثم تجازفا في دعواهما فصار كل منهما يدعي النبوة عوضاً عن المهدية، وأخذا في تحرير الرسائل وإرسالها بدعوى النبوة العظمى، وطلبِ الناس إلى تصديقهما، وجالا في البلاد لدعوى العباد، فلما وصلا إلى مدينة أدرنة اشتد بينهما الخصام، وصار كل منهما حريصاً على قتل أخيه وإلقائه في حيز الإعدام، وكان فسادهما قد سرى على بعض الناس من غير مِرا، فقبضت الحكومة عليهما، وحكمت بتوجيه النفي إليهما، فنفي أحدهما إلى قبرص، والثاني إلى عكا مؤبدين. وسبب دعوى هذين النبوة إنما كان من علي بن محمد بن رضا المومى إليه أعلاه الشيعيّ المذهب، فإنه لما كان في السجن ادّعى سنة في ابتداء أمره أنه المهدي، ثم ادعى أربع سنين أنه نبي، ثم ادعى الألوهية وصورة دعواه على المنوال الآتي: وهو أنه في قديم

الزمان كل نبيٍّ عصرٍ لمّا تتم مدته تنتقل أمته الموجودون إلى النبي الآخر وهكذا إلى حضرة محمد ﷺ الذي تختم مدته سنة ألف ومائتين وخمس وعشرين فأخذ أمته ومضى إلى المحشر، وبعد ذلك جميع ملل الأرض تخصني حيث صرت نبياً لها، وبعد سنة ألف ومائتين وخمس وثلاثين يظهر نبي أفضل مني وبه تتم مدتي، وكلما جاء نبي يكون أكمل وأعظم ممن قبله، وهذا الحكم سار من الأول الذي لا أول له إلى الآخر الذي لا آخر له.

وإن كتبه التي رأيناها يفهم من بعضها أنه المهديّ ومن بعضها أنه نبيّ ومن بعضها أنه إله؛ وذلك مبني على الأصول والقواعد الشيعية، فإنهم ليس لهم ثبات على حال واحد، بل هم يتقلبون ويتلونون على أنواع شتى، وقواعد البابيين كذلك فليس لهم ثبات على حال واحد، وإن القرآن الذي يدعون أنه أنزل عليهم عبارة عن مواعظ وأحكام قليلة متضاربة، غير أنها توصي كثيراً بتخريب الكعبة حيث قد جعلوا مكانها مسجده الذي في شيراز، فعندهم قد بطلت الكعبة الحجازية بالكعبة الشيرازية، ويوصي بأنه يلزم اشتراء البيوت التي حول مسجد شيراز وإدخالها في المسجد للتوسعة، ويقتضي أن يجعل له خمسة وتسعون باباً، وأخبر في كتبه بوقوع أمور شتى إلى الآن لم يظهر منها شيء، وكذلك أخبر بانتشار أمته شرقاً وغرباً، وجعل السنة تسعة عشر شهراً كل شهر تسعة عشر يوماً، وتأمر كتبه بالصلاة في كل يوم وقت الظهر فقط، وإن التوجه يكون لمسجده الشيرازيّ وهذا كله بعد موته، وأما حال حياته فإنه اتخذ لنفسه قبلة خاصة به، وكان يأمر بالصلاة تارة ركعتين وتارة تسع عشرة ركعة، وكان يحكم بأن الهواء والتراب النقي الطاهر كل منهما مطهر من النجاسة من غير ضرورة، ولهذا لا يلزم الغسل من الجنابة ولا غسل الثوب والبدن من النجاسة لتطهير الهواء لهم، وإذا استعملوا الماء إنما يستعملونه بين المنكِرين تقيّةً، ويجوز عندهم نكاح الأخت وصوم رمضان تسعة عشرة يوماً.

وقد غير لهم نظام التركات، وإذا صلى أحدهم يقول بدل السلام الله

أكبر، وبَدّل لهم التحيات، وإذا رد أحدهم السلام إن كان من رجل قال: الله أعظم وإن كان من امرأة: الله أجلّ، وذلك كله مع أشياء أُخَر يطول استقصاؤها إنما هي مأخوذة عن أخيهما الأول واتبعوه بعد موته على ذلك وداوموا عليه وأشاعوه في بغداد وأدرنه، إلى أن بدا بينهما البغضاء والشحناء بسبب الاختلاف في الديانة، وتسلط الأخ الأكبر على قتل بعض أتباع أخيه الأصغر خفية، ولذلك فرقوا بينهما حين النفي فجعلوا الأصغر في قبرص والأكبر في عكّا، ودعوى الأصغر أنه نبي وأن الآيات الإلّهية دائماً تتنـزل عليه ويحررها مصاحف ويرسل بهـا خفية إلى إيـران، فيتلقونهـا بالقبـول والإذعان. ومما أنزل عليه وحرره في مصاحفه: (**أيها الإيرانيون أخي الذي في عكا شيطان لانبيّ، أنتم آمنوا بي إني أنا نبي ولا تؤمنـوا له فيكـون مأواكم النار**)؛ وأمثال ذلك مما ينفر عن أخيه ويرغب فيه، وما عدا ذلك مما هو مذكور في مصاحفه المنزلة عليه، فإنه اقتباس من القرآن وتقليد له. وأما التنزلات البغدادية عليه فإنها وصايا دالّة على خزي أخيه الأكبر، وكان يذكر في عباراته تارة اسم شيطان وتارة اسم سفيان وتارة اسم خنزير، ومراده بالأول أخوه، وبالثاني وزير شاه العجم، وبالثالث الشاه نفسه، وتارة يعبر عن أخيه بكافر. وحيث إن الفتنة بينهما لا تهدأ في ليل ولا في نهار حصل للحكومة منهم قلق عظيم، وشغل فكر جسيم، وتحمل الأهالي منهم مضرة عظيمة، ومن جملة مضرتهم أن الكبير العكاويّ أرسل خفيـة جلادين من أتباعه وهم سبعة أنفار بالسلاح التام إلى جملة من جماعة أخيه الأصغـر المنفيين إلى عكا فطرقوا عليهم الباب ففتحوا لهم فسارعوا الدخـول فلم يجدوا وقتئذ غير ثلاثة أنفار، فلم يزالوا يضربونهم حتى أعدموهم، وكان محلهم قريباً من مركز الحكومة فكثر الصياح والضجيج، والعويل والعجيج، فهجمت العساكر عليهم بأمر الحكومة ووضعوهم في الحبس، ثم إن الأخ الأكبر وإن كان مدعياً النبوة إلا أنه من حين حلوله في عكا أسبل على نفسه حجاب التقيّة، وقد اطلع البعض على شيء من تحريراته فأفادت أنه يقول: إن النبوة الآن تابعة للنبوة الماضية، غير أنه لشدة حجابه وتقيته لم يظهر

كمال حاله، لأنه لم يخرج من منزله أصلاً ولا يراه أحد إلا في يوم الحادثة التي قامت عليهم بسبب قتل جماعته بعض جماعة أخيه، فانهم أخـرجوه لدار الحكومة جبراً، وبعد ذلك رجع إلى محله ولم يظهر لأحد قط. وهو كثير الاعتبار لنفسه يخاف على بخس اعتباره وقدره أشد الخوف، وعنده من التكبر ما لا يحاط به، وله عدة زوجات، يحب الرفاهية والملابس الحسنة والمآكل النفيسة من الطيور وغيرها من الحيوانـات والحلويات، وداره في عكّا تساوي أكثـر من ثلاثمـائة ألف، وعنـده سبعة من الجـلادين وأربعة حـواريين، وما عـداهم أصحاب، فيـذهبون كـل يوم إلى داره، ويصلون ركعتين يتـوجهون بهمـا إليه بكمـال الخضوع وهـو قائم رافـع رأسه إلى السماء، وعند تمام الصلاة يعظهم حصة ثم يسجدون له كسجودهم عند الدخول ويتفرقون، ومقدار أمته عشرون من قومه وخمسة من أهـالي عكّا واثنان نصارى، وذلك يدل على أنه يدعي الألوهية لا النبوة.

هذا ملخص الرسالة مع حذف ما لا حاجة إليه مما لا ارتباط له بأمر الديانة والاعتقاد[1].

وقد كنت مررت على عكّا بعد الألف والمائتين والتسعين فاجتمعـت بولده عباس أفندي وكان يتبرأ كثيراً من نسبة ذلك إلى والده، وكان يقول لي إن والدي يأكل ويشرب ويأتي النساء ويمرض ويتألم، ومن تعرض له هذه

---

(١) قال المحقق: خلاصة ترجمته كما في الأعلام: أذاع أنه «المهديّ المنتظر» وقام علماء بلاده يفندون أقواله، ويظهرون مخالفتها للاسلام، وخشيت حكومـة إيران الفتنة فسجنت بعض أصحابه، وانتقل هو إلى شيراز، ثم إلى أصبهـان، فحماه حاكمها «معتمد الدولة منوچهرخان» وتوفي هذا، فتلقى خلفه أمراً بـالقبض على الباب، فاعتقل وسجن في قلعة «ماكو» بأذربيجان، ثم نقل إلى قلعة «چهريق» على أثر فتنة بسببه، ومنها إلى «تبريز» وحكم عليه فيها بالقتل، فأعدم رمياً بالرصاص، وألقي جسده في خندقها، فأخذه بعض مريديه إلى طهران. وفي حيفا (بفلسطين) قبر ضخم للبهائية يقولون إنهم نقلوا إليه جثة «الباب» خلسة. له عدة مصنفات، منها كتاب «البيان ـ ط» بالعربية والفارسية.

العوارض كيف يسوغ له أن يكون إلٰهاً؟ وهذه الدعوة افتـراها عليـه أخوه الأصغر وجماعته، إلا أن أكثر أهل عكا ممن اجتمعت بهم ينسبون له هذا الاعتقاد وقد أرسل والي الشام سفيراً من طرفه لاستكشاف حـالهم حينما كنت هناك، فاستحصل مصحفاً منسوباً إليه مشتملاً على آيات ملفقة من القرآن. وقد رأيته ثم سألت عنه ولده المومى إليه، فقال: وهذا أيضاً من جملة الافتراء علينا، وليت شعري من الذي رأى والدي وسمع منه ذلك، أو شاهد منه حالاً يقتضي دعوة النبوة أو الألوهية، كل ذلك من أكاذيب أعدائنا والافتـراء علينا لا أصـل له، والله يعلم ذلـك لا تخفى عليه خـافيـة في الوجود[1].

ثم إن المترجَم[2] استأذن من الباب العالي في التوجه إلى الحجاز، فجاءه الجواب بالإذن، وبعد توجهه وقضاء مناسكه بالتمام، تمرض أيـاماً وتوفي بالبلد الحرام، ودفن هناك في المعلى الشريف، وكان ذلك في ذي الحجة الحرام سنة ألف ومائتين وأربع وتسعين رحمه الله تعالى[3].

الدسوقيّ

الشيخ صالـح بن الشيخ محمـد الدسـوقي الأصل الـدمشقي الولادة والمنشأ الشافعي عالم فاضل، ساد على أهل زمانه، وفاق أجـلّاء عصره وأوانه.

(١) ومن غريب ما وقع في مدته، إنه كان له تلميذ يقال له: الشيخ قاسم

---

(١) قـال المحقق: في الأعلام: خـرج مع أبيـه البهاء لمـا نفي إلى العـراق (سنـة ١٢٦٨ هـ) فأقاما ١٢ سنة، وأبعدا إلى الآستانة، ومنها إلى أدرنـة، فمكثا نحـو خمس سنوات، ونفيا إلى قلعة عكة (بفلسطين) فمات بهـا أبوه سنـة ١٣٠٩ هـ وخلفه عباس بعهد منه، وانتقل إلى حيفا، وزار أوربة سنة ١٣٣٠ هـ وأميركا سنة ١٣٣١ هـ وعاد إلى فلسطين، فمات بحيفا (سنة ١٣٤٠ هـ).

(٢) قال المحقق: أي الشيخ صادق الواعظ الحنفي، ومن قوله ـ قبل خمس صفحات إلى هنا ـ: (قصة محمد بهاء الله رئيس البابية) هو استطراد.

(٣) «حلية البشر» ٢/٧٠١ ـ ٧٠٧.

الحلاق، وكان من أنبه تلامذته على الإطلاق، وكان له حجرة في جامع السباهية في محلة الدرويشية، قد انقطع بها للعلم والعبادة، وطلب النجاح والسعادة، ثم إنه في ليلة معلومة، كان مدعواً بعد العشاء في أعزومة، وبعد نصف الليل قد حضر، وكانت الليلة ليلة أربعة عشر، فدخل الجامع وأغلق الباب، بعد أن ودع الرفقة والأحباب، فوضع بعض ثيابه في حجرته، ودخل الخلاء لقضاء حاجته، ثم خرج وجلس على حجر أمام البركة حصة من الزمان، وكان إشراق البدر في كمال، والوقت في غاية الاعتدال، وهو قد أفرغ عليه السرور والبسط والحبور، فلم يمض عليه حصة قليلة، إلا وقد أقبلت نحوه هرة جميلة، وصارت تتلمس بثيابه، وتدور حول جنابه، وهو يأنس بها وينظر إليها، ويلمس بيده عليها، حتى ارتقت على صدره وعضت أنفه، كأنها تريد قطعه وقطفه، فلطمها لطمة قوية، كادت تذيقها كؤوس المنية، فوثبت إلى طرف البركة وحملقت إليه، حتى خاف أن تسطو عليه، فبادر الذهاب، ودخل الحجرة وقفل الباب، ولونه قد انشحب وفؤاده قد اضطرب، وأعضاؤه ترتعد ارتعاد المحموم، كأنه دنا أجله المحتوم، فما مضى برهة، إلا وسمع كلاماً من خارج الحجرة، فأصغى بسمعه لذلك، فسمع رجلاً يقول: والله لأذيقنه غصص المهالك، أين هو لأذيقه النكال والجحيم، قالت: هو في هذه الحجرة مقيم. فقام الشيخ وقد عدم الاقتدار، وأخذ يجمع متاع الحجرة باليمين واليسار، ويضع جميع ذلك وراء الباب، وجعل ذلك لمنع دخول من سمعه من أكبر الأسباب، فما رأى إلا يداً قد امتدت إلى داخل الحجرة وفتحت الأقفال، ودفعت جميع ما كان وراء الباب بغاية الاستعجال، ثم فتح الباب ودخل، وقال: يا بنتي أهذا الذي حصل منه ما حصل؟ فقالت: نعم يا مولاي، هذا الذي ضربني وأوهن قواي، فقال: اصبري وانظري إليه، وتأملي ما يجري عليه. ثم أمر بجماعة فأحضروا بين يديه، فصار يضرب أعناقهم واحداً بعد واحد، وينظر إلى الشيخ ويلقي القتلى عليه، حتى امتلأت الحجرة ولم يبق بها مكان، قال لابنته: ما تريدين أن أفعل الآن؟ فاقترحي عليّ، واتركي الأمر إليّ

فقالت: يا أبت يكفيه ما وقع الآن وإن عاد باء بالنكال والخسران. ثم آب من حيث حضر، والشيخ قد غاب عن إدراكه وصار حاله عبرة لمن اعتبر، فلما علا النهار تفقدوه، فلم يقعوا عليه ولم يجدوه، فنظروا من خصاص الباب إليه، فوجدوه ملقى وإشارات الموت عليه، فاختلعوا الباب في الحال، بعد أن كسروا الأقفال، واحتملوا الشيخ إلى بيته، فحضر عنده شيخه المترجَم ذو القدر المصون، وعلق عليه تميمة وقرأ عليه شيئاً من الكلام القديم ذي السر المكنون، فقام في الحال، كأنما نشط من عقال. وكانت تعاوده هذه البنت من بعيد وتقول له: ارم الحجاب وإلا قتلتك من غير ارتياب، فيشكو لشيخه فيقول له: إياك أن تسايرها في ذلك، فتوقعك في الشدائد والمهالك، وما دامت التميمة عليك[1]، لا قدرة لها على الوصول إليك.

توفي رضي الله عنه سنة ست وأربعين ومائتين وألف في المدينة المنورة ودفن بمقبرة بقيع الغرقد[2].

طاهر بن محمد الأنباريّ

كان فاضلاً نبيهاً، وعالماً متفنناً فقيهاً، لازم السيد سليمان الأهدل، وقرأ عليه تفسير البيضاويّ والبغويّ وحصل له فتوح عظيم في سائر العلوم، وتخرّج عليه عدة علماء محققين.

(١) ومن كلامه: اللبيبُ من إذا سبقه الناس بالعلم سبقهم بالعمل، وإذا سبقوه بالعمل سبقهم بالإخلاص لله عز وجل، وإذا سبقوه بالإخلاص سبقهم بالثبات على ذلك إلى الممات.

(٢) كمال الإنسان في ثلاثة أمور: علوم يعرفها، وأعمال يعمل بها، وأحوال تترتب على علومه وأعماله:

---

(١) التميمة إن كانت من القرآن فقد وقع في جوازها خلاف، وإن كانت من غيره فهي محرمة، والله أعلم.

(٢) «حلية البشر»: ٢/٧٢٤ - ٧٢٧.

العلم ليس بكافٍ ربّه شرفاً إن لم يكن عملٌ ما فيه تلبيس
لو كان بالعلم من دون التقى شرف لكان أفضل خلق الله إبليس

توفي رضي الله عنه سنة ألف ومائتين و . . .

السباعيّ

الشيخ عبد الحميد بن الشيخ عبد الوهاب السباعيّ الحمصيّ الشافعيّ المفتي العام بحمص البهية العالِم العلامة، والحبر البحر الفهامة، صاحب التحقيقات الفائقة، والتدقيقات الرائقة، والمعارف العالية، والفضائل السامية.

كان كثير العبادة، شهير الزهادة، عالي الهمة، طويل الباع في كشف الوقائع المدلهمة، مثابراً على العلم والعمل، حسن الظن والرجا والأمل.

تولى الإفتاء بحمص على مذهب أبي حنيفةَ النعمان، وإن كان شافعي المذهب لأنه لم يكن أعلم منه في المذهبين في ذلك الأوان، وكانت توليته للإفتاء بعد ذهاب شيخه الشيخ إبراهيم الأتاسيّ إلى طرابلس الشام، ولم يزل بها مفتياً إلى أن رحل إلى الآخرة دار السلام.

(١) وبلغني من بعض العلماء والسادة الفضلاء، أنه أتى في حياته إلى حمص رجل شيعيّ يقال له أبو مغزالة، فنزل في أطراف حمص ليحقق آماله، وصار يدس للعوام بعض عقائد الشيعة من حيث لا يشعرون به أنه مخالف، وكان يظهر لهم التقوى والعبادة والزهادة والمعارف، إلى أن مال إليه الكثير، من غير اعتراض عليه ولا نكير، وصار الناس ينوهون بذكره، ويميلون إلى إعلاء مقامه وترفيع قدره، فأخبر الشيخ المذكور بذلك، فأحضره وسأله عن سلوكه هذه المسالك، فأنكر وتنصل عما نسب إليه، وأظهر للشيخ أنه لا يعتقد هذا المذهب ولا يعول عليه، فما زال الشيخ يلقي عليه بعض مسائل، ويتوصل إلى اختبار حاله بدقيق الوسائل، إلى أن ظهر حاله وبان، وزال إنكاره وتوهيمه، فقام الشيخ في الحال وضربه،

وأخرجه من بلدته وأذهبه، وأظهر للناس ما أراده من المخالفة والابتداع، فتوجه ذلك الطاغي إلى جهة بعلبك والهرمل وكان بعض أهل تلك النواحي على مذهب أهل السنة والاجتماع، فدس إليهم عقائد الشيعة المخالفين، فاتبعوه من ذلك الوقت ونشأ لهم هذا من ذلك الحين[1]. وله من المؤلفات حاشية على جمع الجوامع في مجلدين ضخمين، وفتاوى في المعاملات في مذهب السيد أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه في ثلاث مجلدات سماها الإقناعية، وشرح على رسالة السمرقندي في البيان.

توفي رحمه الله تعالى سنة العشرين بعد المائتين عن بضع وستين سنة في مدينة حلب ودفن هناك وقبره معروف[2].

---

(١) قال المحقق: هذه مسألة دينية تاريخية وهي مهمة جداً، لا يجوز إغفالها أو السكوت عنها. وقد كان أهدى إلى المجمع العلمي العربي بدمشق، كتاب «أوائل المقالات» و«شرح عقائد الصدوق، أو تصحيح الاعتقاد» وكان كتب عنهما في مجلة (مدينة العلم) العراقية ما نصه: ومثل هذين الكتابين ينبغي لمن أراد أن يكتب عن الشيعة أو يتحدث عن مذهبهم، أن يرجع إليهما، ويعتمد عليهما، لا أن يأتي إلى كتب المغرضين، والكتب المدسوسة عن الشيعة فيأخذ بها، وينتزع عنها البهت والتزوير فيرمي به هذه الطائفة المؤمنة ـ قلت ما خلاصته: جاء (في ص ١٠) من الكتاب الأول ما نصّه: واتفقت الإمامية والزيدية والخوارج، على أن الناكثين والقاسطين من أهل البصرة والشام أجمعين كفار ضلال ملعونون بحربهم أمير المؤمنين (ع) وأنهم بذلك في النار مخلدون اهـ وهذا اتفاق على عكس الآية الكريمة ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وكتبت: رأيت في هذا الكتاب الذي دفعه المجمع العلمي إليّ لأصفه في باب (التعريف والنقد) ـ بعض ما يراه القارىء في غيره كالكافي والتهذيب والوافي وغيرها من كتب الشيعة من لعن وتكفير وتخليد في النار، لمن أورثوهم الأرض والديار، ولم أر انتقاداً ولا اعتراضاً لأحد ممن تعاقبوا على تصحيحه أو تقريظه، وهم من أشهر مجتهدي الشيعة في هذا العصر، وعليه صورهم. ولا شك أن هذه الكتب تورث قراءها وَغَراً وحقداً، وعداء وبغضا، وتنطق ألسنتهم بأفحش القول وأوحشه لرجال الصدر الأول للإسلام فمن دونهم، وفي مقدمتهم الخلفاء الثلاثة وبعض أمهات المؤمنين، ومن معهم من المهاجرين والأنصار ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه بنص القرآن.

(٢) «حلية البشر»: ٢/٨٢٢ ـ ٨٢٤.

الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي

العالم المشهور، والهمام الذي فضله مأثور.

ولد في بلاد نجد، ثم إن محمد علي باشا وزير مصر لما أمره المرحوم السلطان محمود بمقاتلة الوهابيين أرسل ولده إبراهيم باشا ومعه عسكر عظيم من الأكراد والأرناؤوط وعرب مصر الهواره لمحاربة عبد الله بن سعود أمير نجد، فقاتلهم وقتل ونهب وحرق وخرب، وأسر عبد الله بن سعود وأرسله إلى مصر، فبعثه والي مصر إلى السلطان محمود فصلبه. وأما باقي عائلة أمراء الوهابيين المعبر عنهم بآل المقرن وباقي بيت الشيخ محمد ابن عبد الوهاب المعبر عنهم ببيت الشيخ فإنه نقلهم جميعاً إلى مصر وأسكنهم هناك، ورتب لهم معاشات تكفيهم، وكان من جملتهم المترجم المرقوم، فالتفت إلى الطلب والتعلم والتعليم والاستفادة والإفادة إلى أن صار في الأزهر شيخ رواق الحنابلة، وكان ظاهر التقوى والصلاح والزهادة والعبادة، ولم يزل على حالته المرضية وطاعته وعبادته وإفادته السنية، إلى أن اخترمته المنية سنة أربع وسبعين ومائتين وألف[1] رحمه الله تعالى[2].

السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني

(١) تولّى الملك بعد أخيه السلطان عبد المجيد. وكان سلطاناً مهاباً جسوراً، ذكيّاً نبيهاً عارفاً بدقائق السلطنة، تولى الملك سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين، وفي سنة ثمان وسبعين أظهر أهل الجبل الأسود العصيان

---

(١) قال المحقق: في «الأعلام» أنه عاد إلى نجد سنة ١٢٤١ وتوفي فيها سنة ١٢٨٥ هـ.
له من المؤلفات «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» والأصل لجدّه الشيخ محمد وكلاهما مطبوع، و«الإيمان والرد على أهل البدع»، و«مجموعة رسائل وفتاوي» وكلّها مطبوعة.

(٢) «حلية البشر»: ٢/٨٣٩.

فأرسل إليهم من أرجعهم إلى الطاعة بعد حرب عظيم، وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف أظهر العصيان أهل جزيرة كريد وكثير من البندقية، فجهزت الدولة جيوشها براً وبحراً وكذلك جهز صاحب مصر جيوشاً كثيرة فكانت مع عساكر الدولة، ووقع بينهم وبين العصاة حرب شديد كان النصر فيه لعساكر المسلمين، وأذاقوا العصاة الوبال، وأرجعوهم إلى الطاعة والاعتدال.

وفي سنة تسع وسبعين توجه المترجَم إلى الديار المصرية للتنزه والتفرج، وكان ذلك في ولاية إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا.

(١) وفي سنة أربع وثمانين توجه إلى باريز تخت ملك الفرنسيس، وكان قد دعاه نابليون حينما دعا عدة من الملوك العظام، وكان في رحلته هذه قد مر على أدرنة وعلى قلعة بلغراد، وكان الصرب قد طلبها منه فأعطاهم إياها، فحين عاين تحصينها غضب لذلك، وكانوا أخبروه أنها مهدومة وأنها مدينة كاسدة، فلما رآها ندم حيث لا ينفع الندم.

(٢) وفي سنة ثمان وثمانين أرسل جيشاً عظيماً تحت قيادة رديف باشا إلى بلد عسير حينما خرجوا عن طاعته، فهزمهم وقتل أميرهم محمد بن عايض ابن مرعي، وقتل كثيراً وأسر كثيراً وأرسلهم إلى الأسِتانة، وصارت بلاد عسير في حكم الدولة منضمة إلى ولاية صنعاء واليمن.

وفي هذه السنة أيضاً كانت فتنة عظمى بين ألمانيا وفرنسا آل الأمر فيها إلى هزيمة الفرنسيس وَأسْرِ مِلِكهم نابليون الثاني.

(٣) وفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف سابع شهر جمادى الأولى خُلع المترجَم المشار إليه ومات بعد خمسة أيام، وعمره ثمان وأربعون سنة، ومدة سلطنته ست عشرة سنة وأربعة أشهر رحمه الله تعالى، وقد أشيع أنه قتل نفسه بمقص قص به عرقاً في ذراعه فمات، وفي سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف نفي جماعة من الوزراء إلى الحجاز، فحبسوهم في قلعة

الطائف، منهم: مدحت باشا ومحمود باشا، ومعهم جماعة آخرون منهم: شيخ الإسلام خير الله أفندي. وكان خلع السلطان عبد العزيز سبباً لاضطراب كثير وحوادث شتى.

وكان القائم أكمل القيام في خلعه حسين عوني باشا، وكان السلطان عبد العزيز هو الذي رقاه وأعلى قدره إلى أن جعله رئيساً على العساكر كلها، بل جعله مقدماً على جميع أهل الرتب والمناصب، فكافأه الباشا المذكور على هذه الأمور العظيمة بأن أدخل في أفكار الوزراء أن السلطان المذكور قد تداخل مع الروسية، وأنه يريد أن يملكهم دار السلطنة، ولا زال هو ومن اتفق معه يسعون في الفساد ويدبرون التسلط على خلعه، إلى أن تم لهم ذلك فخلعوه ووضعوا مكانه السلطان مراد، ابن أخيه السلطان عبد المجيد. فقدر الله تعالى أن رجلاً يقال له حسن جركس وكان السلطان عبد العزيز المومى إليه متزوجاً بأخته فأخذته حمية على السلطان عبد العزيز، فصمم على قتل حسين عوني باشا، ودخل عليه في دار الصدر الأعظم محمد راشد باشا فوجده مع جماعة من الوزراء مجتمعين للمشاورة في بعض الأمور، وكان مع حسن جركس فرد[1] بست طلقات فقتل به حسين عوني باشا ومعه جماعة من الوزراء، ثم قبضوا على حسن جركس وقتلوه. وكان موت المترجَم سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف[2].

---

(١) مسدّس.

(٢) «حلية البشر»: ٢/٨٥٢ - ٨٥٤.

أ ـ وفي «تاريخ الدولة العلية العثمانية» أنه في عهد السلطان عبد العزيز وضعت «مجلة الأحكام العدلية» وهي محاولة لتقنين الفقه - أي وضعه في مواد - ليسهل الحكم به في الحاكم.

ب ـ وفي عهده فتحت قنال السويس سنة ١٨٦٩ - بعد شروط مجحفة، مالية وسياسية من قِبَل فرنسا وممثلها دي ليسبس ـوأقيم احتفال من أجل ذلك كلف خزينة الدولة مليوناً ونصف المليون من الجنيهات، أي سدس إيراد مصر سنةً كاملة، وأقاموا قصوراً في مصر لاستقبال ملوك أورّوبا المشاركين في الاحتفال وشيّدوا أوبرا خاصة وجلبوا لها الممثلين والممثلات وأقاموا حفلات الرقص =

عبد العليم بن محمد بن محمد
المالكيّ الأزهريّ الضرير

الإمام الفاضل العمدة الصالح الكامل، عمدة الخلف، ونخبة من أتقن العلوم وعرف.

(١) كان من البكائين عند ذكر الله سريع الدمعة كثير الخشية، وكان يعرف أشياء في الرقى والخواص ثم ترك ذلك لرؤيا منامية رآها وأخبر بعض خواصه بها.

(٢) أقول: إن كل ما أذن به الشارع ﷺ لا بأس به، وقد أذن النبي ﷺ بالرقى فكان إذا أتى المريض فدعا له قال: «أذهب البأس رب الناس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً». وكان يأخذ من ريقه على إصبعه شيئاً ثم يضعها على التراب فيعلق بها منه شيء فيمسح بها على الموضع الموجوع، ويقول: «تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا». وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه قال: قدمت على النبي ﷺ ولي وجع كاد يبطلني فقال لي النبي ﷺ: «اجعل يدك اليمنى عليه وقل: بسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات»، فقلت ذلك فشفاني الله. وعن أبي سعيد أن جبرائيل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم، قال: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين أو حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء النبي ﷺ يعودني فقال لي: «ألا أرقيك برقية جاءني بها جبرائيل؛ قلت: بأبي وأمي بلى يا رسول الله، قال: «بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء فيك، من شر النفّاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد».

= والملاهي. انظر «تاريخ الدولة العلية العثمانية»: ٥٧٢ ـ ٥٧٤.

جـ ـ وقد لجأت الدولة في عهد هذا السلطان إلى الاستدانة بالربا من الدول الأوروبية، وأنشأت البنك العثماني لهذا الغرض وله فروع في أوروبّا. انظر المصدر السابق: ٥٤٠ ـ ٥٤٢.

توفي المترجَم رحمه الله تعالى سنة أربع عشرة ومائتين وألف، ودفن ببستان المجاورين بمحفل عظيم من العلماء والأعيان[1].

الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري

هو الهمام الكامل العارف، والإمام المتحلي بأعلى العوارف، ولا غرو فهو فرع الشجرة الطيبة المنابت، قد ثبت أصلها وزاحمت أغصانها الثوابت، نسبه موصول بأشرف نبي وأجلّ رسول.

ولد رضي الله تعالى عنه وأرضاه في القَيْطَنة سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف من الهجرة النبوية، ونشأ رحمه الله تعالى في حجر والده إلى أن شب بالعفة والصيانة والطاعة والأمانة مرضي الحال محمود الأقوال والأفعال، مشهوراً بين أقرانه بالجد والاجتهاد دائباً على المطالعة والحفظ والرياضة والانفراد، قد ظهرت عليه من صغره لوائح الفلاح، وتقلد منذ تمييزه بمقاليد الصلاح والنجاح، وأخذ الفقه عن والده والفقه وغيره عن غيره من العلماء والسادة القادة الفضلاء، ثم رحل للطلب إلى وهران، فأخذ عن علمائها ذوي الإتقان. وكان يحفظ أكثر البخاريّ، متضلعاً باللغة العربية، وله بذلك وبغيره اليد العلية، ولم يزل يكرع من شراب العلم كؤوساً روية، إلى أن صار عين زمانه، ومع ذلك فكان ذا شجاعة علوية، وأخلاق وأوصاف محمدية.

ولما قصد حضرة والده البلاد الحجازية، أخذه معه للتشرف بتلك الأماكن والأخذ عن ذوي المراتب الألمعية، فمشى مع والده برّاً إلى تونس، ثم ركب معه البحر إلى الإسكندرية، ومنها سار إلى مصر ثم إلى السويس فركب معه إلى جدة ومنها إلى مكة، فحج مع والده وزار واعتمر وأدى بقية المناسك كما أخبر النبيّ وأمر، ثم سار معه إلى المدينة المنورة، فزار قبر

---

(١) حلية البشر: ٢/٨٥٥ - ٨٥٦.

جده الشريف وصلى بالمسجد النبوي المنيف، ثم سار معه إلى دمشق الشام، فأقام بها مدة وأخذ عن علمائها السادة الأعلام، كما أخذ عن أهل غيرها ممن مرّ عليهم في طريقه، غير أنه قد استقام في دمشق الشام مدة، ثم رجع إلى مكة المشرفة مرة ثانية فحج وزار وتبرك بتلك الآثار السامية.

ثم رجع مع والده إلى الأوطان وحالها مضمحل معدوم الراحة والأمان، وقد طال عليهم الأمد وتوالى عليهم الكرب والنكد، وتطاولت إليهم يد الأجانب، وأحاط بهم الهم والغم من كل جانب، وكثر بينهم الفساد وانحازت طوائفهم نحو التخالف والعناد، فتارة يرون كف العدو فرضا، وتارة يحارب بعضهم بعضاً، وقد يئسوا من نجدة الدولة العثمانية التي لها عليهم السيادة الحقية، وظهر لهم عجز جارهم سلطان المغرب الأقصى، وبحر الفتن لديهم لا تُحَدُّ أمواجه ولا تحصى، فاجتمع العلماء والأشراف وأعيان القبائل من العرب وذوي الإنصاف، وقدِموا على حضرة والد المترجَم السيد محيي الدين وألزموه إمّا أن يقبل بيعتهم على الملك لنفسه وإما أن يقبلها لولده المترجم المرقوم، ولم يقبلوا له من اعتذار بل أصروا عليه غاية الإصرار، فنظر في هذا الأمر فوجد الاهتمام به واجباً، وقد خطبته هذه الإمارة ولم يكن لها طالباً بَيْدَ أنه لا يقدر على القيام بها بنفسه لكبر سنه وعجزه، فاختار لها ولده المترجم المذكور ذا الفضل الباهر المشهور، حيث إنه بلغ أشده، وترشح للإمامة وتأهل لها، حتى لم تكن تصلح إلا له ولا يصلح إلا لها، لما كان محتوياً عليه من علو الهمة واستقامة الأطوار، وقوة الملكة وتحمل المكاره وحسن الاصطبار، والشجاعة والعلم والسماحة والحلم، والقوة والعزم والإزماع والحزم، والنباهة والتيقظ والمواراة من المخاوف والتحفظ، والعبادة والتقوى في السر والنجوى، إلى غير ذلك من أنواع الفضائل وبديع الشمائل، التي لا بدّ للملك منها ولا غنى له عنها. فلما علموا من والده الشريف الإجابة ورأوا ما عند المترجم من البسالة والنجابة، نادى المنادون بلا توان باجتماع الأكابر والأعيان، فاجتمع العلماء والأشراف، وأهل الصولة من الأطراف، وكان اجتماعهم

بـوادي فروحـه من غريس فجلس سيـدي المترجم تحت دردارة[1] هنـاك عظيمة، وتقدم والده إليه فبايعه ثم بايعه الناس بيعة عميمة. وفي الحال لقبه والده بأمير المؤمنين ناصر الدين، وكانت هـذه البيعة خصـوصية في محل معلوم، لكنه لما تسامع خبرها حضر إليه الناس من كل جانب وبايعه العموم، حتى أنه لم يبق أحد ممن لم يحضر إلا وقد صدق على بيعته وانقاد لسلطنته وإمرته، وكان ذلك سنة ألف ومائتين وثمان وأربعين، فأسس ربـوع الخلافـة والسلطان، وشيد أركـان دولته بـرفع الـظلم وهدم جـدار الطغيان، ثم قامت الحروب بينه وبين الفرنسيس على ساق، واتسع الخرق وقوي الشقاق، ولم يزل يصول عليهم ويوجه سهام الموت الأحمر إليهم، إلى آخر تلك القصة، التي لا يساعدنا الاختصار على ذكر تفصيلها. وقد ألف سعادة ولده الأمير السيد محمد باشا كتاباً مستوفى في ذلك ذكر فيه ترجمة حاله مفصلة من ابتدائها إلى انتهائها.

(١) وكتب المؤرخ الفاضل الشيخ محمد بيرم التونسي في كتابه «صفوة الاعتبار» فقال: اعلم أن الدولة الفرنساوية لما ترقت في المعارف لا سيما في الأعصر الأخيرة لازمها حب الظهـور، وعدم تحمـل الهوان، وكـانت الدولة العثمانية في شغلها الشاغل من أعمال الينكشارية[2] وحروب الروسية وثورات اليونان وطغيان ولاة الأقاليم وعدم امتثالهم للأوامر، وكان والياً على الجزائر حسين باشا وكان مستبداً ظلوماً مرتشياً قليل التـدبر، وحصـل منه إهانة لقنصل فرنسا، وذلك على ما في تاريخ ابن الضياف أن أحد التجار اليهود الأغنياء الجزائريين الملقب ببقرى أبو جناح، له خلطة مالية مع تجار من الفرانسيس، وتداعوا في خسائر من الجهتين، وانتصر حسين باشا لرعيته بالإلحاح على قنصل فرنسا في إنصافه، وآل الأمر إلى صلح يـدفع على مقتضاه التجار الفرنساويون إلى التاجر الجزائري مالاً عظيماً وافرا، وأضمر

---

(١) قال المحقق: الدّردار: شجر عظيم من فصيلة الزيتونيات.

(٢) هو الجيش العثمانيّ.

حسين باشا أخذ المال لنفسه لمّا رآه ذريعاً وراجعاً لرعيته، وتلك كانت من عادته المألوفة له عن أمثاله. ولما قرب دفع المال وإذا بتجار أُخَر فرنساويين قاموا على بقرى المذكور بدين أوقفوا عليه المال الذي يريد قبضه، فتكدر حسين باشا لذلك كدراً عظيماً وطلب من القنصل رفع الإيقاف، وقال: إن أرباب الدَّين الفرنساويين يتبعون ذمة المديون بعد قبضه المال، حيث إنه لا حق لهؤلاء الطالبين في المال الذي يدفعه الفرنساويون، فامتنع من ذلك القنصل مستنداً إلى أن المال مال المديون والغرماء حقهم عليه، فحجزوا على المال لاستيفاء حقهم منه، وكان المديون قد دبر هذه الحيلة خوفاً على ماله من الهلاك باستيلاء الباشا عليه، فأعرض الباشا عن القنصل، وكاتب دولة فرنسا فأرسلت الدولة المكتوب بعينه إلى القنصل وأمرته بالجواب عنه، فذهب القنصل عند الباشا لمآرب أخر، فخاطبه الباشا في استبطاء جواب مكتوبه الذي أرسله لدولة فرنسا، فقال له القنصل إن المكتوب أرسلته الدولة إلي وأمرتني بالجواب عنه، فسأل عن سبب عدم إجابة الدولة له، فأجابه بما فهم منه احتقاره، وكانت بيد الباشا منشة يطرد بها الذباب فضرب بها وجه القنصل وطرده، وبقي آسفاً على ما فاته من مال بقرى.

(١) ثم إنّ فرنسا تهددت الوالي المذكور على إهانة نائبها، وألحت عليه بأن يطلب منها الرضى ويعترف بالخطأ فأبى وأصر على غلطه، مع أن الدولة العثمانية والدول الأجانب وخواص الأهالي قد حسنوا ذلك له، ودولته أمرته أمراً قطعياً بذلك فأبى، وقد كانت فرنسا في شغل من داخليتها في ذلك الوقت لأن ذلك كان أثر حرب نابليون الأول، وكانت أيضاً متوقية المشاحنة مع العرب ومع الدولة العثمانية، حتى رضيت فرنسا بأن يكلف الباشا أي إنسان كان في باريس بطلب الترضية لكي تندفع هذه المعرة، ولا تلحقه هو مذلة بإرسال أحد من متوظفيه إلى «القنصلاتو» ولا إلى باريس، وكان قصدها بذلك اجتناب الحرب ما أمكن لاشتغالها بحروبها وأحزابها الداخلية، فأصر الوالي على رأيه، وأرسلت فرنسا أسطولها وحاربت بلد

الجزائر، واستولت عليها، وحمل ذلك الوالي إلى باريس، ثم مات في إسكندرية.

(١) فَدَاءُ الجزائر قد ابتدأ منذ انخرم أمر الينكشارية في القسطنطينية التي هي مقر الدولة العامة، ونشأ عنه ما نشأ من فساد الإدارة والولاة، إلى أن أصيبت عدة جهات، وباء حسين باشا بالخزي، وإثم الظلم والخراب والتهور الذي كان أعظم النكبات، وانتقلت حالة الجزائر بل وحالة السياسة في شطوط أفريقية الشمالية إلى طور آخر. انتهى.

وكان مبدأ استيلاء فرنسا على الجزائر سنة ست وأربعين ومائتين وألف، في مدة كارلوس العاشر ملك فرنسا، وتمكن الفرانسيس أولاً من القاعدة وما حولها، لكن بقية الجهات أصروا على الامتناع من الطاعة لفرنسا، لأنها إنما أرادت الانتقام من الوالي حسين باشا وقد حصل، فالجهات الشرقية من القطر انفرد بالحكم فيها الحاج أحمد باي قسنطينة، والجهات الجنوبية والغربية تشتتت تحت رؤساء القبائل، ورام الفرنساويون محاولة تطويعهم بالرفق بأن يتولى الأمر في وهران والي تونس، بإرسال أحد عائلته أو أحد متوظفيه، فأرسل والي تونس واحداً من جهته ومعه شرذمة من الحرس، فلم ينفذ أمره في مدينة وهران فضلاً عن خارجها، فرجع من حيث أتى.

ثم أجمعت الجهات الغربية والجنوبية على مبايعة الرجل الوحيد سلالة النسل المطهر الأمير السيد عبد القادر الجزائري بن محيي الدين الحسني، وقام لله حق القيام وصحبته النصرة الإلهية في كثير من الوقائع، إلى أن كان في بعضها ما هو خارق العادة من الكرامات، كطفر فرسه الأزرق به ستين متراً وحيث أحاطت به العساكر الفرنساوية كالحلقة، وراموا مسكه باليد فطفر به فرسه على رؤوس العساكر وأسلحتهم ذلك المدى ونجا راكضاً إلى منعته، ودام محارباً لهم نحو سبع عشرة سنة، واستقامت له حكومة ضرب فيها السكة باسمه وأنشأ المدافع والبنادق ونفذ أمره وخشيته فرانسا.

وأرسل إلى الحاج أحمد باي ليتحدا ويكونا يداً واحدة، فامتنع تجبراً وطغياناً، وكان ذلك سبباً لتأخر أمره وحطته وغدره، وتنكيس أعلامه واستيلاء الفرنساوية على ما كان تحت أحكامه.

(١) وبقي الأمير السيد عبد القادر مدافعاً ومهاجماً إلى أن سولت الغلطات النفسانية المخالفة للديانة الإسلامية لسلطان المغرب الاتحاد مع الفرنسيس على محاربة الأمير السيد المشار إليه، وقطع عنه سلطان المغرب خط التجائه إلى جهات الصحراء، فاضطر حضرة الأمير إلى التسليم للفرنسيس، بعد المشاورة مع وكلائه ووزرائه وأمرائه، حيث سدت المناهج والمسالك وعز الخلاص، ولات حين مناص.

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلّا ركوبها

فأرسل المترجم رسوله إلى قائد الفرنساويين بالميل إلى التسليم، على شروط أرسلها له في رقيم، فقبلها القائد وأظهر الفرح، وزال عنه الغم والترح، ووجه إلى المترجم هدية ذات شان، مفيدة للتودد والأمان، وصدق له على عهده، وأظهر له من الاحتفال غاية جهده. ثم بعد أيام نزل بعائلته ومن معه من خاصته في البارجة الحربية إلى أن وصل إلى مدينة امبواز (Amboise) وبداخلها صرايا[١] عظيمة حصينة، فوُضِع المترجم بها هو ومن معه، وكان ذلك في شعبان سنة ألف ومائتين وأربع وستين، ثم نقل الأمير منها إلى مدينة بوردو (Bordeaux)، ثم إلى مدينة نانت (Nantes)، ولما فصل رئيس جمهورية فرنسا وتولاها البرنس لويس نابليون، فاجتهد غاية الاجتهاد وسلك مناهج السداد، في تخليص الأمير من سجنه، وتسريحه إلى مكان يحول بينه وبين كدره وحزنه، فلم يزل يوجه إليه الرسائل، ويعمل في الحضور لديه الوسائل، إلى أن توجه نابليون إلى امبواز، ووعده بالوفاء بالعهد على الحقيقة لا المجاز، وقال له إنك بعد أيام تكون في

(١) قال المحقق: قصر الحكومة.

باريز عاصمة ملكنا، ويكون لك كمال القدر عندنا، وكان قد أقام في امبواز أربع سنوات، فما مضى قليل من الأيام إلا وجاء الأمر بحضور الأمير إلى باريز بالجلالة والاحترام، فدخل في موكب لم يكن لغيره، وساق الله إليه جميل بره وإحسانه وخيره، ولم يزل في عز واحترام وجلالة وإعظام، يدور حيث شاء ويجتمع مع الأكابر والعظماء، إلى أن صدر الأمر من الذات الامبراطورية بتسريح حضرته إلى الآسِتانة العلية، وذلك في ربيع الأول سنة تسع وستين ومائتين وألف، فسافر هو ومن معه إلى الآسِتانة ولا يمر في طريقه على بلدة إلا ويتلقاه أهلها بالحبور وغاية السرور إلى أن وصل إلى الآستانة دار الخلافة العثمانية، واجتمع بأمير المؤمنين مولانا السلطان عبد المجيد فأجله وعظمه وأكبره واحترمه، وقال له أنت صاحب الرأي في سكناك في أي محل شئت من الممالك العثمانية والبلاد الإسلامية، فخرج من عنده حامداً شاكراً، داعياً له بدوام السعادة أولاً وآخراً.

ولم تزل الباخرة واقفة على الأسِتانة عشرة أيام، وهو في كل يوم يزور الكبراء والعظماء والوكلاء ويزورونه، وقد كفله السلطان عبد المجيد حينما طلبت دولة فرنسا من السلطان المومى إليه أن يكفله، وبعد أن استقام عشرة أيام، والطعام في كل يوم يأتيه من السرايا إلى الباخرة، توجه إلى بروسة[1] وتلقاه واليها خليل باشا صهر الذات الشاهانه ومعه العلماء والوزراء والكبراء، ثم إنه لم يستقر به الأمر أياماً حتى جاء عنده خليل باشا بأمر السلطان المعظم يخبره بأن مراد الدولة العلية أن تعين له معاشاً يكفيه مع الاتساع هو ومن يلوذ به، فسر المترجم بذلك، ووجه لأمير المؤمنين ما يليق من الدعوات، غير أنه اعتذر بأن امبرطور فرنسا قد عين له ما يكفيه ويكفي من معه، وأما حضرة أمير المؤمنين فإن ما أسداه إليه من كفالته عند فرنسا فإنها هي المنة التي لا تقابلها منة، حيث إنه لولاها لم يتيسر له الخروج من بلاد فرنسا. ثم إنه لما رأى ما عرا هذه المدينة من كثرة الزلازل، ورأى

---

(١) أي بورصة.

أن جماعته قد ضاقت صدورهم من الإقامة بها، وقد تحسن عندهم تبعاً لسعادة الأمير الرحلة إلى دمشق الشام، فسافر إلى الآسِتانة سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف، ثم إلى باريز فتلقاه الامبراطور ورحال الدولة بكل عظمة وإجلال، ثم رجع إلى الآسِتانة وقدم الاستئذان من الباب العالي بالرخصة له أن يرحل إلى دمشق الشام، فصدرت أوامر الدولة العلية لمحمود نديم باشا والي دمشق بالاستعداد لقدومه، وإعداد محل لائق به.
ثم إن الأمير المرقوم رجع إلى بروسة، وخرج منها بمن معه وكانوا مائتي نفس فركب بهم باخرة فرنساوية إلى بيروت، فاستقبله الخاص والعام واهتزت لقدومه أنحاء الشام، وبقي قليلاً من الأيام ثم رحل ودخل الشام، وكان قد خرج للقائه أهل البلد، ولا يبعد أن يقال ما شذ منهم أحد، فتألف الكبير والصغير وشملهم بامتنانه وبشره الغزير، ثم بعد أن استراح من السفر وزال عنه النصب والكدر، توجه إلى بيت المقدس للزيارة الشريفة، وكان ذهابه من طريق صفد، وإيابه من طريق حوران، تتميماً للزيارات الواقعات في الطريقين وذلك سنة ١٢٧٣.

وبعد ذلك في رمضان من تلك السنة، قرأ في المدرسة الأشرفية المشهورة بدار الحديث الواقعة في العصرونية صحيح الإمام الحافظ المجتهد أبي عبد الله البخاري، وكان ختامه في اليوم الرابع والعشرين من شوال سنة أربع وسبعين ومائتين وألف.

وفي نصف ذي الحجة الحرام سنة ألف ومائتين وست وسبعين حينما وقعت الحادثة الكبرى في نصارى الشام، وكان قد تعدى عليهم بعض الأشقياء المتوحشين فقتلوا وأضرموا النيران في أملاكهم ونهبوا متاعهم، فحصل من الأمير المرقوم ما يدل على كمال غيرته ومروءته وتمدنه من خلاصهم والإحسان إليهم، وبذل كمال المعروف، وقد كافأه حضرة أمير المؤمنين السلطان عبد المجيد خان بالكتاب الذي أرسله إليه بخطاب

التفخيم والاحترام، مع النيشان[1] المجيدي من الرتبة الأولى، وتواردت عليه كتابات بقية الملوك مع النياشين ذوات الفخر والقدر.

وفي تشرين الثاني سنة ألف وثمانمائة وتسع وستين الموافق سنة ألف ومائتين وخمس وثمانين، دعي إلى حضور فتح خليج السويس كما دعي إلى ذلك أعيان العالم، فاجتمع في مصر بإمبراطورة فرنسا وكان له منها الاحتفال العظيم والالتفات الجسيم، ثم عاد إلى الشام بعد مدة قريبة.

وفي غرة رجب سنة ألف وثلاثمائة ابتدأه مرض المثانة وحصر البول، ولا زال يقوى عليه فدعاه مولاه إلى جنابه وفسيح رحابه، وذلك في قصره في قرية دمر، ودفن في الصالحية من دمشق[2].

السلطان الغازي عبد المجيد خان

ابن السلطان الغازي محمود خان

ولد سنة ألف ومائتين وسبع وثلاثين، وجلس على تخت السلطنة بعد موت والده السلطان محمود سنة ألف ومائتين وخمس وخمسين، فجهز الجيوش لقتال عساكر محمد علي باشا وإخراجها من الشام، وأعانه على ذلك دولة إنكلترا، وكانوا عرضوا على السلطان محمود الإعانة فأبى، فلما توفي وتسلطن ولده السلطان عبد المجيد قَبِل إعانتهم فأعانوه، وسير جيوشه إلى الشام فهزموا عساكر إبراهيم باشا وأخرجوهم من الأراضي الشامية، وأرادوا التوجه إلى مصر والإسكندرية لإخراج محمد علي باشا فتوسطت دولة إنكلترا بالصلح إلى أن أتموه بشرط أن تكون الإسكندرية ومصر وأقطارهما لمحمد علي باشا ولأولاده من بعده، وضربوا عليه خراجاً معلوماً يدفعه في كل سنة، ويرجع إلى الدولة الشام والحجاز وتم الأمر على ذلك، وكانت مدة تملكه الأقطار الشامية قريباً من تسع سنين.

---

(١) قال المحقق: الوسام

(٢) «حلية البشر»: ٢/٨٨٣ - ٩١٥.

وفي مدة السلطان المترجَم قوي الاتحاد مع دولتي فرنسا وانكلترا، فحسنوا له إحداث القوانين المسماة بالتنظيمات الخيرية، فصدر منه الفَرَمان[1] السلطانيّ بذلك سنة خمس وخمسين ومائتين وألف، وهي سنة جلوسه على تخت السلطنة.

(١) وفي سنة تسع وستين ومائتين وألف كانت الحروب العظيمة بين السلطان عبد المجيد والروسيا المسماة بحرب القرم[2]، وسببها أنه وقع اختلاف بين طائفتي الروم واللاتين في القدس من عدة سنين بسبب كنيسة القيامة وبعض الأماكن المقدسة، فكانت كل طائفة منهما تدعي لنفسها حق الرياسة والتقدم على الأخرى بالاستيلاء على مفاتيحها، ثم أخذت هذه المسألة تتعاظم بينهما وتمتد يوماً بعد يوم إلى أن آل الأمر إلى النزاع والجدال في سنة ثمان وستين ومائتين وألف، فوقع الباب العالي في ارتباك وحيرة من جهة تسكينها وإخماد نارها، لأن الروسيا كانت تحامي عن حقوق الروم، وفرنسا تحتشد لطرف اللاتين، فتداخل سفير إنكلترا في صرف هذا المشكل ورسم ترتيباً لائتلاف الملتين المتخالفتين، فقبلته فرنسا ولم تقبله الروسية، لأن مقصدها التوحد، ولم يكن مقتصراً على المحاماة عن حقوق الروم بل كان لها غايات أخرى طالما كانت تجتهد على نوالها وتترقب الفرص لاستحصالها، وهي إبعاد الدولة العثمانية من قارة أوروبا والاستيلاء على أقاليمها وولاياتها، فانتهز إمبراطورها نقولا تلك المنازعة فرصة مناسبة لنوال بغيته وبلوغ أربه، فبعث سفيراً إلى القسطنطينية لمقابلة السلطان عبد المجيد، بعد أن كان بعث جيشاً يبلغ مائة وأربعاً وأربعين ألفاً إلى نهر الطونة ليكون مستعداً لوقت اللزوم والحاجة، فلما وصل السفير المذكور

---

(١) قال المحقق: المنشور السلطاني.

(٢) قال المحقق: القرم شبه جزيرة في روسيا شمال البحر الأسود، فيها جرت الحرب بين روسيا وبين تركيا وفرنسا وإنكلترا (١٨٥٤ ـ١٨٥٦ م) وهي اليوم من جمهوريات الاتحاد السوفياتي التي زرناها عام١٩٥٤ م.

إلى القسطنطينية رفض مواجهة فؤاد باشا وزير الخارجية، ودخل رأساً على الحضرة الشاهانية، وعرض عليه مثال الإمبراطور نقولا في المسألة المتعلقة بالأماكن المقدسة، وأن جميع الروم الذين هم من تبعة الدولة العلية تكون تحت حمايته من الآن وصاعداً، وأن بطرك الروم القسطنطينيّ وباقي أساقفة الطائفة يكون انتخابهم وتغيرهم منوطاً به، وأن الشكاوى والدعاوى التي تصدر عليهم من جهة تصرفاتهم تعرض عليه لينظر فيها، فاستعظم السلطان هذه المطالب ورفضها لأنها مخلة بناموس السلطنة، ومغايرة للأصول وقوانين الدول، فانثنى السفير راجعاً من حيث أتى، وأعلم الإمبراطور نقولا بواقعة الحال، فاستشاط غضباً وأصدر أمراً إلى العساكر التي أرسلها إلى أطراف الطونة أن تعبر النهر وتستولي على تلك الأطراف، فاجتازت النهر وشنت الغارات على إمارات الأفلاق والبغدان، واستولت عليها، ولما تحقق الباب العالي قدوم ذلك الجيش إلى أطراف بلاده علم أن مقاصد الروسية في تطلبها لم تكن إلا وسيلة لإشهار الحرب، فجهز جيشاً وأرسله إلى تلك الحدود تحت قيادة عمر باشا المجريّ لردع الروسيين، ولما تأكدت الدول الأرباوية بغية الروسية ومقاصدها بادرت إنكلترا وبروسيا والنمسا إلى عقد جمعية للنظر باجراء الوفاق بين الدولتين، وأرسلت كل دولة منهما معتمداً من طرفها إلى مدينة أثينا حيث وافاهم سفير من طرف الروسية وآخر من طرف الدولة العلية، وعقدوا هناك مجلساً في سنة ألف ومائتين وسبعين لم يأت بالمرغوب.

فلما لم يكن سبيل للصلح أشهر الباب العالي الحرب، وصدم سليم باشا العساكر الروسية في الأناطول، وانتصر عليهم في عدة مواقع، وهاجمهم عمر باشا في الروم إيلي[1] وانتصر عليهم أيضاً، وأما العمارة التي للروسية في البحر الأسود فصدمت العمارة العثمانية واستظهرت عليها بعد حرب شديد فأتلفتها، وكانت مؤلفة من سبعة فركاتات وباخرتين وثلاث مراكب حربية.

---

(١) بلاد العثمانيين في أوروبًا.

ثمّ إن إنكلترا وفرنسا لما تيقنتا سوء نتائج هذه الحرب احتشدتا لمعونة السلطان وأعلنتا الحرب على الروسية، وفي سنة إحدى وسبعين ابتدأتا في نقل رجالهما ومهماتهما إلى ساحة الحرب، واشتبكتا في القتال، وأما باقي دول أوروبا فكانت محافظة على الحيادة، وكانت دولة انكلترا قد أرسلت عمارة بحرية إلى بحر بلتيك[1] فاستولت على قلعة بومارستود ثم على جزيرة ألاند ولكنها لم تقدر على استخلاص القلعة نظراً لحصانتها. وإذ كانت سيواسطبول أعظم قوات الروسية التي يعول عليها في البحر الأسود وجهت إنكلترا وفرنسا قواهما لافتتاحها والاستيلاء عليها فأرسلتا فرقاً من عساكرهما يبلغ عددها ستين ألفاً وكان أكثرها فرنساويين، فنزلوا في بوباسرايا، وبينما كانوا يتقدمون إلى سيواسطبول صادفهم العساكر الروسية فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً إلى أن دارت الدائرة على الروسيين، فانهزموا عند نهر الماء، وكان جيش عساكر الروسية يحاصر مدينة سليسترة، ولم تقدر على أخذها، فخرجت عليهم العساكر العثمانية من المدينة واقتحمتهم فانتصرت عليهم وفرقتهم، فذهبوا عن المدينة خائبين وانضموا إلى آخرين، وقصدوا القرم لنجدة حصار قلعة سيواسطبول التي إليها وجهت الروسية كل قوتها من المهمات والعساكر والذخائر، وصادم جيش من الإنكليز جيشاً للروسيين عند بالاكلا فانتصروا عليهم بعد ما فقد منهم خلق كثير، فكان جيش للروسية محاصراً في الكرمات وعددهم ستون ألفاً، فخرجوا من مكان حصارهم واقتحموا العساكر العثمانية والإنكليزية والفرنساوية، ودارت بينهم معركة شديدة الخسران على الفريقين، وانجلت بانهزام الروسية وألزموهم حصن المدينة، ولم يكن حينئذ في قوة الدول المتحدة الاستيلاء على سيواسطبول مع أنهم كانوا يزيدون في قوتهم الحربية ويكثرون هجماتهم وقنابرهم، ولم يقدروا على استخلاص تلك القلعة أو أن يمنعوا المساعدات التي كانت تأتيها من داخل البلاد، ولقد قاست العساكر المتحدة لا سيما

---

(١) قال المحقق: بلطيك (Baltique) بحر في أوروبا يصله بالأطلسي بحر الشمال.

الإنكليز في شتاء سنة إحدى وسبعين وشتاء اثنتين وسبعين أهوالاً وشدائد يكل اللسان عن وصفها وتعدادها، فإن الأمراض والأوجاع قد أخذت في العساكر كل مأخذ، وأهلكت كثيراً منهم فضلاً عن الجوع والتعرض لبرد تلك البلاد، والأبخرة المنتنة التي كانت تتصاعد من جثث القتلى والحيوانات. أما إيطاليا فقد هيأت جنودها للحرب وانضمت إلى الدول المتحدة، فأرسلت خمسة عشر ألف مقاتل بعد ما تعهدت لها إنكلترا بدفع مبلغ مليون ليرة على سبيل الإعانة واشتهرت رجالها في تلك المجامع بالشجاعة والثبات، وفي خلال ذلك هلك الإمبراطور نقولا سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف، وجلس ولده إسكندر الثاني مكانه، وفي خلال ذلك وقعت وقعة هائلة بين الروسية والعساكر المتحدة، كانت الدائرة فيها على الروسية، واستولت جيوش فرنسا على قلعة ملاكوف، وإذ لم يبق للروسية استطاعة على حفظ مراكزهم تركوا سيواسطبول في مساء ذلك النهار، وعولوا على الهزيمة والفرار، ودخلت العساكر المتحدة إلى القلعة وامتلكتها، فانفتحت حينئذ مخابرات الصلح، وعقدت جمعية في باريز سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف حضرها اثنان من طرف كل دولة من الدول الست المتحاربة، وهي إنكلترا وفرنسا والعثمانية والنيمساوية وروسيا وسردانيا، وأمضت شروط الصلح متضمنة أربعة وثلاثين بندا أخصها أن الدولة العلية يكون لها الامتيازات التي لباقي دول أوروبا من جهة القوانين والتنظيمات السياسية، وأنها تكون مستقلة في ممالكها كغيرها من الدول، وأن البحر الأسود يكون بمعزل عن جولان مراكب حربية فيه من أي جنس كان، ما عدا الدولة العثمانية والروسية فإن لهما حقاً في إدخال عدد قليل من المراكب الصغيرة الحربية، وأن لا يكون للدولة العثمانية ولا للروسية ترسانات[1] بحرية حربية على شواطىء البحر الأسود إلى مواطنها، وانتهت الحرب التي لم يكن لها داع سوى المطامع.

---

(١) قال المحقق: الترسانة والترسخانة: مستودع الذخائر وأدوات الحرب، مصنع المراكب (تركية).

(١) وفي سنة اثنتين وسبعين كانت فتنة عظيمة بمكة المشرفة بين أهالي مكة وعساكر الدولة بسبب ورود أمر يمنع بيع الرقيق، وانتهت في رمضان بالقبض على الشريف عبد المطلب بن غالب أمير مكة، وتولية الشريف محمد بن عون، والكلام عليها طويل.

(٢) وفي سنة أربع وسبعين وقعت فتنة في جدة بين أهالي جدة والنصارى الذين بها، بسبب اختلاف بعض أهل المراكب في وضع بنديرة[١] الإسلام والإنكليز على بعض المراكب والكلام عليها أيضاً طويل[٢].

وفي سنة سبع وسبعين كانت فتنة بالشام بين النصارى وأهل الشام الكلام عليها أيضاً طويل، قد ذكرت بعضه في ترجمة أحمد باشا الشهيد، وكان ابتداء الفتنة في هذه السنة بين النصارى والدروز في جبل لبنان فآل الأمر إلى وقوع حرب بين الفريقين، وكانت النتيجة ردية على النصارى بسبب اختلافهم وعدم انضمام بعضهم لبعض، وعدم انقيادهم لبعضهم، ففتكت بهم الدروز، ثم ما زال الأمر يتفاقم إلى أن وقع الأمر في الشام، وكانت فتنة كبرى، وداهية عظمى، فأرسل الباب العالي فؤاد باشا ليمهد الأمور وينتقم من المذنبين، وأرسلت فرنسا عشرة آلاف جندي للمحافظة

---

(١) قال المحقق: الراية (إيطالية).

(٢) في «تاريخ الدولة العلية العثمانية»: ٥٢٥ - ٥٢٦ ما نصه: «حدثت في مدينة جدّة نازلة... وهي قيام المسلمين بها على المسيحيين في يوليو سنة ١٨٥٨ م وقتلهم بعضهم وإصابة قنصل فرنسا وكاتبه إصابة شديدة وقتل زوجته... وفي هذه الأثناء أتى نامق باشا والي مكة إلى جدة وقبض على المجرمين وحاكمهم فحكم على كثير منهم بالإعدام لكن لم يمكن تنفيذ هذه الأحكام إلا بعد استئذان الدولة، وفي غضون محاكمتهم وصلت إلى ميناء جدة سفينة حربية انكليزية... وطلب ربانها من نامق باشا تنفيذ الحكم فوراً وأمهله أربعاً وعشرين ساعة، وإن لم يعدم المحكوم عليهم يطلق مدافعه على المدينة، ولما أجابه نامق باشا بعدم إمكان إجابة طلبه سلط مدافعه على المدينة واستمرّ إطلاقه عليها نحو عشرين ساعة، ولولا وصول السفينة المقلة إسماعيل باشا المندوب العثماني لدمرت المدينة عن آخرها فإنه... أمر بشنق المحكوم عليهم بالإعدام وانتهت هذه المسألة».

ومنع التعدي، وكذلك باقي الدول الإفرنجية، منها من أرسل مراكب حربية، ومنها من أرسل نواباً لإصلاح الحال وتمهيد الأمور، وغِبَّ إجراء ما لزم إجراؤه استحسنت الدولة العلية باتفاق الدول وضع نظامات جديدة لأهل هذا الجبل، وأن تتحول أحكامه لمشير من الطائفة النصرانية من غير أهالي الجبل، ليكون متصرفاً بها ويخابر رأساً الباب العالي، فتوجهت المتصرفية لداود باشا الأرمنيّ.

(۱) ومن خيرات السلطان عبد المجيد وفتوحاته المعنوية تجديد مسجد النبي ﷺ بالمدينة المنورة فإنه كان على بناء السلطان قايت باي، وكان مسقفاً بالخشب، فطالت مدته وحصل فيه خراب، فصدرت إرادة مولانا أمير المؤمنين السلطان عبد المجيد خان بهدمه وتجديده سنة ألف ومائتين وسبعين، فهدم وجدد وجعل سقفه قبباً وطواجن كالمسجد الحرام، وتممت عمارته بعد مضي أربع سنين، فجاء على صفة لم ير الراؤون أحسن منها، وله عمارات كثيرة في الأماكن المأثورة بالحرمين الشريفين، وله تجديد ميزاب للكعبة المشرفة سنة خمس وسبعين ومائتين وألف.

وتوفي السلطان عبد المجيد سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين وعمره أربعون سنة ومدة سلطنته ثنتان وعشرون سنة وستة أشهر[1].

ابن عجلان

السيد عبد المحسن بن حمزة بن السيد علي الدمشقيّ الحنفيّ الشهير بابن عجلان الشريف الحسنيّ نقيب الأشراف بدمشق الشام، ونخبة أعيانها وأشرافها الكرام. المتحلي بحلى الأدب والكمال، والمستوي على عرش اللطافة والجمال، أحد فضلاء الأفاضل المعروفين، وأوحد السادات الأوائل المشهورين، المشار إليهم بعلو الذكر، وسمو القدر، فلا ريب أنه ممن علا قدره وفاق، وعم ذكره النواحي والآفاق.

(۱) «حلية البشر»: ۲/ ۱۰۳۰ ـ ۱۰۳٦.

فائدة:

النقابة معناها الرئاسة قال في القاموس: النقيب ضمين القوم وعريفهم، وقال في مادة (عرف): والعريف ـ كأمير ـ من يُعرِّفُ أصحابه، والعريف رئيس القوم. وقيل إن النقيب دون الرئيس، وعلى كل حال فنقيب الأشراف رئيسهم.

نقل صاحب الشرف المؤبد أن هذه النقابة على الأشراف وضعت في الأصل لصيانتهم عن أن يتولى عليهم من لا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف، ويختار لها أجلهم بيتاً وأكثرهم فضلاً وأجزلهم رأياً، لتجتمع فيه شروط الرياسة والسياسة، فيسرعوا إلى طاعته برياسته، وتستقيم أمورهم بسياسته، ويلزمه لهم بتقلدها اثنا عشر حقاً.

أحدها: حفظ أنسابهم من داخل فيها وليس منها أو خارج عنها وهو منها.

والثاني: معرفة أنسابهم وتمييز بطونهم ويثبتهم في ديوانه على التمييز.

والثالث: معرفة من ولد منهم من ذكر أو أنثى فيثبته ومعرفة من مات فيذكره.

والرابع: أن يحملهم على الآداب التي تضاهي شرف أنسابهم وكرم محتدهم لتكون حشمتهم في النفوس موفورة، وحرمة رسول الله ﷺ فيهم محفوظة.

والخامس: أن ينزههم عن المكاسب الدنيئة ويمنعهم عن المطالب الخبيثة.

والسادس: أن يكفهم عن ارتكاب المآثم ويمنعهم من انتهاك المحارم ليكونوا على الدين الذي نصروه أغير، وللمنكر الذي أزالوه أنكر، فلا ينطلق بذمهم لسان ولا يشنؤهم إنسان.

والسابع: أن يمنعهم من التسلط على العامة لشرفهم والتشطط عليهم لنسبهم فيدعوهم ذلك إلى المقت والبغض ويبعثهم على المناكرة والبعد، وأن يندبهم إلى استعطاف القلوب وتألف النفوس ليكون الميل إليهم أوفى والقلوب لهم أصفى.

والثامن: أن يكون عوناً لهم في استيفاء حقوقهم حتى لا يضعفوا عنها وعونا عليهم في أخذ الحقوق منهم حتى لا يمنعوا أهلها منها، ليصيروا بالمعونة لهم منتصفين وبالمعونة عليهم منصفين، فإن من عدل السيرة فيهم إنصافهم وانتصافهم.

والتاسع: أن ينوب عنهم في حقوقهم في بيت مال المسلمين.

والعاشر: أن يمنع نساءهم أن يتزوجن إلا من الأكفاء لشرفهن على سائر النساء صيانة لأنسابهن وتعظيماً لحرمتهن.

والحادي عشر: أن يقوّم ذوي الهفوات منهم ويقيل ذا الهيئة منهم عثرته ويغفر بعد الوعظ زلته.

والثاني عشر: أن يراعي وقوفهم بحفظ أصولها وتنمية فروعها ويراعي قسمتها عليهم بحسب الشروط والأوصاف.

ويزداد على ذلك في النقابة العامة خمسة أشياء أخرى:

أحدها: الحكم بينهم فيما تنازعوا فيه.

والثاني: الولاية على أيتامهم فيما ملكوه.

والثالث: إقامة الحدود عليهم فيما ارتكبوه.

والرابع: تزويج الأيامى اللاتي لا يتعين أولياؤهن أو قد تعينوا فعضلوهنّ[1].

---

(١) أي منعوهن من الزواج.

والخامس: أيقاع الحجر على من عته منهم أو سفه وفكّه إذا أفاق ورشد.

انتهى ملخصاً من الأحكام السلطانية للإمام الماورديّ.

ثم إن المترجَم كان مستقيماً، وكان لأهل النسب والشرف قدر عظيم في أيامه لملاحظته لهم بعين الإجلال والتعظيم. مات عقيماً سنة ثلاث وستين ومائتين وألف ودفن في مدفنهم المعروف بمدفن بني عجلان[1].

علي البكريّ المصريّ

قال الإمام الجبرتي ما ملخصه: كان مجذوباً أقام سنين متجرداً ويمشي في الأسواق عرياناً ويخلط في كلامه، وكان يحلق لحيته، وللناس فيه اعتقاد عظيم وينصتون إلى تخليطاته، ويوجهون ألفاظه ويؤولونها على حسب أغراضهم ومقتضيات أحوالهم ووقائعهم.

وكان له أخ من ذوي الكمال فحجر عليه في داره ومنعه من الخروج، وألبسه ثياباً ورغب الناس في زيارته، وذكر مكاشفاتِه وخوارق كراماته، فأقبل الناس عليه من كل ناحية وترددوا لزيارته من كل جهة، وأتوا إليه بالهدايا والنذور وجَرَوْا على عوائدهم في التقليد، وازدحم عليه الخلائق وخصوصاً النساء، فراج بذلك أمر أخيه واتسعت دنياه، ونصبه شبكة لصيده، ومنعه من حلق لحيته فنبتت وعظمت، وسمن بدنه وعظم جسمه من كثرة الأكل والراحة، وقد كان قبل ذلك عرياناً شقياناً تعباناً، غالب لياليه بالجوع طاوياً من غير أكل، بالأزقة في الصيف والشتاء، وقيد به من يخدمه ويراعيه في منامه ويقظته، وقضاء حاجته، ولا يزال يحدث نفسه ويخلط ألفاظه وكلامه، وتارة يضحك وتارة يشتم، ولا بد من مصادفة بعض الألفاظ لما في نفس بعض الزائرين وذوي الحاجات، فيعدون ذلك كشفاً واطلاعاً على ما في نفوسهم.

---

(١) «حلية البشر»: ١٠٤٢/٢ ـ ١٠٤٤.

وسبب نسبتهم إلى البكري أنهم كانوا يسكنون بسويقة البكري لا أنهم من البكرية.

(١) ولم يزل هذا حاله حتى توفي سنة سبع ومائتين وألف، واجتمع الناس لجنازته من كل جهة، ودفنوه بمسجد الشرايبي بالقرب من جامع الرويعي، وعملوا على قبره مقصورة [١] ومقاماً يقصد للزيارة[٢]

علي بن خير الله الصيادي

قد ترجمه صاحب تنوير الأبصار فقال: شيخنا الكامل الفاضل الصالح الناجح، الحسيب النسيب الشريف، ابن عمنا وأحد أعيان بيتنا رفيع المنزلة مقبول الجاه، كان رفيع المكانة، رقيق الطبع سليم القلب، مبارك المال، جليل المقام، له أحوال قدسية ومحاضرات أنسية، وكلمات شريفة ونكات لطيفة، وسريرة عامرة وسيرة زكية طاهرة. يسر الله توبة كثير من العصاة على يديه، وقاد قلوب العامة والخاصة إليه.

(٢) وروى له الجم الغفير الكرامات الكثيرة، منها أن رجلاً معروفاً من أهل حلب رد شفاعته في نازلة وأغلظ الجواب، فخرج من مجلسه مغير الخاطر فقبل أن يصل المترجم قدس الله روحه إلى بيته، ألمّ بالرجل ماغص عظيم، فما مضى ذلك اليوم إلّا وتوفاه الله تعالى. وهذه قصة متواترة في الشهباء أشهر من أن ينبه عليها.

(٣) ومنها أنه صب ماء في قنديل نفذ زيته فأضاء إلى الصباح بإذن الله تعالى.

---

(١) قال المحقق: ما كان ينبغي أن يدفن في المسجد، بل في مقبرة المسلمين كغيره، ويزار كما يزار سائر الأموات، ويدعى له بالدعاء المأثور لأهل القبور.
قلت: من سيرة هذا الرجل يظهركم كان بعض المسلمين يعتقدون الصلاح في مثل هؤلاء الذين لا تروج سيرتهم إلا على المغفّلين والمبطلين.

(٢) «حلية البشر»: ٢/١٠٨٤ - ١٠٨٥

(١) ومنها أن رجلاً من ذوي البيوت يقال له عبد الكريم، مازح المترجم بكلمة أخذ منها شيئاً في نفسه، فقام من المجلس ولم يشعر أحد أنه اغبرّ خاطره، ففي الحال أصابت الحمى عبد الكريم المومى إليه، فعالج نفسه بالأدوية مدة فما أفاد، فألهمه الله تعالى بعد تلك المدة أن اغبرار خاطر صاحب الترجمة هو السبب فيما ألمّ به، فذهب لحضرته المباركة وقبل يديه وسأله العفو، وذكر له القصة فعفا عنه، وأمر له بماء فشربه، وانصرفت عنه الحمى ليومها بقدرة الله سبحانه وتعالى.

(٢) ومنها أنه كان خارج داره ورجع ليلاً وخادمه أمامه بيده القنديل، فوجدا عند الباب شخصاً من الجن وصل رأسه إلى قرب حائط الدار ارتفاعاً، فخاف الخادم خوفاً شديداً، فقال له لا تخف وأخذ القنديل وضرب به الشخص، فسقط، وفي الصباح جاء أتباعه فوجدوا رماداً أمام الباب، فعرفوه أنه الجنيّ.

وهذه من غرر كراماته، وكراماته كثيرة لا تعد.

توفي بحلب سنة تسع وثمانين ومائتين وألف[١].

محمد علي باشا الأرناؤوطيّ
خديوي مصر القاهرة

كان أصله من الأرناؤوط[٢]، وقدم عسكريا مع عساكر الترك القادمين لأخذ مصر من الفرانسيس لما استولى الفرانسيس عليها، وكان الفرانساويون قاصدين التوصل من هناك إلى افتكاك الهند من الإنكليز لما كان بينهم من الحروب والعداوة، بل وكانت سائر أوربا إذ ذاك ضد الفرنساويين.

(٣) فحينئذ عاضدت إنكلترا الدولة العثمانية على حرب فرنسا وإخراجها

---

(١) «حلية البشر»: ٢/١٠٩٧ ـ ١٠٩٨.
(٢) أي ألبانيّ.

من مصر، وكان المترجم كامل الأوصاف للرياسة فتقدم إليها بنفسه على بني جنسه، وانقاد له الجميع. وقررت ولايته الدولة على دفع خراج معلوم سنوياً وذلك سنة ١٢١٩، فوجد مصر في نهاية درجة الفقر والبربرية والجهل، بل حتى إن الأمراض الوبائية من الطاعون قد تمكنت فيها وصارت عادية تفني من الناس سنويا خلقاً كثيراً، حتى قلّ العمران ولم يبق من مآثر تقدم المصريين سوى الاسم في التواريخ. نعم وجد للعلوم الشرعية بقية آثار في الجامع الأزهر من العلماء؛ وذلك كله لما مر عليها من تقلبات الدهر والظلم والجور والاستبداد والحروب في الأيام الخالية.

(١) فشمر عن ساعد الجد ووافقه البخت وفتح لمصر عصراً جديداً، فنظم فيها جيشاً نظامياً من أهلها، ورتب الأداء على الأهالي على قانون غير مجحف، وألزمهم بتعمير الأرض وفتح الترع وإنشاء المدارس العلمية للعلوم الرياضية والحربية، وأحضر المعلمين من أوروبا[١]، وأحيا المارستانات[٢] وألزم الأهالي بالنظافة، وتوسيع الطرقات والبناءات، وأرسل التلامذة إلى أروبا لتعلم الفنون، وأحيا العلوم الشرعية، وسهل أبواب التجارة، وأنشأ معامل السلاح والسفن، وتُرجمت الكتب النافعة في فنون شتى من لغات شتى إلى العربية، فنشأ في مصر جيل جديد وعصر جديد، بسطت فيه طرق العمران والتمدن والقوة في مدة يسيرة، فافتتح النوبة وسنار، واستولى على الشام والحجاز بل امتد بالاستيلاء إلى قرب الآستانة

---

(١) قال المحقق: وكان يحتم على من يدخل في خدمته من الإفرنج أن يتزيوا بالزي العربي (المصري) ويتكلموا اللغة العربية، ويؤلفوا بها أو ينقلوا كتبهم إليها. واعتزل الأمور لابنه ابراهيم باشا سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨ م) وأقام في قصر رأس التين بالإسكندرية مريضاً، إلى أن توفي بها، ودفن بالقاهرة. ومما كتب في سيرته «البهجة التوفيقية - ط» لمحمد فريد، و«محمد علي - ط» لإلياس الأيوبي، و«محمد علي وعصره - ط» لعبد الرحمن زكي، و«محمد علي الكبير - ط» لشفيق غربال. اهـ من الأعلام للأستاذ الزركلي.

(٢) المستشفيات.

(١) في الأناطولي، وخشيت شوكته من عصيانه على الدولة العثمانية، فتعصب الإنكليز إلى الدولة في الظاهر لتوطيد أركانها، وفي الباطن خشية من إنشاء دولة إسلامية شابة ذات قوة مثل تلك ومركزها مصر، فخشي أن تمتد من هناك إلى الهند الذي هو روح الإنكليز، لا سيما إذا عاضدته الدول الأوروباوية مثل فرنسا، فلذلك حاربته مع الدولة العثمانية التي هي إذ ذاك على ضعف شديد من حرب الروسيا والثورات الداخلية واستقلال اليونان وغير ذلك، فقهروا محمد علي، ولكن لإتمام مقصد إنكلتيرة لم تسمح للدولة بالاستيلاء التام على مصر لمراعاة المقاصد المشار إليها أيضاً، فكان الأوفق لها إبقاء مصر على شبه استقلال ليضعف كلٌّ من الجهتين، وبقي محمد علي والياً على مصر على أن تكون الولاية في ذريته من أكبر إلى أكبر، ويؤدي خراجاً سنوياً للدولة، ويعينها عند وقوع حرب معها بالعساكر الذين يبلغ عددهم الأربعين ألفاً، وكذلك يعينها بالسفن، وإن الرتب العالية في مصر يعين هو أصحابها وتولِّيهم الدولة، والسكة[1] والخطبة تكون باسم السلطان العثمانيّ أيضاً، وأخرج الحجاز عنه إلى الدولة، وكذلك الشام، وبقي على ذلك إلى أن ضعف بالسنّ، فتنازل عن الولاية لابنه الأكبر وهو رئيس جيوشه وحروبه إبراهيم باشا سنة ١٢٦٥، وكان على قدم أبيه، وتوفي المذكور في تلك السنة[2].

محمد سليم باشا والي دمشق الشام

وهو الصدر الذي اشترك في إهلاك الإنكشارية في الآستانة وتنظيم العسكر الجديد، دخل الشام في سنة ألف ومائتين وست وأربعين، وأخاف

---

(١) أي النقود

(٢) «حلية البشر»: ٣/١٢٤٠ ـ ١٢٤٢. وقد ذكر صاحب «التاريخ الإسلامي» ٨: ٤٨٢ أن «محمد علي يرى السير بخطى واسعة لتقليد أوروبا والمشي على خطاها ومنهجها في الحياة ضارباً عُرض الحائط بالفكر الإسلامي والأعراف الإسلامية والمحرمات وكل شيء يمت إلى تراثه، لذا كانت أوروبا راضية عن سلوكه وتصرفاته».

الناس وفعل موجبات الإرهاب، وذلك بسبب حادثة وقعت هذه السنة قبل مجيئه مع سلفه رؤوف باشا الصدر، وهي أن السلطان أمر بأن يضع الصليان[1] على حوانيت البلد. فنزل جماعة من مشايخ الطريق وغيرهم لأجل أن يشفعوا عند الباشا في ذلك، فلما وصلوا إلى باب السرايا خرج جماعة من التفنكجية من أهل الموصل وكركوت الذين أظهروا أنواع الفساد والفسق في هذه البلاد، فضربوا الناس فمات منهم جملة جماعة، فقام عليهم أهل البلد وصاروا كلما رأوا منهم واحداً قتلوه، وأمر رؤوف باشا بخروجهم من البلد لعلمه بفسادهم، وعظم أمر الصليان على أهل البلد وكان الوزير رجلاً له من اسمه مظهر من الرأفة والحلم، فكتب للدولة يستعطفها في رفع الصليان عن أهل الشام، فعزله السلطان بسبب ذلك، وأمر سليم باشا بوضع الصليان فلما دخل إلى البلد مكث نحو شهر وهو يحصّن القلعة ويجمع العساكر، ثم جمع أعيان البلد وذكر لهم أمر الصليان، فأطاعوه بعد تمهيد العوام وتخويفهم من مخالفة أمر السلطان لكونه محتاجاً إلى جمع المال فأطاع غالبُ أهل البلد، فخرج جماعة من أتباع الباشا مع كتبة في نهار الجمعة التاسع من ربيع الثاني سنة ألف ومائتين وسبع وأربعين، وصاروا يكتبون عدة الحوانيت حتى وصلوا إلى محلة العمارة والعقيبة بعد العصر، فقام جماعة من الأسفاه فأغلقوا الحوانيت وقالوا هذه جزية ونحن لا نقبلها، وقفلوا حوانيتهم، وكان ذلك سبب الفتنة. فلما سمع الباشا بذلك وكان رجلاً أحمق سفّاكاً للدماء ليس له تبصرة في الأمور، أمر في الحال بجمع العساكر وغلق أبواب القلعة، وصار يضرب المدافع على البلد، وغالب أعيان أهل البلد عنده، فطلبوا منه التُّؤدة في الأمر وأنهم يظفرونه بمن خالف أمره، فلم يقبل منهم حتى خرج العسكر يوم السبت من السرايا، وتغلبوا على بيوت القنوات الجوانية وجامع العدّاس ونهبوها، وصاروا يطلقون الرصاص على الناس من البيوت. وفي ليلة الأحد صار يضرب المدافع والقنابل على البلد، فاجتمع أهل البلد

---

(١) نوع من الضريبة.

وأشقياؤهم وحاصروه في السرايا إلى بعد العصر، فاستعان أهل البلد بحرق المواضع التي تغلب عليها العسكر، وتوصلوا إلى السرايا، فلما تيقن أنه مأخوذ لا محالة، خرج بعد المغرب ليلة الاثنين من السرايا مع العسكر، وأحرق سوق الجديد وسوق الأورام، حتى وصل الحريق إلى قريب من ضريح سيدي خليل، ودخل هو مع بعض العسكر إلى القلعة، وبعض العسكر دخل إلى خان الدالاتية، وجامع المعلّق الذي قبالة الخان تحت القلعة، فحاصرهم أهل البلد، وذلك بعد أن نهب أهل البلد ما في السرايا والكلار[1]، وأحرقوهم، واحترق معهم بعض البيوت المجاورة للسرايا، ولم يزالوا محاصرين لهم في الموضعين حتى فني الزاد من عند من كان في الجامع، فطلبوا الأمان، فأخرجوهم بأسوء حال من شدة الجوع والنتن من الأموات عندهم، وقتلوا بعضاً منهم. ثم تفرغ أهل البلد إلى حصار الباشا في القلعة بضرب المدافع والقنابل، كما فعل معهم أولاً وحاصروه حصاراً شديداً، وقتل من الفريقين خلق كثير، ونصبوا المدافع قبالة حمام الملكة في الدرويشية، وعند باب الحديد المقابل لباب السرايا وتحت القلعة، وهدموا جانباً عظيماً من البرج المقابل لباب السرايا بالمدافع واللغم، إلى أن فني الزاد من القلعة وأكلوا خيلهم، فطلب الباشا الأمان وأنه ينزل ويجلس إلى أن يأتي الأمر من السلطان كيف يفعل، فخرج من القلعة في تاسع عشر جمادى الأولى ومعه نحو ألف رجل من عسكره، واجتمعوا بأهل البلد مدة أيام قليلة، ثم سافروا ونزل الباشا مع بعض خواصه في دار بني الكيلاني التي في العصرونية، وجعلوا عليه حجبة من أهل البلد. ثم ليلة الجمعة في ثالث وعشرين من جمادى الأولى في نصف الليل، دخل عليه تلك الحجبة فقتلوه وقتلوا خمسة ممن معه كالكيخية والخازندار[2] وخاله،

---

(١) قال المحقق: مستودع الأطعمة.

(٢) قال المحقق: أمين الصندوق، وقد جاء في صبح الأعشى ما ملخصه: (الخِزَنْدار) مركب من لفظين أحدهما عربي وهو خزانة، وهي ما يخزن فيه المال، والثاني فارسي وهو دار ومعناه ممسك الخزانة، والمراد المتولي لأمرها اهـ (م ٥ ص ٤٦٢).

ونهبوا ما معهم وجردوا بقية جماعته من ثيابهم وأطلقوهم بلا قتل، وألقوا الباشا في سوق العصرونية على خشبة، وحمل بعض السفهاء رأسه ودار به في البلد، نسأله سبحانه السلامة.

(١) ووقع الخوف في قلوب النصارى أثناء تلك الحوادث، فأمنهم علي آغا خزنة كاتبي وصانهم مع الإسرائيليين من تعديات الجهال.

ولما قتل سليم باشا أقام الدمشقيون حكومة مؤقتة، وأخذوا يتوقعون بطش الدولة بهم، على أنها اشتغلت عنهم بمحاربة إبراهيم باشا ابن الخديوي محمد علي باشا، وعدلت عن تأديبهم، وولّت على دمشق علو باشا، فاطمأن القوم[١].

المغربيّ

الشيخ محمد بن المرحوم الشيخ محمد المغربيّ الأزهريّ المالكيّ عالم وقته وأوانه وجهبذ عصره وزمانه، المحدث العمدة في العلوم والفاضل الذي تحل لديه مشكلات المنطوق والمفهوم.

(٢) حضر من الغرب سنة ألف ومائة وإحدى وستين تقريباً، ونزل في الجامع الأزهر والمقام الأبهى والأبهر، فتعلق بأذيال العلم تعلق الوالدة بالولد إلى أن امتزج به امتزاج الروح بالجسد، وأخذ عن الشيوخ الأكابر والجهابذة الذين حازوا المعالي كابراً عن كابر، ولم يزل معتكفاً على الطلب والاستفادة، إلى أن شهدوا له بأنه صار مستحقاً للتأليف والإقراء والإفادة، فخرج من الأزهر بعد الاستئذان وطاف في الأمصار إلى أن وصل إلى حلب فوجد الناس في قيل وقال وجدال كاد أن يوقع أصحابه في الوبال، فقال: ما هذا الأمر الذي دَهىَ ودهم؟ فقالوا: اختلفنا في حديث ذكره صاحب المختار[٢] وليس له غيرك من حَكَم، فإن صاحب المختار قد ذكر في مادة (عكك) بأن النبي ﷺ قال: طوبى لمن رأى عَكّا، وبعض

---

(١) «حلية البشر»: ١٢٤٣/٣ - ١٢٤٦. (٢) أي «مختار الصحاح» للرازي.

الناس قد سلمه اعتماداً على ناقله وبعض الناس قد ردّه ولم يعتمد على مثبته وقائله، وقال بأنه ليس من كلام الذات المحمدية، ولا عليه طلاوة الأحاديث النبوية، فاحكم بيننا بالإنصاف فورودك علينا من كمال الإسعاف، فقال لهم دعوني الآن وسأكتب رسالة في هذا المرام، تزيل عنكم بعون الله الشكوك في هذا الحديث وأمثاله والأوهام. وقد ألف لهم رسالة قاطعة بأنّ هذا الحديث ليس من كلام النبوة، بل هو كذب مختلق مصنوع.

(١) كثيرٌ من الجهال وبعض من يدعي الطلب قد تداولوا هذا الحديث وهو: طوبى لمن رأى عكة، وذلك سنة ثلاث وثلاثمائة وألف، وحكموا بصحته اعتماداً على قائله وهو محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي في كتابه «مختار الصحاح»، ومرادهم بذلك التوصل إلى أمر كان ينكره كثير من الناس عليهم، مع أن ذكر المرقوم لذلك لا يدل على أنه حديث لأنه نقَل من هو أعلم منه وأفضل أحاديث كثيرة حكم عليها أهل الإسناد بأنها موضوعة؛ لغايات قصدوها فأرادوا ترويجها فوضعوا لها أحاديث مكذوبة.

(٢) قال ابن الجوزيّ: ما أحسن قولَ القائل إذا رأيت الحديث يباين المعقول، ويخالف المنقول، أو يناقض الأصول، فاعلم أنه موضوع ومعنى مناقضة الأصول أن يكون خارجاً عن دواوين الإسلام من المسانيد والكتب المشهورة.

(٣) ثم إن الواضعين للحديث أقسام بحسَب الأمر الحامل لهم على الوضع، أعظمهم ضرراً قوم ينسبون إلى الزهد وضعوه حسبة أي احتساباً للأجر عند الله في زعمهم الفاسد، فقُبلت موضوعاتهم ثقة بهم وركوناً إليهم، لِما نُسبوا إليه من الزهد والصلاح، ولهذا قال يحيى القطان: ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير أي لعدم علمهم بتفرقة ما يجوز لهم وما يمتنع عليهم، أو لأن عندهم حسنَ ظن وسلامة صدر فيحملون ما سمعوه على الصدق، ولا يهتدون لتمييز الخطأ من الصواب.

(١) ولكنِ الواضعون منهم وإن خفي حالهم على كثير من الناس فإنه لم يخف على جهابذة الحديث ونقاده، وقد قيل لابن المبارك: هذه الأحاديث المصنوعة؟ فقال: تعيش لها الجهابذة **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[1].

(٢) ومما وضع حسبة ما رواه الحاكم بسنده إلى أبي عمار المروزيّ أنه قيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحٰق فوضعت هذا الحديث حِسبة، وكان يقال لأبي عصمة هذا نوح الجامع، قال ابن حبان جمع كل شيء إلا الصدق. وروى ابن حبان في «الضعفاء» عن ابن مهدي قال قلت لميسرة بن عبد ربه من أين جئت بهذه الأحاديث من قرأ كذا فله كذا، قال وضعتها لأرغب الناس فيها، وكان غلام خليل يتزهد ويهجر شهوات الدنيا، وغلقت أسواق بغداد لموته، ومع ذلك كان يضع الحديث، وقيل له عند موته حسّن ظنك، قال: كيف لا وقد وضعت في فضل عليّ سبعين حديثاً، وكان أبو داوود النَّخَعِيّ أطول الناس قياماً بليل وأكثرهم صياماً بنهار، وكان يضع، قال ابن حبان: وكان أبو بشر أحمد بن محمد الفقيه المَرْوَزِيّ من أصلب أهل زمانه في السنة وأذبّهم عنها وأقمعهم لمن خالفها، وكان مع هذا يضع الحديث، وقال ابن عديّ كان وهب بن حفص من الصالحين مكث عشرين سنة لا يكلم أحداً وكان يكذب كذباً فاحشاً، وجوّزت الكرّامية (وهم قوم من المبتدعة نسبوا إلى محمد بن كرّام السجستاني) الوضع في الترغيب والترهيب، دون ما يتعلق به حكم من الثواب والعقاب، ترغيباً للناس في الطاعة وترهيباً لهم عن المعصية، واستدلوا بما روي في بعض طرق الحديث «من كذب علي متعمداً ليضل به الناس»، وحمل بعضهم حديث من كذب علي أي قال إنه

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

شاعر أو مجنون، وقال بعضهم إنما نكذب لـه لا عليه، وقـال محمد بن سعيد المصلوب الكذّاب الوضّاع: لا بأس إذا كان كلاماً حسناً أن يضع له إسناداً!

(١) وجميع ذلك خلاف إجماع المسلمين الذين يعتد بهم، بل بالغ الشيخ أبو محمد الجوينيّ فجزم بتكفير واضع الحديث، ووضعت الزنادقة جُملاً من الأحاديث يفسدون بها الدين، فبيّن جهابذة الحديث أمرها ولله الحمد، روى العقيلي بسنده إلى حماد بن زيد قال: وضعت الزنادقة على رسول الله ﷺ أربعة عشر ألف حديث منهم محمد بن سعيد المصلوب في الزندقة، فروى عن حميد بن أنس مرفوعاً أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي إلا أن يشاء الله، وضع هذا الاستثناء لِما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة والدعوة إلى التنبي.

(٢) ومن الواضعين من يضع الحديث انتصاراً لمذهبه كالخطابية والرافضة وغيرهم، وروى ابن حبان في الضعفاء بسنده إلى عبد الله بن يزيد المقري أن رجلاً من أهل البدع رجع عن بدعته، فجعل يقول: انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه فإنا كنا إذا رأينا رأياً جعلنا له حديثاً.

(٣) وقسم من الواضعين وضعوا أحاديثهم تقرباً لبعض الخلفاء والأمراء موافقة لفعلهم وآرائهم، أو ترغيباً لهم في بلاد يعدونها لا قدر لها، فيضعون لهم أحاديث دالة على فضلها ورفعة قدرها، ترغيباً لهم بها، كالأحـاديث الموضوعة في عكا على اختلاف أنواعها.

(٤) وقسم كانوا يكتسبون بذلك ويرتزقون منه في قصصهم كأبي سعيد المدائنيّ.

(٥) فائدة: قال النسائيّ: الكذابون المعروفون بوضع الحديث أربعة: ابن أبي يحيى بالمدينة، والواقدي ببغداد، ومقاتل بخراسان، ومحمد بن سعيد المصلوب بالشام.

(١) ومن الموضوع الحديثُ المروي عن أبي بن كعب مرفوعاً في فضل القرآن سورة سورة من أوله إلى آخره، وقد أخطأ من ذكره من المفسرين في تفسيره كالثعلبيّ والواحديّ والزمخشريّ والبيضاويّ، قال العراقي: لكن من أبرز إسناده منهم كالأوّلين فهو أبسط لعذره إذ أحال ناظره على الكشف عن سنده، وإن كان لا يجوز له السكوت عليه.

(٢) تنبيه: ورد في فضائل السور مفرقة أحاديث بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعيف وليس بموضوع، وإنما ذكرت هذا التنبيه لئلا يتوهم أنه لم يصح في فضائل السور شيء. واعلم أنّ السور التي صحت الأحاديث في فضلها الفاتحة، والزهراوين، والأنعام والسبع الطوال مجملاً، والكهف ويس والدخان والملك والزلزلة والنصر والكافرون والإخلاص والمعوذتان وما عداها لم يصح فيه شيء.

(٣) ومن الموضوعات أيضاً أحاديث الأرز والعدس والباذنجان والهريسة، وفضائل من اسمه محمد وأحمد، وفضل عين سلوان، وعسقلان، ووصايا علي، وضعها حماد بن عمر، والنصيبيّ ووصيته في الجماع، وضعها إسحق بن نجيح الملطيّ.

(٤) **والحاصل**: أن الموضوع تحرم روايته، مع العلم بوضعه، وإثباته في كتاب مع عدم التنبيه عليه بأنه موضوع في أي معنى كان، سواء كان في حكم من الأحكام، أو في قصة أو في ترغيب أو في ترهيب، وسواء كان معناه صحيحاً أو باطلاً، لحديث مسلم: «من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

(٥) ويعرف الوضع للحديث بإقرار واضعه أنه وضعه، كحديث فضائل القرآن فإن ميسرة قد اعترف بوضعه، وقال البخاريّ في «التاريخ الأوسط» حدثني يحيى اليشكري عن علي بن حدير قال سمعت عمر بن صبح يقول: أنا وضعت خطبة النبي ﷺ، وقد استشكل ابن دقيق العيد الحكم بالوضع بإقرار من ادّعىٰ وضعه، لأن فيه عملاً بقوله بعد اعترافه على نفسه بالوضع،

قال بعضهم: وهذا ليس باستشكال منه إنما هو توضيح وبيان، وهو أن الحكم بالوضع بالإقرار ليس بأمر قطعي موافق لما في نفس الأمر، لجواز كذبه في الإقرار.

(١) ويعرف الوضع أيضاً بغير ذلك مما هو مذكور في كتب مصطلح الحديث، كركاكة اللفظ أو المعنى، قال الربيع بن خُثيم: إن للحديث ضوءاً كضوء النهار تعرفه، وظلمة كظلمة الليل تنكره، وقال ابن الجوزيّ: الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم، وينفر منه قلبه في الغالب، قال الترمنيني:

والكذب المختلق الموضوع على النبي فذلك الموضوع

(٢) أي المكذوب على النبي ﷺ فهو مختلق ومبتكر من عند واضعه فهو موضوع ومحطوط المنزلة فلا معول عليه بالمرة لأنه من جملة الأكاذيب، ولا تجوز روايته إلا لتعريف حاله، لا بنحو قال النبي ﷺ، بل بنحو: هذا الكلام موضوع وليس بحديث، والكذب عليه ﷺ من الكبائر ولو في ترغيب أو ترهيب.

(٣) وإنما أطلت الكلام في هذا المقام، لئلا يظن الإنسان أن نقل من هو معروف بالعلم والفضل لكلام مسند إلى النبيّ ﷺ يدل على أنه حديث ولا يحتاج إلى نظر ولا إلى استدلال، فهذا قصور لا ينبغي التعويل عليه، لأن كثيراً من أفاضل العلماء قد نقلوا أحاديث في الترغيب والترهيب وفضائل القرآن سورة سورة، وقد تناقله أصحاب التفاسير وأهل الرقائق في كتبهم، ومع ذلك قد نبه المحدثون النقاد عليها بأنها موضوعة مكذوبة على النبي ﷺ، فما كل ما صُدِّر بقول ﷺ يقتضي أن يكون حديثاً، إلا أن يجده الإنسان في كتب الحديث المسندة، وإن كان الناقل له عمدة كالواحديّ والواقديّ والزمخشريّ والبيضاويّ وغيرهم، وصاحب مختار الصحاح في نقل الحديث المتقدم، ونحن لا نقول بأنهم هم الذين وضعوا الأحاديث التي ذكروها في كتبهم مما نبه العلماء عليها بأنها موضوعة، بل نقلوها اعتماداً على قائليها من غير أن ينظروا فيها، فقد تبين لك مما تقدم أن هذا

الحديث الذي ذكره صاحب المختار موضوع ليس بحديث، وذلك لا يطعن في مقام ناقله كما عرفت ولا في علمه.

توفي المترجَم رحمه الله تعالى بعد المائتين بقليل، ولم أقف على مكان موته ودفنه[1].

الخشنيّ

الشيخ محمد الخشنيّ الشافعيّ المصريّ الأشعريّ الأزهريّ العالم المشهور بالصلاح والفاضل المعروف بالتقوى والفلاح، نزل في الجامع الأزهر والمكان الأرفع الأنور، فحفظ القرآن الشريف وأتقنه غاية الإتقان، ثم التفت إلى طلب العلم مع العمل فتخرج على أشياخ العصر.

وكان مسكنه في خطة السيدة نفيسة، ويأتي في كل يوم إلى الأزهر فيقرأ دروسه، ثم يعود إلى داره متقللاً في معيشته، متمسكاً بتباعده عن الناس وعزلته. وهو آخر الطبقة العالية والمشيخة السامية.

(۱) ولما نزلت به دواعي المنية وأرادت أن تُلحقه بالعصابة العلية، تمرض شهوراً بمنزله الذي في المشهد النفيسيّ وكان دائماً يسأل عن الشيخ البجيرميّ سليمان، يقول: لا أموت حتى يموت هذا الهمام، لأني رأيت النبي ﷺ في المنام، وقال لي: أنت آخر أقرانك موتاً فعلمت أن موتي قبله لا يتأتى، ولم يكن بقي من أقراني سوى هذه الذات العلية فلذلك أسأل عنه أهو حي أم اخترمته المنية؟ ثم مات البجيرميّ بقرية مصطية ومات هو بعده بثلاثة أشهر

كانت وفاته سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف من هجرة سيد الأنام[2]

---

(۱) «حلية البشر»: ۱۲٤۷/۳ ـ ۱۲٥۷. وقوله بعد المائتين أي بعد سنة ۱۲۰۰.
(۲) «حلية البشر»: ۱۲٥۸/۳.

محمد المبارك

الشيخ محمد بن الشيخ محمد المبارك المغربي الجزائري الدلسيّ الحسني المالكي الدمشقي ولد سنة ثلاث وستين ومائتين وألف، وقرأ على السادة الأفاضل ذوي الفضائل والفواضل، إلى أن برع وفاق، واشتهر في الآفاق، وأتى من المنظوم والمنثور بما يُدهش العقول ويشرح الصدور.

ومن جملة ذلك مقامته التي توصل بها إلى مديح من كانت ذاته الشريفة مطلعاً للهمم ومشرعاً للكرم، حضرة مولانا الأمير السيد عبد القادر الحسنيّ الجزائريّ التي سماها «غناء الهزار في محاورة الليل والنهار». وهي بحروفها لتدل على قدر مبدعها وموصوفها:

حمداً لمن فتح أبواب الخير في جميع الأوقات، ويسّر أنواع البر وقدر أصناف الأقوات. وصلاة وسلاماً على من واظب على بثّ الحكمة ودأب، وعلى آله الذين تنافسوا فيما جاء به من العلم والأدب، ما تعاقب الغدوّ والمساء، وضحكت الأرض من بكاء السماء.

وبعد فإني تفكرت ذات يوم في اختلاف الليل والنهار، وما أودع الله فيهما من لطائف الحكم والأسرار، مصغياً لما يترجمه لسان الحال، لأسند ذلك إليه دون انتحال، فرويت عنه من أنبائهما بدائع وغرائب، وقد قيل إن في الليل والنهار عجائب:

من لم يؤدبه والداه أدبه الليل والنهار

فصُغْت تلك المعاني، في مقامة رقيقة المباني، مشحونة بغرر من نتائج الأفكار، ودرر تزهو على البنات الأبكار، يزداد بها الأديب علماً وتبياناً، ويرتاد منها الأريب أدباً وعِرفاناً. وأبرزتها من معرض المحاورة، لتجنح إليها أرباب المحاضرة، فهي فكاهة أحلى من عيش الصِّبا، ونفثة أرق من نفحة نسيم الصَّبا، فلله فوائد كفرائد اللؤلؤ في السلك، أو رحيق مختوم ختامه مسك، وذلك أنه أبدى الضياء والدجى ما هو للعين قرة،

فكلما أسفر ذاك عن بياض الغُرّة، قابله هذا بسواد الطرة[1]، ثم استنجد كل منهما صاحبه، بعد أن رشق خصمه بسهام صائبة. وإذا بالليل حمل على النهار، فجعل حُمرة وردته كصفرة البهار. وخطر يجر ذيول تيهه وعجبه، مرصعاً تيجان مفاخره بدرر شهبه، وقد كساه بدر الكمال بُرد الجمال، ولوائحُ الهيبة والجلال تلوح عليه في ذلك المجال، فصدر النُّقُول بأحاسن رواياته، وحير العقول بمحاسن كناياته، ثم قال: ﴿والليل إذا يغشى﴾، ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾[2] ففتح باب المفاضلة في هذا الفصل، وعقد أسباب المناضلة بقوله الفصل، فإن الحرب أولها كلام، ثم تنجلي عن قتيل أو رهين كِلام[3]. فانتدب إليه النهار، ممتطياً صهوة الفخار، وقد ازورّت مقلتاه، واحمرت وجنتاه. وصاح: إذا أديرت كؤوس المنايا، (أنا ابن جلا وطلاع الثنايا) فأدهش الأفكار بعظيم وثباته، ورسوخ قدمه في الهيجاء وثباته، وتقدم في ذلك الميدان وجلّى، مترنماً بقوله تعالى: ﴿والنهار إذا تجلّى﴾[4] واستدل على كماله من الفرقان بسورة النور، والشمس ترسم آية جماله بالذهب على رقه المنشور، ولما استوى على عرش سنائه، واطلع أنوار طلعته في أرضه وسمائه، أعرب عن مكنون الحقائق، وأغرب في كشف الأسرار والدقائق، فابتدر إليه الليل، ومال عليه كل الميل، وجعل النجوم له رجوما، وما غادر من مغانيه أطلالاً ولا رسوماً، ثم صعد على منبره ثانياً، وقد أمسى الفخر لعطفه ثانياً، وقال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾[5] فأسدى إليّ من عوارفه بِرّاً ونيلاً، أحمده على أن جعلني خلوة للأحباب، وخلقني مثوى لراحة العباد، ومأوى لخدمة المقربين والعُبّاد، أتردد على أرباب المجاهدة بفنون الغرائب، وأتودد إلى

---

(١) الجانب.

(٢) سورة الليل: الآية ١ ، ٤.

(٣) الكِلام: الجروح.

(٤) سورة الليل: الآية ٢.

(٥) سورة الإسراء: الآية ١.

أصحاب المشاهدة بعيون الرغائب، تدور عليهم بدور الأنس والسمر، وتحييهم بشذا نفحاتها نسمات السحر، فأحيانُ وصلي بالتهاني مقمرة، وأفنان فضلي بالأماني مثمرة:

وما الليل إلا للمجد مطية   وميدان سبق فاستبق تبلغ المنى

فوجمَ النهار لبراعة عبارته، وبلاغة معنى رمزه وإشارته، وتنفس الصعداء بنفح الصَّبا في الصباح، فأطفأ بأنفاسه العاطرة نور المصباح، ثم خرج للمبارزة من بابها، إذ كان من فرسانها وأربابها، فشمر للحرب العوان، غير ناكل ولا وان، ناشراً راية مجده البيضاء، وأسنته لامعة بين الخضراء والغبراء[1]، وقال له: أيها الليل، هلّا قصَّرت من إعجابك الذيل، ولئن دارت رحى الحرب، واستعرت نار الطعن والضرب، فلأبرزن مخدراتك وهي عن الوجوه حاسرة، وأنت تتلو ﴿تلك إذاً كرة خاسرة﴾[2] وهل دأبك إلا الخداع والمكر، وترقب الفرصة وأنت داخل الوَكر، إن كنت تجمع المحب بالحبيب، إذا جار عليه الهوى وحار الطبيب، فكم يقاسي منك في هاجرة الهجر، ويئن أنين الثكلى حتى مطلع الفجر.

ولله در القائل:

أقضّي نهاري بالحديث وبالمنى   ويجمعني والهم بالليل جامع
نهاري نهار الناس حتى إذا بدا   لي الليل هزتني إليك المضاجع

وإن كنتَ مَغْنى[3] الأنس والراحة، تفعل بعقول الناس فعل الراحة[4]، فهل حسبت أن السكون خير من الحركة، وقد أجمع العالم أن الحركة بركة، وإن افتخرت ببدرك الباهر الباهي، فإنما تنافس بوزير شمسي وتباهي، وهل له عند إشراق بهجتي من نور، أو لطلعته من خدور البطون

---

(١) السماء والأرض.
(٢) سورة النازعات: الآية ١٢.
(٣) مكان.
(٤) الخمر.

ظهور، فأنشدك لله أينا أحق بالفخر، فقد حصحص الحق ووضح الفجر، أما لك في قوله تعالى بينة وتبصرة: ﴿**فمحونا آية الليل وجعلنا آيةَ النهار مبصرة**﴾[1] وهل يستوي الأعمى والبصير والظلمات والنور، أم هل يستوي الأحياء وأصحاب القبور، ولقد أبدع من قال:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ألم تعلم أينا أبهى مُحيّا، وشتان ما بين الثرى والثّريّا، فأنا مفتاح خزائن الأرزاق، وبي يُستفتح باب المنعم الرزاق، وهل يخفى حسني وجمالي على إنسان، أو يحتاج فضلي وكمالي إلى برهان، وعرضي عارٍ عن الدنية والعار، ونور البدر من ضيائي مستعار، ولولاي ما تميز الحسن من القبح، ولا أحيا ميِّتَ الكرى نسيم الصبح.

وليس يَصحُّ في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وإن ذكرت الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً مُعَرِّضاً بكل غافل لاه، فلي في كل مجال ﴿**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**﴾[2]، وأين من احتجب بظلمات بعضها فوق بعض، ممن أضحى ينظر في ملكوت السموات والأرض، فإن أولي الألباب، رأوا الدنيا دار الأسباب، فلزموا الأدب مع الله باستعمالها وقلوبهم عاكفة على الباب، وقد اتحفني الله بالصلاة الوسطى فأوتر بها صلواتي، وكفاني شرفاً شهر رمضان، الذي أنزل فيه القرآن، فياله من شهر أيامه للخيرات مواسم، وهي للجباه غرر وللثغور مباسم، فمآثري مشهورة في القديم والحديث، وبها نطق الكتاب العزيز والحديث، ومحاسني واضحة لأولي الأبصار، وهل تخفى الشمس في رابعة النهار؟ ثم انحدر من منبره، وقد أيّد حديثَ خبره بآية مخبَره، ولما جن الليل، أجلب عليه بالرجْل والخيل، فسد ما بين الخافقين بسواده، وطفق يرمي بسهام جداله وجلاده، مقدماً بين يدي نجواه سورة القدر، آية على ما

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٢.

(٢) سورة النور: الآية ٣٧.

حازه من كمال الرفعة والقدر، ثم قال: سحقاً لك أيها النهار، لقد أسست بنيانك على شفا جُرُف هار، تناضلني ومني كان انسلاخك وظهورك، وتفاضلني وبي أُرِّخت أعوامك وشهورك، كيف أطعت هواك في عقوقي، وأضعت جميع مطالبي وحقوقي، ألم يأن لك أن تخشع للذكر، فتعترف لي برتبة التقديم في الذكر، وهل الأعمى سوى المحجوب عن المحبوب، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب، كيف تعيرني بلون السواد، وهل يقبح السواد إلا في الفؤاد، أم كيف تعيبني بالخداع والحرب خدعة، مع أنك تعلم أني في عز ومنْعة، أما تشهد الأنامَ من هيبتي حيارى **﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾**[1] فأنا البطل الذي لا يصطلى لي بنار، ولا يؤخذ لقتيلي مدى الدهر بثار، فكم أرّقت أسوداً كاسرة، وأرقْت دماء ووجوه يومئذ باسرة، وليت شعري أنّى لك بالحياة دون الورى، والحيّ من أحياه الله ولو كان تحت أطباق الثرى:

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميّت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً   كاسفاً باله قليل الرجاء

وافتخارك بالصلاة الوسطى، ليس إنصافاً منك ولا قسطاً، وهب أنك انفردت بتلك الصلاة، فأين أنت مما اشتملتُ عليه من وافر الصِّلات، أما علمت أن الركعة فيّ تضاعف أجورها، ويعظم فضلها ويزهو نورها، وهل فرضت في زمنك منها فريضة، حتى تطاولت عليّ بدعواك الطويلة العريضة:

وما أعجبتني قطُّ دعوى عريضة   ولو قام في تصديقها ألف شاهد

وأما افتخارك بفضيلة شهر رمضان، وما نزل فيه من السبع المثاني والقرآن، فهل صح لك صيامه إلا بي بدأً وختاماً، وقد اختصصت بإحياء لياليه تهجداً وقياماً، على أني محل النية ونية المرء خير من عمله، لأنها بمثابة الروح له وبها يحظى الراجي ببلوغ أمله، فكيف تدعي التفرد بجمع

---

(١) سورة الحج: الآية ٢

فنون المجد والفضل، ولم تخَف يوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل، هل في مطالع سعودك أشرقت بدور العيدين، أم على جناح جنحك أُسْرِيَ بنور طلعة الكونين، وهل في أسحارك يقول الرب هل من سائل، ويجود على أهل مناجاته بأعظم الوسائل، أم فيك نزل الكتاب المنـزه في فضله عن المشاركة، والحق تعالى يقول: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾[1] فاكفف عن الجدال وأمسك، ولا تجعل يومك مثل أمسك، وسالم من ليس لك عليه قدرة، فإنه ما هلك امرؤ عرف قدره، وإني أستغفر الله عز وجل، وأسأله الأمن من كل وَجَل.

فبرز إليه النهار بروز الأسد من غابه، وقد استل سيف سطوته من قرابه، وقال: ما كل سوداء تمرة، ولا كل صهباء خمرة، فوالذي كساني حلل الحسن والجمال، وخلع علي خِلَعَ الفضل والكمال، لأمحون طرة الدجى بغرة الضياء، ولأثبتن ما خُصصتُ به من السنا[1] والسناء[2]، ألستُ مظهرَ الهداية والدلالة، وهو مظهر الغواية والضلالة، فكم أظهرت منه عيباً كان غيباً، فابيضت عينه حزناً واشتعل الرأس شيباً، وما ارعوى عن ظلمة ظلمه، ولا رجع إلى الإنصاف في نثره ونظمه، ثم أقبل عليه، وأنشد مشيراً إليه:

يا مشبهاً في فعله لونَه ... لم تعدُ ما أوجبت القسمة
خُلقك من خَلقك مستخرج ... والظلم مشتق من الظلمة

كيف تزعم أيها العبد الآبق، أنك لي في حلبة الشرف سابق، وقد قال الواحد القهار: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾[4] متى قام على منابر العلا بنو حام، أو جلس أحدهم في ديوان الفخر بين أبناء سام، إن أنت وربِّ

---

(١) سورة الدخان: الآية ٣.

(٢) قال المحقق: الرفعة.

(٣) قال المحقق: الضياء.

(٤) سورة يس: الآية ٤٠.

البيت إلا كافر، وبشموس أنوار الشهادة غير ظافر، لـو كنت من السعداء لفزت بدار النعيم، ولولا شقاؤك لما شابهت سواد طبقات الجحيم، فكيف جعلت في الفضل حالي دون حالك، وأي فخر لمن وجهه أسودُ حالك. لقد سمعت أقاويلك التي قدمتها بين يديك. وأتيتَ بهـا حجة لـك وهي حجة عليك، ولا جرم أن لسان الجاهل مفتاح حتفه، وكم من بـاغ قتل بسيف بغيه وحيفه، وأما تقدمك علي فمن العادة، تقدم الخدم بين يدي السادة. أو ما ترى أن النبي محمداً فاق البرية وهو آخر مرسل. وأما حديث الإسراء ففي مجلسي روته الأمة، ثم بلغه الشاهد للغائب بعد أُمة[1]، فما لاحت أسراره إلا في مرآة مطالعي، ولا زاحت أستاره إلا بأنوار طوالعي، وما أشرتَ إليه من بقية لياليك، التي سطعت بها نجوم معانيك ومعاليك ، فأيْن أنت من يوم عرفه، الذي أفرده بالمزايا مَن عرفه، وأين أنت من يوم عاشوراء، الموسوم بأزكى الفضائل دون مراء، وناهيك بسمو شأن العيدين، فما أعظمهما من موسمين سعيدين، وكيف تباهيني بظهور ليلة القدر منك مرة في كل عام، ولي في كل أسبوع يوم تمتد فيه موائد الجود والإنعام، وهو معلوم شهير، يعرفه الكبير والصغير، وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء، ويستجاد الثناء على رب العزة والسَّناء، هذا ولو تأملت ما لي من المناقب والمآثر، لما تجارأت على مجاراتي في معترك المفاخر، أفي معاهدك كانت الصحـابة تتلقى القـرآن، وتتملى بأنـوار رسـول الله في كـل آن، أم في مشـاهدك وردت وقـائع الجهـاد، وعُبِدَ الله تعـالى على رؤوس الأشهـاد، فأحاديث فضلي سارت بها الركبان، وقدري فوق ما تصفه الألسن، وفيّ ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، فاضرب صفحاً عن تمويهك وغشك، فإن هذا ليس بعُشك، ودع عنك قول الزور والمَيْن[2]، فقد بَان الصبح لذي عينين.

فوثب إليه الليـل، وهجم عليه هجـوم السيل، وقـد امتطى جـواده

---

(١) أي بعد مدة.

(٢) الكذب.

الأدهم، وتعمم بعمامة سوداء وتلثم، فأنسى بفتكاته عنترة بني عبس، إذ أمسى يتوعد عمارة بالأسر والحبس، ثم ضرب خباء عزه الباذخ، وقدح زناد عزمه الراسخ، وقال: ﴿فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنّس﴾[1] لقد تزيا المملوك بزي الملوك، وادعى مقام الوصول صاحب السير والسلوك، طالما منحته جميل ستري، وهو لا يبالي بهتك أستاري، وأودعت سره في خزانة سري، وهو يبوح بمصون أسراري، أفٍّ له من فاضح، أما يكفيه ما فيه من الفضائح؟ وعلام جعل السواد على النقص علامة وهو مشتق من السؤدد لدى كل علاّمة، أما درى أني حزت من الكمال الحظ الأوفر حتى تحلى بوصف العنبر والمسك الأذفر، وهل يُزري بالخال سواده البارع، أو يُغري بالبرص بياضه الناصع، وفي لون المشيب عبرة وأي عبرة، فكم أجرت من الآماق أعظم عَبرة، فما كل بيضاء شحمة، ولا كل حمراء لحمة، على أن السواد حلية أهل الزهد والصلاح، وهل يسترقُّ الأسودَ إلاّ الأسودُ أحداق الملاح، بيد أن الحر لا يبالي بالجمال الظاهر، وإنما يباهي بالفعل الجميل والقلب الطاهر، ثم أنشد، وزفيره يتصعد:

وما الحسن في وجه الفتى شرف له ... إذا لم يكن في فعله والخلائق

فأفاض النهار، في حديث يفضح الأزهار، وقال: ما أشبه الليلة بالبارحة، والغادية بالرائحة، كم تدعي يا هذا أعلا المقامات، وأنت كثيف الحجاب أسير المنامات ، وهل يُقرنُ أوقات الغفلة بأوقات الحضور، إلا من ليس له في الحقيقة أدنى شعور، إنك لفي واد وأنا في واد، ولَكم بين لئيم وجواد، تجمع بين المعشوق والعاشق، وتسترهما بردائك عن الرقيب والطارق، ولقد قال مترجماً عن ذلك من سلكتَ به هاتيك المسالك:

بتنا على حال يسر الهوى ... وربما لا يمكن الشرح
بوابنا الليل وقلنا له ... إن غبت عنّا هجم الصبح

وهل يترنم بذكرك إلا غافل، وأنَّى يغترّ بك عاقل ونجمك آفل، وقد

---

(١) سورة التكوير: الآية ١٥، ١٦.

قدمت أني لك فاضح، وما ذا عليّ في ذلك والحق أبلج واضح، فإني نظرت إليك بنور علام الغيوب، فظهر لي ما بطن في سرك من العيوب، فجعلت مطويّ معايبك كتاباً منشوراً، ومنظوم كواكبك هباءً منثوراً، فأنا الناقد البصير، و الله الولي لي والنصير، وتعرُّضي لمحو دعاويك، وإثبات جرائمك ومساويك، من الواجب علي يا حليف الكرى، لخبر (من رأى منكم منكراً) فإلى متى تتبجّح بما لا طائل تحته ولا معنى، أسمع جعجعة ولا أرى طحنا،وحتى متى تعنف من لامك عن اتباع هواك، وأنت تدعي رتبة الكمال فهلا نهاك نُهاك[1]، فتنبه من غفلتك أيها الليل، قبل أن تدعو بالثبور والويل، وإلا فرُقت طلائع سوادك في كل طريق، ومزقت سوابغ دروعك أي تمزيق.

فاسودّ وجه الليل، وانقلب بحشف وسوء كيل، وندم على مناقشة النهار، ندامة الفرزدق[2] على النّوار، ولما سُقط في يده، ورزىء في عدَده وعُدَده، قال: من ينصفني من هذا الجاني، فإنه اضطرني إلى الجهر بالسوء وألجاني، حتى يرمقني بلحاظه ازورارا، ويرشقني بسهامه عتوّاً واستكباراً، وعلام يخفي دلائل فضلي وهي ذات وضوح واشتهار، ولقد صدق من قال: كلام الليل يمحوه النهار.

وما نمّ بسره وباح، حتى عطس أنف الصباح، فأسفر عن محاسن غُرّته، وقد برقت أسارير مسرته، وطلع بين يديه حاجب الشمس، فاستنقذ

---

(١) أي عقلك.

(٢) قال المحقق: همّام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي أبو فراس، كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس، وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل، كان شريفاً في قومه عزيز الجانب، وكان أبوه من الأجواد الأشراف، وكذلك جدّه، وقد جمع بعض شعره في ديوان مطبوع، ومن أمهات كتب الأدب والأخبار: «نقائض جرير والفرزدق» مطبوع في ثلاثة مجلدات، ونوار هي ابنة عين بن ضبيعة بن عقال المجاشعي، وكانت ابنة عم الفرزدق ا هـ.
قلت : ندم ندماً شديداً لمّا طلقها وبانت منه.

من الليل ما استأسره من الحواس الخمس، وقال له: كم ذا تدعي أنك غبين، وتتشكى مني وأنت المفتـري المبين، وهب أني ظلمتـك فـأنت البادي، وهل قابلتك إلا بما واجهتني به في المبادي، وإن رمت التقاضي، لـدى الحاكم أو القـاضي، فهلم إلى حضـرة الأميـر، ﴿**ولا ينبئـك مثـل خبير**﴾[1] فإنه لا زالت عين العلا به قريرة، موسوم بحسن السيرة وطيب السريرة، فقال له: على الخبيـر سقطت، وضـالة الحكمـة لقطت، وإني معترف بعدله في فصله، مغترف من بحر جوده وفضله، فهو الإمام العادل، والعالم العامل، فأمليا عليه سورة الواقعة والمجادلة، فحضهما على حسن المعاملة ودوام المجاملة، وقال لهما جانحاً إلى الصلح في جواب سؤاله: بعد حمد الله والصلاة على محمد وآله، إنكما كفتا ميزان أصحاب الرقائق، ودفتا كتاب أرباب الحقائق، بكما يتحلى المرء بحلا سعادته، ويتخلى من فضول طبيعته وعادته، فأنتما في الشرف رضيعا لِبان، وفي مضمار المجد والفخر فرسا رهان. هذا وإن كنتما ابْنَيْ ضَرّتين ظلمة ونور، فأبوكما هو الزمان الذي عليه أفلاك الوجود تدور، فليشدّ كل منكمـا عضده بـأخيه، وليحذر من تفريطه في جنبه وتراخيه، وعليكما باطّراح رداء الافتخار، فإن العبد لا يسود إلا بالافتقار، بارك الله فيكما وبلغكما المرام، ومنحكما كمال التوفيق وحسن الختام. ولما أصلح ما بين الليـل والنهار، وبـوأهما مهـاد الألفة بعد الوحشة والنِفار، وردَا من رشده موارد الائتلاف، وطرحا أعباء التعصب والاختلاف[2].

المرادي

محمد خليل أبـو المودة بن السيـد العارف علي بن السيـد محمد، المعروف بالمـرادي الحسينيّ الحنفيّ الدمشقيّ مفتي دمشق الشـام الإمام السيد السند، والهمام الفهامة المعتمد، فريد عصره ووحيد شامه ومصره من

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٤.

(٢) «حلية البشر»: ٣/١٣٥٤ ـ ١٣٦٨، وقال المحقق: توفي بدمشق سنة ١٣٣٠ هـ.

بيت العلم والجلالة والسيادة، والعز والرياسة والسعادة، ولا ريب أنه كان شامة الشام ، وغرة الليالي والأيام.

نشأ في حجر والده، وقرأ القرآن، وطالع في العلوم والأدبيات واللغة التركية والإنشاء والتوقيع، ومهر وأنجب واجتمعت فيه أشتات الفضائل ومتفرقات الشمائل، مع لطيف خلق يسعى اللطف لينظر إليه، ورقيق جمال يقف الكمال متحيراً لديه.

ولما توفي والده المرحوم آل إليه إفتاء الحنفية في الديار الدمشقية، ونقابة الأشراف.

(١) وكان رحمه الله مغرماً بصيد الشوارد، واستعلام الأخبار وجمع الآثار، وتراجم العصريين، على طريق المؤرخين. وكان يراسل فضلاء البلدان البعيدة، ويواصلهم بالهدايا والرغائب العديدة، ويلتمس من كل منهم تراجم أهل بلاده، وأخبار أعيان أهل القرن الثاني عشر بحسب وسع همته واجتهاده. إلى أن بلغ مطلوبه وحصل مرغوبه، ورقم ما رام فجاء بحمد الله على أتم مرام، وسماه «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر».

وله أيضاً كتاب عظيم أرخ فيه المفتين في دمشق من أيام السلطان سليم، وسماه: «عرف البَشَام[١] فيمن ولي فتوى دمشق الشام»

انتقل المترجم إلى الملك المقتدر سنة ست ومائتين وألف[٢].

السلطان محمود خان بن السلطان عبد الحميد خان

(٢) ولد سنة ألف ومائة وتسع وتسعين، وفي سنة ألف ومائتين واثنتين وعشرين جلس أخوه السلطان مصطفى على تخت الملك، وما استقر أمره ولا صفا له دهره، فأمر بقتل السلطان سليم، وبقتل المترجَم ذي القدر

---

(١) قال المحقق: البشام جمع بشامة: شجر طيب الرائحة.

(٢) «حلية البشر»: ١٣٩٣/٣ ـ ١٤٠٥.

العظيم، فنفد أمره في الأول، وأما الثاني وهو المترجَم لما جاءه جنود السلطان مصطفى الذين يريدون قتله، أراد الفرار فرشقه أحدهم بخنجر أصاب يده، فهرب وصعد على سطوح السرايا، فلما نظرته جماعة مصطفى باشا البيرقدار وكان من عصبة السلطان محمود، وضعوا له سلماً فنزل إلى صحن الدار، حيث كان البيرقدار، وعندما نظر البيرقدار إلى المترجَم فرح به فرحاً عظيماً وحمد الله تعالى على خلاصه من أخيه، وصار يقبل قدميه، ثم دخل به القاعة وأجلسه على تخت السلطنة في رابع جمادى الأولى سنة ألف ومائتين وثلاث وعشرين، وأرسل البيرقدار المشار إليه جنداً قبضوا على السلطان مصطفى وأمر بحبسه.

(١) فلما تم جلوس السلطان محمود جعل مصطفى باشا البيرقدار صدراً أعظم، وسلمه زمام الأحكام، أخذ يجتهد في أخذ الثأر من الذين قتلوا السلطان سليم، ثم شرع في تنظيم العسكر الجديد، وأرسل وطلب اجتماع أهل الحل والعقد من رجال الدولة، فلما حضروا أخذ يبين لهم شدة الاضطرار لتعليم العساكر صناعة الحرب وإنفاذ أوامر السلطان، طالباً رأيهم في ذلك، فصادقوه مذعنين لأمر السلطان، وتعهدوا بالمساعدة في كل ما يؤول لنجاح المملكة، وفي الحال أخذ الصدر الأعظم في وضع ترتيبات جديدة أوجبت الملام عليه من كثيرين، وأضمروا له السوء وصاروا يطعنون فيه جهاراً ويدعونه بالكافر، وعلقوا أوراقاً في الأسواق وعلى باب داره مكتوباً فيها قد قرب موت الصدر الأعظم، وساروا بأسلحتهم يطلبون قتل العساكر الذين تعلموا التعليم الجديد، فأخذوهم بغتة وشتتوهم وأحاطوا بمنزله وطرحوا فيه النار، ووقعت أمور يطول الكلام بذكرها.

(٢) وانقسم الناس فريقين فريقاً يريد التعليم الجديد وفريقاً يكرهه، وقتل بسبب هذه الفتنة خلق كثير، وأحرقت دور كثيرة، وحاصروا الصدر الأعظم في الدار التي كان فيها، وأطلق عليهم الرصاص وقتل كثيراً منهم، ثم التهبت عليه صناديق من بارود وكانت في داره، فمات بسبب ذلك، وكان قد أخرج جواريه ونساءه قبل ذلك، فأحيلت الصدارة إلى يوسف باشا،

وكان ذلك في سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف، وعزل شيخ الإسلام عطا الله أفندي وأحيلت المشيخة إلى عرب زاده محمد عارف أفندي، وكتب السلطان مصطفى وهو محبوس كتاباً إلى عساكر الانكشارية يحرضهم على الغيرة وإرجاعه إلى سلطنته، فوقع ذلك الكتاب في يد بعض العلماء فذهب به إلى شيخ الإسلام، فجمع كثيراً من العلماء وأخذوا يتحدثون في عواقب هذه الأمور، ويتشاورون في إطفاء هذه الفتنة، وظهر لهم أنه إذا بقي السلطان مصطفى في قيد الحياة لا تنطفىء الفتنة، فاختاروا رجلاً من بينهم يقال له منيب أفندي كان قاضي إسلامبول ليعرض على السلطان محمود رأي العلماء، ويلتمس منه قتل السلطان مصطفى، فسار منيب أفندي إلى السلطان محمود وعرض عليه ذلك، فقال السلطان محمود: إن هذا أمر محال، وكيف يتصور أن يصدر أمري بقتل أخي مع كوني قادراً على منعه من هذه الأعمال، وصار بينه وبين السلطان محمود محاورة كثيرة في ذلك، فقال له منيب أفندي في أثناء تلك المحاورة: قد جاء في الحديث الشريف: «إذا اجتمع خليفتان فاقتلوا أحدهما» فشق ذلك على السلطان محمود، وحول وجهه إلى شباك هناك ولم يجبه بشيء لشدة أسفه على أخيه، فقال منيب أفندي: إن السكوت إقرار، ففي الحال أرسل منيب أفندي إلى (كبير البستانجية) وقال له: إن مولانا السلطان قد صدر أمره الشريف بقتل أخيه السلطان مصطفى، فاذهب وأتم أمره، فذهب البستانجي باشي ومعه جماعة من أعوانه إلى الموضع الذي كان فيه السلطان مصطفى، فأحسّ بهم وعرف مقصدهم، فاختبأ بين فرش كانت هناك، فدخلوا فوجدوه وراء الفرش فقتلوه خنقاً، وكان العلماء الذين اجتمعوا عند شيخ الإسلام ينتظرون رجوع الجواب إليهم، فلما أبطأ ظنوا عدم قبول السلطان فدخلوا جميعاً على السلطان محمود ترويجاً لكلام منيب أفندي، فلما دخلوا قبل أن يبتدئوا الحديث رأى السلطان محمود من الشباك إخراج أخيه ميتاً، فتألم كثيراً والتفت إليهم وعيناه ممتلئتان دموعاً، فعزوه ودعوا له بطول العمر، وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف، ومدة

سلطنة مصطفى سنة وشهران وعمره ثلاثون سنة.

ولما استقرت السلطة للسلطان محمود كانت أمور الدولة في غاية الارتباك، وكانت عساكر الروسية تتقدم إلى جهة الطونة بسرعة، فبعث جيشاً لمصادمتهم فلم يجد نفعا، فطلبت فرانسا أن تتوسط في الصلح، فرفض السلطان مداخلتها لتأثره من الشروط التي عقدها نابليون مع الروسية سراً في تيلسيت، التي مضمونها اقتسام أوربا بينهما مع بلاد الدولة العلية، واستمر الحرب، مع كون الغلبة على العثمانيين، إلى أن وقع خلاف بين فرانسا وروسيا ونشرت بينهما راية الحرب، وذلك سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين، فالتزمت الروسيا أن تخرج عساكرها من حدود الدولة العلية، وعقدت مع الباب العالي صلحاً موافقاً للدولة جداً.

(١) فاغتنم السلطان محمود فرصة هذا الصلح لتسكين الثورات في ولايتي بغداد وايدين وغيرهما، فإنه في سنة ألف ومائتين وست وعشرين أظهر سليمان باشا والي بغداد العصيان، فأرسل إليه السلطان محمود من قتله.

(٢) وفي عام ألف ومائتين وسبعة وثلاثين تجاهر اليونان في المورة بالعصيان على الدولة، وكانوا يهاجمون بمراكبهم على سواحل البحر، فيقتلون ويسلبون وينهبون ويأسرون، وبيان ذلك مع الاختصار أن بلاد المورة وهي قطعة من بلاد الروملّي[1] كانت ولاية من ولايات الدولة العلية، فلما اقتضى نظر السلطان محمود قتل الينجارية[2] وتبديل وجاقهم[3] بالعساكر النظامية الموجودة الآن، ضعفت عساكر الدولة وقلّت، وطمع فيها الأعداء من كل جانب، فحاربها الروس وملكوا بلاداً من أراضيها.

(٣) وممن ثار عليها في تلك المدة أهل المورة، وطردوا ولاة الدولة

---

(١) بلاد العثمانيين في أوروبّا.

(٢) أي الإنكشارية، وهو الجيش العثمانيّ القديم.

(٣) الوجاق: النظام.

العلية، وقتلوا أكثر المسلمين الذين كانوا في تلك البلاد متولدين ومتوطنين منذ قرون طويلة، وكان المسلمون هم أهل الأراضي والأملاك والمزارع، وكانت نصارى المورة بصفة خدامين عندهم، فلا زال أمر النصارى يتقوى بواسطة الكنائس ورؤسائها لما يجتمعون في أعيادهم ومواسمهم، وينصح بعضهم لبعض بالاستقلال، وشرعوا في تعليم أولادهم الحروب والرمي بالرصاص، وأتقنوا أسباب الشجاعة بأنواعها سرا، وتعلموا الصنائع، والمسلمون في غاية الغفلة والبله، يتركون تربية أولادهم للنساء والمخاصي المعبر عنهم بالأغوات، فلذلك تنشأ أولادهم عقولهم بين عقول النساء والمخاصي، وما ألذ وأحسن ما قاله الشاعر المتنبي في هذه المناسبة حيث قال:

لقد كنت أحسب قبل الخصى　　أن الرؤوس مقر النهى
فلما تبين لي عقله　　علمت أن النهى كلها في الخصى

ولما ظهر للسلطان محمود ما حصل لمسلمي المورة من القتل والسبي والنهب إلا من فرّ منهم وهاجر إلى بلاد الإسلام، جهز جيشاً عرمرماً من عنده، وأمر محمد علي باشا والي مصر بتجهيز جيش آخر من عنده، فاجتمع الجيشان في بلاد المورة تحت قيادة ولده إبراهيم باشا، يزيد على خمسة وعشرين ألفا، وعمارة بحرية، فأيس الأروام من النجاة ونوال الاستقلال، فاستنجدوا بالدول الأوروباوية، فبادرهم كل من فرانسا وانكلترا بتوسط الصلح، فلم يقبل السلطان سؤالهما، فعند ذلك أطلق كل منهما نار حربه على عمارتي الدولة ومحمد علي فأحرقوها، وكان ذلك سنة ألف ومائتين وإحدى وأربعين، ولما بلغ السلطان محمود ذلك التجأ لقبول ما اشترطاه من إبطال الحرب واستقلال الأروام. وكان أخذ المورة من يد المسلمين هو أكبر أسباب خروج الروملّي بأجمعه من الدولة العلية.

(١) وفي سنة إحدى وأربعين أيضاً شرع السلطان محمود تعليم بعض

العساكر التعليم الجديد، وشرع يدبر تدمير الإنكشارية وإبطال وجاقهم[1] فأبرز أمراً سلطانياً يتضمن القدح في وجاق الإنكشارية، وبيان الخلل الواقع منهم، وتقلبهم على الدولة، وقتلهم بعض السلاطين، وأمر سليم باشا الصدر الأعظم أن يجمع العلماء في بيت شيخ الإسلام ويتلو عليهم الأمر الشاهانيّ ففعل ذلك، فأجابوا بالامتثال بما يصدر به الأمر السلطاني، وتعهدوا بإنفاذه، وكان مع الحاضرين جماعة يميلون إلى الإنكشارية، فتعصبوا لهم سرا، وأخبروهم بما صار عليه الاتفاق، فهجموا على بيت الصدر الأعظم وبعض العظماء من رجال الدولة ، وأخذوا ينادون في شوارع إسلامبول ويقولون اليوم قتل العلماء ورجال الدولة وكل من كان السبب في وضع النظام الجديد، ويقتلون كل من صادفوه منهم، وينهبون البيوت ويضرمون فيها النار، ففر الصدر الأعظم منهم، وجاء إلى السلطان محمود وأخبره بتلك الحوادث، فأمره أن يجمع الطوبجية[2] وسائر أهل الإسلام أمام باب السرايا، فاجتمع في ذلك النهار جمع غفير من العلماء ورجال الدولة، ينتظرون خروج السلطان إليهم، فلما خرج إليهم أخذ يحدثهم بكلام يهيج به نخوتهم، فأقسم جميعهم على أنهم يهرقون دماءهم في صيانة أوامره وتنفيذها، والتمسوا منه إخراج الصنجق[1] الشريف النبوي ليهجموا على العصاة، فأراد السلطان أن يكون معهم، فتوسلوا إليه أن لا يتنازل إلى ذلك، وأرسلوا منادين في شوارع المدينة ويدعون أهل الإسلام للاجتماع تحت الصنجق[3] الشريف، فلما علم بعض الإنكشارية بذلك أرسلوا أناساً من جماعتهم ينادون لاجتماع الانكشارية، فلما قرعت أصوات المنادين آذان أهل الإسلام أسرعوا إلى فسحة السرايا أفواجاً أفواجاً، ففرقوا عليهم السلاح، وسلم السلطان الصنجق الشريف لشيخ الإسلام قاضي زاده طاهر أفندي وعاد إلى كرسيه الملوكي، وكان يشرف على الجميع أمام

---

(١) الوجاق: النظام.

(٢) قال المحقق: الطوبجية: مطلقو نيران المدافع.

(٣) قال المحقق: السنجق: اللواء، العَلَم.

السرايا، وسار سليم باشا الصدر الأعظم أمام تلك الجموع التي كانت أكثر من خمسين ألفا، وشنوا الغارة على الإنكشارية صارخين الله أكبر على الأشقياء، وهجموا عليهم وأطلقوا المدافع والرصاص، وكان يوماً مهولاً عظيما، فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف، والباقون فروا إلى قشلهم[1] وتحصنوا فيها، فهجم عليهم العساكر والأهالي وطرحوا فيها النار فاحترق كثير منهم، ومن بقي ولوا الأدبار، ثم قبضوا على كثير منهم فقتلوهم وطرحوهم في فسحة آت ميدان.

وبعد ذلك دعا السلطان إليه العلماء ووكلاء الدولة وأخذ يريهم أثواب السلاطين العظام الملطخة بالدماء، الذين قتلهم العصاة الإنكشارية طالباً ثمن دم السلاطين، فأجاب العلماء أن ثمن دم كل سلطان خمسة وعشرون ألف نفس، فصدرت الأوامر بتدمير الإنكشارية في الآستانة العلية وفي جميع الجهات، فقتل منهم عدد كثير وارتاحت الدولة والناس من مظالمهم.

(١) وألحق بهم بعض الدراويش من البكطاشية[2] لكونهم يميلون إليهم ويساعدونهم ويفعلون في تكياتهم أفعالاً شنيعة محرمة وبدعاً مسترذلة، فأمر السلطان بقتل أكثرهم وهدم تكياتهم، وأخذت الدولة في تكثير العساكر النظامية والجد في تعليمهم، وأبطلت وجاق[3] الإنكشارية.

وفي أثناء تلك المدة غير السلطان محمود لبسه، ونزع العمامة والجبة، وتزيا بزي العسكر الجديد على هيئة الأوروباويين، وبالطربوش الصغير، ولم يبال بأقوال المعترضين.

(٢) وفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف، زحفت العساكر الروسية لمحاربة الدولة العلية عند نهر الطونة، وسار جيش إلى جهة الأناطول، فأرسلت الدولة عساكر لمصادمتهم تحت قيادة الصدر الأعظم سليم باشا،

---

(١) ثكناتهم.
(٢) طريقة من الطرق الصوفيّة، وهي طريقة ضالّة.
(٣) نظام.

فوقع بين الفريقين حرب شديدة، وتغلبت عساكر الروسية وهزموا عساكر الدولة، واستولوا على جملة أماكن، وتقدمت عساكرهم إلى شوملة، وأقاموا الحصار على سليسترة واستولوا على مدينة وارنة، فعزل السلطان الصدر الأعظم سليم باشا وأمر بنفيه، وأقيم في الصدارة محمد عزت باشا، وسارت بعض عساكر الدولة إلى جبل البلقان، فتركت الروسية محاصرة شوملة، وكانوا قد استولوا على سليسترة، وكانت عساكر الروسية التي في الأناطول تتقدم، فملكوا القرص وبايزيد وطبراق وأرض روم، واستأروا صالح باشا، وجاء جيش الروسية فيه مائة وستون ألف مقاتل وحاصروا أدرنة حصاراً شديداً، إلى أن استولوا عليها، ولما اشتد الأمر على رجال الدولة وعلى السلطان محمود اضطربت الأمور اضطراباً كثيرا، إلا أن السلطان محمود أظهر الثبات وقوة الجنان في وسط تلك الأخطار المحدقة به وبدولته، ثم تداخلت دول أوروبا في الصلح، وأتموه بشروط، سنة خمس وأربعين ومائتين وألف، ومآل تلك الشروط استقلال الأروام وتنازل الدولة عن إقليم الصرب[1] والأفلاق والبغدان لملوك من أهل تلك البلاد، تحت نظارة ملك

---

(١) قال محقق «تاريخ الدولة العلية العثمانية»: ٥٣٥ إن «بلاد الصرب بعد حرب قوص أوه سنة ١٣٨٩ م دخلت في الحكم العثماني فظلت حتى سنة ١٨١٥ م، وفي سنة ١٨٣٠ أصحبت إمارة مستقلة تابعة للدولة العثمانية، وفي سنة ١٨٥٦ م ضمنت أوروبا ـ بموجب معاهدة باريس ـ الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للصرب، وفي سنة ١٨٧٥ ثارت الصرب على الدولة وانتهى الأمر بأن أصبحت الصرب دولة مستقلة سنة ١٨٧٨ بموجب معاهدة برلين ... ثم إنها بعد حرب ضد تركيا سنة ١٩١٢ وحرب ضد بلغاريا سنة ١٩١٣ اتسعت رقعتها على حساب هاتين الدولتين توسعاً كبيراً. . . ثم أصبحت مركزاً لمملكة تضم الصرب والكروات والسلاف، وصارت سنة ١٩٢٩ تسمى يوغوسلافيا».

(أ) وقد كانت الفتن تموج في بلاد الصرب في أواخر أيام الحكم العثماني، وقد ذكر مؤلف «تاريخ الدولة العثمانية» أن سبب هذا هو: «عدم السعي وقت الفتح في محو عصبيات الأمم المختلفة بعد الاستيلاء عليها ببذل الجهد في إضعاف ثمّ تلاشي لغتهم وعوائدهم حتى يصير الكل أمة واحدة عثمانية».

(ب) وذكر أيضاً أن معاملة الإنكشارية ـ وهم الجيش العثماني ـ السيئة لأهل تلك البلاد =

الروسية، وعن بعض جزائر عند فم نهر طونة، وعن بعض أراض في الأناطول[1] مع غرامة حربية قدرها مائة وعشرة ملايين فرنك.

= دفعتهم لطلب الاستقلال فقد ذكر أنه «لما فتحت بلاد الصرب نهائياً بعد واقعة (قوص أوه) الشهيرة أعطيت كافة أراضيها إلى الفرسان العثمانية (سباه) أي أنها تبقى تحت يد ملاكها الأصليين المسحيين بشرط دفع جُعْل أو خراج معين لمن أعطيت له... فاستبد معهم ملتزموا الإقطاعات وعاملوهم معاملة نفرت قلوبهم وأوجدت فيهم محبة الاستقلال».

ولقد ساعدت الصرب روسيا والنمسا في حربهما الأخيرة ضد الدولة العثمانية، و لما انتهت الحرب عفت الدولة عنهم وعادوا إلى بلادهم، وبعد عودتهم اضطهدهم الإنكشارية ونهبت قراهم وتعدوا عليهم بكافة أنواع الإهانة.

«ولما اشتكى الأهالي من هذه المظالم أمرت الدولة والي بلغراد بمعاقبة الإنكشارية وإخراجهم من أراضي الصرب قاطبة فلم يمتثلوا هذه الأوامر، ولذا حاربهم الوالي بمساعدة السباه [الفرسان العثمانيون] وتغلب عليهم وأخرجهم من مدينة بلغراد بعد أن قتل رئيسهم... ولكنهم... حاصروا مدينة بلغراد ودخلوها عنوةً وقتلوا واليها وانتشروا في أطراف البلاد يعيثون فساداً... ولما ضاق الصربيون ذرعاً اجتمعوا للدفاع عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وانتخبوا لهم رئيساً من أهلهم وهو جورج بتروفتش وطاردوا الإنكشارية حتى أبعدوهم عن الأراضي والقرى وصاروا لا يمكنهم الخروج من المدن لتربص الأهالي لهم...

ثم أرسل الباب العالي إلى بكير باشا والي بوسنة يأمره بمساعدة الصرب ومحاربة الإنكشارية وطردهم من بلغراد... فأتى بجيشه وحاصرها مع بتروفتش حتى دخلاها وأخرجا الإنكشارية منها.

ومن ذلك الحين لم ترجع السكينة إلى بلاد الصرب... ولم يهدأ لهم بال حتى تحصلوا على الاستقلال الإداريّ ثم السياسيّ.

(١) قال المحقق: في «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك، ما يأتي: وعينت الدولة مندوبين من قبلها اجتمعوا مع مندوبي الروسية في مدينة بخارست، وبعد مداولات طويلة، توصل الفريقان إلى أمضاء معاهدة عرفت في التاريخ باسم معاهدة بخارست، أمضيت في ١٦ جمادى الأولى (سنة ١٢٢٧ الموافق ٢٨ مايو سنة ١٨١٢). أهم شروطها إبقاء ولايتي الأفلاق والبغدان تابعتين للدولة، ورجوع الصّرب إلى حوزتها مع بعض امتيازات قليلة الأهمية عديمة الجدوى، وحفظت الروسيا لنفسها اقليم بساريا وأحد مصبّات الدانوب. اهـ ص ٢٩٩ من الطبعة الثانية.

(١) قال بعض مؤرخي الفرنج: وربما استغرب القارىء كيف أن الدولة التي سادت على أغلب ممالك العالم وأوقعت الرعب في قلوب جميعهم، لم تستمر في نموها وتقدمها، حتى التزم سلاطينها إلى أن يرتضوا هذه الشروط، فإذا نظر إلى هذا الأمر بعين خالية عن الغرض يحق الاستغراب من وجه آخر، وهو: كيف أمكن هذه الدولة أن تحتمل هذه الصدمات الشديدة والمقاومات المريعة من أعدائها مع وجود الخلل في داخليتها، بسبب أصحاب البغي والفساد وقلة الأموال، ولم تتزعزع أركانها بل استمرت في سلك الثبات العجيب، ولم تستطع قوة أو سبب آخر أن يثنيها، وإذا ضممنا إلى هذه الأسباب الخلل الذي أوقعه الإنكشارية، وعدم تمام انتظام الترتيب العسكريّ الجديد، وعدم تمرن الجيوش بفنون الحرب وملاقاة الأهوال، لربما حق العجب كيف لم تنقرض هذه الدولة أصلا، واستطاعت أن تناضل إلى هذه الدرجة، مستهينة بكل الموانع التي تعرضت لها، فهذا أعظم برهان على عظمها وسطوتها، انتهى كلامه.

(٢) وأقول إن ههنا سراً إلهياً لتأييدها، وهو سر بركة الإسلام وسر بركة النبي ﷺ والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٣) وفي سنة خمس وأربعين ومائتين وألف، استولت الفرنسيس بقوة جبرية على جزائر الغرب مدّعين أن أهلها كانوا يقبضون على مراكبهم التجارية ويربطون عليهم البحر في تلك الجهات ويفتكون بهم، فلما بلغ الباب العالي ذلك أرسل طاهر باشا قبودان باشا إلى الجزائر يتعاطى الصلح بينهم وبين أحمد باشا والي الجزائر، فلما وصل وأراد النزول إلى البر منعته الفرنساوية، فعاد راجعاً إلى القسطنطينية، والجزائر المذكورة كانت في حكم الدولة العلية من حين تملكها السلطان سليمان، فلما طالت المدة صار الولاة الذين فيها يتوارثون الولاية بالتغلب، ويدفعون خراجاً للدولة، ويكون تحت أمر الدولة ظاهراً ومتغلبين باطناً، فلما أحدثت الدولة العساكر السلطانية بالتعاليم الجديدة امتنع والي الجزائر من تعليم عساكرها، ولم

يمتثل أمر السلطان في ذلك، فقيل إن السلطان محمود هو الذي سلط عليه الفرنسيس لتأديبه فجاؤوا بجيوش كثيرة وحاصروا الجزائر إلى أن قبضوا على الباشا المتولي عليها وذهبوا به إلى بلادهم، وتملكوا الجزائر وحصنوها بالعساكر، فلما تملكها الفرنسيس لم يرجع تلك الجزائر لحكم الدولة بل استولى عليها وبقي على ذلك إلى عصرنا هذا[١].

ذكر القتال بين محمد علي باشا والسلطان محمود

وفي سنة سبع وأربعين ومائتين وألف، وجه محمد علي باشا والي مصر جيوشه براً وبحراً لتملك الشام وجعل قيادتها لولده إبراهيم باشا، فحاصر عكا وافتتحها مظهراً الانتقام من عبد الله باشا والي عكا لأسباب كانت بينهما، وفتح في طريقه غزة ويافا وحيفا، فلما بلغ الدولة ذلك غضبت وأرسلت تأمر محمد علي باشا برجوع العساكر، وأنه إذا كان بينهما دعوى يقدمان إلى الباب العالي فيحكم بينهما، فلم يمتثل لأوامر الدولة، فأبرزت الدولة فرماناً[٢] بعصيان محمد علي باشا، وتنزيله عن ولاية مصر، وصدر الأمر السلطاني لوالي حلب بجمع العساكر لمحاربة إبراهيم باشا،

---

(١) قال المحقق: الحمد والشكر له تعالى، على أن استقلت الجزائر وسائر الشمال الإفريقي العربي. وقد زففنا هذه البشرى من قبل، واليوم تقدّم ما هو أجلّ وأكمل، وهو أنه انعقد مؤتمر عامّ للقارّة الإفريقية كلها، واجتمع رؤساء ثلاثين دولة في أديس بابا عاصمة الحبشة، ووقعوا ميثاق الوحدة الإفريقية لبلادهم كلّها، وأهمها السعي لتحرير أي بقعة بقي فيها أثر الاستعمار، ولم يكن للظالمين من أنصار، وقد انتهى المؤتمر في اليوم الثالث من شوال سنة ١٣٨٢ هـ ، ٥/٢٦ سنة ١٩٦٣.
قلت: ليس ذلك ـ كما تبيّن فيما بعد ـ أمراً داعياً للبهجة والسرور؛ لأن المستعمر قد رحل وأبقىٰ أذنابه وأعوانه ووارثيه يتحكمون في البلاد والعباد، وينحّون شرع الله تبارك وتعالى، وما صنيعهم الآثم في أكثر البلاد بخاف على أحد، والله موعدهم وإليه ـ سبحانه ـ مصيرهم.

(٢) قال المحقق: فرمانا: أمراً سلطانياً.

وخرج حسين باشا بعساكر من الأسِتانة، وحصل القتال بين الفريقين خارج طرابلس، فهزمهم إبراهيم باشا واستولى على الأقطار الشامية. وقبض على عبد الله باشا والي عكّا وأرسله إلى الإسكندرية لأبيه محمد علي باشا، ولما وصل إبراهيم باشا إلى داريا قرب دمشق خرج إليه علي باشا وزير دمشق، واشتبك الحرب بينهما فهزمهم إبراهيم باشا، وخرج أهل دمشق يسألونه الأمان فأمنهم ودخلها، وتقدم إلى حمص واشتبك القتال بينه وبين والي حلب، وكان يوماً عظيماً وحرباً شديداً من أشهر الوقائع، قتل فيه خلق كثير، وانهزم والي حلب ورجع إليها، فقفلت في وجوههم الأبواب، فساروا إلى أنطاكية، ولما وصل إبراهيم باشا إلى حلب خرج أهالي حلب لاستقباله، فدخلها وتسلم ما كان فيها من الذخائر والمهمات، وأمن أهلها، ثم سار إلى أنطاكية وحاربهم فيها ثم إلى بوغاز[1] بيلان، ولما بلغ الباب العالي تقدم العساكر المصرية سير رشيد باشا الصدر الأعظم بالجيوش لحربهم، فتقدم إلى قونية، والتقى الجيشان واشتبك القتال، وانهزمت عساكر الدولة وقبض على رشيد باشا الصدر الأعظم، وأتي به إلى إبراهيم، فقابله بكل إكرام ثم خلى سبيله، وامتدت هذه الفتنة والحروب إلى سنة خمس وخمسين ومائتين وألف، ثم صدرت الأوامر السلطانية إلى حافظ باشا ليسير لمحاربة إبراهيم باشا، فالتقى الجيشان بالقرب من مرعش واقتتلا، ووقعت الهزيمة أولاً على عساكر إبراهيم باشا، وكان في واد عَسِر فجمع العساكر وخرج بهم من ذلك الوادي، وصعد إلى تل كان تجاه معسكر حافظ باشا، وأخذ يطلق عليهم المدافع فعطل أكثر مدافعهم وفرق صفوفهم، ثم هجم عليهم بعساكره هجمة هائلة، فانهزموا أمامه تاركين مدافعهم ومهماتهم عائدين إلى مرعش، وقتل من الفريقين خلق كثير، وهذه الوقعة من أشهر تلك الوقائع التي وقعت في تلك الحروب، وأعقبها إبراهيم باشا بفتح أكثر الجهات في تلك البلاد، ولم تصل أخبارها إلى القسطنطينية إلا بعد وفاة السلطان محمود بثمانية أيام.

---

(١) قال المحقق: بوغاز: خليج، مضيق مصب.

(١) ومن فتوحاته[1] المعنوية اعتناؤه بأهل الحرمين كمال الاعتناء، فإنه صدرت الإرادة الشاهانية[2] من دولته بتحرير ما كان يصرف لهم من قمح الجراية، فوجدوا أكثر ذلك بيد الأغنياء والتجار كانوا يأخذونه من الفقراء بعوض حقير، فصار الفقراء ليس لهم شيء، فصدر الأمر الشاهاني بنقض ذلك وإبطاله، وتجديد كتابة دفتر بأسماء المستحقين، فحصل تجديد ذلك في المدة التي كان فيها محمد علي باشا بمكة.

(٢) ومن خيراته وفتوحاته المعنوية أنه جدد لأهل الحرمين خيرات ومرتبات زيادة على الذي كان مرتباً لهم من أسلافه، وذلك أنه في سنة إحدى وخمسين بعد المائتين والألف رتب مرتبات للعلماء والخطباء بالحرمين الشريفين، وللقائمين بخدمة المسجدين الشريفين مثل المؤذنين والفراشين والكناسين والبوابين، وجعل للجميع مرتبات جزيلة من النقود الجليلة، بعضها شهريات وبعضها سنويات، واشترى لذلك عقارات كثيرة، وأوقفها ليصرف من غلاتها جميع المرتبات المذكورة، فصارت حسنة جارية إلى هذا الوقت يحصل منها كمال النفع والإعانة للمذكورين على معاشهم، ومن وقت هذا الترتيب كان ابتداء وضع المدير والمديرية بمكة والمدينة، ولم يكن ذلك موجوداً قبل ذلك، ثم إن ولده مولانا السلطان عبد المجيد ضم إلى ذلك الترتيب مثله في مدة سلطنته.

وكانت مدة سلطنة السلطان محمود اثنتين وثلاثين سنة وعمره خمس وخمسون سنة. وكانت وفاته سنة خمس وخمسين ومائتين وألف[3].

السلطان مراد الخامس بن السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود خان

(٣) تولى الملك سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف وبيان ذلك أنه اجتمع

---

(١) أي السلطان محمود.

(٢) أي السلطانيّة.

(٣) «حلية البشر»: ٣/١٤٥٦ - ١٤٦٧.

حضرة الصدر الأعظم وشيخ الإسلام خير الله أفندي ومدحت باشا مأمور المجالس العالية وعموم الوكلاء، في الباب السرعسكري[1] وعقدوا مجلساً مخصوصاً ووجهوا حضرة السرعسكر[2] باشا إلى دائرة حضرة مولانا السلطان مراد خان فأبدى لعظمته قائلاً إنه بالاتفاق العموميّ صار خلع السلطان عبد العزيز خان[3] استناداً على الفتوى الشريفة التي أعطيت من جانب المشيخة الإسلامية، وصورتها: إذا كان زيد الذي هو أمير المؤمنين مختل الشعور، ولا قسم له في الأمور السياسية، وقد صرف الأموال الأميرية على مصاريفه النفسانية، على نوع يفوق طاقة وتحمّل الملك والملة، وأجرى إخلال وتشويش الأمور الدينية والدنيوية، وضر الملك والملة، وكان بقاؤه مضراً بحق الملك والملة، هل يلزم خلعه؟ الجواب: يلزم. كتبه الفقير حسن خير الله عفي عنه.

ثم إنه بعد أن صار جلوس السلطان مراد وشاع خبره لدى الخاص والعام، حصل التبليغ والإفادة من طرف حضرة رديف باشا المأمور على العساكر الشاهانية، إلى حضرة السلطان عبد العزيز بمعرفة أفندية مكتب الحربية السلطانيّ، وبمعرفة حضرة آغا دار السعادة الشريفة دولتلو عنايتلو جوهر آغا المتصف بالحماية والحمية الملية والصلابة الدينية، قائلاً: إن الملة العثمانية المعظمة خلعتك من السلطنة وبايعت سلطاننا السلطان مراد خان، وصدرت الإرادة السنية بإقامتكم في سرايا طوب قبو، فبناء على ذلك توجّه حضرة عبد العزيز أفندي إلى السرايا المذكورة، مع متعلقاته ومنسوباته بخمسة قوارب متفرقة، وبقي في السراي المرقومة إلى أن توفي بعد أيام.

(١) ثم إن السلطان المترجَم وقع في شعوره خلل مسقط له عن أهليّة

---

(١) قيادة الجيش.

(٢) قال المحقق: قائد الجيوش.

(٣) قال المحقق: السلطان عبد العزيز سلطان بني عثمان (١٨٣٠ - ١٨٧٦) كان مسرفاً، وقد انسلخت في أيامه بعض البلاد كرومانيا وصربيا عن تركيا.

الملك فاقتضى المقام خلعه، بعد استفتاء شريف من المشيخة الإسلامية، فكان الإفتاء بوجوب خلعه إبقاء لاستقامة الدولة وحفظ الملة وحقوقها، فبناءً على ذلك خلع بعد جلوسه على عرش الملك ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، وتولّى مكانه حضرة السلطان الأفخم والخاقان الأعظم السلطان عبد الحميد خان، أدام الله دولته مدة الدوران، وكان خلع السلطان مراد يوم مبايعة السلطان عبد الحميد ثالث شهر شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف[1].

السيد مرتضى الزبيدي

الإمام الفاضل والهمام الكامل، قال صاحب «عجائب الآثار»: العمدة الفهامة العلامة، الفقيه، المحدّث، اللغويّ، الأصوليّ، الناظم الناثر.

ولد سنة خمس وأربعين ومائة وألف، ونشأ ببلاده، وارتحل في طلب العلم، وحجّ مراراً، ثمّ ورد إلى مصر سنة سبع وستين ومائة وألف وسكن بخان الصاغة، وحضر دروس أشياخ الوقت، وتلقى عنهم وأجازوه، وشهدوا بعلمه وفضله وجودة حفظه، واشتهر ذكره عند الخاصّ والعام.

ثم تزوج وسكن بعطفة الغسال مع بقاء سكنه بوكالة الصاغة.

شرع في شرح القاموس حتى أتمه في عدة سنين في نحو أربعة عشر مجلداً، وسماه تاج العروس، ولما أكمله أولم وليمة حافلة جمع فيها طلاب العلم وأشياخ الوقت بغيط المعدية، وذلك في سنة إحدى وثمانين ومائة وألف، وأطلعهم عليه واغتبطوا به وشهدوا بفضله وسعة اطّلاعه ورسوخه في علم اللغة، وكتبوا عليه تقاريظهم نظماً ونثرا.

ولما أنشأ محمد بيك أبو الذهب جامعه المعروف بالقرب من الأزهر، وعمل فيه خزانة للكتب، واشترى جملة من الكتب ووضعها بها، أنهوا إليه شرح القاموس هذا، وعرفوه أنه إذا وضع بالخزانة كمل نظامها وانفردت

---

(١) «حلية البشر»: ٣/١٤٨٣ - ١٤٨٦.

بذلك دون غيرها، ورغبوه في ذلك، فطلبه وعوضه عنه مائة ألف درهم فضة، ووضعه فيها.

(١) ولم يزل المترجم يخدم العلم ويرقى في درج المعالي ويحرص على جمع الفنون، التي أغفلها المتأخرون، كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث، واتصال طرائق المحدثين المتأخرين بالمتقدمين، وألّف في ذلك كتباً ورسائل ومنظومات وأراجيز جمة، ثم انتقل إلى منزل بسويقة اللالا، تجاه جامع محرم أفندي، وذلك في أوائل سنة تسع وثمانين ومائة وألف، وكانت تلك الخطة إذ ذاك عامرة بالأكابر والأعيان، فأحدقوا به وتحبب إليهم واستأنسوا به وواسوه وهادوه، وهو يظهر لهم الغنى والتعفف ويعظهم، ويفيدهم بفوائد وتمائم ورقى، ويجيزهم بقراءة أوراد وأحزاب، فأقبلوا عليه من كل جهة وأتوا إلى زيارته من كل ناحية، ورغبوا في معاشرته لكونه غريباً وعلى غير صورة العلماء المصريين وشكلهم، ويعرف اللغة التركية والفارسية، بل وبعض لسان الكَرْج، فانجذبت قلوبهم إليه وتناقلوا خبره وحديثه.

ثم شرع في إملاء الحديث على طريق السلف في ذكر الأسانيد والرواة والمخرجين من حفظه على طرق مختلفة، وكل من قدم عليه يملي عليه الحديث المسلسل بالأولية، وهو حديث الرحمة[1] برواته ومخرجيه، ويكتب له سنداً بذلك وإجازة.

(٢) ثم إن بعض علماء الأزهر ذهبوا إليه وطلبوا منه إجازة، فقال لهم لا بد من قراءة أوائل الكتب، واتفقوا على الاجتماع بجامع شيخون بالصليبة الإثنين والخميس تباعداً عن الناس، فشرعوا في صحيح البخاري بقراءة السيد حسين الشيخوني، واجتمع عليهم بعض أهل الخطة والشيخ موسى الشيخوني إمام المسجد وخازن الكتب، وهو رجل كبير معتبر عند أهل

---

(١) وهو قوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمْكم من في السماء».

الخطة وغيرها، وتناقل في الناس سعي علماء الأزهر مثل الشيخ أحمد السجاعي والشيخ مصطفى الطائي والشيخ سليمان الأكراشي وغيرهم للأخذ عنه، فازداد شأنه وعظم قدره، واجتمع عليه أهل تلك النواحي وغيرها من العامة والأكابر والأعيان، والتمسوا منه تبيين المعاني، فانتقل من الرواية إلى الدراية، وصار درساً عظيماً، فعند ذلك انقطع عن حضوره أكثر الأزهرية، وقد استغنى عنهم هو أيضاً، وصار يملي على الجماعة بعد قراءة شيء من الصحيح حديثاً من المسلسلات أو فضائل الأعمال، ويسرد رجال سنده ورواته من حفظه، ويتبعه بأبيات من الشعر كذلك، فيتعجبون من ذلك لكونهم لم يعهدوها فيما سبق في المدرسين المصريين، وافتتح درساً آخر في مسجد الحنفيّ وقرأ «الشمائل»[1] في غير الأيام المعهودة بعد العصر، فازدادت شهرته، وأقبلت الناس من كل ناحية لسماعه ومشاهدة ذاته، لكونها على خلاف هيئة المصريين وزيهم.

(١) ودعاه كثير من الأعيان إلى بيوتهم وعملوا من أجله ولائم فاخرة، فيذهب إليهم مع خواص الطلبة والمقرىء والمستملي وكاتب الأسماء، فيقرأ لهم شيئاً من الأجزاء الحديثية، كثلاثيات البخاريّ أو الدارميّ أو بعض المسلسلات بحضور الجماعة وصاحب المنزل وأصحابه وأحبابه وأولاده، وبناته ونسائه من خلف الستائر، وبين أيديهم مجامر البخور بالعنبر والعود مدة القراءة، ثم يختمون ذلك بالصلاة على النبي ﷺ على النَّسَق المعتاد، ويكتب الكاتب أسماء الحاضرين والسامعين حتى النساء والصبيان والبنات واليوم والتاريخ، ويكتب الشيخ تحت ذلك: صحيح ذلك، وهذه كانت طريقة المحدثين في الزمن السابق كما رأيناه في الكتب القديمة.

يقول الحقير[2] إني كنت مشاهداً وحاضراً في غالب هذه المجالس والدروس، ومجالس أُخَر خاصة بمنزله وبسكنه القديم بخان الصاغة،

---

(١) شمائل النبيّ ﷺ للإمام الترمذيّ.

(٢) أي الشيخ الجبرتي.

وبمنزلنا بالصنادقية وبولاق، وأماكن أخر كنا نذهب إليها للنزهة مثل غيض المعدية والأزبكية وغير ذلك، فكنا نشتغل غالب الأوقات بسرد الأجزاء الحديثية وغيرها.

وانجذب إليه بعض الأمراء الكبار مثل مصطفى بك الإسكندرانيّ وأيوب بك الدفتردار، فسعوا إلى منزله، وترددوا لحضور مجالس دروسه، وواصلوه بالهدايا الجزيلة والغلال.

واشترى الجواري وعمل الأطعمة للضيوف، وأكرم الواردين والوافدين من الآفاق البعيدة.

(١) ولما حضر محمد باشا عزت الكبير رفع شأنه عنده وأصعده إليه وخلع عليه فروة سمور، ورتب له تعييناً من كلاره[١] لكفايته من لحم وسمن وأرز وحطب وخبز، ورتب له علوفة جزيلة بدفتر الحرمين وغلالاً من الأنبار، وأنهى إلى الدولة شأنه، فأتاه مرسوم بمرتب جزيل بالضربخانة[٢]، وقدره مائة وخمسون نصفاً فضة في كل يوم، وذلك في سنة إحدى وتسعين ومائة وألف، فعظم أمره وانتشر صيته. وطُلِب إلى الدولة في سنة أربع وتسعين، فأجاب ثم امتنع، وترادفت عليه المراسلات من أكابر الدولة، وواصلوه بالهدايا والتحف والأمتعة الثمينة في صناديق. وطار ذكره في الآفاق، وكاتبه ملوك النواحي من الترك والحجاز والهند واليمن والشام والبصرة والعراق، وملوك المغرب والسودان وفزان والجزائر والبلاد البعيدة، وكثرت عليه الوفود من كل ناحية، وترادفت عليه منهم الهدايا والصلات والأشياء الغريبة، وأرسلوا إليه من أغنام فزان[٣] وهي عجيبة الخلقة عظيمة الجثة يشبه رأسها العجل، وأرسلها إلى أولاد السلطان عبد الحميد، فوقع لهم موقعاً، وكذلك أرسلوا له من طيور الببغا، والجواري والعبيد والطواشية، فكان يرسل من

---

(١) بيت المونة الخاصّ به.

(٢) دار ضرب النقود.

(٣) مدينة في ليبيا.

طرائف الناحية إلى الناحية المستغرب ذلك عندها، ويأتيه في مقابلتها أضعافها، وأتاه من طرائف الهند وصنعاء اليمن وبلاد سرت وغيرها أشياء نفيسة، وماء الكاري والمربيات والعود والعنبر والعطرشاه بالأرطال.

(١) وصار له عند أهل المغرب شهرة عظيمة ومنزلة كبيرة واعتقاد زائد حتى أن أحدهم إذا ورد إلى مصر حاجاً ولم يزره ولم يصله بشيء لا يكون حجه كاملاً فإذا ورد عليه أحدهم سأله عن اسمه ولقبه وبلده وخطته وصناعته وأولاده، وحفظ ذلك أو كتبه، ويستخبر من هذا عن ذاك بلطف ورقة، فإذا ورد عليه قادم من قابل سأله عن اسمه وبلده، فيقول له فلان من بلدة كذا، فلا يخلو إما أن يكون عرفه من غيره سابقاً أو عرف جاره أو قريبه، فيقول له فلان طيب، فيقول: نعم سيدي، ثم يسأله عن أخيه فلان وولده فلان وزوجته وابنته ويشير له باسم حارته وداره وما جاورها، فيقوم ذلك المغربي ويقعد ويقبل الأرض تارة ويسجد تارة[1]، ويعتقد أن ذلك من باب الكشف الصريح، فتراهم في أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين على بابه من الصباح إلى الغروب، وكل من دخل منهم قدم بين يدي نجواه شيئاً مّا، أو تمراً أو شمعاً على قدر فقره وغناه، وبعضهم يأتيه بمراسلات وصِلات من أهل بلاده وعلمائها وأعيانها، ويلتمسون منه الأجوبة، فمن ظفر منهم بقطعة ورقة ولو بقدار الأنملة فكأنما ظفر بحسن الخاتمة، وحفظها معه كالتميمة، ويرى أنه قد قُبل حجه، وإلا فقد باء بالخيبة والندامة، وتوجه عليه اللوم من أهل بلاده، ودامت حسرته إلى يوم ميعاده، وقس على ذلك ما لم يُقل.

وشرع في شرح كتاب إحياء العلوم للغزالي وبيض منه أجزاء، وأرسل منها إلى الروم والشام والغرب ليشتهر مثل شرح القاموس، ويُرغب في طلبه واستنساخه.

---

(١) نعوذ بالله من هذا الفعل.

(١) وماتت زوجته في سنة ست وتسعين فحزن عليها حزناً كثيراً ولازم قبرها أياماً كثيرة، وتجتمع عنده الناس والقراء والمنشدون، ويعمل لهم الأطعمة والثريد والكسكسون والقهوة والشربات، واشترى مكاناً بجوار المقبرة المذكورة وعمره بيتاً صغيراً، وفرشه وأسكن به أمها، ويبيت به أحياناً، وقصده الشعراء بالمراثي فيقبل منهم ذلك ويجيزهم عليه، ورثاها هو بقصائد وجدتها بخطة بعد وفاته في أوراقه على طريقة شعر مجنون ليلى.

ثم تزوج بعدها بأخرى وهي التي مات عنها وأحرزت ما جمعه من مال وغيره.

ولما بلغ مالا مزيد عليه من الشهرة وبُعد الصيت وعظم القدر والجاه عند الخاص والعام، وكثرت عليه الوفود من سائر الأقطار، وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها من كل ناحية، لزم داره واحتجب عن أصحابه الذين كان يلم بهم قبل ذلك إلا في النادر لغرض من الأغراض، وترك الدروس والإقراء واعتكف بداخل الحريم، وأغلق الباب ورد الهدايا التي تأتيه من أكابر المصريين. وأرسل إليه مرة أيوب بك الدفتردار مع نجله خمسين إردباً[١] من البر، وأحمالاً من الأرز والسمن والعسل والزيت، وخمسمائة ريال نقود، وبقج كساوي أقمشة هندية وجوخاً وغير ذلك، فردّها، وكان ذلك في رمضان، وكذلك مصطفى بك الإسكندرانيّ وغيرهما، وحضرا إليه، فاحتجب عنهما ولم يخرج إليهما، ورجعا من غير أن يواجهاه.

(٢) وأرسل مرة إلى أحمد بك الجزار[٢] مكتوباً وذكر له فيه أنه المهديّ المنتظر! وسيكون له شأن عظيم، فوقع عنده بموقع الصدق لميل النفوس إلى الأماني، ووضع ذلك المكتوب في حجابه المقلد به مع الأحراز والتمائم، ويعتقد صحته بلا شك، ومن قدم عليه من جهة مصر وسأله عن المترجَم فإن أخبره وعرفه أنه اجتمع به وأخذ عنه وذكره بالمدح والثناء أحبه

---

(١) قال المحقق: الإرْدَبّ: جمعه أرداب، مكيال ضخم في مصر يساوي ٢٤ صاعاً.
(٢) والي عكّا.

وأكرمه وأجزل صلته، وإن وقع منه خلاف ذلك قطب منه وأقصاه عنه وأبعده ومنع عنه بره، ولو كان من أهل الفضائل! واشتهر ذلك عنه عند من عرف ذلك منه بالفراسة، ولم يزل على حسن اعتقاده في المترجَم حتى انقضى نحبهما.

(١) واتفق أن مولاي محمد سلطان المغرب رحمه الله وصله بصلات قبل انجماعه الأخير وتزهده وهو يقبلها ويقابلها بالحمد والثناء والدعاء، فأرسل له في سنة إحدى ومائتين صلة لها قدر، فردها، وتورع عن قبولها وضاعت، ولم ترجع إلى السلطان، وعلم السلطان من جوابه فأرسل إليه مكتوباً قرأته، وكان عندي ثمّ ضاع في الأوراق، ومضمونه العتاب والتوبيخ في رد الصلة، ويقول له إنك رددت الصلة التي أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين، وليتك حيث تورعت عنها كنت فرقتها على الفقراء والمحتاجين، فيكون لنا ولك أجر ذلك، إلا أنك رددتها وضاعت، ويلومه أيضاً على شرحه كتاب «الإحياء» ويقول له كان ينبغي أن تشغل وقتك بشيء نافع غير ذلك، ويذكر وجه لومه له في ذلك، وما قاله العلماء، وكلاماً مفحماً مختصراً مفيداً رحمه الله تعالى.

وللمترجَم من المصنفات خلاف شرح القاموس وشرح الإحياء تأليفات كثيرة ورسائل كثيرة جدّاً.

(٢) وللمترجم أشعار كثيرة منها:

توكل على مولاك واخش عقابه	وداوم على التقوى وحفظ الجوارح
وقدم من البر الذي تستطيعه	ومن عمل يرضاه مولاك صالح
وأقبل على فعل الجميل وبذله	إلى أهله ما اسطعت غير مكالح
ولا تسمع الأقوال من كل جالب	فلا بد من مثن عليك وقادح

ونظمه كثير، ونثره بحر عزيز، وفضله شهير وذكره مستطير

وبالجملة فإنه كان في جمع المعارف صدراً لكل ناد، حتى قوض

الدهر منه رفيع العماد، وأذنت شمسه بالزوال، وغربت بعد ما طلعت من مشرق الإقبال، كما قيل:

وزهــرة الــدنـيــا وإن أينـعـت فـإنـهــا تسقـى بـمــاء الــزوال

(١) وقد نعاه الفضل والكرم، وناحت لفراقه حمائم الحرم؛ وأصيب بالطاعون في شهر شعبان؛ وذلك أنـه صلى الجمعة في مسجـد الكرديّ المواجه لداره، فطعن بعد ما فرغ من الصلاة، ودخل إلى البيت واعتقل لسانه تلك الليلة، وتوفي يوم الأحد، فأخفت زوجته وأقاربها موته حتى نقلوا الأشياء النفيسة والمال والذخائر، والأمتعة والكتب المكلفة، ثم أشاعوا موته يوم الإثنين، وخرجوا بجنازته وصلوا عليه، ودفن بقبر أعده لنفسه بجانب زوجته بالمشهد المعروف بالسيدة رقية، ولم يعلم بموته أهل الأزهر ذلك اليوم، لاشتغال الناس بأمر الطاعون، وبُعْدِ الخطة، ومن علم منهم وذهب لم يدرك الجنازة.

(٢) وأحرزت زوجته وأقاربها متروكاته، ونقلوا الأشياء الثمينة والنفيسة إلى دراهم، ونسي أمره شهورا، حتى تغيرت الدولة وتملك الأمراء المصريون الذين كانوا بالجهة القبلية، وتزوجت زوجته برجل من الأجناد من أتباعهم، فعند ذلك فتحوا التركة بوصاية الزوجة من طرف القاضي، خوفاً من ظهور وارث، وأظهـروا ما انتقـوه من الثياب وبعض الأمتعـة والكتب، وباعـوها بحضرة الجمع. فبلغت نيفاً ومائة ألف نصف فضّة.

(٣) وكانت مخلفاته شيئاً كثيراً جداً؛ أخبرني المرحوم حسن الحريريّ - وكان من خاصته وممن يسعى في خدمته ومهماته - أنه حضر إليه يوم السبت وطلب الدخول لعيادته فأدخلوه إليه فوجده راقداً معتقل اللسـان، وزوجته وأصهاره في كبكبة واجتهاد في إخراج ما في داخل الخبـايا والصنـاديق، ورأيت كوماً عظيماً من الأقمشة الهنديّة والمقصّبات والكشميـري والفِراء، وأشياء في ظروف وأكياس لا أعلم ما فيها، فجلست عند رأسه وأمسكت يده، ففتح عينيه ونظر إليّ وأشار كالمستفهم عما هم فيه، ثم غمض عينيه

وذهب في غطوسه فقمت عنه، ورأيت في الفسحة أمام القاعة قدراً كبيراً من شمع العسل، والكافوري وغير ذلك.

ولم يترك ابناً ولا ابنة، ولم يرثه أحد من الشعراء.

وكانت وفاته رحمه الله تعالى في شهر شعبان المعظم سنة خمس ومائتين وألف، ودفن في جانب زوجته بالمشهد المعروف بالسيدة رقية في القبر الذي أعده لنفسه هناك جعل الله مثواه قصور الجنان، وضريحه مطاف وفود الرحمة والغفران، وعوضه جنة ونعمة وخيراً وأجراً، وعوض المسلمين عنه خيراً، وجمعنا جميعاً وإياه في مستقر رحمته آمين[1].

السُّلميّ

الشيخ منصور بن عمار بن كثير السُّلميّ الخراساني الصوفي الدمشقي.

(١) كان مسرفاً على نفسه ثم تاب، وكان سبب توبته أنه وجد في الطريق رقعة مكتوبة بسم الله الرحمن الرحيم، فلم يجد لها موضعاً يضعها فيه فأكلها. فرأى في المنام قائلاً يقول له: قد فتح الله عليك باب الحكمة لاحترامك للرقعة، فقام من نومه نادماً على أفعاله تائباً من وقوعه في أوحاله، مقبلاً على مولاه معرضاً عما سواه، ففتح الله عليه أبواب القبول وسهل له أسباب الوصول، ومنحه من العلوم الإلهية والتجليات العرفانية، ما أثبت له الفضيلة وحقق له الشمائل الجميلة، وفضل الله واسع لا راد له ولا مانع.

(٢) قال بعضهم: رأيت في المنام منصور بن عمار بعد موته وكان في أول أمره قد أسرف على نفسه، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه وقال لي: أنت الذي كنت تزهد الناس في الدنيا وترغبهم في الآخرة،

---

(١) «حلية البشر»: ٣/١٤٩٢ - ١٥١٦.

فقلت: قد كان ذلك وأنت يا رب أعلم، ولكن وعزتك وجلالك، ما جلست مجلساً إلا وبدأت بالثناء وثنيت بالصلاة والسلام على نبيك ورسولك، وثلثت بالنصيحة لعبادك، فقال الله تعالى: صدق، ضعوا له كرسياً في سمائي يمجدني كما كان يمجدني في أرضي انتهى.

وفضله معروف وكماله موصوف غني عن البيان.

مات رحمه الله في دمشق ودفن بها سنة ألف ومائتين و..[1].

الشيخ يحيى المزوريّ العماديّ الشافعيّ البغداديّ

بحر العلوم، جامع المنقول والمعقول، وحاوي الفروع والأصول، أستاذ علماء العراق على الإطلاق، وملاذ فحول فضلاء الآفاق في حل المشكلات بلا شقاق، النحرير الهمام حجة الإسلام، الناسك العابد والتقي الزاهد، المتوجه بكله إلى الله والمعتمد عليه لا على سواه.

نقل صاحب «المجد التالد» أن المترجَم المذكور كان من أكابر هذه الأمة المحمدية، وقد بلغ درجة الترجيح في الفقه، مع كونه بحر جميع العلوم النقلية والعقلية والرياضية، كما شهد له بذلك حضرة شيخ الحضرة مولانا خالد النقشبنديّ.

وكانت ولادته في حدود سنة ألف ومائة وخمس وأربعين، وقرأ على مشايخ كثيرين وأساتذة معتمدين.

وكان حافظاً لأوقاته مراقباً لحركاته وسكناته، مواظباً على الطاعة متباعداً عن الإضاعة، وآدابه ـ في التقوى والحلم، ومكارم الأخلاق التي أدبه بها الفضل والعلم ـ كثيرة شهيرة.

(١) وفي عام ستة وعشرين ومائتين وألف، لما شرف حضرة مولانا خالد شيخ الحضرة من الهند إلى السليمانية صمم الجماعة البرزنجية الذين هم

---

(١) «حلية البشر»: ١٥٦٢/٣.

أكابر بلدة السليمانية وأصحابهم وأتباعهم، وكانوا نحو مائتي رجل على قتل الشيخ خالد المذكور، واتفق رأيهم أن يقفوا بالسلاح يوم الجمعة خارج باب المسجد، فإذا خرج قتلوه وقطعوه إرباً إرباً، فلما جاء يوم الجمعة قام حضرة الشيخ قدس سره ومشى إلى المسجد، وكان معه بعض مريديه وجماعة من الحيدريين، فلما تمت صلاة الجمعة وقف الأعداء على الباب ينتظرون خروج الشيخ وهم بالسلاح الكامل، وكان من عادة الشيخ أنه لا يخرج من المسجد إلا بعد خروج الناس، فلمّا تكامل خروج الناس خرج حضرة الشيخ والتفت إلى صفوف الأعداء بعين الجلالة فمنهم من هرب، ومنهم من سقط مغشياً عليه، ومشى حضرة الشيخ إلى أن وصل إلى الزاوية بجماعته بدون أن يتعرض لهم أحد، وهذه القضية وقعت على رؤوس الأشهاد فلم يبق أحد من أهل السليمانية إلّا وعلمها، فحقد عليه العلماء فامتحنوه بمشكلات أنواع العلوم العقلية والنقلية فلم يقدروا عليه، فلما رأوا أنهم ليس لهم قدرة عليه بحال كتبوا كتاباً وأرسلوه إلى حضرة المترجَم، ومضمون الكتاب: من كافة علماء السليمانية إلى علامة الدنيا على الإطلاق والدين، حجة الإسلام والمسلمين مولانا وشيخنا الشيخ يحيى المزوري العمادي متع الله تعالى المسلمين بطول حياته:

(١) أما بعد، فقد ظهر عندنا خالد وادّعى الولاية الكبرى والإرشاد بعد عودته من الهند إلى هذه البلاد، وهو رجل قد ترك العلوم بعد تحصيلها على وجه الكمال واختار سبيل الضلال، ونحن قد عجزنا عن إلزامه وقهره وإفحامه، فيجب عليك أن تتوجه إلى طرفنا لإفحامه ودفع ضلاله ومرامه وإلّا فقد عم الضلال بين العباد وانتشر الفساد في البلاد وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

(٢) فلما وصل الكتاب إلى الشيخ يحيى وقرأه قام وركب بغلته مع جملة من طلبته الفحول، وتوجه إلى السليمانية وقد استحضر في فكره عدة سؤالات من أشكل المشكلات في المعقول والمنقول، الفروع والأصول،

فلما قرب الشيخ من السليمانية حضر العلماء كافة وأكابر البلدة لاستقباله وتقبيل يديه ورجليه، فلما دخل البلدة دعاه كلٌّ إلى منزله من السادة والأعيان، فأبى وقال لا بد أن ألاقي هذا الرجل الآن، فتوجه إلى زاوية الشيخ قدس الله سره، فلما دخل عليه وسلم وحياه، استقبله الشيخ وصافحه وأحسن لقياه، فجلس الشيخ يحيى بجانب مولانا خالد وتهيأ للسؤال، فابتدره الشيخ في الحال، وقال له: إن في العلوم مشكلات كثيرة، منها كذا وجوابه كذا ومنها كذا وجوابه كذا، وعدّد له جميع الأسئلة التي أعدها للسؤال عنها، وأجاب عن كل منها بأحسن جواب بحيث لم يبق للإشكال باب، فانكب المترجَم على قدمي حضرة الشيخ وعرف إجلاله، وطلب منه العفو والسماح والتوجه له بما يصلح آماله، فصار من أخص رجال السادة الخالدية، فلما سمع المنكرون ولوا الأدبار وخابوا، وبعضهم تاب وأكثر من الندم والاستغفار.

وكان حضرة مولانا خالد يحب الشيخ يحيى محبة عظيمة، ويعامله مع كونه مريداً له معاملة الأقران ذوي العظمة والشان، والشيخ يحيى لا يعد نفسه في مجلس الشيخ إلا من الخدام.

(١) ومن جملة أدب المترجَم مع السنة أنه كان يعاون زوجته في غسل الثياب والطبخ وحوائج البيت، وكان يغسل أولاده إذا ماتوا بنفسه، ويقول لزوجته: لا تضجري من موتهم، واشكري الله تعالى.

(٢) ولما قتل اليزيديون[١] ولده العلامة المحقق عبد الرحمن في الجبال وأتى خبر قتله إليه وهو يدرس العلم، قال حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل، ولم يترك الدرس.

وكان عمره يوم وفاته نحواً من مائة سنة، ومات في حدود سنة ألف ومائتين وأربعين[٢].

---

(١) هم عباد الشيطان في العراق.

(٢) «حلية البشر»: ١٥٨٧/٣ - ١٥٩١.

يوسف باشا والي الشام

(١) أصله من الأكراد، وفي ابتداء أمره، هرب من أهله وعمره إذ ذاك خمس عشرة سنة، فوصل إلى حماة وتعاطى بيع الحشيش والسرجين والروث، ثم خدم عند رجل يسمى ملا حسين مدة سنين ثم خدم بعده ملا إسماعيل وتعلم الفروسية، فلعب يوماً في القمار وخسر فيه وخاف على نفسه، فخرج هارباً إلى عمر آغا فتوجه معه إلى غزة، وكان مع المترجَم جواد أشقر من جياد الخيل، فقلد علي آغا متسلم غزة عمر آغا المذكور، وجعله دالي باش[1] ففي بعض الأيام طلب المتسلم من المترجَم الجواد المذكور، فقال له: إن قلدتني دالي باش قدمته لك، فأجابه إلى ذلك وعزل عمر آغا وقلد المترجَم المنصب عوضاً عنه، وامتنع من إعطائه ذلك الجواد، وأقام في خدمته مدة، فوصل مرسوم من أحمد باشا الجزار خطاباً للمترجَم بالقبض على المتسلم، وإحضاره إلى طرفه، وإن فعل ذلك ينعم عليه بخمسين كيساً ومائة بيرق، ففعل ذلك وأوقع القبض على علي آغا المتسلم، وتوجه به إلى عكا بلدة الجزار، فقال المتسلم للمترجَم في أثناء الطريق تعلم أن الجزار رجل سفاك للدماء فلا توصلني إليه، وان كان وعدك بمال أطلقني وأنا أعطيك أضعافه ولا تشاركه في دمي، فلم يجبه إلى ذلك، وأوصله إلى الجزار فحبسه ثم قتله ورماه في البحر، وأقام المترجَم بباب الجزار ثم أرسل إليه يأمره بالذهاب إلى حيث يريد فإنه لا خير فيه لخيانته لمخدومه.

(٢) فذهب إلى حماة وأقام عند إسماعيل آغا وهو متولٍّ من طرف عبدالله باشا المعروف بابن العظم، فأقام في خدمته كلارجي[2] زمناً نحواً من ثلاث سنين، وكان بين عبد الله باشا وأحمد باشا الجزار عداوة فتوجه عبد الله باشا إلى الدورة، فأرسل الجزار عساكره ليقطع عليه الطريق، فسلك طريقاً

---

(١) قال المحقق: رئيس.

(٢) قال المحقق: محافظ مخزن المؤونة.

أخرى، فلما وصل إلى جينين وجه الجزار عساكره عليه، فلما تقارب العسكران وتسامعت أهل النواحي امتنعوا من دفع الأموال، فما وسع عبد الله باشا إلا الرحيل، وتوجه إلى ناحية نابلس وحاصر بلدة تسمى صوفين، وأخذ مدافع من يافا وأقام محاصراً لها ستة أيام، ثم طلبوا الأمان فأمنهم ورحل عنهم إلى طرف الجبل مسيرة نصف ساعة، وفرق عساكره لقبض أموال الميري من البلاد، وأقام هو في قلة من العسكر، فوصل إليه خيّال وقت العصر يخبره بوصول عساكر الجزار، وأنه لم يكن بينه وبينهم إلا نصف ساعة، وهم خمسة آلاف مقاتل، فارتبك في أمره وأرسل إلى النواحي فحضر إليه من حضر، وهم نحو الثلاثمائة خيال، وبدائرته نحو الثمانين، فأمر بالركوب، فلما تقاربا هاله كثرة عساكر العدو وأيقنوا بالهلاك، فتقدم المترجَم إلى العسكر وأشار عليهم بالثبات، وقال لهم: لم يكن غير ذلك فإننا إن فررنا هلكنا عن آخرنا، وتقدم المترجَم مع آغاته ملا إسماعيل، وتبعهم العسكر وولجوا وسط خيل العدو وصدقوا الحملة جملة واحدة، فحصلت في العدو الهزيمة وركبوا أقفيتهم، وتبعهم المترجَم حتى حال الليل بينهم، فرجعوا برؤوس القتلى، فلما أصبح النهار عرضوها على الوزير وهي نحو الألف رأس، فخلع عليهم وشكرهم، وارتحلوا إلى دمشق، وذهب المترجَم مع آغاته إلى مدينة حماة، واستمر هناك إلى أن حضر الوزير الأعظم يوسف باشا المعروف بالمعدن لي إلى دمشق، بسبب الفرنساوية، ففارق المترجَم مخدومه في نحو السبعين خيّالاً، وجعل يدور بأراضي حماة بطالاً.

وكان الجزار عند حضور الوزير انفصل حكمه عن دمشق ووجه ولايتها إلى عبد الله باشا العظم، فلما بلغ المترجَم ذلك توجه إلى لقاء عبد الله باشا بالمعرة، فأكرمه عبد الله باشا وقلده دالي باشا[1] كبيراً على جميع الخيالة حتى على آغاته ملا إسماعيل آغا، وأقام بدمشق مدة إلى أن

(١) قال المحقق: رئيس، مقدّم.

حاصر عبد الله باشا مدينة طرابلس، فوصل إليه الخبر بأن عساكر الجزار استولوا على دمشق وبلادها، فركب عبد الله باشا وذهب إلى دمشق ودخلها بالسيف، فوصل خبر ذلك إلى الجزار، فكاتب عساكر عبد الله باشا بتسليمه، لأن معظمهم غرباء، فاتفقوا على خيانته والقبض عليه وتسليمه إلى الجزار، وعلم ذلك وتثبته فركب في بعض مماليكه وخاصته إلى المترجَم، وهو إذ ذاك دالي باشا، وأعلمه الخبر وأنه يريد النجاة بنفسه، فركب بمن معه وأخرجه من بين العسكر قهراً عنهم، ثم ذهب على الهجن إلى بغداد.

ورجع المترجَم إلى حماة فقبل وصوله إليها ورد عليه مرسوم الجزار يستدعيه، فذهب إليه فجعله مقدم ألف، فسافر إلى الحجاز، وكان أمير الحاج الشاميّ إذ ذاك سليمان باشا عوضاً عن مخدومه أحمد باشا الجزار، فلما حصلوا في نصف الطريق وصلهم خبر موت الجزار، فرجع يوسف باشا المترجَم إلى الشام، واستولى إسماعيل باشا على عكّا، وتوجه منصب ولاية الشام إلى إبراهيم باشا المعروف بقطر اغاسي، أي آغات البغال، وفي فرمان ولايته الأمر بقطع رأس إسماعيل باشا وضبط مال الجزّار، فذهب المترجَم بخيله وأتباعه إلى إبراهيم باشا وخدم عنده، وركب إلى عكّا وحصروها، وكانت الحرب بينهم سجالا، وعساكر إسماعيل باشا نحو العشرة آلاف، والمترجَم يباشر الوقائع وكل وقعة يظهر فيها على الخصم، ففي يوم من الأيام لم يشعروا إلا وعسكر إسماعيل باشا نافذ إليهم من طريق أخرى، فركب المترجَم وأخذ صحبته ثلاثة مدافع وتلاقى معهم، وقاتلهم وهزمهم إلى أن حصرهم بقرية تسمى دعوق، ثم أخرجهم بالأمان وأكرمهم، وعمل لهم ضيافة ثلاثة أيام، ثم أرسلهم إلى عكا بغير أمر الوزير، وخرج إسماعيل باشا من عكا وأغلقت أبوابها، فاتفقت عساكره وقبضوا عليه وسلموه إلى إبراهيم باشا، فعند ذلك برز أمر إبراهيم باشا بتسليم عكا إلى سليمان باشا، وذهب بالمرسوم المترجَم فأدخله إليها ورجع إلى مخدومه، ثم عاد معه إلى الشام، وورد الأمر بعزل إبراهيم باشا عن

الشام وولاية عبد الله باشا المعروف بالعظم، فخرج المترجَم لملاقاته من على حلب، فقلده دالي باشا[1] على جميع العسكر، فلما وصل إلى الشام ولاه على حوران وإربد والقنيطرة ليقبض أموالها، فأقام نحو السنة، ثم توجه صحبة الباشا مع الحج، وتلاقوا مع الوهابية في الجديدة فحاربهم المترجَم وهزمهم، وحجوا واعتمروا ورجعوا، ومكثوا إلى السنة الثانية، فخرج عبد الله باشا بالحج وأبقى المترجم نائباً عنه بالشام، فلما وصل إلى المدينة المنورة منعه الوهابيون، ورجع من غير حج، ووصل خبر ذلك إلى الدولة فورد الأمر بعزل عبد الله باشا عن ولاية الشام وولاية المترجَم على الشام وضواحيها، فارتاعت النواحي والعربان، وأقام السنة ولم يخرج بنفسه إلى الحج، بل أرسل ملا حسن عوضاً عنه، فمنع أيضاً عن الحج فلما كانت القابلة وعصى عليه بعض البلاد، فخرج اليها وحاصر بلدة تسمى كردانية ووقع له فيها مشقة كبيرة إلى أن ملكها بالسيف، وقتل أهلها، ثم توجه إلى جبل نابلس وقهرهم وجبى منهم أموالاً عظيمة.

(١) ثم رجع إلى الشام واستقام أمره وحسنت سيرته، وسلك طريق العدل في الأحكام، وأقام الشريعة والسنة وأبطل البدع والمنكرات واستتاب الخواطىء وزوجهن، وطفق يفرق الصدقات على الفقراء وأهل العلم والغرباء وابن السبيل، وأمر بترك الإسراف في المآكل والملابس، وشاع خبر عدله في النواحي، ولكن ثقل ذلك على أهل البلاد بترك مألوفهم.

(٢) ثم إنه ركب إلى بلاد النصيرية[2] وقاتلهم وانتصر عليهم وسبى نساءهم وأولادهم، وكان خيّرهم بين الدخول في الإسلام والخروج من بلادهم، فامتنعوا وحاربوا وانخذلوا، وبيعت نساؤهم وأولادهم، فلما

---

(١) قال المحقق: رئيس.

(٢) قال المحقق: فرقة من الغلاة، يراجع ما كتب عنها في كتاب «الملل والنحل»، للإمام الشهرستاني: ١/١٦٨.

شاهدوا ذلك أظهروا الإسلام تقيّة، فعفا عنهم وعمل بظاهر الحديث وتركهم في البلاد.

ورحل عنهم إلى طرابلس وحاصرها بسبب عصيان أميرها بربر باشا على الوزير، وأقام محاصراً لها عشرة أشهر حتى ملكها واستولى على قلعتها، ونهبت منها أموال للتجار وغيرهم.

ثم ارتحل إلى دمشق وأقام بها مدة، فطرقه خبر الوهابية أنهم حضروا إلى المزيريب، فبادر مسرعاً وخرج إلى لقائهم، فلما وصل إلى المزيريب وجدهم قد ارتحلوا من غير قتال، فأقام هناك أياماً، فوصل إليه الخبر بأن سليمان باشا وصل إلى الشام وملكها، فعاد مسرعاً إلى الشام، وتلاقى مع عسكر سليمان باشا وتحارب العسكران إلى المساء، وبات كل منهم في محله، ففي نصف الليل في غفلتهم والمترجَم نائم وعساكره أيضاً هامدة، فلم يشعروا إلا وعساكر سليمان باشا كبستهم، فحضر إليه كَتْخُداه[1] وأيقظه من منامه، وقال له إن لم تسرع وإلا قبضوا عليك، فقام في الحين وخرج هارباً وصحبته ثلاثة أشخاص من مماليكه فقط، ونهبت أمواله وزالت عنه سيادته في ساعة واحدة، ولم يزل حتى وصل إلى حماة، فلم يتمكن من الدخول إليها ومنعه أهلها عنها، وطردوه.

ثمّ إنه أرسل إلى محمد علي باشا صاحب مصر واستأذنه في حضوره إلى مصر، فكاتبه بالحضور إليه والترحيب به، فوصل إلى مصر في التاريخ المذكور، فلاقاه صاحب مصر وأكرمه، وقدم إليه خيولاً وقماشاً ومالا، وأنزله بدار واسعة بالأزبكية، ورتب له خروجاً زائدة من لحم وخبز وسمن وأرز وحطب، وجميع اللوازم المحتاج إليها، وأنعم عليه بجوائز وغير ذلك، وأقام بمصر هذه المدة، وأرسل في شأنه إلى الدولة، وقبلت شفاعة محمد علي باشا فيه ووصله العفو والرضا، ما عدا ولاية الشام.

---

(١) رئيس عساكره.

وحصلت فيه علة ذات الصدر، ويذهب إليه جماعة الحكماء من الإفرنج وغيرهم، ويطالع في كتب الطب مع بعض الطلبة من المجاورين، فلم ينجع فيه علاج، وانتقل إلى قصر الآثار بقصد تبديل الهواء، ولم يزل مقيماً هناك حتى اشتد به المرض، ومات سنة ألف ومائتين وإحدى وثلاثين، وكانت مدة إقامته بمصر نحو الست سنوات، فسبحان الحي الذي لا يموت[1]

المَرّاكشي

الشيخ يوسف بن بدر الدين المغربيّ المراكشي السبتيّ المالكي المصري مولداً الدمشقي إقامة، إمام لا يبارى وهمام في ميدان العلوم لا يجارى، قد اتصف بالعلم والعمل، ونال من مرغوبه فوق ما يتعلق به الأمل، ورقا فضله وفاق، واشتهر فضله في الآفاق، وكان ورعاً زاهداً تقياً عابدا، له شعر رقيق ونثر أنيق، ومحاضرة لطيفة، ومذاكرة ظريفة، وسيرة حسنة، وصفات مستحسنة، قرأ على السادة الأفاضل إلى أن جمع الفضائل.

(١) ومما اتفق له وكتب في صحيفته أن بعض الأروام[2] القاطنين في دمشق الشام استولى على الدار التابعة لدار الحديث الأشرفية الواقعة في العصرونية ثمّ ضم إليها الزاوية الغربية من المدرسة المرقومة التي كانت محل تدريس الإمام النوويّ قدس سره ومحل روايته للأحاديث، فصارت محلاً لوضع براميل الخمر، فتعرض المترجَم المرقوم وطلب إعادة المحل لحاله، ورفع الأمر إلى الوالي، فلم تلتفت الحكومة إلى دعواه، فتوجه المترجَم إلى الآسِتانة وتعاطى أسباباً كثيرة لإنقاذ هذا المحل من أيدي الروميّ، إلى أن استحصل فرماناً[3] سلطانياً في ذلك، فعاد إلى الشام

---

(١) «حلية البشر»: ٣/١٥٩٦ - ١٦٠٢.

(٢) أي الأتراك.

(٣) قال المحقق: أمراً سلطانياً.

وقدمه إلى الوالي فطرحه في زوايا الإهمال، وبقي الأمر على ذلك، ولم يقع المترجَم على ثمرة، إلى أن جاء الأمير السيد عبد القادر المغربيّ أمير الجزائر من فرانسا إلى الآسِتانة، اجتمع به المترجَم وشكى الأمر إليه، ومشى مع الأمير إلى بروسة محل إقامة الأمير في ذلك الوقت، ثم إنه استأذن من الأمير في العود إلى الآسِتانة، بقصد الرحلة إلى المدينة الشريفة والإقامة بها، وبقي حضرة الأمير في بروسة بعد ذلك مدة طويلة، نحو خمس سنوات، ثم إنه لما توالت هناك الزلازل، وخربت كثيراً من المحلات، وخرجت الناس من العمران وسكنت في الصحراء، رحل الأمير إلى دمشق الشام وأقام بها، ورأى الأمر كما أخبره المترجَم، فأخذته الحمية الدينية والغيرة الإسلامية، لانقاذ هذا المحل، فأحضر الروميّ ودفع له مالاً جزيلاً واشتراه منه، وجعله وقفاً على المترجَم وعَقِبه، وأمر بترميم المسجد والمدرسة على نفقته، ثم أرسل خبراً إلى المترجَم المرقوم إلى المدينة المنورة[1]، وبعد حضوره من المدينة قرأ حضرة الأمير صحيح البخاريّ في المدرسة.

وللمترجَم قصائد شهيرة ومقاطيع كثيرة، وتأليفات بديعة، وكتابات رفيعة، وأسانيد عالية، وأساتذة ذوو رتبة سامية.

وكان يحفظ القرآن الكريم المصون، وكثيراً من القواعد والمتون بأنواع الفنون، ويستشهد بها لإظهار الصواب، ولا يُسأل عن شيء إلا وبأحسن الأجوبة أجاب.

وكان كثير التلاوة، ملازماً للصلاة على النبي ﷺ متمسكاً بالشريعة الغراء لا ينفك عن العمل بها إن فعل أو تكلم، متخلقاً بالأخلاق النبوية متحلياً بالشمائل الأحمدية.

وكان لا يهاب في الحق كبيراً، ولا يخشى حاكماً ولا وزيراً، فلذلك

---

(١) كأن الأمير عبد القادر الجزائري قد استنقذ ذلك المكان والمترجَم في المدينة ثم أرسل إليه يخبره بذلك.

كان يهابه كل من رآه، ويتأمل منه الخير كل من رجاه. وقد كان منهلاً لكل وارد، وملجأً لكل راج وقاصد، ولم يزل على حاله متزايداً في تقواه وكماله، مستقيماً على أطواره متحلياً بأجمل أوطاره، إلى أن دعاه المنون لمقامه الأجلّ المصون، فلبى الدعوة العليا واختار الآخرة على الدنيا، سنة تسع وسبعين ومائتين وألف ودفن في تربة باب الصغير[1].

(١) «حلية البشر»: ٣/١٦٠٢ ـ ١٦٠٨.



مختارات القرن الثالث عشر
من كتاب
«الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»

تأليف

السيد عبد الحي الندوي الحسني



أبو ظفر بَهَادُرْ شاه الدهلويّ

(١) الملك الفاضل أبو ظفر بن أكبر شاه بن شاه عالم التيموريّ الدهلويّ، أبو ظفر سراج الدين بهادر شاه، كان من الرجال المعروفين في العائلة الملكية، ولد ونشأ بدار الملك دهلي، وجلس على سرير الملك بعد أبيه، وتمتع براتبٍ أجراه الإنكليز، ثم زيد فيه خمسٌ وعشرون ألفاً؛ وكان شاعراً صوفياً، أخذ الطريقة عن الشيخ فخر الدين الدهلوي ولما ثارت العساكر الإنكليزية[1] على الحكومة سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف بايعوه وولَّوه عليهم، وسفكوا الدماء، ونهبوا الأموال، ثم غلب الدولة الإنكليزية على الجنود الهندية، وقبضوا على بهادر شاه، وأرسلوه إلى مدينة «رَنْجُون» في «بورما» فمات بها، وله أربعة دواوين شعر بأردو؛ تُوفي سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف؛ كما في «جنة المشرق».

وكان يتصف ببعض صفات الفتوة والغيرة، وكان جديراً بأن ينهض بالعائلة الحاكمة لو ساعده الزمان وتوفرت له الأسباب، ولكن الحكومة المغولية كانت قد بلغت منتهى الضعف، وسرى الوهن في أبناء البلاد، فكان شأنُه في ذلك شأنَ آخر الملوك في الحكومات المنقرضة.

(٢) وقد عاملته الحكومة الإنكليزية بقسوة نادرة ووحشية بالغة، فقتلت أبناءه بين يديه، وهو يتحمل كلّ ذلك في صبر وجلَدَ، وعَجْز واضطرار.

ويمتاز شعره بالرقة والتأثير نتيجة أحواله الشخصية، وتجاربه المريرة

---

(١) أي العساكر الهندية التي تحت الحكومة الإنجليزية.

يتجلى فيه الحزن والتعبير عن المشاعر الرقيقة، مع التجلد وسمو الهمة وقوة العزيمة[1].

السيد الإمام أحمد بن عرفان البريلويّ

السيد الإمام الهمام، حجة الله بين الأنام، موضح محجة الله والإسلام، قامع الكفرة والمبتدعين، وأنموذج الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، مولانا الإمام المجاهد، الشهيد السعيد؛ أحمد بن عرفان بن نور الشريف الحسني البريلويّ، كان من ذرية الأمير الكبير بدر الملة المنير شيخ الإسلام قطب الدين محمد بن أحمد المدنيّ.

(١) ولد في صفر سنة إحدى ومائتين وألف ببلدة «راي بريلي» في زاوية جدِّه السيد عَلَم الله النقشبنديّ البريلويّ، ونشأ في تصوُّن تام وتألـه، واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزل على ذلك خَلَفا صالحاً، براً تقياً، ورعاً عابداً ناسكاً، صواماً وقاماً، ذاكراً لله تعالى في كل أمر، رجاعا إليه في سائر الأحوال، وقافا عند حدوده وأوامره ونواهيه، لا تكاد نفسه تقنع من خدمة الأرامل والأيتام، كان يذهب إلى بيوتهم ويتفحص عن حوائجهم، ويجتهد في الاستقاء والاحتطاب واجتلاب الأمتعة من السوق، ولكنه مع ذلك كان لا يرغب إلى تلقي العلوم المتعارفة، فإنه لم يحفظ من القرآن الكريم إلا سوراً عديدة، ومن الكتابة إلا نقش المفردات والمركبات، وذلك في ثلاث سنين، وكان صنوه الكبير إسحاق بن عرفان البريلويّ يحزن لذلك، وكان بِصدَد تعليمه، فقال والده: دعوه وشَأْنَه، وكِلوه إلى الله سبحانه، فأعرض عنه، فلم يزل كذلك حتى شد عضده فرحل إلى «لكهنؤ» مع سبعة رجال من عشيرته، وكان الفرس واحداً يركبونه متناوبين، وهو ترك نوبته لهم، فلما قطعوا مرحلة واحتاجوا إلى حمال يحمل أثقالهم، وجدُّوا في البحث عنه فما وجدوه وهو يرى ذلك، فقال لهم: إن لي حاجةً إليكم أرجوكم أن تفضلوا عليّ بإسعافها، فقالوا له: على الرأس والعين، فقال

---

(١) «الإعلام»: ١٧/٧.

لهم: أكِّدوا قولكم بالأيمان، فأكَّدوها، فقال: اجمعوا أثقالكم وضعوها على رأسي، فإني أقدر أن أحتملها، فحملها ودخل لكهنؤ، فلقيه أحد رجال السياسة وأكرمه، وكان مأموراً من الدولة أن يجمع مائة رجال من الفرسان للعسكر، ففوَّض إليه خدمتين من الخدمات العسكرية، فتبرع بهما لرجلين من رفقائه، وسار مع العساكر السلطانية فلما وصل إلى «بادية محمدي» غاب عن رفقائه، فاغتموا وظنوا أنه كان فريسة سباع، حتى لقيهم رجل من أهل البادية، وقص عليهم أني رأيت رجلاً وضيئاً يلوح على جبينه علائم الرشد والسعادة وعلى رأسه جرّة ملآنة يحملها ويذهب فرحان نشيطاً مع فارس من فرسان العسكر، وكان العسكري يقول: إنه وجدني في أثناء الطريق، وكان معي حمال ضعيف، لا يستطيع أن يحمل إلا بشِقّ النفس، إلا أنه حملها خوفاً مني، فكان يبكي، فتقدَّم إليّ هذا الرجل وشَفَع له، فقلت له: إني لا أستطيع أن أحملها فوق رأسي، فإذا رقّ له قلبك ورثيتَ لضعفه فتقدَّم واحمل، فرضي بذلك وحملها، وكانت رفقته يعلمون عادته فعلموا أنه هو.

قال السيد محمد علي بن عبد السبحان البريلوي صاحب «المخزن»: إنه كان قبل غيبته يحرضني على الترك والتجريد والإقبال على الآخرة، ويقول: اذهبوا إلى دهلي ولازِموا صحبة الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي واغتنموه، فلما ظن أني لا ألازمه في ذلك السفر ولا أرضى أن يذهب ويُلقِي نفسه في الخطر، غاب عني وذهب بنفسه حتى دخل دهلي فلما سمع الشيخ عبد العزيز المذكور أنه سِبْط الشيخ أبي سعيد وابن أخي السيد نعمان، تلقاه ببرّ وترحيب، وأسكنه في المسجد الأكبر آبادي عند صنوه عبد القادر وأوصاه به، فتلقى منه شيئاً نزراً من العلم، وبايع الشيخ عبد العزيز وأخذ عنه الطريقة حتى نال حظاً وافراً من العلم والمعرفة، وفاق الأقران، واتى بما يتحير منه أعيان البلدة في العلم والمعرفة، وكان ذلك في سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف.

(١) ثم غلب عليه شوق الجهاد في سبيل الله، فذهب إلى معسكر الأمير المجاهد نواب مير خان، ولبث عنده بضع سنين؛ وكان يحرضه على الجهاد، فلما رأى أنه يضيع وقته في الإغارة ويقنع بحصول المغنم، تركه ورجع إلى دهلي وشد المِئزَر بنصرة السنة المحضة والطريقة السلفية، واحتج ببراهين ومقدمات وأمور لم يُسْبَقْ إليها، وأطلق عباراتٍ أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا، وجَسِر هو عليها، حتى أعلى الله مناره وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وكَبَت أعداءه وهَدَى رجالاً من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الأمراء على الانقياد له غالباً وعلى طاعته.

(٢) وأول من دخل في بيعته الشيخ عبد الحي بن هبة الله البرهانوي والشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي وناس كثيرون من عشيرة الشيخ عبد العزيز، وكل ذلك في حياة شيخه. فنهض من دهلي مع جماعة من الأنصار إلى «پُهْلت» و«لُوهارِي» و«سهارنپور» و«رامپور» و«بريلي» و«شاهجهانپور» و«شاه آباد» وغيرها من القرى والبلاد، فانتفع بمجلسه وبركة دعائه وطهارة أنفاسه وصِدْق نيته وصفاء ظاهرِه وباطنِه وموافقة قولِه بعمله والإنابة إلى الله سبحانه خَلْقٌ كثير لا يحصون بحد وعد؛ بلىٰ، قام عليه جمع من المشايخ قياماً لا مزيد عليه، بدَّعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، وله إقدام وشهامة وقوة نفس تُوقِعه في أمور صعبة، فيدفع الله عنه، وكان دائم الابتهال، كثير الاستعانة، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أشغال وأذكار يداوم عليها بكيفية وجمعية في الظعن والإقامة، حتى دخل بلدته «رايَ بريلي» وتزوج بها بحليلة صنوه المرحوم إسحاق بن عرفان، وهو أول نكاح بأيِّم في السادة والأشراف بأرض الهند ثم توارث فيهم. وكان الشيخ إسماعيل بن عبد الغني والشيخ عبد الحي بن هبة الله المذكوران وخلق آخرون من العلماء والمشايخ في ركابه يأخذون عنه الطريقة، فلبث ببلدة «راي بريلي» مدة ثم سافر إلى لكهنؤ، وأقام بها على تلّ الشيخ پيرْ محمد اللكهنوي على شاطىء «نهر كومتي» مع أصحابه، فبايعه ألوف من الرجال، وتلقاه الوزير معتمد الدولة بالترحيب

والإكـرام وضيفه، وعـرض عليه خمسـة آلاف من النقود، وكـاد أن يلقاه السلطان غـازي الدين حيـدر ملك لكهنؤ فخاف مجتهـدُ الشيعة أن يبـدّل مـذهبه، فـاحتال في المنـع، فنهض السيد الإمـام وخرج من لكهنؤ ودار البلاد، فنفع الله به خلقاً كثيراً من عباده.

ثم رجع إلى «راي بريلي» وسافر إلى الحجاز، ومعه سبع وخمسون وسبعمائة من أصحابه، فركب الفُلْك في «دلمؤ» من أعمال «راي بريلي»، وهي على شاطىء «نَهْر گَنْگ» فركب وبذل ما كان معه من شيء قليل من الدراهم على المساكين وقال: نحن أضياف الله سبحانه لا نلجأ إلى الدينار والدرهم، فانطلق ومرّ على «إله آباد» و «غازيپور» و «بنارَسْ» و «عظيم آباد» وغيرها من بلاد الهند، فدخل في بيعته خلق لا يحصون بحد وعد، حتى وصل إلى «كلكته» وأقام بها أياماً قلائل بإذن الحاكم العام للهند؛ ثم ركب السفينة وذهب إلى الحجاز سنة سبع وثـلاثين ومائتين وألف، وحصـل له الوقائع الغريبة وكشوف وكرامات في ذلك السفر الميمون المبارك، وانتفع به خلق كثير من أهل الحرمين الشريفين، وحـج وزار وقَفَل بعـد سنة حتى وصل إلى راي بريلي في سنة تسع وثلاثين ومائتين وألـف، فلبث بها نحو سنتين، وبعث الشيخ إسماعيل والشيخ عبد الحي المذكورين إلى بلاد شتى للتذكير والإرشاد، فدارا البلاد وهدى الله بهما خلقاً كثيراً من العباد.

(١) وكان السيد الإمام يجهز للهجرة والجهاد في تلك الفرصة، وخرج مع أصحابه في سنة إحدى وأربعين من بلدته، وسافر إلى بلاد «أفغانستان»، فلما وصل إلى «پنجتار» وقف بها، وحرض المؤمنين على الجهاد، وبعث أصحابه إلى «كابل» و «كاشغر» و «بخـارا» ليحرضـوا ملوكها على الشـركة والإعانة، فبايع الناسُ للجهاد وولوه عليهم، واجتمع تحت لوائه ألوف من الرجال، وزحف على جيـوش «رنجيت» ـ ملك «پنجاب» ـ وهـو من قوم طوال الشعور، ففتح الله سبحانه على يده بلادا حتى قُرِئت باسمه الخطبة في بلدة «پشاور» فأعلى الله مناره وكبت أعداءه: أعداء الدين، وجَبَل قلوب الأمراء على الانقياد له غالباً وعلى طاعته.

(١) فأحيا كثيراً من السنن المماتة، وأمات عظيماً من الإشراك والمحدثات، فتعصب أعداءُ الله ورسوله في شأنه وشأن أتباعه حتى نسبوا طريقته إلى محمد بن عبد الوهاب النجدي، ولقبوهم بالوهابية، ورغبوا إلى الكفار وصاروا أولياءهم في السر، حتى انحازوا عنه في معركة «بالا كوت»، فنال درجة الشهادة العليا، وفاز من بين أقرانهم بالقِدْح المُعلَّى؛ وبلغ منتهى أمله وأقصى أجله في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ست وأربعين ومائتين وألف، واستشهد معه كثير من أصحابه.

وقد صنف كثير من أصحابه كتباً مبسوطة في حالاته ومقاماته، منها: «الصراط المستقيم» بالفارسية للشيخ إسماعيل وللشيخ عبد الحي كليهما، وقد عرّبه الشيخ عبد الحي المذكور في الحجاز لأهل الحرمين الشريفين[١].

مصطفى علي خان

الشيخ العالم الفقيه أحمد بن مصطفى بن خير الدين بن خير الله العمري الگوپاموي، القاضي أحمد مجتبي، المشهور بمصطفى علي خان. كان من العلماء المبرّزين في المنطق والحكمة والشعر.

ولد ونشأ بگوپاموْ، وقرأ العلم على رحيم الدين الگوپاموي وغلام طيب البهاري والعلامة حيدر علي السنديلوي، وحفظ القرآن في ريعان شبابه، ثم سافر إلى «مدراس» سنة مائتين وألف، فلقّبه والا جاه باسم والده: «مولوي مصطفى علي خان بَهَادُر»، وولّاه التدريس بمدرسته التي كانت في «گوپاموْ»، فرجع إلى بلدته ودرّس بها مدة، ثم سافر إلى مَدْراس سنة إحدى عشرة ومائتين، وسكن بها زماناً قليلاً، ثم رجع إلى گوپاموْ، وسافر إلى مَدْراس مرة ثالثة سنة ست عشرة ومائتين، فولي القضاء ببلدة

---

(١) «الإعلام»: ٧/٢٨ - ٣٢. وللتوسع في سيرة هذا الإمام يُرجع إلى كتاب «إذا هبت ريح الإيمان» للشيخ أبو الحسن الندويّ حفظه الله فهو كتاب نافع.

«ترچناپلي»، فاستقل به زماناً صالحاً، ولما تُوفيّ قاضي القضاة محمد مستعد خان المدراسي قام مقامه في القضاء الأكبر واستقل به مدة حياته.

وكان عالماً صالحاً ديّناً متواضعاً، حسن الأخلاق، حسن المحاضرة، كثير المحفوظ في الشعر والأدب، شاعراً له ديوان الشعر الفارسي في مجلد، وله قصائد بالعربية.

(١) ومن شعره قوله:

تغيرت المودة في الرجال ... وشاع الحقد في أهل الكمالِ

قد انهدمت بأمطار الرزايا ... مقاصيرُ المروّة والنوالِ

وإنْ في الدهر ذو شرف ومجد ... سوى محكومِ رَبّات الحجالِ

فليس الآن يا نَفْس اكتساب ... يعاون ما عدا شدّ الرحال

(٢) وله:

ظَلَمتُ وكنتُ من الظالمينا ... ترحَّمْ يا ولي المؤمنينا

أضعتُ العمر في كسب الخطايا ... وصرت بما اكتسبت به رهينا

أطعت النفس حيناً بعد حين ... وإنّ النفس شر الحاكمينا

أنختُ النوق في بيداء غي ... ولم أسمع لوعظ الواعظينا

فإنْ جازيتني شرا بشر ... فعَدْلٌ منك رب العالمينا

وإن جاوزتَ عن ذنبي فعَفْوٌ ... وفضل ربنا فضلاً مبينا

تُوفيّ بمدراس سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف[١].

الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي

الشيخ العالم الكبير العلامة المجاهد في سبيل الله الشهيد إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي، أحد أفراد الدنيا في الذكاء والفطنة والشهامة وقوة النفس والصلابة في الدين.

ولد بدهلي سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف، وتوفي والده في صباه،

---

(١) «الإعلام»: ٣٦/٧ - ٣٨.

فتربىَّ في مهد عمه الشيخ عبد القادر بن ولي الله الدهلوي، وقرأ عليه الكتب الدرسية وصار بحراً زاخراً في المعقول والمنقول؛ ثم لازم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي، وأخذ عنه الطريقة، وسافر معه إلى الحرمين الشريفين سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف فحج وزار ورجع معه إلى الهند، وساح البلاد والقرى بأمره سنتين، فانتفع به خلق لا يحصون بحد وعد، ثم سافر معه إلى الحدود سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف، فجاهد معه في سبيل الله، وكان كالوزير للإمام، يجهز الجيوش، ويقتحم في المعارك العظيمة بنفسه، حتى استشهد في «بالا كوت» من أرض «باغستان»[1].

(١) وكان نادرة من نوادر الزمان وبديعة من بدائعه الحسان، مقبلاً على الله بقلبه وقالبه، مشتغلاً بالإفادة والعبادة، مع تواضع وحُسْن أخلاق وكرم وعفاف وشهامة نفس وصلابة دين وحسن محاضرة وقوة عارضة وفصاحة ورجاحة، فإذا جالسه منحرف الأخلاق أو مَنْ له في المسائل الدينية بعضُ شِقاق جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار، فلا يفارقه إلا وهو عنه راضٍ، وقد وقع مع أهل عصره قَلاقل وزلازل، وصار أمره أحدوثة، وجرت فتن عديدة في حياته وبعد مماته، والناس قسمان في شأنه؛ فبعض منهم مقصِّر به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بعظائم، وبعض آخر يبالغ في وصفه ويتعصب له كما يتعصب أهل القسم الأول، هذه قاعدة مطردة في كل من يفوق أهلَ عصره في أمر.

(٢) وأما مختاراته في المسائل الشرعية: فمنها:

أنه ذهب إلى أن رفع اليدين في الصلاة عند الافتتاحِ والركوعِ والقيامِ منه والقيامِ إلى الثالثة: سنةٌ غير مؤكدة من سنن الهدى فيثاب فاعله بقدر ما فَعَل، إنْ دائماً فبحسبه وإنْ مرة فبمثله، ولا يلام تاركه وإن تركه

---

(١) قال المعلق: تقع بالاكوت الآن في باكستان، وهو في وادي «كاغان» بين جبلين شامخين، وكانت هذه المنطقة كلها تسمَّى «باغستان» قديماً.

مدة عمره، ومنها: أن رفع المسبِّحة في أثناء التشهد عند التلفظ بكلمة التوحيد ثابت بحيث لا مردّ له، وأن في مسألة القراءة خلف الإمام دلائلَ الجانبين قوية، والأظهر أن القراءة أولى، والجهر بالتأمين أولى من خفضه لأن رواية جهره أكثر وأوضح؛ وترك الجهر بالتسمية أولى من الجهر بها لأن رواية ترك جهرها أكثر وأوضح من جهرها؛ ووضع اليد على الأخرى أولى من الإرسال، والإرسال لم يثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم، بل ثبت الوضع كما رَوَى مالك في «الموطأ» وغيرُه في غيره؛ والوضع تحت السرة وفوق السرة متساويان، والقنوت وتركه متساويان.

(١) ومما ذهب إليه: أنّ تجزّي الاجتهاد وتجزي التقليد لا بأس به، وأن التزام تقليد شخص معين لم يُجمَع على لزوم الاستمرار عليه، وما اشتهر من منع التقاط الرخص أيضاً خلاف، واتباع غير الأئمة الأربعة أيضاً مما لم يُجمَع على منعه، واتباع مذهب الحنفية ليس تقليد شخص معين، فوحدة هذا المذهب اختيارية، وكذلك وحدة المذاهب الأربعة أيضاً، فلا يلزم على متبعيه نقصان كما لا يلزم على متبع المذهب الحنفي، والحاصل أنه لا يجوز التزام تقليد شخص معين مع تمكّن الرجوع إلى الروايات الدالة خلافَ قول الإمام المقلَّد، والتقليد المطلق جائز وإلا لزم تكليف كل عامي، وأنّ قول الصحابي: (من السنة) في حكم الرفع؛ وفهم الصحابي ليس بحجة، لا سيما إذا كان مخالفاً لأجلة الصحابة رضي الله عنهم.

وأما مصنفاته: فهي عديدة منها: «إيضاح الحق الصريح في أحكام الميت والضريح» في بيان حقيقة السنة والبدعة، ومنها «منصب إمامةْ» في تحقيق منصب النبوة والإمامة، وهو مما لم يسبق إليه، ومنها رسالة له في مبحث «إمكان النظير وامتناع النظير» كلها بالفارسية، ومنها مختصر له بالعربي في أصول الفقه، ومنها رسالة له بالعربية في «رد الإشراك والبدع» رتبها على بابين، ومنها «تنوير العينين في إثبات رفع اليدين» بالعربية.

وقال الشيخ محسن بن يحيى الترهتي في «اليانع الجني»: إنه كان

أشدهم في دين الله، وأحفظهم للسنه، يغضب لها ويندب إليها، ويشنع على البدع وأهلها، من مصنفاته كتاب «الصراط المستقيم» في التصوف، و«الإيضاح» في بيان حقيقة السنة والبدعة مشهوران يرغب الناس فيهما، ومختصر في أصول الفقه، و«قرة العينين» صوابه «تنوير العينين»، انفرد فيها بمسائل عن جمهور أصحابه، واتبعه عليها أناس من المشرق من «بنگاله» وغيرها أكثر عدداً من حصى البطحاء وله كتاب آخر في «التوحيد والإشراك» فيه أمور في حلاوة التوحيد والعسل وأخرى في مرارة الحنظل، فمن قائل: إنها دُسَّت فيه، وقائلٍ: إنه تعمدها ـ انتهى.

(٢) قال صديق بن الحسن القنوجي في «أبجد العلوم» بعدما نقل تلك العبارة: أقول: ليس في كتابه الذي أشار إليه وهو المسمَّى بردّ الإشراك[١] في العربية، وبتقوية الإيمان بالهندية شيء مما يشان به عِرْضه العليّ، ويهان به فضله الجلي، وإنما هذه المقالة الصادرة عن صاحب «اليانع الجني» مصدرها: تلمُّذه بالشيخ فضل حق الخير آبادي، فإنه أول من قام بضده وتصدى لردّه في رسائله التي ليست عليها أثارة من علم الكتاب والسنة ـ انتهى.

(٣) وقال في «الحطة بذكر الصحاح الستة» في ذكر الشيخ وليّ الله ابن عبد الرحيم الدهلوي: إن ابن ابنه المولى محمد إسماعيل الشهيد اقتفى أثر جدِّه في قوله وفعله جميعاً، وتمَّم ما ابتدأه جدُّه، وأدَّى ما كان عليه وبقي ما كان له، والله تعالى مجازيه على صوالح الأعمال وقواطع الأقوال وصحاح الأحوال؛ ولم يكن ليخترع طريقاً جديداً في الإسلام كما يزعم الجهال، وقد قال الله تعالى: ﴿ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكْم والنبوة ثم يقولَ للناس: كانوا عباداً لي من دون الله، ولكن كانوا ربانيين بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ وطريقَةُ هذا كله مذهب حنفي،

---

(١) قال المعلق: وقد نفع الله به خلقاً لا يُحصىٰ بحدّ وعدّ في تصحيح العقيدة والتخليص من الشرك.

وشِرعة حقة، مضى عليها السلف والخلف الصلحاء من العجم والعرب العرباء ولم يختلف فيه اثنان ممن قلبُه مطمئن بالإيمان، كما لا يخفى على من مارس كتب الدين وصحب أهل الإيقان، كيف وقد ثبت في محله أن الرجل العامل بظواهر الكتاب وواضحات السنة أو بقول إمام آخر غير إمامه الذي لا يقلده لا يخرج عن كونه متمذهباً بمذهب إمامه كما يعتقده جهلة المتفقهة، ويتفوه بها الفقهاء المتقشفة من أهل الزمان المحرومين عن حلاوة الإيمان. وهو رحمه الله تعالى أحيا كثيراً من السنن المُماتات، وأمات عظيماً من الإشراك والمحدثات، حتى نال درجة الشهادة العليا، وفاز من بين أقرانهم بالقدْح المعلّى، وبلغ منتهى أمله وأقصى أجله، ولكن أعداء الله ورسوله تعصبوا في شأنه وشأن أتباعه وأقرانه، حتى نسبوا طريقته هذه إلى الشيخ محمد النجدي ولقبوهم بالوهابية وإن كان ذلك لا ينفعهم ولا يجدي؛ بل هم أهل بيت علم الحنفية وقدوة الملة الحنيفية وأصحاب النفوس الزكية وأهل القلوب القدسية المؤيدة من الله الذاهبة إلى الله، تمسكوا عند فساد الأمة بالحديث والقرآن واعتصموا بحبل الله، وعضوا عليه بالنواجذ كما وصاهم به رسولهم ونطق به القرآن ـ انتهى.

والشيخ إسماعيل قُتِل في سبيل الله لستّ ليال بقين من ذي القعدة سنة ست وأربعين ومائتين وألف بمعركة «بالا كوت»[(١)].

المفتي إسماعيل بن الوجيه المراد آبادي

الشيخ الفاضل العلامة إسماعيل بن المفتي وجيه الدين المراد آباديّ المشهور باللندني، كان من العلماء المشهورين في الفنون الحِكْمية، قدم لكهنؤ في صباه، وقرأ العلم على مَنْ بها من العلماء، وولي العدل والقضاء بمدينة لكهنؤ، فاستقل بها زماناً، ثم بعثه نصير الدين الحيدر اللكهنوي ملك «أوده» بالسفارة إلى ملك الجزائر البريطانية، فسافر إلى انكلستان، وأقام بها زماناً، وتزوج هناك بأوربية كانت تسمى بمِسْ دف، فاشتهر

(١) «الإعلام»: ٧/٥٨ ـ ٦٣.

باللندني لطول إقامته بلندن عاصمة الجزائر البريطانية، وكان يُذكر باختلال العقيدة، وإني سمعت شيخَنا محمد نعيم اللكهنويّ يقول: إنه لما رجع عن أوربا مع صاحبته وبنيه أشارت عليه زوجته أثناء الطريق أن يرتحل إلى الحجاز ويتشرف بالحج والزيارة فاستنكف عنه، وقال لها: إني لا أعتقد في الجدران ـ انتهى[1].

الشيخ الشهيد أمير علي الأميتهوي

الشيخ الصالح أمير علي بن محمد بن إمام الدين الصالحي الأميتهوي، أحد العلماء المشهورين، ولد ونشأ ببلدة «أميتهي»، واشتغل بالعلم من صغره، وسافر إلى لكهنؤ، وقرأ على الشيخ أسد الله بن نور الله اللكهنويّ، ثم لازم الشيخ عبد الرحمن الصوفيّ، وسافر إلى الحرمين الشريفين، فحج وزار، وأقام بها سنتين، ثم عاد إلى بلدته، وأقام بها زماناً.

(١) قال السيد الوالد في «مِهْرِ جَهَانْتاب»: كان في بلدة «أجودهيا» مسجد كبير من أبنية السلطان بابر، وكان الهنادك يعتقدونها أرضاً مقدسة، وجعلوها معبداً لهم من سالف الزمان، فلما انقرضت الدولة التيمورية غصبوا المسجد وجعلوه جزءا لمعبدهم، فقام الشيخ غلام حسين الأوديّ ومن معه من المسلمين لاستخلاص المسجد عن أيديهم، فقتلوه وحرقوا المصاحف، فلما سمع ذلك الشيخ أمير علي الأميتهوي دخل لكهنؤ، وحرَّض الولاةَ على تنبيه الكفرة واستخلاص المسجد، وكان الوزير نقي علي الشيعيّ مرتشيا، والديوانُ[2] وثنيا: فطفقا يدافعان عن الكفار. فلما رأى أمير علي ذلك خَرج إلى «أجودهيا» ليأخذ ثأر المسلمين عنهم وينتزع المسجد من أيديهم، فمنعه الوزير المذكور واستفتى العلماء في ذلك، وخلع عليهم ثيابا فأفتوه بأن الخروج لا يجوز، وكان واجِدْ علي شاه أمير تلك الناحية مغبونَ العقل

---

(١) «الإعلام»: ٦٣/٧.
(٢) أي وصاحب الديوان.

والدين، مشغولا بالملاهي والمنكرات، فحشد الوزيرُ الجند، وأمر بالإغارة على أمير علي ومن كان معه من المسلمين، فلما كاد يصل إلى «أجودهيا» أغارت عليه العساكر الشاهانية، فاستشهد الشيخ ومن معه من المسلمين انتهى.

وكانت وفاتُه سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف[1].

نواب تفضل حسين اللكهنوي

الفاضل العلامة تفضل حسين بن أسد الله بن كرم الله اللاهوري ثم اللكهنوي، نواب تفضل حسين خان، وكان من الأفاضل المشهورين في الهند، لم يكن في زمانه مثله في الفنون الرياضية.

ولد بسِيَالْكُوت، ودخل دهلي وله ثلاث عشرة سنة، وأخذ الفنون الحِكْمية عن الشيخ محمد وجيه الدهلوي، والفنون الرياضية عن محمد علي بن خير الله المهندس المشهور، ولما بلغ الثامنة عشر من سنِّهِ قدم إلى لكهنؤ مع أبيه؛ وقرأ حاشية السيد الزاهد على «شرح المواقف» على الشيخ محمد حسن بن غلام مصطفى اللكهنوي، ثم تصدر للإفادة، وتقرب إلى شجاع الدولة فذهب معه إلى «إله آباد» ودار معه حيث دار، فلما وصل إلى مدينة «بنارس» انحاز عنه وسافر إلى كلكته، وتقرب إلى نائب الملك العام، وعاش مدة في مصاحبته، وتعلم اللغة الإنكليزية واللاطينية، وأقبل على العلوم الرياضية إقبالاً كلياً، واشتغل بها مدة من الزمان، ففاق أقرانه بل على من تقدمه من العلماء في تلك العلوم، وجاء إلى بلدة لكهنؤ مع «جنرل پالْمر» سنة ست أو سبع وتسعين ومائة وألف، ثم ذهب إلى كلكته، وتردد إلى لكهنؤ غير مرة، وبعثه آصف الدولة صاحب «أوَدْه» إلى كلكته بالسفارة إلى الدولة الإنكليزية سنة ثلاث ومائتين وألف، فاستقل بها مدة، ثم ولاه الوزارة سنة إحدى عشرة ومائتين فاستقل بها زماناً، ولما تولى المملكة سعادت علي خان دبَّر الحيلة لإخراجه، فبعثه إلى كلكته، ووعده

---

(1) «الإعلام»: ٧/٨٣ ـ ٨٥.

أن يصل إليه منشور السفارة بكلكته، فلم يف به فاغتمّ بذلك، وابتلي بأمراض صعبة، ورجع إلى لكهنؤ، فلما وصل إلى «هزاري باغ» مات بها.

(١) قال التستري في «تحفة العالم»: إنه كان نادرة من نوادر الزمان، معدوم النظير في العلم وكثرة الدرس والإفادة، مع اشتغاله بالمهمات، وكان من عادته أن لا يأكل الطعام في اليوم والليلة إلا مرة واحدة، وأن لا ينام إلا في ساعات معدودة من النهار من الفجر إلى الضحى، وكان يشتغل بتدريس الفنون الرياضية من الضحى إلى الهاجرة، ثم يشتغل بمهمات الدولة ويتردد إليه الولاة والحكام ويتردد إليهم أحياناً إلى وقت العصر، ثم يدرُس الفقه على مذهب الشيعة ويصلي الظهرين[١] ثم يأكل الطعام، ثم يدرّس الفقه على مذهب الأحناف، ثم يصلي العشاءين، ثم يخلو ويشتغل بمطالعة الكتب، ولا يزال مشتغلاً بها إلى الصباح، ثم يصلي الفجر، ثم يأمر بإحضار المغنين فيغنون ويرقصون، وهو نائم إلى الضحوة، ولذلك عرضت له الأمراض المتعددة من الماليخوليا والفالج سنة أربع عشرة ومائتين وألف، وكان حينئذ بكلكته فشَدَّ الرحل إلى لكهنؤ لتبديل الهواء والعلاج، فلم يصل إليها ومات في أثناء السفر انتهى.

له رسالتان في الجبر والمقابلة، وله تعليقات على الكتب الدرسية، تدل على تبحره في العلوم الحِكْمية.

مات سنة خمس عشرة ومائتين وألف[٢].

المنشي جمال الدين الدهلويّ

الشيخ الصالح جمال الدين بن وحيد الدين بن محيي الدين الصديقي الكوتانوي الدهلويّ، ترجمان الحديث والقرآن وحسنة من حسنات الزمان، كان من نسل الفقيه المشهور قاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنه،

---

(١) أي الظهر والعصر جمعاً على مذهبه الشيعيّ.

(٢) «الإعلام»: ٧/١١٢ - ١١٣.

ولد بكوتانه ـ على ثلاثين ميلاً من دهلي ـ سنة سبع عشرة ومائتين وألف ونشأ بها، ثم سافر إلى دهلي، وقرأ العلم ولازم الشيخ محمد آفاق النقشبنديّ وبايعه، وأخذ عنه الطريقة، ثم ساقه سائق القدر إلى «بهوپال» المحروسة وله ثلاثون سنة، فتزوجت به «سِكَنْدَرْ بيگم» ـ ملكة «بهوپال» ـ وجعلته مداراً لمهمات الدولة سنة ثلاث وستين ومائتين وألف، فناب عنها وعن ابنتها «شاهجان بيگم» مدة عمره.

وكان حليماً، جواداً، متواضعاً كثير العبادة والخير والحظ، ذا صدق وإخلاص وتوجه وعرفان، لم يزل مشتغلاً بتدريس القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتربية الأيتام والضعفاء، وتزويج الأيامى، وتجهيز البنات، وإشاعة السنة، ونشر القرآن، يتلو ويدرس، ويأخذ المصاحف بألوف من النقود، ويقسمها على مستحقيها.

ومن آثاره الباقية: أنه أَمرَ بطبع «التفسير الرحماني» في أربع مجلدات للشيخ علي بن أحمد المهائي و«حجة الله البالغة» و«إزالة الخفاء» كلاهما للشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي، وكتباً أخرى بنفقته في مصر القاهرة والهند، وقسمها على مستحقيها، ومن آثاره: أنه صرف مالاً خطيراً على تصنيف تفسير القرآن في اللغة التركية، وتفسير في اللغة الأفغانية ثم أمر بطبعهما على نفقته ثم نشرهما في «تركستان» و«أفغانستان» والبلاد الرومية.

ومن آثاره: المدارس العظيمة والمساجد الرفيعة في بلدة «بهوپال»، وما ترى في بهوپال من كثرة المساجد وعمرانها بالصلاة والجماعة وتلاوة القرآن ودروس الحديث والتشرع والتورع فإنها من آثاره الباقية.

وكان أجملَ الناس صورة وسيرة، كأنه مَلكٌ على زِيّ البشر، يأتي المسجد في أوقات الصلاة، ويصلي بجماعة، وفي كل وقت من أوقات الصلاة يروح ويغدو إلى المساجد وحده، ويرفع نعليه بيده الكريمة، وما كانت الحُجّاب والبوّاب في قصر الإمارة له، يدخل عليه كلٌّ من أراد

الدخول عليه في أي وقت شاء، ويعرض عليه ما شاء، وبالجملة فإنه كان على قدم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. مات سنة تسع وتسعين ومائتين وألف[1].

الشيخ حسن علي بن حاجي شاه اللكهنويّ

الشيخ الفاضل العلامة: المشهور باللندني لطول لبثه بمدينة لندن.

(١) ولد ونشأ ببدة لكهنؤ، وقرأ العلم على أساتذة بلدته، ثم سافر إلى إنكلترا، ولبث بها اثنتي عشرة سنة، يسترزق بها بتعليم أهلها، وتزوَّج بها مغربية من أهل لندن. ورجع إلى الهند، مع صاحبته فدخل لكهنؤ في عهد غازي الدين حيدر اللكهنوي، وشفع له السفير الإنكليزي لمكانة زوجته، فوظَّفه غازي الدين المذكور بثلاثمائة من النقود في كل شهر، ثم لما علمتْ قرينته المغربية أن له زوجة أخرى في لكهنؤ تزوَّج بها قبل رحلته إلى لندن انحازت عنه، وسافرت إلى إنلكترا.

ثم استخدمه فضل علي خان الدهلوي الوزير في عهد محمد علي شاه، وجعله واسطةً بينه وبين السفير الإنكليزي، وولاه السفارة أمجد علي شاه، فاستقل بها إلى آخر الدولة، ولما عُزِل واحد علي شاه ورحل إلى كلكته سافر معه إلى «كانپور»، ثم رجع إلى لكهنؤ لِكبرَ سنِّه ومات بها.

وسماه الشيخ أحمد بن محمد الشرواني في «بحر النفائس» بالسيد حسين اللندني والصواب ما نقلناه.

قال الشيخ أحمد المذكور: إنه كان من أفاضل الديار الهندية وأبناء العصر، وكان قد سافر إلى لندن، جزيرة الإنكليس من النصارى، وهي المعروفة عندنا بالإنجريز ـ وغيرها من بلاد الإفرنج ـ خذلهم الله ـ وشاهد من عجائبهم أشياء كثيرة، وتعلم اللغة الإنكليزية فمهر فيها. اطلعتُ على رسالة له بالعربية لا تخلو من غريبة وفائدة إلى بعض أحبائه بعد إيابه من لندن ـ

---

(١) «الإعلام»: ٧/١٢٤ ـ ١٢٥.

انتهى. ثم نقل الشرواني بعض عباراته من تلك الرسالة. وإني اطلعت على تلك الرسالة كلِّها، وهي عزيزة الوجود، واطلعتُ على رسائله التي بعثها إلى الشيخ عبد العزيز بن ولي الله العمري الدهلوي وأجوبة الشيخ عبد العزيز المذكور إليه في مجموع لطيف، كلها تدل على براعته في الإنشاء والترسل.

ومن فوائده:

(١) فلْيُعلم: أن أرض الإفرنج أرض واسعة جداً، تنقطع إلى المحيط الغربي وتتصل بأقاصي الشمالِ وفي شرقها بلاد اليونان والروم، وفي جنوبها الخليج الأعظم المسمى بخليج المغرب، والخليج شعبة عظيمة من البحر داخلة في الأرض، وهذا الخليج هو الفاصل بين ممالك الروم والإفرنج وبين أرض مصر وبلاد البربر المشهورة بأرض المغرب التي يملكها المسلمون إلى زماننا هذا[١]، وسلطانهم من السادات العلوية، ثم إن أرض الإفرنج تسكنها أمم عظيمة قديمة يختلف لغات الأكثر منهم أشد الاختلاف، وهم زهاء أربع عشرة طائفة، لكل منها سلطان، كالإنكليس والفرانسيس والألمان والولنديز والأسبانيون والپُرتگيس والدِّينمارك والروس والسويد والبروس والإيتاليان وملتهم قاطبةً النصرانية، إلا أن فِرَقا منهم قد غَلَب عليهم الميل إلى طريقة الحكماء الطبيعيين من قرب المدة المذكورة (أي من قرب ثلاثمائة سنة) والروس أوسعهم مملكة لا يقاس بها كل الهند، والإنكليس أقربهم إلى طريقة الحكمة علماً وعملاً وأشدهم غلبة وشوكة في البحر، لاختصاصهم بكثرة المراكب وإتقان صنعتها والمهارة في تسييرها والمحاربة عليها، يشتمل أعظمها على مائة وعشرين مدفعاً فما دون ذلك إلى عشرين، وإنما اعتنوا بذلك كثيراً من دون سائر الأقوام لأن أرضهم جزيرة يحيط بها البحر من الأطراف لا اتصال لها بهذه الأرض، بخلاف سائر الإفرنجة فإنها متصلة بها، لكن هذه الجزيرة قريبة من ساحل ملك الفرانسيس جداً، وعُرْض الماء الذي بينهما اثنا عشر فرسخاً.

---

(١) هو البحر الأبيض المتوسّط.

وقد شاعت العلوم اللسانية ومعرفة اللغات القديمة في عامة بلاد الإفرنج، كالعربية واليونانية والرومية التي تسمى «ليتن» وأكثر كتبهم بها، واشتد ولوعهم بتعلم اللغات المختلفة التي لهم، خصوصاً لسان الفرانسيس، حتى لا يفوتهم شيء مما قد تعثر عليه قوم دون قوم.

(١) وكلما صُنِّف في بلدة كتاب تَرْجَمه الآخرون. واتسع باب التصنيف والتأليف أصلاً ونَقْلاً من لغة إلى أخرى، ويوجد جم غفير من المصنفين في كل عصر بل صار هذا بابا عظيما لكسب المال، فإنّ من صَنَّفَ كتاباً يخرجه إلى من يطبع الكتب فيعمل له في شهورٍ ألوفاً منه حسب ما اشتهاه، لا يختلف خطاً وشكلاً وصحة وسقما، بل كلُّها على نمط واحد في غاية الصحة والجودة، وتباع لأجل سهولة العمل بقيمة يسيرة يمكن الكل شراؤها فيعود الربح على المصنف، وطَبْعُ الكتب صناعة شريفة عظيمة النفع من جهات شتى، ظهر في تلك البلاد من قرب المدة المذكورة.

ولا يخلون من رغبة إلى لغة العرب والفرس والترك، بل قد عملوا فيها مجلدات ضخاماً وضبطوها على قدر وسعهم، وقد تصدى رجل من الإنكليس في قرب زماننا يسمَّى «سيل» لترجمة الكتاب الكريم، فأتى بالعجب العجاب، لعذوبة البيان والتزام التطابق وترك العصبية وسلوك طريق الإنصاف، وحل المشكلات من مظانها من التفاسير المشهورة كالبيضاوي والكشّاف[1]، وكذلك قد وقعت الحكمة الطبيعية والرياضية من قلوبهم كلَّ موقع وحلت بالمحل الأعلى، وتوغلوا فيها على أسلوب جديد، واكتفوا من المنطق بقليل، وهجروا الإلهي إلا إيداعَه كتباً من ذلك القبيل، ظناً منهم أن الاستدلال مركوز في جبلة الإنسان، ونسبةُ المنطق نسبة النحو والعَروض قلّما يخطىء فيها من أعطِي السليقة، ومن يبعد عنها فلا ينفعه تفصيل القوانين أيضاً، والباري جلّ شأنه لا يبلغ كنهَ ذاته ولا حقيقةَ صفاته العقولُ

(١) كذا قال و الله أعلم بحقيقة الحال.

القاصرة، فلا يغني فن الإلهي الذي ليس إلا محض الظن من الحق شيئاً انتهى مخلصاً.

وكانت وفاته ببلدة لكهنؤ سنة خمس وسبعين ومائتين وألف[1].

آغا حسن علي الإسماعيليّ القميّ

الأمير الكبير حسن علي بن خليل الله بن أبي الحسن الإسماعيلي القرمطي القمي، أحد الرجال المشهورين، قُتِل والده في صغر سنِّهِ، فتربى في مهد السلطة، وزوّجه فتح علي شاه قاچار الطهراني بابنته، فعاش في أبهة ومجد زماناً، ثم خرج على محمد شاه بن فتح علي شاه المذكور وبَغَى عليه سنة سبع وخمسين ومائتين وألف، فقاتله وقتل كثير من أصحابه، فسار نحو الهند، وسكن بمدينة بومباي ونَصَر الإنكليز في قتالهم مع الأفغان وأهل السند غير مرة، وادَّعى الإمامة فتبعه خلق كثير من الملاحدة وكان من الحشّاشين[2]. لقّبه الإنكليز بسمو الأمير، وكان لقبه في الدولة القاچارية: «آغا خان».

مات ببلدة بومباي وله أربع وثمانون سنة[3].

دلدار علي المجتهد النصير آبادي

الشيخ الفاضل العلامة المجتهد دلدار علي بن محمد معين بن عبد الهادي الحسيني النقوي الشيعي النصير آبادي، أول من ادعى الاجتهاد، وأقام الجماعة في الجمع والأعياد، كان من نسل السيد نجم الدين السَّبْزَوَاري، يصل نسبه إلى جعفر بن علي النقي.

ولد سنة ست وستين ومائة وألف تقريباً ببلدة «نصير آباد» على عشرين ميلاً من «راي بريلي» وسافر للعلم إلى «إله آباد» وقرأ أكثر الكتب

---

(١) «الإعلام»: ٧/١٣٥ - ١٣٨.

(٢) أي الباطنيّة الملاحدة، وهذا معروف إذ هو قرمطيّ إسماعيليّ كما أشار المؤلف.

(٣) «الإعلام»: ٧/١٤١.

الدرسية على الشيخ غلام حسين الدكني، ثم سار إلى «سنديله» وقرأ على حيدر علي بن حمد الله السنديلويّ، وقرأ بعض الكتب على مولانا باب الله الجونپوري، وسافر إلى العراق سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف وزار مشاهد الأئمة في «الطف» و «النجف» و «الكاظمَيْن» و «المَشْهَد»، وقرأ «الاستبصار» للطوسي و «الفوائد الحارة» على باقر محمد البهباني، وقرأ شطرا من «شرح المختصر النافع» على مصنفه علي بن محمد علي الطباطبائي، وقرأ بعض كتب الحديث على مهدي بن أبي القاسم الشهرستانيّ، كلها في «كربلاء». وقرأ شطرا من «الوافي» و «معالم الأصول» على مهدي بن مرتضى الطباطبائي النجفي حين نزل في النجف وصاحَبَه في سفره إلى «الكاظمين» و «العسكريين» و «سُرَّ مَنْ رأى»، فرجع إلى الهند ومكث برهة من الزمان ببلدته «نصير آباد»، ثم دخل لكهنؤ فجعله حسن رضا خان الشيعي الوزير معلِّماً لأبنائه، ورتَّب له راتباً ومضت عليه مدة.

وكانت الشيعة الإمامية إلى عصره متفرقين في بلاد الهند ليست لهم دعوة إلى مذهبهم، وما كانت لهم جامعة تجمعهم، فقام الشيخ محمد علي الكشميري بفيض آباد وحَرَّض الولاة أن يجمعهم في الصلاة، فألَّف رسالة في هذا الباب، ولما ذهب حسن رضا خان إلى «فيض آباد» عرض عليه وحرّضه على إقامة الجماعة في الصلاة، واتفق أن الوزير المذكور كان ممن يحسن الظن بالشيخ علي أكبر الصوفي الفيض آبادي، ويعتقد فيه الصلاح، فلقيه مرة ببلدة «لكهنؤ» فرآه يصلي بجماعة، فلما فرغ الشيخ علي أكبر من الصلاة حرّضه على إقامة الجماعة، وذكر له فضائلها على مذهب الشيعة، فذكر الوزير ما عهد إليه محمد علي الكشميري، وعزم على ذلك، فرضي به نواب آصف الدولة مَلِك «أوَدهْ»، فأقام الجماعة بأمره السيدُ دلدار علي، لثلاث عشرة خلون من رجب، سنة مائتين وألف.

ثم إنه بذل جهده في إحقاق مذهبه وإبطال غيره من المذاهب، لا سيما الأحناف والصوفية والأخبارية، حتى كاد يعم مذهبه في بلاد «أوده» ويتشيع كل الفرق، وله مصنفات كثيرة.

توفي سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف ببلدة لكهنؤ[١].

شاه عالم بن عزيز الدين الدهلويّ

الملك الفاضل شاه عالم بن عزيز الدين بن معز الدين جَهَانْدَارْ شاه الدهلوي، آخر ملوك الهند من سلالة تيمور قام بالملك سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف وكان اسمه عالي گَوْهَرْ، فلما تولَّى المملكة لقَّب نفسه «شاه عالم»، واستوزر شجاعَ الدولة صاحب «أَوَدهْ» ثم اتفقا على إعانة القاسم صاحب «بنگاله» في حربه مع الإنكليز، فغلبت الدولة الإنكليزية عليهم، واصطلحوا بأن يقنع شجاع الدولة ببلاد «أوده» ويقنع شاه عالم بمقاطعة «إله آباد»، فأقام شاه عالم بمدينة إله آباد مدة من الزمان. وكانت المرهتة[٢] غالبة على دهلي وما والاها من البلاد، فاستنجد الإنكليز، وأنقذوا مدينة دهلي من أيدي المرهتة، وأجروا لشاه عالم راتباً شهرياً، فأقام بقلعة دهلي ولم يَبْق له من السلطة إلا الاسم، ولم يزل كذلك إلى أن مات.

وكان شاعراً يتلقَّب بـ «آفتاب».

مات سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف ومدته ثمان وأربعون سنة[٣].

مولانا شريعة الله البدوي

الشيخ العالم شريعة الله البدوي البنگالي، أحد العلماء المشهورين في رفض التقليد والعمل بالنصوص الظاهرة.

ولد في «بندر كهولا» - في مديرية «فريدپور»، في بنگال - سنة ١١٧٨ هـ وسافر إلى الحجاز وهو في الثامنة عشرة من عمره، وقرأ على علمائه وشيوخه واستفاد منهم، ورجع بعد عشرين سنة إلى مسقط رأسه، وذلك في سنة ١٢١٧ هـ وقام بدعوته إلى التوحيد وهجر البدع والعادات

---

(١) «الإعلام»: ١٦٨/٧ - ١٧١.

(٢) قوم من كفار الهند.

(٣) «الإعلام»: ٢٠٩/٧.

الهندكية الجاهلية، والتفّ حوله عدد كبير من المسلمين من طبقة الفلاحين والعملة والفقراء.

ذكره كرامة علي الجونپوري في كتابه: «نسيم الحرمين» قال: إنه سافر إلى بلاد العرب وعاش مدة مع الخوارج والوهابية والخطابية، وضلّ عن مذهب الحق، وتمذهب بمذهبهم، جاهلاً عن حقيقة مذهبهم، فرجع إلى «بنگاله» بأشد الجهالة، وخَلَط أقوال كلٍّ من الثلاثة في مذهبه، مثلاً أَخَذ من الخوارج التكفيرَ بارتكاب الكبيرة، ومن الوهابية القولَ بالشرك لغير جماعته[1] ومن الخطابية شهادةَ الزور لموافقيهم، وأظهر الفساد في أرض «بنگاله»، فهلك من كان هالكاً، وقلده جماعة من الجهال، وفرّقوا مذهبهم من مذهبنا، حتّى إنهم يعرضون عن مجالستنا ومؤاكلتنا وأَكْل ذبيحتنا ومن الصلاة خلفنا، ومع هذا نسبوا أنفسهم إلى مذهب أهل السنة والجماعة وإلى المذهب الحنفي بالدجل والتلبيس ـ انتهى.

وقال في موضع آخر في ذلك الكتاب، ويقولون: ما عَرَف الدين والشريعة إلا حاجي شريعةُ الله، ويقول: الدين في «جُدّة» أو «بده» لا في غيرهما و«جُدّة» بلدة معروفة مشرّفة بقرب مكة المعظمة ـ زادهما الله شرفاً وعزّا ـ و«بده» نهر كبير في «بنگاله»، كان في ساحله بيت حاجي شريعة الله الذي أفسد دين الناس، يريدون من «بده» نفسه.

وقال في موضع آخر: وافترق هذه الفرقة إلى ثلاث فرق، وكلُّها لا تأكل طعام الآخرين وتسمِّي نفسها: «الفرقة الناجية» التي هي على الصواب، [الأولى]: «جَوْده دَسْتِي» تعني به خشباً يكون طوله أربع عشرةَ ذراعاً، وهذا علامة صلابته في الدين، فإذا ذهب أحدهم في ضيافةٍ يتزوّد طعاماً فيأكله، ولا يأكل من مطبوخ بيت المضِيف، أو يأكل الأرز غير المطبوخ، أوالأرز المدقوق أوالنارجيل، والثانية «مچلى دستي» يعني متوسطة

(١) لا شك أن الإمام محمد بن عبد الوهّاب بريء من هذه التهمة التي أشاعها مبغضوه في أكثر ديار الإسلام.

في المساحة، وهي تأكل من مطبوخ بيت المضيف إلا الذبيحة. والثالثة «جُنِنْدَهْ» يعني متفردة، وهي لا تأكل الذبيحة أيضاً إلا بعد الإنصاف وأخذ الكفارة، وأما ما اتفقوا عليه فمنه ما يقولون: إن المبايعة على يد شيخ الطريقة لقصد التوبة عن المعاصي والسلوك على الطريقة كفر، ويقولون: إن الشيخ والمرشد بمعنى: الشيطان، ووضعُ اليد على يد الشيخ عند المبايعة: كفر، ويقولون لرئيسهم: الأستاذ وللذي يتبعه: التلميذ، والأستاذ يأخذ العهد من التلميذ على أن لا يأكل الطعام ولا ذبيحَة غيرِ الأمة الفرائضية[1]، ويعتقد أن غير قومهم مشرك، وأن لا يسلّم عليه، ولا يصلي خلفه، وأن لا يصلي الجمعة والعيدين في أرض الهند لأنها دار الحرب، فالذي يصليها في الهند فهو كافر، وأن لا يعتقد مسلمين إلا علماءَ جماعتِهم، وأن يعتقد أنّ تارك الصلاة وغيرها من الفرائض كافر، ورئيسُهم يختار بخلافته رئيسَ القرية، يعلّم الناسَ الشهادةَ بالزور، ويظلم الناس، ومن لم يطعه يحرق بيته وذخائره، ويعطيه الخيار لتعزير الناس بضرب النعال وأخذ المال ويعين لنفسه الخراج من الخليفة، والخليفة يأخذ أموال الناس بأنواع الحيلة ـ انتهى.

وقال في موضع آخر: ولهم كتاب سموه «طريق الأحكام»، وهو متمسَّكهم، وليس عندهم كتاب غيره، ففي ذلك الكتاب ـ (في الطريقة الثلاثين) ـ ذكروا أربعين كبيرة على خلاف ما ذَكَر علماء أهل السنة، ثم قالوا: من ارتكب هذه الكبائر فبكل واحد منها يُجلَد مائة جلدة، وبهذا الحساب يُجلدُ على قدر ما ارتَكَب، يعني إنْ ارتكب واحدةً منها يجلد مائةً، وإن اثنتين فمائتين، وهكذا قالوا: وإن لم يستطع هذا القصاص بسبب المرض فيؤخذ مالُه كلُّه لارتكاب الكبيرة، ثم بعده ما يَكتسب ذلك المجرم إلى حول، فيؤخذ كلُّه ولا يؤخذ عقاره، وقالوا في الطريقة الخامسة: إن فرائض الغسل أحد عشر، وفي الطريقة الثامنة: إن استقبال

---

(١) يعني بالفرائضية متبعي هذا الشيخ.

الذبيحة إلى القبلة فرض، وفي الطريقة الحادية عشرة: إن شروط الصلاة وصفتها سبع وعشرون، وعدّوا الواجب ثمانية عشر، وفي الطريقة الثلاثين قالوا: كفارة الظهار عتق رقبة، فإن عَجزَ عن العتق أطعم سبعين مسكيناً، وهكذا زادوا ونقصوا في نصاب الزكاة ومقدار الصاع ماشاؤوا ـ انتهى[1].

مات سنة ست وخمسين ومائتين وألف[2].

مولانا عبد الرحمن الدهلويّ

(١) الشيخ الفاضل عبد الرحمن الدهلوي الأعمى أحد العلماء

---

(١) قال المعلِّق حفظه الله: هذا ما قاله الشيخ كرامة علي الجونفوري في المترجَم له، ولا يخلو من التحامل والمغالاة، أما ما جاء في كتب التاريخ التي ألفها الإنجليز أو المسلمون بعده، فيستفاد منه أنه كان مصلحاً دينياً فيه شذوذ وتطرف وغلو، وقد رأى في بلاده (بنگال) جهلاً مُطْبِقا، وأعرافا جاهلية، وتقاليد نشأت باختلاط المشركين وعبدة الأصنام والأوهام، وسيطرتِهم السياسيَّة والاقتصادية والاجتماعية، وخضوع المسلمين لهم، لتخلُّفهم في العلوم والمدنية وفقرهم وبؤسهم وكان المرازبة الهنادك ـ المُلّاك والأغنياء منهم ـ قد امتهنوا المسلمين في بنگال، وأكثرهم فلاحون وعَمَلة، مع أنهم يشكلون أكثرية، وهم يعتمدون عليهم في الفلاحة وإصلاح الأراضي، وأخذوهم بالسخرة الظالمة والقسوة، مع تطفيف الكيل معهم ومَنْعهم حقوقهم وحظوظهم، فجاءت دعوته ثورةً على هذا الوضع الشائن، وقد نفخت في المسلمين روح النخوة والإباء والاعتداد بالنفس والكرامة، ونشرت فيهم الأخوة والمساواة، مع التزام الفرائض والواجبات الدينية، لذلك اشتهرت هذه الحركة بالفرائضية، واشتهر أصحابها بالفرائضيين وحسنت أخلاقهم وأقلعوا عن العادات القبيحة والأخلاق الذميمة، وقد مَنَعوا عن المرازبة الهنادك ضرائبهم المُجحفة التي فرضوها عليهم، واتحدوا، وشعرت الحكومة الإنجليزية بالخطر منهم.

وقد رافق هذه الدعوةَ شيءٌ من المغالاة، كتحريم البيعة المعمول بها عند مشايخ الطرق، ووضع اليد على اليد، والتسرُّع في التكفير، ومنع الجمعة والعيدين في الهند، لأنها صارت دار حرب بعد استيلاء الإنجليز، إلى غير ذلك.

ولم يُتحقّق أنه تتلمذ على عالم أو داعية وهابي، بل الذي ثبت أنه تخرّج على الشيخ طاهر السنبل الشافعيّ، والله أعلم بحقيقة الحال.

(٢) «الإعلام»: ٧/٢١٢ ـ ٢١٦.

المشهورين. كان أصله من «پنْجاب»، دخل دهلي صحبة شيخه «حياة» وأخذ عنه ولازمه مدة من الزمان وبرع في العلوم المتعارفة كلها، وكان شيخه إذا أقرأه الهندسة خطّط على ظهرِهِ الأشكال الهندسية فيفهمه بذلك الشكل الغريب.

وهو درّس وأفاد بدهلي زماناً طويلاً، أخذ عنه خلق كثير من العلماء؛ وكان يستمع الكتب مع شروحها وحواشيها من بعض أصحابه ثم يدخل حجرته ويغلق بابها، ويخرُج بعد ساعة أو ساعتين فيدرّس تلك الكتب، وكان يفكّر في عبارات الكتب المسموعة في الخلوة ويحل عويصاتها.

قال أحمد بن محمد المتقي الدهلوي في «آثار الصناديد»: إنه كان نادرة من نوادر الزمان في الحفظ والذكاء، كُفَّ بصرُه في حداثة السن فمنّ الله عليه بالبصيرة فلازم الشيخ حياة وأخذ عنه حتى برع وفاق الأقران في العلوم كلها لا سيما الهيئة والهندسة والحساب وغيرها من الفنون الرياضية، فإنه كان يدرِّس في تلك الفنون أحسن من غيره من الأساتذة ويُلقي على الطلبة الخطوطَ والدوائر بلا تجشُّم تتحير به العقول وتندهش به الألباب ـ انتهى.

توفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف[1].

مولانا عبد الرحيم الرامپوريّ

الشيخ الفاضل: عبد الرحيم بن محمد سعيد الأفغاني الرامپوري، أحد العلماء المبرّزين في الفقه والأصول والعربية، درّس وأفاد مدة عمره ببلدة «رامپور» مع الزهد والقناعة، ولم يلتفت إلى الدنيا وأسبابها قط.

(١) ومن غرائبه: أن هاكنس الإنكليزي الذي كان والياً على بلاد «روهيلكهند» استقدمه إلى مدينة «بريلي» وأراد أن يجعله أستاذاً للعلوم العربية في المدرسة الإنكليزية بها بخمسين ومائتين من النقود الإنكليزية في

---

(١) «الإعلام»: ٧/٢٦٢ ـ ٢٦٣.

كل شهر، وواعَدَه أن يجعل شهريته بعد زمان يسير ثلاثمائة رُبِّيـة فأبى، وحاجّه بما يُقضَى منه العَجَبُ فقال: إن أمير بلدتِه يعطيه عشر ربيات شهرياً فتنقطع عنه تلك الوظيفة، فقال الوالي: إني معطيك أضعاف ذلك بكثير، فكيف تفكر في العشرة؟! فالتفت إلى غير ذلك، فقال: إن في بيتي شجرةَ سِدْرٍ أثمارُها في غاية الحلاوة، فكيف أجد تلك الأثمار فقال: أهل بيتك يرسلونها إليك، فقال: نعم، ولكن الطلبة ما يصنعون بعد غيبتي عن البلدة وعلى من يقرؤون العلم؟ فقال: إنْ طلبتَهم إلى هذه البلدة يجيئون إليك، وإني أرتب لهم الوظائف والرواتب، فقال: وماذا أجيب الله سبحانه إن سألني عن أخذ الأجرة على التعليم؟ ثم رجع إلى «رامپور» وقنع على تلك العشرة التي يعطيها نواب أحمد علي خان أمير تلك الناحية، وصرف عمره في نشر العلوم والمعارف ابتغاءً لوجه الله سبحانه.

مات برامپور سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف[1].

مولانا عبد السلام الهَسْوِيّ

الشيخ العالم المحدث عبد السلام بن أبي القاسم بن مهدي الحسيني الواسطي الهسوي الفتحپوري، أحد العلماء الراسخين في العلم. ولد بقرية «هَسْوه» من أعمال «فتحپور» سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف، واشتغل بالعلم على عمه السيد سراج الدين الحسيني الواسطيّ رحمه الله مدة، ثم سافر إلى لكهنؤ، وقرأ الكتب الدرسية على الشيخ معين الدين الكروي والشيخ معين بن مبين اللكهنوي، وعلى غيرهما من العلماء، ثم رجع إلى وطنه، وأخذ الطريقة عن والده، ولازمه مدة، ولما توفي أبوه، رحل إلى دهلي، وأخذ الحديث والتفسير عن الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي، وأخذ الطريقة عن الشيخ أحمد سعيد بن أبي سعيد، ولازمه ثلاث سنوات، فلما بلغ رتبة المشيخة رجع إلى وطنه، ولبث بها مدة ثم

(١) «الإعلام»: ٧/٢٦٥ - ٢٦٦.

سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار وأسند الحديث عن الشيخ أحمد بن زيني دحلان الشافعي المكيّ.

(١) وكان رحمه الله ورعاً تقياً زاهداً، جمع العلم والعمل والإقبال على الطاعة، والسداد في الرواية، وقلّة الكلام فيما لا يعنيه، وقلة الخلاف على أصحابه، وحِفْظَ اللسان عن الفلتات التي لا يخلو عنها غالب أمثاله، وحسْنَ سَمْت وقناعة وعفاف وزهد واستغناء وإيثار ومحاسن أوصاف، فتح الله عليه بالمعارف، وجعله من العلماء الراسخين في العلم؛ ومن أخلاقه الزكية: أنه لا يحيف على من يُبغِض، ولا يأثم فيمن يحب، ولا يضيع ما استوُدِع، ولا يحسد ولا يطعن ولا يلعن، ويعترف بالحق، وإن لم يَشْهد عليه، ولا يتنابز بالألقاب ولا يغلبه الشحّ عن معروف يريده، وكان لا يستحيي من الحق، ويقول فيما لا يعلم: إنه لا يدري.

(٢) وكان يقوم في جوف الليل ويجتهد، ويشتغل بالذكر والفكر، ثم يغدو إلى الجامع الكبير، ويترقب الصلاة فيه مشتغلاً بالمراقبة، حتى يجتمع الناس، ويصلي بالجماعة في الغَلَس، ثم يشتغل بالأذكار الراتبة إلى الإشراق، ثم يصلي ويتوجه إلى أصحابه، ويلقي عليهم الذكر ساعة، ثم يقرأ القرآن إلى الضحوة، ثم يصلي ويرجع إلى بيته، ويدرّس الطلبة إلى الهاجرة، ثم يتغدى ويقيل ساعة، ثم ينهض ويذهب إلى المسجد ويصليّ الظهر بجماعة في أول وقته، ويشتغل ساعة بالأحزاب، ثم يرجع ويدرّس إلى وقت العصر، ثم يذهب إلى المسجد ويصليّ العصر بجماعة في أول وقته، ثم يرجع ويجلس للناس فارغا بالظاهر ومشتغلا بالباطن، ويتكلم بقدر الضرورة مع بشاشة الوجه والتبسم إلى وقت المغرب، ثم يصلي المغرب بالجماعة في المسجد، ثم يشتغل بمطالعة الكتب والتصنيف والإفتاء إلى العشاء، ثم يصليه في المسجد ويذهب إلى الحرم، ويتعشى وينام، ولا يشتغل بشيء بعد العشاء.

له رسائل عديدة في الرد على الشيعة، «كتذكرة الاثني عشرية» و«تفضيح الشيعة»، وله غير ذلك من الرسائل، وله فتاوى كثيرة.

مات سنة تسع وتسعين ومائتين وألف[1].

سراج الهند حجة الله الشيخ عبد العزيز الدهلوي

الشيخ الإمام العالم الكبير العلامة المحدث: عبد العزيز بن ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي، سيد علمائنا في زمانه وابن سيدهم، لقَّبه بعضهم «سراجَ الهند» وبعضهم: «حجة الله».

ولد سنة تسع وخمسين ومائة وألف.

حفظ القرآن، وأخذ العلم عن والده، فقرأ عليه بعضاً وسمع بعضاً آخر بالتحقيق والدراية، والفحص والعناية، حتى حصلت له ملكة راسخة في العلوم، ولما تُوفي أبوه إلى جوار رحمة الله تعالى ورضوانه وله ست عشرة سنة عند وفاة والده، أخذ عن الشيخ نور الله البرهانوي والشيخ محمد أمين الكشميري، وأجازه الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله بالپهلتي، كانوا من أجلة أصحاب والده، فاستفاد منهم ما فاته على أبيه، وله رسالة فصَّل فيها ما قرأ على والده وعلى غيره من العلماء.

وكان طويل القامة نحيف البدن، أسمر اللون، أنجل العينين، كث اللحية، وكان يكتب النسخ والرقاع بغاية الجودة، وكانت له مهارة في الرمي والفروسية.

وكان رحمه الله أحد أفراد الدنيا بفضله وآدابه وعلمه وذكائه وفهمه وسرعة حفظه، اشتغل بالدرس والإفادة وله خمس عشرة سنة فدرّس وأفاد، حتى صار في الهند العَلَم المفرد، وتخرج عليه الفضلاء وقصدته الطلبة من أغلب الأرجاء، وتهافتوا عليه تهافت الظمآن على الماء.

(١) هذا وقد اعترته الأمراض المؤلمة وهو ابن خمس وعشرين، فأدت

---

(١) «الإعلام»: ٧/ ٢٧٠ - ٢٧٢.

إلى الجذام والبرَص والعَمَى، ونحو ذلك حتى عدّ منها أربعة عشر مرضاً مفجعاً، ومن ذلك السبب فَوّض تولية التدريس في مدرسته إلى صنويه رفيع الدين وعبد القادر، ومع ذلك كان يـدرّس بنفسه النفيسـة أيضاً؛ ويصنّف ويفتي ويعظ، ومواعظه كانت مقصورة على حقائق التنزيل في كل أسبوع يوم الثلاثاء وكان في آخر عمره لا يقدر أن يقعد في مجلسٍ ساعة، فيمشي بين مدرستيه القديمة والجديدة، ويشتغل عليه خلق كثير في ذلك الوقت فيدرّس ويفتي ويرشد الناس إلى طريق الحق، وكذلك يمشي بين العصر والمغرب، ويذهب إلى الشارع الذي بين المدرسة وبين الجامع الكبيـر، فيتهـادى بين الرجلين يميناً وشمالاً، ويتـرقب الناس قـدومَه في الـطريق ويستفيـدون منـه في مشكـلاتهم؛ ومن تلك الأمـراض المؤلمـة: فقـدان الاشتهاء إلى حدّ يَقضي أيـاماً وليـالي لا يذوق طعم الغـذاء؛ صَرَّحَ في تقريظه على «المناقب الحيدريـة» قال: ويَعتـذِر من التقصير في التقـريظ بـأعذار صـادقة، وأمـراض سابقـة ولاحقة، حتى أدت إلى فقـدان الغذاء بالمرة، وصار الأكل غِبّاً[1] بطريق النوبة كالحُمَّى لغلبة المرّة، وتساقطت القوى واختلت الحواس، وتهاترت الأعضاء والعظام والأضراس، إلى غير ذلك، وقال في كتابه إلى أمير حيدر بن نور الحسنين البلگرامي: وإنْ سألتم عن حال هذا المُحِبّ فهو في سقمٍ واصب ليلاً ونهاراً، وكرب يزعجه سراً وجهارا وذلك لاجتماع أمراضٍ كـلٌّ منها بـانفراده يكفي لإزعـاج الرجـل وإكماده؛ منها: قبض البواسير، واحتباس الرياح في المعدة والأمعاء، ومنها فقدان الاشتهاء إلى حد يقضي أياماً وليالي لا يذوق طعم الغذاء، ومنها صعود الأبخرة إلى القلب فيحاكي حالتُه الانزهاق والاختناق، وربما تصعد إلى الدماغ، فتحدث شقيقة ثاقبة وصداعاً لذاعاً كأنها ضـربات الـدقاق، وإلى الله المشتكى وهو المستعان، فهذه الأمراض لا يسع النطق معها ببنت شفة، فضلاً عن إملاء كتاب، أو إنشاء صحيفة خطاب، إلى غير ذلك.

---

(١) قليلاً.

ولعلك تتعجب أنه كان مع هذه الأمراض المؤلمة والأسقام المفجعة لطيفَ الطبع، حسن المحاضرة، جميل المذاكرة، فصيح المنطق، مليح الكلام، ذا تواضع وبشاشة وتودُّد، لا يمكن الإحاطة بوصفه ومجالستُه هي نزهة الأذهان والعقول، بما لديه من الأخبار التي تشنِّف الأسماع، والأشعار المهذبة للطباع، والحكايات عن الأقطار البعيدة وأهلها وعجائبها، بحيث يظن السامع أنه قد عرفها بالمشاهدة، ولم يكن الأمر كذلك، فإنه لم يعرف غيرَ كلكَتَّه، ولكنه كان باهِرَ الذكاء قويَّ التصور، كثير البحث عن الحقائق، فاستفاد ذلك بوفود أهل الأقطار البعيدة، إلى حضرة دهلي، ولأنه قد صنف الناسُ في الأخبار مصنفات يستفيد بها مما يقرب من المشاهدة، وكان الناس يقصدونه ليستفيدوا من علمه، والأدباءُ ليأخذوا من أدبه ويعرضوا عليه أشعارهم، والمحاويجُ يأتونه ليشفع لهم عند أرباب الدنيا ويواسيهم بما يمكنه، وكَرَمُه كلمة إجماع، والمرضى يلوذون به لمداواتهم، وأهل السلوك يأتونه ليقتبسوا من أشعة أنواره، وغرباء الديار من أهل العلم والمشيخة ينزلهم في منزله ويُفضِّل عليهم بما يحتاجون إليه، ويسعى في قضاء أغراضهم ونيل مطالبهم وإذا جالسه منحرفُ الأخلاق أو من له في المسائل الدينية بعض شقاق جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار، فلا يفارقه إلا وهو عنه راض.

قال الشيخ محسن بن يحي الترهتي في «البالغ الجني»: إنه قد بلغ من الكمال والشهرة بحيث ترى الناس في مدن أقطار الهند يفتخرون باعتزائهم إليه، بل بانسلاكهم في سمط من ينتمي إلى أصحابه. قال: ومن سجاياه الفاضلة الجميلة التي لا يدانيه عامة أهل زمانه: قوة عارضته، لم يناضل أحدا إلا أصاب غَرضَه، ومن ذلك براعته في تحسين العبارة وتحبيرها والتأنق فيها وتحريرها، حتى عدّه أقرانه مقدَّماً من بين حَلْبة رِهانِهِ، وسلَّموا له قصبات السبق في ميدانه.

(١) ومنها فراساته التي أقدره الله بها على تأويل الرؤيا، فكان لا يعبر شيئاً

منها إلا جاءت كما أَخَبَر به كأنما قد رآها، وهذا لا يكون إلا لأصحاب النفوس الزاكيات المطهّرة عن أدناس الشهوات الرديئة وأرجاسها، وكم له من خصال محمودة وفضائل مشهودة؛ وجملة القول فيه: إن الله تبارك وتعالى قد جمع فيه من صنوف الفضل وشتاته التي فرّقها بين أبناء عصره في أرضه:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا لدى المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحد

هذا وللشيخ عبد العزيز مؤلفاتٌ كلها مقبولة عند العلماء محبوبة إليهم يتنافسون فيها ويحتجون بترجيحاته، وهو حقيق بذلك. وفي عبارته قوة وفصاحة، وسلاسة تعشقها الأسماع وتلتذ بها القلوب، ولكلامه وقع في الأذهان، قَلَّ أن يمعن في مطالعته من له فَهْمٌ فيبقى على التقليد بعد ذلك، وإذا رأى كلاماً متهافتاً زَيَّفه ومَزَّقه بعبارات عَذْبة حلوة، وقد أكثر الحطَّ على الشيعة في المسائل الكلامية، وله حجة قاطعة عليهم لا يستطيعون أن ينطقوا في جواب «تحفته» ببنت شفة.

وأما مصنفاته فأشهرها: تفسير القرآن المسمَّى بفتح العزيز، صَنَّفه في شدة المرض ولحوق الضعف إملاءا، وهو في مجلدات كبار... ضاع معظمها في ثورة الهند، وما بقي منها إلا مجلدان من أول وآخر، ومنها «الفتاوى في المسائل المشكلة» إن جُمِعت ما تحويها ضخام الدفاتر، والميسَّر منها أيضاً في مجلدين؛ ومنها: «تحفة اثنا عَشْريّه» في الكلام على مذهب الشيعة، كتاب لم يسبق إلى مثله، ومنها كتابه «بستان المحدثين» وهو فهرس كتب الحديث وتراجم أهلها ببسط وتفصيل، ولكنه لم يتم، ومنها «العجالة النافعة» رسالة له بالفارسية في أصول الحديث، ومنها رسالة فيما يجب حفظه لطالبي الحديث ومنها «ميزان البلاغة» متن متين له في علم البلاغة، ومنها «ميزان الكلام» متن متين له في علم الكلام، ومنها «السر الجليل في مسألة التفضيل» رسالة له في تفضيل الخلفاء بعضهم على بعض، ومنها رسالة له في الأنساب، ومنها رسالة عجيبة له في الرؤيا، وله غير ذلك من الرسائل.

وأما مصنفاته في المنطق والحكمة فمنها حاشية على «شرح هداية الحكمة» للصدر الشيرازيّ.

وله شرح على أرجوزة الأصمعيّ، وله مراسلات إلى العلماء والأدباء.

توفي سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف، وله ثمانون سنة، وقبره بدهلي[1].

ملك العلماء عبد العلي اللكهنوي

الشيخ الإمام العالم الكبير العلامة عبد العلي بن نظام الدين بن قطب الدين بن عبد الحليم الأنصاري السُّهالْوي اللكهنوي، بحر العلوم ملك العلماء.

كان معدوم النظير في زمانه، رأساً في الفقه والأصول، إماماً جوالاً في المنطق والحكمة والكلام، ولد ونشأ بمدينة لكهنؤ وقرأ العلم على والده، وفرغ منه وله سبع عشرة سنة، فحينئذ زوَّجه والده بقرية «كاكوري» ومات بعد ستة أشهر من فراغه.

(١) فاشتغل عبد العلي بمطالعة الكتب وانقطع إلى البحث والاشتغال بمراجعته على الشيخ كمال الدين الفتحْپوري، وكان أجلَّ تلامذة والده وأسنَّهم، فكان يباحثه بحثاً دقيقاً في المسائل طلباً للحق وإدراكاً للصواب، وهو يرشده إلى إفادات والده وإفاداته المخصوصة، وكان لا يشمئز عن مباحثته إياه. قال الشيخ ولي الله في «الأغصان الأربعة»: إن الناس قالوا للشيخ كمال الدين: إن هذا الطفل يباحثك غاية البحث ويكلمك غير مبال للأدب، وأنتم لا تؤدبونه ولا تسخطون عليه، فأجابهم بأن له وجوها: الأول: أنّ والده نظام الدين كان أستاذي فلست أكافىء ما أحسن إليَّ والده، والثاني: أن هذا الفتى حَصّل في حَداثة سِنّه بمقاساة التعب ومكابدة المحن ما لم يكن حاصلاً لأبيه في تلك السن، والثالث: أنّ ما تيسر له في

(١) «الإعلام»: ٧/٢٧٥ ـ ٢٨٣.

هذه السِّنّ من سعة النظر على تحقيقات القدماء ومصنفات المتأخرين لا يتيسر للعلماء في مدة أعمارهم، وإن كان صغير السن، ولكنّه يساوي في البحث والعلم العلامةَ صدرَ الدين الشيرازي والمحقّق جلالَ الدين الدّوانيّ.

قال الشيخ ولي الله المذكور: إنه أحرز قصب السبق عن كبار العلماء، وسَبَق في حَلْبة الرهان على أكابر الأساتذة، لأنه كان مواظباً على مطالعة أسفار القدماء، التي هي مأخذ المتأخرين من العلماء وعمدتهم ليلاً ونهاراً، وأما غيره من العلماء فمناط معلوماتهم ما كان مسموعاً عن أساتذتهم ومأخوذاً من أقوال المتأخرين، وأين هذا من ذلك؟ انتهى.

(١) وقد درّس العلامة عبد العلي بمدينة لكهنؤ زماناً، ثم سنحت له في بلدته سانحةٌ عظيمة، فاضطُرّ إلى الخروج من بلدة لكهنؤ وقصتها على ما ذكرها ولده عبد الأعلى في «الرسالة القطبية»: إن نور الحسن الشيعي البلگرامي وَفَد إلى لكهنؤ ومرض، فسكن بدار الشيخ محب الله بن عبد الحق اللكهنوي في «فِرَنْگِي مَحَلْ»، وكان رهينَ الفراش، لا يستطيع أن يذهب إلى إحدى الحسينيات لزيارة الضرائح المتخذة من القضبان والثياب، على دأبهم في شهر المحرَّم، فَطَلب الضريح في دار الشيخ محب الله المذكور حيث كان مقيماً للتبرك به؛ وكانت مدرسةُ الشيخ عبد العلي في أثناء الطريق؛ فجاؤوا بالضريح إلى المدرسة المذكورة، فظن الشيخُ العلامة أنهم ضلُّوا الطريق، وكان مشتغلاً بتلاوة القرآن في تلك الساعة، فأومأ بيده إلى أصحابه أن يصرفوهم عن هذا الطريق، فمنعوهم ثم كسروها ظناً منهم أن العلامة أمرهم أن يمحقوا هذه البدعة، فارتفع الصخب والضوضاء وهَجَم الناس عليه، وأمر القاضي غلام مصطفى الشيعي اللكهنوي أن يقتلوه، ودافعهم العلامة بأصحابه وتلامذته، فلَمّا رأوا أنهم لا يقدرون على قتاله صالحوه، ثم أرادوا به كيداً ليقتلوه غيلة، فاستشار العلامةُ بني أعمامه في هذا الأمر، فقالوا: نحن لا نستطيع أن نمنعك، وأشاروا عليه بأن يخرج من لكهنؤ ويذهب إلى بلدة أخرى، وأشار

عليه أصحابه وأصحاب والده المرحوم أنْ يثبُت في مدرسة أبيه ولا يهجر وطنه. فلما رأى العلامة أنّ بني أعمامه لا يرضون قيامه في لكهنؤ خَرَج من هذه البلدة الظالمِ أهلُها، وذهب إلى «شاهجهانپور»، فلم يرجع إلى لكهنؤ بعد ذلك ولم يدخلها قط. ولما دخل «شاهجهانپور» استقبله نواب حافظ الملك ـ أمير تلك الناحية ـ وجَعَل له ولأصحابه الأرزاق السنية، فأقام بقلعة «شاهجهانپور» عند نواب عبد الله خان، وعكف على التدريس والتصنيف بجمع الهمة وفراغ الخاطر، وانتفع جمع كثير من العلماء، فأقام بشاهجهانپور عشرين سنة؛ ثم لما استُشهِد حافظُ الملك المذكور واستولى شجاعُ الدولة ـ أمير بلاد «أوده» ـ على مُلْكه ذهب إلى «رامپور»، فاغتنم قدومَه نواب فيضُ الله خان ـ أمير تلك الناحية ـ ورتّب الوظائف له ولأصحابه من طلبة العلم، فأقام بها أربع سنين، ودرَّس وصنف الكتب وصحّح ما كَتَب بلكهنؤ من الحواشي والتعليقات، واشتغل عليه خلق كثير من قاصٍ ودانٍ، وتخرَّج عليه جماعات من الفضلاء من سائر البلدان، وقصدتْه الطلبة من أغلب الأرجاء، وتهافتوا عليه تهافُتَ الظمآن على الماء، حتى عَجز فيض الله خان المذكور عن مؤنتهم، فأراد أن يذهب إلى غير هذه البلدة؛ فاستقدمه صدر الدين البردواني إلى «بُهَار» وبَعَث ولاةُ الإنكليز رسائل إلى فيض الله خان ليبعثه إلى «بُهار»، وكان صدر الدين المذكور بَنى بها مدرسة عالية بإشارة الولاة فأجابه ونهض إليها مع من كان معه من الطلبة والعلماء، فلما وصل إلى «بُهار» استقبله صدر الدين المذكور، ورتَّب له في كل شهر أربعمائة ربية ووَظَّف مائة رجل من المحصلين عليه، فأقام بتلك القرية مدة من الزمان ودرّس وأفاد.

(١) ثم تكدرت صحبته بصدر الدين فأراد أن يخرج من تلك القرية، فبينما هو في ذلك إذ استقدمه نواب وَالاجَاهْ محمد علي خان الگوپامْوِي إلى مَدْراس، فسافر إليها مع ستمائة نفس من رجال العلم، فلما قَرُب من مَدْراس بَعَث إليه الأمير بعضَ أبنائه وأقاربه للاستقبال، ولما دخل مدراس ووصل إلى باب القصر استقبله الأمير بسائر أقاربه وأركان دولته راجِلاً فأراد

العلامة أن ينزل من المِحَفَّة[1] فمنعه الأمير عن ذلك، وحمل المحفَّة على عاتقِهِ، ودخل دارَ الإمارة وأنزله في قصرٍ من قصورها، وأجلسه على الوسادة وقبَّل قدميه. ثم تعوَّد أن يحضر لديه كلَّ يوم، ويرسل إليه المائدة من الأطعمة اللذيذة غداءاً وعشاءاً، وكلَّما يذهب العلامة إلى قصره يستقبله استقبالاً حَسَناً كاستقباله يوم قدومه إلى مدراس.

ثم بنى الأميرُ مدرسةً عالية له، ورتَّب الوظائف لرفقائه وتلامذته ولمن كان معه من المحصلين، فانتقل مولانا إلى تلك المدرسة، واشتغل بالتدريس حتى صار المرجعَ والمآب للمحصِّلين، واجتمع لديه جمع كثير من كل ناحية من نواحي الهند، واستمر على ذلك زماناً طويلاً. ولما مات محمد علي خان المذكور قام مقامه ابنهُ عمدة الأمراء، فبالغ في تعظيمه، وأضاف إلى ما كان مرسوماً له من عهد أبيه من الصلات والجوائز، وكذلك ابنُه تاج الأمراء علي حسين خان في عهده إلى أن خُلع، وقام مقامه عظيمُ الدولة بن أمير الأمراء بن محمد علي خان المذكور؛ وانقرضت الدولة الإسلامية في عهده من مَدراس، فقرَّرت له الدولة الإنكليزية نذوراً معينة في كل شهرٍ، وعظيمُ الدولة أيضاً كان لا يقصِّر عمَّا كانت مرسومة له ـ في العهد السالف ـ الرواتبُ الشهرية، ولغيره من العلماء والطلبة.

وكان عبد العليّ بحراً زاخراً من بحور العلم، إماماً جوالاً في المنطق والحكمة والأصول والكلام، مجتهداً في الفروع، ماهراً في التصوف والفقه، ذا نجدة وجرأة وسخاء وإيثار وزهد واستغناء، يبذل الأموال الطائلة على رجال العلم والطلبة، قلَّما يبقى له ولعياله إلا يسيرٌ؛ ولذلك كان أبناؤه يسخطون عليه، وجملة القول فيه: إنه كان من عجائب الزمن ومحاسن الهند، يرجع إليه أهل كل فنّ في فنّهم الذي لا يحسنون سواه فيفيدهم، ثم ينفرد عن الناس بفنون لا يعرفون أسماءها فضلاً عن زيادةٍ على ذلك، وله في حسن التعليم صناعةٌ لا يقدر عليها غيرُه فإنه يُجذِب إلى محبته وإلى

(١) شيء شبيه بالهودج ولكنه يحمل على أعناق الرجال غالباً.

العمل بالأدلة، لم تر العيونُ مثلَه في كمالاته، وما وَجَد الناسُ أحداً يساويه في مجموع علومه، ولم يكن في الديار الهندية في آخر مدته له نظير. وله مصنفات جليلة.

(١) ومن فوائده: ما قال في «شرح مسلَّم الثبوت» تحت قوله: «ولو التزم مذهباً معيناً إلخ»، فهل يلزم الاستمرار عليه أم لا؟ فقيل: نعم، يجب الاستمرار ويحرم الانتقال من مذهب إلى آخر، حتى شدَّد بعض المتأخرين المتكلفين وقالوا: الحنفيّ إذا صار شافعياً يُعزَّر، وهذا تشريع من عند أنفسهم لأن الالتزام لا يخلو عن اعتقاد الحقية فلا يترك، قلنا: لا نسلّمُ ذَلك، فإن الشخص قد يلتزم من المتساويين أمراً للتفقه له في الحال ودفع الحرج عن نفسه، ولو سُلِّم، فهذا الاعتقاد لم ينشأ بدليل شرعي، بل هو هوس من هوسيات المعتقِد، ولا يجب الاستمرار على هوسه فافهم وتثبَّت؛ وقيل: لا يجب الاستمرار ويصح الانتقال، وهذا هو الحقّ الذي ينبغي أن يؤمن ويُعتَقد به، لكن لا ينبغي الانتقال للتلهّي، فإن التلهّي حرام قطعاً، في المذهب كان أو غيره، إذ لا واجبَ إلا ما أوجب الله تعالى، والحُكمُ له، ولم يوجب على أحد أن يتمذهب بمذهب رجل من الأئمة، فإيجابه تشريعُ شرعٍ جديد، ولك أن تستدل عليه بأن آختلاف العلماء رحمةٌ بالنص وترفيه في حق الخلق، فلو أُلزِم العمل بمذهب كان هذا نقمة وشدّة ـ انتهى.

وكانت وفاته سنة خمس وعشرين ومائتين وألف بمدراس[١].

غلام علي الدهلوي

الشيخ الإمام العالم الزاهد غلام علي بن عبد اللطيف العلوي النقشبنديّ البتالويّ ثم الدهلويّ، أحد الأولياء السالكين، اتفق الناس على ولايته وجلالته. ولد سنة ست وخمسين ومائة وألف ببلدة «بتاله» ـ من بلاد

---

(١) «الإعلام»: ٧/٢٨٩ ـ ٢٩٤.

«پنجاب» ـ ونشأ بها، وقرأ العلم حيث ما أمكن له في بلاده، ثم سافر إلى دهلي وقرأ «صحيح البخاري» على الشيخ عبد العزيز بن ولي الله العمري الدهلوي وأسند عنه الحديث، ولازم الشيخ الكبير جانجانان العلويّ الدهلويّ وله اثنان وعشرون سنة، واشتغل عليه بالأذكار والأشغال مدة طويلة، ولما تُوفِّي شيخه المذكور تَولَّى الشياخة مكانه، فحصل له القَبول العظيم، وتكاثر عليه العلماء والمشايخ وعامة الناس من كل صنف وطبقة من العرب والعجم.

(١) وكان يشتغل بالاستغفار والصلاة على النبي المختار صلى الله عليه وسلم مالا يُستقصَى، وكان يقرأ القرآن الكريم قدر عشرة أجزاء كل يوم، وكان يجتزىء في إفطار الصوم بالماء، وفي النوم على الأرض، واظَب على ذلك خمس عشرة سنة حتى نال مرتبةً قلّما يبلغ إليها الناس، قال أحمد ابن المنقي في «آثار الصناديد»: إنه كان عجيبة من عجائب الدهر في الزهد والقناعة والتسليم والرضاء والتوكل والإيثار والترك والتجريد، لم يتزوج قط، ولم يَبْنِ داراً، ولم يدّخر شيئاً، ولم يلبس الثياب الفاخرة، ولم يأكل الأطعمة اللذيذة، وكان يصلي صلاة الصبح في أول وقتها، ثم يقرأ القرآن عشرة أجزاء، ثم يتوجه إلى أصحابه، ويتصدر للتدريس فيدرّس الحديث والتفسير ثم يأكل قدر ما يقوّيه على العبادة، ويَقِيل اتباعاً للسنة السنية، ثم يصلي الظهر في أول وقته، ثم يدرّس الفقه والحديث والتصوف إلى وقت العصر، ثم يصلي ويتوجه إلى أصحابه، كما كان يتوجه إليهم أول النهار، وكان يحيي ليله بالعبادة والقيام إلا قدراً يسيراً من النوم، وكان نومُه على مصلّاه، وقلما تخلو زاويته من خمسمائة رجل يأكلون من مطبخه ـ انتهى.

(٢) وقال الشيخ مراد بن عبدالله القزاني في «ذيل الرشحات»: إنه كان قليل المنام، وقليل الطعام، فإذا رَأى أحداً من أصحابه في نوم الغفلة وقت التهجد كان يوقظه، وكان الأغنياء يرسلون إليه أطعمة مطبوخة بالتكلفات فلم يكن يأكل منها بل كان يَكره أَكْلَها للطالبين أيضاً، وكان يقسمها على

جيرانه؛ وكان يحيي أكثر الليالي بالذكر والمراقبة، وكان نومه قعوداً على هيئة الاحتباء، ولم يَكن يمدّ رجليه من غاية الحياء إلا قليلاً، حتى كان موته على هيئة الاحتباء.

(١) وكان بعض أرباب الحاجة يأخذ شيئاً من مِلْكه من غير إذنه، فإذا رآه أشاح بوجهه تغافُلاً عنه، وكان بعضهم يأخذ كتابه ثم يجيئون بذلك الكتاب للبيع عنده فيعطي قيمته ويأخذه، فإذا قال له شخص أحياناً: إن هذا الكتاب من كتبكم، وله علامة موجودة فيه كان يمنعه بعنف، ويقول: إنَّ كاتباً واحداً يَكتُب كتباً متعددة، فيجوز أن يكون مثلَه لا عينه.

وكان يلبس الثياب الخشنة فإذا أرسَل إليه شخص ثوباً نفيساً كان يبيعه، وكان ذلك عادته في سائر الأشياء، فيشتري بثمنه ثياباً متعددة ويتصدق بها، ويقول: إن انتفاع أشخاص أفضل من انتفاع شخص واحد.

(٢) ولم يكن يُذكَر شيء من الدنيا في مجلسه، وكان مجلسه مِثْلَ مجلس سفيان الثوري، فإن تكلم فيه أحد بغيبةِ شخصٍ كان يقول: إنّ أحقَّ الناس بالذكر بالسوء: أنا.

(٣) وكان عادته الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وكان لا يأخذه في ذلك لومة لائم، وكان الملك والصعلوك سواسية عنده في ذلك ـ انتهى.

أخذ عنه خلق كثير من العلماء والمشايخ، وله رسائل عديدة.

مات سنة أربعين ومائتين وألف بدهلي[١].

قاسم بن أسد علي النانوتوي

الشيخ الإمام العالم الكبير قاسم بن أسد علي بن غلام شاه الصديقي النانوتوي، أحد العلماء الربانيين؛ ولد بـ«نانُوتَهْ» سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف، ودخل «سهارنپور» في صغر سنِّه، وقرأ المختصرات على الشيخ

(١) «الإعلام»: ٧/٣٦٥ ـ ٣٦٧.

محمد نواز السهارنپوريّ، ثم سافر إلى دهلي، واشتغل على الشيخ مملوك العلي النانوتويّ، وقرأ عليه سائر الكتب الدرسية، ثم أخذ الحديث عن الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي، ولازمه مدة، وأخذ الطريقة عن الشيخ إمداد الله العمري التهانوي، وصحبه.

واشتغل في المطبعة الأحمدية بدهلي للشيخ أحمد علي بن لطف الله السهارنپوري، وكان الشيخُ في ذلك الزمان مجتهداً في تصحيح «صحيح البخاري» وتحشيته، ففوَّض إليه خمسة أجزاء من آخر ذلك الكتاب، وكانت تلك الأجزاء عسيرةً سيَّما في مقاماتٍ أورد فيها البخاريُّ على أبي حنيفة، فبذل جهده في تصحيح الكتاب وتحشيته، وبالغ في تأييد المذهب حتى استوفى حقَّه.

وكان أزهدَ الناس وأعبدهم، وأكثرهم ذكرا ومراقبة، وأبعدهم عن زيّ العلماء ولُبْس المتفقِّهة من العمامة والطيلسان وغيرهما، وكان في ذلك الزمان لا يُفتي ولا يذكّر، بل يشتغل في ذكر الله سبحانه ومراقبته، حتى فُتِحت عليه أبواب الحقائق والمعارف، فاستخلفه الشيخ إمداد الله المذكور ومَدَحه بأن مِثْل القاسم لا يوجد إلا في العصر السالف، ثم تزوَّج بأمره الشريف وصعد المنبر بتكليف الشيخ مظفر الكاندهلويّ، فذكَّر أحسن تذكير.

ولما ثارت الفتنة العظيمة بالهند سنة ثلاث وسبعين، اتهموه بالبغي والخروج على الحكومة الإنكليزية، فاختفَى عن الناس برهة من الزمان ثم ظهر فأنجاه الله سبحانه، وبرّأه مما قالوا؛ فسافر إلى الحجاز، ومعه يعقوب ابن مملوك العلي النانوتوي، وَجمْعٌ من رهطه سنة سبع وسبعين، فحج وزار وحفظ القرآن في ذلك السفر، وعاد إلى الهند، وأقام ببلدة «ميرته» بُرهةً من الدهر، وكان يسترزق بتصحيح الكتب في المطبعة المجتبائية لممتاز علي خان، وكان ببلدة «ميرته» إذ أسَّس الشيخ الحاج عابد حسين

الديوبندي المدرسةَ الإسلامية بديوبند[1] فاستحسنها وصار من أعضاء المدرسة وأيَّدها حق التأييد، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين سنة خمس وثمانين، فحج وزار ورجع إلى الهند.

وله مَشاهد عظيمة في المباحثة بالنَّصارى والآرية، أشهرها المباحث التي وقعت ببلدة «شاهجانپور» سنة ثلاث وتسعين وأربع وتسعين، فناظر أحبار النصارى وعلماء الهنادك غير مرة، فغلبهم وأقام الحجة، وظهر فضلُه في المناظرة، فَصَّلها الشيخ فخر الحسن الگنگوهي في كتابه «انتصار الإسلام».

مات سنة سبع وتسعين ومائتين وألف بديوبند[2].

مولانا كرامة علي الجونپوري

الشيخ الصالح كرامة علي بن إمام بخش بن جار الله الصديقي الحنفي الجونپوري، أحد أكابر الفقهاء الحنفية.

ولد سنة خمس عشرة ومائتين وألف بمدينة «جونپور»، وقرأ بعض الكتب الدرسية على الشيخ أحمد علي الچرياكوتيّ، وبعضها على مولانا أحمد الله الأناميّ، وبعضها على مولانا قدرة الله الردولوي وبايع السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي، ولازمه زماناً.

---

(١) قال المعلق ـ حفظه الله: هذا ما ذكره المؤرخون، ويستفاد من كتاب «سوانح قاسمي» للشيخ مناظر أحسن الگِيْلاني رحمه الله: أن الحاج عابد حسين كان قد تفاهم مع مولانا محمد قاسم واتَّفق معه على تأسيس هذه المدرسة، وأخبره بذلك في «ميرته» وطَلَب منه أن يأتي إلى «ديوبند» ويفتتح التعليم فاختار مولانا محمد قاسم المُلاّ محمود الديوبندي مدرِّساً للمدرسة وعيَّن له راتباً شهرياً مقدارُه خمس عشرة روبية، فجاء إلى ديوبند وافتتح التعليم في مسجد «جَهتَّه». وهكذا كانت بدايةُ مدرسة ديوبند التي أصبحت بعد مدة كبرى المدارس الهندية وبعد مدة قليلة قدم مولانا محمد قاسم إلى ديوبند وتولَّى أمر المدرسة ووَضَع أساس بنايتها المستقلّة».

(٢) «الإعلام»: ٧/٣٩١ ـ ٣٩٣.

(١) ثم سافر إلى «بنگاله» ودار البلاد للإرشاد، وكان الناس بذْواً أمّيين بُعَداء عن المدنية والحضارة لا يلبسون إلا ما يسترون به عوراتِهم، وكان النساء سافرات الوجوه لا يحتجبْن، ولا يمتاز المسلمون عن الوثنيين في العادات والتقاليد والشعائر حتى في الأسماء، وكانوا يَفِرُّون من أهل الحضر فاحتال ولم يزل يتلطف معهم حتى أرشدهم إلى الحق، وهداهم إلى الدين الخالص، فأنقذهم الله سبحانه، وجعله نافذ الكلمة، فصار الناس يعظّمونه، ويتلقون إشاراته بالقَبول، وتغلغت دعوته في أحشاء «بنغال» وأوغلت في أوديتها وجبالها وقراها وأمصارها، واهتدى به خلائقُ تُعَدّ بمئات الألوف.

وله مصنفات في الفقه والسلوك، وكان مجوِّدا يقرأ القرآن بلحن شجيّ يأخذ بمجامع القلوب، سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار، وأخذ القراءة عن السيد إبراهيم المدني والسيد محمد الإسكندراني، وكان قليلَ الخبرة بالحديث.

مات سنة تسعين ومائتين وألف برَنْگپُور من أعماله «بنگاله»[١].

الشيخ مجد الدين الشاهجهانپوري

الشيخ الفاضل الكبير محمد بن طاهر الحسينيّ مجد الدين الشاهجهانپوري، أحد العلماء المشهورين في العلوم الحِكْمية، ولد ونشأ بمدينة «شاهجهانپور»، وسافر للعلم فقرأ الكتب الدرسية على الشيخ وهاج الدين بن قطب الدين الكوباموي، وقيل إنه أدرك القاضي مبارك وقرأ عليه أيضاً، ثم سافر إلى «كلكته» وولي التدريس بالمدرسة العالية، فدرس وأفاد بها مدة طويلة، وتقرب إلى أولياء الأمْر.

(٢) وكان مبتلى بالوسواس؛ لا يروي غليله من إراقة الماء فيغتسل من الصباح إلى الظهيرة ويريق الماء من قِرَب عديدة، شافهني بذلك بعض الثقات ببلدة «شاهجهانپور».

---

(١) «الإعلام»: ٧/٤٠٣ - ٤٠٤.

(١) قال ولي الله بن حبيب الله اللكهنوي في «الأغصان الأربعة»: إنه قدم «لكهنؤ» مرة في موكب اللورد ولزلي - الحاكم العام بالهند - فذهبتُ إليه، فاستأذنتُ الدخول عليه، فأذن لي وإني كنت سمعت من قبل أنه لا يصافح أحداً ولا يعانق لأجل الوسواس، فلما دخلت عليه رأيته يستنجي باليمين، فلما رآني أخر يده اليمنى من الإزار ومد إليّ للمصافحة، وكان الحجر بيده، وقال: المصافحة مسنونة، فقلت: هكذا ليست بمسنونة ثم قلت: إن الله سبحانه جعل اليمنى للوجه واليسرى للعورة، ولذا شرع الاستنجاء باليسرى، فإن كان لعذر الحرج في اليمنى فبيِّنوا لي ذلك الحرج، فقال: إني أستنجي باليمين لا لعذر أو مرض بل لأني ما وقفت على نص على حرمة الاستنجاء باليمنى، فقلت له: يبعد من المسلم أن يخالف السنة النبوية، فضاق صدره[١].

مات نحو سنة ثمان ومائتين وألف ببلدة «بريلي»[٢].

القاضي محمد المغربي

الشيخ العالم الكبير القاضي محمد بن أبي محمد الأنصاري المالكي التلمَسانيّ المغربي ثم الهندي المدراسي، أحد العلماء المشهورين.

حفظ القرآن وأخذ الحديث والقراءة في بلاده، ثم قدم «مكة» المباركة وأخذ الفقه بها، ثم ورد الهند ودخل «لكهنؤ» فقرأ أصول الفقه والمنطق والحكمة وغيرها على الشيخ الكبير نظام الدين بن قطب الدين الأنصاري السهالوي، ثم رحل إلى دهلي وأقام بها زماناً، ثم راح إلى «نجيب آباد» وسكن بها مدة من الدهر، ثم سار إلى «مدراس» وولي الإفتاء بها.

---

(١) لا ينبغي له ذلك بل ينبغي له شكر الناصح وإن لم يعجبه كلامه.

(٢) «الإعلام»: ٧/٤١٤ - ٤١٥.

وكان عالماً كبيراً بارعاً في القراءة والحديث، حافظه لفظاً ومعنى، وكان يقرأ القرآن على القراءات السبع.

(١) وفي «حديقة المرام»: إن الناس قالوا له عند احتضاره: فوِّض أولادك إلى النواب، قال: لا والله، بل أفوض أولادي إلى الله كما قال تعالى ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾، ثم بلغت أولاده إلى درجة الإمارة والرئاسة، وكراماته معروفة ـ انتهى.

توفي سنة إحدى ومائتين وألف[1].

العلامة محمد عابد السِّنْدي

الشيخ الإمام العالم المحدث الفقيه محمد عابد بن أحمد علي بن محمد مراد الأنصاري الخزرجي، ثم أحد بني أيوب الأنصاري رضي الله عنه؛ ولد ببلدة «سيون» ـ بلدة على شاطىء النهر شمالي «حيدر آباد السِّنْد» ـ هاجر جدُّه مع رهطه إلى أرض العرب، وكان يلقَّب بشيخ الإسلام وكان من أهل العلم والصلاح، فتُوفي عمُّه في «الحديدة» وأبوه بجُدّة، فقرأ الشيخ محمد عابد أكثرَ ما قرأ على عمه محمد حسين بن محمد مراد ثم على علماء اليمن والحجاز.

وكان أكثر مقام الشيخ بزَبِيد، ـ دارة باليمن معروفة ـ حتى عُدّ من أهلها، ودَخل «صنعاء اليمن» فألقَى بها رَحْلَه، ولبث فيهم برهة من عمره يتطبّب لإمامهم، وتزوَّج بنت وزيره، وذهب مرة بطريق السِّفارة من قِبَل إمام صنعاء إلى مصر بهدية منه أرسلها على يديه إلى واليها، وكان هذا هو سببَ المعرفة بينه وبين والي مصر ووقوفه على بعض فضله وإشرافه على شيء من عِظَم شأنه.

(٢) وكان شديدَ التَحنُّن إلى ربوع «طابة» عظيمَ التشوُّق إلى شذاها فجاء مرة ليلقى بها جراناً، ويتخذ من أهلها جيراناً، فنزل فيهم يَحْبُوهم

(١) «الإعلام»: ٧/٤١٨ ـ ٤١٩.

وينحلهم مما أعطاه الله سبحانه، ويقوِّم الأوَد منهم بنصحه، ويسُدّ الثلمة منه بوعظه، فكأنّ الناس نقموا منه هذه الخصلة، فقاموا عليه وكالبوه ورموه عن قوسٍ واحدة، فقَوَّض خِباءَه من فنائهم، وارتحل إلى حيث وجَّهه مولاه.

(١) وأشدُّ من ذلك بلاءاً ما أبلاه الله به في «الحُديدة» وذلك أنه حين كان بها أَمرَ قاضيها السيد حسين بن علي الحازمي، - وكان يشايع الزيدية - أن يزيد أهلها قولَ «حيَّ على خير العمل» في ندائهم للصلوات، ويَدَعوا ما توارثوه من السلف في أذان الفجر من قولهم: «الصلاة خير من النوم»، فإنه كان يراها بدعةً إنما أحدثها عمر رضي الله عنه في إمرته، ولما رأى القاضي من امتناع الناس من ذلك الذي كان يسوّله ويدْعوهم إليه اشتد باطلهُ فسطا على الناس، وحَبَس أربعين نفسا من الحنفية الذي كانوا بها مكبولين في قيود من حديد، وكان الشيخُ ممن حبَسهم وقيَّدهم، فجَعَل في رقبته ورقاب من يلوذ به من خُويِّصة أهله أغلالاً، وأقامهم في الحبس ستة أيـام، ثم أخرجهم بأسرهم وخلَّى سبيلهم غيرَ الشيخ، فإنه أَمرَ بضربه، فضُرِب على ذلك، ثم نفاه من الحُديدة.

ثم إنه عاود مرةً أرضَ قومه، فدخل «نواري» - من بلاد «السند» -، وأقام بها ليالي معدودات ثم هزّه الشوق إلى بـلاد العرب، فعـطف إليها عِنانه، ثم رزقه الله تعالى العَوْد إلى المدينة، وأقام بها في غاية ما يكون من العِزّ، وولي رئاسة علمائها من قِبَل والي مصر، ولم يزل مجتهدا في العبادة وإقامة السُّنن، والصبر على الجفاء ونصـح الأمة، وخفض جنـاحه عليهم ونشر علومه حتى لقي الله عز وجل.

وقال القاضي محمد بن علي الشوكاني في «البدر الطالع»: «إنه خرج إلى بَنْدر الحُديدة مع عمه، وكان عمه مشهوراً بعلم الـطب مشارِكـاً في غيره، وصاحبُ الترجمة له اليد طولى في علم الطب، ومعرفةٌ متقَنة بالنحو والصرف وفقه الحنفية وأصوله، ومشاركة في سائـر العلوم، وفهم صحيح سريع، طلبه خليفة العصر مولانا الإمام المنصور بالله إلى حضرته العلية من

«الحديدة» لاشتهاره بعلم الطب، فوصل الحضرة وانتفع جماعةٌ من الناس بأدويته، وكان وصوله إلى «صنعاء» سنة ١٢١٣ هـ وتردَّد إلي، وقرأ عليّ في «هداية الأبهري» وشرحها للميبذيّ في الحكمة الإلٰهية، فكان يفهم ذلك فَهْماً جيداً، مع كون الكتاب وشرحه في غاية الدقة والخفاء، بحيث كان يحضر حالَ القراءة جماعةٌ من أعيان العلماء العارفين بعدة فنون، فلا يفهمون غالب ذلك، ثم عاد إلى الحُديدة في شهر شوال من تلك السنة بعد أن أحسَن إليه الخليفةُ وقرَّر له معلوماً نافعاً، وكساه ونال من فائض عطاه ثم تكرر وفوده إلى صنعاء مرة بعد مرة في أيام الإمام المنصور ـ كما ذكرنا ـ ثم في أيام الإمام المتوكل، ثم في أيام مولانا الإمام المهدي، وأرسله إلى مصر إلى الباشا محمد علي بهديّة، قيل وكان ذلك سنة ١٢٣٢ هـ انتهى.

وقال الشيخ محسن بن يحيى الترهتي في «اليانع الجني»: إنه كان من أحسن الناس هَدْياً وسمتا في زمانه، خَلّف من مصنفاته كُتُباً مبسوطة ومختصرة نافعة مفيدة.

توفي سنة سبع وخمسين ومائتين وألف، ودفن بالبقيع قُبَالة باب عثمان بن عفان رضي الله عنه[1].

مولانا محمد علي الرامپوري

الشيخ العالم الكبير المحدث محمد علي بن عناية علي بن فضل علي الحسيني النقوي الدهلوي ثم الرامپوريّ، كان شقيقَ العلامة حيدر علي، وصِنْوَه الصغير، وتِلوَه في العلم والعمل.

(١) أخذ الطريقة عن السيد الإمام المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي، ولازمه مدة من الزمان، فاستخلفه السيد ووجَّهه إلى مدراس، فسار إليها واشتغل بالإرشاد والموعظة، وكان في تذكيره تأثير عجيب، تاب

---

(١) «الإعلام»: ٧/٤٥٧ ـ ٤٦٠.

على يده الكريمة ألوف من الرجال والنساء، وأنابوا إلى الله سبحانه، ورفضوا البدع والأهواء، حتى نهض زعماء البدعة ودُعاتُها إلى خِصامه، وكفَّروه، وأحرقوا «تقوية الإيمان»[1] للشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، فثارت الفتنة العظيمة؛ وكان جمال الدين بن علاء الدين اللكهنوي رأس تلك الفتنة العادية، كفَّره وسعى إلى الحكام فأمروا بجلائه من مدراس، حتى خرج منه واستخلف خان عالم المدراسي من بعده بمدراس.

مات سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف[2].

مرزا محمد علي الأصم اللكهنويّ

الشيخ الفاضل العلامة محمد علي الأصم اللكهنوي، الحكيم المشهور. كان من كبار العلماء، لم يكن في زمانه أعلم منه وأبصر في الفنون العلمية والعملية، أخذ الصناعة عن السيد محمد أصغر الحسينيّ الدهلويّ وتطبب عليه مدة، ثم تصدر للتدريس والإفادة ببلدة «لكهنؤ»، وانتهت إليه رئاسة الطب.

(١) وكان لا يبالي بالأمير والوزير في أمر العلاج، حتى إن الملك القاهر نصير الدين حيدر اللكهنوي مرض ذات يوم ورجع إليه فأمره بالدواء والحمية، ثم أحسّ أن الملك خالفه في الحِمْية، فترك العلاج واعتزل في بيته، فاستعان الملك بغيره من الأطباء فبذلوا جهدهم في مداواته فلم يبرأ، فبعث الملك رسولاً إليه ليأتي به، فأبى أن يذهب إليه، فأرسل إليه رجلاً من ندمائه، ثم بعث إليه الوزير، وهو يأبى كل مرة، فبعث إليه وقال: لم يبق أحد إلا أنا فإن أبيتَ أتجشم صعوبة القدوم إلى بيتك مع شدة المرض! فقال الأصم: إن الملك له سلطة على أجسام الناس، ولي سلطة على قلوبهم، وإني إن جلست في الصحراء يجتمع الناس لديّ ويخضعون لي، ثم ذهب وداواه فبرىء.

---

(١) هذا الكتاب مفيد في بابه، كما سبق للمعلق حفظه الله أن نوّه به.

(٢) «الإعلام»: ٧/٤٦٤ - ٤٦٥.

(١) ومن مآثره الجميلة: أنه كان يعتني بالفقراء أشد اعتناء ويوقر الطلبة ويقربهم، ويبذل عليهم كل ما يحصل له من الأموال الوافرة، وكان لا يغيب عن أوقات الدرس وإن طلبه الملوك والأمراء.

مات سنة اثنتين وستين ومائتين وألف، وله ست وثمانون سنة[١].

مولانا يحيى علي الصادِقْپُوريّ

الشيخ العالم المحدث يحيى علي بن إلهي بخش بن هداية علي الجعفري المهدانوي ثم الصادقپوريّ، أحد العلماء الربانيين المجاهدين.

ولد سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف وقرأ العلم على صنوه الشيخ أحمد الله وعلى الشيخ ولاية علي، وأخذ الطريقة عن الشيخ ولاية علي المذكور، وأسند الحديث عنه، ثم تصدر للتدريس والتذكير وكانت له اليد الطولى في الفقه والحديث ومهارة تامة في استخراج المواريث والحساب.

(٢) وكان آية من آيات الله سبحانه في الصبر على البلاء، والرضاء بالقضاء، والشجاعة والسماحة، سافر إلى الحدود مع شيخه ولاية علي، وأعانه في الغزو والجهاد، ثم عاد معه إلى الهند واشتغل بالتدريس والتذكير مدة، ثم سافر معه مرة أخرى، ولما تُوفِّي شيخه عاد إلى الهند وعكف على التدريس والتذكير زماناً طويلاً.

(٣) ثم قَبَض عليه الإنكليز بسبب الإعانة لمن كانوا من غزاة الهند من أصحاب السيد أحمد رحمه الله سنة ثمانين ومائتين وألف وألقوا عليه من المصائب مالا يحصيها البيان، وكان يتحمل ذلك وينشد:

ولستُ أبالي حين أُقتَل مَسلماً ... على أي شِقٍّ كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإنْ يشأ ... يبارِكْ على أوصال شِلْوٍ ممزَّعِ

ثم أصدرت المحكمة حكمها بالشنق، فأبدى سرورَه وفَرَحه بذلك. وحُكِم عليه بالنفي المؤبّد إلى جزيرة «اندمن» وتوفي هناك سنة أربع وثمانين ومائتين وألف[٢].

---

(١) «الإعلام»: ٧/٤٦٦ - ٤٦٧.

(٢) «الإعلام»: ٧/٥٤٨.



مختارات القرن الثالث عشر
من كتاب
«البدر الطالع بمحاسن من
بعد القرن السابع»

للشيخ

محمد بن علي الشوكاني
رحمه الله تعالى



أحمد بن علي

السيد أحمد بن عليّ بن محسن بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم الصنعانيّ.

وُلِد تقريباً سنة ١١٥٠، واشتغل بطلب العلم بعد أن قارب الخمسين من عمره. ثم قرأ عليّ في النحو، والصرف، والمنطق، والمعاني، والبيان، والحديث، والتفسير وأدرك إدراكاً كاملاً لا سيّما في العلوم الآلية، وفهمه جيد وفكره صحيح وتصوره حسن وإدراكه كامل. وأكب على الاشتغال علي نحو عشرين مع جماعة من الطلبة ثم جرى بينه وبين بعضهم ما يجري بين أمثالهم من المنافسة فانزعج ومع كثرة تخيله ظن أني مؤثر لمن نافسه عليه، فصار بعد ذلك يروي ما قد حفظه عني من اجتهاداتي الجارية على نمط الدليل التي يخالف ما عليه غالب من لا تمييز له.

(١) وكان لديه كتاب لي عارية أحسنت إليه بعاريته فرأى فيه بخطي في مسألة الفرقة الناجية كلاماً مضمونه أنهم ليسوا بعض هذه المذاهب الإسلامية على التعيين بل هم من تمسك بالشريعة المطهرة واهتدى بهدي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم على أي مذهب كان وفي أيّ عصر وُجد، ودفعت قول من قال إنهم فرقته[1] كما وقع لكثير من المتعصبين، فأقام هذا القيامة وما زال يعرضه على كل من له اشتغال بالعلم فلم يوافقه أحد على ذلك فعاد يعرضه على المقصرين والعوام ويوهمهم بأوهام لا حقيقة لها فكادت تثور فتنة وقى الله شرها. ثم طلبت منه إرجاع كتابي فما

(١) يقصد الزيدية.

ساعد، كل هذا وله من الفهم والعرفان نصيب تام وهو لا يخفى عليه خطأ نفسه وبطلان ما زعمه ولم يَرْعَ حقَّ التعليم.

وبعد ذلك ترك الاشتغال بالعلم ولم يبق عليه من رونقه شيء. ورام أن يعود للقراءة عليّ فما ساعدته وأرجع الكتاب المشار إليه بعد سنين ومدحني بأبيات وأظهر الندم على ما سلف منه عفى الله عنه.

وله مسائل سألني عنها وأجبته بأجوبة هي في مجموع جواباتي.

توفي ـ رحمه الله تعالى ـ لعله في سنة ١٢٢٣[1].

أحمد المَكَرّ

رجل من أهل اليمن الأسفل رأيته في سنة ١٢١٥ وقد صار في سن عالية. أخبرني أنه في مائة وأربع وعشرين سنة ونصف سنة ومع هذا فهو صحيح العقل والحواس مستقيم القامة حسن العبارة. وله تعلق بالتصوف تام ورأيته كثير المكاشفة، ثمّ بعد هذه السن تزوج وولد له كما أخبرني عن نفسه في سنة ١٢١٦ وأخبرني غيره، ورأيت رجلاً آخر على رأس القرن الثاني عشر يذكر أنه قد صار في مائة سنة وسبع وعشرين سنة ونصف سنة.

وهذا العمر خارج عن العادة المعروفة في هذه الأزمنة مع كون كل واحد من الرجلين صحيح الحواس قويّ البدن.

(١) ومما يحسن ذكره هنا أن رجلاً يقال له حسين عامر الداغية من بلاد الحدا بلغ في العمر إلى نحو تسعين سنة، ثم ظهر برأسه قرنان كقرون المعز فوق أذنيه وانعطفا على أذنيه وشاعت الأخبار بذلك إلى أن بلغت إلينا في مدينة صنعاء وكان المخبرون ثقات من أهل العلم، ثم لما بلغ الخبرُ خليفة العصر حفظه الله تعالى أرسل رسولاً يأتي به وكان ذلك باطلاعي فرجعت جوابات من شيخ ذلك المحل وهو رجل يُقال له: (سعد مفتاح) أن

---

(١) «البدر الطالع»: ١/٨٢ ـ ٨٥.

صاحب القرون موجود لديهم بيقين ولكنه قطعهما لما تأذى بهما ورأيت الجوابات، ثم تواترت القضية تواتراً لم يبق فيه شك وذلك في سنة ١٢١٥.

(١) ومن الغرائب الحادثة في هذا العام أن امرأة قد كانت قريب البلوغ فخرج لها في فرجها ذكر وصارت رجلاً بعد أن كانت امرأة وقد أخبرني بذلك السيد العلامة محمد بن يحيى الكيسي وقال إن فرجها كان ثقباً صغيراً وأنه أمرها بعد ظهور الذكر أن تلبس لبس الرجال فلبسته وهي الآن كذلك[١].

إسماعيل الصديق

إسماعيل بن يحيى بن حسن الصديق الصعدي ثم الذماريّ ثم الصنعانيّ، وُلِد بعد سنة ١١٣٠ بذمار وطلب العلم هنالك، وكان والده قاضياً في حبيش ثم تولى هذا القضاء في أيام صغره بذمار من جملة حكام السبيل[٢]، ثم وَلِيَ قضاء حبيش مكان والده في حياته ثم عزل فعاد إلى صنعاء وقرأ على جماعة من الفقهاء كالفقيه العلامة إبراهيم خالد، وقرأ أيضاً على السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير في الحديث وشارك في غير الفقه مشاركة لطيفة ثم جعله الإمام المهديّ العباس بن الحسين من جملة حكامه بصنعاء وعظمه وأجلّه وركن عليه في أمور كثيرة، منها تركة والده فإنه جعلها بنظره.

وكان له أبّهة عظيمة وجلالة في الصدور وتبحر في الفقه وتقعر في العبارات مع سكينة ووقار ومحافظة على ناموس القضاء وملازمة لما يجلب الهيبة والعظمة في صدور العامة، من لبس الثياب الفاخرة وعدم التزيد في الكلام وترك ما لا ينهض به من الأمور، مخافة أن يعجز عنه بعد ظهوره

---

(١) «البدر الطالع»: ١/١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) سيأتي المصنف على تعريفها.

فيكون عليه في ذلك وصمة كما كان يقع بينه وبين الحاكم الأكبر العلامة يحيى بن صالح السحولي فانهما قد يتعارضان في أمر فيدع صاحب الترجمة التصميم على ما يظهر له مخافة أن يتم غير كلامه.

وكان إذا وفد عليه من له خبرة بعلم الفقه أورد عليه مسائل قد حفظها من علم الأصول والتفسير والحديث، وإذا وفد عليه من يعرف علوم الاجتهاد أو بعضها أورد عليه مسائل من دقائق الفقه فيظن الفقيه أنه مبرز في غير الفقه، ويظن غيره العكس من ذلك فتولد له من هذا عظمة في الصدور كبيرة وكان كثيراً ما يستخرج رايات شريفة إمامية[1] لجماعة من أهل العلم الذين يلازمون حضرته بأنهم يقضون بين الناس ويقبضون منهم أجرتهم التي يستحقونها ومن كان بهذه المثابة من القضاة فهو الذي يُقال له حاكم السبيل في العرف أي لا تقرير له من بيت المال فكان مثل هذا أيضاً من موجبات تعظيمه، والحاصل إنه كان صدراً من الصدور عظيم الهمة، شريف النفس، كبير القدر، نافذ الكلمة له دنيا واسعة وأملاك جليلة أصلها من فضلات رزقه عند توليته قضاء حبيش فإنه كان يشتري بما فضل له أرضاً للزرع ثم تكاثرت تلك الأرض، وكان يكتسب بما فضل من غلاتها ثم تضاعفت غاية المضاعفة وصار من المشهورين بكثرة الأملاك. وكان يجعل ضيافات عظيمة ويجمع فيها الأعيان والأكابر. وقد دعاني في أيام طلبي للعلم إلى بيته مرات ويظهر من التعظيم والإجلال ما لا يُوصف وآخر ذلك قبيل موته بنحو نصف سنة فإنه أضافني منفرداً.

(١) وقد كان اشتغل جماعة في تلك الأيام بالحط عليّ بما يقتضيه اجتهادي في كثير من المسائل كما هو دأب اليمن وأهله بل دأب جميع المقصرين مع من يمشي مع الدليل من العلماء، فقال لي رحمه الله ما مضمونه إن في التظهر بذلك فتنة وذكر لي قضايا جرت مع السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير شاهدها وعرفها وما زال يضرب لي الأمثال بكلام

---

(١) أي إذناً من الإمام.

رصين وخطاب متين من جملته أن السيد محمد الأمير قد عرفت ما ناله من الناس من الأذى بالقول والفعل ومع ذلك فمعه الوزير فلان والأمير فلان وفلان وفلان يقومون بنصره ويدفعون عنه ما يكره وأنت يا ولدي قد انقبضت عن الناس وعكفت على العلم وانجمعت عن الأكابر، ثم إنّ السيد محمد قد كان عند مخالفته للناس في سن عالية في أواخر عمره وأنت في عنفوان الشباب فقد لا تحتمل الناس منك ما كانوا يحتملون منه وأطال معي في هذا الشأن رحمه الله.

وما زال على حاله الجميل حتى مات سنة ١٢٠٩[(١)].

الديلميّ

السيد الحسين بن يحيى بن إبراهيم الديلميّ الذِّماريّ، وُلِد في سنة ١١٤٩ ونشأ بذمار وأخذ عن علمائها، ثم ارتحل إلى صنعاء وقرأ في العربية وله قراءة في الحديث على السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير ثم عاد إلى ذِمار واستقر بها وكان فقيراً فتزوج بامرأة لها ثروة ثم اشتغل بالتجارة وتكاثرت أمواله ولم يكن يتجر بنفسه بل كان ينوب عنه غيره وهو مكب على العلم، ودرّس في الفقه وغيره وتخرج به جماعة، ثم رحل إلى صنعاء رحلة ثانية بعد سنة ١٢٠٠ وأقرأ الطلبة في الفقه بجامع صنعاء وبقي مدة وعزم على استيطان صنعاء ثم بعد ذلك رجَّح العود إلى ذِمار فعاد إليها وهو الآن عالمها المرجوع إليه المتفرد بها من دون مدافع، وصار الطلبة هنالك يقرأون عليه في الفقه والنحو والصرف والأصول والتفسير والحديث، وبيني وبينه من المودة مالا يُعَبر عنه وقد جرى بيننا مباحثة علمية مدونة في رسائل هي في مجموع مالي من الفتاوى والرسائل.

(١) ولما ألفت الرسالة التي سميتها (إرشاد الغبيّ إلى مذهب أهل البيت في صَحْبِ النبيّ) ونقلت إجماعهم من ثلاث عشرة طريقة على عدم ذكر

---

(١) «البدر الطالع»: ١/١٥٦ - ١٥٨.

الصحابة بسبٍّ أو ما يقاربه وقعت هذه الرسالة بأيدي جماعة من الرافضة الذين بصنعاء المخالفين لمذاهب أهل البيت فجالوا وصالوا وتعصبوا وتحزبوا وأجابوا بأجوبة ليس فيها إلا محض السباب والمشاتمة وكتبوا أبحاثاً نقلوها من كتب الإماميّة والجارودية وكثرت الأجوبة حتى جاوزت العشرين وأكثرها لا يُعرف صاحبه واشتغل الناس بذلك أياماً وزاد الشر وعظمت الفتنة فلم يبق صغير ولا كبير ولا إمام ولا مأموم إلا وعنده من ذلك شيء وأعانهم على ذلك جماعة ممن له صولة ودولة، ثم إن تلك الرسالة انتشرت في الأقطار اليمنية وحصل الاختلاف في شأنها وتعصب أهل العلم لها وعليها حتى وقعت المراجعة والمجاوبة والمكاتبة في شأنها في الجهات التهامية وكل من عنده أدنى معرفة يعلم أني لم أذكر فيها إلا مجرد الذب عن أعراض الصحابة الذين هم خير القرون مقتصراً على نصوص الأئمة من أهل البيت ليكون ذلك أوقع في نفوس من يكذب عليهم وينسب إلى (١)مذاهبهم ما هم منه برآء ولكن كان أهل العلم يخافون على أنفسهم ويحمون أعراضهم فيسكتون عن العامة وكثير منهم كان يصوبهم مداراة لهم، وهذه الدسيسة هي الموجبة لاضطهاد علماء اليمن وتسلط العامة عليهم وخمول ذكرهم وسقوط مراتبهم لأنهم يكتمون الحق فإذا تكلم به واحد منهم وثارت عليه العامة صانعوهم وداهنوهم وأوهموهم أنهم على الصواب فيتجرأون بهذه الذريعة على وضع مقادير العلماء وهضم شأنهم ولو تكلموا بالصواب أو نصروا من يتكلم به أو عرَّفوا العامة إذا سألوهم الحقَّ وزجروهم عن الاشتغال بما ليس من شأنهم لكانوا يداً واحدة على الحق ولم يستطع العامة ومن يلتحق بهم من جهلة المتفقهة إثارة شيء من الفتن فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان تأليفي لتلك الرسالة في سنة ١٢٠٨ ومن جملة من اشتغل بها فقهاء ذِمار وقاموا وقعدوا وكانوا يسألون صاحب الترجمة عن ذلك ويتهمونه بالموافقة لما في الرسالة لما يعلمونه من المودة التي بيني وبينه فسلك مسلك غيره ممن قدمت الإشارة إليهم من أهل العلم بل زاد على ذلك

فحرر جواباً طويلاً على تلك الرسالة موهماً لهم أنه قد أنكر بعض ما فيها فلما بلغني أنّه أجاب ازداد تعجبي لعلمي أنه لا يجهل مثل ذلك ولا يخفى عليه الصواب فلما وقفت على الجواب وهو في كراريس رأيته لم يبعد عن الحق ولكنه قد أثار فتنة بجواب لظن العامة ومن شابههم أن مثل هذا العالم الذي هو لي من المحبين لا يجيب إلا وما فعلته مخالف للصواب فأجبت عليه بجواب مختصر تناقله المشتغلون بذلك وفيه بعض التخشين ثمّ إنه عافاه الله اعتذر إليّ مرات ولم أشتغل بجواب على غيره لأنهم ليسوا بأهل لذلك، وفي الجوابات ما لا يقدر على تحريره إلا عالم ولكنهم لم يسموا (١) أنفسهم فلم اشتغل بجواب من لا أعرفه إلاّ أنه وقع في هذه الحادثة من بعض شيوخي ما يقضي منه العجب وهو أنه بلغني أنه من جملة المجيبين فلم أصدق لعلمي أنه ممن يعرف الحق ولا يخفى عليه الصواب وله معرفة بعلوم الكتاب والسنة، فبعد أيام وقفت على جوابه بخطه فرأيت ما لا يظن بمثله من المجازفة في الكلام والاستناد إلى نقول نقلها من كتب رافضة الإمامية والجارودية وقررها ورجّحها وأنا أعلم أنه يعلم أنها باطلة بل يعلم أنها محض الكذب وليته اقتصر على هذا ولكنه جاء بعبارات شنيعة وتحامل عليّ تحاملا فظيعاً والسبب أنه أصلحه الله نظر بعض وزراء الدولة وقد قام في هذه الحادثة وقعد وأبرق وأرعد فخدم حضرته بتلك الرسالة التي جنا بها على أعراض الصحابة فضلاً عن غيرهم فما ظفر بطائل.

(٢) واتفقت لصاحب الترجمة محنة وذلك أن رجلاً يُقال له محمد حسين من أولاد المهدي صاحب المواهب[1] غاب عن المواهب نحو عشرين سنة ثم لم يشعر أهله بعد هذه المدة إلا وقد وصل رجل يزعم أنه هو فصدقه أهل الغائب كزوجته ووالدته وإخوته وشاع أنه دخل بالمرأة واستمر كذلك أياماً فوصل بعد ذلك رجل من بيت النجم الساكنين في زبيد وقال لأهل ذمار وعاملها إن هذا لم يكن الغائب بل رجل من بيت صعصعة المزاينة

---

(١) بلدة في اليمن.

صعلوك متحيل متلصص كثير السياحة وكان عند وصوله قد لبس الثياب المختصة بآل الإمام فطلبه العامل فصمم على أنه محمد بن حسين من آل الامام وشد عضد دعواه مصادقة أم الغائب وزوجته وإخوته ثم طلبه مولانا الإمام إلى حضرته ثم بعد ذلك حضر شهود شهدوا أنه صعصعة المزين ثم تعقب ذلك صدور الإقرار فعُزِّر تعزيراً بليغاً وطُرد ومات عن قرب. وقد كان صاحب الترجمة حكم له بأنه محمد بن حسين استناداً إلى الظاهر وهو إقرار الأهل فطُلِب من الحضرة العليّة وأرسل عليه رسول ثم أعفي عن الوصول.

والمترجم له عافاه الله مستمر على حاله الجميل ناشر للعلم في مدينة ذمار مكثر من أعمال الخير قائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمقدار ما يمكن مع سلامة صدر وكرامة أخلاق وحسن محاضرة وجميل مذاكرة واحتمال لما يلاقيه من الجفاء الزائد من أهل بلده بسبب نشره لعلم الحديث بينهم وميله إلى الإنصاف في بعض المسائل مع مبالغته في التكتم وشدة احترازه[1].

سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود

وُلِد تقريباً سنة ١١٦٠ في وطنه ووطن أهله القرية المعروفة بالدرعيّة من البلاد النجدية.

وكان قائد جيوش أبيه عبد العزيز. وكان جده محمد شيخاً لقريته التي هو فيها فوصل إليه الشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب الداعي إلى التوحيد المنكر على المعتقدين في الأموات، فأجابه وقام بنصره وما زال يجاهد من يخالفه وكانت تلك البلاد قد غلبت عليها أمور الجاهلية وصار الإسلام فيها غريباً، ثم مات محمد بن سعود وقد دخل في الدين بعضُ النجدية وقام ولده عبد العزيز مقامه فافتتح جميع الديار النجدية والبلاد العارضية والحسا والقطيف وجاوزها إلى فتح كثير من البلاد الحجازية، ثمّ استولى على الطائف

---

(١) «البدر الطالع»: ١/٢٣٢ - ٢٣٦.

ومكة والمدينة وغالب جزيرة العرب، وغالب هذه الفتوح على يد ولده سعود، ثمّ قام بعده ولده سعود فتكاثرت جنوده واتسعت فتوحه ووصلت جنوده إلى اليمن فافتتحوا بلاد أبي عريش وما يتصل بها، ثم تابعهم الشريف حمود بن محمد شريف أبي عريش، وأمدوه بالجنود ففتح البلاد التهامية كاللحية والحديدة وبيت الفقيه وزبيد وما يتصل بهذه البلاد.

(١) وما زال الوافدون من سعود يفدون إلينا إلى صنعاء إلى حضرة الإمام المنصور وإلى حضرة ولده الإمام المتوكل بمكاتيب إليهما بالدعوة إلى التوحيد وهدم القبور المشيدة والقباب المرتفعة ويكتب إلي أيضاً مع ما يصل من الكتب إلى الإماميين. ثم وقع الهدم للقباب والقبور المشيدة في صنعاء وفي كثير من الأمكنة المجاورة لها وفي جهة ذِمار وما يتصل بها.

ثم خرج باشة مصر إلى مكة بعد إرساله بجنود افتتحوا مكة والمدينة والطائف وغلبوا عليها وهو الآن في مكة والحرب بينه وبين سعود في هذه السنة: ١٢٢٩، وقام بالأمر ولده عبد الله بن سعود[١].

العباس بن محمد المغربي التونسي

(٢) السيد العباس بن محمد المغربيّ التونسيّ، قدم إلى صنعاء في سنة ١٢٠٠ وله معرفة بعلم الحروف والأوفاق رأينا منه في ذلك عجائب وغرائب وأخذنا عنه في علم الأوفاق لقصد التجريب لا لاعتقاد شيء من ذلك، وكان إذا احتاج إلى دراهم أخذ بياضاً وقطّعه قطعاً على صور الضربة المتعامل بها ثم يجعلها في وعاء ويتلو عليها فتنقلب دراهم وكنت في الابتداء أظن ذلك حيلة وشعوذة فأخذت ذلك الوعاء وفتشته فلم أقف على الحقيقة فسألته أن يصدقني فقال إن تلك الدراهم يجيء بها خادم من الجن يضعها في ذلك الوعاء بقدر ما جعله من قطع البياض ويكون ذلك قرضاً حتى

---

(١) «البدر الطالع»: ١/٢٦٢ - ٢٦٣.

يتمكن من القضاء فيقضي، وكان يضع خاتم أحد الحاضرين في إناء ويجعل فيه ماء ويرتل فيسمع الحاضرون في ذلك الإناء صوتاً مفزعاً ويرتفع ذلك الخاتم فيقع في حجر صاحبه فظننت أنه يضع في الإناء تحت الخاتم شيئاً من المعادن يكون له قوة يدفع بها الخاتم فتركته حتى وضع الإناء ووضع فيه الخاتم وقمت فأخذته فلم أجد فيه شيئاً، ثم أمرني أن آخذ إناء آخر وأضع فيه ماء بيدي وأضع الخاتم من دون أن يمس هو شيئاً من ذلك ففعل وتلا فسمعنا ذلك الصوت وارتفع الخاتم ووقع في حجر صاحبه، وله من هذا الجنس عجائب وغرائب.

واتصل بخليفة العصر حفظه الله وكساه كسوة عظيمة وأعطاه عطاء واسعاً وكان يكثر التردد إليّ وأنا إذ ذاك مشتغل بطلب العلم ثم عزم صحبة الحجاج فوصل إلى مكة وإذا جماعة من حجاج الغرب يسألون عن حجاج اليمن ومن جملة من سألوا رفقته الذين حج معهم من أهل اليمن فسألوهم عن حاله فأخبروهم أن أباه من أكابر تجار الغرب وأنه مات وخلف دنيا عريضة وكذلك وصف لنا من رافقه من حجاج اليمن في الطريق من مروءته وإحسان إليهم في الطريق وشكره لأهل اليمن عند أصحابه وغيرهم ما يدل على أنه من أهل المروءات.

(١) ومن جملة ما وصفوه أنهم وصلوا إلى البحر فعدم الماء في السفينة وهم بقرب جزيرة فيها ماء عذب ولكن فيها جماعة من اللصوص قد حالوا بين أهل السفينة وبين الماء واشتدت حاجتهم إلى الماء ولم يقدر أحد على الخروج فاشتمل هذا السيد على سيفه وخرج وأخرج معه قِرَب الماء فلما رآه اللصوص هربوا.

وكان طويلاً ضخماً حسن الأخلاق أبيض اللون شديد القوة ويحفظ منظومة في فقه المالكية وله معرفة بمسائل من أصول الدين وكان يصمم على ما يعرفه فإذا ظهر له الحق مال إليه، وكنت مرة أنا وشخص عندي كان

يحضر عند اجتماعي بالسيد فأخذنا من تحرير أوفاق قد حفظناها منه ولم يكن حاضراً فلما فرغنا من تحرير بعضها وضعناه في النار حتى التهب ثم جعلناه في الطاقة فلم نشعر إلا بطائر قد انقض على تلك الورق التي تلتهب فأخذها وذهب فعجبنا من ذلك غاية العجب.

ولم نقف للمترجم له على خبر بعد ارتحاله وقد كان يحكي لنا من أحوال أهل الغرب حكايات عجيبة وكان مدة الاجتماع به نحو ثلاثة أشهر أو أكثر[1].

السيد عبد القادر

السيد عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر بن الناصر بن عبد الرب بن علي بن شمس الدين ابن الإمام شرف الدين ابن الإمام المهديّ أحمد بن يحيى.

شيخنا الإمام المحدث الحافظ المسند المجتهد المطلق.

وُلِد سنة ١١٣٥، ونشأ بكوكبان فقرأ على من به من العلماء ثمّ ارتحل إلى صنعاء فأخذ عن أكابر علمائها، كالسيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير، ثم ارتحل إلى مدينة ذِمار وهي إذ ذاك مشحونة بعلماء الفقه والفرائض فأخذ عن شيوخها في الفقه والفرائض ثم تردد في جميع مدائن اليمن وأخذ عن كل من لقيه من العلماء، ثم ارتحل إلى مكة والمدينة فأخذ عن علماء الحرمين. وشيوخه قد اشتمل عليهم مجلد حافل ذكر فيه من أخذ عنه ومن أجاز له والأسانيد التي تلقاها عن شيوخه، وبقي مهاجراً في الحرمين نحو عامين ثم عاد إلى كوكبان وصنعاء ثم استوطن كوكبان واستقر هنالك ينشر العلم ويفيد الطالبين.

---

(١) «البدر الطالع»: ١/٣١٣ ـ ٣١٥.

وكان يفد إلى صنعاء في الأمور المهمة كوفوده عند موت الإمام المهدي رحمه الله لمبايعة ولده مولانا خليفة العصر المنصور بالله، حفظه الله.

وكان في مدة إقامته هنالك قد طار صيته في جميع الأقطار اليمنية وأقر له بالتفرد في جميع أنواع العلم كل أحد بعد موت شيخه السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير وإني أذكر وأنا في المكتب مع الصبيان أني سألت والدي رحمه الله عن أعلم من بالديار اليمنية إذ ذاك فقال: فلان يعني صاحب الترجمة.

وأخبرني العالم الفاضل عبد الرحمن بن الحسن الريمي أنه حضر في بعض المواقف بصنعاء وقد كان اجتمع فيه أكابر علماء صنعاء وسماهم لي وكل واحد له شهرة كبيرة بالعلم والتفنن فيه قال: ومن جملة الحاضرين صاحب الترجمة وهو أصغرهم سناً وكان ذلك في إحدى قدماته إلى صنعاء، قال: فرأيتهم يتواضعون له ويخضون لعلمه ويستفيدون منه ويعترفون بارتفاع درجته عليهم، وهذا الاجتماع بينه وبين قدوم شيخنا إلى صنعاء واستقراره فيها سنون كثيرة فإنه قدم هذا القدوم الآخر الذي استقر فيه ولم يبق من أولئك الأعيان الذين كانوا في ذلك الموقف أحد.

ثمّ لما أراد الله إحياء علوم الحديث بل وسائر العلوم بصنعاء جرت بينه وبين أمير كوكبان السيد إبراهيم بن محمد بن الحسين مناكدة فأظهر أنه يريد الخروج من كوكبان إلى وادي ظهر للتنزه به أيام الخريف فأذن له السيد إبراهيم فخرج واستقر أياماً بوادي ظهر وما زال يرسل لأهله ولكتبه ولجميع ما يحتاج إليه، ثم كتب إلى الوزير الخطير الحسن بن علي حنش بأنه يريد الانتقال إلى صنعاء فرفع القضية إلى خليفة العصر حفظه الله فأذن بذلك وأنزله بدار الفرج من بير العرب فسكن فيها ووفد إليه أكابر علماء صنعاء وأخذ عنه جماعة من أعيانهم. وأخذتُ عنه في علوم عدة وكانت القراءات

جميعها يجري فيها من المباحث الجارية على نمط الاجتهاد في الإصدار والإيراد ما تُشد إليه الرحال.

وكان رحمه الله متبحراً في جميع المعارف العلمية على اختلاف أنواعها يعرف كل فن منها معرفة يظن من باحثه فيه أنه لا يحسن سواه. والحاصل أنه من عجائب الزمن ومحاسن اليمن يرجع إليه أهل كل فن في فنهم الذي لا يحسنون سواه فيفيدهم ثم ينفرد عن الناس بفنون لا يعرفون أسماءها فضلاً عن زيادة على ذلك.

وله في الأدب يد طولى فإنه ينظم القصيدة الفائقة في لحظة مختطفة بحيث لا يصدق بذلك إلا من له به مزيد اختبار.

ومع هذا ففيه من لطف الطبع وحسن المحاضرة وجميل المذاكرة والبشاش ومزيد التواضع وكمال التودد وملاحة النادرة ما لا يمكن الإحاطة بوصفه.

ومجالسته هي نزهة الأذهان والعقول لما لديه من الأخبار والأشعار المهذبة للطباع والحكايات عن الأقطار البعيدة وأهلها وعجائبها بحيث يظن السامع أنه قد عرفها بالمشاهدة.

ولم يكن الأمر كذلك فإنه لم يعرف غير اليمن والحرمين ولكنه كان باهر الذكاء قوي التصور كثير البحث عن الحقائق فاستفاد ذلك في أيام مجاورته في الحرمين لوفود أهل الأقطار البعيدة إلى هنالك، وكنت أظن عند ابتداء اتصالي به أنه قد عرف بلاد مصر لكثرة حكاياته عن أهلها وعن عجائب وغرائب موجودة فيها في عصره لا فيما تقدم فإنه لا يستنكر ذلك لأنه قد صنف الناس في أخبارها مصنفات يستفيد بها من أكبّ على مطالعتها ما يقرب من المُشاهَد كالخطط والآثار للمقريزيّ و «حسن المحاضرة في أخبار مصر» للسيوطي، إنما الشأن فيما يحكيه صاحب الترجمة على ما جرت في عصره فإن ذلك هو الأمر العجيب الدال على اختصاصه بما لا يقوم به غيره.

ليـــس علـــى الله بمستنكـــر أن يجمـــع العـــالـــم فـــي واحـــد

وله في حسن التعليم صناعة لا يقدر عليها غيره فإنه يجذب إلى محبته وإلى العمل بالأدلة مَنْ طبعه أكثف من الصخر، وإذا جالسه منحرف الأخلاق أو من له في المسائل الدينية بعض شقاق جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار فلا يفارقه إلا وهو عنه راض، ولقد كنت أرى منه من هذا الجنس ما يزداد منه تعجبي؛ ولذا تم خبره بأحوال الناس وبما يليق بكل واحد منهم وما يناسبه وما لا يناسبه.

وله في علم الطب مشاركة قوية، وله في كل الصناعات العلمية كائنة ما كانت أتمّ اختبار وكان الناس يقصدونه على اختلاف طبقاتهم فأهل العلم يقصدونه ليستفيدوا من علمه والأدباء ليأخذوا من أدبه ويعرضوا عليه أشعارهم، والمحاويج يأتونه ليشفع لهم عند أرباب الدنيا ويواسيهم بما يمكنه، وكرمه كلمة إجماع، والمرضى يلوذون به لمداواتهم، وغرباء الديار من أهل العلم ينزلهم في منزله ويفضل عليهم بجميع ما يحتاجونه ويسعى في قضاء أغراضهم ونيل مطالبهم، وهو مقبول الشفاعة وافر الحرمة عظيم الجاه.

وبالجملة فلم تر عيني مثله في كمالاته ولم آخذ عن أحد يساويه في مجموع علومه، ولم يكن بالديار اليمنية في آخر مدته له نظير.

(١) وكان لِمَا جبل عليه من حسن الأخلاق لا يبدي من علومه عند المناظرة ما ينقطع به من يناظره لا سيما إذا كان من يناظره من المقصرين كل ذلك محبة منه لجبر الخواطر وائتلاف القلوب، وربما يتأثر عن ذلك لبعض من لم يحط به خبراً أنه ليس كما يقول الناس في التفرد بالعلم وقد سمعت هذا الخبر من كثير من الذين لم يبلغوا في العلم مبالغ الكمال ولو عرفوه كما عرفه أهل الكمال الممارسون له لعلموا بأن الحامل له على التسامح في مناظرتهم ما جبل عليه من الخلق.

وكان رحمه الله لا يتعرض لتنقيص أحد كائناً من كان بل يذكر من كل أحد ما اشتمل عليه من المحاسن ويغطي عن مساويه وهو أعرف بها من غيره، ويبالغ في وصف من له اشتغال بالعلم وينشر من محاسنه ما لا يسمح به غيره بعبارات تعشقها القلوب وترتشفها الأسماع وتقبل عليها الطباع.

(١) وهو رحمه الله من جملة من رغبني في تأليف شرح على المنتقى[١] فشرعت فيه في حياته وعرضت عليه كراريس من أوله فقال: إذا كمل على هذه الكيفية كان في نحو عشرين مجلداً وأهل العصر لا يرغبون فيما بلغ من التطويل إلى دون هذا المقدار ثم أرشدني إلى الاختصار ففعلت فكمل بحمد الله وبيضته في أربع مجلدات ولم يكمل إلا بعد موته بنحو ثلاث سنين.

ولم يكن له كثرة اشتغال بالتأليف ولو أراد ذلك لكان له في كل فن ما لا يقدر عليه غيره وله رسائل حافلة ومباحث مطولة هي مجموعة في مجلد والكثير منها لم يكن فيه فإنه كان مقصوداً بالمشكلات في كل فن من جميع الأقطار اليمنية ولكنه لم يحرص على جمع ذلك كلية الحرص. وبيني وبينه مكاتبات أدبية من نظم ونثر، وقد كان رحمه الله يميل إليّ كل الميل ويؤثرني أبلغ تأثير وما سألته القراءة عليه في كتاب فأبى قط بل كان يبتديني تارات ويقول تقرأ في كذا، وكان يبذل لي كتبه ويؤثرني بها على نفسه.

وما زال ناشراً للعلوم قائماً بتفهيم منثورها والمنظوم حتى تفواه الله سنة ١٢٠٧ وتأسف الناس على فقده ورثاه الشعراء بمراث حسان هي مجموعة في كراريس[٢].

---

(١) وهو «نيل الأوطار» المطبوع المتداول.

(٢) «البدر الطالع» ١/ ٣٦٠ ـ ٣٦٨.

المنصور

مولانا الإمام خليفة العصر أمير المؤمنين المنصور بالله رب العالمين علي بن الإمام المهديّ.

وُلِد حسبما سمعته منه حفظه الله في سنة ١١٥١ بصنعاء، ونشأ بها. وفي سنة ١١٧٢ أو في التي قبلها فوّض إليه والده الإمام المهديّ ولاية صنعاء، ثمّ استمر على ولاية صنعاء وما يرجع إليها حتى مات والده الإمام المهديّ سنة ١١٨٩ فبايعه العلماء والحكام وآل الإمام وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم ولم يتخلف عنه أحد وفرحوا به واغتبطوا بخلافته وأحبهم وأحبوه.

وأما ولاية صنعاء وإمارة الجيش الذي كان أميراً عليهم قبل خلافته فصارت أياماً يسيرة إلى أخيه القاسم بن المهديّ ثم بعد ذلك صارت إلى ولده الهمام صفي الإسلام أحمد بن أمير المؤمنين وهو الآن القائم بتدبير الأجناد والمتولي لجميع الأمور بصنعاء وما يليها وله من كمال الرياسة وحسن مسلك السياسة، والمهابة والصرامة، والفطنة بدقائق الأمور والاطلاع على أحوال الجمهور وجودة التدبير، والخبرة بالجلي والخفيّ ما لا يمكن وصفه، مع الشهامة الكاملة وعلو الهمة والمعرفة للأدب ومطالعة كتبه والإشراف على كتب التاريخ، ومحبة أهل الفضائل وكراهة أرباب الرذائل والنزاهة والصيانة والميل إلى معالي الأمور.

وهو أكبر أولاد الإمام ويليه في السن أخوه شرف الإسلام الحسن ويليه أخوه فخر الإسلام عبد الله، يليه أخوه عز الإسلام محمد، وهؤلاء الأربع هم البالغون مبالغ الرجال من أولاد مولانا الإمام وأما الباقون فهم صغار لم يبلغوا سن التكليف عند تحرير هذا التاريخ، ولهم جميعاً في الفراسة طرايق يعجز عنها غيرهم ولا يدانيهم فيها سائر الناس فكل واحد منهم إذا لعب بفرسه بين الفرسان صار نزهة للناظرين ولا يفوقهم في هذا الشأن أحد إلا والدهم مولانا الإمام فإنه في ذلك لا يُبارى ولا يساويه أحد

من الناس فإنه إذا طارد الفرسان، وحرك حصانه بجانب الميدان، صار المتفردَ بهذا الشان، الفايق فيه جميع أنواع الإنسان، بحيث لا يستطيع من رآه كذلك أن يميل نظره عنه لما يراه من حسن الصناعة والفروسية البالغة إلى غاية البراعة.

وله في التواضع ما لا يساويه فيه أحد ولا يصدق بذلك إلا من تاخمه وجالسه فإنه لا يعد نفسه إلا كأحد الناس، وهذه خصيصة اختصه الله بها ومزية شرفه الله بالتحلي بها فإن التواضع مع مزيد الشرف أحب من الشرف، ثم له من حسن الأخلاق أوفر حظ وأكرم نصيب قلّ أن يجد الإنسان مثل حسن خلقه عند أصغر المتعلقين بخدمته مع ما جُبِل عليه من حسن النية وكرم الطوية وتفويض الأمور إلى خالقه والوقوف تحت المشيئة وبهذا السبب ظفره الله بمن يناويه ونصره على جميع من يعاديه فلم تقم لباغ عليه قايمة وهو مجبول على الغريزتين اللتين يحبهما الله ورسوله الكرم والشجاعة وإذا وقع في الظاهر شيء مما يظن من لم يطلع على الحقيقة أنه يخالف ذلك فهو لعذر لو اطلع عليه لوجده الصواب الذي لا ينبغي سواه ولا يليق غيره وقد يكون ذلك لسبب بعض المتصلين بمقامه العالي، وهكذا إذا وقع في جانب الرعية ما لا يناسب الشرع فهو بسبب من غيره وأما هو فلا يحب إلا الخير ولا يريد إلا العدل وإذا اتضح له ذلك أبطله ولم يرض به وكثيراً ما يخفى عليه ذلك بسبب مصانعة بعض من يتصل به للبعض الآخر فمن هذه الحيثية قد يقع أمر لا يريده ولا يرضى به، وقد اشتهر هذا بين الناس حتى لا يقع التوجع منه في شيء أبداً بل لجميع الرعية فيه غاية المحبة بحيث إنه مرض في بعض السنين فكانوا يجتمعون ويبكون ويدعون له بالبقاء وقَلّ أن يتفق مثل هذا لأحد من الأئمة والسلاطين في المتقدمين والمتأخرين[1].

---

(١) بالغ الشوكاني في وصف حاكم عصره وأولاده، ولكن هذه عادة المؤرخين الذين يكتبون عن معاصريهم من الحكام، وانظر ما قاله السخاوي رحمه الله ـ عن الأشرف قايتباي، وغيره، رحمهم الله جميعاً. هذا وإني لم أورد جميع ما قاله الشوكاني فيه فهو طويل.

ولما كان في شهر رجب سنة ١٢٠٩ مات قاضيه وكان صدراً من الصدور وعارفاً بقوانين الأمور وكنت إذ ذاك مشتغلاً بالتدريس في علوم الاجتهاد والإفتاء والتصنيف منجمعاً عن الناس لا سيما أهل الأمر وأرباب الدولة فإني لا أتصل بأحد منهم كائناً من كان ولم يكن لي رغبة في سوى العلوم وكنت أدرس الطلبة في اليوم الواحد نحو ثلاثة عشر درساً، فلم أشعر إلا بطلاب لي من الخليفة بعد موت القاضي المذكور بنحو أسبوع فعزمت إلى مقامه العالي فذكر لي أنه قد رجح قيامي مقام القاضي المذكور فاعتذرت له بما كنت فيه من الاشتغال بالعلم فقال القيام بالأمرين ممكن وليس المراد إلا القيام بفصل ما يصل من الخصومات إلى ديوانه العالي في يومي اجتماع الحكام فيه فقلت: سيقع مني الاستخارة لله والاستشارة لأهل الفضل وما اختاره الله فيه الخير.

فلما فارقته ما زلت متردداً نحو أسبوع ولكنه وفد إليّ غالب من ينتسب إلى العلم في مدينة صنعاء وأجمعوا على أن الإجابة واجبة وأنهم يخشون أن يدخل في هذا المنصب الذي إليه مرجع الأحكام الشرعية في جميع الأقطار اليمنية من لا يوثق بدينه وعلمه وأكثروا من هذا وأرسلوا إليّ بالرسائل المطولة فقبلت مستعيناً بالله ومتكلاً عليه ولم يقع التوقف على مباشرة الخصومات في اليومين فقط بل انثال الناس من كل محل فاستغرقت في ذلك جميع الأوقات إلا لحظات يسيرة قد أفرغتها للنظر في شيء من كتب العلم أو لشيء من التحصيل وتتميم ما قد كنت شرعت فيه واشتغل الذهن شغلة كبيرة وتكدر الخاطر تكدراً زايداً ولا سيما وأنا لا أعرف الأمور الاصطلاحية في هذا الشأن ولم أحضر عند قاض في خصومة ولا في غيرها بل كنت لا أحضر في مجالس الخصومة عند والدي رحمه الله تعالى من أيام الصغر فما بعدها ولكن شرح الله الصدر وأعان على القيام بذلك الشأن، ومولانا الخليفة[1] حفظه الله ما ترك شيئاً من التعظيم إلا وفعله وكان

(١) يطلق الشوكاني على أئمة العهد لقب خليفة، وليس هذا وصفاً صحيحاً في حقهم بل هم حكام مستقلون شأنهم في ذلك شأن بعض الأقطار المستقلة عن السلطنة =

يجلني إجلالاً عظيماً وينفذ الشريعة على قرابته وأعوانه بل على نفسه وأنا حال تحرير هذه الأحرف في سنة ١٢١٣ مستمر على مباشرة تلك الوظيفة مؤثر للتدريس للطلبة في بعض الأوقات في مصنفاتي وغيرها وأسأل الله بحوله وطوله أن يرشدني إلى مراضيه ويحول بيني وبين معاصيه وييسر لي الخير حيث كان ويدفع عني الشر ويقيمني في مقام العدل ويختار لي ما فيه الخير في الدين والدنيا.

(١) وفي سنة ١٢٢٣ اتفقت حادثة عظيمة في صنعاء وهي أن وزير مولانا الإمام الفقيه حسن بن حسن عثمان العلفي تمكن تمكناً كبيراً وصارت الأمور مقرونة به وجميع التدبيرات مقصورة عليه وكان بينه وبين سيدي أحمد ابن الإمام مواحشة بسبب أمور تصدر في مقام الخليفة وبسبب تقصيره في أرزاق الأجناد، ثم تزايدت الوحشة ولم يسمع الوزير المناصحة مني له إدلالاً بماله من الحظ عند الخليفة وصدرت منه أمور مشعرة بالاستخفاف بكثير من أقارب الخليفة وأصحابه وتقصير في الجرايات التي لقبايل بكيل حتى كانوا يقطعون الطرق حول صنعاء وينهبون الأموال ويسفكون الدماء وطال ذلك وأضرّ بالناس وتقطعت الطرق ووثب كثير من القبائل على الطرق التي بقرب منهم فجمع سيدي أحمد بن الإمام أصحابه في التاريخ المتقدم وطلب الوزير المذكور فأبى فأرسل إليه جماعة من الجند فوصل وقبض عليه وعلى جماعة من قرابته فعظم ذلك على الخليفة وأراد استخلاصه فأرسل سيدي أحمد جماعة من الجند وأحاطوا بدار الخلافة وقد كان فيها سيدي عبد الله بن الإمام بجماعة من أصحابه فوقع حرب وأرسل إليّ الخليفة وأصلحتُ الأمر على أن سيدي أحمد يكون تدبير البلاد الإمامية إليه ويكون لوالده بمنزلة الوزير ويبقى الوزير في اعتقاله.

وفي سنة ١٢٢٤ توفي مولانا الإمام رحمه الله وكان الذي صلى عليه راقم هذه الأحرف، ووقعت البيعة لولده مولانا الإمام المتوكل على الله أحمد بن

= العثمانية، التي كانت هي الخلافة الجامعة في ذلك الزمان، والله المسؤول أن يرد الخلافة عزيزة شامخة.

منصور في الليلة التي مات فيها الإمام وكنت أول من بايعه ثم كنت المتولي لأخذ البيعة له من إخوته وأعمامه وسائر آل الإمام القاسم وجميع أعيان العلماء والرؤساء والله المسؤول أن يجعل للمسلمين فيه صلاحاً وفلاحاً[1].

السيد القاسم بن أحمد بن عبد الله

وُلِد في سنة ١١٦٦ بموضع يُقال له صُنعة، وهي قرية بقرب مدينة ذِمار، ثم انتقل صاحب الترجمة إلى مدينة ذِمار فقرأ على جماعة من مشايخ الفقه، وبرع في علم الفروع وقرأ هنالك في علم النحو، ثم ارتحل إلى صنعاء لسبب اقتضى ذلك إليها في سنة ١١٩٣ وقرأ العربية والأصول على جماعة وأخذ عني في العربية وحضر في دروسي الحديثيّة، وهو مفرط الذكاء سريع الفهم قويّ الإدراك استفاد بدرايته أكثر مما استفاد بروايته، ونظم الشعر الفائق وطارح بشعره جماعة من الأدباء، واستقرّ بصنعاء وتزوج بها وأضرب عن العَوْد إلى وطنه، وله همة علية وشهامة علوية ونفس أبية وسيادة هاشمية لا يخضع في مطلب من مطالب الدنيا ولا يدنو لأربابها بل يكتفي منها بما يصل إليه من أموال له ورثها عن أبيه وقد ينوب في الأعمال الشرعية إذا عوّل عليه من يألف به من القضاة فيفصلها على أحسن أسلوب مع عفة ونزاهة وهو أجلّ من كثير من قضاة العصر بل يصغر عن عظيم قدره القضاء. وتحريراته في القضايا الشرعية مقبولة عند الخاص والعام مرضية عند الصغير والكبير يقنع بها المحكوم عليه كما يقنع بها المحكوم له. وبيني وبينه مودة أكيدة ومحبة قوية، وهو لا يمل جليسه ولا يستوحش أنيسه لما جبل عليه من لطف الطبع وكمال الظرف وقد استمر الاتصال بيني وبينه زيادة على خمس عشرة سنة قلّ أن يمضي يوم من الأيام لا نجتمع فيه.

(١) ويجري بيننا مطارحات أدبية في كثير من الأوقات ومراجعات علمية في عدة مسائل منها ما هو منظوم ومنها ما هو منثور، فمن ذلك هذا السؤال الذي اشتمل على نظم ونثر يأخذ بمجامع القلوب كتبه إلي في أيام سابقة ولفظه:

---

(١) «البدر الطالع»: ١/ ٤٥٩ ـ ٤٦٧.

حرس الله سماء المفاخر بحماية الزاهي والزاهر، وأتحف روضها الناظر، بكلاية غيثها الهامي الهامر[1]، وأهدى إليه تحية عطرة، وبركة خضرة نضرة. ما مسحت أقلام الكتبة مفارق المحابر ورتعت أنظار الطلبة في حدائق الدفاتر، صدرت هذه الأبيات في غاية القصور، تستمنح منكم الفرائد، وتستمد منكم الفوائد، أوجب تحريرها أنه ذكر عند بعض الأماثل، جماعة المتصوفة فأثنى عليهم وأطنب وأطرى وأطرب، واستشهدني فقلت بموجب قوله مستثنياً منهم الحلاّج وابن عربي ومن يساويهما فأصر واستكبر وأبدى قولاً يستنكر، فجرى بيننا خلاف مفرط فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط:

أعن العذول يطيق يكتم ما به ... والجفن يغرق في خليج سحابه
جازت ركايبه الحمى فتعلقت ... أحشاؤه بشعابه وهضابه
نفذ الزمان وما نفذن مسائلي ... في الحب والتنفير عن أربابه
فركضت في ميدانه وكرعت من ... غدرانه وركعت في محرابه
وسألت عن تحقيقه وبحثت عن ... تدقيقه وكشفت عن أسبابه
فوجدت أخبار الغرام كواذبا ... في أكثر الفتيان من طلابه
فيميت من شهواته لحياته ... ويرد فضل ذهابه لإيابه
ولقَلّ ما يلقى امرءاً متصوفا ... ينحو طريق الحب من أبوابه
يجد الخطيئة كالقذاة لعينه ... فرمى بها في الدمع عن تسكابه
أخذ الطريقة بالحقيقة سالكا ... نهج النبيّ قد اقتدى بصوابه
تمضي به اللحظات وهو محاسب ... للنفس قبل وقوفه لحسابه
هذه الطريقة للمريد مبلغ ... مخ التصوف وهي لب لبابه
وجماعة رقصوا على أوتارهم ... يتجاذبون الخمر عن أكوابه
يتواجدون لكل أحوى أحور ... يتعللون من الهوى برُضابه[2]
ألوحدة جعلوا المثاني مونسا ... واللحن عند الذكر من إعرابه
أصحاب أحوال تعدوا طورهم ... فتنكروا في الحال عن أحزابه
زجروا مطاياهم إليه وإنما ... نكص الغرام بهم على أعقابه

---

(١) الهامي والهامر بمعنى المنصبّ والسائل. (٢) الرُّضاب: الريق.

دعـواك معرفـة العيـون سفـاهـة ... والشـرع قاض والنُّهىٰ[١] بكـذابـه

وخـرافـةٌ بشـرٌ يُـرى متـشكـلا ... متمكنـا من لبس غيـر إهـابـه

رجحت نهاي فلا أصدق ما سوى ... رسـل المليـك وتـرجمـان كتـابـه

فـدع التصـوف واثقـا بحقيقـة ... واحـرص ولا يغررك لمع سـرابـه

للقـوم تعبيـر بـه يسبي النهى ... طـربـا ويثني الصب عن أحبـابـه

فيـرون حق الغيـر غيـر محـرم ... بـل يـزعمـون بـأنهم أولى بـه

لبسـوا المدارع واستـراحـوا جـرأة ... عن أمـر بـاريهم وعن إيجـابـه[٢]

خـرجوا عن الإسلام ثم تمسكـوا ... بـتصـوف فتستـروا بحـجـابـه

فـاولئـك القـوم الـذين جهـادهم ... فـرض فـلا يعـدوك نيـل ثـوابـه

وإذا أرابـك مـا أقـول فسـل بـه ... من عنده في الحكم فصل خطابه

عـلامـة المعقـول والمنقـول من ... حكمت لـه العليـا على أتـرابـه

فـذّ الزمـان وتـوأم المجـد الـذي ... سـاد الأكـابـر في أوان شبـابـه

بـدر الهـوى النّـظار سله مُقبِّـلا ... كـفيـه ملتمسـا لـرد جـوابـه

فـمحـمـد بن عـلي بـن محـمـد ... مـني ومنـك محـقـق أدرى بـه

سـله زكـاة الاجتـهـاد فـإنـه ... إن صـح فقـرك محـرز لنصـابـه

فأجبت عن هذا السؤال برسالة في كراريس سميتها «الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد» وسأذكر - هنا - ما أجبتُ به عن النظم، وهو:

يا ابن الرسول وعالم المعقول والمنقول ... أنـت بـمـثـل ذا أدرى بـه

واسلم ودم أنت المعـد لمعضـل ... أعنا الـورى يـومـا بكشف نقـابـه

وخـذ الجواب فمـا به خَطَل ولا ... عصبية قـدحت بعين صـوابـه[٣]

سكـانـه صنفـان صنف قـد غـدا ... متجـردا لـلحب بـين صحـابـه

قـد طلق الـدنيـا فليس بضـارع ... يـومـا لنيـل طعـامـه وشـرابـه

---

(١) النهى: العقل.

(٢) المدارع: ثياب الصوف.

(٣) الخَطَل: المنطق الفاسد المضطرب.

يمشي على سنن الرسول مفوضا ... للأمر لا يلوي للمع سرابه
يرضى بميسور من الدنيا ولا ... يغتم عند نفارها عن بابه
متقللا منها تقلل موقن ... بدروس رونقها وقرب ذهابه[1]
متزهداً فيما يزول مزايلا ... إدراك ما يبقى عظيم ثوابه[2]
جعل الشعار له محبة ربه ... وثنى عنان الحب عن أحبابه
أكرم بهذا الصنف من سكانه ... أحْبِب بهذا الجنس من أحزابه
فهم الذين أصابوا الغرض الذي ... هو لامرا في الدين لب لبابه
ولكم مشى هذي الطريقة صاحب ... لمحمد فمشوا على أعقابه
فيها الغفاري قد أناخ مطية ... ومشى بها القرني بسبق ركابه
وبها فضيل والجنيد تجاذبا ... كأس الهوى وتعللا برُضابه[3]
وكذاك بشر وابن أدهم أسرعا ... مشيا به والكينعيّ مشى به[4]
أما الذين غدوا على أوتارهم ... يتجاذبون الخمر في أكوابه
ولوحدة جعلوا المثاني مونسا ... واللحن عند الذكر من إعرابه
ويرون حق الغير غير محرم ... بل يزعمون بأنهم أولى به
فهم الذين تلاعبوا بين الورى ... بالدين وانتدبوا لقصد خرابه
قد نهج الحلاج طرق ضلالهم ... وكذاك محي الدين لا حيا به
وكذاك فارضهم بتائياته ... فرض الضلال عليهم ودعا به
وكذا ابن سبعين المهين فقد عدا ... متطوراً في جهله ولعابه
رام النبوءة لالَعاً لعثوره ... رومَ الذباب مصيره كعقابه[5]
وكذلك الجيلي أجال جواده ... في ذلك الميدان ثم سعى به
انسانه إنسان عين الكفر لا ... يرتاب فيه سابح بعبابه
والتلمسانيّ قال قد حلت له ... كل الفروج فخذ بذا وكفى به

---

(١) دَرَس: أي عفا واندثر.

(٢) المزايلة: المفارقة.

(٣) الرّضاب: الريق.

(٤) هو إبراهيم الكينعيّ الزاهد اليمنيّ، وقد سبقت ترجمته.

(٥) لالَعاً لفلان: أي دعاءٌ عليه بأن لا ينتعش من عثرته.

نهقوا بوحدتهم على روس الملا	ومن المقال أتوا بعين كذابه
إن صح ما نقل الأئمة عنهم	فالكفر ضربة لازب لصحابه
لا كفر في الدنيا على كل الورى	إن كان هذا القول دون نصابه
قد ألزمونا أن ندين بكفرهم	والكفر شر الخلق من يرضى به
فدع التعسف في التأول لا تكن	كفتى يغطي جيفة بثيابه
قد صرحوا أن الذي يبغونه	هو ظاهر الأمر الذي قلنا به
هذي فتوحات الشؤم شواهد	أن المراد له نصوص كتابه[1]

وقد أوضحت في تلك الرسالة حال كل واحد من هؤلاء وأوردت نصوص كتبهم وبينت أقوال العلماء في شأنهم.

(١) وكان تحرير هذا الجواب في عنفوان الشباب وأنا الآن أتوقف في حال هؤلاء وأتبرأ من كل ما كان من أقوالهم وأفعالهم مخالفاً لهذه الشريعة البيضاء الواضحة التي ليلها كنهارها ولم يتعبدني الله بتكفير من صار في ظاهر أمره من أهل الإسلام. وهب أن المراد بما في كتبهم وما نقل عنهم من الكلمات المستنكرة المعنى الظاهر والمدلول العربيّ وأنه قاض على قائله بالكفر البواح والضلال الصراح فمن أين لنا أن قائله لم يتب عنه ونحن لو كنا في عصره بل في مصره بل في منزله الذي يعالج فيه سكرات الموت لم يكن لنا إلى القطع بعدم التوبة سبيل لأنها تقع من العبد بمجرد عقد القلب ما لم يغرغر بالموت فكيف وبيننا وبينهم من السنين عدة مئين.

(٢) ولا يصح الاعتراض على هذا بالكفار فيُقال هذا التجويز ممكن في الكفار على اختلاف أنواعهم لأنا نقول: فَرْقٌ بين من أصله الإسلام ومن أصله الكفر فإن الحمل على الأصل مع اللبس هو الواجب لا سيما والخروج من الكفر إلى الإسلام لا يكون إلا بأقوال وأفعال لا بمجرد عقد القلب والتوجه بالنية المشتملين على الندم والعزم على عدم المعاودة فإن ذلك يكفي في التوبة ولا يكفي في مصير الكافر مسلماً، وأيضاً فَرْقٌ بين

(١) يقصد الفتوحات المكية لابن عربيّ.

كفر التأويل وكفر التصريح على أني لا أثبت كفر التأويل كما حققته في غير هذا الموطن وفي هذه الإشارة كفاية لمن له هداية.

(١) وفي ذنوبنا التي قد أثقلت ظهورنا لقلوبنا أعظم شغلة وطوبى لمن شغلته عيوبه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، فالراحلة التي قد حملت ما لا تكاد تنوء به إذا وُضِع عليها زيادة عليه انقطع ظهرها وقعدت على الطريق قبل وصول المنزل وبلا شك أن التوثب على ثلب أعراض المشكوك في إسلامهم فضلاً عن المقطوع بإسلامهم جراءة غير محمودة فربما كذب الظن وبطل الحديث وتقشعت سحائب الشكوك وتجلت ظلمات الظنون وطاحت الدقائق وحقت الحقائق، وإن يوما يفر المرء من أبيه ويشح ما معه من الحسنات على أحبابه وذويه لحقيق بأن يحافظ فيه على الحسنات ولا يدعها يوم القيامة نهبا بين قوم قد صاروا تحت أطباق الثرى قبل أن يخرج إلى هذا العالم بدهور وهو غير محمود على ذلك ولا مأجور فهذا ما لا يفعله بنفسه العاقل. وأشد من ذلك أن ينثر جِراب طاعاته وينثل[1] كِنانة[2] حسناته على أعدائه غير مشكور بل مقهور وهكذا يُفعل عند الحضور لحساب بين يدي الجبار بالمغتابين والنمامين والهمازين اللمازين فإنه قد علم بالضرورة الدينية أن مظلمة العرض كمظلمة المال والدم، ومجرد التفاوت في مقدار المظلمة لا يوجب عدم إنصاف ذلك الشيء المتفاوت أو بعضه بكونه مظلمة فكل واحدة من هذه الثلاث مظلمة لآدميّ وكل مظلمة لآدميّ لا تسقط إلا بعفوه وما لم يعف عنه باق على فاعله يوافي عَرَصات[3] القيامة. فقل لي كيف يرجو من ظلم ميتا بثلب عرضه أن يعفو عنه ومن ذاك الذي يعفو في هذا الموقف وهو أحوج ما كان إلى ما يقيه عن النار، وإذا التبس عليك هذا فانظر ما تجده من الطباع البشرية في هذا الدار فإنه لو ألقيَ الواحد من هذا النوع الإنسانيّ إلى النار

---

(١) النثل هو الاستخراج.

(٢) هي التي يُجعل فيها السهام.

(٣) البقاع التي ليس فيها بناء.

من نيار هذه الدنيا وأمكنه أن يتقيها بأبيه وبأمه أو بابنه أو بحبيبه لفعل فكيف بنار الآخرة التي ليست نار هذه الدنيا بالنسبة إليها شيئا ومن هذه الحيثية قال بعض من نظر بعين الحقيقة لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت أبي وأمي لأنهما أحق بحسناتي التي تؤخذ مني قسراً وما أحسن هذا الكلام.

(١) ولا ريب أن أشد أنواع الغِيبة وأضرها وأشرها وأكثرها بلاء وعقاباً ما بلغ منها إلى حد التكفير واللعن فإنه قد صح أن تكفير المؤمن كُفْرٌ ولعنه راجع على فاعله وسبابه فسق وهذه عقوبة من جهة الله سبحانه وتعالى، وأما من وقع له التكفير واللعن والسب فمظلمة باقية على ظهر المكفر واللاعن والسبّاب فانظر كيف صار المكفر كافراً واللاعن ملعوناً والسبّاب فاسقاً ولم يكن ذلك حد عقوبته بل غريمه ينتظر بعرصات المحشر ليأخذ من حسناته أو يضع عليه من سيئاته بمقدار تلك المظلمة ومع ذلك فلا بد من شيء غير ذلك وهو العقوبة على مخالفة النهي لأن الله قد نهى في كتابه وعلى لسان رسوله عن الغيبة بجميع أقسامها ومخالف النهي فاعل محرم وفاعل المحرم معاقب عليه. وهذا عارض من القول جرى به القلم ثم أحجم عن الكلام سائلاً من الله حسن الختام[1].

ابن أبي الرجال

محمد بن صالح بن محمد بن أحمد بن صالح بن أبي الرجال، أحد أعيان العصر وأوحد أدبائه. وُلِد سنة ١١٤٦، وأخذ العلم عن جماعة من أعيان ذلك العصر، ومهر في الأدب فنظم الشعر الفائق وله يد طُولى في حفظ الأشعار والأخبار والظرائف واللطائف، لا يسمع شخصاً يحكي حكاية من أي نوع كانت إلا وجاء بأمثالها. ومجالسته نزهة القلوب وروح الأرواح وفاكهة الأذهان وله فهم للنكت والدقائق في غاية الجودة، إذا سُئِل عن

(٣) «البدر الطالع»: ٢/٣١ - ٤٠، وفي الهامش أن هذا الإمام المترجَم له توفي سنة ١٢٢٢ وقيل سنة ١٢١٧ هـ.

مشكل من مشكلات الأدب أفاد فيه بدون كُلْفة. وبالجملة فهو يتوقد ذكاء وفطنة وحسن عشرة ومكارم أخلاق وعفة وصيانة وديانة وعلو همة ورياسة واطلاع تام على علم اللغة. وكثيرا ما يدعوه مولانا الإمام المنصور بالله خليفة العصر حفظه الله ويرغب إلى مجالسته ومحادثته، وقد سمعت من فوائده في مقام مولانا الإمام كثيرا ويجري بيننا هنالك مذكرات أدبية ومحاضرات تاريخية.

(١) ومن محاسنه أنه إذا رأى منكراً استشاط غيظاً والتهب مزاجه فإني في بعض الأيام رأيته في موكب الخليفة وقد رأى رجلا يشتكي ويستغيث والخدم يطردونه ويكفونه عن ذلك قبل أن يسمع الخليفة شكايته فغضب صاحب الترجمة غضباً زائداً وارتفع صوته واضطرب حتى كاد يسقط من ظهر مركوبه.

(٢) ومن رائق نظمه قوله:

كأنك حين تغشى كلَّ نُكْرٍ	وتخشى في ابنة الكَرْم[1] الجُناحا[2]
زهيرٌ حين مر بجمع قوم	بهم هرم فقال عموا صباحا

فيه تلميح إلى القصة المشهورة وهي أن زهير بن أبي سلمى كان يمدح هرم بن سنان وكان قد حلف هرم أن لا يمدحه زهير أو يسلم عليه إلا أعطاه ولما كثر منه ذلك احتشم زهير منه وخجل من كثرة عطائه فكان إذا لقيه لا يسلم عليه وإذا مر بقوم هو فيهم حياهم بتحية العرب واستثناه فيقول: عِمُوا صباحاً عدا هرما وخيركم تركتُ.

مات رحمه الله سنة ١٢٢٤[3].

---

(١) أي: الخمر.
(٢) الجُناح هو الإثم.
(٣) «البدر الطالع»: ٢/١٧٦ - ١٧٨.

السيد غالب بن مساعد شريف مكة وأميرها

وَلِيَ الإمارة بعد أبيه مساعد سنة ١٢٠٢، وهو الآن في سن الشباب حسبما نسمعه من الحجاج.

(١) وله شغلة عظيمة بصاحب نجد عبد العزيز بن سعود المستولي الآن على البلاد النجديّة وغيرها مما هو مجاور لها وكثيراً ما يجمع صاحب الترجمة الجيوش ثم يغزو أرض نجد فيصل أطرافها فيبلغنا أنه يقوم لحربه طائفة يسيرة من أطراف البلاد فيهزمونه ويعود إلى مكة، وآخر ما وقع منه ذلك سنة ١٢١٢ فإنه جمع جيشاً كثيراً وغزا نجداً وأوقع ببعض البلاد الراجعة إلى سلطان نجد المذكور فلم يشعر إلا وقد دهمه جيش لا طاقة له به أرسله صاحب نجد فهزمه واستولى على غالب جيشه قتلاً وأسراً بل جاءت الأخبار بأنه لم يَسْلَم من جيش صاحب الترجمة إلا طائفة يسيرة وقتل جماعة من أشراف مكة المعركة وتمت الهزيمة إلى مكة، ولو ترك ذلك واشتغل بغيره لكان أولى له فإنه من حارب من لا يقوى لحربه جرّ إليه البلوى فإن صاحب نجد تبلغ عنه قوة عظيمة لا يقوم لمثلها صاحب الترجمة؛ فقد سمعنا أنه قد استولى على بلاد الحسا والقطيف وبلاد الدواسر وغالب بلاد الحجاز.

(٢) ومن دخل تحت حوزته أقام الصلاة والزكاة والصيام وسائر شعائر الإسلام، ودخل في طاعته من عرب الشام الساكنين ما بين الحجاز وصعدة غالبهم إما رغبة وإما رهبة وصاروا مقيمين لفرائض الدين بعد أن كانوا لا يعرفون من الإسلام شيئاً ولا يقومون بشيء من واجباته إلا مجرد التكلم بلفظ الشهادتين على ما في لفظهم بها من عوج، وبالجملة فكانوا جاهلية جهلاء كما تواترت بذلك الأخبار إلينا ثم صاروا الآن يصلون الصلوات لأوقاتها ويأتون بسائر الأركان الإسلامية على أبلغ صفاتها.

(٣) ولكنهم[1] يرون أن من لم يكن داخلاً تحت دولة صاحب نجد

(١) أي اتباع الإمام محمد بن عبد الوهاب، وهذه شبهة تحتاج إلى تحقيق والله أعلم.

وممتثلاً لأوامره خارج عن الإسلام، ولقد أخبرني أمير حجاج اليمن السيد محمد بن حسين المراجل الكبسيّ أن جماعة منهم خاطبوه هو ومن معه من حجاج اليمن بأنهم كفار وأنهم غير معذورين عن الوصول إلى صاحب نجد لينظر في إسلامهم فما تخلصوا منه إلا بجهد جهيد وقد صارت جيوش صاحب نجد في بلاد يام وفي بلاد السراة المجاورين لبلاد أبي عريش، ومن تبعه من هذه الأجناس اغتبط بمتابعته وقاتل من يجاوره من الخارجين عن طاعته فبهذا السبب صار معظم تلك البلاد راجعاً إليه.

(١) وتبلغنا عنه أخبار الله أعلم بصحتها من ذلك أنه يستحل دم من استغاث بغير الله من نبيّ أو وليّ وغير ذلك ولا ريب أن ذلك إذا كان من اعتقاد تأثير المستغاث كتأثير الله كفر يصير به صاحبه مرتداً كما يقع في كثير من هؤلاء المعتقدين للأموات الذين يسألونهم قضاء حوائجهم ويعولون عليه زيادة على تعويلهم على الله سبحانه ولا ينادون الله جلّ وعلا إلا مقترناً بأسمائهم ويخصونهم بالنداء منفردين عن الرب فهذا أمر الكفر الذي لا شك فيه ولا شبهة وصاحبه إذا لم يتب كان حلال الدم والمال كسائر المرتدين.

(٢) ومن جملة ما يبلغنا عن صاحب نجد أنه يستحل سفك دم من لم يحضر الصلاة في جماعة وهذا ـ إن صح ـ غير مناسب لقانون الشرع نعم من ترك الصلاة فلم يفعلها منفرداً ولا في جماعة فقد دلت أدلة صحيحة على كفره وعورضت بأخرى فلا حرج على من ذهب إلى القول بالكفر إنما الشأن في استحلال دم من ترك الجماعة ولم يتركها منفرداً، وتبلغ أمور غير هذه الله أعلم بصحتها.

(٣) وبعض الناس يزعم أنه يعتقد اعتقاد الخوارج وما أظن ذلك صحيحاً فإن صاحب نجد وجميع أتباعه يعملون بما تعلموه من محمد بن عبد الوهاب وكان حنبلياً ثم طلب الحديث بالمدينة الشريفة فعاد إلى نجد وصار يعمل باجتهادات جماعة من متأخري الحنابلة كابن تيمية وابن القيم وأضرابهما وهما من أشد الناس على معتقدي الأموات.

(١) وقد رأيت كتاباً من صاحب نجد الذي هو الآن صاحب تلك الجهات أجاب به على بعض أهل العلم وقد كاتبه وسأله بيان ما يعتقده فرأيت جوابه مشتملاً على اعتقاد حسن موافق للكتاب والسنة فالله أعلم بحقيقة الحال.

(٢) وأما أهل مكة فصاروا يكفرونه ويطلقون عليه اسم الكافر وبلغنا أنه وصل إلى مكة بعضُ علماء نجد لقصد المناظرة فناظر علماءَ مكةَ بحضرة الشريف في مسائل تدل على ثبات قدمه وقَدمِ صاحبه في الدين.

(٣) وفي سنة ١٢١٥ وصل من صاحب نجد المذكور مجلدان لطيفان أرسل بهما إلى حضرة مولانا الإمام حفظه الله أحدهما يشتمل على رسائل لمحمد بن عبد الوهاب كلها في الإرشاد إلى إخلاص التوحيد والتنفير من الشرك الذي يفعله المعتقدون في القبور وهي رسائل جيدة مشحونة بأدلة الكتاب والسنة، والمجلد الآخر يتضمن الرد على جماعة من المقصّرين من فقهاء صنعاء وصعدة ذاكروه في مسائل متعلقة بأصول الدين وبجماعة من الصحابة فأجاب عليهم جوابات محررة محققة تدل على أن المجيب من العلماء المحققين العارفين الكبار بالسنة وقد هدم عليهم جميع ما بنوه وأبطل جميع ما دونوه لأنهم مقصرون متعصبون فصار ما فعلوه خزياً عليهم وعلى أهل صنعاء وصعدة وهكذا من تصدر ولم يعرف مقدار نفسه، وأرسل صاحب نجد مع الكتابين المذكورين بمكاتبة منه إلى سيدي المولى الإمام فدفع حفظه الله جميع ذلك إليّ فأجبت عن كتابه الذي كتب إلى مولانا الإمام حفظه الله على لسانه بما معناه أن الجماعة الذين أرسلوا إليه بالمذاكرة لا ندري من هم وكلامهم يدل على أنهم جهال.

(٤) وفي سنة ١٢١٧ دخلت بلاد أبي عريش وأشرافها في طاعة صاحب نجد ثم تزلزلت الديار اليمنيّة بذلك، واستولى أصحابه على بعض ديار تِهامة وجرت أمور يطول شرحها. وقد أفردت ما بلغنا من ذلك في مصنف مستقل لأن هذه الحادثة قد عمت وطمت وارتجفت لها أقطار الديار الشامية والمصرية والعراقية والرومية بل وسائر الديار لا سيما بعد دخول أصحاب النجديّ مكة المشرفة وطرد أشرافها عنها ولله أمرٌ هو بالغه.

(١) ثم في سنة ١٢٢٢ وصل إلينا جماعة من صاحب نـجد سـعود بـن عبد العزيز لبعضهم معرفة في العلم ومعهم مكاتيب من سعود إلى الإمام المنصور بالله رحمه الله تعالى وإليّ أيضاً، ثم وصل جماعة آخرون كذلك في سنة ١٢٢٧ ثم وصل جماعة آخرون كذلك في سنة ١٢٢٨ ودار مع هؤلاء الواردين ومع غيرهم من المكاتبة ما لا يتسع المقام لبسطه.

ثم بعد هذا في سنة ١٢٢٩ خرج باشة مصر الباشا محمد علي بجنود السلطان ووصل إلى مكة وأسر الشريف غالب وجهزه إلى الروم ثم بلغ موته هنالك وهذا عارض من القول فلنرجع إلى ترجمة الشريف غالب فنقول:

(٢) ومما ينبغي ذكره ههنا أنه وصل من الشريف المذكور في عام تحرير هذه الأحرف وهو سنة ١٢١٣ كتاب إلى مولانا خليفة العصر المنصور بالله علي بن العباس حفظه الله يتضمن الإخبار بالرزية العظمى والمصيبة الكبرى والبلية التي تبكي لها عيون الإسلام والمسلمين وهي استيـلاء طائفـة من الفِرنج يُقال لهم الفِرنسيس على الديار المصـرية جميعهـا ووصولهم إلى القاهرة وحكمهم على من بتلك الديار من المسلمين وهذا خطب لم يصب الإسلام بمثله فإن مصـر ما زالت بـأيدي المسلمين منـذ فتحت في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنـه إلى الآن ولم نجد في شيء من الكتب التاريخية ما يدل على أنه قد دخل مدينة مصر دولة كفرية، والإفرنج الذين وصولوا إليها في أيام العاضد[١] ووزيره شاور وكذلك الذين وصلوا إليها في دولة بني أيوب لم يدخلوا مدينة مصر بل غاية ما بلغوا إليه دمياط ونحوها، وما زالت تلك المدينة وسائر بلادها محروسة عن الدول الكفرية فإن التتار دوخوا جميع بلاد الإسلام ولم يسلطهم الله على مصر بل عادوا عنها خائبين مقهورين مهزومين وكذلك تيمورلنك مع تدويخه لسائر الممالك لم يُسلّط عليهم و الله ينصر الإسلام وأهله. وأرسل الشريف في طيّ كتابه بكتاب من سلطان الروم، ثم بعد ذلك وصل من الشريف كتاب فيه التبشير باستيلاء

---

(١) آخر خلفاء الدولة الفاطمية.

المسلمين على من بالقاهرة فضلاً عن الذين منهم بسائر الأقطار المصرية والإسكندرية وسنذكر هاهنا كتاب السلطان ثم كتاب الشريف الأول ثم كتابه الثاني ثم الجواب من مولانا الإمام حفظه الله تكميلاً للفائدة وتبيينا للقضية فإنها من الحوادث العظيمة التي ينبغي التعريف بها والإعلام بشأنها فلفظ كتاب السلطان ملك الروم إلى شريف مكة غالب بن مساعد هكذا:

«وبعد فهذا مرسومنا المبجل الشريف، وخطابنا المعظم المنيف لا زال نافذاً بعون الله في سائر الأرجاء والأقطار، ما دام الفلك الدوار، أصدرناه مبيناً على نظيم فرائد التحية والتسليم، ومنصوباً على قلائد التبجيل والتكريم، محتوياً على قواعد صيانة الدين، مؤكداً لمعاقد حماية سنن سيد المرسلين، صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين:

«أصدرنا إلى عالي جناب الأمير الأمجد، المبجل الأجلّ الأوحد، المقتفي آثار أسلافه الأشراف، من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف، وأجداده السعيدي السير الجميلي الأوصاف، فرع الشجرة الزكية النبوية، شريف مكة المشرفة الشريف غالب بن مساعد، لا زالت العناية الربانية له ملاحظة، والكلاية الصمدانية عليه حافظة.

وإلى قدوة العلماء وعمدة الفضلاء، نائب مكة المشرفة وكافة السادات الأشراف الأجلاء الميامين ومفاتي المذاهب الأربعة والعلماء والأئمة المحترمين، ووجوه كافة المسلمين، من ساكني بلد الله الأمين، من حاضر وباد، وفقهم الله إلى سبيل الرشاد.

يحيطون علماً أن طائفة كفار الفرانسة، جعل الله ديارهم دارسة، وأعلامهم ناكسة، قد نقضوا العهود، وخانوا مواثيق المعبود، وخرجوا من أطوار الحدود، وهجموا على بدوان مصر وسكانها، على حين غفلة من أهلها، فملكوا البلاد، وأفشوا الكفر والفساد، وخاضوا بحر الضلال والطغيان، وتحشدوا تحت راية الشيطان، وتمكن البغي في أحشائهم، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم، لا حاكم يردعهم، ولا دين واعتقاد

يجمعهم، يعدون النهب غنيمة، والنميمة أكمل شيمة، قد اتفقت آراؤهم، على الهجوم على سائر بلدان المسلمين، وأقطار عباد الله الموحدين، بأن (١) أهل الإسلام قويين[١]، ولهم مزيد الصلابة في الدين فإذا وصلنا أقطارهم، وحللنا ديارهم، فالضعيف منهم نباشره بالحرب والضرب والقتل والنهب، والقوي منهم ننصب له شرائك المكر والحيل حتى تطمئن خواطرهم وتأمن ضمائرهم إلى أن يقعوا في أشراكنا ونعمل فيهم ما شئنا من مقاصدنا ونُلقي بين سائر المسلمين المكايد الخفية بالفساد لإيقاع العداوة المباينة للاتحاد، في أحوالهم وأديانهم ـ ولم يعلموا لعنهم الله أن الإسلام مغروس في قلوبنا، والإيمان ممزوج بلحمنا ودمنا، أكفرٌ بعد إيمان، أضلال بعد هدى، كلا وربِّ الأرض والسماء، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ـ وخصوصاً في طوائف العرب، لنبلغ فيهم أقصى مرام وأعز مطلب، ونبذل الجهد في تخريج الرعايا من الإسلام عن طاعة من ولي عليهم من الحكام حتى يكون لنا الصولة العظمى ويصيرون[٢] الجميع لنا مغنما، فينقطع بذلك سلك نظامهم وينفصم عقد انتظامهم، فنملك حينئذ رقابهم وأموالهم، فإن العرب أسرع ما يُستولى على ديارهم، لتفرقهم في أوديتهم من أقطارهم، وغفلتهم عن حزم أحوالهم.

(٢) فإن أعظم ما يشتت جموع الإسلام، ويفل حد سنانهم عن الانتظام هدمُ قبلتهم، وحرق مساجدهم فإذا ظفرنا بأقطارهم، وهدمت كعبتهم، ومسجد نبيّهم، وبيت مقدس عزهم، انقطع أملهم وتفرق شملهم وملكنا ديارهم، فإن الأمور لا يدركها إلا اتفاق الجمهور فنقتل جميع رجالهم، ومن يعقل من صبيانهم، فحينئذ نقتسم ديارهم، وأموالهم، وأملاكهم، ونحول بقية الناس إلى أصولنا وقواعدنا ولساننا وديننا، فبه يمحى الإسلام وقواعده وشرائعه، ويندرس رسومه وآثاره من وجه الأرض من شرقها وغربها وجنوبها وشمالها، وعربها، وعجمها.

---

(١) كذا.

(٢) كذا.

فهذا ما اتفق رأي الفرنسيس اللعين من سوء المقاصد في المسلمين، جعل الله دائرة السوء عليهم فلا يستطيعون صرفاً ولا نصراً، ونرجو الله أن يعاملهم بعدله في قوله: **﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾**، فهذا حال الفرانسة، في إلحادهم، وجدالهم، وعنادهم، وما اقتضاه فاسد اجتهادهم، **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، و الله متم نوره ولو كره الكافرون﴾**، فكيف لا يكون فرضاً على كل أحد من مسلم موحد، أن يشمر عن ساعد الجد، ويبذل نفسه وماله في مرضاة الواحد الفرد، ويمتثل قول أصدق القائلين: **﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾**، ويكون رابحاً في بيعه عن الخسران، مستبشراً ببذل نفسه في سبيل الرحمٰن، لقوله: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾**، إلى غير ذلك من الآيات البينات والأحاديث الصحيحة المروية عن الثقات، مما يحث على نصرة الدين، ويلم شعث الموحدين.

فالآن يا شريف مكة، ويا سادات الأشراف وقادات العرب، وحماة الدين، وكماة المسلمين، وغزاة الموحدين، وأبطال الحروب الماحين بصوارم عزمهم عن الدين ظلام الكروب. يا رجال الغارات، ويا أركان الشريعة، والعبادات، ويا حفظة الدين والأمانات ويا باذلين النفوس عند انتهاك الحرمات، ويا كافة إخواننا في الدين، والذين هم لشريعة ربهم ناصرين، البِدارَ البِدارَ، إلى طاعة الملك الغفار لمحافظة قبلتكم، ومَحْتِدِ[1] نبيكم، منشأ الإسلام، ومسجد نبيكم عليه السلام، ومواطن مضاعفة عبادتكم من ساحة بيت الله الحرام فالغيرة الغيرة، والحمية الحمية، من صولة أعداء الدين، الذين هم عن كل ملة فارقين ولكتب رسل الله مكذبين، فشدوا عزائمكم للقائهم، واحفظوا جهاتكم وسواحلكم، ومنافذ

---

(١) أصل.

بلدانكم وسارعوا إلى الرباط إلى حدود الكفر اللئام، ببندر جدة وينبع وما والاهما، مما فيه صيانة المسلمين وحفظ أعراض الموحدين، وكونوا عباد الله إخوانا ولا تنازعوا فتفشلوا، وفي سبيل الله أنفقوا وتجملوا، وكونوا كلمتكم واحدة، وأيديكم متناصرة. ولتكن سيوفكم بارقة، وسهامكم راشقة، وأسنتكم في الطعن متلاحقة، ومدافعكم صاعقة، ونبالكم إلى أفئدتهم متسابقة، ولتقصدوا بذلك إعلاء كلمة الدين، والذب عن بيت الله ومسجد رسول الله، ونرجو الله أنكم مؤيدون بنصر الله، ولا يكون لكم تخلف عن ذلك، ولا تراخ في حفظ تلك المسالك.

ونحن في طرف السلطنة السنية، ننشر رايتنا العلية، فبحول الله وقوته وباهر عظمته تملكهم عساكرنا المنصورة، وتقطعهم سيوفنا المشهورة، وقد سيرنا عليهم شجعاناً لا يبالون بالموت لإعلاء كلمة الدين، وغزاة يقتحمون على النار محبة في دين الله، فنتعقب بقدرة الله أدبارهم، لعل الله يرزقنا هلاكهم ودمارهم فنجعلهم إن شاء الله هباء منثورا، كأن لم يكونوا شيئاً مذكورا. فبادروا أيها المسلمون إلى الرباط بجدة وينبع ومن تخلف فقد عصى الله وخالف أمرنا، فإن ذلك أمرنا إليكم وحتمنا عليكم: **﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾**. واستجلبوا صالح الدعوات من عجازكم وصالحيكم وأفاضلكم عند البيت الحرام. وقد قال تعالى: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾**، وقال عليه السلام: «المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا». **﴿هذا يوم ينفع الصادقون صدقهم﴾. ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون. ولتكن**

منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تسود وجوه وتبيض وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأمّا الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين. ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور. كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون. ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ فالبِدارَ البِدارَ إلى ما أمرناكم من الرباط، والحَذارِ الحَذارِ من خلاف ذلك هذا ما انتهى أمرنا إليكم لا زلتم موفقين بعون الملك المعين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم» انتهى كتاب السلطان، لا برح في حماية الملك الديان.

وهذه صورة من كتاب مولانا شريف مكة غالب بن مساعد

إلى مولانا الإمام المنصور بالله عليّ بن العباس حفظه الله وفي طيه كتاب السلطان السابق ذكره ولفظ كتاب الشريف:

«الحمد لله الذي كل يوم هو في شأن، والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان، وعلى آله الطاهرين وصحبه والتابعين لهم بإحسان، إلى يوم الدين. ثم نهدي مزيد سلام نشأ من خالص الفؤاد، وأعرب عن صدق المحبة والاتحاد، مع تحيات طاب نشرها من المآثر العظام، وبيت الله الحرام، وزمزم والمقام، إلى حضرة الباهرة المنصورية، ساحة الخلافة اليمنيّة، واسطة نظام السادة الحسنيّة الجانب العالي الكريم. أخينا الأكرم

وعالي الهمم الإمام بن الإمام حضرة الإمام المنصور، وفقه الله لصلاح الجمهور. وبعد إهداء شريف السلام وإسداء واجب التحية والإكرام، فالسؤال عن حالكم كثير، لموجب ما لكم عندنا من جميل الوداد الوافر. وإن سألتم عنا فنحمده سبحانه على جزيل فضله وعظيم امتنانه، طيبين بخير وعافية ونعمة من المولى وافية. والذي نبديه إلى مسامعكم العلية، وأفهامكم الزكية، من الأمور الحادثة في الوجود، وجزيل أحكام الملك (١) المعبود. لموجب احتياج أهل الإسلام إلى حزم الأمور، وغفلتهم عن حفظ الثغور حتى صار ما صار، من شرذمة أهل البغي والإنكار، من التهجم على بلاد إسكندرية ومصر القاهرة، بجنود من البحر على سفاين متواترة، وهم طائفة من جمهور الفرانسة، والملة الباغية التي بفضل الله أعلامهم ناكسة؛ لمشاهدتهم في أحوال المسلمين ترك الثغور عن التحصين، فهجموا على تلك البلاد، فلم يجدوا لجامحهم مدافع ولا رادّ.

(٢) فأفسدوا كافة من بجوارها من العربان، بأنواع السياسة الموهمة بأنهم من طائفة السلطان. وأبرزوا للبوادي كتباً مزوّرة، بألفاظ عربية بتعظيم الله ورسوله مصدّرة، حتى انقادوا له بالطاعة، ظناً منهم بأنهم من جنود الدولة المطاعة. وليس يخفى عليكم حال البوادي الطغام، الذين لا يعقلون إن هم إلا كالأنعام، فسلكوا بهم الطريق، وصاروا للمشركين أعظم مساعد وأعزّ رفيق. فجرى قدر ربنا سبحانه باستدراج جند الشيطان أرباب الخيانة بتملكهم للقاهرة، ودخولهم إلى مصر بحكمته الباهرة. فلا رادّ لقضائه ولا محيص عما ارتضاه؛ فهو الملك المختار، وله المشيئة فيما يختار. فحينئذ بلغ ذلك الخبر حضرة سلطان الإسلام، أدحض الله بصوارم سطوته جنود اللئام، فجهز عليهم من أبطال الأجناد ما يعجز عن حصره جموع الأعداد، وسير عليهم من جيوش الإسلام ووزرائه العظام. وجعل مقدمهم الوزير الشهير الجزار أحمد باشا بلغه الله من الخير ما شا، فاجتمعت عليه طوائف العربان، وتحشدت تحت رايته كافة أهل الإيمان. وهرع إلى جهادهم المسلمون من كل مكان. حتى أقطارنا الحرمية ظهرت منا للجهاد سبعة

آلاف، يَرِدون في طاعة الله موارد الموت والإتلاف. ونرجو العظيم من فضله العميم أن يؤيد بالنصر أجناد الموحدين، ويبدد بالقهر شمل الكفرة الملحدين. والحمد الله قد وردت الينا الأخبار بتضايق حال المشركين من الحصار؛ لتزاحف جنود أهل الإسلام، وإحاطتهم بجميع المنافذ المصرية والمسام فانتظم أمر التجهيز، وانتدب لنصرة الإسلام كل ذليل وعزيز، ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقويّ عزيز﴾. وفي هذا الأوان ورد إلينا هذا الفرمان الصادر إليكم منه صورتان المعلن بدواعي الفلاح، والمحرض لكافة المسلمين على ما يرجى منه النجاح من استعداد القوة للمصادمة والكفاح، كما هو محتم على أهل الإسلام. خصوصاً في مثل هذه الأيام. ومن أعظم الشيم والمروّة امتثال قول الله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فبذل غاية المجهود لمحافظة الثغور وتحصين الحدود، والمرابطة في بلدان السواحل، والذب عن الأديان أمر محتوم على كافة ملوك الإسلام وسائر القبائل. فوصلكم صورة الأمر الشريف والخطاب المنيف وما القصد من إرساله إلا تنبيهكم لحفظ البلاد، والتحذير من أرباب الكفر والعناد كما هو مصرح في الفرمان السلطانيّ من ذكر مكايد الكفرة في جميع المغاني[١] ولا يعزب عن فهمكم الثاقب أن ملوك الروم[٢] أحسوا بما يبني الكفرة أمورهم من المعاطب. فحثوا على المرابطة جميع المسلمين. وقوّوا ثغور بلدانكم بالتحصن الرصين من البنيان؛ فإن بحر الهند تجري فيه سفاينهم. وقد ظهرت فيه بأحد المواسم ضرايرهم. فيجب من عزيز جنابكم كمال التحري لدفع مفاسدهم، والاستعانة بالله تعالى في إدحاض مكايدهم. ومن آكد اللوازم نشر هذين الفرمانين في كافة أقطار أوامركم، وأقصى ما يحادد بلدانكم ومحاكمكم. هذا ما عنّ لنا به الإخبار، لا زلتم في كلاية الملك الستار، وإن شاء الله عن قريب نفيدكم بمسرة نصرة الإسلام. فالمرجو من جنابكم تفيدوا[٣] بما تجدد وحدث وبلغكم من الأعلام والأخبار ودمتم

(١) المواضع.

(٢) أي: سلاطين آل عثمان.

(٣) كذا.

سالمين، وبعين عناية الله ملحوظين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. انتهى كتاب الشريف عافاه الله[1].

(١) وأما الشريف غالب فلما استولى صاحب نجد على مكة والمدينة تابعه ودخل تحت أمره ونهيه واستمر نائباً له منذ دخول جيوشه مكة وكان القادم بالجيوش سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود ثم مات عبد العزيز وصار الأمر بعده إلى ولده سعود وما زال يأتي للحج في كل عام إلى سنة ١٢١٨ فخرج باشة مصر الباشا محمد علي بجنود متكاثرة واستولى على مكة والمدينة عن مواطأة بينه وبين الشريف غالب ثمّ لما استقر بمكة قبض على الشريف غالب واستولى على جميع أملاكه وذخائره وهي كثيرة جداً وأرسله في سفينة هو وخواص أهله إلى الروم. و الله أعلم ما كان آخر أمره فإنه لم يبلغنا إلى الآن خبر صحيح مما كان من أمره بعد إخراجه من مكة وإدخاله إلى تلك الديار. والباشا محمد علي مستقر في مكة وجدة إلى الآن وهي سنة ١٢٢٩ والحرب بينه وبين أهل نجد مستمرة ومات في هذا العام أمير العرب صاحب نجد وهو سعود بن عبد العزيز وقام مقامه ولدُه عبد الله بن سعود وما زال يجهز الجند إلى مكة ومن بها والحرب بينهم سجال.

محمد الكردي

محمد الكرديّ أحد طلبة العلم القادمين إلى مدينة صنعاء وأصله من الكرد وهي قُرىً مجاورة لبغداد.

(٢) خرج من بلاده لطلب العلم وتنقل في البلدان وذكر لنا أن بغداد وما حولها من البلاد قد صار أكثر أهلها رافضة من روافض الإمامية، وكذلك غالب بلاد خراسان، وحكى لنا أن أكثر الناس اشتغالاً بالعلم أهل أصفهان ولكن غالب اشتغالهم بعلوم العقل وفيهم رافضة يجري بينهم وبين غيرهم فتن عظيمة.

---

(١) وقد أورد الشوكانيّ ردّ إمام اليمن ورسالة أخرى من الشريف تجدها في موضعها، وقد تصرفت فيما أوردت من رسائل.

(٢) «البدر الطالع»: ٢/٤ - ٢٤.

(١) وكان قدومه إلى صنعاء في أوائل القرن الثالث عشر وقدم معه بكتب من أحسنها رسالة في علم المناظرة طويلة جداً، ولها شرح نفيس مفيد في كراريس وسألته عن مؤلف تلك الرسالة وشرحها فقال: هي معروفة في بلاد الهند وغيرها بمناظرة يوسف، فسألته عن يوسف هذا ابن من هو وفي أيّ زمان هو؟ فقال لا يدري وقد طلب مني القراءة في تلك الرسالة وشرحها فقال له: هذه الرسالة لم يَقِف عليها إلا منك فكيف تأخذها عني فقال: لا بد من ذلك فقرأها علي. وقد كتبها جماعة من أعيان علماء العصر وكثير من الطلبة وهي من أنفس المؤلفات وأكثرها فوائد ولا ينبغي لطالب علم بعد وقوفه عليها أن يشتغل بآداب البحث وشروحها فإنها ليست بشيء بالنسبة إلى تلك الرسالة وشرحها.

وكان عمر صاحب الترجمة عند قدومه إلى صنعاء نحو أربعين سنة[١].

الحوثيّ

السيد يحيى بن محمد الحوثيّ ثم الصنعانيّ، وُلِد تقريباً سنة ١١٦٠، ونشأ بصنعاء فاشتغل بعلم الفرائض والحساب والضرب والمساحة ففاق في ذلك أهل عصره وتفرّد به ولم يشاركه فيه أحد وصار الناس عيالاً عليه في ذلك ولم يكن له بغير هذا العلم إلمام مع أنه قد توجه إلى الطلب ولكن كان كل حظه في هذا العلم، وهو رجل خاشع متواضع كثير الأذكار سليم الصدر إلى غاية يعتريه في بعض الأحوال حدة مفرطة وقد كان حصل معه جنون في أيام شبابه ثم عافاه الله من ذلك، وما زال مواظباً على الخير لكنه قليل ذات اليد بما يضيق صدره لذلك مع كثرة عائلته ويسر الله له ما يقوم به بعد مزيد امتحان وهو شيخي أخذت عنه علم الفرائض والوصايا والضرب والمساحة.

(٢) وفي شهر رمضان سنة ١٢١٦ ثارت بسببه فتنة عظيمة بصنعاء وذلك أن

---

(١) «البدر الطالع»: ٢/٢٢٨.

بعض أهل الدولة ممن يتظهر[1] بالتشيع مع الجهل المفرط والرفض باطناً أقعد صاحب الترجمة على الكرسيّ الذي يقعد عليه أكابر العلماء المتصدرون للوعظ وأمره أن يملي على العامة كتاب «تفريج الكروب» للسيد إسحاق بن يوسف المتوكل وهو في مناقب عليّ كرم الله وجهه، ولكن لم يتوقف صاحب الترجمة على ما فيه بل جاوز ذلك إلى سب بعض السلف مطابقة لغرض من حمله على ذلك لقصد الإغاظة لبعض أهل الدولة المنتسبين إلى بني أمية كل ذلك لِمَا بين الرجلين من المنافسة على الدنيا والمهافتة على القرب من الدولة وعلى جمع الحطام، فكان صاحب الترجمة يصرخ باللعن على الكرسيّ فيصرخ معه من يحضر لديه من العامة وهم جمع جم وسبب حضورهم هو النظر إلى ما كان يسرج من الشمع وإلى الكرسيّ لبعد عهدهم به وليسوا ممن يرغب في العلم، فكان يرتج الجامع ويرتفع الصراخ ومع هذا فصاحب الترجمة لا يفهم ما في الكتاب لفظاً ولا معنى بل يصحف تصحيفاً كثيراً ويلحن لحناً فاحشاً ويعبر بالعبارات التي يعتادها العامة ويتحاورون بها في الأسواق، وقد كان في سائر الأيام يجتمع معهم ويملي عليهم في مسجد الإمام صلاح الدين فأراد أن يكون ذلك في جامع صنعاء الذي هو مجمع الناس ومحل العلماء والتعليم لقصد نشر اللعن والثلب والتظاهر به فلما بلغ ذلك مولانا خليفة العصر حفظه الله جعل إشارة منه إلى عامل الأوقاف السيد إسماعيل بن الحسن الشاميّ أنه يأمر صاحب الترجمة أن يرجع إلى مسجد صلاح الدين فأمر السيد المذكور الفقيه أحمد بن محسن حاتم رئيس المأذنة أن يبلغ ذلك إلى صاحب الترجمة فأبلغه فحضر العامة تلك الليلة على العادة ومعهم جماعة من الفقهاء الذين وقع الظلم بهذا الاسم بإطلاقه عليهم فإنهم أجهل من العامة، فلما لم يحضر صاحب الترجمة في الوقت المعتاد لذلك وهو قبل صلاة العشاء ثاروا في الجامع ورفعوا أصواتهم باللعن ومنعوا من

---

(١) يعلن.

إقامة صلاة العشاء ثم انضم إليهم من في نفسه دغل للدولة أو متستر بالرفض ثم اقتدى بهم سائر العامة فخرجوا من الجامع يصرخون في الشوارع بلعن الأموات والأحياء وقد صاروا ألوفاً مؤلفة ثم قصدوا بيت الفقيه أحمد حاتم فرجموه ثم بيت السيد إسماعيل بن الحسن الشاميّ فرجموه وأفرطوا في ذلك حتى كسروا كثيراً من الطاقات ونحوها، وقصدوه إلى مدرسة الإمام شرف الدين يريدون قتله فنجاه الله وهرب من حيث لا يشعرون، وقد كانوا أيضاً قصدوا قتل الفقيه أحمد حاتم فهرب من الجامع إلى بيتي ونحن إذ ذاك نملي في شرحي للمنتقى مع حضور جماعة من العلماء، ثم بعد ذلك عزم هؤلاء العامة وقد تكاثف عددهم إلى بيت السيد عليّ بن إبراهيم الأمين ورجموه وأفزعوا في هذه البيوت أطفالاً ونساءً وهتكوا حُرَماً، وكان السبب في رجمهم بيت السيد المذكور أنه كان في تلك الأيام يتصدر للوعظ في الجامع ولم يكن رافضياً لعاناً، ثمّ عزموا جميعاً وهم يصرخون إلى بيت الوزير الحسن بن عثمان العلفيّ وإلى بيت الوزير الحسن بن عليّ حنش، والبيتان متجاوران فرجموهما وسبب رجم بيت الأول كونه أمويّ النسب ورَجْمِ بيت الآخر كونه متظهراً[1] بالسنة متبرياً من الرفض، فأما بيت الفقيه حسن حنش فصعد جماعة من قرابته على سطحه ورجموهم حتى تفرقوا عنه وأصابوا جماعة منهم، أما بيت الفقيه حسن عثمان فرجموه رجماً شديداً واستمروا على ذلك نحو أربع ساعات حتى كادوا يهدمونه وشرعوا في فتح أبوابه ووقع الرمي لهم بالبنادق فلم ينكفوا لكونه لم يظهر لذلك فيهم أثر إذ المقصود بالرمي ليس إلا مجرد الإفزاع لهم، ثمّ بعد ذلك غار بعض أولاد الخليفة حفظه الله وبعض أصحابه فكفوهم فانكفوا وقد فعلوا ما لا يفعله مؤمن ولا كافر، وفي اليوم الآخر أرسل الخليفة حفظه الله للوزير والأمراء وقد حصل الخوف العظيم من ثورة العامة وطال التراود والمشاورة بينهم

---

(١) معلناً.

ومن بعد ذلك أرسل لي حفظه الله فوصلت إليه حفظه الله فاستشارني فأشرت عليه أن الصواب المبادرة بحبس جماعة من المتصدرين في الجامع للتشويش على العوام وإيهامهم أن الناس فيهم من هو منحرف عن العِترة[1] وأن التظاهر بما يتظاهرون به من اللعن ليس المقصود به إلا إغاظة المنحرفين ونحو هذا من الخيالات التي لا حامل لهم عليها إلا طلب المعاش والرياسة والتحبب إلى العامة؛ وكان من أشدهم في ذلك السيد إسماعيل بن عز الدين النعميّ فإنه كان رافضياً جلداً مع كونه جاهلاً جهلاً مركباً وفيه حدة تفضي به إلى نوع من الجنون وصار يجمع مؤلفات من كتب الرافضة ويمليها في الجامع على من هو أجهل منه ويسعى في تفريق المسلمين ويوهمهم أن أكابر العلماء وأعيانهم ناصبة يبغضون علياً كرم الله وجهه بل جمع كتاباً يذكر فيه أعيان العلماء وينفر الناس عنهم وتارة يسميهم سنية وتارة يسميهم ناصبة ومع هذا فهو لا يدري بنحو ولا صرف ولا أصول ولا فروع ولا تفسير ولا حديث بل هو كصاحب الترجمة في التعطل عن المعارف العلمية لكن صاحب الترجمة يعرف فنّاً من فنون العلم كما قدمنا وأما هذا فلا يعرف شيئاً إلا مجرد المطالعة لمؤلفات الرافضة الإمامية ونحوهم الذين هم أجهل منه، ويشبه الرجلين رجلٌ آخر هو أحد عبيد مولانا الإمام حفظه الله اسمه ضرغام رأس ماله الاطلاع على بعض كتب الرافضة المشتملة على السب للخلفاء وغيرهم من أكابر الصحابة فصار هذا يقعد في الجامع ويملي سب الصحابة على من هو أجهل منه فهذه الأمور هي سبب ما قدمنا ذكره، فلما أشرت على مولانا الإمام حفظه الله بحبس هؤلاء وجماعة ممن يماثلهم حصل الاختلاف الطويل العريض في مقامه الشريف بين من حضر من أولاده ووزرائه ومنشأ الخلاف أن من كان منهم مائلاً إلى الرفض وأهله فهو لا يريد هذا ومن كان على خلاف ذلك فهو يعلم أنه الصواب وأنها لا تندفع الفتنة إلا بذلك فصمم مولانا حفظه الله على حبس من ذكر، ثمّ أشرت عليه حفظه الله أن يتتبع من

(١) عترة النبي ﷺ أهله ورهطه الأدنون.

وقع منه الرجم ومن فعل تلك الأفاعيل فوقع البحث الكلي منه ومن خواصه فمن تبين أنه منهم أودع الحبس والقيد وما زال البحث بقية شهر رمضان حتى حصل في الحبس جماعة كثيرة، فلما كان رابع شوال طلب الإمام حفظه الله الفقهاء المباشرين للرجم فبطحوا تحت طاقته وضربوا ضرباً مبرحاً ثم عادوا إلى الحبس، ثم طلب في اليوم الثاني سائر العامة من أهل صنعاء وغيرهم المباشرين للرجم ففعل بهم كما فعل بالأوّلين وضربت المدافع على ظهور جماعة منهم ثم بعد أيام جعلوا في سلاسل حديد وأرسل بجماعة منهم إلى حبس زيلع وجماعة إلى حبس كرمان، وفيهم ممن لم يباشر الرجم السيد إسماعيل بن عز الدين النعميّ المتقدم وسبب ذلك أنه جاوز الحد في التشديد في الغرض كما قدمنا وأما صاحب الترجمة ومن شابهه في هذا المسلك فإنه حبس نحو شهرين ثم أطلق هو من معه وبالجملة فهذه فتنة وقى الله شرها بالحزم الواقع بعد أن وجلت القلوب وخاف الناس واشتد الخطب وعظم الكرب وشرحها طويل، وبعد هذه الواقعة بنحو سنة عول صاحب الترجمة في أن يكون أحد أعوان الشرع ومن جملة من يحضر لدي فأذنت له وصار يعتاش بما حصل له من أجرة تحرير الورق وذلك خير له مما كان فيه إن شاء الله[1].

عبد الوهاب بن محمد شاكر

السيد عبد الوهاب بن محمد شاكر، الحسنيّ من قبل [الأم] الحسينيّ من قبل الأب الموصليّ مولداً وبلداً ومنشأ.

وُلِد سنة ١١٨٤ وقدِم علينا صنعاء في سنة ١٢٣٤ وكثر اتصاله بي وهو جامع بين علم الأديان والأبدان، جيد الفهم فصيح اللسان حسن العبارة حسن الإشارة، قد عرف كثيراً من البلاد كمصر والشام والعراق والحرمين

(١) «البدر الطالع»: ٢/ ٣٤٤ ـ ٣٤٨.

ودخل إلى الروم دفعات واتصل بعلماء البلاد وأعيانها وملوكها وأخبرنا عن هذه البلاد وأهلها بأحسن الأخبار مع صدق لهجة وتحر للصدق وكتب إليّ من شعره بنظم فائق رائق.

(١) ومن جملة ما خبرنا به خبر عجيب ونبأ غريب وهو أنه وجد في جبل قيسون من جبال الشام رجل من الجن يُقال له قاضي الجن واسمه شمهورش وأنه أدرك الإمام محمد بن إسماعيل البخاريّ وأخذ عنه[١].

علي بن إبراهيم الشهيد

وُلِد بشَهارة سنة ١١٤٣، وقرأ بها على أهل العلم هنالك ثم ارتحل إلى كوكبان وقرأ على من به من العلماء، ثمّ ارتحل إلى صنعاء واستقر بها وتزوج. وكان إماماً في جميع العلوم محققاً لكل فنّ ذا سكينة ووقار قلّ أن يوجد له نظير في ذلك.

(٢) كان إذا اجتمع بأهل العلم وجرت المباحثة في فن من فنون العلم لا يتكلم قط بل ينظر إليهم ساكتاً فيرجعون إليه بعد ذلك فيتكلم بكلام يقبله الجميع ويقنع به كل سامع، وكان هذا دأبه على مرور الأيام لا يعتريه الطيش والخفة في شيء كائناً ما كان ولا يوجد له عدو قطُّ لحفظ لسانه والتفاته إلى ما يعنيه وعدم اشتغاله بما لا يعنيه مع كونه غير متعلق بالمناصب الدنيوية التي هي منشأ العداوة إما لحسد أو لغيرة فلهذا كان الثناء عليه إجماع والاعتراف بفضله ليس فيه نزاع.

(٣) وكان يسلك هذا المسلك مع أهله وأولاده فإنهم إذا وقع لهم السهو عن شيء مما يحتاج إليه من طعام أو شراب أو نحوهما لم يقع منه الطلب لذلك منهم فضلاً عن أن يتجرد عليهم ويلومهم. ولقد أخبرني أنه خرج يوماً مع جنازة وقت الغداء وما رجع إلا قبل الظهر فظن أهله أنه قد تغدى لأنه

---

(١) «البدر الطالع»: ١/٤٠٦ ـ ٤٠٧.

كان كثيرَ الضيافات عند معارفه فوصل إلى مكانه واستمر جالساً إلى وقت العشاء لم يطلب منهم شيئاً ومِثل هذا عجيب. وأخبرني أنه دخل ليلةً منزله ووقف في المكان الذي يأوي إليه ولم يشعر أهله بذلك فبقي إلى مقدار نصف الليلة في ظلمة بلا مصباح ولا قهوة ولا غير ذلك مما يحتاج إليه في السمر مع أنه كان محباً للسمر، وإذا كانت هذه معاملته لأهله فما ظنك بمعاملته لغيرهم ولا أعلم أنه غضب قطُّ أو خاصم في شيء منذ عرفته إلى أن مات.

(١) وليس له نظير في حفظ الأشعار لأهل الجاهلية والإسلام وحفظ الأخبار التي لا يدري بشيء منها غالب أهل العصر ومع هذا فإنه يحضر مواقف الاجتماع فيتحدث متحدث بخبر من الأخبار فيزيد وينقص ويغلط ويصحف ويحرف وهو مصغ إليه مقبل عليه كأنه لا يعرف من ذلك شيئاً فإذا فرغ ذلك المتحدث من حديثه استحسنه صاحب الترجمة وسكت ولا يستدرك عليه في شيء مع أنه يعلم بتفصيل ذلك الخبر وصحيحه وفاسده اللهم إلا أن يسأله سائل عن تلك الحكاية أو يسترشد منه الحاكي فإنه حينئذٍ يمليها بعبارة عذبة ويصوغها بألفاظ فصيحة، وإذا كانت مشتملة على شيء من الشعر ذكره لا يغادر منه شيئاً حتى يخجل حاكي تلك القضية ويندم على إقدامه، وهكذا إذا روى أحد من هو بحضرته شيئاً من الشعر أصغى إليه وقد لا يدري ذلك الراوي لمن الشعر وقد يصحف في بعضه وقد لا يحفظ إلا شيئاً يسيراً من القصيدة وصاحب الترجمة ساكت لا يتكلم فإذا سأله سائل عن ذلك روى تلك القصيدة من أولها إلى آخرها وذكر السبب الذي قيلت لأجله وترجم لقائلها ترجمة لا يدع من أحواله شيئاً، وقلّ أن يجري بحضرته شيء لا يعرفه.

وهو قليل التكلف مائل إلى الخمول وليس له رغبة في الظهور.

ولا يتكلم في مسألة إلا وهو على قدم راسخة وإلا رجع إلى البحث بل

كثيراً ما يرجع وإن كان يعلم بالمسألة فإني سمعت منه صحيح البخاريّ من أوله إلى آخره بلا فوت فكانت تعرض مباحثات حال القراءة فيسمع السؤال ثم يصمت ويأخذ الشروح فينظر فيها فإن وجد ما يفيد أملاه وإن لم يجد تكلم من عند نفسه بكلام في غاية الحسن والإفادة ومما كتبته إليه في أيام قراءتي عليه هذان البيتان.

إمام البهاليل[1] الأولىٰ سبقوا إلى سمـاء المعـالـي آمـراً بعـد آمـرِ
علـي بـن إبـراهيـم بـن علـي بـ ـن إبـراهيـم بـن أحمـد بـن عـامرِ

وقد أخذ عنه الطلبة فنون متعددة وكانوا يقصدونه في الغالب إلى بيته، وكان للعصر به جمال والعلم وأهله به أنس، وله في الشعر يد طولى وقصائده الطنانة موجودة بأيدي الناس.

(١) فمن شعره في وصف البنادق من جملة قصيدة:

فـواغـرُ أفـواه الثعـابيـن كلمـا نفحـن قَتَـامـا[2] تستطـار مشـاعـل
حكىٰ شكلُها الحيّات لكن صفيرها زئير وفي الأحشاء منها الغوائلُ[3]
كـراسيهـا أذنـابهـا وعيـونهـا وراء ولا يخفـى عليهـا المقـاتـل

ولو لم يكن له إلاّ هذه الأبيات لكفته فإنها غاية لا تدرك وهي تدل على ما أولاها من أدبه الغض.

(٢) ولم يشتغل رحمه الله بالتأليف مع أنه أهل له ولو وجه نفسه إليه لجاء بما يعجز عنه غيره ولعل السبب في ذلك محبته للخمول حياً وميتاً.

(٣) وكتب من نفايس الكتب بخطه شيئاً كثيراً وكنت أعجب من سرعة ما يتحصل له من ذلك مع شغلته بالتدريس فسألته بعض الأيام عن هذا فقال:

---

(١) السادة.
(٢) الغبار الأسود.
(٣) الدواهي.

إنه لا يترك النسخ يوماً واحداً وإذا عرض ما يمنع فعل من النسخ شيئاً يسيرا ولو سطراً أو سطرين، فلزمت قاعدته هذه فرأيت في ذلك منفعة عظيمة.

ولم يزل رحمه الله مستمراً على حاله الجميل حتى توفاه الله سنة ١٢٠٧[1].

---

(١) «البدر الطالع»: ١/٤١٦ ـ ٤٢٠.

مختارات القرن الثالث عشر
من كتاب
«التعليقات على شمس الظهيرة»

تأليف

السيد ضياء الدين شهاب



السيد محمد بن زين العابدين العيدروس

آل العيدروس في «ترنقانو»

أسرة آل العيدروس في ترنقانو تتمتع باحترام عظيم، ويحتمل أن أول وصولهم كان في القرن الثاني عشر؛ بناءً على وجود ضريح لشخص من هذه الأسرة في «چابانغ تيقا»[1] ويعرف هذا الضريح لدى الأهالي بـ «توك مقام لامَ» وهو السيد محمد مصطفى العيدورس، وعلى الضريح تاريخ وفاته بالحروف العربية «ليلة الخميس ٢٢ رجب ١٢٠٧ أو ١٢٠٩ هـ (عام ١٧٩٢ أو ١٧٩٤ م) ويحتمل أنه أول عيدروسيّ بها.

(١) وبناءً على الأخبار الشائعة أن ثلاثة إخوة من آل العيدروس سافروا من حضرموت إلى الشرق، أقام أحدهم بجاوا، والثاني في ترنقانو، والثالث في فطاني للتجارة ونشر الإسلام.

كان السيد زين العابدين يتردد بين جاوا وترنقانو للتجارة على سفينة شراعية فتزوج ببنت السيد محمد مصطفى العيدروس، فولدت له محمداً (لقب أخيراً تركوتوان بسار) وهو والد السيد عبد الرحمن بن محمد، ولعل مولده في ٢٣ رجب ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤ م) أي بعد يوم من وفاة محمد مصطفى.

(٢) تلقى السيد محمد بن زين العابدين علومه من الشيخ «قادر بوكيت باياس» ثم عن علماء مكة. كان عالماً فقيهاً محدثاً مفسراً صوفياً، له تلاميذ

---

(١) قال المؤلف: چابانغ تيقا كانت عاصمة السلطان زين العابدين، وبها كان أول استيطان أسرة آل العيدروس.

من كل منطقة، عاصر عدداً من سلاطين ترنقانو ولكنه كان أكثر التصاقاً بـالسلطان عمـر (١٨٣٩ - ١٨٧٦ م/١٢٥٥ - ١٢٩٣ هـ) ولقبـه السلطان بـ «ڤدوكا راجا إيندرا» فهو شيخ العلمـاء ونقيب العرب، وكـانت الأحكام الإسلامية تطبق من قبل السلطة، وكان الشعب متمسكين بتعاليم الإسلام، يعيشـون في أمن ودعة. ذكـر هذا المؤرخHugh Clifford في كتـابه عن ترنقانو وكلانتن.

توفي محمد (توكو توان بسار) ليلة ١٧ محرم ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) وعمره ٨٤ سنة، ودفن في «چابانغ تيقا» بالقرب من مسجده، وترك ذرية لهم أدوار مهمة في تاريخ «ترنقانو» في القرن التاسع عشر وأوائـل القرن العشرين، أكبرهم السيد زين العابـدين العيدروس، تـولى منصب الوزيـر الأعظم في عهد السلطان عمر عام ١٨٦٤م ويقال إنه لُقب «انكو سيد سرى فردانا»[١].

السلطان علي بن عثمان

[أبوه] السيد عثمـان بن عبد الـرحمن بن حسن بن عمر بن حسن بن علي بن أبي بكـر السكران، وصـل إلى سلطنة سيـاك بسومتـرا في عهد السلطان عالم بن رحمت، وتولى القضاء ثم تدرج في المناصب حتى بلغ منصب الوزارة، فدبّر الملك ووسَّع رقعة السلطنة إلى مناطق شاسعة، ثم تزوج الأميرة بدريّة وحيدة السلطان فرزق منها ثلاثة: علي وعبد الـرحمن وأحمد.

وفي سنـة ١٧٩١ م (١٢٠٦ هـ) تـولى السلطنـة الشـريف علي بن عثمـان، جاءت إليـه السلطنة من أمـه، ولقب «عبد الجليـل سيف الدين» وعمره ٢١ سنة، فكان عهده عهد رخاء وهناء للشعب، انتعشت فيه التجارة وازدادت البلاد عمراناً وأمناً، وعيَّن أخاه أحمد ولياً للعهد وأخاه عبد الرحمن والياً على جزيرة «ڤلالاوان».

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ١/١٢٥ - ١٢٦.

(١) عمر عبدالرحمن الجزيرة وبث فيها العلم، وتوارث الحكم عليها بعده أبناؤه وحفدته، وأخيراً فصلها الاستعمار الهولندي عن سلطنة سياك، وبنى بها حصناً أحاطه بسور عال في عشرين قدماً، وسمكه عشرون وطوله مئتان، وبها توفي الشريف علي بعد أن بلغ الستين.

يقال إن الشريف علياً أول من جلب المعدات الحربية الحديثة في ذلك العصر، ولم يكن ميّالاً إلى الهولنديين فكان محبوباً لدى الشعب، ثم تنازل عن السلطنة في عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) لابنه إبراهيم (خليل الله).

(٢) في عام ١٢٣٤ هـ (١٨١٨ م) أبرمت اتفاقية بين إبراهيم و «فارقوهار» الإنكليزي، وحاول الجنرال رافلس عام ١٢٣٨ هـ (١٨٢٢ م) الحصول على إذن لبناء مركز ففشلت محاولته، فاتصل الإنكليز بأمراء سومترا الشرقية، فاغتاظ الهولنديون وضغطوا على السلطان إبراهيم وأشاعوا أنه مصاب في عقله.

وتولى إسماعيل (أمه بنت الأمير تنكو منداق Tengku mendak بنت الشريف علي) ولم يبلغ سن الرشد بعد، فكان الوصي عليه تنكو محمد القائد العام الذي سعى في تولية الشريف قاسم على فلالاوان.

(٣) ولما امتد نفوذ هذه السلطنة بذرت هولندا بذور الفتنة في الأسرة، فأصبح السلطان ومعاونوه على خلاف مع ابن عمه إبراهيم فغلب على أمره، في الحين الذي كان الهولنديون يوقدون نار الثورة ضده عام ١٨٥٧ م.

(٤) في عام ١٨٥٨ م (حوالي عام ١٢٧٥ هـ) أبرمت اتفاقية مع هولندا اعترفت فيها هولندا بسيادة هذه السلطنة على عدة مناطق، ولكنها في نفس الوقت أخذت تعمل لإحداث شقاق بين سلطنتي سياك وآچيه.

(٥) وهنا أسجل ما كتبه كاتب بتوقيع «تماسد الحق السقاف» وهو من الأسرة بجريدة «فليتا» التي تصدر بجاكرتا يوم الابعاء ٢ يوليو ١٩٧٦ تحت

عنوان «نظرة سريعة في التاريخ» ذكر في مقاله هذا أن الهجرات الحضرمية كانت أولاً لنشر الإسلام، وأن سلاطين سياك من سلالة أولئك الدعاة، كما تدل على ذلك الوثائق وأنهم كانوا شغوفين باحترام رسول الله وآل بيتـه، وذكر أن دستور هذه السلطنة لا يفرق بين أحد من السكان مهما اختلفت مواطنهم وقبائلهم، مع احترام التقاليد السائدة.

وأشار إلى أن أول سلاطين سياك تمكن من القضاء على لصـوص البحر (قرصان) في مضيق ملاكا وبحر الصين الجنوبي؛ وأنه ألَّف قـوات برية وبحرية وصنع أسطولاً بحرياً قوياً.

وذكر أن السيد عثمان توفي وهو في طريق الجهاد، وحمل جثمانه إلى «فكن باور» بجانب زوجته بدرية في ساحة المسجد، هذا بعض ما ذكره الكاتب.

وقد انتشر أفراد هذه الأسرة في أنحاء سومترا وماليزيا وغيرها، وممن ينتسب إليها الآن السيد ناصر بن إسماعيل بن شهاب رئيس مؤسسة الدعوة الإسلامية في ماليزيا، وداتؤسري السيد أحمد شهاب رئيس وزراء سلطنة فدح، والسيد زين بن شهاب أحد رجال حزب «أمنو» في جهور وغيرهم.

منطقة «أساهَنْ» كانت تابعة لسلطنة سياك ثم انفصلت عنها، وصارت سلطنة، وحارب سلاطينها الـزحوف الهـولنديـة، وأخيراً وقـع سلطانها في الأسر، ثم عاد إلى ملكه بعد أن وقع على اتفاقية عام ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ) وتوفي عام ١٨٦٧ م (١٢٨٤ هـ).

أمـا «سياك» فبعـد جهادهـا الطويـل ضد الغـزو الهولنـديّ إلى عام ١٨٧٠ م (١٢١٧ هـ) تألفت فيها ادارة حكومية من (١) محمد شريف بن السلطان حسين (٢) السيد أحمد بن حسن عيديد (زوج أخت الأميرة تنكو سولونغ توبا)Tengku Sulung Toba[1].

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ١/١٨٣ - ١٨٦.

السيد محسن السقّاف

السيد العلامة المجاهد محسن بن علوي بن سقاف (١٢١١ - ١٢٩٠ هـ).

تربى على والده وأعمامه، ونشأ على طلب العلم ونبغ فيه قبل سنّ التكليف، وتوفي والده وهو لم يبلغ الرابعة والعشرين من عمره.

لهذا السيد جهاد عظيم، وبذل وسخاء، وكفاح ضد المظالم التي كان الشعب يرزح تحتها في عهد حكام يافع، فاجتهد في إزالة المظالم، وكان من أكبر العاملين في تأسيس دولة آل عبد الله الكثيرية، والمموّل كغيره لهذه الدولة الجديدة، حتى لقد تعرض للسجن عام ١٢٦٤ هـ، كما سجن عدد من أعيان مدينة سيوون.

وكان العاملون لإزالة المظالم والاستبداد، والساعون لتأسيس دولة آل عبد الله عدداً من الأفاضل، منهم مع - حفظ الألقاب - عبد الله بن حسين بن طاهر، وعبد الله بن عمر آل يحيى، وعبد الله بن زيد باسلامة، وحسن بن صالح البحر، ومحسن بن علوي السقاف، وعلوي بن سقاف الجفري وغيرهم.

وكان بين رجال الصف الأول من هذه الحركة، الشاعر الشعبي الذلق، والعالم الديني القدوة، والداعية النشيط الموفق، ورجل المال الأريحيّ، والسياسي المحنّك البعيد النظر.

وكان العلويون قد انبثوا في مختلف أرجاء الوادي يعملون بجد لا يعرف الكلل سراً وعلانيةً لنصرة آل كثير.

وفي عام ١٢٦٤ هـ أرسل السيد العلامة محسن بن علوي السقاف - وكان في طليعة المتحمسين لنصرة آل كثير، وأحد كبار الدعاة العلويين - قصيدة طويلة أوردها المؤرخ الشيخ سالم بن حميد في تاريخه إلى السلطان محسن الكثيري حال إقامته بحيدر آباد يستعجله احتلال سيوون. كان هذا

السيد الجليل قد ذاق الأمرّين من معاملة يافع بسيوون، وتعرض للاعتقال والتعذيب على أيديهم.

(١) أجمع العلماء ورجال الحل والعقد على أن يتولى القضاء فقبلها على مضض، ثم رحل إلى الشحر هرباً من القضاء حتى أسند القضاء إلى غيره فعاد إلى سيوون. وهناك لم يأل جهداً في إصلاح البلاد وزحزحة الظلم، وتخطي المصائب والتهديدات، فكان يعمل في زعامة الأمة، والسهر على مصالحها، ويكفي أنه شارك في السياسة فعلاً فثار ضد الظالم. وبلغه أن يافع تجمعوا على الهجوم عليه وقتله، فأخذ نساء الأسرة وأرسلهن إلى بقعة بعيدة.

ولم تكن المشاركة محدودة، بل لقد شارك في الحملة مع الجند إلى الشحر لإزالة ما بها من مظالم.

(٢) كان شغوفاً بالإصلاح كشغفه بالدعوة إلى الله وإلى إثبات النظم بالبلاد، ومن ذلك الميثاق الذي وضعه مع السيدين عبد الله بن عمر بن أبي بكر بن يحيى، ومحمد بن حسين بن عبد الله الحبشي، حيث تعاهدوا على بذل الوسع في الدعوة والإرشاد إلى التمسك بالعلم والعمل وتطبيق العادات وفق الشريعة الإسلامية، وأن يعملوا بكل استطاعة متكاتفين لا يصدهم شيء حتى الممات وذلك في عام ١٢٥١ هـ.

ومع ذلك لم يترك الجانب العلمي والإفادة والعبادة والاعتماد على النفس في السعي للرزق بالزراعة وغيرها، وكان رحيماً بالفقراء والأيتام والأطفال حتى كان يوزع للأطفال الحلوى، ويسأل عن المحتاجين الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف فيسارع إلى سد حاجاتهم[1].

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ١/٢٢٩ - ٢٣١.

السلطان سيف العالم جمل الليل

آل جمل الليل في آشي (آچيه)

(١) الذين تولوا السلطنة في آشي، ينتسبون إلى السيد عبدالله بن أحمد بن عبد الله بن حمد جمل الليل بن حسن المعلم.

كان لسلطنة آشي تاريخ مجيد، رقت في سلم الزمن، واقتعدت أوج القوة وشحنت بالعلم والعلماء وجابهت الأعداء، وجالت في الكفاح براً وبحراً وكان من سلاطينها إسكندر الثاني (١٠٥٠ - ١٠٨٨ هـ) أو (١٦٤١ - ١٦٧٦ م).

فلما توفي تولت زوجته بنت السلطان إسكندر مودا ولقبت تاج العالم صفية الدين بإجماع العلماء ورجال الدولة، ثم توالت السلطانات الواحدة بعد الأخرى إلى السلطانة كمالات شاه التي تزوجت السيد هاشم جمل الليل، ثم تولى بعدها ابنها السيد بدر العالم الشريف إبراهيم ولقب بزين العابدين ابن السيد هاشم إلى عام ١١١٤ هـ (١٧٠٢ م)، ثم تنازل عن الملك للشريف هاشم ويلقب «فركاس» عالم شريف لمتوي إلى عام ١٧٠٣ م، ثم الشريف جمال الدين البدر المنير ابن الشريف هاشم إلى عام ١٧٢٦م (١١٣٩ هـ) وفي عهده استردت آجيه عظمتها.

ثم تولى السلطنة بعد هؤلاء السادة شخص آخر يلقب بجوهر العالم عماد الدين من أصدقاء وأعوان الشريف جمال الدين، وتوالى على الملك من سلالته عدد كانوا موالين لهؤلاء السادة آل جمل الليل وأوصى السلطان زين العابدين بن عبد الرحيم بن منصور الملقب علاء الدين أحمد شاه مهراج ليلاً (١٧٢٧ - ١٧٣٥ م) ابنه السلطان علاء الدين جوهر شاه باحترامهم وقد تتملذ هذا السلطان على السيد أبي بكر بن حسين.

كان السيد حسين جمل الدين وأمه بنت السلطانة كمالات شاه قد انتقل منذ صباه إلى سلانقورSelangor ثم إلى فينانغ .Penang عام ١٧٩٠ م (حوالي عام ١٢٠٥ هـ) واشتغل بالتجارة وكانت البضائع التي يصدرها إلى

آشي (آجيه) معفوة عن الرسوم باعتباره من الأسرة السلطانية، فلما تولى السلطان جوهر العالم أزال هذا الامتياز ولكن السيد حسين كان قوي الصلة بعظماء آجيه محبوباً لديهم في حين كان السلطان غير مرغوب فيه في بعض المناطق فثارت هذه المناطق ضد السلطان واختارت ابن السيد حسين لتولي السلطنة هو السلطان شريف سيف العالم، وعزلت السلطان جوهر العالم عام ١٨١٥ م (حوالي ١٢٣١ هـ).

(١) وطرد الآشيون المستشار البريطاني «فنسويك» وكان هذا السلطان ميالاً إلى الإنكليز فالتجأ إليهم في فيانغ، فلم يقبلوه. ثم عاد السلطان جوهر العالم إلى عرشه بمساعدة صهره «تنكوفقيه» بعد أن كان مناوئاً له. واستولى على سفينة ملك السلطان شريف سيف العالم جمل الليل وأسر السيد علوياً ابن أخ السيد حسن.

(٢) وكانت تنحية السلطان الشريف جمل الليل بمساعدة الإنكليز الذين أجروا للشريف ستة آلاف ريال سنوياً على أن يكف عن المطالبة بالعرش وإلّا فسوف تتخذ القوة ضده.

وانتشرت سلالة آل جمل الليل في أنحاء آشي وغيرها[1].

السلطان حسين جمل الليل
سلطان سلطنة فرليس Perlis

(٣) تقع هذه السلطنة في أقصى ماليزيا الحالية، سلاطينها من السادة آل جمل الليل.

جاء السيد أحمد بن حسين بن عبد الله بن عقيل بن عبد الله بن محمد بن سالم بن أحمد باحسن بن عبد الرحمن بن علي بن محمد جمل الليل، ومعه ابنه هارون من مواليد فاليمبانغ إلى قدح في شبه جزيرة الملايو.

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ٢/٤٩٩ - ٥٠٠.

تزوج السيد أحمد الأميرة صفية بنت السلطان ضياء الدين المتوفى عام ١٢٣٠ هـ (١٨١٦ م) وكان قد عيَّنه حاكماً في «أرو» عام ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م).

توفي أحمد عام ١١٦٣ هـ وتوفي ابنه هارون عام ١٢٤٠ هـ، وللسيد أحمد ابن هو السيد حسين فكان أول من تولى السلطنة على ڤرليس من آل جمل الليل، ولد في عام ١٢٢٠ هـ (يناير ١٨٠٥) ونشأ تحت رعاية جده ضياء الدين وتمرن على مزاولة شؤون الدولة مع السلطان أحمد تاج الدين.

في عام ١٨٢١ م هاجم ملك سيام ليقور البلاد فدافع السيد حسين والوزير «وان محمد أرشد» فارتد المهاجمون وهم من السياميين والصينيين فطاردهم المسلمون حتى وصلوا إلى «سينقورا» ثم انقلب الأمر وانتصرت سيام وعينت حكومة سيام وكيلاً لها على قدح وكانت فرليس تابعة لقدح وبعد سنوات اتفق الوكيل تنكو آنوم وهو أحد أقارب السلطان مع الأسرة والسيد حسين على أن يكونوا وفداً إلى سيام وتم الاتفاق على إعادة البلاد إلى سلطان قدح وإطلاق الأسرى.

ثم توجه وفد إلى جزيرة فينانغ وفي الوفد السيد حسين لدعوة السلطان أحمد تاج الدين للعودة إلى قدح، وبعد لأيٍ عاد السلطان وعيَّن أمراء للمناطق ومنهم السيد حسين علي «كايانغ» وأقام في أرو التي سميت أخيراً «فرليس» وتوفي في ١/١٠/١٢٩٠ هـ (٢٠/١١/١٨٧٣ م) بعد أن حكم نحو ٣٠ عاماً.

وتولى بعده ابنه أحمد وهو الثاني على فرليس وتوفي في ٤/٥/١٨٩٧ م فخلفه ابنه علوي ولكنه توفي غريقاً فخلفه ابنه السيد صافي بن علوي وهو الثالث[1].

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ٢/٥٠٠ ـ ٥٠٢.

الشريف عبد الرحمن القدري

آل القدري

(١) ينتسبون إلى السيد عقيل القدري بن عبدالله بن محمد المغروم بن سالم بن أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد جمل الليل بن محمد أسد الله بن حسن الترابي بن علي بن محمد الفقيه المقدم.

(٢) وهم منتشرون في أقطار مختلفة في غيل بن يُمين، وماليزيا واندونيسيا، وإفريقيا الشرقية، ومنهم سلاطين «فونتيانق»، وكان منهم سلطان بجزيرة سومبا (باندونيسيا الشرقية) إلى حين استيلاء الهولنديين وذريته هناك معروفون. وكان هناك السيد عبد الرحمن بن أبي بكر القدري في «واينغافو WAINGAPO» نفته هولندا إلى «كافانغ KUPANG» متهماً بأنه يدعو إلى الثورة ضدها.

وكان في موالي بجزائر القمر سلاطين من آل القدري منهم السلطان عبد الله الأعمى في هنزوان، وفي عهده دخلت فرانسا إلى هنزوان عام ١٣٠٠، وتولى بعده السيد علوي.

ومن مشاهيرهم السيد الداعي إلى الله عمر بن علي المتوفى في عام ١٠٧٩ هـ في غيل بن يُمين. والسيد حسين بن أحمد بن حسين بن محمد «المتوفى عام ١١٧٩ هـ بتريم» بن سالم بن عبد الله بن محمد المغروم هاجر مع رفقاء له إلى اندونيسيا وتولى القضاء في «ماتان» و«ممفاوا» ومن سلالته سلاطين فونتيانق.

* السيد أحمد بن حسن بن أحمد بن عبد الله (المتوفى عام ١٠٢٠ هـ) بن محمد بن سالم بن عبد الله بن محمد المغروم، ولد بكلوه (افريقيا الشرقية) وقتل بها في غارات البرتغال على إفريقيا الشرقية.

(٣) في كتاب أصدرته الحكومة المحلية في «فونتيانق» بمناسبة مرور مائتي سنة على تأسيس سلطنة فونتيانق، جاء فيه أن السيد حسين القدري كان

ضمن جماعة من الشبان الذين رحلوا من تريم، وأنه وصل أولاً إلى ترنقانو مع رفقائه ومنها تفرقوا ماعدا محمد بن أحمد كريشه فقد بقي بها، وأن المسجد الذي بناه السيد عبد الرحمن بن حسين القدري في «بنجر ما سين» يسمى «شهرانوم» والمكان الذي وصل إليه في شاطىء نهر بنيتي وصلى الظهر في مكان يسمى الآن «كلاڤا تينقى سقدونغ» «KELAPA TINGGI SEGEDONG».

(١) أما مؤسس سلطنة فونتيانق فهو السيد عبد الرحمن بن الحسين بن أحمد بن حسين بن سالم بن عبد الله القدري، توفي عام ١٢٣١ هـ وله من الأبناء: قاسم وأبو بكر توفي عام ١٢٧٧ هـ وعثمان.

وتقع مدينة فونتيانق في الناحية الغربية من كبرى جزائر اندونيسيا كاليمانتن (وتعرف من قبل جزيرة بورنيو) يخترقها خط الاستواء فيقسمهما قسمين، كثيرة الأمطار والأدغال.

والسيد عبد الرحمن بن حسين (١١٥٥ ـ ١٢٣١ هـ) كان حين هاجر والده إلى «ممڤاوا» سنه ١٦ سنة (سنة ١١٧٢ هـ)، وتزوج الأميرة «أو تين چندار ميدي» بنت سلطانها حينما بلغ الثامنة عشر، ورزق منها قاسم وعبد الرحمن.

في سنة ١١٧٨ هـ سافر إلى بعض الجزائر ومكث بها شهرين، ثم إلى فاليمبانغ وأقام بها أحد عشر شهراً، وعند عودته أهدى له سلطان فاليمبانغ زورقاً ومئة بيكول من الرصاص، وأهدى له وجهاء العلويين ألفي ريال، وبعد أن أقام في «ممڤاوا» ثلاثة أشهر سافر إلى فاليمبانغ، ثم بنجرماسين وأقام بها أربعة أشهر وتزوج الأميرة «باتون» بنت سلطانها (سلطان سڤوه) وعاد بعد عامين إلى «ممڤاوا» حاملاً لقب «فنغيران شريف عبد الرحمن نور العالم» وأخذ يتردد إلى بنجرماسين، ورزق له ولدين هما علوي وسلمى وعاد في ١١ ربيع الأول ١١٨٥ هـ إلى «ممڤاوا» وقد توفي والده فاجتمع مع إخوته والشريف حامد باعبود وقرروا الهجرة.

في رجب ١١٨٥ هـ توجه الشريف عبد الرحمن مغرباً في ١٤ سفينة إلى شاطىء ڤونتيانق، وتوغل في اليوم الثاني في النواحي الداخلية وتقدم وأتباعه إلى البر وقطعوا الأشجار الضخمة في الغابات الكثيفة وبنوا المنازل والمسجد.

ثم عاد إلى ممڤاوا وأخذ معه سفينة كبيرة شحنها ما يحتاج إليه وسافر بها إلى بلدته الجديدة في يوم ٤ رمضان وأكثر من بناء المنازل وشق الشوارع حتى اتسعت وزهت.

وفي جمادى الآخرة سنة ١١٩١ هـ توجه إلى «سانكَوْ SANGKAU» وأهلها وثنيون ومعه ٤٠ سفينة صغيرة فمنعه أميرها من الدخول فصمم الشريف عبد الرحمن على الدخول والتحم القتال ثم تأخر الشريف عبد الرحمن إلى فونتيانق وأخذ في صناعة السفن فتمت عمارتها في ثمانية أشهر وشحنها بالعدد الحربية وسار إلى عدوه في ٣ المحرم ١١٩٢ هـ في أسطول مؤلف من سفينتين ضخمتين وسفينة خاصة، و٢٨ سفينة صغيرة فما كاد يصل إلى «سانكو» حتى تصدى له العدو في «تابَنْ» والتحم القتال وتقهقر العدو وتقدم المسلمون فحدثت معركة أخرى في «كايوتونو» يوم ٢٦ المحرم وانهزم العدو إلى الجبال في ١١ صفر، ودخل المسلمون البلدة وأقاموا بها ١٢ يوماً.

وعند عودة الشريف عبد الرحمن إلى «فونتيانق» مرَّ على «سيمڤانغ لابي LABI SIMPANC» وبنى بها حصناً جعل فيه ستة مدافع، وكانت تكاليف البناء مناصفة بينه وبين راج حاجي الذي عاد معه إلى فونتيانق.

وبعد أيام أمر راج حاجي بالمناداة في الناس فاجتمعوا وخطب فيهم فبايعت الجماهير الشريف عبد الرحمن على السلطنة في ڤونتيانق، وفي يوم الاثنين ٨ شعبان ١١٩٢ هـ قدم الأمراء والأعيان إلى ڤونتيانق وعقدوا اجتماعاً خطب فيهم راج حاجي خطبة مسهبة وختم خطابه بقوله: «إنني أنتهز هذه الفرصة لأعلن لكم من أمير ذي منصب أو راع ذي مهنة ولا سيما

سكان هذه المنطقة بأن الشريف عبد الرحمن بن الحبيب حسين القدري سلطان على ڤونتيانق فهو مؤسسها وأول سلاطينها والذي شرع في بناء المسجد وجدده السلطان عثمان.

يعتبر تأسيس سلطنة ڤونتيانق يوم الأربعاء ٢٠ رجب ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م).

(١) بعد أن توفي الشريف عبدالرحمن عام ١٢٣١ هـ تولّى ابنه الشريف قاسم (١٨٠٨ م) ثم عثمان (١٨١٩ م) ثم حامد (١٨٥٥ م) ثم يوسف (١٨٧٢ م) ثم محمد (١٨٩٥ م) وهو الذي أعدمه اليابانيون عندما احتلوا اندونيسيا في الحرب العالمية الثانية وأعدموا أسرته ودفنوا جميعاً في مقبرة جماعية وبذلك قضي على هذه السلطنة وكان السلطان الشهيد معروفاً بصلاحه وتقواه، محبوباً لدى الشعب[1].

السيد عمر الجنيد

كان السيد محمد تاجراً في فاليمبانغ قبل أن يستوطن الإنكليز سنغافورا، ومجموعة صغيرة من التجار العرب يتاجرون في موانيء جنوب شرقي آسيا، وكانت سفنهم تمخر البحار تحمل البضائع من جميع أنحاء العالم، وتأتي السفن في كل لحظة إلى فاليمبانغ تحمل الأخبار، فشاع خبر ميناء جديد فتح بمعرفة الإنكليز، هو ميناء سنغافورا الحر، فالتاجر لا يدفع رسوماً جمركية على البضائع.

كان السيد محمد من الأوائل الذين وصلوا إلى سنغافورا، وبدأ عمله في سوق قريب من النهر، واستدعى إليه ابن أخيه السيد عمر من فاليمبانغ، وكان السيد عمر زعيماً دينياً محترماً مرموقاً بين العرب في جنوب شرقي آسيا. وعلم السير رافلس الإنكليزي بمقدم السيد الجنيد ومكانته وعظمته وشرفه وحسن سمعته، فسُرَّ به أملاً في أن يحذو العرب حذوه لتزدهر التجارة في سنغافورا.

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ٢/٥٠٢ ـ ٥٠٥.

وتحصل السيد عمر على قطعة أرض بين الطريق المرتفع وبين النهر فشيَّد عليها منزلاً أحاطه بسور مزدوج، وشيد منصة أمام منزله دائرية مرتفعة عن الأرض مكشوفة من جميع جوانبها لتكون محلاً لإجتماع أتباعه من المسلمين، وهم كثيراً ما يجتمعون للإصغاء إلى حديث السيد الجنيد، كان هذا السيد وقوراً أنيقاً في عمامته الخضراء وثوبه الأبيض الفضفاض.

ثم تبعه خاله السيد علي بن محمد الجنيد للدعوة إلى الله وللتجارة حوالي عام ١٢٦٠ هـ، ونال مكانة حسنة وثقة لدى الجميع، الحكومة والملايو والهنود والصينيين لسخائه في أعمال البر، وكان مقره في شارع «هاي ستريت High St» على نهر سنغافورا بجوار منزل خاله ـ وكان أخوه السيد أحمد بن علي الجنيد الناسك بتريم صابراً على ما لقيه من أذى واضطهاد من حاكم تريم عبد القوي غرامة، إذ سجنه مدة طويلة، وكان أخوه عمر يحثه على السفر إلى أي بلد آخر ولكنه كان يرفض السفر.

كان السيد عمر مواسياً للفقراء والمحتاجين والغرباء المنقطعين، بنى لهم ملاجىء وأربطة يسكنون فيها، منها في شارع عمر Omar Road بجانب مسجد عمر في كمفونغ ملاكا Kampong Malaka، وفي هاي ستريت أمام مسكنه، وأوقف مساجد في شارع عمر، وفي بنكولين ستريت ويسمى الآن مسجد بنقاله، وفي لويدرود بناه السيد علوي بن علي الجنيد يسمى الآن مسجد باويان، ومسجد آخر في ساوث بيج رود بناء السيد علي بن محمد الجنيد وهو أغنى مسجد في سنغافورا، ومقبرة للمسلمين في حي تانقلنيغ Tanggeling التي تسمى بوكيت تيما أوقفها السيد علي بن محمد، ومقبرة للمسلمين بجانبها مدرسة ثانوية مجانية لأبناء المسلمين، وقد تخرج فيها عدد كثير من سنغافورا وملايا وأندونيسيا وسراواك وبروني والفليبين وصباح، بل من البلاد العربية، ومنحه سلطان الملايو لقب فنغيران شريف.

وتخليداً لأعمال السادة آل الجنيد بسنغافورا سميت شوارع بأسمائهم

منها: الجنيد رود وهو من أهم الشوارع، وعمر رود. وهناك شوارع أخرى استبدلت بها أسماء أخرى حديثة.

ووضعت الحكومة ترجمة مختصرة للسيد عمر الجنيد في كتب التاريخ المدرسية تقديراً له، وما زالت تدرس هذه الكتب في المدارس.

السيد عبد الملك بن علوي

مقدم آل عبد الملك إلى الشرق

(١) في أواخر القرن السادس الهجري سافر السيد عبد الملك من تريم إلى الهند، ثم تفرق أحفاده إلى كمبوجا والصين وتايلند في أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) فنزل الحسين في كمبوجا ويسميه الجاويون جماد الكبرى أو جماد الأكبر، له ابنان إبراهيم وعلي نور الدين أو نور العالم.

صحب إبراهيم أباه الحسين إلى سيام، ثم وصل علي بن إبراهيم بن الحسين إلى جاوا وهو الملقب سونَنْ أمقيل، قال سالم هاراهاب (ص ٢٤) أن علياً رحمة الله وصل إلى قرسي، وقد سبقه داعية عربي يدعى جماد الكبرى (أي جمال الدين الأكبر).

تزوج إبراهيم بن الحسين(الملقب إبراهيم أسمارا) بنتاً من كمبوجا تُدعى «چندا وولن»«Chanda Wulan» فرزق منها علي الآنف الذكر وإسحاق.

(٢) كان إسحاق ينشر تعاليم الإسلام في «ڤاسَيْ» بسومترا، ثم صار يتردد إلى جاو الشرقية، ومن الصدف أن مرضت الأميرة «ديوي سكاردادو» بنت ملك بلامبانغنBelambangan مرضاً شديداً، وبعد أن أعيا أباها البحث عن المعالجين ولم يفلحوا في معالجتها طلب من إسحاق أن يعالجها ووعده إن هي أبلَّت من مرضها أن يزوجه إياها ويعتنق هو الإسلام ويعلن إسلامه، فلما نقهت الأميرة تزوجها إسحاق، ولكن لم يسلم الملك، فألحّ عليه إسحاق ليفي بوعده، فاستاء الملك من إلحاحه فطرده، وأقسم ليقتلن من

تلده ابنته من زوجها إسحاق، فلما ولدت عام ١٢٦١ أرسلت طفلها إلى قرسي وفوضت تربيته وكفالته إلى امرأة مسلمة هي «نياي قديه فيناتيه» أرملة الأمير «كي قديه سمبوجا»، المدفونة في حارة كبونسوان وقبرهـا معروف، وسمي المولود محمـداً، ولقب عين اليقين، ولقبه الأهـالي «رادين فاكـو» وعرف أخيراً بلقب «سونن قيري» نسبة إلى المكان الذي هو فيه بعد بنائه المسجد.

ولما بلغ الثانيـة عشر أرسلتـه مربيتـه إلى عمه علي رحمـة الله في أمقيل، فدرس عليه ثم تزوج ابنته عشيقة «الملقبة راتو آيـو موميسي» أو (ديوي مَرْتاسيام)، هـذا عن محمد عين اليقين بن إسحـاق بن إبراهيم بن حسين جمال الدين.

أما علي رحمة الله إبراهيم أسمارا فقد وصل إلى جاوا عام ٧٥١ هـ (١٣٥١ م) وعمره ٢٠ سنة، فمرَّ أوّلاً على فاليمبانغ ونزل ضيفاً على أميرها «أريادامَرْ» فأسلم الأمير وسمي عبد الله، وكان لدى الأمير شاب ترعرع في كنفه يدعى «جايا ويشنو» فأسلم أيضاً وسمي عبد الفتاح.

توجه علي رحمة الله ومعه عبد الفتاح وأخوه حسين إلى جاوا، وتزوج علي بنتَ أمير توبان المسماة «نياي آقنغ مانيلاNyai Ageng Manila» ورزق منها ولدين هما هاشم (يلقب سونن درجات) وإبراهيم (يلقب سونون بونانغ) نسبة كل منهما إلى المكان الذي يقيم فيه حسب العادة المتبعة في تلقيب الأشخاص بالإضافة إلى المكان.

وصل علي إلى قصر ماجاباهيت فاستقبل استقبالاً حسناً، وتلقته زوجة الملك الأميـرة «داراواتي» بنت أمير چـامڤـا التي هي خـالتـه، أي أخت چنداوولن، فكانت صلته بالقصر حسنة لهذا السبب، ثم جعل له الملك نفوذاً على بضعة آلاف من الأسر في أمقيل (سورابايا) لذلك لقب «سونن أمقيل».

أما ابناه هاشم وإبراهيم فقاما بالدعوة في الشواطىء الشمالية بجاوا

الشرقية متعاونين مع محمد عين اليقين في الدعوة. توفي محمد عين اليقين بعد خمس سنوات من زوال مملكة ماجافاهيت ـ كما في بعض المصادر ـ وتوفي إبراهيم بعد ثلاث سنوات من وفاة محمد ودفن في توبان.

وصار عبد الفتاح الذي رافق علياً رحمة الله أول أمير على دِمَاك، أول دولة إسلامية في جاوا، وقد همَّ مرةً على حرب الوثنيين فمنعه أستاذه علي رحمة الله.

وتوفي علي بعد وفاة خالته زوجة ملك ماجافاهيت بنحو ١٩ سنة ودفن بجانب مسجده وقبره معروف(١).

السيِّد شيخ

السيد شيخ بن أحمد بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله بن علي بن محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله بافقيه.

ولد بالشحر عام ١٢١٢ هـ تلقى بها علومه على أيدي علماء أفاضل، ثم رحل إلى الحجاز للاستزادة من العلم، فأقام في أم القرى ومدينة رسول الله سنوات عديدة يرتشف فيهما من رحيق المعلومات بين أيدي كثير من العلماء في المدينتين المقدستين اللتين كانتا مليئتين بأكابر العلماء، والذين يفدون إليهما من أقطار العالم الإسلامي.

من شيوخه الشيخ عمر بن عبد الكريم بن عبد الرسول العطار، والشيخ محمد صالح الريس الزمزمي بمكة المكرمة، والسيد أحمد بن علوي جمل الليل، والسيد عبد الله بن محمد باحسن جمل الليل.

ورحل إلى القاهرة يطلب المزيد، إلى الأزهر، حيث منابيع العلوم فيه ثرة، فاستقى منها، ثم رحل إلى الشرق الأقصى سنة ١٢٥٠ هـ.

ومر بكثير من البلدان حتى وصل إلى ملاكا وغيرها، وفي ملاكا التف

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ٢/٥٢٤ ـ ٥٢٥.

الناس حوله، ذكره عبد الله بن عبد القادر منشي، والمستشرق الهولندي «فن دي بيرخ».

(١) قال عبدالله منشي في كتابه «حكاية عبدالله» بلغة الملايو والحروف العربية، قبل أن تنتشر الحروف اللاتينية وتطغى على بلدان الشرق، قال: إن السيد شيخ بن علوي بافقيه كان عالماً عظيماً يجيد اللغتين العربية والملايوية، جاء إلى «ملاكا» فأعجب الناس بسعة علمه، وحسن حديثه، فطلب الأهالي منه أن يقيم بينهم لينتفعوا به، فدرسنا عليه مع الإخوان ونحن نحو خمسين أو ستين شخصاً، كان يدرِّس علم الأصول في كتاب «أم البراهين» والفقه والتاريخ وغير ذلك. وبعد عام تفتحت الأفكار والعقول في ملاكا، وما كان فيهم قبل ذلك من يفهم، ثم سافر إلى جاوا، وما زال يعيش لدى سلطان سومنب ويدرّسه.

هذا ما ذكره عبد الله منشي في ذلك الزمن، وعبد الله هذا من أصل عربي من اليمن من أم هندية.

قال فن دن بيرخ الهولندي عن هذا السيد بأنه ولد بالشحر واستوطن سورابايا، ثم أمبون، متعاطياً التجارة البسيطة، وبجانب ذلك كان شغوفاً بالعلم فترك التجارة، وتخلّى للعلم، وصار له طلبة وأتباع، ومقام كريم، واحترام عظيم في مدينة سومنب بجزيرة مدورا».

«مكث نحو ٢٥ سنة بجوار سلطان سومنب، ولما توفي السلطان اضطر إلى الاستدانة من الصينيين والأوروبيين، فقد كان جواداً كريماً باسط اليدين، فلما تكاثرت الديون دفع أبناء السلطان وهم تلاميذه جميع ديونه».

«أقام في جاكرتا عشر سنوات وأخذ في التدريس والدعوة، ولكن أنامله مبسوطة لا تمسك الدراهم إلاّ كما يمسك الماءَ الغرابيلُ[١]، وعاد إلى ما كان عليه من الاستدانة، ووقع له في جاكرتا مثل ما وقع له في سومنب ساعده أصدقاؤه وأحبّاؤه».

---

(١) أي المناخل.

«ثم رحل إلى سمارانغ ومكث بها إلى سنة ١٨٧١ م، وكان يمتاز بآرائه الحرة الابتكارية وانتشر صيته وعظم احترامه، فكانت له آراء حِكْيمة بجانب حسن عشرته ولباقته، متحلياً بالظرف، يتصل بكل الناس ومنهم الأوروبيون، ولكنه عاد إلى ما كان عليه فتراكمت عليه الديون، ولم يستطع أن يفي بها فكان نصيبه السجن».

«ثم انتقل إلى سورابايا وبها توفي ودفن في مقبرة «باتوفوتيه» «Batuputeh» وهي مقبرة أسرة الرخينت (الأمراء)، ودفن أخوه بجانبه».

«وكان له تلاميذ من الجاويين يشغلون مراكز دينية كثيرة في سمارانغ يدرسون بين يديه بعد صلاة العصر».

«وكان سلطان سومنب السلطان «فاكوناتا نينغرات» (١٨١٢ - ١٨٥٤ م) من هواة الأدب العربي والجاوي، درس علوم الإسلام في شبابه على السيد عبد الرحمن البيتي الذي قدم من حضرموت وتعلم في مكة، وقد تأثر به عندما كان أميراً، فاهتم بدراسة الحضارة العربية كما اهتم بالمواطنين العرب، واستقدم - إبان كان أميراً - العرب ليكونوا طبقة علمية، وكان يتحدث العربية بطلاقة، ولديه مخطوطات، وكان مولعاً بعلم الفلك، ولديه شخص متضلع في العلم هو السيد عمر باهارون، كما كان متصلاً أيضاً بالشيخ عبد الرحمن بن أحمد المصري، والشيخ سالم بن سمير في جاكرتا (فن دن بيرخ ص ١٦٧ - ١٦٨).

لهذا السيد تلاميذ درسوا عليه بالشحر أشهرهم العارف بالله المتوفى بالشحر شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله بن علي بافقيه[1].

السيد العارف بالله احمد بن عمر بن سميط (١١٨٣ - ١٢٥٧ هـ)

نشر هذا السيد الدعوة مبنية على رأي ثاقب وعلم واسع كما يشدد

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ٢/٥٤٢ - ٥٤٤.

على كل عالم ومتعلم ويلومه في ترك الدعوة، ولا يتركه حتى يأخذ عليه العهد بالدعوة، فإذا جاءه ثانياً سأله عما فعل.

(١) أخذ يرسل الدعاة ويطلب لهم المعونة المالية، فاستقصى القرى قرية بعد قرية، فكان الدعاة يجوبون طرقها وينادون بها على المنابر وبعد الصلوات، ويمشون في الطرق أول الليل، وقد يصعد منهم جماعة على مئذنة جامع القرية فيدعون الناس إلى الله فيجتمع الناس في سطوح بيوتهم يستمعون إليهم ويتعلمون منهم، وقد ينادي أحدهم من المئذنة: «الصلاة جامعة» فيجتمع أهل القرية في المسجد فيخطب فيهم ويعظهم.

(٢) ثم أخذ السيد في تعميم الكتاتيب للتعليم ووضع لها نظاماً، وخصّ البوادي بمزيد من العناية، وجعل للبوادي التي لا قرى لها، أو كانت بعيدة القرى لا تبلغها أقدام الدعاة، جعل لهم ليالي تعليم ودعوة إذا جاؤا إلى شبام بقوافلهم، وكان الدعاة يأتونهم ليلاً فيسمرون في محطاتهم على الرمل، فكان الأعرابي يأتي وأنفه في خزامة الشيطان[1] فينقلب مبصراً بنور الإيمان.

(٣) كان السيد يرى وجوب تثقيف البنت، فالفتاة التي لا علم لها ولم يتمكن الإيمان في قلبها لا تستطيع أن تهذب أطفالها ولا أن تربيهم على الآداب وحب الخير، فاجتهد في تعليم البنات، فلم تمض مدة وجيزة حتى كانت البيوت تحن بالتعليم والقراءة، وصرن مهاميز للرجال إلى أعمال الخير، وطالما عيَّرنهم على المظالم وقبحنهم على ما يرتكبون منها.

(٤) ثم أخذ يدعو إلى إقامة والٍ عادل، ويحث على إصلاح الوادي كله بوجود الوالي العادل، فكان ينشر رأيه في كل مكان وفي مجالسه وخطبه وأشعاره، ويناقش أهل الفضل وذوي الرئاسة، ويبين عظم المهمة الملقاة على عواتقهم وثقل العبء الذي وكلّه الله إليهم، ولكن لا بد للوالي من

(١) أي كأن الشيطان يقوده من آنفه بالخِزام وهو الحبل من الشعر.

مـال تقام بـه الـدعـوة والـدولـة، في حين ينفق النـاس من أمـوالهم في الكماليات، فحث على الاقتصاد وعدم الإسراف في الكماليات.

(١) ثم أخذ في تحسين الشؤون المالية في أهل بلده «شبام» فجاء إلى أصحـاب رؤوس الأموال فقـرن لكل واحـد منهم فقيـراً ليقـارضـه، على المتمول رأس المال وعلى الآخر العمل ويقسم الربح بينهما، فتركهم على ذلك سنة ثم استدعاهم وقد توفرت أرباحهم، فكلهم دعا وشكر مغتبطاً بما صار إليه من تاجر وعامل.

(٢) سأله رجل لسد نقص في العمل، وقال: لو كان في البلد مُرابٍ لكانت التجارة على أحسن ما يرام فالعميل في الشحر يرسل إلى الشخص بضاعة ثم يحول عليه بثمنها بعد عشر، فتأتي الحوالة قبل تصريف البضاعة ووجود النقد، فلو كان في البلد مراب لأمكننا أن نأخذ منه الدراهم فنسلم مقابل الحوالة وننتظر بالبضاعة إلى سوقها، ولكننا الآن قد نضطر إلى بيعها في غير سوقها أو بربح قليل أو بخسارة لندفع مقابل الحوالة، فاقترح السيد أحمد أن تجمع دراهم بقدر معين فيوضع عند السائل هذا ويكون مرصداً لاقتراض من يحتاج إلى دراهم ليدفعها إلى غريم ملح أو حوالة معجلة، وعليه أن يرد ما اقترضه في مدة معينة. ويرد معه شيئاً من الدراهم من عنده بصفة وقف دائم برسم القرض، حتى إذا توفر من ذلك مبلغ كاف يرد رأس المال لأهله وتبقى الدراهم الموقوفة لقرض المحتاجين كما هي. فاجتمعت دراهم وافرة، وأخذ أهل المال رؤوس أموالهم، وانتفع الناس بذلك، على أنه مكث أربعين سنة على ذلك يدعو بالحسنى فكانت النتيجة مثمرة.

(٣) بقي من آثار هذا السيد في شبام أمور حسنة، منها أن المؤذن بعد أذانه للصلاة يتلو سورة الفاتحة والتشهد بصوت عالٍ فتسمع ذلك ربـات البيـوت فيحفظن مـا يسمعنه بـالتكرار، وقـد يتلو المؤذن غير ذلـك ممـا يفيدهن، ولذلك فإن النساء والعامة لا يغرب عنهم شيء من ذلك.

(٤) ومـن آثـاره أن المـرأة يحـب أن تـرتـدي سـروالاً طـويـلاً إلـى القـدم تحت

الثوب، ولم تعد المرأة هناك تغني الأغنية الخلاعية حين تزاول أعمالها، ولكنها تتلو ما يقربها إلى الله.

(١) كتب السيد أحمد بن عمر بن سميط إلى السيد محمد بن إبراهيم بلفقيه بهذه الأبيات:

وقد أوجب الدّيان فرضاً محتماً علينا نقيم والياً ليس نعذر

لنهي وأمر واتباع شريعة يعين لذي التقوى وللضد يقهر

وقطر خلا منه فاعدده ضائعاً إقامته ضيم وعيش مكدر

(٢) ولما عظم الخطب أخذ السيد يستنكر المظالم ويقاوم الظالمين علناً، ولكن الخوف قد استحوذ على النفوس لدى الأكثرية، فدعا إلى الهجرة عن شبام حتى يرتدع الظالم.

من تآليفه كتاب «فتح الرحمن» وهو مطبوع»[1].

السيد الإمام طاهر بن الحسين بن طاهر (١١٨٤ م - ١٢٤١ هـ)

(٣) ولد بتريم، قام هذا السيد بأعمال جليلة، وهمة عظيمة وطموح للمعالي ومساع مع إخوان له لإقامة دولة إسلامية موحدة، وذلك بعد أن اكتمل نضجه العلمي وتوسعت مداركه إذ تلقى عن علماء كانوا ملء السمع والبصر في تريم وغيرها وفي الحجاز.

(٤) كانت قبائل يافع قد انتشرت في حضرموت وقوى نفوذها وتغلبت على الحكم وتقاسمت النفوذ على مناطق، وانتشرت المظالم والفوضى والفتن بين القبائل نفسها وبين غيرهم، فاضطر كثير من الأسر إلى الهجرة إلى الأماكن القريبة أو البعيدة وكان ممن هاجر أسرة آل طاهر إلى المسيلة فقام هذا السيد لتوحيد الأمة وإنهاضها، وبايعه الناس، وعمره ٣٦ عاماً، في الوقت الذي لم يجد القوم من علماء الدين والأعيان من تسمو به همته ليكون كفؤاً من أبناء السلالات المسلحة ذات العصبية القبلية يتولى

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ٢/٥٧٧ - ٥٧٩.

الرئاسة، ويتصدى للنضال، فنهض هذا السيد بأعباء الدولة بنفسه، فتعلقت به الآمال والتفوا حوله، وتقلد كثير من العلويين السلاح تحت رئاسته على خلاف تقاليدهم، وانضم إليه كثير من القبائل لنصرة الحق وتنفيذ أوامر الشريعة الإسلامية وحماية الضعيف.

(١) وقد كان لنشأته في تريم في بيت علم وتقى وصلاح أثر في هذا السلوك الذي أخذه لنفسه، ولتربية عمته أم كلثوم بنت طاهر بن محمد بن هاشم وهي من فضليات النساء واتساعها في العلوم وتوجيهاتها حافزاً للنهوض لانقاذ وطنه وقومه من الاستبدادات التي سادت.

وقد وصفه العلامة عبد الله بن أحمد باسودان المعاصر له في شرح خطبة الحبيب طاهر بقوله: إنه آية في الذكاء والفهم، جيد الحفظ، وافر العقل حسن التصرف في علوم الأثر والرسم، كامل الاتباع لجده المختار وسلفه الأبرار...» إلخ. كان ساعياً في الإصلاح بين الناس وإطفاء نيران الفتن ونشر أعلام الحق. فكم فتنة درأها وبدعة أماتها فجاءت فكرة الثورة على الأوضاع ووجوب توحيد الأمة وإحياء الشريعة الإسلامية.

ووضع العلويون في ذي الحجة ١٢٢٥ هـ وثيقة الاتفاقية من الحاضرين، ثم عقد اجتماع آخر ووضعت وثيقة وقع عليها عدد كبير من العلويين في المحرم ١٢٢٦ هـ، ثم عقد اجتماع بين السيد طاهر بن الحسين بن طاهر وبين قبائل آل تميم، ووضعت اتفاقية ووقع عليها زعماء قبائل آل تميم على أنهم ناصروه على الحق وتطبيق الشريعة الإسلامية وأن كل خصام أو قتل أو غير ذلك قبل [هذا] التاريخ يكون فيه هدنة لمدة سنتين وما يقع بعد هذا التاريخ مرده إلى حكم الشريعة الإسلامية وبهذا بايع الحاضرون السيد طاهر كما شهد على الوثيقة من حضر من العلويين.

ثم توجه السيد عبد الله بن علوي العيدروس إلى السرير وشبام نائباً عن الإمام طاهر فوضعت اتفاقية بينه وبين آل كثير على المبايعة وإقامة

الحق وردع الظلم وعاهدوه على ذلك في المحرم ١٢٢٦ هـ. ثم أخذت البيعة من آل جابر ووضعت اتفاقية.

وتعطينا معاهداته وخطاباته مع القبائل صورة حسنة للغة التخاطب التي تكتبها المعاهدات العسكرية مع بلاغة الأسلوب وقوة العبارة بالنسبة لعصره».

(١) ومع ذلك فإنه انتصب للتدريس والتثقيف والتربية في الوقت الذي يزاول فيه تجميع وتنظيم جنوده ويشرف على التدريبات العسكرية وكان يجعل لتلاميذه حصة للتدريب على الرماية، ثم حصة بعدها للقراءة في الكتب العلمية، يقدم في الأخيرة الأسرع فالأسرع في إعداد بندقيته للرماية في الأولى فيكون الرامي الأول في التدريب هوالقارىء الأول في الدرس.

ووجه إلى كل من الكسادي وابن بريك أمير المكلا والشحر مندوبه وكتبه لإصلاح الحالة ومنع التوتر بينهما، فتم له ما أراد، وأصلح بين قبيلتين متحاربتين هما آل عبد الشيخ وآل مرساف ونفذ حكمه في مناطق أتباعه كلها، فأمن من القتل ورفع من الظلم ووسع من نشر العلم وإنعاش الزراعة. وحاصر مدينة تريم طويلاً لأن شيوخ يافع الموجودين وهم من قبيلة لبعوس، وكبيرهم عبد الله بن عوض غرامة أصروا على التمادي في الطغيان والظلم فيها، ثم أمر جيشه بفك الحصار وذلك أن بعض العجائز خرجن إليه يبكين ويشتكين بأن الحصار إنما أصاب المساكين الأبرياء والبريئات أمثالهن - ويقال إن عبد الله بن عوض غرامة هو الذي أوعز إلى تلك النسوة بتمثيل ذلك الدور».

«وتصدى الإمام طاهر بنفسه مرات لاغتياله من غرامة ليلاً في الغلس حيث يخرج لصلاة الفجر بمسجد السكران قرب قصره فيقع ما ليس في الحسبان من الصدف التي تمنع من ذلك».

«ومما يؤسف له أن هذه النهضة المباركة لم تدم طويلاً، فكان عمرها أقل من عقد واحد من السنين وخمدت جذوتها ثم انتهت».

«فرأى أمام عينيه أن الظروف غير صالحة، وأن هذه التجربة غير مجدية، وألَّف لجنة من زعماء العلويين وزعماء القبائل التي تناصره للسير في الطريق التي اختطها، وكتب لهم بذلك تعليمات وتوصيات ولكنهم لم يستطيعوا في النهاية تحمل العبء الثقيل فحطوه عن كواهلهم».

«أما الإمام طاهر فبعد أن استعفى من مهمته السياسية كرس ما بقى من وقته في التربية والتعليم والعبادة وغيرها من المنافع حتى توفي. وقد بلغ من العمر ٥٧ سنة في المسيلة»(١).

المساعي لإصلاح وإخماد الفتن [في حضرموت]

كانت الفتن قد ضربت بجرانها، والاضطرابات والمظالم قد تغلبت على معظم أقطار الجنوب العربي فكان أرباب القوة يتمادون في إشباع أهوائهم، غير أن هناك من العلماء من لا يغض الطرف عن هذه الحوادث المدلهمة، فكانوا يسعون جهدهم لإخماد الفتن وإزالة المظالم، يعملون للتغلب عليها لما لهم من مكانة علمية، وروح إسلامية فكانوا ينادون أولئك القساة الظالمين للرجوع إلى الاطمئنان، وترك الفساد وإلى الاتحاد والإنابة إلى الله، فكانت هذه النداءات مخففة أحياناً، أو مزيلة أحياناً لنيرانَ الفتن التي ذهبت ضحيتها نفوس وأموال وأعراض.

(١) رأى العلويون أنه لا بدَّ أولاً من الدعوة الصارخة إلى أولئك العابثين حتى تهدأ الأمور، ورأوا أنه لا بد من دولة جامعة تضم الجميع، يختار لها من يتوسمون فيه الخير والصلاح، ولكن لا يريدونها لأنفسهم فهم مرشدون لا حاكمون، داعون إلى الخير والتمسك بالدين ونشر الأمن فإذا اشتعلت نيران الحرب بادر أرباب النفوذ منهم إلى السعي في إخمادها، ووضع هدنة تكفل الأمن ولو مؤقتاً، ومع ذلك قد يتعرض أحدهم لأذى أو لقتل أوسم، فقد قتل العلامة السيد سالم بن أبي بكر عيديد عام ١٢٢٩ هـ حتى

---

(١) التعليقات على شمس الظهيرة: ٢/ ٥٨٧ ـ ٥٨٩.

اضطرت عائلات إلى الهجرة من تريم كآل شهاب الدين وآل بلفقيه وآل الحبشي وآل الكاف وآل المشهور وغيرهم.

(١) وأول من هاجر من تريم السيد علوي بن محمد المشهور، وهو الجسور الصريح في النهي عن المنكر، وضد المظالم وضد المتشبطين الخاملين فهاجر إلى اللسك، ثم عاد بعد انتهاء الفتنة وتوفي عام ١٢٠٨ هـ، والسيد عبد الله بن أبي بكر عيديد بعد مقتل أخيه سالم هاجر إلى السويري، إلى غير ذلك من الهجرات عن تريم إلى بعض القرى هذا غير الهجرات البعيدة إلى خارج حضرموت.

(٢) ومن أجل استتاب الأمن وإقامة العدل كانوا يسعون لإيجاد دولة عامة، ففي أوائل القرن الـ١٣ قام السادة آل العطاس وآل البار وآل الحبشي وغيرهم ممن سبق أن ذكرنا بعضهم وكالسيد أحمد بن عمر بن سميط الذي سعى بالدعاية لدولة آل عمر بن جعفر الكثيرية، ولكن الآمال خابت فالفوضى والانتقامات والمطامع مستمرة من الداخل والخارج، كآل بن قملة والمكرمي الذين صبغوا الأرض بالدماء ونهبوا وخربوا وهذا ما حدى السيد طاهر بن الحسين بن طاهر إلى ثورته وتأسيس دولة، ودعوته إلى حمل السلاح ووضع المواثيق لنصرة الشريعة ومكافحة الفوضى كما تقدم الحديث فيه.

وقد تمكنوا بحكمتهم أن يجعلوا أتباع بن قملة يعودون من حيث أتوا، وترى كيف وقف السيد أحمد بن زين بن سميط، وسقاف بن محمد الصافي هادئين تجاه المكرمي حتى انقلبت عليه الأحوال.

(٣) ثم إنهم لم يألوا جهداً في البحث عن أي مصدر يستطيع أن ينجدهم وينقذ البلاد من هذه الهوة التي سقط الشعب فيها، فكاتبوا محمد علي باشا والي مصر جد العائلة الخديوية حتى أصدر فرماناً لمقدم علي بن عمر قرموص بإشارة السادة العلويين وخاب الأمل، وكاتبوا إمام اليمن فلم يجدوا منه ما يطمحون إليه لتخليصهم من البلايا، وكاتبوا الدولة العثمانية في استانبول.

وكانوا يؤملون في السلطان منصور بن عمر بن جعفر بن عيسى بن بدر بن عمر بن بدر بوطويرق، فأخذ يؤيدونه بالتوجيهات والإرشادات والآراء، من بينهم السيد العلامة الحسن بن صالح البحر، ولكن خاب الأمل فيه كما خاب أملهم في دويلة بن مقيص.

قال السيد العلامة محسن بن علوي السقاف في منصور:

أيا ما تعاظم في نفسه وعنّا تولّى وعنّا شرد

(١) إلى أن قال:

وأضحى عن النصح في معزل وطينته عجنت بالحسد
وظلم العباد له شيمة خصوصاً رعيته في البلد
وقد بطر الحق مستكبراً ولا يرعوي إن نهاه أحد
ولم يستمع قول أهل الحِجى[1] إذا ما دعوه لطرق الرشد
وقد غره بالآله الغرور فزاد بذاك الغرور الأوَد[2]

وسعى العلويون في التوفيق بين القعيطي وابن عبد الله الكثيري.

وكتب الحسن بن صالح البحر نصائحه كما شافه الأمير عبود بن سالم بوجوب الاتفاق مع القعيطي، لمؤازرة منصور، ولكن جرت الأمور على العكس فكان ذلك وبالاً.

وكان رجال من السادة العلويين، منهم أحمد من آل الشيخ أبي بكر، سعوا في تعزيز دولة القعيطي، كما سعى السيد محسن بن علوي السقاف وغيره في إخماد فتن سيوون حين هجوم يافع على سيوون، وسعوا في تريم، ومنهم السيد أحمد الجنيد، للتوفيق بين منصور وآل عبد الله، ولكن النفوس غير واثقة بمنصور فلم يصل السعي إلى نجاح.

---

(١) العقول.
(٢) العِوج.

هذا بعض المساعي التي بـذلت في سبيل الإصـلاح، نكتفي بهذا الأُنموذج وإلاّ فالحديث يطول[1].

---

(١) التعليقات على «شمس الظهيرة»: ٢/٥٩٠ ـ ٥٩٢.

مختارات القرن الثالث عشر
من كتاب
«أعيان القرن الثالث عشر
في الفكر السياسة والاجتماع»

تأليف

السيد خليل مردم بك



الشيخ احمد العطار إمام الشافعية وشيخ الحديث بدمشق

أحمد بن عبد الله بن عسكر الحمصي الأصل الدمشقي المولد والوفاة، الشهير بالعطار، إمام الشافعية في جامع بني أمية.

ولد سنة ١١٣٨، وقرأ القرآن على السيد ذيب بن خليل وعلى الشيخ أحمد الكزبري وتفقه عليه وعلى الشيخ إسماعيل العجلونيّ، وقرأ في العلوم العقلية وغيرها على علي أفندي الداغستاني والشيخ موسى المحاسني وغيرهما، واستفاد وأفاد، وقرأ بين العشائين في الجامع الأموي كتباً عديدة.

وقرأ أيضاً بعد الظهر في محراب الشافعية، وتولى تدريس السليمانية، وحج أربع مرات وارتحل إلى بلاد الروم ومصر، وكان غالب جلوسه في محراب الشافعية من الجامع الأموي.

قلّ ما رؤي إلا وهو يدرس أو يقرأ القرآن أو يصلي أو يسبح، وكان أمّاراً بالمعروف نهاء عن المنكر، صَوّاماً قواماً، قضّاءً لحوائج المسلمين، ذا بشاشة وهيبة ووقار، تعلو وجهه نضارة أهل الحديث.

(١) ولما تغلبت الفرنجة على مصر ومشت على الساحل وحاصرت عكا ووصلت إلى صفد وبلاد نابلس سنة ١٢١٤؛ حرض الناس على الجهاد وخرج مع عسكر من دمشق، مجاهداً بنفسه وماله وولده حتى التقى الجمعان، وكان هو أول الصفوف مقابلاً للعدو، يشجع الناس.

كانت وفاته سنة ١٢١٨[١].

---

(١) «أعيان القرن الثالث عشر»: ٣٠ - ٣٢.

محمد علي باشا الحكيم رئيس المدرسة الطبية المصرية وأكبر جراحيها

هو السيد محمد علي بن السيد علي الفقيه البقلي بن السيد محمد الفقيه البقلي، ولد في زاوية البقلي التابعة لمديريّة المنوفية بمصر سنة ١٢٢٨، ونشأ بها ودخل فيها مكتباً، فقرأ القرآن وتعلم مبادىء الكتابة، ولما بلغ التاسعة من عمره أدخله أحمد أفندي البقلي مدرسة أبي زعبل التي بناها محمد علي باشا الكبير في قرية أبي زعبل بالقاهرة، وفيها مكتب ديواني، فأتم فيه قراءة القرآن، وتلقى بعض مبادىء العلوم اللغوية في ثلاث سنين، ثم نقله إلى المدرسة التجهيزية هناك، فمكث بها أيضاً ثلاث سنين، فأظهر من الاجتهاد والذكاء والرغبة في العلم ما حبب به أساتيذه، فنقلوه إلى مدرسة الطب، وكانت تحت إدارة كلوت بك الطبيب الشهير؛ فسبق أقرانه لنجابته وحدة ذهنه، وميله للعلم، وانتخب من الاثني عشر طالباً الذين صدر أمر محمد علي باشا بإرسالهم من تلك المدرسة إلى باريس للتبحر في العلوم الطبية، وقد أتموا دراسة الفنون الطبية، وفيهم من نال رتبة اليوزباشي[1]؛ ولما ذهب السيد محمد علي كان راتبه مئة وخمسين قرشاً، فأوصى بخمسين منها لوالدته وأبقى مئة لنفسه.

ودخل مدرسة الطب في باريس وشمر عن ساعد الجد فجنا ثمار علومها وكان له القدح المعلى[2] في سائر علوم الطب والجراحة، وشهد له أساتذته بالامتياز على سائر إخوانه في الطب مع أنه كان أحدثهم سناً، فأدى مع رفقائه الامتحانات الشفاهية بعد أن أتموا دروسهم، ولم يبق عليهم غير الامتحان الخطي وهو عبارة عن وضع رسالة في الطب باقتراح الأساتذة فوردت عليهم الأوامر بالعود إلى مصر، وبعد عودتهم ظهر أن الأمر صدر سهواً بدون علم العزيز، فأمر بعودتهم إلى باريس ثانياً، فعادوا وامتحنوا

---

(١) قال المحقق: كلمة تركية وهي رتبة في الجيش تعادل النقيب.

(٢) قال المحقق: القدح المعلى: الأسبقية.

خطأً، وألف المترجم رسالة طبية في الرمد الصديدي المصري، كان لها أحسن وقع لدى أساتذته، فمنحوه الشهادة وعاد إلى مصر سنة ١٢٥٣، فذاع صيته في مصر وتعين عند وصوله رأس الجراحين وأستاذاً للعمليات الجراحية والتشريح الجراحي، وأنعم عليه محمد علي باشا برتبة صاغقول آغاسي[١] وبعد برهة نال رتبة البكباشي[٢].

ووقعت بينه وبين بعض أطباء المستشفى الأوروبي منافسة أيام ولاية عباس باشا الأول، فأمر بتحويله إلى ثُمْن قوصون من أثمان القاهرة، فتولى التطبيب فيه على نفقة الحكومة، فتحول المرضى من مستشفى القصر العيني إلى ثمن قوصون لذيوع شهرته، فظل يطبب خمس سنين متوالية في ذلك الثمن، ونمت شهرته بالفنون الطبية، وخصوصاً الجراحة، فأنعم عليه برتبة قائمقام[٣] وتعين رئيساً لأطباء الايالات السعيدية، ولم يمكث في ذلك المنصب إلا قليلًا، فاعتزل المناصب ولزم منزله، ثم تعين رئيساً لجراحي القصر العيني وأستاذاً للجراحة ووكيلًا للمستشفى والمدرسة الطبية، فقام بمهام أعماله أحسن قيام، فأنعم عليه برتبة أمير آلاي[٤]، وكان ذلك في عهد سعيد باشا[٥] ونال حظوة عنده وقربه وجعله طبيبه الخاص، وأدخله في معيته مع بقائه في مناصبه المذكورة، وأحسن اليه برتبة المتمايز واستصحبه لما سافر إلى أوروبا.

ولما تولى إسماعيل باشا بعد سعيد باشا تعين المترجم رئيساً للمستشفى والمدرسة الطبية وفي سنة ١٢٩٠ نال الرتبة الأولى من الصنف الثاني، في آخر سنة ١٢٩٢ لزم بيته وترك الأعمال لسبب لم يعلم.

---

(١) قال المحقق: صاغقول آغاسي: كلمة غير عربية وهي رتبة في الجيش.
(٢) قال المحقق: البكباشي: كلمة تركية وهي رتبة في الجيش تعادل المقدم.
(٣) قال المحقق: قائمقام: كلمة تركية وهي رتبة في الجيش تعادل العميد.
(٤) قال المحقق: أمير آلاي: أمير الجيش.
(٥) قال المحقق: سعيد باشا: هو خديوي مصر.

ولما كانت الحرب بين مصر والحبشة سار في الحملة المصرية التي سافرت إلى الحبشة برفقة البرنس حسن باشا، فخدم الجنود المصرية خدماً يذكرها له العارفون، ولكن عاجله أجله هناك، فتـوفي سنة ١٢٩٣؛ ولم يعلم مكان قبره.

وللمترجم رحمه الله تعالى مؤلفات مفيدة منها (غاية الفلاح في أعمال الجراح) وهو كتاب في العمليات الجراحية الكبـرى في مجلدين، وكتاب الجراحة أيضاً في ثلاثة أجزاء؛ وكان شرع في تأليف قانون في الطب وآخر في الألفاظ الشرعية والمصطلحات السياسية ولم يمهله الأجل لإتمامها.

وقد حاز رحمه الله غير الرتب التي تقدم ذكرها النيشان المجيدي من الرتبة الثالثة مكافأة لما بذله من الجهد وأظهـره من الشهامـة في حوادث الهواء الأصفر سنة ١٨٦٥ م.

وكان رحمه الله تعالى على جانب عظيم من الحب لوطنه والرغبة في ترقية شأنه، دائباً على نشر العلوم والمعارف تدريساً وتأليفـاً، غيوراً على الفقراء، طويل الأناة في معالجتهم من غير أجر، ومما يُذكر له بحروف من نور أن جل من تولى أساتذة الطب ومن تولى رئاسة المدرسة الطبية هم من تلامذته؛ وأعقب أولاداً نجباء منهم الدكتور أحمد باشا حمدي[1].

المولى محمد بن عبد الله سلطان مراكش

محمـد بن عبـد الله بن إسمـاعيـل بن الشـريف بن علي الشـريف المراكشي.

كان المولى محمد بن عبد الله من أكبر وأعقل ملوك مراكش، تولى الملك بعد وفاة أبيه في اليوم السابع والعشرين من شهر صفر سنة ١١٧١.

كانت المملكة في هرج ومرج، فسكن الأحوال وألان جانبه للناس

(١) «أعيان القرن الثالث عشر»: ٥٢ ـ ٥٥.

بحيث أضحى عندهم كالوالد المحبوب، وبعد أن ثبتت قدمه في الملك، صرف همته لإصلاح بلاده، فضرب المكوس[1] بعد أن أفتاه العلماء، ورحل للأقطار متفقداً شؤون البلاد، وأمر ببناء الأبراج بالثغور.

(١) وكان محباً للعلماء وأهل الخير، مقرباً لهم، لا يغيبون عن مجلسه في أكثر الأوقات، وكان يحضر عنده جماعة من أعلام الوقت وأئمته، يسردون له كتب الحديث ويخوضون في معانيها، ويؤلفون له ما يستخرجه منها على مقتضى إشارته.

(٢) وكانت له عناية كبيرة بذلك، وجلب من بلاد المشرق كتباً نفيسة من كتب الحديث لم تكن بالمغرب، وألف رحمه الله تآليف بإعانة الفقهاء، منها كتاب «مساند الأئمة الأربعة»، وهو كتاب نفيس في مجلد ضخم التزم فيه أن يخرج من الأحاديث ما اتفق على روايته الأئمة الأربعة أو ثلاثة منهم أو اثنان، فإذا انفرد بالحديث إمام واحد أو رواه غيرهم لم يخرجه؛ وهذا المنوال لم يسبق إليه.

(٣) وكان كثيراً ما يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع بمراكش مع فقهائها أو من يحضره من علماء فاس وغيرها للمذاكرة في الحديث الشريف وتفهمه ويحصل له بذلك النشاط التام، وكان كثيراً ما يتأسف أثناء ذلك ويقول: والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة، ويتحسر على ما فاته من قراءة العلم أيام الشباب ولما فاته [من] الاشتغال بفنون العلم في حال الصغر.

(٤) اعتكف أولاً على سرد كتب التاريخ وأخبار الناس وأيام العرب ووقائعها إلى أن تملى من ذلك وبلغ فيه الغاية القصوى، وكاد يحفظ ما في كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني من كلام العرب وشعراء الجاهلية والإسلام.

---

(١) قال المحقق: المكوس: الضرائب.

(١) ولما تولى الملك زهد في التاريخ والأدب بعد التضلع بهما، وأقبل على سرد كتب الحديث والبحث عن غريبها وجليها من أماكنها ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم فيها، ورتب لذلك أوقاتاً مضبوطة لا تنخرم.

(٢) وكان يرى أن اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة تضييع للأعمار؛ وكان ينهى عن ذلك، وإنما كان يحض على كتاب «الرسالة» و«التهذيب» وأمثالهما، حتى وضع في ذلك كتاباً مبسوطاً أعانه عليه بعض العلماء.

(٣) وكان ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية؛ وكان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل، وكان يقول عن نفسه حسبما صرح به في آخر كتابه الموضوع في الأحاديث المخرجة من الأئمة الأربعة أنه مالكي مذهباً حنبلي اعتقاداً، يعني أنه لا يرى الخوض في علم الكلام على طريقة المستأخرين؛ وله في ذلك أخبار وماجريات.

وكان يحب الفخر ويركب سنامه، خاطب ملوك الترك وهاداهم حتى علا صيته عندهم.

وكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، ويضع الأشياء مواضعها، ويعرف مقادير الرجال، ويتجاوز عن هفواتهم، ويراعي لأهل السوابق سوابقهم، ويتفقد أحوال خدامه في الصحة والمرض ولا يغفل عمن كان يعرفه قبل الملك.

(٤) كان من الشجعان المذكورين في وقتهم، يباشر الحروب بنفسه، ويهزم الجيوش بهيبته، ويعمل بقواعد السياسة في الحروب، وبالجملة فقد كان رحمه الله من عظماء الملوك؛ وخلد آثاراً كثيرة بالمغرب.

ورتب للأشراف بتافيلالت في كل سنة مائة ألف مثقال، سوى ما ينعم به عليهم في أيام السنة متفرقاً، ولشرفاء المغرب كذلك.

أما الطلبة والمؤذنون والقراء وأئمة المساجد فكانت تأتيهم صِلاتهم في كل عيد.

(١) وأما ما كان ينفقه على الجهاد على رؤساء البحر وطبجيته[1]، وما يصيره على المراكب الجهادية والآلات الحربية التي ملأ بها بلاد المغرب، فشيء لا يحصيه الحصر؛ وأما ما أنفقه من الأموال في فكاك أسرى المسلمين فأكثر من ذلك كله حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير لا من المغرب ولا من المشرق.

وأوقافه بالحرمين الشريفين، وكتبه العلمية المحبسة بهما لا زالت قائمة العين والأثر إلى الآن، وأما اعتناؤه بالمراكب القرصانية[2]، فقد بلغ عددها في دولته عشرين كباراً من المربع وثلاثين من الفراكط والغلائط، وبلغ رؤساء البحر عنده ستين رئيساً، كلها بمراكبها وبحريتها، ويلغ عسكر البحرية ألفاً من المشارقة، وثلاثة آلاف من المغاربة، ومن الطبجية ألفين، وبلغ عسكره خمسة عشر ألفاً ومن الأحرار سبعة آلاف.

أما عسكر القبائل الذي يغزو مع الجند، فمن الحوز ثمانية آلاف، ومن الغرب سبعة آلاف، وكانت له هيبة عظيمة في مشوره وموكبه، يتحدث الناس بها.

(٢) وهابته ملوك الفرنجة وطواغيتهم، ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف يطلبون مسالمته في البحر؛ بلغ ذلك رحمه الله بسياسته، وعلو همته، حتى عمت مسالمته أجناس النصارى كلهم إلا الروس، فإنه لم يسالمه لمحاربته للسلطان العثماني، ولقد وجه رسله وهديته إلى طنجة فردها وأبى مسالمته.

---

(١) قال المحقق: الطوبجية: كلمة غير عربية ومعناها مطلقو النار من المدافع.

(٢) قال المحقق: القرصانية: إضافة إلى القرصان وهم لصوص البحر، والكلمة من الدخيل.

ضرب الضرائب على أكثر دول أوروبا، وكانوا يستجلبون مرضاته بالهدايا والألطاف وكل ما يقدرون عليه، ومهما كتب إلى طاغية سارع إليه ولو كان محرماً في دينه.

ولم يزل ساهراً على ترقية مملكته إلى أن توفي سنة ١٢٠٤ رحمه الله تعالى[١].

المولى محمد عبد الرحمن بن هشام سلطان مراكش

(١) تولى الملك بعد وفاة أبيه سنة ١٢٧٦ ست وسبعين ومايتين وألف، وبعد جلوسه بقليل نشبت الحرب بينه وبين الإسبانيول، فهجم جيش الإسبانيول من سبتة وتوغل في البلاد واستولى على تطاوية، وفي ذلك يقول السيد المفضل افيلال من قصيدة:

يا دهرُ قُلْ لي علامهْ[٢] ... كسرتَ جمعَ السلامهْ
نصبته للدواهي ... ولم تخفْ من ملامه
خفضتَ قدرَ مقامٍ ... للرفع كان علامه
ملّكته لأعادٍ ... ليستْ تساوي قلامه[٣]
فالدينُ يبكي بدمعٍ ... يحكيه صوبُ[٤] الغمامه
على مساجدَ أضحتْ ... تُباع فيها المُدامه[٥]
كم من ضريح وليٍّ ... تلوح منه الكرامة
علق فيه رُهيْبٌ[٦] ... صليبه ولجامه
ومنزل لشريف ... وعالم ذي استقامه

---

(١) «أعيان القرن الثالث عشر»: ١٨٩ - ١٩٥.

(٢) أي: لِمَ.

(٣) قال المحقق: قلامة: ما سقط من الشيء المقلوم، وقلامة الظفر ما سقط من طرفه.

(٤) قال المحقق: صوب: العطاء.

(٥) أي الخمر.

(٦) قال المحقق: رهيب: تصغير راهب.

أمسى كنيفاً[1] لعلج ولم يراعِ احترامه
وكم وكم من أُمور للدين فيها اهتضامه
تبكي عليها عيونٌ كآبةً ونداماه
(تطوان[2]) ما كنتِ إلا بين البلاد حمامه

إلى آخر ما قاله رحمه الله.

(١) ثم عقد الصلح بينهما على أن ينجلي الإسبان عن تطاوين، وجميع الأراضي التي بينها وبين سبتة إلا قليلاً، ويدفع السلطان مقابل ذلك عشرين مليوناً من الريال؛ وكان ذلك في أواخر شعبان سنة ١٢٧٦ ست وسبعين ومايتين والف، فانتبه السلطان لتنظيم جيش مدرب، يقدر به على رد عادية الأجانب الذين تفاقم أمرهم في بلاده، فأمر بتنظيمه وتدريبه على الأصول المستحدثة، وكان فكر في هذا العمل أيام أبيه، وشرع به بعض الشروع فأتمه هو عقيب هذه الكارثة.

كانت وفاته سنة ١٢٩٠.

كان محباً للعدل، لا يشذ عن الشرع، وله آثار مهمة، منها معمل سكر بآجدال من مراكش، صرف عليه أموالاً طائلة، فجاء على عمل متقن، وهيأة ضخمة، ومنها معمل تزويج البارود بالمحل المعروف بالسجينة من مراكش أيضاً، وغير ذلك كبناء المساجد والقصور رحمه الله تعالى[3].

المولى المشير محمد باشا باي تونس

هو المشير أبو عبد الله محمد بن حسين بن محمود، ممن عرفوا بالشريف ويلبسون علامته بحاضرة تونس؛ ولد سنة ١٢٢٦ ست وعشرين

---

(١) قال المحقق: الحمّام.
(٢) قال المحقق: تطوان: عاصمة المغرب الشمالي أسسها أبو ثابت عمر بن عبد الله المريني سنة ١٣١٠ م كانت مركزاً للقرصنة.
(٣) «أعيان القرن الثالث عشر»: ١٩٩ - ٢٠١.

ومايتين وألف ونشأ في عز إمارتي جده وأبيه، وزوَّجه أبوه بابنة شيخ الإسلام البيرمي، وأقام له عرساً وأولم وليمة عامة ظهرت فيها مآثر البـذخ والجاه العريض.

سافر في المحال على عهد تملك عمه (المولى مصطفى)، فجعلها عمه بينه وبين ولده على التداول إلى أن توفي عمه، فاستقل هو بولايـة المحال، ولما توفي ابن عمه «المولى أحمد بن مصطفى» بويع هو البيعة العامة يوم الخميس في ١٦ رمضان سنة ١٢٧١ ووفدت عليه الوفود للتهنئة، وأمر الوزراء على وظائفهم، وباشر إصلاح أمور المملكة».

(١) ولما وفدت عساكر الجهاد التي أوفدها ابن عمه المولى أحمد لمساعدة الدولة العثمانية على الروس، أكرم وفدهم وتلقاهم بأعظم البر، وأسقط المكوس عن البلاد والأعراب، وعوض للحكومة من جميع ما أسقطه معيناً على الرجال القادرين من الأعراب وسكان القرى وأصدر بذلك منشوراً سنـة ١٢٧٢، وأطلق المقيدين في العسكـريـة، فـاطمـأن النـاس وأقبلت الأعـراب وأهل القـرى آمنين من الضـرائب، فـأخصبت الأرض، وأثـرت المملكة وحصل الرخاء، وأحيا وظيفة الحسبة والأوقاف، ونظر في المظالم، وافتقد أهل السجون، ووضع الحراس والجواسيس في جميع الأعمال، وقام بنفسه لتفقد الرعية؛ فكان يخرج إلى الصيد وينفرد متقصياً أحوال العمال من الأعراب، وشدد في عزل من صدرت عليه شكاية، ولو كان من أقرب الناس إليه، واقتص من القوي للضعيف، ومن الظالم للمظلوم، واجتهد في نشر لواء العـدل والأمن، وتشدد في قـطع دابر قـطاع الطريق وأصحـاب الفساد.

وكان محباً لآل بيت الرسول، مكرماً للعلماء، معظماً للصالحين.

واعتنى بتنظيم المجلس الشرعي، فبنى دار الشريعة، وجعل الحكم فيها يومياً، وحضر يوم فتحها بنفسه اهتماماً بشأن الشريعة.

(١) وأتم الجسر العظيم الذي شرع فيه والده على وادي مجردة، وأقام جسراً بين سوسة والمنستير، وأصلح قنطرة وادي أبي حميدة بالفحص، وأمر بجلب ماء زاغون لكفاية البلاد، وجره في أنابيب حديدية ضخمة ولم يصل إلا بعد وفاته.

(٢) أنشأ المجلس البلدي لتنظيم البلاد والنظر في المصالح، وأقام في المرسى الأبنية الفاخرة وجعلها مقر سكناه، وكان في رمي الرصاص غاية من الغايات ومن الشجاعة والفراسة على جانب عظيم، وكان مولعاً بدقائق الصنائع، فاتخذ معامل للصياغة والسبك والخراطة والتموين، فراجت في دولته المصوغات والمجوهرات وأنواع الطيب ودقائق الصناعة، واستجلب المعامل والآلات من فرنسا.

(٣) واستجلب أيضاً أدوات طباعة الحجر، واستعمل المطبعة في الحفصية، فهو أول من أدخل المطبعة في البلاد.

(٤) وأول من ضرب السكة باسمه من الذهب والفضة والنحاس، وجعل اسم السلطان العثماني في أحد الوجهين؛ وبالجملة فقد اعتنى بأسباب الراحة ودقيق الصناعة كل الاعتناء، فكان هو وأهل بيته وخاصته في أرغد العيش، واجتمعت القلوب على وداده مع ما كان له من الهيبة والوقار وعزة النفس وكرم النفس واليد.

قدم على عهده نجل ملكة انكلترا فأكرم وفده، وبالغ في تعظيمه وأهداه النفائس المتنوعة وأراه من عز الملك وفخامة الدولة شيئاً كثيراً.

توفي صاحب الترجمة في أعز عيش وأنعم حال سنة ١٢٧٦[1].

المولى المشير محمد الصادق باي تونس

هو المشير أبو الوفا محمد الصادق بن حسين بن محمود، وهو ثاني عشر آل بيته الكرام.

---

(١) «أعيان القرن الثالث عشر» ٢٦٨ - ٢٧١.

ولد سنة ١٢٢٩، وتربى في حجر جده وأبيه، واعتنى به والده اعتناء عظيماً.

بويع له بعد وفاة أخيه المولى محمد باشا سنة ١٢٧٦ ومايتين وألف، فأقر رجال دولة أخيه في مناصبهم، ووردت إليه الخلعة العثمانية يحملها وزير البحر خير الدين باشا ورئيس المجلس البلدي حسين بك؛ وأخذ في إتمام القوانين المبنية على عهد الأمان التي كان باشر بها أخوه، مستعيناً في ذلك بخاصة العلماء والأعيان.

لما قدم إمبراطور فرنسا نابليون الثالث إلى الجزائر، سار إليه لإحكام علاقة المجاورة بين البلدين وذلك سنة ١٢٧٧، فأحسن الأمبراطور مثواه واستصحبه في كل ما هيء له في المشاهد والملاعب والطرادات[١]، وقلد كل منهما صاحبه نيشانه، وقضى هناك ثمانية أيام ثم رجع.

رتب بتونس المجالس، فكانت أربعة وهي: المجلس الأكبر، والمجلس الاعتيادي، ومجلس التحقيق، ومجلس الجنايات، فباشرت الأحكام ثلاث سنين، ووضع المجلس الأكبر الضرائب على الأهالي، فثارت الأعراب تحت زعامة رجل من ماجر اسمه علي بن غذاهم طالبين إبطال القوانين ورفع الضرائب، فصدر الأمر بإيقاف القوانين ورفع ما زاد على الضرائب ثم أعاد رئيس البغاة علي بن غذاهم الكرة، وأخذ يجمع إليه القبائل، ورام الملك لنفسه، وأقام وزراء يلقبونه بالباي، وسرى ذلك الداء من الجهة الغربية إلى القبلية من البلاد، فساقت الدولة عليه جيشاً جراراً، وتم الأمر بتفرق عصابته وإلقاء القبض عليه، فزج بالسجن ومات به، وكذلك ألقي القبض على الدهماني الذي ثار بالساحل، وقتل هو وكبار أنصاره، فسكنت الفتنة سنة ١٢٨١، وحينئذ نهض الأمير لمباشرة الحكم بنفسه، وأمر بإصلاح الأبراج، وبدل مدافع الأبراج بمدافع أحسن منها، واجتمع شمل العساكر، ولكن نشأ عن تلك الثورة نقص في الأموال

(١) قال المحقق: الطرادات: السفن الحربية.

والثمـرات والأنفس، فاضـطره الحال إلى تكثيـر الدراهم، فجلبت سكـة جديدة من النحاس قيمتها نصف ريال، وربع، وثمن؛ ضربت في الخارج من نوع سكة البلاد، فاستكثر الصرافون قيمتها، وغلت الأشيـاء من ذلك غلاء لم يعهد له نظير، وكان ذلك في أوائل سنة ١٢٨٢، فأسقط الباي من قيمـة السكة نصفهـا، ثم اسقط نصف الباقي، فتنـازلت الأسعار على أن الأمطار تخلفت أيضاً في تلك السنة، وجاهر أهل جبل باجه بالخلاف أول سنة ١٢٨٤، فأطفأ جذوة ثورتهم، غير أنه ظهر في فصـل الشتاء مـرض الحمى الوبائية، وانتشر في كل الجهات، فمات به عـدد لا يحصى من الأهالي فضلاً عن الذين ماتـوا بالمجـاعة، ولمـا آن أوان الزرع في أول صيف سنة ١٢٨٥، أتى عليه الجراد فأتلفه، فاتخذ ذوو الفاقة الجراد بدلاً من الخبز، فاضطربت المملكة من جرّاء ذلك، وتراكمت عليها الـديون، فأقام الباي جمعية لعمل ميزانية الدخل والخرج، وبلغت الديون نحو ٢٠٠ مليون فرنك ووضعت الضرائب على الأهالي وكان ذلك سنة ١٢٨٦؛ وأقام مجلساً أيضاً لمحاسبة العمال، وبعد ذلك أحدث تغييراً في إدارة البلاد، فجعـل الوزارة الكبـرى مؤلفـة من وزارة المـال ووزارة العمـالـة، ووزارة الخارجية، وجعل لها النظر على الحرب والبحـر، وجعلها أربعـة أقسام: الأول لسياسة البـلاد، والثاني للواردين من المتـوظفين، والثالث للنـوازل الشخصية، والرابع للأمور الخارجية، وجعلها جميعهـا تحت رئاسـة وزير مباشر وهو خير الدين باشا المشهور، وجعل في كل قسم مستشاراً أول، وجرى ذلك في منتصف شوال سنة ١٢٨٧، وأرسل إلى الدولة العثمانية في طلب تجديد الفرمان العالي في حفظ الإمارة، فجددت له الدولة فرمانها العالي، وأرسلت له سيفاً مع النيشان المجيدي.

(١) لما وقعت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا، فتح الباي بتونس اكتتاباً بـالإعانـة، فكانت الإعـانة التي جمعت ٤٦٦٣٤٣٣ أربعـة ملايين وستماية وثلاث وستين ألفاً وأربعماية وثلاثة وثلاثين ريالاً تونسياً فضة، ثم

جمع مقداراً من الخيل والبغال، تطوع به الأعيان، وأرسل جميع ذلك إلى الدولة العلية.

(١) والحق يقال إن هذا الباي أدخل على الدولة إصلاحات لا تنكر، فإنه نظم إدارة الأوقاف والقضاء الشرعي ودفاتر حسابات الدولة، وأقام كثيراً من المجالس والقوانين لضبط فروع الإدارات وتحسينها، وأقام مجلساً للصحة وضبط الفلاحة بقوانين وغيّر السكة، وحسن الطرق في كل الجهات، وبنى سجناً موافقاً لروح العصر، وكذلك مستشفى، وأقام الإقامات للجوامع والمرتبات للمدرسين والمشايخ، وجعل قشلة طريق المرجاني مكتباً عاماً لتعليم أبناء الأهالي العلوم الدينية والمدنية، ووقف كتباً كثيرة بجامع الزيتونة. وفتح دار المطبعة ونشر جريدة الرائد، ومد سكة الحديد بين تونس وحلق الوادي وباردو، ثم أوصلها من تونس إلى أطراف الحدود الغربية، وأجرى نور الغاز في الأنابيب لتنوير البلاد، وأجرى كثيراً من السقايات وغير ذلك.

(٢) ولكن أبى الدهر إلا أن يكدر صفو عيش التونسيين، فدخلت فرنسا سنة ١٢٩٩ بواسطة قنصلها الجنرال موسيو روستان في معاهدة مع الباي، جعلت بموجبها بلاد تونس تحت حماية فرنسا، فأدى ذلك إلى قلاقل داخلية في البلاد، واعتراضات من طرف الدولة العلية مبنية على أن الفرنسويين قد تعدوا عليها بتدخلهم في بلاد تحسبها من جملة الممالك المحروسة، وولاية من ولاياتها، إلا أن فرنسا أنكرت على الدولة العلية كون تونس من جملة أملاكها، فنشأ عن ذلك فتور وقتي في العلاقات الودية بين الدولتين، وحركات بين الأهالي ربما كان ما ساقهم إليها اعتبارهم حركة الفرنسويين مع حركة باي تونس ومن وافقه من الأمور التي تخل بعلاقاتهم الدينية والسياسية مع القسطنطينية، وحدثت ثورات في صفاقس وأماكن أخرى ساقت إلى إرسال عساكر فرنسوية ودخولها البلاد واستخدام السيف لتسكينها وقهر الثائرين وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كانت وفاة هذا الباي سنة ١٢٩٩[١].

تيمور شاه أمير الأفغان

(١) هو ابن أحمد شاه العبدالي السدوزائي؛ لما توفي والد المترجم سنة ١٢٨٥ بويع بالإمارة لأخي المترجم سليمان شاه بقندهار، وكان المترجم وقتئذ بهرات، فلما سمع ذلك جمع العلماء والرؤساء وقواد العساكر وخاطبهم قائلاً: «إنَّ أبي وهو في حال حياته قد جعلني وليّ عهده، غير أنَّ وزيره أغراه وهو في الاحتضار بخلعي من ولاية العهد وتولية أخي سليمان بدلاً عني، وهو الآن تضرب له طبول السلطنة في قندهار، وقد وضع يده على خزانة والدي، وعظمت بذلك قوته، واشتد بأسه، فهل فيكم من يؤازرني على استرداد حقي المغتصب». فصرخوا خافضين له جناح الخضوع وقالوا بأجمعهم: «إن السواد الأعظم معك، وكلنا بين يديك وعلى أهبة لتنفيذ أغراضك». ثم اجتمعوا في مزار (خواجه عبد الله الأنصاري) وقام الشيخ يحيى العالم المشهور إذ ذاك وقلّده سيف السلطنة، وخضع له جميع الأفغانيين واستعان بهم على أخيه حتى ظفر به وسجنه في قفص، ثم قتل وزير أبيه الذي كان قد سعى في خلعه، ثم ساق الجيش إلى هندستان[٢] وكشمير ولاهور، وألجأ من نبذ طاعة الأفغانيين إلى الدخول في طاعتهم، وبعد ذلك ببضع سنين قلد ولده الثاني (محمود) ولاية هرات، ونقل كرسي السلطنة من قندهار إلى كابل، وجعل المتصرف فيها ولده الثالث (زمان)، وقد كان هذا الولد على جانب عظيم من مكارم الأخلاق.

(٢) واتفق في تلك الأيام أن شاه مراد بك أمير بخارى أغار على مرو، فدمرها وأسر جميع أهلها وكانوا على مذهب الشيعة فاستغاثوا بتيمور شاه، فهمَّ لاستنقاذهم، ولكن حال بينه وبين ذلك فيض الله أحد القضاة حيث

---

(١) «أعيان القرن الثالث عشر»: ٢٧١ ـ ٢٧٥.

(٢) قال المحقق: هندستان: سهل فسيح خصيب ينحصر بين نهري هندوس وكانج... وهندستان مقاطعة شهيرة في الهند.

أفتى بأنه لا يجوز لسنيٍّ أن يسعى في خلاص شيعيّ.

(١) توفي تيمور شاه بكابل ليلة الثامن من شوال سنة ١٢٠٧، وماتت راحة الأفغان بموته، وكان حسن السيرة لين العريكة، محباً للسلم، ومن أجل ذلك نبذ طاعته بعض أمراء البلدان، وكان له من النساء ثلاثمائة من الحلائل ليس فيهن أفغانية، وخلف اثنين وثلاثين ولداً رحمه الله تعالى[١].

محمود شاه أمير الأفغان

(٢) هو محمود شاه بن تيمور شاه بن أحمد شاه العبدالي السدوزائي، كان أكبر أولاد أبيه؛ ولما مات أبوه سنة ١٢٠٧ تم الأمر لأخي المترجم زمان شاه رغم قيام أخيه همايون شاه، ونفذت سلطته، ثم سار إلى قندهار وفي أثناء ذلك قام المترجم في هرات وادعى الاستقلال، وحشد العساكر وسيرها نحو قندهار، فلما أحس بذلك زمان شاه خرج منها وتوجه لمقابلته، فتلاقيا بين كرشك وزمين داود، ثم تم الصلح بينهما على شرط أن تكون هرات وفرة تحت أمر المترجم، وأن تقرأ الخطبة وتضرب السكة فيهما باسم شاه زمان، ثم نقض المترجم العهد، فبعث إليه شاه زمان ابنه قيصر، فلم يجد المترجم محيصاً من الهرب، فخرج مع ابنه كامران إلى العجم والتجأ إلى فتح علي شاه، ودخل قيصر مدينة هرات، ثم حل بها أبوه شاه زمان وجعله والياً فيها، وبعد مدة رجع شاه محمود إلى نواحي هرات وجمع بعضاً من العساكر لفتحها، فانهزم وذهب إلى أمير بخاري شاه مراد، ثم إلى خوارزم[٢] قاصداً فتح علي شاه مرة ثانية، وبعدما قضى مدة من الزمن عنده استعان به على تجهيز جيش جرار، وساقه إلى قندهار ودخلها دون ممانعة ثم خرج إلى كابل، ووقعت بينه وبين أخيه شاه زمان حروب هائلة، أريقت فيها دماء غزيرة من الطرفين وانتهت بهزيمة شاه زمان ووقوعه أسيراً بيد أخيه

---

(١) «أعيان القرن الثالث عشر»: ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٢) قال المحقق: خوارزم: بلاد واقعة على نهر آموداريا الأسفل في تركستان الروسية.

شاه محمود فأمر بسمل عينيه[1]، وتمت السلطة لمحمود، وتسلط على كرسي كابل.

(۱) ولما كان يميل إلى مذهب الشيعة نفرت منه قلوب أهل السنة، وثاروا عليه ثم خذله الشيعيون أيضاً، وأجمع أمر الجميع على إعناته، فألقوا القبض عليه، وحبسوه في بالاحصار، وأخرجوا أخاه شاه زمان الأعمى من الحبس ليحكم فيهم إلى أن يصل أخوه شاه شجاع، وبعد خسمة أيام قدم شاه شجاع من البنجاب، فأخرجوا محموداً من السجن وقدموه إلى شاه زمان ليقتص منه، فعفا عنه رحمة به، وأمر برده ليحبس في بالاحصار، ثم تخلص محمود من السجن وقدر بدهائه على تجييش جيوش وقلب حكم أخيه شاه شجاع، وتم الظفر له، فاستولى على عرش الملك ثانية، وأبدى لرعيته علائم الشفقة، وألقى القبض على أخيه شاه شجاع، وأخذه أسيراً، ثم أطلق له الحرية يذهب أنى شاء، فذهب إلى رنجيت سنك الوثني في لاهور.

(۲) ثم بعد مضي سنتين شوهت نفس رنجيت سنك للاستيلاء على كشمير، فجهز ثمانين ألفاً من عبدة الأوثان البابانا كيين وسار بها إلى كشمير ولم يكن بها سوى عشرة آلاف من المسلمين، فكمنوا حتى دخل الجيش الوثني الوادي، فأحدقوا بهم من الجهات الأربعة، وأوقعوا بهم قتلاً وأسراً؛ فكان عدد من قتل وأسر أربعين ألفاً وفرّ الباقي.

(۳) وفي سنة ١٢٤١، ساء ظنه بابنه كامران وتفرس منه العصيان فحاربه والتجأ إلى حسن علي ميرزا، فأعانه فغلب أباه.

وفي سنة ١٢٤٦ توفي محمود شاه رحمه الله تعالى[2].

---

(۱) السَّمل: إذهاب العين بحديدة محماة ونحوها.

(۲) «أعيان القرن الثالث عشر»: ٢٨١ - ٢٨٣.

دوست محمد خان الباركزائي أمير الأفغان

هو أول من تولى الملك من الأسرة الباركزائية التي اتصل بها الملك بعد الأسرة السدوزائية؛ وسبب اتصال الملك إليها، هو أنه لما كان محمود شاه السدوزائي حاكماً على أفغانستان، استوزر فتح خان الباركزائي، وهذا استعمل إخوانه الكثيري العدد على البلاد؛ وكان فتح خان المذكور بطلاً شجاعاً، فسعى في توسيع نطاق المملكة الأفغانية، وجمع جيشاً وسار قاصداً فتح خراسان، وهي وقتئذ من ضمن المملكة الإيرانية، فأرسل شاه إيران جيشاً لصد هجمات الأفغانيين، فانتصروا عليهم وتشتت شمل الأفغانيين، وحينئذ أرسل شاه إيران إلى محمود شاه صاحب أفغانستان وابنه كامران يخيرهما بين أمرين: أن يسلما إليه فتح خان، أو يسملا عينيه، وإلا اضطر لمهاجمة افغانستان وافتتاحها، فخاف كامران بن محمود العاقبة وسمل عيني فتح خان، فقام إخوته: عظيم خان ودوست محمد خان المترجم وياور محمد خان وغيرهم البالغ عددهم اثنين وثلاثين رجلاً، وثاروا في البلاد طولاً وعرضاً، وقلبوا ملك محمود، أخذاً بثأر عيني أخيهم، حتى انحصرت مملكة محمود في هرات ونواحيها، واقتسم إخوة فتح خان البلاد بينهم، فكانت مدينة كابل عاصمة المملكة وأعمالها من حصة دوست محمد خان صاحب الترجمة.

(١) انتهز الإيرانيون فرصة وقوع هذه الفتن بأفغانستان للاستيلاء عليها وضمها إلى أملاك الدولة الإيرانية، فعزم عباس ميرزا بن شاه إيران على فتح هرات وأرسل لهذا القصد جيشاً بقيادة ابنه محمد ميرزا، فقامت دولة إنكلترا وقعدت لهذا النبأ، وعولت على معارضة دولة إيران بدعوى أن هرات مفتاح الهند، حتى اضطرتها إلى تركها بعد أن كادت تفتحها، وكان عند حكومة الهند الإنكليزية شاه شجاع أخو محمود شاه هارباً من وجه أخيه، فانتهزت هذه الفرصة لسوق عساكرها إلى أفغانستان بدعوى إعادة شاه شجاع إلى كرسيه؛ وفعلاً تمّ ذلك وانتصر الإنكليز على إخوة فتح خان

المتغلبين على أفغانستان، وأسروا دوست محمد خان صاحب الترجمة، وأرسلوه إلى كلكتا، وأجلسوا شاه شجاع على كرسي كابل، فصارت بلاد أفغانستان بالاسم وبالفعل تحت حكم الإنكليز، إلا أن الإنكليز وشاه شجاع لم يهنأوا بلذة الحكم في أفغانستان، لأن الشجاع محمد أكبر خان بن دوست محمد خان، الذي نحن بصدده صار يجول في البلاد الأفغانية مذ أُسر أبوه ليجمع لنفسه الأحزاب لاستخلاص أفغانستان من الإنكليز وشاه شجاع، فنجح فيما أراد وانتصر بمعاضدة الأفغانيين له على الإنكليز في عدة وقائع مشهورة، حتى اضطرهم إلى الانسحاب من أفغانستان بخفي حنين بعد أن أخذ عليهم تعهداً برد والده دوست محمد خان من الأسر، فانسحب الإنكليز من أفغانستان راجعين إلى الهند، ثم أطلقوا دوست محمد خان من الأسر، فرجع إلى كابل واستولى عليها وعلى جلال آباد وما يجاورهما من البلاد وذلك سنة ١٢٥٨، وكان أخوه كهندل خان قد استولى على قندهار بمساعدة شاه إيران، فوقعت بين الأخوين عدة حروب كان النصر فيها للأمير دوست محمد خان.

(١) بعد بضع سنين تعدى رنجيت سنك الوثني على الحدود الأفغانية، فجند الأمير دوست محمد خان جنداً، وقادهم إلى بيشاور حيث وقع بينه وبين رنجيت سنك المذكور محاربة مهولة؛ ولما رأى الإنكليز أن مدينة بيشاور ستقع بيد الأفغانيين، وهذا مما يوجب زيادة نفوذ الأمير ويورث الخلل في الممالك الإنكليزية الهندية أسرعوا إلى التوسط بعقد الصلح بينهما على أن تكون بيشاور بيد رنجيت سنك، فتم الصلح على هذه الكيفية، ولا استغراب إذا عُلم أن الإنكليز استولوا على بيشاور بعد ذلك بقليل بتنازل رنجيت سنك لهم عنها، إذ كانوا يجرون النار لقرصهم.

(٢) وبعد قليل توفي كهندل خان أخو الأمير دوست محمد خان صاحب مدينة قندهار، ووقعت المنازعة بين إخوته وأبنائه في الملك، وآل الأمر إلى الطعن والضرب، فاتفقوا جميعاً على جعل دوست محمد خان حكماً، فسار

إلى قندهار بعسكره حين بلغه ذلك واستولى عليها وعين لكل منهم مرتباً شهرياً سداً لمطامعهم وتمت له بذلك السلطة في غالب البلاد الأفغانية؛ وكانت مدينة هرات في ذلك الوقت تحت سلطنة كامران شاه بن محمود شاه السدوزائي. وبعد أن تمكن من حفظها من الأعـداء، انهمك في السكـر واللعب، فقام عليه وزيره ياور محمد خان البامي زائي وقتله واستولى على هرات، وأرسل [إلى] شاه إيران وهاداه واحتمى به صيانةً لبلاده من سلطة سائر الأمراء الأفغانيين.

(١) وبعد موته خلفه ابنه محمد خان بإعانة الشاه، إلا أن هذا الخَلف، كان سيء السيرة سفيهاً، فامتلأت الأهالي منه غيظاً، وأثاروا الفتنة عليه، وطلبوا شاه زاده يـوسف السدوزائي الـذي كان وقتئـذ في مدينـة مشهد، والتمسوا من الشاه أن يجهزه ويرسله، ففعل ودخل مدينة هرات بلا مانع وقتل صيد محمد خان.

(٢) وقع في هرات بعض الفتن، فاغتنم ناصرالدين شاه فرصته للاستيلاء عليها؛ فأرسل جيشاً جراراً سنة ١٢٧٤ بقيـادة سلطان مراد ميـرزا، وبعد محاصرتها أياماً تم له فتحها ودخل قطر هرات تحت حكم إيران.

(٣) فاستشاطت إنكلترا غيظاً من هذا الفتح بدعوى أن هرات مفتاح الهند، وأرسلت مراكبها إلى خليج فـارس واستولت على بنـدر أبي شهر وجزيرة خارق وبلدة محمدة إرهاباً للشاه وتسكيناً للثورة التي فشت في الهند عندما شاع فيها توجه العساكر الإيرانية نحو أفغانستان، وبعد سنة من هذه الواقعة تم الصلح بينهما وترك الإنكليز الأرض الإيرانية على شرط أن يقيم الشاه رجلًا أفغانياً حاكماً على هرات، ويسحب عساكره منها؛ فعين الشاه سلطان أحمـد خان ابن عم الأميـر دوست محمد خـان صاحب التـرجمة وصهره والياً على هرات باستصواب إنكلترا بعد أن شرط عليه أن يضرب السكة ويقرأ الخطبة باسمه.

(٤) ومع ذلك لم يسكن روع الإنكليز بل أغروا دوست محمد خان بعد

بضع سنين بأخذ مدينة هرات وتعهدوا بأن يعطوه مرتباً سنوياً كافياً لتجنيد العساكر وتحصين القلاع لتكون الإمارة الأفغانية سداً منيعاً بين الممالك الروسية في آسية الوسطى من جهة وإيران من جهة أخرى.

فجند الأمير جيشاً وسار به إلى هرات وحاصرها زمناً طويلاً مات في أثنائه سلطان أحمد صاحب هرات، وتوفي أيضاً الأمير دوست محمد خان سنة ١٢٧٩ في معسكره، وبعد موته اتحد رؤساء العساكر وهجموا على هرات وافتتحوها عنوة.

كان الأمير دوست محمد خان هذا عاقلاً، ذا دهاء، لين العريكة، غير مائل إلى الظلم والجور، وقد استمال بحسن سلوكه قلوب إخوته حتى خضعوا له مع أن منهم من كان أكبر منه سناً وأسس بحكمه وتدبيره ملكاً، رحمه الله تعالى[١].

سليمان باشا الفرنساوي

هو الكولونيل جوزيف سيف، القائد الفرنساوي الشهير، الذي خدم مصر خدمات جليلة؛ ولد في ليون من مدن فرنسة سنة ١٢٠٢ من والدين متوسطي الحال، وتوفي بمصر سنة ١٢٧٧.

(١) ولما بسمت له الشبيبة أراد والده أن يتخذه عضداً له في أعماله الصناعية؛ فأبى المواظبة واسترسل إلى الغلواء[٢]، فاضطر أبوه إلى إدخاله في سلك البحرية عقاباً له، وكان وقتئذ بالغاً من العمر اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر، واستمر في البحرية إلى أن حدثت واقعة ترفلغار الشهيرة (الطرف الأغر) فأظهر فيها على صغر سنه أفعالاً كبيرة، فبدل أن يثاب على شجاعته ضربه ضابط من رؤسائه فجرحه، فوثب الغيظ بسيف، إلى أن هب وأوسع الضابط ضرباً أليماً، فقضى عليه قانون البحرية بالإعدام، وقد كان

(١) «أعيان القرن الثالث عشر»: ٢٨٧ - ٢٩١.

(٢) قال المحقق: الغلواء: حدة الشباب.

حكمه قضاء مبرماً في عهد نابليون، غير أن الكونت بول دي سيغور، توسط في أمره وأرسله إلى الجيش الفرنساوي الذي كان وقتئذ في إيطاليا «قيل لأن سيف كان قد أنقذه من الموت»، ولما شبت الحرب بين فرنسة والنمسا، أسره النمساويون، وبقي مغترباً نحواً من عامين، ثم عاد إلى فرنسة، وكان من رجال الحملة التي جندها نابليون على روسيا، فأظهر ما جُبل عليه من الشجاعة، وأراد نابليون أن يثيبه بنيشان اللجيون دونور[1]، فلما دعاه إليه أجاب جواب مستخف، فحرمه إياه، إلا أنه ما لبث أن رُقيَ تدريجاً إلى رتبة كولونيل بعد إياب تلك الحملة السيئة البخت مكافأة له على ما أظهر من البأس في ساحة الحرب، وحين انقضت أيام سعد نابليون من فرنسة انقضت كذلك أيام الكولونيل سيف، واضطر إلى الانتثار من عقد الجندية والانقطاع إلى التجارة، فلم يفلح لعدم موافقتها لأخلاقه الحربية، وكان حينئذ قد سمع أن شاه العجم يطلب حاذقين لتنظيم جيشه وتدريبه، فكتب إلى الكونت دي سيفور في طلب توصية للشاه، فنصح له الكونت أن يتوجه إلى محمد علي باشا رأس الأسرة الخديوية، فأمَّ مصر سنة ١٢٣٥ حاملاً كتاب توصية لذاك الرجل الكبير، فأجمل مقابلته وقرّبه إليه، وبعد حين أرسله إلى السودان بصفة مهندس للتنقيب عن فحم الحجر، فما عثر على شيء، وعاد إلى القاهرة، ثم نال لقب آغا[2]، وفُوض إليه تعليم الجنود المصرية، فنفر منه المماليك، وأضمروا له الشر، فوبخهم على سوء نيتهم (وقيل إنه طلب مبارزة شجعانهم فرداً فرداً) فعدلوا عما أضمروا وبعد مدة قليلة، شرح الله قلبه للإسلام فدان به، وسمّى نفسه سليمان، فكان ذلك داعياً لانقياد الجنود إليه، وإصغائهم لتعليمه، حتى بلغ الجيش المصري درجة عالية من النظام بدرايته وعنايته، وتمكن محمد علي باشا، عزيز مصر في مدة وجيزة من استعراض خمسة وعشرين ألف جندي مدرب على

(١) قال المحقق: نيشان اللجيون دونور: وسام جوقة الشرف، والكلمة فرنسية.
(٢) قال المحقق: آغا: كلمة غير عربية ومعناها الرئيس.

الأسلوب الأوروبي، فجاء ترقي الجندية عوناً كبيراً على تقويض سلطة المماليك، وتوطيد سلطة الأسرة المحمدية العلوية.

ولما شخص الجيش المصري في ذلك الحين لمقاتلة اليونان، كان المترجم من جملة أبطالهم، واستولى بشجاعة وبراعة على جزيرة ميسولونجي؛ ثم عُين حاكماً لتريبوليتزا، فساس أمورها بحكمة سافرة عن دراية باهرة، وحين أخمد التداخل الأوروبي نار تلك الحرب، عاد سليمان بك صاحب الترجمة إلى مصر ومعه فتاة يونانية، كأنما اقتدى بأبطال اليونان القدماء.

ولما سيّر محمد علي باشا الكتائب على عبد الله باشا والي عكا سنة ١٢٤٧ بقيادة نجله إبراهيم باشا، فوض شأن المدفعية إلى سليمان بك، فسارت الحملة إلى الشام، وفتحت عكا، فقبض إبراهيم باشا على واليها عبد الله باشا وأرسله إلى الإسكندرية، وأوغل في الشام وسليمان بك ساعده الأيمن في كل المواقع الكبيرة.

فأعجب ابراهيم باشا بشجاعته ومهارته في الحركات العسكرية ورقاه إلى رتبة باشا، وكان في عزم المصريين البقاء على الزحف، لو لم تتداخل الدول وتقرر الصلح، فعادت الجنود المصرية إلى السكينة، ولكنها ما لبثت أن عادت إلى الحرب، لهياج حدث في بيت المقدس، فساروا ومعهم سليمان باشا، فأخمدوا نار الفتنة، وبعد قليل أصدر محمد علي باشا أمره برجوع سليمان باشا إلى مصر ثم عادت الحرب في سورية، فعاد إليها سليمان، وانضم إلى إبراهيم باشا، وما زال يحارب بسيف المصريين حتى اقتضت السياسة الأوروبية انسحاب الجنود المصرية من سورية، فرجع سليمان باشا معها إلى مصر، وتعين رئيساً عاماً للجيش المصري، وما زال فيها حتى أراد إبراهيم باشا السفر إلى جبال البيرني للاستجمام، فانتدب سليمان باشا لمرافقته، فرافقه، ورأى وطنه بعد أن فارقه أعواماً طوالاً.

ولما شفي إبراهيم باشا من مرضه، زار فرنسة، ثم لندرة وصاحب

الترجمة معه، فسرته تلك الرحلة لأنه تمكن بها من تفقد الثكنات العسكرية في أكبر عواصم أوروبا، وملاحظة الحركات الحربية، ثم عاد إلى باريس وإبراهيم باشا لا يزال في لندرة، وبرح باريس إلى البلجيك وهولاندا، ثم عاد إلى ليون مسقط رأسه، فأقام فيها مدة بين أهله وذويه، ثم رجع إلى الإسكندرية فمصر، ورفع إلى محمد علي باشا تقريراً بما رآه ولاحظه في أثناء سفره، وعاد إلى الاهتمام في تدريب الجند، وما زال عاملاً مجتهداً حتى توفي إبراهيم باشا وآل الأمر إلى عباس باشا ثم إلى سعيد باشا فمات في أيامه سنة ١٢٧٧[١].

عمر باشا

ولد المترجم من أب نمساوي في بلاسكي على حدود بوسنة غرباً سنة ١٢٢١، فسماه أبوه الذي كان ضابطاً في الجيش النمساوي ميخائيل، وأدخله المدرسة الحربية لميله للجندية فلم تمض مدة حتى تعين في إحدى فرق الجند النمساوي، وارتقى إلى درجة معاون في مساحة الطرق والجسور.

وفي الثامنة والعشرين نزح من وطنه، وترك منصبه فيه وجاء بوسنة العثمانية، فهداه الله تعالى للإسلام، وسمى نفسه عمر، وتولى تعليم أبناء بعض تجار الأتراك هناك، ثم زار الآستانة ومعه تلامذته، ففتح له باب التدريس في مدرسة للعسكرية أنشأتها الدولة هناك، وكان ناظر الجهادية[٢] يومئذ خسرو باشا، فآنس في ذاك الشاب اقتداراً عسكرياً فأضافه إلى أركان حربه، وجعله تحت عنايته وقدمه في مصالح الدولة فأدى خدمات حسنة في إمارات الدانوب، ثم سعى له في وظيفة تعليم في البلاط السلطاني، فتعين مدرساً للسلطان عبد المجيد قبل توليه السلطنة؛ وفي سنة ١٢٥٥ كان عمر باشا في جملة ضباط الحملة التي أنفذتها الدولة لمحاربة إبراهيم باشا

---

(١) «أعيان القرن الثالث عشر»: ٢٩٦ - ٢٩٩.

(٢) قال المحقق: وزير الدفاع.

المصري في الشام، وبعد ثلاث سنوات تعين قائداً عسكرياً في إحدى ولايات سورية.

وفي سنة ١٢٦٥ أرسلت روسيا جنداً لإخماد ثورة المجريين فدخل جندها بلاد الفلاخ، فتعين عمر باشا قائداً للجند العثماني؛ أقام هناك للمراقبة، ثم انتدبه الباب العالي لإقماع بعض ولاة البوسنة فأقمعهم وعادوا إلى كنف الدولة.

وفي سنة ١٢٧٠ سار في ٢٠ ألف جندي لمحاربة رجال الجبل الأسود وارجاعهم إلى الطاعة، ففاز بذلك فوزاً عظيماً، فانتدبه الباب العالي لقيادة الجند العامة في البلغار، وكان على ضفة الدانوب الأخرى جند الروس بقيادة البرنس غورتشاكوف الشهير، وحدث بين الجندين والقائدين حركات عسكرية ومناورات دلت على مهارة عمر باشا في الجندية حتى بهر البرنس المشار إليه، على أنه ما زال يحاربهم والنصر رفيقه في أكثر المواقع حتى اضطروا إلى الانسحاب عن ضفاف الدانوب.

وتعين سنة ١٢٧٢ في حرب القرم المشهورة فغلب الروسيين في يوبا توريا غلباً صريحاً، وبعد الفراغ من الحروب تعين والياً في بغداد، ولكنه ساء الحكومة وأغضب الباب العالي، فنفي ثم أُعيد في السنة التالية.

وفي سنة ١٢٧٨ انتدبه الباب العالي لإخماد ثورة البوسنة والهرسك ففعل وهاجم الجبل الأسود وافتتح أعظم مدنه، وفي سنة ١٢٨٦ تقاعد عن الأعمال العسكرية وقد نال رتبة الوزارة وصار من مشيري الدولة حتى توفي سنة ١٢٨٨؛ وقد نال أعظم الرتب العسكرية العثمانية، ونال من روسيا رتبة فارس من صنف القديسة حنة؛ وكانت له منزلة رفيعة لدى رجال الحرب، ولكنه كان شديد البطش، صعب المراس، وذلك شأن رجال العسكرية على الأكثر[1].

---

(١) «أعيان القرن الثالث عشر»: ٣٠٢ - ٣٠٣.



مختارات القرن الثالث عشر
من كتاب
«المسك الأذفر في نشر
مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر»

للشيـــخ

محمود شكري الألوسي



الشيخ صالح التميمي

كان الشيخ صالح التميمي من الشعراء المفلقين، كان يحفظ مقامات الحريري، ويعرف أيام العرب، وأخبارها وأنسابها، ويحفظ شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلي لا يحفظ من الشعر إلا جيده، وكان لا يُقرأ بين يديه شعر إلا عرف قائله، سواء كان من الجاهليين أم من المخضرمين أم من الإسلاميين والمولدين.

(١) سأله يوماً ولده الشيخ كاظم عن أشعر الشعراء في الجاهليّة؟ فقال: صاحب «قفا نبك»[1]، وعن أشعر المخضرمين؟ فقال: جرول، يعني الحُطيئة، وعن الإسلاميين؟ فقال: يقال أولاً «كعب بن زهير وجرير والأخطل والفرزدق» وهؤلاء كلهم شعراء مفلقون، وعن أشعر شعراء الدولة الأموية؟ قال: أشعرهم صاحب عروس العرب، وعن أشعر شعراء الرشيد؟ فقال: إن كان ولا بد فمنصور النمري وأشجع السلمي، أما منصور النمري فقد أبكى الرشيد يوماً بقوله من قصيدة:

ما تنقضي حسرةٌ منّي ولا جَزَعُ إذا ذكرتُ شَباباً ليس يرْتجع

وأمّا الأشجع السُّلَمي فهو الذي يقول:

ألْقت عليه جمالها الأيام قصرٌ عليه تحيةٌ وسَلامُ

وعلى عدوّك يا ابن عم محمد رصَدان ضوء الصبح والإظلام

فقال له ولده: ما تقول في أبي تمام والبحتري؟ فقال: لا يَعرف فضل هذين الشخصين إلا من انتهت إليه الرياسة في هذا الفن، وقال السيد

---

(١) هو امرىء القيس.

المرتضى في «الدرر والغرر»:[1] لهما الفضل على كل متقدم ومتأخر، فقال:[2] البحتري أخذ بالرقة واللطافة، وأبو تمام أخذ بالفخامة والجزالة.

عاش نحو إحدى وثمانين سنة، وتوفي سنة ألف ومائتين وإحدى وستين.

(١) وكان حسن الاعتقاد بالله سبحانه، لا يلتجىء إلّا إليه، ولا يتوكل إلّا عليه، وقد ذكر هذا المعنى في شعره فقال:

يا طالباً غير إلّه السما | بشراك بالخيبة والردّ
إن الذي سَوّاك من نطْفة | يغنيك عن مسألة العبد

(٢) ولهذا الشعر إلمام بقوله تعالى ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ وبحديث ابن عباس المشهور المروي في الصحيحين ومنه: «إذا استعنت فاستعن بالله» وما أحسن ذلك لو صدق القول الفعل على أن كثيراً من شعره يناقض هذا الاعتقاد، وكان يرى رأي الإمامية من الشيعة، وربما قال بقول الغلاة، والله هو العالم بالسرائر[3].

المجتهد الأصبهاني[4]

هو من أكابر علماء الإمامية وأفاضلها، قدم إلى بغداد عائداً من مكة المكرمة هو وأخواه، وقد بقوا في الكاظمية أياماً ثم إنهم قصدوا العود إلى أصفهان وطنهم.

وكان اجتماعي بهم من التصادف، فإني كنت مع جارنا إسماعيل أفندي بن الحاج سليم أفندي بن سفيان أفندي الخطاط الشهير في بغداد في قصر لهم في بستان على دجلة، فبينما نحن ننزه الأبصار بالنظر إلى دجلة

---

(١) قال المحقق: ويعرف بأسم «أمالي المرتضى» وهو مطبوع مشهور.

(٢) أي الشيخ صالح التميميّ.

(٣) «المسك الأذفر»: ٢٤١ - ٢٤٦.

(٤) جاء هذا الاسم مبهماً في «المسك الأذفر»، وقال المحقق: يبدو أنه [أي المصنف] نسي اسمه.

والبئر الذي تستقى منه الماء للبستان أمامنا وعليها شجرة توت عظيمة مطلة على البئر، وحول البئر كان يجلس عليه ثلاثة أشخاص ذوو عمائم مكورة ومعهم خدم وحشم ففرشوا قطيفة وجلسوا تحت الشجرة وعلمنا أن القوم من أكابر الشيعة فالتمس الأصحاب أن ننزل إليهم وأناظرهم، فاعتذرت من ذلك فلم يعذروني، فقلت: إن كان ولا بد من ذلك فدعوني أغير هيأتي وألبس برأسي ما يلبس العوام حتى إذا غلبوني لا يضر أهل السنة ولا فخر لهم بذلك حيث غلبوا أحد العوام، وإن غلبتهم وأفحمتهم كان على رأسي ما يضعه العوام على رؤوسهم فنزلنا إليهم جميعاً وسلمنا فقاموا لنا إجلالاً واحتراماً.

(١) ثم أخذ أحدهم يسأل عن أحوال بغداد فأجيبه إلى أن شموا من كلامي رائحة العلم وظنوا أني من العوام المستمعين، فسألني كبيرهم عن صوفية بغداد هل يوجد منهم أحد؟ ومن هم؟.

فقلت: نعم في بغداد جمع كثير، منهم من ينتمي إلى الطريقة النقشبندية، ومنهم من ينتمي إلى الطريقة القادرية، ومنهم من ينتمي إلى الطريقة الرفاعية، وأجلّهم المنتسبون إلى الطريقة النقشبندية، فإن فيهم رجالاً علماء صلحاء.

فقال: كيف حكم الصوفية عند علماء أهل السنّة وهل هم مقبولون عندهم أم لا؟.

فقلت: من وجده علماء السنة صادقاً في دعواه، متبعاً للشريعة الغراء، معرضاً عن الدنيا، فهو من المقبولين لديهم المرغوب فيهم، وأما من اتخذ ذلك وسيلة لنيل الدنيا وتشكل بشكل الصوفية وليس منهم، فمثل هذا ليس مقبولاً عندهم، وما يروى عن بعض علماء أهل السنة من الإنكار فإنما هو على مثل هذا وأما الصادقون فمعاذ الله أن ينكر عليهم أحد.

(٢) نعم إن بعض المتصوفة يتكلم بكلمات مخالفة بظاهرها للشريعة فمثل هؤلاء ليسوا بمقبولين أيضاً عند المحققين من أهل السنة. والحاصل أن

طريق أبي القاسم سيد الطائفة الصوفية علماً وعملاً طريق مقبول لأنه خال من البدع.

فقال: هل يوجد في بغداد كُتب الشيخ عبد القادر الكيـلاني، وهل يتداولها الناس وينتفعون بها؟.

فقلت: نعم، إنّها متداولة بين الأيدي، ومنها ما هو مطبوع «كالغُنية»، و«الفتح»، وغير ذلك. ومنها ما لم يطبع، وكلها منتفع بها.

(١) فقال: ماذا يقول أهل السنّة في الشيخ محيي الدين بن عربي وكيف حكم كتبه عندهم؟ وهل «الفتوحات المكية» مقبولة عندهم أم لا؟.

فقلت: إن علماء أهل السنّة مختلفون فيـه، فمنهم من يعتقده من أكابر أولياء الله ويحملون كلامـه الموهم للبـاطل على غيـر ظاهـره أو أنه مدسوس عليه ويبالغ في الثناء عليه، ومنهم من كان يضلله ويحرّم النظر في كتبه ويقول إنّه اتحادي حلولي[1] يقول بوحدة الوجود. ومنهم من قال من الواجب اعتقاد جلالة قدره وتحريم النظر في كتبه.

(٢) أما «الفتوحات المكية» فهو كتاب جليل، فيه ما يشفي العليل، ويروي الغليل، غير أنه لا يخلو عما يخالف بظاهره الشريعة الغراء، فلذلك نَهىٰ عن مطالعته كثير من العلماء.

(٣) وأما كتاب «الفصوص» فهو مخالف للشريعة في أكثر المواضع، وبعض الناس تكلّف غاية التكلّف لتأويل كلامـه، وتوجيهـه بما لا طـائل تحته.

وقد توجه لي هو وأخوه الأوسط وتصدى لمنـاظرتي بجـد واجتهاد، وقال: من أيّ بيت أنت من بيوت بغداد؟ وما اسمك؟ فقلت: إني أحد

---

(١) قال المحقق: يُنظر: «مصـرع التصوّف» أو «تنبيـه الغبي إلى تكفير ابن عـربيّ» لإبراهيم بن عمر البقاعيّ.

طلبة العلم وذكرت له اسمي ولم أعرفه كمال التعريف بنفسي وأحببت أن يقطعوا الكلام، فقد اجتمع على رؤوسنا كثير من الناس وجمع من الفلاّحين، فقلت لوكيل البستان: اخْوِ طبقاً من فاكهة المشمش وآتِ به للمشايخ لعلهم يشتهونه، فأحضر طبقاً منه وأكلوا منه شيئاً يسيراً وسألتهم عن فواكه أصفهان فأثنوا عليها، ومقصودي إشغالهم عن البحث فقد مللت منه لأني وحيد، وهم يتعاونون في مباحثهم.

(١) فتهيأ الأوسط للبحث بعد أن انبطح الأصغر وكان مراهقاً، فقال: أي التفاسير في بلدكم له رواج؟ وما يقرؤه علماء أهل السنة منها؟ وهل يوجد عندكم تفسير الإمام فخر الدين الرازي؟ وهل هو مرجح على غيره من التفاسير أم لا؟.

(٢) فقلت: إن التفاسير المتداولة كثيرة، كتفسير البيضاوي والكشاف وأبي السعود والبغوي وتفسير الإمام فخر الدين الرازي وغير ذلك، لكن العادة عند طلبة أهل السنة أنهم يقرأون البيضاويّ لحسن أسلوبه واختصاره وكثرة الحواشي عليه وهو تفسير مبارك، ومثله الكشاف لولا ما فيه من النزغات المعتزلية حتى قال فيه مصنفه:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشافي
إنْ كنت تبغي الهدى فألزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كشّافي

(٣) وأما تفسير الإمام فخر الدين فهو بحر علم وكنوز أسرار غير أنه مفصّل، ولذلك لم يُقرأ درساً، بل يطالع، غير أن الإمام السيوطي قال فيه: إنه اشتمل على كل علم سوى التفسير، فإنه لم يدقق النظر في جوهر الآيات، بل يخرج عنها إلى مناظرة المعتزلة والفلاسفة على طريقة المتكلمين لا المفسرين، ولا يستند في تفسيره إلى الرواية في الغالب.

(٤) فقالوا: إن السيوطي لم ينصف مع الفخر فإن تفسيره من أحسن التفاسير التي رأيناها وأجمعها للفوائد، ثم سأل عن غيره من التفاسير المفصلة؟.

فقلت: إن تفسير «روح المعاني» للعلّامة الآلوسي من أحسن التفاسير وأجمعها، فقد جمع بين الدراية والرواية والإشارة[1]، وأحسن الكل تفسير الإمام ابن جرير الطبري غير أنه لا توجد منه نسخة كاملة في بغداد.

فقال: إنا سمعنا بتفسير «روح المعاني» وبالثناء عليه ولم نـره فهل يوجد منه في بغداد نسخ كثيرة؟.

فقلت: إنه سيطبع في بولاق إن شـاء الله تعالى وتصـل نسخه إلى أصفهان وسائر بلاد إيـران وتطلعـون عليه ولا شـك أنكم إنْ وقفتم عليه أعجبكم أسلوبه وفصاحة عبارته ولطافتها.

(١) فقال: إنا لما مررنا على دمشق الشام، في العود من بلد الله الحرام، سألنا أحد أفاضلها الأعلام، عن قوله تعالى: ﴿إِذْ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحدَ عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾. الآية. وقال: ما وجه تكرار رأيت في الآية الكريمة؟ وهلّا اكتفى بـالفعل الأول وجعل ساجدين مفعولاً ثانياً لها؟ فما تجيب أنت عن ذلك؟.

فقلت: إن علماء البلاغة قالوا: إذا طال الفصل بين الفعل ومعموله يعاد، أو أنَّ رأيتهم الثاني تأكيد لما تقدم كما في قوله تعالى ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون﴾.

فقال: ليس ما ذكرت نكتة بديعة تستوجب الفصاحة والإعجاز، بل هو وجه عامي مبتذل، والذي أجبت به أنـا أحسن منه، بـل هو المتعين اللائق بحمل كلام الله عليه، وهو أن قوله رأيتهم لي ساجدين تأسيس لا تأكيد وأن الكلام جواب سؤال مقدر كأنّ يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: ﴿رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر﴾ كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها؟ فقال: ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾.

فقلت: هذا التوجيه مبني على أن رأى الحلمية تتعدى إلى مفعول

---

(١) أي إشارات الصوفية، ولقَبول تلك الإشارات شروط موجودة في الإتقان وغيره.

واحد كالبصرية فلا حذف لا إلى اثنين كالعِلْمية ليلتزم كون المفعول الثاني للفعل الأول محذوفاً، والمشهور عند الجمهور أنها تتعدى إلى مفعولين ولا يحذف ثانيهما اقتصاراً. وما ذكرتُه من الوجه سالم عن المخالفة، والتطرية أمر معهود في الكتاب الجليل، وبعد العودة إلى البيت راجعت التفسير فرأيت أن ما ذكرته هو الذي اختاره صاحب «البحر» وأن ما ذكره صاحبنا قد ذكره صاحب «الكشاف» وقد رجح المفسر ما في البحر. قال: وزعم بعضهم أن أحد الفعلين من الرؤية والآخر من الرؤيا(١)، وهو كما ترى(٢).

وقلت لصاحبنا: فليكن ما ذكرتُه أيضاً وجهاً وجيهاً كما أن الذي قلتَه وجه مقبول، وأسرار البلاغة لا تحصر لا سيّما كتاب ربنا عزَّ اسمه، وقد ذكر الجلال السيوطي في «الإتقان» أن القرآن كاللبن كلّما مَخّضته ظهرت زبدته.

فقال: إن هذا التشبيه باطل ويجل كلام ربنا أن يشبه باللبن فما ذلك من السيوطي إلّا هفوة.

فقلت: إذا شبه شيء بشيء لا يلزم أن يكون المشبه عين المشبه به من كل وجه ألا ترى أنك لو شبهت علياً بالأسد من جهة الشجاعة لا يلزم أن يكون علي عين الأسد من كل وجه وإلا لما صح هذا التشبيه في مقام المدح بل هو إلى الذم أقرب، فإن الأسد كلب من الكلاب، فقول السيوطي إن القرآن كاللّبن من جهة أن فوائده لا تنفد وأسراره لا تنقطع كما أن اللبن كلما مخضته وحركته ظهرت زبدته فلا تنقطع.

فقال: نحن معاشر الإمامية بل جمهور الشيعة اشتغالنا بالتفسير ليس كاشتغالكم ونحن نشتغل بالفقه والأصول كثيراً فهل علماء السنة يقرأون الأصول؟ وأي كتاب يقرؤه أهل بغداد من الأصول؟.

---

(١) التي في المنام، والأولى الرؤية البصرية.
(٢) أي من الضعف وهو الذي ذهب إليه ذلك الإماميّ.

فقلت: الكتب الأصولية التي يقرؤها أهل بغداد كثيرة كشرح «جمع الجوامع» للمحلي ومختصر ابن الحاجب وشرحه للعضدي، ومن أصول الحنفية شروح «المنار» و«التنقيح على التوضيح» و«والتلويح» للسعد وشرح «المرآة» وغير ذلك.

(١) فقال: إذا كان باب الاجتهاد منسداً عند أهل السنَّة فلم يقرأون الأصول؟ وهو من الآلات المعدة للاجتهاد وما فائدة قراءته؟.

فقلت: إن القول بانسداد باب الاجتهاد قول باطل ولم يذكر ذلك أحد ممن يعتد به من الأئمة، وهذه كتب الأصول قد ذكر فيها باب الاجتهاد وأطنبوا الكلام في بيان شروطه ولم يذكر أحد أن الاجتهاد قد انقطع حتى أنهم اختلفوا هل يجوز خلو الزمان عن مجتهد أم لا؟ وكثير منهم ذهب إلى أنه لا يجوز ومنهم الإمام أحمد، وذكر الفقهاء من الحنفية وغيرهم في باب القضاء أنه يشترط في القاضي أن يكون مجتهداً مطلقاً فلو انسد باب الاجتهاد لزم أن يتعطل منصب القضاء. نعم ذهب من لا يعتد بقوله كابن حجر الهيتميّ واضرابه من المتأخرين إلى أنه انسد من تاريخ الستمائة، وهذا قول لا دليل عليه. وكأن القائل بذلك لاحظ صيانة الشريعة من التلاعب فيها، ووافقهم على ذلك بعض الملوك اكتفاء بما دون من المذاهب التي تلقتها الأمة بالقَبول جيلاً بعد جيل وتهذيب كتبهم، على أنا لو قلنا بقول المتأخرين فقراءة علم الأصول لها فوائد كثيرة، منها معرفة الحكم بالدليل الذي استند إليه المجتهد فيكون أوقع في النفس مما لم يعلم مستنده، وذلك لا ينافي التقليد على الأصح، كما أن من عرف قواعد العربية ومستندها لا يخرج في ذلك من أن يكون من مقلدي البصريين أو الكوفيين، ودلائل علم العربية كدلائل الفقه، والتعليل يشبه التعليل، فدعوى أن قراءة أهل السنة لعلم الأصول لا يترتب عليها فائدة مردودة.

(٢) فقال: إن النبي ﷺ يجتهد عند علماء أهل السنة أم لا؟ وكذلك سائر الأنبياء عليهم السلام؟.

فقلت: نعم إن الأنبياء عليهم السلام كلهم يجتهدون، وقرأت له عبارة «التعرف في الأصلين والتصوف». وكنت أحفظه وهذا نصها: «واجتهاده ﷺ واقع واجتهاده لا يخطىء تنزيهاً لمنصب النبوة عن الخطأ في الاجتهاد، ومن العلماء من قال قد يخطىء ولكن لا يقر عليه بل ينبه عليه سريعاً».

فقال: هذا قول فاسد عندنا معاشر الإمامية، لأنَّ العلم الحاصل بالوحي يقيني والعلم الحاصل بالاجتهاد ظني، فمن له طريق إلى الوصول إلى اليقين فلِمَ يعدل عنه إلى ما ليس بيقين. ثم إن الله تعالى قال ﴿والنجم إذا هَوى ما ضلَّ صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهَوى إنْ هو إلا وحيٌ يوحَى، علَّمه شديد القوى، ذو مرَّة فاستوى﴾ فمن أين لهم هذا القول الذي يزري بالأنبياء ويخلّ بعلو قدرهم، على أنا لا نقتصر في ذلك على الأنبياء فقط، بل مثلهم جميع الأئمة المعصومين.

فقلت: الوقوع دليل الجواز ولا ينكر الوقوع إلا مكابر فلا غرض في سماع القال والقيل. وذلك إن الله تعالى أخبر عن داود وسليمان بذلك فقال: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذْ نفَشَت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلًّا آتينا حكماً وعلماً﴾ فقد ذهب كثير من أهل العلم إن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فإن قول سليمان عليه السلام بعد أن وقف على حكم أبيه: «غير هذا أرفق» ثم قوله: «أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ثم يترادّا فقال داود: القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة، صريح في أنه ليس بطريق الوحي وإلا لبت القول بذلك ولَمّا ناشده داود عليه السلام لإظهار ما عنده بل وجب عليه أن يظهره. ومثل ذلك آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ وقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي لِمَ تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك﴾ وقوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لِمَ أذِنْتَ لهم﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها

العتاب فلو لم يكن ما صدر عن اجتهاد لما ساغ العتاب على ما أوحاه إليه.

وأما قوله تعالى: ﴿إن هو إلاّ وحي يوحى علّمه شديد القوى﴾ فقد احتج به أبو علي الجبائي وابنه أبو هاشم على أن النبي لا يجتهد، ووجه الاحتجاج أن الله تعالى أخبر بأنّ جميع ما ينطق به وحي وما كان عن اجتهاد ليس بوحي فليس مما ينطق به.

وقد أجاب عن ذلك من يرى الاجتهاد له ﷺ: بأنه أوحي له أن يجتهد فكان اجتهاده وما يستند إليه وحياً لا نطقاً عن الهوى، والكلام في هذا الباب مفصل في التفسير وفي الأصول.

ثم إن قول صاحبنا إن العلم الحاصل بالاجتهاد ظني وبالوحي يقيني فكيف ساغ العدول؟ فيقال أولاً: إن الوحي ليس بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلّم حتى أنه كلما سئل عن مسألة طلب الوحي فنزل به جبريل بل إن الملائكة لا ينزلون إلاّ بأمر الله. وثانياً: إن العلم الحاصل باجتهاد الأنبياء ليس كالحاصل باجتهاد غيرهم لأن النبي لا يقر على الخطأ، وثالثاً: إن الاجتهاد صفة كمال ليس من صفات النقص وهو نوع من العبادة يُثاب عليه كيف ما كان، ثم أوردت له حديث تأبير النخل وهو ما رواه جمع منهم (١) الإمام مسلم في «صحيحه» عن أنس أنه ﷺ «مر بقوم يلقحون النخل فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال فخرج شيصاً فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت: كذا وكذا فقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم».

فهذا دليل على أنه كان يجتهد فلو كان ما أخبرهم به عن وحي لم يقل لهم: أنتم أعلم بأمور دنياكم، ومثل ذلك كثير.

فقال أعلمهم: كيف يقول النبي ﷺ: «لو لم تفعلوا لصلح»؟ فإنه حينئذ إخبار بخلاف الواقع وإنه يلزم منه جهل النبي ﷺ بمعرفة حكم الله في عالمه، ويلزمه أيضاً كون الناس أعلم منه بأمور الدنيا وجميع هذه اللوازم باطلة. قال: فالحديث كذب على رسول الله وإن رواه من رواه.

قلت: إن علماء الحديث أجابوا عما استشكلت فقالوا إنه قد تقرر أن

صلاح النخل باللقاح مثلاً من باب ربط المسببات بأسبابها ولو شاء الله لصلحت التمرة بدون اللقاح. فأراد ﷺ بقوله ذلك بيان أن اللقاح سبب عادي لا تأثير له وأنه تعالى قادر على إصلاح التمرة بدونه ولو شاء ذلك كان، فمعنى قوله: «لو لم تفعلوا لصلح» أي حيث كان تعلقت المشيئة الإلهية بصلاحه.

وقوله: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» حيث كان المراد بقوله: «لو لم تفعلوا» هو ما ذكر أراد به التوبيخ بأنهم لم يفهموا مراده ﷺ حيث تركوا التأبير مع أنه لم يأمرهم بتركه. وقوله: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» أي من أمر دينكم. وبما تقرر من أن معنى قوله: «لو لم تفعلوا» إلخ يجاب عن الاستدلال به على كونه ﷺ لا يعلم حال الأمور الدنيوية. وقد أجاب شرّاح «الشفاء» بغير ذلك[1].

فقال: إني أصغي لمثل هذه الأجوبة المتكلفة ولا أسلمها. بل أقول إن هذا الحديث مفترى.

فقلت: مرجع صحة الحديث وعدم صحته هو أربابه وأهله لا أمثالك. فإن أبيت الاحتجاج به فكتاب الله يغني عن ذلك.

فقال: جميع ما ذكرت ليس نصاً في المسألة وقول تعالى: ﴿يا أيها النبي لِمَ تحرّم﴾ ونحوه ليس على ظاهره. بل هو من قبيل قولهم: اسمعي يا جارة.

فقلت: إن من يتبع هواه لا يفيد فيه شيء، والحمل على المجاز خلاف الأصل، فإذا أمكن الحمل على الحقيقة فلا وجه للعدول عنها. وبعد فإن المسألة مفروغ عنها في كتب الأصلين والتفسير وما أوردته كاف في المقصود ورحم الله امرءاً أنصف وأذعن للحق.

---

(١) «الشفا لبيان حقوق المصطفى» للقاضي عياض رحمه الله، والكتاب مشهور متداول.

(١) ثم انجر الكلام إلى قوله تعالى ﴿وإنْ من أمة إلاّ خلا فيها نذير﴾ مع أن كثيراً من الأمم لم تأتهم رسل ولم يعرفوهم ولا أتاهم نذير من ذلك أهل [أمريكا] وهم أمم كثيرة لم يعرفوا الرسل ولا الأنبياء ولا جاءهم نذير.

فقال: كذبوا بل جاءتهم رسل وأنذرهم النذر ثم عمهم الجهل فنسوا ما ذكروا به وهكذا قوم يأجوج ومأجوج وأمثالهم.

(٢) فقلت: قولك هذا محتمل، ولكن كتب التاريخ لم تنطق بذلك. وذكر المفسرون أن معنى الآية ما من جماعة كثيرة أهل عصر وأمة من الأمم الدارجة في الأزمنة الماضية إلاّ خلا فيها نذير من نبيّ أو عالم ينذرها. حتى أن بعض الناس استدل بهذه الآية مع قوله تعالى ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم﴾ على أن في البهائم وسائر الحيوانات أنبياء أو علماء ينذرون. وعندي أن ذلك حديث خرافة. والخصم (٣) لم يناقش في ذلك. غير أنه ذكر أن مذهب أهل السنة فيه اختلافات كثيرة في الفروع والأصول لا تجد مسألة إلاّ وفيها عدة أقوال هذا يصحح قولاً وهذا يرده.

(٤) فقلت: إن أهل السُّنَّة لا خلاف بينهم في الأصول فإنهم على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وأما اختلافهم في الفروع فذلك مما لا يستوجب قدحاً فإنّ الاختلاف في الفروع رحمة. ومن طالع كتاب «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»[1] يعلم سر ذلك. وقلت له: لو أنصفت لاعترفت أن الشيعة أكثر الناس اختلافاً في الأصول والفروع. وهذه كتب الملل والنحل تعدد للشيعة نحو سبعين فرقة، كل فرقة تضلل الأخرى، وذلك مما لا حاجة إلى بيانه، وأمّا الفروع فاختلافهم فيها أظهر وها نحن نرى أن من في النجف من المجتهدين لا يزالون مختلفين.

(٥) وإنّي كنت أعجب من الشيخ يوسف الأوالي من علماء الإمامية حيث

---

(١) الكتاب لابن تيمية رحمه الله، وهو مشهور متداول.

رد على ابن أبي الحديد وجعله من أهل السنّة، وما كنت أظن أن الشيعة يقولون بمقالته حتى سمعت هذا الكلام في هذا اليوم وهو عندي من الغرابة بمكان.

فقال: إن المعتزلة عندنا من أهل السنة، ومرادنا بأهل السنة القائلون بخلافة الخلفاء الثلاثة، وعبد الحميد بن أبي الحديد شارح «نهج البلاغة» قائل بذلك، وقد برهن على صحة خلافتهم في شرحه بما لا مزيد عليه ولذلك رد عليه الأوالي.

فقلت: هذا اصطلاح لكم لا يعتد به فإنه خلاف الحقيقة كما لو اصطلح أحد أن يسمي الحديد ذهباً ومثل ذلك رمز لا اصطلاح كما اصطلح علماء الصناعة على أمور لا يعرفها غيرهم هي في الحقيقة رموز.

وابن أبي الحديد معتزلي ومن غلاة الشيعة، كما يدل عليه شعره في قصائده السبع العلويات فمن ذلك قوله:

حنانيك فاز العرب منك بسؤدد	تقاصر عنه الفرس والروم والنوب
فما ماس موسى في رداء من العلى	ولا آب ذكراً بعد ذكرك أيوب

ومعلوم أنه لا يبلغ ولي درجة الأنبياء فضلاً عن أن يكون أفضل منهم، ثم إنه لم يكفه ذلك حتى وصفه بأوصاف الربوبية فقال:

لذلك تقديس لرمسك طهره	لوجهك تعظيم لمجدك ترحيب
تقيلت أفعال الربوبية التي	عذرت بها من شك أنك مربوب
وقد قيل في عيسى نظيرك مثله	فخسراً لمن عادى علاك وتتبيب

فقوله: تقيلت بمعنى أشبهت، يقال تقيل فلان أباه إذا أشبهه. وقوله: نظيرك، بمعنى أنه نظيره في الفضل لما تقدم في البيتين من تفضيله على الناس أجمعين، وعلى الأنبياء والمرسلين.

وكقوله:

ويا علّة الدنيا من بدء خلْقها	له وسيتلو البدء في الحشر تعتيب

فجعله علة لبدء الدنيا ولعودها يوم القيامة وهذا لم يثبت له.

ثم قال في أخرى من قصائده السبع:

فتى لم يعرف فيه تيم بن مرة ... ولا عبد اللات الخبيثة أعصرا
ولا كان معزولاً غداة براءة ... ولا عن صلاة أمّ فيها تأخّرا
ولا كان في بعث ابن زيدٍ مؤمَّراً ... عليه فأضحى لابن زيد مؤمَّرا
ولا كان يوم الغار يهفو جنانه ... حذاراً ولا يوم العريش تستّرا

ففي هذه الأبيات تصريح بثلبه [أبا] بكر [رضي الله عنه] وهو نصٌّ في رفضه.

وقال في قصيدة أخرى:

علام أسرار الغيوب ومن له ... خلق الزمان ودارت الأفلاك

فقد جعله عالماً بالغيب بل بسرّه مع أن ذلك لا يكون إلا لبعض الرسل كما قال تعالى: ﴿ولا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول﴾.

وقال في قصيدة أخرى:

هو النبأ المكنون والجوهر الذي ... تجسد من نور من القدس زاهر
وذو المعجزات الواضحات أقلها ال ... ظهور على مستودعات السرائر
ووارث علم المصطفى وشقيقه ... أخاً ونظيراً في العلى والأواصر

فقد جعله في البيت الأول أنه مخلوق من نور الله. وفي البيت الثاني صاحب معجزات وهي لا تكون إلاّ للأنبياء. وفي البيت الثالث نظيراً للنبي ﷺ وكل ذلك يدل على غلوّه في رفضه.

ثم قال:

ألاَ إنّما الإسلام لولا حسامه ... كعفطة عَنْز أو قلامة ظافر
ألاَ إنما التوحيد لولا علومه ... كعرضة ضليل ونهبة كافر

ألا إنما الأقدار طوع يمينه فبورك من وثر[1] مطاع وقادر

فانظر إلى هذا الغلو الذي لا يرضى الله به ولا رسوله.

ثم قال:

صفاتك أسماء وذاتك جوهر يرى المعاني من صفات الجواهر

يجل عن الأعراض والأيْن والمتى ويكبر عن تشبيهه بالعناصر

فشبهه بالباري حيث نزهه عن الأعراض وعن المكان والزمان، مع أنَّ الله لا يشبهه شيء قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾.

ثم قال:

إذا طاف قوم بالمشاعر والصفا فقبرك ركني طايعاً ومشاعري

وإن ذخر الأقوام منك عبادة فحبك أوفى عدتي وذخائري

وإن صام ناس في الهواجر حسبة فمدحك أسنى من صيام الهواجر

وأعلم أني إن أطَعْتُ غوايتي فحبك أُنسي في بطون الحفاير

فانظر فإنه جعل زيارة قبره أعظم من الحج الذي هو أحد أركان الإسلام، مع أن زيارته لو خلت عما يستعمله الرافضة فيها من البدع والإشراك مندوبة، وكيف يكون المندوب أعظم من الفرض الذي هو ركن من أركان الدين، وجعله مدحه أسنى من الصوم الذي اختص الله به وتولى جزاءه بنفسه. وجعل حبه يؤانسه في قبره وإن حصلت له الغواية مع أنه إذا غوى لا ينفعه حبه كما هو ظاهر لمن كان له أدنى معرفة في أمور الشرع، وفي جميع ذلك تصريح بغلوه في رفضه.

ثم قال:

إذا كنت للنيران في الحشر قاسماً أطعت الهوى والغي غير محاذر

وفي ذلك من الرفض القبيح الذي تقدم إبطاله ما فيه.

ثم قال في قصيدة أخرى:

فيك ابن عمران الكليم وبعده عيسى يقفيه وأحمد يتبع

(١) معاني القاموس تعود على أن المعنى: موطّأ أو كثير اللحم أو سهل، وكلها صالحة.

بـل فيك جبـريـل وميكـال وإسـرا فيـل والمـلأ المقـدس أجمـع
بـل فيك نـور الله جـل جـلالـه لـذوي البصـائـر يستشِفّ فيلمع

فانظر إلى هذه المجازفات التي لا يمكن صدورها عن مسلم فضلاً عن أن يكون سنياً.

ثم قال:

أأقـول فيـك سميـدع كـلا ولا حـاشا لمثلك أن يقـال سُمَيْدَع[1]
بـل أنت في يـوم القيـامة حـاكم في العـالمين وشـافـع ومشفـع

فانظر كيف جعله بمنـزله الله تعـالى يوم القيـامة، فـإن الحاكم في العالمين يوم القيامة هو الله تعالى. وهذا نهاية الغلو.

ومثل ذلك قوله:

وإليـه في يـوم المعـاد حسابنـا وهـو المـلاذ لنـا غـداً والمفـزع

ثم قال:

هـذا اعتقـادي قـد كشفت غـطاءه سيضـر معتقـداً لـه أو ينفـع

ومثل ذلك كثير في شعره فكيف يقال أنه من أهل السنة أو المعتزلة من أهل السنة ما أظن من يقول بذلك إلاّ جاهل بمقالات النِّحَل.

فقال: ابن أبي الحديد شاعر والشاعر إذا قال شعراً لا يعول عليه ففي التنزيل ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾.

فقلت: ليس شعره فقط ناطقاً بذلك، بل إن تصانيفه صرحت بأعظم مما في شعره، هذا شرحه «على نهج البلاغة» فيه من الغلو ما ليس عليه مزيد، وكذلك غيره من مؤلفاته، وهو ـ وإن كان يتلون تلون الحرباء ـ من غلاة الشيعة كما لا يخفى على من سبر كلامه بمسبار الإنصاف.

---

(١) السيد الكريم الشريف.

(١) نعم إنه كان قائلاً بخلافة الخلفاء الثلاثة كما يفهم من كثير من عباراته وذلك غير كاف في كونه من أهل السنة لا سيما وقد طعن في كثير من الصحابة الكرام كمعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وطلحة والزبير وعائشة أمّ المؤمنين وأضرابهم ممن خاض الفتنة مع أنهم عند أهل السنة كلهم من العدول الأخيار، والصديقين الأبرار، فكيف يكون مع ذلك من أهل السنة؟.

(٢) فقال: كيف يكون معاوية من العدول الأخيار وقد شق عصا المسلمين، وحارب أمير المؤمنين مع ما كان عليه من الحيل والدسائس والمكر والخدع وحب الدنيا والعداوة لأهل بيت النبّوة، وقد تلقى ذلك عن أسلافه واغتصب الخلافة وبايع لابنه يزيد اللعين الطريد وأجبر أكابر الصحابة على مبايعته وهددهم بالقتل والتنكيل إن لم يوافقوه على ذلك حتى نشأ من ذلك مفاسد عظيمة استوجبت ضعف دولة المسلمين وتلاعب قومه الأمويون وبنو مروان بالدين والدولة حتى طهر الله تعالى الأرض منهم، فكيف ساغ لأهل السنة أن يعدوا ذلك الرجل من الأخيار والعدول الأبرار؟ فما ذلك إلاّ جور في الأحكام ومخالفة قواعد الإسلام.

فقلت: إن أهل السنة لم يتبعوا أهواءهم في ذلك، بل اتبعوا ما ورد في الكتاب والسنة من الثناء على الصحابة عموماً وذلك في آيات كثيرة وأحاديث شهيرة، فمن شهد بعدالته الكتاب والسنة وهما شاهدا عدل كيف لا يحكمون بعدالته؟ وما صدر من بعضهم مما يخدش وجه العدالة أولوه وحملوه على أحسن المحامل جمعاً بين الأخيار وهم ليسوا بمعصومين حتى يقال إنه قد صدر عنهم ما يخالف العصمة، ولذلك نحبهم لمحبة الله ورسوله ونترضى عنهم أجمعين.

فقال: إن أهل السنة يقولون إنه باغ على الخليفة الحق، والباغي مرتكب كبيرة يجب على المسلمين قتاله، وأنت لو كنت في زمنه لوجب عليك قتاله وقتله، فكيف تحبه وتترضى عنه أنت وغيرك من أهل السنة؟

وهل هذا إلاّ عناد واتباع هوى، ثم كيف تزعمون أنكم تحبون علياً وتحبون أعداءه القاسطين أما سمعت قول الشاعر:

تحب عدوّي ثم تَزْعَمُ أنّني صديقك إنَّ الرأي منك لعازِبُ

وقال سبحانه في الكتاب المجيد ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله﴾.

فقلت: إن أهل السنة يعتقدون أنه باغ وأنه يجب قتاله، لكن ليس كل بغي كبيرة بل ذلك البغي الصادر عن اتباع هوى وطمع في الدنيا، لا البغي الذي كان عن اجتهاد كما يقتضيه منصب الصحبة فحينئذ يكون المقاتل له معذوراً، كما أنه معذور بل مأجور وإن أخطأ في اجتهاده، ثم أنا لا نسلم أن واحداً من الصحابة كان من أعداء علي حتى يصدق البيت علينا، بل إنما كان ما كان لمحض الاجتهاد وطلب مرضاة الله لما يقتضيه الثناء عليهم بالنصوص الكثيرة.

فقال: إن كان معاوية معذوراً في محاربة الأمير في اجتهاده فأنا أجتهد في لعنه لأنه ظلم عليا، والظالم ملعون بنص الكتاب، فلعنة الله عليه وعلى أمثاله ممن ظلم أهل البيت، فإن كنت مصيباً في اجتهادي هذا فلي أجران، وإن أخطأت فلي أجر واحد. وذلك أسهل بكثير مما كان من معاوية مع علي.

فقلت: كلام المحققين في المناظرة معلوم لديك ومثل كلامك هذا خارج عن باب المناظرة على أنه مقدوح من وجوه.

أما أولاً: فلم يثبت أنك من المجتهدين ولا بلغت رتبة الاجتهاد كما تبين حالك لديّ في هذه المناظرة، وللاجتهاد شروط ذكرها الأصوليون لا أراك مستجمعاً لها.

وأما ثانياً: فكلامك في هذا الاستدلال مشتمل على مغالطة؛ فإن الظلم الذي يترتب عليه اللعن هو الكفر كما ذكر ذلك المفسرون في تفسير

قوله تعالى ﴿ألَا لَعْنَةُ اللَّهِ على الظَّالمين﴾ ولما نَـزَل قولـه تعالى: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على كثير من الناس حتى بين النبي ﷺ أن المراد بالظلم الكفر.

فقال: لم يُسمع أن الظلم الذي توعد عليه هو الشرك والكفر. على أن هذا بحث قد فرغ منه أهل العلم.

ولنضرب عنه صفحاً إلى مبحث آخر وإنّي أحب الشعر والأدب فهل في بغداد شعراء أدباء؟ وهل تحفظ شيئاً من شعرهم؟ فاذكره لنا.

فقلت: راجع كتب التفسير يتبين لك ما ذكرته إن شاء الله تعالى. وقد أحسنت في الإعراض عن هذا البحث، لا سيما وقد ملئت بطون الكتب والدفاتر منه. أمّا أدباء بغداد فكثيرون مشهورون.

ثم استطرد الكلام إلى بحث القضاء والقدر وأراد الخوض فيه.

فقلت: إن الوقت أدرك والساعة الآن العاشرة والجماعة الذين معي يريدون العود قبل أن يدخل ظلام الليل، وبحث القضاء والقدر أُلِّفت فيه كتب مفصّلة منها «شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليـل[١]» على أن الخوض في هذا الباب منهي عنه عند أهل السنة لورود النهي عنه، وإنه سر من أسرار الله. فقمت وودعتهم ثم أوصيت وكيل البستان واسمه «حسون» وهو رجل كهل أن يأخذهم معه إلى غرفة القصر، وإن أحبوا أن يبيتوا فيه فلا تمنعهم، ثم ركبنا وعدنا إلى محالنا ودونت ما كان، وربما حصل فيه زيادة ونقصان، وبعد ذلك بمدة رأيت الوكيل وسألته عن الجماعة فقال: باتوا في البستان وبعد رجوعك سألوا عنك فعرفتهم بك، قال: وبقوا يثنون ويحمدون، وقالوا: لو لم يكن العيال معنا لبقينا معه ـ يعنوني ـ مدة طويلة ثم ركبوا عند طلوع الفجر. هذا ولم أعلم بحالهم بعد ذلك ومـا فعل الله بهم[٢].

---

(١) كتاب لابن القيم رحمه الله، وهو مطبوع متداول.

(٢) «المسك الأذفر»: ٢٦٠ ـ ٢٨٧.

الشيخ محمد اليماني

هو رجل من أهل العلم والفضل له إلمام بعلم الأصول والفقه والنحو والعَروض وغير ذلك.

وقد ساح بلاد الهند وما وراء النهر وغير ذلك من البلاد، وحج مرتين وجاء إلى بغداد قبل وفاته بنحو خمس وثلاثين سنة وسكن في الأعظمية وجاور في مسجد الإمام الأعظم في الغرفة المطلة على المقبرة وانزوى هناك عدة سنين لا يختلط مع الناس إلا قليلاً، كان مواظباً على الصلوات والطاعات.

(١) وأصله من أهل زبيد وربما اتُّهم بالزيدية وهم يوافقون الإمام أبا حنيفة في الفروع، وفي الأصول كالمعتزلة، وقد بحثت معه في الأصول مراراً فرأيته يميل إلى أصولهم ولا يرى أن جميع الصحابة عدولاً حتى أني هجرته عدة سنين لذلك، وغالب علماء زبيد وصنعاء على هذا المذهب أعني مذهب الزيدية، وما هم عليه لا يعلمه كثير من الناس لبعدهم عنهم وغالبهم في اليمن فلا بد من كشف حالهم بعد الفراغ من ترجمة هذا الرجل.

وكان رجلاً ثقة ورعاً تقياً محترماً لدى الناس خصص له راتب من بيت المال يسد فم حاجته، ثم تزوج في قصبة الأعظمية فولدت له بنتان، وكان طويل القامة أسمر اللون حسن الصورة بهيَّ المنظر بلغ من العمر نحو ثمانين سنة وكان منكباً على مطالعة تفسير الكشاف وشفاء العليل لابن القيم وكتاب النِّحل لابن حزم. تمرض أياماً يسيرة فانتقل إلى رحمة الله سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وألف من الهجرة، ودفن في مقبرة الخيزران في قصبة الأعظمية تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته.

ويقال إن له أولاداً في زبيد وغيرها من قرى اليمن ولم يكن يعلم حالهم ولا جرت بينه وبينهم مكاتبة وكان إذا سئلَ عن ذلك لم يجب. وقد

آن لنا أن نذكر ما عليه الزيدية حسبما وقفنا عليه وحققناه والله ولي التوفيق ومنه المعونة.

ما عليه الزيدية من العقائد والأعمال

ذكر المقريزيّ في كتاب «الخطط والآثار» أن الزيدية هي الفرقة الرابعة من فرق الشيعة وأن اختلافهم في مسألة الإمامة أدى إلى افتراقهم إلى ثلاثمائة فرقة وذكر منها عشرين فرقة ومنهم الزيدية. قال وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين إلى أن قال وهم يوافقون المعتزلة في أصولهم كلها وأطال الكلام في ذلك.

وخلاصة الكلام في هذا المقام: أن مذهب الزيدية منسوب إلى زيد وهو حفيد الإمام الحسين عليه السلام، ولد سنة أربع وسبعين أو ثمانين وأمه جارية سندية وكان متصفاً بالعلم والشجاعة والعفة.

وذكر أبو حاتم ابن حبان البستي أنه رأى جماعة من صحابة رسول الله ﷺ وأخذ العلم عن والده الإمام زين العابدين وأخيه الأكبر الإمام محمد الباقر عليهما السلام وروى عنه جمع من الفقهاء والمحدثين. وفي سبب خروجه على هشام بن عبد الملك روايات مختلفة كما في «مروج الذهب» للمسعودي «وعمدة الطالب» وغيرهما من كتب الأخبار، وهو الذي لَقَّب أهل الكوفة بالرافضة، وهو وأبوه كانا من الموالين لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وقال: صدق رسول الله ﷺ هم الروافض لهم خزي في الدنيا والآخرة ومن يومئذ لقبوا بالروافض.

استشهد يوم الأحد في صفر قال بعضهم كان ذلك سنة ست وعشرين ومائة وقال آخرون منهم الواقدي وأبو بكر بن أبي شيبة إحدى وعشرين ومائة ومدة عمره اثنان[1] وأربعون سنة على قول الزبير بن بكار وأكثر أهل الأخبار. وقال بعضهم ثماني وأربعون سنة، ثم خرج ولده يحيى بن زيد

---

(١) كذا.

واستشهد بعد محاربة شديدة وذلك عصر يوم الجمعة أوائل سنة ست وعشرين ومائة وقيل في أواخر خمس وعشرين ومائة. وعمره إذ ذاك ثماني عشرة سنة. وقصة خروج زيد وابنه يحيى مفصلة في كتاب «حجج الكرامة» وكتاب «مقاتل الطالبيين»[1] ولم يكن غرضنا ذكر قصصهم في مثل هذا المقام بل بيان مذهب الزيدية.

والشيخ غلام حليم المحدث الدهلوي ذكر في كتابه «نصيحة المؤمنين وفضيحة الشياطين» الشهير «بالتحفة الاثني عشرية» عند بيان مذهب الرفض وانشعابه أن الزيدية المحضة أصحاب زيد بن علي الذين بايعوه على الخروج على أولاد عبد الملك بن مروان وتعلموا الأصول والفروع منه ويروون عنه أن التبري من كبار الصحابة ليس بجائز وينقلون النصوص المتواترة عن الإمام زيد في هذا المدعى ويذكرون الصحابة بخير ويقولون إن الإمامة كانت حق الإمام المرتضى وهو الذي تركها للشيخين وذي النورين، ويقولون إن بيعة الخلفاء الثلاثة لم تكن خطأ لأن المرتضى كان راضياً بذلك. والمعصوم لا يرضى بالخطأ الباطل، ومذهب هؤلاء كان موافقاً لمذهب أهل السنة في جميع مسائل الإمامة إلا في اشتراط أن يكون الإمام فاطمياً فإذا فوض الإمامة لغيره جاز.

ويقال إن أصل الزيدية الفرقة الثانية من الشيعة الأولى ولكن المتأخرين منهم بسبب اختلاطهم مع المعتزلة والشيعة تحرف مذهبهم وتغير عما كان. ويقولون إن الإمام أبا حنيفة رحمه الله كان قائلاً بصحة إمامة زيد بن علي عليه السلام وكان يصوب خروجه وكان يحث الناس على إعانته وموافقته؛ ولهذا وافقه أكثر الزيدية في الفروع ووافقوا المعتزلة في العقائد انتهى.

وكتب في بيان الشيعة الأولى أنهم الشيعة المخلصون ومقتدى أهل السنة والجماعة وكانوا سالكين مسلك الإمام كرم الله وجهه في مراعاة حقوق

---

(١) لأبي الفرج الأصبهانيّ.

أكابر الصحابة وأمهات المؤمنين مصونين ظاهراً وباطناً من الغل والنفاق. وقد كان ما كان منهم من المشاجرة والمقاتلة مع من حارب الإمام، وقد صانهم الله من شر الشيطان. لقوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ فلم تتلوث أذيالهم من قاذورات ذلك الخبيث[1] وقد مدحهم الأمير[2] كرم الله وجهه في خطبه واستحسن مسلكهم.

فعلم أن الزيدية أتباع زيد بن علي وأنهم موافقون في الفروع الإمام أبا حنيفة وفي الأصول المعتزلة. وأن خَلَفهم لم يجر على سنن سلفهم فبدلوا وغيروا. وبسبب ذلك افترقوا فرقاً كثيرة.

وكان أئمة اليمن على ما كان عليه الزيدية في الصدر الأول موافقين للشيعة الأولى دل على ذلك كتب مذاهبهم وكلام مجتهديهم. وفي كتاب «إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي» للشوكاني رحمه الله تصريح بأن مشرب الإمام المؤيد بالله أحمد بن حسين الهاروني أوالإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة والمؤيد بالله يحيى بن حمزة والسيد هادي بن إبراهيم الوزير وغيرهم من أئمة اليمن مذهبهم في الإمامة ما نقل عن التحفة الاثني عشرية. قال: «وأما القول بالتكفير والتفسيق في حق الصحابة فلم يؤثر عن أحد من أكابر أهل البيت وأفاضلهم فمن روى خلاف ذلك فهو مردود على ناقله» انتهى كلام الشوكاني.

ثم إنه بسط الكلام في ذلك وأثبته باثني عشر طريقاً، ثم قال: فهذه طرق متضمنة لإجماع أهل البيت من أئمة الزيدية وغيرهم كما في بعض هذه الطرق. والناقل للإجماع من أسلفنا ذكره من أكابر أئمتهم. فيا خزي من أفسد دينه بذم خير القرون وفعله بنفسه ما لا يفعله المجنون.

وأئمة الزيدية الذين لقبوا أنفسهم بألقاب الخلفاء العباسيين كانوا من أهل الاجتهاد في العلم ويعبر عنهم في كتب علماء اليمن وزبيد وغيرهما

---

(١) أي الشيطان.

(٢) أي عليّ رضي الله عنه.

بلفظ الآل والعِتـرة وأهل البيت. ولكن خلف من بعـدهم خلف أضاعـوا الصلاة واتبعوا الشهوات، واختاروا مشرب الرفض وطريق الإمامية كما يظهر ذلك من كتب متأخريهم، ولذلك بعدوا عن مذهب أهل السنة والجماعة.

وقد قيض الله جماعة من أهل العلم لقمع مفاسـدهم، وقلع أساس معتقدهم فردوا عليهم فروعهم وأصولهم، ومعقولهم ومنقولهم بكتب كثيرة، وتصانيف شهيرة، جزاء لسوء فعلهم، وحسماً لباطلهم، وتكلموا على كل مسـألة وأبـطلوا أقوالهم ومـذاهبهم، ولم يدعـوا منها نقيـراً ولا قطميـراً، وألزموهم بنصوص آبائهم وأفحموهم بها وأثبتوا مذهب أهل السنة والجماعة بالكتاب والسنة، وعرجوا معارج المجتهدين والمجددين واختاروا طريقة أهل الحديث.

ومن هذه الجماعة بل أولهم العلامة السيد محمد بن إبراهيم الوزير[1] وكان معاصراً للحافظ ابن حجر العسقلاني وقد عقد لهـذا السيد تـرجمة حافلة في كتابه: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، وقال ينبغي أن يكون فريداً في أوصافه وهو حقيق بذلك، وكان لهذا السيد اليد الطولى في علوم الـدين وقد بلغ رتبـة الاجتهاد، ويشهـد لذلـك ما ألفـه من الكتب المفيدة، والتصانيف السديدة، منها كتاب «العـواصم والقواصم» في الـرد على زيدية اليمن، واستئصال هذه الفرقة الضالة، ولما كان زمام حكومة اليمن وصنعاء وحواليها في قبضة الزيدية، آذوه بسبب هذا الرد وقاموا عليه وأثاروا فتنة عظيمة فخالفهم وجلس في زوايا المعزلة وألف حينئـذ كتاب «العزلة»، ثم لخص كتاب «العواصم» وسماه «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم» جزاه الله عن المسلمين خيراً، وكان عنده كثير من رسائل الحافظ ابن حجر، ولـم يزل مشغولاً في رد الزيدية وجاهد فيهم جهاداً لا يتيسر من غيره.

---

(١) ستجد ترجمة موسعة له في مختارات «البدر الطالع» لأهل القرن التاسع في هذا الكتاب فانظره.

ومممن قيضه الله تعالى لدرء مفاسد هذا المذهب السيد محمد بن إسماعيل الأمير[1] وكان من أكابر أهل السنة لم يأل جهداً في الرد على الزيدية وهدم أركان مذهبهم أصولاً وفروعاً، ومن تصانيفه المفيدة كتاب «منح الغفار في حاشية ضوء النهار» وغير ذلك من كتبه المطولة والمختصرة، ومن وقف عليها تبين له ما كان من استئصال عقائد هذه الفرقة المبتدعة وإبطال مذهبهم وأن له اليد الطولى في تحقيق الحق وإبطال الباطل وقد آل الأمر به إلى أن أخرجوه من اليمن وخربوا داره وآذوه كل الإيذاء، ولما لم يمكنه مفارقة وطنه وإخوانه وأخدانه ألّف كتاب «الروضة الندية في مناقب العلوية» استمالة لقلوب هذه الفرقة لا سيما وقد كان زمام الحكومة اليمانية بيدهم فاستلان بذلك شكيمتهم وسكن غضبهم وقد اقتصر على ذكر فضائل أهل البيت ولم يلتفت إلى ما اختاره أهل السنة من المسائل. وبهذه الوسيلة عاد إلى وطنه غير أن الزيدية تصرفوا بهذا الكتاب على ما قيل [وزادوا] عليه مسائل.

ولهذا السيد تآليف أخرى منها «سبل السلام شرح بلوغ المرام» وشرح «الجامع الصغير» للسيوطي وقد تعقب في سبل السلام على الزيدية في مواضع كثيرة.

وبعد وفاة هذا السيد رفع الزيدية رؤوسهم وتكلّموا على أهل السنَّة بكلام شنيع، وقول قطيع، وحطّوا على أهل الحديث تحريراً وتقريراً؛ حيث لم يكن لهم معارض، ولا ممانع ولا مناقض.

ثم إن الله تعالى قيض لهم فخر الملة وعز الإسلام، وحسنة الليالي والأيام، القاضي محمد بن علي الشوكاني فقمع به البدعة، وأزال به الضلالة، وقهر به أهل النحل والمذاهب الباطلة، كالزيدية وغيرهم، فأصبح الإيمان في اليمن ونواحيها غضاً طرياً، وتميز الحق البحت من الباطل

---

(١) وهو المعروف بالصنعاني، وستجد ترجمة له حافلة في مختارات «البدر الطالع» لأهل القرن الثاني عشر.

الصرف وصرف كثيراً منهم عن اختيار التقليد إلى الأخذ بـالدليـل واتباع الكتاب والسنة بعدما كانت هذه الطريقة المثلى مهجورة في زوايا العـدم فأبرز بهممه ومساعيه إلى حيز الوجود، وأحيا ما اندرس من السنة السنية، وميزها عن طريق الابتداع، ومهد قواعد الاجتهاد وأصوله، وأسس ضوابط ترك تقليد أهل المذاهب وقوانينها التي لا تزال إلى آخر الزمان، لا سيما ما ألفه في الرد على مذهب الزيدية والحط على هذه الفرقة فأظهر ما كان من بقايا الأسلاف الكرام والعلماء والأعلام في ذلك القطر، وجدد رسومه وأحيا أعلامه، ولم يترك شيئاً من فـروع هذه الـطائفة وأصـولها إلا وكشف عن عواره.

(١) وفي كتاب «وبل الغمام في شرح شفاء الأوام» بين بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة، بطلان ما عليه هذه الفرقـة. وشفاء الأوام هـذا تأليف السيد العلامة حسين بن محمد بن يحيى بن ناصر بن حسن بن المعتضد بالله عبـد الله بن الإمام المنتصـر لدين الله محمـد بن الإمام المختـار لـدين الله قاسم بن الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبـراهيم بن حسن بن حسن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) وكان هذا الكتاب أعظم الكتب الحديثية لدى الفرقة الزيدية حتى أن جماعة من أساطين أئمة هذا الشأن صرحوا بكفايته في اجتهاد المجتهدين ووفائه بالقدر المعتبر من سنة سيد المرسلين.

(٣) وجميع أهل ديار اليمن في هذا العصر عاكفون على درس هذا الكتاب وتدريسه، وجازمون بصحة ما اشتمل عليه من الأخبار الكافلة ببيان أسرار الدين ونواميسه، ومصنِّفه يروي أحاديثه بسنده عن آبائه إلى أن يتصل بالأئمة السابقين من أهل البيت ولذلك كان عمدة أصول مذهبهم في علم الحديث.

فالعلّامة الشوكاني هدم هذه الأصول من أصلها حيث طعن في غالب

تلك الأخبار التي هي رأس مالهم، ومنتهى كمالهم، وبين وضعها وضعفها، وأعلّها بعلل أخرى مانعة من صحة المتن وجواز العمل بها، ثم وجه نِباله إلى استئصال فروع مذهبهم.

وقد شرح العلامة الشوكاني أيضاً كتاب «حدائق الأزهار» وهو من الكتب التي يعتمد عليها الزيدية في هذه الأعصار في العبادات والمعاملات وسماه «السيل الجرار، المتدفق على حدائق الأزهار»[١] وتكلم في كل من الكتابين على جميع مسائلهم وبين الحق الحقيق بالقبول، في الفروع والأصول، ولم يكتف بذلك بل إنه لم يزل يتعقب كلامهم في سائر كتبه ويعترض على أقوالهم على اختلاف آرائهم وبيان مذاهبهم، كما يظهر ذلك لمن طالع كتاب شرح المنتقى وغيره ولذلك آذوه أيضاً، وأوصلوا إليه أنواع المحن ولكن الله سبحانه نصره عليهم إنجازاً لقوله عزّ اسمه ﴿وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين﴾ ورد كيدهم في نحورهم، ولا يحيق المكر السيء إلّا بأهله، فانتخبه الإمام المنصور بالله أمير اليمن في ذلك العصر لقضاء القضاة، والحق يعلو ولا يعلى عليه، وقد ذكر الشوكاني ما كابده من الزيدية من المحن والأذى في كتابه «أدب الطلب» على التفصيل فمن أراد الوقوف على ما كان فليراجع هذا الكتاب وفي تلك الردود كشف عورات هذه الفرقة وهتك أستارها ورد جميع ما هم عليه وذكر معايبهم ومثالبهم.

قال الشوكاني في «وبل الغمام»: «من غلا من الزيدية وسب وثلب فليس هو من الزيدية ولا من أتباع أئمة أهل البيت بل هو رافضيّ مقلد لغلاة الرافضة» انتهى.

(١) ولما كان طائفة الزيدية المتأخرين فرقة من فرق الروافض موافقين للحنفية في الفروع وللمعتزلة في الأصول كما فصله مصنف التحفة الاثني عشرية، قال الشوكاني في كتاب «نثر الجوهر في شرح حديث أبي ذر» ما نصه: فعرفت بهذا أن كل رافضي خبيث على وجه الأرض يصير كافراً

(١) طبع هذا الكتاب في أربعة أجزاء مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة.

بتكفيره لصحابي واحد لأن كل واحد منهم قد كفّر ذلك الصحابي فكيف بمن كفر كل الصحابة واستثنى أفراداً يسيرة تنفيقاً لما هو فيه من الضلال على الطغام، الذين لا يعقلون الحجج ولا يفهمون البراهين ولا يفطنون بما يضمره أعداء الإسلام من العناد لدين الله والكياد لشريعته. قال: وقد ثبت في كتب اللغة وشروح الحديث وكتب التواريخ أن الرافضة إنما ثبت لهم هذا اللقب لما طلبوا من الإمام زيد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم أن يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال هما وزيرا جدي فرفضوه وفارقوه فسموا حينئذ الرافضة إلى آخر ما قال. وقد أطال في بيان ذلك وأجاد وأفاد وليس هذا موضع ذكره على التمام. (١)

(٢) ولما كان هذا الاهتمام في الرد على زيدية اليمن، ورفضة الزمن، من بركات هؤلاء الحضرات وانتشار علوم الكتاب والسنة في قطر اليمن وغيره بعالي همة هؤلاء الأئمة نص علماء زبيد وبيت الفقيه والحرمين الشريفين وغيرهم الذين هم من أهل السنة على اجتهادهم وأنهم المجددون في عصرهم فالحافظ محمد بن الوزير كان مجدد عصره ومجتهده وكذلك السيد محمد بن إسماعيل الأمير كان مجدد القرن الحادي عشر، ومجتهد ذلك العصر، كما صرح بذلك ولده السيد عبد الله في إجازته لبعض مشايخ الهند وكذا الشوكاني، فقد قال باجتهاده وتجديده كل قاص وداني، حتى كان أهل العلم من الناس يفتخرون بالانتماء إليه، والتتلمذ عليه، بل عدوا ذلك عنوان مباهاتهم، حتى عمت بركة مؤلفاته الأقطار الهندية.

وبالجملة فملخص الكلام، على الزيدية في هذا المقام، أن الصدر الأول منهم كانوا في الجملة على منهج أهل السنة، وعلى طريقة الحنفية، ومنهم جماعة أخرى تحزّبوا أحزاباً، وتفرقوا إلى فرق شتى، والمحدثون وأكابر أهل السنة الذين كانوا معيار كل اتباع وابتداع حكموا ببطلان مذهب هذه الطائفة وحذروا الناس من التدين بدينهم، وذلك بعد أن حققوا أحوالهم، ودققوا النظر في عقائدهم وفتشوا أحوالهم، فلم يقصروا في الرد على مفاسدهم إلا أنهم لم يحكموا بكفرهم، بل اقتصروا على تبديعهم

وتضليلهم، وعدوهم من فساق التأويل، كما حكم جماعة أهل السنة بمثل ذلك على المعتزلة ونحوهم ولم يكفروهم.

(١) والقول بأن جميع أهل اليمن زيدية خطأ فاحش ومنكر صريح كما يظهر لمن تتبع التاريخ والطبقات، ولا يمكن لأحد من أهل الدنيا إثبات هذا الظن الفاسد. وما أحسن ما قيل:

يقولون أقوالاً ولا يعرفونها ... ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

(٢) والفرقة السُّنية من الزيدية يرمون من لم يوافقهم بالنصب. قال الشوكاني في «إرشاد الغبي»: ربما تجاوز بعض جهال الشيعة من أهل عصرنا إلى سب الصحابة فحكم على من لم يسب بأنه ناصبي وهذه قضية أشد من قضية السب لأن هذا الجاهل حكم على جميع العلماء من السلف والخلف بالنصب والناصبي كافر فيستلزم هذا الحكم تكفير جميع المسلمين. وليس بعد هذا الخذلان ولا أشنع من هذه الخصلة التي تبكي لها عيون الإسلام وتضحك لمثلها ثغور الكفران، وما درى هذا المخذول أن من كفر مسلماً واحداً صار كافراً بنصوص السنة المطهرة فكيف بمن كفر جميع المسلمين، فيا لله العجب من رجل بلغ به جهله الفظيع إلى الكفر المضاعف نسأل الله السلامة. انتهى.

ثم ذكر بعد ذلك أدلة كفر الناصبي، وحاصله أن النصب بغض علي بن أبي طالب وبغضه نفاق وكفر بمتقضى منطوق الأحاديث، فمبغضه كافر كما أن من سبَّ غيره من الصحابة كافر بأدلة أخرى وقد أحسن من قال:

علي يظنون بي بغضه ... فهلّا سوى الكفر ظنوه بي

وقال: المراد من النواصب الخوارج وعبر عنهم بكلاب أهل النار[١] في مواضع كثيرة من كتابه.

---

(١) الذي وصفهم بذلك سيد الخلق ﷺ كما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله عن أبي أمامة رضي الله عنه.

ثم قال: ومن العجائب أنا سمعنا من جهال عصرنا من يطلق اسم النصب على من يقرأ كتب الحديث بل على من قرأ في سائر علوم الاجتهاد ويطلقونه أيضاً على أئمة الحديث بل وعلى أهل المذاهب الأربعة وهذه مصيبة مهلكة لدين من تساهل في ذلك، ولا يكون إلا أحد رجلين إما جاهل لا يدري ما هو النصب ولا ما هو الناصبي أو غير مبال بهلاك دينه ومن كان بهذه المنزلة لا ينتفع بمثل هذا النصح وليس علينا إلا القيام بعهدة البيان للناس الذين أوجبه الله ورسوله علينا «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة». انتهى.

قلت: وما أحسن قول القائل:

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

هذا ما أمكن تحريره في هذا المقام، من بيان ما عليه الزيدية من الأحكام، وبقي الكلام على تراجم أئمتهم ورجالهم وبيان ما عليه فرقهم مما يخالف به بعضهم بعضاً وقد صُنِّف في ذلك كتب كثيرة، وتكلم على فرقهم علماء الكلام في الكتب المفصلة والله ولي التوفيق.[1].

الشيخ داود بن جرجيس النقشبندي

كان من أفاضل بغداد، وكان يدرِّس في مدرسة (محمد طبقجلي) في محلة العاقولية، وغالب تدريسه في النحو والفقه، وكان يعظ في جامع الوزير (في رمضان)، وله غرائب في الوعظ والقصص.

(١) جَرتْ له مناظرات مع السَّلَفيين، حيث دعا إلى الاستعانة والاستغاثة بقبر أبيه والاستمداد من الأموات. وألّف في ذلك رسائل مشتملة على الهذيان والكذب والبهتان، وكثرت عليه الردود، فردَّ عليه الشيخ عبد اللطيف

---

(١) «المسك الأذفر»: ٣٣٣ ـ ٣٤٥.

عالم نجد[1] بكتاب مفيد سمّاه: «دلائل الرسوخ في الرد على المنفوخ» وآخر سمّاه: «منهاج التأسيس». وغير ذلك. وكلّها منتشرة مطبوعة. وكثير من الأفاضل منع من النّظر في كتبه ومطالعتها. لأنّه حرَّف الكَلِم عن مواضعه وافترى فيها.

(١) وأحسن ما قال أبو حيّان في كتابه: «الدر اللّقيط من تفسيره، البحر المحيط» ما نصه:

وقد ظهر في زماننا هذا الزمان العجيب ناس ينتمون إلى المشايخ، يلبسون ثياب شهرة عند العامّة بالصلاح، ويتركون الاكتساب ويرتبون لهم أذكاراً لم ترد في الشريعة يجهرون بها في المساجد، ويجمعون لهم خدّاماً يُجلسون الناس إليهم لاستخدامهم ونَتْش أموالهم، ويذيعون عنهم كرامات، ويروون لهم منامات يدونونها في أسفار، ويحضّون على ترك العلم والكمال والاشتغال بالسُّنّة، ويرون أن الوصول إلى الله بأمور يقررونها من خلوات وأذكار لم يأتِ بها كتاب منزل ولا نبيّ مرسل، ويتعاظمون على الناس بالانفراد على سجّادة ونَصْب أيديهم للتقبيل وقلّة الكلام وإطْراق الرأس وتعيين خادم يقول: الشيخ مشغول في الخلْوة، رسم الشيخ، رأى الشيخ، الشيخ له نظر إليك، الشيخ كان البارحة يذكرك، إلى نحو هذا اللفظ الذي يحشرون به على العامة، ويخلبون به عقول الجهلة.

(٢) هذا إنْ سَلِمَ الشيخ وخدّامه من الاعتقاد الذي غلب الآن على متصوفة هذا الزمان من القول بالحلول، والقول بالوحدة، فإذاً ذاك يكون مُنْسَلخاً عن شريعة الإسلام بالكليّة. والعجب لمثل هؤلاء، كيف ترتب لهم الرواتب ويبنى لهم الرُّبُط، ويوقف عليهم الأوقاف، ويخدمهم الناس مع

---

(١) قال المحقق: عبد اللطيف بن الشيخ عبدالرحمن آل الشيخ (١٢٢٥ - ١٢٩٣ هـ)، كما ردَّ عليه أيضاً: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ت ـ١٢٨٥ هـ)، بكتاب عنوانه: القول الفصل النفيس في الرد على المفتري داود بن جرجيس، طبع في القاهرة، (ص/٢١٤) مطابع أنصار السنة، تحقيق: محمد حامد الفقي.

عُزُوِّهم عن سائر الفضائل، ولكن الناس أقرب إلى أشباههم منهم إلى غير أشباههم».

قال: «وقد أطلنا في هذا رجاء أنْ يقف عليه مسلم عاقل، فينتفع به، إن شاء الله تعالى». انتهى.

(١) قال أحمد بن عيسى زروق المالكي المغربي الفاسي المتوفى في سنة ٩٣٠ للهجرة في كتابه: «تأسيس القواعد والأصول، وتحصيل الفوائد لذوي الوصول». ما نصه:

«قاعدة».

حذر الناصحون من:

«فتوحات» الحاتمي[1]، بل كل كتبه أو جُلّها.

وكابن سبعين، وابن الفارض، وابن أجلى، وابن دوسكين، والعفيف التلمساني، والأيكي العجمي، والأسود الأقطع، وأبي إسحق التجيبي، والششتري، ومواضع من: «الإحياء» للغزالي، جلّها في «المهلكات» منه، و«النفخ والتسوية له»، و: «المضنون به على غير أهله»[2]، و«معراج السالكين» و«المنقذ»، ومواضع من: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وكتاب السهروردي، ونحوهم.

فلزم الحذر من موارد الغَلَط، لا تجتنب الجملة، ومعاداة العلم، ولا يتمّ إلّا بثلاث: قريحة صادقة، وفِطْرة سليمة، وأخْذ ما بانَ وجهه، وتسليم ما عداه، وإلّا هلك النّاظر فيه باعتراض على أهله، أو أخْذ الشيء على غير وجهه فافهم.» انتهى.

---

(١) هو ابن عربي الحاتمي.

(٢) هذا الكتاب منسوب للغزاليّ رحمه الله وقيل ليس له قطعاً، والله أعلم.

فهذه الكتب الذي حذر أهل العلم عن مطالعتها، أهون شرّاً من كتب القبوريين الغُلاة، فهذه أولى بالمَنْع.

وكان المترجَم له شعر جيّد ونشر لطيف، غير أنّه قليل جدّاً. توفي سنة تسع وتسعين ومائتين وألف وقد أعقب ثلاثة أبناء، كلّهم على شاكلته وعلى منهاجه وحالته[1].

(١) «المسك الأذفر»: ٤٥٩ - ٤٦٢.



مختارات القرن الثالث عشر
من كتاب
«الوسيط في أدباء شنقيط»

تأليـف

الأستاذ أحمد الشنقيطيّ



باب بن احمد بيب بن عثمان

كان عالماً ناسكاً فاضلاً مشاراً إليه في بلده وجيله ملحوظاً بعين التعظيم في معشره وقبيله.

(١) كان باب رحمه الله يناظر العلماء وعمره ثلاث عشرة سنة، وكان الناس يتعجبون منه، وكان ابن عمته حرمة الله بن عبد الجليل المتقدم يقول إذا زار أخواله: أمسكوا عني بابتكم.

(٢) وكان يقول: لا تذاكرني بعلمك هذا الفرخ، والفرخ الولد الذي لغير رشده، والمعنى عند حرمة الله أنه لم يتلق علمه عن شيخ لأن أساتذته كانوا أقل منه منزلة في العلم ولأن مدة طلبه تقتضي أن لا يناظره لما اشتهر عنه من العلم وهذا قريب مما كان أبو حيان يقول عن ابن مالك فإنه قال: (٣) بحثت عن شيوخ آبن مالك فلم أجد له شيخاً مشهوراً يعتمد عليه ويرجع في حل المشكلات إليه إلا أن بعض تلامذته ذكر أنه قال قرأت على ثابت ابن حيان بجيّان وجلست في حلقة أبي علي الشّلوبين نحواً من ثلاثة عشر يوماً ولم يكن ثابت بن حيان من الأئمة النحويين وإنما كان من الأئمة المقرئين. قال: وكان آبن مالك لا يحتمل المباحثة ولا يثبت للمنافثة لأنه إنما أخذ العلم بالنظر فيه بخاصة نفسه ومن تتبع شرحه للتسهيل وجد كثيراً من طعنه عليه عفا الله عنه حتى قال معرضاً به:

(٤) يظن الغمر أنَّ الكتب تهدى ... أخا فهمٍ لإدراكِ العلومِ
وما يدري الجهول بأن فيها ... غوامض حيَّرتْ عقل الفهيمِ
إذا رُمْت العلوم بغير شيخ ... ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى ... تصيرَ أضلَّ من تُوما الحكيم

ولم يحط هذا من قدر ابن مالك ولا صد الناس عن كتبه المفيدة، ومن تتبع بيان العلم وفضله لابن عبد البر علم أنّ هـذا الداء قـديم في العلماءِ في أئمة المذاهب فمن دونهم.

وبالجملة فكان باب هذا من أعاجيب الدهر في العلم والإنفاق في سبيل الله والرجوع إلى الحق.

(١) وقد سمعت من بعض الشيوخ أنه ذاكره في مسألة فشدد صاحب الترجمة في النكير عليه، فلما أمعن النظر في المسئلة علم أنـه مخطىء فترك الناس حتى فرغوا من الصلاة في المسجد فقال لهم: لا يخرج أحد فجعل يشرح لهم غلطه وإصابة من خالفه.

توفي رحمه الله تعالى بسبب سقطة سقطها من فوق جمل ثم تطاول مرضه بعدها سنة. وكان ذلك قبل الثمانين من القرن الثالث عشر.

(٢) وكان أعجوبة في تعبير الرؤيا، أخبره شخص بأنه رأى أنه يؤذن فقال له: ستحج، وكان الأمر كذلك. وأخبره آخر بأنه رأى مثله فقال له: ستثبت عليك سرقة وكان الأمر كذلك أيضاً.

(٣) ومن عجيب استحضاره أنه في وقعة لُمَّيْلِحْ بين إدَوَعْلِ وإدَابلحْسَنْ سعت بينهم وفود الزوايا في الصلح فتراضوا بحكم الشرع وحكموا عالماً ديمانيا فاستظهر أن يقتل أربعة من إدوعل بأربعة من إدا بلحسن قتلوا في تلك المعركة. فقال صاحب الترجمة: إنَّ مثل هذا لا قصاص فيه. فقال القاضي: إن هذا لا يوجد في كتاب، فقال: هو لم يخل منه كتاب فقال القاضي: هذا القاموس، يعني أنه يدخل في عموم كتاب، فتناول صاحب الترجمة القاموس وأول ما وقع نظره عليه «والهيشة: الفتنة وأم حبين وليس في الهيشات قَوَدٌ أي في القتيل في الفتنة لا يدرى قاتله»، فتعجب الناس من مثل هذا الاستحضار في ذلك الموقف الحرج[١].

---

(١) «الوسيط»: ٣٥ ـ ٣٨.

الشيخ سِيدِيَّ بن المختار بن الهَيْبَ الأبييري ثم الانتشائيّ

(١) اشتغل في شبابه بالعلوم وبرع فيها بملازمته لحرمَ بن عبد الجليل العلوي وكان يخدمه خدمة العبد لمولاه فجازاه الله تعالى بذلـك حتى إن تلاميذه كانوا لا يدخلون عليه إلّا حبوا على ركبهم إجلالاً له[١].

(٢) وحدث من رآه في زمن اشتغاله عليه قال: أرسل حرم المذكور إلى التلاميذ أن يذهب أحدهم إلى المنهل ليسقي البقر فإن العبد القائم بأمره غير موجود فلم ينتدب لذلك إلا الشيخ سيديّ فلما أتى بالبقر جعل يقرأ مع التلاميذ على ضوء النار فأرسل إليهم أيضـاً أن يحلب أحدهم البقـر فلم ينتدب لذلك غير الشيخ سيدي ثم إنه رجع بعد حلب البقر وجعل يقرأ أيضاً فوافى رسول من حرم أيضاً بأن يحضر أحدهم قِرى الأضياف النازلين عنده فلم ينتدب كذلك غير الشيخ سيديّ.

ولما تضلع من علمه شد الرحل إلى الشيخ المختار الكنتي بآزواد من مسيرة شهر. ثم وصل إليه ولازمه ستة أشهر ثم مات الشيخ المختار فبقي عند ابنه سيدي محمد المعروف بالخليفة لقيامه مقام أبيه فلازمه عشرين سنة يخدمه فيها حتى برع، ثم رجع إلى بلاده فنزل أوّلاً في تندغ أصله القديم فلم يكترثوا به ثم رجع إلى قبيلته أولاد آبيير فتلقوه بما هو أهله وأكرموه واعترفوا بفضله فلم تزل فضائله تبدو حتى أذعنت له الزوايا وحسّان وصار مثل الملك بينهم فلا يعقب أمره. وكان أهلاً لذلك كرماً وحلماً وعلماً ولم تزل الدنيا تنثال عليه ويفرقها في الناس، وقدم مُرَّاكش ونال حظوة عظيمة من السلطان، وكان يبحث عن الكتب في مراكش ليشتريها فـإذا أراد أن يقضي الثمن يسلم إلى البائع ما بقي عن المحاسبة بالغاً ما بلغ.

(٣) وكانت العرب في أرض شنقيط تجعله حرماً آمناً فيجتمع عنده أحدهم بمن قتل أباه أو أخاه فيجلسهما على مائدة واحدة وإذا بلغ الجاني نواحي البلد الذي يقيم به أمن على نفسه.

---

(١) هذا من العجائب، وهو من المبالغة الزائدة في التعظيم.

(١) ولم يمض عليه يوم إلا وعنده آلاف من الناس يطعمهم ويكسوهم ويقضي جميع مآربهم حتى لقي الله ولا يسأله أحد حاجة إلا أعطاه إياها بالغة ما بلغت. وكان تلامذته يريدون أن يقللوا من ذلك فما أمكنهم وسأله يوماً شخص حماراً فقال: اعطوه الحمار الفلاني فقالوا إنه غائب فقال: اعطوه الجمل الفلاني فقالوا إن الحمار قد حضر فقال: اعطوه إياهما معاً.

(٢) وجاءَه أحد أبناء شيخه فأعطاه جميع ما يملك من الدنيا ثم عاد إليه بعد مدة ففعل ذلك ثلاث مرات.

(٣) وشكى إليه إنسان سوء معاملة امرأته إياه فقال له: وما مالكم؟ فأخبره بأن عندهم شيئاً من الغنم وحماراً وأمة وقال إن هذا لامرأته فدعا بأحد تلامذته وأمره أن يعطيه غنماً وحماراً وأمة وقال له إنها سيسهل أمرها.

(٤) وشكى إليه تلامذته المكلفون بالأضياف كثرتهم فقال: انحروا من الإبل ما يكفي فقالوا إنها مهازيل وليس فيها من السمان إلّا ناقة روى من لبنها اثنان لكثرته، فقال: انحروها فإنها ستشبع مائة. وكان يبلغه أن الطريق منقطع في الجهة الفلانية لعدم عمارتها فيحفر فيها الآبار ويبعث المؤن الطائلة لِقِرى المارين. وفضائله أكثر من أن تذكر رحمه الله.

أخبرني بعض الثقات أنه مات سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف أو نحو ذلك رحمه الله رحمة واسعة[١].

محمد الابييريّ

ابن الشيخ سيديّ المتقدم. هو العلامة الأريب اللغوي الأديب. نشأ في نعمة عظيمة وكلاءة جسيمة، وما ظنك بمن أبوه الشيخ سيديّ. ولما ولد هذا الفتى تباشرت به تلك الأقطار. واشرأبت إلى مآثره تلك الصحارى والقفار.

(٥) ولما ميز آستجلب له أبوه المؤدبين المتأدبين وكان يعلمه الكرم كما

---

(١) «الوسيط»: ٢٤٢ - ٢٤٥.

يعلمه العلوم ويدقق في محاسبته على ما يبدو منه في عنفوانه حتى سما ونبل، وآقتدى به حذو النعل بالنعل حتى صار كما قال زهير في هرم بن سنان وأبيه وجده:

هوالجواد فإن يلحق بشأوهما على تكاليفه فمثله لحقا
أو يسبقاه على ما كان من مهل فمثل ما قدما من صالح سبقا

وكان الناس يظنون أن الشيخ سيديّ لا يسد أحد مسده فلما مات وبقي ابنه هذا في موضعه ما تغير شيء مما كان يجريه أبوه على الناس إلا أن مدته لم تطل فإنه عاش بعده سنة واحدة.

(١) وكان رحمه الله شاعراً مجيداً ترك قصائد تدل على طول باعه في الآداب وله من النكت الأدبية أشياءُ كثيرة. ومنها أنه كان له نديم وأصله حداد وأهل الصحراء يزعمون أن الحدادين أصلهم يهود ثم أسلموا وكان ذلك الشخص اسمه نحن وكان يدعي أنه شريف وكان يجيد اللقم فأعطاه جملاً على أن لا يغضب من أبيات نظمها فيه وهي:

ما هزّ عطفىْ كميٍّ يَوْمَ هيْجاء بين الأواني كذى النونين والحاءِ
فرد يقوم مقام الجمع وهو لذا يدعى بمضمر جمع بين أسماءِ
يسطو بأسلحة للأكل أربعة يدٍ وفمّ وبلعُومٍ وأمْعاءِ
تخال لقماتِه العظمى براحته كراكر الإبل[1] أو جماجمَ الشاء
ما بين طلعتها فيها وغيبتها في فيه إلا كلمحِ الطرف للرائي
فبانَ أنَّ الذي يحويهِ من شرفٍ قد صحَّ لكنه بالهاء لا الفاء

(٢) وتزوّج بامرأة من غير أن يستأذن والدته فذهبت إليه تصحبها عجائز فضربنه فكتب إلى أبيه يشكوهنَّ:

أمِنْ فعل أمرٍ في الشريعة جائز يروم آهتضامي بينكم كل عاجز
وكان بكم جند البغاة يهابني فصال عليّ اليوم جند العجائز

---

(١) الكِرْكِرة: رَحى زَوْرِ البعير.

فصرت كأني قد أتيت ببدعة وفاحشة من نحو فَعْلَة ماعِز
فلو آنَّ أرضى ذات مُعْز رجمنني ولكنها ليست بذات أماعِزِ

(١) وكان سلسل العبارة رقيق الشعر فصيحاً لم نر من انتقد عليه شيئاً سوى النزر القليل الذي تعفى عليه جودة معانيه وسلاسة ألفاظه، فقد انتقد عليه بعضهم قوله:

ولم يسحر فؤادي قطُّ طرف سوى طرفين فيها ساحِرين

لأن الطرف لا يثنى ولا يجمع وهذه مسئلة خلاف والأصح أنه لا يثنى ولا يجمع كما قيل، ونحن ننقل قول القاموس وشرحه تتميماً للفائدة. قال: الطرف: العين لا يجمع لأنه في الأصل مصدر أو هو اسم جامع للبصر قاله ابن عباد. وقال الزمخشريّ: لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر ولو جمع لم يسمع في جمعه أطراف. وقال شيخنا عند قوله: (لا يجمع) قلت: ظاهره بل صريحه أنه لا يجوز جمعه وليس كذلك بل مرادهم أنه لا يجمع وجوباً كما في حاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد وبعد خروجه عن المصدرية وصيرورته آسماً من الأسماء لا يعتبر فيه حكم المصدرية ولا سيما ولم يقصد به الوصف بل جعله آسماً كما هو ظاهر وقيل أطراف ويرد ذلك قوله تعالى ﴿فيهنَّ قاصرات الطرف﴾ ولم يقل الأطراف الخ إذا فتشت أشعار العرب لا تكاد تجده مثنى فقد قال جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

ولم يقل الطرفين اهـ.

(٢) وكان رحمه الله إذا قال شيئاً من الشعر يبعث به إلى أبيه فكان كلما رأى شيئاً من شعره يمزقه حتى قال هذه القصيدة يحرض الناس فيها على الاستعداد للنصارى ويأمرهم بمحاربة أهل البغي من قبائل حسّان فلما عرضت على والده قال للتلاميذ: صاحبكم الآن قال الشعر، [فمنها]:

سقانا الحبُّ ساقي الحبِّ صرْفاً فنحن كما تَرى قوم سكارى

نَــرىٰ كـلَّ الهــوىٰ حَسَنـا علينــا ... إذا مــا الــجــاهـلـون رأوْهُ عــاراً
وأحــرارُ النفـوسِ تــذُوبُ شـوقــاً ... فنــأتي كـلمــا نــأتي آضــطرارا
ومن يـأتي الأمـور على آضــطرار ... فـليس كمثـل آتيهــا آختيــاراً
تــرانــا عــاكفين على المغــانـي ... لفــرط الشـوق نـنـدبهــا حَيــارىٰ
أسـارىٰ لــوعــةٍ وأسـى نـنــادي ... ومــا يغني النــداء عن الأســارى
ولــو في المسلمين اليـوم حُــرٌّ ... يَفُــكُّ الأسْـر أو يحمي الــذمـارا
لـفكّــوا دينـهــم وحـمــوه لـمَّــا ... أراد الكــافـرون بــه الصَّغــارا[1]
حمـاةَ الـدين إن الـدين صــارا ... أسـيــراً لـلصــوص ولـلـنَّصــارا
فــإن بــادرتـمـوه تــداركـوه ... وإلّا يَـسْـبـق الـسـيّـفُ الـبِـدارا
بــأن تستنصــروا مـولىً نصيــراً ... لمن والى ومن طـلـب آنـتـصــارا
مجيبــاً دعــوة الـداعي مـجيــراً ... من الأســواء كـلّ من آستجــارا
وأن تستـنفــروا جـمعــاً لُـهــامــاً ... تغص به السَّباسبُ والصَّحارى[2]
جـمــوعــاً لا يقــومُ لـهــا منــاوٍ ... ولا يخشى الصَّــديقُ لهـا مغـاراً
تصــوبُ على بــلادِ السِّلم غيثــاً ... وتــوقِـدُ في بــلاد الحـرب نــارا
بـنـصــر الله واثــقــةٌ يـقــيـنــاً ... فــلا تـدري من الخلقِ الحِـذارا
لــهــا إعــلاءُ كــلمــتــه مــرامٌ ... فــلا غنمــاً تــرومُ ولا افـتخــارا
فمن يــك هكــذا يحيى حميــداً ... ويـستـحلي بـمــوطـنــه الـقــرارا
ومن لا فــالممـاتُ بــه جـديــرٌ ... ولــو للنار بعــد المــوت صــارا
فيــا للمُـسـلمـيـنَ لـهــا أمــوراً ... لـهــا الأكبــاد تـنـفــطر آنـفـطارا
تـهــاونـتم بـمــوقِـعـهــا ومــا إن ... تـهــاونـتـم بـهــا إلا آغـتــرارا
لصـوصٌ لا تخــافُ البـأسَ منكم ... ولا الـعقـبى فـتــرضىَ أن تــدارا

---

(١) قال المعلق: الصغار بالفتح مصدر صغر ككرم إذا رضي بالذل أي لما أرادوا أن يحطوا من قدره.

(٢) قال المعلق: اللهام الجيش العظيم سمي بذلك لأنه يلتهم كل شيء وقيل لأنه يغيب من دخله في وسطه، وتغص به تمتلىء، والسباسب جمع سبسب وهي المفازة والقفر والأرض المستوية البعيدة.

ولا ينجو مقيمٌ من أذاهم ولا آبنُ تنائف[1] اتخذ السفارا
ولا شِيبٌ عكوفٌ في المصلى ولا عونُ النساء ولا العذارا
ورومٌ عاينوا في الدين ضُعفاً فراموا كلما راموا آختبارا
فإن أنتم سعيتم وانتدبتم برغمٍ منهم ازدجروا ازدجارا
وإن أنتم تكاسلتم وخمتم برغمٍ منكم ابتدروا ابتداراً
فألَوْكم كما يبغون فوضى حيارى لا آنتداب ولا ائتمارا[2]
ولم أعرفُ وسوفَ ترون عمَّا قليلٍ صُبحَ ليلِكُمُ آستنارا
مهًى حورَ المدامع عاطفات تخوضُ بها القراقيرُ البحارا[3]
تلطُمها العلوجُ على خدودٍ كسى ألوانَها الفزَعُ آصفراراً
يدرنَ لهم عيوناً حائِراتٍ يغَرّقُ فيْضُ عبرتها آحوراراً
فلاهم يرحمون لها بكاءً ولا يخشونَ أن تجد أقتداراً
وحَلّوْها خلاخل من قيودٍ وقد كانت لجيناً أو نضاراً[4]
وأغلالاً بأجيادٍ وأيدٍ تعوَّدتِ القِلادةَ والسوارا
تُكلفُها بناتُ الرُّوم قسراً بخدمتها رواحاً وآبتكاراً
وكانت كلمَّا مشَتِ الهُوينا لكسرِ البيتِ تنبهر آنبهارا[5]
فيشدْنا الحبالَ بكل خصرٍ رقيقُ الرَّيط[6] كان له إزارا
ويحملنَ الجذوعَ على رؤسٍ غدائرها تضلُّ بها المدارىٰ[7]

---

(١) التنائف: الصحارى.

(٢) قال المعلق: فوضى أي متساوون لا رئيس لهم قال الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

(٣) قال المعلق: القراقير جمع قرقور كعصفور وهي السفينة أو الطويلة أو العظيمة.

قلت: المراد أن الكافرين يأخذونهن أسارى.

(٤) فضة أو ذهب.

(٥) قال المعلق: الهوينا تصغير الهونى تأنيث الأهون وهي التؤدة والرفق والسكينة والوقار، وكسر البيت جانبه يفتح ويكسر، وتنبهر ينقطع نفسها من الإعياء.

(٦) الرِّيط: الثوب الرقيق.

(٧) قال المعلق: المدارى جمع مدرية بفتح الميم وكسر الراء وهي المشط وتضل بها =

وتكرَهُ للذي كانت تراهُ حلالاً وهي طائعةٌ شنارا[1]
فيا لَلْمُسلِمين لما دهاكُمْ إلى كم لا تردُّون الجِوارا
أجيبوا داعِيَ المولى تعالى أو اعتذروا ولن تجدوا آعتذارا
أجيبوه بدنياكم تَعزُّوا وتدَّخرُوا من الأجر ادِّخارا
فإحدىٰ الحُسنَيين لكم أُعِدَّت حَمالَة قادرٍ حازَ اليَسارا
بجنةٍ آشترىٰ منكم نفوساً ومالاً ياربِاحكُمُ تِجَارا
وهذا ما أشرْتُ به عليكم ولوْلم تجعلوني مستشارا
فإن أنتم توليتم فحسبي وجاري الله نعم الله جارا
ومن يك جاره المولى تعالى كفاهُ فلن يضامَ ولن يضارا
وربِّي شاهدٌ وكفى شهيداً به أني دعوتكُمُ جهارا
وكم من ناصحٍ قبلي دعاكم جِهاراً بعد ما يدعو سرارا
وكلٌّ حين يدعو لم يزدكم دوام دعائه إلا فرارا
فربي آغفر لنا ولوالدينا ومن جعلوا هداك لهم منارا
وزدنا مِلةَ الإسلام عِزًّا ولا تزدِ العِدا إلاّ تبارا
وصلّ على الذي حازَت قريشٌ بنُسبتهِ الزَّعامة والفخَارا
إلى آلٍ وصحْبٍ معه قاموا وساروا حيث قامَ وحيث سارا[2]

= المدارى أي من كثرة شعرها وهذا مأخوذ من قول امرىء القيس:
غدائره مستشزرات إلى العلى تضل المدارى في مثنى ومرسل
(١) الشنار بالفتح أقبح العيب والعار.
(٢) «الوسيط»: ٢٤٥ - ٢٧٩.



مختارات القرن الثالث عشر

من كتاب

«عنوان المجد في تاريخ نجد»

للشيـخ

عثمان بن بشر النجدي

الإمام محمد بن عبد الوهاب

نشأ في بلدة «العُيَيْنَة» عند أبيه عبد الوهاب بن سليمان القاضي فيها فقرأ الشيخ على أبيه الفقه. وكان رحمه الله تعالى في صغره كثير المطالعة في كتب التفسير والحديث وكلام العلماء في أصل الإسلام فشرح الله صدره في معرفة نواقضه المضلة عن طريقه.

(١) وكان الشرك إذ ذاك قد نشأ في نجد وغيرها وكثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار والقبور والبناء عليها والتبرك بها والنذرة لها والاستعاذة بالجن والذبح لهم ووضع الطعام لهم وجعله لهم في زوايا البيوت لشفاء مرضاهم ونفعهم وضرهم والحلف بغير الله، وغير ذلك من الشرك الأكبر والأصغر.

(٢) والسبب الذي أحدث ذلك في نجد، والله أعلم، أن الأعراب إذا نزلوا في البلدان وقت الثمار صار معهم رجال ونساء يتطببون ويداوون، فإذا كان في أحد من أهل البلد مرض أو في بعض أعضائه أتى أهله إلى متطببة ذلك القطين من البادية فيسألونهم عن دواء علته، فيقولون لهم: اذبحوا له في الموضع الفلاني كذا وكذا: إما خروفا بهيما أسود، وإما تيساً أصمع[١] وذلك ليحققوا معرفتهم عند هؤلاء الجهلة. ثم يقولون لهم: لا تسموا الله على ذبحه، واعطوا المريض منه كذا وكذا وكلوا منه كذا وكذا، واتركوا كذا وكذا، فربما يشفي الله مريضهم فتنة لهم واستدراجاً وربما يوافق وقت الشفاء. حتى كثر ذلك في الناس وطال عليهم الأمد فوقعوا بهذا السبب في

---

(١) الأصمع صغير الأذنين، لصيقهما.

عظائم، وليس للناس من ينهاهم عن ذلك فيصدع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورؤساء البلدان وظلمتهم لا يعرفون إلا ظلم الرعايا والجور والقتال لبعضهم بعضاً. فلما تحقق الشيخ معرفة التوحيد ومعرفة نواقضه وما كان وقع فيه كثير من الناس من هذه البدع المضلة صار ينكر هذه الأشياء، واستحسن الناس ما يقول لكن لم ينهوا عما فعل الجاهلون، ولم يزيلوا ما أحدث المبتدعون.

فلما رأى أنه لا يغني القول، ولم يتلق الرؤساء الحق بالقبول تجهز من بلد «العيينة» إلى حج بيت الله الحرام فلما قضى حجه سار إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فلما وصلها وجد فيها الشيخ العالم عبد الله بن إبراهيم بن سيف من آل سيف رؤساء بلد «المجمَعَة» القرية المعروفة في ناحية (سدير) من نجد فأخذ الشيخ محمد عنه.

قال الشيخ: كنت عنده يوماً فقال لي: تريد أن أريك سلاحاً أعددته للمجمعة؟ قلت: نعم. فأدخلني منزلاً عنده فيه كتب كثيرة وقال هذا الذي أعددنا لها. ثم إنه مضى به إلى الشيخ العلامة محمد حياة السنديّ المدنيّ فأخبره بالشيخ محمد وعرفه به وبأهله فأقام عنده الشيخ وأخذ عنه.

وحكى أن الشيخ محمدا وقف يوما عند الحجرة النبوية عند أناس يدعون ويستغيثون عند حجرة النبيّ ﷺ فرآه محمد حياة فأتى إليه فقال الشيخ: ما تقول في هؤلاء؟ قال: (إن هؤلاء مُتبَّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون).

فأقام في المدينة ما شاء الله ثم خرج منها إلى نجد وتجهز إلى البصرة يريد الشام، فلما وصلها جلس يقرأ فيها عند عالم جليل من أهل المجموعة ـ قرية من قرى البصرة ـ في مدرسة فيها، ذكر لي أن اسمه محمد المجموعي، فأقام مدة يقرأ عليه فيها وينكر أشياء من الشركيات والبدع وأعلن بالإنكار واستحسن شيخه قوله؛ وقرر له التوحيد؛ وانتفع به.

وأخبرني شيخنا القاضي عثمان بن منصور الناصري قال: أخبرني

رجل في مجموعة البصرة بأن أولاد ذلك العالم الذي قرأ عليه الشيخ محمد هم أحسن أهل بلدهم بالصلاح ومعرفة التوحيد وهذا و الله أعلم ببركة اجتماع الشيخ بوالدهم.

ثم إن الشيخ تجمع عليه أناس في البصرة من رؤسائها وغيرهم فآذوه أشد الأذى وأخرجوه منها وقت الهجيرة ولحق شيخه منهم بعض الأذى، فلما خرج الشيخ من البصرة وتوسط في الدرب فيما بينها وبين بلد الزبير أدركه العطش وأشرف على الهلاك وكان ماشيا على رجليه وحده فوفاه صاحب حمار مكاري يقال له أبو حميدان من أهل بلد الزبير فرأى عليه الهيبة والوقار وهو مشرف على الهلاك فسقاه وحمله على حماره حتى وصل الزبير.

(١) ثم إن الشيخ أراد أن يصل إلى الشام فضاعت نفقته التي معه، فانثنى عزمه عن المسير إليه لِما أراد الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى أن يمضي أمره ويعلي كلمته ويجمع أهل نجد بعد تفرقهم على إمام واحد، ويزيل عنها شعائر الكفر والبدع، فخرج من تلك الديار وقصد بلد حريملا، وكان أبوه عبد الوهاب قد انتقل إليها فلما وصل إلى حريملا جلس عند أبيه يقرأ عليه وينكر ما يفعل الجهال من البدع والشرك في الأقوال والأفعال وكثر منه الإنكار لذلك ولجميع المحظورات حتى وقع بينه وبين أبيه كلام، وكذلك وقع بينه وبين الناس في البلد. فأقام على ذلك مدة سنين حتى توفى أبوه عبد الوهاب في سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف ثم أعلن بالدعوة والإنكار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبعه ناس من أهل البلد ومالوا معه واشتهر بذلك. وكان رؤساء أهل حريملا قبيلتين أصلهما قبيلة واحدة وهم رؤساؤها، وكل منهم يدعي القول وليس للأخرى على الثانية قول ولا للبلد رئيس يزع الجميع، وكان في البلد عبيد لإحدى القبيلتين يقال لهم الحميان كثير تعديهم وفسقهم، فأراد الشيخ أن يُمنعوا عن الفساد وينفذ فيهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهمَّ العبيد أن يفتكوا بالشيخ ويقتلوه بالليل سراً فلما تسوروا عليه الجدار علم بهم أناس فصاحوا بهم فهربوا.

(١) فانتقل الشيخ بعدها إلى العيينة ورئيسها يومئذ عثمان بن حمد بن معمر فتلقاه وأكرمه وتزوج فيها الجوهرة بنت عبد الله بن معمر، وعرض على عثمان ما قام به ودعا إليه وقرر له التوحيد وحاوله على نصرته وقال: إني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله تعالى وتملك نجدا وأعرابها، فساعده عثمان على ذلك، فأعلن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبعه أناس من أهل «العيينة» وكان فيها أشجار تعظم ويعلق عليها فبعث إليها سراً من يقطعها بأجرة من ماله، فقطعت. وفي البلد شجرة هي أعظمهن عندهم، وذُكر لي أن الشيخ خرج إليها بنفسه سراً يريد قطعها فوجد عندها راعي غنم أهل البلد فأراد أن يمنعها منه أو أنه خاف أن ينم عليه، فأعطاه الشيخ أحد أسلابه الذي عليه وخلى بينه وبينها فقطعها، ثم صار أمره في ازدياد واجتمع معه عصابة نحو سبعين رجلا معهم من هو من رؤساء المعامرة.

(٢) ثم إن الشيخ أراد أن يهدم قبة قبر زيد بن الخطاب رضي الله عنه التي عند «الجبيلة» فقال لعثمان: دعنا نهدم هذه القبة التي وضعت على الباطل وضل بها الناس عن الهدى. فقال: دونكها فاهدمها، فقال الشيخ: أخاف من أهل الجبيلة أن يوقعوا بنا، ولا أستطيع هدمها إلا وأنت معي فسار معه عثمان بنحو ستمائة رجل. فلما قربوا منها ظهروا عليهم أهل الجبيلة يريدون أن يمنعوها، فلما رآهم عثمان علم ما هموا به فتأهب لحربهم فلما رأوا ذلك كفوا عن الحرب وخلوا بينهم وبينها. ذكر لي أن عثمان لما أتاها قال للشيخ: نحن لا نتعرضها، فقال: أعطوني الفأس، فهدمها الشيخ بيده حتى ساواها. ثم رجعوا فانتظر تلك الليلة جهال البدو وسفهاؤهم ما يحدث على الشيخ بسبب هدمها فأصبح في أحسن حال.

(٣) وبعد ذلك أتت امرأة إلى الشيخ واعترفت عنده بالزنى والإحصان وتكرر منها الإقرار فسأل عن عقلها فإذا هي صحيحة العقل. وقال: لعلك مغصوبة، فأقرت واعترفت بما يوجب الرجم، فأمر عليها فرجمت، فعظم

أمره بعد ذلك وكبرت دولته وفشا التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلما صدرت منه هذه، أعني رجم المرأة، اشتهر أمره في الآفاق.

(١) فبلغ خبره سليمان بن محمد بن غرير الحميدي قائد الإحساء والقطيف وما حوله من العربان وقيل له: إن في بلد العيينة عالما فعل كذا وكذا وقال كذا وكذا. فأرسل سليمان إلى عثمان كتابا وقال: إن هذا المطوع الذي عندك فعل وفعل، وتهدد عثمان وقال: اقتله فإن لم تفعل قطعنا خراجك الذي عندنا في الإحساء وخراجه عندهم كثير فلما ورد عليه كتابه ما وسعه مخالفته لأنه لم يعلم قدر التوحيد ولا ما لمن نصره وقام به من العز والتمكين في الدنيا ودخول الجنة في الآخرة فأرسل إلى الشيخ. وقال له: إنه أتانا خط من سليمان قائد الإحساء وليس لنا طاقة بحربه ولا إغضابه. فقال له الشيخ: إن هذا الذي أنا قمت به ودعوت إليه كلمة لا إله إلا الله وأركان الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أنت تمسكت به ونصرته فإن الله سبحانه يظهرك على أعدائك فلا يزعجك سليمان ولا يفزعك فإني أرجو أن ترى من الظهور والتمكين والغلبة ما ستملك بلاده وما وراءها وما دونها. فاستحيا عثمان وأعرض عنه. ثم تعاظم في صدره أمر صاحب الإحساء وباع الآجل بالعاجل، وذلك لما علم الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير أن نصر هذا الدين والظهور والغلبة والتمكين يكون لغيره وعلى يد غيره، فأرسل إلى الشيخ ثانياً وقال: إن سليمان أمرنا بقتلك ولا نقدر على غضبه ولا مخالفة أمره لأنه لا طاقة لنا بحربه، وليس من الشيم والمروءة أن نقتلك في بلادنا، فشأنك ونفسك وخل بلادنا فأمر فارساً عنده وقال: اركب جوادك وسر بهذا الرجل إلى ما يريد فقال الشيخ: أريد الدرعية.

(٢) فركب الفارس جواده والشيخ يمشي راجلاً أمامه وليس معه إلا المروحة ـ وذلك في غاية الحر في فصل الصيف ـ فقال ابن معمر لفارسه: إذا أنت وصلت إلى أخيه يعقوب فاقتله عنده. وكان يعقوب هذا رجلا

صالحاً قتل ظلماً بين الدرعية والعيينة وجعل في غار جبل هناك على قارعة الطريق. ونسب الشيخ إلى أخوته لأجل الصلاح. فسار الفارس والشيخ أمامه وهو لا يلتفت ويلهج بقوله تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله و الله أكبر، والفارس لم يكلمه. فلما همّ بقتله كف الله عنه يده وأبطل كيده وقذف الله سبحانه الرعب حتى ما استطاع أن يمشي قدما فحرف جواده وانصرف إلى «العيينة» وقال لعثمان: إنه أصابني رعب عظيم حتى خفت على نفسي.

(١) وأما الشيخ فإنه سار إلى الدرعية فوصل إلى أعلاها وقت العصر فقصد إلى بيت محمد بن سويلم العريني فلما دخل عليه ضاقت عليه داره، وخاف على نفسه من محمد بن سعود. فوعظه الشيخ وأسكن جأشه، وقال: سيجعل الله لنا ولك فرحا ومخرجا. فعلم به خصائص من أهل الدرعية فزاروه خفية، فقرأ لهم التوحيد واستقر في قلوبهم، فأرادوا أن يخبروا محمد بن سعود ويشيروا عليه بنصرته فهابوه فأتوا إلى زوجته موضي وكانت ذات عقل ومعرفة، فأخبروها بمكان الشيخ وصفة ما يأمر به وينهى عنه. فوقر في قلبها معرفة التوحيد وقذف الله في قلبها محبة الشيخ. فلما دخل عليها زوجها محمد أخبرته بمكانه، وقالت: إن هذا الرجل أتى إليك وهو غنيمة ساقها الله لك فأكرمه وعظمه واغتنم نصرته، فقبل قولها، وألقى الله سبحانه في قلبه للشيخ المحبة. فأراد أن يرسل إليه، فقالوا: سر إليه برجلك في مكانه، وأظهر تعظيمه والاحتفال به لعل الناس أن يكرموه ويعظموه، فسار إليه محمد، فدخل عليه في بيت ابن سويلم ورحب به، وقال: أبشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعز والمنعة فقال الشيخ: وأنا أبشرك بالعز والتمكين، وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد، وهي كلمة التوحيد، وأول ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم.

(١) ثم أخبره الشيخ بما كان عليه رسول الله ﷺ وما دعا إليه وما عليه أصحابه رضي الله عنهم من بعده وما أمروا به وما نهوا عنه، وإن كل بدعة ضلالة، وما أعزهم الله به بالجهاد في سبيل الله وأغناهم به وجعلهم إخوانا، ثم أخبره بما عليه أهل نجد اليوم من مخالفتهم بالشرك بالله تعالى والبدع والاختلاف والجور والظلم فلما تحقق محمد معرفة التوحيد وعلم ما فيه من المصالح الدينية والدنيوية قال له: يا شيخ إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه، وأبشر بالنصرة لك ولِما أمرت به والجهاد لمن خالف التوحيد ولكن أريد أن أشترط عليك اثنتين: نحن إذا قمنا في نصرتك والجهاد في سبيل الله وفتح الله لنا ولك البلدان أخاف أن ترتحل عنا وتستبدل بنا غيرنا. والثانية إن لي على الدرعية قانوناً آخذه منهم في وقت الثمار وأخاف أن تقول: لا تأخذ منهم شيئاً. فقال الشيخ: أما الأولى فابسط يدك الدم بالدم، والهدم بالهدم. وأما الثانية فلعل الله أن يفتح لك الفتوحات فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير منها. فوقع تحقيق ظنه رحمه الله تعالى فإنه أتى إليه غنيمة عظيمة فقال له الشيخ: هذا أكثر مما أنت تأخذه على أهل بلدك، فتركها بعد ذلك ثم إن محمداً بسط يده وبايع الشيخ على دين الله ورسوله والجهاد في سبيل الله وإقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقام الشيخ ودخل معه البلد واستقر عنده. فلما استقر في الدرعية تسلل إليه شيعته الذين في العيينة ومن ينتسب إلى الدين ومعهم أناس من رؤساء المعمرة معاكسين لعثمان بن معمر، وهاجروا إلى الدرعية وأناس ممن حولهم من البلدان لما علموا أن الشيخ استقر ومنع ونصر.

فلما علم عثمان أن محمد بن سعود آواه ونصره وأن أهل الدرعية فرحوا به والذين كانوا عنده في بلده هاجروا وتركوه وأن أمره صار إلى زيادة، ندم على ما فعل من إخراجه وعدم نصرته، وخاف منه أمورا تتفاقم عليه فركب في عدة رجال من أهل العيينة ورؤسائها فقدم على الشيخ في الدرعية، وحاوله على الرجوع معه ووعده نصره ومنعه، فقال الشيخ: ليس هذا إليّ، إنما هو إلى محمد بن سعود فإن أراد أن أذهب معك ذهبت،

وإن أراد أن أقيم عنده أقمت، ولا أستبدل برجل تلقاني بالقَبول غيره، إلا أن يأذن لي. فأتى عثمان إلى محمد، فأبى عليه ولم يجد إلى ما أتى إليه سبيلا فرجع إلى بلده.

(١) ولما هاجر من هاجر إلى الدرعية واستوطنوها كانوا في أضيق عيش وأشد حاجة وابتلوا ابتلاء شديدا فكانوا في الليل يأخذون الأجرة ويحترفون وفي النهار يجلسون عند الشيخ في درس الحديث والمذاكرة، وأهل الدرعية يومئذ في غاية الضعف وضيق المؤنة، ولكن كما قال ﷺ لعبد الله بن عباس «واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع اليسر يسرا».

(٢) ولقد رأيت الدرعية بعد ذلك في زمن سعود رحمه الله تعالى وما فيه أهلها من الأموال وكثرة الرجال والسلاح المحلى بالذهب والفضة الذي لا يوجد مثله والخيل الجياد والنجايب والعمانيات والملابس الفاخرة وغير ذلك من الرفاهيات ما يعجز عن عده اللسان ويكل عن حصره الجنان والبنان.

(٣) ولما استوطن الشيخ الدرعية كانوا في غاية الجهالة وما وقعوا فيه من الشرك الأكبر والأصغر والتهاون بالصلاة والزكاة ورفض شعائر الإسلام، فتخوّلهم الشيخ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم أمرهم بتعلم معنى (لا إله إلا الله) وأنها نفي وإثبات (فلا إله) تنفي جميع المعبودات و(إلا الله) تثبت العبادة لله وحده لا شريك له. ثم أمرهم بتعلم ثلاثة الأصول: وهي معرفة الله تعالى بآياته ومخلوقاته الدالة على ربوبيته وإلهيته، كالشمس والقمر والنجوم والليل والسحاب المسخر بين السماء والأرض وما عليها من الأدلة من القرآن، ومعرفة الإسلام وأنه تسليم الأمر لله وهو الانقياد لأمر الله والانزجار عن مناهيه. ومعرفة أركانه التي بني عليها وما عليها من الأدلة من القرآن، ومعرفة النبي ﷺ واسمه ونسبه ومبعثه وهجرته ومعرفة أول ما دعا إليه وهي (لا إله إلا الله) ثم معرفة البعث وأن من أنكره أو شكّ فيه فهو كافر وما على ذلك من الأدلة من القرآن، ومعرفة دين محمد ﷺ وأصحابه وهو التوحيد، ودين أبي جهل وأتباعه وهو الشرك بالله تعالى.

فلما استقر في قلوبهم معرفة التوحيد بعد الجهالة أشرب في قلوبهم محبة الشيخ وأحبوا المهاجرين وآووهم.

(١) ثم إن الشيخ كاتب أهل البلدان بذلك ورؤساءهم وقضاتهم ومدعي العلم منهم فمنهم من قبل واتبع الحق، ومنهم من اتخذه سخريا واستهزؤوا به ونسبوه إلى الجهل وعدم المعرفة. ومنهم من نسبه إلى السحر، ومنهم من رماه بأشياء وهو بريء منها، حاشاه عما يقوله الكاذبون ولكن يريدون أن يصدوا بها الناس عنه، وقد رمى المشركون سيد ولد آدم ﷺ بأعظم من ذلك.

(٢) ثم أمر الشيخ بالجهاد وحضهم عليه فامتثلوا وكان الشيخ رحمه الله لما هاجر إليه المهاجرون يتحمل الدين الكثير في ذمته لمؤنتهم وما يحتاجون إليه وفي حوائج الناس وجوائز الوفود إليه من أهل البلدان والبوادي وكان لا يمسك على درهم ولا دينار، وما أتى إليه من الأخماس والزكاة يفرقه في أوانه، وكان يعطي العطاء الجزيل بحيث إنه يهب خمس الغنيمة العظيمة لاثنين أو ثلاثة، فكانت الأخماس والزكاة وما يجبى إلى الدرعية من دقيق الأشياء وجليلها تدفع إليه بيده ويضعها حيث شاء ولا يأخذ عبد العزيز ولا غيره من ذلك شيئاً إلا عن أمره، بيده الحل والعقد والأخذ والإعطاء والتقديم والتأخير، ولا يركب جيش ولا يصدر رأي من محمد وابنه عبد العزيز إلا عن قوله ورأيه فلما فتح الله الرياض واتسعت ناحية الإسلام وأمنت السبل وانقاد كل صعب من بادٍ وحاضر جعل الشيخ الأمر بيد عبد العزيز وفوض أمور المسلمين وبيت المال إليه وانسلخ منها ولزم العبادة وتعليم العلم، ولكن ما يقطع عبد العزيز أمراً دونه ولا ينفذه إلا بإذنه.

ثم دخلت السنة التاسعة والسبعون بعد المائة والألف:

وفيها توفي الإمام الرئيس والمجاهد في الدين بالعرمرم الخميس محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع أسكنه الله تعالى جنته وأفاض عليه سوابغ رحمته وكان ولي

العهد بعده ابنه عبد العزيز فكان إمام المسلمين.

ثم دخلت السنة السابعة والثمانون بعد المائة والألف:

(١) وفيها سار عبد العزيز بالجنود المنصورة وقصد الرياض ونازل أهلها أياما عديدة وضيق عليهم واستولى على بعض بروجهم وهدمها المسلمون وهدموا المرقب وقتل على أهلها رجالا كثيرا، وقتل من غزو المسلمين نحو اثني عشر رجلا منهم عقيل بن نصير وابن خفيقان، وذلك في شهر صفر. فلما انتصف ربيع الثاني تجهز عبد العزيز بمن معه من جيوش المسلمين غازيا إلى الرياض وخرج من الدرعية فلما قرب من بلد عرقة وإذا البشير قد أقبل من الرياض فأخبره بأن دهام بن دواس خرج من الرياض هاربا فحث عبد العزيز السير إليها فقدمها بعد العصر فإذا هي خالية من أهلها إلا قليل، وإذا دهام قد ألقى الله في قلبه الرعب، فخرج منه في النهار بحرمه وعياله وأعوانه وهذا شيء حدث عليه في يومه ذلك، ولم يكن اعتقده ولا هم به ولا خاف من أهل بلده خيانة بل كلهم صادقون معه ولا حصل عليه تضييق يلجئه إلى ذلك، والحرب بينه وبين المسلمين سجال له وعليه، ولكن الله سبحانه جعلها آية لمن افتكر وعبرة لمن اعتبر: قيل إنه قام فزعا مرعوبا وركب خيله ونجائبه وحمل عليها نساءه وعياله وأهل الرياض لا يعلمون ولا بمثل ذلك يظنون، فلما ظهر من قصره قال: يا أهل الرياض إن لي مدة سنين أحارب ابن سعود والآن سئمت من الحرب وتركتها له فمن أراد أن يتبعني فليفعل وإلا فليجلس مكانه في البلد ففر أهل الرياض في ساقته الرجال والنساء والأطفال لا يلوي أحد على أحد، هربوا على وجوهم إلى البرية في السهباء، قاصدين الخرج وذلك في فصل الصيف، فهلك منهم خلق كثير جوعاً وعطشاً. ذكر لي أن الرجل من أهل الرياض يأخذ العرب ويجعل فيه ماء ويحمله على ظهره والعرب لا يمسك ماء والإبل عنده ولا يركبها وتركوها خاوية على عروشها الطعام واللحم في قدوره والسواني واقفة في المناحي وأبواب المنازل لم تغلق. وفي البلد من الأموال مالا يحصر فلما دخل عبد العزيز الرياض وجدها خالية من أهلها إلا قليلا فساروا في

إثرهم يقتلون ويغنمون. ثم إن عبد العزيز جعل في البيوت ضباطاً يحفظون ما فيها. وحاز جميع ما في البلد من الأموال والسلاح والطعام والأمتاع وغير ذلك؛ وملك بيوتها ونخيلها إلا قليلها.

وكان قد أقام هذا الحرب نحو سبع وعشرين سنة. وذُكِر أن القتلى بينهم في هذه المدة نحو أربعة آلاف رجل، الذين من أهل الرياض ألفان وثلاثمائة، ومن المسلمين ألف وسبعمائة، وصارت هذه الوقعة يضرب بها المثل بعد ذلك في نجد وغيرها. فيقال لكل من فعل حماقة تليق نسبتها إليها، كخروج من نخل أو بيت أو بيع سلعة لغير ضرورة أو من تحول من بلده إلى بلد غيرها: هذا مثل ظهور دهام بن دواس من الرياض.

(١) وفي هذه السنة وقع الطاعون العظيم في بغداد والبصرة ونواحيهما ولم يبق من أهل البصرة ونواحيها إلا القليل. وذكروا أنه مات فيه منهم ثلثمائة وخمسون ألفا ومات من أهل الزبير نحو ستة آلاف.

ثم دخلت السنة الثانية بعد المائتين والألف وفيها أمر الشيخ محمد رحمه الله تعالى أهل بلدان نجد وغيرهم أن يبايعوا سعود بن عبد العزيز وأن يكون ولي العهد بعد أبيه ـ وذلك بأمر عبد العزيز رحمه الله تعالى ـ فبايعه جميعهم. وفيها بايع جميع أهل وادي الدواسر على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ووفدوا على الشيخ وعبد العزيز وذلك بعد محاولات ومقاتلات عديدة.

ثم دخلت السنة الخامسة بعد المائتين والألف:

(٢) وفي هذه السنة سارت العساكر والجموع من مكة سيرهم شريفها غالب بن مساعد مع أخيه عبد العزيز إلى نجد لمحاربة أهلها وقتالهم فسار عبد العزيز المذكور بقوة هائلة وعدد وعدة وعسكر كثيف نحو عشرة آلاف أو يزيدون ومعهم أكثر من عشرين مدفعا. وكان قصدهم الدرعية ومنازلتها فضلا عن غيرها من البلدان.

فأقبلت تلك العساكر والجنود وسار معهم كثير من بوادي الحجاز وشمر ومطير وغيرهم، فملأوا السهل والجبل، وصار في قلوب المسلمين منهم وجل، ثم سار غالب بن مساعد الشريف وتبع تلك الجموع والعساكر بعساكر ومدافع. قيل إن معه من المدافع سبعة واجتمع بعبد العزيز وجنوده ومدافعه، فسار الجميع ونازلوا قصر الشعراء القرية المعروفة في عالية نجد، واستداروا عليها بالعساكر والمدافع وحاصروها أشد الحصار وكادوها بأنواع القتال، وساقوا عليها الأبطال، وجعلوا بين رصاص المدافع سلاسل من الحديد وربطوا فيه ضلوع الحديد، وضربوا بها الجدار وأقام غالب على تلك القرية أكثر من شهر فرحل منها على فشل. وقتل من قومه أكثر من خمسين رجلا، وليس في تلك القرية إلا نحو أربعين رجلا ورجع منها إلى أوطانه، وتفرقت جموعه وعربانه.

ثم دخلت السنة السادسة بعد المائتين والألف:

وفي هذه السنة توفي الشيخ شيخ الإسلام مفيد الأنام قاطع المبتدعين، مشيد أعلام الدين، مقرر دلائل البراهين، محيي معالم الدين بعد دروسها، ومظهر آيات التوحيد بعد أفول أقمارها وشموسها.

(١) كان الشيخ رحمه الله تعالى كثير الذكر لله قل ما يفتر لسانه من قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله و الله أكبر، وكان إذا جلس الناس ينتظرونه يعلمون إقباله إليهم قبل أن يروه من كثرة لهجه بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

وكان عطاؤه عطاء من وثق بالله لا يخشى الفقر بحيث إنه يهب الزكاة والغنيمة في موضع واحد لا يقوم معه منها شيء. ويتحمل الدين الكثير لأضيافه والوافدين إليه. وعليه الهيبة العظيمة التي ما سمعنا بها اتفقت لغيره من العلماء والرؤساء وغيرهم. وهذا شيء وضعه الله في القلوب وإلا فما علمنا أحداً ألين ولا أخفض جنابا منه لطالب العلم أو سائل أو ذي حاجة أو مقتبس فائدة. وكان له مجالس عديدة في التدريس كل يوم وكل وقت في

التوحيد والتفسير والفقه وغيرها. وانتفع الناس بعلمه واتصل العلم في بنيه وبني بنيه. وكان سليمان بن علي جده عالم نجد في زمانه له اليد الطولى في العلم وانتهت إليه الرياسة في نجد، وضربت إليه آباط الإبـل صنف ودرس وأفتى.

ومعرفتي من أبناء سليمان المذكور عبد الوهاب وإبراهيم. فأما إبراهيم فكان عالماً فقيهاً له معرفة في الفقه وغيره وابنه عبـد الرحمن بن إبـراهيم عالماً فقيهاً كاتباً. وأما عبد الوهاب فكان عالماً قاضياً في بلد العيينة ثم بلد حريملا. وذلك في أول القرن الثاني عشر وله معرفة في الفقه وغيره، وابناه محمد وسليمان، فأما سليمان فكان عالماً فقيهاً قاضياً في بلد حريملا وله معرفة ودراية. ومعرفتي من بنيه بعبد الله وعبد العزيز. وكان لهما معرفة في العلم ويضرب بهما المثل في العبادة والورع. وأما محمد فهو شيخ الإسلام والحبر الهمام، الذي عمت بركة علمه الأنام فنصر السنة وعظمت به من الله المنة بعدما كان الإسلام غريباً فقام بهـذا الدين ولم يكن في البـلاد إلا اسمه، وانتشر في الآفاق فكل امرىء أخذ منه حظه وقسمته.

(١) ونشرت راية الجهاد بعد أن كانت فتناً وقتالاً. وعرف التوحيد الصغير والكبير بعد أن كان لا يعرفه إلا الخواص. واجتمع الناس على الصلوات والدروس والسؤال عن أصل الإسلام وشروط الصلاة وأركانهـا وواجباتهـا ومعاني قراءتها وتعلمها الصغير والكبير والقـارىء والأمي بعد أن كـان لا يعرفه إلا الخصائص وانتفع بعلمه أهل الآفاق. لأنهم يسألون عما يأمر به وينهى عنه فيقال لهم يأمر بأمر التوحيد وينهى عن المنكر. ويقال لهم: إن أهل نجد يمقتونكم بذلك فانتهى أناس كثير من أهل الآفاق بسبب ما سمعوا من أوامره ونواهيه وهدم المسلمون ببركة علمه جميع القباب والمشاهد التي بنيت على القبور وغيرها من جميع المواضع الشركية في أقاصي الأقطار من الحرمين واليمن وتهامة وعمان والإحساء ونجد وغير ذلك، حتى لا تجد في جميع من شملته ولاية المسلمين الشرك الأصغر فضلاً عن غيره، حاشـا الرياء الذي قال فيه النبي ﷺ «إنه أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء

في ظلمة الليل» وأمر جميع أهل البلدان من أهل النواحي يسألون الناس في المساجد كل يوم بعد صلاة الصبح وبين العشاءين عن معرفة الأصول: وهي معرفة الله، ومعرفة دين الإسلام، ومعرفة أركانه، وما ورد عليها من أدلة من القرآن، ومعرفة محمد ﷺ ونسبه ومبعثه وهجرته، وأول ما دعا إليه: وهي لا إله إلا الله، ومعرفة معناها، والبعث بعد الموت وشروط الصلاة وأركانها وواجباتها وفروض الوضوء ونواقضه، وما يتسع ذلك من تحقيق التوحيد من أنواع العبادة التي لا تنبغي إلا لله كالدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء والخشية والرغبة والرهبة والتوكل والإنابة وغير ذلك.

(١) وبالجملة فمحاسنه وفضائله أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. ولو بسطت القول فيها لا تسع الأسفار، ولكن هذه قطرة من بحر فضائله على وجه الاختصار. وكفى بفضله شرفا ما حصل بسببه من إزالة البدع، واجتماع المسلمين وتقويم الجماعات والجمع، وتجديد الدين بعد دروسه، وقطع أصول الشرك بعد غروسه.

(٢) كان رحمه الله تعالى هو الذي يجهز الجيوش، ويبعث السرايا ويكاتب أهل البلدان ويكاتبونه، فلم يزل مجاهداً حتى أذعن أهل نجد وتابعوا، وعمل فيها بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبايعوا، فعمرت نجد بعد خرابها، وصلحت بعد فسادها ونال الفخر والملك من آواه، وصاروا ملوكا بعد الذل والقتال. وهكذا كل من نصر الشريعة من قديم الزمان وحديثه الله يظهره على أعداه. وجعله مالكا لمن عاداه.

(٣) صنف رحمه الله تعالى مصنفات عديدة ومسائل مفيدة في أصل الإسلام وتقرير التوحيد فمنها كتاب التوحيد أحسن فيه وأجاد وبلغ الغاية والمراد، وكلامه على القرآن أكثر من مجلد، أتى فيه بالعجب العجاب من تقرير التوحيد ومعرفة الشرك وكل آية وقصة يأتي عليها بعدة مسائل حتى أتى في قصة موسى والخضر في سورة الكهف بقريب مائة مسألة. وصنف كتاب كشف الشبهات، وكتاب الكبائر والمسائل التي خالف فيها رسول الله

صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية أكثر من مائة مسألة. وصنف غير ذلك عـدة نسخ وأوراق وفتـاوى ومراسـلات فقهية وأصـولية أكثـرها في تقـرير التوحيد.

وأخذ العلم عن عدة مشايخ أجلاء وعلماء فضلاء وأخذ عنه عدة من العلماء الأجلاء من بنيـه وبني بينه وغيـرهم من علماء النـواحي والأقطار فمنهم أبناؤه الأربعة العلماء والقضاة الفضـلاء الذين جمعـوا أنواع العلوم الشرعية واستكملوا الفنون الأدبية وفندوا الفروع والأصـول ونهجوا منـاهج المعقول والمنقول. حسين وعبد الله وعلي وإبراهيم كل واحد منهم قرب بيته مدرسة فيها طلبة العلم من الغرباء ونفقتهم من بيت المال ويأخذون عنهم العلم في كل وقت.

فأما حسين فهو الخليفة بعد أبيه والقاضي في بلد الدرعية. أخذ عنه من القضاة ـ ممن لا يحضرني الآن عده ـ عدد كثير، وأخذ عنه ممن لم يل القضاء من الرؤساء والأعيان ومن دونهم الجم الغفير. وكان له رحمه الله تعالى من الرأي والفراسة والتدبير ما ليس لغيره. وكان كثيراً ما يلهج بقوله تعالى: **﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمـل صـالحاً تـرضـاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليـك وإني من المسلمين﴾**.

وكان قد ثقل آخر عمره، فكان يخرج لصلاة الجماعة يتهـادى بين رجلين حتى يقام في الصف وله من العمر نحو اثنتين وتسعين سنة .

ثم دخلت السنة السادسة عشر بعد المائتين والألف:

(١) وفيها سار سعود بالجيوش المنصورة والخيل والعتاق المشهورة من جميع حاضر نجد وباديها والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك وقصد أرض كـربلاء ونـازل أهل بلد الحسين. وذلـك في ذي القعـدة فحشـد عليهـا المسلمون وتسوروا جدرانها ودخلوها عنوة وقتلوا غالب أهلها في الأسواق

والبيوت، وهدموا القبة الموضوعة بزعم من اعتقد فيها على قبر الحسين وأخذوا ما في القبة وما حولها وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بالزمرد والجواهر وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من أنواع الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والمصاحف الثمينة وغير ذلك ما يعجز عنه الحصر ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع الأموال وقتل من أهلها قريب ألفي رجل.

ثم إن سعود ارتحل منها على الماء المعروف بالأبيض فجمع الغنائم وعزل أخماسها وقسم باقيها في المسلمين غنيمة للراجل سهم وللفارس سهمان ثم ارتحل قافلاً إلى وطنه.

(١) وفي هذه السنة في عاشوراء سار سلطان بن أحمد صاحب مسقط المعروفة في عمان في كثير من المراكب والسفن ونازل أهل البحرين وأخذه من أيدي آل خليفة واستولى عليه ثم إن آل خليفة ساروا إلى عبد العزيز بن محمد بن سعود واستنصروه فأمدهم بجيش كثيف من المسلمين فساروا إلى البحرين فضاربوهم وقاتلوهم قتالا شديداً وأخذوه من يد السلطان المذكور وقتل من قومه ما ينيف على ألفي رجل.

ثم دخلت السنة السابعة عشر بعد المائتين والألف:

(٢) وفي هذه السنة انتقض الصلح بين غالب الشريف وبين عبد العزيز بن محمد بن سعود وفارق الشريفَ وزيرُه عثمان بن عبد الرحمن المضايفيّ وخرج من مكة وترك الشريف ونابذه ووفد على عبد العزيز وبايعه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ونزل بلدة العبيلا القرية المعروفة بين تربة والطائف واجتمع عليه جنود من أهل الحجاز وغيرهم. ثم سار غالب الشريف بالعساكر والجموع ونازله في العبيلا ووقع قتال ولم يحصل الشريف على طائل ورحل عنه ودخل الطائف.

ثم إن عثمان المضايفيّ استنجد من يليه من المسلمين من الحاضرة والبادية فسار إليه سالم بن شكبان بأهل بيشة وقراها ومصلط بن قطنان بأهل

رنيه وقراها ومن كان عنده من سبيع، وسار أيضاً حمد بن يحيى بأهل تربة ومعه البقوم وسار هادي بن قرملة ومعه جيش من قحطان وسار إليه غير ذلك من عتيبة وغيرهم فاجتمعت تلك الجموع عند عثمان فساروا إلى الطائف وفيها غالب الشريف وقد تحصن فيها وتأهب واستعد لحربهم فنازله تلك الجموع فيها فألقى الله في قلبه الرعب وانهزم إلى مكة وترك الطائف فدخله عثمان ومن معه من الجموع وفتحه الله لهم عنوة بغير قتال وقتلوا من أهله في الأسواق والبيوت نحو مائتين وأخذوا من الأموال من البلد أثمانا وأمتاعا وقماشا وشيئاً من الجواهر والسلع المثمنة ما لا يحيط به الحصر ولا يدركه العد وضبط عثمان البلد وسلمت له جميع نواحيه وبواديه وجمعوا الأخماس وبعثوها لعبد العزيز فقرر ولاية عثمان للطائف واستعمله أميرا عليها وعلى الحجاز.

وكانت هذه الوقعة وسعود بن عبد العزيز قد أمّر على جميع النواحي بالمغزا فركب بجيوشه المنصورة وقصد الحجاز ونزل العقيق الوادي المعروف وكان ذلك وقت الحج وكانت الحواجّ الشامية والمصرية والمغربية وغيرهم في مكة وهم في قوة هائلة وعدة فهمّوا بالخروج إلى سعود والمسير إلى قتاله ثم تخاذلوا وفسد أمرهم وانصرفوا إلى أوطانهم فألقى الله الرعب في قلب غالب وهو في مكة فلم يستقر فيها فانهزم إلى جدة هو وأتباعه من العساكر وحمل خزائنه وذخائره وبعض أمتاعه وشوكته.

ثم إن سعوداً والمسلمين رحلوا من العقيق ونزلوا المغاسل فأحرموا منها بعمرة ودخل سعود مكة واستولى عليها وأعطى أهلها الأمان وبذل فيها من الصدقات والعطاء لأهلها شيئاً كثيراً. فلما فرغ سعود والمسلمون من الطواف والسعي فرق أهل النواحي يهدمون القباب التي بنيت على القبور والمشاهد الشركية.

فأقام فيها أكثر من عشرين يوما ولبث المسلمون في تلك القباب بضعة عشر يوماً يهدمون، يباكرون إلى هدمها كل يوم، وللواحد الأحد

يتقربون، حتى لم يبق في مكة شيئاً من تلك المشاهد والقباب إلا أعدموها وجعلوها ترابا.

وأن الشريف في هذه المدة يراسل سعوداً ويخادعه ويطلب الصلح ويبذل المال، وهو يريد أن يحصن جدة ويحمل ما فيها في السفن.

ثم أن سعوداً رحل من مكة واستعمل فيها أميراً عبد المعين بن مساعد الشريف ونازل جدة وحاصرها أياماً فوجدها محصنة بسور حصين وخندق دونه فرحل منها ورتب جنداً من المسلمين في قصر من قصور مكة ورجع قافلاً إلى وطنه.

ثم دخلت السنة الثامنة عشرة بعد المائتين والألف:

(١) وفي هذه السنة في العشر الأواخر من رجب قُتل الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود في مسجد الطريف المعروف في الدرعية وهو ساجد أثناء صلاة العصر مضى عليه رجل قيل إنه كرديّ من أهل العمارية بلد الأكراد المعروفة عند الموصل اسمه عثمان، أقبل من وطنه لهذا القصد محتسباً حتى وصل الدرعية في صورة درويش وادّعى أنه مهاجر، وأظهر التنسك والطاعة وتعلم شيئاً من القرآن فأكرمه عبد العزيز وأعطاه وكساه وطلب الدرويش منه أن يعلمه أركان الإسلام وشروط الصلاة وأركانها وواجباتها مما كانوا يعلمونه الغريب المهاجر إليهم؛ وكان قصده غير ذلك. فوثب عليه من الصف الثالث والناس في السجود فطعنه في خاصرته أسفل البطن بخنجر معه قد أخفاها وأعدها لذلك وهو قد تأهب للموت فاضطرب أهل المسجد وماج بعضهم في بعض ولم يكونوا يدرون ما الأمر فمنهم المنهزم، ومنهم الواقف، ومنهم الكار إلى وجهة هذا العدو العادي وكان لما طعن عبد العزيز أهوى على أخيه عبد الله وهو إلى جانبه وبرك عليه ليطعنه فنهض عليه وتصارعا وجرح عبد الله جرحاً شديداً ثم إن عبد الله صرعه وضربه بالسيف وتكاثروا عليه الناس وقتلوه وقد تبين لهم وجه الأمر. ثم حمل الإمام إلى قصره وقد غاب ذهنه وقرب نزعه لأن الطعنة قد هوت إلى

جوفه، فلم يلبث أن توفي بعدما صعدوا بـه إلى القصر رحمـه الله تعالى وعفى عنه.

واشتد الأمر بالمسلمين وبهتوا وكان ابنه سعـود في نخله المعروف بمشيرفه في الدرعية، فلما بلغه الخبر أقبل مسرعاً واجتمع الناس عنده وقام فيهم ووعظهم موعظة بليغة وعزاهم فقام الناس وبايعوه خاصتهم وعامتهم وعزوه بأبيه.

ثم كتب إلى أهل النواحي نصيحة يعظهم ويخبرهم بالأمر ويعزيهم ويأمرهم بالمبايعة، وكل أهل بلد وناحية يبايعون أميرهم لسعود فبايع جميع أهل النواحي والبلدان، وجميع رؤساء قبائل العـربان، ولم يختلف منهم اثنان، ولا انتطح عنزان. وقيل إن هذا الدرويش الذي قتل عبد العزيز من أهل بلد الحسين رافضي خبيث خرج من وطنه لهذا القصد بعد ما قتلهم سعود فيها وأخذ أموالهم ـ كما تقدم ـ فخرج ليأخذ الثأر وكان قصده قتل سعود فلم يقدر عليه فقتل عبد العزيز وهذا و الله أعلم أحرى بالصواب لأن الأكراد ليسوا بأهل رفض ولا في قلوبهم غل على المسلمين و الله أعلم.

(١) وكان عبد العزيز كثير الخوف من الله والذكر آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم. ينفذ الحق ولو في أهل بيته وعشيرته لا يتعاظم عظيماً إذا ظلم فيقمعه عن الظلم، وينفذ الحق فيه. ولا يتصاغر حقيراً فيأخذ له الحق ولو كان بعيد الوطن. وكان لا يكترث في لباسه ولا سلاحه بحيث إن بنيه وبني بنيه محلاة سيوفهم بالذهب والفضة ولم يكن في سيفه شيء من ذلك إلا قليل، وكان لا يخرج من المسجد بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس ويصلي فيه صلاة الضحى. وكان كثير الرأفة والرحمة بالرعية وخصوصـاً أهل البلدان بـإعطائهم الأمـوال وبث الصدقـة لفقرائهم والدعاء لهم والتفحص عن أحوالهم وقد ذكر لي بعض من أثق به أنه يكثر الدعاء لهم في ورده قال وسمعته يقول: اللهم ابق فيهم كلمة لا إله إلا الله حتى يستقيموا عليها ولا يحيدوا عنها.

(١) وكانت الأقطار والرعية في زمنه آمنة مطمئنة في عيشة هنية، والشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي وقت شاء شتاء وصيفاً يمناً وشاماً شرقاً وغرباً في نجد والحجاز واليمن وتهامة وغير ذلك لا يخشى أحداً إلّا الله لا سارقاً ولا مكابراً. وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصيم والوشم والجنوب وغير ذلك من النواحي في أيام الربيع يسيبون جميع مواشيهم في البراري من الإبل والخيل الجياد والبقر والأغنام وغير ذلك ليس لها راعي ولا مراعي بل إذا عطشت وردت على البلدان ثم تصدّر إلى مفاليها حتى ينقضي الربيع أو يحتاجون لها أهلها لسقي زروعهم ونخيلهم. وربما تلقح وتلد ولا يدري أهلها إلا إذا جاءت وولدها معها، إلا الخيل الجياد، فإن لها من يتعاهدها.

(٢) وكان رحمه الله تعالى مع رأفته بالرعية شديداً على من جنى جناية من الأعراب أو قطع سبلاً أو سرق شيئاً من مسافر بحيث من فعل شيئاً من ذلك أخذ ماله نكالاً أو بعض ماله أو شيئاً منه على حسب جنايته وأدبه أدباً بليغاً. وحُكي أنه أتى حاج من العجم ونزل قرب بوادي سبيع فسُرق من الحاج غرارة فيها من الحوائج ما يساوي عشرة قروش فكتب صاحب الغرارة إلى عبد العزيز يخبره بذلك فأرسل إلى رؤساء تلك القبيلة فلما حضروا عنده قال لهم إن لم تخبروني بالغرارة وإلا جعلت في أرجلكم الحديد وأدخلتكم السجن وأخذت نكالاً من أموالكم. فقالوا: نغرمها بأضعاف ثمنها، فقال: كلا حتى أعرف السارق. فقالوا: ذرنا نصل إلى أهلنا ونسأل عنه ونخبرك. ولم يكن بد من إخباره فلما أخبروه به أرسل إلى ماله، وكان سبعين ناقة فباعها وأدخل ثمنها بيت المال وجيء بالغرارة لم تتغير، وكان صاحبها قد وصل إلى وطنه فأرسلها عبد العزيز إلى أمير الزبير وأمره أن يرسلها إلى صاحبها في ناحية العجم.

(٣) وذكر لي شيخنا القاضي عثمان بن منصور أن رجلاً من سراق الأعراب وجد عنزاً ضالة، وهم جياع وأخبرني أنهم أقاموا يومين أو ثلاثة مقوين . فقال بعضهم لبعض : لينزل أحدكم على هذه العنز فيذبحها

لنأكلها. فكل منهم قال لصاحبه انزل إليها فلم يستطع أحد منهم النزول، خوفاً من العاقبة على الفاعل، فألحوا على رجل منهم فقال: و الله لا أنزل إليها. ودعوها فإن عبد العزيز يرعاها، فتركوها وهم في أشد الحاجة إليها. وكانت الحجاج والقوافل وجباة الغنائم والزكاة والأخماس وجميع أهل الأسفار يأتون من البصرة وعمان وبلاد العجم والعراق وغير ذلك إلى الدرعية ويحجون منها ويرجعون إلى أوطانهم لا يخشون أحداً في جميع البوادي مما احتوت عليه هذه المملكة لا بحرب ولا سرق. وليس يؤخذ منهم شيء من القوانين التي تؤخذ على الحجاج. وبطل جميع الجوائز على الدروب التي للأعراب، أحيوا بها سنن الجاهلية، ويخرج الراكب وحده من اليمن وتهامة والحجاز والبصرة والبحرين وعمان وأنقرة الشام لا يحمل سلاحا بل سلاحه عصاه لا يخشى كيد عدو ولا أحد يريده بسوء.

(١) وأخبرني أنه ظهر مع عمال من حلب الشام قاصدين الدرعية وهم أهل ست نجائب محملات ريال زكوات بوادي أهل الشام، فإذا جنهم الليل وأرادوا النوم نبذوا أرحلهم ودراهمهم يمينا وشمالا إلا ما يجعلونه وسائد تحت رؤوسهم.

(٢) وكان بعض العمال إذا جاؤوا بالأخماس والزكاة من أقاصي البلاد يجعلون مزاود الدراهم أطنابا لخيمتهم وربطا لخيلهم بالليل لا يخشون سارقا ولا غيره.

(٣) وأخبرني أحمد بن محمد المدلجي قال: كنت كاتباً لعمال علوى من مطير مرة في زمن عبد العزيز؛ فكان ما حصل منهم من الزكاة في سنة واحدة أحد عشر ألف ريال قال: وكان عمال برية مطير رئيسهم عبد الرحمن بن مشاري بن سعود، فكان ما جبي منهم اثني عشر ألف ريال، ومن هتيم سبعة آلاف ريال وكانت زكاة مطير في تلك السنة ثلاثين ألف ريال. وكان عنزة أهل الشام وبوادي خيبر وبوادي الحويطات المعروفات ومن في نجد من عنزة يبعث إليهم عوامل كثيرة ويأتون منهم

بأموال عظيمة وأخبرني من أثق به قال إنه أناخ في يوم واحد تحت الطلحة المعروفة عند باب بلد شقرا أربع عوامل من عمال الشام، كل عاملة معها عشرة آلاف ريال. قلت ويأتي غير ذلك من زكاة بوادي شمر وبوادي الظفير قريب ما يأتي من عنزة، ومن قحطان وبوادي حرب وعتيبة وجهينة وبوادي اليمن وعمان وآل مرة والعجمان وسبيع والسهول وغيرهم ما يعجز عنه الحصر. وتؤخذ منهم الزكاة على الأمر الشرعي ولا يؤخذ فيها كرائم الأموال ولا دونها إلا من غيب من إبله أو غنمه شيئاً عن الزكاة فيؤخذ منه الزكاة والنكال.

وكان يوصي عماله بتقوى الله وأخذ الزكاة على الوجه المشروع وإعطاء الضعفاء والمساكين ويزجرهم عن الظلم وأخذ كرائم الأموال.

وكان رحمه الله تعالى مع ذلك كثير العطاء والصدقات للرعية من الوفود والأمراء والقضاة وأهل العلم وطلبته ومعلمة القرآن والمؤذنين وأئمة المساجد، حتى أئمة مساجد نخيل البلدان ومؤذنيهم. ويرسل قهوة لأهل القيام في رمضان. وكان الصبيان من أهل الدرعية إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون إليه بألواحهم ويعرضون عليه خطوطهم فمن تحاسن خطه منهم أعطاه عطاء جزيلاً وأعطى الباقين دونه.

وكان عطاؤه للضعفاء والمساكين في الغاية، فكان منهم من يكتب إليه منه ومن أمه وزوجته وابنه وابنته من كل واحد كتاباً وحده. فيوقع لكل كتاب منهم عطاءه فكان الرجل يأتيه بهذا السبب عشرون ريال وأقل وأكثر. وكان إذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتون أولاده إلى عبد العزيز يستخلفونه فيعطيهم عطاء جزيلا وربما كتب لهم راتبا في الديوان، وكان كثيراً ما يفرق على أهل النواحي والبلدان كثيراً من الصدقات في كل وقت وكل سنة يعطي كل أهل بلد وكل أهل ناحية ألف ريال وأقل وأكثر، ويسأل عن الضعفاء والأيتام في الدرعية وغيرها ويأمر بإعطائهم. وكثيرا ما يفرق على بيوت الدرعية وضعفائها. وكان كثيرا ما يكتب لأهل النواحي بالحض

على تعلم العلم وتعليمه، ويجعل لهم راتبا في الديوان. ومن كان منهم ضعيفاً يأمره بأن يأتي إلى الدرعية ويقوم بجميع أنوابه.

وأخبرني كاتبه قال إن عبد العزيز أخذه يوما صداع فدعاني وقال: اكتب صدقة لأهل النواحي فأملى علي: لأهل منفوحة خمسمائة ريال، وأهل العيينة مثل ذلك، وأهل حريملا سبعماية ريال، وأهل المحمل ألف ومائة ريال، ولجميع نواحي نجد على هذا المنوال، قال قيمتها تسعون ألف ريال. وأتى إليه يوما خمس وعشرون حمل من الريالات، فمر عليها وهي مطروحة فنخسها بسيفه وقال اللهم سلطني عليها ولا تسلطها علي. ثم بدأ في تفريقها.

وإذا أراد الغزو أو ابنه سعود بعث رسله إلى رؤساء القبائل من العربان وواعدهم جميعاً يوماً على ماء معلوم، فلا يتخلف أحد عن ذلك الموعد لا حقير ولا جليل، لا من بوادي الحجاز ولا العراق ولا الجنوب ولا غير ذلك. فمن ذكر متخلفاً ممن تعين عليه الأمر من رجل أو فارس، أدب أدباً بليغاً وأخذ من ماله نكالا ولا يتجاسر أحد أن يقول لهم شيئا، أو يشفع، بل كلهم طائعون مذعنون. وهذا الذي ذكرت من جهة الأمن وطاعة الحاضر أو الباد وغير ذلك اتفق في زمنه وزمن ابنه سعود وصدر من ولاية عبد الله، قبل أن تسلط الدولة المصرية على المسلمين بسبب الذنوب.

(١) وفي هذه السنة كانت غزوة البصرة وهدم قصر الدريهمية مشرب أهل الزبير وقتل من كان فيه. وذلك أن سعوداً لما سار من الدرعية واستلحق جميع رعاياه من الباد والحاضر فنهض بجيوشه المنصورة والخيل العتاق المشهورة وقصد ناحية الشمال حتى نزل القرية المعروفة بالتنومة عند القصيم، فعيد فيها عيد النحر ونحر ضحاياه بها. ثم أرخص لغزوان عربان الشمال من الظفير وذكر لهم أنه يريد الرجوع والقفول إلى وطنه وكان قصده بذلك أن يخبروا أهل البصرة والزبير ومن جهتهم إذا رجعوا إليهم أنه قفل حتى يبغتهم من حيث لا يعلمون. وقصد الدرعية فسار نحو يوم أو يومين

فوصلوا تلك البوادي وأخبروا من في جهتهم بقفوله ثم إن سعوداً رجع عاديا إلى البصرة. ثم نزل سعود على الجامع المعروف قرب الزبير. فنهضت جموع المسلمين إلى البصرة فدهموا جنوبها ونهبوها وقتلوا من أهلها قتلى كثيرة واحتصروا أهلها في وسط الحلة. ثم رجعت تلك الجموع وحاصروا أهل الزبير وهدموا جميع القباب والمشاهد التي خارج سور البلد وضعت على القبور، وقبة الحسن وقبة طلحة ولم يبقوا لها أثر، ثم إنها أعيدت قبة طلحة والحسن بعد هدم الدرعية. ثم إن سعوداً أمر على المسلمين أن يحشدوا على قصر الدريهمية فهدموه وقتلوا أهله.

ثم دخلت السنة العشرون بعد المائتين والألف:

وفي هذه السنة اشتد البلاء والقحط على الناس في نجد وما يليها وسقط كثير من أهل اليمن ومات أكثر إبلهم وأغنامهم. وأما مكة فالأمر فيها أعظم مما ذكرنا بسبب الحرب والحصار.

(١) وفي أول هذه السنة بايع أهل المدينة المنورة سعوداً على دين الله ورسوله والسمع والطاعة، وهدمت جميع القباب التي وضعت فيها على القبور والمشاهد وذلك أن آل مضيان رؤساء حرب وهما بادي وبداي ابني بدوي بن مضان ومن تبعهم من عربانهم أحبوا المسلمين ووفدا على عبد العزيز وبايعوه، وأرسل معهم عثمان بن عبد المحسن أبا حسين يعلمهم فرائض الدين ويقرر لهم التوحيد، فأجمعوا على حرب المدينة ونزلوا عواليها، ثم أمر عبد العزيز ببناء قصر فيها فبنوه وأحكموه واستوطنوه، وتبعهم أهل قباء ومن حولهم وضيقوا على أهل المدينة وقطعوا عنهم السوابل وأقاموا على ذلك سنين، وأرسل إليهم سعود وهم في موضعهم ذلك الشيخ العالم قرناس بن عبد الرحمن صاحب بلد الرس المعروف بالقصيم فأقام عندهم قاضياً معلما كل سنة يأتي إليهم في موضعهم ذلك. فلما طال الحصار على أهل المدينة وقعت المكاتبات بينهم وبين سعود من حسن قلعي وأحمد الطيار والأعيان والقضاة وبايعوا في هذه السنة.

ثم دخلت السنة الحادية والعشرون بعد المائتين والألف:

(١) وفيها حج سعود بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى بالمسلمين حجته الثالثة، خرج من الدرعية ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة من ذي القعدة، وكان قد سير قبل خروجه وقت انسلاخ شهر رمضان عبد الوهاب بن عامر برعاياه من عسير وألمع وغيرهم وفهاد بن سالم بن شكبان بأهل بيشة ونواحيها وعثمان المضايفيّ بأهل الطائف ونواحيه وأهل اليمن وتهامة وأهل الحجاز. ثم سير أمامه من أهل نجد حجيلان بن حمد بشوكة أهل القصيم، ومحمد بن عبد المحسن بن علي بشوكة أهل الجبل ومن تبعه من شمر وغيرهم وشوكة أهل ناحية الوشم، وواعدهم المدينة النبوية. واجتمع معهم مسعود بن مضيان وأتباعه من حرب، وجابر بن جبارة وأتباعه. فاجتمع هؤلاء الجموع المذكورة ونزلوا قرب المدينة، فلما خرج سعود من الدرعية قاصداً مكة أرسل فراج بن شرعان العتيبيّ ورجالا معه لهؤلاء المذكورين وذكر لهم أن يمنعوا الحواج التي تأتي من جهة الشام واصطنبول ونواحيهما. فلما أقبل على المدينة الحاج الشامي ومن تبعه وأميره عبد الله العظم باشا الشام فأرسل إليه هؤلاء الأمراء أن لا يقدم إليهم وأن يرجع إلى أوطانه؛ وذلك لأن سعوداً خاف من غالب شريف مكة أن يحدث عليه حوادث بسبب دخول الحواج الشامية وأتباعهم مكة، فرجع عبد الله العظم باشا ومن تبعه من المدينة إلى أوطانهم. ثم رحل هؤلاء الأمراء وأتباعهم من المدينة وقصدوا مكة فاجتمعوا فيها بسعود فاعتمروا وحجوا على أحسن حال، وبذل سعود في مكة شيئاً كثيراً من العطايا والصدقات، ونزل قصر البياضية الشماليّ، فركب إليه الشريف وبايعه. وأخرج سعود من كان في مكة من الأتراك وكسا الكعبة المشرفة كسوة فاخرة من القز الأحمر، ثم كساها بعد ذلك بالقيلان الفاخر وأخرج من كان في قصور مكة من عسكر الترك ثم رحل منها في آخر ذي الحجة وقصد المدينة النبوية فدخلها وضبطها أتم ضبط، وجعل في ثغورها مرابطة. وأجلى عنبر باشا الحرم والقاضي وكل من يحاذر منه. فأقام فيها أياماً واستعمل أميراً على المرابطة حمد بن سالم

من العيينة. وجعل على الخراج محمد الغريبيّ من أهل الدرعية. ثم رحل إلى وطنه وأذن لأهل النواحي يرحلون إلى أوطانهم.

ثم دخلت السنة الثانية والعشرون بعد المائتين والألف:

وفيها حج سعود بن عبد العزيز حجته الرابعة بجميع نواحي المسلمين من رعيته من أهل العارض والجنوب والوشم وسدير والقصيم وجبل شمر والإحساء ونواحيه وبيشه ورنيه وتهامة واليمن والحجاز وغير ذلك. ودخل مكة بجميع تلك الجنود واعتمروا وحجوا بأحسن حال. ونزل سعود القصر الجنوبي في البياضية وكثيراً ما يدخل الحرم ويطوف بالبيت، وكثيراً ما يجلس فوق زمزم ومعه خواصه. وبث في مكة من الصدقات والعطاء لأهلها وضعفائها شيئاً كثيراً. وكسا الكعبة المشرفة كسوة فاخرة من القيلان الفاخر، وجعل إزارها وكسوة بابها حريراً مطرزاً بالذهب والفضة وأقام فيها نحواً من ثمانية عشر يوماً، ثم رحل منها وقصد المدينة النبوية ودخلها وأقام فيها عدة أيام ورتب مرابطة في ثغورها.

ثم دخلت السنة الثالثة والعشرون بعد المائتين والألف:

وفيها حج سعود حجته الخامسة بالمسلمين من جميع رعيته من نواحي نجد والجنوب والإحساء والقطيف وعمان والبحرين ووادي الدواسر وتهامة والطور واليمن وبيشة ورنيه وجميع الحجاز ونواحيها والمدينة النبوية والينبع والفرع وغير ذلك. فدخل مكة واعتمر وحج ونزل القصر الشمالي المعروف في البياضية، وأقام فيها وغالب الشريف يزوره كل وقت وهو لسعود بمنزلة أحد نوابه.

(١) وفشا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكة فلا يشرب التنباك في أسواقها وأمر سعود أن يجعل في أسواقها من يأمرهم بالصلاة إذا دخل الوقت فكان إذا أُذن دار الرجال في الأسواق: الصلاة الصلاة، وبذل سعود لغالب هدايا وتحفا جزيلة وأعطاه غالب مثل ذلك، وبذل في مكة كثيراً من الصدقات والعطاء. وكسا الكعبة المشرفة بالقيلان الأسود وجعل إزارها

وكسوة بابها من الحرير المطرز بالذهب والفضة، وأقام بها نحو ثمانية عشر يوما. ثم رحل منها وبعث إلى المدينة النبوية مرابطة من جميع نواحي نجد بدل المرابطة الذين فيها وهذه عادته في الثغور يجعلهم فيها سنة ثم يبدلهم بغيرهم ويرجعون إلى أهاليهم، ورجع سعود إلى وطنه.

(١) ولم يحج في هذه السنة أحد من أهل الشام ومصر والعراق والمغرب وغيرهم إلا شرذمة قليلة من أهل المغرب لا اسم لهم حجوا بأمان.

(٢) وفيها بعث سعود رحمه الله تعالى سرية إلى عمان قليلة لتعليم فرائض الدين والاطلاع على أحوالهم. فلما وصلوا هناك فإذا قيس بن أحمد المسمى ابن الإمام رئيس سحار وجميع باطنة عمان وابن أخيه سعيد بن سلطان رئيس مسكه بندر عمان ونواحيها ومن معهما من الجنود نحو عشرة آلاف رجل أو يزيدون سائرون على النواحي التي تليهم من عمان من رعية سعود ورأس عمان يومئذ من جهة سعود سلطان بن صقر بن راشد صاحب رأس الخيمة، فأرسل إلى من يليه من أهل عمان فاجتمع عنده نحو ثلاثة آلاف رجل فالتقى الجمعان جمع قيس وسلطان عند خور المكان المعروف في عمان بين الباطنة ورأس الخيمة، واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم جمع قيس هزيمة شنيعة وقتل قيس المذكور وهلك من قومه خلق كثير بين القتل والغرق في البحر، قيل إن الذي هلك قريب أربعة آلاف رجل، ثم بعد هذه الوقعة أرسل ابن قيس إلى سعود وسلطان بن صقر وطلب المبايعة على دين الله ورسوله والسمع والطاعة وبايع على ذلك وبذل مالاً كثيراً وشوكة من الحرب، وصار جميع عمان تحت ولاية سعود، وجمع سلطان بن صقر الغنائم من هذه الوقعة وأخذ خمسها ودفعها إلى عمال سعود وأرسلوه إلى الدرعية.

(٣) وفي هذه السنة والغلاء والقحط في نجد على حالة في الشدة وعم الغلاء في جميع نجد واليمن والتهائم والحرمين والحجاز والإحساء ووقع مع ذلك مرض ووباء مات فيه خلق كثير من نواحي نجد.

ثم دخلت السنة الرابعة والعشرون بعد المائتين والألف:

(١) وفيها اشتد الوباء والمرض خصوصاً في بلد الدرعية فمكث على ذلك الحال إلى شهر جمادى، ومات في الدرعية خلق كثير من الغرباء والسكان حتى أتى عليهم أيام يموت في اليوم الواحد ثلاثون وأربعون نفساً. وكتب سعود نصيحة بليغة إلى أهل الدرعية وأرسلها إلى جميع النواحي وحضهم على التخلي عن الذنوب والتوبة النصوح، وذكر فيها كثيرا من المحظورات، وأورد الأدلة بالترهيب عنها ودعا الله في آخرها دعاء عظيما أكثر فيه من الثناء على الله والتوسل باسمائه الحسنى برفع الضرر والوباء عن الناس. ذكر لنا أنها لما قرئت هذه النصيحة على الناس في مساجد الدرعية ارتفع الوباء بعدها عن الدرعية.

وفي هذه السنة حج سعود رحمه الله تعالى حجته السادسة واحتفل بالحج معه جميع من شملته مملكته من نواحي المسلمين من أهل العارض والجنوب ووادي الدوار والأحساء ونواحيه وجميع أهل نجد وأهل التهايم والحجاز واليمن والمدينة النبوية وما حولها من النساء والأطفال والثقيل والخفيف وبنات سعود وكثير من نساء آل مقرن.

(٢) ولم يحج تلك السنة أحد من أهل الشام ولا مصر ولا اصطنبول ولا العراق إلا من كان يحج بأمان سعود.

(٣) وفيها أقبل مراكب الإنجليز النصارى مستنجدهم سعيد بن سلطان صاحب مسكة المعروفة في عمان بعد نقض العهد وقصدوا أهل بلد رأس الخيمة المعروف في عمان ورئيسها يومئذ سلطان بن صقر بن راشد أمير القواسم وبندروا فيها وحزبوا أهلها فلم يحصلوا على طائل فرفعوا على البلد بلورا وجعلوه في عين الشمس وقابلوا به البلد فاشتعلت النار فيها وكان أكثر بيوتها صرايف من عسبان النخل، فدخلوا البلد واستباحوها ونهبوا ما فيها وأشعلوا فيها النيران ودمروها وهرب سلطان بن صقر وغالب أهل البلد

حتى فرغ العدو منها وانتقل عنها، فرجعوا إلى بلادهم فعمروها وأحصنوها.

ثم دخلت السنة الخامسة والعشرون بعد المائتين والألف:

(١) وفيها سار سعود بالجنود المنصورة والخيل والجياد المسومة المشهورة واستنفر جميع النواحي من جميع الحاضر والباد من وادي الدواسر إلى مكة والمدينة إلى جبل طي والجوف وما بين ذلك نحو ثمانية آلاف، خرج من الدرعية لثلاث خلون من ربيع الثاني وقصد نقرة الشام المعروفة لأنه بلغه الخبر أن بوادي الشام وعربانه من عنزة وبني صخر وغيرهم فيها فلما وصل تلك الناحية لم يجد فيها أحدا منهم وإذا قد سبقه النذير إليهم فاجتمعوا على دوخى بن سمير رئيس ولد علي من عنزة وهو من وراء الجبل المعروف بطويل الثلج قرب نابلس نازلين عين القهوة من جبال حوران ولما بلغ ابن سمير ومن معه إقبال سعود إليهم انهزم بمن معه من البوادي ونزلوا الغور من حوران. فسار سعود في تلك الناحية وأقبل فيها وأدبر واجتاز بالقرى التي حول المزيريب وبصرى فنهبت الجموع ما وجدوا فيها من المتاع والطعام وأشعلوا فيها النيران. وكان أهلها قد هربوا عنها لما سمعوا بمسيره. ثم ترحل ونزل بصرى وبات فيها. ثم رجع قافلا إلى وطنه ومعه غنائم كثيرة من الخيل والمتاع والأثاث والطعام، وقتل من أهل الشام عدة قتلى. وحصل في الشام رجفة ورعب عظيم بهذه الغزوة في دمشق وغيرها من بلدانه وجميع بواديه. ومن حين قفل سعود من الشام جاء العزل ليوسف باشا الشام. وسار إليه سليمان صاحب عكا فأجلاه واحتوى على جميع أمواله وتولى إمارة الشام.

وفيها حج سعود بن عبد العزيز بالمسلمين الحجة السابعة واحتفل معه بالحج جميع رعيته من الجبل والجوف إلى الحساء وعمان ووادي الدواسر وألمع وجميع طور تهامة ومن يليهم وجميع أهل الحجاز إلى المدينة وينبع وما بين ذلك من البوادي فدخلوا مكة واعتمروا وحجوا على أحسن الأحوال بأمان عظيم ونزل سعود قصر البياضية الشمالي وبذل في مكة شيئاً كثيراً من

الصدقات والعطاء لأهلها وغيرهم. وحججت في تلك السنة وشهدت سعوداً وهو راكب مطية محرماً بالحج ونحن مجتمعون في نمـرة لصلاة الـظهر، وخطب فوق ظهرها خطبة بليغة ووعظ الناس فيها وعلمهم المناسك، وذكر ما أنعم الله عليهم به من الاعتصام بكلمة لا إله إلا الله وما أعطى الله في ضمنها من الاجتماع بعد التفرق، وأمان السبل، وكثـرة الأموال، وانقيـاد عصاة الرجال، وأن أضعف ضعيف يأخـذ حقه كـاملا من أكبـر كبير من مشايخ البوادي، وأعظم عظيم من رؤساء البلدان. ونادى وهو على ظهرها لا يُحمل في مكة سلاح، ولا تبرج امرأة بزينة. وتوعد من فعل ذلك من جميع رعيته. ورأيت الشريف غالبا أقبل فـوق حصانـه ونحن جلوس في الصف وليس معه إلا رجل واحد. ونزل سعود من كور مطيته وسلم عليه وتعانقا وسلم عليه المسلمون فأقيمت صلاة الظهر وقصدنا بعدها عرفة.

(١) ودخل سعود بعد ذلك مكة وسار فيها سيرة حسنة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدقات والعطاء والرأفة بأهلها. وجعل في الأسواق رجالا وقت الصلاة يحضونهم عليها فلا تجد فيها وقت الصلاة متخلفاً إلا نادراً. ولا تجد في الأسواق في جميع هذه الحِجَج من يشرب التنباك ولا غيره من المحظورات إلا ما لا يرى ظاهراً. وكسا الكعبة المشرفة بالقيلان والديباج الفاخر وجعل إزارها وكسوة الباب من الحـرير الأحمـر المنسوج بالذهب والفضة وكان أكثر جلوسه إذا دخل مكة فوق زمزم مقـابل البيت الشريف.

وفي تنك الحجة كشف سعود القبة التي فوق صخرة مقام إبـراهيم وصارت الصخرة والقدمان الشريفان بارزتان ورآها الناس من أهل مكة وغيرهم ورأيتها وهي صخرة بيضاء مربعة الرأس طولها نحو الذراع وعليها سبيكة صفراء لا أدري ذهب أم صفر مستديرة بالصخرة مكتوب في السبيكة **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين. شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من**

المشركين﴾ وعلى القدمين الشريفين تراب وبين السبيكة ورأس الصخرة التي فيها القدمان نحو أربع أصابع. وأقام سعود فيها إلى العشر الأواخر من ذي الحجة وأهدى غالب على سعود هدايا سنية وأعطاه عطايا جزيلة وهو لسعود كأنه أحد أمرائه الذين في نجد. ورحل من مكة وبعث إلى المدينة النبوية مرابطة بدل الذين فيها ورجع إلى وطنه.

ثم دخلت السنة السادسة والعشرون بعد المائتين والألف:

(١) وفي هذه السنة أجمع أمراء الترك على المسير إلى الحجاز وأعدوا جميع آلات الحرب من السفن والمدافع والقنابر والبنادق وجميع آلاتها وما يحتاجون إليه من الأموال والذخائر من الطعام وغيره فاجتمع العساكر من اصطنبول ونواحيها وما دونها إلى الشام ومصر. والرئيس من جهة الأتراك صاحب مصر محمد علي فسير العساكر المذكورة براً وبحراً فسير عساكر في السفن واستولى على بندر «الينبع» ثم سير ابنه أحمد طوسون بالعسكر الكثيف مع البر فاجتمعت العساكر البرية والبحرية فكانت العساكر التي استقلت من مصر من الترك وأهل المغرب نحو أربعة عشر ألف مقاتل أو يزيدون، ومعهم من الخيل عدد كثير.

(٢) فلما سمع سعود بمسيرهم أمر على نواحي المسلمين من الحاضرة والبادية من أهل نجد والجنوب والحجاز وتهامة وغيرهم فسيرهم مع ابنه عبدالله. فنهض عبد الله بتلك الجنود ونزل الخيف المعروف من وادي الصفراء فوق المدينة النبوية واستعدوا لإقبال العساكر المصرية. واجتمع معه من الجنود نحو ثمانية عشر ألف مقاتل وثمانمائة فارس. فالتقى الفريقان فحصل قتال شديد وصبر الفريقان وكثر القتل في الترك والمسلمين وصار عدة وقائع ومقاتلات في هذا المنزل وابتلي المسلمون بلاء شديداً. فكلما حمل الترك على جمع المسلمين انهزم الأعراب وثبت غيرهم. وأقاموا على ذلك نحو ثلاثة أيام فأرسل عبد الله إلى مسعود بن مضيان ومن معه من حرب وأهل الوشم وأمرهم أن يحملوا على الترك فأقبلوا وصار أول حملة

عليهم مع جملة جنود المسلمين فانهزمت العساكر المصرية لا يلوي أحد على أحد، وانكشفوا عن مخيمهم ومحطتهم، وولوا مدبرين وتركوا المدافع وهي سبعة والخيام والثقل والرحايل وكثير السلاح وما في محلهم من جميع آلات الحرب والذخاير، ولا نجا منهم إلا أهل الخيل الذين أدبروا مع باشتهم. ومات غالب خيولهم حقنا وظمأ، حتى وصلوا إلى البريكة وركبوا منها في السفن إلى الينبع واستقروا فيه، وقتل من رجالتهم عدد كثير وأخذ المسلمون منهم من الأموال والسلاح ما لا يحصى، والذي حرر لنا أن القتلى من الترك أربعة آلاف رجل. وقتل من المسلمين من جميع النواحي نحو ستمائة رجل.

ثم دخلت السنة السابعة والعشرون بعد المائتين والألف:

(١) وفي هذه السنة قدم من مصر أحمد بن نابرت على العسكر الذي في ينبع البحر مع أحمد طوسون وكانوا قد أقدموا فيه بعد وقعة الخيف المتقدمة. فقدم عليهم بن نابرت المذكور بعساكر كثيرة من مصر جهزها معه محمد علي صاحب مصر فضبطوا الينبع وتبعهم بقية عربان جهينة واستولوا على ينبع النخل، ثم على وادي الصفرا وبلدان بوادي حرب، ثم ساروا قاصدين المدينة النبوية وسار معهم بوادي حرب، فنزلوا على المدينة منتصف شوال وحصروها أشد الحصار ونصبوا عليها المدافع والقنابر الكبار وهدموا ناحية قلعة البلد وحفروا عليها السراديب وثوروا فيها البارود وكان فيها عدد كثير من جميع النواحي جعلهم فيها سعود وقت قفوله من الحج نحو سبعة آلاف رجل لكنهم ابتلوا بالأمراض المؤلمة ثم إن العساكر المصرية كادوهم بكل كيد وسدوا عنهم المياه الداخلة في وسط المدينة وحفروا سرداباً تحت سور قلعة المدينة وملؤوه بالبارود وأشعلوا فيه النار، فانهدم السور فقاتلهم من كان فيها من المرابطة قتالاً شديداً، ثم إن أهل المدينة فتحوا للترك باب البلد؛ فلم يدر المرابطة إلا والرمي عليهم من الترك داخل البلد وذلك لتسع مضين من ذي القعدة، فانحاز المرابطة وجنود المسلمين إلى القليعة فاحتصروا فيها، وكانت ضيقة عليهم من كثرتهم،

وصار فيها خلق كثير يرتكم بعضهم على بعض. ونصب الترك عليهم القنابر والمدافع. فكانت القنبرة إذا وقعت وسط القليعة أهلكت عدداً من الرجال فكثر فيها المرضى والجرحى، فطلبوا المصالحة بعد أيام فنزلوا منها بالأمان وهلك في هذه الواقعة من المسلمين بين القتل والوباء والهلاك في البر بعد ما خرجوا من المدينة وقبل أن ينزل عليهم الترك نحو أربعة آلاف رجل من عسير وأهل بيشة والحجاز وأهل الجنوب وأهل نجد وظهر باقيهم إلى أوطانهم وأمسك التركي حسن قلعي وعذبوه بأنواع العذاب وبعثوه إلى مصر.

وكان سعود قد سير ابنه عبد الله بشوكة المسلمين من جميع النواحي وقصد الحجاز ونزل بوادي فاطمة المعروف قرب الطائف وأقام فيه أياماً.

وفي هذه السنة حج سعود بن عبد العزيز بالمسلمين حجته التاسعة.

فلما أراد الخروج من مكة أبقى فيها عساكر ممن كانوا معه وبايعه غالب عن الخيانة والغدر. فلما خرج منها أبقى ابنه عبد الله بجميع شوكة المسلمين وأمرهم أن ينزلوا في وادي مر المعروف قرب مكة ورجع إلى الدرعية وكان قد بلغه خبر المدينة قبل قدومه مكة. ثم بعد ذلك بأيام يسيرة اجتمعت العساكر المصرية وساروا من المدينة إلى مكة فوقع من غالب ما أوحش عبد الله بن سعود فأرسل إلى العساكر الذين في مكة واستظهرهم فرحل عبد الله من مكانه وانحاز إلى الريعان ثم رحل وانحاز إلى العبيلا ونزل عندها بالمسلمين. ثم أمر عثمان المضايفي وكان معه أن يتجهز لبلده الطائف ويضبطها فسار عثمان إليها وارتحل عبد الله من العبيلا وتوجه إلى الخرمة قافلاً. وقد دخل المسلمين الفشل وذلك بقضاء الله وقدره وبسبب ذنوبنا نسأل الله المغفرة.

ولما دخل عثمان الطائف استوحش وخاف على نفسه وحرمه فخرج منها منهزما بعياله ونسائه وبعض خيله وما خف من أمواله ومتاعه ولحق بعبد الله وكان خروجه من الطائف يوم الثلاثاء لسبع بقين من المحرم أول سنة ثمان وعشرين.

ثم إن طوسون والعساكر المصريين ساروا إلى مكة ودخلوها بغير قتال وذلك بعد ما قفل عبد الله فنزل طوسون قصر القرارة المعروف في مكة. وكان الشريف هو الذي دعاهم لدخولها ومالأهم عليه.

فلما استقر الترك في مكة سار مصطفى ومعه راجح الشريف وابن غالب الشريف إلى الطائف ودخلوه وضبطوه. وكاتبهم جميع رعايا عثمان من نواحي الطائف وأطرافه وتبعوهم وزهران وغامد وغيرهم. وثبت أهل رنية وبيشة وجميع الحجاز اليماني.

وفي هذه السنة في ذي القعدة قدم محمد علي صاحب مصر مكة المشرفة بالعساكر العظيمة وقدم معه الحاج المصري فلما دخل مكة واستقر به القرار فيها سار إليه غالب الشريف فيها للتحية فأكرمه محمد علي وأعظمه وأعطاه عطاء جزيلاً وفعل معه بالظاهر فعلا جميلا وكان قصده غير ذلك فلما ضبط محمد علي مكة بالعساكر وزاره الشريف على عادته أمسكه وقيده وحبسه وأحاط بجميع ما يملك من الأموال والأثاث والمتاع والحلقة والكراع والمماليك وأخذ جميع ما في خزائنه من الذهب والفضة وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر. وأخرج حرمه وعياله من قصر أجياد المعروف في مكة واستولى عليه. وأمسك كبار بنيه وقيدهم وحبسهم معه. واستعمل في مكة شريفا سرور بن يحيى بن سرور أخا غالب ونادى بالأمان لأهل البلد وادعى أن هذا أمر من السلطان وكان قبضه على غالب وبنيه لعشر بقين من ذي القعدة وهرب من مكة أكثر الأشراف وأتباع غالب.

ثم إن محمد علي أراد أن ينصب راجح الشريف ويكون بابا للعرب فلم يأمنه راجح وهرب عنه في شرذمة من الخيل ونزل على غزو المسلمين من أهل الحجاز عند بلد تربة ثم خرج يحيى بن سرور من مكة وأظهر أنه يريد الغزو على البوادي ومعه شرذمة من الترك والعرب فلما قرب من الخبت هرب بمن معه من العرب إلى ناحية تهامة وعسير خوفا على نفسه ورجع الترك الذين معه.

ثم دخلت السنة التاسعة والعشرون بعد المائتين والألف:

ومحمد علي صاحب مصر في مكة على الحال المذكورة ولم يزل محمد علي في مكة وجدة وابنه طوسون في الطائف. هذا وراجح الشريف ومن تبعه وغصاب العتيبي ومن معه من أهل الحجاز واليمن من جنود المسلمين نازلين فيما بينهم وبين بلد تربة يصابرون تلك العساكر ويديرون فيهم الرأي.

وفي هذه السنة توفي الإمام قائد الجنود الذي اجتمعت له السيادة والسعود سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود. جددت له البيعة في الدرعية في اليوم الذي قتل فيه أبوه. وأخذ البيعة له من جميع المسلمين أمراؤه في النواحي والبلدان فأمنت البلاد. وطابت قلوب العباد. وانتظمت مصالح المسلمين بحسن مساعيه. وانضبطت الحوادث بيمن مراعيه. فبلغ من الشرف منهاه. ومن سنام المعالي أعلاه. وكان متيقظاً بعيد الهمة يسر الله له من الهيبة عند الأعداء والحشمة في قلوب الرعايا ما لم يره أحد وكان له المعرفة التامة في تفسير القرآن. أخذ العلم عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ أقام مدة سنين يقرأ عليه، ثم كان يلازم مجالس الدرس عنده وله معرفة في الحديث والفقه وغير ذلك، بحيث إنه إذا كتب نصيحة لجميع رعاياه من المسلمين أتى فيها بالعجب العجاب وبهرت عقول أولي الألباب. وكان أول ما يصدر النصيحة بالوصية بتقوى الله تعالى ومعرفة نعمة الإسلام ومعرفة التوحيد والاجتماع بعد الفرقة، ثم الحض على الجهاد في سبيل الله، ثم الزجر عن جميع المحظورات من الزنى والغيبة والنميمة وقول الزور والمعاملات الربوية وغير ذلك.

وكل نوع من ذلك يأتى عليه بالأدلة من الكتاب والسنة وكلام العلماء، فمن وقف على شيء من مراسلاته ونصائحه عرف بلاغته ووفور علمه.

وإذا تكلم في المحافل بنصيحة أو مذاكرة بهر عقل من لم يكن قد

سمعه وخال في نفسه أنه لم يسمع مثل قوله وحسن منطقه وعليه الهيبة العظيمة التي ما سمعنا بها في الملوك السالفة، بحيث إن ملوك الأقطار لا تتجاسر على مراجعته الكلام ولا ترمقه بأبصارها إجلالا له وإعظاما، وهو مع ذلك في الغاية من التواضع للمساكين وذي الحاجة وكثير المداعبة والانبساط لخواصه وأصحابه.

(١) وكان ذا رأي باهر وعقل وافر ومع ذلك إذا أهمه أمر وأراد إنفاذ رأي أرسل إلى خواصه من رؤساء البوادي واستشارهم فإذا أخذ رأيهم وخرجوا من عنده أرسل إلى خواصه وأهل الرأي من أهل الدرعية ثم أخذ رأيهم فإذا خرجوا أرسل إلى أبناء الشيخ وأهل العلم من أهل الدرعية واستشارهم وكان رأيه يميل إلى رأيهم ويظهر لهم ما عنده من الرأي.

(٢) وكان ثبتاً شجاعاً في الحروب محبباً إليه الجهاد في صغره وكبره بحيث إنه لم يتخلف في جميع المغازي والحجج ويغزو معه بجملة من العلماء من أهل الدرعية وأهل النواحي. ويستخلف على الدرعية أحد بنيه. وكثيراً ما يستخلف ابنه عبد الله. ويغزو معه إخوته وبنوه وبنو عمه عبد الله. وكل واحد من هؤلاء بدولة عظيمة من الخيل والركاب والخيام والرجال وما يتبع ذلك من رحائل الأزواد والأمتاع للضيف وغيره. فقام في الجهاد وبذل الاجتهاد وفتح أكثر البلاد في أيام أبيه وبعد موته. وأُعطي السعادة في مغازيه. ولا أعلم أنه هزم، وله راية، بل نصر بالرعب الذي ليس له نهاية. وكل أيامه مواسم ومغازيه غنائم. وقذف الله الرعب في قلوب أعدائه، فإذا سمعوا بمغزاه ومعداه هرب كل منهم وترك أخاه وأباه وماله وما حواه. فأما سيرته في المغازي فكان إذا أراد أن يغزو إلى جهة الشمال أظهر أنه يريد الجنوب أو الشرق أو الغرب، وإذا كان يريد جهة من تلك الجهات ورّى بغيرها، وأرسل إلى جميع البوادي حواويش رجال يحوشونهم من أقطار الجزيرة للغزو معه، وواعدهم يوماً معلوماً على ماء معلوم، فلا يتخلف أحد منهم عن ذلك اليوم ولا ذلك الموضع، وواعد أيضاً جميع المسلمين من

أهل البلدان موضعاً معلوماً، فيسارع الجميع إليه قبله ثم يركب من الدرعية إما يوم الخميس أو يوم الاثنين، فيخرج الناس قبله بيومين أو ثلاثة وبعده بيومين أو ثلاثة. فإذا أراد الخروج من الدرعية وقفت له كتائب الخيل في الوادي وعند القصر والرجال والنساء والأطفال ينتظرون خروجه. ثم يخرج من القصر ويدخل مسجد الجامع الذي عند قصره فيصلي فيه ويطيل الصلاة، فإذا فرغ من صلاته ركب جوادة فلا يتكلم بكلمة إلا السلام حتى يأتي الموضع الذي يريد نزوله بين الدرعية والعيينة ويسير معه ذلك اليوم كثير من الضعفاء والمساكين والولدان وأهل الحاجة، فيقضي حاجاتهم تلك الليلة ثم يرحل فإذا سار وجد جميع المسلمين مجتمعين على مواعدهم فيسير بجميع المسلمين الحاضر والباد وينزل في المنزل قبل غروب الشمس، ويرحل قبل شروقها ويقيل الهاجرة ولا يرحل حتى يصلي صلاتي الجمع الظهر والعصر. ويجتمع الناس للدرس عنده بين العشائين كل يوم إلا قليلا وعند كل ناحية من نواحي المسلمين، ورتب في كل ناحية إماماً يصلي بعد الإمام الأول الذي يصلي بالعامة، فيصلي الثاني بالذين يحفظون متاع أصحابهم ويطبخون لهم في صلاتهم. وذلك لئلا يصلوا فرادى.

فإذا قرب من العدو نحو ثلاثة أيام بعث عيونه أمامه ثم عدا فلا يلبث حتى يبغتهم وينزل قريبا منهم، فلا يوقد عند جموع المسلمين تلك الليلة نار ولا كأنهم نزلوا بتلك الديار. ثم ينادي المنادي لجميع المسلمين بعد صلاة المغرب: أن احضروا عند سعود، فيجتمعون عنده ثم يقوم فيهم ويذكرهم ما أنعم الله عليهم به من الاجتماع على كلمة الإسلام، وأن سببه العمل بطاعة الله والصبر في مواطن اللقاء وأن النصر لا ينال إلا بالصبر، وما وعد الله الصابرين وتوعد الفارين المدبرين. ويتلو عليهم قوله تعالى: ﴿ومن **يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾، ويزجرهم عن الظلم والغلول الذي هو سبب الكسر والخذلان، وما توعد الله من غل في كتابه، وما ورد عن النبي ﷺ في ذلك من الترهيب عنه، ويزجرهم أيضاً عن العجب بالكثرة والزيادة في

النفوس التي هي سبب الفشل والانهزام ويذكرهم ما قال الرجل في حنين «لن نغلب اليوم عن قلة» حتى ولوا مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين.

فإذا فرغ انصرفوا إلى مواضعهم ومحاطهم حتى يتبين أول الصبح. وكان قد أمر بعض الأعراب أن يبكروا بالصلاة على أوله ويشن الغارة. فإذا صلى الصبح ركب بالمسلمين وضجوا بالتكبير وأغاروا فتظلم السماء والأرض من إثارة النقع وضجيجهم بالتكبير، فيغيب الذهن في تلك الساعة، ويوقن المسلمون بالنصر، فيوقع الله بأسه فيمن قصدته تلك الجموع، فلا يرفع السيف إلا عن من لم يبلغ الحلم أو امرأة أو شيخ كبير وتؤخذ جميع الأموال. ثم يرحل عن معارة القوم بجميع تلك الغنائم مع الباد والحاضر فينزل قريباً منها على بعض المياه، فتعزل الأخماس وتباع الغنائم بدراهم وتقسم على جميع المسلمين للراجل سهم وللفارس سهمان. ثم يرحل إلى وطنه ويأذن لأهل النواحي يرجعون إلى أوطانهم.

(١) وأما سيرته في الدرعية في مجالسه وفي الدرس فهو أنه إذا كان وقت طلوع الشمس جلس الناس من أهل الدرعية وغيرهم للدرس ويجتمع جمع عظيم كل حلقة تحتها حلقة لا يحصيهم العد. ويخلى صدر المجلس لسعود وبنيه وعمه عبد الله وبنيه وإخوانه عبد الله وعمر وعبد الرحمن وأبناء الشيخ، فيأتون أبناء الشيخ ويجلسون، ثم يأتي عمه وبنوه وإخوانه، ويأتي كل رجل من هؤلاء بحشمه وخدمه، ويجلسون عند أبناء الشيخ. ثم يأتي أبناء سعود أرسالا؛ كل واحد منهم يأتي بدولة عظيمة من خواصه وحشمه وخدمه. فإذا أقبل أحدهم على تلك الحلقة لم يقوموا لهم وهم لا يرضون بذلك بل كل رجل من أهل ذلك المجلس يميل بكتفه حتى يخلص مكانه عند أعمامه. فإذا اجتمع الناس خرج سعود من القصر ومعه دولة وجلبة عظيمة تسمع جلبتهم كأنها جلبة النار في الحطب اليابس من قرع السيوف بعضها بعضاً من شدة الازدحام، لا ترى فيهم الأبيض من الرجال إلا نادراً، بل كلّ مماليكه عبيد سود، ومعهم السيوف الثمينة والمحلاة بالذهب

والفضة، وهو بينهم كالقمر تبين في فتق سحاب. فإذا أقبل على ذلك المجلس قام له الذين في طريقه لئلا يطأهم العبيد حتى يخلص إلى مكانه. فيسلم على الكافة، ثم يجلس بجانب عبد الله ابن الشيخ وهو الذي عليه القراءة في ذلك الدرس ويجلس أكثر من معه في طرف الحلقة، فإذا تكامل سعود جالساً التفت للعلماء والرؤساء من المسلمين عن يمينه وشماله فسلموا عليه ورد عليهم السلام ثم يشرع القارىء في التفسير. حضرت القراءة في ذلك الدرس في تفسير محمد بن جرير الطبري وحضرته أيضاً في تفسير ابن كثير.

فإذا فرغ الدرس نهض سعود قائماً ودخل القصر في منزل من منازله القريبة للناس ورفعوا إليه حوائجهم حتى يتعالى النهار ويصير وقت القيلولة فيدخل إلى حرمه فإذا صلى الناس الظهر أقبلوا إلى الدرس عنده في قصره في موضع بناه بين الباب الخارج والباب الداخل على نحو خمسين سارية جعل مجالسه ثلاثة أطوار كل مجلس فوق الآخر فمن أراد الجلوس في الأعلى أو الأوسط أو الذي تحته أو فوق الأرض اتسع له ذلك ثم يأتون إخوانه وبنوه وعمه وبنوه وخواصه على عادتهم للدرس ويجلسون مجالسهم ثم يأتي سعود على عادته ولا يحضر ذلك المجلس أحد من أبناء الشيخ لأن هذا الوقت عند كل واحد منهم طلبة علم يأخذون عنهم إلى قريب العصر والعالم الذي يجلس للتدريس في هذا الموضع إمام مسجد الطريف عبد الله بن حماد وبعض الأحيان القاضي عبد الرحمن بن خميس إمام مسجد الطريف القصر، ويقرأ اثنان في تفسير ابن كثير ورياض الصالحين، فإذا فُرِغ من الكلام على القراءة سكت ثم ينتهض سعود ويشرع في الكلام على تلك القراءة ويحقق كلام العلماء والمفسرين فيأتي بكل عبارة فائقة وإشارة رائقة فتمتد إليه الأبصار وتحير من فصاحته الأفكار، وكان من أحسن الناس كلاماً وأعذبهم لساناً وأجودهم بياناً.

فإذا سكت قام إليه أهل الحوائج من أهل الشكايات من البوادي وغيرهم وكان كاتبه على يساره فهذا قاض له حاجة وهذا كاتب له شكاية

فيجلس في مكانه ذلك نحو ساعتين حتى ينقضي أكثرها، ثم ينهض قائماً ويدخل القصر ويجلس في مجلسه في المقصور ويصعد إليه كاتبه ويكتب جوابات تلك الكتب التي رفعت إليه في ذلك المجلس إلى العصر وينهض للصلاة فإذا كان بعد صلاة المغرب اجتمع الناس للدرس عنده داخل القصر وجاء إخوانه وبنوه وعمه وبنوه وخواصه على عادتهم ولا يتخلف أحد منهم في جميع تلك المجالس الثلاثة إلا نادراً ويجتمع جمع عظيم من أهل الدرعية وأهل الأقطار ثم يأتي سعود على عادته فإذا جلس شرع القارىء في صحيح البخاري، وكان العالم الجالس للتدريس في ذلك الموضع سليمان بن عبد الوهاب بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيا له من عالم نحرير، وحافظ متقن خبير إذا شرع يتكلم على الأسانيد والرجال والأحاديث وطرقها ورواياتها فكأنه لا يعرف غيرها من إتقانه وحفظه، إلى وقت العشاء الآخرة. وأما الصلوات المكتوبة فكان يصليها في مسجد قصره ويصلي معه فيه فئام من الناس إلا يوم الجمعة فإنه يصلي مع الناس في مسجد الطريف وهو المسجد الجامع تحت القصر شماله في موضع بناه فوق المحراب والمنبر هو وخاصة مماليكه واثنان وثلاثة من خواصه وجعل على ذلك المصلى طريقاً من القصر يأتي إليه من قبلة المسجد عند المحراب. وكان يقف خلفه إذا دخل في الصلاة وهو في مسجد قصره اثنان من شجعان مماليكه بسيوفهم خوفاً عليه حتى يفرغ من الصلاة، وأما إذا كان في مغازيه وحججه فكان إذا دخل في الصلاة أوقف ستة من شجعان مماليكه بسيوفهم اثنان عند وجهه واثنان خلفه بينه وبين الصف الثاني واثنان خلف الصف الثاني.

وأما سيرته للضيف فذكر لي أن خازنه يخرج لضيفه كل يوم خمسمائة صاع من البر والأرز وكان المضايفي الموكل بالضيف يدعو أضيافه للعشاء من بعد الظهر إلى بعد العشاء الآخرة، وكان أول داخل طعامهم اللحم والأرز والخبز والذي بعدهم قريب من طعامهم والباقي حنطة خالصة، وأما الغدا فمن طلوع الشمس إلى اشتداد النهار على مراتبهم في العشاء. وأما

عطاؤه للرعية وبث الصدقة فيها فليس لي بها معرفة إلا قليل وكان يرسل في كل زمان إلى أهل كل ناحية وبلد صدقة ألف ريال وأقل وأكثر لكل ناحية أو بلد وتفرق على ضعفائهم وأئمة المساجد والمؤذنين وطلبة العلم ومعلمة القرآن وهذا دائم في زمنه وزمن أبيه عبد العزيز وهو في زمن عبد العزيز أكثر من ذلك حتى أن عبد العزيز يرسل دراهم ويشتري بها قهوة لأهل القيام في رمضان في المساجد في جميع البلدان.

وكان إذا دخل رمضان سار مساكين أهل نجد وكل أعمى وزَمِن ونحوهم وقصدوا الدرعية فكان سعود كل ليلة يدخلهم للعشاء والإفطار عنده في القصر مع كثرتهم ويعطي كل رجل منهم جديدة وهي في تلك الأيام خمس ريال. فإذا دخلت العشر الأواخر أدخلهم أرسالاً كل ليلة يكسي منهم جملة يعطي كل مسكين عباءة ومحرمة وجديدة. فإذا فرغت العشر فإذا هو قد كساهم كلهم إلا نادراً.

وذكر لي رجل كان عندهم في القصر يعلم القرآن قال: كان سعود في آخر ولايته يجمع المساكين يوم سبع وعشرين من رمضان ويدخلهم في قصره ويفرق عليهم كسوتهم المذكورة كل رجل على عادته قال: وهم نحو ثلاثة آلاف رجل.

قال: وملك من الخيل العتاق ألفا وأربعمائة فرس يغزو معه منها ستمائة فرس يركبها رجال انتقاهم من شجعان البوادي وشجعان مماليكه وغيرهم. قال: ومماليكه الذكور أكثر من خمسمائة مملوك.

والذي يظهر من القصر آخر رمضان ألف وثلثمائة فطرة عن خدمه وعبيده وما في قصره من الأيتام. قال: وعنده من المدافع ستون مدفعاً منها ثلاثون كبار. وكان الذي يتبعه في مغازيه من الجيوش والخيل الجياد من النواحي والبوادي من جميع القبائل لا يحصيها العد ولا يبلغها الحصر والحد. فلو تخلف أحد من البوادي بفرسه عن الغزو أو تخلف من تعين

عليه الأمر من رؤسائهم أو من دونهم أدب أدبا بليغاً، ونشأ على ذلك الصغير وشاب فيه الكبير.

(١) وجلس يوماً فيصل بن وطبان الدويش رئيس أعراب مطير والحميد بن عبد الله بن هذال رئيس بوادي عنزة ـ وكان هؤلاء من أشد البوادي عداوة لبعضهم بعض ـ عند سعود في صيوانه وتنازعا بين يديه وتفاخرا وأظهرا نخوة الجاهلية، فقال أحدهما لصاحبه: احمد الله على نعمة الإسلام وسلامة هذا الإمام الذي أطال الله عمرك بسببه، وكساك الشيب بعد أن كان آباؤكم لا يشيبون ولا ينتهون إلى حده بل نقتلهم قبل ذلك. وقال له الآخر: احمد الله على نعمة الإسلام وسلامة هذا الإمام الذي كثر الله بسببه مالك وسلم عيالك ولولا ذلك لم تملك ما هنالك، ولا نزلت في تلك الديار ولا استقر بك فيها قرار، فانتهض سعود وزجرهم وذكرهم ما أنعم الله عليهم به من الإسلام والجهاد والجماعة والاجتماع على الصلوات والدروس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أعطاهم الله في ضمن ذلك من الأموال وكثرة الرجال وأمان السبل وإن الرجل من البوادي وغيرهم يترك خيله وإبله في أي موضع شاء لا يخشى عليها إلا الله تعالى، فانكفوا عما هم فيه وتراجعوا الحديث فيما بينهم وشكروا الله تعالى على ما أعطاهم وأولادهم من النعم، وأزال عنهم من الظلم والجور والقتال والعدوان والإثم.

وكان رحمه الله تعالى آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، كثير الحض على ذلك في مجالسه ومراسلاته للمسلمين، ناصراً لأهله، محبباً إليه أهل العلم وطلبته ويعظمهم ويكرمهم ويجزل عطاياهم، ويلزم أهل البلدان بإكرامهم وتعظيمهم.

(٢) وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره فكان في مغازيه وحججه إذا ركب مطيته اجتمع معه خلائق عظيمة من رؤساء المسلمين ومماليكه على نجائب عمانيات عليها من كل زينة فاخرة، فيحفون به إذا سار ثم يأمر رجلا من طلبة العلم وحفاظ القرآن حسن الصوت جهيراً مجوداً يتلو عليهم سورة

من القرآن. ثم تخضع تلك الخلائق لكلام الله وينصتون له، وهو أشدهم خضوعاً وإنصاتاً، حتى يفرغ منها فيأمر بقراءة سورة أخرى، يفعل ذلك في جميع مغازيه وحججه كل يوم إلا قليلا. ويفعل ذلك أيضاً في الدرعية. وكان كثيراً إذا دخل المسجد خص على قارىء حسن الصوت مجوداً فأمره أن يقرأ عليه سورة من القرآن أو سورتين.

وكانت وفاته رحمه الله تعالى ليلة الإثنين حادي عشر شهر جمادى الأول من هذه السنة، فكانت ولايته عشر سنين وتسعة أشهر وأيام وموته بعلة وقعت أسفل بطنه أصابه بها مثل حصر البول.

ولاية عبد الله بن سعود

وبايع المسلمون ولي عهده ابنه عبد الله من جميع الرعايا البادية والحاضرة ووفدوا عليه وانتظمت له الأمور واستقامت ولكن الدولة المصرية بذلت جهدها في حرب المسلمين بسبب الذنوب.

ثم دخلت السنة الحادية والثلاثون بعد المائتين والألف:

وفي هذه السنة جهز محمد علي صاحب مصر العساكر الكثيفة من مصر والترك والمغرب والشام والعراق إلى نجد مع إبراهيم باشا.

ثم دخلت السنة الثانية والثلاثون بعد المائتين والألف:

والعساكر المصريون في الحناكية مع إبراهيم ومعه البوادي المذكورون وهو يغير على بوادي نجد، ثم إن عبد الله تجهز غازياً من الدرعية واستنفر جميع النواحي من المسلمين من الحاضرة والبادية، فبلغه أن علي ازن ومعه عسكر من الترك وبوادي كثيرة ساروا إلى ماويه الماء المعروف قرب الحناكية بينه وبينها يومين فنزلوها فتجهز عبد الله وقصد ماويه.

فحمل المسلمون عليهم حتى قربوا من محطة العسكر فثور الترك مدافعهم فخف بعض البوادي الذين مع عبد الله وانصرف عبد الله ومن معه ونزلوا قرب جبل ماوية قبالة الترك فثبت الترك وبواديهم لما رأوه نزل.

فوجهوا مدافعهم إلى المسلمين ورموهم بها فأثرت فيهم. فأمر عبد الله على بعض المسلمين أن يرحلوا وينزلوا الماء فلما هموا بالرحيل خفت البوادي وتتابعت فيهم الهزيمة ووقع في قلوبهم الرعب فاتصلت الهزيمة في جموع المسلمين واختلطت الجموع بعضها في بعض وتبعهم الترك والبوادي وقتلوا رجالاً وأخذوا كثيراً من السلاح وغيره سقط في الأرض من أهل الركايب، وركب عبد الله في كتيبة من الخيل وحمى ساقة المسلمين وهلك في تلك الهزيمة بين القتل والأسر والظمأ نحو مائتي رجل وهذا أول وهن وقع في المسلمين. ثم إن عبد الله رحل إلى عنيزة ونزلها.

وأما إبراهيم فإنه لما صارت الهزيمة على عبد الله رحل من الحناكية وقصد ماويه واجتمع بالعسكر الذي فيها ثم رحل منها بجميع عساكره ومعه من العدد والعدة والكيد الهائل مما ليس له نظير: مدافع وقبوس هائلة كل واحد يثور مرتين مرة في بطنه ومرة تثور رصاصته وسط الجدار بعد ما تثبت فيه فتهدمه. فأقبل عساكر الترك مع باشتها إبراهيم ونزلوا الرس لخمس بقين من شعبان فثبتوا له وحاربوه فحاصرهم الترك أشد الحصار وتابعوا الحرب عليهم في الليل والنهار وذكر أن الترك رموه في ليلة خمسة آلاف رمية بالمدافع والقنبر وأهلكوا ما خلف القلعة من النخيل وغيرها. هذا وعبد الله بن سعود وجنود المسلمين في عنيزة على الحال المذكورة، وأرسل أهل الرس إليه إما أن يرحل إلى الترك ويناجزهم وإما أن يأذن لهم بالمصالحة. فأقبل عساكر وقبوس وإمداد من الترك كثيرة ونزلوا على إبراهيم ومن معه في الرس واستعظم أمره وكثرت دولته فوقعت المصالحة بينه وبين أهل الرس على دمائهم وأموالهم وسلاحهم وبلادهم وجميع من عندهم والمرابطة يخرجون إلى مأمنهم بسلاحهم وبجميع ما معهم. فخرجوا من الرس وقصدوا عبدالله وهو في عنيزة، وقُتل من أهل الرس والمرابطة في هذا الحرب نحو سبعين رجلا وقتل من عسكر الترك ما ينيف على ستمائة رجل فلما استقر الصلح بين أهل الرس والباشا رحل منه بعساكر الترك إلى عنيزة ونازلوها فسلمت لهم البلد وأطاعوا لهم.

فلما بلغ ذلك عبد الله وهو في بلد بريدة رحل منها وقصد الدرعية وأذن لأهل النواحي يرجعون إلى أوطانهم.

ثم دخلت السنة الثالثة والثلاثون بعد المائتين والألف:

وإبراهيم باشا وعساكر الترك في عنيزة: فلما أخذ القصر وضبطه بالعساكر ارتحل منها وقصد بلد بريدة، وأميرها يومئذ مع ناحية القصيم حجيلان بن حمد، ونازل أهلها فأعطوا له. ثم رحل الباشا من بريدة وأخذ معه عبد الله بن حجيلان ورجالا من رؤساء أهلها رجلين أو ثلاثة خوفا أن يقع عليه فشل أو هزيمة فيحاربونه أهل البلدان.

ثم إن الباشا سار إلى الدرعية وكان عبد الله قد رتب جموع أهل الدرعية ومن كان عنده من أهل الآفاق، وذلك أن أهل نجد لما أطاعوا الترك هرب من كل بلد وناحية شرذمة من أهلها وقصدوا الدرعية فكان فيها من أهل الآفاق عدد كثير. فرتبهم عبد الله في بطن الوادي ويمنته ويسرته خارج النخيل والسور.

كانت وقعة غبيراء المشهورة ووقع قتال شديد ورمي بالقبوس والمدافع والقنابر وحمل بعضهم على بعض، وتضاربوا من بعيد ومن قريب فانهزم المسلمون وتبعهم الترك في ساقتهم وقتل الترك منهم مائة رجل.

ثم كانت واقعة سمحة النخل المعروف أعلى الدرعية جنوب الوادي وانهزم أهل الدرعية عن متارسهم وذلك أن الباشا بعد وقعة غبيراء خرج إليه أناس من البلد وأخبروه بعوراتهم ومعاديهم وكان أكثر ما شد ظهور الترك في نجد في البلدان وأسكن جأشهم وقواهم على أهلها أناس تبعوه من أهل نجد ومن رؤساء البوادي ممن كانت نبتت لحومهم وجلودهم هم وأبناؤهم وأقاربهم على جزيل عطايا آل سعود وفضائلهم، ولا نالوا الرئاسة إلا بسببهم. فظنوا أنهم إذا سابقوا إلى الترك وساعدوهم يفعلون بهم كفعل آل سعود معهم، وحاشا لله، بل قتلوا أناساً منهم لما أخذت الدرعية إلا من هرب منهم.

ولما انهزم أهل الدرعية من متارسهم التي عند سمحة هرب من البلد عدة رجال من أهل النواحي وقصدوا أوطانهم. ثم رحل الباشا وعساكره عن منازلهم المتقدمة ونزل بنفسه وأثقاله وقبوسه وقنابره ومدافعه ومخيمه وحاشته وكثير عسكره وفرقوا عساكرهم على البلد فثار بينهم الحرب الهائل وصار في كل يوم ووقت قتال، واستمر دائماً بالغدو والآصال. وتضاربوا من المحاجي بالبنادق والسيوف والقرابين. وتطايرت القبوس والقنابر في الجو كأنها رجوم الشياطين. فهذا منها في الأرض ثابر. وهذا تراه في الجو طاير. فصبر أهل الدرعية ونزل عليهم الثبات وقاتلوا الترك حتى ملؤوا فجاجها من الأموات فمرة يحملون على الترك ومرة يحمل الترك عليهم وفي كل وقعة بينهم الغلبة فيها لأهل الدرعية على الترك إلا قليلا ولكنهم إذا قتل منهم ألف أتى بدلهم ألفان فتتابعت العساكر من مصر إلى الدرعية في كل أسبوع وشهر يأتي من مصر عسكر ورحلة وقافلة من الطعام وما ينوب تلك العساكر.

فلما طال الحصار كثرت الأمداد من مصر للترك، وأهل الدرعية كل يوم ينقصون وذلك بتدبير الحي القيوم، وإليه يرجع الأمر كله وما ربك بغافل عما تعملون، واستمروا قريب ستة أشهر وصار في تلك المدة وقعات عديدة لا يحيطها العلم ولا يدركها من أرادها بالقلم.

وكان الباشا لما طال عليه الحصار أشار عليه أناس من رؤساء أهل نجد من الذين ساعدوه أن يبعث إلى أهل البلدان والنواحي ويأخذ من كل بلد رجالا يقاتلون معه في الدرعية، فبعث إليهم عسكرا ورجالا ممن ساعدوه وأخذوا من كل بلد غزوا وساروا بهم إلى الدرعية.

وتتابع عليه بعد ذلك العساكر من مصر وأتت إليه الرحل والقوافل وهو في الدرعية من البصرة والزبير مع أهل نجد الذين فيهما ممن كان أجلاهم آل سعود عن نجد وأخذوا أموالهم. فتابعوا عليه القوافل من الأرز والحنطة والتنباك وجميع حاجات العساكر، وسار إليه القوافل أيضاً من نواحي نجد بجميع ما ينوب العساكر فثبت في موضعه وتعاظم أمره وتزايد بالحرب على

الدرعية فحربها حربا عظيماً وهم ثابتون، والخارج منها كل ليلة من أهل النواحي ومن أهلها وبذل الباشا الأمان لمن خرج منها.

ثم جرى وقعات ومقاتلات لا تحصى وطال الحصار وبلغ سعر البر في بطن الدرعية صاع بالريال وخرج منها أناس كثير من أهلها ومن سائر النواحي.

فلما كان في آخر الحصار خرج من الدرعية غصاب العتيبي. وكان خروجه منها وقت الهجيرة وقصد الباشا وهو ممن يظن به الصدق مع آل سعود والصبر معهم وكان رئيسَ الخيالة في الدرعية فلما خرج منها قوي عزم الباشا على الحرب وقرب القبوس من البلد وأصاب أهل الدرعية كآبة ووهن من خروجه.

فلما كان صبيحة السبت ثالث ذي القعدة حمل الترك على محاجي أهل الدرعية الجنوبية والشمالية والشرقية والغربية وهزموهم منها. وذلك أنه لما خرج من خرج من أهل الدرعية وغيرهم منها إلى الباشا أخبروه بعوراتهم وغراتهم وأخبروه بالموضع الذي ليس في أهله شدة في الحرب وبالموضع الذي يتفرقون عنه في الليل وبالموضع الذي ليس به إلا قليل، فلما رأى عبد الله بن سعود البوار أرسلوا إلى الباشا وطلبوا الصلح فأجابهم إليه فخرج إليه عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود وتصالحا على أن يركب إلى السلطان فيحسن إليه أو يسيء ، وانعقد الصلح على ذلك. ودخل منزله وأطاعت البلد كلها وهرب رجال من الأعيان.

ولما صالح الباشا أهل الدرعية واستقر به القرار فيها كثر عنده القيل والقال من أناس من أهل نجد في أعيان المسلمين وأهل الصلاح والعلم منهم فرموهم عنده بالبهتان وتظاهروا عليهم بالإثم والعدوان فقتل الباشا من أعيان المسلمين عدة رجال، فمنهم من قتل صبرا بالقرابين والبنادق، ومنهم من جعل في ملفظ القبس والقنبر.

ولما كان بعد المصالحة بيومين أمر الباشا على عبد الله بن سعود أن

يتجهز للمسير إلى السلطان فرحل معهم عبد الله من الدرعية وليس معه من قومه إلا ثلاثة رجال أو أربعة. وسار مع تلك العساكر وقصد مصر ثم سار من مصر إلى الترك وقتل هناك رحمه الله تعالى وعفى عنه.

(١) وفي آخر هذه السنة قتل الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب وذلك أن الباشا لما صالح أهل الدرعية كثر عنده الوشاة من أهل نجد على بعضهم بعضاً فرُمي عند الباشا بالزور والبهتان والإثم والعدوان. فأرسل إليه الباشا وتهدده وأمر على آلات اللهو فجروها عنده إرغاما له بها، ثم أرسل إليه الباشا بعد ذلك وخرج به إلى المقبرة ومعه عدد كثير من العساكر فأمرهم أن يثوروا فيه البنادق فثوروها فيه وجمع لحمه بعد ذلك قطعاً. وكان رحمه الله تعالى آية في العلم له المعرفة التامة في الحديث ورجاله وصحيحه وحسنه وضعيفه والفقه والتفسير والنحو. وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم. فلا يتعاظم رئيس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتضاعف ضعيف أتى إليه يطلب فائدة أو يستنصر. وكان له مجالس كثيرة في التدريس وصنف ودرس وأفتى وضرب به المثل في زمانه بالمعرفة. وكان حسن الخط ليس في زمانه من يكتب بالقلم مثله. صنف كتاب شرح التوحيد لجده محمد ولكنه لم يكمله. وصنف غير ذلك نبذاً عديدة أصولية وفقهية ونصائح دينية.

(٢) وكانت هذه السنة كثر فيها الاضطراب والاختلاف ونهب الأموال وقتل الرجال وتقدم أناس وتأخر أناس آخرين وذلك بحكمة الله سبحانه وقدرته.

(٣) قلت: وانحل فيها نظام الجماعة والسمع والطاعة، وعُدِم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا يستطيع أحد أن ينهى عن منكر أو يأمر بطاعة، وعمل بالمحرمات والمكروهات جهراً. وليس للطاعات ومن عمل بها قدراً. وجر الرباب والغناء في المجالس وسفت الذواري على المجامع والمدارس. واندرس معرفة ثلاثة الأصول وأنواع العبادات. وسل سيف الفتنة بين الأنام، وصار الرجل في وسط بيته لا ينام. وتعذرت الأسفار بين البلدان وتطاير شرر الفتن في الأوطان، وظهرت دعوى الجاهلية

بين العباد. وتنادوا بها على رؤوس الأشهاد. فلم تـزل هذه المحن على الناس متتابعة. وأجنحة ظلامها بينهم خاضعة حتى أتاح الله لها نوراً ساطعاً. وسيفا لمن أنار الفتنة قاطعاً. فسطع به من كشف الله بسببه المحن وشهره من أغمـده في رؤوس أهل الفتن الـوافي بالعقـود. تركي بن عبـد الله بن سعود. أسكنه الله تعالى أعلا الجنان. وتغمده بالمغفرة والرضوان.

ثم دخلت السنة الرابعة والثلاثون بعد المائتين والألف:

وإبراهيم باشا في الدرعية على الحال المذكورة وكان قد بعث عساكر من حاشته وخدمه وفـرقهم في نواحي نجـد وأمرهم بهـدم أسوار البلدان وحصـونها. فنـزلوا البلدان وهـدمـوا الحصـون والأسـوار وصـادروا أهلهـا بخراجهم وعلف الخيل وعليقها بالليل والنهار، وجمعوا ما فيها من الحنطة والشعير إلا قليل، واستمروا فيها حتى أذن الباشا بالرحيل.

ثم إن الباشا أخذ خيل السعود وشكوة الحرب وما وجد عليه اسمهم في بندق أو سيف. وأكثر العسـاكر العبث في أسـواق الدرعيـة بالضـرب والتسخير لأهلها فكانوا يجمعون الرجال من الأسواق ويخرجونهم من الدور ويحملون على ظهورهم ما تحمله الحيوانات فيسخرونهم يهدمون البيوت والدكاكين ويحملون خشبها ويكسرونـه ويردون لهم المـاء ويحملونه فـلا يعرفون لفاضل فضله ولا لعالم قدره وصار الساقط الخسيس في تلك الأيام هو الرئيس.

ثم إن الباشا أقام في الدرعية وطال مقامه فيها نحو تسعة أشهر بعد المصالحة وأمر على جميع آل سعود وأبناء الشيخ محمد بن عبد الوهـاب وأبناءهم أن يرحلوا من الدرعية إلى مصر، فارتحلوا منها بحريمهم وذراريهم وسار معهم كثير من العساكر إلى مصر ولم يبقَ منهم إلا من اختفى أو هرب وكان تركي بن عبدالله هرب من الدرعية وقت الصلح هو وأخوه زيد، وهرب الشيخ القاضي علي بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهـاب إلى قطر

وإلى عمان وأقام هناك حتى استقامت الأمور لتركي بن عبد الله وهرب أناس غيرهم ونجاهم الله سبحانه.

فلما كان في شعبان وقدمت الرسل والمكاتبات من محمد علي صاحب مصر على إبراهيم باشا وهو في الدرعية فأمر بهدم الدرعية وتدميرها، فأمر على أهلها أن يرحلوا عنها ثم أمر على العساكر أن يهدموا دورها وقصورها وأن يقطعوا نخيلها وأشجارها ولا يرحموا صغيرها ولا كبيرها فابتدر العساكر مسرعين. وهدموها وبعض أهلها فيها مقيمين[1]. قطعوا الحدائق منها وهدموا الدور والقصور، ونفذ فيها القدر المقدور وأشعلوا في بيوتها النيران، وأخرجوا جميع من كان فيها من السكان. فتركوها خالية المساكن. كأن لم يكن بها من قديم ساكن. وتفرق أهلها في النواحي، وذلك بتقدير الذي كل يوم هو في شأن.

ثم إن الباشا رحل وكان هذا الباشا في قوة عظيمة من العساكر والأموال وآلات الحروب من القبوس والمدافع والقنابر وكثرة السلاح وكثرة تتابع القوافل عليه من مصر بالعساكر والجبخان وآلات العساكر من الأمتاع والأزواد وغير ذلك من جميع ما ينوب العساكر حتى البصل أتى إليه من مصر. وكانت قبوسه وقنابره أمر هائل من عظم رصاصها وما تفعل في البروج والجدران والبيوت.

(١) ولما رحل الباشا من نجد ونزل رؤساء البلدان في بلدانهم وهم الذين وقعت العداوة بينهم وبين آل سعود فأجلوهم آل سعود عنها وجعلوا في مكانهم غيرهم، فلما سكنوا البلدان واستوطنوها وقعت الحرائب في نجد واشتعلت فيها نار الفتن وكثر القتلى بينهم وتقاطعوا الأرحام وتذكروا الضغائن القديمة من البغي والإثم، فتواثبوا بينهم وقتل بعضهم بعضاً في وسط الأسواق ونواحي البلدان، فكان كل أهل سوق وأهل بلد يمشون بجمعهم وسلاحهم دائماً في الليل والنهار.

---

(١) كذا.

(١) وصار في هذه السنة فتن وقتل رجال وأخذ أموال في كل بلد وناحية من القصيم والعارض والخرج والجنوب وغير ذلك لا يحضرني تاريخها وسار القتال في وسط البلدان بين أهلها وبنو الأعمام وتقاطعوا الأرحام واكتسبوا الآثام، نسأل الله العظيم الذي لا إله إلا هو العفو والعافية والوفاة على الإسلام.

ثم دخلت السنة السابعة والثلاثون بعد المائتين والألف:

(٢) وفيها وقع في نجد حرب وفتن وقتل رجال وأخذ أموال ونبذ للشرائع ومحن، وسار ذلك في جميع النواحي والأقطار وتقاتلوا في وسط الأسواق والبيوت فقطعت الأرحام وقل الجار.

(٣) ثم إنّ الإمام تركي بن عبدالله أطفأ الله به نار الفتنة بعد اشتعال ضرامها وهان على كثير من الناس دينها وإسلامها كأنهم لم يكونوا حدثاً بإسلام، ولم يجتمعوا على إمام. وتهاون كثير منهم بالصلوات. وأفطروا في البلدان في شهر رمضان وصار هذا الشهر العظيم عندهم كأنه جمادى أو شعبان، وتعذرت بين البلدان الأسفار واتخذوا دعوى الجاهلية لهم شعاراً. فحارب البلدان، وقاتل العربان، ودعاهم إلى الجماعة والسمع والطاعة. حتى ضرب الإسلام بجرانه، وسكنت الأمة في أمنه وأمانه.

ثم ابنه الإمام، والشجاع الثابت الضرغام فيصل بن تركي الذي حاز مفاخر الأواخر والأوائل، واجتمعت فيه المكارم والفضائل، جيش الجيوش، وأخذ الممالك طوعا وقهراً، وسلكت جنوده في نجد وعمان، ودانت له العربان والبلدان، وتوفرت بحسن سيرته مصالح المسلمين، وجمع في سياسته بين الشدة واللين.



مختارات القرن الثالث عشر
من كتاب
«نزهة الأذهان في
تراجم علماء داغستان»

للسيـد

نذير الدركليّ

١٩٤٩



قدوقي

هو الحاج محمد بن موسى القدوقيّ الأواريّ الداغستانيّ، حصل العلوم والمعارف عن أعلام عصره، وأخذ عن العلامة محمد بن علي الكامليّ، والعلامة شعبان العبودي وغيره، رحل إلى الأقطار البعيدة والديار الإسلامية، وصل إلى مصر والحجاز واليمن وأخذ عن علمائها ومشايخها، وأخذ في اليمن عن العلامة الشهير صالح اليمني[1] ولازمه برهة، ولما كمل علومه رجع إلى وطنه داغستان فشرع في التدريس والإفادة والتعليم، تخرج عليه جم غفير من المحققين كالعلامة الشهير محمد الأبري، والعلامة داود الأسيشي وغيرهم، وكان القدوقي ـ رحمه الله ـ شافعي المذهب، أشعري الاعتقاد، لكنه كان يميل في بعض المسائل إلى رأي أستاذه صالح اليماني، ويقال إنه رجع عنه.

وكان القدوقي عالماً ماهراً في العلوم والفنون، وله مؤلفات مرغوبة، وتعليقات كثيرة، وحواش عديدة في الفقه والميقات والأصول والعقائد والنحو والصرف وغيرها مملوءة بها كافة أرجاء داغستان.

وفي رجوعه من اليمن حمل معه الكتب النفيسة ولا سيما كتب أستاذه

---

(١) قال المحقق: صالح اليمني [١٠٤٧ ـ ١١٠٨] هـ:
هو المجتهد الولي صالح بن مهدي المقبلي، ولد في قرية (المقبل) من أعمال بلاد كوكبان، أخذ عن العلامة محمد بن إبراهيم بن المفضل وبه تخرج، ووقعت بينه وبين العلماء مناظرات أوجبت المنافرة لما فيه من الحدة والتصميم على ما تقتضيه الأدلة وعدم الالتفات إلى التقليد، يُذكر أنه كان يحفظ الأمهات الست متوناً وأسانيداً عن ظهر قلب، وأنه كان يرى النبي ﷺ في الأسبوع أو الشهر فيستفتيه فيفتيه، له مؤلفات، وتوفي في مكة، رحمه الله.

صالح اليماني ككتاب (العلم الشامخ)[1] كان قد كتبه القدوقي بيده، ويقال إنه باق إلى هذا العصر.

(١) ثم إن الشيخ القدوقي هاجر في أواخر عمره إلى البلاد الشامية، وذلك أنه رأى أن أهل زمانه قد تجاوزوا حدود الله، وكانوا حكموا العرف والطاغوت دون حكم الشرع الشريف، وكان يقول منكراً على أهل عصره هكذا: (وأما إخوان الطاغوت الحاكمون بغير ما أنزل الله. . . . اهـ) فلذا ترك أوطانه وتوفي هناك سنة (١٢٢٩) هـ، ودفن في بلدة حلب، رحمه الله تعالى.

ومن وصاياه لأخيه الحاج محمد بن عمر رحمه الله تعالى:

(٢) يا أخي إياك واتباع وسوسة الشيطان في الاستنجاء، والوضوء، والغسل، والماء، والصلاة، ونحوها لئلا يضحك عليك الولهان[2] ولا تتبع إلا اليقين، فقد قال بعض المشايخ لابنه: إذا شككت في حدثك وأنت في الصلاة فلا تخرج من صلاتك إلى أن ترى البول سائلاً من ساقك إلى قدمك، وذلك سداً لباب الوسوسة.

(٣) وأوصيك وصية لازمة أن لا تجاوز عن الشرع في أمر اللسان والقلب والفرج فاحفظها عما لم يتجه الشرع ولم يعلم حله بيقين.

(٤) ثم اعلم أن مبنى العبادة على أكل الحلال، ثم على قلة الطعام، فاحفظ يا أخي عن جميع شبهات الحطام، وعن الحرص عليها، واصبر على مشاق الدنيا فإنها من أمارات عمارات الآخرة والسلام.

---

(١) قال المحقق: في إيثار الحق على الآباء والمشايخ، تكلم فيه عن حقيقة مذهب الزيدية ودرجتهم في العلوم الدينية والتنفير الشديد من تعادي المسلمين لاختلافهم في المذاهب، وما في ذلك من الخطر، وتحرير الكلام في كثير من المسائل، وهو مطبوع، انظر مقدمة الكتاب.

(٢) قال المحقق: الولهان:
اسم لشيطان الوسوسة في الصلاة والماء، كما ورد في الأحاديث الشريفة.

الشيخ سعيد الهركاني الأواري

كان قد حصل العلوم من منقولها ومعقولها عن علماء عصره، وكان عالماً علامة، وبارعاً فهامة، وهو المحقق المدرس المعيد، والمدقق المتوقد السعيد، من سلالة أرباب النجابة، وخلاصة أهل الفتوة والمروءة، اشتغل بالتدريس، والإفادة ونشر العلم، تخرج عليه العلماء الأخيار والفضلاء الأبرار وأخذوا عنه كالعلامة المجاهد الغازي محمد الكمراوي، والإمام الشيخ شامل أفندي.

وكان جيد العربية، مقتدراً على الكلام المنثور والمنظوم، وله شهرة عظيمة في بلاد داغستان، وكان صاحب مؤلفات مرغوبة، وآثار مفيدة، وقصائد طنانة، ومن تآليفه كتابه المسمى: «تنبيه الطالب عن تضييع عمره الغالب» في فرضية التجويد وتصحيح القراءة، وشرحه المسمى: «الخواطر اللوامع على القصائد الجوامع» للعيمكي، وهو شرح نفيس جداً.

(١) ويقال إنه كتب بيده مائتي كتاب.

وكتب على ضريحه: (تاريخ وفاة الشيخ عالم غي سوبي سعيد الهركاني ١٢٥٠ هـ).

وهذه من قصيدته التي يعرض فيها ويندد على من يتساهل في الصلاة ولا يصحح قراءته:

الحمد لله الذي قد علّما ... علماً به يكشف عن قلبي العما

وأفضل الصلاة والتسليم ... على النبي السيد الكريم

محمد أرسل بالخطاب ... يهدي به الناس إلى الصواب

وآله الكمل والأصحاب ... الراشدين السادة الأنجاب

وبعد فالصلاة من أركان ... دين قويم بين الرهان

وركنها فاتحة الكتاب ... تاركها يبوء بالعقاب

تصحيحها من أفضل الأمور ... واللحن فيها أقبح الشرور

الناس عن ذلك في تساهل ... ورقة الدين وفي تغافل

ولا تــرى من عــالم أو جــاهــل   أو فــاضــل أو عــاقــل أو كــامــل
إلا وفــي لحــن وفــي تحــريــف   والغــي والجهــل وفــي تصحيــف
نــاظـمـهــا سـعـيــد الـفـقـيــر   الـغــافــل المـفـتـقــر الـحـقـيــر

(١) هذا ما كتبه سعيد الهركاني جواباً لسؤال ورد من بعض الأحباب:

بسم الله الرحمن الرحيم، من سعيد الهركاني، لا زال موفقاً للتخلية ثم التحلية محظوظاً، وبعناية لطفك ملحوظاً، أما بعد:

فإني يا أخي أخبرت عن حالك، وحسن نيتك، وخلوص طويتك، وأنك علي الهمة، وذو النفس الأبية، وأنك منقح الذات، وحسن الصفات، وأنك تشاورني في الأصلح لك هل السكنى بدياركم أم الارتحال إلى أحد الحرمين أو غيرها من البلاد الشريفة؟

(٢) فيا أخي: اعلم أن دار داغستان هو معدن الأخطار، ومسكن الأشرار، ومنبع المآثم والأكدار، لا تقام فيها الحدود، ولا توفى فيها العهود، وأهلها عبيد العادات، ومضيعوا الصلوات، ومرتكبوا الشهوات، ليس لهم همة سوى جمع الحطام من غير تفرقة بين الحلال والحرام، وحكامهم فجار، وولاتهم أشرار، وعلماؤهم ذئاب على أجسادهم ثياب، هجروا العلوم النافعة، وأماتوا سننا، وأفسدوا النيات، ومفاسدهم لا تحد، ومثالبهم لا تعد، فإن أردت يا أخي اللحوق بالأبرار فعليك بالنقلة إلى تلك الديار، فإن أقمت بالشام فبها ونعمت، فإنها بين القرى كعروس بين نسوة جلوس، وإن أقمت بالمدينة فهي غاية الكمال، ومنتهى الآمال، فيها ضريح النبي ﷺ وهي أشرف البقاع.

(٣) ولا شك أن النبي ﷺ حي يعرف الزائر، ويرد على المسلم سلاماً، وقد وقع على ذلك الإجماع:

تــواتــرت الأدلــة والــنــقــول   فــلا يحصي المنصف مــا يقــول
بــأن الـمـصــطـفى حي طــري   هــلال لــيس يــطـرقــه أفــول
ومــن لم يــعتقــد هــذا بــريــب   يــقينــاً فــهــو زنــديــق جهــول

(١) وصح: (من استطاع أن يموت فليمت بها، فمن مات فيها كنت له شفيعاً وشهيداً)، وصح أيضاً: (المدينة قبة الإسلام، ودار الإيمان، ومأوى أهل الكمال) وغير ذلك مما ورد في فضائل المدينة المنورة، وقد أفرد العلماء ذلك بتأليف مستقل، فطوبى لمن ظفر بالإقامة بها حتى الممات، فأقم بها يا أخي، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

(٢) واعلم يا أخي أن المدار في جميع العبادات على إصلاح القلب من الرذائل وأمراضها، وهي ستون مرضاً يجب على كل أحد معرفتها وكيفة علاجها، وفي ذلك كتب مدونة، وقد نص العلماء على أنها أعظم من كبائر الجوارح من نحو الزنا، وشرب الخمر، والسرقة، فاصرف عمرك يا أخي في تخلية القلب عن تلك الرذائل وتحليته بالفضائل، وأوصيك يا أخي أن تذكرني في صالح دعائك وخالص إلحاحك، وأستودعك الذي لا يضيع الودائع وحيثما كنتم سعادتكم السلامة، ويرعاكم الرحمن من كل جانب، والسلام، انتهى، رحمه الله تعالى.

الشيخ الغازي محمد الأوتاميشي

يقال إنه من نسل أمراء ناحية (قيطاف):

(٣) كان أخوه الكبير في خدمة الإمارة في (قيطاف)، ورحل هو إلى قرية (أوتاميش) زاهداً عن الدنيا ورياستها، فواظب على العبادة والذكر، كان يختلي ويعتزل في أواسط الشتاء أربعين يوماً مشغولاً للعبادة والمراقبة، فإذا انقضت تلك المدة يخرج إلى الناس ويجلس معهم، كانوا يزورونه من جميع النواحي ويقيمون عنده نحو عشرة أيام، وجرى ذلك العمل بعد وفاته إلى الآن، كانوا يجتمعون في مزار الشيخ في أواسط الشتاء للذكر والعبادة إلى هذا العصر، ويقال إنه يتصل سند إجازته إلى الشيخ العارف جنيد البغدادي، وأنه من نسل قريش، والله أعلم بصحة ذلك، وبقي بعده خلفاؤه وماتوا كلهم ودفنوا لدى الشيخ الغازي محمد المذكور - رضي الله عنهم.

(٤) ولكن هذه الزيارة وغيرها من المزارات في بلادنا وفي غيرها في هذه

العصور المتأخرة كانت شبكة لاقتناص أموال الناس، وإفساد عباداتهم ودياناتهم، كثرت فيها المنكرات والبدع والفواحش، وكانت العلماء وأهل الغيرة منا يشددون النكير ويزجرونهم عن تلك البدع والأهواء ويهدونهم إلى طريق الصواب والصراط المستقيم، ولكن لما كانت السلطة المشيخية الصوفية في أيدي العوام الذين هم كالأنعام لم يكن فيهم من يصفو إلى ذلك ويرتدع عن الباطل، ففعلوا ما فعلوا ولعبوا في دين الله على ما تهوى أنفسهم، لم يراقبوا في دين الله إلًّا ولا ذمة.

وها نحن ننقل هنا من كلام الشيخ الفقيه (محمد علي الجوخي) لكونه جوهراً غالي القيمة، وعالي القدر، نصه هكذا:

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاتان[١] على سيد المرسلين، محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

(١) فاعلموا يا إخوان الدين، بعلم اليقين، أني على ما رزقني الله تعالى من المطالعة إلى كتب الأئمة المجتهدين لا أرى السعي إلى الخلوات[٢] - على ما عليه العوام في الحال من جمع الطعام إليها، والحطب، وسائر الأموال بلا طيب قلوبهم، ولا رضاء من صميم الجنان، بل بالاستحياء من الناس، مع ما يترتب على ذلك من اختلاط الذكور والنساء، وسائر الخبائث والشحناء - إلا معصية[٣]، بئس السنة السيئة، بل الذي أرى وينبغي هدم بنائها من أصلها لكونها وسيلة للمعاصي والمفاسد، وقد صرحوا أن للوسائل حكم المقاصد، والله أعلم. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

---

(١) أي الصلاة والسلام، على التغليب.

(٢) قال المحقق نقلاً: والمراد بالخلوات جميع الاحتفالات في قبور المشايخ كما قد وقع الاصطلاح في أفواه أناس داغستان، ولذا جرى الفقيه محمد علي في محاوراتهم عند ذكرها بما وقر في لسانهم.

(٣) قال المحقق: استثناء من (لا أرى... إلخ) منه.

الشيخ الغازي محمد الكمراوي الداغستاني

هو الشيخ الشهير العلامة المجاهد في سبيل الله الغازي محمد بن إسماعيل الأنصوكولي الأواري، كان أبوه من قرية (كيمرة) ثم هاجر منها إلى قرية (انصوكول) وتوطن فيها وولد هنالك الشيخ محمد، فلما ترعرع وبلغ الرشد أخذ يحصل العلوم والفنون، وقرأ على الأعلام المشهورين كالعلامة الشهير (سعيد الهركاني) وغيره، وخرج عالماً محققاً وفاضلاً، وأوى بعده إلى قرية أبيه (كيمرة) وصار فيها إماماً مصدراً، وشرع يدرس المحصلين، ويفيد الطالبين حتى اجتمع لديه جم غفير، وكان فيما بينهم من تلاميذه الشيخ شامل أفندي.

ولما قرع سمعهم صيت الشيخ (محمد اليراغي) شيخ الطريقة النقشبندية ـ أخذا ـ أي الشيخ الغازي محمد والإمام شامل ـ يتأهبان حتى وصلا لديه وأخذا عنه الطريقة وصارا منه مجازين في الإرشاد والتسليك، فلما رجعا من عنده باشرا لإرشاد الناس إلى الشريعة والدين، فانخرط في سلكهما كثير من الناس من أهل الجبل.

(١) ثم إن الشيخ الغازي محمد أراد قطع سلطنة الدولة الروسية عن هذه البلاد الداغستانية وتوسيع دائرة الإسلام فجاهد الكفار وقابلهم بالعساكر التي تبلغ قدر ثمانية آلاف حتى وصلوا إلى بلدة (تارغو) وهجموا على الروس الذين يسكنون في الاستحكامات التي فوق جبل (تارغو) فتلف من عساكره خلق كثير بسبب وقوع النار على مخزن البارود، ومن بقي منهم بعده ذهبوا إلى ناحية (شاشان) فدخل منهم خلق كثير تحت طاعته حتى وصلوا إلى ناحية (طبسران) وحاصروا بلدة (دربند) وبعد مدة رجعوا إلى ناحية (أوار) ثم تحركوا ثانياً إلى قلعة (غيزلار) ونهبوا وأغاروا [على] أموال الكفار، ثم وصلوا أيضاً إلى ناحية (شاشان) فقابلهم الروس في قرية (بيان) فتلف من عساكر الشيخ قدر، ورجع بعده إلى ناحية (أوار) وكان ذلك سنة (١٢٤٧ هـ)، ثم إن الروس في الأخير حاصروهم في قرية (كيمرة) بعساكره

جرارة تحت قيادة (بارون روزين) فاستشهد الغازي محمد هنالك رحمه الله تعالى وبقي رفيقه الشيخ شامل بين القتلى حياً كما سيأتي، وكان ذلك سنة (١٢٤٨ هـ) في جمادى الأخرى بعيد عصر يوم الاثنين منه.

ولما قتلوه حملوا جسده وطرحوه فوق جبل (تارغو) وجففوه وحفظوه مدة مديدة ثم دفنوه، وفي زمن الإمام شامل أفندي أرسل من ينبش قبره وحملوه إلى (كيمرة) ودفنوه فيها، رضي الله عنه ذكره العالم الشهير (محمد طاهر القواخي) في كتابه (بارقة السيوف الجبلية).

(١) وكان ظهور الشيخ (الغازي محمد) بُعيد وقعة (سور خاي خان)، ودعا الناس إلى إحياء الشريعة ونصرة الدين، ومهد لمن بعده سبيل الجهاد ووسعه، وسعى سعياً بليغاً على محو الرسوم الباطلة، والعادات المخالفة للشريعة العادلة، حتى اجتهد على كسر شوكة أمراء (أوار) الذي يوالون الكفار، ولا ينقادون للحق والشريعة، ويقدمون في المحاكمة الطاغوت والعادات دون تحكيم الشرع، ولقد ألف في ذلك الشأن كتاباً صغيراً سماه (إقامة البرهان على ارتداد عرفاء داغستان)[1] وقرظه علماء عصره ولا سيما أستاذه (سعيد الهركاني)، وكتب الغازي محمد على ظهر كتابه هكذا:

وأما تواريخ الرسوم فإنها ... دواوين عباد الرجيم المغادر
سيحكم رب الحكم بين محمد ... ومن استن الرسم الخسيس المكابر
غداً يعلمون المنجَزَ الوعد منهما ... إذا عاينوا يوماً عبوس المناظر
إذا فاز بالحبل المتين المتابع ... لأحمد، فازوا بأضعف ناصر
إذا كان ذو رسم عديلاً لشارع ... فلا فرق فينا بين بر وفاجر

---

(١) قال المحقق: في بعض الغزوات الشاملية، كتب المؤلف أحداثها من فم الإمام شامل إلى حدث رجوع ابنه من الأسر، والمعركة التي لم يحضرها الإمام بنفسه يأتي بمن قد حضرها ويسرد أحداثها للمؤلف، والكتاب قد طبع في تمير خان شورة، (أخذته من فم الشيخ محمد الهركاني).

فلم بُعِثت رسل، وسُنّت شرائع　　وأنزل قرآن بهذي الزواجر

وكان الشيخ الغازي محمد أديباً مقتدراً في الكلام المنظوم والمنثور.

ومنها:

كيف المقام بدار ما استراح بها　　قلب وما كان حكم الله مقبولا
وصارت السمحة البيضاء منكرة　　فيها وقد حكم الملعون مخذولا
وغدا أرذلها كعباً، وفاسقها　　عدلا، وقد عكس المعلوم مجهولا
وظُنّ آمرها بالعرف مفسدها　　والنهي عن منكر تلقاه معلولا
لو مد للمصطفى عمراً إلى الأمد　　هذا لكان له الهندي مسلولا
إن رد قائمهم هذا فقلت له　　ليس البداهي عند الجحد معقولا

والحاصل أنه كان رجلاً عالماً علامة في العلوم، وعارفاً ربانياً مكاشفاً مستقيماً في دين الله، وهو المجاهد في سبيل الله لمحض إعلاء كلمة الله القائم على الحق، الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، المجدد المجتهد الباهر، لم يخف في الله لومة لائم شهد به علماء عصره، ومن بعده، وليس له ذنب غير أنه كان ممن يريد كسر شوكة أمراء داغستان[(١)]، ولا سيما أمراء (أوار) الذين يوالون الكفار، ويسعون في الأرض الفساد، وإهلاك الحرث والنسل، وقد عاب عليه من عاب من العلماء إما للعناد والحسد والتكبر، وإما لتعصبهم للروس، وإما لغير ذلك فلا يلفت لقولهم بعد أن كان أمر (الغازي محمد) في أعلى الثريا، وأمر أعدائه تحت الثرى، رضي الله عنه.

(١) وهذا مكتوب[(٢)] الإمام (الغازي محمد) إلى القرى والنواحي حين الخروج إلى الغزوة:

---

(١) ليس معنى ذلك أن إرادته كسر شوكة أمراء داغستان المخالفين للشرع ذنبٌ، وإنما هو على غرار قول نابغة:
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　بهن فلول من قرع الكتائب
قلت: ويسمّى في البلاغة: المدح بما يشبه الذمّ.

(٢) قال المحقق: كلامه في هذا المكتوب هو من باب مقابلة المثل بالمثل، وليس من باب التعالي واحتقار الغير.

بسم الله الرحمن الرحيم، هو الباري تعالى والمستعان، جرى أمرنا ونحن عباد الله تعالى أولو بأس شديد قاهرون فوق كل جبار عنيد، إلى كل من يعاند شريعة المختار، ويخالف سيرة الأبرار، سلام على من يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويتخذون الإسلام دينه آمين أما بعد:

فيا أيها النفوس الخبيثة: اعلموا أنا قد بذلنا أرواحنا ومهجنا لإعلاء كلمات الله، وشرفنا نفوسنا ابتغاء مرضاة الله، فإن كان لكم كيد فيكدون، ثم لا يكن أمركم غمة ولا تنظرون، وإذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وإلا فلنأتينكم بجنود لا قبل لكم بها، ولنخرجنكم من قراكم أذلة وأنتم صاغرون، ولنذيقنكم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلكم ترجعون، خرجنا ونحن قوم أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين لإعانة إخواننا المؤمنين التائبين العابدين، سلام عليكم إلى يوم الدين.

(١) أما بعد:

فيا أيها الإخوان الكرام اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، عسى الله أن يكف بأس الذين ظلموا، إن الله لا يصلح أمر المفسدين، واصبروا حتى نأتي إليكم، ولا تطيعوا أمر المفسدين، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، والسلام على من اتبع الهدى وترك الباطل، فمن وجدناه لا يعلم الفاتحة، والتشهد، وسائر أركان وشروط الصلاة، ومعنى كلمتي الشهادة والإيمان، والإسلام، والأقوال والأفعال والمكفرة، والكبائر السبعة والستين والأربعمائة[١] فذلك نجزيه بما يليق، هذا والسلام إلى يوم الحشر والمقام. انتهى.

الإمام الثاني حمزة بك بن علي اسكندرا بك الهزلي الأواري

قال الشيخ محمد طاهر القداخي في البارقة: هو العالم العاقل، والشجاع الباسل، الشهيد الهاجم، سلالة أفاضل الأعاجم، انتهى.

---

(١) قد بالغ في عدّ الكبائر مبالغة عظيمة؟ ولا يخفى أن المنصوص عليها لا يبلغ عشر هذا العدد، و الله أعلم.

بعد استشهاد الإمام الغازي محمد اجتمع أهل الحل والعقد فاقاموا لهم إماماً ورئيساً حمزة بك، ودافع هو بمن أطاعه عن مملكته، وكسر شوكة أمراء (أوار) الذين يوالون الروس، ويخونون الإسلام، وقتلهم، وطهر مملكته عن الأشرار، ولم يمض عليه أكثر من سنة ونصف حتى قتله عثمان من أقارب أمراء (خونزاخ) يوم الجمعة حين ذهابه للصلاة إلى جامعها الكبير سنة (١٢٥٠) هـ، رحمه الله تعالى.

الإمام شامل

الإمام الثالث شامل بن دنكاو محمد الكمراوي الأواري الداغستاني، الشهير بـ «إمام شامل».

ولد في حدود سنة (١٢١٢ هـ) في قرية كيمرة من مديرية (خونزاخ) على نهر (قويصو)، قرية ذات ثمار وعنب ورطب.

أخذ في حداثة سنه عن العالم المتبحر (سعيد الهركاني) صاحب المقدام الغازي محمد، وسافر معه إلى (يراغ العليا) ناحية (كورة) لتلقي الطريقة النقشبندية عن الشيخ (محمد أفندي) عن الشيخ (خاص محمد الشرواني) عن الشيخ (إسماعيل الكوردميري) عن البغدادي الشيخ خالد الشهير، فأجازهما اليراغي، وكرا راجعين إلى كيمرة، فاختفى البطلان مع حداثة سنهما عن أعين الناس، وعكفا على العلم والعبادة، ولبثا عليه برهة، ثم ظهرا يعظان الناس ويجاهدان العادات الموروثة عن الآباء التي لا يتزن عليها الكتاب والسنة، ولا توافقها المصالح من شرب الخمر الشائع حينئذ، وإتيان الفحش والظلمات التي لا يكاد النور والهدى من بينها يبين، حتى جلبا قلوب الناس إليهما وأحبوهما، فتصدى المقدام الشجيع الغازي محمد للإمامة، وحشد الجموع لنصرة الدين، وأخذ البطل شامل عضداً له وعوناً، وشامل لا يفتر عن أوامره حتى عهد الغازي محمد قيادة الجيش ـ حينما هاجم على قريتي (انصوكول) و(خونزاخ) ـ شاملاً وأظهر البطل (شامل) في تلك المصادمات شهامته ونجابته، فحاصرت الدولة الروسية بعساكرها الكلية الإمام (الغازي محمد) ومعه أتباعه وأشياعه في مضيق (كيمرة) فاستشهد

(الغازي محمد) وأصيب (شامل) بجراحة، وصرع بين القتلى متماوتاً حتى إذا أظلم تمشى رويداً إلى مرج قريب ومنه إلى (انصوكول)، فاندمل جرحه وبرىء، ولحق بالإمام الثاني (حمزة) واشترك في نحر أمراء (أوار)، وجعل قصور أمراء أوار ـ الذين لا يراعون في الله إلاًّ، ولا يراقبون في الله ذمة ـ أطلالا وأوكاراً للبوم والغربان.

(١) ثم بعد استشهاد الإمام حمزة احتشد أهل الحل والعقد من جميع قرى (أوار) في بقعة (عالادا) التابعة لـ (بوزرة) وأقاموا شاملاً إماماً وقائداً عاماً لطرد الروس عن داغستان، وإحياء الدين الإسلامي، ونشر العلم، وإقامة العدل والميزان، فأخذ البطل على عاتقه جميع شئون الملة، وهجر الكرى، وأقام القضاة والقواد، وجمع الجنود وأيدهم ونظمهم وفق الزمان والمكان، وألف شملهم، وألغى جميع الرسوم الباطلة الزائفة حينئذ، وحارب ـ أولاً ـ جميع المتغلبين الذين صالحوا الروس وشايعوهم حتى أقصاهم وفتك بهم، فصفى له (أوارستان) فبث الجهاد، وهاجم الروس حتى اضطرهم للجلاء عن معظم جبال داغستان بعد ما كانوا أقاموا بها حصوناً، وشيدوا بها بروجاً لا يرام لها.

(٢) فلما أحست دولة الروس فتكات شامل تألبت بعساكرها من كل وجه، وحاصرت بجنودها دولة شامل حتى ألجأته ـ أخيراً ـ إلى (أحوال كوح) ـ تل النفير ـ فأبرز أشياع شامل في هذه المعركة من الشجاعة ما يدهش الأبطال، وداموا على هذا الحصار مدة مديدة إلى أن انسل شامل وعدة من شيعته وولده من التل خفية إلى الشاشان فقوى هناك عضده وجمع شمله.

(٣) ولما قوي أمر شامل وهابت الدولة الروسية من نمو نفوذه هيأت القائد (وورونسوف) وأيدته بذخائر وأسلحة وجنود كثيرة ووجهته إلى (ويدانو) يباغت شاملاً ويفاجئه، فقابل هناك شاملاً وعساكره كالليوث العوابس، وهزم الروس شر هزيمة حتى ناف عدد القتلى في هذه المعركة من الروسيين ستة آلاف نفس، وهذه الغلبة هي فاتحة إقبال شامل وحركاته، ودام يدافع عن

وطنه بعزم لا يطرأ عليه ضعف، ولا يعتريه وهن خمساً وعشرين سنة، وذلك دليل لا يحتاج إلى برهان آخر على مهارته في تدبير الحروب واضطلاعه في فنون السياسة، ناهيك بمدافعه، وبيوت ذخائره، وأسلحته، ومعامل البارود، ومناجم الفحم والكبريت وغيرهما.

(١) كان للإمام شامل جند منظم يبلغ عدده زهاء (٦٠,٠٠٠) ستين ألف مقاتل مسلح، وكان له معمل مدافع استخدم به أحد المتخرجين في مدارس مصر، داغستاني، وبيت مال منتظم بغاية الإتقان، ومعامل كثيرة للبارود، ومعامل الأسلحة الباردة أيضاً.

(٢) وقسم جميع ولايته إلى النواحي، وعين لها نواباً، وقضاة، ومعلمين علماء، وجمع حوله العلماء والقواد والشجعان، وأبرز في جميع أفعاله التفوق التام والاستعداد.

(٣) من دلائل نجابته ومهارته أنه ألف من الأقوام الجبلية المختلفة الألسنة والطبائع جنداً منظماً وقاوم به الدولة الروسية مدة (٢٥) عاماً بلا فتور بحيث اندهش له العالم الغربي، وتذكر اسمه في صفحات الجرائد وندوات السياسة.

(٤) لكنه رغماً عن الموفقات التي منحها الله له ركن بعض من قواده وشيعته إلى الوهن والفشل، وأوجس في قلوبهم الحقد والكلل، فضعف أمر شامل ووهنت شوكته، وصار ـ أخيراً ـ طعمة لروسيا الهلوعة، واضطر بخيانة أصدقائه وقواده إلى التسليم لدى القائد (بارياتينسكي) سنة (١٢٧٦ هـ ـ ١٨٠٩ م).

وبعد أن مكث شامل مع عائلته في روسيا تسع سنين سافر إلى الحج بإذن القيصر الروسي، وتوفي بالمدينة سنة (١٢٨٧ هـ ـ ١٨٧١ م) في ذي القعدة، ودفن في البقيع، رحمه الله تعالى.

وسيرته وترجمته كبيرة شهيرة تغني عن الإطالة والإسهاب، وقد أفرد

الناس في ذلك وترجموا إلى لغات أخرى، وقد أثنى عليه جميع الناس من علماء الأقطار وأعيان الأمصار، وجعلوه شيخ الإسلام، وإمام الدين ومجدده، وأن ما جرى عليه في حروبه كلها مطابق للشريعة العادلة.

وقد أثنى عليه العالم العلامة (إبراهيم الباجوري) من علماء مصر، والعلامة المحقق (شهاب الدين المرجاني القازاني) وغيرهم.

قال العلامة حسن الدمياطي الشافعي المدرس في مكة المكرمة في رسالته التي ألفها في سيرة الإمام شامل أفندي ما نصه:

وبالجملة فما عليه الشيخ شمويل هو الصواب، وأحق بأن يتبع من غير شك ولا ارتياب، ومخالفه مفتر كذاب ومعاند غرار اهـ، وهي رسالة صغيرة أرسلها مؤلفها المذكور إلى الإمام شامل حين كان حياً في المعركة التي وقعت في قلعة (جوخ) سنة (١٢٦٥ هـ)، وقرظها علماء مكة.

علماء الإمام شامل[١]

العالم سور خاي خان الكلوي الأواري:

كان نائباً وقاضياً على أهل قرى (أنصال)، واستشهد في وقعة (أحول كوح)، ولعقبه أيام بيض لا تنسى.

العالم الماهر الشجيع ملا رمضان الجاري:

كان من أتباع الإمام شامل أفندي، استشهد في الوقعة التي وقعت في (طلل) مع الروس سنة (١٢٥٣ هـ).

العالم الشاب غازيو الأواري الكنسقي:

استشهد في وقعة (أحول كوح).

العالم الشجيع علي بك بن خويصلو الأواري:

---

(١) غرضي من ذكر هؤلاء العلماء من أصحاب الإمام شامل هو - أولاً - أن يُعرف أن كثيراً من العلماء تابعوه على دعوته وفي هذا تزكية قويّة لها، وغرضي - ثانياً - إظهار وظيفة العلماء العاملين وهي العمل بما علموا، وهؤلاء الذين ذكرتهم هم الذين استشهدوا في سبيل دينهم فجمعوا بين العلم والعمل.

كان قاضياً في (أرغن)، وكان لا يفارق الإمام في أموره وحروبه ولا سيما في وقعة (جرقطة) وحينما أصاب ساعده الأيمن المدفع داس الساعد بقدمه وقطع باليسرى إياها، استشهد في وقعة (أحول كوح).

العالم بارتيخان:

عم الإمام شامل أفندي ومعاونه في شأنه، كان يدخل معه في الغزوات والمحاربات، استشهد في وقعة (أحول كوح).

العالم المحقق المهاجر المتجلد محمد الجتاوي:

استشهد في المحاربة التي وقعت مع الروس في قنطرة (جوخ) سنة (١٢٦١ هـ).

العالم أبو بكر الجركوي الأواري:

استشهد في المحاربة التي وقعت مع الروسيين في وقعة (كركيبل) سنة (١٢٦٣ هـ).

العالم الشاب ابن أخت الشهيد المجدد غازي محمد قدس سره:

استشهد في (أحول كوح).

العالم عصنل محمد الألوي الأواري:

كان عالماً ورعاً وشاباً جلداً، استشهد سنة (١٢٦٠ هـ) في وقعة (قنطرة سلطه) حين هاجمهم الروس، رحمه الله تعالى.

العالم النائب حجر الههلي الأواري:

استشهد سنة (١٢٦٣ هـ).

العالم محمد بن مروان النقوشي:

كان مفتياً في ولاية النائب الشجيع (عثمان العري) توفي شهيداً في ولاية (أختي) سنة (١٢٦٣ هـ).

العالم المهاجر محمد بن عبد اللطيف الألصوي:

وهو وحجيو المذكور كانا رفيقا (دانيال سلطان) تـوفيا شهيـدين في (أختي) سنة (١٢٦٣ هـ).

العالم النائب تراج الكراطي الأواري:

استشهد سنة (١٢٦٠ هـ) في غزوة شالي، رحمه الله تعالى.

العالم المهاجر الحاج نصر الله القبيري الكوري:

استشهد في جبل غونيب في بعض ثغورها، رحمه الله تعالى.

العالم النائب محمد العرادي الأواري:

استشهد في جبل (درجلة) سنة (١٢٦٧ هـ).

العالم الورع عيسى بن قاضي أقوشة:

استشهد في ناحية (جار) سنة (١٢٦٩ هـ).

العالم النائب شامخال الخلقري الأواري:

استشهد سنة (١٢٧٤ هـ) في وقعة (جركة).

الحاج يوسف الشاشاني

هو العالم العلامة المهندس، رحل إلى مصر وحصل العلوم الدينية، والفنون الحربية والهندسة، ومكث سنوات في اشتغـال وتحصيل، وبعـده دخل في خدمة الحكومة المصرية وبقي فيها سنوات ثم استعفى عن وظيفته وعاد إلى القفقاز سنة (١٢٦٣ هـ)، ووصل لدى الإمام شامل ففوضه الإمام خدمة الهندسة، وكان صاغياً المدافع، وكانت القلعـات والطرق والمعـابر مفوضة ومنوطة على نظره وتدبيره، وأقامه مرة نائباً في ولاية (شاشان).

وفي سنة (١٢٧١ هـ) في المحاربة التي وقعت بين الدولة الروسية والعثمانية كان يكاتب الحاج يوسف إلى باشا الترك في ولاية (قارص) ولم

يعرفوا منه سببه فاتهمه الإمام ونفاه إلى ناحية (عاندي) إلى سنة (١٢٧٣ هـ)، ومنها هرب إلى قلعة (كوروزناي) في حماية الروسية، ومات فيها وقت وصوله، رحمه الله تعالى.

امير خان الجركي

حصل العلوم عن علماء عصره، وكان بارعاً في العلوم، جيد الخط والكتابة، وكان محرراً أميناً لدى الإمام شامل، ولزمه أزيد من عشرين سنة، وأرسله الإمام مرة سنة ١٢٥٦ هـ إلى استانبول يستمد من الدولة العثمانية، فرجع منها بالأسلحة والآلات الحربية والأقمشة، ولما خرج إلى ساحل البحر الأسود رآه رجال الروس فانتزعوها منه، وبعد مقاساة المشقة نجى منهم، رحمه الله تعالى.

الشيخ جمال الدين بن عبد الرحمن الغازيغموقي

حصل علومه عن علماء عصره، كان عالماً فاضلًا، ومحرراً بليغاً كاملًا، وفي الأخير كان كاتباً ومحرراً لدى الأمير (أصلا خان) من أمراء غازيغموق، في ناحية (كورة) من جهة الدولة الروسية، ولما سمع بالشيخ (محمد اليراغي الكوري) رحل إليه وسلك الطريقة النقشبندية لديه، ثم رجع إلى مأواه واستعفى عن وظيفته واشتغل لعبادة الله وذكره تعالى، ثم أجازه الشيخ (محمد اليراغي) لإرشاد الناس، فلما علم شأنه هذا أصلا خان اتهمه وهدده بالقتل، فهرب الشيخ جمال الدين خوفاً من سوء سيرتهم لدى الإمام (شامل) فوصل إلى بلدة (زدقار)، يجوب البلاقع والقرى ثم منه وصل لدى الإمام شامل فتلقاه بقبول حسن، وأكرم نزله وزوج ابنته(نفيسة) لابنه عبد الرحمن فوقعت المصاهرة والمودة بينهم، ثم إن الشيخ جمال الدين كان لا يفتر عن خدمة الإمام ومعاونته في شؤنه ومغازيه، فعاش بينهم سالماً مبروراً من الصالحين المجاهدين، ولما استسلم الإمام إلى الروسية رحل الشيخ جمال الدين إلى الدولة العثمانية فوصل إلى استانبول ومكث فيه مدة ثم توفي سنة (١٢٨٣ هـ) في أسكدار، رضي الله عنه.

وله آثار مهمة، وقصائد بليغة.

العالم النائب محمد امين الأواري

وقع في «نور المقابس في تواريخ الجراكس» للشيخ نوح المرتوقي الجركسي هكذا (فتذكر ما جرى وما وقع في جركستان في زمن الحرية في سنة (١٢٦٥ هـ) من قبول محمد أمين أفندي الداغستاني المشهور فيما بينهم بـ (نائب) لما فيه من الخصال الحميدة، والمآثر الفريدة، والثقة الكاملة في الدين المحمدي، فصار هو في حكم السلطان من بين علماء الجراكس وعظمائهم، وقبلوه قبولاً حسناً من وضيع ورفيع، وتزوج منهم - أي من الجراكس - بأسنى السيدات اللاتي لا يكافئونهن الأحرار بغير وصف السيادة أو الخانية بعادتهم وزعمهم اهـ).

وفي موضع آخر منه هكذا: (جاء إلى جركستان العالم الرباني محمد أمين أفندي الداغستاني بـ (نائب)، من ولاية داغستان بإذن من شاميل - أمير داغستان - في سنة (١٢٦٥ هـ)، يتكلم بالعربية فصيحاً، ويتخلق بالأخلاق القرشية، مخلصاً، وبه انقاد له البلاد، وأطاع إليه العباد، واتخذوه إماماً، وأعطوه إليه العهد الإيمان، وأتمروا بأوامره وانتهوا بنواهيه، وأقام عليهم القضاة والولاة، ونفذ فيهم الشريعة والأحكام كما نزل، ولبث فيهم خمس عشرة سنة على إقامة الشريعة المحمدية في الجراكس، فرضي الله عنه، وجعل الجنة مثواه، فلم يبق في زمنه غش ولا خيانة ولا سرقة ولا متأذية فيما بينهم إلا نادراً حتى انتفى بسببه المشاتمة بينهم بما يفهم منه الكفر، وأقام فيهم الحدود والقصاص، انتهى) رحمه الله تعالى.

المهاجر المجاهد إدريس افندي الإندراوي

قد حصل علومه ومعارفه عن علماء عصره، وكان عالماً علامة، وبارعاً فهامة، وصفه الشيخ محمد علي الجوخي بأنه عالم محقق، وكان أديباً كاتباً شاعراً، وليس في شعره شدة وجمود بل قد يكون بحيث تتحلى به المسامع من جودة العبارات والألفاظ.

(١) هاجر لدى الإمام (شامل أفندي) رحمه الله تعالى، وقد خدمه بنفسه

وقلمه مدة من السنين بالعفة والأمانة والصدق، لم يصدر منه على الإمام خيانة وعصيان، وكان من علمائه، المؤتمنين، كان الإمام يحبه ويرفعه فوق قدره، وفي الأخير سعى في حقه الوشاة إلى الإمام من النواب وغيرهم بالكذب والبهتان حسداً منهم فأراد الإمام قتله نظراً على ظواهر أقوالهم، فأرسل الإمام هذا البيت إلى إدريس أفندي:

من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة ولحصد الزرع إبّانُ

(١) ولما علم إدريس أفندي ذلك هرب من عنده لدى الشمخال في (تارغو) وأرسل إلى الإمام مكتوباً بالنثر والنظم ببيان حقيقة الأمر وخيانة نوابه ووشاته، وهذه الأبيات مما أرسل خطاباً للإمام:

والله والله العظيم لما يتلوك من جهتي كذب وبهتان

كيف الأمان وفي ديارنا انتشرت عقارب ثم سرحان وثعبان

فلما قرأه الإمام ندم على ما قصده من قتله، وعلم خيانة نوابه وكذب وشاته وبكى وقال: قد كاد الآن تضمحل دولتي وشوكتي.

ثم رجع إدريس أفندي إلى بلدته وتوفي هنالك سنة (١٢٩٠ هـ).

ولإدريس أفندي آثار ومؤلفات.

يوسف اليخساويّ

الحاج يوسف بن الحاج موسى بن الحاج قريم سلطان اليخساوي الداغستاني.

ويخساي بلدة من بلاد (خصاويورت).

قد حصل يوسف اليخساوي العلوم والفنون عن نبغاء عصره، وأخذ عن العلامة الشهير (سعيد الهركاني) وغيره.

كان عالماً فقيهاً علامة، وأديباً كاتباً شاعراً فهامة، فريد عصره ووحيد أوانه، وله يدٌ في العلوم العربية، وله آثار ومؤلفات.

(١) ومن مؤلفاته (الإفصاح في رفع سبب السفاح عن عقود النكاح) بين فيه فساد أنكحة أهل داغستان منذ أسلموا إلى عصره[١]، وأن ترجمة النكاح باللفظ الجاري بين الناس ليست ترجمة له لا في لسان السهل والغموق، ولا في لسان غيره من ألسنة داغستان، وقد رد عليه العالمان الشيخ (محمد طاهر القراخي) والحاج (آتل الغموقي) وألفا رسائل في الحط على يوسف اليخساوي، ثم قابلهما اليخساوي بالهجو والذم وحط رتبتهما عن مقامهما.

(٢) واعلم ـ أيضاً ـ أن العالم يوسف اليخساوي ألف رسالة في هجو الإمام شامل أفندي وأتباعه وعانده بالسب والطعن، وجعل أموره كلها فتنة في الإسلام ومنكراً في الدين، ولو هاجر هو لدى الإمام شامل أفندي وارتدع عن غيه وباطله وأعانه بنفسه وقلمه لكان له شأن آخر فوق ما يذكر، ولكان من حزبه المجاهدين في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ولكنه غلبه شيطانه ونفسه وحسده، والإمام شامل أفندي لا خلاف في كونه مجدداً للإسلام، ومجاهداً في سبيل الله، وقد أثنى عليه علماء الأقطار ولا سيما علماء الحرمين، ومن يطعنه ويذمه بعد ذلك لا يضره بل يزيده قدراً ورفعة، والواجب على المتدين العاقل الخضوع للحق وترك التعصب البارد المهلك، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

(٣) ويقال إن الإمام (شامل) لما استسلم إلى الروسية تجاوز عن بلدة (يخساي) حين ذهابه إلى الروسية فلقيه يوسف اليخساوي وصافحه وطلب

---

(١) قال المحقق: لا يلزم من فساد أنكحتهم ـ بسبب ما ذكره ـ أن يجددوها، ولا سيما أن الشيخ يوسف ـ رحمه الله ـ هو الوحيد الذي ألف في هذه المسألة ـ حسب اطلاعي الضيق ـ وقد سبقه علماء فطاحل لم يتعرضوا لهذه المسألة، ثم الإسلام قد أقر الداخلين فيه ـ في صدر الإسلام ـ على أنكحتهم، وربما كانت فاسدة بل باطلة، ثم إن كان قصده من كلامه عدم صحة النكاح بغير العربية فهي مسألة خلافية. . . نعم إن كان ما قاله صحيحاً، فما يستقبل من الزمان يعمل فيه بما قال، وأما ما مضى أو الحال فيتعذر العمل بما قاله، ولا سيما أن الشيخين محمد طاهر وآتل قد أجابا عما قاله، و الله أعلم بالصواب.

منه أن يعفو عما صدر منه من الامتناع والهجو، وأنه كان متحسراً على ذلك وحزيناً، وهو الأليق على أهل الإنصاف والعلم، و الله غفور رحيم.

(١) وكان الإمام شامل يعترف بفضل اليخساوي وتقدمه في العلم.

توفي سنة (١٢٨٩ هـ)، رحمه الله تعالى، وقبره في يخساي.

□ □ □

هذا آخر ما أوردته من التراجم المختارة، التي أسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يُعظم لي بها الأجر، وينشر بها النفعْ، إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول.

هذا وقد وقع الفراغ من تصحيحها وفهرسة فوائدها قبيل غروب شمس اليوم الحادي عشر من شهر محرم الحرام سنة خمس عشرة وأربعمائة وألف من هجرة المصطفى الكريم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

○ ○ ○



فهرس المختار المصون



فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

فهرس الكنى المشهورة التي قد يصعب معرفة أسماء أصحابها

فهرس للألقاب المشهورة التي قد يصعب معرفة أسماء أصحابها



فهرس الفوائد

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الفوائد

هذا فهرس لكامل الفوائد الموجودة في هذا الكتاب تقريباً، وقد أفادني كثير من إخواني المحبين، حفظهم الله، باستفادتهم من فهرس «نزهة الفضلاء، تهذيب سير أعلام النبلاء» وسهولة استقاء المعلومات المطلوبة منه، فيستفاد منها في الدروس والخطب. وقد شجعني هذا على عمل فهرس مماثل لهذا الكتاب عسى أن ينفع الله به كما نفع بالفهرس الأوّل.

طريقة ترتيب الفهرس

حاولت أن أرتب الفوائد على نَسَقٍ عقليٍّ منطقيّ مناسب للقارىء الباحثِ عن الفائدة فكان أن وُضع على النَّسق التالي:

١ ـ بدأت بالإيمان بالله تعالى، وأهمية حسن الصلة به.

٢ ـ ثم ثنّيت بالكلام على سيد البشر رسولنا أبي القاسم ﷺ ونسب آل بيته الأطهار.

٣ ـ ثم أتيت بمباحث العقيدة الإسلامية وما يضادها من عقائد باطلة زائفة.

٤ ـ ثم لأهمية العلم أتيت به بعد العقيدة.

٥ ـ وقرنت العلم بالعلماء للتناسب والتلازم بينهما.

٦ ـ ثم أتيت بفهرس الأخلاق المحمودة، والمذمومة، والمطلوبة بقدر.

٧ ـ ثم أخبار النساء والحب والعشق والزواج.

٨ ـ ثم مبحث الذرية وتربيتها.

٩ ـ ثم بيان أحوال الصالحين، وحال هذه الحياة الدنيا.

١٠ ـ ثم ما لا بد للمرء منه وهو الموت.

١١ ـ ثم الرؤىٰ.

١٢ ـ وختمت بمتفرقات شاملة، لم أجد لها مكاناً في الفقرات الماضية فآثرت لمّ شملها تحت عنوان «متفرقات».

وأهمية هذا الفهرس ظاهرة، فهو على طوله وتشعبه مفيد في استقاء العناصر للموضوعات والدورس والخطب، وفيه مئات من الأبيات الشعرية المختلفة التي تُضفي على الموضوعات المطروقة حلاوة وطلاوة، وفيه ما تفتقت عنه قرائح الأئمة في كلامهم عن مختلف الجوانب الإيمانية والعلمية والأدبية والأخلاقية على مدى

ستة قرون هي المدة الزمنية التي تكفّل هذا الكتاب بإبراز أهم أحداثها وأخبار رجالها.

وقبل النظر في كيفية البحث في هذا الفهرس أُذكر بأن الأرقام الموجودة على الهامش الأيمن في غالب صفحات الكتاب هي خاصة بهذا الفهرس، وتتعلّق به على النحو التالي:

كيفيّة البحث في هذا الفهرس:

١ ـ جعلت أرقاماً لغالبية الفقرات، وجعلت كلَّ صفحة وِحدةً واحدة من ناحية التّرقيم، أي أن الترقيم يبدأ من رقم ١ كلّ صفحة.

٢ ـ عندما أقول في الفهرس ـ مثلاً ـ ١٣٥١/٥ أي أنّي أريد الفقرة الخامسة من صفحة ١٣٥١.

٣ ـ ربّما أعيد ذكر بعض الفقرات في مواضع أُخر لإفادتها عِدّة معانٍ.

٤ ـ ربّما أضع رقماً على فقرة تضمّ أكثر من معنى ولكن يفهم إن شاء الله المعنى المراد.

٥ ـ في بعض التراجم قد لا أرقِّم الفقرات، إمّا لكون التّرجمة جاءت في معنى واحد ولم تخرج عنه، أو لأن الفقرة قد لا تفيد معنىً معيّناً صالحاً للفهرسة، أو لغير ذلك من الأسباب.

٦ ـ قد أرقِّم فقرةً وأريد معها الفقرة التي تليها ولا أرقِّمها لأنه يُفهم من سياق الفقرة السابقة إرادة الفقرة التالية.

٧ ـ لطول هذا الفهرس وتشعّبه وضعت في فهرس الفهارس ما يعين على إخراج المراد منه، فإن لم تستطع الكشف عن فائدة ما فارجع إلى فهرس الفهارس فإنه سيعينك، إن شاء الله.

وأخيراً أرجو من كلِّ مطلع عليه إن وجد نقصاً أو إخلالاً أو اضطراباً أن ينبهنيّ إليه مشكوراً.

فهرس الفوائد

الصلاة

الصيام

الحج

الأذان

(١٩) مناجاة الله سبحانه وتعالى

رسول الله ﷺ

الأنساب الشريفة

العقائد

٥ ـ التبرك:

٦ ـ سؤال الأموات واستغاثتهم شرك:

٧ ـ التكفير

فرق الشيعة الغالية

الرافضة

اليهود والنصارىٰ

الصوفية

العلم

قواعد وفوائد علمية في علوم متنوعة

الفقه والفقهاء

القضاء والقضاة

الدول والممالك

وذلك حسب الترتيب الزمنيّ تقريباً:

١ ـ دول الطوائف في الأندلس

٢ - بنو العباس بمصر [وكانت لهم دولة بالاسم فقط]

٣ - دولة المماليك بمصر والشّام

٤ ـ أخبار ملوك وأمراء التتار

٥ ـ أخبار سلاطين وملوك الهند الكُبرى
[الهند وباكستان وكشمير والبنغال وأفغانستان]

٦ ـ الامبراطورية العثمانية

عوامل انحطاط الدولة

[إضافة إلى ما سبق من المساوىء]

٧ - أخبار ملوك المغرب العربي الكبير وأمرائهم

٨ - الأشراف حكام الحجاز

٩ ـ أخبار أئمة اليمن وحكامهم

١٠ ـ الدولة الصفويّة

١١ ـ ملوك إيران وما وراء النهر

١٢ـ حكام الحبشة

الاستعمار والمستعمرون

(٥) اللغة والنحو

(٦) الأدب والشعر والغناء

أ ـ الأدب

ب ـ الشعر والغناء

٧ ـ الطب والأطباء والرُّقى

مسائل متفرقة في باب العلم

الحفظ

العلاقة بين العلماء والحكام

دروس العلماء

علماء السوء

صفات لا ينبغي أن تكون في العلماء

طلبة العلم

٧ـ من الأمور التي لا بد للمسلم منها:

١ ـ الأخوّة والصداقة والعداوة

٢ ـ البعد عن المعاصي

٣ ــ المال

٤ ــ الفتن

٨ ـ صفات وأخلاق محمودة مطلوبة

[قد رتبتها على الحروف الهجائية ليسهل الرجوع إليها، وهناك صفات أخرى مبثوثة في الفهارس لا يخطئها الحصيف]

من الأخلاق والصفات المحمودة

١ ـ الإخلاص:

٢ ـ الأدب:

٣ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

٤ ـ الإنصاف

قواعد في الإنصاف:

٥ ـ الإيثار:

٦ ـ التواضع وهضم النفس

٧ ـ التوكّل

٨ ـ الجود والكرم

٩ ـ حفظ الأوقات

١٠ ـ الحكمة

صفات مطلوبة بقدر

صفات وأخلاق مذمومة
[مرتبة حَسَب الحروف الهجائية]

١١ ـ العُجْب

١٢ ـ العجز والكسل

١٣ ـ الغدر والخيانة

١٤ ـ الغيبة

الزواج والطلاق

آباء وذرية

أحوال الصالحين

ثم إنه هناك كثير من علامات الصلاح في فهرس «الصفات والأخلاق المحمودة» وفي هذا الفهرس ـ فهرس أحوال الصالحين» ـ تجد كثيراً من علامات الصلاح في فقرة: «سمت الصالحين وهديهم»، وتجد ـ أيضاً ـ كثيراً من علامات الصلاح في فهرس «الإيمان بالله وحسن الصلة به»، وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه

الدنيا

الموت

الرؤى

متفرقات

الأكل والشرب

من حضارة الإسلام

حسن الجواب وسرعة البديهة

حكم متفرقة

الحيل والمعاريض

الذكاء

السفر والغربة

عجائب وغرائب من عصور متفرقة

الفكاهات والنوادر

قصص وحوادث وكوارث

القُوّة

اللصوص

مسائل في المدن الإسلامية والأراضي الأوروبية

المفاضلة

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

يسرنا أن تكون من قرّاء

«سلسلة التاريخ والأعلام»

والتي تحوي على العناوين

١ ـ نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء :

الطبعة الثانية للمؤلف .

٢ ـ استجابات إسلامية لصرخات أندلسية :

الطبعة الثانية للمؤلف .

٣ ـ المختار المصون من أعلام القرون :

الطبعة الأولى للمؤلف .

٤ ـ الصفويون والدولة العثمانية :

الطبعة الأولى علوي بن حسن عطرجي .

وتــرقــبــوا:

التاريخ الإسلامي عبر وعظات :

الطبعة الأولى للدكتور عبد العزيز الحميدي .